الهلال

يناير ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

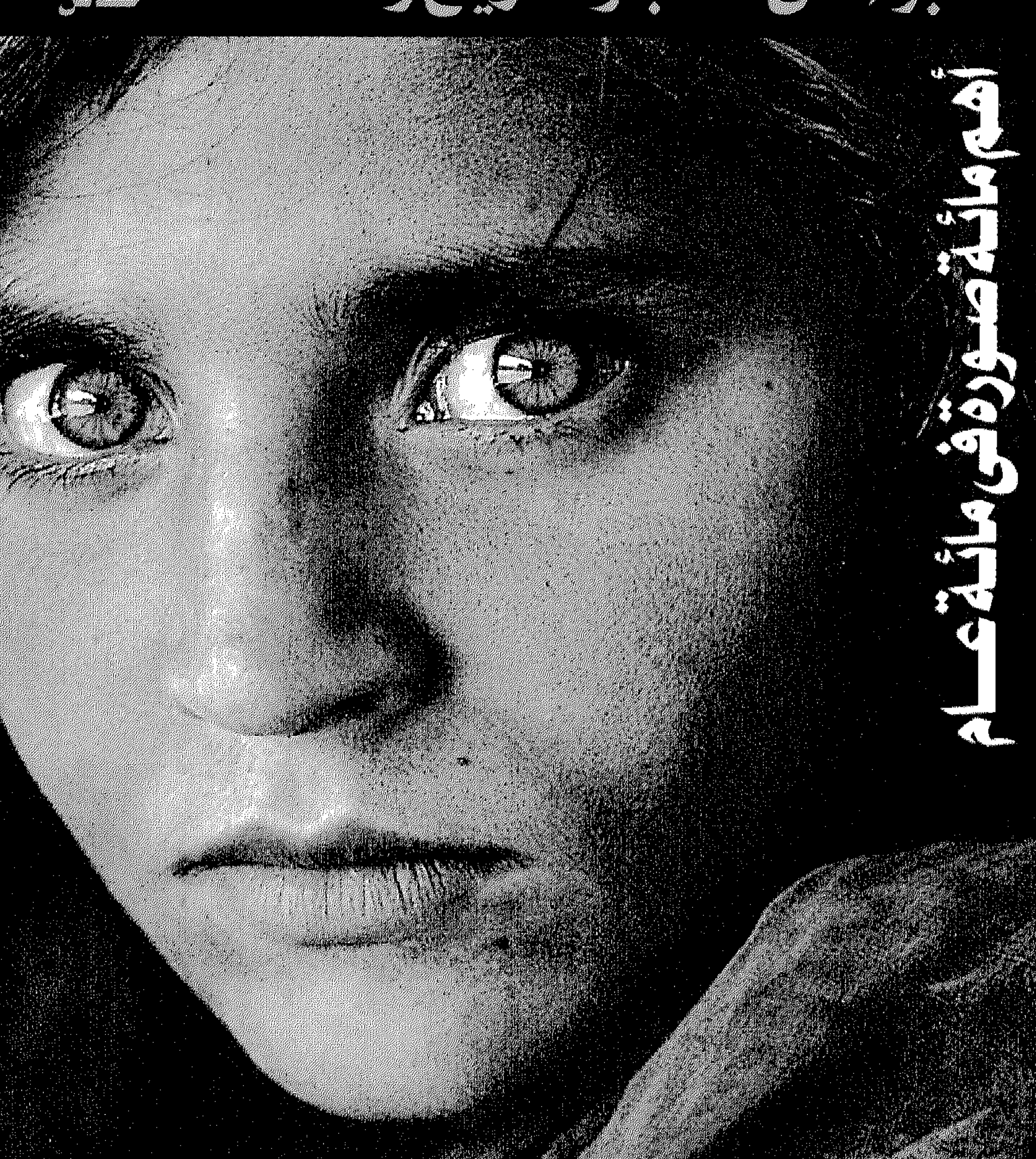
الحرس الحديدى وثورة يوليو

أزمة الأحزاب السياسية فى مصر

النبوءة عند نجيب محفوظ

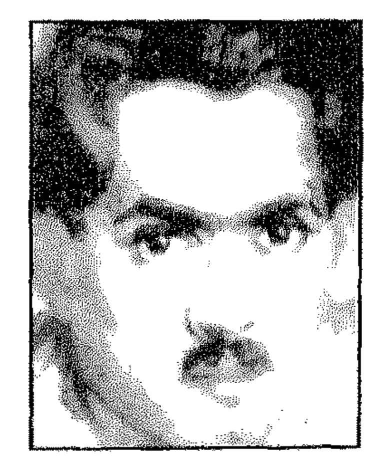
النبوءة فى الأدب والتاريخ والفلسفة

جزء خاص

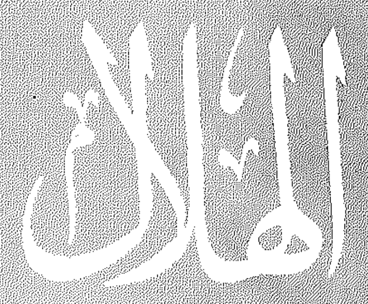


لوحة: أمام الدوار

للفنان: محمود سعيد



لوحة وفنان



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفنى

عاطف مصطفى — مدير التحرير

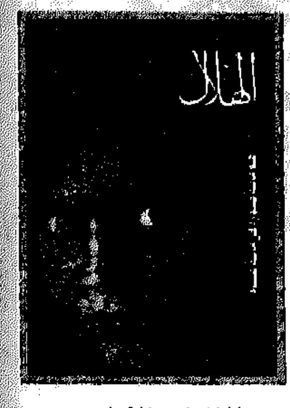
محمود الشيخ — المدير الفنى

سيد عبد المالك — سكرتير التحرير

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٢ دينار ـ الكويت ١.٥ دينار ـ السعودية ١٥ ريالا
البحرين ١.٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ دبى/ أبوظبى ١٥ درهما ـ سلطنة عمان ١.٥ ريال- تونس ٤
دينارات ـ المغرب ٤٠ درهما ـ الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال ـ غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار-
إيطاليا ٧٠٠٠ ليرة ـ سويسرا ٥ فرنكات ـ المملكة المتحدة ٢.٥ جنيه ـ أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
صورة الغلاف
«فتاة افغانية»: احدى صور اهم مائة صورة فى مائة عام (تحقيق صفحة ٦٦)

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

عـام جديـد

مع بداية عام ٢٠٠٢ يتحقق الحلم الذى ظل يراود عشاق وقراء مجلة الهلال، وهو عمل (كشاف) يضم الموضوعات والبحوث الجادة التى نشرت فيها منذ عام ١٨٩٢ وتحديدا في شهر سبتمبر وإلى يومنا هذا دون توقف ، وكواحدة من المجلات العريقة القليلة فى العالم ، والتى حافظت على الصدور فى موعدها مع بداية كل شهر ميلادى على مدى أكثر من مائة وتسع سنوات.

أما هذا العمل الجاد الذى نتحدث عنه فهو انجاز كشاف الهلال عن الفترة من يناير ١٩٣٦ وحتى ديسمبر ١٩٥٢م وقامت به دار الكتب المصرية ومن الواجب أن نتوجه بالشكر إلى سمير غريب رئيس مجلس ادارة دار الكتب ، والذى وفر كل الإمكانيات لإنجاح هذا العمل الطموح، حيث استمر العمل فى إعداد هذا الكشاف عامين متواصلين، وبلغ عدد البطاقات المكشفة حوالى ١٩ ألف بطاقة وليصدر فى مجلدين يضم كل منهما حوالى ٦٠٠ صفحة .

وقام فريق العمل باستخلاص المادة المنشورة فى الهلال ، ووضع رءوس الموضوعات المناسبة لها وترتيب هذه المواد وفقا لقواعد وطرق مقننة تسهل على الباحث الحصول على المعلومة التى يطلبها بسهولة ويسر .

وكانت دار الهلال قد حرصت منذ أكثر من خمسة وعشرين عاما على إصدار هذا الكشاف ، وقام فريق يرأسه المؤرخ الصحفى الدكتور أحمد الصاوى ، وانتهى من عمل كشاف منذ بداية صدور الهلال، وحتى عام ١٩٣٦ وليصبح كشاف الهلال يغطى حوالى اثنين وستين عاما من عمرها.

وبالطبع مازلنا نطمح فى إسهام دار الكتب المصرية بمواصلة العمل فى هذا الكشاف ليصبح كل ما تضمه المجلة من بحوث ودراسات جادة فى كل المجالات والتخصصات فى متناول الباحثين والدارسين، خاصة الذين يرتادون دار الكتب

المصرية، والتى تعد من أعرق المكتبات فى العالم، بما تضمه من كتب ومخطوطات نادرة.

إن العمل فى هذا المجال ليس من السهولة بمكان، بل يحتاج إلى متخصصين يتميزون بالدقة والأمانة العلمية، لأن مثل هذا العمل يبقى على مر الزمان، شاهدا على قدرة الباحثين فى الاجادة والتميز ، وهو مالمسناه فى المجلدين اللذين يطبعان حاليا بمطابع دار الكتب المصرية .

ونحن من منطلق تأكيدنا على الروابط الثقافية المتينة مع دار الكتب المصرية ، وفى إطار الدور الكبير الذى تلعبه مجلة الهلال فى صياغة ثقافة الكثير من الأجيال العربية عبر تاريخها الطويل، نطمح أن يتم التعاون بيننا فى طبع الهلال منذ صدوره حتى اليوم على أقراص ممغنطة (C.D) ولتساير التطور العلمى المذهل الذى يشهده عالمنا المعاصر ، وهو مشروع ضخم يحتاج إلى الأناة والصبر ، فضلا عن التكلفة المادية العالية، لكن مردوده سوف يعود بالخير الوفير على مصر كلها وعلى أجيال المثقفين المتعاقبة

عزيزى القارئ :

.. لقد طورت «الهلال» منذ بداية يناير ٢٠٠١ الإخراج الفنى والتحريرى، وتحملت فى سبيل ذلك المزيد من العبء المادى ، لكنها كسبت الكثير من وراء ذلك بحصولها على جائزة معرض الكتاب، والتقدير الشديد من كل المثقفين فى مصر وفى الوطن العربى .. صحيح أن النجاح لايأتى بسهولة ، ولكنه يحتاج إلى المزيد من الجهد والتضحية وذلك كله يسعدنا ، حتى يتواصل دور الهلال كرائدة من رواد الثقافة فى عالمنا العربى، ونافذة حقيقية للمتعة الذهنية والتنوع فى العطاء الفكرى والإبداعى .

مر عام على التطوير .. حققنا فيه نسبة لابأس بها من النجاح ، ولن يغمض لنا جفن، حتى نحقق النجاح كله بفضل الله، وبفضل قارئ الهلال العزيز . ■

المحـــــرر

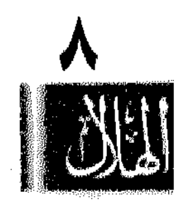


بقلم

د. مصطفى سويف

قرأت سنة ١٩٧٤ على أنها سنة التدبير (بفعل القوى الخارجية) لإجهاض فرحة المصريين واعتزازهم بانتصار أبنائهم وإخوتهم فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

وسنة الثقة غير الموفقة (من جانب القوى الداخلية) فى نزاهة التدابير التى كانت تحيكها حكومة الولايات المتحدة معتمدة على أدواتها الثلاث الرئيسية: البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وإسرائيل. ومن هذا المنطلق تداعت أحداث العامين ١٩٧٥ و١٩٧٦ أمام ناظرى، فكانت بمثابة ترسيخ للإحباط فى النفوس حتى لا يخامرها أى أمل فى التقدم من النصر فى الحرب الى النصر فى السلام.

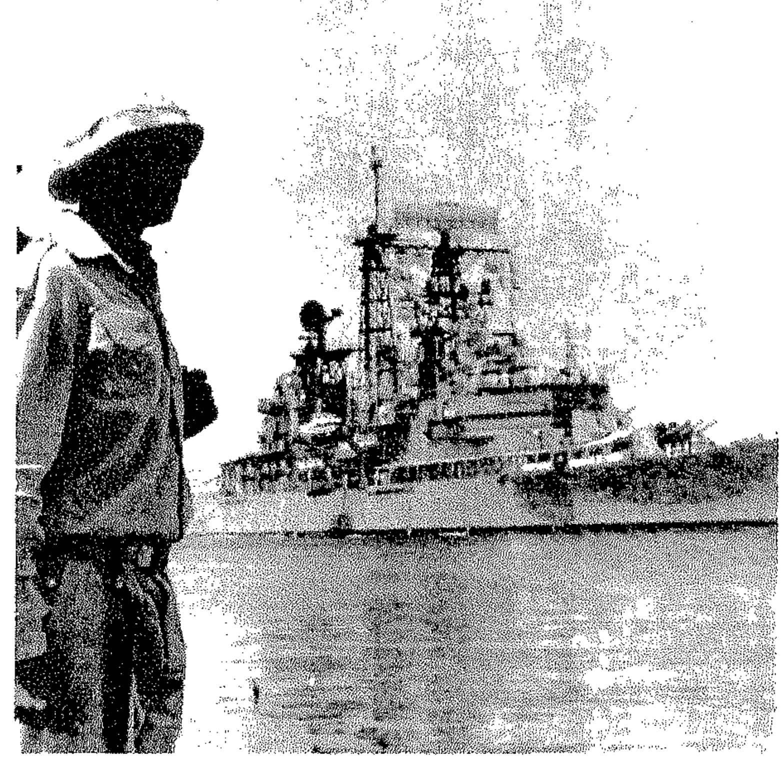




الرئيس السادات



الملك فيصل



عودة الملاحة للقناة بعد نصر أكتوبر المجيد

العام ١٩٧٥ :

كانت سنة ١٩٧٥ عاصفة بكثرة أحداثها الدالة، وتلاحق تغيراتها شديدة الوطأة على أحوال المجتمع كما يعيشها المواطنون، وكانت افتتاحية هذه السنة منذرة بالسوء بكل ما لهذه الكلمة من معنى، لمن أراد أن يقرأ.

ففى مارس من هذه السنة قتل الملك فيصل ملك العربية السعودية، قتله شاب من الأسرة المالكة نفسها، وقيل فيما بعد إنه مخبول. وكان هذا الاغتيال رسالة فصيحة اللسان توجهها قوى بعينها إلى كل من يهمه الأمر، فقد وقف الملك وقفة شجاعة إلى جانب الحق المصرى والعربى أيام حرب أكتوبر وعلى امتداد الشهور القليلة التالية لها عندما استخدم البترول سلاحا للضغط على الأمريكيين والإسرائيليين فى مفاوضات الفصل بين القوات، وكان إلى جانب ذلك معروفا بتوجهاته التنويرية فى إدارة شئون الحكم فى بلده، ومن أجل هذا وذاك استحق أن يصير عبرة لغيره. وبعد اغتيال الملك بما يقرب من شهرين وقع أول حادث منذر بقرب اندلاع الحرب الأهلية فى لبنان (حادث عين الرمانة).

وفى أغسطس من العام نفسه بدأت وقائع هذه الحرب تتوالى. وكان لهذه



الأحداث الجسام في الجوار العربي أسوأ الأثر على المناخ السياسي في مصر.

ولم يكن مواطنونا في ذلك الوقت بمنأى عن دواعي الغضب والاكتئاب التي أفرزتها إذ ذاك ظروف الحياة داخل الوطن، وكان أسوأ هذه الدواعي موضوع الغلاء (الذي دهمهم إضافة إلى الإحباط السياسي).

وكان أمراً طبيعياً أن يتشاكى الناس فيما بينهم، وكان أمراً طبيعياً كذلك أن يقرنوا في شكاواهم بين الغلاء واقتصاديات الانفتاح، رغم أن معظمهم لم يكونوا يفهمون كيف يتم هذا الاقتران، ومع ذلك فقد قدّر خبراء الاقتصاد معدل ارتفاع الأسعار في نهاية سنة ١٩٧٥ بأنه بلغ حوالي ١٢٠٪ بالمضاهاة بمتوسط الأسعار في سنة ١٩٧١، يخص سنتي ٧٤و٧٥ وحدهما ٦٠٪، وهما سنتا الانفتاح. وإزاء ذلك بدأت القلاقل الاجتماعية تطل برأسها، وكان أسوأها قيام التظاهرات العمالية في المحلة الكبرى، وفي مواجهتها لجأت الحكومة الى اتخاذ إجراءات قمعية قاسية. ثم تغيرت وزارة الدكتور عبدالعزيز حجازي وحلت محلها وزارة برئاسة ممدوح سالم وقال بعض نواب الشعب يزكون الرجل للمنصب إنه يعرف أربع لغات! وإنه قد سافر إلى الخارج كثيرا!! وهي تعليقات ما أنزل الله بها من سلطان. وصدرت عن الرئيس السادات كثير من الأقوال الغاضبة إزاء أحداث المحلة الكبرى.

وعشنا تلك الفترة في توترات متزايدة، كان واضحاً أن الحكومة تتعرض لضغوط شديدة من قبل صندوق النقد الدولي لخفض سعر الصرف للجنيه المصري، وكانت الحكومة تقاوم هذا الضغط. وفي الوقت نفسه سمعنا كثيراً وقرأنا قليلا عن تنامي الواردات وانكماش الصادرات، وهو ما يعني أن الانفتاح الذي طرأ علينا جاء انفتاحا استهلاكيا أكثر منه انفتاحا إنتاجيا تصديريا. واستمرت الاتصالات السياسية مع الدول العربية، ومع الاتحاد السوفييتي، بالإضافة إلى الولايات المتحدة التماساً لحلول قد تكون ناجعة للمسألة السياسية الاقتصادية. واستمرت التصريحات السياسية (وتضاربت أحيانا). واحتفل في منتصف سنة ١٩٧٥ باستئناف الملاحة في قناة السويس، وقيل إن الإسراع بهذه العودة كان أحد بنود الضغط التي مارستها الولايات المتحدة على الحكومة المصرية لكي تخلق على الأرض واقعا يزيد من صعوبة اندلاع حرب جديدة تشارك مصر فيها ضد إسرائيل، وفي حفل إعادة الافتتاح أبحرت في القناة قافلة من السفن تقدمتها سفينة

أمريكية، فكان هذا الحدث شرحاً على المتن يؤذن باستيلاء الولايات المتحدة على مفاتيح الحل.

وكانت في القافلة سفينة مصرية تقل الرئيس السادات وبرفقته عدد من الساسة والأدباء، وروى لي بعضهم أن السادات التفت في لحظة ما إلى المرحوم الصديق عبدالرحمن الشرقاوى ليقول له، «دى ملحمة يا عبدالرحمن، عايزة ينكتب فيها شعر»، وهو كلام له مغزاه، وبعد حوالى شهرين من هذا الحدث أمكن التوصل مع إسرائيل (عبر جهود كسنجر) إلى إبرام اتفاق فصل القوات الثانى على الجبهة المصرية وفى الوقت نفسه كانت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفييتى قد فسدت إلى غير رجعة.

جدير بالذكر أن المواطن العادى لا يقرأ غالبا مايكتب فى الصحف عن المسائل الاقتصادية، لا لأنه يسقط هذه الأمور من حسابه استهانة بها أو نفوراً ولكن لأن الأسلوب الذى تكتب به يسد الطريق أمامه إلى الفهم والاستيعاب، وذلك لكثرة اللف والدوران فيها، أو لحشد المصطلحات الفنية دون التطوع بشرحها، أو لعيوب أخرى كثيرة، هذا على الرغم من أن هذا المواطن يؤمن فى قرارة نفسه بأن الاقتصاد هو العمود الفقرى لحياته هو ومن يعول، ومعنى ذلك أنه يعتمد فى تقديره لهذا الشأن على نوع من الإدراك الحدسى الذى ينتقل من المقدمات الى النتائج مباشرة دون الاعتماد على وسائط. وأنا الآن إذ أسترجع ذكرياتى عن تلك الفترة (فترة الثلاثية الثانية من السبعينيات) أذكر أن المواطنين كانوا يعيشونها ولسان حالهم لا يفتأ يردد القول الشائع «ربنا يفوتها على خير»، كانوا يشعرون بالضائقة، ولا يستشفُّون فى المستقبل القريب فرجاً، ومع ذلك لاتنفك الوعود بالفرج تنتشر من حولهم، وهو مايزيد من حدة الصراعات النفسية التى يتعرضون لها، والتى لاتفرز فى نهاية الأمر إلا مزيداً من الاكتئاب المختلط أحياناً بالإحباط والغضب. ولكى يدرك قارئ اليوم إلى أى مدى كان هذا الضيق الممتزج بالغضب المكتوم نتاجاً طبيعياً لظروف اقتصادية سياسية بالغة الصعوبة إذ ذاك يمكنه أن يقرأ الفصلين السادس والسابع من كتاب المرحوم الأستاذ عادل حسين عن «الاقتصاد المصرى : من الاستقلال إلى التبعية».

التغيرات المجتمعية المواكبة :

ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الضائقة الاقتصادية (المقرونة بوعود وردية لاتتحقق) كانت هى السبب الأوحد أو الرئيسى لهذا الضنك الذى كان يعيشه المواطنون، بل كانت هناك تغيرات مجتمعية تجرى من حولهم، وكانت هذه التغيرات تأخذ بخناقهم وهم لايملكون لها ضبطا ولا تحويلا، فكانت تزيد من وطأة الضيق على نفوسهم، ذلك أن الناس





بدأوا يسمعون عن العمولات التي يتقاضاها البعض ممن أفرزهم الانفتاح، والتي تبلغ ملايين الجنيهات أحيانا، وبدأوا يشعرون بأزمة المساكن في المدن، وبرزت حولهم تباشير الزحام في شوارع القاهرة، زحام المشاة، وزحام السيارات، وزحام الأصوات، وما يحمله كل ذلك للنفوس من مشقة تتنامى في كل خطوة، ولم يكن الأمر كذلك حتى شهور في سنة ١٩٧٤، وراحوا يسمعون عن سير السفهاء من الأغنياء الجدد. ومن المضحكات المبكيات أن انتشار المخدرات في السوق غير المشروعة (والحشيش بوجه خاص) زاد في تلك الفترة زيادة فجائية، فقد بلغ حجم المضبوطات من الحشيش (حسب تقارير الإدارة العامة للمكافحة) في نهاية سنة ١٩٧٤ أكثر من (٢٢) اثنين وعشرين ألف كيلو جرام (بينما ظل طوال الفترة الممتدة من سنة ١٩٦٧ إلى سنة ١٩٧٣ يتراوح بين ستة آلاف وأحد عشر ألف كيلو جرام). وبالإضافة إلى هذا كله اتسع نطاق الأسفار طويلة الأجل إلى بلاد النفط العربية، ومع هذا الاتساع بدأت تطفح على جسد المجتمع ظواهر منذرة بعواقب وخيمة، من هذا القبيل ظاهرة «تجار الشنطة»، وظاهرة الأنماط السلوكية الوافدة التي كانت تقحم عنوة على منظومة السلوكيات المصرية المستقرة، وظاهرة الشح المتزايد في العمالة الفنية لدينا .. وأسوأ من هذا وذاك ما طرأ من أعراض وعلامات تشير إلى أن اختلالات خبيثة بدأت تصيب الأسرة المصرية في صميم تكاملها، نتيجة لغياب الزوج، أو الأب، أو الأم معا...الخ.

هذا كله وأكثر، ومع ذلك فقد استمرت السياسات التي كانت السبب في تفشي هذه الاضطرابات جميعاً: مزيد من التمادي في استيراد السلع الاستهلاكية الترفيهية غالبا، ومزيد من العجز في الميزانية العامة للدولة، ومزيد من الضغوط الأجنبية (صندوق النقد ومن ورائه الحكومة الأمريكية) لرفع الدعم الحكومي الذي تلقاه السلع التي تعتبر ضرورية لسواد الشعب. ثم إن الناس استشعروا مزيدا من استشراء الأزمة عندما بدأ السادات ينتقد الحكومات العربية بمرارة (حوالي منتصف العام ١٩٧٦)، وكذلك عندما فوجئوا بالإعلان(من جانب واحد هو جانبنا) عن إلغاء معاهدة الصداقة المصرية السوفييتية التي كانت قد عقدت في سنة ١٩٧١، وكان مقدراً لها أن تبقى سارية المفعول لمدة خمسة عشر عاماً، ورأى البعض في هذه الخطوة الأخيرة مغامرة غير محمودة العواقب،



واستنتجوا منها أننا قررنا أن نضع البيض كله فى السلة الأمريكية وحدها. وفى ذات الوقت أصبح السادات لايتحدث عن كسنجر إلا بقوله «صديقى هنرى».

كل هذه العوامل مجتمعة، سواء فى ذلك ما طفح على جسم مصر من تغيرات مجتمعية مرضية ومنبئة بمزيد من المرض، أو ما كان من آثار مباشرة للضائقة الاقتصادية التى لاتوحى بانفراج قريب، ومع ذلك لاتكف عن ستر وجهها القبيح وراء وعود موظفة لترحيل الحاضر إلى مستقبل كالسراب أو يكاد، كل هذه العوامل مجتمعة شكلت الظروف الصعبة التى امتحن الناس بها على امتداد سنوات الثلاثية الثانية من السبعينيات، والتى كانت تنفث فى نفوسهم مزيداً من الغضب المكتوم.

السادات : الشخصية والصورة :

فى هذه السياق الضاغط فى جميع الاتجاهات المتعارضة، والذى يتسم إجمالا بالضيق المتزايد فى نطاق حرية الحركة، والمتخم بالتوترات المنذرة، أخذت شخصية السادات تكشف عن كثير من ملامحها كما تسهم فيما يصدر عنه من فعل وانفعال، وتجمعت فى ذهنى حينئذ هذه الملامح مع ما سبق أن كشف عنه صاحبها فى مايو سنة ١٩٧١ (بمناسبة حركة التصحيح)، ثم على امتداد سنة ١٩٧٢ فى مواجهة تظاهرات الطلبة، ثم إنى قرأت هذا كله على خلفية الدور الذى آداه فى شبابه الباكر أيام اتهامه بالاشتراك (مع حسين توفيق وآخرين) فى اغتيال أمين عثمان باشا العضو البارز فى حزب الوفد خلال الأربعينيات، والدور الذى قام به كعضو فى الحرس الحديدى للملك فاروق، حتى انتهى به المطاف إلى دوره فى مجلس قيادة الثورة سنة ١٩٥٢، ومنه إلى تولى رئاسة الجمهورية خلفا لجمال عبدالناصر، قرأت حصيلة هذا التجميع كله، ثم حاولت قدر استطاعتى أن أقيم على أساس صيغة تستوعب شخصية الرجل لعل وعسى أن تساعدنى هذه الصيغة فى مزيد من فهم ما يحدث تحت ناظرى. والى القارئ رصد مبسط لرؤياى فى هذا الصدد، فقد رأيت ستة أبعاد رئيسية تنتظم الأفعال وردود الأفعال التى تصدر عن هذه الشخصية:

أولها : سلوك المغامرة إلى درجة تخلّ أحيانا بحسابات المكسب والخسارة.

وثانيها : التعجل، وخاصة بعد الانتهاء من مرحلة اتخاذ القرار، التعجل فى التنفيذ.

وثالثها : شدة الاهتمام بصورته كما تنطبع لدى الآخر.

ورابعها : الإصرار على أن يبدو وكأنه «الزعيم الشامل»، بمعنى القادر على تبنى التوجه ونقيضه (ديمقراطى واستبدادى، ابن بلد وأوروباوى، يقرب المثقفين لا حباً فيهم ولكن على أنهم شر لابد منه...الخ).



وخامسها : تفضيل الضغط بدلا من المحاجة، فى مواقف التفاعل مع الآخر.

وسادسها : تفضيل التقدم المباشر من خطوة إلى التى تليها، بدلا من التقدم عبر مراجعة المردود، وذلك فى مواقف التعامل مع النفس.

جدير بالذكر أننى أطلت التفكير فى هذه الصيغة قبل أن أقدمها إلى القارئ، ومع ذلك فلازلت أرجو أن أتناولها بمزيد من المراجعة والتنقيح.

من العام إلى الخاص :

منذ أن التحقت بالجامعة فى سبتمبر سنة ١٩٤١ وقر فى نفسى أن أفرق بين وجودها المعنوى وكيانها المادى. وكانت هذه التفرقة انبثاقاً جوانياً ولم تأتنى نتيجة لوعظ أو إرشاد. وبقيت على عهدى بها حتى يومنا هذا لذلك لم تستطع كل أنواع العبث التى انصبت على كيانها المادى أن تفسد علىَّ إيمانى بقدسيتها، لأنها كانت تطلع على دائماً بوجهها المعنوى وكثيراً ما حدثتنى نفسى فى مواجهة ألوان العبث الهمجى الذى كنت أشهده من حولى مذكرة إياى بقصص من التاريخ الحديث والقديم من شأنها أن تعيننى على اجتياز المحن التى تمتحن بها الجامعة دون أن يهتز إيمانى : كنت أتذكر أنباء الخراب والدمار الذى أوقعه النازيون فى ألمانيا فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى بالجامعات الألمانية، وكنت أذهب أحياناً إلى أبعد من ذلك فأذكر عدوان جنود الحملة الفرنسية على الأزهر الشريف قبل ذلك بما يقرب من قرن وثلاثين عاما، فهل سقط الأزهر أو وهنت رسالته؟

أم زاده ذلك شرفا على شرف، وسجل بقعة سوداء فى تاريخ المعتدين وقائدهم والنظام الذى أرسلهم وهو يحمل شعار الحرية والإخاء والمساواة؟

وهل اندثرت الجامعات الألمانية أو خبا نورها؟ أم قامت بعد الحرب تنفض الغبار عن وجهها، وتسجل وصمة الخزى والعار على المعتدين الذين رفعوا شعار إعادة الحق الى الشعب الألمانى، وتسليم صولجان المجد إليه؟

وقد أوقع الرئيس السادات رحمه الله بالجامعات صنوفا متعددة من الأذى (كما فعل كثيرون من قبله)، وكان أسوأها فى تقديرى صنفان:

أولهما تحريض التجمعات الطلابية المتطرفة (باسم الدين) على التصدى بأساليبهم (الغوغائية والعنيفة) لإخوانهم من الطلاب ذوى الميول السياسية الاجتماعية المغايرة، بدعوى أن هؤلاء جميعاً شيوعيون كفرة. وقد شهدت الجامعة نتيجة لهذا التحريض أياما

حالكة السواد، لانزال نشهد تداعياتها حتى الآن.

أمــا **الصنف الثـانى** من الأذى الذى حــاق بالجــامــعـــة فكان إطلاق الإعـارات طويلة المدى لأعـضــاء هيـئـة التـدريس إلى الدول النفطيـة (وذلك فى أعقاب تدشين سياسة الانفتاح) بصورة أدت (مع غـيـرهـا من أنواع الأذى) إلى إجهاض معظم الآمال فى أن يكون للعلم الجـامـعى المصـرى شـأن فى المسـتـقـبل القريب.

ولست أريد أن أسترسل فى الحديث هنا عن بند الخـسـائر الجـامـعـيـة فى الحاضر والمستقبل، الجدير بالحديث فى هذا المقـام أننى كنت أعـايش الهم العـام كما كان يعيشـه مواطنى خارج الجامعة، وكنت أعـايشـه وهو يزحـف بشـروره على الجـامـعـة التى هى المدخل الطبـيـعى إلى عـالمى الخـاص، وكنت أعى تمامـاً كل الأخطار المحـدقـة بنا جـمـيـعـاً، خـارج الجامعة وداخل الجامعة، وكنت أعى فوق هذا وذاك أن عنصـر الاسـتـمـرار فى العمل الجـاد، مقرونا بالمقـاومة المعنوية المتجددة لكل ما هو سئ حولنا هو الأمر المطلوب، وكان تدهور الأحوال من حولى يزيدنى تصميما على مواصلة السير فى طريقى.

كـان العـامــان ١٩٧٥ و١٩٧٦ من الأعـوام شـديدة الخـصـوبة فى حـيـاتى الجـامـعـية عامة والبـحـثية خـاصـة، فعلى امتدادهما نشرت سبعة بحوث ميدانية فى عــدد من دوريات التـــخـــصـص فى الخـــارج، وقـدمت ثلاث ورقـات فى ثلاثة مؤتمرات دوليـة تحـمل إلى أعـضـاء هذه المؤتمرات نتائج بحوثنا المصرية فى مجال تعاطى المخدرات، وقمت بزيارة أكثر من عشرة أقسام لعلم النفس فى الجامعات الإنجليزية (من مرتبة أكسفورد وجلاسجو وشفيلد) والأمريكية (من مرتبة منيسوتا وشيكاغو وستانفورد) لكى أوفر للقسم الذى أنشأته فى الجـامـعـة أفضل قيادة شكلا ومضمونا. وفى هذه الفترة نفسها أعدت صـيـاغة البـرنامج البـحـثى الذى أتعهده تحت مظلة المركز القومى للبحوث الاجـتـمـاعـيـة والجنائية بما يكفل له نموا مـتـصـــلا فى تدريب الكوادر وترسـيخ الإنتاج.

وكنت طوال مسـيرتى هذه حـريصـا على ألا تغيب عن بصـيرتى أمور بعينها، يأتى فى مـقـدمـتـهـا : أن همى الخـاص ضارب بجذوره فى تربة الهم العام، فالهم العام بالنسـبة لى هـو المنبع والمصب، وأن مـفـهـوم القـدوة هو الرابطة العـضـوية المشـروعـة بين الخـاص والعـام فى هذا المجال، وأن عجز العاجز كثيرا ما يتخفى فى ثياب الغضب، وفى هذا المقام لامجال للغضب، وأن الاختيار التزام، فإذا كان الالتـزام بـالعـمل فـقـد وجـبت المثـابرة والبصيرة. ■

كتاب مجهول حول الحملة الفرنسية



هدوء المؤرّخ من بواعث توفيقه

إنصاف زعيم سياسى ثائر

بقلم
د. محمد رجب البيومى

إن سكينة النفس مطلب ضرورى لمن يكتب التاريخ، وإذا كانت هذه السكينة ضرورية في كل عمل يراد نجاحه، فهى فى كتابة التاريخ أوجب وألزم، لأن المؤرخ قاض يقيم ميزان الحكم العادل بين الناس، وخطؤه يمتد إلى غيره، ولايقف عند نفسه، وقد ذكر الباحثون شروطا خاصة بالمؤرخ نجدها مسطورة فى كتب البحث التاريخى ولكن سكينة المؤلف أولى بالتقديم من هذه الشروط جميعها، فبدونها تنحرف كفة الميزان .



لقد كان الأستاذ الكبير أحمد حافظ عوض من أعلام الثقافة فى النصف الأول من القرن الماضى ، فقد كان صاحب جريدة كوكب الشرق التى تنطق بلسان أكبر حزب سياسى . كما كان عضوا فى مجالس النواب ، وعضوا بالمجمع اللغوى ومشاركا فى كثير من الهيئات العلمية هذا إلى جهاده الصحفى الأول فى عهد الخديوى عباس ، ثم مكانه فى القصر الخديوى ، ومثله لا يغيب عن ذاكرة المثقفين، وقد أصدر عدة كتب تربوية وتاريخية كان أهمها كتابه الشهير « فتح مصر الحديث » وقد استقبل استقبالا حارا حين صدوره فى سنة ١٩٢٥ ، وكتب عنه النقاد والمقرظون ما أعلى مكانته . وكان بين هؤلاء أمير الشعراء أحمد شوقى الذى حيّاه بقصيدة عامرة ، قال فيها مخاطباً المؤلف الكبير :

لك فى الفتح وفى أحداثه
فتح الله حديثاً وخطابا
من يطالعه ويستأنس به
يجد الجد ولا يعدم دعابا
صحف ألفتها فى شدة
يتلاشى دونها الفكر انتهابا
لغة الكامل فى استرساله
وابن خلدون إذا صح وصابا!

وقد طالعت الكتاب منذ أمد

محمد كريم



بعيد ، ثم عنّ لى أن أرجع إليه فى تحقيق حادث تاريخى ، فوجدت الكتاب فى القراءة الثانية يرتعش بين يدى ارتعاشاً ، وجعلت أنكر منه الكثير من أحكامه ، وأعجب لنفسى كيف فاتنى هذا فى القراءة الأولى ، والمؤرخ نابه جليل القدر ، يدفعنى مقامه الأدبى إلى أن أنكر نقدى قبل أن وجعلت أنكر نتائجه ولكنى عاودت القراءة وأمعنت فوجدت أن شوقى رحمه الله قد وضع يده على المفتاح الدقيق حين قال :

صحف ألفتها فى شدة
يتلاشى دونها الفكر انتهابا

شدة شتتت الفكر

وإذن فقد ألف الكتاب فى شدة حاقت بالرجل ، فشتتت بعض أفكاره ، ومن الذى لا تداهمه الفجاءات بما يعصف بآرائه فى مهب القلق والاضطراب ، وهذه الشدة قد أفصح عنها المؤلف الكبير حين قال فى مقدمة كتابه :

« كانت صلتى الشخصية والعمومية بسمو الخديوى السابق عباس حلمى باشا معروفة ، ولها فى تاريخ مصر السياسى صحيفة ذات قيمة عظيمة ، لم يحن بعد أوان نشرها ، فكان من مقتضى هذه العلاقة أن يصيبنى رشاش من النكبة التى أصابته بفقدان عرشه وملكه ، ففقدت كل ما لدى ، وكل عمل أتكسب منه .. واخترت العزلة مع التلطف والاحتيال ، وانتقلت بأسرتى إلى الأسكندرية ، وقضت السلطة العسكرية الانجليزية ألا أبرح ذلك الثغر ، وأن أظل تحت إشرافها وسيطرتها ، وحمدت الله الذى لا يحمد على مكروه سواه على الخلاص من النفى والاعتقال ، ومع أنى كنت فى بيتى مع زوجى وولدى فى مدينة واسعة الاكناف ، إلا أنى كنت مع هذا أقاسى آلام الاعتقال والضغط على الحرية ، ورضوخى للاستبداد ، فكان تأليف هذا الكتاب مما يساعد على قطع رقبة الفراغ بسيف العمل » .

فى هذه الحالة النفسية الحرجة ألف المؤرخ كتابه، وكان مزاجه المنحرف يلقى به أحيانا أمام مرآة شاحبة لاتظهر الصورة على حقيقتها ، فيحكم عليها وفق ما ران عليها من شحوب نقلها من الحسن إلى الدمامة ، ومن هنا وقع فى أحكام مخطئة لا يستطيع مثلى مناقشتها نظرا لعدم تخصصى فى هذا الخضم الفسيح ، ولكن من البدهيات الواضحة ما يعلمه المثقف وإن لم يكن متخصصا ، وقد حز فى نفسى أن يكون الزعيم الوطنى الكبير السيد محمد كريم أحد هؤلاء الذين شوهت المرآة الشاحبة صورتهم المضيئة والرجل مصرى صميم، كافح وجالد ، حتى رزق الشهادة على أيدى المجرمين من أعدائه: فكيف يتحدث عنه الكاتب الكبير بما هو غريب وعجيب ؟!



يقول الأستاذ أحمد حافظ عوض ص ٩٧ :

« لما أنزلت الجنود الفرنسية فى البر ليلا ، وفى تلك الليلة القمراء أسرع بدوى على فرسه ، بالسير إلى الأسكندرية وأبلغ الخبر السيد محمد كريم ، ومن يدرى كيف كان ؟ وأين كان فى تلك الساعة مع سراريه وأخدانه؟ على نحو ما ألف أهل ذلك الزمن من الترف والنعيم » .

طعنة غير مستحقة

هذه أول طعنة وجهت للرجل ، إذ هو لم يكن حاكما شركسيا أو أغا تركيا حتى يكون من أهل الترف والنعيم ولكنه كان المصرى ، الأوحد مَنْ بين حكام الأقاليم، وقد بلغ هذه المرتبة بكفاحٍ مستميت لفت إليه نظر مراد بك فرآه وحده أصلح محافظ يقوم بأعباء الثغر ! وقد نشأ «قبانيا» يزن البضائع فى الجمرك وسمت به همته إلى أرفع منصب سياسى فى الإسكندرية: ولم يشأ أن يستكين للعدو. ولكنه قاوم وناضل قدر المستطاع، وأكتفى بعبارات قالها الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بمقال نشره بمجلة (المجلة) أكتوبر سنة ١٩٦٠ عن السيد محمد كريم قال فيه :

« على أن السيد محمد كريم حاكم المدينة االوطنى استعد للكفاح والنضال، وبث فى نفوس المواطنين روح المقاومة فلبوا نداءه واحتشد الأهلون الذين يحملون السلاح على الأسوار وفى الأبراج للدفاع، وحين رأى نابليون الأهالى صغاراً وكباراً بأعلى الأسوار، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح، أصدر أمره بالهجوم العام، واستمر المواطنون يطلقون النار فى الشوارع، وكاد نابليون يصاب فى زقاق ضيق برصاصة قاتلة ، لولا الحظ الذى نجاه، وبعد أن احتل الفرنسيون المدينة كف المواطنون عن المقاومة مذعنين لحكم القوة، وظل السيد محمد كريم معتصما بقلعة قايتباى ومعه فريق من المقاتلة إلى أن كلت قواه، فكف عن القتال!

يقول الأستاذ الرافعى « وبدا الفرق واضحا جلياً بين موقفه من الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ وموقف أمين أغا حاكم الاسكندرية التركى من الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٧ حيث سلم المدينة للانجليز بدون حرب أو قتال فدخلوها دون أن تطلق رصاصة واحدة» .

أيقال بعد هذا أن الرجل العظيم كان غارقاً بين سراريه وجواريه على نحو ما ألف هذا الزمان.

بعد هذا إن الرجل العظيم كان غارقا بين سراريه وجواريه ، على نحو ما ألف هذا الزمان !.

هذه واحدة !.

موقف مغلوط

أما الثانية فلا أدرى كيف أتحدث عنها ، إذ هى من الغرابة بمكان يستبعد أن يتخيله متخيل ، ولكنها بعض ما تورط فيه الرجل الكبير من أحكام ! أرأيت لو اقتحم منزلك؛ لص مسلح ، وأنت أعزل ليس لديك ما تدافع به عن نفسك ، فعرض عليك أن تنجو بروحك ولا تعارضه فى اغتصاب منزلك ، ثم خرجت فجمعت



الناس للأخذ بحقك ! أفتكون غادراً لم تصن العهد ، أم أنك تدافع عن حقك المغصوب ، ومنزلك المسلوب ؟!

لقد أراد نابليون أن يستميل محمد كريم إلى صفه ، ليكون عونا له فى احتلاله فعينه محافظا للاسكندرية آملا أن تهدأ نفسه بعد نوال هذا المنصب الذى كان يتمتع به وحرم منه، فلم يقدر محمد كريم على الرفض العلنى وأظهر القبول ، مصمما بينه وبين نفسه أن يكون حربا على العدو الغاصب ، فراسل رجال المقاومة المصرية فى رشيد ودمنهور ومراكز البحيرة . وكتب إلى القاهرة يستفزها إلى المقاومة ، وجهز الأسلحة التى يحارب بها المواطنون ، وكل ذلك بطولة شريفة . تعرض الرجل للإعدام ، ولكنه لم يتخوف العاقبة إذ كان تحرير الوطن دينا فى عنقه ! هذه البطولة الشريفة ماذا قال عنها الأستاذ أحمد حافظ عوض ؟ إننى لا أصدق عينى وأنا أنقل من كتابه هذه السطور ص ١١٤ .

« لكن السيد محمد كريم هذا ، على الرغم من المعاملة الحسنة، وتلطف نابليون فى مخاطبته وثقته به ، لم يحفظ للفرنساويين حرمة ، ولم يرع لهم عهدا ، وكان كعادة أبناء جنسه وزمنه ، وكعادة أبناء وطنه ، لا يثبتون على رأى واحد فبينما هم مع هؤلاء ، إذ هم مع أولئك ، عذرهم فى ذلك قصر نظرهم ، وخوفهم من التقلبات زيادة عما ربوا عليه من أثر المذلة والمسكنة وضعف الإرادة إذ وجد الفرنسيون معه بعد ذلك ، مكاتبات بعث بها إلى مراد بك يحرضه على الغارة على الأسكندرية فجاءوا به من الثغر ذليلاً، ومثلوا به تمثيلا » .

ذم فى غير موضعه

أفيكون تهيئة النفوس لمقاومة المحتل الغاصب نتيجة لما تربى عليه محمد كريم من الذلة والمسكنة ، وهو يحمل لقب (السيد) مثل السيد عمر مكرم تماماً ، معناه فى هذا العصر أنه شريف ينتمى إلى البيت العلوى الكريم ، إن لم يكن ينتمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أورثه هذا الشعور حمية تأبى الضيم ، وتذكره بمصارع أجداده منذ الحسين ومن تلاه من مئات الشهداء الذين كتبت عنهم المؤلفات الخاصة مثل كتاب (مقاتل الطالبين) لأبى الفرج وغيره! ألم أقل أن المؤلف كان فى حاجة إلى سكينة مطمئنة تظهر بها الواقف فى مرآةٍ ذات صفاء !

أما استشهاد (السيد محمد كريم) فقد تحدثت عنه روايتان مختلفتان رواية ذكرها الحاج عبدالله براون المستشرق الانجليزى إذ أبدى إعجاباً كبيراً بموقف السيد، وقال إنه أبى دفع الفدية ، ومات شهما مقداما، ورواية ذكرها الجبرتى تفيد أنه توسل للمصريين أن ينقذوه بمال الفداء ، وقد أتى الأستاذ عبدالرحمن الرافعى بالمنطق الفصل فى ترجيح رواية براون التى نقلها عن المسيو بورين فقال :

« لو كانت رواية الجبرتى صحيحة لما فات الفرنسيين أن يذكروها ، ولكنهم ذكروا فى كتاباتهم رواية (بورين) وهو فرنسى شاهد إعدام الرجل بعينه ، وسجل ما سمع ورأى ، وعنه نقل المستشرق الانجليزى براون ، ثم يقول الرافعى : ومن جهة أخرى فإن رواية بورين ترجح رواية الجبرتى لأن الجبرتى لم يكن شاهد عيان، بل كان منزويا فى بيته بالصنادقية فى ذلك اليوم العصيب ، أما المسيو بورين فقد شهد الواقعة ، ويقول فى مذكراته إنه هو الذى أوعز إلى المسيو فانتور أن ينصح السيد محمد كريم بدفع الغرامة فأبى دفعها » .

لقد وقف الأستاذ أحمد حافظ عوض موقف المستنكر لرواية براون وقال ما نصه:

« ولصاحبنا المرحوم الحاج عبدالله براون الانجليزى المستشرق فى كتابه (بونابرتة فى مصر) إعجاب بالسيد محمد كريم وقال عنه إنه أبى دفع الفدية ، ومات شهماً مقداماً !! وما أدرى على من اعتمد فى هذه الرواية ومصدره الوحيد الجبرتى وهو يقول أنه تذلل !

لقد أبى الأستاذ أن يقبل رواية براون التى تعلى من شأن السيد كريم وتساءل من أين أتى بهذه الرواية ومصدره الوحيد هو الجبرتى، وها نحن نقرر أنه جاء بها من مصدر فرنسى كان شاهد عيان، ولم يكن من شأنه أن يكيل المدح جزافا لعدد من عداة الفرنسيين، ولكنه وجد نفسه أمام حقيقة لا يستطيع إنكارها، فدونها كما شاهدها بعينى رأسه، وسمعها بأذنيه!

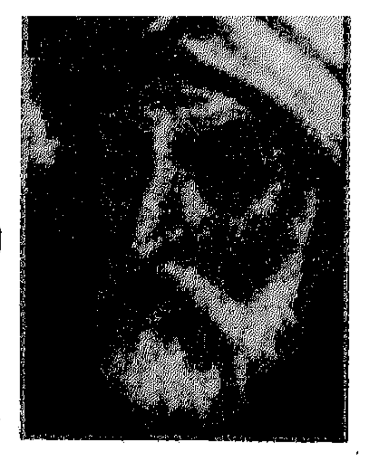
وكان الرافعى أبعد نظرا حين رجح روايته، وقال إنها أدعى إلى الثقة وأقرب إلى الواقع .

استخفاف بالمصريين

أكرر ثانية أنى لا أجحد إخلاص المؤلف فيما انتحاه ، ولكنى آخذ عليه استخفافه بنفرٍ من كرام المصريين ، قد أدوا أمانة الوطنية أحسن الأداء ، ولم يظهر هذا الاستخفاف فى حديثه عن السيد محمد كريم وحده بل تعداه إلى جماعة المجاهدين الذين رفضوا الاذعان لنابليون حين فرض الضرائب الفادحة ، وأزال بوابات المنازل ، وقتل مئات الأرواح مع هتك الأعراض التى أثارت الدم فى العروق ، فقامت الثورة الجائحة المعروفة بثورة القاهرة ، وتوسط العلماء بين الثائرين وذوى الأمر فلم يستطيعوا إقناع المندفعين ، فأصدر نابليون أمره بإطلاق المدافع على الجامع الأزهر وما جاوره من أماكن المواطنين فى الغورية والفحامين والباطنية ، يقول الجبرتى حينما نزلت هذه الأهوال .. « فلما سقط عليهم ذلك ، ولم يكن فى عمرهم عاينوه ، نادوا ياسلام ياخفى الألطاف ، نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق، ودخلوا فى الشقوق».

هذا ما نقله الأستاذ أحمد حافظ عوض عن الجبرتى ثم عقب عليه بقوله ص ٢٤٨ .

« ولا يكاد الإنسان يقرأ عبارة الجبرتى التى نقلناها حتى يشعر بشئ من الاستهزاء أو الضحك الذى هو أشبه



بالبكاء لسخافة أولئك القوم ، وتصورهم إمكان مقاومة الفرنساويين ، وهم عزل من السلاح محصورون من جميع الجهات!» .

مؤرخ مصرى يضحك ويستهزئ سخافة من الذين يرفضون الإذعان للعدو المحتل وهم عزل من السلاح ! ألا يمكن أن يكون التعليق غير ذلك إذا كان يرفض المقاومة فيقول : « هؤلاء قد اشتعلت الحمية الحادة فى صدورهم ، وظنوا أنهم قادرون على رد الطغيان ، فجاء الواقع بغير ما يأملون ، وذهبت أرواح الشهداء ضاربة المثل فى الصمود والتحدى دون مبالاة !

وأنا أعرف أن المؤلف قد قرأ كتاب الجبرتى وفحصه كما يقول فى المقدمة ، ولابد أنه ألم بثورات العلماء المتعددة أمام طغيان المماليك تارة ، وأمام تسلط الوالى التركى تارة أخرى ثورات متعددة ذكرها الجبرتى ، ولكن المؤلف يجزم فى ص ٤٧ بأنه لم يسمع فى كل هذه المدة (مدة ما قبل الحملة الفرنسية) بوجود حركة تذمر إلا مرة واحدة قام بها الشيخ الشرقاوى لرد اعتداء وقع على أرضه فى الشرقية سنة ١٢٠٩هـ ، مرة واحدة: يا أستاذ أحمد !

مواقف مجيدة

إن الكاتب الكبير الأستاذ محمد فريد أبو حديد صدر كتابه (سيرة السيد عمر مكرم) ببحث ضاف تحت عنوان (جهاد شعب مصر فى سبيل حقوقه فى القرن الثامن عشر) أكد فيه تحفز الشعب لاسترداد حقوقه وحرياته فى أزمان متوالية، ففى سنة ١٧٠٢ تحرك أهل الأسواق من أجل تزييف النقود، واجتمعوا بالأزهر، وشكوا أمرهم إلى العلماء، فركبوا إلى الديوان وألزموا الباشا بما يجب من مراعاة المصلحة العامة ، وتم ذلك فعلا .

وفى سنة ١٧٣٥ ، ألزم الراعى أتباعه بإبطال المرتبات التى تصرف فى وجوه البر والإحسان استجابة لأمر السلطان ، فقامت المعارضة الشديدة ، وتزعمها الشيخ سليمان المنصورى ، ورد على الوالى بما يبطل أمر السلطان ، ودار نقاش حاد انتهى بإعادة المرتبات الخيرية.

ثم ذكر الأستاذ أبو حديد أعلاما من الشيوخ حاربوا الفساد فى عهد على بك الكبير ومنهم ابن النقيب والشيخ على الصعيدى ، والشعب من ورائهم يشد أزرهم .

وفى عهد مراد وإبراهيم تكرر الاعتداء على مال الوقف ، فقام الشيخ الدرديرى بمظاهرة كبرى ردعت الظالم وانتهت بكتابة قانون يحفظ الحقوق ويرد المغتصب عن إعتدائه . وقد وقعه العلماء والأمراء .

كما أشار الأستاذ إلى مواقف مماثلة ـ نقلها عن الجبرتى ـ كان من أبطالها الشيخان العروسى والدرديرى حتى اضطر ابراهيم بك الوالى المتجبر إلى الذهاب للشيخ البكرى وجماعة من العلماء

(وتصاغر جداً وأخذ يبكى) لينهوا الرعية عن الثـورة ، على أن يرجع عن مظالمه وقد كان ، فليت شعرى ألم يقرأ المؤلف شذورا من هذه الانتفاضات الصارخة ، إذ يقرر أن الشعب لم يثر غير مرة واحدة من أجل الشيخ الشرقاوى !.

التماس الهفوات

على أن من أغرب مادونه المؤلف عن الشيخ الشرقاوى أنه كتب خطابا وقع فيه خطأ نحوى ، ورسم صورة شمسية للخطاب ، والذى يقرأ الخطاب ، يجده مختوماً بهذه العبارة (من عند الشيخ الشرقاوى) وواضح أن الشيخ لم يكتب بخطه ، وإنما أشار بتوصية كتبها صاحب الشفاعة ! والعبارة المخطئة هى (وأنتم لا تحبوا ذلك) فهل كان شيخ الأزهر يجهل ما يعرفه تلميذ الصف الرابع فى المدارس الابتدائية من أن الأفعال الخمسة ترفع بثبوت النون، ألم يقرأ الأستاذ أحمد حافظ عوض ما قاله الجبرتى فى ترجمته للشرقاوى من أنه ألف كتبا كثيرة منها حاشيته على التحرير فى أجزاء ، وشرح العقائد المشرقية، وشرح الحكم لابن عطاء، وشرح بعض مسائل الأصول فى جمع الجوامع، ومختصر المغنى فى النحو وغيرها! أفيترك العلامة الكبير هذه الآثار الدقيقة فى علوم عويصة ثم يعجزه أن يعرف أن الأفعال الخمسة ترفع بثبوت النون ليجئ المؤلف فيتهكم به !

لقد بلغت الآن ما أريد تقريره من أن هدوء الأعصاب ، وراحة النفس مما يساعد المؤرخ على اجتلاء الحقائق والحكم عليها حكما سديدا ، كما أن تبلبل الفكر ، واضطراب الخواطر مما يباعد بين المؤرخ واجتلاء الحقائق على وجهها الصحيح ، إذ للأستاذ الكبير أحمد حافظ عوض كتب شتى نالت إعجاب الدارسين ، ومنها كتابه الشهير (من والد إلى ولده) ومقالاته السياسية التى عاصرت النشاط السياسى نحو قرابة نصف قرن ، وله فى دار الكتب المصرية كتاب مخطوط تحت عنوان (آثار أقدام فى الرمال) تحدث فيه عن مشاهداته فى القصر الخديوى أيام كان ذا شأن فى المعية الخديوية، ولم يشأ أن يطبعه لأنه قد يثير ببعض حقائقه ما لا يرضى حكام الأمس، وقد قال الأستاذ عباس محمود العقاد فى حفلة تأبينه بمجمع اللغة العربية (كان فى طليعة الرواد المصريين لفن القصة الاجتماعية، وكان له نصيب مشكور فى القيام على عهد الخضرمة بين مرحلتى التقليد والتجديد، وسَهْم مذكور فى التعريف بتاريخ هذه الأمة ردحا من الزمان ينبئها إلى تاريخها فى بعض الأدوار ، وأنه زود العربية بذخيرة من المفردات لا غنى عنها للألسنة والأقلام ، والجانب الانسانى فيه جدير بالتحية والذكر لأنه جانب الرجل الأريحى الذى انتزع من اليتم أبوة بارة يشمل بها كل من شاء أن ينتفع بعطفها وهدايتها ، وهذه شهادة العقاد ، وما بعدها من مزيد. ■

أزمة الأحزاب السياسية في مصر

بقلم
د. مصطفى كامل السيد
استاذ العلوم السياسية ، مدير مركز بحوث
ودراسات الدول النامية - جامعة القاهرة

كشفت انتخابات مجلس الشعب الأخيرة في أكتوبر ونوفمبر سنة ٢٠٠٠ عن الهزال الكبير الذي أصاب الأحزاب في الحياة السياسية في مصر.. ففي الواقع ، اكتسح المرشحون الذين تقدموا باعتبارهم مستقلين - رسميا أغلبية المقاعد، حتي وإن قيل أن كثيرين منهم انضموا بعد إعلان نتائج الانتخابات إلي الحزب الوطني الديمقراطي، وانطبق ذلك علي كل من الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة، فقد تفوق المرشحون المستقلون المعارضون علي أي من أحزاب المعارضة منفردة بل إن عدد مرشحي المعارضة المستقلين الفائزين قد تساوي مع عدد مرشحي المعارضة الحزبيين الناجحين ، ومن ناحية أخري فإن عدد المرشحين المستقلين قد فاق بكثير عدد المرشحين الحزبيين بدرجة كبيرة، وهذا وضع غريب، في نظام سياسي يوصف بأنه نظام يقوم علي تعدد الأحزاب.

خالد محيى الدين ضياء الدين داود



والواقع أن تفوق المرشحين المستقلين الحزبيين فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة والذى أوضحته الأرقام لم يكن إلا مظهراً واحداً لأزمة الأحزاب السياسية فى مصر .. فقد بلغ إجمالى المرشحين المستقلين، سواء من يقال أنهم ترشحوا على مبادىء الحزب الوطنى (١٦٨٠) أو من كانوا مستقلين تماما، (١٣٥٤) أكثر من ثلاثة آلاف مرشح (٣٠٣٤) أو أكثر من ثلاثة أرباع المرشحين (٧٦.٦٪). وقد حصل هؤلاء المستقلون على ٢٣٢ مقعداً أى الأغلبية المطلقة للمقاعد فى مجلس الشعب بحساب كل من المقاعد المنتخبين والمعينين على حد سواء. وذلك قبل إعلان وزير الداخلية عن انضمام معظم هؤلاء المرشحين المستقلين إلى الحزب الوطنى الديمقراطى لترتفع أغلبيته بذلك إلى ٣٨٨ عضواً بنسبة ٥٨,٥ من إجمالى العضوية.

وقد تحدث المراقبون السياسيون عن هذه الأزمة، وأطلقوا عليها تسميات عديدة، منها تصلب شرايين الأحزاب السياسية، أو ضمور الأحزاب السياسية.

ويمكن أن يجد المراقب من مظاهر الأزمة الأخرى أن الأحزاب السياسية فى مصر لا تستوعب أولا كل القوى السياسية الفاعلة فى البلاد. ففى الوقت الحاضر وبعد التجميد الفعلى لنشاط حزب العمل الاشتراكى ، على الرغم من قرارات قضائية ببطلان هذا التجميد، فإن حركة الإخوان المسلمين والتى كانت تنشط من خلال هذا الحزب لا تجد غطاء حزبيا قانونيا آخر لحركتها ، صحيح أن قادتها ينشطون من خلال نقابة المحامين فى الوقت الحاضر، وبعض نوادى هيئات التدريس الجامعية، كما أنهم موجودون فى مجلس الشعب، ولكنهم محرومون من الوجود الحزبى، على الرغم من أنهم بثقلهم الانتخابى أقوى من أى حزب معارض كما ظهر ذلك أثناء انتخابات مجلس الشعب الأخيرة وعلى الرغم من كل القيود والمضايقات التى تعرض لها مرشحوهم وأنصارهم، كما أن بعض قوى اليسار الماركسى محرومة أيضا من الوجود الحزبى، حتى وان كان ثقلها الانتخابى أقل بكثير من الثقل الانتخابى للإخوان المسلمين وغيرهم من القوى الإسلامية التى تسعى لكي يكون لها إطار قانونى مثل بعض قيادات تنظيم الجهاد التى تسعى الآن لتكوين حزب باسم حزب الشريعة، وعدم احتواء النظام الحزبى لهذه القوى الفاعلة فى المجتمع يقلل بكل تأكيد من درجة تمثيله لما يموج فى المجتمع من تيارات فكرية وسياسية.

ويرتبط بهذا الجانب فى أوجه ضعف النظام الحزبى فى مصر أنه يبدو منقطع الصلة بالقوى الاجتماعية ، فكل الأحزاب السياسية تتحدث باسم الوطن ولكن تكون لها عادة قاعدتها الاجتماعية التى تتوجه إليها وهى الأقرب إلى ما تطرحه من أفكار. حزب المحافظين

نعمان جمعه

أحمد الصباحى

البريطاني يتوجه أساسا إلى الطبقة المتوسطة والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة يوجه خطابه إلى الطبقة المتوسطة ، بينما يوجه الحزب الديمقراطي خطابه إلى الطبقة العاملة والأقليات من المواطنين ذوي الأصول الإفريقية والإسبانية. أما الأحزاب المصرية، فباستثناء، حزبي التجمع والعربي الناصري، فإنها تتوجه إلى جميع المواطنين بلا استثناء، وبدون التركيز على فئات محددة منهم، وبذلك يضيع خطابها ويصبح بلا أثر على أي منها.

أحزاب محدودة العضوية

ولهذا السبب، تصبح الأحزاب المصرية محدودة العضوية، والحديث عن عضوية الأحزاب المصرية هو ضرب من التخمين لأن هذه الأحزاب لا تحتفظ ببيانات عن العضوية. وإذا تصادف واحتفظ بعضها بهذه البيانات فإنها لا توفرها للباحثين. وأقل هذه الأحزاب استعدادا لتوفير أي بيانات للباحثين هو تحديدا الحزب الوطني الديمقراطي وذلك عن تجربة، ومع ذلك يمكن المخاطرة بالقول بأن العضوية الرسمية لهذه الأحزاب جميعا قد لا تتجاوز مليونين من الأشخاص ، وهو عدد ضئيل للغاية لا يزيد على عشر (١٠٪) من لهم حق الانتخاب رجالا ونساء. والأدهى من ذلك، أن عضوية الأحزاب أخذت في التقلص، وهذا أمر مؤكد وخصوصا بالنسبة لكل من حزبي الوفد والتجمع، وقد أشار إلى ذلك قادة هذه الأحزاب الذين ألتقى بهم كاتب هذه السطور.

والسمة الرابعة لأزمة الأحزاب السياسية في مصر هي أن وجودها يكاد يكون مقصوراً على العاصمة وبعض المدن الكبرى وخصوصاً في الوجه البحري ولكن نادراً ما يكون لها وجود خارج هذه المدن الكبرى أو أن تنشط في الريف أو في الوجه القبلي، يكفي أن يقرأ المتشكك في صحة هذه الملاحظة صفحة النشاط الحزبي في أي من الصحف الحزبية ليدرك أين تعقد الندوات، وأين تجري الاجتماعات، وأين يذهب قادة الحزب، صحيح أنه يمكن أن يكون هناك نشاط لحزب من الأحزاب خارج العاصمة، ولكنه يعتمد كثيرا على المواقع التي يوجد فيها أقارب لرئيس الحزب وأيضا لعائلته، ومن ثم فإن نجاح رئيس الحزب في الانتخابات لا يقترن بالتأييد لأفكار الحزب، وإنما يعتمد على ما لعائلته من «عصبية» في دائرة من الدوائر ، حتى ولو كان حزبه يرفع أكثر البرامج ابتعاداً عن الطائفية والعصبية.

والسمة الخامسة لأزمة الأحزاب السياسية في مصر هي غياب المساءلة داخلها فعلى الرغم من خطورة الانتكاسات التي مرت بها جميعا، حزبا حاكما وأحزاب معارضة، إلا أنه لم تجر مساءلة أي من قادتها عن هذه الانتكاسات ، فكل قادتها مازالوا يتربعون على مناصبهم التي يشغلونها منذ سنوات طوال.. تزيد على عقدين في بعض الحالات.

ومن السهل بطبيعة الحال على قادة احزاب المعارضة أن يتهموا الحكومة بالمسئولية عن ضآلة مكاسبهم الانتخابية ومن السهل على قادة الحزب الوطني



الديمقراطى أن «يغطوا» على «هزائمهم» الانتخابية بتحول المرشحين المستقلين الذين رفضوا هم ترشيحهم على قوائم الحزب الوطنى الديمقراطى قبل الانتخابات إلى صفوف هذا الحزب بعد الانتخابات ومن ثم فلا داعى فى رأيهم لأى مساءلة ، ولو كان هناك رأى عام داخلى قوى فى أى من هذه الأحزاب لوجب مساءلة كل هؤلاء القادة.. وغياب هذه المساءلة هو عرض آخر لأزمة الأحزاب السياسية.

خيانة أخلاقية للناخب

والسمة السادسة للأزمة هو كثرة الإنشقاقات داخل الأحزاب السياسية وسهولة التحول من حزب إلى آخر ، ولعل أخطر مظاهر هذه السمة هو خوض الانتخابات بصفة المرشح المستقل ثم الانضمام إلى حزب معين، هو غالبا الحزب الحاكم بعد إعلان نتيجة الانتخابات، صحيح أنه ليس هناك ما يحول قانونا دون عمل ذلك، وأن المواطنين لا يعربون عن رفضهم لهذا السلوك، ولكن يفترض ان التصويت هو تعاقد بين المواطن والمرشح بصفته التى خاض على أساسها الانتخابات ومن ثم لا ينبغى على المرشح الفائز أخلاقيا أن يغير هذه الصفة، وإلا أصبح ذلك خيانة أخلاقية للناخب الذى أعطاه صوته على أساس هذه الصفة.

وأخيراً فلكل هذه الأسباب انصرف المواطنون عن الأحزاب السياسية وأصبحوا فى معظمهم لايعيرونها اهتماما، ولا يتابعون أنشطتها، ولذلك دلائل عديدة.

فقد انخفض توزيع الصحف الحزبية، فلم يعد أى منها يصل إلى رقم المائة ألف نسخة والذى تجاوزته فى بعض الأوقات صحيفتا الشعب والوفد، وتجاوزتها فى هذا الصدد صحف غير حزبية توصف بأنها مستقلة مثل الأسبوع والنبأ، ولم تعد الأنشطة الحزبية تجتذب الكثيرين وقل ان يحضر أى ندوة حزبية تعقد فى المقر الرئيسى للحزب بالعاصمة عشرات من الأعضاء إلا إذا كان المتحدث شاعراً أو نجما سينمائيا ، وأدركت الأحزاب أن نجاحها فى الانتخابات لا يتوقف على برامجها ، فلم تجدد فيها، بل صارت فيها شر هزيمة وحفرت فيها قبرها، أو النظم الاشتراكية التى لم تجد الوسيلة للإدارة السلمية لهذا الصراع حتى بين الطبقات التى توصف بأنها صاحبة مصلحة فى الاشتراكية.

والوظيفة الثالثة للأحزاب السياسية هى المشاركة فى صنع السياسات العامة وذلك سواء تولت السلطة التنفيذية بنجاحها فى الانتخابات الرئاسية أو سيطرت على السلطة التشريعية بنجاحها فى انتخابات المجلس النيابى، وتقترن هنا سيطرتها على السلطة التنفيذية بطبيعة الفصل بين السلطتين وهو ما يحدده الدستور السائد فى كل دولة، ولكن فى أى من الحالتين تساهم الأحزاب فى تشكيل السياسات العامة سواء فى الحكم أو فى المعارضة ، بل وحتى إذا لم يكن لها وجود فى المجالس النيابية ، فإنها تستطيع من خلال التأثير فى الرأى العام أن تطرح القضايا، وأن تصوغ الاقتراحات التى يمكن أن يقتبسها صانع القرار.

مدرسة للعمل السياسى

والوظيفة الرابعة للأحزاب السياسية هى أن تعكس اتجاهات الرأى العام فى

بلادها، وهذه وظيفة مستقلة عن المشاركة فى صنع السياسة العامة، فالمهم هنا أن يظهر لصانع السياسة العامة أن هناك تيارات قوية قد تختلف معه بشأن قضايا معينة، وانه لا يوجد إجماع قوى حول مواقف معينة وقد لا تشكل هذه التيارات مدخلاً فى صنع القرار، ولكنها تمثل مع ذلك أحد المعطيات العامة التى لابد وان يأخذها صانع القرار بعين الاعتبار، فالأحزاب الإسلامية فى باكستان مثلا لم تشارك فى صنع القرار الخاص بالسماح للقوات الأمريكية باستخدام قواعد جوية معينة فى الحرب التى شنتها الولايات المتحدة ضد نظام طالبان فى افغانستان، ولكنها كانت تعكس تياراً مهما للرأى العام فى باكستان . وحزب الخضر فى ألمانيا واصل اعتراضه على قرار الحكومة الألمانية بتأييد الحملة العسكرية الأمريكية ضد نظام طالبان ، ولكنه كان يؤدى وظيفة مهمة إذ عبر عن شعور قطاع مهم من الشعب الألمانى كان يستهجن هذه الحرب.

كذلك فمن بين الوظائف المهمة التى تقوم بها الأحزاب السياسية إنها تدرب المواطنين على العمل السياسى، من ثم فإنها تصبح بمثابة مدرسة للعمل السياسى، ولذلك نجد فارقا كبيرا فى نوعية القيادات السياسية بين الدول ذات الأحزاب السياسية القوية والعريقة والدول ذات الأحزاب السياسية الضعيفة ، والمقارنة هنا واضحة بين أوربا الغربية التى تتميز بأحزابها القوية والولايات المتحدة التى يقتصر دور الأحزاب فيها على تنظيم المنافسة الانتخابية ولذلك تبدو القيادات السياسية الأوربية أكثر نضجا وتمرسا وأكثر معرفة بواقع العالم بالمقارنة بالقيادات السياسية الأمريكية.

وأخيرا فلعل من أهم الوظائف الأخرى التى تقوم بها الأحزاب هى تلك الخاصة بترشيد الاختيارات السياسية للناخبين وتهدئة اجواء المعارك الانتخابية فالأحزاب السياسية «الناضجة» تنقل المعارك الانتخابية الى أرضية البرامج والأيديولوجيات بعيدا عن أرضية الطائفية والعصبية الدينية، ومن ثم فالمعارك الانتخابية فى الدول التى استقرت فيها النظم الحزبية هى أقل عنفا بكثير من تلك التى لم تستقر فيها النظم الحزبية، وعدد القتلى والمصابين فى المعارك الانتخابية التى يسود فيها الولاء الحزبى هو أقل بكثير من عدد القتلى فى المعارك التى يسود فيها الولاء القبلى أو الطائفى أو العنصرى أو الدينى، فأين الأحزاب السياسية المصرية من أداء هذه الوظائف؟!.

وظائف الأحزاب السياسية المصرية

توضح قراءة الدراسات المختلفة عن الأحزاب السياسية المصرية فى فترة التعدد الحزبى الثانية - والمقيد - والمراقبة الوثيقة لهذه الأحزاب تفاوتا فى أداء هذه الوظائف، ويمكن القول أن عددا محدودا منها لا يتجاوز الخمس يمثل بالفعل تيارات واضحة وفاعلة فى المجتمع المصرى، سواء كانت هذه التيارات داخل هذه التيارات فقط أم داخلها وخارجها أيضا، وهى الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم وحزب الوفد الجديد ذو الاتجاه الليبرالى الاقتصادى وحزب التجمع الذى



يميل إلى اليسار وحزب العمل الاشتراكى الذى أصبح يرفع راية الاسلام السياسى والحزب العربى الديمقراطى الناصرى، أما الاحزاب الاحد عشر الأخرى فبعضها يقترب من هذه الأحزاب والبعض الآخر ليست له هوية محددة أو لا يتمتع بأى ثقل انتخابى بين المواطنين.

ومن حيث بدائل السياسة العامة يمكن القول انه لا يوجد ثمة فارق فى السياسة الاقتصادية بين الحزب الوطنى الديمقراطى وحزب الوفد الجديد وفيما يتعلق بالحريات السياسية فقد تآكل الفارق بينهما بتجاهل حزب الوفد الجديد التصدى للعديد من انتهاكات الحقوق المدنية والسياسية أخيراً ربما تصورا لأن الدفاع عن ضحايا هذه الانتهاكات مثل نصر حامد أبو زيد وسعد الدين إبراهيم سوف يفقده قدرا من الشعبية.. بينما تميل احزاب التجمع والعربى الناصرى والعمل إلى الحفاظ على القطاع العام وتتحفظ على الترحيب بالاستثمارات الأجنبية - إلا إذا كانت اسلامية فى حالة حزب العمل - وتدعو إلى الابقاء على الدور القائد للدولة فى عملية التنمية، وهى عموما مع إطلاق الحريات العامة، وإن كان حزب التجمع أوضحها فى هذا المجال، بينما يولى حزب العمل الأولوية لتطبيق الشريعة الإسلامية.

وتلتقى أحزاب المعارضة الرئيسية حول الدعوة إلى إلغاء حالة الطوارىء وإنهاء المحاكمات العسكرية للمدنيين واسقاط القوانين المقيدة للحريات بينما يتحفظ الحزب الوطنى الديمقراطى حول كل هذه الأمور بدعوى أن ذلك يهدد الاستقرار السياسى، وقد ينذر بعودة الإرهاب من جديد.

تمثيل القوى الاجتماعية

وفيما يتعلق بتمثيل القوى الاجتماعية فإنه لا توجد دراسات ترجح أى استنتاج فى هذا الخصوص، وإنما يمكن القول بناء على بعض الدراسات الجزئية وانطباعات خاصة بأن شرائح الرأسمالية الجديدة التى تعتمد على الدولة خصوصا ترى أن الحزب الوطنى الديمقراطى بالسياسات التى بدأت تتبعها الحكومة منذ سنة ١٩٩١ هو أقرب الاحزاب إلى مصالحها حيث اعلن عن أن القطاع الخاص هو المسئول الأساسى عن الجانب الأكبر من الاستثمارات، واتخذ العديد من الخطوات من أجل تسهيل فرص النشاط أمام القطاع الخاص، كما أنه لم يعد أمامه بديل سوى ذلك، كما يبدو أن شرائح الرأسمالية القديمة التى لا تعتمد فى نشاطها على الدولة من خلال اعمال المقاولات بكل أنواعها أو بقايا عائلات كبار ملاك الأراضى هى الأقرب إلى تأييد حزب الوفد الجديد، أما أحزاب المعارضة الرئيسية الثلاثة الأخرى فتعتمد على تأييد قطاعات من الطبقة المتوسطة وبعض القطاعات العمالية وذلك بحسب ظروف وجود قيادات هذه الأحزاب.

كذلك يمكن القول بأن الأحزاب الرئيسية فى مصر، تعكس جزئيا اتجاهات الرأى العام فى البلاد تجاه القضايا الرئيسية التى تمر بها ولكن اللافت للنظر أن هذه المهمة تقوم بها الصحف القومية بل والصحف المستقلة بأفضل مما تقوم به الصحف الحزبية



فى الوقت الحاضر ، قد يكون سبب ذلك هو الحذر الشديد الذى أصبحت تتسم به صحف المعارضة ربما لأنها تخشى أن يتكرر معها ما جرى لصحيفة الشعب التى أغلقت وجمد معها نشاط حزب العمل بقرار من لجنة شئون الاحزاب السياسية بعد اتهامها بإثارة الفتنة لنشرها نقدا لرواية مائدة لأعشاب البحر للروائى السورى حيدر حيدر سارت فى أعقابها مظاهرات لطلبة جامعة الأزهر، وعلى الرغم من أحكام قضائية بعدم قانونية الإغلاق والتجديد مازالت الجريدة والحزب غائبين عن الحياة العامة حتى كتابة هذه السطور.

إخفاق فى أداء الأدوار

أما فيما يتعلق بالوظائف الأخرى للأحزاب، فقد أخفقت فى أدائها الأحزاب المصرية جميعا، حاكمة ومعارضة، فلا هى تشارك فى صنع السياسة العامة على أى نحو ولا هى نجحت فى تدريب قيادات جديدة، فمازال قادة المستوى الأول فيها هم نفس القادة الذين كانوا على الصدارة منذ عشرين عاما إلا باستثناءات محددة كان السبب فيها انتقال قائد الحزب إلى الرفيق الأعلى، كما لم تنجح الأحزاب المصرية فى ترشيد الاختيارات الانتخابية للمصريين الذين شاءوا أن يدلوا بأصواتهم فى الانتخابات المحلية أو التشريعية، فقد غابت القضايا العامة فى هذه الانتخابات وكان المدهش حقيقة غياب هذه القضايا حتى فى انتخابات مجلس الشعب الأخيرة فى أكتوبر - نوفمبر ٢٠٠٠. صحيح أن نظام الانتخابات الفردى يلقى بظلاله على أجواء المعركة الانتخابية، ويعطى ثقلا لسمات المرشح الشخصية، ولكن هذا هو الحال أيضا فى بلدان أخرى، ولكن لا تتحول المعركة الانتخابية إلى تنافس بين المرشحين حول أيهما أقدر على تقديم الخدمات لدائرته ومع الغياب الكامل لأى نقاش للبرامج التى تطرحها الأحزاب فى وقت واجهت فيه مصر اخطار الركود الاقتصادى قبل أزمة الحادى عشر من سبتمبر، ومعها ازمة بطالة الخريجين، وارتفاع نفقة المعيشة، وتصاعد العنجهية الاسرائيلية وتردى الموقف العربى على الصعيد الدولى، وهشاشة العديد من المشروعات القومية الكبرى، ومع ذلك لم يتردد صدى ذلك فى أى من المحاورات التى دارت بين المرشحين الحزبيين وناخبيهم ، بل ضاعت فى الحقيقة أصوات المرشحين الحزبيين الذين كانوا مجرد اقلية وسط أغلبية من المرشحين غير الحزبيين.

ما العمل؟

يصعب على من تخصص فى علم السياسة ان يتنبأ بمستقبل النظام السياسى المصرى لأسباب عديدة، من بينها أن القوى السياسية فى مصر ليست منظمة، وأحد صور التنظيم هى بلا شك وجودها فى احزاب سياسية تتمتع بالمصداقية، ولاشك أن معظم الاحزاب السياسية القائمة فى مصر الآن لا تتمتع بالمصداقية والدليل على ذلك هو حكم المواطنين عليها فى الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب، مرشحون كانوا أو ناخبون، وتفسير أزمة الاحزاب السياسية



فى مصر سهل وبسيط ، هو أنها قد أصبحت بلا جدوى، فلا هى تفيد فى صنع السياسة ولا هى تفيد فى إيصال المرشحين إلى مقاعد المجالس المحلية والتشريعية فالسياسة تصنعها السلطة التنفيذية دون استشارة الاحزاب والمرشحون الذين يفوزون فى الانتخابات هم فى الغالب إما من رفضت الاحزاب ترشيحهم أو المستقلون تماما عن الأحزاب.

رفع القيود عن تشكيل الأحزاب

وقد أوضحت الفقرات السابقة أنه لا غنى لأى نظام سياسى يسعى نحو الديمقراطية عن إتاحة حرية التنظيم للمواطنين، بكل ما تتضمنه هذه الحرية من حق فى إقامة الجمعيات والنقابات والاحزاب طالما أنها تؤدى وظائفها دونما استخدام للعنف ودنما اعتداء على حريات الآخرين، ولذلك فإن جانبا مهما من العقبات التى تعترض إحياء دور الأحزاب السياسية فى مصر لابد وان يتمثل فى رفع القيود القانونية على تشكيل هذه الاحزاب ، بما فى ذلك إلغاء قانون الاحزاب السياسية ذاته، وقصر دور السلطة العامة على الرقابة على عدم استخدام الحزب أو أى من تشكيلاته للقوة المسلحة فى نشاطه أو الدعوة لاستخدامها ويقتضى ذلك بطبيعة الحال من الدولة المصرية أن تتخلى عن تصورها انها الوصى فى المجتمع المصرى، فقد بلغ المجتمع المصرى من النضوج درجة تجعله لا يحتاج وصيا، وانما يحتاج شريكا.

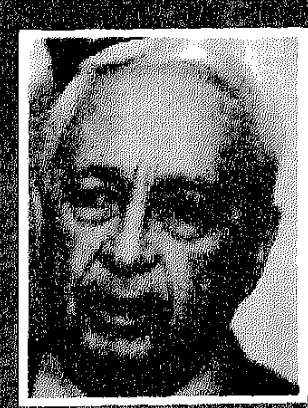
ولا يعنى ذلك ان الاحزاب ليست بحاجة الى مراجعة أساليب عملها، فقد اوضحت الفقرات السابقة الكثير من اوجه القصور فى عمل هذه الاحزاب، ولذلك فقد يكون الأخذ بنظام انتخابى يجمع بين التمثيل النسبى والنظام الفردى فى تقاسم للمقاعد بين النظامين على كل المستويات بين المرشحين الحزبيين والمرشحين المستقلين وسيلة لضمان الوجود الحزبى والمنافسة الانتخابية على أساس البرامج من ناحية ، وضمانا لقدر من العدالة فى تمثيل المواطنين المنتمين إلى أحزاب وغير المنتمين الى احزاب من ناحية أخرى.

ولن يكون ذلك مجديا إلا إذا رافقته خطوات واجراءات لاشراك الأحزاب بصبغة استشارية فى صنع السياسة وذلك بان يكون هناك تمثيل أوسع للأحزاب فى مجلس الشورى مثلا من خلال الأعضاء المعينين، وفى المجالس القومية المتخصصة وأن تقوم الأحزاب كذلك بالاستعداد الجدى لهذه المشاركة حتى يشعر المواطن بأن لهذه الأحزاب جدوى.

لقد تحولت الأحزاب الى حقيقة فاعلة فى الحياة السياسية فى عديد من بلدان العالم فى أوروبا وآسيا بعد مسيرة تاريخية طويلة، وربما نجتهد بإعمال الخيال، وبقدر من الاخلاص فى اختصار هذه المسيرة، لو خلصت النوايا فى الإصلاح الحقيقى للنظام السياسى المصرى، وهى مهمة ضرورية وليست باليسيرة. ■

مشهد الصراع الراهن في فلسطين





شارون

٣٢



بوش

بقلم:
د. أحمد يوسف أحمد

شوال ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢



"لاشك أن التطورات الأخيرة فى الصراع الدائر على أرض فلسطين تنطوى على دلالات خطيرة بالنسبة للحاضر، ونذر أشد خطراً فيما يتعلق بالمستقبل، ولعل البعد الأسوأ فى هذا كله هو ذلك المرتبط بالغياب شبه الكامل للعقلانية في سلوك كل الأطراف، كأنما نشهد جميعا مسرحية عبثية تستعصى على الفهم، ولأن مصائر الشعوب والأمم والأوطان لاينبغي أن تترك للعبث يتعين على كل منا أن يمسك برأسه، وأن يحاول الفهم مرة ومرات، لعل ذلك يساعدنا على أن نرشد أداءنا فى هذه الأوقات العصيبة."

مشهد الإرهاب الإسرائيلى

يبدو غياب العقلانية فى المشهد الإسرائيلى الراهن أقرب إلى الفهم والاستيعاب من المشاهد الأخرى، فإسرائيل تعبير عن حالة استعمارية استيطانية إحلالية فريدة من نوعها فى عالم القرن العشرين، وقد تعلمنا من التجارب الاستعمارية السابقة أن الإرهاب مقوم أصيل فى هذا التجارب، وقد قامت الدولة الإسرائيلية بالفعل منذ أيامها الأولى على ممارسة الإرهاب فى أبشع صوره ضد شعب فلسطين، وهو ماشهد به أخيرا من يسمون بالمؤرخين الصهاينة الجدد فى بعض أعمالهم، كذلك تعلمنا من دراسة الظاهرة الاستعمارية أن رجال الاستعمار ينحدرون عادة إلى أسفل درجات قصر النظر، فلا يرون إلا ماهو فى مواقع أقدامهم، إن رأوه أصلا،، فيتصورون أن مواجهة المقاومة المشروعة لسلوكهم الاستعمارى لاتكون إلا بالقوة، إذ مادام ميزان القوى العسكرى مختلاً على نحو فادح لمصلحتهم، وأنهم قادرون من خلاله على القتل والتدمير والتخريب فإن الرد على المقاومة بالقوة وعلى نحو مفرط يكون وحده هو الحل، وكلما اتضح عقم هذه النظرة ازداد الاستعماريون شراسة، وواصلوا تطرفهم إلى منتهاه، وهكذا تصل الحالة الاستعمارية فى مراحلها الأخيرة إلى أقصى درجات الاستخدام المفرط للقوة العسكرية، وما يرتبط بذلك من تطرف سياسى، ولولا بعض تعقيدات ظاهرة فى المواقف الفلسطينية والعربية والإقليمية والعالمية لاستنتج المرء باطمئنان أن نهاية الحالة الاستعمارية الإسرائيلية - على الأقل بالنسبة للأراضى المحتلة فى عدوان ١٩٦٧ - باتت أقرب مما يتصور الكثيرون.

وإذا كان السلوك الإسرائيلى الحالى يبدو على النحو السابق سلوكا استعماريا نمطياً فإن المشهد الراهن للإرهاب الإسرائيلى لايخلو من عبثية تنطوى على غياب كامل للعقلانية، ففى الخبرات الاستعمارية السابقة التى لم تقل فى عنصريتها ووحشيتها عن الحالة الإسرائيلية كان مجتمع الدولة الاستعمارية يفرز عادة عناصر «نبيلة»: أفرادا أو جماعات قليلة العدد، تدرك السقوط الأخلاقى لما يجرى، وترفع صوتها منددة به، وتكون أحيانا فاعلة فى التخفيف من غلوائه، أو حتى العمل على إيقافه، ولاننسى فى هذا السياق أن

عددا من أعتى الحالات الاستعمارية قد وصل إلى نهايته المحتومة بتطورات داخلية، صحيح أنها لم تصل بأمثال هؤلاء «النبلاء» إلى مواقع السلطة، لكنها أوصلت إلى هذه المواقع غيرهم من العقلاء الذين تأثروا دون شك – ولو جزئيا – بحركات المعارضة الداخلية للسلوك الاستعماري المتطرف.

ولعلنا نذكر في هذا السياق الحديث الطويل – والممل في بعض الأحيان – الذي راج عن حركات السلام في إسرائيل، وعن ضرورة الالتقاء بها والتعاون معها من أجل الوصول إلى تسوية معقولة للصراع، وعلى الرغم من أن عددا من الباحثين قد نبه كثيرا إلى طبيعة الظاهرة ومحدوديتها، ومخاطر التعامل معها دون حسابات سليمة فإن بعض العرب قد اندفع إلى هذا المسار، وتورط بحسن النية أو بالغفلة المؤكدة في مواقف نحمد الله على أنها لم تؤت أكلها السيىء المتوقع بالنسبة للوضع العربي في الصراع، على أساس أن التطورات اللاحقة للسياسة الإسرائيلية قد تكفلت بإفاقة حسني النية، وإيقاظ الغافلين، وكشف حقيقة الظاهرة ومحدوديتها.

ويعجب المرء كيف أن مجتمعا يفترض أنه «ديمقراطي ليبرالي» يصل إلي هذه الدرجة من الغلو في امتهان حقوق الإنسان، بل والعصف بالإنسان ذاته، والاستهانة الرخيصة بحياته دون أن يفرز حركة مجتمعية ما ترصد مايجرى، وتنبه إلى مخاطره، وتعترض عليه، وتحاول تقييده أو وضع حد له، ليس من أجل الآخرين الذين يفقدون أرواحهم وممتلكاتهم وأمنهم باستخفاف بالغ، ولكن من أجل مستقبل العيش المشترك – إن كان ثمة مستقبل له أصلا – بل إن ماحدث تحديدا هو تراجع ما كان موجودا من حركات ضعيفة التأثير في الوقت الذى كان يفترض أن تقول كلمتها فيه.

والحق أن هذا الغياب شبه الكامل للعقلانية في هذا الصدد – فضلا عن دلالاته السلبية الأكيدة بالنسبة لحقيقة مايسمى بالديمقراطية الإسرائيلية – يحمل أسوأ النذر بخصوص مستقبل الصراع في فلسطين، ذلك أنه يعنى أن منطق القوة وحده دون أدنى مساندة من العقل هو الذى سيحسم الصراع، وقد يقال إن المجتمع الإسرائيلى بأسره يدافع عن بقائه ضد «الخطر الفلسطينى»، غير أن نقطة البداية في غياب العقلانية هى الإخفاق في إدراك أن هذا «الخطر» رد فعل للسلوك

الاستعمارى الإسرائيلى قبل أى شىء آخر.

مشهد المعضلة الفلسطينية

لاشك أن النضال الفلسطينى يواجه فى الواقع الراهن - كما واجه دائما - معضلة شديدة التعقيد، وبالإضافة إلى الخلل الفائق فى ميزان القوى المادية لصالح إسرائيل، وضمور المساندة العربية إلى حد فاق التوقعات أتت أحداث ١١ سبتمبر كأنما لتثبت أن هذا النضال كان دائما على موعد مع مصادفات وأفعال سيئة - عالميا وعربيا - كلما وصل إلى مايشبه النقطة الفاصلة، فقد لعب تدهور الموقف الدولى السابق علي الحرب العالمية الثانية دورا فى وقف ثورة ١٩٣٦ بتعاون رسمى عربى واضح، ومازالت الذاكرة محملة بالآثار السلبية لأزمة وحرب الخليج فى بداية التسعينات من القرن الماضى على انتفاضة أواخر الثمانينات، وهاهى انتفاضة الأقصى تواجه فى الوقت الراهن التداعيات الهائلة لأحداث سبتمبر الماضى.

ومن المؤكد أن ماسبق يعطى كثيرا من الأعذار للأطراف الفلسطينية المعنية إذا غامت الرؤى، واختلطت الأوراق، وتضاربت المواقف، لكن الغياب الكامل للعقلانية يبدو ترفا لاتستطيع القضية الفلسطينية تحمله، وقد كشفت التطورات الأخيرة عن نذر مواجهات فلسطينية - فلسطينية، وهى أخطر مايمكن أن يمس نضال الشعب الفلسطينى، ويفضى إلى انكساره مرحليا، فبعد سنة من الصمود الأسطورى فى إطار تلاحم وطنى قوى وصلنا إلى المواجهات الراهنة.

وقد يقال إن كل حركات التحرر الوطنى قد عانت من الانقسامات الداخلية فى مرحلة أو أخرى، لكن مثل هذا القول على صحته يمكن أن يرد عليه أولا بأن حركة التحرر الفلسطينى بالذات تواجه حالة استعمارية غير مسبوقة، ولذلك فهى أحوج ماتكون إلى التلاحم الوطنى، وثانيا بأن شبهة حدوث حددت الخلاف كانعكاس لإملاء استعمارى لم تكن واردة فى سوابق الخلافات الداخلية فى حركات التحرر الوطنى.

وإذا انتقلنا إلى مصدر الخلاف وبدايته لوجدنا أن ثمة قرارا من السلطة الفلسطينيــة بوقف إطلاق النار، وهو مايدفع إلى اختلاف حول تكييف الموقف الراهن بين الإسرائيليين والفلسطينيين

سبق أن أشار الكثيرون إليه، فالحديث عن وقف إطلاق النار من الجانب الفلسطيني يعطى الانطباع والذريعة معا للأطراف الخارجية بأن هناك تماثلا وتكافؤا فى الموقف بين «إطلاق نار» اسرائيلى وأخر فلسطينى وأن ثمة اعتدالا فلسطينيا قد حدث يفضى الى وقف إطلاق للنار من الجانب الفلسطيني، وبالإضافة إلى ذلك فإن قرار وقف إطلاق النار يمكن أن يكشف عدم سيطرة القيادة الفلسطينية على الموقف فى حالة عدم الالتزام به من الفصائل الفلسطينية الأخرى، وهو مايعطى الذريعة لأصحاب المصلحة للحديث عن عدم جدارة تلك القيادة بإكمال مسيرة التسوية، وأخيرا وليس آخرا فإن الرفض المؤكد للقرار من قبل فصائل فلسطينية، وقدرتها المحتملة على تحديه يمكن أن يصل بالمواجهات الفلسطينية - الفلسطينية إلى مستوى لايضر بالنضال الفلسطينى فحسب وإنما يؤثر بالسلب دون شك على شرعية القيادة الفلسطينية فى الداخل، أو على الأقل على درجة المساندة الشعبية لها، الأمر الذى سيقلل من قدرتها على المشاركة فى صنع تسوية، إن كانت هناك آفاق لتسوية، ويسهل من التدخل الخارجى عامة والإسرائيلى خاصة فى الشأن القيادى الفلسطينى.

تبدو العقلانية غائبة إذن فى الحديث عن وقف إطلاق نار فلسطينى فى ظل استمرار العربدة الإسرائيلية، ولكن هل تعنى العقلانية بالمقابل استمرار النضال الفلسطينى المسلح بغض النظر عن التكلفة؟ لاشك أن الإجابة عن هذا السؤال تنطوى على أقصى درجات التعقد، لكن ثمة مؤشرات يمكن أن تكون مفيدة فى هذا الخصوص.

وأول هذه المؤشرات أن الكفاح المسلح ليس مطلوبا لذاته، وإنما يتم اللجوء إليه بقدر مايفيد هدف التحرر الوطنى، وتكون المبادرة به - أى بالكفاح المسلح - أو الاستمرار فيه قرارا وطنيا صرفا يبنى على تقدير الغاية النهائية للنضال وواقعه الفعلى. بعبارة أخرى فإنه إذا كان من الممكن أن نتصور نضالا تحرريا دون كفاح مسلح (تجربة غاندى على سبيل المثال) أو توقفا تكتيكيا لكفاح مسلح ما بناء على معطيات الواقع (تجربة النضال التحررى فى جنوب أفريقيا) فإنه من غير العقلانى أن تكون القرارات فى هذا الخصوص مملاة من العدو الاستعمارى الذى يفترض أن الكفاح يهدف إلى تقويضه أولا، وأن تتخذ هذه القرارات

بدعوى تفادى مزيد من العنف من قبل العدو ثانيا.

والسبب فى ذلك أن إملاء القرار من العدو يعنى بالضرورة خطأه من منظور التحرر الوطنى، كما أن القول بأن التوقف عن الكفاح المسلح يحدث لسحب الذرائع من العدو فى ممارسته لمزيد من العنف ينطوى على مفارقة تاريخية ومنطقية واضحة، لأن العنف الاستعمارى عبر التاريخ لم يكن رد فعل لعنف المقاومة، وإنما كان دائما سلوكا مبادرا ومستمرا بغض النظر عن وجود المقاومة من عدمه، فضلا عن أن التوقف عن الكفاح المسلح فى ظل خلل ميزان القوى لصالح العدو يفتح شهيته لمزيد من العنف ، والخلاصة أن قرار التوقف التكتيكى أو الاستراتيجى عن الكفاح المسلح ينبغى أن يكون قرارا وطنيا صرفا مبنيا على حسابات عقلانية، وليس استجابة لإملاء هنا أو ضغوط هناك.

ويرتبط ثانى المؤشرات التى قد تفيد فى الإجابة عن سؤال العقلانية فيما يتعلق بقرار وقف إطلاق النار الفلسطينى بحظه المتوقع من الفاعلية، فهذا القرار ينتمى إلى شريحة القرارات المتعلقة بشأن وطنى عام،. ولذلك فلكى يكون فاعلا لايمكن أن يتخذ بناء على تقديرات فرد ما أو فئة دون أخرى مهما كان وزن ذلك الشخص أو هذه الفئة، وإنما يفترض أن يصدر قرار كهذا بعد مداولات ومشاورات ذات طابع ديمقراطى، ناهيك عن أن يتطلب بنية للسلطة غير القائمة حاليا تعكس القوى السياسية الفلسطينية الفاعلة على نحو سليم، ويتم فى داخلها التداول الحر بشأن طبيعة الموقف ومقتضياته، والانتهاء بعد ذلك إلى القرار الوطنى السليم الذى لاشك أن حظه من الفاعلية السياسية سوف يكون كبيرا . ومن ناحية ثانية فإن قرار وقف إطلاق النار ينبغى لكى يكون فاعلا ومقبولا أن يرتبط بعرض جاد لتسوية حتى وإن كانت ناقصة (جزرة من أى نوع!) لكن الواقع الذى يلمسه الجميع الآن أن الطرف الآخر لايملك أى تصور لتسوية سياسية أصلا، ولن يدخل المفاوضات إلا مضطرا ومتسلحا برؤية لايمكن أن تفضى إلى أدنى الآمال فى تسوية ولو شبه متوازنة.

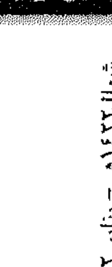
مشهد العجز العربى

أصبح الحديث عن قصور الدعم العربى للنضال الفلسطينى مكررا،

وعندما تفجرت انتفاضة الأقصى الراهنة فى سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٠ حملت معها بشائر موقف عربى جديد على الصعيدين الشعبى والرسمى بالأعمال الجماهيرية غير المسبوقة منذ عقود لتأييد النضال الفلسطينى، وكذلك بانتقاد قمة القاهرة فى أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٠ التى وضعت خطة طموحة للدعم الاقتصادى العربى للانتفاضة، غير أن هذا كله سرعان ما بدأ فى التآكل، وإذا كانت كيمياء الجماهير فى كل مكان تبدو مستعصية فى بعض الأحيان على الفهم، ومن ثم التنبؤ فإن المواقف الرسمية العربية تسبب درجة عالية من الإحباط.

وليس هذا الإحباط راجعا إلى أن تلك المواقف لم تلب ما طالب البعض به على نحو انفعالى بدخول الدول العربية حربا من أجل نصرة الشعب الفلسطينى، وبغض النظر عن الإشكاليات العسكرية والسياسية الهائلة فى قرار كهذا فإن مواقف التحرر الوطنى لم تتضمن عادة تدخلا خارجيا من جيوش نظامية لنصرة قوى التحرر (حالات الجزائر وجنوب اليمن وفيتنام .... الخ)، وإنما تطلبت دائما دعما خارجيا مؤثرا، وبالذات من الدول المحيطة على النحو الذى حدث فى جميع الحالات السابقة وغيرها، ولايحدث فى الحالة الفلسطينية الراهنة، وهذا هو بيت القصيد فى العجز العربى الراهن. أن المحيط العربى غير قادر على توفير دعم مؤثر للنضال الفلسطينى .

وإذا كان العجز العربى عن الفعل يبدو للأسف مفهوماً لاعتبارات عربية وإقليمية وعالية غير خافية فإنه من غير المفهوم لماذا يمتد هذا العجز إلى ساحة « الامتناع عن الفعل » الذى يمكن أن يكون مؤثراً أيضا لصالح النضال الفلسطينى والأمن العربى، بعبارة أخرى لماذا تتطوع أطراف عربية مؤثرة بالاستمرار فى الاتصالات مع الحكومة الإسرائيلية الراهنة، أو فى اتصالات دبلوماسية عامة تعلم تلك الأطراف علم اليقين أنها لن تفضى إلى أى شىء فى ظل سياسة حكومة شارون الذى توصلت قيادة لها وزنها العربى والعالمى كالرئيس حسنى مبارك إلى أنه لايملك سوى القتل سياسة، وأن إنجاز تسوية معه غير وارد، ولماذا تمتنع أطراف عربية عن تسمية الأشياء بمسمياتها فلا تتحدث عن احتلال إسرائيلى ومقاومة فلسطينية، وإنما تشير إلى وقف العنف والتوصل إلى تهدئة ، ولاتتحدث عن عودة الحقوق الفلسطينية المشروعة، وإنما تشير إلى بعض الأفكار الغائمة التى يعلم الجميع



أنها لن تفضى إلى شىء مادامت السياسة الإسرائيلية والمواقف الدولية الراهنة على ماهى عليه.

لقد كان العرب موضعا لسخرية البعض أحيانا باعتبارهم من وجهة نظر هذا البعض تعبيرا عن ظاهرة صوتية، فهل وصلت بهم الأمور إلى درجة أن الصوت الصحيح بات يمثل مستوى راقيا من الأداء لانحلم به، أو عملة نادرة يصعب الحصول عليها؟.

مشهد الانحياز الدولى

عانى نضال العرب والفلسطينيين فى مواجهة خطر المشروع الصهيونى على أرضهم من انحياز دولى صارخ منذ اللحظة الأولى لميلاد هذا المشروع، غير أن هذا الإنحياز وصل فى الآونة الأخيرة إلى آفاق غير مسبوقة، ومن لديه أدنى شك فى هذا عليه أن يقارن المواقف الأمريكية الرسمية فى أعقاب عدوان ١٩٦٧ فى عهد الرئيس ليندون جونسون الذى كان متهما بممارسة الإذلال المتعمد للعرب بالمواقف الأمريكية الرسمية الراهنة.

وبعض هذا الانحياز من صنع التقاء المصالح الاستراتيجية بين اسرائيل والقوى العالمية الفاعلة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، لكن بعضه الآخر ثمرة طبيعية لجهود قوى الضغط الصهيونى الموالية لإسرائيل، والممتدة باتساع العالم، وللدبلوماسية والدعاية الإسرائيلية البارعتين اللتين تبنيان على كل ماسبق فى غياب واضح لسياسات - أو حتى تحركات - عربية فعالة، ولذا فإنه ليس صحيحا أن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها هى المنحازة لإسرائيل على نحو صارخ، وإنما يبدو انحيازها صارخا لأنها الأكثر تأثيراً من جانب والأكثر فجاجة فى التعبير عن هذا الانحياز من جانب آخر.

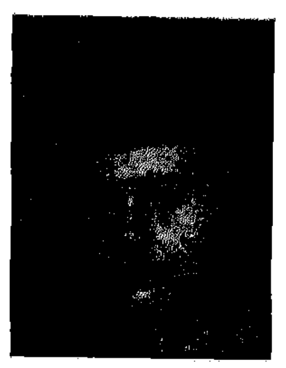
غير أن الانحياز المفهوم لإسرائيل شىء، وبناء المواقف تجاه الصراع الراهن دون أدنى أساس من العقلانية شىء آخر، وإلا فأين الدروس الأولى لمبادىء علم السياسة المعاصر الذى ازدهر اساسا فى الولايات المتحدة الأمريكية، والتى تتحدث عن «غياب السياسة» أصلاً إذا كانت القوة وحدها - ومن ثم الإكراه - فى الساحة؟ وتشير إلى التسويات الهادمة لذاتها إذا لم تؤسس على حد أدنى من التوازن فى المصالح؟ وتفرط فى الحديث عن الأسلوب الرشيد فى إدارة الأزمات



بإتاحة مخرج كريم للخصم؟ وأين هى المعرفة والحنكة الأوربيتان فى التعامل مع عشرات من الحالات الاستعمارية السابقة التى لم يكن الخروج منها بسلام ممكنا إلا بعد توفير الاستقلال الشكلى (العلم والنشيد الوطنى ومقعد الأمم المتحدة) لشعوب الأقاليم المستعمرة فى مقابل استمرار الاستغلال الاستعمارى بطرق أخرى؟ وأين هو المنطق فى مطالبة السلطة الفلسطينية بتعقب مايسمى بالإرهاب الفلسطينى، والرضى - أو السكوت على الأقل - فى الوقت ذاته بامتهان الحكومة الإسرائيلية لهذه السلطة على النحو الذى نراه؟ وأين هو العقل فى الجمع بين اتهام الفلسطينيين بالإرهاب ورفض قبول آلية للمراقبة الدولية (مجرد المراقبة وليس إرسال قوات تدخل أو حتى للفصل وحفظ السلام) إلى درجة استخدام الفيتو الأمريكى لاسقاط مشروع قرار بالغ الوداعة ينطوى ضمن أشياء أخرى شديدة التأدب على التلميح إلى التفكير فى آلية مراقبة دولية؟، ويتصور هؤلاء على الرغم من كل ماسبق من دروس أن استقرارا وسلاما فى منطقة تزخر بمصالح حيوية لهم يمكن أن يبنى على هذا النحو، فأية عقلانية يمكن أن تعيش فى مناخ كهذا؟

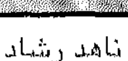
يبدو أن كل ماسبق مثير للإحباط مستعصٍ على الفهم إذا افترضنا أن أطراف اللعبة تتسم بالعقلانية والرشادة، وسواء كان مايحدث من اسرائيل والأطراف الدولية المساندة لها راجعا إلى سيادة مطلقة لمنطق القوة الغاشمة، أو عجز تام عن الفهم الصحيح بسبب الانحياز الأعمى، أو شلل مطلق للقدرة على تبنى المواقف السليمة بسبب قيود سياسية فإن النتيجة واحدة في جميع الحالات: أن السلام بات أبعد من أى وقت مضى، وأن الانفجار المروع سوف يكون وشيكا أو يحدث بعد حين، لكنه واقع لامحالة، أما الأطراف العربية - وبصفة خاصة الطرف الفلسطينى - فهى لاتتحمل ترف غياب العقلانية عن ساحة إدارة الصراع، لأن هذا الغياب يمكن أن يدمر حاضرها ومستقبلها المنظور معا، فهل آن لنا أن نمسك برءوسنا، ونعيد حساباتنا، لعل الله يجعل لنا من أمرنا رشدا؟.

■


الملك فاروق


الملكة نازلى


يوسف رشاد


ناهد رشاد

الحرس الحديدى وثورة يوليو

بقلم
د. عاصم الدسوقى

فى أكتوبر من عام ١٩٧٧ وأنا أتردد على المتحف القضائى بدار القضاء العالى آنذاك لمتابعة جمع مادة علمية حول الاغتيالات السياسية لصالح مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر (دار الكتب) تصادقت مع أمين المتحف، وأصبحنا نتسامر حول محتويات المتحف وكيفية إنشائه وأغراضه والقضايا الممنوع الاطلاع على ملفاتها ومنها قضية محاولة اغتيال النحاس باشا فى نوفمبر عام ١٩٤٨ . فلما سألته عن سبب حظر الاطلاع على قضايا ينتمى أطرافها الى العهد الملكى قال هامسا: بسبب تورط الحرس الحديدى للملك فى هذه القضية ولأن أنور السادات كان ضمن الحرس الحديدى!!.



أمين عثمان

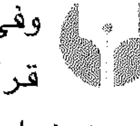


مصطفى النحاس



حسن البنا

سعد كامل



وفي الحال تذكرت ما كنت قد قرأته قبل عشر سنوات خلال الستينيات وأنا أعد رسالتى لدرجة الماجستير عن مصر فى الحرب العالمية الثانية من أن الملك فاروق كون الحرس الحديدى لحمايته من الانجليز وأعوانهم وذلك فى أعقاب حادثة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ الشهيرة. ولم أهتم وقتها بمتابعة تفاصيل هذه النقطة لأن نشاط هذا الحرس لم يكن ملحوظا حتى نهاية الحرب حيث تنتهى فترة بحثى.

وبعد عدة محاولات من جانبى لإغراء أمين المتحف بإطلاعى على ملف التحقيق فى القضية وهو يرفض، فاجأنى ذات يوم بالملف دون ترتيب سابق، فأسرعت أتصفح أوراقه فى عجالة حيث جلس يرقبنى حتى لا أنقل حرفا مما أقرأ، فعرفت أن التحقيق ظل قائما حتى بعد قيام الثورة حيث حضر البكباشى أنور السادات لمواجهته بالمتهم الرئيسى على حسنين، وكانت مواجهة مثيرة حيث كان السادات يراوغ على حسانين اعتمادا على بعض المعلومات غير الدقيقة التى كانت تجىء على لسان على حسنين عندما يذكر تاريخا معينا التقيا فيه بمقهى بترو بالإسكندرية مثلا لترتيب المهام التى كلفوا بها، فيجيب السادات بأنه كان معتقلا فى ذلك الوقت فى قضية اغتيال أمين عثمان، وعلى حسنين يضرب كفا بكف. وفى الأسبوع التالى وأنا أتهيأ للاطلاع على باقى الملف فاجأنى أمين المتحف بقوله إن رئاسة الجمهورية طلبت الملف وأخذته!!.

أسرار الحرس الحديدى

واعتقد غير جازم أن هذا الملف لابد وأنه يحتوى على كثير من أسرار هذه الجماعة من حيث كيفية تشكيلها وعناصرها والمهام التى قامت بها وذلك من واقع متابعة المحققين لخيوط القضية مما يساعد على كشف حقائق أساسية لدور هذا الحرس فى تاريخ مصر، وتحديد مكانه داخل دائرة العمل السياسى فى الأربعينيات بين مختلف التيارات والتنظيمات. ومما يزيد الأمر

غموضا أن أخبار هذا الحرس جاءت عرضا وحسب مقتضى الحال فى بعض المذكرات السياسية (الذكريات) التى نشرها سياسيون وغير سياسيين من الذين ارتبطوا بالعمل السياسى فى مصر قبل ثورة عام ١٩٥٢ وبعدها فيما عدا مذكرات سيد جاد أحد رجال الحرس الذى نشرها تحت عنوان مباشر «الحرس الحديدى: كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه؟» لكن دون أن يقول لنا تاريخ تكوين هذا الحرس على وجه التحديد. وحتى هذه المذكرات التى نشرت فى عام ١٩٩٢ (وقبل ذلك نشرت أجزاء منها أواخر عام ١٩٨٧ وبسببها استدعى للتحقيق معه فى يناير عام ١٩٨٨) جاءت غفلا من ذكر أى تاريخ أو أى اسم، وتداخلت حوادثها زمنيا خلافا لسياق الوقائع المعروفة فباتت مفككة، وهو أمر متوقع لمن يكتب وهو فى سن متأخرة عن وقائع مضى عليها أكثر من أربعين سنة باعترافه بنفسه فى المقدمة.

وعلى هذا تبدو الكتابة عن الحرس الحديدى مهمة شاقة محفوفة بالمخاطر ومع ذلك لا بأس من محاولة رسم اطار عام لهذا التجمع الخاص من حيث نشأته وطبيعة المهام التى قام بها ثم انهياره وتفككه وانصراف أصحابه الى حياة أخرى حاولت تجميع صورته من عدة روايات كل منها يكمل الآخر فى بعض الوقائع ولكنها فى النهاية تزيد الأمر غموضا.

ليس من المعروف على وجه الدقة تاريخ تكوين الحرس الحديدى لكن المفهوم العام أن فكرته نبتت بعد حادثة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ حين أرغم الانجليز الملك على تكليف مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد بتشكيل الحكومة على غير رغبة الملك، وهدفه حماية الملك من أعدائه والانتقام من الانجليز وأعوانهم من السياسيين المصريين. وقد ارتبط هذا التجمع بالدكتور يوسف رشاد طبيب الملك وعرف أنه صاحب الفكرة وانه الرئيس المباشر له. والحاصل أن يوسف رشاد وزوجته ناهد رشاد كانا الى جوار سرير الملك فاروق بعد إصابته فى طريق الاسماعيلية عندما اصطدمت سيارته بسيارة نقل قرب قرية القصاصين فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٤٣. وقد ربطت هذه الحادثة بين الثلاثة: الملك ويوسف رشاد وزوجته ناهد حيث أصبح يوسف الطبيب الخاص للملك وزوجته كبيرة الوصيفات بالقصر الملكى وكانت والدتها من قبل وصيفة بالقصر. وتذكر الروايات أن ناهد سيطرت على الملك، وانه وقع فى غرامها وكانت ترافقه فى كل رحلاته البحرية على يخته «فخر البحار» بحضور زوجها، وكان الملك قد طلب منها أن ترافقه وحدها فرفضت ناصحة منعا للأقاويل والشائعات.

تكوين الحرس

لكن .. كيف تكون الحرس ومتى؟. هناك رواية تقول أنه فى عام ١٩٤٦ كون

الملازم أول مصطفى كمال صدقى الضابط بإدارة العمليات الحربية (المخابرات) مجموعة داخل الجيش آمنت بأن الاغتيال وسيلة من الوسائل المهمة لمقاومة الاستعمار وأعوانه من أجل تحرير مصر، وكان معه حسن فهمي عبدالمجيد وعبدالرءوف نورالدين وسعد كامل من المدنيين خارج الجيش. واستهدفت المجموعة ضرب العساكر الانجليز بالرصاص والقنابل أو القبضات الحديدية. وفى هذا الاطار قامت هذه المجموعة بإلقاء قنبلتين واحدة على منزل عبدالفتاح عمرو باشا بالدقى (سفير مصر فى لندن) والثانية على مبنى الاتحاد المصرى الانجليزى بالزمالك وهو اختيار له دلالته.. فهل كانت هذه المجموعة أساس الحرس الحديدى أو هى ذاتها الحرس الحديدى بغير اسم محدد خاصة وان أسماء ها وردت فى بعض الشهادات ضمن أعضاء الحرس.

وهناك رواية تقول إن هذا الملازم نفسه (مصطفى كمال صدقى) كون فى يوليه عام ١٩٤٧ جمعية سرية أسماها «الجمعية الوطنية الاشتراكية» (لاحظ الروح النازية في التسمية) ضم إليها خمسة عشر ضابطا وثلاثة صولات فنيين استهدفت نشر المبادىء الثورية بين أفراد الجيش وقلب نظام الحكم وإقامة حكومة عسكرية تقوم بالإصلاح الشامل فى البلاد وتحقق العدالة الاجتماعية. وفى العام نفسه (١٩٤٧) ضبطت هذه الجمعية وقدم أفرادها للمحاكمة وعلى رأسهم مصطفى كمال صدقى وعرفت القضية بقضية «الاتفاق الجنائى». وكان السبب الظاهرى محاولة اغتيال اللواء إبراهيم عطا الله رئيس الأركان لأنه أقال اللواء عبدالواحد شبل الذى رفض التوقيع على قبول صفقة سيارات للجيش غير مطابقة للمواصفات.

وبعد الإفراج عن مصطفى كمال صدقى قبل أن ينتهى العام (١٩٤٧) اتصل به يوسف رشاد وأقنعه «بأنه يمكن عن طريق الملك تنفيذ ما يريده الضباط». ويذكر حسن فهمى عبدالمجيد أحد رجال الحرس وسفير مصر السابق لأن معظم الذين أفرج عنهم من زملاء مصطفى صدقى فى هذه القضية اقتنعوا بهذا الاتجاه وشكلوا تنظيما خاصا لكنه لم يذكر صراحة أن هذا التنظيم اسمه الحرس الحديدى كان يضم الى جانب مصطفى كمال صدقى كلا من خالد فوزى وحسن الطرزى وأحمد زيتون وسعد عثمان وحسن التهامى وحسن إبراهيم وإبراهيم توفيق وسعد كامل (من المدنيين).. الخ. ثم طلب الملك من يوسف رشاد توثيق علاقته بهؤلاء الناس حتى يكونوا على استعداد للانتقام لشرف الملك. وبعد أن اطمأن الملك الى ولائهم واستعدادهم للدفاع عنه بقتل من يرى قتله صدرت القرارات بنقل مصطفى صدقى إلى سلاح الفرسان



وحسن فهمي عبدالمجيد إلى الحرس الملكي وخالد فوزى الى المخابرات الحربية ورقي حسن إبراهيم إلى رتبة ملازم أول وإبراهيم توفيق الى الدرجة الخامسة واختار لهم فاروق اسم «الحرس الحديدى».

وهذه الروايات تربط نشأة الحرس بأواخر عام ١٩٤٧ بعد الإفراج عن المتهمين فى قضية «الاتفاق الجنائى» ، أو خلال عام ١٩٤٦ بالحلقة التى كونها مصطفى كمال صدقى كما سبقت الإشارة. لكن مرتضى المراغى يقول أن أول مهمة قام بها الحرس الحديدى كانت اغتيال أمين عثمان. ولما كان هذا الاغتيال قد وقع فى ٥ يناير عام ١٩٤٦ فإن هذا يعنى أن الحرس الحديدى كان قائما قبل عام ١٩٤٦. وهذا ما تؤكده رواية سيد جاد من أن الحرس الحديدى كان قائما قبل مقتل أمين عثمان ولكن قاتله لم يكن من الحرس الحديدى، وأن العملية تمت بأوامر من الملك من وراء ظهر الحرس بواسطة عناصر تعمل منفردة مع الملك وربما باتصال خاص مع تهاد رشاد، وانحصر دور الحرس الحديدى فى هذه الحادثة نزولا على رغبة الملك فى تهريب القاتل حسين توفيق من دورة مياه المحكمة الى سوريا عبر الحدود الشرقية. وأما أنور السادات الذى اعتقل فى هذه القضية فكان أحد العناصر التى أراد الملك ضمها للحرس الحديدى ومعه آخرون لا يفصح سيد جاد عنهم ولكنهم عناصر فى رأيه «لا تتمتع من الناحية الشكلية والعائلية بمواصفات ضابط الحرس لأنهم جميعا من العائلات فوق المتوسطة وأن أفضلهم كما يقول سيد جاد «يعاشر فتاة ألمانية اسمها هيلدا فى عوامة ويقوم بأشياء غريبة كالاتصال بالنازية قبل سقوط ألمانيا (والاشارة واضحة).

سر العربة السوداء

على أن الحرس الحديدى لم يكن يحدد بنفسه أعداء الملك وأصدقاء أعدائه التخلص منهم بل كانت تأتيه القائمة من الملك بواسطة يوسف رشاد وتعرف «بقائمة الخضار». وليس من المعروف يقينا ما إذا كان الملك بنفسه هو الذي يحدد من يريد تصفيته جسديا أم كان الأمر متروكاً لترتيبات يوسف رشاد واختياراته ومعه زوجته، ذلك أن سيد جاد يقول إنهم «لم يسمعوا الملك شخصيا فى إصدار هذه الأوامر». وعندما كانت الجماعة تتلقى الأوامر ينطلق المكلفون بالمهمة فى عربة سوداء جيب لا يخترقها الرصاص مجهزة بالرصاص والقنابل وتراقب الضحية وتطلق عليه دفعات نار تقتله، وقد تصيب الذين ساقهم حظهم العاثر الى المكان ثم تمرق عائدة بسرعة من حيث أتت فى حماية القانون إذ كانت التعليمات صريحة بعدم تعرض رجال الأمن والمرور فى الشوارع للعربة حتى أصبح معروفا أنه إذا ظهرت

العربة فى مكان ما يعلم المارة سلفا النتيجة.

ورغم نطاق السرية الذى كانت تعمل فيه جماعة الحرس الحديدى إلا أن ظاهر المعلومات التى وردت فى شهادات البعض وخاصة سيد جاد يتبين منها أن الحرس كان معروفا فى الدوائر العليا من المجتمع وخاصة السياسيين ومن هنا حاول بعض أبناء الصفوة استخدامه للقيام بعمليات انتقامية شخصية غالبا بسبب النساء ولا علاقة لها بخصوم الملك السياسيين اعتمادا على أن صفتهم «الملكية» ستحول دون تعقبهم ومحاكمتهم وكأنهم قتلة محترفون مأجورون.. وفى مذكرات سيد جاد بعض هذه الوقائع.

أما الأعمال التى استهدفت التخلص من خصوم الملك السياسيين فكانت قليلة منها اغتيال عبدالقادر طه، ومحاولة اغتيال مصطفى النحاس زعيم الوفد أكثر من مرة بمنزله أو وهو فى الطريق إليه أو بنسف القطار الذى يقله فى جولة الى الصعيد عند العياط، وكذا اشتراك الحرس فى حرب الفدائيين فى القنال التى اندلعت ضد الانجليز عقب إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ فى أكتوبر عام ١٩٥١ وكان الملك يدعمها ماليا. وهناك مهام أخرى قام بها الحرس ذكرها سيد جاد يصعب تصديقها من ذلك إحباط مؤامرة لسرقة مذكرات الملكة نازلى بواسطة ضابط إسرائيلى دخل مصر فى زى مفتى فلسطين وكشف الحرس المسألة وتخلص من كل أطرافها وكانت المذكرات تتناول علاقة الملك فؤاد بالملكة نازلى قبل زواجهما. ومن ذلك أيضا القول بأن الانجليز وإسرائيل كانوا يفكرون فى الإطاحة بالملك فاروق وتنصيب «ملك هندى» على مصر وأحبط الحرس المؤامرة!. كما كان الحرس الحديدى معروفا لدى الضباط الأحرار إذ طلب خالد محيى الدين من سيد جاد أن «يضع الحرس الحديدى فى قبضته ويسيطر عليه تماما لنجعل منه وسيلة لخدمة الضباط الأحرار».

وسائل التخلص من الخصوم

ومن الطريف أن نذكر أن سيد جاد عندما انضم الى الحرس الحديدى (لم يذكر لنا تاريخا محددا) كان يضم - كما يقول - عناصر مأجورة تهتم بالقتل والقتل فقط إرضاء للملك وتقربا إليه وإلى يوسف وناهد رشاد، لكنه طلب إجراء محاكمة للشخص المطلوب قتله بواسطة محكمة من رئيس وقاضى اتهام ومحام للدفاع من رجال الحرس وكأنه أمامهم، على ألا ينفذ حكم التصفية إلا بإجماع آراء هيئة المحكمة. ويذكر سيد جاد أن الحرس التزم بهذا القرار فلما جاءتهم تعليمات بالتخلص من الشيخ حسن البنا رفضوا التنفيذ وتم قتل حسن البنا بواسطة جهاز آخر «مماثل» من البوليس على رأسه الأميرلاى عبدالمجيد واثنان من المخبرين. ولما طلب الملك اغتيال النحاس للمرة الثانية

وعرض الأمر على «محكمة الحرس» تضاربت الآراء ونفذت العملية «بطريقة سخيفة ولم تصب شيئا لأن النية كانت عدم التنفيذ». كما كان سيد جاد صاحب اقتراح الاستغناء عن العربية السوداء لتنفيذ العمليات واستخدام الحقن بالإبر المسمومة وقد استخدمت فعلا فى التخلص من بعض الانجليز فى خط القنال.

كانت المحاولة الثانية لاغتيال النحاس واختلاف «محكمة» الحرس الحديدى بشأنها على نحو ما سبقت الإشارة بداية الانشقاق فيما يبدو فى صفوف الحرس بين الولاء المطلق للملك والولاء لزعامة وطنية يمثلها مصطفى النحاس رئيس الوفد فقد انقسمت الجماعة بين فريقين: فريق يريد القتل تنفيذا لأوامر الملك مقابل العطايا، وفريق يرى ضرورة المحاكمة أولا وألا يتم القتل إلا إذا كان يخدم هدفا وطنيا. وانحصر فريق الاغتيال فى كل من حسن فهمى عبدالمجيد وأحمد يوسف حبيب وعبدالله صادق، والفريق الآخر يرأسه عبدالرءوف نورالدين ومعه سيد جاد وخالد فوزى. وازداد الشقاق عمقا عندما صدرت الأوامر باغتيال اللواء محمد نجيب بعد فوزه برئاسة نادي الضباط ضد مرشح القصر، فبادر سيد جاد بالذهاب الى محمد نجيب وأقنعه بالذهاب الى يوسف رشاد لتجديد الولاء للملك. ثم بدأ الحرس يضيق بأوامر الاغتيال المتتالية حتى قرر إرهاب الملك نفسه لردعه فقام حسن فهمى عبدالمجيد بإطلاق النيران حوله أثناء جلوسه فى أحد فراندات القصر التى اعتاد الجلوس فيها بعد تناول العشاء.

تفكك الحرس الحديدى

وبعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ بدأ الحرس الحديدى يتفكك فعلا، فلم يعد أفراده يلتقون، وامتنع يوسف رشاد عن مقابلتهم، وامتنعوا هم بدورهم عن تنفيذ أوامره، وبات معروفا أن البلاد مقبلة على حركة سياسية، وعرف القصر بتحركات الضباط الأحرار فطلب يوسف رشاد ومرتضى المراغى (الذى تولى وزارة الداخلية فى ٢٧ يناير بعد الحريق) من سيد جاد إبلاغهما بأسماء الضباط الأحرار «لأن الداخلية تعرف انه على اتصال بنوعيات واتجاهات مختلفة بين الضباط» لكنه لم يستجب، وقام أنور السادات بابلاغ ناهد رشاد «بأن الجيش على وشك الانقضاض» لكن ناهد رشاد التى كانت على علاقة بمصطفى كمال صدقى لم تفعل شيئا. ويبدو أنها قررت فى آخر المطاف ان تقفز من المركب قبل أن تغرق وكانت تعتقد أن صديقها مصطفى كمال هو رئيس مجموعة الضباط الأحرار فأرادت أن تركب الموجة وتحتفظ بمكان فى الصف الأول فى النظام القادم بعد القضاء على الملك.

وفى لحظة الخوف على المصير أخذ كل ضابط من ضباط الحرس الحديدى يبحث له عن ظهير من الضباط الأحرار ليحميه

من الموجة القادمة، فيلجأ خالد فوزى الى كمال الدين حسين الذى رحب به بين الضباط الأحرار وأصبح داعية من دعاة الثورة، وحسن فهمي عبدالمجيد تزوج وابتعد مؤقتا عن دائرة الضوء ثم لحق بصفوف الضباط الأحرار وأصبح جمهوريا متشددا، وأحمد يوسف حبيب يختفي بعد أن دهمته متاعبه ثم عينه أصدقاؤه القدامى فى وظيفة بجهاز الشباب والرياضة، وارتبط مصطفى كمال صدقي بالراقصة تحية كاريوكا واتصل بالشيوعيين وأصبح من الثوار، وعبدالله صادق كونستابل العربة السوداء أصبح مرشدا للأمن، وتنصل الباقون «برشاقة» من ماضيهم وتحولوا إلى ثوريين، وفيما بعد تم تعيين خالد فوزى وحسن فهمى عبدالمجيد سفيرين في حكومة الثورة. أما سيد جاد فقد غرق فى التصوف واشتغل بالمحاماة ولم يلتفت اليه أحد وتساءل بينه وبين نفسه.. كيف قبل الضباط الأحرار بينهم شخصيات انتهازية من الذين عملوا مع الملك طلبا للمال والنفوذ وأهملوه هو مع أن ما فعله من أجل الملك لا يزيد عما فعله أى من أولئك الذين قبلتهم الثورة فى صفوفها.

وبعد.. إن الحرس الحديدى كما جاء على لسان شهوده كان عصبة من القوم قبلوا أن يعملوا تحت لواء الملك لظروف خاصة بكل واحد منهم إما طلبا للمال، وإما طلبا لنفوذ، وإما بحثا عن مغامرة تتناسب مع روح الشباب التى كانوا عليها. واللافت للنظر أنهم استمروا يدافعون عن الملك ضد الوطنيين بعد أن علموا بفساده وشاهدوا وقائع هذا الفساد.

● المعلومات مستخلصة من المراجع الآتية: سيد جاد، الحرس الحديدى: كيف كان الملك فاروق يتخلص من خصومه؟، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة عام ١٩٩٢ وهو أحد رجال الحرس الحديدى. مذكرات مرتضى المراغى (وزير الداخلية بعد حريق القاهرة فى وزارة على ماهر وكان قبلها محافظ الإسكندرية منذ عام ١٩٥٠ وقبل ذلك كان مديرا للأمن العام ووكيلا لوزارة الداخلية من عام ١٩٤٧ وهو ابن الشيخ مصطفى المراغى شيخ الأزهر، نشرت مسلسلة بمجلة أكتوبر (١/٢٦ - ١٩٨٦/٦/٢٢) وجمعها الدكتور محمد الجوادى فى كتابه «على مشارف الثورة»، دار الخيال، القاهرة عام ٢٠٠١. محضر نقاش أجراه أحمد حمروش مع حسن فهمى عبدالمجيد أحد رجال الحرس ونشره فى كتابه، شهود يوليو، جزء ٤، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت عام ١٩٧٧. جمال شقره ، الحركة السياسية فى مصر من ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ الى أزمة مارس عام ١٩٥٤، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٨٥. ■



الحشاشون

فردوس فى الأرض أم فى السماء؟!

بقلم
مصطفى نبيل

يقول تولستوى.. «إن التاريخ هو حياة الشعوب، والإمساك به، وتحويله إلى كلمات أمر صعب يكاد يكون مستحيلا»..

حديثنا حول فرقة ظهرت في القرون الوسطي، وبالتحديد في القرن الحادي عشر الميلادي.. وهي الفرقة التي لعبت دوراً مدمراً في تاريخ المنطقة الإسلامية، وهو الدور الذي يكتنفه الغموض والذي يحمل الكثير من الأحاجي، والألغاز، وأعطي الحشاشون للاغتيال اسمه الأجنبي.

وجاء ظهور هذه الفرقة في لحظة تاريخية فارقة، في أوج الهجوم الصليبي الذي قصد بيت المقدس، ومع شيوع ظاهرة العنف في مواجهة الانقسام المذهبي والغزو الأجنبي.

وبدلا من أن يواجه الحشاشون الغزو الأجنبي، تحالفوا معه، وتم علي أيديهم اغتيال العديد من القيادات الإسلامية خلال قتالهم للجيوش الصليبية.

وبقي سؤال طرحه المؤرخون معلقا، وهو هل كانت هذه الفرقة صنيعة .. الإفرنج، أم صنيعة الانقسام والاقتتال المذهبي..؟!

ويقفز سؤال جديد.. هل تنظيم «القاعدة» هو إحياء ظاهرة تاريخية قديمة..؟

ويجدر هنا التنبيه إلى أن أى تشابه بين الحكاية التاريخية، وما يجري اليوم، هو مجرد مصادفة.



فما هو أصل الحكاية التاريخية لهذه الفرقة التى روعت يوماً العالم الإسلامى..؟!

تتناثر القصة فى كتابات المؤرخين، وتجد أول الخيط فى سيرة حياة المؤيد لدين الله الفاطمى داعى الدعاة.. وفى كتاب تاريخ الإسماعيلية ونظمها وعقائدها للدكتور محمد كامل حسين، وفى كتاب «الحشاشون» للمستشرق البريطانى برنارد لويس، وفى كتاب أمين المعلوف عن الحروب الصليبية.

كما ترك لنا الرحالة الإيطالى ماركو بولو وصف شاهد عيان لقلعة «ألموت» قلعة هذه الفرقة ونقطة انطلاقها، والتى مر بها سنة ١٢٧٣م خلال رحلته إلى الصين، والتى تقع اليوم فى إيران التى لا تبعد كثيرا عن الحدود الأفغانية ، يقول «.. إنهم يطلقون على زعيمها شيخ الجبل علاء الدين - أحد خلفاء حسن الصباح - الذى قام بإغلاق واد بين جبلين وجعله حديقة فيحاء، أكبر وأجمل حديقة تراها العين، وأنبت فيها كل أنواع الفاكهة، وأقام فيها قصوراً من أروع ما ترى العين، وجميعها مغطاة برسوم فاتنة ومموهة بالذهب، وجعل فيها جداول تفيض بالخمر، وأخرى تفيض باللبن والعسل، ويقوم على خدمة هذا الفردوس حوريات من أجمل نساء العالم، واللاتى يعزفن بأنامل مدربة ويغنين بأصوات رخيمة، وتظهر الراقصات برقصاتهن الناعمة التى تخلب الالباب.

أراد شيخ الجبل أن يوحى لرجاله أنها الجنة حقا، ولا يسمح شيخ الجبل بدخولها سوى لأتباعه - ومازال الحديث لماركو بولو - وتوجد قلعة عند مدخل الوادى تبلغ من القوة والمنعة أنها تستطيع مقاومة العالم لو اجتمع عليها(!) ويحتفظ شيخ الجبل فى بلاطه بشبان من المناطق المجاورة تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين ، ويروى لهم القصص عن الجنة ونعيمها، ويدخلهم جنتهم الموعودة فى مجموعات تتراوح بين أربعة وعشرة أفراد، بعد أن يتناولوا مخدراً معينا يسلمهم إلى نعاس عميق - ولذا أطلق عليهم «الحشاشون» ثم يأمر برفعهم وحملهم إلى هناك.

وعندما يستيقظون يجدون أنفسهم فى الجنة.

وعندما يعزم شيخهم على اغتيال أحد، يقول « اذهب واقتل، وإذا عدت سأدخلك الفردوس، وإذا قتلت فسأبعث

من يحملك إليها..».

وهذه هي الصورة التي تناقلها الغربيون.

الستر والكتمان

أما أصل الحكاية، فيمكن الإمساك بخيوطها الأولى في سيرة حياة المؤيد لدين الله (٣٩٠ - ٤٧٠ هـ)، وهي سيرة تزخر بالإثارة والغموض، تقوم على المذهب الإسماعيلي الذي كان سائداً في مصر الفاطمية، الذي يعد الدعاة لنشر المذهب ويقوم على الستر والكتمان والظاهر والباطن، وإقامة التنظيمات السرية، ومن أقواله، «من بالباطن والظاهر، فهو منا، ومن عمل بأحدها دون الآخر فليس منا»، هذا علاوة على النظام الهرمي الدقيق المتبع في اختيار وإعداد وتدريب الدعاة، ثم توزيعهم في أرجاء العالم الإسلامي.

وإذا كان للستر والكتمان مبرر أيام اختفاء «الإمام»، أيام القهر والاضطهاد، فالسرية بعد ذلك يمكن إختراقها في إحدى حلقاتها، في الهرم التنظيمي، وتوجيهها بعيدا عن أهدافها.

وقد بدأ انهيار الدولة الفاطمية عقب وفاة المستنصر بالله بعد فترة حكم طويلة تزيد على ستين عاما، وقيام الوزير الأفضل ابن بدر الجمالي، بإستبدال الخليفة والإمام المستعلي بأخيه الأكبر نزار الذي يستحق الخلافة.. مما أدى إلى خروج حسن الصباح من القاهرة وتأليفه تلك الفرقة الضالة.

شيخ الجبل

تداول حسن الصباح مع رفاقه الأمر على ضفاف النيل، وقرر الهجرة وتكوين فرقته حتى تسترد حقوق «الإمام»، وورثت هذه الجماعة كل خبرات التنظيم الاسماعيلي، ونذر الرجل حياته لتنظيم فرقته.

أما من هو الرجل الذي تردد اسمه كصاحب أول تجربة من نوعها في الشرق، فقد ولد حسن الصباح في مدينة «قم»، وانتقل مع اسرته إلى مدينة الري.

ويروي في سيرته.. «منذ طفولتي كنت أتوق لكي أكون من الفقهاء وذات يوم التقيت بعميرة الذي كان له أكبر الأثر على حياتي.. وهو الداعية الفاطمي، وكانت له شخصية قوية تمكن من إقناعي بما يدعو إليه وأقسمت الولاء للإمام الفاطمي، وسافرت إلى القاهرة مقر الخلافة»..

وبقي حسن الصباح في مصر ثلاث سنوات، وأودع السجن لتأييده نزار وأبعد بعدها إلى شمال أفريقيا التي لم يصلها

وتحطمت الباخرة التى كانت تقله فى البحر، ونقل إلى سوريا، ومنها إلى أصفهان، « ومن هناك سافرت إلى كرمان ويزد، وباشرت الدعوة» وكان الصباح يتفادى المدن ويرسل الدعاة للدعوة بين سكان الجبال، وأخذ يبحث عن «قاعدة» ومخبأ سرى لعمله، ومعقل منيع ، وعثر أخيراً على قلعة «ألموت» التى تقع على ارتفاع ستة آلاف قدم فوق البحر، والتى أطلق عليها أيضا «وكر النسر»، والتى وصفها ماركو بولو، وفيها امتزجت طبيعة المنطقة النائية والجبلية بأفكاره، وهى حصن على قمة صخرة تسيطر على واد مغلق، وكان أول من سعى إلى تحقيق أهدافه السياسية عن طريق إشاعة الفوضى، وتقويض الكيانات السياسية القائمة، ويعتمد الاغتيال - بما فيه من خسة ونذالة - للوصول إلى أهدافه. وبذلك كانوا الإرهابيين الأول فى الشرق الذين استخدموا العنف المجنون.

وبدأ الصباح العمل ولم يغادر القلعة منذ دخوله إليها وحتى وفاته بعد خمسة وثلاثين عاماً، أذاق العالم خلالها الكثير من الآلام.

ويصف المؤرخ المعاصر له رشيد الدين أولى عمليات هذه الفرقة بقوله:

«إن شيخنا نصب الشباك والفخاخ من أجل صيد هدف كبير ، كنظام الملك، ويجعله يسقط فى شباك الهلاك والموت، وبهذا العمل ذاع صيته وعمت شهرته وأرسى أسس الفدائية».

وأدت أعماله إلى إنزال الموت المفاجىء بكثير من الأمراء والحكام وقادة الجيوش، وحققت عملية القتل الأولى التى نفذت سنة ١٠٩٢م، أى بعد سنتين من إنشاء هذه الفرقة، والتى استهدفت من أعاد بعث المذهب السنى، عندما طعنه بخنجر أحد أتباع حسن الصباح.

ويرى ابن الأثير .. «أنه حين قتل نظام الملك انحلت دولته، ولم تسترد الدولة السلجوقية وحدتها بعد ذلك»

الدولة والدعوة

وقد كان فى وسعه ان يبلغ مصر أنه أدى مهمته، ولكن القاهرة كانت فى واد آخر غارقة فى الضياع بعد سحق الأفضل أصدقاء نزار، وهدم السجن على نزار .

وعند ذلك وقع الانقسام بين الدولة الفاطمية، وتلك العناصر المتمردة التى أقامها الدعاة، فلم يعد هناك إسماعيليون فى مصر، وانفصلت الدولة عن الثورة، واستمر المذهب فى بلاد إسلامية أخرى،

واتهم «الحشاشون» باغتيال الوزير الافضل فى القاهرة عام ١١٢١م، وعن الاحتياطات التى اتخذت فى مصر يقول المؤرخ المصرى ابن ميسر.. «عندما جاء المأمون إلى الحكم عزل والى عسقلان - التى تبدأ منها حدود مصر - وأمر الوالى الجديد أن يستعرض موقف جميع أصحاب المناصب فى عسقلان والتفتيش عليهم، وأن يبعد من ليس معروفاً، وإذا جاء غريب فعليه ان يوقفه عند الحدود.. ويبحث أحواله، ولا يسمح لأى قافلة بالتقدم إلا بعد إرسال معلومات عنها، وأمر بتسجيل أسماء جميع السكان، وبعث العسس لجمع الأخبار من هناك».

وأصبحت فرقة حسن الصباح طرفاً فى الصراع الذى يجرى فى آسيا، ويروى مؤرخ دمشق.. « أنه استفحل أمر الجماعة التى اصبحت غاية من الاستتار والتخفى وتغيير الزى..»».

ومما له دلالته أن الحشاشين فى الاغتيالات كانوا يستخدمون الخنجر وحده ولم يلجأوا مطلقا إلى القتل بالسم أو السهام، ويمسك القاتل ولا يحاول الهرب، ويعتبرون ان البقاء على قيد الحياة بعد العملية أمر مخجل!.

ومما يروى عن تلك الشخصية الغامضة أنه كان زاهداً متقشفا أعدم احد أبنائه لشربه الخمر واعدم الآخر بتهمة ثبت عدم صحتها، واعتاد الاشارة إلى اعدامه لابنيه ليروع اتباعه.

ويقول المؤرخ الجوينى حول بعض أساليبه فى العمل.. «كان يرسل السفارات يطلب الاتفاق فلا يجيببه أحد، فاستخدم كل طرق الخداع والرشوة والإغواء، فمثلا حرض أحد طواشى السلطان بمبلغ كبير من المال، وأرسل إليه خنجراً ، رشقه فى الأرض إلى جوار مخدع السلطان، وعندما استيقظ ورأى الخنجر ملأه الذعر، فبعث إليه حسن الصباح رسالة يقول فيها: ألا ترى أننى أردت بالسلطان خيراً، يغرس فى الأرض الصلبة ولم يغرس فى صدره الرخو» وتوقف السلطان عن مهاجمة الحشاشين !.

ويصفه ابن الأثير بقوله.. «كان حاد الذهن ، ثاقب الفكر، عالماً بالهندسة والحساب والفلك والسحر وأشياء أخرى».

وانطلقت روحه عائدة إلى نار الله وجحيمه فى ليلة الأربعاء ٦ ربيع الثانى عام ٥١٨ هـ، بعد ان ترك خليفة له، هذا ما سجله الجوينى عند وفاته.

العقل المتطرف

وعند تأمل العقل المتطرف ، نجد أنه لا يعرف من الألوان سوى الأبيض والأسود ولا يعترف بما بينهما، ويحركه الغضب

والقهر والإحباط، وأنه يتعامل مع المجردات والمطلقات ولا يتعامل مع الحقائق، يرى ما تحت قدميه ولا يرى المستقبل البعيد، يرفض العالم كما هو ، ويرسم للعالم صورة غير واقعية، رسمها فى مخيلته ولا يرضى عنها بديلاً، ويفضل الموت على الحياة، ويميل بطبعه إلى التشاؤم، ويبحث دائما عن من يقوده، ويأخذ له قراراته، لذا يتبع قاعدة وفكرة الولاء والطاعة المطلقة، ولا يعرف قيمة الإنسان، الذى نفخ فيه الله من روحه، وكثيراً ما ينقلب إلى الاتجاه المضاد..!

ويرى الحشاشون أن ما يتفوه به القائد أو يفعله، لا ينزل الباطل من بين يديه، واستطاعت بذلك تلك الفرقة المارقة من تطويع الإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية، والعمل على إشاعة الفوضى.. وجذبوا إليهم الفلاحين والجبليين فى المناطق المقفرة والنائية.

ويقول الباحث الروسى بارتولد.. «إن المغزى الحقيقى لحركة الحشاشين يكمن فى كونها حرباً للقلاع ضد المدن».

وقد استطاعت أن تستقطب الطبقة الحاكمة القديمة المخلوعة، وسكان المدن الساخطين، كما كانت حركة قامت على أكتاف الحرفيين وفقراء المدن وفلاحى المناطق الجبلية.

ويؤكد برنارد لويس.. «إنه ليس هناك تفسير بسيط ووحيد يوضح ظاهرة «الحشاشون» المعقدة.

والتى انتهت بتكوين إمارات إقليمية متعددة وأصبحت هذه الفرقة طرفا تتحالف وتتصارع مع الصليبيين وان ظل صراعهم الاساسى موجهاً ضد أمراء الإسلام .

الحروب الصليبية

أما كيف رأى الصليبيون الحشاشين فقد جاء فى تقرير أعده بروكاردوس للملك فيليب السادس ملك فرنسا عن الأخطار التى سيصادفها عندما كان يعد لحملة صليبية جديدة.. يقول.. «أذكر الحشاشين الذين ينبغى أن يتفاداهم المرء، فهم يبيعون أنفسهم ، ويتعطشون للدماء البشرية ويقتلون مقابل أجر، ولا يقيمون اعتبارا للحياة، ويغيرون مظهرهم مثل الشياطين، التى تتحول إلى ملائكة، وهم يقلدون الأزياء واللغات والعادات لأقوام متعددة، ولا يمكن ان تميزهم فهم يخفون اسماءهم قدر ما يستطيعون».

وعبر عن ذلك دانتى فى النشيد التاسع عشر من الجحيم عندما يذكر الحشاشين الخائن الذى يقتل خلسة أو غدراً، وغالبا ، تكون ضحيته شخصية عامة، يغتالها تعصبا وجشعا.

وكتب ويليم الصورى مؤرخ الإفرنج



للحروب الصليبية. « يوجد فى إقليم صور اناس يملكون عشر قلاع قوية مع ما يتصل بها من مزارع وقرى وبشر، وعددهم حوالى ٦٠ ألفا أو يزيد، ولا يوجد أى عمل شاق أو صعب إلا وأقدموا على أدائه عندما يأمر شيخهم.

بيت المقدس

وفى الوقت الذى أخذت تتساقط الإمارات العربية واحدة بعد الأخرى فى أيدى الصليبيين، وفى الوقت الذى سقط فيه بيت المقدس، وامتلأت دروبه بالدماء، لم يفلت شيخ أو امرأة أو طفل عربى من الذبح.

فى هذا الوقت انغمس الحشاشون فى اغتيال الأمراء الذين يقاتلون الصليبيين، وقد سبق وذكرنا اغتيالهم لنظام الملك، وعندما كان يقاومهم القاضى ابن الخشاب فى حلب ويدعو الأهالى إلى مقاومة الصليبيين، وأخذ على الحشاشين المودة التى يبدونها حيال الغزاة، وأخذ ينتقد موقف رضوان الحاكم المفرطة فى مصالحة الصليبيين ومهادنتهم والذى يعود الجزء الأكبر منه إلى نصائح أتباع حسن الصباح.

لذا طورد «الحشاشون» غداة المذابح التى تبعت موت رضوان والتى انتقلت من شارع إلى شارع.. «وهرب جماعة منهم أفلتوا إلى الإفرنج وتفرقوا فى البلاد..» كما يشير المؤرخ ابن القلانسى، وعادت الجماعة إلى العمل السرى!.

وعلى الرغم من وفاة حسن الصباح فى قلعته ، فقد عرف نشاط الحشاشين نمواً كبيراً، وسقط تحت ضرباتهم أحد ابطال مقاومة الصليبيين. ويذكر جميع المؤرخين مقتله بحزن وإجلال ، لأنه الرجل الذى قاد ونظم المقاومة للغزو الصليبى وهو قاضى القضاة أبو سعد الهروى الذى أصبح أرفع المراجع الدينية فى عالم الإسلام. كما اغتالوا الأمير السلجوقى مودور فى دمشق.

ومثل الحشاشون تهديداً حقيقيا لعالم الاسلام فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى حشد الطاقات للوقوف فى وجه الغزو الصليبى.. وألبس الحشاشون منطق العنف غطاء ايدلوجيا مزيفاً.

صلاح الدين

ولا تكاد تمسك بمعيار ثابت فى علاقة الحشاشين بالصليبيين، فمرة يتحالفون معهم، ومرة أخرى يغتالون قادتهم، وسجل التاريخ حالتين على الأقل حدث فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين والجيوش الصليبية.

ومن ناحية أخرى كان لاجنو الحشاشين فى حلب وبانياس يلجأون الى الافرنج.. ويسجل التاريخ تسليم قلعة

بانياس إلى الافرنج وليس الى أحد أمراء المسلمين.

كما يروى ويليم الصورى حكاية يدعى خلالها اقتراح الافرنج للحشاشين باعتناق المسيحية، مما يظهر التقارب الشديد بين شيخ الجبل سنان - أحد شيوخهم بعد الصباح - ومملكة بيت المقدس الصليبية..

وكان لظهور صلاح الدين الأيوبى كقوة كبرى وانتهاجه سياسة توحيد المسلمين وحشدهم فى مواجهة الغزو الصليبى تغيير مجرى الصراع بالكامل، ورغم ذلك جعل منه الحشاشون خصما خطيراً، وتعددت محاولتهم الفاشلة لاغتيال صلاح الدين، فبينما كان يحاصر حلب، تسلل رجال سنان إلى معسكر صلاح الدين فى أحد أيام الشتاء القارس، وعندما تم اكتشافهم وقع عراك قتل فيه عدد كبير من الرجال ولم يكن بينهم صلاح الدين.

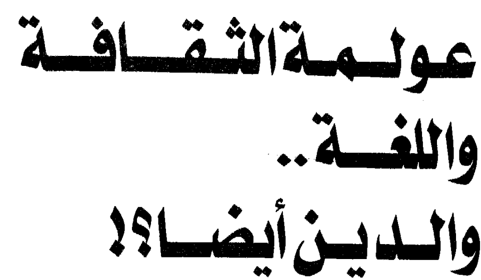
ولم تكن هذه هى المحاولة الوحيدة، ففى العام التالى تكررت المحاولة، عندما تخفى عدد من الحشاشين فى زى جنود صلاح الدين وهاجموه بينما كان يحاصر أحد القلاع الصليبية التى زرعت على طول ساحل البحر الأبيض.. ولم يصب صلاح الدين سوى بجروح طفيفة.

وفى ذات الوقت تمكن الحشاشون من اغتيال المركيز كونراد ملك بيت المقدس عندما كان فى مدينة صور بعد ان تنكر بعض رجالهم فى زى رهبان، وعندما تم استجوابهم اعترفوا أن ملك انجلترا ريتشارد هو الذى دبر العملية.. والذى كان يسعى للتخلص من الماركيز، وأكد ذلك السرعة التى تم بها زواج الكونت هنرى أوف شمبين من أرملة كونراد وارتقاؤه عرش مملكة بيت المقدس.

وعلى هؤلاء الساعين إلي عبرة التاريخ، أن يقدموا هذه الفرقة وما ارتكبته من أعمال فى فيلم سينمائى غنى بالأحداث والإثارة .

وتمر تلك الموجة العاصفة، وبينما كان يرقد آخر الخلفاء الفاطميين فى قصره ينتظر أن يوارى جثمانه الثرى ، أعلن القائد صلاح الدين إلغاء الخلافة الفاطمية، وخرج الصليبيون من الشام وفلسطين بعد قرنين من الزمان.

ولم يعد «الحشاشون» عصابة.. من السذج المخدرين، يقودهم أفاقون، أو مجرد جزء من مؤامرة لفوضويين عدميين، أو جماعة من القتلة المحترفين، بل أصبحت الفرقة الباقية من هذه الجماعة السرية هم البهرة تحت قيادة الأغاخان، وانتهى استخدام الدين لخدمة طموح مجنون. ■



عولمة الثقافة واللغة.. والدين أيضا؟!

بقلم:
د. محمد عمارة

إذا كان الإسلام يعتمد للتطور والتقدم - في الفكر والثقافة - منهاج التجديد - الذي يستصحب الثوابت الإسلامية ويجدد في المتغيرات وفقه الواقع وفقه الأحكام والنظم والمؤسسات، على النحو الذي يجعل ثقافة الأمة إسلامية دائما وأبدا، عبر الزمان والمكان ويجعلها كذلك متطورة ومواكبة لكل المستجدات . حتى لقد جعل الإسلام من هذا المنهاج التجديدي سنة من سنن الفكر، لا تبديل لها ولاتحويل، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» - رواه أبو داود.

إذا كان هذا هو منهاج الإسلام - في الفكر والثقافة - فإن العولمة الأمريكية تعولم وتعمم وتفرض ثقافة «الحداثة الغربية» التي أقامت وتقيم «قطيعة معرفية» مع الموروث، ومع «الموروث الديني» على وجه الخصوص .. فمنذ عصر التنوير الغربي - الوضعي والعلماني والمادي - أقامت ثقافة الحداثة قطيعة مع الله والغيب والدين، عندما تمحورت حول الإنسان، بدلا من الله، وعندما جعلت هذا الإنسان «طبيعيا» بدلا من أن يكون «ربانيا» ، نفخ الله فيه من روحه، واتخذه خليفة عنه للنهوض برسالة العمران..

ولقد كشف علماؤنا هذه النزعة «اللادينية - الدهرية» فى ثقافة الحداثة الغربية منذ فجر يقظتنا الحديثة والاحتكاك مع هذه الحداثة، الوافدة على بلادنا فى ركاب الاستعمار، فعبد الرحمن الجبرتى «١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م» عندما احتك بفكر الحداثة الوافدة مع بونابرت «١٧٦٩ - ١٨٢١م» والحملة الفرنسية على مصر «١٢١٣ - ١٢١٩ هـ ١٧٩٨ - ١٨٠١م» لم ير فى هؤلاء الفرنسيين نصارى كتابيين، ذوى ثقافة نصرانية، وإنما اكتشف حقيقة فلسفتهم الوضعية العلمانية اللادينية، التى أقامت قطيعة معرفية مع مطلق الإيمان الدينى .. فكتب - بعمق وعبقرية - معلقا على دعاوى بونابرت أنه «مخلص هو والفرنساوية للإسلام ومحترم لنبى الإسلام» فقال: «إن إسلامهم نصب .. فلقد خالفوا النصارى والمسلمين، ولم يتمسكوا من الأديان بدين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون (١)» .

رفاعة والحداثة الأوربية

وكذلك رفاعة رافع الطهطاوى «١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م» - الذى خبر ثقافة الحداثة الأوربية فى باريس - فلقد كتب عن جمهور أهل باريس وأغلبيتهم، الذين «ليس لهم من دين النصرانية إلا الاسم فقط.. فهم إباحيون، يقولون : إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب، ولذلك لايصدقون بشىء مما فى كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية.. ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية .. وإن كانت بلادهم من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية .. علوم التمدن المدنى»..

ثم صاغ الطهطاوى هذه المعادلة - ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين .. والبراعة فى العلوم الدنيوية - شعرا قال فيه :

أيوجد مثل باريس ديار
شموس العلم فيها لاتغيب
وليل الكفر ليس له صباح
أما هذه وحقكم عجيب «٢»

أما جمال الدين الأفغانى «١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧م» فقد أفاض فى الحديث عن «دهرية» هذه الثقافة الحداثية التنويرية الأوربية، التى أحيا فلاسفة تنويرها - وخاصة «فولتير» ١٦٩٤ - ١٧٧٨م» و«روسو» «١٧١٢ - ١٧٧٨م» دهرية «ابيقور» الكلبى «٣٤١ - ٢٧٠ق م»، الأمر الذى جعل الثورة الفرنسية «١٧٨٩م» وبالا على الثقافة الفرنسية المتواصلة مع النصرانية .. فبعد أن كان الشعب الفرنسى «مشرقا للتمدن فى سائر الممالك الغربية» ظهر فيهم فولتير وروسو يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بإنارة الأفكار

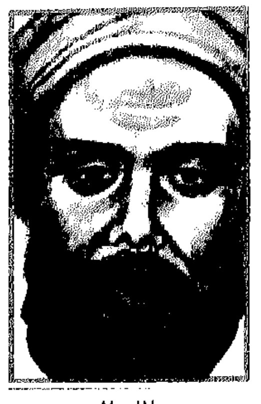


عبد الرحمن الجبرتى

رفاعة الطهطاوى



جمال الدين الافغانى



عبد الله النديم

وهداية العقول، فنبشا قبر أبيقور الكلبى، وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحية والاشراك، وزعما أن الآداب الإلهية جعليات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى، وجهر كلاهما بإنكار الأولوهية، ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الأنبياء - «برأهم الله مما قالا» - وكثيرا ما ألف فولتير من الكتب فى تخطئة الأنبياء والسخرية بهم والقدح فى أنسابهم وعيب ما جاءوا به، فأخذت هذه الأباطيل من نفوس الفرنساويين، ونالت من عقولهم، فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم. وبعد أن أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة «فى زعمهم»، شريعة الطبيعة..» «٣».

دور مهم للنديم

وعندما قامت فى بلادنا - بواسطة المثقفين الموارنة .. الذين صيغت عقولهم وثقافتهم فى مدارس الإرساليات الفرنسية - مؤسسات ثقافية وصحف ومجلات احترفت التبشير بثقافة الحداثة الغربية - وفى مقدمتها مجلة «المقتطف» «١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٥٢م» - التى أخذت تسرب هذه الحداثة اللادينية تحت لافتات «العلم» و«النظريات العلمية» كشف عبدالله النديم «١٢٦١ - ١٣١٣ هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م» الطابع الإلحادى لهذه الثقافة الحداثية، وتحدث عن هذا الفريق من كتاب «المقتطف» واصفا إياهم بأنهم «أعداء الله وأنبيائه .. والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الخالق . وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هى إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان» «٤».

هكذا تمتع علماء الأمة بهذا العمق ونفاذ الرؤية، فميزوا بين نهضة الغرب

في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، وبين وضعية ولادينية ثقافته الحداثية .. وهو عمق ونفاذ رؤية افتقر إليهما الذين انخدعوا بهذه الحداثة من مثقفينا التغريبيين !..

ولايحسبن أحد أن هذا الذي تحدث عنه أئمة يقظتنا من قيام القطيعة المعرفية بين ثقافة الحداثة الغربية وبين الدين هو مما يمارى فيه الغربيون- كما يمارى فيه بعض المتغربين! - فهذه القطيعة هي من المسلمات التي يعترف بها ويعلنها دعاة هذه الحداثة، عندما يقولون : «إن أيديولوجيا التنوير قد فصلت بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير .. ومنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلى المكان التقدم عصر العقل وهيمنته .. وهكذا راح نظام النعمة الإلهية ينمحى ويتلاشى أمام نظام الطبيعة .. لقد أصبح الإنسان وحده مقياسا للإنسان...» «٥».

بل إن الاعتراف الحداثي بهذه القطيعة مع الله والدين يبلغ حد الاستفزاز لأى لون من ألوان الإيمان بأى دين من الأديان، عندما يعرف أحد الحداثيين هذه الحداثة عند واحد من أبرز دعاتها المعاصرين - د.محمد أركون - فيقول عنها : «إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته .. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان امبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون» ..«٦».

ثقافة القطيعة مع الله

فثقافة الحداثة - باعتراف أهلها .. ورؤية علمائنا لحقيقتها - هي ثقافة القطيعة مع الله والغيب والدين .. ثقافة الدنيا والدنيوية «وقالوا ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» - الجاثية : ٢٤ - «ولكن أكثر الناس لا يعلمون .. يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» - الروم ٦، ٧ - .. ثقافة الإنسان «الطبيعي - الحيواني» لا ثقافة الإنسان الرباني، الخليفة لله.. ثقافة عبادة الطبيعة والدنيا، بدلا من عبادة الله !

وهذا العقل الذي ألهته وعبدته هذه الثقافة الحداثية، عندما انتقلت به من «النسبية» الى «الإطلاق» قائلة: «إنه لا سلطان على العقل إلا للعقل»! هو غير العقل والعقلانية في الثقافة الإسلامية المؤمنة، ذلك الذي لاغنى عنه كملكة من ملكات الإنسان، ونعمة من نعم الله على هذا الإنسان، والجوهر الذي تميز به الإنسان عن غيره من المخلوقات، ومناط التكليف الإنساني .. لكنه ليس وحده السبيل الى المعرف، وإنما يزامل في هذه المهمة ويتآزر ويتآخى مع الوحي والتجربة والوجدان، لإفراز الثقافة

المتوازنة.. وفى مقابل التأليه الحداثى للعقل، نجد الرؤية الإسلامية التى صورها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى «٤٥٠ - ٥٠٥ هـ - ١٠٥٨ - ١١١١م» عندما قال : «فمثال العقل البصر السليم من الآفات والآذاء، ومثال القرآن : «الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق أن يكون طالب الاهتداء المستغنى بأحدهما عن الآخر فى غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل، مكتفيا بنور القرآن، مثال المتعرض لنور الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور ..» «٧».

وإذا كان الاستعمار الغربى، فى مرحلة الغزو المسلح، قد حاول فرض هذه الثقافة الحداثية علينا بحد السيف، و«بحق الفتح» فدعا الفرنسيون - فى شمال إفريقيا - إلى «الفصل بين الإسلام والاستعراب» - لإحلال الفرنسية محل العربية وإلى «فصل الدين عن القانون المدنى .. وحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده .. لدمج العرف فى القانون الفرنسى بدلا من القانون الاسلامى .. لإنشاء نظام للعدلية فى اتجاه فرنسى خالص .. وإحداث التمدن خارج دائرة الإسلام «٨» .. فإن هذا الغرض لثقافة الحداثة، والقطيعة مع الإسلام، هو ماتسعى إليه العولمة الغربية هذه الأيام.. لا بواسطة الفتح المسلح - كما كان الحال إبان الاستعمار التقليدى - وإنما بواسطة شرائح الغلو العلمانى فى بلادنا - تلك التى صنعها الاستعمار على عينه، وممول مراكز «أبحاثها» تمويلا علنيا ومباشرا .. ومن خلال تحالف هذا الغلو العلمانى مع شرائح من الأقليات التى دفعتها وتدفعها الحداثة والعلمانية الى الولاء والاحتماء بالغرب، بدلا من الولاء للهوية الإسلامية لثقافتنا الوطنية والقومية .. فيدع هذا التحالف الى الانقلاب على هوية المجتمع، بإلغاء مواد الدستور التى تحدد الهوية الإسلامية لدين المجتمع وقيمه وثقافته وقانونه - كما هو حادث فى مصر الآن - وتسيير المظاهرات وتريق الدماء لوقف إسلام الثقافة القانونية - كما حدث فى نيجيريا - مارس سنة ٢٠٠٠م - تلك هى ثقافة الحداثة، التى بدأ الغرب تعميمها، بالترغيب والترهيب، منذ قرنين من الزمان .. والتى تعولها ، بالاجتياح، ثورة وسائل الاتصال التى تعيش فى ظلالها هذه الأيام ..

العولمة اللغوية :

ومع عولمة القيم الغربية .. وثقافة الحداثة، تتم - أيضا - عولمة اللغات الغربية، لتزيح اللغات الوطنية والقومية عن عروشها : وإذا كانت «الفرنسة» و«الجلنزة» و«الروسنة» قد بدأت مع الاستعمار الغربى الحديث، ومازالت بصماتها السوداء باقية فى ثقافتنا وإعلامنا ولغة خطابنا وشركاتنا ولافتات

متاجرنا .. فضلا عن مدارسنا وجامعاتنا .. فإن العولمة الاقتصادية التى تحولنا إلى «عمالة» فى الشركات الغربية عابرة القارات والجنسيات وإلى مستوردين وموزعين و«مستهلكين» لمنتجات تلك الشركات ستفرض علينا – بحكم العمل والاستهلاك – إحلال لغات تلك الشركات وأسماء سلعها محل لغاتنا الوطنية والقومية .. حتى تصبح بلادنا «سوبر ماركت» لا علاقة لما فيه بلغاتنا ، بما فى ذلك العربية، لسان الإسلام ولغة القرآن الكريم.

العولمة الدينية

وغير العولمة للاقتصاد، والسياسة، والتشريع، والعسكرية، والقيم، والثقافة، واللغات – هناك عولمة الدين، بتنصير المسلمين، طموحا الى إلغاء أمتنا وحضارتنا، وطى صفحة الإسلام من سجل الوجود !!.

وإذا كان الوعد الإلهى قد جعل ويجعل من هذا الهدف المجنون مستحيلا «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» الحجر: «٩» ... فيجب أن نفرق بين «حفظ» الدين، وبين «إقامة» الدين .. فالله، سبحانه وتعالى، قد وعد بحفظ القرآن – ديوان الدين الإسلامى – لكن إقامة هذا الدين هى تكليفنا نحن، ومهمتنا نحن .. وهذا هو الذى يتعرض لامتحان العولمة على جبهة التنصير ..

وإذا كانت الأرثوذكسية السلافية الغربية تمارس هذه المهمة، غير المقدسة عن طريق الإبادة، والتطهير «العرقى – الدينى» والمقابر الجماعية التى تدفن فيها المسلمين – من البلقان إلى القوقاز – فإن الكنيسة الكاثوليكية الغربية قد أعلنت الحرب لتنصير المسلمين – بدلا من تنصير بيتها الأوربى، الذى انحدر إلى الإلحاد واللا أدرية – فرفعت شعار «إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م» .. فلما خيب الله آمالهم، لم ترعو، وإنما زحزحت التاريخ إلى ٢٠٢٥م.

وهى لاتستحى من الحديث عن «التحدى الإسلامى» و«الفتح الإسلامى لأوربا» فيقول مساعد بابا الفاتيكان. ومسئول المجلس الفاتيكانى للثقافة – الكاردينال «بول بوبار» فى حديثه لصحيفة «الفيجارو» الفرنسية : «إن الإسلام يشكل تحديا بالنسبة لأوربا، وللغرب عموما، وإن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين، وثقافة، ومجتمع، وأسلوب حياة وتفكير وتصرف. فى حين أن المسيحيين فى أوربا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان !!» «٩».

أما البروتستانتية الغربية، فإن بروتوكولات قساوسة التنصير فيها قد تبلورت فى مؤتمر «كولورادو» بامريكا – مايو ١٩٧٨م – تلك التى تقول : «إن

الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعيا وسياسيا .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز للتركيز على الإسلام، لفهمه، ولاختراقه فى صدق ودهاء !..« ١٠ ».

ومع التخطيط لاختراق الإسلام وثقافته، بالاعتماد المتبادل مع الكنائس المحلية .. ومن خلال العمالة المدنية الأجنبية .. تعلن البروتستانتية – بلا حياء .. ولا أخلاق – أن صناعة الكوارث فى العالم الإسلامى هى السبيل إلى تحويل المسلمين عن الإسلام إلى النصرانية .. فيقولون : «لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية فلابد من وجود أزمات تدفع الناس خارج حالة التوازن التى اعتادوها . إن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمرا مهما فى عملية التنصير وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى .. فأصبحت أكثر تقبلا للنصارى !..» « ١١ ».

هكذا تتم العولمة – والاجتياح – على كل الجبهات .. ومختلف الميادين .. من الاقتصاد والسياسة، إلى القيم والثقافة، وحتى الدين .. مرورا بالعسكرية .. والتشريعات .. واللغات!.. ■

الهوامش

« ١ » «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» ص ٣٤.

« ٢ » «الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى» ج٢ ص ١٥٩، ١٦٠ دراسة وتحقيق : د.محمد عمارة – طبعة بيروت ١٩٧٣.

« ٣ » «الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني» ص ١٦١ ، ١٦٢، دراسة وتحقيق د.محمد عمارة – طبعة القاهرة ١٩٦٨.

« ٤ » مجلة «الأستاذ» – القاهرة – العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٢٣، ٩٢٤ – فى ٧ ذى القعدة ١٣١٠ هـ ٢٣ مايو ١٨٩٢م.

« ٥ » هاشم صالح – مجلة «الوحدة» – المغرب – عدد فبراير – مارس ١٩٩٣م– ص ٢٠. ٢١ وهو ينقل عن كتاب : إميل بولا «الحرية ، العلمنة: حرب شطرى فرنسا ومبدأ الحداثة» منشورات سيرف – باريس ١٩٨٧م – وانظر كتابنا «الإسلام بين التنوير والتزوير» طبعة القاهرة ١٩٩٥م.

« ٦ » د. على حرب «مسيرة التقدم والحداثة بين أنصاف زيتون وأشبار أركون» – مقال فى صحيفة «الحياة» – لندن – فى ١٨/١١/١٩٩٦م.

« ٧ » «الاقتصاد فى الاعتقاد» ص٢، ٣ طبعة مكتبة صبيح – القاهرة – بدون تاريخ .

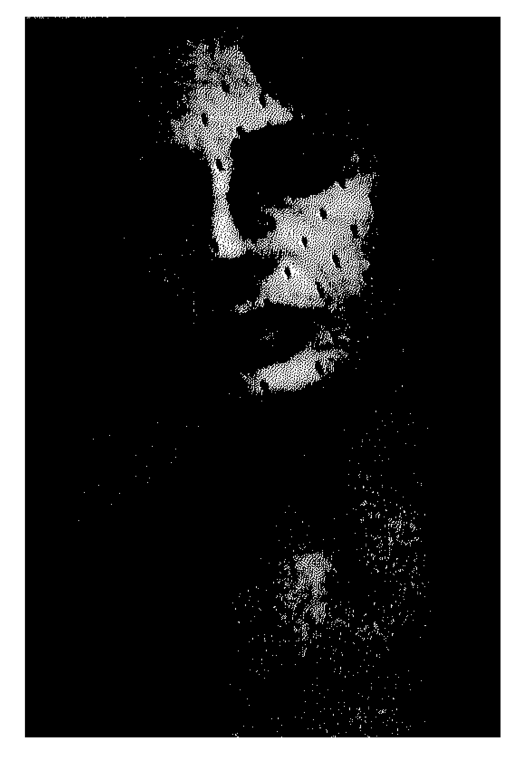
« ٨ » د.محمد عمارة «الإسلام والتعددية: التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة» ص ٢٧٦ – ٢٧٨ طبعة القاهرة ١٩٩٧م.

« ٩ » صحيفة «الشرق الأوسط» لندن فى ١/١٠/١٩٩٩.

« ١٠ » «التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى» – الترجمة العربية لوثائق «مؤتمر كولورادو» – ص ٧٥٢ – طبعة مركز دراسات العالم الإسلامى – مالطا ١٩٩١م – وانظر كتابنا «الغارة الجديدة على الإسلام» ص ٨٥ طبعة القاهرة ١٩٩٨م.

« ١١ » «التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى» ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧.

صور لا تنسى



آلاف الصور جرى نشرها ، على امتداد عشرات السنين، بين دفتى مجلة الجغرافيا الأمريكية «ناشونال جيوجرافيك مجازين».

صور بالآلاف التقطتها عدسات نوابغ المصورين بداية باللونين الأسود والأبيض، ثم بألوان قوس قزح، التقطتها للأرض والسماء والفضاء، حيث النيازك والكواكب والمجرات بشموسها التى تعد بالملايين.

صور رائعة للكائنات فى أعماق البحار والوديان وأعالى الجبال والغابات العذراء، ولغرائب النجوع والقرى والمدن فى أقاصى الأرض، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا.

وكما وصف علماء الحملة الفرنسية مصر برسومهم التى لم تترك صغيرة أو كبيرة إلا حاولت إحصاءها، وصفت المجلة الأمريكية بصورها الكرة الأرضية، بتفصيل مثير للدهشة والاعجاب.

ولأنها ، أى المجلة، قد جاوز عمرها المائة عام، مثلها فى ذلك مثل مجلتنا الهلال، وهو أمر نادر فى عالم المجلات، لا سيما ما كان منها جادا.

فضلا عن انتظام صدورها، دون أى انقطاع، بدءا من منتصف الربع الرابع من القرن التاسع عشر، حتى القرن الحادى والعشرين.

فقد ارتأى القائمون على تحريرها إصدار عدد استثنائى، تنشر فيه أفضل مائة صورة، يقع الاختيار عليها من بين صور المجلة، التى تعد بالآلاف.

وبطبيعة الحال، لم يكن الاختيار أمرا يسيرا وبدورها رأت أسرة الهلال أن تختار من بين الصور المائة ، أربع صور.

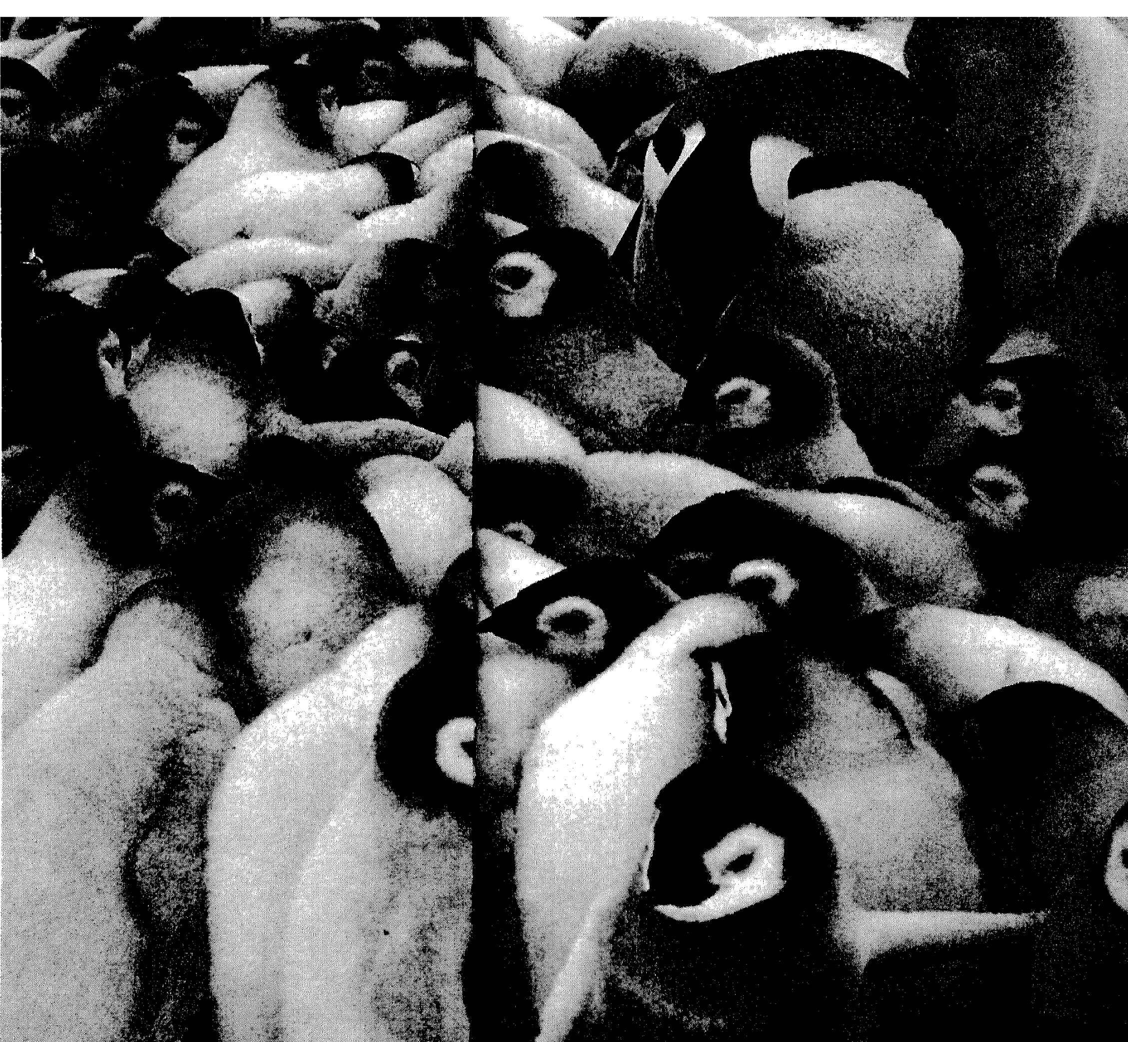
والأمل أن يكون اختيارها للصور الأربع قد صادفه التوفيق.



عندما لا تجيء الأمطار، تتبخر الآمال وهو الأمر الذى كثيرا ما يحدث فى الصومال والصورة لمعاناة امرأة صومالية من جراء الجوع والحرمان.

ورغم أن روبرتو كابوتو قد التقطها قبل ثمانية أعوام. إلا أن شبحها لايزال يطارده، يؤرق منامه.

وعنها يقول «إذا لم تؤثر فيك، فثمة شيء غير سليم».



هذه صورة من القطب الجنوبي التقطتها عدسة «فرانس لانتينج» لإمبراطور فصيلة من طيور البطريق، في أثناء قيامه بالنداء على ذريته ، وسط حشد كبير من الصغار.

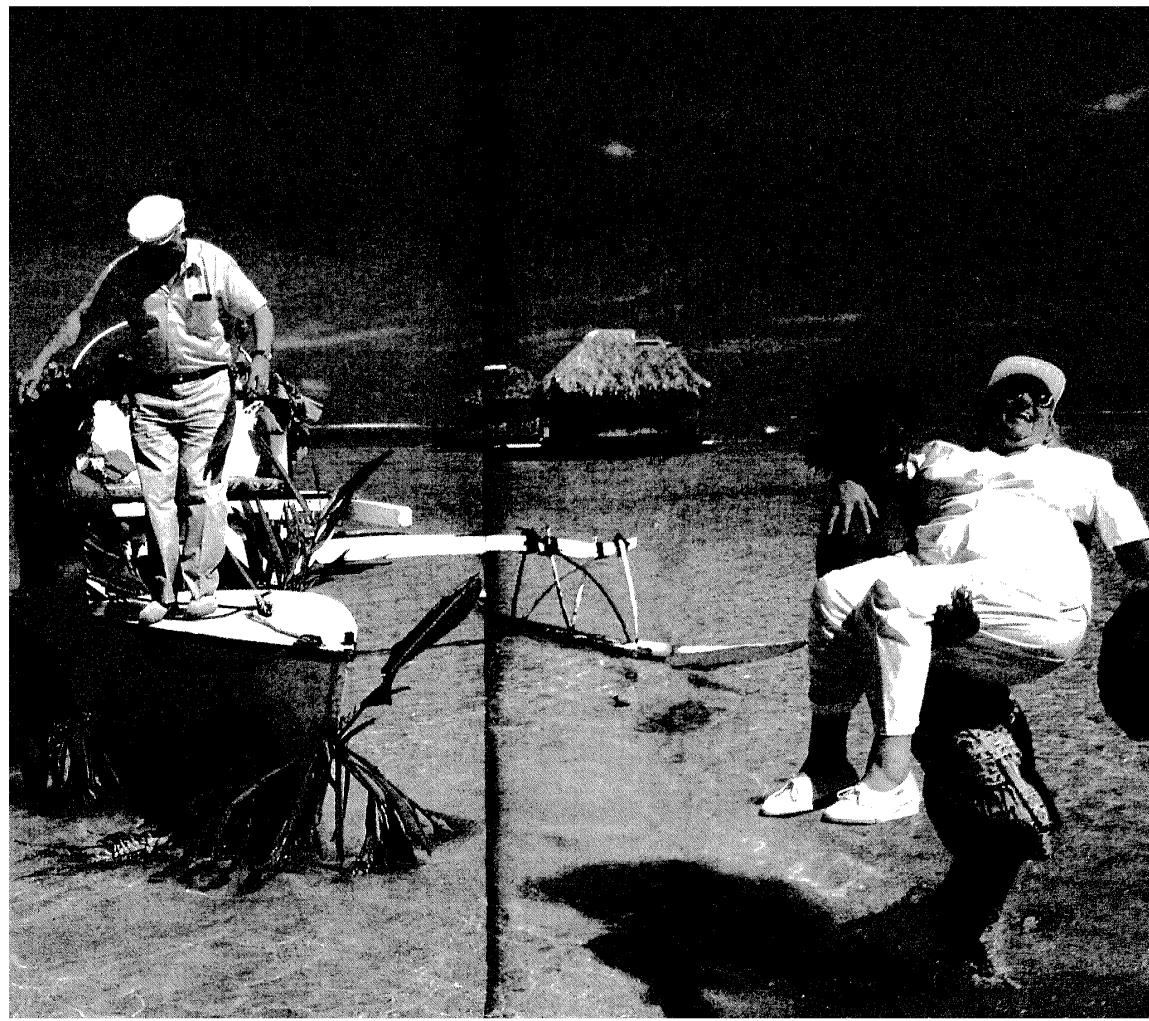
والمثير للدهشة، وربما حسه الكثير من الأمهات والآباء الآدميين، وعى الذرية، وتمييزها لصوته، دون غيره من الأصوات.

فما أن تسمعه حتى تسرع بتلبية النداء.

في وسع الصورة أن تكون عملا فنيا، وفى نفس الوقت موصلا جيدا لحقائق وأفكار أكثر عمقا، وربما أشد إيلاما.

وليس أدل على ذلك من هذه الصورة التى التقطتها كاميرا «جودى كوب» لشباب من جزيرة تاهيتى، تحت عبء سواح فرنسيين محمولين إلى بر الأمان.

فبفضلها جرى الكشف عن أن فردوس الجزيرة له وجهان. أحدهما متعة سحر الجزيرة الاستوائية، التى تسمو بالمستمتع إلى حد النيرڤانا. والآخر نير الاستعمار الفرنسى بحمله الثقيل.





هذا صقر ذهبى يمسك بقبضت صائد محترف من كازخستان يحاول المحافظة على توازنه، تحت ثقل الصقر، ورياح الشتاء.

وما هى إلا ثوان، حتى يطلق الصقر وراء صيد ثمين.

ثم يسرع الخطو، وهو علي صهوة جواده، آملا أن يصل، حيث الصقر، وذلك قبل أن يمزق فراء الفريسة، أو قبل أن يصاب بأذى، فى أثناء الصراع معها.

والصورة التقطها داڤيد ادوارده قبل عامين ، أو يزيد.


البابا شنوده


الكواكبى



العرب والمسيحيون

بقلم
د. محمد على اللوبانى

لقد وُجد العرب فى ديارهم قبل بزوغ الأديان السماوية ، فالعرب بقبائلهم وعصبياتهم وتحركاتهم داخل الأرض العربية ، موجودون قبل أنبياء اليهود وقبل ظهور السيد المسيح وبزوغ فجر المسيحية ، وكذلك هم موجودون قبل ميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبزوغ نور الإسلام .

ليس بالضرورة المطلوبة أن تكون مسلما لأن تكون عربيا ، ولا أن تكون مسيحيا لأن تكون عربيا ذلك لأن الديانات السماوية لم تشكل ولن تشكل على مدى عهود التاريخ السابقة واللاحقة قوميات .

* عمان - الأردن




محمد عبده


جارودى


مكرم عبيد

إن الدين الإسلامى دين عربى وان الدين المسيحى دين عربى، فكما لا تعارض بين الاسلام والعروبة ، كذلك لا تناقض بين المسيحية والعروبة ، والحديث الشريف يقول : «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى باللسان فمن تكلم العربية فهو عربى » .

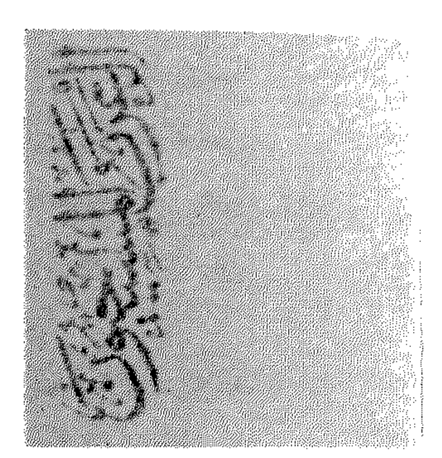
فالقاعدة أن تكون وطنيا منتميا لوطنك وشعبك مدافعا عن تاريخه وتراثه وحضارته وعن ماضيه وحاضره ومستقبله وعن مصالحه وعزه وسؤدده، فالدين علاقة خاصة بين الخالق والمخلوق، بين المواطن وربه عز وجل، فالدين لله والوطن للجميع .

لكل قاعدة شواذ

هذه هى القاعدة المسلم بها منطقيا واجتماعيا ووطنيا، ولكن كما يقولون لكل قاعدة شواذ ... فالطائفية شواذ والعنصرية شواذ والتطرف شواذ، فقد أحاط غلاة الطائفية والعنصرية والتطرف بتراث العرب والفكر القومى العربى ليمضوا به تحريفا وازدراء محاولين أن ينسونا رحاب الفكر القومى وان ينسونا قيادات قومية عربية واعية كمحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبى، وساطع الحصرى وزكى الارسوزى وقسطنطين زريق وبطرس البستانى ونجيب عازورى وهو أول من كتب وحذر من الغزو الصهيونى لفلسطين وأول من أنشأ الجامعة العربية فى المنفى وغيرهم الكثير الكثير . إن هؤلاء وغيرهم الكثيرون هم خيرة الخيرة من اعلام الفكر القومى العربى الذين نموا الاحساس بالمواطنة وليس بالطائفية أو العنصرية أو التعصب .

إن احساسك الحق بالمواطنة وانتماءك لوطنك يقوى بك حب الوطن ، وينمى إحساسك بالمواطنة الصادقة وينمى الاحاسيس الاصلية بحقوقك كمواطن وعلى العكس من ذلك فإن الطائفية والعنصرية والتطرف المرئية منها والمخفية لن تنقذك من العقد ومركبات النقص وسيطرة هواجس الخوف والتحسب ...

لن نضيف الى الحقيقة الساطعة



جديدا إن قلنا إن الطائفية والعنصرية والتطرف لاتمت بأية صلة الى اصالة الاديان وسموها ولا الى الاصالة الوطنية والقومية .

إن المتلبسين لاثواب الطائفية والعنصرية والتطرف لايعكسون شيئا من الفهم الدينى أو الفكر القومى وحالاتهم لا تعكس الا جهلا مطبقا بالتعاليم السماوية وآفاقها الواسعة ورحابتها وسماحتها. لقد ثبت انه ليس هناك طائفية بريئة وانه ليس هناك طائفية بلا محرك مقصود أو بلا مخططات، ان قيادات ومنظرى الطائفية والعنصرية والتطرف جهلة لاينتمون الى روح الاديان السماوية بشئ ، كذلك فهم جهلة برحابة الفكر القومى الاصيل .

لقد سئل السيد المسيح .. من أدبك ؟ فأجاب عليه السلام : «ما أدبنى احد، ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته ».

يقول الفيلسوف الفرنسى رجاء جارودى : « ان اليهود كانوا من وراء الصليبيين وكانوا من الاسباب الخفية التى دفعت بالصليبيين لغزو البلاد المقدسة ، وقد اتخذ اليهود المال وسيلة فأخفوا مشاعرهم الدينية والطائفية خلف المال ».

وفى هذا المجال لابد من التنويه ان من الخطأ الفاحش تسمية الحروب الصليبية بهذا الاسم، والصحيح انها حرب الفرنجة لغزو البلاد العربية المقدسة.

ولعل القليل على علم من ان حملة الفرنجة كانت تمارس ايضا ممارساتها الدينية على المسيحيين العرب وعلى الكنيسة العربية، لقد قامت حملة الفرنجة الرابعة أصلا ضد الكنيسة الارثوذكسية العربية والشرقية بقصد جر الكنيسة العربية والشرقية للسيطرة الغربية، وقد قتلت هذه الحملة من المسيحيين العرب أكثر مما دمرت من مساجد المسلمين وقتلهم .

هدفان لحملة الفرنجة

لقد قاومت الكنيسة العربية محاولات التغريب التى حاول الغرب ان يجر المسيحيين العرب لها، تماما كما قاوم الإسلام العربى محاولات التتريك التى حاول الاسلام العثمانى جر العرب المسلمين لها، وهكذا التقت المشاعر الاسلامية والمسيحية فى جبهة واحدة للدفاع عن الهوية العربية .

إن غزوة الفرنجة لبلاد الشام كانت تستهدف غايتين :

الأولى : استعمارية وهى السيطرة على هذه المنطقة الغنية وهذا هو الهدف السياسى .



والثانية : اخضاع مسيحيى الشام خاصة ومسيحيى الشرق عامة الى سلطة بابوات روما ، وهذا هو الهدف الدينى، ولهذا وضع شعار «الصليب على صدور هؤلاء الغزاة » .

ومعروف ان المسيحيين العرب عارضوا على الدوام التفسير اليونانى للمسيحية وكان لهم تفسير هو « التفسير الارامى » وقد حاربت بيزنطة هؤلاء المسيحيين وقتلت مئات الألوف وأحرقت مؤلفيها ، أمثال الفيلسوف الشهيد فيلوكسنيوس المنبجى الحلبى .

وقد اتخذت المسيحية الآرامية القومية أساسا للتمايز الدينى عن البيزنطيين وهم رومان الشرق بعد سقوط روما عاصمة رومان الغرب .

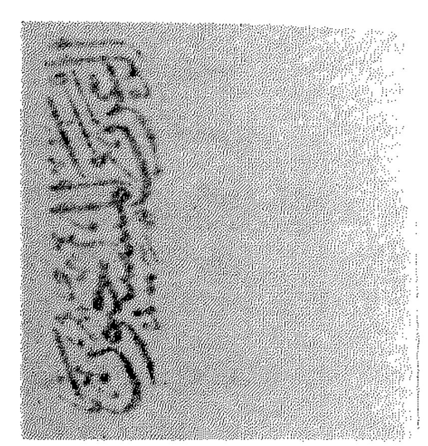
ولهذا السبب عندما ظهر الاسلام كان هؤلاء المسيحيون الأراميون الذين صاروا مسيحيين عربا بعد انصهار العنصر الأرامى بالعنصر العربى منذ القرن الثانى قبل الميلاد صاروا ظهيرا للعرب المسلمين ضد الاحتلال الرومانى لبلاد الشام واعتبروا انتصار ابناء العمومة عرب الجنوب انتصاراً لهم واستعادة الكرامة التى هدرتها روما بتدمير مملكة الأنباط ثم مملكة تدمر وكذلك استعادة الكرامة التى هدرها الفرس عند احتلال بلاد بابل وتدمير الحضارة الآشورية البابلية .

ولهذا لاغرو ان يطلق مسيحيو بلاد الشام على عمر بن الخطاب لقب الفاروق وهو تعبير آرامى يعنى « المنقذ او المخلص» لأن هذا الفتح العربى خلص المسيحيين السوريين من ظلم الرومان وبطشهم كما يقول البطريرك السريانى مار ميخائيل الكبير فى تاريخه.

وقد كان احتلال بلاد الشام على يد الفرنجة مأساة حقيقية للمسيحيين العرب، بل مأساة مزدوجة فهم من الناحية الاجتماعية صاروا اقنانا للاقطاع الأوربى الغازى الحاكم على وطنهم تماما كإخوتهم العرب المسلمين ، وهذا ما يؤكده المؤرخ زويوروف فى كتابه (الصليبيون فى الشرق) حيث يقول : ان الغزاة لم يكونوا يقيمون أى فرق بين السكان الخاضعين لسلطتهم فقد كانوا بين السكان الخاضعين بنفس القدر من القساوة التى يعاملون به المسلمين حيث كان الفلاحون المسلمون والفلاحون المسيحيون اقناناً .

الفرنجة يبغضون مسيحيى الشرق

وهم ، أى المسيحيين، عانوا من الناحية الدينية لانهم اعتبروا هراطقة ومارقين على الدين وخارجين على سلطان الكنيسة الكاثوليكية وبالتالى فإن دمهم مهدور وقتلهم خدمة لله تعالى وللدين وللكنيسة .



وفعلا بمجرد احتلال القدس لم يقتصر دور الفرنجة على قتل المسلمين ونهب مسجد الصخرة وتخريب مسجد عمر وازالة المحراب بل انهم اتخذوا تدابير اشد ضد المسيحيين فقد طردوا من كنيسة القيامة والمهد جميع الكهنة من الطقس الشرقى عربا وروسيين وجورجيين وأراميين وأقباطا وسريانا الذين كانوا يقيمون صلواتهم وشعائرهم الدينية وفق مذاهبهم دون أى تدخل من جانب العرب المسلمين .

وقد ذهل المسيحيون من هذه الدرجة الفظيعة من البغض فقرروا المقاومة وتعرضوا الى تعذيب بشع حتى يكشف رجال الدين المسيحى عن كنوز المسيحية التى أخفوها وخاصة خشبة الصليب واستمروا فى التعذيب حتى حصلوا على كل هذه الكنوز .

ثم خلعوا البطرك الأرثوذكسى وعينوا بطركا لاتينيا بدلا منه وابعدوا كل الكهنة الشرقيين من عرب وارمن وسريان واقباط عن كنيسة القيامة فاضطرت القيادة الدينية الشرقية الى اللجوء الى خارج القدس. كما قام الفرنجة بمنع الأقباط من الحج الى القدس باعتبارهم هراطقة .

وامعن الفرنجة فى اضطهاد المسيحيين فاستولوا على الكنائس والأوقاف والأملاك التابعة للأديرة واعتبروها ملكا خالصا لهم لهذه الاسباب كانت مقاومة الفرنجة وطنية لم تقتصر على اتباع دين دون آخر فالاضطهاد الفرنجى أصاب الجميع والعزة القومية هى التى آهينت .

وقد ذكر أسعد منصور فى كتابه «تاريخ مدينة الناصرة » ان صلاح الدين الأيوبى بعد معركة حطين اصدر امرا باعادة جميع كنائس الناصرة الى المسيحيين الشرقيين وأخذ مفاتيح هذه الكنائس من الكهنة الفرنجة .

وبخروج الفرنجة من فلسطين لم يبق أى مكان مقدس أو دير أو صومعة فى حوزة الفرنجة وأعيدت جميعها الى أهلها الوطنيين : المسيحيين العرب والأرمن والسريان والأقباط .

وهذه انماط الفرنجة الكثيرة وظلوا دوما يحنون الى استعادة الأماكن المقدسة فى القدس ومارسوا شتى اساليب الإغراء والضغوط لتحقيق هدفهم هذا ولكن الحكم الاسلامى لم يرضخ وحافظ على بقاء هذه الأماكن المقدسة بيد الوطنيين العرب على مختلف مذاهبهم .

ان المسيحيين كانوا يشكلون نسبة



عالية من سكان بلاد الشام عند بدء حملات الفرنجة على بلاد الشام وان تحولهم الى الاسلام لكى يتخلصوا من الاضطهاد المزدوج الذى كانوا يعانون منه على يد الفرنجة الغزاة الذين كانوا يعاملونهم كخارجين عن الدين المسيحى وهراطقة .

وحين صارت اوروبا قوية وضعفت الامبراطورية العثمانية ازداد الضغط على الحكم العثمانى لنزع بعض الأماكن المقدسة من يد الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وأرغموا العثمانيين على نزع بعض هذه الاماكن المقدسة من يد الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وارغموا العثمانيين على نزع بعض هذه الاماكن فى معاهدتى برلين ١٨٧٤ وباريس ١٨٥٤ اللتين صاغتا الوضع الراهن للأماكن المقدسة بحيث لم تعد الكنيسة الأرثوذكسية والكنائس الشرقية تملك سوى ٦٥ ٪ من هذه الاماكن بعد ان كانت كلها ملكا لها .

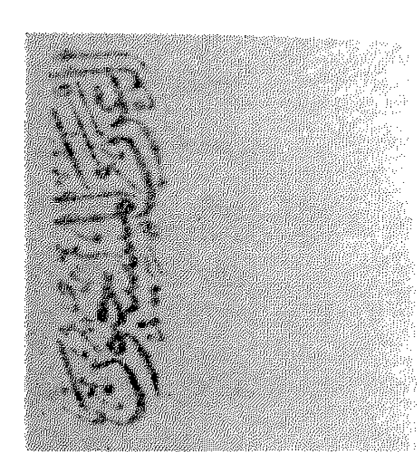
وكان من ضمن بنود هاتين المعاهدتين ان صارت الكنيسة الكاثوليكية تملك حقوقا فى كنيستى القيامة والمهد فى القدس وبيت لحم .

لقد فشلت حروب الفرنجة فى أن تحول المسيحيين العرب عن مذهبهم ولم يقبل أى منهم الخضوع لسلطة روما باستثناء الموارنة الذين تخلوا عن استقلالهم وخضعوا الى سلطة روما الكاثوليكية بينما ظل الارثوذكس الأرمن والسريان والأقباط أمينين على عقيدتهم ومذهبهم وعلى استقلالهم الدينى الوطنى .

صحيح ان هناك آلافا من الفرنجة ظلوا فى فلسطين ولم يرحلوا مع الغزاة وقد تساهل معهم الحكم العربى ولم يضطهدهم كما فعل قادتهم الغزاة بالمسلمين والمسيحيين ولكن هؤلاء الفرنجة ولا اقول الصليبيين انصهروا مع السكان وتخلوا عن عقيدتهم وأصبح هؤلاء الفرنجة الذين انصهروا مع الوطنيين العرب وصاروا مسلمين ويعرفون قراهم وعائلاتهم .

ختاما أقول لقد آن الاوان لكى ننقى عقولنا وأفكارنا من تأثير الثقافة الغربية التى رسخت فى عقول الكثيرين تعبير «صليبى» بقصد تمزيق الوحدة الوطنية وخلق الشكوك فى نفوس المسلمين العرب ضد المسيحيين العرب على امل أن يدفع ذلك بعض المسيحيين العرب الى طلب الحماية الأجنبية .

وقد فشل الغرب فى أن يقنع المسيحيين العرب بطلب حماية أو تشويه الوعى التاريخى القومى فى ضميرهم ، وأعلن المسيحيون موقفهم هذا عبر مواقف البابا شنودة القومية : « ان الغرب حاول



تجريع المسيحيين سم كراهية الاسلام والمسلمين خدمة لمصلحته وطمعه بالشرق عن طريق التفرقة وبذر الخلاف

وعبر عنه المطران القومي جورج خضر الذي قال بجلاء ووضوح. « لسنا كلنا مسلمين ولكننا اسلاميون بمعنى ان هناك حضارة واضحة جدا هي الحضارة العربية الاسلامية ونحن كلنا ننتمي إليها».

ان النضال المسيحي العربي مازال متواصلا من اجل الانصهار داخل مجتمعه العربي، ويقاوم بلا هوادة محاولات طمس هويته وتاريخه وتراثه وخلق تاريخ كاذب ومزور بقصد تحويل المسيحيين العرب الى مطية للصهيونية والغرب.

لقد عادوا على اعقابهم مدحورين، لقد وقف المسيحيون العرب برءوس عالية وجباه شامخة وعبر التاريخ الطويل منافحين عن العرب والعروبة مقدمين المناضلين والشهداء وكذلك الجهابذة والمميزين في علوم اللغة العربية والادب العربي والثقافة العربية والصحافة والسياسة والاعلام فما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك وهذا ما اكد عليه اغناطيوس الرابع هزيم حين قال:« ان الكنيسة العربية هى الوحيدة التى تعى متاعب بلادنا بصبر وشجاعة ».

فى انطاكية عام ١٩٣٧ عندما جاء افراد لجنة المراقبة الدولية ليحققوا فى حجة تركيا لسلخ لواء الاسكندرية من سوريا وضمه الى تركيا ، اغلق الاتراك المساجد يوم الجمعة فى وجه المسلمين السوريين ليمنعوهم من الصلاه والتظاهر امام اللجنة الدولية تاكيدا لعروبة لواء الاسكندرون، فما كان من النصارى العرب الارثوذكس وخلال ساعة واحدة من المنع التركى ان فتحوا كنائسهم واحالوها مساجد للمسلمين يؤدون فيها الصلاة الجمعة فى اعظم مهرجان وطنى مؤثر .

لقد وقف خطيب المسلمين فى هيكل المسيح يتلو آيات القرآن وصعد المؤذن الى قبة الناقوس يرفع الاذان وكان الموقف المسيحى التلقائى دافعا لحدوث اروع مظاهرة وطنية فى تاريخ النضال العربى السورى من اجل عروبة الاسكندرون وقد قوت هذه المشاعر الوطنية النبيلة فى نفوس المسلمين السوريين بصفة خاصة والسوريين العرب والعرب اجمعين بصفة عامة رابطة القومية العربية فى ظل الدين الاسلامى والدين المسيحى على حد سواء وفى الشام ظاهرة نبيلة وأصلية لن

ينساها العرب المسلمون لإخوانهم النصارى حيث زحفت الجيوش الاسلامية من الحجاز الى الشام لتحريرها من حكم البيزنطين حيث رفض النصارى العرب ان يحاربوا فى صفوف الجيش الرومانى وانضم كثيرون منهم الى صفوف الجيش الاسلامى لمحاربة جيوش القيصر .

وفى العراق انضم المثنى بن حارثة على رأس قبائل بنى شيبان العربية الى جيش سعد بن أبى وقاص لمحاربة كسرى ملك الفرس لفتح بلاد العجم ونشر الدين الاسلامى، وكان شباب بنى شيبان النصارى العرب الارثوذكس على آبواب القادسية يهتفون جذلين فرحين للفتح العربى لبلاد الفرس.

وما دام الشيء بالشيء يذكر وفى القدس الشريف وفى أول الفتوحات الاسلامية كانت ومازالت العهدة العمرية من أرقى وأسمى ما جاء به التسامح الدينى والاخوى على مر العصور والايام حيث اعطت هذه العهود الامان على أرواح المسيحين شيوخا ونساء وشبابا وأطفالا وعلى احترام معتقداتهم وطقوسهم وأديرتهم وكنائسهم وممتلكاتهم وحرية تحركاتهم وترحالهم .

لقد برزت من صفوف النصارى العرب قيادات دينية قومية عربية فذة وقيادات فكرية عربية مميزة ولابد لنا هنا من تسجيل كل مواقف التقدير والاعجاب للبابا شنودة بابا الاقباط فى المشرق والذى يعتبر بحق رمزا دينيا مسيحيا وعربيا فذا .

ولابد لنا من تسجيل كل الاحترام وعميق المحبة والتقدير للمناضلين المسيحيين العرب والمفكرين المسيحيين العرب على مدى التاريخ العربى الطويل كفارس الخورى ومكرم عبيد والمطران كبوشى والكثير الكثير من المناضلين المسيحيين العرب الملتزمين بالفكر القومى العربى والمناضلين ببطولة لنصرة امتهم ورفع مجدها وعزتها الى جانب معتقداتهم الدينية ، عاكسين بذلك صورة مشرقة وسامية وخلاقة لعروبتهم ودينهم العربى المسيحى .

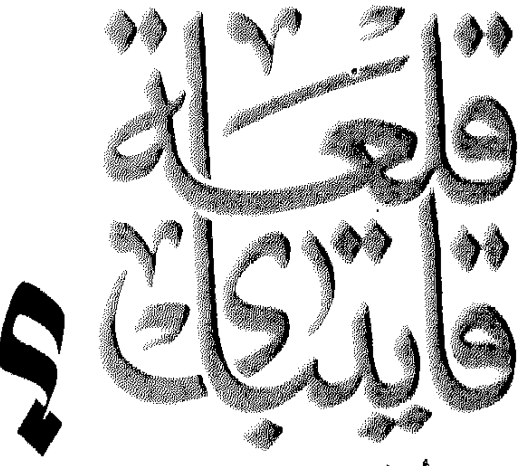
إنهم الكثيرون فرسان الدين المسيحى العربى ،انهم فرسان السيد المسيح عليه السلام والذى كرمه النبى العربى محمد صلي الله عليه وسلم حيث قال :

«انا اولى الناس بابن مريم فى الدنيا والآخرة ... ليس بينى وبينه نبى ...» «الأنبياء إخوة ، دينهم واحد وشرائعهم شتى »

وبعد فليسقط التطرف والعنصرية ولا عاشت الطائفية . ■

إنقاذ ما يمكن إنقاذه فى الركن الغربى بالقلعة

ماذا يحدث فى



أمانى عبد الحميد

تصوير: شرين شوقى



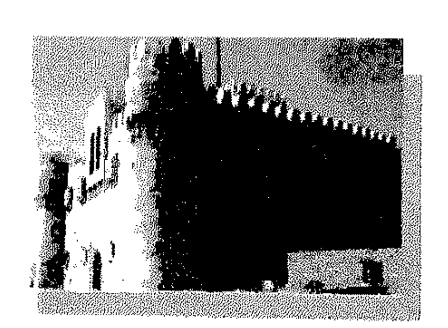
المدخل الذى بناه محمد على اثناء تجديداته للقلعة

◆ انهيار سقف الحواصل.. إهمال أم قضاء وقدر؟!
◆ حتي لا نفقد تراثنا الأثرى: مطلوب تطبيق قانون حماية الآثار وصحوة أثرية قبل فوات الأوان!

عندما دعا الناقد الفنى هربرت ريد إلى خلق ذائقة بصرية، تماما كالذائقة السمعية، فإن ذلك يدعونا بالضرورة إلى التعامل الجيد مع عناصر حضارتنا وآثارنا التاريخية، فما الذى فعلناه من أجل الحفاظ على تلك القيمة الأثرية بأبعادها الإنسانية والروحية والحضارية؟







فعندما تتأمل النفس المرهفة الأحاسيس الآثار التاريخية لا تنظر إليها كمجرد حجارة صماء، بل إن مظهرها الصامت يبعث في الروح انفعالات رائعة تهزها وتتسامي بها، وتشعر بالحنين إلي ذلك الماضي السحيق بكل أحداثه وتفصيلاته.

وإذا كانت مصر تضم بين جنباتها كما هائلا من الآثار فى مختلف الحقب والعصور فإنما يشكل ذلك ملامح حضارتنا وهويتنا وقوميتنا المصرية، وتجعل من عبقرية المكان ميزة مؤكدة، تعكس تاريخنا وتصور الأحداث التاريخية التي مرت بها مصر، فكل أثر يحمل قصة من قصص كفاح مصر وتاريخها العريق الممتد في مختلف الحقب والعصور، ولذلك يجب الحرص علي الحفاظ عليها وصيانتها من كل العوامل والمؤثرات التي يمكن أن تؤثر فيها.

لذلك كان الانزعاج والقلق الشديد عند كل من يدرك قيمة الحفاظ على آثارنا عندما حملت لنا الأنباء سقوط سقف غرفتين أثريتين فى قلعة قايتباى أو الحواصل البالغ عددها خمسا وثلاثين حاصلة، وتمثل ثلاثة أضلاع تحيط بصحن القلعة، بناها محمد على لتستخدم فى إعاشة الجنود. فلا يمكن اعتبار الحادث قضاء وقدرا، إنما هو جريمة تهاون واستهتار فى حق آثارنا وفى حق هويتنا وتاريخنا لا يمكن السكوت عليها.

صحيح أن القلعة التى أطلق عليها علماء الحملة الفرنسية «حصن الفنارة» تخضع لعمليات ترميم شاملة منذ عام ٢٠٠٠ بعد دراسات تاريخية وأثرية للموقع منذ عام ١٩٩٣، ولكن ما حدث يجب أن ندرسه ونعرف أسبابه وأبعاده .

ويأتى بيان المجلس الأعلى للآثار المشرف على عملية الترميم الجارى تنفيذها فى القلعة كما يلى: «انهيار جزئى فى سقف الحاصلتين رقم ٩ -١٠ فى الجدار الشرقى للقلعة. يرجع إلى وجود رديم فوق السقف من العصر الإسلامى لوقايته من القنابل التى تسقط عليها أثناء الحروب. ومع ارتفاع مستوى البحر أدى إلى تسرب الرطوبة بها وبالتالى سقوطه حيث لم يتم حتى الآن ترميمه.. فالترميم يشتمل الجزء الغربى فقط..» انتهى بيان المجلس.. وكان رد الفعل الذى اتخذه هو تشكيل لجنة هندسية من جامعة الإسكندرية لاستبيان الأسباب الحقيقية لانهيار السقف. وخلص تقرير اللجنة إلى أن التسبب هو تحلل «المونة» وتآكل الأخشاب الموجودة فى جدار إحدى الحواصل مما أدى إلى انهيار الجدار الحامل لسقف اثنتين من الحواصل وبالتالى انهيار السقف. وبذلك يكون بيان المجلس وتقرير اللجنة مقصورا فقط على

اتهام الرديم المشبع بالرطوبة والمونة المتحللة فقط، دون أن يوضح الدور الذى يجب أن يقوم به الأثرى الموجود فى الموقع فى مراقبة كافة الشواهد أو الأدلة التى تشير إلى وجود ضعف فى الجدار بشكل يمثل خطراً على الغرفة وسقفها. ولنا أن نتساءل: «أين نتائج الدراسات والمسوح الهندسية والأثرية التى قام بها المجلس قبل بدء عملية الترميم؟ خاصة إذا علمنا أن تلك الدراسات استغرق إعدادها حوالى سبع سنوات قبل البدء فى تنفيذ عمليات الترميم فى أبريل ٢٠٠٠ والتى من شأنها اكتشاف مواطن الضعف كلها من أجل رسم خطة لعلاجها.

دور فريق الترميم

والمعروف أنه قبل البدء فى مشروع ترميم فإن فريق الترميم يقوم بخطوات ومهام بالغة الدقة فى إطار خطة شاملة يكون هدفها الحفاظ والصيانة والترميم وبالتالى إعادة الموقع الأثرى لما كان عليه فى الأصل . وهو أمر حددته المواثيق الدولية مثل الميثاق الدولى للحفاظ وصيانة وترميم الآثار المعروف باسم «ميثاق فينيسيا». كذلك تكون أولى مهام فريق الترميم مثل توثيق وصنع الأثر والاطلاع على كافة الدراسات التاريخية والأثرية، والرفع المساحى وعمل مساقط وواجهات وقطاعات معمارية علاوة على رفع كافة الزخارف والأعمال الفنية فى الأثر. والأهم التأكد من ثبات واتزان أساسات الأثر ودراسة نسبة الرطوبة والمياه الجوفية وتحليل التربة وخامات البناء. خطوات تقوم بها أى شركة أو بعثة قبل البدء فى أعمال الترميم لأى أثر أياً كان نوعه.

وبرغم إجراء تلك الخطوات الدقيقة إلا أن نتائج الدراسات أو حتى أحد القائمين على عملية الترميم لم يستطيعوا اكتشاف الضعف الذى أدى إلى سقوط السقف الأثرى.

الاستخفاف بما حدث

الأمر الغريب والذى أعتقد أنه غير عادى هو موقف المجلس الأعلى للآثار تجاه المشكلة .. فعندما حاولنا استطلاع الأمر جاء الرد «ما هى المشكلة إذا حدث انهيار سقف غرفتين أو حاصلتين من حواصل سور القلعة.. فالجنازة حارة والميت كلب..» هكذا جاء رد محمد عبدالعزيز مدير الآثار الإسلامية والقبطية بالإسكندرية والبحيرة.. بل إنه استحسن حادث الانهيار لأنه كشف عن موقع «المزاغل» أو الفتحات التى كان جنود قايتباى يقفون داخلها ويستخدمونها فى ضرب من بالخارج دون أن يراهم . والتى كانت الحواصل البالغ عددها ٣٥ تسد فتحاتها. لقد هالنى رد الفعل الغريب، والتشبيه بمثل لا ينطبق بأية حال من الأحوال على أثر تاريخى فى قيمة قلعة قايتباى.. فلا أعلم متى تحولت آثارنا إلى مجرد شىء ليس ذا أهمية «ولا أقول هنا كلب»، وعندما تنهار يجب علينا أن نتخذ ردود أفعال باردة لا حارة.. أهكذا تكون مهمة الحفاظ على تراث مصر وتاريخها

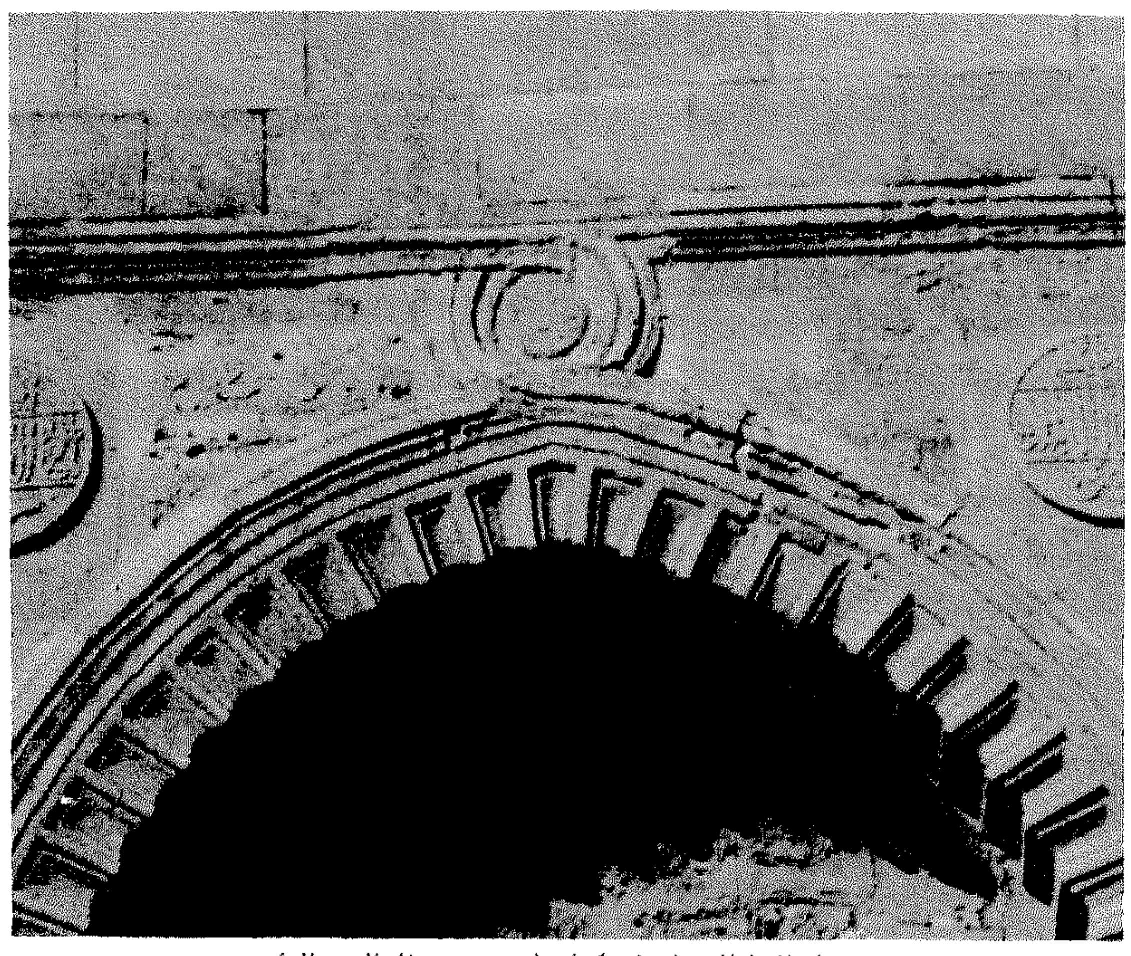
قلعة قايتباى .. وأعمال الترميم !!

أهكذا ننظر إلى حادث انهيار السقف.. حجارة متراصة فوق بعضها ثم سقطت ولا مشكلة!

★★★

ولدى لقائى به أوضح «عبدالعزيز» أن محمد على قبل بنائه للحواصل أو الغرف قام بردم كل الأماكن التى لا يحتاجها مثل صهاريج المياه التى كانت تغذى القلعة بالمياه.. وبنى الحواصل بجوار أسوار القلعة التى بناها السلطان قايتباى وعزز تحصينها السلطان قنصوه الغورى من بعده. والحواصل عبارة عن كتل حجرية متراصة تربط بينها مونة.. ونتيجة تغطيتها بالأسمنت خلال عملية الترميم التى شهدتها القلعة فى عام ١٩٨٤.. أدى ذلك إلى كتم الهواء عن المونة - وبما أنها تضعف مع نقص الهواء وتقوى بالرطوبة.. لذا فإنها تفاعلت مع الأسمنت وعناصر البياض وتحللت.. ورغم ذلك يؤكد على عدم وجود أية شواهد تدل على ضعف هذا الجزء. وأن الانهيار ليس نتيجة إهمال والدليل تقرير اللجنة الهندسية الذى أكد أن تحلل المونة هو السبب وراء الانهيار. كما يشير فى نهاية قوله إلى حجم العمل داخل مشروع الترميم والذى يفوق حجم





رنك السلطان قايتباى كما يظهر فوق مدخل البرج الرئيسى

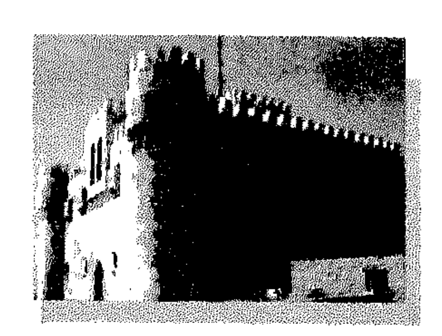
العمل داخل أى مشروع ترميم آخر.. خاصة أن الميزانية المحددة لأعمال الترميم وصلت إلى ٧ ملايين جنيه وتتم بإشراف من الجهاز المركزى للمحاسبات..».

خلط وتناقض

ويظهر لنا تناقض آخر فى تصريحات الأثرى «عبدالعزيز» فهو يؤكد أن المونة المستخدمة فى بناء جدار وسقف الحواصل تقوى بالرطوبة وتضعف فقط مع نقص الهواء.. رغم أن بيان المجلس الأعلى للآثار أوضح أن سبب سقوط السقف تشبعه بالرطوبة، وتقرير اللجنة الهندسية يرى أن السبب هو تحلل المونة.. إنه بالفعل أمر غريب.. يبدو أنهم لم يجدوا أفضل من الرطوبة ليحملوها ما لا يستطيعون تحمله.. فإذا كانت الرطوبة هى السبب فلماذا لم يتخذ الأثريون المتخصصون الخطوات اللازمة لتلافيها وعلاجها بشكل يحمى الأثر من الانهيار.. إذن القضية أكبر من مجرد رديم مشبع برطوبة مياه البحر.

الترميم السليم

القضية تتلخص فى أن من يقوم



بمشروع ترميم لابد له أن يقوم بدراسة دقيقة للأثر، وبالتالى يجب أن يخضع لرقابة صارمة حتى لا نفقد تراثنا الأثرى دون أن نقصد أو نتيجة غفلة منا ثم نتهم الرطوبة.. بل يجب علينا أن نعاقب كل من يتهاون فى حق تراثنا الأثرى بصرامة من أجل وضع حد للتهاون والاستهتار والسلبية التى أصبحت نقمة متفشية فى الآونة الأخيرة.

ولدينا فى القوانين التى تكفل حماية الآثار.. مثل قانون «حماية الآثار مادة ٤٢/٤٥» اللتين تعاقبان كل من يتلف الآثار والمبانى التاريخية أو يشوهها أو يفصل أجزاء منها أو يغير معالمها أو حتى اشترك فى ذلك سواء عن عمد وقصد أو عن طريق الخطأ. والمطلوب هو تطبيق القوانين بصرامة حتى لا تتكرر المأساة فى موقع أثرى آخر.. ويكون الرد مرة أخرى «الجنازة حارة والميت كلب».

ويرغم كل شىء فإن مدينة الإسكندرية وقلعتها الجميلة التى بناها السلطان قايتباى لا تزال الشمس تشرق على وجهها كل يوم لتزيدها جمالا.. فهى بالفعل الحصن فى مدينة الذكريات.

تجلى الذكرى

لدى سفرى لمدينة الإسكندرية .. تجلت الذكرى حتى أصبحت لا تفارقنا .. مدينة لها من المجد والعظمة ما لغيرها.. أغنى مستودع للمعارف الإنسانية منذ أسسها الإسكندر الأكبر مروراً بعهد البطالمة الذين نصبوها عاصمة لبر مصر. وحتى أصبحت المدينة الثانية فى العالم القديم فى عهد الإمبراطورية الرومانية. كما كانت كنيستها أولى كنائس الشرق مما جعل منها واحدة من مدن المسيحية الحقيقية.. ولاتزال المدينة جميلة وبهية خاصة بعد أعمال التجديدات الأخيرة.. ولدى وصولى إلى قلعة قايتباى تجلت ذكرى أخرى.. ذكرى تاريخ أمة وتاريخ مكان.. أمة كافحت ناضلت وحاربت كل من سولت له نفسه غزوها.. وتاريخ مكان.. قلعة حجرية تقف شامخة أمام سواحل البحر الأبيض المتوسط تصد هجمات الغزاة على مدى التاريخ منذ أنشأها قايتباى. صدت هجمات الروسيين والقبارصة والعثمانيين.. بل وقفت فى وجه أسطول إنجلترا أقوى دولة أثناء حملتها على مصر عام ١٨٨٢.. الأمر الذى عرضها لضرب سفن الأسطول وهدم حوالى ٧٠٪ من أبراجها وأسوارها.

وعندما زار الأديب الإنجليزى الكبير «فورستر» القلعة سنة ١٩٢٠ ذكر أنه كان يوجد داخل سور قايتباى أو على الشاطىء حوالى ثلاثين عمودا من جرانيت أسوان

الأحمر بالإضافة إلى قطعتين أو ثلاثة من الجرانيت المرقش الجميل وقطعة من الرخام من بقايا فنار الإسكندرية.

وفى عام ١٩٣٩ قامت لجنة حفظ الآثار العربية بترميمات شاملة للقلعة ومن يومها أصبحت محط الاهتمام والرعاية.

وعند دخول ذلك الفراغ الفسيح والذى تحيط به أسوار مزدوجة لا يكسر صمت فراغه سوى تلك الأبراج العالية، والتى لاتزال أحجارها المتراصة وبياض حوائطها وتراب أرضها. وشحوب ألوانها بالمقارنة بزرقة البحر البراقة حولها، تحمل روح السلطان الأشرف قايتباى أعظم السلاطين الذين حكموا بر مصر. وكأنها تجلس فوق عرش السلطنة القابع فوق أبراج الحصن. وأن أشباح جنوده لاتزال تحرس رعايا السلطنة من كل عدو غاز.. ولدى دخول الباب الخشبى المكفت بالنحاس ويعلوه رنك السلطان أبوالنصر قايتباى تستحضرنا روح التاريخ.. وكأن جلبة أصوات المعركة تدور فى أذنيك وكأنك ترى المدافع الخشبية أو «المكاحل» تقف فى وضع الاستعداد لضرب كل سفينة تقترب من شواطئ المدينة.. وإن كان الأمر اختلف تماما الآن فأمام الفتحات والشبابيك التى تطل منها فوهات المدافع.. لا يكمن الخطر بل أصبحت مواطن عشق وتأمل.. فالصخور المحيطة بجدار القلعة المواجهة للبحر أصبحت مكان التقاء الأحبة.. وموقعا لتجمع الصيادين لانتظار الرزق.

ووسط ذلك الفناء الفسيح لا تملك سوى الاعجاب بعظمة السلطان قايتباى.. فآثاره تعد من أجمل الآثار المملوكية فى مصر. أجملها على الإطلاق مسجده وضريحه بصحراء المماليك وبالطبع قلعته. ويكفينا أن نعلم أنه حكم مصر نحو تسع وعشرين سنة لتكون أطول فترة حكم يتولاها سلطان.. خاصة أن فترة حكم المماليك حظيت خلالها مصر برخاء اقتصادى وقوة سياسية وازدهار فنى فى مجال العمارة.. مما دفع منظمة متاحف بلا حدود إلى اختيار مصر لتمثل الفن الإسلامى المملوكى . حيث تنافس أمراء المماليك على تشييد المنشآت الدينية والعمائر المدنية وحرصوا على إقامة أضرحة فخمة لدفن رفاتهم فيها. وقد اعتبر المؤرخون عصر المماليك (١٢٥٠هـ - ١٥١٦م) العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الإسلامية. حيث زادت الرغبة فى تشييد أنواع متعددة الأغراض مثل المدارس والحمامات والأسبلة والكتاتيب والحصون. أعظمها كما سبق القول السلطان قايتباى (٨٧٢هـ - ٩٠١هـ) فهو الذى واجه أطماع العثمانيين فى مصر وحاربهم وكسر شوكتهم وأرغمهم على مصالحته.

ويعتبر بناؤه لقلعته فوق جزيرة فاروس التى حملت فوق أرضها يوما منارة الإسكندرية إحدى عجائب الدنيا السبع، كان الخطوة الأولى التى خطاها



سقف الغرفتين الأثريتين بعد انهياره تماماً

المسلمون منذ دخولهم مصر في درب إعادة النظر والاهتمام بالإسكندرية.. فقد ظلت المدينة تعاني فترة طويلة من الإهمال والتمزقات والصراعات المتلاحقة.. لم يعن بها أحد خاصة بعد زوال سطوة البطالمة بانتحار مليكتها الجميلة كليوباترا السابعة. وعندما فتح العرب مصر عام ٦٤١ هـ أعجب عمرو ابن العاص بمدينة الإسكندرية إلا أن تشييده لمدينة الفسطاط واعتبارها عاصمة للبلاد أفقد الإسكندرية مكانتها التي كانت تتمتع بها كعاصمة للقطر المصري.. وقصر الاهتمام بها على إنشاء أسوار جديدة وبوابات مقابل البوابات القديمة فقط وإقامة بعض المساجد.

وكان أول من اهتم بالمدينة قايتباي، وإن كان اهتمامه عسكريا دفاعيا بالدرجة الأولى. ففي إحدى زياراته للإسكندرية وجد أن أبوابها وأسوارها في حالة يرثى لها.. حتى وصل بها الحال إلى أن أصبحت متاحة لكل غاز.. فأمر بتحصين المدينة.. وعند زيارته لموقع جزيرة فاروس وجد عليها كومة كبيرة من الأحجار والعناصر البنائية.. فأمر بإنشاء برج عام (٨٨٢هـ) واستجلب مهندسا مملوكيا مجلوبا من أوروبا كلفه بإعداد تصميم البرج على غرار

إحدى الكتل الجرانيتية التي استعان بها قايتباي في بناء قلعته

القصور والقلاع الأوروبية فى العصور الوسطى.. وأمر باستخدام جميع العناصر الموجودة على الجزيرة من أحجار الجرانيت والأعمدة والرخام وتماثيل الجرانيت فى بناء البرج الرئيسى والأسوار المحيطة به.

فى أعقاب سقوط دولة المماليك وبداية فترة الولاية العثمانية انحسر الاهتمام بالمدينة مرة أخرى حتى تقلص المعمار فيها داخل نطاق ما عرف باسم المدينة التركية وهى الجزء الواقع على الرقبة الممتدة من الشاطىء إلى جزيرة فاروس.. الأمر الذى أصاب علماء الحملة الفرنسية بالأسى على مدينة الإلهام والجمال.. مما حدا «بجراتيان لوبير» أحد علماء الحملة أن يسرد فى مقدمة دراسته عن الإسكندرية أبيات شعر لفولنى » يقول فيها:

«لقد أصبحت قصور الملوك مأوي للحيوانات الضارية

وأصبحت المذابح موقعاً للزواحف الدنسة

آه ! كم من مجد أفل نجمه

وكم اندثرت من روائع المنجزات

هكذا تفني أعمال البشر

هكذا تزول الإمبراطوريات والدول».

الأمر الذى جعل «لوبير» فى كتاب وصف مصر يتنبأ بزوال أطلال المدينة من فوق أرضها نتيجة انحدارها نحو الهاوية، وأنها ستتحول إلى خرائب، المصير الذى آلت إليه مدن جميلة منذ قرون غابرة . «مثل خرائب طروادة وأطلال بابل وطيبة وممفيس وتدمر وصور وقرطاجة وروما الحاكمة القديمة للعالم». ويذكر أنه «لم يعد يعيش بها سوى شعب صغير لايزال يقيم وسط خرائبه وتراب مقابره». ومعروف أنه عند مجىء الحملة بقيادة نابليون بونابرت (١٧٩٨ - ١٨٠١) كان عدد سكان المدينة لا يتعدى ٧ آلاف نسمة تناقص إلى ٦ آلاف بعد الحملة. كما يصف «لوبير» القلعة التى أطلق عليها اسم «حصن الفنارة» بأنها «برج مربع الشكل بنيت على جوانبه أربعة أبراج صغيرة. تعلو سطحها منارة بها فانوس توقد فيه النار ليلا».

★★★

وبعدما تجلت الذكرى أمامنا .. بدا لنا الواقع أوضح فنحن فى حاجة إلى وقفة طويلة لنفيق من غفوتنا.. فنحن أمة تملك من التاريخ والتراث الكثير والكثير.. فالآثار ليست مجرد طلل قديم يثير الذكرى داخل نفوسنا عن ناس كانوا قبلنا .. بل هى تاريخ طويل يستند عليه حاضرنا ومستقبلنا، وأعلم أن مهمة الحفاظ على الآثار مهمة ثقيلة يحملها المجلس الأعلى للآثار بمفرده.. فحجم الآثار التى تحويها أرضنا متعدد وكبير. يبدأ تاريخها قبل الميلاد بآلاف السنين ويمتد حتى عصرنا الحديث مما يعنى أننا أمة أصيلة.. لكن هذا لا يعنى أن نقلل من شأن أثر حتى لو كان حجراً صغيراً سقط دون أن ندرى. فما بال سقف غرفتين أثريتين حتى لو لم يكن السلطان قايتباى نفسه قد بناهما وإنما محمد على!. ■



من هندسة الطيران إلـى البيئـة

أسامة أمين الخولى

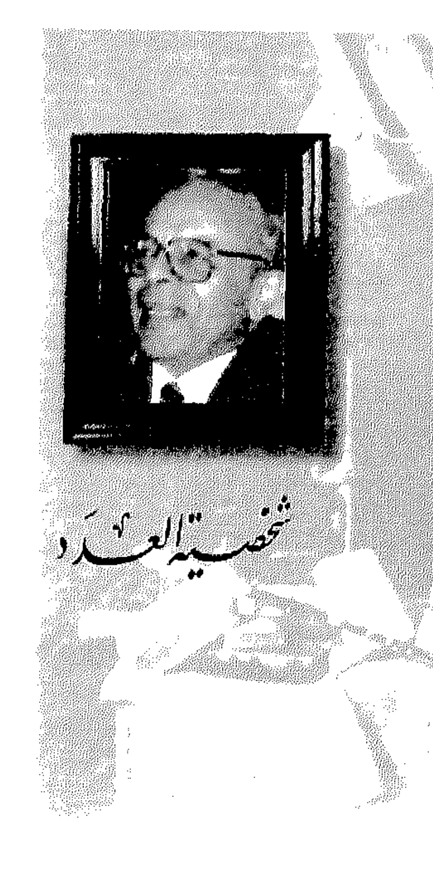
بقلم
د. رشدى سعيد

فقدت مصر بوفاة أسامة الخولى ١٩٢٣ - ٢٠٠١ فى شهر ديسمبر سنة ٢٠٠١ واحداً من أعز أبنائها الذين أحبوها وعملوا على تقدمها وسعوا لتحتل مكانها المرموق بين الأمم - ولد أسامة فى سنة ١٩٢٣ وتخرج فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٤٥ وأوفد فى بعثة إلى انجلترا فى ذلك العام نفسه لدراسة هندسة الطيران، وهو العلم الجديد الذى ساهم أسامة فى ادخاله إلى مصر عند عودته من البعثة - وخلال خمسينات وستينات القرن العشرين شغل أسامة ببناء قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة بجامعة القاهرة وكذلك فى انشاء صناعة الطيران الوليدة فى مصر ، وأقبل أسامة على عمله هذا بحماس وعدم أثرة قد يصعب على الجيل الجديد أن يتصورهما فقد كان واحداً من ذلك الجيل الذى امتلأ وطنية ورغبة فى تحقيق الحلم بأن يرى جامعة القاهرة بين الأعظم من الجامعات ومصر بين الأعز من البلاد.





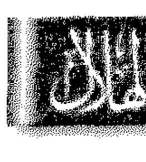
شديد الذكاء واسع الاطلاع



عرفت أسامة خلال سنوات البعثة في أربعينات القرن العشرين عندما جاء لزيارة بسويسرا حيث كنت أتلقى العلم فى معاهدها بناء على توصية من المرحوم مصطفى مصطفى مشرفة الملحق الثقافى بالسفارة المصرية بلندن ، وأحد القائمين على شئون مكتب البعثات بانجلترا حيث كان يدرس هو فيها وكان أسامة قريباً من ذلك الرجل الفذ الذى كان بالرغم من عجزه وتصلب مفاصل عظامه وهاجاً شديد الذكاء واسع الاطلاع مليئاً بالأفكار غير التقليدية المثيرة للشك فى كل ما درجت عليه حياتنا واخذناها كما وجدناها دون تمحيص - وكان المكتب الثقافى فى لندن ينشر فى ذلك الوقت نشرة دورية تحت اشراف مصطفى مشرفة الذى اختص أسامة من بين طلاب البعثة بالرعاية لتوسمه فيه الذكاء والقدرة الهائلة على الاستيعاب والتمكن من اللغة الانجليزية . وقد حمل أسامة لى طلب مصطفى مشرفة بأن أواظب على الكتابة فى نشرة مكتب لندن واعجابه بالخطاب الذى أرسلته للنشرة عما يمكن أن تكتتبه مصر للحضارة العالمية التى كنت ولا أزال أؤمن بأن مصر ينبغى أن تدخلها بكل ثقلها - وانى أذكر هذه الحادثة بالذات ليس فقط لأنها كانت مبدأ معرفتي بأسامة بل لأبين بها الدور الكبير الذى لعبه مصطفى مشرفة فى تشكيل أسامة وتوجيه حياته فقد استمرت علاقتهما بعد عودته من البعثة، حين عمل مستشاراً لدار الطباعة التى كان قد أنشأها مصطفى مشرفة منذ عودته إلى القاهرة وفيها تعرف على ناهد حبيبة عمره ورفيقته وزوجته وأم بنته أماني وابنه أمين والتى كانت تعمل بالدار فى ذلك الوقت.

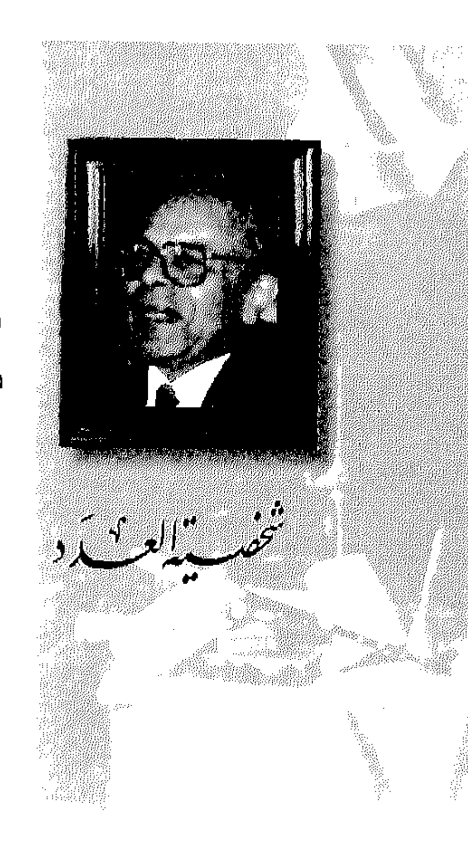
- نهل العلم وأمسك بطرفه حتى أصبح موسوعى المعرفة

وظللت على اتصال بأسامة منذ ذلك الوقت وازداد قربى منه خلال الستينات عندما ساهم فى تأصيل دعوتي لإصلاح وتطوير جامعة «الأعداد الكبيرة» التى جاء بها العصر لكى تتواءم وأحواله - وهى الدعوة التى كنت قد بدأت عملى بها كأمين للجامعات بالتنظيم السياسى الذى كان قائماً فى ذلك الوقت - وكان أسامة من أشد المتحمسين لهذه الدعوة وقد ساهم فى تأصيلها وكتب عن نظرته فى تطوير التعليم الهندسى فى جريدة الأهرام مرات عديدة.

ولما جاءت أحداث كارثة سنة ١٩٦٧ وتعطل العمل فى المشروع النهضوى الذى كانت مصر تقوم به وجندت كفاءاتها لإزالة آثار العدوان انتدب أسامة للعمل مستشاراً ثقافياً ومسئولاً عن مكتب البعثات بموسكو انتقل بعدها للعمل بالجامعة العربية أميناً لمنظمة التربية والثقافة والعلوم بها ..

وفى منتصف السبعينات تغيرت توجهات أسامة عندما حل به - كما حل بالكثير من المفكرين والمثقفين - احباط كبير بسبب التغيرات الكبيرة التى حدثت فى تلك السنوات والتى اضطرت مصر تحت ضغوط دولية أن تهجر مشروعها النهضوى وأن تقبل تقليل طموحاتها ودورها فى العالم - وقد عبر الدكتور مصطفى سويف عن هذا الاحباط أحسن تعبير فى مقاله المهم «وكان العام ١٩٧٤» والذى نشر بالهلال بعدد ديسمبر سنة ٢٠٠١ - وفى تقديرى أن هذا الإحباط هو الذى حفز أسامة على تغيير توجهاته والخروج من المحلية إلى العالمية ثم الإقامة خارج الوطن عندما استطاع أن يجد فى الكويت ثم فى البحرين ومنذ عام ١٩٨١ مكاناً يسمح له بتحقيق هذه التوجهات الجديدة، والتى شغل فيها بخدمة القضايا الانسانية العابرة للحدود والتى اختار منها قضية البيئة لكى يسبر غورها ويتعلم مبادئها ويفك أسرارها ويتخصص فيها وقد فعل ذلك باقتدار يثير الإعجاب فقد استطاع أسامة أن ينتقل من تخصص هندسة الطيران إلى تخصص علم البيئة فى يسر لم يكن ممكنا إلا لشخص قدير. وفتحت صداقة الدكتور أسامة للدكتور مصطفى طلبة - الذى كان قد اختير مسئولا عن برنامج الأمم المتحدة للبيئة - الطريق أمامه لكى يصول فى هذا الميدان الجديد الذى أصبح فيه حجة دولية وفارساً لايشق له غبار وخبيراً لا يمكن الاستغناء عنه سواء على مستوى المنظمات الدولية أو الحكومات على اختلافها وقد وجدت فيه الحكومة المصرية عونا لها فى تشكيل سياستها البيئية وكتابة المذكرات الخاصة بها وتمثيلها فى مختلف الاجتماعات والمؤتمرات الدولية.



● كان ثاقب البصيرة قادراً على تقديم مادته العلمية في لغة سليمة وسلسة

متمكن من مادته

وقد رأيت بنفسى تلك المكانة العالية التى حظى بها بين العاملين فى ميدان البيئة عندما حضرت المؤتمر الدولى الذى عقد ببرلين فى سنة ١٩٩٥ لمناقشة موضوع أثر التغيرات المناخية على البيئة فوجدت أسامة فيه نجما من النجوم تكاد تدور كل المناقشات حوله فقد كان متمكناً من مادته ودارساً لكل جوانبها وبطريقة مبهرة .

والدارس لمختلف المبادرات التى تمت فى مجال البيئة على مستوى العالم عبر الخمس وعشرين سنة الماضية لابد وأن يلحظ بصمة أسامة عليها فقد كان واحداً من أهم من ساهموا فى بناء هذه المبادرات وتحريكها وكتابة مذكراتها وتأصيلها وتقديمها إلى المجتمع العالمى. كان أسامة ثاقب البصيرة قادراً على تقديم مادته العلمية فى لغة سليمة وسلسة وعارفاً بقواعد اللعبة وراضياً على العمل خارج الأضواء - وتشهد المبادرات والمذكرات التى أعدها والكتب التى مررها والخطب التى دبجها له ولغيره من المسئولين عن شئون البيئة باكتتاباته الضخمة فى هذا الميدان. وإذا أردت أن أفرد من بين المبادرات الدولية فى شئون البيئة ماساهم فيه أسامة بقدر كبير لاخترت منها تلك التى تخص مجابهة التغيرات المناخية والمنظمة للتنمية المتواصلة والحاكمة للانتاج الصناعى النظيف، وبالإضافة إلى ما اكتتبه أسامة فى ميدان البيئة فقد ساهم في ميادين كثيرة أخرى لعل من أهمها مساهمته فى ميدان الكمبيوتر وطريقة ادخال الحرف العربى فى برامجه وكذلك فى ميدان نقل التكنولوجيا وغير ذلك الكثير .

كان أسامة واحداً من ذلك الجيل الذى عرف الدنيا وأحب الحياة والانسان وعشق الموسيقى والسفر والجمال، نهل العلم وأمسك بطرفه حتى أصبح موسوعى المعرفة بغير نظير فى كل ميدان دخل فيه - رحمه الله.

د. أسامة الخولى

وداعـــــا

بقلم

د. محمد عبد الفتاح القصاص

رحل إلى رحاب الله الأستاذ الدكتور أسامة أمين الخولى ١٩٢٣ - ٢٠٠١ ففقدت العشيرة العلمية فى مصر طودا يستدفىء فى كنفه المعاصرون ورمزا يقتدى به الآتون. كان الزملاء والإخوان يجدون فيه السند والعون فيما يشغلون به أنفسهم من الجهد العلمى والخدمة العامة. وكان الأبناء من قادة العلم فى الغد يجدون فيه العون العطوف والارشاد المخلص والسند القوى. كان خزائن غير ذات أقفال للعلوم والمعارف، ونبع حنان ورفق وعطاء، كل ذلك ميسر لكل راغب.

فقدت مصر معلما من معلمى أبنائها بكليات الهندسة والاقتصاد ومعاهد التخطيط الاقتصادى والتنمية ومؤسسات الطيران والبيئة والبحث العلمى والمجالس القومية المتخصصة، وخادما جعل نفسه لوطنه دون سؤال، وبيرقا خفاقا يحمل اسم مصر عاليا فى مجتمعات العلم ومحافل الفكر العالمية . كان سمته العمل الجاد بغير جلبة، والعطاء المتميز فى هدوء الجدول ورقة النسيم، والجهد الذى لا يفتر ولا ينتظر الأجر.

ولد أسامة ، واحد من أبناء الرائد المصرى العظيم أمين الخولى، فى أكتوبر ١٩٢٣ . نشأ فى بيت يملؤه عطر الثقافة ونفح الفكر المستنير، واحترام العقل وتكريم الإنسان، ورث أسامة فى قراره الباطن كل هذه العناصر النبيلة وبقيت معه حتى استقر بين يدى الله فى ديسمبر ٢٠٠١.

تخرج فى كلية الهندسة جامعة القاهرة عام ١٩٤٤، حاصلا على درجات الامتياز والشرف التى يؤهل لها النبوغ ، وأوفد فى بعثة لدراسة هندسة الطيران بجامعة لندن

وحصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٥١، وعاد ليخدم فى جامعة الإسكندرية (١٩٥١ - ١٩٥٨) واستقدمته جامعة القاهرة عام ١٩٥٨ لينشىء أول قسم لعلوم هندسة الطيران فى مصر، ويساهم بذلك فى تحديث مصر والدخول بها إلى معاصرة زمان التكنولوجيا المتقدمة . وقد ظل السعى للدخول بمصر والعالم العربى إلى هذا الزمان موصولا فى حياة الأستاذ الدكتور أسامة الخولى حتى يوم وفاته.

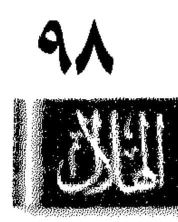
عطاؤه العلمى

شغل منصب المستشار الثقافى والعلمى فى السفارة المصرية بموسكو بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٥. يذكر المبعوثون المصريون إلى جامعات الاتحاد السوفييتى كيف كان كل واحد منهم موضع اهتمامه ومتابعة دراسته ورعاية حياته. وتذكر الجامعات المصرية والهيئات العلمية كيف كان يتابع خطى التقدم العلمى والتكنولوجى فى الاتحاد السوفييتى وينقل متابعاته إلى حيث تكون الافادة منها. ويذكر زوار موسكو من رجال الجامعات ومراكز البحوث كيف كان فى عونهم لانجاز مهامهم وكيف وجدوا منه ومن أهل بيته الرعاية وكرم الضيافة. ويذكر العاملون بالسفارة كيف كانت مصالح مصر موضع اهتمامه البالغ وحرصه الوطنى الفائق. كل ذلك مع خلق دمث وقصد مستقيم.



شغل منصب المدير العام المساعد للعلوم فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بين عام ١٩٧٧ وعام ١٩٨٠، فعكف على اثراء برامج عمل المنظمة فى مجالات العلوم والتكنولوجيا والبيئة، فلما كانت أحداث القطيعة العربية لمصر وانتقل مقر المنظمة من القاهرة إلى تونس ظل بالقاهرة حافظا لما بقى من المنظمة وفروعها (معهد الدراسات العربية ومعهد المخطوطات العربية) أمينا على وثائقها ومتابعا لبرامج عملها فى صبر.

فيما بين ١٩٨١ و١٩٨٩ شغل منصب كبير الخبراء فى معهد الكويت للبحوث العلمية. اتيحت لهذا العالم الجليل والإنسان النبيل مجالات العمل فى خدمة العلم والتقدم التكنولوجى والترقى الثقافى فى دولة الكويت وإشعاعها إلى منطقة الخليج جميعا. لم يقتصر جهده على واجبات عمله فى معهد الكويت إنما أفادت من وجوده مؤسسات العلوم والثقافة فى الدولة: مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (خاصة مشروعها لإصدار ترجمة عربية لمجلة العلوم الأمريكية)، نادى العلوم الكويتى، جامعة الكويت، جمعية



الكويت لتقدم الطفولة، مؤسسة الشارخ لتطويع اللغة العربية للحاسبات الآلية وتطوير برامجها التعليمية والثقافية. أى أنه كان بؤرة إشعاع علمى وثقافى باهر. كان فى سنوات إقامته بالكويت موضع المودة والاحترام، واحاطت به وباسرته الصداقات والمحبة. فلما كانت نكبة الغزو العراقى كان بيت أسامة الخولى بالمعادى رحبا للأحباب من الكويت. هكذا كان هذا العالم الإنسان رجل العطاء بغير حدود.

فى السنوات الخاتمة من حياته شغل أسامة الخولى كرسى إدارة التكنولوجيا ومدير برنامج تطوير التكنولوجيا فى جامعة الخليج العربى ومقرها المنامة عاصمة البحرين. فى هذا المنصب واصل مساعيه للدخول بأهله فى مصر والعالم العربى إلى مجالات التكنولوجيا المتقدمة وطرائق تطويعها لخدمة التنمية فى البلاد العربية. بانتقاله إلى رحاب ربه فقدت الأمة العربية واحدا من أجنادها ذوى العزم والبصيرة والبذل السخى. فى كل موقع كان العطاء المتميز الذى يعتمد على حصيلة علمية وتقنية قل لها النظير، وعلى نفس راضية يتدفق منها العمل النافع قطرة كما يخرج الماء النقى الشافى من النبع الثر.

• كان فى الجامعة الاستاذ والعطاء بغير حدود وبغير لوائح

فى مجال البيئة والتنمية

بوفاته فقد العالم واحدا من علمائه الأفذاذ الذين ساهموا فى بلورة الرؤى العالمية فى مجالات البيئة والتنمية، كان له دور بارز فى وضع برامج جامعة الأمم المتحدة (طوكيو) ومشروعات البحوث والدراسات التى عكفت عليها. كان خبيرا مبرزا لمنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (ڤيينا) وخاصة فى مجالات السياسات التكنولوجية وتقنيات المعلومات، وأشرف على برامج العون لعدد من الأقطار العربية. وكان له دور بارز فى نشأة مركز الأمم المتحدة للصناعة والبيئة (باريس) وفى تطوير برامجه وتحرير تقاريره ومنشوراته، وكان واحدا من كبار مستشارى برنامج الأمم المتحدة للبيئة (نيروبى) وخير عون لمدير البرنامج العالم المصرى الدكتور مصطفى كمال طلبة، وكان عضوا فى هيئات التحرير لعدد من المؤلفات والموسوعات الدولية فى مجالات العلوم البيئية.

من أبرز انجازاته وأبقاها وضع وتحرير التقرير الموسوعى عن حالة البيئة فى العالم من ١٩٧٢ إلى ١٩٩٢.

شارك فى هذا العمل الفذ الدكتور مصطفى طلبة وفريق من علماء العالم. يقع هذا التقرير فى قرابة الألف صفحة وهو سجل موثق لتطور أحوال البيئة فى العالم منذ كان مؤتمر الأمم المتحدة الأول عن الإنسان والبيئة والذى عقد فى ستوكهولم (السويد) حتى كان مؤتمرها الثانى عن البيئة والتنمية والذى عقد فى ريو دى جانيرو (البرازيل). هذا انجاز لا يقدر عليه إلا ذوو العزم .

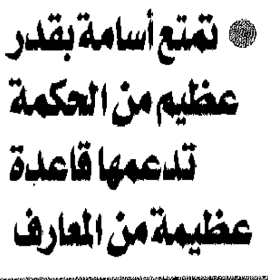
كنت قد طلبت من العالم الكندى البارز تدمن أن يزكى الدكتور أسامة الخولى لجائزة دولية، وأترجم هنا نص خطاب هذا العالم:

«يسعدنى أن أثنى تزكية أسامة الخولى لجائزة ساساكوا للبيئة لعام ٢٠٠١، فهو مرشح يستحق ، ويملؤنى التعجب لأنه لم يحصل على هذه الجائزة من قبل.

عملت مع أسامة منذ الثمانينات خاصة كمؤلفين ومحررين لمجلد برنامج الأمم المتحدة للبيئة (بيئة العالم : ١٩٧٢ - ١٩٩٢) . لقد أمضينا ساعات طويلة فى نيروبى وفى جنيف نضع معا فصول هذا الكتاب الضخم. وبعد الانتهاء من هذا العمل، عملنا معا هو كمؤلف لعدة فصول وأنا والدكتور مصطفى طلبة كمحررين للمجلد الرابع من موسوعة تغيرات البيئة العالمية للناشر جون ويلى، وكان أسامة الخولى هو مستشار التحرير فى مجالات الهندسة والتكنولوجيا والأوجه الاقتصادية للتغيرات الكونية والتنمية المستديمة والبيئة . وقد كتب أسامة الخولى فصول المجلد الرابع عن :

- اتجاهات الإدارة البيئية في الأربعين سنة الأخيرة.
- الإنتاج الأنظف.
- البيئة والعلامات البيئية.
- تاريخ حياة مصطفى كمال طلبة.





إسهاماته دوليا

يتمتع أسامة بقدر عظيم من الحكمة تدعمها قاعدة عظيمة من المعارف التى تتجاوز مجال تخصصه (هندسة الطيران). بهذه الموهبة، أضاف إلى جهود توسيع المفاهيم البيئية لطلاب كليات الهندسة فى مصر وفى جامعات الشرق الأوسط. إن اسهاماته فى جهود الأمم المتحدة كانت بارزة، واتسع مدى تأثيره من خلال الاجتماعات الدولية إلى زملائه فى سائر أركان العالم . أنا شخصيا أخذت كثيرا من عمق بصيرته، وخاصة فى

موضوعات الهندسة البيئية وقضايا الشمال والجنوب.

أود أن أؤكد أن علماء البيئة فى أقطار الأرض جميعا سيسرهم اختيار أسامة الخولى ليفوز بهذه الجائزة لعام ٢٠٠١ ». لكن قضاء الله كان أقرب إليه من الجائزة، رحمه الله.

الإشعاع العلمى والروحى

كان فى الجامعة الأستاذ المعطاء بغير حدود وبغير لوائح، وتلاميذه من طلاب البكالوريوس وما بعدها يذكرون عنه الإشعاع العلمى والروحى. كان عضوا بالمجلس القومى للتعليم والبحث العلمى والتكنولوجيا منذ ١٩٧٧، وعضوا فى مجلس إدارة مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس (١٩٧٧ - ١٩٨١)، وأشرف على برنامج المعونة الأمريكية لإكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا لانشاء أول شبكة معلومات علمية (١٩٧٠ - ١٩٨١)، ورأس لجنة تطبيقات علوم الحاسب الآلى (١٩٧٩ - ١٩٨١)، وكان المحرر العلمى لسلسلة كتب العلم للجميع (١٩٦٨ - ١٩٧١)... إلخ. لم يرفض قط طلبا للعون . كان عمله لمصر أقرب إلى العشق الصوفى: فناء فى المحبوب.

● أبرز إنجازاته وضع التقرير الموسوعى عن حالة البيئة فى العالم من ١٩٧٢ الى ١٩٩٢

عندما استقرت تنظيمات الشئون البيئية فى مصر بإصدار القانون الموحد رقم ٤ لسنة ١٩٩٤، كان الفقيد فى عون جهاز شئون البيئة ووزارة الدولة لشئون البيئة، وأورد هنا ترجمة لخطاب السيدة الأستاذة نادية مكرم عبيد وزيرة شئون البيئة (السابقة) تزكية لترشيح أسامة الخولى للجائزة الدولية التى أشرت إليها، وفيه بيان عن جهده فى عون مؤسسات البيئة فى مصر.

منذ توليت منصب وزير الدولة لشئون البيئة، تلقيت منه العون الفنى الذى لا يقدر فى وضع برامج العمل، وفى تنفيذ العديد من هذه البرامج، وخاصة:

● أول برنامج وطنى لمكافحة التلوث الصناعى.

● أول برامج تجريبية فى مجالات صناعات النسيج والأغذية.

● برنامج البنك الدولى لمكافحة التلوث الصناعى.

● خطة العمل لتطبيق الالتزام بالقواعد البيئية فى الصناعات الرئيسية.

وقد اتصل جهده لعدة سنوات المستشار الرئيسي لوحدة الأوزون الوطنية، وهى المنوط بها وضع وتنفيذ برامج استجابة مصر لبروتوكول مونتريال، وهى الوحدة التى تابعت التزامات مصر فى مجال عمل هذا البروتوكول. وكان الدكتور الخولى المنسق والمدير التنفيذى للبرنامج الوطنى للدراسات المتصلة بتغير المناخ والاستجابة للاتفاقية الدولية عن تغير المناخ. وقد وضع وشارك فى مناهج دراسية فى كليات الهندسة عن الهندسة البيئية والإدارة البيئية ، وتبقى وزارة الدولة لشئون البيئة وجهاز شئون البيئة مدينين للعون الذى بذله هذا العالم الفذ والبيئى الملتزم.



إسهاماته عربيا

أما فى الإقليم العربى، فإن الدكتور الخولى نهض فى أثناء شغله لوظيفة المدير العام المساعد للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٠، بإدارة عدد من البرامج البيئية المهمة ، منها:

● مشروع الحزام الأخضر لدول شمال أفريقيا (بالتعاون مع الأمم المتحدة).

● برنامج حماية بيئة البحر الأحمر وخليج عدن.

● برامج للتربية البيئية فى مدارس وجامعات الأقطار العربية.

● تنسيق مشاركة الأقطار العربية فى مؤتمر التصحر (١٩٧٧).

● اسهاماته فى قضايا البيئة علامات بارزة تستحق الاعتراف والتقدير

وفيما بين ١٩٩٥ و٢٠٠٠ شارك الدكتور الخولى فى التخطيط والتمهيد لمشاركة الأردن ولبنان والبحرين ومصر فى اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية عن تغير المناخ ، وإعداد التقارير الوطنية فى هذا المجال، وكان له اسهام جوهرى فى وضع التقارير البيئية الإقليمية للإقليم العربى.

إن إسهامات الدكتور الخولى ذات الصلة بقضايا البيئة فى مصر وفى الإقليم العربى وفى العالم ، علامات بارزة تستحق الاعتراف والتقدير الذى تمثله الجائزة.

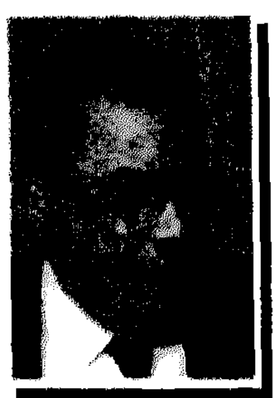
هذه لمحات من حياة الإنسان الذى فقدناه.

إنسان جمع بين البناء العلمي ذى القواعد المكينة، والعقل النابغ والمشرق كضياء الشمس، نور ودفء، والقلب الممتلىء بالمحبة والعطف، والنفس التى ترضى بالعطاء وتنفر من الأخذ. ■

أقوال معاصرة

● «التكفير أمر خطير ، على المسلمين عدم الخوض فيه وتركه لأهل العلم الراسخين» !

الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله آل الشيخ
مفتى عام السعودية


د. جابر عصفور

● «لغة الاتهام هى السائدة ، وأداتها التخوين والتكفير» !

د. جابر عصفور
أمين عام المجلس الأعلى للثقافة

● «حظر الموسيقى أمر مستحيل شأنه فى ذلك شأن منع الطير من التغريد» !

الكاتبة البريطانية سوزانا طربوش



● «الابداع مغامرة ، ورحلة فى المجهول وارتياد طرق غير مألوفة» !



الشاعر الأردنى أمجد ناصر


جورج روبرتسون

● «القوة بلا حكمة أفضل وصفة لتدمير العالم» !

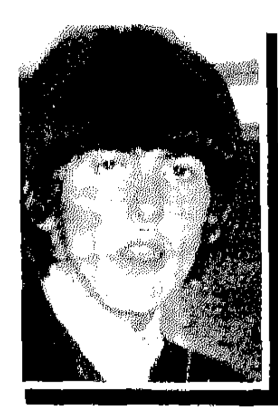
المفكر التونسى العفيف الأخضر

● «أمريكا تلعب دور المصارع فى روما القديمة» !

الأستاذ برتران بديع
المنحدر من أصل إيرانى

● «الدوافع السياسية أو الدينية لايمكن أن تبرر قتل الأبرياء» !

چورج روبرتسون
أمين عام حلف الأطلسى


جورج هاريسون

● «مشكلة المثقف العربى عندنا أنه يسير وراء السياسة وليس بالاستقلال عنها ، يطل وراء الأحداث ، لايستبقها لايستشرفها» !

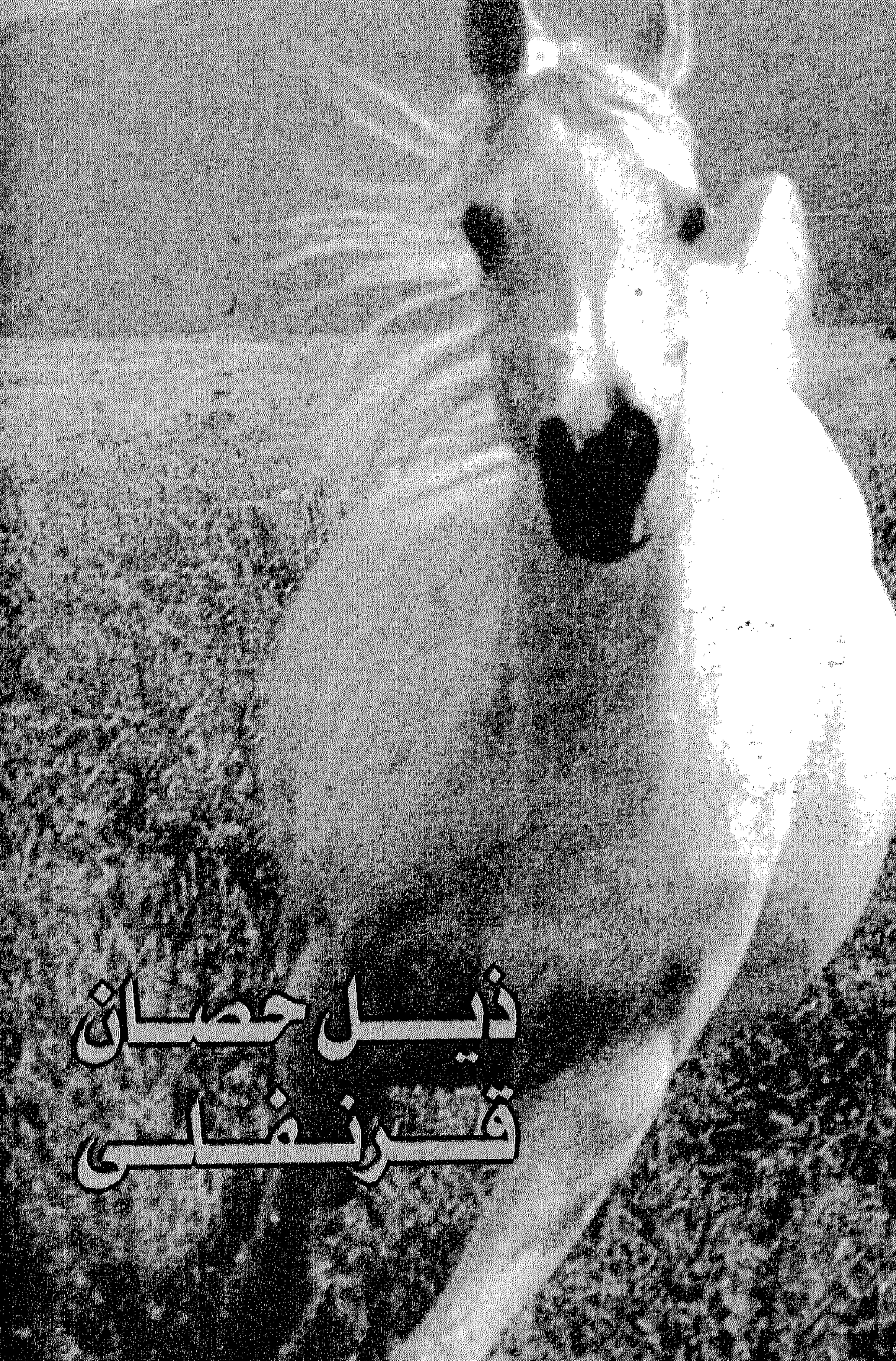
الشاعرة الكويتية سعدية مفرح

● «كنا مثل قردة فى حديقة الحيوان» !

چورج هاريسون
أحد فريق الخنافس

● «أفغانستان بلد فقير ، نسيه بنو الإنسان» !

ظاهرة ظاهر أمريكية منحدرة من أصل أفغانى وحلاقة چورج ووكر بوش


ذيل حصان
قرنفلي

شـــعـــر
د.أحـمدتيـمـور

كحصان

أركض فوق الأرض

لأهرب من شفتيّ

صهيلاً وصدى

أركض

حتى تختفى قوائمى الأربعة

وحتى أتبدد جسداً

يتبقى منى ذيل حصان

يلتف على خصر قرنفلة

يسألها أن يعبر معها الآماد

مدى

فمدى

فيلفّ شذاها المفرود الأبعاد جميعا

ويسافر

لنجوم لا عدد لها

فى أنحاء الكون

فيحصيها عددا

●●●

للعشق

تعشقه فى الأرض

وفى الآفاق

وإنى للعشق نذرت الشعر

وللشعر نذرت أناهيدى

ونذرت من الكفين

لأوراقى البيضاء يدا

أنشىء شعرى إنشاء

فوق الأمكنة المغلقة

جسوراً

تفتحها للمطلق

أنشده

عبر الأزمنة الموقوتة

أبدا

أرسمه فوق شغاف القلب

نياطا من شغف عشبى اللون

وأنظمه فى فوضى العقل

ترانيم هدى

●●●

كحصان

أركض فوق الأرض

وأصهل

تنفتح

أمام فمى المدن الذهبية

أقرأ فوق البوابات:

الأمس هو اليوم

إذا ما كان اليوم غدا

أدخل

مدن الذهب الواعد
أبحث
عن بيت حبيبى
فأرانى داخله أرقد
فوق سرير من ورق الورد
وفوقى
من نفس الورد ندى

●●●

كان هنالك
عصفور أخضر
خلف النافذة
سألت العصفور
عن الرجل الراقد فوق سرير الورد
فقال لماذا تسأل عنك
ورفرف بجناحيه وطار
ولما طار شدا

●●●

يا ذاك الباحث عن نفسك
نفسك فى نفس حبيبك
وحبيبك
فوق محياك بدا
وتثنى
في عودك
فاضرب ريشتك على عودك
يتردد فى أنحاء الدنيا
صوت وجودك
إنك إن لم تفعل يا شاعر
ضاع العمر سدى

قلت له:
يا عصفور الجنة
إنى أرغب أن أخبر كل الناس
بأنى أحيا حلمى
قال رويدك يا شاعر
لا تخبر عن كنزك أحدا
لا تسكب حلمك
فوق جفون الغافين
فأنت الخارج عنهم
أنت الداخل فى لحم حبيبك
أنت المتوسد منه القلب
وأنت المفترش الكبدا
أنت المكسو بجلد الشمس
فكيف تعرض نفسك للريح
وتطلب من عاصفة الثلج البردا

●●●

أنت الناجى
من ثلاجة أرواحهم
أنت الراجى
دفء فنائك في ذات العشق
المعصوم من الوحدة
فاحمد ربك يا شاعر
قد سمع الله لمن حمدا
مجد سيِّدك المانحك الشعر
خلاصا وهوى
وروايات ورؤى
ورسوما كاشفة للروح



وموسيقى

تتدفق فى شريانك

مددا

يتبع مددا

●●●

خيَّرك الخالق

بين الشعر وبين النثر

اخترت النجم النابض

واللهب القابض

بالكف على الجمر

ومازال الجمر بكفك متقدا

مازال العشق حريقا

يسرى فى الجسد وفى الروح معا

لتضىء الروح إلى الأبد

وينطفىء الجسد رمادا

يذروه على منعطفات النسيان ردى

تبقى الروح

ويفنى الجسد

فهل يبقى غير الباقى

والفانى يتفانى بددا

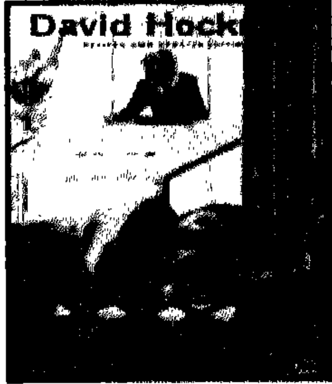
فى البحر اللؤلؤ والزبد

سيمكث فى شكل حبيبات الضوء

اللؤلؤ

والزبد سيذهب زبداً

من أعلام الفن المعاصر



المصور



بين التقليدية والحداثة

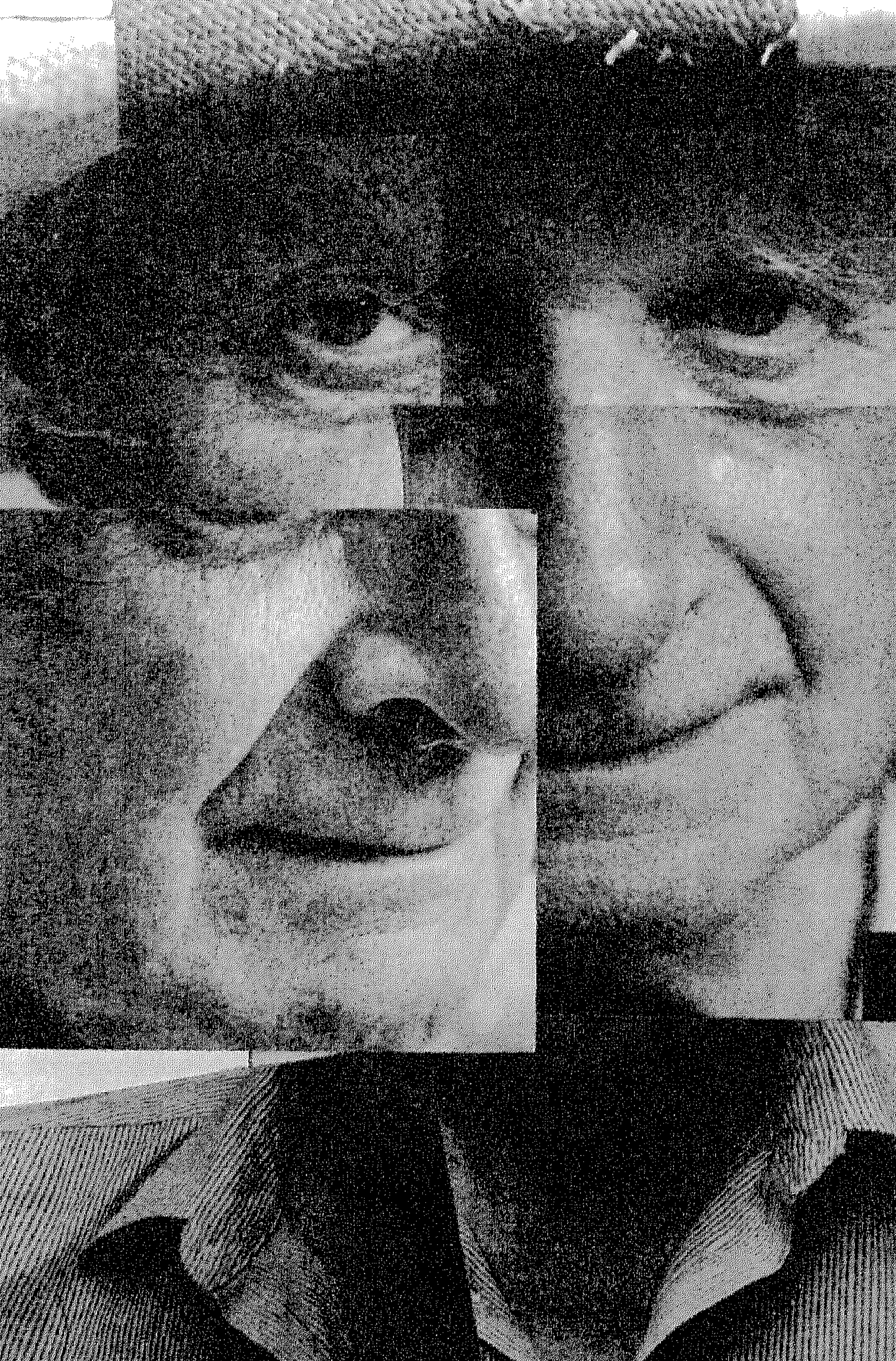
بقلم
د. صبرى منصور

لم يلق فنان إنجليزى معاصر ما لقيه ديفيد هوكنى من ذيوع وانتشار على مستوى العالم، فهو بأسلوبه الفنى الفريد الذى جمع فيه بين معالم الحداثة وبين العناصر التقليدية ، قد قدم النموذج على أن الأسلوب الفنى السائد لا يجب أن يفرض على الفنان، بل يجب أن يكون تابعاً منه، وواحداً من أدواته التى يسخرها جميعاً من أجل توصيل أفكاره الخاصة ورؤيته الذاتية.

ولد هوكنى - الذى يبلغ الرابعة والستين من العمر - فى بلدة براردافورد بمقاطعة يوركشير، وفى مدرستها الثانوية كان ضجراً من المواد الدراسية، واكتشف ميله إلى الفنون فصمم منذ ذلك الحين على أن يكون فناناً. وفى بلدته الصغيرة كان الفن الوحيد المعروف هو فن الملصقات ورسم اللافتات، وكان لوالده اهتمام محدود بالفن ينحصر فى طلاء الأشياء القديمة بغية تجديدها، وقد جذبت هوكنى منذ طفولته فكرة انغماس الفرشاة فى الأصباغ والطلاء.

وفى سن الحادية عشرة التحق بمدرسة الفن فى بلدته حيث تلقى فيها الدراسات الأكاديمية البحتة، ورغبة فى

الشاعر ستيفن سبندر صورة مجمعة ١٩٨٥



مـواصلة دراسـة الفن المعـاصـر الذى التـقى ببـعض نماذجـه فى كل من لندن وليـدز، التـحق بالكليـة الملكيـة للفنون فى لندن فى عام ١٩٥٧. وقد تعرف فى تلك الفترة على أعمال بيكاسو الذى قوبل فى إنجلترا إبان الخـمـسـينات بدرجـة من الفتور، خصوصاً فى الأقاليم التى كانت تسودها نزعة تقليدية محافظة.

إشكالية الشكل والمضمون

بدأ هـوكنى حـيـاته الفنيـة برسـوم تقليـدية لم تكن متـميـزة عن الأسـاليب المحـافظة السـائدة فى بلدته الإقليـمـيـة، ولكنه عندما انتقل إلى لندن أدرك أنه لن يستطيع الاستمرار فى الرسم بأسلوب تقليدى، وكـان عليـه أن يجـد فى البـحث عن أسلوب آخر يكون أصدق تعبيراً عن ذاته، فى نفس الوقت الذى تعـرف فـيـه على مدارس الفن الحديث التى لم يفضل إحـداها على الأخـرى، وإن كـان هـناك بعض الفنانين الذين انجذب إلى أعمالهم وتركوا بصمة واضحة على إنتاجه الفنى فيما بعد مثل بيكاسو وخاصة رسومه فى الثلاثينات وكذلك لوحة «الجورنيكا» ولوحـتـه التكعـيـبـيـة المعـروفـة «المرأة البـاكيـة»، كمـا كـان لكل من ڤان جـوخ ومـاتيس تأثيـرهـمـا أيضـاً على رسـوم هوكنى فى تلك الفترة وما تلاها.

وفى عـام ١٩٥٦ اقـيـم فى «التـيـت جـاليـرى» مـعـرض احـتوى على لوحـات أمـريكية تنتـمى إلى الاتجـاه التـعـبـيرى التـجـريدى، وشـاهـد هوكنى فى ذات الوقت مـعـارض لكل من المصـورين التـجـريديين الأمـريكيين روثكو وبولوك، ولقد كان للأعمال التجريدية الأمريكية تأثير كبير على دارسى الفن الصغار ومن بينهم هوكنى، فلقـد رأوا أن الرسم الأمـريكى أكـثـر إثارة وتشـويقـاً من أسلوب الرسم الفرنسى الذى أخذ أثره يتضاءل ويتلاشى لتحل محله التجريدية التعبيرية الأمريكية، وكـان ذلك سـبـباً دعـا هوكنى إلى تجـريب هذا النوع من الأسلوب، فأنتج خلال عامى ١٩٥٩ و١٩٦٠ حوالى عشرين عملاً اعتمد فـيـهـا أسلوبه على مـزيج من إنتـاج بولوك وآخـرين، وللأسف لم يبق سـوى قليل من هذه الأعمال، إذ إن العديد منها قد دمره هوكنى أو رسم فوقه من جديد.

فى تلك الفترة كان هوكنى يرسم طوال الوقت، وكان فكره مشغولاً بكيفية العثور على ملامح ذاتية فى فنه، وأن يحدد ملامح شـخـصـيـتـه، وأن يضع يده على سـمـات أسلوب فنى متفرد وكان دائم الشكوى بأن أياً من أعـمـاله فى تلك الفـتـرة ينتـمى له شـخـصـيـاً. وقـد نصـحـه صـديقـه وزميل دراسـتـه الفنان رون كـيـتـاج بأن يبـدأ فى التعبير عن الموضوعات القريبة إلى نفسه - وكان هوكنى حـينذاك نبـاتيـاً مـتـحـمـسـاً ومهـتمـاً إلى حد مـا بالسيـاسة - لكنه لم يكن يملك القوة الكافية لرسم الأشكال، إذ إن تشـخـيص الأفكار كـان مـبـدأ ينـاقض مـفـهوم الحداثة، ولقد تبين له أنه لكى يكون فناناً حـداثيـاً فـإن عليـه أن يـهـجـر كليـة الموضـوع والمضـمـون، أى أن يخـلع رداء الواقـعـيـة لينطوى تحت رداء آخـر هو رداء الحـداثة الذى يتـجـاهـل الموضـوع وينكر الشكل الإنسـانى. ولقد أدرك سريعاً حاجته

السيد والسيدة كلارك وبيرسي ١٩٧١

زواج الاساليب أو الزوج الأول ١٩٦٢

إلى البحث عن صوته الخاص، وهو فى سبيل تحقيق ذلك قد رفض التطرف فى الشكلية التجريدية لانها فى رأيه تفتقد المضمون الإنسانى، وفى نفس الوقت ابتعد عن المفهوم التقليدى للتشخيصية لكونها قد أضحت طرازاً عتيقاً عفا عليه الزمن. وهو فى النهاية قد شعر بالحاجة إلى الموضوع ولكن فى صورة متميزة فى لوحاته كوسيلة لإسعاد وإمتاع المشاهد.

وقد كتب هوكنى فى دليل معرضه الذى أقامه فى لوس أنجلوس خلال الستينات «أنا رسام تقليدى، ولكن حين ينظر المرء إلى أعمالي من زاوية المحتوى ، فإنه يجدها ذات محتوى واضح، فلقد كان الشىء الرئيسى فى أعمالى هو الموضوع، ، ثم قليل من الاهتمام بالمظهر والشكل، وكذلك؛ كنت تقليدياً لشعورى بضرورة الموازنة بين الشكل والمضمون لتحقيق عمل جيد، فبدون هذه الموازنة فإن اللوحة ستبدو مملة ». ورأى هوكنى أنه خلال عقد الخمسينات من القرن الماضى قد تم التركيز على الشكل دون المضمون، فى حين كان يعتقد بضرورة إيجاد التوازن بين العنصرين، ويرى أن تلك مشكلة مزمنة فى الفن وربما لن يتم حلّها أبداً من الناحية النظرية، فهو مثلاً كان يجد فى رسوم بييرو ديللافرانشسكا - من مجموعة فنانى ما قبل عصر النهضة - إثارة ومتعة للناظر، وهو يرجع تلك المتعة إلى الطريقة التي رسمت بها هذه الرسوم وليس إلى قصتها ذات الموضوع المحدد.

كما أن هوكنى كان يعتقد بأنه من المتعارف عليه أن هناك بعض الفنانين الذين يحتاجون إلى موضوع يبعث فيهم الإلهام، وأنه إذا كان ذلك صحيحاً فى الأدب فإنه صحيح أيضاً فى الرسم، لكن بعض الفنانين يحتاجونه أكثر من غيرهم، والبعض الآخر منهم يهمل الموضوع، ولكل ذلك أهمية فى تطور الفن، وفى عقد الستينات أهمل الموضوع تماماً وبدأت التجريدية تسيطر على معظم الأعمال الفنية لدرجة أن كثيراً من الناس أصبحوا يعتقدون بأن هذا هو الطريق الذى يجب أن يمضى فيه الفن، وكان ذلك هو شعور هوكنى نفسه حتى عندما بدأ يرفض الأسلوب التجريدى واستمر شعوره هذا حتى عام ١٩٦٦.

وفى بداية بحثه عن أسلوب فنى خاص وجد هوكنى حلاً تمثل فى استعمال الكلمات، فقد رأى أن الكتابة على اللوحات ووضع الكلمة على الرسم فيه تأثير مشابه لرسم شكل ما، فالكلمة هى شىء إنسانى تستطيع أن تلحظه بسرعة وبشكل مباشر وهكذا لا تكون اللوحة رسماً مجرداً. لقد جاءته فكرة استعمال الكلمة لأنه لم يكن يملك الجرأة على رسم شكل حقيقى، وكان عليه أن يوضح رسومه، لهذا نجده يكتب كلمة غاندى على الصورة التى رسمها لغاندى، ومع أن بعض الناس كانوا يرون أن الكتابة على الصور شىء سخيف، لكن هوكنى كان يعتقد بأن





جبل فوجي ١٩٧٢

الكتابة – فى ذلك الوقت – تجعله يشعر بأن شيئاً إنسانياً ما ينبع من تلك الصور.

عالم هوكنى الفنى

أقام هوكنى أول معرض خاص له عام ١٩٦٣ عندما كان فى السادسة والعشرين حين أخذت بعض معالم فنه تتضح وتتبلور، تلك المعالم التى تأكدت خلال السنوات التالية وقدم من خلالها نموذجاً فريداً فى الفن الغربى المعاصر، وشملت تناول موضوعات جديدة لم تكن مألوفة فى فن التصوير الحديث، مثل المناظر الداخلية فى المنازل وما تحتويه من قطع أثاث وستائر وأصص النباتات ، والمناظر الطبيعية ، والشبابيك والأبواب والمبانى، ومشاهد حمامات السباحة – فقد كان مغرماً بتصوير عنصر المياه – أما الأسلوب الفنى فقد اتسم بالحرية فى التناول والتنقل بين أساليب التنفيذ، ولم يتقيد بتقنية واحدة محددة. وكان قد شاهد فى صيف ١٩٦٠ معرضاً ضخماً فى التيت جاليرى لبيكاسو وأعاد مشاهدته ثمانى مرات مفتتناً بغزارة التجديد الذى أقدم عليه بيكاسو – وهو ما فتىء يعود إليه ويستدعيه فى أعماله إلى اليوم – وكان أهم ما اكتشفه هوكنى هو أن بيكاسو لم يحدّ نفسه فى نوع واحد من الصور والأساليب ولكنه يتحرك فى أى اتجاه يشاء.

وعلى الرغم من أن هوكنى قد نبذ الحداثة القائمة على التجريد المطلق، فإن أعماله تشى بتناول مختلف للعلاقات بين عناصر صوره وأشكاله، وقد ترك الاتجاه التجريدى بصمة واضحة على أعماله التى تولى العلاقات التشكيلية أهمية كبرى. وقد تداخلت عناصر عديدة فى تكوين أسلوب هوكنى الفنى استقاها من أساليب الفنانين الذين كان معجباً بإبداعهم أمثال بيكاسو وفان جوخ وماتيس، أو من الأساليب الفنية الشرقية كالفن اليابانى والفن الصينى وكذلك الفن المصرى القديم، بالإضافة إلى بعض سمات فنون الطفل وما تحتويه من براءة وتلقائية.

وقد أعطى هوكنى للرسوم السريعة أهمية فى مجمل إبداعه الفنى، فقد كان يرى أن الفنان فى حالة انجاز عمله بسرعة فإنه يفرغ فيه شحنة عاطفية وانفعالية أكثر صدقاً وعفوية من تلك الأعمال التى تستنفد شهوراً فى انجازها.

التجديد فى الصورة الفوتوغرافية

وقد اعتمد هوكنى على الصورة الفوتوغرافية فى إبداعه الفنى التصويرى، وذلك ربما يفسر البرود البادى على لوحاته والأوضاع المفتعلة للأشخاص والأشكال، وذلك على الرغم من عدم التزامه بنقل ما التقطته عين الآلة، فهو يجرى الاختصارات على اللقطة الفوتوغرافية ويعدّل من الأوضاع والأشكال بما يتلاءم مع تصميمه الفنى الذى يتحول على يديه إلى عمل فنى متماسك وفريد فى تشكيله.

ومنذ أوائل السبعينات أعطى هوكنى



جراج شل بالأقصر ١٩٦٣

اهتماماً أكبر للتصوير الفوتوغرافى فى حد ذاته وليس كعامل مساعد من أجل فنه، لهذا أصبحت الصور الفوتوغرافية يتم تناولها بطريقة أكثر عناية وحرصاً، فقد تأكد لديه أن بعض الصور الفوتوغرافية التى كان يقصد استعمالها فى رسومه لا تصلح لأن تكون عملاً فنيا تشكيلياً، وأصبح أكثر وعياً بأن الصورة الفوتوغرافية شىء آخر تماماً، فبعضها يمتلك المواصفات الكافية كعمل فنى مستقل بذاته، ويمكن القول بأنه منذ تلك الفترة كان يرسم بواسطة آلة التصوير، ولم يقم بعرض أعماله فى مجال التصوير الفوتوغرافى إلا فى عام ١٩٧٦ حين نشر فى باريس (ألبوما) يحتوى على عشرين صورة فوتوغرافية بيعت جميعها بأثمان تراوحت ما بين ثلاثمائة وأربعمائة دولار للصورة الواحدة، مما كان مثار دهشة هوكنى الذى كان لا يعتقد بأن الصورة الفوتوغرافية - بما تسمح به من استنساخ لا نهائى - يمكن أن تقدر بهذا الثمن المرتفع.

ويعد هوكنى من المجددين فى مجال التصوير الفوتوغرافى بابتكاره لأسلوب تجميع الصور معتمداً على دروس المدرسة التكعيبية فى تجسيد الأبعاد الثلاثية على مسطح ذى بعدين بواسطة تجزىء المشهد وإظهاره من جوانب مختلفة، ولقد حاول أن يمنح الصورة الفوتوغرافية بعداً لا يمكن الإلمام به فى لحظة مثلما يحدث فى الصور

الفوتوغرافية العادية، فالجمع بين الصور الذي ابتكره يمكن أن يتضمن أبعاداً أخرى تستدعي العودة إلى الصورة المركبة أو المجمعة واستكشافها مرة بعد أخرى.

هوكني في مصر

كان هوكني في الستينات مستغرقاً في الرسم من الطبيعة ومهتماً بإيجاد الوسائل الكفيلة بإيقاظ الحاضر الفني وإثارة إلهامه في أي وقت وفي أي مكان، وسعياً لخلق صور جديدة كان شغوفاً بالسفر لأماكن جديدة ، لذلك جاء إلى مصر في زيارته الأولى لها تلبية لدعوة من مجلة صنداي تايمز عام ١٩٦٣ من أجل إنتاج مجموعة من الرسوم التي يمكن طبعها ونشرها (ولكن للأسف لم تنشر المجموعة التي نفذها نظرا للأحداث السياسية المفاجئة التي صاحبت حادث اغتيال الرئيس الأمريكي جون كيندي في تلك الفترة) وتلك كانت المرة الأولى منذ أيام دراسته في برادفورد التي يرسم فيها باستمرار من الطبيعة لفترة طويلة، وتظهر الرسوم التي نفذها في مصر للوهلة الأولى رؤى خيالية مركبة، وقد تأثرت الأوضاع والحركات والشكل الإنساني فيها بملامح وسمات الفن المصري القديم، وعديد من تلك الرسوم تضمن وصفاً وكتابات باللغة العربية كعلامات تصويرية لها جمالها الخاص، مما يوضح غرام هوكني بشكل الكلمات في تلك الفترة، وقد نفذت هذه الرسوم بالأقلام الملونة وهي خامة بدأ يستعملها عام ١٩٦٢ وكانت تساعده على التقاط الإحساس الفوري بالأشكال.

وكانت الزيارة الثانية التي قام بها هوكني لمصر حين كلف بتصميم مناظر أوبرا «الناي السحري» لموزار لمسرح أوبرا جليندبورن، وكان معظم المصممين لمناظر هذه الأوبرا - فيما قبل - يقرنون تصميماتهم بمشاهد القرن الثامن عشر الأوربية، ورأى هوكني في ذلك سوء تجسيد للأحداث التي يجب أن تقع في مصر القديمة، ومن أجل خلق الصورة الصحيحة وضع تصميماته مبنية على مشاهد مصرية، فهي ممتلئة بأشكال الأهرامات والنخيل والصحراء والمسلات والرؤوس الحجرية الأثرية الضخمة، وقد استخدم من أجل ذلك رسومه وتصويره الذي سبق له تنفيذه في زيارته الأولى مثل لوحة «الهرم الأكبر في الجيزة مع رأس محطمة من طيبة» بالإضافة إلى الصور الفوتوغرافية والرسوم التي قام بتنفيذها خلال الرحلة الثانية لمصر عام ١٩٧٨ ، وتنقل فيها ما بين القاهرة والإسكندرية والأقصر.

المكانة الفنية لهوكني

ومنذ حوالي عام ١٩٧٥ جاء مستوى تنفيذ هوكني للوحاته مخيباً للآمال مقارنة بالفترة السابقة، وكانت أعماله في ذلك الحين قد عرفت بشكل واسع، وربما كان الإقبال المتزايد على اقتنائها سبباً وراء اهتمام هوكني بزيادة كم إنتاجه الذي جاء على حساب الاهتمام



موديل وصورة شخصية غير منتهية ١٩٧٧

بتقنية التنفيذ، كذلك فإن تكريسه لمعظم جهده الفنى فى تجارب التصوير الفوتوغرافى قد ساهم أيضاً فى عدم الاعتناء بإبداعه الفنى، وفى خلال تلك الفترة اتجه نحو تصوير المناظر الطبيعية التى ربما كانت ستحوز الاعجاب لو كنا نجهل امكانياته الممتازة والتى استعرضها فى أعمال سابقة.

ومع ذلك فإن عالم هوكنى الفنى الذى يعتمد على العناصر المعمارية والهندسية والأشكال الآدمية المنعزلة، وتصميماته القائمة على إيلاء الفراغ دوراً رئيسياً والتقنية انقنية التى نفذ بها العديد من أعماله والتى تميل إلى استخدام اللون الصريح فى تناول فنى يتسم برهافة الحس، كل ذلك يشكل أسلوباً فنياً صاغه هوكنى بحرية وإنطلاق مؤكداً قدرته على المزج بين الأسلوب التقليدى ومعالم الحداثة فى صياغة فنية متميزة لا تخطئها العين وتؤهله لأن يتبوأ مكانة مرموقة بين الفنانين الغربيين المعاصرين. ■



ستالين



ديستويفسكى

النبوءة

جزء خاص



فتحى غانم

النبوءة والأدب

ستالين وشياطين ديستويفسكى.. وأيمن الظواهري وأفيال فتحي غانم.. وانهيار البلاشفة كما رآه إشبنجلر

بقلم

د. فهمى عبد السلام

«الويل للإنسانية من المتعلمين اليهود الذين يدعون الإلحاد» ديستويفسكى

«إن الشعب الروسى سيهب هبة واحدة وستكون كافية للقضاء على السلطة الشيوعية» اشبنجلر

استطاع كثير من الأدباء استشراف المستقبل والتنبؤ ببعض الأحداث المهمة فالأديب الروسى ديستويفسكى تنبأ بقيام الثورة الروسية ، وسيطرة اليهود على العالم ، والفيلسوف اشبنجلر تنبأ بانهيار ونهاية الشيوعية ، كما تنبأ الأديب فتحي غانم فى قصته «الأفيال» بظهور وانتشار جماعات الأرهاب.

والفلسفة في أعماق أعماقها هي هجوم على اللا مدرك ، أما الفنون والآداب ، فتتحدثان بلغة أخرى. والمراهق فكريا وحده هو الذى يضع «إيمانويل كانت» فى منزلة أرفع من



الوحشية الأسرائيلية كما تنبأ بها ديستويفسكى

منزلة «بيتهوفن» وبينما كان كارل ماركس ينتظر قيام ثورة البروليتاريا فى انجلترا الصناعية، والتى كانت فى حسابات ماركس قد استوفت كل الشروط لقيام ثورة الطبقة العاملة، فإذا بها تهب كالإعصار فى روسيا، بلاد القديسين والأقنان والإكواخ الخشبية، وإذا كان ماركس قد فشل فى التنبؤ بأرض الثورة، إلا أن ديستويفسكى الفنان العظيم، ببديهته الصافية وبرؤيته الثاقبة تمكن من استشراف المستقبل وتحقق نبوءته الرائعة بقيام ثورة الانتلجنسيا على أرض روسيا الام على حد تعبيره.

النبوءة والأدب

(١)

.. قدم ديستويفسكى العظيم رائعته الخالدة «الشياطين» أو «الممسوسون» عام ١٨٧٢، وقبل قيام ثورة البلاشفة عام ١٩١٧ بخمسة وثلاثين عاما، وخلالها تنبأ ديستويفسكى بالمصير المروع الذى ستلقاه روسيا المقدسة على أيدى الإنتلجنسيا الثورية الروسية، ورواية الشياطين الفاتنة، كتبها ديستويفسكى عن تجربة أليمة مر بها عندما كان عضوا فى خلية «بتراشفسكى» الاشتراكية عام ١٨٤٩، وتم القبض على المجموعة، وحكم على ديستويفسكى بالإعدام، وقبيل تنفيذ الحكم الرهيب، وبينما كان ديستويفسكى يقف منتظرا رصاصات الفناء، وفرقة الإعدام تنتظر إشارة البدء، هنا فقط جاء عفو القيصر، إذ تم تبديل حكم الإعدام الرهيب بالأشغال الشاقة المؤبدة فى سيبيريا، تلك المحنة الأليمة التى تركت ندبة غائرة فى نفس كاتبنا العظيم، رواها فى رائعته «الأبله».

.. وقبل قيام ثورة ١٩١٧، وبالرغم من الشعبية العريضة التى كان ديستويفسكى قد حظى بها، إلا أن الانتلجنسيا الثورية الروسية أدانته، ووسمته بالرجعية، وتلك التهمة لم يكن ديستويفسكى يفهمها، فهو يصيح على لسان أحد الأبطال متسائلا:

«بماذا تفيد تحديد الملكية فى خلاص النفس؟»

وبعد الثورة البلشفية تعرفت السلطة الثورية فى شخص ديستويفسكى على عدوها اللدود، ووسموه بالرجعية، وصودرت مؤلفاته، ولم يأخذ مكانته التى يستحقها إلا بعد أن اطمأن البلاشفة إلى متانة نظامهم الحديدى الذى أقاموه، وأبطال الشياطين هم الانتلجنسيا الثورية المثقفة كما عرفهم ديستويفسكى إبان فترة حلقة بتراشفسكى، وعلى لسان «شاتوف» (واحد من أبطال الشياطين) يدين ديستويفسكى الذين انفصلوا عن شعبهم الروسي، وهما الانتلجنسيا الثورية التى اعتنقت الاشتراكية «لأسباب عاطفية» والأرستقراطية الروسية التى لم تعد تعرف شعبها. فيقول شاتوف:

«هؤلاء لا يعرفون شيئا على الإطلاق عن الشعب الروسى، إنهم جميعا لا يشعرون تجاه الشعب الروسى إلا بأبشع درجات الازدراء والاحتقار، فالشعب الوحيد فى نظرهم هو الشعب الفرنسى، وليس الشعب الفرنسى كله، إنما شعب باريس وحدها، وهم يخجلون كثيرا من أن الشعب الروسى لا يشبه الباريسيين،



ومن لم يكن له شعب لم يكن له إله، وأولئك الذين أصبحوا لا يفهمون الشعب، يفقدون إيمان آبائهم بنفس المقدار، وهذا هو السبب فى أننا لسنا الآن شيئا على الإطلاق، فنحن جميعا ملاحدة وأشرار».

وكلمات شاتوف هذه ، وهو التائب عن الهوس الثورى، هى كلمات ديستويفسكى نفسه التائب عن الكفر بالإله الروسى خلال مرحلة بتراشفسكى ، وإذا كان ديستويفسكى قد تاب خلال الرحلة الأليمة فى سيبيريا، فشاتوف الطالب السابق وابن القن، عاد إلى الإيمان بالشعب وبالإله الروسى خلال رحلة أليمة هو الآخر، لقد رحل شاتوف مع كريليوف وهما عضوان فى حلقة ثورية على متن باخرة إلى أمريكا ، وقد انفقا وهما من الفقراء آخر كوبك يملكانه للقيام بالرحلة ولم يهدفا من رحلتهما إلى الثراء الأمريكى وما إلى ذلك.

(٢)

.. عاد شاتوف ابن القن والطالب السابق، ذلك الأخرق الذى يتمزق لأن شقيقته «داشا» أصبحت عشيقة للعدمى الأرستقراطى الشاب «ستافروجين» ، عاد شاتوف إلى روسيا وقد آمن بالشعب وبالإله الروسى وبرسالة روسيا المقدسة للإنسانية ، وراح يكابد كآبة ميتافيزيقية عميقة تلك الكآبة التى يكابدها كل أبطال ديستويفسكى. فإذا كان شاتوف قد عاد محتقن الدماغ بالإله الروسى، عاد كريليوف وقد احتقنت دماغه الحارة بفكرة سيطرت عليه هو الآخر ، وهى فكرة الانتحار..

عاد كريليوف الى روسيا وقد قرر الانتحار وفقا لأطروحة مدهشة عن فلسفة الانتحار تنطلق من انخفاض عدد المنتحرين فى روسيا ذلك الانخفاض المدهش، فالحياة فى نظر كريليوف ماهى إلا عذاب مطلق ورعب بلا قرار، والإنسان يتمزق بين عذابات الحياة ورعبه من الموت، وكريليوف يرى أن الإنسان لا يكره الموت لأنه يحب الحياة ، لكنه يحتمل الحياة لأنه يخاف من الموت، حتى هنا وأطروحة كريليوف الشقى لا تخلو من صحة ما، بعدها يصل كريليوف إلى جوهر نظريته الكئيبة ، وهو بالمناسبة يصرح علنا «أنه لا يضحك ابدا» ، فإذا ما نجح الإنسان فى القضاء على الرعب من الموت . سيتحول الى اله، هذا هو الإنسان الذى تنشده الإنسانية، السوبرمان الجديد، الذى يواجه الموت، دونما خوف وعندما يعارضه أحدهم قائلا ذلك الاعتراض الجوهرى:

- لكن ذلك الإنسان غالبا لن يجد الوقت الكافى للشعور بألوهيته، إذ سيموت على الفور.

فيجمجم كريليوف غاضبا كى لا تنهار نظريته العجيبة، فيصيح:

«الحياة ألم، الحياة رعب، كل شىء الآن ليس إلا عذابا ورعبا، والإنسان

الذى سيقتل نفسه من أجل أن يقتل الرعب، سيتحول فى اللحظة نفسها الى إله».

(٣)

والخلية الثورية فى رواية الشياطين ، تطلب من كريليوف بحكم الرفقة القديمة، أن يؤجل تحويل نفسه إلى إله يقصدون انتحاره حتى يحين الوقت المناسب لهم. إذ ستقوم الخلية بعمليات قتل وبتخريب مصانع ومؤسسات وستشتعل الحرائق . لتقويض السلطة الرجعية ، ولكى تشتعل روسيا كلها معلنة موت الإله الروسى القديم، فإذا ما ألقت السلطات بالقبض عليهم. قدموا اعترافا من كريليوف بأنه المسئول عن كل تلك الجرائم.

ويصحبنا ديستويفسكى العظيم إلى اجتماع الخلية الثورية والاجتماع سرى بطبيعة الحال، ويضم أفرادا غاية فى الغرابة، فأحدهم أقام علاقة آثمة مع زوجة أحد الرفاق، والرفيق المطعون فى شرفه كى لا يبدو رجعيا لايملك الاعتراض وعندما تخبره الزوجة الخائنة أنها اختارت عشيقا لتقيم معه علاقة «زواج حر». فيقول لها الزوج المطعون فى شرفه:

«قبل الآن كنت أحبك فقط.. أما الآن فأنا أحبك وأحترمك».

هذا الزوج نفسه لم يستطع أن يتحمل ليبرالية زوجته طويلا، فإذا به ذات مساء. وفى حفلة راقصة جمعت الزوج والزوجة والعشيق، فإذا بالزوج يفقد صوابه، وبدون سابق انذار، يجذب العشيق من شعره بكل قوته، وبعضه بالأسنان غضا جنونيا وهو يصرخ ويعول فيه. ثم ينهار باكيا منتحبا.

وبعد لغط عظيم ، يبدأ الاجتماع بنظرية سيطرحها شيجالوف على المجتمعين، ويصف لنا ديستويسفكى الرائع شيجالوف بقوله «لم أر فى حياتى وجها كهذا الوجه عبوسا وتجهما بل وحدادا، كأنه يتوقع خراب الكون ودمار العالم لا فى وقت قريب أو بعيد، ووفقا لنبوءات قد تتحقق أو لا تتحقق، بل فى وقت محدد معين، بعد غدا مثلا. فى الساعة العاشرة وفى الدقيقة الخامسة والعشرين مساء».

يبدأ شيجالوف اطروحته لتنظيم مستقبل العالم (!!) قائلا بأن أفلاطون وروسو وفورييه ليسوا إلا أعمدة من الألمونيوم ، فهم يصلحون للعصافير لا للبشر، ولما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديدا دقيقا، يجب أن أعرض عليكم مذهبى خلال عشرة سهرات على الأقل، وفقا لعدد فصول الكتاب، هذا مع الايجاز



الشديد، بالإضافة إلى الكثير من الإيضاحات الشفهية.

ويعترف شيجالوف صراحة أن مذهبه لتنظيم الإنسانية لم يكتمل ، وأنه «تاه فى شعاب المقدمات» وأن نتائجه جاءت متناقضة تناقضا تاما مع الفكرة الأساسية التى انطلق منها شيجالوف الكئيب المدهش من ضرورة الحرية المطلقة للبشر، فإذا به يجد نفسه فى الآخر ينتهى بحتمية العبودية المطلقة للبشر (....)

بدأ شيجالوف نظريته بالحرية المطلقة لسعادة البشر ، وانتهى بالاستبداد المطلق لسعادة البشر، وإذا كان واضع النظرية نفسه تاه فى المقدمات ، فكيف سيفهمها الآخرون. وإذا كان شيجالوف قام بطرح نظريته لتنظيم العالم . فكريليوف صاحب نظرية الإله المنتحر، وضع هو الآخر نظرية لتنظيم أوروبا فقط، فيرى كريليوف أن تنظيم أوروبا تنظيما اجتماعيا، يستوجب قطع رقاب ١٠ ملايين أوروبى، أما الـ ٩٠ مليون الباقية فالنظرية تقضى بتحويلهم الى قطيع...

(٤)

«إنه لعصر عجيب هذا العصر.. إن شيئا جديدا يهم أن يولد، شيئاً لا شبه بينه وبين الهدوء القديم، شيئاً غريب كل الغرابة، وكل الناس يستنشقونه فى كل مكان، حتى فى أرض هذا الإقليم النائى الذى نعيش فيه»

هذه أقوال ديستويفسكى العظيم كما وردت فى الشياطين، وهى كلمات لا تحتاج إلى صقل أو تعليق. فهى نبوءه واضحة صريحة بأن عاصفة هوجاء مقبلة على روسيا. وفى الشياطين يسخر ديستويفسكى من تور جنيف الذى أعلن إلحاده بالإله وبالشعب الروسى. فى شخصية الكاتب كارمازينوف. فكارمازينوف يتوجه بالسؤال إلى زعيم الخلية فرخوفنسكى قائلا فى توسل:

– متى !؟.. متى سوف تتحقق «مشروعاتكم»!؟

– لا أدرى.

فيلح كارمازينوف سائلا بصوت فيه المزيد من العذوبة واللطف:

– تقريبا.. على وجه التقريب.

فيجيب زعيم الخلية قائلا بمزيد من الفظاظة والاحتقار:

– لديك متسع من الوقت لبيع أرضك، ولديك متسع من الوقت كى تفر بجلدك.

وكان الرجلان لايزال كل منهما ينظر فى عين الآخر، وساد الصمت دقيقة من الوقت، وقال الزعيم الثورى أخيرا:

– سيبدأ الأمر فى شهر مايو، ولن يمر عيد الشفاعة إلا ويكون كل شىء قد انتهى.

فيقول كارمازينوف بلهجة مؤثرة، وهو يشد على يد زائره :

– أشكرك أصدق الشكر.

ولم تقم الثورة إلا بعد ٣٥ عاما من نبوءة ديستويفسكى العظيم، وببصيرته المعصومة عن الخطأ، رأى العاصفة الهوجاء وهى تزلزل روسيا المقدسة، والأجمل أن ستالين عندما أتى إلى الحكم، لم يجد امامه سوى الشيجالوفية. لم يجد ستالين سوى مذهب شيجالوف أشد الناس عبوسا على وجه الأرض، ولم يكتف ستالين بالشيجالوفية ، اذا خلط ستالين الشيجالوفية بمذهب كريليوف ، والذى عجزت بصيرة ماركس الضحلة عن رؤيته ، رأته بصيرة ديستويفسكى فى صفاء تام وتحققت رؤى شيجالوف وكريليوف على يد ستالين، وتحولت روسيا إلى سجن رهيب، وقطعت رقاب الألوف وحولت الشيجالوفية بقية الشعب الروسى إلى قطيع ، محققة بذلك نبوءة ديستويفسكى العظيم.

(٥)

رواية الشياطين بنبوءتها المدهشة تثبت أن الفنان العظيم أعمق نظرا وأصفى بصيرة من الأطر الحديدية للفكر الجامد الذى يقولب الحياة برحابتها فى أطر صارمة، وسننتقل الآن إلى بصيرة أخرى أوسع مجالا من رؤية ديستويفسكى إنها بصيرة أوزوالد اشبنجلر صاحب فلسفة المصير برؤاه الشجية، التى لا يرتوى المرء من قراءتها ، فإذا كان ديستويفسكى كان يضع آلام روسيا وعذاباتها ومستقبلها نصب عينيه، فرؤية اشبنجلر تشتمل على الآلام الروسية بديستوفسكيها وبلاشفتها ومستقبلهم. وكل ذلك ضمن منظومة هائلة شجية تفسر لنا ذلك اللغز المسمى بتاريخ الجنس البشرى ومستقبله على كوكب الأرض.

والسؤال الذى طرحه اشبنجلر فى سفره الهائل «تدهور الحضارة الغربية» ، وفى اجابته يكمن معنى الحياة نفسها، والسؤال هو : هل هناك منطق ما يحكم تلك الفوضى الدموية الهائلة المسماة بالتاريخ الإنسانى!؟ ولأن التاريخ هو تاريخ الأحياء ، فلابد من الاعتراف أن أسرار التاريخ هى أسرار الحياة نفسها، وفى «تدهور الحضارة الغربية» يطرح اشبنجلر رؤية شعرية شجية للتاريخ البشرى، فالتاريخ عند اشبنجلر بمثابة دراما شجية لحضارات جبارة تبعث فى رقعة من الأرض وفقا لقوانين غامضة، وتظل هذه الحضارة مرتبطة بتربتها طيلة فترة ديمومتها، وتزدهر تلك الحضارات كل واحدة على حدة لتبدع الشعوب واللغات والأديان والفنون والآداب والمعمار.. وبينما تبدو ظاهرة الحضارة فى أوج ازدهارها وشموخها، اذا بالروح الجبارة تذوى

شيئا فشيئا ، وتبدأ عوامل الانحلال الداخلية تهددها من الداخل، وأخطار الخارج تهمهم خارجها، وتجف منابع الدماء فيها.وإذا بالحضارة - ذلك الكيان الهائل السامي الذى يرتفع بوجود الإنسان على أرضها تواجه مصيرا محتوما يعرفه كل كائن حي. شأنها فى ذلك شأن الإنسان وشأن الدورات الكونية إذ تنتقل من الربيع بازدهاره الى الصيف بوهجه وبحرارته .، ثم يأتى الخريف حاملا معه نذر الموت، وكما يشيخ الانسان فى شتاء العمر. تبلغ الحضارات الواحدة بعد الاخرى شتاءها المحتوم، والذى لا يفضى الا للفناء.

هذا المصير الأسود كابدته بغداد حينما داهمها الغول، وأقاموا من جماجم مائة ألف من اهلها نصبا تذكاريا لانتصارهم، بعد ازدهار الحضارة الفرعونية واقامة الامبراطورية، إذا بهذا الكيان الهائل تخبو الروح داخله، وإذا بها تفقد الرغبة فى الحياة، وفى الدفاع عن نفسها مستسلمة لقدرها وينتقل الحكم فيها من يد فاتح جرئ الى يد غاز جسور، وروما القديمة عرفت المصير نفسه. حينما اجتاحتها القبائل الجرمانية والوندال، اولئك المجردون من أية قيمة سوى الشجاعة وشدة البأس لقد استسلمت روما الامبراطورية لانها لم تعد تنجب رجالا من عينة بروتوس واكتافيوس وتيوبريوس ويوليوس قيصر. ونبوءة اشبنجلر الكبرى موجودة فى العنوان نفسه Declination of the west وترجمه الأستاذ احمد زكى الشيبانى الى «تدهور الحضارة الغربية» السنوات ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ فى عمر الحضارة الغربية اعتبرها اشبنجلر بمثابة خريفى حضارى كالح وان المصير الذى كابدته بغداد وروما ومنف ستكابده الحضارة الغربية التى سيجتاحها ثناء الموت والفناء.

بخلاف تلك النبوءة الكبرى، سنجد العديد من النبوءات الأخرى المدهشة ، ففى عام ١٩١٨ . وبريطانيا العظمى فى قمة ازدهارها. فهى الامبراطورية التى لم تكن لتغيب شمسها، سجل اشبنجلر ان لا مستقبل سياسى لاوروبا كلها. وأن المستقبل السياسى للغرب سينتقل من لندن وباريس الى واشنطن ، وأن واشنطن وحدها ستحكم العالم. ودور اوربا سوف يتضاءل وستصبح اوربا بأكملها وساستها واقتصادها . اشبه بدولة داخل القارة الأمريكية، وما نراه الآن من الهوان البريطانى حيال واشنطن، ودور تونى بلير الذى يلعب دور موظف العلاقات العامة للخارجية الامريكية فى حربها ضد افغانستان . لا يسع المرء سوى الدهشة لرؤية اشبنجلر ذات الصفاء المرعب.

... وفى الكتاب نفسه سنجد اشبنجلر وفقا لمنظومة هائلة لفهم

التاريخ، يتنبأ ان الاشتراكية السوفيتية (هذا الكلام عام ١٩١٨ بعد قيام الثورة البلشفية بعام واحد) ، التى لا تكف عن التنديد بالتوسع الامبريالى للرأسمالية ستندفع السلطة الروسية الثورية الى الاستعمار هى الاخرى، وهذا ما حدث بعد الحرب العالمية، إذ اقتسم الروس غنائم النصر مع الحلفاء، فقامت روسيا باحتلال نصف العالم هى الأخرى، ثم يكمل اشبنجلر نبوءته المدهشة أن الشعب الروسى الذى هب هبة واحدة عام ١٩١٧، وكانت كافية لتقويض القيصرية . ان هذا الشعب نفسه سيهب هبة واحدة أخرى. وستكون كافية للقضاء على السلطة الشيوعية وتحققت نبوءة اشبنجلر، فبينما كانت سلطة الاتحاد السوفييتى تبدو أبدية راسخة، اذا بالعالم كله يستيقظ على شاشات التليفزيون ويلتسين قد اعتلى دبابة ويعلن نهاية الاتحاد السوفييتى، وتلك النبوءات العظيمة التى وردت فى كتاب اشبنجلر عام ١٩١٨ كتبها اشبنجلر وفقا لمنظومة هائلة شجية حافلة بالتحليلات العميقة والمقارنات المدهشة ، ومحاولة كشف الستار عن المعنى والمغزى الأعمق، لكل حوادث التاريخ المهمة مثل المعنى الكامن لظهور بطرس الأكبر على مسرح الاحداث الروسى، وما الذى يمثله ديستويفسكى وتولستوى للشعب الروسى ، وظهور البلاشفة والعلاقة الباطنية بينهم وبين قرامطة البحرين وقيام الثورة الفرنسية وعلاقتها الباطنية بالثورة العباسية وظهور التروبادورز وعلاقتهم بالموشحات الاندلسية العربية.

بعد هذا ألا يحق لنا، نحن قراء اشبنجلر أن لا نعقد المقارنات بين مؤشرات نهاية روما القديمة حينما تحدى اسبارتكوس هيبة الامبراطورية ، وما فعله اسامة بن لادن عندما قام بالدور نفسه فى ١١ سبتمبر.

(٦)

ومن اشبنجلر نعود ثانية الى ديستويفسكى العظيم وتحت أيدينا نبوءة هائلة أخرى، وهى نبوءة تتعلق هذه المرة باليهود. تلك القبيلة المدهشة التى حملت إلهها الدموى «يهوى» على كاهلها طيلة اربعين قرنا من الزمان.

والمدهش ان ديستويفسكى بطاقاته الانسانية الرائعة، التى تجعله يتعاطف مع العصاة والجناة والقتلة وقاطعى الطريق، فى يوميات كاتب، استطاع ديستويفسكى ان ينفذ عميقا، ببصيرته الهائلة الى خطورة اليهود فاليهودية عند ديستويفسكى هى انعدام الرحمة، فلم يأبه لنواح اليهود وعويلهم، وشكاياهم التى لا تنقطع ، فقد فطن مبكرا الى تعصبهم ووحشيتهم وراح يحذر العالم

كله من خطورة المثقف اليهودى الذى يدعى الالحاد، واعلن انه لا يصدق ان هناك يهوديا ملحدا، وكتب بالنص «الويل للإنسانية من المتعلمين اليهود الذين يدعون الالحاد»، وحذر ديستويفسكى من اليوم الذى سيسيطر فيه اليهود على العالم. اذ سيسخرون الدنيا كلها لخدمة تعصبهم المتوحش وغطرستهم البغيضة، وتحققت نبوءة ديستويفسكى العظيم، فقد استغل اليهود المتعلمين مناخ الحريات الذى قدمه عصر التنوير الأوروبى وخلال عشرات من الأعوام استطاع اليهود السيطرة على الاقتصاد والسياسة والاعلام وعلى مراكز صنع القرار، وسيطرة اليهود على العالم الآن واضحة وضوح الشمس، ويكفى ما فعلوه مع كلينتون الذى اعتبروه مناوئا لاسرائيل، فكانت فضيحة مونيكا. وما فعلوه مع مارلون براندو حينما صرح ان اليهود مسيطرون على هوليوود فأقاموا عليه الدنيا ولم يقعدوها الا بعد ان اعتذر، وما فعلوه مع مفكر كبير فى حجم جارودى.

وكما قاد اليهود لندن من قبل لاصدار وعد بلفور . هاهى واشنطن فى هذه الأيام تتبنى وجهة النظر الإسرائيلية ، ليس فى سياستها الوحشية فى فلسطين ، لكن حاخامات الخارجية الامريكية يستعدون لترتيب العالم كله وفقا للاجندة الاسرائيلية وخلال الأعوام العشرة الأخيرة عاث الأمريكان فى الأرض فسادا، وكان للعالم العربى والاسلامى نصيب الاسد فى جرائم امريكا، كان ظهور ابن لادن رد فعل مباشر للوحشية الامريكية اليهودية، وكانت احداث ١١ سبتمبر تلك الاحداث التى ستجر العالم كله الى خراب وهلاك نطالع الآن نذره المشئومة.

وأخيرا.. ننتقل من ديستويفسكى واشبنجلر الى كاتبنا الراحل الكبير فتحى غانم . ففى عام ١٩٧٧ كتب فتحى غانم رائعته الأفيال، متعرضا خلالها لمقتل الشيخ الذهبى على يد جماعة التكفير والهجرة، منبها الى خطورة التركيبة البشرية المذهلة التى نبتت هنا فى مصر، وتمر ٢١ عاما واذا بالعالم كله يفيق منتبها لايمن الظواهرى واسامة بن لادن ، الأبناء الشرعيون لشكرى مصطفى قاتل الشيخ الذهبى وصالح سرية قائد عملية كلية الفنية العسكرية وما فعله بطل فتحى غانم فى الافيال اذ كفر المجتمع وهاجر الى السودان، فعله ايمن الظواهرى.

نبوءات هائلة وأدباء عظام، والحياة تسير امام عيونهم بزخمها وبعنفها غير عابئة ، فهم لا يملكون سوى الاقلام وكتابة الافكار ، التى تظل فى النهاية مجرد كلمات وافكار، اذ سرعان ما تتلاشى تحت هدير المدافع! ■

التاريخ والمستقبل

بقلم
د. رءوف عباس

تعانى دراسة التاريخ فى الوطن العربى أزمة منهجية متفاقمة تفوق ما تعانيه العلوم الاجتماعية الأخرى من حيث درجة الخطورة والتأثير على حركة التأريخ عندنا، ويرجع ذلك إلى أمرين: أولهما، تخلف برامج دراسة التاريخ فى الجامعات العربية، واتسامها بالتقليد والجمود، وثانيهما، افتقار المكتبة العربية إلى المؤلفات المنهجية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة وعلم التاريخ خاصة التى تواكب التطور المنهجى على الصعيد الدولى، فما هو متاح من كتابات عربية - فى معظمه - مجرد ترجمات غير دقيقة أحيانا لبعض الكتب الدراسية فى أصول المنهج التى نشرت باللغتين الإنجليزية والفرنسية قبل منتصف القرن العشرين.



وكلها لاتزال تقف طويلا عند تصنيف التاريخ، وهل يعد علما أو فنا أو يجمع بين الاثنين، وتتحدث عن الموضوعية وحياد المؤرخ باعتبارهما شرطين ضروريين للكتابة التاريخية وتضفي عليهما قدرا من (القداسة) التي لا تضع اعتبارا للنسبية، ولما توصل إليه المعنيون بالمنهج من مراجعات أسقطت هالة (القداسة) عنهما، ويقيمون للعبارة الموروثة عن القرن التاسع عشر «لا تاريخ بغير وثائق» معبداً يشتغلون بسدانته، بما يترتب علي ذلك من وضع حدود لعمل المؤرخ تبقيه محصورا في دراسة موضوعات تقف عند حد نصف القرن الماضي أو العقود الثلاثة في أحسن الأحوال، رغم تراجع المدارس المنهجية عن تلك المقولات ومراجعتها لمواقفها منها.

أفكار متخلفة

وبينما لايزال طلاب التاريخ بالجامعات العربية يتعلمون من أساتذتهم أن هناك حدودا زمنية صارمة يجب ألا يتجاوزها المؤرخ عند معالجته لموضوع ما، وتتردد أقسام التاريخ كثيراً قبل تسجيل موضوعات لأطروحات الماجستير والدكتوراه يتجاوز حدها الزمنى ربع القرن، ويشيع القول بنظام لتقسيم العمل بين

يستطيع المؤرخ بما له من خبرة بتطور المجتمع أن يتعرف على القسمات المشتركة بين الماضى والحاضر فتساعده على حل المشكلات الراهنة

الباحثين فى التاريخ وزملائهم فى ميدان العلوم السياسية، وهى أفكار متخلفة يتعامل معها الأكاديميون العرب تعاملهم مع المسلمات البديهية. بينما تلك حال التأريخ عندنا نجد المؤرخ الإنجليزى إريك هوبسباوم يورد فى الكتاب الذى حمل عنوان «فى التاريخ» وأودعه خلاصة خبرته المنهجية ونشر عام ١٩٩٧، ولكنه تضمن دراسات كتبها المؤلف قبل نشر الكتاب بنحو العشرين عاما، نجده يورد دراستين تكمل إحداهما الأخرى الأولى بعنوان «التاريخ والمجتمع المعاصر» والأخرى بعنوان «التاريخ والمستقبل»، يذهب فيهما إلى أن ثمة اساءة استخدام يعانى منها التاريخ فى المجتمع المعاصر، تعود إلى التشويه المتصل للتاريخ فى مراحل التعليم العام، حيث تستهدف برامج تدريس التاريخ تكوين المواطن المعتز بقوميته، فيتم التركيز على

الأمجاد التاريخية وحدها، ولا يتم التركيز على تطور المجتمع ذاته باعتباره كائنا عضويا متغيرا فى إطار يجعل الطالب قادرا على فهم أسس بنية المجتمع المعاصر، لذلك يندر أن يستوعب الناس دروس التاريخ التى تساعدهم على البحث عن أصول المشكلات الراهنة وكيفية البحث عن حلول لها. ومن ثم يتوجهون إلى تحليل الأرقام الصماء التى تتعامل معها الحواسب الآلية، بينما يستطيع المؤرخ بما له من خبرة بتطور المجتمع، ورؤية لآليات ذلك التطور من منظور تاريخى، أن يتعرف على القسمات المشتركة بين الماضى والحاضر، وأن يشخص أمراض الحاضر على ضوء ما عاناه المجتمع فى خبرته التاريخية، وبذلك يساهم - بصورة فعالة - فى المساعدة على حل المشكلات الراهنة.

قدرة المؤرخ على التنبؤ

ويزيد هوبسباوم على ذلك القول بأن المؤرخ يملك القدرة على التنبؤ بما قد تكون عليه الحال بالنسبة للمجتمع فى المستقبل، مستفيدا فى ذلك من دراسته للماضى، وإدراكه لآليات ودوافع التغيير التى لا تملك الحواسب الآلية إدراكها، لأنها تفتقر إلى الأدلة المادية الملموسة. ولكن التنبؤ يقوم على عملية عقلية تلعب قدرات المؤرخ واستعداده الشخصى الدور الأكبر فيها، وهنا يستخدم المؤرخ - عند استشرافه المستقبل - منهجين يتصلان ببعضهما البعض: التنبؤ بالاتجاهات العامة من خلال صياغة «النموذج»، والتنبؤ بالحوادث المستقبلية أو نتائجها عن طريق تحليل الواقع الراهن واستشراف مساره المستقبلى. ويرى هوبسباوم أن التنبؤ بالاتجاهات الاجتماعية، بما فى ذلك اتجاهات حركة القوى الاجتماعية، أيسر من التنبؤ بالأحداث السياسية ، لأنه يرتكز على معطيات العلوم الاجتماعية الأخرى التى يحسن المؤرخ استخدام أدواتها المنهجية.

وعلى ضوء ذلك، لم يعد بوسع المؤرخ أن يتجاهل ما يدور حوله حتى يطويه الزمن ويتقادم به العهد، بعدما أصبح «الماضى» قريبا من «الحاضر» نتيجة سرعة إيقاع التطور فى القرن العشرين، حتى أصبح الأمس القريب «ماضيا» يمكن اخضاعه للدراسة التاريخية استفادة بمعطيات العلوم الاجتماعية، وعلى ضوء ما يتوافر من المصادر المتاحة، فإذا كانت الوثائق لاتزال محبوسة انتظارا لانقضاء فترة السرية، فهناك فيض زاخر من

المصادر التى وفرها تطور أساليب الاتصال والإعلام (أو ما يعرف أحيانا بثورة المعلومات) كالبيانات والتصريحات والتقارير الرسمية المعلنة، والكتب الملونة (البيضاء - الزرقاء - الصفراء.. إلخ) التى تصدرها الحكومات لتحديد مواقف الفرقاء إزاء مختلف القضايا والأزمات. وهناك خارج الأرشيفات الرسمية مصادر تتعلق بالأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، لا يدخل معظمها فى نطاق السرية، مثل : تقارير الهيئات الدولية الرسمية وغير الرسمية، وتقارير منظمات المجتمع المدنى المحلية والدولية، وتقارير البنوك وأسواق المال، والمضابط الخاصة بالمجالس النيابية، فمثل هذه المصادر المهمة تجعل دراسة الماضى القريب ممكنة وميسورة، لو استطعنا أن نكوِّن الباحث فى التاريخ تكوينا مناسبا يؤهله للتعامل مع مصادر غير تقليدية بأدوات منهجية عصرية.

التمرد على التقليد

ورغم أن الاهتمام بدراسة التاريخ المعاصر بدأ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى فى الغرب، ظلت الجامعة المصرية - منذ إنشائها - تتمسك بتقاليد المدرسة التاريخية الألمانية، والمدرسة المثالية، والمدرسة الوضعية، تمزج بينها بوعى - أحيانا - وبدون وعى فى أغلب الأحوال ، ثم بدأ بعض المؤرخين المصريين والعرب فى استخدام المنهج المادى الماركسى عند منتصف ستينيات القرن العشرين بدرجات متفاوتة من الفهم والتوفيق، وإليهم يعزى الفضل فى التمرد على التقليد الذى كان راسخا - عندئذ - فى الجامعات العربية، الذى كان يتمسك بحاجز الخمسين عاما كحد زمنى لايجب تخطيه لدراسة التاريخ، وكأنه سور الصين العظيم أو حائط برلين الشهير، فتجاوزوا هذا الحاجز حتى وصلت به بعض الدراسات إلى عقد واحد من الزمان، وهكذا عالجوا التاريخ المعاصر، ووجهوا تلاميذهم نحو دراسته، وأبدت المجالس الجامعية قدرا من التسامح مع هذه «البدعة» الجديدة، فقبلت تسجيل أطروحات فى التاريخ المعاصر فى الستينيات بعد ما يزيد على أربعة عقود من بداية دراسة التاريخ المعاصر فى الغرب.

ولكن أحداً من المؤرخين المصريين أو العرب لم يجرؤ على ارتياد مجال التاريخ الاستطلاعى أو الاستشرافى الذى يهتم بدراسة آفاق المستقبل من خلال قراءة متعمقة لواقع المجتمع

الحاضر على ضوء محصلة تجارب الماضى، على نحو ما فعل بول كينيدى الذى نشر عام ١٩٨٨ كتابه الذى أثار - عندئذ - جدلا كبيراً بين الباحثين، وحمل عنوان: «قيام وسقوط القوى الكبرى، التغير الاقتصادى والصراع العسكرى من ١٥٠٠ حتى عام ٢٠٠٠» والذى صدرت منه ثلاثة إصدارات قبل انقضاء عام على إصدارته الأولى .

وبول كينيدى مؤرخ إنجليزى الأصل يعيش ويعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية (جامعة ييل) ولد عام ١٩٤٥ فى شمال إنجلترا وتلقى تعليمه هناك وحصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد، ثم هاجر إلى أمريكا عام ١٩٨٣، ولمع كمؤرخ نشط نشر له أحد عشر كتابا قبل صدور كتابه المثير للجدل «قيام وسقوط القوى الكبرى».

وقد ذهب كينيدى فى هذا الكتاب إلى أن القوة النسبية للدول الكبرى لا تبقى على حالها ، ويرجع ذلك إلى اختلاف معدلات النمو فى المجتمعات عن بعضها البعض، بقدر ما يرجع إلى التغيرات التكنولوجية والتنظيمية التى تختلف بدورها اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر يعطى لمجتمع مزايا مادية لا يحققها المجتمع الآخر أو المجتمعات الأخرى. وكلما استطاعت قوة كبرى أن تحقق درجة عالية من النمو الاقتصادى تميزها عن غيرها، انعكس ذلك على استراتيجيتها الرامية إلى تأمين وتوسيع نطاق مصالحها لتزيد من ثروتها على حساب الأخرى ومن ثم تنمى قدراتها العسكرية إلى أقصى طاقاتها تحقيقا لهذا الهدف مما يدخلها فى صراع مع غيرها يدفعها إلى زيادة قدراتها العسكرية بصورة لا تتوازن مع نموها الاقتصادى مما يؤدى إلى أفولها وصعود غيرها من القوى المنافسة أو البديلة لها.

★ ★ ★

وحاول كينيدى أن يطبق هذه الفرضية على القوى الكبرى التى ظهرت على الساحة الدولية شرقا وغربا منذ مطلع القرن السادس عشر حتى أواخر الحرب الباردة، وانتهى من دراسته إلى نتائج مؤداها أنه ما لم يتغير صراع القوى فى عالم ثنائى القطبية (عندئذ) عما كانت عليه فى السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، فسوف يشهد القرن الحادى والعشرين تحولات مهمة فى نصيب القوى الكبرى من الإنتاج الاقتصادى العالمى والانفاق العسكرى لصالح دول أخرى غير

القطبين العملاقين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى مثل الصين واليابان والاتحاد الأوربى ، حيث أصبحت القوى الثلاثة الأخيرة تحظى بنصيب كبير من الانتاج الاقتصادى العالمى يفوق نصيب الولايات المتحدة ونصيب الاتحاد السوفييتى مجتمعين، وأن هذه القوى الثلاث تواجه اختيارا صعبا ، لأن حفاظها على نموها الاقتصادى ومصالحها الاقتصادية الدولية يقتضى نموا نسبيا فى قوتها العسكرية لتحقق لمصالحها الحماية المنشودة، ولكن ذلك - بدوره - يلحق بها ما لحق بالاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة من تحمل تبعات الانفاق العسكرى الذى يؤثر سلبا على واقعها الاقتصادى شأنها فى ذلك شأن الشيخ الذى يبذل جهدا كبيرا فى العمل يفوق قدراته البدنية سرعان ما يقعده الاجهاد، فالتوسع فى الانفاق العسكرى فى زمن أصبحت فيه تكلفة الحروب عالية جدا حتى أن ميزانية القوات الجوية الأمريكية (عام ١٩٨٨) تكفى بالكاد تكلفة طائرة حربية واحدة عام ٢٠٢٠، وبذلك يؤدى صراع التسلح إلى التأثير سلبيا على الاقتصاد بصورة تؤدى إلى الاضمحلال، غير أن تلك القوى لا تملك الفرار مما

التنبؤ يقوم على عملية عقلية تلعب قدرات المؤرخ واستعداده الشخصى الدور الأكبر فيها

يفرضه عليها واقعها الذى يلزمها بالابحار «فى مجرى الزمن». وانتهى إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تشهد نهاية الابحار فى مجرى الزمن ما لم تضع حدا لقوتها العسكرية يتناسب مع قدراتها الاقتصادية، ولما كان الاتحاد السوفييتى طرفا مقابلا فى صراع القوى مع الولايات المتحدة، فهو يواجه نفس المصير.

كتاب مثير للجدل

لقد أثار كتاب بول كينيدى «قيام وسقوط القوى الكبرى» جدلا واسعا فى الأوساط الأكاديمية الدولية، وخاصة أن الاتحاد السوفييتى تفكك عقب صدور الكتاب بعام واحد، ولعل مخططى الاستراتيجية الأمريكية استفادوا من الرؤية المستقبلية التى قدمها هذا المؤرخ فى كتابه المثير للجدل، بالعمل على اجهاض النمو المتصاعد للاقتصاد الآسيوى، والسعى لحل أزمة الاقتصاد

الأمريكي عن طريق الهيمنة على المراكز الحيوية في العالم، ولكن ذلك يتطلب المزيد من القوة العسكرية وتطوير الأسلحة غير التقليدية مما يستنزف طاقة الاقتصاد الأمريكي، فهل تشهد العقود الأولى من القرن الحادى والعشرين تفسخ أمريكا كما شهد العقد قبل الأخير من القرن العشرين تفسخ الاتحاد السوفييتي؟!

لعل كتاب بول كينيدى الذى صدر بعد خمس سنوات من كتابه المثير للجدل (عام ١٩٩٣) وحمل عنوان «الاستعداد للقرن الحادى والعشرين» يقدم إجابة على هذا السؤال . فقد بدأه بتأكيد مقولة أن لكل قرن ظروفه الموضوعية والبيئية التى تجعل مجرى تاريخه مختلفا عن غيره، ومن ثم فإن إيقاع التغير السريع الذى شهده العالم فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين يقتضى أن نقف أمام «قوى التغيير التى تؤثر على الأحداث الدولية» فالنمو الاقتصادى والتطور التكنولوجي فى القرن العشرين يخلق نوعا جديدا من التحدى يحقق فيه الذين يدركون أهمية تحقيق النجاح مكاسبهم على حساب خسائر أولئك الذين لا يدركون ذلك، وركز دراسته فى هذا الكتاب على الظروف الدولية التى تواجه العالم فى القرن الحادى والعشرين مثل: مشكلات البيئة، والانفجار السكاني، والتقدم التكنولوجى وأثر ذلك على الواقع الاجتماعى والقيم الثقافية ، وقسم الكتاب إلى بابين أحدهما يبسط هذه المشكلات بشكل عام والآخر يتناول دراسة حالات كل من اليابان والدول النامية، وبلاد الاتحاد السوفييتى السابق، وأوربا، ثم أخيرا الولايات المتحدة الذى حمل الفصل الخاص بها عنوان «المأزق الأمريكى» ناقش الواقع الأمريكي اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا موضحا الفرق الكبير بين ما حققته اليابان والصين وكوريا الجنوبية وأوربا وبين تدهور الأحوال فى الولايات المتحدة التى لا يجاريها أحد فى قوتها العسكرية وخاصة الأسلحة المتطورة وأسلحة الدمار الشامل، مما يجعل هناك «مأزقا» تعيشه أمريكا وهى تتأهب للقرن الحادى والعشرين مما يعرضها لحالة «انحطاط نسبى» ويجعل القرن الحادى والعشرين «قرن آسيا» وقد توصل كينيدى إلى هذه النتيجة من تحليل للوضع الاقتصادى ومستوى المعيشة وظروف البيئة ، وتوقعات التطور السكانى، وأحوال التعليم

مقارنة بما يتكلفه الانفاق العسكرى .

المستقبل والتنبؤ

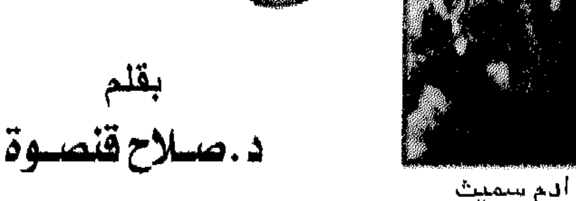
لقد حاولنا فيما تقدم أن نقدم نموذجا لدراسة التاريخ الاستشرافى أو الاستطلاعى الذى يقدم فيه المؤرخ رؤية للمستقبل تقوم على التنبؤ القائم على أسس منهجية من واقع التجربة التاريخية ومن منظورها، وليس من قبيل الحدس والتخمين، ولعل ما أصاب الاقتصاد الأمريكى من أزمة ترددت أصداؤها فى الأسواق المالية العالمية بعد أحداث (١١ سبتمبر) تبين أن دراسة كينيدى الاستشرافية فى كتابيه، قامت على أساس منهجى لا يخلو من الدقة، وأن التحليل الذى قدمه فى الكتابين يقف على أقدام راسخة.

ولا شك أن الدراسات التاريخية فى العالم العربى فى حاجة ماسة لا لمجرد التعرف على مناهج جديدة فى البحث التاريخى طال أمد إغفالنا لها، ولكن نحن فى حاجة إلى استيعاب تلك المناهج وتطبيقها على الدراسات التى تجرى فى جامعاتنا، ونظرة إلى ما تخرجه المطابع من كتب التاريخ، وما تجيزه الجامعات من أطروحات للماجستير والدكتوراه، تكشف لنا عن قصور شديد عندنا فى التدريب والإعداد المنهجى للباحثين، إذ يغلب على الكثير من الكتابات التاريخية «القص التاريخى» والسرد الممل، ولا يكاد القارىء لهذا النوع من الدراسات أن يقف على نتائج محددة بعد طول عناء.

★★★

ولعل عدم الاهتمام عندنا بالتاريخ الاستشرافى الذى يهتم بالتنبؤ بالمستقبل على أسس منهجية يعود إلى الميل العام عند الأكاديميين والمثقفين العرب لتهيب طرق ميادين جديدة للدراسة، والنظر إلى هذا النوع من الدراسات بشىء من الاستخفاف الناتج عن القصور الشديد فى تكوين المؤرخ العربى ، ومحدودية ثقافته المنهجية، بمعنى عدم متابعته لما يجرى فى حقل تخصصه على الساحة الدولية (إلا نفر قليل لا يمثلون نقيضا لهذه الظاهرة السلبية)، ومن ثم قلة حيلته، وعجزه عن ارتياد مجال التاريخ الاستشرافى الذى يتطلب معرفة بالعلوم الإنسانية وطرق البحث فيها، وإلى تدريب طويل على استخدام الأدوات المنهجية فى العلوم البينية على وجه الخصوص. ■

النبوءة




افلاطون


ادم سميث

بقلم
د. صلاح قنصوة

ربما انطوى لفظ «نبوءة» بمعنى الإخبار عن شىء قبل وقوعه، على دلالة غيبية حيث يرتبط بالنبوة، كما يقترن بما يغمغم به الكاهن أو العراف في الزمن القديم. فإذا ما نضونا عنه غلالته الدينية والغيبية، استقر له دوره المعرفى الذى يفترش ساحة واسعة من المجالات المنوعة التى تتباين أهدافها، وأساليب إجرائها، وتتفاوت فيما بينها فى طرق تحصيل المعرفة.

ومادام العلم، بمعناه المعاصر، هو الذى يتفق الجميع، على اختلاف نزعاتهم، على ما يفضى إليه من تنبؤات، جاز لنا أن نقيس عليه سائر المجالات، ونقارنها به. فإلى جانب العلم، نجد أن بعض أسلافه القدامى لاتزال تنازعه فى تحقيق أهدافه المعرفية مثل التنجيم والعرافة، والفراسة، والأسطورة، والسيمياء (أى علم أسرار الحروف) وهى ما يمكن أن نصفه «بالمضاد للعلم».

وهناك إلى جانبهما ما لا ينافس العلم فى ذلك الهدف مثل الدين والفلسفة والفن، وهو ما يمكن تسميته «بالمختلف عن العلم».

فأما المجالات المضادة للعلم فتتفق معه فى أهدافه لأنها كانت تنشد فهم ظواهر الطبيعة توطئة للتحكم فيها. غير

أن أسلوبها فى إثبات مزاعمها لم يكن مما يقبل الفصل فى صحتها أو كذبها لدى الذين لا يشتغلون بها أو يؤمنون بصحتها. أى أنها افتقدت «الموضوعية العلمية» التى تعنى ما يمكن الاشتراك فى انجازه وسلوك نفس الطريق لبلوغ نتائجه. أو هى ما يؤسس خلال العمل المتفق عليه بين الباحثين مهما اختلفت عقائدهم أو ولاءاتهم . ومن ثم فهى تعنى ما يتيح الاتفاق على الخطوات والاجراءات التى تعالج بها الموضوعات أو المشكلات بحيث تؤدى إلى الحسم أو الفصل بين ما هو صادق أو كاذب فيما ينشأ عنه الخلاف بين الباحثين.

وبغياب تلك الموضوعية لابد أن يتقدم العلم على حساب أسلافه إذا ما أقدموا على منازعته، مواصلاً نزع ملكية تلك المجالات، وابطال نفوذها.

ويختلف الأمر عما هو مستقل أو مختلف عن العلم، كالدين والفلسفة والفن. فهو لا يتفق مع العلم فى هدفه الخاص، ولا منهجه الموضوعى، وبالتالى فلا ينافسه أو يفرض علينا الاختيار بينه وبين العلم.

إلا أن تلك المجالات، رغم استقلالها، ليست منعزلة أو منقطعة الصلة بالعلم. لأنها تحث عليه، وتستخدمه، ولكن على النحو الذى تختلف فيه عن البحث العلمى الخالص فى هدفه ومنهجه. فالدين ، مثلا، هداية وإرشاد، والفن ابداع وامتاع.

ومهما يتقدم العلم، فلن تجور حدوده على مناطق نفوذ تلك المجالات المستقلة.. ومن هنا تختلف صلة العلم بها عن صلته بما هو مضاد للعلم.

وعود الفلسفة وآفاقها

أما الفلسفة ، فربما تكون المجال الوحيد من مجالات الفكر الإنسانى الذى لا يكف عن طرح السؤال عن مهمته وتحديد تخومه. بل لاتزال مشروعية قيامها ودورها محلا للبحث والشك. ورغم أنها «أم العلوم»، كما هو مأثور مشهور، أى أنها الرحم الذى تخلقت فيه أجنة العلوم التى ما لبثت أن خرجت منها واستقلت عنها ، رغم ذلك، فإن بعض الفلسفات لايزال يستمتع بثمرات إرث قديم خلفته المجالات المضادة للعلم وهى التى كانت أسلافه. فثمة إهابة بالحدس، والأسطورة، والامعان فى الخيال.

فالفلسفة نظرة كلية شاملة، وموقف أو اتجاه عام. وهى ليست وعاءً مستوعبا للعلوم، أو حزمة من المعارف القديمة ما لبث أن انفرط عقدها إلى مجموعة من العلوم المتخصصة، كما أنها ليست علماً بين العلوم، وإلا حكمنا بإلغائها وحجب الاعتراف بها، إذا ما خطر للفلسفة أن تقدم باسمها شيئاً من المعرفة الدقيقة، فلن يكون حظها أوفر مما يكسبه العطار فى منافسته للصيدلى، ولن يكون موقفها أفضل من موقف حلاق الصحة من الطبيب!

ولكن يحسن بنا أن نعترف بأن الفلسفة كانت تقوم بكل ذلك ، ولم يكن

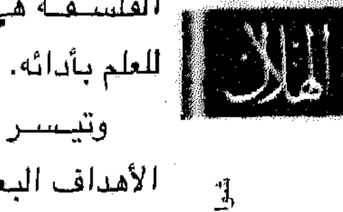
ثمة فارق بين لفظتي فيلسوف وعالم، حتى استقلت العلوم، على نحو صريح، في منتصف القرن التاسع عشر. فعندئذ استقلت الفلسفة بموضوعاتها الخاصة مثل الوجود، والمعرفة، والقيم، والواقع، والإنسان، وهي قضايا لا تصلح موضوعا للعلوم المتخصصة. وإذا كان في وسع العلوم أن تقول شيئا في كافة موضوعات المعرفة، فإنها تقف عند تخصصاتها لا تعدوها، كل عند موضوع معين. ولابد أن نكون في حاجة إلى من يضم شتات تلك الموضوعات جميعا في وحدة أو موضوع واحد، يتخطى به تفصيلات عناصره، ويعقد بينها الصلات، ويسد الفجوات.

وليس من شأن العلوم أن تقسيم الحدود أو تزيلها أمام تطلعات الإنسان نحو معرفة العالم الذي يحدق به من كل جانب . كما لا تعين، بكل تخصصاتها، ما ينبغي للإنسان الفرد أن يتخذه من موقف أو قرار إزاء مشكلات . ولكن الفلسفة هي التي تضطلع بما لا شأن للعلم بأدائه.

وتيسر لنا الفلسفة استشراف الأهداف البعيدة للإنسانية، كما تحفزنا إلى المساهمة في تحقيقها. والأوضاع المتجددة التي يواجهها الإنسان لا يمكن أن تنتظر حتى تفرغ العلوم المختلفة من مسائلها لكي يتقدم لها الإنسان بالحل. فمهمة الفلسفة هي استيعاب أو استرداد ما هو عيني واقعي مباشر ، ولكن عن طريق ما هو مجرد، وكلي ، وعام.

ولذلك تختلف الفلسفة ، وتبتعد عن العلم بقدر ما تقترب من الدين في انطوائها على الدعوة إلى ما ينبغي أن يكون. أو بعبارة أخرى: ماذا ينبغي أن أعرف ، وماذا ينبغي أن أفعل. ويتضمن ذلك تصوراً لما يكون عليه الواقع، وما يكون عليه التاريخ.

ولا يظل النسق أو المذهب الفلسفي مغلقاً على نفسه، بل ثمة أفق متحرك أمام الفيلسوف هو الذي تتحدد المشكلات الفلسفية وفقاً لحركته. فالمشروعية الفلسفية للمشكلات تتحول وتتجدد دوما . والمشكلة ، أية مشكلة، «تصير» مشكلة فلسفة لأن طائفة من الأسئلة لاتزال تتجمع وتتشابك ملحة في طلب الإجابة أو الحل. ولا ريب أن هذه الأسئلة تعبير عن حاجات ومطالب عملية وفكرية حثت عليها أو أنتجتها أوضاع ثقافية، مادية وروحية جديدة. بينما تنتزع المشروعية عن موضوعات أخرى كانت فلسفية في الزمن السابق لاندراجها اليوم في موضوعات العلم الطبيعي أو الاجتماعي، وتصوغ الفلسفة آراءها فيما يشبه «الافتراضات الواسعة، وليس «الفروض»، لأنها لا تقبل التحقق من صحتها أو كذبها موضوعياً وذلك لاتساع موضوع الافتراضات الفلسفية. فكل عبارة عامة لا تتعلق مباشرة بتخصص معين أو علم بعينه، هي عبارة فلسفية مهما يبدو من سذاجتها أو



الاعتياد عليها.. وهذا هو ما يسمى بالتفلسف الشائع أو الدارج الذى نزاوله جميعاً دون وعى أو تصريح. غير أن الفلسفة الرفيعة المستوى التى تقبل الدرس والفحص تلتزم بشرطين آخرين فضلاً عن عمومية العبارات أو الأحكام، وهما: الاتساق، أى الخلو من التناقض فى تلك القضايا الفلسفية، والنسقية، أى قبول القضايا للاندماج مع غيرها فى نسق، أى مذهب ، هو الذى يحدد علاقات معينة بين عناصره ووحداته.

والفلسفة منحازة ، غير محايدة بخلاف العلم، فهى موقف إنسانى من العالم، ومن العصر، والمجتمع، يستوعب كل جوانب الإنسان. وكل مشكلة تصلح أن تكون مادة للفلسفة، على شريطة أن تدرس فى شموليتها، وعلى أساس من نسق متكامل فى ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف الإنسانية، وهناك من الفلسفات ما تبرر واقعها، أو تتحسر على ماض ذهب، أو تتمرد على هذا وذاك ابتغاء بناء مستقبل جديد . وهى فى تلك المواقف المتباينة تجعل الناس على وعى بمسئولياتهم الأساسية، وآثارها المترتبة عليها . ولا يعنى ذلك القول بأن الحقيقة موزعة على المشاع بين مختلف المذاهب الفلسفية ، أو أن أحدها، على الأقل ، هو المذهب الصحيح، لأن الحكم عليها ليس من نسيج الحكم على القضايا العلمية التى تتيح إمكان التحقق من صحتها أو كذبها بمقتضى ما تطرحه من فروض.

تنبؤ مختلف

ولذلك يختلف التنبؤ فى الفلسفة عن نظيره فى العلم. فيعد التنبؤ العلمى الوظيفة أو المهمة ، أو الهدف الذى لابد أن ينجز إذا ما كان المشروع العلمى ناجحا صحيحاً. فهو ليس عملية أو اجراء معيناً يتطلب شروطاً مضافة إلى شروط عمليات الوصف والتفسير العلمية، لأنه الحصاد الذى نترقبه من التفسير السابق. وهو إذن لا يعنى سوى أن تفسيرنا السابق للظاهرة هو تفسير صادق صحيح. ففى الحالين، أى التفسير والتنبؤ، لابد أن تتاح لنا نظرية أو قانوناً مثبتاً من قبل، كما يتجمع عدد من الوقائع التى يمكن أن نبدأ بها، فنستنتج من النظرية أو القانون، ومن الوقائع، واقعة جديدة «بالنسبة لنا»، وهى حدث «لم يكن قد وقع من قبل»، هذا بالنسبة لنا، أما بالنسبة لمنطق الاستدلال العلمى، فليس هناك فرق على الإطلاق. فهذا الفرق يعتمد على المصادقة فيما إذا جرى الاستنتاج بحقيقة جديدة «قبل» الحادث، وذلك فى حالة التنبؤ، أو «بعد» وقوعه فى حالة التفسير. وموجز القول أن التنبؤ العلمى هو تفسير مسقط على المستقبل.

أما فى الفلسفة ، فلا نجد ذلك المتصل الواحد الذى يؤدى فيه تفسير الوقائع إلى التنبؤ بحدوثها، لأن الفلسفة لا تتعامل مع «الوقائع المفردة والوحدات التحليلية» كما يصنع العلم، بل تتعامل مع

«مواقف» تتشابك فيها العلاقات بينها، وتختلط بغيرها. والمواقف لا تتكرر لأنها تشكيلة مؤلفة من العناصر والعلاقات فى مكان معين وزمان محدد. وتختلف فيها مواقع البشر وأفعالهم فى مكان دون آخر، وزمان غير الزمان.

ولئن خضعت المفردات الوقائعية والوحدات التحليلية فى العلم للإطراد وانتظام الوقوع ، فإن المواقف بحكم تأليفها وتراكيبها المختلفة لا تلتزم ذلك الإطراد حتى تعاملنا معها ككلية شاملة، رغم انصياع ما انطوت عليه من مفردات أو وحدات لمسار قابل للتنبؤ إذا ما درسناها كلاً على حدة.

ومن هنا تختلف النبوءة المتوقعة من الفلسفة عن النبوءة العلمية، فهى بالأحرى ارتياد لآفاق جديدة واسعة، واستشراف للمستقبل لأنها تطل من شرفة عالية على تفاصيل متناثرة فى ساحة مترامية الأطراف.

من بين هذه «النبوءات» فكرة «الكوسموبوليتانية» أى المدينة (أى الدولة) الكونية كما حاول أن يطبقها الأسكندر الأكبر تلميذ أرسطو، وأوشكت على التحقق، ولكن على نحو آخر فيما يسمى «بالعولمة»، وفيما وصفه «مارشال ماكلوين» بالقرية العالمية.

كما يبدو أن الدولة فى طريقها إلى الزوال كما تنبأ «ماركس» ، ولكن على خلاف ما اقترحه من تفسير بوصفها أدوات القمع وأجهزته للطبقة الرأسمالية، وبزوال الصراع الطبقى وتحقيق الشيوعية ينتهى دور الدولة. غير أنها لن تزول بزوال الرأسمالية، بل لمزيد من تسلط الرأسمالية فى صورتها الجديدة للشركات متعدية القوميات.

ومن هذه النبوءات التى أوشكت على التحقق الاتفاق على لغة عالمية مشتركة. فقد تنبأ بها «ليبنتسى» كلغة رياضية عامة مشتركة يصير التفكير بمقتضاها نوعاً من الحساب . كما قدم «بيرسى» «السيميوطيقا» بوصفها المنطق العام واللغة المشتركة لكل صنوف الفكر والسلوك. وها نحن اليوم نمارس شيئاً قريباً منها عندما نستخدم الكمبيوتر بلغاته الرياضية المبسطة.

وعندما ألف «آدم سميث» كتابه «ثروة الأمم»، الذى أصبح به أباً للاقتصاد كان يعده امتداداً لدعوته وفلسفته الأخلاقية، فقد كان أستاذاً للمنطق والأخلاق بجامعة جلاسجو. وقد أقامته على تصور أخلاقى. فلم يعد البحث عن الربح عملاً أنانيا، بل مساهمة فى تحقيق المصلحة العامة عن طريق «اليد الخفية» للنظام الطبيعى الذى يفضى إلى التآزر بين المصلحة الخاصة والعامة وهو صاحب نظرية اقتصاد السوق القائم على حرية التبادل والتجارة. ولذلك عارض سياسة القيود الجمركية من أجل التقدم . وهو ما نجده الآن متحققاً فى اتفاقيات الجات التى ربما نعتبرها



تحقيقاً لنبوءة الفيلسوف آدم سميث عام ١٧٦٦.

اليوتوبيا وعلم المستقبل (أو المستقبليات)

رسم كثير من الفلاسفة تخطيطا لمدن أو أمكنة يحققون فيها تصوراتهم وآمالهم ومشروعاتهم من أجل حياة إنسانية أفضل.

وأشهر تلك اليوتوبيات ما قدمه «توماس مور» عام ١٥١٦، ولقد تحقق منها الكثير مما تخيله . فقد أقامها مور على قوانين تفصح عن العقل الإنسانى الحر دون عون أو إرشاد إلهى. وجعل ممارسة تحسين النسل مستندة إلى فحوص تسبق الزواج، كما يسر الحصول على الطلاق، وفصّل فى التربية، والمسئولية الاجتماعية وانحراف الأحداث وعقاب الجناة.

وكتب فرنسيس بيكون أطلانطيس الجديدة، وتحدث عن دار سليمان للعلماء والباحثين، وقد كانت نبوءته أسرع إلى التحقق بقيام الجمعية الملكية التى تعد أول أكاديمية علمية ثم أعقبتها الأكاديمية الفرنسية وتوالت بعدها الأكاديميات فى سائر بلدان العالم.

وتتفق معظم اليوتوبيات ابتداءً من جمهورية أفلاطون حتى «عالم شجاع جديد» «لألدس هكسلى» فى أنها، إلى جانب توفير حياة مادية خالية من العوز والحاجة، تقوم على إقبال الناس على التسليم بفلسفة سياسية موحدة بحيث تصب عقولهم فى قالب واحد. وإن كان ذلك متعذراً أو مستحيلاً فى الماضى، فقد أصبح متيسراً اليوم فى جميع أقطار العالم بوسائل الإعلام والاتصال والسماوات المفتوحة لخلق اتساق فى عادات الناس وتنميط أذواقهم وأفكارهم. وهذه نبوءة أخرى تكاد تتحقق.

وأغلب الظن أن علوم المستقبل هى نفسها فصيل حديث من اليوتوبيا. والفارق بينهما أن اليوتوبيا التقليدية تفترض وجود مجتمع مستقر، وبيئة لا تتغير. كما أن كُتَّاب المستقبليات من فلاسفة اليوم مزودون بقاعدة عريضة من المعلومات المنوعة التى تيسر لهم كشف الطريق بأكثر مما كان يصنع السابقون.

فهى فى نهاية الأمر يوتوبيا قد تخلصت من القدر الذى كان يشوب اليوتوبيات القديمة مما يسمى «بالخيال العلمى». وليس علىّ من بأس إذا اعتقدت أن هذا الصنف من الكتابات هو فرع جديد من فروع الفلسفة الراهنة، أو هو ممارسة للدرس الفلسفى الذى يعمد إلى الربط بين نثار الشتات العظيم من المعلومات المتفرقة ، والصحيحة علميا، ليستخلص منها تأليفاً جديداً. وعلامتها الفلسفية هى أننا نجد تباينا واضحاً، وتفاوتاً بارزاً فى الرؤى المختلفة لدى المشتغلين بهذه المستقبليات. ■

النبوءة

جزء خاص

١٤٢



حلم أم كابوس

أدب النبوءة الإنجليزى فى القرن العشرين

بقلم

د. ماهر شفيق فريد

شوال ١٤٢٢هـ - يناير ٢٠٠٢م

كان اللاتين الأقدمون يطلقون على الشاعر أو المنشد لقب «Vates» بمعنى المتنبيء أو القادر على رؤية الغيب، وقد عزى إلى الشاعر فرجيل قدرات النبوءة لأنه فى أنشودته الرعوية الرابعة تنبأ بمولد صبى يجلب معه السلام، ويعيد العصر الذهبى إلى الأرض التى مزقتها الحروب والمحن، فتتصالح الأضداد، ويجلس الأسد والحمل جنبا إلى جنب، جاء ذلك فى قصيدة يهنىء بها صديقه يوليو - الذى منح حديثا لقب قنصل - بمولد أو توقع مولد طفل لهذا الأخير:

«الآن أقبل آخر عصر فى أغنية كوماى، وها هو ذا الخط العظيم من القرون يبدأ من جديد .. الآن تعود العذراء، ويعود حكم زحل..

سيؤتى هبة الحياة القدسية، وسيرى الأبطال ممتزجين بالآلهة، وسيرى - هو ذاته - بينهم، وسيهز عالماً تكون فضائل أبيه قد أعادت إليه السلام.. سيموت الثعبان، ويموت بنات السم الزائف، وتنمو توابل آشور فى كل تربة» ..

وقد فسر آباء الكنيسة وفلاسفة المسيحية - كالقديس أوغسطين - هذه الأبيات المكتوبة فى عام ٤٠ ق.م. بأنها تتنبأ بمولد السيد المسيح، ومن ثم اتخذ دانتى فى كوميدياه الإلهية من فرجيل مرشدا له باعتباره إرهاصا بالدين الجديد.

وعلى امتداد القرون استمرت هذه النظرة إلى الأديب على أنه راء تخترق بصيرته سدوف المجهول وتستشرف آفاق المستقبل، فوجدنا فى القرن التاسع عشر الشاعر الملعون رنبو يكتب فى ١٨٧١ رسالتين تقدمان رؤيته لما ينبغى أن يكون عليه شعر المستقبل، ويلخص الدكتور عبدالغفار مكاوى مضمونهما بقوله:

«إن الشاعر ينبغى أن يجعل من نفسه رائيا أو بصيرا .. ولكن كيف يصبح الشاعر كذلك؟ كيف يتسنى له أن يستحضر الرؤى؟ يجيب رامبو إجابته المشهورة: بإحداث بلبلة متصلة حادة فى حواسه .. بالانغماس «الديونيزي» المقصود فى كل تجربة حية ووجدانية ممكنة. وما غايته من بلبلة الحواس وتعمد تشويهها؟ الغاية هى معرفة الحقيقة الجوهرية الكامنة وراء الظواهر الخارجية والتعبير عنها.

وفى القرن العشرين وجدنا من شعراء العالم الجديد من يعيد صياغة هذا المفهوم. فعند الشاعر والناقد الأمريكى إزرا باوند «إن الفنانين هم

قرون استشعار الجنس البشرى». ويضيف شاعر آخر – آرشيبولد ماكليش – فى كتابه «الشعر والخبرة»: «على الشعر أن يصدع بالنبوءة». ومن شعراء مدرسة أبولو، كعلى محمود طه، من كان يصف الشاعر بأنه يهبط الأرض كالشعاع السنى، بعصا ساحر وقلب نبى.

الأديب إذن، بما أوتى من عيان داخلى ثاقب، وحس مرهف بالواقع، وقدرة على مجاوزة ما هو كائن إلى ماقد يكون أو ما ينبغى أن يكون ، قادرا على تلمس احتمالات المستقبل، وتحسس جوانبه التي مازالت في طي الغيب، بل هو قادر علي استباق مكتشفات العلم وإعادة تركيب الواقع فى صيغ جديدة: جذورها – ولا ريب – ضاربة فيما يقع تحت نطاق خبرته الحسية، ولكن أغصانها تمتد فى المستقبل لترسم أفقا جديدا بل آفاق تجاوز كل التصورات.

يتماس أدب النبوءة وآداب أخرى تلاقيه فى أمور وتفترق عنه في أخرى، إنه يناصي أدب الأحلام ومن أمثلته كتاب «أحلام الأعلام» للفيلسوف البريطانى برتراندرسل حيث يتخيل المؤلف أحلام المحللين النفسيين، والميتافيزيقيين، والوجوديين ، وعلماء الرياضة. وكبار الساسة كستالين وإيزنهاور، وإن وجب أن نضيف أن رسل – على علو كعبه فى الفلسفة والمنطق الرياضى وحصوله على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠ لم يكن بالأديب الملهم، ولا تعدو أحلامه هذه أن تكون أشبه بعظمة جافة لا دماء فيها ولا لحم ولا شحم.

أدب النبوءة و الخيال العلمى

ويلاقى أدب النبوءة – من بعض الزوايا – قصص الخيال العلمى الذي ازدهر فى القرن العشرين بعد أن مهد له إدجار وجول فيرون وهـ. ج، ويلز فى أواخر القرن التاسع عشر، ونشأ فى كنف اختراق العلماء حاجز الفضاء وغوصهم فى أعماق المحيطات وتوغلهم فى قشرة الأرض، ولكن هذا النوع من الأدب يظل – فى تقديرى – أدبا صبيانيا أقرب إلى خيالات المراهقين ومغامرات الصبية، شأنه فى ذلك شأن القصص البوليسي وروايات المغامرة والبطولة، فكأنما مؤلفوه قد توقف نموهم النفسى عند مرحلة عمرية بعينها، لايعدونها إلى أطوار النضج والاكتمال.

كذلك يقترب أدب النبوءة من أدب الفانتازيا وهو – فى تعريف الناقد ن مان لاف – مايستثير العجب والدهشة، ويشتمل على عنصر خارق للطبيعة أو مستحيل، ويتضمن كائنات أو موضوعات لايلبث القارىء أن يؤمن بصدقها، ممارسا فى ذلك ما سماه كولودج: تعليق الإنكار، أو مجاراة الكاتب فى خياله، ومن أمثلة هذا الأدب الفانتازى روايات «أطفال الماء» لتشارلز كنجزلى، و«رب الخواتم» لـ ج.ر. تولكين، وثلاثية تيتوس لمرڤين بيك.

لكن أقرب ألوان الأدب إلى أدب النبوءة هو أدب اليوتوبيا أو الحلم بمدن فاضلة من قبيل تلك التى حدثنا عنها أفلاطون فى جمهوريته، وكامبانللا فى مدينة الشمس، وتوماس مور فى يوتوبياه، وهى أحلام لاتلبث – كما سنرى – أن تتحول فى قرننا العشرين إلى كوابيس وذلك تحت وطأة الجشع المركوز فى نفس الإنسان، والقسوة الوحشية التى لاتعدو أن تتخذ من المدنية لها ستارا، وطغيان الآلة التى تخرج عن طوق صانعها وتسير فى طريقها الخاص، وانقطاع الصلة بين الانسان والطبيعة، وتشيؤ الكائن الإنسانى، وحلول غرائز العنف والجنس محل عواطف الرحمة والمحبة والمودة،

وسأتخذ من بعض نماذج الأدب الإنجليزى الحديث - شعرا وقصة ومسرحا - برهانا على ما أقول.

حرب العوالم

هذه النماذج المختارة هى: رواية «حرب العوالم» لمؤلفها هـ.ج. ويلز، وقصيدة «المجيء الثانى» للشاعر الإيرلندى و.ب.ييتس»، ومسرحية «العودة إلى متوشالح» للكاتب المسرحى الأيرلندى برناردشو، ورواية «العالم الطريف» لأولدس هكسلى، ورواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، ورواية «البرتقالة الآلية» لأنطونى بيرجس.

كتب هـ.ج. ويلز عددا من الرومانثات (الرومانسيات) العلمية التى يستخدم فيها اهتمامه بالعلم (وإن يكن قد ظل عالما هاويا لا محترفا) ومواكبته لأحدث تطوراته فى التنبؤ بما ستكون عليه صورة الأشياء فى المستقبل، واحتمالات تغير الطبيعة البشرية - كما نعرفها - نتيجة لذلك، من هذه الرومانثات: آلة الزمن (١٨٩٥) حرب العوالم (١٨٩٨) أول رجال على القمر (١٩٠١) أيام النجم المذنب (١٩٠٦)، وسنتوقف، هنا عند ثانية هذه الروايات: حرب العوالم.

تتخيل الرواية غزوا قام به المريخ لإنجلترا مع وصف واقعى دقيق للندن والمقاطعات المحيطة بها فى تسعينيات القرن التاسع عشر، حتى ليقول الناقد المعاصر برنارد برجونزى: «يخلق بالمرء أن يقرأ الفصول الافتتاحية من «حرب العوالم وخريطة غربى مقاطعة سرى بالقرب منه». والرواية - كسائر أعمال فى هذا الجنس الأدبى - خرافة، fable أيديولوجية تصور بلادة ساكنى الضواحى إزاء الخطر، وافتقار الدفاعات العسكرية البريطانية إلى الكفاءة فى وجه أسلحة المريخيين من دخان أسود وأشعة حرارية.

إن غزو المريخيين لانجلترا أشبه بغزو المستعمر الأوروبى لجزيرة تسمانيا، وبذلك يغدو ممثلو الإمبريالية هم الآن ضحاياها، ويعامل المريخيون البشر كما عامل البشر طويلا أنواع الحيوان: النسناس والبيسون (الثور الأمريكى) والأبقار والأرانب والجرذان والنمل، لقد أزيح الإنسان الأوروبى عن عرشه، وحل محله جنس آخر أقوى وأذكى، وتبخرت ثقة العصر الفيكتورى فى تقدمه وصناعته وتجارته وفتوحاته وراء البحار واكتشافاته العلمية، ويبلغ إذلال البشر غايته عندما لا يخلصهم من المريخيين سوى أضأل الكائنات الأرضية حتى أنها لاترى إلاّ بمجهر: البكتريا العضوية الضئيلة التي لايكاد الإنسان فى لحظات قوته وزهوه - يحس حتى بمجرد وجودها (انظر كتاب باتريك بارندرو. عن ويلز).

نبوءة من طرق جديدة

ويلاحظ بارند فى كتاب آخر له نقل إلى العربية - «ظلال المستقبل» - أن ويلز «طور وسبر الإمكانات الأدبية للنبوءة من طرق جديدة» مميزا بين مواعظ الفكر التبشيرى وكتابة القصة التنبؤية، فويلز - من حيث هو متنبىء - يقيم تصوراته للمستقبل على أساس من منجزات العلم فى الواقع، ولا يطلق العنان للخيال إلا بعد إخضاعه لنظام عقلى صارم بحيث تكون نتائجه مترتبة على مقدماته.

لقد كانت تفاؤلية ويلز (وهى فى هذا تشبه تفاؤلية برناردشو) تنطوى فى أعماقها على تشاؤمية عميقة، فهو لايثق بحكمة الجنس البشرى، ويخشى أن يدمر نفسه بنفسه، أو أن يقوده غروره إلى الرضا عن الذات بما يعميه عن الأخطار المحدقة به، سواء جاءت هذه الأخطار من الأرض ذاتها أو من خارج الفضاء، إن عالمنا هو «بار العميان» (عنوان رواية

آخرى لويلز) والجانب الدميم من الطبيعة البشرية - وهو الذى يظل محجوبا عادة فى أوقات الرخاء - سرعان ما يسفر عن وجه فى أزمنة الشدة، كما نرى فى تضارب راوى «حرب العوالم» والكاهن نزاعا على المؤن الغذائية الآخذة فى التناقص على نحو سريع، فالإنسان - عند الأزمات - يرتد إلى أصوله الحيوانية، وهى نظرة إلى الجنس البشرى تذكرنا برواية سويفت - الكاره الأكبر للبشرية والمشمئز من مجرد رائحتها - صاحب «رحلات جلفر» حيث جنس الياهو القروى القذر يرمز إلى الإنسان كما هو الآن فى مواجهة الجياد النبيلة العاقلة التى ترمز إلى الإنسان كما ينبغى أن يكون.

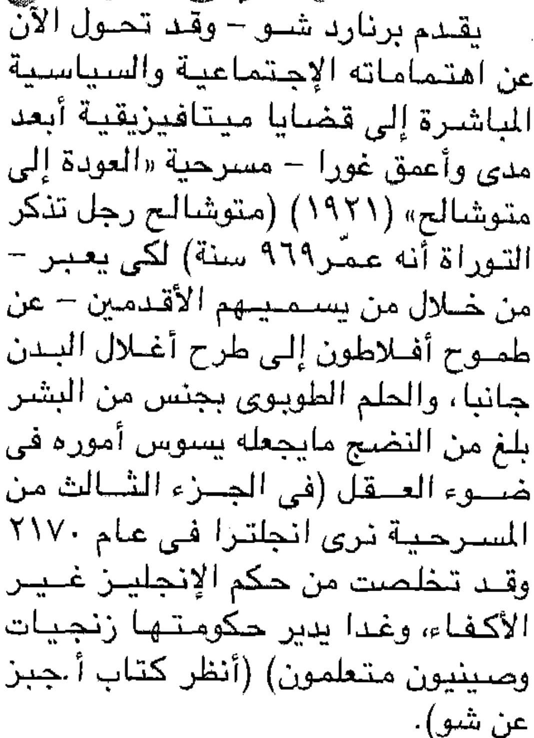
المجىء الثانى

من منظور فكرى مغاير يكتب و.ب.ييتس قصيدة عنوانها «عودة المسيح» (حرفيا: المجىء الثانى) فى ديوانه «مايكل روبرتس والراقصة» (١٩٢٠)، وهذا نص القصيدة بترجمة الدكتور محمد مصطفى بدوى:

إن الصقر يدور ويدور فى المدار المتسع أبدا
فلا يسمع صوت الصقار.
تنحل الأشياء وتسقط، فالمركز لم يعد قادرا على الصمود
لقد أطلقت الفوضى التامة على العالم
وانسابت الأمواج التى اظلمتها الدماء، وفى كل مكان
يهوى حفل البراءة ليموت غريقا
إن أفضل الناس يعوزهم الإيمان، بينما أسوأهم
يجيشون بعنف العاطفة
يقينا أن رؤية ما قريبة منا
من اليقين أن «عودة المسيح» قريبة منا
«عودة المسيح»! لم أكد أفوه بهذين اللفظين
وإذا بصورة هائلة لروح العالم
يضطرب لها بصرى: فقى مكان ما فى رمال الصحراء
هيكل له جسم أسد ورأس إنسان
وفى عينيه نظرة قاسية قسوة الشمس لاتعبير فيها
قد أخذ يحرك فخذيه ببطء بينما من حواليه
تتراقص الظلال التى تسقطها طيور الصحراء الغضبى.
إن الظلام يهوى ثانية، ولكنى الآن أعرف.
أن عشرين قرنا من السبات الحجرى
قد أقلقها كابوس سببه مهد يهتز:
أى حيوان جلف هذا الذى حان حينه أخيرا
فتحرك متكاسلا صوب «بيت لحم» بغية الميلاد؟

تستوحى هذه القصيدة الرؤيوية الاعتقاد المسيحى بأن المسيح سيعود إلى الأرض مبتدئا ألفية جديدة تسبق يوم النشور، أو هى بالأحرى تنبؤ بانتهاء حقبة الثقافة المسيحية الأوربية، وتقدم قوة جديدة خارقة للطبيعة يمكن أن ندعوها حقبة مابعد المسيحية، تتمثل فى إله مدمر جبار.

وعلى حين بدأت الحقبة المسيحية بمولد طفل إلهى فى مزود للبقر فى بيت لحم، تبدأ هذه الحقبة الجديدة بهولة أشبه بأبى الهول، وقد اقترن قدومها بتداعى المركز وانطلاق الفوضى الشاملة من عقالها وانبجاس فيضان من الدماء فى غمرة مذابح القرن العشرين، والقصيدة، كما يقول الدكتور محمد مصطفى بدوى، صرخة من أعماق



الشاعر ضد مادية حضارة منحلة، ضد الابتذال والقيم البرجوازية والعنف والجمود الروحى»

العودة إلى متوشالح

يقدم برنارد شو - وقد تحول الآن عن اهتماماته الإجتماعية والسياسية المباشرة إلى قضايا ميتافيزيقية أبعد مدى وأعمق غورا - مسرحية «العودة إلى متوشالح» (١٩٢١) (متوشالح رجل تذكر التوراة أنه عمّر٩٦٩ سنة) لكى يعبر - من خلال من يسميهم الأقدمين - عن طموح أفلاطون إلى طرح أغلال البدن جانبا، والحلم الطوبوى بجنس من البشر بلغ من النضج مايجعله يسوس أموره فى ضوء العقل (فى الجزء الثالث من المسرحية نرى انجلترا فى عام ٢١٧٠ وقد تخلصت من حكم الإنجليز غير الأكفاء، وغدا يدير حكومتها زنجيات وصينيون متعلمون) (أنظر كتاب أ.جبز عن شو).

«العودة إلى متوشالح» أسطورة عن التطور الخلاق (ظل شو دائما مناهضا لدارون) ومحاولة لكتابة تاريخ مقدس جديد يلائم العصر الحديث، وإقامة ديانة علمية تنهض على الاعتقاد بأن الكون صنع ذاته من لاشىء، ومن ثم كان بوسع الإنسان أن يصنع ذاته مما هو عليه، إذ يرقى فى مدارج التطور، إن الأمل الوحيد للإنسان إذا أراد أن يظل باقيا على الأرض هو أن يجاوز ذاته، ويخلق إنسانا جديدا، ومعنى هذا أن يكون التطور واعيا وليس - كما هو الحال عند دارون - عملية بيولوجية لا واعية، على المرء أن يسعى إلى تحقيق كماله وأن يساعد نفسه علي بلوغ هذه الغاية، ولئن ظل الإنسان فى مكانه، فسيأتى جنس آخر أصلح للبقاء يحل محله، فلنصمم إذن على أن نعيش، وأن نعيش عمرا أطول. حتى



دانتي

علي محمود طه

نتمكن من أن ننجز أمورا أكثر، هذه هى رسالة المسرحية كما يراها الناقد ب.بيردوم صاحب كتاب «مرشد إلى مسرحيات برناردشو».

تنتقل المسرحية فى الزمان والمكان بما يلائم اهتماماتها الكونية ما بين جنة عدن حيث نرى آدم وحواء والحية (الشيطان متنكرا)، وسنوات مابعد الحرب العالمية الأولى ثم نشب إلى عام ٢١٧٠ (عنوان هذا الجزء «الشىء يحدث») وقد تمكن الإنسان فعلا من إطالة عمره، ومنه إلى عام ٣٠٠٠ حيث نلتقى على شاطىء خليج جولداى بأيرلندا بسيد مسن جاء ليلقى نظرة على موطن أجداده، ولعله يمثله شو ذاته، أما الجزء الخامس والأخير من المسرحية، ويحمل عنوانا أبعد مايمكن للفكر أن يصل إليه، فتدور أحداثه فى عام ٣١٩٢٠ وفيه غدا الناس يولدون مكتملى النمو من بيضات، ليس ثمة طفولة (يكره شو مرحلة الطفولة) وإنما يظهر الشبان والشابات على سطح الأرض فى سن الثامنة عشرة تقريبا، وقد اكتمل وعيهم وحسهم الأخلاقى وذكاؤهم قبل الخروج من البيضة! ولا يموتون إلا بمحض المصادفة، أو نتيجة حوادث تقع لهم.

وقد اكتشف أحد الفنانين الشبان كيف يصنع كائنات بشرية، ولكن هذه الكائنات المصنوعة لاتعدو أن تكون مخلوقات آلية لاتستجيب إلا لمنبهات من الخارج، ومن ثم لايلقى اختراعه ترحيبا.

مسرحية مثيرة للفكر

ويرمي الأقدمون - أو المسنون - في المسرحية إلى التخلص من البدن ومن الأوهام التي مازالت تغمر رءوس ساكني الأبدان، وفي نهاية المسرحية، في غمرة ظلام، يعاود آدم وحواء وقابيل والحية الظهور على شكل ظلال ومعهم ليليث - زوجة آدم الأولى فيما تزعم بعض المرويات - التي تتنبأ بأن أبناءها سيعمرون أرجاء الكون. هكذا يحاول شو - من خلال إطار أسطوري - أن يتحرر من قيود العالم الطبيعي، عالم الحواس، ليس طول العمر عنده هدفا في حد ذاته، وإنما اعتباره وسيلة لتجاوز حقبتنا الحالية التي تغلب عليها أهداف قصيرة النظر (نتيجة لقصر الحياة) وتفتقر إلى الإيمان بمستقبل للبشرية، ويتهددها خوف الفناء بفعل جائحة طبيعية أو كارثة من صنع الإنسان.

العالم الطريف

أخلت تفاؤلية القرن التاسع عشر السبيل لتشاؤم القرن العشرين وهو ما يتجلى، على أسطع الإنحاء، في أعمال أولدس هكسلي وجورج أورويل وأنطوني بيرجس حيث الحلم قد تحول إلى كابوس، وإمكانات الخطر قد خرجت من حيز القوة إلى حيز الفعل، وحيث الإنسان قد فقد جذوره في الطبيعة وأصبح كائنا آليا تسيره المنبهات وردود الأفعال والانعكاسات الشرطية، ولم يعد تراث الماضي - من فلسفات وأديان وفنون وقيم أخلاقية - إلا معروضات متحفية جاوزتها التكنولوجيا - بما تستتبعه من قيم براجماتية جديدة، وخلفتها وراءها أشواطا، بحيث لايعيش في جوها سوى الحالمين الرومانسيين العاجزين عن التكيف مع عالم المستقبل، ومن ثم يتعين بترهم من بدن المجتمع الجديد بترا حاسما لا رحمة فيه لأنهم يمثلون خطرا على أيديولوجيته ويعوقون مساره.

هذا التحول لليوتوبيا utopia إلى يوتوبيا معكوسة أو مقلوبة dystopix هو ما نجده في رواية «أولدس هكسلي» العالم الطريف (حرفيا: «عالم جديد جميل») (١٩٣٢) وهي رواية أفكار من قبيل ما كان يكتبه توماس لف بيكوك في قرن ماض، وإن اختلفت البؤرة، حتى لتكاد أجزاء منها أن تصلح، منفصلة، لأن تكون مقالات قصيرة عن الدين والجنس والتطور وغير ذلك من الاهتمامات التي شغلت أبناء العصر الفيكتوري ومن تلوهم.

تجري رواية هكسلي على سنن رواية «نحن» (١٩٢٦) للروائي الروسي إيڤجيني زامياتين من حيث أنها تتخذ من رؤى المستقبل وسيلة لنقد الواقع، وإبراز عيوب الأبنية الاجتماعية القائمة، فنحن هنا في دولة عالمية في القرن السابع ب.ف (أي بعد هنري فورد، قطب الصناعة الأمريكية!) حيث الاستقرار الاجتماعي يقوم على نظام طبقي علمي، فالبشر - إذ يتدرجون من أسمى المثقفين عقلا إلى أدنى عمال الحرف اليدوية - يفقسون من معامل تفريخ وينشأون في دور حضانة جماعية، ويتعلمون - من خلال أساليب شرطية منهجية - كيف يتقلبون قدرهم الاجتماعي، ويدور حدث الرواية (ولو أنها بلا عقدة في الحقيقة) حول برنارد ماركس، وهو من فئة أ+ الخارج على السنة وغير السعيد نتيجة لذلك (والسبب، فيما يبدو، أن خللا طرأ على معالجته قبل ولادته). إنه يزور محمية للهمج في نيومكسيكو ويعود منها إلى لندن مصطحبا أحد هؤلاء الهمج، وفي

مبدأ الأمر ينبهر الهمجى (راجع همجى روسو النبيل) بالعالم الجديد الذى يراه، ولكنه فى النهاية يثور عليه، ويكشف نقاشه مع مصطفى موند - مراقب العالم - عن استحالة التوفيق بين الحرية الفردية، وهذا المجتمع الخالى من المتاعب والقائم على أساس علمى صارم.

ويكاد يجمع كل النقاد المصريين الذين كتبوا عن الرواية على أهميتها من حيث هى نقد للحضارة الصناعية الحديثة وتحذير من أخطار التكنولوجيا التى قد تنطلق من عقالها إنطلاق الشرور من صندوق باندروا، أو كالوحش الذى خرج عن سيطرة صانعه فرانكنشتاين.

فمحمود محمود الذى نقل الرواية إلى العربية وصدرت ترجمته عن دار الكاتب المصرى عام ١٩٤٧ يكتب فى مجلة «تراث الإنسانية» عام ١٩٦٣: «فى هذا الكتاب يعبر هكسلى عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس، ولعله من بين الكتاب الأحياء جميعا (توفى هكسلى فيما بعد عام ١٩٦٣ - م.ش.ف) الكاتب الوحيد الذى يستطيع أن يصور نتائج العلم بجرأة ووضوح، وهو فى هذا الكتاب عالم وشاعر يرسم لنا صورة بشعة يتقزز منها القارىء كما تقزز منها الكاتب».

والدكتور رشاد رشدى فى كتابه «ماهو الأدب» يرى فى الرواية تمردا على «حياة العلم والآلة التى .. جمدت الحياة الحديثة وأحالتها إلى جدب مضجر» ويصف عالم هكسلى الجديد بأنه «عالم غريب يشل العقل الإنسانى والشخصية والابتكار».

والدكتور طه محمود طه فى كتابه «القصة فى الأدب الإنجليزى» يقول: إن الرواية ترينا هكسلى وقد «بدأ يفقد الأمل فى فردوس أرضى لايخلو من القيم



الدوس هكسلى   رشاد رشدى

الروحية».

والدكتور إنجيل بطرس سمعان فى كتابها «دراسات فى الرواية الإنجليزية» تصف عالم الرواية بقولها: «هذا العالم البراق الأجوف الخالى من القيم الإنسانية، لقد اختفى الفن والعلم الحقيقى والدين والحب والحرية - وكل ذلك فى سبيل مايسمى بالاستقرار، أما العلم الذى أبقوا عليه فما هو إلا أداة فى يد أصحاب السلطة لتشكيل الحياة بالشكل الذي يريدونه».

وجدير بالذكر أن هكسلى قد أصدر فى ١٩٥٨ كتابا عنوانه «إعادة زيارة العالم الطريف» حيث أعاد النظر فى تنبوءاته السابقة وعبر عن خشيته من أن يتحقق أسوأها وذلك فى وقت أقرب كثيرا مما كان يتصور وهو يضع كتابه الأول.

١٩٨٤

وتبلغ هذه النبوءات التشاؤمية ذروتها فى رواية جورج أورويل المسماة (١٩٨٤) (١٩٤٩) حيث يواصل أورويل ما بدأه فى رواية «مزرعة الحيوان» (١٩٤٥): الدفاع عن حرية الإنسان فى وجه أنظمة شمولية طاغية يحكمها الأخ الأكبر - زعيم الحزب الحاكم، وهو ضرب من ستالين أو هتلر أو موسولينى مكبر - ورجاله وشرطة الفكر التى تتجسس على حياة الناس وأفعالهم وأفكارهم، وتستخدم لغة جديدة تقوم على لىّ الحقائق وتكييف معانى الكلمات بما يلائم مصالح الحاكمين: فالحرب تعنى

السلام أو العكس، والجهل معناه القوة، والحرية معناها العبودية، إلخ .. وصديق اليوم هو عدو الأمس، وكلها مناورات سياسية ليست غريبة علي من عاصر حربين عالميتين، وحربا أهلية إسبانية، وحربا باردة بين المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى، وصراعات داخلية بين ستالين وتروتسكي، ومذابح ومحارق فى أماكن مختلفة من أوروبا وآسيا وأفريقيا.

مسرح الرواية انجلترا وهى جزء من دولة أوستنيا، وثمة حرب تدور بين دولة إستاسيا ودولة يوراسيا، ويفترض فى أوستنيا أن تكون حليفة لإستاسيا، وإن كانت هذه المحالفات يمكن أن تتغير بين يوم وليلة، وهناك «وزارة للحقيقة» تضخ فى الشعب أكاذيبها اليومية وتلقنه مايريده الحاكم وتتولى شئون التربية والتعليم وإذاعة الأنباء والفنون، و«وزارة للحب» تحافظ علي النظام والقانون، وتراقب السلوك الجنسى للأفراد (الجنس مسموح به فى إطار محدد، أما الحب والمودة والارتباط فلا و «وزارة للوفرة» توفر أدنى متطلبات الحياة للمواطنين، و «وزارة سلام» تتولى شئون الحرب.

وبطل الرواية ، ونستون سميث، موظف في وزارة الحقيقة، مهمته هى إعادة كتابة التاريخ بما يتماشى وتحولات سياسة الحزب، ورفع أسماء من تمت تصفيتهم من السجلات القديمة، وكأنما لم يكن لهم وجود قط، وإذ تتصاعد الثورة داخل سميث على هذا العالم القائم على القهر والأكاذيب يحتفظ (خلافا للقانون) بمفكرة يدون فيها يومياته وأفكاره ومشاعره، بل يقيم علاقة عاطفية مع فتاة تعمل فى إدارة أخرى بالوزارة وترسل له الفتاة ورقة تحمل هذه الكلمة الفظيعة «أحبك» وتتعدد لقاءاتهما الجنسية منذ ذلك الحين، ويضعان خطة للثورة على الحزب، ويسران بذلك إلي زميل لهما يدعى أوبراين وقد استقر فى وهمهما أنه يشاركهما آراءها، ثم يتبين أن أوبراين من أعمدة الحزب وعين على المنشقين عليه، فيقبض على سميث ويضرب ويعذب إلى أن تنهار مقاومته ويتنكر للفتاة التى لاتلبث هى الأخرى أن تتنكر له.

البرتقالة الآلية

وآخر محطة تتوقف عندها هنا هى رواية أنطونى بيرجس «البرتقالة الآلية» (حرفيا: برتقالة بقلب الساعة) (١٩٦٢) التى ترجمها إلى العربية وقدم لها محمود مسعود، وصدرت عن سلسلة «روايات الهلال» فى سبتمبر ١٩٨٨.

يقول هارى بلاميرز فى كتابه «الأدب الأنجليزى فى القرن العشرين» عن «البرتقالة الآلية»: إنها قصة أورويلية (نسبة إلي جورج أورويل) ضد اليوتوبيا، تنتقد المذهب الإنسانى اللبرالى وتعرى نواحى قصوره فى وجه قوى العنف والتخريب إنها إسقاط لصورة إنجلترا فى المستقبل حيث ألكس، الشخصية الرئيسية، قائد عصابة من المراهقين الجانحين، توقع الرعب فى قلوب الناس، بما ترتكب من جرائم السرقة والإغتصاب والتعذيب والقتل، وإذ يلقى القبض على إلكس، ينقل من السجن - فى ظل تشريعات ليبرالية إنسانية - إلى مركز معالجة الاستصلاح» حيث يتحول بالوسائل الكيميائية من عقاقير وغيرها إلى كائن محايد وجدانيا، يصاب بالغثيان من جراء الفن والموسيقى والجنس والعنف جميعا، لقد غدا آلة، «برتقالة آلية»، إن النزعة الإنسانية اللبرالية والشرط الشمولى هما، علي السواء، موضع هجاء بيرجس هنا. ويستخدم ألكس ورفاقه من الجانحين -



بيتر وجورجى، وديم - لغة يدعوها بيرجس «نادسات» و إنها لغة المراهقين فى المستقبل، قائمة على جذور سلاقية، لغة تتميز بالتفنن، ومن المحقق أن قوة بيرجس تكمن جزئيا فى تفنن لفظى ينبع، إلى حد كبير، من قراءته لجويس.

ويقول الناقد البريطانى برنارا برجونزى فى «كتابه» موقف الرواية إن الرواية استكشاف لنوع الحياة الروحية الذي من شأنه، فى الحقيقة أن يؤدى إلى استحقاق اللعنة، إنها ألمع روايات بيرجس وأكثرها سوادا ومسرحها حاضرة قبيحة فى وقت غير محدد من المستقبل حيث عصابات المراهقين تروع السكان، وراوى الرواية، واحد من هؤلاء المراهقين، يتحدث بضمير المتكلم، ويحاكى الكاتب لغته على نحو فائق، إنه متوقف النمو أخلاقيا ولكنه ليس عقليا، فهو يروى قصته بعامية حية تختلط بكلمات روسية، وألكس مجرم مرح، بل إن حالته المعنوية مرتفعة. يرى فى الرجال والنساء المسنين - خاصة البورجوازيين منهم - هدفا صالحا لتوجيه ضرباته، وإذا قابل كتبا مزقها، يقيم الفتيات على أساس أحجام نهودهن، ويغتصبهن كلما أمكن، ولا يعزو الكاتب انحرافه - مثلما قد يفعل علماء النفس أو الاجتماع - إلى احتجاج على افتقاره فى طفولته إلى الحب والرعاية، أو إلى حرمان ثقافى من فرص التعليم والتربية، أو إلى جس الغربة الذى قد تولده أبنية المجتمع الرأسمالى، إن ألكس لايدع مجالا للشك فى أن اختياره للشر إنما هو فعل تحرر روحى متعمد فى قلب عالم مؤلف من ممتثلين للقواعد والقوانين إلى حد يجعلهم تحت المستوى الإنسانى، ليس ألكس جانحا نمطيا، وإنما قد اختار قدره بكامل وعيه.

هذه إذن صورة المستقبل كما يراها



برتراند رسل



تشارلز ديكنز

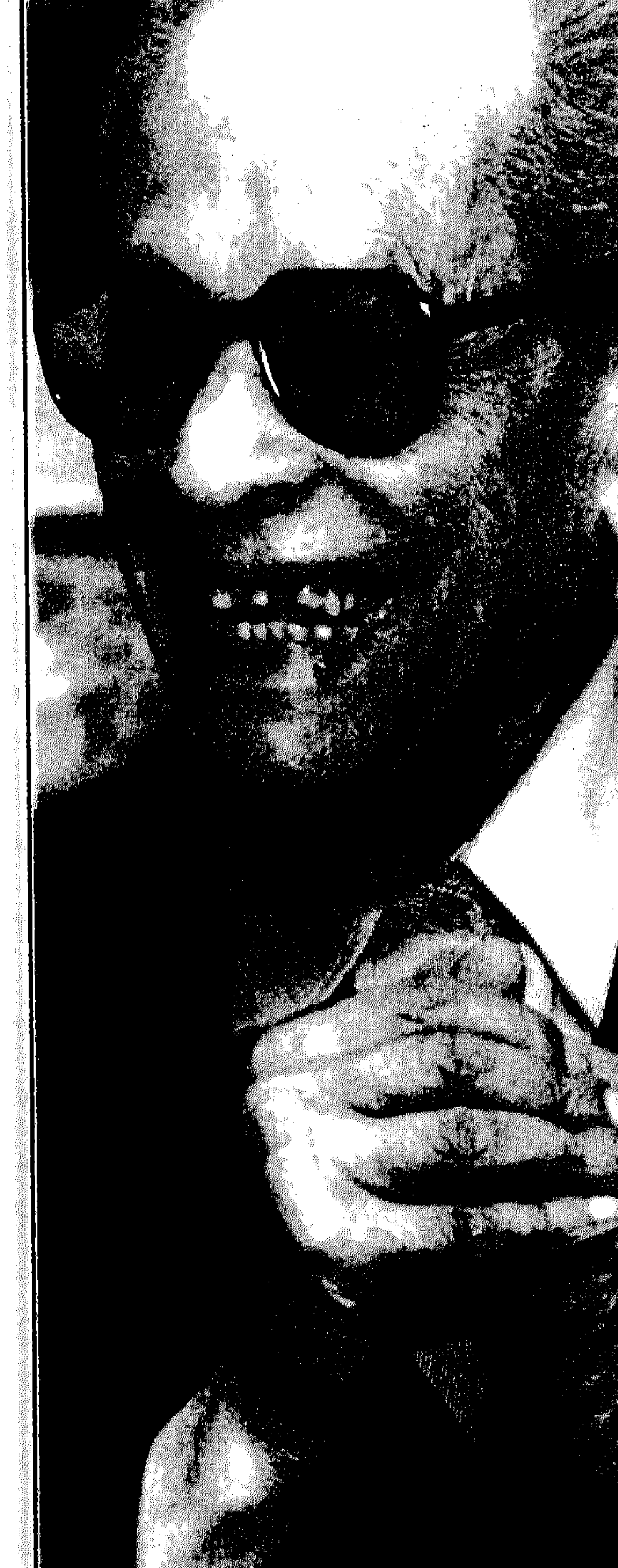
بيرجس: مدينة كبيرة يحكمها العنف والجريمة والجنس وإدمان الخمر والمخدرات، ولانحسبه قد بالغ فى هذا فإنما نيويورك ولندن وغيرهما من حواضر العالم الغربى تراسل الصورة المرسومة هنا، إن النبوءة قد تحققت، والدهر - كما يقول أبو العلاء - منجز أبدا إبعاده، ومخلف المأمول من وعده.

.. ثم ماذا؟!

لاتلوح صورة المستقبل - إذا حكمنا بما أوردناه من أمثلة - مشرقة أو حتى متوازنة من حيث الإيجابيات والسلبيات، على الأقل فى نطاق الثقافة الإنجليزية، وما ينسحب عليها ينسحب، إلى حد كبير، على الثقافة الأمريكية، وثقافة غرب أوروبا بعامة، بل والثقافة اليابانية أيضا، إن الرائد لايكذب أهله، وقد كان هؤلاء الأدباء الإنجليز صادقين مع أنفسهم ومع بنى جلدتهم، وها هم أولاء يشيرون بأصابع الاتهام إلى الأدواء الثاوية فى قلب حضارتهم دعا الروائى الأمريكى هنرى ميللر وطنه أمريكا «كابوسا مكيف الهواء»، وكوابيس أغلب الأدباء الذين ذكرناهم لاتكاد تملك حتى هذه الميزة، وإنما هى أشبه ببالوعة كريهة الرائحة، تعيش فيها الصراصير والجرذان وبنات عرس، وتنبعث منها غازات سامة خانقة قادمة من عالم سفلى، فهل يفيق الإنسان الغربى - المغتر بقوته وثروته وتقدمه المادى - قبل أن تحيق به حاقة لاتبقى ولاتذر؟. ■

نجيب محفوظ والنبوة

بقلم
ابراهيم فتحى



يقال أحياناً على سبيل المزاح إن الحياة تقلد الفن الردىء، فالناس يفهمون واقعهم على أساس نماذج تقدمها أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون وكلمات الأغانى ، ويحاولون السلوك عن طريق تقمص أدوار ينفخ فيها الفن التجاري الرائج . ويدركون معنى الأحداث ويستجيبون لها من خلال التفسيرات السطحية المغرضة التى تحفل بصورها وسائل الإعلام . وليس ذلك صحيحاً بطبيعة الحال فإلى جانب الفن الردىء هناك الفن الرفيع وإلى جانب المتكيفين النقادين هناك الذين يفكرون ويعون وينتقدون وهم جمهور الفن الرفيع.





روا وروايات نجيب محفوظ وقصصه القصيرة المنتمية إلى الأدب رفيع لا تقوم بتزييف الواقع المصرى لاتنزلق على سطحه لتقلده ، بل تكتشف ـارات الأعماق التى قد تختفى عن عيون وترصد مسارها الخبىء وهى ـهم فى تشكيل المصير الإنسانى من لال شخصيات حية . ومن هنا جاءت ـدرة أعمال محفوظ على التنبؤ وعلى ـاوز اللحظة التى تصورها أو التى ـبت فيها.

ولنبدأ برواياته التاريخية المبكرة . م تكن إلا فى وجه واحد منها تجسيدا رائيا لبعض مراحل التاريخ الفرعونى تبع أحداثه وشخصياته استخلاصاً روس تستهدف استعادة المجد القديم . ـا فى الحقيقة فقد كانت خيوط تلك روايات ونسيجها مستمدين من الواقع عاصر لكتابتها (١٩٣٩ - ١٩٤٤) كنها كانت تنظر إلى أبعد من ذلك تاريخ متنبئة بما سيجىء . فمحفوظ ان منذ البداية مؤرخاً سرياً بعيداً عن التاريخ الرسمى ومسلماته، يكتب التاريخ «من أسفل» من صراعات حياة الجماهير الشعبية وإمكانات تلك الحياة ونزوعها إلى التحقق ، إنه عنى برسم ملامح مشتركة بين مصر فى فترة كتابة الروايات ومصر الفرعونية. فقد شغلت الروايات ملابسات الانتقال من مصر ذات الاستقلال الشكلى التى يحتلها الانجليز وتحكمها ملكية مطلقة تركية العنصر إلى مصر الأخرى التى لم تزل وعدا . وفى «كفاح طيبة» يأخذ الهكسوس موقع الانجليز والارستقراطية التركية معاً. فالماضى مصور من شواغل الحاضر وأمنيات المستقبل.

وتومىء الرواية إلى التناقض بين جلود الفلاحين السمر وجلود الهكسوس البيض (مثل الاتراك) ،ويقول أحمس إن شعاره فى حكم هذا البلد أن تكون مصر للمصريين ، ورائده تطهيره من البيض فلا يحكمه بعد اليوم إلا مصرى. بل إن الرواية تتنبأ بالشعارات التى سترفعها حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ على



لسان أحمس: «فالأرض أرض فرعون (الدولة) والفلاحون نوابه في استثمارها لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة، وله مايفيض عن حاجتهم ينفقه فى الصالح العام ،والمصريون متساوون أمام القانون، لا يرفع الأخ منهم إلا فضله.

تنبؤ بالأهداف

لقد كان استلهام التاريخ الفرعونى يفلت من إسار اللحظة الراهنة ويتطلع إلى المستقبل ويتنبأ بالأهداف التى سيضعها النضال الوطنى أمامه.

لذلك قدمت الروايات من ناحية الموضوعات أوجها للواقع المصرى الحديث بوصفها تاريخا .. لذلك لم تكن هناك هوة ضخمة بين الروايات التى تسمى تاريخية والروايات التى تسمى واقعية . وتبدو المراحل التاريخية فى عالم محفوظ متجانسة موحدة من حيث الأهداف الانسانية. فطبيعة الانسان وطبيعة المجتمع عنده تتغيران دون مساس بجوهرهما الدائم ويستهدفان غايات نهائية فى الماضى والحاضر والمستقبل . لذلك يكون التنبؤ ممكناً وبقياس الغائب على الحاضر والماضى فالمراحل التالية من النمو والتطور متضمنة فى المراحل السابقة كإمكان لم يتحقق بعد. فليس الواجب الانسانى العام إلا العمل الدائب على تحقيق إرادة الحياة ممثلة فى تطورها نحو المثل الأعلى وقيم التقدم والعدالة والمعرفة .

فالقضايا الإنسانية والحضارية الأساسية متماثلة فى الماضى والحاضر والمستقبل . ونجد الصراع بين الكهنة والدولة فى مصر الفرعونية (رادوبيس) ، تتردد أصداؤه بأشكال متغايرة قديماً وحديثاً، فالسلفيون فى أرديتهم المختلفة يتحدثون عن العصر الذهبى والمجد القديم وثوابته القيمية ويتنبأ محفوظ فى «العائش فى الحقيقة» (١٩٨٥) بصورة الدولة الدينية فى جميع العصور . إن اخناتون الداعى إلى دين الحب والسلام، وهو الشاعر المتصوف السباق إلى مايشبه التوحيد تؤدى دولته الثيولوچية إلى كارثة رغم إطاحته بمساوىء المؤسسة الأمونية الرجعية ورغم نقاء منظومته الفكرية وسمو نواياه فإنه يرعى الهوس العقيدى ويضطهد غير المنقادين ليعمق من حدة الانقسام بين الناس ، ويرفض الدعوة إلى إعلان حرية العبادة (أو حرية التفسير) فهناك قالب ثابت إجبارى يحدد كل شىء ويعتبر الخروج عنه هرطقة ومروقا، وهناك تصورات جامدة مقدسة مفروضة على شئون الدولة وطرق الحياة والسلوك.

التنبؤ بالثورة

إن كفاح طيبة تنبأت بثورة على الإحتلال والارستقراطية التركية ثم تأتى الروايات الواقعية بتنبؤاتها . وابتداء من خان الخليلى ١٩٤٥ صورت الروايات

نماذج تواصل البقاء فى المراحل التالية .. وهناك صلة عميقة بين الفساد الاجتماعى والسياسى والسقوط الأخلاقى لنماذج التسلق التى تعاود الظهور أيام الناصرية وأيام السادات فى أقنعة جديدة . وكانت النماذج السياسية الرافضة تنحصر فى اتجاهين أساسيين ، الاتجاه اليسارى والاتجاه السلفى وتمثل حلماً أبدياً بالجنة الأرضية والجنة السماوية . وفى «القاهرة الجديدة» يتوزع تعاطف السرد على الاثنين ، كما ينقدهما معا وإن مالت كفة التعاطف أكثر ناحية اليسارى فهما معا يعاديان الارستقراطية الحاكمة . وكلاهما صادق الإيمان بالمبدأ الذى اختاره مستعد للتضحية فى سبيله . ولكن اليسارى أكثر ظهورا فى الرواية.

ولا ينفر السرد من هذين النموذجين الحديين. إن اليسارى على طه يحب الجمال بنزاهة وإخلاص. يلبس فيتأنق ويأكل لذيذ الطعام حتى يشبع وينفق عن سعة ، وهو غير فقير واشتراكى ، ملحد وشريف، عاشق عذرى ، وهو يهيم بلذات الروح . وليس المجتمع الذى يحلم به خالياً من الشر، فلا خير فى مجتمع يخلو من نقص يحث على الكمال . ولكنه مجتمع يمحو شرورا يراها الناس ضربا من القضاء والقدر وهو شخص إجتماعى محبوب . أما السلفى فهو غير إجتماعى نتيجة مرض عصبى طويل ، جاهل بأصول اللياقة الاجتماعية ونكران لروح الفكاهة يسمونه أحياناً لصراحته الحادة بالمهدى المنتظر ، وإمام الإسلام، ويقولون له قديما أدخل عمرو بن العاص الإسلام في مصر بدهائه وغدا يخرجه منها مأمون رضوان (السلفى) يثقل دمه

ويرفض السرد إلحاد اليسارى وتزمت السلفى ويرحب بتوفيق بينهما ، بين الدين والعلم وبين الروح والعدالة الاجتماعية ، وكأنه يبشر بما سيجىء بعد ذلك من شعار الاشتراكية العلمية ذات القيم الروحية وفى «بداية ونهاية» تلتقى بذلك الموقف نفسه فى تعاطف السرد مع شخصية «حسين» المضحى من أجل أسرته بطموحه الشخصى، الرافض للأوضاع الظالمة الذى يعمل على ترقية عقله بالثقافة والتأمل يؤمن باشتراكية معتدلة لاتتعارض مع الدين والأسرة والأخلاق . فروايات محفوظ عن النظام القديم تتنبأ بثورة تستهدف امتزاج الدعوة الاشتراكية بالقيم الدينية ولا تتنبأ بانتصار التنظيمات الشيوعية أو التنظيم الإخوانى. وتنتهى «الثلاثية» بالحديث عن الثورة الأبدية وقد كتبها محفوظ قبل أيام من ثورة يوليو.

صدق التوقع

فلم تكن أعماله تتوقع أن يقوم الجيش بالثورة المأمولة، بل كانت تتوقع انتصار الحركة الجماهيرية التى يشارك



فيها الوفد بوطنيته وليبراليته ، والتى ترفع شعارات تمتزج فيها العدالة الاجتماعية بالقيم الدينية . لقد انهى محفوظ كتابة الثلاثية وظل صامتاً حتى عام ١٩٥٧ حينما بدأ العمل فى «أولاد حارتنا» التى نشرت مسلسلة عام ١٩٥٩، ورأى أن الثورة واصلت ما كان ينتقده فى النظام السياسى قبلها ، وهو الدكتاتورية . فهذه الدكتاتورية تؤثر على الإنجازات الإيجابية تأثيراً سلبياً . وكان هناك انفصال بين السلطة الواقعية ورؤيته فيما يتعلق بالامتيازات وبالقمع والتعذيب . وتصور أولاد حارتنا الصراع بين الأنبياء والفتوات، وكأنها تسأل قادة الثورة أى طريق يريدون أن يختاروا طريق الأنبياء أو الفتوات.

وتصور الرواية أنه بعد الثورة التى قام بها جيل تتغير الأسماء ولكن قوى البغى فى الماضى والحاضر متماثلة، فالاستغلال والاستبداد يواصلان العود الأبدى كما تواصله حركة الرفض والاحتجاج .ولكن هذا العود ليس رجوعاً إلى نقطة البداية بل يتحقق على مستوى أعلى، فالزمان التاريخى لايسير عند محفوظ في دورات مغلقة متشابهة . فهناك رصيد من التجربة يسمح بدرجة أعمق من الوعى وهناك حاجات جديدة تبرز . إن التصور الأسطورى للجبلاوى فقد مبرر بقاءه ، والعلم ليس روحا مجنحة للمعرفة وتحقيق المعجزات فهو واقع بين براثن أصحاب الامتيازات وأصحاب السلطة القديمة ويصرعون روحه .ولكنه لا يموت فتقاليده باقية ، والناس تحتضنه وتدافع عن رسالته . ويستفحل بطش السلطات بمن يسيرون في طريق العلم استعدادا ليوم الخلاص الموعود « ولكن الناس تحملوا البغى فى جلد وكانوا كلما أضر بهم العسف قالوا لابد للظلم من آخر والليل من نهار ولنرين فى حارتنا (مصر/الكون) مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب».

فالعناية الإلهية تظل تسدد خطى مبدأ «التقدم» الكامن فى مجرد تعاقب السنين وهو تقدم يرتكز على عدالة متعالية . ومبدأ العدالة لا يتحقق على أيدى دعاته بل يتحقق بأن يظلم الداعين إليه أبشع أنواع الظلم كأنه اللعنة ، فالزمان يمثل الروح الإرتقائية للإنسانية مأخوذة فى تجريدها. لذلك تتنبأ الروايات عموماً بمستقبل متفتح على تحقيق الأمنيات .

وتصور اللص والكلاب (١٩٦١) خيانة مبادئ الثورة المعلنة فى الممارسات الفعلية ، وقد تنبأت فى سنة الاجراءات الاشتراكية بظهور الطبقة الجديدة ممثلة فى رءوف علوان ، فالثوريون الجدد بعد اقتطاف فاكهة السلطة يتطلعون إلى امتيازات النظام القديم ، كما تتنبأ الرواية بفشل كل محاولات الإرهاب الفردى



والاغتيالات ضد الرموز المكروهة ، فكل هذه الرصاصات طائشة تقتل الأبرياء .

واقع يؤدي إلى كارثة

وتواصل روايات الستينات قبل الهزيمة تصوير واقع لابد أن يؤدى إلى كارثة وتقترح طرقا للخروج فالسمان والخريف (١٩٦٢) تقترح على الوفدى الذى نحته الثورة جانبا أن يترك تمثال سعد زغلول ليلحق باليسارى حامل الوردة الحمراء . ولكن هذا الاقتراح ظل بعيداً عن التحقق الفعلى ، وفى الشحاذ (١٩٦٥)، فترة حل الحزب الشيوعى والتحالف بين الأفراد اليساريين والسلطة الناصرية تصور الرواية خروج الشيوعى عثمان من السجن ولكنها حينما لم يكن هناك شيوعى واحد سجينا تتنبأ بمطاردة عثمان مرة ثانية وإطلاق الرصاص عليه . ولكن السرد يضع أملا فى علاقة اليسارى ضيق المادية بالشابة التى تدرس الكيمياء وتكتب الشعر الصوفى ، فعلاقتهما مثمرة . ولكن هذا الأمل يظل بعيداً عن التحقق، ويشيع السرد اليسارى إلى السجن رمزا لانحسار دوره . أما ثرثرة فوق النيل ١٩٦٦ فتصور الظل الثقيل للدكتاتورية والفساد على شريحة من المثقفين هربوا إلى العدمية والسلبية وانعدام المسئولية . إن العوامة رمز مجتمع على وشك الغرق النهائى بعد أنواع من الغرق الجزئى فى الفساد والأكاذيب وهناك إيماء مباشر إلى احتراق روما.

وعلى الرغم من ذلك التنبؤ الصارخ ، تتحدث الشخصية الرئيسية فى النهاية عن مسار الانسانية من القرد الذى حرر يديه ونزل إلى الأرض من فوق فردوس الأشجار ممسكا بالأدوات الأولية ناظرا إلى الأمام نحو طريق بلا نهاية ، فليست الكارثة هى الخاتمة فلا يزال مبدأ التقدم ماثلا فى تعاقب السنين .

وتأتى ميرامار (١٩٦٧) لتصور الاتجاهات السياسية المختلفة فى تلك الفترة محيطة الليبرالى الوفدى العجوز بتعاطف ضخم ، فهو يوفق بين مبادىء ثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ توفيقاً ذهنياً ، أما الاشتراكى الزائف فيتنبأ له السرد بالانتحار ، ولكن الفلاحة رمز مصر رغم كل ما تعرضت له تؤمن بأنها ستحقق ماتريد فى غد أجمل من الحاضر ، فإن من يعرف من لا يصلحون له يكون قد عرف بطريقة سحرية الصالح المنشود : ويقع اليسار بين الارتداد والسجن .

وستتوالى روايات مابعد الهزيمة ابتداء من المرايا (١٩٧٢) مصورة واقعاً كئيباً منددة بتعذيب المسجونين السياسيين فى فترة سابقة دون تنبؤ باستمراره بعد ذلك . ولكنها تتنبأ بهجرة أفضل الشباب وانقلاب فى سلم القيم ويعود السلفى إلى الظهور بعد غيابه فى روايات الفترة الناصرية وكأنها تتنبأ



باستفحال أمر هذا التيار بعد أن ينتقل من الجمود إلى التعصب والتطرف والإرهاب فى روايات الثمانينات : التنظيم السرى صباح الورد وقشتمر.

حقاً إن رواية «حب تحت المطر» ١٩٧٣ قبل حرب أكتوبر أكدت جو العوامة فى ثرثرة على النيل من عدمية وحسية وعدم مبالاة، فالكثيرون لا يهتمون بالحرب الدائرة على الجبهة، ويريدون الهجرة وينغمسون فى الجنس، والطالبات يقدمن الجنس مقابل سلعاً استهلاكية ، ومع ذلك سنسمع فى النهاية كلمات حماسية من مناضل فلسطينى.

تنبؤ بالصلح مع إسرائيل

وهنا ينبغى أن نقطع التسلسل الزمنى. إن تاريخ كتابة «الكرنك» لا نشرها هو ديسمبر ١٩٧١ قبل المرايا وقبل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهى تعزف المعزوفة المكررة عن التعذيب والقتل والاغتصاب فى السجن الحربى واهدار كرامة الفرد الانسانى فى دولة تدافع عن قضايا الانسانية فى العالم . ولكننا نلتقى بخالد صفوان ، مدير المخابرات أيام الناصرية يتوب عن ماضيه فى انقلاب غير مبرر ويقدم برنامجاً يتبناه السرد ويتعاطف معه فى الرواية (وتلك نقطة ضعف فنية كبيرة فيها) . إنه برنامج ديموقراطى ضد الدكتاتورية والعنف ويقف مع العلم . ويعرض هذا البرنامج الصلح مع إسرائيل طريقا للخروج من المأزق لقد هزمنا ولسنا مستعدين للحرب إذن فلنتجه نحو حل مغاير . فالصلح والمفاوضات المباشرة مع إسرائيل يتنبأ بهما السرد الروائى المحفوظى. فالواقع المتدهور لا يمنح فرصة لحرب طويلة المدى تنتهى بالنصر ، وبدلاً من الطريق السابق علينا أن ننشغل بالتنمية الخاصة والرخاء.

ولكن فى «الباقى من الزمن ساعة» ١٩٨٢ ، يتدهور البيت ولا تثمر أشجاره بل تذبل ، وحلم تجديد البيت (الذى تسكنه مصر) الذى تعلق بمبادرة السلام لا يتحقق. وبدلا من الآمال يستشرى الإحباط. (قبل اغتيال السادات).

و«يوم قتل الزعيم» أيضاً (١٩٨٥) لا تجعل السلام قريناً للديموقراطية والرخاء وتصور آثام الانفتاح والفساد ولا تتنبأ بعد اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١ بانفراج ديموقراطى بل باستفحال التعصب والتطرف عند الذين يريدون أن يرجعونا إلى الوراء . ولكن الرواية كما هى الحال فى عالم محفوظ تحنو على قول شخصية تعرضت لأنواع من المشقة وإحباط الآمال فى عنفوان الشباب «فعمنى ترحيب غامض باحتمالات مجهولة واعدة بتحطيم الجمود والروتين والانطلاق نحو آفاق محدودة». ■



شباب امرأة .. تحية كاريوكا وشكرى سرحان

قصة



مع السينما

بقلم
مصطفى درويش

فى البدء دب الخلاف بين أدبائنا، حول ظاهرة تحرك الصورة التى سميت فيما بعد بالسينما.
نفر منهم، وكان محافظا، مغاليا فى المحافظة، أرتأى أنها، أى السينما ليست من الفن فى شئ، منقطعة الصلة به، واجترأ أحيانا فاعتبرها ظاهرة معاكسة للثقافة، وذلك بحكم انها تغلب قوانين السوق بأفلامها التى تعمم القبح وتصرف الناس عن الارتواء من ينابيع الفنون المعروفة والراسخة منذ فجر التاريخ.



أحمد مظهر وسعاد حسنى فى مشهد من «القاهرة ٣٠»

وذهب فى اجترائه إلى أبعد من ذلك حين نظر إلي جمهور السينما نظرة فيها كثير من الاستعلاء والاشفاق والرثاء. ونفر آخر جنح إلى اعتبارها فنا خالصا لا فرق بينه وبين الفنون الستة السابقة عليه إلا بانه أحدثها وأكثرها جسارة واقتحاما.

وذهب به الحماس لها إلى اعتبارها فجر نهضة ثقافية جديدة آخذة فى الانتشار شيئا فشيئا.

أديب رائد

ومن المؤكد أن الأديب الراحل يحيى حقى كان من ذلك النفر الشديد الحماس للسينما بوصفها فنا خالصا ويقينا. أو ما يقرب من اليقين، إنه كان من القلائل الذين وعوا أهميتها، فاعتبروها فنا سابعا ذا مستقبل واعد.

ولا غرابة فى أن يكون صاحب القنديل رائدا فى مجال الوعى بأهمية السينما.

فمما يعرف عنه انه نشأ فى اسرة تعشق السينما رجالا وصبيانا.

لا يخرج حديث مائدة العشاء بين أفرادها عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة، وعن ترديد أسماء الممثلين فى ايطاليا والمانيا وامريكا، والمقارنة بينهم.

لا اشترك فى الحديث- لصغر سنى - بل تلتقط أذناى منهم كل كلمة تقال واعتنق آراءهم واضحك لضحكهم، وقد أروى بعض ما سمعت إلى زملائى فى المدرسة، كأنه مما رأته عيناى والحق، انه لا يدانيه فى الاهتمام بالسينما سوى نفر جد قليل من ادبائنا على رأسه يقف نجيب محفوظ.

ويعرف عنه ان الفن السابع قد لعب دورا كبيرا فى حياته، بدءا من منتصف اربعينيات القرن العشرين، أى ولما يكن له من العمر سوى خمسة وثلاثين عاما.

اغفال واهمال

والغريب هو جنوح معظم مؤرخى سيرة محفوظ، ودارسى كتاباته وما أكثرهم بعد تتويجه بجائزة نوبل للآداب، جنوحهم إلى اغفال ذلك الدور.

ولعل خير مثل على هذا الاغفال ذلك المجلد الضخم «الرجل والقمة» الهيئة



«ريا وسكينة» كما صورتها السينما

المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ الذى جمع بين دفتيه اثنين واربعين بحثا ودراسة حول ما أبدعه خيال محفوظ على مر خمسة عقود من عمر الزمان.

فأى من تلك الابحاث والدراسات لم يعرض لا من قريب ولا من بعيد لابداعه فى عالم صناعة الاطياف.

وهذا الاغفال المثير للدهشة وللجدل معا له ولا ريب اكثر من سبب وتفسير.

ونظرا لضيق الوقت والمجال لن اقف لا كثيرا ولا قليلا عند ما قد ينهض سبباً أو تفسيراً له فذلك شئ يطول مكتفيا بأن أقول :إن بعضا منها قد يتضح من سياق الحديث عن صلة محفوظ بالعمل السينمائى، متى بدأت وكيف توطدت حتى انتهت بأدبه الروائى متأثرا إلى حد كبير بفن السينما بحيث كاد يدور معه وجودا وعدما، فى بعض الأحيان.

عود إلى الماضى

البداية ترجع إلي ١٩٤٥، ذلك العام الذى القت فيه الحرب العالمية الثانية سلاحها.

ففى أثنائه دبر الدكتور فؤاد نويرة لقاء بين صديقه محفوظ والسينمائى صلاح ابو سيف، كان من ثماره اشتراك الثلاثة فى كتابة سيناريو فيلم مغامرات عنتر وعبلة، الذى جاء عرضه متأخرا بعض الشئ، خلال ١٩٤٨ اى فى تاريخ لاحق لعرض فيلم المنتقم المستوحى من سيناريو كتبه الاثنان محفوظ وابو سيف بعد ان توطدت أواصر صداقة بينهما استمرت حتى جاء الموت الأخير.

فبدءا من ذلك اللقاء السعيد انطلقت موهبة محفوظ السينمائية، متحررة من شرنقة التخلف الفكرى الذى يلفنا بسواد اعتبار الصورة المتحركة اختراعا من فعل الشيطان.

ثمار دانية

فعلى امتداد ثلث قرن، وحتى عام ١٩٧٨ شارك محفوظ فى كتابة العديد من النصوص السينمائية آنا وحده، وآونة مع كوكبة من كتاب القصة السينمائية والسيناريو والحوار، وأخرى مع كوكبة من المخرجين.



مشهد من «قصر الشوق» يجمع بين يحيى شاهين وعبد المنعم ابراهيم

ومن بين الأفلام المستوحاة من تلك النصوص، أذكر على سبيل التمثيل لك يوم يا ظالم ، ريا وسكينة، الوحش ، جعلوني مجرما ، درب المهابيل، شباب امرأة، الفتوة، جميلة، احنا التلامذة، بين السماء والارض، و الناصر صلاح الدين.

ولعله مما يفيد القارئ، ويضعه في الصورة كما يقال أن أذكر ان أى استطلاع رأى لأفضل مائة فيلم في تاريخ السينما المصرية، كان لا يخلو من ذكر هذه الافلام الأحد عشر، بل ان بعضها كان يحتل مركز الصدارة بجدارة في قائمة الافلام التى وقع عليها الاختيار.

من الفرعونية إلى الواقعية

وفي هذا الموضع من الحديث، يجدر بى أن أضع بين يدى القارئ حقيقتين لا تخلوان من دلالة:

أولاهما ان المرحلة من حياة محفوظ التى بدأت بلقائه السعيد مع الفن السابع، متمثلا في ابى سيف، تلك المرحلة تزامنت مع اصطباغ ادبه بالواقعية، بديلا للفرعونية.

ففيها ابدع رواياته الخمس التى سرعان ما جاءته بالشهرة، وهى القاهرة الجديدة (١٩٤٥) وخان الخليلى (١٩٤٦)، زقاق المدق (١٩٤٧) والسراب (١٩٤٨)، واخيرا بداية ونهاية (١٩٤٩).

وأول ما يسترعى الانتباه في تلك الروايات انها صورت الحياة تصويرا مشبعا بروح السينما، وذلك بفضل تفاصيل تطل علينا، كما قال بحق صاحب القنديل، فى مؤلفه عطر الاحباب، من خلال ميكروسكوب، كتهاويل لحركة حية، دقيقة، لا ينقطع لها اضطراب، وكأن محفوظ أراد بذلك أن يصور الواقع تصويرا فوتوغرافيا.

انغماس وتفان

أما الحقيقة الثانية فمفادها، انه وعلى امتداد الأعوام الخمسة الأولى من عقد الخمسينات ، لم يبدع محفوظ أى عمل روائي ، مكتفيا في تلك الأعوام بتكريس وقته لأمرين :



عمر الشريف وسناء جميل فى «بداية ونهاية»

أحدهما الكتابة للسينما، وكان من بين الأفلام المستوحاة من كتاباته فى أثناء تلك الأعوام «لك يوم يا ظالم» ، «ريا وسكينة» و«درب المهابيل» .

والآخر الإعداد لثلاثيته الرائعة «بين القصرين» (١٩٥٦) «قصر الشوق والسكرية» (١٩٥٧) تلك الثلاثية التى جاء ذكرها ضمن أسباب تتويجه بجائزة نوبل للآداب ، وذلك قبل ثلاثة عشر عاما .

إقبال منقطع النظير

ومن عجب ، إنه ، ورغم انغماسه فى الكتابة للسينما ، إلا أن أيا من أعماله الأدبية لم يجر ترجمته إلى لغة السينما، إلا بعد فوات خمسة عشر عاما ، على أول اتصال بينه وبين السينما ، واتقاد شرارة الشغف بها فى قلبه ، وقد بات على أعتاب الخمسين .

وكان ذلك بفضل تصدى «أبوسيف» لإخراج قصته «بداية ونهاية» .

وفيما بين تلك البداية ومستهل العقد الأخير من القرن الماضى أنتجت الاستوديوهات المصرية أربعين فيلما ، مستوحى من أدب محفوظ ، تولى إخراجها مجموعة من أشهر صانعى الأفلام عندنا .

ومن بينهم أذكر على سبيل التمثيل «أبوسيف» ، حسن الإمام ، كمال الشيخ ، حسام الدين مصطفى ، حسين كمال ، أشرف فهمى ، عاطف الطيب ، ويوسف شاهين .

ويرجع إقبال السينمائيين على أدب محفوظ ، والاغتراف منه على هذا النحو ، وهو أمر غير مسبوق فى تاريخ السينما المصرية ، وربما السينما العالمية ، يرجع أساسا إلى امتلاك أدبه أسلوبا منطويا على خصائص سينمائية بحتة ، وذلك تحت تأثير إنغماسه فى الكتابة للسينما ، وتكريسه لها من عمره زهاء خمسة أعوام

والشىء الذى لاشك فيه أن اتقاد شرارة الشغف بالسينما فى قلبه ، كان لها فعل السحر على أدبه جعلته واضحا كل الوضوح ، ومع ذلك مليئا بالأسرار !! ■



من وكالة الغورى إلى عطفة الأزهر

بقلم
عصمت داوستاشى

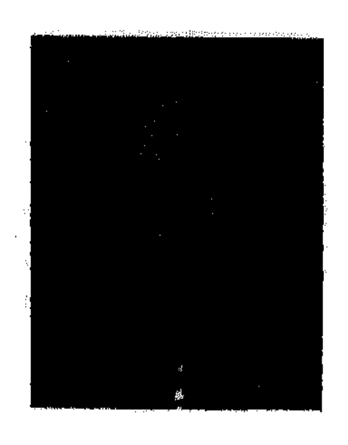
نحن في زمن عجيب.. تنعكس فيه الآيات.. وتعتم فيه المرايا.. ويقوم بالعمل الجماعي فرد واحد.. وبالعمل الفردي جماعة كاملة، وما حدث من إحياء لجمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة.. خير دليل علي ذلك.. كمثال لزمن الدون كيشوتية الجديد.. فيتفوق الفرد بأحلامه أيا كانت علي أعتي الجماعات والتجمعات أيا كانت قوتها وجبروتها.. فتغيرت مفاهيم ودخلت اصطلاحات جديدة وتعدلت نظم وتبدل العالم من حيث كان طفلا بريئا تلقائيا إلي حيث أصبح شابا يافعا شرسا عدوانيا يحطم كل من يواجهه أو يعارضه.

وهكذا ستحل قوة الفرد أو الأفراد القلائل.. بديلا عن قوة الجماعات والجيوش مهما كان حجمها أو إمكانياتها.

وما حدث هو أن فرداً واحداً استطاع بجهوده وصبره ومثابرته وإصراره أن يعيد فى شهور قليلة بناء شىء حيوى بعد أن ظل يبنيه عبر سنوات طويلة، ثم جاء من هدم ما بناه بين ليلة وضحاها.

أما ما أعاد بناءه هذا الفرد.. فهو إحياء جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة.. بعد طردها «طبعا» من وكالة الغورى بحجة ترميمها.. فاستأجر لها مقراً جديداً بجوار الوكالة المنكوبة.. واستطاع أن ينشىء فى هذا المكان الجديد المتواضع ما يشبه نموذجا مصغراً لوكالة الغورى يضم بين جدرانه ورش الحرف المختلفة وإبداعات الحرفيين الذين انهال عليهم الزمن الردىء بالتراب والطمس .. فأحيا هذه المهن التى هاجرت أو «طفشت» أو طردتها وزارة الثقافة من جنتها.. فجمع بين أسطوات يعلمون أجيالاً جديدة وبين فنانين يستلهمون التراث ويبثونه فى تشكيلات متطورة بالتعاون مع الحرفيين.

وهذا فى رأيى الشخصى مغامرة دون كيشوتية اقدم عليها الفنان الناقد عزالدين نجيب بدافع من تاريخه النضالى الطويل الذى علمه ألا يستسلم للواقع الخطأ أو للجبروت الظالم.. فحقق



الفنان عز الدين نجيب

أسطورة لا تستطيع جماعة أيا كانت أن تحققها وفى زمن قياسى.. وجعل قضية الحرف التقليدية والموروث الشعبى والتراثى تنتعش من جديد فى وقت شاء البعض أن يجهضها أو يواريها التراب . ولا أنكر أن بعضاً من الأبطال المعاونين له إلى جانب دعم من هنا وهناك قد حقق لعز الدين نجيب نجاح مسيرته .. إلا انه كان سيحققها بهذا الدعم أو بدونه .. فدون كيشوت لم يحارب الطاحونة على أنها أعداء.. وإنما أعاد تلميعها وترميمها وأحياها على أنها تراث لابد أن يظل حيا فى وجداننا.

لماذا أصالة من الأساس؟

عندما كان الفنان عزالدين نجيب مديراً للإدارة العامة للحرف التقليدية بوزارة الثقافة ومقرها وكالة الغورى، وجد أنه من الضرورى إنشاء جمعية أهلية تضم حرفيين وفنانين ومثقفين وشخصيات عامة للحفاظ على التراث الفنى وطابع الأصالة فى مجالات الإبداع التشكيلى المختلفة بشقيه



فنان النسيج البدوى عاطف طلبه يوجه المتدربات (امينه ، رضا، سناء) على أعمال النسيج اليدوى

التقليدى والحديث.. والعمل على تنمية وإنشاء مراكز متخصصة للانتاج فى مجالات الفنون التشكيلية والحرفية وتطوير أذواقها وتشجيع الفنانين والكشف عن الموهوبين وتدريب أجيال جديدة بالتعاون مع الوزارات والأجهزة المختصة .. كذلك تحقيق التواصل بين المشتغلين فى مجالات الفنون التقليدية والتشكيلية والعمل على نشر المنتجات الفنية وإتاحة الفرص أمام الجمهور لاقتنائها من خلال تنظيم المعارض الفنية بالداخل والخارج ونشر الثقافة والوعى الجمالى بكل السبل مثل المطبوعات والنشرات مع الأنشطة الفنية المختلفة.

وهكذا تم إشهار الجمعية بوزارة الشئون الاجتماعية بمقرها بوكالة الغورى والذى مازالت تحتفظ بحقها فيه بعد الانتهاء من ترميم الوكالة .. وزاولت الجمعية نشاطها فى دعم الحرف التقليدية ودعم الحرفيين وتنظيم المعارض لإبداعاتهم فى مصر وأنحاء العالم بدعم وزارة الثقافة وبالتعاون معها فى ظل عمله الوظيفى، إلى أن أحيل للمعاش فى بدايات هذا العام ، وفى توقيت مخطط له لتسليم وكالة الغورى إلى مصيرها الجديد المجهول.. وكأنهم كانوا ينتظرون خروج هذا الفارس من ساحة القتال لإنهاء حالة.. وإحلال حالة أخرى.. بعد إنهاء العمل الإيجابى والفاعليات الجادة لإحياء وانتشار الحرف.. إلى طردهم من الوكالة وتشريدهم فى أماكن أخرى وقطع سبل التواصل بينهم وبين الجماهير.. وحتى بين مصادر رزقهم حين تباع أعمالهم الإبداعية ، لم يستسلم مجلس إدارة الجمعية بقيادته للواقع الجديد وبدأ فى





الفنان غريب خليل يبدى ملاحظاته لهند محمد فى المرسم الحر

تحقيق حلم أكبر وأكثر صعوبة .. وهو تأسيس مقر ومشغل وقاعات عرض جديدة لأنشطة الجمعية.. وهو ما تحقق فى مساء الأحد الموافق ٢٣ سبتمبر ٢٠٠١ فى رقم ٥ عطفة الأزهرى من شارع محمد عبده بمنطقة الأزهر وعلى بعد أمتار قليلة من وكالة الغورى.

أصالة والتوجهات الجديدة

يقول عزالدين نجيب بصدد تجربته الجديدة والرائدة فى إحياء جمعية أصالة فى مقرها الجديد .. «لقد جعلنا هذا التحدى نخوض تجربة جديدة طالما تطلعنا إليها وهى تحقيق التواصل مع الطبقات الشعبية صانعة التراث الحقيقى وصاحبة الحق فيه وفى استمراره على أيديها.

وهكذا نجحت الإدارة المشتركة بين مؤسسة اغاخان الدولية التى تقوم بمشروع التنمية الدرب الأحمر فى إرساء قاعدة جديدة لعمل الجمعية بهذا الحى العريق .. تعد نقلة نوعية لنشاطها .. إضافة إلى ما قامت به من إنجازات، هذه القاعدة تهدف إلى تنشئة أجيال جديدة من المتدربين تواصل مسيرة الأسلاف وتلبى احتياجات واقع متغير».

ومن هنا بدأ مشروع لتدريب مائة شخص على فنون النسيج اليدوى والخيامية والخزف والمشغولات الفنية النسوية إلى جانب تنمية المواهب فى فنون الرسم والتصوير الزيتى من خلال فلسفة تقوم على التفعيل الايجابى لطاقات الشباب والسيدات من أبناء الحى نحو امتلاك المهارات الفنية للنهوض بأوضاعهم الاقتصادية وقدراتهم الثقافية،

وغير ذلك من أهداف ذلك المشروع التعليمى الثقافى الاقتصادى بين مؤسسة أغاخان وجمعية أصالة بقيادة ذلك القارس الفنان عز الدين نجيب ومجموعة من الشباب المكافح والحرفيين الواعين بضرورة العمل والحركة وتنمية مواهبهم وتواصلها وتطورها.

مسابقة للتصميمات المبتكرة

من هنا أعلنت الجمعية «التى يضم مجلس إدارتها سبعة من الفنانين التشكيليين واثنين من الحرفيين» عن مسابقة مستقلة للفنانين والحرفيين معا لانجاز تصميمات فنية مبتكرة.. وهى فكرة طالما راودت عزالدين نجيب منذ كان فى وكالة الغورى، لأن فلسفة جمعية أصالة ان يتعاون الفنان الدارس المثقف مع الحرفى الفطرى التقليدى فى أعمال مشتركة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.. ذلك اللغز الذى نتحرك فيه يغموض منذ ان وعينا بمفاهيم التشكيل الجمالى البصرى والذى انحصر فى نهاية الأمر فى لوحات مرسومة، وملونة تعلق على الحوائط.. فى هذه المسابقة وضع الفنانون المشاركون تصميمات مبتكرة مستوحاة من التراث ومن الحرف التقليدية وطوروها وأعطوها لحرفيين لتنفيذها بمفاهيم الصنعة وحرفيتها.. وقد شارك فى هذه المسابقة الأولى من نوعها فى مصر مجموعة كبيرة من المصممين والحرفيين فاز من بينهم ١٤ متسابقا بمجموعة جوائز تبلغ قيمتها اثنى عشر ألفا من الجنيهات على أمل أن تستمر المسابقة وأن تتضاعف الجوائز فى الأعوام القادمة.

الذى تحقق.. هل يستمر؟

من حضر وشهد حفل افتتاح مقر أصالة الجديد فى عطفة الأزهرى التى كانت مثل أى عطفة أخرى فى مصر. تعانى من مياه المجارى الطافحة والأتربة والأوساخ والإهمال. فوجىء بها وقد أصبحت حارة نظيفة كسيت أرضيتها بالأسفلت لأول مرة. وربما لآخر مرة فى تاريخها.. وتوزعت مناضد الحرف ودولاب الفخار فى أرجائها وأمتزج جمهور أصالة من الفنانين والمثقفين مع الحرفيين وأبناء الحى والمسئولين من محافظة القاهرة بعد اعتذار وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى عن عدم الحضور لاجتماع طارىء كما قيل، وكنت أود لو حضر هو والفنان د. أحمد نوار رئيس قطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ليشاهدا هذا العمل العملاق الذى قام على اكتاف مجموعة قليلة من الأفراد، وكأنه يبعث إلى الرأى العام برسالة بليغة ومهمة وهى إمكانية أن تستمر الحرف التقليدية بأبسط الوسائل لأنها، والحق يقال، تعانى الإهمال الكبير والمحنة القاتلة، فى وقت تضعها بعض الدول العربية والأجنبية فى المرتبة الأولى والأهم فى اقتصادياتها وفى مجالاتها الثقافية والتربوية المختلفة وتجعلها سفيراً فوق العادة لها فى كل أنحاء العالم.

المشغولات الفنية النسوية بأيدي أعضاء «أصالة»



ابداعات النسيج اليدوى من الفنان عاطف والمتدرب سعيد



إحدى لوحات الفن التشكيلي للفنان وفيق من جمعية أصالة

فأرجو أن تصل الرسالة وألا يكون الرد: بأننا نفعل ونفعل، لأن الواقع يقول بأننا نهدم ونهدم .. ولنكن صادقين مع أنفسنا ونحيي مجهود هذا الفارس صاحب الأحلام التي يحققها على حساب كل ما يخصه.. لصالح إحياء حرف وتقاليد هي في وجداننا وستظل كذلك إلى الأبد.

ونسأله هل ستواصل الاستمرار؟

واسمعه وهو مجهد ومتعب مما بذله ومن معه من المعاونين من جهد :

- نعم لابد من الاستمرار، وإلا ما كان لكل هذا أى معنى ..

خريف شهرزاد

وهكذا واصلت جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة «٣٧٠ عضوا منهم ٢٢٠ فنانا تشكيليا» أنشطتها وفاعلياتها بإقامة صالونها السنوى «الخريف» والذى افتتح بقاعة الهناجر بالأوبرا وضم أعمال الأعضاء فى مجالات الفنون التشكيلية والحرفية وحصل على دعم مالى من صندوق التنمية الثقافية ساهم فى إنجازاتها المختلفة .. وهذا المعرض انتقل بعد ذلك إلى أتيليه الإسكندرية واستمر طوال شهر رمضان المبارك بدعوة من مجلس إدارة الأتيليه ويعد هذا المعرض بداية لمعرض متجول فى المحافظات لإبداعات فنانى أصالة من التشكيليين والحرفيين لنشر هذا الوعى وتنشيطه فى أرجاء مصر.. بجانب معرض دائم للحرف فى



الخيامية احد الفنون التي تحرص «أصالة» على احيائها

قاعة عرض جديدة أنشأتها الجمعية لأعضائها أطلق عليها شهر زاد بحى المعادى .. فهل ستحكى شهر زاد حكاية أصالة وفارسها للأجيال القادمة ؟ وهل سيتحقق الحلم فتغزو الحرف التقليدية المصرية أسواق العالم وتصبح من مصادر الدخل القومى وبالتالى تستوعب أيادى عاملة بأضعاف أضعاف من يمتهنها الآن ومعظمهم متوقف عن العمل وعاطل؟ .. وهل يتحقق حلم مدينة الحرفيين ، ذلك المشروع الضخم الذى تقدم به عز الدين نجيب ووافقت الجهات المعنية على تنفيذه بمدينة الفسطاط ؟ .. فهل تصبح الأحلام حقيقة ؟.. ■

من ذخائر الكتب العربية

الشامل

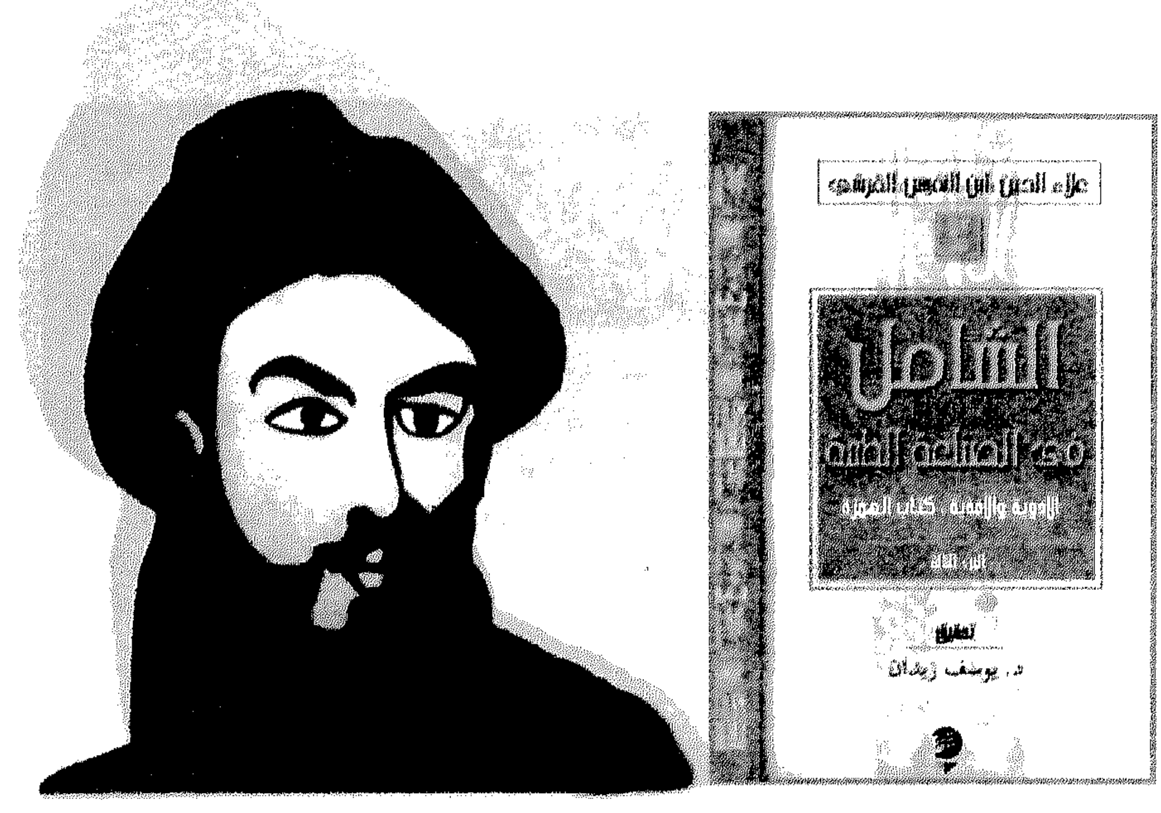
في الصناعة الطبية لابن النفيس

بقلم
د. يوسف زيدان

مثل العنقاء حين تنفض عنها غبار القرون ناهضة من سبات طويل ، يطلع إلينا اليوم علاء الدين القرشي (ابن النفيس) بموسوعته الشامل في الصناعة الطبية بعد وفاته بسبعة قرون .

ومثلما تشرع العنقاء أجنحتها الأسطورية الرائعة محلقة في الذري ، بعدما بعثت من رمادها ؛ يفرد العلاء أجزاء موسوعته الأربعين فيطير مرة ثانية في سماوات العلوم وتاريخها ، بعد قرون من انطمار الكتاب في النسخ الخطية ، وبعد تيه طويل وشتات بين مكتبات الشرق والغرب .





وكأنني الآن بالعلاء القرشي ، يبتسم في عليائه ابتسامة لا تخلو من اعتداد وابتهاج وسخرية ! محدثاً نفسه : ألم أقل للزمان : «لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة، ما وضعتها» . فلم يصدقني أهل زماني .. فأين هم الآن ؟

وكأنني به .. وقد غلبه الوجد الذي، حسب قول الصوفية ، يكون : عند ذكر مزعج أو خوف مقلق .. أو أسف على فائت ! فإذا بعينيه وقد اكتستا بسحابة أسى ، وبحزن شفيف ، لما ضيعه الزمان من أجزاء موسوعته الأربعين .. ولا يخلو أساه وحزنه ، من أمل ورجاء في ظهورها يوماً منزوية بين جنبات خزانة خطية عتيقة ، غفل عنها الأحفاد.

أربعون جزءاً من الشامل ضاعت ، وأربعون تخرج اليوم محققة على يد واحد من أحفادك أيها العلاء .. ليس واحداً ، بل هم نفر من أحفادك وجدوك قطعة من ذات مندثرة حق لها أن تبعث، وجدوك ورقة من كتاب الوعي الغائب حق لها أن تنشر وتذاع. فها نحن ننشر الأربعين من الشامل ونصبو لخروج الأربعين الأخرى فلا يبقى الشامل ناقصاً .

يرد العلاء : الشامل لن يكون ناقصا أبداً ! فقد تحسبت لأفعال الزمان ، فجعلت كل جزء من الشامل منفصلا عن بقية الأجزاء ، قائماً بموضوعه ومتصلا – في آن – ببقية الأجزاء مكملا لها حتى إذا ظهر جزء واحد ، دل ظهوره على بقية الأجزاء ، وحدا بكم – من بعدي – إلى التنقيب عنها ، والسعي وراء الاكتمال .

ويضيف العلاء من عليائه :

لنمض ، إذن ، قدما في نشر ما تحت أيدينا من الأجزاء الموجودة ، ولنأمل في العثور على المفقودة ولنجعل غايتنا في ذلك : «نصرة الحق وإعلاء مناره ، وخذلان الباطل وطمس آثاره» كما قلت في ديباجة شرحي على فصول أبقراط ثم أردفت : «وهو



أمر التزمناه فى كل فن» .. فليكن التزام الأحفاد ، كالتزام الأجداد من قبلهم ولا يروعكم تعاقب الأجيال ، ولا يقعد بكم أنكم فى زمن عربى ردىء ، فهذه أمة لن تخلو - أبدا - من قائم بالحجة ، وحامل للمشعل .. وقد دل النظر العقلى، واستقراء أحوال الأزمنة ، على أنه : إذا تساوت العقول والهمم ، فمتأخر كل صناعة ، خير من متقدمها .

وتثير كلمات العلاء كوامن النفس ، وتهز القلب والعقل .. بل الكيان كله ، فيأخذنى الدهش لحظة فلا أفيق إلا والعلاء يغيب عن تلك الحضرة البرزخية ، وهو يقول بنبرة هادئة ، تفيض رجاء وتحنانا :

أوصيك ، أوصيكم جميعاً ، بأن تقرأوا كتابيا .. لترون كيف كان عقلكم العربى يفكر .. ولا تحذونى حذو التكرار ، فهذا مستحيل لن يكون .. وإنما انظروا كيف كانت كتابة الأولين .. ثم اكتبوا من بعدها كتابة أبهى .. ولتعرفوا الدنيا بما كتبناه .. ولتضعوا الشامل أمام أعين العالمين .. من الدارسين لتاريخ العلوم .. والمهتمين بالتراث العربى / الإسلامى .. والناعين على العقل العربى والثقافة الإسلامية ، أولئك الذين صاروا فى يومكم هذا : ناعقين بكل واد .

●●●

تلك هى السطور التى بدأت بها نشرتى المحققة لموسوعة علاء الدين (ابن النفيس) وهى النشرة التى يقوم بإصدارها اليوم ، المجمع الثقافى بأبو ظبى .

قصتي مع الشامل

بدأت فى الانشغال بموسوعة (الشامل) منذ أواخر الثمانينيات ، أيام نشرت أربعة كتب لابن النفيس : المختصر فى الحديث ، رسالة الأعضاء ، المختار من الأغذية ، شرح فصول أبقراط .. وقضيت النصف الأول من التسعينيات ، فى جمع مخطوطات (الشامل) من مكتبات العالم . وقضيت النصف الثانى من هذا العقد ، فى تحقيق النص .

وفى أواخر التسعينات ، التقيت بالاستاذ الشاعر / محمد السويدى (أمين المجمع الثقافى بأبو ظبى) الذى تحمس لإصدار نشرتى المحققة لهذه الموسوعة العلمية فى أجزاء تزيد عن الأربعين ، يزيد كل جزء منها عن مائتى وخمسين صفحة (بل يزيد بعض الأجزاء عن ثلاثمائة صفحة!) .

وقد بدأنا نشر (الشامل فى الصناعة الطبية) بإصدار كتاب من تأليفى ، بعنوان . علاء الدين (ابن النفيس) القرشى ، إعادة اكتشاف . وهو الكتاب الذى اعتبرته فاتحة واختتاماً ، فهو ختام لسنوات طوال قضيتها فى درس العلاء ، ساعياً لاستكشاف صورة هذا الرجل / العلامة ، والتجوال فى مفاوز إبداعاته العلمية ، دون النزوع



الاختزالى الذى يلخصه – ويبتسره – فى عبارة : مكتشف الدورة الدموية الصغرى .. واعتبرت الكتاب فاتحة لتحقيق موسوعة الشامل التى تعد ، بعد اكتمال صدورها : أضخم كتاب فى التراث العلمى العربى ، تخرجه مطابعنا منذ بدء عصر الطباعة .

والشامل بلا منازع هو أكبر موسوعة علمية فى تاريخ الطب العربى / الإسلامى ، بل الطب الإنسانى بعامة . تحدى بها العلاء القرشى (ابن النفيس) قصر الزمان الإنسانى ، ومحدودية القدرة الإنسانية! وقد كان العلاء امتداداً للتقاليد الطبية التى أرساها من قبله أعلام من نوع الرازى وابن سينا وكانت صلته بالأخير أقوى ، وشروحه على مؤلفاته أكثر غير أن إقدامه على تأليف موسوعة بحجم الشامل لا يفسره – فقط – كونه امتداداً لهؤلاء الأطباء العظام ، وإنما لابد من النظر فى السياق التاريخى الذى انتمى إليه العلاء ولابد من تفحص اللحظة التاريخية التى عاشها . وفى هذا الإطار نقول :

لما اهتز كرسى الخلافة العباسية تحت وطأة الشيخوخة العباسية ، ومؤامرات القصور ، وتهديدات المغول .. بدأت المجالس العلمية تنسرب من بغداد إلى الشام ومصر . كان ذلك منذ مطلع القرن السابع الهجرى ، الذى ولد العلاء فى السنة السابعة منه – بقرية القرش القريبة من دمشق – ولما كان العام المشئوم فى منتصف هذا القرن ، أعنى سنة ٦٥٦ هجرية .. دخل هولاكو بغداد ، فطمس وجهها على نحو ، لم يسمح لها باستعادة دورها من بعد ذلك : أبداً .

وازدهر العلم فى الشام ومصر ، غير أن الشام ابتليت آنذاك بالوقوع بين شقى الرحى : المغول .. والصليبيين . ولم يكن الحال فى مغرب العالم الإسلامى بأفضل منه فى الشام، فقد آذنت شمس الأندلس بالمغيب ، وتهددت بلاد المغرب ووهن منها عظم المجد والسلطان، فصارت نهباً لأطماع – وحملات – الإسبان وأحقادهم التاريخية ، مما دفع ببلاد المغرب إلى ناحية الانزواء الحضارى .

وفى العقود الأخيرة من القرن السابع الهجرى ، وجدت القاهرة نفسها وحيدة ، وسط عالم يرتج ؛ فالمشرق الإسلامى – بلاد فارس وما بعدها – لا يزال يترنح من عنف الضربات المغولية ، التى توالت طيلة خمسين سنة ، ابتدأت بخروج جنكيز للثأر من محمد خوارزمشاه ، وانتهت بتأسيس الدولة الإسلامية المغولية على يد بركة خان حفيد جنكيز خان ، زعيم القبيلة الذهبية ، بعد انكسار ابن عمه هولاكو على يديه .. والمغرب الإسلامى كان قد انزوى ، وصار منطقة طرد حضارى واجتماعى ، وفزع منه الناس إلى مصر والشام ، مثلما التجأ العلماء والصوفية ، أمثال : ابن عربى ، التلمسانى ، الششترى ، الشاذلى ، المرسى . ومن قبلهم : موسى بن ميمون الطبيب الفيلسوف ، ابن البيطار العشاب المعروف وغيرهما . جاء هؤلاء من المغرب إلى مصر ، من الشام جاءها – فى حدود سنة ثلاثين وستمائة – علاء الدين القرشى .

وكان على مصر وهى الحاضرة الإسلامية الوحيدة التى ظلت مزدهرة ، أن تقوم بدور كبير لإنقاذ الكيان الحضارى العربى / الإسلامى ، فتعين عليها عسكريا صد فلول المغول وجحافل الصليبيين . كما تعين عليها سياسياً إحياء الخلافة الإسلامية ،



ولو كان إحياء رمزياً . كما تعين عليها اجتماعياً واقتصاديا أن تستوعب الهجرات الوافدة عليها من المغرب ، ومن العراق والشام .

وأدت مصر ما عليها فى ذلك كله ، حتى دخل القرن الثامن الهجرى ، وقد استتب الحال فى مصر ، وصارت القاهرة - آنذاك - أهم مركز حضارى فى العالم الإسلامى ، وأكثر العواصم العربية أمناً وازدهاراً .. حتى أن ابن خلدون ، كتب - فى أواخر القرن الثامن الهجرى - قائلاً إن من أراد أن يرى عز الإسلام فليذهب إلى القاهرة .

وكانت ذاكرة الأمة قد هددها الاندثار ، فقد ضاعت ألوف المخطوطات التى هى كتاب الحضارة ودمرت المكتبات فى المشرق والمغرب . وكان المغول والصليبيون يحرصون على طمس التراث العربى / الإسلامى ، بالتخريب وإفناء المخطوطات .. وقد اشتهرت فى التاريخ ، واقعة إفراغ هولاكو لمخطوطات بغداد فى نهر دجلة ، لغسل ما دونته الأمة ، ومحو ما خلفته القرون .

من هنا ، كان على مصر أن تقوم بدور هائل لحفظ ذاكرة الأمة ، وانقاذ هويتها من الانطماس . فبدأ علماء مصر ، من بعد سقوط بغداد ، فى تدوين المطولات والكتب الضخمة والموسوعات - فى شتى مجالات العلم - مع أن الملاحظ فى كتابات المصريين طيلة القرون السابقة على القرن السابع الهجرى أنها كانت تأتى دوماً ، على هيئة كتب صغار ، ورسائل ، ومساجلات علمية . لكن الحال تغير مع جهود علماء من أمثال علاء الدين القرشى (ابن النفيس) الذى وضع ما يقرب من عشرة شروح على موسوعة ابن سينا (القانون فى الطب) بغية إعادة بعثها مرة أخرى إلى أذهان المشتغلين بالطب ، ومن هنا قال ابن فضل الله العمرى ، إن العلاء : هو الذى جسر الناس على قانون ابن سينا .

ومن بعد بعثه للقانون ، يعكف العلاء (ابن النفيس) على تدوين موسوعة الشامل فى الصناعة الطبية فيضع المسودات بحيث تأتى فى ثلاثمائة مجلد ، بيض منها ثمانين ثم وافته المنية - عن ثمانين سنة - سنة ٦٨٧ هجرية بالقاهرة ، وأهدى المجلدات الثمانين ، بل كل مكتبته وداره وأمواله ، إلى البيمارستان المنصورى بالقاهرة - مستشفى قلاوون حالياً - الذى كان مشرفا عليه، باعتباره أكبر مستشفيات القاهرة آنذاك ، ومحل عمل رئيس أطباء مصر وهو المنصب الذى شغله العلاء (ابن النفيس) حتى وفاته فى السنة المذكورة.

وقريب من هذا (النمط) من الكتابة الموسوعية الحافظة للذاكرة ، وفى مجال آخر غير الطب ؛ سوف يضع ابن فضل الله العمرى - المتوفى٧٤٩ هجرية - موسوعته التاريخية (مسالك الأبصار) فيؤرخ لكل شيء : الملوك ، العلماء ، الوقائع ويتحدث



عن كل شيء : الأقاليم ، النبات ، الحيوان .. إلخ . وقد كان ابن فضل الله – مثل العلاء القرشي – من أصل شامي ، ثم توطن في مصر وارتبط بها بقية عمره، حتى أن الناصر محمد بن قلاوون لما أراد أن يعاقبه ، نفاه إلى الشام .. ولما رضى عنه ، بعد حين ؛ أعاده إلى القاهرة !

وفي القرن الثامن الهجرى ، في القاهرة ؛ سوف يكتب شهاب الدين النويرى المتوفى ٧٣٢ هجرية ، موسوعته الأدبية الهائلة : نهاية الأرب في فنون الأدب . فيقع كتابه في ثلاثين مجلداً تشتمل على خمسة فنون ، الأول : في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية . الثاني : في الإنسان وما يتعلق به . الثالث : في الحيوان الصامت . الرابع : في النبات . الخامس : في التاريخ .. وقد لخص النويرى في كتابه ، كتباً متوناً من التراث السابق عليه ، منها : إحياء علوم الدين ، اللمعة النورانية ، الملل والنحل ، فقه اللغة ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، القصيدة العبدونية (قصيدة ابن عبدون في التاريخ) وشرحها لابن بدرون ، مباهج العبر .. بالإضافة إلى ديوان الحماسة لأبى تمام ودواوين الشعراء المتنبى ، البحترى ، البستى ؛ وغيرهم .. وكأنه بذلك ، يبعث هذه المتون للحياة مرة أخرى ، مثلما بعث العلاء قانون ابن سينا ، وجسر الناس عليه .

وفي القرن الثامن نفسه ، عاش في القاهرة ، وكتب ، واحد من أغزر المؤلفين في تاريخ الإسلام : ابن حجر العسقلاني . وكلنا نعرف ضخامة وأهمية ، مؤلفاته في التاريخ وعلوم الدين ، وقد كانت لأعماله أصداء واسعة في أرجاء الأرض . وقد حكى لنا المقريزى أنه حين انتهى ابن حجر من (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) عمل حفلاً خارج سور القاهرة ، أنفقت فيه على الذبائح وحدها . خمسمائة دينار ! ويوم الحفل وصلت وفود من ملوك الأرض تطلب نسخاً من الكتاب .. وهكذا صارت القاهرة هي المركز الثقافي الأول في المنطقة الإسلامية الممتدة الأرجاء ، تلبية لحاجة حضارية ملحة ، شارك بالاستجابة لها علماء من كل فن .. كان منهم العلاء القرشي، الذى اشتهر بين معاصرينا بلقب : ابن النفيس.

وأخيرا .. فلابد من إشارة إلى عدم توقف هذا الدور المصرى ، التدويني الحافظ للذاكرة ؛ عند حدود القرن الثامن الهجرى ، فقد تعداه إلى القرن التاسع الهجرى ، الذى عاش فيه بمصر مؤلف من أغزر المؤلفين مادة – في التاريخ الإنساني كله – أعنى به : جلال الدين السيوطي المتوفى ٩١١ هجرية . ذلك الرجل كتب في علوم اللغة المزهر وفي علوم الدين جمع الجوامع وفي التاريخ حسن المحاضرة .. وكلها مجلدات كبار ، وله بجانب ذلك مؤلفات صغار الحجم جاءت على شكل رسائل حافظة للملامح الثقافية في تفصيلاتها ، وفي طرافتها فكتب : منهل اللطائف في الكنافة والقطائف ، در الغمامة في الطيلسان والعمامة ، الدوران الفلكي على ابن الكركي .. ولم يتحرج ، وهو العالم الجليل عن كتابة أعمال عنوانها : الوشاح في فوائد النكاح ، الجواهر الثمينة في فضائل السمينة ، نواضر الأيك في نوادر الـ (..) !

وهكذا كان السيوطي حلقة من حلقات المشروع المصرى لحفظ ذاكرة الأمة



وتدوين ثقافتنا في أجل الصفات وأدق التفصيلات - وهو ما نجح علماء مصر في تحقيقه ، بجهود تأليفية جبارة .. لولاها ، لكان تراثنا قد انطمس .

جاء الشامل إذن ، كحلقة كبرى من حلقات مشروع حضارى كبير تبنته مصر منذ أواسط القرن السابع الهجرى ، سعياً لحفظ ذاكرة الأمة وتدوين علومها .. ومن هنا ، كان على العلاء - رئيس الأطباء - أن يصوغ المعرفة الطبية في عصره ، صياغتها الأخيرة ، المكتملة ، بعد خمسة قرون من تطور الطب العربى / الإسلامى ، وعلى نحو لم يتم تجاوزه ، ولو بعد قرون من حياة العلاء .

مخطوطات الشامل

استغرقت فى جمع مخطوطات الشامل من مكتبات العالم عشر سنوات .. وكان ظنى المتفائل ، يرجح أن تكون أغلب النسخ الخطية من الكتاب محفوظة بمصر ، خاصة مع ما ذكره ابن فضل الله العمرى من أنه : شاهد المجلدات الثمانين فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة . غير أنها لم تكن سوى أمنية والأمانى كما يقولون : خوادع ! إذ لم يكن بمصر غير جزءين فقط من الكتاب كلاهما محفوظ بدار الكتب المصرية ، التى ذكر فهرسها الميدانى المعمول به حالياً خمس مخطوطات من الشامل ثم اتضح لى أن ثلاثة منها ، مصورات . فكان رصيد دار الكتب المصرية من مخطوطات موسوعتنا ، هو الآتى :

١ - مخطوطة رقم ٦٠٥٧ / ل ، ناقصة من أولها وآخرها ، ومنسوبة فى الفهرس لغياث الغيث - وسوف نعود للكلام عنه بعد قليل - وتضم مقدمة الشامل ، والكتب الثلاثة الأولى من الفن الأول .

٢ - مخطوطة رقم ٦٨١ / طب ، بدون تاريخ . وهى تحتوى على الكتاب الثالث والعشرين من الجزء الثانى من الفن الثالث من الشامل وهو كتاب اللام من كتاب الأغذية والأدوية ، والمخطوطة أوراقها ١٣٨ ورقة ، الورقة صفحتان .

٣ - مخطوطة رقم ٣/٤ ، طب .

٤ - مخطوطة رقم ٤٢٣ / طب تيمور .

٥ - مخطوطة رقم ٦٢٠ / طب طلعت .

والنسخ الثلاث الأخيرة ، ليست سوى مصورات من كتاب اللام الذى احتوت عليه المخطوطة المحفوظة بالدار تحت رقم ٦٨١ / طب .

ومع أننى قمت بفهرسة عدد كبير من المكتبات الخطية فى مصر ، حتى بلغ عدد ما فهرسته حوالى ١٨.٠٠٠ مخطوطة ، موزعة على تسع مكتبات : غير أننى لم أجد مخطوطة واحدة من الشامل بين هذه الألوف من المخطوطات ، وفى غير مصر وجدت من مخطوطات الشامل ما يلى :



١ - نسخة مخطوطة بمتحف الآثار العامة (بغداد) برقم ١٢٧١ ، تقع فى ١٠٤٥ ورقة (الورقة صفحتان) وتضم هذه المجموعة ما يلى :

* الكتاب السابع من الجزء الثانى من الفن الثالث فى الأدوية والأغذية المفردتين التى تبدأ بحرف الخاء وهو يقع فى ١٠ مقالات وخاتمة .

* الكتاب الثامن فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الدال يقع فى ٦ مقالات وخاتمة .

* الكتاب التاسع فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الذال يقع فى ٣ مقالات .

* الكتاب العاشر فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الراء يقع فى ١٠ مقالات وخاتمة .

* الكتاب الحادى عشر فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الزاى يقع فى ١٩ مقالة وخاتمة .

* الكتاب الثانى عشر فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف السين يقع فى ١٣ مقالة وخاتمة (ناقص من أوله) .

* الكتاب الحادى والعشرون فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف القاف يقع فى ٢٥ مقالة .

* الكتاب الثانى والعشرون فى الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الكاف يقع فى ٣٠ مقالة .

وفى نهاية الكتاب الأخير ، كتب ناسخ المخطوطة عمر بن أبى بكر البدراوى الشافعى ما نصه : وكان الفراغ منه يوم الاثنين السابع من شهر رجب سنة ثمان وستين وتسعمائة .. ثم تتوالى بعد ذلك بقية الكتب التالية :

* الكتاب الثالث والعشرون : حرف اللام يقع فى ١١ مقالة .

* الكتاب الرابع والعشرون : حرف الميم يقع فى ٢٢ مقالة .

* الكتاب الخامس والعشرون : حرف النون يقع فى ١١ مقالة .

* الكتاب السادس والعشرون : حرف الهاء يقع فى ٣ مقالات .

* الكتاب السابع والعشرون : حرف الواو يقع فى ٥ مقالات .

* الكتاب الثامن والعشرون : حرف الياء يقع فى مقالتين وخاتمة .

.. وبانتهاء كتاب الياء ينتهى : الجزء الثانى من الفن الثالث من كتاب الشامل فى الصناعة الطبية .

٢ - نسخة مخطوطة بمكتبة ليدن (هولندا) برقم Mcccxv III 81 Col وتضم كتب الأدوية المفردة من الضاد إلى العين على المنوال الذى ذكرناه فى مخطوطة بغداد السابقة .

٣ - نسخة مخطوطة بمكتبة الظاهرية بدمشق ، حاليا : مكتبة الأسد محفوظة تحت رقم ٨٥٤٧ . تقع فى ٣١٩ من القطع الكبير ، وهى مشكولة بالكامل ، وتضم الكتب : من الهمزة إلى الزاى على المنوال السابق ذكره . أى أنها جزء من الجزء الثانى من الفن الثالث من كتاب الشامل .



ومع أن هذه المخطوطة ناقصة من أولها بمقدار عدة أوراق ، إلا أنها عالية الأهمية نظرا لدقتها .. وسوف نصفها بعد قليل ، عند الكلام عن النسخ التي استخرجنا منها هذا الجزء (الأول) من الشامل .

٤ - مجموعة مخطوطة بمكتبة بودليان بأكسفورد تحت أرقام Pococke 290-291-292 مجموع أوراقها ١٦٥٩ ورقة ، مؤرخة بسنة ٩٨٣ هجرية . وتضم المجموعة : من الكتاب الأول إلى الكتاب الثامن والعشرين من الجزء الثاني من الفن الثالث من الشامل .. وقد اعتمدنا عليها في التحقيق ، وسوف نصفها بعد قليل .

٥ - مجموعة أخرى بالمكتبة نفسها ، محفوظة تحت أرقام Pococke 248-356-539 وتشمل على ثلاثة كتب من الجزء الرابع من الفن الأول وهي على الترتيب : كتاب أسباب الوجع كتاب النبض كتاب البول . والمجموعة مؤرخة بسنة ٦٨٧ هجرية ، وهي سنة وفاة علاء الدين (ابن النفيس) .

٦ - مجموعة مخطوطة بمكتبة لاين Lean الطبية ، بجامعة ستانفورد ، تحت رقم Z,276 مؤرخة بسنة ٦٤١ هجرية ، جاء فيها أنها كتبت على المؤلف .. بعد فحص المجموعة، تبين أنها تحتوى على ثلاثة مجلدات ، كالتالى .

* المجلد الأول يحمل العنوان مقال فى النبات ، المجلد الثاني بعد الأربعين من كتاب الشامل وهذه المخطوطة تبدأ بالمقالة الثانية والعشرين فى أحكام البقلة الحمقاء تليها مقالة في البلسان مما يعنى أنه الجزء الخاص بالأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف الباء وبذلك يكون هذا الجزء هو : الكتاب الثاني من الجزء الثاني من الفن الثالث من كتاب الشامل .. وهو كما بدا من العنوان الذى يحمله ، يمثل المجلد ٤٢ من الشامل بحسب هذه النسخة التى كتبت فى حياة مؤلفها .

* المجلد الثاني يحتوى على الكتاب الثالث من الجزء الثاني من الفن الثالث في الأدوية والأغذية التى تبدأ بحرف التاء : يليه كتاب الثاء ثم كتاب الحاء .

* المجلد الثالث يبدأ بالنمط الأول من الجزء الثاني من الفن الثاني من كتاب الشامل .. ويتناول هذا النمط : الأصول الكلية فى صناعة الطب .

ونظرا لسوء حالة المجموعة ، فهناك العديد من آثار الترميم والإصلاح بها ويلاحظ أن أحدهم أعاد كتابة الكلمات الباهتة ، والتى كادت تختفى بفعل الزمن .

٧ - نسخة مخطوطة بجامعة كامبردج (إنجلترا) برقم «10» Or 1546 ، تبدأ بالباب التاسع فى علامات البول وهى بدون تاريخ ، ويرجح فهرس المكتبة أن تكون قد كتبت فى القرن الثامن الهجرى .. ونرجح ، نحن ، أنها بخط المؤلف .

●●●



كان أول ما صنعته عند البدء فى تحقيق الشامل فى الصناعة الطبية هو رسم شجرة لأقسام الكتاب ، بحسب المخطوطات التى بين أيدينا ، وبحسب ما أشار إليه العلاء فى ثنايا الأجزاء الموجودة .. فظهر أمامنا ما يلى :

الفن الأول من الشامل :

وهو يشتمل على : قواعد الجزء النظرى من الطب . ويقع فى أربعة أجزاء على النحو التالى :

١ - الجزء الأول : فى علم الأمور الطبيعية . ويشتمل على مقدمة وسبعة كتب وهى : كتاب الأركان ، كتاب الأمزجة ، كتاب الرطوبات ، كتاب الأعضاء ، كتاب الأرواح ، كتاب القوى ، كتاب الأفعال .

٢ - الجزء الثانى . فى علم الأمراض .

٣ - الجزء الثالث : فى علم الأسباب .

٤ - الجزء الرابع : فى علم الدلائل . ويشتمل على ثلاثة كتب . الكتاب الأول فى الوجع . الكتاب الثانى فى النبض ؛ ويضم ثلاثة تعاليم : التعلم الأول فى ماهية النبض ، التعليم الثانى فى أجناس النبض ، التعليم الثالث فى أسباب النبض . الكتاب الثالث فى البول .

الفن الثانى من الشامل :

وهو يشتمل على أربعة أجزاء ، الجزء الثانى منها يشتمل على نمطين ، النمط الأول منها يضم ثلاثة كتب ، الكتاب الثالث منها موضوعه (الجراحة) أو : عمل اليد ، ويقع فى ثلاثة تعاليم :

١ - التعليم الأول ، فى الأصول الكلية .

٢ - التعليم الثانى ، فى الآلات .

٣ - التعليم الثالث ، فى أجناس العمل باليد .

وأغلب أجزاء هذا الفن (الثانى مفقودة ، وإن كانت هناك إشارات فى ثنايا كلام العلاء ، تفيد أنه كتبها بالفعل .

الفن الثالث من الشامل :

وهو يشتمل على جزئين ، الأول منها مفقود بالكامل ، والجزء الثانى موجود كاملاً ! وهو الجزء الذى يقع فى ثمانية وعشرين كتاباً ، فى الأدوية المفردة .

●●●

وهكذا تعين البدء بالكتب الثمانية والعشرين ، الكاملة ، التى تمثل الجزء الثانى من الفن الثالث .. وتأجيل الأجزاء الأخرى من الشامل على أمل ظهور المزيد من مخطوطاتها أثناء الفترة التى سيستغرقها نشر الكتب الثمانية والعشرين ومن بعدها الكتب المتفرقة من الفن الأول والثانى ؛ وهى الفترة التى قد تمتد لعامين كاملين . ■



القرصان

قصة : محمد جبريل

رسوم : جميل شفيق

-١-

كنت واحداً من ثلاثة وقفوا على باب المطعم، قبل أن يدعوهم الشاب ذو العصابة السوداء على عينه إلى الدخول. تظاهرت باللامبالاة وأنا أتابع – بطرف عيني – اتجاهكم إلى الطاولة التى أجلس فيها. سبق جلوسكم اعتذار القرصان بشغل كل الطاولات ..

حين أبديت الرغبة فى التغيير، قال المهندس فى قصر الجم :

– اذهبى إلى القرصان ..

أضاف للدهشة فى ملامحى :

– إنه مجرد مطعم ..

– فى المهدية ؟

– فى المنستير .. على بعد كيلو مترات قليلة ..

تشاغلت بالنظر فى الساحة الواسعة أمام المطعم ، تحيط البيوت والأشجار بنهاياتها، وخلت إلا من سيارات قليلة فى الموقف، ومجموعات من السياح الأجانب جلسوا على المقاهى المتناثرة، أو افترشوا الأرصفة. أمام المدخل أشجار نخيل قصيرة، وما يشبه الأزيار الهائلة الحجم. الأبواب الزجاجية ونقوش الموزاييك على الجدار والنقوش على الخشب تعبر عن الحياة فى البحر ، سفن وقراصنة وصيادين وأسماك وطيور. دفعت الباب. اخترقت الزحام إلى ترابيزة فى زاوية بأقصى المكان . أدركت معنى التسمية لما رأيت عمال المطعم يرتدون زى الصيادين ، ويضعون على الأعين اليمنى عصابات سوداء . وكل الطعام أسماك على الطاول

الهائلة المستطيلة، أسماك أعرفها ولا أعرفها، والظلمة الشفيفة يهبها الحياة أضواء خافتة، وتتنقل القراصنة بين طاولة الطعام والترابيزات، والأحاديث الهامسة، وأصوات اصطدام الأطباق بالملاعق والسكاكين والشوك ..

هدأت النظرات المتطلعة، وانشغلت بتناول السمك الذى اقترحه الولد القرصان، قبل أن تسبق إشارة الولد قدومكم إلى الطاولة التى كنت أجلس عليها، وحدى ..

رنوت إليك بجانب عينى : هل أنت ؟

التقينا فى الصباح أمام كاونتر الاستعلامات فى فندق توب كابى بيتش تركت مفتاح حجرتى فى الفندق، وكنت تملأ بطاقة الإقامة. شئ ما اجتذبنى فى ملامحك، أو فى نفاذ نظرة عينيك ..

تحدثتم - باختلاط العامية المصرية والتونسية - عن محاضرة فى المكتبة العامة بالمهدية، وندوة فى المندوبية الجهوية للثقافة ، وعن وسام أهداه لك محافظ المدينة، وزحام الفنادق، وكتب تبادلتم قراءتها ، ورسائل تتوقع وصولها من القاهرة .حدست أنك أديب مصرى، تكتب القصة أو الشعر، اسمك منير. اندغمت فى سمعى بقية الاسم. قدمت إلى تونس والمنستير والمهدية لإلقاء محاضرة، والمشاركة فى ندوات. تشاغلت بتناول الطعام، وإن أصخت سمعى. أسمر البشرة ذو النظارة الشمسية - ناديتماه باسمه مولدى - أظهر التململ، وحرص على الهمس أما أنت والآخر ذو النظارة الطبية والصلع الزاحف على مقدمة الرأس والملامح الباسمة والحقيبة الجلدية التى لاتفارقه - تكرر قولك له : يا دكتور بدوى - فقد انصرفتما إلى الكلام كأنى لا أشارككم الجلوس على الطاولة. أهديته ديواناً شعرياً أو رواية ، وأهداك كتاباً عن رواية الأرض. أذكر الاسم لأنى شاهدت الفيلم المأخوذ عنها ..

-٢-

تعددت لقاءاتنا فى مدخل الفندق، فى الصالة الواسعة، فى المطعم . ربما جلست فى ركن الصالة تتصفح الجرائد، أو تقرأ كتاباً نتبادل التحية بهزة الرأس . أطمئن إلى ابتسامتك الهادئة، لكننى أخمن انتظارك لصديقيك أكتفى بإيماءة التحية، وأتجه إلى المطعم، قبل أن أصعد إلى حجرتى أغادرها - فى الصباح - إلى ترميمات قصر الجم ..

-٣-

- صباح الخير ..

أربكتنى المفاجأة، فاكتفيت بهزة من رأسى حدست أنك سبقت صديقيك فى النزول إلى المطعم ، أو أنهما لا يحتاجان إليه . وضعت الطبق ، فوقه مكعب زبد وقطع جبن وحبات زيتون وعسل نحل وكروسون وشطيرتا خبز. اتجهت ثانية إلى الطاولة الزجاجية المستطيلة عدت بفنجان الشاى بالحليب ..

كانت أول مرة نجلس فيها بعيداً عن مطعم القرصان، أو الحديقة، أو صالة الاستقبال الواسعة، فنكتفى بإيماءة التحية. حاولت - أثق أن هذا ما كان يشغلك - أن أقول

شيئا، فاتحة للحديث بيننا ..

لاحظت كثرة تعاطىّ للأدوية فى أثناء تناول الطعام أفتح حقيبة اليد الصغيرة أفتش عن دواء بالذات أنفض الحبة من الشريط ويدى تمتد إلى كوب الماء ..

قلت لنظرة الدهشة :

– مجرد أدوية مهدئة ..

نطقت ملامحك بالإشفاق :

– هل أشار بها الطبيب ؟

– طبعاً .. أعانى تعباً ..

قلت فى ملامح الإشفاق :

– تجنبى الإرهاق .. تستغنين عن مشورة الطبيب .. وعن الدواء ..

غالبت الارتباك :

– ربما لم أحسن التكلم ..

بدا التقاط طرف الخيط صعباً. مجرد الإيماءة تشير إلى معان غير مقبولة. ما أحياه أعانيه وحدى . حتى الطبيب قدم نصيحته دون أن يشغله ما قبل، ولا ما بعد..

كنت قد عانيت ما لا قبل لى على احتماله لم أرفع إصبعى من فوق جرس العيادة، حتى لا أنكص عائدة . تداخلت الكلمات ومحاولة التعبير بيدى وملامح وجهى ظل الطبيب على صمته حتى لم أعد أجد ما أقوله ..

وهو يتجه ناحيتى نظرة متأملة :

– هل أنت متزوجة ؟

قاومت الانفعال :

– هل هذه مشكلة سيدة متزوجة ؟

هز رأسه دلالة الفهم .

قال :

– لابد إذن من تصحيح الأمور ..

– ماذا تقصد ؟

– الزواج !

أهملت – لتفاهة سبب الطلاق – فكرة الزواج ثانية شغلنى التنقل بين مناطق الآثار، وتأمل الحجارة المنقوشة والمقرنصات والمرمر المنحوت والنحاس والحديد المطروق والأجساد المبتورة وارتفاعات الرخام الأبيض والبازلت الأسود ، والتأكد من التواريخ، والإشراف على عمليات الترميم، والنزول على السلالم الدائرية، والسير فى موازاة السور القديم، وفى الأقبية والدهاليز والممرات، وفى الشوارع القديمة ..

قلت :

– الزواج مشروع قديم .. مات !

– هذا ما تتصورينه ..

– جئت للعلاج وليس للنصائح الشخصية ..

– نصيحتى هى العلاج

قبل أن أغادر العيادة، اتجهت إلى البهو المفضى إلى المصعد. زادت الرعشة التى تملكت حتى أطراف أصابعى. ضاع السبب تمنيت لو أنى أعود إلى البيت . أهملت الاحتفاظ بالمنديل، فمسحت العرق من جبهتى بظاهر كفى . توقعت – إن انتظرت المصعد – نظرات الفضول ، فاتجهت إلى السلم ترددت قليلاً على باب العمارة المطلة على شارع الحبيب بورقيبة. عدلت – بعفوية – ياقة التايير . تذكرت أن النظارة الشمسية مودعة فى حقيبة يدى، فداريت تحير نظرتى، وملت من الشارع المجاور للكاتدرائية، أختصر الطريق إلى نهج سيف الدولة ..

قلت :
– هل أنت طبيب ؟
هززت رأسك بالنفى ..
– تصورت أنك كذلك ..

تركنا أقدامنا تجول بنا شوارع المنستير . اخترقنا الأسواق : أبطئ من خطواتى ، فتتأمل الزرابى والصناعات الخشبية والنحاسية ، وصناعة الجلود ، ومنتجات الخزف ، والآلات الموسيقية، والحرير ، والتطريز، ألمح بجانب عينى تأملك للنساء يرتدين الجبة والحائك، والعباءة الصوف . مقبرة الحبيب بورقيبة فى نهاية ساحة هائلة مبلطة بالرخام، على جانبيها مئات القبور لمواطنين تونسيين . المبنى الرخامى، والقبة المذهبة، والملاحظات الهامسة، وومضات عدسات التصوير، وتلاوة القرآن من المصحف الكبير المفتوح على حامل ..

شدنى اهتمامك بقراءات التاريخ والحكايات القديمة والسير والملاحم وما جرى فى البنايات المتهدمة وحياة القصور قبل مئات السنين ومحطات القوافل بين مصر والمغرب والمعارك والدسائس والاغتيالات ..

قلت ونحن ننزل من



الدرجات الرخامية:
– أحب المنستير فأشرف بنفسه على إقامة مقبرته فيها ..
استوقفتك الكلمات :
– هو الذى أشرف على بنائها ..
– كما ترى فهى أفخم من قصور الدنيا ..
أردفت فى تنبه :
– ظل يختار الرئيس الأول من المنستير ثلاثين عاماً متوالية ..
وأعدت القول :
– كان يحبها !..

– ٤ –

لما دعوتك إلى زيارة مقابر المهدية، فلأنى كنت أثق أنك ستأتى وحدك . صديقاك من المهدية والمنستير. المواقع الأثرية : المقابر والقلاع والروابط والحصون والجوامع والقصور والبنايات القديمة، من مألوف حياتهم اليومية، يرونها، ويترددون عليها .

تنقلنا بين المقابر المطلة على البحر المتوسط . بقايا البوابة الحجرية القديمة كأنها المدخل إلى المدينة، أو المعبر إلى الجانب الآخر من البحر لم أتصور انشغالك بالتفاصيل الصغيرة. هل الصلة – كما قلت – بين أول مدينة فاطمية والغزو الفاطمى لمصر؟.. هذه المقابر أقيمت – بالفعل – على أنقاض أول مدينة للفاطميين. مثلت – لأعوام – خط الدفاع الساحلى عن الإمبراطورية الناشئة ..

اتجهت بنظرتك إلى أفق البحر :
– لو أن جدك رحل مع حملة الفاطميين إلى مصر .. ربما تزوج من مصرية هى جدتى .. وضحكت :
– نحن أقارب إذن ..
غالبت التردد :
– هل عملك أديب ؟
– تقصدين : هل الأدب هو العمل الذى أحيا منه ؟
أومأت برأسى ..
– أنا مهندس كهرباء .. لكننى أكتب القصة ..
ووشى صوتك بالضيق :
– من الصعب فى وطننا العربى أن يحيا المرء من كتابة القصة ..
حدثتنى عن صديقيك : مولدى فروج طبيب فى المستشفى العام بالمهدية،

وشاعر . محمد البدوى ، أستاذ جامعى وناقد .صداقة الزيارة الأولى كأنها امتداد لصداقة زيارات سابقة. أبديت التأثر لقول مولدى فروج وهو يعتز بقطع إجازته والعودة إلى المستشفى : أوحشنى قول المرضى : الله يرحم والديك !. تكلمت عن إعجاب البدوى بقراءات المصادفة من القاهرة، هى أفضل مما تمتلئ به الدوريات والصحف داريت ابتسامة الرأى الذى نقلته عنه : ينبغى أن نستبدل بمواقع الخريطة الأدبية المصرية مواقع أهم كأنك تحدثنى عن خرائط القلاع والحصون والمقابر والروابط والقصور التاريخية. ما أمارسه ، وأتحدث عنه، فى عملى. ملأت البسمة وجهك لقول الموظف وأنت توقع فى دفتر الزيارات : أنت أول مصرى يزور المتحف زرنا قصر عبيد الله وشواهد قصر القائم بأمر الله والرباط والبرج الأثرى وقصر الجم وحوض المرسى القديم والجامع الكبير ومقامات الأولياء وبقايا السور البحرى والمدينة العتيقة..

أعدت التسميات

- باب زويلة .. باب النصر .. السقيفة.. تركت هذه الأماكن فى القاهرة..

قلت لك :

- أعرف أن باب زويلة فى القاهرة يقتصر على التسمية .. باب زويلة عندنا يفضى إلى مدينة أكبر من المهدية ..

وأشحت بيدى إلى الوراء :

- المدينة القديمة لم تعد موجودة .. فى موضعها الآن زويلتان حديثتان ..

عندما أمسكت بالعدسة لألتقط لك صورة أمام نافورة المياه فى سقيفة الكحلاء، داخلنى إحساس أننى أقف إلى جانبك، فى الصورة نفسها ..

— ٥ —

كيف حدث ما حدث ؟

تصورت - بعد عودتى إلى تونس - أنى نسيت المهدية وفندق توب كابى بيتش ومطعم القرصان والرباط وقصر عبيد الله والمتحف والسقيفة وقصر الجم والمهندسين والعمال وعمليات الترميم ..

كالمفاجأة، كاللقاء المصادفة فى انحناءة طريق، طالعتنى القامة الطويلة والعينان النفاذتا النظرة والصوت الهامس أستعيد لقاءات مقابر المهدية والرباط وقصر الجم والقرصان ومولدى فروج ومحمد البدوى وشوارع المنستير والأسواق القديمة والمقاهى وتلاوة القرآن فى مقبرة الحبيب بورقيبة . أسأل وتجيب . تسأل وأجيب . هذا هو ما أريده. لاصلة لنصيحة الطبيب بما أحياه . أرفض النصيحة لأنى أحب الوردة فى غصن، ولا أحبها فى صورة . أرفض السخف فيما قاله الطبيب . لا تشغلنى الفكرة . تشغلنى المشاعر التى تصخب فى داخلى . أفكر فيك لأن هذا هو ما أريده . أحبك لأنى أحبك . اختزلت المواقف والأشياء والسحن والتصرفات فى عينيك الملتمعتين، الباسمتين، وأسئلتك، وإنصاتك الملح، واهتمامك بتلك البدايات فى المهدية، قبل أن تنتقل - بكل حياتها - إلى القاهرة .. ■



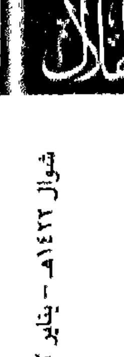
عمر الخيام

المفترى عليه!

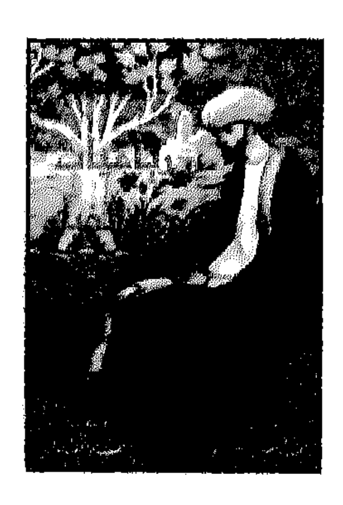
بقلم :

حسن سليمان

لم يصل أحد من شعراء الشرق أجمع إلى الشهرة التي امتدت منذ وفاة عمر الخيام وحتى الآن قرونا طويلة وشهرة تثير الجدل ، وأظن أنها تلك الموهبة العبقرية التي أوصلته إلى العالمية واستمرارها عبر قرون وقرون ، فكلما مضى الزمن ازدادت شهرته جذوة واشتعالا ، ذلك لأنه كان ذا ثقافة شاملة ، وكانت علاقته أكيدة ووطيدة بوحدة العالم أكثر من بقية الصوفيين ، كذلك فاق باقي الفلاسفة والشعراء الصوفيين القدامى الأفذاذ الذين شغلوا الدنيا بتاريخهم العظيم، وبقوا على الدهر مثار جدل بين الباحثين فى مناهج حياتهم ، وتنوع مذاهبهم ، كابن سيناء ، والفارابى ، وابن عربى ، والمعرى ، والمتنبى ، وابن الفارض .



• عالم في الرياضيات وحجة في علوم الدين
• شعره يعبر عن الحكم والحقائق العلمية



إلا أن شخصية عمر الخيام ورباعياته، انتشرت شهرتها شرقا وغربا ، وتناولها الأدباء على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم ، ومازالت تتزايد هذه الشهرة كلما درسها أو ترجمها فرد جديد .

إلا أن قلة من المسلمين ينظرون إلى رباعياته المشهورة فقط دون باقى كتبه وعلمه وما وصل إليه فى مجالات كثيرة ، فيروه على أنه شاعر مستهتر فى دينه وخلقه ، شاعر حر النزعة .. إباحى المذهب ، مع أنه ربما كان صوفيا استخدم الخمر والمرأة كرموز مثل صوفيين غيره ، رموز إلى النشوة الإلهية التى تلم بهم ، فتضفى على النشوة الحسية ، لكن مهما اختلف الحكم عليه بخلاف هذه القلة من الباحثين فى حياته . وبعد مماته وغيرتهم منه إلا أنه لا يمكن لأحد أن يقلل من موهبته وشاعريته الفذة التى لا تقل جمالا ونضوجا مهما ترجمت إلى لغات العالم أجمع ، فكثير من الشعر العربى حينما يترجم إلى اللغات الأجنبية تضيع موسيقاه النظمية ويفقد جل ومعظم ميزاته.

●●●

إن الخيام نشأ فى نيسابور فى القرن الخامس الهجرى نشأة فاضلة حتى هذبته تلك النشأة حتى أصبح حكيما من حكماء الإسلام وفيلسوفا من الفلاسفة الاعلام ، بل أصبح علامة الزمان فى الطبيعة والرياضيات ، وعلم النجوم ، لذا ندبه ملكشاه السلجوقى لتعديل تقويمه السنوى عام ٤٦٧ هجرية ، وفى نفس الوقت كان الإمام عمر الخيام حجة فى الدين والفقه ، بل ويرجع له الفضل الكبير فى وضع أصول قراءة القرآن ، أكثر من هذا كان ضليعا فى اللغة العربية أكثر من باقى الصوفيين ، وشعره ورباعياته نجدها تتعلق أكثرها بالحقائق العلمية والحكمة والأخلاق ، وهذا وصل إليه بعد تجارب فى العلم وتمارين فى الصوفية ، والرباعيات كذلك رغم أنها فى ظاهرها قد تدعو الأشخاص السطحيين إلى التراضى ، إلا أنها تحث الناس على تنزيه النفس الإنسانية بتطهيرها من المؤثرات المادية



، أو الطمع الدنيوى الذى يعوقها عن الاعتقاد الحق والصلة بالواحد الديان.

لقد كان فى عصره أسير المعرفة المطلقة ومقدما دائما ومرموقا أكثر من علماء وقته .

نظر إليه بعين الإجلال والإعظام ، لا سيما عند ملكشاه السلجوقى الذى كان يجلسه فى كرسى خاص جانب عرشه . فهل كان لديه وقت لمعاقرة الخمر والجلوس مع القيان والشواذ .

هذه صفات الخيام التى عرفها وشهد بها تلامذته ومعاصروه ومن قرب عهده من المؤرخين الثقاة ، كالنظامى العروضى ، والإمام جار الله الزمخشرى صاحب الكشاف المتوفى عام ٨٣٨ هـ ، وظهير الدين البيهقى المتوفى عام ٥٤٥ هـ ، وشمس الدين الشهر زورى فى كتابه «تاريخ الحكماء» الذى ألفه بين أعوام ٥٨٦هـ ، ٦١١ هـ ، وابن الأسير المتوفى عام ٦٣٠ هجرية فى كتابه «الكامل» ، والإمام القفطى المتوفى عام ٦٤٦ هجرية ، والقزوينى المتوفى عام ٦٨٢ هـ .

ولم يذكر عنه أحد من هؤلاء الأعلام ، أنه كان ماجنا أو خليعا أو متحللا من قيود الفضيلة ، بل بالعكس أطال كثيرا من خصاله الكريمة الفاضلة .

●●●

وليس الخيام بأول مفترى عليه ، بل له نظائر من العظماء فى كل العصور ، وفى التاريخ القديم والحديث ، وهناك الجم من الشواهد على ذلك ، لكن هذا ليس مجالنا هنا .

وفى الحقيقة إن أغلب أدباء فارس وإيران ، وأكثر شعرائها القدماء كانوا صوفيين ، أو مائلين إلى سلك الصوفية ، ومعظم أشعارهم كانت مشربة من منابع المعرفة والتصوف وقابلة للتأويل ، ذلك فيما ذكروا فيه الخمر أو الساقى أو الناى أو الكأس ، حتى أنهم نبهوا الناس إلى أن هذا المنهج محاولة منهم فى التستر على تدينهم وحذروا الناس من الاعتماد على ظواهر أشعارهم ، حتى أن جمال الدين ابن يوسف بن مؤيد الكنجوى النظامى المتوفى عام ٥٩٦ هـ صرح فى رباعية بأن ما كتبه فى أشعاره من كلمة الخمر ، إنما كان مؤول بالغيبوبة ، ثم أقسم بالله بأنه لم يلوث شفتيه بالخمر طوال حياته ، مؤكدا قسمه قائلا : « إن حلال الله حرام على النظامى (يقصد اسمه) إن كان فمه تلوث بشرب الخمر» .

كذلك نبه هاتف الأصفهانى المتوفى فى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، أن ألفاظ الخمر والمحفل والساقى والحبيب ، والمعشوقة والزنار وأمثالها التى تأتى فى كلمات أهل المعرفة الصوفيين وضمن أشعارهم ترمز إلى أسرار خفية تنتهى إلى سر واحد ألا وهو أن الموجود واحد وليس فى الوجود سواه .

لكن النظرة السطحية لشعر الخيام لدى الناس الذين ينظرون إليه على أنه ترغيب إلى السرور وشرب الخمر ، وهي الصفات العامة لشعر الخيام فهم لا يحسون بالموسيقى الباطنية للشعر ، وليس لهم دراية بالمعانى الصوفية .

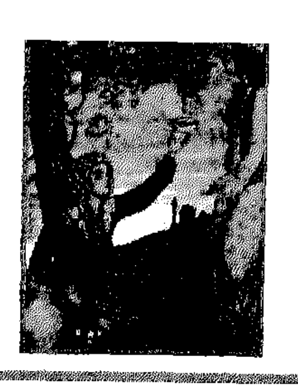
لقد وصفه معاصروه بأنه قمة الحق ، وهو لقب فارس فى عصره يطلق على العظماء للتبجيل وحكيم زمانه ، إنه كان يجالس الملوك كما كان عالما فى الرياضيات والفلك، بل وصل إلى المعادلة التكعيبية فى الجبر وحققها هندسيا ، أى قرب أن يصل إلى البعد الرابع فى الرياضة البحتة ، وهو بجانب ذلك كان عالما فى الفلك والطب والفقه ، وقد عدد رباعياته ، فبعض المؤرخين اعتبرها فى عدد لا يزيد على ثلاثين أو أربعين ذات دلالة مهمة فى النهضة الإسلامية ، وبعضهم زاد إلى ترجمة مئات من الفارسية ، وقلة من المؤرخين أكدت أن عددها يربو عن الألفين أو أكثر ، وهذا يجعلنا ننظر إلى أنه نسج على منوالها من الماجنين كثيرا ، إذ كان المعروف أن عمر الخيام ينسج هذه الرباعيات حينما كانت رأسه تكاد تنفجر من الرياضيات وعلم الفلك ، وهناك من الرباعيات ما يكشف لنا أنه وصل إلى اللانهائيات التى من الصعب أن يصل بها العقل المحدود فى هذا العالم حتى أنه صرح أن الكرة الأرضية كلها ستتلاشى وتصبح دخانا وشهبا يسقط فى هذا الكون .

إن مقولاته ورباعياته تعيننا على معرفة مذهبه الحقيقى لإظهار ما يمكن أن يكون منه صحيحا ، وفى الوقت نفسه ما لا يمكن أن يكون منها صحيحا

● ● ●

نجد معظم الباحثين من الشرق والغرب قد تعارضوا فى تحديد ماهيته فمنهم من وصف فلسفته قائلا : إنه ابيقورى النزعة والميول ، ومنهم من قال إنه إباحى ومستهتر بتعاليم الإسلام وأحكامه، ومنهم من أسماه وولتر ، ومنهم من وصفه بأنه معرى المذهب ، كما طعن فيه بعض الناس بأنه دهرى ، وزعم البعض أنه تناسخى وظن الكثير أنه باطنى ، وصفوه بالتشاؤم والجبرية ، وادعى آخرون أنه ثائر على كل شئ : الدين والأخلاق والعقل ، لكن ما سنذكره من رباعيات حاولنا أن نصل إليها بسند صحيح لايبقى وراءه أى شك أو تردد وأنه كان ينشأها فى خلوته ، ويكتبها فى عزلته التى نفى نفسه إليها ، لكن أحدا من معاصريه أو تلامذته لم يسمعه ينشدها وفى جانبه غانية من الحسان أو فتى من الغلمان ويترنم بها بين آلات الطرب والخمر .

ورغم عمق فلسفة الخيام وتبحره فى الدين والقراءة والهندسة والفلك والفقه فإنه لا أحد ينكر هذا غير قلة بينما شعره طغى على كل أشعار الصوفية ومقولات الصوفية حتى وصل إلى مستوى ابن عربى وجلال الدين الرومى ، وترجم إلى لغات العالم أجمع ، والمكتبات فى لندن لازالت تطبع رباعياته بواسطة



دور ونشر مختلفة كل سنة .

إن المشكلة التى وقع فيها بعض القراء العرب ترجع إلى اعتمادهم - ليس على الفارسية بل على ترجمة فيتزجرالد الشاعر الانجليزى لتلك الرباعيات التى نشرها فى عام ١٨٥٦ م ، ونشرها فى الشرق والغرب على أوسع نطاق ، واعتمد معظم أدباء الشرق على هذه الترجمة ، ولم يعرفوا عمر الخيام أبدا سوى على ضوء الرباعيات المترجمة على يد شاعر انجليزى صاغها شعرا ، بل نجد بعضهم قد أخذ منه ونظرها بطريقته الخاصة ، بهذا كاد يضيع المعنى الأصلى منها .

●●●

اسمه عمر وكنيته أبو الفتح ، ولقبه غياث الدين ، ووالده إبراهيم النيسابورى، وشهرته الخيام أو الخيامى لاشتغاله بهذه المهنة ، وأجمع أكثر المؤرخين على أن عمر الخيام ولد فى نيسابور من أعمال خرسان فى الشطر الثانى من القرن الحادى عشر وتوفى قبل انتهاء الربع الرابع من القرن الثانى عشر ، لكنه لم يصل إلى سند تاريخى يحدد بالضبط ولادته ووفاته ، إلا أن صاحب «قاموس الإعلام» يقول : إنه توفى عام ٥١٥ هـ ، ويقول البعض : إنه توفى فى٥١٧هـ الموافق ١١٢٣ م ، لكن الكل أجزم أنه توفى فى نيسابور ودفن فى مقبرة إمام زاده محمد المحروق ، وروى أبو الحسن أحمد عمر بن على النظامى العروضى السمرقندى - وهو من تلامذة عمر الخيام - فى كتابه الذى ألفه حوالى سنة ٥٥١ هـ وهو يعد أقدم كتاب تاريخى ، وأوثق سند علمى فى موضوع عمر الخيام وحياته .

يقول العروضى فى كتابه (على لسان الخيام) : « إن قبرى سيكون فى موضع تنتثر عليه الريح الأزهار فى كل ربيع » فاستبعدت نبوءته ، ولكنى علمت أنه لا يكذب أبدا وأن حدسه لم يخنه ، لأنى لما وصلت نيسابور سنة ٥٣٠ هـ ذهبت إلى ضريحه - كان له حق الاستاذية علىّ - فوجدت ضريحه فى جنب سور حديقة ، وأشجار الكمثرى والمشمش بالحديقة قد نثرت عليه أزهارها ، بحيث توارى قبره تحت أوراق الزهور فتذكرت القصة التى سمعتها منه فى «بلخ» فبكيت. وكنت لا أجد له نظيرا فى تبسيط العلم للقارىء ، اسكنه الله فسيح جناته .

●●●

أما عن وفاته قال شمس الدين محمد ابن محمود الشهر زورى فى كتابه «نزهة الأرواح .. وروضة الأفراح» : كان الخيام يتخلل بخلال من الذهب ، وكان يتأمل فى كتاب «الإلهيات من الشفاء» (كتاب الشفاء لابن سينا) فلما وصل إلى الواحد والكثير ، وضع الخلال بين الورقتين ، وقام وصلى ثم أوصى ولم يأكل أو يشرب ، سجد وكان يقول فى



سجوده : « اللهم إنى عرفتك على مبلغ إمكانى فاغفر لى فأنت أعلم بأن معرفتى كانت وسيلتى إليك» .

وقد أتى بهذه الحكاية الابرقوهى فى كتابه «فردوس التواريخ» وغيره من الكتاب الايرانيين ، وهذه القصة دليل على حسن ختام الذيام النيسابورى .

●●●

نشأ الحكيم الخيام فى نيسابور ، وتتلمذ على يد أستاذه الإمام الموفق النيسابورى الذى كان من أجل علماء فارس فى عصره .

ويقول بعض الكتاب : إنه قد تتلمذ معه على يد الإمام الموفق أيضا أبو على حسن بن على الطوسى وحسن الصباح ، وكانوا أصحابا متحابين يساعد بعضهم بعضا فى قراءة الدرس وحفظه ، وقد تعاهدوا جميعا على أن يعاضد بعضهم بعضا ويعينه فى شئون حياته بعد فراغهم من دراسة العلوم ، ثم حققت الأيام المقبلة ما ظنوا ، إذ صار حسن الطوسى وزيرا لدى السلطان ألب أرسلان نجل طغرل بك التترى ثم وزيرا عند حفيده ملكشاه السلجوقى . ويقال : إن حسن الطوسى لقب بنظام الملك بعد تعيينه وزيرا وقد توفى سنة ٤٨٥ هـ . لكن كل معاصريه والمؤرخين أصروا إن كانت هذه الرواية صحيحة فالخيام رفض معونة أحد أو يعيش عالة على أحد وأظن إنى أصدق هذا فلا يمكن أن يكون هناك بهذا القدر من العلم شحاذ وخصوصا أنه مات فقيرا.

وقد نعى بعض المؤرخين على أن نظام الملك أنجز وعده ووفى بعهده ، إذ استصدر الأمر السلطانى بتعيين حسن الصباح فى منصب لدى السلطان ، وكان ذلك نزولا عند طلبه ورغبته .

روى صاحب قاموس الإعلام قصة تعيينه واليا على همدان ، ومما يذكر هنا أن حسن الصباح وضع فيما بعد مذهب القرامطة الباطنية الجهنمية التى كانت بلية عظيمة على الإسلام والمسلمين ، كما أسس الدولة الإسماعيلية التى دامت زهاء مائة وإحدى وسبعين سنة وقد حكمها ثمانية من أولاده ، وتوفى حسن الصباح سنة ٥١٨ هـ أو سنة ٥٢٠ هـ على الاختلاف بين المؤرخين وذلك فى قلعة الموت .

وتجدر الاشارة إلى أن مذهب الباطنية كان فى عهد الحكيم عمر الخيام ، وقد أخذ فى نشر مبادئه فى أنحاء إيران ، وذلك عن طريق زعامة حسن الصباح بعد اعتناقه هذا المذهب بمصر وعودته منها ، ولا يزال منذ ذلك العهد حتى عهدنا هذا تنشر مبادئه الهدامة ليس فى إيران فحسب ، بل فى أرجاء الشرق جمعاء ، ومن المعلوم أن رجال هذا المذهب ودعاته توسلوا بكل وسيلة ممكنة لبث هذه الدعوة وتدعيمها ، وذلك بإنشاء رباعيات تتضمن مبادئ الباطنية ووضعها باسم الحكيم الخيام بعد وفاته ، وإنشادها فى محافل العامة ومجالس الناس باسمه . ■

الامريكيون يأكلون الناس ويدفنون السمك



بقلم
صافى ناز كاظم

فى عام ١٩٥٧ ترجم صلاح عبدالصبور رواية «الجلد» للكاتب الإيطالى «كورزيو مالابارته» ونشرها مسلسلة فى مجلة صباح الخير، وفى الاحتفال بمرور ٢٠ سنة على رحيل صلاح عبدالصبور و٧٠ سنة على مولده، قام المشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة بإصدار هذه الترجمة فى كتاب مع تقديم لسمير فريد يستغرق ١٥ صفحة، بينما تستغرق الرواية نفسها ٣٥ صفحة فقط من الكتاب.



فهى رواية قصيرة جدا أشبه بشهادة لصحفى إيطالى صحب دخول جيوش الحلفاء تحت قيادة ضابط أمريكى. مدينة نابولى فى سبتمبر ١٩٤٣، بعد استسلام إيطاليا وهزيمة موسولينى فى الحرب العالمية الثانية وفى تعريفه للرواية كتب صلاح عبدالصبور يقول: «هذه الرواية يوميات مدينة أفسدت الحرب حياتها، مدينة كانت تقاتل فى بسالة، فلما دخلها المنتصرون أذلوا شعبها بالجوع والمرض والحطة، فتردت المدينة فى الدعارة والتسول، والمدينة هى نابولى، أول مدينة إيطالية دخلتها

جيوش الحلفاء في سبتمبر ١٩٤٣، جيوش جائعة للشهوة والمتعة وهي تبحث عن متعتها في كل مكان، وتجعل من كل شبر تنزل فيه ماخورا، ومؤلف هذه الرواية هو كورزيو مالابارته الكاتب الإيطالي الشهير، ولد ١٨٩٨ ومات هذا العام - (١٩٥٧) - وقبل أن يموت كتب إلى البابا يطلب مغفرته على كتابة هذه الرواية الصريحة التي كتبها على صورة فصول مستقلة، تصور حياة مدينته التعسة بعد الحرب، ولكن هذه الفصول جميعها تتكامل في بناء روائي يترك في النفس إحساسا عميقا بكراهية الحرب، الهزيمة فيها والانتصار ومالابارته عرف الحرب معرفة وثيقة، فحين شبت الحرب العالمية الثانية كان يعمل مراسلا لإحدى الصحف في الجبهة الروسية، فلما استسلمت إيطاليا واعتقل موسوليني عاد مالابارته إلى وطنه كضابط إتصال بين حكومة پادوليو وبين قوات الحلفاء التي دخلت إيطاليا لتحررها تحت قيادة الجنرال كلارك الأمريكي، ومن انطباعات تلك الأيام التي صحب فيها الكاتب جيوش الحلفاء، كتب روايته هذه: الجلد».

★★★

إذن فهي يوميات حقيقية لكاتب حقيقي عن تجربة حقيقية، شاهد فيها عن قرب شديد سلوك القوات الأجنبية والأمريكية التي كانت تدعي أن مهمتها «تحرير» إيطاليا. والأسلوب التقريري، غير المزوق، الذي يبدو إخباريا محضا يقدم للقارئ - بلا رتوش - كيف يمكن لجنود الغزو المنتصرة أن تكون نقيضا صارخا لادعاء أنها صاحبة رسالة إنسانية.

ولايمكن في استعراض وعرض هذه «الرواية - اليوميات - الشهادة» أن نلخص أي شيء، لذلك سنضطر أن ننتخب مقتطفات دالة على بشاعة الواقع الذي أراد الكاتب أن يضعه تحت أنظارنا، ربما لكي لايتكرر، ولكي يكشف أكاذيب لافتات «التحرير» و«الإنقاذ» و «المعونة» و «المساعدات» التي تدعيها القوى الدولية حين تتلمظ بالتربص لخدمة مصالحها وشهوتها في السلب والالتهام، ولن يغيب علينا حين نقرأ الرواية أو المقتطفات، التشابه المقيت بين البارحة عام ١٩٤٣ في «تحرير» إيطاليا، واليوم ٢٠٠١ في «تحرير» أفغانستان!.

★★★

«كنت الضابط الإيطالي المرافق لجيش التحرير التابع للحلفاء في نابولي بعد أن استسلمت إيطاليا، وكنت أجوب المدينة يوما مع صديقي الكولونيل الأمريكي چاك هاملتون،

وكـان منظرنا بملابسنا النظيفة ووجوهنا التي يبدو عليها أثر الشبع يبدو غريبا بين الأنقاض والجوع وبين أهالي نابولي الممزقي الملابس الذين تنهال على رءوسهم الشتائم بجميع اللغات واللهجات في جيش التحرير! ورغم الأحوال السيئة التي كان يعيش في ظلها أهل نابولي، إلا أن أحدا منهم لم يكن يبدو عليه شعور المهزوم في حرب، فبعد سنوات من الحرب وبعد الاستسلام وبعد دخول جيوش الحلفاء، وبعد هذا المرض الذي يأتي في أعقاب الحرب، مرض الطاعون، كان أهل نابولي لايحسون أنهم قد خسروا الحرب، وكان هناك مئات من الإيطاليين الذين جندوا مرة ثانية ليحاربوا في صفوف الحلفاء بعد أن حاربوا إلى جانب الألمان، وكانوا يلبسون ملابس خاكية بريطانية، يغلب على ظني أنها كانت لجنود قد ماتوا في ميدان القتال، كان بعضها ملطخا بالدم وبعضها تفوح منه رائحة العرق.. أما أنا فقد كنت ألبس حلة ضابط بريطاني فيها ثلاثة خروق من أثر الرصاص، ربما حاربت هذه الحلة في العلمين أو على تلال طبرق، وقد ذهبت بهذه الحلة لرؤية مواطني من الجنود الذين لبسوا الخاكي للمرة الثانية، وصاح فيهم الجاويش حين وصلت: إنتباه! ووقف الجنود صفا واحدا منتظما، ثم نظروا إلي في عاطفة حارة، كنت أنا الضابط الوحيد من أهل وطنهم الذي رأوه ..

★★★

« .. وخرجت إلى الشارع حيث وجدت صديقي الأمريكي ينتظرني، وانطلقنا لنكمل جولتنا في المدينة. كانت هناك جماعات من النساء العاريات المتزينات يتبعن جماعات من الجنود السود الأمريكيين، وكانت النساء يصحن في الجنود السود: هاللو .. هاللو ياچو! وعلى الرصيف كان يجلس بعض النساء على مقاعد أمام المنازل، وكان البعض الآخر يطل من شبابيك المنازل ..... وأمام صناديق خشبية صغيرة كانت تجلس جماعات من الصبيان، ويدقون بفرشاتهم على الصناديق ويصيحون: مسح أحذية .. مسح أحذية ..... وكان الجنود يتحسسون الصبيان والبنات ..... والنساء يقلن في صوت هامس للجنود: الولد بدولارين، والبنت بثلاثة، ووجدت في نفسي رغبة عارمة لكي أسأل صديقي الأمريكي الكولونيل جاك هاملتون: أخبرني بصراحة، هل تريد بنتا صغيرة بثلاث دولارات ....

...... لم تكن بي رغبة لإغاظة صديقي الأمريكي، فهو ليس مسئولا عن الحرب،



كما أنه من أحسن الأمريكيين الذين رأيتهم، كان يكاد يكون أوروبيا – (!!؟ هذه هي النظرة الأوروبية العميقة للأمريكيين حتى الآن – ص.ك) – ويتكلم الفرنسية بطلاقة، ويحفظ بودلير، ويؤمن بالمحبة المسيحية، ولكن رؤية مواطني أهل نابولي الجميلة بهذه الحال أفقدتني رشدي.

★★★

«... في خلال الأيام القليلة التي مرّت بعد التحرير كانت أسعار الرجال والنساء والأولاد تنخفض بانتظام، بينما ترتفع أسعار الدقيق والسكر والزبد، فمنذ أسبوع كانت الفتاة بين العشرين والخامسة والعشرين تعرض في السوق بعشرة دولارات، أما الآن فقد أصبحت بأربعة فقط، وربما كان انخفاض سعر اللحم البشري في نابولي راجعا لقانون العرض والطلب، فقد تدفقت من جميع أنحاء جنوب إيطاليا خلال الأسبوع مئات من الفتيات، كما عرض في السوق كمية كبيرة من لحوم صقلية البشرية، وفي كل يوم كان يتدفق على الحمير، وعلى عربات الجيب التابعة للحلفاء أطنان أخرى من اللحم البشري، فتيات قويات فلاحات أغراهن سراب الذهب في نابولي، وهكذا انخفض سعر الإنسان في نابولي، وكاد يخشى من هذه المنافسة على اقتصاد المدينة ..

★★★

«... ولازلت أذكر أن إحدى السفن التي تتبع جيوش التحرير وصلت ذات مساء إلى ميناء نابولي، وبعد ساعات لم تكن الحمولة فقط هي التي تسربت إلى أزقة نابولي، بل لقد اختفت السفينة نفسها ولم يسمع عنها أحد شيئا، وظلت أزقة نابولي تضحك على هذا الحادث أياما ثم نسيته، وزاد انتشار الطاعون، هذا المرض الذي يأتي دائما في أذيال الحرب، وكان الدواء الوحيد الذي اهتدت إليه السلطات البريطانية والأمريكية هو أن تمنع القوات المتحالفة من دخول الأماكن الموبوءة في المدينة، فكنت تجد علي الحيطان: ممنوع الدخول، وتحتها رسم لعظمتين متقاطعتين في شكل صليب وبينهما جمجمة، وبعد قليل من الوقت أصبحت نابولي كلها مرسومة بهذا الرسم ومكتوباً عليها، ممنوع الدخول، ولما كان من طبيعة الناس جميعا، والجنود أيضا أن يحبوا كل ماهو ممنوع، ولما كان الناس لايعرفون مصدر العدوى، هل هو أهل نابولي، أم جنود جيش التحرير أنفسهم، فإن أحدا من الجنود لم يلق بالا لهذه التحذيرات، وظل اختلاط الجنود الظرفاء بأهل نابولي على أشده،

وكـــانت نوبة جنونيـــة من السكر والرقص واللعب والضـــحك والاكل تنتـاب جيـوش الحلفـاء وأهل نـابولي، وخاصة النساء، كل ليلة.

★★★

« ... سـألني صـديقي الضـابط الأمريكي ذات مسـاء ونحن خـارجـان من أحد المخابز نلتهم بعض الحلوى: – هل رأيت عـذراء قط؟، – نعم ولكن عن بعد، – هل رأيت عذراء عارية عن قـرب؟، – لا، وصـاح بي: إذن اتبعني يـا مـــــالا بارته. كنت لا أريد أن أصـحـبـه، فـقـد كنت واثقـا من أنه سيريني شيئا مخجلا منحطا، وأنا لا أريد أن أرى الإنحطاط، ولا آســــر برؤيـة النـاس وهـم ينحــــدرون إلى أسـفل، واخشى مـا أخشـاه في هذه اللحظات أن يلتـــفت أحــــد هؤلاء المنحطين إليّ ثم يبتسم في سخرية قـائلا : لقد كنت أفضل الحـرب على الاسـتــسـلام ثم الطاعـون، فـقـبـل التـحـرير كنا نقـاتل لكي لانموت، أما الآن فنحن نقـاتل لكي نعيش، وهناك فـرق عـمـيق بين أن تقـاتل لتـتـفـادى الموت وأن تقـاتل لتـعـيش، فـالذين يقــاتلون لكي لايموتون يحــتـفظون بكرامتهم ولايجثون على ركبهم، وهم يهـــربون في الجـــبـال والغــابات، ويعـيـشـون في الكهـوف ويحــاربون الغـزاة في ضـراوة الذئاب، حــربا شــريفـة وكـريمة، والنســـاء لايلقين بأجسادهن في السوق السوداء مقابل أحـمـر الشـفـاه والجـوارب الحـريرية والسجـائر والخبـز، بل يعـانين الجـوع وقسـاوته في صبر وتماسك. لقد كـان أهـل أوروبا، قــبل دخــول جـيــوش الحلفــاء من الأمــريكيين والإنجليـز، يحــاربون في شـــرف لكي لايموتوا، ولكي يحــتـفظوا بروحــهم سليمـــة، ولكنهم بعـد التـحـرير يحـاربون لكي يعيشوا ، ولكي يحتفظوا بأجسامهم لا بأرواحــهم لكي يحــتـفظ كل منهم بجلده وعظمه ولحمه فقط، إنها لم تعد حــربا ضـد الطغـيـان، ولا حـربا في سبيل الحرية أو الكرامة الإنسانية أو الشـرف، بل هي حـرب خسيسة في سبيل لقمة خبز أو خرقة من الملابس الممـزقـة أو حـزمـة من القش لينامـوا عليهـا، ولكي يعـيش الإنســـان فـهـو لايتحـرج عن شيء، قد يسـرق ويغش ويدلس ويقوِّد زوجته، وقد يجثو على ركبتيه ويلعق حذاء كل من يملك لقمة خـــبـز أو قطعـــة سكر. كـــانت هـذه الخـواطر تدور بذهني وأنا وصـديقي الأمـريكي ذاهبـان لرؤية فـتـاة لاتزال عـذراء، وكـان على البـاب حـفنة من جنود الحلفـــاء بعــضـــهم أمـــريكي وبعضـهم إنجليزي أو بولندي، ووقفنا



فى الصف فى انتظار دورنا ...

★★★

« .... وقلت لصديقى الأمريكى ونحن خارجان: إن أصحابك يسرهم بلاشك أن تتردى نابولى فى هذه الهوة .... لابد أنكم مزهوون لأنكم قد قهرتم أمة إلى هذا الحد، فبدون هذه المشاهد كيف كنتم ستحسون أنكم منتصرون .... أخبرنى ياصديقى، لو انهزمت أمريكا فى الحرب، ألم يكن من المحتمل أن تجلس فتاة من نيويورك أو شيكاجو مكان عذراء نابولى ليتفرج المنتصرون على فرجها مقابل دولار؟ وقاطعنى صائحا ... ولم أعن بمقاطعته، بل استطردت قائلا : إننى أفضل أن أخسر الحرب، وأن أجلس على مثل هذا السرير مثل هذه الفتاة المسكينة، عن أن أمد يدى لأمتحن بكارتها لمجرد أن أحقق الإحساس بالنصر والفرحة المجنونة بالسيطرة.

وسألنى الأمريكى، ولكنك جئت أيضا فلماذا صاحبتنى.

وأجبته: لأنى جبان، ولأنى أريد أيضا أن أشعر بالمذلة التى يشعر بها المهزوم.............................. .... كنت حينئذ أفكر فى أمر الاستسلام الذى أذاعه الملك منذ أسابيع قصيرة: (ياضباط وجنود الجيش الإيطالى، القوا بأسلحتكم وراياتكم كالأبطال تحت قدمى أول قادم). وإذا كان هناك مجال للسخرية فى هذا الأمر فهو كلمة (كالابطال) .. الأبطال يلقون سلاحهم لأول قادم سواء أكان من المنتصرين أم المنهزمين .. وكنا جميعا نفكر كيف يمكننا أن نلقى أعلامنا فى الوحل ببطولة!

★★★

« .... وكنت أفكر أيضا فى كلمة (الإيطاليون الأوغاد) التى سمعتها كثيرا بالإنجليزية والفرنسية .... وفجأة ملأنى السرور لأننا وحدنا دون أمم العالم، الأوغاد والفقراء وأولاد الخنازير كما تقول القوات المتحالفة ....

★★★

«وقال الجاويش الأمريكى : ..... لسنا إيطاليين أوغادا ...... وقلت: لماذا تشتمنى دون سبب ... وصحت به: اسكت! كفى شتائم وقذارات، هل جئت إلى أوروبا لتشتم الناس أم لتحررها من الألمان؟ وأغمض قبضته فى وجهى وقال: كان ينبغى أن يموت أحد الإيطاليين بدلا من هذا الجندى الأمريكى، لماذا لم تخرجوا بمفردكم الألمان من بلادكم ؟ وسألته بدورى: ولماذا لم تظلوا أنتم فى بلادكم؟ كان ينبغى عليكم أن تتركونا نحارب الألمان وحدنا، قال الجاويش الأمريكى: هون

عليك! إنكم جميعا أيها الأوروبيون أشرار، إن الشيء الوحيد الذى يصلحكم هو أن تموتوا جوعا ...... إنكم أمة قذرة، وأجبته فى سخرية: أما أنتم أيها الأمريكيون فأمة من الأبطال، ومع ذلك فقد أمكن لعشرة من الألمان وصف ضابط أو يوقفوكم أمام الخليج ثلاثة شهور.....

★★★

«كان الأمير كانديا، وهو أحد أرستقراطى نابولى قد أقام حفلة عشاء، دعا إليها بعض أصدقائه الأرستقراطيين والكولونيل الأمريكى وأنا، والأمير بهذه المناسبة رجل نبيل حقا، يتمتع بمكانة مرموقة بين مواطنيه، وهذه المكانة قديمة ترجع إلى عام ١٩٣٨ حينما زار هتلر نابولى فرفض الأمير أن يحضر المأدبة التى أقيمت تكريما للفوهرر، وأصدر موسولينى حينئذ أمرا باعتقاله ثم بتحديد إقامته فى قريته، وقد ارتفعت مكانة الأمير حين رفض هذه المرّة أن يشترك فى الوفد الذى أختير لكى يسلم مفاتيح المدينة للجنرال كلارك الأمريكى، وقد قال الأمير إنه ليس من عادة نابولى أن تسلم مفتاحها لمن يغزوها، فلما قيل له إن الأمريكيين محررون لا غزاة، أجاب بقوله: كنت دائما رجلا حرا، والعبيد وحدهم هم الذين ينتظرون من يحررهم .....

★★★

« .... كان الجنرال كلارك الأمريكى قد أقام مأدبة عشاء تحية لمسز فلات، وهى سيدة أمريكية تعمل فى الصليب الأحمر، وتشرف على كثير من أعمال الخير، والجنرال كلارك رجل حازم وجاد، ولكنه يحب أن تزدان مائدته فى كل وليمة يقيمها بصنف غريب من الطعام، ولما كان حوض الأسماك فى نابولى مليئا بالأسماك الغريبة، فقد تعود الجنرال كلما زاره زائر ذو أهمية أن يزين مائدة الطعام بصنف غريب من السمك. وفى تلك المرة نادى الجنرال كلارك طباخه وأمره أن يختار نوعا غريبا من السمك كالعادة ليكون فى وسط المائدة، وقال الطباخ إنه لم يبق فى الحوض - بعد الولائم التى أقامها الجنرال لتشرشل وفشنسكى وغيرهما - إلا عروس البحر، وسأله الجنرال: وهل طعمها لذيذ؟ واجابه الرجل: لذيذ جدا ياسيدى الجنرال،. وجلسنا إلى المائدة فى انتظار الطعام، وتقدم الطباخ والسفرجى فوضعا صحنا كبيرا أمام الجنرال والمسز فلات، ثم تأخرا خطوتين، وما كدنا ننظر فى الصحن حتى شحب



وجـهنا، وندت صرخـة فزع من شـفـتى المســز فــلات، وتراجع الجنرال فى مقعده ..... كان فى الصـحـن مايشبه فـتـاة صـغـيـرة أكـبـر الشـبـه، وكـانت عيناها مـفـتـوحـتين وشـفـتـاها نصف مغلقتين، وكانت بشرتها الداكنة تلمع كـمـا يلمع ثوب المسـز فـلات الغـامق ....

.... وقــــال الجنرال كـلارك فى صـوت مـرتـعش: ولكنهـا ليـست سـمكة ... إنهـا فـتـاة صغيرة! وقلت : لا .... هى سمكة.

وسـألنى الجنرال: هـل أنت واثق أنهـا سـمكة؟ .. سـمكة حـقـيـقـيـة؟ وأجـبـتـه: نعم .. إنهـا سـمكة إنـهـا عروس البـحـر الشـهـيرة التى أهديت لملك إيطاليـا من بحـار الحـبـشـة ... وصـاحت مـسـز فـلات: ابعـدوا هذا الشـىء الفظيع عنى، إنـى لم آت إلى أوروبا لأكل الفتيات الصـغيرات، وقال الجنرال كـلارك : ولكنهـا سـمكة ... ليست فتاة صغيرة... فـقد أكد لنا مـالبـارته أنهـا سـمكة ... وأجـابت السـيدة الأمـريكيـة فى صـوت بارد: إنى لا أصدق تأكيداتك، ولا تأكيدات صديقك مـالبـارته الإيطالى هذا .... هل جئت إلى أوروبا لأكل لحم الفتيات بالمايونيز؟ أرجـوك ارفع هذا الصـحن عن المائدة ... وصـاح الجنرال كـلارك فى الطبـاخ: إرفع هذه الفــتــاة ... أقصد هذه السـمكة عن المائدة، وفجـأة صــاح أحـد الجــالسـين على المائدة واسمه الكولونيل براون، وهو من كبار الوعـاظ فى الجـيش الأمريكى: ينبـغى أن ندفنهـا ... هذه الطفلة المسكينة .. وصــاحت مـسـز فـلات: مــاذا؟ وقــال الواعظ: لقد قلت ندفنها.

وقـال الجنرال فى دهشـة: ولكنهـا سـمكة ياصـاحب القـداسـة؟ وأجـاب الواعظ: أنتم تقـولون إنهـا سـمكة.. ولكنهـا تشبـه الفتـاة الصـغيرة أشد الشبه ومن واجبنا أن ندفن هذه البنت الصـغيرة .... من واجبنا كمسيحيين ألسنا مـسـيحـيين؟ وقـالت مسز فلات: إنى أميل إلى رأى صـاحب القداسـة، ووجدت الفرصة سانحة للتدخل، فقلت : ولكن ليس هنـاك مـدافن للسـمك فى نـابـولى ... إن أهـل نـابـولى يأكلـون الســـمك ويدفنون الناس، ولـكنهـم لايأكلون الناس ويدفنون السمك...»

★★★

لعل المناسـبة التى جعلت الشـاعر الراحل صـلاح عـبدالصـبـور يتـرجم وينـشـر هـذه الرواية / اليـومـيـات / الشـهـادة، عـام ١٩٥٧، كـانت وفـاة مؤلفها الإيطالى «كورزيو مالابارته»فى ذلك التـاريخ ١٩٥٧، غـيـر أن ضـرورة إعـادة نشرها والتنويه عنهـا الآن لهـا من الأسباب الكثير ... الكثير .. ■

كلام عن بعض الأدباء



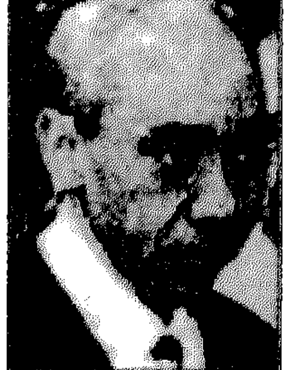

د. حسين مجيب المصرى



د. بشر فارس



نقولا يوسف



سيد قطب

بقلم :
وديع فلسطين

لن يملّ القلم من الحديث عن أصحاب الأقلام الذين تنوسيت منجزاتهم، سواء في حياتهم أو بعد انقضاء رحلة العمر، وأعتقد أن التذكير بهم يكاد يكون فريضة على المخضرمين من أمثالنا الذين أكرمهم الله بالتواصل مع هؤلاء الأعلام، فصار الوفاء لهم دينا في الأعناق يتعين الوفاء به، وهذا حديث عن بعض هؤلاء السادة النجب الذين لم ينالوا حقهم من تقدير الأجيال التي جاءت بعدهم.

الدكتور حسين مجيب المصرى

في أسبوع واحد تم تكريم أستاذنا العلامة الدكتور حسين مجيب المصرى في مؤتمر أدباء الأقاليم الذى عقد في الفيوم وفى جمعية الشبان المسلمين في القاهرة، فتحامل المكرم على شيخوخته العسرى، وتلمس طريقه بعدما كُفَّ بصره إلى حيث استمع إلى بضع كلمات قيلت في الإشادة بتاريخه الطويل، فلما عاد إلى بيته محمولا، هاجمته نوبة من مرض السكرى، فسقط مغمى عليه ولم يفق إلا على وقع أقدام الطبيب، ولئن شكرتُ للمكرمين جهدهم في محاولة إنصاف هذا الرجل الضخم بمنجزاته العلمية الرصينة على مدى ستين عاما أخرج فيها أكثر من ستين كتابا باللغات الفارسية والتركية والأردية وثلاثة معاجم، فمازلت أعتقد أن في عمره فسحة تستحق تكريما من مستوى الجامعات أو المجامع أو الدولة، فهو يستقبل في ١٩ فبراير المقبل عامه السادس والثمانين، ومازال برغم ظروفه الصحية العاتية يواصل عطاءه، وأحدث ما صدر له (من إملائه) كتاب «القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية».

ومن المفارقات التى تبعث على الأسى الممّض، أن هذا العالم الكبير سعت إليه أسباب التقدير والحفاوة من باكستان ومن تركيا ومن إيران بل من باكو في الجمهوريات الإسلامية الروسية السابقة حيث عرفت الهيئات العلمية قدره فقلدته أعلى أوسمتها، وعقدت على سيرته عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في هذه البلدان، فأين مصر من هذا التكريم؟.

والدكتور حسين مجيب المصرى يجيد من اللغات تسعا، وهى الفارسية والتركية القديمة والأردية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والروسية، عدا العربية طبعا، وهو شاعرٌ، فإن ترجم الشعر ترجمه شعرا سواء أكان ذلك بالفارسية أم بالتركية أم بالأردية.

وباعتباره أستاذا عتيقا في الجامعات المصرية، فقد سرى عليه القانون الجائر الجديد الذى عاقب الاساتذة الذين تجاوزوا الستين والسبعين بإقصائهم عن النشاط الجامعى (ربما لأنهم خرّفوا!!) وقرّر لهم مكافأة لاتزيد على ٢٠٠ جنيه في الشهر يتقاضى الخدم في المنازل أكبر منها! .

والغريب أن طلابه السابقين اختيروا أعضاء في المجامع، أما المصرى فقد قضى عشرين عاما يعمل خبيرا في لجان مجمع القاهرة دون أن يتأهل لعضويته.

وكان الدكتور المصرى مرشحا لإحدى جوائز الدولة في العام الماضى، فنال عند الاقتراع الأول ثلاثة أصوات، وفى الاقتراع الثانى صوتين، وذهبت الجوائز إلى مؤلفى الطقاطيق والأغانى الملاح!.

ومن طريف مايروى عن أستاذنا المصرى ، أنه دعى إلى إيران عند احتفال الشاه بمرور ٢٥٠٠ عام على قيام دولته، فألقى نفسه وسط عشرات

كلام عن بعض الأدباء

من الملوك والملكات، ورؤساء الدول الذين لبوا دعوة الشاه إلى هذه الاحتفالات الأسطورية، فداس عفوا على قدم سيدة فى هذا الزحام واكتشف أنها ملكة الدنمارك! واصطدم بشخص آخر، فإذا هو رئيس دولة همام! ولولا المنزلة العلمية الرفيعة التى يحتلها الدكتور المصرى، لما وجهت إليه دعوة إلى هذا المهرجان الامبراطورى الذى كان كل المدعوين إليه من السادة الحكام فى القرن العشرين، ولم يشهد المهرجان من مصر إلا اثنان آخران هما السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية ممثلا للرئيس والصحفى أنيس منصور.

ولست بسبيل سرد قائمة بمؤلفات الدكتور حسين مجيب المصرى، وحسبى أن أذكر أن له عدة دواوين منشورة، وعشرة كتب عن الشاعر إقبال وآثاره وله مثلها فى الأدب المقارن بين اللغات الشرقية الثلاث، كما أنه أشرف على عشرات من رسائل الدكتوراه والماجستير منها رسائل فى الجامعة الأزهرية وجامعات الأقاليم.

ألا من سبيل إلى رفع الضيم عن هذا العالم الكبير قبل فوات الأوان؟.

الدكتور بشر فارس

صدر فى دمشق كتاب يضم سيرة حياة الأديب الدكتور بشر فارس (١٩٠٦ أو ١٩٠٧ - ١٩٦٣) قام مؤلفه جورج عيسى بجمع طائفة كبيرة من شعره من الصحف والمجلات القديمة، بحيث يمكن اعتبار هذا الكتاب ديوانا للشعر الرمزى الذى كان بشر فارس من أوائل مبدعيه فى الأدب العربى.

ينتمى بشر فارس إلى أصول لبنانية ويذهب بعض الباحثين إلى أنه ولد فى لبنان فى حين يؤكد غيرهم أنه ولد فى مصر، وهى التى اختارها موطنا له، وكان يملك مع شقيقه أرضا زراعية أغنته إيراداتها عن طلب الوظائف، وإن كان حاضر فى جامعة القاهرة، كما تولىّ الإشراف على مجلة «المقتطف» لمدة سنة واحدة لانشغال محررها فؤاد صروف (١٩٠٠ - ١٩٨٥)، بإصدار الطبعة الأولى من مجلة «المختار من ريدرز دايجست»، واستحدث فى المجلة بابا عنوانه «باب التعريف والتنقيب» تبارى فى الكتابة فيه عدد من كبار النقاد والباحثين.

كان اسم الشاعر عند ولادته «إدوار»، ولكن شيخ العروبة أحمد زكى باشا (١٨٦٠ - ١٩٣٤) نصحه بتغيير هذا الاسم الأعجمى، فاختار اسم «بشر» أما الدكتوراه التى يحملها فهى من جامعة السوربون فى باريس وكان موضوع رسالة الدكتوراه «العرْض عند

عرب الجاهلية».

ولبشر فارس عدة مسرحيات باللغتين العربية والفرنسية - وهي بدورها من الأدب الرمز- وقد جرى تمثيلها على المسارح الأوربية في باريس وسالزبورج وفيينا ومونسيتر، أما كتبه المطبوعة ماكان منها باللغة الفرنسية أو العربية فتتناول موضوعات شتى من الأدب والتراث والتصوير والفلسفة والقصص والدين وكذلك علم النبات، مما يشي بالطابع الموسوعي لاهتماماته.

وكان بشر فارس يزورني في مكتبي في «المقطم» ولما اكتشفت أنه يقيم في جواري زرته في بيته وألفيته يطيل شعره ويرتدي عباءة مغربية، ويتأنق في مظهره ومأكله ومشربه، وكان يعيش بمفرده قبل أن يتزوج من سيدة كان يؤثرها باهتمامه قبل وفاته بفترة قصيرة.

ولأن الشعر الرمزي كان - ولايزال - «عسير الهضم» فقد أثارت قصيدته المنشورة في مجلة «المقتطف» بعنوان «إلى زائرة» اهتماما غير عادي من القراء في مصر ولبنان، إذ تصدى لها حبيب الزحلاوي معلنا في مجلة «الرسالة» لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨) عن جائزة قدرها خمسة جنيهات أو مايعادلها بالليرة اللبنانية تمنح لمن يستطيع شرح معميات هذه القصيدة، فانبرى عدد من أصدقاء بشر فارس في مصر ولبنان لشرح القصيدة منهم زكي طليمات (١٨٩٧ - ١٩٨٢) والشيخ عبدالله العلايلي (١٩١٤ - ١٩٩٦) والشاعر اللبناني صلاح الأسير (١٩١٧ - ١٩٧١) والناقد مصطفى عبداللطيف السحرتي (١٩٠٢ - ١٩٨٣)، ومع ذلك لم يفز أحد منهم بالجنيهات الخمسة التي زعم الزحلاوي أنه يرصدها للفائز، فقد كان هدفه غير المعلن هو «الشوشرة» على بشر فارس حتى إنه تلاعب باسمه فسماه «نشر فهارس» في الكتاب الذي أصدره بعنوان «شيوخ الأدب الحديث».

والكتاب الجديد الذي أصدره جورج عيسى هو محاولة جادّة للتنبيه إلى بشر فارس وفهم مذهبه في الرمزية، كما أنه سجل يكاد يكون وافيا لكل مانظمه من شعر في هذا الباب.

ولأن بشر فارس كان ميسور الحال، وكان يطبع كتبه على نفقته الخاصة دون أن يستعين بناشرين ، ولأنه لم يرزق بأبناء يهتمون بتراث أبيهم ، فقد انتهى العمر الافتراضي لجميع كتبه دون أن تتاح لها فرصة الظهور في طبعات جديدة.

نقولا يوسف

مرت في العام الماضي خمسة وعشرون عاما على وفاة الأديب نقولا يوسف، فهو من مواليد دمياط في ١٢ مارس ١٩٠٤ ولقي وجه ربه في ١٣ أبريل ١٩٧٦.

ونقولا يوسف يستحق أن يطلق عليه

كلام عن بعض الأدباء

بجدارة لقب «العمدة الأدبى للإسكندرية» فقد اختار الإقامة فى الثغر السكندرى بعد تطواف فى المدن المصرية معلما فى مدارسها ثم ناظرا لها. فعندما تقاعد عن العمل سخر نفسه لخدمة أدباء الثغر والأدباء الذين يترددون على الإسكندرية سواء فى فصل الصيف أو فى شهور السنة، فهو يستقبلهم ويسعى لدى فرع الإسكندرية لمجلس الفنون والآداب للتوصية بهم، وهو يقوم بدور التعارف بين الأدباء وهو يعرف بإنتاجهم الأدبى فى المجلات والصحف وبفضله تواصلت شخصيا مع معظم أدباء الإسكندرية بل مع القاهريين الذين لم أكن قد عرفتهم بعد مثل الأديب إبراهيم المصرى (١٩٠٠ -١٩٧٩) والأديب محمد أمين حسونة (١٩٠٩ - ١٩٥٦) وغيرهما، ومن ناحيتى وصلته بمجلة «الأديب» اللبنانية الفاخرة لمحررها البير أديب (١٩٠٨ - ١٩٨٥) فصار من كتابها الدوبين. هذا إلى مراسلاته الواسعة مع الأدباء فى مصر والخارج، ولو جمعت هذه الرسائل الأدبية لأضافت رفدا مهما إلى التاريخ الأدبى .

ولئن كان التخصص الأول لنقولا يوسف هو الأقاصيص، فأصدر منها «دنيا الناس» و «مواكب الناس» إلا أنه استهل نشاطه الأدبى برواية طويلة عنوانها «إلهام» طبعت مرتين . وقام بجمع ديوان أستاذه وصديقه عبدالرحمن شكرى (١٨٨٦ - ١٩٥٨) بمعاونة أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى. وكان الشاعر قد نشر فى حياته سبعة دواوين. فاستكمل نقولا يوسف الديوان الثامن من قصائد الشاعر المتناثرة فى الصحف والمجلات، وجاءت المجموعة الكاملة لشعر شكرى سجلا وافيا لحياته وآثاره الشعرية دون النثرية - وهى كثيرة.

ووفاء من نقولا يوسف لمسقط رأسه دمياط، فقد أصدر كتابا كبيرا عن «أعلام دمياط» فضلا عن مشاركته على مدى سنوات طويلة فى الكتابة فى جريدة «أخبار دمياط» المحلية، ووفاء منه للإسكندرية التى احضنته منذ ما استقر فيها ، فقد أصدر عن أعلامها كتابا كبيرا جعل عنوانه «أعلام من الإسكندرية».

ولأن وفاة نقولا يوسف وقعت فى عام ١٩٧٦ فى مدينة القاهرة وليس فى الإسكندرية فقد تخلف السكندريون عن إقامة حفل تأبين له، وهوما حاول بعض عارفى فضله من السكندريين مؤخرا إحياء ذكراه، فسعوا لدى الجهات الثقافية فى تبنى هذه الدعوة مع إعادة طبع كتابه عن أعلام الاسكندرية فى وقت تحتفل فيه العاصمة الثانية بافتتاح



مكتبة الاسكندرية، ولكن يبدو أن تعاقب السنين أنسى الناس أفضال هذا الأديب المعطاء.

وكنت أداعبه بقولي إنه شبيه «بالأستاذ الشبراوي» وهو بطل أقصوصة لنقولا يوسف لم تجمع في كتاب مع عشرات من الأقاصيص التي كتبها في سنوات عمره الأخيرة . وهذا الأستاذ الشبراوى كان يجتمع صبيحة كل يوم مع زملائه أرباب المعاشات في مقهاهم المختار، فإذا تخلف واحد منهم فتحوا صفحة الوفيات في الجريدة وقرأوا نعيه، ثم نهضوا لكي يشاركوا في تشييع جنازته، وهكذا أخذ عدد رواد مقهى أرباب المعاشات يتناقص مع مرور الزمن إلى أن جاء اليوم الذي افتقدت فيه البقية الباقية من رواد المقهى زميلهم الأستاذ الشبراوي وعرفوا من صفحة المناعي أنه انتقل إلى رحمة الله، فقاموا يشيعونه إلى مثواه الأخير.

حول رسائل سيد قطب

نشرت زميلتنا العزيزة صافي ناز كاظم - دون تعليق - الرسائل التي كنت أتلقاها من الأديب سيد قطب عندما كان يدرس في الولايات المتحدة في عامي «١٩٥٠و١٩٥١» . وكان سيد قطب يعمل في الإدارة الثقافية لوزارة المعارف العمومية وكان بفضل اشتهاره بأنه ناقد مجلة «الرسالة» يطمح في إعتلاء مناصب أعلى، وإزاء هذه المطامح قرر الوزير (ولعله كان الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهوري باشا) إيفاده إلى الولايات المتحدة في بعثة مفتوحة لايقصد منها الحصول على درجة علمية بقدر ما يراد لطالب البعثة أن يرى الدنيا ويوسع مداركه ويصبح مؤهلا للترقي في معارج الوظيفة الحكومية.

وعندما وصل إلى الولايات المتحدة في سان فرانسيسكو أولا ثم في واشنطن العاصمة، ألقى نفسه في عزلة تكاد تكون تامة عن الحياة الثقافية والفكرية في مصر، فرجاني أن أوافيه بكل ما أعرفه من أخبار الأدب والأدباء في مصر، وهو ماكان من شأنه أن أتحول إلى مايشبه وكالة «رويتر» للأخبار، وفي ذلك الوقت كان زميلنا الصحفي صالح البهنساوى المحرر بجريدة « الأهرام » يصدر مجلة أسبوعية لسباق الخيل اسمها «شيخ الصحافة» وكان يخصص الصفحتين الداخليتين من مجلته لتسجيل أخبار صغيرة ينقلها من الصحف الأخرى بحيث تغني القارىء عن مطالعة عشرات من هذه الصحف . وتبينت أن مجلة «شيخ الصحافة» تغنيني عن موافاة سيد قطب بما يعوزه من أخبار الحياة الأدبية، فصرت أبعث بها إليه أسبوعيا وكان يجد فيها ضالته، ولهذا حرص على شكري على إتحافه بهذه المجلة.

ثم إن سيد قطب ارتأى أن يقوم عند عودته إلى القاهرة بإلقاء سلسلة من المحاضرات عن السياسة التعليمية في

كلام عن بعض الأدباء

مصر في ضوء ما وقف عليه في بعثته المفتوحة في الولايات المتحدة، فكتب إليّ راجيا أن أفاتح أستاذي وصديقي الدكتور حنا رزق مدير قسم الخدمة العامة في الجامعة الأمريكية في أن يخصص منبر قاعة يورت التذكارية الكبيرة لإلقاء هذه المحاضرات فلما فاتحته في هذا الأمر قال لي: تعرف أننا جامعة أجنبية، فإذا أبحنا منابرنا لإلقاء محاضرات تنتقد سياسة وزارة المعارف العمومية فسيكون لذلك أثر غير حميد، وأبدى بالتالي اعتذاره من عدم قبول هذا الاقتراح، وهو ما نقلته إلى سيد قطب الذي أوضح أنه لايستهدف انتقاد السياسة التعليمية، بل إنه حريص على دعوة الدكتور طه حسين بك وزير المعارف العمومية لحضور محاضراته.

أما فيما يتعلق بالرسالة الخاصة بالشاعر محمود أبي الوفا، فقد تركها لدى بواب جريدة «المقطم» لتوصيلها إليّ، وكان قد أرفق بالرسالة كلمة موجهة إلى وزير المعارف العمومية (ولعله كان حسن العشماوي باشا) يناشده فيها تعيين الشاعر في وظيفة استثناء من جميع الإجراءات لأن أوضاعه الصحية فضلا عن تعليمه المتواضع مما يتعذر معه الوفاء «بمسوغات التعيين»، وقد نشرتُ هذه الكلمة في الجريدة بعدما وافق على نشرها رئيس التحرير كريم ثابت بك ومدير الجريدة خليل ثابت بك (وهو والد كريم)، وقد استجاب الوزير لنداء سيد قطب، وأمر بتعيينه مصححا في دار الكتب.

ولما عين الشيخ أمين الخولي (١٨٦٥ - ١٩٦٦) مديرا لدار الكتب، لاحظ أن الشاعر محمود أبا الوفا لاينتظم في الحضور إلى الدار في المواعيد المقررة. فنبه عليه بضرورة الانتظام، وهو ما كان متعذرا عليه بسبب ساقه المبتورة وضعف صحته، وعندئذ قرر فصله من الوظيفة لأنه يخالف النظم الحكومية الصارمة !

وكنت تلقيت من سيد قطب وهو في أمريكا مقالين يعلق فيهما على الأوضاع غير السليمة ومنها الرقابة المفروضة على الرسائل والتي كانت تسري على المراسلات بيننا، فنشرت هذين المقالين في «المقطم» ولكنني لم أحتفظ بصورة منهما . ويمكن طبعا الرجوع إليهما بالبحث في مجموعة الجريدة التي أرجح أنها محفوظة في دار الكتب.

هذه بعض ملاحظات على الرسائل التي تكرمت زميلتنا العزيزة صافي ناز كاظم بنشرها في « هلال » ديسمبر الماضي، وفيها إيضاح لما قد يغمض فهمه على القراء. ■



أنا والطبقة المتوسطة

علاء الديب

تحتاج الكتابة لمجلة «الهلال» العريقة ذات الشأن إلى قدر غير قليل من الشجاعة والثقة في النفس ،خاصة إذا كانت الكتابة تحت عنوان «التكوين» الذى كتبه أساتذة كبار.

ولد الفقير إلى الله عام ١٩٣٩ مع الحرب العالمية الثانية. وشاء السميع العليم أن يمتد به العمر ليشهد بعيني رأسه على تليفزيون الـ C.N.N طائرات ١١ سبتمبر تخترق نيويورك وواشنطن لكى تعلن بدء طور جديد من المأساة التى نعيشها. كنت أحسب أنني عشت أياماً صعبة الآن أعرف أن القادم أصعب وأفدح. أيامى كانت قدر يغلى فوق نار غيرمقدسة ، لا تنضج ولا تنطفيء، تبقي الغليان مستمرا، حارما الروح من السكينة أو الاتساق أو التناغم.

عذاب «سيزيف» صاحب الصخرة، أم سير على صراط، أم هو مخدر يفضى إلى فوهة بركان. لم يكن الأمر دائما بهذه الفداحة أو الرعب، لكنها لحظات الوعى الشامل المتكررة ، التى يرى لإنسان نفسه فيها، ويري الواقع لحيط به ، حادا جارحا ويحاول الهرب إلى الأحلام والخيال والأفكار المجنحة لكي تداوى الجروح وتجعل الحياة ممكنة يعزى الإنسان نفسه فيقول : هذه حال الدنيا، وهذا عصر تحولات .. و«خلق الأنسان فى كبد» . لكن الفقير لله يفكر أن الانسان رغم كل شيء يستحق أفضل من هذا ، وعليه أن يبقى مستمرا فى البحث عما يستحق . أعتقد أن هذا هو جوهر الرحلة.. أومحيط الدائرة. محاولة لفض اشتباك طال به الأمد بين الذت وصورة الذات.

أحاول باستمرار أن اكتب منذ أكثر من ٤٠ سنة. كل ما كتبت يدخل تحت عنوان «التكوين» لم اكتب إلا عن نفسى فى محاولة للفهم أو التفسير ، أو للقبول .





مع الأحجار فى مرسم آدم حنين

لهذا الموضوع الوحيد - الذى هو ذاتى - دائرة اكبر يتحرك فيها هى:

«الطبقة المتوسطة» . الطبقة اللغز فى تاريخنا . أعيش اللغز وأدعى معرفته . هذه الطبقة : صاحبة أكبر إنجازات ، وأفظع جرائم . صاحبة الحل والربط ، وقليلة الحيلة، صاحبة المثل العليا، والقيم المزيفة، الخائنة النبيلة .. صانعة العدسات الوحيدة التى أرى بها الواقع والمصير.

●●●

لكل حكاية بداية، وحكايتى تبدأ من البيت فى المعادى «مازلت أقيم فى البيت الذى ولدت فيه» . المعادى وهي إن كنت لاتعرف «كانت» ضاحية الأرستقراطية، والإنجليز، والباشوات ، وآخر المليونيرات اليهود . فيلات شجية، وشوارع أوربية. لها جمال استعمارى عريق. حوالى اثنى عشر كيلو مترا تفصلها عن القاهرة كلها كانت مزارع ومشاتل ورد ونخيل حتى دار السلام «دار الطين سابقا.. وحاليا الصين الشعبية» فى نهاية الأفق يقع مصنع للحرير .. وأخر للعطور.. ! «يسكن دار السلام الآن فى أحياء أغلبها عشوائية اكثر من ٣ ملايين نسمة».

تنقسم المعادى فى ذلك الوقت الذى بنى أبى فيه بيته إلى قسمين . «معادى السرايات» و «معادى البلد» . السرايات حيث الأشجار والفيللات والعطر الاوربى الاستعمارى العريق .. أما فى معادى البلد، فيسكن خدم هؤلاء ، والسوقة «أصحاب السوق حيث لم يكن مسموحا بفتح دكاكين فى السرايات»، هناك بائعو الخضار ، والمقاهى البلدية، وصالونات الحلاقة المتواضعة والمكوجية وماسحو الأحذية.

شركة أراضى الدلتا للمعادى شركة انجليزية ، يديرها ويتولى كل شئونها فى ذلك الوقت كونستابل انجليزى «يهودى فى الأغلب» مستر ليفى . يشرف على الإدارة المالية ويحصل الفواتير والأقساط. كما يشرف على النظافة ، وعلى سريان ماء النيل فى كل القنوات . هو دولة وحده، وسلطة

وادارة (لى صديق ظريف يفكر فى كتابة كتاب بعنوان مزايا الاستعمار !).

تبيع الشركة أراضي للبناء ، بتقسيط مريح، وبتقديم قرض للبناء وتسهيلات حقيقية . الأمر الذي دفع بالطبقة المتوسطة إلى غزو المعادى. وجئنا نحن لاننتمى «للسرايات» ولا «للبلد» في بحرى الضاحية أقامت الطبقة المتوسطة لها عالما، منفصلا ومتصلا ، له قيم وتقاليد ومظاهر مختلفة عن أهل السرايات ، وأبناء البلد. باع والدى ما له من أرض قليلة وجاء مبكرا ، واحدا من غزاة الطبقة المتوسطة لقلعة السرايات حيث الباشوات والإنجليز.

غرس هذا الواقع مبكرا الوعى بالطبقة، وأهميتها ، وصراع وتحالف الطبقات . ظل معى هذا المعنى محيرا مثيرا دائما للتفكير.

●●●

تأثير أبي على حياتى تأثير مبالغ فيه .كعقدة أوديب بالنسبة للأمهات. ربما لأننى طفله الأخير «بعد ثلاثة من الصبية وبنتين» مما أتاح لى علاقة قريبة معه وربما لأنه كان شخصية انسانية مميزة . له حضور هادىء مشع لاينسى . يحضرنى كثيرا ومازلت اشتاق إليه . اسمه «حب الله» ، وله من اسمه عندما يكتب وينطق صحيحا الشىء الكثير، شاعر وفنان متصوف في روحه وفى طريقة تناوله للأشياء .مهندس زراعى «خريج معهد دمنهور الزراعى العريق». تخصص فى الحدائق والبساتين . وآخر وظيفة شغلها «مدير حدائق القاهرة – وزارة الأشغال» يحب عمله ، ويقدسه «من الأمجاد التي ظل يفخر بها طوال حياته أنه اشترك فى تصميم وتنفيذ ممرات حديقة الحيوان المشغولة «بالزلط الملون» . إلى جانب هذا كان شاعرا هجر الشعر، له بعض أوراق فيها شعر الصبا، ضاعت فى كراكيب البيت أو اظنه أخفاها أو أحرقها . قرأت معه على سجادة صلاته القرآن بصوته الخاشع الذى لاينسى . وحاولنا قراءة التوراة خاصة الأسفار الأولى. كان يجب «الأدب الصغير» و«الأدب الكبير» للامام على كرم الله وجه والمتنبى وديوان الحماسة.

عريض الجبهة، كريم القسمات – يكسوه حزن نبيل شفاف كأنه غناء رعاة فى سهول ، ينقل إلى جليسة محبة وسكينة . يردد عندما ينزل عليه المساء فى بيته الجديد الذى ظل طويلا تحت الانشاء. أشعارا يحفظها لعلنى أذكر منها:

كعصفور فى يد طفل يهينها
فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها
ولا الطير مطلوق الجناح فيذهب

وكان – رحمه الله – اذا ضحك يشرق وجهه وتدمع عيناه .

●●●

الصفة الأساسية التى لاتكتمل صورته بدونها هى صفة «الديمقراطية» كانت تجعله مختلفا تماما عن رجال عصره وأبناء جيله . كانوا من حولنا يمارسون جميعا أنواعا من الديكتاتورية والبطش بالأولاد والزوجات والبنات إلا هو فقد أدار البيت «٨ أفراد» بديمقراطية وتحضر حقيقى ، رغم أنه فلاح من شبراخيت – بحيرة.

●●●

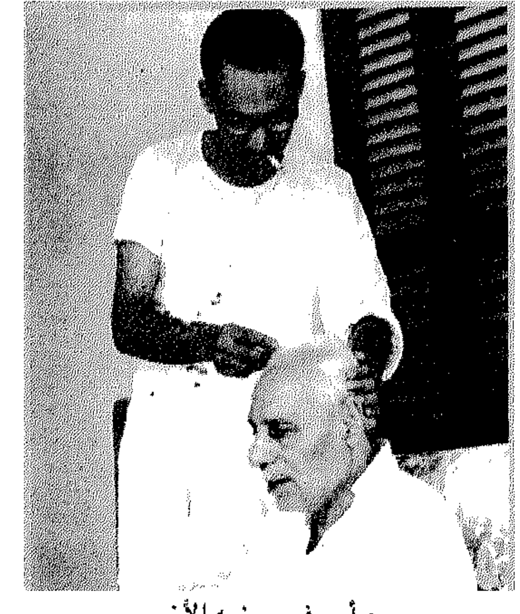
بدر .. شقيق وحبيب

شقيقي الأكبر هو الاستاذ بدر الديب . ومـــا أدراك من هـو بدر الديب . هو بالنسبة لى شقيق وحبيب ومعلم وقدوة وما شئت من صفات عاطفية وعقلية وأخلاقية كانت ومازالت كما بدأت حية، وحقيقية ومركبة إن شئت كأنها علاقة مع النفس .كما كان أبى ديمقراطيا فقد كان بدر هو نموذج «المفكر الحــر» «حلمـه الأوحـد وأسهامه الاكبر فى حياتنا الثقافية».

كنت اسيـر مـعـه، وحدنا ، وأنا فى مطلع الصـبى ، وخطر لى أن أسـاله عن معنى كلمة «أيديولوجية» التى كنت أقرأها كثيرا فى الكتب اليسارية، ولا أستطيع أن أمـسك بمعنى مـحـدد لها. كنت أريد أن أحـصل منه علي مـعنى مـحـدد، أو شـرح قامـوسى ، فقـد كنت ومازالت أعتقد أنه يعــرف كل شىء ، وأنه قـــرأ كل شىء . أحالنى بدر ونحن نسير معا نحو محطة القطار الى كتابين أو ثلاثة فى مكتـبتـه . أظن أننى لم أقـرأها حـتى الان ، ولكننى اسـتــوعـبت الدرس : أن أبحث أنا عن «تعريفى الخاص» أن افكر مستقـلا لكى أفـهـم . من بدر الديب تعلمت الكثــيـر ، تعلمت الشـعـر، وحـفظت مـعـه «نشـيـد الإنشاد الذى لسليمان» – و «الموعظة على الجبل» وقرأت معه بعض اشعار «إليوت» وجلست إلى جـواره وهو يكتب مـقـدمـتـه المهمة لديوان «الناس فى بلادى» لصـلاح عبدالصـبور . كـان عضـوا فى جـمـاعـة للكتـاب والفنانين يجـتـمـعون فى بيتنا، وهناك رأيتهم جميعا وأنا طفل: توفيق حنا ، مـحـمـود العـالم، يوسف الشـارونى ، مـصطفى سـويف، منير عـبدالحـمـيـد ، يوسف الحطاب ، وبهيج نصـار. وأقـربهم إلى قلبى كان عباس أحـمـد رحمـه الله ، صـاحب أجـمـل روايات الأدب المصـرى الحديث .. رواية البلد.

وضـــعـنى بدر على الطريق ، وعلمنى متعة الكتابة ، ومحبة الفلسفة .

●●●



مع أبى فى مرضه الأخير

ليس جــديدا أن أصف لك المدارس وكيف كانت ، ولكن مدارس المعادى بالذات كانت تحظى لاسباب طبقية برعاية فائقة في الدرس والهوايات . وقد جعلتنى البلاغة التى تعلمتها فى البيت «الخطيب الأول» فى المناسـبات المدرسـيـة . ألقى الشـعـر ، بل وتطور الأمر إلى التمثيل فكنت أقوم بالدور الرئيسى بالفصحى والعامية.. وتخصصت فى أدوار الريحـانى «أمـشـيـر أفندى فى الفصل الأول من ٣٠ يوم فى السجن» كما تميـزت المدرسـة بتلك الإمكانيـات كـانت تعيش فى جـو عـات من الصـراع الطبقى بين أولاد البلد وأولادً السـرايات مع مـا يسـتـتـبـعـه هذا من اتهـامـات «بالمياعـة» والشـذوذ من ناحـيـة ، وبالفـحـولة والرجـولة من ناحية أخرى ومفاهيم مختلطة متبيانة عن الجنس والنساء .

التكوين

انتهت مواهبى فى فن التمثيل عندما انتقلت إلى مدرسة الإبراهيمية الثانوية . وانتهت فترة الزعامة والتميز عندمادخلت إلى الزحام.

●●●

فى أولى سنواتى فى كلية الحقوق جامعة القاهرة ، ارتبطت بتنظيم سرى لم أستمر فيه طويلا فقد اعتبرت مثقفا يحب الجدل والكلام كما أن أملى أنا كان قد خاب فلم يتح لى التنظيم العمل مع عمال أو فلاحين بل كان الأمر يقتصر على لقاءات . ومنشورات مكررة. أهم ما فى هذه التجربة كان لقائى بالسيدة «سعاد» التى كانت مسئولة عن نشاط الحزب فى الكلية، كانت أول نموذج التقى به للمرأة الجديدة، المناضلة صاحبة الرأى ، والموقف. صنعت السيدة سعاد أو الرفيقة سعاد معنى خاصا للمرأة الحقيقية الجدعة فى حياتى حتى الان. لا أدرى كثيرا عن حياتها الخاصة ولا الخلفية التى جاءت منها، ولكنها لم تكن تحمل زيف المثقفات ،ولا ادعاء الزعيمات كانت مؤمنة بقضية ، تعيشها فى سلوكها وملبسها وطريقة تعاملها مع الناس . أين ذهبت الرفيقة سعاد وماذا فعلت بها التقلبات والأيام.

انتهت التجربة بسرعة ، ولم يتم اعتقالى والحمد لله.

بقى فى حياتى عطر سعاد الحقيقى، وكثير من معانى المعارضة ، والصلابة والشرف.

●●●

بعد ذلك بدأت الأسئلة ، تلد اسئلة . بدلا من حصولى على إجابات بدأت الأشياء التى أملك فيها يقينى تقل. وبدأت اشعر بمشاكل أخرى لانتمائى للطبقة المتوسطة. صارت قيم الطبقة تشكل عائقا فى التعبير وعائقا فى الاتصال.

يحصل الواحد منا - أبناء الطبقة المتوسطة - على اكثر من حقه . أنظر إلى العارقين الكادحين حولك. هل تعرف كم يقبضون فى آخر النهار؟ وكيف ينامون ..وكيف تنام أنت ! فكر فى المزايا المجانية الجسيمة التى تحصل عليها بجهد قليل أو بلا جهد على الاطلاق . شعور ساذج بالذنب مستمر ولكنه يكفى لكى يثير دائما نقاشا نظريا لم يحسم عن دور الطبقة المتوسطة فى بلادنا وماذا أخذت وماذا أعطت . وعن مصيرها الذى انتهت اليه ، وعن اختلافها عن «الطبقة المتوسطة ودورها مع الثورة الفرنسية. فى ضوء هذا الشعور بالذنب الساذج والمستمر: تفكر فى ذلك التقسيم القديم الذى شق البلد نصفين: التعليم المدنى، والتعليم الدينى تفكر فى العلاقة القديمة مع أوربا، والعلاقة الجديدة مع أمريكا ، تفكر فى مشكلة «الذوق المصرى العام» مم تكون وإلى ماذا يصير فى ظل الغزو المضطرب للقيم والأشكال والمعانى الجديدة . رغم كل ما حل بالطبقة المتوسطة من مآس فهى الوحيدة التى تملك القدرة على التواصل وعلى التعبير . لكنها هى نفسها مضطربة متناقضة تعطى إشارات متباينة لاتزيد حياة الناس إلا ارتباكا.

على من يبحث عن هوية لمصر . أو عن فن لمصر أن يبحث عنه خارج نطاق الطبقة المتوسطة بكل الأشكال التى أخذتها سابقا وحتى الآن.

●●●

تستدعى كلمة التكوين فى ذهنى اماكن .. اولها البيت .. البيت معنى نفتقده كثيرا فى حياتنا الان، كما التبس علينا معنى الوطن.

المكان الثانى هو مكتبة جامعة القاهرة. لا أدرى ماذا جرى للمكان الآن. ولكنه كان مهيبا ، هادئا ، خشبى الجدران نظيفا وهناك قرأت اغلب ما أعرف ، من الصباح حتى الغروب الذى ينزل على حدائق الجامعة «والأورمان» حيث الأشجار العريقة والنخيل السلطانى إلى جوارها يقع بوفيه كلية الاداب «٥٧-٦٠» حيث كان يلتقى كل ما فى البلد من أفكار وتيارات سياسية وثقافية وفنية.

المكان الأخر الفريد فى ذلك الوقت كان «شقة الدقى» شقة غالب هلسا ، الصديق والمعلم الاردنى . شقة غالب هى الأخرى مكان فريد دائم الحضور فى ذهنى. شقة صغيرة بسيطة ، تقع فى دور مسحور فى عمارة تطل على ميدان الدقى، وغالب صديق وأستاذ ، وهو فى نظرى حتى الآن واحد من أهم اصحاب التجارب فى الكتابة الروائية قيمة بعد نجيب محفوظ . تدارست معه كتابه القصة القصيرة، وأقول تدارست لأن واحدة من أهم خصائصه أنه كان يسمع ويسال ويعلم عن نفس الطريق . هو كان يكتب باستمرار وهو يعيش وهو يأكل وهو يتكلم كاتب لايشغله شيء آخر.

كنا نلتقى كل يوم . أما كل أسبوع فكان يحدث اجتماع لمجموعة من الأصدقاء الكتاب. تكون لى فى هذا الاجتماع مايمكن أن اسميه «الضمير الأدبى والاجتماعى» كانوا مع حفظ المكانة والألقاب: إبراهيم منصور ، محيى الدين محمد ، سليمان فياض، بهاء طاهر ، عبدالمحسن بدر، أبو المعاطى ابو النجا، رجاء النقاش، محمد البساطى، فاروق شوشة. من كل منهم تعلمت ، ومعهم جميعا تكون الذوق والضمير الادبى .مع إبراهيم منصور خاصة تعلمت الترجمة واشتغلنا لشهور فى ترجمة نص بديع لهيمنجواى هو قصة «التلال كفيلة بيضاء» تعلمت من يومها أن الترجمة رغم الدقة والأمانة ..إبداع جديد.

●●●

محظوظ أنا جدا . لم تؤهلنى درجات ليسانس الحقوق لأن التحق بسلك النيابة «الفارق كما يقال دائما نصف درجة» لكننى دخلت إلى بلاط صاحبة الجلالة. دخلت إلى مجلة صباح الخير ، عندما كان يرأس تحريرها ساحر الشطرنج والرواية فتحى غانم «صديق شقيقى بدر الديب» كنت قد كتبت قصة أو قصتين لم يقرأهما أحد سوى صديقى فاروق الشريف ، ولكن الكاتب الكبير عاملنى كأننى شخص مهم . كتبت بابا صغيرا متناثرا فى صفحات المجلة تحت عنوان «جديد» أقدم فيه كتبا وتجارب فنية آخذها من المجلات الأجنبية .وكتبت جرائم من الصعيد فى صورة شعر وقصص قصيرة، ورسم لى الفنان جمال كامل موضوعا عن قطار الصعيد ، وموضوعا عن الألغام فى الصحراء الغربية «رسمه الفنان آدم حنين» . دخلت إلى عالم مخصوص من الصحافة يقدر الفن ، ويفهم الأدب كانت الصحافة المصرية بعد التأميم تصارع لكى تبقى بعض تقاليد المهنة وسط تيارات الانتهازية والسطحية وما هو أنكى .. ولأننى محظوظ ، ومختلف الطموح فقد وجدت مكانا منعزلا اكتب فيه تحت عنوان «عصير الكتب» أقترح كتبا للقراءة واعلق عليها بكلمة أوكلمتين. ومع ذلك فقد طردتنى الحكومة من العمل فى بلاط صاحبة الجلالة مرتين بلا اتهام ولا

إدانة ولا حقوق أو تعويض .كانت هزيمة يونيو قد علمتني بشكل واضح الفرق بين الأنظمة والأوطان وجاءت تجارب الطرد والإعادة ، بلا سبب وبلا اعتذار لكي تعلمني أن المؤسسات عندنا تفقد معناها وتقاليدها ولايبقى منها إلا الاسم والشكل الخارجي.

حاولت في هذه الأثناء أن أبحث عن عمل في بلاد الخليج . وحصلت على عقد متواضع جدا، وعلى تأشيرة دخول مكتوب عليها .. صالح للعمل في كل الأجواء.وبعد شهرين بالتمام والكمال وجدت على مكتبي خطاب استغناء عن خدماتي لمصلحة العمل والمصلحة العامة. وعدت من مغامرتي الخليجية مدينا «عرفت فيما بعد أن زميلا صحفيا قال لصاحب المال أنني من الشيوعين الخطرين على الأمن»

وبذلك فشلت أولى وآخر محاولاتي لتحقيق بعض الاستقلال المادى أو تكوين «خميرة» مالية في أى بنك تعفيني من الرحلة الأزلية الأبدية بين أول الشهر وأخره . شيئا فشيئا تسرب إلى داخلي يقين بأننا نعمل عند الحكومة، ولاداعي لادعاءات المثقفين وحرية الأفكار.

حاولت أن أعبر عن هذه التجربة ومأحاط بها في كتاب مر أسميته «وقفة قبل المنحدر» . ولكن بقيت تجربة الأيام الستين رحلتي في الغربة كابوسا إنسانيا وفنيا ، ليس لأنها شيء في ذاته ولكن لأنها فتحت لي مغاليق الظاهرة الرهيبة التي يعيشها ملايين المصريين الباحثين عن الرزق والمال،متنقلين في انحاء العالم العربي بين المدن والبوادي ، متحملين أنواعا غريبة من المعاملة والتعامل مما يصنع ملاحم في العذاب والتصادم والكذب . وجميعنا يبقى كلمة العرب والعروبة كيانا آخر يفقد معناه ، ويزداد مستقبله غموضا وارتباكا . نكذب ولانرى ماذا صارت تعني .نكذب ولانتحدث بصراحة، نكذب ونقول إن كل شيء على مايرام.

●●●

لا أدرى لماذا تظل الكتابة رغم كل هذا الوقت ، صعبة ، وحالة نادرة؟ كنت أقول لنفسي إنها تحتاج إلى طهارة ووضوء، وأحيانا أقول إنها في حاجة إلى وقاحة وقسوة . اليقين الوحيد الذي يتأكد يوما بعد يوما: أن الكتابة .. الكتابة أمر بطبيعته نادر الحدوث . الحبر المسكوب والكلام المرسل ليس كتابة. الكتابة إضافة وخلق شيء جديد ..الشيء الذي أقوله فيما يشبه اليقين أنك تستطيع عن طريق «الكتابة – الفن» ان تمسك بأشياء وأفكار أجمل واكثر خيرا وقيمة من الأشياء التي يمكن أن تصل إليها عن طريق العلم أو الفلسفة . في الفن الذي يتحقق عن طريق الكتابة.. حقيقة اكبر وفيه اتصال .

اخترت شكل الرواية القصيرة لكي أحاول الكتابة فيه.

أحب أن أقف عند كلمة «شكل» فهي من الكلمات التي فقدت بالنسبة لي معناها. كان من قبل مهماً جدا . وكان يمكن التفكير فيه بشكل مستقل. أو البحث عنه، وتعمد القصد إليه.

فقد الآن معناه ، وتجردت الكتابة . فعل، وحاله ، ولون ونغم . لذلك أقول «الكتابة ..الكتابة» . فى كتاب صغير للكاتب «التشيكى الفرنسى العالمى» كونديرا : اسمه فن الرواية دراسة قريبة إلى قلبى وعقلى عن تاريخ الشكل الروائى، ومعنى الجنس الروائي . وفى قدرة الكاتب الأمريكى هنرى ميلر، الذى يوغل فى وصف الجنس ويستعمل الالفاظ الصريحة لاعضاء الجنس بلاغة عالية وقدرة على تخليص الكتابة من ملايين المخاوف والمحاذير ، وتحليق بها فى عالم أكمل واقعية من الواقع الظاهر . وفى كتابة عبقرى السينما السويدى أنجمار برجمان للروايات وسيناريوهات افلامه التى تعتبر اعمالا أدبية قدرة الاقتصاد والدقة تبلغ حد الإعجاز.

نعم الكتابة .. الكتابة صعبة ونادرة . لو سألتنى ماذا تريد من الكتابة الآن لقلت لك: أريد أن أمسك بلون السماء الزرقاء، أن أنقل تقلب السحاب الأبيض فيها. سابحا فى الزرقة والامتداد أن اكتب ظل أوراق الشجر على الجدران يرسمها ضوء قمر. أقول : أما قرأت سورة الرحمن!

●●●

اذا كنت تعرف ان الفلسفة ثلاثة علوم : علم الوجود، وعلم المعرفة وعلم الأخلاق فلابد أنك تعرف أن فلسفة الوجود أدخل إلى الدين ، وأن فلسفة المعرفة صارت إلى العلم ، وتبقى لنا علم الأخلاق : مميزا محيرا ومتغيرا . ملغزا مثل الانسان . كأنه الهواء موجود فى أدق تصرف وأصغر اشارة . ومن أصيب مثلى بداء المراقبة ومحاسبة النفس فإنه يجد نفسه غارقا صباح مساء فيه وفى مشاكله . اذا

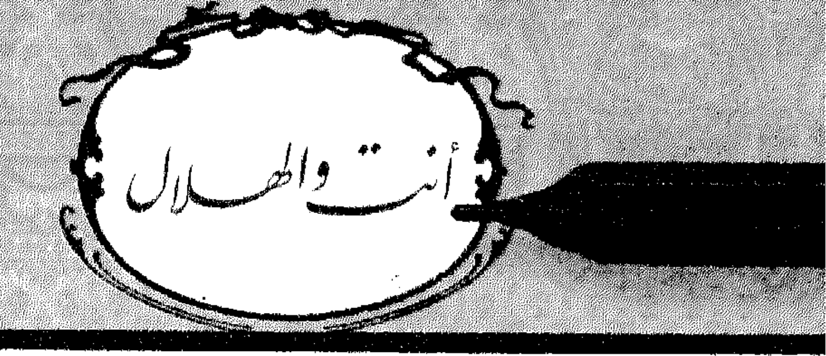


بيت قديم عائلة جديدة

كانت الأيديولوجيات قد سقطت جميعا. وسيطرت البرجماتية «الفلسفة النفعية الوحيدة المعتمدة فى أمريكا» على العالم كله، وصنعت لها من الارهاب والتطرف عدوا تحاربه . فهل سقطت ايضا كل المعانى المطلقة . هل سقط العدل والخير والحق والجمال؟

فى رحاب فلسفة الأخلاق، تاريخها وتطورها، أجد السلوى والملاذ.

وأخيرا .. اذا كان المستقبل يدخل تحت باب التكوين فاسمح لى أن أقول إن كل ما أريده فى النهاية أن اكون رجلا صالحا بجد ، وأن أشن حربى الخاصة التى لا هوادة فيها ضد : الكذب والنفاق أبشع خصائص الطبقة المتوسطة. ■



ملاحظة تاريخية

طالعت فى عدد ديسمبر ٢٠٠١ من مجلة الهلال القصيدة التى نشرها الشاعر اللبنانى الأستاذ سليم الرافعى تحت عنوان «عظيم ثقيف» ويعني به سيف الله المسلول خالد بن الوليد ، وكلنا نعلم أن خالدا من مكة وهو من بني مخزوم ووالده الوليد بن المغيرة الذى كان يعرف بسيد قريش ، أما عظيم ثقيف فهو عروة بن مسعود الثقفى . وقد نزل قول الله عز وجل فى سورة الزخرف (وقالوا لولا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم) فقال المفسرون إن القريتين هما الطائف ومكة والرجلين هما الوليد بن المغيرة عظيم قريش وعروة بن مسعود الثقفى عظيم) ثقيف التى تسكن الطائف . وقد روى بعض المؤرخين أن خالدا هو الذى هدم الأصنام الخاصة بثقيف ، وهذا لايجعله يحمل وصف «عظيم ثقيف» إذ لا صلة نسبية بينه وبين ثقيف ، ولقب سيف الله المسلول يغنى عن أكبر وصف . وأذكر بهذه المناسبة قول شاعر النيل حافظ إبراهيم فى خالد حين عزله عمر بن الخطاب عن القيادة ولم تحرك بنو مخزوم ساكنا :

يقول :

فأعجب لسيد مخزوم وفارسها
يوم النزال إذا نادى مناديها
يقوده حبشى فى عمامته
ولا تحرك مخزوم عواليها

وللشاعر اللبنانى الكبير أصدق تحياتى .

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين - دقهلية



الحجر

ألق حجر الغضبة ألق	إن الله معك سيلقى
إن رياح الجنة هبت	صوب نارك نحو الشرك
لا تتأخر بل وتقدم	إن الكفر منك سيبكى
كل العالم يعرف أنك	بطل صلب صاحب حق
أجعل أرض القدس قبوراً	للمحتل الغاصب أرضك
إن القدس لأجمل تاج	راح يزين وجه الشرق

أحمد نادى بهلول - أسيوط



الإشادة بالتطوير

وعدت نفسي أن أقتني عدد الهلال الجديد ، لأتابع جهودكم على هذا الصعيد .وكنت قد انقطعت فترة عنه بسبب ظروف طرأت . وهكذا أقبلت على قراءة عدد شهر ديسمبر ٢٠٠١ ونحن في رحاب الشهر الكريم .

أود أن أهنيء أسرة تحرير المجلة ورئيس تحريرها على هذا العدد . لقد قرأته من الغلاف إلى الغلاف ، وتأملت إخراجه الفني ، فوجدت «صحبة» تغذى العقل وتمتع العين . وقف أمام كل موضوع فيه ، وأمام الموضوعات مجتمعة ، فسرني إتقان «التوليفة» من جهة ، وما خرجت به من كل موضوع . وتجمع لدى عدد من الأمور تستحق أن يدار حوار حولها . وهذه إحدى وظائف المجلة الثقافية .

أعرب عن تقديرى وأبعث تحياتي وقد ودعنا الشهر الكريم واحتفلنا بعيد الفطر فى ظل ظروف صعبة تحيط بالأمة . وأتطلع إلى فرصة لقاء فى رحاب المجلة بإذن الله .

حفظكم الله والسلام وكل عام وأنتم بخير .

د. أحمد صدقى الدجانى - القاهرة

عروبتنا تنادينا

عــــروبتنا تنادينا هلمــــوا ... إلى التوحيد فى جمع فضموا
هنا الجـولان فى حـزن عـميق ... تعـانى القـد كم ينهـال هم
تناديكم ألم تقضـوا عـهـودا ... كساها الخيـر عزا فيه عزم
وذى لبنان فى وجع مـــرير ... ترى ينتـابهـا هلع وهدم
بها الزيتون قد أمسى صريعا ... وروض يـصـطلى نارا ، ويم
وأطفـال العـراق تذوق موتا ... فحولهمو نرى الأعداء عموا
وذى بغـداد كم ترنو لمجـد ... يعـيد بهاءها مافيـه لوم
وفى حـقـد جـمـاهيرية كم ... تلاقى من جحـود فيـه لؤم
فـيـهـا فى طريق الحق نسعى ... فلا يأتى لنا خسف وشؤم
نضم صفوفنا نختال جمعا ... نعيد لنا حمى الأقصى فنسموا
فتلقانا عـروبتنا بفـرح ... وتزدهر الأقاحى ذى وتنمو

زكريا عبدالمحسن - أسيوط

أين كشاف مجلة الهلال ؟

ذهبت إلى قاعة الدوريات بدار الكتب المصرية ، للبحث عن بعض المقالات التى نشرت فى أعداد مجلة الهلال فى الأربعينيات من القرن العشرين ، ولكنى لم أجد كشافا يسهل على مهمتى .

وعندما استفسرت عن ذلك أفادنى الموظف المختص بوجود كشاف أصدرته دار الهلال فى مجلدين يغطى الفترة من صدور الهلال في سبتمبر ١٨٩٢ حتى سنة ١٩٣٦ ، فتمنيت أن يصدر كشاف يغطى الفترة التالية لسنة ١٩٣٦ حتى اليوم ، خاصة أن دار الكتب قد أصدرت كشافا فى عدة مجلدات عن مجلة الرسالة، يغطى كل فترة صدورها (١٩٣٣ - ١٩٥٢) فإذا علمنا عراقة مجلة الهلال وتاريخها الطويل فى خدمة الفكر والثقافة العربية على مدى أكثر من قرن من الزمان ،أدركنا مدى أهمية مثل هذا الكشاف .

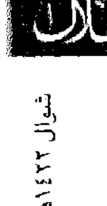
حسام عثمان جودة
القاهرة - مدينة نصر

الهلال : لقد جاءت رسالتك فى أوانها، حيث تقوم دار الكتب حاليا بطباعة مجلدين من كشاف الهلال ويصل عدد صفحات كل مجلد ٦٠٠ صفحة ، يغطى الفترة من سنة ١٩٣٦ وحتى سنة ١٩٥٤ وسيصدران قريبا ونأمل أن تتلوه الفترة المتبقية من أعداد الهلال ، وهو جهد عظيم لدار الكتب والوثائق القومية فى خدمة الثقافة والأدب بشكل عام .

ماذا تبقي..؟

تبت يداهم ..
أحرقوا أغصان زيتوني ،
وورد حدائقى ،
لكن أرضى لن تبور
حتماً ستنبت ...
فى المدى من دمعها
بستان نور !!

يا حفنة الأوغاد
لا تتجبروا .. وتذكروا
أن احتمالى مثل بركان صبور
فالبحر يغلى ، والمرايا
لم تعد فيها الصبايا
ترتدى ثوب الحبور !!
والملح يكسو معطفى



والجرح يسكن ..
فى ثنايا أحرفى
وتمزقت فى عمق ..
شريانى الجذور
ماذا تبقى ...

فى كئوس مرارتى
كيما أثور ؟!

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا - دقهلية

كتاب مهم مطلوب ترجمته

رونالد ستورز الضابط السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية فى القاهرة كتب مذكرات «بعنوان شرقيات» فى مطلع القرن العشرين ، حول علاقات السفارة البريطانية فى القاهرة بعدد من الساسة المصريين .. فلماذا لا يترجم هذا الكتاب ، لنتعرف على فترة مهمة فى حياة مصر؟!

محمود الصياد -آداب القاهرة - قسم التاريخ

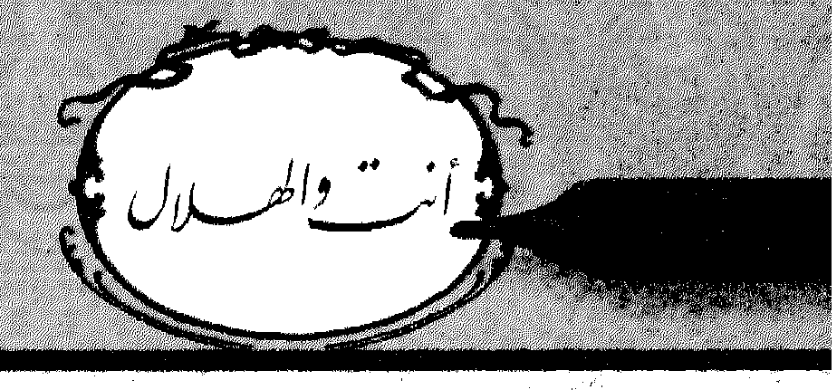
الهلال : نضع هذه الرسالة تحت نظر الدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة ، ونثنى على ما يطلبه القارىء العزيز ... ودار الهلال مستعدة للاشتراك مع المجلس الأعلى للثقافة بترجمته ، وذلك لقيمته التاريخية ، والتى تكشف علاقة السفارة البريطانية فى ذلك الوقت بعدد من السياسيين المصريين.

حزن السماء!

الجفون التى كانت تحوى
الدموع الخرساء
الآن تدمع .. تنزف
من شدة البكاء
الأحجار
التى كان الصمت يسكنها
استيقظت لتؤدى دورها
نهضت
أطلقت أقوى ما عند صوتها
من نداء
الأمطار ذات الرخات الرقيقة

التى دائماً ما تزغرد
حزن السماء
جعلها تسقط قطرات
مشتعلة
حتى الأغصان التى كانت خجولة
تملكها العنف
أصبح القهر رفيقاً لها
يا آل إسرائيل

رمضان إبراهيم بشير
قنا - أبوдياب شرق



تحية للكتاب الذين نحبهم

أقرأ «الهلال» بإنتظام ، وأحرص على متابعة كتابها المتميزين الذين يتناولون قضايا ثقافية تنعش ذاكرتنا ، وتعود بنا فى أحيان كثيرة إلى الوراء لكى نعرف تاريخنا ، ونتوقف عند محطات مهمة فى حياتنا .

كاتب مثل الدكتور مصطفى سويف تمتعنى آراؤه ، خاصة مقاله فى شهر ديسمبر الماضى ، أيضا ما يكتبه لنا الدكتور محمد رجب البيومى بلغته التى تمتلىء بالجزالة ، وسخريته من أشياء كثيرة لايرضى عنها ونحن معه أيضا ، فضلا عن الكنوز التى ينقب عنها الأستاذ وديع فلسطين ، ونتعرف من خلالها على كتاب أفذاذ يأتى بهم من الماضى ليصبحوا أمامنا شخصيات حية نتعرف على دورها فى الحركة الأدبية وفى الثقافة المصرية .

كل ما أتمناه أن يظل هؤلاء الكتاب وغيرهم يواصلون دورهم فى الهلال وإمتاعنا بكل مايقدمونه من بحوث ودراسات جادة .

كما نتساءل .. لماذا لايكتب الأستاذ طارق البشرى بانتظام وكذلك الدكتور أحمد أبوزيد ؟

مع كل الأمنيات للهلال بمزيد الازدهار فى مناسبة مرور عام على تطويرها ، والذى به أصبحت مكتملة سواء فى الإخراج والطباعة والتحرير .

محمود إبراهيم حسن

الهلال : نشكر القارىء العزيز ونعده بأن تواصل الهلال مسيرتها التى ينشدها خدمة للثقافة العربية .

قصص قصيرة جداً





١) القرار ..

شتم الطالب المدرس .. ثار المدرس .. ضرب الطالب .. ثار الطالب .. جذب المدرس من كرافتته .. ثار المدير .. أمر جميع المدرسين بعدم ارتداء الكرافتات بعد اليوم .

٢) البطل :

تحدتنى التى كانت حبيبتى وتحدانى الذى كان صاحبى ، وتحدتنى التى كانت عائلتى .. عندما رأونى أبتسم ، قالوا لى «لن تستطيع أن تدوس على كل الأحزان» .. فضحكت ساخراً من جهلهم .. أتيت بورقة بيضاء .. كتبت عليها (كل الأحزان) .. وألقيتها على الأرض .. ثم دست عليها بكل قوة .. وأنا أنظر إليهم هازئاً .

٣) مصادفة :

لم أزل أفتش عنى .. وأسألنى فى إلحاح .. أين أجدنى .. حتى لقيتنى بالمصادفة ..

واقفاً قرب منزلى .. مختبئاً منى .. زاهداً فى الحديث معى رافضاً حتى النظر إليّ .. حاولت إقناعى .. أو تليين رأسى .. ولكنى فشلت .. فتركتنى منفعلاً .. ساخطاً علىّ .. وأنا أنوى ألا أفعلها ثانية أبداً .

حسام مصطفى إبراهيم
نادى أدب شربين

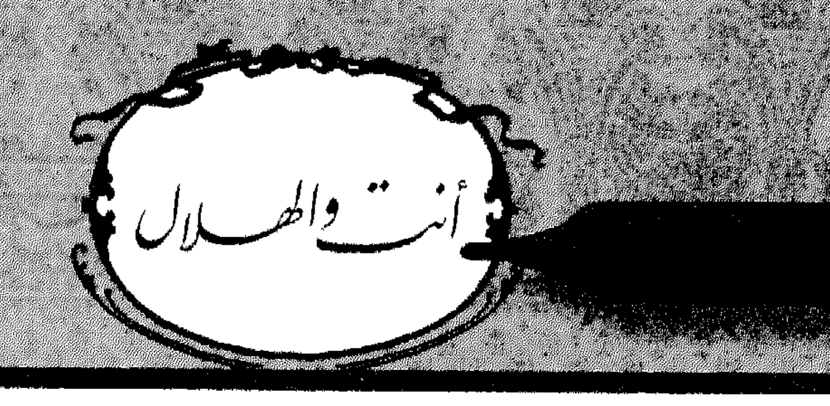
من أنا؟!

هاربان أنا وخيالى
نفر أمام الحقيقة
كلما ابتسمت للجروح الحياة
هدمت
كهوفى العتيقة
مر عام
وآخر ينأى بذاكرتى
يطمس الانفلات
يجتر أنسجتى
فى بلاد سحيقة
إيه .. ياكوكبى
حجرتى ، وفراشى
وبعض الهواجس ..
تشنق أوردتى
فأنا من أنا ؟!
وبلا جسد
لأموت بنفس الطريقة !!

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

مسلسل يثير جدلا في الشارع المصري!

لقد أثار المسلسل الذى عرضه التليفزيون فى شهر رمضان «عائلة الحاج متولى» جدلاً واسعاً فى الشارع المصرى لما يطرحه من قصة تاجر توسع فى تجارته فتعددت زوجاته بالتبعية ، وهنا أسجل إعجابى الشديد بمدى إتقان المبدع نور الشريف فى أداء هذا الدور - دور التاجر - وكان من حقه أن ينبرى مدافعاً عن المسلسل فى حوار معه بإحدى الإذاعات الأجنبية .



ولكن هذا المسلسل يطرح أيضاً العديد من الإشكاليات والتساؤلات حول العلاقة الشرعية بين الرجل والمرأة داخل المجتمع المصرى ، فهل يروج هذا المسلسل لفكرة تعدد الزوجات للرجل القادر مادياً ؟! وهل هذا النموذج من الرجال هو السائد والذى ينظر للمرأة كلعبة له ؟! ... وهل المسلسل بداية وإيذانا بالعودة إلى عصر الحريم وتكريس للمجتمع الذكورى ؟! وهل يعد المسلسل تحريضاً للرجال على تعدد الزوجات وفتح بيوت جديدة لمجرد أنهم قادرون مادياً ؟!... وهل الدعوة إلى تعدد الزوجات حل عملى يطرحه الكاتب مصطفى محرم مؤلف المسلسل لمشكلة ارتفاع معدلات العنوسة لدى الفتيات فى مجتمعنا ؟! .. أليس المسلسل استفزازاً لمشاعر الملايين من الشباب يعانون البطالة وهم غير قادرين على تكوين أسرة سعيدة فى إطار المشروعية الدينية والأخلاقية فيلجأون إلى الطريق الملتوية وكم عانى منها هذا المجتمع وبالتالى فإن شبابنا يكون محاصراً بين ضرورات الاقتصاد والدين ؟! فى نفس الوقت الذى لم يعرض فيه المسلسل لقضية جوهرية للمجتمع وإنما عرض لشريحة صغيرة من شرائح المجتمع لا يأبه بها ولا تضم سوى البعض الذين جعلوا المرأة ملهاة فى حياتهم لا لسبب إلا لأنهم أتخموا بالمال !

إن الدراما التليفزيونية هى وسيلة مهمة لصياغة العقل فى دول العالم الثالث ، واستغلالها بطريقة خاطئة ستؤدى إلى نتائج وخيمة العواقب .

علاء الدين عمرو حمودة

الهلال : وصلتنا عدة رسائل تتناول نفس القضية ، وفى رأينا أن هذا المسلسل لايستحق هذه الضجة وللأسف لم يقدم التليفزيون هذا العام عملا فكريا .. يستفيد منه الملايين سوى حديث الصباح والمساء وفى ظل المتعة الحسية ضاع وقتهم سدى ، وبدأنا نناقش قضايا بعيدة عما نواجهه من أحداث جسام وقضايا مصيرية !

وداعا حلمى مراد

رحل عن الحياة فى صمت (ديسمبر ٢٠٠١) الأديب المترجم حلمى مراد صاحب سلسلة «كتابى» التى صدرت فى الخمسينات من القرن العشرين لتقديم روائع الأدب العربى والغربى ، وكانت مدرسة أدبية مميزة تتلمذ عليها العديد من الأدباء ورجال



الفكر ، وكانت ميزتها أنها بسطت روائع الأدب العالمى بصورة محببة وعميقة .

وقد جمع الأديب الراحل بعض ماضمه سلسلة «كتابى» فى عدة كتب أصدرها قبل عدة سنوات تحت عنوان من كنوز التراث منها :

رسالة الغفران - الأمير - العقد الاجتماعى - سالومى - جيوكندا - مدرسة الأرامل - ملكات ونساء - أوديب الملك - مذكرات كازانوفا - ليدى هاملتون - دكتور فاوست ، كما أصدر مجموعة قصصية تحت عنوان «عندما تخون المرأة» .

عبد الله رضوان - الزيتون

رد وسريعة

● عصام الزهيرى (الفيوم) : كتاباتك تبشر بأديب قصاص ، ومطلوب منك مواصلة الإطلاع والكتابة .

● صلاح جميل سعد : غزة - الزيتون : وصلتنا مجموعة من قصصك القصيرة جدا تحت عنوان «صرخة الحياة» قصة معاق - وجوه وميتافيزيقا - عودة - مشاهد من طفولتى ، ولكها تؤكد إصرارك على طريق الأدب فضلا عن رسائلك العديدة لنا ، وإن كنا نرى أن تصقل موهبتك بالمزيد من القراءة والاطلاع ، خاصة الأدب القصصى حتى تكتمل موهبتك مع العناية باللغة .

● الصديق عادل شافعى الخطيب (القاهرة) - مسرحيتك القصيرة «هروب بن لادن» فكرة طريفة ومعالجة جيدة ولكن المجال لايتسع لنشر المسرحيات .

● مينا عبدالمسيح (القاهرة) شكرا على رسالتك الكريمة ، وهذا الباب غير مختص بما عرضته .

● حسن أبوالغيط : تصلنا العديد من قصائدك ومن بينها قصيدة بعنوان «طالبان» تقول فى بعض أبياتها :

على بؤر الدين جاءوا يدا
بكفر صحيح علا واعتلى
ولن يتركوا فى الدنا بؤرة
لإسلامنا دون أن تبتلى

فما معنى (بؤر الدين) ومع معنى (بؤرة لإسلامنا) ؟!!!

رجاء مراجعة المعانى جيدا وكذلك الوزن والقافية .

الكلمة الأخيرة



بقلم: حسين أحمد أمين

هي فعلا كلمتي الأخيرة. أقولها إذ أرقب أحوال العالم العربي اليوم، وإذ أعود بذاكرتي إلى حال الأمة في الشام عشية مقدم الحملة الصليبية الأولى إليه عام ١٠٩٧، وحال الشعب في العراق عشية اجتياح المغول له عام ١٢٥٨، وحال الناس في غرناطة عشية سقوطها على يد مسيحيي أسبانيا عام ١٤٩٢.

بم كان انشغالهم؟ ببيان أغراض العدو ومخططاته واقتراح الوسائل الكفيلة بالتصدي لها؟ بشرح الأسباب التي أدت بالأمة إلى مثل ذلك الحال من الضعف؟ بالدعوة الى تناسي الخلافات وتوحيد الصفوف من أجل مجابهة الخطر؟

لا بهذا ولا بذاك.. بل إننا لنجد أكبر مفكر إسلامي عام دعوة البابا اربان الثاني إلى شن حرب صليبية ضد المسلمين لاستخلاص الأراضي المقدسة، وهو الإمام الغزالي، منصرفا إلى تأليف كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي لايمكن لقارئه أن يخمن من خلال قراءته مجريات الأمور العظيمة التي كانت تحدث وقتها في عالمه الإسلامي.

كان الانشغال الأول، كما هو الحال اليوم، بتكفير المسلمين بعضهم لبعض، بتخوين أبناء الأمة بعضهم لبعض، باتهام بعضنا بعضا بخدمة أغراض العدو الزاحف إن قصدا وعمدا، وإن سهوا وعن غير عمد.. أنت العميل الذي تقاضى سلفا، أو يتوقع أن يتقاضى لاحقا، أجر خيانته.. أنت الجاهل الساذج الذي يفت في عضد الأمة بالحديث عن آفاتها.. أنت المثالي الحالم الذي لايدرك واقع الأحوال ومقتضياتها.. بل أنت الخرع المتخاذل الذي يدعي موضوعية النظرة، ويبرر موقفه بالتشدق بحتمية التاريخ.

وهذا بالضبط ما تتجلى فيه عبقرية المسلمين والكفاءة الفذة عند العرب: تقطيع بعضنا لأوصال بعض.. وهو رد الفعل المتكرر دوما كلما داهمنا خطر يهدد كياننا.. والعدو إزاء هذا كله آمن.. يتفرج ويبتسم .. ويخطط.. وينفذ في هدوء مخططاته.. كفاءة عالية بيديها الجانبان: هذا في سبيل وذاك في سبيل.

سقوط بيت المقدس.. سقوط بغداد.. ضياع الأندلس.. واليوم ننتظر سقوط العالم الإسلامي بأسره في قبضة الأمريكيين والإسرائيليين والتحالف الأوروبي.. غير أننا نتأمل الوجوه حولنا، وجوه قومنا نحن، فلا نرى فيها أثرا لقلق أو غمة. كل فرد قد أعد للأمر عدته، ولخلاصه وحده منفذا، شأن المماليك الذين خرجوا للقاء جيش بونابرت في إمبابة، وقد أتى كل واحد منهم على صهوة جواده بجواهره وثمين مقتنياته، استعدادا للفرار بها إلى مكان آمن متى دارت الدائرة عليه في المعركة.

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة الجذابة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه



روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

الهلال

فبراير ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

كامب ديفيد: اليوم الأخير

الجنس على الإنترنت

مستقبل الثقافة العربية

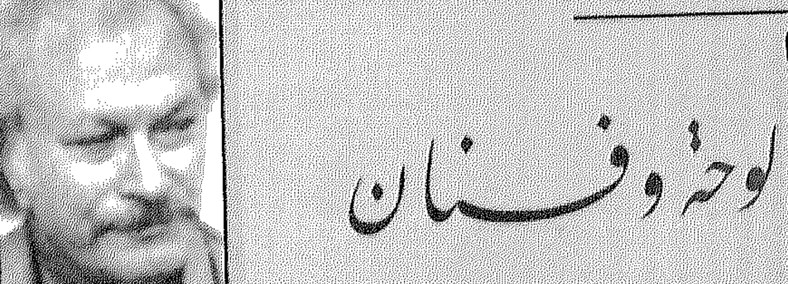
جزء خاص

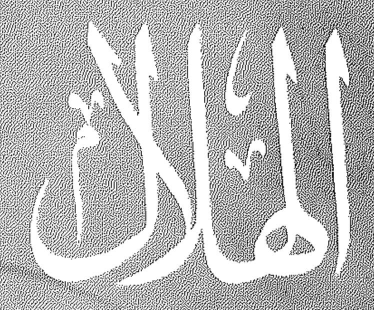




لوحة: نعي حافظ ابرهيم لمصطفى كامل

للفنان: حامد ندا





مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ١١ - العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



الغلاف للفنان
محمد ابو طالب
رسم الفنان
محمد حجى

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية– البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

معرض الكتاب.. إلى أين؟!

بدأت دورة جديدة من معرض القاهرة الدولي للكتاب في السابع عشر من يناير الماضي والذي نعتبره أهم تظاهرة ثقافية عربية تمتزج فيها اهتمامات النخبة مع نبض الشارع المصري.

قبيل المعرض بأيام يبدأ المثقفون سؤالهم التقليدي عن موعده، ويمنون النفس بلقاء مع الجديد من الكتب، ومع أصدقاء عرب وأجانب يحرصون على حضور هذه المناسبة في كل عام.

كانت هذه الدورة هي الرابعة والثلاثون وعدد الدول المشاركة ٩٣ دولة عربية وأجنبية ووصل عدد دور النشر المشتركة ثلاثة آلاف دار نشر وعناوين الكتب إلى أربعة ملايين عنوان.

المحور الأساسي لمعرض هذا العام كان صراع أم حوار حضارات ودعا الدكتور سمير سرحان كل من صمويل هنتجتون صاحب نظرية صراع الحضارات وفرانسيس فوكوياما صاحب مقولة نهاية التاريخ.

والجهد المبذول فيما نراه يبدو كبيرا ولكنه تقليدي ، ليس فيه أي جديد فالمحاضرات جاهزة والمحاضرون مستعدون ، هم تقريبا نفس الوجوه التي نراها كل عام لدرجة أن كثيرين من المثقفين بدأوا يزهدون حضور هذه الندوات والمشاركة في حوارات لا طائل من ورائها.. اللهم إلا مع عدد من مثقفينا الذين يعدون إعدادا جيدا لندواتهم لكن هل يعلم المسئولون عن معرض الكتاب والذي يعد من أهم المعارض بعد معارض فرانكفورت وبكين والصين هل يعلمون بأن ثورة للمعلومات قد حدثت في العالم، مع دخول الانترنت وثورة المعلومات ، بمعنى أن يصبح هناك نظام تعامل خاص مع الكتب عن طريق الكمبيوتر . فمثلا إذا طلب شخص ما رواية ما، فما على المسئول إلا إدخال اسم الرواية أو اسم المؤلف أو دار النشر لكي يعرف هل هذه الرواية موجودة أم لا، ويعرف كذلك أين يقع مكانها وعدد النسخ التي يمتلكها.

وإذا افترضنا أن هذا النظام موجود لدى بعض دور النشر الأجنبية فلماذا ويعد هذا التطور الهام لا يعمم في كل أجنحة المعرض، حفاظا على الجهد والوقت الذي يبذله رواد المعرض؟

ومن يتجول داخل المعرض يكتشف مدى الإهمال في سرايا العرض، ولدى عدد كبير من دور النشر المصرية التي تطبع كتبا مهمة ويحتاج إليها المثقفون فالوقت لا

يهم ومستوى العرض لا يليق بمعرض الكتاب الذى مرت عليه أربع وثلاثون سنة وتوفرت له كل الإمكانيات.

ونتساءل ما الجديد فى هذه الدورة؟

والجواب مجموعة من الأنشطة المعادة المكررة وأسماء شعراء وكتاب من الوطن العربى لا يأتون فى أحيان كثيرة وتمر الأمور مرور الكرام بلا كلمة اعتذار فنحن شعب عاطفى ننسى ولا نتوقف كثيرا عند أمور جوهرية تنزعج منها الشعوب التى تعرف النظام وتقدر المسئولية ، فقط سوف نعلن فى نهاية المعرض أن خمسة ملايين زائر أتوا للمعرض وأن كل شئ تمام!!

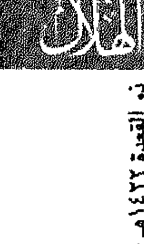
ودعونا نتوقف عند قضايا جوهرية من بينها تحديد موعد ثابت للمعرض كل عام وهذا ضرورى جدا ، أيضا مناقشة السلبيات التى تحدث وطرحها على الرأى العام ووضع الحلول المناسبة . فنحن نتعامل مع عدد كبير من دور النشر العربية والأجنبية ، هل وفرنا لها التسهيلات فى الجمارك وهل توفر عدد من المسئولين لديهم المرونة بحيث لا تتم مصادرة كتب لا ينبغى مصادرتها ، وهل عرفنا الأسباب الموضوعية لإحجام دور نشر مهمة لم تحضر هذه الدورة وربما ذللنا لها بعض الصعاب التى واجهتها من قبل وهل حركة البيع والشراء تتم كيفما اتفق، وليس هناك رقم دولى للإيداع؟!

لا شك أننا حريصون كل الحرص على نجاح المعرض، ولذا لابد من وضع ضوابط حتى فى الجوائز التى أصبحت تمنح فى كل عام لدور نشر معينة أو لرؤساء تحرير الصحف وهذا فى رأينا خروج عن دور معرض الكتاب . ولذا لابد من تحديد دقيق للجوائز التى تعطى للأدباء والمبدعين وتشكيل لجنة ثابتة من شخصيات ذات مصداقية لتقوم بتحديد الجوائز لمن يستحقها بدلا من العشوائية التى تسود ، فضلا عن ضرورة معرفة أكثر الكتب توزيعا واستطلاع حول نوعية الكتب التى تفضلها الأجيال المختلفة خاصة والمعرض يعد فرصة حقيقية لمعرفة الكثير من الأمور التى تهم حركة النشر.

ونتساءل لماذا لم يعلن أمام الرئيس مبارك عن فوز دار الهلال كأعرق دار صحفية فى مصر ، وكذلك فوز رواية «إمرأة ما» للأديبة هالة البدرى والتى صدرت عن روايات الهلال عام ٢٠٠١ ، كما أعلن عن فوز كتاب الهلال للمفكر الكبير د. مصطفى سويف «مسيرتى ومصر فى القرن العشرين» فى اليوم الأول لافتتاح المعرض ؟ وفى اليوم التالى ولدى توزيع الجوائز أعلن ذلك وزير الثقافة ، وهذا دليل نسوقه على ضرورة وضع ضوابط ومعايير محددة لإعطاء الجوائز !

مع كل أمنياتنا أن يكون معرض الكتاب واجهة حقيقية للثقافة فى مصر والوطن العربى وأن يكون الالتقاء بالثقافات الأخرى فيه الخير العميم على الإنسانية كلها.

المحـــــــرر



العثور على قارورة دواء
لا تزال على حالتها من
بقايا بسفينة قيادة
الأسطول الفرنسي



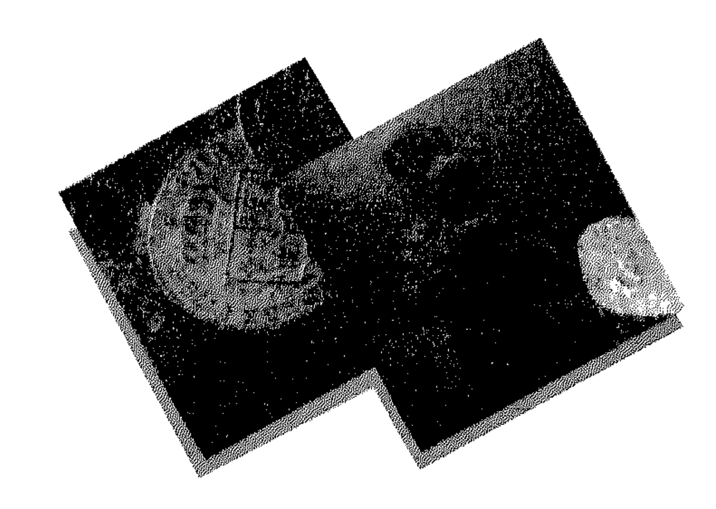
قصة المدن الغارقة تحت مياه خليج ابو قير

بقلم
د. رشدى سعيد

أثار إعلان البعثة الفرنسية العاملة فى انتشال آثار ما تحت البحر فى منطقة الإسكندرية عن اكتشاف مدينتى كانوب الشرقية وهيراكليون القديمتين تحت مياه خليج أبوقير فى صيف سنة ٢٠٠٠ الكثير من الاهتمام وتصدر نبأ اكتشافهما الأخبار فى الصحف والإذاعات العالمية .. وكانت هاتان المدينتان، ولأكثر من ثلاثة قرون ونصف وحتى بناء مدينة الإسكندرية فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد، من أهم بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط التى ذاع صيتها بسبب حياتهما الغنية والصاخبة .. وكانت المدينتان إغريقيتين بالكامل تم تأسيسهما فى مبدأ ظهور الإغريق على مسرح السياسة المصرية فى عصر الأسرة الفرعونية السادسة والعشرين (٦٧٢ - ٥٢٥ قبل الميلاد) والتى بنى ملوكها جيشا من مرتزقة الإغريق الذين استجلبوهم فى أعداد كبيرة وأقاموا لهم المدن والمستوطنات الخاصة بهم.

وأعاد هذا الاكتشاف المدينتين إلى مركز الاهتمام بعد اختفاء دام لأكثر من ١٢٥٠ سنة وهما اللتان كانتا ملء السمع والبصر، فقد طبقت شهرتهما الآفاق وكتب الكثير عن مبانيهما وتفاصيل حياة أهلهما فى العديد من أدبيات العصور القديمة. وزار هيرودوت المؤرخ المشهور مدينة هيراكليون حوالى سنة ٤٥٠ قبل الميلاد وكتب عن معبدها الضخم المهدى إلى هرقل وعن آثارها الأخرى والتى ضمت معابد لإيزيس وأوزوريس . وفى الأساطير والتراجيديات الاغريقية ذكر لهذه المدينة التى قيل إنها أسست تمجيدا لهرقل ابن كبير الآلهة زوس الذى أوقف أحد فيضانات النيل العالية وأعاده إلى مجراه. أما مدينة كانوب الشرقية فقد تأسست، حسب ماجاء فى هذه الأساطير، بأمر من مينيلاوس ملك إسبرطة الذي كان يزور المدينة مع زوجته هيلينا خلال عودته منتصرا من طروادة تخليدا لذكرى كانوب مدير شئونه الذى كان يصاحبه، ومات خلال الزيارة بلدغة أفعى. وجاء ذكر المدينتين فى الأدبيات المسيحية القديمة فقد كانت المدينتان قائمتين وعامرتين بالكنائس بعد انتشار الديانة المسيحية فى مصر، ووصف سوفرونيوس الدمشقى بطريرك القدس كنائس كانوب الشرقية التى كانت قائمة بجوار البحر فى القرن السابع الميلادى وقت كتابته لرسالته. وقد وجدت البعثة الفرنسية الكثير من هذه الآثار التى ورد ذكرها فى هذه الأدبيات القديمة غارقة تحت البحر.

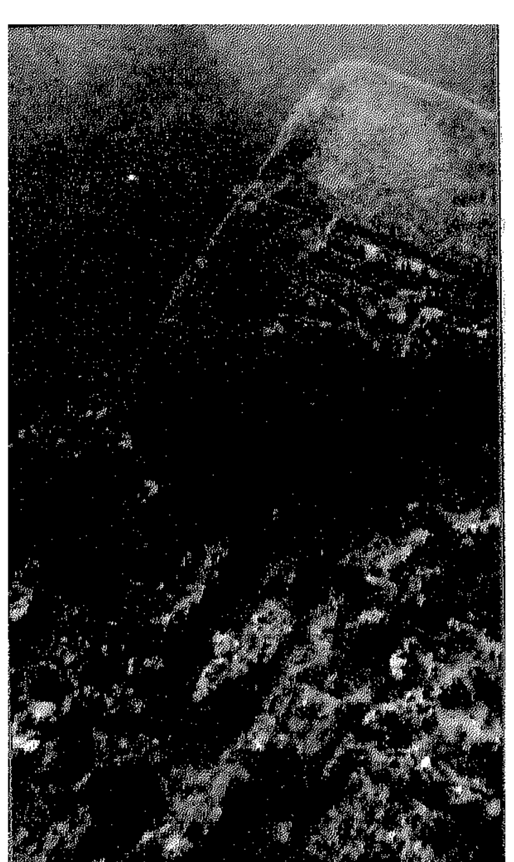
وكان وجود آثار مدن قديمة تحت سطح البحر المحيط بمدينة الإسكندرية

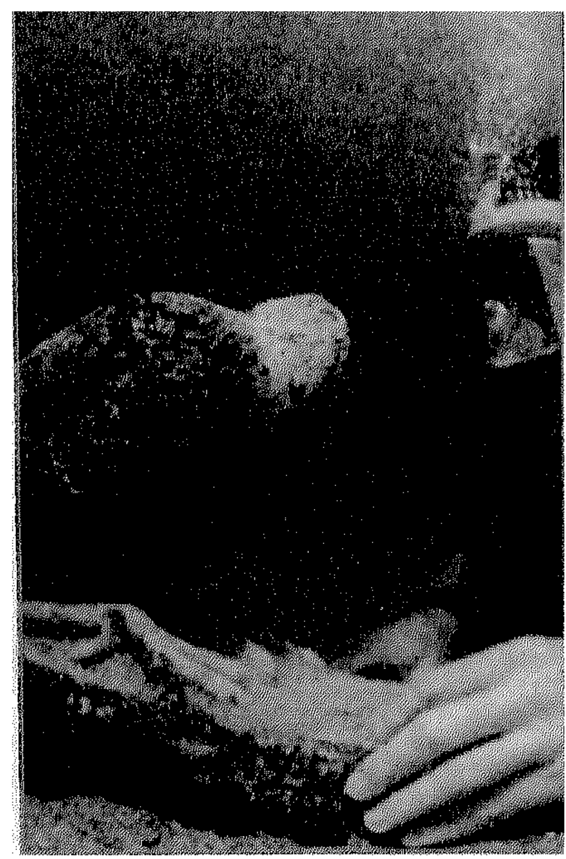


معروفا منذ وقت طويل وكان السبب وراء غرق هذه الآثار محاطا بالغموض ومثارا للتخمين فلم تكن هناك أية بيانات علمية عن هذه الآثار أو طبيعة الأرضية التى ترسو عليها أو حتى عن تاريخ اختفاء هذه المدن تحت البحر، وكان أكثر المشتغلين بالعلم يخمنون أن غرقها ربما يعود إلى زلزال كبير. وقد رحب المشتغلون بالعلم بمقدم البعثة الفرنسية وأملوا أن تأتى التقنيات الحديثة التى جاءت بها بسبب مقبول ومدعم لسقوط هذه المدن تحت البحر. إلا أن هذا الأمل لم يتحقق .. فقد اختلف العلماء الذين اتيحت لهم فرصة الاطلاع على البيانات العلمية التى جاءت بها البعثة عن سبب هذا السقوط فقد عزز فريق منهم الفكرة السائدة عن أن اختفاء المدينتين تحت البحر حدث بسبب زلزالين أو ثلاثة دمرت المدينتين وخسفتهما تحت البحر. وجاء الاعلان عن هذا السبب مصاحبا لإعلان البعثة عن اكتشافاتها أمام المجتمع العلمى فى الاجتماع السنوى للاتحاد الچيوفيزيقى الذى عقد بمدينة سان فرانسيسكو فى ديسمبر عام ٢٠٠٠، وبعد أقل من ستة أشهر من صدور هذا الاعلان ظهر تفسير آخر لسقوط هاتين المدينتين تحت البحرنشره فى إحدى المجلات العلمية ذائعة الصيت باحث آخر زعم فيه أن سقوط المدينتين حدث بسبب فيضان مهول لنهر النيل حدث فى عام ٧٤٢/٧٤١ ميلادية تحطمت فيه جسور المدينتين اللتين كانتا قد بنيتا عند مصب الفرع الكانوبى لدلتا النيل والذي كان يصب فى خليج أبوقير وقت بنائهما. وقد التقطت الجرائد والإذاعات العالمية الخبر وطيرته إلى أرجاء الأرض على الرغم من الخطأ البالغ الذى وقع فيه كاتبوه كما سنبين فى هذا المقال، وكان الباحث يحاول أن يجد تفسيرا آخر لسقوط المدينتين بعد أن تبين أن تفسير سقوطهما بسبب الزلازل لا يمكن أن يكون صحيحا بعد أن عرف أن تاريخ سقوط المدينتين يعود إلى منتصف القرن الثامن الميلادى وهو وقت لا يعرف أن الزلازل قد طالت منطقة الإسكندرية، فيه.

الآثار التى غرقت

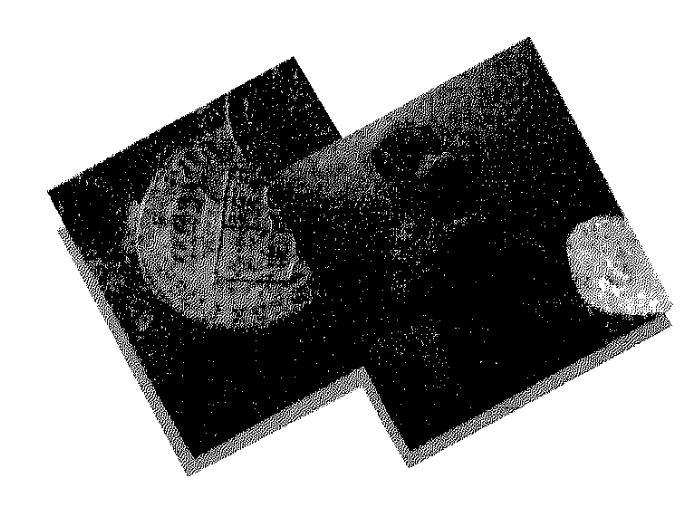
وقبل الدخول في تبيين خطأ هذين التفسيرين لابد من التأكيد على أن وجود آثار مدن اختفت تحت سطح البحر فى بحار منطقة الإسكندرية كان أمرا معروفا وموضوعا لدراسات كثيرة وجادة منذ وقت طويل، ولعل من أول وأهم هذه الدراسات هى تلك التى قام بها العالم المصرى الفذ محمود الفلكى فى ستينيات القرن التاسع عشر والذى دبج بحثا رفيع المستوى عن تاريخ مدينة الإسكندرية القديمة صدر باللغة الفرنسية بأوربا فى سنة ١٨٧٢ تطرق فيه إلى آثار المدن القديمة التى غرقت تحت مياه الميناء الشرقية لمدينة





قطع من الآثار المصرية الغارقة قبل انتشالها

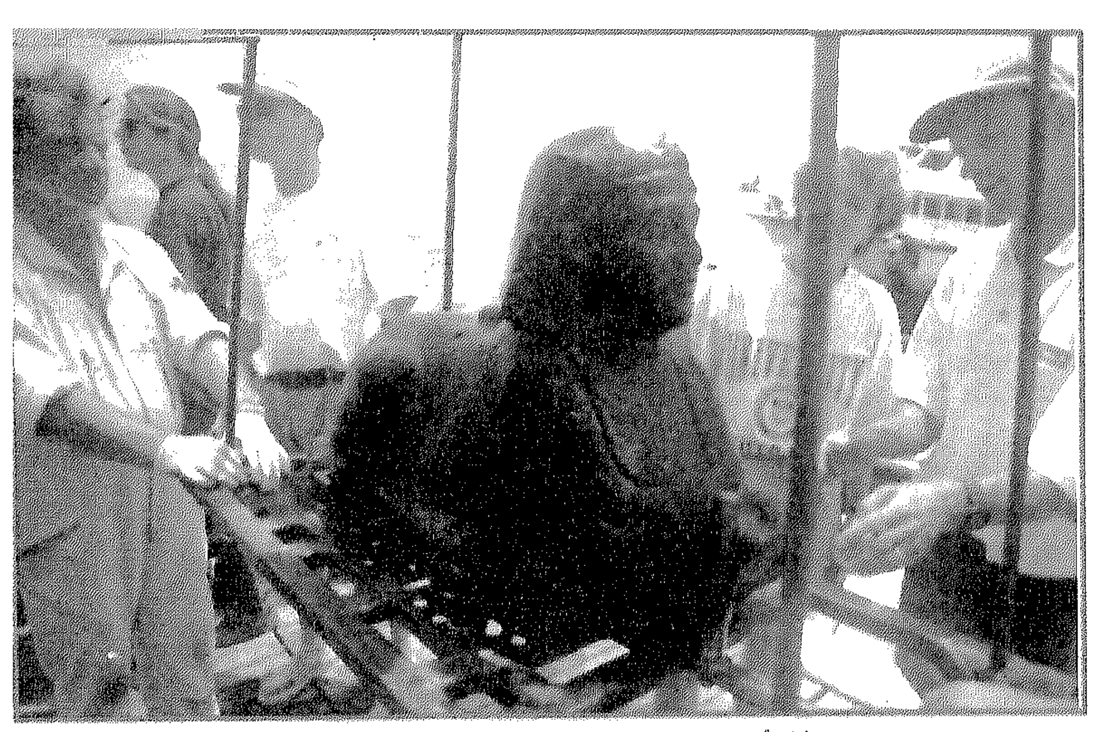
الإسكندرية وتحت مياه خليج أبوقير، وبنى محمود الفلكى بحثه واستنتاجاته عن تاريخ المدينة على عمل حقلى من الطراز الأول رفع فيه خريطة للمدينة بمقياس ١: ٢٠٠٠٠ وعلى دراسة عدد من الآبار التى دقها بمدينة الإسكندرية وعدد من الجسات التى سبر بها غور البحر المحيط بالمدينة. ويعتبر بحث محمود الفلكى عملا أساسيا ومرجعيا على الرغم من مرور ما يقرب عن ١٣٠ سنة على نشره، وقد لفت بحث الفلكى الأنظار إلى آثار الإسكندرية مما دفع الدولة فى أثر ذلك للقيام بجهد منظم للحفاظ عليها وجمعها وإنشاء متحف لها بمدينة الإسكندرية، أما الآثار تحت البحر فقد نالت اهتماما أقل وإن كان لابد لى أن أنوه هنا بجهود جمعية الآثار بالإسكندرية والتى أسسها ورعاها الأمير عمر طوسون وكون بها مجموعة من الغطاسين التى حاولت إنقاذ آثار خليج أبوقير فى ثلاثينات القرن العشرين، إلا أن أعمال هذه المجموعة لم تكن على درجة كبيرة من الحرفية وظلت هذه الآثار متروكة حتى وصول البعثة الفرنسية وفريق الغطس المصاحب لها بقيادة فرانك جوديو فى تسعينات القرن العشرين والذى قام تحت رعاية المجلس الأعلى للآثار بمسح شامل لآثار هذه المدن الغارقة، ونحن مدينون لهذه البعثة لما أضافته من معلومات عن المدن الغارقة تحت بحر الإسكندرية ولما وجدته من مواقع جديدة لم تكن معروفة من قبل وعلى الأخص فى الناحية الغربية من ميناء الإسكندرية، القديمة ولما كشفت عنه من المشغولات



الكثيرة التى وجدتها بين الآثار والتى كان من أهمها مجموعة النقود القديمة التى انتشلت من بين أنقاض مدينتى كانوب الشرقية وهيراكليون الغارقتين تحت مياه خليج أبوقير والتى كان أحدثها تلك التى دقت فى العصر الإسلامى بين سنتى ٧٢٤، ٧٤٣ ميلادية مما أخذ دليلا على أن هاتين المدينتين كانتا قائمتين فوق سطح البحر حتى ذلك التاريخ وأن اختفاءهما لابد أنه حدث بعد هذا التاريخ بقليل.

وكما سبق القول فقد بنيت مدينتا كانوب الشرقية وهيراكليون فى القرن السابع قبل الميلاد وظلت تشكلان الميناءين الرئيسيين لشرق البحر الأبيض المتوسط لثلاثة قرون ونصف القرن وحتى بناء مدينة الإسكندرية عندما تراجعت أهميتهما حتى اختفتا تحت سطح البحر فى منتصف القرن الثامن الميلادى، وقد بنيت المدينتان عند مصب الفرع الكانوبى لدلتا النيل والذي كان يتفرع من فرع رشيد ويمر بمديرية البحيرة حتى يصب فى خليج أبوقير عند نقطة التقائه مع الجسر الذى كان يفصل بحيرة إدكو عن بحيرة أبوقير التى اختفت اليوم تماما بعد أن ردمت وسويت أرضا زراعية منذ وقت طويل، وتوجد آثار هاتين المدينتين اليوم على عمق يتراوح بين ٦ ، ٧ أمتار تحت سطح البحر على مرتفع تحت بحرى يمتد من الغرب إلى الشرق ويقع على بعد ١٫٥ كيلو متر إلى الشرق من رأس أبوقير، وقد كشف المسح تحت البحرى الذى قام به فريق الغطس الفرنسى عن بقايا منشآت الميناءين وأساسات الكثير من المنازل والمعابد والعديد من التماثيل الضخمة لعدد من آلهة المصريين والإغريق هذا بالإضافة إلى الأوانى البرونزية والمصاغ كالأقراط والعقود والعملات الذهبية والمباخر وغير ذلك من المشغولات.

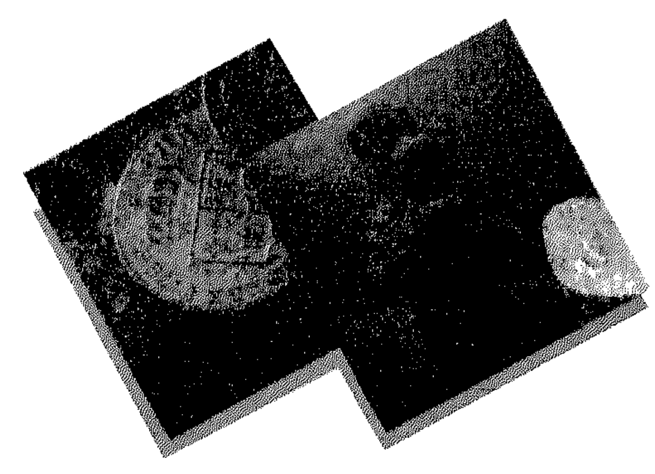
واستخدمت البعثة تقنيات عالية لانتشال بعض هذه الآثار وللكشف عن أبعاد هاتين المدينتين وعن طبيعة الأرضية التى بنيتا عليها وقد أعطيت البيانات العلمية التى استخرجت من التقنيات التى استخدمت فى سبر طبيعة أرضية المدينتين إلى أمريكيين من المشتغلين بعلوم الأرض هما عاموس نور ودانيل ستانلى اللذان أعطيا تفسيرين مختلفين عن سبب غرق هاتين المدينتين تحت سطح البحر، أما عاموس نور الأستاذ بجامعة ستانفورد بالولايات المتحدة فقد أرجع هذا الغرق إلى عدد من الزلازل الكبيرة التى اجتاحت المدينتين واسقطتهما تحت سطح البحر، وذكر نور أن مما يؤيد تفسيره فى أن الزلازل هى التى أسقطت المدينتين هو أن أعمدة المعابد الغارقة وجدت مرصوصة فوق قاع البحر فى اتجاه واحد، وبدا للكثيرين أن هذا التفسير يمكن أن يكون



تمثال أبو الهول بوجه بطليموس الثانى عشر بعد الانقاذ

مقبولا فقد عرف أن الإسكندرية قد تأثرت بالزلازل عبر تاريخها وكانت السبب فى سقوط فنار الإسكندرية الشهير والذى يعرف على وجه اليقين أنه سقط بسبب الزلزال المدمر الذى لحق بالمدينة فى سنة ١٣٠٣ ميلادية. إلا أن إرجاع سبب غرق المدينتين تحت سطح البحر إلى الزلازل أصبح غير مقبول بعد أن عرف تاريخ سقوط المدينتين والذى تبين أنه حدث قبل سقوط فنار الإسكندرية بخمسة قرون كاملة وفى زمن لا يعرف أن منطقة الإسكندرية شهدت فيه أى زلزال مؤثر.

أما التفسير الآخر فقد تقدم به الأستاذ دانيل ستانلى الباحث بمعهد سمثونيان بالولايات المتحدة والذى تعرفه الدوائر العلمية فى مصر بسبب تردده الدائم عليها منذ سنوات طويلة وبسبب نشراته الكثيرة التى يكتبها عن بحوثه عن دلتا نهر النيل والتى يقوم بها تحت مظلة العديد من هيئات البحث العلمى المصرية والتى حصل على مساعدتها، وتعرف أبحاث هذا الأستاذ بإخراجها الحسن ولغتها الموحية بالثقة على الرغم من أنها كثيرا ما تعكس نتائج لا تبررها البيانات التى انبنت عليها وإن كانت تجد فى الكثير من الأحيان طريقها للنشر والاعلان الواسع. ولا يختلف تفسيره لغرق المدينتين، والذى نشره فى إحدى أمهات المجلات العلمية فى شهر يوليه سنة ٢٠٠١ عن تفسيراته الأخرى فقد انبنى على استنتاجات لا تدعمها البيانات التى أتاحتها له تقنيات البحث العلمى التى قامت بها البعثة الفرنسية فقد خرج الباحث منها بأن سبب غرق المدينتين يعود إلى فيضان مهول لنهر النيل قوض أسس



المدينتين اللتين كانتا تقعان على مصب هذا النهر فسقطتا تحت البحر، وهو أمر لا يمكن أن يكون قد حدث لسبب بسيط هو أن النيل لم يكن يصل إلى المدينتين عند تاريخ اختفائهما فقد طما الفرع الكانوبى لدلتا النيل وتوقف عن الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط قبل تاريخ هبوط المدينتين تحت سطح البحر بثلاث مائة سنة على الأقل، وقد أخطأ الباحث عندما ذكر أن الفرع الكانوبى بقى نشطا حتى أوائل سنوات الألفية الثانية بعد الميلاد وهو أمر ليس له سند بما فى ذلك ماجاء فى كتاب الأمير عمر طوسون (فروع الدلتا القديمة) والصادر بالقاهرة فى سنة ١٩٢٢ والذى يذكره الباحث ضمن مراجعه والذى يؤكد وبكل وضوح أن الفرع الكانوبى قد طما فى القرن الرابع الميلادى وأنه لم يكن يصل إلى خليج أبوقير عند وصول الجيش العربى بقيادة عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وأنه لم ير له ذكرا فى أى من المخطوطات العربية التى كتبت وقت أو بعد دخول العرب فى مصر، ومما يؤكد أن النيل لم يكن يصل إلى أبوقير فى وقت غرق المدينتين هو أن جميع عينات الطمى النيلى التى جمعت من تحت الآثار الغارقة والتى تم تعيين أعمارها بالطرق الراديومترية التى قام بها الباحث نفسه قديمة، ليس بينها واحدة تقل فى عمرها عن سنة ٣٢٠ ميلادية.

وعلى الرغم من أن الباحث لم يذكر فى مراجعه أيا من مؤلفاتى عن نهر النيل إلا أنه نقل عن كتابى الأول الذي صدر فى سنة ١٩٨١ عن مؤسسة شبرنجر بألمانيا أن الفرع الكانوبى كان نشطا حتى أوائل سنوات الألفية الثانية للميلاد وهو الخطأ الذى كنت قد وقعت فيه عندما ساويت تاريخه بتاريخ الفرع البيلوزى الذى كان يصب عند الفرما بصحراء سيناء حتى ذلك التاريخ والذى صححته فى كتابى اللاحق عن نهر النيل والذي صدر باكسفورد فى سنة ١٩٩٣.

أسباب الغرق

ومن الصعب أن يتصور المرء أن سقوط المدينتين تحت سطح البحر كان بسبب فيضان لنهر النيل حتى ولو قبلنا أن النهر كان لا يزال يصل إليهما، فمثل هذا الحدث الجلل الذى يؤدى إلى سقوط مدينتين كبيرتين تحت البحر لا يمكن أن يكون قد فات المؤرخين ممن عاصروا هذا السقوط المزعوم أو عاشوا بعده ولم يرد ذكر لهذا السقوط فى أى من مؤلفات المؤرخين كما لم يرد ذكر لسقوط أية مدينة أخرى على نهر النيل وقت هذا الفيضان الذى اعتبره الباحث عاليا وكاسحا. وقد رجعت إلى قراءات مقياس الروضة ووجدت أن فيضان سنة ٧٤٢/٧٤١ كان فيضانا أعلى من المتوسط العام الذى كان الناس لا يهابونه بل كانوا يستقبلونه بالبشر لأنه



كان يسبب تعظيم مساحة الأرض القابلة للزراعة بسبب أنه كان يفيض فوق مساحة أكبر من سهل فيضان النهر فى السنوات التى سبقت إدخال نظام الرى المستديم فى مصر فى القرن التاسع عشر، أما الفيضانات العالية التى كان الناس يخشونها فى ذلك الزمان فقد كانت أعلى من منسوب فيضان سنة ٧٤٢/٧٤١ بمتر كامل لأن مثل هذه الفيضانات كانت تطول الجسور والعلوات التى بنيت عليها معظم قرى ومدن مصر وتغرقها أو تلك التى تستمر لمدة أطول من العادة فتفسد الأرض، وقد شهدت مصر مثل هذه الفيضانات فى تردد كبير خلال القرن الرابع عشر الميلادى.

وفى تقديرى أن اختفاء المدينتين لم يأت مفاجأة كما حاول الباحثون السابقون أن يبينوه، سواء عن طريق الزلازل أو الفيضانات الكاسحة ولكنه جاء تدريجيا وعبر القرون الأربعة التى سبقت اختفاءهما والتى شهدت هجرة أهلهما وإهمالهما وتدهور أحوالهما بعد بناء مدينة الإسكندرية فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد وانتقال الثروة والنشاط التجارى لشرق البحر الأبيض المتوسط إليها، ويمكن القول بأن تدهور المدينتين قبل سنوات من بناء مدينة الإسكندرية كان بسبب صعوبة تزويدهما بالماء العذب بعد أن أطما الفرع الكانوبى لدلتا النيل وتوقف وصوله إليهما، ولعل بناء ميناء الإسكندرية الجديدة كان بدافع إيجاد موقع أفضل من حيث التزود بالماء العذب.

كان سقوط مدينتى هيراكليون وكانوب الشرقية بسبب عوامل النحر التى تأتى مع أمواج البحر وتياراته والتى تؤدى إلى تراجع الشواطىء وتآكلها وسقوط الجسور التى ترسو عليها المدن، وفى تقديرى أن هذا التراجع حدث تدريجيا وعبر القرون الأربعة التي تلت هجر المدينتين وإهمالهما وتوقف القيام بأى عمل يمكن أن يوقف هذا التراجع ويحمى المدينتين . وقد أعطيت فى كتابى عن نهر النيل (دار الهلال) أمثلة كثيرة لقلاع ومبان أقيمت على شاطىء البحر فى زمانها وأصبحت اليوم فى قلب البحر، وقد زرت بنفسى أحدى القلاع التى بنيت على شاطىء البحر بجوار مدينة البرلس فى العصر التركى وأصبحت اليوم فى قلب البحر وعلى بعد يزيد على الكيلو متر من الشاطىء الحالى.

وقد يكون السبب الذى أعطيته فى هذا المقال لسقوط هاتين المدينتين تحت البحر تفسيرا لعدم ورود ذكر لسقوطهما فى كتب مؤرخى العرب، فقد كانت المدينتان شبه مهجورتين عند وصول العرب إلى مصر وأخذ حالهما يتدهور تدريجيا شأنهما فى ذلك شأن الكثير من المدن القديمة المهجورة الأخرى حتى اختفائهما تماما دون أن يثير ذلك اهتمام أحد. ■



ضـــرورة تغـــيـــيـــر نظام الــتــعليم للقــضــاء على الدروس الخــصــوصــيــة

بقلم
د.شبـــل بـــدران

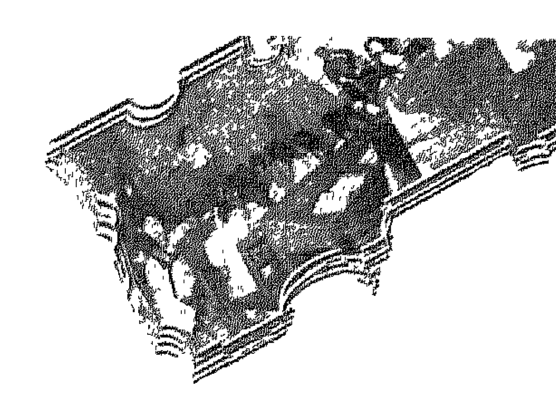
تتـعـالى بعض الأصـوات داخل أروقـة البـرلمان وفى الصـحف والمجلات، تحاول أن تربط بشكل ميكانيكى بين انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية وقانون الثانوية العامة الجديد قبل وبعد الغاء التحسين وتروج لمشروع قانون يبيح للطلاب الجلوس فى المنازل وتعاطى الدروس الخصوصية. والزخم الاعلامى الحادث الآن والضجيج السياسى يحاول تزييف الحقائق أمام المواطن دفاعا عن سياسات معينة، ولكن الصورة هى جد مختلفة تماما عما يروج الآن لأسباب سياسية معلومة للجميع ..

إن ظاهرة الدروس الخصوصية والتى أفرزها نظامنا التعليمى لم تتبلور وتتجسد الا فى حقبة السبعينات، وتحديدا بعد انتهاج سياسة الانفتاح الاقتصادى حيث شهدت حقبة السبعينات بتداعياتها المعروفة لنا جميعا ظهور فئات وشرائح اجتماعية جديدة ارتبطت مصالحها بمصالح النهج الاقتصادى الجديد. وأخذت هذه الفئات وتلك الشرائح تسعى لايجاد قنوات للتمايز الاجتماعى والطبقى لنفسها ولأبنائها فى مجالات الحياة المختلفة، وعلى رأسها مجال التعليم .

ولقد ترتب على ذلك زيادة عدد المدارس الخاصة من ٦٧٨ مدرسة عام ١٩٧٧/٧٦ الى حوالى ١٢٤٧ مدرسة عام ١٩٨٦/٨٥، ومن ٢٧٢٣ مدرسة عام ٩٢/٩١ الى ٣٩٢١ مدرسة عام ٢٠٠١/٢٠٠٠ بنسبة زيادة قدرها ٤٤٪ كما زادت الفصول بنسبة ٥٣٪ والطلاب بنسبة ٣٦٪ للفترة من ٢٠٠١/٩١ وزادت المدارس الرسمية لغات التجريبية بنسبة ١٩٥ حيث زادت عدد المدارس من ١٩٥ مدرسة عام ٩٢/٩١ الى ٥٧٥ عام ٢٠٠١/٢٠٠٠ كما زاد عدد طلاب التعليم الخاص من ٨٣٧.٧٥٩ عام ٩٢/٩١ الى حوالى ١.٠٩٧.٨٢٦ عام ٢٠٠٠/٩٩ بنسبة ٣١.٠٤٪ وكذلك عدد المدارس الأجنبية، ناهيك عن مدارس اللغات وجميع أنواع التعليم التى ساهم نظام التعليم فى ايجادها وبمصروفات باهظة، استندت الى القدرة المالية للفئات والشرائح الاجتماعية الجديدة بصرف النظر عن القدرة العلمية والمعرفية ، ومن هنا انعكست بنية الأوضاع الاجتماعية الجديدة فى النظام التعليمى، والذى لم يملك الاستجابة للتغيرات الاجتماعية فى الواقع المعاش، وأصبحت كل فئة وجماعة تسعى لايجاد قناة تعليمية لأبنائها بصرف النظر عن القدرات المعرفية لهؤلاء الأبناء، وتكرست الازدواجيات فى التعليم المصرى بشكل غير مسبوق من قبل .

لماذا انتشرت

كل ذلك أدى بطبيعية الحال الى تزايد وتكريس ظاهرة الدروس الخصوصية خلال عقد السبعينات والثمانينات. والتى لم نكن نسمع عنها خلال العقود السابقة. اى ان تفشى ظاهرة الدروس الخصوصية تم



خلال قانون الثانوية العامة القديم وليس الجديد، لأنها ظاهرة ترجع إلى العديد من الاسباب التربوية والمجتمعية والتى ليس منها قانون الثانوية العامة الجديد، ولعل أبرز تلك الاسباب فى انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية ما يلى :

١ ـ اعتبار مجموع الدرجات هو المعيار الوحيد للالتحاق بالتعليم الجامعى والعالى، مما ترتب عليه وجود كليات للقمة تستأثر بالمجموع الاكبر، وصنفت الكليات وأهميتها حسب مجموع الدرجات الذى يؤهل الطلاب للالتحاق بها . وكذلك وجود كليات القاع والتى تقبل هؤلاء الطلاب أصحاب الدرجات المنخفضة. ومن هنا أستأثرت كليات القمة بالمجموع المرتفع والذى يحصل عليه غالبا ابناء الفئات الاجتماعية الميسورة ولم يبق امام أبناء الفقراء سوى الكليات المتواضعة، وأصبح التعليم أداة للتمايز الاجتماعى نتيجة لاعتماده مجموع الدرجات معيارا وحيدا لمواصلة التعليم فى مراحله الاعلى .

٢ ـ ان الاختبارات والامتحانات النهائية تهدف فى التحليل الأخير إلى قياس القدرة الأولية للطلاب، وهى : الحفظ والاسترجاع، ولا تعتمد الامتحانات على تنمية بقية القدرات الأخرى كالفهم والتحليل والتركيب والنقد. ومن هنا لم يعد أمام الطلاب سوى تنمية ذاكرة الحفظ (ثقافة الذاكرة) التى تؤهلهم للحصول على الدرجات الأعلى وتحقيق الحلم فى الالتحاق بكليات القمة .

٣ ـ أن المعارف والعلوم المقدمة للطلاب، معارف وعلوم أحادية التوجه، ولا تسعى إلى الايمان بنسبية المعرفة وتباينها من زمن لآخر. وبذلك اكتسبت المعارف قداسة وهالة جعلت الطلاب يحافظون عليها ويحفظونها عن ظهر قلب بصرف النظر عن مدى صحة تلك المعارف أو مصداقيتها من عدمه .

٤ ـ لم يعتمد نظام التعليم طريقة الحوار والنقد فى اكتساب الطلاب المعارف والعلوم، واعتمد طريقة وحيدة بالية، هى طريقة التلقين والحفظ، فى مواجهة طريقة اكساب الطلاب منهج التفكير العلمى والتفكير النقدى، من هنا فإن نظام التعليم لم يكسب الطلاب طريقة للتفكير أو منهج للتفكير أو طريقة للحصول على المعرفة، وإنما اكسبهم فقط طريقة الحفظ والتلقين، ثقافة الذاكرة فى مواجهة ثقافة الابداع .

٥ ـ ترتب على كل ذلك تعزيز قيمة وأهمية المعلم، بحيث اصبح هو المكون الرئيسى والوحيد فى العملية التعليمية. وأصبح هذا المعلم هو حامل المعرفة وناقلها إلى أذهان الطلاب، فاكتسب ايضا هالة وقدسية تعادل قدسية المعرفة التى يحملها، واصبح هو القادر على تنمية قدرة الحفظ والتلقين لدى الطلاب. ولقد تم ذلك فى ظل مناهج غير مطورة، وأصبح المعلم هو وحده الذى يستطيع عبر لقاءات مع طلابه فى منازلهم ان يجود لديهم قدرة الحفظ وآلية الحصول على الدرجات المرتفعة التى تؤهلهم بدورها للالتحاق بكليات القمة،

فدعم ذلك انتشار ظاهرة الدروس الخصوصية مع عوامل وأسباب أخرى .

ومع تزايد أعداد الطلاب بجميع مراحل التعليم وقلة الموارد المخصصة للتعليم، ازدادت كثافة الفصول وتعددت فترات الدراسة وأصبحت المدرسة غير قادرة لأسباب غير تربوية وتعليمية على القيام بمهمتها التربوية والتعليمية. ومن هنا فإن مشكلات النظام التعليمى تكمن خارجه وتعود بالدرجة الأولى لأسباب اقتصادية واجتماعية. وظلت الاحوال فى تردى مستمر خلال عقد السبعينات والثمانينات، وفى ظل نظام الثانوية العامة القديم، ورغم كثرة التشريعات التى صدرت لمعالجة ذلك الأمر، الا أن الظاهرة ظلت فى ازدياد لأننا لم نستطع ان نضع ايدينا على جذور المشكلة الحقيقية.

الواقع التعليمى

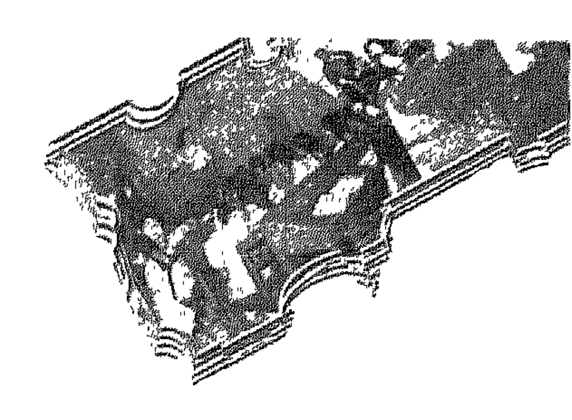
ولو حاولنا ان نعقد بعض المقارنات للعقود الثلاثة المنصرفة للتعرف على تطور أعداد الطلاب بمراحل التعليم المختلفة، وكذلك وضع الميزانية العامة للتعليم، وهى كلها جهود حاولت الاصلاح والتغلب على تلك الظاهرة ، سوف نلمس ما يلى :

- بلغ عدد طلاب التعليم الابتدائى عام ١٩٧٥ حوالى ٣.١٢٠.٩٣٦ طالب وطالبة. وازداد هذا العدد فى عام ١٩٨٤/٨٣ حيث بلغ حوالى ٥.٣٤٩.٥٧٩ طالب وطالبة، وتضاعف هذا العدد خلال عام ١٩٩٥/٩٤ حيث بلغ حوالى ٧٣.١٣٠٣٨ اى طلاب التعليم الابتدائى تضاعفوا بنسبة ١٠٠٪ خلال الربع قرن الاخير. وواصل العدد الزيادة حيث وصل الى ٧٢٢٤٩٨٩ طالبا فى عام ٢٠٠٠ .

- كما بلغ عدد طلاب مرحلة التعليم الاعدادى عام ١٩٧٥ حوالى ١.٣٣٩.٠٦٣ وازدادوا ا فى عام ١٩٨٤ حيث بلغوا حوالى ١.٨٩٤.٤١٩، وتضاعفوا فى عام ١٩٩٥/٩٤، حيث بلغوا حوالى ٣.٤٠٩.١٢٧، أى أن طلاب التعليم الاعدادى زادوا بنسبة ٢٠٠٪ خلال الربع قرن الاخير. وواصل العدد فى الزيادة حيث بلغ ٤.٣٤٥.٣٥٦ طالبا فى عام ٢٠٠٠.

- وبلغ طلاب مرحلة التعليم الثانوى العام حوالى ٣٦٨٣١٩ فى عام ١٩٧٥ وارتفع العدد الى حوالى ٥٤٢٢٢٧ فى عام ١٩٨٤/٨٣ وواصل العدد فى الزيادة الى ان بلغ حوالى ٨٤٤٣٥٨ فى عام ١٩٩٥/٩٤. أى أن طلاب التعليم الثانوى العام تضاعفوا مرة ونصف خلال الربع قرن الاخير. وواصل العدد الزيادة حيث بلغ ١.٠٣٩.٩٥٨ طالب فى عام ٢٠٠٠ بنسبة زيادة ٢٥٪ والسؤال الذى يطرح نفسه. هل زادت مخصصات التعليم المالية بنفس نسب الزيادة، وهل تم مواجهة الزيادة بعدد من الأبنية التعليمية التى تستوعب تلك الزيادة؟!

- ولو عقدنا مقارنة للطلاب المقيدين بمراحل التعليم قبل الجامعى بين عام ١٩٩٢/٩١ وعام٩٩/٢٠٠٠ سنجد الآتى :
ازدياد عدد طلاب التعليم الابتدائى من حوالى ٦٥٤١٧٢٥ الى حوالى ٧٢٢٤٩٨٩، حيث بلغت الزيادة حوالى ٦٨٣٢٦٤ بنسبة ١٠.٤٤٪. وفى مرحلة التعليم الاعدادى



من ٣٥٩٣٣٦٥ الى ٤٣٤٥٣٥٦ بزيادة مقدارها ٧٥١٩٩١ وبنسبة ٢٠.٩٧٪ وفى مرحلة التعليم الثانوى العام من ٥٧٢٠٢٦ الى حوالى ١٠٣٩٩٥٨ بزيادة مقدارها ٤٦٧٩٣٢ بنسبة ٨١.٨٠٪ وفى التعليم الثانوى الفنى من ١١١٠١٨٤ الى حوالى ١٩١٣٠٢٢ بزيادة مقدارها ٨٠٢٨٣٨ بنسبة ٧٢.٣٢٪ وبلغت الزيادة لطلاب المرحلة الثانوية بانواعها المختلفة من ٣٠٠٠، ١١.٨١٧ الى حوالى ١٤٥٣٣٢٥ طالب بزيادة مقدارها ٢.٧٠٦.٠٢٥ بنسبة ١٩.٥٠٪. هذا على مستوى التعليم قبل الجامعى وبدون التعليم الازهرى .

- ولقد بلغ عدد الطلاب المقبولين بالتعليم الجامعى عام ١٩٨٢/٨١ حوالى ٩١٠٤٨ انخفض الى حوالى ٨٤٢٤٠ فى عام ١٩٨٦/٨٥ .

- وتطورت اعداد الطلاب المقبولين بالجامعات من الحاصلين على الثانوية العامة فى السنوات ١٩٩٢/٩١ - ٩٥ / ١٩٩٦ بالارقام القياسية على اعتبار أن عام ١٩٩٢/٩١ هى سنة الأساس (١٠٠) فلقد بلغ عدد الطلاب حوالى ٧٤٣١٠ عام ١٩٩٢/٩١ ، وازداد إلى حوالى ١١٠٣٢٣ عام ١٩٩٣/٩٢٪ وبلغت الزيادة ١٤٨.٥٪، وازدادت الأعداد إلى حوالى ١٣١٠٠٧ عام ١٩٩٤/٩٣ بزيادة مقدارها ٧٦.٣٪ وواصلت زيادتها حيث بلغت حوالى ١٤٨٣٧٨ عام ١٩٩٥/٩٤ بزيادة مقدارها ١٩٩.٧ ، ووصلت الزيادة الى حوالى ٢٧٨٧٣، فى عام ١٩٩٦/٩٥ بزيادة مقدارها ١١.٣٢٠٪. ولقد انخفض العدد الى حوالى ٢٢١٥٣٠ فى عام ١٩٩٩/٩٨.

ولاشك فى أن تلك الزيادة تعنى بالدرجة الأولى التوسع فى مجال التعليم الجامعى والعالى وهى استجابة للتوسع فى مراحل التعليم السابقة، اى ان السياسة التعليمية خلال عقد التسعينات اخذت على عاتقها مبدأ التوسع فى التعليم تحقيقا لمبدأ تكافؤ الفرص وإتاحة التعليم امام الفئات الاجتماعية التى حرمت منه اصلا بحكم وضعها الاجتماعى.

ومع التطورر الكمى الهائل فى عدد طلاب مراحل التعليم المختلفة، الا أن المخصصات المالية المدرجة له لم تستطع ان تحقق الاستيعاب الكامل، حيث بلغت النسبة كمتوسط عام ٨٥٪ وظلت نسبة التسرب فى مرحلة التعليم الاساسى (الابتدائى والاعدادى) تتراوح مابين ١٥ - ٢٠٪. علما بأن ميزانية التعليم زادت بمقدار ٥٠٪ بشكل لم يسبق له مثيل حيث بلغت مخصصات الانفاق على التعليم من الموازنة العامة للدولة ماعدا التعليم الازهرى عام ١٩٩٥/٩٤ حوالى ٧.٩٧٧ مليار جنيه بنسبة ١٣.٧٪ وارتفعت عام ١٩٩٦/٩٥ الى حوالى ١١.٢ مليار جنيه بنسبة ١٥.٦٪ وبلغت اكثر من ١٨ مليارا فى ميزانية ٢٠٠١/٢٠٠٠ .

ولاشك فى ضوء تلك الزيادة الكمية الهائلة لاعداد الطلاب ، والتوسع فيه بشكل



غير مسبوق، أن تصبح المخصصات المالية - التمويل - فى أمس الحاجة إلى الزيادة لتصل الى حوالى ٢٠٪ على الأقل، وذلك لأن ما ينفق على الفرد فى التعليم فى مرحلة التعليم الاساسى فى مصر حوالى ١٥٠ دولارا مقابل ٢٥٠٠ دولار للفرد فى إسرائيل ويصل خمسة وستة آلاف فى بعض الدول المتقدمة. وأن جملة الانفاق على التعليم من إجمالى الناتج القومى عام ١٩٩٩ فى مصر بلغ حوالى ٥,٦٪، والسعودية حوالى ٨,٩٪ ، الجزائر حوالى ١٠,٨٪.

ولاشك فى أن التوزيع الحالى للانفاق على التعليم يوضح أنه فى حين أن التعليم قبل الجامعى وهو مسئول عن ٩٠٪ من مجموع الطلاب يتلقى ٧٥٪ من مصادر الانفاق، والتعليم العالى المسئول عن ١٠٪ من الطلاب يتلقى ٢٥٪ من الانفاق الكلى الحالى وتمثل الأجور ٨١٪ من مجموع الانفاق فى التعليم قبل الجامعى و٥٧٪ فى التعليم العالى لعام ١٩٩٧/٩٦ من هنا فإن الأجور تستنزف النصيب الأكبر من مصادر تمويل التعليم .

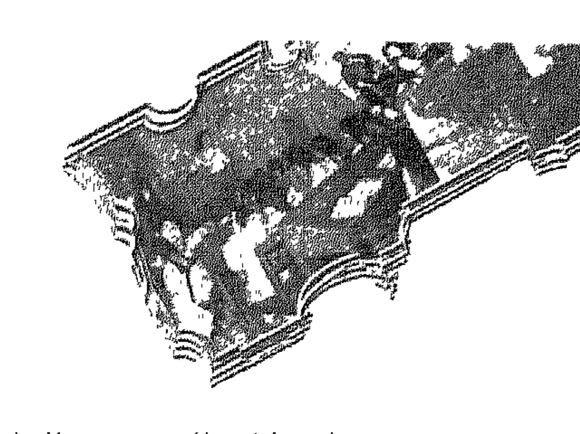
إن زيادة موارد التعليم ورفع ميزانيته هو وحده القادر على القضاء على مشكلات النظام التعليمى وعلى رأسها الدروس الخصوصية وكثافة الفصول وتحسين أحوال المعلم - لابد ان ننظر للتعليم فعلا بوصفه قضية أمن قومى لا يقل أهمية عن الاهتمام بالقوات المسلحة واعداد المقاتل الخارجى، نحن فى حاجة الى اعداد المقاتل الداخلى .

لقد كانت حالة الأبنية التعليمية ١٩٨٥ فى وضع لا يمكن معه أن يتم تعليم داخل جدران المدارس، حيث بلغ عدد المدارس حوالى ٢٥٠٠٠ مدرسة منها ٧٧٨٦ مدرسة صالحة للاستخدام و١٠٦٣ مدرسة غير صالحة للاستخدام و٣٦٦٦ مدرسة تحتاج إلى اصلاح . و٤٠٠٠ مدرسة غير مزودة بالكهرباء او الانارة . و٨٤١ مدرسة غير مزودة بمياه الشرب. و٤٠٢ مدرسة تنقصها المرافق. أكثر من نصف عدد المدارس وغالبيتها فى مرحلة التعليم الابتدائى غير صالحة لتلقى دروس العلم، بل ربما غير صالحة للاستخدام الآدمى .

وترتب على ذلك جملة من الاحتياجات من الابنية المدرسية، لكى تتحقق فعالية العملية التعليمية، فكان مطلوبا بناء ٣٦٨٦ مدرسة لمواجهة الزيادة السكانية و٥٤٠٨ مدارس لمواجهة تعدد الفترات الدراسية و١١٩١ مدرسة لمواجهة كثافة الفصول و٥١٨٠ مدرسة لمواجهة عملية الاحلال و٤٤٨٢ مدرسة لمواجهة مشكلة التسرب. وكانت تلك خطة طموح حتى عام ٢٠٠٢، وأخذت الوزارة فى سياستها الجديدة (٩٢ - ١٩٩٧) فى بناء ٧٥٠٠ مدرسة بمعدل ١٥٠٠ مدرسة سنويا اعتبارا من عام ١٩٩٣/٩٢ . ولاشك فى ان كل تلك الجهود رهن بتوفير الاعتمادات المالية وزيادة مخصصات التعليم ووضع التعليم على اولويات العمل الوطنى، حتى يتحقق فعلا شعار التعليم: قضية امن قومى .

قضية امن قومى

ان المستهدف من التعليم تحقيق الاستقرار الاجتماعى والمساواة من خلال



تعظيم تكافؤ الفرص فى التعليم والحياة، أن الدول الغنية والفقيرة على حد سواء تسعى جاهدة نحو توفير تعليم راق لابنائها بوصفة اداة للحراك الاجتماعى وبوابة الدخول الى عصر المنافسة على جميع الأصعدة. من هنا فإن الدروس الخصوصية تحول دون اتاحة فرص تعليمية لابناء الفقراء لمواصلة تعليم ذى نوعية أفضل، لأن الاغنياء هم وحدهم الذين يحصلون على نوعية افضل من التعليم فى المدارس الخاصة والأجنبية الى جانب الدروس الخصوصية، ولاشك فى أن ذلك يهدد أمننا القومى فى مقتل، فالدراسات تشير الى ارتباط الدروس الخصوصية بالمستوى الاقتصادى والاجتماعى للأسرة، ففى دراسة ميدانية أجريت عام ١٩٩٨/٩٧ اظهرت نتائجها ما يلى :

- فى التعليم الاساسى ٤٥.٨٪ من القراء يأخذون دروسا خصوصية مقابل ٦١.٤٪ للفئات الوسطى و٦٤.٦٪ للأغنياء.

- وفى التعيلم الثانوى ٦٦.١٪ من الفقراء يأخذون دروس خصوصية مقابل ٨٨.٦٪ للفئات الوسطى و٨٣.٦٪ للأغنياء.

- وفى المعاهد العليا ٥٣.٥٪ من الفقراء يأخذون دروسا خصوصية مقابل ٦٧.٧٪ للفئات الوسطى و٨٥.٧٪ للأغنياء.

- وفى الجامعة ٧.٨٪ من الفقراء يأخذون دروسا خصوصية مقابل ١١.٧٪ للفئات الوسطى و١٦.٢٪ للأغنياء .

ولقد بلغت الجملة ٥١,٣٪ للفقراء فى جميع أنواع التعليم مقابل ٦٣,٢٪ للفئات الوسطى و٦٠,٥٪ للأغنياء، ولعل ذلك يؤكد العبء الملقى على كاهل الفقراء فى تمويل التعليم بصورة خبيثة ضار للغاية بالعملية التعليمية برمتها وضار بالاستقرار الاجتماعى ومهدد أمننا القومى.

كيفية النهوض بالتعليم

نعتقد أن هذه الظاهرة فى حاجة إلى تضافر جميع الجهود الوطنية وليس وزارة التربية والتعليم بمفردها فى مواجهة تلك الظاهرة ونطرح بعض الرؤى للمواجهة:

ـ تحسين أوضاع المعلمين الاقتصادية بما يعينهم على العيش فى حياة كريمة، ولو أدى ذلك إلى وجود كادر خاص مثل رجال القضاء والشرطة وأساتذة الجامعات... إلخ.

ـ تطوير أساليب الامتحانات والتقويم بما يسمح بأعمال العقل النقدى، وجعل التقويم مستمرا، ولعل الوزارة تطرح فكرة الحوار حول استمرارية التقويم على مدار العام الدراسى وليس فى نهايته فقط، إلى جانب جعل الأنشطة والممارسات والتكليفات جزءا أصيلا من عملية التقويم، وهى بذلك الفهم المستنير تمسك حقا بتلابيب المشكلة وحلها.

ـ زيادة عدد مقاعد الدراسة بالتعليم الجامعى والعالى بما يعادل ويكافىء عدد الطلاب الراغبين والقادرين فى الالتحاق



بهذا النوع من التعليم، لأنه دون ذلك سيظل الصراع والمنافسة قائما نظرا لقلة عدد الأماكن بالجامعات والتعليم العالى.

- زيادة معابر الدخول إلى الجامعة عن طريق تيسير الشروط لطلاب التعليم الثانوى الفنى بأنواعه المختلفة للإلتحاق بالجامعة والتعليم العالى وفق شروط أكثر إنسانية، ولعل الأمل معقود على مؤتمر تطوير التعليم الثانوى الذى تعد له الوزارة الآن.

- تحديث وتطوير المفاهيم لدى المستويات الإدارية العليا فى التربية والتعليم بحيث نؤمن معا بخطوات التطوير وأهدافه وفلسفته.

- اليوم الدراسى الكامل، بما يسمح للطلاب والمعلمين ممارسة الأنشطة والتدريبات داخل المدرسة، كما يسمح بأن تكون مجموعات التقوية، التى نتحفظ عليها - تتم ليس بعد اليوم الدراسى مباشرة ولكن يمكن أن تتم مساء، وأن تتحول المدرسة إلى ساحة للعمل التربوى والثقافى ينشغل فيها المعلم والطالب والإدارة.

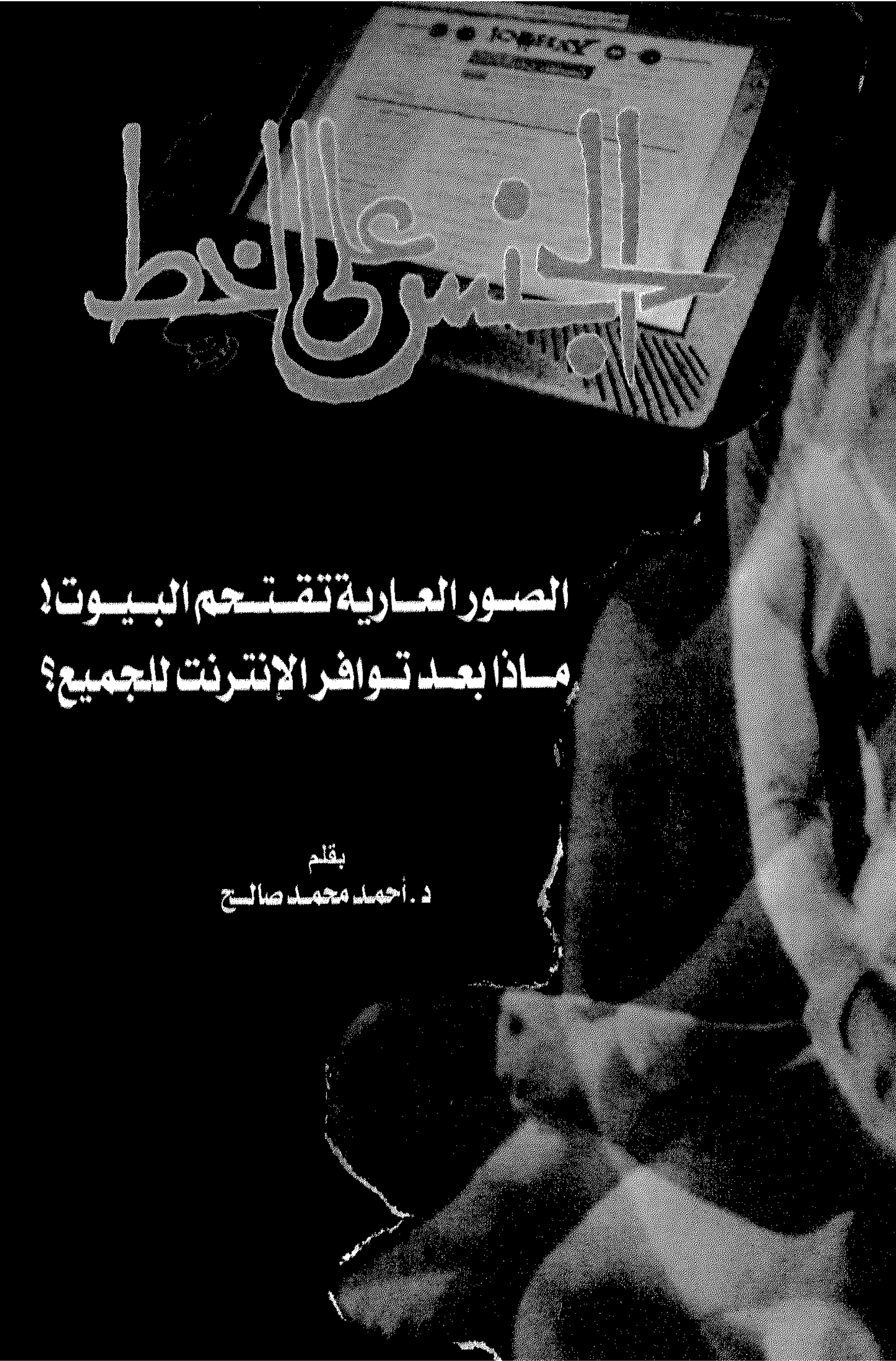
- التفكير بشكل جاد فى محاولة إيجاد صيغة للاحتفاظ بالكتاب المدرسى لأكثر من عام ؛ لأن ذلك سيوفر مليارات الجنيهات تنفق فى طباعة الكتب سنوياً .

- إتاحة القناة التعليمية للفقراء والمحرومين وأن تكون خارج الفضائيات وأن تكون بديلاً عن « الأدلة » التى تقوم بها الوزارة بطباعتها وبيعها سنوياً للطلاب فى إطار منافسة الكتاب الخارجى والاستعاضة عن ذلك بالتدريبات والتمارين فى داخل الكتاب المدرسى نفسه .

ولا شك فى أن هناك جهوداً جادة تبذلها وزارة التعليم آخرها « الإعداد للمؤتمر القومى لتطوير التعليم الثانوى، وكلها جهود سوف يكون لها أكبر الأثر فى تطوير التعليم والدخول به إلى القرن القادم . ولكن نظرا لأن التغيير فى مجال التعليم بطيء المردود ويقاوم من أصحاب المصالح سواء منهم من هم على رأس الجهاز الإدارى البيروقراطى الذى يعوق عملية التطوير دفاعا عن مصالحه ، أم من أصحاب ، مطابع شارع الفجالة والكتب الخارجية ، وكذلك من مافيا الدروس الخصوصية .

إن عملية التعليم ، هى عملية صراع اجتماعى بالأساس بين قوى التغيير والتنوير وقوى التخلف والدفاع عن الأوضاع القائمة تحقيقاً لمصالح اجتماعية وفئوية ضيقة الأفق ، تحاول أن تخنق عملية التطوير وتجعلها عملية فنية يقوم بها الخبراء والمختصون فى حين أن تلك العملية هى جوهر العمل الوطنى ، وذلك للعديد من الظواهر المنتشرة بين شبابنا ، ظواهر عدم الانتماء وطرح الحلول الفردية والخلاص الفردى .

أن التعليم مناط به دور أكبر من إكساب الطلاب معارف وعلوم معينة ، أن له دورا أساسيا فى العمل على التماسك والاستقرار الاجتماعى وتدعيم الهوية الوطنية والثقافية للأمة ، وذلك لن يكون إلا إذا أصبح التعليم فعلا : قضية أمن قومى، وقضية وطنية بالأساس ينشغل بها جميع أبناء الوطن . ■


الجنس على الخط
الصور العارية تقتحم البيوت!
ماذا بعد توافر الإنترنت للجميع؟
بقلم
د. أحمد محمد صالح

هناك مقولة منتشرة تقول: إنك إذا أردت تأليف كتاب يكون أكثر رواجا لابد أن يحتوى العنوان على كلمات مثل «الجنس والإنترنت» لذلك قررت اختبار هذه النظرية في هذا المقال. ويبدو أن تلك الكلمات تلفت انتباه القارئ وتخترق صخب وضجيج أخبار العنف والقتل والدمار التى تعج بها كتابات اليوم! والجنس يطل علينا من كل مكان في الشارع، فى الصحف والمجلات فى أفلام السينما، فى دراما التليفزيون فى أغانى الفيديو كليب، وخصوصا فى الإنترنت وقرأت أن أصحاب مواقع الدعارة والبورنو فى الإنترنت يكسبون أموالا طائلة! وقليل منهم عمل دعاية لنفسه، وأغلبهم يعيشون فى الظل حتى لا يلفتوا إنتباه المنظمات الحكومية، فهم بالتأكيد لا يريدون ذلك! وتجارة الجنس على الإنترنت ناتج عرضى مؤسف لحق الحرية التى تضمنتها الدساتير ومؤسسات المجتمع.

وفى كل مرة تظهر تكنولوجيات جديدة تجد دائما هناك من يوظفها فى توصيل أفكاره الجنسية، ومن يقول دائما إنها فى حاجة إلى تنظيم حتى لا تستغل فى الفحش ومنذ عهد قريب كنت أعبث فى أرشيف أعداد صحيفة مشهورة، لفت نظرى مقال ملخصه يقول إن التقنيات الجديدة تكتسح العالم، وسوف تغير حياة الناس إلى الأبد، فى طريقة عملهم وفى طريقة حياتهم بشرط ألا توظف تلك التكنولوجيات فى أغراض مفسدة لا أخلاقية أو غير شرعية، وإذا حدث سيكون ذلك أحد الإختراقات الأعظم للبشرية.

الجانب المظلم

الكاتب وقت كتابة هذا المقال منذ حوالى ١٠٠ سنة لم يكن يعرف الإنترنت! بل كان يتكلم عن التلغراف والتليفون كتكنولوجيا جديدة وقتها! والتليفون والتلغراف كان لهما تأثير فى حياة البشر أكبر من الإنترنت! لكن عندما يتعلق الأمر بالعمل لبيع الجنس فيجب أن نسلم بانتصارات الإنترنت، لأن الناس اليوم يعيشون فى مجتمعات افتراضية عبر الفضاء الإنترنتى أكثر مما تعيش فى مجتمعات جغرافية وإذا كانت الموجة الأولى من الدعاية والتبشير بالإنترنت لم تتكلم عن جوانبها المظلمة فاليوم نحن فى الموجة الثانية من الدعاية والإعلان عن الإنترنت وموضوعها

الرئيسى جوانب الإنترنت المظلمة ، ووسائل الإعلان متلهفة دائما على القصص التى تبين الجانب المظلم من الإنترنت، لكن ما هو الجانب المظلم فى الإنترنت؟ بالنسبة لأغلبية الناس هو الجنس! فعمليات واستفسارات البحث البريئة فى محركات البحث فى الإنترنت عن موضوع جاد يمكن أن تنتهى بمواقع البرونو وتجد أمامك فجأة على الشاشة من يدعوك أن تكمل المشوار معه! وعندما تتعمد أن تكتب كلمة جنس أو مترادفاتها فى أى محرك بحث، تجرى الشاشة أمامك بالآلاف من العناوين والمواقع المهتمة بالجنس، واتذكر أول تجربة لى وجها لوجه مع جنس الإنترنت فوجئت وأنا الشرقى الذى يحمل ثقافة الجنس كطوطوم، بالموقف فالجنس يقدم بالصورة والحركة والصوت وهناك مواقع لكل سن ولكل جنس من البشر، هناك مواقع جنس للشباب والمراهقين من الجنسين، ومواقع أخرى تقدم جنس خاص للسود والبيض والصفر والسمر ولأصناف البشر من كل بلد، ولكل عمر! ومواقع للشواذ من الجنسين والساديين والمازوكيين وأخرى لكل ما هو شاذ! ومسابقات من كل نوع لأجمل ساقين لأكبر ثدى، لأصغر وسط، إلخ..

والموضوع ليس جسد المرأة فقط.. بل أجساد الرجال والأطفال، بل كل ما هو مكسو باللحم ويزيد على ذلك أن العالم ابتلى فى شهر مايو من العام الماضى، بفيروس كمبيوترى جديد يقوم بتوجيه الأجهزة المصابة به إلى مواقع الفحش، وهى محاولة قام بها أصحاب مواقع الدعارة وتجار الجنس على الإنترنت لزيادة عدد الزوار إلى مواقعهم الاباحية ويظهر الفيروس - واسمه هومبيج - الجديد على هيئة رسالة إليكترونية بريئة تحث قارئها على التوجه إلى صفحة معينة على الانترنت، ولكن ما أن يتم فتح الرسالة حتى يبدأ الفيروس بالعمل فيوجه المتصفح إلى واحد من أربعة مواقع إباحية كما يقوم بتغير الصفحة الرئيسية للمتصفح ويضع واحدا من هذه المواقع محلها، فهى صناعة كاملة للإثارة من صور البرنوجراف والأفلام وتبادل الكلام الجنسى والأصوات المجسمة والموسيقى والأغانى وهناك كتب وألعاب ومعارض ومتاحف للجنس، وهناك أيضا مواقع مخصوصة للأمراء العرب، يقدم فيها كل ما هو غريب فى الجنس. وكانت صدمة شخصية لى! فهناك مؤسسات كاملة متعمدة إثارة الغرائز بكل الأشكال من أجل الربح لكن هناك أيضا فى الانترنت كتبا ومقالات ودراسات ومجلات ومواقع جادة علمية تعالج كافة الأبعاد الثقافية والنفسية والاجتماعية للجنس وتقدم نصائح وإرشادات للأسر الشابة الجديدة.

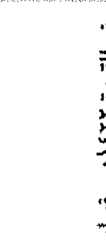
جنس الإنترنت بين العرب والغرب

وفى منطقتنا العربية فى حدود علمى لا توجد دراسات اجتماعية ونفسية

تدرس تأثير جنس الإنترنت على النسق الاجتماعى لكن الباحثين فى الغرب اهتموا بتلك الجوانب ولعل نتائج دراساتهم هناك تعطى لنا بعض المؤشرات لعلنا نتفهم أبعاد تلك الظاهرة ففى دراسة مسحية فى Denver «دينفر» بالولايات المتحدة الأمريكية نشرت نتائجها فى سبتمبر ٢٠٠٠، وأجريت على ٨٥٦ مبحوثا تمت عليهم الاختبارات الطبية اللازمة وجدوا أن الناس الذين يبحثون عن شركاء جنس عن طريق الإنترنت قد يكونون فى مجازفة كبيرة! وعرضة للأمراض المنقولة جنسيا بنسبة كبيرة جدا بالمقارنة بأولئك الذين لا يبحثون عن شركاء جنس على الإنترنت وفى ١٩ مارس عام ٢٠٠١ صدر فى أمريكا كتاب بعنوان «الفحش العام» - حماية الأطفال من فحشى الإنترنت، ومؤلفه Dan Gabriel يقول فيه: قد أصبحت المكتبات العامة ميدانا للقتال على الأدب المكشوف للإنترنت والمحافظين المخلصين فى كل مكان أصبحوا يطالبون بالتدخل الفيدرالى لحماية أطفالهم وأن الحرب الثقافية تشتد داخل مكتبات أمريكا حيث تحذر جماعات المحافظين من جنس الإنترنت المنتشر خاصة فى المدارس الداخلية، وأن مكتبات المدارس العامة أصبحت مأوى للكلام البذئ الخالى من الخجل خلال خدمة الإنترنت التى تقدمها تلك المكتبات وهو مؤشر لنا فى منطقتنا العربية للرقابة على مراكز ومقاهى الإنترنت المنتشرة فى البلاد ويقبل عليها الشباب والمراهقين هربا من الرقابة الأسرية خاصة وأن الإنترنت فى الغرب بوابة واسعة لتجنيد الأطفال والشباب من الجنسين فى أفعال الجنس الشاذة.

الجنس فى المكتبة والمدرسة

وفى دراسة شيقة أخرى جمعت بياناتها من المكتبات العامة فى الولايات المتحدة الأمريكية تبين فيها أن ٢٧٪ من المكتبات التى استجابت للدراسة سجلت فيها ٢٠٦٢ حادثة فى سنة واحدة سابقة للبحث تعرض فيها المترددين على المكتبة للأدب المكشوف من خلال خدمة الإنترنت التى تقدمها المكتبات وكان بينها خمس حالات تحرش جنسى للأطفال و١٠٦ حالة لكبار يشاهدون الأدب المكشوف عبر الإنترنت و٤٧٢ حالة من الأطفال يتصلون ويدخلون على الأدب المكشوف فى الإنترنت وتقدر حوادث التعرض للأدب المكشوف فى الإنترنت عبر المكتبات العامة فى الولايات المتحدة ما بين ٤٠٠ ألف و٢ مليون حالة على المستوى القومى، واتضح أن أكثر من ٥٠٪ من فصول المدارس فى الولايات المتحدة الأمريكية متصلة بشبكة الويب ٨٢٪ من الأباء فى كل الولايات المتحدة الأمريكية أعربوا أنهم يتوقعون أن يصل أطفالهم إلى المواد الممنوعة فى الإنترنت رغم كل المحاذير وبرامج الفترة ويعتقد ٥٨٪ من الأباء الذين لا يملكون اتصالا



بالانترنت فى منازلهم أن اعتماد أولادهم على الوصول إلى الإنترنت من خلال المكتبات العامة والمدارس مدخل آمن ونظيف لأطفالهم، ولكنه اعتقاد خاطئ تماما! لأنه ليس سرا أن العالم كله يعرف أن الأطفال حينما يجلسون أمام الإنترنت ويحركون فأرة الكمبيوتر يصبح أمامهم من ٧٢ ألف إلى ١٠٠ ألف موقع جنس وبرنوجراف واضحة تماما وأن تلك المواقع تزيد حوالى ٤ آلاف موقع يوميا و٨٥٪ من تلك المواقع لها طبيعة تجارية حيث تبيع الأدب المكشوف والترفيه الجنسى وهى تمثل ثالث أكبر قطاع مبيعات على الشبكة حيث تقدر بواحد بليون دولار فى نهاية ١٩٩٩.

دراسات ونسب إحصائية

وفى دراسة أخرى قامت بها Net-doctor.co.uk وهى شبكة طبية مستقلة تقدم خدماتها فى الرعاية الصحية على الخط عبر الإنترنت، ونشرت دراستها فى ٣٠ ابريل ٢٠٠١ بلندن من خلال تقرير دكتور ديفيد ديلفين Dr David Delvin حيث تبين أن واحدا من كل خمسة فى بريطانيا يدخلون مواقع الجنس على الإنترنت وقد أجرى البحث بين أكثر من ٨٥٠ بالغا فى بريطانيا من خلال استبيان عبر موقع الشبكة فى الإنترنت وتراوحت أعمارهم من ١٦ – ٨٠ عاما، وأوضحت الدراسة أن ٢٥٪ من الرجال و١٥٪ من النساء فى المسح ادعوا أنهم يمارسون جنس الإنترنت وبمعنى آخر يمارسون الإستمناء بينما هم على اتصال مع شخص ما على الإنترنت، وتبين أن ٩٠٪ من المستجيبين يصفون أنفسهم بأنهم heterosexual بمعنى يمارسون الجنس مع الجنس المغاير لهم فى النوع، ١٨٪ من الرجال و٤٠٪ من النساء اعترفوا بالتخيل بممارسة الجنس مع شخص من نفس النوع ، و٦٪ من كلا من الذكور والإناث مارسوا الجنس فى الحقيقة مع شخص من نفس النوع. وحوالى ١٦٪ من الرجال و٧٪ من النساء قالوا أنهم مارسوا الجنس فى مجموعة، و١٨٪ من النساء مقابل ١٦٪ من الرجال قالوا بأنهم تمتعوا بنوع الجنس المصحوب بعبودية الضرب والصفع و١٦٪ من النساء مقابل ١٣٪ من الرجال تمتعوا بالضرب على العجز و٨٪ من كلا النوعين اعترفوا بالتأنق فى ملابس داخلية أو خارجية للجنس المعاكس لهم من أجل الاستمتاع بالجنس والدكتور ديفيد ديلفين مستشار الجنس فى NetDoctor.co.uk قال أن هذا المسح يظهر أن الإنترنت لها دور مفيد في السماح للناس لإستكشاف ومناقشة المناطق التى عادة ما يشعر الناس بالخجل والإحراج من مناقشتها حتى مع الأصدقاء والمقربين منهم، وشركائهم فى الحياة! والعديد من الناس ، هذه الموضوعات قد تكون مخاوف

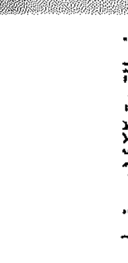
وهواجس جنسية ، وادعى أكثر من ربع الرجال والنساء ، أن طريقة تربيتهم وتنشئتهم شجعتهم على الاعتقاد بأن الجنس يعد موضوعا شريرا أو قذرا، وحوالى ٦٠٪ من الرجال والنساء اعترفوا بأنهم يملكون تخيلات جنسية خاصة لا يعترفون بها لشركائهم وتقريبا ثلثى الرجال وثلث من النساء قالوا بأنهم أرادوا ممارسة الجنس مع شخص ما من نوع مختلف عنهم.

مواقع الإنترنت الترفيه

وفى دراسة مسحية على الإنترنت فى كاليفورنيا تشير إلى زيادة وسيطرة أعداد الرجال المستعملين لمواقع الويب الجنسية بدرجة تفوق كثيرا النساء ، لكن كانت المفاجأة أن أعداد الشابات المترددات على المواقع الجنسية فاق كل التوقعات! وكان حوالى ١٣٥٠٠ شخص أجابوا ٤٧ سؤالا صممت لتقصى عاداتهم الجنسية على الإنترنت وكان تسعة وخمسون بالمائة من نساء المسح أعمارهن بين ١٨ و٣٤ واشارت النتائج بأن الناس يتصفحون مواقع جنس الإنترنت للإستجمام أو الترفيه وليس للإرضاء الجنسى. وأن الإنترنت لها الإمكانية لتثوير الجنس، وسيكون لها تأثير رئيسى على الجنس فى المجتمع وقال بعض مستعملى الإنترنت بأنهم يبدون أحرارا أكثر لإستكشاف جنسهم على الإنترنت وقال آخرون لا أحد يعرف أو يحتاج لمعرفة ما تعمله ، لذلك يمكنك أن تشعر بالحرية لما تريد! وزعم البعض قائلا: أنت لست فى دكان دعارة فاسد، ولا أحد يراقبك! أنت فى فضائك الخاص «الخاص جداً»، ولا يستطيع أى قانون مقاضاة الناس لمجرد وجود صور خلاعية من الانترنت فى أجهزة كمبيوتراتهم الموجودة فى منازلهم! واتضح أيضا ارتفاع نسبة ممارسات جنس الانترنت خاصة على شبكة الويب، وأن زيادة مواقع الويب الخلاعية وغرف الدردشة الشبقية، قد يخلق جيلا من الناس لا يستطيع السيطرة على دوافعهم الجنسية الجامحة! ويقول سان خوزية «San Jose » من مركز بحوث الزواج والجنس أن هناك حوالى ١٪ من المبحوثين يصرفون أكثر من ١١ ساعة أسبوعيا فى الجنس على الانترنت، وهكذا يمكن أن يصنفوا على أنهم Cy-bersex Compulsives. بمعنى أنهم يملكون دوافع جامحة فى ممارسة جنس فضاء الانترنت، وأشار البحث بأن ٢٠٪ من الرجال و١٢٪ من النساء يدخلون مواقع الجنس فى الانترنت من أماكن عملهم!

وفى انجلترا بالتعاون بين مركز أبحاث الجرائم ضد الأطفال التابع لجامعة نيوها مبشير مع المركز القومى للأطفال المفقودين والمستغلين وضع تقرير عن ضحايا الانترنت، والذى تبين منه أن:

٦٦٪ من الذين عرض عليهم الجنس



كانوا من الإناث، و ٧٠٪ من الحوادث وقعت عندما كان الأطفال والفتيان يستخدمون كومبيوتراتهم المنزلية، و ٦٥٪ من الحوادث وقعت لدى الدخول إلى منتديات الحوار. فيما وقعت ٢٤٪ من الحوادث بواسطة ارسال رسائل سريعة Instant Message، وأخبر ٢٩٪ من الأحداث صديقا لهم أو أخواتهم بينما أبلغ ٢٤٪ منهم آباءهم بوقوع الحوادث، وعرضت على ٢٥٪ من الأحداث صور جنسية، وأكد التقرير أن تحذير الأطفال بعدم التحادث مع الغرباء لا يعتبر كافيا وينطبق ذلك على المراهقين، حيث ظهر أن ٧٧٪ من الأحداث الذين عرضت عليهم علاقة جنسية كانوا من أعمار ١٤ عاماً فأكثر، هناك دراسات كثيرة تكشف أن الاهتمام بجنس الانترنت يتفاوت من مكان لآخر، وأن هناك علاقة بين جنس الانترنت وزيادة العنف ضد النساء.

وإذا كان العالم كله يسعى إلى عبور الانقسام الرقمي، ويحاول أن يجعل الانترنت يصل إلى كل بيت وكل مدرسة وكل مكتبة عامة! فما هو تأثيرها؟ وهى تمتلىء بالبورنوجراف وحليقو الرءوس والفوضويون والعنصريون، ولصوص الكومبيوترا والارهابيون، والمتطرفون، والداعرون، والشواذ، وكل هؤلاء يتقيأون أفكارهم فى الانترنت التى نسعى إلى أن يصل كل بيت ومدرسة، وكل مكتبة وكل مكان عام! مع العلم أن جميع الحلول التقنية فشلت فى منع الوصول الى المواقع غير المرغوبة، وقد نشرت فى جريدة الحياة التى تصدر فى لندن، نتائج مسح قامت به الجريدة ونشرت نتائجه فى نوفمبر ٢٠٠١، على عينة من المستخدمين السعوديين للشبكة فى مقاهى الانترنت التى لا يتجاوز عددها فى السعودية ألف مقهى، فرغم الفلاتر والرقابة على الانترنت هناك أوضح الاستطلاع أن عدد الساعات التى يقضيها الذكور فى استخدام الشبكة يزيد بمعدل الضعفين عنه عند الإناث، وتبين أن استخدامات الإناث للشبكة تنحصر فى فترتى العصر وبعد منتصف الليل لعدم وجود رقيب. وأكد ٥٠٪ فى المائة من المستخدمين امتلاكهم لأجهزة شخصية فى منازلهم إلا أنهم يفضلون استخدام الشبكة من خلال مقاهى الانترنت المنتشرة بينما ٥٠٪ فى المائة يلجأون إليها نظراً لعدم امتلاكهم تلك الاجهزة . أما بالنسبة إلى المواقع التى يتم تصفحها فاتضح أن ٦٠٪ فى المائة من الذكور يقتصر استخدامهم فى المقاهى على مواقع الدردشة بينما ٨١ فى المائة يتفقدون بريدهم الالكترونى و ٢٢ فى المائة يقومون بالبحث عن مواقع إباحية جديدة على الشبكة، وبلغت نسبة المحادثة للإناث مائة فى المائة، واتضح أن انخفاض أسعار أجهزة الحاسب الشخصى سهل من عملية اقتنائها

خاصة للمراهقين الذين وجدوا فى الشبكة ما يرضى طموحهم من إبحار فى عالم مملوء بكل ما هو أباحى ومثير.

هل الرقابة هى الحل؟

والسؤال الآن هل الرقابة على الانترنت سوف تريحنا من جنس الانترنت؟ أو بمعنى آخر هل تتحسن حياتنا إذا نحن منعنا صور وأفلام الاباحية فى الانترنت؟ قبل القرن العشرين كانت النخبة الغنية فقط هى التى تتعرض لصور وأفلام البورونوجراف! ومع ذلك كان العنف والتطرف منتشراً لآلاف السنوات قبل ظهور المطبعة واختراع الكاميرا! واليوم الدول التى تمنع الصور الجنسية والموسيقى الغربية الخليعة مثل بعض الدول الاسلامية والصين تعانى من عدم انسجام اجتماعى وتمييز ضد المرأة، ومنذ آلاف السنين مراهقون تزوجوا ، وحملوا بدون صور جنسية.

والسجل التاريخى للعنف والاعتداء الجنسى والاغتصاب والدعارة منتشر على مر التاريخ قبل اختراع الصور والأفلام ! فالإدعاء بأن المواد الجنسية أكثر انتشاراً وعنفا اليوم بالمقارنة فى أى وقت سابق سؤال عبثى ، وأتذكر هنا مقال للكاتب «خالص جلبى» فى جريدة الشرق الأوسط تحت عنوان «علاقات القوة والجنس» يقول فيه بعد موجة الرهبنة وحبس الغرائز وإكراهات العصر الفيكتورى انتشرت سحب الاباحية والشذوذ الجنسى، وعندما بدأت أفلام (الجنس) Sex فى الغرب تفيض بها الرفوف فلا ترى إلا العرى، وانطلقت موجة الستربتيز فى الستينات من بريطانيا فزكمت الأنوف وشكلت أشرطة الجنس ٨٠٪ من خزائن النوادى حسب احصائيات مجلة (در شبيجل). وبعد عدة سنوات انكسرت حدتها فتراجعت إلى ٢٠٪ ثم تحولت إلى ظاهرة مخيفة بين (الجمود) و(الانحراف) فالجنس كالسبع الضارى من حرضه وثب عليه فافترسه، ومن رمى له بقطعة لحم اسكت جوعه فأمنه.. هكذا يقول (ابن مسكويه) فى كتابه (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق).

واليوم تتدفق أمواج الإباحية من المحطات الفضائية وتفعل فعلها السمى فى العالم العربى، فلا يستطيع منعها إنس ولا جان، فهى تقتحم بيئة عذراء غير مهيأة لهذا النوع من الاجتياح فى ظل تابو المجتمع العربى ، الذى يواجه العولمة كمن يحارب الفانتوم بالعصا، ولم تتطور الثقافة الجنسية بين (الإظهار) و(الإخفاء) من فراغ على قاعدة (ارسطو) الذهبية أن كل فضيلة هى وسط بين رذيلتين. فمع الإباحية يتحول المجتمع إلى مستنقع يَستحق التدمير. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ومع الكبت تنشأ الأمراض النفسية من الهلوسة الجنسية فيتحول كل النشاط إلى جنس حتى لو

كان ظاهرياً عين التقوى. ويصبح (جسد المرأة) المسرح السياسى لطغيان الرجل وإعلانه الوصاية على كائن متخلف عقليا لا يعرف ما يستتر به نفسه. ويعلل (مالك بن نبى) فى كتابه (شروط النهضة) المعركة حول جسد المرأة بالمزيد من تعريتها أو التشدد فى تغطيتها الى الآلية الخفية نفسها من الدافع الجنسى مع أن ظاهر الأمر يوحى بالتناقض بين الفحش والتقوى، لكنه فى حقيقته واحد مثل الفيلم الأسود قبل التحميض والملون لاحقاً، لكن أكثر الناس لا يعلمون، ونزعم هنا إلى أن ما ذهب إليه الكاتب من تأثير المحطات الفضائية ينطبق تماما ويزيد على الانترنت! وأن فيض الجنس فى الانترنت سيصل لمرحلة اشباع يتراجع فيها! ويجب ألا يخيفنا جنس الانترنت، ويجعلنا نحجم عن استخدام هذه الشبكة العالمية الرائعة، بل يجب أن يدفعنا ذلك للتعرف على أنواع جرائم الانترنت، ونأخذ منها الحذر والحيطة ، فالجريمة وجدت على الأرض منذ وجود الإنسان، وتنوعت أشكالها، وأدواتها تكاثرت مع تعقد الحضارة البشرية، وتزايد الابتكارات العلمية، فمع اكتشاف الزراعة ظهرت جرائم حرق وغرق المزروعات ، وسرقة الحيوانات وتسميمها ، وبعد اختراع السيارة، ظهرت جرائم سرقة السيارات، وعندما جاء التليفون، ظهرت جرائم الخداع والمضايقات عبر الهاتف

نشاطات اجرامية

وبعد اختراع الطائرة ، ظهرت جرائم اختطاف الطائرات.. ومع ظهور « شبكة الانترنت» ونموها السريع وانغماس عشرات الملايين فى نشاطاتها المعلوماتية والتجارية والترفيهية، وجه البعض نشاطاتهم الاجرامية إلى هذه الشبكة العالمية، وهو أمر طبيعى! فالجريمة موجودة فى أى مجتمع، مهما كان صغيراً، فما بالك بمجتمع الانترنت الذى تجاوز عدد مواطنيه مئات الملايين. والجرائم التى تدور عبر الشبكة متنوعة، وتتراوح بين الجنح الصغيرة والجرائم الخطيرة، منها الاحتيال، نظراً لسرعة وسهولة ارسال الرسائل بواسطته إلى عدد كبير من الناس، ويوميا استقبل عشرات الرسائل الالكترونية التى تعد بتحقيق ثروة كبيرة خلال أسابيع قليلة، وما عليك سوى التضحية بحفنة دولارات! وهذا الخطر المتنامى من الجرائم عبر الانترنت، بدأ يلفت الانتباه فى العواصم العالمية، وعملت حكومات العالم على سن القوانين التى تحمى الناس من جرائم الانترنت وسعى المصممون إلى تصميم برامج فلترة وترشيح للانترنت من تلك المواقع، ووضعت لوائح للانترنت تقاضى بها المبتدئين وفاقدى الحياء، لكن هناك فى نفس الوقت من يحذر من إمكانية ضياع

الحرية التى تتمتع بها شبكة الانترنت، الأمر الذى يهدد بتحويلها إلى واحدة من أكثر وسائل النشر تقييداً، ففى الوقت الحالى يتعرض كل مستخدم للانترنت للكثير من المواقع ذات المضامين المتطرفة أو الخارجة عن قواعد الذوق العام وتتنوع هذه المواقع ما بين تلك التى تنشر مواد جنسية أو آراء عنصرية، وقد حدث أن استخدم بعض المجرمين الانترنت لنشر تبريراتهم لجرائمهم والإشكالية التى تواجه الحكومات فى شتى أرجاء العالم الآن هى إمكانية وكيفية حماية عامة الناس، والأطفال بصفة خاصة من مخاطر الانترنت، دون المساس بحرية النشر والابداع المكفولتين فيها حاليا، ويطرح كتاب صدر مؤخراً للصحفى البريطانى ألان ترافيس استعراضا لتاريخ الرقابة فى بريطانيا ونظرة متشائمة لمستقبل الانترنت إذ أعرب المؤلف عن اعتقاده بأن الزوال هو مصير ما تتمتع به شبكة الانترنت من حرية جعلت منها حتى الآن وسيطا لم يسبق له مثيل لنقل المعلومات إلى أى مكان فى العالم وذكر الكاتب أن موقف الحكومة البريطانية فى هذا الصدد يقوم على وجوب عدم استثناء الانترنت من قوانين النشر والبث المعمول بها فى وسائل الثقافة والاعلام التقليدية، لكنه أشار إلى أن المشكلة تكمن فى تلك القوانين ذاتها التى تسودها فوضى عارمة، فبعضها يرجع تاريخ صدوره إلى أكثر من مائة عام، كما أنها تحمل تعريفات متناقضة لما يتنافى مع الذوق والأدب العامين ويوضح الكتاب أنه لم تكن هناك صعوبة فى الماضى فى تطبيق قوانين النشر نظراً لأنها كانت تتعامل مع أشياء ملموسة فإذا كان الأمر يتعلق بكتب أو مجلات أو أفلام خارجة. حظر نشرها وتداولها لكن الأمر ليس بهذه البساطة فى الانترنت وحذر الكاتب من أن الفشل فى ايجاد القوانين الصالحة للتطبيق على الانترنت سيؤذن بنهايتها وضياع كل ما تتمتع به من سمات فريدة وسيفتح المجال لوقوع الكثير من المظالم ورغم اعترافه بأن المهمة عسيرة للغاية، فإن الكاتب اقترح المزج بين استخدام سلاح الحظر ضد المواقع التى لا يختلف على خطورتها، كتلك التى تسعى لاستغلال الأطفال جنسيا، وفى نفس الوقت إعطاء الآباء والأمهات الأدوات التى تسمح لهم بفرض المزيد من القيود على ما ينهله أبناؤهم وبناتهم من الانترنت، ويذكر أن رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير كان قد صرح بأنه يفضل أن تكون، الرقابة على الانترنت مسئولية الآباء والأمهات بدلا من أن تكون مهمة الحكومة. ■





مراد غالب يتذكر

بقلم
د. رءوف عباس

• حكاية اختراق الموساد للمخابرات الروسية

الدكتور مراد غالب نجم تألق فى سماء الدبلوماسية المصرية مع ثورة يوليو ١٩٥٢، ويعد من أبرز خبراء العالم بشئون الاتحاد السوفييتى، فقد خدم بسفارتنا بموسكو أربعة عشر عاما، كان فى معظمها سفيرا، اقترب خلالها من دائرة صنع القرار فى الاتحاد السوفييتى، وربطته روابط الصداقة بقادة الاتحاد وخاصة خروشوف، كما اقترب - أيضا - من دائرة صنع القرار فى بلاده. فى مكتب الرئيس جمال عبدالناصر وفى وزارة الخارجية، وقد عده الجميع «رجل عبدالناصر» وهى حقيقة يعتز بها ولاينكرها، ولاشك أن رجلا مثله لديه الكثير من المعلومات عن الحوادث التى شارك فيها والتى شهدها، ومن هنا تأتى أهمية الكتاب الذى صدر أخيرا متضمنا ذكرياته.



مراد غالب مع الرئيس جمال عبد الناصر

• عندما وجد مراد غالب نفسه طرفا فى لعبة الصراع

ورغم هذا الدور البارز الذى لعبه مراد غالب فى السياسة المصرية زمن الحرب الباردة، لم يفكر الرجل فى أن يدون مذكراته عن عمله بحجة أن ماقد يذكره ربما يسبب ضيقا لبعض الشخصيات التى قد يأتى على ذكرها، وهو الطبيب الذى يداوى الجراح ولاينكأها، حتى استطاع الكاتب الاستاذ عاطف الغمرى أن يقنعه بأن يروى له ذكرياته فى جلسات عقدها معه على مدى شهرين، كان عاطف الغمرى فيها مستمعا، يتوقف أحيانا عند بعض الأمور، يناقشه فيها، حرص على أن يسجلها فى المقدمة التى كتبها للكتاب الذى صدر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر بعنوان: «مع عبدالناصر والسادات، سنوات الانتصار وأيام المحن، مذكرات مراد غالب»، عارضا - بأمانة - لإجابات مراد غالب على ما طرحه عليه من تساؤلات.

وقد جاء الكتاب خلوا من الحديث المستفيض عن فترة التكوين: الطفولة

مراد غالب يتذكر

والصبا، وظروف النشاة رغم أهميتها القصوى فى تشكيل الشخصية، سوى معلومات مقتضبة، ذكرها مراد غالب فى معرض تأصيل علاقته بالضباط الأحرار. تعرف من تلك المعلومات أنه ولد بحى الصليبة بالقاهرة عام ١٩٢٢ لأسرة لم يذكر عنها شيئا، انتقلت للاقامة فى حى مصر الجديدة بعد مولده بعامين، وقد ربطته أيام الدراسة بمدرسة مصر الجديدة الابتدائية صداقة حميمة بثلاثة زملاء أصبحوا - فميا بعد - من الضباط الأحرار، هم: كمال رفعت، وحسن التهامى، وصلاح دسوقى، وامتدت الصداقة عبر المرحلة الثانوية بمدرسة القبة الثانوية، ثم تفرقت بهم سبل الدراسة فتوجه مراد غالب إلى دراسة الطب، بينما أصبح أصدقاؤه الثلاثة ضباطا ربطتهم ظروف العمل الوطنى بعضوية خلية سرية جعلتهم على صلة حميمة بالفريق عزيز المصرى، ومن هنا جاءت صلات مراد غالب بالضباط الأحرار، وبزعيمهم جمال عبدالناصر.

الخلفية السياسية

ويروى لنا مراد غالب كيف بدأ وعيه السياسى يتفتح كأحد المعجبين بالوفد فى إطار ذكريات ثورة ١٩١٩، وكفاح الوفد بزعامة مصطفى النحاس للمطالبة بالحقوق الدستورية للازمة، غير أنه تأثر بما كان يبثه ناظر المدرسة الإبتدائية فى تلاميذه من إعجاب أسطورى بالألمان، باعتبارهم العدو اللدود للإنجليز، الذين قد يساعدون مصر علي التخلص منهم، كما أعجب بمصر الفتاة وزعيمها أحمد حسين، واهتم بالتعرف على الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية تحت تأثير الإعجاب بما حققه الإتحاد السوفييتى من انتصارات، ولكن مراد غالب حرص على ألا يرتبط بأى حزب بروابط تنظيمية، فهو يريد أن يكون له تفكيره وموقفه المستقل، أقرب مايكون إلى الليبرالية.

بهذه الخلفية السياسية بدأ مراد غالب عمله الدبلوماسى فى ظروف بالغة الطرافة، فقد كان مدرسا للطب بجامعة الاسكندرية عند قيام الثورة، ونظرا لصلاته الحميمة بالفريق عزيز المصرى، أصر الأخير عندما عرض عليه عبدالناصر منصب السفير فى ألمانيا (١٩٥٣)، أن يكون فى صحبته أصدقاؤه الأربعة من الشباب: كمال رفعت، حسن التهامى، صلاح دسوقى، مراد غالب فاعتذر له عبدالناصر عن عدم امكانية الاستغناء عن

الضباط الثلاثة فى هذه الظروف، وكلف مراد غالب بهذه المهمة، فنقل من الجامعة ليشغل وظيفة السكرتير الثانى بالخارجية حتى يعمل مع عزيز المصرى فى المانيا، ولكن العلاقات مع ألمانيا قطعت بسبب مسألة التعويضات التى قدمتها لاسرائيل، فتغيرت السفارة التى أرسل إليها عزيز المصرى فأصبحت موسكو بدلا من بون، وهكذا بدأ مراد غالب عمله الدبلوماسى بالاتحاد السوفييتى، فتعلم اللغة الروسية ليتعرف على البلد وأهله وثقافته حتى يخدم بلاده - فى موقعه - على خير وجه.

مهمته الأولى بموسكو

كان عبدالناصر قد طلب منه استكشاف الاتحاد السوفييتى والنظام السوفييتى وكيفية الاستفادة منه فى صراع حيوى وخطير مع الغرب، ومدى إمكانية مده لمصر بالبترول فى حالة قيام الانجليز بقطع امدادات بترول خليج السويس، ومدى إمكانية شرائهم للقطن المصرى فى حالة تعرضنا للمقاطعة الغربية وأخيرا مدى إمكانية تقديم السلاح لمصر، ومهام كهذه كانت تتطلب معرفة جيدة بالاتحاد السوفييتى، حرص مراد غالب أن يعد نفسه لها خير إعداد.

وانتهت مهمة مراد غالب فى موسكو فى فبراير ١٩٥٧، ليعمل فى رئاسة الجمهورية فى لجنة خاصة رأسها حسين ذو الفقار صبرى كانت تتولى دراسة القضايا المهمة، وبعد مناقشات مستفيضة تسجل فى مضابطها، ترفع توصياتها لرئيس الجمهورية، وغالبا ماكان رأى هذه اللجنة يرجح رأى الوزارات المعنية وخاصة الخارجية، وقد سميت هذه اللجنة «لجنة الرئاسة»، ويشير مراد غالب إلى مهام المكاتب الأخرى بالرئاسة مثل مكتب الشئون العربية برئاسة كمال رفعت، ومكتب الشئون الإفريقية برئاسة محمد فايق، وكانت هذه المكاتب تمد الرئيس بالمعلومات إضافة إلى تقارير المخابرات، ومتابعة عبدالناصر للإذاعات، أما محمد حسنين هيكل فكان أحد المصادر المهمة للمعلومات عن الغرب وأمريكا خاصة، وكان تعامله مع الرئيس مباشرة.

ومن خلال وجود مراد غالب عضوا بلجنة الرئاسة، كان الاحتكاك الأول مع المشير عبدالحكيم عامر، عندما أسند الرئيس إلى لجنة الرئاسة تقييم تجربة حرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثى) وخاصة أوجه القصور التى شابت أداء القوات المصلحة، وانتهت اللجنة من دراستها الى نتيجة مؤداها أن الحرب القادمة مع اسرائيل ستكون جوية، لسلاح الطيران فيها دور حاسم، وأن الأسلحة الأخرى

مراد غالب يتذكر

سيكون الغرض منها السيطرة الميدانية واحتلال الأرض تحت الغطاء الجوى، فغضب المشير عندما أبلغ بتوصيات اللجنة وعده تدخلا فى شئون الجيش، وكان من بين القضايا التى درستها لجنة الرئاسة «الوحدة مع سوريا، وثورة العراق عام ١٩٥٨، والتدخل الإنجليزى فى الأردن والأمريكى فى لبنان».

وفى عام ١٩٦٠ عين مراد غالب سفيرا لمصر فى الكونجو ، حيث عصار أزمته السياسية، ولعب دورا مهما فيها، إذا كان مصدر الصلة الوحيد مع لومومبا فى مخبأه، وقام بتهريب زوجة لومومبا وأولاده إلى القاهرة، ولكن مقتل لومومبا، وتولى موبوتو مقاليد الأمور غلّب كفة المصالح الاستعمارية، فتم طرد السفير مراد غالب ورجاله وأغلقت السفارة المصرية، والمعلومات التى يوردها مراد غالب عن الكونجو على درجة كبيرة من الأهمية.

بين عبدالناصر وعامر

ومرة أخرى، يجد مراد غالب نفسه - دون أن يدرى - طرفا فى لعبة الصراع بين عبدالناصر وعبدالحكيم عامر، فقد أعدت وزارة الخارجية العدة لإيفاده إلى نيويورك رئيسا للوفد المصرى للأمم المتحدة، ومهدت لذلك فى أوائل ١٩٦١ بإرسال كل الطاقم الذي كان يعمل معه بسفارة مصر بالكونجو إلى نيويورك، ولكنه فوجىء باختيار عبدالناصر له سفيرا فى موسكو بدلا من نور الدين قرة مرشح المشير لهذا المنصب، ومن ثم عامله المشير - فى زياراته لموسكو - بتحفظ باعتباره «رجل عبدالناصر» غير أن مراد غالب استطاع أن يذيب الجليد بينه وبين المشير، وأن يكسب ثقته.

سفيرا فى موسكو

وكان وجود مراد غالب سفيرا فى موسكو اختيارا موفقا، فقد استطاع أن يوحِّد عمل المكاتب المصرية المختلفة فى موسكو تحت رئاسة السفير بعد أن كان كل منها يعمل بمعزل عن السفارة، وكان ذلك موضع انتقاد السوفييت، وأصبح السفير قناة الاتصال الوحيدة بين الرئيس عبدالناصر والقيادة السوفيتية.

واستفادت مصر من صداقة مراد غالب لخروشوف استفادة كبيرة، فقد استطاع أن يزيل سوء التفاهم بين عبدالناصر وخروشوف خلال زيارة خروشوف لمصر (مايو ١٩٦٤) للمشاركة فى احتفالات السد العالى، وقد أورد فى



مع السادات أثناء زيارة الكرملين

الكتاب الانتقادات التى وجهها خروشوف لتجربة التنمية فى مصر، وما قدمه من نصائح فى هذا الخصوص، وحرصه على تأكيد أن الاتحاد السوفييتى لايود التدخل فى شئون مصر، فاختيار الطريق الذى تسلكه من شأنها وحدها.

وقد كان خروشوف متفهما لظروف مصر، مقدرا لعبدالناصر، مجيبا لطلبات المساعدات التى تلقاها من مصر، متجاوزا فى ذلك صلاحياته، ويذكر مراد غالب أن من الأمور التى حوسب عليها خروشوف أمام اللجنة المركزية، وكانت من بين أسباب عزله فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٤، إسرافه فى تقديم المساعدات لمصر وكوبا.

ورغم حساسية موقف مراد غالب باعتباره صديقا حميما لخروشوف، استطاع أن يكسب ثقة القيادة الجديدة فاستمر فى عمله بنجاح، وأكدت القيادة السوفيتية حرصها على دعم مصر ومساعدتها.

أسرار حرب ٦٧

ويلقى مراد غالب أضواء على حرب يونيو ١٩٦٧ من الجانب الذى عمل معه، أى الجانب السوفييتى، فيتحدث عن خطة الخداع الاستراتيجى التى استخدمتها إسرائيل، من خلال اقناع الروس بأن هناك حشودا اسرائيلية على حدود سوريا، ويرجع مراد غالب ذلك إلى امكانية وجود اختراق اسرائيلى للمخابرات الروسية، وكذلك الدور الذى لعبه الروس

مراد غالب يتذكر

فى نصيحة مصر بأن تتجنب القيام بالضربة الأولى (بناء على طلب الرئيس الأمريكى)، وقد استنتج مراد غالب من قدوم الملك حسين (ملك الأردن) المفاجىء إلى مصر، وطلبه من عبدالناصر تعيين قائد مصرى للجبهة الأردنية (٣٠ مايو)، أنه كان ضالعا فى خطة التمويه الاستراتيجى لتوريط عبدالناصر فى حرب قد يترتب عليها تصفية نظامه.

ونظرة من الجانب الآخر - الذى لم يره مراد غالب - جانب حلف الأطلنطى، تكشف وثائق الحلف أن اجتماعا خاصا عقد على المستوى الوزارى عام ١٩٦٤و بناء على طلب تركيا، لوضع خطة التخلص من عبدالناصر ونظامه عن طريق الحاق هزيمة مهينة له، تستخدم فيها اسرائيل، من خلال خطة خداع استراتيجى محكمة، ووزعت الأدوار (على مايبدو) بين أعضاء الحلف (ومن بينهم الولايات المتحدة الأمريكية) وأصدقاء الغرب فى المنطقة، وفى مقدمتهم الملك حسين.

ولعل أهم مافى الكتاب حديثه (بالغ الاقتضاب) عن موقف السوفييت من هزيمة ١٩٦٧، وخاصة أنهم استخدموا فى خطة الخداع الاستراتيجى، ورأيهم فى كيفية تناول الكارثة التى ترتبت على الهزيمة، فيتحدث عن تردد السوفييت فى مد مصر بالأسلحة الهجومية ذات الآثار الفعالة لموازنة مالدى اسرائيل من نظائر لتلك الأسلحة، وكيف اضطر السوفييت - أمام تهديد عبدالناصر. بالاستقالة من منصبه - إلى قبول مد مصر بنظام للدفاع الجوى أدى إلى إنهاء الهجمات الإسرائيلية على العمق المصرى فى حرب الاستنزاف، وحسَّن وضع مصر فيها، وكذلك أشار مراد غالب إلى الدور الذى لعبه السوفييت فى إعادة بناء القوات المسلحة من خلال الخبراء السوفييت، وما كان لحرب الاستنزاف من أثر إيجابى لتدريب القادة والضباط على الحرب الفعلية، فكان له مردوده الإيجابى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣.

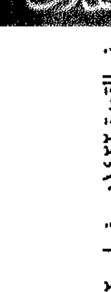
ولو كان مراد غالب قد إهتم بكتابة مذكرات حقيقية مستفيضة وليس مجرد ذكريات يرويها على الغير، لقدم لنا مذكرات بالغة القيمة، تتناول بتفصيل أعمق الموقف السوفييتى من حرب يونيو، وحرب الاستنزاف، وما تصوروه سبيلا لحل مايسمى بمشكلة الشرق الأوسط، ولاشك أن لدى مراد غالب معلومات بالغة الأهمية كان عليه آن يسجلها للتاريخ،

فلديه وحده الإجابة عن عشرات التساؤلات المتعلقة بهذا الجانب من العلاقات المصرية - السوفييتية.

وكان حديث مراد غالب عن الأيام الأخيرة لعبدالناصر مؤثرا فقد كان الرجل يعانى من مرض السكر الخبيث الذى كانت له آثاره الخطيرة على الأوعية الدموية والقلب، ورغم ذلك كان يعمل الساعات الطويلة فى جو دولى وإقليمى بالغ التوتر، وكان الروس ينصحون مراد غالب بأن يكاشفه بحقيقة مرضه حتى يتخفف من الأعباء ويتجنب التوتر، والأضواء المحدودة الخافتة التى ألقاها مراد غالب على شخصية عبدالناصر، بالغة الأهمية، فهو يشير إلى أسلوب الرجل فى العمل، وحرصه على جمع مقاليد السلطة فى يده حتى يحقق أحلامه فى بناء دولة قوية متحضرة، وأشار إلى موقفه من القوى الكبرى، فرغم ميله إلى الغرب اضطر إلى التعامل مع السوفييت لمصلحة مصر الوطنية ودعما لاستقلالها الوطنى، وهنا أيضا لم يوف غالب هذا الجانب حقه رغم مالديه من معلومات كثيرة ومهمة عنه.

فترة حكم السادات

ويروى لنا مراد غالب ما أصاب السوفييت من حيرة وهم يراقبون الأمور فى مصر بعد رحيل عبدالناصر، وخاصة عندما علموا أن هناك من يدعون فى مجلس الأمن القومى إلى عدم تجديد مبادرة روجرز، ومعنى ذلك العودة إلى الأعمال العسكرية ضد إسرائيل فى وقت لم يتم فيه بعد تكوين الأطقم المصرية التى تعمل على حائط الصواريخ وشبكة الدفاع الجوى، كما أنزعج السوفييت لما طرحه السادات من فكرة الانسحاب الإسرائيلى ١٢ كيلومتر شرق القناة على أن يتم تطهير القناة وفتحها للملاحة، ثم التفاوض حول السلام، لأن هذا العرض، لو قبلته إسرائيل سوف يؤدى إلى تثبيت أقدام اسرائيل فى سيناء مع طول فترة تطهير القناة، وطول أمد المفاوضات، ولم يرتح الروس إلا عندما رفض الأمريكان والاسرائيليون اقتراح السادات، كذلك أزعجهم تصفية السادات لرجال عبدالناصر (١٥ مايو)، وهنا يقدم مراد غالب شهادة مهمة فى حق من سماهم «رجال عبدالناصر»، وما أسمتهم دعاية السادات «مراكز القوى»، فذكر أنهم جميعا كانوا على درجة عالية من الوطنية والتفانى فى أداء مهامهم، وأن ولاءهم كان لمصر وعبدالناصر، ونفى أى شبهة قيام علاقة خاصة بين أى منهم والسوفييت، وأرجع الأزمة التى وقعت بينهم والسادات إلى أنهم كانوا منفذين للأوامر من الطراز





الأول، يفعلون بدقة ما يؤمرون به، ولم يتم تدريبهم على اتخاذ المبادرة، والرؤية الخاصة، وقد أربكهم رحيل عبدالناصر وجعلهم يتخبطون فى التعامل مع السادات، وعندما أقال على صبرى، لم يجدوا سوى سبيل التصرف السلبى بتقديم الاستقالات ظنا منهم أن ذلك سيؤدى إلى نوع من الشلل للأجهزة المهمة التى كانت تحت إمرتهم، فعصف بهم السادات.

كان هذا هو التحليل الذى قدمه مراد غالب لجروميكو عندما أبدى له مخاوفه من الاتجاه اليمينى للقيادة الجديدة فى مصر، وكان غالب على يقين - بينه وبين نفسه - أن السادات سيسلك طريقا مختلفا، لاعتقاده أن أمريكا ستحل له القضية. ولكن السوفييت كانوا يتوجسون خيفة من السادات، فأصروا على أن يوقع معهم معاهدة صداقة وتعاون. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر على توقيع المعاهدة، فوجىء مراد غالب بتعيينه وزير دولة للشئون الخارجية، وفهم من ذلك أن السادات يريد إبعاده عن موسكو، تمهيدا لبداية سياسة جديدة تماما، وقد تحقق ظنه، فقد بدأ السادات يصدر من الاشارات ما ينم عن ضيقه بالسوفييت، وأحس أن هيكل وكان وزيرا للاعلام، يلعب دورا مهما فى الاتصال بالسفراء الغربيين والمشرف على المصالح الامريكية، وأحس من مقابلات الأخير له أنه يريد التعرف على اتجاهات وزير خارجية عاش فى موسكو سفيرا لعشر سنوات، وقد تولى مراد غالب بناء على اقتراح السادات ومساعديه إجراء اتصال غير رسمى مع الاسرائيليين فى الأمم المتحدة لم يسفر عن نتيجة كما كلفه السادات بعد أن ظل بلا عمل نحو ثمانية أشهر بالسفر الى العراق والكويت وسيطا فى النزاع بين البلدين.

وأثناء وجوده ببغداد، أصدر السادات قرارا بتعيينه وزيرا للإعلام خلفا لهيكل، ثم سحبت بعض اختصاصاته وأعطيت لعبد القادر حاتم، مما جعله يشعر بالضيق، ويحيل كل ما اتصل بالاعلام الى حاتم، وشرح الظروف التى عينه فيها السادات وزيرا للوحدة مع ليبيا فى مجلس الوزراء الليبى. وذهب لاستلام عمله فى ليبيا يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وكأن السادات سعى لإبعاده عن مصر عند قيام الحرب. وقد روى مراد غالب ما حدث فى حرب أكتوبر وما صحبها من جهود دبلوماسية،



مع المشير عبد الحكيم عامر و إلكسى كاسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى

وأخيرا عينه السادات سفيرا، فى يوجوسلافيا عام ١٩٧٤، وبين كيف قدم استقالته بعد الإعلان عن زيارة السادات للقدس فى ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ .

وختم مراد غالب كتابه بالقاء نظرة على رئاسة الجمهورية فى عهد السادات ، فتحدث عن رجال السادات الجدد ، وعن اصرار الفريق صادق فى كل الاجتماعات على إخراج الخبراء السوفييت من مصر، وأشار الى أنه كان هناك اتفاق بين تيتو وعبدالناصر بالنسبة للوجود السوفييتى فى مصر، يعطى الرئيس اليوغوسلافى الحق فى الاتصال بالرئيس الأمريكى لإقناعه بمقايضة الوجود العسكرى السوفييتى وانهائه فى مقابل انسحاب اسرائيل من الأراضى العربية التى احتلت عام ١٩٦٧ ، غير أن هذا الاتفاق لم يجرب.

وحديث مراد غالب عن «رجال السادات» على اقتضابه الشديد بالغ الأهمية، وخاصة حديثه عن أسلوب عمل السادات ، وكنا ننتظر منه أن يستفيض فى ذلك الحديث . وعلى كل فهذه «الذكريات» بالغة الأهمية ، لعلها تقنع مراد غالب بأهمية كتابة «مذكرات» يعتمد فى كتابتها على أوراقه الخاصة (ولا شك أن لديه منها ما يكفى لذلك) خدمة لتاريخ الوطن الذى خدمه بإخلاص . ■

تواصل الاجيال .. كيف؟!

الثقة صمام أمن ضرورى للتواصل بديلا للقطيعة

بقلم
د. محمود الربيعى

●● تعكس الثقافة العربية - منذ كانت - حسا عميقا بالتقاليد الراسخة لانتقال المعرفة بين الأجيال. وقد تجلى ذلك واضحا فى رعاية نص القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، ونصوص الشعر العربى. واستقرت هذه التقاليد فى تسجيل النص القرآنى تدوينا بأقلام كتاب الوحى، وحفظا فى صدور أجيال الحفظة والرواة؛ فكان إذا غاب منهم واحد بالموت، شهادة أو حتف أنفه، سبب ذلك فزعا شديدا ترتب عليه العمل فورا على سد ذلك النقص. وكذلك استقرت هذه التقاليد فى رواية الحديث الشريف، وتحرير سنده ومتنه، وذلك على نحو رفيع من الضبط والدقة، مما نجده واضحا فى مصطلح الحديث، وبخاصة فى جانب الجرح والتعديل. أما الشعر - ديوان العرب - فيكفى أن نقول إن كل شاعر اتخذ من البداية راوية له كان هو نفسه شاعراً، ثم تتابعت سلسلة الرواة فى نظام متين ●●



طه حسين

فقد كان زهير بن أبي سلمى راوية أوس بن حجر، والحطيئة راوية زهير، وجميل بثينة راوية الحطيئة، وكثير عزة راوية جميل. فلما اتسعت دائرة التدوين أحيط الشعر بالرعاية ذاتها التى أحيط بها الحديث الشريف، من تحرى الدقة والضبط فى «سنده ومتنه»، ومن ثم ظفر انتقاله فى الأجيال بحرمة تلحقه بالنصوص المقدسة.

قضية الشعر الجاهلي

لذا لم يكن عجيبا أن تحدث نظرية طه حسين المعروفة فى انتحال الشعر الجاهلى، والشك في توثيقه، صدمة ثقافية هائلة فى أوساط الدارسين، والرأى العام على السواء. أما الدارسون، العارفون بالتراث وطرائق انتقاله فى الزمن من جيل إلى جيل، فقد هب أكثرهم يدافع عن «مصداقية» الشعر الجاهلى، وكتب بعضهم فى ذلك كتبا كاملة فندت فى جدية بالغة حجج طه حسين فى الموضوع، ومنهم الخضر حسين، وفريد وجدى، وجاد المولى، وأما الذين لا يمتلكون القدرة على المحاجة فقد تصدوا لدفع الصدمة عنهم على طريقتهم فأثاروا الأمر فى «البرلمان»، وأبلغوا النائب العام. وفى تقرير النيابة - الذى انتهى بحفظ الموضوع - عرض بديع للنقاط التى أثارت الرأى العام، ومنهج تحليلى رفيع فى القبول والرد، يصح أن يوضع من جديد أمام الرأى العام بصفته نموذجا يحتذى فى أدب البحث والمناظرة.

والملاحظ أن ما قدمه طه حسين من فكرة الشك فى صحة نسبة الشعر الجاهلى - مع أنه كان بمثابة حجر كبير ألقى فى بركة الدراسات الأدبية الآسنة - لم يحول مجرى هذه الدراسة فى طريق المنهج الذى اقترحه كتاب الشعر الجاهلى، وبقيت النصوص الشعرية، التى يفترض أنها منحولة طبقا لنظرية طه حسين، هى النصوص ذاتها التى يرجع إليها أشد المعجبين بهذه النظرية بصفتها هى نصوص الشعر الجاهلى. ومعنى هذا أن تأييد طه حسين انصب على أسلوبه الجرىء فى نقد تراث الماضى، وجسارته الواضحة فى تحدى الرأى العام والأدبى، ولكنه لم يمتد إلى تأييده فى مضمون ما دعا إليه. ولم نلحظ أن منهج الشك أصبح سائدا، أو حتى متبعا - فيما تلا دعوة طه حسين من دراسات ومن سنوات، وبقيت «مصداقية» نصوص الشعر الجاهلى لم ينلها خدش، مما يعنى بقاء الاعتقاد - بين جمهرة الدارسين - بسلامة الأسلوب المعتمد فى نقل وثائق المعرفة عبر الأجيال، وإن لم تبق الأمور بالطبع على ماهى عليه فى أسلوب دراسة هذه النصوص، وهذه هى النتيجة الإيجابية لدعوة طه حسين.

ما الذى يمكن أن نستخلصه من ذلك؟ نستخلص أن ضمير الأمة الراسخ، الصامت، المستمر، لم يخالجه شك فى سلامة أساليب نقل المعرفة فى الثقافة العربية، تلك الثقافة التى تمثل واحدة من أقدم الثقافات الموجودة على ظهر هذه الأرض بتاريخ غير منقطع. وقد كانت هذه الأساليب مرنة عبر التاريخ فطعمت بمناهج مستحدثة أمدتها بها ثقافات الأمم الأخرى، ولكنها لم تفقد إيمانها بهويتها، ولم

تتقبل بسهولة الزوابع الخارجية التى كانت تهب عليها بعنف يهدف إلى اقتلاعها من جذورها. وقد أعطت وأخذت فى كل مراحلها، دون إحساس بالنقص أو إحساس بالتعالى، وأقرت بحاجتها إلى «الجديد»، فاستوعبت قدرا منه مكنها دائما من تجاوز الأزمات، وأكد إيمانها بالتطور.

على هذا النحو المتوازن المرن جرى انتقال المعرفة من جيل إلى جيل فى الثقافة العربية، وتحددت معالم «الاتصال بين الأجيال» على نحو ساده قدر كبير من الإحساس العالى بالانتخاب، والنقد، والقبول والرد، أو الجرح والتعديل، وقد تجلى ذلك فى كتب النقد، والطبقات، والاختيار، والأمالى وغير ذلك، وأصبح مفهوم «الأستاذ» و«التلميذ» هو المحور الذى يرتكز عليه هذا الانتقال، وكانت النتيجة أنه لا يوجد مفهوم معرفى يمكن أن يستقل بذاته استقلالا محضا، أو أن يكون جزيرة معزولة عن غيرها فى محيط المعرفة، وبقيت فكرة الجذور المغيبة فى تربة الماضى ملحوظة في كل معني، كما بقيت فكرة الثمرة الملحوظة فى الحاضر ماثلة للعيان، وفكرة التطور المستقبلى موصولة بالحاضر والماضى. وقد جعل ذلك من المعرفة البشرية كيانا واحدا متصلا فى الزمن، يتحرك فى تؤدة - قد لا تدركها العين المجردة - بفضل مجهود الأجيال المتلاحقة فى حقل هذه المعرفة. ومرة أخرى يواجهنا التراث العربى بذلك الإحساس العميق - شبه الصوفى - بحرمة حمل المعرفة، وإيصالها إلى الأجيال القادمة، وذلك بتحرى أقصى قدر من الدقة والتجرد والأمانة في البحث عن الحقيقة. وفى هذا الجو اكتسبت «الإجازة» التى يمنحها الأستاذ التلميذ نوعا من القدسية التى تعنى انتقال قبس من روح الأستاذ وذهنه إلى التلميذ يصبح به مؤهلا لحمل مسئولية نقل المعرفة إلى جيل جديد. وهذا هو معنى فريضه طلب العلم، والسعى إليه فى شتى أرجاء الأرض، والبذل فى سبيله من كل عزيز: الوقت، والجهد، والمال، والصحة، وأحيانا الحياة ذاتها.

معنى انتقال المعرفة

وما المدارس، والمذاهب، والاتجاهات، إلا صورة موسعة لمعنى انتقال المعرفة عبر الأجيال؛ فهى تعود فى أصلها دائما إلى فكرة جرثومة المعرفة الأم، وتضرب بجذورها الدائمة فى تربة قد تبدو معها للعين العابرة على طرف نقيض. وصحيح أن ميلاد بعض هذه الاتجاهات الجديدة، في تولدها عن جذورها، ميلاد عسر، وصحيح كذلك أن انشقاق بعضها عن أصولها يشبه انشقاق الابن عن الأسرة، وتركه إياها مغاضبا، وقد يبلغ الأمر حدا لا يتم فيه الانشقاق بصورة سلمية - كما حدث فى اعتزال واصل ابن عطاء حلقة الأشاعرة - إنما يتم بصورة دموية . هذا كله صحيح، والتاريخ يسجله فى كل الثقافات، ولكن المهم أنه لا يوجد منحى، أو اتجاه، أو مذهب، يمكن أن يسجل على نفسه أنه ولد بدون بذرة وضعها أب ، أو رحم امتلكته أم. والصيحات التى نسمعها أحيانا من بعض الشباب من أنهم جيل بلا أساتذة مقبولة من جهة واحدة هى أنها مظهر الحيوية المفرطة التى تفضى إلى الاندفاع، لكنها إذا حملت على محمل الجد خلت من كل ما يدعو إلى الفخر.

إن الاختلاف فى المشرب أمر مشروع، والإعجاب بالأجنبى أمر مشروع مالم يتحول إلى انبهار يطمس معالم الهوية، وإنكار قيمة كل ما لدى الغير لا يمكن أن يكون مشروعا أو مفيدا. والقطيعة التي قد تتضمنها عبارة «جيل بلا أساتذة» قطيعة

مفتعلة، ولا سند لها من منطق ، أو تاريخ، أو مسوغ منهجي. وهي تبلغ ذروة تهافتها حين تتحول إلى نوع من ادعاء الامتياز، واحتكار الحقيقة، ونفي الآخر، كما تبلغ ذروة قسوتها حين تستعين بسلطة زمنية في فرض لون بعينه من المعرفة، وقهر الآخر، وفي هذه الحالة تكون علامة على تردي المعرفة، ودخولها نفقا مظلما، وذلك مهما ارتدت من مسوح التقدم أو التجديد.

إن المعرفة الحقة مرنة بطبيعتها ، وهي تشبه البحيرة العظيمة التي تتسع لكل طالب صيد. وهي تزدهر بتعدد وجهات النظر، وتحيا بتقليب الأمور على كل وجوهها، واعتبار كل «البدائل» الممكنة، كما أنها تموت باعتناق الرأي الواحد، واعتباره المظهر الأوحد للحقيقة؛ ففي هذا موت الحقيقة، بل وأد الحقيقة. ولا أعرف حالة واحدة جديرة بالاعتبار نودي فيها بالقطيعة بين الأجيال، وأعرف أن التواصل بين الأجيال هو السبيل الوحيد لاستمرار نعمة المعرفة، وذلك لأن استمرار المعرفة يعني استمرار الحضارة، وعلى ذلك فعبارة الاتصال بين الأجيال عبارة صحيحة، وينبغي أن تظل جزءا من اللغة الحية الماثلة في الأذهان، وألا تتحول في أية مرحلة من مراحل التطور إلى عبارة منبوذة ، أو إلى «اكليشيه» مفرغ من المعنى. وعلى ذلك يجب أن نلح أبدا على هذه العبارة، وأن نستخدمها في سياقات مختلفة، ونشتق الدلالات المتصلة بها على نحو يجعل منها دائما محورا مركزيا يدور حوله عشاق المعرفة في التراث، ملتحمين بعشاق المعرفة في إنجازات الحاضر، وملتحمين كذلك بعشاق البحث في علوم المستقبل، بحيث نحصل في النهاية على فيلق علمي متعاون يكون بالخيال الخلاق من صورة الماضي والحاضر صورة المستقبل؛ ذلك أن امتلاك اليوم والغد لا يمكن أن يتم بفقدان الأمس.

التواصل لا القطيعة

وعبارة «القطيعة المعرفية» عبارة خداعة حين تستخدم في مجال الإنسانيات، وهي لا يمكن أن تحمل «مصداقية» في مجال الوجدان البشري، أو حركة المجتمع، أو العاطفة الإنسانية، وإن حملت بعض المعنى في مجال العلم التجريبي، الذي تنسخ بعض نظرياته بعضا، أما في مجال الإنسانيات فقد تطغى ملامح معينة لفكر ما على ملامح فكر آخر في بعض الأوقات، وقد تتغير زوايا الرؤية إلى الأمور من ظرف إلى ظرف، ولكن التجربة البشرية السالفة، أو الكائنة، لا يمكن إغفالها بجرة قلم، ولا يمكن أن تنشأ قيم معرفية جديدة تماما لتحل - في التو واللحظة - مكان قيم أخرى. ومن ناحية أخرى، إذا ألغينا الآخر حق علينا - إنصافا - أن نقبل أن يلغينا الآخر، وإذا ألغانا الآخر وألغيناه فأي تخريب يمكن أن يحل بالبشرية؟ إنما يكون الصواب - بدلا عن ذلك - أن نبحث عن صيغة ملائمة نرتضيها قاعدة صلبة نرسي عليها فكرة «التواصل»، لا التدابر ولا التقاطع، بين الأجيال، وذلك هو التحدي الحقيقي الذي يواجهه كل مكترث باستمرار المعرفة الإنسانية الحقة، وبخاصة في ضوء ما نعانيه من هجمات التمزق الشرسة محليا وعالميا. وبدون الوقوع على مثل تلك الصيغة يصبح الحوار المثمر بين الأجيال عسيرا حقا.

وعلى ذلك يكون التواصل بين الأجيال هو الأمر الطبيعي، وعكسه هو غير الطبيعي، وما علينا إلا أن نوفر له الظروف كاملة ليؤتي ثماره كاملة. واستمرار العنصر البشري - وعدم انقراضه - حتى الآن هو دليلنا على أن التعاون بين

الأجيال - لا الصراع ولا التقاطع - هو العنصر السائد، وغيره هو العنصر المتنحى، وعلينا أن نجاهد فى أن نجعل عناصر التقاطع متنحية دائماً. وفى مقدمة الظروف التى ينبغى توافرها فى هذا الصدد تبادل الثقة بين الأجيال على أساس من الاحترام والتكافؤ والعدل، وغنى عن البيان أن فترة التكوين الجامعى للشباب هى المرحلة التى يمكن فيها تحقيق أفضل النتائج فى هذا الأمر. وقد عملت فى هذا المجال طول حياتى، ورأيت كيف كان عليه الحال، وكيف آل إليه، وأرى أن منهج إيصال المعرفة إلى الجيل الجديد، وكيفية الاحتكاك به، وأسلوب معاملته علميا، من شأنه أن يحدث آثارا بالغة . وعندى مقترح محدد أتقدم به فى مجال التعليم الجامعى:

أقترح أن تتبنى جامعاتنا نظام «الساعات المعتمدة» فى تدريس مناهجها عوض النظام السائد حاليا، وسأقدم هنا فقرة أو اثنتين أتحدث فيهما عن هذا النظام وفوائده: وأول ما أقوله إن هذا النظام أصبح معمولا به فى معظم جامعات العالم - شرقا وغربا - وهو قريب فى جوهره من نظام «الإجازة» الذى كان معمولا به فى نظام التعليم العربى والإسلامى فى عصور الدولة الزاهرة، وذلك قبل أن تنحل عرى تلك الدولة. وجوهره - فى شكله الحديث - توفير قاعدة علمية واحدة CORE مشتركة لجميع الطلاب، وذلك قبل أن ينشعبوا فيما يسمى مواد التخصص، يلمون فيها بالخطوط الرئيسية لأطراف من ألوان المعرفة، أدبية وعلمية، فإذا تم لهم ذلك التكوين المشترك القائم فى أصله على أن يختار الطالب أستاذه من بين أساتذة عدة يدرسون مادة بعينها ، ويختار ما يشاء من مواد ضمن إطار مصمم على نحو يحقق الغرض. فإذا انتهى من هذه المرحلة العامة انخرط فى مواد تخصصه، ولكن بالأسلوب ذاته الذى يوفر له اختياره أستاذه من بين جملة أساتذة، ومواده من بين جملة مواد محققة للغرض. وفى كل ذلك يتقاسم الأستاذ والطالب المسئولية على نحو متوازن؛ فللطالب أن يعرف تفاصيل المادة التى سيدرسها سلفا، كما أن له أن يعرف القواعد التى سيقدر الأستاذ مجهوده على أساسها، وله أن يعرف كذلك حتى بعد إعلان نتيجته لماذا كانت نتيجة كذلك، وله - فى آخر كل فصل دراسى - أن يجيب على أسئلة مصممة خصيصا لبيان رأيه فى مدى تحقيق المادة غايتها، وكيفية التطور بها وعلى الأستاذ أن ينفذ المنهج على الوجه الذى يراه ملائما، وأن يقدر مجهود الطالب بالحق والعدل، وأن يعرض عليه هذا التقدير.

تلك هى النقاط الجوهرية فى النظام، وهو يسهم عندى فى بناء الثقة المرجوة بين أجيال الأساتذة وأجيال الطلاب فى شريحة كبرى من شرائح نقل المعرفة فى المجتمع، وفى خلية حيوية من خلايا هذا المجتمع. إنه يزيل الغشاوة عن عين الأستاذ الذى يتصور أن سلطانه فى نقل المعرفة سلطان مطلق، كما يزيل الغشاوة عن عين الطالب الذى يتصور أنه ضحية قرارات علوية يعوزها الإنصاف. وهو يقوم على «الشفافية» المطلقة؛ فعمل الطالب معروض أمام الأستاذ دون سرية، وعمل الأستاذ معروض أمام الطالب دون سرية. وأنا أعلم قبل غيرى أن تطبيق مثل هذا النظام لدينا قد تكون له ضحايا فى مراحله الأولى، ولكننى على يقين من أن فوائده ترجح أضراره بكثير، ويقع فى مقدمة فوائده ما أحاول توضيحه من ضرورة إرساء الثقة بين الأجيال؛ ذلك أن أجيال الشباب إذا اطمأنت إلى أنها شريكة فى صنع حاضرها، ومن ثم مستقبلها، تعلمت كيف تكون حريصة عليه، وإذا علمت أجيال الأساتذة - من

جانب آخر - أن لها شريكا طبيعيا له كلمة فى الموضوع تخلت عن الشعور بالسلطة المطلقة، وراعت التجويد فى عملها الذى يوضع موضع «الاستفتاء» فى كل مرة يؤدى فيه. ثم إن إرساء الثقة من شأنه أن يتحقق فى جميع الأحوال بالعلنية لا بالسرية، فالسرية - والشواهد كثيرة - لا تحقق حتى هدفها الحرفى القريب وهو عدم الإفشاء، وهى لا يمكن أن تحقق - فى المدى الأبعد - العدل، أو الإنصاف، أو الموضوعية.

وصحيح أننا نعانى - فى تكوين الأجيال - من تركات مثقلة، ولكننا ينبغي رغم كل الصعوبات أن نمضى فيه قدما؛ ذلك لأن تكوين الأجيال على نحو صحيح يكاد يكون هو النافذة الوحيدة التى ندخل من خلالها إلى كل أهداف الوطن الأخرى، وإذا لم ننجح فى إحداث إنجاز ذى شأن فى هذه الناحية فلا عبرة بالحديث عن أية إنجازات فى مجالات أخرى - حقيقية أو متوهمة.

تواصل الأجيال

وثمة أسئلة أخرى أريد أن أطرحها فى موضوع «تواصل الأجيال» بعضها كالدواء المر الذى لا مفر من تعاطيه: ما الذى يريده الجيل السابق من الجيل اللاحق؟ وما الذي يريده الجيل اللاحق من الجيل السابق؟ وكيف يريان الصيغة التى ينبغى أن تكون عليها العلاقة بينهما؟ أيرى الجيل السابق أن على الجيل اللاحق أن يسمع ويطيع حتى ولو شعر أنه مسخر لغايات الجيل السابق ومنافعه؟ أو تراه على استعداد لأن يقبل أن تقوم العلاقة بينهما على النفع المتبادل؟ ومن ناحية أخرى: أيريد الجيل اللاحق من الجيل السابق أن يقف نفسه وإمكاناته التى أفنى فيها حياته على تكوين هذا الجيل اللاحق؟ أو تراه يرضى بنوع من التعايش السلمى الذي تقتسم فيه فرص الحياة؟ أما أنا فأرى أنه لا تضمن لنا صيغة واحدة من الصيغ السابقة الوصول بغايات الوطن إلى بر الأمان، وإن كنت لا أنكر أنها صيغ شائعة فى المجتمع.

إن عقيدتى الثابتة هى أننا لا نعيش في غابة يتربص كل منا فيها بالآخر، أو يأكل القوى الضعيف، وفكرة الصراع لم تصمد طويلا فى تاريخ النظرية المعرفية فى العالم. ومن ناحية أخرى نحن لسنا ملائكة نعيش بغير مطالب أنانية. وعلى ذلك ففكرة «المنفعة» لا يصح أن تكون فكرة مركزية، وإنما ينبغى أن يدفع بها إلى هامشها الضيق حيث ينبغى أن تكون، وذلك لإتاحة الفرصة للفكرة الأخرى التى ينبغى أن تعود لتحتل مكانتها المركزية وهى فكرة «الواجب» . وأقول هذا بناء على تصورى أن معنى الواجب المجرد لا يزال يعيش بيننا، أما إذا كان هذا المعنى قد غاب عن وجدان الجماعة - فى غفلة من الزمن - فإن أى كلام يقال فى موضوع «تواصل الأجيال» يصبح ولا معنى له.

من شأن الإحساس بمعنى الواجب المجرد فى نفوس الأجيال المتعاقبة أن يرسى فى تلك النفوس مشاعر «المودة» و«الاحترام» نحو الآخر، وهما بدورهما ينبغى أن تكونا كلمتين غير منقرضتين، أو فى طريقهما إلى الانقراض. وفى وجود المودة تنتعش الرغبة، وفى وجود الرغبة تقوى القدرة على البحث عن وسائل جديدة لتحسين الأداء ، وتحسين التلقى. وانظر كيف بنيت فكرة «الحب الأفلاطونى» على معنى العلاقة المثالية الشريفة بين الأستاذ والتلميذ - إذ أساسها المعرفة - وهى فكرة لا

ذنب لها فيما لطختها بها النميمة الاجتماعية من ظلال الشذوذ، ثم ما ألحقتها بها الأفكار الغربية من تربص المعلم والمتعلم ببعضهما فى معاهد العلم، على نحو عاق تدفق المعرفة بين الأجيال على نحو سليم.

ونحن إذا وسعنا دائرة الرؤية فى أمر «تواصل الأجيال»، وخرجنا إلى دائرة المجتمع برمته، بقيت الثقة الواجب توفرها بين الأجيال صمام أمن لا بديل عنه؛ فعلى الثقة يقوم كل عمل معرفي مثمر تقوم به الأجيال - التى هى مجرد مجموعات من البشر - ليصل نفعه فى نهاية الأمر إلى الشخصية الاعتبارية التى تفوق كل مجموعات بشرية مهما كان شأنها، وهى شخصية الوطن. وأكرر أنه ليس عدلا أن تسود - والهدف هذا - عبارات منفرة من مثل «جيل بلا أساتذة»، و«القطيعة المعرفية»، أو أن يبدو جيل واحد سادا الطريق على الأجيال الأخرى، فيفقدها أى أمل فى أداء دور كامل، تشب فيه عن الطوق، وتأخذ مصيرها بيديها، وتحمل مسئوليتها كاملة.

وتجربتي الشخصية - مع ذلك - تؤكد لى أنه فى نهاية الأمر لا يصح إلا الصحيح؛ فقد قضيت حياتى العلمية على مدى أربعين عاما مشغولا بنقل المعرفة إلى أجيال الشباب ، وتعاملت مع من كان، عند بدايتى، فى العشرين - ودون التخرج - فأصبح الآن يناهز الستين، وأستاذا كامل الأستاذية . وكان مبدئى الذى لم أحد عنه أن العلم شركة ومسئولية لا تقبل أن يزايد فيها أحد على أحد، ولم أستخدم الصدمة، أو مبضع الجراح، أو حتى وخز الإبر، إلا فى حالات قليلة جدا، وكنت حريصا على أن يتعلم كل المشى معتمدا على ساقيه أكثر مما يتعلمه معتمدا على كتف أخيه الأكبر، كما كنت - فى مجال التكوين الثقافى - حريصا على قطع الحبل السرى للمولود - تلميذى - فور استوائه مخلوقا كاملا يتغذى على أجهزته الخاصة.

وأشهد أن الغالبية العظمى من الأجيال التى تعاملت معها - داخل الوطن وخارجه - فهمت عنى، وفهمت عنها، وأعطتنى حقى، وأعطيتها حقا، كما أشهد أن طائفة محدودة حاولت أن تحقق لنفسها من ورائى أغراضا نفعية، ولما كنت محدود الصلات الاجتماعية، ومن ثم قليل التأثير فيما يتصل بالمنافع، فقد انصرفت عني هذه الفئة، مبكرة فى الأغلب الأعم، ومتأخرة فيما ندر. ومن الواضح أنها انصرفت عنى غير آسفة حين وجدت منافعها فى مواقع أخرى، ومن الطبيعى أن أبادلها «غياب أسف» «بغياب أسف».

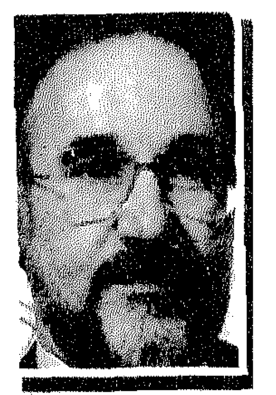


وأقول إن علو صوت هذه الأقلية ، وصخبها المحسوس فى الحياة العامة، واتجاهاتها النفعية البادية، لا يمكن أن يغير من حقيقة الأمر شيئا، وحقيقة الأمر أن «تواصل الأجيال» - على قاعدة صحيحة - ثابت ومستقر، وإن كانت حركته صامتة أحيانا، وبطيئة على نحو يثير الضجر. وتنهض قاعدته الصحيحة على الفهم المتبادل، والمودة، وتعديل المسارات والاتجاهات، بما ينفع قضية انتقال المعرفة، وتحقيق الغايات الكبرى للثقافة، ومع ذلك فبقاء هذه القاعدة محتاج إلى جهود لا تعرف فروغ الصبر، أو انتظار الجائزة، أو اهتزاز اليقين. ■

أقوال معاصرة

•« إذا جرى قمع المعارضة والتفكير سادت فى المجتمع خيبة الأمل واللامبالاة » .

الرئيس الإيرانى محمد خاتمى

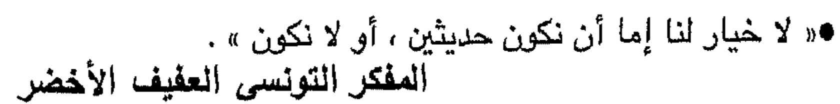

محمد خاتمى

•« لقد أسأنا إلى الإسلام على نحو جنح بشعوب العالم إلى اعتباره مرادفا للأمية والتخلف والتعصب » .

الرئيس الباكستانى الجنرال برفيزمشرف

•« المواطن الأمريكي يؤمن بشيئين الأول أن السياسيين فاسدون ، والثانى أنه لا دخان بدون نار » .

لارى سباتو
أستاذ العلوم السياسية بجامعة ميرچينيا



•« لا خيار لنا إما أن نكون حديثين ، أو لا نكون » .

المفكر التونسى العفيف الأخضر


سليمان فياض

•« الكاتب إذا كان جادا ومستمرا فى الانتاج ، لابد فى النهاية من أن يكون نفسه » .

الأديب المصرى سليمان فياض

•« ظاهرة الارهاب والتطرف وليدة خلل مجتمعى » .

د . عبدالحميد الأنصارى
عميد كلية الشريعة والقانون فى جامعة قطر


آلان ديلون

•« الإرهاب النووى جدى ، ولم تعد هناك منطقة آمنة » .

د . محمد البرادعى
رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذرية

•« لم يعد ممكنا الاعتماد على الحسابات العقلانية الاعتيادية فى زمن غير عادى » .

المفكر البحراني محمد جابر الأنصارى

•« بعد كل هذا المجد ، يجب أن نعرف اختيار تاريخ الانسحاب » .

النجم الفرنسى آلان ديلون
بمناسبة اعتزاله التمثيل

ظواهر خارقة بين العلم والخرافة

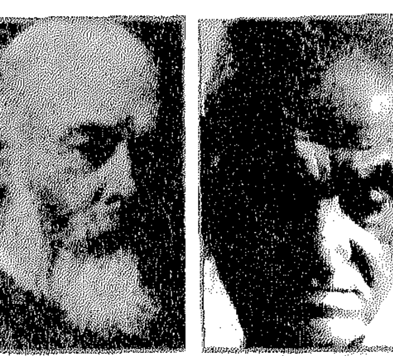
بقلم
د. محمد رجب البيومي

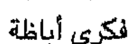


بعض الناس يفاجئك بالتكذيب القاطع حين تروى خبراً غريبا لم يألفه ، كأنه أدرك ما فى الكون من أسرار ، وأحاط بكل شئ علما ، فإذا قلت له إن الذى روى الخبر صادق ، لا مصلحة له فى الكذب ، وأن أمثال ما رواه سجله نفر من العلماء فى ذكرياتهم ومشاهدهم ، وقدمت له ما ثبت ذلك رماك بالبله ، وترفع عن مجاراتك فى الحديث، وله حينئذ تعاظم فى نفسه تكاد به تنتفخ أوداجه غرورا ، ولابد من الصبر حينئذ .



محمد توفيق دياب





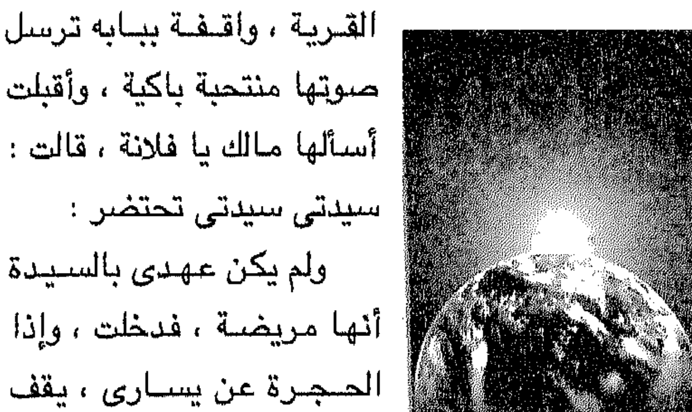
فكرى أباظة

أوليفر لودج

روت جريدة الميدان بتاريخ ٢٠٠١/١٢/١١ حديثا غريبا لسيدة فاضلة بدأته بقولها « أنا امرأة فى الأربعين من عمرى لدى طاقات خارقة باستطاعتى أن استشعر الأحداث قبل وقوعها بوقتٍ كاف يبدأ من ثلاثة أيام فأرى فيلما واقعيا للأحداث يمر أمام عينى. كما أن فى استطاعتى أن أرى ما يجرى فى بلاد بعيدة لم أزرها ولم أسمع عنها ، لكن نشرات الأخبار تؤكد حدسى ، وأنا أحكى كل ما يثير وجدانى لزوجى الذى ينتظر معى وقوع الحدث حتى يقع ، خذ مثلا أنى أتوقع الزلازل قبل وقوعها ، والكوارث والأحداث السياسية الخطيرة ، ثم مضت السيدة فى رواية أشياء أخرى مماثلة ، وكلها تدل على انفصال روحها أثناء النوم لمشاهدة غرائب لا أطيل فى الحديث عنها ، وقد احتفظت بالجريدة فلعلى أتعرض للباقيات من الخوارق فى حديث قادم ، وحسب القارئ أن يكتفى بهذه الشذرات !

إن كتبا روحية كثيرة - شرقا وغربا - تزدحم بخوارق مثل ما تقدم ، وقد خضعت للبحث فى جمعيات روحية لها أعضاؤها المتخصصون من كبار أساتذة الطبيعة والعلوم فى كبريات الكليات الأوربية والأمريكية ، ولا أريد أن أتخم المقال ببعض ما ينفع فى تأييد دعوى السيدة الفاضلة . ولكنى أنقل عن كبار الأعلام فى مصر وأوربا ممن لا نشك فى صدقهم الواقعى ما يثبت هذه الأحداث ، وقد ذكر الاستاذ الدكتور رءوف عبيد وكيل كلية الحقوق الأسبق فى بعض مؤلفاته الروحية ذات العمق النافذ أن «الموقف الصحيح للعقل - إزاء ما يروى من هذه الأحداث - هو أنه لا ينبغى الانقياد السهل لكل المزاعم والأقوال ، ولا المكابرة الممقوتة فى الحقائق الثابتة ، فأى من الموقفين ضار بصاحبه لأنه يباعد بينه وبين الارتباط بالحقائق » ذكر الدكتور رءوف هذا فى مقدمة الكتاب الذى ترجمه عن (هاين

سوافر) نقيب الصحافة البريطانية تحت عنوان : (قصتي العظمى) ويدور حول انقسام بعض الأرواح إلى آفاق مترامية ثبتت خلود الروح وعدم فنائها ، والدكتور رءوف قد دعا إلى الاتئاد في الحكم فلا نكذب دون دليل ولا نصدق دون دليل . وهذا أعقل ما يقال .



وسبيلي الآن أن أنقل بعض ما قاله في مصر نفر من كبار الكتَّاب تسجيلا لخوارق وقعت لهم ، ولم يشكوا في وقوعها ، لأنهم الذين لا بسوها ملابسة حقيقية ، وهي خوارق يقف العقل حائرا أمامها ، ويجب على ذوي الفكر المحايد أن يجمعوا أمثالها لتنتهي الجزئيات المتناثرة إلى كليات عامة ، أو على الأقل ـ يشترك المهتمون بهذه البحوث في شتى نواحي العالم في تحليلها الدقيق ، فقد يصلون إلى قول سديد ، ثم أعقب ببعض ما ذاع في الغرب وتعارفه الدارسون .

أحلام توفيق دياب

يقول الكاتب الكبير الاستاذ محمد توفيق دياب ، من مقال نشره بمجلة الهلال الجزء الخامس من السنة الخامسة والخمسين تحت عنوان (الملأ الأعلى) :

« في ذات ليلة رأيت فيما يرى النائم حلما مزعجا ، رأيت خادما في بيتنا في القرية ، واقفة ببابه ترسل صوتها منتحبة باكية ، وأقبلت أسألها مالك يا فلانة ، قالت : سيدتي سيدتي تحتضر :

ولم يكن عهدي بالسيدة أنها مريضة ، فدخلت ، وإذا الحجرة عن يساري ، يقف ببابها فلان وفلان من أعضاء الأسرة مشفقين ، ثم أدخل فأجد السيدة على فراشها قاربت الرحيل ، وإلى جانبها طبيب المركز فلان وسيدات من الأخوات والقريبات . فتفتح المودعة عينيها فاذا رأتني تمتمت بدعوات طيبات ثم تغيب ، وبينما نحن في ذلك إذا صيحات من الحجرة المقابلة ، فأقصد إليها ، فإذا شقيقة السيدة المحتضرة قد أغمي عليها من وقع مصابها في أختها ، فنحملها إلى دارها ضارعين إلى الله أن يجنبنا موت شقيقتين في ساعة واحدة .

كان ذلك حلم حالم ، سوى أني بعد يومين دعيت من عزلتي في الحقل إلى بيتنا في القرية ، وإذا الصائحة النائحة هي الصائحة النائحة باسمها وعينها ، وإذا القريبان الواقفان بالباب هما فلان وفلان ، وإذا المشهد كله هو المشهد كأنما كان صورة بالآلة الفوتوغرافية ، فالسيدة المحتضرة ، والطبيب بعينه ، والسيدات بأعينهن ، وإذا الصيحة المرسلة من الغرفة المقابلة ، وإذا الشقيقة التي

صرعتها الغشية ، وإذا بنا نحملها ، ونضرّع إلى الله أن يقينا من مأتم مزدوج

ثم يقول الأستاذ محمد توفيق دياب «ماهذا ، كيف يفسره ، العلم ، أهى مشاغل النهار تخالط أحلامنا بالليل » !

لم أعلم قط أن بهذه السيدة مرضا أو شيئاً يشبه المرض ، إنه غيب محض ، وغيب تحقق في الواقع المشهود كما رأته عين النائم ، كأنها آلة مصورة لم تفتها كبيرة أو صغيرة من جملة أو تفصيل ، تفسير ذلك هو صلتنا بالملأ الأعلى » .

وقد أحدث هذا المقال أثره فى نفوس القراء ، فبعث سائل عراقى إلى الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد يسأله عن رأيه فيما كتب الأستاذ دياب مستشهدا بأمر مشابه ذكره الشيخ الطنطاوى جوهرى فى كتابه (الأرواح) وبحادث وقع له ينتمى إلى هذا الاتجاه ، وقد سارع الأستاذ عباس محمود العقاد بالرد على صفحات مجلة الرسالة (العدد ٧٥٧) بتاريخ ١٩٤٨/١/٥) فقال :

تفسير العقاد

« شئ واحد يمكن أن يقال على سبيل التحقيق فى الجواب ، وهو أن الجزم بنفى هذه الروايات على اعتبار أنها مستحيلة الوقوع ، إنما يكون نفياً باطلاً ، لا يعتمد على سنن من العلم ، ولا من البراهين المنطقية ، فوقوع الأنباء على هذه الصورة ليس بالمستحيل ، ومن قال باستحالته وجب أن يثبت أنه على علم تام ، بأسباب الاتصال بين كل نفس ونفس ، وكل مادة ومادة ، أو كل نفس ومادة فى هذا العالم الذى نعيش فيه . وليس فى وسع أحد أن يزعم أنه على علم تام بأسباب الاتصال بين مادة ومادة فى عالم المكان ، ودع عنك صلات العقول والنفوس التى لا تقع تحت حصر ، ولا يحيط بها البيان !

وساق العقاد حديثا عما فى الفضاء الشاسع من أشعة النور التى لا تراها العين وتنفذ فى المعادن الصلاب وتؤثر فى الأحياء والأشياء ولا ترى ، إلى أن قال :

« إن الذى يزعم لنا أن أسباب الاتصال بين نفس ونفس أو بين عقل وعقل محصورة محدودة يمتنع ما عداها فهو مدع بما ليس فى علمه ، ولا فى علم أحد من البشر ، ويلزمه دليل ما يدعيه ، ولا دليل هناك .

فكرى أباظة

إن ماورواه الأستاذ محمد توفيق دياب يتعلق بالتنبؤ عن أمر سيقع ، وقد وقع فعلا ، ولدينا قصة أخرى رواها الأستاذ فكرى أباظة فى كتابه : (حواديت) ص ١٥١ تتعلق بالحديث عن أمر وقع ، وغاب دليله ثم جاءت روح لتخبر عنه ! فماذا قال الأستاذ فكرى أباظة ؟

قال :

« فى سنة ١٩٢٠ عاد صديقى وقريبى

الدكتور سليمان حسين أباظة من أمريكا بعد أن أتم دراسته وكان قد كلفني بأن أحضر عنه في استئناف حكم برفض دعواه عن ملكيته لخمسة فدادين ، وأخبرني بأنه لما كان في أمريكا ، من جلسات



تحضير الأرواح ، وفجأة سمع الحاضرون روحا تتكلم باللغة العربية ، فدهشوا جميعا ، فقال لهم الدكتور سليمان إن هذه اللغة لغتي ، والصوت صوت المرحوم والدي ، وصمت الجميع ، وأتمت الروح حديثها قائلة للدكتور سليمان « مستند قضية الفدادين الخمسة التي خسرتها موجود في درج المكتب القديم ، الموجود في حوش المنزل بالقرية ، فاكسر الدرج الصغير الذي على اليسار لتجد المستند » ، وفعلا بعد عودته مباشرة كسر الدرج ، ووجد المستند ، وقدمناه لمحكمة الاستئناف وربحنا القضية » .

لا أظن الأستاذ فكري قد اخترع هذه المسألة ، حين حددها بالاسم والمكان والتاريخ ، فلم يكن الرجل داعية لتحضير الأرواح ، ولا عرف عنه أنه شغل نفسه بمسائل العالم الآخر المستكن في ألفاف الغيب ، ولعله شك في الأمر مبدئيا حين حدثه به ابن عمه ، وعده حديث خرافة ، ثم فوجئ بوجود المستند بعد أن كسر الدرج ، فعد ذلك مفاجأة تستحق التسجيل ، وتبعث على التحليل !

وصية تنفذ بعد الموت

وهل يوصي الميت بشئ بعد انتقاله إلى عالم الغيب ، ثم يصل أمر الوصية إلى الخليفة الراشد ، فيقوم بتنفيذها على الفور ؟ هذا ما تحدثت به كتب التاريخ حين ذكر هذه النادرة .

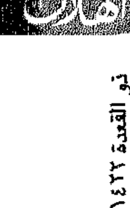
جاء في كتب التاريخ أن ثابت بن قيس رضي الله عنه كان من الذين اشتركوا في حرب اليمامة وقد قتل شهيداً . وعليه درع ثمينة ورثها من أبيه ، فمر به وهو طريح قتيل رجل من الضاحية فانتزع الدرع ومضى ، ولكن بلال بن رباح رأى في منامه ثابت بن قيس فقال له : يا بلال إني أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حلم فلا نفعل شيئاً ! إني لما قتلت بالأمس جاء رجل من ضاحية نجد ، وعلى درعي فأخذها ، ثم انكفأ إلى منزله ، فوضعها تحت برمة ، وجعل على البرمة رحلاً ، وخباؤه في أقصى العسكر ، وإلى جانبه فرس يمرح في حبل طويل ، فأت خالد بن الوليد ـ وكان قائد الجيش ـ فليبعث إليّ درعي فليأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره، أن عليّ من الدين كذا ، ولي من الدين

كذا، وسعد ومبارك غلاماى حران ، فإياك أن تقول : هذا حلم فتضيعه ، فلما أصبح بلال رحمه الله أتى خالدا فأخبره بما رأى ، فبعث خالد نفراً إلى الدرع فوجدها كما قال ، فلما قدم بلال إلى المدينة ، أتى أبا بكر الصديق رضى الله عنه فأخبره بوصية ثابت بن قيس رحمه الله فأجازها جميعها ، فلا نعلم أحدا من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته على هذا الوجه إلا ثابت بن قيس !

لقد استشهد ثابت بن قيس رحمه الله! ولكن بعد استشهاده رأى الأعرابى النجدى ، وهو ينتزع الدرع من فوق صدره وتابعته حتى ذهب إلى خبائه ، ودس الدرع فى مكان غطاه بالرحل كيلا يلتفت إليه أحد ، وعز على الشهيد أن يسلب هكذا ، فاصطفت روحه بلالا وحف إليه فى منامه ليعلمه لما كان ، وليوصى بعتق غلاميه سعد ومبارك ، وقد خشى ثابت أن يهمل بلال أمره ، معتقدا أن ماجرى حلم لا ظل له من الحقيقة ، فأكد وكرر ، ثم كانت المفاجأة لبلال حين تحقق الحلم ، فأخذت الدرع ، ولعل خالد بن الوليد كان أكثر عجبا ، كما عرف أبو بكر أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فبادر بتنفيذ وصية الميت ! وقد كانت الدلائل على صدقه ، فليس هنا مجال للتشكك والارتياب !

تفسير السير أوليفر لودج

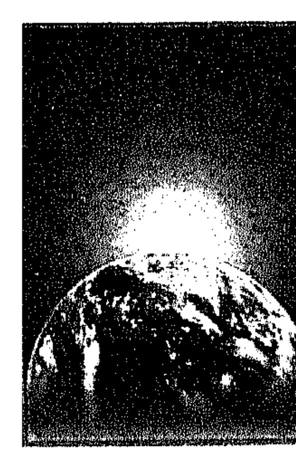
علامة انجليزى تصدر علوم الطبيعة فى عصره ، وشغل مناصب علمية رفيعة حيث قضى مدة طويلة مديرا لجامعة برمنجهام ، ورئيسا للمجمع العلمى البريطانى ، ولجمعية رونتجن ، ولجمعية الراديو ، وله فى البحوث الروحية فتوحات باهرة من أهمها الحديث عن الأثير بالذات، إذا أوضح أثره فى العالم المادى بإفاضة وإباع ، لينتقل إلى العالم الروحى ، وقد قرر أن الجسم البشرى المادى ككل جسم مادى يتألف من كهارب بينها فراغ شاسع بالنسبة لحجومها المتناهية فى الصغر ، وإذن فالفراغ الجسمى يملؤه الأثير ، وهو الثوب الحقيقى لعنصر الحياة الذى يميزنا عن الجماد ، والذى نسميه الروح ، أما الذرات المادية فمجرد آلة تمكننا للعيش برهة فى عالم المادة ، فنحن لا نمس الأشياء إلا عن طريق الأثير ، وكذلك لا نسمع ولا نرى بدونه ، وهو الذى يحرك ذرات المادة التى يتألف منها أعضاؤنا الظاهرة ، وإذا كانت الحياة فى الجسم الإنسانى من خواص الأثير فلابد من بقائها إذا فنيت أعضاء الجسم ، فالموت هو طرح ذرات المادة ، أما الأثير وهو الروح فيرتقى تاركا الجسم، لابساً ثوبا شفافا لا يحجبه عن عيوننا وحواسنا إلا



عجز هذه الحواس عن رؤيته

ثم يقول أوليفرلودج : « إن بقاء ذاتية الفرد بعد موته هو عندى حقيقة قام عليها الدليل الحسى ، وقد سمى كتابه «خلود النفس » ليؤكد خلود الروح بعد انتقالها ، أما الدليل الحسى فقد تأكد له فيما قام به من جلسات روحية استحضرت روح ابنه ريموند الذى قتل فى الحرب ، وقد ناجاه فى مجلد كبير أوضح فيه ما تبينه من حالته ، وقال عن الأرواح إن لها أجساما غير عادية ، وأصحابها مسرورون ولا يحبون العودة إلى الأرض مهما مهد لهم الطريق ، وأنهم معنا وأكثر دخولا وخروجا حولنا على نحو لا نتصوره ، وكل ما هنالك أنهم لا يقعون تحت حواسنا !

إن هذا الكلام نفسه قد قاله من باحثى الروحية فى مصر أعلام كبار منهم محمد فريد وجدى وطنطاوى جوهرى وأحمد فهمى أبو الخير ، وعلى عبد الجليل راضى ورءوف عبيد ، ولكل منهم قدره المشهود فى عالم الفكر ، فقويل لدى قوم بالإنكار العابث ، ولكن الذين خالفوا السير أوليفرلودج من مواطنيه قد عرفوا قدره ، ولم يكذبوه فيما قرره من أحاديثه



الروحية مع ولده الراحل ، ولكنهم قرروا أنهم لا يبدون الموافقة التامة إلا إذا شاهدوا ما شاهد ، والاتصال بالأرواح تحتاج إلى موهبة لا تتيسر لكل إنسان ، فهو كالشعر أو الغناء يختص بهما من يملك موهبتهما ، ولا يعيب الإنسان ألا يكون شاعرا أو مطربا ، وإنما يعيبه أن ينكر الشعر لأنه غير شاعر ، والغناء لأنه غير موهوب ، يقول السير أوليفرلودج إجابة لمن سأله : كيف عرفت أن هؤلاء الراحلين لا يزالون باقين ؟ يقول : إنى أتصل بهم ، وأنت لا تستطيع أن تشك فى وجود من تحادثهم بالتليفون اللاسلكى وهم بعيدون عنك فكذلك لا أشك ، فالحياة لا تفنى ، ولكنها تأخذ مظاهر مختلفة !! يخيل إلىّ أن مقتل ولده ريموند كان الحافز الأول لاتجاه هذا العالم الطبيعى العريق ، فلم يهدأ بالا حتى عرف مكانه وحادثه ! فليتنا نعرف ، وقد قرر فى بعض ما كتب أن الروح الإنسانية موجودة فى الفضاء قبل أن تتصل بالجسم فى بطن الأم ، وحين يأتى الأجل تطير من الجسم إلى حيث كانت فهى منفصلة عنه تماماً ، لا تموت بموته، ولعل هذا ما قرره ابن سينا

فى قصيدته عن الروح ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تدلل وتمنع

إلى أن قال :

حتى إذا قرب المسير إلى الحمى

ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

أخذت تغرد فوق ذروة شاهق

والعلم يرفع كل من لم يرفع

إنها باب للأمل

القاضى الكبير (والترا بلياد) شغل نفسه بدراسة أحوال النفس بعد الرحيل ، وكتب فى هذا المجال مؤلفا شهيراً ، وقد رحلت زوجته قبله ، فكان يستدعى روحها وترد عما يسأل بلهجتها المعروفة فى الحياة ، وفى إحدى جلساته الروحية معها، اقتحمت روح تطلب الإذن بالكلام ، فأجابتها ، فقالت إنها روح شاب اسمه (أرثرايم) ،قد مات بذات الرئة منذ ثلاثة سنوات ، وكان يسكن فى منزل رقم ١٨ بشارع كلايف رود « وله حبيبة تسكن فى رقم ٢٢٩ بشارع فلينت ستريت » وهو يرجو أن تعلم أمه وحبيبته أنه ليس بميت، ويبلغهما سلام الحب والشوق » .

وقام القاضى برحلة إلى المنزل وعلم أن صاحبته قد انتقلت إلى مكان غير معروف ، فذهب إلى منزل الحبيبة ، وفاجأها بسؤاله : أتعرفين شخصا اسمه (أرثرايم) فبكت وقالت كان حبيبى ومات منذ ثلاث سنوات ، ثم أرشدته إلى منزل والد حبيبها فسأله عنه وأجاب بكل ما أكد كلام الروح ، وأفاض المؤلف فى حديث عن المستشفى الذى كان يعالج به الراحل قبل موته ، كما أخبره والده كيف فحص الكشوف الخاصة بالراحلين فى التاريخ نفسه ، حتى رأى اسمه وقد كتب أمامه (العمر ٢٣ سنة ، المرض ذات الرئة ، تاريخ الوفاة ١٩٢٠/٩/٢١) .

وكتاب القاضى كما يقول من قرؤه حافل بمثل هذه الطرائف ، وإنها لطرائف حقاً .

وختاماً لا أدرى لماذا يتصدى المفكرون لهذه الحقائق لتهجين القائلين ، ورميهم بالادعاء ، دون المجادلة بالتى هى أحسن ، ولماذا يوصدون باباً للأمل فى نفس أم تشتهى أن ترى ابنها الراحل ، أو حبيب يود لو التقى بمعشوقته مرة ثانية ! وليس لديهم من دلائل الإنكار ما يصفع هذه الحقائق ويردها على أعقابها كما يقول الأستاذ العقاد ! وأقل ما يرجى منهم دون لوم أن يقفوا موقف الشك فلا يجزموا بالنفى القاطع ، وأن يتساءلوا مع الشاعر الملتاع حين قال :

يا ليت ماء الفرات يخبرنا

أين تولت بأهلها السفن ؟

٦٠



ذو القعدة ١٤٢٢هـ - فبراير ٢٠٠٢م

فكري أباظة

وأوراق مطوية من تاريخ الصحافة

بقلم
مصطفى نبيل

تمر هذا الشهر الذكرى الثانية عشرة لرحيل أحد فرسان الكلمة، الكاتب الكبير فكرى أباظة، الذى أثرى الحياة السياسية والصحفية بمواقفه وكتاباته، ورحل عن دنيانا فى ١٤ فبراير سنة ١٩٧٩ . وولد سنة ١٨٩٨.
وحياة فكرى أباظة ملحمة إنسانية غنية تمثل عصراً بأكمله، كتب عنه الكثيرون وسوف يطول الحديث عن دوره الوطنى.
وليس هذا تأريخا لحياة فكرى أباظة، ولا سردا لمؤلفاته العديدة أو مقالاته الكثيرة، ولا استعراض مواقفه فى البرلمان.
وإنما رواية بعض ما عايشته معه عن قرب، خلال فترة عملى فى دار الهلال، التى بدأت عام ١٩٦٤ واستمرت حتى رحيله.

تذكرني كتابات أحمد رجب ومحمود السعدنى بكتابات فكرى أباظة، فمازالت مدرسته الساخرة قائمة فى الصحافة المصرية، وأسلوبه الخاص الذى لايتورع عن السخرية حتى من ذاته، وخرج من لهيب ثورة ١٩١٩ بطريقة مبتكرة للكتابة الصحفية.. فهو محب للحياة وعاشق للوطن، كتب عن ثورة ١٩ كتابه «الضاحك الباكى»، الذي يعتبر مرجعا لايمكن الاستغناء عنه لفهم الكثير من أبعاد وأحداث الثورة.

وجاء ظهور كل من فكرى أباظة ومحمد التابعي إيذانا بظهور مدارس صحفية جديدة، تحل محل الشوام والأجانب ، تألقا معا وتميز كل منهما بأسلوبه الخاص بعد الإفاقة من آثار هزيمة يوليو ١٨٨٢ ودخول الإحتلال الإنجليزى، وخرجا معا من عباءة الطبقة الوسطي، وعبرا عن نموها وطموحها، مزودين بالمعرفة الشاملة ويعرف كل منهما عدة لغات فكانا الأكثر رواجا..

كان باعة الصحف ينادون «مصور فكرى أباظة»، فمن يريد أن يعرف روح مصر ومفرداتها فعليه قراءة كتابات فكرى أباظة والتى كانت حربا ضد الظلم والجهالة، يقف دائما إلى جانب التطور وهو صاحب الرأى المتجدد والشخصية الجامعة.

بين الصحافة والسياسة

وهو فنان ساحر، ابن بلد محب للناس والحياة.. ويجمع فكرى أباظة بين الصحافة والسياسة، ولم تفته دورة برلمانية منذ سنة ١٩٢٩ وحتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢، وهو أحد قيادات الحزب الوطنى، حزب مصطفى كامل الذي كان بمثابة ضمير الحركة الوطنية يقف فى صف المعارضة على طول الخط، وهو من أبرع المتحدثين الذين عرفتهم المجالس النيابية المصرية، وصاحب الكلمة والموقف الوطنى فى كل أزمة تواجهها البلاد، ورغم حملاته فى مواجهة الإنجليز والسراى والحكومة، ورغم وقوفه إلى جانب المقهورين والضعفاء، احتل مكانا بارزا فى المؤسسة السياسية أى النظام السابق على ثورة يوليو.

حرصت على إعادة قراءة فكرى أباظة، عندما عملت معه فى المصور، ولم أكتف بمعرفتى السابقة، سواء فى احتفالات المدرسة السعيدية التى كان يحرص على حضورها، أو نشاطه المستمر فى النادى الأهلي، وهما أكثر المؤسسات تعبيرا عن الطبقة الوسطى، ولم أكتف أيضا بالانطباعات السريعة أو القراءة العابرة.

ولاحظت التغيرات التى ظهرت على أعماله، فهو ابن ثورة ١٩١٩ واستمر كاتبا يحرض على الثورة فى مرحلة الشباب وحتى قيام الحرب العالمية الثانية، كان خلالها شجاعا لايهادن، حربا على المحتل وعملائه، رفض تصريح ٤ فبراير ورفض معاهدة ١٩٣٦ ونادى بالكفاح المسلح، وناقدا للأحزاب السياسية ويرفض التناحر الحزبى، فى أسلوب سهل وغنى العاطفة الصادقة، وبعدها أصبح عضوا دائما فى البرلمان وعرض عليه الاشتراك فى الوزارة أكثر من مرة وحصل على لقب البكوية والباشوية، فأصبح أكثر جدية وإن لم تخل كتاباته من السخرية.

فكري أباظة برلمانيا

يروي بقلمه الرشيق أول معركة انتخابية يخوضها للدخول إلى البرلمان بعد إعلان دستور ١٩٢٣، وهى المعركة التى خسرها نتيجة الحملة التى شنها على حزب الوفد، وخطب فى هذه المعركة القمص سرجيوس ضده قائلا «بلاش هلس، انتم عاوزين تنتخبوا كشكش بك» ويدخل البرلمان!.. وبعدها تم الاتفاق مع الوفد على أن يترك له دائرته ولايرشح أمامه أحدا من حزب الوفد.

وفى البرلمان، كانت له صولات وجولات، يقف إلى جانب الحق، وإذا تكلم أنصت الجميع، وقف مؤيدا تعليم الفتيات فى الجامعة، ودافع عن استقلال الجامعة وحريتها، ووقف إلى جانب د. طه حسين فى معركة «الشعر الجاهلى».

ويحكى كيف أيده الوفد فعندما هاجم سعد وحزب الوفد فى إحدى اجتماعات الحزب الوطنى، سعى النواب الوفديون للرد عليه داخل البرلمان، فمنعهم سعد زغلول رئيس المجلس قائلا : ماقيل خارج البرلمان يرد عليه خارج البرلمان.

وعندما ذهب فكرى أباظة يعتذر لسعد قال بأسلوبه الفكه: أنا شاب ناشىء، أريد الشهرة، ويعرف الناس أنى شجاع، قلت: أطعن فى أكبر شخصية وأنت ياسيدى «جبل»، جبل من المجد والقوة والنفوذ لايتزحزح ولايتزعزع، ويكمل القصة بقوله:.. «وقهقه الرجل العظيم قهقهة عالية، وقال: ياإبنى ريحتنى، إطعن فى سعد زغلول ماشاء لك الطعن..»

وهنا يظهر جانب من أسلوبه هاجم ثم جامل!. وكان مع أشد المعارك سخونة لايتخلى عن روحه المرحة الساخرة المحبة للحياة.

وعندما تعاقد مع المصور كرئيس للتحرير، قفز بمجلة المصور قفزة كبيرة، وجعلها أهم مجلة أسبوعية .. وجعلها شيقة جذابة، تخاطب كل الأجيال، واهتم بالبعد الإجتماعى، وشن حملة شعواء على سوء السلوك وأفرد بابا بعنوان مناظر مؤذية، «وآخر نكتة» و «الملحوس» و«الجاسوسة الحسناء».

يذكر عن الصحافة فى أكتوبر ١٩٢٥، الصحافة أمس كانت مهمشة قلقة، أما اليوم فاللغة سليمة صحيحة راسخة فبالأمس كان أسلوب الصحافة وضيعا ركيكا يحتاج إلى عمليات ترميم وتعمير، أما اليوم فالأسلوب منسجم واضح كله ذوق سليم، لاينفر منه الطبع.. وكانت الموضوعات أمس سخيفة جوفاء، أما اليوم فقيمة مفعمة بالآراء والابتكارات والاستنتاجات».

الإذاعي الأول

وأذكر أول مرة سمعت باسم فكرى أباظة، سمعته من جدتى التى تحرص على سماع حديثه الذى يلقيه أسبوعيا فى الإذاعة، وكان حديثه شائقا جذابا يصل حديثه



إلى قلوب المستمعين، يخاطب خالتي «خضرة» وسوسو وتوتو وزيزى ، يقترب من واقع الناس، وقضاياهم حتى أن البعض كان يترك عمله لكي يستمع إلى فكرى أباظة، فبعد قيام الإذاعة المصرية عام ١٩٣٤، كان أول من دعى إلى الحديث فيها، وأختير بعدها لإذاعة تفاصيل دورة برلين الأوليمبية سنة ١٩٣٦، ويروى عنها قائلا .. «كنت دائما - ولا أزال - من المعجبين بالزعيم، الألماني هتلر، كنت أختاره ضمن ثلاثة زعماء، هو الأول والثاني مصطفى كمال أتاتورك الزعيم التركي، والثالث موسوليني الزعيم الإيطالي، كل منهم ديكتاتور، وأول درس تلقيناه في كلية الحقوق هو أن أصلح نظم الحكم النظام الديكتاتورى أى حكم الفرد الصالح(!).

(تردد هذا الرأى فى الثلاثينات وتأثرت قطاعات من الحركة الوطنية بكل من تجربة إيطاليا وألمانيا)، ويكمل فكرى أباظة حديثه قائلا.. «وبعد انتهاء الأولمبياد دعانا هتلر إلى حفل بسيط، وأهدى كل واحد من المذيعين ميدالية تمثل تقدير الدولة الألمانية، وخلال هذه الأولمبياد حصل خضر التونى على الميدالية الذهبية فى حمل الأثقال.

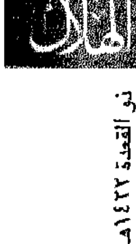
لقاء في المبرة

كان «الباشا» وهذا ماكان يطلق عليه في دار الهلال، يرأس إجتماعات تحرير المصور ويدير الاجتماع ويعلق على الاقتراحات بخفة دم ولما حية واضحة، ويحكى بعد نهاية الاجتماع ذكرياته ونوادره وعلاقاته بالنساء الجميلات الفاتنات، ولم تكن تربطنى به سوى علاقة العمل، حتى توثقت علاقتنا عندما كان فى مستشفى المبرة، يرقد على ظهره معصوب العينين عقب عملية جراحية فى مايو ١٩٦٥، وتصادف أن وضعت زوجتى ابنتى هند فى المستشفى نفسها، وكنت أمضى فى المستشفى وقتا طويلا، أقضى معظمه مع «الباشا» فى غرفته، وخاصة بعد أن أحزنتنى وحدته وندرة زواره.

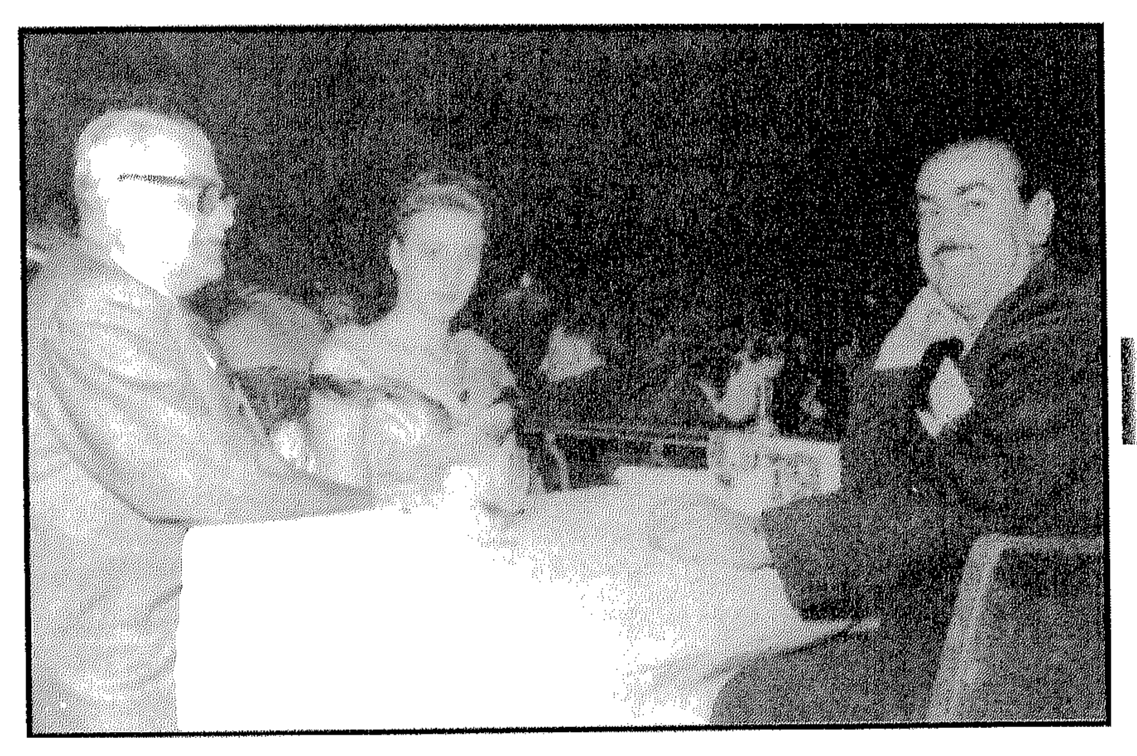
وتقاربنا رغم فارق السن، لكننى كقارئ للصحف القديمة، ساعدنى ذلك على سد الفجوة، فكان يتحدث عن أشخاص يجدنى أعرفهم، ويدهش حين يجدنى قرأت الكثير من كتاباته، وأخذت أطرح عليه الأسئلة حول السياسة. والصحافة، وكان أكثر مايعتز به موقفه من الصحفيين، فعندما قبض على محمد التابعى فى قضية نشر فى روزاليوسف، ذهب للعمل بدلا منه وحتى خروجه من السجن، ووقف إلى جانب محمود أبو الفتح وشهد لصالحه فى محكمة الشعب.

ومما أذكره حكايته عن إصابة عينه اليمنى فى مباراة كرة السلة سنة ١٩٤٧، ومن أيامها وهو يعانى ولم تنجح عمليات ثلاث أجراها، وتنقل بين أطباء العيون فى معظم عواصم العالم، ودخل مستشفى «باركير» الطبيب العالمى فى برشلونة، وأجرى عمليات الشبكية والكتراكت فى العينين، وهذا أحد نتائج ماكنت أقرأه من البروفات التى أراجعها، ويتحسر أنه فقد أعظم متع الحياة وهى متعة «القراءة»، وكان لديه شعور عميق بالمرارة الممزوجة بالسخرية، ورأيت الوجه الغاضب، المختلف عن الوجه الضاحك الذى كان يظهر به ، مرارة من تبدل الزمان، فبعد أن كان ملء السمع والبصر، يرقد وحيدا لازوجة ولا ولد، ويبدى ندمه الشديد على أنه لم يتزوج، ويعيد ذلك إلى غريزة الضعف والتردد التى كثيرا ماتملكته، ويحذر الأجيال الجديدة أن لاينتظروا إلى مابعد الثلاثين حتى يتجنبوا مصيره، وهو يعيش وحيدا فى شقته بعمارة الإيموبيليا!.

وأخذت علاقتى به تتوثق، وكان يبدى رضاه على بعض ما أقوم به، حتى جاء يوم، فى فبراير ١٩٧٣، ووقع مع أعضاء مجلس إدارة دار الهلال، قرار فصلى من دار



لقاء باسم بين فكرى أباظة و السيدة أم كلثوم والملحن محمد القصبجى



فكرى أباظة فى جلسة بأحد النوادى

الهلال!، فكيف كان ذلك؟!.

الفصل والمنع من الكتابة

نشرت في الصفحة الأولى من جريدة الأهرام يوم ٤ فبراير ١٩٧٣ قائمة بأسماء عدد من الصحفيين تم فصلهم من التنظيم السياسي، وكنت واحدا منهم، وأفتى كهنة النظام أيامها، أن ذلك يعني سحب ترخيص العمل بالصحافة، وحدث ذلك بعد أزمة حادة بين السلطة والكتاب، في فترة اتسمت بالتوتر والقلق بسبب استمرار الاحتلال الإسرائيلي لسيناء، ونتيجة الوعود التي لاتتحقق، واشتد إحساس كل فرد بضرورة أن يؤدي واجبه كاملا، وكنت سكرتيرا مساعداً لمجلس نقابة الصحفيين.

ودعى مجلس نقابة الصحفيين إلى جمعية عمومية، طالب خلالها الصحفيون بضرورة إلغاء الرقابة على الصحف، وناشد الحكومة بعدم إستخدام الأساليب البوليسية في التعامل مع القوى السياسية، ونادى بإجراء حوار تجنبا للصدام، وجاء ذلك عقب الاعتقالات الواسعة لطلبة الجامعة.

وتم نقل وفصل مايزيد على ١٢٠ كاتبا وصحفيا.

وسارع مجلس إدارة دار الهلال بإصدار قرار فصل من جاءت اسماؤهم في قائمة لجنة النظام، وبالفعل صدر قرار المجلس بفصل كل من : د.على الراعي وصافي ناز كاظم وكمال سعد ومصطفى نبيل، وكانت دار الهلال المؤسسة الوحيدة التي سارعت بفصل العاملين بها.

وذهبت للقاء الباشا، وقلت له: لايهمني جميع أعضاء مجلس الإدارة، ولكن ما استوقفني توقيعك على القرار، فهل استحق الفصل لأني صدقت ما قرأته في كتابك «الضاحك الباكي»، والذي أكدت فيه إن الإنسان موقف، وأن قيمته في الدفاع عن موقفه، وأتساءل، وأنت النقابي القديم، ما الذي كان على أن أفعل، هل كان على أن أطالب باستمرار الرقابة على الصحف، أو أحرض السلطات على التنكيل بالطلبة؟.. وهل فيما قمت به مايخالف القانون؟!

وظهر التأثر الشديد على الرجل، وقام من مكتبه وجلس إلى جواري وربت على كتفي وقال : يا ابني فكري أباظة الذي كتب «الضاحك الباكي» أنتهى من زمان»، وأضاف «لقد انتهيت يوم فصلت بسبب مقال كتبته، وكان شرط عودتي الاعتذار العلني، شردت مدة عشرة أشهر بعد إعفائي من كافة مناصبي...».

وفي مساء نفس اليوم عقد الرئيس السادات لقاء مع رؤساء تحرير الصحف وحضره «الباشا» وطلب إليه أن يلقى كلمة باعتباره شيخ الصحفيين، فإذا به يفاجيء الجميع، بأن يطلب من الرئيس أن يعفو عن أبنائه من الصحفيين وساد القاعة صمت عميق.

وبعدها ألغى قرار الفصل، واكتفى بالمنع من النشر، ثم عدنا إلى عملنا قبل حرب أكتوبر مباشرة..

فما هي حكاية إعفاء فكري أباظة الذي أعقبها إعتذاره؟!

ولماذا أصبح فكري أباظة قبل الفصل غيره بعد العودة رئيسا للتحرير إلى جانب على أمين؟

فكري أباظه ويوليو

إن ماتعرض له فكري أباظة جانب مما واجه نجوم الصحافة والسياسة في مواجهة

التغيرات السريعة المتلاحقة التي حدثت، فها هو ينطلق مغردا بعد ثورة ١٩١٩، بقى فى المعارضة رغم أن معظم أبناء عائلته ينتمون إلى حزب الأحرار الدستوريين، وتولوا الوزارات وهو الذى يفوقهم براعة وثقافة، وقام بدوره الوطنى عندما كانت الأوضاع تسمح للكاتب أن يتحرك بين مثلث الحكم المتمثل فى السراى والإنجليز وحزب الأغلبية، وجاءت ثورة يوليو وفرضت الكثير من القيود فى ظل أوضاع استثنائية من أجل تحقيق التغيير المنشود، وكان ضحايا الصحافة أقل بكثير من ضحايا السياسة، فاستمر كل من محمد التابعى وعلي ومصطفى أمين يتربعون على عرش صاحبة الجلالة، وأبعد وحوكم أحمد وحسين أبو الفتح وغاب وراء الأسوار أبو الخير نجيب، واستمر فى الحياة العامة عدد كبير من المثقفين أبرزهم الدكتور طه حسين، وتوارى عدد آخر مثل د. محمد حسين هيكل بسبب دوره السياسي كرئيس لحزب الأحرار الدستوريين.

وأفلت فكرى أباظة من الصدام الذى وقع بين الثورة والنظام السابق عليها، وبدأت التناقضات بعد تأميم الصحافة، ولم يعد مقبولا أن يتناول الكتاب جمال عبدالناصر كما كانوا يتناولون السياسيين القدامى، وأصبح من العسير على أحد رموز الماضى الاستمرار بنفس نفوذه وتأثيره، فجاءت الثورة واندفاع رجالها، مثل تدفق المياه المحجوزة طويلا وراء السد، تحقق الأحلام التى طال انتظارها.

وإذا قلبنا وأعدنا قراءة بعض كتاباته حتى نتبين الفجوة التى أخذت تتسع بينه وبين الثورة.

ويكتب فكرى أباظة مثالا عن قائد الثورة جمال عبدالناصر فى ديسمبر ١٩٥٤و يكتب.. «هو نفسه – أى عبدالناصر – يعترف أنه «لغز»، فالرجل الذى تدرب على ذلك الأسلوب فى ذلك الزمان الطويل، لم يتكلف ولم يتصنع وإنما تطبع، وهو يضيف لسليقته وغزيرته نزعة البعد عن الناس، وإلى تفادى الاختلاط بالناس، أنه أميل إلى العزلة، وإلى أن ينطوى على نفسه وعلى واجبه الفادح..» ويضيف.. «الحائل بيننا وبينه .. يشترى الحكام فى الشرق محبة الطوائف والجماهير بالثمن الفادح ولو كان ذلك الثمن على حساب المصلحة العامة، ومع ذلك فإن المصلحة العامة تقول: لابد مما ليس منه، وما باليد حيلة .. قال كثيرون من المقدرين لهذا الرجل إننا نحبه، ونود أن نراه، ولكن الحائل، الحائل، وهو الذى حارت البرية فيه .. وأنا نفسى كنت أحس «الحائل» فى كل مقابلة عابرة، وكنت أسائل نفسى .. أهى خشية أم عدم طمأنينة..؟ أم وهم..؟ أم لجرح شخصى أصابنى فلون شعرى بلون غير لون الرجل، قدد يكون بعض هذا صحيحا، ومن منا لم تصبه الثورة فى شخصه أو أقاربه أو ماله أو حزبه أو فى رتبته أو مكانته .. من منا؟ السياسيون الحزبيون؟.

أصحاب الطين، أصحاب المؤسسات والشركات..؟ أرباب الرتب؟ الموظفون.. من منا.؟.. شجعنى ظرفه على أن أطالبه بأن يتصل بالناس.

وقلت له صراحة: أخذتم من الإقطاعيين أطيانهم للمصلحة العامة فماذا فعلوا؟ لم يفعلوا شيئا، سلكوا سلوك المواطن فلم يعكروا صفو الثورة ولم يضعوا فى سبيلها العراقيل.

وأطحتم بالسياسيين والحزبيين المسئولين فى سبيل المصلحة العامة، فرضوا بحكمكم أو بحكم القدر، أو بحكم المقدر ولم يفعلوا شيئا.

هؤلاء وأولئك تقتضى وظيفة الحاكم أن يضمد جروحهم ولو بكلمة.. ولو بالاستماع

إلى مافي نفوسهم: تظلما؟ أو استدراكا أو إيضاحا».

ولا أتصور أن هذا الكلام يروق رجال الحكم الجدد.

وتأخذ الفجوة فى الاتساع .. ويكتب مقالا آخر بعنوان «جمال كما عرفته» كنت فى الخارج يوم قامت الثورة، وأسرعت بالعودة متخيلا أنى سآخذ مكانى منها.. لم يجمع بينى وبينه فى حياتى المضطربة ندوة ، ولا مجلس أنس واحد، ولا حزب واحد ولا حانة واحدة ولا ناد واحد، هو مستقيم وأنا غير ذلك، ولهذا عز اللقاء. ويضيف ..«فى السنة التالية بعد عودتى من أوروبا (١٩٥٣)، زارنى أحد أصدقائى، وقال: إن جمال يود أن تتناول عنده فنجان قهوة، وذهبت فوجدت فى صالونه الصغير المتواضع عددا من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعض زعماء الأحزاب، وكان موضوع البحث، العلاقة مع الإنجليز .. وكنت بجواره فلكزنى بركبته وقال لى: ماتقول لنا شوية عن الحياد اللى دوشتنا به». ويختم مقاله.. جمال عبدالناصر هاو من هواة المفاجآت، وقد قيل لى أنها غريزة كل ديكتاتور، ولكنه يمقت كل المقت أن يقال عنه أنه ديكتاتور، ففى مقابلة أخرى ألح على أن الغى عنه هذا اللقب .. وقد كتبت ما أملانى، وظل الناس - من يومها - فى دهشة، يتساءلون إذن ماذا يكون هو؟ لم أعرف كيف أجاوب..».

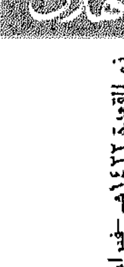
الحالة ج

وهكذا أخذت الفجوة فى الاتساع حتى وقعت الواقعة التى وقعت بسبب مقال تحت عنوان «الحالة ج» والذى نشر فى المصور فى ١٨ أغسطس ١٩٦١، والذى أدى إلى إعفائه من العمل، قدم فى المقال اقتراحات لكى يزول التوتر من العالم، وتختفى المنازعات والحروب، وجاء فيه بالنص الفقرة التالية.. «أما بالنسبة للشرق الأدنى فأقترح اتفاق حياد منظمة الشرق الأدنى وجميع الدول المتفهمة إلى الجامعة العربية، وينشأ بعد هذا الإتفاق إتحاد فيدرالى بين الدول العربية، يكون إختصاصه قاصرا على توحيد الجيوش الحيادية العربية وسياستها الخارجية، على أن تدمج فلسطين بأسرها فى هذه الدول، وتشمل إسرائيل بعد أن تزول صفتها الدينية، ويصبح الإسرائيليون من رعايا هذا الإتحاد الذى يكفل لكل الأقليات حقوقها كاملة حسب التقاليد الدولية المتبعة».

وقد اعتبر هذا النص دعوة للصلح مع اسرائيل، ويظهر مدى الفجوة القائمة بين القدرة والرغبة.

وخرجت الأهرام بعدها فى صفحتها الأولى تعلن .. «إعفاء فكرى أباظة، أصدر أمس الرئيس جمال عبد الناصر قراراً بإعفاء السيد محمد فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال ورئاسة تحرير المصور.

وعقب مصدر مسئول على المقال الذى نشره فكرى أباظة فى مجلة المصور، وطالب فيه الدول الكبرى بانشاء إتحاد فيدرالى من الدول العربية، على أن تندمج فلسطين بأسرها فى هذه المجموعة وتشمل اسرائيل بقوله.. إن هذا الاتجاه يحمل معانى عديدة لا يمكن السكوت عليها، فهو ينطوى على دعوة أن تتجمع الدول الكبرى وتفرض على الدول العربية إتحاداً بينهما، كما ينطوى على دعوة للدول الكبرى بأن تفرض دمج اسرائيل فى اتحاد عربى، كما ينطوى على معنى التشكيك فى الموقف العربى تجاه اسرائيل الذى هو موقف عربى أجمعت عليه الامة العربية، ولا يملك أن يخرج عليه أى فرد من أفرادها.»



حفل تكريم فكرى أباظة باشا



فكرى اباظه فى جلسة مرحة بمرسى مطروح مع المهندس أحمد عبود وبعض المصطافات

وانتقلت بعد ذلك مسئولية دار الهلال إلى مصطفى وعلى أمين، ورفع اسم فكرى أباظة لأول مرة منذ عام ١٩٣٤ من المصور كرئيس للتحرير..

عفو واعتذار

وفى ٢٥ سبتمبر ١٩٦١، أى قبل مضى شهرين من القرار الأول جاء فى الصفحة الأول من الأهرام، صورة فكرى أيام ومقال يعتذر فيه على ما بدر منه يقول: كان «أوجب» أن أقدم هذا الإيضاح لصاحب الشأن - أولا - وهو سيادة الرئيس ولقد فعلت.

الرجل العظيم الذى أعفى المحكوم عليهم بالاعدام من الإعدام، والذى أعفى الذين تآمروا على حياته من الأشغال الشاقة المؤبده، والذى أعفى المحرومين بأحكام من حقوقهم السياسية من هذا الحرمان، ورد إليهم اعتبارهم الشخصى والسياسي (أى هل من المعقول أن أخالفه)، هذا الرجل لا يعز عليه أن يعفى فكرى أباظة لا من الأعفاء، وإنما من حيثيات الإعفاء إذا شاء الله، فشاء.

لا يمكن بحاله أن يختفى قلم فكرى أباظة فى عهد جمال عبد الناصر.

ولا بد أن يجد طريقه فى أى ميدان ليستأنف جهاده وكفاحه فى سبيل هذه الثورة وفى سبيل زعيمها وقائدها والمسئول الأول عن الوطن العربي الكبير الواسع المساحة، والفادح الأرجاء، بقى واجبى نحو قرائى بعد أن أديت واجبى نحو سيادة الرئيس والايضاح الذى أنشده هو قضية معركة عنيفة بين ضميرى وقلمى، فتنه أهلية داخل كيانى الهزيل الضئيل.

قال ضميرى لقلمى: أنت لم تحسن ترجمة ما دار فى خلدك أو لم تسجل بعبارة أصرح وأفصح ما أمليت إملاء، لعلك قد هرمت أو شخت أو تعثرت بحكم أرزل العمر وهو ما أنت فيه، وقال قلمى لضميرى : إن الأقلام لا تشيخ وقد تتعثر، لاتتبدل ولاتتغير، ولقد محوت اسرائيل محوا من خريطة العالم. وحطمت دولتها تحطيما وأعدت الأرض التى دنستها إلى الكيان الفلسطينى العربى الكبير، ثم جعلت مخلفاته المتناثرة من الآدميين رعايا للأمة العربية الكبرى فى الاتحاد الفيدرالى الذى ينبثق من إرادتها هى كما هو ظاهر من النص الجلى الصريح اللهم إلا إذا كان الحظ التعس قد نكب عبارتى بالغموض، وهذا قدر لا حيله لى فى هذا القدر «ثم يقول على نفسه..» إن صاحبى وصاحبكم ليس بالجاحد، فلقد أكرمه وكرمه الرئيس فأمر الرقباء - فى عهد الرقابة - بأن لا ير اقبوا ما يكتبه وزميله التابعى، وحين كان الرئيس فى الاتحاد السوفييتى أتاح له الكلام فى حفلة كبرى بدل نائب الرئيس فكرم معه الصحافة والصحفيين، وهتف أحد الدبلوماسيين الشيوعيين حين حملت على صاحبكم، تتهمه بالارتشاء من الأمريكان،.. وأكرمه وكرمه حين شرفه برئاسة مجلس إدارة أقدم دارين وهما الأهرام ودار الهلال وحين منحه وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، مصحوباً ببراءة ووثيقة بها كل التقدير والتكريم.

ولم يعد فكرى أباظة للكتابة فى المصور إلا بعد ستة أشهر وتسعة عشر يوما من نشر هذا الإعتذر فى الأهرام.

رحم الله الرجل الذى أضحك كثيراً وبكى كثيراً..

ففى المناسبات الكبرى كان دائما يعلو على الخلاف. ■

الاستشراق الفنى

فى مصر

خيال عربى وفردوس مفقود

خرج من عباءة المبالغة الرومانسية وعبر بصدق عن مرحلته الفنية

بقلم
د. محمد المهدى

• خرج من عباءة المبالغة الرومانسية، وعبر بصدق عن مرحلته الفنية

• ماشيرو.. بوهيمى فرنسى حضر مع السان سيمونيه وهام بحياة الريف المصرية

• بيلى: الارتباط مدهش بين سماء بنفسجية، ورمال ذهبية، وبحر تركوازى



صدر العدد الأخير من مجلة (فنون الشرق) Arts, D'orient التى تصدر فى باريس لتحدثنا عن عودة الاستشراق الفنى قويا الى صالات العرض، وعن ارتفاع أسعار لوحاته، ضمت القائمة ١٩٢ فنانا من جنسيات أوروبية وأمريكية متعددة، تناولت أعمالهم مناظر من (استانبول) و (مرمرة) و(البسفور) و(المغرب) و(الجزائر) و(تونس) و(مصر) و(لبنان) و(اسبانيا الأندلسية)، فضلا عن مناظر من الآثار اليونانية، ومن (غانا) و(نيجيريا) و(تشاد) .



الموسيقي - دويتش ١٩١٥

الحاوى فى القاهرة - فرانس كوسلر ١٨٩٨

الاستشراق الفنى (موضة هذا الزمان، يتردد كثيرا هذا القول، وترديده لم يأت وليد المصادفة بعد فترة من الإهمال، لقد تصاعدت الموجة فى العقدين الأخيرين، وكان مظهرها إقامة العديد من المعارض، وكتابة النقاد، وحماس الرواد، أو الهواة .. وربح التجار.

ومن يعرف القاهرة لابد أن يعرف ميدان السيدة زينب، تتفرع من الميدان حارة صغيرة تسمى حارة (السنارى أو مونج سابقا). فى داخلها مقر صغير للفنون يسمى بيت السنارى، و(مونج) هو أحد علماء الحملة الفرنسية التى جاءت إلى مصر عام ١٧٩٨ ورحلت عام ١٨٠١، وتستعاد الآن ذكرى نهايتها بين مرها وحلوها.

عن بيت السنارى يقول المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتى (وأفردوا لجماعة منهم - يقصد أعضاء الحملة - بيت إبراهيم كتخدا السنارى. وهم المصورون لكل شىء، ومنهم (أريجو).

بداية الاستشراق الفني

وإذا كان (جرو Gros) الفرنسى يعد بلوحته (معركة ابى قير) عام ١٨٠٦ هو البادىء بالاستشراق الفنى الفرنسى فى مصر، فإن الفنان سولت Salt الإنجليزى يعد البادىء بالاستشراق الفنى الإنجليزى المرتبط بمصر، وإن كان الفارق بينهما كبيرا، فالفنان (جرو) كانت مكانته وإمكانياته الفنية أكثر بكثير من (سولت) الذى انشغل بالتنقيب عن الآثار المصرية.

ففى عام ١٨٠٦ زار (هنرى سولت) مصر ورسم عدة تخطيطات مبدئية للقاهرة، وطمعا فى الثروة سعى لأن يعين قنصلا فى مصر حتى تتاح له فرصة التنقيب عن الآثار بحرية خدمة لأحد أثرياء الإنجليزي وفى عام ١٨١٧م زار مصر بدعوة من حاكمها محمد على المهندس الفنان باسكال كوست Passcle,cost ليؤسس مصنعا للبارود والمفرقعات، وليشرف على إنشاء عديد من المرافق مع





صيد الأسود- هوارس فرنيه ١٨٣٦

مجموعة من المهندسين الفرنسيين وقضى فى مصر عشرة أعوام، سجل خلالها عددا من اللوحات المحفورة والرسوم الملونة التى تميزت بدقة التفاصيل والألوان، وأنجز كتابه الضخم (العمارة الإسلامية أو آثار القاهرة ١٨٣٧/١٨٣٩).

دور مهم لإدوارد لين

وبين عامى ١٨٢٥ و ١٨٤٢ كانت زيارة وإقامة العالم الفنان الإنجليزى إدوارد وليم لين Edwardw.lane لمصر ثلاث مرات (١٨٢٥/١٨٣٣/١٨٤٢). توفر على دراسة أهل القاهرة، وسجل مشاهداته بالنص والرسم فى مؤلفه الأول وصف مصر (غير كتاب الحملة الفرنسية) الذى لايزال مخطوطا لم ينشر، ثم كان مؤلفه الثانى الواسع الانتشار (المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم) -MANNERS,AND,CUSTOMS,OF ,MODERN EGYPTIANS . ويضم ١٠٤ من رسومه تتراوح بين مجرد التسجيل، وبين الاستلهام الذكى من العمارة القاهرية والحياة اليومية. وكانت الرحلة الثالثة لإعداد كتابة (المعجم العربى) ARABIC,LEXICON وتوفى قبل إنجازه عام ١٨٧٦.

وإذا كان (لين) قد قصر دراساته على القاهرة وطبقتها البرجوازية، فإن الفنان (روبرت هاى) ROBERT, HAY قد فضل الحضارة المصرية القديمة، وكان (هاى) قد تولى أمر بعثة علمية جاءت إلى مصر فى عام ١٨٢٨ إلى عام ١٨٣٦، أتقن أعضاؤها اللغة العربية وعاشوا مع (هاى) وزوجته فى إحدى مقابر (طيبة)، ونشر (هاى)بعد عودته لبلده كتاب (صور من القاهرة) ILLUSTRATIONS, OF, CAIRO يحوى ما انتجه من لوحات خلال فترة إقامته فى مصر.

وجمع الفنان والعالم الفرنسى بريس دافين PRESSE, DAVENNES بين عشقه للآثار المصرية، والآثار الإسلامية، ومظاهر الحياة اليومية فى زمانه. جاء مصر عام ١٨٢٩ ليعمل

الفيوم – جان ليون جيروم

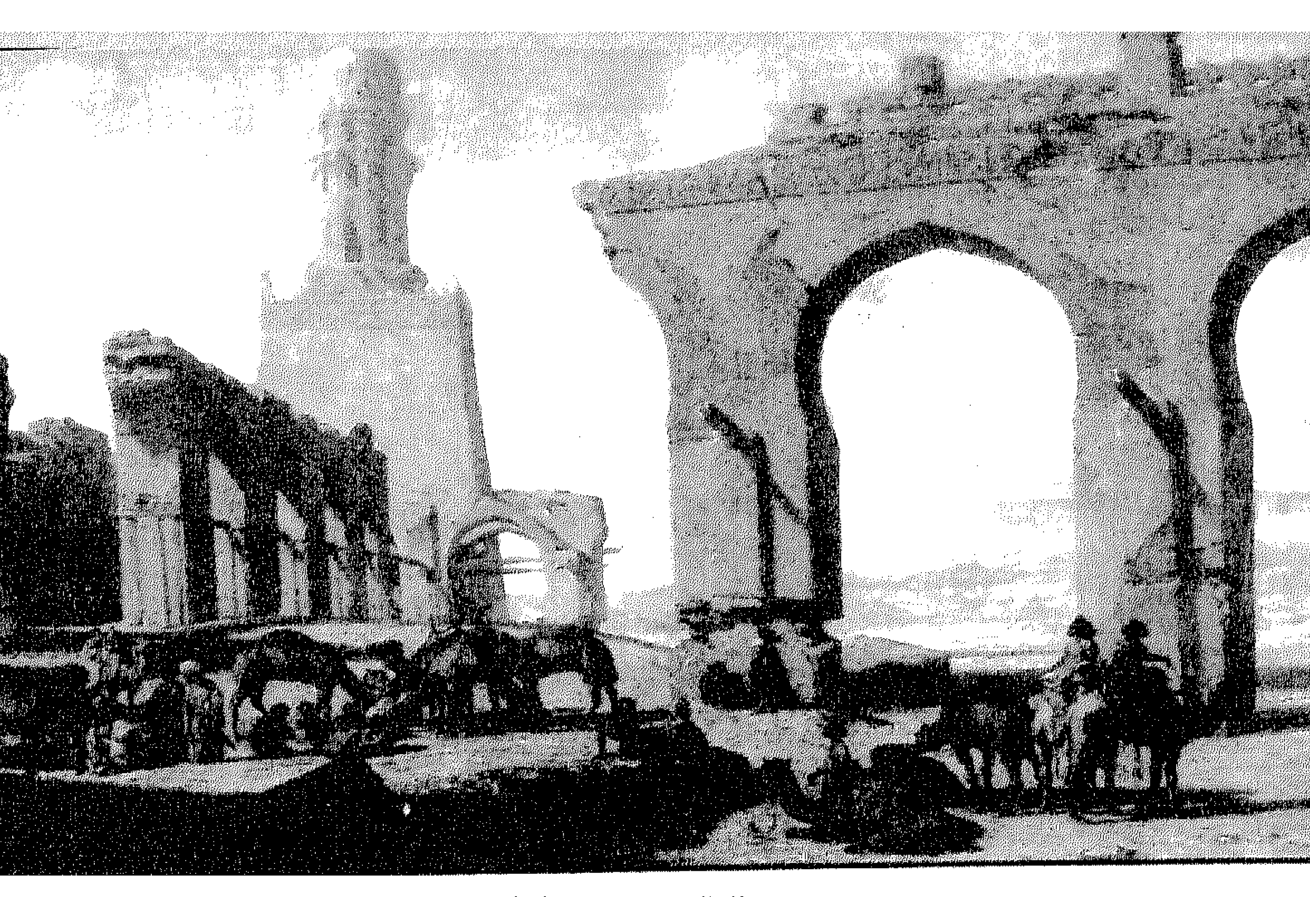
مهندسا معماريا، في خدمة ابراهيم باشا، ولكن تعلقه بالآثار والفنون والحياة الشعبية جعله يتمرد على سلطة محمد على مدافعا عن أهل البلد، وقد تعرض للمضايقة والمطاردة، ولكنه ظل متمسكا بموقفه، ثم استقال من عمله عام ١٨٣٧. أتقن العربية والعامية المصرية، لبس الزى لشعبى وتسمى باسم إدريس أفندى وتفرغ لابحاثه وفنونه. ويقول عنه الموسوعى الدكتور ثروت عكاشه : «وحتى ظهور بريس دافين كان الفن الفرعونى فى نظر المهتمين من الغربيين مجرد فن هندسى معمارى مشكل من خطوط وكتل ذات ابعاد ومقاييس وحسب، كما جاءت رسوم شامبليون وأعوانه برغم دقتها جامدة، غير أن هذا الفن مالبث حين مسه (دفين) بريشته الساحرة أن رف بالحياة النابضة، ودفء الجاذبية المشبوبة».

مستشرقون عشقوا مصر

ومن الفنانين المستشرقين الذين صحبوا البارونات أصحاب المشاريع فى مصر آنذاك الفنان الفرنسي (أدريان دوزا) ADRIEN,DAUZATS، ولد عام ١٨٠٤. وفى عام ١٨٢٨ شارك البارون (تيلور) لزمن طويل مشاريعه الفنية، وصحبه الى الشرق الأدنى فى مهمة رسمية، وهى وصوله لاتفاق مع محمد على لشحن مسلة الأقصر إلى فرنسا. وخلال ستة أشهر من ابريل حتى أكتوبر عام ١٨٣٠ تحددت ميول الفنان بعد اقامته فى القاهرة، وفى وادى النيل، وفى صحراء سيناء، اخذته على وجه الخصوص الرسوم التأثيرية فى (دير سانت كاترين)، وفى شهر يوليو رحل إلى فلسطين ثم سوريا حيث زار يافا، والقدس، ودمشق، والبتراء، وبعلبك. ونشر (دوزا) عام ١٨٣٩ وصفا لرحلته (خمسة عشر يوما فى سيناء) بالاشتراك مع (الكسندر ديما الأب).

وصحب الفنان الفرنسى بروسبيه ماريا (ولد عام ١٨١١) PROSPER,MARILHAT البارون (فون هيجل) فى رحلة الى الشرق الأدنى، رحلا فى أبريل عام ١٨٣١ إلى اليونان





مسجد الحاكم - بروسبيرماريا

ومنها إلى مصر. قام بروسبيه برحلة صحراوية الى سوريا ولبنان وفلسطين، وانتهى إلى (يافا) عائدا إلى مصر حيث انجز دراساته الفنية للعديد من القوافل، والمخيمات فى الفضاء الواسع الموحش بالصحراء، ولما كان قد أخذه عشق مصر فقد رفض الرحيل إلى الهند مع البارون. بدا له تشابها بين المنحوتات المصرية ووجوه السكان، وفى عام ١٨٢٢ رحل الى الإسكندرية حيث رسم العديد من البورتريهات كما رسم أيضا محمد على، والأثرى الفنان بريس دافين ، ورحل إلى الاقصر لرصد ورسم ترحيل مسلة الاقصر إلى فرنسا.

السان سيمون في مصر

لم يكن الحضور لمصر اعجابا بحضارتها وفنونها مقصورا على الأفراد، فقد توجهت إليها بعض التيارات الثقافية الغربية، كان على رأسها فى الربع الأول من القرن ١٩ أعضاء الحركة (السان سيمونيه) SAINT, SIMONIENS فى فرنسا، كان سان سيمون ، الذى ولد عام ١٧٦٠، أول داعية فى الغرب لإنشاء علم الاجتماع الحديث، سعى الى أن تقوم السياسة على الأخلاق، نادى بتغيير الملكية الوراثية، وفرض سيطرة الدولة على وسائل الانتاج، وصاغ خليفته الأب (انفانتان) LE,PERE,ENFATIN مذهب (السان سيمونيه) مع أنصاره الذين استهوتهم مصر بماضيها العريق، وصلت مجموعة منهم عددها ٥٠ رجلا من المهندسين والفنانين والكتاب على رأسهم (انفانتان) إلى مصر عام ١٨٣٣، كان بينهم الموسيقى (فيليسيان) والنحات (الريك)، والفنان (فيليب جوزيف ماشيرو).

توفى (الريك) فى مصر ،وعاد (فيليسيان) إلى فرنسا، وآثر ماشيرو البقاء فى مصر، كان شخصية فريدة، وصل الاسكندرية فى سن الثانية والثلاثين ممتلئا حيوية... غزير الشعر، بوهيمى الطبع، خصب الخيال متعدد المواهب، رساما

الأزهر – لودفيج دويتش ١٨٩٠

مبدعا، موسيقيا بارعا، ممثلا موهوبا، وكاريكاتوريا لايبارى، أثارت دعوة (السيمونية) حماسته، ومالبث أن أصبح النديم الفكه، والطفل المدلل للجالية الفرنسية بالقاهرة، أحبه سليمان باشا وألحقه بالعمل فى صحبته فكان (ماشيرو) يرسم فى كل مكان فوق حوائط قصر سليمان باشا، أو فى الأماكن ذات الطراز العربى، يرسم لوحات الريف حول الأقصر مستلهما من كتاب (وصف مصر) ، ومما تقع عليه عينيه.

ولعل من أشهر الفنانين الإنجليز الذين تركوا كما كبيرا من الرسوم الجميلة الفنان دافيد روبرتس DA-VIDROBERTS الذى زار مصر عام ١٨٣٧ ووضع كتابه (الأراضى المقدسة ومصر والنوبة) ضمنه مجلدات ثلاثة فضلا عن مجلده عن القاهرة، اكتسبت العمارة الإسلامية والتى كانت شبه مجهولة فى الغرب بعدا جديدا بفضل رسومه لمساجد القاهرة، خاصة مسجد السلطان حسن، أما رسومه للآثار الفرعونية فقد تفردت برؤيته الخاصة، تكشف براعته فى التكوين ضخامة وعظمة المعابد المصرية نراها تهيم فى عالم الظل والضوء، وتبدو فلسفتها عميقة المعنى لصغر حجم العنصر البشرى وسط الأوابد الهائلة، تأمل فى ذلك لوحاته التى شاعت فى الأسواق منذ زمن بعيد .. معبد ادفو، أو معبد دندرة، أو أطلال معبدى الأقصر.

وبعد عدة سنوات من زيارة روبرتس كانت رحلة الفنان الإنجليزى (جون فردريك لويس) JOHN, FREDERICK, LEWIS للقاهرة عام ١٨٤١ اهتمامه بالشرق كان يختلف عن اهتمام روبرتس ارتدى ثياب الاتراك، وعاش فى خيالات خاصة تخلقها غيوم (الشبك) وأبخرة المخدرات وسط أثاث وديكورات تركية، وقد تخصص فى رسوم طرقات القاهرة والحياة الخاصة ببراعة لونية وتقنية عالية، وعندما عاد إلى لندن فى عام ١٨٥١ كان حريصا على أصطحاب مخططات ، ونماذج استشراقية أفادته فى إنتاج العديد





وجبة وسط اليوم فى القاهرة – جان فردريك لويس ١٨٧٥ م

من اللوحات التى درت عليه أرباحا كبيرة.

بين التأثيرية والواقعية

ومن الفنانين المستشرقين الفرنسيين أصحاب النفوذ والمكانة السياسية في فرنسا الفنان (هوراس فرنيه) HOR-ACE,VERNET الذى زار مصر فى الأربعينات من القرن ١٩، وتخصص فى رسم الخيول، أما الفنان الفرنسى (نارسيس برشير) NAR-CISSE,BERCHERE الذى زار مصر عام ١٨٥٦ فقد كان أحد أقطاب مدرسة (الباربيزون) التى مهدت للمدرسة التأثيرية بما لها من مكانة كبيرة فى تاريخ الفن واقترب من طبيعة هذه المدرسة أيضا الفنان الفرنسى (ليون بيلى) LEON,BELLY . الذى اشتهر بلوحته (حجاج فى طريقهم إلى مكة) التى رسمها فى مصر عام ١٨٦١ . أعماله فى صحراء سيناء تبدو خالية من الأشخاص، جوها غريب ساحر تكشف فى تفرد حركات أرض جدباء فى القاهرة كتب لوالدته يقول: (لون وشكل الأرض لهما جمال خارق، ولايوجد مايعطيك فكرة عن روعة اللون، الارتباط مدهش بين السماء التى تبدو شبه بنفسجية، وبين الرمال الممتزجة بالأحمر الذهبى، وبين بحر تركوازى).

وكشفت البحوث أخيرا عن الفنان النمساوى، (لودفيج دويتش) LOD-VIG, DUISH درس الفن فى فرنسا، وتخصص فى رسم الموضوعات التاريخية، زار مصر عدة مرات عامى ١٨٨٦ و ١٨٩٠، تميزت أعماله بدقة متناهية ونصاعة مشرقة الألوان، يقترب من التفاصيل كأنه يراها تحت مجهر، ويبتعد عنها بتوازن فى التكوين كأنه يصورها بعين الكاميرا أثار الانتباه بهذه الدقة فى معرض باريس الدولى عام ١٩٠٠ وحصل على الميدالية الذهبية، عن لوحاته فى القاهرة (مقبرة السلطان)، و(رقصات نوبية)، (الصبية المحظية)، (الأزهر) و(حارس القصر)، وله لوحة كبيرة (٢٫٨٥×٢٫٩٥) تصور (موكب المحمل فى القاهرة). ■



طارق البشري

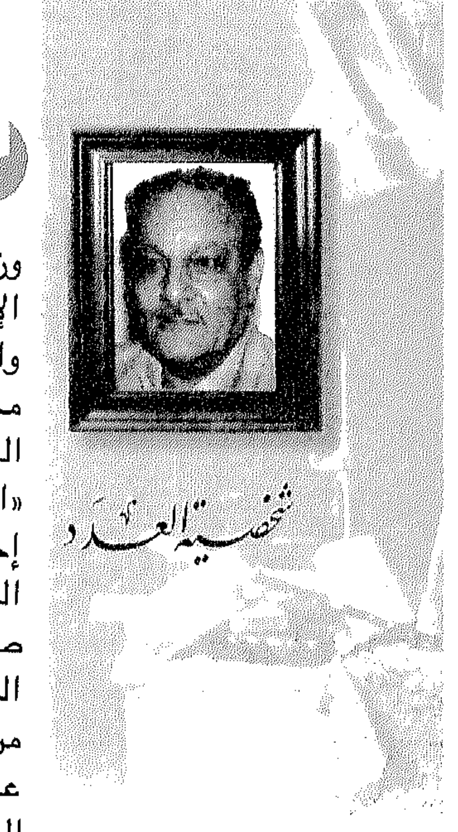
الإنسان والقاضي والمؤرخ


بقلم
د. قاسم عبده قاسم

هناك نوع من البشر - نادر ندرة المعادن النفيسة - تلقاه فتشعر أنك لقيت الإنسان النموذج والقدوة، فيه من الخير الكثير، حسن الخلق والقدرة علي التأثير الإيجابي، هاديء الطبع، مرتب العقل صافي الذهن، قادر علي أن يكون عادلا في سلوكه وفي آرائه وفي معتقداته، وأظن أن المستشار طارق البشري واحد من هذا النوع الإنساني النادر، إذ إنه جمع في شخصه بين دماثة الخلق الإنساني، وحكمة القاضي وصبره وعدله، وموضوعية المؤرخ وعقلانيته وحياده.







عرفت «طارق البشرى» الإنسان منذ أكثر من عقدين من الزمان، وكلما عرفته أكثر زادت علاقتى به قوة وعمقا، وزاد وقعه فى نفسى مهابة وحبا وتقديرا، إذ إن طارق البشرى الإنسان يأخذ بمجامع قلبك وعقلك، بهدوئه وصوته الخفيض وابتسامته الطيبة الحانية حتى وإن كان الرجل مشتركا فى نقاش محتدم. كما أن تواضعه الجم يجعلك تشعر بمعنى عبارة «تواضع العلماء»، فهو من العارفين ومن المفكرين المبدعين ومن المثقفين «الإيجابيين» الذين يسهمون بالفكرة والقول والعمل فى محاولة إخراج الأمة من أزمتها التى طالت واستفحلت، ومع هذا التواضع الجم فهو شديد الكبرياء فيما يتعلق بحقه فى طرح آرائه دونما صخب أو ضجيج ، وهو قادر على أن يجعل الاحترام قرين التواضع عندما يكتب أو يتكلم، فإذا تكلم أنصت الآخرون بدافع من إحساسهم بقيمة هذا الكلام، وعباراته موجزة بليغة تلخص عبارة قالها أحد فلاسفة المسلمين «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة». وطارق البشرى يعرف قيمة الكلمة ويصون أمانتها، فلا يضع كلمة فى غير موضعها حتى فى مجالس الود والأخوة. وربما يكون السبب فى ذلك راجعا الى نشأته الطيبة فى بيت من بيوتات العلم والأدب والفكر التى أسهمت فى تنوير العقل المصرى خلال القرن العشرين، وربما يكون سبب ذلك راجعا إلى عمله فى مجال الحقوق والقانون والقضاء، وربما يكون ذلك راجعا إلى أن الله قد اختصه بالحكمة والعقل والإحساس بالعدل، وربما يكون السبب جماع كل هذه الأسباب.

هناك أهمية لأن يكون المفكر إنسانيا فى نزعته بمعنى أن يكون الإنسان محور اهتمامه.

فكر هادئ رزين

تشعر وأنت تتعامل مع طارق البشرى الإنسان بأريج الود فواحا من حولك، وتأخذك طمأنينة هادئة ربما تكون مستمدة من هدوئه وطيبة ملامح وجهه. ومن المثير للدهشة أنك حين تقرأ مايكتبه - سواء فى كتبه التى تركت بصمات واضحة فى تاريخنا الثقافى المعاصر أو فى مقالاته ودراساته التى ينشرها بين الحين والحين - تشعر بالطمأنينة نفسها وتحس الهدوء نفسه وأنت تتابع سطور ماكتب، فليس ثمة إرهاق ولاغموض، وحين تفرغ من قراءة ماكتب تشعر بأن هذه السطور الهادئة تحمل فكرا عانى صاحبه الكثير حتى يقدمه بهذه الصورة الهادئة الرزينة، وتشعر بأن أفكاره أحكام قضائية عادلة نطق بها قاض بذل الكثير من الجهد وعانى من المشقة حتى يهتدى إليها ويطمئن إلى صحتها، وقد تختلف معه فى بعض - أو كل مايقول - ولكنك لابد وأن تحترم مايقول . ومن ناحية أخرى، تجد أنك أمام مفكر يعرف الكثير ولايقول إلا بعض

مايعرف، وربما يكون قد آثر ألا يقدم كل ما يعرف سوى بعد أن يستوثق من صحة مايعرف . وعلى الفور تتراءى أمام من يقرأ لطارق البشرى صورة أخرى مناقضة - ربما بحكم المقارنة التلقائية - لذلك النفر من الناس الذى نظن أنه يعرف كثيرا، فيتكلم أو يكتب كثيرا ويكتشف الناس أن زاده من العلم شحيح ضئيل.

واحد من صناع الثقافة

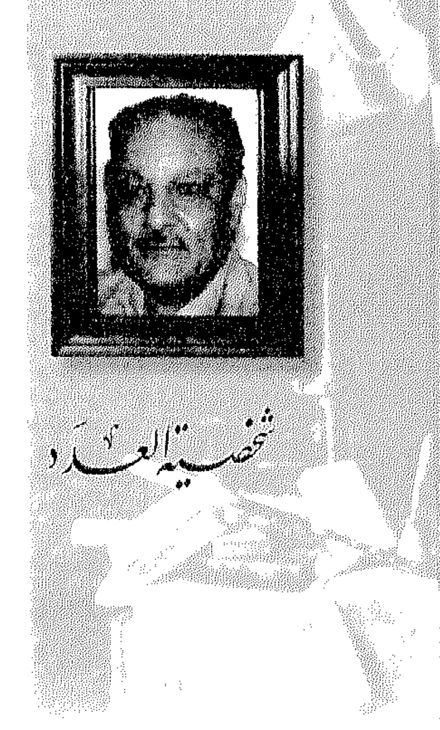
وطارق البشرى الإنسان مفكر تحتاج أمتنا إلى كثير مثله، فنحن نرى حارقى البخور الثقافى يملأون الدنيا ضجة «وجعجة بلا طحن» ومدعى الثقافة يلوثون الفضاء الفكرى بنوع من الكلام أشبه بالهذيان ويسودون صفحات تشعر بعد قراءتها - إذا استطعت - أنه كان من الأفضل أن تبقى هذه الصفحات على بياضها.

ولا وجه هنا للمقارنة، ولا صحة لها ، ولكن الأشياء بضدها تُعرف، وكذلك أصحاب الفكر وصنّاع الثقافة ومروجو العلم. وطارق البشرى واحد من هؤلاء الذين تحتاجهم أمتنا بشدة وتتطلع إليهم بأمل . إن الخروج من أزمتنا الراهنة، والتغلب على ورطتنا الحضارية لايمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأذهان مهيأة، والإرادة منعقدة على الخروج، إذ إن كل مايقوم به الإنسان - فردا وجماعة - من أعمال سلبية أو ايجابية، يولد فى عقول البشر أولا، ثم يخرج إلى أرض الواقع بعد ذلك، يستوى فى ذلك الحرب أو السلام، التقدم أو القعود والاستسلام، النضال أو النكوص، فى مجالات الفكر والتعليم، كما فى مجالات الزراعة والتصنيع، مرورا بما بين هذه وتلك من مجالات تشمل شتى نواحى الحياة، ومن هنا كانت طفرات التقدم فى تاريخ الأمم الإنسانية مسبوقة بجهود كوكبة من المفكرين والمخترعين تطرح الأفكار والتصورات والحلول لمشكلات مجتمعاتها، وتوظف العقل والفكر والجهد للخروج إلى رحابة التقدم والازدهار، ولم يحدث أبدا - ولن يحدث أبدا - أن تتقدم الأمم والمجتمعات الإنسانية بالمال «أنظر ماحدث للعالم العربى على الرغم من الطفرة المالية الهائلة التى بدأت فى سبعينيات القرن العشرين» أو بالتركيز على الجوانب المادية مثل التصنيع وبناء القوة العسكرية أو المادية بقيادة حاكم فرد أو نخبة حاكمة «انظر ماحدث فى الاتحاد السوفيتى» . ذلك أن الإنسان يحتاج إلى أن يشعر بإنسانيته، وأن ينعم بحريته، حتى يسهم فى ذلك البناء المادى ويحافظ عليه، ويدعم تقدمه وازدهاره ، فالإنسان هو مركز الكون وهو الذى يكسب هذا الوجود أهميته، ويمنحه جدواه وحيويته .

من هنا تبدو أهمية أن يكون المفكر إنسانيا فى نزعته ، بمعنى أن يكون الإنسان محور اهتمامه وهمه، ومن هنا يكتسى الفكر الإنسانى أهميته، ومن هنا أيضا تتجلى الحاجة إلى المفكرين الإنسانيين من أمثال طارق البشرى.

القاضى والقانونى

أما طارق البشرى القاضى، فإن سجله الناصع طوال ولايته القضائية



كان محل تقدير الذين زاملوه والذين عملوا معه، أو عمل معهم منذ دخل إلى رحاب هذه المهنة الجليلة الخطيرة. وإذا كانت المجتمعات لاتقوم سوى باحترام قيمة العلم وقيمة العدل، فإن القاضى الذى يسعى إلى تحقيق العدل جدير بالاحترام والتبجيل فى كل عصر وفي كل أمة، وقد احتل القضاء فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية مكانة سامية كان بها جديرا، وظل القضاء من الصروح القوية التى قامت عليها هذه الحضارة التى لم تشهد الإنسانية لها شبيها أو مثيلا. وحفلت صفحات المصادر التاريخية بصور وأمثلة عديدة عن تلك المكانة التى استحقها القضاة الذين حرصوا على أداء رسالتهم بقدر ماتسمح الطبيعة البشرية، وليس بقدر ماسمح لهم الحكام أو الظروف السياسية. ولما نجحت الدولة - فى بعض البلاد الإسلامية - بتدجين القضاء، تصدع ركن مهم من أركان الحضارة العربية الإسلامية وبدأت رحلة الغروب والأفول التى نعانى منها حتى اليوم.

ولأن طارق البشرى - القاضى - واحدا من نماذج مشرقة سطعت فى سماء نظامنا القانونى والقضائى، فقد استحق تقدير كل من اقتربوا منه فى هذا المجال. وقد سمعت، وقرأت، الكثير عن هذا الجانب فى مناسبة تكريم هذا القاضى الجليل بمناسبة انتهاء ولايته القضائية بعد أن سجل لنفسه مكانة سامية تحدث عنها من يعرفون طارق البشرى القاضى والمستشار وربما يكون مناسبا أن اقتبس بعض الكلمات للدكتور أحمد كمال أبو المجد عن طارق البشرى القاضى : «... وجدت فيه مثلا ندرت فى القضاء، نعم القضاء فى كل عصر هامة عالية، وقيمة كريمة، ولكن بعض جوانب هذه القيم الرفيعة تتآكل فى حياتنا كما تتآكل قيم أخرى عزيزة وكريمة، حتى يوشك الجيل الجديد ألا يتعرف على هذه القيم .. الذى أعرفه حق المعرفة أن المستشار البشرى كان فى حياته القضائية - دائما - مثالا كريما طيبا، وهو أمر يحترمه ويعرفه المشتغلون بالقضاء .. الشخص المحترم يكون قاضيا محترما ..».

ويقول المستشار الدكتور فاروق عبدالبر، فى كلمة ألقاها فى اجتماع الجمعية العمومية للفتوى والتشريع بمجلس الدولة بتاريخ ١٩٩٨/٦/١٧م «وهو آخر اجتماع رأسه المستشار طارق البشرى قبل انتهاء ولايته القضائية» : «... أما عن طارق البشرى القانونى والقاضى، فهو فى هذا متفرد ومتميز، والقانونى المتفرد والقاضى المتميز هو صاحب العقل القانونى الصافى، والمنطق السليم والذهن المرتب، والأسلوب الرفيع، واللغة الرصينة، والتقدير الحسن، والصبر فى الحوار، والجلد على العمل، والثقافة العميقة، والباع

اعتنق قيم العلم والفكر، والحق، والعدل وهى قيم تستند إلى عقائد الاسلام وشرائعه



العريض فى فهم القانون وتفسيره وتأويله، وهو كذلك صاحب الرؤية الشاملة لمشاكل بلده والربط بينها وبين مايبديه من آراء، وماينتهى إليه من أحكام فى حدود مايقضى به القانون بالطبع ودون خروج عليه بالتأكيد، وهو كذلك صاحب الموقف الشجاع والصلب فى القضايا المهمة التى يمكن أن تعرض عليه ليقول فيها رأيه. أو يقضى فيها بحكمه» .

هذان الاقتباسان يحملان شهادتين جامعتين عن طارق البشرى القاضى كانت إحداهما من رجل زامله لحظة دخوله السلك القضائى، والثانية من رجل عمل معه وزامله فى مجلس الدولة، وتجمع الشهادتان الكثير من الخصائص المميزة للقاضى طارق البشرى، كما أنهما تمثلان خلاصة رأى كل من اقترب من القاضى المفكر الذى جمع فى شخصه بين العلم والعدل.

ولاريب فى أن شهادة أهل القانون والقضاء تجبّ أى كلام آخر يمكن أن أكتبه عن شخصية القاضى فى طارق البشرى، ولعل تفسير هذا الاجماع على تفرد «طارق البشرى» القاضى وتميزه يكمن فيما قاله طارق البشرى نفسه:

«... والحقيقة عندما بدأت عملى، وأنا صغير فى العشرين من عمرى، لم أكن أعرف ماسأصنع بنفسى، وهل سأستطيع أن أكون شخصا جيدا فى مهنة القانون أم لا؟ وبدأت أعمل واكتشف نفسى من خلال العمل، وعلى مدى عامين وجدت أننى قادر على عمل شىء جيد، ولا أنسى اليوم الذى خرجت فيه بين فترة العمل الصباحية والفترة المسائية - وكنت فى الثانية والعشرين - ومشيت من ميدان عابدين حتى وصلت إلى مسجد السادة المالكية حيث جدى الشيخ البشرى مدفون هناك وصليت ركعتين، وجلست وعاهدت الله سبحانه وتعالى بما قرأته عن سيدنا موسى فى القرآن «رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين» وبقيت فيما أتصور على هذا الوعد، أحاول جاهدا أن أوفيه، وقلقى كله ألا أكون قد وفيته حتى جاءت ساعة الخروج من العمل القضائى وذهبت أنا وزوجتى نؤدى العمرة، لم أفعل شيئا هناك بعد أداء العمرة سوى أن أشكر الله سبحانه وتعالى على أنه لم يمتحنى امتحانا صعبا أخرج فيه من عهدى، ورعانى الله بهذا وأكرمنى إلى اليوم».

أتصور أن أى إنسان يأخذ نفسه بمثل هذه الطريقة «تحديد منهاج لأداء الواجب، ومراقبة النفس وحسابها، والسعى إلى كسب الرضا الذاتى ورضاء الله سبحانه وتعالى» وبمثل هذا العدل، لابد وأن ينجح أيا كان مجال عمله «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وهكذا تمكن طارق البشرى من أن يحدد لنفسه هدفا أخلاقيا نبيلا «فلن أكون ظهيرا للمجرمين» (والحق أنه لم يكن أبدا) ولم يحدد هدفا ماليا أو وظيفيا، ولأنه نجح فى الوفاء بعهده الأخلاقى لله سبحانه وتعالى، فقد حاز مكانة رفيعة فى أمته يستحقها عن جدارة.

لقد اعتنق طارق البشرى القاضى قيم العلم والفكر، والحق والعدل، وهى قيم تستند إلى عقائد الإسلام وشرائعه وأخلاقه وآدابه «ولئن كانت هذه القيم

شخصية العدد

توجبها آيات الذكر الحكيم وصحاح الأحاديث النبوية - وقد قام على أساسها ماضي الأمة العظيم - إلا أنها تكاد في زماننا هذا أن تصبح غريبة ونادرة» على حد تعبير المستشار عثمان حسين.

طارق البشري مؤرخا

يبدو طارق البشرى المؤرخ طرازا فريدا، ونمطا متميزا من المؤرخين. إذ إن هذا القاضى المؤرخ أو المؤرخ القاضى، قد جمع من الخصائص الشخصية والخبرات والقدرات المكتسبة ماجعله «قارئا» فاهما للتاريخ، وعلى الرغم من أنه لاينبغى تقسيم المؤرخين الى فئات أو أنماط - لأن كل مؤرخ نمط متمايز قائم بذاته شأن أى شاعر أو فنان أو فيلسوف - فإن وصفنا طارق البشرى بأنه القاضى، المؤرخ، أو المؤرخ القاضى، لايعنى أننا نضعه ضمن فئة من المؤرخين ينطبق عليهم هذا الوصف، وإنما قصدنا أن نبين أن الرجل يتعامل مع دراسة التاريخ بحكمة القاضى وتأنيه ورويته وعدله، ويتمثل هذا كله فى أنه استطاع أن يعيد قراءة «تاريخ الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢» الذى نشره سنة ١٩٧٢م ومرة ثانية سنة ١٩٨٣م ، بعيون القاضى الذى اكتشف جوانب جديدة من الحقيقة التاريخية، فآثر أن يقوم هو نفسه «باستئناف» أو «نقض» أحكامه السابقة، ولأن الدراسات التاريخية تتقدم - عادة - بإعادة النظر فى القراءات التى قام بها السابقون للتاريخ، فإن المؤرخين يقومون فى كل جيل بإعادة قراءة التاريخ بحثا عن جوانب جديدة، أو سعيا وراء الكشف عن منظور جديد يقربنا من الحقيقة بدرجة أكبر، ونادرا مايحدث أن يقوم مؤرخ بقراءة جديدة تحاول إعادة النظر فى قراءة سابقة قام بها هو نفسه. ومن هنا تأتى أهمية طارق البشرى المؤرخ.

● يتعامل البشرى مع دراسة التاريخ بحكمة القاضى وتأنيه ورويته وعدله

هناك عدة كتب كتبها طارق البشرى فى التاريخ بشكل مباشر أهمها ، كتاب «تاريخ الحركة السياسية فى مصر ١٩٤٥ - ١٩٥٢م» الذى كتبه مؤرخنا مرتين راجع فى ثانيتهما أفكاره وآراءه وأحكامه التاريخية و«المسلمون والأقباط فى إطار الحركة الوطنية» و«سعد زغلول يفاوض الاستعمار» و«شخصيات تاريخية» .، وكتب أخرى جمعت بين دراسة التاريخ والفكر السياسى مثل «الديمقراطية والناصرية» و«الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو» و«شخصيات تاريخية» و«الملامح العامة للفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر» وثمة كتابات أخرى فى موضوعات أخرى تجلى فيها المؤرخ المفكر طارق البشرى . فليس بوسعنا أن نقدم تحليلا نقديا لكتابات المؤرخ طارق البشرى فى هذه الصفحات المحدودة، بيد أننا يمكن أن نقدم المؤرخ من خلال أفكاره وآرائه

وأسلوبه فى قراءة التاريخ .

قارئ جيد للتاريخ المصرى

بداية يجب أن نُعرّف الوظيفة الثقافية الاجتماعية للتاريخ فى عالم اليوم، ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نُقيِّم المكانة التى يحتلها طارق البشرى فى فضاء الدراسات التاريخية فى مصر والعالم العربى ، فقد مضى زمن كانت مهمة التاريخ فيه أن يحكى «ماذا» حدث، ومن ثم كان المؤرخ يقوم بوظيفة الإخبارى فيجمع أخبار الحوادث التاريخية ليحكى «ماذا» حدث في حوليات تدون على مر السنين، والأشهر، والأيام، أو فى «سيرة» أو مجموعة «سير» للملوك والخلفاء والسلاطين والحكام، أو فى شكل كتاب أو «رسالة» ذات موضوع واحد .. وما إلى ذلك من أشكال الكتابة التاريخية التى عرفها الإنسان فى مختلف الجماعات البشرية وفى إطار مختلف الحضارات الإنسانية ، وكانت تلك الوظيفة الثقافية الاجتماعية للتاريخ تجد مشروعيتها من خلال الحقيقة القائلة بأن جزءا من مهمة المؤرخ كان حفظ المعلومات ذات الأهمية بالنسبة للجماعة البشرية التى يعيش فى رحابها، ومع تطور وسائل الإعلام ووسائل الحفظ الرسمية وغير الرسمية حتى وصلت إلى الذاكرة الإلكترونية ذات القدرة الهائلة على الحفظ والتصنيف خرج المؤرخ من عباءة الإخبارى والجامع، والمدون، وتحولت مهمته من راو يحكى لنا «ماذا» حدث إلى مفكر يفسر لنا «لماذا» حدث ماحدث. ومع التطور الهائل الذى تحقق فى مجال الدراسات التاريخية لم يعد مقبولا أن يحكى المؤرخ قصة الماضى، وإنما صار من أهم شروط المؤرخ أن يوظف معرفة الماضى فى خدمة حاضر الجماعة الإنسانية ومستقبلها، ولأن التاريخ صار علما يرتبط بالماضى فى موضوعه فقط، ويرتبط بالحاضر والمستقبل فى هدفه ووظيفته، فإن «كتابة التاريخ» دون «قراءته» تصبح نوعا من العبث «فكتابة التاريخ» ليست سوى جمع الأحداث التاريخية ورصها فى سياق زمنى يرتبط بمسرح جغرافى دونما تحليل أو محاولة للفهم «وهو نمط من الكتابة التاريخية لايزال سائدا فى العالم العربى مع الأسف» أما «قراءة التاريخ» فهى محاولة لتسليط الضوء على عناصر بعينها فى النسيج التاريخى للجماعة الإنسانية ومحاولة استخدامها لصالح الأهداف التى تسعى إليها هذه الجماعة فى حاضرها ومستقبلها.

وطارق البشرى «قارئ» جيد للتاريخ المصرى، وكانت «قراءته» لتاريخ وطنه وأمته نابعة من سؤال مندهش ألح عليه وعلى أبناء جيله وعلى أبناء أجيال أخرى فى مصر والوطن العربى، حول مصير الأمة، والأزمة التى أخذت بخناقها، ومايكتنفها من تأثيرات سلبية غشيت جميع جوانب الحياة المعاصرة فى العالم العربى عامة وفى مصر خاصة، ولم يكن المؤرخ طارق البشرى ليكتفى بالرصد والمشاهدة والتدوين، بل إنه حاول أن يعيد قراءة التاريخ بحثا عن حل أو حلول، فكسبت الدراسات التاريخية فى الوطن العربى مؤرخا فاهما لوظيفة التاريخ، ودوره فى رفع الغمة عن هذه الأمة. ودليلنا على هذا كلمات

طارق البشرى نفسه التى كتبها فى مقدمة كتابه «المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية» إذ يقول «... شغلنى موضوع هذه الدراسة فى أعقاب عدوان ١٩٦٧م، وبدا مع الوقت أن الهزيمة مما قد يتصور معه أن تترك ظلالها على قوة التماسك فى المجتمع المصرى، وأن تفت من صلابته، وليس خطر الهزيمة فى أنها تشكل تراجعا عن موقع ما، ولكن خطرها الأشد أنها قد تخلخل الثقة فى المسلمات وتزعزع الثوابت فى العقول والقلوب.. امتلاك الذات هو حصن الأمان، وهو العدة فى أى مواجهة...».



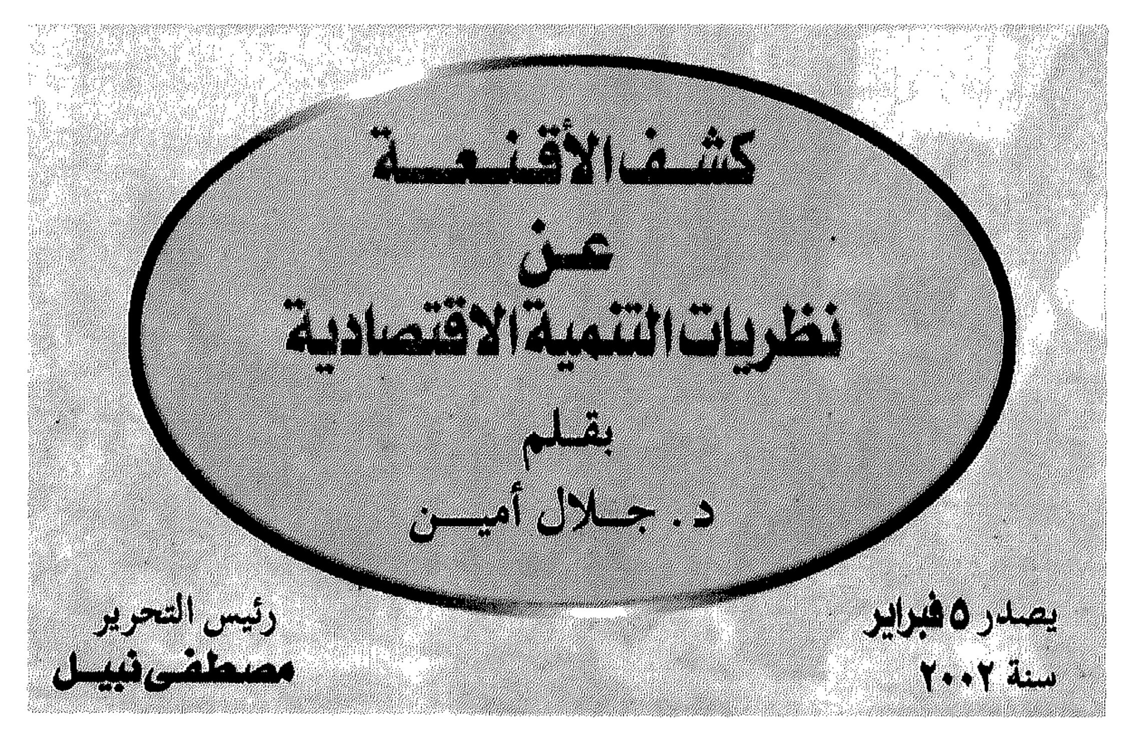
هنا تتجلى قدرة المؤرخ على فهم وظيفة التاريخ، وقدرته على «قراءة» التاريخ لصالح الأمة. ولايعنى هذا أننا سوف نواجه «قراءة» منحازة للتاريخ المصرى، بل إن العكس هو الصحيح تماما. نحن أمام قراءة موضوعية تسلط الضوء على حقائق التاريخ المصرى لصالح المجتمع المصرى، وتبرز ما أسماه طارق البشرى «المسلمات والثوابت فى العقول والقلوب...» ومن ناحية أخرى يدرك طارق البشرى تماما أن الدراسة التاريخية قراءة جديدة، ومتجددة، للتاريخ لأن «.. العملية التاريخية واقع يحتمل التغيير من طرفيه .. المادة التاريخية .. والكاتب» - على حد تعبير طارق البشرى نفسه.

● **جمع طارق البشرى فى شخصه بين العلم والعدل وكان واحد من نماذج مشرقة سطعت فى نظامنا القانونى والقضائى**

أما عن أسلوب طارق البشرى فى البحث التاريخى، فإن ماكتبه يشهد بأن شخصية القاضى فى الرجل قد أفادت شخصية المؤرخ كثيرا .. فقد ألزم نفسه بالصرامة المنهجية، ودقة البحث والتحرى والتحقيق، كما عكست خبرته القانونية ما تتميز به كتاباته من براعة المقارنة والقدرة على الاستنباط ، كما امتازت رؤيته ومنظوره التاريخى بالقدرة على استخدام الأساليب التحليلية، وحين كتب ماتوصل إليه من خلال قراءته كتب بلغة مؤرخ فاهم.

والحقيقة التى يشعر بها من يقرأ كتابات المستشار طارق البشرى التاريخية يشعر بأنه أمام مؤرخ حق، شأنه شأن الشاعر والفنان والفيلسوف يجسد طبعة خاصة جدا من البشر، وهبه الله القدرة على النظر والتدبر والتأمل، كما وهبه ملكة التخيل والفهم من ناحية، كما أكسبته خبراته الإنسانية والقضائية قدرة على إدراك مكونات الحاضر وإمكانات المستقبل من خلال دراسة الماضى من ناحية ثانية، واكتسب من إنسانيته القدرة على استيعاب أهمية الإنسان باعتباره محور الكون والوجود من ناحية ثالثة. ■

كتاب الهلال



روايات الهلال

صمت الرمل

بقلم

محمد عبد السلام العمرى

تصدر ١٥ فبراير
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل





كارتر يتوسط السادات وبيجن أثناء توقيع اتفاقية كامب ديفيد

كامب ديفيد اليوم الأخير

بقلم
د. نبيل العربى

قرأت بمزيد من الاهتمام وبعظيم التقدير المقال الذى كتبه صديق العمر السفير أمين يسرى فى عدد الهلال الصادر فى ديسمبر ٢٠٠١، وابدأ بالقول إنه تفضل وأسبغ على العديد من حميد السجايا ومكارم الأخلاق التى لا إستحقها، وكان كريما كعادته، ومع ذلك أطلب الإذن فى أن أتوقف وأتأمل مقولته بأننى مسئول عن عدم شرح خبايا بعض الأحداث التاريخية

المهمة التى شاركت فيها بحكم منصبى كمدير للإدارة القانونية بوزارة الخارجية - وإشاراته إلى مباحثات كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨ . وقد سبق أن أطلعت على كتب ومقالات كثيرة لمصريين وإسرائيليين وأمريكيين تناولت ما دار فى مباحثات كامب ديفيد. وبالرغم من أن بعض هذه الكتابات تعرض لذكر اسمى فى إطار غير دقيق يجانب أحيانا الصواب لعدم تقديم صورة متكاملة لما دار فى هذه المباحثات، إلا أننى ولمدة تقارب ربع قرن تعمدت عدم الرد وعدم الشرح، وقد اتخذت هذا الموقف طوال هذه السنين لعدة أسباب قد يكون اهمها أن التعرض لجانب واحد أو لجزئية صغيرة من منظور شخصى لن يعطى الصورة متكاملة، وأنه إذا كان لابد من الكتابة بصورة شاملة لأحداث معينة، فإن هذا يستلزم بحثا إكاديميا تتوافر له المستندات ذات الصلة كلها، وهذا ليس متوافرا لى حاليا بعد أن تركت عام ١٩٩٩ الخدمة فى وزارة الخارجية، بالإضافة إلى ما تقدم فإننى لا أعتبر أنه تتوافر لدى مؤهلات وحياد المؤرخ.

كما أن الكتابة فى مثل هذه الأحداث السياسية المهمة كانت ستؤدى بالضرورة إلى كشف أمور وأسرار يصعب على شخص عمل طوال حياته فى وزارة الخارجية وانما فى مناخ يسعى دائما إلى حماية أسرار الدولة أن يتحدث عنها علانية وبحرية تامة بالإضافة إلى كل ذلك لا اعتبر إننى - بحكم مشاركتى فى هذه الأحداث - أستطيع أن أبدى آراء مجردة بموضوعية تامة. لكل هذه الأسباب فضلت طوال هذه السنوات أن التزم الصمت.

مبرر خروجى عن الصمت

ولكن بعد أن قرأت مقال السفير أمين يسرى، وأعدت قراءته عدة مرات ووجدت فيه إشارات إلى أن لقائى بالرئيس السادات كان بالنيابة عن أعضاء الوفد وأن الرئيس السادات «انفجر غاضبا» عندما استمع إلى الآراء والملاحظات التى ذكرتها دون إشارة إلى طبيعة هذه الملاحظات، بدأت تساورنى الشكوك فى صحة الموقف الذى التزمت به لما يقرب من ربع قرن. وبعد أن تشاورت مع السفير أمين يسرى وتبادلنا وجهات النظر وجدت من المناسب - بعد تردد شديد - أن أتناول جانبا مما دار

فى اليوم الأخير من مباحثات كامب ديفيد يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ - وأسارع إلى القول إننى أقدم على هذه الخطوة لمجرد تسجيل وإيضاح ملابسات وأبعاد ما شاهدته بنفسى وشاركت فيه وذلك من منظور شخصى ولا يعتبر ذلك فى نظرى تسجيلا تاريخيا متكاملا لكل ما حدث.

من وجهة نظرى تبدأ أحداث اليوم الأخير الموافق الأحد ١٧ سبتمبر بتلقى الوفد المصرى عدة أوراق أمريكية تحوى إطارا للسلام فى الشرق الأوسط وإطار اتفاق لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل ثم مشروع خطابات يتم تبادلها بين الرئيس السادات والرئيس كارتر ورئيس الوزراء الإسرائيلى حول القدس والمستوطنات وحول الضفة الغربية وغزة. وبالرغم من أن المطلب المصرى الرئيسى - الذى لا يمكن قبول النيل منه أو المساس به - الخاص بالانسحاب من جميع الأراضى المصرية إلى حدود مصر الدولية كان منصوصا عليه بوضوح إلا أنه كانت هناك نقاط عديدة أعربت مصر عدة مرات عن معارضتها لها. وحتى تتضح الصورة أجد من الضرورة الإشارة إلى ما يلى:

نقطتان لابد من ذكرهما

١ - كان الوفد الأمريكى قد قرر قبل بدء المباحثات أن يكون التفاوض عن طريقه بحيث يجتمع مع الوفد المصرى ويستمع إلى ما لديه من آراء ويناقشها ثم يجتمع مع الوفد الإسرائيلى لنفس الغرض ثم يتقدم للطرفين بمقترحات أمريكية. بمعنى أن الوفدين المصرى والإسرائيلى لم يجتمعا معا فى مفاوضات مباشرة خلال مباحثات كامب ديفيد وذلك لأن الولايات المتحدة وجدت أن أسلوب التفاوض المباشر بين الوفود سواء فى اللجنتين السياسية أو العسكرية اللتين أعقبتا مؤتمر مينا هاوس فى ديسمبر ١٩٧٧ أو فى اجتماع لانكستر هاوس فى بريطانيا فى يوليو ١٩٧٨ قد فشل فشلا ذريعا فى تقريب وجهات النظر بين الطرفين. واستمر أسلوب التفاوض المباشر لمدة أكثر من أسبوع فى كامب ديفيد إلى أن تبين للرئيس كارتر أنه لا فائدة ترجى من التفاوض بين الوفود وقرر أن يتم التفاوض بين الرئيس السادات ومناحم بيجين مباشرة على أن يستعين كل منهما بعضو واحد من الوفد. فاختار الرئيس السادات السفير أسامة الباز ووقع اختيار بيجين على باراك المستشار القانونى للحكومة.. بذلك يمكن القول إن وفد المفاوضات - الذى كانت الولايات المتحدة تتهمه دائما بالتشدد فى المواقف التى يتخذها - قد استبعد تماما من المشاركة فى التفاوض خلال الأيام الأخيرة.

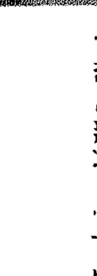
٢ - أن الوفد المصرى كان قد تلقى

قبل خمسة أو ستة أيام ورقة أمريكية. وعقد الوزير محمد إبراهيم كامل اجتماعا شارك فيه جميع أعضاء الوفد وأبديت آراء مختلفة حول هذه الورقة وفى نهاية الاجتماع طلب منى الوزير محمد إبراهيم كامل تلخيص الاعتراضات السبعة الرئيسية كتابة لعرضها على الرئيس السادات. وطلب من السفير أسامة الباز ومنى الذهاب معه لمقابلة الرئيس وعرض هذه الاعتراضات عليه. وعندما قابلنا الرئيس السادات اقترح وزير الخارجية عليه أن يطلع على الورقة الأمريكية فرفض أن يقرأها بنفسه وفضل أن يستمع فطلب منى وزير الخارجية أن أقرأ الورقة الأمريكية ثم أقرأ الاعتراضات السبعة التى أستقر عليها الوفد المصرى. واستمع الرئيس السادات بإمعان ثم وجه كلامه إلى وزير الخارجية قائلا هذا كل ما لديكم يا محمد؟.. لقد فاتتكم أهم نقطة وأشار سيادته إلى أن الورقة الأمريكية تنص على أن يكون الانسحاب المرحلى الإسرائيلى إلى نقطة بالقرب من العريش دون تحديد موقفها بالضبط، وطلب ضرورة تحديد النقطة بدقة ثم نظر لى وطلب منى إضافة هذه النقطة إلى الورقة التى قرأت منها وإعادة كتابة النقاط الثمانى - بمعنى أنه وافق على جميع الاعتراضات التى قدمت إليه - وإعداد رسالة بالإنجليزية من الرئيس السادات إلى وزير الخارجية فانس وأن أذهب وأسلمها إلى فانس. وقمت بالفعل بهذه المهمة بناء على تعليمات الرئيس السادات.

أمريكا تقرر .. ولا تعقيب!

وأخذاً فى الاعتبار لهذه الخلفية جاء نص الأوارق الأمريكية بمثابة مفاجأة تامة للوفد المصرى لأنها تحوى أمورا سبق أن رفضها الرئيس السادات - وبعد قراءة متأنية وتبادل وجهات النظر مع باقى أعضاء الوفد كان واضحا أنه يلزم إدخال بعض التعديلات على الورقة الأمريكية. ولكن فى نفس الوقت كانت جميع المؤشرات تؤكد أن الولايات المتحدة قد استقر رأيها على أن المباحثات قد وصلت إلى نهاية المطاف وتحدد موعد مساء اليوم نفسه للتوقيع فى البيت الأبيض بحيث يصبح أى مسعى لإدخال تعديلات جوهرية غير واقعى ولن يكتب له النجاح. وبعد مزيد من القراءة والتشاور مع أعضاء الوفد ومراجعة الضمير فى ضوء مسئولياتى كمدير للإدارة القانونية والمعاهدات فى وزارة الخارجية كان لابد فى هذه المرحلة من التركيز على الجوهر وترك التفاصيل وكانت هناك ثلاثة أمور اعتبرتها أساسية وحيوية:

الأول : أن الورقة الخاصة بالانسحاب من سيناء فى مجملها تعتبر مقبولة لأنها تؤدى إلى انسحاب إسرائيل من سيناء، ولكن ربط إزالة المستوطنات الإسرائيلية بموافقة لاحقة من الكنيست الإسرائيلى فى طياتها بذور تحلل إسرائيل من الالتزام بازلة هذه



المستوطنات لذلك يجب أن يكون هذا الالتزام الإسرائيلي واضحا صريحا لا لف أو دوران بشأنه. ومن الواضح أن تأكيد الانسحاب من سيناء يمثل مكسبا حقيقيا لا يجوز بأى حال من الأحوال تعريضه للخطر بسبب تصميم بيجين على طرح موضوع ازالة المستوطنات على الكنيست لأنه لا يملك سياسيا اتخاذ مثل هذا القرار الذى له انعكاسات وآثار بعيدة المدى على الصهيونية دون الرجوع إلى ممثلى الشعب الإسرائيلي. وقد يقول قائل إن تصميم بيجين كان لا يعدو أن يكون تمثيلية إسرائيلية لتأكيد أن إسرائيل دولة ديمقراطية. وأيا كان الوضع كان يفرض معالجة الأمر بحكمة للخروج من هذا المأزق . كان رأيى أن يتم التوقيع فى البيت الأبيض على الشق المصرى بالحروف الأولى بحيث يعتمد النص أمام العالم ويشهد الرئيس الأمريكى على ذلك ثم بعد اعتماد الكنيست لموضوع إزالة المستوطنات يتم التوقيع النهائى، وهذا الأسلوب يحمى مصر من مغبة أن يكون رئيسها قد وقع بصفة نهائية على الوثيقة ثم يرفض الكنيست بعد ذلك إزالة المستوطنات.

الثانى: أما الموضوع الرئيسى الثانى الذى كان يستحق إعادة نظر شاملة سواء فى التوجه العام أو فى الصياغة التى جاءت فى الورقة الأمريكية فقد كان الشق الفلسطينى أو ما أطلق عليه الإطار الخاص بالضفة الغربية وغزة وكان يثير العديد من المشاكل ويكفى فى هذا السياق أن أشير بإيجاز إلى مشكلات ثلاث لها أبعاد سياسية وقانونية واسعة:

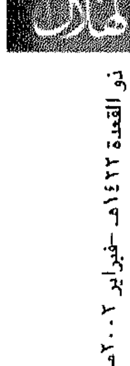
الأولى : أن هذا الإطار لا يعكس الموقف الفلسطينى الذى يطالب – وعن حق ثابت – بتقرير المصير وإقامة الدولة المستقلة – وهو موقف تؤيده كل الدول العربية بما فيها مصر – نعم كانت هناك إشارات إلى تقرير المصير ولكنها إشارات قاصرة لأنها تنص على أن للفلسطينيين الحق فى المشاركة فى تقرير مصيرهم عن طريق المشاركة فى محادثات أطلق عليها محادثات «الحكم الذاتى» ولكن لم يتحدد الهدف النهائى من هذه المحادثات، كما أن الإشارة إلى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ جاءت غامضة واقتصرت على النص على أن الهدف من مفاوضات الحكم الذاتى ليس تنفيذ القرار ٢٤٢ ولكن أنها سوف ترتكز على المبادىء التى قام عليها القرار. ومن المعروف أن إسرائيل تتمسك بأن القرار لا يؤدى إلى انسحابها من كل الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧. بمعنى أن إطار كامب ديفيد أطلق مفهوم الحل التدريجى على مراحل ولكن لم يتطرق إلى طبيعة وأبعاد المرحلة النهائية وترك الباب مفتوحا لحسن نوايا

حكومة إسرائيل. وكما هو معروف باءت محادثات «الحكم الذاتى» بالفشل الذريع وتوقف عام ١٩٨٢ بعد ما يقرب من عامين. بالإضافة إلى أن جميع الالتزامات التى تعهد بما مناحم بيجين فى هذا الخصوص نكثها وعدل عنها، وهو ما دعا كلا من عزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى وموسى دايان وزير الخارجية إلى الانسحاب رسميا من وفد المفاوضات بل من الحكومة برمتها تأكيدا لما أعلناه وقتئذ من أن التعليمات التى أصدرها بيجين لوفد المفاوضات تتعارض مع التعهدات الإسرائيلية فى كامب ديفيد.

الثانية: قد تبدو لأول وهلة أنها مسألة ذات طابع قانونى، ولكنها فى الواقع تمس أبعادا سياسية فى غاية الأهمية. وتكمن المشكلة فى أن طرفى الإطار المقترح هما مصر وإسرائيل ولكن الإطار يحتوى على التزامات عديدة تقع على عاتق منظمة التحرير الفلسطينية والأردن وكلاهما ليس طرفا فى هذا الاتفاق. والقاعدة العامة فى القانون الدولى - كما وردت فى المادة ٣٥ من اتفاقية فيينا لقانون المعاهدات - تقضى بأن الالتزامات النابعة من أحكام الاتفاقيات لا تتحملها الأطراف غير المشاركة فى هذه الاتفاقيات إلا برضاها وبنص مكتوب . اى أن كل ما جاء فى الإطار الفلسطينى من التزامات وتصور عام للمراحل المختلفة، ودور الأردن غير ملزم للفلسطينيين والحكومة الأردنية .

وخلاصة القول أن مصر لا تملك صلاحيات قانونية أو سياسية لتقديم تعهدات باسم الفلسطينيين أو باسم الأردن. ولذلك فالأفضل سياسيا وتطبيقا لقواعد القانون الدولى ألا يتم توقيع مصر على هذا الإطار قبل إجراء مشاورات مع الأردن ومع منظمة التحرير الفلسطينية للتحقق بدقة من موقفهما إزاء الالتزامات الواردة فى هذا الإطار.

أما الموضوع الرئيسى الثالث فكان يتعلق بمشكلة القدس وعلى وجه التحديد أسلوب عرض الموقف الأمريكى من الاختلاف بين الطرفين المصرى والإسرائيلى فموقف مصر معروف والكتاب المقترح أن يوجهه الرئيس السادات يعكس هذا الموقف . كما أن موقف إسرائيل معروف أيضا لم يتغير. ولكن من غير المعقول ومن غير المقبول أن يوجه الرئيس كارتر كتابا إلى الرئيس السادات وإلى رئيس وزراء إسرائيل يقول فيه إن موقف الولايات المتحدة من موضوع القدس هو نفس الموقف الذى عبر عنه السفير الأمريكى جولدبرج فى الجمعية العامة عام ١٩٦٧ والسفير الأمريكى يوست فى مجلس الأمن عام ١٩٦٩. وذلك لأن رئيس الولايات المتحدة هو أعلى سلطة فى البلاد ولا يستقيم أن يعبر عن الموقف الأمريكى بهذا الأسلوب. وبما أن الموقف الأمريكى الثابت من المركز القانونى للقدس حتى ذلك الوقت كان يتمثل فى



رفض ضم إسرائيل للقدس الشرقية ومعارضة جميع الإجراءات الانفرادية الإسرائيلية، فالتفسير الوحيد للكتاب المقترح أن يوجهه الرئيس كارتر هو أنه يمالىء الموقف الإسرائيلى لأنه أصبح لا يستطيع أن يجاهر كتابه فى وثيقة تاريخية بموقف حكومته المعارض لموقف إسرائيل. ولابد أن إسرائيل قد مارست ضغوطا مكثفة عليه وبالتالى علينا محاولة ممارسة ضغوط مقابلة حتى يحترم صلاحياته ومسئولياته كرئيس دولة ويعبر بنفسه عن موقف بلاده. بمعنى أن مصر لا تسعى لتغيير موقف الولايات المتحدة الرسمى، ولكن تطالبها بالإعلان صراحة عن هذا الموقف حتى لا يبدأ الموقف الأمريكى فى التدهور التدريجى تجاه المركز القانونى للقدس وهو ما حدث بالفعل خلال السنوات التالية.

استقالة وزير الخارجية

ذهبت بعد ذلك لمقابلة وزير الخارجية محمد إبراهيم كامل واقترحت عليه الذهاب إلى الرئيس السادات وعرض النقاط الثلاث السابق الإشارة إليها. وبعد أن أبدى وزير الخارجية اقتناعه التام بأهمية عرض هذه الموضوعات على رئيس الجمهورية ذكر - وكان واضحا لى أنه فى حالة حرج شديد - أنه لا يستطيع القيام بهذه المهمة. ولم يذكر وزير الخارجية فى حديثه معى أنه اختلف مع الرئيس السادات وأنه قد قدم استقالته فى اليوم السابق. وكنت قد عرفت بهذه الاستقالة - التى كان قد تقرر عدم إعلانها - من مدير مكتبه السفير أحمد ماهر السيد - وزير الخارجية الحالى - الذى أخبرنى بتفاصيل المقابلة بين الرئيس ووزير الخارجية بصفة شخصية.

ولما ألححت على الوزير بضرورة عرض هذه الموضوعات على الرئيس السادات وأشرت إلى أننى أعتبر أنه بحكم منصبى كمدير للإدارة القانونية والمعاهدات فإننى مسئول عن اى اتفاقيات نبرمها، واستأذنه فى أن أحاول مقابلة رئيس الجمهورية وسوف أطلب من باقى أعضاء الوفد الذهاب معى فشجعنى على ذلك.

لقاء مع السادات

دار هذا الحديث فى الشاليه الذى كان يقيم فيه كل من الوزير محمد إبراهيم والدكتور بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية. وبعد حديثى مع وزير الخارجية أعلنت أمام أعضاء الوفد سواء من الخارجية أو من الرئاسة أننى سوف أسعى لمقابلة رئيس الجمهورية ولم يعلق أحد، فذهبت بمفردى إلى الشاليه الذى كان يقيم فيه الرئيس السادات ووجدته واقفا فى الشرفة مع رئيس وزراء إسرائيل والمستشار القانونى للحكومة باراك،



وانتظرت أمام الشرفة حوالى عشر دقائق. وبعد مغادرة بيجين أشار إلى الرئيس السادات بالدخول واستفسر عما أريد فأجبت بأننا تسلمنا الورقة الأمريكية ولدى بعض أمور مهمة أرغب فى عرضها على سيادته. دعانى الرئيس السادات إلى الدخول وتركنى بضع دقائق ثم عاد وذكر أنه سيتناول وجبة خفيفة من زبادى وعسل وعرض على أن أشاركه فشكرته واعتذرت. ولا أبالغ إذا قلت إنه بالرغم من مضى ما يقرب من ربع قرن على المقابلة إلا أننى مازلت أشعر بالاضطراب والتوتر كلما تذكرت أحداثها. فليس سهلا الذهاب إلى رئيس جمهورية وإبداء اعتراضات على مسائل على درجة عالية من الحساسية والأهمية.

سأحاول الآن لأول مرة نقل ما دار من حديث بأمانة تامة وموضوعية كاملة طبقا لذاكرتى وما لدى من أوراق قليلة سطرتها فى حينه. ما حدث هو أنه بعد أن عرضت الأمور الثلاثة السابق الإشارة إليها بإسهاب أنهيت حديثى بأن ذكرت أنه:

١ - بالنسبة للشق المصرى لرئيس الجمهورية كامل الصلاحية للتوقيع ولكنى اقترح التوقيع بالأحرف الأولى فقط فى الوقت الحالى.

٢ - بالنسبة للشق الفلسطينى لا تملك مصر صلاحية التعهد باسم الفلسطينيين أو باسم الأردن ويجدر التشاور معهم قبل الإقدام على أية خطوة لأن الإطار الفلسطينى أقل مما يطالب به الفلسطينيون وفيه إجحاف بين لحقوقهم.

٣ - الخطابات المقترح تبادلها حول القدس سوف تؤدى إلى اهتزاز الموقف الأمريكى لصالح إسرائيل وبالتالى لا جدوى من تبادلها.

غابة السادات وأشجار الخارجية

استمع الرئيس السادات بإمعان ولم يقاطعنى ثم صمت لفترة ونظر إلى وقال أنت لست رجل دولة You are Not astatesman فرددت بأننى سمحت لنفسى بالحديث بوصفى فنيا Tech-nician مسئولا عن الجوانب القانونية فى وزارة الخارجية.

صمت الرئيس السادات مرة أخرى ثم قال إن كل موظفى وزارة الخارجية لا يفهمون سياسته وأنهم ينظرون فقط إلى الأشجار ولا يرون الغابة بجميع أطرافها وأنهم - بما فى ذلك وزير الخارجية - لا يعون قدر التعهدات التى قدمها الرئيس كارتر أقوى رجل فى العالم، وأنه بالرغم من الصياغات والتفصيلات التى أبديت اعتراضات بشأنها فإن المهم فى نظره هو تأييد الولايات المتحدة وفى تقديره فإن هذا التأييد قد أصبح فى حكم المؤكد بعد تعهدات كارتر. وقد كرر الرئيس السادات الإشارة إلى تعهدات «كارتر» عدة مرات دون أن يفصح عن فحوى ومضمون هذه التعهدات.

وكان الرئيس السادات هادئا ولم



ينفجر غاضبا أو يثور أو يرفع صوته طوال هذا الحديث ولكنه صمت لفترة طويلة نسبيا حاولت خلالها أن استأذن في الانصراف ولكنه رفض وأبقاني معه.

ثم فجأة نظر إلى والغضب الشديد يتطاير من عينيه وقال عديلك - يقصد الأستاذ محمد حسنين هيكل - «عاوز يعمل انقلاب ضدى» فأجبت بأن ذلك مستحيل لأنه لا علاقة للأستاذ هيكل بالقوات المسلحة. فضحك الرئيس السادات بصوت عال جدا وقال «لا مش عن طريق الجيش بل عن طريق المراسلين الأجانب» . وكررها عدة مرات ثم توقف ونظر إلى مرة أخرى بغضب شديد وحملني رسالة معينة إلى الأستاذ هيكل لا أسمح لنفسي - على الرغم من مرور هذه السنوات بالإفصاح عنها.

حاولت بعد ذلك الاستئذان مرة أخرى ولكنه رفض وفى هذه الأثناء دخل سكرتيره الخاص السيد فوزى عبدالحافظ معلنا أن عزرا وايزمان وزير دفاع إسرائيل قد وصل فاستأذنت من الرئيس في الانصراف ولكنه رفض مرة أخرى.

ثم دخل وايزمان وعانق الرئيس السادات وتحدث بالإنجليزية مع ترديد بعض كلمات عربية كرر فيها كلمة يا ريس عدة مرات وأخذنى الرئيس السادات من يدى وقال لوايزمان هل تعرف نبيل العربى؟.. فرد وايزمان أنه يعرفنى جيدا وأننى سببت له مشاكل كثيرة بل وصداعا خلال المحادثات العسكرية التى كنت خلالها مستشارا للمشير محمد عبدالغنى الجمسى وكان وايزمان يرأس الوفد الإسرائيلى.

وجدت الفرصة مناسبة للمغادرة ولم يمانع الرئيس السادات هذه المرة وخرجت من الحجرة مع السيد فوزى عبدالحافظ وذهبت إلى الوزير محمد إبراهيم كامل وأبلغته بما دار فى الحديث باستثناء الرسالة الخاصة بالأستاذ هيكل وبالطبع كنت مضطربا وأعانى من حالة شديدة من الإحباط لأننى فشلت فى إقناع الرئيس السادات بوجهة نظرى فيما عرضت عليه من موضوعات.

وللتاريخ أقول

يهمنى قبل أن اختم ان ابرز نقطتين:

الأولى : أن الرئيس السادات استمع لكل الملاحظات وأمعن التفكير حولها ولكنه لم يقتنع بها، وفى نفس الوقت تقضى الأمانة أن اسجل للتاريخ انه لم يغضب لأن مدير الإدارة القانونية فى الخارجية أثار معه هذه الموضوعات الحساسة ولم يتخذ سيادته ضدى أى إجراء بالرغم من أننى علمت أنه عندما قص ما در على بعض الصحفيين أثاروه بل حرضوه على توقيع عقاب علىّ لما تجرأت وعرضته عليه. ولكنه لم يفعل ذلك

ولم يبد فى العديد من المناسبات العامة التى قابلته فيها بعد ذلك أى ضيق للموقف الذى اتخذته فى كامب ديفيد. صحيح أن هذه المناسبات كانت لا تعدو أن تكون مجرد مصافحة أثناء تردده على الولايات المتحدة سواء فى واشنطن أو نيويورك فى الوقت الذى كنت فيه مندوبا مناوبا لمصر لدى الأمم المتحدة. وعندما عينت عام ١٩٨١ سفيرا لمصر فى الهند وقبل سفرى لتسلم مهام منصبى فى نيودلهى طلبت موعدا مع رئيس الجمهورية وتحدد الموعد بالفعل صباح ٧ أكتوبر ١٩٨١ .. وبالطبع لم يتم اللقاء.

وقد يكون من المناسب أن أشير هنا إلى أن الدكتور بطرس غالى ابلغنى فى اكتوبر ١٩٧٩ ستة شهور بعد توقيع معاهدة السلام. ان الرئيس السادات بعد عودته من كامب ديفيد استدعاه وطلب منه ألا اشارك فى أى محادثات مع إسرائيل بعد ذلك، ولكن يشاء القدر أن أتولى موضوع التحكيم حول طابا وأن استمر فى التفاوض مع إسرائيل حتى ٢٦ فبراير ١٩٨٩ عندما وقعت نيابة عن مصر على اتفاق انسحاب إسرائيل من طابا ومن باقى الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى سيناء.

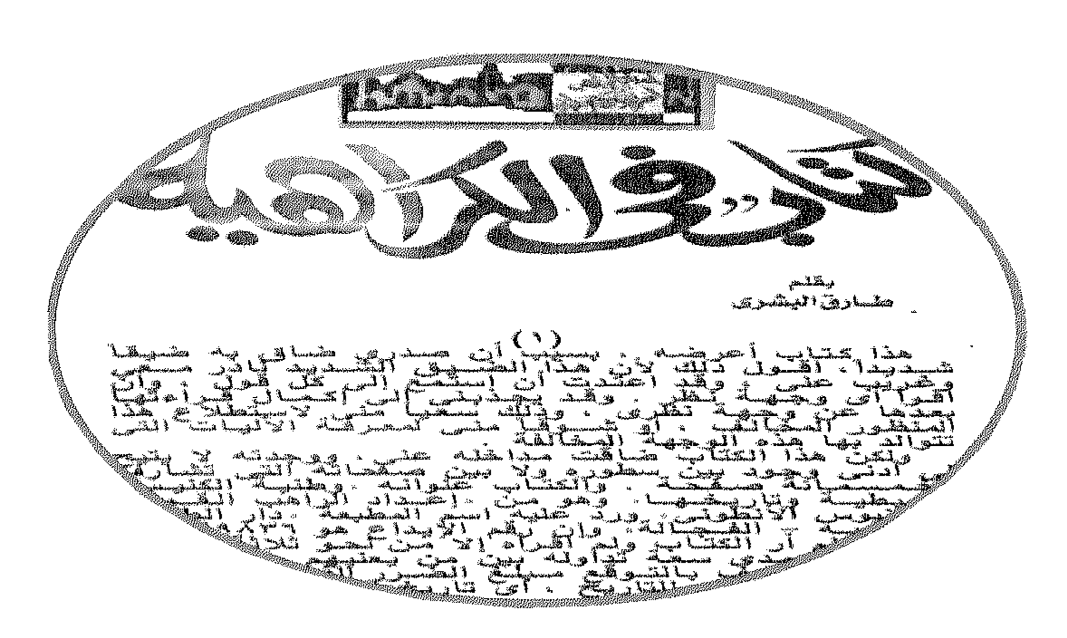
الثانية : أن جميع أعضاء الوفد المصرى وإن لم نذهب معا لمقابلة الرئيس إلا أن الجميع كانت تنتابهم حالة من الإحباط الشديد الأمر الذى انعكس فى اتخاذ موقف جماعى فى مساء نفس اليوم بمقاطعة حفل التوقيع الذى أقيم فى البيت الأبيض. ولاشك ان اتخاذ مثل هذا الموقف الذى يتسم بالشجاعة يجب أن يسجل لأعضاء الوفد جميعا كما تجدر فى نفس الوقت الإشادة بحكمة الرئيس السادات وبعد نظره، فقد تقبل المقاطعة الجماعية لحفل التوقيع بهدوء بالرغم من أن وسائل الإعلام الإسرائيلية والأمريكية قامت بعملية تشسويش وصوروا المقاطعة بأنها استقالة جماعية لوفد المفاوضات المصرى. والتاريخ يجب أن يسجل أن الرئيس السادات لم يتخذ أى إجراءات عقابية ضد أى من أعضاء الوفد.

ما تقدم جزء يسير جدا مما عايشته فى فترة كامب ديفيد وغيرها، وما أخرجنى عن مبدأ الصمت الذى التزمته الا المقالة التى كتبها الصديق وما دار من مناقشات بيننا مازالت مستمرة حول كتابة الدبلوماسى لمذكراته وهى مناقشة فى رأيى يجب ألا تقتصر علينا بل حرى بكل دبلوماسى وكل مؤرخ وكل مثقف ان يشارك فيها الرسم الحدود الفاصلة بين حق التاريخ علينا وحدود الوظيفة ومسئولياتها. ■

هوامش

(١) محادثات الحكم الذاتى (ولله الحمد) هي المحادثات المصرية الإسرائيلية التى لم أشارك فيها.

(٢) لم يذكر الوزير محمد إبراهيم كامل فى كتابه عند الإشارة إلى مقابلتي مع الرئيس السادات سوى موضوع القدس.



كتاب في الكراهية

بقلم
طارق البشرى

(١)

الأقباط.. الوجه الآخر

بقلم
عمرو عبد المنعم حموده

الاقباط فى مصر شركاء في الوطن والتاريخ والقدر والمصير فى إطار الجماعة الوطنية التى تبلورت على مر عصور التاريخ. حقيقة تاريخية واجتماعية غير قابلة لإثبات العكس، ولكن المستشار طارق البشري عندما عرض لكتاب الراهب القمص انطونيوس الأنطونى «وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها» فى مقاله كتاب فى الكراهية فى عدد يوليو ٢٠٠١ من مجلة الهلال، عندما عالج المستشار البشرى هذا الكتاب بالعرض والتحليل أثار قضية مفرطة في الحساسية ، وهى أن اقباط مصر – ومن وجهة نظر مؤلف الكتاب – ومنذ الفتح العربى الاسلامى لمصر سنة ٦٤٠م وإلى الآن مضطهدون ..

وفي كل فقرة من فقرات الكتاب لاحديث له إلا عن الاضطهاد والظلم والكوارث التي تلحق بالأقباط .. وان كل قضايا المجتمع ووقائع التاريخ وعذابات البشر من الأقباط علي مر الحقب والدهور حولها المؤلف إلي أفعال موجهة من المسلمين حكاما ومحكومين إليهم.

والنغمة نفسها تتردد في كتاب «أقباط مصر بين الماضى والحاضر» للقس داود عزيز حيث يصف عهود الحكم العربى الإسلامى بأنها تلك العهود المظلمة التى سلبت كل معنى للحرية للمسيحيين فى مصر والتي استبد بهم الحكام وأذاقوهم ألوانا من العذاب، وميزوا بينهم وبين المسلمين، وفرضوا عليهم ترك لغتهم الأصلية - اللغة القبطية - - وعدم المجاهرة بها، وهذه الكتابات وغيرها من كهنة الكنيسة القبطية إنما تحدث اضرارا جسيمة بالوطنية المصرية والكنيسة القبطية والتاريخ لمصر والمصريين ، ولا تخدم بأى حال من الأحوال قضية الوحدة الوطنية.

فن صناعة الخصم

وينتمى مؤلفا الكتابين من واقع ما كتبا إلى الاتجاه الدينى المحافظ والمتطرف، وقيم المحافظة تبدو ظاهرة فى صورة التمسك المتشدد بالافكار والآراء القبلية، والتيار المحافظ يعبر غالبا عن محاولة الدفاع عن الذات والمحافظة على الوضع النسبى الآنى أو محاولة استعادة وضع سابق دون النظر إلى الثوابت والمتغيرات لكل مرحلة من مراحل التاريخ أو عصوره، وهذان الكتابان وغيرهما من الكتابات القبطية إنما يدخلان فى نطاق مايمكن أن يطلق عليه فن صناعة الخصم، بمعنى أن هذه الكتابات تحول الاقباط من شركاء فى التاريخ والأرض والقدر والمصير إلى خصوم لإخوانهم المواطنين.

وبالقدر نفسه من الواقعية والموضوعية فإن القصص والروايات التى تحفل بها الكتب القبطية عن اضطهاد الاقباط منذ الفتح العربى الإسلامى انما هى روايات موظفة تاريخيا بهدف تعميق الحواجز النفسية والاجتماعية بين الاقباط من جهة واخوانهم المسلمين من جهة أخرى، وتسعى إلى تكريس سيكولوجية خاصة لدى الاقباط بما تعنيه من التمسك بالتقاليد القبطية العريقة والمحافظة عليها، ومحاولة بعث اللغة القبطية، ومن حسن الحظ

أن كل هذه المحاولات تتحطم على صخرة الحقيقة وهى أن اقباط مصر ليسوا أقلية بل هم فى حقيقة أمرهم جزء لايتجزأ من النسيج الوطنى المصرى، وهذا الجزء مؤثر وفعال ونشط ومشارك فى المجتمع المصرى تاريخيا.

ومن حيث المنهج فى هذه الكتب تظهر فى المعالجة التاريخية للموضوع محل الدراسة ظاهرة النزعة إلى التعميم وتعنى أن يميل البعض من الباحثين إلى أن يجعلوا من ملاحظة خاصة بحالة معينة مبدأ عاما يطبق ويسرى فى جميع الحالات .. أى أن الباحث يقوم بعملية استقراء ناقص وصولا إلى حكم عام، وهذا من أهم الاسباب التى تؤدى إلى الوقوع فى الخطأ .

حقيقة الاضطهاد التاريخى

لكن ما حقيقة الاضطهاد التاريخى الذى عانى منه الاقباط منذ الفتح العربى الإسلامى لمصر المسيحية سنة ٦٤٠م ؟ . هناك شبه اجماع بين الباحثين والمؤرخين على أن ثمة كثيرا من النصوص والوقائع التى يمكن إيرادها دلالة على التعامل السمح للنظم الاسلامية مع الاقباط، وكان منهم الوزراء والرؤساء فى الإدارة المصرية، فبعد الفتح العربى الاسلامى لمصر ولأول مرة منذ زمن طويل أصبح للمصريين الاقباط دور فى إدارة بلادهم رغم انعقاد السيادة لحكام جدد، فقد استخدم العرب الفاتحون القبط فى كثير من الوظائف والشئون العامة وبخاصة فى جمع الضرائب والاعمال الحسابية، وأحلوهم فى إدارة بلادهم محل الروم الذين غادروا البلاد تباعا، وابقوا من كان منهم فى وظائف عامة قبل الفتح العربى فى نفس وظائفهم وأعمالهم، فكان منهم حكام للكور ورؤساء للدواوين بالإضافة إلى شتى الوظائف الصغيرة، ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس استبقاه المسلمون فى عمله كحاكم للمنطقة الشمالية، وآخر يدعى شنودة وكلت إليه حكومة الريف، وثالث تولى حكومة الفيوم، وكان بالحكومة المركزية في الفسطاط كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى، وبرز فى عهد مروان ابن الحكم كاتب قبطى يدعى اثناسيوس الرهاوى بلغ درجة الرئاسة على ديوان الاسكندرية وتلقب فى المكاتبات الرسمية بلقب الكاتب الأفخم .. وفى عهد عبدالعزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا

اسمه بطرس وحاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانس.

سياسة غير مستقرة

ودراسة تاريخ مصر الإسلامى توضح أن سياسة الطبقة المسلمة الحاكمة تجاه الاقباط لم تكن مستقرة، وبالتالى كانت السياسات والاتجاهات والقرارات معرضة للتغيير فى أحوال كثيرة طبقا للطبيعة الشخصية والمزاج السياسى للحاكم ، وكانت معاملة الأقباط قبل الفاطميين عرضة للتقلبات السياسية والاقتصادية التي مرت بها الدولة، وكانت معاملة بعض الحكام للاقباط خشنة وقاسية، ولم تكن هذه المعاملة بسبب التحيز الدينى فقط ولكن بسبب الضغوط المالية كذلك، فمعاملة الحكام لهم تحكمها فى الدرجة الأولى حاجة هؤلاء الحكام للأموال، ومن أجل الحصول على ذلك اضطروا إلى تنفيذ سياساتهم لجمع الضرائب والجزية.

وإذا كانت قد مرت على مصر فترات اضطهاد لسبب أو لآخر - كما يقرر الدكتور ميلاد حنا فى كتابه الأعمدة السبعة للشخصية المصرية - فالملاحظ هو أن الاضطهاد لم يكن مقصورا علي الاقباط، وإنما كان عاما وشاملا للمصريين جميعا ، وفى فترات الرخاء والأمن والأمان كان الاضطهاد على الاقباط غير واضح، وملحوظ، بل كانوا ينعمون بحرياتهم فى ممارسة طقوس ديانتهم فى وقت لم يكن فيه أمر حقوق الانسان مطروحا أو معروفا.

المسلمون حماة المسيحيين

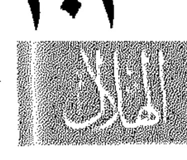
وفى فترات الثورات والمحن والقلاقل السياسية والاجتماعية، كان الأقباط والمسيحيون محل حماية وعطف وتقدير من إخوانهم المسلمين، فيذكر لنا إلياس زاخوره - وهو كاتب ومؤرخ وصحفى مسيحى فى القرن التاسع عشر - في كتابه «مرآة العصر فى تاريخ ورسوم اكابر الرجال بمصر» جـ١ سنة ١٨٩٧ ص ٤٨٣ فى ترجمة محمد بك حمودة من الغربية أنه «لما شبت نيران الثورة العرابية أتى منزله نحو الخمسين نفساً من المسيحيين المقيمين بطنطا لسبب الخوف والقلق الذى حصل وقتئذ فأكرمهم، وسكن روعهم، وعاملهم احسن معاملة، وبقوا فى ضيافته لبعد اخماد الثورة العرابية». ونسج على منواله أحمد باشا المنشاوى من أعيان الغربية واقطاب طنطا فى القرن التاسع عشر فى حماية الاقباط والمسيحيين ورعاية شئونهم والوقوف إلى جانبهم .. وقد برهن المسلمون على طول عصور

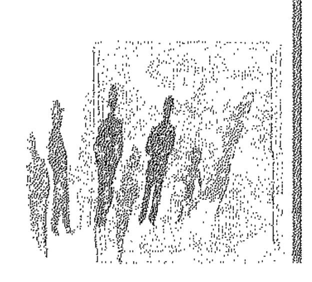


التاريخ أنهم حماة المسيحيين .

رسالة حب وسلام

وإذا كان المستشار طارق البشرى قد عرض بالتحليل والنقد كتابا فى الكراهية، فنحن بدورنا نشير للوجه الآخر كتابا فى المحبة والسلام والوئام والوحدة الوطنية، هذا الكتاب هو كتاب الاقباط وطنية وتاريخ للقمص بولس باسيلى، وقد صدر فى طبعته الأولي ١٩٨٧ ، وطبعته الثالثة ١٩٩٩ بتقديم ثلاثة من عمالقة الفكر قداسة البابا شنودة الثالث، والاستاذ ثروت اباظة، والمرحوم الاستاذ وحيد رأفت ويعرض القمص بولس باسيلى فى كتابه لتاريخ الاقباط ومسيرتهم عبر التاريخ ، وينقل لنا صورا حية ونابضة للتعايش السلمى الأخوى بين المسلمين والأقباط.. تلك الروح التى عاشها المصريون جميعا قرابة أربعة عشر قرنا متجاوزين فيها كل الخلافات.. وهذا التعايش هو الذى ينبغى أن نحرص عليه دواما .. ففى ذلك حياتنا واستقرارنا أمننا وأماننا، بل وفى ذلك انتصارنا على خصومنا واعدائنا. ويقول المؤلف القمص بولس باسيلي إن هذا الكتاب يجيب بدقة عن هذا السؤال: من هم الاقباط ؟ وما تاريخهم؟ وما نصيبهم من الوطن والوطنية؟ ما أصلهم ؟ وفصلهم ؟ ورأى الشرق والغرب فيهم ؟، ويستطرد إلى القول طرقنا عدة موضوعات : بدأنا بالعلاقات القوية بين المسلمين والأقباط عبر التاريخ الطويل ، وعرضنا للمواقف التاريخية لبابوات الاقباط ، ودور الكنيسة الأولى وموقفها من السلطة منذ فجر التاريخ حتى هذا العصر، كما سجلنا أيضا اراء حوالى السبعين من عمالقة الفكر من مسلمين ومسيحيين يشيدون بوطنية الاقباط، ومواقفهم التاريخية عبر العصور المختلفة، كما يقدمون اقتراحاتهم الفعالة لدعم الوحدة الوطنية، والرسالة التى يبعثها القمص بولس باسيلى من خلال صفحات كتابه إلى كل مصرى رسالة حب وسلام بين المسيحية والاسلام من قلب يفيض بحب الوطن إلى إخوانه من شباب مصر، من كل الأديان، ومن كل المذاهب والمعتقدات .. وبعد قراءة كتاب الاقباط: وطنية وتاريخ للقمص بولس باسيلي يتشكل وعى القارىء شعوريا ولاشعوريا، فكريا ووجدانيا بضرورة الوحدة الوطنية إطارا قويا وراسخا وعميقا على أرض الوطن لتضم المسلمين والاقباط معا لمواجهة تحديات الحاضر والمستقبل. ■





مستقبل الثقافة العربية

جزء خاص

حول مؤتمر المثقفين

حتى يخرج المثقفون من النفق المظلم !

هذا المقال، لم يكتبه كاتب واحد، بل شارك فيه خمسة من الكتاب، فى جلسة نقاش طويلة، ضمت كلا من إبراهيم أصلان وإبراهيم منصور وجميل عطية وجمال الغيطانى ومحمد البساطى. ننشرها كبداية لحوار حول مستقبل الثقافة فى مصر .

يجرى الآن الإعداد لما يسمى بمؤتمر المثقفين بواسطة الأجهزة التابعة لوزارة الثقافة . ويثير هذا المؤتمر ملاحظات نرى من موقع الحرص على سلامة الحركة الثقافية ضرورة إبدائها، وأيضا التأكيد على عدة حقائق جلية ، واضحة، إذ تعانى الثقافة المصرية من مشاكل حادة أدت إلى آثار سلبية شملت جميع روافدها. في حركة النشر، في السينما، فى المسرح، في الآثار، فى المناخ المتعلق بحرية التعبير. تلك الأوضاع التى أدت إلى تراجع قيمة الثقافة. وهذا الخواء الذى يهدد روح الوطن فى حاجة إلى مناقشة حقيقية عميقة، للوقوف على الأسباب ومدى التدهور، وصياغة رؤية ايجابية لعلاج القصور، هذه المناقشة نرى أن تتم من خلال المثقفين أنفسهم وليس من خلال أجهزة الوزارة. إذ كيف يمضى محاسبة سياسات أدت إلى الأوضاع السلبية الحالية من خلال أجهزة معظمها مسئول عن تلك السياسات.

من خلال التاريخ القريب والبعيد للحركة الثقافية يمكن أن نستنتج ما يمكن أن

تنتهى إليه هذه المؤتمرات التى تقيمها الأجهزة الحكومية، ولنتذكر أنه فى عام تسعة وستين من القرن الماضى وبعد هزيمة يونيو نجح المثقفون فى إقامة مؤتمرهم بالزقازيق، وجاء ذلك فى اطار ردة فعل شاملة قام بها المثقفون للرد الروحى علي الهزيمة ورفض الإستسلام.

خلال هذا المؤتمر اتخذت عدة توصيات مهمة حول إلغاء الرقابة. ودعم الحريات، وانشاء اتحاد للشباب المصريين، وسرعان ما بدأت الأجهزة الحكومية. خاصة العاملة فى الشأن الثقافي بالالتفاف حول التوصيات المتخذة، خاصة فيما يتعلق باتحاد الشباب، وقام بالفعل اتحاد الكُتاب، بالتصور الذى أرادته أجهزة وزارة الثقافة فى ذلك الحين، وانتهى إلى ما انتهى اليه الآن. وفى عام ألفين. طرحت حركة المثقفين المستقلين فكرة عقد مؤتمر لمناقشة أحوال الثقافة المصرية، وبسرعة بادرت الوزارة إلى طرح فكرة هذا المؤتمر الذى تأجل عدة مرات. وتتردد الأخبار الآن عن نية عقده فى مارس أو أبريل من هذا العام.

نذكر بالمؤتمرات النوعية التى بادرت الوزارة إلى عقدها لحل مشاكل السينما والمسرح، تلك الروافد الأساسية فى الثقافة المصرية ودورها. ومضت السنوات بعد عقد هذه المؤتمرات وها نحن نرى احتضار المسرح المصرى. وتضاؤل السينما المصرية كما وكيفا، أما المهرجانات التى أصبحت سمة بارزة لأنشطة الوزارة خلال الخمسة عشر عاماً الماضية فقد اتسم معظمها بالسطحية ولم يعد أحد – حتى من المشاركين فيها – يأخذها مأخذ الجد.

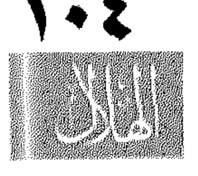
يتسم المناخ الثقافى بركود هائل الآن، وحالة عميقة من الإحباط، وانسداد أبواب الأمل فى وجوه المبدعين الشبان، كما أن معدلات القراءة تشير إلى تراجع مخيف رغم وجود بعض المشروعات التى تحظى برعاية على أعلى مستوى، مثل مشروع مكتبة الأسرة الذى كان من الممكن أن يؤتى ثماراً أفضل، لو توافرت له الادارة الجيدة، وانتفى منه عنصر المجاملة الذى أصبح غالباً على الكثير من إصداراته..

سياسة الاحتواء

إن المنتظر من وزارة الثقافة رسم سياسات لتهيئة المناخ الأفضل للعمل الثقافى. والذى يمكن المبدعين من التطوير. والتعبير عن أنفسهم . لكننا نواجه وضعاً غريبا فى السنوات الأخيرة إذ حلت الوزارة محل الثقافة. ولم يعد المسئول الأول عنها يخفى هدفه الرئيسى ، أى احتواء المثقفين، كما أنه لا يدخر وسعاً فى سلوك كل الوسائل للدفاع عن سياسات فى مواجهة الانتقادات المشروعة . وهذا المؤتمر المزمع عقده يأتى فى سياق الدفاع عن هذه السياسة وتبريرها أو اظهار التأييد من جماعات المثقفين.

محنة الآثار

نشير أيضا إلى وضع الآثار فى مصر التى تضم ثلثى آثار العالم. لقد تم تفكيك الهيئة المصرية للآثار والتى كانت تتمتع باستقلال نسبى. ويديرها علماء متخصصون، واستبدلت بكيان هلامى هو المجلس الأعلى للآثار الذى يرأسه الوزير ويحتفظ بمعظم الاختصاصات. والمتابعون لما يتعلق بالآثار المصرية يدركهم قلق



شديد. ليس فقط من المصريين ولكن من العلماء المتخصصين من مختلف الجنسيات. وأدت السرعة فى الترميمات والأخطاء إلى إخراج أثر عريق ، فريد، نقصد المسجد الأزهر من قائمة الآثار التى يعترف بها اليونسكو، كما تسود الآن نظرة سياحية وليست ثقافية إلى الآثار، إن الآثار شأن يهم المصريين كلهم. والعالم كله . وليس من قبيل المبالغة المطالبة بوزارة متخصصة للآثار فى بلد يضم ثلثى آثار العالم من مختلف العصور، فهل يمكن لمؤتمر تنظمه الوزارة التى وصلت بآثار مصر إلى أحوالها الحالية والتى جعلتها موضوعا سلبيا في وسائل الاعلام الأجنبية المتخصصة والعامة أن يتعرض لمثل هذه القضية؟

حرية التعبير

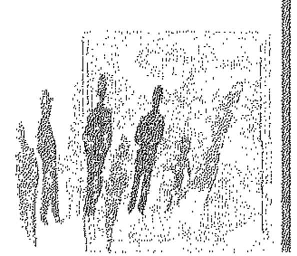
لابد من الإشارة إلى المناخ السلبى. السيىء لحرية التعبير فى مصر الآن، وللأسف كان من المفروض أن تدافع الوزارة عن حرية التعبير. لكن ما رأيناه من سلوك نابع من الوزارة يدعو إلى الأسف، فبدلا من أن تكون عونا وحصنا للدفاع عن حرية التعبير رأيناها سيفاً مصلتاً ضد الحرية، وهذا ما اتضح خلال أزمة الروايات الثلاث الشهيرة. وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه من تنحية قيادات هيئة قصور الثقافة. واستقالة الأدباء المشرفين على سلاسل الهيئة، ومصادرة الكتب، بما فى ذلك ديوان أبو نواس الذي سبق طبعه فى مصر عام ١٩٥٨، ولم تستطع الوزارة الحالية طرحه للتوزيع العام، كما فرضت رقابة على أعمال المبدعين الشباب، مما سيكون له عواقب سلبية، هل يمكن لهؤلاء أن يعقدوا مؤتمرا يناقش فيه المثقفون حرية التعبير وتراجعها فى مصر؟

ما يجب التأكيد عليه. استقلالية المثقفين، هذا ما يجب العمل من أجله. وهذا ما يضمن حرية حركتهم، بما يمكنهم من الدفاع عن خير الوطن، وما يتصل به من حقائق عميقة بمنحى من تقلبات السياسة وتحفظاتها وألاعيبها.

المطلوب استقلالية المثقفين

استقلالية المثقفين تمكنهم من التعبير عن مواقفهم، وعن ضمير الوطن، فمشاكلهم هى مشاكل الوطن، ورؤاهم كذلك، وباستمرار كانوا فى الطليعة، وعرف الكثيرون منهم أشكالا شتى من التشريد والنفى والاضطهاد النفسى والبدنى، فهل المطلوب لأصحاب هذا التراث كله أن يصبحوا مجرد وسيلة لاصدار وثيقة تؤيد سياسات نرى أنها خاطئة؟! لن يؤدى هذا المؤتمر الا لمزيد من تكريس تبعية المثقفين للحكومة، وخطوة فى المحاولات المستمرة لاحتوائهم، لذلك نقول إنه إذا كان ولابد من مؤتمر للمثقفين، فليعقد من خلال المثقفين أنفسهم من خلال اللجان الثقافية فى هيئات تحققت فيها النزاهة خلال العملية الانتخابية مثل الصحفيين والمحامين والمهندسين، والجمعيات الأدبية والثقافية ، وبالطبع اتحاد الكتاب، اضافة إلى الشخصيات العامة المستقلة، أما أن مؤتمر يعقد من خلال أى جهة حكومية للمثقفين فلن يؤدى إلا إلى مزيد من الآثار السلبية على ثقافتنا التى نرى أنها تمر فعلا بأزمة عميقة.

● **إبراهيم اصلان - إبراهيم منصور - جميل عطية جمال الغيطانى - محمد البساطى**



قبل عقد مؤتمر عام للثقافة والمثقفين

أمانى عبد الحميد

● مطلوب استراتيجية ثقافية تواجه تحديات عصر التحولات

● دعم الشباب كخطوة نحو تجديد الفكر الثقافى فى مصر

● هموم الثقافة والمثقفين وحتى لا نفقد الرؤية الشاملة

البحر بزرقته لا يختلف حوله اثنان . لكن الغوص داخل أعماقه يجعل الأمر مختلفاً تماما .. فالحياة الكامنة داخله تموج بصراعات بعيدة كل البعد عن سطحه الهادىء وزرقته البراقة .. حتي لا يتحول مؤتمر الثقافة والمثقفين المحتمل عقده خلال الشهر الحالي إلي مكلمة ثقافية تحمل سمات السطح الهاديء .. علينا أولا الغوص في أعماق الواقع الثقافي المصري . لنلمس الجوانب الخفية لأحوال الثقافة والمثقفين والتي تعج بصراعات وتباينات فكرية وثقافية متعددة .

حين نتحدث عن الثقافة فى مصر فإن الأمر يتطلب حديثا طويلا ومتعمقا عن حقيقة الواقع الثقافى بما فيه من مشكلات يواجهها ، خاصة وسط عالم متغير وعصر متحول .. فمن الضرورى قشع الضباب عن عيوننا ، لتتضح الرؤية المستقبلية ، ولا تتضح الرؤية إلا إذا وقفنا على عدد من المفاهيم لمعرفة المعنى الحقيقى لها بما يتناسب والعصر الذى نعيشه . فمن هو المثقف ؟ وما هو مفهوم الثقافة ؟ وما هى حقيقة الهموم الثقافية ، وما هى ملامح استراتيجية الثقافة الملائمة لعصر التحولات الجديد ؟ تساؤلات كثيرة لا تزال مطروحة أمام مؤتمر الثقافة والمثقفين المنتظر .

مؤتمر للثقافة وليس للمثقفين !

من أجل وضع استراتيجية للثقافة فى مصر ، قررت وزارة الثقافة عقد مؤتمر عام للثقافة والمثقفين . وبرغم ذلك جاءت تصريحات السيد فاروق حسنى وزير الثقافة لمجلة الهلال مثيرة للقلق . حيث أكد أن الهدف الأساسى للمؤتمر هو تفعيل العمل الثقافى حتى تقتحم مصر الألفية الثالثة . لكنه اعترض بشدة على اقتران اسم المثقفين بالمؤتمر . موضحاً أن المؤتمر هو «مؤتمر للثقافة المصرية وليس للمثقفين» وطالبهم بالسعى من جانبهم كما تسعى الوزارة من جانبها .

أثارت محاولات الوزير لإبعاد المثقفين بصراعاتهم ومشكلاتهم عن فعاليات المؤتمر القلق فى نفوسنا فهناك نقطة مهمة نود أن نوضحها ، تتلخص فى أن كل خطوة أو حركة ثقافية تدعو إليها وزارة الثقافة ، وتحارب من أجلها لن تتحقق إذا لم يكن لديها جمهور من الحاضرين المهتمين بقضيتهم، فالمثقفون هم الجمهور الذى سيحقق أهداف المؤتمر . فإن أمر استبعادهم عن مؤتمر الثقافة أمر غير منطقى ، وكأننا نفرغ الكأس من محتواها ، فأى محاولة لتحديد أولويات استراتيجية للثقافة فى مصر بدون مثقفين ، هى محاولة لا يمكن تصورها ، كما أن التقليل من دور المثقفين ورجال الفكر بمختلف اتجاهاتهم «خاصة من هم خارج السلطة» وفصلهم عن أداء دور ايجابى هو فصل تعسفى . كما أن المثقف قد لعب دورا مهما فى التعبير عن قضايا عصره ومشاكل مجتمعه ، فهو مرآة تعكس الواقع على مدى التاريخ .

هموم ثقافية

قبل أن نقرر عقد مؤتمر للثقافة والمثقفين فى مصر علينا أولا التعرف على الحياة الثقافية .. حيث تمر بعدد من الأزمات العصيبة . صحيح أنها أزمات ليست وليدة اليوم ولا الأمس القريب .. إنما ضاعفت منها الأعوام المتعاقبة من تأزمها . وأضافت إليها أبعادا جديدة .. فلا تزال بعض النظم والقوالب الجامدة والعتيقة تسيطر على تطورها . ولا تزال العلاقة بين المثقفين والسلطة علاقة تشوبها الكثير من مظاهر الشد والجذب ومثال ذلك ما يوضحه الكاتب أحمد بهاء الدين فى كتابه «المثقفون والسلطة فى عالمنا العربى» بأن علاقة المثقف بالسلطة علاقة يحكمها الشك ، وعدم الثقة وأحيانا يحكمها التناقض والعداء . وهو أمر أعتقد أنه صعد شعور الضعف والانكسار والانعزال ورسخه فى نفوس المثقفين مما أثر على دور المثقف فى طرح قضايا عصره الحقيقية والمصيرية ، ويصفهم «بهاء الدين» بأننا نراهم هائمين على وجوههم ، بضمائر مثقلة ، وآمال محبطة ونفوس جريحة ، غير راضين عن أنفسهم



أكثر مما هم غير راضين عن ظروفهم» ولا أعلم هل هذا يرجع إلى ضعف دورهم فى التعبير عن مشاكل مجتمعم ؟ أم يرجع إلى افتقاد المجتمع بمختلف طبقاته وفئاته للرؤى ووجهات النظر الثاقبة التى تحلل الواقع وتستشرف المستقبل ؟ أم ماذا ؟

ويمكننا أن نلمس أحد جوانب تأزم الحياة الثقافية من خلال الأزمات التى تعصف بالكتب والمجلات الثقافية فى مصر ، وتقتلها واحدة تلو الأخرى . إما بالغلق لضعف الإمكانيات المادية أو بالهجر فلا يقرأها أحد أو بالتسطيح حتى تلبى رغبات الزبون !

علاوة على هذا . يعانى مجتمعنا من نقمة أصابت أفراده وهى الأمية الثقافية . فلم يعد خريج الجامعة ذلك الأفندى صاحب العلم والأدب والثقافة كما كان الحال منذ افتتاح جامعة فؤاد الأول .. بل أصبح خريج الجامعة شخصاً ضعيفاً فى تخصص دراسته ، هزيل الفكر، ثقافته سطحية ، فبعد أن كنا نعانى من أمية القراءة والكتابة أصبحنا نعانى بالإضافة إلى ذلك أمية ثقافية تضم خريجى الجامعات وما أكثرهم ، وهو أمر بالغ الخطورة .. فالثقافة هى اشعاع يدفعنا نحو الارتقاء بسلوكنا وبفكرنا بنفوسنا . ولا يمكن بأية حال أن نفصلها عن التعليم ، فلا تعليم بلا ثقافة . «فإذا كان التعليم هو التدريب على المهارات سواء اليدوية أو العقلية فالثقافة هى تدريب العقل نفسه على السيطرة على تلك المهارات فالثقافة ليست ترفا ولكنها ضرورة بشرية تماما مثل الخبز والحرية كما يرى يوسف ادريس فى كتابة «أهمية أن نتثقف» .

ومن ناحية أخرى نجد الأزمة الاقتصادية قد عمقت أزمة الثقافة ، فتحول المثقفون والقائمون على العمل الثقافى إلى ساعين للرزق .. فالأوضاع المادية متدهورة والمجتمع يعانى من اختناق اقتصادى . وأصبح المثقف غائبا ومثقلا بهمومه المادية . خاصة أن الثقافة ليست السلعة الرائجة فى هذا الزمان . حتى تحولت العديد من المظاهر الثقافية إلى محاولات ترويجية ، ويكفينا ما نراه من تظاهرة خادعة خلال انعقاد معرض الكتاب من كل عام، احتشاد جماهيرى لا يتكرر سوى مرة واحدة كل عام . وبعد انقضائه يعود الفرد الى عالمه الخاص بعيدا عن الكتب والثقافة بحثا عن الرزق.

عصر متحول

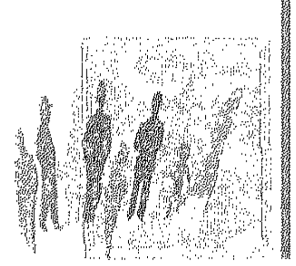
وبالطبع ، فإن الأوضاع السياسية الدولية الراهنة قد فرضت بقوة مفاهيم جديدة عن العدالة والحق والقصاص. حتى أن مفهوم الحضارة أصبح معرضا

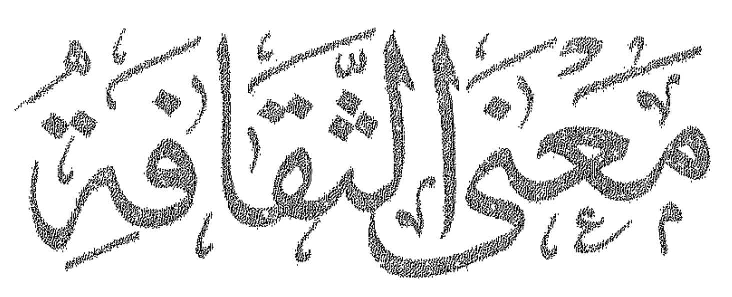


للتغيير.. فما هو حضارى وماهو غير حضارى أصبح قيد جدال .

كل هذه الصراعات والأزمات يشتد سعيرها فى وقت لا يزال مجتمعنا الثقافى يحكمه ويسيّر خطاه مجموعة من الشيوخ تعدوا سن المعاش بكثير.. وبالطبع لا تزال أفكار وأطروحات القرن الماضى تحكمهم .. فلم يدركوا حتى الآن اننا نعيش عصرا متحولا. كل مافيه جديد ومختلف عما اعتاد عليه شيوخنا.. عصر تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافية غاية فى الغرابة.. وهى تحولات بعيدة كل البعد عن نداءات التنوير التى انطلقت مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وبعيدا عن صراعات التيارات السياسية والفكرية خلال فترة الأربعينيات وبعيدا عن شعارات حقبة الستينات الملتهبة الحماسية، وبعيدا عن سياسات السبعينيات الانفتاحية .. بل أصبحت بعيدة أيضا عما كان العالم يردده قبيل أحداث الحادى عشر من سبتمبر.، فالأوضاع أصبحت مختلفة بشكل مخيف. وينطبق عليها الصورة التى رسمها «كافكا» عن انسان يعيش وسط عالم متغير .. «ماذا يحدث عندما يستيقظ انسان ما ليجد نفسه خنفسا ضخما مختلفا عما اعتاد عليه .. لماذا يفعل؟ كيف يسير وما النهج الذى يتبعه؟. هل يتبع معايير سلوكه القديمة عندما كان انسانا؟ ام يحاول أن يتعايش مع أوضاعه الجديدة.. يتعرف على معايير تتناسب وحياته الجديدة. حتى لايضل الطريق وتدهسه الأقدام» إنها صورة بليغة تجعلنا ندرك أن العالم حولنا فى حالة مخاض عسيرة ، وفى حالة صراع بين كل ماهو ثابت وماهو متغير .. ويدفعنا أولا إلى تحديد معايير الثبات والتغير لدينا .. وبالطبع لا يمكننا ان نحدد ذلك برؤى الماضى وخبراته فقط. فكما يقول د. زكى نجيب محمود فى كتابه تجديد الفكر العربى.. «محال لغدنا أن يحاكى أمسنا». فينبغى علينا أن نجدد فكرنا وثقافتنا .. وأعتقد أن عملية دعم شباب المثقفين يجب أن تكون الخطوة الأولى فى سبيل ذلك.. فهم الأحق بالدفعة الأولى والدعم الأقوى. فهم أمل الغد ومفتاح الحياة القادمة. بل إن قليلا من التشجيع لما يملكه الشباب من طاقة وتدفق سيجعلهم قادرين على رسم صورة المستقبل بشكل أوضح. فلم تعد خبرات الماضى تفيد كثيرا فى وقتنا الراهن . «فلم تعد خبراتهم بالماضى تفيدنا حتى وإن امتعتنا ذكرياتها» كما يقول د. زكى نجيب محمود. فإذا كان الشيوخ هم جذور شجرتنا فان الشباب هم أغصانها اليانعة ، والتى تحتاج إلى رعاية حتى تتحول الى ثمار تقطفها الأجيال التى ستولد بعدهم .

فحتى لا تصبح الرؤية ضبابية خادعة تختفى أمامها تفاصيل الرؤية الشاملة. وحتى لا نفقد الثقة فيما نعتقد ونؤمن. وحتى لا ينعزل المثقف الشاب الذى يقدر بجرأة على أن يعلق الجرس فى رقبة القط، ويشارك بايجابية فى ايضاح الأمور بعيدا عن صحف الشعارات، وحتى لا نفقد ماهو حقيقى ونتمسك بكل ماهو زائف.. نطالب وزارة الثقافة باتاحة الفرصة كاملة لجموع المثقفين بالقيام بالدور النقدى بفاعلية لا مجرد تابعين. إنما عاملين فاعلين فى وضع استراتيجية للثقافة فى مصر . ■





نقد ذاتي فات أوانه!

بقلم
د. صلاح قنصوه

ربما نكرر أمراً بديهياً إذا ما ذكرنا أن الثقافة ليست صفقة واحدة كما لو كانت كلا متجانسا يشارك فيه المواطنون أو أعضاء المجتمع كله، ويتقاسمه الأفراد بحسب أنصبتهم الشرعية. كما أنها لا تثبت على صورة أو صيغة واحدة، بل تتغير وتتبدل بحيث تتعاقب على المجتمع أو الأمة ثقافات مختلفة.



ولا تقتصر الثقافة على دلالتها التي تحظى بالشهرة والذيوع بوصفها الاستنارة العقلية ، وسعة الإطلاع، وتذوق الفنون على النحو الذى ترعاه به وزارة الثقافة ومؤسساتها. فهي تتضمن على هذا الوجه الصور المرهفة للوعي الاجتماعي المنعكسة على المرايا المصقولة لأدوات التعبير والابداع، ومن ثم يطلق على منتجها ومستهلكها اسم المثقف، ويستقل بذلك عن مطالب المهنة أو الحرفة التى تتيح الارتزاق منها عن طريق إعداد سابق محدد الإجراءات والخطوات، فعندئذ لا يعبر المثقف عن مطالبه الشخصية أو المهنية، بل يتجاوزها إلى التعبير عن القضايا العامة، لأن المفترض فيه أنه «يعبر» عن الجميع، في نفس الوقت الذى «يخاطب» فيه الجميع

دون تخصص، طالما كانت ساحته التى يعمل فى نطاقها، وأدواته التى يستعملها هى وسائل النشر والإعلام.

فهنا نطرح قضية الالتزام أو الانفصال، ونناقش ، مثلا، مسائل المثقف العضوى الذى يعكس الحياة الاجتماعية انعكاساً مباشراً، أو المثقف المنعزل أو المغترب، وذلك من خلال المواقف التى يتخذها، كما تثار المسائل المتعلقة بالأيديولوچيات .

أما الثقافة بمعناها الذى ينتسب إلى مفاهيم العلوم الاجتماعية، فيجمع إلى ما سبق، كل ما يصوغ الرصيد الكلى للعمل الإنسانى ومنتجاته الاجتماعية، فى مقابل ما ينقل عبر الوراثة البيولوجية، فهى مجموع الأنشطة أو الفاعليات الإنسانية التى تتجلى فى السلوك العملى والعقلى معاً وهو سلوك قابل للتعلم والتداول من ثنايا النظم والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والعقائدية والفنية إلخ. وإذا ما زودت الطبيعة الإنسان بالمواد الأولية، فإن الثقافة هى التى تحدد أسلوب استثمارها لخدمة حاجاته ومطالبه، وتعد الجوانب البيولوجية فى الإنسان جزءا من خام الطبيعة التى تضع الثقافة أساليب أدائها ومعاييرها.

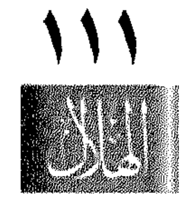
ويضم هذا الأسلوب فى المعيشة العادات والمعتقدات والمهارات، كما ينطوى على البواعث والأهداف التى تحث على المشاركة فى إنشاء النظم والمؤسسات ، المادية وغير المادية على السواء ، وبينما تحكم القوانين الطبيعة، تسود القيم والمعايير عالم الإنسان، أى ثقافته.

فللثقافة إذن جانبان، روحى أو غير مادى ، وهى القيم والمعايير والاعتقادات والتقاليد، ويمثل الجانب المادى التجسيد المحسوس للجانب المعنوى على نحو ما يتبدى فى أدوات وتقنيات ومنشآت، وهذا هو ما يسمى بالحضارة ، شريطة أن تستقر الثقافة فى موطن محدد لا يرتحل منه أصحابه أو يتحولون.

١ - الثقافة والحضارة

ولكن لماذا نقنع اليوم بتوصيف الثقافة وفقاً للجانب غير المادى، المعنوى، الروحى، ولا يشغلنا الجانب المادى كثيراً، بل نكاد نغفله ونهمله تماماً ؟؟

كانت الحضارات، أى الجانب المادى من الثقافة، قديما جزءا لصيقا بها بحيث كان من الممكن أن تتمايز الحضارات بتمايز المجتمعات وثقافاتها فى العصور القديمة والوسطى عندما كانت المسافات بعيدة، والتبادل محدوداً بحيث تسمت الحضارات، على الأغلب، بموطنها الجغرافى أو العرقى أو القومى. وعندما توسع التبادل بين المجتمعات فى الجانب المادى من الثقافة، أى الحضارة، ازداد انفصال الحضارة عن الجانب الروحى الذى ظل فيه التبادل بين المجتمعات محدوداً، ومن ثم صارت الثقافة عنوانا لهذا الجانب غير المادى، وحينئذ بات من الميسور أن تشترك ثقافات متعددة فى حضارة واحدة، بعد أن كانت الحضارة فى القديم جزءا لا ينفصل عن الثقافة وعسانا نكسب مزيداً من التأييد لذلك الرأى إذا ما تذكرنا أن لفظ حضارة هو بعينه ما يؤديه لفظا مدنية، وتمدين فى كل اللغات .



فلسهولة التبادل المادى بين المجتمعات المختلفة، وتعذر ذلك فى الجانب الروحى ، اقتصرت الثقافة على ذلك الجانب المعنوى بحيث تكون لها خصوصيتها داخل الحضارة المشتركة.

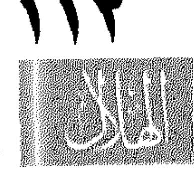
٢ - مستويات الثقافة وطباقاتها

فإذا ما فحصنا الثقافة فى أى مجتمع أو أمة من الأمم، نجدها ذات مستويات أو طباقات ثلاثة. الأول هو ما يمكن تسميته بثقافة الجلد، فجلدة المرء عشيرته، وأجلاده أعضاؤه وجوارحه، وهى التى تتحدد بالعرق والدين واللغة بدرجات متفاوتة، وهى المرحلة الأولى فى بداية محاولات الإنسان للسيطرة على الطبيعة توطئة للسيطرة على غيره من البشر، عندما كان لا يفرق بين فرديته وبين انتمائه لجماعة أو بدنة معينة، ولكنها ماتزال تمارس نفوذها دون اختيار أو تمحيص بحرية المرأة على صعيد الوعى والانتباه. وهو تحيز خفى يكمن تحت السطح، وقد ينفجر كالبركان فى مواقف معينة لأنها تعبر عن الأغوار السحيقة للمرء التى تقذف حممها عندما تحين لحظة ضعف فى السطح الخارجى عند مواجهة احتلال أجنبى، أو مشكلات حدود، أو حرب أهلية.

وعندما تواجه الأمة حالات من الهزيمة والانكسار، أو التبعية والانحسار، وتشعر بأن ماراكمته فوق جلدها الثقافى من قيم ومعايير، أو مواقف وأوضاع معاصرة لم يعد يسعفها فى التصدى للتهديد الداخلى أو الخارجى على السواء ، عندئذ يلتهب جلدها الثقافى الذى لم تعد تحميه أردية الثقافة المعاصرة.

والطباق الثانى من الثقافة هو الذى يمكن تسميته «بالمشترك أو المتصل القومى» وهو الذى يستمر ويواصل نفوذه عبر تلك الجوانب التى تتجمع وتترسب عن الثقافات المتعاقبة، وتتشابك معاً لتبقى حية مؤثرة ونقصد به مجموع الجوانب المشاع لدى أعضاء الأمة رغم اختلافهم وتفاوتهم، وهو بمثابة مجرى جوفى أو تيار تحتى متدفق دون وعى أو تدبر فى أغلب الأحيان. ويتألف من رواسب ثقافية ذات روافد متعددة، فقد تختفى العقائد القديمة ولكنها لا تكف تماماً عن مزاولة تأثيرها.

أما الطباق الأخير ، فهو الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة ، ورغم صبغتها الخاصة الغالبة التى تميزها عن غيرها من الثقافات، إلا أنها ليست متجانسة لأن الصبغة السائدة هى التى تعبر عن توجهات الفئات المسيطرة ومصالحها. ولذلك نجد داخلها «أقاليم» زمنية متفاوتة رغم العصر الواحد الذى يحتويها. فالثقافة صيغة من صيغ الفكر والسلوك، وأسلوب للاستجابة للعالم والتأثير فيه. ومن ثم قد يستعار ذلك الأسلوب أو تلك الصيغة من ثقافة مرحلة سابقة، وتتصادم الأقاليم الزمنية فى سعى كل منها إلى تخليد رؤيته الخاصة للعالم والانتصار لها، وعلى هذا النحو ، تكون الثقافة متخلفة إذا ما تشبثت بجمود آلية التذكر التى تؤدى إلى الضيق والتقلص، وتكون متقدمة إذا ما تفتحت امكاناتها للتوسع والامتداد. فهناك بعض جوانب المجتمع الذى بدأ مستقبله أو غده، وهناك من لم يبلغ أمسه بعد . ويختلف الجميع ويتفاوتون فى استجاباتهم للمتغيرات العالمية التى تتجاوز حدود مجتمعهم.



ونظراً لسيادة آليات السوق الرأسمالية العالمية ، وتغلغل وسائل الإعلام فى كل مكان، فلابد أن نتوقع نفوذاً لأنماط عالمية مشتركة من الفكر والسلوك، وهى الأنماط التى يفرضها أصحاب المصالح العالمية كما تتمثل فى الشركات العابرة للقارات ، وتلح تلك الفئات العالمية على ترسيخ الاعتقاد ، أو الوهن ، بوجود ثقافة إنسانية واحدة، ولا أقول حضارة إنسانية ، واحدة ، فهي أمر وارد.

وعلى أية حال، فإن الثقافة المعاصرة للمجتمع أو الأمة هى أضعف طباقات الثقافة التى يمكن أن تعصف بها ثقافة الجلد ، كما يحدث الآن فى معظم أنحاء العالم ، وذلك مع انهيار الاعتقاد أو اليقين فى صحة قيم الثقافة العالمية ومثلها العليا.

٣ - عندما يلتهب الجلد الثقافي عندنا

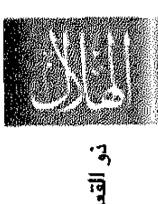
ويؤدى مجمل ثقافة الجلد إلى تحويل التاريخ الفعلى إلى أسطورة تتسلل إلى معظم ما نتداوله أو نتناقله من آراء ومواقف . بل يتسرب إلى منهجنا فى توصيف ما يواجهنا من متغيرات وتفسيرها، فيودى بمصداقيتنا وجديتنا فى اتخاذ مبادرات حقيقية.

ومن أبرز قسمات الأسطورة التشخيص الدرامى، والتصنيف الثنائى للمتغيرات التى تنفخ فيها الروح، وتتحول إلى كائنات حية أو شخصيات تحب وتكره، ترضى فتغدق وتغضب فتنتقم. وأبرز هذه الكيانات الموهومة التى ابتذلت من كثرة الاستخدام ما يقال عنه «الآنا والآخر». ويعد هذا امتداداً لنزعة أسطورية قديمة هى «الاحيائية» (الأنيميزم) التى تتعامل مع الظواهر الطبيعية كأشخاص لها نواياها وحيلها. وهنا تسود الفكرة الساذجة للمؤامرة وليس الفكرة المقبولة عن المؤامرة بمعنى استراتيجية الخصم وخططه التى يمكن معرفتها من خلال تقاريره وممارساته المعلنة، أما المعنى الساذج الذى نستريح إليه فهو أنها خفية مستترة وتحاك خيوطها فى الظلام ، وبالتالى فلسنا فى حاجة إلى التحليل الموضوعى للبيانات والمعلومات التى تؤدى إلى الفهم واتخاذ موقف إزاءها.

وأغلب الظن أن أسطورة الأنا – الآخر اعتناق غير واع لنسخة مهذبة من ثقافة اليهود التى تقسم البشر إلى إسرائيل والأغيار أو الأمم . وقد نقلبها ضدهم، ونحن فى غفلة لتلمذتنا البليدة عليهم، فنفسر كل شيء، كما سبق هتلر إلى ذلك فى كتابه «كفاحى» بمؤامرة اليهود لصنع الشر فى العالم، ومن أنواعه الماركسية والشيوعية ، وربما نعتمد فى ذلك على اكتشاف الأدلة فى كتاب زائف هو «بروتوكولات حكماء صهيون».

بل إننا نصنع ذلك أيضا فيما نسميه «الغرب» ، فهو الشيطان المريد الذى يكفينا مئونة الفهم أو المبادرة، فقد تحددت الأمور، وصنفت سلفاً، وليست فى حاجة إلى مزيد من التحليل أو التفعيل .

فالغرب أصبح شخصا واحداً، رغم كل تنويعاته، وله دور واحد فى هذه الدراما



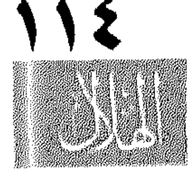
بوصفه البطل المضاد ، على أن نختار لأنفسنا دور البطل التراجيدى الذى تنزل عليه المصائب من هذا البطل الشرير، وهنا تختلف فصائل الرواة فيجعل البطل الأقطار العربية، بينما يختار الآخرون دور الإسلام أو المسلمين ، وبعدها ترسم حبكة الصراع بين الشخصيتين .

غير أننا ولأول مرة فى التاريخ المعاصر استطعنا أن نؤثر فى الإعلام الغربى أو العالمى ، ففرضنا عليه تسويق مسلسلنا الدرامى : «الإسلام والغرب»، إلا أنه انقلب سريعاً بعد أحداث ١١ سبتمبر وغزو أفغانستان إلى مسلسل هزلى حيث نحشد قوانا الثقافية والإعلامية وكذلك السياسية «لتحسين صورة الإسلام» لدى الغرب، ونتزاحم بالمناكب لتقديم «صحيح الإسلام» الذى أفسده إسلام القلة المنحرفة . فنحن إذن ندفع ثمنا باهظاً، وأحسب أنه سيذهب هدراً لما سبق أن اقترفناه، عن جهل وسوء تقدير، عندما انخرطنا منذ فترة عقم طويلة فى اصطناع صراع درامى بين الإسلام والغرب. وتحدثنا عن حضارة الإسلام وحضارة الغرب بطريقة الطيب والشرير، عسكر وحرامية، الروح والمادة ، الرحمن والشيطان فسطاط الإيمان وفسطاط الكفر والعياذ بالله، إلى آخر الثنائيات المأثورة .

والواقع أننا لم نحترم قواعد اللعبة، أو نلتزم بجدول أعمال الحوار . فنتحدث عن النصوص، فى نفس اللحظة التى نتحدث فيها عن البشر المسلمين بعد وفاة الرسول. وننتقى من الوقائع والحكايات ما يروقنا. لم نفرق بين الدين الإسلامى وبين أعمال وأقوال الحكام المسلمين، وهذا خلط لا يخضع للمنطق أو يسلم إلى نتيجة محددة. لا نعرف عمن ندافع، عن الدين كعقيدة وشريعة كما تجلوها النصوص التى أعلن الرسول فى خطبة الوداع أنها اكتملت: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »، أو عمّن أتوا من بعده فأصابوا أو أخطأوا، عدلوا، أو ظلموا، ونجعل من أفعالهم وأقوالهم امتداداً لوحى السماء. هل الأمر من الغموض والالتباس بحيث لا نستطيع أن نميز أو نقارن بين دين الإسلام، وحضارة من الحضارات. فليس الدين حضارة، إن شئنا دقة المعنى العلمى، لأن الحضارة من صنع البشر. فالخلط بينهما يسلمنا دون وعى إلى نوع آخر من الصهيونية التى تجمع الدين والأمة بمعنى البشر أو الأمة. الحضارة الإسلامية حضارة مسلمين وشارك فيها غير المسلمين، ولا يصح أن تضاف أو تنسب إلى دين الإسلام بأمجادها أو نقائصها. فالمسلم يمكن أن ينتمى إلى حضارات مختلفة، ولا يفقد إيمانه إذا كان فى حضارة هندية، أو أوربية أو أمريكية.

كما لا ينبغى أن نخلط بين الدلالات المختلفة «للأمة» فنعاملها جميعاً بمقياس واحد، فنخلط بين الأوراق مما يؤدى بنا إلى أتعس النتائج.

فالأمة فى النص الدينى لا تعنى الأمة بالمعنى السياسى القومى الحديث، بل تعنى جماعة المؤمنين بالمعتقد الواحد، كما تعنى المذهب فى القرآن الكريم: «إنا وجدنا آباءنا على أمة»، وهى التى تقابل «كنيسة» فى المسيحية التى تعنى بالسريانية



الجمعية والمجمع والاجتماع كما هى فى العبرية تعنى الجمعية العامة التى هى «الكنيست». وكلمة كنيسة لم تكن تعنى أصلاً محل الاجتماع، بل جماعة المعتقد الواحد، أو أمة المؤمنين.

ولكننا سرعان ما نخلط بين الدولة الإيمانية والدولة السياسية ، فنجعل من أمة الإسلام أمة بالمعنى الحديث الذى كان يقابله فى النصوص القديمة قوم، وأقوام. وهنا تُخترع «أمة» عند احتدام الصدام باستعارة تراث ، ولملمة تقاليد من هنا وهناك، ورصّها ورصفها جنبا إلى جنب، ونتوهم بذلك أننا أحسنا صنعاً. حتى تأتى الطامة، فتدفع ثمن التفاخر والتهجم والتطاول الذى لم نكن نملك ثمن الدفاع عنه، ولم نملك أصلا مقومات الواقعية . فيتهاوى الصرح الذى شيدناه من قصاصات وأقاصيص، وكنا نحتمى من خلفه، أو نتوهمه سلاحاً باتراً، ولكنه ما لبث أن انقلب علينا ووجه لصدورنا ليدفعنا إلى موضوع الدفاع وظهورنا إلى الحائط. وكأننا نصرخ من خلف القضبان فى محكمة أفلام سينمائية قديمة: مظلوم ياحضرة القاضى، أنا متسامح ، أنا أقبل الآخر، أنا أدعو إلى التعددية وحقوق الإنسان، أنا ديموقراطى يا بيه!!

٤- حقيقة الإسلام وحقيقة الغرب

ليس الدين «فى ذاته» العامل الوحيد أو الحاسم لقيام الحضارة الإسلامية، وإلا لكانت مكة والمدينة هى النموذج المثالى لهذه الحضارة ، ولكن ثمة عوامل موضوعية أخرى صنعتها ، وإلا لكان تدهور هذه الحضارة فى القرون التالية سببه الردة على هذا الدين. وكثيراً ما نفخر بفتح الأندلس كعلامة على الأثر الدينى، ولكننا نعرف أن هارون الرشيد، فى قمة ازدهار الحضارة الإسلامية، كان يستميل «شارلمان» إمبراطور الفرنجة ليكون حليفا له ضد حكام الأندلس المسلمين الأمويين. فالمسألة لا ترد إلى الدين. كما أن فتح العثمانيين مصر وبلاد العرب لم يكن دفاعاً عن الإسلام ، وإليهم يعود التصور الغربى المغلوط عن الإسلام والمسلمين أثناء احتلالهم لأجزاء واسعة من أوروبا حتى القرن التاسع عشر. بينما الحقيقة أننا أكتوينا أيضاً نحن المسلمين العرب بغلظتهم وجهلهم وتخلفهم .

ولقد أدت عوامل موضوعية ، يمكن أن تخضع لبحث علوم السياسة والاقتصاد، إلى تخلف شرق أوربا، وكذلك أقطار الشرق العربى، والفارسى والهندى، والصينى، وجنوب البحر المتوسط. وذلك فى الوقت الذى شرع فيه ما يسمى بالغرب الأوربى بالنهوض من عصوره الوسطى بنشأة الرأسمالية التى سبق أن ساهمت فيها الحضارة العربية الإسلامية بما يسميه «راندال» «روح بيكون» التى نطمح إلى توسيع حكم الإنسان وسيطرته على الطبيعة، وعاونها على ذلك تعدد مراكز الحوار فى صقلية والأندلس ونشاط حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، ولم يكن نداء العودة إلى الآداب القديمة الإغريقية والرومانية، احياءً عنصريا- لأسلاف مزعومية لأنها لم تكن عودة إلى النصوص ، بل كانت استجابة مباشرة لما اتسمت به تلك

التقاليد القديمة من قبول صراع للحياة، واختيار نقدى لكافة المشكلات السياسية والأخلاقية، والاجتماعية ، وجسارة فكرية حازمة فى البحث ، واستعداد للمضى إلى الحد الذى يفرضه الحوار ، ولم يكن ذلك متاحاً إلا بعد أن انجلى الحوار الموضوعى مع الشرق على ساحة مادية وفكرية جديدة جرى فيها التبادل بين السلع التجارية والمنجزات الفكرية مما غيّر من علاقة الفئات الاجتماعية بعضها بالبعض الآخر وأنشأ فئات بورجوازية جديدة تتخذ منه العودة إلى الآداب القديمة ذريعة وقناعاً يغلف تمردها، وتحول قيمها ، ووعيها الجديد للإنسان، ومهما يكن من أمر ، فإن الحركات الكلاسيكية، والعلمية والاصلاحية والدينية كانت روافد صبت فى مجرى واحد شقه من قبل الحوار والتفاعل السابق بين الشرق والغرب.

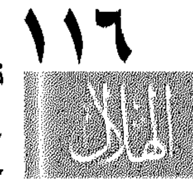
ولكن ما لبث أن تسارع إيقاع التقدم للانجاز الغربى الذى اندفع بصحوة الشخصية الفردية، وتكون الدولة القومية وحفزته القيم الرأسمالية من حرية المنافسة والرغبة المحمومة فى الفتح والغزو ، ورغم أن هذا المنحى الجديد يقوم على الفردية والعصامية إلا أنه كان يستهدف العالمية لأنها المجال الفسيح الطموح للكشف، والتملك، والغزو، أى الاستعمار بعبارة موجزة، وبذلك أصبحت الظاهرة التى نشأت فى الغرب منذ عصر النهضة لأسباب موضوعية وليست دينية، ظاهرة إنسانية عالمية ولا ينبغى أن يستفز ذلك مشاعرنا، فالدين المسيحى الذى يدين به الغرب صادر من شرقنا، إلى جانب كثير من الانجازات الأخرى التى يعترف بها المفكرون الغربيون دون غضاضة.

ولقد علمتنا الحضارة الإسلامية العربية إبان صعودها أن صحة الفكرة ، أو كفاءة الانجاز لا تقاس جدارتهما بمسقط رأسيهما، بل بما تجلبه من مصالح ومنافع . كما أن الدين ، بحكم تعريفه دعوة عالمية لا فرق فيها بين عربى وعجمى.

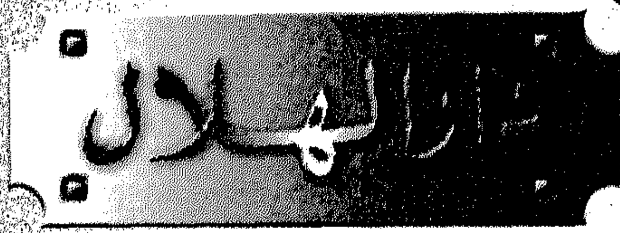
وعلى أية حال، علينا أن ندخل إلى المنافسة التى تتطلبها الرأسمالية فى كل تطوراتها. والأمل الوحيد فى البقاء على قيد الحياة هو أن نصنع رأسماليتنا القادرة على فك قيود التبعية وعلى هذا النحو سيكون الصراع أو الصدام أو المنافسة ، كشأنه فى جميع الأزمان، بين مستويات مختلفة من النمو أو التخلف.

ولا مبرر للخشية على عقائدنا، إلا إذا كان البعض يراها شيئا ماديا لا يستطيع الصمود إلا إذا حفظناه فى حرز مكين.

ونحن مدعوون للمشاركة فى الحضارة العالمية، ولا أقول الثقافة العالمية، عن طريق المنافسة وفقاً لشروط اللعبة وقواعدها. كما لا ينبغى أن نتصايح خوفاً على هويتنا، لأن الهوية هى ما نصنعه بالفعل، أو نبدعه، وليست بطاقة شخصية، أو حجة ملكية قديمة نخشى عليها من الضياع إذا ما شاركنا فى مباريات الحضارة العالمية. ■



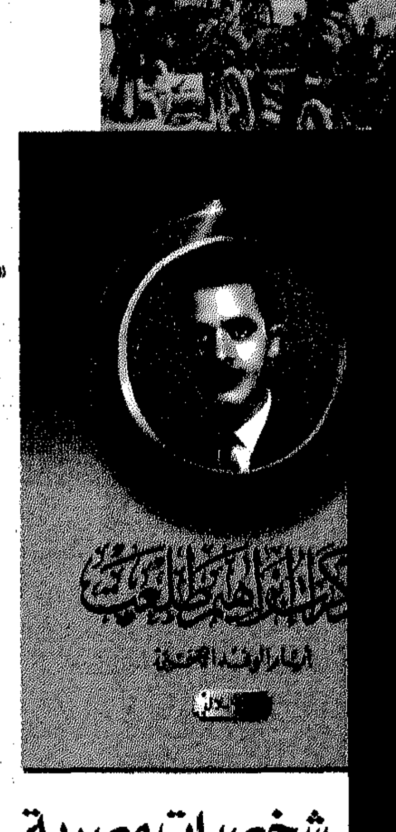
أحدث إصدارات



مع بداية ٢٠٠٢

تخليص الإبريز
فى تلخيص باريز
رفاعة رافع الطهطاوى

مذكرات
إبراهيم طلعت
« أيام الوفد الأخيرة »
إبراهيم طلعت



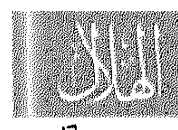
شخصيات مصرية
فى عيون أمريكية

شخصيات مصرية
فى عيون أمريكية
د. رءوف عباس

نكتب كثيراً .. ونقرأ قليلاً

بقلم
جميل مطر

يؤرقهم التقصير فى قراءة الكتب . وفى الشهور الأخيرة زادت الشكوى وازداد الأرق ، وصاحبه عند الكثيرين ضيق شديد . صار الناس يجدون صعوبة شديدة فى توفير الوقت المناسب ، والكافي ، لقراءة الإصدارات الحديثة من كتب جديدة أو قديمة على حد سواء . وازداد الضيق . مصحوباً هو الآخر بشىء من الخجل ، حين وجد البعض نفسه ، وأنا منه ، ممتنعاً عن المجاهرة بهذا التقصير فى القراءة أمام أصدقاء وزملاء . واستمر يلازمنى الخجل حتى وقع فى يدى مقال بقلم أحد كبار مثقفى الغرب ، وهو نفسه أحد أهم المعلقين على الكتب .



قال فى المقال ، ما كان يقوله كثيرون - بضيق - لأنفسهم ، ويخجلون من قوله أمام أصدقائهم أو يكتبونه فيقرأه غيرهم . اشتكى الكاتب - كما اشتكى بعض ممن أعرفهم - من الضغط العصبى الرهيب الذى يتعرض له منذ مدة غير قصيرة بسبب البحث الدائب بين الكتب لاختيار الكتاب الأمثل للقراءة خلال مساحة من الوقت تتنافس عليها عشرات الكتب والصحف والمجلات وصفحات

المعلومات والتحليلات التى تختزنها شبكة الإنترنت وتضعها رهن إشارة من يقرأ .

قال لى أحدهم : إنه لايذكر أنه فى يوم من الأيام، وعلى امتداد سنوات طويلة ، اختلى بنفسه ليحسب ويسأل إن كانت الأعوام القادمة ، مهما امتدت ، كافية لقراءة ما تراكم فى مكتبه ومكتبته من كتب تنتظر دورها للقراءة .

تمتد اليد إلى كتاب بعد أن يكون الفرد منا قد وضع نفسه فى وضع الاستعداد للقراءة ، الوضع نفسه الذى تعود عليه لعشرات السنين . وبينما اليد ممدودة ولم تلمس بعد الكتاب ينتابه فجأة، وفى كل مرة ، شعور بأن الكتاب الذى يكاد يكون بين يديه ليس هو الكتاب الأشد إلحاحاً للقراءة . وتنسحب اليد الممدودة مترددة وتتوجه نحو كتاب آخر وتسحبه ثم تعيده وتذهب إلى غيره .. صارت كل الكتب الجاهزة للقراءة دون مستوى الإلحاح . أو كلها شديدة الإلحاح وهذا فى حد ذاته تطور جديد

قال الكاتب الأشهر ووجدت نفسى أردد ما قال ويقوله كثيرون : إن عشرات الكتب متكومة حول فراشه ومكتبه ومقعده الوثير ، أغلبها نصف أو ربع مقروء ، وبعضها لم تلمس صفحاته أصابع أحد . وفى أماكن أخرى أو فى الأماكن نفسها ، تتراكم المجلات ، بعضها مضى على صدوره أسابيع . والمجلات - عند بعض الناس - أشد إيلاماً من الكتب ، فالتاريخ المسجل عليها لايمهل ولا يغفر . هذا التاريخ يثير فى النفس شعوراً بالذنب وتأنيب الضمير يتحول بعد قليل إلى جلد للذات ثم عقاب . وعادة يكون العقاب الامتناع عن قراءة الإصدار الجديد للمجلة قبل الإنتهاء من قراءة إصداراتها المتراكمة بغير قراءة ، أو بنصف قراءة ، أو بربع قراءة . فينضم الإصدار الجديد إلى القديم . لا هذا قرىء ولا ذاك .

الجديد أشد إلحاحا

كم سفرة سافرناها وفى صحبتنا كتاب يخفف من ضجر الانتظار فى المطار ويسلينا فى وحدتنا فى الغربة ويحمينا من فضول جليس الطائرة وثرثرته ويستعجل لنا النوم فى فراش غريب ، وعدنا والكتاب غير مقروء أو نصف مقروء ، ولكننا عدنا ومعنا كتب أخرى اشتريناها أو استعرناها أو حصلنا عليها هدايا من مؤلفيها أو ناشريها . ويزداد الضيق . فكل كتاب جديد تذكير بكتب سبقته وبقيت تنتظر دورها . ولم يأت دورها ، وقد لا يأتى . فالجديد دائماً أشد إلحاحاً . والجديد يحجب القديم ظلماً وجوراً قبل أن يأتى دور انسحابه تحت ضغط ودفع مقال فى مجلة ، أو تحليل

إلكترونى ، أو ندوة تستغرق أياماً يناقش المشاركون فيها أوراقاً ودراسات أكثرها محروم من معلومات وتحليلات لم تصل إلى علم مؤلف الورقة أو كاتب الدراسة ، لأنها موجودة فى كتاب جديد ، وهو مثل غيره كل كتبه الجديدة غير مقروءة أو نصف مقروءة ، ومتكومة فى ركن فى غرفة أو مصفوفة على رف فى مكتبه .

نقول مشكلتنا الوقت . وأظن أن مشكلتنا أننا لا نيأس . نعود من المكتب فى المساء نحمل كتباً ومجلات وصور مقالات وأوراق عمل ، ولا شك لدينا عندما اخترناها وجمعناها وحزمناها فى حقيبة اليد أننا سنجد الوقت لنقرأها . ونجلس أمام التليفزيون مشدودين إلى أحداث نتأثر بها ولا نؤثر فيها . فنغضب وننفعل ، وتشتعل رغبة الكتابة فتنطفىء الحاجة إلى القراءة ، أو ينفد الوقت اللازم لها . وفى صباح اليوم التالى نعود بأحمال الليلة السابقة مضافاً إليها كتب شديدة الإلحاح، ثم نعود بها هى نفسها فى آخر اليوم وقد صارت أقل إلحاحاً . ويتحول الوضع فيصير حالة مزعجة . إذ تتضاعف الخشية من أن يستمر إلحاح الكتابة يطارد القراءة فيطردها . هكذا يبدأ عادة الهبوط فى مستوى الكاتب . إن أول من يعرف بالهبوط الكاتب نفسه . قد يخفيه عن الآخرين لبعض الوقت ، ولكنه لن يخفيه عن نفسه فى أى وقت ، فيتفاقم الأرق ، ويزداد الضيق ، ويشتد ثقل الضغط العصبى . وآثاره كثيرة ، وبعضها وخيم

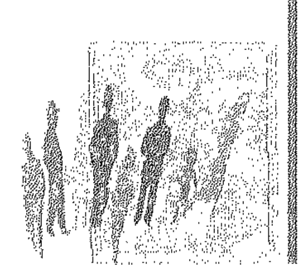
يقال فى تبرير أو تفسير هذه الحالة التى يشكو منها الكاتبون والقارئون ، أنهم كانوا فى الزمن السالف ، يقرأون ليزدادوا حكمة ، وليفهموا ما يصعب عليهم فهمه من أمور الدنيا ، وليعرفوا بعض أسرارها وخفاياها ، وليحكموا وينقدوا بالحق والمعرفة . الآن يقرأون ليزداد عند كل واحد منهم حجم المعلومات السيارة ، أى معلومات اليوم ، وقد صارت غزيرة إلى حد لم يسبق له مثيل فى تاريخ القراءة والكتابة . وأضافت تعقيدا إلى وضع هو فى الأصل شديد التعقيد . فالقارىء المتردد أصلا بين الكتب الأشد إلحاحا والمقالات المتنافسة امتيازاً فى التحليل أو المعلومات عليه أن يقضى معظم وقته باحثا بين أكوام وأكوام من المعلومات عن المعلومة الأكثر

جدوى . وبعد البحث والكتابة يعود الكاتب متجدد الأمل إلى القراءة ويستأنف حل معضلة الاختيار بين كتب جديدة لم تقرأ ، وكتب غير جديدة قرىء نصفها ، ومجلات مؤجلة قراءتها .

المشكلة معقدة

ولعلنا إن تأملنا بعمق فى أحوالنا ، نكتشف أن الأكثرية بين الكاتبين صارت أقل ميلا إلى الاختلاط . قرأت أن فى الغرب مشكلة تتفاقم . إذ يعزف الناس أكثر فأكثر عن ممارسة حياة اجتماعية نشيطة ، كما كان العهد بهم قبل أن تهيمن شاشة التليفزيون وتفرض إرادتها عليهم ، وقبل أن تتوحش أساليب الرأسمالية الجديدة فتفرض على أصحاب الياقات البيضاء ، وهم طبقتها العاملة الجديدة ، العمل أكثر من أثنتى عشرة ساعة في اليوم . فهؤلاء يعودون الآن إلى بيوتهم منهكى القوة والعزيمة ، جاهزين للاستسلام لأى إغراء كسول ، مثل مشاهدة التليفزيون أو ملاعبة الكمبيوتر . كان الشائع أن الشخص النشيط اجتماعيا ، ومثله الأشخاص كثيرو الاختلاط ومتعددو الشلل والتردد على المنتديات والنوادى والمحاضرات العامة ، هم أكثر الناس إقبالا على القراءة . فحصيلة القراءة بالنسبة لبعض هؤلاء ضرورة حيوية ، ليس فقط لأنها زاد المناقشات وأداة التميز ولكن أيضا لأنها رصيد مكانة وعلامة حضور . حتى هؤلاء يشتكون . فما يدور من نقاش داخل معظم حلقات السهر وداخل الشلل فى النوادى والمنتديات يتصنف فى نوعين ، نوع خطابى انفعالى غاضب على أمريكا وإسرائيل والأنظمة الحاكمة والحالة الاقتصادية ، ونوع منتقد بعنف للمستوى الهابط فى الأغنية والمسرح والسينما والتليفزيون والصحافة .. وكذلك فيما ينشر من كتب ومقالات ، أى فيما يكتب . ويتوصلون فى النهاية إلى النتيجة الحتمية لهذا الوضع المتردى وهى التوقف عن القراءة .

المشكلة فعلاً معقدة . والمسئولية تقع على أكتاف أطراف متعددة . بيئة ثقافية عامة لا تتحدى الكاتب ليتميز ويجود ويبدع ، كاتبون انشغلوا بالكتابة عن القراءة لأسباب مفهومة ، وقراء لايجدون فيما يكتب ما ينشط حوافز القراءة لديهم، وناشرون خرج أغلبهم عن قواعد النشر وأخلاقياته . ونظام تعليمى لايعلم القراءة ومجتمع يعتمد السهل الممكن ويشجع عليه بينما القراءة الجيدة فى كثير من جوانبها سهل ممتنع . ■



التيارات الثقافية المصرية

بقلم
ابراهيم فتحى

تبدو التيارات الثقافية في واقعنا مرتدية ثياب التنكر ، وفى الندوات والمؤتمرات تتجاور الاتجاهات الفكرية ولا تتصارع . اليسار الثقافى يداعب الليبرالية وكلاهما يغازل « صحيح الإسلام » فالأصالة فى أحضان المعاصرة، والحداثة الشكلانية فى خدمة التوجهات الرسمية . وفى المشهد الثقافى تم تعيين ممثلين معتمدين للاتجاهات المعتمدة داخل الحدود المأمونة ، وكانت نسب التمثيل بين الاتجاهات المختلفة ،وهى مرتدية القمصان المنشاة وأربطة الرقبة، خاضعة لديكور تعددية لا وظيفة فكرية حقيقية لها . فالتعددية الثقافية الحقيقية لا تستهدف مظاهر التنفيس بل الكشف عن إمكانات الموقف النقدى الجذرى للواقع الراهن فى تجلياته المختلفة بين قوى اجتماعية حية تناهض التخلف والتبعية .



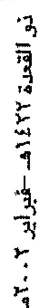
ولنأخذ أعلى الأصوات فى المشهد الثقافى ، وهو صوت الحداثة الليبرالية متعددة السياسات فى الظاهر . فبعد انحسار الحياة الحزبية السياسية تحت وطأة حالة الطوارئ فى الواقع ، وسجن الأحزاب الكثيرة التى لا تعرف أغلبية الشعب المصرى أسماءها فى مقراتها ، وتحريم النشاط السياسى فى الشارع ومواقع العمل والجامعات، ومزاولة الحزب المهيمن دور الحزب الواحد عمليا أخذت الاتجاهات الثقافية مكان الاتجاهات السياسية المتمثلة فى أحزاب . ومن أبرز هذه الاتجاهات الاتجاه الحداثى . وهو يرى أن اللحاق بالبلاد المتقدمة بمحاكاتها فى الاقتصاد والفكر وأشكال

التنظيم هو طريق الخلاص . وهذا الاتجاه فى الفلسفة والنقد والشعر والرواية والمسرح والسينما والفن التشكيلى يعلن فى صخب أن كوكب الأرض قد توحد وأن الحرب الباردة قد انتهت بسيادة الفكر الليبرالى الرأسمالى العلمانى التنويرى وهو فكر يحلق فوق القوميات وحدودها ولا يمكن أن يتحول إلى معتقد . ولذلك يعلن بعض ممثلى هذا الفكر سقوط الايديولوجيات والقوميات والمطابقة بين الرأسمالية والحضارة الإنسانية ، ونهاية أى نضال يتجاوز الرأسمالية . ويرى بعض أنصار اليسار الثقافى بنزعاتهم المتعددة أن هذه الحداثة الكوكبية أو المعولة معتقد أيديولوجى يزور الواقع العالمى ويزيفه . إنها تتواطأ مع قمع الرأسمالية العالمية لشعوب الجنوب الذين فرضت عليهم الاستغلال والنهب والتخلف والأنظمة الرجعية . وتعمد هذه الحداثة إلى اعتبار الفرد البورجوازى ممثل الانسانية ، وتعمى عن أغلبية البشر، كما تعمى عن وقوع العلم كقوة انتاجية بين براثن الاحتكارات الرأسمالية . وعن الهيمنة الأمريكية داخل العولمة . وأحد ممثليها يصور النضال الفلسطينى لتحرير الأرض على أنه شئ تجاوزه الزمن فما من مكان للاستقلال بل لتبادل الاعتماد ، وما من مكان للقومية ولدولتها فى زمن الكوكبة مغمضا العين عن عسكرة هذه الكوكبة (العولمة) وانفاق آلاف المليارات على التسلح الأمريكى ، والسطو الاسرائيلى المسلح مستهدفا اقامة دولة استعمارية كبرى .

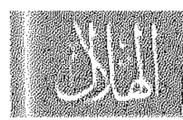
الحداثة والأيديولوجية

ولا يجمع أنصار حزب الحداثة الثقافية الليبرالية على هذا الموقف المتطرف وإن أفسحوا لممثليه مكانا وثيرا فى تحقيق توافق سطحى ضد الأصولية الدينية لا يقتصر عليهم . ولن نعدم حتى بين ممثلى اليسار الثقافى الذين يقيمون تزاوجا بين الماركسية والليبرالية أصواتا تشيد بأفكار هذا الاتجاه فى رفضه للجمود السلفى وإن اختلفت معه فى السياسة .

ولكن النقطة الجوهرية فى هذه الحداثة الثقافية بفروعها المختلفة من نقد جديد وبنيوية وحساسية جديدة هى إقامة سور صينى بين « الجماليات » واللغة من ناحية وبين الجهد الابداعى التحويلى للانسان فى الواقع كشفا وتغييرا من جهة أخرى وتنصب اللعنات على كلمتين هما السياسة والايديولوجية، والسياسة المرفوضة هنا هى سياسة اليسار القومى والاشتراكى أو أى سياسة لتشكيل المصير الانسانى فهى فى زعمهم تعتمد على معايير مسبقة . والحداثيون يعادون كلمة ايديولوجية أشد العداء وهى تعنى عندهم أى أفكار مناهضة للأمر الواقع ، فالرأسمالية والسلطة



عندهم بلا ايديولوجية . وفى مواجهة ذلك يقول رولان بارت إن الخطيئة العظمى فى النقد ليست الايديولوجية بل الصمت الذى بواسطته يوضع على الايديولوجية قناع يحجبها . إن ايديولوجية ما ماثلة بالضرورة على نحو مضمر فى كل عمل أدبى وفى كل ممارسة نقدية ، فهى شبكة من مصادرات وبديهيات وتصورات وأخيلة تتعلق بالوضع البشرى والعلاقات الانسانية المتصارعة ونسق القيم الأخلاقية والجمالية من زاوية شريحة طبقية معينة . فهناك ايديولوجيات بورجوازية وايديولوجيات شعبية . والأولى تأتى خفية كالشيطان الرجيم تنكر دائما أنها ايديولوجية فهى تدعى أنها تنطق باسم طبيعة الأشياء ، وأنها بديهية نابعة من التجربة الحية المعاشة . وحين يتحدث الشكلانيون عن جماليات مطلقة جوهرية لا زمنية فإنهم يصدرون عن ايديولوجية محددة ترجع إلى مقولات كانط . فالعمل الفنى عنده له وحدته وطبيعته الداخلية التى تؤلف كلا موحدا (بنية) وفى هذا تكمن جماليته . وهذه الخاصية الشكلية كأنها نوعية كيميائية مستقلة عن أى مضمون اجتماعى . وهى تبدو فى حالتها النقية الخالصة حين يتلاشى المضمون فى الفن الزخرفى والأرابيسك . ويرى هنرى لوڤافر أن تلك الجمالية الشكلية عن التناسق والانسجام فى الكل الفنى تنتمى إلى الايديولوجية البورجوازية . وهى تصور المجتمع ـ مجتمعها ـ كأنه كل متناسق من إرادات فردية حرة تتخذ ذاتها غاية فى ذاتها وتترابط فى عقود تعتمد على الشكلية القانونية المجردة ، على الرغم من اختلاف الأوضاع الفعلية للأفراد المتعاقدين . ويذهب آخرون إلى أن البنيوية تنطوى على ايديولوجية الفئات التكنوقراطية البورجوازية التى تريد تثبيت الواقع الراهن خارج الحركة التاريخية وتجميد التناقضات الاجتماعية وفرض توازن وتناسق داخلى عليها . ويؤكد بعض نقاد البنيوية شكلانيتها ، فمهمة الناقد ليست اختبار مدى مصداقية الكاتب بالنسبة لعلاقته بالمجتمع ، إنما أصبحت مهمته أن يختبر لغة الكتابة الأدبية ليرى مدى تماسكها وتنظيمها المنطقى والرمزى ومدى قوتها أو ضعفها بغض النظر عن الحقيقة التى تزعم أنها تعكسها أو تعرضها ، وليس مستغربا أن يكون بعض الحداثيين الشكلانيين الذين يسجنون «الجماليات» فى نطاق التقنيات الجاهزة وكتالوجات تشغيلها ، ويفصلونها



عن قيم ازدهار الثروة الانسانية الحسية والانفعالية والادراكية فى نضال البشر من أجل الحرية فريقا بيروقراطيا جاهزا لخدمة الأمر الواقع فى كل العصور وفى كل البلاد العربية .

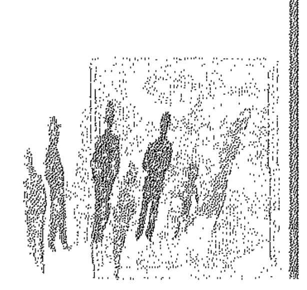
حداثات متعددة

ولكن الحداثة ليست قالبا واحدا فهناك حداثات متعددة ، وخاصة فى مجال الابداع ، وفى الوعى الذاتى للمبدعين بإنتاجهم بعيدا عن الوصاية الأبوية الحداثية التى فرضتها أجهزة السبعينيات على المثقفين « الأراذل» ، فى محاولة لاحتواء جزء مهم من المثقفين وتحويلهم إلى أدوات تقنية فى خدمة السلطة أو فى خدمة الأبواق الدعائية اللفظية . وكان عدو الحداثة الشكلانية دائما هو اليسار الثقافى القومى والاشتراكى . فأنصارها يصورون فترة الستينيات على أنها فترة الانغلاق الايديولوجى والفكر الواحد . ولكننا عشنا تلك الفترة التى سجنت الشيوعيين والإخوان المسلمين لأسباب تتعلق بالسياسة العملية كما حلت الأحزاب ولكنها فى المجال الثقافى وضعت فى الواجهة يوسف السباعى وسهير القلماوى ويحيى حقى وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وطه حسين وزكي نجيب محمود ولويس عوض ويوسف ادريس وعبدالرحمن الشرقاوى ويشن الحداثيون الحملات على تلك الفترة لتجميل ما تلاها من إجراءات قمعية للثقافة . وتنتشر خرافة تدعى أن الواقعية الاشتراكية كانت المعيار السائد فى تلك الفترة على الرغم من أن الابداع العربى والابداع المترجم عرف فيها كل المدارس الوجودية والوصفية المنطقية ومسرح اللامعقول والرومانسية ...الخ . وكانت الأسماء اللامعة فى الرواية هى أسماء احسان عبدالقدوس وأمين يوسف غراب وابراهيم الوردانى . وكان الشعراء البارزون صلاح عبدالصبور وصالح جودت وأحمد رامى .



الثقافة والرقابة

وكانت هناك رقابة سياسية بطبيعة الحال وليست رقابة ايديولوجية مذهبية . وجاءت الرقابة الخانقة مع سلطة مايو ١٩٧١ وبدأت مطاردة الساحرات وهجرة المثقفين إلى الخارج . وقد طرد الدكتور رشاد رشدى من الأكاديمية كل ما يشتم منه رائحة اليسار ، ابتداء من أساتذة البالية الروسى إلى أمثال نجيب سرور ، وكان قد سبق لهذا الرائد الحداثي أن أعلن عن منع دراسة الأدب الأمريكى فى قسم اللغة الانجليزية بكلية الآداب جامعة القاهرة بعد هزيمة ٦٧ تضامنا مع موجة العداء لأمريكا . وقد أغلقت المجلات الثقافية (الشعر والمجلة والكاتب والطليعة) وتم تطهير

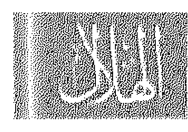


البرنامج الثاني من أمثال بهاء طاهر، ومنعت إذاعة أى شئ عن الكتاب الروس الكلاسيك ، تشيخوف ودوستويفسكي ومسحت شرائط موسيقى العباقرة الروس .

وفى هذا المناخ ارتفع صوت الحداثة الثقافية لأسباب مختلفة فلم تكن ظاهرة متجانسة ، ولكن بعض ممثليها كانوا يقدمون أنفسهم فى عدوانية فجة بدائل لليسار الثقافى ، وأعلنوا فى وقت مبكر موت الواقعية والمنهج الاجتماعى ، ورفض المضمون ووظفوا ربة الجمال خادمة لسياسة دميمة هى انسحاب المثقفين من الفاعلية النقدية ومن ناحية أخرى عمدت سياسة أزهى عصور الحرية على توظيف الاتجاهات السلفية لمحاربة اليسار الثقافى الكافر العميل والماضي الناصرى الشمولى. ولقد جرت مياه كثيرة فى الحياة السياسية أدت إلى فشل هذه التوجهات «الثقافية » وقامت السلطة فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ باعتقال وتلويث سمعة كل رموز الثقافة المصرية من جميع التيارات .

وبعد ذلك تأتى فترة المصالحة بعد لجوء قسم من التيار الأصولى إلى الإرهاب المسلح وترويع السلطة والمجتمع ، وحدث مايشبه التوافق بين التيارات الثقافية المختلفة والسياسة الرسمية من أجل محاربة الجذور الفكرية للإرهاب واتجهت الحداثة مع اليسار معاً داخل نزعة تنويرية عقلانية . ولكن البيروقراطية الثقافية والاعلامية والتعليمية كانت تقود فى اتجاه تنوير علوى ينأى تماما عن أن يكون مقدمة لفاعلية جماهيرية تهدف إلى التغيير فى هياكل التخلف والتبعية .

وهذا الاتجاه كان يفسح المجال لتيار دينى أصولى معتدل يساند السلطة . فالتيار الدينى لا يعارض الحكومة من ناحية الأساس الاقتصادى ويقف معها فى معاداة الاشتراكية ولكنه يحارب ما يسميه العلمانية . والاسلام السياسى فى مصر يلقى معارضة من الحكومة في محاولته الوثوب على السلطة مستغلا شعبيته وجذوره فى الوجدان الدينى العميق . وهى تضرب أشكاله التنظيمية المستقلة السرية والعلنية ولكنها تستفيد من بعض ممثلى هذا التيار فى نشر أفكار تدعم شرعية النظام وتوجه المعارضة إلى مسائل تتعلق بالمظهر الخارجى للثياب وبعض المسائل الأخلاقية السطحية والطقوس .



وهؤلاء « الإسلاميون » يلعبون دور الرقيب على الفكر وتقييد حرية المرأة ، وهم يوجهون معارضتهم إلى عدو غير محدد المعالم هو « العلمانيون » ، وهو يشمل المفكرين العقلانيين وأصحاب الأذهان المتفتحة المتسائلة والمدافعين عن بدائل سياسية أكثر ديموقراطية .

وأنهم يريدون فرض وصاية من جانب تفسيرهم الخاص للدين على كل شئ حتى على العلوم الطبيعية والاجتماعية والإبداع الفنى . ولكن هؤلاء جميعا يمهدون الأرض والأذهان لتأسيس سلطة تدعى أنها إسلامية دون برنامج محدد ، ترفض حضارة العصر (باستثناء التكنولوجيا) ، وتقيم حضارة وهمية على أساس تفسير ضيق لبعض النصوص والسوابق منتزعة من سياقها التاريخي . ومن الملاحظ أن بعض هؤلاء اعتبر المشروع القومى للترجمة دويلة إلحادية ، وتوجه بعض آخر إلى رئيس الجمهورية مطالبا بإقالة مسئول ثقافى لأنه « سمع » نكتة قالها المسئول فى رحلة أمام تمثال لإله يابانى ، محذرا الرئيس من يوم الحساب !!

اليسار الثقافي المعدل

ونأتى إلى اليسار الثقافى وهو مازال فى مرحلة إعادة النظر فى ضوء خبرة الهزائم السابقة وتشويه أجهزة الإعلام لتاريخه . وهناك نزعة توفيقية داخله تحتضن الشائع والرائج ، وتخلط بين الديموقراطية والليبرالية . ولكنه من ناحية أخرى يقدم تأملات إصلاحية محتواة داخل الوضع الثقافى العام دون أن يطرح منهجا أو نظرية كلية . وبعض مثقفى اليسار أعلنوا توبتهم على أيدى الإعلام النفطى أو التليفزيونى أو الترفيهى متبنين النموذج الأمريكى فى ديموقراطيته « العريقة» وحملوا « الطبلة» وراء الراقصات والممثلات ومشاهير أوقات الاسترخاء والفراغ لتوسيع نطاق الثقافة الجماهيرية . وهذا اليسار « المعدل » يقيم العلاقات مع نجوم الاتجاه الأصولى الرسمى ومع « مفكرى » اللاقومية والعولمة والتطبيع على السواء مبتعدا عن أى مواجهة نقدية حقيقية بين التيارات المختلفة . والنموذج المفضل هو إثارية برج بابل .

وفى الختام يتعذر الآن الوصول إلى توافق ثقافى حقيقى بين الحابل والنابل فى وضع يحول دون وجود فاعلية جماهيرية عملية للاتجاهات الثقافية التى تهدف إلى تغيير الواقع والوعى والذوق . ■

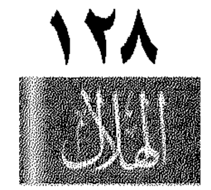




وأغـــانى الحـــج

بقلم
د. أحمد مرسى

يعد المعتقد الدينى واحدا من أهم الروابط الأساسية التى تربط بين الأفراد فى المجتمعات الشعبية ، وتؤكد من انتمائهم ، وتجمع بينهم . والمجتمع الشعبى يختلف في ذلك عن المجتمعات التى بلغت شأوا كبيرا من التمدن ، مما أفسح المجال أمامها لكى تغير من طبيعة العلاقات التى تحتل عندها مرتبة متقدمة ، وتعدل من شكل انتماء الأفراد إلى هذه المجتمعات ، عندما يضعف أثر الدين على النظام الاجتماعى فى المجتمعات الأخيرة ، ويرتد دوره خطوات إلى الوراء . والحقيقة أن ذلك لا يعنى أن الدور الروحى للدين لم يعد قائما ، ولكنه يعنى أن التخصص الناشئ عن الحياة الحديثة ، والعلم الذى يتنامى دوره يوما بعد يوم ، وتقسيم العمل وتوزيعه الذى تقوم عليه الحياة المدنية ، قد حل محل بعض المناطق الأساسية التى كان النشاط الدينى يعمل فيها . أما المجتمعات الشعبية فإنها مازالت تحتفظ للمعتقد الدينى بمكانته اللائقة به من نفسها وعقلها وسلوكها ؛ ذلك أنه بالنسبة لها أحد الأساليب التى تفسر بها كثيرا من أمور حياة أفرادها ، وموتهم ، وعلاقاتهم ببعضهم البعض.





المحمل .. أو الاحتفال
بكسوة الكعبة قبل سفرها
الى الاراضى المقدسة

فالإنسان فى المجتمعات الشعبية يعتقد أنه عن طريق الدين يمكنه أن يفهم العالم من حوله ، ذلك العالم الذى يحفل بالكثير من الغموض الذى يقف الفرد أمامه عاجزا، إذ يمده بإجابات شافية مقنعة . لكثير مما لا يستطيع فهمه أو تعليله ، مما يشيع قدرا كبيرا من الطمأنينة والسعادة والرضا ، يجعله قادرا على الاستمرار فى حياته، والنهوض بأعبائها . وربما كان ذلك أحد الأسباب التى تجعل المصريين عامة يولون المناسبات الدينية اهتماما كبيرا ، وعناية خاصة ، تتمثل فى احتفالاتهم بهذه المناسبات . ولسنا فى حاجة إلى الإشارة إلى ما يوليه المصريون للاحتفال بميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم من اهتمام واستعداد خاص، هذا بالاضافة إلى عنايتهم بموالد أولياء الله الصالحين والقديسين الذين تنتشر أضرحتهم فى كل أرجاء مصر - قراها ومدنها .

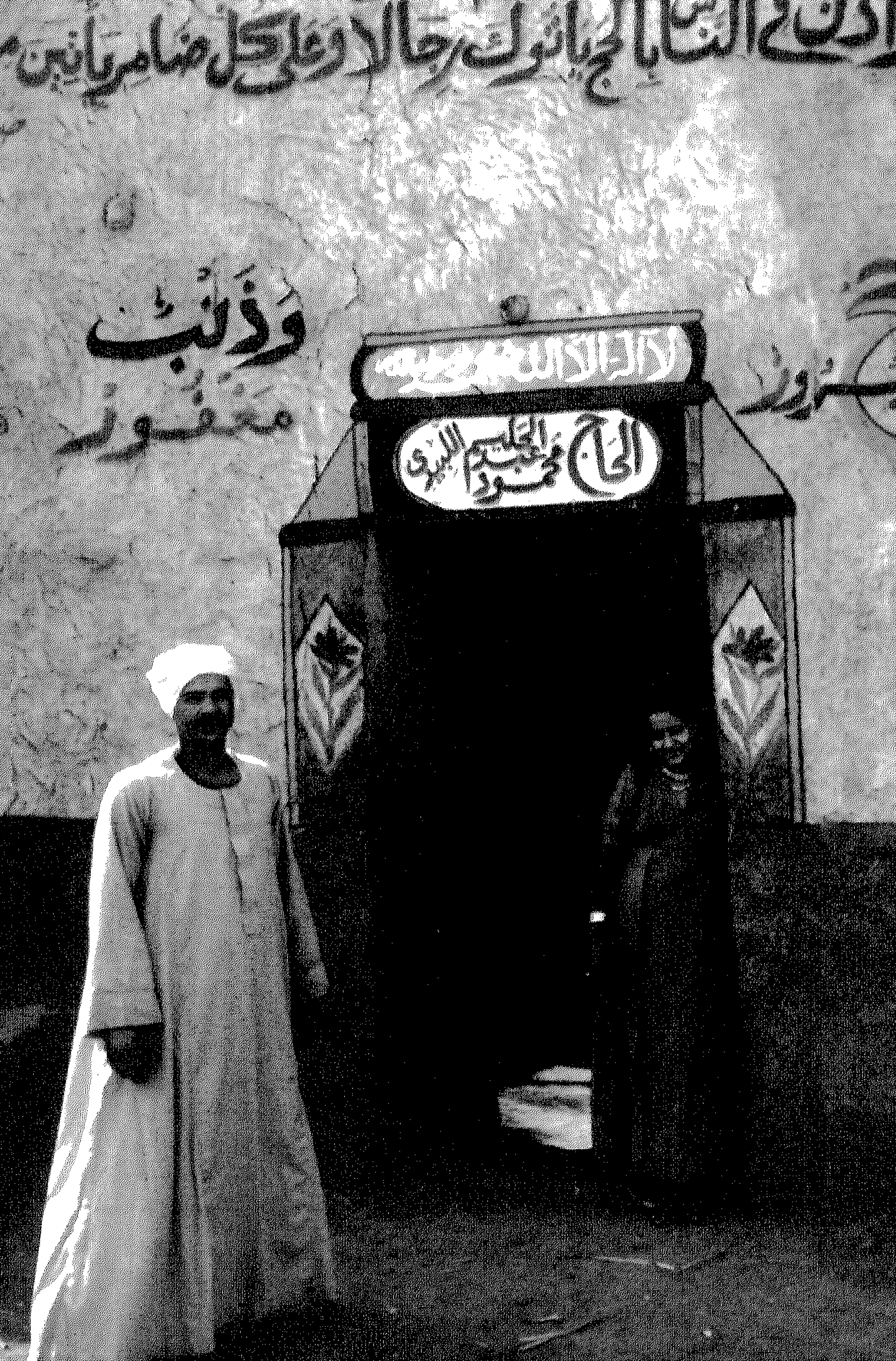
وتدور معظم الأغانى الشعبية الدينية المصرية حول ما يعتنقه المصريون من معتقدات ترتبط بالدين عامة ، وبالنبى صلى الله عليه وسلم خاصة . وفى كل المناسبات الدينية ، سواء كان صاحب المناسبة هو النبى صلى الله عليه وسلم ، أو وليا من أولياء الله الصالحين ، أو الحج إلى بيت الله الحرام ، فلابد أن يجد الإنسان مدحا للنبى وتغنيا بفضله ، والاستغاثة به ، والشوق إلى زيارته .

وتحتل الأغانى التى تغنى عند الاستعداد لأداء فريضة الحج ، وعند العودة بعد أداء الفريضة مكانا متميزا فى وجدان الناس ، خاصة النسوة اللائى يغنين لذويهن وأقاربهن أو جيرانهن فى هذه المناسبة .

وتختلف أغانى الحج فى شكلها وأسلوبها ، وفى لحنها وأدائها عن كثير من الأغانى الشعبية الأخرى خاصة تلك التى تغنى فى وداع الحاج .. فهى أولا مكونة من مقطوعات صغيرة فى العادة ، وهى تؤدى أداء يغلب عليه البطء والشجن ثانيا ، ويعتمد على تنغيم الصوت وتلوينه كما لا يغنيها إلا النساء . وربما يرجع هذا البطء والشجن إلى ارتباط هذه الأغانى بالوداع ، ومن ثم يطلقون عليها «حنون الحجاج» أو تحنين الحجاج ، وتغنى للحاج قبل سفره ، لاستثارة حنينه إلى أهله كى يعود إليهم بعد أداء الفريضة ، اعتقادا منهن - أو من المجتمع الشعبى كله - أن الحاج سيفضل صحبة النبى صلى الله عليه وسلم على العودة إلى أهله وذويه ومن ثم فهن يتوسلن إليه أن يعود حتى لا يحرم أولاده ومن يحبونه منه ، إذ أنهم جميعا ينتظرونه فى شوق ولهفة كى يعود بعد أن استجاب لدعوة النبى صلى الله عليه وسلم ، تاركا كل شئ ، حبا له ، ورغبة فى زيارته ، وتقربا منه ، وهو ما يعبر عنه هذا الموال :

لما دعانى النبى أنا فت أشغالى (١)
وقلت يا سادتى مدح النبى غالى
أنا كل ما أمدح فى النبى يزيد رسمالى (٢)
أنا مدحت النبى والمصطفى خالى

ويتحدث موال آخر عن دعوة النبى صلى الله عليه وسلم للحاج ، الذى قام مبكرا، ليلبى الدعوة ، فوجد أن كثيرين غيره قد سبقوه إلى اللقاء ، واصطفوا هناك لنفس الغرض الذى هفا قلبه إليه :



لا إله إلا الله
الحاج
وذنب
مغفور

يا ساكن الشرق أنا قلبى ليمك مال (٣)
شوقتنى يا بن رامه أنا لم معايا مال (٤)
يا رب أزور الحبيب على جوزين جمال (٥)
وأشاهد المصطفى اللى الحجر له لان (٦)

ويمكن لنا أن نكون صورة تكاد تكون كاملة لما يرتبط بالحج من مظاهر ، تبدأ أولا باحساس الحاج بالرغبة الملحة فى نفسه لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، معتقدا أنه قد دعاه إليه كما يشير إلى ذلك النصان السابقان . ولا يملك الحاج إزاء هذه الدعوة الكريمة إلا أن يستجيب لها ، فيبدأ فى الاستعداد للرحلة المرتقبة ، ومن ثم يوصى أهله بأولاده الذين سيتركهم وراءه مع ما يسببه له ذلك من ألم ، إلا أن كل شئ يهون ويمكن تحمله ، حبا فى النبى صلى الله عليه وسلم :

ويا ولاد بلدى .. الوداد الوداد ..
ويا ولاد بلدى .. ما باقى إلا السفر ..
واحمل بزادى .. والوصاية الكتيرة ..
حداكم ولادى .. كله فى حب النبى .. (٧)

وليست هذه هى الوصية الوحيدة التى يوصى بها الحاج أهله وذويه ، فهو يوصى أولاده أن يغنوا له أو «يحننوه» كى يعود إليهم ، خوفا من أن يشمت فيه أعداؤه .

وإذا ان طال غيابى .. حننى يا بنتى ..
وإذا ان طال غيابى .. واطلعى مقعدى .. (٨)
وان شميتى غيابى .. واطلقى جوز حنون .. (٩)
على كيد الأعادى .. محبة فى النبى ..

فكما تصور الأغنية فإن النصيحة - أو الطلب - موجهة من الأب / الحاج أو من الأم / الحاجة إلى الابنة . وهذه النصيحة تلفت النظر إلى حقيقة مهمة ، وهى أن هذه الأغانى أو «الحنون» لا تطلب إلا من النساء ، ومن ثم فإن الرجال لا يغنون مثل هذه الأغانى . وعندما يحين موعد الرحيل فالأهل يرجون للحاج السلامة فى الرحلة ، ويطلبون منه أن يطمئنهم عند وصوله كى تهدأ نفوسهم :

وعلى الله السلامة .. سافر ولا تبعد ..
على الله السلامة .. يا نجوم السما ..
ويا دقيق علامة .. وابعتوا لنا السلام .. (١٠)
على جناح يمامة .. بانكم طيبين .. رايحين تزوروا النبى ..

ومتى انتهى الحاج من الاستعداد للسفر ، وودع أهله وأبناءه ، أتوا له بجمله الذى سيركبه فى رحلته الشاقة إلى حيث سيسعد بزيارة النبى صلى الله عليه وسلم :

على باب حارتهم .. بركوا له الجمل ..
على باب حارتهم .. يركب المحترم
ومعاه زميله .. رايحين يزوروا النبى ..

وتصور الأغنية وهم يركبون الجمال فى رحلتهم إلى بيت الله الحرام ، وزيارة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، لا يلقون بالا ، ولا يهتمون بشئ إلا ترقب الوصول



الكعبة المشرفة حلم الحاج مهما كانت الرحلة شاقة

إلى هدفهم ، وتحقيقه .

إن الشال الذى يلف به الحاج رأسه أو يضعه على كتفه قد شبك فى عصاه التى يقود بها الجمل ، لكنه فى تلهفه وانشغاله لا يهتم بذلك ، فيخلصه له الجمال :

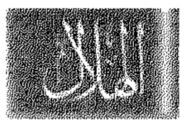
شبك فى الجريدة .. شال الحاج محمد ..
شبك فى الجريدة .. خلصوا يا جمال ..
بلادى بعيدة .. جاى أزور النبى ..

ويبدو أن الجمل لم يكن وحده وسيلتهم فى الرحلة ، وإنما كان هناك «بابور البحر» ، أو السفينة وسيلة أخرى يستخدمونها فى السفر ، فتتحدث الأغنية إلى «البابور» (السفينة) كى يكون رفيقا بهم ، حنونا عليهم :

وخدهم براحة .. يا بابور يا بابور .. (١١)
وخدهم براحة .. دول شبابات صغار .. (١٢)
وجولك فراحة .. لاجل يزوروا النبى .. (١٣)

وهكذا نرى أن الأغانى قد احتفظت بالوسيلتين معا ، الجمل والسفينة ، وإن كان الجمل وسيلة أقدم بالتأكيد . ولقد ظل للجمل .. أهميته فى رحلة الحج حتى نهايات الأربعينيات من القرن الماضى ، قبل أن تتغير الظروف السياسية فى المنطقة، ثم الطائرات . ولذلك فقد كانت الرحلة شاقة عسيرة ، يحفها الكثير من المصاعب والمخاطر ، مما صورته الأغانى أصدق تصوير :

من الشرق طلوا .. زوارك يا نبى .. (١٤)
ومن الغرب طلوا .. زوارك يا نبى ..
وم المشى كلوا .. محبة فى النبى ..



موج البحر عكر .. ما تخافوش يا حجاج .. (١٥)
دا ريس مبكر .. رايحين نزور النبى .. (١٦)

وعلى الرغم من المشقة والتعب اللذين يشعر بهما الحاج ، والصعوبات التى يلقاها أثناء الرحلة ، إلا أن هذه الأغانى تصور الحاج قويا فرحا ، لا يخشى شيئا ، ولا يشعر بالضيق ، بل إنه فرح مستبشر ، لا يعنيه إلا الوصول إلى حيث يريد ، فكل شئ يهون فى حب المصطفى صلى الله عليه وسلم .

سمعته بيغنى .. تحت ضل القلوع ..
سمعته بيغنى .. من بين الضلوع .. (١٧)
وشاله المحنى .. محبة فى النبى .

كما تصور الأغانى فرحة الحاج بالوصول ، وما يستشعره من سعادة ، وما يلقاه من ترحاب جزاء ما تحمله من معاناة ، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم سعيد بلقائهم .

عدد ما مشيتوا .. مرحبا مرحبا ..
عدد ما مشيتوا .. وودعتوا البلاد ..
وراكم وجيتوا .. كن سعيد يا نبى .. (١٨)

والحرم سوف يفتح له لكى يصلى فيه ، ذلك أن هذا أحد آماله التى سعى إلى تحقيقها :

وافتحوا له الحرم .. يصلى فى ريحه .. (١٩)
دى الصلاة صنعته .. وصنعة جدوده .. محبة فى النبى ..

وينتهى أداء الفريضة أو الزيارة عند عتبة النبى ، ولها صورة خاصة فى المخيلة الشعبية ، فهى ليست عتبة عادية ، ولكنها عتبة من أنقى أنواع الفضة ، لم يبنها بناءون عاديون ، وإنما اشترك فيها الملوك والأمراء .

بنوها الطواشى .. عتبة المصطفى ..
بنوها الطواشى .. كملوها الملوك .. (٢٠)
بفضة شواشى .. محبة فى النبى .. (٢١)

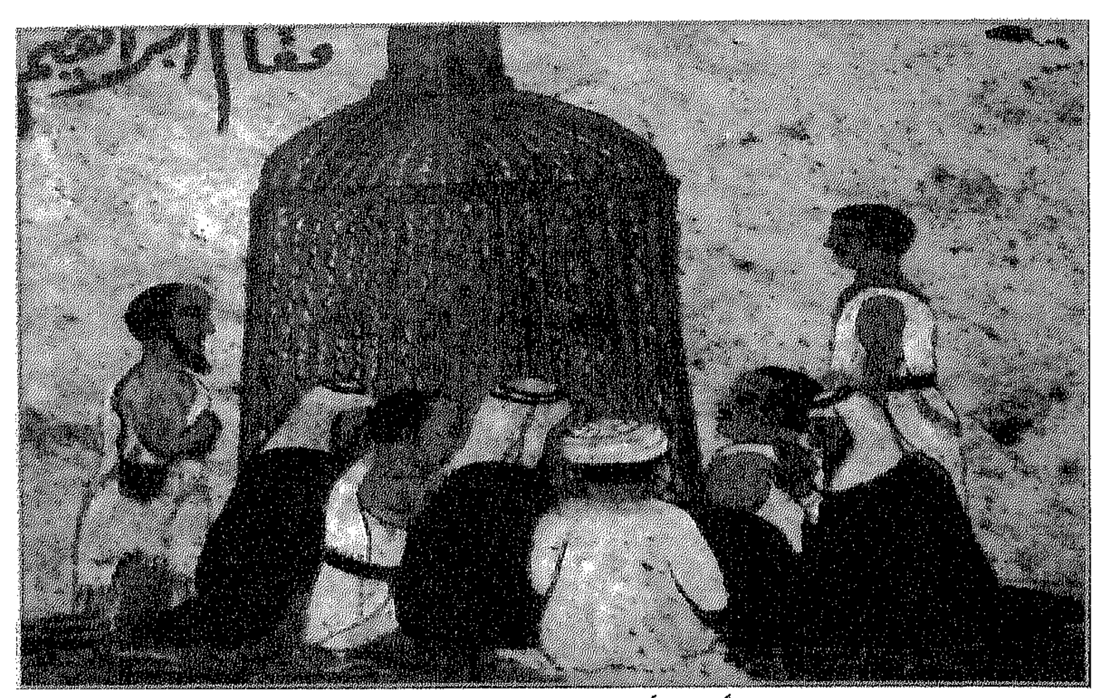
ولكن يبدو أن مجاورة النبى قد راقت للحجاج ، وصادفت هوى فى أنفسهم فلم يسرعوا بالعودة كما وعدوا أهلهم ، فيلبى أولئك النصيحة ، ويطلقون حنونهم ليصل إلى سمع ذويهم كى ترق قلوبهم ، فيحنون للعودة تقول الفتاة مستعطفة أباها :

بابا وصى خليلك .. بنت الحجيج بتقول .. (٢٢)
بابا وصى خليلك .. يوم العيد الكبير ..
مين يصرف مشيلك .. كله فى حب النبى ..

فهى هنا تستعطف أباها أن يعود ، فليس هناك من يحل محله ، أو يقوم مقامه فى أداء واجباته نحوها ، وليست الفتاة التى تمثل أسرتها وأخوتها هى وحدها التى ترجو عودة الحاج بل إن الأغانى تصور دار الحاج الكبيرة التى ينتظره فيها المهنئون بالعودة من كبار الناس وعلية القوم :

وفى الوسط عمدة .. دى دارك وسيعة .. (٢٣)





احتل «مقام ابراهيم» مكاناً متميزاً فى وجدان الناس، عبروا عنه خلال أغنياتهم ورسومهم

وفى الوسط عمدة .. والخيول داخلة ..
باشوات وعمدة .. كله فى حب النبى .. (٢٤)

ويحس الحاج بلوعة أهله لفراقه التى حملها إليه «حنونهم» ، الذى أوصاهم بأن «يطلقوه» متى شعروا بغيابه ، وهذه الأغنية تصور حنين الأخت إلى أخيها ، وإشفاقها عليه مما يلاقيه من عطش ، وما يتصبب منه من عرق :

يا خويا شقيقى .. يا حنونى عليك ..
يا خويا شقيقى .. وان عطش فى الجبال ..
روتيه بريقى .. محبة فى النبى ..

فيستجيب قلب الحاج لنداء الأهل ، بعد أن استمتع بلقاء النبى ، وزيارته ، وأداء الفريضة ، وكما أوصت الأغانى بهم السفينة فى رحلة الذهاب ، قبل الزيارة توصى عليهم أيضا فى رحلة العودة ، وهى تصور أيضا فرحة الحاج بعودته ، فقد أرسل من يبشر أهله بقدومه ، ويطلب إليهم أن يعدوا الزينات .

وروح بلادى .. يا بشير الهنا ..
وروح بلادى .. وبشر بالسندس ..
وبشر بالسندس .. قول لاخويا العزيز ..
يبيض وينقش .. بعد زيارة النبى ..

ويذهب الأهل للقاء الحاج أو الحاجة عند عودتهم سالمين ، بعد غيبة طالبت ، وأهاجت الشوق فى القلوب وتصف هذه الأغنية الحاجة ، بعد وصولها ، وهى تنزل من على سلم السفينة ، وقد أشرق وجهها بالنور الذى يشع ليضئ المكان :

يا حاجة يا بطة .. رايحة فين يا حاجة ..

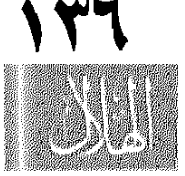
يا حاجة يا بطة .. نزلتك م البابور .. (٢٥)
تزيني المحطة .. بعد زيارة النبى ..

ولا تشبه العربة التي سوف تقل الحجاج بعد عودتهم ، غيرها من العربات ، وإنما هى عربة خاصة زينت بالرسوم المختلفة إحتفالا بعودتهم :

عليها العصافير .. عربية الحجاج ..
عليها العصافير .. بتوحد ربها ..
على الله التساهيل .. بعد زيارة النبى ..

وهكذا ، ينتهى أداء فريضة دينية من فرائض الإسلام الأساسية يحتفل بها المسلمون جميعا فى مصر وفى غير مصر ، والاحتفال بها ، يتخذ مظاهر عدة ، تعرفها المجتمعات الشعبية من غناء فى الوداع عند الرحيل ، والاستقبال عند العودة، وفى نقش الجدران ، والأبواب بمختلف الرسوم من طيور ، واسماك ، ونبات ، وسفن، وجمال ، إلى غير ذلك من نقوش شعبية ، يحرص عليها الناس كثيرا ، وقلما يجد الإنسان بيت حاج فى ريفنا أو قرانا أو حتى الأحياء الشعبية فى مدننا ، لا تزدان واجهته بعبارات : «لا إله إلا الله .. محمد رسول الله» ، «حج مبرور وذنب مغفور» ، إلى جانب الرسوم المختلفة التى تتخذ مما يراه الحاج فى رحلته موضوعا لها . وعلى أية حال ، فإن هذه الرسوم والنقوش تحتاج وحدها إلى دراسة أخرى يقوم بها أحد المتخصصين لتكون حلقة تنضم إلى غيرها من الحلقات ، فى تكوين صورة كاملة للمجتمع الشعبى من خلال ما يبدعه من كلمة ، أو حركة ، أو نقش .

وكما سبق أن ذكرنا فإن هذه الأغانى لا تغنيها إلا النساء ، وتغنى كل امرأتين عادة معا ، ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أنه لابد من ذلك ، وإنما هو عرف يكاد يكون سائدا .. وإن كان ذلك لا يمنع أيضا من أن تغنى امرأة بمفردها ، وخاصة إذا لم تجد زميلة ثانية تشاركها الغناء ، والأمر كله متوقف على حفظ الزميلة ، ومعرفتها بما تغنيه زميلتها الأخرى ، وقد شهد الباحث كلا من الظاهرتين عند تسجيله هذه الأغانى ، فعندما أحست المغنية بأن زميلتها التى تشترك معها فى الغناء لا تحفظ جيدا ، ولا تستطيع أن تجاريها فى غنائها ، طلبت منها السكوت ، واستمرت بمفردها ، وفى مرة أخرى اشتركت امرأتان معا فى الغناء . وتبدو ظاهرة الاشتراك فى الغناء هذه صعبة التعليل إلى حد ما . ويمكن أن نفترض لذلك أحد فرضين ، أو الاثنين معا ، فهذه الأغانى لا توجد بها «المقطوعة أو اللازمة» التى تكررها الجماعة وراء المغنى أو المغنية ، ومن ثم فإن الاشتراك الجماعى فى الأداء ، هنا ، يكاد يكون مفتقدا ، أو هو كذلك بالفعل ، فكان لابد من أن يوجد أسلوب آخر غير أسلوب الترديد المعروف فى الأغنية الشعبية العادية ، وعلى ذلك ، يكون اشتراك المرأتين فى الغناء إنما هو استمرار لإحدى خصائص الأغنية الشعبية ، وهى المشاركة الجماعية فى غنائها . ومن ناحية أخرى ، فإن اشتراك امرأتين فى أداء تلك الأغانى يجعل لها وقعا مختلفا على الأذن والنفس ، مما لو غنتها واحدة بمفردها ، ومن ثم ، يمكن القول أن سبب تلك الظاهرة هو محاولة المغنيات أن يضفين على غنائهن لونا معينا من التأثير ، وقد لاحظ الباحث أن الناس غالبا ما يحبذون اشتراك امرأتين فى الأداء، ولم يكن عندهم من تعليل لهذا





بعد أداء المناسك يعود الحاج إلى أهله وقد أشرق وجهه بالنور

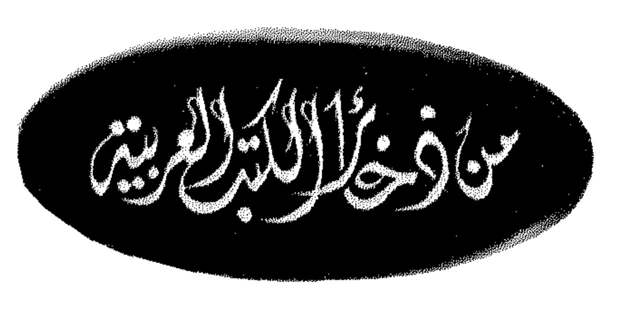
التفضيل إلا أن ذلك يضفى على الغناء رونقا وطلاوة ، فيصبح أكثر جودة ، وقدرة على التأثير مما لو غنته واحدة بمفردها ، وكانت العبارة التى سمعها الكاتب إجابة عن سؤاله الخاص بتلك الظاهرة «أصل كده أحسن ، عشان الغنا (الغناء) يبقى حلو» .

وكما تصحب الأغنية الحاج قبل سفره ، وأثناء سفره ، فانها تصحبه أيضا عند عودته ، إذ تستقبله بعد أن ينتهى من أداء فريضة الحج ، مرحبة به ، فرحة بمقدمه ، مستبشرة بعودته ، مصورة فرحة أهله ، وسعادة أبنائه وأهله وأصدقائه فتقول الأغنية :

طرف شال الحجيج .. أبيض م العلامة
وأبيض من لبن الحليب .. يا حاج يوم السلامة
يا طرف شال الحجيج .. أبيض م القلوع
وأبيض من لبن الحليب .. يا حاج يوم الرجوع
وآدينى باقولها لك .. يوم السلامة مكتوبة لك
عند النبى انفقت مالك .. وحجيت ورجعت لعيالك

ولكن أغنية الاستقبال تختلف عن أغنية التوديع من ناحية الجو العام الذى يسيطر على كل منهما ، فبينما يسيطر على الأولى جو من الحزن الذى يعد نتيجة طبيعية للاحساس بالفراق والغياب فان الثانية يشيع فيها جو البهجة والفرحة المقترنة بسلامة العودة ، وحرارة الاستقبال .. إلخ .

وهكذا تسهم الأغنية الشعبية إلى جانب المظاهر الأخرى التى ترتبط بمناسبة الحج - كالرسوم التى ترسم على واجهة البيت فى مثل هذه المناسبة - فى التعبير عن أحاسيس الناس ومشاعرهم ومعتقداتهم المرتبطة بها ، وفى اعطاء المناسبة شكلها الخاص الذى يميزها عن غيرها من المناسبات الدينية عامة . ■



السير الكبير

وعلاقة المسلمين بغيرهم للإمام محمد بن الحسن الشيباني

بقلم
د. محمد الدسوقي

يعد كتاب «السير الكبير» أول دراسة علمية شاملة للأحكام الفقهية الخاصة بالعلاقات بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب مع أدلتها من الآثار والأخبار.

وكلمة سير جمع سيرة، وبها سمى الإمام محمد «ت: ١٨٩ هـ» كتابين له هما : السير الصغير والسير الكبير، لأنه بين فيهما سيرة المسلمين فى المعاملة مع غيرهم، وليس ما ذهب إليه البعض من أن السير يقصد بها المغازى صحيحا على اطلاقه فقد قال السرخسى «ت : ٤٩٠ هـ» فى أول شرحه للسير الصغير: إعلم أن السير جمع سيرة، وبه سمى هذا الكتاب، لأنه بين فيه سيرة المسلمين فى المعاملة مع المشركين من أهل الحرب، ومع أهل العهد منهم من المستأمنين وأهل الذمة ومع المرتدين الذين هم أخبث الكفار بالإنكار بعد الإقرار، ومع أهل البغى الذين حالهم دون حال المشركين.







ويدل هذا النص على أن مفهوم كلمة سير لدى الإمام محمد غير مقصور على المغازى، ولكنه يشمل كل ما يتصل بعلاقة المسلمين مع غيرهم فى السلم والحرب، فى دار الإسلام وخارجها.

والكتابان مع هذا يشتملان على طائفة غير قليلة من المسائل الفقهية - وردت استطرادا - فى العبادات والمعاملات.

وقد ألف محمد السير الصغير أولا، وفى هذا الكتاب لا يروى إلا عن أبى حنيفة «ت : ١٥٠ هـ» وهناك احتمال أن يكون قد أخذ عن شيخه الأول فى حلقته بعض ما رواه عنه، فقد ولد الإمام محمد سنة ١٣١ هـ أو أوائل سنة ١٣٢ هـ بمدينة واسط بالعراق، ونشأ بالكوفة، وكانت إذ ذاك كما قال عنها الإمام أبو حنيفة: «مدينة العلم» ، وقد جلس محمد فى حلقة هذا الإمام نحو أربع سنوات كانت بمثابة البذرة الصالحة التى صادفت تربة جيدة، فنمت وازدهرت وجادت بالخير العميم.

أما البعض الآخر مما رواه محمد فى السير الصغير فقد أخذه عن شيخه الثانى أبى يوسف «ت : ١٨٢ هـ».

موجز للأحكام

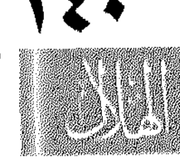
وهذا الكتاب كما يدل عليه اسمه موجز وغير شامل للأحكام التى تنظم سيرة المسلمين مع غيرهم، ولكن السير الكبير موسوعة فى أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم. وهو من أواخر مؤلفات الإمام محمد.

وأصل كل من السير الصغير والكبير لم يصل إلينا، وإنما وصلتنا شروح كثيرة لهما أهمها شرح الإمام السرخسى، وقد ورد شرح السير الصغير فى الجزء العاشر من المبسوط، على حين ورد شرح السير الكبير فى دراسة مستقلة، طبعت بالهند فى حيدر أباد سنة ١٣٣٦ هـ، فى أربعة أجزاء وظهرت طبعة حديثة لهذا الشرح أصدرها معهد المخطوطات بالجامعة العربية بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.

وكانت جامعة القاهرة قد أخرجت الجزء الأول من هذا الشرح بتحقيق الأستاذ الشيخ محمد أبوزهرة ، والأستاذ الدكتور مصطفى زيد - رحمهما الله - غير أنها لم تواصل بعد هذا الجزء المضى فى إصدار بقية أجزاء الكتاب.

وإذا كان الإمام محمد قد عالج بعض مسائل السير فى كتاب الأصل فإن علاقة المسلمين مع غيرهم من الدول المجاورة، وبخاصة من الروم البيزنطيين، فقد دأب هؤلاء على نقض العهود والإغارة على الثغور الإسلامية، وكانت الحروب سجالا فى بعض المعارك بين العرب والروم، ولكن العرب فى النهاية كانت لهم الغلبة والظهور، وحملوا أعداءهم على الإذعان لشروطهم - هذه العلاقة أملت عليه أن يخص هذا الموضوع بكتاب مستقل، فكتب السير الصغير أولا، بيد أنه لم يستوعب فيه أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم، ثم فصل الكلام وأفاض فى السير الكبير، فجاء شاملا ضخما، وجاء عملا فريدا فى بابه، لم يؤلف فقيه غير الإمام محمد مثله فى موضوعه سواء الذين تقدموا عليه أو الذين تأخروا عنه.

وليس معنى هذا أن الإمام محمدا اخترع كتابه اختراعا، فالمعروف أن بعض



الفقهاء الذين تتلمذ لهم محمد تحدثوا عن السير كالإمام، أبى حنيفة والإمام الأوزاعى «ت : ١٥٧ هـ» والإمام أبى يوسف، ولكن كل ما جاء عن هؤلاء الأئمة، فى هذا الموضوع كان يدور فى نطاق محدود من القضايا ، وكان أشبه بالمحاولات الأولى بالنسبة للبحث الشامل المفصل الذى كتبه الإمام محمد فاستحق أن يكون - عن جدارة - رائد التفكير فى القانون الدولى فى العالم كله.

مادة الكتاب

لقد استقى الإمام محمد مادة كتابه من الآثار والأخبار من علماء عصره فقهاء ومحدثين ، وكانت هذه المادة الأساس الذى أقام عليه هذا الإمام عمله المبتكر الرائع الذى يشهد له بغزارة العلم ، وعمق التفكير، وشمول النظرة ودقة التفصيل والتبويب، والتفريع.

ونظرة سريعة إلى أمهات المسائل التى تحدث عنها من سبق محمدا من العلماء وما عرض له فى كتابه تكشف لنا كيف أن كتاب السير الكبير عمل تفخر به المكتبة الإسلامية ، لأنه تناول فى شمول دقيق أصول العلاقات الدولية فى ضوء الشريعة الإسلامية الغراء.

إن كتاب سير الأوزاعى الذى رواه الإمام الشافعى «ت : ٢٠٤ هـ» فى كتاب الأم، والرد عليه للإمام أبى يوسيف بعد أن أسبق من كتاب السير الكبير، ولكنهما يتحدثان عن عدد قليل جدا من المسائل هى: الغنيمة وقسمتها والسرقة منها، إقامة الحدود فى دار الحرب، وبعض أحوال المسلم إذا دخل هذه الدار، وأحوال المستأمن إذا دخل دار الإسلام ، وأسر الصبى، والمدبرة وأم الولد.

وأما المسائل التى اشتمل عليها كتاب السير الكبير فكثيرة جدا. ولا مجال لذكر عناوين هذه المسائل ، فهى تستغرق وحدها أكثر من خمس صفحات، ومن ثم أقصر الحديث عنها. باجمال من خلال العناوين العامة لأبواب ذلك الكتاب وهي كما يلي:

مضمون الكتاب

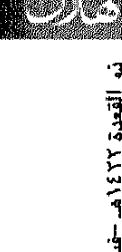
بدأ كتاب السير الكبير بالحديث عن فضيلة الرباط وكأنه بهذه البداية يبين أهمية الاستعداد الدائم لتأمين طريق الدعوة إلى الإسلام ، ولرد كل اعتداء يقع على ديار المسلمين، وتطبيق الأمر الإلهى فى قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم. وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم «الانفال / ٦٠».

ثم انتقل إلى وصايا الأمراء إذا بعثوا جيشا أو سرية ، ووجوب تعيين أمير الجيش والشروط الواجب توافرها فيه، وما يجب عليه نحو الجند، وما يجب على هؤلاء نحوه.

وتحدث بعد هذا عن أفضل أوقات التحرك للجهاد وألوان الألوية والدعاء عند القتال، وبركة الخيل وما يصلح منها للجهاد، وكراهية اتخاذ الجرس ورفع الصوت فى الحروب وأشار الى القتال فى الأشهر الحرم.

وعقد بابا عن هجرة الأعراب، وصلة المشرك ، وقبول هداياه فى الحرب، ومن قاتل فأصاب نفسه وقتل ذى الرحم المحرم، وما جرى للمسلمين فى غزوة حنين، والحرب خدعة والفرار من الزحف، ومن اسلم فى دار الحرب. والمعاهدين، ودخول المشركين المسجد، وآنيتهم وذبائحهم وطعامهم.

وأفرد بابا عن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم





على الله، وبين أنه خاص بالمشركين وعبدة الأوثان . ثم تكلم عن الجهاد مع الأمراء، ومن يحل له الخمس والصدقة وما يجب من طاعة الوالى وما لا يجب ، وقتال النساء مع الرجال وشهودهن الحرب، والجهاد ما يسع منه وما لا يسع، وصلاة الخوف، والشهيد وما يصنع به، وأفاض القول بعد هذا عن كل ما يتعلق بالأمان.

وتحدث عن الأنفال والغنيمة حديثا جامعا تناول قضايا ومسائل جمة، منها النفل وما كان للنبى خالصا، والنفل فى دار الحرب، ما يبطل فيه النفل وما لا يبطل، النفل المجهول، كيفية قسمة الغنيمة وبيان من يستحقها ممن جاء بعد الإصابة، قسمة الغنائم التى وقع فيها الخطأ وفضول الغنائم والشركة فى الغنيمة، وباب من الشهادات فى الغنائم والفىء .. الخ.

مسائل فقهية متعددة

وعرض بعد هذا لمسائل تدور حول الفداء وبعض أصول الحرب وسريان أحكام الإسلام فى غير داره وسوى ذلك من المسائل الفقهية، ومن تلك المسائل باب من الفداء فيما يصلح وما لا يصلح، وباب من الفداء الذى يرجع الى أهله إذا ظهر عليه المسلمون والذى لا يرجع. والوكالة فى الفداء فى العبد المأسور، ومن يكره قتله من أهل الحرب ومن لا يكره، وما يحل للمسلم الأسير فى أيدى أهل الحرب أن يجيبهم إليه، وما يحل للمسلمين أن يفعلوه بالعدو وما لا يحل .. الخ.

ثم ذكر أحكام الموادعة وأهل الذمة والمستأمنين والمرتدين، وبعض أحكام الإسلام فى دار الحرب، ومن هذه الأحكام، باب الموادعة، والموادعة مما يصالح عليه المسلمون المشركين فيسعهم قتالهم بعده أو لا يسعهم ، وفداء المشركين فى الموادعة ، والشروط فى الموادعة وغيرها ، والحدود فى دار الحرب، وما يجب للمستأمن وأهل الذمة ، وما يصدق فيه الرجل من الردة فلا تبين منه امرأته، وما لا يصدق . والكفالة بالمستأمين والأسير فى دار الحرب، ومن أسلم على شيء. فهو له ويكون محرزا له، والوصية فى سبيل الله ، والحبس فى سبيل الله والحبس فى الحياة والصحة.

وختم الإمام محمد كتابه بأبواب فى العشور والجزية والخراج، وما يجب قبل الحرب من الدعاء إلى الإسلام وإسلام بعض الأسرى، وما ينبغى للمسلمين نصرته وبمن يبدأون.

هذه أهم عناوين وموضوعات كتاب السير الكبير، وهى تؤكد أن الإمام محمدا درس علاقة المسلمين مع غيرهم على نحو لم يسبق به. فما كتبه الأوزاعى وأبو يوسف، وما روى عن أبى حنيفة قدر ضئيل بالنسبة لما تناوله الإمام محمد فى كتابه.

موضوعات كتاب السير

إن موضوعات كتاب السير بدأت بالحديث عن أهمية الاستعداد للجهاد . ثم تحدثت عن أصول الحرب وغايتها فى الإسلام وآثارها من الغنائم والأسرى، وعلاقة المسلمين مع غيرهم من أهل الذمة والموادعين والحربيين ونقض المعاهدات، وجرائم الحرب.. وحقوق الرسل، وسريان الأحكام بالنسبة للمسلمين وسواهم فى دار الإسلام ودار الحرب، وهى بهذه الصورة تخضع لمنهج فكرى مترابط .، يسلم كل موضوع فيه إلى

الذى يليه، وإن وردت فى أثناء ذلك إشارات الى بعض المسائل الفقهية.

وإذا كان ما أومأت إليه آنفا عن كتاب السير ليس إلا تعريفا عاما بموضوع هذا الكتاب، وإذا كان تفصيل القول فى كل القضايا والمسائل التى تتعلق بهذا الموضوع لا سبيل إليها بكثرتها من جهة، ولأن هذا التفصيل يفتقر الى دراسة شاملة من جهة أخرى - فيمكن الاجتزاء بالاشارة الى طرف من آراء الإمام محمد فى الموادعة، أى المصالحة والمهادنة بين المسلمين وأعدائهم ، ولعل فى هذا تعبيرا عن سائر ما اشتمل عليه كتاب السير من قضايا من حيث منهج محمد وفكره ، وأنه بما قدم كان الرائد الأول فى الدراسات الدولية، وبيان فضل الإسلام فى ارساء قواعد العدالة والمساواة واحترام آدمية الإنسان وكرامته دون اعتبار لجنسه أو عقيدته.

يرى الإمام محمد أن الموادعين إذا شرطوا فى أصل الموادعة أنهم إن غدروا فقتلوا رهن المسلمين فدماء رهنهم لنا حلال، ثم قتلواهم رهننا فإن دماء رهنهم لا تحل لنا «شرح السير حـ ٤ صـ ٤٣ ط الهند».

ومع أن قول الله تعالى : «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » «النحل / ١٢٦» قد يبيح قتل رهن الموادعين إذا قتلوا رهننا. بيد أن محمدا يذهب إلى أن رهن الموادعين أصبحوا بدخولهم دارنا ذمة، لهم حرمة المسلمين فى حقن الدماء إلا بحق، وهم لم يقتلوا بأنفسهم أحدا من رهننا، وعلى الحاكم المسلم أن ينتصف لهؤلاء المظلومين ممن اعتدوا عليهم.

الرهن ونقض العهد

وكما لا يجوز قتل الرهن فى هذه الحالة ، لا تجوز الإساءة إلى الرسل، فهم فى حماية المسلمين إلى أن يعودوا إلى بلادهم.

وعن نقض العهد بين المسلمين وغيرهم يقول الإمام محمد :و لو بدا للإمام «أى ولى الأمر» بعد الموادعة أن القتال خير فبعث إلى ملكهم ينبذ إليه فقد صار ذلك نقضا، ثم يستطرد فيقول: ولكن لا ينبغى للمسلمين أن يغيروا عليهم، وعلى أطراف مملكتهم حتى يمضى من الوقت مقدار ما يبعث الملك إلى ذلك الموضع من ينذرهم لأنا نعلم أن ملكهم بعدما وصل الخبر إليه لا يتمكن من ايصال ذلك إلى أطراف مملكته إلا بمدة فلا يتم النبذ فى حقهم حتى تمضى تلك المدة.

وبعد مضى المدة لا بأس بالإغارة عليهم وإن لم يعلم المسلمون أن الخبر أتاهم. لأنه ليس على المسلمين إعلامهم، ولكن إن علم المسلمون يقينا أن القوم لم يأتهم خبر فالمستحب لهم ألا يغيروا عليهم حتى يعلموهم ، لأن هذا شبيه بالخديعة، وكما يحق على المسلمين التحرز عن الخديعة يحق عليهم التحرز عما يشبه الخديعة (شرح السير حـ ٤ ص ٧ ط الهند).

فهل عرفت القوانين الوضعية مثل هذه المبادىء السامية وهل يراعى إنسان المدنية المعاصرة فى حروبه المدمرة شيئا منها أو أنه يفخر بإبادة الضعفاء والأبرياء وأخذ الآمنين وغير المحاربين على غرة خديعة ومكرا؟

فإن كان نقض العهد من قبل الأعداء فلا بأس على المسلمين أن يغيروا على أطرافهم، وإن علموا أن الخبر لم يصل إليهم، ويستدرك الإمام محمد قائلا: ومع هذا فإن أحاط العلم لأهل ناحية من المسلمين بأن ذلك الخبر لم يصل إلى أهل ناحيتهم فليس ينبغى أن يقاتلوهم حتى ينبذوا إليهم، وهذا على سبيل الاستحسان. «المصدر

منابع الإيمان الصحيح

ذروة فى التفكير الإنسانى الخالص الذى يستمد منابعه من الإيمان الصحيح والخلق الكامل، والورع الصادق، والضمير الحى والعدالة الرحيمة، والاخوة الإنسانية الكريمة، ما أحوج البشرية اليوم إليه. فإنها على الرغم مما حققت فى مجال العلم والحضارة . فقيرة أشد الفقر الى هذا اللون من التفكير الذى يعيد إليها انسانيتها وأمنها واستقرارها.

وإذا كان الإمام محمد الفقيه الوحيد الذى كتب عن أصول العلاقات الدولية فى الإسلام فى تفصيل وشمول لم يسبق به فانه بهذا عد مؤسسا للفكر القانونى الدولى فى الإسلام ، ولأنه سبق جروتيوس الهولندى الذى يعد لدى الاوروبيين مؤسس القانون الدولى بأكثر من ثمانمائة عام، فقد هلك جروتيوس سنة ١٦٤٥ م على حين مات محمد سنة ١٨٩ هـ ٨٠٤ م فإن الإمام الشيبانى من ثم يعد مؤسسا للقانون الدولى فى العالم كله.

ويرى البعض أن جروتيوس ربما قرأ كتاب السير الكبير، وأنه نقل المبادىء الأساسية التى كتبها الإمام ابن الحسن فى العلاقات الدولية ثم نسبها جروتيوس الى نفسه، وسواء كان هذا الفقيه الهولندى قد قرأ كتاب السير وانتهج نهجه ونقل مبادئه ، أو أنه لم يقرأ هذا الكتاب ولم يعرف عنه شيئا فإن الإمام الشيبانى سبق جروتيوس بفترة زمنية طويلة، واعتمد فى كتابه على المصادر الأصلية للشريعة الإسلامية وتحدث فى أمور وقضايا لم يتحدث عنها غيره من الفقهاء المسلمين أو سواهم إلا فى العصر الحديث ، ولكن جروتيوس اعتمد فى كتابه على القانون الطبيعى، فكان الشيبانى لهذا مؤسسا للقانون الدولى فى العالم كله بلا جدال.

تدوين الفقه الاسلامي

وليس فضل الشيبانى أنه أول من كتب فى العلاقات الدولية فحسب ، وإنما يظهر فضله أيضا فى مجال الفكر القانونى أن القانون الدولى المعاصر لم يأت بجديد بالنسبة لما كتبه الإمام محمد، كما كان لهذا الإمام فضل آخر، فهو أول من دون الفقه على منهج لم يسبق به، وأول من كتب فى الفقه المقارن، وكان تدوين محمد للفقه النور الذى اضاء الطريق لتدوين الفقه الإسلامى كله.

والإمام محمد مع هذا كان مجتهدا مطلقا، فقد توافرت له كل أسباب هذا الاجتهاد، ودلت آراؤه على أنه فى منزلة أئمة المذاهب المشهورة وغيرها اجتهادا فى الأصول والفروع.

وقد تنبه إلى دور الإمام محمد فى مجال الدراسات القانونية الدولية فقهاء القانون فى فرنسا ، وأنشأوا فى سنة ١٩٣٢ جمعية الشيبانى للقانون الدولى، ثم حذا حذوهم فقهاء ألمانيا فأسست فى غوتنجن جمعية الشيبانى للقانون الدولى، وضمت هذه الجمعية علماء القانون الدولى والمشتغلين به فى مختلف أنحاء العالم، وانتخب رئيسا لها الفقيه المصرى الكبير عبدالحميد بدوى «ت : ١٩٦٥» رحمه الله.

وقد كتبت هذه الجمعية رسالة صغيرة للتعريف بها والغرض من إنشائها والدعوة

إلى مساعدتها. وأرسلتها إلى الجامعات والهيئات العلمية فى العالم كله وجاء فى هذه الرسالة ما يلى:

«عرف الباحثون الأوروبيون اسم الفقيه المسلم الإمام محمد بن الحسن الشيبانى والذى عاش بين سنتى ١٣٢ - ١٨٩ هـ من مؤلفه كتاب السير الكبير بعد أن طبعت ترجمته إلى التركية لأول مرة عام ١٨٢٥ م. ولم يتردد المؤرخ النمسوى الذائع الصيت «هامرفون برجستال » إذ ذاك أن يلقبه باسم «هوجو جروتيوس المسلمين» وأن كل من يدرك مقدار الاكبار الذى يكنه علماء القانون فى أوروبا للعلامة هوجو جورتيوس» بوصفه أبا القانون الدولى ليستطيع ان يتبين مدى المكانة العالية التى يضع فيها هذا التعبير مولفات الإمام محمد الشيبانى. وقد زادت الدراسات الحديثة فى الفقه الإسلامى شهادة العلامة النمسوى الكبير تأييدا ودلت على أن الإمام الشيبانى خليق بأن يأخذ مكانه الحق بين رواد القانون الدولى العالميين، على أن هذه الدراسات لم تستطع أن تجذب اهتمام جمهور كبير من المشتغلين بالقانون.

لذلك رأت طائفة ممن تبينوا هذا الأمر أن من المستصوب، بل لهو من الضرورى أن تعمل على تأسيس جمعية الشيبانى للقانون الدولى وقد قصد بفكرة الجمعية أن تكون على غرار «جمعية جروتيوس» البريطانية ذات الشهرة العالمية.

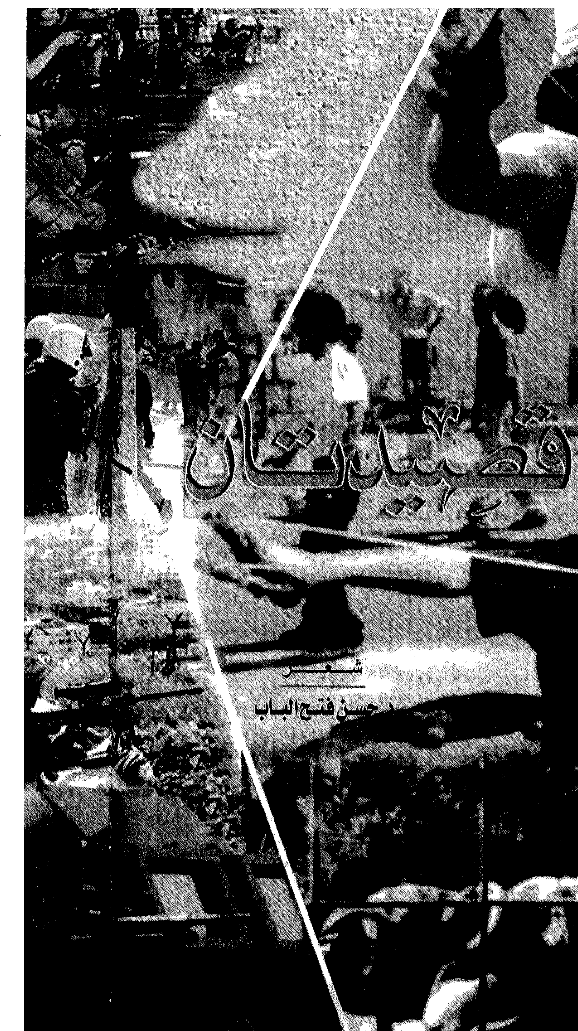
وأشارت رسالة جمعية الشيبانى الى التعريف بها وأغراضها ، وطلب الاهتمام بها ومعاونتها على ما قصدت إليه بكل الوسائل ، ومنها ترجمة مؤلفات الشيبانى وغيره من فقهاء المسلمين التى تناولت الحديث عن العلاقات الدولية إلى اللغات الأخرى بغية استكمال المؤلفات الرئيسية فى الموضوع، وتشجيع القيام ببحوث فى التعاليم الإسلامية والفقه الإسلامى فى القانون الدولى والعمل على نشرها لفائدة أكبر قدر ممكن من القراء فى جميع أرجاء العالم.

وهذه الجمعية وإن وضعت الشيبانى بالنسبة للمسلمين فى مرتبة «جروتيوس» بالنسبة للاوروبيين فى مجال الكتابة عن العلاقات الدولية فإنها جديرة بالثناء لاهتمامها بالإمام الشيبانى اهتماما يليق به، وكان يجب أن ينبه اليه من قبل . ولكن الواقع أنها مسئولية فقهاء المسلمين الذين لم يقوموا بواجبهم نحو أسلافهم.

إن كتاب السير عده هارون الرشيد فخرا لعصره، وهو كذلك فما عرف هذا العصر فى العالم كله أثرا علميا خاصا بالعلاقات الدولية مثل هذا الكتاب. وما عرف غير هذا العصر أيضا فى تراثنا الفقهى كتابا يضارعه. وكل ما جاء فى كتب الفقه بعد الإمام محمد فصول موجزة تحت عنوان «السير أو الجهاد»، وتتناول غالبا احكام الغنائم، والأسلاب وبعض أحكام الشهداء والأسرى، ولذلك ظل كتاب السير الأثر العلمى الوحيد فى تراثنا الفقهى الذى درس فى شمول وتفصيل أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم فى السلم والحرب.

وزبدة القول أن الإمام الشيبانى أحد رواد الفكر القانونى الدولى فى العالم إن لم يكن رائده الأول بلا خلاف، وإن كتاب السير الكبير أصبح كتابا عالميا وبخاصة بعد أن ترجمته أخيرا منظمة اليونسكو إلى اللغة الفرنسية، وهذا فخر للثقافة الإسلامية وآية على أن رسالة الإسلام هى رسالة العلم والحضارة والإنسانية والفضيلة، فما الشيبانى وغيره من القمم الفكرية فى تاريخنا إلا ثمرة من ثمرات هذا الدين القويم الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين. ■





(١) أرجوحة ومعزف

عاد المقاتل القديم
مقَّلبا عينيه فى السماء باحثا
عن نجمة الصباح
فحدثته نجمة المساء
عنِ الضحايا الأبرياء
فحنَّ للجهاد
وكان سيفه الحنان
ورمحه اليقين
الفارس المقاتل القديم عاد
محتضنا أرجوحةً
لطائر طفل يتيم
ومعزفا لشاعر وحيد
ومبضعا يأسو به الجراح

(٢) ليزهر التراب

النيزك السابح فى بحيرة
السديم
يقّلب العينين فى ترابنا الموبوء
بالآدمىّ المستخفً بالسماء
ترابنا العقيم
فيرتمى بسهمه النارىّ
فى كبد الظلماء
ليولد ابن الأرض من جديد
ويرتوى من السماء
ليزهر التراب





أم كلثوم بين عهدين

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

ناقش الأستاذ سعيد عكاشة فى مقاله «السياسى والفنان: عبدالناصر وأم كلثوم» فى عدد نوفمبر ٢٠٠١ من «الهلال» مجمل علاقة أم كلثوم بعبدالناصر، وتركز المقال حول ما تردد عن منع أم كلثوم من الغناء ومنع إذاعة أغانيها من الإذاعة فى بداية الثورة.

وهو ما استند فيه كاتب المقال علي روايات أربع عن منع أم كلثوم من الغناء بعد نجاح الثورة ، كانت الروايات الأربع – طبقا لترتيب عرضها في المقال – لكل من: الكاتب حلمي سالم – د. رتيبة الحفني – السيد محمد أحمد (سكرتير الرئيس عبدالناصر) والباحث الفرنسي فيليب فيجرو، ثم خلص الأستاذ سعيد عكاشة بعد عرض الروايات الأربع إلي «أنها جميعا لا تحدد تاريخا دقيقاً لقرار المنع. كما أنها تتضارب حول مصدر القرار»، لقد افتقرت الروايات الأربع إلي التوثيق .. لذلك حدث التضارب وافتقدت الدقة.

إن الفترة التى قيل أن أم كلثوم قد منعت من الغناء فيها.. كانت فاصلا بين عهدين، لذا... فإن إستعادة ما حدث خلال تلك الفترة من خلال الوثائق يعد الوسيلة الحقيقية المتاحة أمام الباحث الآن لمعرفة حقيقة ماحدث، أيضا.. فإن الرجوع قليلا إلى بداية عهد فاروق.. سوف يعمل على جلاء الكثير من الأمور والوقائع التى حدثت فى الشهور التالية لنجاح الثورة.

أم كلثوم فى العهد الملكى

قاسمت أم كلثوم محمد عبدالوهاب قمة الغناء المصري بعد نزوحها إلي القاهرة فى عام ١٩٢٣، وعندمت باشر الملك فاروق سلطاته الدستورية بعد أدائه اليمين أمام البرلمان فى يوم الخميس ١٩٣٧/٧/٢٩.. كانت أم كلثوم قد قطعت شوطاً كبيرا فى سعيها لأن تصبح مطربة العرب الأولى، فقد تغنت خلال الفترة من عام ١٩٢٣ وحتى عام ١٩٣٧ بالعديد من ألحان كبار الملحنين كالشيخ أبو العلا محمد والدكتور أحمد صبرى النجريدى والشيخ زكريا أحمد والموسيقار محمد القصبجى وأخيرا الموسيقار رياض السنباطى، ساهمت تلك الألحان بالإضافة إلى فيلمين غنائيين هما وداد (١٩٣٥) ونشيد الأمل (١٩٣٦) – فضلا عن العديد من الحفلات بالقاهرة والأقاليم – فى دعم موقع أم كلثوم عند قمة الغناء بمصر، لذلك لم يكن غريبا أن تذهب أم كلثوم فى مساء يوم أداء الملك فاروق لليمين الدستورية إلى سراى عابدين لتغنى لفاروق ووزرائه وحاشيته قصيدة أحمد شوقى «عيد الدهر» التى لحنها رياض السنباطى كما نوهت عن ذلك مجلة «الراديو المصرى» بعددها رقم (١٢٣) والصادر فى ١٩٣٧/٧/٢٤، ثم توالت مشاركات أم كلثوم فى مناسبات القصر المختلفة مثل عيد ميلاد الملك (١١ فبراير من كل عام) وعيد الجلوس الملكى (٦ مايو من كل عام)، تلك المشاركات التى أعدّت لها أم كلثوم الأغنيات الخاصة لها جنبا إلى جنب مع أغنياتها الإذاعية والسينمائية، قدمت أم كلثوم الأغنيات التالية فى مناسبات ملكية مختلفة: (عيد الدهر – ١٩٣٧) – (يامليك النيل – ١٩٣٧) – (يا ربوع النيل – ١٩٣٨) – (يا بهجة الروح – ١٩٤٠) – (لاح نور الفجر – ١٩٤٢١) – (يامليكى –



١٩٤٣) – (أوان الورد – ١٩٤٥) و(مولد الفاروق – ١٩٤٦)* ، هذا فضلا عن ثلاثة أناشيد قدمتها الإذاعة فى برنامج يوم الأحد ٦ مايو من عام ١٩٥١ بمناسبة العيدين السعيدين (عيد الجلوس الملكى وزفاف ناريمان صادق إلى فاروق) ونوهت عنها بالعدد رقم (٨٤٢) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادر فى ١٩٥١/٥/٥، والأناشيد الثلاثة هى: «نشيد الشباب» من نظم أحمد رامى وتلحين رياض السنباطى – «نشيد النصر» و«نشيد حفظ الله الملك» والنشيدان الأخيران لم تشر المجلة إلى أسماء مؤلفيهما وملحنيهما.

لقد دعمت تلك المساهمات من مكانة أم كلثوم فى القصر الملكى، حتى أنها أحيت العديد من مناسبات القصر دون مشاركة من أى من مطربى أو مطربات الصف الأول وقتها، من ذلك أنها أحيت حفل زفاف الأميرة فوزية (شقيقة فاروق) إلى ولى عهد إيران الأمير شاهبور محمد رضا (الإمبراطور محمد رضا بهلوى فيما بعد)، وهو الحفل الذى أقامته الملكة نازلى بسراى القبة فى مساء الجمعة ١٩٣٩/٣/٣١ وشاركت أم كلثوم فى إحيائه الراقصة بديعة مصابنى، وها هى مجلة «الصباح» تقدم فى عددها رقم (٦٥٤) الصادر فى ١٩٣٩/٤/٧ وصفاً لغناء أم كلثوم فى تلك الليلة فتقول: «وجعلت الآنسة أم كلثوم تزف العروسين بنشيد الزفة المصرى الذى أُعدَّ خصيصا لهذه المناسبة، فكان فى قوله ولحنه وحنانه



صورة نادرة لأم كلثوم فى شبابها

مليئا بالروح القومية فياضا باللون الشرقى الجميل، ثم قامت السيدة بديعة مصابنى برقصة ريفية بارعة مع ست راقصات مصحوبة بالغناء الريفى الجميل، ثم عادت الآنسة أم كلثوم فغنت أغنية ساحرة من صوتها الأخاذ، وعادت السيدة بديعة فرقصت بصحبة فرقتها رقصة شرقية جميلة مصحوبة بالغناء، وقامت عقب ذلك الآنسة أم كلثوم بغناء دور كان له أجمل وقع فى النفوس لمناسبته الجميلة وهو دور (على بلدى المحبوب وديني)».

قصة نيشان الكمال

لم تتخلف أم كلثوم عن إحياء أى من المناسبات الملكية فى عهد فاروق، لذلك لم يكن غريباً أن يقوم فاروق بتكريمها فى إحدى حفلاتها الملكية، كان ذلك فى عام ١٩٤٥.. حينما قدمت أم كلثوم ثلاث حفلات فى شهرى مايو ويونيو بمناسبة عيد الجلوس الملكى، قدمت أم كلثوم فى مساء الأحد ٦ مايو حفلها الأول بدار الأوبرا الملكية والذى نقلته الإذاعة وقتها، ليلتها غنت أم كلثوم أغنيتها الجديدة «فى أوان الورد» التى كتبها بيرم التونسى ولحنها زكريا أحمد، وقد قامت مجلة «الراديو المصرى» بنشر نصّ الأغنية الكامل فى عددها رقم (٥٢٩) والصادر فى ٥/٥/٩٤٥، وكان ختام الأغنية البيتين التاليين:

أعياد فى كل مكان
بيك يا فاوق تزدان
متجمعة فى أوان
فيه الوجود فرحان
فى أوان الورد

حضر الملك فاروق حفل أم كلثوم الثالث فى مساء الخميس ٢٨ يونيو ١٩٤٥ بحديقة النادى الأهلى، ليلتها تعرفت أم كلثوم فى كلمات أغنية «ياليلة العيد» - التى بدأت بها الحفل - لتحول ضمير المخاطب من أنثى (أى ليلة العيد) إلى مذكر (وهو الملك) . كان تصرف أم كلثوم فى كلمات الأغنية أكثر من معجز مما بهر الجمهور الذى علا تصفيقه وهتافه عندما رددت المقطع الأخير الذى تقول فيه:

يانيلنا ميّتك سـكر
وزرعك فى الغيطان نوّر
يعيش فاروق ويتهنّى
ونحييله ليالى العيد

ثم اختتمت أم كلثوم وصلتها الأولى من حفل النادى الأهلى بمقطع من أغنيتها «يا مليكى» التى تغير اسمها ليصبح فيما بعد «حبيبى يسعد أوقاته»، وبعد أن أنهت أم كلثوم وصلتها الأولى.. ذهبت لمصافحة فاروق ولتفاجأ بمنحها «نيشان الكمال» الذى حملته قبلها الملكة فريدة وأميرات الأسرة المالكة، وكانت آخر من تقلدت هذا النيشان من يد فاروق هى زوجته الثانية ناريمان صادق عندما وصل موكب زفافها إلى قصر عابدين فى مساء الأحد ٦ مايو ١٩٥١.

بعد عهدين

لم ينل محمد عبد الوهاب مثل أو بعض ما نالته أم كلثوم من تكريم ملكى، وذلك بالرغم مما قدم لفاروق من أغنيات.. جاء أغلبها معاصرا لمنتصف الأربعينات وفى فترة مقاربة لحصول أم كلثوم على نيشان الكمال، وعندما ملأ اليأس قلب عبدالوهاب من تحقيق أمنيته فى الحصول على لقب ملكى.. فإنه إستعان ببعض أصدقائه من الباشوات لنقل أمنيته إلى مسامع فاروق، فعاد إليه أصدقاؤه برفض القصر الذى يرى البعض له عديدا من الأسباب، ولعل أقرب هذه الأسباب إلى

المنطق ما ذكره الصحافى ورجل البلاط كريم ثابت فى الجزء الثانى من مذكراته التى نشرها فى عام ٢٠٠٠ بعنوان «مذكرات كريم ثابت – عشر سنوات مع فاروق» ، يقول كريم ثابت: «فقد كان (أى فاروق) ينفر نفوراً شديداً من كل من يظهر تلهفا على رتبة أو نيشان، ويجد لذة خاصة فى تسويف تحقيق أمنيته»، وأيا ما كان السبب.. فإن الرسالة الملكية وصلت إلى عبدالوهاب الذكى فاستوعبها وتعامل معها بالانقطاع تماما عن الغناء لفاروق بعد شهر فبراير من عام ١٩٤٦، وهو الشهر الذى قدم فيه خامس وآخر أغنياته لفاروق وهى «أنشودة التاجين».

لم تكن خسارة عبدالوهاب كاملة من جراء عدم حصوله على لقب البكوية الذى كان يطمح إليه، ولكنه حقق بعض المكاسب من غنائه للملك.. والتى كان اختياره مع أم كلثوم لعضوية لجنة برامج الإذاعة هو أهمها على الإطلاق، فمن خلال هذه العضوية .. تمكن النجمان الكبيران من موقع الصدارة فى عالم الغناء المصرى وأصبح فى مقدورهما إزاحة الكثير من المنافسين لهما، وهو ما فعلته أم كلثوم بالضبط عندمت تصدت فى منتصف عام ١٩٤٦ لمنع مطربى الصف الأول من أبناء الشام كفريد الأطرش ونور الهدى ونادرة من إذاعة أغنياتهم الجديدة من الإذاعة المصرية، وقد استرعى هذا المنع انتباه مجلة «روزاليوسف» فكتبت عنه فى عددها رقم (٩٣٥) الصادر فى ١٩٤٦/٥/١٥ تقول: «بين المطربة أم كلثوم وبين لجنة تنظيم البرامج بمحطة الإذاعة خلاف قديم يتجدد من حين لآخر، فإن أعضاء اللجنة يؤمنون بأن الميكرفون ملك لجميع الفنانين، والآنسة المطربة تقول بل هو ملك للمصريين وحدهم ، وهى تستشهد على تأييد وجهة نظرها باللائحة الداخلية لمحطة إذاعة فى قطر شقيق (وهى محطة راديو الشرق ببيروت) لا تسمح بالتعاقد مع الأجانب ومنهم المصريون»، ثم تمكنت أم كلثوم من تسجيل نقطة اضافية فى سجل مكاسبها من عهد فاروق.. وذلك عندما امتنعت فى توقيت مقارب لمنحها نيشان الكمال عن الغناء بالإذاعة حتى يتم رفع أجرها عن الحفلة الواحدة من ١٧٥ جنيه إلى ٣٦٠ جنيها! بالتمام والكمال، هذا الامتناع الذى كان موضوع مقال الافتتاح للعدد (٦٦٧) من مجلة «الراديو والبعكوكة» الصادر فى ١٩٤٥/٤/١ وجاء بعنوان «أم كلثوم أيضا...!».

قضايا تحرير الوطن

انقسم المصريون فى الأعوام الثلاثة الأخيرة من عمر الملكية إلى فئتين .. أغلبية وأقلية ، اهتمت الأغلبية التى ضمت سواد الشعب بقضايا تحرير الوطن والمواطن ، وقادت طلائعها الكفاح المسلح فى منطقة القناة ضد قوات الاحتلال البريطانى ، فسقط منهم الشهداء بالعشرات خلال تلك الأعوام الثلاثة وهو ما سجله مؤرخ الحركة القومية المصرية عبدالرحمن الرافعى فى كتابه «مقدمات ثورة ٢٣ يوليو» ، وفى



محمد عبد الوهاب الشيخ ابو العلا محمد

نفس الوقت ... أفرزت الأغلبية أيضا العديد من التنظيمات السرية التى كانت تعمل تحت الأرض وضد النظام الملكى القائم ، ويأتى على رأس هذه التنظيمات ... تنظيم الضباط الأحرار الذى ولد أثناء معارك الجيش على أرض فلسطين ، أما الأقلية ... وتأتى من طليعتها الاسرة الحاكمة وما حولها من كبار الأعيان والملاك ... فانها كانت تمارس آنذاك لهوها وتعيش حياتها المرفهة من منتجعاتها المعروفة وبمعزل عن الشعب وقضاياه ، فبينما كان الشهداء من طليعة الأغلبية يتساقطون على طول القناة ... كانت احتفالات القصر تمضى على وتيرتها المعتادة : عيد ميلاد الملك فى شهر فبراير وعيد الجلوس الملكى فى شهر مايو .... وذلك إضافة إلى ما يستجد من مناسبات كالزواج وميلاد الأبناء ، فى كل تلك المناسبات ... كانت الاذاعة – التى دانت للقصر بالولاء منذ إنشائها فى عام ١٩٣٤ – تقوم بواجبها فى إعداد البرامج الخاصة ونقل الحفلات الخارجية من مواقع إقامتها وعلى الهواء مباشرة ، كانت أم كلثوم هى نجمة تلك الحفلات التى توزعت فيما بين دار الاوبرا الملكية ونادى ضباط الجيش بالزمالك ، ففى السابع عشر من شهر فبراير عام ١٩٥٠ ... صدر العدد رقم (٧٧٩) من مجلة «الإذاعة المصرية» يحمل صورة أم كلثوم على غلافه وقد كتب التعليق التالى تحتها : «الآنسة أم كلثوم * كانت بهجة العيد الملكى السعيد . فقد سمعتموها ثلاث مرات فى اسبوعين» .

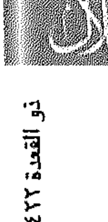
أحيت أم كلثوم فى عام ١٩٥١ آخر حفلاتها الملكية ، كانت أولى الحفلات بمناسبة عيد ميلاد فاروق وأحيتها أم كلثوم فى نادى ضباط الجيش ، وقد قدمت مجلة «الكواكب» فى عددها رقم (٢٦) الصادر فى أول مارس ١٩٥١ صورة لأم كلثوم وهى تجلس بين مجموعة من ضباط الجيش المصرى أثناء هذا الحفل ، فى شهر مايو ... شاء فاروق أن يجعل عيد الجلوس الملكى لهذا العام عيدين ، وذلك بأن جعل عقد قران وزفاف زوجته الثانية ناريمان صادق فى يوم الأحد ٦ مايو وهو الموافق لاعتلائه العرش بعد وفاة والده الملك فؤاد الأول فى ١٩٣٦/٤/٢٨ ، «قامت القوات المسلحة بدور كبير فى الاحتفالات الرائعة «للعيدين السعيدين طوال يوم الأحد ٦ مايو كما ذكرت مجلة «الإذاعة المصرية» فى تحقيق بعنوان «الجيش فى أعياد قائده الأعلى» بعددها رقم (٨٤٣) الصادر فى ١٩٥١/٥/١٢ ، يبقى أن نشير هنا إلى أنه لم يشهد عام ١٩٥٢ أى احتفالات ملكية فيما يبدو أنها كانت إشارة إلهية إلى قرب زوال هذا الملك



لقطات متنوعة لأم كلثوم ومشاهد من أفلامها

، كان ذلك بسبب إعلان الأحكام العرفية فى البلاد بعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير والذى جاء تاليا لمذبحة جنود البوليس بمدينة الاسماعيلية فى يوم ٢٥ يناير .

هكذا كانت أم كلثوم تحيى مناسبات القصر بشدوها المعجز ... بينما الأقلية من ضباط الجيش ونخبة المجتمع يهتفون للملك ونظامه ، وفى نفس الوقت ... كانت اجتماعات الضباط الأحرار ومنشوراتهم تتوالى تبشر بميلاد قادم لعهد جديد ، لكن الأمر كان مختلفا مع محمد عبدالوهاب ،



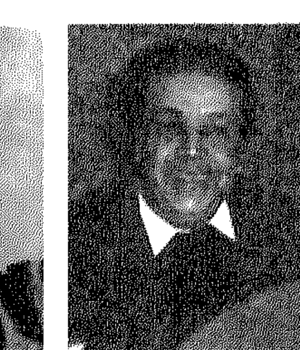
فبعد أن أقلع عن الغناء للملك منذ عام ١٩٤٦ ... فان مظاهر فساد العهد لم تكن لتخفى عليه ، فكان أن إلتقى بالشاعر كامل الشناوى الذى أعطاه قصيدة كتبها وتبدأ بشطر بيت يقول : «أنت في صمتك مرغم» ، أعجب عبدالوهاب بالقصيدة ... وكان واضحا أن كامل الشناوى قد نظمها لمهاجمة الملك وتمجيد كفاح الشعب ، وعندما فرغ عبدالوهاب من تلحين القصيدة ... فان رقابة العهد الملكى بالإذاعة قامت بمنع تسجيل النشيد الجديد لعبدالوهاب الذى كان واضحا أنه موجه لاثارة الشعب ضد الملك ونظامه .

العهد الجديد

فجر القائمقام (العقيد) يوسف صديق الشرارة الأولى لثورة ٢٣ يوليو .... عندما تحرك بمقدمة الكتيبة الأولى مدافع ماكينة قبل ساعة من ميعاد إنطلاق الثورة ، حدث ذلك فى تمام الساعة الثانية عشر من مساء يوم ٢٢ يوليو عندما قام يوسف صديق وجنوده بالاستيلاء على مقر القيادة العامة للجيش بكوبرى القبة ، وليتمكن من الايقاع بقادة الجيش المجتمعين ليلتها لاتخاذ الترتيبات اللازمة لاجهاض الانقلاب القادم ، كان مبنى الإذاعة فى مقدمة المواقع التى توجهت إليها طلائع قوات الثورة للاستيلاء عليها بعد منتصف ليل ٢٢ يوليو وفى الساعات الأولى من صباح ٢٣ يوليو ، وعندما أشرق صباح الأربعاء ٢٣ يوليو ... فوجئ جمهور المستمعين فى كل مصر بصوت المذيع جلال معوض يقرأ عليهم أول بيان للثورة من اللواء محمد نجيب القائد العام للجيش ، توجه محمد نجيب إلى مبنى الإذاعة يوم الخميس ٢٤ يوليو وبصحبته أنور السادات وبعض الضباط الأحرار ، التقى نجيب وصحبه هناك بمحمد فتحى وكيل الإذاعة المبعد ... حيث كلفه نجيب بتولى شئون الإذاعة وقيادة التغيير المطلوب لتكون الإذاعة صوت العهد الجديد، وقد قدمت مجلة «الكواكب» فى عددها رقم (٥٣) الصادر فى ١٩٥٢/٨/٥ صورة هذا اللقاء من باب «أخبار مصورة» الذى شغل الصفحات الثامنة والتاسعة من العدد ، جاءت صورة لقاء اللواء محمد نجيب بمستشار الإذاعة الجديد فى أعلى يمين الصفحة التاسعة ، ثم وضعت المجلة تحت صورة هذا اللقاء صورة لأم كلثوم وهى تقف بجوار جهاز للتسجيل وأسفل الصورة تعليق بعنوان «تطهير» جاء فيه : «توجهت الآنسة أم كلثوم فى الاسبوع الماضى إلى محطة الإذاعة لتشرف بنفسها على تنقية بعض الأغانى من فقرات خاصة بالعهد الماضى، ولانتزاع هذه الفقرات من التسجيلات حتى يمكن إذاعتها نقية خالصة ليسمعها شعب حر كريم» ، هكذا ذهبت أم كلثوم إلى الإذاعة – فى نفس الاسبوع الذى ذهب فيه قائد الثورة ليرتب أمور جهاز الإعلام الأول فى الدولة – لتقوم باعدام ما غنته لفاروق وعهده من أغنيات وتحت سمع وبصر قادة الثورة ! .

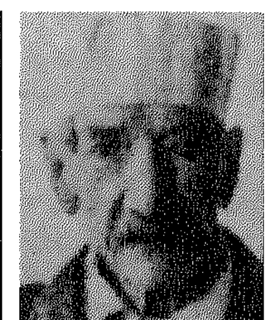
أين المنع ؟

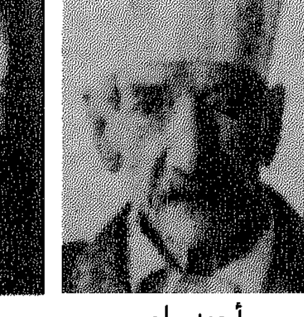
لم يكن لدى الإذاعة عند قيام الثورة أغنيات تناسب العهد الجديد ، وقتها تذكر القائمون على أمور الإذاعة ذلك النشيد الذى منعته رقابة العهد الملكى لعبدالوهاب، فكان أن ذهب عبدالوهاب إلى الإذاعة يوم الثلاثاء ١٩٥٢/٨/١٢ ليسجل نشيده الممنوع مع فرقة موسيقية ضمت أكثر من خمسين عازفا بعضهم من فرق موسيقات الجيش ، حمل النشيد الجديد اسم «نشيد الحرية» بعد أن أبدل كامل الشناوى شطر البيت الأول الذى يقول : «انت فى صمتك مرغم» ليصبح مغازلة واضحة للنظام الجديد «كنت فى صمتك مرغم» ، وانطلق النشيد ليسمعه الناس مرات متعددة فى اليوم الواحد ، وهذا هو ما جعل ما يذاع لعبدالوهاب من أغنيات فى تلك الأيام يفوق ما يذاع لأم كلثوم ، إن مراجعة ما قدمته الإذاعة من أغان لمطربى الصف الأول فى الفترة التالية لقيام الثورة سوف يساعد فى فهم كثير من الأمور التى حدثت آنذاك وفى بيان حقيقة حكاية منع أغنيات أم كلثوم من أن تذاع بالاذاعة فى أول عهد الثورة ، ففى العدد رقم (٩١١) من مجلة «الإذاعة المصرية» الصادر فى ١٩٥٢/٨/٣٠ يوضح إحصاء ما تم إذاعته من أغان لكبار مطربى العهد خلال الاسبوع من




محمود الشريف أحمد شوقى

١٩٥٢/٨/٣٠ وحتى ١٩٥٢/٩/٥ أن ما أذيع لأم كلثوم كان ١٦ أغنية وما أذيع لمحمد عبدالوهاب بلغ ٢٤ أغنية .... فى حين أن ما أذيع لفريد الأطرش كان أغنية واحدة ! ، وفى العدد (٩١٣) من المجلة ... بلغ عدد الاغنيات المذاعة لأم كلثوم – فى الاسبوع الذى يبدأ فى ١٩٥٢/٩/١٣ وينتهى فى ١٩٥٢/٩/١٩ – ٢٠ أغنية فى مقابل ٢٨ أغنية لمحمد عبدالوهاب و٤ أغنيات لفريد الأطرش ، إن متابعة ما تلا ذلك من أعداد مجلة «الإذاعة المصرية» – والتى تعد السجل الدقيق لما تقدمه الإذاعة – خلال عامى ١٩٥٢ و١٩٥٣ ... يؤكد أن ما قيل عن منع أم كلثوم من الغناء فى بداية الثورة لم يكن صحيحا بالمرة وأنه لا يعدو أن يكون شائعة رددها البعض للتأثير على قادة الثورة ولفت أنظارهم إلى غنائيات أم كلثوم فى العهد الملكى ، تلك الغنائيات التى تبددت كأن لم تكن ... وأمحيت بيد صاحبتها وتحت عين قادة الثورة وبمباركتهم ، إن الخسارة الوحيدة التى لحقت بأم كلثوم بعد قيام الثورة ...


أحمد رامى


رياض السنباطى

كانت خسارة مادية فقط ، فقد نشرت مجلة «الكواكب» فى عددها رقم (٥٦) الصادر فى ١٩٥٢/٨/٢٦ خبرا تحت عنوان «التطهير فى الإذاعة» بالصفحة التاسعة والثلاثين يقول : «إعادة النظر فى عقدى أم كلثوم وعبدالوهاب وتخفيض أجرهما إلى الحد المناسب لميزانية الإذاعة» ، أى أن ما أخذته أم كلثوم فى عام ١٩٤٥ من زيادة فى الأجر بالامتناع عن الغناء وبحكم ما كان لها من منزلة بالاذاعة ... استعاده النظام الجديد ، لكن خسارة الجمهور والتاريخ فى فقد أغنيات أم كلثوم الملكية هى التى لا تعوض ، فبفقد هذه الأغنيات ... ضاعت مرحلة مهمة من مراحل تطور غناء أم كلثوم وتبددت من التاريخ حقبة كاملة من الغناء المرتبط بالسياسة .

تحول الغناء

استدركت أم كلثوم أمرها سريعا مع النظام الجديد ... وصححت كثيرا مما لحق باسمها فى العهد الملكى عندما غنت ثانى أناشيد الثورة ، فقد سبق فريد الأطرش الجميع حينما لحن وغنى نشيد الثورة الأول «يا شباب آن الأوان» من كلمات بيرم التونسى ومأمون الشناوى وليقدمه لأول مرة من الإذاعة فى مساء السبت ١٩٥٢/٩/٢٧ ، أما نشيد الثورة الثانى فقد كان بصوت أم كلثوم وهى قصيدة «صوت الوطن» التى نظمها أحمد رامى ولحنها رياض السنباطى ، أذيعت قصيدة «صوت الوطن» لأول مرة بالاذاعة مساء الأحد ١٩٥٢/١٠/١٩ كما ذكرت مجلة «الإذاعة المصرية» بعددها رقم (٩١٨) الذى صدر فى ١٩٥٢/١٠/١٨ ، لكن الأمر بالنسبة لمحمد عبدالوهاب استغرق كثيرا من الوقت ... ربما ليستوثق وليفحص ويمحص كعادته وليخرج فى النهاية بنشيده الأول للعهد الجديد وهو «نشيد الوادى» الذى وضع كلماته مأمون الشناوى وسجله عبدالوهاب للإذاعة وعلى شريط سينمائى عرض بجميع دور السينما فى عيد الثورة ، وهكذا بدأ الثلاثة الكبار الغناء للعهد الجديد ... ولتجيئ بعدها كل الأصوات الموجودة آنذاك وأصوات جديدة فى مقدمتها عبدالحليم حافظ - الذى أصبح مطرب العهد الجديد فيما بعد - لتغنى للثورة ... وليتحول الغناء الوطنى من الملك إلى الثورة . ■


قرط رشيدة
قصة : محمد كرزون
بريشة : سميحه حسنين

لم يكن صباحاً عادياً ذلك الذى شاع فيه خبر موت رشيدة فى القرية، فهى امرأة إن لم تكن دخلت كلّ بيت، فعلى الأقل كانت حديث كلّ البيوت.. أما الأطفال، فمناهم أن يذهبوا إليها فى بيتها، ليطلبوا منها الكشف عن أذنها المشرومة، فتتمنع فى البداية، ثم ما تلبث أن تحسر المنديل عن رأسها قليلاً لتريهم أذنها اليمنى وقد استطالت.. وهى لاتنسى أن تقدم للأطفال الزائرين السكاكر وبعض المأكولات الخفيفة مما يتيسر لها.

وحكاية أذنها بالأمس كانت حقيقة، وأما اليوم - بعد أن ماتت - فقد صارت أقرب إلى الأسطورة.. يذكر أهل القرية جيداً منذ خمس وعشرين سنة أو أكثر، عندما كانت رشيدة فى الثلاثين من عمرها، حديث أبى فارس معها، عندما جاء يشكو لها مرض ولده الوحيد فارس، وقال لها إنه قد تركه فى مستشفى المدينة، وأنهم طلبوا منه



دماً.. فقالت رشيدة: خذوا ما تشاؤون من دمى.. وعندما أكد لها أبو فارس أن دمها لا يصلح، فكت قرطها من أذنها اليسرى، ثم همت تفكه من أذنها اليمنى، فلم تسعفها يداها المرتعشة حزناً على فارس، فشدت القرط من أذنها، فشرمتها.. فأخذه أبوه فارس..

تبين أن الحكاية لم تكن مرض فارس، ولم تكن المشكلة حاجة إلى دم، ففارس كان فى المدينة فعلاً، ولكن من غير مرض، الحكاية هى أن أبا فارس كان يرغب فى شراء زوج حمام نادر، وليس معه ما يكفى..

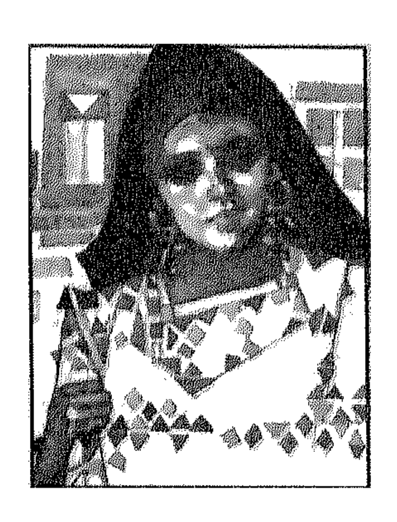
قرط رشيدة لم يكن فى الحقيقة قرطها وحدها، كان قرط أم جدتها، هو من الذهب العتيق، ومزدان بأحجار كريمة.. هذا القرط اشتهر بالرهن، فكلما شعر إنسان فى القرية بضيق مادى كان يلجأ إلى جدة رشيدة، لترهن له قرطها، ليفك أزمته.. وتنفرج الأزمة، ويصبح المعسر موسراً، ولكنه ينسى حكاية رهن قرط الحاجة رشيدة الكبرى، التى كانت - رحمها الله - على يقين من تصرف الناس معها على هذا النحو، ولذلك كانت تجمع بيض دجاجاتها، وتبيع ما يزيد عن حاجتها منه، وتحيك شالات من صوف أو من قطن، وتبيعها، وتجمع المبلغ، وتفك رهنية قرطها..

ولك أن تتخيل نفسية المرتهن، وهو يتسلم المبلغ، إنه يعد، ويعيد العد، ويدقق، لعل المبلغ يكون ناقصاً، لا لشئ سوى لأنه يريد أن يستبقى القرط عنده أكبر مدة ممكنة.. فقد شاع اعتقاد أن هذا القرط بالذات يجلب الرزق لمن يكون فى حوزته.

وتتكرر العملية مع رجال القرية ونسائها، فهذا يريد أن يشترى بغلة بعد أن وهنت بغلته المسنة، وتلك ترغب أن تزوج ابنها على حياة عينها، وذاك يريد أن ينزل إلى المدينة ليتعرف إليها.. وتتفتق عبقريات أهل القرية عن حاجات ورغبات، والقرط يرتهن، ثم يفك رهنه.. وعندما آل إلى رشيدة الحفيدة لم تكن تريد أن تبطل سنة أمها وجدتها وأم جدتها.. ورغم أنها كانت موسرة في أول أمرها، فقد كانت تحب أن ترهنه، لعلها تجلب البركة على المرتهن..

لم يكن قرط رشيدة وحده القابل للرهن، فهى ترهن حتى سجادتها العجمية، ولكن لا تقبل أن ترهن قدرها الكبير، فماذا تفعل إذا فوجئت بزيارة غير متوقعة لأكثر من عائلة من إحدى القرى المجاورة؟!

عمدت إلى شراء قرط جديد، وراحت تخبئه في علبته، فهو لا يرى النور إلا قليلاً عندما تتفقده وهى منفردة.. إنها تخبئه



لابنتها التى لم تأت.. فقد كانت الغصة الكبيرة لها أنها لم تنجب، وكانت تتساءل في نفسها: والدة جدتي أنجبت بنتاً وحيدة هي جدتي، وجدتي أنجبت ثلاثة أطفال لم يعش لها منهم سوى والدتي، وأنا وحيدة أمي.. هل كن مريضات بمرض ما، وترسبت كل اثار المرض في؟؟؟ ثم كانت تعزى نفسها وتقول : لا يابنت! ألا ترين بنات القرية.. إنهن كلهن يناديتك (أمى).. أنت أم حقيقية وإن لم تنجبى..

وقد تركت رشيدة القرط الجديد احتياطاً لعلها في يوم من الأيام تجبر على بيع القرط القديم، أو لا يعود من المدينة، فماذا تفعل؟ وماذا سترهن بعدها؟

ويقع المحظور، وتصل الحالة برشيدة إلى حد أنها يئست من أبى فارس أن يعيد إليها القرط.. هى لم تتأثر بشئ بقدر ما تأثرت بأن أذنها لم تعد تستطيع أن تعلق بها قرطاً، والقرط في أذنها - في حد ذاته - دليل بركة.. لا القرط القديم عاد، ولا الجديد ينفع في التئام شحمة أذنها المتدلية .. آه يا رشيدة!

مضت سنون، وأبو فارس يتناسى القرط.. ويتناسى رشيدة.. مواسم الخير تتلاحق، والأرزاق تتدفق عليه وعلى القرية جميعاً.. ووعده بإعادة القرط ذهب أدراج الرياح.. صحيح أنه باعه - كما أشيع في القرية - إلا أنه من المهم أن يزور رشيدة ليخفف من معاناتها بعد أن فقدت زوجها مبكراً، ويحمل بيده شيئاً من الخيرات وبعض الدراهم، فرشيدة اليوم غير رشيدة بالأمس.. وهى تكابر.. تتظاهر بالسعة.. ولكنها تهزل.. المرض يأكل جسمها أكلاً، وربما

الجـوع مـعـه، والمكابرة تتعاظم..

رشـيـدة بـحـاجـة إلى غــــذاء.. إلى أى إدام.. أهل القـرية كلهـم ينظرون إلي أذنيـهـا.. لعلهم يرون قـرطاً جـديداً، فـتـرهـنه لأحـدهم.. أذنا رشــيــدة مـجـردتان من أى حلي.. وجسدها يزداد نحـولاً.. أرزاق كـثـيرة ضـاعت أو أهديت أو تبــددت.. ولم يبق لها سـوى جارتها أم صـالح.. التي تؤوى لهـا ثلاث غنمـــات وعنزة، فتنفعـهـا بحليـبـهـا، ولا تـنسـى أن تحــــســب حسابها بخبز طازج كلما عجنت وخبزت..

العمر يتقدم برشيدة، وكــذلك المرض، وتذهـب إلى صندوقـهـا، فـتـخـرج منه القـرط الجـديد الذى ادخرته ليوم كهذا، وتقرر أن تـذهـب إلـى المـديـنـة لتبيعه وترى طبيباً يرى حالتها ويكشف عن سبب وهنها وضعفها..

تصـــادف أن كــانت رشيدة في الحافلة نفسها التى يستقلها أبو فارس.. ولكنها لم تنتبه لوجوده.. فكت صـرة صـغـيـرة، وأمكست بالقرط الجديد تقلبه، فلمع بريقه، وجذب نظر أبي فـارس.. اقـتـرب منها بهدوء دون أن تنتبه لحركته.. ربت على كتفها، فــفــزعت.. قـــال لهـــا بابتسامة باردة:

– قـرط؟! ومـاينـفـعك القرط وأذنك مشرومة؟!

لفت رشيدة صرتها، ولم تجـبـه، وتلملمت على بعضـهـا.. أما أبو فارس، فقد أغراه القرط فى أن يقدم اقتراحاً لها:

– رشــيــدة ! أنت تحــبين أهـل القـــرية جـمـيـعـاً.. وفـارس مـثل ابنك.. بل هو ابنك حقاً.. مــــا رأيك لو تـرهـنـين القرط؟ فـحفيدى – ابن فــارس – مـقـبـل على الزواج! فنفـرح وتفـرحين معنا..

فلتت من رشـــيــدة كلمـــات لم تدر كــيـف



خرجت، قالت له:

– أمـا زال الدم الذى اشـتـريتـه بـثـمن القـرط العـتيق يجرى فى عـروق فــــارس؟ أم أنـت الذى تحـتـاج إلى دم جـديد؟! هل نشف دمك؟!

ابتعد أبو فارس عنها بعد أن قطب حـاجبيه.. لامت رشيدة نفسها على طريقة ردها.. أغـمـضت عينيها.. أسندت رأسـها إلى مسند المقـعـد الذى أمـامـهـا.. اعـتـصـرت عـيـنيـهـا.. بللت الدمـوع حجرها.. شهقت.. ارتمت علـى أرض الحــافـلـة.. وفارقت الحياة..

عندما أعيدت رشيدة إلى بيـتـهـا سـارعت أم صـالح لتـعلن للناس أن وصـيـة رشـيـدة أن يبـاع القـرط الجديد لينفق ثمنه على دفنهـا.. ولم تدر أن رشـيـدة قـد عـادت وقد فـارقـهـا القـرط كـمـا فارقتها الروح..

ومـــــازال النـاس يبحثون عن قرط رشيدة ليـعـيـدوا البـركـة إلى القـرية.. تلك القـرية التى فـقـدت قـرط رشـيـدة العتيق.. وأضـاعت قرطها الجديد.. ■



طريق السعدني إلى نمش...

شهادة الضحك في زمن البكاء

بقلم

د. فهمي عبد السلام

« وبعد معركة السبارس الكبرى أثبتت التجربة أن الخط السياسى للولد أحمد شوقى الصاعقة هو الخط السياسى السليم»

محمود السعدني

قضى السعدنى كاتبنا الساخر الكبير السنوات من مطلع سنة ١٩٥٩ حتى ١٩٦١ معتقلاً بتهمة الشيوعية ، وتم القبض عليه ضمن التجريدة الكبيرة التى قامت بها سلطات ذلك الزمان على الشيوعيين ، ولم يكن السعدنى شيوعياً فى يوم من الأيام ، ومع هذا وجد السعدنى نفسه معتقلاً مع الآلاف منهم ، وكان من المحتم أن يتم الصدام بين عتاة «الحنجورى» وبين السعدنى الفنان الساخر ابن البلد المحب للناس وللحياة ، فانهالوا عليه بالاتهامات، التى تراوحت بين « كاتب البورجوازية الصغير » و« الفوضوى» وبالعمالة للأجهزة ولوكالات المخابرات المركزية ، وأوسعوه اتهاما، فأوسعهم السعدنى تريقة وسخرية ومقالب وتشنيعاً ..، رافعاً شعار أن التنكيت والتشنيع علي الكيف ..

وفى « الطريق إلى زمش» ، ذلك العمل الساحر الجميل الصادر سنة ١٩٩٣ ، يحكى السعدنى بقلمه الساخر عن العامين اللذين قضاهما فى المعتقلات ، عامين من الضرب والإذلال والإهانات والجوع والحفاء وتحليلات الزعماء الحنفشاريين وغباوة حراس السجن وضعف عقل الرفاق ، وخلال كل تلك المحن يلتقط كاتبنا مواطن الضحك فى قلب المأساة، فيجعل القارىء يضحك من الأعماق ، والجميل أن الضحك يأتى وكأنه البكاء .. كما يقول المتنبى العظيم .

يضحكنا السعدنى عما فعله بأحد قيادات الحركة الشيوعية ، بعد أن استقر بهم المطاف فى معتقل الواحات ، اكتشف السعدنى أن لليهود سطوة كبيرة فى الحركة الشيوعية ، وأن عددا كبيرا منهم غير ديانته إلى الإسلام ، وتسمى باسم مصرى ، كى لا يتسببوا فى حرج لمنظماتهم بعد قيام إسرائيل .

الزعيم المحنبط

أحمد صادق سعد كان واحداً من هذه الفئة ، والذى لفت نظر السعدنى إلى صادق سعد هو غرابة هيئته وسلوكه ، فقد لاحظ السعدنى ، أن صادق سعد يقف فى حوش المعتقل يلف ويدور حول نفسه ، ويرتدى شورتاً وقميصاً مفتوحاً حتى بطنه ، والسيجارة تتدلى من شفتيه، ولا يتحدث إلى أحد المعتقلين ، وأن علامات السعادة لا تبدو على وجهه إلا إذا تحدث بالفرنسية ، وقرر السعدنى الخفيف الظل أن يعابث الزعيم « المحنبط» ..

ذات صباح وصادق سعد يقف فى الحوش كالعادة فعاجله السعدنى بتحية الصباح قائلاً .. «بونچور» فتخلى صادق سعد عن ترفعه التاريخى وهات يارطانة بالفرنسية ، ولم تكن حصيلة السعدنى من كلمات اللغة الفرنسية تزيد على كلمتى «بونچور» و« وى» ، فراح صادق سعد يرطن والسعدنى يتظاهر بالفهم ويقول «وى»، ويبدو أن صادق سعد ألقى على السعدنى بسؤال وكان ينتظر إجابة ، ولما جاءت إجابة السعدنى بكلمة « وى» فطن الزعيم المتعجرف أن السعدنى عابث ، فغضب غضباً شديداً ، فضحك السعدنى عند افتضاح جهله الفرنسى ، الأمر الذى أحنق صادق سعد المزيد من الحنق .

وتصادف هذا الموقف مع مرور إبراهيم العطار ، صول الطيران ابن البلد المرح وعضو زمش ، وحاول العطار أن يطيب خاطر صادق سعد ، فما كان من صادق سعد إلا أنه انهال على العطار بوابل من الشتائم واللعنات ، ويحكى لنا السعدنى كيف تحالف ـ السعدنى والعطار ـ ضد صادق سعد ، إذ راحا بعد هذه الواقعة يلاحقانه فى وقفته التاريخية فى حوش المعتقل بالتنكيت والقفشات والتعليقات المضحكة ، وصادق سعد متشبث بعظمة وترفع لا يتنازل حتى ويلقى عليهما بنظرة واحدة .

وبعد أسبوع واحد من حملة السعدنى المشاكس والعطار المرح على صادق سعد، جاء زميل ليقضى السهرة فى زنزانة السعدنى والعطار ، اللذين تصوروا أن الزيارة دافعها الصداقة ، وفى منتصف



الليل أفصح الزميل عن سر الزيارة ، إذ نظر الزميل إلى السعدنى وقال وقد اتخذت ملامح وجهه تعبيرات كبار المسئولين الذين يحملون على أكتافهم هموم البشر :

- اسمع يا سعدنى .. انت وإبراهيم العطار بتنكتوا على صادق سعد ... لعلمكم أن صادق سعد علامة فى الحركة الشيوعية المصرية .. ولعلمكم كمان أن الشيوعيين لما دخلوا شنغهاى علقوا اللى زيكم فى المشانق ..!!.

ضحك السعدنى وقال للزميل المخدوع فى أشياء كثيرة أقلها مسألة صادق سعد.

- لما تدخلوا القاهرة يحلها ألف حلال بإذن الله .. ادخلوا أنتم وحاتفرج ساعتها.

كان السعدنى واثقاً أن الشيوعيين لن يدخلوا القاهرة ظافرين ، ولو خرجوا من المعتقل فحسب فهذه نعمة كبيرة من رب العرش العظيم ، والجميل أن الزميل الذى جاء لترويعهما من مغبة التريقة على قيادة تاريخية، لم تمر عدة شهور إلا وجاء حاملا متاعه القليل إلى زنزانة السعدنى والعطار ، منضما إلى تنظيم زمش .

بين الزميل والرفيق

لما وجد السعدنى أن المنظمات الشيوعية قد اتخذت لنفسها أسماء عجيبة. مثل «ط ش» و«وش» و«دش»، وهى الحروف الأولى لكلمات كبيرة لا تتناسب مع بؤس وضعهم من جوع وإذلال وتعذيب، فـ «طش» هى طليعة الشيوعيين.. و«وش» هى وحدة الشيوعيين، قرر السعدنى تكوين تنظيم خاص به، يضم إليه أولاد البلد والعقلاء ممن يكابدون من الزعامات التاريخية، وعلى غرار «وش» و«طش» .. الى آخره، اطلق السعدنى على حزبه الأغر اسم «زمش» وهي اختصار لثلاث كلمات لا علاقة لها بنضال أو بمواقف تاريخية كبيرة، فـ «زمش» هى الحروف الأولى لـ «زى ما انت شايف» ..

كان السعدنى هو «خروشوف» «زمش»، وكان ابراهيم العطار هو اللجنة المركزية، واعتاد العطار ان يخرج كل صباح إلى أطراف الصحراء، ليشاهد بنفسه قوافل السيارات التى ستأتى حاملة أمر الافراج عن المعتقلين، وكل صباح يخرج العطار ينتظر قوافل الافراج ويعود، ولا يكل العطار من هذه الرحلة الصباحية ولا يعدم الأمل، وانضم السعدنى الى العطار، وبعدها انضم اليهما عدد من الرفاق فى زمش، وكان هذا السلوك الطبيعي لأناس مساكين يحلمون بالحرية ، يثير حفيظة غلاة «الحنجورى» الذين كانوا ينظرون إلى سلوك قافلة الإفراج باحتقار شديد .

وبينما كانت قافلة الإفراج عائدة من رحلتها الصباحية كالعادة ، قابلهم الزميل ضياء ... كان الرفيق ضياء عضو لجنة منطقة بالحزب الشيوعى المصرى ، وكان

هذا الرفيق يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الحزب الشيوعى المصرى كان مستهدفا من كل أجهزة المخابرات على مستوى العالم، وكان واثقاً أن الـC.I.A والمباحث الفيدرالية والمكتب الثانى الفرنسى وأجهزة المخابرات للأنظمة العربية لا هم لها إلا أن تتابع خطوات الرفيق ضياء وأن تحاصره تمهيداً لتصفيته جسدياً ، باعتباره عقبة كئود ضد مخططاتها ، فإذا ما تم لها ذلك وانتهت منه ، خلا لها الجو لكى تحكم قبضتها على المنطقة العربية بأسرها فى غياب الرفيق ضياء .

كان الرفيق ضياء شأن كل « القتلة » فى الحزب الشيوعى المصرى - وهذا هو تعبير السعدنى نفسه - ينظرون إلى مسلك العطار باحتقار شديد ، وبينما كانت قافلة الإفراج عائدة ذات صباح ، التقت بالزميل ضياء الذى كان كئيباً متشائماً ، وكان ضياء المعتم النفس يقوم بجولته المعتادة متجهم الوجه كالعادة مكفهر السحنة وهو ينفخ بشدة فسألهم متهكماً .

- الإفراج وصل ؟!..

فرد عليه إبراهيم العطار .

- بكره الصبح إن شاء الله ..

- إبقى قابلنى إذا بكره ده جه ..

ووجدها السعدنى فرصة للجلوس مع الرفيق القرفان من الدنيا والناس ، فقال لهم ضياء أن الفرق بينه وبينهم أنه يرى الأمور بوضوح ، وأن المصير واضح أمام عينيه ، فالحقيقة أن الحركة الشيوعية تخوض المعركة الأخيرة ضد الرجعية والفاشية ، والمعركة ستنتهى قريباً جداً بشنق كل القوى التقدمية واليسارية ، وبينما تنتظرون الإفراج فالإعدام ينتظركم بأسرع مما تتوقعون .

وحينما حاول إبراهيم العطار التخفيف من سوداوية الرفيق ضياء ، نهره ضياء قائلاً :

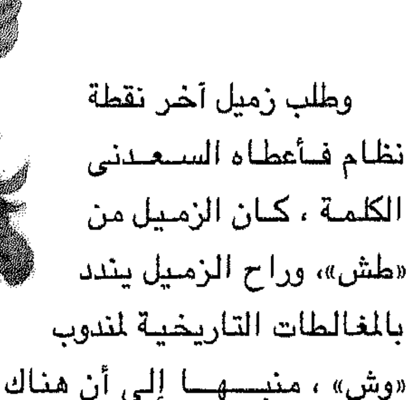
- انت بالذات ستكون فى أول دفعة تواجه الإعدام ، وسأرثى لتفاؤلك وأنت معلق على حبل المشنقة ... يضحكنا السعدنى على الرفيق ضياء بنفسه المشرقة ونفسه السمحة وقلبه الذى مثل الفلة البيضاء ، فأطلق عليه السعدنى لقب «ضياء إعدام » ، ورد ضياء إعدام على اللقب بإطلاق لقب إفراج على إبراهيم العطار الذى صار ... إبراهيم إفراج ..

وليمة تعذيب

.... فى الشهور الأولى للحبسة طابت الأمور فى معتقل الواحات ، وأصبح حزب زمش يضم ٢٥ عضواً وعاطفاً وضم خيار المثقفين الهاربين من جحيم الزعامات التاريخية ، كان منهم د . عبدالرازق حسن وعلى الشلقانى والمناسترلى وغيرهم .،، وقررت إدارة المعتقل السماح بإقامة حياة عامة للمعتقلين ، وكان حزب زمش



أغنى تنظيمات المعتقل ، وطلب الحزب الشيوعى المصرى الانضمام إلى الحياة العامة ، وقرر السعدنى، خروشوف زمش، قبول انضمام « المصرى » إلى الحياة العامة ، باعتبار أنه إذا كان حزب زمش يختلف مع الشيوعى المصرى فى الموقف السياسى ، إلا أن زمش لن يختلف مع المصرى في الشاى والسكر والدخان ، وتم شراء المواد الغذائية ، وتم تعيين السعدنى مشرفاً عاماً على الحياة العامة ، وتم جلب الشاى والسكر والمعلبات والخضراوات والتفاح والكمثرى وتم تخزينها فى غرفة مفتاحها مع السعدنى ، ولم يتبق سوى توزيع الطعام وفقاً لأعداد كل منظمة ، وظن السعدني أن الموضوع بسيط ، فعلى كل تنظيم أن يبعث بأحد المندوبين لأخذ نصيب التنظيم ، وبدأ اجتماع ممثلى المنظمات وطلب الزميل سيد عبدالله من « طش» الكلمة . وتحدث سيد عبدالله فى حماس وثقة ، وطلب أن يلفت نظر الرفاق إلى الأخطاء التاريخية التى حدثت فى الحياة العامة فى معتقل الأوردى ، حينما تولى الرفيق حسان من « دش » عملية التوزيع ، فلم يمنح « طش » إلا النذر اليسير من السلامون والطماطم، الأمر الذى أدى إلى كوارث تاريخية أدت إلى مصرع مناضلين أصحاب تاريخ مضىء .



وطلب زميل آخر نقطة نظام فأعطاه السعدنى الكلمة ، كان الزميل من «طش»، وراح الزميل يندد بالمغالطات التاريخية لمندوب «وش» ، منبهاً إلى أن هناك مؤامرة على «دش » ليس فقط من الخارج ، لكن المؤامرة هذه المرة تأتى من منظمات ترتدى عباءة الماركسية لتخريب الحركة كلها ، فقام سيد عبدالله وطلب حق التعقيب ، فسمح السعدنى له ، فقال سيد عبدالله ... فى الواقع .

وراح السعدنى فى سبات عميق فبحراً من الكلام ثم الكلام ثم الكلام ، واستيقظ ليجد أن الشمس قد غربت وأن الاجتماع انتهى ، وعندما سألهم عن النتائج ، قالوا له إنهم لم يصلوا إلى أى شئ ، وأنهم سيواصلون النقاش باكر بإذن الله ...

.. أسبوع كامل والرفاق يجتمعون من الصباح الباكر حتى المساء ، وهات ياتنظير وهات ياخطب وهات ياسرد تاريخى لجرائم تاريخية موثقة ودامغة ، لما جرى للزميل على وزة فى معتقل الزيتون ، وعن المصير الهباب الذى انتهى إليه الزميل عبده زقلط فى معتقل روض الفرج، تلك الجرائم التاريخية الرهيبة التى لن يغفرها التاريخ ، والتى نتجت عن سوء الحياة العامة فى تلك المعتقلات ، وفاض الكيل بالسعدنى فقال لهم :

- يازملا ... سنجتمع هنا غداً وإذا لم

تصلوا إلى اتفاق سينسحب تنظيم «زمش» من الحياة العامة لكن ذلك الاجتماع لم يتم، والذى حدث أن إدارة السجن غيرت معاملتها فجأة ، وجاءت فرقة إسماعيل همت للتعذيب ، وتم تعرية المعتقلين ، وكانت الأوامر تصدر إلى العسكر والتى سمعها السعدنى من خلف الأبواب :

- ابعد عن الراس والبطن وتضرب بكل قوتك ..

كانت ليلة سوداء أسود من قلب الكافر على حد تعبير السعدنى ، ضرب وحشى بالأقدام وبالهراوات ، وتحول البعض إلى «كفتة » بشرية ، وغنى عن القول أن الأطعمة تمت مصادرتها ، وتوجه السعدنى الظريف خروشوف زمش بالدعوات على أهل الحنجورى ، فبدلا من آن يقسموا الكمثرى والتفاح والسلامون والحلاوة والبلوبيف ، ويأكلوا مثل خلق الله، فضلوا التنظير والسرد التاريخى لتوضيح أبعاد المؤامرات الدولية على الرفيق على وزه والرفيق عبده زقلط .

قرار « زمش » التاريخى

كان السعدنى يسير فى حوش المعتقل بعد العلقة الرهيبة ومعنوياته فى الحضيض ، ولمح أحد الزملاء الذى كان يبكى ، فواساه السعدنى بكلمات من نوع شدة وتزول ولا يهمك يا زميل ، فإذا بالزميل الباكى يقول :

« أنا مش بعيط على نفسى ... أنا بعيط على الزملا » .

فقال له السعدنى :

- أنا بقى بعيط على نفسى يازميل ... وكفاية نصب بقى ..

البكاء من تأثير الضرب الوحشى والإهانة التى تلحق بالإنسان من جراء القمع البدنى ضعف إنسانى مقبول ومبرر، وأى شعور آخر ادعاء كاذب ونصب لم يقبله السعدنى ، الذى يحكى لنا عشية العلقة ، كيف رأى شخصاً ضعيف الجسد جداً يسير فى الحوش ، ولا يستر هيكله العظمى سوى الهلاهيل الرثة وحافى القدمين ، ومضروبا ضرب الإبل ، ومع ذلك كان يسير فى الحوش وكأنه ستالين يتفقد القوات الحمراء ساعة النصر ، وعندما سأل السعدنى عنه ، علم أنه معلم إلزامى وزعيم كبير يعتقد فى نفسه أنه ستالين جديد .

... وبعد أن أعلنت إدارة المعتقل سياسة العصا الغليظة ، كابد المعتقلون محناً جديدة تتعلق بالطعام والشاى والسكر ، ومن شدة الجوع أكلوا نباتاً شيطانياً فى الصحراء بنهم شديد ، واتضح فوراً أنه نبات الخروع ، وكاد

الرفاق يهلكون ، وفوق محنة الجوع كابد السعدنى خروشوف حزب زمش محنة الحرمان الشديد ، وذات صباح حارق من صباحات شهر أغسطس، وصحراء الواحات كأنها جهنم الحمراء ، قرر السعدنى أن تحل مشكلة السجائر ، معتمدة فى ذلك على غطاء فكرى سابق للزميل أحمد شوقى عبدالهادى الشهير بشوقى الصاعقة ..

... ولابد أن نقف قليلاً عند أحمد شوقى الصاعقة أحد أعمدة حزب زمش ، المرة الأولى التى رأى خلالها السعدنى الزميل شوقى الصاعقة كانت خلال الأيام الأولى للحبسة ، وكانا ضمن أربعة ضمتهم زنزانة واحدة فى سجن القلعة ، وكان أحمد رشدى صالح ضمن هؤلاء الأربعة ، ولاحظ السعدنى وجود شاب طويل بدرجة ملحوظة يبكى باستمرار وبصوت عال الأمر الذى أحنق أحمد رشدى صالح فقال له فى غضب :

- يا بنى عيب عليك تبقى راجل طويل عريض كده وتقعد تعيط .

فلوى الشاب الطويل عنقه نحوهما وقال لرشدى صالح :

- والله يا سعادة البيه أنا ما عملت أى حاجة .

فرد عليه رشدى صالح غاضباً .

- انت بتقول لى أنا ... ، إبقى قول لهم لما يسألوك ودلوقتى بطل عياط وبلاش توجع دماغنا إحنا مش ناقصينك .

وكف الشاب عن البكاء ومسح دموعه بطرف جلبابه ، ثم التفت إلى رشدى صالح وقال :

- إحنا حانخرج امتى يا سعادة البيه

فرد عليه رشدى صالح غاضباً .

- هو إحنا دخلنا لسة لما نخرج .. استنى لما ندخل وبعدين اسألهم .

وفى المرة الثانية التى رأى السعدنى شوقى الصاعقة كانت بعد فترة ، ورآه السعدنى فى وضع مختلف ، إذ كان يرتدى بنطلون شورت وفانلة مثل لاعبى الكرة ويحمل براداً كبيراً ، ويزعق بأعلى صوت قائلاً :

« حد عايز شاى يا زملا » .

وظن السعدنى أنه ابن بلد كريم وبحبوح يسقى الزملاء الشاى على حسابه، لكنه اكتشف أن صاحبنا يبيع الشاى مقابل السجائر ، واستدرجه السعدنى فحكى له قصته ، لم يكن للصاعقة علاقة بالشيوعية ولا بغيرها ، فهو ابن ناظر مدرسة أولية ، ويعمل فى مديرية التحرير ويسكن فى قرية منيل شيحة بالجيزة ، وأنه كان يستضيف زملاءه فى العمل فى بيته ، وكانت سعادته بزياراتهم عظيمة لأنهم كانوا يحملون معهم الدخان المعسل والحشيش ، وتكررت الزيارات وكانوا أثناء القعدة يتحدثون عن حزبهم وضرورة النضال ضد الفاشية ، ولم يجد شوقى الصاعقة

فى هذه الأحاديث ما يلفت النظر، فالمهم أن الجوزة شغالة والنار لا تنطفئ وبراد الشاى شغال ، فتم القبض عليه باعتباره شيوعياً !! ووجد نفسه داخل المعتقل مثل الأطرش فى الزفة، وبعد أن يأس من الإفراج، أصبح لاهم له سوى السجائر ، وبدأ الصاعقة يلم أعقاب السجائر ويعيد لفها ويدخنها ، وقرر السعدنى ضم الزميل شوقى إلى حزب زمش ..

... واتخذت قيادة زمش (السعدنى - العطار) فى ذلك الصباح ، قرارها التاريخى بلم أعقاب السجائر وإعادة تصنيعها للقضاء على خرمان أعضاء التنظيم ، وأبلى حزب زمش بلاءً حسناً فى موقعة السبارس ، وكان أكثر الرفاق إخلاصاً فى المهمة الحزبية هو الرفيق شوقى ، الذى اكتسب اسم الصاعقة خلال تلك المعركة التاريخية، لأنه كان ينقض على عقب السيجارة مثل الصاعقة، ولا يصده عن ذلك صفعات العساكر أو شلاليت البيه المأمور، وبعد خمسة أيام من القرار التاريخى، كانت حصيلة أعضاء زمش قيادة وشغيلة أكثر من ٥٠ عقبا فى اليوم الواحد .

وفوجئ زعيم زمش بحضور اثنين من غلاة الحنجورى من أجل حوار مهم وخطير مع زمش، وقال الزعيمان كلاما كبيرا عن الظرف التاريخى للاعتقال، وصراع الإرادات بين ادارة المعتقل وبين المعتقلين والمطلوب بعد كل هذه المقدمات هو أن يكف أعضاء زمش عن لم الأعقاب لأن هذا السلوك يسىء إلى الحركة كلها.

- أنت كاتب معروف ومن الواجب ان تكف عن التدخين اذا كان التدخين عن هذا الطريق .

هكذا قال السيد الحنجورى فى أهمية ورصانة شديدتين فعاجله السعدنى قائلا :

- أنا كاتب معروف وأرغب رغبة شديدة فى تدخين السجائر وليس هناك سبيل إلى تدخينها إلا عن هذا الطريق، كما أنك انت الآن أيها الرفيق تدخن هذه السيجارة التى أخذتها منى وهى من نفس الطريق وزميلك ايضا شفط عدة أنفاس عميقة عن هذا الطريق .

فضحك الرفيق خجلا وقال انت كل حاجة تقلبها هزار .

.. وفى اليوم التالى حضر الرفيقان ومعهم رفيقان آخران ، وكل يوم يزداد عدد الرفاق حتى وصلوا الى عشرة رفاق، حضروا ليقنعوا زمش أن تكف عن لم السبارس، وأثناء الاجتماعات كان الرفاق إياهم يدختون سجائر زمش فى شراهة، حتى أن شوقى الصاعقة كان يتعمد أن يملأ سجائرهم بالتراب وبالقش، ومع هذا كانوا يدخنونها بشراهة، ولم تأبه زمش، واستمرت فى سياسة لم الأعقاب وكان الفضل الأكبر فى هذا لمحب الدخان

وعاشقه الأول شوقى الصاعقة، الذى بلغت درجة تهافته على التدخين، أن حدثت كبسة واضطر أعضاء زمش إلى إلقاء حصيلة اليوم فى جردل البول، وبعد انتهاء الكبسة وفى حلكة الليل، استيقظ السعدنى ليجد الصاعقة مشغولا بتجفيف السجائر وإعادة صناعتها ، ولما نهره السعدنى قائلا له دى ريحتها بول، قال الصاعقة وايه يعنى ماالحنا شربنا البول نفسه.

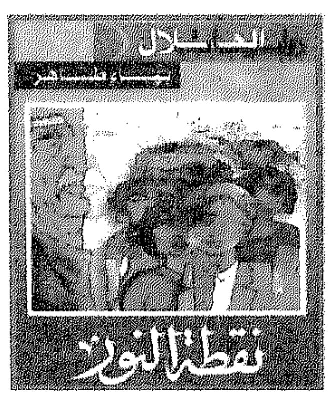
المهم أن الرفاق لم يعد أحد منهم يأتى الى قيادات زمش، فقد حذت بقية الأحزاب حذو زمش، وأمرت أعضاءها بلم الأعقاب، وأثبتت التجربة أن الخط السياسى لعاشق الدخان أحمد شوقى الصاعقة ، كان الخط السياسى السليم

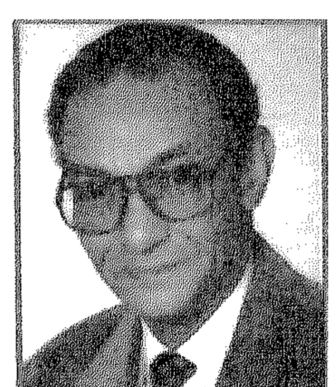
السعدنى ورؤيته الثاقبة

.. رغم كل نوادر ساخرنا الكبير محمود السعدنى، إلا أنه بفطرة ابن البلد الأصيلة فطن إلى بيت الداء، ولم تنطل عليه شعارات الحنجورى، وأدرك ان كارثة التنظيمات الشيوعية المصرية كانت فى نشأتها ، هذا التيار السياسى الذى كان له وجود فى الساحة المصرية، وضم اليه العديد من اللآلئ الحقيقية ممثلة فى عشرات الموهوبين، هذا التيار كان محكوما عليه بالضياع، اذ قام بالإنشاء مجموعة من اليهود الخواجات القادمين من وراء البحر، فكان لابد أن يظل غريبا وان يستمر غريبا وان ينتهى غريبا. وتحت عباءة السرية تسرب المئات من الجهلاء والصياع، ووجد بعض أصحاب العاهات النفسية فرصتهم للسيطرة وللقيادة ، وراحوا يفكون عقدهم بالسيطرة على كل هذا الطابور الطويل من الموهوبين والمخلصين والشرفاء .

فما أعظم التضحيات وما أبخس النتائج، دفع الشيوعيون المصريون دم القلب من أجل الحصول على لاشىء وبددوا العمر من أجل تحقيق لا شىء وخرج الجميع من المولد بلا حمص، واكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم لم يكونوا فى المولد، بل كانوا فى سوق لم يستفد منها سوى الانتهازيين، حيث أصبح البعض منهم دكاترة وأغلبهم حصل عليها من المنطقة الحرة فى مطار تشيكوسلوفاكيا وبعضهم حصل عليها من سوبر ماركت فى هولندا.. وكان الثمن ضياع عشرات ومئات من المواهب المصرية الحقيقية.

.. تحية إلى كاتبنا الساخر العظيم محمود السعدنى الذى ابدع زمش ورأى الحقيقة «سوداء بلون تراب الوطن» كما يقول شاعرنا الراحل الكبير أمل دنقل، وأمد الله فى عمر كاتبنا الكبير محمود السعدنى . ■



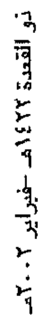


نقطة النور

والبحث عن السلام المستحيل

بقلم
د. صبرى حافظ

تمثل رواية بهاء طاهر الجديدة (نقطة النور) نقلة نوعية فى كتابة هذا الكاتب القدير، تستحق من النقد التريث عندها قليلا، فقد انفق الكاتب خمس سنوات من العمل المتواصل الدءوب في كتابة هذه الرواية المهمة. لذلك على النقد محاولة التعرف على طبيعة ما تقطع مع إنتاجه السابق، ونوعية ما تصل معه، فهي برغم تشكيلها لنقلة مهمة فى كتابته، فإنها فى الوقت نفسه ذات صلة وثيقة بعالم هذا الكاتب الحميم، وخاصة مع قصة العنوان فى مجموعته القصصية (أنا الملك جئت). لأن البحث فى هذه الرواية الجديدة، بحث عن الذات فى ألقها الصافى النقى، وعن سلامها الداخلى العميم، بقدر ما هو بحث عن العدل بمعنييه الميتافيزيقى والاجتماعى معا. فالمعنى الميتافيزيقى هو الذى يشد الرواية إلى قصتى (أنا الملك جئت) و(سأعطيك بركة) وبعض قصص (ذهبت إلى شلال) بينما يشدها المعنى الاجتماعي إلى (شرق النخيل) و(قالت ضحى) و(خالتى صفية والدير).



وإذا كانت هذه الروايات الثلاث ومعها روايته الأخيرة (الحب فى المنفى)، قد اهتمت بقضايا الواقع الاجتماعى والسياسى ورصدت تغيرات الواقع المصرى من الستينات وحتى الثمانينات، وجسدت ما اعترى الشخصية المصرية من تحولات تحت وقع معاول التغيير أو التقويض الذى انقض على المجتمع المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧، وتواصلت ضرباته المصمية حتى الآن، فإن هذه الرواية الجديدة تهتم هى الأخرى . بوقع هذه الضربات على الإنسان المصرى فى العقود الثلاثة الممتدة من السبعينات وحتى التسعينات مع اختلاف جوهرى هو خفوت حدة الدراما التى تتوهج فى (قالت ضحى) و (خالتى صفية والدير) و (الحب فى المنفى).

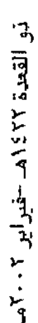
وخفوت حدة الدراما فى هذه الرواية الجديدة، والذى صاحبه إيقاع هادئ رصين ، إيقاع يوشك أن يطرح نفسه فى النص كنقيض لصخب الواقع وتطوراته التحتية الصادمة، ليس مجرد خاصية فنية تتسم بها هذه الرواية دون بقية الروايات ، ولكنه فى الوقت نفسه المعادل الروائى لما انتاب الواقع المصرى فى الفترة التى تتناولها الرواية من تغيرات مزلزلة. فبهاء طاهر فيما يبدو شديد الوعى ، وبشكل حدسى خالص ، بما يدعوه النقد الأدبى الحديث بـ «محتوى الشكل». أى أن للشكل الروائى، وكل ما يتعلق به من تقنيات سردية، محتواه الدلالى الذى لاينفصل بأى حال من الأحوال عما كان يدعوه النقد الأدبى فى الخمسينات بالمضمون.

جسدت الرواية التحولات الاجتماعية الصادمة لمرحلة التسعينيات فى مصر

بل هو المضمون الأهم فى التحليل النصى للعمل الروائى، لأنه المضمون الذى يصوغ بنية العمل ويشكلها فقد تجاوز النقد الحديث القول بالعلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، إلى القول بأن للشكل نفسه، مصادراته، والمسكوت عنه فيه . فهو أهم ما فى العمل الأدبى، وهو ما يميزه عن غيره من صيغ التعبير المختلفة .

أخطر منطلقات الرواية

ولذلك جاء اختياره لشكل هذه الرواية كاختيار لموضوعها وعالمها ورؤاها. لأن محتوى الشكل هو ما يصوغ لنا تلك النقلة النوعية التى تحدثت عنها فى مطلع هذا المقال. لأنه ينطوى على أخطر منطلقات هذه الرواية، وأهم ما تطرحه من قضايا. فقد جسد هذا الشكل بصوته الروائى الخافت، ومروره العفوى المراوغ على التحولات الاجتماعية الصادمة، أو حتى سكوته العمدى عنها، ما يمكن دعوته بالبنية الجوهرية لمرحلة التسعينات المصرية. بنية يبدو فيها أن صوت التطورات الدرامية بالغ الخفوت، ويمكن غض الطرف عنه، وأن كل ما يحدث لايستحق الاهتمام به، ولكن هذه البنية المراوغة ذاتها تخفى تغيرات مزلزلة للقيم



والعلاقات على السواء ، وتتستر على داء اجتماعى وأخلاقى وبيل لابراء منه، وتكتب لنا التردى والتداعى والدمار تحت قشرة العادى والمألوف في حياة هذه الأسرة الشعبية البسيطة. وما يدعم هذا التأويل لمحتوى الشكل فى الرواية عندى هو العلاقة المعقدة بين زمن السرد والمجال الزمنى الذى يغطيه هذا السرد. فزمن السرد هو الزمن الذى اختارت الرواية أن تدور أحداثها الأساسية فيه، وهو الفترة الممتدة من عام ١٩٧٥ وحتى التسعينات وتداعى بيت الأسرة الآيل للسقوط منذ زمن وإخلاؤه. أما المجال الزمنى الذى يغطيه هذا السرد، فيشمل حياة بطلها الرئيسى «توفيق السعدى» كلها. أى يشمل القرن العشرين بأكمله، وما انتاب الإنسان المصرى والحياة الاجتماعية المصرية فيه من تحولات. فنحن نعرف أنه قد ولد فى أول سنة من القرن، وقدر عليه أن يحمله على كتفيه حتى اقترب القرن من نهايته. ونعرف تفاصيل حياته شابا، وما جرى لابنه وحفيديه من بعده. لكن أهم ما يدعم هذا التأويل عندى هو الدلالة الاستعارية والروائية لما جرى للبيت الذى ورثه «توفيق السعدى» عن أبيه، وحاول ترميمه حينما بدأت الصدوع تظهر فيه. ولكن هذا الترميم الذى دار - لدلالة التوقيت الزمنى المهمة - فى زمن الانفتاح ، أساء للمبنى ولم يشد أزره، فكان من الطبيعى أن ينهار البيت كله، وأن تتقاسم أرضه أهواء الطامعين. وتصدع البيت وتهدمه علامة روائية بالغة الأهمية، علينا ألا نغفل عن ظهور صدوعها الأولى



فى القسم الأول من الرواية ، وبلوغ هذه الصدوع، بعد محاولة الترميم الغريبة، مداها فى قسمها الأخير، بإجبار الحكومة السكان على إخلاء العقار وهدمه .

علاقة جدلية

وعلاوة على هذه العلاقة الجدلية المهمة بين زمن السرد فى الرواية، وتركزه فى القاهرة وفى حى السيدة زينب الشعبى الذى يقع فيه بيت الأسرة الأساسية فيها، والمجال الزمنى الأوسع الذى يغطيه سردها ، وينتقل معه فى مجال جغرافى يمتد من أسيوط فى الصعيد حتى المنصورة فى الوجه البحرى، هناك أيضا هذا المجال القيمى الأوسع الذى يطرح قيم عالم قديم فى مواجهة قيم العالم الجديد الذى انبثق بعد الانفتاح فى مصر، وانتهى بقعقعة انهيار البيت الكبير كله. وتقدم الرواية فى هذا المجال مجموعة من التنويعات المتعددة على هذا الجدل أو الصراع بين العالمين. إذ يقدم لنا «فراج» مسيرة مجموعة القيم القديمة التى شاركت فى تكوين حلم الشباب بمستقبل أفضل بعد حرب أكتوبر، وما جرى لهذا الحلم، وما ينطوى عليه من قيم من تبديل. بينما يقدم لنا الدكتور شوكت، وقصته مع ماضيه وزوجته تنويعا آخر على مسيرة عدد من القيم القديمة وتحولاتها فى عصر الانفتاح وما جره على الواقع المصرى من «سداح مداح» .أما قصة «سالم» و«لبنى» فإنها توشك أن تجسد لنا وقع هذا الصراع بين عالمى القيم على الجيل الجديد

الذى شب عن الطوق فى هذه الفترة بل توشك الرواية كلها، فى مستوى من مستويات التأويل، أن تكون ساحة للصراع بين هذين العالمين القيميين، أو بالأحرى سيرة للضربات الموجعة والقاصمة التى تلقاها عالم القيم القديم صاغرا، وصامتا ، ومذعنا فى آن. وهى سيرة تكشف عجز هذا العالم وقلة حيلته، بطريقة دفعت الروائى إلى خلق هذا السعى الروحى الحثيث فى الرواية وكأنه نوع من التشبث بشئ خفى قد يخفف وقع معاول الهدم على عالم القيم القديمة، قبل أن تقع على البيت القديم نفسه، وقد يعلل النفس بأن ثمة خلاصا من هذا الواقع الكابوسى المبهظ الذى يأكل مع ضربات الانفتاح كل أمل فى الخلاص الفردى أو الروحى .

هذا كله يدعم القول بأهمية محتوى الشكل فى هذه الرواية الجديدة الجميلة، لأنها وقد لجأت إلى هذه الصيغة الروائية التى تبدو لأول وهلة وكأنها مجرد صيغة تقليدية بالغة الهدوء، تؤكد لنا أن هذه هى الصيغة المراوغة التى يتبدى عليها الواقع التسعينى فى مصر، وهو واقع خال شكليا من الدراما، تدور فيه الأحداث وكأنها تفاصيل لا أهمية لها، هى مجرد صيغة مراوغة لابد لنا من تدقيق النظر فيما تخفيه، أكثر من الاهتمام بما تبرزه لأن المسكوت عنه فى هذه الصيغة هو الأمر الفادح الذى يستحق كل اهتمام. ولأن الواقع المصرى فى التسعينات ينطوى بحق على مجموعة من التغيرات المزلزلة، والتى تمررها عملية خفوت الصوت ذاتها، أو تطلسمها وتصرف النظر عن التفكير فيها. وهذا نفسه ما يحتاجه القارئ مع هذه الرواية الجديدة . وأول ما يلفت نظرنا إلى هذا الجانب المراوغ فى الرواية هو الإهداء «فى ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير يحيى حقى، رحمه الله ، اتنسم عطر الأحباب» فقد كان يحيى حقى شديد الحرص على مناسبة القول للغرض، وملاءمة الشكل للمعنى، ودقة التعبير ووضوح القصد . وهذه كلها من سمات السرد فى هذه الرواية الجديدة. لأن الرواية تبدأ بداية تقريرية هادئة :«عاش سالم منذ طفولته فى رعاية جده الباشكاتب» وتدور فيها أكثر الأحداث درامية دون أن يطرف للسرد جفن فيها، وكأن لاشئ ذا بال يحدث فيه .

مراحل ثلاث

لكننا ما أن نقرأ الرواية ، ونتأمل العلاقة بين أقسامها الثلاثة، وهى فى الوقت نفسه علاقة بين مراحل ثلاث من حياة شخصياتها، ومن حياة مصر معها، حتى نكتشف ما وراء هذا السطح الهادئ من تغيرات ودلالات وحتى ندرك أن ذاكرة النص الداخلية هى ذاكرة مطمورة فى طوايا النسيان كذاكرة واقعنا التاريخية ذاتها. مطمورة، ولكنها موجودة إذا ما حفرت وراء قشرة هذا الواقع السطحية واستنقذتها من طوايا النسيان. ويقدم لنا القسم الأول من هذه الرواية والمعنون «سالم» قصة هذا الحفيد سالم، الذى تخلى أبوه عن مسئوليته عنه لجده «توفيق» حتى يرعاه، فى نوع من تخلى جيل كامل عن مسئوليته حيال الواقع وحيال أبنائه فيه ومنه. جيل لم تتح له فرصة النضج، حرم من شبابه واكتهل دون أن يمر بمرحلة الشباب أو يعرف

عنفوانه. يبدأ بتناول وعيه بالبيت، أى بالمكان الذى نشأ «سالم» فيه، بعمارته وجغرافياه معا. ثم ينتقل إلى حى السيدة زينب الذى يقع فيه البيت، ومسجد السيدة زينب الذى يصحب إليه الجد حفيده كل جمعة للصلاة ، ويعود بعدها محملا ببعض المشتريات لحفيدته «فوزية» وببعض الحكايات عن الباشمحضر «السيد السنانيرى» وكراماته التى عرف بسببها باسم «أبو خطوة». فنحن هنا بإزاء نص يتابع خطى نص يحيى حقى الجميل (قنديل أم هاشم) فى التعرف على هذا الميدان نفسه وأحلام شبابه، ولكن بعد انصرام عقود طويلة على رؤى النص الأول واستقصاءاته .

وكما حرص الجد فى (قنديل أم هاشم) على أن ينال أبناؤه وأحفاده البركة «أم العواجز» وأن يزدهر مستقبلهم تحت رعايتها حرص «توفيق» الباشكاتب على أن يجلب لحفيده «سالم» حجاب «السنانيرى، وأن يتنبأ له بمستقبل باهر. وساعده على تحقيق هذا المستقبل بأن اهتم بدروسه وذاكر معه حتى وصل «سالم» إلى نهاية المرحلة الثانوية عام ١٩٧٥. أى أنه بلغ بدايات وعيه مع بداية مرحلة الانفتاح الساداتية. صحيح أن الرواية تشير عرضا إلى تاريخ وصوله إلى الثانوية العامة، ولكنها لا تشير من قريب أو بعيد للسادات أو لانفتاحه المشئوم. لأنها تحرص على أن تجسد كيف أثر هذا الانفتاح على أسرة «توفيق» الباشكاتب، دون أن تتحدث مباشرة عنه. ترصد تفاصيل هذا الانفتاح فى حديث «جابر» نادل المقهى



عن تجارة الشنطة وتجارة الدولارات، وفى استجابته المغايرة لاستجابة الباشكاتب للخطاب الذى جاء من تنظيم الحى بأن شرخا قد ظهر فى جانب البيت «غيرك يا أستاذ يدفع أموالا لكى يحصل على هذا الخطاب» (ص ٥٦). فقد كان هذا هو زمن سعار بناء عمارات التمليك ، وهدم عمارات الإيجار التى لا تغطى تكاليف تسييرها. فالباشكاتب بنفسه يدرك أنه «لايكاد يتبقى من إيجار مساكنه شئ بعد دفع العوائد وإنارة السلم ومرتب البواب» (ص ٤٩) ولكن هناك أيضا جانبا آخر تكشفه لنا آليات العلاقة داخل الأسرة. وكأن الجد بحرصه على تعليم حفيده، أو على نجاح الحفيد فى التعليم، يريد أن يعوض إخفاقه مع ابنه «شعبان السعدى» الذى لم يتقدم فى تعليمه بعد السنة الأولى الثانوية، فاضطر الجد إلى أن يوجهه للتجارة ، وأن يفتح له دكان «مانيفاتورة » لكنه لم يفلح كثيرا فى التجارة ، وظلت أحواله المادية متعثرة طوال حياته .

رواية التربية القمعية

وترسم لنا الرواية تفاصيل السياق الذى نشأ فيه «سالم» فبعد المكان والزمان نتعرف على موت أمه المبكر وهو فى الثالثة من عمره، وقيام شقيقته «فوزية» التى تكبره بأربع سنوات فقط بدور الأم بالنسبة له، وللأسرة كلها. وحالة الحصار التى يعيش فيها وقد

أجبره أبوه بالضرب القاسى، خوفا عليه لجماله، على أن يتجنب اللعب مع أبناء الحارة. وما سببته الوحدة له من حالات «بذاءة » تأتيه دون سيطرة منه عليها فينطلق لسانه بأبشع سباب لكل من حوله. وحينما أخذه أبوه وعرضه على طبيب، وفحصه هذا الطبيب بعناية وعرف سياق حياته كلها قال لأبيه فيما يشبه التأنيب ما هى المشكلة ؟ فشرح له «شعبان» حكاية النوبتين والشتائم التى يطلقها، فرد الطبيب: «والله أنا شخصيا أفعل ذلك فى سرى طوال اليوم. وليتنى أبوح بهذه الشتائم مثل ابنك. ما أكثر من يستحقونها » (ص ٢٤) ولم يقتنع الأب بهذا الرد، ولا بتشخيص الطبيب الأمين وعرض ابنه على طبيب آخر، تلاعب به، وطلب رسما للمخ، ووصف له أدوية كثيرة ومكلفة كادت تقضى عليه وقال لجده بصوت واهن وقد أوشكت الأدوية أن تودى به :« قل لى ياجدى، هل أنا مجنون» فرد عليه «لا ياولدى بل نحن المجانين» (ص ٢٦) وهو رد دال على أكثر من مستوى، لأن تنفيس الصبى عن نفسه في واقع يستحق الشتم، اعتبر جنونا أو مرضا يستلزم العلاج. وكأن الرواية هى رواية التربية القمعية التى تخضع الجميع للسكوت إزاء ما يجب أن ينطلقوا فى وجهه بأبشع السباب وأحط التهم. وكأنها فى الوقت نفسه تسعى لتفكيك آليات هذا الخنوع المصرى إزاء واقع يؤدى فى بلدان أخرى إلى الثورة العارمة عليه، كما حدث فى الفيليبين أو فى إندونيسيا

وكلما تقدم بنا السرد، أدركنا أن هذا الواقع الذى تخلق فى مصر منذ

هناك علاقة جدلية مهمه بين زمن السرد فى الرواية والمجال الزمنى الاوسع الذى يغطيه سردها

صبا «سالم» المبكر ، واستشرى مع مراهقته وشبابه واقع يستحق - كما قال الطبيب - أقذع الشتائم. وحتى يدرك القارئ بنفسه أن هذا الواقع يستحق بحق أقذع الشتائم، يقدم السرد خيطا روائيا آخر إلى جانب خيط «سالم» ذاك ، وهو خيط أخته فوزية فقد كانت «فوزية» جميلة هى الأخرى يلاحقها، لجمالها الجميع. فأصر الأب على إخراجها من المدرسة وهى فى بداية المرحلة الثانوية بالرغم من معارضة الجد، ومن إصراره على أن إكمال دراستها الثانوية على الأقل قبل إخراجها من المدرسة، لأن الشهادة سلاح فى يدها ينفعها فى المستقبل ، ولكن دون جدوى . وقد نشأت علاقة ما بينها وبين جارها «فراج» الذى جاء لخطبتها، بعدما انتهى من دراسته وحصل على بكالوريوس التجارة، وعين فى إحدى شركات القطاع العام. وأصر الأب بحماقته على رفضه ولكن الجد - وقد اكتشف أن فوزية على علاقة بفراج - تدخل بحصافته لإتمام الزواج، وللتغطية على «غلطة» حفيدته، التى ما أن عرف بها أبوها حتى انفجر فى وجه الباشكاتب «أنت أفسدت حياتى يا أبى. أخذت منى أولادى وضيعتهم كما ضيعتنى »

(ص٣٢) فليس ثمة في هذه الرواية شخص يستطيع أن يتنصل من المسئولية، أو يتهرب من تفريغ أسئلتها الملحاحة. ولحسن حظ «فوزية» لم يتنصل «فراج» من مسئولية ما فعل بها وجاء لخطبتها من أسرتها. فقد كان «فراج» بحق شابا مثاليا من زمن آخر ينتمي إلى منظومة القيم القديمة التي بادت. نتعرف معه على لغة قديمة لاتدرك أنها قد فقدت مصداقيتها وفاعليتها في بدايات الزمن السبعيني الذي لم يكشف عن أنيابه بعد. «أنا إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله. شاركوني في تفاؤلي وستكون ابنتكم في عيني» . (ص ٢٩)

علاقة جذرية عميقة

وقد تشبث «فراج» بتفاؤله حتى دمره الواقع المزلزل، ودمر معه «فوزية» الجميلة. فقد بنى مستقبله على موجة التفاؤل العارمة التي اندلعت بعد حرب أكتوبر، وصدق وهمها الشبان قبل غيرهم. ولكنه لم يتنبأ أبدا بأن هذا التفاؤل سوف يلتهم أول ما يلتهم المتفائلين أنفسهم. لذلك وقع فراج في براثن هذا التفاؤل ولم يبارحه لأمد غير قصير. وأخذت حياته تتسرب من بين أصابعه ، وتزداد مع الأيام سوءا وتعقيدا. فقد «بنى مستقبله كله على كلمة سمعها عن أنه سيسافر في بعثة، ولما انتهى أمر هذه البعثة جاءت في رأسه فكرة الدراسة ليحصل على شهادة عالية فيزيد مرتبه. يقضي في عمله ساعات أكثر من زملائه لكي يزيد الإنتاج، ولكن سواء زاد إنتاج المصنع أو قل فسيظل مرتبه كما هو لايزيد ولا ينقص «ص ٤٩ » لكن ما بدأ يعقد حياة «فراج» ليس أنه أنجب طفلا، وزادت عليه المطالب والأعباء



فحسب، ولكن أن قيمة مرتبه الذي لايزيد ولا ينقص أخذت في التآكل مع ارتفاع الأسعار. «ما هذا الغلاء ياحضرة الباشكاتب ؟ كيف تكفي المرتبات الناس مع هذا الغلاء » (ص ٦٩) وبدأت حياته مع «فوزية» في التدهور بالتدريج .

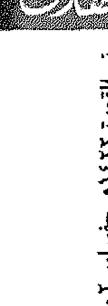
وإذا كان القسم الأول من الرواية هو قسم «سالم» وقسم العلاقة الجذرية الحميمة بينه وبين جده الباشكاتب ، وأخته «فوزية» فإنه في الوقت نفسه هو قسم حياة الباشكاتب مع زوجته «سمية» وما عاشه معها من سعادة غامرة، وفرح حقيقي انصرما بموتها المبكر. وهو في الوقت نفسه قسم علاقته مع ابنه «شعبان» وإخفاقه في تعليم هذا الإبن، أو حتى في إسعادة. فقد زوجه من «سعاد» الجميلة الوديعة التي انجبت له «فوزية» و «سالم» ولكنه قتلها بإهماله أو سذاجته، أو بغبائه ومع ذلك ظل هناك في داخل الإبن نوع من الإحساس بأن الأب هو الذي أفسد حياته. بينما يشاغل الجد إحساس مماثل بأن ابنه هو الذي نغص حياته وبأنه فعل كل شئ من أجله دون جدوى. وهذا المناخ الغريب الذي ملأ البيت هو المسئول عما انتاب «سالم» من اضطراب ، وما يأتيه من نوبات ولذلك ليس غريبا أن ينفجر «سالم» في جده مرة، كما انفجر شعبان فيه «لاتكذب ياجدي. لماذا يهرب أبي مني، لماذا يهرب من كل إنسان. من فوزية

ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب لماذا لايزوره أحد، ولا يزور هو أحدا ؟ لماذا يحول وجهه بعيدا كلما كلمته أنا ؟ ولماذا ينظر في الأرض حين تكلمه أنت ؟ ما الذى فعله أبى ؟ أبى فعل شيئا يخفيه هو، وتخفيه أنت أبى لايحبنا كان يريد أن يضعنى منذ زمن مع المجانين وزوج فوزية لرجل فلاح فى الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها، ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولا نحبه لاتكذب ياجدى أنت لاتحبه وأنا لا أحبه ولا أحد يحبه. ولهذا لا يأتيه زبائن فى المحل، ولهذا يعاقبه ربنا» (ص ٤٣). هذه الأسئلة المؤرقة تكشف عن خلل دفين فى علاقات هذه الأسرة التى تبدو وكأنها أسرة بالغة التماسك، ولكن بنيتها تعانى من الصدوع والشروخ تماما كالبيت الذى تقيم فيه .

روافد الحبكة القصصية

بعد أن قدم لنا بهاء طاهر فى الفصول الأولى من روايته أسرة بطلها الشاب «سالم» وجده «توفيق الباشكاتب» يلجأ فى بقية فصول القسم الأول، وفى القسمين التاليين من الرواية «لبنى» و«الباشكاتب» إلى تقنية التضافر والتفاعل بين خيوط الرواية المختلفة لأن بهاء طاهر مولع بهذا النوع من التقنيات ، وبأن يكون للحبكة الرئيسية فى الرواية مجموعة من الروافد أو الحبكات الثانوية التى توسع من أفق المعنى فيها، وتعمق دلالاته. فهناك خيط قصة «سالم» و«لبنى» وقصة هذا الجيل السبعينى الذى ذهب إلى الجامعة فى النصف الثانى من السبعينات وعاش بقية مرحلة السادات فيها وما تعانى منه من اضطرابات ما لبثت أن انفجرت فى انتفاضة يناير الشهيرة عام ١٩٧٧. وهناك كذلك خيط أخته «فوزية» وزوجها «فراج» الذى ينتمى إلى آخر دفعة من جيل الستينات، أو أول دفعة من جيل السبعينات، تلك الشريحة التى ذهب شبابها إلى المعهد الاشتراكى بعد الهزيمة، وتفاءلوا بحلم التحرير والتغيير ، ثم عصفت بهم تحولات السبعينات الانفتاحية، ودمرت أملهم فى حياة بسيطة كريمة ، وهم لايزالون فى مطلع الشباب . وشهد كيف أن تسارع معدلات التضخم يضرب أسرته الصغيرة بقسوة .

تقول زوجته قبل انتفاضة يناير بشهور: «المرتب الذى كان يكفى تماما قبل سنتين ، أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير، رغم كل ما تفعله لتدبير أمور المعيشة فى البيت ، ورغم ما يعطيه لها جدها» (ص ٩٩) .وهناك أخيرا قصة الجيل الأول : جيل الجد، الذى ولد مع بداية القرن، وجيل ابنه «شعبان» الذى خاب فى التعليم، وهو الجيل الذى نتعرف على تنويعين مهمين له فى شخصيتى الدكتور «شوكت» والد «لبنى» والدكتورة «صفاء والدتها» وهذا الجيل الذى يبدو وكأنه جيل غير رئيسى فى الرواية هو الجيل الذى تحرص الرواية على أن تقدم لنا ثلاث تنويعات مختلفة عليه . «صفاء» بنت الطبقة الارستوقراطية و«شعبان» ابن الطبقات الشعبية ، و«شوكت» الذى ناضل من أجل هذه الطبقات الشعبية ودفع الثمن، ثم تحول مع من تحولوا أو تنصلوا من تاريخهم القديم ، بعدما انتابهم اليأس،

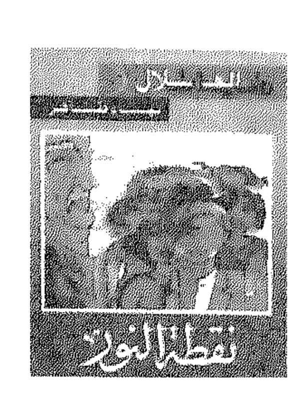


ودمرت المؤسسة حلمهم وأملهم بالتغيير بتكريس تغييرها المقلوب ومع تحولات كل هذه الشخصيات والأجيال. هذه الخيوط كلها تتطور فى الرواية فى نوع من التوازى والتفاعل المستمر حتى نهاية الرواية . إذا كانت الرواية قد قدمت ثلاث تنويعات مختلفة على من يمكن تسميتهم بجيل الأربعينات : شوكت وصفاء وشعبان وعدداً من شخصيات الجيل السابق عليهم : «الباشكاتب» و «نازلى» هانم و«أبو خطوة» وبعض سكان بيت السيدة زينب ، فإن مدار اهتمامها الأول هو جيل السبعينات الذى ينتمى إليه «سالم» و«لبنى» وحتى فوزية إلى حد كبير، بالإضافة إلى «دعاء » و«مرتضى»

وهو الجيل الذى ينتمى إليه «فراج» كذلك، لأن الزمن الذى عاشه قبل هذه الحقبة ، وشارك فى صياغة منظومته القيمية يبدو فى الرواية وكأنه زمن ناء بعيد. زمن كانت فيه للقيم الإنسانية البسيطة مثل الأمانة والصدق والمثابرة فى العمل واحترام المعرفة باعتبارها السبيل للترقى الاجتماعى مكانتها المحترمة فى المجتمع ثم انقلب ميزان القيم، واحتلت أعلى المكانات فيه قيم الفهلوة والانتهازية والرشوة والثراء الحرام. وهذا الانقلاب ذاته هو الذى دفع عددا كبيرا من جيل «فراج» إلى البحث عن خلاص « الإسلام»..

انقلاب ميزان القيم

لكن الرواية لا تفصح لنا عن حقيقة هذا الخلل والانقلاب، وإنما تترك لنا استنتاجه بأنفسنا. تعرض علينا بعض



تجليات هذا الخلل أو سياقاته العامة أولا ثم تركز على تجلياتها فى الأسرة. ولاتفعل ذلك بشكل عمدى، وإنما عفوا فالجد يكشف لحفيده «سالم» عن السياق العام من خلال القضايا التى احتفظ بملفاتها، وكان ينوى أن يؤلف كتابا عنها. وهى كلها قضايا لأناس ارتكبوا جرائم كبيرة دون أن يكون لأى منهم سوابق، أو يتسم أى منهم بميول إجرامية من أى نوع. ويدور نقاش دال بين الجد وحفيده، يطرح فيه الجد عددا من الأسئلة المهمة : « ما الذى يجعل خطانا تقودنا إلى عكس الطريق، ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟ لماذا إذن يغيب العقل، وتسيطر التفاهة ؟ » وهما سؤالان بالغا الأهمية، بل من الأسئلة المفتاحية فى الرواية كلها . فإذا كان ما أثار السؤالين هو محاولة النص موضعه الخلل الذى انتاب الأسرة فى سياق أوسع تنتشر فيه جرائم تحدث كلها فى غياب العقل وسيطرة التفاهة، فإن الرواية مشغولة كذلك بتناول تجليات هذا كله داخل الأسرة وانعكاساته عليها .

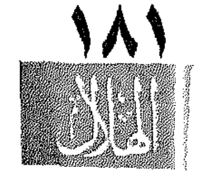
وكان من الطبيعى وقد انتهى القسم الأول «سالم» بقصة الحب هذه أن يكون القسم الثانى هو قسم «لبنى» حبيبته، أصلها وفصلها إذ ندلف معها بعد نعمة تعرفها على «سالم» وما جرى فى يوم التعارف الأول ذاك إلى بيتها، ونبدأ فى معرفة قصتها. وفى قصتها شئ من قصة

«سالم» وكأنهما معا أبناء جيل فقد الآباء، وعليه أن يختار مسيرته وحده دونهما ، وأن يعاني آلام هذه المسيرة الصعبة وحده. وكأن الرواية تنطلق من أن قدر جيل السبعينات المصرى وأزمته معا هو أن يعيش هذا اليتم الحاد المروع، فإذا كان سالم قد فقد أمه بالموت وهو لايزال طفلا، وفقد أباه بتلك اللعنة الغريبة التى لايدرى كنهها، والتى تجعله غائبا حاضرا فى النص. فإن «لبنى» هى الأخرى قد فقدت أبويها برغم أنهما لايزالان على قيد الحياة . فقدت أبوة أبيها الطبيب الكبير الناجح الدكتور «شوكت» الذى يوفر لها كل شئ إلا الأبوة ذاتها، منذ أن انفصل عن زوجته الدكتورة «صفاء» بالطلاق وحرمها من ابنتها التى كانت لاتزال فى العاشرة من عمرها، وحرم ابنتها من الأمومة التى هو الآن - يوم لقائها المشهود بـ «سالم» ووقوعهما معا فى الحب - فى أمس الحاجة إليها .كى تعترف لها بأنها تحب. وتشاركها لحظة سعادتها الغامرة تلك. لكن فقدان «لبنى» لأبويها وهما على قيد الحياة له دلالات أخرى غير تلك التى نستخلصها من فقدان «سالم» لأبويه. لأنه يلخص لنا ملامح مأساة لبنى، ومأساة جيلها كله. جيل تيتم معنويا وسياسيا وحضاريا بعد رحيل عبد الناصر، كما تيتم نفسيا وأبواه على قيد الحياة .

أم علينا أن نقول إنه جيل مغتصب ومستباح كله، لأن الوطن نفسه قد استبيح. فقصة اغتصاب «لبنى» وهى فى السادسة عشرة من عمرها ، ليست

كان خفوت حدة الدراما فى هذه الرواية، هو المعادل الموضوعى لما انتاب الواقع المصرى فى تلك الحقبة من تغييرات مزلزلة

مجرد قصة عادية من عشرات القصص المماثلة التى تتكرر مع هذا الجيل، ولكنها قصة دالة على هذا الاغتصاب النفسى واليتم المعنوى معا، وستكتمل دلالات هذه القصة المؤلمة قرب نهاية الرواية عندما يوشك أبوها، فى نوبة سكر، أن يقدم على فعل مشابه .وربما كان هذا المزيج من الخوف والإحساس باليتم هو الذى دفعها إلى الاشتغال بالسياسة، على طريقة جيل السبعينات ومجلات الحائط فى الجامعة. وهو الذى ملأ الرواية بعد ذلك المنعطف الحاد الذى ينتهى بسجن لبنى وسفرها للخارج بتلك الكوابيس النفسية التى تتواقت فى الرواية مع كوابيس أخرى سياسية، تساهم بطريقتها الخاصة فى تصاعد حدة كريشيندو الأحداث الذى ينتهى بموت الجد وانهيار البيت الذى ظهرت فى جدرانه الصدوع منذ بداية الرواية وأصبح آيلا للسقوط مع نهايتها. وكأن الرواية تحذر من هذا الانهيار الحثيث، وتدق أجراس الخطر بشأنه. فهل هناك من يستمع لتحذيرات زرقاء اليمامة قبل أن يفوت الأوان ؟. ■





الأساطير في الأدب الشعبي

بقلم
محمود أحمد

عرف الأدب العربى «الأسطورة» منذ زمن بعيد. وليس المقصود هنا الأدب «الشعبى» الذى ملأه الخيال بحكايات وخرافات الجن والعفاريت والعمالقة والملوك والجوارى، كما تجسدت في «السيرة الهلالية»، علي سبيل المثال، أو حتي فى قصص «ألف ليلة وليلة» المغرقة فى الخيال والركيكة فى الصياغة رغم أنها بهرت أجيالا كثيرة - فى الغرب خصوصا - بما حوت من خرافات وخوارق عجيبة.

إنما المقصود هنا هو تلك الأساطير التى عبر عنها أدب عربى رصين، شعرا أو نثرا، والتى ذاع بعضها وظل بعضها الآخر منسيا فى جوف المخطوطات وكتب التراث، ولم تلق ما يكفى من اهتمامات الباحثين. فهذا نوع من التراث الذى يحقق «متعة» كإنتاج أدبى، إلى جانب أنه يعبر عن روح العصر ويعكس صورة للتفكير الذى كان سائدا فى زمن ما.

ومن الواضح أن هذا النوع من الأساطير قد عرفه العرب القدماء منذ ما قبل ظهور الإسلام بوقت طويل، ثم ظهر البعض منها فى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، حتى اختفى منذ بدأ يخبو وهج هذه الحضارة ويتراجع. ولكن الذاكرة العربية المدربة على النقل عن طريق «الرواية» عبر العصور، احتفظت لنا ببعض هذه الأساطير التى أنتجها الخيال العربى فى العصور المبكرة، خاصة ما احتوى منها على حكم أو أمثال صيغت شعرا ونثرا.

ولعل الفارق الأساسى الذى يميز الأساطير الأدبية عن حكايات وخرافات الأدب الشعبى - بالإضافة إلى اللغة الرصينة والأسلوب الرفيع - هو أن أساطير الأدب خلقت تراثا من النثر والشعر، فى صورة حكم وأمثال على وجه الخصوص، ظل الناس يرددونها حتى اليوم.

«جهينة» .. قاطع طريق

لعل من أشهر ما نقلته لنا الروايات العربية، فى هذا السياق، القول المعروف الذى لا يزال يردده الناس حتى يومنا هذا وهو أن «عند جهينة الخبر اليقين». فصاحبنا جهينة هذا شخصية خيالية على الأرجح لم يكن لها وجود .. والمفاجأة التى احتفظت لنا بها حكايته التى تعود إلى عصر ما قبل الإسلام فى الجزيرة العربية، هى أنه لم يكن سوى لص وقاطع طريق !

وتروى الأسطورة، التى ربما انطوت على أصل من قصة واقعية، أن جهينة اتفق مع صعلوك آخر مثله من الأعراب اسمه «حصين» على أن يسيرا معا لاعتراض المسافرين وسلب أموالهم. وحدث أن اختلفا، وتطور خلافهما حتى تجرأ «جهينة» على صاحبه فقتله ثم دفنه مع موضع بالصحراء : وانقلب «جهينة» بعد ذلك إلى قومه، فإذا امرأة «حصين» تنشد زوجها فى الأحياء - ومنها حى يدعى مراح وآخر يدعى أنمار - وتسأل عنه

الناس فسألها : ومن أنت ؟ قالت : صخرة .. امرأة الحصين . قال : أنا قتلته . قالت : كذبت، ما مثلك يقتل مثله . أما لو لم يكن الحى خلوا ما تكلمت بهذا ! فانصرف عنها إلى حيه، ثم وقف حيث يسمعه الناس فقال :

وكم من ضيغم ورد هموس
أبى شبلين مسكنه العرين

علوت بياض مفرقه بعضب
فأضحى فى الفلاة له سكون

وأضحت عرسه ولها عليه
بعيد هدوء ليلتها رنين

وكم من فارس لا تزدريه
إذا شخصت بموقعه العيون

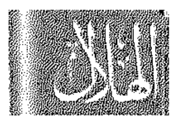
كصخرة إذ تسائل فى «مراح»
و«أنمار»، وعلمهما ظنون

تسائل عن حصين كل ركب
وعند جهينة الخبر اليقين

فمن يك سائلا عنه فعندى
لصاحبه البيان المستبين

الملكة زنوبيا .. والأمثال

ومن الأساطير التى تناقلها الرواة العرب القدامى، أسطورة الملكة زنوبيا أو «الزباء» ملكة تدمر التى يقال: إنها فاقت أهل زمانها عزما وحكمة وقوة . ولا تزال أطلال مدينة تدمر باقية حتى اليوم، تحتضنها الصحراء السورية وتجتذب المئات من السائحين، ولكن ما يروى عن الملكة الأسطورية زنوبيا بقى دائما نوعا من التراث الذى يحوطه الغموض وتختلط فيه الحقيقة بالخيال . ولعل أبرز الخطوط التى تنسج الأسطورة يتمثل فى قولهم: إن الملكة التى أخذها غرور القوة وحب التوسع أرادت أن تضم إليها ملك جار لها يدعى حذيفة، فاحتالت حتى أغرته بأن يسير إليها فيتزوجها – وهى التى اشتهرت بحسنها أيضا – ويضم ملكها إلى ملكه . وزين الطمع لحذيفة أن يستجيب لعرض ملكة تدمر، رغم نصح مستشاره المخلص، واسمه «قصير»، والذى لم يجد فى النهاية سوى أن ينصحه بأن يبقى إلى جواره حصانه الملقب بـ «العصا»، وقال له : إذا استقبلك جنودها مواجهة فهو خير، أما إذا أحاطوك من الجانبين والخلف فهو الغدر .. فأركب العصا فإنها لا يشق غبارها . فذهب قوله مثلا .



ثم إن جنود الزباء أسروا حذيفة وحملوه إليها فسألته متهكمة : أشوار عروس ترى ؟ فذهب قولها مثلا، ثم أمرت به فقطعت شرايينه ووضعت تحت يديه وعاء يتساقط فيه دمه . فلما ضعفت يداه سقطتا إلى جانبه وسقطت قطرات من دمه على الأرض فصاحت زنوبيا بخدمها : ويلكم .. تضيعون دم الملك ؟ فقال وهو يحتضر «دعوا دما صنعية أهله» فذهبت مثلا . ولكن القصة – أو الأسطورة – لا تنتهى إلا بانتقام الملك عمرو، ابن أخت حذيفة، من الملكة زنوبيا حيث احتال – بمساعدة «قصير» – فاقتحم تدمر فى قافلة جمال جعل جنودها فى «جوالق» علقها بها، ولم يغن الحذر زنوبيا فانطلت الخدعة عليها حتى اقتحم عمرو غرفة عرشها ولكنها سارعت، قبل أن يقتلها بسيفه فامتصت سما كانت قد أعدته فى خاتم بإصبعها، قائلة : بيدى .. لا بيد عمرو ! فذهبت قولتها مثلا كذلك .

ولا شئ يثبت أن القصة كلها لا تعدو أن تكون أسطورة نسجها الخيال، قدر ما تثبته هذه

الأمثال التى لا تحصى والتى امتلأت بها روايات الرواة وتناقلتها عبر السنين (فضلا عن استحالة إثبات الوقائع تاريخيا) . ومن هذه الأمثال، التى يتعذر تصور أن تخرج هكذا تلقائيا وتجرى على ألسنة الناس فى حياتهم اليومية، ما يلى :

ببقة خلفت الرأى (وينسب إلى «قصير» عندما رفض حذيفة الاستماع لنصحه) .

لا يطاع لقصير أمر .

أركب العصا، فإنه لا يشق غبارها .

ويل أمه حزما على متن العصا .

دعوا دما ضيعه أهله .

لأمر ما جدع قصير أنفه (قول لقصير بعد أن طلب إلى عمرو أن يجلده ويجدع أنفه ضمن خطة لخداع زنوبيا) .

شر فى الجوالق .

بيدى .. لابيد عمرو .

وغيرها كثير !!

حاشر الكواهن والكهان !

أحيانا، كانت الأساطير فى أدب العرب تصدر عن عاطفة دينية، فكان الدين ملهما لأساطير أذكتها الرغبة فى تسخير «الغيبيات» - إن صح التعبير - عن طريق ابتكار قصص وروايات تخدم العقيدة على نحو أو آخر . ولا يختلف العرب فى هذا عن المجتمعات والشعوب الأخرى التى أفرزت أساطير دينية، اللهم إلا فى أنها عند العرب ربما كانت أندر مما كانت عند غيرهم .

من هذه الأساطير التى سجلها الأدب العربى، أسطورة عن شخصية - وهمية على الأرجح - لملك عاش فى أيام الجاهلية يدعى «مرثد بن عبدكلال» . (وكلمة «مرثد»، بالمناسبة، تعنى أيضا السيد أو الزعيم) . وينسب الرواة هذه القصة لعصر ما قبل الإسلام، واستخدموها على أنها كانت . إرهاصا أو تنبؤا بظهور النبى صلى الله عليه وسلم . وإن كان قدر «الخيال» وحبكة التأليف فيما رووه يقطع بأنها لابد من أن تكون قد خرجت إلى الوجود بعد أن كان الدين الحق قد ظهر وانتشر . وقد سجل مؤلف معروف هو «خير البشر .. بخير البشر» هذه القصة التى تناقلها الرواة، ورواها صاحب الكتاب وهو «محمد بن ظافر» على النحو التالى :

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزوة غزاها بغنائم عظيمة . فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يهنئونه، فرفع الحجاب عن الوافدين وأوسعهم عطاء واشتد سروره بهم . فبينما هو كذلك إذ نام يوما فرأى فى المنام رؤيا أخافته وأذعرته وأهالته وهو نائم، فلما انتبه نسيها حتى لم يذكر منها شيئا . وثبت فى نفسه ارتياعه بها، فانقلب سروره حزنا واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن . ثم إنه حشر الكهان، فكان يخلو بكل كاهن ثم يقول له: أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه . فيجيب الكاهن بأن لا علم عندى . حتى لم يدع كاهنا علمه إلا كان إليه منه ذلك . فتضاعف قلقه، وطال أرقه . وكانت أمه قد تكهنت، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك إن الكواهن أهدى إلى ما تسأل عنه، لأن أتباع الكواهن من الجن ألطف وأظرف من أتباع الكهان . فأمر بحشر الكواهن إليه وسألهن كما سأل الكهان فلم يجد عند واحدة علما مما أراد علمه .

ولما يئس من طلبته سلا عنها . ثم إنه بعد ذلك خرج يتصيد، فأوغل فى طلب الصيد وانفرد عن أصحابه، ورفعت إليه أبيات (بيوت) فى ذرى الجبل، وكان قد لفحه الهجير فعدل إلى الأبيات وقصد بيتا منها كان منفردا عنها، فبرزت له عجوز فقالت له : انزل على الرحب والسعة والأمن والدعة، والجفنة المدعدعة (أى القصعة المليئة بالطعام) والعلبة المترعة . فنزل عن جواده ودخل البيت . فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الأرواح (النسيم) نام فلم يستيقظ حتى تصرم

الهجير . فجلس يمسح عينيه، فإذا بين يديه فتاة لم ير مثلها قواما ولا جمالا، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك الهمام . هل لك فى الطعام ؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما عرف أنها عرفته، وتصامم على كلمتها فقالت له : لا حذر، فداك البشر، فجدك الأكبر، وحظنا بك هو الأوفر ! ثم قربت إليه ثريدا وقديدا وحيسا، وقامت تذب عنه حتى انتهى من أكله، ثم سقته لبنا صريفا وضريبا فشرب ما شاء . وجعل يتأملها مقبلة مدبرة، فملأت عينيه حسنا وقبله هوى، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عفيراء . فقال لها : يا عفيراء، من الذى دعوت بالملك الهمام ؟ قالت : مرثد عظيم الشان، حاشر الكواهن والكهان، لمعضلة بعد عنها الجان . فقال : يا عفيراء، أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك . إنها رؤيا منام، ليست بأضغاث أحلام . قال الملك : أصبت يا عفيراء، فما تلك الرؤيا ؟

قالت : رأيت أعاصير زوابع، بعضها لبعض تابع، فيها لهب لامع، ولها دخان ساطع، يقفوها نهر متدافع، وسمعت فيما أنت سامع، دعاء ذى جرس صادع : هلموا إلى المشارع . فروى جارع، وغرق كارع .

فقال الملك : أجل، هذه رؤياى ! فما تأويلها يا عفيراء ؟

قالت : الأعاصير الزوابع .. ملوك تبايع . والنهر علم واسع، والداعى نبى شافع، والجارع ولى تابع، والكارع عدو منازع . قال الملك : يا عفيراء، أسلم هذا النبى أم حرب ؟ فقالت : أقسم برافع السماء، ومنزل الماء من الغماء، إنه لمطل الدماء، ومنطق العقائل نطق الإماء . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيراء ؟ قالت : إلى صلاة وصيام، وصلة أرحام، وكسر أصنام، وتعطيل أزلام، واجتناب آثام . فقال يا عفيراء، إذا ذبح قومه فمن أعضاده ؟ فقالت : أعضاده غطاريف يمانيون، طائرهم به ميمون، يغزيهم فيغزون، ويدمث بهم الحزون، وإلى نصره يعتزون .

فأطرق ملك يؤامر نفسه فى خطبتها . فقالت : أبيت اللعن، أيها الملك . إن تابعى غيور، ولأمرى صبور، وناكحى مثبور، والكلف بى ثبور .

فنهض الملك، وجال فى صهوة جواده، وانطلق فبعث إليها بمائة ناقة كوماء !

شعر .. فى الأساطير

هناك ، أيضا ، أساطير يبدو أنها نسجت بسبب بيت شعر شهير ولكن صاحبه مجهول، فحاولت أن تبتكر له مصدرا .. أو ربما تكون الأسطورة قد تكونت فى شكلها الأدبى فانبثق من سياقها بيت من الشعر أو أبيات ذاعت بعد ذلك بين الناس . ولعل من أوضح أمثلة هذا النوع من أدب الأساطير العربية، ما ينسب إلى القاضى يحيى بن أكثم، الذى عاصر الخليفة العباسى هارون الرشيد وكان من جلسائه والمقربين إليه .

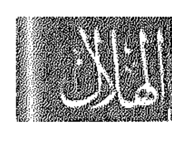
طبقا للرواية المنقولة عن القاضى يحيى أنه قال : دخلت على الرشيد يوما وهو مطرق مفكر فلما رآنى قال : يا يحيى، أتعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين، إن لهذا البيت قصة عجيبة يرويها الرواة . قال : أخبرنى عن هذه القصة يا يحيى . فقلت :

يروى أن رجلا من أهل العراق خرج قاصدا الشام، وكان صاحب تجارة عريضة، فالتحق بقافلة كبيرة جعل فيها الكثير من أغراض تجارته . وحكى الرجل ما وقع له، فقال : بعد أن سارت القافلة أياما، روعنا ذات نهار بتوقف القافلة عن المسير، وسمعنا ضجة كبيرة صادرة من مقدم الركب . فانطلقنا إلى هناك فما راعنا إلا شجاع (المقصود وحش أو مخلوق غريب مفترس) يعترض سبيل القافلة، كان عاريا ضخم الجسم، أسود اللون، وكان فاغرا فاه والناس يتدافعون بعيدا عنه وهم فى خوف عظيم، وألهمت بأن هذا المخلوق لابد وأن يكون ظمآنا



أرمضه هجير الصحراء، ووجدت غير بعيد منى «قربة» ماء، فأخذتها فجعلت فتحتها فى فمه، فما فتئ يشرب حتى أفرغها . وانصرف بعد ذلك عنا واختفى فى رمال الصحراء . ثم ما لبثت القافلة أن استأنفت المسير ماضية إلى غايتها .

وقال التاجر : وما مر يوم أو بعض يوم فخرجت لقضاء حاجة غير بعيد عن مضارب القافلة وقد جن الليل . وطاب لى المكان ونسمات الليل فأخذنى النوم ولم أنتبه إلا والقافلة قد انطلقت وخلفتنى فى هذا المكان القفر . وانتابنى خوف عظيم، ولم أهتد إلى وسيلة للخروج من هذا الكرب الذى ألم بى . فبينما أنا فى هذا الموقف الصعب، إذا بى أبصر غير بعيد منى بكرا (جملا فتيا) وإذا بصوت يقول :

يا أيها الرجل المضل مركبه

ماله من ذى رشاد يصحبه

دونك هذا البكر منا فاركبه

وبكرك الميمون حقا تجنبه

حتى إذا ما الليل زال غيهبه

عند الصباح فى الفلا تسيبه

قال : فركبت، فانطلق البكر بى سريعا، فما لبثت أن التحقت بالقافلة، فيممت شطر مكانى منها وتوجهت إلى البكر الذى حملنى منشدا :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب

ومن هموم تضل المدلج الهادى

ألا تخبرنى، بالله خالقنا

من ذا الذى جاء بالمعروف فى الوادى

وارجع حميدا قد أوليتنا مننا

بوركت من ذى سنام رائح غادى

فما راعنى إلا أن جاوبنى البكر منشدا :

أنا الشجاع الذى ألفيتنى رمضا

والله يكشف ضر الحائر الصادى

فجدت بالماء لما ضن حامله

تكرما منك، لم تسمح بإنكادى

فالخير أبقى وإن طال الزمان به

والشر أخبث ما أوعيت من زاد

هذا جزاؤك منى لا أضن به

فاذهب حميدا رعاك الخالق الهادى

وربما تحمل هذه الأسطورة الصغيرة إرهاصات ما ورد فيما بعد فى حكايات وخرافات «ألف ليلة وليلة»، وإن تكن أساطير الأدب الشعبى التى أعقبت ذلك قد خلت - على نحو ما أشرنا - من ذلك الإبداع الشعرى أو النثرى الذى يرقى بها إلى مستوى الأدب العربى .

وفى كل الأحوال، فلاشك فى أن هذا الجانب من أدب العرب يستحق التفاتا واهتماما من الدارسين المتخصصين القادرين على أن يكشفوا لنا، بصورة أفضل، ما له من أبعاد وأعماق وما يحمله من مغزى ودلالات. ■

السينما





والطاحونة الحمراء



صور من قندهار



بقلم
مصطفى درويش

قندهار إسم فيلم إبدعة خيال محسن مخملباف المخرج الإيرانى الذائع الصيت.

وفيلمه لا يعرض لا من قريب ولا من بعيد للحرب المشتعلة نيرانها الان على ارض افغانستان.

فتاريخ ابداعة له يرجع الى العام الأخير من القرن العشرين.

وأول عرض له كان ضمن الافلام المشاركة فى المسابقة الرسمية بمهرجان كان الاخير، وبالتحديد يوم الجمعة الموافق الحادى عشر من شهر مايو السابق، اى قبل فاجعة الحادى عشر من سبتمبر (ايلول الاسود) باربعة شهور بالتمام



كيدمان ترقص وتغني

في «الطاحونة الحمراء»

اما الطاحونة الحمراء، فثالث وآخر فيلم لباز لورمان، ذلك المخرج الاسترالى الواسع الخيال، والذى سبق وان ادهشنا، قبل خمسة اعوام، بمسرحية روميو وجولييت وقد ترجمها الى لغتى السينما والموسيقى معا.

ولأن الفيلم بأحداثة انما يدور وجودا وعدما حول المولان روج، الملهى الباريسى الشهير، وذلك قبل قرن من عمر الزمان،فهو بدوره منبت الصلة بالحرب ضد تنظيم القاعدة، ونظام طالبان وظاهريا، فليس ثمة شيء مشترك بين الفيلمين الايرانى والاسترالى.

عالم واحد

فعالم مدينة قندهار البائس فى هذه الايام السوداء غير عالم باريس بطاحونتها الحمراء، حيث كان اثرياء مدينة النور، يلهون ويلعبون . غافلين عن عبث الاقدار.

ومع ذلك، فالعالمان متداخلان، متكاملان، غنى احدهما لفقر الآخر، رغم اختلاف المكان والزمان.

وايا ما كان الامر فى هذا، فالجمع بينهما فى صعيد واحد انما يرجع الى احتلال قندهار المركز الاول والطاحونة الحمراء المركز الثانى فى قائمة افضل عشرة افلام من بين جميع ما جرى عرضه فى الولايات المتحدة، خلال العام الاول من القرن الحادى والعشرين، تلك القائمة التى قام الناقد الامريكى ريتشارد كورليس، كعادته فى نهاية كل عام، باختيار افلامها ونشرها فى العدد السنوى الاخير من مجلة تايم الواسعة الانتشار.

وهنا ، قد يكون من المفيد ان اذكر ان قندهار لم يكلف صاحبه الا اقل القليل من المال.

كل ما كان عليه. هو ركوب مشاق السفر الى حدود ايران الشرقية، حيث الآلاف المؤلفة من اللاجئين الافغان.

فى حين ان الطاحونة الحمراء كلف اصحابه عشرات الملايين من عزيز الدولارات.

وقلة ما صرف على انتاج قندهار . انما يرجع الى انه اقرب الى تسجيل واقع حى، منه الى اى شيء اخر.

اسطورة قندهار

فضلا عن عدم لجوء صاحبه الى نظام النجوم وحكايته، والحق يقال . اقرب الى الاساطير بدأت بخبر سمعته «نيلونير بازيرا، وهى امراة افغانية ، هربت مع اسرتها الى كندا «١٩٨٩» والخبر مفاده باختصار ان صديقتها التى لاتزال تعيش فى جحيم قندهار تحت نير طالبان ، على وشك الانتحار.

واذ سبق لمخبلباف ان اخرج فيلما اسمه «راكب الدراجة» (١٩٨٨) عن محنة اللاجئين الافغان، المقيمين فى خيام، على حدود ايران، فقد سعت



بازيرا الى الالتقاء به. من اجل اقناعه بمرافقتها الى قندهار بهدف البحث عن صديقتها والحيلولة، حال العثور عليها. بينها وبين الانتحار.

وعند الالتقاء به عرفت منه، انه فى اثناء قيامه بتصوير فيلمه «راكب الدراجة» ، حاول دون جدوى عبور الحدود الى افغانستان.

وهكذا عادت من حيث اتت، دون ان تصل الى صديقتها فى قندهار.

المفاجأة السعيدة

وتمر الايام، وبعد عامين ، اتصل بها هاتفيا، ليخبرها عن عزمه اخراج فيلم تدور احداثه حول القصة التى حكتها له، مع ادخال بعض التغيير عليها، بحيث تتحول الصديقة الى شقيقة صغرى، انتوت الانتحار مع اللحظات الاخيرة من القرن العشرين.

وعلاوة على هذه المفاجأة ، عرض عليها ان تلعب فى الفيلم دورها فى الحياة ، ولكن تحت اسم اخر، هو نافاس.

وما ان قبلت عرضه، حتى بدأ التصوير فى نوفمبر من عام الفين.

وبطبيعة الحال، لم يجر تصوير رحلتها الى قندهار على ارض افغانستان . فذلك امر مستحيل ، وانما جرى التصوير على الحدود بين امارة أفغانستان وجمهورية ايران.

محنة شعب

ولن اعرض للفيلم ومشاهده التى تعد آيه من ايات الجمال . فذلك امر يطول.

وانما اكتفى بان اشير الى مشهد واحد لانه اشد مشاهد الفيلم ايلاما.

انه مشهد الرجال الافغان . ضحايا الالغام، وكل واحد منهم يجرى مستندا الى عكازين، من اجل الامساك باحدى الارجل الصناعية، التى تقوم بالقائها طائرة مروحية محلقة فى السماء.

وذلك المشهد الفريد ليس غريبا على سينما تعتبر وبحق السينما الوحيدة فى شرقنا، المعاصرة بجدارة للعصر.

العصر الجميل

والآن الى الفيلم الثانى الطاحونة الحمراء لاقول انه عمل سينمائى فوار بالابتكار، تزاوج فيه القديم بالجديد فى كل شىء، تصميم الملابس الرقصات، اسلوب الحكى والاداء.

وكل ذلك من خلال ايقاع سريع، لاهث ، مساير لروح العصر الحديث، وذلك رغم ان احداث الفيلم تدور فى زمن موغل فى القدم، قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التى حصدت الارواح بالملايين.

ففى الاعوام السابقة على تلك الحرب، عاشت اوروبا، عصرا نعمت فيه بالرخاء والسلام.

وروح ذلك العصر العابث، اللاهى، عبر

عنها سيناريو الفيلم الذى كتبه المخرج «لورمان» مع «كريج بيرس» بالحصر لها. على سبيل الرمز فى ملهى الطاحونة الحمراء.

اللهو واللعب

ففى ذلك الملهى الموجود حتى يومنا هذا، فى حى مونمارتر، والذى خلده الفنان التشكيلى، ذو القامة القصيرة «تولوز لوتريك»، بما ابدعته ريشته من لوحات صاخبة، زاعقة الالوان.

كان اثرياء فرنسا يقضون لياليهم الحمراء، مع الغيد الحسان.

والفيلم يبدأ بهن فى مشهد مذهل، وهن يغنين «الليدى مربى» ويرقصن الكان كان، وصاحب الملهى «زيدلر» يقودهم. وسط حشد من رواد الملهى، بارديتهم الرسمية، وقبعاتهم الطويلة السوداء، وهم بدورهم يشاركون فى الغناء.

ومع هذه البداية المذهلة حقا، بتموج شخوصها والوانها. يدخل كريستيان الشاعر الانجليزى الشاب، ويلعب دوره النجم الانجليزى ايوان ماكرجر» يدخل عالم الطاحونة الحمراء، حيث ترقص وتغنى درة الملهى، وتؤدى دورها النجمة الاسترالية «نيكول كيدمان».

حب من اول نظرة

وفى هذا الجو المشحون بالاغراء والرغبة والاشتهاء يلتقى الاثنان. وهما على طرفى نقيض

هو شاعر رقيق، بالحب وحده. يعيش راضيا سعيدا.

وهى غانية لاهية، الماس صديقها الوحيد. بسحره تتلوى وتتغنى كل مساء.

والحق، ان لقاءهما جاء مصادفة فقد ظنته عندما دق باب غرفتها، انه الدوق صاحب الملايين.

وانه فيما لو اعطته جسدها، سيجعل منها نجمة مسرح، معبودة الجماهير.

فلما تبين لها انها اخطأت، وان من استقبلته هاشة باشة، ليس الا شاعرا فقيرا مغمورا، حاولت التخلص منه، حتى تفسح الطريق للدوق المليونير، ولكن بعد فوات الاوان.

فكلمات قصيدة الشعر التى اسمعها اياها، وهى كلمات تشع حبا، مست اوتار قلبها، المحروم من الحب، بحكم مهنتها التى لا تقيم وزنا للعواطف.

ومن اجل الماس تدوس عليها بالاقدام ومع وقوعها رغم انفها فى حب كريستيان يبدأ الصراع بين الثلاثة الشاعر والغانية والدوق صاحب المال.

الموت حبا!

وطبعا ينتصر الحب، وان كانت الاحداث تنتهى بساتين مريضة بالسل، مفارقة الحياة.

وقصة الاثنين، وتضحية ساتين من اجل حبيبها ثم موتها فى نهاية المطاف، انما تذكرنا بغادة الكاميليا التى ترجمها



الطريق الى قندهار

الموسيقار الايطالى، جوسيبى فيردى الى لغة الاوبرا.

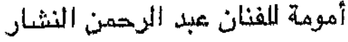
ثم ترجمها المخرج الامريكي جورج كوكور الى لغة السينما، فى فيلم تقمصت فيه النجمة جريتا جاربو شخصية الغانية مارجريت جوتييه التى ماتت مضحية بحبها من اجل من اعطته قلبها «ارمان دوفال» ولورمان وان كان متأثرا فى رائعته بغادة الكاميليا الا انه تأثر باعمال فنية اخرى، من بينها اذكر على سبيل التمثيل اوبرا البوهيمية للموسيقار الايطالى جياكومو بوتشينى . وفيلم الملاك الازرق الذى جعل من مارلين ديترش نجمة لايضارعها فى الشهرة، بين الالمان سوى ادولف هتلر.

وختاما . يبقى لى ان اقول انه رغم اختلاف عالمى قندهار والطاحونة الحمراء، فكلاهما متعة للعقل والحواس معا. ■



تضاريس مصرية – وفيق المنذر





أمومة للفنان عبد الرحمن النشار

كشوف مستعادة من خزائن السنين

بقلم
عز الدين نجيب

على مدار الشهور الثلاثة الأخيرة من العام الذى انطوى، لم تخل قاعة واحدة من قاعات العرض بالقاهرة – حكومية أو أهلية – من المعارض الفردية أو الجماعية، وبلغت كثافتها درجة يصعب معها على المتابع ملاحقتها، حتى وإن كانت أماكنها تتمركز فى منطقتين متقاربتين .. بين وسط العاصمة وحى الزمالك والجزيرة، ومع ذلك كان العثور على عمل جديد ومبهر من بينها فى غاية الندرة، وأظن أن ساحة الفنون التشكيلية ليست – فى ذلك – استثناء بين بقية الفنون والآداب .. سواء كانت السينما أو المسرح أو الرواية أو القصة: كثير من الأعمال، قليل من الإبهار!



الطائر الاسطوري - مصطفى
عبد المعطي ١٩٦٦

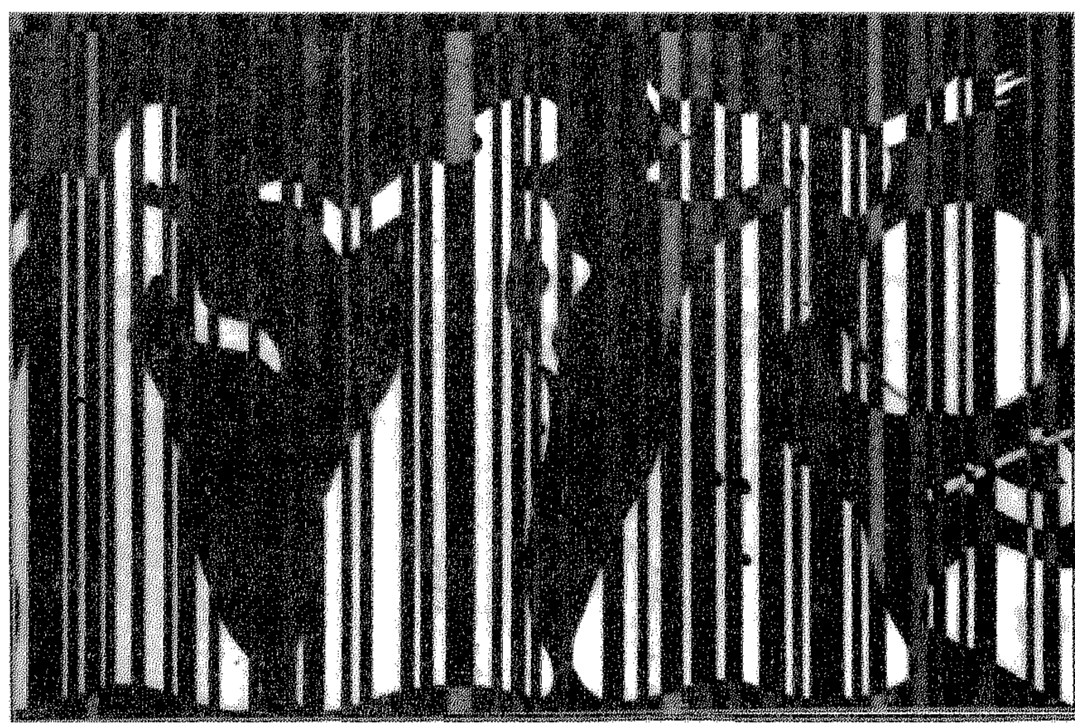
بيد أن الأمر في الفنون التشكيلية يتفرد بسمة خاصة، وهي أن غالبية المعروضات يعود إنتاجها إلى سنوات بعيدة في الماضي، بعضها يرجع إلى أربعين عاما، وقد استعادها الفنانون من قاع الذاكرة أو من أعماق خزائنهم، ومنها من غاب أصحابها عن عالمنا منذ زمن طال أو قصر، مثل معرض الفنانين الجزار وندا، ومعرض الفنان عبدالرحمن النشار.

وباستثناء هذين المعرضين، اللذين لم يكن لأصحابهما الراحلين خيار في إقامتهما، يحار المرء في تفسير هذه الظاهرة «الاستعادية»، فمن المفترض أن الفنان لايسترجع محطاته الفنية القديمة أمام الجمهور، إلا عندما يشعر أنه استكمل مشروعه الإبداعي حتى محطته الأخيرة، أو أنه يريد أن يؤكد استمراريته على خط قديم برؤية جديدة معاصرة، أو أن يقيم نوعا من المتوازيات أو المتقابلات بين تجارب فنية معينة في مشواره الفني، أما هذه المعارض فتبدو - في غالبيتها - كنوع من حنين أصحابها إلى الماضي بعد أن دخلوا مرحلة الشيخوخة أو هم في الطريق إليها، فكأنما يؤكدون، باسترجاعها، ريادتهم المبكرة لتجارب الحداثة، أو ارتيادهم لمنابع الأصالة، وقد تزايدت الحاجة اليوم إلى بعثها إلى الحياة في سياق التحولات الكاسحة للقيم الجوهرية، حتى انتهى الأمر بالحركة الفنية إلى أن تكون ساحة تعمها الفوضى وتفتقد الهوية ويختلط فيها الحابل بالنابل!

النشار.. ومرحلة مجهولة!

وإذا كان معرض الجزار وندا - الذي أقيم بقاعة سفرخان في شهر ديسمبر - لم يحمل جديدا بالنسبة لعشاقهما، أكثر من تنشيط الذاكرة حول إضافاتهما الإبداعية الخالدة منذ الأربعينيات، وتعميق قيم الأصالة والجذور الشعبية لدى أجيال جديدة تفتقر إلى ما يربطها بهذه القيم والجذور، فإن معرض الفنان عبدالرحمن النشار (١٩٣٣ - ١٩٩٩) بقاعة الزمالك (أواخر ديسمبر وأوائل يناير) ضم مجموعة جديدة من اللوحات لم يسبق عرضها، وشكلت مفاجأة حقيقية حتى لأقرب المقربين للفنان الراحل، خاصة بعد أن أقامت أسرته متحفا لتراثه الفني - على طريق القاهرة - الأسكندرية - ضم جميع ماتركه من أعمال فنية، والأكثر إثارة للدهشة أن مجموعة اللوحات التى عرضت بقاعة الزمالك تبدو نقيضا للرؤية الفنية المعتادة التى تميز بها أسلوبه على امتداد رحلته الإبداعية، القائمة على البناء الهندسي الصارم، والعقلانية التى تمسك بزمام اللوحة وتقودها فى نسق جمالى محكم غير بعيد عن النسق الزخرفي، عبر متواليات رياضية تعتمد على أشكال هندسية وتتخللها تكوينات عضوية محسوبة لاتخل بذهنية هذا النسق.

أما اللوحات الجديدة فتمثل اكتشافا نادرا لوجه آخر للفنان، فقد عثرت عليها زوجته الفنانة زينب السجيني مصادفة، وتصل إلى حوالى ثلاثين لوحة بأحجام صغيرة وبألوان مائية وزيتية وأحبار، وأغلبها مرسومة على الورق .. إنه هنا يكسر أى نظام هندسى، ويستبعد أى سيطرة للعقل والقيادة الذهنية، كما يستبعد جميع الأشكال الهندسية والطابع الزخرفي المبهر الذى عرف به، مطلقا الفنان لشحنة نفسية ودرامية جياشة، لتتدفق بمنتهى التلقائية والعفوية على سطح الورق، والعنصر الرئيسى للتكوين هو الإنسان بوجهه أو جسمه، يشد الانتباه بملامسه الخشنة على السطح إلى حد التجريح والتوتر، وتسود الألوان قتامة طينية، مضفية سحابة من الحزن ودرجة من الغموض المأساوى، ساعد عليها الاقتصار على ألوان مثل الأسود والبنى المحروق والأزرق النيلي. مايوحى بأن اللوحات تكتم شحنة متفجرة أو نزيفا مؤلما، ويتجلى ذلك فى الومضات الضوئية المشعة من بين



الزار (أوت آرت) - محمد صبرى

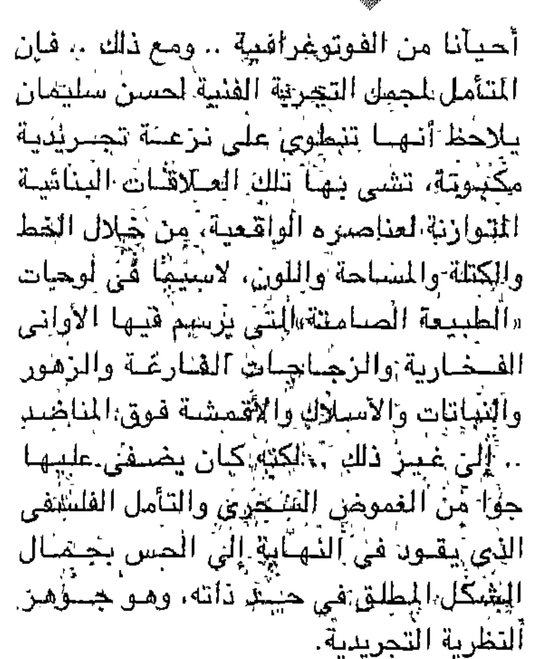
الكتل الكثيفة المعتمة التى تاهت معالمها الإنسانية.

وإذا علمنا بأن هذه الأعمال تعود إلى فترة الستينات، تكشف لنا أنها تعكس مدى القلق النفسى والحيرة الإبداعية التى كان يعيشها النشار آنذاك بحثا عن طريق، وقد تملكته حالة من التمرد على الواقعية والتشخيصية، وأراد الخروج منها دون أن يعرف إلى أين ، غير أن عددا من هذه اللوحات يشير تاريخ إنتاجها إلى سنوات ٦٧ وما بعدها، وتعكس حسا هائلا بالفجيعة وعتامة الرؤية، ما يوحى بأنها انعكاس لحالة الهزيمة التى عاشها الوطن بعد عام ٦٧، وقد يكون إهمال النشار لهذه اللوحات بعدم عرضها أو حتى إخبار زوجته بوجودها، إيماء إلى أنه اسقطها من ذاكرته، ربما رغبة منه فى نسيان تلك الحالة وإصرارا على تجاوزها بإرادة عقلانية، ظهرت تجلياتها فى أعماله الفنية التالية .. لكنها - على أية حال - تجربة إنسانية وجمالية بالغة الأهمية في التعرف على تلك الموهبة المتعددة الوجوه.

حسن سليمان .. تجريديا!

وقبل شهرين فاجأنا الفنان الكبير حسن سليمان (١٩٢٨) بكشف مماثل لكشف المرحوم النشار، حين أقام بقاعة «مشربية» معرضا يقوم بأكمله على أسلوب الكولاج، بلصق قصاصات ملونة من الورق للحصول على تكوينات تجريدية دون استخدام الريشة أو الفرشاة، والمدهش.أن تاريخ إنتاج هذه اللوحات يعود - أيضا - إلى سنوات الستينات، وأنها لم يسبق عرضها، وإن كان بعضها قد استخدم كأغلفة لمجلة الكاتب آنذاك.

إنها تجربة أشبه بالتجارب المعملية التى يمارسها الفنان كنوع من البحث الجمالى المتحرر من حسابات العرض والطلب وتعليقات النقاد والمترصدين، أى أنه يمارسها لنفسه وليس لعرضها على الناس، وهى تنم عن رغبة دفينة داخل الفنان لممارسة التجريد، نقيضا لما اشتهر به طوال مشواره الفنى، من نزعة واقعية وملامسة حثية لملامح الطبيعة والبيئة المصرية، إلى حد محاكاتها لدرجة تقترب



أحيانا من الفوتوغرافية .. ومع ذلك .. فإن المتأمل لمجمل التجربة الفنية لحسن سليمان يلاحظ أنها تنطوي على نزعة تجريدية مكبوتة، تشي بها تلك العلاقات البنائية المتوازنة لعناصره الواقعية، من خلال الخط والكتلة والمساحة واللون، لاسيما في لوحات «الطبيعة الصامتة» التي يرسم فيها الأواني الفخارية والزجاجات الفارغة والزهور والنباتات والأسلاك والأقمشة فوق المناضد .. إلى غير ذلك .. لكنه كان يضفي عليها جوا من الغموض السحري والتأمل الفلسفي الذي يقود في النهاية إلى الحس بجمال الشكل المطلق في حد ذاته، وهو جوهر النظرية التجريدية.

وفي أعماله «الكولاجية» يستبعد تماما أية عناصر تمثيلية، ويكتفي بشرائح هندسية أو عشوائية الأشكال، يقوم بتوزيعها على الورق بنظرة عقلانية وحسية معا، تحقق نوعا من التوازن المرهف والاختزال الشديد للعناصر المتحاورة، ومن التناغم الخطي واللوني، حتى ولو استبقى لون الورق القديم بآثار التمزق البادية في حوافه.

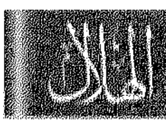
ويظل السؤال هو: ما الذي جعل الفنان يسجن هذه اللوحات أربعين عاما، وما الذي تغير في قناعاته ليفرج عنها اليوم؟.

مصطفى عبدالمعطي .. واقعيا

وبما أننا نختتم عام ٢٠٠١ بكشوف منسية من عالم الستينات ، فقد فاجأنا الفنان الكبير مصطفى عبدالمعطي أيضا (١٩٣٨) بمعرض في مركز الجزيرة للفنون يقتصر على لوحات زيتية لم يسبق عرضها من أعماله الأولى منذ أوائل الستينات حتى أواخرها، من بينها تجاربه المبكرة لارتياد عالم التجريد، ثم مجموعته التعبيرية الرمزية التي يزاوج فيها بين التشخيص والتجريد، مستخدما بعض مظاهر وجماليات من واقع البيئة المصرية، ثم مجموعة ثالثة يعبر من خلالها عن هزيمة ٦٧ بكل مأساويتها ووقوع الانسان خلالها في هاوية التمزق واليأس، وأخيرا مجموعة مناظر كفر الشيخ التي رسمها برؤية واقعية من منطقتي «بلطيم والبرلس» عام ١٩٦٨ مع زميليه الفنان الراحل سعيد العدوى والفنان محمود عبدالله ، أثناء فترة إشرافي على قصر الثقافة بكفر الشيخ، حيث قمت - بالتعاون مع المحافظة - باستضافة جماعة التجريبيين، التي كانت تضم الفنانين الثلاثة، للقيام بمشروع لاستلهام ملامح البيئة في المحافظة، تأكيدا للتواصل بين الفنان والمجتمع الذي كان جيلنا يتطلع إليه آنذاك.

وقد نجد أن مناخ ٦٧ بكل ثقله ومرارته في النفوس قد خيم حتى على رؤيته لمناظر كفر الشيخ، بالرغم مما ترشح به من أطياف شاعرية وإيقاعات غنائية عذبة، تختلف كليا عن إيقاعاته التجريدية السابقة عليها واللاحقة لها، بما فيها من جهامة وذهنية وجفاف، لقد عكست هذه المناظر احترام الفنان لعلاقات الواقع الخارجية واهتمامه بتسجيلها.. على عكس ما عرف به كفنان تجريدي في مراحله التالية، لكنه يضفي على هذه الملامح الواقعية حسا شاعريا وتأليفا بصريا قد لايتوافر في عالم الواقع .. إن الإيقاعات القوسية للخطوط التي تتسم بالانحناءات العضوية لملامح العمارة البيئية تتحول إلى مايوحي بأجسام بشرية تنساب في ليونة وحنان، وتكتسي بلون من الإشراق الروحي رغم غلبة الدرجات الرمادية الحزينة، ونلاحظ في أعمال الستينات المبكرة لمصطفى عبدالمعطي - أوائل الستينات - درجة عالية من النضج في فهم الحداثة الأوروبية، وفي كيفية الاستفادة منها دون محاكاتها، ولعلها درس عميق الدلالة للأجيال الجديدة من الفنانين في كيفية هضم المؤثرات





الفنيــة الوافــدة بنفس القــدرة على هضم الموروث الثقافى بامتـداداته الحضـارية والبيئية.

وفيق المنذر.. ومعزوفة المرأة

وعلى نفس الخط الاسـتـعـادى لأنغـام الستينات، أقام الفنان الكبير وفيق المنذر (١٩٣٦) معرضا بقاعة الفنون التشكيلية بدار الأوبرا، لنماذج متعاقبة فى رحلته الممتدة منذ الستينات، وربما كان المنذر أحد الأصوات التشكيلية النادرة فى وفائه الذى لا يتـأرجح لموروثنا الثـقـافى ، ولمنابع الخصوبة الحضارية بتجلياتها المتتالية، من الفن المصرى القديم إلى القبطى فالاسلامى فالشعبى، وقد جدل ذلك كله فى ضفيرة متلاحمة مع رؤيته الخاصة، التى لم ينعزل فيها عن تيارات الحداثة فى الفنون الغربية المعاصرة، من التكعيبية والسريالية والتجريدية، وربما جاز لنا مقارنة تجريبية - مع الفارق - بتجربة الموسيقار الرائد أبو بكر خيرت، فى «متتاليته الشعبية» المبنية على القالب الأوركسترالى الغربى، بالتوزيع الهارمونى والبوليفونى للأنغام والحركات والآلات الموسيقية، فى تصاعد «للميلودى» فى تجليات ايقاعية من وحى الأنغام الشرقية.

غير أن حظ وفيق المنذر لايقارن - مع الأسف - بحظ أبو بكر خيرت، الذي وجد من يحتضنه ويشجعه فى الستينات، خاصة الدكتور ثروت عكاشة، أما مجال الفن التشكيلى فقد هيمنت عليه - على مدار العقود الماضية منذ السبعينيات - منظومة الفكر الحداثى الشكلى من منظور غربى بحت، ما أدى إلى مانعانيه من تبعية الحركة التشكيلية فى مجملها لذلك التوجه الغربى، وتهميش لأصحاب التيار الذى يتمسك بالهوية المصرية والعربية، مستمرا فى استلهام خصائصها من بدائع تراثها الحضارى أو تجليات بيئتها الطبيعية والشعبية.

ويتخذ المنذر من جسم المرأة آلته الموسيقية التى يعزف عليها ألحانه التى يتماوج خلالها الإيقاع الشعبى التطريبى مع نبض الأنوثة والخصوبة، ليتصاعد إلى الدلالة المطلقة للرمز بعيدا عن التقرير والوصف، واستعان بخامة «الجرانيوليت» المعمرة، وهى حبيبات رملية ملونة تستخدم فى تكسية الجدران، لإيجاد أسطح فنية ذات ملمس جدارى، محققا بها فرادة تقنية بين الفنانين المصريين، وبصمة فنية لم تتكرر.

داوستاشي.. ومخلوقات الفنجان

أما الفنان السكندرى عصمت داوستاشى (١٩٤٣) فإنه قرر أن يبدأ - بمعرضه الذى أقامه بقاعة المركز المصرى للتعاون الدولى فى أواخر ديسمبر - سلسلة معارض استرجاعية متتالية لمختارات من أعماله السابقة، بحيث يتزامن آخر معرض من هذه السلسلة - والذى سيضم أعماله التى عرضها فى أول معرض فى حياته عام ٦٢ - مع بلوغه سن الستين من عمره فى مارس ٢٠٠٣ وهو سن الإحالة إلى المعاش .. حسبما كتب فى كتالوج معرضه!.

إنها إذن عودة بنظام وثبات إلى الخلف وليس دفعة إلى الأمام، وكأن الفنان قد قرر ركوب «آلة الزمن» كما حدث فى الرواية الشهيرة بهذا الاسم!.. لكنه يبرر ذلك بقوله: قد يكون سنى حينذاك هو السن المناسب لبداية جديدة أو لاسترجاع ما أنجزته من أعمال وإتاحة الفرصة لجيل من الفنانين الشباب لم يشاهدوا هذه الأعمال من قبل ولم يتعرفوا على بدايتى الفنية!

أى إحساس بالشيخوخة المبكرة - أو بالإحباط إن شئنا الدقة - أكثر من ذلك! - لكن علينا ألا نصدق قرار عصمت هذا، لسبب بسيط: وهو أنه سبق أن أعلن مرارا، قرارات تقترب من ذلك، مثل أن يكون معرضه الأخير آخر المعارض التى يقيمها، ويأتى ذلك تعبيرا

آنيا عن إحباطه الشديد بما يلقاه الفنان من إهمال وتهميش ولا مبالاة، وعادة مايكون جادا مخلصا فى قراره، لكنك تجده فى التوقيت نفسه من العام التالى يقيم معرضا جديدا بمجموعة مثيرة من أعماله تكلف إنتاجها مبالغ طائلة!.. والغريب أنه يفعل ذلك وهو يعرف مقدما أنه لن يباع منها شيء يعوض ولو جزءا يسيرا مما أنفقه .. ثم يقرر من جديد اعتزاله الفن .. لكن هل بوسع العاشق أن يجتث قلبه لو عذبته المعشوقة؟.. وهل بوسع الشجرة المثمرة أن تكف عن طرح الثمار فى موعدها كل عام، حتى ولو كان غذاؤها من الماء والهواء مجرد «شمة» منهما كل حين؟!.

أما عن معرضه (الجديد - القديم) فإنه يتضمن تجربته المثيرة عن «خيالات فنجان القهوة»، حيث سبق أن عرضها عام ٢٠٠٠ بقاعة اخناتون ، وفيها يستقرىء بقايا الفنجان، برؤية خيالية تستوحى التضاريس العشوائية لرواسب القهوة.. بما تحمله من إيحاءات وتنبؤات اعتاد كثير من الناس تصديقها، غير أن الفنان هنا يتخذ من هذه التضاريس مجرد ذريعة لخلق عالم جديد مسموح فيه بمطلق الحرية للتلاعب بالأشكال والكائنات والمخلوقات التى يبدعها من خياله دون رقيب، وأن يقول من خلالها ما شاء وكيفما شاء، حول معنى الحياة وتقلبات المجتمع والعصر، بما وصلت إليه من جنون وعبث مطلق دون أن يضع نفسه تحت أى خانة فى المدارس الأوروبية، مثل السريالية أو الوحشية، أو مابعد الحداثية، وما إلى ذلك من التصنيفات سابقة التجهيز.

إن مصفوفاته التى تتجسد كطقس سحرى، وتندفع فى حركة لاتهدأ، تحقق - برغم عشوائيتها - نوعا من السيطرة على الفراغ، ومن ثم على الحيز المتاح للإنسان فى الوجود، وهى لذلك لوحات يتماهى فيها الوجودى مع الاحتفالى، متعديا حدود المدرك البصرى، إلى حالة من المشاركة المهرجانية الشعبية، ومن التوازن النفسى فى آن. فى عالم يطرح على الإنسان أسئلة مستحيلة، تفوق قدرة الإجابات التقليدية على حلها!

محمد صبري.. العدسة أم الريشة؟

فى عام ١٩٨٨ بزغ على الساحة التشكيلية وجه جديد - قديم، بمعرض غير مألوف ، ريشته هى عدسة الكاميرا، وعدسته هى عين الفنان التى تؤلف التكوين قبل عين الآلة، ولا يكتفى صاحبها بما يسمى (الكادر الفنى) أو اللقطة المبتكرة، التى تستعين بالأضواء والظلال غرابة المنظور وغموض التكوين، بل يحرِّف الأشكال الواقعية ويعيد صياغتها بمنظور تشكيلى بحت، ثم يتمادى صاحب الرؤية التجريدية أو الخيالات السحرية.

كان «صبرى» قد اشتهر كمصور صحفى متميز، ورئيس قسم التصوير بدار الهلال منذ عام ١٩٤٨، لكن موهبته كانت تتجاوز إمكانات التخصص المهنى، فراح يستكمل بريشته وفرشاته مالا تسعفه العدسة على تحقيقه، متلاعبا بالحركة البصرية للخطوط المتوازية أو المتشابكة أو المتقاطعة، فيما يعرف بفن خداع البصر (أو : أوب آرت) ، مثيرا حالة من الزغللة البصرية أو المراوغة فى الإمساك بالعناصر التشخيصية أو التجريدية التى تشكلها هذه الخطوط والشرائح الخطية والضوئية لأنها فى حالة حركة لا تهدأ. وهو فن نجد جذوره فى فنون الزخرفة الإسلامية، وقد نجح فى تطويره والانطلاق به إلى رؤى عصرية مبهرة، وفى توظيفه فى أغراض نفعية عديدة، الفنان الفرنسى (مجرى الأصل) فازاريللى.

وكثيرا مالجأ صبرى إلى المزج بين العمل الفوتوغرافى والرسم بالريشة أو الفرشاة والألوان المائية وغيرها صيغا تعبيرية وتشخيصية من خلال رسم البورتيريه أو المنظر الطبيعى ، مستغلا تشرب الورق للماء



آنية زهور للفنان عبد القادر مختار

ونشع الألوان وانتشارها فوقه بشكل عشوائى، لكنه يظل تحت السيطرة، مما يضفى عليه حالة شعرية مبهمة أو جرأة تقنية فى استخدام الألوان الصريحة وضربات الفرشاة القوية، ووفق إحساسه الذى تضيف إليه روح الهواية مزيدا من الجرأة المتحررة من قيود الأكاديمية والمحترفين.

وها هو يقدم لنا معرضه الاستعادى كنتاج لمسيرته الفنية الممتدة.

عبدالقادر مختار.. وحصاد العمر

آخر المعارض الاستعادية - كحصاد لمشوار العمر - أقيم بقاعة المركز المصرى للتبادل الثقافى الدولى فى يناير الماضى للنحات د.عبدالقادر مختار (١٩٢٢)، الذي لايخفى على أحد دوره الدؤوب فى العمل من خلال المناصب الوظيفية أو الجمعيات الأهلية أو نقابة التشكيليين لتحقيق أهداف الفنان المصرى ووجوده فى المجتمع وتبنى مصالحه لذلك فإن حضوره المستمر فى الحركة التشكيلية يتحقق من خلال عطاء لايكل فى خدمة المجموع ، على حساب فنه فى أغلب الأحيان.

وقد برع الفنان مختار فى نحت البورتريه، وأجمل بورتريهاته ما أنجزه مرارا للسيدة الأسبانية روزا ماريا، حيث تبدو لنا مزهوة بجمالها شامخة فى كبرياء، وهى تضم وشاحها على صدرها وتمسك بأناملها وردة فوق إحدى أذنيها .. وقد صنعه من الخشب وقام بتلوينه بألوان طبيعية معمرة، (لون البشرة، ولون الفستان ولون الوشاح ولون العينين)، وكان ذلك هو أول تمثال ملون يعرض فى مصر، مما أثار دهشة الكثيرين ، نظرا لأننا اعتدنا على رؤية أعمال النحت الأثرية والمعاصرة بلون الخامة الطبيعية، مع أن النحت المصرى القديم كان فى الأصل ملونا بألوان زاهية، لكنها تلاشت بفعل العوامل الجوية، وقد أصبح تلوين التماثيل أمرا معتادا فى العالم اليوم.

وإلى جانب تماثيل البورتريه النسائية عرض الفنان تمثال لامرأة عارية تقف فى شموخ واعتزاز وحمل عنوان «النيل» وقد بدأه عام ١٩٤٨ ولم يكتمل إلا أخيرا، وفيه التزم بالقواعد والأكاديمية وإن بدا اللون الزهرى الذى طلى به فاقعا لايتناسب مع جلال الفكرة.

على أن أغلب الأعمال المعروضة كان من التصوير الزيتى، خاصة فى مجال المناظر الطبيعية ووجوه الأشخاص والطبيعة الصامتة، وتتسم بحس لونى طازج وتباين صريح بين الأضواء والظلال من منظور تسجيلى يسعى لإثارة البهجة، خاصة فى تكوينات الطبيعة الصامتة من زهور الأوركيد.

وأظن أن «حصاد العمر» من الأعمال الإبداعية للفنان عبدالقادر مختار ، كان جديرا بأن يكون أضعاف ماضمنه المعرض كما وكيفا لو لم تكن الوظيفة والعمل العام قد سرقا من عمره الكثيرا. ■

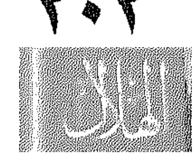


المسرح الأمريكى

والخوف من (الخفى) الذى لا يرحم

بقلم
د. حسن عطيه

رغم أن النص الدرامى الذى تعنونه الترجمة بـ (تخيلات مالدا . مفارقة الكاتب أو الأرنب الآلى) للكاتب «مايكل فينجولد» ليس هو النص الأول والأهم الذى تضمه مجموعة النصوص المنشورة ضمن إصدارات الدورة الأخيرة لمهرجان المسرح التجريبى ، فى كتاب بعنوان (أفضل المسرحيات الأمريكية القصيرة) ، والذى أشرف على تحريره «هوارد شتين» و«جلين أيونج» فى سلسلة منشوراتهما السنوية، معا أو كلا على حدة ، عن أفضل المسرحيات القصيرة التى ظهرت فى الولايات المتحدة فى عام فنى (موسم مسرحى) ،إلا أنه يعد النص المفتاح الذى يتيح لنا الدخول لعالم هذه النصوص المجمعة فى أواسط التسعينات من القرن الماضى (٩٥ - ١٩٩٦) ، والتى تحتوى على اثنى عشر نصا دراميا لكتاب أمريكيين أو أوربيين تركوا أوطانهم ليعيشوا ببلد العم سام .



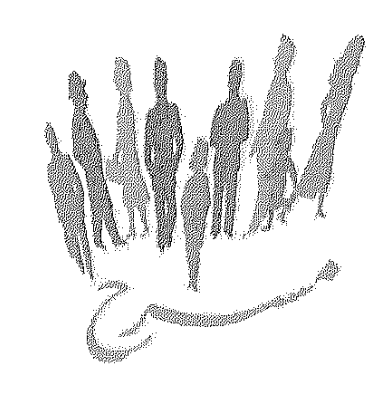
ورغم أن وقائع الحدث الدرامى لهذا النص تدور فى فرنسا عام ١٨٩٥ ، داخل أبهاء مسرح باريسى ، وفى نهاية إحدى ليالى عرض مسرحية لكاتب مجدد فى الكتابة المسرحية هو السيد «أورفين» ، يقابل عقبها بمجتمع كامل رافض لرؤيته الجديدة لفن المسرح ، خاصة فى مجال المسرحية القصيرة ، يتمثل ذلك المجتمع فى مخرج العرض وممثلته الأولى ومشاهدة عاشقة لفن المسرح وأستاذ فى علم الجمال ، يبدو أنه يمثل الطرف الخامس فى عملية العرض المسرحى ، وهو النقد ، وهو قادم للمسرح بعد أن عقد صفقة مع ورثة الكاتب التقليدى «أوجيه» للفرقة التى تقدم العرض الجديد ، ونحن نتعرف على زمان ومكان سريان حدث المسرحية الدرامى ، من خلال الإرشادات المسرحية المتصدرة للنص ، والتى توجه نظر المخرج ومصمم السينوجرافيا للإطارين الزمانى والمكانى الذين تدور فيهما وقائع الحدث الدرامى للمسرحية ، لكى يصيغا الأجواء التاريخية والجغرافية لعرضهما ، كما توجه فى ذات الوقت نظر قارىء النص بين دفتى الكتاب لهما ، وتساعده على تخيل تلك الأجواء التى تدور فيها وقائع المسرحية التى يقرأها ، باعتبارها نصا موازيا للنص الحوارى ، يساعد المخيلة على خلق الصورة المسرحية.

رغم أن تلك الوقائع تدور ، كما يشير لنا النص ، قبل مائة عام كاملة من زمن كتابته وتقديمه ، إلا إنها تشير بوضوح للزمن الحاضر الذى لايستطيع المسرح الهرب منه ، باعتبار أن المسرح هو فن تجسيد الوقائع فى الزمن الحاضر ، كما تشير لموقف الكاتب من رؤى مسرحية يرى أن تطور الفن المسرحى ، وظهور نظريات نقدية حديثة وحداثية خلال ذلك القرن الأخير ، قد أدى لتجاوزها ولطرح مفاهيم جديدة للكتابة الدرامية للمسرح ، يعبر عنها كاتب المسرحية الداخلية السيد «أورفين» ، مقابل مجتمع فنى مازال متعلقا بمسرح تقليدى .


لافون موللر

المسرحية المحكمة الصنع

يختار مؤلف النص الأول «فينجولد» عن عمد الكاتب الفرنسى «سكريب» ليكون ممثلا لذلك الاتجاه الذى يرفضه فى الكتابة للمسرح ، والقائم على البناء الدرامى المحكم الصنع ، والمعبر عنه على لسان المشاهدة المؤيدة لطريقة سكريب المسرحية ، والتى ترى أن العمل المنشود لابد وأن يحتوى على «شخصية محورية واقعة بين اختيارين لايمكن الدفاع عن



أيهما» ، تقابلها شخصية مناوئة هى «الخصم البارع الذى يصد كل محاولات الشخصية المحورية للهروب من هذا الموقف» ، بينما يرى هو أن العالم قد تغير ولم يعد محكم البناء ، ولذلك فمن الصعب التعبير عما هو مخلخل البناء فى الحياة بعمل فنى محكم البناء ، ويقف برؤيته الجديدة ضد المشاهدة التقليدية التى تعودت على تعريض ذاتها لأنماط معينة من الكتابة المسرحية ، لاتهز مفاهيمها التقليدية للمسرح ، كما يقف بذات الرؤية ضد ممثلة مسرحيته ، التى ترى أن نصه لم يمنحها الفرصة الكافية للظهور على المسرح ، وتبديل ملابسها فى كل مرة تظهر فيها ، وتغيير طبقات صوتها وفقا لتباين الانفعالات فى اللحظة الواحدة ، فضلا عن وقوفه ضد المخرج صاحب الفرقة الذى يعرف أو يتصور أنه يعرف مايريد جمهوره ، ويعيد كتابة المسرحيات المتداولة لتبدو أكثر معاصرة ، دون أى تغيير فى منطقها العام ، ويدعم المخرج أستاذ فى علم الجمال يؤيد رؤيته هذه ، دون أن يعارض رؤية الكاتب الجديدة ، معلنا أنه «يجب للماضى أن يأخذ فرصته ياسيدى قبل أن يكتسحه الجديد» ، ويقبل الكاتب فى النهاية أن يكون أرنبا آليا ، يتحرك ويقفز وفق ما يمليه عليه المجتمع المحيط به ، فذاك هو قدره فى مجتمع فنى متخثر ، وبذلك يوافق على أن يقوم بإعادة كتابة مسرحية لزميل «سكريب» فى كتابة المسرحية المحكمة الصنع ، وهو الكاتب الفرنسى «أوجيه» ، لترضى المخرج والممثلة وذائقة الجمهور المشاهد .

التفتت فى مواجهة التماسك

مما لاشك فيه أن شخصية الكاتب المسرحى (المتخيل) «أورفين» هى الصوت المتحدث فكريا داخل العمل الدرامى باسم مؤلفه (الحقيقى) «فينجولد» ، والذى يطرح بصفته الصراع الدائم والقائم منذ سنوات بين صيغ مسرحية كلاسيكية البناء ، وصيغ أخرى حداثية البناء ، تعبر كل منهما عن رؤية مخالفة لفن المسرح،

ويحتوى الكتاب الذى بين أيدينا على نماذج دالة لكل منهما ، فمن يوصف بأنه كلاسيكى متعلق بأذيال الماضى وأنماطه فى الكتابة والعرض المسرحى ، هو من يرى فى المسرح نهجا لإعادة بناء العالم المفتت فى أبنية فنية متماسكة ، تستهدف دفع المتلقى إما لاكتشاف أن المسافة بين ألتفتت وألتماسك مجرد مسافة أخلاقية بسيطة من السهل تداركها ليتماسك الواقع ، فيرسم ماهو قائم، أو ليدرك ذلك المتلقى أن تلك المسافة هائلة ، ولا مناص من الثورة على الواقع وإعادة بنائه اجتماعيا وفلسفيا وجماليا .

بينما يرى المنعوت بصفات التجدد

والحداثة وربما التجريبية ، أن العالم مفتت ، ولا سبيل أمام الفنان غير التعبير عن هذا التفتت فى أبنية فنية مفتتة ، مثلما فعل مسرح العبث ومن سار على دربهم ، فاللغة الواقعية لم تعد لغة تواصل بين البشر، فليتحدث المسرح إذن بلغة ممزقة ، ويفضل ألا يتحدث المسرح بلغة منطوقة نهائيا ، تاركا للجسد حرية التعبير عن نفسه بحرية كاملة ، باعتبار أن الجسد هو مانح الوجود لماهيته، وأن الشكل له القدح المعلى على المضمون والرسالة الاجتماعية للفن .

المفارقة فى مسرحية «فينجولد» المسماة (تخيلات مالدا .. مفارقة الكاتب ...) أنها تقف ضد المسرحية المبنية الصنع ، فى الوقت الذى تصاغ فيه فى بناء محكم، يدور حول موقف محدد لـ «شخصية محورية» هى الكاتب المسرحى «أورفين»، تجد نفسها «واقعة بين اختيارين» إما أن تستمر فى الكتابة للمسرح وفق ما تراه فلا تجد من يقدم عملها للعالم، أو أن تعمل لدى الفرقة المسرحية، تكتب أو تعد لها نصوصا وفق ما تراه هى، حتى تحقق لنفسها الوجود ولقوة خصمها من جهة ، وحاجتها للوجود من جهة أخرى ، توافق على الكتابة كما يريد لها المجتمع أن يكتب ، متحولة بذلك من حالة الرفض لحالة الهزيمة ، ساقطة من علياء الشعور بالتميز لهوة الامتثال لما يريده الغير .


مارلين مونرو

كل ذلك فى إطار نص درامى كلاسيكى البناء مما يخلق المفارقة بين ما يدعو إليه النص وبنائه الدرامي ، أما المفارقة الثانية فتكمن فى الترجمة العربية ، فالجزء الثاني من العنوان يحمل الجملة التالية بالإنجليزية Scribe's paradox وهى تعنى مفارقة سكريب ، أو إذا شئنا الدقة المفارقة السكريبية ، حيث أن لفظة Scribe هنا لاتعنى الكاتب أو الناسخ فى اللغة الانجليزية ، وإنما نسبة لشخصية الكاتب الفرنسى الشهير «أوجست – أيوجين سكريب» (١٧٩١ – ١٨٦١) ، المشار إليه فى النص الدرامى، والذى كتب وحده أو مع آخرين مايقرب من ٣٥٠ عملا مسرحيا محكم البناء ، والمفارقة السكريبية هنا واضحة فى ذلك التناقض بين مايدعو إليه مؤلف النص الدرامى ، على لسان شخصيته الأولى ، والبناء الفنى المصاغة به رؤيته جماليا ، فمن يرفض طريقة «سكريب» فى الكتابة يكتب بها ، بل ويجعل بطله المتمرد يقبل بها ، ولو على مضض ، فى نهاية مسرحيته .

هذا النص المفتاح يفتح لنا أبواب ذلك

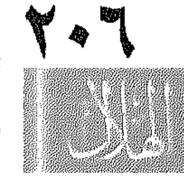


المختار من أفضل المسرحيات الأمريكية القصيرة خلال موسم ٩٥ / ١٩٩٦ ، وفقا لرؤية كل من الناقدين المحررين «هوارد شتين» و«جلين أيونج» ، والبادىء بالنص ذى الصياغة العبثية (غرف قياس الملابس)، والمنتهى بالنص السوريالى الرؤية والبناء (صندوق خشب الصندل) ، ومحتويا على أكثر من عمل يميل نحو البناء المحكم الصياغة ، والأبنية المفتتة والمحطمة لأية صياغة متماسكة ، ففى مسرحية (غرف قياس الملابس) للكاتبة «سوزان سينومان» تتقاطع فيها الحوارات بين ثلاثة مجموعات من النساء ، تلتقى كل اثنتين منها فى غرفة من غرف (البروفة) بمحل ملابس صغير ، تتحادثان فيما بينهما على حدة ، غير أن الحوارات التى تبدأ عادية بين النسوة الثلاث ، تصل لحدتها مع نهاية المسرحية ، كاشفة فى تقاطعها عن ذلك الانهيار الأخلاقى الذى يعانى منه المجتمع الأمريكى .

يوم القديس

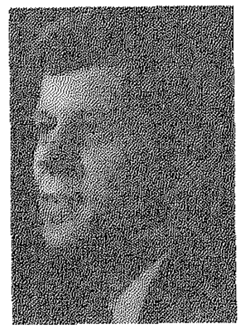
لاتوجد فى مسرحية (مذبحة عيد الحب) لـ «ألان نيه» أية مذبحة بالمعنى المعروف ، وإنما هى صورة استعارية لما وصل إليه حال رجل وامرأة وقعا يوما فى الحب، وهاهما قد جاءا يوم عيد الحب المقترن بذكرى القديس فالنتين ، ليفترقا بعد أن وجدت المرأة رجلا آخر عشقته ، غير أن المسرحية تنتهى وهما فى حالة ثبات وعدم القدرة على الحركة وتحقيق الانفصال ، رغم إعلانهما ضرورة التحرك فى اتجاهين مختلفين ، لقد توقف الزمن رغم تغيير العالم ، وأسدل الستار على نهاية لا نعرف إذا كانت ستتم بالانفصال أو العودة للحب القديم .

صورة استعارية أخرى ، صاغها الكاتب «لافون موللر» فى أطول المسرحيات القصيرة فى هذه المجموعة، والتى تحمل عنوان (الحالمون الأمريكيون)، وتفترض لقاء تم بجناح خاص بأحد فنادق واشنطن ، صباح الأول من آغسطس عام ١٩٦٢ ، أى قبل أربعة أيام فقط من انتحار نجمة الإغراء الأمريكية الشهيرة «مارلين مونرو» ، بتناولها كمية كبيرة من الأدوية المنومة ، مساء الخامس من ذاك الشهر الجارى ، ورحلت عن العالم عن عمر يتجاوز ٣٦ عاما بشهرين فحسب (مواليد ١٩٢٦/٦/١) ، ويتصور الكاتب المسرحى أن هذا اللقاء قد تم بين النجمة المزواجة والمعشوقة من آلاف الأشخاص ، بمن فيهم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية «جون كنيدى» ، وطرف اللقاء الآخر هو الكاتب والمؤرخ والشاعر الأمريكى ذو الأصل الاسكندنافى «كارل ساندبرج» وقد بلغ من العمر عتيا (١٨٧٨ - ١٩٦٧) ، حيث يبرز أمامنا وقد تجاوز الثمانين من عمره (أزيد من ٧٠ عاما ، كما تقول

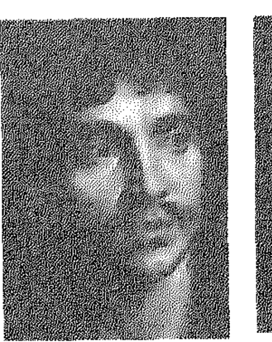


إرشادات النص) ، ويتداخل الحوار بينهما بجمل مبتورة وعبارات ملغزة ، نرجو ألا تكون الترجمة هى السبب ، ويكشفان معا حقيقة هذا المجتمع المتكون فى الستينيات ، والمتبلورة ملامحه أواسط التسعينيات ، هى كنجمة صنعها الحلم الأمريكى وماتت وحيدة ، وهو كشاعر تفاعل بمستقبل بلاده ، دون أن يدرك مدى الغربة التى يعيشها كل مواطن من بنى وطنه ، ومدى العاطفة المزدوجة التى تخلقها هذه البلاد وسط العالم ، فالكل يعشقها ويكرهها فى الوقت ذاته : هى المدينة الفاضلة المنشودة ، وهى الغول القابع خلف المحيط يتأهب دائما لالتهام من يفكر فى التمرد على ناموسه الأعلى ، أو يقترب من كهوفه الأسمنتية.

بالمقابل يبنى الكاتب «ماك ولمان» مسرحيته (صندوق خشب الصندل) بناء سورياليا ، تتداخل فيه الأصوات الحية بالأصوات المسجلة ، وتتحاور فيه شخصيات موتورة وأخرى مريضة بداء البكم ، وتدور وقائعه فى صحراء ممطرة بجنوب بروكلين ، ويحتوى الصندوق الخشبى القابع وسط فضاء المسرح تذكرات أستاذة التغيير الجامعية عن مآسى العالم فى حروبه المتعددة على مر التاريخ ، ويهاجم الجميع شخصية خفية ، يدمر معنوياتهم ، ويجعلهم غير قادرين على التمييز بين الصدق والكذب ، وغير ممسكين بعدوهم الحقيقى ، فهو مجرد (خفى) مطارد لهم ، ومسكت حناجرهم



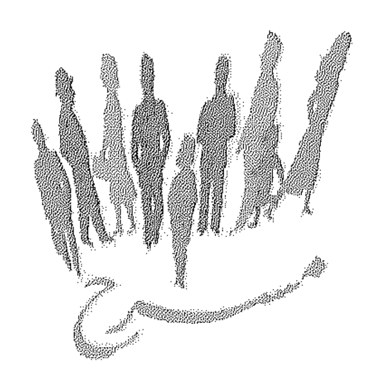
جون كيندى



موليير

عن التعبير بالكلمات عما يشعرون به .

قد يبدو هذا التفسير الأخير ، متأثرا بأحداث الواقع التى هزت الولايات المتحدة الأمريكية والعالم صباح الثلاثاء الأسود من الحادى عشر من سبتمبر الدموى ، غير أنه تفسير مقبول من داخل المسرحية ذاتها ، فالحديث عن (الخفى) متكرر فى حديث الشخصيات ، فالطالبة «مارشا» تعلن فى مفتتح المسرحية أنها فقدت صوتها «فى التاسع من نوفمبر ١٩٩٣ كنتيجة لتمثيل الخفى» ، هذا الخفى الذى تتجلى إرادته فى كل مكان آنى ، بل وقد كانت له تجلياته فى التاريخ ، فبفضل «تنبؤ الخفى تباد كل القوات الصربية لتفتح الطريق للقيادة التركية على المنطقة (كوسوفا) لنصف ألفية» ، وتعريف الخفى المعلن لايتعدى كونه مجرد «تصميم غير إنسانى ، وبالتالى لا اسم له ، بالإضافة إلى أن معرفة غموضه شىء قابل للخطأ» ، لذلك أسمته الولايات المتحدة حينما هاجمها مؤخرا بشكل فعلى بـ (الإرهاب) ، دون أن تمنحه تحديدا لمفهومه جامعا مانعا كما يقول المناطقة ، ومن ثم راحت



تضـــرب هنا وهناك ، بحـــثـــا عن هذا (الخفى) الذى تسلل للمجتمع الأمريكى ، منذ أن تعملق القطب الأوحد وصار وحشا فى غابة من الحيوانات الصغيرة ، إلا أن الغابة يكتنفها الغموض والظلمة ، وتتيح الرؤية السوريالية للعالم تجسيد هذا الغموض فى كائنات خرافية كالرخ والعنقاء وسكان الفضاء وملامحهم غير البشرية .

كاتب والكاتب

إذا كانت الترجمة التى قامت بها كل من «عبير محب نعمة الله» وحدها أو مع «هبة نبيل» ، فثمة تباين بين الغلافين الخارجى والداخلى ، قد احتارت فى ترجمة Scribe ، فترجمته مرة على أنه كلمة انجليزية تعنى الكاتب ، فى عنوان المسرحية ، ثم ترجمته مرة أخرى على أنه اسم للكاتب الفرنسى المعروف داخل متن النص نفسه ، وإذا ما تغاضينا عن الأخطاء المطبعية التى تشوه ثوب هذا المشروع الضخم ، فإن الترجمة قد وقعت أيضا فى بعض الأخطاء سواء فى ترجمة اسماء المسرحيات ، ذات الشهرة فى الترجمات العربية السابقة مثل مسرحية موليير ذائعة الصوت (البورجوازى النبيل)، والتى قدمتها الترجمة باسم (البرجوازى المهذب) وهو معنى بعيد كل البعد عن سخرية موليير من هذا البورجوازى الصاعد المتعلق بأهداب نبلاء الطبقة الأرستقراطية .

أو سواء فى تعريب الاسماء بدلا من ترجمتها ، مثل تعريب عنوان مسرحية ماكس فريش المترجمة للعربية من قبل ، باستخدام كلمة (فيربجز) بدلا من العنوان المعروفة به (مشعلو الحرائق) ، وهى الترجمة الصحيحة لكلمة Firebugs المثبتة فى الكتاب ، والأنكى من هذا ذكر اسم Dumas Fils على أنه «دامس فى» ، وهو اسم الكاتب الفرنسى «الكسندر ديماس الابن» (١٨٢٤ - ١٨٩٥) وهو الابن غير الشرعى أو الطبيعى للكاتب الشهير أيضا «الكسندر دوماس الأب» ، وهو صاحب الرواية الشهيرة (غادة الكاميليا) والتى أعدها أيضا للمسرح ، واقتبستها السينما المصرية فى العديد من أفلامها الميلودرامية .

هذا إلى جانب ذكر الترجمة لمصطلحات لا علاقة لها بالمسرح ، مثل إرفاقها لمسرحية (عندما تتشاجر السيدات) التى كتبها «سكريب» عام ١٨٥١ ، وترجمها «فينجولد» ، مؤلف مسرحية (مفارقة سكريب) ،إرفاقها بكلمة سيناريو ، وهو مصطلح علاقته الأساسية بالسينما ، ولا محل له هنا ، ليسبق مصطلح (مسرحية) ، خاصة إذا كانت لسكريب .

تاء المؤنث

أما الحيرة مع تاء التأنيث فهى متكررة ، بسبب غياب تلك التاء الملعونة من الأفعال الانجليزية ، فيحتار القارىء هل الشخص المتحدث عنه ذكر أم أنثى ، ومثالنا هنا رابض فى ص ١٧١ ، وذلك فى مجال التعريف بصاحب مسرحية (مذبحة عيد الحب) ، حيث يتم استخدام الأفعال التالية فى صفحة واحدة : كتبت «آلان نيه» .. ومن أعماله .. اعتبرت مسرحيته .. كتبت للتليفزيون .. نال فيلمه .. وأما عن أعماله .. ولقد تخرجت فى مدرسة .. فلا يعرف القارىء هل «آلان نيه» هذا كاتب أم كاتبة ؟ ويتكرر ذلك فى أكثر من مكان آخر ، ففى مسرحية (الحالمون الأمريكيون) يغنى «كارل ساندبرج» للنجمة «مارلين مونرو» ، مستخدما اسمها الحقيقى «نورماجين» (وليس نورهاجين كما ثبت بالكتاب ، ونظن أنه خطأ مطبعى) ، فيذكرها على أنها رجل لا أنثى قائلا ص٢٩٩ «ألا تريد أن تترك هذا الفاسد يانورها ؟» ، وصحتها بالطبع «ألا تريدين أن تتركى ...» ، فالحديث عن امرأة لا عن رجل ، وفى نفس المسرحية أيضا تسأل مارلين رفيقها الرجل كارل «أتقصدين المعجبين ؟» ص٣٠٩ !!

نختتم ملاحظاتنا على الترجمة بملاحظة المترادفات ، وهى مشكلة ندرك أن المترجم (بكسر الجيم) يقف أمامها

الكسندر ديماس

كثيرا فى بداية دخوله للعمل المترجم (بفتح الجيم) ، إلى أن يستقر على الكلمة الصحيحة من بين المترادفات والظلال المتعددة للكلمة الواحدة ، ولكن أن يثبت المترجم الكلمة ومترادفها بين قوسين فى نفس ترجمته ، فهو أمر بحاجة لمراجعة ، خاصة إذا كانت هذه المترادفات عادية ، مثل ذكر الترجمة للكلمات التالية ومترادفاتها بين قوسين . لا أرفض ذلك (سعيدة بذلك) ص٥٣ ، وإذا (استكملت) أصررت على ص٩٠ ، زملائه (أقرانه) ص١٧٥ ، إننى لن أتركك (أتخلى عنك) ص١٩٠ ، ومع ذلك فنحن لا نبخس الترجمة حقها ، ولا نبخس هذا المشروع الضخم حقه فى تقديم ذلك العالم الزاخر بالمتغيرات ، ووضع أحدث تيارات الفكر والفن العالميين بين يدى القارىء والفنان العربيين ، كى نعرف ونتثقف ونعمل على تغيير واقعنا الفنى إلى ماهو أفضل . ■

التكوين

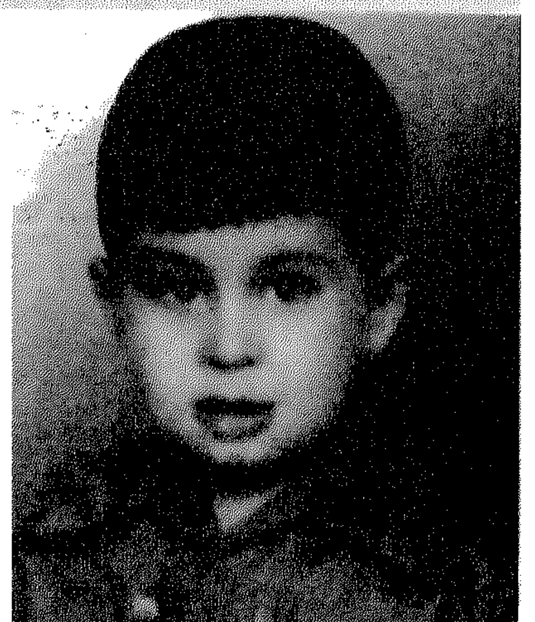
سمعت "تائية" ابن الفارض فحدث انقلاب في حياتي

د. يوسف زيدان

يجرى على ألسنة عامة الناس فى بلادنا، مثل «سائر» يقول «يعملها الصغار ويقع فيها الكبار» وهو أمر كثير الانطباق على الوقائع. ولكن (الواقعة) الأولى فى حياتى، انطبق فيها عكس هذا المثل السائر، فقد فعلها جداى: جدى لأبى، وجدى لأمى. كانا يختلفان كل الاختلاف، مع أنهما - كلاهما - صعيديان.. لكن جدي لأبى (الحاج أحمد أمين) كان يعيش بالصعيد ببلدة العوامية (سوهاج) وسط أرضه الواسعة وأسرته الثرية - قبل قوانين الإصلاح الزراعى - متكئاً بجسمه الضخم على سمعة عائلته ومكانة والده وأعمامه.. أما جدى لأمى فأصله من بلدة (طهطا) لكنه رحل عنها فى شبابه واستوطن الإسكندرية، هربا من ضيق العيش وتواضع البيت بالصعيد، وصار صاحب مقهى فى مدخل غيط العنب (المنطقة التى نشأ فيها إدوار الخراط، وجعلها مسرحا لعديد من أعماله) وكانت لديه تجارة ومشاغبات معروفة.

◆

وبعد زواج أبى وأمى بقليل، اختلف الجدان.. كان كلاهما جباراً على طريقته، وكانت النتيجة أننى بعد شهور من مولدى فى سوهاج (سنة ١٩٥٨) أخذتنى جدتى لأمى لأعيش فى الإسكندرية.. وبعدها بعام ونصف، لحقت بى أمى وفى بطنها طفل هو الآن أخى الصغير (لم يعد اليوم صغيراً)..



يوسف زيدان فى سن الخامسة



مع محمد السويدى «أمين المجمع الثقافى بأبو ظبى»
يوم توقيع عقد نشر موسوعة الشامل «أبو ظبى ١٩٩٩»

وفى الصعيد استكمل ابى مسيرة حياته.

«فعلها الكبار، ووقع فيها الصغار»..

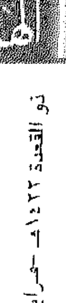
ونشأت فى الإسكندرية دون أن أزور أسرتى بالصعيد، إلا بعد دخولى جامعة الإسكندرية، تحقيقا لوعيد جدى لأمى، الذى تحدى جدى لأبى فى أن يوصلنى للمرحلة الجامعية، وكان الأخير يسخر منه، ويستبعد نجاحه فى ذلك.. بيد أنه نجح، ودخلت الجامعة، فجاء أبى ليصحبنى إلى الصعيد (وهى رحلة استمرت ثمانية وعشرين يوماً، تعمد أبى فيها أن أزور خلالها جميع الأولياء من الأسكندرية إلى سوهاج)

التصوف

كان والدى (محمد المدنى) قد صار فى زمن نشأتى بالإسكندرية صوفياً – بالمناسبة، هو يعرف بين أهله بالمدنى، لأنى كان أكثر أفراد عائلة (زيدان) تمدُّنا ورفاهية، وكذلك كان جدى يعرف بلقب (أمين) لأنه كان يتولى ثروة العائلة غير المخصصة، وهى الأراضى والأموال المعروفة باسم (الروك).. ولأنه ابنه (البكر) فقد نشأ أبى مرفها فى حضن أبيه، عاش حياة ممتلئة بكل معانى الحياة. وفجأة، ترك كل شىء وصار صوفياً.

كان لدخول أبى غمار التصوف قصة عجيبة غرائبية.. لو حكيتها هنا، لتحير كثيرون.

فلنتمثل بما قاله (أبو حامد الغزالى) يوم سئل عن سر دخوله للتصوف، فقال شعراً:







مع الأمير عبد الله ولى عهد السعودية فى زيارته لمكتبة الإسكندرية - يونيو ٢٠٠١

قد كان ما كان مما لست أذكره
فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر.

آخر العالم

كنت أعانى الوحدة القاسية فى طفولتى، وضقت ذات يوم بوحدتى وبالحصار الصارم الذى يفرضه علىّ جدى لأمى.. فغافلت الجميع وتسللت إلى منطقة (غيط العنب) وظللت مصمماً على أن أصل إلى نهاية الكون - كان سنى آنذاك سبعة أعوام - وفى أوان المغرب وصلت إلى مبتغاى الذى ظننته وقتها آخر العمران البشرى: سور مهول، يمتد إلى ما لا نهاية فى آخر منطقة غيط العنب (أعرف الآن أنه سور شركة الغزل والنسيج).. وأيقنت من وقتها، أن الإنسان إذا واصل سعيه دون كلل، فلابد له أن يصل!

كنت قد ألحقت بمدرسة خاصة، وفى إجازة الصيف التى من المفترض أن أدخل بعدها للصف الثالث الابتدائى.. أخرجت من المدرسة (غالبا لأسباب مالية) وألحقت بمدرسة حكومية، لأعود طبقاً للتقسيم العمرى، إلى الصف الأول الابتدائى بمدرسة راغب الإبتدائية.. كانت مدرسة جميلة (صارت بعد ثلاثين سنة مدرسة لغات نموذجية!) بيد أن التلاميذ فى أيامهم الأولى كانوا يبكون لفراق أهلهم.. فأتعجب من بكائهم، ثم كانوا يكلفونهم بعد ذلك بواجبات منزلية، أتعجب من تفاهتها.

وهكذا لم أتأقلم مع أقرانى بالمدرسة الإبتدائية، كنت أرى نفسى أكبر (مع أنهم فى سنى) لاسيما بعدما صارت القراءة هى شاغلى الأول - بل والأخير - فاتسع الوعى وضاقت العبارة وثقل الكلام مع أهل الزمان.. (كتب المدرسون فى تقريرهم المدرسى، أننى تلميذ هادىء، لا يحب الكلام واللعب، ويهوى القراءة).

نقلنى خالى (فتحى هاشم) إلى أفق القراءة الواسع، ويوم ذهب بى إلى قصر ثقافة الحرية (الذى صار يسمى اليوم : مركز الإبداع!)، كنت آنذاك فى الحادية عشرة من عمرى.. التهمت مكتبة الأطفال فى شهرين، وصرت أتسلل إلى مكتبة الكبار، لأقرأ ما كنت أظن أنه : الكتب الحقيقية.

الحب الأول

على مشارف الثانية عشرة من عمرى، كانت موظفة مكتبة قصر ثقافة الحرية تخرجنى من القاعة المخصصة للكبار (مراعاة للسن) فأعود فى اليوم التالى متسللاً.. فتخرجنى.. فأعود.

وذات يوم، اغتاظت منى الموظفة، فجرتنى إلى مديرة القصر لتطلب منها عدم السماح بدخولى القصر نهائيا، وحكت لها ما جرى من تسللاتى السابقة.. كانت المديرة فى حدود الثلاثين من عمرها اليانع تشع بهاء لم ينل منه الفستان الأسود الذى ترتديه.. نظرت المديرة ناحيتى - بعين رآيتها وقتها بحراً من عسل الجنة - ثم ابتسمت .. فانطلقت أغنيات من خلف الكون، وشعرت بأن الأشياء تلاشت من حولى، وراحت روحى فى سكرة عجيبة، وكأننى غارق فى بحار من اللون المتماوج، المشع.. أفقت حين توجَّهت بكلامها إلىَّ مستفسرة عن الموضوع، رجوتها - بكلمات لا أذكرها الآن - أن تسمح بدخولى مكتبة الكبار.. فوافقت، ودعتنى لحضور ندوة فى اليوم التالى لمناقشة رواية (دافيد كوبرفيلد) فقرأت الرواية فى النهار، وشاركت الكبار فى مناقشتها فى المساء.. فأعطتنى المديرة فى نهاية الندوة قلماً بديعاً، مزخرفاً هدية من القصر.

فى طريق رجوعى، التقط نشال القلم من جيبى..وكانت المديرة قد انتشلت قلبى من بين الضلوع، وصرت أهيم بها. وكان هيامي عبارة عن نظرة ألقيها كل يوم عليها - من حيث لا ترانى هى - حين أمر على باب مكتبها فى مدخل الدور العلوى لقصر الثقافة..

واستمرت قصة الحب العنيفة هذه لعامين أو ثلاثة، لم أتحدث فيهما مرة واحدة مع المحبوبة الرائعة! وكنت قد التحقت بمدرسة العطارين الإعدادية، ولم تعد مكتبة قصر الثقافة تكفينى . فعرفت طريقى إلى ميدان المحطة.

تجار الكتب

كان بميدان المحطة الفسيح، جانب يحتله مجموعة من تجار الكتب الذين





مع عزيز خوجاييف رئيس أكاديمية بناء الدولة بأوزبكستان والدكتور زاهد الله منوروف رئيس الصندوق الدولى للإمام البخارى – طشقند ١٩٩٨

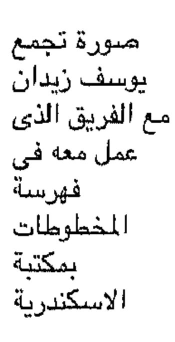
يشكلون معاً، شيئاً شبيها بما كان يعرف فى القاهرة بسور الأزبكية (أقصد سور الكتب الذى صار اليوم بوتيكات) وكان ثمن الكتاب الواحد خمسة وسبعين قرشاً، وعند إعادته بعد أيام ينقص عشرة قروش هى ثمن قراءته.

.. حين أجلس هذه الأيام لمفاوضة دور النشر الكبرى، للحصول على مجموعات كتب لمكتبة الإسكندرية (التى أعمل بها حاليا مديراً للتزويد، ومديرا لإدارة المخطوطات والكتب النادرة) أتذكر مفاوضاتى الأولى مع تجار الكتب بميدان المحطة، وسعادتى يوم وصلت معهم لاتفاق بأن سعر قراءة الكتاب الكبير (أو الكتابين الصغيرين) هو خمسة قروش فقط، لا عشرة.

وأودعت لدى كل تاجر خمسة وسبعين قرشا، وصرت آخذ الكتاب فاقرأه، وأعود به وبخمسة قروش لآخذ كتابا جديداً..ولما اتسع الاتفاق، كنت آخذ كتابين فى اليوم الواحد، وأقرأهما فى حديقة ميدان المحطة. وأعود فى المساء، متفكرا فيما قرأته طوال اليوم.

بعدها التحقت بمدرسة العباسية الثانوية، وكنت كثير الهروب من المدرسة للبقاء فى مكتبة بلدية الإسكندرية أطول فترة ممكنة.. صرت استهين بالمقررات الدراسية، وأهيم بالمكتبات والكتب..





صورة تجمع يوسف زيدان مع الفريق الذى عمل معه فى فهرسة المخطوطات بمكتبة الاسكندرية

خاصة كتب الفلسفة.. خاصة نيتشه.

لازلت أحفظ صفحات من كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرادشت) الذى قرأته فى أيام المدرسة الثانوية، وكنت آنذاك اعتبره: أهم كتاب فى تاريخ الإنسانية! وكانت أغلب قراءاتى الأخرى: يونانية قديمة، أو غربية حديثة.. وكتب أكره الصوفية، واعتبرهم شيئا لا لزوم له فى العالم أو التاريخ.

ابن الفارض

حين جاء أبى ليصحبنى فى زيارتى الأول للصعيد، كان أول شيخ زرناه، يعيش فى الإسكندرية (اسمه عبد الحليم).. وكان يعيش على سطح منزل جميل بمنطقة كليو باترا.. حدّق فىَّ الرجل وقال ما معناه: سوف تصبح سفيراً، حين تعرف سر النون!! قلت له بحدة: فى العام الدراسى القادم سأكون فى كلية الآداب، وهى لا تخرج سفراء، وليس هناك شىء اسمه (سر النون) حتى أعرفه.

حين وصلت إلى الصعيد فى هذه الزيارة الأولى، التقيت بشيخ آخر من بلدتنا، اسمه أيضا عبد الحليم (ودنان) فسألنى عن زيارتى للشيخ عبد الحليم فى الأسكندرية، فقلت له إنه محض رجل جاهل مشعوذ، فقال عبد الحليم ودنان: بل أنت الجاهل!.. ولما حكيت له ما قال لى الشيخ عبد الحليم السكندرى، صاح عبد الحليم ودنان: لقد صدق، ولكنك لا تعرف أن السفير هو حامل (السِّفر) أى الكتاب، ولسوف تكون سفيراً بمعنى أنك ستبقى دوما مشغولاً بالكتب.

ولم يوضح لى عبد الحليم ودنان، ما هو سر النون.. وهو الذى عانيت معرفته وعاينته بعد ذلك بسنوات!



في زيارتي التالية للصعيد، بعد عام كامل، كنت في حدود التاسعة عشرة عاما من عمري.. وكان أحد أعمامي (ابن عم والدي في الواقع) له أخوال من العرب (البدو) الساكنين بسفح الجبل، وكان هو شخصية بديعة: صوفي، متيم بابن الفارض، مزواج (كان يقول إن المرأة أبدع كائن خلقه الله).. دعاني لزيارة أخواله والافطار عندهم في شهر رمضان فذهبنا، وآونة المساء، سمعت في حضن الجبل صوت منشد أسطوري اسمه ياسين التهامي (صار الآن معروفاً) يتغنى بقصيدة ابن الفارض و التائية الكبرى، فحدث انقلاب في دولة أفكاري، والتهمت من بعدها تراث الصوفية، وتخصصت في دراستها.. وكان أول كتبي المنشورة، هو تحقيق (المقدمة في التصوف) لأبي عبد الرحمن السلمي، انتهيت منه حين كنت في السنة الرابعة بقسم الفلسفة بآداب الإسكندرية، نشرته بعد تخرجي بخمسة أعوام، وكان التصوف موضوع الرسالتين اللتين حصلت بهما على درجتي الماجستير والدكتوراة.. كانت الرسالة الأولى عن عبد الكريم الجيلي وقصيدة الصوفية الطويلة، (النادرات العينية) وكانت رسالة الدكتوراة تحقيقا لديوان عبد القادر الجيلاني ودراسة لطريقته الصوفية.

وتوالت من بعد ذلك كتبي في التصوف، تحقيقاً ودراسة حتى تجاوزت العشرين كتاباً.

ابن النفيس

في أواسط الثمانينيات انجذبت بقوة لدراسة تاريخ العلوم، كنت أرى فيه جانباً مقابلاً لتاريخ التصوف، فأردت أن أجمع بين الجانبين لأرى التجلي الكامل للعقلية العربية الإسلامية عبر تاريخها الطويل.. وأثار ابن النفيس اهتمامي بشكل بارز، فأصدرت عنه أربعة كتب نالت عام ١٩٩٤ جائزة المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية/ مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، في مجال الفقه الطبي وتحقيق التراث وفق أصول فن التحقيق.. وبعدها بعام، نالت كتبي في مجال التصوف، جائزة عبد الحميد شومان للعلماء العرب الشبان (الأردن).

وكان يراودني دوماً، حلم عريض طالما بدا لي بعيد المنال.. هو تحقيق كتاب الشامل في الصناعة الطبية لابن النفيس، وهو أضخم عمل في التراث العلمي الانساني يكتبه شخص واحد (يقع كاملاً في ثمانين مجلداً).

وهأنذا عاكف منذ أواسط التسعينيات على نشر الشامل وانتهيت هذه الأيام من الجزء الرابع والعشرين منه.. ولا يزال



يوم نكريم يوسف زيدان من جامعة الإسكندرية – يوليو ١٩٩٦

أمامي عامان للانتهاء من نشر الكتاب الذى (تطوع) لطباعته المجمع الثقافى بأبو ظبى..وهو المؤسسة الثقافية الرائدة النى يديرها الشاعر المثقف: محمد السويدى.

التواصل التراثى

يرى كثيرون أننى مجنون بالتراث والمخطوطات، وبعضهم يعبر عن ذلك بصورة مهذبة فيقول: عاشق المخطوطات (وهو عنوان كتاب صدر أخيراً عن أعمالى التراثية) والمتخصصون فى المجالات التراثية ينظرون بشىء من التقدير لأعمالى (فهرسة ١٨,٠٠٠ مخطوطة ونشر أكثر من أربعين كتاباً) لكنهم لا يعلمون كيف بدأ انشغالى التراثى، منطلقا من صالات المزادات!.

العطارين.. منطقة عتيقة بالإسكندرية، شهيرة، وفيها المسجد الذى كان أبو العباس المرسى يلقى فيه دروسه.. وهذه المنطقة تمتلىء بمحلات العاديات والتحف الأثرية، وفيها صالات (ودكاكين صغيرة) للمزادات.. ولأنها قريبة من المنطقة التى نشأت فيها كنت كثير الشغف بالتجول فيها أيام صباى. ولما صارت عندى (ميزانية) كنت التقط بعض الأشياء القديمة، بسعر رخيص جدا، وأعكف على إصلاحها وتلميعها وإعادتها لرونقها الأول.. كنت أجد فى هذه الهواية سعادة بالغة.

حين أتأمل اليوم سعادتى بعمليات (الإحياء التراثى) تحقيقاً ونشراً وفهرسة، آتذكر هوايتى القديمة!.



د. مصطفى سويف و«الهلال»

شعرت بالسعادة والدكتور مصطفى سويف يحصل على جائزة هذا العام من معرض الكتاب عن كتابه المهم « مسيرتى ومصر فى القرن العشرين» ، خاصة وهو يطل علينا فى بداية كل شهر بمقال أحس وأنا أقرؤه بمدى صدق الرجل ، وموضوعيته فى الكتابة، وبعده عن النفاق الاجتماعى الذى يلازم البعض، ويؤثرون الذات على هذا الوطن ، الذى يحتاج إلى موضوعية العلماء وكبار المفكرين فى تناولهم للقضايا المهمة، والتى تضئ الطريق إلى الأجيال فى المستقبل ومن حسن الحظ أن كُتَّابا فى « الهلال » قد وهبوا أنفسهم للكلمة الصادقة نذكر منهم الرائد الكبير الراحل الدكتور شكرى عياد، والذى لم يخل عدد من اسمه حتى وفاته ، مؤثرا « الهلال » على غيرها برغم الإغراءات المادية وغيرها ، نظرا لإيمانه بالدور الثقافى الكبير لمجلتنا الآثرة ، ود . سويف واحدا من هؤلاء المفكرين الكبار الشامخين .

فله كل التهنئة وأمد الله فى عمره ، يؤدى دوراً فكرياً متميزاً من أجل وطنه .

محمود صالح العدل
القاهرة - الزيتون

■ **الهلال بدورها تهنئ العالم الكبير د . مصطفى سويف على عطائه وجهده الكبير فى مسيرتنا الثقافية .**

جاء العيد

وجاء العيد يا خولة
وعيَّد كل أقرانك وخلانك
وشم العطر إخوانك
بكل دروبنا والسوق
وكل بلادنا تفرح
ففي طنجة ، وفي درنة، وفى أزمير، وفي اسطنبول ، وفي دمياط وفى أسيوط، وفي تونس ، وفى جابس وفي الدمام
والإحساء ، وفى الفيحاء
والحسكة ودير الزور ومسراطة .
مآذننا تكبر في صباح العيد
وتلبس ثوبها للعيد
وتنضى عن عن فتاها النوم
ليفرح فى صباح العيد
ولكن كيف صبحكم صباح
يا خولة
برام الله وبالمجدل ، وفى

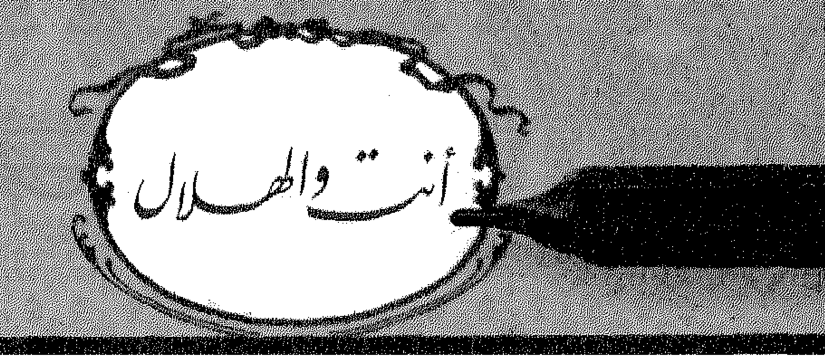
بيسان
وفى يافا ، وفي غزة وخان يونس
وفـــى جـنــين وفـى نــابــلـس وبـيـت ساحور؟
وكيف العيد في الأقصى؟
وكل زهورنا تفتحت بلون الدم
قد سقيت بنهر الدم
وصبحها صباح العيد فوق مقابر
الشهداء
فى الرملة وفى حيفا وطولكرم
وضمّخها عبير الجنة القادم من الأكفان
وبعد العيد يا خولة سيأتى العيد يا خولة من الطوفان

د . حسنة عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

الملاك الأبيض
« قصة قصيرة »

كنت أصل آخر خيط فى سجادة الليل بأول خيط فى سجادة النهار .. أرسم ملاكا أبيضا.. أحدثه « أنت صديقى» .. ويمر الرجال كعادتهم .. تبهرهم لوحتى .. يقولون شيئا ما عن عبقريتى .. ويصر أحدهم أن يشتريها بشيك على بياض.. فى داخلى بقيمون فرحا لا ينفض غناؤه أبدا بإصرارهم .. يقول لى أنه سيرسل برقية عاجلة لاستدعاء الموت .. إذا لم يحصل عليها .. يدخل يده المكتنزة .. فى جيب سترته الغالية .. يخرج دفتره السحرى .. ويحرر الشيك فورا .. آمد يدى لألتقطه .. ينظر إلىّ الملاك الأبيض نظرة عتاب صامتة .. تنحدر على وجنتيه لآلئ الدمع أرتجف... أتردد .. يلح الرجل أن أنزل له عن اللوحة .. يشاركه رفاقه عندما يلتفون حولى فى شكل نصف دائرة تضيق باستمرار .. اختنق .. تأتى طيور من بعيد .. وتحوم حول الصورة .. الملاك يلقى علينا آخر النظرات .. يفرد جناحيه فجأة ويرحل مع سرب الطيور .. مخلفا ورائه اللوحة .. وقد أصبحت ناصعة البياض .. وعلى أصابعى .. دمعة من دموعه .

هسام مصطفى إبراهيم
نادى أدب شربين



ملاحظة تاريخية

قرأت فى مجلة الهلال عدد يناير ٢٠٠٢ كلمة جليلة للسيد فرج مجاهد عبدالوهاب تحت عنوان (ملاحظة تاريخية) أضاء فيها عتمة حول قصيدتى (عظيم ثقيف) المنشورة فى عدد ديسمبر ٢٠٠١ وأود هنا أن أشير إلى بؤرة فى تفكيرى وفى وجداني احتضن فيها تاريخ العالم العربى خاصة واعتز باستعادة نبوة لم يصرح بها أحد فأنا أذهب إلى أن حضارتنا مدينة لنبوة السيف الخالدى مثلما هى مدينة لنبوة محمد بن عبد الله .. واننى تدخلت فى تفسير الآية . ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القران علي رجل من القريتين عظيم** ﴾ فاستبعدت الوليد بن المغيرة رغم إقرارى بعظمته ووضعت خالد بن الوليد فى المكان الخالى متجاوزاً آراء جميع المفسرين الذين وضعوا فيه عروة بن مسعود .

فلو جرت الأمور كما يتوقع كاتب هذه السطور لكان خالد بن الوليد هو المناظر الوحيد وهو عظيم ثقيف الحقيقى محاذياً أبا الطيب المتنبى القائل :

لقد رجعت وأقلامي قوائل لى

المجد للسيف ليس المجد للقلم

وشكرا لمجلة الهلال التى اتسع صدرها واستنار فكرها .

سليم الرافعى -لبنان ـ طرابلس

إلى صغيرتي

إذا ما غرد العصفور نشواناً بلا خمر

وعانق فى الفضا فرحاً   وليد النور فى الفجر

رأيتك فى مخيلتى   كأطياف المنى تسرى

تعابثنى فتشجينى   وتسألنى فما أدرى

تداعب فى براعتها   خطوط الشيب فى صدرى

وتنشر حولها عبقا   كروح المسك والزهر

* * *

إذا ما أقبل الليل   وذابت فضة القمر

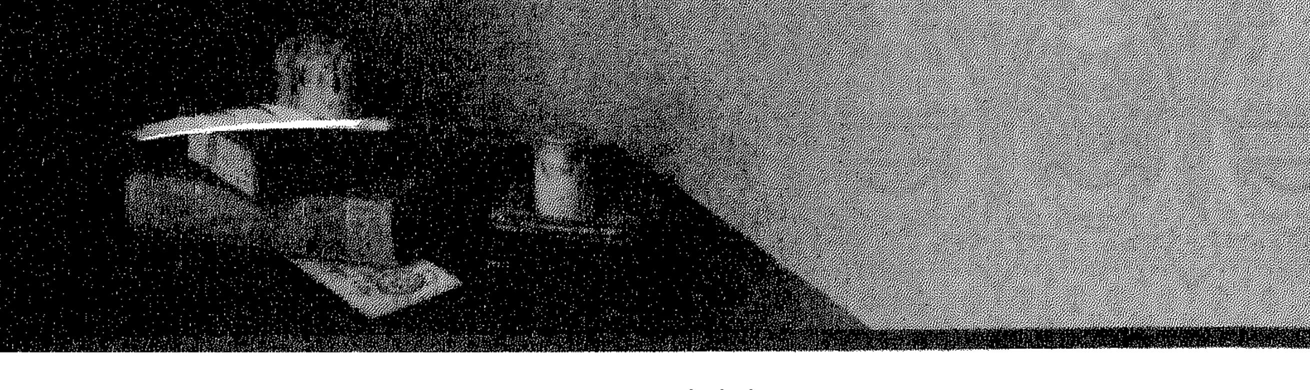
وكابد وحدتى ناى   بصوت ساحر عطر

رأيت النور فى عينيك مثل الضوء فى السحر

يؤانس مهجة حيرى   ويهديها لدى السفر

بصوت ناعم النبرات   معزوفا بلا وتر

كأنك ـ والدجى قدرى ـ   أنيس يقتفى أثرى



* * *

كأن النور فى سفر	فما أدناه إلاك
وطهر الماء ما يبقى	بهذا الكون لولاك
أريج العطر مبعثه	ثنايا من ثناياك
وزهر الروض فى شغف	لكى يحظى بمرآك
دعوت الله مبتهلا	ليحرسك ويرعاك
ويجعل خير أيامى	قبيل لقاه رؤياك

مهندس/ محمد محمد أبو خشبة
دسوق

الهلال والألفية الثالثة

آمنت مجلة الهلال منار الفكر العربى - ولا تزال تؤكد بعد أحداث ١١ سبتمبر الماضى إيمانها - بأن لأمتنا العربية والإسلامية وحضارتها ، ورسالتها الإنسانية المتميزة، وأن طابعها يحمل مزيجا خاصا من الأصالة والعروبة والإسلام، كما أرسى الهلال من خلال صفحاته مبدأ حوار الحضارات وليس الصدام فيما بينها، على جانب آخر فقد حملت صفحات « الهلال » خصائص الأمة العربية والإسلامية

ومن يراجع ويطالع مجلدات « الهلال » فى مسيرته التاريخية الطويلة يجد أعداداً عن « العرب والإسلام فى العصر الحديث» عام ١٩٣٩ و«العرب والإسلام فى القرن العشرين» يناير ١٩٥٥ ، و«نحن والغرب » يناير ١٩٥٦ و«أمتنا العربية» ١٩٥٧، ولم يقتصر الأمر على هذه الأعداد الممتازة بل امتدت معالجة «موضوعات العرب والإسلام إلى الأعداد العادية من الهلال» .

ومن حق قراء « الهلال » عليه فى مستهل الألفية الثالثة وبعد أحداث ١١ سبتمبر ، أن يكون بين أيديهم عدد ممتاز عن «العرب والإسلام فى القرن الحادى والعشرين» يحشد له أعلامه وكتابه ويستكتب غيرهم من أمثال الأساتذة محمد حسنين هيكل والسيد ياسين والدكاترة حسن حنفى وفؤاد زكريا وعاطف العراقى ، وميلاد حنا ، وأنوز عبدالله ، وعواطف عبدالرحمن وأخيراً المفكر المغربى محمد عابد الجابرى .

علاء الدين عمرو حمودة

■ لهلال : نشكر للقارئ متابعته المستمرة لدور الهلال الثقافي ونشير إلى أنه منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لم تتوقف « الهلال» عن متابعة هذا الحدث إسلاميا وعربيا وعالميا وعموما ففكرة إصدار عدد خاص كما أشار محل نظر واهتمام .



قلب لا يهدأ

مسافر فى عيون الغيد أزمانا
أجوب فى سحرها الفتان نشوانا
أذوب فى المقلة السوداء ترمقنى
بنظرة صار منها القلب هيمانا
لا يستطيع سوى كتمان لوعته
حتى يصادف فى الدروب سلوانا

* * *

يا زهرة سكنت فى عمق أوردتى
قد عيل صبرى وآض الصمت اعلانا
واخضوضرت نفحات الحب تغمرنى
فتملأ النفس أشجاناً وألحانا
لو تعلمين بما ألقاه من ألم
فى كل يوم يذوب القلب كتمانا ؟!
حتى الطيور على الأغصان ترقبنى
أكفكف الدمع فى الأغوار هتانا
يا نهلة من رياض الخلد قد سكبت
كأنها كوثر ينساب ريانا

حاتم عبدالمحسن غيث

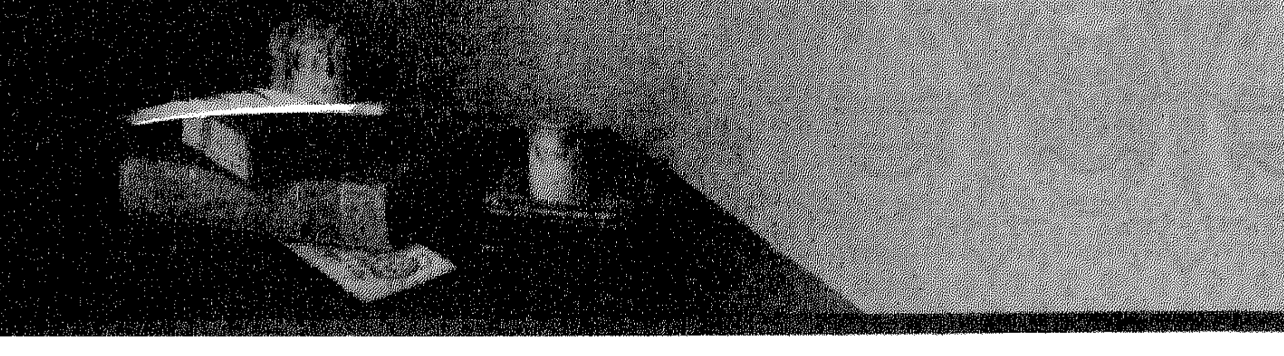
(١) آض : أى تحول مثل آض الماء ثلجاً .



رسالة من قاصة

وصلت رسالة من القاصة سحر خليفة من الأردن تقول فيها : لدى رواية جديدة لم تنشر ، فهل أجد متسعا لنشرها فى سلسلة روايات الهلال .. وأكون سعيدة إذا وصلنى رد يؤيد وصول رسالتى .

■ **الهلال : تعذر الرد لأن رقم الفاكس لا يجيب .. ورجاء إرسال الرواية وشكرا ..**



خذ جنتيك..

خُذْ جنتيكَ وخَلِّنى وجهنى
وتخلّ عن حُبِّى فلست بمرُغم
خذ جنتيك وحور عينك والمنى
طلّقت توا كل عيش مُنْعَم
فاقطع سيول الفضل، لست برازق
إنى لجمعك آبق لا أنتمى
لى دوحة فى ظلها تحلو الحياة
وتزهر البسمات بعد تلجم
فالله أبدلنى بكوخ دافئ
مأوى القلوب .. إله يأوى المحتمى
وإذا الهجير تأوهت نفحاته
فظلال كوخى كالأب المتبسم
وزعت فوق جبينه ريحانة
فعبيرها لحن يثير ترنمى
دعنى لأكدح كى أنال لَقيمة
عرق يخضبها ، ويحلو مطعمى
وأحب ربى فالنعيم بقربه
والحمد رعرع فى الفؤاد وفى فمى

عبدالرحمن حمزة -طلخا - دقهلية

توفيــر الوثائق التاريخية للباحثين

طالعت باهتمام مقال « الحرس الحديدى وثورة يوليو » للدكتور عاصم الدسوقى والذى نشر فى العدد الماضى ، وكشف فيه كاتبه النقاب عن قضية قديمة جديدة هى قضية الحرس الحديدى التى لها ارتباط وثيق بالنظم السائدة مثل النازية التى ساندت الديكتاتوريات الحاكمة فى ألمانيا ممثلة فى (هتلر) وفى ايطاليا ممثلة فى (موسولينى) - الفاشية وأيا كانت جماعات الاغتيال ، فهى ترتكز على مبدأ قلب نظام الحكم .

وما أعجبنى فى المقال هو ما أشار إليه د . عاصم من خطر الاعتماد على الذاكرة فى كتابة التاريخ ، وضرورة توفر الوثائق الرسمية المعتمدة ، ولذا فإننى أهيب بالقائمين فى دار القضاء العالى ، وخاصة فى الأرشيف بالسماح للباحثين والمؤرخين بالاطلاع على قضايا الاغتيالات السياسية والحرس الحديدى ، للوقوف على الحقيقة بموضوعية وشكل أفضل من الاجتهاد ، وتلك هى السمة الأساسية للمؤرخ .

د . صموئيل لبيب سيحه -المنيــا

الطبع والتطبع

إن طباع الانسان وسلوكه وعاداته الموروثة والمكتسبة بحر واسع أجريت فيه العديد من الأبحاث والدراسات ولم يكن العرب الأقدمون أقل شأنا من معاصريهم الذين بحثوا فى أسرار طباع وسلوكيات البشر فقد حفل تراثهم العربى الأدبى شعرا ونثرا بطبائع السلوك الانسانى فطريا كان أو مكتسبا يقول الشاعر :

كل امرئ راجع يوما لشيمته
وإن تخلق أخلاقا إلى حين

وقال آخر :

إذا كانت الطباع طباع سوء
فليس بنافع أدب ولا أديب

ومن الحكايات التى رواها الأصمعى عن طباع الناس وسلوكهم أن رجلا يدعى عثمان بن سليمان خرج مع جماعة من أهل البصرة إلى حى من أحياء بنى مازن فمروا على بيت من بيوتها يقف على بابه رجل وامرأة فألقوا عليهما السلام ثم قالوا لهما : نريد مكانا نبيت فيه ليلتنا قال الرجل : ما عندنا مكان لكم فقالت له المرأة : أتقول هذا لضيفان حلوا بنا ووجب حقهم علينا ثم طلبت منهم الدخول وقامت بضيافتهم على أكمل وجه وفى الصباح غادروا البيت وواصلوا سيرهم .

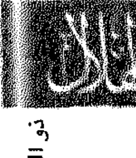
وفى حى آخر مروا على بيت يقف على بابه رجل وامرأة فطلبوا منهما استضافتهم حتى الصباح فرحب بهم الرجل بعكس المرأة التى أبدت ضيقا وتبرما ولما نزلوا بالبيت حكوا للرجل ما حدث من الرجل والمرأة اللذين نزلا عندهما بالأمس بحى بنى مازن فقال لهم الرجل : أن تلك المرأة التى رحبت بكم هى شقيقتى إما زوجها الذى تبرم منكم فهو شقيق زوجتى هذه وأننا نحمد الله الذى أنعم علينا بأخلاق الكرماء .

إن للعرب كلام بليغ وأقوال مأثورة فى الطبائع والسلوك وما يترتب عليها من آثار فى حياتهم فالخلق الطيب يجزى صاحبه إحسانا بينما تكفى المسئ اساءته يقول شاعرهم :

دع المرء لا تجزيه عن سوء فعله
سيكفيه ما فيه وما هو فاعل

ومن أقوالهم : اللسان سيف قاطع لا تأمن حده والكلام سهم نافذ لا تملك رده ، وقالوا : عود نفسك الجميل تجمل وإياك وفضول الكلام فإنها تظهر من عيوبك ما بطن وتحرك من عدوك ما سكن.

محمد أمين عيسوى -الاسماعيلية



مع الأصدقاء

● محمد هشام عبيه : نادى أدب - شربين - أرسل لنا قصة قصيرة جدا.. بعنوان « مقايضة » .

● محمد عبدالعاطى أحمد - قنا - الخطارة

وصلت مساهمتك « عصفور فى مهب الريح» وهى جيدة نرجو أن ننشرها فى عدد قادم .

● مينا يسى عبدالمسيح - العتبة

- رسائلك تصل إلينا ، وتتحدث عن ضرورة النهوض باللغة العربية ، خاصة فى مجال الترجمة ، نحن نحرص على ذلك فى كل ما نقدم من أعمال سواء فى الهلال أو رواية الهلال أو كتاب الهلال ..

وإذا كانت لديك اقتراحات ، برجاء إيجازها وتوضيحها فى رسائلك إلينا ، فما تكتبه لا يوضح ما تريده !

● رمضان ابراهيم بشير - قنا أبو دياب - شرق

لا شكر على واجب ، ومساهمتك بعنوان : « إلى إيمان حجو » جيدة ومن أبياتها

تسللت عيدان الرند
وأشجار الأرجوان
لأبحث عنك
زرت جميع الأوطان
وسألت الأحجار
لأعرف من أنت !

● محمود المصلى - شربين

شكرا على هذا المدح الرقيق ، فالهلال تؤدى دورها الثقافى باعتبارها المجلة الثقافية الأولى فى الوطن العربى وقد وصلتنا قصائدك الثلاث

● فوزى أحمد - منوف

بدايتك الشعرية مبشرة بالخير ، وحاول ، ففى « طائر الفجر » فكرتك جيدة ، أما « البلبل الشريد » فهى عبارة عن رص كلام على شكل كلام مرسل ، وهذا ليس بشعر .



كاتبتي المفضلة

بقلم: صافي ناز كاظم

● أكثر من نصف قرن قد مرّ منذ إمساكي بالقلم، أكتب عام ١٩٥١ ما أتصوره شعرا، وأنا في بداية سنوات دراستي الثانوية، ولم أبلغ الرابعة عشرة. على مشوار نصف قرن كانت «الكتابة» هي غايتي، التي بذلت وأبذل الجهد لإجادتها وصقلها ومعرفة أسرارها، لأبلغ بها ومعها وفيها فائدتي وجدوى وجودي على هذه الأرض.

أصل «الكتابة» طاقة تعبير كامنة في الصدر أبحث لها عن صياغة تلفلفها كالوليد الناطق في المهد يقول: إني عبدالله، في كل مرة، استعد لهذه الصياغة، أتبرأ من حولي ومن قوتي وأدعو ربي وأنا ساجدة راجية: ألوذ بحولك وقوتك، فأعني على القول بحلاوة فلا حول ولا قوة إلا بك.

قبل «الكتابة» أنا متورطة في الوعد بها وأكاد أتعهد بألا أعود لمثلها، بعد «الكتابة» أنا سعيدة فرحة كأني قد ربحت مالم أكن أتوقع، وهذا ما أسميته مرة علاقة «حب / كراهية» بالكتابة حين يمر زمن على ماقد كتبت وأعود لقراءته أندهش بحق: أنا كتبت هذا؟ وأجدني فأنا غير التي كتبت، وأجدني شديدة الإعجاب بها، ولولا أنني على يقين «أنها» أنا لأعلنت «أنها» كاتبتي الفضلة، لا أقصد «أنها» كاتبتي الوحيدة، فأنا وراء كل «كتابة» معتنى بها، طلية، وعذبة، وتقول للناس خيرا، لكنني أفرح حين أجد أنني في ركب هؤلاء الذين أعتنوا وأجادوا، وأحمد الله على ذلك كثيرا حتى يصل بي الحمد إلى البكاء.

حين أختار لكتابتي عنوان «تاكسي الكلام»، أعني تحرري من أي مركبة لا توصلني إلى مشواري، إلى هدفي: ميدان التحرير من فضلك، لا؟ شكرا. أنتظر حتى أجد من يوافق على أخذ كلامي إلى جهتي المطلوبة ليس لدي سيارة أمتلكها وتمتلكني، أستخدم سيارات التاكسي بالاتفاق المشترك: التاكسي حر، وأنا حرّة وهكذا كلامي أنشره بالاتفاق المشترك، كل «كتابة» لي تم نشرها في صحف ومجلات مختلفة وفقا لحرية كل من نشرها، وتحقيقا لحريتي في «الكلام»، وبين الكاتب والناشر يفتح الله، والاحتكار ممنوع والزعل مرفوع!.



مارس ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

يوم هتف المتظاهرون (تسقط الحرية

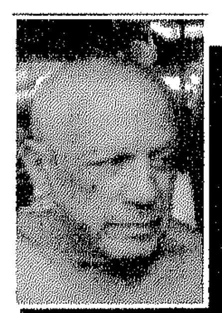
يهود على ضفاف ال

الإسلام وصوت الإنسا





ثورة الخرائط ومغامرة الاكتشاف



لوحة وفنان

فتاة جالسة

للفنان :بيلو بيكاسو - ١٩٧٠ - المتحف القومى - واشنطن



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



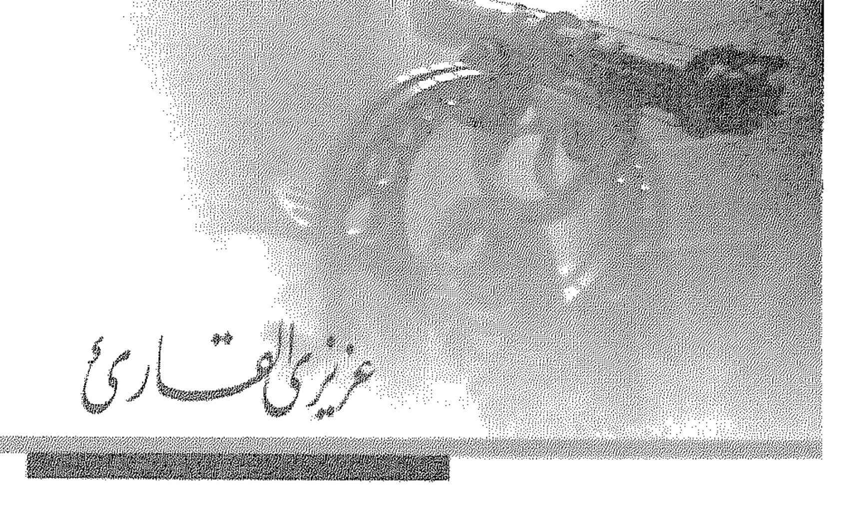
تصميم الغلاف للفنان محمد ابو طالب

الاشتراكات قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما او بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الاشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيوني زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٥٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجي عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

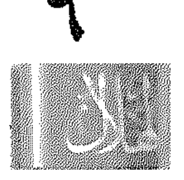
الأبواب الثابتة



مجد الاستشهاد

* يوم الأحد ٢٧ يناير ٢٠٠٢ انضمت الشابة الوسيمة وفاء إدريس إلى قافلة الشهداء في عملية نفذتها فى أكثر تجمعات المحتل الصهيونى ازدحاما فى شارع يافا بقلب القدس . لم تكن وفاء إدريس الاستشهادية الأولى ، ولن تكون الأخيرة ، فى موكب المرابطين حراس الأرض المباركة . يهيش الباطل ويغتر ، ويفرد جناحيه الخفافيش ، يحاول أن يغطى عين الشمس ، لكنها محاولات ، تقف أمامها سنة الله الخالدة : « إن الباطل كان زهوقا » . وعد الله أن يقذف بالحق على الباطل فيزهقه ، إن الله لا يخلف وعده . مع البطش والجور دائما تنبثق الروح الاستشهادية لتجابه بحب العدل والإنسان قوة الظالمين المغترين بأسلحة الخسة وقانون الوحشية .

فى الوقت الذى كانت وفاء إدريس تعد عدتها فيه لفدائها الجميل ، كانت هناك الأصوات المثبطة ، من بين ظهرانينا ، تحاول أن ترتفع لتؤسس بهمهماتها منطق المهزومين قائلة بلا حياء : إن العمليات الاستشهادية يجب أن تتوقف، لأن مردودها صار بلا جدوى ، أو كما قال أحدهم فى إحدى الصحف : « ... ولا يبقى غير العنف الفردى والعمليات الاستشهادية وهى التى توقع خسارة معنوية أشد بالشعب الفلسطينى فى نظر القوى الدولية التى يعتبرها إرهابا وخاصة بعد ١١ سبتمبر إلى أن قال : « ومن حق الشعب الفلسطينى أن يقاوم بالبندقية ولكن إطلاق الرصاص والقنابل ردا على ممارسات نظام الاحتلال لم يعد يأتى بمردود إيجابى«بل صار ضرره أكثر من نفعه ، وهناك آليات نضال بالغة البساطة أعلى مردودية وأوفر قيمة وأقل كلفة .. السر وراء انتصار شعب جنوب إفريقيا .. الأغنية والرقصة ... أما الشعب الفلسطينى فقد بالغ تقليديا فى تقدير قيمة البندقية والقنبلة وآن الأوان أن





الشهيدة وفاء ادريس



الشهيدة سناء محيدلى

يتقن إطلاق النشيد والأغنية فى وجه نظام الإحتلال» لكم أن تتصوروا إلى أى مدى وصل انسحاق الروح عند هذا الكاتب وجوقة المنشدين من أمثاله .

قبل شهر واحد من استشهاد وفاء إدريس كان هذا الصوت الاستخزائى ينقنق . والحمد لله أنها كانت مشغولة بتضميد جراح أطفال فلسطين ومواساتهم ، وملاطفة آلامهم فلم تقرأ مثل هذا العفن لمن يريدون أن يشيعوا بيننا الاستسلام تحت أقدام القتلة نغنى ونرقص !

قامت وفاء إدريس لتنسج مع الناسجين مجد الاستشهاد، ليشفى الله صدور المؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

تحية لوفاء إدريس ، ومن قبلها سناء محيدلى التى قامت بعمليتها الاستشهادية فى لبنان ضد قوات الاحتلال الصهيونى فى التاسع من ابريل عام ١٩٨٥، ومعهما السائرات ، فى الزمن الصعب ، خلف خولة بنت الأزور ، وأم حرام ، وخلف قافلة الشهداء من الشيوخ والشباب والصبية والأطفال والرضع ، الذين تركوا كل شئ ليعطوا كل شئ ، وينبثقون من يأسنا روحا منتصرة ، ونوار أمل دائم الاخضرار .

المحـــــرر

منظر عام لمركز الأبحاث التي تبني
نموذج مصغر لسفينة نوح لمحاكاة
الحياة على الأرض بصحراء أريزونا .

٨



ذو الحجة ١٤٢٢هـ - مارس ٢٠٠٢م

الكتابة بلا ورق

بقلم
د. أحمد محمد صالح

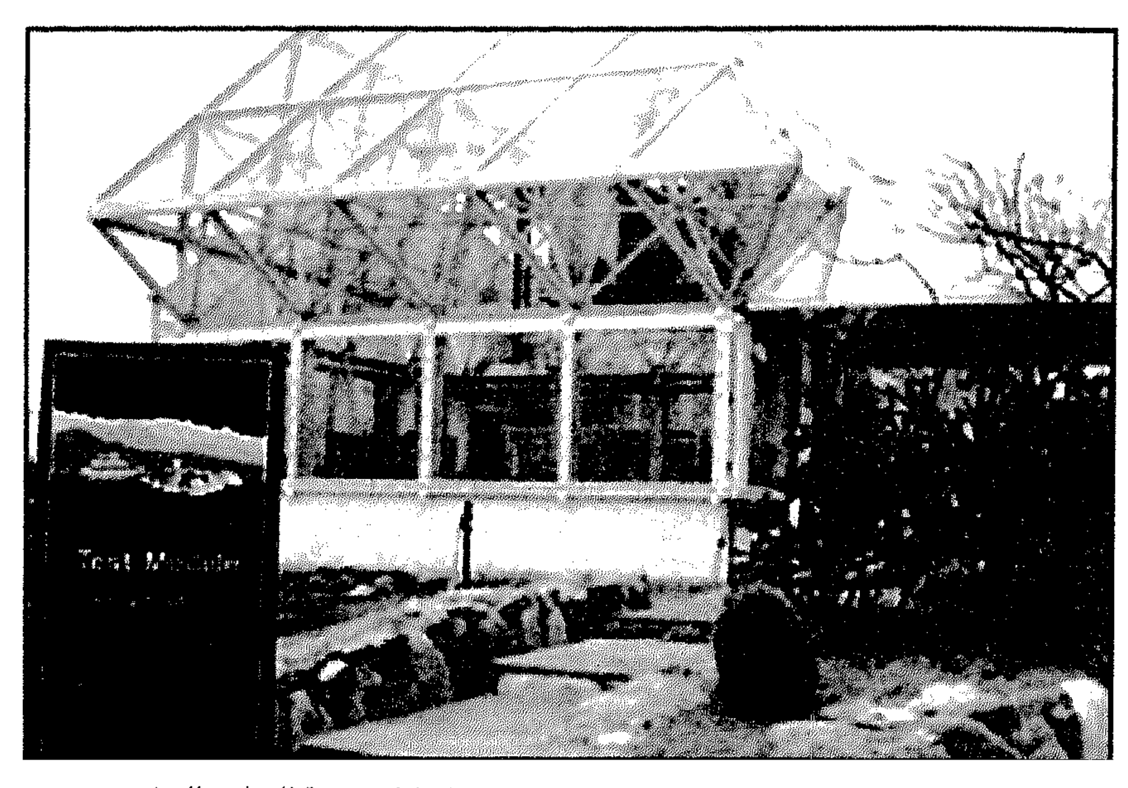
من اكبر الأوهام التى نعيشها فى العصر الرقمى، هو تخيل الحياة بدون ورق! فماذا تقول عن التجربة التى حدثت فى ولاية أريزونا بالولايات المتحدة الامريكية؟! حيث وافق ٨ اشخاص على العيش فى سفينة زجاجية لمدة سنتين بدون اى نوع من الأوراق؟! فى تجربة علمية فريدة حيث جمعت أكثر من ٤٠٠٠ نوع من النباتات والحيوانات، تقريبا من حوالى ٤٠ دولة حول الكرة الأرضية، ووضعت فى مساحة ٣,١٥ فدان ، وإحيطت تلك المساحة بالزجاج ، لتمثل تجاوزا صوبة زجاجية كبيرة، داخلها نماذج من جميع الكائنات الحية على وجه الأرض مثل سفينة نوح! تجرية علمية مشهورة . يطلق عليها Bioaphene1,2 المحيط الحيوى ١ و ٢ وهو هيكل ضخم من الزجاج، ثبت فى الجبال بجانب مدينة توسن بولاية اريزونا، بالولايات المتحدة الامريكية، باشراف جامعة كولمبيا وتطوع ٨ اشخاص لمدة سنتين (١٩٩١ - ١٩٩٣) للعيش وإدارة هذه السفينة الزجاجية الضخمة المبنية على الأرض! كجزء من مشروع كبير صمم لمساعدتنا فى فهم ايكولوجية الأرض. والمشروع العلمى Biospherez, Bio-sphere,i بنى كنموذج مصغر لمحاكاة الحياة على الأرض، ويمكن العلماء من اجراء التجارب، وتعقب التفاعلات بين الانسان والارض والنظم البيئية للماء والهواء، ويقدم المزيد من تفاصيل تلك التفاعلات!

وكان من ضمن اهداف المشروع، ملاحظة كيف يمكن للاشخاص الثمانية الذين عاشوا لمدة سنتين فى تلك المركبة الزجاجية، أن يعيشوا حياة المعلومات الإلكترونية المكثفة، ويستغنوا تماما عن الورق؟! فهم الناس الوحيدون فى العالم حتى الآن الذين حاولوا أن يعيشوا الوجود الإلكترونى كاملا! بالتأكيد هناك الكثير من الناس قد تكلموا عن الحياة الإليكترونية، والكثير أيضا قد تعهد والتزم بتقليل استهلاكهم من الورق وإعادة تصنيع ما يستعملونه! لكن على حد علمى المتطوعون الثمانية فى تلك التجربة هم الوحيدون فىَ العالم الذين عاشوا وهم الحياة بدون ورق لمدة سنتين! ففي سبتمبر ١٩٩٢، وعندما سار المتطوعون الثمانية إلى خارج بيت زجاجهم الكبير، أحاطت بهم الأسئلة عن معقولية وجدوى الحياة بدون الورق!! وكانت إجابتهم الدائمة: ان الحياة الإلكترونية بدون ورق، هى فقط ممكنة!

حياة إلكترونية

ورصت فى المركبة الزجاجية المحكمة الإغلاق بحجم باخرة كبيرة فى محيط، سبعة نظم بيئية صغيرة وكثيفة ومضغوطة وتتراوح من غابات استوائية حقيقية إلى بحيرات شعاب مرجانية صغيرة. ورصت فيها أيضا بعض من النظم الميكانيكية الأكثر تعقيدا، التى بنيت من أجل الهواء والماء، الحرارة، الكهرباء والمعلومات داخل السفينة الزجاجية، لتسهيل عمل المتطوعين أثناء مهمتهم بالداخل، حيث ينتظر منهم أن يرفعوا طعامهم الخاص إلى داخل السفينة! وإزالة الأعشاب الضارة من المساحات البرية! والاحتفاظ بكل الماكينات تجرى فى عملها، وكتابة البحوث العلمية عن ملاحظاتهم! ولعمل هذا، كانوا يقومون يوميا بمعالجة كتل ضخمة من المعلومات، ومراجعة وتقييم وضع ٦٠ موتورا، و ٥٠ ميلا من الكابلات و١٠٠ مضخة وآلاف من الصممامات الالكترونية، كانوا طوال الـ ٢٤ ساعة فى اتصالات بالراديو مع بعضهم البعض داخل السفينة الكبيرة ومع زملائهم فى المراقبة الأرضية تبعد حوالى ٣٠٠ قدم. وسجلوا كل ذرة من الطعام حصدت، وكم وزنها وكم أكل منها. وأيضا كمية السعرات التى احتوتها، وكم منها عاد للاستعمال كسماد! وكانوا دائما فى حلقات دراسية عبر مؤتمرات الفيديو، من خلال نظام اتصال الكترونى مفتوح حول العالم. تبادلوا بياناتهم المناخية مع العلماء بالخارج ونظموا ست ورش علمية كاملة مع هؤلاء العلماء المشاركين عن بعد. وسجلوا كميات استعمالهم للماء وأين ذهبت تلك الكميات، قاسوا نمو النباتات ورسموا خريطة للحركة النوعية للنباتات والحيوانات داخل السفينة، تلقوا فاكسات الكترونية لآخر الاخبار. حصلوا على تليفزيون الكابل، عملوا فى الصحف العلمية لينشروا ابحاثهم عن تجربتهم داخل السفينة! وأكملوها وراجعوها مع علماء من خارج السفينة، واستعانوا باقتباسات من اوراق بحثية لآخرين خارج السفينة. هم أرسلوا وتلقوا مجلدات البريد الإلكترونى الداخلى بخصوص الإدارة اليومية لمشروعهم. وقليل منهم جازف فى الدخول إلى سحابة الانترنت للبحث عن المعلومات والتواصل مع الرفقة، علاوة على التعليق على قوائم الأعداد المطردة الإضافية





أول معمل تم بناؤه في صحراء اريزونا ١٩٩١ ليكون نواة لمركز سفينة التجارب العملاق

لرسائل البريد الإلكتروني. وكان نصف هؤلاء المتطوعين متورطا ومنغمسا في ادارة اعماله خارج المركبة أثناء وجوده بالداخل، والنصف الثاني أيضا كان يتابع قراءاته للحصول على الدرجات الأكاديمية المتقدمة اثناء وجوده لمدة سنتين داخل سفينة نوح وهو بعيد تماما عن الورق. وهؤلاء الناس لم يكونوا ابدا كسالى رقميين ! كما تبدو الصورة.

وكان هؤلاء المتطوعين يطلقون على تلك المركبة موطن الانسان، وكان هذا الموطن فسيحا بشكل مذهل، وعصريا جدا فيه احدث التكنولوجيات ! فهم يستمتعون بحجرة اجتماع كبيرة جدا وغرفة طعام، ومنطقة للمطبخ، وزودوا بسجادة فخمة لها ملمس القطيفة ورائحة اللاقندر الفخمة ولمسات ديكور فخمة وعصرية ، كان هناك تليفون مخفى فى كل ركن. بالطبع كانت هناك تليفونات اختبأت تماما خلال المكان كله حتى فى المساحات البرية! داخل كل شقة كان يوجد كمبيوتر بمودم ، وأيضا سرير، فراغ للتخزين، تليفون والتليفزيون، وكان لدى كل متطوع كمبيوتر أيضا فى مقر عمله وتحت يده! برغم من ان كلا منهم حمل معه داخل المركبة الكمبيوتر المحمول الخاص به. ولكنهم لم يستعملوها، بل عالجوا كميات المعلومات الوفيرة التى حصلوا عليها من خلال اجهزة الكمبيوتر الشخصية المتراصة على المناضد داخل البيت الزجاجى، ولم يتوفر لديهم مساعدون رقميون فى مهماتهم الرقمية الروتينية اليومية! وكان امامهم الكثير من المهمات اليدوية أيضا ! مثل قراءة المعلومات المتحصل عليها بأصواتهم لإدخالها فى الحاسب ! وجمع المحاصيل. وإزالة الحشائش! وإضافة السماد، وتصنيف النباتات.. الخ العمليات الزراعية! وتوصيل البيانات بالراديو

لزملائهم فى خارج البيت الزجاجى، وكثيرا جدا من العمليات اليدوية ! وبالرغم من انهم تمكنوا من أن يتخلوا عن الورق فى الحمام! إلا ان الواقع كانت الحياة داخل المركبة غير إلكترونية تماما. وغير ورقية بالكامل!! فهناك دفتر الملاحظات الذى استعمل لتدوين البيانات والملاحظات السريعة بالقلم الرصاص، كانت هناك صعوبة شديدة فى عدم الاعتماد على تلك النوتة الورقية الصغيرة! كان لديهم أيضا مكتبة كتب مثل التى نجدها فى المنازل، وفيما عدا تلك المظاهر الورقية، كانت المركبة تعج بالمعلومات الالكترونية ، فقد تلقت المركبة الزجاجية اجمالى حوالى عشر آلاف فاكس (١٠٠٠٠ فاكس» ، لم تر هذه الفاكسات الورق ابدا، فكانت تظهر على شاشات الكمبيوتر ويتم التعامل معها الكترونيا ، الا بعضها كانت تستدعى الظروف الجانبية صورة ورقية من الفاكس!

المفارقة الورقية

والمحيط الحيوى ١ و ٢ هو تجربة رائعة لتحديد ماذا يمكن ان نتعلم من الاعتماد على النفس، داخل نظام مغلق مكتفيا ذاتيا داخليا، ولا شىء من الخارج ، باستثناء الطاقة والمعلومات ، لكن فى السنة الثانية لبعثة المتطوعين، لجنة المحيط الحيوى الاستشارية العلمية أوصت العلماء أن يرخوا قواعد استيرادهم الصارمة ويسمحوا لبعض الورق فى زجاجة ، طالما سجلت المادة على هذه الأوراق! وعند الطلب، يمكن ان تدخل المركبة المطبوعات الطبية، للاطلاع على شروط الحياة مع الأوكسجين المنخفض بالداخل وقراءة ابحاثهم المنشورة فى الصحف العلمية، ومراجعة الرسوم البيانية فى أوراقهم العلمية! هذه هى المطبوعات التى وصلت داخل المركبة، والتى لم يصلها ابدا دليل للبرامج التليفزيونية، وكانت اجهزتهم مضبوطة دائما على محطة «سى. ان. ان» الاخبارية ، وتوفر لهم مركزا لخدمة عرض افلام الفيديو عند الطلب وخاصة فى مساء ايام السبت، وأصاب اليأس المتطوعين من الحصول على كتاب كامل او صورة ورقية من فاكس او نص ورقى للرسالة الإلكترونية ، واصبحوا يشعرون بالضيق الشديد من صعوبة قراءة كتاب على شاشة الكمبيوتر من صغر الشاشة، والوقت الطويل المطلوب للجلوس امام الشاشة لمتابعة قراءة الكتاب وثبط حماسهم للكتب الإليكترونية!

والنقطة الرئيسية التى تأكدت فى تلك التجربة أن كل النظم البيئية والكائنات الحية داخل تلك السفينة الزجاجية الكبيرة لا يمكن ان تعيش بمفردها وتستمر فى عزلة عن بقية النظم والكائنات.

واحدة من المتطوعين هى ليندا لياى، قالت: إنها حاولت ان تنمى فيها عادة الإستغناء عن الورق، والعيش حياة إلكترونية كاملة ولكنها اكتشفت أن العيشة الإلكترونية الكاملة داخل سفينة التجارب تتطلب الكثير من الناس خارج السفينة يعملون الكترونيا ايضا وبدون ورق! وأنه لا يمكن حقيقة ان نعيش بمعزل عن الورق او نعيش فى جزيرة تسيطر عليها الحياة الإلكترونية الكاملة، وشرحت ليندا أنها كان يمكنها فقط أن تكتب للآخرين عبر البريد الإلكترونى أو فاكس الكمبيوتر، لكن كان الكثير من



مركز سفينة التجارب فى صورة اخذت في فبراير ٢٠٠٠ وتظهر زيادة عدد المعامل البحثية

المستلمين للرسائل ليندا يملكون فقط ماكينات الفاكس الورقية، وهكذا تولدت أوراق أكثر بما هى مرغوبة! وتجربتى الشخصية ايضا فى الكتابة لمجلة الهلال طوال العام الماضى كانت تحمل نفس المفارقة الورقية! فقد تعودت منذ سنوات ان اسجل افكارى واكتب ابحاثى ومقالاتى مباشرة على الكمبيوتر. ثم ارسل المقال من الكمبيوتر خلال كارت المودم والفاكس الى إدارة تحرير مجلة الهلال التى تستقبله على فاكس ورقى، وتتم مراجعة المقال واخراجه ويعد مرة أخرى فى صورة إلكترونية ضمن الإعداد الإلكترونى للمجلة! وفعلا لا املك صورة ورقية لمقالاتى، الا فى حالتها الورقية الأخيرة المنشورة فى مجلة الهلال. ونرجع مرة ثانية لسفينة نوح الزجاجية، التى عاش فيها ٨ من المتطوعين حياة بلا اوراق، لدرجة ان الخطابات الورقية البريدية التى كانت تصلهم، كانت تفتح اولا خارج السفينة ثم تمسح الكترونيا ، وترسل بالفاكس عبر الكمبيوتر الى داخل السفينة، وإذا كانت كلمات الخطاب قصيرة كانت تقرأ عبر التليفون! أو من خلال زجاج نوافذ السفينة! كل هذه الأنشطة كانت تستهلك معظم الوقت، ورغم تلك الجهود كان ينتظر المتطوعين ١٢ صندوق بريد مليئة بالخطابات الورقية فى انتظار دورها حتى تدخل فى صورة الكترونية. وكانت الشكوى الأولى لكل المتطوعين هى صعوبة الحياة دخل السفينة بدون ورق، وكانوا لا يستطيعون ان يجدوا بياناتهم بعد ان تكون حفظت فى ملفات الكترونية ، وبعد سنتين كان لكل متطوع ملف حجمه حوالى ٤ جيجابايت يحتوى على جميع بياناته الشخصية، وتلك المرتبطة بأبحاثه واعماله داخل السفينة طوال السنتين، وهى ملفات يمكن ان تفقد وتهدر بسهولة نتيجة فيرس مثلا أو عطب فيزيقى فى الهارديسك! والورق ايضا يمكن ان يتلف طبعا! لكن الصورة البصرية الممدودة للورق على المكتب او الرف يجعل من السهل استعادته!

وفى ٦ مارس ١٩٩٤ دخل السفينة طاقم ثان لستة متطوعين عاشوا عشرة شهور حياة إلكترونية بدون اوراق، وهم يجرون تجربة مع واحد او اثنين من الكمبيوترات المحمولة المزودة بسعة

ذاكرة ومساحة تخزين اكبر ومزودة بكاميرات فيديو قابلة للسيطرة. وأكد طاقم السفينة الأول «٨ متطوعين» أنهم أنجزوا مهامهم البحثية وعاشوا داخل مركبة التجارب بطريقة الكترونية تماما وبدون ورق وشعروا بالارتياح بنسبة ٨٠٪ من هذه الطريقة الالكترونية. ولكنهم كانوا يشعرون بالضيق فى اول التجربة. وانهم تعايشوا مع قراءة كل شىء إلكترونيا! واستمتعوا بتحويل البيانات الى صورة رقيمة، وأحبوا فورية البريد الالكترونى، وانضمام القنوات الاذاعية والفيديو فى كابل واحد ، ولكنهم افتقدوا الصحف والمجلات الورقية! وكان طلبهم الأساسى تحسين مولدات الطاقة التى تعمل يدويا وتنسيق مساحات تخزين البيانات والمعلومات إلكترونيا لتسهيل استرجاعها. ولكنهم لم يتوصلوا ابدا إلى طريقة شرعية وقانونية لإنشاء فورمات إلكترونية لتوقعاتهم تماثل حالتها الورقية!

الورق يستمر هو الافضل

ونعرف أن الرؤية التى بشرت بفكرة مكتب بلا أوراق ظهرت مبكرا فى اوائل عام ١٩٨٠ . ومع زيادة هجرة الورق كان يتوقع زيادة مبيعات الطابعات بالمقارنة بالطابعة الليزر، لكن حدث العكس زادت مبيعات الطابعة الليزر بانتظام سريع، ومن الخداع ان نعتقد ان فكرة المكتب بلا اوراق هى الطابعة الليزر! فهذا التصور القاطع غير حقيقى، لأن الناس تحب الورق، ويستمتعون بمظهره وملمسه بنفس الطريقة العاطفية التى تحب بها، وترتبط بها مع القطط والكلاب. فالطابعة الليزر لا تمتلك الشعبية.

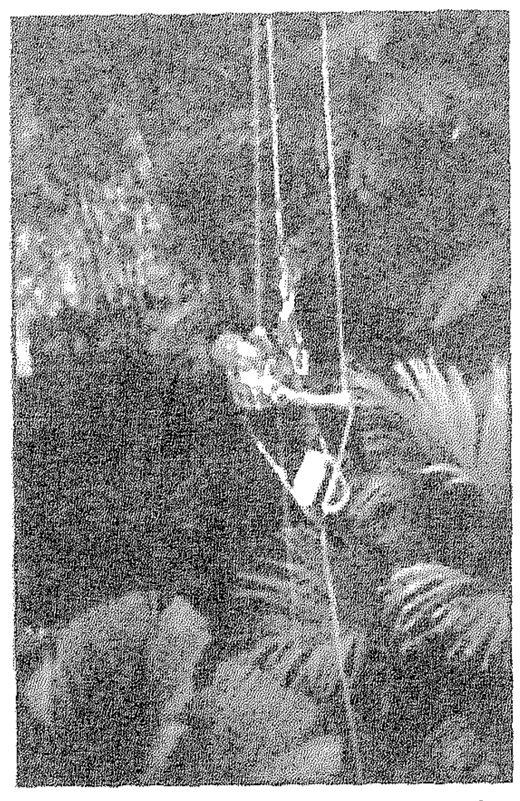
ومجلة الهلال مثلا منذ اكثر من عام وهى تطبع فى ألوان زاهية، ونوعية افضل من الورق، وفى غلاف جذاب، بالرغم من ان بعض الناس يرجئون قراءة الصفحات الملونة! ولأن الناس أحيانا مثل الكتب والوثائق الأخرى التى طبعت برقة ولطف علي ورق ناعم الملمس، واحيانا اخرى مثل الكتب التى طبعت على ورق خشن عادى المظهر، فقد يكون جوهر ومضمون الثانية افضل كثيرا من جوهر ومضمون الأولى، لكن لا ينبغى ان نتجاهل الصفات الحسية للورق العالى الجودة.

ودراسات كثيرة، وجدت أن ناسا كثيرين ينشغلون بالأنشطة المركبة - مثل التعليق على وثائق ومقارنتها، على سبيل المثال، عندما يقارن محرر نسختين او اصدارين لبحث او مقالة او فصل من كتاب للرؤية ماذا حدث من تغييرات ، أو دمجهم فى مقال طويل ، نجد من الصعوبة بمكان ان نفعل نفس الأشياء من خلال شاشات الكمبيوتر، فشاشات الكمبيوتر ١٤ و ١٥ بوصة حتى الـ ١٧ بوصة، محدودتين للغاية للقيام بتلك الاعمال المركبة مثل مقارنة مخطوطتين بطول الصفحة بوضعهم جنبا الى جنب، لأن هذا يحتاج على الأقل إلى شاشة ٢٤ بوصة، ثمنها لوحدها حوالى ١٥٠٠ دولار، وهو سعر غالٍ جدا لمعظم المكاتب، وبينما تتناقص باستمرار كلفة وثمن اغلبية الشاشات الكبيرة فى العقد القادم، الا ان الورق يصبح هو الأفضل، بل إن الورق يملك فضائل أخرى. خاصة مع الذين يعملون مع اب الوثائق المتعددة، ويحتاجون إلى عمل تعليقات سريعة ورسوم بيانية سيجدون فى الأمر صعوبة شديدة مع برامج معالجات الكلام حتى لو كان برنامجا ممتازا مثل برنامج

WORD لكن في إمكانهم ان يحملوا اوراقهم معهم إلى الاماكن المختلفة، ليكملوا تعليقاتهم عليها او قراءتها ، فالورق بسيط جدا وماهر جدا، ومتعدد الفضائل والمزايا. لذلك تنصح الدراسات الحديثة الحكومات بعدم التخلص من وثائقها الورقية بعد تحويلها الى الصورة الاليكترونية لسبب بسيط للغاية هو ان النظم الالكترونية معرضة دائما للانهيار والاقتحام والسرقة من خلال فيروسات الكمبيوتر والانترنت ومهاجمة واغتصاب المواقع المختلفة. لذلك نزعم أن عمر الورق اطول!

وفي بعض النظم، مثل نظام حجز شركات الطيران، فالحركة وتحويلها إلى نظم إلكترونية كانت عملية جدا، لأنه يقلل التكاليف التشغيلية في إعادة إصدار تذاكر جديدة والتقليل من الملاحظات الإضافية على تذاكرهم ، وعلى النقيض من ذلك. الناس الذين يعملون عملا تحليليا مع أب المخطوطات قد وجدوا الورق هو الوسيلة المفيدة والمعمرة جدا. لعدة اسباب منها ما ذكرناه من ان الورق يمكن ويسهل عمل المقارنات مع رب الوثائق جنبا الى جنب. هو قضية جزئية وايضا قضية القابلية للحركة التي يتمتع بها الورق قضية جزئية ايضا، فالورق ممكن ان يتحرك وينتقل على اى جزء من المكتب، ويمكن ان ينزع من مكانه بسهولة وبسرعة بدون الحاجة الى تشغيل جهاز الكمبيوتر للتعامل مع الوثيقة.

ويلعب الورق أدوارا مهمة في بعض الأماكن التي نعتقد انه لا يمكن ان يستعمل فيها، والمثال الممتع في نظم المراقبة الجوية المدنية، حيث تظهر نسخة الفيلم للمراقبين الجويين، الذين يحدقون في النقاط الخضراء الفاتحة، والتي تمثل

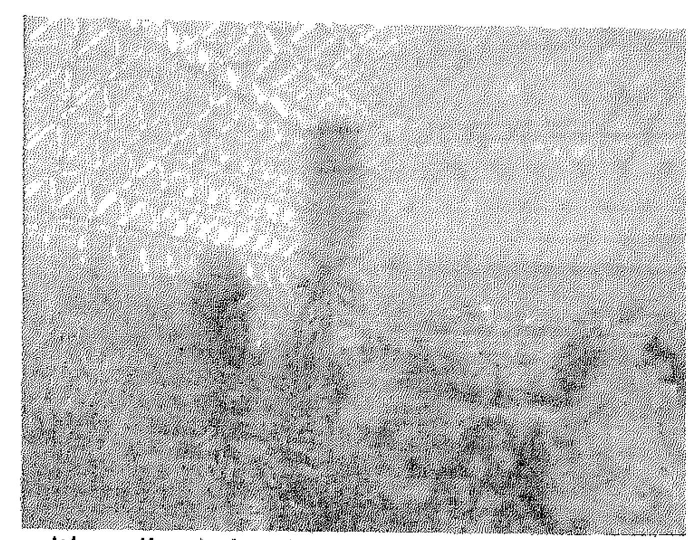


أحد الباحثين المتطوعين يقوم بمهامه اليومية داخل المركز

الطائرات اثناء الطيران في مسارها من خلال نظام إلكتروني كامل، لا يمكن ان تتخيل ان الورق له مكان فيها، ولكن هولاء المراقبين الجويين ايضا ينقلون الحياة الحقيقية التي تعتمد على عروض الكمبيوتر . ويتابعون الطائرات التي يتابعوها على قطع ورق صغيرة مسجل عليها الأرقام القياسية للرحلة واتجاهها وسرعتها وأشياء اخرى، ويحركون تلك الاوراق التي تمثل الطائرات، من مجال جوى الى آخر وفقا لمسار الرحلة.

الورق الإلكتروني!

في أواسط الثمانينات، ومع انتشار تطبيقات عصر المعلومات، قال الكاتب الفرنسي جورج ستاينر في جريدة الديلي ميل: إن «عصر الكتاب انتهى تقريبا»! ومع أن السنوات الماضية، هزمت هذه



حوالي ٤٠٠٠ نوع من النباتات والحيوانات جمعت من ٤٠ دولة مختلفة في مساحة ٣,١٥ فدان هي مساحة المركز

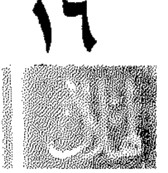
المقولة بالضربة القاضية، الا أن أمثال هذه النبوءة ظلت متداولة بصور مختلفة!

إن الكلام المدون على صفحات الكتب، أو فوق جدران المعابد، او على اوراق البردى، يندرج بشكل او بآخر في إطار المعرفة الانسانية فقبل الكمبيوتر ، كان الورق أو الكتاب أهم وعاء للمعرفة التي جمعها البشر، وسجلوها على مدار تاريخهم الطويل. ولما جاء الكمبيوتر ومن بعده شبكة الانترنت راح الكتاب يبحث لنفسه عن مكان على مواقع هذه الشبكة، وحتى يجد هذا المكان ، كان لابد ان يغير بعضا من ثيابه التقليدية فيتخلى عن احبار المطابع وأوراقها، ويستبدلها باشارات الكترونية تحفظ على اقراص ممغنطة ، وتعرض على شاشات منيرة وقد نقلت الانترنت الكتب من الشكل الورقي التقليدى الذى نجده فى المكاتب إلى صفحات نقرؤها على شاشة الكمبيوتر.

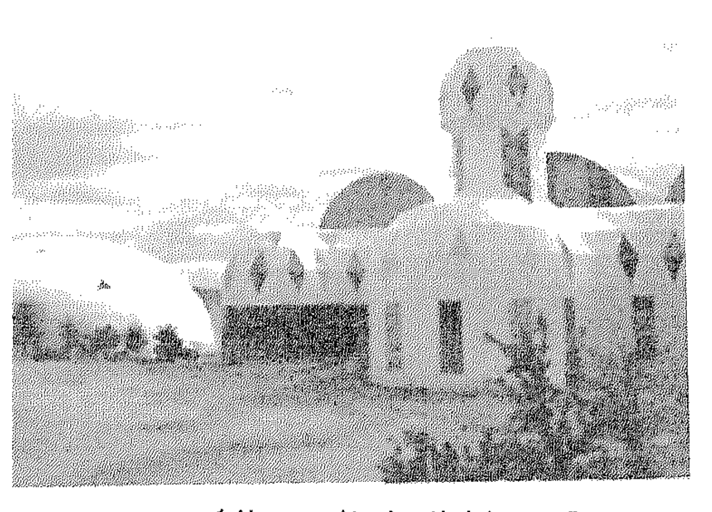
ولا تعتبر هجرة الكتب إلى الانترنت تحولا نهائيا من الورق إلى الإشارات الإلكترونية، كما توقع البعض. فالكتاب المطبوع لم يفقد شيئا من أهميته او سعة انتشاره بل صار له أكثر من شكل او ثوب. فبدلا من حصر القراءة فى صفحات الكتب الورقية، اصبح بإمكاننا القراءة من شاشة الكمبيوتر مع التحفظات الكثيرة على صعوبة ذلك! وعلى الرغم من ان هجرة الكتب الى الانترنت لازالت فى مهدها الا ان الكم الذى انتقل حتى الان بالغ الضخامة، وأبلغ دليل على ذلك ان موقعا واحد يديره شخص واحد (Books Pagethe online)يضم اكثر من ٥٠٠٠ كتاب ، ويعرض العديد من الاعمال الكلاسيكية الضخمة، مثل الحرب والسلام و«اناكارنيننا» والجريمة والعقاب والاخوة كرامازوف وقصة مدينتين. وحتى ندرك مدى ضخامة هذه الاعمال علينا ان نتذكر ان رواية الحرب والسلام لا تعتبر فى تقدير العديد من النقاد اهم روايات الأدب الواقعي على الاطلاق. ولكنها من اضخم الروايات حجما، ايضا. اذا يزيد عدد صفحاتها فى سلسلة مطبوعات Penguin المعروفة بصغر حجم الخط وضيق المسافة بين السطور على ١٠٠٠ صفحة، وهذا يعنى ان الكتب الموجودة على الانترنت ليست بالاعمال الصغيرة او الهامشية، ولكنها نخبة من اهم منتجات الفكر الانسانى.

منافس خطير

ويبدو أن الورق فى شكله التقليدى المعروف، وبعد ان صمد عبر القرون والأزمنة سيكون قريبا على موعد مع منافس خطير، ومتطور، هذا المنافس هو الورق الالكترونى ، فمن المعروف لدى المهتمين ان الورق الالكترونى ظل لنحو عقدين الهدف الصعب والأكثر تطلعا لدى



العلماء لكن الكشوف الجديدة وضعت هذا الحلم قريبا من الواقع اكثر من اى وقت مضى، ومعروف أيضا أن الورق وقف امام كل التحديات التى واجهها فيما له علاقة بالاتصالات ولقرون طويلة، فبرغم كل وسائل الاتصال الحديثة ظل الورق الوسيلة الاثيرة عند الكثيرين فى نقل المعلومات والمعرفة بشتى اشكالها ومن جميع مشاربها ومصادرها. وفى تقرير علمى نشرته وكالات الأنباء العالمية منذ فترة يذكر فيه ان التقدم العلمى والتكنولوجى الكبير فى وسائل وميادين الاتصالات، الذى ميز العقدين الماضيين، كان دافعا لبحث علمى دءوب عن بديل الكترونى للورق والحبر التقليديين، وهذا البديل بات اقرب للواقع منه للحلم، فقد تمكنت شركتان امريكيتان من إيجاد وسيلة لتصنيع الورق الالكترونى تمثلت فى كبسولات صغيرة جدا مليئة بسائل غامق اللون وجزيئات بيضاء والفكرة تقوم على إطلاق شحنة كهربية تتسبب فى تحريك الجزيئات من جهة من الكبسولة الى الجهة الاخرى، وبالتالى تكوين بقعتين واحدة غامقة أو سوداء شبيهة بالحبر العادى والأخرى بيضاء ويقول الدكتور بول درازيتش فى تصريح لـ «بى بى سى» اونلاى ان التكنولوجيا الجديدة تتمتع بثلاثة عناصر تعتبر فريدة من نوعها من حيث الخصائص العلمية، فهناك الحبر الالكترونى وهو العنصر الذى يضىء بلونين غامق أو أسود وآخر فاتح قريب من البياض، وهناك الالكترونيات البلاستيكية التى تتحكم فى الحبر الالكترونى والتى لها القدرة على تكوين الاشكال والتعرف عليها، وهناك ثالثا نتائجهما وهى لوحة الكتابة الالكترونية المرنة، ومن المتوقع ان تكون أولى تطبيقات هذا الانجاز



مجموعة من معامل الابحاث الموجودة بالمركز

التكنولوجى المهم تطوير اشارات الكترونية متعددة الاغراض منها مثلا لوحات عرض كتابات ورسوم يمكن التحكم بها من بعد» ويقول جون سيلى براون كبير العلماء فى شركة زيروكس الأمريكية الضخمة لتكنولوجيا الطباعة ان هذا الانجاز يعتبر البداية فى مشوار طويل سيشهد تطورا كبيرا فى هذا الميدان، ويشير هذا العالم إلى إمكانية كتابة كتاب كامل على لوحة الكترونية واحدة بفضل التكنولوجيا الجديدة.

الا ان عالم النشر والطباعة غير متوافق حول موضوع الورق، والحبر الالكترونى بل إن حتى شركات النشر الكبرى والقريبة، من التطورات التكنولوجية فى هذا الميدان تنصح بالتروى وعدم اطلاق الاحكام، ايجابيا ام سلبيا بسرعة وعجلة الا ان نجاح تطبيقات هذه التكنولوجيا من عدمه يبقى محكوما ومحصورا فى انتشار هذه التكنولوجيا واستخدامها على نحو واسع كبديل للورق التقليدى فى المستقبل. ■

انتفاضة الحرامية

بين الاختمار والانفجار

بقلم
د. مصطفى سويف

تراوحت خطى السبعينيات المتأخرة على الصعيد المصرى والعالمى بين فترات تحمل فى طياتها اختمارات منذرة، ولحظات تعلن أنباء انفجارات مدمرة. والمثير للتأمل حقا أن فترات الاختمار كانت تقدم الشواهد التى تشهد على تردى الأوضاع وتنبئ بسوء المآل، ولكن زعماء ذلك الزمان كانوا يقرأون تلك الشواهد على أنها مجرد مثيرات للغضب لاعلى أنها رسائل ذات معنى، فهى تحض على القراءة المتأنية للواقع، وإعادة النظر فيما درجوا هم «الزعماء» على التسليم به، سواء فيما يتعلق بحجم قدراتهم، أو بحدود الصبر لدى شعوبهم؛ وتحض كذلك على إعمال الفكر الخلاق فى إرساء دعائم أكفأ الحلول المناسبة لمعطيات الواقع ومطالبه، ثم على إقرار مسلمات جديدة تساعدهم وتساعد مواطنيهم على إطلاق الأفعال الصادقة، وكبح جماح الخيالات المضللة الكاذبة.





صوره للدمار من احداث ١٨ - ١٩ يناير

كان العام السابع والسبعون عاما عاصفا فى بدايته، حزينا فى وسطه، كئيبا فى نهايته، فى مصر اندلعت أحداث ١٨ و ١٩ يناير فى شكل انتفاضة بالغة العنف شديدة الاتساع، كان دليل عنفها ما أوردته وكالات الأنباء الأجنبية حينئذ من أن المصادمات بين الجماهير وقوات الأمن أسفرت عن عدد من القتلى يفوق الأربعين قتيلا . ومن الجرحى يزيد على الستمائة جريح. وكان دليل اتساعها أنها طالت جميع المحافظات فى الجمهورية. وكان هذا انفجارا جاء فى أعقاب اختمار بدأ مع بدء عهد الانفتاح (منذ صدور قانون ٤٣ لسنة ٧٤)، وظلت تصدر عنه نذر كثيرة كانت كفيلة (لو أنها قرئت على وجهها الصحيح) أن توفر على الجميع مشاق المواجهات الدامية. وكان أوضح هذه النذر وأفصحها لسانا تظاهرات العمال فى المحلة الكبرى سنة ١٩٧٥. لكن من بيدهم الأمر قرأوا هذه النذر على أنها مجرد مثيرات للغضب! وعندما وقع الانفجار الكبير فى ١٨ و ١٩ يناير ٧٧ عبر الرئيس السادات عن غضبه الشديد بقوله «إنها انتفاضة حرامية». وكان هذا القول بمثابة تشخيص يتفق تماما مع الطبيعة

القمعية للعلاج الفورى الذى أمر به وجرى تنفيذه. ومع ذلك فقد جرى تطبيق علاج آخر فى الوقت نفسه يناقض روح العلاج الأول وينفيها ، وذلك بإعادة العمل بالدعم الحكومى للسلع الضرورية، وهو ما كانت الحكومة تنوى إلغاءه (بدءا من يوم ١٧ يناير السابق مباشرة على انتفاضة الحرامية) . وأثار هذا التناقض سؤلا ظل يراوح ذهنى من حين لآخر، لماذا إذن الغضب على الناس ووصفهم بالحرامية؟ ولماذا القمع واسع النطاق بعد ذلك؟

وتأملت هذه الأحداث جميعا وما بينها من تفاوتات صارخة، وقرأت فيها معانى متعددة؛ فالناس ليسوا غافلين أبدا عما يجرى ويتناثر حولهم من أفعال وأقوال استفزازية، ووسيلتهم الرئيسية للتعامل معها هى التسجيل والتخزين «لا النسيان»، ولأن تخزين المواد الملتهبة ينطوى على كثير من المشقة ويولد فى النفوس كثيرا من التوترات مختلفة المضامين فلابد لهم من تشغيل منابع الصبر فى نفوسهم بأقصى طاقتها لترويض هذه التوترات ما أمكن «على طريقة اللهم طولك ياروح». وقد أتقن الناس هذه العملية من طول الممارسة «على امتداد قرون وقرون» وترتبت على هذا الاتقان نتائج بعضها حميد وبعضها خبيث، فقد كانوا بهذا الاتقان يحمون أنفسهم (فى المدى القصير) من بطش الحكام الذين كانوا غالبا مستبدين ، لكن هذا الاحتماء نفسه كان وبالا عليهم «على المدى الطويل»، لأن الحكام كانوا غالبا يقرأونه باعتباره غفلة أو تبلدا فيغريهم ذلك بأن يزيدوا من ضغوطهم.

ولما كان المحكومون هم أنفسهم لا يستطيعون مواصلة الصبر إلى مالا نهاية فقد كانوا إذا استنزفت موارد صبرهم ينفجرون فى هبة هوجاء تفوق تكلفتها غالبا حجم عائدها. وفى حدود فهمى هذا بالضبط ما حدث فى هبة يناير ٧٧؛ فقد وقع فيها كثير من الاعتداءات على أناس أبرياء ، ووقع فيها كثير من الدمار على ممتلكات عامة وخاصة هى فى نهاية الأمر محسوبة على أموال الشعب وأقواته.. على أى حال، هذه كانت افتتاحية عام ٧٧ فى مصر.

ولم تكن الخاتمة أسعد حالا من الافتتاحية؛ فقد كان يوم ١٩ نوفمبر يوما مشهودا، إذ وقف الرئيس السادات فى ذلك اليوم يلقى خطابا داخل الكنيست الإسرائيلى، وحمل هذا الخطاب الى العالم رسالتين إحداهما



صريحة والأخرى ضمنية، فأما الصريحة فكانت تؤكد أن مصر جادة فى طلب السلام، وأما الضمنية فكانت تشى بأن مصر مستعدة لعقد صلح منفرد مع إسرائيل. وبعد أسبوعين أعلنت الدول العربية عن مقاطعتها مصر. وفى منتصف ديسمبر أعلنت حكومة السادات عن افتتاح مؤتمر فى القاهرة يضم مصر وإسرائيل والولايات المتحدة ، والأمم المتحدة، وذلك للبدء فى محادثات السلام.

فى تلك الأيام لم أقابل أحدا إلا وجدته يعبر عن شعور بالصدمة.. وفى سبتمبر ٧٨ «أى بعد تسعة شهور فقط» تم التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية كامب ديفيد؛ وقعها السادات، ومناحم بيجن، وكارتر. وبعد شهر واحد بدأت مباحثات إقرار السلام النهائى بين مصر وإسرائيل فى واشنطن . وفى مارس ٧٩ تم التوقيع النهائى على اتفاقية كامب ديفيد. وفى ديسمبر من العام نفسه كوفىء السادات على أفعاله هذه بمنحه جائزة نوبل للسلام مناصفة بينه وبين بيجن. وفى فبراير ١٩٨٠ أقيمت العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل. وعلى امتداد هذه الفترة، منذ خطاب الكنيست وحتى إقامة العلاقات الدبلوماسية بين البلدين كان اختمار جديد يتخلق، وكانت تصدر عن هذا الاختمار علامات ونذر، لكن أحدا ممن يعنيهم أمر الحكم لم يقرأها على وجهها الصحيح!

الأحداث على هذا النحو.. لماذا؟

بغض النظر عن توجهات الرفض والاستنكار لهذا المسلسل، وقد كانت تملأ نفسى حينئذ . شأنى فى ذلك شأن كثير من المواطنين، فقد كنت حريصا على أن أفهم منطق اللعبة السياسية ، وأن أفهمها فى حدود المعلومات المتاحة لى. دون أن أشتط فى صياغة افتراضات لا قبل لى بالبرهنة على صحتها. كان سؤالى الأساسى هو أين: يلتقى الخاص «شخص السادات وأسلوبه» بالعام «الذى هو الأحداث السياسية» فى ديناميات هذا المسلسل؟ وكنت ومازلت مقتنعا بأن أحداث التاريخ لا يمكن أن يكتمل فهمها وتفسيرها دون ذكر للدور الذى يقوم به القائد أو الزعيم.

كانت إحدى الخصال الواسمة للرئيس السادات نزوعه إلى المغامرة إلى الحد الذى قد يصل إلى الإخلال بحسابات المكسب والخسارة ، وكانت لديه خصلة أخرى هى التعجل فى التنفيذ «خاصة بعد مرحلة اتخاذ

القرار» ، وخصلة ثالثة هى شدة الاهتمام بصورته كما تنطبع لدى الآخرين. وخصال أخرى أحصيتها فى مقال سابق، كانت هذه الخصال بمثابة مفاتيح تيسر الولوج إلى شخصيته الفاعلة، ومنها إلى أسلوبه فى تشكيل الدور الذى أسند إليه أن يؤديه فى المسرحية السياسية، وكانت المرحلة التاريخية التى حكم البلاد فيها جزءا من حقبة الحرب الباردة حيث اللاعبون جميعا يرتضون تسريع الأحداث «السريعة أو الكربجة». فهل كنا هنا بصدد لقاء تاريخى بين خصال الرئيس والخصال الواسمة للحقبة التاريخية المساوقة؟ ولا يجوز أن ننسى هنا أن المفاوضين الغربيين يعتمدون كثيرا على مشورة الخبراء النفسيين (كجزء من تطبيقات العلوم النفسية فى أمور السياسة). يبدو لى هذا التصور لمجريات الأمور فى ذلك الوقت تصورا معقولا، خاصة أنه لا يستبعد بالضرورة عناصر أخرى شاركت بأوزان لا سبيل إلى تجاهلها فى تحديد المحصلة النهائية للحركة، أعنى الانحياز الأيديولوجى المسبق لدى السادات ضد كل ما ومن يتصور أن ينتمى إلى اليسار، والغالب أن هذا كان له وزن ملحوظ فى اختياره الانحياز إلى جانب الحل الأمريكى أيام كان لمصر أن تختار بين الحل الأمريكى والحل السوفييتى عقب توقف القتال مباشرة. وأخيرا وليس آخرا كانت هناك ضغوط المفاوض الأمريكى (الوسيط غير النزيه) وقد وظف فيها باقتدار كل ما يتصل بضائقتنا الاقتصادية.

العالم من حولنا

فى تلك الفترة نفسها كان العالم يغلى من حولنا، وكانت أحداث الغليان مليئة بما يحض على التعلم والاعتبار؛ فى أفريقيا اندلعت الثورة فى أحد أقاليم الكونغو «زائير حاليا» ، وكانت تستهدف الإطاحة بحكم موبوتو ورجاله، حدث ذلك فى مارس ٧٧. وسرعان ما ووجهت هذه الثورة على أنها فصل من فصول الحرب الباردة؛ فعبرت الحدود قوات من أنجولا «المحسوبة على السوفييت» لمساعدة الثوار، واستنجد موبوتو بفرنسا وبلجيكا فأرسلتا قوات من المظليين وأومأت فرنسا الى المغرب وأرسل هذا ألف جندى مغربى. وقرأت أخبار هذه الأحداث وأنا فى الخارج «فى إحدى سفراتى باسم هيئة الصحة العالمية»، وقرأت كذلك أن رئيس مصر عرض على فرنسا أن يرسل مساعدة عسكرية، هو أيضا، ولكن لأمر ما لم

ترحب فرنسا بهذا العرض. وفى مايو تم إخماد الثورة. وفى جنوب أفريقيا كان الحكم العنصرى الأبيض يشدد من إجراءات القهر على الشعب الأسود، فقرر أن يصادر جريدتين للسود، وأن يغلق ١٨ تنظيما مدنيا عرفت بتصديها لمقاومة مظالم البيض.

وجاء عام ٧٨ فازداد نطاق الثورات الشعبية اتساعا، وازدادت قسوة إجراءات الحكام ضد هذه الثورات؛ فى إيران ، وفى أمريكا الجنوبية وفى الصومال، وفى فلسطين، ففى إيران شبت الثورة فى يناير ولم يخمد لهيبها حتى يناير التالى ٧٩ حين انهار حكم الشاه وعاد الإمام الخومينى من منفاه ليتولى السلطة هو ورجاله. وحاولت أمريكا مساندة الشاه بما أمكنها من سلطان وحيلة، ولكنها عجزت واحترقت أصابعها بالنيران المتأججة، وعندما توقفت عن الاسترسال فى المساندة نبذت الشاه نبذ النواة حتى لقد بخلت عليه بحق اللجوء اليها. وعندئذ تصدى الرئيس السادات لكى يؤويه فى مصر، وقرأت فى قراره هذا قدرا كبيرا من الاستفزاز لمشاعر المصريين الذين كانوا لا يخفون تعاطفهم مع الثوار الإيرانيين، وقرأت فيه كذلك خطأ من أخطائه الكبيرة التى لم يكن يفسرها فى رأيى سوى خصلة المغامرة سيئة الحساب ضمن خصال شخصيته. وفى أمريكا الجنوبية بدأ سعار الثورة فى نيكاراجوا يشتد ضد حكم طاغية آخر يدعى سوموزا ، وكان كذلك من الزعماء الذين يحتضنهم الغرب «مثل موبوتو وشاه إيران» ، وبدأنا نتابع تحركات الثوار من خلال تنظيمهم العسكرى، وكان يدعى الساندانستا. وفى أثيوبيا كان منجستو هيلا مريام قد استولى على الحكم من الإمبراطور هيلا سيلاسى، وبدلا من أن يلتفت إلى إصلاح ما أفسده الامبراطور من أمور شعبة استدار الى الصومال المجاور وبدأ يزحف للاستيلاء على أحد أقاليمه «الأوجادين» وانخرط الصوماليون فى الدفاع عن وطنهم. وفى فلسطين سيرت إسرائيل قوة قوامها ثلاثون الف جندى ضد مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى جنوب لبنان ثم خرجت من هناك فى يونيو بعد أن قتلت من قتلت وخطفت من خطفت، ودمرت ماشاءت أن تدمر. وبعد شهرين أرسلت من قام بتفجير مجمع سكنى للفلسطينيين فى بيروت، وأسفر ذلك عن ١٧٥ قتيلا.

ثم جاء عام ٧٩، وفى ذاكرتى أن

أهم أحداثه كان قيام الدولة الإسلامية فى إيران. ولأمر ما قرر بابا الفاتيكان «وهو البابا الحالى» ان يزور بولنده مسقط رأسه. وأنا لا أزال أذكر هذه الزيارة لأن الحكم الاشتراكى فيها كان قد بدأ يترنح تحت ضغوط منظمة غير حكومية كان اسمها منظمة تضامن، وانبرت هذه المنظمة تدبر للبابا استقبالات شعبية حافلة حيثما حل، وكان هذا لحساب الغرب الذى استقبل البابا بعد ذلك بثلاثة شهور فقط فى البيت الأبيض زائرا لجيمى كارتر.

وفى تلك الفترة نفسها توالت الانقلابات فى أفغانستان، وترددت فى هذا الشأن أسماء تاراكى، وحفيظ الله أمين، ثم كارمل كقادة لهذه الانقلابات، ودعا هذا الأخير السوفييت إلى التدخل لحمايته وحماية حركته التى ادعى أنها اشتراكية، وزحف الجيش السوفييتى على كابول فى ديسمبر ٧٩. واندلعت تظاهرات الطلبة الأفغان ضد هذا الغزو وكانت نتيجة التصادم خمسمائة قتيل حسب الروايات الغربية.

هكذا كانت الاختمارات والانفجارات تتوالى على دول العالم من حولنا، وكانت تدار غالبا «سواء من قبل الزعماء المحليين أو من جانب رؤساء الدول الكبرى» باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الحرب الباردة بين الغرب والاتحاد السوفييتى، وهكذا ضاع حق الهوية الوطنية أو كاد، وكأنما الموجود على سطح الكرة الأرضية دولتان لا ثالث لهما: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى.

بعض من السيرة فى خضم المسيرة:

سيطرت على مخيلتى فى تلك الأيام، أيام ١٨ و ١٩ يناير ٧٧ صورة بين الحلم والكابوس، رأيتنى من خلالها أسبح طوال الوقت فى بحر ثائر، وينصرف معظم جهدى إلى محاولة أن أبقى رأسى فوق سطح الماء، لا أريد أن أغرق، وأحاول فى الوقت نفسه ان أواصل الوعى بالذات وهى تباشر البحث العلمى من ناحية وتعليم الطلاب من ناحية أخرى. كنت أحاول مخلصا ان أحيى حياة البحث العلمى الجاد، تلقيا وإبداعا، ولم أكن مستعدا فى سبيل ذلك أن أغفل عما يدور حولى فى مصر وفى العالم. وكانت كل من المحاولتين تجتذبنى بعيدا عن الأخرى. وكان مسعاى دائما ينصرف إلى العثور على النقطة الحرجة التى يتحقق عندها التوازن



الأمثل بينهما، وكنت قلما أرضى عن حصاد هذا المسعى ، ومن ثم كنت أواصل السير.

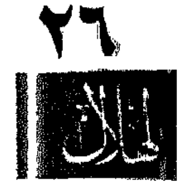
فى أبريل ٧٧ دعيت باسم «المجلس العالمى لبحوث الكحوليات والإدمان» الى اجتماع يعقد فى لوزان بسويسرا، هدفه التخطيط لإجراء بحث حضارى مقارن تحت اشرافى حول تعاطى القنب «الحشيش» فى اربع دول افريقية «نيجيريا وزامبيا وكينيا. وموريشيوش»، على ان تتبع فيه الخطوات التى خطوناها فى إجراء البحث المصرى الذى كنا قد اجريناه على هذا التعاطى ونشرنا معظم نتائجه فى دوريات التخصص فى الخارج، وقبلت المهمة وسعدت بها، ولم افكر كثيرا فيما سألقاه فى سبيل انجازها من مشقة. وفى ذلك الوقت نفسه بلغنى ان أستاذين من جامعة فلوريدا (فى الولايات المتحدة) هما فلتشر وزاتس كتبا نقدا لبعض الجوانب المنهجية لبحثنا المصرى وأرسلاه للنشر فى دورية متخصصة وخاطبتنى الدورية فى أن من حقى أن أرد على هذا النقد إذا أردت، وأرسلت لى نسخة من النقد، على وعد أن تنشر النقد والرد فى عدد واحد معا. وكان طبيعيا أن أرد. وفى ذلك الوقت شغلنى شاغل اعتبرته ذا أهمية خاصة فى حسن الأداء لدورى الجامعى، وهو إصدار كتاب للتعريف بعلم النفس العيادى المعاصر فى شقيه القياسى- التشخيصى والعلاج، يشارك فيه تلامذتى بفصول مترجمة عن مصادر إنجليزية رفيعة المستوى، وأشارك فيه بمراجعة الترجمة وكتابة فصل أو فصلين تأليفا. ولكى تزداد المشقة على نفسى أضعافا مضاعفة تزامن كل هذا مع بدء صراع جانبى بينى من ناحية «كرئيس لقسم علم النفس» وتلامذتى الذين شبوا عن الطوق وأصبحوا زملاء لى فى إدارة شئون القسم من ناحية أخرى. هم يطلبون الإذن بالسفر فى إعارات إلى البلاد النفطية وأنا أعارض مطلبهم هذا رغم يقينى بأن شح المرتبات فى الجامعة والأزمة الاقتصادية التى تطحننا جميعا كلها عوامل تفسر طلبهم وتكاد تبرره، ولكنى كنت أقول فى حواراتى مع نفسى : ومن الذى يبقى فى القسم للتدريس لأبنائنا فى مصر؟ ولماذا أنشأنا القسم أصلا؟ ولماذا لا يقبلون التضحية؟ ومع ذلك فقد كنت مقتنعا باحتياجهم المادى، وكنت على هذا النحو أسلك وكأننى قد كتب على أن أعيش هذا الصراع الذى يرجع فى جذره العميق إلى اوضاع

فى الدولة وفى العالم من حولنا ظلمتنا جميعا.

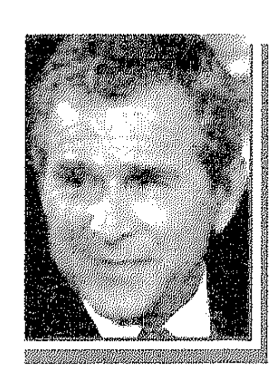
وفى عام ٧٩/٧٨ طلب إلى ان ألقى سلسلة من المحاضرات فى علم النفس العصبى على طلاب الدراسات العليا فى قسم الأمراض العصبية بكلية الطب . وكانت لى مطالعاتى من قبل فى هذا الفرع شديد التخصص، وكانت مطالعاتى هذه تمتعنى أشد الامتاع، فقد كنت من خلالها أشعر بأننى أنظر بالمجهر فى واحد من أعمق الجذور التى تمتد تحت الوظائف النفسية «كاللغة والذاكرة والانفعال»، وكان هذا الشعور يجلب لى معه نسمة من التاريخ الحديث للعلوم النفسية، وكانت النسمة تحمل معها ذكرى واحد من أكبر علماء النفس عاش فى منتصف القرن التاسع عشر، هو فخنر الذى صاغ القانون الأساسى المنظم للعلاقة الكمية بين تغيرات شدة الإحساس وتغيرات شدة المثير الفيزيقى لهذا الاحساس، وكان يحلم وهو يكتشف هذا القانون بأنه فى الطريق إلى إلقاء الضوء على طبيعة الصلة بين المادى والروحى فى حياتنا. كل هذا وأكثر كان يتداعى فى خاطرى وأنا أقرأ طلبا للمتعة فى مكتشفات علم النفس العصبى، ولكن أن تقرأ طلبا للمتعة شىء وأن تقرأ لإعداد محاضراتك شىء آخر. ومع ذلك فقد قبلت الدعوة التى وجهت إلى من قسم الأمراض العصبية بكل ما تضيفه من ثقل إلى أعبائى. وقبلت فى ذلك الوقت أن آخذ على عاتقى مهام كثيرة أخرى لا مجال لتفصيل القول فيها هنا، ولكنى آتى على ذكرها الآن لأنقل للقارىء جزءا من الصورة الحية لمعاناة من أراد أداء الدور الموكول إليه بأمانة كباحث ومعلم، ولم يلهه ذلك عن دوام شحذ الوعى بما يدور حوله فى العالم، راصدا ذلك كله من خلال مرصده القائم فى واحد من المجتمعات النامية.

★ ★ ★

هكذا جاءت بعض معالم السيرة؛ وأنا الآن أنظر إليها على خلفية مسيرة العالم ومصر من حولى، فأرصد نوعا من التناغم بين موجات الاختمارات والانفجارات فى العوالم الثلاثة. ولا أستطيع أن أصف هذا التناغم بأنه خير أو شر، ولكنى أجد الشجاعة فى نفسى لكى أصفه بأنه شديد الإرهاق ، وأتجرأ بعد ذلك فآمل فى مستقبل يقوم التناغم فيه على إيقاع أفضل. ■



أقوال معاصرة


چورج بوش


بنظير بوتو


د. عبد القادر القط


د. نصر فريد واصل

● «عندي أفكاري الخاصة، أفكار قوية إلا أنني لا أتفق معها دائما»

الرئيس الأمريكى جورج ووكر بوش

● «نجاح امرأة واحدة هو نجاح لكل النساء»

بنظير بوتو رئيس الوزراء الباكستانية السابقة

● «لاسببا منطقيا يجعلنا نتوقع أن يساعدنا الرئيس بوش إذا كنا لا نساعد أنفسنا ، ولا نستطيع ردعه»

الصحفى اللبنانى جهاد الخازن

● «الهدف الأول والأكثر أهمية لكل معارضة حقيقية هو استنهاض البشر لتمكينهم من استعادة طاقاتهم الخلاقة»

الشاعر السورى أدونيس

● «تقديس الوقت قيمة حضارية تكتسب من الاحترام المتأصل للآخرين»

الناقد والشاعر د. عبدالقادر القط

● «الدروس الخصوصية هى ايدز المجتمع»

د. حسين كامل بهاء الدين
وزير التربية والتعليم

● «التمرد متعتى!»

الأميرة مارجريت روز شقيقة ملكة بريطانيا

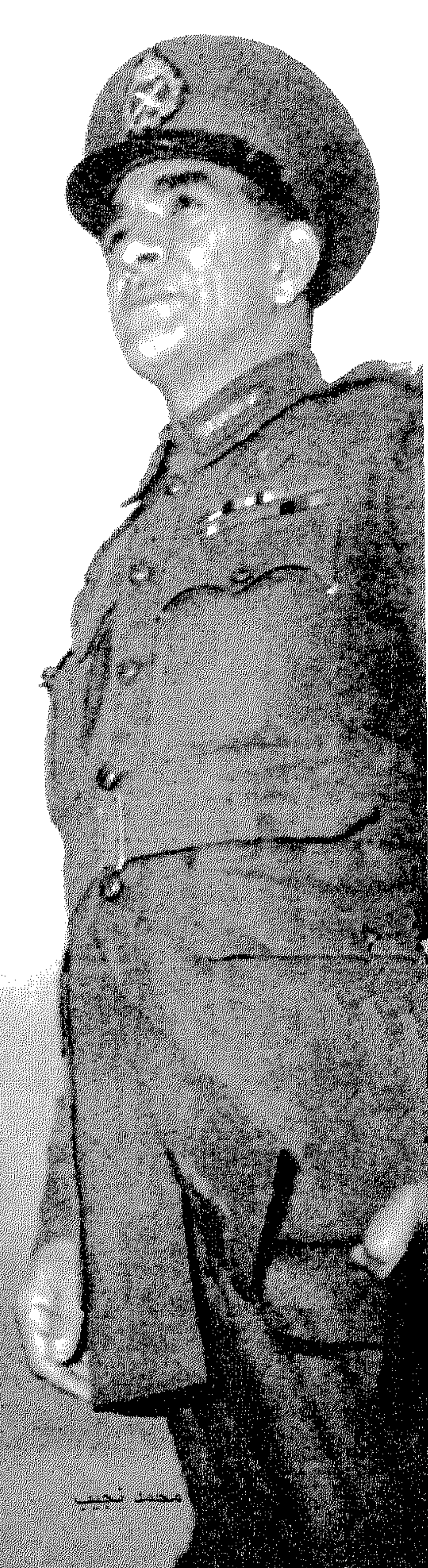
● «الأمم التى لا تتعظ بتجاربها، ولا تعتبر باخطائها كتب عليها أن تكرر ذات الاخطاء، بثمن أكثر فداحة»

الكاتب السودانى محمد إبراهيم الشوش

● «من الخطأ التسرع بالحكم على إنسان بالردة، ما لم يعلن ذلك صراحة»

د. نصر فريد واصل
مفتى الديار المصرية

أزمة مارس ١٩٥٤
هل هى أزمة الديمقراطية
أم ازمة الصراع على السلطة؟


محمد نجيب



الإخوان وثورة يوليو

بقلم
د. عاصم الدسوقى


حسن العشماوى


عبد المنعم عبد الرءوف   الشيخ حسن البنا

عندما أصدر مجلس قيادة الثورة بيانا في ٢٥ فبراير ١٩٥٤ بقبول استقالة اللواء محمد نجيب من جميع الوظائف التي يشغلها (رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة ومجلس قيادة الثورة) تأكد ما يتردد في الدوائر الخاصة من أن ثمة خلافاً قائماً بين نجيب وعبد الناصر منذ مطلع يناير ١٩٥٣ حول إدارة الأمور وخاصة بعد إلغاء الأحزاب السياسية، وهو خلاف بدأ صامتا دون مواجهة مباشرة وإن كان كل طرف يرقب الآخر ويرتب للأمر عدته حتي انفجر الموقف بقبول الاستقالة بعد ثلاثة أيام من تقديمها انقضت في التشاور بين الفرقاء حول كيفية التصرف وكيفية إعلانها للناس.

وبينما كان البيان الرسمى بقبول الاستقالة يؤكد أن سبب الخلاف يرجع إلي رغبة نجيب في الانفراد بالسلطة كانت أحاديث الصالونات التي انتقلت إلي الشارع تؤكد العكس وأن نجيب يطالب بترك الحكم لرجال السياسة وعودة الحياة النيابية، فأصبح نجيب رمزا للديموقراطية وناصر رمزا للدكتاتورية!!، وشاع بين جمهرة المثقفين أن أزمة مارس ١٩٥٤ هي أزمة الديموقراطية بدلا من أن تكون أزمة الصراع علي السلطة..

جمال عبد الناصر

أحد اجتماعات الإخوان المسلمين

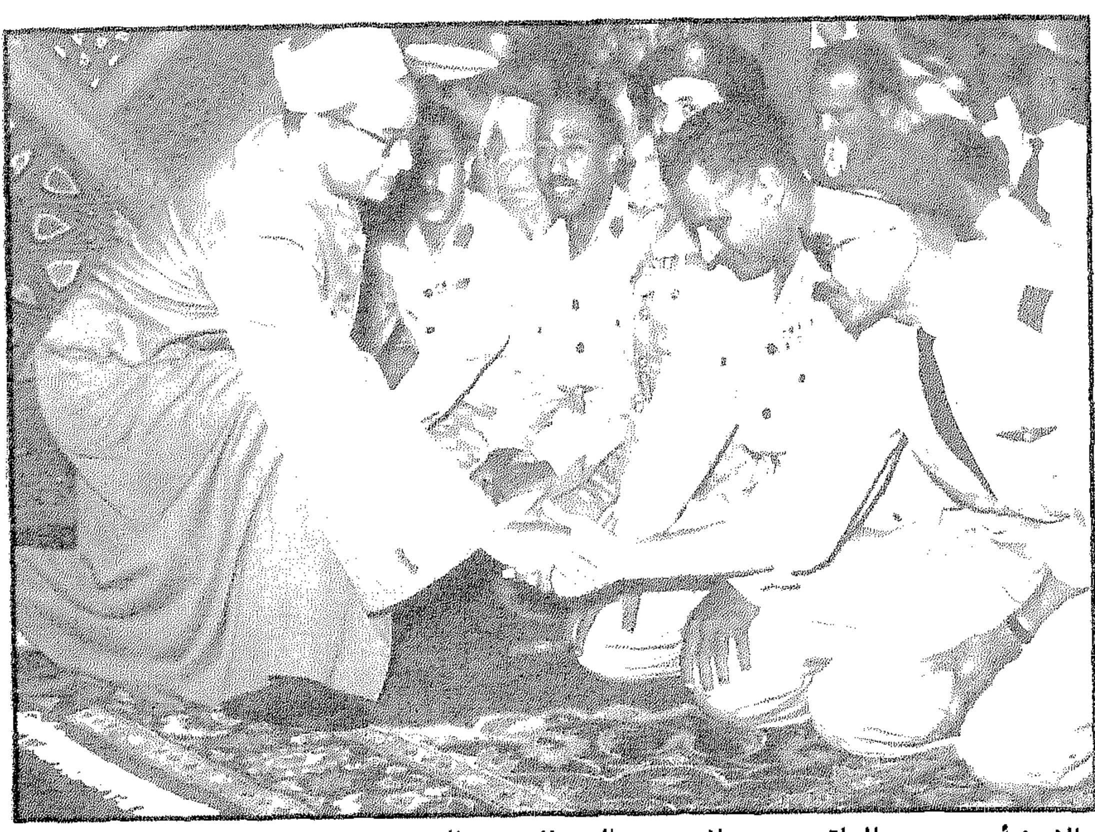
أما طرفا الأزمة الرئيسيين فإنهما محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنصار كل منهما، لكن الإخوان المسلمين كانوا قاسما مشتركا بينهما فكل من الطرفين أراد أن يستخدم الجماعة لصالحه في المعركة نظرا لما تمثله من قاعدة شعبية، والجماعة نفسها أرادت أن تلعب بهما حتى يصفى كل منهما الآخر ويخلص له الحكم. وعلى هذا فمن الممكن اكتشاف حقائق الموقف من خلال متابعة سيناريو علاقة الإخوان المسلمين بتنظيم الضباط الأحرار ثم موقفهم من الثورة بعد ٢٣ يوليو ووضع محمد نجيب في الأزمة...

كانت علاقة التنظيم بالإخوان أقوى من علاقته بالتجمعات السياسية الأخرى إذ كان عدد كبير من الضباط أعضاء في الجماعة أو ينتمون إلى فكرها على أقل تقدير. وعلى هذا قام جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين بابلاغ كل من حسن العشماوى وصالح أبو رقيق (عضوا مكتب الإرشاد) بموعد الثورة، ورغم هذه العلاقة الخاصة إلا أن عبد الناصر رفض أن يكون التنظيم تابعا للجماعة، ولهذا تم فصل عبد المنعم عبد الرءوف من التنظيم فى مطلع ١٩٥٢ لأنه كان يعمل على تجنيد ضباط الجيش للجماعة وليس للضباط الأحرار.

موقف الإخوان من الثورة

وفى صباح ٢٣ يوليو تم استدعاء حسن العشماوى الى مقر قيادة الثورة فى كوبرى القبة وطلب منه أن يصدر المرشد العام بيانا بتأييد الثورة لكن المرشد بقى بالاسكندرية فى مصيفه ولم





الشيخ أحمد حسن الباقورى يصافح جمال سالم وجمال عبد الناصر ويظهر السادات وعبد الحكيم عامر وعدد من اعضاء مجلس قيادة الثورة - ١٩٥٥

يحضر للقاهرة إلا بعد مغادرة الملك البلاد وأصدر بيانا مقتضبا طلب بعده أن يقابل أحد رجال الثورة فقابله عبد الناصر فى منزل صالح أبو رقيق. وفى اللقاء طلب المرشد تطبيق أحكام القرآن فقال ناصر أن الثورة قامت حربا على الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى وهى بذلك ليست إلا تطبيقا لتعاليم القرآن فانتقل المرشد الى مشروع الاصلاح الزراعى وكان مطروحا للمناقشة فى الصحف وقال أن رأيه أن يكون الحد الأقصى للملكية الزراعية ٥٠٠ فدان فرد عبد الناصر بأن مجلس قيادة الثورة مصمم على الـ ٢٠٠ فدان كحد أقصى. وهنا انتقل المرشد لنقطة أخرى يبدو أنها بيت القصيد من اللقاء إذ اشترط لتأييد الثورة أن يعرض الضباط على الجماعة أى قرار قبل أن يصدر، فما كان من عبد الناصر إلا أن قال : إن الثورة قامت دون وصاية ولا تقبل بحال أن توضع تحت وصاية أحد، فكان هذا اللقاء بداية تجمع السحب السوداء فى أفق العلاقة بين الطرفين.

ولما تقرر أن يؤلف محمد نجيب الوزارة فى ٧ سبتمر ١٩٥٢ بعد استقالة على ماهر لعدم موافقته على الإصلاح الزراعى تقرر رغم الموقف السابق إشراك الإخوان المسلمين فى الوزاة بثلاثة أعضاء. غير أن الجماعة اختلفت فيما بينها حول الترشيح وترددت بعض أسماء مثل أحمد حسنى وكيل وزارة العدل ومحمد كمال الديب محافظ الإسكندرية (ترشيح المرشد شخصيا)، ومنير الدله وحسن العشماوى (ترشيح مكتب

الارشاد). غير أن مجلس قيادة الثورة اختار الشيخ الباقورى فأقدم المرشد العام على فصله من الجماعة فازدادت النار تحت الرماد.

بدايات الصدام

ورغم هذا عندما ألغيت الأحزاب السياسية (١٧ يناير ١٩٥٣) تم استثناء جماعة الإخوان المسلمين ربما لأنها لم تكن حزبا سياسيا برلمانيا بالمعنى المصطلح عليه فى مصر منذ دستور ١٩٢٣، وربما أكتسابا لشعبيتهم. وفى اليوم التالى طلب صلاح شادى (ضابط شرطة إخوانى) ومنير الدله من جمال عبدالناصر إشراك الإخوان فى الوزارة أو تكوين لجنة إخوانية تعرض عليها القوانين قبل صدورها، وهو نفس العرض الذى سبق أن قدمه المرشد قبل ذلك، فرفض جمال مرة أخرى لذات السبب.

ولم تيئس الجماعة فنراها تتقدم لوزارة الداخلية بطلب لإعادة تكوينها حزبا سياسيا فرفض الطلب لأنه لا يستقيم مع إلغاء الأحزاب السياسية. فلما علم المرشد العام بنية الثورة نحو تكوين هيئة التحرير لملء الفراغ السياسى الناجم عن الأحزاب نراه يحاول إثناء جمال عبد الناصر عن هذه الخطوة قائلا : إن الجماعة كفيلة بملء الفراغ، فرد جمال بأن فى البلاد من لا يرغب فى الانضمام للجماعة وهى إشارة غير مباشرة الى المسيحيين المصريين، فيبدأ المرشد فى محاربة التنظيم السياسى الجديد بل وفى التحرك ضد الثورة حتى ولو كان هذا على حساب المصالح الاستراتيجية الكبرى للبلاد.

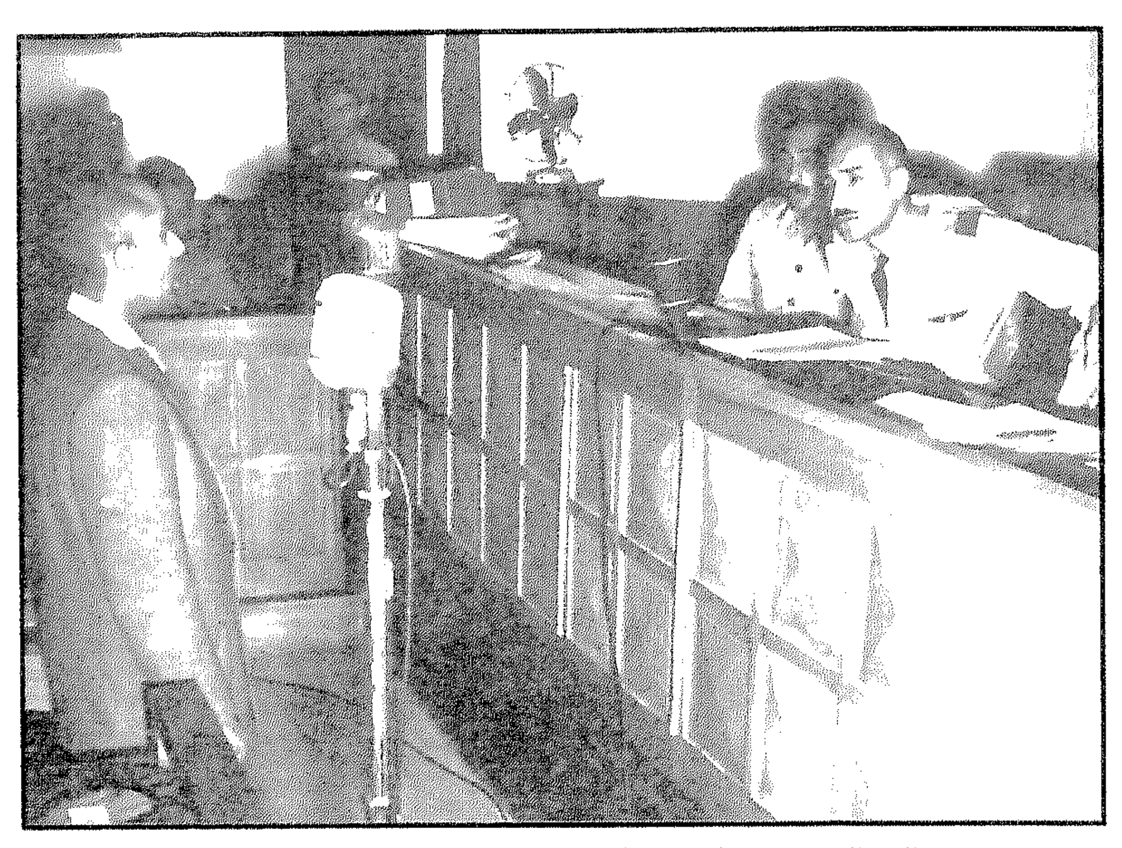
وكانت حكومة الثورة قد شرعت فى التفاوض مع الانجليز لتحقيق الجلاء، ورأت الادارة البريطانية الاتصال بالجماعة لعجم عود الثور فى المفاوضات، وتم الاتصال بوساطة محمد سالم الموظف بشركة النقل والهندسة وفى منزله بحضور منير الدله وصالح أبو رقيق والمستشار الشرقى للسفارة (ايفانز) وتكرر الاتصال يوم ١٠ يناير ١٩٥٤ فى منزل الوزير المفوض بالسفارة (كريزويل) وفى هذه المرة بحضور حسن العشماوى وشقيق حرم منير الدله. وفيما بعد قال انتونى إيدن «إن حسن الهضيبى كان حريصا على حسن العلاقات معنا».

وفى أوائل يونيه ١٩٥٣ بدأ الإخوان خطة تشكيل تنظيم سرى إخوانى بين ضباط الجيش والبوليس فاتصل عبد الناصر بالمرشد العام معاتبا لعله يدرك أن نشاطه تحت المراقبة لكن المرشد لم يتراجع.

بين عبد الناصر ونجيب

وفى ذلك المنعطف من مأزق العلاقة بين الإخوان وعبد الناصر أواخر ١٩٥٣ كان محمد نجيب يدخل هو الأخر فى مأزق علاقته مع عبد الناصر بعد تراكم مجموعة مواقف فالتقى الطرفان فى العداء لعبد الناصر وإن اختلفت الأسباب...

والحاصل أنه فى اليوم التالى لتنازل الملك فاروق عن العرش ومغادرته البلاد (٢٧ يولية) قدم عبد الناصر استقالته من رئاسة اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار على أساس أن التنظيم انتهى دوره بالاستيلاء على السلطة، لكن أعيد انتخابه رئيسا وعرفت اللجنة منذ ذلك الحين بمجلس قيادة الثورة. فلما انضم محمد



جمال سالم يستجوب ابراهيم الطيب فى قضية الاخوان المسلمين - ١٩٥٤

نجيب إلى المجلس يوم ٢٥ أغسطس تنازل عبد الناصر عن رئاسته باعتباره القائد الذى أعلنت الثورة باسمه للجماهير. وعندما أصبح رئيسا للوزارة (٧ سبتمبر) احتفظ لنفسه بوزارة الحربية وبالقيادة العامة للقوات المسلحة فضلا عن رئاسة مجلس قيادة الثورة. ورغم هذا كان يشعر بأنه لايسيطر على الموقف وأن مقاليد الأمور فى النهاية فى يد عبد الناصر الذى يحرك مجلس القيادة، ومن ثم طلب أن يكون له حق الاعتراض على أى قرار يجمع عليه المجلس فلم يتمكن لأن لائحة المجلس تقضى أخذ القرار بالأغلبية.. أى أنه كان يطلب سلطة فردية مطلقة تتجاوز المجلس الذى لم ينضم إليه إلا متأخرا!!. وللخلاص من هذا المأزق أوحى له المقربون وقد أصبح رئيسا للجمهورية (٢٨ يونية ١٩٥٣) أن يتصل بالإخوان المسلمين للتخلص من ناصر. وكان وسيطه فى هذا الاتصال قائد حرسه الخاص اليوزباشى محمد رياض الذى قابل حسن العشماوى ومنير الدله عدة مرات فى ديسمبر ١٩٥٣.

والحال كذلك لابد وأن يشعر الإخوان بأهميتهم.. فعبد الناصر حريص على خطب ودهم، والانجليز يتصلون بهم، وها هو محمد نجيب يتصل بهم أيضا، ومن ثم لخص الإخوان طلباتهم للوسيط (محمد رياض) وتتمثل فى تشكيل وزارة يرضى عنها الإخوان وعدم عودة الأحزاب السياسية. لكن نجيب لم يكن يملك القوة التى تمكنه من تنفيذ هذه الشروط حتى ولو كانت على هواه.

واستمر الصراع قائما وانقضى عام

١٩٥٣ وفى ١٢ يناير ١٩٥٤ احتفل طلاب جامعتى القاهرة والاسكندرية بذكرى شهداء الحركة الفدائية فى مدن قناة السويس فانتهز الإخوان الفرصة وأحضروا معهم زعيم حركة فدائيان اسلام الايرانية (نواب صفوى) وسيطروا على الميكروفون واشتبكوا مع الطلاب بالكرابيج والعصى فتقرر حل الجماعة بعد ذلك بيومين (١٤ يناير). وهنا لجأ الإخوان الى محمد نجيب لالغاء القرار فلم يستطع شيئا بل لقد اضطر للتوقيع على قرار الحل باعتباره رئيسا للجمهورية. وبادر جمال عبد الناصر فى خطوة محسوبة بزيارة قبر حسن البنا ومعه صلاح سالم والشيخ الباقورى بمناسبة الذكرى الخامسة لاستشهاد البنا (١٢ فبراير ١٩٥٤).

الصراع يتنامى

بعد حل جماعة الإخوان المسلمين تدهورت العلاقة بين نجيب وناصر بشكل حاد وأراد نجيب أن يستخدم سلطاته الرئاسية لحسم الصراع فلم ينجح نظرا لتكتل الغالبية العظمى من مجلس قيادة الثورة وراء ناصر ربما لأن الجميع يعلمون أن ناصر هو قائد الثورة وليس محمد نجيب. أخذ نجيب يقلل من حضوره لمكتبه ومن لقاءاته المباشرة مع ناصر ويعتكف بمنزله أياما متتالية. وفكر عبد الناصر كما يقول انتونى ناتنج فى أن يقدم المجلس استقالة جماعية بهدف إحراج محمد نجيب لكن اقتراحه لم يلق قبولا لأن المجلس لا يتمتع بالشعبية التى تمكنه من القيام بمغامرة من هذا النوع. والحاصل أن نجيب هو الذى قدم استقالته فى ٢٢ فبراير ربما ليحرج المجلس لكن الاستقالة قبلت فى ٢٥ فبراير وتولى ناصر رئاسة الوزارة وظل منصب رئاسة الجمهورية شاغرا. وتجمع مختلف الروايات على أن خالد محيى الدين اعترض على قبول الاستقالة لأنه كان يرى فى تمسك نجيب بعودة الحياة الحزبية فرصة لليسار المنتمى. وقد اعترض معه جمال سالم فى رواية ناتنج، وعبد اللطيف البغدادى فى رواية أحمد حمروش.

على كل حال فبين إعلان قبول الاستقالة (٢٥ فبراير) وإعلان عودة نجيب فى مساء ٢٧ فبراير كان الصراع على أشده بين فصائل الثوار، وتفنن كل منهما فى اصطناع أساليب المواجهة والمناورة، وعاش الجميع بأعصاب مشدودة طوال ثلاثة أيام ليل نهار..

جاء أقوى رد فعل لاستقالة نجيب من سلاح الفرسان حيث خالد محيى الدين القريب من نجيب ورغم أن اليوم التالى للاستقالة كان يوم جمعة (٢٦ فبراير) إلا أن إجتماعا تم فى سلاح الفرسان بناء على دعوة لا تفصح المراجع عن صاحبها. ولم يحضر الاجتماع خالد محيى الدين وحضره حسين الشافعى فطالبه الضباط بعودة نجيب وإقرار الديموقراطية وتحديد موعد لعودة الجيش للثكنات، وهى نفس مطالب نجيب - خالد. ثم حضر عبد الناصر جزء من المناقشات التى طالت التصرفات الشخصية لبعض الضباط فطلب من المجتمعين الانتظار حتى يعرض الأمر على مجلس قيادة الثورة.

وفى مبنى القيادة حضر خالد محيى الدين بعد خروجه من حفلة سواريه بالسينما وهذا وحده يفسر موقفه من البداية حيث لم يحضر الاجتماع وذهب



محمود عبد اللطيف المتهم بإطلاق الرصاص علي عبد الناصرفى حادث المنشية بالاسكندرية

الى السينما فى المساء حتى لا تنصرف اليه الشبهات. واقترح ناصر الذى أدرك مرامي محور(نجيب - خالد) أن يتولى خالد محيى الدين رئاسة الوزارة وأن يعمل بسرعة على عودة الحياة الدستورية. لكن خالد اعترض ليس على المبدأ وإنما لأنه بهذا سيكون وحيدا فى الساحة، فأقنعه المجلس بأن عبد الحكيم عامر سوف يكون معه لبعض الوقت، فوافق خالد، وحذره كمال الدين حسين من العمل على تحويل البلد الى الشيوعية.

وعلى هذا عاد جمال مصطحبا خالد الى سلاح الفرسان وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا من فجر يوم السبت ١٧ فبراير وأعلن لهم أن الموافقة تمت على حل مجلس القيادة وعلى عودة نجيب رئيسا للجمهورية، وعلى تكليف خالد بتشكيل حكومة انتقالية لمدة ستة أشهر تجرى انتخابات لجمعية تأسيسية لوضع دستور دائم، وعودة أعضاء مجلس قيادة الثورة الى الثكنات.. وهنا ضجت القاعة بالتصفيق وتوجه خالد مغتبطا الى نجيب لابلاغه بالقرار فرحب ترحيبا شديدا.

ولكن لما عاد خالد لمبنى القيادة بعد إبلاغ نجيب وجد أن معالم الصورة تتغير فقد لعب الآخرون دورهم فنجد أن ضباط الصف الثانى المحيطين بمبنى مجلس القيادة يرفضون الاستجابة لقرارات العودة الى الثكنات وحاولوا ضرب خالد محيى الدين، وحالوا دون تسليم بيان القرارات الجديدة الى مندوب الاذاعة الذى كان قد حضر الساعة السابعة والنصف صباحاً. كما رفض ضباط المدفعية القرارات وحركوا

المدفعية المضادة للدبابات وحاصروا سلاح الفرسان، وأخرج سلاح الطيران بتوجيه على صبرى ووجيه أباظة طائرات حلقت فوق سلاح الفرسان، وطالب آخرون باعتقال خالد ومحاكمته، وقام كمال رفعت باعتقال محمد نجيب ووضعه فى ميس المدفعية بألماظة فغضب عبد الحكيم عامر وأعاده الى منزله، وتم اعتقال ضباط الفرسان أنصار نجيب وتقررت محاكمتهم.

وهكذا أصبح الموقف ينذر بمعارك طاحنة بين الفصائل العسكرية: الفرسان مع نجيب فيما عدا حسين الشافعى، والمدفعية والمشاة والطيران مع ناصر، وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم السبت (٢٧ فبراير) كان الإرهاق قد استبد بالجميع فرأوا رفع الجلسة للراحة أربع ساعات وانصرف الجميع الى منازلهم وبقى عبد الناصر مفوضا بالتصرف إذا ساء ت الأمور لحين عودتهم وفى تلك الأثناء انطلقت مظاهرات فى الشوارع تهتف: لا ثورة بلا نجيب.. الى السجن يا جمال.. الى السجن يا صلاح. وشهد صلاح سالم المتظاهرين أثناء عودته إلى مبنى القيادة قبل انتهاء وقت الراحة وأخبر عبد الناصر الذي تصرف بسرعة بمقتضى التفويض وقرر عودة نجيب لامتصاص الغضب وتفويت الفرصة على مخطط تصفية الثورة والإطاحة برجالها. وفوجيء أعضاء المجلس وهم فى منازلهم للراحة بإذاعة نبأ عودة نجيب فى الساعة السادسة.

ولم تكن عودة نجيب نهاية للتوتر بل كانت بداية لجولة أخرى من الصراع والضرب تحت الحزام بين الطرفين. ففى

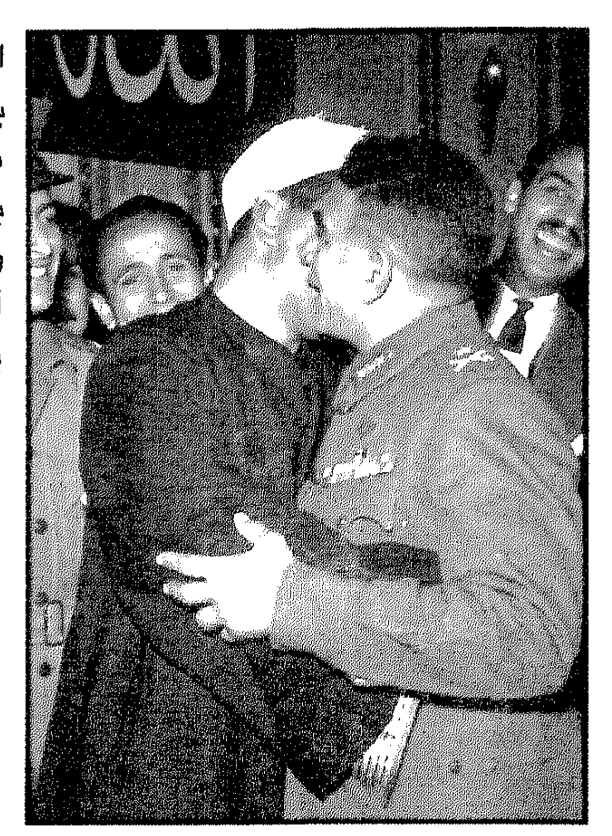


سيد قطب أثناء نقله للمحاكمة

اليوم التالى لعودته (٢٨ فبراير) تدفقت المظاهرات الى قصر عابدين من جامعة القاهرة تردد هتافات عدائية ضد الثورة تزعمها الإخوان المسلمون واصطدمت بالبوليس وخرج نجيب الى الشرفة واستدعى عبد القادر عودة من زعماء الإخوان الى الشرفة بجواره لتهدئة المتظاهرين.

وفى أول مارس ذهب نجيب الى السودان للمشاركة فى افتتاح البرلمان السودانى فأسرع ناصر باعتباره رئيساً للوزارة باعتقال الذين اشتركوا فى مظاهرات عابدين (بلغ عددهم ١١٨) أغلبهم من الإخوان يليهم جماعة أحمد حسين (الحزب الاشتراكى) ثم الوفد والشيوعيين.

وعندما عاد نجيب من السودان غضب


عناق بين الباقورى و محمد نجيب

من قيام ناصر بحملة الاعتقالات وطلب أن يتولى رئاسة الوزارة مرة أخرى فاضطر ناصر للموافقة وعاد نائبا لرئيس الوزراء.

وتسارعت الحوادث.. وأخذ نجيب يطالب بتطبيق الشروط التي قبل العودة على أساسها (وهى مطالب سلاح الفرسان كما سبقت الإشارة). وهكذا وفى يوم ٥ مارس صدرت القرارات الشهيرة: انتخاب لجنة لوضع الدستور وبموجبه يعاد تشكيل الأحزاب ويكون لمجلس قيادة الثورة سلطة سيادية. ووافق نجيب على هذه القرارات بعد مقابلة خالد محيى الدين له لمدة ثلاث دقائق.

وبعد إعلان القرارات انفتح باب الهجوم على الضباط الأحرار وخاصة بعد إلغاء الرقابة على الصحف فى ٦ مارس مرددة كلام نجيب وكان قد خطب فى نادى الضباط فى ٤ مارس مطالبا العسكريين بترك السياسة للمدنيين. وطالب الوفد بعودة الحياة النيابية، وعلى ماهر يصرح بأنه ينبغى أن تنضم مصر للغرب، ومحمد صلاح الدين الذى كان قد قبل أن يكون سكرتيرا عاما لهيئة التحرير يتصل بابراهيم الطحاوى (هيئة التحرير) ويقترح عليه انضمام رجال الثورة الى الوفد وأن يكون ناصر سكرتيرا عاما للوفد، ويوسف صديق وكان قد هرب من تحديد اقامته ببنى سويف تنشر له جريدة المصرى رسالة يقترح فيها تشكيل وزارة إئتلافية من الوفد والإخوان والاشتراكيين والشيوعيين برئاسة وحيد رأفت، والهضيبى يقيم دعوى أمام مجلس الدولة على وزارة الداخلية لالغاء قرار حل الجماعة.

وتصرف عبدالناصر بسرعة، فكان وراء انفجار أربع قنابل فى أنحاء متفرقة من القاهرة (١٩ مارس) وفق رواية البغدادى حتى يضطرب الموقف من جديد ولايشعر الناس بالأمان مع تنفيذ قرارات ٥ مارس، وهذه الظروف التى اجتمع فيها مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس وتقرر فيه : حل مجلس قيادة الثورة بعد فترة انتقال أربعة أشهر (أى يوم ٢٤ يوليه ١٩٥٤)، وعودة الأحزاب السياسية، وألا يشكل الضباط حزبا سياسيا، وأن تنتخب جمعية تأسيسية يكون لها سلطة المجلس النيابى تقوم بانتخاب رئيس الجمهورية، وكان البغدادى قد اقترح فى اجتماع ٢٥ مارس إلغاء قرارات ٥ مارس لكن خالد محيى الدين تمسك بها واقترح – من

باب مراوغة ناصر - تشكيل جديد لنظام ديمقراطى يحرم بمقتضاه من حق الترشيح للجمعية التأسيسية للنواب الذين أيدوا من قبل القوانين المقيدة للحريات، والذين رفضوا دفع ضريبة الأطيان، ورؤساء الأحزاب ، وكذا الخاضعين للإصلاح الزارعي. لكن عبد الناصر لم ينخدع باقتراح خالد وأدار المناقشة حول أحد اختيارين: إما إلغاء قرارات ٥ مارس، وإما رفع كافة القيود عن عودة الأحزاب والإفراج عن كل المعتقلين، وبعد مناقشات دامت خمس ساعات صدرت القرارات.

كان أول المفرج عنهم حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان الذى زار عبدالناصر فى نفس اليوم (٢٥ مارس) حيث أبدى انزعاجه من قرارات ٢٥ مارس بعودة الأحزاب فيصدر بيانا فى ٢٧ مارس يعلن أن الجماعة لن تطالب بتأليف حزب سياسى ولكن فيما يتعلق بعودة الأحزاب «فإن أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى فإننا لن نسكت على هذا». ويتحرك عبدالناصر بسرعة فيقوم بإبعاد الضباط الذين أظهروا تعاطفا مع الأحزاب، ويفرج عن الضباط الأحرار الذين سبق اعتقالهم ويزور حسن الهضيبى ويتفق معه على عودة الجماعة لنشاطها، ثم يحدث إضراب عمال النقل فى ٢٧ مارس تأييدا للثورة، وكان هذا الإضراب أصلا من تنظيم محمد نجيب - خالد بمساعدة يوسف صديق الذى استدعى قريبه صاوى أحمد صاوى رئيس اتحاد عمال النقل المشترك ومحمدى عبدالقادر سكرتير الاتحاد حيث تم الاتفاق فى منزل نجيب مقابل مبلغ من المال على أن يقود صاوى الإضراب والاعتصام لاجبار الضباط على العودة إلى الثكنات دون انتظار ليوم ٢٤ يوليه ١٩٥٤ المحدد طبقا لقرارات ٢٥ مارس. غير أن صاوى ومحمدى غادرا منزل نجيب الى هيئة التحرير مباشرة وقابلا ابراهيم الطحاوى وأحمد طعيمة (مسئول العمال فى الهيئة) وأبلغاهما بمضمون لقائهما مع نجيب، وتم الاتفاق على القيام بالاضراب مقابل مبلغ من المال أيضا مع تحويل الهتاف المتفق عليه مع نجيب الى المطالبة ببقاء مجلس الثورة وليس عودة الضباط الى الثكنات وقد كان.

وفى نفس يوم الإضراب اجتمع ضباط الجيش من جميع الأسلحة فى ثكناتهم للتداول فى الموقف وانتهوا إلى أن الثورة مهددة إذا نفذت قرارات مارس فقرروا الاعتصام، وفى يوم ٢٩ مارس وبعد ثلاثة

خالد محيى الدين



يوسف صديق



حسن الهضيبى

أيام من الاضراب تقرر إرجاء تنفيذ قرارات مارس حتى نهاية فترة الانتقال المقررة سلفا (يناير ١٩٥٦) وتشكيل مجلس وطني يراعي فيه التمثيل النسبى لفئات الشعب وطوائفه وانتهى الاضراب يوم ٣٠ مارس.

حسم الصراع

وخرج عبدالناصر من الأزمة منتصرا إذ عاد رئيسا للوزراء وأخذ يتابع الأمور حتى تستقر نهائيا فى يده ولاتقوم لعناصر الثورة المضادة قومة أخرى فنراه يقوم باعتقال مجموعة من الضباط بقيادة أحمد المصرى كانت تسعى لإحداث فتنة داخل الجيش، ويقدم المسئولين عن الفساد السياسى في العهد الملكى للمحاكمة (٥ أبريل) ويقرر حرمان الوزراء الذين تولوا وزارات من ٦ فبراير ١٩٤٢ - ٢٣ يولية ١٩٥٢ من مباشرة الحقوق السياسية، ويحل مجلس نقابة الصحفيين (٥ أبريل)، وفى سبتمبر ١٩٥٤ يحاكم اليوزباشى مصطفى كمال صدقى رجل الحرس الحديدى الملكى السابق لمؤامرته لقلب نظام الحكم، ثم يطلق الرصاص على جمال عبدالناصر فى ميدان المنشية (٢٦ يناير) فتكون فرصته للتخلص من الإخوان المسلمين وتنتهى مرحلة توظيفهم بين المتصارعين.

وكانت هذه الإجراءات كفيلة بتجميد نشاط محمد نجيب إذ أصبح وحيدا دون معاونين وبعد توقيع اتفاقية الجلاء (١٩ أكتوبر) لم يعد هناك مايدعو للإبقاء على محمد نجيب فتقرر إعفائه من جميع مناصبه فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ وتحديد إقامته وخلصت الثورة لأصحابها الحقيقيين بعد شهور من المرارة والعنت.



أحمد حسين

وبعد كل هذا .. هل كان على ثوار يوليو أن يعودوا الى الثكنات العسكرية وأن يضعوا رقابهم فى حبل المشنقة بعد أن نجحوا فيما عجزت عن تحقيقه كافة القوى السياسية فى مصر منذ ثورة عرابى ١٨٨١؟.

وهل أخطأ عبدالناصر عندما فكر فى تقديم رتبة عسكرية كبيرة واجهة للضباط الأحرار (محمد نجيب) لتصبح محورا تلتف حوله القوى السياسية القديمة لضرب الثورة التى صنعته هو...؟؟

وهل أخطأ عبدالناصر فى مغازلة الشارع الإسلامى باستثناء الإخوان المسلمين من قرار حل الأحزاب فشعروا بتميزهم وبدأوا فى فرض شروطهم لتأييد الحكم وإلا..

وما هى الثورة التى قامت فى أى بلد فى العالم وقبلت فى شهورها الأولى المشاركة السياسية من عناصر قامت ضدها حتى تقيم هذه العناصر ومن لف لفهم فى مارس من كل عام مأتما لموت الديمقراطية!!. ■



في دار السلام

بقلم
د. محمد رجب البيومي

من حق هذا الكتاب أن يتكرر طبعه عدة مرات، لتقرأه الأجيال المتتابعة متمتعة بسهولة سرده، وروعة خياله، وجمال حقائقه . وكانت وزارة المعارف المصرية قد طبعته عدة طبعات منذ ستين عاما ووزعته على طلاب المدارس الثانوية فأثمر غايته فى ارتشاف أحداث التاريخ من كؤوس عذبة سائغة، وأذكر أنى قرأته فى مطلع الدراسة بالقسم الثانوى فجذبنى إلى قراءة التاريخ ، ووضع فى نفسى بذرة التطلع إلى معرفة الحضارة الإسلامية فى عهدها الزاهر، ومؤلفه شاب لبنانى هو جميل نخلة المدور لم يقدر له أن ينعم بالحياة طويلا، ولكنه جاء مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وعاصر ظهور مجلة المقتطف فأخذ ينشر فيها بحوثا تاريخية عن العراق فى القديم الغابر قبل الإسلام ثم عن بغداد فى عهدها الزاهر أيام المنصور فالمهدى فالرشيد، وكان النهج الروائى الذى سلكه فى تدبيج تاريخ هذه الحضارة مدعاة انجذاب للقراء فتتبعوا ما بدأ المؤلف بنشره فى المقتطف.



ثم ظهرت طبعته الأولى سنة ١٨٨٩ فصادفت احتفال الصفوة من الكتاب ، ورأى فى بعض حقائقها أحد الفضلاء ما يستدعى النقد فنشر مقالا ضافيا عن الكتاب فى جريدة المؤيد ، بدأه بالثناء على الكاتب الشاب، وحسن تأليفه وسعة اطلاعه ثم عقب بما رآه من مسائل النقد ، فاهتم المؤلف بما قال ناقده . وعمل فى الطبعة الثانية على تصحيح الأخطاء غير المقصودة ، وقال فى مقدمة هذه الطبعة :

«وقد بدا لبعض أفاضل المسلمين ضعف فى بعض الروايات التي كنت عولت عليها، وتحريف في ذكر بعض الوقائع الإسلامية يرجع عهده إلى السند الذى أخذت عنه . فلزم أن أرجع إلى صفحات الكتاب بشئ من التهذيب والتنقيح وتبديل الروايات الضعيفة بما هو أصح وأثبت عند أئمة النقد ، وإنى أشكر إدارة جريدة المؤيد التى ساعدتنى فى مراجعاتي لما ورد فى هذه الرسائل . فكان من وراء ذلك تهذيب تكفل بزيادة قبول الكتاب عند خاصة المسلمين وعامتهم ، فجاء والحمد لله بعد هذا كله عمدة العالم والمتعلم والمراجع . وصح أن يؤخذ للدرس كما يقتنى لتنزيه النفس» .

بغداد فى مرآة رحالة

والكتاب طريف جدا فى اتجاهه لم يسبقه أحد فى منحاه ممن ألفوا باللغة العربية ، حيث تخيل المؤلف رحالة فارسيا قدم من موطنه إلى بغداد فى عهد المنصور ثم عاصر بغداد فى عهدها الزاهر مشاهدا أعمال المهدى والهادى والرشيد ، وما جد من تطور حضارى وعلمى في العمران والأدب والفن والازدهار السياسى والاجتماعي ، وصاغ ذلك فى رسائل عشرا فحسب ، ففى الرسالة الأولى تحدث عن سبب قدومه للعراق . وسروره بمشاهدة بغداد ، ومجالسة علمائها مع إلمام شاف بعرب البادية ، ونتف من أخبارهم ، وذكر للبصرة التى زارها ووصفها كما رآها ، وفى الرسالتين الثانية والثالثة ورد حديث عن لقائه أمير المؤمنين فى بعض المساجد ونزوله ضيفا على قاضى الشريعة أبى يوسف مع ذكر ما شاهده من محاسن الزوراء (بغداد) وبلوغ أهلها من السعة ما لم تبلغه أمة من قبل، وإلمامه بشذور وافية عن المنصور وأبى مسلم مع حديث عن الفتوح الإسلامية التى قامت على العدل المطلق تنفيذا لشريعة الإسلام حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وقد اتسع القول للقاء ولى العهد المهدى ، وتأديب ولديه موسى وهارون على أيدى كبار العلماء فى الدولة، وركوب الخليفة إلى الحج ومن صحب موكبه من الشعراء والأمراء ، أما الرسالة الرابعة فشملت تولية المهدى بعد وفاة أبيه مع إفاضة فى وصف شمائله ، ومناصرته

للعلم . ومجالسه الحافلة بالأدب والشعر وولوعه بالصيد وسياسته مع أهل البيت وفتنة المقنع الخراساني .. وتوالت الرسائل على هذا النمط ، فتحدثت الرسالة الخامسة عن البرامكة بإفاضة . وعن ترف البغداديين واستمتاعهم بطيبات العيش ، ولقاء هارون الرشيد وكيف ازدانت دولته بالعلم والأدب والغناء ، كما أشارت الرسالة السادسة إلى بيت الرشيد وترفه وتعلقه بالمأمون ، وجمال البرامكة فى الكرم والعفو ، وعمران بيت المال . وطرف حلوة عن مجالس الغناء، أما الرسالة السابعة فخاصة بآداب العرب وعلومهم وفنونهم وما ازدهر فى فروع الطب والتنجيم واللغة والنحو ، مع موازنة رائعة بين الشعر فى البداوة والحضارة . وأدب السير والحكايات ، وتختلف الرسالة الثامنة عما قبلها فى مناخها الجغرافى حيث تهيأ الرحالة إلى زيارة قيصر ببلاد الروم رسولا للرشيد ، فمر بالكوفة وبلاد الشام. ووصف دمشق فأحسن الوصف ومر ببعلبك وبيروت حتى مثل بين يدى القيصر ففسح المجال لحديث عن عاصمته وحضارتها ، ورجع من طريق آخر فى الرسالة التاسعة ليذكر أحوال تونس والاسكندرية والأهرام وعيذاب ثم يشخص إلى مكة حاجا ليصف ما بها من المشاعر. وختمت الرسالة العاشرة بالحديث عن مأساة البرامكة. والرحالة الفارسى ذو هوى شديد بهم فأكثر من التفجع عليهم وذكر محاسنهم ! وحديثه عن نكبتهم الفاجعة من أحر فصول الكتاب وأشجاها وأعلقها بالفؤاد .

مبتكر جذاب

وهذه المعانى جميعها وردت فى سياق ممتع جذاب ، لأنها مذكرات رحالة معاصر يصف ما شاهد بأسلوب قصصي رائق ، وإذا استطرد من قول إلى قول بسط من التمهيد ما يجعل القارئ غير ملتفت إلى اختلاف الموضوع ، وهذا النسق القصصى فى التاريخ نهج يخالف الرواية التاريخية الإسلامية التى ابتدعها جرجى زيدان فيما بعد ! لأن صاحب الهلال يأتى بقصة ذات أشخاص خيالية وواقعية معا ، ليهيئ الحدث التاريخى فى صورة زاهية تشمله محاطا ببعض ما لا يمت إليه حقيقة حتى تتم الحبكة القصصية، وهو منحى ابتدعه ولتر سكوت الانجليزى وتابعه اسكندر دوماس الذى جعل حقائق التاريخ أساطير خيالية وقال فى صراحة مالى وللتاريخ ! أنا أتخذ منه مشجبا لأعلق عليه أفكارى ! وهذا القول الذى ينفى الصلة بالتاريخ الحقيقى يباعد بينه وبين الواقع ، ولا أقول إن جرجى زيدان قد أساء إلى التاريخ كما يحاول بعض المتشددين أن يقرر ذلك ، بل أقول إن الكاتب الكبير مؤلف مجتهد ، وما نسب إليه من الأخطاء نجد نظيره فى قصص تاريخية كتبها مسلمون متشددون، ولم نتهمهم بسوء القصد ، وما أذكره الآن من بعد جميل نخلة المدور صاحب حضارة الإسلام وتجافيه عن المنحى القصصى الذى ابتدعه ولترسكوت ومن تلاه يجعل كتابه مصدرا تاريخيا مأمونا لأنه ألحق كل نص بمصدره القديم ، وهى قدرة



فائقة تتطلب صبرا لا حد له ، حيث تجد فى الصفحة الواحدة أكثر من عشرة مصادر، وقد تجد أحيانا فى السطر الواحد مرجعين ، وصياغة هذه النقول فى مشاهد يذكرها رحالة متخيل تدل على اقتدار فائق، والرجل ليس بمسبوق باتجاهه فى الأدب العربى ، وإن كان مسبوقا ببعض مؤلفى الغرب ، محتذيا نهجهم فيما ابتدع، إذ من المعروف أن المسيو برتلمى أحد أدباء فرنسا فى القرن الثامن عشر قد ألف رحلة خيالية تاريخية ، جعل فيها من يسمى (أناكرسيس) يرحل إلى اليونان قبل وفاة الاسكندر الأكبر المقدونى ليصف ما يراه من عوائدهم وتقاليدهم وعلومهم ، وهو فى ذلك تابع للكاتب الفرنسى (فنيلون) حين نحا هذا المنحى المبتكر ، فى إرسال وافد إلى التاريخ القديم كي يروى ما ادعى أنه شاهده مشاهدة العيان ، وذلك فى روايته الشهيرة (تليماك) وكان ذلك فى القرن السابع عشر ! وقد كان المؤلف جميل المدور يتقن الفرنسية . فمن الطبيعى أن يقرأ ما كتب بها ويتأثر به ، ثم يكون السابق فى مجال التأليف العربى الذى ينحو هذا المنحى المفيد ، وقد قال عن كتابه (هذه رسائل وصفت فيها عصرا من عصور الإسلام قد أشرق به نور العلم، وجرت فيه أعمال عظيمة قام بها رجال كبراء ملأوا العالم بآثار جمالهم ، وجعلت الكلام فيها لرحالة فارسى طوفته معظم البلدان الإسلامية فى المائة الثانية للهجرة، وطوقته مناصب الدولة برعاية البرامكة إلى أن نكبهم الرشيد) .

شخصيات بغدادية

وقارئ هذه الرحلة يلم بكثير من أخبار المشهورين والمغمورين أيضا من الحكام والشعراء والندماء والعلماء والمطربين والمطربات ، بحيث يستطيع أن يجمع ما كتب عن المهدى أو الرشيد أو جعفر البرمكى أو حاشية هؤلاء من الشعراء والندماء ليؤلف عن كل واحد منهم فصلا بديعا ، ولى أن اختار شخصية تحدث عنها الرحالة فى أكثر من موضع لتكون مثالا تطبيقيا لما أريد ، هذه الشخصية هى شخصية القاضى أبى يوسف ، إذ جلا المؤلف كثيرا من مواقفه فى فصول متتابعة . يقرؤها الدارس فيعرف الكثير عنه تاريخيا ويرى من أخباره ما قد تتعذر عليه قراءته فى مرجع قديم! وقد أحسن افتتاح الكتاب بذكره حين قال فى مطلع كتابه «أتيت مدينة السلام فى السنة السادسة والخمسين بعد المائة من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأتخرج فى الفقه على لسان الشريعة يعقوب بن ابراهيم بن خنيس الانصارى وكان خليلا لأبى رحمه الله ، على صفاء بينهما لم يكن بين إثنين» . وفى الرسالة نفسها بعد أربع وعشرين صفحة قال عن الرجل :

«فلما كان الصباح بكرت إلى أستاذى أبى يوسف ، ومنزله على نهر عيسى فى قنطرة الزياتين بمقربة من دور الخلافة فتلقانى بالبشاشة والايناس ، وأبى إلا ضيافتى عنده فى جناح أفرده لى ، من داره ، وهو يؤملنى بلوغ ما أرتجيه من خدمة

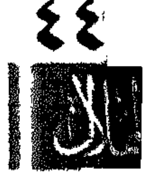
الدولة . إذ لا يعدم قومنا محلا فى مراتبها ، والوزارة فى يد خالد بن برمك أميرنا، وإنى إلى هذا اليوم أتخرج فى الفقه عليه ، وقد وجدت عنده من العقل والعلم ما يندر مثله فى صدور الرجال ...» .

هذا تعريف أولى بأبى يوسف ، وهو كما ذكر الرحالة ذو جاه فى الدولة ، ولديه من العقل والعلم ما يندر مثله في صدور الرجال ، وبعد سبع عشرة صفحة ، مهد للحديث عن طرفة فقهية لأبى يوسف فذكر أنه كان مع فقيه الإسلام فى مجلسه ، فدخل رسول ولى العهد إليه فتخوف إذ جاء على غير موعد ، فطمأنه الرسول إلى أن المسألة فتوى فى معضلة، هى أن الأمير قد اختلف مع زوجته فى أمر وأدركه الغضب، فقال لها أنت طالق ثلاثا إن بت الليلة فى مملكة أبى ، ثم سكن غضبه فندم على تسرعه ، ودعا الفقهاء فلم يجد لديهم حلا . فبعثنى إليك ، يقول المؤلف وهو الرحالة عن نفسه :

«وكنت فى ذلك الوقت أجيل الفكرة فى أمر الخيزران زوجة الأمير ، وأذكر مآثرها فى الدولة وذلك المسجد الذى زينت به الزوراء ، فقلت لأبى يوسف إن المساجد بيوت عبادة الله تعالى ، ولا تدخل في ملك أحد ، فلوبات الأمير فيها الليلة ما حسبته يبيت فى مملكة أبيه ، فماكدت أنتهى من كلامى حتى كاد (أبو يوسف) ينخلع من ثيابه لشدة الفرح ، وهو يقول لقد ظننت والله أن إعمال الفكرة فى مثل هذا التخلص الجميل جهد من غير تحصيل ، فأما إذا ابتدعت هذا الرأى الميمون فعلى عهد الله لأذكرنك عند الأمير ليقربك إليه بما أنت أهله من الخير» .

فهذا خبر ثان ، عن أبى يوسف ، والرواية التاريخية تنسب الحل لأبى يوسف، ولكن الرحالة قد جعله من ابتكاره ، إذ تقدم به لأبى يوسف فحاز إعجابه، وهو لا يغير الواقع لأن الرحالة شخص متخيل أراد أن يكون ذا فضل علمى ليمهد بفتواه مكانة له فى الدولة المزدهرة ، وقد كان . ثم تحدث عنه بعد اثنتى عشرة صفحة حديثا يدل على ارتفاع منزلة أبى يوسف في الدولة إذ كان لسان الشريعة بمعنى أنه مفت وقاض ولكنه ينكر على المنصور ما يقترفه من مظالم ، وأشار أبو يوسف إلى رؤيا منامية رأتها والدة المنصور ، فعرفت أنه سيكون ذا شأن عظيم ، رأت ذلك قبل أن تسقط الدولة الأموية ، ويتهيأ الأمر لبنى العباس ، وصدقت الرؤيا .

أما شأن أبى يوسف وإقبال الدنيا عليه بعد أن صار المهدى أمير المؤمنين فقد أحسن الرحالة وصفه ، وكان مما قال: «ثم إنى قصدت باب فقيه الاسلام ، وقد اتخذه المهدى رحمه الله قاضى قضاة المسلمين ، وصارت إليه جوائز الهادى والرشيد من بعده ، حتى بنى لنفسه فى درب أبى خلف من ناحية الكرخ الدار التى



لم يبن مثلها إلا ملك أو أمير ، فألفيته فى مجلس حافل بالأدباء والأمراء عليه المبطنة والطيلسان وقلنسوة طويلة قد حفها بعمامة سوداء دعته الحاجة من خدمة العباسيين إلى اتخاذها لون شعارهم .. فكان للقانا موقف يستبكى الحمام لفرط ما بنا من الأشواق (يتأمل القارئ هذا التعبير) وصرفت اليوم بحضرته أجاذبه أطراف الحديث ، وقد نبأنى بأحوال القوم فى المدة التى كنت فيها منفصلا عن دار السلام ، لأن القضاة يرد عليهم من طرائف الأخبار ما لا يرد على غيرهم ولاسيما من كان بمنزلة هذا الفقيه عند الخليفة حتى إنه ليجلسه على سريره بجانبه ، ويقوم له إذا دخل عليه، ولا يقلد القضاء ببلاد العراق والشام ومصر وخراسان إلا من أشار به» .

هذا موجز حديث أبى يوسف فى الكتاب ، وأبو يوسف بعد ليس خليفة ولا أميرا ولا وزيرا ولا قائد جيش ! فإذا تحدث المؤلف عن كل هؤلاء بأسلوبه الممتع وأضاف إليهم أحاديث الأدباء والشعراء والندماء والعلماء والمؤلفين ، فما أظن كتابا مثله يبلغ مبلغه التأثيرى فى عدد محدود من الصفحات ! وفى كتاب واحد !

عن نكبة البرامكة

ومن أجمل ما جاء فى الكتاب ، وأشجاه للنفس حديثه عن نكبة البرامكة ، حيث تقدم هذا الحديث فصل قوى عن سلطان البرامكة ، بين مبلغ نفوذهم فى الدولة ، وانجذاب الشعراء وذوى الحاجات إلى ساحاتهم العامرة ، وما بذلوه من همة عالية فى شئون الدولة والقيام بها على أتم الوجوه ، ولكن الوشاة قد أتقنوا السعاية فأوغروا صدر الرشيد وبعثوا الشعراء على صياغة ما يملأ الصدر حسدا وحفيظة، وقد سجل ذلك المؤلف موضحا أثر الفضل بن الربيع وغيره فى هذه الذمائم القاتلة ، وجاءت الرسالة العاشرة لتصور المأساة فى أفدح صورها وقد بدأها المؤلف بقول الشاعر :

أصبت بسادة كانوا عيونا

بهم نسقى إذا انقطع الغمام

ثم تلاه حديث عن وقوع التوانى فى الدولة بعد مصرع البرامكة ، وما تحدث به الجمهور عن استيائه فى قصص تروى وأشعار تعلق على الجدران ، ورقاع ترمى فى الطرق ليقرأها العابرون ، وينتهى أمرها إلى الرشيد فيفزع ، حتى أمر بمنع الشعراء عن رثائهم ، وجعل القتل عقوبة المخالف ، وأرسل الحراس لينزعوا الرقاع التى تعلق ليلا فى الأسواق ولكن ذلك كله لم يمنع حديث الناس فى الحاضر . ولا مضاعفة هذه الأحاديث فى المستقبل حتى ملأت الأسفار . وحديث الرحالة عن أسباب النكبة يظهر تعاطفه الشديد مع القوم ، وما رواه من القصص مؤثر صائب، ويصلح أن يكون عنصر قصة مستقلة يؤلفها فنان قدير ..

هذا ، وقد ذهب هذا الكتاب دون أن يقدر أحد على احتذائه فى منحاه التصويرى

بالقدر الذى يجعله موضع الموازنة الدقيقة بين عملين متناظرين ، لأن الكاتب الكبير الأستاذ عبدالرحمن البرقوقى رحمه الله ، أراد أن يتحدث عن حضارة العرب فى الأندلس بعهد الناصر على النحو الذى تحدث به جميل المدور عن حضارة الإسلام فى دار السلام ، فتخيل رحالة يركب السفينة من الاسكندرية حتى يصل إلى الأندلس ويتحدث عما شاهد ، وكان معه من المسافرين أبو على القالى وأبو الحسن الانطاكي وابن حوقل ، حتى وصلت السفينة إلى المرية ومنها إلى قرطبة . إذ ألفها وأحبها وصور حضارتها العمرانية ومن قابل بها من العلماء والشعراء .. والبرقوقى مشكور فقد اجتهد قدر ما يستطيع ، ولى عن رحلته حديث فى الجزء الأول من كتاب دراسات أدبية» بعد أن ذكرت موجزا لحضارة الإسلام التى كتبها المدور ، وإذا كان البرقوقى قد تخلف عن صاحبه ، فله السبق فى تآليف أخرى حازت الإعجاب .

إن حضارة الإسلام كتاب تاريخ وأدب وفن وحضارة ، فهل نجد من يطبعه اليوم ليقرأه الجيل الجديد ؟.. ■

جميل نخلة المدوّر

- ولد فى بيروت سنة ١٨٦٢ م.
- أتقن العربية والفرنسية وألف بهما معا.
- نال تقدير الصفوة من الكبار وكافأه السلطان عبد الحميد بجائزة مالية كبري بعد ظهور كتابه (حضارة الإسلام فى دار السلام) .
- انتقل إلى القاهرة وحرر فى المؤيد والمقتطف ومجلة الجنان.
- توفى بالقاهرة سنة ١٩٠٧ م.
- من مؤلفاته :

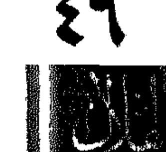
أ - تاريخ بابل وآشور.

ب - ترجمة رواية (أتالا) لشاتوبريان.

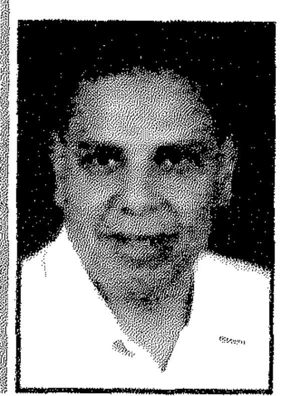
جـ - ترجمة كتاب (التاريخ القديم) لباحث فرنسى.

د - حضارة الإسلام فى دار السلام.

- قال عنه صاحب الهلال (جرجى زيدان) إنه خدم آداب هذا اللسان خدمة جليلة يذكرها له التاريخ.







علاء الأسوانى

عمارة يعقوبيان

رواية جديدة بديعة

بقلم
د. جلال أمين

فى رواية علاء الأسوانى الجديدة والبديعة (عمارة يعقوبيان - دار ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢) والتى صدرت منذ أيام قليلة أربع قصص متوازية : قصة طه الشاذلى ابن البواب مع خطيبته بثينة، وقصة زكى بك الدسوقى، سليل الأسرة الوفدية العريقة، مع أخته دولت، وقصة حاتم رشيد، الصحفى اللامع والشاذ جنسيا مع صديقه الصعيدى عبدربه، ثم قصة الحاج عزام الذى بدأ حياته ماسحا للأحذية ثم صار أحد أكبر أثرياء مصر وعضوا فى مجلس الشعب ولا زال يطمح فى المزيد .

الجميع يسكنون عمارة يعقوبيان فى وسط القاهرة، إما فى إحدى شققها الفاخرة، أو فى إحدى غرفها فوق السطوح. والمؤلف يتنقل من قصة لأخرى، يترك احدى القصص الأربع فجأة، وأنت فى أشد الشوق الى معرفة بقيتها، ليواصل أحداث قصة أخرى.، ثم يعود لمواصلة الأولى وهكذا.

عنصر التشويق إذن موجود من أول صفحة ولا ينتهى الا بانتهاء الرواية. بل ولا ينتهى حتى بانتهائها. اذ يترك المؤلف بعض القصص مفتوحة لأكثر من احتمال، اعتقادا منه، وأظنه على حق، ، بأنه قد حكى من كل قصة من القصص

ما يكفي لتمكين القارئ من تخمين ما سيحدث. وحتى اذا اختلفت بعض التخمينات فليس لهذا الاختلاف أهمية في الحقيقة. فمغزى الرواية في جميع الأحوال واضح وضوحا كافيا .

سألت نفسي بعد أن قرأت من الرواية اكثر من نصفها. كيف استطاع المؤلف ان يحتفظ للرواية بوحدتها، بحيث يشعر القارئ بأنه يقرأ قصة واحدة لا أربع قصص، مع أن شخصيات كل قصة لا تتداخل بالمرة مع شخصيات القصص الأخرى، باستثناء شخصية بثينة التي تدخل في قصة طه الشاذلي ، باعتبارها خطيبته وحبيبته، ثم تدخل في قصة زكي بك الدسوقي في صورة سكرتيرته ثم عشيقته؟ باستثناء شخصية بثينة، كل من القصص الأربع مستقلة تماما عن بقية القصص. صحيح أن كل الشخصيات تسكن عمارة يعقوبيان، ولكن هذا الاشتراك في سكنى عمارة واحدة لا يؤثر إلاّ تأثيرا طفيفا للغاية على مسار أي قصة منها. ومع ذلك فالقارئ يقرأ القصص الأربع كما لو كان يقرأ قصة واحدة، وهو اذ يترك احداها ليواصل احداث قصة اخرى، لا يكون كمن ترك كتابا قبل أن يتمه ليقرأ في كتاب آخر. القصص اربع ولكن الرواية واحدة وكأننا بصدد عدة أعضاء من نفس الجسم.

كانت الاجابة التي ارتحت اليها لتفسير هذه الوحدة في الرواية رغم تعدد القصص، هي أن القصص كلها واحدة في الهمّ. المأساة واحدة وان كانت تتخذ صورا مختلفة، والسبب الأصلي للمأساة كل من أبطالها يكاد يكون هو دائما نفس السبب . ومن ثم فأنت اذ تنتقل من قصة لأخرى لا تغادر المأساة، وكل من القصص تدعم وتؤكد فهمك لذلك السبب الكامن وراءها جميعا .

قد تقول ما وجه الشبه بين مشكلة زكي بك الدسوقي، الرجل الثري الذي يحاول قتل الفراغ بمضاجعة النساء، وبين مشكلة طه الشاذلي ابن البواب الفقير الذي يفشل في دخول كلية الشرطة أو بين هذه وتلك وبين مشكلة الحاج عزام الذي يحاول ان يشبع نهما لا نهاية له الى المزيد ثم المزيد من المال والنفوذ؟ وأخيرا ما الشبه بين هذه المشكلات الثلاث ومشكلة حاتم رشاد التي تنحصر في محاولة الاحتفاظ بعشيق دائم له ؟

نهاية مأساوية

يتبين وجه الشبه، والعلاقة الوثيقة بين المشكلات الأربع، متى بينا السبب الذي افشل محاولات الجميع لحل مشكلاتهم، فاذا به سبب واحد، السبب الذي حرم طه الشاذلي من دخول كلية الشرطة، ثم حرمه من محبوبته وخطيبته الجميلة بثينة، ثم دفع به الى الانضمام الى جماعة من الجماعات المتطرفة، ثم انتهى به نهاية مأساوية، هذا السبب هو نفسه الذي خرّب علاقة زكي بك الدسوقي بعشيقته ومحبوبته القديمة دولت، الى ان أصبحت أقرب الى علاقة سلب ونهب وانتهت بهما الى اقسام البوليس والمحاكم. وهو نفس السبب الذي أفسد حياة عبدربه، الصعيدي الطيب والمحب لزوجته وابنه، وانتهى به الى ارتكاب جريمة قتل حاتم

رشيد ، او ما يبدو انه كذلك، واخيرا فان نفس هذا السبب هو الذى افسد حياة الشابة الجميلة سعاد مرتين، مرة عندما فقدت زوجها الذى سافر الى العراق بحثا عن عمل، ومرة عندما اعتدى عليها الحاج عزام اعتداء وحشيا ثم طلقها وطردها شر طردة.

السبب واحد، وسوف يكتشفه القارئ بسهولة، ولكن الذى سوف يدفعه بلاشك الى الكثير من التفكير هو ان هذا السبب الواحد الذى يكمن وراء هذه المآسى الأربع هو نفسه الذى يكمن وراء المأساة المصرية بصفة عامة.

رواية سياسية

بهذا المعنى اذن تتحول رواية علاء الأسوانى الى رواية سياسية بامتياز. صحيح أن من الممكن للقارئ الاستمتاع بها حتى ولو لم يكن لديه أدنى اهتمام بالسياسة، ولم يكن له اى قدر من الوعى السياسى أو المعرفة بما يدور فى الحياة اليومية للمصريين، ولكن علاء الأسوانى يعرف ويفهم ما يدور فى الحياة اليومية للمصريين بدرجة مبهرة حقا وداعية للاعجاب، كما أن وعيه السياسى، كما يظهر بجلاء، على أعلى درجة من الحدة والذكاء، وهذا هو الذى يجعل من قراءة هذه الرواية للمهتمين بالحياة السياسية والاجتماعية المصرية، متعة فكرية اضافية ومصدرا للتفكير الخصب فى الاحوال المصرية.

ولكنى أريد بالاضافة الى ذلك أن ألفت نظر القارئ الى فضيلة أخرى رائعة تتحلى به الرواية ، ولا تتوفر فى بعض من أكثر الروايات جمالا وجاذبية، مصرية أو اجنبية، واقصد بها نجاح الكاتب فى أن يبين بقدر عال من الوضوح، الظروف التى دفعت كل شخصية من شخصيات الرواية الى التصرف على النحو الذى تصرفت به. مهما بدا هذا التصرف غريبا، او شاذا، او ممتعا فى لا أخلاقيته أو اجرامه، فاذا بك، وقد عرفت هذه الظروف وماولدته من مشاعر، تصبح قريبا جدا من الصفح والعفو .

فلا يكاد يبقى شخص واحد من أشخاص الرواية لا يحظى من القارئ بالعطف، مهما كانت درجة القسوة او الغرابة فيما ارتكبوه من أعمال. والرواية بهذا تحقق نجاحا آخر يضاف الى نجاحها فى وصف الحالة المصرية. فهى بهذا تقترب اقترابا مثيرا للاعجاب من أن تكون وصفا للحالة الانسانية بوجه عام. ومن ثم يجد القارئ انه قد حظى بكسب اضافى من قراءته للرواية، لا صلة له بمصر بالذات، ولكنه وثيق الصلة بالانسان فى اى مكان، وهكذا تصبح عمارة يعقوبيان أكثر من مجرد عمارة فى وسط القاهرة، تتكون من بعض الشقق الفاخرة وغرف فوق السطح، بل تصبح أقرب الى نموذج لأى عمارة، تبنيها اى جماعة من الناس، أيا كانت اجناسهم والوانهم، ليلتقوا فيها بمن يحبون، فيقضون فيها بعض اللحظات السعيدة القصيرة، ويطلقون فيها بعض الضحكات، قبل ان يذرفوا فيها الكثير من الدموع. ■

رائحة الزهرة

تجربة مثيرة لإنتاج القمح فى المياه المالحة

بقلم :

د. أحمد مستجير

كانت لنا في سالف الأيام بأواسط الخمسينات حديقة رائعة، بكليتنا الحبيبة، كلية الزراعة بالجيزة، شهدت هذه الحديقة المائية بعضا من أحلى أيام حياتنا نحن الطلبة. «كانت لنا .. ياليتها دامت لنا!» كانت الحديقة جميلة وكان الزمان جميلا، أذكر الحديقة دائما عندما أجلس لأشاهد سعد عبدالوهاب في فيلم من أفلامه وهو يغني في طرقاتها، ثم جارت الأيام عليها. مثلما جارت علينا، تحولت إلى ركام، جفت البحيرة الصغيرة فيها وماتت نباتاتها، وغدت كوما من القمامة ينمو عاما بعد عام!

- **الفدان يحقق أربعة عشر إردبا من القمح**
- **الاستنساخ بالبذور.. عصر جديد وثورة فى تربية النبات**
- **لماذا تحاول الشركات العملاقة الوقوف ضد التقنيات الحديثة للاستنساخ بالبذور**
- **من لايملك طعامه لايملك حريته وحريتنا الحقيقية تتركز فى زيادة الإنتاج الزراعى وغزو الصحراء.**

ثم حدث أن انتخبت عميدا للكلية، وفى ظرف أسبوع كنت أسعى أحاول أن أعيد إليها وجهها الصبوح القديم، أن أعيدها إلى شبابها وأعيد معها شبابى، أزلنا ركام السنين وعثرنا تحت الأنقاض على الجسور الخشبية الصغيرة القديمة ، بعد شهور قليلة كانت البحيرة بالحديقة وقد امتلأت بالماء ونباتات البردى، وكانت أرض الحديقة تضج بالأزهار من كل لون. كنت أزور الحديقة وأمكث بها طويلا كل يوم جمعة، وفى ذات جمعة بعد حلول الصيف كنت واقفا فوق الجسر الخشبى الصغير على البحيرة أتأمل الماء وأزهار البردى، فنشقت رائحة جميلة. ترتبط حاسة الشم ارتباطا وثيقا بالذاكرة، تلفتُّ، هذه الرائحة الحلوة الخفيفة الساحرة أعرفها من زمان، أعرفها ويخيل إلىّ أنها تعرفنى، لقد حفرت فى ذاكرتى بصمة لاتضيع، أخذت بأنفى أتشمم الطريق أبحث عن مصدر هذا العطر، ووجدته، ياالله، كانت هناك قرب

سور الحديقة شجيرة «عُليق رانجون» (كويسكوالس إنديكا Quisqyalis indica) - أورقت وأزهرت عناقيد أزهارها الأنبوبية القرنفلية الرائعة، من يصدق؟! شجيرة تبقى صامدة جذورها تتحدى الإهمال والعطش أكثر من ثلاث عشرة سنة، ثم تعود إليها الحياة فجأة بعد أن تسربت إليها من تحت الأرض مياه البحيرة!

دبت الحياة فى هذا النبات المتسلق، ولم يجد ما يستند إليه ليعلو فافترش الأرض، وقفت أمام النبات فرحا مذهولا، طافت برأسى فكرة فطفرت من عينى دمعة، قلت إن هذه هى مصر. تغفو وتغفو حتى لتبدو وكأنها قد ماتت، وتستمر تستمر فى سباتها. ثم إذا بها فجأة تنهض، تورق وتزهر، وتملأ الدنيا - ثانية - عبقا وعطرا، جمالا وخيرا!.

تهجين غريب

فى تلك السنين، أيام عمادتى للكلية، طرأت بذهنى فكرة تجربة كانت تبدو غريبة، نستخدم فيها تقنية تعرف باسم التهجين الخضرى، تدمج فيها بالمعمل خلايا من أنسجة جنسين نباتيين مختلفين لتنتج خلايا هجينة، تربى حتى تصبح نباتات كاملة تحمل جينومى النباتين سويا، كانت فكرتى هى أن نهجن خلايا نبات الأرز خضريا بخلايا نبات الغاب (البوص) الذى ينمو فى الماء المالح قرب مدخل مدينة الإسكندرية (وكلا النباتين من نفس العائلة النجيلية)، ثم أن ننمى الخلايا حتى تصبح نباتات كاملة تنقل إلى التربة حيث ننتخب بينها بريها بماء البحر فى الأصص بالصوبة: ما لايتحمل منها الملوحة سيموت، أما ما يتحملها فسيبقى ويثمر ومنه نختار ما يعطى البذور الأقرب إلى بذور الأرز، بهذه الطريقة نثبت بالهجين الخضرى جين، أو جينات ، تحمل الملوحة، دون حتى أن نحددها أو نعرف تفاصيل مواقعها وتركيبها الجزيئى.

كان ثمة مدرس قد عاد حديثا من بعثة بانجلترا وقد تدرب على هذه التقنية: الدكتور أسامة الشيحى، قبل الرجل أن يبدأ معى التجربة، فى أواخر الثمانينات، تمكن من التهجين الخضرى بين النباتين، ومن إنتاج الهجن وزراعتها فى الأصص حتى أثمرت صورا وأشكالا عديدة من الحبوب، نجح التهجين بشكل مذهل، كانت الهجن أكبر وأقوى من نباتات الأرز والغاب، وكانت سنابلها غريبة متنوعة، اقترح اسامة أن نضيف القمح أيضا، فأضفناه لنهجنه خضريا بالغاب، تحمس للتجربة الدكتور يوسف والى بعد أن شاهد سنابل الهجن، وعركها بأصابعه ليتأكد من أنها تحمل حبوبا، لم يصدق ما رآه (على ما أعتقد) ولكنه وفر لنا التمويل الكافى، بعد عشر سنين كنا قد انتجنا اثنتى عشرة سلالة من هجن الأرز الخضرية وثمان سلالات من هجن القمح، كلها تتحمل الملوحة: كان من بينها سلالة أرز



أنتجت فى الموسم الماضى (صيف ٢٠٠١) أكثر من أربعة أطنان للفدان فى أرض تقترب ملوحتها من ملوحة مياه البحر (وماتت فيها كل نباتات الأرز الطبيعية التى زرعت للمقارنة)، ومنها سلالة قمح أعطت ١٤ أردبا للفدان (عام ٢٠٠١) استخدام التقنيات الحيوية الجديدة التى تظهر بالغرب فى حل مشاكلنا الزراعية الحقيقية أمر ممكن ومثمر، إنما نحتاج أولا إلى تحديد المشاكل الملحة وتحديد التقنيات التى تصلح لحلها، ثم المبادرة، للحل بالفكر والمثابرة والإيمان... والتمويل.

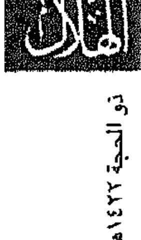
جين ينقذ فلاحى العالم الثالث

هللنا كثيرا للبيوتكنولوجيا الحديثة، ففيها تكمن بذور ثورة خضراء جديدة، البيوتكنولوجيا المرتكزة على علم الوراثة الجزيئية قد مكنت العلماء من «هندسة» نباتات محاصيل تحمل جينات صفات مفيدة، جديدة عليها تماما، جينات لمقاومة الحشرات مثلا، أو لمقاومة مبيدات الأعشاب أو لتغيير تركيب البروتينات والزيوت النباتية. مازلنا هنا فى مصر نتلمس طريقنا للولوج إلى هذه الساحة الجديدة، لكن مثل هذه التقنيات توفر أيضا إمكانات أخطر بكثير من كل هذا: تحوير نظام تكاثر النبات بحيث يستطيع أن يستنسخ نفسه بالبذور، ومثل هذا التحوير يفتح الباب لثورة فى الزراعة تفوق الخيال!.

التكاثر الجنسى هو الأكثر شيوعا فى النباتات الزهرية، ويتم بإخصاب حبة لقاح لبويضة زهرة ، تحمل حبة اللقاح نصف الطاقم الوراثى للنبات ومثلها أيضا البويضة، واجتماعهما عند الإخصاب يعطى جنينا يحمل الطاقم الكامل الذى يكون مزيجا متفردا من جينات الأب وجينات الأم. وهناك نباتات كثيرة تتكاثر لاجنسيا (أى بالاستنساخ)، بالعقل مثلا أو بالدرنات أو بالفسائل (كالعنب والبطاطس والنخيل) ويحمل فيها «النسل» نسخا مطابقة تماما للطاقم الوراثى للنبات الأصلى الذى استزرعت عقله أو درناته أو فسائله - لايحدث هنا مزج فى النسل بين جينات أبوين.

ثمة نوع غريب من التكاثر اللاجنسى يقوم فيه النبات بإنتاج بذور خصبة تحمل طاقمه الوراثى نفسه بالكامل، دون أن تدركه مادة وراثية من حبة لقاح، يسمى هذا النوع من التكاثر باسم «الاستنساخ بالبذور» أو «الأبومكسية»، هذا النوع من التكاثر معروف ويحدث طبيعيا فى نحو ٤٠٠ نوع من النباتات - منها المانجو والموالح - لكنه غير موجود فى نباتات محاصيل الحقل المهمة، وإن وجد فى بعض أقاربها.

ولقد اتضح أن الاستنساخ بالبذور صفة وراثية، يمكن إذا استطعنا أن نتوصل إلى الجين أو الجينات المسببة لها، أن ننقلها إلى مختلف نباتات



المحاصيل الاقتصادية، فندخل بذلك فى عصر جديد للإبداع فى تربية النبات، عصر تتقزم فيه النتائج الباهرة للثورة الخضراء الأولى التى تمت فى ستينات وسبعينات القرن العشرين، عصر لايختلف فى ثوريته كثيرا عن عصر «الكمبيوتر الشخصى» الذى بدأ فى أواخر سبعينات ذلك القرن.

ربما اتضحت أهمية الاستنساخ بالبذور فى الفقرة الأولى من البيان الصادر عن مؤتمر بيلاجيو (بإيطاليا) الذى عقد فى الفترة من ٢٧ أبريل إلى ١ مايو ١٩٩٨ وخصص لقضية الأبومكسية.. تقول الفقرة:

«يشير التقدم الحديث فى بيولوجيا النبات إلى أنه قد يكون من الممكن قريبا تطوير سلالات من نباتات المحاصيل تعطى بذورا دون اللجوء إلى الإخصاب الجنسى، فى عملية تسمى الأبومكسية (أو الاستنساخ بالبذور)، وهذه العملية طريقة لاجنسية طبيعية لتكاثر النبات، ينتج عنها نسل يطابق النبات الأم وراثيا، تعد الأبومكسية بتثوير تربية النبات، إذ توفر نظاما لتحسين المحاصيل يسمح للسلالات المرغوبة - حتى الهجين منها - بأن تكون صادقة التوالد، وهذه القدرة ستجعل التربية وإنتاج البذور أكثر كفاءة، إنها تتيح لمربى النبات الفرصة كى يطور، ويسرعة، سلالات تلائم الظروف المحلية، باستخدام - ومن ثم حفظ - تنوع وراثى أكبر، ستسمح الأبومكسية أيضا لفقراء الفلاحين بأن يعيدوا زراعة البذور التى ينتجونها من السلالات المرباة محليا، عاما وراء عام، وهذه استراتيجية مستحيلة بالنسبة للسلالات المتاحة اليوم من السلالات الهجينة».

محاصيل الغذاء، إذا أضيف إليها جين أو جينات الأبومكسية، ستحرر الفلاح بالدول النامية من أن يشترى بذورا هجينة جديدة فى كل موسم.، ستمكنه من أن يعيد زراعة ما ينتجه من بذور الذرة الهجين دون أن يتدهور محصولها، ومن ثم لن تتحمس شركات البذور لهذه التقنية، ثم إنا نستطيع بالابومكسية أن نكيف النبات ليلائم البيئة المحلية - أى بيئة محلية - بدلا من أن نكيف البيئة لتلائم النبات عن طريق المعاملات الزراعية المكثفة من أسمدة ومبيدات وغيرها. سيتمكن المربى من أن ينتج من القمح المحصول الزراعى سلالات تلائم خاصة كل مركز أو محافظة.. وستصبح كل سلالة «صادقة التوالد» على الفورحتى لو كان تركيبها الوراثى خليطا.

تخوف المؤتمرون فى بيلاجيو من أن الاتجاه السائد فى حقل البيوتكنولوجيا سيؤدى إلى أن تحتكر الشركات العملاقة هذه التقنية - ببراءات الاختراع - فيحرم منها فقراء الفلاحين بالعالم الثالث الذين هم فى أمس الحاجة إليها، وأوصوا بضرورة تطوير نظم جديدة للبراءات تحمى العالم

الثالث.

والواقع أن التقدم نحو عزل الجين (أو الجينات) المسئولة عن الأبومكسية لايزال بطيئا - فشركات البذور العملاقة لاتولى الموضوع ما يستحقه من الاهتمام، لكن هذا بدوره يعنى أن الطريق لا يزال مفتوحا أمام علمائنا للعمل الجاد فى هذا المجال، والإسهام فى هذه الثورة الجديدة - ثورة التكاثر اللاجنسى للنبات - التى لاتزال فى بداياتها والتى ستشكل إن عاجلا أو آجلا صورة مستقبل الغذاء فى عالمنا.

ولقد طالت ثورة التكاثر اللاجنسى الحيوان أيضا، نجحت هذه التقنية باستنساخ النعجة دوللى والنشر عنها فى فبراير ١٩٩٧، وهذه التقنية — عندما يتم إتقانها - ستقدم عونا هائلا للتحسين الوراثى للحيوان - لاسيما حيوانات اللبن، واللبن أهم منتج حيوانى خصوصا فى مصر، وهذه قضية يجب أن نوليها عناية خاصة، فنبدأ فى إنشاء مدرسة علمية مصرية فى هذا المجال الجديد الواعد.

مشروع قومى

تصبح التقنيات الغربية تقنياتنا إذا نحن تفهمناها وتمكنا منها وطوعناها لصالحنا، ولقد غدا من الضرورى الملح أن نستخدم العلم وأدواته حتى نخرج من النفق المظلم الذى وقعنا فيه. الكثيرون من أنصاف المتعلمين وأشباه العلماء يتسببون - عامدين أو غافلين - فى تخويف الناس من العلم ونتائجه، الإعلام لدينا يساهم هو الآخر فى بث الرعب فى قلوب الناس من علوم الغرب، العلوم التى تستخدم هناك فى صناعة التقدم، السكان يتزايدون، أزمة المياه تهددنا، التصحر وتملح الأرض وتطبيلها يعتم الصورة - والنتيجة : انخفاض نصيب الفرد من المنتجات الزراعية، «ومن لايملك طعامه لايملك حريته»، حريتنا الحقيقية تتجذر أولا فى الإنتاج الزراعى، لابد أن نغزو الصحراء وأن نخضر شواطئنا وأراضينا المالحة، أن نمضى إليها ومعنا العدة العلمية لاستغلالها : وعدتنا الأولى هى علوم الوراثة الحديثة، سيقع القدر الأكبر من المهمة على أكتاف مربى النبات: لابد أن تتكاتف كل الجهود الآن لإنتاج سلالات من المحاصيل الاقتصادية الأساسية تقاوم الملوحة والجفاف، هذا مشروع قومى بالمعنى الحرفى، يلزم أن نتبناه وأن نموله، فما عاد وقت للانتظار.

تلك الرائحة

منذ أيام استمعت إلى استاذنا الدكتور رشدى سعيد فى محاضرة رائعة كانت عن المياه الجوفية فى مصر وأزمة المياه، كان لما سمعته أن يصيب المرء بالاكتئاب والخوف، لكنى خرجت من المحاضرة أشم فى الجو عبير زهرة لا أراها!. ■



ندوة عن وادى النطرون :

ضرورة إنشاء قسم لعلم القبطيات

دير الأنبا بشوى بوادى النطرون

بقلم
د.رشدى سعيد

هذا مقال أنقل فيه إلى القارىء وقائع ندوة وادى النطرون التى عقدت بين الثانى والخامس من شهر فبراير سنة ٢٠٠٢ بدير الانبا بشوى بوادى النطرون لدراسة الدور الذى لعبته أديرة هذا الوادى فى تاريخ الرهبنة القبطية، وبعض ملاحظاتى عنها، وقد أقيمت هذه الندوة تحت رعاية قداسة البابا شنودة الثالث بطريرك الأقباط وبحضور عدد كبير من المهتمين بهذه الدراسات والذين كان فى مقدمتهم الاستاذ الدكتور جاب الله أحمد جاب الله أمين عام المجلس الأعلى للآثار. وألقى قداسة البابا محاضرة ارتجلها باللغة الانجليزية استغرقت ساعة كاملة تكلم فيها عن الدور المحورى الذى تلعبه الرهبنة فى حياة الكنيسة القبطية وأبعاد حركة «البعث» التى تشهدها اليوم، وما تقوم به هذه الحركة من إعادة الروح للكثير من الأديرة المهجورة أو لبناء الجديد منها وخاصة فى خارج مصر بأفريقيا واستراليا وأوربا وأمريكا.

ونظمت الندوة جمعية القديس مرقص لدراسة التاريخ القبطى التى يقع مقرها بمدينة كليفلاند بالولايات المتحدة والتى تضم أعضاء كثيرين ممن يهتمون بهذه الدراسات بمصر والولايات المتحدة وجميع أنحاء العالم - ويرأس هذه الجمعية الدكتور فوزى اسطفانوس الطبيب المعروف بمستشفى كليفلاند الشهير الذى قام وبمساعدة لجنة منظمة رأسها نائب رئيس الجمعية الاستاذ إيليا ثروت باسيلى من القاهرة، وعدد من المهتمين بالدراسات القبطية يتقدمهم الاستاذ الدكتور جودت جبرة أمين المتحف القبطى السابق والاستاذ الزائر بجامعات ألمانيا والولايات المتحدة بتنظيم هذه الندوة وإعداد برامجها ودعوة المحاضرين إليها. وكذلك ترتيب إقامة المدعوين بالدير فى استراحاته الجديدة والمريحة.

وشارك فى الندوة أكثر من عشرين استاذا متخصصا فى علم القبطيات وهو العلم الذى تأسس كعلم مستقل فى سنة ١٩٧٠ بعد انفصاله عن علم

المصريات وأصبحت له كراسى متخصصة فى معظم الجامعات المتقدمة، وافتتح الاستاذ مارتن كداوزى عميد دراسات هذا العلم الندوة بعرض عن أهمية وادى النطرون لعلم القبطيات قرأه بالنيابة عنه الاستاذ الدكتور سيجفريد- ويشتر بسبب إصابته بمرض مفاجىء، وقد توالت بعد هذه المحاضرة الأبحاث التى ألقاها نخبة من العلماء المتخصصين قد يكون من المفيد إيراد عناوينها لتبيين تعددها ومدى أبعادها.

– يوهانس دن هاير : وادى النطرون وتاريخ البطارقة.

– تيموثى فيفيان : تاريخ الرهبنة القبطية بوادى النطرون.

– سيجفريد ريشتر : وادى النطرون والأدب القبطى القديم

– رشدى سعيد : جيولوجية وادى النطرون.

– باستيان فان إلدرن : الآثار القبطية فى وادى النطرون.

– بيتر جروسمان : العمارة فى وادى النطرون

– خليل سمير : وادى النطرون والأدب القبطى باللغة العربية.

– اليزابيث بولمان : الرهبان بالبحر الأحمر : حالة دير القديس انطونيوس.

– لوسى آن هنت : الفن فى وادى النطرون

– كارل إنيمى : اكتشافات جديدة لصور حائطية بدير السريان.

– مات إموزيل : الأعمال الجصية بدير السريان.

– سوزان هوداك : الزينة فى الأعمال الفنية بوادى النطرون

– كارل هاينز برون : الاثنيات المتعددة في وادى النطرون

– جاك درفليت : النقوش القبطية واليونانية بوادى النطرون

– إيوا بارندوفسكا : نتائج أعمال الترميم بدير السريان.

– سوزانا سكالوفا: الأصل القبطى لصور الأوجه البيزنطية بوادى النطرون

– لوكاس فان رومباى : العلاقة بين الكنيستين السريانية والارثوذكسية والقبطية الارثوذكسية فى ضوء الأبحاث الجديدة بدير السريان.

– سمير شاكر : استمرارية الفن القبطى.



- أوجو زانيتى : قداس الكنيسة القبطية.

- يوحنا نسيم يوسف : إعداد الزيت المقدس بوادى النطرون

هذا وقد تخلل برنامج الندوة وخلال ساعات الظهيرة أو قبل انعقاد الندوات زيارات لأديرة وادى النطرون أبو مقار والبراموس، والسريان وبيشوى كما تمت زيارة وادى أبومينا الواقع بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط عقب الندوة مباشرة ، كما حضر المؤتمرون قداسا باللغة القبطية يوم الأحد بالكنيسة الأثرية بدير أنبا بشوى كما قاموا بزيارة الحفائر التى تمت فى مواقع بعض الأديرة المهجورة بالوادى.

وكانت الأبحاث الملقاه رفيعة المستوى وكاشفة للكثير من وقائع تاريخ أديرة وادى النطرون وتنظيم عمارتها وما تحتويه من مخطوطات وأيقونات وما تحمله حوائطها من نقوش وصور وأعمال بالجص. وكذلك عن الدور المهم الذى لعبته هذه الأديرة فى تاريخ الكنيسة القبطية وعلاقاتها مع الكنائس الأخرى.

وقد انتابنى الحزن وأنا استمع إلى محاضرة الاستاذ كراوزى التى استعرض فيها نشأة وتاريخ وحالة دراسة علم القبطيات والتى لم يجىء فيها ذكر لأى جامعة مصرية بها قسم مخصص لدراسات هذا العلم - كما انتابتنى الدهشة بسبب قائمة الباحثين الطويلة ممن ألقوا البحوث بالندوة والتى كادت أن تخلو من اسم عالم مصرى متخصص فى هذه الدراسات - وحتى قلائل المصريين بالقائمة فإنهم يقيمون بخارج البلاد.

وإذا أردنا أن نعمق فهمنا للآخر وأن نجعل من الأقباط ما يقوله الاستاذ عمرو عبدالمنعم حمودة فى مقدمة مقاله بهلال فبراير سنة ٢٠٠٢ (الأقباط.. الوجه الآخر) «شركاء فى الوطن والتاريخ والقدر والمصير فى إطار الجماعة الوطنية التى تبلورت على مر عصور التاريخ ، حقيقة تاريخية واجتماعية غير قابلة لاثبات العكس» فليس أقل من أن نعرف تاريخهم وأن نهتم به فلعله هو والمستشار طارق البشرى الداعية الأول للوحدة الوطنية وحامل المقولات المماثلة أن يشاركانى فى المطالبة بأن تقوم الجامعة المصرية بإنشاء قسم لعلم القبطيات. ■

ثورة الخرائط ومغامرة الاكتشاف

أماني عبد الحميد



نقش على الحجر لخريطة للعالم القديم كما تخيله البابليون في ٦٠٠ ق.م ، حيث جعلوا بابل مركزا للعالم . وهى اقدم خريطة للعالم وتوجد في المتحف البريطاني

• صور الأقمار الصناعية تغير جغرافية العالم
• أين روح المغامرة ونشوة الاكتشاف؟



هل انتهى بالفعل عصر الاكتشافات؟.. هل تحول علم الجغرافيا إلى علم قديم غير مثير للشغف بعدما فقد دوافع البحث عن حدود المجهول؟.. وخاصة بعد التصوير من الأقمار الصناعية..؟ وهل أصبح علم الخرائط من العلوم المتحفية خاصة وأن خرائطنا لم تعد تحوى أية مساحات مظلمة فارغة .

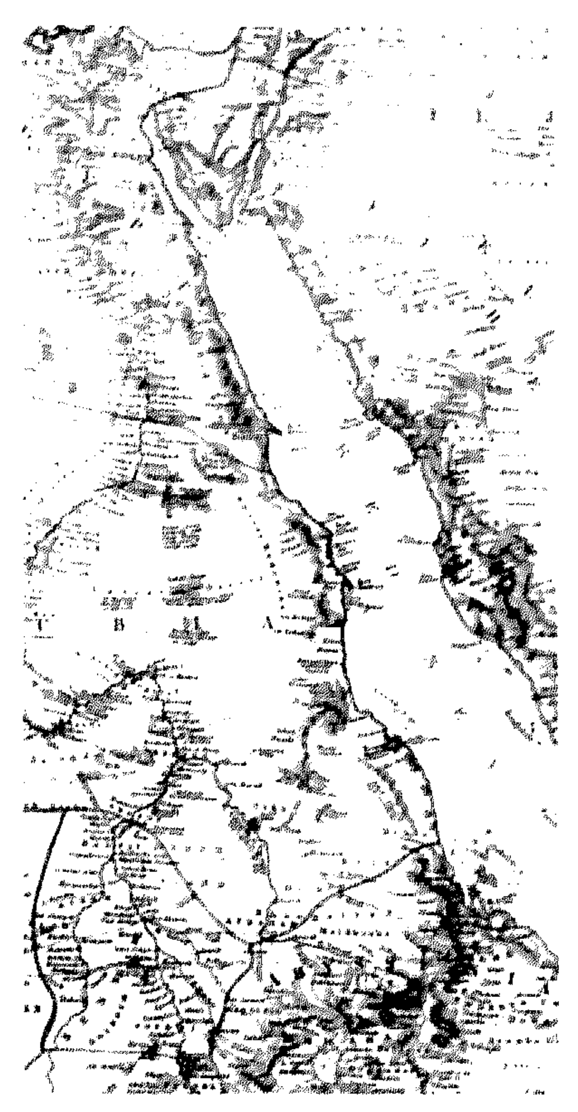
مع تطور البحث العلمى تقلص حجم العالم حتى أصبح يحتل مساحة صغيرة على مسطح خريطة . بشكل كشف لنا عن مدى ترابطنا المحتوم. فطالما تجمعنا الكرة الأرضية وذلك الكون الفسيح فمصيرنا واحد وطريقنا معلوم بفضل علم الجغرافيا والكارتوجرافيا.. ولكن هل دخل علم الجغرافيا عصراً جديداً بعيداً عن كشوف البقاع المجهولة؟ أم أننا قد بدأنا عصرا فى الاكتشافات ذا نوع خاص.. عصرا لاكتشاف قدرة الذات على إثبات الصعاب من أجل تلمس مواطن جمال الأمكنة وتفردها .

حلم اكتشاف المجهول

فى وقتنا الحديث لم تعد رؤى علماء الخرائط تقوم على تحديد ماذا يمكن للعين البشرية أن ترى.. بل تحول مفهوم إعداد الخرائط ليصل إلى ارتفاعات شاهقة بعيدة عن أعشاش الطيور وبعيدة عن قمم الجبال وبعيدة عن فلك الطائرات.. ارتفاعات تعلو مدارات الكواكب.. فالردار وأشعة الميكروويف وموجات الراديو والسونار قد كونت صوراً لما يحتويه السطح الذى نراه لتصبح لدينا أول خريطة للأرض المبسوطة، ولقاع البحار ولقمم الجبال، وللغيوم السابحة فى السماء، بل إنها استطاعت أن تكشف النقاب عن مجارى المياه القديمة المدفونة فى أعماق الصحارى، وتكشف لعلماء الآثار مواقع قيام الحضارات القديمة فأصبحت لدينا خرائط تضم الكثير من المعلومات عن الأرض أكثر مما تخيله عقل الإنسان، ولكن مع هذا التطور المذهل تظل روح المغامرة والاكتشاف التى تملأ النفس البشرية هى أساس كل الاختراعات والأصل الكامن وراء علم الجغرافيا والخرائط.وجوه التاريخ

هناك مقولة شهيرة للمؤرخ «ويل ديورانت» يقول فيها «الخرائط كالوجوه تحمل ملامح التاريخ» فالخريطة تصف بدقة الخصائص السطحية لوجه الأرض بشكل يجعلها مرئية ، تماماً كالوجه يحمل ملامح الإنسان ليميزه عن الآخرين. فهى تبين المواقع والأبعاد والاتجاهات عن طريق رسم الحيز الجغرافى. لذا أجمع العلماء على اعتبار علم الكارتوجرافى أو علم الخرائط علما يجمع المعطيات والوقائع وفناً لاظهار المعلومات بشكل دقيق وواضح، كل ذلك من خلال رسم سطح الأرض الكروية على المساحة المسطحة للخريطة، باستخدام نوع من التوازن ليظهر التمثيل الحقيقى للعالم، وهنا نعود لمقولة «ديورانت» كيف يمكن أن تكون الخريطة وجها يحمل ملامح التاريخ، فهى طبقا لتعريف العلماء وجه يحمل ملامح الأرض وتضاريسها، أى وجه للجغرافيا وليس التاريخ، وأعتقد أن المسألة تتضح إذا تأملنا التطور التاريخى لعلم الخرائط.. فمع مرور السنوات منذ الحضارات

ديورانت: الخرائط كالوجوه تحمل ملامح التاريخ



مقطع من خريطة لمصر - ١٧٨٠

القديمة وحتى وقتنا الحالى مر علم الخرائط بمراحل متعددة.. كل مرحلة منها تحمل ملامح تاريخ عصر ما أو حضارة ما. لذا كان التطور لا يدل على علم الخرائط ولا علم الجغرافيا فقط إنما كان يحمل معه التطور التاريخى لحضارات البشرية ولمفاهيم ومعتقدات الإنسان.

فى الألفية الأولى التى عاشها الإنسان على سطح الأرض أو حتى ما قبل الميلاد ظل يسعى حثيثاً لاكتشاف ذلك الكون الفسيح.. فكان المجهول يتربص به خلف الأفق.. وظل حلم اكتشاف حدود عالمه يداعب خياله.. ومع بداية الألفية الثانية بدأت محاولاته فى تحقيق الحلم عن طريق اكتشاف الأراضى البعيدة من حوله شيئاً فشيئاً وفى كل عام تتسع خريطته لتشمل أرضاً جديدة.. أو شاطىء بحر رست عنده سفنه أو حتى ملامح بشر تختلف عن ملامحه.. كل ذلك يرصده ويحفظ تطوره علم الخرائط كل منها تحمل ملامح تصور الإنسان للعالم من حوله، وفى عام ١٤٩٣ ميلادية كتب بيتر مارثر يقول «إنه أمر غريب.. على اتساع الأرض من حولنا .. لم نتمكن سوى من السفر والتعرف على نصفها فقط..» وأصبح الكون يثير فينا الفضول والشغف والتحسر على مضى الوقت دونما اكتشافه. فالتعرف على المسالك والطرق والتضاريس الأرضية، والأجرام والشمس والمجرات من الخيالات التى داعبت تفكير علماء الجغرافيا والفلك والتنجيم.

ومع الألفية الثالثة أصبح العالم والكون على اتساعه مجرد معلومات ورسوم وخطوط على صفحة خريطة أو على صورة من الصور التى تبثها الأقمار الاصطناعية، فالمعلومات متاحة.. وشاشات الكمبيوتر تواصل تقديم كل ما هو مطلوب معرفته، فلم يعد شىء مجهول، ولا نقطة ظلام تشين خرائطنا.. «فلم يعد هناك مساحات فارغة تحتوى عليها خرائطنا» كما يقول جوزيف كونراد، فقد انتهت أساطير السحر والغموض حول أراضى المجهول.. فالأرض مكتشفة حتى



الأعماق.. والسطح بما يحويه من جبال وأنهار ورمال.. والسماء بما تحمله من غيوم ونجوم بل حتى المجرات بما قد تنطوى عليه من حيوات أخرى بعيدة.

الأمكنة بعيون مختلفة

ولكن هل هذا يعنى بالضرورة أن نفقد الشعور بأهمية مواصلة الاكتشاف..؟ فإذا كان «كريستوفر كولمبوس» قد غامر وأبحر عبر بحر الظلمات طمعا فى الوصول إلى الهند أرض الثروات، واستطاع اكتشاف الأرض الجديدة.. فإن الشعور الذى تملكه هو الشعور بنشوة الاكتشاف.. فهل هذا يعنى أنه ليس من حقنا اليوم الشعور بتلك النشوة خاصة بعد انتهاء عصر الكشوف الجغرافية.. أعتقد أن الكثير من المغامرين والمكتشفين الجدد استطاعوا الاستمتاع بنشوة الاكتشاف ولكن باسلوب ورؤية مختلفة وكما يقول ت. س. أليوت:

يجب ألا نتوقف عن الاكتشاف
فنهاية كل اكتشافاتنا
تقودنا نحو نقطة بداياتنا
لنتعرف على المكان لأول مرة

فنحن لا نذهب إلى أماكن جديدة ولكننا نراها بعيون مختلفة، هكذا قال مارسيل بروست عندما كتب ذكرياته داخل أدغال نهر الأمازون فما معنى أن نفتح ورقة مطوية عليها من الخطوط والرسومات التى تدل على أنها خريطة لنهر الأمازون.. يبدو على صفحتها مسار النهر وضفتيه والأدغال المحيطة به.. ما معنى ذلك؟

فى الماضى كان رسم تلك الخرائط إعجازا لا يضاهيه إعجاز.. أما اليوم فإن وصف شعورنا ونحن وسط أدغال الأمازون بالفعل لا تستطيع الخريطة رصده. فالنهر ليس ذلك المجرى المرسوم فوق مسطح الخريطة، لكنه مجرى مفعم بالحياة لا تكشف عنها الرسوم. بل اكتشافه عن حق يتم عن طريق المعايشة البيئية لأشكال الحياة اليومية للسكان الأصليين، وملاحظة علاقات الأشجار بعضها البعض، والإنصات لتزاوج أصوات الحيوانات والطيور وقت الصباح، وصوت المياه وهى تتدفق بهمة وقت الغروب، إنها علاقات بيئية متعمقة لا تكشف عنها الخرائط، بل الإنسان المكتشف الذى يطغى عليه فضول المعرفة.

الإدريسي: أول جغرافي عربي يقدم خريطة تشمل كل أقطار المعمورة

وعندما تتلبس روح المغامرة الإنسان، فهى كفيلة أن تجعل منه بطلا تتحاكا عنه كتب الجغرافيا، «فجورج ليف مالورى» بطل اشتهر بتسلقه لجبال الألب الأوربية، لكن روح المغامرة دفعته إلى تسلق قمة «إيفريست» عام ١٩٢٤ لا لاكتشافها ولكن «لأنها تكمن هناك» تحتاج لمن يشعر بها ويحتاج للشعور بالكمال والرضا لتسلقها،





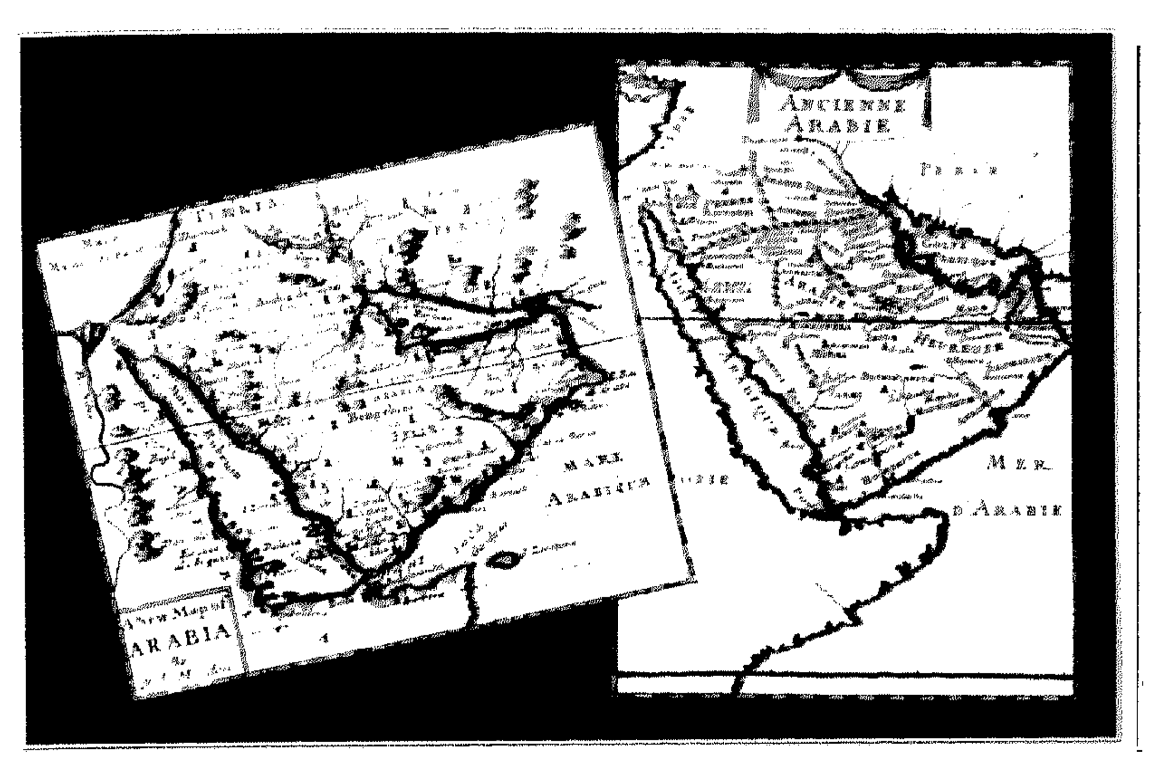
خريطة اسيا وافريقيا -١٦٥١

صحيح أنه اختفى فوقها لكن العالم لايزال يذكر رغبته فى الاكتشاف.

كذلك «جون كراكوور» الذى قرر عام ١٩٩٦ الذهاب إلى أبعد بقاع الأرض، إلى القارة الجنوبية «انتراكتيكا» لا لشىء سوى الوقوف فوق قمة «كوين مودلاند» ليتأمل شروق الشمس من فوقها، عندما تداعب أشعتها الفراغ الشاهق البياض، والذى لا يقطع نقاءه سوى قمم الجبال الصخرية، لم تستطع صعاب الطريق إلى القمة أن تهزم شعوره بجمال المكان أو تثنيه عن مواصلة طريقه لاكتشاف ملامح مولد يوم جديد من فوق قمة الجبل.

ومن أعالى قمم الجبال إلى أعماق البحار.. فإذا كان الوقوف على القمة له بهاؤه، فإن الغوص نحو الأعماق له رونقه أيضا داخل نفس الإنسان المكتشف.

«جاك إيف كوستو» قرر الغوص فى أعماق البحار فقط للاستمتاع بجمال سكونه ورصد أشكال الحياة داخله.. فها هو يكتشف «كهوف باهامين» بل ويسعى إلى تأمل «القروش النائمة»، ويرى أن «الإخوان رايت» حلما بالطيران كالطيور لكنه كان يحلم بالسباحة وسط الأسماك فالعالم بصخبه لا يستهويه ، إنما العالم الصامت القابع تحت الماء هو ما يصبو للعيش داخله، فالسباحة تجعله يتخلص من عبء الوزن والأحمال، وإن كان «كوستو» يرى أن الطيران يحتاج إلى أجنحة ولكن السباحة لا تحتاج إلا إلى الإنسياب وسط الموج، وكان إلحاح



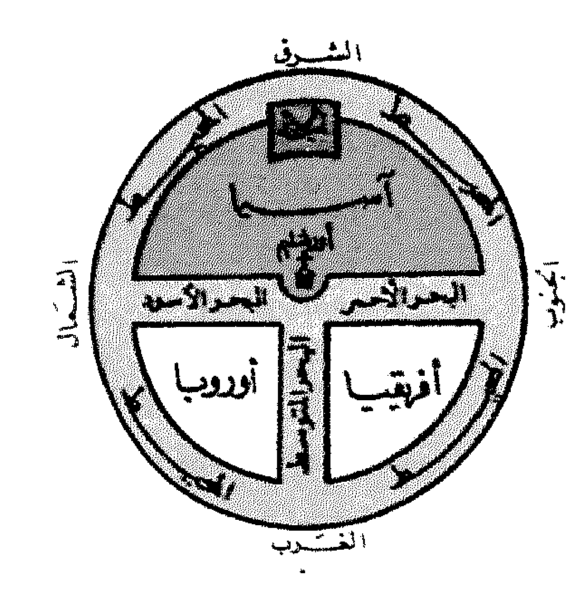
من اليمين خريطة فرنسية لشبة الجزيرة العربية ١٦٩٣ والى اليسار خريطة انجليزية -١٦٨٠

«كوستو» على الغوص قد فتح المجال أمام العديد من الغواصين لمجاراته، لكن يبقى مذاق المرة الأولى من نصيبه .

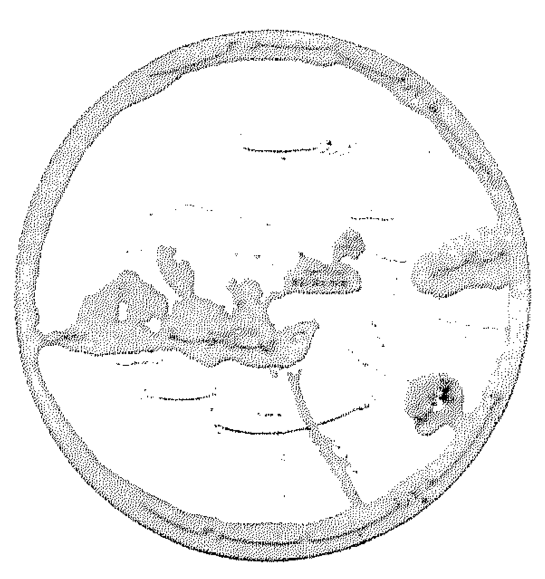
ماإذا يعنى ذلك لايعنى سوى حب الاكتشاف والرغبة فى ملامسة الواقع على أرض الواقع ، لا على الخرائط فقط. إنها نماذج تدل على انتصار الروح الإنسانية، الروح التى لا تهدأ وتيرتها ولا تستكين. فهى فى حالة صراع دائم ، ودأب متواصل من أجل معرفة المجهول وسبر آغواره، فدائما هناك مجهول ما ينتظر من يكتشفه، وهو الدافع المحرك للبشر لبذل المزيد من الجهود.. فإذا نظرنا إلى تطور علم الخرائط لوجدنا ذلك المجهول يهيمن على تصورات العلماء، وهنا تصدق مرة أخرى مقولة «ديورانت» فيبدو وجه التاريخ جليا.

أقدم خريطة معروفة للعالم هى التى وصلت إلينا من العهد البابلى والتى تعود إلى عام ٦٠٠ قبل الميلاد وتصور الأرض على هيئة دائرة يحيط بها الأوقيانوس السماوى الذى يدور فى دائرة أخرى حول الأرض ، وقد سمى «بالنهر الحاد» ووسط الدائرة رسمت بابل كمركز للعالم والخريطة الطينية موجودة فى المتحف البريطانى، ويتضح لنا أن الأساليب البابلية فى رسم الخرائط ظلت مقلدة حتى القرن السادس عشر الميلادى، بجعل مركز العالم عند البلد الذى وضعت الخريطة ، فاليونانيون جعلوا «الألمبوس» مركز الأرض، والرومان روما، والمصريون طيبة، وفى العصور المسيحية صنع «ماريو سانودو» خريطة عام ١٣٢١م على هيئة دائرة مركزها «أورشليم» وجعل





خريطة مارينو سنودو للعالم ١٣٢١ م



خريطة العالم كما عرفه قدماء اليونان ٥١٧ ق.م

الشرق بدل الشمال، لكي تصبح أورشليم تواجه الشرق موضع الجنة، كما جعل الجغرافيون المسلمون مكة المكرمة مركزا للعالم، فالكعبة تتجه أركانها إلى الجهات الأصلية.

وأثناء عصر الفلاسفة اليونانيين تطورت الكارتوجرافيا بشكل مذهل.. فقد لعب الفلاسفة دورا في حل غموض شكل الأرض وتحديد مواقع البحار والقارات، ثم كيفية ثبوت الأرض في الفراغ، وإقرار سكونها أو دورانها وعلاقتها بالأجرام السماوية ، وتعتبر أشعار هوميروس في الإلياذة وكتابات هزيود من أقدم المعارف الإغريقية الجغرافية والتي ترجع إلى حوالي القرن العاشر قبل الميلاد.

ومع أوائل القرن السادس قبل الميلاد ظهر عدد من أشهر الفلاسفة في مدينة «ميلتوس» الإغريقية، منهم «طاليس» مؤسس الفلسفة الطبيعية الذي حاول البحث عن تعليل طبيعة وضع الكون، ثم ظهر بعده الفيلسوف الرياضي «فيثاغورس» أول من قال بكروية الأرض، وأيده من بعده أفلاطون وأرسطو خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ثم جاء الفيلسوف «هرقليدس» ليقول بأن الكرة الأرضية تدور حول نفسها، وظل الفلاسفة من بعده يرددون ما تصوره الفلاسفة اليونان للأرض والعالم حتى ظهر الفلكي «أرسطرخس» في القرن الثالث قبل الميلاد فارتأى أن الشمس ثابتة لا تدور، إنما الأرض هي التي تدور حول الشمس.

وفي النصف الثاني للقرن الرابع قبل الميلاد، انتقل مركز البحوث اليونانية من «مليتوس» إلى «الإسكندرية» في أعقاب إقامة المتحف العلمي ومكتبة الإسكندرية الشهيرة على يد بطليموس الثاني نصير العلم والفنون، فحدث انقلاب حقيقي في

تاريخ الحركة العلمية، فظهر أبرز علماء المكتبة «ايراتوستين» أمين عام المكتبة والذى أيد نظرية كروية الأرض.

وهو أول من قدر فى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد حجم الكرة الأرضية، وبلغ قياسه أعلى مستوى من الدقة وأقرب الأرقام التى توصل إليها العلماء فى عصره، كما وضع أول خريطة للعالم معروفة على شكل مستطيل متوازى الأضلاع، وهى أول خريطة تستخدم خطوط الطول والعرض .

ثم أتى من بعده بطليموس السكندرى الذى ترك علامات تعد أسس علم الكارتوجرافيا من خلال كتابين «المجسطى» و«الجغرافيا» ويعتبر الكتاب الثانى أطلسا عاماً للعالم لما يحتويه من وصف منظم للعالم، وطرق رسم الخرائط، والجغرافيا الرياضية وطرق عمل الأرصاد الفلكية .

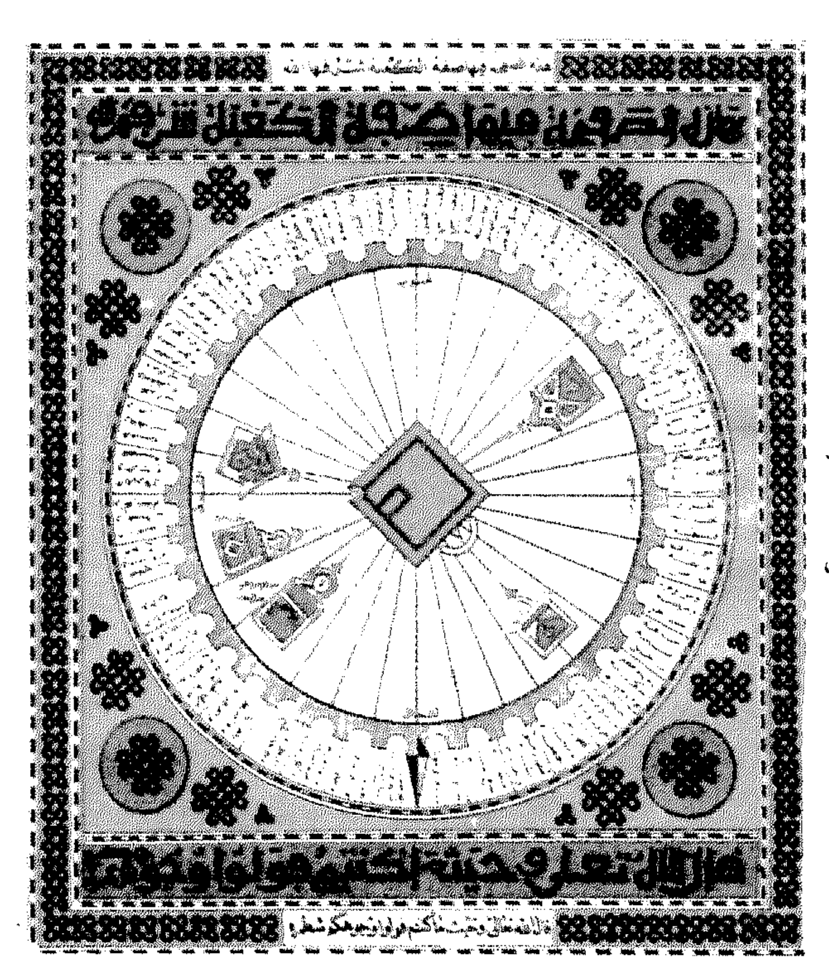
ورغم التقدم فى الدراسات القديمة لعلم الجغرافيا والفلك إلا أنها أخذت تتدهور فى عصر الرومان حيث ساد الجمود فترات طويلة حتى ظهر العرب كما كانت مستوى الخرائط الأوروبية فى حالة انحطاط خلال القرون الوسطى نتيجة تأثير الكنيسة المسيحية، حيث أبسطت الجهود المبذولة فى مجال علم الكارتوجرافيا وما يتصل بالتطورات الفلكية بما يتلاءم وتعاليم الكتاب المقدس، فظهرت خرائط «سانت بيرس» الراهب الذى حاول تقسيم العالم بطريقة كارتوجرافية بين الحواريين الاثنى عشر ، كذلك خريطة «مارينو سنودو» التى سبق ذكرها.

العرب والشغف بالأسفار

وقد شهد علم الجغرافيا وعلم الكارتوجرافيا تطورات متلاحقة بعد بدايات ظهور الحضارة الإسلامية، فيذكر المستشرق الروسى «كراتشكوفسكى» فى كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» أن العرب قد بذلوا أقصى الجهود فى تحقيقاتهم الجغرافية فى القرن الثالث الهجرى - التاسع الميلادى والذى يمثل فترة الانبثاق والانبعاث، إذ تم فيه التعرف على مصنفات بطليموس، وأدى هذا بدوره إلى ظهور الترجمات التى بدأت بها سلسلة الجغرافيا العلمية، كما تشكلت الأنماط الأخرى المتعددة للجغرافيا الوصفية وهى التى أطلق عليها البلدان أو المسالك والممالك، ويرى أن أهم ما اتصفت به الجغرافيا العربية أنها تقوم على أساس المشاهدة الفعلية.. فشغف العرب بالأسفار والجولات إلى مختلف بقاع العالم، وكان أول كتاب ظهر فى الإسلام عن موضوع أخبار البلدان والأقاليم هو كتاب هشام الكلبى



خريطة العالم كما تصورها الادريسي الجغرافي العربي



مكة المكرمة مركز العالم الإسلامي كما تصورها الصفاقسي عام ١٥٥١

المتوفى (٢٠٦ هـ – ٨٢١م)، حيث وضع كتابين «البلدان الكبيرة» و«البلدان الصغيرة»، ظهر بعده كتاب اليعقوبى الشهير بعنوان «البلدان» الذى كتبه فى عام ٢٦٦ هـ . والذى انتهج فيه نهجاً خاصاً على أسس الجغرافيا المدنية

ويستند «كراتشكوفسكى» بمدى اسهام الجغرافيين العرب فى رسم صور للعالم عند مقارنة ذلك بما عرفه العالم القديم.فقد عرف العرب أوروبا بأجمعها باستثناء أقصى شمالها. وعرفوا النصف الجنوبى من آسيا كما عرفوا أفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمال وساحل أفريقيا الشرقي إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدى وترك العرب وصفا مفصلاً لجميع البلدان فى اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة وللمناطق المزروعة والصحارى وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة وأماكن وجود المعادن . ولم يجتذب اهتمامهم الجغرافيا الطبيعية أو الظروف المناخية فحسب بل أيضا الحياة الاجتماعية والصناعة والزراعة واللغة والتعاليم الدينية . ولم تقتصر معرفتهم على بلاد الإسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم القديم كما وصلت رحلاتهم البحرية إلى زنزبار ومدغشقر في أفريقيا.

ويعد العلماء القرن الرابع الهجرى

(العاشر الميلادى) ممثلا لعصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية والذى سمى بعصر البعث الاسلامى. واستطاع «ميللر» أن يجمع حوالى ٢٧٥ خريطة للعالم الاسلامى فقط وجمعها فى «أطلس الاسلام» باستثناء خرائط الادريسى التي مثلت مدرسة جغرافية قائمة بذاتها.

وبل أهتم العرب برسم الكرة السماوية التى كانوا يثبتون عليها مواقع النجوم من القبة السماوية. وأول صورة للسماء صُنعت فى زمن الأمويين. كما اعتادوا استخدام الألوان فى رسم خرائطهم.

وأهم علماء الجغرافيا الذين لمعوا فى الحضارة الإسلامية هو الإدريسى «مؤسس المدرسة العربية النورماندية» لارتباطه بملك صقلية رجار الثاني فلأول مرة فى تاريخ الجغرافيا يتقدم جغرافى عربى بمصنف يشمل جميع أقطار المعمورة ومن ضمنها شمال أوروبا وبلاد الأفرنج بعد أن كانت أعمال الجغرافيين العرب مقتصرة على العالم الإسلامى فقط. نحت على كرة قضية صورة العالم المعمور.

ومع حلول عصر النهضة نجد أن الكشوف الجغرافية فى العالم الجديد قد لعبت دوراً رئيسيا فى تقدم علم الكارتوجرافيا عند الأوروبيين. فخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، شهدت كل من روما والبندقية فى بادىء الأمر حركة لصناعة الخرائط لكل أجزاء العالم المعروف، ثم فقدت إيطاليا مركزها الجغرافى . فتحولت الحركة إلي شمال أوروبا. وظهرت فى هولندا خلال الفترة ما بين ١٥٧٠- ١٦٧٠ ميلادية مجموعة من أكبر صناع الخرائط في العالم ، بل يعتبر عام ١٥٧٠ نقطة تحول، حيث أنتج «اورتيليوس» الكارتوجرافى الهولندى أول طبعة فى أطلسه، واحتوى الأطلس على حوالى ٧٠ خريطة أول الأمر ثم أضاف إليها عدة خرائط بعد ذلك.

ولم يلبث أن أقدم «مركاتورى» على اصدار أطلس العظيم لتظهر كلمة أطلس لأول مرة فى أوربا نسبة إلى «أطلس» ملك مراكش. بعدما نشر عدة خرائط أهمها خريطة لفلسطين عام ١٥٣٧م ولأوروبا عام ١٥٥٤م ولبريطانيا عام ١٥٦٤م ثم خريطة للعالم عام ١٥٦٩م ثم نشر خرائط بطليموس عام ١٥٧٨م.

خلال تلك الفترة ظهرت مجموعة من الخرائط على شكل أطلس وضمها أحمد بن محمد الشرفى الصفاقسى التونسى عام ٩٥٨هـ ١٥٥١م أى قبل أرتيليوس بحوالى عشرين عام.

الأرض وعين الطائر

فى أواخر القرن السابع عشر الميلادي ظهر اثنان من علماء الكارتوجرافيا جاك وجين فرانسوا كازينى اعتمدا على ما يمكن لأعينهما أن تراه عبر انحناء سطح الأرض فوق بلدهما فرنسا. قاما برسم خريطة دقيقة للأراضى الفرنسية كأول خريطة يتم رسمها لبلد أوروبى بالطرق العلمية. شملت الخريطة الطرق والأنهار والقنوات والمدن والبحيرات والخلجان





صورة رقمية لدلتا النيل والمصب في البحر المتوسط كما التقطتها وكالة ناسا لأبحاث الفضاء

والقصور حتى طواحين الهواء في الريف. قاما بنشرها عام ١٧٩٣ فى خضم اشتعال الثورة الفرنسية. ولم تجد استحساناً من قبل الملك لويس الرابع عشر، الذى استنكر فعلتهما واتهمهم بأنهم أظهرا بلده بصورة أصغر بكثير مما تبدو عليه.. «إن عملكم قد كلفنى جزءا كبيرا من دولتى..»

وتوالت المحاولات من بعدها لترتفع أعيننا شيئا فشيئاً حتى اشتعال الحرب العالمية الأولى. حدث اندماج بين اختراعى الطيران والتصوير الفوتوجرافي. مما ساعد علي تطور علم الخرائط بشكل أسرع ويفوق شجاعة كل الرحالة. وصل التطور إلى حد الثورة خلال فترة الحرب الباردة لحرص أطرافها على استحداث التكنولوجيا المستعملة فى اكتشاف تحركات الطرف الآخر، أى أن التطور كان للأغراض العسكرية في الأساس. ورغم ذلك استطاع صناع الخرائط الاستفادة من سعير المنافسة لصالحهم. فتمكنوا من رسم قياس وصورة أكثر دقة للعالم فى ساعات بعدما كانوا لا يقدرون على ذلك خلال أسابيع أو سنين ، واليوم فإن أى من المكتشفين الرحالة لا يطرقون أرضا إلا وقد تزودوا بكافة الأجهزة والأدوات الالكترونية لتربطهم فى الوقت نفسه بما يقرب من أربع أو خمس من الأقمار الإصطناعية من نوع «جى. بى إس» التى تعمل بنظام تحديد المواقع الكونية والتى تديرها ويقوم بتطويرها وزارة الدفاع الأمريكية. وهذا النظام القمرى لديه القدرة على تحديد أهداف الصواريخ ويحافظ على تتبع القوات العسكرية والسفن الحربية لمسافة تصل إلى ياردات قليلة. لذا تزايد استخدام المكتشفون الجدد له خاصة فى تعريفهم بموقعهم بالنسبة للعالم.

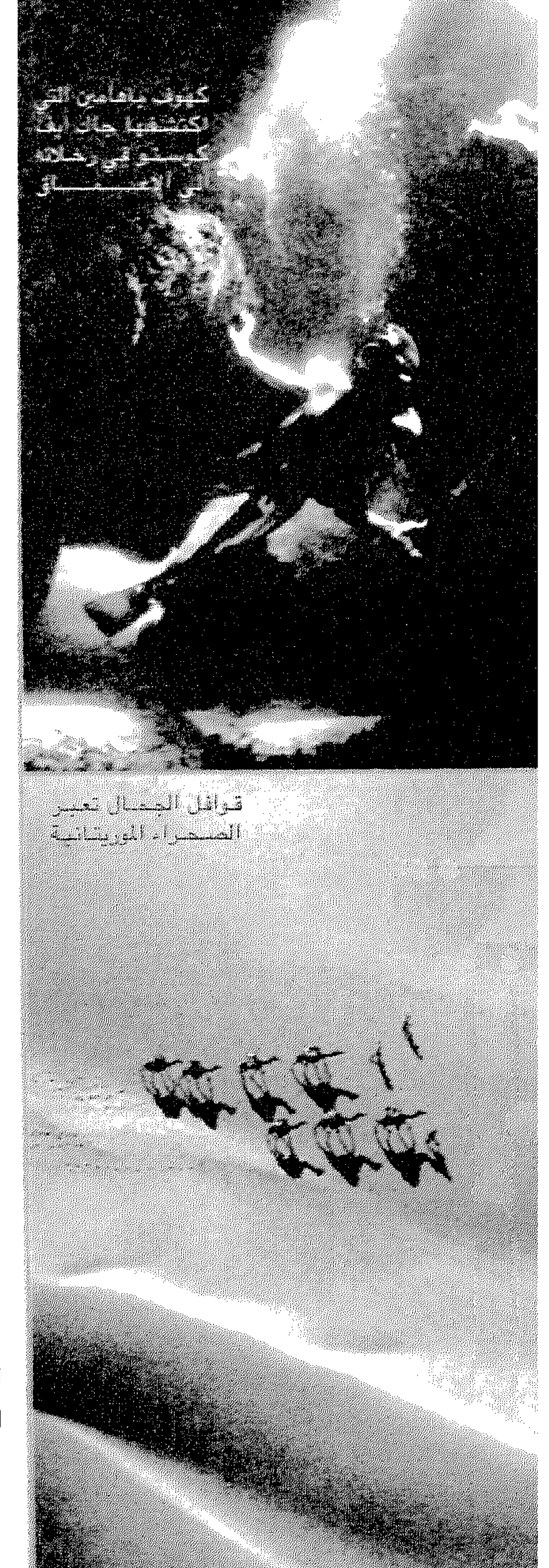
وفى عام ١٩٩٥ كان لنظام «التحكم عن بُعد» أو استخدام كما يطلق عليه «الريموت كنترول» دور كبير فى اكتشاف مزيد من الأراضى المجهولة – فقد تمكن كل من ديفيد ساندور من جامعة كاليفورنيا وولتر سميث من الإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوى من بينهم خريطة بالغة الدقة والشمول لأرضية المحيط لاستخدامها فى

الأغراض غير العسكرية. عن طريق قيام سفن أبحاث باستخدام الموجات الصوتية والقراءات الواردة من الأقمار الصناعية التى ترسم تفاصيل توبوجرافية قاع المحيط ولمدة سنوات طويلة. واستطاعا تحديد أماكن الجرف المرتفعة والمنحدرات العميقة.. مع رصد حركة القارات ومدى تحرك القشرة الأرضية.

عالم بلا حدود

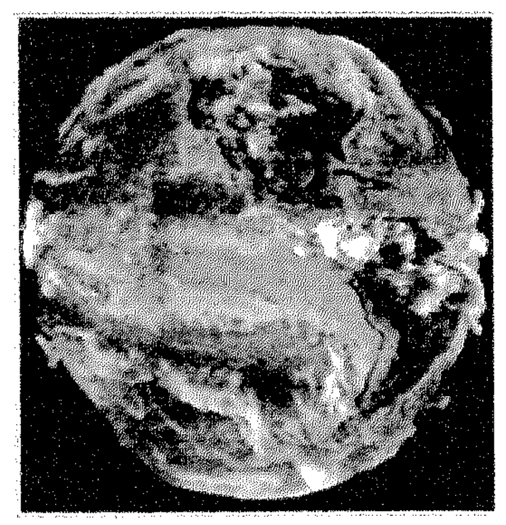
ومع تطور البحث العلمى تمكن العلماء من استحداث نظام للأشعة متعددة الأطياف تستطيع أن تحدد الطاقة الاشعاعية ذات الألوان المتعددة سواء المرئية أو الغير مرئية التحت حمراء المنعكسة من سطح الكرة الأرضية. والباحثون استطاعوا أن يترجموا دلالات تلك الأطياف لتساعدهم على دراسة الحالة الصحية للمحاصيل والأشجار على سبيل المثال. أو معرفة مستويات التلوث فى نهر ما، أو مدى انتشار العوالق أو الكائنات النباتية والحيوانية الصغيرة فى البحار، أو اكتشاف خطوط الصدوع فى القشرة الأرضية المسببة لزلازل. أو حتى مواقع المياه الجوفية المحتملة. ونتيجة لذلك مقدرة جديدة يمتلكها الباحثون تمكنهم من انتاج خرائط متجددة كل يوم طبقا لتغير الظروف والأسباب والأغراض منها.

ومع مزيد من التقدم أصبحت الكرة الأرضية أصغر من امكانيات علماء الخرائط والجغرافيا الجبارة، وتحول الكون بأكمله وعلي اتساعه ينتظر مواهب صناع الخرائط من أجل اكتشاف العلاقات الفضائية الكونية. ودخل بذلك علم



قوافل الجمال تعبر الصحراء الموريتانية

الكارتوجرافيا فى مواجهة كونية بعيدا عن اطار كرتنا الأرضية الصغيرة.. ويذكر أن أحد رواد مركبة الفضاء الأمريكية «أبوللو» تحدث ضاحكاً خلال رحلة دورانه حول القمر عام ١٩٦٩ يقول «لقد خرجنا بعيداً عن إطار الخريطة لذى ماذا



الصور التى تلتقطها الاقمار الصناعية ساعدت العلماء كثيرا علي فهم طبيعة العالم الذي نعيشه

العالم اللامتناهى. وترى عالمة الفيزياء الفلكية مارجريت جلير أن البابليين برغم نقص المعلومات والأبحاث تمكنوا من رسم خريطة للعالم القديم المعلوم لديهم فقط. لذا فإن أى تليسكوب مهما بلغ فى التقدم سيعطينا

سنجد هناك» لكن اليوم الأمر اختلف تماماً. ومع استخدام التلسكوب والفوتوجرافية والاعتماد علي الريبوت الفضائى أصبح لدينا كارتوجرافيا كونية تتعمق داخل الكون بهدف إعداد خريطة على سبيل المثال لنطاق التفاعلات غير المرئية بين المريخ والأرض. ويتحول الكون على اتساعه إلى مجرد مجرات كما يقول عنها جون هوتشرا «المجرات مثل الجزر الصغيرة والتجمعات الضخمة منها تحاصرها البحار وسط فضاء فارغ».

وهذا يقودنا إلي تساؤل غريب، ما هو الغرض من كل تلك الخرائط؟ هل الغرض هو رسم نموذج مصغر للكون فقط. هناك نظرية معارضة ترى أن الكون بما فيه من مجرات غير قابل للنظامية. أى هل ستتمكن الخرائط من وضع نظام خاص يربط بين المجرات التى تمتد إلى ما يقرب من نصف بليون سنة ضوئية عبر الفضاء. إنه أمر يثير استعجاب علماء الفلك. كونه يخلق حائطا ضخما ليعلن عنده نهاية

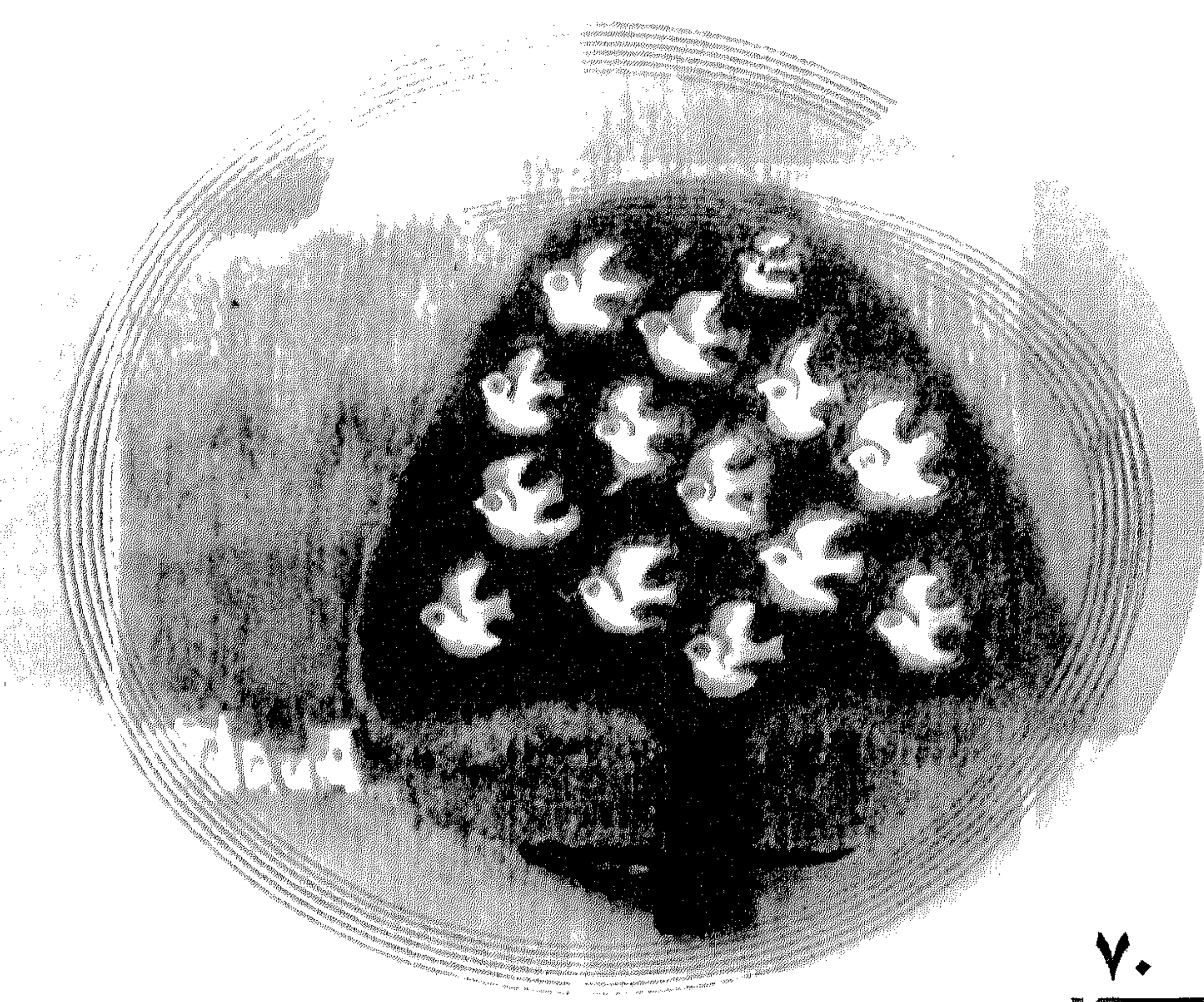
صورة محدودة للفضاء، لكنها تتنبأ بأن عمليات صنع الخرائط الكونية اليوم أصبحت أقرب إلى محاولة تصوير العالم أجمعه من منطلق أبحاث جزيرة «رودى» لكن بعد مضى قرن من الزمان من الممكن أن يتم رسم العالم المنظور على خرائط».

وتعود مرة أخرى التساؤلات لتطرح نفسها .. هل انتهى عصر الاكتشاف؟ أم أننا أمام عصر اكتشاف من نوع خاص.. فلاتزال هناك أماكن أعلى مستوى من قدرة عقل الانسان على تخيلها حتى الآن.. وكأننا نعود مرة أخرى إلى نقطة بداياتنا كما يقول «إليوت» فلايزال المجهول قابعا ينتظر من يكتشفه. وبرغم ما توصلنا إليه فنهاية اكتشافاتنا هى نقطة لبدء أكتشافات جديدة، وكأننا نرى المكان للمرة الأولى..

■

الإسلام
وصوت الإنسان

جزء خاص



٧٠

ذو الحجة ١٤٢٢هـ مارس ٢٠٠٢م

زمن المصالح لا زمن الحضارات

العباءة والصاروخ

هل تستطيع البشرية تجاوز أزمتها..؟

بقلم
مصطفى نبيل

على كل من يقف دفاعاً عن الإنسان، وكل من يتمسك بما حققته البشرية من تقدم، أن يدافع عن مجموعة القيم المعرضة للانهيار، وسط الصراع الذى يشهده العالم.

هذا الصراع الذى غابت منه الحكمة وتفجرت فيه غريزة الانتقام.

بات الخطر يتهدد البشرية، مخاطر قديمة وأخرى جديدة، ولم يعد الخطر مقصورا على بلد واحد أو قارة بعينها بل أصبح عابراً للقارات، وإذا كانت المخاطر القديمة هى نقص الموارد وزيادة السكان، فالمخاطر الجديدة تتمثل فى مثلث الخطر، الإرهاب والجريمة المنظمة وتلوث البيئة، وبدلاً من أن تتضافر جهود البشر من أجل مواجهة جميع هذه المخاطر. اشتعلت حرب مفتوحة هى - فى الواقع - لا تختلف كثيراً عن الإرهاب، ويكفى أنها لا تفرق بين الشعب وحكامه، أو بين الشعب وطالبان وتنظيم القاعدة، وهى مثله تقتل نساء وأطفالاً أبرياء.

وغاب عن بال مشعلى الحروب هؤلاء، المخاطر الحقيقية التى حذر منها الباحثون والعلماء، الذين حذروا من قيام مجموعات صغيرة عالية الكفاءة، يستخدمون الأسلحة البيولوجية والكيماوية، التى جعلتها ثورة المعلومات تحت أنامل من يطلبها على الانترنت، عندما تواجه البشرية تحالف الشر والعبقرية، واتفاق التعصب والتقنية.

ووقف عندما وقعت الواقعة وأصيب البنتاجون ومركز التجارة العالمى على مفترق طرق، فإما العمل على القضاء على القهر والظلم الذى يمد مثلث الشر بالحياة، وإما طريق الحروب وتفجير طاقة التدمير لدى البشر.

ويخبرنا الكاتب الأمريكى ألفين توفلر قبل أحداث ١١ سبتمبر مدى عمق الخطر الذى يمثله الإرهاب، وعدم جدوى استخدام العنف للقضاء عليه، يقول.. «أكتب من أجل كل أبرياء العالم، الذين سيقتلون دون ذنب جنوه وبأسباب لا يعرفونها ولا يفهمونها.. فلا يمكن أن تنقذ البشرية من


الفين توفلر


صموئيل هنتنجتون

الإرهاب المسلح بالتقنية، إلا إذا قضينا على الجوع وعالجنا التلوث وقدمنا تكنولوجيا نظيفة تخدم البشرية.. وعندما يقبل أبناء القرن الجديد التنوع بكل صوره، تعود الثقافات والحضارات، واختلاف العادات والتقاليد للشعوب، فهذا التعدد والاختلاف هو سمة العصر الجديد، وهو الذى يساهم فى تشكيل ملامح المستقبل» ويؤكد.. «إن طريقة معالجتنا للعنف هى التى ستحدد مصير الأجيال المقبلة، وهل سيحيا أبناؤنا أم يموتون ضحايا..».

ويدرك الكاتب أن الإرهاب يعنى خللا فى المجتمع أو فى العالم، وأن ما أحدثته ثورة الاتصالات من تحول فى الثروة وفى السلطة بعد أن غلبت قوى اجتماعية جديدة قوى قائمة .. مما يشيع العنف، يذكر فى كتابه تحول السلطة.. «أى نظام يقوم على التوافق بين الطريقة التى ينتج بها الشعب وبين ثروته، والطريقة التى يحكم بها نفسه، فإذا تنافر النظام السياسى مع النظام الاقتصادى، فلابد أن يسعى أحدهما لتحطيم الآخر..» ويقول أيضا.. «يدور الصراع بين القديم والجديد تحت مسميات شتى، مثل القومية والدين، وهو جزء من صراع تاريخى قائم، يتجدد من أجل إعادة بناء المؤسسات حتى تتوافق مع الاقتصاد الثورى الجديد.. والعدد الكبير من المشكلات المتراكمة التى تواجهها المجتمعات الصناعية هى فى حقيقتها أعراض هذا الصراع. خاصة عندما تكون هذه الأزمات غير قابلة للحل فى إطار المؤسسات القائمة – ومازال الكلام للكاتب – تؤكد ثورات العالم ذلك وهى الثورات الثلاث المتباينة، الأولى الزراعية ورمزها «الفأس» والثانية الصناعية ورمزها



«خط التجميع الصناعى»، والثالثة الاتصالات ورمزها «الكمبيوتر»، أى الإيذان بانتهاء عصر الصناعة وقيام عصر المعلومات الذى من الطبيعى أن تصاحبه معاناة ومخاض كبير.. فعند الانتقال من الزراعة إلى الصناعة ، فقدت ارستقراطية الريف مكانتها وتحولت قصورها إلى متاحف، واليوم تتزعزع كل أعمدة نظام السلطة القديم بعد ظهور نظام جديد لإنتاج الثروة»، ويتنبأ قائلا.. «وهذه مقدمة لمعارك طاحنة تأخذ صورا متعددة، فالانتقال من اقتصاد المصانع القديمة إلى اقتصاد الكمبيوتر يتطلب انتقالاً واسعاً للسلطة من ظهور المال، فوق الرمزى، والذى يظهر من الثروة التى حققها مثلا «بيل جيتس» من صناعة برامج الكمبيوتر، وتظهر أيضا من قائمة أغنى عشرة مليارديرات فى أمريكا، سبعة منهم كونوا ثرواتهم من وسائل الاتصال أو فى مجال الخدمات والبرامج بدلاً من الإنتاج الصناعى، وعندما تحولت النقود إلى نبضات الكترونية».

وبالفعل .. شهد العالم العنف والثورات وظهور الحركات الإرهابية ، وما يسمى بحركات الفوضوية، خلال التغيرات الجذرية والتى كانت إيذانا بظهور أوضاع اجتماعية جديدة.. والتى كانت تقتصر على أوربا والتى امتدت اليوم لتشمل الكوكب كله.

السيف أم غصن الزيتون؟

وتتداخل الصراعات المحلية مع تلك العالمية ، ويمكن التأكيد على أن الصراعات الدولية تقوم على الاعتبارات الاستراتيجية وليست المعتقدات الدينية، وإن كان حسن وفن إدارة الصراع يقتضى تفسيره بعناصر ثقافية أحيانا وحضارية أحيانا أخرى أو لأسباب عقائدية لمجرد الاستهلاك سواء الداخلى أو الدولى.

أقول هذا رداً على هنتنجتون صاحب نظرية صدام الحضارات، والذى كتبت الكثير من الصفحات فى نقد نظريته، والحقيقة أننا لسنا أمام نظرية متكاملة، ولا جدوى من مناقشة ما هى نظريته من ضعف ، ولا جدوى أيضاً من التأكيد على أن معظم الحروب التى اشتعلت فى القرن العشرين كانت داخل الحضارة الغربية الواحدة، ولا جدوى أيضا من التأكيد على أن «قوس الأزمات» أو

«المنطقة الحرجة» الذى يضم العالم الإسلامى، لا يتمتع بالضرورة بالتوافق السياسى أو الاجتماعى، بل فسيفساء من عدة تجمعات قومية أو دينية أو إثنية تتفق أحياناً، وكثيراً ما تتصارع، ولا معنى أيضا للأبحاث والدراسات الأكاديمية التى تصدت لهذه النظرية، ولا جدوى من مناقشة الفروق بين الثقافة والحضارة ولا معنى للقول.. «إن الحضارات لا تسيطر على الدول بل الدول هى التى تسيطر على الحضارات».

فنحن إزاء برنامج عمل أمريكى، وكأن ما يجرى بعد ١١ سبتمبر هو تنفيذ لهذا البرنامج ، فمجلس الأمن القومى الأمريكى هو الذى كلف هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد للقيام بهذه الدراسة، وعنوان المشروع البحثى الذى كلف به هو «الظروف الأمنية المتغيرة والمصالح القومية الأمريكية».

ولا معنى لاستدعاء التاريخ لاثبات قيام الحرب بسبب المصالح فقد شهد العالم صراعات قومية وأخرى طبقية، وصراعات استعمارية بين المركز والأطراف، أو بين قوى محلية وأخرى كونية.

فمثلا إذا استعرضنا السياسة الخارجية المصرية، نجد أن لمصر علاقات وثيقة بكل من الصين والهند رغم نزاعها مع باكستان، وتقف إلى جانب وحدة جزيرة قبرص، ووقفت فى الماضى ضد الحلف الإسلامى الذى كان يضم العراق وإيران وباكستان علاوة على كل من بريطانيا وأمريكا.

ألا يلفت النظر طبيعة التحالفات المؤقتة ذات الأهداف المحددة، والتى تقوم على تخوم العالم الإسلامى تلك الكتلة الحرجة فى قوس الأزمات، التى انضمت إليه كلا من روسيا والصين، وأيدت أمريكا الهند فى صراعها مع الباكستان، رغم ما قدمته الباكستان لأمريكا خلال حربها فى أفغانستان، وتحالفت مع كل من كينيا وأثيوبيا ضد الصومال، والأدهى ما شهدناه من تغيرات كبيرة فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى، والوقوف مع الصهيونية صاحبة أكبر سجل إرهابى شهده التاريخ، وضد حق الشعب الفلسطينى فى تحرير أرضه، بل وتخلت عن الكثير من مواقف التأييد السابقة، واعتبرت كل من حماس والجهاد والجبهة الشعبية



منظمات إرهابية، وفى الوقت نفسه تعتبر حركة «جون جرنج» التى تحمل السلاح فى جنوب السودان حركة تحرر وطنى!!

ولم تلتفت إلى الجماعات الإرهابية فى كل من أمريكا اللاتينية ولا إلى جماعة الباسك فى إسبانيا، ولا الشين بيت فى ايرلندا، ولا منظمة ١٧ نوفمبر فى اليونان، ولا جماعة الحقيقة السامية فى اليابان، ولا جبهة نمور التاميل فى سيريلانكا، وإرهاب أطول وأقدم عمراً داخل الولايات المتحدة ذاتها.

واعتبرت حماس والجهاد حركات إرهابية لأنها حركات ذات بعد دينى، وتتجاهل مثلا ما جرى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما لجأ الجميع إلى الله، وتوجه الشعب السوفييتى إلى الكنائس وهو الشعب الذى أعلن إيمانه بالمادية الجدلية.

الإسلام والكونفوشيوسية

ومما يلفت النظر ما يدعيه صاحب نظرية صدام الحضارات من أن الصدام سيتم بين الحضارة الغربية فى مواجهة تحالف بين الإسلام والكونفوشيوسية، ويسعى إلى اجهاض أى احتمال تعاون بين الكتلة الحرجة وبين الصين تلك القوة الجديدة البازغة.

يقول هنتجتون.. «ليست الأصولية الإسلامية هى المشكلة المهمة بالنسبة للغرب بل الإسلام ، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضآلة قوته.. ويضيف .. «وهم أكثر تورطا فى العنف من أى حضارة أخرى، فللإسلام حدود دموية»!!

وربما يهدف برنامج العمل الأمريكى ، أقصد نظرية هنتنجتون، إلى خلق عدو، فصناعة العدو تساعد فى ضخ الأموال فى آلة الحرب الضخمة، وفكرة صناعة العدو فكرة غريبة وغير إنسانية، وبدلاً من العمل على تنمية العالم وإحداث التوازن بين المركز والأطراف، بعد نهاية الحرب الباردة، تبحث أمريكا عن عدو، رغم إنها إذا ضخت الأموال التى تذهب إلى العتاد الحربى فى تنمية العالم، لبعد شبح الحرب والإرهاب معاً، وتلاشت احتمالات الصراع، وألغيت الفجوة بين المركز والأطراف، وقضى على القهر والفقر، ونعمت البشرية بوحدتها.

ويفسر البعض برنامج العمل

الأمريكى، برغبة الولايات المتحدة فى الحفاظ على مركزها كأقوى دولة فى العالم اقتصاديا وعسكريا، فى العصر الراهن. ولكى تحافظ على تفوقها عليها أن تحسم الأمر فى تلك الكتلة الحرجة التى لم تحسم أمورها بعد!

الجانى والضحية!

عند استخدام العنف ضد الإنسان، لا تنهار الضحية وحدها، وإنما يسقط الجانى والضحية معاً، ويدفعون غاليا معاً.

فعندما أعلن بوش الابن الحرب المفتوحة، أخذت تتهدد وتتآكل الكثير من الانجازات الأمريكية التى تميز الحياة الأمريكية، وأخذت تنتهك العديد من مبادىء حقوق الإنسان، والذى أعلنه «اليانور روزفلت» عقب الحرب العالمية الثانية، والذى جاء حصيلة جهد بشرى ونضال أجيال وراء أجيال للارتقاء بالإنسان.

فما يجرى اليوم يمس القيم الرئيسية التى تقوم عليها الولايات المتحدة الأمريكية التى تضم أعراقا مختلفة، وأديانا متعددة يضمها جميعاً حقوق المواطنة الأمريكية، فهى أمة من المهاجرين، وإن اتخاذ أى موقف ضد دين أو عرق يهدد تماسكها الداخلى، وهى قضية حيوية تتعلق بالمستقبل، فقد مر التاريخ الأمريكى بمرحلتين، المرحلة الأولى تقوم على فكرة أن المجتمع الأمريكى «سبيكة» واحدة، صنعتها القيم المشتركة والمواطنة، وعندما برزت جماعات تتمسك بلغتها أو تقاليدها، تخلت أمريكا عن فكرة السبيكة، وتحدثت عن طبق السلاطة الذى يضم أنواعاً مختلفة من الخضراوات والتى تصنع معاً طبقاً واحداً.

لذلك لم يعد مقبولاً فكرة سيطرة الواسب أى الأنجلوسكسون على الحياة السياسية والاقتصادية فى أمريكا.

وأخذت تهتز وتتهاوى أعمدة النظام الأمريكى القائم على الحرية، وتعرضت حرية التعبير للخطر ، واختلط الأمر بين الإعلام الذى يزيد معرفة المتلقى وبين الدعاية والتلاعب بالعقول، أى بين الدعاية وبين التحليل الموضوعى، خاصة أن الإعلام الأمريكى الذى يقوم على الصور والانطباعات أكثر من الكلمات والأفكار.

وكتب «تيرى اجيلتون».. «إنهم يستخدمون الأزمة كذريعة لكى

يدوسوا على حريتنا المدنية، لقد أصبحت الولايات المتحدة عقب التشريعات الأخيرة دولة الحزب الواحد».

وبدلاً من أن تتمتع البشرية بالانجازات الكبيرة للتقدم التقنى الذى حققته أمريكا، أظهرت أمريكا وجهها القبيح المتمثل فى تساقط القنابل وإطلاق الصواريخ.

ووضعت القيود على حركة المراسلين العسكريين خلال الحرب ضد الإرهاب، واختفت الشفافية، ولا يمكن أن يرى المواطن سوى ما تريد له الإدارة أن يراه ، واختفى حق المتهم فى محاكمة عادلة، واختل حق الملكية المصان عندما صودرت الأموال دون حكم قضائى، وتراجعت حرية السوق عندما وضعت القيود على حركة الأموال، واختفى الحق فى الحصول على المعلومات!

ولم تتمكن ثورة المعلومات بكل ما أنجزته من أن توفر المعلومات والحقائق لمن يطلبها، وعقب توارى الحرية اختفت الخصوصية، وأصبح من حق الإدارة التنصت على محادثات الأفراد ومراقبة رسائلهم بلا أمر قضائى.

وأصرت السياسة الأمريكية على معاملة أسرى الحرب خارج اتفاقيات جنيف، ونقلتهم إلى قاعدة عسكرية أمريكية متجاوزة سيادة دولة هى كوبا.

وجاءت أحداث سبتمبر لكى تقدم فرصة تصفية الوحش الذى سبق وقامت المخابرات المركزية بتدريبه وتسليحه واستخدمته فى جعل أفغانستان فيتنام السوفييت، وبعد أن أنهى مهمته فى ظل التحالف المزعوم بين الأديان ضد الإلحاد!.

ويقول الكاتب الأمريكى فريدريك جيمسون .. «إن بن لادن صناعة أمريكية، وأحد نتائج الحرب الباردة..، وما يحدث ليس إلا نوع من الرد الجدلى، وبالتالى لا يجوز أن تدهشنا ردود الفعل».

وهو ذاته الذى حدث من قبل عندما شجعت الولايات المتحدة العراق فى شن الحرب على إيران، وأمدته بالعتاد، وبعد نهاية الحرب كان من الضرورى تصفية القوة العسكرية للعراق والتى ساهمت فى قيامها.

وبهذا يتأكد أننا فى زمن السوق لا عصر العقائد، زمن المصالح لا زمن الحضارات. ■

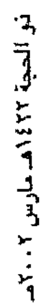
من الاستشراق إلى الاستغراب

وبالعكس

بقلم
جميل مطر

في ١١ سبتمبر كانت البداية . في ١١ سبتمبر كانت النهاية. العالم بعد ١١ سبتمبر غير العالم قبل ١١ سبتمبر. الغرب يكتشف الإسلام يوم ١١ سبتمبر. الإسلام بعد ١١ سبتمبر لن يكون مثل الإسلام قبل ١١ سبتمبر.. هذه العناوين وغيرها بالعشرات تزدحم بها منذ ١١ سبتمبر مئات أو آلاف الصفحات المكتوبة، كما تزدحم بها الشاشات المرئية والإذاعات المسموعة. أقل التحليلات جاد ومتعمق وأكثرها غوغائي يتبادل الحجج قديمها وحديثها أو يتبادل النعوت، وبعضها عنصري أو يستهدف الرأي العام في كافة الجهات لشحنه استعداداً لحرب طويلة، أو لإبعاد شبح هذه الحرب.





يخيل للمتابع أن قطاعات واسعة من المفكرين في الشرق والغرب وجدوا في ١١ سبتمبر ضالتهم المفقودة، أما الضالة الضائعة فكانت أي قضية أو قضايا يمكن أن تشد المفكرين في كل مكان إلى الاهتمام بها. كادت العولمة تحتل الموقع الرئيسي في اهتمامات الفكر العالمي لولا أنها لم تشبع كاتبا ولا أشبعت جمهورا. وحاول قطاع آخر، ولعله فرع في نفس القطاع، من المفكرين الانشغال بقضية صدام الحضارات وحوارها وانتصار الغرب وصولا إلى خط النهاية، أي نهاية التاريخ، مخلفا وراءه أو متناسيا تجارب وحضارات أمم كثيرة ليجمعها المؤرخون في سجلات ومجلدات أو ليلقوا بها في سلة مهملات التاريخ ونفاياته.

وجاء ١١ سبتمبر وانقضى. وبدأت الحرب ضد الإرهاب ، ومعها بدأ تهافت مفكرين في الغرب على قراءة الإسلام والكتابة عنه. معظم الكتابات المبكرة كتبها انتهازيون لهم مصالح تخدمها تعبئة الرأي العام الغربي ضد المسلمين والعرب أو ضد «الأجانب عموما والمهاجرين خصوصا» . وتراجعت، أو انحسرت ، مقالات المتخصصين بالعلم والمعرفة في الإسلام عقيدة وتاريخا، وانطلقت حملة للتشهير ببعض هؤلاء بحجة أنهم تسببوا في تخدير أجهزة صنع السياسة في الغرب، فلم تعد ترى الخطر الإسلامي. أو أخفوا عنها حقيقة أنه دين يفرخ إرهابيين ولا يحمل أي خير للإنسانية والسلام والرخاء. ثم تأكد الحجم الكبير لهذه الحملة وتأكدت خطورتها عندما انعقد المؤتمر السنوي لرابطة دراسات الشرق الأوسط، وهي الرابطة التي تحتضن آلاف الأكاديميين المهتمين بالشرق الأوسط والمتخصصين في قضاياه وعقائده وتاريخه وأعراق شعوبه.

وتعاقبت المقالات المثيرة للصدام الحضاري بعد أن وقع اصطدام الطائرة بالبرجين. فكتب هوروتيز في جريدة «وول ستريت جورنال» مقالا جعل هدفه الدعوة إلى «إنقاذ المسيحيين من ظلم المسلمين»، واختار بخبث ومكر شديدين شعار «المسيحيون هم يهود القرن الحادي والعشرين» وبلغ المقال درجة من الاستفزاز جعلت كاتبا صهيونيا آخر أكثر شهرة وهو «أبي روزنتال» يعلق على المقال بقوله «لقد ايقظني صراخ هوروتيز».

وعلى الجانب الآخر، أي في الشرق، انشغل الكل، سياسيون ومفكرون بالوجه الآخر لهذه الحملة، أي بصورة الإسلام عند الغرب، وتنافس المتنافسون شماتة في التيارات الدينية أو رغبة في دفع عجلة إصلاح الدين أو جلدا للذات بادعاء أننا سلالة حضارة دنيا وفاسدة ومتخلفة وأن الغرب متفوق اخلاقيا وحضاريا وأننا في حاجة فعلية إلى غزوة إمبراطورية

أخرى على نسق الحملة الفرنسية على مصر التى وقعت فى أواخر القرن الثامن عشر. وأذكر أننى علقت فى محاضرة على هذه الحملة من المقالات والتصريحات والندوات المهتمة بتحسين الصورة فقلت إنه لو استمرت هذه الحملة فسنكون قد ابتدعنا تخصصا جديداً، ألا وهو الاستغراب . قصدت وقتها أننا – أى قادة ومفكرى عالم الشرق الإسلامى – سننشغل بمهمة تحسين صورتنا عند الغرب إلى الحد الذى قد يدفعنا إلى بذل محاولة جديدة لفهم «هذا» الغرب، ثم التعمق فيه وصولا إلى أقصى أعماقه لكى يرانا كما نريده أن يرانا، وفى النهاية يرضى عنا. لن يكون هدف الاستغراب تقليد الغرب وهو الأمر الذى حاوله كثيرون فى كافة النخب السياسية والثقافية العربية والإسلامية وفشلوا أو نجحوا «فرديا» بدرجات متفاوتة. ولن يكون الهدف «تشريح» الغرب بغرض التعرف على مفاصله ومفاتيحه للولوج من أجل الاندماج أو الذوبان فيه. الهدف – فى رأيى – سيكون محاولة جديدة للتعرف على بعض العقد المستعصية التى تحول دون رضاء الغرب عنا.. والغرض من هذه المحاولة فى النهاية هو إيهام الغرب بأننا طيعون فى الغالب، مسالمون فى الواقع. إن كرهناه أحيانا فبسبب سياساته. نريد أن نكون على صورته، بشرط ألا نتخلى عن الجوهر فينا والأصول والتراث والتاريخ والهوية وأشياء أخرى لا نريد أن نفقدها. بمعنى آخر، نبقى على حالنا ولكن تتغير صورتنا، هذا هو جوهر «الاستغراب» حسب رؤيتى. سيكون التركيز على تغيير الصورة، بينما دوائر فى الغرب تريد تغيير الأصل كشرط لتغيير الصورة.

وفى عدد منتصف يناير من مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» وهى واحدة من أهم المجلات الامريكية التى تعنى بالشئون الثقافية، كتب إيان بوروما وأفيشاى مارجاليت مقالا تحت عنوان «الاستغراب»، أعتقد أنه من أهم ما كتب فى الدوريات الغربية منذ تدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك والاصطدام بأحد أضلاع البنتاجون فى واشنطن، ويقدم الكاتبان فى المقال تعريفا للاستغراب يختلف عن تعريفى له. فالاستغراب بالنسبة لهما يعنى العداء للغرب. وفى ظنى أن هذا التعريف يشى بالفهم الذى يحمله الكاتبان للاستشراق ، وهو أن الاستشراق يعنى الكراهية للشرق، وبمعنى أدق الإسلام والمسلمين.

وبناء على هذا التعريف يعتبر الكاتبان أن أصول الاستغراب موجودة فى الفكر الغربى ذاته. والدليل الذى يقدمانه هو أن النازية كانت أحد أهم مظاهر الاستغراب، أى العداء للغرب ومبادئه، فقد تصور النازيون أن الغرب يسيطر عليه اليهود، بل وأن بريطانيا وفرنسا وأمريكا تحديداً قد تهودت وهو الرأى الذى اعتنقه وبشر به هيوستون ستيورات شامبرلين الأب الروحى للنازية. ويستطرد الكاتبان متعقبين أصول الاستغراب فيكتبان عن الفيلسوف أوزوالد سبنجلر الذى حذر فى عام ١٩٣٣ من أن التهديد للغرب، سيأتى يوما من الشعوب الملونة. وتنبأ بانتفاضات شديدة فى المستعمرات الأوروبية فى آسيا وافريقيا، وباستعادة الروس آسيويتهم التى فقدوها منذ قرون، وبالخطر الأصفر الزاحف نحو الغرب. وتنبأ أيضا بأن العنصر الأبيض سيصبح أقلية فى الدول الأوروبية. ولعل أهم ما خلفه سبنجلر من رؤى متشائمة عن الغرب تلك الرؤية التى تتوقع هزيمة الغرب على أيدى الشعوب الملونة، فالغرب سينهزم لأن الإنسان

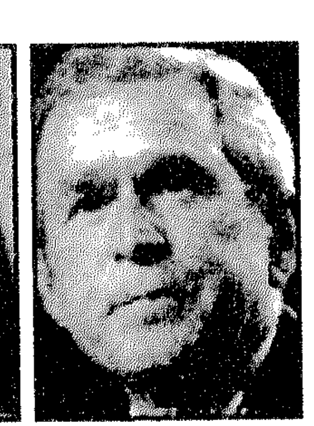


الأبيض «أصبح رخواً ومنحرفا ومدمنا للراحة والأمان». ثم سجل سبنجلر عبارته الشهيرة «موسيقى الجاز ورقصات الزنوج هما المارش الجنائزى لحضارة عظيمة».

وقبل أن يصل الكاتبان إلى الحديث عن موضوعات مثل عقيدة الموت إشارة إلى رغبة بعض المتطرفين الإقدام على الانتحار وتحليل دوافعها، ومثل الأفكار الشائعة عن الشرقيين والغربيين ، ومثل تفاقم الأصولية الدينية في الولايات المتحدة ومثل مفهوم الجهاد وبن لادن وعلاقة الأصوليات بمفهوم الرجولة، يعرض الكاتبان وجهة نظرهما فى أصول الاستغراب، أى العداء للغرب، وجذوره، ويركزان على أمريكا تحديدا، ليس فقط باعتبارها الرمز الجديد للغرب، ولكن أيضا باعتبار ان قطاعات كثيرة فى الغرب نفسه تعتقد أنها سبب المشكلات الراهنة فى الحضارة الغربية وبخاصة فسادها وانحرافها، ويتصور الكاتبان أن الاستغراب بهذا المعنى، أى بمعنى الكراهية للغرب عموما والولايات المتحدة خصوصاً، يعتمد على عناصر أربعة، كلها معا وكل منها منفرداً يستحق التوقف عنده قليلا.

يطرح «أيان بوروما» و«أفيشاى مارجاليت» فى مقالهما عن الاستغراب فكرة أن المدينة والعقل والبورجوازية والنسوية عناصر أربعة شكلت أسس الكراهية للغرب، أى شكلت أسس مفهوم الاستغراب، ويفسران فكرتهما بفكرة ليست أقل غرابة، يقولان إن هذه العناصر الأربعة تشترك فى مقومات معينة هى الغطرسة، والوهن والشره والانحلال والانحطاط. وأن جميع هذه المقومات هى صفات الغرب، وبتحديد أكثر هى صفات أمريكا.

نأخذ المدينة مثلا . يقال إن المدينة لها تقاليد وتمارس سلوكيات معينة يفرضها



بوش الابن   بن لادن

انشغال سكان المدينة بالتجارة، ويفرضها أيضا الاختلاط الوثيق بين الأعراق التى تعيش فيها فى تلاصق شديد. وفى المدينة، أو بسببها، يمارسون الحرية فى الفن والكتابة والجنس. وفيها كذلك الراحة والأمان والثروة والقوة والنفوذ. وليس غريبا ان تكون كل هذه المواصفات مكروهة لدى حكام اشتهروا بحب السيطرة وباشتهاء الحكم والسلطة والاستبداد فى الرأى. من هؤلاء الزعيم الصينى الاسبق «ماوتسى تونج» وحاكم كامبوديا الرهيب «بول بوت» ودكتاتور ألمانيا النازية أدولف هتلر وقادة اليابان فى العهد الفاشى. وبالفعل يلاحظ أنهم جميعا، وبدون استثناء. مجدوا الفلاح وأسبغوا عليه صفات من نوع البسيط والمؤمن وطاهر القلب. تحدثوا جميعهم عن هذا الانسان البرىء الذى لم تفسده المدينة، والمرتبط بالأرض والوفى لعمله والمطيع للسلطة، وأستطيع شخصيا أن أتفهم هذه الفكرة، بل وأجدها بالفعل فكرة تستحق المناقشة، خاصة أنها منتشرة بين عدد كبير من المفكرين العرب وأغلبهم نشأ فى مجتمعات زراعية أو تقليدية ، وبعضهم تغنى فى مرحلة من حياته بمزايا أهل الريف وخصالهم الحميدة التى يفتقدها سكان المدن، وكثير منهم يحن فى ساعات الضعف والمرض

والوحدة إلى أيام الريف.

إلا أن خصالاً ريفية حميدة إن بولغ فى تمجيدها وإن بعثت لدوافع سياسية قد تصبح سببا فى انحسار النمو الاقتصادى، أو تؤدى إلى انتعاش الأمية وإهمال الصحة والتراخى فى العمل وتراجع الانتاجية. هذا على الأقل ما يقوله أنصار التحديث والتصنيع ودعاة الاندماج السريع فى ثورة المعلومات والاتصالات. يقف هؤلاء فى واقع الأمر فى موقع، يكاد يكون نقيضا لموقف الاديان السماوية، من المدينة، وأهلها وسلوكياتها وتقاليدها. فالمعروف أن الأديان الثلاثة نددت بحضارة بابل، باعتبارها حضارة «الدولة المدينة» التى تحدت إرادة الله.

ولم يكن فرعون مصر مرضيا عنه فى أى من الاديان الثلاثة، وقد يكون من المصادفات المثيرة أن يكتب محللون تعليقا على أحداث ١١ سبتمبر فيشبهون برجي مركز التجارة العالمى فى نيويورك ببرج بابل الذى انهالت عليه اللعنات من كافة الاديان باعتباره رمز الفسق والاستبداد والفجور، وإن كان أغلب المحللين تحدثوا عن برجي نيويورك كرمز اختارته قيادات تنظيم القاعدة لطغيان النظام الرأسمالى «الغربى» أى لطغيان المدينة العصرية، ولا تخفى بعض كتابات الأصوليين رأيهم فى المدينة، فالمدينة مدرسة للنفاق حيث يتجاوز الخاص والعام وينفتحان على بعضهما بدون حدود أو قيود. وفى المدينة «المظاهر جميعها كاذبة خارج البيوت. والحقيقة كلها عفنة داخل البيوت». والمدينة، فى النهاية، هى الغرب أى هى أمريكا.

●●●

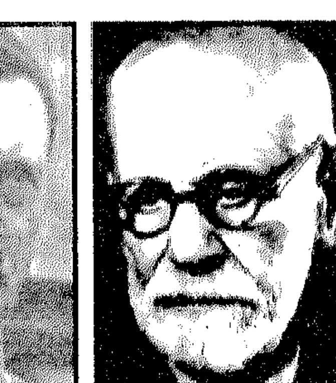
ويستخدم الكاتبان مبالغة أشد فى الكتابة عن كراهية أعداء الغرب للعلم، فالعداء للغرب متجذر فى ثقافة الغرب ذاته قبل أن يظهر فى ثقافات أخرى. ويجدان فى التاريخ المعاصر أمثلة متعددة تؤكد «غربية» العداء للغرب. فكثير من فلاسفة الغرب ربطوا بين العلم واليهود، حتى أنهم وصفوا بعض المذاهب والمدارس العلمية بانتمائها إلى «العلم اليهودى» وكانت الداروينية بالنسبة لهم نموذجا آخر من نماذج العلم اليهودى. آخرون يضعون سيجموند فرويد ونظرياته وتراثه تحت عنوان العلم اليهودى. لقد اعتبرت هذه المدارس أن كل ما هو تجريبى أو إمبريقى مؤامرة على العلم الذى يجب ان يلتزم المبادىء الروحية. واعتبرت أيضا أن الألمان لم يصلوا إلى الدرجة الراقية من فهم الأمور وطبائع الأشياء إلا من خلال غريزة خلاقة تدفعهم إلى حب الطبيعة، لم يصلوا إلى ما وصلوا عن طريق الامبريقية وإخضاع كل فرضية للعقل، كما يدعى أنصار العلم.

من هذا المدخل يصل الكاتبان «مارجليت» و«بوروما» إلى هدفهما. فالضعفاء فى عالم اليوم يستلهمون المبادىء الروحية ويعتمدون عليها. لا حياة، ولا تقدم فى هذه الحياة، إلا بالإيمان، وبهذه المبادىء الروحية وبالإيمان وليس بأى وسيلة أخرى يتحقق الانتصار فبقوة الإيمان تقوى الإرادة وتزداد الثقة بالنفس.

وبالإرادة المستقلة القوية والثقة بالنفس يمكن بسهولة الانتصار على القنبلة النووية وعلى كل منتجات العلم الحديث والتكنولوجيا العصرية. من هنا نشأت الفكرة التى اعتنقها المتشددون الإسلاميون والتى تعتبر الغرب ضعيفا أو نمراً من ورق لأنه بلا روح، والغربيون لا قلب عندهم ولا يشعرون كما نشعر. الغربيون باردون بلا أحاسيس.. لا يعرفون الحب الحقيقى ولا دفء فى علاقاتهم الانسانية. ويصل



المؤلفان بهذا الاستطراد إلى أن الاسلاميين المتشددين كانوا يهدفون إلى توحيد العالم تحت «سقف سلام واحد.. بمجرد أن يستكملوا عمليات القضاء على أعداء الله وأبراجهم..» وعلى كل حال لم يكن الإسلاميون المتطرفون وحدهم الذين وضعوا نصب أعينهم هدف توحيد العالم تحت سقف سلام واحد.. فاليابانيون قبل الحرب العالمية الثانية تحدثوا عن هذا العالم الموحد وقرروا إقامته ولو بالقوة. كذلك فعلت كنائس أوروبا الكاثوليكية فى أكثر من مرحلة من مراحل تطور المسيحية، وما تعبيرات السلام السماوى والعدالة المقدسة التى استعملها جورج بوش ببعيدة عن التعبيرات التى استعملها المنظرون للنازية الألمانية، أو ببعيدة جدا عن تصريح جيرى فالويل الأصولى المسيحى الأمريكى عقب أحداث سبتمبر الذى قال فيه إن كارثة نيويورك ليست سوى عقاب من الله على شرورنا. وما أشبه كل هذه «المطلقات» بكتابات المفكر الالمانى الذى كتب عن الحرب العالمية الأولى، وهى الحرب التى نشبت بين غربيين، بأنها فى الحقيقة كانت حربا بين العقل (ويقصد الغرب كله) وبين الروح (ويقصد ألمانيا). لم يوضح الكاتبان قصدهما من هذه المقارنات وإن كانا يلمحان إلى أن الحرب ضد الإرهاب تتدهور يوما بعد يوم لتصبح حربا بين العلم والروح، أو بين العقل والدين، أو بين حضارة باردة جافة وحضارات دافئة، ولم يوضحا إن كانت إشارتهما الى العدالة المقدسة تعنى أن حرب بوش ضد الإرهاب نموذج آخر من ادعاءات متكررة من نظم إمبراطورية أو فاشية أو دينية بهدف فرض الهيمنة على كل البشر وتوحيد العالم. فالرئيس بوش ومعظم الفكر السياسى الامريكى المعاصر لا







سيجموند فرويد — ادولف هتلر

يخفيان نية أمريكا ورغبتها فى إقامة عالم يعتنق بأجمعه، أى يتوحد خلف، مبادىء اقتصاد السوق وحرية التجارة وتقديس الفردية، والحرية والعدالة الأبدية.

ولا يتوقف الكاتبان عند هذين الخصمين: فالمدينة والعلم دعامتان بين أربع دعائم تقوم عليها جميعا نظريتهما فى الاستغراب ، أما الاثنتان الأخريان فهما البورجوازية والنسوية، أى حركة تحرير المرأة.

●●●

فى المقال الذى كتبه افيشاى مارجاليت وايان بوروما تحت عنوان «الاستغراب» ونشرته مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس»، مبالغات كثيرة ولكن فيه أيضا ذكاء فى العرض وقدرة لا بأس بها على تحليل الواقع الاجتماعى العالمى. إن صح التعبير. فقد اختار الكاتبان أربعة عناصر للاستغراب، أى الكراهية للغرب. واعتبراها ظواهر وإن كانت غربية الاصل، تشكل فى مجموعها حال العداء للغرب المنتشرة بين الشعوب الشرقية وبخاصة الاسلامية. أما العناصر، أو الظواهر فهى الكراهية للمدينة وما تمثله، والكراهية للعلم ومايمثله، وهما العنصران اللذان قدمناهما بإيجاز فى الجزءين الأولين من هذا العرض. العنصران الآخران هما الكراهية للبرجوازية

والكراهية للنسوية، أي لحركات تحرير المرأة، وهذان سنأتى إليهما فى السطور القليلة التالية.

يلخص الكاتبان الكراهية للبرجوازية، كشعور طاغ فى ثقافات بعينها أو بين مذاهب وجماعات وأفراد معينين، بمبالغة أخرى شديدة. يقولان ما معناه إن الكراهية للبرجوازية، أى للطبقة الوسطى، تزداد فى الثقافات التى تمجد شخصية البطل فتجعله مفتاح النصر والاستقلال والكرامة. هذا البطل - كالتراث المحيط به - يكره ممثل الطبقة الوسطى، فهو يكره الموظف الذى يجلس إلى مكتب، ويكره ابن المدينة، ويكره المثقف ورجل الأعمال. كل هؤلاء كانوا فى مركز التجارة العالمى يوم ١١ سبتمبر، وكل هؤلاء يرتادون هذين البرجين معظم الوقت. إن البطل كشخص، يسعى إلى الموت بينما البرجوازى يبحث عن الأمن، البطل يهتم بحصر الضحايا من الأعداء والبرجوازى يعد النقود وينشغل بالحياة ومتعها.

ويستغرق الكاتبان فى المبالغة، فينقلان عن اسامة بن لادن إجابته عن استفسار وجه اليه فى عام ١٩٩٨ عما إذا كان يخشى الخيانة من رفاقه، قال «هؤلاء الرجال من حولى تخلوا عن مباهج الحياة وجاءوا للجهاد». ويصل الكاتبان من هذه الاجابة إلى نتيجة لا أظن أن بن لادن كان يقصدها، وهى أن الخيانة لا توجد إلا حيث توجد مباهج ومتعة، وهذه لا توجد إلا فى الأوساط البورجوازية. وينتقل الكاتبان الى مفهوم الاستشهاد أو الموت الانتحارى باعتباره ركنا من أركان ثقافة البطولة والابطال المعادية لثقافة البرجوازية، أى للغرب، فينقلان عن مفكر عاش بدايات القرن العشرين واسمه «تيودور كورنر»، قوله «إن السعادة توجد فقط فى الموت الانتحارى»، وصارت بعده اسلوبا من أساليب الحرب استخدمها الالمان فى الحرب العالمية الأولى. ثم ينقل الكاتبان عن صحيفة بريطانية تصريحا لمجاهد أفغانى جاء فيه أن «الامريكيين يحبون البيبسى كولا ونحن نحب الموت»، بهذه الخلاصات السريعة وبغيرها يضع الكاتبان ثقافات بأكملها فى مواجهة ثقافات أخرى. وهنا يكمن خطر الاستطراد بالمبالغات أو التعميمات، فالتضحية بالنفس، بمعنى الاستشهاد، ليست مقصورة على الحرب ضد الغرب، وهى ليست الشرف الاعظم فى هذه الحرب دون غيرها، لأن الجندى فى أى حرب يضحى بحياته، وموته فيها من دون انتحار أو استشهاد هو أيضا من نوع الشرف الاعظم فى حرب يشترك فيها رجال ونساء أقسموا على تحقيق أهدافهم، وأهداف أممهم أو جماعاتهم.

وبالقليل جدا من العمق والتأمل يخلص الكاتبان إلى أن عقيدة الموت الانتحارى تغذيها عوامل متعددة هى الكراهية للراحة التى يعيش فيها البرجوازى، والكراهية للعجز والتهميش والاستبعاد وتشويه السمعة، ويغذيها وجود مثقفين بلا عمل أو غير معترف بدورهم فى مجتمعاتهم وطلاب فن فاشلين يعيشون فى مدن غاصة بالمتاحف والتماثيل والإبداعات الفنية. يغذيها أيضا أشخاص عاديون جدا منتشرون بوفرة فى شوارع المدن المزدحمة وشبان فى دول فقيرة يشعرون أن الغرب يسخر منهم ومن بلادهم وثقافاتهم وعقائدهم. بل إن هؤلاء الأشخاص العاديين جدا نجدهم الآن بوفرة فى المجتمعات الليبرالية. فالليبرالية يفهمونها أحيانا فى الغرب على أنها حرية الإنسان فى أن يكون إنسانا تافها. ولا خلاص من هذه التفاهة إلا بقتل النفس. وقد سبق



الغرب غيره من الحضارات فى تبرير قتل النفس . كانت النازية مثلا تمجد المواطن العظيم الذى يضحى بحياته فى سبيل جماعة أكبر غرضها أن تكون عظيمة ويقودها رجل عظيم ، هو فى نظر نفسه وبعض الناس أو أغلبهم ظل الله على الأرض .

ويقترب المقال من نهايته حين ينتقل إلى محاولة من الكاتبين لإقناع القارئ بأن هؤلاء الذين يكرهون الغرب هم فى الحقيقة كارهون للمرأة، أو بكلمات أدق ، كارهون لحركة تحرير المرأة التى نشأت فى الغرب . هنا أيضا ، كما يعتقد المؤلفان ، بدأت الكراهية فى الغرب نفسه حين رفعت الحركة النازية شعار « ضرورة تحرير المرأة من حركة تحرير المرأة» ، وشعار أن « مكان المرأة بيتها » ، وشعار « وظيفة المرأة تربية رجال أبطال». ويضيفان ، كالعادة ، قصة المرأة فى اليابان وفرحتها بانتصار أمريكا واحتلالها اليابان . فالمرأة اليابانية مدينة بحريتها ومشاركتها فى المجتمع للجيش الأمريكى الذى أعد قبل غزوه اليابان خطة لوضع دستور جديد يضمن تحرير المرأة اليابانية بعد طول قمع وكبت . وقد لا يعرف الكثيرون أن الشخص الذى كتب هذا النص الذى حرر المرأة اليابانية اجتمعت فيه كل عناصر الكراهية للغرب حسب مفهوم الكاتبين ، فقد كتبته امرأة ، وهذه المرأة أوروبية أى غربية ، وهى أيضا يهودية ، ثم أنها متعلمة.

أظن أن القارئ يشاركنى الرأى أن هذه الملاحظة التى أوردها الكاتبان مارجاليت وبوروما لا تخلو من سخف . ولكنها رغم ذلك ليست أقل سخفا من ملاحظة أخرى لهما تقول إن إثارة المرأة للرجل جنسيا عمل مكروه فى معظم الثقافات الشرقية ، لأن الإثارة الوحيدة التى يمكن أن تحرك شيئا فى رجل يعيش بين شعب مضطهد ومكبوت ومفروض عليه الذل هى الموت استشهادا . ويزداد الاقتراب من السخف عندما نقرأ للكاتبين وهما يقرران أن صورة المرأة شبه العارية فى الإعلانات التجارية لا تختلف كثيرا عن صورة برجى مركز التجارة العالمى فى جزيرة مانهاتان بنيويورك . فالمرأة العارية والبرجان دافعان للحيرة والارتباك .

●●●

ويعرض الكاتبان أوجه التشابه بين «الثوريين الإسلاميين» والحركات الغربية المعادية للغرب . ثم ينتهيان إلى تعليقات بعضها يستحق التوقف عنده . يقولان مثلا إن هدف الثوريين الإسلاميين إقامة عالم موحد تحت راية الشريعة الإسلامية التى سيتولى مهمة تفسيرها علماء اشتركوا فى الجهاد ، أى اشتركوا فى الثورة . ثم يقارنان بين آية الله الخمينى وأسامة بن لادن . الأول كان ستالينى التوجه لأنه اعتنق مبدأ الثورة فى بلد واحد، بينما أسامة بن لادن تروتسكى الميول لأنه أراد أن يجعل أفغانستان قاعدة لنشر الثورة فى العالم .

رغم كل ما احتواه المقال من مبالغات فى رصد الأمور وشطط فى تحليلها وميل إلى التدليل بأمثلة خفيفة وأحيانا سخيفة ، انتهى المقال نهاية ذكية . فقد وجه إيان بوروما وأفيشاي مارجاليت تحذيرا قاطعا من أن يخضع المفكرون فى عالم الشرق لإغراء الرد على ظاهرة الاستغراب ، أى كراهية الغرب ، بالعودة إلى الاستشراق ... وفى ظني جاء تحذيرهما متأخرا . ■



الإسلام والغرب

رؤية الآخر للآخر..

بقلم
د. عمر الفاروق

فى كتابه «الفرصة السانحة» Seize The Moment يشير نيكسون R. Nixon إلى نظرتين متناقضتين للإسلام ربما تعكسان محصلة رؤية الحضارة الغربية إليه .. بعد هذه القرون الطويلة من العلاقات والتغيرات ، وذلك منذ حركة الفتوح الإسلامية وحتى الآن ، وترد النظرة الأولى من الترجمة العربية للكتاب (دار الهلال ، ١٩٩٢ ، ص١٣٥) فى سياق تقديره لرؤية شعبه إلى الإسلام .. (.. يتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة ودمويون وغير منطقيين ، وليس هناك أسوأ من هذه الصورة فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى ..) ، ويعبر عن مخاوفه وتوقعاته (.. يحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين .. دار الإسلام ودار الحرب ، حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية ، ولن يتحقق هذا الكابوس .. فإن المسلمين من الكثرة والاختلاف بشكل لا يسمح لهم أن يكونوا كتلة واحدة) ..

ويضيف «نيكسون» في موضعين آخرين من الكتاب (.. إن التعامل مع العالم الإسلامى وضعه موضع الشخص الذى فى حفرة ضيقة . ومعه مجموعة من الثعابين السامة ، تحمل فى سمها أيديولوجيات متصارعة وقوميات متعارضة ، ويمكن تصنيف الحركات السياسية فى العالم الإسلامى إلى ثلاث مجموعات رئيسية .. (هم الأصوليون والرجعيون والتقدميون) ، وتكشف هذه النظرة السلبية عن ظلال بعض ما استقر فى الذهن الغربى عن المسلمين (غير متحضرين أو منطقيين بل وأيضا دمويون)، وعن مخاوفه من الإسلام (حين يصبح قوة جيوبولتيكية ..) فذلك أشبه بالكابوس المروع ، وعن نزعة تحريضية تجاه هذه القوة المتوقعة بحكم الثروة والنمو السكانى .. وذلك توقيا لشرورها المؤكدة تجاه غير المسلمين (فى دار الحرب) .. حيث أن التعامل معها يضع الغرب فى (حفرة ضيقة ومعه مجموعة من الثعابين السامة ..) ، وليس من العسير تفنيد مثل هذه النظرة من بعد تمحيصها ، غير أن ذلك قد لايؤدى إلى انتزاعها من ذهن من يرونها فى الغرب ، لأن استمرارها ليس ضد الإسلام فقط بل وأساسا فى مصلحة الغرب باعتباره ينزع إلى هيمنة حضارته عالميا .. ووضع يده على مصادر الثروة عند غيرها ويمثل العالم الإسلامى حضارة مغايرة ينبغى تسويتها تماما فى إطار أهدافه النهائية نحو الهيمنة الشاملة على العالم بأكمله .

وكما سبق فإن رؤية الغرب للإسلام تتضمن أيضا شقا مناقضا ، ليس من اليسير تحديد درجة عمقه ومدى انتشاره تتمثل فى نظرة إيجابية تتردد فى الكتاب المذكور .. يمكن تجميعها من صفحاته كما يلى :

ازدهار الإسلام

- إن العالم الإسلامى هو حضارة مهمة ، تبحث عن شخصيتها التاريخية .

- بينما كانت أوربا ترتع فى غياهب العصور الوسطى ، كانت الحضارة الإسلامية فى أوج ازدهارها ، لقد أسهم الإسلام كثيرا فى تقدم العلم والطب والفلسفة ، ويذكر «ديورانت» فى كتابه «عصر الإيمان» Theage of faith أن المسلمين قد ساهموا مساهمة فعالة فى كل المجالات ، وعندما ظهر النوابغ والعلماء فى عصر النهضة الأوربية ، فإن



الاسلام والغرب

تقدمهم كان راجعا إلى إنهم وقفوا على أكتاف العمالقة من العالم الإسلامى .

- قليل من الأمريكيين يدركون مدى عراقة العالم الإسلامى ، إنهم يذكرون فقط أن سيوف محمد وأتباعه هى السبب فى انتشار الدين الإسلامي فى آسيا وأفريقيا وحتى أوربا ، وينظرون بارتياح إلى الصراعات الدينية بالمنطقة ، لقد تناسى هؤلاء أن الإسلام لايقر الإرهاب ، وأنه لم تمض إلا ثلاثة قرون منذ آخر حرب دينية فى أوربا .

- تبين الإنجازات الحضارية للإسلام ما كان عليه العالم الإسلامى فى الماضى ، وكذلك يبين مايمكن أن يكون عليه المستقبل .. إذا توقفت الحروب المميتة وعدم الاستقرار السياسى وعلينا أن نرسم سياسة طويلة المدى إلى توجيه العالم الإسلامى الوجهة الصحيحة التى تتدفق مع تاريخه وحضارته السابقة .

وتكشف عبارات النظرة الثانية .. عن تقدير جزيل لحضارة الإسلام فى الماضى ، وتدليل قاطع على دورها كحضارة تاريخية لها إسهاماتها فى بنية الحضارة الإنسانية العامة ، ويقترن ذلك بنظرة منكرة للعالم الإسلامى فى الحاضر ، وتحدد توصيته الأخيرة نقطة التناقض العميقة - إذا بينما الإسلام (حضارة مهمة تبحث عن شخصيتها التاريخية ..) فإن على الغرب أن يرسم له سياساته ، دون أن يوضح كيف يمكن لحضارة ما أن تقود حضارة مغايرة إلى اكتشاف ذاتها ؟، وهل يعنى ذلك - أيضا - إعاقة سعيها لتحقيق ذلك بجهودها الخاصة ؟

ويشحن التاريخ التساؤل السابق بالوقائع الدالة ، بل ربما تكمن إجابته بعيداً مع حركة الفتوح الإسلامية الكبرى، وتتوزع على طول القرون اللاحقة .. وحتى الوقت الحاضر ذلك أن هذه الحركة لم تقتطع من أوربا البيزنطية جانباً كبيرا من إمبراطوريتها وحسب .. وكونت منها القسم الغربى من العالم الإسلامى ، بل وأودت تماما بالمشروع الأوربى المبكر للسيطرة على التجارة العالمية .. وعلى جملة المناطق المنتجة فى العالم القديم .. ومعه كل طرق التبادل ، وتتفق الآراء على أن أوربا قد أوغلت فى عصورها الوسطى .. بعد هذه الارتدادة التى أصابتها تجاه الدولة الإسلامية ، غير أن أوربا لم تفرط

فى حلمها الرومانى .. لاستعادة وحدتها والعودة إلى هيمنتها على العالم ، كما إنها لم تنس أن الشام ومصر وشمال أفريقيا .. كانت يوما أوربية .. أو أوربا الصغيرة كما كانت تسميها .

وعلى الجانب الآخر .. فقد واصلت الحضارة الإسلامية انتشارها الفائق ، وأطبقت على أوربا من وتريها الغربى (البرانس) والشرقى (القسطنطينية) ، غير أنها توقفت عند بوابة فيينا شرقا ، وعند تور غربا ، ولن تكمل مشروعها بالإحاطة بأوربا ، ورغم ارتداداتها المستمرة فقد خلفت ميراثا من الخوف والرهبة .. بقى يتوغل فى الثقافة الأوروبية تدل عليها ملاحم العصور الوسطى ، ورغم تصديها إبان السلطنة المملوكية للجحافل المغولية البرية من ناحية ، وللموجات الصليبية البحرية من ناحية أخرى ، فقد أصابتها الكشوف الجغرافية بضربة فى الصميم ، حطمت بها اقتصادها وأسرت طرقها التجارية ، وأسلمتها لقمة سائغة للدولة العثمانية ، دخلت معها الحضارة الإسلامية عصورها الوسطى .. بمثابة المقابل التاريخى لما أصاب الحضارة الرومانية مع حركة الفتوح الإسلامية ، واستعادت أوربا حلمها مع حركة الاستعمار العالمى طوال القرون التالية ، هذه التى نالت بها من أسباب التقدم بقدر ما أخذت من العالم الإسلامى وغيره ، واتسعت الهوة مع الثورات التجارية والصناعية والعلمية التى مولتها حركة الاستعمار وإضافة العالم الجديد إلى الحضارة الغربية ، وتراكمت مع وقائع القرن العشرين وحروبه والصراع مع الاستعمار من أجل التحرير

التحيز المطلق للصهيونية

وتواصل استنزاف موارد العالم الإسلامى من النفط وغيره .. وأضافت إلى هذا الميراث الطويل المرير .. ما ضاعف من جبهات التوتر والريبة والخوف بين العالم الإسلامى والحضارة الغربية ، وخاصة من حيث نظرة الأخيرة المتعالية ، وتحيزها المطلق للصهيونية ، وتواصل استنزافها لموارده والتلاعب باقتصادياته دون رحمة ، بما قد يدفع إلى هذا التساؤل الثانى .. ماهو احتمال استعادة الحضارة الإسلامية لمقومات وإمكانيات النهضة ؟ وماهى فرصتها للثبات أمام الآخر .. أى الحضارة الغربية ؟

وقد تعددت الإجابات عن هذين السؤالين ، متراوحة بين أقصى الثقة فى الإسلام وقدرته على الصمود والاستمرار بل والانتصار ، وبين فقدان الثقة والتوقع بإنتهائه والذوبان فى حضارة الآخر .. فى نهاية المطاف ، كما طرحت الاجتهادات

والعشرات من محاولات العلاج واقتراحات التوفيق والحلول الوسطى فى إطار السلم أو الصراع ، مشحونة بما استجد من عوامل الصراع والمنافسة مع الصحوة الشامية للتواصل مع الحضارة الأوروبية ، ثم مع صدمة الحملة الفرنسية ، وما أعقبها من يقظة ثم نهضة شبه شاملة فى أنحاء مصر التى غدت بمثابة الجسر بين أوربا والعالم العربى ، ثم كمنارة للحضارة الإسلامية تشع إلى أفريقيا وآسيا وبقية أنحاء العالم ، وأفضت هذه العملية التفاعلية المتشابكة - مع البعثات والترجمة والصحف والحج - إلى تكوين جبهات عديدة متناقضة فى العالم الإسلامى ، بمثابة أصول ما تكون بعد ذلك من أحزاب وتجمعات تشكل جذور الحركات الإسلامية السياسية المعاصرة ، ويمكن لمن يراجع خريطة العالم الإسلامى السياسية والمذهبية .. منذ القرن التاسع عشر .. أن يتحقق من مقدار التمزق والتشرذم فى أنحائه الشاسعة ، هذه التى يلخصها نيكسون - كما سبق - فى ثلاثة إتجاهات أساسية هى (الأصولية ، الرجعية ، التقدمية ..) .. ، دون أن يورد ما يعنيه كل منها وما ينطوى تحته ، كما لم يوضح أو يوحد أسس هذا التصنيف ، غير أنه يوظفها فى تقديم توصياته للغرب .. ويرشده إلى سبيل الهيمنة على العالم الإسلامى .

مشروعات الإحياء الإسلامى

ويدل تحليل الواقع السياسى والفكرى هذا العالم طوال القرن العشرين ، على تسيد عدد من مشروعات النهضة من وجهات نظر متباينة ، يدور بعضها حول إمكانات التصدى للحضارة الغربية ومقاومة قوتها الامتصاصية الجاذبة ، ويركز العديد منها حول مشروعات الإحياء الإسلامى فى شتى المجالات ، مستلهما إمكاناته ، هذه التى أفصحت عن نفسها طوال قرون الازدهار الإسلامى الزاهرة ، ويتوجه بعضها نحو وضع صياغات توفيقية بين الحضارتين ، تستثمر بها الحضارة الإسلامية قدرتها التاريخية على التفاعل والاقتباس والترجمة ، تمهيدا لانتقالها إلى مرحلة الإبداع الحضارى الخاصة بها ، ويقتصر ذلك بطبيعته على الجوانب المادية من الحضارة الأخرى ..

والأستمساك بالعروة الثقافية الإسلامية الخالصة ، وربما يكون مفيدا الاستشهاد بنصوص معينة تعين فى توضيح هذه الإتجاهات الفكرية الزاخرة بتياراتها .

يطرح د/ شوقى ضيف فى كتابه (عالمية الإسلام) .. ما يشبه بيانا عن جدارة الحضارة الإسلامية المطلقة ، وعن قدرتها الاحتوائية للحضارات الأخرى ، وإمكاناتها لاستيعاب الثقافات المغايرة ، ويشير فى ملحوظة لامعة إلى قدراتها الملحوظة على الإقناع والانتشار معا ، أى إقناع الأفراد بين فقراء العالم ومن الجماعات الوثنية التى تعيش فى المستعمرات الأوربية السابقة .. وتحمل لها ولثقافاتها قدرا كبيرا من الرفض والكراهية ، وكذلك طاقتها الانتشارية بين الثقافات المتباينة ، وتتمثل هذه القدرة الإقناعية والانتشارية فى منظومة من الخصائص المتآلفة ، دلل عليها فى كتابه المذكور بأمثلة من القران والسنة ، وشواهد من تاريخ ونظم الحكم والقوانين الإسلامية .. وهذه بعض عناصر ما أورده:

- إعلاء الإسلام لمبادىء المساواة والعدالة بين البشر .

- الأحترام التام للحريات .. وخاصة الدينية ورفضه بالإكراه بأى صورة من الصور .

- تمجيد العقل والعلم .. وتقبل الثقافات المغايرة ، وطلب البرهان . والحجة دائماً .

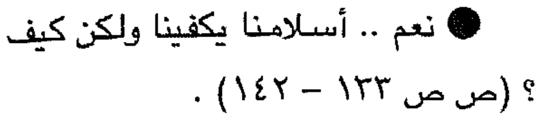
- كراهة الاستبداد ، والتأكيد على الشورى فيما بينهم .

- نبذ الاستغلال والحض على العمل .

- الدعوى الدائمة للقيم العليا والخير والحق ومكارم الأخلاق السامية .

- الدين المعاملة والدعوى الدائمة للتسامح والغفران بين الكثير .

وغير ذلك من الفضائل والأحكام المنبثقة من عمق النفس الإنسانية ، متوافقة مع احتياجاته ومفتقة لقدراته ، بما يشكل وحدة عضوية بين النفس والسلوك والمجتمع .. يستحيل فصمها لما تشيعه من سكينة ومحبة سابغة ، وإذا كان الواقع يفتقد هذه الصورة المثالية .. فلأنه لم يقطع فى شوط الإيمان سوى خطوات ، أو لأنه تعرض لمؤثرات من خارج ثقافته .. أوهنت من تجربته الخاصة على مر السنين ، وهكذا .. فإن هذا الاتجاه يعتنق مفاهيم تمجيد الإسلام وإثبات جدارته أمام الحضارات المغايرة .. بل وجاذبيته العالية للأفراد مقترنة بقدرته على الانتشار ، غير أنه لا يرفض غيره



الإسلام والغرب

ولا يتخذ منه موقف العداء بلا سبب .

قدرة الإسلام العقائدية

ويقدم المفكر «زكى نجيب محمود» .. مجموعة أخرى من الآراء والمفاهيم ، تتفق مع السابقة من حيث إيمانها بقدرة الإسلام العقائدية ، وتختلف عنها من حيث التأكيد على افتقاده لآليات التقدم المادى منذ عدة قرون ، مستندة فى ذلك إلى أدلتها عن الهوة الحضارية التقنية بين الغرب والعالم الإسلامى ، وأن السبيل إلى تجاوز هذه الهوة إنما تمثل فى التفاعل الهادىء القوى بين الحضارتين ، والإقرار بجدارة الحضارة الغربية وآلياتها فى تحديث جوانب الحياة العملية ونوعيتها بين المجتمع والأفراد ، وتجمع كتابه «قيم من التراث» .. مجموعة من مقالاته المعبرة بجلاء عن هذا الاتجاه (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩) ، ومن أهمها مما يمكن الرجوع إليه ..

- ذلك دور المسلمين (ص ص ١٢٤ – ١٣٢) .
- نعم .. أسلامنا يكفينا ولكن كيف ؟ (ص ص ١٣٣ – ١٤٢) .
- نمل ونحل (ص ١٧٥ – ١٨٣).

وغيرها أيضا مما يتناثر فى هذا الكتاب وغيره ، باعتبار الموضوع من أهم ما شغل المفكر الكبير ، ومن ثم لا تنقطع إشاراته إليه فى معظم ما كتبه وما يتحدث فيه ، ففى مقالاته «ذلك دور الإسلام» .. يقرر بوضوح (.. وهو ما أكرر القول فيما لابد أن يضيفه المسلمون إلى حضارة هذا العصر ، فيكمل بهم ويكتمل به ، وهو أن يكون للحياة الدنيا هدفها ، تلك الحياة الدنيا لابد أن نجعلها حياة مليئة بكل ما انتجه العقل البشرى من علوم وأجهزة وآلات ، ونبذه دعوى العودة للوراء ، حيث لا علوم ولا صناعة ولا أجهزة ولا آلات ، ولن يحدث لهم عندئذ إلا أن تزداد حاجاتهم إلى الاعتماد على الغرب فى كل ما ينتجه من علم وما يصنعه من آلات (ص ١٢٧ – ١٢٨) .

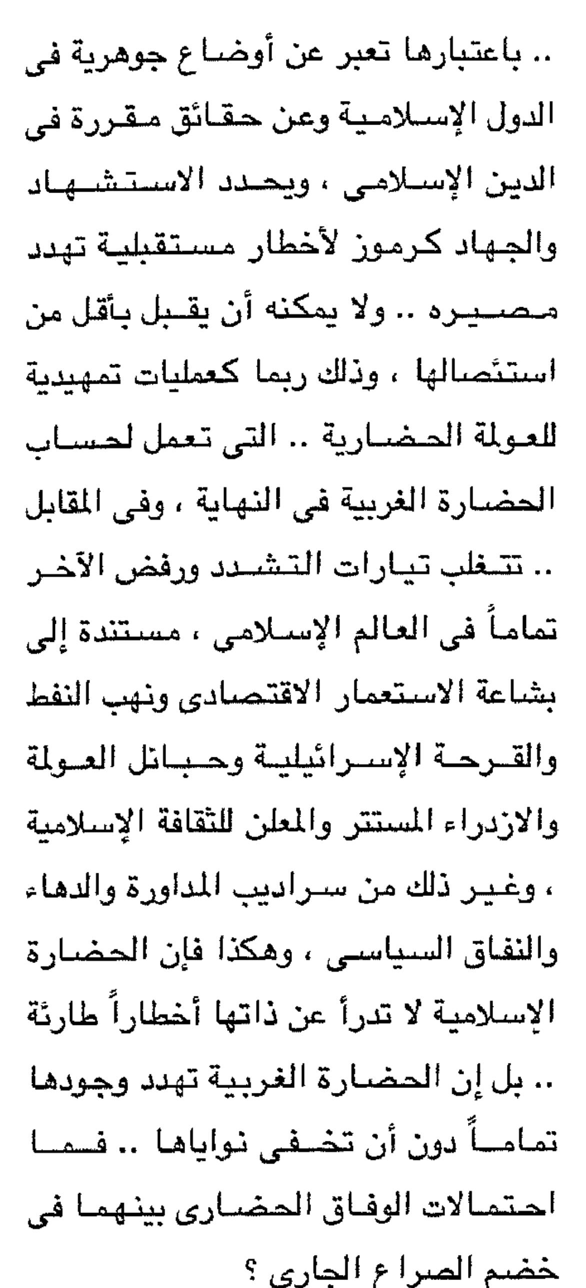
- وفى مقالته «نعم .. إسلامنا يكفينا ولكن كيف ؟» .. يقرر (.. نعم إسلامنا يكفينا إذا نحن عشنا به حياة المسلمين ، وهى حضارة ما ترفض شيئا من دعائم الحضارة الراهنة ، بل هى تضيف كل تلك الدعائم إلى ما عندها موروثا عن السابقين، ص ١٤٢) ، وفى مقالة (نمل

ونحل) يوفق بين الحضارتين .. (.. لا بأس فى أن نصغى بآذان مرهفة كما قاله أسلافنا ، وما قاله الغرب من أسلافه إلى معاصريه ، ولكن البأس هنا فى أن نقف من ذلك المصدرين موقف النمل فى الجمع والتخزين وكفى ، إذ يبقى بعد ذلك دور النحل فى التمثيل والتحويل ، ص ١٨٢) .

وهكذا يمثل هذا المفكر هذه الجبهة العريضة الداعية إلى التفاعل بين الحضارتين وإلى إقرار الحضارة الإسلامية بتفوق الحضارة الغربية فى الصناعة والعلوم ، إقرار يتمثل من أن تنهل من علومها وأن تستزيد بلا حرج .. كما فعلت من قبل الحضارة الغربية مع الحضارة الإسلامية قبل تدهورها ، ولكن هل يمكن أن يكون هناك تفاعل مع الجانب المادى من الحضارة الغربية وحده ؟.. أم أن هذا الجانب مشحون بقيم الغرب وثقافته وروحه وأساليب حياته .. مما قد يستحيل معه الفصل بين الجانبين ؟

تقدير الحضارة الإسلامية

وهكذا إذا كانت الشعوب الإسلامية تعبر عن تقديرها للحضارة الغربية .. من حيث تجلياتها المادية المتفوقة ، فإن الأخيرة غالباً ما تكن تقديرها للحضارة الإسلامية .. ولكن فى الماضى ، وتزايد منذ القرن التاسع عشر .. عدد الدول الإسلامية التى طبقت العديد من فلسفات الحضارة الغربية .. فى الحكم والديموقراطية والسياسة وغير ذلك من الجوانب ، كما طبقت أساليبها فى الاقتصاد والقوانين العامة ، بل وتقاربت إلى حد ملحوظ .. ممارسات الحياة اليومية والطعام والترفيه والملابس ، ولم تتأخر ردة الفعل المضادة .. وتمثلت مبكر فى حركات الإصلاح الدينى فى نجد والسودان وليبيا ومصر والجزائر ، وخاضت تجربتها التطورية وشكلت فى بعض الدول أحزاباً ، وتبلورت أشد اتجاهاتها تطرفاً فى رفض الحضارة الغربية برمتها .. والعودة السلفية الكاملة إلى الماضى ، عودة امتدت إلى الممارسات اليومية والعادات والكلمات المتبادلة والمناسبات الخاصة ، ولوحظ انتشارها فى جميع أنحاء العالم الإسلامى الواسع، وبنفس الروح والطريقة من أندونيسيا إلى مراكش ، ووجدت هذه الحركات والأحزاب أمامها من القضايا ما تكسب به المزيد من الشارع الإسلامى ، وخاصة قضايا الثروة والعدالة ، والاستبداد ونظم الحكم ، واستعادة الشخصية التاريخية فى مقابل الارتماء فى أحضان الآخر ، وقد رصدت أجهزة الغرب هذه التطورات منذ وقت



مبكر (انظر كتاب اكتشاف جزيرة العرب، لجاكلين بيرين . بيروت ١٩٦٣) ، واستثمرته غالباً بشكل فادح ، وذلك منذ تقسيم شبه القارة الهندية بين المسلمين والهندوس عقب استقلالها سنة ١٩٤٧ ، وتكرر ذلك بشكل متواتر ، ومنذ وضع الغرب أصابعه على أعصاب التمزق المذهبى المريضة .. وهى تضغط عليها بقوة أو رفق حسب المواقف ، وتمكنت من غرس الدولة الصهيونية فى قلب العالم الإسلامى .. لتصيبه بتقيح مزمن .. كانت تعرف مقدماً مضاعفاته ، واستثمرت عوائده لحسابها بلا هوادة ، واشتدت الحمولة وتقيحت الضغينة .. ووصلت المواقف إلى أطرافها القصوى .. وتبادلت أشد الضربات عتواً فى شتى أنحاء العالم، ويمكن توصيف الموقف الراهن لكل من الغرب والإسلام .. بأنه يعبر عن أعقد درجات الشك والريبة ، هذه التى توظف أحداث التاريخ كله من الماضى إلى الحاضر ، وينظر الغرب إلى الحركات السياسية الإسلامية المتطرفة .. باعتبارها تعبر عن أوضاع جوهرية فى الدول الإسلامية وعن حقائق مقررة فى الدين الإسلامى ، ويحدد الاستشهاد والجهاد كرموز لأخطار مستقبلية تهدد مصيره .. ولا يمكنه أن يقبل بأقل من استئصالها ، وذلك ربما كعمليات تمهيدية للعولمة الحضارية .. التى تعمل لحساب الحضارة الغربية فى النهاية ، وفى المقابل .. تتغلب تيارات التشدد ورفض الآخر تماماً فى العالم الإسلامى ، مستندة إلى بشاعة الاستعمار الاقتصادى ونهب النفط والقرحة الإسرائيلية وحبائل العولمة والازدراء المستتر والمعلن للثقافة الإسلامية ، وغير ذلك من سراديب المداورة والدهاء والنفاق السياسى ، وهكذا فإن الحضارة الإسلامية لا تدرأ عن ذاتها أخطاراً طارئة .. بل إن الحضارة الغربية تهدد وجودها تماماً دون أن تخفى نواياها .. فما احتمالات الوفاق الحضارى بينهما فى خضم الصراع الجارى ؟

صياغات التوفيق

الواقع أنه بينما كانت الدول الإسلامية تطرح صياغات التوفيق .. بدرجات متعددة من الاقتراب والتباعد ، وصلت إلى حد انسلاخ «تركيا مثلا عن العالم الإسلامى ، فإن الغرب لم يقابل ذلك إلا بالمؤتمرات والإعلانات الفضفاضة ، وظهر

واثقاً تماماً من فوزه النهائى ، بل ووظف متغيرات الصراع لحسابه ، وبدا قادراً على اعتصار نتائجه الاقتصادية لمصلحته .. فى حالتى السلم والحرب وما بينهما من حالات عديدة ، معتمداً على طبيعة اقتصادية وعلوم تكنولوجية ومرونة سياساته ، ومكنته الأوضاع السياسية والطائفية والمذهبية فى العالم الإسلامى .. من الإحاطة والإمساك بتلابيبه وإختراقه بل وانتصاره ، ومن هنا فإن إنكار حالة الصراع بين الحضارتين يبتعد عن الواقع كلية .. بل إنه فى صالح الحضارة الغربية بشكل نهائى . فهو ينكرها أيضاً بشتى ضروب النفاق والدهاء والفكر السياسى ، وسيلة مع أخريات لتنويم العالم الإسلامى ، بينما يغمره باختراعاته ومبتكراته واتصالاته ، ورغم ذلك فإن الإسلام كنواة يبدى قدرة مدهشة على المقاومة .. ويبقى دائماً جذاباً ، بمثابة العقل الصامد لهذه الحضارة ، وخاصة حين تشع بتجلياتها المتسمة بالتفتح والسماحة والتطلع والتفاعل وتقبل الآخر ، وتساند هذه النواة تجربة معاصرة لاتنكر لمعظم دول العالم الإسلامى ، ولكل منها تجربتها الخاصة فى مجال التقدم فى مضمار الحضارة المعاصرة بمجالاتها العديدة ، وهى تجارب لاينقصها سوى الاحتشاد والامتزاج فى وعاء تنظيمى مناسب ، وهى لم تفقد جوهرها الإسلامى .. مهما أخذت من أساليب الحضارة الحديثة .. التى هى فى نسبة منها إنجاز إسلامى ، ومن بعد ذلك تأتى حلقة الموارد الاقتصادية والبشرية والثقافية والفنية والعلمية والتقنية وغير ذلك ، وهى أيضا مما لايمكن إهمال حساباته ، وتضيف نوعياً إلى رصيد الحضارة الإسلامية المعاصر ، ومن يراجع تقارير الأمم المتحدة .. سيتبين بسهولة حجم هذا الرصيد .. خاصة إذا جمعت لكل الدول الإسلامية كوحدة جغرافية وثقافية متصلة .. تشغل معظم العالم ، ومرة أخرى فالصورة ليست فى الخاتمة قاتمة على العالم الإسلامى ، ويمكن أن يشحذها الاتفاق على أن هذه الحضارة الإسلامية تخوض بالفعل صراعاً حضارياً للمحافظة على وجودها ، ولكنه ليس صراعاً عسكرياً أو حربياً أو إرهابيا أو دموياً .. إطلاقاً ، فهذه جميعها مما تصب معطياته فى بنية الحضارة الغربية .. ويميت خلايا النمو فى الحضارة الإسلامية ، نعم .. الإسلام فى حالة صراع حضارى سلمى مع الآخر ، فإذا صحت الرؤية والاتجاهات .. فإن الأفكار لن تلبث أن تتولد وتتوالى . ■

الإسلام
وصوت الإنسان
جزء خاص

الحرب ضد مبدأ المساواة

بقلم
عبد الرحمن شاكر

من أتيح له أن يشاهد صور المظاهرة التى وقعت فى مدينة نيويورك في أوائل فبراير المنصرم، إمام مقر اجتماع منتدى «دافوس» الاقتصادى، وأذاعتها شاشات التليفزيون في نشرات الأخبار، يلمح أمورا جديدة أضافتها اللافتات التى كان يحملها المشاركون في المظاهرة، خلاف المطالبة بحل المشاكل الاقتصادية البحتة، مثل مشكلة البطالة التى تسود مختلف المجتمعات وعلى رأسها البلدان الصناعية المتقدمة صاحبة هذا «المنتدى»، والتى تقع أمثال تلك المظاهرات فى مدنها، سواء فى أمريكا أو أوروبا أو كندا.. إلخ وتتحول أحيانا إلى مصادمات عنيفة كما حدث في لندن منذ سنوات قليلة، وقد تشمل تلك المطالب الاقتصادية - الدعوة إلى القضاء على الفقر عامة، بما فى ذلك إلغاء الديون التى تثقل كاهل البلدان النامية.



الأمور التي استجدت في مظاهرة نيويورك الأخيرة، هي من صنع أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١. وكانت أبراج مركز التجارة العالمي في نيويورك هي أبرز ضحاياها، كانت اللافتات التي يحملها المتظاهرون، الذين لم يكن من بينهم أحد من العرب، تنادي بوقف الحرب في أفغانستان، وسحب القوات الأمريكية منها، والكف عن التهديد بضرب العراق أو الصومال أو سواهما من البلدان التي ترشحها الإدارة الأمريكية لمد الحرب إليها، أو عليها، بدعوى أنها ضالعة في أعمال «الإرهاب» أو تسانده بشكل أو بآخر، وأيضا كانت بعض اللافتات تنادي بالكف عن تقديم المساعدات إلى إسرائيل، وبحماية الفلسطينيين، وكذلك الكف عن العنصرية.

إن تلك المظاهرة، وسابقاتها في المدن الأمريكية والأوروبية هي على نحو أو آخر «يسارية المحتوى» حيث تواجه سياسة اليمين الرأسمالي المتطرف وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وغير بعيد أن تكون يسارية التنظيم والقيادة، ولقد نذكر أن الأحزاب الشيوعية في البلدان الآسيوية المجاورة لأفغانستان قد نظمت مظاهرات عارمة احتجاجا على الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية عليها بدءاً من السابع من أكتوبر من العام الماضي بما فيها الحزب الشيوعي الهندي، والماليزي، والأندونيسي، فضلا عن مظاهرات «الإسلاميين» في بعض تلك البلدان بما فيها باكستان.

المغزى والدلالة

إن الذين تظاهروا على هذا النحو ورفعوا أمثال تلك اللافتات يدل موقفهم على أنهم لم يبلعوا «الطعم» الأمريكي، بدعوى أن ذلك إنما كان للقضاء على الإرهاب، بما في ذلك العدوان الفاجر المستمر الذي تمارسه الدولة الصهيونية في فلسطين بمباركة وتأييد شديد الصفاقة من حليفها «الاستراتيجي» الولايات المتحدة، والذي اشتد أواره - أي ذلك العدوان - بعد الحملة الأمريكية في أفغانستان، وتصل الأمور إلى حد دفع المقاومة الفلسطينية بالإرهاب، وعند محاولة تذكيرها بأن هناك فرقا ما بين الأعمال الإرهابية ومقاومة الشعوب التي تعاني من الاحتلال والاضطهاد والحصار والتجويع والفتك بابشع الأسلحة الأمريكية، تقول «كوندا ليزارايس» مستشارة الأمن القومي الأمريكية مغضبة في لقاء تليفزيوني معها: ليس هناك إرهاب حميد وآخر ذميم، وإنما كله إرهاب! ويتبعها في ذلك للأسف الشديد بعض المغلوبين على أمرهم في بلدنا!!

وطبيعي أن ينطوي هذا الموقف الشنيع من الظلم الفادح الواقع على الشعب الفلسطيني على تجاهل ما ذهب إليه المتهم الأول بالإرهاب، والمطلوب الأول في الحملة عليه، أسامة بن لادن، في بعض ما نسب إليه من أقوال أذيعت تسجيلات لها بالصوت والصورة على شاشات التليفزيون، من أن إقدامه هو وأتباعه على

تنفيذ عمليات الحادى عشر من سبتمبر من العام الماضى، إنما كان انتقاما لما يعانيه الشعب الفلسطينى، وشعوب مسلمة أخرى، وقد يكون مجرد مدع «للفضل» فى تلك العمليات محاولا أن يصور نفسه «بطلا» على نحو آخر ! على أنه من المؤكد أن كثيرين غيره قد داخلتهم الشماتة فيما أصاب الأمريكان بسبب تأييدهم الإجرامى للفحش الصهيونى فى فلسطين.

لقد وقع الظن عند كثير من الناس فى بلادنا أن الولايات المتحدة بعدما أصابها فى تلك الأحداث، سوف تتبع سياسة خارجية أكثر اعتدالا، أو عدالة، وخاصة إزاء القضية الفلسطينية، ولكن ظهر أن العكس هو الصحيح، وأنها قد تمادت فى تعزيز العدوان الصهيونى إلى حد غير مسبوق، وأصبحت شريكا ظاهرا له، على نحو ينفى عنها كل صفة يخلعها عليها تعبير «أحد راعيى عملية السلام» (!) إن لم يكن الراعى الأوحد لها! وهى والغة على هذا النحو فى الدم الفلسطينى بأشد من ولوغ كلبها الصهيونى شارون!

وذهب بعض المحللين إلى وجود شركاء فى ذلك العمل «التكنولوجى» البالغ التعقيد من منظمات أمريكية أو حتى أجهزة «استخباراتية» بها، أما أن عربا من تنظيم القاعدة كانوا ضالعين فى هذا العمل الاجرامى، فإن عناصر هذا التنظيم بمن فيهم قائده أسامة بن لادن، كانوا حلفاء للمخابرات المركزية الأمريكية، وكانت هى التى نظمتهم وسلحتهم ودربتهم، أيام كانت تحارب بهم ومعهم الشيوعية والغزو السوفيتى لأفغانستان، واستخدام بعضهم حاليا فى مثل هذا العمل أو اغرائهم به أو تسهيله لهم، غير بعيد أو مستبعد.

العدو البديل

بعد انتهاء الحرب الباردة ما بين المعسكرين الدوليين، على نحو أو آخر، كان من المنتظر أو المأمول، عند كثير من المراقبين، أن تستخدم الطاقات العلمية والاقتصادية الجبارة، التى كانت تستنزف من جانب كلا المعسكرين فى سباق التسلح، لتحقيق أغراض أخرى سلمية، من بينها رفع مستوى الشعوب المتخلفة، وانقاذها من وهدة الفقر المدقع، ومساعدتها على بناء اقتصادها من جديد، وكذلك علاج الأمراض، وعلاج ظواهر التلوث البيئى، من نوع ثقب الأوزون وارتفاع درجة حرارة الكرة الأرضية، ونضوب الموارد وانقراض الأنواع.. إلخ، فضلا عن البحث عن حلول عقلانية لمشكلة البطالة التى ازدادت وتزداد تفشيا فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ذاتها بسبب الثورة التكنولوجية، التى يترتب عليها الاستغناء عن كثير من الأيدى العاملة اعتمادا على «الروبوت» من مختلف الأنواع، فى القيام بما كان يقوم به الأفراد.

كانت أمثال تلك الحلول، سوف تتخذ طابعا «اشتراكيا» فى واقع الأمر، على نحو ما دعت إليه لجنة الأمم المتحدة للبيئة والتنمية برئاسة «جروهارلم برونتلاند» رئيسة وزراء النرويج السابقة ، والذى ضمنته تقريرا ضافيا، طبع فى كتاب

ترجم إلى العربية ، بعنوان ذى دلالة، وهو «مستقبلنا المشترك»!

كيف إذن كان يمكن أن تطبق الرأسمالية المنتصرة فى الحرب الباردة، انتصارا ساحقا على المعسكر الاشتراكى أدى إلى تفككه وسقوط نظامه السياسى والاقتصادى، برنامجا يوصف، أو يمكن وصفه بأنه «اشتراكى»، ليس على المستوى المحلى، بل على المستوى العالمى!!

إن تنفيذ مثل هذا البرنامج، كان سوف يعنى انتصارا للماركسية فى صورتها الأصلية، التى صاغها «كارل ماركس» ذاته مع رفيق دربه «فردريك انجلز»، من أن الاشتراكية سوف تكون ثمرة لبلوغ النمو الاقتصادى والصناعى فى ظل المنجزات العلمية للرأسمالية أقصى مداه، وذلك بخلاف الصورة التى تحققت فى الواقع خلال القرن العشرين، من قيام «الثورة الاشتراكية» فى روسيا المتخلفة بقيادة لينين، وامتدادها إلى مجتمعات مشابهة – معظمها – لروسيا فى تخلفها ، وقد نجحت روسيا بفضل تلك الثورة فى إعادة بناء اقتصادها وتحقيق قدر هائل من النمو العلمى والصناعى، ولكن الحروب المتكررة التى فرضتها عليها الدول الرأسمالية، بدءا من حروب التدخل بعد الثورة مباشرة ، إلى الحرب العالمية الثانية التى شن فيها هتلر هجومه الساحق عليها، إلى الحرب الباردة – والتى كانت تسخن أحيانا على الأطراف – بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية.. كل تلك الحروب جعلت معظم النمو الاقتصادى والصناعى أساسا يتوجه فى روسيا و«إمبراطوريتها» التى صارت تعرف باسم «الاتحاد السوفييتى» إلى صناعة السلاح، مما حرم شعوب هذا الاتحاد من التمتع بثمار ما حققوه من تقدم علمى وصناعى، وجعل الاشتراكية تبدو – رغم ما ضمنته من أمن اجتماعى مساواة كئيبة فى الفقر، فيما عدا ما تنعم به قلة ضئيلة من الحاكمين من امتيازات! وترتب على ذلك أن سادت الديكتاتورية حقبة طويلة أكثر مما تحتاج إليه أية ثورة للدفاع عن كيانها، بما فى ذلك فترة «الإرهاب» التى هيمنت زمنا على مقدرات الثورة الفرنسية.

لاحظ هنا أن الإرهاب هو صفة اتسمت بها فترة من تاريخ واحدة من أعرق دول الغرب «الديمقراطية» ولم يكن ظاهرة إسلامية كما تحاول تصويره اليوم الدعاية الأمريكو – صهيونية!

من حرب على الشيوعية إلى حرب على الإسلام

ولكن بعد أن بدأ جورباتشوف فى منتصف الثمانينات من القرن العشرين فى التحول إلى الديمقراطية وإنهاء الحرب الباردة، بما فى ذلك الانسحاب من أفغانستان وشرق أوروبا والسماح بإعادة توحيد ألمانيا، سعى الغرب إلى دفع الموجة فى اتجاه اليمين المطلق بإسقاط الاشتراكية وتفكيك الاتحاد السوفييتى بحيث فقد جورباتشوف منصبه كرئيس لذلك الاتحاد، ورحب الغرب بمجىء يلتسين كرئيس لروسيا ومهندس لحل الاتحاد وتحول روسيا إلى الرأسمالية، على نحو أدى إلى مزيد من تقويض اقتصادها، واقتصاد الجمهوريات الأخرى فى الاتحاد

الذى انحل، والذى دافع الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون عن ضرورة حله بقوله: «إنه لو بقى الاتحاد السوفييتى إلى القرن الحادى والعشرين لأصبح المسلمون أغلبية فيه، وهذا ما لن نسمح به أبدا»!!

الحرب إذن تحولت - بقدرة قادر - من حرب على الشيوعية إلى حرب على الإسلام، وأصبحت الحيلولة دون أن يصبح المسلمون أغلبية فى الاتحاد السوفييتى السابق لا تقل أهمية عن القضاء على الشيوعية فيه وفى سواه!

وتقدم الكاتب اليهودى الأمريكى صموئيل هينتجتون بنظرية صراع الحضارات التى حلت كل الحرب الباردة ، حيث أصبح الإسلام - مضافا إليه الكونفوشيوسية - هو العدو الجديد للغرب - الذى يسعى إلى القضاء على الحضارة الغربية وقيمها كما كانت تسعى الشيوعية من قبل!

أما تلك القيم التى يخشى عليها من الإسلام فهى الديمقراطية، واقتصاد السوق، والنزعة الفردية!

ويتجاهل صاحب هذه النظرية أن مبدأ الشورى فى الإسلام قد سبق الديمقراطية المعاصرة فى الغرب بزمن طويل، وأن المجتمعات الإسلامية بعد تعرفها إلى الديموقراطية المعاصرة قد أصبحت كلها تتوق إليها بما فيها الإمبراطورية العثمانية فى أواخر أيامها، وأن الذى حال دون تحققها فيها أو اكتمالها هو الاستعمار الغربى والنظم التى احتضنتها.

أما عن اقتصاد السوق فإن الفكر الإسلامى بصدده لا يرى أن تكون قوانين السوق حائلا دون التكافل الاجتماعى وهذا مما يتفق فيه الإسلام مع النزعة الاشتراكية ، كما يتفق فى أمور أخرى فى مقدمتها المساواة ما بين أجناس البشر ورفض أية صورة من صور العنصرية .

ولكن الفكر الأمريكوصهيونى لايزال يرى أن هناك أجناسا من حقها السيطرة، وأخرى من حقها الاضطهاد، كما هو ظاهر الآن فى فلسطين!

وعلى كل فقد شهد هينتجتون ذاته فى مقال أخير له نشرته صحيفة الأهرام فى أوائل هذا العام، عن «حروب المسلمين»، بأن من أسباب كثرة تلك الحروب أن عددا من المجتمعات الإسلامية تقع تحت سيطرة دول أخرى تضطهد أفراد تلك المجتمعات، وتلك الدول هى إسرائيل التى تحتل أرض الفلسطينيين ، وروسيا التى تحتل أرض المسلمين فى الشيشان، والهند التى تحتل أرضهم فى كشمير.

إن الفكر الأمريكى - صهيونى ، إنما يحارب فى واقع الأمر مبادىء المساواة، سواء دعا إليها فكر دينى كالإسلام، أو علمانى كالماركسية، وبدلا من صنع مستقبل أفضل للبشرية ، يظل نزيف الموارد الاقتصادية والعلمية فى إنتاج الأسلحة واستهلاكها، لكى تضخ مليارات الدولارات فى جيوب مصاصى دماء البشر ! فضلا عن أهداف أخرى تصنعها أطماع الرأسمالية المتوحشة، مثل بترول بحر قزوين وتهديد الصين الناهضة قبل أن تصبح هى القوة الأولى فى العالم.

ولكن داخل الولايات المتحدة ذاتها هناك من أصبح يدرك حقيقة الأمور، واقرأ فى أول المقال عن مظاهرة نيويورك! ■







للدكتور

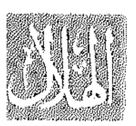
أحمد محمد صالح

يصدر ٥ مارس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال

١٠٥



ذو الحجة ١٤٢٢هـ - مارس ٢٠٠٢م

قبض الريح

بقلم

على الشوباشى

تصدر ١٥ مارس
سنة ٢٠٠٢

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

الإسلام
وصوت الإنسان

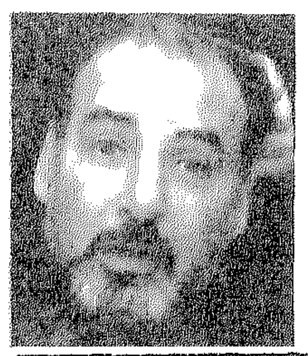
جزء خاص

أين صوت الإنسان؟!

بقلم
د. محمد المهدى

شاءت ظروف العمل فى فترة من حياتى أن يكون مكتبى قريبا من نادى (ريال مدريد) بمدينة (مدريد) . صوت الجماهير كان يعلو. يخفق كقلب مدينة يعانى ضربات غير منتظمة. دوى هائل لو واجه (نيرون) لسقطت وجلا من يده الشعلة التى أحرق بها روما .. ولو قابل (هولاكو) لاخترقت سهام الرعب قلوب رجاله الحديدية. لكن فى مدريد كان الصوت مجرد ضجيج هائل.. مجموعة آلات بشرية يمكن لمصنع صلب أو معمل تكرير بترول أن يحدث ماهو أقوى منه بكثير. يمكن نسفه بعود ثقاب صغير. ستبقى فقط مشكلة إطفاء بقاياه، أو جمع أشلائه وجثثه لعدة أيام .. إنه مجرد معلب صوتى ... والمأساة أنه معلب بشرى .

طاهر بن جلون





جبرييل جارثيا ماركيز

قديما زحفت آلاف الأصوات البشرية تبنى فى صوت مدو الأقصر، والكرنك ، وأبو سمبل. أقامت مدينة (خورسباد) وبوابة عشتار والزاقورات. نحتت فى قلب الصخر القصور والمعابد فى (تدمر) والسد العتيق فى (مأرب). تداخلت أصوات الخضوع مع أصوات القدسية، والبراعة، والابداع .

أقامت جماهير اليونان معبد (البارتينون) فى أثينا، وجماهير الرومان (البانتينون) فى روما. دكت أصوات القتال البحر الأبيض فى معركة (اكتيوم) بين الشرق والغرب عام ٣١ ق. م ، واقتربت من زمان الكورال السماوى الذى تردد على الأرض المقدسة فى بيت المقدس.. صوت الجماهير تسبح بحمد الله ، ولكنها تعود للتناثر فى أرجاء الأرض .

ويشير المايسترو القدير إلى هذه البقعة النائية بواد غير ذى زرع ليخرج الايقاع هادئا. ثم هادرا يعيد توازن الصوت البشرى. يتكسر أحيانا عند دار (عثمان)، أو خارج مدينة (كربلاء)، ولكنه يعود ليتكتل. يدفع بوابة (القسوط) عند الاندلس، وبوابة بيزنطة عند القسطنطينية. يبنى ويبدع من فنون الجماهير ما يبهر ويبقى .

وتبهت السطور الفردية إلى حين .

وفى ذروة ونشوة الصوت الجماهيرى الزاحف بدأت بشائر (الفونوغراف) مرتعشا، ثم التليفون هامسا، ثم الراديو والسينما والتليفزيون صارخا، تضاعفت الاصوات، وتضخمت الالكترونيات. صار الجهاز الصغير يعادل آلاف الأصوات التى عبرت مع الاسكندر من الغرب الى الشرق. أو آلاف الأصوات التى رفعت (نيرون) و(قيصر) إلى القمة، أو ملايين الاصوات التى اتسع قوس صداها مع صوت الرسول (صلى الله عليه وسلم)، أو الاصوات التى تبتلت وراء (غاندى)، أو تقدمت صوت (ماوتسى تونج)، او سكرت وراء (هتلر)، أو تأججت أملا فى النصر وراء عبدالناصر.

الصوت المعلب

وعندما يتأمل الجيل الجديد ما سجلته الصورة الثابتة او المتحركة للصوت الخافت او الواضح لبقايا عصر الصوت البشرى، يعجبون من هذه الضجة، وفى داخلهم تساؤل مريب حول الصوت البشرى. كيف حركت هذه الآلاف الأحداث؟ كيف قادتها إلى الانقلاب أو الانفلات ، او النصر او الهزيمة،؟ وما هذا المخدر العجيب الذى سرى فى شرايين الجماعة فأفقدهم الوعى وأفلت قوة حناجرهم؟

والجيل الجديد معه حق فكل ما عاصروه من أحداث لم يحدث أن تحرك بتحرك الجماعة او بتحرك الصوت البشرى..

الصوت البشرى فى أحسن الاحوال تهذب. أو هكذا قيل!

علبوه فى البرلمانات أو المجالس الشعبية. نظموا دوراته، وكلماته ، ونسقوها بأرقام وإحصائيات. ألزموه بمراقبة مطرقة الرئيس، وألزموه بزمن ودور ونصيب متساو.

الصوت البشرى (ورقوه). اى حولوه الى أوراق مطبوعة من صحف، ومجلات، وكتب، ونشرات ، وكتيبات. فقد تلقائيته، وتعلم اصول الصرف والنحو، صرف أموره، والاتجاه نحو مصالحه الخاصة .

الصوت البشرى (زينوه) بالصور التليفزيونية، والحواجز الاسمنتية، والحديدية، وفقرات الموسيقى الاذاعية.

الصوت البشرى (كوروه)، اطلقوه فى سديم الملاعب المفتوحة الشعبية، او نسقوه فى الملاعب المغلقة الارستقراطية.

الصوت الفنان

ويصعب على الجيل الجديد تصور رهبة الجماهير التى ارست قواعد تاريخية على حدود الحضارة. وحدود المدينة، وداخل (الانفتياتر) أو السقيفة، أو الأزقة، أو الحارات، أو المتاريس، أو الساحات، أو الميادين.

أين ذلك من فن الصور المرئية، من فن الصندوق الساحر . من فن الوهم الخالى من الملمس البشرى، من مجرد صدق طرف، وتصديق الطرف الآخر. وحينما ضاق الفنان التشكيلى من عزلة (الاطار) داخل اللوحة الفرد، حينما اقتحم صندوق المسرح. حينما دخل حياة الجمهور بالمستنسخات . حينما حطم الحاجز بين اللوحة والتمثال. حينما تمرد على التصاقه

الدائم بالحائط والعيون معلقة او محدقة فى فهم، أو ادعاء، أو بلاهة. حينما بدأ عهد الفنون التطبيقية.. فنون الساحات، و(اليرفورمانس) والليزر، والاوابد، والبيئة.

حينما جرت كل هذه الاضافات والتطورات، كان زمان الصوت البشرى الخافت قد بدأ. غطت عليه أصوات الانتاج الضخم، واقتصاديات السوق والمعلوماتية، والعولمة والاعلام والاعلان. الاضواء والالوان والخداع البصرى، والوهم الالكترونى .

حينما بدأ الفن يحطم الحاجز بينه وبين الجمهور، كان الجمهور نفسه يفر من الميدان والطرقات والتجمعات، ينسحب إلى بيته. لا يجد فرصة للهمس فما بالك بالكلام.

الصوت البشرى غائب فى زمان الوحدة، أو العزلة. خافت، غائم وسط أبخرة ضجيج هائل قد يصدر من جهاز بحجم علبة الكبريت. او ضجيج مكتوم يصدر من جهاز يسمى الانترنت .

وحينما بدأت السريالية بعد الحرب العالمية الاولى دعوتها الادبية فى العودة الى العقل الباطن، كانت فى الحقيقة تغوص فى دوامة العزلة كنوع من الحزن الدرامى السوداوى لغياب الصوت البشرى. وحينما بدأت الوجودية (السارتريه) تنادى بعد الحرب العالمية الثانية بالحواجز بين الناس، وكتبت مسرحية (الجلسة السرية)، كانت نوعا من الحزن المقهور على غياب الصوت البشرى. وحينما استمع (هيربرت ماركوز) الى صوت الشباب يدوى فى أروقة الجامعات استيقظ فى منطقه الفلسفى الأمل. ردد مبشرا بعودة

الصوت البشرى على يد هؤلاء الأحرار من سطوة رأس المال. لم تصمد الدعوة فقد ضاعت أصوات الطلبة أمام الهراوات، والأقنعة، والغازات، والدروع، ومسخ العقول او شراء بعضها قبل الأوان .

وحينما بدأ الفيلسوف الفرنسى (روجيه جارودى) دعوته لحوار الحضارات وقبل اعتناقه الاسلام فى السبعينات من القرن الماضى. كان (هنتنجتون) يحضر لفلسفة صراع الحضارات فى التسعينات.

الصوت الادبي

ونأخذ مثالين أدبيين لزمان العزلة، أو زمان حشرجة الصوت البشرى. أحدهما عمل ادبى من الشرق العربى (اقصى درجات العزلة). والآخر من الغرب القريب من العالم الثالث (مائة عام من العزلة) .

رواية (أقصى درجات العزلة) للكاتب المغربى (طاهر بن جلون) تصور طبيبا مغربيا فى فرنسا يتولى فحص حالات بعض العمال المهاجرين من شمال افريقيا بعد اصابتهم بأمراض جنسية ونفسية نتيجة لحالة العزلة، والوحدة، واجترار الجسد، أو النفس، النموذج الذى تقدمه الرواية (التقرير) فرغ من عقيدة قوية تعصمه او تصرفه عن التفكير فى الجنس، وفرغ من النضال الاجتماعى او السياسى.دائرة استهلاكية لا تتوقف. هناك من ينتج وهناك من يستهلك. وهو جزء من جهاز الانتاج بلا توقف. لقد صار هو نفسه مادة استهلاكية .. يعمل ليأكل ويرسل لأولاده ليأكلوا .

ضياع استهلاكى دون تنهد. خنقد

عميق. وقدرته الغريزية الباقية التي تصور أنها بحكم تقاليده وتصوره الخاطئ لعقيدته، تستطيع أن تثبت وجوده.. ضعفت . هزمت . انسحبت. غاضت. دفنت ودفنت معها سلالته، فماذا يبقى له سوى العزلة.

وقارن هذه الحالة بحالة الشاب في جيل النضال الجماهيري في حرب الجزائر. الجماعات والجماهير تصرخ متماسكة. كورال من ملايين الاصوات يهز الساحل الافريقي والاوروبي. كنا نشعر بالصوت يصلنا وإن لم نسمعه، يرتفع عاليا كأنه هارمونية أوبرالية من صنع أساطير (فاجنر) الثائر الساحر، الباحث عن قوة الجماعة وتفرد الفرد. قوة صوت الجماهير تطمئن عزف الفرد المنفرد. لاوجود للعزلة، ولا وجود ايضا للغرور او الاستعلاء. ويقول (بن جلون) في نهاية تقريره الروائي.. ان المريض اليائس المعزول يقيم محاكمتين. الأولى لأرض المنفى نموذج السيطرة الاقتصادية الظالمة (ومن يشك ان وراء هذه الوجوه التي بالكاد نلحظها تجري محاكمة ظالمة؟). والثانية للطب الغربي الذي عجز عن شفائه.

والعزلة الصوتية الثانية في رواية (مائة عام من العزلة) التي كتبها (جبريل جارسيا ماركيز) . قرية (ماكدوندو) في كولومبيا اقيمت بجهد الاب (خوسيه اركاديا ديا) وزوجته (اورسولا). تتوالى السلالة المترابطة. لا تنتج الا (اركاديو) صغير. او (اورليانو صغير). تتشابك الأحداث. تدخل في عالم من الاساطير، والأحاجي والألغاز. تتراوح بين (اليوتوبيا) والصور الممسوخة . يظهر الجيل الليبرالي، ويصل الامريكي للقرية مع استثماراته . يصل القطار ، ويربط القرية بالعالم. ينفرط عقد العائلة، وتظل الأم الوحيدة المحافظة على ترابط السلالة لاكثر من مائة عام. يكون هناك من أعدم ومن أبيد، ومن جن، ومن قتل، ومن اختفى، ومن ارتكبت الخطيئة ودخلت الدير، ومن رحل الى (روما) للمغامرة، ومن رحلت لـ (بروكسل) للدراسة . تعود السلالة. تحاول ان تترابط بعد أن سحبت من القرية أنفاس العصر الحديث، ولكنها لا تجد سوى علاقة غير شرعية بين الإبن وخالته .

وينتهي (ماركيز) من روايته قائلا (لأن السلالات الملعونة بلعنة مائة عام من العزلة ليست لها فرصة ثانية على ظهر البسيطة) . واذن إنها لعنة هذا الزمان. زمان يفرط عقد الجماعة ، يبح صوتها . واذا ما حاولت كتابة (نوتتها) من جديد تخرج مشوهة نشازا. عمل لا يخرج من صوت الجماعة، ولا يجد بالتالي أذنا للجماعة.

وتأمل هذه الحبات المبعثرة على سطح هذه (البلية الزرقاء) .. على سطح الارض، ستري الغربة، والصوت المخنوق، والصوت الأخرس، والصوت المكتوم، في عيون المعزولين في اوروبا، وامريكا، واستراليا. في عيون القادمين من جنوب شرق آسيا والهند. في عيون أقرب الينا. عيون ابن اللد ، ورام الله، والقدس . وصعيد مصر.

انها تذكره بأيام العزلة في بحر الظلمات بأقصى درجات العزلة، وآلاف السنين المقبلة من العزلة. إنها جماعات كتم صوتها البشري في أرضها. وخارج أرضها قبل حتى ان تنطق كلمة (الآهة) الموجوعة.

سيداتي، سادتي.. انعي لكم الصوت البشري . ■

أيام في طهران

الانتقال «الصعب» من الثورة إلى العولمة!

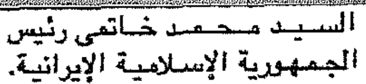
بقلم
محمود أحمد

تغير وجه الحياة في إيران منذ قيام الثورة، قبل ثلاثة وعشرين عاما، ولايزال التغيير مستمرا، اليوم يبدو وكأن دهرا قد انقضي منذ طرد الشاه محمد رضا بهلوي واستيلاء آيات الله علي الحكم، حتي أن قصصا كالأساطير قد بدأت تتوالد في الشارع الإيراني، عن الإمبراطور السابق، فقال لنا سائق سيارة «تاكسي» رقيق الحال إن بهلوي - هذا الذي نعرف أنه مات بالسرطان ودفن في مصر - قد قضي عليه في انفجار قنبلة زرعت له وقتلت معه سبعمائة شخص من أتباعه!

لا أحد في إيران اليوم يصدق، أو يتصور، أن أيام الشاه والحكم الملكي يمكن أن تعود، هذا عصر انقضى وطويت صفحته، ولكن أيام اندلاع الثورة، بلهيبها اللافح، تبدو هي أيضا بعيدة .. رغم أن رموز الثورة مازالت هي التي تحكم، صحيح أن «نهج» الجمهورية الإسلامية هو الذي يسيطر على مقاليد الأمور في هذا البلد الكبير المهم، الذي يبلغ تعداد شعبه ٦٨ مليونا من البشر ويقع في منطقة تماس مباشر مع العالم العربي .. ولكن الصحيح أيضا أن الشارع الإيراني قد اختلف كثيرا عما كان عليه عندما



طهران .. العاصمة الإيرانية.. تطل عليها الجبال التى تغطيها الثلوج شتاء



السيد محمد خاتمى رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

اندفعت مجموعة من الشباب الثورى إلى مبنى السفارة الأمريكية فاحتلته، فى عملية فريدة أفرزها عنفوان الثورة فى بداياتها، وكانت لها تداعياتها التى لاتزال تؤثر على إيران حتى اليوم .

اختلف الشارع الإيرانى، وتقلص دور الحرس الثورى، حتى أن بعض زعماء المجموعات التى احتلت السفارة الأمريكية قبل نحو عشرين عاما قد أصبحوا اليوم - كما قيل لنا - من رموز التيار الإصلاحى الذى يعمل على انتهاج سياسات واقعية، أو حتى «براجماتية» فى مختلف المجالات.

بل إن بعض «المظاهر» التى رافقت الجمهورية الإسلامية، سواء فى حركة الحياة اليومية أو فى العادات الاجتماعية «احتفالات الأعراس وما إلى ذلك» أو حتى فى سلوك الناس وتصرفاتهم وملابسهم مثلا، يكاد يختفى «الشادور» الذى كان لزاما على النساء الاختباء داخله، فى مطلع أيام الثورة، ولم يعد الشباب الثورى المتشدد يطارد المتهاونات فى التقيد بالزى «الإسلامى» وأصبح «الإيشارب» ، الذى تختفى أطرافه تحت «ياقة» معطف أنيق - محبوك أحيانا - وفى حالات كثيرة، قد ينزلق «الإيشارب» الى الوراء ليظهر جزءا من الشعر اللامع والمعتنى به، أيضا، عادت الفتيات، وبعض السيدات فى أواسط العمر، إلى استعمال أدوات التجميل لتظهر الوجوه، الجميلة أصلا، أكثر طلاوة ونضارة وبشاشة، أما الشباب، فلم يعودوا يتمسكون كثيرا بإطلاق اللحى، فإن فعلوا، فإنهم «يهذبونها» حتى لتبدو أقرب إلى «الموضة».

لغة السينما

هناك، أيضا، اهتمام واضح بالفنون عموما، بعض ألوان هذه الفنون حقق

ازدهارا بينا .. خاصة فن «السينما» الذى أتاحت لنا المصادفة متابعة نماذج قليلة، ولكنها كافية منه، دعينا إلى حضور عرض خاص لفيلم سينمائى عن السيدة مريم يحمل اسم «القديسة مريم المباركة The blessed Saint Mary ، وهو إنتاج ضخم يروى، بالكاميرا، مايشبه ترجمة حرفية لقصة السيدة مريم كما وردت فى القرآن الكريم، وذكرنا الفيلم بالاهتمام الذى أصبحت السينما الإيرانية تحظى به فى المحافل الدولية، رغم أن المخرج السورى «محمد ملط» الذى كان معنا أثناء مشاهدة الفيلم - أعرب عن رأى بأن مخرجته «شهريار بهرانى» قد اعتمدت أسلوبا أقرب إلى الأفلام التليفزيونية منه إلى لغة السينما، وبعد العرض، التقينا مصادفة بمنتج الفيلم، «محسن على أكبرى» الذى قال لنا إنه أنتج أيضا فيلما عن «أهل الكهف» وأنه يحضر حاليا لإنتاج فيلم ثالث بعنوان «موسى .. كليم الله» وقد طلب إذنا من السلطات المصرية لتصوير جانب من مشاهده في سيناء.

زيارتنا هذه إلى طهران فى الأسبوع الأخير من يناير الماضى، جاءت فى عز فصل الشتاء كانت الثلوج تجلل قمم الجبال المطلة على العاصمة الإيرانية، فى حين كانت آثار ثلوج لاتزال تغطى جوانب الشوارع والساحات التى بدت لنا نظيفة ولكنها تعانى من ازدحام خانق فى المرور، خاصة فى ساعات الذروة، أما الذى لاتخطئه العين، فهو إمارات ومظاهرات المعاناة الاقتصادية التى ينوء بها كاهل الشعب الإيرانى، والناجمة أساسا عن الحصار الاقتصادى الطويل الذى قادته الولايات المتحدة ضد إيران منذ قيام «الجمهورية الإسلامية» ونتيجة أيضا للحرب الطاحنة مع العراق، فى الثمانينات، والتى دفعت إيران الى خوضها، نعلم، إثر وصولنا، أن قيمة الدولار الأمريكى تصل الى ثلاثة آلاف ريال إيراني، وأن علينا أن ندفع عشرة آلاف ريال ثمنا لفنجان من الشاى أو القهوة!

فلسطين .. في الوجدان

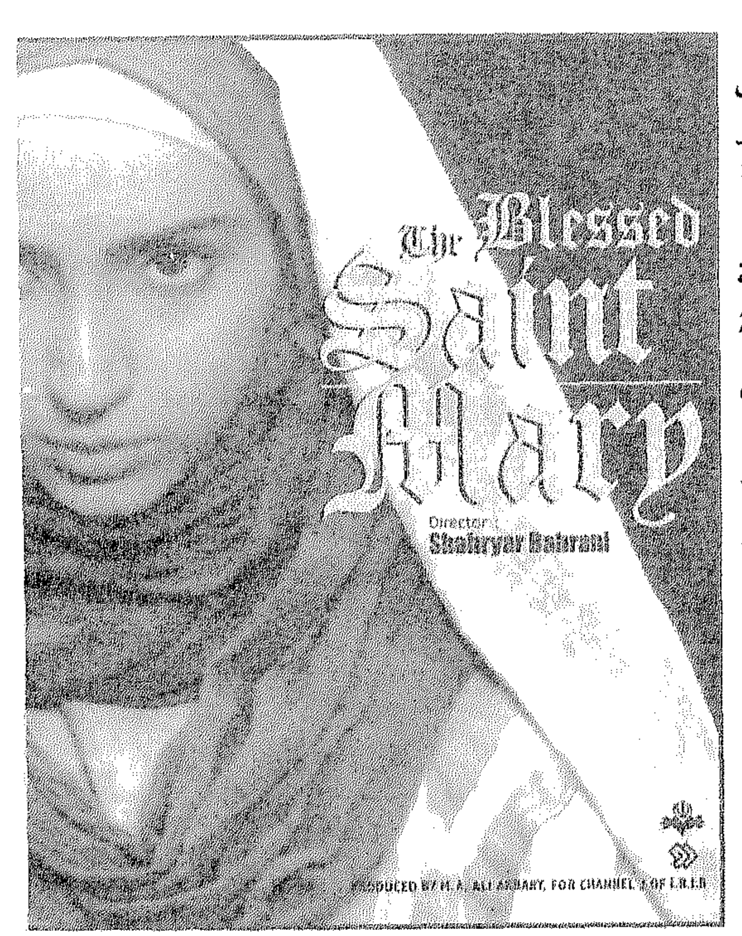
هدف الزيارة، أو مناسبتها كانت المشاركة فى مؤتمر للإعلاميين من الدول الإسلامية لبحث سبل دعم الانتفاضة الفلسطينية ، ومنذ الوهلة الأولى، تجلت الأهمية الكبيرة التى توليها إيران للمؤتمر، والتى انعكست فى الترتيبات التى اتخذت استعدادا لعقده والتغطية الإعلامية الواسعة التى توفرت له، ثم تأكدت بحرص أعلى قيادات فى الدولة على الحضور الى قاعة المؤتمر والتحدث أمامه، تقريبا كل القيادات: شارك رئيس الجمهورية محمد خاتمى فى الجلسة الافتتاحية وألقى كلمة أمام المؤتمر، ثم جاء تباعا كل من آية الله محمود هاشمى شاهرودى رأس السلطة القضائية، وآية الله هاشمى رفسنجانى رئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام «أحد المجالس الثلاثة التى تتكون منها السلطة التشريعية» وآية الله مهدى كروبى رئيس مجلس الشورى.

ولكن هذه الأهمية الكبيرة التى تنالها القضية الفلسطينية فى إيران لاتعبر عنها



فقط مواقف القيادات، أو الكلمات التى يلقونها فى مثل هذه المناسبات أو البيانات التى تصدر عن مؤتمرات «كهذا الذى عقد فى نهاية يناير وأكد أنها «القضية المركزية الجامعة لتضامن الأمة العربية والإسلامية» وإنما هى أهمية تحتل مكانا فى وجدان الشعب الإيرانى الذى ينفعل معها أيضا انفعالا عاطفيا ظاهرا، وقد عبر هذا الانفعال عن نفسه بصور شتى، خلال فترة انعقاد المؤتمر ولكن بعيدا عن أروقته، على صفحات الصحف وبرامج التليفزيون التى استضاف أحدها وهو برنامج «صباح الخير ياإيران» (صبح بخير .. إيران) شخصيات عدة للتحدث عن الانتفاضة الفلسطينية بمناسبة انعقاد المؤتمر، هذا إلى جانب ماتبين لنا من وجود إذاعة خاصة لفلسطين، ومطبوعات عديدة دورية - شهرية أو فصلية - مخصصة لنشر مواد عن القضية الفلسطينية.

على أن الرأى العام الإيرانى يدرك أن هذا الموقف الملتزم إزاء القضية الفلسطينية وموقف إيران عموما من مشكلة الشرق الأوسط، يعد أحد نقاط الخلاف - أو التناطح الرئيسية مع الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن هناك أيضا إحساسا كامنا بأن حل هذا الخلاف ، مع افتراض إمكانية التوصل إليه، لن يكفى لإعادة العلاقات الطبيعية بين واشنطن وطهران، وربما لهذا السبب لم تكتسب اهتماما كافيا تلك الأصوات، من جانب اليسار الاصلاحى، التى تدعو إلى تغيير موقف إيران إزاء قضية الشرق الأوسط، وإلى انتهاج سياسات



أصبحت السينما الايرانية تحظى بالاهتمام في المحافل الدلية

أكثر «واقعية» و«براجماتية» تراعى مصلحة إيران على المدى الطويل.

يقول هؤلاء : إن الطريق إلى المستقبل شاق وعسير، وأن إيران لن تستطيع أن تتجنب الخيار المحتوم للانتقال من حالة «الثورة» إلى التأقلم مع «العولمة» وإنه إذا كان لزاما أن تتغير بعض المواقف والسياسات، فإنه ينبغى على إيران أن تضع ذلك فى اعتبارها حتى يتم ذلك الانتقال وفقا لأفضل شروط .. بدلا من الخضوع - بدرجة أو بأخرى - لما سيفرضه المد الآتى من الخارج!

لقاء .. مع القائد

جاء اللقاء مع القائد آية الله على

خامنئى.. وهو مرشد الثورة ورأس السلطة فى النظام الحاكم فى إيران .. بما يشبه المصادفة، كان المؤتمر الإعلامي لدعم الانتفاضة الفلسطينية قد أوشك على أن يختتم أعماله، وكان أعضاؤه قد استمعوا إلى أهم قيادات ورموز النظام: خاتمى وشاهرودى ورفسنجانى وكروبى، أما القائد الأعلى، المرشد، السيد على خامنئى، فلم يحضر إلى المؤتمر وإنما ذهب المؤتمر إليه. وربما لم يكن هذا اللقاء مقررا أصلا .. ولكن الذى حدث أن خطاب الرئيس الأمريكى جورج بوش أمام الكونجرس عن «حالة الاتحاد» والذى اطلق خلاله أوصافا واتهامات عنيفة ضد إيران ، «وهى ثلاثة اتهامات رئيسية : أنها محور للشر، وأنها تأوى الإرهاب، ثم أنها تسعى لامتلاك أسلحة الدمار الشامل» كان قد صادف آخر أيام المؤتمر وأحدث صدمة – وغضبا جامحا – فى الأوساط الإيرانية.. وخاصة بين القيادات العليا وبدا وكأن ردا على أعلى مستوى يجب أن يصدر عن إيران .. ولم يكن هناك أفضل من أن يتم ذلك من خلال ترتيب لقاء يتحدث فيه إلى أعضاء المؤتمر الإعلامى لدعم الانتفاضة الذى كان لايزال منعقدا فى طهران.

وهكذا أعلن رئيس المؤتمر «على لاريجانى» وهو رئيس هيئة الإذاعة والتليفزيون الإيرانية التى تتبع القائد مباشرة، فى الجلسة الختامية، أن طلبا كان قد قدم للقاء القائد مع أعضاء المؤتمر .. وأن الرد جاء بالقبول، ومن ثم فإن اللقاء سيعقد فى صباح اليوم التالى

.. وكان ذهابنا إلى هذا اللقاء – نحن أعضاء المؤتمر – تجربة فريدة فى حد ذاتها.

اتخذنا أماكننا فى السيارات والحافلات التى أعدت لتنقلنا إلى مقر القائد الإيرانى، فى التاسعة صباحا، بينما كانت تعج فى المكان حركة تؤكد أن «هاجس الأمن» يسيطر على الجميع.

واصطف أمام «موكبنا» صف طويل من سيارات الشرطة والمراسم التى لاتكف أضواؤها الحمراء والصفراء عن الوميض، واستغرق المرافقون ورجال الأمن وقتا طويلا فى ترتيب الموكب والاطمئنان على إجراءات الأمن والسلامة.

وحين انطلق الموكب، أخيرا، تبين لنا أن الشوارع قد أخليت أمامنا، وإن كانت السيارات قد مضت وئيدة السرعة على أربعين أو خمسين كيلو مترا فى الساعة، ميممة شطر الحى الذى يسكنه الإمام فى طهران.

انحرف الموكب الى شارع يحمل اسم «فلسطين» وسرعان ماوصلنا إلى بوابة حديدية تسد الطريق فتوقف الركب، بعد وقت قصير، تبينا أن البوابة جزء من سور غير منتظم يطوق قسما من الحى الذى وصلنا إليه، وأن البنايات الواقعة «داخل» السور – والتى لايميزها شىء عن باقى البنايات المجاورة – تشكل فى مجموعها مقر الإمام المرشد، ولكن، وقبل مغادرة السيارات، وزعت علينا أكياس من النايلون الشفاف.. وطلب إلينا أن يودع كل منا الكيس الذى اعطى له جميع الأشياء التى توضع فى الجيوب أو تحملها الأيدى.. وشمل ذلك : ساعات اليد،



والهواتف النقالة، والمحافظ، والنظارات الشمسية أو أية نظارات غير المستخدمة على العيون، والخواتم (بما فيها «دبلة» الزواج)، والكاميرات .. الخ، وكان على كل منا أن «يربط» الكيس الخاص به وأن يتركه على مقعده فى السيارة.

كان علينا ، بعد ذلك ، المرور من خلال أكثر من بوابة، والاستسلام لإجراءات تفتيش ذاتى، قبل أن نصل إلى مبنى منخفض لايتميز عما حوله من مبان.. اللهم إلا بواجهته الأسمنتية غير المطلية بأى لون، وأدركنا أن المبنى يضم قاعة استقبال يلتقى فيها المرشد بضيوفه، وعند الباب ، وجدنا عددا قليلا من الأحذية بالخارج، مما أوحى بوجود عدد قليل من الأشخاص بالداخل، واجتزنا ممرا صغيرا تحفه جدران عارية، ويفضى إلى «القاعة» التى لاتختلف عن «مندرة» متوسطة الحجم فى منزل ريفى، وعلى امتداد جدران القاعة، صفت على الأرض وسائد من الأسفنج المبطن بقماش رخيص ومساند مماثلة لتحمى ظهور الجالسين من برودة الجدران، أما أرضية القاعة، فقد غطيت بنوع من «الموكيت» المتواضع للغاية، بينما أضاءت القاعة مصابيح من «الفلورسنت» عارية من أى غطاء أو زينة.

وبدا لنا الزهد والتقشف مقصودا .. ومبالغا فيه!

كان هناك مسند إضافى يكسوه قماش أبيض يتصدر جدار القاعة إلى يسار الداخل، تعلوه صورة للإمام الراحل آية الله خمينى، وأدركنا أن هذا هو المكان المعد لجلوس المرشد. واتخذ



القائد الأعلي المرشد اية الله على خامنئى ، والصورة من التليفزيون فلم يكن مسموحا بدخول الكاميرات الى مقره

شخص وديع المحيا مجلسه بالقرب من هذا الموضع، مما أوحى بأنه لابد أن يكون من الشخصيات المقربة من القائد، وهو ماثبت لنا بالفعل، فعندما تفرسنا فى قسماته تعرفنا فيه على وزير الخارجية السابق على أكبر ولايتى ! وبعد فترة انتظار قصيرة، دخل المرشد القائد على خامنئى إلى القاعة التى افترش أعضاء المؤتمر أرضيتها بالكامل تقريبا، لايفصل صفهم الأول عن المكان الذى تربع فيه القائد فى صدر المكان إلا مسافة قصيرة.

محاورة «الشيطان الأكبر»

لم نستطع تقدير الوقت الذى استغرقه حديث آية الله على خامنئى إلينا .. بسبب افتقارنا الى ساعات اليد من ناحية، ولأن الحديث شدنا بسخونته من ناحية أخرى فلم نشعر بمرور الوقت. كان المرشد



شارع فى طهران : الاشجار لا تزال عارية فالشتاء يخيم على العاصمة الايرانية ولابد من انتظار الربيع

غاضبا، بسبب مابدر من الرئيس الأمريكى فى حق إيران، وانعكس غضبه فى التعبيرات التى استخدمها ردا على الاتهامات الأمريكية، وهى تعبيرات كانت قد اختفت من الخطاب السياسى الإيرانى مثل وصف الولايات المتحدة بأنها «الشيطان الأكبر» وغير ذلك من كلمات حادة وقارصة.

وقد أدركنا، بعد وقت قصير، أن وراء الغضب الإيرانى ماهو أكثر من مجرد الانفعال الذى سببته إهانات الرئيس الأمريكى واتهاماته. فقبلها، بدت الأمور وكأنها تسير فى اتجاه ايجابى بالنسبة للعلاقات الأمريكية الإيرانية .. إلى حد أن مصافحة شهيرة جرت بين وزيرى خارجية البلدين فى أروقة الأمم المتحدة، وذلك لأول مرة منذ عشرين عاما، كذلك اعتبرت طهران أن من المؤشرات الإيجابية فى العلاقات أنه سمح لمندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة أن يخرج من نيويورك ، لأول مرة أيضا منذ قطع العلاقات بين البلدين، وأن يذهب إلى واشنطن حيث كان أحد اعضاء الكونجرس قد حدد له موعدا للالتقاء به، وقد كانت طهران فى حاجة إلى «تطوير» هذا الاتجاه لكى تفك نهائيا قيود الحصار والمقاطعة المفروضة عليها منذ عقدين من الزمان، صحيح أنها كانت قد استطاعت - خصوصا منذ مجىء الرئيس محمد خاتمى - إعادة العلاقات مع قوى دولية وإقليمية مهمة بالنسبة لها فى الخليج وأوربا وغيرها، ولكن بقيت العلاقات المقطوعة مع واشنطن، والقوانين التى تصر الولايات المتحدة فى استمرارها، تحول دون تعاون الشركات الأمريكية العملاقة فى العمل مع إيران فى مجال



الشادور.. بدأ يختفي تدريجيا .. وتحل محله ملابس «مألوفة» أكثر

إنتاج النفط، وتتضح أهمية مشاركة هذه الشركات إذا أخذنا فى الاعتبار حقيقة أن حقول النفط الإيرانية لم تشهد أى تطوير ولم تعرف أى نوع من التكنولوجيا الحديثة التى استخدمت فى هذا المجال منذ عشرين عاما .. وإلى الحد الذى أصبحت فيه هذه الآبار فى حاجة الى استثمارات هائلة لتطويرها، وهى استثمارات لاتقدر عليها إلا البيوت العالمية العملاقة والتى يقدرها بعض الخبراء بما يناهز - أو يزيد - على المائة مليار دولار!

من هنا كانت الحدة الإيرانية تعبيرا ليس فقط عن الغضب .. وإنما أيضا بسبب الصدمة وخيبة الأمل لهذا التراجع الذى اعتبرت طهران أنه لامبرر له .. ولم تخف مصادر إيرانية شعورها بأن هذا «التخريب» لابد أن تكون وراءه أصابع إسرائيلية.

ومع ذلك فإن أحداً لايتوقع مواجهة - الآن - مع الولايات المتحدة أو ضربة أمريكية مفاجئة.

وفى كل الأحوال ، فإن الحياة ستمضى .. وسيستمر التغيير .. وكثيرون فى إيران هم الذين يراهنون على المستقبل .. ويقولون إنه إذا كانت إيران قد استطاعت أن تحقق نموا يصل إلى خمسة فى المائة سنويا، خلال الفترة الماضية، رغم الحصار والعقوبات، فإن فى قدرة البلاد بعد انتهاء الأزمات والتقلصات الحالية - أن تحقق انطلاقة تنهى الاختناق الاقتصادى والمعاناة التى لاتزال ترهق كواهل الناس .

فإذا كان وجه الحياة فى إيران قد تغير حقا بعد ثلاثة وعشرين عاما من قيام الثورة، فمن المؤكد أن ماسيكون عليه البلد بعد عشرين عاما أخرى سيكون أشد اختلافا عما نراه اليوم! ■

الرسائل

قصـــة قصيرة

بقلـــم
حسب الله يحيى

بغداد



فى المساء العميق، اعتاد رهن أوقاته للمذياع، يعطى له كامل الإصغاء، فيما ينصرف إلى تنظيم كـتـبـه وأوراقـه والرسائل القديمة التى كان قد تسلمها فى أزمنة مختلفة وقد تراكم عليها التراب وخيمت عليها خيوط العناكب. كان يحس أن الوقت يمر سريعاً.. سريعاً وليس بمقدوره أن يلحق به، وكان يعتقد أنه سيجد الوقت مبذولاً أمامه بعد حصوله على التقاعد من وظيفته التى مضى على استمراره فيها أكثر من ثلاثة عقود.. إلا أن الوقت مازال يعجل بمسيرته.. لذلك فضّل أن يستثمر أوقات نشرات الأخبار والتقارير، بينما ينصرف لتنظيم غرفته المبعثرة بالأوراق والكتب والمجلات.. والتى وجد أنها قد تحولت إلى عبء على عينيه وذاكرته، كما لم يعد بمقدوره العثور على كتاب أو صورة أو مجلة.. يعرف جيداً أنها موجودة فى مكتبته.. كما واجه الخجل والعتاب من أصدقائه وهو

يعدهم بكتاب ما، موجود لديه، لكنه لا يعرف موقعه، ولا كيف يجده بين مئات الكتب التى تضمها مكتبته.

كانت هذه الغرفة، هى مكانه الأثير وعالمه السحرى وموطن كل أسراره.وخصوصياته وبوحه الذى لا يمكن أن يخرج من باب أو شباك.. هذا هو المكان السرى الوحيد الذى يطمئن إليه ويحتمل شئونه وشجونه.

كان يفرحه أن يعثر على كتاب ظل يبحث عنه من قبل دون جدوى.. حتى يشترى نسخة ثانية منه.. فيطمئن ، وقد لا يجد نسخة أخرى ولا طبعة أخرى من كتاب يحتاج إليه.. ويعلم أنه ينام بين هذاالجمع من الكتب.. دون أن يعلن عن نفسه. أو يستيقظ من نومه وعزلته وسكونه.. وهو الذى كان يرى فيه الصديق الأثير الذى يقصده متى يشاء، ويتركه متى أراد.. لكن هذا الصديق الحميم بات يفضل التخفى عن عينيه، والابتعاد عن أحلامه عند الحاجة ، وإهماله عندما لا تكون هناك حاجة إليه.

أحس.. بمسئوليته وبأن صديقه الكتاب له



الحق فى اتخاذ قراره بالتخفى، وحتى يعالج هذا الجفاء وهذا الاهمال المقصود أو غير المقصود ، رأى أن يغتنم الوقت ويتوجه لإزالة الغبار عن صديقه الكتاب وأن يضعه فى المكان الذى يليق به، حتى إذا ما ناداه، أشار الصديق الحميم إلى وجوده بكل هدوء وسرور واحترام .. وصار بين يديه وتحت أنظاره.

فى المساء العميق.. كان صوت المذياع يعلن عن حروب وفيضانات وزلازل وحرائق وتظاهرات.. وأحداث هنا وهناك، كان العالم ساخناً..

وتموز يلتهب والمروحة السقفية تبدو متعبة وهي تواصل الدوران ليلاً ونهاراً فى عمل متواصل.. كأنها قد أصيبت بالصداع، وبدت منهكة تئن من علة أصابتها.. أشفق عليها ، جعلها تستريح، تهدأ ولو لوقت قصير.. فللآلة روح حيّة ينبغى أن نحترمها ونعاملها بحنية.. حتى تبادلنا الحنان وترأف بنا وتعرف حاجتنا الماسة إليها.

هكذا كان يخاطب نفسه ومروحته السقفية التى علاها الغبار والاهمال منذ سنوات طويلة.. لم يعد يعرف كم بلغ عددها.

صوت المذياع يحاصره بالأحداث الآنية الساخنة، والصور والرسائل والكتب.. تعيده إلى ماضٍ أقل هدوءاً ، أقل.. أقل إثارة للمشكلات ، وأحياناً.. أجمل وأكثر بهجة، أكثر استعادة للذكرى، إكثر إثارة للمشاعر والأحاسيس، أكثر إدراكاً وإنتباهاً على إيقاظ ما كان منسيا ومغيبا وبعيدا.. بعيدا جداً عن الذاكرة التى خيم عليها النسيان.. كما تراب القبور المنسية.

فى هذه الأثناء ، إلتمت كل حواسه.. نظراته وقعت على خط ألفه جيداً، فتلمس الحروف، كأنما يبحث فيها عن حياة، عن حركة

مـا، أصابعه راحت ترتجف.. وسريعاً فتحت غلاف الرسالة، وراحت الذاكرة تستعيد أيامها الأسعد من السعيدة .

رآها بين السطور ، في قلب الكلمات، في صميم الحروف.. وقد تحولت إلى كائنات حيّة حيّية ، تسأله بخجل، تناديه بألم وانكسار ورغبات مكتومة، تهتف به ، تراه، تستنطق الخفي والساكن والمعتم والمجهول والغريب في حياته.. وتتجاوز مسافات الأزمنة والأمكنة، وتصغي إلى صمته.. صمت ميت أكلته الأيام وحولته إلى كائن هش، تضاءلت فيه ومضات الحياة، حتى بات لا يدرك الوقت ولا يميز بين الليل والنهار، وبات كل شيء حوله يختنق حدّ الفناء.

خجل من مظهره، من شيخوخته وعجزه ومرضه، خجل من هذا الانطفاء الكلي الذي بات يهدد حياته ويحولها إلى مجرد زمن يستعيد نفسه، فيما تستعيد أوجاعه دقاتها في رأسه وحواسه والاختناق في صدره.. حتى بات يتوسل الأماني أن تمنّ عليه بالنهاية.. النهاية الأبد، لكنه يخشى أن يبوح بهذه الأمنية التي باتت تشغله في كل الأوقات، حتى لا يكون نقيضاً مع نفسه، مع أحاديثه إلى أولاده وزوجته وهو يزرع فيهم الآمال الكبيرة.

هذه الرسالة، أيقظت الماضي كله، أخرجت السنوات العتيقة وأزالت عنها التراب وجعلتها تتنفس الذكريات بالهدوء.. الهدوء السعيد الذي توسمت به، قالت رسالة الماضي.. إنها تحبه، وتراه أفضل الناس وأصدقهم وأكثرهم قرباً إلى نفسها وقلبها وذاكرتها.. ولا يشغلها شيء مثل رؤيته والجلوس أمامه تحدق في عينيه، وهمس كلماته.

وكان يقول لها: إنه يحبها، وحبه امتلاك، وامتلاكه يعني الذوبان فيه.. يحفظها في مكان سري.. وليس لأحد قدرة على اكتشاف وجودها في داخله.. كتاب سري.. ليس بوسع أحد أن يقبض عليه متلبساً بالحصول عليه وقراءته.. فما فعله.. كان أن حفظ الكتاب كلية وبات من المستحيل أخذه بجريمة قراءة كتاب ممنوع.

سألته مرة : هل أساوي كتاباً عندك؟

أجابها: - وهل يساوي الكتاب أحداً سواك؟

وراح يقرأ في العتمة.. بعد أن عم الظلام، وحلّ التوقيت المبرمج وغير المبرمج.

- لا يعرف - لقطع التيار الكهربائي.

نادته الزوجة، ناداه أولاده واحداً بعد الآخر، لم يكن على دراية بالأصوات، وظل يقرأ رسائل حفظها وكتباً سجينة، فتحت نوافذها وراحت تبصره..

حسبوه نام من تعب، فلم يفضلوا إيقاظه، وحسب أن الظلام ستاد يحميه من الرصد والانتباهات والأسئلة والفضول.. واحتفظ بهدوئه.

أسعدته العتمة لأول مرة.. فيما كان يوظف

أوقـات انقطاع التـيـار الكهـربائى للحـديث إلى عـائلتـه فى مـوضـوعـات كثيرة.. حد الملل، حدّ أن يبـادر أحـد أبنائه أو زوجتـه بتنبيـهـه: لقـد حدثتنا بهذا الموضوع.

.. وهـو ، هو، حـتى الآن ليس بوسـعـه أن يقول هذا لأحد.. ستون عاماً ومازال الخجل قرين نفسه وحياته وانطباعات وجهه وستون عاما وفيه الكثـيـر .. الكثـيـر من الخجل على طى صفحة من كـتـاب، أو إسكات حروف سمح لها بالحديث بعد أن أخـرجـهـا من مغلفها.. ذلك أن الكتب والرسـائل، كـائنات صديقة وحـميمـة.. ليس من السـهل إسكاتهـا.. بسبب غير مقبول يتعلق بالظلام.. أليس بمقـدور الأصدقاء أن يتكلموا فى قلب الظلام، فيشع القلب ويتبدد الظلام..؟

مـا كـان بوسـعـه أن يسكت صوتها، أن يضيّع وجـودها.. وهـو الذى افـتـقـده أعـوامـاً طويلة حـسـبـهـا الدهر كله، حـسـبـهـا الأمل.. الأمل المستحيل الذى خرج عن استحالته وجاء إليه فى مساء أجمل بكثير مهما كان يرتجيه.



كـانت صـاحـبـة الرسـالة تمنى نفسـهـا بلقائه، وكـان هو.. يمنى نفسـه بلقـاء هو الحـيـاة كلهـا.. مـجـتـمـعـة.. والافتراق هو المستحيل.

حـدثتـه عن قـرنفلة تزين الزمـان والمكان ويستحيل عليها العطر.

حـدثهـا عن الكتب الأثيـرة التي تملأ الكون فكراً وابداعاً وتستحيل على عيون تتوق إليها.. كمـا الهواء، كمـا الماء ، كما الحياة.

قـالت .. كـيف نضم الأشـيـاء التى نحـبـهـا إلينا.. هل سـيظل هذا.. الصعب فى حياتنا ، هل سنبقى نتمنى فحسب..؟

قـال.. كل الأسـئلة تستغيث، وهى تبحث عن أجوبة.. كما الطير يبحث عن جنـاحـين يـريـد أن يطير بهمـا.. فإذا الريح العـصـيـة ، وأهداف الصياد بالمرصاد.

كـان به شغف كبير إلى الحـديث طويلاً، إلى رسالة تملأ كل فضاءات غـرفـتـه بعـد أن سكت المذياع، وسكتت مـعـه أنباء الكوارث والحروب.. وحلّ صـوت الحـشـرات الطيـارة والقـفـازة والزاحـفـة.. كل تجـد حريتها فى الظلام.. وهو ، هو الكائن الضـوئى الوحيد الذى بات يهمس إلى نفسه فى العتمة.

ظل يقـرأ بصـوت خـافت مـهـمـوس، كل رسـائلهـا التى حـفظهـا وجعلها فى خزانة ذاكرته وليس بـوسـع أحـد اكتشاف وجودها سواه.

وراح يتـوسل الظلام أن يبـقى حـتى يخـرج المخبأ، حتى يعلن المخبأ عن نفسـه، مـتى تكون النفس بكامل بهـائهـا وفرحتها وهى تلتقيه فى هذا المكان الأثيـر.. لكنه أثير فجأة، جفّل .. كأنما مسه جمر.. فاكتوى وهو يسأل:

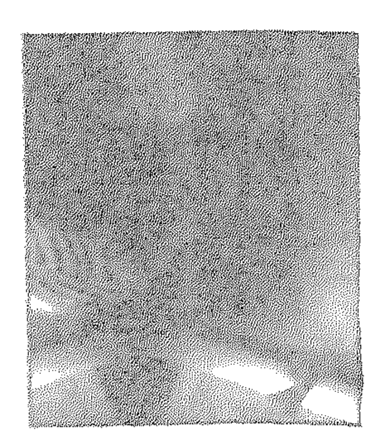
– هل كـان عليـه أن يكشف عن جنته السرية، عن فردوسه النادر أمام كل هذا الجـمـع من الأصدقاء الذين يكن لهم الاحـترام ويجمـعـه بهم ساعاته الأجمل..؟

.. أحـسـهـا تبـتسم، تسـاءل.. أكـانت تشك فى

سريته وإخلاصه وكتمانه؟ دهش من ابتسامتها.. توسل إليها أن تفصح .. توسل الاطمئنان أن يقول له شيئاً، توسل الوقت أن يستعاد، أن يرجع إلى شبابه، توسل العطر أن يقترن بألوان القرنفل، والكتب أن تثق بالعيون.. وهى أن تراه كما يراها.. بعيون مفتوحة على الصدق.. وأن يظل يقرأ رسائلها ويحس لمسات أصابعها على الورق.. وعيونها .. العالم الذى يرى على الورق، وعلى الورق السعيد بلمساتها، وعلى الحروف تزهر فى مداد لا يجف.

وتوسل.. ثانية إلى دمه أن يكون بين أصابعها.. حبراً تكتب به رسالة حب إليه، فتعيد إليه دمه، رشاقة دمه الذى يئن من جفاء، ويختنق بثانى أوكسيد الكاربون .. بعد غيابها الذى لم يكن يصدقه أبداً.

.. وجاء صوت الصراصير مزعجاً، يغتال الصمت الجميل الذى كان يحتفل به وهو.. بين الكتب والرسائل والأشواق والآمال.



كان به عطش ملّح على اللقاء بها، على أن تكون قريبة منه، فى همس ناعم سرى.. ليس لأحد فيه نصيب وليس للعالم كله شأن بهذه الأسرار المهموسة التى تقول الكثير وتعنى الكثير وتتجمل بما لا تتجمل به كل الحدائق وكل الفاتنات.. سمع دقات على الباب، أهملها.

سمع الإهمال الدقات، فأراد أن يتمرد على هدوئه، والإعلان عن نفسه.. فكتمه. أحس الاهمال بالاختناق.. وتحرك معلنا عن حضوره.

- أبى.. هل كنت نائماً، ناديناك كثيراً.. لكنك لم تجب، حسبناك نائماً، فلم نكن نريد ازعاجك.

خاطب الابن الصغير .. الأقرب إلى مشاعره.

- أبى .. جاء الكهرباء منذ زمن.. عندما كنت نائماً.

قال :

- من أرسل فى طلب الكهرباء، أرجوك.. أرجوك يا ولدى العزيز، دعه يذهب، لست بحاجة إليه.

- بابا .. منذ متى أحببت الظلام؟

قال : لست أحب هذا الكهرباء الصناهى.. أنا، أنا ضوئى الخاص بى.

- بابا .. لماذا لا تشاركنا به.. أنت تحبنا.. شاركنا به.

قال : كهربائى.. يابنى، لا يضىء إلا لى، لى فقط.

- نحن لم نره ولو مرة واحدة..!

قال : ضوئى لا يراه سواى.

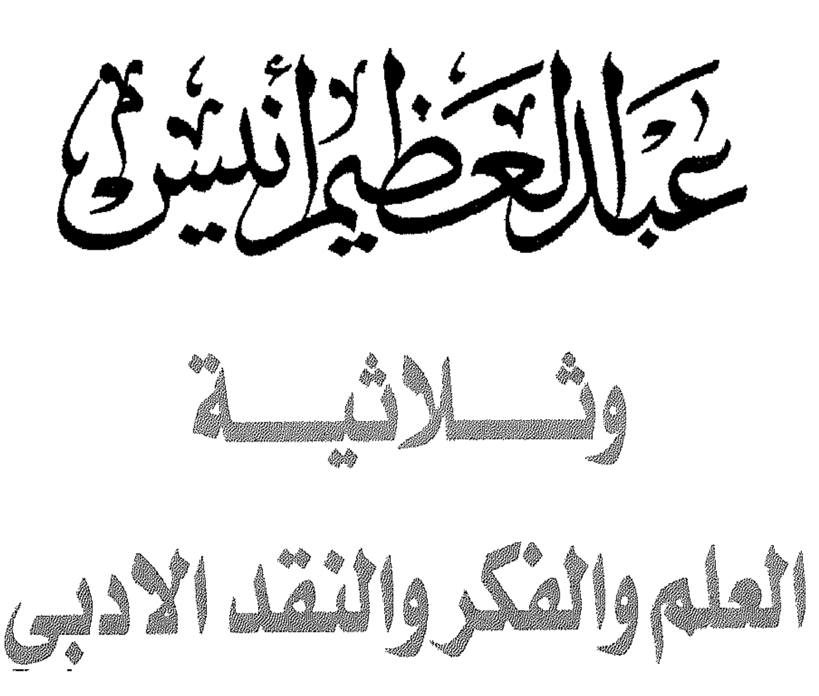
.. وخرج الصغير هاتفاً.. ماما، أبى، أبى .. أما أن يكون قد جنّ، أو هو.. هو المسئول عن إشعال أو إطفاء الكهرباء.

عجبت الأم.. هتف الأب.. لا.. لا، إنما هناك ضوء فى أعماقى أراه ويرانى.. ضوءه من قلبى، وقوده من أشواقى.

وقف أفراد العائلة.. وهم فى دهشة ينظرون إلى رجل كانوا يعرفونه.

■





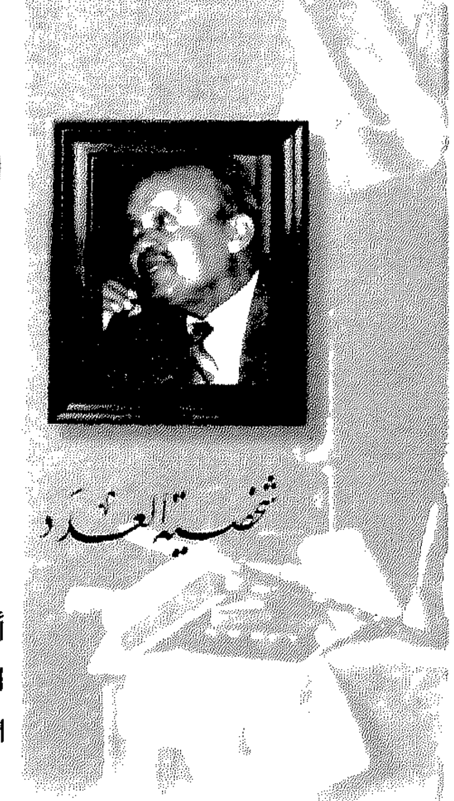
عبدالعظيم أنيس وثلاثية العلم والفكر والنقد الأدبي

بقلم
محمد دكروب
بيروت

عندما جاءنا عبدالعظيم أنيس إلى بيروت، عام ١٩٥٤، شبه مبعد عن مصر - بعد أن طرد، هو وخمسون من أساتذة الجامعات المصرية - كان يحمل لى مفاجاة مذهلة.

كان، بالنسبة لنا فى ذلك الحين، ناقدا أدبيا، من رواد المعركة ضد القديم، خاض (هو ومحمود أمين العالم، وآخرون) معركة من أجل أدب جديد، تحت شعار «الأدب فى سبيل الحياة»، فترامى إلينا، فى بيروت، صليل المعركة القاهرية بين أصحاب الجديد هؤلاء وبين المنادين بالقديم (ومنهم طه حسين، والعقاد..).. فشمرنا فى بيروت عن سواعدنا، وخضنا المعركة تضامنا مع رفاقنا التقدميين، حملة لواء الجديد فى مصر، ضد طه حسين بالذات الذى سبق أن اكتسبنا ثقافتنا الحديثة على كتاباته التنويرية، التقدمية .. فتغافلنا عن هذه الحقيقة، وقلنا: كان الرجل تقدميا، ثم تحول - ربما - إلى مسار آخر!!





قلت له :

- ففى أىّ ميدان، من ميادين الثقافة فى بيروت تريد العمل ياعبدالعظيم؟

قال بهدوء بديهى :

- فى ميدان تخصصى .. العلم.

- تقصد علم الأدب؟

- بل أقصد : تخصصى العلمى.

ألا تعرف أن تخصصى هو : الإحصاء الرياضى؟

(من خلال كتاباته المعروفة، حتى ذلك العام، لم يكن قد أتيح لنا أن نتكهن بمعرفة أن تخصصه علمى فكتاباته التى عرفناها فى النقد الأدبى، والدراسة الأدبية، وأحيانا فى السياسة والفكر السياسى..).

ففاجئنى بقوله :

- جئت أدّرس الرياضيات العليا، وألقى محاضرات علمية فى الإحصاء الرياضى، فى «معهد الإحصاء الدولى» فرع بيروت .

فهل تغيّرت نظرتى إليه وصارت إلى الاتجاه الأكثر وقارا؟.

شخصية تميل للبساطة

«نعم .. ولا» فقد ملأتنى هذه الحقيقة العلمية لعبد العظيم .. شعرت باعتزاز عميق تجاه هذا الصديق العالم/ الناقد، ولكن شخصية عبدالعظيم كانت تميل إلى البساطة والمرح وخفة الروح والإنسان الذى يعرف كيف يقهقه .. ولم تكن هذه - فى ذهنى - صورة «العالم» من خلال سلوكيات بعض أساتذة الرياضيات «العلماء»!!

ولكن التساؤلات التى طرحت نفسها أمامى هى: من أين جاء هذا العالم الى النقد الأدبى، أو : من أين جاء هذا الناقد إلى العلم؟ ثم : ماهى العلاقة، وكيف يتجلى التفاعل؟

قال عبدالعظيم أنيس: «لقد واجهت مشكلة عسيرة، عام ١٩٣٩، إثر حصولى على شهادة الثقافة العامة، إذ كان علىّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب، علوم، رياضيات) فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة، كما كنت محبا أيضا للرياضيات، ومتفوقا فيها .. ولكن نظام التعليم فى جامعاتنا لم يكن يسمح بالجمع بينهما».. فما العمل؟ - («التكوين»، كتاب الهلال ، فبراير ١٩٩٨، ص ١٠١ - ١٠٢).

وقد استطاع أخوه، إبراهيم أنيس، أن يقنعه بالدخول إلى كلية العلوم لدراسة الرياضيات، «وقال له إن بمقدوره دراسة الأدب والفلسفة وحده، خلال أشهر الصيف، وبأية وسائل متاحة .. وهكذا كان.

ثم يقول عبدالعظيم : إنه دخل قسم الرياضيات فى كلية العلوم، ولم يندم على ذلك أبداً .. ويشير إلى جماليات الرياضيات فيروى أنه فى مرحلة المراهقة والنزعات الأفلاطونية، وعالم المثل، بدت له العلوم الرياضية البحتة لا التطبيقية، ذات جمال خاص، وما يذهله حسب قوله، هو معنى هذه الحقائق الرياضية فى الهندسة والجبر التى بدت كأنها مستقلة عن أى خبرة، «إنه عالم المثل إذن، كما يقول أفلاطون».

.. هكذا إذن ، جاء عبدالعظيم، إلى العلم، متخصصا فى الإحصاء الرياضى لكنه – كما قال – كان محبا للغة العربية والأدب والفلسفة .. فرأى أن لابد أن يجد طريقة أيضا إلى الكتابة الأدبية أو النقد الأدبى، وتشاء الأحداث أن يبرز اسم عبدالعظيم أنيس، ناقدا أدبيا، مع بداية الخمسينات، فى ظروف معركة أدبية وصفت بأنها «بين شيوخ الأدب وشبابه» .. وتشاء الإرادة أن تكون هذه الكتابات فى النقد الأدبى «تمرينا عاما» لكتابات لاحقة، فى مسارات العلم والعلماء، تأخذ الكتابة النقدية بعض طرائقها وأساليبها.

● **كتاباته تثير التفكير والتأمل**

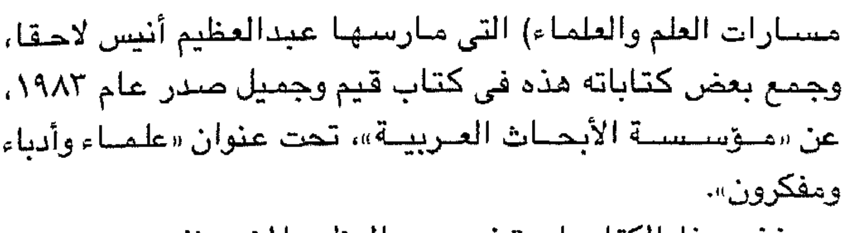
رؤية مستقبلية

ففى كتاباته النقدية ، وبالأخص فى كتابه المشترك مع محمود أمين العالم «فى الثقافة المصرية» الصادر عام ١٩٥٥، تميز الناقدان برؤيتهما إلى العمل الأدبى عبر علاقاته بالمهاد الاجتماعى، والبحث فى مدى حضور الأوضاع الاجتماعية والصراعات الاجتماعية فى العمل الأدبى، تحكمهما رؤية مستقبلية إلى الحركة الاجتماعية، وحرص على مدى حضور هذه الرؤية المستقبلية فى قلب العمل الأدبى الروائى وعبر شخصياته.

وربما كانت رؤيتهما – فى تلك المرحلة – إلى الحركة الاجتماعية أعمق وأكثر اتساعا ومرونة من رؤيتهما إلى بنائيات العمل الأدبى، وهذا أمر مفهوم، تاريخيا، وفى سياق أن تلك الكتابات حملت : جديد الريادة وعيوب الريادة معا.

وليس هذا موضوعنا هنا على أننى أحب أن نرى معا : مدى حضور الكتابة النقدية الأدبية فى الكتابة العلمية (أو فى الكتابة عن





مسارات العلم والعلماء) التى مارسها عبدالعظيم أنيس لاحقا، وجمع بعض كتاباته هذه فى كتاب قيم وجميل صدر عام ١٩٨٣، عن «مؤسسة الأبحاث العربية»، تحت عنوان «علماء وأدباء ومفكرون».

ففى هذا الكتاب استخدم عبدالعظيم المنهج نفسه، مع نضج أعمق فى استيعابه واستخدامه، واستفاد من الأسلوب مع اهتمام أكثر بجمالية التركيب البنائى للكتابة العلمية، وابتكار طرائق لتوصيلها إلى الناس، غير العلماء، من القراء.

بين العلم والأدب

فلم يكن أنيس يضع سورا صينيا بين تكوينه العلمي وتكوينه الثقافى الأدبى السياسى، فكان يحرص، وهو العالم، أن يستزيد من ثقافته العامة الأدبية الفلسفية الفنية الموسيقية، ويختزن الخبرات من نشاطه السياسى العام فكانت ثقافته العامة العلمية الأدبية متدامجة مع نشاطه السياسى العملى، والكفاحى، ومع ضرورات الوصول – فى الكتابة التعميمية .. إلى الطرف الآخر : الناس.

وقد أفادته الكتابة الأدبية كثيرا فى مجاله العلمى هذا.

★★★

يبدأ عبدالعظيم كتابه «علماء وأدباء ومفكرون» بمقالة تحت عنوان : «إحياء التراث العلمى العربى»، وفيها يبدو واضحا تأثره المنهجي بما كان اتخذه فى دراساته الأدبية من رؤية إلى علاقات العمل الأدبى بالحركة الاجتماعية وبالزمن، وكأنه بمقالته هذه يعيد صياغة أسسه تلك ليدرس فى ضوئها ماسيأتى من دراسات علمية.

يلاحظ عبدالعظيم، فى مقالته، أن المنهج الذى اعتمد فى أكثر الدراسات العربية حول تراثنا العلمى العربى هو منهج أحادى الجانب، يركز على الإنجازات العلمية بحدّ ذاتها، دون اهتمام كاف بتوضيح وتقدير الصلة بين هذه الإنجازات والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمجتمعات العربية آنذاك، أو دون اهتمام على الإطلاق بأثر التيارات الفكرية والفلسفية المختلفة فى إنجازاتنا العلمية، ولا التأثير العسكى للعلم العربى فى هذه التيارات الفكرية والفلسفية (راجع ص : ١٧).

ويرى أنيس، من الناحية المنهجية: أن كل دراسة عن العلم





العــربى وتراثه مطالبـــة بأن تضع هذا التـــراث ضـــمن إطاره الاقتصادى السياسى الاجتماعى والفكرى العام، وأن تشير خاصة إلى الاضافات الجديدة التى راكمتها اكتشافات هذا العالم أو ذاك الى التراث العلمى العربى والإنسانى الواسع .. وأن تضىء التفاعل المتبادل بين هذه العوامل المختلفة.

● وفي هذا السياق المنهجي يكتب أنيس دراسة ممتعة عن عالم البصريات العربى ابن الهثم (الذى عاش قبل ألف عام من أيامنا هذه) فيصوره ضمن أحداث عصره، وكيف أنه أعلن وهو فى العراق، أن من الممكن عمل شىء ما على النيل، يشبه السد، بحيث تستفيد مصر من أيام الزيادة أو النقص فى مياهه.. فاستقدمه الحاكم بأمر الله إلى القاهرة، فتفحص هذا العالم مجرى النيل فى عدة مناطق، فوجد أن ما وصفوه له هو غير ما رآه على الأرض .. فألحقه الحاكم بوظيفة ما. وكان العصر عصر تدهور سياسى وفكرى واحتدام صراعات وتزايد فقر، فامتلأت القصور بالمؤامرات مما يحبط أى إبداع فى مجالات الثقافة كما فى مجالات العلم .. وفكر ابن الهيثم أن يبتعد عن هذا الجحيم التآمرى، بأن يبتكر طريقة - نضالية - تخرجه من ظروف عصره وتجعله هو وأبحاثه العلمية فى مأمن من الوشاة والحساد والمتآمرين . فادعى الجنون، وانعزل، وأنتج فى عزلته الجنونية هذه آثارا مارست تأثيرا هائلا فى علم البصريات فى أنحاء أوروبا لمدى قرون، أهم هذه الآثار كتابه الشهير «المناظر» وأبحاثه فى تركيب العين.

● كيف استفاد من دراستة العلمية فى كتاباته السياسية والأدبية؟

ويقرر العالم عبدالعظيم أنيس أن «ليس هناك أدنى شك حول الأهمية البالغة لكتاب ابن الهيثم، «المناظر» وحول الأثر البالغ المدى الذى تركه هذا الكتاب على العلم الأوربى فى عصر النهضة، وعلى تطور فن الرسم الأوربى بما قدمه من مفهوم المنظور». (ص ٢٧) ويورد قولا للعالم البريطانى، من أصل بولونى، ج.برونوفسكى، يضىء فيه جانبا من جديد ابن الهيثم وإضافته، حيث يقول:

- «لقد ظن اليونانيون أن الضوء ينطلق من العين إلى الأجسام، ولكن ابن الهيثم أدرك لأول مرة أننا نرى الجسم لأن كل نقطة عليه ترسل شعاعا إلى العين وتعكسه فيها» - (ص: ٢٤).

وهذا الكشف مارس تأثيره الكبير فى تطور علم البصريات، والفلك، وفى فنون الرسم أيضا.

نظرية ابن الهيثم

ويوافق عبدالعظيم أنيس القائلين بأن ابن الهيثم «كان من فرقة





الواقعيين من العلماء الذين يصح أن نجمل مذهبهم فى أنهم يرون العالم الطبيعى موجودا فى ذاته وجودا عينيا، خارج الذهن أو العقل، وأن الحواس أدوات إدراكه» (ص :٣١).. وهذه الرؤية لاتنحصر فى أنها مقولة علمية، بل هى مفهوم فلسفى ثارت حوله مجادلات بشأن الفهم الفلسفى، المادى أو المثالى، للكون ولحركة العالم، وهذه الرؤية مرتبطة بكشف ابن الهيثم حول أن صورة الأشياء ليست نتاج ضوء من العين إلي هذه الأشياء بل بالعكس هى إشعاعات من الأشياء الى العين.

ربما أطلنا فى هذا المثال لنوضح مدى استفادة الكتابة فى العلوم من طرائق الكتابة فى النقد الأدبى، كما فى منهج النظر نفسه إلى مكان النتاج الأدبى والعلمى فى حركة المجتمع والكون.

● واستفاد عبدالعظيم، أسلوبيا، فى الكتابة الأدبية فطلع علينا بالأسلوب المشوق فى سرد حكايات العلماء وفى عرض نتائج أبحاثهم واكتشافاتهم العلمية، هكذا مثلا، فى مقالته المشوقة عن العالم الفرنسى افرست جالوا، يبدأ فى العنوان: «عندما تجتمع العبقرية والنضال السياسى وسوء الحظ؟» .. ثم يتابع: «افرست جالوا، واحد من أعظم من أنجبت أوروبا – وفرنسا بالذات – فى علم الجبر فى القرن التاسع عشر. عاش حياة أغرب من الخيال، ومات فى الحادية والعشرين مقتولا بصورة تفوق خيال السينمائيين» – (ص:٧١)، ثم يخبرنا أن جالوا لم يترك وراءه غير ستين صفحة .. «ولكن هذه الصفحات الستين ظلت تشغل أذهان الرياضيين لأكثر من قرن من الزمان بعد وفاته».

هذه البداية للمقالة تثير عند القارىء العديد من التساؤلات، والتشوق إلى التعرف على إجاباتها خلال القراءة:

– كيف صار جالوا من أعظم من أنجبت أوروبا فى علم الجبر وهو قد مات فى الحادية والعشرين من العمر؟. وما هى الحياة الأغرب من الخيال التى عاشها؟.. وما هى وقائع مقتله التى تفوق خيال السينمائيين؟ وماهى طبيعة النضال السياسى الذي خاضه؟.. وما هو مضمون هذه الصفحات الستين، فقط التى تركها فشغلت أذهان الرياضيين وقدمت إسهاما كبيرا فى تقدم العلوم الرياضية فى العالم؟.

فى المقالة هذه، التى تشبه القصة فى تركيبها المشوق وسلاسة كتابتها، والتى يتضح فيها مدى استفادة الكتابة العلمية من طرائق



الكتابة الأدبية، إجابات عن هذه التساؤلات، وأكثر.

جوته .. وعلم الألوان

● وهل تعرف أن الشاعر الألماني الكبير جوته جرب أن يصير عالما؟

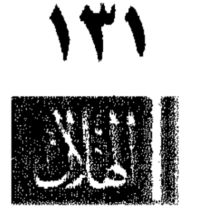
– يروى عبدالعظيم أن الشاعر العظيم بهرته ألوان الريف الإيطالي، وتراكيب ألوان الرسامين الكبار، في اللوحات الفنية، فأراد أن يصل إلى سرّ الألوان ، علميا فأنشأ كتابا ضخما بعنوان «نظرية الألوان»، ليس المهم أن نظريته العلمية كانت خاطئة، بل كما بيّن أنيس، هو رؤيته إلى مسألة التفاعل بين العلم والفن، وهل هي حقيقية ؟.

عنوان المقالة هو «جوته، شاعر عظيم وعالم فاشل».. وفي المقالة حديث عن الجانبين، وخاصة الجانب «العلمي» في نتاج الشاعر .. وفي مسرحيته العظيمة «فاوست» مناقشات علمية فنية مؤداها أن حقيقة الحياة هي في الفن هي في الذات، وليس في الموضوع!.

ولكن عبدالعظيم يختلف هنا عن جوته ومعه، من حيث رؤيته أن التفاعل هو أساس الحركة، والحياة، ويشير أنيس إلى ذلك الانقسام بين تصورين متناقضين لايزالان يحومان حولنا حتى اليوم: «التصور الميكانيكي للكون الذي تعود جذوره إلى نيوتن، والتصور العضوي للكون الذي تعود جذوره إلى «أرسطو» (ص: ١٥٧).

● مدى حضور الكتابة النقدية الأدبية في كتاباته العلمية

● ويشير عبدالعظيم ، في مقالته «جاليلو : الحقيقة والرمز»، إلى تداخل آخر بين الأدب والعلم، وذلك لدى الكتابة عن مأساة جاليلو وقضيته: هل جاليلو بطل أم متخاذل في مقاومته محكمة الكنيسة ثم خضوعه لها؟.. وهل هو بطل من أبطال التقدم أم هو – في موقفه – من معرقلي حركة هذا التقدم؟.



ويروى أنيس كيف كان المسرحي الألماني برتولد برخت يغير ويطور في مسرحيته عن جاليلو وموقفه حسب تحولات العلم في عصره، ومسئوليات العلماء في العالم وعنه .. فليس من وجهة واحدة للعلم ولا من وجه واحد أو موقف واحد للعلماء . وإذا كان العلم، بذاته ، يحمل التقدم، فإن اليد التي تستخدمه هي التي توجهه نحو التقدم أو نحو التدمير، وتظل على العلماء مسئولية أخلاقية. من حيث مواقفهم وواجبهم في إدانة الاستخدام التدميري لنتائج أبحاثهم، أو عرقلة هذا الاستخدام.

● وتتكرر مأساة محاكمة جاليلو، في ظروف عصرنا، مع محاكمة العالم الأمريكي روبرت أوبنهايمر، فهو كان العالم الأول

والأساسى فى صنع القنبلة الذرية، ولكنه، بعد تأمله فى النتائج المأساوية لإلقاء القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما اليابانية، وبعد انتهاء الحرب العالمية، رفض أن يشارك فى صنع القنبلة الهيدروجينية، ووقف ضد انتاجها .. فكان أن قدم إلى المحاكمة أمام مجلس الشيوخ الأمريكى بدعوى أنه كان، فى السابق، منتميا إلى منظمات يسارية، ولهذا فإنه يقف الآن ضد انتاج القنبلة الهيدروجينية، أما هو فلم ينكر انتماءاته، وأعلن كذلك أن المسئولين عنه جميعا، كانوا يعرفون هذا، عندما وصفوه بأنه «أبو القنبلة الذرية»!.. ولكن أوبنهايمر تردد فى أواخر وقائع المحاكمة!.. ويعبر عبدالعظيم عن عدم تأييده هذا الموقف، وكأنه – هنا – يحدد موقفا لم يحدده صراحة من موقف جاليلو، فأشار إلى أن أوبنهايمر الذى وقف ضد انتاج القنبلة الهيدروجينية لم يكن موقفه خلال المحاكمة بهذا الوضوح، لقد اختار أن يتردد ويتذبذب في ردوده عن أسئلة اللجنة ولم ينفعه هذا التردد كثيرا لأن اللجنة أدانته فى نهاية الأمر» (ص: ٩٧)، وقال عبدالعظيم إن اوبنهايمر فقد شجاعته فى اللحظة التاريخية الحاسمة، أى أنه لم يدافع بصلابة وحتى النهاية عن موقفه وعن رأيه السياسى الذى لم يتنكر له ولم يسبق يوما أن تنكر له فى حياته!.

هنا تتداخل المواقف العلمية بالمواقف الفكرية والإنسانية، ويصير الفكر عنصر إدانة إنسانية للاستخدام التدميرى لإنجازات العلم.

● ولا بأس من أن نشير هنا إلى الموقف الانسانى، والرفاقى، من العلم يمارسه عبدالعظيم نفسه داخل السجن، وهذا الموقف يحدثنا عنه الاستاذ محمد سيد أحمد، فى مقالة له نشرها فى جريدة «أخبار الأدب» (٨يوليو ٢٠٠١)، وهذا الموقف يكشف العمق الإنسانى، والمعرفى لفهم عبدالعظيم أنيس لدور العلم، وإشاعته، ولو داخل السجون، يقول محمد سيد أحمد:

– «إن علاقتى بعبد العظيم توطدت بالذات بعد دخولنا سجن الواحات، مجموعة مناضلين، عام ١٩٥٩ وتعايشنا فى زنزانة واحدة لفترات طويلة، كان عبدالعظيم يعطى لى دروسا فى علم الإحصاء، وفى مجالات أخرى من الرياضيات العليا وكنا فى ظروف كثيرة، لانملك ورقا ولا كتبا على وجه الإطلاق، فكنا نستخدم مسامير للكتابة على الحائط أو طباشير لفرش المعادلات



الرياضية المعقدة.. وكان هو يعيد اختراع النظريات التى كان يدرسها لى ابتداء من بدايتها ثم من نهايتها ثم تكملة قوام النظرية بالذاكرة، بدون وجود مرجع يعود إليه وظللت هكذا أتتلمذ على عبدالعظيم طوال سنوات السجن».

* * *

فى شخصية عبدالعظيم يتدامج العلم بالفكر، بالنقد الأدبى بالموقف السياسى النضالى، طوال مسيرته العلمية - السياسية.

وقد رأينا كيف أن كتابته عن العلم والعلماء أخذت الكثير من طرائق النقد الأدبى والقص الأدبى المشوق .. وفى حين لايغيب الأدب والأعمال الأدبية الفنية عن كتاباته العلمية، لايغيب أيضا المثال العلمى عن تجديد وتجدد الموقف السياسى.

فعندما سئل عبدالعظيم عن موقعه من الماركسية وموقع الماركسية من فكره، بعد انهيارات الاتحاد السوفييتى ومعسكر البلدان الاشتراكية والتصدع التراجيدى فى العديد من الحركات الماركسية فى العالم قال قولة الكاتب، والسياسى، والمناضل، والعالم والمنتقد، معا:

- «برغم الانهيارات التى وقعت، فأنا لا أزال على قناعتى - بشكل عام - بالماركسية، ولا أزال اعتبر نفسى ماركسيا، ولكن حينما نتأمل ماضينا الطويل سنجد أننا عاملنا الماركسية بشكل دوجمانى. كنظرية جاهزة، فيها إجابة على كل الأشياء وحلول لكل المشكلات، بحيث لم ننظر إلى هذه النظرية كمقدمات قابلة للتطوير والإضافة والتعديل، ولم ننظر إلى نسبية كثير من قوانينها».

● **كيف يمكن إحياء التراث العلمى العربي ؟**

ويشرح هذا الموقف الفكرى النضالى، بمثال من النسبية والتحولات فى ميدان العلوم :

« .. وأنا أشبه هذه المسألة دائما بقوانين نيوتن الثلاثة، ونسبية هذه القوانين بعد ظهور النظرية النسبية لاينشتين فالنسبية لم تلغ قوانين نيوتن، ولكن أظهرت محدوديتها وبينت الشروط التى ينبغى توافرها ليتتابع التقدم، لكن نجد أنه حتى الآن لاتزال قوانين نيوتن مفيدة فيما يتعلق بعلم الصواريخ، بحيث يمكن اعتبار علم الصواريخ تطويرا لقوانين نيوتن» - (مجلة «أدب ونقد»: «هكذا تكلم عبدالعظيم أنيس » أغسطس/ آب ١٩٩٣، ص: ٢٧ - ٢٨).

ولعلنا، بهذا كله، قد قاربنا ذلك التعدد والوحدة، والتجدد والتطور والتطوير .. وتكامل ثلاثية: العلم والفكر والأدب فى شخصية عبدالعظيم أنيس نفسها ■.

حرب النجوم بدأت فى الميعاد

بقلم
مصطفى درويش

لا أقصد بحرب النجوم تلك الحرب التي دعا إليها رئيس الولايات المتحدة الأسبق رونالد ريجان، والآن ، وبعد ربع قرن من عمر الزمان يخطط لها الرئيس جورج ووكر بوش، ويعد لشنها ما استطاع من بلايين الدولارات، ومن حشد للرأي العام.

وانما أقصد حربا من نوع آخر، لا ولن ينطلق فيها صاروخ واحد، ولا ولن تراق فيها نقطة دماء واحدة، أنها تلك الحرب التي تنشب، مع بداية كل عام، في رحاب هوليوود، من أجل الفوز بجوائز أوسكار.



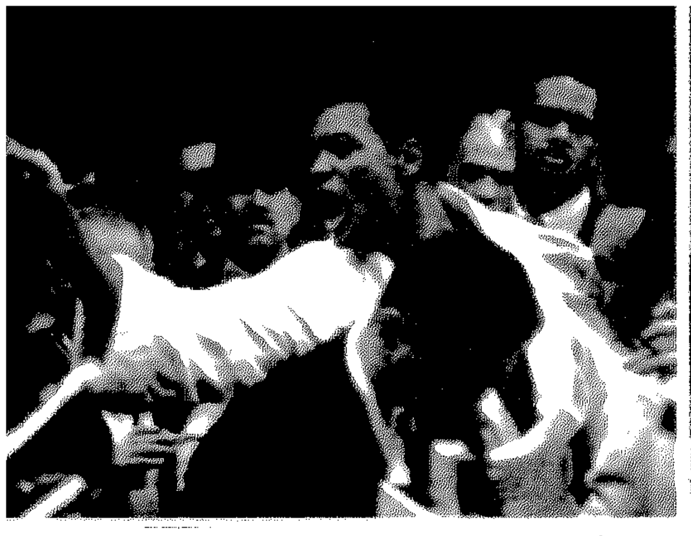
ويرجع تاريخها إلى شهر مايو من العام الأخير من عقد عشرينات القرن العشرين.

أما مكانها فشارع هوليوود الذى يعدّ واحدا من أشهر شوارع مدينة الملائكة - لوس انجلوس، يقصده ملايين السواح من مشارق الأرض ومغاربها.

وأغلب الظن أن لا أحد سار فيه إلا

بينيلوب كروز ساحرة فيلمها مخيب للآمال


نيكول كيدمان نجمة الطاحونة الحمراء


ويل سميث متقمصا دور محمد على كلاى

ومرّ أمام المسرح الصينى، حيث تجرى عروض أهم أفلام مصنع الاحلام. ليلقى نظرة على واجهته، ونظرات على أقدام مشاهير النجوم مبصومة على رصيفه، بدءا من فاتنة السينما الصامتة جلوريا سوانسون، وحتى يومنا هذا.

وعلى رصيف الجانب الآخر من الشارع والمواجه لذلك المسرح العتيق، يوجد فندق روزفلت، حيث جرى أول حفل توزيع لجوائز أوسكار.

القديم والجديد

وكان، والحق يقال، حفلا متواضعا، لم يحضره سوى مائتى مدعو، فى اثنائه تم توزيع تماثيل أوسكار الذهبية على الفائزين، وذلك خلال مدة لم تدم سوى دقائق معدودات «يقال خمس دقائق».

وعلى كل، فبعد ثلاثة أسابيع، وبضعة أيام (٢٤ مارس) سيجرى توزيع تلك التماثيل على الفائزين فى مسرح جديد (كوداك) رائع المعمار، سعته ثلاثة آلاف مقعد، وازدادوا ثلاثمائة والغريب، أنه وإلى حين ساعة اعلان الترشيحات لجوائز أوسكار (١٢ فبراير) فى مبنى ذلك المسرح، وسط اجراءات أمن مشددة، لم يكن ثمة اجماع، ولا حتى شبه اجماع ، حول الأعمال السينمائية المؤهلة للفوز بأوسكار أفضل فيلم .

وهذا الغياب للوضوح، وما صاحبه من انعدام اليقين أمر جديد، ومثير للدهشة، لانه مخالف لما كان عليه الحال، فيما سبق من أعوام ، خاصة العامين الأخرين من القرن العشرين.

لا شيء أكيد

فقريبا من نهايتهما كان فوز كل من فيلمى الجمال الأمريكى والمصارع، أمرا أقرب إلى اليقين.

وعن هذه الظاهرة، جاء علي لسان «مايكيل شامبرج» منتج فيلم «إيرين

بروكوفيتش» الفائز، قبل عام، بأكثر من جائزة أوسكار، أنه لاشيء أكيد.

فباستثناء «عقل جميل» و«لورد الخواتم» ليس ثمة اجماع، حتى حول الأفلام المؤهلة للترشيح لا للفوز بجوائز أوسكار.

وعادة، عندما يقترب العام من شهره الأخير نسمع أصواتا متفائلة تقول «لا تقلقوا . ثمة بضعة أفلام عظيمة فى طريقها لدور العرض خلال شهر ديسمبر، الأمر الذى سيتيح فرصة للاختيار من بينها، على نحو ما يحدث دوما فيما سبق من أعوام.

غير أنه، ولأمر ما ، طال الانتظار حتى لفظ ديسمبر أنفاسه الأخيرة، دون أن يحدث شيء من هذا القبيل.

فما أكثر أفلام نهاية العام التى كان متوقعا لها المشاركة فى سباق الأوسكار، غير أنها جاءت مخيبة لكل التوقعات.

خيبة الأمل

ومن بينها، على سبيل التمثيل، فيلم «الماجيستيك» اخراج فرانك دارابونت، وتمثيل جيم كارى، ذلك النجم الذي ارتفع أجره عن الفيلم الواحد إلي عشرين مليون من عزيز الدولارات.

وسماء الفانيليا، إخراج كاميرون كراو، وتمثيل توم كروز مع الفاتنة الاسبانية بينولوب كروز فكلاهما فشل فشلا ذريعا فى إثارة حماس النقاد، على نحو يجنح بهم إلي ترشيحه للأوسكار، ولا أقول للفوز بها.

وفى تعليق على جو البلبلة هذا ذكر «بيتر بارت» محرر جريدة «فارايتى اليومية أنه لا يتذكر سباقا في مضمار الأوسكار شاب نتيجته مثل هذا الغموض السائد فى هذه الأيام.

فثمة مجموعة من الأفلام لها مؤيدوها المتحمسون لها أشد حماس مثل :

«عقل جميل» للمخرج «رون هوارد» و«الطاحونة الحمراء» للمخرج «باز لورمان» و«سقوط الصقر الاسود» للمخرج «ريدلى سكوت» و«لورد الخواتم» للمخرج «بيتر جاكسون». و«فى حجرة النوم» للمخرج «تولد فيلد» و«جوسفورد باراك للمخرج «روبرت التمان»، و«اميلي» للمخرج «جان بييرجينيه» و«على» للمخرج «مايكيل مان» و«مذكرة» للمخرج «كريستوفر نولان».

برج بابل

وبقدر ما تحمس البعض لهذه الأفلام، بقدر ما تحمس البعض الآخر ضدها، منكراً عليها الحق حتى فى الترشيح للأوسكار.

فمثلا لورد الخواتم فيلم طويل أكثر من اللازم وعقل جميل فيلم درامى، عاطفى لم يأت. بجديد والطاحونة الحمراء فيلم صاخب، أراد أن يقول الكثير، فلم يقل شيئا.



وفى حجرة النوم فيلم جاد، حاد وايميلى لا هو جاد، ولا هو حاد: على نحو يشفى الغليل.

وحتى اتحادات النقاد التى كانت جوائزها مؤشرا جيدا فى الأعوام السابقة، وذلك لانها، فى نهاية المطاف، كانت تستقر على فيلم أو فيلمين! حتى هذه الاتحادات، اختلفت فيما بينها اختلافا شديدا

انتهاء عصر الاجماع

فمثلا جنحت مجموعة ناشونال بورد أوف ريفيو إلى منح جائزة أحسن فيلم للطاحونة الحمراء.

فى حين جنح نقاد نيويورك إلى منح تلك الجائزة إلى فيلم الطريق إلى مولهولاند.

وجنح نقاد لوس أنجلوس إلى منحها لفيلم فى حجرة النوم.

أما نقاد كورونتو فمنحوها لفيلم مذكرة

فى حين جنح نقاد سان دييجو إلى منحها لفيلم عالم الاشباح للمخرج تير زفيجوف.

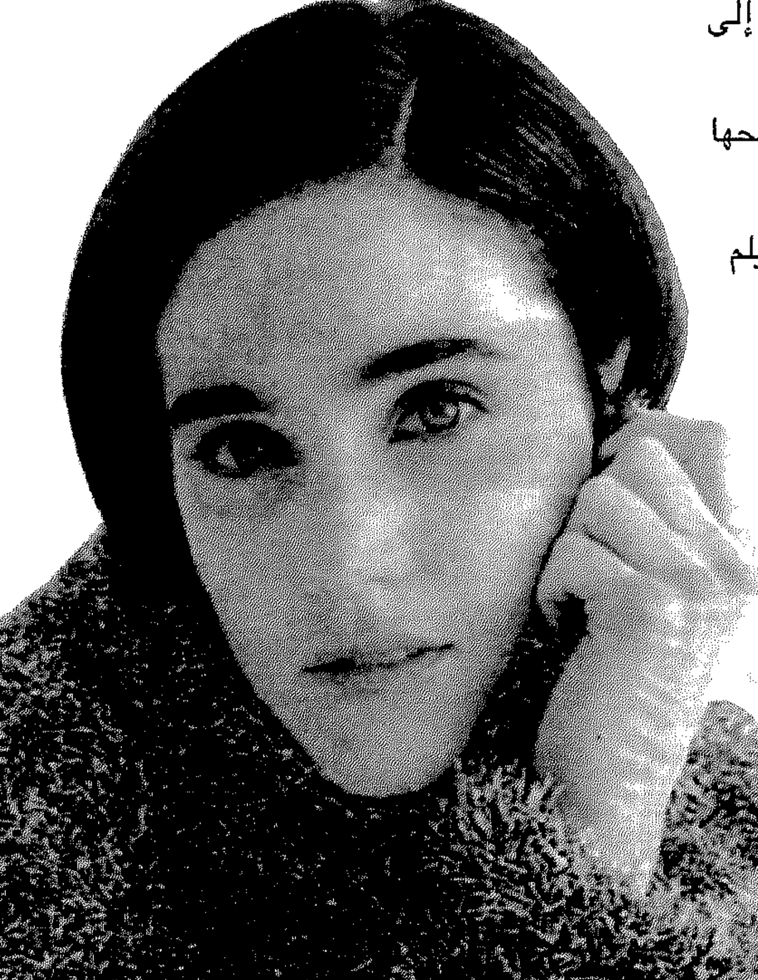
وكان طبيعيا أن ينعكس أمر هذه البلبلة على الترشيحات لجوائز أوسكار التى جرى الاعلان عنها قبل ثلاثة أسابيع الا قليلا.

أهم الأفلام

حقا فاز لورد الخواتم وعقل جميل بنصيب الأسد من تلك الترشيحات.

الأول بثلاثة عشر ترشيحا والثانى بثمانية، من بينها الترشيح لأوسكار أفضل فيلم ومخرج، علاوة علي ترشيح نجمى عقل جميل «راسل كراو» و«جينفر كونوللي» لاوسكارى أفضل ممثل رئيسى وممثلة مساعدة.

وحقا جرى ترشيح كل من جوسفورد بارك وفي غرفة النوم والطاحونة الحمراء لأوسكار أفضل فيلم، فضلا عن جوائز أخرى، من بينها جائزة أفضل إخراج



جينيفر كونيللى
زوجة فى عقل جميل

لروبرت التمان صاحب الفيلم الأول، وجائزتى أفضل ممثلة رئيسية لبطلتى الفيلمين الثانى والثالث وهما سيسى سباسيك ونيكول كيدمان .

كما جرى ترشيح الفيلم الفرنسى «إيميلى» ، لجائزة أفضل فيلم أجنبى، فضلا عن أربع جوائز أخرى، الأمر الذى يرجح معه، خروجه من مضمار الصراع مع الأفلام الأجنبية الأخرى المنافسة له، متوجا بالأوسكار.

اهدار التقاليد

ومع ذلك، فتلك الترشيحات، جاء ت مشوبة بعيب، أراه جسيما.

فالمعتاد أن الفيلم المرشح للجائزة يجرى ترشيح مخرجه معه، وذلك بحكم أنه مبدعه، وإليه يرجع الفضل أولا وأخيرا فى تأهيله لأوسكار.

غير أن تود فيلد مخرج فى غرفة النوم، وباز لورمان مخرج الطاحونة الحمراء، كلاهما لم يجر ترشيحه للأوسكار وبدلا منهما جرى ترشيح كل من «دافيد لينش» و«ريدلى سكوت»، الأول عن فيلمه الطريق إلى مولهولاند والثانى عن سقوط الصقر الأسود، ذلك الفيلم الذى تدور أحداثه حول مقتل بضعة جنود من القوات الخاصة الأمريكية، وسحل جثثهم فى شوارع موقاديشو عاصمة الصومال.

ومما يعرف عن سكوت أن فيلمه فاز، قبل عام بالعديد من جوائز أوسكار، وكان من بينها أوسكار أفضل فيلم.

ورغم ذلك حرم من أوسكار الإخراج التى فاز بها، بدلا منه، ستيفن سودر برج عن فيلمه إيرين بروكوفيتش.

وفى ظنى أنه سيتوج بها، بعد بضعة أيام، تعويضا له عن ذلك الحرمان ، وما صاحبه من إحباط، وتشجيعا لغيره من صانعى الأفلام على إخراج أفلام حربية، كبعث فى الشعب الأمريكى روح البذل والفداء

وأخيرا ، يبقى لى أن أقول أنه ولأول مرة فى تاريخ أوسكار، جرى ترشيح ثلاثة من نجوم هوليوود السود إلى جوائز أوسكار أفضل ممثل وممثلة رئيسية.

والثلاثة هم «دنزل واشنطن» عن أدائه فى فيلم «يوم التدريب» لدور مخبر مهمته ضبط العصابات المهربة للمخدرات.

و«ويل سميث» عن تقمصه فى فيلم «على» لشخصية «على كلاى» الملاكم الشهير.

و«هالي بيرى» عن أدائها فى فيلم «كرة الوحش» لدور أم ملتاعة، ضائعة فى مجتمع مريض بداء العنصرية البغيض.

وليس من شك أن ترشيح الثلاثة خطوة على الطريق من أجل تحقيق المساواة بين السود والبيض فى بلاد العم سام!! ■

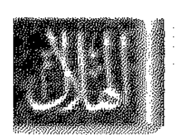


عاش فريد عبدالكريم حياته لمصر، وظل عمره لا يهتف إلا باسم مصر، ونذر جهده ووقته وعمره فداءً لمصر ولأبناء مصر.. وإذ غادرنا إلى رحمة الله فلا يسعنا إلا أن نسجل له بعضاً من مآثره، ولمعاً من صفاته، وجوانب من سيرته العطرة الذكية.

في رثاء فريد عبدالكريم

شعر: د. أحمد السيد عوضين

سأكف دمعى .. لن أكون الباكيا
وأكف شعرى أن يكون الراثياً
رغم افتقادى من ظللت مصاحبا
عمرى الطويل .. يفيض حباً صافيا
بالخير يلقانى .. تهلل باسما
حبا وودا .. ثم قلباً حانيا
يسع الوجود بحبه حتى الذى
عاداه.. أو جافى جفاء مقذيا
مستغفراً لعداته : من أذنبوا
فى حقه ذنباً كبيراً عاتياً
ظل النبيل ومن تباعد نافراً
عما يراه الغير مجداً باقياً



لو كـان يطلبـهـا المناصب رفـعـة
مـا كـان أكـثـرها عطاء مـجـزيا
لو كـان يرجـوهـا الحـيـاة يسـيـرة
لأتتـه تسـعـى سـعـيـهـا المتـدانيـاً
لو كـــان ينشـــد كل جـــاه باذخ
مـا كـان أقـربه يجىء السـاعـيـاً
لكن فـــريداً لم يكـن ذاك الذى
يرجـو الحـيـاة تسـيـر سـيـراً هانيـاً
مــا كـــان يقــبـل أن يكـون مناله
إلا جـــلاء الحق يشـــرق زاهيـــا
إلا الســمــو لمصـــرنا فـى خطوها
نحـو العـروبة.. ثم مـجـداً عـاليـاً
كـان التـوحـد والتـآخـى لا يرى
إلاه نهـجـاً يسـتـقـيم أمـانيـاً
لم يبك يومـــا رغم قـــهـــر ظالم
فـالغد يأتـى .. مشـرقاً متـسـامـياً
بالعــزم نبلغ مـــا نراه مـــبـــاعـداً
بالجـهـد نقـهـر ما يكون العاصـيـاً
يتوحد الفرقـاء .. يضـحـى جمعهم
جـيـشـاً ينال النصـر نيـلاً وافـيـاً
ويحـرر القدس الحـبـيبـة .. قـدسنا
مسرى الرسـول مـحـمـد .. إذ أسريـاً
ذاك المكان .. مــبـــارك مـــا حــوله
وهـو الملاذ لمن أتـاه مـــصـليـــا
يا قـدس أنى لى الحـيـاة كـريمـة
والشـر يعـبث فـى حـمـاك مـرابيـاً
مـــا أرتجى إلا أحـــرر قـــدسنا
وأطهـر الأرض الحـبـيـبـة أرضـيـاً
هـذا نـداؤك يـا فــــريد مـــــردداً
سـيظل صـوت الحق دومـاً عـاليـاً
وعلى الطغـــاة تدور دورة قـــاهـر
يقـضـى بنصـر الحق نصـراً باقـيـاً
ويـذل مـن يـطـغـى وإن بـلـغ المدى
ويعـيـد مـا سلب الطغـاة تعـديـاً

* * *

أفــريد مــا بعــدت رؤاك لم تزل

فينا الشعاع بل الضياء الهاديا

للحب تدعــو من فــؤاد خــيــر

كـان السـمـاحـة للأحـبة راعـيـاً

عـرفتك قاعـات القـضـاء مدافعاً

عن كل مظلوم تنادى شــاكــيــاً

يعلو دفاعك للحـقـيقـة منصـفـاً

وتروم إنصــافـاً يظل البــاقــيـا

مـا قلت إلا مــا تراه حــقـيـقـة

مـا كنت إلا صــادقـاً ومــوفـيـا

وإذا جلست محـاضـراً ومـدرساً

فـالعلم ترسله شـعـاعـا صـافـيـا

تهدى النفوس لخيرها ولحبـها

وتشــيع نوراً مــا يزال الســاريا

* * *

وعـرفت ربك مـؤمناً مـتـعـمـقـاً

مـا عـشت إلا زاهداً مـتـأسـيـاً

بمحـــمـــد وصـــحـــابه كـــانوا له

سنداً وعـونا ثم حـبـاً وافـــيـا

علمـتنا صـدق الأخـوة والوفـا

والحب والإخلاص نهجاً سامياً

علمــتنا أن الرجــال عــزيمــة

أن الحياة تروم جـهـداً مـعطيـاً

أن العــروبة مــجــدنا ومــلاذنا

ولواؤها فــخــر يرفـرف عـاليـاً

أفـريد أوفـيت العـروبة حـقـهـا

فـاليـوم تهنأ فى منامك راضـيـاً

ندعـو جـمـيـعـاً للفـريد برحـمـة

عاش الحياة مجاهداً و مضحياً

وجـــزاؤه إن شـــاء ربى وافـــر

في الخلد يلقى كل فضل راضـيـاً

من ذخائر الكتب العربية

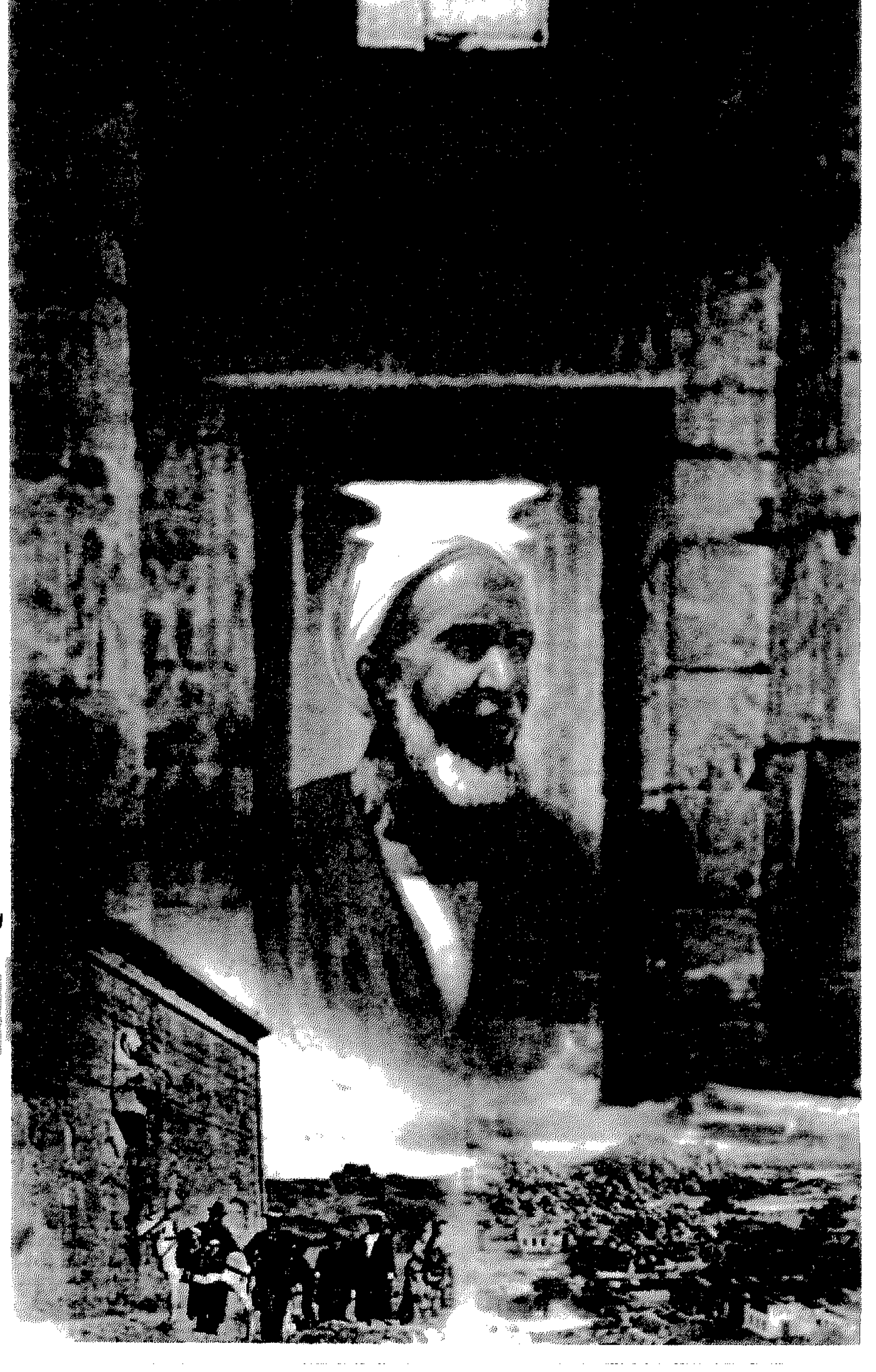
المواعظ والاعتبار

في ذكر الخطط والآثار

للمقريزي

بقلم
د. ايمن فؤاد سيد

كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» المعروف بـ «الخطط» لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، شيخ مؤرخي مصر الإسلامية المتوفي سنة ٨٤٥ هـ - ١٤٤٢م، هو بإجماع آراء الباحثين أهم كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي، فهو الكتاب الوحيد الذي وصل إلينا ويقدم لنا - اعتمادا علي المصادر الأصلية - عرضا شاملا لتاريخ مصر الإسلامية ولتأسيس ونمو عواصم مصر منذ الفتح الإسلامي حتي القرن التاسع الهجري - الخامس عشر الميلادي، ويعد اليوم مصدرا لا غني عنه للمشتغلين بدراسة آثار مصر الإسلامية، فيوفر لنا الكتاب قائمة تفصيلية وأوصافا دقيقة للقصور والجوامع والمدارس والخوانق والحارات والأخطاط والدور والحمامات والقياسر والخانات والأسواق والوكالات التي وجدت في عاصمة مصر خلال تسعة قرون. وترتكز هذه القائمة في الأساس علي الملاحظات الشخصية للمقريزي وعلي مصادر لم تصل إلينا، فحفظ لنا المقريزي بذلك نقولا ذات شأن للمؤلفين القدماء الذين فقدت مؤلفاتهم اليوم.



ويدل على الأهمية الكبرى التى منحها المؤلفون والكتاب العرب لهذا الكتاب احتفاظ مكتبات العالم بعدد كبير من مخطوطاته تعدت المائة وسبعين مخطوطة بينها خمس وثلاثون مخطوطة فى مكتبات استانبول وحدها، وهو رقم يفوق بكثير مخطوطات أى كتاب عربى آخر. وذلك بالرغم من أن مصحح طبعة بولاق من الكتاب - وهى الطبعة التى عليها اعتماد الباحثين إلى الآن - يذكر أن نسخ الكتاب عزيزة فى الديار المصرية وهى مع قلتها مليئة «بالتحريف الفاحش والسّقط المتفاحش والغلط المخل والخطأ المضجر».

ولم تغب أهمية هذا الكتاب عن الباحثين فى القرن التاسع عشر وتعدت شهرته أوساط المشتغلين بالدراسات الشرقية. وكان احتفاظ المكتبة الوطنية فى باريس بعدد كبير من مخطوطات «الخطط» سببا فى لفت انتباه المستشرقين له فرجعوا إليه واقتبسوا منه نقولا مطولة فيما كتبوه عن تاريخ مصر الإسلامية وعلى الأخص لويس لانجليه Louis Langles وسلفستر دى ساسى Silvestre deSacy عند نشره لرحلة عبداللطيف البغدادى وفى كتابه Chrestomathie arabe وإيتيان كاترمير Etienne Quattremere وفرديناند ويستنفلد Ferdinand Wustenfeld.

مقدمة المحقق

وفى مصر كان هذا الكتاب من أوائل الكتب التى أخرجتها مطبعة بولاق التى أصدرت طبعة كاملة له فى سنة ١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣م ، وهى نشرة لاتستحق دائما ثقة كاملة برغم الجهد الواضح الذى بذله مصححها الشيخ محمد عبد الرحمن قطة العدوى المتوفى سنة ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م، فنحن لا نعرف الأصول التى اعتمدت عليها مثل بقية الكتب التى أخرجتها مطبعة بولاق القديمة، وجاءت مليئة بالأخطاء والتصحيف والسقط الذى وجد فى أصولها المعتمد عليها والتى حاول مصححها تصويبه قدر الطاقة أو الإشارة إليه. ومع ذلك فما تزال هذه النشرة هى الأساس الذى تعتمد عليه كل الدراسات التى تتناول تاريخ عواصم مصر الإسلامية، وخططها ومعالمها الأثرية فى غياب أية نشرة أخرى محققة للكتاب.

وقد اعتمدت على طبعة بولاق طبعات أخرى للكتاب أضافت أوهاما وسقطا كثيرا وأخطاء طباعية إلى طبعة بولاق، وهى بذلك لاتشجع على مراجعتها بسبب إخراجها السيىء يضاف إلى ذلك نقص الترتيب لدى المقريزى نفسه فى تنظيم كتابه، فللبحث عن معلومات عن أثر معين فإننا نضطر إلى مراجعة كل الكتاب حيث يتناول المقريزى



المعلم الواحد فى أماكن عديدة مختلفة وأحيانا بطريقة متعارضة أو يشوبها الغموض . فبسبب ضخامة الكتاب وطول الفترة التى يعالجها وتنوع المصادر التى اعتمد عليها مؤلفه نلمس دوما غياب التناسق والتسلسل المنطقى بين فصول كتابه، الأمر الذى يجعل الاستفادة من الكتاب فى غياب كشاف تحليلى مفصل لموضوعاته وأعلامه ومواضعه ومصطلحاته أمرا عسيرا، ورغم الحاجة الملحة لهذا الفهرس فإنه سيظل دون فائدة كبيرة فى غياب نشرة علمية مصححة للكتاب.

وقد بلغ فن التأليف فى الخطط ذروته مع كتاب «المواعظ والاعتبار» للمقريزى الذى يعد أكبر ممثل لنمط التأليف فى الخطط، فحقيقة الأمر أنه لايوجد أى كتاب - باعتبار أهميته - يمكن أن يوضع إلى جانب كتاب خطط المقريزى الذى يحتل مكان الصدارة بين بقية مؤلفاته.

الكتاب ومنهجه

أوضح المقريزى فى مقدمته بجلاء كاف مفهومه للتاريخ وآراءه الشخصية حول مصنفه، وغرضه من تأليف الكتاب والأهداف التى وضعها نصب عينيه، ثم مضمون الكتاب ومنهجه فى كتابته، غير أن المقريزى لم يوفق كل التوفيق فى تحقيق هدفه فيوجد لديه اختلاف كبير بين النظرية والتطبيق كما هو الحال عند شيخه ابن خلدون فى مقدمته الشهيرة وكتابه فى التاريخ.

فمحتويات الكتاب تختلف بعض الشيء خاصة قرب نهايته عن خطة المؤلف كما وردت فى المقدمة. فيذكر المقريزى أنه رتب كتابه على سبعة أجزاء أولها يشتمل على جمل من أخبار مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها، وثانيها يشتمل على كثير من مدنها وأجناس أهلها، وثالثها يشتمل على أخبار فسطاط مصر ومن ملكها، ورابعها يشتمل على أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار، وخامسها يشتمل على ذكر ما أدرك عليه القاهرة وظواهرها من الأحوال، وسادسها يشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها، وسابعها يشتمل على ذكر الأسباب التى نشأ عنها خراب إقليم مصر، وقد تضمن كل جزء من هذه الأجزاء عدة أقسام.

وقد التزم المقريزى تماما بالأجزاء الأربعة الأولى التى ذكرها فى مقدمته، حيث ضمن المجلد الأول من الكتاب - الذى ننشره اليوم - الجزء ين الأول والثانى: «أخبار أرض مصر وأحوال نيلها وخراجها وجبالها» و«مدن مصر وأجناس أهلها» الذى ذيله بفصل تناول فيه «تاريخ الخليقة والتواريخ التى كانت للأمم قبل تاريخ القبط» وفصل مهم عن تحويل السنة الخراجية القبطية إلى السنة الهلالية العربية يستكمل فيه الحديث عن الفصل الذى عقده فى الجزء الأول حول «خراج مصر فى الإسلام» وضمن المجلد الثانى الجزء ين الثالث والرابع الذى تناول فيه «أخبار

فسطاط مصر ومن ملكها» و«أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من الآثار»، وتناول فى المجلد الثالث الجزء الخامس المشتمل على ذكر حارات القاهرة وما بها من دور وحمامات وخانات وفنادق وخوخ .. إلخ، والجزء السادس المشتمل على ذكر قلعة الجبل وملوكها.

ولكن المجلد الرابع - وهو أكثر أجزاء الكتاب استخداما من الآثاريين - لم يشتمل على الجزء السابع الذى كان سيتضمن الحديث عن «الأسباب التى نشأ عنها خراب مصر» والذى أحال إليه القارئ فى مواضع كثيرة من كتابه، فهذا الجزء لا وجود له ألبتة فى نص كتاب «المواعظ والاعتبار» الذى وصل إلينا، ومن ثم فيجب الافتراض أن المقريزى عدل عن عزمه عن معالجة هذا القسم بعد الإشارة إليه فى المقدمة، وربما وجد فى رسالته «إغاثة الأمة» التى ألفها سنة ٨٠٨هـ، ما يسد به هذا الباب، واستعاض المقريزى عن ذلك بالحديث عن المساجد الجامعة والمدارس والخوانق والزوايا والمشاهد والمقابر والقرافة، الذى يبدو كأنه تتمة للجزء الخامس، ويتخلل ذلك مقالات مطولة عن «المحاريب بمصر وسبب اختلافها» و«مذاهب أهل مصر ونحلهم» و«ذكر فرق الخليقة واختلاف عقائدها» و«عقائد أهل الإسلام منذ ابتداء الملة الإسلامية إلى أن انتشر مذهب الأشعرية» وأخيرا اختتم الكتاب بفصول تناول فيها تاريخ اليهود والقبط وفرقهم واختلاف مذاهبهم مع تعداد أديرتهم وكنائسهم».

وعدم التزام المقريزى بما جاء فى مقدمته يقف دليلا على أنه لم ينقح هذه المقدمة، كما أن مراجعة الكتاب توضح لنا أن المقريزى لم ينقح فقط مقدمته بل إنه لم يعاود النظر نهائيا فى كتابه، فهو لم يمحص مادته فى كثير من الأحيان بما فيه الكفاية بحيث يبدو كتابه أشبه بمجموعة من المقالات والمواد المتفرقة فى تاريخ مصر وطبوغرافية مدينة القاهرة يختلط فيها التاريخ بعلم الآثار، أكثر منه مصنفا متماسكا بحيث لايمكن أحيانا - كما يقول جست Guest - معرفة ما إذا كان الكتاب مؤلفا فى التاريخ أم مصنفا فى الطبوغرافيا أو فن الخطط.

ولكن ما لايختلف عليه أحد هو تنوع وتعدد المصادر التى اعتمد عليها المقريزى ومعرفته الواسعة بمصادر معلوماته حتى أن جانبا كبيرا من المادة التى حفظها لنا كان فى حكم المفقود لولا نقله لها، فأنقذ بذلك من الضياع جزءا كبيرا من تاريخ مصر كان سيظل بدونه مجهولا لنا.



وتعد الأجزاء التى وصف فيها المقريزى نظام الخراج وجبى الضرائب ونظام الإقطاع ، وجميع الجزء الخاص بالفاطميين وتأسيس القاهرة، أكثر أجزاء كتاب «المواعظ والاعتبار» قيمة وأصالة. وإلى جانب ذلك يعد المقريزى أهم مؤرخ مصرى أرخ للفاطميين، فقد كان يرى أن كتابة تاريخ مصر دون وضع الفاطميين فى موقعهم الصحيح فى هذا التاريخ غير ممكن، فهم مؤسسو القاهرة وهم الذين أعطوا لمصر مكانتها الاستراتيجية المهمة فى المنطقة لذلك فقد شغل حديثه عن الفاطميين وتاريخ القاهرة فى زمنهم نحو ربع كتابه. ومن الغريب أن وصف المقريزى لقلعة الجبل العاصمة التى أقام بها الأيوبيون ثم ورثها عنهم خلفاؤهم سلاطين المماليك سادة مصر فى وقته، لايرقى فى قيمته ومصادره إلى الوصف الذى يقدمه المقريزى للقاهرة فى زمن الفاطميين.

وأشار المقريزى فى مقدمة «الخطط» إلى المنهج الذى اعتمد عليه فى جمع مادة كتابه وهو «النقل» من الكتب المصنفة فى العلوم وهو مانطلق عليه اليوم المصادر الأدبية، و«الرواية» عمن أدرك من مشيخة العلم وجلة الناس، وأخيرا «المشاهدة» لما عاينه ورآه، أى المعلومات المبنية على اختباره الشخصى ومشاهداته. وعند كلامه عن أسلوبه التاريخى الذى اتبعه يقول: «فأما النقل من دواوين العلماء التى صنفوها فى أنواع العلوم فإنى أعزو كل نقل إلى الكتاب الذى نقلته منه لأخلص من عهدته وأبرأ من جريرته.. وأما الرواية عمن أدركت من الجلة والمشائخ فإنى فى الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثنى إلا أن يحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته وقل مايتفق مثل ذلك. وأما ماشاهدته فإنى أرجو أن أكون ولله الحمد غير متهم ولا ظنين».

مشكلة تحرير الكتاب

اتفق جميع الباحثين الذين درسوا كتاب «خطط» المقريزى بما لايدع مجالا للخلاف على القيمة الكبيرة للكتاب بالنسبة للمادة التى يحويها بين دفتيه، فقد استطاع المقريزى على امتداد صفحات هذا الكتاب أن يرجع إلى جميع المصادر السابقة عليه والتى فقد أكثر من ثلاثة أرباعها اليوم، والتى ينقل عنها فى العادة بدقة، ولكن فى حدود المنهج الذى سار عليه المؤلفون القدماء. غير أننا إذا فحصنا هذه المسألة عن كثب، كما يقول كراتشكوفسكى، فسنصطدم بصورة جدية بمشكلة عويصة تتعلق بأمانة المقريزى فى استخدامه لمصادره إذ يقع عليه عبء الاتهام بالسرقة الأدبية، الذى وجهه إليه معاصره المؤرخ الناقد شمس الدين السخاوى، ومن الباحثين المعاصرين جاستون فييت الذى اتهم المقريزى بأنه أعمل يد النهب فى كتاب «ولاة مصر» للكندى، وكاتب هذه السطور حيث لاحظت عندما نشرت ممالك مصر والشام والحجاز واليمن من كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل

الله العمرى أن المقريزى نقل كل وصف ابن فضل الله العمرى لقلعة الجبل دون أن يشير إليه فى أى موضع من كتابه. ومع ذلك فإننا فى الحالات التى تمكنا فيها من تحقيق رواية المقريزى فى أصولها تبين لنا أن المقريزى أهل للثقة بصورة تجعلنا نعتمد عليه اعتمادا كاملا حتى فى الحالات التى نجهل فيها جهلا تاما المصادر التى استقى منها مادته.

إن عدد المصادر التى اعتمد عليها المقريزى فى تأليف كتابه «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» هائل حقا، ويوضح لنا أن المقريزى اعتمد على مكتبة غنية بالمصادر المتنوعة، وأن مكتبات مدارس القاهرة - التى كان يتردد عليها المقريزى - كانت تمثل ثروة ضخمة من مؤلفات علماء المسلمين السابقين. فقد كانت القاهرة فى عصر سلاطين المماليك هى مركز الجذب الثقافى والعلمى للعالم الإسلامى، بعد سقوط بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م ، وانتقل إليها القسم الأكبر من المؤلفات التى نجت من كارثة اجتياح المغول لمقر الخلافة الإسلامية فى بغداد، وتوزع القسم الآخر من هذه الكتب على مكتبات بلاد الشام وعلى الأخص حلب ودمشق، وعلى ذلك فإنه بعد أقل من قرن من وفاة المقريزى ومع الفتح العثمانى لبلاد الشام ومصر، انتقل القسم الأكبر من هذه الكتب إلى دار الخلافة الجديدة فى استانبول ومن بينها أصول المقريزى نفسه التى كتبها بخطه أو التى نقلت من خطه.

وفى دراسة رائدة عن النقوش التاريخية الموجودة على العمائر الدِّينية والحربية والمدنية فى مصر الإسلامية صدرت عام ١٨٩١م، أشار عالم الكتابات الأثرية السويسرى ماكس فان برشم «١٨٦٣ - ١٩٢١» إلى الأهمية التى يمكن أن تعود بها دراسة عن مصادر المقريزى فى الخطط، وأكد على ذلك أيضا المستشرق الروسى إغناطيوس كراتشكوفسكى «١٨٨٣ - ١٩٥١م» الذى أشار فى كتابه الرائد «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» إلى أن دراسة مصادر المقريزى فى «الخطط» تحتاج إلى بحث خاص لن يخلو من الأهمية.

وفى سنة ١٩٠٢م كتب المستشرق الإنجليزى روفن جست Rueven Guest مقالا مسهبا عدد فيه عناوين مصادر المقريزى فى «الخطط» اعتمادا على طبعة بولاق، وهو لايزعم أن القائمة التى أعدها قائمة تامة، خاصة أن طبعة بولاق التى اعتمد عليها لاتحوى أية كشافات كما أنها تشتمل على أكثر من ألف صفحة، مسطرة كل صفحة ٣٩ سطرا. وقد وفر هذا العمل دون شك جهدا كبيرا على المهتمين بهذا الموضوع فى



غيـاب كـشـاف تحليلى للكتـاب، ولكنه لم يلب رغـبـة مـاكس فـان برشم أو أمنيـة كراتشكوفسكى، بعـد ذلك فى تخـصيص بحث لدراسة مـصـادر المقريزى فى كـتابه «المواعظ والاعتبار».

ووعد جاسـتون فييت فى مقدمة نشرته الجزئية للخطط بأنه سينشر فى مـجلد مستقل دراسة عن حياة المقريزى سيدرس فيها بالتفصيل على الأخص مصادر الخطط.

وعلى ذلك ظلت مـصـادر المقريزى التى اعـتـمـد عليها فى كتابة كتـابه الضـخم «المواعظ والاعتبار» تفتقر إلى هذه الدراسة.

وقد استطاع المقريزى فيما يتعلق بنقاط معينة «أخبار النوبة – الأهرام – أقسام مال مصر – الملوك المصريون القدماء – الدعوة الفاطمية – المواكب الاحتفالية عند الفاطميين...» أن يحصل على مواد ذات قيمة كبرى تقتصر معرفتنا بها فى أحايين كثيرة على ماحفظه لنا هو منها.

وقد نقل المقريزى نصوصـا كاملة لمؤلفين قدماء، ففى عصـر الكتاب المخطوط لم تكن أمام المؤلفين عند استخدام مصادر قديمة طريقة أخرى سوى نقل نصها كاملا، فلم يجدوا طريقة مناسبة لإطلاع القارئ على المصـدر الذى أخذوا عنه أو للإشارة إلى نصـوص سبق ذكـرها فى الكتـاب أو إلى صـفـحـات سـابقـة، إلا تضـمين هذه النصـوص مرة أخـرى، فلم يكن المؤلفون القـدمـاء متـأكدين دائما من أن الكتب التى ينقلون عنها ميسورة دائما لهؤلاء القراء.

وتبـعـا لذلك فـإن بعض أقسـام كتـاب «الخطط» تمثل نقـلا صـريحـا عن مؤلفين آخرين قد يسـتغرق أحيانا صفحات، مثلما فعل مع ابن عبدالحكم والكندى وابن وصيف شاه وعلى بن رضـوان والبيرونى وابن المأمون وابن الطوير وابن المتوج، غير أن هذه المواد المنقـولة قـد تم التـأليف بينهـا بصـورة لاتخلو من المهـارة والإبداع، واستـخـرجت من عـدد هائل من الآثار الأدبيـة فقد بعـضـهـا تماما بالنسبة لنا مثل مؤلفات : القضاعى وابن المأمون وابن الطوير والمسبحى والقاضـى الفاضل وابن أبى طى وابن المتوج واليوسفى وغيرها كثير، وهو لايهمل فى العادة الإشارة إلى مؤلفيها، ويستثنى من ذلك المؤلفين قريبى العهد من المقريزى الذين نقل عنهم نقولا مطولة دون أدنى إشارة إليـهم مـثـل : ابن فضـل الله العـمرى والنويرى والصـفدى وابن الفرات، وربما كذلك ابن دقمـاق والأوحدى، وخيـر مـثـال على مـهـارة المقريزى فى اسـتـخـدام مصادره والتوفيق بينهـا الفصـل الذى أفرده لأهرامات مصر حيث يشير فيه المقريزى الى أكثر من عشرين مؤلفا بخلاف من استشهد بهم من الشعراء. ■

جولة فى معارض

تجليات الوطن

عبر شطحات الروح .. وسريان النيل

بقلم
عزالدين نجيب

مازال صوت الانتماء فى الفن المصرى المعاصر قادرا على مواجهة صوت الاغتراب، ومازالت ملكات المبدعين المصريين قادرة على ابتكار رؤى حداثية تجدد دماء الحركة الفنية، منبثقة من شطحات الروح الشعبية وتجليات التراث الحضارى وزخم التاريخ، صانعة خريطة جمالية للوطن، من منظور منفتح على انجازات الفن الحديث فى العالم، لكنه يظل موصولا بشرايين الانسان والمجتمع، ومحتفظا «ببطاقته الشخصية» فى أى محفل يحل به، ومازالت بعض رموز النهضة الفنية الحديثة منذ أواسط القرن الماضى حاضرة بيننا، تملأ فضاءات المعارض الجديدة بإبداعات طازجة، عبقة بحس الفطرة والهوية، سارية كسريان النيل فى أوصال وادى الفن، فتكسبه طاقة متجددة للتواصل والكشف الابداعى عن جماليات الوطن والإنسان! .

هذا ماتعكسه - بدرجات متفاوتة وبأنغام مختلفة - مجموعة من المعارض أقيمت خلال الشهر الماضى بالقاهرة، وكان للفنانات موقع الصدارة فيها .





الام - زينب السجينى

جاذبية سرى

كان معرض التصوير الزيتي للفنانة جاذبية سرى (خريجة ١٩٤٨) بقاعة سفرخان بالزمالك حلقة جديدة فى سلسلة تجلياتها الابداعية المتمردة على القالب أو النموذج، حتى على ماتصنعه بنفسها .. لقد بدت خلال معارضها فى العشر سنوات الماضية نزعة قوية للعودة الى الطبيعة، من البحر إلى الصحراء ومابينهما، وباستثناء بعض المعارض التى تضمنت رسومها السريعة بالخطوط أو بالألوان المائية عن مشاهد الحياة اليومية بما فيها الإنسان والحيوان والنبات، فإن السمة المسيطرة على معارضها خلال تلك السنوات هى التجريب الفنى الذى يتاخم التجريد المطلق، بما يجعل ملامح الطبيعة مجرد ذريعة أو عناصر مساعدة لتحقيق قيم الشكل البحت، وفى بحثها (التجريبى، التجريدى) كان البناء الفنى للوحاتها محل صراع بين الشحنة الانفعالية المباشرة التى تسقطها بحس عفوى يتجلى عبر السطوح المتوترة بالملامس الخشنة والسيولة اللونية والتجريح بالسكين، وبين النزعة العقلانية المهندسة عبر مساحات وخطوط وشرائط لونية مجردة تقسم فضاء اللوحة طولا أو عرضا، بالنظر إلى شخصية جاذبية، الميالة بطبعها إلى الحرية والتلقائية، بعيدا عن قيود التنظيم والمنطق، فإن استخدامها تلك الحلول الهندسية المجردة كان يبدو كنوع من الكبح الذاتى لشطح انفعالها المحموم، وبدون أن تدرى كانت الخصائص المصرية الأصيلة التى تميزت بها أعمالها خلال مراحلها السابقة تذوى وتتراجع لتحل محلها رؤى الحداثة بمفهومها الغربى أو العالمى بغير حدود.

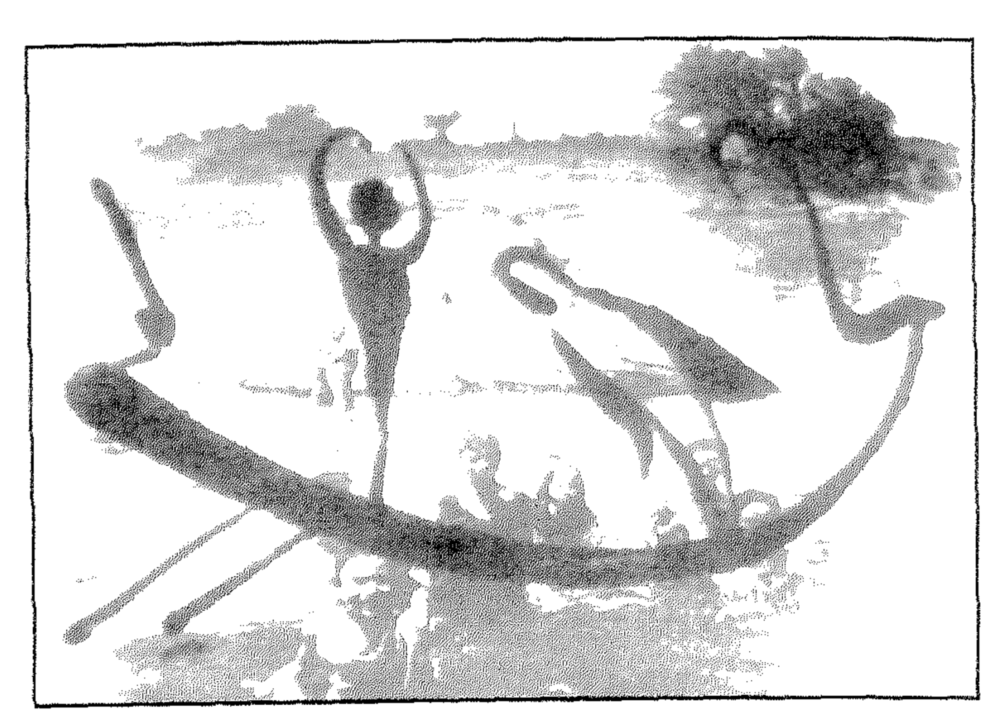
لكنها فى معرضها الجديد تعود - بدرجة كبيرة - إلى عالمها الحميم، مفسحة للإنسان مكان البطولة فى لوحاتها، وقد تبلور فى كتل متحاورة، عبر ثنائيات أو ثلاثيات أو مجموعات متراصة أو متناغمة، ولاتهتم فى بنائها بالتفاصيل التشريحية والجزئيات الواقعية، أو بإيجاد حركة عضوية، بل ينصب اهتمامها على حركة الخطوط والمساحات والبقع اللونية بعلاقاتها الديناميكية، ويبقى الانسان متراوحا بين التجسيد والتجريد، بين الواقع والرمز، مضفيا إرهاصا بالتواصل الأسرى الحميم، وبالتماهى مع المحيط الكونى المطلق عبر مساحات من الأزرق التركوازى المصفى أو الأحمر القرمزى المتوهج، أو فوق مزيج مركب من ألوان شتى ذات ملامس متداخلة من العجائن اللونية والكشط، والتجريح، وقد تقترب الفنانة من بعض المظاهر الواقعية مثل القوارب والأسماك والنخيل، لكنها تظل فى إطار الرموز المجردة التى تتجه نحو المطلق بعيدا عن محدودية الزمان أو المكان ، لتفسح المجال للمشاهد الى التأمل الفلسفى وليس إلى المعاينة الواقعية.

بهذه الشفافية والجدية - التى لم تتخل عن حس الطفولة بداخلها - تتهيء جاذبية للاحتفال بعيد ميلادها الماسى، بعد أن توجت منذ عامين بجائزة الدولة التقديرية فى الفن، وتجاوزت أعمالها حدود الوطن إلى شتى المحافل الدولية وحصلت على الزمالة مع العديد من الهيئات والمؤسسات الكبرى للفن فى العالم.

مريم عبدالعليم

قدر لبنت الاسكندرية - خريجة كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٥٤، والمدرسة ثم الاستاذة بكلية فنون الاسكندرية منذ عام ١٩٥٨ حتى الآن بعد عودتها من بعثتها الدراسية فى الولايات المتحدة الأمريكية - أن تكون أول فنانة مصرية تحصل على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٩٤، جنبا إلى جنب مع رواد الفن المصرى المعاصر، وبهذا فتحت مريم عبدالعليم الطريق أمام بنات جنسها من الفنانات للحصول على هذا التقدير الرفيع،





النيل - محمد عبلة

وساعدت على رفع الغبن عن كثيرات منهن على امتداد القرن الماضى، مثل عفت ناجى ومرجريت نخلة وكوكب يوسف وزينب عبده وانجى أفلاطون وتحية حليم وزينب عبدالحميد، برغم ما أثبتنه من ريادة إبداعية لاتقل عن ريادة زملائهن الفنانين الرجال فى مصر، كما قدر لها أن تكون أول فنانة مصرية تتخصص فى فن الجرافيك (الطباعة الفنية لمستنسخات أصلية عن طريق الحفر على ألواح الزنك وغيرها)، بعد دراستها بجامعة جنوب كاليفورنيا لهذا المجال عام ١٩٥٧، لتتخرج على يديها أجيال تلو أجيال من الفنانين، أصبح الكثير منهم أساتذة للفن فى الكلية نفسها، حيث يواصلون رسالتها حتى اليوم.

ونظرا لطبيعتها الصوفية العازفة عن الأضواء والدعاية، فقد ظلت طويلا خارج دائرة الإعلام والاحتفاليات، بل خارج دائرة المعارض القاهرية، التى يبدو ماعداها هوامش إقليمية لايسمع بها أحد، لذلك جاء معرضها الشامل لسيرتها الممتدة لأكثر من أربعين عاما، الذى أقيم فى فبراير الماضى بمجمع الفنون بالزمالك، حدثا فنيا مهما أتاح لجمهور الفن أن يتعرف على إبداعها المتجدد، خاصة مراحلها الفنية الأولى منذ أواخر الخمسينيات ثم الستينيات وما تلاها، وأن يرى إلى أى حد كانت هذه المسيرة مواكبة ومتعانقة مع قضايا الوطن وحركة المجتمع المصرى صعودا وهبوطا، كضمير حى يستخلص القيم وروح الأحداث والتحولات المصيرية لهذا الوطن وإنسانه عبر ذرى الانتصار ومهاوى الهزيمة.

غير أنك لن تجد شيئا من ذلك كله بشكل مباشر أو انعكاسا ميكانيكيا كالترجمة الوثائقية أو المغازلة السطحية لقشرة الوعى لدى المشاهد، بل على العكس تماما، فسوف تجد فى لوحاتها «الرؤية الموازية» للواقع عبر لغة الشكل التى تتماهى مع السحر والأسطورة ومخزون الثقافة الشعبية، وأيضا مع الرمز المفتوح الذى يتجاوز الآنى والمرحلى والمتعين، محلقا نحو المطلق والكونى والروحى عبر حدود الزمان والمكان.

هكذا نجد في لوحاتها - أوائل الستينيات - تلك التكوينات المنفتحة الحدود فوق الخلفيات البيضاء، بتشكيل يتردد فيه شكل الدائرة الأقرب إلى العجلة، تعبيراً عن ديناميكية البناء والانتاج والتعمير، في مقابل الشكل الهرمي تعبيرا عن ثوابت التاريخ والقيم، في جديلة متضافرة لا انفصام لها، كما نجد البنية التحتية للوحة مزيجا متداخلا من أشكال الحروف والنباتات والطيور والوجوه، وكأنها مجموع آلات الأوركسترا تعزف في هارمونية جياشة «لحسن القرار» الموازي «للحن الميلودي» الأساسي في المقدمة. وفي سنوات الانكسار بعد هزيمة ٦٧، نجد أشكالا تزداد اقترابا من التجريد والمراثي الحزينة، عبر كتل تتفتت ثم تعود لتتجمع، وتنهار لتعود فتتصاعد!

وتنتقل مريم في مراحلها الأخيرة إلى حالة من البوح الصوفي بألحان غنائية صداحة بذكر الله، مستخدمة حروفا وآيات من كتاب الله الحكيم، وطيورا وتوريقات فردوسية ميادة تحف بها إيقاعات تطريبية من حروف وزخارف متماوجة، وكثيرا مايفيض بها الشوق إلى قبر الرسول الكريم «صلى الله عليه وسلم»، فترسم الكعبة المشرفة وأفواج الحجيج وأعمدة المسجد الحرام، تتخلل ذلك كله التسابيح والآيات القرآنية في نسيج روحاني محكم.

غير أن ذلك كله لم يحجب عن لوحاتها قط تلك الروح الفطرية الطفولية التي ميزت عالمها عبر مراحلها المتصلة، كما لم يأخذها إغراء مهاراتها التقنية المميزة في الجرافيك - مثل التحسيس الفوتوغرافي على قوالب الحفر وتداخل الخامات والتقنيات - إلى استعراضات الشكل التجريدي الذي تملك ناصيته ببلاغة واقتدار، بعيدا عن رؤاها التعبيرية النابعة من صميم الوجدان المصري وموروثه الميثيولوجي والبصري، فظلت رحلتها الفنية تتسم بنفس البساطة والتلقائية الصادقة، تعبيرا عن نبض الوطن

زينب السجيني

وإذا كانت الفنانتان جاذبية ومريم تنتميان إلى جيل الخمسينيات، فإن الفنانة المصورة زينب السجيني - التي أقامت معرضها الجديد خلال الشهر الماضي أيضا بقاعة الزمالك - تنتمي إلى الجيل اللاحق لهما مباشرة في الستينات، ومثلهما تخرجت هي أيضا من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة وعملت بالتدريس بكلية التربية الفنية، فتركت بصماتها على أجيال الخريجين على امتداد الأجيال، وقد نشأت في أسرة فنية أصيلة، بدءا من عمها رائد النحت المعاصر جمال السجيني، حتى زوجها الفنان الراحل عبدالرحمن النشار، فتحققت من خلال هذا المثلث الإبداعي حالة نموذجية من التواصل الفكري والروحي والجمالي، مع احتفاظ كل منهم بملامح شخصيته المتميزة.

ظلت زينب السجيني على وفائها المتصل لعالم الطفولة والأسرة في البيئة الشعبية، إنك نادرا ما تجد في مجمل الرحلة الفنية لأحد الفنانين مثل هذا الإلتصاق. بحدود العالم الذي اختاره منذ بدء رحلته مثلما تجده عند زينب، وهو مايعكس قدرا عاليا من الصدق الموضوعي والفني في آن واحد، مع النفس ومع العالم الحميم الذي تشكل به وجدانها، وقد أخذها ذلك الصدق نحو عالم مشابه ومواز لعالمها، وهو التصوير المصري القديم على جدران المقابر والمعابد، حتى لتبدو لنا وكأنها تطل علينا بلوحاتها عبر آلاف السنين، بتلك النكهة المصرية العتيقة، والخطوط الانسيابية المتماوجة والمترابطة في نسيج لايفصم، والألوان الجدارية الطينية المعجونة بطمي النيل، وفوق ذلك كله: بتلك المسحة الحزينة في العيون الواسعة المسحوبة والوجوه البنية الشاحبة والبسمة الغامضة المؤبدة متسامية



الفرح – نبيل لحود

فـوق الأحـزان، فـتـتـبـدى بفـتنة تحـفُّـهـا الأسـرار!.

وفى خضم التيارات الفنية الحديثة التى تكتسح الحركة الفنية بمصر منذ أربعينيات القرن الماضى، ظلت زينب تستمسك بعالمها الإنسانى الحميم، جاعلة من احتضان الطفولة البائسة وتماسك الأسرة الفقيرة حصن أمان ومنصة إقلاع إلى عالم الحرية والتحقق الإنسانى بعيدا عن قهر الواقع الطبقى وظلم المجتمع، ولم يأت ذلك من منطلق الشعار أو الوعظ أو الاستدرار العاطفى الفج، بل من منطلق عاطفة أخوة حقيقية داخل الفنانة لهؤلاء الفقراء، ووعى فكرى نضج على نيران حقبة الستينات ، وانتماء فكرى إلى قناعات الفنان الراحل جمال السجينى، الذى آمن دائما بدور الفن فى المجتمع وبالتعبير عن قضاياه وبالانحياز للمغبونين .

ولم يفارق الفنانة زينب هاجس البحث والتجريب الفنى سعيا إلى التجديد، وحاولت – فى مرحلة سابقة – استخدام الأشكال الهندسية البارزة فوق سطح اللوحة تأثرا بالتجريد الإسلامى وبزوجها الراحل عبدالرحمن النشار، لكنها سرعان ما عادت إلى عالمها الحميم، حيث شعرت باختلاف مزاجها عن عالم التجريدات الهندسية، بيد أنها ، فى الوقت ذاته، ظلت تسعى لتطوير رؤيتها الخاصة بنزعة تعبيرية، أخذتها – فى مرحلة ما – إلى عالم ميتافيزيقى حتى تخوم السريالية، ومرة أخرى عادت إلى حضن عالمها القديم، الذى قدمت لنا بعضاً من تجلياته فى معرضها الأخير، كلحن فطرى حزين على الرباب، يمسح عن النفس المكروبة أساها، وربما يثير فيها أيضا المزيد من الأسى!.

النهر .. والبحيرة :

تجربة جديدة شهدتها قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك فى الشهر الماضى، بطلاها فنانان من جيل الثمانينيات، أقاما معرضا مشتركا لم يخططا له .. إنهما صديقان وزميلا دراسة وخريجا دفعتين متتاليتين بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية عامى ٧٦، ١٩٧٧، هما المصور محمد عبلة والجرافيكى عبدالوهاب عبدالمحسن، لكن

الفكرة اكتملت لدى كل منهما بعيدا عن الآخر، ثم التقيا أخيرا على الإشتراك فى معرض واحد، أو بالأحرى فى معرضين منفصلين متصلين بقاعة واحدة .

الفنان محمد عبله يعيش منذ تخرجه وهو يحلم بالنيل : المعنى والرمز والقيمة والحياة فوق مياهه وفى أعماقه وعلى شاطئيه، حتى انتهى به الأمر أخيرا إلى اقامة مرسمه الخاص على جزيرة «بين البحرين» بالقاهرة، محاط بالمياه من كل جانب ، معايشا للصيادين وقوارب النقل بين شاطئيه، وللفلاحين وصناع الطوب، ومتأملا علاقة الناس بالنيل عبر هذا كله، مما أتاح له رسم مئات الاسكتشات التى أيقظت بداخله الحنين القديم إلى ذكريات الماضى، عام ١٩٧٧، حيث كان مشروع تخرجه عن نفس الموضوع.

وهاهو يعود إلى أحضان النيل والكادحين على شاطئيه وفوق مياهه، رغم تغير المكان والناس والألوان، غير أن عشقه لهذا العالم كان أكبر من أن يشبعه الرسم وحده، لجأ إلى العدسة الفوتوغرافية يصور بها مئات الصور التى حاول من خلالها إيجاد علاقات مع مايرسمه، حتى وصل إلى مرحلة المزج بين الصورة الفوتوغرافية والرسم الذي يضيفه إليها أو العكس حين يطعم اللوحة المرسومة بمقاطع فوتوغرافية وذلك ليس جديدا فى الفن على أية حال، فإن اتجاهات «مابعد الحداثة» في دول الغرب لجأت إليه كثيرا لتأكيد الواقعية إلى درجة الحقيقة، سعيا إلى كسر المألوف وصدم الذوق البرجوازى، وكانت الخبرات السابقة لمحمد عبلة حافلة بمثل هذه التجارب، إلى حد استخدام مجسمات حقيقية من مخلفات قاع النيل - بكل عشوائيتها - فى أعمال فنية مركبة، حصل عن بعضها على جائزة بينالى الاسكندرية الدولى منذ عدة دورات، وطاف ببعضها الآن عددا من الدول الأوربية.

وفى أعمال معرضه الأخير يلعب محمد عبله على الوتيرة نفسها، مازجا بين مقتطفات الصور الوثائقية «الكولاج» وبين أرضية الصورة الفوتوغرافية وبين الرسوم الملونة أو المنفذة بالأسود وحده، متخذا من القارب الفرعوني والمجداف والطفل عناصر مشتركة فى أغلب اللوحات، إلى جانب رسوم لبعض الحيوانات والطيور والأسماك والأشجار والوجوه، مبتكرا شكلا من أشكال السياحة من الزمان والمكان إلى اللازمان واللامكان، حيث تصبح الرحلة سرمدية مثلما كانت مراكب الشمس بالنسبة للمصرى القديم، ولايأس من أن يضيف الفنان بعدا سياسيا كالعولمة، من خلال صور الدولار التى يطبعها على صفحة النيل، فكأنما تحول النهر أيضا إلى قناة تصب خيراتها، فى بحر العولمة الأمريكية!.

أما عبدالوهاب عبدالمحسن فكان موضوع بحثه الجرافيكى هو بحيرة البرلس قرب مدينته كفر الشيخ، ظل يعزف باللون الأسود وحده على لوحاته المحفورة على ألواح الخشب معزوفات تشكيلية بمهارة وتمكن ، فتعكس التماعات الماء تحت أشعة الشمس أو القمر، وتنوعها فى إيقاعات بصرية أخاذة، أو توحي بتضاريس جغرافية وطبقات جيولوجية تنتمى إلى عالم مخادع كسطح كوكب مجهول .. ولايكاد المشاهد يفلت من إحساس مخامر بجفاف البحيرة ونضوب مائها الذى يخلف مكانه تلك التضاريس والطبقات الجيولوجية وينبىء بكارثة مدمرة، ولعل اللوحة الدالة بقوة على المعنى هى تلك التى يتجمع فوق نصفها الأسفل سرب من طيور أبى قردان واقفة على امتداد أرض البحيرة التى جفت، منكمشة على نفسها فى حالة أشبه بانتظار الهلاك!

وكانت استعانة عبدالمحسن بالتصوير الفوتوغرافى من خلال فكرة مختلفة عن



الرسم، حيث قام بتصوير فيلم فيديو لعالم البحيرة فى أوقات اليوم المختلفة بحس أقرب إلى التجريد، مع حركة الكاميرا بإيقاعات سريعة ، مقابلة لحركة المياه والشاطىء والأسماك والأرض المشققة المتعطشة للماء، بغير طائل، وقام بعرض الفيلم الذى لايستغرق أكثر من ثلاث دقائق ونصف على شاشة هائلة بإحدى صالات المعرض، ولعل أجمل ماتضمنه الفيلم مشهد سمكة كبيرة من سمك «القرموط» تتابعها الكاميرا وهى تسبح فى انسيابية مراوغة، ثم فجأة نراها وهى تزحف على الشاطىء الطينى باحثة عن ملاذ مستحيل في الماء، وأخيرا نراها وقد استسلمت لقدرها وعينها تنظر فى توسل واستغاثة يائسة، فيما تنبض بحركة الشهيق والزفير قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، ولايستطيع المشاهد أن ينسى أبدا هذه النظرة، التى تبدو شبيهة بعيون البشر!.

إن ذلك أحد مظاهر فن «مابعد الحداثة» الذى نجح فى توظيف مختلف الفنون والوسائل البصرية والسمعية لخدمة العمل التشكيلى، لكن يظل أنجح ما حققه عبدالمحسن فى معرضه هو التقنية العالية فى الحفر على الخشب، بما وصل إليه من تنوع إيقاعى ووميض متذبذب بإيماءات الشعر.

فن الفطرة

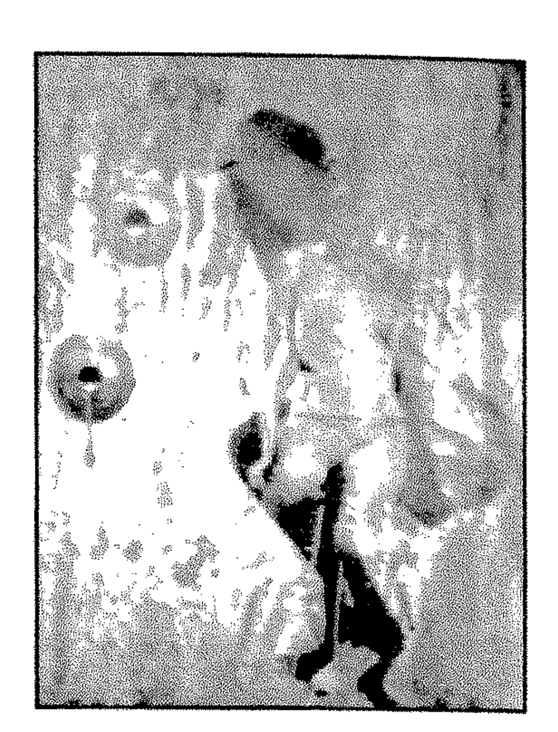
فى قاعة مركز الهناجر للفنون كان المعرض الثانى للفنان نبيل لحود، الذى تفتحت موهبته بعيدا عن الأكاديميات والمدارس الغربية، لينضم إلى ركب الفنانين الذين نجوا من الفطرة الشعبية بتقاليدها السانجة المتوارثة، حيث نشعر بعمق الوشائج بينه وبين فنانين كبار من الراحلين أمثال سيد عبدالرسول وكمال يكنور، ومن المعاصرين أمثال على دسوقى وصلاح عنانى، لكن مايغذى فطرته بشكل مباشر هو الفنان الشعبى المجهول الذى يزين واجهات البيوت الريفية والشعبية برسوم الحج، ويرسم السير الشعبية ورسوم الوشم فى الأسواق.

هذه موهبة خام متدفقة بالعطاء الخصب، تبحث عمن يحتضنها ويشجعها وينقذها من التقليد والتكرار، لأنه بالقطع ليس فنانا شعبيا (بمفهوم الفلكلور) حتى يترك على سجيته وفق التقاليد المتوارثة لهذا الفن، بل هو رجل جامعى يعيش بقيم العصر وإيقاعه المتطور ، فقط هو يفتقد البوصلة التى تقوده إلى الطريق الصحيح المناسب لموهبته وسط شبكة معقدة من اتجاهات الفن الحديث، ومن ثم فإن مايحتاجه هو الوقوف على أول الطريق الذى يسمح له بالحفاظ على روحه الفطرية وأصالته الشعبية ، ويكسبه فى ذات الوقت الخبرة الضرورية للولوج إلى عالم الفن الحديث كنوع من الصقل والانفتاح على متغيرات العصر.

الجسد.. سلعة !

من قديم الأزل كانت المرأة – روحا وجسدا – أغزر نبع لإلهام المبدعين ، وأرفع نموذج للجمال، ومنذ رسم بابلو بيكاسو لوحته الشهيرة «فتيات أفينيون» ١٩٠٧ فى بداية عهده بالأسلوب التكعيبى، انقلبت كل الموازين، حيث أصبح جسد المرأة مجرد شكل فنى يجرب الفنان من خلاله الأساليب الحديثة، مثل التكعيبية والتجريدية، ويستوى فى ذلك مع أى كائن آخر أو حتى إناء، حتى أصبح فى النهاية بلا ضرورة للفنان إلا فى مرحلة الدراسة الأكاديمية من خلال «الموديل».

وفى مصر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية، تكفلت العقليات الجامدة والمحافظة منذ السبعينيات بإلغاء «الموديل» أو مادة «الطبيعة الحية» من مناهج الدراسة بأكاديميات الفنون، بالرغم من ضرورتها المنهجية لطالب الفن شأنه شأن طالب الطب فى محاضرات التشريح، ويشب الطالب منذ جلسته الأولى أمام الموديل على احترام جسد المرأة، كجزء من احترامه لقيمة العلم



كولاج من الورق - عزة عبد المنعم مشالي

والفن في آن واحد، متحررا من أية نزعات غريزية تجاهه، وبإلغاء هذه المادة عادت الصورة الحسية الفجة عن المرأة إلى خيال الطالب، فوق ما أدى إليه هذا الإلغاء من ضعف شديد في الخبرات الأكاديمية لدى طلبة الفن في العقود الأخيرة.

لكن قوانين المجتمع الرأسمالي في دول الغرب - التي انطلقت منها إلى الدول التابعة لها اقتصاديا وفكريا - كانت تعمل بدأب على توظيف جسد المرأة لأغراض نفعية تخدم المؤسسات التجارية والاستهلاكية، من خلال الإعلانات المطبوعة أو المرئية على الشاشة. ونجحت فعلا في تحويله إلى أداة لترويج كل أنواع السلع، ومنها انتقلت إلى جعله أداة في أفلام الإثارة وأغاني الفيديو كليب، الأمر الذي انتهى إلى «تسليع» جسد المرأة، بما يتضمنه ذلك من امتهان لكيانها وكرامتها وعقلها ومشاعرها، مما انعكس بالضرورة على احترام الرجل لها، وأثر سلبا على قدر التكافؤ الفكري بينها وبينه، حيث انتقل استغلال المرأة لجسدها من مجرد الحاجة الاقتصادية التي تدفعها لذلك إلى قبولها للمبدأ ذاته، بل والسعي وراءه تحت إغراءات المال والشهرة والترف، وهكذا انهارت قيمة الجمال الأنثوي الذي يحتل مكانه في متاحف الفن ومراسم المبدعين، وارتفعت قيمة الجسد الأنثوي كأداة لترويج سلعة، أو كوسيلة لاستثارة الشهوات.

من هذا المنطلق جاء معرض الفنانة الشابة عزة مشالي في الشهر الماضي بمركز الجزيرة للفنون.. حيث عرضت - مستخدمة أسلوب «الكولاج» مع تقنيات فنية أخرى - مجموعة من اللوحات تصور كيفية استغلال جسد المرأة عبر رسائل الإعلان والفيديو كليب، وكان بإمكانها - لو أرادت - أن ترسم نماذجها الأنثوية بدلا من اقتطاعها من مطبوعات منشورة، بحكم كونها دارسة أكاديمية تجيد الرسم، لكنها فضلت تقنية «الكولاج»، تحقيقا لمصداقية هدفها من المعرض، كي يبدو الجسد - السلعة كما يجري فعلا استغلاله في الواقع .. ولأنها تدرك أنها تقدم - قبل كل شيء وبعده - عملا فنيا وليس مجرد فكرة قامت برسمها بخامات مختلفة، مثل الألوان المائية والشمعية والزيتية والأحبار والأكاسيد، مضفية عليها حسا عفويا متوترا عبر الملابس الخشنة المتآكلة، وكثيرا ما عمدت إلى إحداث المفارقة بين الشكل الأمامي «المجسد فوتوغرافيا» وبين الأرضيات التحتية المتآكلة بألوانها المتداخلة، للوصول إلى أقصى درجة من التأثير الفني والتعبيري، في الوقت الذي حرصت على وحدة التكوين وتوافق العلاقات النغمية، بما يمنح اللوحة جدارة العمل الفني.

إن عزة مشالي ليست فقط موهبة واعدة بما تملكه من تمكن تقني في أسلوب الكولاج، بل كذلك من وعي فكري أهلها لتوظيف موهبتها كقوة تضاف إلى تيار النضال من أجل تحرير المرأة من مستنقع التسليع، في عصر يضع المادة فوق كل قيمة. ■



قصة موسيقى الجاز الإفريقى فى أمــــريكا

بقلم
فرج العنترى

إن الاستماع الثقافي إلى أصالة موسيقى الجاز الأفريقى بعد الاحاطة التاريخية عن انتحال الأمريكيين البيض له بوضع اليد، والعلم أساسا بتدابير العمليات العدوانية لاختطاف خلق الله الأفريقيين من أوطانهم وشحنهم بسعر أسواق النخاسين إلى أراضى «الدنيا الجديدة» لاستعبادهم القهرى إنما يكشف لوعي المستمع عن صراحة المضمون للأسلوبين الرئيسيين فى هذا النوع من الموسيقى: اولهما الأسلوب المعروف حاليا بمصطلح «الراجتايم» Ragtime والمتميز بإطلاق زمجرات من اصطخاب النغم الزاعق والمتمزق إربا Rags فيعطى الانطباع أكثر ما يعطى بأن كبت القهر قد ولد انفجاره الزاعق بمعزوفات قوم طالتهم كل عذابات القهر بدون أى مبرر مشروع !! .

وأما الأسلوب الثانى الذى يأخذ بدوره مصطلح «البلوز» Blues وأحيانا الروحانيات Sprituals، فمجرد استرحامات منغومة من وداعة الضراعة التى اعتاد المعذبون فى الأرض أن يرفعوها فى بريد السموات الزرقاء Blues بمثابة العرضحال إلى ألطاف رب العباد ليقضى بعدالته فى جرائم ظلم الإنسان الأبيض للإنسان الأسود!!

(١)

والواقع السمعى أن دلالات التعبير فى أسلوبى «الراجتايم» و«البلوز» بأصالة الجاز الأفريقى - وليس الأمريكى المنتحل!! - تنبثق تلقائيا من آثار الوقائع السوداء لفترة تاريخية بشعة، كانت قد بدأت من منتصف القرن السادس عشر وانتهت أو كادت فى القرن التاسع عشر، ويعتبرها المؤرخون بحق من أشنع فترات التاريخ الإنسانى بحساب طوفان الأهوال التى أصابت أفريقيا بهجمات على أهاليها لأجل بجاحة وفظاعة المتاجرة بهم فى أسواق النخاسة الأوروبية والأمريكية على السن والرمح الاستثمارى والاستعمارى!! وهيا إذن أيها السادة والسيدات والآنسات لمراجعة كتاب اليوم عن «جذور قصة الأسود والأبيض» فى العدد ١٢٦ لشهر يوليو سنة ١٩٧٧، وكتاب الهلال عن «تجارة الرق والرقيق» فى العدد ٣٦٢ لشهر فبراير سنة ١٩٨١ وامسكوا أعصابكم إزاء ما به من الوقائع.

(٢)

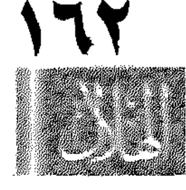
والثابت أيضا أن النشاط البرتغالى كان قد استفتح شهية النخاسة فى كل من الهولانديين والفرنسيين، والدانماركيين والبريطانيين فاحترفوه واجتهدوا فيه، غير أن بريطانيا بحسب ما رصدته المراجع كانت هى التى تفوقت نخاستها على الجميع خطفا وتسويقا، وحتى صار من نبلائها المشهورين فى هذا المجال السير جون هوكنز «١٥٣٢ - ١٥٩٥» الذى كرمته الملكة اليزابيث





الأولى «١٥٥٨ - ١٦٠٣» بدرع عليه نقش لصورة زنجي مصفد في الأغلال، فتلقاه بالزهو واتخذه شعارا ارستقراطيا لعائلته، وحقيقة أنه كان قرصانا دائم الطواف بسفينته دون كلل أو ملل في عمليات خطف العبيد من منطقة سواحل أفريقيا الغربية، وبيعهم لأصحاب مزارع الإمبراطورية الاسبانية التي كانت حينذاك أهم أسواق أوربا لتصريف شحنات «السلع البشرية» المربحة للانجليز!!

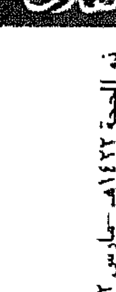
ومع ما تقدم فلقد كان من اللازم أن يتجهز في العالم الجديد المعروف حاليا بالولايات المتحدة الأمريكية - أوسع أسواق النخاسة لاستقبال وتصريف شحنات الرقيق الأفريقي، تبعا لأن أوائل المهاجرين الأوربيين إلى متسعات «الدنيا الجديدة» كانوا قد عاينوا فيها مساحات من آلاف الاميال المربعة الصالحة للزراعة ، ثم اتضح لإمكاناتهم أنه لا طاقة لخبرات اياديهم البيضاء الطرية بقدرات العمل على استزراعها ، وبالتالي فما كادت اول سفينة للنخاسة ترسو بحمولتها الافريقية على الساحل الأمريكي في سنة ١٦١٩ ، حتى بيعت كل شحنتها فورا لأصحاب مزارع الدخان في ولاية فيرجينيا بالثمن المجزي. ثم كان نجاح هذه الصفقة حافزا الى فتح سوق امريكية للرق في ظل الراية الاستعمارية الانجليزية الحاكمة، وأصبح السوق المركزي في أمريكا الشمالية فعالا في استيعاب اكبر الشحنات . ثم عمدت يومئذ كل من الدول الانجليزية والفرنسية والبرتغالية والدانماركية على انشاء شركات رأسمالية في انشطة اجتلاب الرقيق من سواحل أفريقيا الغربية وتصريفه في مختلف الاسواق بموافقة حكوماتها وتصديق برلماناتها. وتم بالفعل إنشاء مجموعة الشركات التي توافرت على دوام امداد وتموين ولايات الجنوب الأربع بالعبيد، وهي ولايات الألا باما، وتنيسي. ولويزيانا. وجورجيا. وأصبحت ميناء شارلستون في ساحل كارولينا الشمالية أهم المواقع الأمريكية وأضخمها في استقبال وتصريف الرقيق. كما أصبح ميسورا لكل السادة أصحاب مزارع القطن والدخان ان يبتاعوا كفاياتهم من أيدي العبيد العاملة، وأن يقيدوا أفرادها في بعضهم البعض بالحبال اتقاء الهروب، وأن يسوقوهم سوق القطيع الى اكواخ إقامتهم الحقيرة، ثم يعاودون سوقهم في كل صباح مبكر إلى مزارع الشغل الشاق بلسعات السياط لتنشيط العمل في لظى الشمس الحارقة حتى المغارب، وعندئذ يتوقف العمل وتعود القطعان إلى حظيرة



نومهم. فيتأتى لهم فى ليلهم بعد التقاط أنفاسهم وتناول ما تيسر لطعامهم أن يطلقوا مزامير حناجرهم بنوع التراتيل المكسورة فى خاطر تنغيمها بمشاعر قهرهم وانسحاقهم فى اغترابهم البعيد جدا عن احضان وطنهم الام فى العبارة «I want go to mammy» مع لوازمها من التطبيل على اى وعاء او صفيحة. وباستنغامهم لأوتار يربطون أطرافها على جانبى تجويفات علب التبغ. وتستمر هكذا توقيعاتهم تصحب بكائيات حناجرهم ونبر أوتارهم حتى يحتويهم النعاس إن استطاع!! .

(٣)

غير أنه مع بدايات القرن التاسع عشر ظهرت دعوة جديدة فى ولايات الشمال بوجوب القضاء على عمليات الرق والاسترقاق ، لا عن صحوة ضمير، وانما نتيجة لما ثبت من كفاية الموجودين فعلا من العبيد، ومن الاطمئنان على أن معدل التناسل الطبيعى بين الزنوج الموجودين كفيل بسد أية احتياجات فى المستقبل. وقد اجتهدت بريطانيا بدورها فى تأييد هذه الدعوة بسبب نضوب عبيد الخطف بمنطقة الساحل الغربى الافريقية، فضلا عن انها قد فقدت مستعمراتها فى العالم الجديد بالطرد النهائى منها، مما لم تعد بها حاجة إلى ايدى العبيد العاملة، وتوالت الايجابيات بأن حررت امريكا الشمالية كل فائض الرق لديها والعمل على اعادتهم الى موطنهم فى غرب افريقيا سنة ١٨٢٢، بعد أن شيدت لإقامتهم مدينة منروفيا التى اخذت تتوسع اكثر فأكثر لاستيعاب وفود المعتوقين وهذا عدا إضافات المساحات المتزايدة بالمنطقة حتى صارت بالفعل جمهورية للتحرير التى حملت فعلا جدارة التسمية بكونها جمهورية ليبيريا Li-beria of Republic ثم تدعم تزايد الايجابيات فى الشمال الأمريكى بإنشاء جمعيات لتحرير العبيد، وبعقد المؤتمرات لنفس الهدف، وبظهور الأعمال الادبية الفعالة لنفر من الكتاب أمثال رالف امرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) والكاتبة هاريت بيتشرسو «١٨١٢ - ١٨٩٦» التى اجادت تصوير معيشة السود فى قصتها المشهورة «كوخ العم سام» وبإنشاء الحزب الجمهورى الداعى الى وجوب تحرير العبيد برئاسة ابراهام لنكولن محرر العبيد فى مواجهة حزب ولايات الجنوب المعارض، برئاسة جفرسون دافيز، ثم بفوز ابراهام لنكولن فى الانتخابات العامة برئاسة الولايات المتحدة ، وتوكيده فى أول خطبة بالكونجرس على وجوب إلغاء الرق مما أثار ولايات الجنوب التى أعلنت انفصالها التام عن الشمال، فقامت الحرب الأهلية المشهورة التى استمرت اربع سنوات «١٨٦١ - ١٨٦٥» وانتهت بانتصار جيش الشمال واستسلام كل الجنوب لحكومة السلطة الفيدرالية، وبحيث قام الكونجرس فى سنة ١٨٦٦ بعد حادث اغتيال ابراهام





لنكولن فى سنة ١٨٦٥ بالتصديق على قانون الحقوق المدنية للسود، وإقرار المساواة بين مواطنى الولايات المتحدة.

(٤)

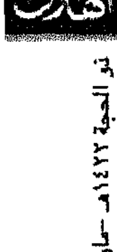
وفى ظل المساواة ورعايتها القانونية أمكن ان يشق نفر من الأفريقيين اصلا طريق جدارتهم إلى الثراء بانشاء المصانع والمتاجر ، وبأن يلمع منهم المشاهير الكبار الذين قدموا لمجتمعهم الأمريكي أجل الخدمات أمثال: جورج واشنطون كارفر الذى قام بعدة ابحاث فى علاج امراض النباتات مما ضاعف من محاصيل ولايات الجنوب التى لم تكن فى صف تحرير العبيد أبدا، والدكتور رالف بانش الذى تولى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة وأندرو يانج سفير الولايات المتحدة فى هيئة الأمم، وبجانبهما غالبية ابطال الدورات الأوليمبية ومنهم البطل محمد على كلاى وفى الموسيقى فنان الجاز العالمى ارمسترونج.

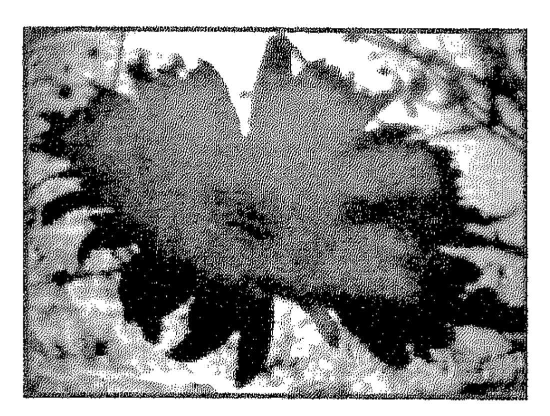
ولا يتبقى امامنا إلا موضوع نشأة الجاز فى أمريكا وتنميته لتسعفنا مفكرة الدكتور حسين فوزى الموسيقية فى عدد اهرام ٤ يوليو سنة ١٩٧٧ بأن السود فور أن تحرروا، انفصلوا عن سادتهم وابتدأوا يوجهون سعى عيشهم الى العمل الموسيقى الحر بما يمتلكون من موروثات الطقوس الافريقية وفلكورياتها وانهم سافروا الى مدينة نيوأورليانز الموسيقية اصلا، والتى تعتبر من مدن ولاية لويزيانا التى كانت مستعمرة فرنسية ثم باعها القنصل الأول نابليون بونابرت إلى الولايات المتحدة سنة ١٨٠٣ ويعرف اهلها بأنهم الكوريول او الفرنسيون الخلص الذين ولدوا بمستعمرات فرنسا فى «العالم الجديد» وفى مدينة نيواورليانز الموسيقية، التى تتكلم الفرنسية دون سواها، ويعتبرها التاريخ الفنى منبت الظهور والتنمية لموسيقى الجاز . اكتسب اداء موسيقى السود تسمية الجاز Jazz لاول مرة من المصدر اللغوى الفرنسى Jaser بمعنى الثرثرة أو الدردشة وهى التسمية التلقائية التى عبرت تماما عن اسلوب الأداء الأفريقى للموسيقى الذى يتحرر فيه كل عضو مشارك من قيود التكرار الحرفى للحن المعين . وانما له كامل الحرية عندما يأتى عليه دور الاداء فى اضافة كل ما يروق له من ألوان ارتجالاته الذاتية، فيدرك السامعون مبلغ حذقه الخاص فى ابداعه الخاص لدردشة اداء اللحن، وبهذه الارتجالات الذاتية والتلقائية تولد الجاز على يد العتقاء الافريقيين فى مدينة نيوأورليانز باستخدامهم لآلتى البانجو والجيتار، ولما

اكتشفوا ان هذه المدينة غنية بآلات النفخ النحاسية والخشبية تبعا لأنها كانت متخصصة من قديم في تصنيعها. وان اسواقها عامرة بآلات النفخ «النصف عمر» ذات الاثمان الميسورة لهم، تألفت منهم ايضا فرق موسيقية على آلات النفخ. وقامت بسد خدمات المدينة من موسيقى المواكب. والاعياد القومية، والسيرك وحلقات الرقص، والنزهات الخلوية، وحتى لتشييع الجنازات، كما امكن لهذه الفرق ان تجد لها مكانا على الوابورات البخارية التى كانت تمخر عباب نهر المسيسبى جيئة وذهابا. من مصبه حتى التقائه بروافده فى امريكا الوسطى، وبذلك تحرك نجاح فرق السود بآلات جديدة غير البانجو والجيتار، وراج اداؤهم بها رغم انهم لم يتلقوا دروسا نظامية على آلات النفخ التى استجدت عليهم من السكسفون والكلارينت. والكورنيت والترومبة. والترومبون. والباص. وكانوا لا يعرفون شيئا عن قراءة وكتابة الموسيقى، وانما ظل كل ادائهم الإعجازى قائما على التجربة والتمرس بالحفظ والسماع حتى نجحوا فى عمليات نقل الاغانى الشعبية على تلك الآلات التى تفننوا فى التلاعب بألحانها عن طريق اسلوب ارتجالهم الخاص، وابداعهم للتلوينات الصوتية التى استولدوها بحذق تعامل شفاههم مع مباسم النفخ، وكان ان انتهى بهم الأمر الى ادخال آلة البيانو – «الكلى الاحترام فى مفكرة الدكتور حسين فوزى » الى حلبة اداء موسيقى الجاز فى تركيبات موسيقية، من زعقات التصادم. أو بالترنح التوقيعى Symcopation الذى يوقع الاضطراب فى التدفق الطبيعى لنبرات التمبو، وبالثبات بقرار الايقاع الهارمونى مع تمزيق اللحن العلوى إربا إربا. وبمثل هذه الخصائص التحررية تشجع افريقيو نيوأورليانز القدامى ومن تبعهم من البيض على جرأة التقدم بأدائهم الى حلقات المباريات عن ثقة واطمئنان.

★★★

والآن ، فإنه بعد قراءة هذه القصة عن موسيقى الجاز الافريقى فى أمريكا، وبعد الاحاطة بكل ما حدث فى مؤتمر دربن لحقوق الانسان ومناهضة العنصرية ألا تتولد شدة النزوع إلى حث اشقائنا الافارقة على المطالبة بكامل حقوق افريقيتهم فى شتى استثمارات البيض الاوروأمريكيين لفنون الجاز بدءا من يوم استزراعه فى مدينة نيواورليانز سنة ١٨٦٦ حتى الآن وبعد الآن وايضا وبكل جهود الاصرار على مقاضاة جميع الدول التى شاركت فى جرائم خطف وبيع واسترقاق الجدود الافريقيين فى الاشغال الشاقة المؤيدة لمدة ثلاثة قرون فى اراضى جنوب امريكا، بطلب التعويض المتكافئ والشافى. ■





الفنان محمد صبرى فى معرضه الشامل

من الرسم بالكاميرا إلى التعبيرية والفن البصرى

صلاح بيصار

استطاع الفنان محمد صبرى طوال رحلته مع الإبداع التشكيلى والتى تمتد لأكثر من خمسين عاماً أن يسقط الحاجز بين الفوتوغرافيا والرسم.. فلقد حول الكاميرا إلى أداة تشكيلية يجوب بها آفاق التعبير.. تلك الآفاق التى تخرج بالكادر التسجيلى واللقطة من الطبيعة إلى عالم يموج بالأضواء والظلال والملامس والغموض المتناغم وسحر العناصر..

ولقد جاء معرضه الشامل والذى أقيم بقاعة الأوبرا للفن التشكيلى فى سيمفونية بصرية طويلة انسابت فى ثلاث نغمات.. فى رشاقة وحيوية من الرسم بالكاميرا إلى التصوير بالألوان المائية والجواش وامتزج فن لوحة المعمل بفن الرسم فى مساحات من المشاعر والأحاسيس..

فى لوحات الفوتوغرافيا سيطر صبرى على عين الكاميرا فتحول الواقع مع أحكام زوايا التصوير وتحريف نقط التركيز فى العدسة إلى إيماءات شاعرية وموسيقية تتلامس مع مدارس واتجاهات الفن الحديث من الانطباعية التى تحتشد باللمسات اللونية القصيرة وارتعاشات الضوء إلى التجريد الذى يفكك الطبيعة ويختزل المرئيات ويخرجها من اطارها الضيق.. ومن هنا يتغير الزمان والمكان

الدكتور اسامة الباز مع الفنان محمد صبري في معرضه



المراكب الشراعية بين الروح والصورة وقت الغروب



هكذا تتحول الفوتوغرافيا داخل المعمل إلى ايقاع يتدرج من الابيض والاسود إلى اللون



غربة الانسان في حضن الكون من الجزر إلى المد

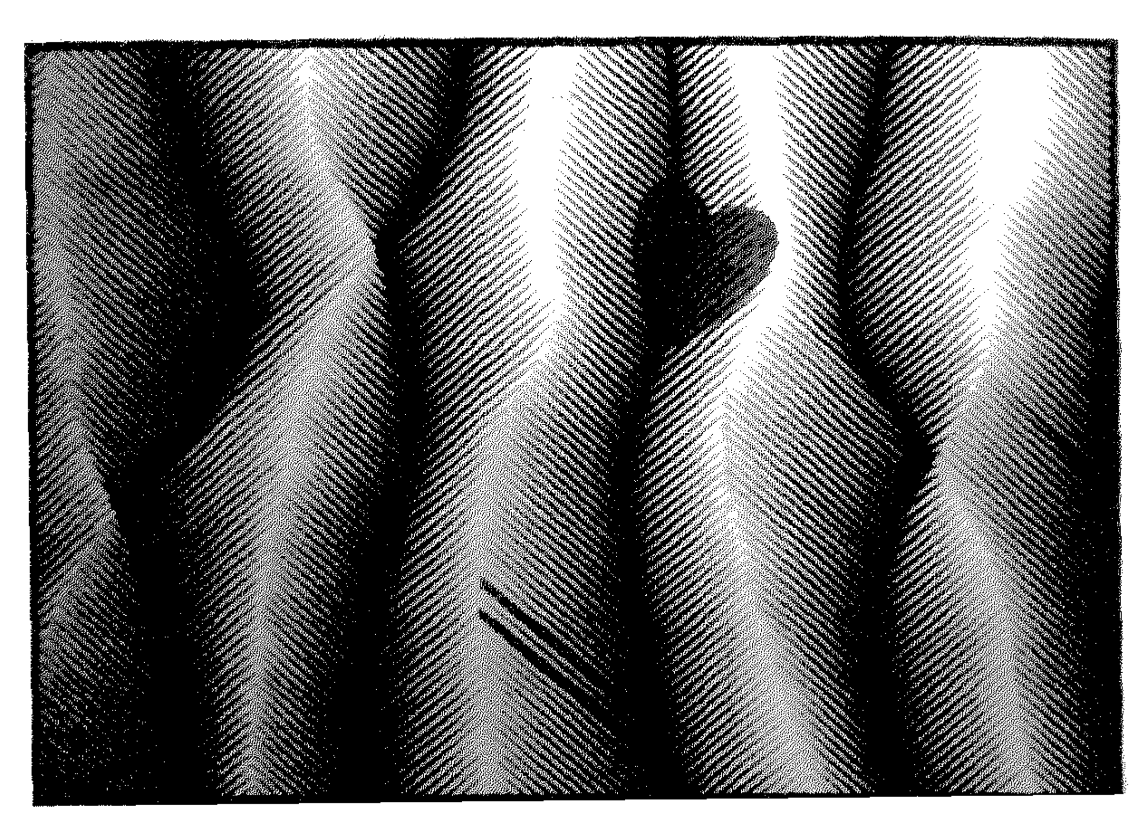
في أعماله ويتحول المنظر الواقعي إلى رموز ومسحات تعبيرية فيطل الوجه الإنساني عميقا من بؤرة في اللوحة ثم يتلاشى وتتوه ملامحه وتتداخل في الخلفية مسكونة بالهمس الشاعري والسطوع اللوني..

ومحمد صبري يستخدم العديد من الوسائط والمؤثرات الشكلية داخل المعمل كالمرشحات والفلاتر والملامس المختلفة مع حواجز الزجاج المبلل وانعكاسات الفانوس السحري.. وكل هذا ينقلنا من لحظة تعبيرية إلى أخرى كما في لوحات الزهور التي يتحاور فيها الورد البلدي ويغني عصفور الجنة وينتشي عصار الشمس مسكونا بهمس الضوء الشارد في لحظات الغروب..

وفي مجموعة الجسد العاري يختزل الفنان صبري مناطق الإثارة والأنوثة في المرأة ويحولها إلى دنيا من التعبير تنتفي فيها قوة الجسد برغباته العارية من خلال الشرائط والملامس المتنوعة والتباين اللوني والسطوح الخشنة وتنبعث قوة أخرى جديدة من الشجن والدفء والحزن الشفيف والمشاعر الجياشة..

وهو يقدم تكنيكا جديدا من التصوير من خلال بعض الوجوه الإنسانية لمشاهير مثل صلاح جاهين وحسن يوسف في خطوات تتم داخل المعمل يتخلص فيها من التفاصيل الزائدة ويتحول التدرج الضوئي إلى تباين من الأبيض والأسود مع اللون ولا يبقى من الصورة إلا روح الشخصية وأعماقها الداخلية.

وبالألوان المائية وألوان الجواش تطل مجموعة من الوجوه لبنت البلد والمرأة



بين الايقـــاع الهندسي والعـــضــوي تتــألق أعــمـــال الفنان صـــبـــري في الفن البـــصـــري

العصرية مسكونة بالتوتر الدرامى مع قوة التعبير ينساب فيها اللون كالنوافير يعكس ملامح من الشفافية المؤلفة بالغموض والأسرار..

ولقد جاءت النغمة الثالثة فى سيمفونية صبرى تلخيصا شديدا وتكثيفا لعالمه من تلك الأعمال التى تنتمى «للأوب أرت» أو من الخداع البصرى وهو من يعمد إلى الإيهام أو الخداع البصرى اعتمادا على المنظور الحسى الذى يظهر نتيجة إحكام التنظيم الهندسى حينما تتدرج بعض الأشكال الهندسية فى الصغر وينتظم غيرها بالعكس ويتولد نتيجة هذا التنظيم إحساس عام بالحركة ولقد كان الفنان المجرى فازا نيلى من رواد هذا الاتجاه حيث جعل مجال الابصار فى أعماله اطار للتراسل بين المبدع والمتلقى من أجل إثارة العين دفعة واحدة.. لكن فناننا صبرى أضاف إلى المتعة البصرية المجردة لهذا الفن مضمونا إنسانيا وتعبيريا حين مزج الشكل الهندسى بعناصر عضوية فى لوحاته كما فى تلك اللوحات التى امتزجت فيها الزهور بالهندسيات.. والتى تآلف فيها القمر والشمس مع الانكسارات الضوئية.. مع تلك التعبيرات الإنسانية للوجوه المبتهلة والمتحفزة والمطلقة والتى تحلقت حولها التناميات الهندسية.. فى ايقاع رياضى بليغ.. جاءت كلها أشبه بسحر المشربية التى تجمع بين الروح والصورة أوبين النظم الهندسى وتجليات المعنى..

تحية إلى الزميل والفنان الكبير محمد صبرى بعمق مساحات التعبير التى تنوعت فى معرضه الشامل.. ■

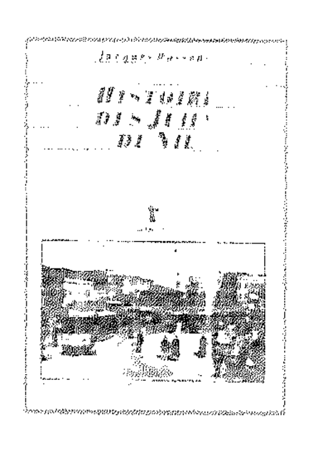
كتاب جديد

يهود على ضفاف النيل

بقلم

سامي محمد عبد الحميد

صدر فى باريس عام ١٩٩٠ كتاب عنوانه «تاريخ يهود النيل» وهو مجموعة من البحوث جمعها وأشرف عليها چاك حسون وهو يهودى مصرى ولد فى الاسكندرية فى عام ١٩٣٦ ويطلق على نفسه اسم يعقوب بن داود. وقد أصدرحسون عدة كتب عن يهود مصر.



ويشير حسون إلى أن ملامح شخصية يهود مصر لم تكن ثابتة لأنها كانت عرضة للتقلبات مثل مصر نفسها التى استوعبت الثقافات وامتصت الغزوات. ويهدى حسون هذا الكتاب إلى الذين يجهلون تاريخ الطائفة اليهودية فى مصر ويشكر عدة شخصيات منها جيمس حكيم «الذى كان قاضيا فى المحكمة الحاخامية العليا فى القاهرة» وأعضاء رابطة إنقاذ التراث الثقافى ليهود مصر.

● لماذا تم تحريف التوراة في عصر البطالمة؟

● كان المستوي الروحي لليهود في مصر راقيا بعد الفتح العربي

ويأتى أول أبواب الكتاب، الذى يعالج تاريخ اليهود فى مصر منذ البداية حتى الفتح العربى لمصر، تحت عنوان «ازدهار يونانى وبؤس رومانى» وهو بقلم چوزيف ميليز مودرزيوفسكى أستاذ التاريخ القديم فى جامعة السوربون وهو من أصل بولندى.

وتأتى المرحلة الثالثة التى تمتد نحو خمسة قرون وذلك منذ سحق الثورة اليهودية فى عام ١١٧م حتى الفتح العربى لمصر فى عام ٦٤١/٦٤٢م.

بداية الهجرة إلى مصر

ويقول مودرز يوفسكى : إن بداية هجرة اليهود إلى مصر ربما ترجع إلى عهد سقوط مملكة يهودا واستيلاء «نبوخذ نصر» على القدس والمنفى البابلى. ويرى الباحث أنه كان هناك يهود فى مصر قبل استيلاء قمبيز عليها فى سنة ٥٢٥ ق.م لكنه يرجح أن البداية الحقيقية للهجرة اليهودية تزامنت مع تدمير مملكة يهودا فى يوليو ٥٨٧ ق.م. مما دفع النبى إرميا ومجموعة من الضباط اليهود للهجرة إلى

مصر ويشير سفر إرميا إلى عدة أماكن فى مصر أقامت فيها جاليات يهودية، لكن أشهر هذه الأماكن هو «جزيرة فيلة» التى تتوافر عن جاليتها اليهودية معلومات وافية بفضل مجموعة من الوثائق الآرامية التى جمعها بيير جريلو فى كتاب صدر بالفرنسية فى عام ١٩٧٢ تحت عنوان «الأدب القديم فى الشرق الأوسط».

وقد اختفى أثر المرتزقة اليهود فى «فيلة» مع الفتح المقدونى لمصر على يد الإسكندر الأكبر الذى خلفه البطالمة فى حكمها.

وقد أصبحت هجرة اليهود إلى مصر أمراميسورا لأن فلسطين كانت منذ عام ٣٠١ حتى عام ١٩٨ ق.م من أراضى البطالمة، وتم تنظيم شئون الطائفة بقيادة زعماء روحيين فى عهد بطليموس الأول ولكن اليهود لم يتمتعوا بنظام يشبه الحكم الذاتى إلا فى عهد بطليموس السادس فيلوميتور الذى كان محبا لليهود.

اسرة يهودية عاشت فى مصر عام ١٩٢٣



وفى القرن الثانى قبل الميلاد أنشأ الكاهن أونيا الرابع جالية عسكرية يهودية فى ليونتوبوليس (تل اليهودية) قرب ممفيس حيث حصل على إذن بإقامة هيكل هناك مشابه لهيكل أورشليم رغم أن ذلك مخالف لما عرف بشريعة وحدة الهيكل التى تنص على وجود هيكل واحد لليهود ولكن ذلك لم يحدث حيث كان هناك أيضاً هيكل للسامريين فى جرزيم قرب نابلس.

وقد قامت بعثة فرنسية بالتنقيب عن هيكل أونيا وأصدرت عن ذلك بحثا عنوانه «هيكل أونيا ومعسكر الهكسوس فى تل اليهودية» ونشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة هذا البحث عام ١٩٣٥.

تحريف التوراة

ورغم الحرية التى نالها اليهود فى عهد البطالمة حيث اعترف النظام القضائى رسميا بالتوراة فإن ذلك لم يمنع اليهود من اتباع القانون اليونانى العام حيث مارسوا الربا رغم تحريمه فى

التوراة بين اليهود.

وهناك حدث يستحق الذكر هنا لأن التوراة ترجمت إلى اليونانية فى عهد البطالمة وأطلق عليها اسم «التوراة السبعينية» لاشتراك نحو سبعين عالما فى ترجمتها وذلك بتأييد بطليموس الثانى.. ولكن اليهود تجنبوا كل ما يمكن أن يسئ لليونان مما دفعهم إلى بعض التحريف فى كتابهم الدينى المقدس وهم واعون بذلك. فقد تحايلوا على ذكر كلمة «أرنب» وهو حيوان نجس فى اليهودية وذلك لقربه من كلمة لاجوس التى ينتسب إليها البطالمة وتعرف بها أسرتهم.

كما أنهم استخدموا اسمه تعالى «الله» بصيغة الجمع فى سفر الخروج حيث أصبح «إيلرهيم» فى الآية القائلة بعد تحريفها «لن تسب الآلهة» وكأن ذلك دعوة إلى عدم انتقاد تعدد الآلهة عند اليونان.

وقد أشار إلى هذا التحريف بوضوح لا لبس فيه التلمود الأورشليمى.

وهناك حادثة مهمة أشار إليها الكاتب وهى اشتراك يهودى من عائلة غنية فى الاسكندرية فى حصار أورشليم وتدمير الهيكل مع تيتوس عام ٧٠م وهذا اليهودى هو تيبريوس چوليوس إسكندر وكان أبوه أخا للفيلسوف فيلون. وكان نيرون قد عين تيبريوس حاكما على مصر فى عام ٦٦م كما أصبح الشخصية الثانية فى الأمبراطورية الرومانية عام ٧١م. وقد أمر تيبريوس الجنود الرومان بقتل اليهود ونهب أموالهم وهدم بيوتهم.

وكان تيبريوس مستشارا لتيتوس ورئيسا لأركانه. ويختتم مودرزيوڤسكى بحثه بالحديث عن فتح عمرو بن العاص لمصر حيث لم يقاومه الشعب الذى كان يعادى بيزنطة منذ أمد طويل.

اليهود والفتح العربى

وفى بحث عن اليهود فى مصر منذ الفتح العربى حتى حملة بونابرت قال الفريد موراببيا (المولود فى القاهرة ١٩٣١) إن الفتح العربى كان تحولا فى تاريخ مصر وتاريخ اليهود فيها مشيرا إلى أن المستوى الروحى ليهود مصر كان

هكذا عاش اليهود فى مصر



راقيا ودليل ذلك أن سعديا الفيومى بكل معارفه تعلم كل شئ فى مصر خاصة فى الفيوم. وقد ظهر سعديا فى نهاية القرن التاسع للميلاد وتأثر كثيراً بالمعتزلة وكان عدواً لطائفة القرائين مما جعله يضطر للهرب من مسقط رأسه بسبب قوتهم حيث عاش فى سوريا ثم كان رئيسا لأكاديمية بابل وهو أول من ترجم التوراة إلى العربية، ويعتبر أول من مهد الطريق للفكر الفلسفى لدى اليهود فى القرون الوسطى كما وفق بين الثقافة اليونانية والروح اليهودى ولذلك يعتبر بمثابة فيلون الثانى ومبشرا بموسى بن ميمون وهو حلقة مهمة بين هاتين القمتين وقد عاش الثلاثة فى مصر، وأشار موارابيا إلى دور الوزير الخطير يعقوب بن كلس (الذى كان يهوديا وأسلم) فى العهد الفاطمى حيث عمل على أن ينشر الأزهر العقائد الإسماعيلية.

اليهود فى عهد الفاطميين

وتحدث موارابيا عن تأثر اليهود بانقسام العالم الإسلامى حيث استقل يهود مصر فى العهد الفاطمى عن أكاديمية بابل. وكا يهود مصر أكثر الطوائف اليهودية ازدهارا حيث أنهم وفروا الحاجات المادية لأكاديميات بابل وفلسطين وأصبحت مصر، كما قال، مركز إشعاع ليهود الشرق.

وقد ازدهر النشاط التجارى الدولى فى مصر الفاطمية، وكان لليهود دوركبير



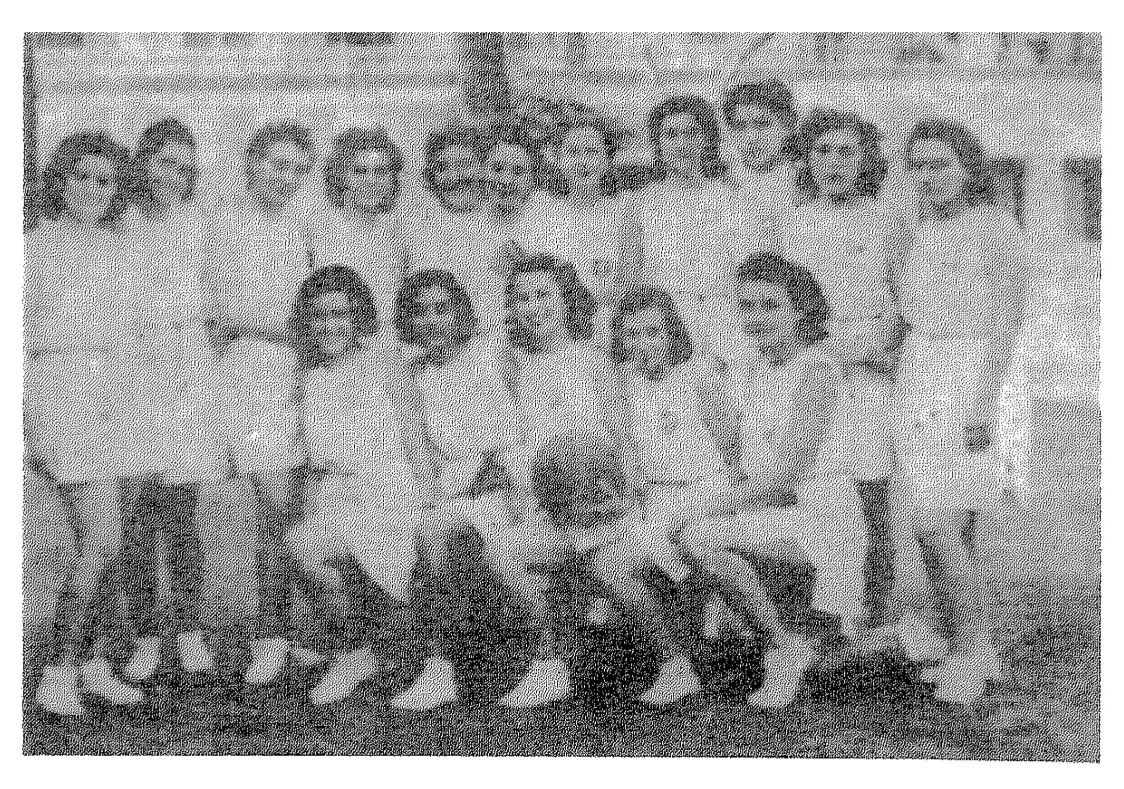
حوش عائلة ايميل داود عدس

فى تجارة الترانزيت عبر مصر لأن الفاطميين لم يفرضوا ضرائب باهظة على التجار غير المسلمين. واحترم الفاطميون الاستقلال الداخلى لليهود حتى أن جويتن وصف نظام الطائفة بأنه ديمقراطية دينية فى العصر الوسيط. بل إن بعض اليهود، رغم نظر معظم القضايا أمام المحكمة الحاخامية، كانوا يفضلون اللجوء إلى القاضى المسلم فى المنازعات التجارية.

وهناك الفيلسوف موسى بن ميمون الذى عاش فى عصر صلاح الدين الأيوبى وكان موسوعيا حيث قدم مزيجا من الروح العلمية اليونانية (خاصة عند أرسطو) والروح اليهودية الربانية.

وفى بحث عن يهود مصر فى مواجهة





فريق «المكابي» لكرة السلة أنسات

الحداثة ترى جودرون كرامر وألفريد موراببا أن عهد محمد على شهد تحولات كبيرة ومهمة فى البنية الاجتماعية والاقتصادية وأنه يمكن تمثيل حياة يهود مصر فى القرنين الأخيرين فى منحنى صاعد فى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى يصل إلى الذروة فى السنوات من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠.

وقد اعتنق بعض اليهود الكاثوليكية فى تلك الفترة مما أدى إلى إنشاء مدارس يهودية على مستوى عال لمواجهة تأثير المدارس المسيحية.

بين الصهيونية والشيوعية

وفيما يتعلق بالصهيونية فإنها بدأت فى مصر لدى اليهود الأشكناز الذين هاجروا حديثا إليها ولكن اليهود الشرقيين لم يلتفتوا كثيرا إليها.

وتحدث الباحثان عن دور مجلة المنار وصاحبها رشيد رضا الذى غير فكره من النظرية الإسلامية الموالية لتركيا إلى نزعة عربية دينية تمهد السبيل إلى المصالحة بين العروبة والإسلام.

وعلق الباحثان على العلاقة بين الشيوعية والصهيونية حيث كان الاتحاد السوفييتى أول دولة كبرى تعترف باسرائيل وكان الشيوعيون المصريون يعتبرون الصراع العربى الإسرائيلى صراعا طبقيا وليس تسللا لشعب أجنبى

صورة تجمع بعض العاملات فى المركز الاجتماعي الاسرائيلى فى حارة اليهود بالقاهرة

مدرسة ليسيه سبورتنج اليهودية - ١٩٣٦



راقية ابراهيم



يعقوب صنوع



هنري كورييل

مسيو سكاكي



إلى الأرض العربية.

طائفة القرائين

وفى بحث مهم عن طائفة «القرائين» أوضح چاك حسون أن هذه الطائفة ظهرت فى القرن التاسع وأنهم كانوا أغلبية فى مصر بعد أن هاجروا إليها من القدس والرملة إبان الحروب الصليبية.

وقدتدهورت أحوال القرائين بعد وصول موسى بن ميمون ويهود الأندلس إلى مصر. فقد انطوى القراءون على أنفسهم بسبب عداء الربانيين واقتصرت علاقاتهم الخارجية على القرائين فى القسطنطينية والقرم. وهناك اليوم ٣٠ ألفا من القرائين فى القرم وليتوانيا وإسرائيل وتركيا.

ويتمسك القراءون بالكتب المقدسة ويرفضون التراث الشفهى وقد أخطأ البعض وظن أنهم نحلة صدوقية جديدة رغم أن القرائين يعتبرون الصدوقيين كفارا لإنكارهم خلود الروح.

وقد انبثقت طائفة القرائين من الفريسيين وانقسمت إلى جماعات شتي إلى أن قام بتوحيدها فى القرن العاشر يعقوب أبو يوسف القرقشانى، ويرفض القراءون فتوى الربانيين بتحريم أكل اللحم واللبن معا وهو تفسير حرفى للآية «لاتطبخ الجدى بلبن أمه» حيث يرى القراءون أن هذه الآية تنهى عن القسوة.

وهناك شخصية مهمة كان لها تأثير كبير فى قوة القرائين وهو عنان بن داود الذى قاد أخطر ثورة ضد سلطة التلمود وذلك فى بغداد حيث أسس هذا المذهب الجديد. وقد رفض عنان سلطة التلمود لكنه يقبل التوراة كمرجع أعلى ويرى معظم أتباعه أن المسيح عليه السلام معلم ونبى وأنه لم يأت لتأسيس دين جديد ولكن لإعادة سلطة التوراة بعد القيود التى فرضها الحاخامات ويقول أبرام ليون فى كتابه «تاريخ اليهود» إن خطر القرائين ظل فى ازدياد حتى ظهور سعديا الفيومى الداعية القوى لليهودية التلمودية. ■



ماذا جرى للعاشقين؟

شعر: جلال عابدين

وتســـــألين : مـــــاذا جـــــرى للعــــاشـــقين !!!
وتهـــمـــهـــمين : مــــاذا أصــــاب المغـــرمـين !!!
الأغنيــــــات تحــــجـــــرت فى حلقنا
كل البـــــلابل هاجـــــرت من حــــينا
وكـــــأن لغـــــة بيننا ســـــقطت
ودار الحب فـى فـلـك حـــــــــــزين
مـــــا عـــــاد قلبى ذلك الطفل الذى ..
قـــــد كنت يومــــا تعـــشـــقين
مـــا عـــدت أنت بعـــشب صـــدرى تسكنين
لا ولا أنت .. كـــمــــا كنت .. بحـــبك تمطرين ..
تحـــاورين .. تشـــاورين .. الآن أنت تناورين
كل الخــــيـــوط تشـــابكت فى كـــفنا
وتمــزق الحلم الذى مـــــــا بينـنا
وكـأننا نحـيـا جـمـيـعـا .. مــرغـمين
وبعــــــد ذلك تســـــــألين ..
مـــــاذا جـــــرى للعـــــاشـــقين
وتهـــمـــهـــمين : مــــاذا أصــــاب المغـــرمـين !!!

***

هـــــل تـــــعـــــلـــــمـــــين ؟
فـــيـــروزة العـــينين ضـــاعت من سنين
مـــا عـــدت أسـبح فـيهـميا .. ولا أحن إليـهـمـا ..

وأغازل الوطن الذى ..
قد نام فى عينيك آلاف السنين
أنا لست أدرى ما الذى ..
قد حاصر الأحلام فينا ..
ومن استباح بأن يدوس الياسمين
وبعد ذلك تسألين ..
ماذا جرى للعاشقين
وتهمهمين : ماذا أصاب المغرمين ؟!!!

***

وتسألين :
لم البلابل هاجرت
ولم القنابل أصبحت
إفطارنا اليومى فى الزمن الحزين
ما عادت الأطيار تحترف الغناء
ما عادت الأزهار ترقص بالحنين
ولم الحساء نرى به ..
وجها يعاتبنا ويسألنا
لكى ننجيه من موت مهين
ولم الرجال تبيعه وتبيعنا بفطيرة للعابرين
وبعد ذلك تسألين : ماذا جرى للعاشقين ؟!!!
وتهمهمين : ماذا أصاب المغرمين ؟!!!







القصة والرواية

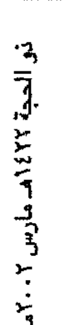
فى أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

بقلم
أحمد حسين الطماوى


جرجى زيدان


محمود تيمور


يعقوب صروف



القصة العربية العصرية ، فى طورها الأول ، أهديت إلى الملوك والأمراء ، وباركها رجال الدين ، وعملت الدوريات المختلفة على إذاعتها ، ودارت حولها المعارك الأدبية ، واهتم بها النقاد وتتبعوها، وأدركوا حساسيتها وهى تتجول بين الناس تلاحظ وتلاحق وتستكشف التجارب وتتبناها ، ثم وهى تتنقل بين الجماعات تستغويهم وتغريهم بموضوعاتها ، وتبين للأدباء أنها جديرة بالدرس والفحص ، فبحثوا فى أركانها ، ووجهوها بنظراتهم النقدية ، وحاولوا وضع قواعد ومصطلحات لها فى جو مهد لها سبل الرقى . وإذا لم يكن النقد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بلغ الكمال ، فإن القصة كذلك لم تصل إلى درجة الاتقان.

والقضية التى نناقشها أثارها عدد غير قليل من أدبائنا ونقادنا المعاصرين الذين ذهبوا إلى أن القصة فى أواخر القرن ١٩ وأوائل القرن العشرين كانت ذليلة محتقرة ، وساحتها النقدية مجدبة ، ومن هذا قول محمود تيمور : « لم يكن للقصة فى مطلع هذا القرن (يعنى القرن العشرين) شأن يذكر إذ كانت على ندرتها لا تلقى من الحفاوة ما هى أهله» (نقلا عن كتاب عالم تيمور القصصى لفتحى الإبيارى ص ٥٦) . ويقول د. محمد يوسف نجم فى كتابه « القصة فى الأدب العربى الحديث» ص ٣٤ « كان الأدباء يحتقرون كتاب القصة ، ويعدونهم فئة متخلفة من ذوى المواهب الهزيلة . وقد حدثنى قاص من الرواد (هو كرم ملحم كرم) أنه بدأ كتابة القصة سنة ١٩٢٨ حين كان الأدباء لا يعترفون للقصة بكيان أدبى ويعدون كاتبها متطفلا على موائد الأدب لا يستحق أكثر من الإهمال والاحتقار » . ويكرر د. سيد حامد النساج الكلام السالف فى كتابه « القصة القصيرة .. » ص ٢٨ فيقول : « لم يكن للقصة القصيرة قبيل مطلع القرن العشرين فى مصر شأن يذكر فقد ذهب الكتاب فى تجاهلهم لها حدا جعلهم يعتبرون كاتبها متطفلا على موائد الأدب لايستحق أكثر من الإهمال والاحتقار» . ويرى عباس خضر فى كتابه «القصة القصيرة ..» ص ٤٤ ، أنه « لم يكن أحد يعد القصص من الأدب فى شىء . فضلا عن أن تكون موضع الاهتمام والنقد» وفى عام ١٩٩٩ صدرت الأعمال القصصية الكاملة لمحمود طاهر لاشين ، وجاء فى تقديم د. صبرى حافظ لها ص ٣٠ « لقد حارب طاهر لاشين ببسالة فى ميدان كان مجرد الانتساب إليه نوعا من العار» ولاشين من أعلام المدرسة الحديثة فى القصة ونشر أول قصص له «سخرية الناى» عام ١٩٢٦ وهناك أقوال أخرى تدور فى هذا المدار ، وما أوردناه يمثلها ، وهى أقوال كونت فيما بينها مقولة استقرت فى الوجدان الأدبى قوامها أن الأدباء منذ أواخر القرن ١٩ وحتى عشرينيات القرن العشرين كانوا يحتقرون القصة ، وهو رأى إن لم يكن خاطئا ففيه مغالاة .

ويردد بعض المهتمين بالقصة أقوالا مناهضة لها ، منها أقوال ليعقوب صروف وأحمد فتحى زغلول ونفر آخرين مفادها أن الروايات «الحبية» تقلق



الشبان ، وتلين عزمهم ، وتصرفهم عن متابعة الكتب العلمية ، بل إن جرجى زيدان كان يخشى على منزلة الهلال العلمية من الروايات . ولكن لا يفهم من أقوال صروف وزيدان أنهما ضد القصة على الإطلاق ، وإنما ضد القصة المثيرة ، ومهما يكن من أمر فإنهما يحسبان للقصة لا عليها بما ترجماه من قصص وكتباه من نقد قصصى ، وأبدعاه من قصص طويلة أطلق عليها روايات ، فلصروف قصص مثل « فتاة مصر» و «فتاة الفيوم» ولزيدان رواياته المشهورة ، مما يجعلهما من أنصار القصة .

القصة وأعلام العصر

وقد فطن عدد غير قليل من رجال الدين والكتاب المستنيرين فى القرن ١٩ إلى دور القصة فى الإصلاح الاجتماعى فشجعوها ، وقد ذكر العقاد فى كتابه «بين الكتب والناس» أن جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ - ١٨٩٧) عندما اطلع على مجموعة قصص «مغامرات حاجى بابا» الأصفهانى أمر بترجمتها إلى الفارسية «لأنه فطن فى زمانه لفعل القصة الاجتماعية فى تنبيه الشعوب الغافلة» . ولو كان الأفغانى فى مصر لأشار بترجمتها إلى العربية فرأيه فى القصة لن يتغير .

وعلى درب الأفغانى سار الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) . فقد كتب مقالا فى الوقائع عام ١٨٨١ اعتبر فيه القصص من كتب الأدب التى « يبحث فيها عن تنوير الأفكار» وقرنها بكتب الأخلاق والتاريخ وعرّفها قائلا : «وكتب الرومانيات وهى المخترعة لمقصد جليل كتعليم الأدب ، وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ككتاب كليلة ودمنة .. والتليماك..» والرومانيات هى القصص ، والتليماك رواية لفينلون . وبالرغم من أن الشيخ محمد عبده كتب ذلك بعيد نشأة القصة فإنه يقول عن الرومان « ويكثر فى أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته» ففضلا عن تيقظ وعى الإمام، فإنه يظهر أنها موضع درس ورعاية، وقيل إن الإمام كان يحث البعض على كتابة القصة ويراها نافعة فى الإصلاح الاجتماعى .

ومن بين المجلات المبكرة التى أولت القصة عنايتها مجلة «الآداب» فلعل صاحبها الشيخ على يوسف (١٨٦٣ - ١٩١٣) أدرك أن الثقافة القصصية إحدى وسائل النهضة فنشرت مجلته قصصا فرنسية مترجمة منها قصة «رحلة الثلاث ذبابات » وهى رمزية، وأخرى للفيلسوف بوفون وامتدحت ترجمة قصتى «ميروب» و«الجاهل المتطبب» ، وإذا كان الشيخ على لا يعرف لغات أجنبية فالراجح أن محمد مسعود الذى كان يعمل معه



هو الذى ترجم . وما يعنينا أن مجلة تحمل اسم على يوسف وتشيد بالقصة وتنشرها ، تظهر مدى قناعة الرجل بالفن القصصى (الآداب ١٨٨٩) .


محمد فريد وجدى


أحمد شوقى

وقد عزز جرجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) موقف القصة لا برواياته فحسب وإنما بنُبَذ كتبها عن حوالى مائتى قصة ، وبانتقاداته العديدة ، ولعله أول من دون للروايات تاريخا نقديا تفسيريا شبه واف ، تناول فيه القصص منذ أقدم العصور وعبر بيئات مختلفة (الهلال ١٩٠٧) واهتمام زيدان بهذا التاريخ يبين أن الفن القصصى عندنا صار جنسا أدبيا مستقرا .

ويحدثنا محمد فريد وجدى (١٨٧٦ - ١٩٥٤) عن الروايات ، من خلال تعليقه على رواية « آيات العبر» لأحمد فهمى فيقول : يوجد عندنا كتّاب « يرفعون بناء هذا الفن الجليل الذى صار الآن فى أوربا أكثر وسيلة لبث الفضائل وصد الرذائل ، وقد أدرك القوم هناك مبلغ تأثير الحقائق على النفوس إذا أتت من طريق خيالى ، فانكبوا على مطالعة ما تجود به قرائح كتابهم » (مجلة الحياة ١٩٠٠) وجميل منه أن يعتبر القصص فنا جليلا له هيبة ووقار، ويعد من وسائل الإصلاح، ويدرك تأثير الواقع على الناس إذا ترجمه الخيال، وهو تقدير للقصة وفهم لرسالتها

وهكذا نظر رجال الدين وغيرهم إلى القصة باعتبارها صورة مهمة من صور الثقافة العصرية ووسيلة للإصلاح .

كتابان متخصصان

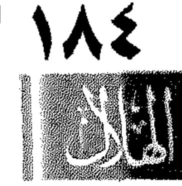
ويبدو أن القصة فى أواخر القرن ١٩ استهوت كثيرين ، ولامت أمزجتهم مما أدى بالبعض إلى وضع كتب كاملة لاستقصاء أبعادها . ففى عام ١٨٩٤ ألف حكمت شريف كتابا دعاه «كليمات فى علم الروايات» ذكرته مجلة الهلال فى حينه ، وأشارت إليه مجلة «التقدم» (١٨٩٤) وبينت ما أورده المؤلف من « مزايا الروايات ، وعدد المبادىء التى ينبغى على المؤلفين التمسك بها ، وختمها بإيراد بعض أسماء من اشتهروا بتأليف الروايات فى وقتنا الحالى» . ومع حكمت شريف الحق فى إطلاق «علم الروايات » على هذا الجنس الأدبى ، فلم تعد الرواية فنا فقط ، وإنما هى فن ، ونقد ، وتاريخ الروايات ، وتاريخ النقد الروائى . وإذا كنت لم أوفق إلى العثور على هذا الكتاب ، فإن وضع كتاب عن الروايات داخل القرن ١٩ له دلالة على مدى

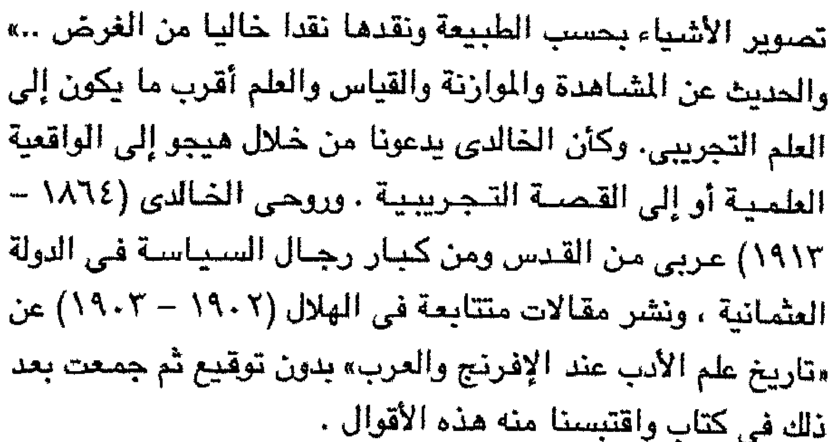
الاهتمام بها ، ودليل على أن القصة انتقلت من دور التقريظ السريع إلى دائرة البحث والدرس .

وفي عام١٨٩٩ صدرت رواية «عذراء قريش» لجرجي زيدان ، وقد أوسعتها «الموسوعات» نقدا وذما لما اشتملت عليه من أخطاء . وفي هذا الجو أصدر «يوسف طبشي» كتابا سماه «البرهان في انتقاد عذراء قريش» وهو أول كتاب كامل يتخصص في نقد قصة . ويوسف طبشي يبدو أنه كان معنيا بنقد الروايات ، فقد عثرت على مقال له في مجلة «الثريا» (١٨٩٧) ينتقد فيه رواية «سمير العشاق» . وكان من جملة آرائه أن الرواية «من أجمل الفنون وأوعرها وأوسعها» . وهذان الكتابان يشيران إلى أن نقاداً أو دارسين خصوا القصة باهتمام ملحوظ .

القصة بحث وتنبؤ وخيال

وكانت القصص التي صدرت في ذلك الزمن «خليطا من القص التاريخي والاجتماعي والخيالي والغرامي إلى جانب قصص المغامرات والتسلية ، وكثير من هذه القصص لا تساعد على النهوض الاجتماعي والرقي الثقافي . ومن هنا انطلقت صيحات تنادي بالواقعية ، والواقعية هي الفن الذي يتناول الأنماط البشرية ، والنماذج الإنسانية ، ويعكس روح العصر ، ويصور البيئة ، وكل هذا يحتاج إلى استقراء وبحث ، وقوة لمح لتتبدى الحقائق على طبيعتها . ومن هنا رأى فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢) أن أنفع الروايات للشرقيين هي الروايات الاجتماعية ، وأثنى يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧) على قصص زولا وتولستوي الأمر الذي يفيد تحبيذ الواقعية . ولكن الواقعية ليست ما ذكرناه فقط ، فتمثيل الواقع غير كاف لخلق القصة ، وإنما لابد أن يصطبغ القص بالصبغة الفنية ، وذلك عن طريق تتابع الصور الكاشفة عن عناصر الواقع الخفية والظاهرة . لذلك أخذ الكتّاب يضربون أمثالاً للفن الواقعي، فتحدث روحي الخالدي عن إميل زولا إمام الواقعية ، حسب رأيه، والذي «صور في الأدب حقيقة كل ما بحث فيه .. ومثله تمثيلا حقيقيا .. بما كتبه عن الهال وهو سوق الخضر في باريس وجعل القارئ يشم ما فيه من روائح السمك والقديد فضلا عما يسمعه من جلبة البائعين والمشترين ، ويراه من السلع والمركبات وانهماك الغادي والبادي في الأخذ والعطاء» . ويستوفي الخالدي في موضع آخر فكرته عن القصة بما ترجمه عن «هيجو» الذي قال «إن كل اختلاق وكل تنبؤ في هذه الصناعة ينبغي أن يكون أساسه مبنيا على الدرس والنظر والتفكير والعلم والقياس والمقابلة والتعقل الصحيح، وكمال الدقة في







اميل زولا



تولستوى

تصوير الأشياء بحسب الطبيعة ونقدها نقدا خاليا من الغرض ..» والحديث عن المشاهدة والموازنة والقياس والعلم أقرب ما يكون إلى العلم التجريبي. وكأن الخالدى يدعونا من خلال هيجو إلى الواقعية العلمية أو إلى القصة التجريبية . وروحى الخالدى (١٨٦٤ - ١٩١٣) عربى من القدس ومن كبار رجال السياسة فى الدولة العثمانية ، ونشر مقالات متتابعة فى الهلال (١٩٠٢ - ١٩٠٣) عن «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب» بدون توقيع ثم جمعت بعد ذلك فى كتاب واقتبسنا منه هذه الأقوال .

وإذا كانت أقوال الخالدى بينت أن القصة درس وبحث وتنبؤ بما سيكون من خلال ما هو كائن ، فإن فرح أنطون يجنح إلى الخيال العلمى ، والتنبؤ بالمخترعات العلمية ، فنراه يتحدث عن القصاص الذين يحاولون «سبق الفكر البشرى بما يتصورونه ويصورونه من العوالم الخيالية التى يخلقونها ، فأحيانا يصيبون كما أصاب جول فرن فى وصف المناطيد والغواصات قبل اختراعها وأحيانا يخطئون » (الجامعة ١٩٠٢) ولعل هذا فيه دعوة إلى إنشاء قصة الخيال العلمى ، وهذا اللون من القصص يتجاوز الواقع ومحاكاته ، ويطلق قدرات العقل وينشط المخيلة لتمعن فى التصورات ، ويتطلع إلى المستقبل لكشف غياهبه ، والتنبؤ بما سيكون عليه . وهذا الطرح الفكرى الذى طرحه فرح أنطون يظهر أن النقاد كانوا متطلعين إلى القصة والرقى بها .

معارك نقدية

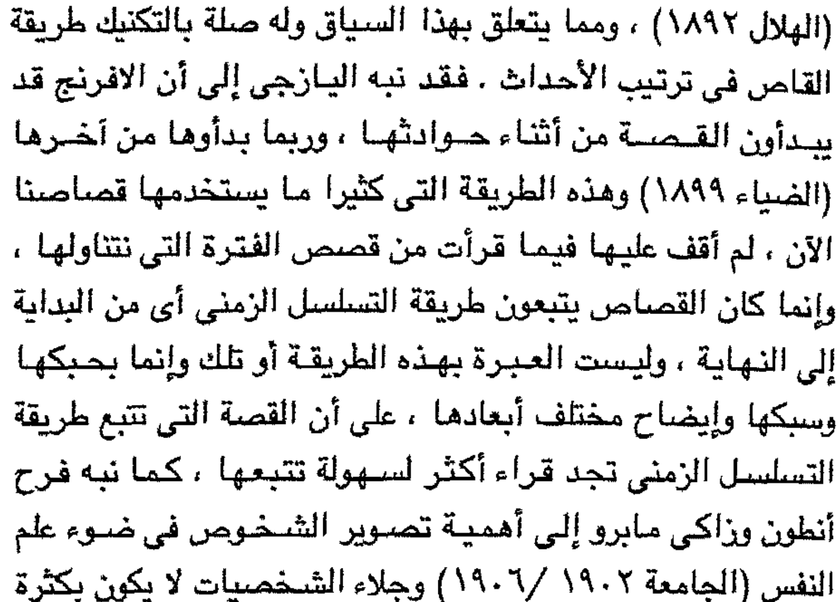
ولم يكن تعاطف النقاد مع القصة يعنى تملق كتابها ، بل كان بينهم نقاش وعراك ، فاتفقوا واختلفوا وأدلوا بآراء مازالت تغرى بالمناقشة ، ومن هذا جدال نشب بينهم حول الروايات التاريخية ومدى صدقها وأهميتها ، فقد رأى يعقوب صنوع وفرح أنطون أن الرواية التاريخية تختلط فيها الحقائق بالأوهام ، وتضطرب فيها حوادث التاريخ وتشوش على عقول القراء، وانتقدت «الموسوعات» (١٨٩٩) القصاص الذين يعتمدون على روايات ضعيفة ، وواضح أن هذه الانتقادات موجهة إلى جرجى زيدان الذى رأى أن الرواية التاريخية تعلم الناس التاريخ وتشوقهم إليه ، وأيد أحمد شوقى الرواية التاريخية ورأى فى مقدمة روايته « دل وتيمان» أن الرواية التاريخية «واسطتها الحقيقة ونظامها الخلق والتخييل» وهى آراء تطول مناقشتها ومع ذلك فإن الرواية التاريخية إذا اعتمدت على التاريخ وتضاءل

فيها الخيال ، بحيث لم تعد مشوشة على العقول ، فإنها والحالة هذه يكون التاريخ أفضل منها ، أما إذا توسعت فى الخيال وتضاءل التاريخ فيها ، فإنها تكون رواية مبتدعة أو شبه مبتدعة ولا يصح أن تكون رواية تاريخية لأن التاريخ لا يبتدع ، وقد تكون مفيدة إذا كانت إسقاطا على عصر المؤلف أو شيئ فيه ، وهى على وجه العموم أقل درجة من الرواية الاجتماعية أو النفسية المتخيلة لاستنادها على حوادث تاريخية .

وهناك روايات هبت عليها عواصف النقد ، مثل رواية «المملوك الشارد» التى انتقدها صروف ورد عليه زيدان (المقتطف ١٨٩٢) ورواية «عذراء الهند» التى أهداها شوقى للخديو عباس ، وانتقدها اليازجى فى «البيان» (١٨٩٧) ورد عليه شكيب أرسلان فى الأهرام ثم رد نقولا بدران على شكيب (البيان ١٨٩٨) كما انتقدها زيدان فى الهلال . وتبادل النقد كل من زيدان والموسوعات (١٨٩٩) حول روايتى عذراء قريش وفتاة غسان ، كما تبادل النقد والرد جرجى زيدان وخليل سعد حول رواية « الأمير مراد» (السنة الأولى من الهلال) ، واعترك صروف وفرح انطون ١٩٠٢ حول ما جاء فى رواية للأخير عن التنويم المغناطيسى ، وعندما قرظت مجلة « أنيس الجليس» (١٩٠٤) رواية «قلب الرجل» للبيبة هاشم رد عليها حنا سركيس .. وهذه المعارك مفعمة بطوائف من النظرات النقدية الناهضة ، والخطرات التلقائية الفورية ، وجميعها يدل على انفعال النقاد بالقصص ، على أن الاهتمام بالقصص لم يأت عن طريق النقد فقط ، وإنما كان بالاستحسان أيضا ، ففى سنة ١٩٠١ نشر فرح انطون فى مجلته الجامعة ملخصا وافيا لرواية «بولس وفرجينى» فتأثر القراء بها ، ومن بينهم الشعراء أحمد الكاشف وأحمد محرم والمنفلوطي الذين امتدحوها ونظموها شعرا ، والأخير عربها فيما بعد تحت عنوان «الفضيلة – بول وفرجينى» . وهذا يبين مدى تجاوب الأدباء مع القصص .

تقنية القصص ومصطلحاتها

ولما كانت القصة فى طور التكوين فإن النقاد تناولوا أبعادا مختلفة فيها تتعلق بتقنيتها وشخوصها وأسلوبها ، فتحدثوا عن تنسيق القصة ووحدة السياق فيها مما يعمل على تماسك وقائعها ، وكان جرجى زيدان يرى أن حوادث الرواية يجب أن تترابط «كالسلسلة لا يمكن الاستغناء عن حلقة واحدة منها بغير أن يختل نظامها»



(الهلال ١٨٩٢) ، ومما يتعلق بهذا السياق وله صلة بالتكنيك طريقة القاص فى ترتيب الأحداث . فقد نبه اليازجى إلى أن الافرنج قد يبدأون القصة من أثناء حوادثها ، وربما بدأوها من آخرها (الضياء ١٨٩٩) وهذه الطريقة التى كثيرا ما يستخدمها قصاصنا الآن ، لم أقف عليها فيما قرأت من قصص الفترة التى نتناولها ، وإنما كان القصاص يتبعون طريقة التسلسل الزمنى أى من البداية إلى النهاية ، وليست العبرة بهذه الطريقة أو تلك وإنما بحبكها وسبكها وإيضاح مختلف أبعادها ، على أن القصة التى تتبع طريقة التسلسل الزمنى تجد قراء أكثر لسهولة تتبعها ، كما نبه فرح أنطون وزاكى مابرو إلى أهمية تصوير الشخوص فى ضوء علم النفس (الجامعة ١٩٠٢ /١٩٠٦) وجلاء الشخصيات لا يكون بكثرة الأوصاف الظاهرة فقط وإنما بتصوير العواطف والتغلغل فى عالم الفؤاد لاستكشاف دفائنه وميوله وبواعثه ، ولم يفت النقاد الحديث فى أسلوب الرواية ، فرأوا أن يكون سهلا مع الاختصار المفيد . هذا وغيره مما ذكروه يظهر أن القصة فى نظر النقاد لم تكن ملهاة أدبية .

فرح انطون

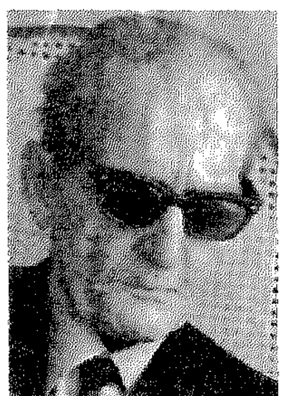


عباس العقاد

والمتتبع لدوريات تلك الفترة يدرك بوضوح أن كتابها وضعوا لهذا الفن مصطلحات مازالت مستخدمة ، فقد استعملوا كلمات «رومان» و«قصة» و«رواية» واستخدموا مصطلح «أقاصيص»، وورد مصطلح «سرد» فى مقدمة رواية «ذات الخدر» التى أهداها مؤلفها سعيد البستانى عام ١٨٨٤ إلى ولى العهد الأمير عباس (الخديو فيما بعد) واستخدم نجيب طراد فى الجامعة ١٩٠٠ «مشاهد . وتشويق» وذكرت الموسوعات مصطلح واقعية عام ١٨٩٩ ، وردد فرح أنطون مصطلح « سياق» هذا فضلا عن تقسيم الروايات إلى تاريخية وواقعية وعلمية وخيالية .. إلى آخره مما يبين جهودهم واجتهاداتهم .

وإذا كان النقد القصصى اليوم أقوى وأكثر مما كان فى الماضى فإن هذا لا يبرر القول أن القصة فى زمن نشأتها لم تكن موضع نقد وعناية ، ومهما كان الناقد حاذقا فإنه لا يصنع قاصا بارعاً . والخلاصة أنه كان هناك قص ، ونقد ، واهتمام ، ولولا كل هذا لتأخر ظهور القصة عندنا عشرات السنين .

■



محمود تيمور



نجيب محفوظ



طه حسين

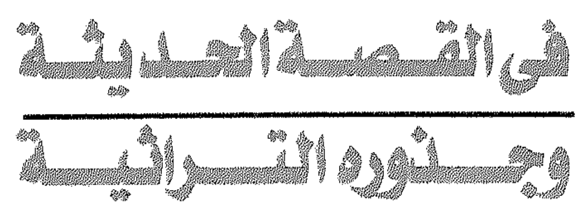




رشاد رشدى





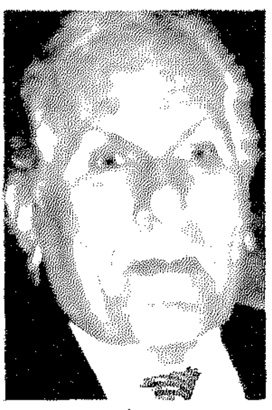


التجريب في القصة الحديثة وجذوره التراثية

بقلم
محمد جبريل

المؤلف المصري - في اجتهاد استاذنا د. سيد كريم - هو المؤلف الحقيقي لأشهر الروائع القصصية الخالدة التي لاتزال نسخها تباع بالملايين منسوبة إلي غيره، مثل سندريلا وعلي بابا ومجنون ليلي وشمشون ودليلة والشاطر حسن والسندباد البحري والكونت دي مونت كريستو.. وغيرها.. ويعترف نوثروب فراي بأن حكاية الأخوين هي مصدر قصة يوسف - سماها خرافة - عندما حاولت زوجة الأخ الأكبر ان تراود أخاه الأصغر عن نفسه، فلما رفض إغواءها ، اتهمته عند أخيه بأنه حاول اغتصابها، ويلاحق الأخ أخاه، وتتنامي الحبكة في توالي الأحداث المتسمة بالعجائبية. ويضيف أ. ل. رانيلا أن للعرب الفضل في إبداع الحكايات بوصفها أدباً.. وبهذا ثبتوا شكل القص الخيالي المصور للحياة (الماضي المشترك بين العرب والغرب ٢٥٦).


يحيى حقى


يوسف ادريس


يوسف الشارونى


فرجينا وولف

لقد واجه الشرق اتهاماً بضعف الخيال، بحيث غاب فن القصة فى التراث العربى. القصة – فى تقدير المستشرقين، وفى تقدير معظم الباحثين العرب أيضا – فن أوروبى مستورد، يمد جذوره فى الثقافة الأوروبية ، فهو تقليد ومحاكاة للقصة في الغرب، وليس له أى جذور فى التراث العربى الذى يعد تراثا فى الدرجة الأولى، فهو مستحدث فى الإبداع العربى، بل إن محمود تيمور يقرر – فى بساطة – أنه لم يعد بيننا خلاف – كذا – على أن الأدب العربى – فى عصوره الخالية – لم يسهم فى القصة إلا بالنزر اليسير الذى لا يسمن ولا يغنى، فالقصة الفنية إذن دخيلة عليه، ناشئة فيه، لا أنساب لها فى الشرق، ولا استمداد لها من أدب العرب» (محمود تيمور: دراسات فى القصة والمسرح – ٦٤).

والحق أنه من المكابرة الساذجة تصور القص العربى الحديث بعيداً عن تقنيات الغرب، لكن من الخطأ البالغ إهمال تقنيات الحكى العربى فى سعينا لتأكيد الهوية القومية لإبداعنا المعاصر، ومن الصعب – فى الوقت نفسه – أن ندعى غياب الصلة بين الأشكال القصصية التراثية، والقصة العربية – والقصة بعامة – فى أحدث معطياتها، ولعلى أذكر بقول جارثيا ماركيز: «من الطبيعى أن يمعنوا – يقصد الغرب الأوروبى – فى قياسنا بالمعايير ذاتها التى يقيسون بها أنفسهم، ولكن عندما نصور وفق نماذج لا تمت إلينا بصلة، فإن ذلك لن يخدم إلا غاية واحدة، هى أن نغدو مجهولين أكثر، وأقل جرأة، وأشد عزلة».

وإذا كان التراث العربى – فى تقدير المستشرقين – يفتقر إلى الخيال والنظرة الفلسفية المتكاملة، والحاسة النقدية، وغياب الحس القصصى والدرامى، إلخ، فلعله من المهم أن نشير إلى قول رينان بأن أوروبا امتلأت بقصص لا حصر لها قدم بها الصليبيون من الشرق العربى، إثر عودتهم إلى بلادهم، ويقول ميشيل : «إذا كانت



أوروبا مدينة بديانتها المسيحية لتعاليم المسيح، فإنها مدينة بأدبها القصصى للعرب»، بل إن البارون «كار دى فو» يؤكد أنه ليس هناك أدب سبق الأدب العربى فى ابتداع فن القصة (محمد مفيد الشوباشى : الأدب ومذاهبه - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠ ص ٣٠).

إن ضعف الخيال والإسراف فى الخيال اتهامان أملتهما الرغبة فى تحقير الملكات الإبداعية لكتاب الشرق، وأن الشرق سيظل دوماً فى موقف التابع بالنسبة للمتبوع، وهو الغرب الأوروبى.

الغريب أن الذين أفادوا من الخيال العربى، ممثلا فى ألف ليلة وليلة وحى بن يقظان ورسالة الغفران والحكايات والسير والطرف، والأخبار العربية، ينتمون إلى ثقافات أوروبية، أو متأثرة بالثقافات الأوروبية ، والثابت - تاريخيا - أن الرومانس - الحكايات الشعبية الأوروبية - تأثرت فى نشأتها بألف ليلة وليلة.

ثمة رأى أن الرواية والقصة القصيرة والمسرحية لم يعرفها العرب إلا بعد اتصالهم بالأدب الأوروبى ، وقد نقل العديد من الدارسين العرب عن المستشرقين - وكم تظلمنا النقلية!! - ما ذهبوا إليه من أن ما عرفه التراث العربى من الابداع القصصى والروائى والمسرحى، لا يعدو مجموعة من الأخبار والطرائف التى تخلو من الحرفية الفنية كما فى الإبداع الغربى، عمق من المشكلة أن المسرحية والقصة والرواية قد اقتصر تناولها على النقد الأوروبى والدراسات الأوروبية، وهو ما يزال قائما - للأسف - حتى الآن. ومع أن نجيب محفوظ هو أحد الكتاب العالميين - باعتراف نوبل! - فإن كل المراجع النقدية الحديثة - قبل نوبل وبعدها، وحتى الآن - تخلو من عمل له، بل ولا تشير إلى أعماله على أى نحو.

إنهم يناقشون إبداعاتهم باعتبارها هى الإبداع الذى ينبغى تناوله، إنها - مع التقاط شذرات من هنا وهناك - هى الإبداع العالمى إطلاقا.

القص تراث عربي

فى القرآن الكريم يقص الله - سبحانه وتعالى - على رسوله الكريم احسن القصص. وكان العرب يبدعون حكاياتهم أو طرفهم أو نوادرهم بعبارة: قال الراوى، يحكى أن، زعموا أن، كان ما كان، إلخ.. وقد أسهمت ألف ليلة وليلة ورسالة الغفران

وحى بن يقظان وغيرها، فى تطور فن القصة - والرواية طبعا - في الغرب، أديب أمريكا اللاتينية ألفريدو كاردنيا بنيا يجد فى ألف ليلة وليلة مخزنا لأكبر عدد من القصص الاسبانية. إنها النبع الثرى المتعدد الروافد للكثير من القصص الواردة فيه - على حد تعبير الكاتب - أى موضوع إلا وتطرقت إليه، بحيث تحولت الكتابات التالية إلى مجرد تقليد، أو نقل غير مبدع، وتبدو إفادة الثقافة المكتوبة بالأسبانية، من الثقافة العربية المعاصرة - إبان حكم المسلمين لشبه الجزيرة الأيبرية - ظاهرة محيرة، مقابلا لاخفاق الثقافة العربية المعاصرة في الإفادة من ذلك التراث، مع أنه يتصل بنحن، وليس بالآخر. إنها ثقافة تعتمد على الدين الإسلامى والتاريخ العربى واللغة العربية، يغيظنى - على سبيل المثال - زهو بعض المبدعين بأنهم قد تأثروا بواقعية ماركيز السحرية، بينما أعلن الكاتب الكولومبى أنه قد تأثر بغرائبية ألف ليلة وليلة!..

يقول محمد فهمى عبداللطيف: «كان من الطبيعى أن يتميز القاص المصرى فى هذا المجتمع الخصيب، وأن يكون محصوله فى ذلك وافراً، ونتاجه وافياً.. فكان أبرز وأوفى من أجدى فى هذه الناحية، وما ألف ليلة وليلة، وقصة الهلالية، وقصة الظاهر بيبرس، وقصة سيف بن ذى يزن، وغيرها من القصص، إلا من فيض براعة القصاصين المصريين، وقدرتهم على التحليل والافاضة، سواء ما ابتدعوه منها ابتداعا، أو ما مدوا فيه بالتزيد والإغراق والاختراع والاختلاق، وإذا كان هؤلاء القصاصون قد تناولوا ألف ليلة وليلة نصاً عن الفارسية، مدوا فى فروعه، وأساسا ارتفعوا ببنائه، فإنهم كذلك فى قصة الهلالية تناولوها عن الأصل التاريخى، وأخذوها مما جرى فى رحلة أولئك الأعراب إلى مصر، ثم إلى بلاد افريقية، وما وقع لهم من الحروب والأحداث، وانتقلوا بذلك الأصل التاريخى إلى ميدان الخيال الفسيح (أبوزيد الهلالى ٥٩).

ما نستطيع الاطمئنان إليه أن القصة العربية لها جذورها الممتدة فى تربة التراث.. وهى تختلف - بالتأكيد - عن تربة الترجمة التى أعطت لإبداعنا ثماراً يصعب التقليل من قيمتها.

وإذا كان محمود طاهر لاشين قد أعلن أنه « لا ميراث لقصاصينا فى الأدب



العربى (المجلة الجديدة - يونيو ١٩٣١) فإن مجرد التنقيب فى التراث العربى الأدبى القديم، سعياً لاكتشاف شكل فنى يمكن نسبته إلى القصة والرواية، اتساقا مع شكل القصة والرواية الغربية.. ذلك التنقيب لم يكن يخلو من نظرة أحادية متعسفة، فالقصة - فى تقدير هؤلاء، وفى سعيهم لاكتشاف ملامحها فى الأدب العربى القديم، هى القصة فى الغرب من حيث البنية والحبكة والتكثيف وغيرها، وحين اهملت إبداعات الغرب القصصية والروائية تلك الخصائص، فإن محاولاتنا الإبداعية - والنقدية - قد أهملتها كذلك!

القصة بين اليوم والأمس

إذن فالاتهام الذى يواجهه التراث القصصى العربى متمثلا فى القصة والحكاية والنادرة وغيرها، أنه لا يشابه القصة كما نعرفها اليوم هذا الاتهام يحتاج إلى مراجعة شديدة وبالذات فى ضوء اتساع مساحة الأشكال الفنية فى القصة الحديثة بصرف النظر عن الثقافة التى تصدر عنها. والقول بأن زينب هى بداية الرواية المصرية الحديثة يحتاج الآن كذلك إلى مراجعة لا لأن الروايات التى سبقتها حوالى ١٣٠ رواية لم تخضع لتقويم من أى نوع بحيث تستحق زينب الصفة التى وسمها بها يحيى حقى وآخرون، لا لذلك السبب فحسب، وإنما لأن فنية الرواية بالمعنى التقليدى لم تعد واردة وإذا كان من السهل تقبل الرأى بأن الرياح التى تهب من أوروبا حملت - فى أوائل القرن العشرين - بذرة غريبة على المجتمع المصرى، هى بذرة القصة (فجر القصة المصرية - الطبعة الثانية - ٢١) فإن ذلك الرأى يحتاج - فى ضوء المعايير الحالية لفن القصة - إلى إعادة نظر. نعم، كانت القصة بذرة غريبة على المجتمع المصرى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، القصة بقواعدها الكلاسيكية، بخصائصها الموباسانية من بداية ووسط ولحظة تنوير وهى قواعد وخصائص تجاوزتها التيارات والاتجاهات الفنية الحديثة بصورة مؤكدة. لم تعد صرامة البداية والذروة ولحظة التنوير - كما أوردها رشاد رشدى فى كتابه عن فن القصة القصيرة - مطلوبة. ما بعد الحداثة تذهب إلى أن «كل نص جديد إنما يكتب مكان نص أقدم». بل إن بورخيس يحرص على التأكيد أنه لا أحد يمكنه أن يدعى الأصالة فى الأدب كل الكتاب - فى تقديره - ناسخون ومترجمون ومفسرون

للنماذج الأصلية المتوالية بتوالى الإبداعات فى توالى العصور.

السؤال الذى يطرح نفسه: كيف تعتمد محاولات توظيف التراث العربى فنا قصصيا، ولا تعتمد التراث العربى نفسه – بكل ما يشتمل عليه من فيض حكائى وأشكال قصصية – فنا قصصيا؟! وعلى سبيل المثال، فهل تختلف مشاهد الواقعية السحرية عن مشهد الباب المغلق؟.. يصر الرجل على فتحه لرؤية ما وراءه. يجد حصانا يفك قيده ويمتطيه. يطير الحصان وينزل به على سطح، ويضرب بذيله فيتلف عينه اليسرى؟! ألا نجد فى ذلك المشهد – وسواه – مدخلا لواقعية أمريكا اللاتينية السحرية؟!

لقد لامست تخوم القصة أجناسا أدبية وفنية أخرى واختلطت بها وتشابكت وانتسبت جميعها إلى الإبداع القصصى، بحيث انتفى التحديد الصارم لماهية القصة. بل إن صديقى عبدالله أبو هيف يذهب إلى أن تحديد عناصر القصة لا يعنى الركون إلى نظرية الأجناس الأدبية، لأن فن القصة أنجب أجناسا متعددة فى القديم والحديث (عبدالله أبو هيف: القصة العربية الحديثة والغرب – منشورات اتحاد الكتاب العرب بدمشق – ٣٨) وكما يشير كونديرا، فإن معظم الروايات الحديثة بالمعنى الزمنى وليس بمعنى الحداثة تقف خارج دنيا الرواية لقد أفادت الرواية من تقنية المدركات الحسية والبصرية المونتاج والتبئير، والزاوية القريبة، والمزج، والقطع، والتناوب، والاسترجاع، وحذف علامات الترقيم، والاستغناء عن أدوات الواصل، وتبادلت الرواية – والسينما بعامة – التأثر والتأثير. وثمة الاعترافات المصاغة فى شكل روائى، والسير الذاتية للمبدعين، والمشكلات والقضايا الأخرى التى تنسب إلى الرواية بالشكل وحده، وثمة القصة المقال، والقصة السرد، والقصة اللوحة والقصة الرسالة، والقصة الخاطرة، والقصة الرحلة، إلخ. وثمة تعاظم دور المتلقى بديلا لسلبية القراءة، وتداخل السرد بالمونولوج الداخلى، والمزج بين الواقع والخيال، والحسية والأسطورية، وأنسنة الحيوان والأشياء، طرأ على نظرية القصة عموما ما بدل من النظرة الثابتة إليها، كالشكلانية والبنيوية والتكوينية واللسانية وغيرها. لذلك فإنى أجد فيما بعد الحداثة ما يحمله التراث العربى، فأنسب إلى القصة والرواية ما تناثر فى كتب العرب من الخرافة، والتاريخ، والسيرة، والحكاية، والخطابة، والتهذيب،

والشعبية، والخبر، والطرفة، والملحة، والرحلة، والحلم، وغيرها من فنون السرد العربى. «ثمن زوجة» قصة لنجيب محفوظ نشرها ضمن مجموعته همس الجنون تتحدث عن الزوج الذى يضبط زوجته فى موقف الخائنة، ويدبر حيلة يدفع بها الزوجة إلى الانتحار دون أن يكون هو المتسبب بصورة معلنة هذه القصة تذكرنا بحكايات العرب ونوادرهم وأخبارهم القصة لا تستدعى التراث ولا توظفه لكن ملامح التراث تبدو واضحة بما لا يخفى. أنت تستطيع أن تتعرف إلى حيل الأزواج فى كشف خيانات زوجاتهم فى الكثير من حكايات العرب ونوادرهم ولو أننا بدلنا الأسماء والمسميات وتحول البيت إلى خيمة والريال إلى درهم فستطالعنا حكاية ذكية من تراثنا العربى. أذكر بالحكاية التى جاءت فى وفيات الأعيان عن حب أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان وزوجة الخليفة الوليد بن عبدالملك لوضاح اليمن الشاعر وأخفته - ذات يوم - فى صندوق بعد أن دخل عليها الخليفة فجأة. وفطن الوليد ما حدث، فدعا الخدم وأمرهم بحمل الصندوق إلى شفير بئر، ثم قال له: يا صاحب الصندوق، إنه بلغنا شئ، إن كان حقا فقد دفناك ودفنا ذكرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلا فإنما دفنا الخشب، ثم قذف الخدم بالصندوق فى البئر، وأهالوا عليه التراب، وسويت الأرض فما رؤى الوضاح بعد ذلك اليوم، ولا أبصرت أم البنين فى وجه الوليد غضبا، حتى فرق الموت بينهما لقد تعمد كل من الزوج والخليفة ألا يشيرا إلى ذلك الكابوس - بعد انقضائه - بتلميح أو تصريح، ولا ذكره بخير أو شر، ولا أجرى بسببه تحقيقا، ولا أثار عنه سؤالا، وطالع الزوجة بوجه هادئ كأنه شخص آخر غير الزوج المطعون. استعان حمدى فى ثمن زوجة بهدوئه، وخطط للانتقام دون أن يصارح أحدا بما ينوى فعله. وهو ما فعله الخليفة. وكان الريال مساويا للصندوق الذى اختفى فيه الشاب العشيق، وإن اختلفت النهاية بين القصة والحكاية، فقد قتل العشيق فى الحكاية - الأدق أنه قبل القتل! - أى أنه انتحر - بينما انتحرت الزوجة فى القصة (محمد جبريل: عود على بدء - فتوة العطوف لنجيب محفوظ - مكتبة مصر) لا تباين فى دلالات العملين وإن اختلفت فنية التناول.

من الصعب أن تدعى غياب الصلة بين الأشكال القصصية التراثية، والقصة العربية - بل والقصة بعامة - فى أحدث معطياتها. القول بأن الصياغة العربية

تخالف الصياغة التى تضيف إلى فنية القصة – وتمثل فيها بعدا أساسيا.. هذا القول يبدو خافت الصوت إلى حد التلاشى فى ضوء التيارات الفنية الأوروبية الحديثة نفسها، كاللاقصة، واللاحكاية، وتوظيف التراث إلخ. ولعلى أعيد التأكيد على أن القصة الحديثة لم يعد لها إطار ولا مدى محدد. ثمة قصيدة تسرد قصة، وثمة قصة هى أقرب إلى قصيدة النثر، وبعض المقالات تكتمل فيها مقومات القصة القصيرة بل إن بعض قصص بورخيس المتفوقة ليست إلا عروض كتب أو مقالات نقدية، وعلى سبيل المثال فإن إبداعات بورخيس تعاملت مع التراث الإنسانى باعتباره تراثه القومى أعلن أن تراثه هو ثقافة العالم فلا يظل حبيسا داخل الحدود الضيقة لمدينة بذاتها ولا لبلد ذاته، ولا لقارة محددة. إبداعات بورخيس تطالعنا بالكثير من الاقتباسات والمقارنات والإشارات لم يحبس بورخيس قراءاته ولا أفكاره ولا إبداعه فى سجن التراث القومى لبلاده مثلما فعل الأوروبيون انطلق فى كتاباته إلى الآفاق الثقافية الرحبة. استوعب أساطير اسكندنافيا وسير الشرق العربى، وشعر الأنجلو ساكسون وفلسفة الألمان، وأدب العصر الذهبى بأسبانيا، وشعر الإنجليز، وشعر هوميروس ودانتى وضفر فى أعماله آيات القرآن وأحاديث الرسول، وليالى ألف ليلة وليلة والعديد من الطرف والنوادر والحكايات والإشارات الثقافية مما يزخر به التراث العربى الإبداعى العربى، بالإضافة – طبعا – إلى التراث الإبداعى الغربى كنثر ستيفنسون وحكايات الساجا الآيسلندية وغيرها. ثمة تكامل فى إبداع بورخيس بين الشعر والقصة القصيرة والمقال ذلك كله يصب فى بوتقة واحدة، من الصعب أن تميز فيها بين جنس فنى وآخر تداخلت مستويات القص لم يعد الفضاء الروائى أو القصصى ينتهى بتلك الحدود الحاسمة التى كان يشترطها النقد قبل نشوء الاتجاهات الفنية والنقدية الحديثة. تشابكت المسميات والصفات، واختلطت..

باختصار فإنى أومن بالتراث، بوعيه وجدواه، وإمكانية استعادته واستمراره تواصلا مع المعطيات المعاصرة والحديثة وكما يقول أندريه موروا، فإن كل قارئ من قراء القرن العشرين – أضيف: الحادى والعشرين – يعيد – لا إراديا – كتابة روائع القرون الماضية بطريقته الخاصة. ■



محمد فريد أبو حديد

الأديب والإنسان

بقلم
صافى ناز كاظم

في ١٨ مايو القادم تأتي إن شاء الله ذكراك الـ ٣٥. وأنا لست في حاجة إلى مناسبة لكي أذكرك وأحتفل. مستبد بي دائماً، الشوق الهائل للحديث والحوار معك. أضعت ياخالي هذه الفرصة حين كانت مواتية بسبب أنني كنت صغيرة، وكنت أنت مهاباً. أخذ إخوتي هذه الفرصة وكنت أنا الأولي بها.







د. محمد مندور

في طفولتي وصباي ومطلع شبابي، لم أكن شخصية مقتحمة مثل شقيقتي فاطمة التي كنت تحبها وتضحك لطرافة كل ماتقول وتفعل. كنت أتوارى خلفها وأحسد جرأتها على رفع الكلفة معك، وأنت الشقيق لوالدتي، التي لم ترفع هي نفسها الكلفة معك أبداً. كانت تحبك في حدب يقترب من التقديس، وتكلمك بأصول جيلها في احترام الأخت الصغرى للشقيق الأكبر . حين أسترجع طفولتي، ومتعة الفسحة في الأعياد وشم النسيم، التي تكون بالذهاب من بيتنا في العباسية إلى بيتك الجميل بضاحية الزيتون، أسترجع شمساً وأريج حديقة. بوابة حديدية مزركشة، وممرات رملية صفراء بين أحواض زرع منسقة ، ونخلا، وشجر برتقال ، ونارنج، وجوافة، ومانجو، ورائحة تمرحنة، وزهور بانسيه، وفم السبع، وقرنفل، وورد، وفل، وياسمين. أشم رائحة خرج نعناع وماء زهر البرتقال ، ومربى النارنج صناعة خالتي الكبرى نعيمة هانم، وعجوة مقلية بالزبد، اختصاص جدتي التي تحكي لنا الحكايات الخلابة . نقطف المانجو الخضراء وندفنها في الرمل حتى تنضج سريعاً . نرجو أمي لنبيت حتى نصحو مبكراً في شم النسيم وأنصت لصوت اليمام. في الحديقة نصخب. نحن جميعاً الأطفال أولادك. أحاول أن أتعلم ركوب الدراجة فأنكفىء . أعود . أنكفىء . أعود. لا أتعلمها أبداً، وأنت تضحك مطلا علينا من خلف زجاج نافذة غرفة مكتبك في الطابق الأول الذي نصعد إليه من الحديقة بسلالم رخامية تنتهي إلى «ڤراندة» فسيحة بها باب يؤدي إلى البهو الرئيسي للطابق، وآخر إلى غرفة مكتبك التي كانت تبدو لي ساحرة بمقاعدها الجلدية الوثيرة بنية اللون ومكتباتها المكدسة التي أعترف لك الآن أنني مازلت أحتفظ ببعض كتبها التي لم أردها بعد استعارتها، وعليها إهداءات أصدقائك إليك التي منها : «اليوم خمر» مسرحية من تأليف محمود تيمور



وإهداؤها يقول : «لصاحب العزة الأستاذ الكبير محمد بك فريد أبو حديد، رمز مودة وإعزاز وإجلال ، المخلص محمود تيمور، ١٩٤٩»، و«سلطان الظلام» لتوفيق الحكيم، «إلى صديقي الأستاذ محمد فريد أبو حديد، تحيتي وتقديري، توفيق الحكيم ١٩٤١/٤/٣٠». أسترق النظر إليك وأنت تجلس إلى مكتبك مشغولاً وظهرك إلى النافذة التي كنت تطل منها علينا ونحن نلعب بالحديقة وأمامك تجلس وادعة زوجتك العزيزة، أيلة نفيسة، جبينك يلمع وكشكشات تتجمع عند ركن كل عين . خيوط فضية تبرق في شعرك، شيب غزير قبل الأوان - مثلما كانت أمي تقول عن شيبها وشيبك. صحيح ، فلقد كنت وقتها - أعوام الأربعينيات أصغر من عمري أنا الآن، ولا شيب عندي . ألاحظ شبها كبيراً بيني وبينك. جانب وجهي عندما أضحك . حاولت ياخالي دائماً أن أتعلم من عينيك كيف أنظر في حق بقوة وجسارة. ياخالي: كيف كيف الحق صعب هكذا؟. أدبك قال لي : الحق صعب ومشواره يستحق الصبر، وليس أمامنا اختيار سواه .

★★★

عدت أراجع روايتك للأطفال «عمرون شاه»، وأنا مازلت أتنفس تلقفي لها ساخنة خارجة لتوها من المطبعة عام ١٩٤٧ وعمري عشر سنوات، ثم زميلتها «كريم الدين البغدادي» من مجموعة «أولادنا» التي كنت تشرف على إصدارها للأولاد والبنات في دار المعارف . أول روايتين عربيتين في أدب الأطفال . «كريم الدين» عند شعب «سفروت»، الجزيرة ذات الحصى الجوهر. «كريم الدين» ينحني إلى الأرض، يمد يده ويقبض قبضة . تضحك «مريوت» ويسخر الحكيم أرمنا : «الإنسان يعجبه الحصى اللامع..» ويخجل «كريم الدين» من طمعه . أكتب إليك من جزيرتي بنيويورك عام ١٩٦٤ : «ياخالي العظيم، لست في جزيرة سفروت، والحصى هنا جواهر لها شكل مختلف: غسالات وثلاجات يحملها العائدون إلى بلادنا التي تمر بأزمة العملة الصعبة..»، «كريم الدين» أحمق، فما فائدة ثرائه في بغداده بعد أن انحنى وسخر منه شعب «سفروت»؟.

اخترت لمجموعة أولادنا شعار : «أولادنا أكبادنا تمشي على الأرض» . وكنت أقول : أنا كبد خالي . وجهك دائماً بعيني يضحك خلف زجاج نافذة غرفة مكتبك المطلة على الحديقة . البلح رطب: «ياأولاد شباك الطابق الثاني يدني أيديكم من البلح». بعد فوزك بجائزة الدولة التقديرية في الآدب لعام ١٩٦٤، تكتب إلى لطيفا حنونا في ١٩٦٤/١١/١٨: «بنتي العزيزة صافي.. بالأمس جاءني تلغراف تهنئتك فشعرت فوراً بأنني برغم عدم كتابتي إليكم لا أزال في فكركم . وقد



كنت أنت وإخوتك وأولادى فى ذهنى عندما سئلت بالتليفزيون أمس مساء عن الأمنية التى أحبها بعد أن نلت أكبر جائزة فى الأدب، فقلت : بقيت لى أمنية واحدة، فقد كرمتنى الدولة من أجل مؤلفاتى وأتمنى أن تكرم ذكراى من بعدى حين يقوم أبنائى بأعمال يستحقون من أجلها التكريم فيكون تكريمهم تكريماً لذكراى. لقد كنت أنت مع أبنائى وأنا أقول ذلك. فأنا أتمنى ياصافى أن تكونى فى وقت من الأوقات، قريباً ، موضع تكريم الدولة وموضع تكريم المجتمع كله، وأن تكونى عند ذلك مازلت تذكريننى..»

★★★

ياخالى، كرمتنى الدولة بطريقتها الخاصة حين اعتقلتنى أعوام ١٩٧٣ و١٩٧٥ و١٩٨١ لأننى غضبت للحق والحقوق والحرية ، ولأننى فى الصحافة لم أشأ أن أكون أبداً «حمادة الأصفر»، نموذج الفساد الذى قدمته فى روايتك الرائعة «أنا الشعب» . أذكرك ياخالى على الدوام لأننى حرصت على تحقيق أمنيتك بأن أكون بذاتى «أنا الشعب»، مع الشعب وفى خندقه فى السراء والضراء وحين البأس.

★★★

كنت حريصة أن يعرف الناس، فى كل وقت وكل مناسبة ، أنك خالى رغم أننى قلت فى رسالة بعثتها إليك ١١/١٠/١٩٦٥ - أثناء إقامتى فى نيويورك : «بغض النظر عن أننى ابنة أختك، أنا من عشاق فنك جداً، وليس هناك حرف واحد كتبته حضرتك إلا وقرأته بلذة وتجاوب شديد ، وكثيراً ماتمنيت لو لم تكن خالى لكى لا أتهم بالتحيز ...»، كانت تلك أمنية عبيطة منى، فما الضرر فى أن أكون متحيزة لمن هو جدير حقا بالانحياز إليه؟ ألا أكون بهذا التحيز الموضوعى أفضل وأشد أمانة ممن لم يخجلوا من التعصب ضدك ولو بخيانة مسئولية النقد وصدق التقييم ودقة الرصد لتاريخ أدبنا العربى فى مسيرته على مدار القرن العشرين؟. كنت قد قابلت الناقد الدكتور على الراعى فى نيويورك حين مر بها زائراً نهاية عام ١٩٦٥ ، وأهدانى كتابه دراسات فى تاريخ الرواية المصرية ، وحين لم أجد به أى ذكر لدورك الرائد فى فن الرواية العربية منذ عام ١٩٢٠، سألته : أين أبو حديد فى كتابك يادكتور على؟، فرد على الفور: لا مكان له فى كتابى فأنا لا أحبه . قلت ببرود : كان المفروض أن يكون عنوان كتابك إذن : تاريخ الرواية للروائيين الذين أحبهم. وفقد على الراعى مصداقيته عندى، ولم تكن كراهيته لك هى الشاهد الوحيد على ضآلته النقدية فلقد ظل إلى نهاية عمره يفتقد العدل فى ميزان أحكامه على الأعمال والعاملين ، ولقد بلغت به الجرأة فى الظلم وهو يكتب



شهادته عن رواد الإذاعة المصرية أن يتجاهل تماماً عبقرى الفن الإذاعى على مدار نصف قرن «بابا شارو» محمد محمود شعبان . ووقتها كان بابا شارو يقرأ بالأهرام مايكتبه على الراعى ويصفق تعجباً بيديه قائلاً : هذا الذى مر بالإذاعة كالشبح يتصور أنه يمحونى بعدم ذكر دورى الإذاعى الذى لم ينقطع على مدى نصف قرن؟. لكن هذا التعصب الجائر على الحقيقة والمنهج والالتزام الأمين لم يكن سمة على الراعى وحده، فلقد شمل مع الأسف العديد من رعية الراعى. بل لعل الناقد الدكتور محمد مندور يكون الزعيم المؤصل لهذا التوجه والاتجاه الذى بدا كأنه تعليمات لايجوز للأتباع كسرها . ولقد زودنى الباحث المنقب الأمين والناقد العفيف الأستاذ نبيل فرج بصورة من مقال لك - لم أكن قد قرأته من قبل - نشر بجريدة الجمهورية بتاريخ ١٩٦٢/٢/١٠ - (أثناء غيابى فى سنواتى بالولايات المتحدة من ١٩٦٠ - ١٩٦٦)، - تحت عنوان : «عافاك الله يادكتور» ، ومعه تنويه الجريدة: «فريد أبو حديد يرد على الدكتور مندور : هاجم الدكتور محمد مندور فكرة منح جائزة الدولة للأستاذ محمد فريد أبو حديد الذى يرد فى هذا المقال على الهجوم». وكانت تهمة مندور ضدك أنك من «غير التقدميين»، أو كما عبرت أنت عنها فى سماحة وألم : «الطعن ... على العبد الفقير محمد فريد أبو حديد ولا فخر ... أننى قد غلب علىّ الاتجاه التاريخى وأنه لم يتبين لمؤلفاتى هدفا معيناً كالتعبير عن مشكلة تشغل قومى أو مجتمعى أو مشكلة إنسانية عامة نشارك فيها غيرنا من البشر . هذا ماقاله الدكتور الكاتب عنى بغير مقدمات ولا مبررات، ولا يرى نفسه مسئولاً عما يكتب ، حتى ليخيل إلى أنه قد نسى الأوضاع الحاضرة وأننا لم نعد فى عهد يملك فيه الأفراد صحفهم يصولون فيها ويجولون بغير شعور بالمسئولية أمام الحقائق...»، وبصبر العالم التربوى ، وسعة صدر الحكيم المسئول عن توعية الجاهل والأخذ بيد المتعثر فى الفهم، وإرشاد الذى يحكم على مالم يقرأ، لم تجد ياخالى الحبيب بأساً من أن تقول للناقد «الكبير» بصوت يمتلىء بالمودة والرحمة : «عافاك الله يادكتور .... لقد أشاد الدكتور - بحق - بما كان لمجلة الرسالة ووحيها من أثر بالغ فى نشر الثقافة ، ولست أفاخر حين أقول إننى كنت من كتاب الرسالة الأوائل منذ نشأتها فى لجنة التأليف والترجمة والنشر إلى آخر عهدها . وقد أغفل الدكتور ذكر مجلة الثقافة ، ولو كان هواه معى لقال عنى مثلما قال عن صديقى الأستاذ الزيات، ولم تكن مجلة الثقافة أقل قدراً من الرسالة، فكلتاهما كانت نابعة عن فكرة

واحدة وترمى إلى غرض واحد وهو نشر الثقافة ، وتعبئة شعور أبناء الأمة نحو الحرية بأوسع معانيها ، وإيقاظ الوعى إلى مجد الوطن فى ماضيه الكريم، وحفز الهمم إلى الجهاد فى سبيل تحقيق مستقبل كريم جدير به . على أننى أتنازل للدكتور مندور عن كل فضل فى تحرير الرسالة أو الثقافة ، وأكتفى بتوجيه نظره الكريم إلى مؤلفاتى التى أخشى أن أتهمه بالظلم الفادح لو أننى قلت إنه قرأها ، ولو أننى التمست له العذر بأنه لم يقرأها ، فإن تهمته تكون أشد لأنه يكون فى موضع الذى يتحدث عما لايعرف . لقد نشرت فى شبابى الأول بعض قصص منها قصة «ابنة المملوك» التاريخية وقد أحييت فيها مهد جهاد شعب مصر فى مطالع القرن التاسع عشر، ووجهت الأنظار، لأول مرة فيما أعتقد إلى جهاد شعب مصر على مر الزمن إلى أن هب فى ثورته الكبرى ضد الحكم الفرنسى وضد الطغيان التركى بزعامة السيد عمر مكرم. أهذه قصة تاريخية يخشى الدكتور أن تكون غايتى منها مجرد بعث بعض خطابات الماضى؟. إذا كان للدكتور عذر فى أنه لم يقرأ تلك القصة لأنها صدرت فى وقت لم يدركه – (صدرت رواية ابنة المملوك فى طبعتها الأولى عام ١٩٢٦) – فإنه بغير شك أدرك الوقت الذى نشرت فيه كتاب «سيرة صلاح الدين الأيوبى وعصره»، وكتاب «سيرة السيد عمر مكرم». وإنه لمما يرضينى فى شيخوختى أن أتذكر ما نالنى من الغضب الشديد من طغاة العهد الماضى حين نشرت «سيرة السيد عمر مكرم» لما كان لهذا الكتاب من أثر فى إثارة الشعور القومى والاعتزاز بماضى جهاد الأمة المصرية فى سبيل الاستقلال والحرية ....

وأعود فأسأل الدكتور هل قرأ قصتى «زنوبيا» ، و«عنترة»، وهل لم يجد فيهما سوى مجرد بعث بعض قطاعات من الماضى؟. هل قرأ قصة «الوعاء المرمرى»، وهل وجد فى موقف سيف بن ذى يزن ضد الاستعمار وضد استعباد قومه مجرد بعث بعض قطاعات الماضى؟ وأسأله هل قرأ مجموعة القصص التاريخية «مع الزمان» وهل وجدها حقاً بعث بعض قطاعات الماضى؟. ثم مارأيه فى قصة «عبد الشيطان» ... ألم ير فى هذه القصة شيئاً أو رائحة نزعة تقدمية أو ثقافة ذات نزعة إنسانية عادلة متحررة؟ وأسأل الدكتور هل قرأ القصة ... التى نشرت فى سلسلة إقرأ ذات القروش الخمسة؟. ألم يجد مايسترعى نظره فى أعيان جامبولاند والأعلام التى كانت تخفق فوق بيوتهم لتدل على قدور الذهب التى يملكونها؟. ألم يجد شيئاً يسترعى نظره فى صورة جحا المجاهد فى تحرير قومه من طغيان هؤلاء الأعيان .... أخشى أن أقول مايدور فى نفسى



فأظلم الدكتور كما ظلمنى ، ولكن الظن الذى لا أستطيع إخفاءه هو أن الدكتور كان عند تأليفى لذلك الكتاب أحد الأعيان الذين أغضبتهم .... ثم أسأل بعد ذلك هل قرأ الدكتور قصة «أزهار الشوك»، وهى حديثة العهد منا اليوم. ألم يجد فيها مشكلة اجتماعية أو مشكلة إنسانية تحرك النفوس؟.

إنها قصة حديثة لا صلة لها بالتاريخ الذى قد يتعذر إدراك ماتحمل قصصه من المعانى . ولست أحب أن أكون مقصراً فى حق الدكتور مندور فإنه ذكر قصتى «أنا الشعب» بكلمة عابرة وهذه لفتة كريمة تستحق منى الشكر على مجرد ذكره لها . غير أنى أضيف إليها أننى لى بعدها كتابى «أمتنا العربية»، ويستطيع أن يقرأه إذا شاء ، كما أننى ترجمت قصة «ماكبث» فى شعر مرسل، وهى ترجمة جديرة بنقده إذا شاء أن يكون جاداً أو كلف نفسه عناء القراءة والفحص والتقييم . لا يادكتور ما هكذا يكون حديث المسئول عما يقول. إنك يادكتور حين تحاول أن تجردنى من أن يكون لى فى مؤلفاتى اتجاه تقدمى متبلور أو راسخ فى فكرى وإحساسى، وحين تحاول أن تشك فى جهادى الأدبى فى سبيل حرية بلادى وقومى، وفى سبيل إعلاء شأن عروبتى منذ أكثر من أربعين عاماً حتى اليوم ، إنك حين تفعل ذلك ترتكب ظلماً فادحاً ، لا فى حقى وحدى بل فى حق الحقيقة وفى .... وإنى أختتم كلمتى إليك بقول الشاعر القديم لرجل أهمل فى حق إبله ، كما تهمل أنت فى حق قلمك إذ قال:

أوردها سعد وسعد مُشْتَمِلْ

ما هكذا ياسعد تورد الإبل»

★★★

كان لابد ياخالى أن أستعيد من مقالك هذا المقتطف لأستطعم الذوق فى الغضب والدماثة فى التصحيح ولفت النظر ، فهذا أنت وهذا أسلوبك : كاتب قريب ، حميم، مبتسم ، دمث الخلق ، حريص أشد الحرص على قارئه، تخاف عليه من السأم ومن الاستفزاز ومن الجهامة ومن الإرهاق فى السير الطويل ، ومن مشقة الصعود وعثرات الهبوط . تأخذ قارئك باللين مسحوباً إلى أعلى مع المكسب والانتصار، وتمسكه برفق عند منحدرات الحزن فى الخسارة أو الخيبة أو الخيانة. أدواتك الفنية فى رواياتك – التى أسميتها فى ردك على محمد مندور «قصصا» – الوصف: مشاهد الطبيعة والعمائر والأرض والنفس والناس . ومن ركائزك التحليل : الأخبار والروايات والأحداث وللمة المعلومة من أصلها وفرعها وإلباسها من الواقع والخيال رداءها الملائم . بلغت ذروتك الفنية فى رواياتك «زنوبيا: ملكة تدمر» – (١٩٤٠) – وكانت من أحب مؤلفاتك إليك رغم أنك لم

تزر تدمر لكنك كنت أول من بعث تلك الملكة الباسلة إلى نبض الحياة، (ولقد زرتها أنا عام ١٩٦٩ فى رحلة طريفة مع الشاعرين نجيب سرور وممدوح عدوان)، و«الملك الضليل: امرؤ القيس» - (١٩٤٢) - و«المهلهل سيد ربيعة» - (١٩٤٣) - و«أبو الفوارس : عنترة بن شداد» - (١٩٤٥) - و«أنا الشعب» - (١٩٥٣) - وهى آخر ماكتبت من روايات . غير أننى أحببت روايتك «إبنة المملوك» - (صدرت ١٩٢٦) - ربما لأننى أكاد أميل إلى القطع بأنك قد حققت فيها الريادة فى إنجاز «الرواية العربية الأولى» التى تمثل فيها النضج الفنى والأدبى : بناء ولغة وموضوعاً ورمزاً وهدفا وموقفا شجاعاً. رفعت به السيد عمر مكرم وجهاد الشعب المصرى فوق هامة الداهية محمد على بين سنتى ١٨٠٤ و١٨٠٧.

★★★

لعلك ياخالى لن تندهش حين تعلم أن مهزلة اختيار «أفضل مائة رواية عربية فى القرن العشرين» قد حافظت على تقليد التعصب والتحزب العقائدى والحزبى والشللى والنفعى ، الذى يبدو أنه قد ترسخ كقاعدة فاسدة لتدمير أى أمل فى بناء حس نقدى سليم ، ولسحب الثقة فى مصداقية أحكام المحكمين ومعايير المعيرين، وعلى ذلك ، ياأيها الأب الحقيقى للريادة الروائية الناضجة فى الأدب العربى، فقد تم اسقاط اسمك الجليل من القائمة التى تدعى التحدث الكاذب بلسان نقاد الأمة وأدبائها . ماذا أقول لك بعد ياسيدى ومعلمى ورائدى يافريد؟ أقول، شاكية إليك ، ياللخجل أم ياللعار، أم أصمت وأضم تلك القائمة المزيفة إلى آلام ونكبات أمتك العربية التى صارت تتعجب لو لم تستقبل يومها بأخبار الكوارث.

★★★

وجهك رغم كل شىء يطالعنى ضاحكاً يروى من آلام جحا هذا الهم : «.. عرف عجيب ابنى بالنبوغ فى الأدب بين لداته وتمكن منه الوهم فاعتقد أن الله قد وهب له من فضله مالم يهبه لسواه، وكثيراً ما أفضى إلى بأمله فى أن يكون كبير الأدباء فى جيله فتأخذنى الشفقة عليه فأهز رأسى صامتا .... فليمض كما شاء الله له ولا حيلة لى فى صرفه عن وهمه، والزمن وحده كفيل بحل مشكلات الحياة ... ولست أدرى من ذا الذى يلقى مثل تلك الأوهام فى عقول هؤلاء المساكين ، أم لعلها تنبت فى الرؤوس بغير أن يلقى أحد بذورها ، كما تنبت الحشائش على جانبى نهر ماهوش ....»

★★★

تنصحنى بالضحك، وأنا لأجلك ألتمس الضحك، لأننى عندما أضحك أرى جانب وجهى يشبهك.

★★★

طيب الله ثراك. ■

شخصيات لا تنسى

حديث مستطرد

مع المؤرخ

عبد الرحمن الرافعي

بقلم

وديع فلسطين

علي الرغم من الشهرة الطاغية إلي اليوم التي يتمتع بها المؤرخ عبد الرحمن الرافعي بك (١٨٨٩ - ١٩٦٦) بفضل كتبه التاريخية التي تسجل تاريخ مصر منذ العهد الفرعوني وحتي أيام المؤرخ الأخيرة، فما زلت أصادف في صحفنا خلطاً بينه وبين ابن عمه الأديب مصطفي صادق الرافعي (١٨٨٠ - ١٩٣٧) فتنشر صورة هذا مكان صورة ذاك ، والقراء في غالبيتهم إما تنقصهم الدراية ، وإما يلاحظون - مثلي - هذا الخطأ ويضيفونه إلي أخطاء كثيرة يقعون عليها في الصحف المنشورة ، وقد أيأستهم محاولات تصحيحها !

في شهر سبتمبر ١٩٤٨ أنهينا الندوة الأسبوعية لرابطة الأدباء التى أنشأها الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى (١٨٩٨ - ١٩٥٢) فكان رئيسها المنتخب وكنت بدورى وكيلها المنتخب منذ إنشائها فى عام ١٩٤٥ وإلى أن تركناها فى عام ١٩٥٢ . وخرجنا من الدار التى كنا نعقد فيها اجتماعات الرابطة فى عمارات الخديو بشارع عماد الدين لكى يتوجه كل منا إلى بيته . فالشاعر حسن كامل الصيرفى (١٩٠٨) - ١٩٨٤) كان يقيم وقتها فى حى السيدة زينب ، والناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتى (١٩٠٢ -١٩٨٣) كان يقيم فى حى

المنيـــرة ، والأديب رضـــوان ابراهيم (١٩١٩ - ١٩٧٥) كان يقيم فى العباسية ، وأنا أقيم فى الجيزة .

وطرأت للصـــيـــرفى والسحرتى فكرة التوجه لزيارة عبد الرحمن الرافعى بك فى مكتبه بشارع عدلى باشا (على ناصية شارع شريف باشا) ، فسـألتـهـمـا : وهل يبـقى فى مكتبه إلى تلك الساعة المتأخرة ؟ فقـالا : نعم ، فـهـو محـام ، والمحامون يستقبلون موكليهم فى الأمسيات ، وفيها يعدون أيضـا مـذكرات دفـاعـهم فى القـضـايا الموكلين فـيـهـا . وتحـفظّت من ناحـيـتى لهـذه الزيارة، أولا لأننى لا أعــرف الرافـعى بك مـعرفـة تسمح لى بالإقـــدام على هـذه الزيارة المفاجئة ، وثانياً لأنه ليس هناك موعد مـضروب سلفاً كما هو مـعـهود فى مـقابلة العظمـاء ،، ولكن الصـديقين أكـدا الى أن باب الرافـعى بك مفـتوح دائماً لنا ولهذا نزوره بلا موعد ، وأنه بحكم متابعته الحثيثة للصحف كـمرجع من مـراجع التـاريخ لا بد أن يكون قـد تابع مـقـالات الصدر التى كنت تكتبها يومياً فى جــريدة «المقطم» . وهى الجريدة الثانية من حيث العمر



بعد «الأهرام» .

وإزاء هذا المنطق ، رافقت مجموعة الأصدقاء وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى خشية أن يخلف الواقع ظنوننا ، وعندما دخلنا مكتب الرافعي بك؛ ، استوقفتني الخزانات الضخمة التي تغطي جدرانه ، وفيها مجموعات كاملة مجلدة من جميع الصحف والمجلات المصرية ، ويرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الماضي ، واستقبلنا شاب كان يعمل محامياً في مكتب الرافعي بك ، وهذا قام بإخطاره بوصولنا ، فرحب بنا ترحيباً كريماً ، وقام الأصدقاء بتقديمي إليه ، فصافحني بحرارة وقال: إنه يعرفني من كتاباتي .، وقضينا في صحبته دقائق جميلة – اشفاقاً على وقته – كان فيها شديد التواضع مفرط الودّ يطفح وجهه بالبشاشة الدائمة ، ويتكلم بصوت خفيض بل هامس ، ولأن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الرافعي بك عن قرب ، فقد حرصت على أن أتأمل ملامحه وسماته ، فهو قصير القامة نسبياً ، في جسمه امتلاء خفيف ، أما رأسه فقد عاف الشعر تماماً وكان يلمع في ضوء المصباح ، وتعلو وجهه حمرة ترجع إلى أصوله الشامية .

وغادرنا المكتب وفي اعتقادي أن هذا اللقاء قد يكون اللقاء الأول والأخير مع



عبد الرحمن الرافعي

هذا الرجل العظيم ولكنني فوجئت في صباح اليوم التالي بزيارة من الشاب الذي يعمل في مكتب الرافعي بك ومعه رزمة كبيرة من مؤلفات الرافعي وضعها على مكتبي قائلاً: إنها هدية من المؤرخ وانصرف . وتبينت أن الرافعي بك اهداني مجموعة كاملة من جميع مؤلفاته التاريخية وطرّز كلا منها بعبارة إهداء كريم واشتركت جميعاً في تذييل إمضائه بتاريخ الإهداء وهو سبتمبر ١٩٤٨ الذي أوردته في صدر هذه الكليمات .

فأحسست بأنني نلت جائزة كبرى سعت إلى من تلقاء نفسها ، دون طلب من ناحيتي ودون مَن من ناحية المُهدي ، وكان طبيعياً أن أزور الرافعي بك شاكرا ، وأن أعقد فصلاً عن هذا المؤرخ العظيم وأن تنشأ بيني وبينه مودة ملهمة زادتها الأيام وثوقاً . وكان كلما أصدر كتاباً جديداً يبعث إليّ بنسخة منه . وكنت أزوره بلا موعد سابق في مكتبه كلما ألفيت نفسي في وسط القاهرة في الليل، فإذا كان يستقبل زواراً من الموكلين انصرفت ، أما إن كان بمفرده فهذا يشجعني على قضاء دقائق معه .

كان الرافعي يعتمد في تاريخه على الوثائق الرسمية المنشورة في جريدة الوقائع المصرية «وعلى ما يقف عليه من أمور بحكم عضويته في البرلمان ،وعلى ما يطالعه في الصحف ، وعلى ما يصل إلى


مصطفى صادق الرافعى

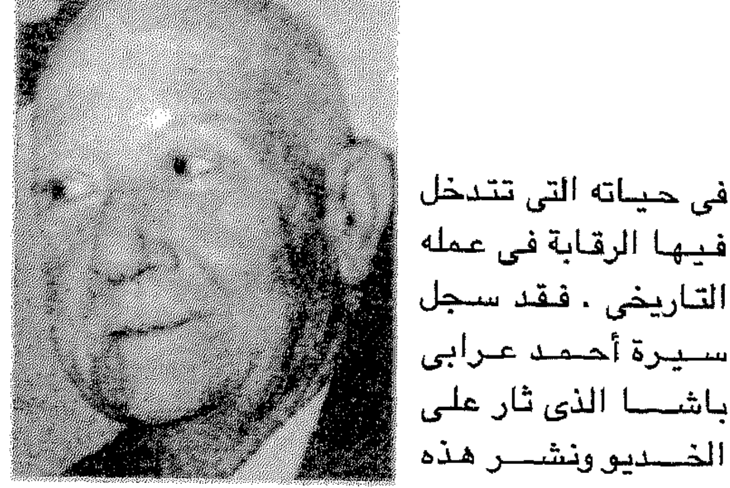

ابرهيم ناجي

علمه فى الحزب الوطنى الذى كان عضوا دائماً فيه . ولهذا السبب الأخير كان يتحيز لوجهة نظر الحزب الوطنى على الرغم من حرصه على الموضوعية فى تسجيل وقائع التاريخ .

وعندما قامت الثورة عّول الرافعى على أن يصدر كتاباً عنها ، وهو ما دعانى إلى زيارته لاستجلاء حقيقة الأمر

فقال لى : إننى سجلت تاريخ مصر منذ أيام الفراعنه وحتى عصر الملك فاروق ، ويهمنى أن أسجل التاريخ كاملاً إلى يوم وفاتى ، ولهذا شرعت فى تأليف كتاب عن ثورة ١٩٥٢ . فقلت له : أخشى ما أخشاه أن يتعرض الرقيب - وقد بلوت شره فى الصحافة - لكتابك ، فالثورة مازالت تتفاعل وتضطرب ولم تصبح بعد تاريخاً نهائياً تعرف أوائله ونهاياته ، وهى تحيط نفسها بأسرار ولا تكشف الا عن القليل من مداولات مجلسها ، وليس بخاف عليك أن أخبار المنازعات بين أعضائها تطفو على السطح برغم محاولة كتمانها . وقلت له : لعل من الحكمة عدم التسرع فى كتابة تاريخ مازال فى مرحلة الصنع ، ومازالت وقائعه فى طى الكتمان .، فقال: إنه سيسجل التاريخ من واقع البلاغات الرسمية والقرارات التى صدرت والأحداث التى مرت بها الثورة ، وإنه واثق من أن لديه ما يكفى من المعلومات المنشورة لتأليف هذا الكتاب .

والذى حدث بعد ذلك ، كما رواه لى الرافعى بنفسه ، أن الرقابة اعترضت على الكتاب لأنه سجل دور الرئيس محمد نجيب فى انجاح الثورة وقيادتها وهى حقيقة تاريخية لا سبيل إلى إنكارها . وبرغم ذلك أصرت الرقابة على حذف كل ما يتعلق بمحمد نجيب ، بما فى ذلك البلاغات الرسمية التى صدرت عنه وباسمه وبتوقيعه ، مما يجرد الكتاب من صفته التاريخية الموثقة ويجعله مجرد نشرة دعاية سياسية ، وأخبرنى الرافعى بك أنه لجأ إلى الدكتور محمد عبد القادر حاتم الذى كان مسئولا عن الرقابة ، وبعد أخذ ورد طويلين وافق على الا يذكر اسم محمد نجيب فى الكتاب إلا مرة واحدة ! وقال لى الرافعى إن هذه هى المرة الأولى



فى حياته التى تتدخل فيها الرقابة فى عمله التاريخي . فقد سجل سيرة أحمد عرابى باشا الذى ثار على الخديو ونشر هذه السيرة فى عهد الملكية فلم يتعرض لها قلم رقيب . وقال: إنه ندم على تأليف كتابه عن ثورة ١٩٥٢ لأن قارئه لن يعرف أن العبث الرقابى هو الذى جرده من الموضوعية .

كان عبد الرحمن الرافعي بك عضواً فى لجنة التاريخ الملحقة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية مع زملاء له منهم شفيق غربال بك (١٨٩٤ - ١٩٦١) ومحمد عبد الله عنان (١٨٩٨ - ١٩٨٦) وغيرهما . وفى اجتماع من اجتماعات اللجنة فوجىء الحاضرون وكلهم أساتذة كبار صدرت لهم مدونات تاريخية ، بأن الدكتور محمد أنيس (١٩٢١ - ١٩٨٦) طلب الكلمة لكى يقول إن كل التاريخ المصرى المنشور تاريخ مضلل ويجب إهماله تماماً لأنه سجل تاريخ مصر من وجهه نظر الحكام والحكومات .

فى حين أن التاريخ الصحيح هو الذى يسجل من وجهة نظر الشعب ، وطالب بإعادة كتابة التاريخ وفقاً لهذه النظرية الشعبية ! فما كان من الرافعى بك إلا أن قال - كما أخبرنى بذلك - لقد كتبنا التاريخ وفقا لرؤيتنا ومناهجنا الخاصة ، فإن لم يعجبك ذلك فاكتب تاريخك كما يحلو لك ، أما نحن فمتمسكون بكل كلمة كتبناها ونشرناها فى كتبنا . وأيقن أعضاء لجنة التاريخ أن من العبث الدفاع عن مدى نزاهتهم وتجردهم فى كتابة التاريخ ، وأن من الأحجى الاستقالة من هذه اللجنة التى فقدت مسوغات بقائها . فاستقال الأعضاء جميعاً ما عدا الدكتور محمد أنيس !

كانت سن عبد الرحمن الرافعى بك قد علت وصحته اعتلت ولا سيما لأن قدمه زلت وتعرض لكسور مركبة فى ساقيه ألزمته الفراش طويلاً ، ولم يعد بالتالى قادراً على مزاولة مهنة المحاماة إلى آخر العمر كما كان يتمنى ، فأغلق مكتبه ، ونقل مجموعات الصحف إلى «بدروم» منزله ، ودبر للمحامى الذى كان يعمل عنده والذى تزوج ابنته كريمة - واسمه حلمى السباعى شاهين (ت ١٩٩٠) - عملاً فى هيئة قضايا الحكومة وفيها ترقى وأصبح مستشاراً . وعندما توفى الرافعى بك جرى دفنه مع الزعيم مصطفى كامل باشا (١٨٧٤ - ١٩٠٨) الرئيس الأول للحزب الوطنى فى مقبرته بالقلعة بناء على رغبته ، وهى رغبة ساعد على تحقيقها فتحى رضوان (١٩١١ - ١٩٨٨) .

كان الرافعى بك يقيم فى الفيلا رقم ٥ بشارع أمين الرافعى بك (١٨٨٦ -



شفيق غربال باشا



حامد جوهر

١٩٢٧) وهو شقيقه وصاحب جريدة «الأخبار» التى عطلها حتى لا ينشر فيها نبأ إعلان الحماية على مصر . وكانت الفيلا التى يقيم فيها الرافعى بك قد تقادم عليها العهد وفقدت رونقها القديم فطمع فيها الطامعون بعد وفاته على أمل أن يهدموها ويشيدوا مكانها مبان حديثة فى حى الدقى . وقد أخبرنى المستشار حلمى شاهين أنه تلقى عرضاً عن طريق وسيط لشراء هذه الڤيلا فلما اكتشف أن المشترى هو السفارة الاسرائيلية رفض هذا العرض دون الدخول فى التفاصيل . وانتهى الأمر بأن بيعت الڤيلا وهدمت وأقيمت مكانها عمارة شاهقة تقوم شاهداً على أن المال يكتسح أمامه المعالم التاريخية بكل قسوة .

وذات يوم اتصل بى المستشار حلمى شاهين وأخبرنى أن الرئيس أنور السادات أصدر أمره إلى أنيس منصور رئيس دار المعارف بأن يعيد نشر جميع مؤلفات الرافعى . وقامت الدار بناء على ذلك بالتعاقد مع حلمى شاهين على نشر ١٧ كتاباً للرافعى بك . ورجانى حلمى شاهين أن نقتسم العمل فى مراجعة تجارب هذه الكتب ، ولكننى قلت له إننى وإن كنت أرحب بالقيام بهذا العمل وفاء للرافعى بك إلا أننى أستصوب أن تطلب من دار المعارف تصوير الكتب بالحالة التى خرجت بها فى حياة مؤلفها حتى لا تتعرض للتشويه ، سواء بحذف الألقاب الرسمية ، أو بطمس بعض الأسماء أو بتغيير بعض الوقائع ، فأعجبته الفكرة ، وأصر على أن يتم تصوير الكتب طبق الأصل على أن يصدر كل كتاب بمقدمة لحلمى شاهين . وقد كان .

كنت ذات مرة فى زيارة الدكتور عبد اللطيف حمزة (١٩٠٧ - ١٩٧١) عميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة فى منزله بمصر الجديدة ، فوجدته جالساً وأمامه مجلد ضخم لجريدة «الأخبار» التى كان يصدرها أمين الرافعى بك ، وأخبرنى أنه يعد كتاباً عن هذا الصحفى الكبير وأنه استعار مجلدات الجريدة من عبد الرحمن الرافعى بك .

ليس مقصدى بهذه الكلمات أن أؤرخ لعبد الرحمن الرافعى بك ولمواقفه

عبد الرحمن الرافعي

السياسية في البرلمان ، أو لعمله عندما اختير وزيراً للتموين في حكومة حسين سرى باشا أو دوره في تنظيم نقابة المحامين عندما عين نقيباً للمحامين ، ولاسرد مؤلفاته الكثيرة التي كان من ضمنها كتاب أدبي جميل عن »شعراء الوطنية« ، وإنما أردت أن أورد بعض ما عرفته عن هذا الرجل العظيم عن قرب على مدى ثمانية عشر عاماً . وهو قد سجل تاريخ مصر ، فمن يسجل تاريخه هو ؟ أما مكتبته الخاصة بكل ما كانت تضمه من المجموعات الكاملة للصحف والمجلات فلا أدرى مصيرها .

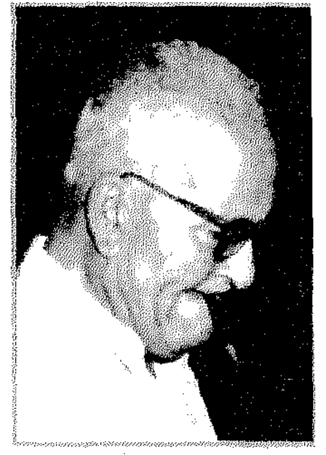
المكتبات الخاصة

ويسوقنا موضوع المكتبات الخاصة إلى طرح هذه القضية التي يبدو أنها غير ذات بال : فكثيرون من الأدباء والعلماء يقتنون مكتبات خاصة جمعوا مفرداتها على مدى العمر ، وهي تمثل اهتماماتهم الشخصية وربما هواياتهم أيضاً . فعالم البحار الدكتور حامد جوهر (١٩٠٧ - ١٩٩٣) الذي قضى كل عمره في دراسة الكائنات التي تعيش في البحار ، وإليه يرجع الفضل في إقامة محطة الأحياء المائية في الغردقة حيث قضى سنوات طويلة من عمره .. هذا العالم الخبير الفذ كان يقتني مكتبة متخصصة في علم الأحياء المائية قد لا يكون لها مثيل في مصر . فأين ذهبت هذه المكتبة بعد وفاته، ولا سيما لأنه عاش عزباً ولم يتزوج ولا كان له أولاد يحافظون عليها ؟

وكان المؤرخ الكبير محمد صبرى السوربوني (١٨٩٤ - ١٩٧٨) يقتني مكتبة ضخمة باللغات الانجليزية والفرنسية والعربية تضم كتباً تاريخية نادرة وكتباً من التراث العربي لاهتمامه بالشوامخ من الأدباء والشعراء وكتباً في الفنون العالمية فيها صور ملونة لأعمال معظم الرواد الكبار من الفنانين في العالم . وقد قام الدكتور السوربوني بطبع فهرس شامل لمقتنياته باللغة الفرنسية من قبيل حصر مفردات مكتبته . وقد أخبرني أنه فكر في بيعها في حياته لأن نجليه من زوجته الفرنسية هاجرا إلى الخارج ، ولأن ابنته المتزوجة لا تهتم بالكتب ، ولكنه لم يوفق إلى جهة علمية تشترى هذه المكتبة النادرة . ومن هنا صار يتنازل عن أي كتاب يهم باحثاً مادام سينقده ثمنه . وبعد وفاته ، كانت المكتبة مازالت تحتل معظم غرف منزله في مصر الجديدة ، ولا أدرى بعد هذه السنوات ما هو مصيرها.

وكان عالم المخطوطات محمد رشاد عبد المطلب (١٩١٧ - ١٩٧٥) يقتني مكتبة عامرة بالمخطوطات القديمة ما نشر منها وما بقى مخطوطاً . وقد عرفت فيما بعد أن هذه المكتبة آلت إلى جهة علمية في المملكة





د. محمد صبرى السوربونى

العربية السعودية أسوة بمكتبات أخرى خاصة «هاجرت» بدورها إلى بلدان الخليج .

وكان العلامة السورى الأمير مصطفى الشهابى (١٨٩٣ - ١٩٦٨) رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق قد أوصى بعد وفاته بأن تؤول مكتبته إهداء إلى المكتبة الظاهرية التابعة للمجمع ، ومع إنشاء مكتبة الأسد فى دمشق ، آلت جميع مخطوطات المكتبة الظاهرية إليها .

أما العلامة كريزويل الذى توفى عن ٩٤ عاماً فى عام ١٩٧٤ ، فقد عقد اتفاقاً مع الجامعة الأمريكية التى كان أستاذاً للفنون الإسلامية فيها بمقتضاه تؤول مكتبته الخاصة المحتوية على نفائس الكتب المصورة عن الآثار الإسلامية فى العالم إلى الجامعة مقابل استمراره فى العمل وتقاضيه راتبه إلى آخر يوم فى حياته ، وباتت هذه المكتبة تحتل ركناً خاصاً فى الجامعة لأنها تمثل إضافة حقيقية إلى الكتب النادرة التى لا تقدر قيمتها بثمن .

ولست بسبيل حصر جميع المكتبات الخاصة التى كان الأدباء والعلماء الراحلون يقتنونها ، ولا سبيل لى لاستقصاء مصائرها . وإن كنت أعرف عن ثقة أن عدداً غير قليل منها بيع إلى الأثرياء العرب فى صفقات الغبن طابعها العام ، ولعل هذا المصير نفسه ينتظر ما بقى من مكتبات خاصة لدى المخضرمين من رجال العلم والأدب .

صحيح أن عدداً من المكتبات الخاصة أهدى أخيرا إلى مكتبة الاسكندرية بعدما أعيد إنشاؤها ، ولكن فكرة «الإهداء» مازالت غريبة بالنسبة لورثة الأدباء والعلماء الذين تمثل هذه المكتبات التركة الوحيدة التى خلفها الراحلون ، ومن ثم يتعين استغلالها تجارياً فى سوق للكتب غلت أثمانها وندرت كتبها القديمة . والمشترون هم فى الأغلب الأعم إما من الوراقين الذين يشترون المكتبات جملة ويبيعونها بالقطاعى ، وإما من الأثرياء العرب الذين يملكون المال ويستخدمون الكتب فى بعض الحالات «كديكور» يزينون به حجرات بيوتهم .

ووزارة الثقافة مبتوتة الصلة حالياً بهذه القضية ، ولعلها لا تشغلها أصلا ، أما الجامعات التى ترحب طبعاً باقتناء هذه المكتبات ، فإن كانت إهداء فأهلاً بها ، أما إن كانت بيعا فإن ميزانياتها تضيق عن الوفاء بما هو مطلوب .

وقصاراى هنا أن أعرض القضية مقراً بأننى لا أملك توصيات عملية أسوقها فى هذا المقام . ■

مهمة فك ألغاز الكون في بضعة أسطر

محمد ابراهيم شوشه

عن التكوين يقول الخالق جل جلاله : «فلينظر الانسان مم خلق. خلق من ماء دافق» وقد وصف هذا الماء بأنه مهين. وقال تعالى «ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين». وفصّل القرآن الكريم مدارج هذا التكوين من تراب ونطفة وعلقة ومضغة حتى اصبح خلقا سويا. ذلك جانب من التكوين البيولوجى الذى يشمل جميع البشر واكثر الحيوان - والذى لا نستطيع ان نضيف إليه شيئا. لكن للانسان تكوينا آخر فسره القرآن الكريم بقوله : «وقد علمناه من لدنا علما» وقوله «وعلم آدم الاسماء كلها» وقوله «لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم» وقوله «يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم. الذى خلقك فسواك فعدلك. فى أى صورة ماشاء ركّبك»، هذا الجانب من التكوين هو الذى يرقى بالانسان الى أن يكون على صورة خالقه مجازا، وأن يستخلفه الله على أرضه، ويأمر الملائكة السجود له لأنه يعلم مالا يعلمون .

ولست أدرى أى غرور أو جهل بحقيقة نفسى ذلك الذى جعلنى أقبل تكليفا بالكتابة عن تكوينى. وذلك كمن يقبل مهمة فك ألغاز الكون فى بضعة أسطر.

***

أستطيع بالطبع أن أحوم حول الحمى وأوهم القارئ أننى أعرف العوامل التى



ساعدت فى هذا التكوين. أستطيع أن أحدثه عن أشياء كثيرة فى حياتى وأحكى له عن تجارب قد يراها ممتعة، وقد لا يراها كذلك. وكلها لا دخل لها الا ظاهريا فى قصة تكوينى الحقيقية .

***

أستطيع أن أبدأ بالحديث عن مولدى فى السادس والعشرين من يناير فى عام لم يعد يسعدنى ذكره، فى مدينة عطبرة فى شمال السودان، مدينة الحديد والنار وبلد المائة ألف راكب دراجة ـ كان خالى «ابو عجل» أولهم ـ وموطن السكك الحديدية التى كانت ـ قبل أن يشتبك النميرى مع عمالها ـ شريان الحياة والتواصل فى السودان. وعن أبى شيخ المدينة الذى وهب حياته لخدمة سكانها، وعن أحكامه التى كانت تسبر غور الحياة باكثر مما تعلمناه انا وأخواى فى جامعة لندن. عن اختياره زوجة تصغره كثيرا وتختلف عنه فى كل شىء وكان حبها لنا بمثابة الحلول فى ذواتنا، عن حبه الخارق لها والذى كتمه طوال رفقته معها ولم يعبر عنه الا يوم أن ماتت، وعن دموعه الغزيرة فى حجرة نائية كأنما يضن بها أن يراها الناس .

***

أستطيع أن أحدثكم فى شىء من الاعتزاز أو الغرورإن شئت عن ميولى نحو الكتابة فى سن مبكرة، عن المسرحية التى كتبتها وأنا فى الحادية عشرة ومثلت على مسرح المدينة، وأن أروى لكم قصة أخى الذى سبقنى إلى الحياة، وكان بشقاوته وتحديه لكل النظم وعناده فى مواجهة التهديدات والشتائم، الدرع الذى حمانى من غضب الوالد. اذ جعلنى ـ مهما فعلت ـ أبدو ملاكا بالمقارنة به . أراد له أبى أن يكون طبق الأصل منه كما يأمل أغلب الآباء فى إبكار ابنائهم. كان يريده أن يكون إداريا مثل المفتشين الانجليز الذين عمل معهم وأعجب بهم . فلما فشلت التجربة لم يحاول أبى أن يطبقها علىّ .

ونجوت باسطواناتى الغربية وأم كلثوم وعبدالوهاب. وكان أبى يرانى منبطحا على الأرض وأصوات ايرثا كت ودوريس داى وفرانك سنتارا تملأ الحجرة فيهز رأسه عجبا لهذا المخلوق الغريب الذى حط فى داره، وأحسبه كان يجد فى ذلك متعة خفية. وكأنما أراد القدر أن يعوضه فوجد ضالته فى أخى الأصغر الذى اختار الحقوق وتخرج قاضيا وأصبح بعد أعوام قليلة يصدر أحكاما تصل إلى حد الإعدام وكان أبى يحمل قصاصات من هذه الأحكام ليطلعها فخورا على أصحابه وجلسائه، إذ لم يجد فى عملى كأستاذ جامعى أو فى عمل أخى الأكبر كرجل اقتصاد متميز ما يمنحه الرضا. ولم يجد فى مناكفاتى الصحفية فى قضايا الفكر والأدب والتحديث والأصالة والتراث ما يثير اهتمامه .

***

وأستطيع فى هذا المجال أن أتوسع فى الحديث عن ميولى الفكرية والأدبية منذ الصغر، ربما لأننى لم أكن أملك القدرة الجسدية لأشارك أقرانى فى لعبة كرة القدم



وغيرها من لعب الأطفال في الشارع. لم أكن أحسن اللعب وكنت أتحاشى العراك، وكانا متلازمين، فآثرت أن اختبيء في المنزل بما أحصل عليه من كتب وصحف. وكان طريقي إلى القراءة روايات جرجي زيدان مؤسس مجلة الهلال. إذ كنت ألتهم سلسلة رواياته التاريخية : «١٧ رمضان» و«فتاة القيروان» وغيرها حين كان أقراني يتهجون قصص الغول وفاطمة السمحة. وكنت أختبيء حتى لا تقطع قراءاتي دعوة لغداء أو عشاء أو مرسال. وكنت أعجب لذلك النسج المحكم بين الخيال الروائي وأحداث التاريخ، وذلك قبل أن أدرك أن أغلب احداث تاريخنا روايات خيالية أبدع في نسجها الرواة. واعتبرها من تلاهم تاريخا موثقا يحتكمون إليه ويبنون عليه تحليلاتهم وأحكامهم .

***

وعرفت في خلوتي طه حسين. لم أعن كثيرا بآرائه النقدية أو أسلوبه المتفرد، ولكنني أحببت قصصه، وأحسست بمعاناته صبيا فاقد البصر في «الأيام» وكنت أعصب عيني بعصابة سوداء وأتجول في أنحاء المنزل وكان ذلك يغيظ أخي الأكبر، وخاصة حين أذكره بمعاناة طه حسين من الخبز الأسود في الأزهر، حين كان يشكو من الطعام. ولقد بكيت مع هنادي في رواية «دعاء الكروان» وعمها القاسي لسبب لم اتبينه حينذاك يقودها الى حتفها وتخيلت آمنة في صورة فاتن حمامة وشاء القدر أن تمثل دورها بالفعل.

لكن الشخص الذي أحببت أن أكونه فهو عباس محمود العقاد. قرأت «سارة» مرات ومرات وكنت في كل مرة ازداد اعجابا بهذه الفتاة الغامضة المثيرة. ومن سوء حظي انني لم أكن قد قرأت لأحمد شوقي بامعان فعرفته من خلال نقد العقاد له في «الديوان» ولقد اعجبتني تلك العاطفة الجياشة في نقده. لا أحب النقد العلمي الموضوعي الفاتر. النقد المختلط بالعاطفة يتشكل ادبا عظيما مستقلا بذاته - وكنت أكرر في نفسي بعض انفعالات العقاد : «اعلم ايها الشاعر العظيم ان الشاعر من يشعر بجوهر الاشياء لا من يعدد اشكالها والوانها» .

وأحببت توفيق الحكيم وعشت بكل وجداني مع أهل الكهف. وقبل أن اتذوق مرارة الكهولة والشيخوخة تأثرت بتضرع مشلينا وهو يتحدث إلى بريسكا : «بيني وبينك خطوة، بيني وبينك شبه ليلة، فإذ الخطوة بحار لا نهاية لها ، واذ الليلة أجيال وأمد يدي وأنا أراك حية جميلة أمامي فيحول بيننا كائن هائل جبار هو التاريخ». وعندما توليت رئاسة تحرير مجلة الدوحة كان أول شيء فعلته أن طلبت من توفيق الحكيم أن يكتب لها مسرحية بمكافأة باهظة احتاجت موافقة الوزير . فأرسل لنا - غفر الله له - مسرحية كان قد نشرها في الثلاثينات .

وفي تلك الخلوة نمى عندي عشق للصحافة المصرية اذا لم تكن الصحافة السودانية قد أصبح لها شأن. وقد رضي

ابى بعد الحاج منى أن يشترك لى فى المصور والاثنين وآخر ساعة واخبار اليوم، إذ كان ابى يرى ان الاشتراك فى هذه الصحف ليس من مستوى صبى فى الحادية عشرة من عمره. وكان يرانى عائدا من محلات بيع الصحف كل ثلاثاء اتأبط هذه الصحف وأنا فى حالة انتشاء فيهز رأسه عجبا من هذا المخلوق العجيب الذى يسمع أغانى الفرنجة ويقرأ صحفا أعلى من مستواه .

وقد عرفت مبكرا محمد التابعى ومصطفى وعلى أمين. كان محمد التابعى ينقلنى الى عالم سحرى بحكاياته الغرامية الشيقة مع مادلين وسيمون فى الشانزليزيه وعلى ضفاف السين والحى اللاتينى وسنت جيرمان فيسبح خيالى بعيدا عن عطبرة وعواصفها الرملية وورشها ومصانعها ومداخنها الى عالم أصبحت كل يوم اكثر اصرارا على بلوغه ذات يوم. وكنت اتابع فى شغف معارك التوأمين مع النحاس باشا وحكاية ٢٤ فبراير وسير مايلز لامبسون. كنت فى عالم وكان اقرانى الصغار فى عالم اخر تماما.

***

وقد كان انتقالى من عطبرة الى مدرسة وادى سيدنا الثانوية فى أم درمان وسط السودان والعاصمة الوطنية للسودان بمثابة انتقال لعالم جديد ومؤثرات جديدة. فى عطبرة لم تكن تصلنا صحف سودانية ومايصلنا لم يكن يرضى طموحنا. وكان صوت الاذاعة السودانية خافتا. وفى أم درمان تعرفت عن كثب على الابداع السودانى فى مجال الفن والأدب. فجأة دخل دنيانا فنانو السودان حسن عطية واحمد المصطفى وابراهيم الكاشف وعثمان حسين .

***

وعلى امتداد الدراسة بين ثانوية وادى سيدنا وكلية الخرطوم الجامعية برزت لنا وجوه الأدب السودانى بدءا بشعراء التقليد عبدالله البنا وعبدالله عبدالرحمن ومحمد سعيد العباسى وحركة التجديد التى قادها حمزة الملك طنبل ناقدا وشاعرا، والمدرسة الرومانسية التى حمل لواءها كتاب مجلتى النهضة والفجر وبرز من شعرائها محمد احمد محجوب والتجانى يوسف بشير. ثم ظهور مدرسة الواقعية الاشتراكية علي يد محمد الفيتورى ومحى الدين فارس وتاج السر الحسن وما تلى ذلك من تيارات حديثة على يد محمد المهدى مجذوب وصلاح احمد ابراهيم وغيرهم. وقد هيأ القدر للسودان فى هذه الفترة أربعة علماء أدباء كان لهم أعظم الأثر فى بعث الاهتمام بتراث الأدب السودانى وتشجيع المبدعين وهم الدكاترة محمد النورى وعبدالمجيد عابدين وعبدالعزيز اسحق من مصر والدكتور احسان عباس من فلسطين

●●●

وكانت فترة الخمسينات واوائل الستينات فترة خصبة في كل مناحى الحياة الفكرية والأدبية والفنية والاجتماعية فى السودان. نشطت مهرجانات الأدب فى الجامعة ودار الثقافة والدور الثقافية

والرياضية، وشهد السودان نهضة كبرى في مجال الفن التشكيلي قل نظيرها في العالم العربي وافريقيا وتكونت اروع فرقة للفنون الشعبية وفرقة الاكروبات وأنشىء معهد السينما والمسرح واستقطب خيرة المبدعين .

كان ثمة تفاؤل يملأ الأفق. وفي قمة هذه الفترة الخصبة انتزعت لاواصل دراستي في جامعة لندن. وفي لندن توثقت صلتي بقريبي وصديقي الروائي الطيب صالح وشاركته السكن وكان وقتها يرأس قسم الدراما والمنوعات. وعن طريقه كتبت عدة مسرحيات ومسلسلات وتعرفت الى عدد كبير من الكتاب والفنانين من كل انحاء العالم العربي.

***

بعد ذلك تسارعت خطوات الحياة وتلاحقت المحطات . عدت استاذا في جامعة الخرطوم واخترت تدريس الأدب الحديث والأدب الأموي لأنني وجدت متعة في تدريس عمر بن ابي ربيعة وفهمت غزله مظهرا لتحدي التقاليد الادبية والاجتماعية في عصره، وليست قضية إباحية او تحويل العاشق الى معشوق، ولا هي قضية ارتكاب المعصية، او التعفف عنها. وعملت في اليونسكو في مشروع التعاون الجامعي في افريقيا. وانخلع قلبي وانا انتقل بين فريتاون ومنروفيا وخماسي واكر وابيدان وليفوس في طائرات صغيرة وسط عواصف استوائية يزمجر فيها الرعد ويدخل البرق من كل ابوابها. وبين كل ذلك رأيت الوانا من الجمال الفطري وصنوفا من الاهمال والتسيب والتخلف. وحاضرت لطلبة الدراسات العربية العليا في القاهرة عن الشعر السوداني الحديث. وترجمت بإيجاز مع استاذي الدكتور احسان عباس كتاب «الشعر كيف نفهمه ونتذوقه» لمؤسسة فرانكلين - نيويورك - بيروت . وكنت للأستاذ احسان نصيرا في معاركه الادبية والأكاديمية . ودخلت في معركة طويلة مع رئيس شعبة اللغة العربية وعميد كلية الآداب، وانتقلت لأنشىء دار جامعة الخرطوم للتأليف والنشر واصبحت في سن صغيرة نسبيا عميدا لكلية الآداب. ثم مستشارا ثقافيا في لندن. وكانت تلك أحلى الأيام واتعسها . ومن هناك انتقلت الى دولة قطر رئيسا لتحرير مجلة الدوحة. اعطيتها قلبي وجندت لها كل قدراتي. كانت بالنسبة لي اكثر من وظيفة لكن ذلك كله لم يشفع لي. اردتها ان تكون منبرا ومنارة للفكر العربي القومي المستنير لكن النعرة الاقليمية جرفتني وجرفتها. وقيل إنني حولتها الى مجلة مصرية سودانية وذلك لأنني اردت ان يكون مقياس النشر والابداع لا مكان الميلاد. وعدت إلى لندن مستشارا لتحرير مجلة اسبوعية اسمها المسلمون. وكانت سنة تعيسة. حسبتها مجلة تتناول قضايا المسلمين - كما قيل لدي في البداية - فاذا بها تتحول الى مجلة فقهية ضيقة الافق، تجيب عن اسئلة تأتيها من اعماق الكهوف والجهالة. وكان لابد ان

يتوقف الزمن او تتوقف المجلة. وتوقفت المجلة بصورة سرية تآمرية لم اشهدها لحسن الحظ إذ كنت طريح الفراش لإجراء عملية جراحية. ورجعت كما بدأت استاذا جامعيا هذه المرة فى اقصى بقاع الارض على الساحل الغربى من كندا.

***

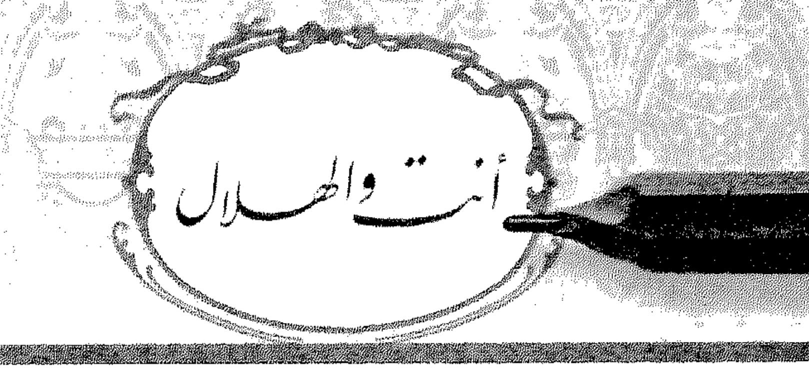
كل هذه محطات مهمة فى مسيرة حياتى اكتسبت منها دروسا وعبرا وأجد فى استرجاعها مزيجا من الألم والحزن والفرح الغامر والضحك الذى يملأ كيانى واستطيع أن احدثكم عنها فى مجلدات، ولكن هل تكشف لكم عن تكوينى وهل لعبت دوراً فى هذا التكوين، وبأى صورة وفى اى اتجاه؟ ذلك مالا استطيع أن أجزم به. فقد تمر التجارب الكبرى التى شغلت الحياة سنين فلا تترك فى تكوين الانسان اثرا، وتمر لحظة عابرة وتترك بصماتها الأبدية فى سيرته. المحطات الكبرى قد تكون معالم مهمة فى بيانات الانسان الذاتية حين يتقدم لوظيفة، ولكن اللحظات العابرة هى التى تمثل لبنات فى تكوين الانسان : وقفة معها فى إحدى السفن الراسية على نهر التايمز وكلاهما يسبح فى عينى الاخر، ثلاثة أصدقاء يفترشون الارض وحولهم قصاصات من الصور والرسوم والأوراق المطبوعة فى أحد المبانى العالية فى مدينة الدوحة فى الساعات الأولى من الصباح وقد انصهرت انفسهم فى انسان واحد، وجهها الذى فر الدم منه وهى تستمع إليه وهو يحاول بكل ما أوتى من قدرة على الكذب ليبرر لها نية هجرها ويعدها بصداقة بديلة يعرف أنها لن تكون، صورتها الجميلة بعيدا فى أعماق الذاكرة تبثه غرامها وتقترب من وجهه حتى ليكاد يحس بقلبه فى حلقه تحسب ان فارق السن بينهما يمنحها الحق فى التسلى بحبه الطفولى، وجه طفلته الباكية تجرى بجانبه وتتضرع إليه ألا يرحل.

ملايين اللحظات التى تمنحنا حبا او تبعث فينا اليأس والحنية والحزن، ملايين لا يستطيع ان يحصيها ولايستطيع ان يحصرها فى هذا الحيز الضيق او فى اى حيز .

***

لقد قرأت واستمعت لألوف الكتّاب وطربت ومللت وشهدت الوف الفنانين الكبار والصغار ولكننى لا أستطيع ان امسك بتلابيب احدهم واقول: إننى تأثرت به .

كل الذين قرأت لهم واستمعت، وكل الذين سعدت بصحبتهم وشقيت، وكل الذين أسأت إليهم بعلم وبغير علم، وكل المحطات التى مررت بها وتوقفت عندها زمنا يطول ويقصر. وكل التجارب التى مرت بى. تسربت داخل وجدانى وتحولت خلقا جديدا لتكون هذا الانسان الذى يحاول جاهدا وغرورا ان يكشف عن عوامل تكوين إنسان هو اكثر خلق الله تعقيدا. ■



محمود السعدنى من ظرفاء العصر

تناولت الهلال شخصية محمود السعدنى من خلال كتابه وهو شخصية تأسر القلوب من خلال كتاباته الساخرة ومازال عطاؤه مستمرا يثرى هذا اللون من الكتابات .

والسعدني هو وأحمد رجب يعدان استمرارا لفكرى أباظة ومحمد عفيفي وعبد الحميد الديب وعبدالعزيز البشرى وعدد كبير من الظرفاء الذين عبروا أحسن تعبير عن روح مصر الضاحكة والساخرة من كل ماحوله.

إبراهيم مندور

أسيوط - البدارى

الجد والهزل

●● تقديراً منى للمرتبة الرفيعة لمجلة الهلال التى تمتلك سحراً خاصاً لدى كل مثقف عربى، أكتب هذه الملاحظات الموجزة عن الموضوع الذى نشر بقلم د. فهمى عبدالسلام «طريق السعدنى إلى زمش». والذى يتضمن تعريضاً فظاً وغير مقبول بمجموعة من خيرة أبناء هذا الوطن، الذين قد نختلف أو نتفق مع مواقفكم الايديولوجية، ولكن محال أن ننسى ما قدموه لمصر من تضحيات ومواقف وإبداعات ثقافية وفكرية وفنية، وقدموا معها حياتهم كلها دفاعاً عن الديمقراطية.. وعن وطن يقوم على أساس من العدل والحق والمساواة.

وما أفزعنى هو استخدام «الكوميديا» كمادة للتحليل السياسى، أو إن شئنا الدقة لتصفية حسابات سياسية أو فكرية.

والأخ الكبير الأستاذ محمود السعدنى إذ كتب كتابه «الطريق إلى زمش» لم يكن يقصد إدانة تيار بعينه، ولا حتى أفكاراً أو ممارسات بذاتها.. ولعله كان يقصد فيما يقصد تصفية حسابات شخصية مع أناس لا يتفق مع أفكارهم أو مواقفهم أو قدرتهم على احتمال العذاب والتعذيب أو حتى التمتع بكبرياء مواجهة الخصم المتمثل فى إدارة للسجن غاشمة تريد من الجميع ما لا يقل عن الانحناء والانكسار.

ولعل الأستاذ السعدنى كان يرى فى هذا النوع من المواقف تشدداً، ولعله صادف من كان يتشدد فى غير اتساق أو غير تفهم، ولعله كان فقط مشتاقاً للحرية، ذلك الشوق



الذى عبرت عنه مجموعة كانت هى أيضاً «زمش» وتريد الحرية بأى ثمن وأسميت «فرقة السلك» والتي كانت دوماً فى انتظار «جودو» أى الافراج الذى لا يأتى.. أو بالدقة أتى متأخراً بعض الشئ، وبعد أن تتالت مواقف أوحت للإدارة.. أن هؤلاء الزملاء لا علاقة لهم بما يجرى أو بما يجب أن يجرى.

فالضعف فى هذه الاجواء كفيروس الانفلونزا يعدى.. وينتقل سريعاً.. ولهذا كان الآخرون يتشددون - ربما بمبالغة - فى مواجهة مواقف تستجدى الافراج بأى ثمن.

على أية حال لقد قرأت كتاب الأخ الكبير الأستاذ محمود السعدنى، وأخذته مأخذ الفكاهة المسلية، ولعلى ضحكت أيضاً، لكن لا أنا ولا الأستاذ محمود السعدنى - فيما أعتقد - كنا نتصور أن يأتى الدكتور فهمى عبدالسلام ليتخذ من الفكاهة مرجعاً فكرياً وسياسياً، لأننا إن فتحنا هذا الباب فلسوف نجد من يأتى ليتخذ من أفلام إسماعيل ياسين فى الجيش، وفى الطيران، وفى الاسطول مرجعاً لدراسة تاريخ قواتنا المسلحة..

د. رفعت السعيد

شكراً للقراء

ارتفع توزيع عدد فبراير بنسبة ٦٠٪ من التوزيع مما يجعلنا نثق أن التجديد الذى تم فى الهلال منذ يناير ٢٠٠١ استقبل استقبالا حسنا من القراء، وسيزيد ذلك من مسئولية أسرة التحرير والتزامها أمام القارىء ، وضرورة بذل مزيد من الجهد.

إن كل ما يحققه الهلال من التقدم ، مجرد خطوة على الطريق.

الهلال

ضرورة أن تسود المحبة بين أبناء الشعب

تناول كاتبان بالنقد كتاب «وطنية الكنيسة القبطية وتاريخها ، وهما الأستاذ طارق البشرى، وعمرو حمودة وذلك حفزنى للبحث عن هذا الكتاب لكى أطلع على ماجاء به ، وربما استشعر طارق البشرى التوجس والقلق إبان قراءته لذلك الكتاب الذى يدعو من وجهة نظره إلى الكراهية، لكننى حينما طالعت الكتاب وجدته يدعو



إلى الوحدة الوطنية والتصدى للاستعمار بكل أشكاله ، فضلا عن أن ماجاء بالكتاب كان سردا للحوادث التاريخية ، وليس تاريخاً بالمعنى المألوف ومن ناحية أخرى قرأت تعقيباً آخر لميخائيل بهيج مرقص فى هلال ديسمبر ٢٠٠١ تحت عنوان «تعقيب على مقال كتاب فى الكراهية!» وأثنى على مؤلف الكتاب لكونه - الأستاذ ميخائيل - شاعرا ينفعل بالأحداث ، منساقا للعاطفة، وقال إن الحوادث فيها حلوها ومرها، لكنه يتفق مع وجهة نظرى التاريخية ، حيث أطلق على الكتاب أنه سرد تاريخى وعلى أية حال فقد تناول الأستاذ عمرو حمودة فى تعليقه فى الهلال العدد الماضى بعض النقاط من بينها اتهام القس داود عزيز فى كتابه «أقباط مصر بين الماضى والحاضر» بصفات بعيدة عن الواقع مما لايخدم بشكل أو بآخر قضية الوحدة الوطنية ، بل إنه قال إن رجال الدين متشددون ، وهذا غير صحيح خاصة إذا علمنا أن رجال الدين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لكنه عاد وأثنى على رجال الدين الأقباط، ونوه فى ختام مقاله إلى كتاب القمص بولس باسيلى «الأقباط وطنية وتاريخ» وأنه كتاب محبة وسلام ووحدة وطنية ، وأنا هنا أؤكد على أن من ينقد عليه أن يكون نقده بناء موضوعيا ، وأن تكون لدى الناقد الشجاعة الأدبية للوقوف موقف الحق واعتدال واحترام وجهات النظر.

د. صمويل لبيب سيحة
المنيا

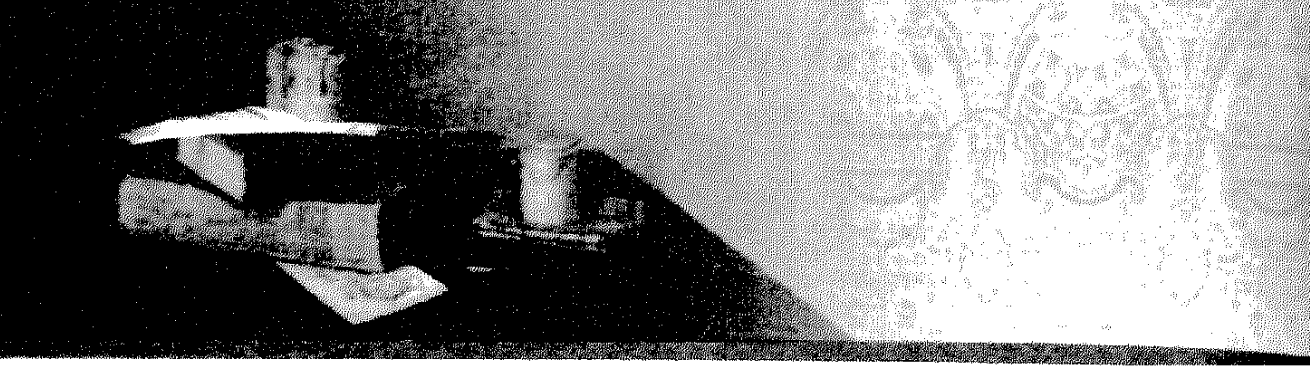
● **الهلال** : نؤكد على مايقوله القارىء العزيز الباحث صمويل لبيب سيحه على ضرورة بث الوئام بين الأقباط والمسلمين فى مصر وتوحيد كلمتهم وينبغى أن تسود المحبة بين أبناء مصر جميعاً.



نبيل العربي وكشف أسرار المفاوضات

المقال الذى كتبه الدكتور نبيل العربى القاضى بمحكمة العدل الدولية فى العدد الماضى من الهلال مهم جداً، حيث يكشف لأول مرة جانباً من أسرار المفاوضات مع إسرائيل.

والغريب أنه مازال عدد كبير من السياسيين العرب الذين شاركوا فى أحداث تاريخية ، لم يبح أى منهم بما جرى فى هذه الأحداث.



إن ماشاهدوه ليس ملكاً لهم ، ولكنه ملك للأمة العربية بأكملها ، وننتظر أن نقرأ على صفحات الهلال جوانب مهمة كالتى كتبها نبيل العربى عن هؤلاء السياسيين.

محمد الحسن
الرباط

يوسف السباعي في ذكراه

تمر الذكرى الرابعة والعشرون على رحيل الأديب يوسف السباعى ، والذى ولد فى ١٠ يونيه ١٩١٧ بالقاهرة .

بدأ الكتابة عام ١٩٣٣، ونشرت له أول قصة فى مجلتى وهو طالب بالمدرسة الثانوية، وتخرج فى الكلية الحربية عام ١٩٣٧، وعين ضابطا بسلاح الفرسان إلى جانب عمله بالقوات المسلحة ولعشقه للأدب فقد أسهم فى إنشاء نادى القصة وجمعية الأدباء، واتحاد الأدباء، كما رأس تحرير عدة مجلات، وكتب فيها قصصه وعين أيضاً رئيساً لمجلس إدارة دار الهلال، ثم وزيرا للثقافة والإعلام فرئيساً لمجلس إدارة الأهرام.

له ٥٢ كتاباً متنوعاً من بينها ٢١ مجموعة قصصية وله ١٤ رواية و٨ كتب تضم مقالاته فضلاً عن أربع مسرحيات وله كتاب فى أدب الرحلات ، وقد تحولت بعض كتبه الروائية إلى أفلام منها «انى راحلة – نادية – جفت الدموع– أرض النفاق – رد قلبى – بين الأطلال».

أثناء انعقاد مجلس التضامن الافريقى الآسيوى بنيقوسيا بقبرص اغتيل يوسف السباعى، وهو يدافع عن القضية الفلسطينية.

رجب عبد الحكيم بيومى
القاهرة – المعصرة



القدس

القدس دار للفخار ... وتاريخها شمس النهار
القدس قلب المسلمين ... بل إنها أسمى وقار
القدس فيض العارفين ... شعارها أجمل شعار
بالحق يسطع بيننا ... فيضىء فينا بانبهار
الظلم آن له الرحيل ... ويجىء فجر الانتصار
وسيذهب الأعداء من ... أرض العروبة فى انكسار
وسينشر الإسلام نوراً ... للبلاد كما النهار
والعدل يملأ كوننا ... والظلم ضاق به الحصار
والناس تطرب حولك ... ياقدس يا أحلى مزار
يارايه ظلت ترفرف ... فى سمو وازدهار
ياقدس أنت ظلالنا ... طاب لنا فيك السمار

أحمد نادي بهلول
عضو جماعة الأدب العربي - الاسكندرية

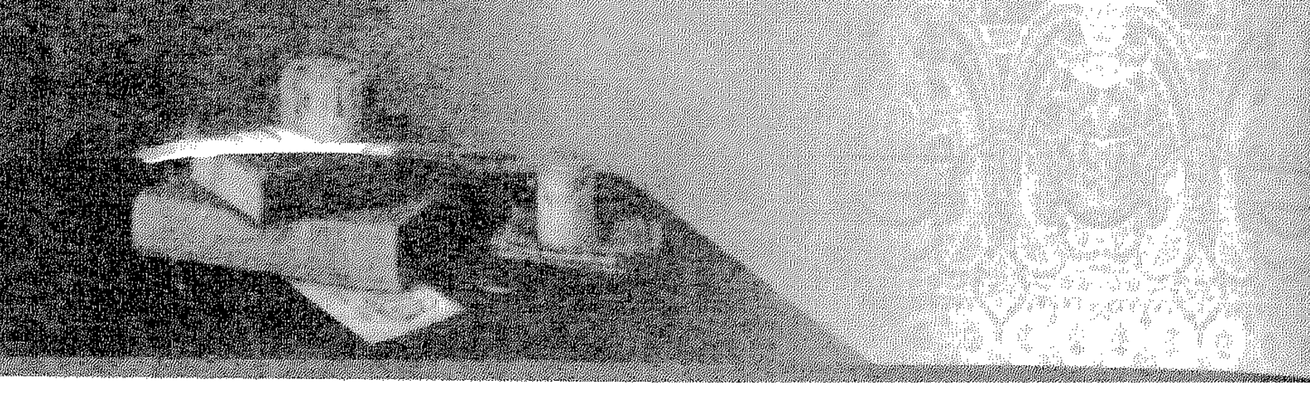
السادات ملك للتاريخ

الصديق المغربى مصطفى الطريبق وصلتنا منه رسالة تحت عنوان «السادات الشخصية والصورة» والتى حاول فيها تحليل شخصية الرئيس السادات ، وذلك على ضوء المقال الذى نشره الدكتور مصطفى سويف فى عدد يناير ٢٠٠٢.

وإذا كان د. مصطفى سويف قد حلل شخصية أنور السادات من خلال استعمال طريقة علم نفسية الجماهير كما فعل الكاتب الفرنسى «جوستاف لوبون» فإنه إنما فعل ذلك من منطلق كونه عالما وأديبا متخصصاً له وجهة نظر خاصة يؤمن بها..

لكن يبقى السادات فى نهاية الأمر ملكا للتاريخ كغيره من زعماء وقادة العالم شخصية مثيرة للجدل بين مؤيد ومعارض ، وبين ظالم ومنصف ، وهكذا فإن التاريخ يبقى دائماً هو الذى يقول كلمته الأخيرة .

الهلال



حسن الخلق

قال عز وجل لنبيه الكريم عليه الصلاة والسلام «وإنك لعلى خلق عظيم»، وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : كان الرسول خلقه القرآن ، ويقول عز وجل «خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين». صدق الله العظيم.

سأل أحدهم الرسول عليه السلام عن حسن الخلق فقال له : حسن الخلق أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ثم قال : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقال : ان أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق ، قال رجل للرسول عليه السلام :

أوصنى قال له : اتق الله حيثما كنت قال الرجل : زدنى قال الرسول : أتبع السيئة الحسنة تمحها قال الرجل : زدنى قال الرسول : خالق الناس بخلق حسن صدق رسول الله .

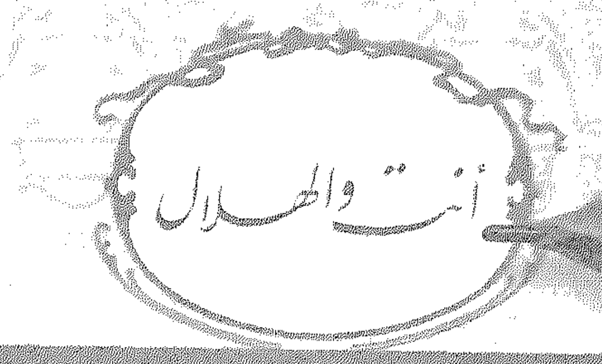
هذا عن حسن الخلق أما سوء الخلق فيأتى على رأسه الكبر وقد عد الجاحظ المتكبرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية ومن العرب بنى جعفر وبنى عدى أما الأكاسرة فكانوا يعدون انفسهم أربابا وغيرهم من الناس عبيدا يقول عز وجل فى فرعون الذى طغى وتجبر «ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون» .. يقول أحد العارفين : لايتكبر إلا كل وضيع ولا يتواضع إلا كل رفيع ويقول عليه الصلاة والسلام: ثلاثة مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه .

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الموسيقي والغناء - في مصر

استمتعت بقراءة مقال الدكتور نبيل حنفى والذى تناول فيه جوانب من حياة أم كلثوم ، بل إنه أنصفها فى مشوارها الفنى وردا على مقال سابق نشر فى الهلال.
فلماذا لا يكتب بانتظام عن تاريخ الموسيقى والغناء فى مصر؟..

سهام رستم
الزقازيق



قصة قصيرة

خدمة عامة

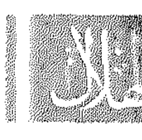
كانت جالسة محنية الرأس على ملف تعد أوراقه للعرض .. عندما جاءها صوته: صباح الخير .. ردت دون أن ترفع رأسها .. توقعت أن يترك الحجرة.. لكن صوته عاد يسأل بلطف كاذب : ماذا تأكلين هذا الصباح ..؟ رفعت رأسها عن الأوراق فواجهت عينيه الوقحتين وابتسامته اللزجة .. كانت فعلا تمضغ شيئاً فى فمها.

مدت يدها بعصبية وأخرجت من درج المكتب «باكو» لبان رمت به على سطح المكتب ..وعادت إلى أوراقها ..فجاءها صوته خشنا ومهدداً .. أنا لا أريد من هذا .. نظرت إليه فى غيظ .. فابتسم لها ابتسامة ماجنة وأشار إلى فمها : أنا أريد التى فى فمك .. بصقت اللبانة فى سلة المهملات وقالت متحدية : اتفضل خدها ... كانت تتمنى أن تبصقها فى وجهه .. لولا أنها تعرف أنه شخص شرير وأحمق .. وأنها وحدها فى الحجرة والمدير العام فى جولة تفتيشية!

....

انحنى هو على سلة المهملات والتقط اللبانة بأطراف أصابعه .. مسددا لها نظرات نارية وبصوت غليظ مهين قال لها ياآنسة .. الموظفة المحترمة التى تعمل فى مكتب محترم لاتمضغ اللبان أثناء تأدية عملها .. عيب ياآنسة أنت تعملين فى مكتب المدير العام ولست فى كازينو ... ثم رمى اللبانة فى وجهها .. وخرج.

فى اليوم التالى دخلت مكتب المدير العام تشتكى له .. وتحكى كل ماحدث ... استمع إليها المدير فى اهتمام شديد .. وقال غاضبا : كيف يحدث هذا فى مكتبى..؟ .. أرجوك ياسحر اقفلى باب المكتب وأضيئى اللمبة الحمراء فأنا لا أريد أن يدخل أحد ويسمع هذا الكلام القذر .... لاحظ المدير العام أن الدموع تلمع فى عينى سحر .. فربت بيده على خدها فى أبوة ومسح على شعرها فى حنان .. وجذبها برفق وأجلسها على ركبتيه .. قال لها : ياسحر يابنتى أنت تعرفين أن هذا الولد المجنون ابن أختى وكلها شهر وتنتهى سنة الخدمة العامة التى يقضيها معنا فى المصلحة ..تحمليه من أجل خاطرى ... وأنا من ناحيتى سأقطع لك رقبته ... سألها فى قلق

وهو ينظر ناحية باب المكتب أنت متأكدة أنك أضأت اللمبة الحمراء..؟... فلما أحنت رأسها بالإيجاب وهى تبتسم له ..مال عليها يقبلها!

وائل قنصوه
بالمركز القومى للسينما - القاهرة

إلي الأصدقاء

●● الصديق : رمضان إبراهيم بشير - أبو دياب شرق - قنا أرسلت لنا تطلب نشر قصة لك ، بعد أن نشرنا لك بعض انتاجك فى الشعر ..ومستحيل أيها الصديق الجمع بين الموهبتين فى آن واحد وأنت فى بداية الطريق اهتم بقراءاتك لكى تكون لديك أدوات الكتابة ، بدلاً من ضياع جهودك هنا وهناك!

●● الصديقة : باسنت محمد إبراهيم هاشم - كلية العلوم عين شمس «موج الحب» وكما أطلقت عليها من الشعر الغنائى وتقولين فى مطلعها:

كالموج يقذفنى يصفعنى من موجة الحب إلى موجة الحرمان. يحتاج إلى التأنى فى الكتابة والاهتمام بالوزن والموسيقى.

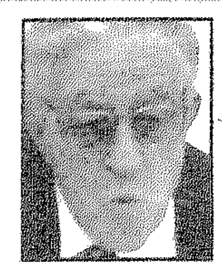
●● الجمعية المصرية للنقد الأدبى حددت البرنامج الأول للندوات والمحاضرات لموسم ٢٠٠٢، وذلك بمقر جمعية محبى الفنون الجميلة - جاردن سيتى - ٣ ش أحمد باشا خلف فندق النيل من جهة الكورنيش البرنامج فى شهرى مارس وابريل كالتالى :

الموضوع المقدم عنوانه تجربتى فى الكتابة الروائية : شهادات.

يوم ٣/٣ «هالة البدرى - خيرى عبد الجواد» تقديم د. حامد أبو أحمد.
يوم ٣/١٠ (صنع الله إبراهيم - إبراهيم أصلان) تقديم د. منى طلبه.
يوم ٣/١٧ (خيرى شلبى - إبراهيم عبدالمجيد) تقديم عصام بهى .
يوم ٣/٢٤ (سلوى بكر - محمد المخزنجى) تقديم حسنة عبدالسميع.
يوم ٣/٣١ (حافظ رجب - محمد البساطى) تقديم محمد الشحات.

● ونتقدم بالشكر للأصدقاء الذين وصلت مساهماتهم للباب ولم تنشر فى هذا العدد، آملين نشرها فى الأعداد التالية ■

الكلمة الأخيرة



أفلاطون فى معرض الكتاب

بقلم: د. أنور عبد الملك

من قال «بلاش فلسفة»؟ والحق أننا فى قلب أجواء الفلسفة هذه الأيام، هذا، مثلا أفلاطون «٣٤٨- ٤٢٨ ق.م.» أستاذ الفكر الجدلى فى القدم، يسعى فى محاوراته، وخاصة فى محاورة «الجمهورية» أن يحدد معالم المدينة الفاضلة، الجدل يدور بينه ورواده، طريق التنقيب عن الحقيقة دوما بعيدا بعيد عن «مكانك سر» إلى أن يأتى إلى الحل المنشود فى الجزء الخامس من هذا العمل الكبير. يقول بالحرف الواحد: «أما أن يصبح الفلاسفة ملوكا فى الدول، وإما أن يصبح أولئك الذين نطلق عليهم تسمية ملوك وأمراء فلاسفة، على وجه حقيقى وكما يجب»، ويضيف أنه مالم يحدث هذا الانصهار، «لن يمكن وضع حد للآلام التى تعانيها الدول، ولا كما أعتقد لآلام الجنس البشرى»

تساءلت: هل ترى هذا هو مقصد المشرفين على المعرض الدولى للكتاب، هذه المناسبة المرموقة التى تسعد ونفخر بها فى شتاء كل عام على أرض المحروسة بفضل ريادة الكاتب الأستاذ الدكتور سمير سرحان، وإلا فكيف يمكن أن نفسر أن سلسلة «لقاءات فكرية» تقتصر كليا، أو تكاد، على أصدقائنا السادة الوزراء وكبار المسئولين فى الدولة؟ إلى حد أن البعض يتساءل: هل تمت رسالة أفلاطون، وأصبح الحكام هم المفكرون المرموقون؟ وإن كان الأمر كذلك: فأين ترى مكانة المفكرين الذين يتخصصون فى صياغة المنظومات الفكرية والمفاهيم والنظريات الجديدة، وهم قلة علي كل حال؟

من الذى يمنع، ترى أن تتمتع بنوعين من «اللقاءات» سلسلة «لقاءات فكرية» وكذا سلسلة «لقاءات مع مسئولين» قد يكون المفكر مرشحا لمسئولية أو فاتته الفرصة السانحة، أو تم تهميشه أو تغييبه، ولكنه لايزال من صلب أسرة المفكرين المصريين، وكذا، ومن ناحية أخرى، من الممكن، ومن المستحب، أن يكون المسئول فى شئون الحكم ومؤسساته مفكرا بل وفيلسوفا، ولكنما غالبية المفكرين هم من هذه الفئة، أيا كان حظهم السياسى، وكذا فإن غالبية المسئولين عن الشئون العامة هم كذلك، وإن كان من بينهم والحمد لله من يصبو إلى مكانة المفكر.

المهم أن يتاح للعقل المصرى والوجدان أن يلتقى يوما بعد يوم خلال أسبوع المعرض بلفيف من أبناء الوطن وبناته الذين ينحتون الصخر، ويسعون إلى تطوير المعارف ورفع مستوى العلم والمعرفة، وذلك على تنوع مدارسهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية وكذا أعمارهم.

دعوة أفلاطون مازالت تتحدى ركود الحياة العامة وسطحية الحياة الفكرية، فى عصر تسود فيه قيم السوق الكوكبية، عند هذا الحد، يصبح التساؤل: كيف يمكن الارتقاء بمستوى العمل والفكر، الفكر والعمل، اللهم إلا بالاجتهاد للجمع بينهما فى طاقم متكامل، ولانقول متجانس بدءا من مشروع قومى حضارى يلهب قلوب الجميع؟

الهلال

السعدنى .. ومدافع الحنجورى

جريمة من العصر الحجرى

١٤٢٣ عام هجرى جديد

ملف خاص

أبريل ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

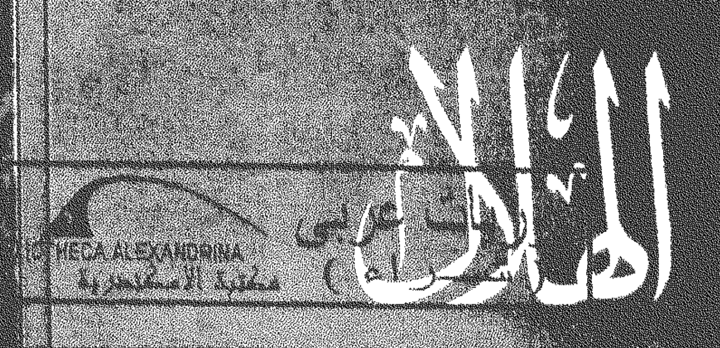
أسرار الأميرة التى قهرت الرجال



سيدة بجانب الزهور

للفنان الفرنسي : ديجا

• متحف اللوفر - باريس



مجلة شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي/ أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال- تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جنيه - أمريكا ٨ دولارات.

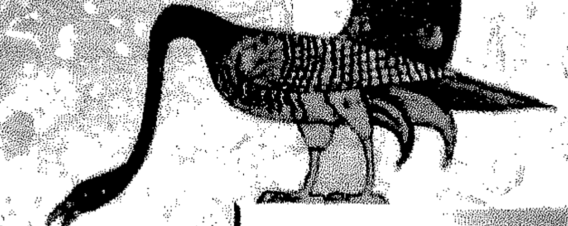
الفهرس



الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

الملكية الفكرية

تهب من جديد رياح استعمارية عاتية.

تهب أحيانا بحجة ضرورة أن تتبع الأطراف المركز ، والمركز هو الغرب الصناعى ، وتهب أحيانا أخرى على أساس التسليم بهيمنة الأقوى، مما يعنى أن يقبل الضعيف صاغراً ما يمليه عليه القوى ، وتارة تقوم علي أساس من احتياج دول العالم الثالث إلى انجازات التكنولوجيا، وهناك شروط يجب أن تلبى حتى تحصل على منجزات العلم وثورة المعلومات.

وتحارب ـ هذه الرياح ـ التلوث الناتج من الصناعة التقليدية فى دول العالم الثالث، بعد انتقال الدول الصناعية إلى مرحلة ما بعد الصناعة وتسقط قيود الحماية حتى يصبح العالم كله سوقا لمنتجاتها، وتظل الفجوة الحضارية والإنتاجية قائمة بين الشمال والجنوب ، وذلك تحت مسميات متعددة سواء «الجات» أو «منظمة التجارة العالمية» أو العولمة...

ألم تقم الموجة الاستعمارية السابقة على أساس ادعاء نشر حضارة الرجل الأبيض؟! وسارت جحافل قوات الاستعمار خلف أعلام تحرير العبيد تارة، وانتشال الشعوب البربرية من وهدة التخلف تارة أخرى؟!

وأيامها فرضت حرية المرور فى الممرات المائية الدولية.

●●●

واليوم تتحقق إحدى صور الهيمنة عن طريق حقوق الملكية الفكرية، التى يمارس باسمها أبشع أنواع الاستغلال، والحيلولة دون انتقال المعرفة الانسانية إلى من يحتاجها، وهى إحدى صور الكيل بمكيالين، وينقل ما لدينا دون أدنى اكتراث بحقوق الملكية الفكرية، و صادفت فى باريس العديد من الأعمال الأدبية المترجمة إلى الفرنسية التى لم يحصل ناشرها على حق نشرها، ويحضرنى هنا مثل كثيراً ما يردده د. أحمد مستجير والخاص بحقوق الملكية الفكرية بالنسبة للآثار المصرية المعروضة فى معظم متاحف العالم، والتى تتقاضى عنها تلك المتاحف الأموال الطائلة، ولن نتحدث هنا عن الاضافات العلمية والحضارية إلى التراث العالمى سواء من الحضارة الفرعونية أو العربية الإسلامية أو الصين أو الهند.

فهل يحق للصين مثلا أن تحصل على حقوق الملكية الفكرية لكل كتاب يصدر وهى صاحبة فكرة المطبعة ؟!

إن الاتفاقية الخاصة بالملكية الفكرية (التربس) التى تشرف على تطبيقها منظمة «الوايبو»، تمثل عائقاً أمام انتقال صناعة البرمجيات والدواء، خاصة بعد أن تابعنا

الاحتجاج الأمريكي على تخفيض سعر الدواء في جنوب أفريقيا!

●●●

أقول .. تهب رياح استعمارية عاتية..

ففي الماضي كانت الدول تسعى إلى نشر ثقافتها، وتقديم مؤلفيها، ونقل الأعمال الأدبية إلى اللغات الأخرى، وهو ما كانت تقوم به المراكز الثقافية الأجنبية، والتي تحولت مهمتها إلى ملاحقة تلك الأعمال، متجاهلين الفروق الضخمة في مستويات المعيشة ، والفجوة الكبيرة في أرقام التوزيع عندنا وعندهم.

وعندما نشرت «روايات الهلال» ، رواية «جبل الروح» للكاتب الصيني جاوزنج جيان (فرنسي من أصل صيني) والحائز على جائزة نوبل سنة ٢٠٠٠ ، وأبدينا رغبتنا في نشر الرواية ، واستعدادنا لدفع حقوق الملكية الفكرية للناشر الفرنسي . وعندما التقيت بمسيو بول فورنيل الملحق الثقافي في مكتبه بالمركز الثقافي الفرنسي ، تعامل معي بغطرسة وعنجهية استعمارية غير مقبولة، وتخيل نفسه أحد المستوطنين الفرنسيين بالجزائر أيام الاستعمار ، ورغم أنه لم يكن بيننا خلاف موضوعي ، لمست الروح الاستعمارية التي يتعامل بها، وأظن أنه أسلوب جديد جاء بعد أحداث ١١ سبتمبر الماضي.

●●●

وتهب الروح الاستعمارية البالية ، في حكاية فرديناند دي ليسبس ، حيث تثور بين وقت وآخر صيحات تطالب بإعادة تمثاله إلى مدخل قناة السويس، وكلما تخفت هذه الأصوات تعود إلى الصياح في جديد ، وتتعدد المبررات والذرائع ، مرة من أجل رواج السياحة ، ومرة أخرى من أجل علاقة أفضل مع فرنسا ومرة ثالثة بادعاء عدم المساس بالتاريخ .

وتظهر السفارة الفرنسية استعدادها تقديم مساعدات مالية وفنية من أجل اعادة احتلال التمثال مدخل قناة السويس.

وتتجاهل هذه المحاولات الحقيقة التاريخية ، فتمثال ديلسبس رمز استعماري أسقطه الشعب أو بالأحرى من قبل القوات الفرنسية والبريطانية خلال العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، فبعد العدوان أسقطت الجماهير الساخطة تمثال دي ليسبس باعتباره رمزا استعماريا وهو الذي حكمت عليه المحكمة الفرنسية بالنصب ووضع خلف القضبان بعد إدانته ، وإذا كانت القناة مشروعا مهما، إلا أن شروط امتيازها كانت مجحفة بالنسبة لمصر، يقول المؤرخ البريطاني إدوارد فيري .. «لم يحدث أبداً أن منح امتياز يكفل مزايا كتلك التي منحت لامتياز قناة السويس، ويلقي العبء كله على من أصدر الامتياز «الوالي سعيد باشا!!»

ويقول التاريخ أيضا، إن ديلسبس قد قام بدور شرير خلال الغزو البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ عندما تعهد لعرابي بمنع البوارج البريطانية من دخول قناة السويس ، وتصديق ذلك هو الثغرة التي هزمت من خلالها قوات عرابي في التل الكبير ، وكما أقيم تمثال ديلسبس في العصر الاستعماري قام الشعب بإسقاطه بعد الاستقلال .

أما ما يقال عن العلاقات مع فرنسا ، فعودة تمثال ديلسبس في مدخل قناة السويس يعطي مغزى مناقضا لحسن العلاقات ، فهو لايرمز للتعاون، ولايمثل وجه فرنسا الحضاري ولا الثقافي .

ويبقى الدور على عاتق أهل مصر في إنجاز النهضة، وتحقيق القوة والمنعة .

المحرر



ترميم القاهرة التاريخية

بقلم

كارولين ويليامز

سكرتيرة لجنة الحفاظ على آثار القاهرة الاسلامية بأمريكا

● مشكلات الترميم، وكيفية الخروج من الدائرة المفرغة!

● هذا هو المفتاح السحري لحل مشكلات القاهرة القديمة

الزجاج المعشق بمسجد قايتباي

كان للتراث الحضارى الإسلامى أثره الكبير فى تشكيل مدينة القاهرة حيث تمثل القاهرة القديمة بآثارها الفريدة نموذجا عربيا إسلاميا وإنسانيا ذا خصائص متفردة.

ولما كانت هناك أهمية خاصة للبعد الحضارى والبعد البيئى فى تشكيل عمران وحضارة المدن فإن القاهرة القديمة بما تضمه من كثير من العمارة المدنية والدينية والحربية تعد من أبرز المدن التاريخية ذات التراث الحضارى الإنسانى الذى يجب الحفاظ عليه وحمايته من عوادى الزمن، ومن أخطاء البشر.

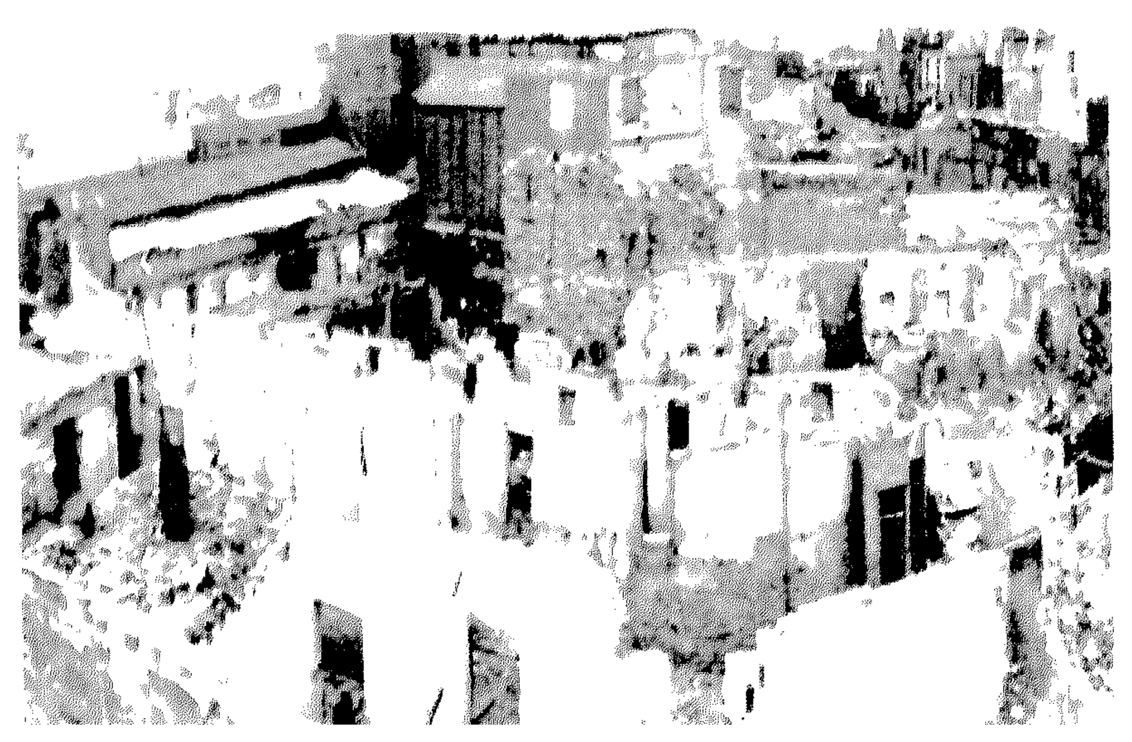
وسأروى هنا تجربتى الخاصة مع تراث هذه المدينة المعمارى، ورؤيتى لحماية هذا التراث والحفاظ عليه، ففى منتصف الستينيات من القرن العشرين عندما كنت أدرس العمارة والفنون الإسلامية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كانت هناك خرائط قليلة وكتب إرشادية يمكن الاستعانة بها للتعرف على شوارع القاهرة وحواريها ودروبها العديدة.

وكانت الخريطة الوحيدة المتوفرة هى تلك التى نشرتها وزارة الأوقاف ملحقة بكتاب من جزء ين بعنوان «آثار القاهرة» تشمل ٦٠٠ أثر تاريخى إسلامى، كنا نعتمد عليها لنتعرف على تلك الآثار فنجوب الدروب والأزقة الضيقة محاولين العثور على المواقع المدونة اسماؤها بالعربية، ولم يستطع أصدقاؤنا من سكان الزمالك أو جاردن سيتى أو حتى سكان تلك الأحياء أن يساعدونا كثيرا، فكان علينا أن نجد الطريق لهذه الآثار بأنفسنا.

وبهذه الطريقة الفريدة استطعنا أن نتعرف على القاهرة القديمة بتراثها المعمارى الرائع وبسكانها البسطاء الذين لايقلون روعة وودا.

دليل باركر

وكان أحد المهتمين بآثار القاهرة الإسلامية ريتشارد باركر أحد الدبلوماسيين بالسفارة الأمريكية بالقاهرة يؤمئذ، الذى وضع دليلا إرشاديا لهذه الآثار عام ١٩٧٤ وبه

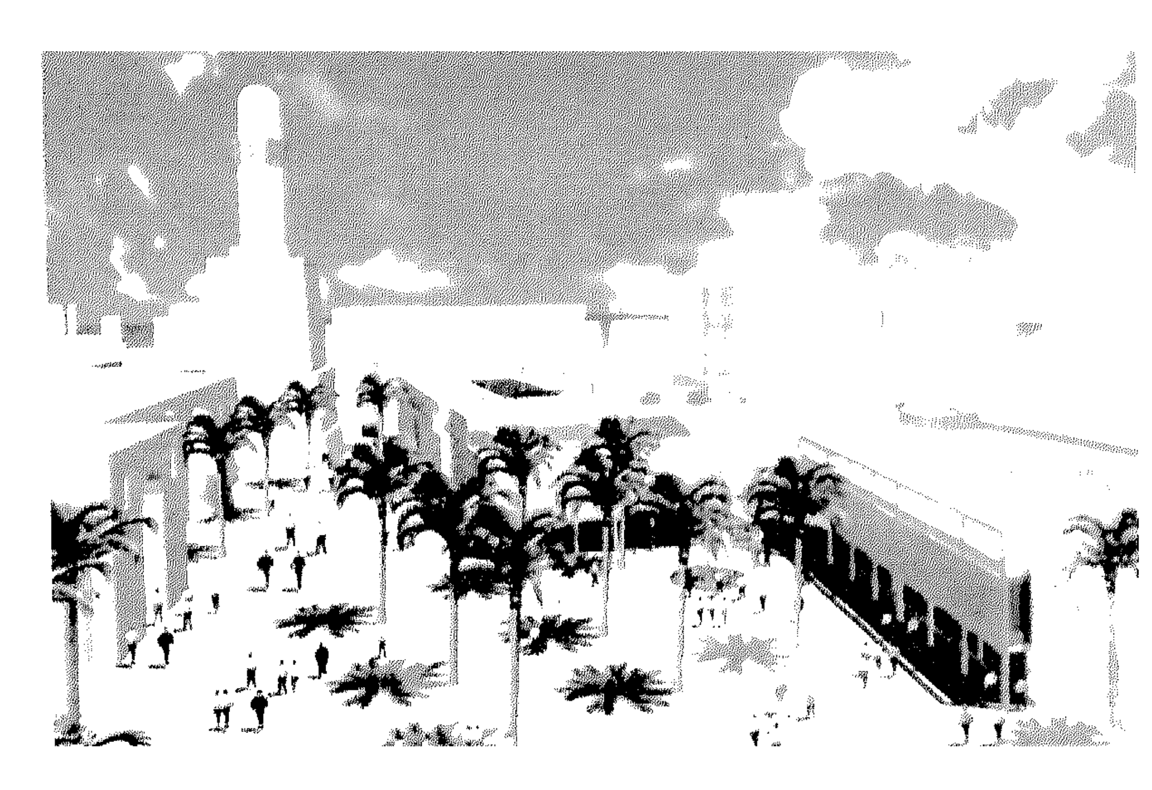


بعض المناطق الخربة بالقاهرة التاريخية

ثمانية طرق لمشاهدة آثار القاهرة القديمة عبر أزقتها ودروبها ومسالكها الممتعة.

وبعد عدة سنوات عدت للقاهرة مرة أخرى (١٩٨١ - ١٩٨٣) طلب منى باركر، (وكان يشغل وقتها منصب سفير الولايات المتحدة بالمغرب) أن أصدر طبعة جديدة حديثة من دليله فقمت بالعديد من الإضافات سواء بالنسبة للطرق أو الآثار العديدة، الأخرى، فظهرت الطبعة الجديدة المنقحة من الدليل عام ١٩٨٥ بعنوان «آثار القاهرة دليل عملي» كما صدرت الطبعة الرابعة عام ١٩٩٣، وفي فبراير ٢٠٠١ حضرت إلى القاهرة لزيارة آثارها قبل مراجعة الطبعة الخاصة من الكتاب، فقمت بالتجول فى شوارع الصليبة والدرب الأحمر والمعز لدين الله والجمالية وغيرها من معالم القاهرة الإسلامية واكتشفت حقيقة مؤلمة أن هذه الآثار التى ظلت مهملة لعقود طويلة لصالح الآثار الفرعونية قد جرى تجديدها فجأة، فوجدت عشرات العمال يقومون بكشط الأحجار وتنظيف الواجهات ويعيدون بناء الأجزاء الداخلية لهذه الآثار وإعادة تركيب الزجاج المحطم فى الشبابيك وتركيب قطع الرخام فى الأرضيات .

بينما تدور خلاطات الأسمنت بجانب السقالات الخشبية التى يمارسون من فوقها عمليات الترميم.



التصور المقترح للشكل الحضاري لشارع المعز من امام جامع الحاكم بأمرالله بالجمالية

وعندما زرت مسجد عمرو بن العاص بجنوب القاهرة رأيت لافتة كبيرة تعلن عن أعمال الترميم والتجديد التى تقوم بها إحدى شركات المقاولات المحلية، ورأيت فى الداخل رافعة ضخمة «ونش» تتحرك فوق الرءوس وشاهدت أعمدة رخامية جديدة عند المنبر، ولذلك كانت دهشتى مضاعفة وأنا أرى أحد المرشدين السياحيين يشرح لمجموعة من السائحين أن هذا المسجد يعد أقدم مسجد فى أفريقيا ومصر وبالنسبة لى رأيت مسجدا حديثا بفعل أعمال الترميم والتجديد!

وفى الشمال زرت مسجد الظاهر بيبرس فى الحسينية، حيث كانت شركة مقاولات أخرى تعمل على تجديد إيوان القبلة ولكن العمال غفلوا عن قضبان الجص المزخرفة على النوافذ والتى حطمها الأطفال بلعب الكرة فى الشارع.

وبامتداد شارع الصليبة كانت معظم المساجد تقريبا مغلقة أمام الزوار ولكن من خلال النوافذ كنت أرى الداخل وكأنه قد نسف بفعل قنبلة، حيث وجدت الأقواس «الأرش» ترتفع عليها السقالات، والفوضى تحيط بالمكان.

وفى باب زويلة حيث فناء الشيخ المؤيد أقيمت تمديدات جديدة محل الأشجار والطيور والزهور التى كانت تزين الفناء، أما مجموعة السلطان

قلاوون فكانت محاطة بالقماش الأخضر، ومنعت عنها الزيارة.

ترميم أم تدمير؟

ماذا يحدث إذن؟

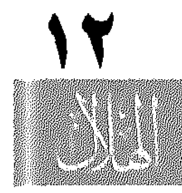
- توجهت بالسؤال لبعض العمال ولبعض أصدقائى بالقاهرة لكنهم لم يعطونى إجابة شافية كل ما عرفته أننى عندما كنت فى القاهرة عام ١٩٩٨ أصدر الرئيس مبارك شخصيا تعليماته ببدء برنامج لترميم آثار القاهرة الفاطمية، وهذا يعنى بالنسبة لى تلك المنطقة الواقعة بين باب الفتوح وباب زويلة إذن لماذا لايعملون فى الفسطاط أو فى شارع الصليبية؟

وأعترف إننى خلال أربعين عاما عرفت فيها القاهرة الإسلامية لم أر من قبل كل هذا النشاط فى الترميم ولا التدمير أيضا!!

وعند عودتى للولايات المتحدة مرة أخرى اتصلت بأصدقائى من محبى تراث القاهرة المعمارى والتاريخى لأسأل عما تقوم به شركات المقاولات من ترميمات بالطريقة العشوائية التى يعملون بها لكن الكثيرين من هؤلاء الأصدقاء الذين زاروا القاهرة أخيرا وعادوا منها لم يعطونى الجواب الشافى، ومنهم الدكتور ناصر الرباط الاستاذ فى معهد ماساشوستس التكنولوجى الذى كتب عدة مقالات فى الصحافة المصرية انتقد فيها أسلوب هذه الشركات العشوائى. ومنهم أيضا د.أندريه ريموند الذى كرمته مصر عام ٢٠٠١ من أجل دراساته المستفيضة لتاريخ القاهرة العثمانية، ومنهم أيضا د.جون رودنبك الذى عاش فى مصر منذ عام ١٩٦٥ ويعرف القاهرة حق المعرفة ألف كتابا أهداه إلى «ليلى ابراهيم» قائلا فيه ربما تكون آخر الأجيال الباقية على قيد الحياة ممن سيتمتعون بمباهج وعجائب «أم الدنيا»!

وحرصا على التراث الانسانى النادر الذى نحبه كل الحب وجهنا بالاشتراك مع ثلاثين خبيرا من مصر والعالم العربى وأوروبا والولايات المتحدة رسالة الى السيدة سوزان مبارك تضمنت كل الملاحظات حول ترميم آثار القاهرة القديمة، والمخاطر التى تترتب على ذلك وفى أغسطس الماضى (٢٠٠١) أرسل المجلس العالمى للتراث التابع لمنظمة اليونسكو بعثة لدراسة مايحدث وكتابة تقرير عنه باعتبار أن مدينة القاهرة مدرجة على قائمة التراث العالمى ولذلك يجب المحافظة على بعض المستويات المحددة لأساليب الترميم التى تقوم بها شركات المقاولات التى انتقدها التقرير.

ووصل الخطاب والتقرير لوزارة الثقافة المصرية فى وقت واحد ودعم



إحدي مراحل التوثيق الأثري والمعماري لواجهة سبيل السلحدار

كل منهما الآخر، وركز الاثنان على النقاط التالية:

١ - إن القواعد العالمية المتعارف عليها لأعمال الترميم تقضى باستخدام أقل قدر من التدخل فى مواد البناء الأصلية، ومطابقة المواد المستخدمة للمواد الأصلية وتسجيل كل الأعمال التى تجرى.

٢ - إن استخدام «أسمنت بورتلاندى» يؤدى إلى أضرار بالغة للآثار.

٣ - إن شركات البناء والمقاولات التى تستخدم أساليب ومواد البناء الحديثة غير مؤهلة للقيام بأعمال الترميم الدقيقة والحساسة.

٤ - إن ارتفاع منسوب المياه الجوفية يهدد بتآكل التراث المعمارى، وهى مشكلة لم يتم التعامل معها حتى الآن بكفاءة وفعالية ولم توضع لها خطة طويلة الأمد للتخلص منها.

وكان رد الفعل الأول لوزارة الثقافة هو اتخاذ موقف الدفاع والتبرير، ولكن بعد إدراكهم للنية المخلصة الصادقة لحرصنا وحبنا لتراث القاهرة الانسانى تفهموا ملاحظاتنا العلمية الموضوعية، ولذلك عقدت الندوة الدولية للترميم والحفاظ على التراث المعمارى للقاهرة الإسلامية (١٥ - ٢٢ فبراير ٢٠٠٢) بمساعدة منظمة اليونسكو، حضرها نخبة من علماء الآثار والمعماريون والمهندسون والمرممون والمؤرخون وخبراء المدن، وذلك للبحث فى أفضل



السبل للحفاظ على هذا التراث المعمارى النادر.

وكانت الخطوة الأولى جولة ميدانية لبعض المواقع المختارة التى تعانى من مشاكل الصيانة والترميم وهى «وكالة الغورى - مسجد ابن طولون - مسجد السلطان الغورى - سبيل قطب - وكالة السلطان قايتباى - بيت الهراوى - بيت السحيمى - سبيل وكتاب مسجد سليمان أغا السلحدار - وكالة عودة باشا» وغيرها ولم يتمكن الخبراء من مشاهدة مايجرى فى مجمع السلطان قلاوون.

تقدم مشجع

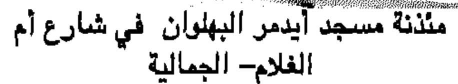
والملاحظة الجديرة بالتقدير أنه بعد التحرك الواسع من محبى هذا التراث الإنسانى النادر ومن منظمة اليونسكو فى الفترة من فبراير ٢٠٠١ وحتى أغسطس من نفس العام حتى انعقاد الندوة الدولية فى فبراير ٢٠٠٢ تغير الموقف بصفة عامة الى الأفضل، حيث منع استخدام الأسمنت فى الترميم وتم إبطاء معدل العمل، كما أن التحليل الفنى وتوثيق الأعمال التى تجرى قد ارتفع مستواها عن ذى قبل وتم الإعلان أيضا عن اكتشاف آثار جديدة ومدهشة تكشف جوانب أخرى من تاريخ القاهرة منها أعمال الاستكشاف فى المدرسة الأيوبية ومدرسة الكامل التى بنيت على جزء من القصر الفاطمى الغربى والتى كشفت عن أنابيب توزيع مع المياه ومن العصر العثمانى فى بيت الست وسيلة عثر المستكشفون على سلسلة من خزانات المياه تحت الأسبلة التاريخية فى القاهرة.

ومما يبعث على التفاؤل أن هناك معماريين شبان ومهندسين ومخططين يتميزون بالذكاء والنشاط كان حرصهم كبيرا على تلك الآثار النادرة.

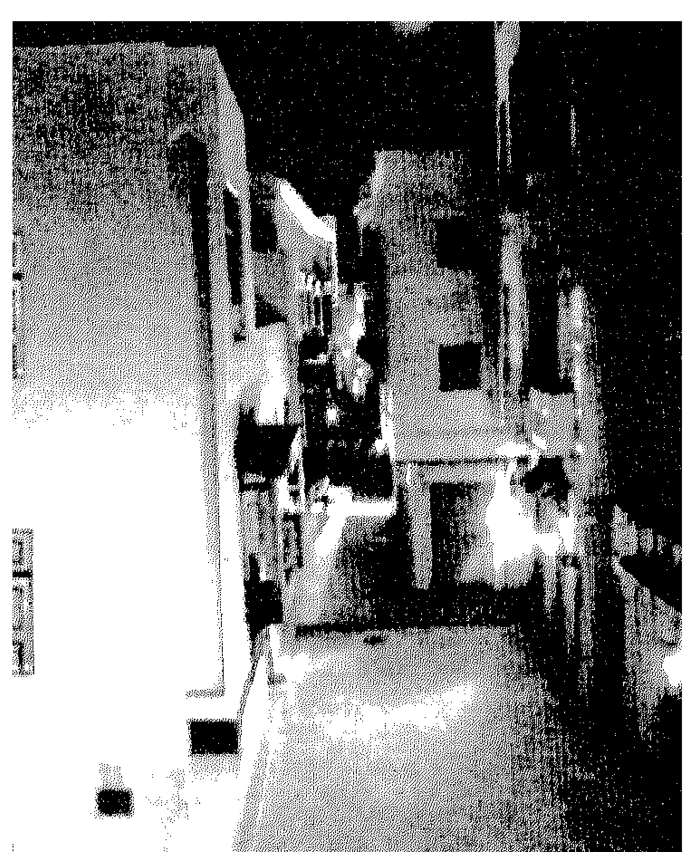
وقد سمعنا من كبير المهندسين فى الصرف الصحى بالغورى عن خطط لوزارة الثقافة المصرية. لإعادة تسكين المواطنين الذين يعيشون فى المنطقة وعن نيتها لعزل مواسير الصرف عن محيط الحى، وإعادة النظر فى مشروع للصوت والضوء نتيجة لتوصية مجلس التراث العالمى التى تهدف إلى التوصل لنظرة متكاملة للمنطقة تشمل البشر أيضا باعتبارهم جزءا أساسيا من الإطار العام للقضية (وللبناء).

مشكلات المرور والصرف

لقد أتاحت الندوة فرصة للحوار ومناقشة مشكلات المنطقة بصراحة ووضوح، منها مثلا خطة تحويل شارع الأزهر (من شارع بورسعيد إلى المنصورية) إلى منطقة للمشاة، تمت مناقشتها بصورة ساخنة أمام محافظ



مئذنة مسجد أيدمر البهلوان في شارع أم الغلام- الجمالية



منطقة بيت السحيمي بعد الترميم

القاهرة باعتبار أنها منطقة تجارية مهمة خاصة لبيع المنسوجات تأتى إليها الفتيات المقبلات على الزواج من كل أنحاء مصر لشراء لوازمهن ولذلك تم التوصل إلى حل وسط معقول مع التجار حيث قرر المحافظ إعادة النظر فى الأمر بشكل متأن وفى الوقت نفسه فإن فكرة زيادة الحركة المرورية الدرب الأحمر عن طريق جعله طريقا رئيسيا للباصات فكرة يجب رفضها لتأثيراتها السلبية على المنطقة .

كما يجب حل مشكلة تسرب المياه الجوفية، حيث أن ٨٠٪ من هذه المياه تأتى من التسرب الحادث من مواسير المياه والصرف الصحى، وتأتى خطورة المشكلة من أن هذه المياه محملة بالاحماض لاحتوائها على مخلفات الصرف فتمتصها الأساسات والجدران فى المبانى الأثرية مما يهددها بخطر بالغ، ومما يزيد من تعقيد المشكلة هو تلك الكثافة السكانية الكبيرة فى تلك المنطقة مما يطرح تساؤلا مهما: لماذا أعطت الأولوية لانفاق ٨٩٠ مليون جنيه مصرى لتمويل نفق شارع الأزهر لمجرد وصل شطرى القاهرة ببعضهما بدلا من تخصيص ٣٠٠ مليون جنيه فقط لتجديد شبكة المياه والصرف الصحى فى المنطقة بما يكفل حماية آثار تلك المنطقة؟.

التنسيق المطلوب

ولذلك فإن ترميم الآثار وخطط

تنمية المدينة التاريخية تتشابك على مستويات عديدة ويجب النظر إليها من كل الجوانب حتى تصبح قضية الحفاظ عليها متكاملة، فمثلا وزارة الثقافة التى تتولى مشروع ترميم القاهرة القديمة ووزارة الأوقاف التى تمتلك ما بين ٩٠ - ٩٥٪ من تلك الآثار ومحافظة القاهرة التى يدخل فى نطاق مسئوليتها هذا المشروع، كل واحدة منها تنظر إلى الأمور من منظورها الخاص بها فقط، لذلك فهناك حاجة ملحة للمزيد من التنسيق والتكامل بين هذه الجهات حتى يمكن إنقاذ القاهرة القديمة .

تنمية البشر قبل ترميم الحجر

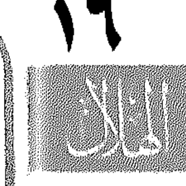
وهناك نقطة مهمة هى كيفية إحياء القاهرة التاريخية وإعادة توطين سكانها، فالمنطقة التاريخية برغم ثرائها الثقافي والمعمارى إلا أنها تعد من أفقر مناطق القاهرة وأكثرها كثافة سكانية وأقل مناطق القاهرة حظا من الخدمات ، ولذلك ركزت عدة جلسات من الندوة على حقيقة أن ترميم الآثار لايمكن نجاحه طالما لم تتغير الظروف البيئية والاجتماعية والثقافية المحيطة إلى الأفضل، وهذا يتفق مع مفهوم الترميم المتعدد الابعاد، والذى يعد تطورا لما كان عليه الترميم من قبل أى ترميم للآثار، الآثار بمعزل عن البيئة العامة المحيطة بها، ولذا فإن من بين المشكلات التى جرت مناقشتها أيضا المنازل المتهدمة فى المنطقة وضرورة توعية سكان تلك المنطقة ببيئتهم التاريخية وهنا يأتى أهمية دور المنظمات الأهلية التى يمكن أن تقدم الدعم المالى والفنى لتنمية المجتمع.

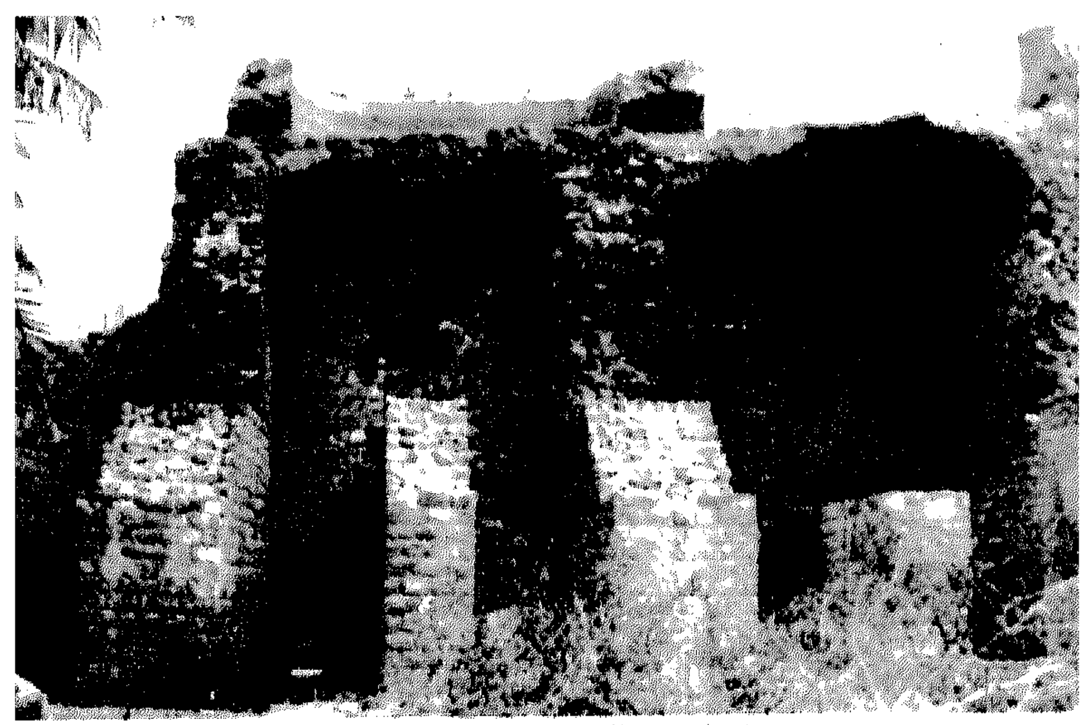
مطلوب الرؤية المتكاملة

ومن هنا يجب الاتفاق حول رؤية

كارولين ويليامز

كارولين ويليامز .. أحد أهم المتخصصين في الفن والعمارة الاسلامية .. حصلت على درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة هارفارد، وتعمل سكرتيرة لجنة الحفاظ على الآثار الإسلامية بالقاهرة و مقرها الولايات المتحدة الأمريكية، من أهم مؤلفاتها كتاب «الآثار الإسلامية للقاهرة - مرشد عملى» وأربعة اشرطة فيديو تصور حالة الآثار الإسلامية بالقاهرة. و في هذا المقال الذى خصت به مجلة الهلال تعبر عن آرائها وانتقاداتها الصريحة حول عمليات الترميم التى تشهدها القاهرة التاريخية اليوم.





انهيار بعض اجزاء مبنى الساقية في قصر محمد علي بشبرا

متكاملة للقاهرة التاريخية، وبحث كل النقاط الشائكة مثل: كيف يمكن إعادة استخدام المبانى المرممة؟ ومن يكون له حق الاستفادة من هذا التدخل الموسع؟ هل هم الأشخاص من كل أنحاء العالم الذين يحسنون تقدير القيمة الثقافية والتاريخية للمبانى؟ أم شركات المقاولات التى تقوم بأداء العمل؟ أم السائحون وهل هم العرب أو الأجانب؟

إن مشكلات الترميم التى تواجه القاهرة القديمة هائلة بحق وهى تفوق كثيرا مثيلاتها فى أى دولة عربية أخرى نظرا لتنوعها وتعددها.

وهناك مفتاح سحرى واحد لتستعيد القاهرة القديمة عافيتها وشبابها يكمن فى : التنسيق والتكامل بين الأطراف المختلفة والرؤية الواحدة لمشكلاتها ومتاعبها، وبذلك وحده يمكن أن تعود القاهرة القديمة مدينة ألف ليلة وليلة الساحرة التى ظلت دائما تلهمنا وتسحرنا وتثير إعجابنا وحبنا!

إن القاهرة التاريخية تقف على أعتاب عصر جديد وفى هذا المضمار يجب أن يسترشد المسئولون فى مصر بما جاء فى كتاب الله :

«إنما يعمر مساجد الله من أمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة، ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين». ■





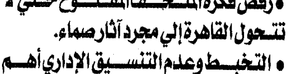
متى تستعيد القاهرة شبابها ؟

أكبر مدن العالم تاريخيا وأكثرها آثارا تحتاج إلي علاج حكيم

أمانى عبد الحميد

فلترفعوا أيديكم عن مدينتنا القديمة ، ولتحبوها أولاً كما أحببناها. نداء موجه الى كل من يهمه الأمر لإنقاذ آثار مدينتنا القديمة ليتحقق حلم المدينة الإسلامية الساحرة المتكاملة بمساجدها وأسوارها وحماماتها وأسبلتها التى يفوح منها عبق الشرق وسحره .

يعتقد البعض أنه عندما نتحدث عن القاهرة التاريخية أكبر مدن العالم و أغناها آثاراً اننا نمضغ كلاماً لاطائل منه، أقول لهم إن الأمر يستحق ذلك، نظرا لتزايد موجة الانتقادات والدفاعات وأخطار العشوائيات والتعديات الجائرة وإن كان الخوف يكمن فى أن تتحول مدينتنا إلى مجرد كعكة يتصارع حولها الجميع للفوز بالنصيب الأكبر منها .



• رفض فكرة المتحف المفتوح حتي لا تتحول القاهرة إلي مجرد آثار صماء.

• التخبط وعدم التنسيق الإداري أهم مشكلات ترميم القاهرة.

• الندوة الدولية للحفاظ علي القاهرة فرصة للمكاشفة ونقد الذات.

• المبني الأثري كائن حي عليه أن يتنفس بأهله.

د. جاب الله على جاب الله

• الترميم كعلاج المريض لا يقوم علي إلباسه ملابس مبهجة وإنما معالجة المرض من جذوره.

جيوفاني بوكاردي

• عمليات الترميم محفوفة بالمخاطر نتيجة انعدام التوازن بين الاحتياجات المطلوبة والحفاظ علي الأصالة والقيم التراثية.

د. فليمنج الوند



مئذنة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون نموذج رائع لفن الزخارف الجصية فى العصر المملوكى البحرى

وفى هذا الإطار قررت وزارة الثقافة دعوة عدد من الخبراء والمتخصصين فى مجال الحفاظ على المدن التاريخية والعمارة الإسلامية على مستوى العالم كرد فعل دفاعى لمواجهة بعض الانتقادات التى وجهها مجموعة من العلماء وعلى رأسهم كارولين وليامز أحد أهم المتخصصين فى الفن والعمارة الإسلامية عندما أرسلوا خطابا للسيدة سوزان مبارك يطالبونها فيه بضرورة التدخل لإنقاذ آثار القاهرة التاريخية من خطر الترميمات الخاطئة وغير المدروسة والسريعة، وأعتقد أن ذلك الموقف الدفاعى يعد أول انتقاد يوجه لوزارة الثقافة وللمجلس الأعلى للآثار حتى ولو صحت تلك الانتقادات وهى صحيحة ولا أحد يستطيع إنكارها فإنه ليس من الطبيعى أن يكون انعقاد ندوة دولية بمثل تلك الأهمية وذلك الحجم مجرد رد فعل للدفاع عن أنفسنا أو لتبرير خطأ (مقصود أو غير مقصود) وقعنا فيه خاصة أن القاهرة التاريخية ترزح تحت عبء العديد من المشكلات المعقدة والمتشابكة تحتاج إلى تدخل حقيقى وحكيم لعلاجها وكلنا على علم بهاوإنكارها والتستر عليها لن يفيدنا وإن كان يضرها .

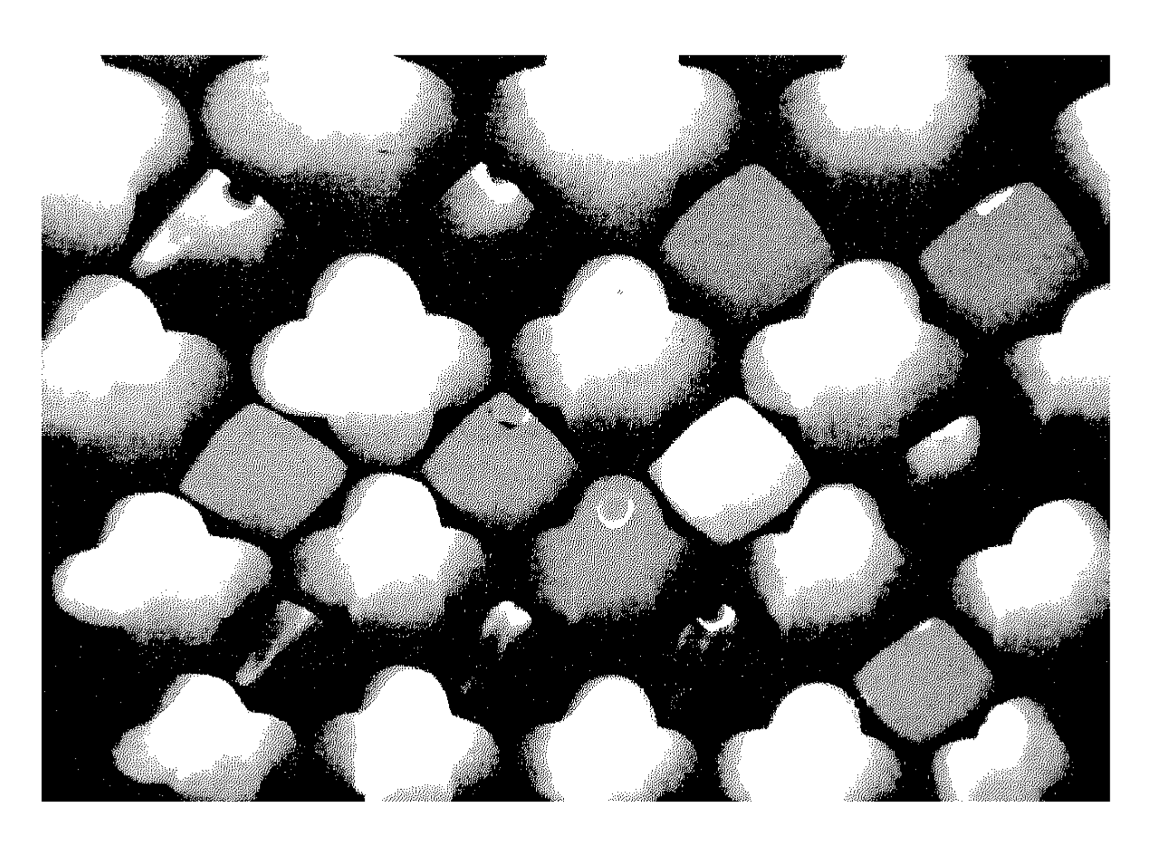
ومن بين تلك الأخطار التى تهددها المياه الجوفية، التلوث البيئى، الزحف العمرانى والكثافة السكانية المرتفعة، نقص العمالة الماهرة والكوادر الفنية المتخصصة فى الترميم والآثار المهددة بالانهيار وعدم التنسيق بين الجهات الحكومية المسئولة عن تلك المشكلات.

وكان من الأجدى أن نعقد تلك الندوة من منطلق الاستفادة الكاملة بخبرات علماء الآثار والمتخصصين سواء فى أساليب وفلسفة الترميم أو فنون العمارة الإسلامية.

حدود القاهرة التاريخية

قبل انعقاد تلك الندوة بدأ يظهر على الساحة الأثرية مصطلح «القاهرة التاريخية» والتخلى عما كان يطلق عليها «القاهرة الإسلامية» ورغم أن المسميات لن تغير من قضية الحفاظ على آثار القاهرة سواء كانت إسلامية أو تاريخية وإنقاذها من الاندثار ولكن الأمر المحير حتى بعد ختام أعمال الندوة هو الحدود الواضحة لمدينة القاهرة التاريخية.. فما هى تلك الحدود ومن أين تبدأ ؟ وأين تنتهى؟

حدد المجلس الأعلى للآثار من خلال كتاب «القاهرة التاريخية» الذى تم إعداده وتوزيعه أثناء انعقاد الندوة وهو عمل ضخم بكل المقاييس ونقطة تحسب لصالح الجهة المسئولة عن إعداده فهو يوثق ويرصد بالكلمة والصورة والرسوم التوضيحية عدد الآثار الموجودة داخل المدينة والحالة التى كانت عليها قبل البدء فى أعمال الترميم وعرض لمنهج وخطط العمل والأساليب المتبعة فى ترميم الآثار والأعمال الفنية والزخرفية داخل مدينة القاهرة وبرغم ذلك لم يقدم الكتاب تحديدا واضحا لمدينة القاهرة التاريخية بل واعترف بصعوبة القيام بذلك حيث يشير الكتاب إلى أن القاهرة التاريخية تحتل ٨٧,٣ كيلو متر مربع من النسيج الحضرى ويبلغ عدد سكانها ٣٨٠٥٠٠ نسمة.. وتضم ٣١٣ أثرا مسجلا يحدها باب الفتوح شمالا وجامع أحمد بن



سقف زجاجي لحمام بمنزل زينب خاتون بعد الترميم

طولون جنوبا وشارع بورسعيد غربا وطريق صلاح سالم شرقا.. ويقر الكتاب بأن الحدين الشمالي والجنوبي يتميزان بالوضوح فهما يتألفان من مبان أثرية ولكن مقدار ما يوجد في المنطقة من محتوى حضاري يتسم بعدم الوضوح ثم يعود ليوضح أن مصطلح القاهرة التاريخية يطلق على الكيان ككل الآثار والمدينة المفعمة بالحياة والسكان الذين تضمهم.

وكانت منظمة اليونسكو قد انتقدت ملف تسجيل القاهرة التاريخية في قائمة التراث العالمي وأكدت من خلال ورقة عمل قدمتها أمام الندوة أن الملف لا يقدم وصفا دقيقا للحدود الطبيعية للمنطقة ولا يشير إلى منطقة فاصلة بعينها فالامتداد الحقيقي للقاهرة لم يتحدد على نحو حتمي مطلق وهو أمر ضروري لإدراك

ضرورة المحافظة على المعالم التاريخية والنسيج الحضاري والحياة الاجتماعية للقاهرة حتى لا تصبح مجرد آثار صماء مغلقة.

د. رونالد لويكوك

القيمة البارزة لتلك المنطقة وليس فقط كونها تضم ٦٠٠ أثر، وأساسا لإنشاء آليات حمائية شاملة وهذا الإنتقاد الثاني الذي أوجهه إلى كل الجهات المعنية فهل من المعقول أن تقوم بعمليات ترميم واسعة وبمصادر تمويلية بلغت على حد ذكر الكتاب ٢٤٢ مليون جنيه مصري خصصتها الحكومة المصرية لوزارة الثقافة بغرض ترميم ١٥٠ أثرا من بين ٤٥٠ أثرا تقع في القاهرة التاريخية كما استثمرت اليونسكو حوالي نصف مليون دولار أمريكي منذ تسجيل «القاهرة التاريخية» في قائمة التراث العالمي وحتى

عام ٢٠٠٠ لصرفها على بعثات الخبراء وغيرها فى الأنشطة الخاصة بالقاهرة التاريخية .

كل ذلك ولم نستطع حتى وقتنا هذا تحديد الحدود الفاصلة لما أطلقنا عليه القاهرة التاريخية فهل من الممكن البدء فى مشروعات بمثل تلك الضخامة دون أن يكون لدينا تحديد دقيق لحجم المشروع؟!

وتلك قضية تعنى الجهات المسئولة بالدرجة الأولى ولا تعنينا نحن كمصريين أو كبشر عاديين فالقاهرة بالنسبة لنا رمز المدينة القديمة التى تحوم حولها أحلام شبابنا وعلى أعتابها نسجنا الكثير من الذكريات فهى بالنسبة لنا المكان بما تحويه الكلمة من معان رومانسية لكن بالنسبة لهم فهى مشروع ضخم يتوقف عليه الكثير من النتائج ويتم تنفيذه وفق خطط مدروسة جيدا ومحددة الميزانية!.

الترميم السريع

لا يخفى على أحد حجم الانتقادات التى يواجهها المسئولون عن ترميم الآثار فى مصر وبرغم أن لفلسفة الترميم مذاهب متعددة وكل حسب البيئة أو المنطقة التى يقع داخلها المبنى الأثرى وقد تناول أحد محاور الندوة أساليب الترميم وكان على رأس المحاضرين فليمنج الوند خبير اليونسكو صاحب التقرير الذى أيد النداء الشهير وأيد جميع الانتقادات التى وجهها العلماء لعمليات الترميم بالقاهرة وكان الوند قد حضر إلى القاهرة للتأكد من صحة ما جاء فى نداء كارولين للسيدة سوزان مبارك وفى أعقاب زيارة لمصر خلال شهر أغسطس عام ٢٠٠١ حذر الوند من التمادى فى إستخدام نفس الأساليب الترميمية المتبعة.

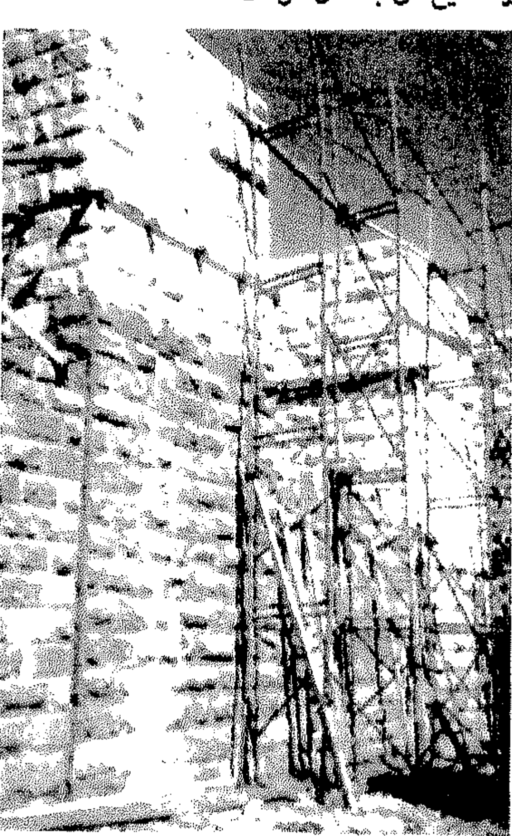
وفى تصريح للهلال حول ما شاهده خلال الزيارة الميدانية التى نظمتها الندوة للخبراء الأجانب أكد «الوند» أن ما يتم إنجازه من أعمال ترميمية يعد جهدا كبيرا على الرغم من وجود بعض التحفظات وكان «الوند» فى تقريره قد حذر من السرعة فى الأداء خاصة أن ما يتم من ترميمات لا يتماشى مع الخبرة الفنية المتاحة وبالتالى فإن عمليات الترميم تكون محفوفة بالمخاطر نتيجة انعدام التوازن بين الاحتياجات المطلوبة وبين الحفاظ على الاصالة والقيم التراثية الفريدة فى جانب آخر.

أيضا كان من أبرز الانتقادات الموجهة لأساليب الترميم المتبعة هى التحفظات الخاصة باستخدام الأسمنت، وتلك قضية تحتاج إلى نقاش طويل.

كذلك التحفظات الخاصة بالإصرار على إعادة بناء أجزاء كبيرة فى المبنى الأثرى حتى يبدو فى أبهى صورة إلى حد يصل إلى المغالاة فى تجديد بعض الآثار على حساب مواقع أخرى يهددها الانهيار التام وتقف فى طابور الانتظار ولا يصلب قوامها سوى بعض السقالات الخشبية، وهذا ما أوضحه الدكتور «رونالد لويكوك» أستاذ العمارة الاسلامية بجامعة كامبردج والخبير باليونسكو.. وأكد للهلال بعد زيارته لجامع أحمد بن طولون وبعدما رأى من أعمال ترميمات داخله «أكثر مما ينبغى وأكثر مما يحتاج إليه الجامع خاصة مع وجود آثار أخرى يهددها الانهيار.

تصور لشكل مسجد السلطان المؤيد شيخ عن بسكال كوست

أوضح الدكتور سعيد ذو الفقار الخبير السابق باليونسكو والبرفيسور بمنظمة الأغاخان للعمارة للهلال «ماذا يمكن أن نرى فى أعمال الترميم لجامع كبير بحجم ابن طولون ليلا على ضوء كشافات الاضاءة، وهو أمر غريب فلماذا كل تلك المغالاة فهى تفقدا الموقع طابعه وملامحه الأثرية المميزة له وتفقده أهم الشروط الأساسية لادراجة ضمن قائمة التراث العالمى.. وهى شروط تتناول أربعة جوانب من الأصالة (أصالة التصميم/ أصالة المواد المستخدمة / أصالة الأيدى العاملة/ أصالة المكان).. وفى حالة افتقاد الأثر للأصالة الأثرية يخرج من قائمة التراث العالمية ويتحول إلى مجرد مبنى جديد ، وهو الأمر الذى حدث مع جامع الأزهر ، والأقمر، والحاكم بأمره وهو ما يحدث الآن فى



سور مجرى العيون أثناء الترميم

جامع المؤيد شيخ .. ونخشى أن يستمر بعد انتهاء أعمال الندوة.

ويكفينا ما ذكره «جيوفاني بوكاردى» الخبير باليونيسيكو من مركز التراث العالمى وذلك خلال ورشة العمل التى عقدت ضمن - فعاليات الندوة عن أعمال الترميم لجامع المؤيد شيخ حيث قال :إن الترميم يقوم بدور الطبيب فى علاج الأثر.. فعلاج المريض لا يقوم فقط على إلباسه ملابس مبهجة ليبدو بصحة جيدة إنما علينا أولا معالجة المرض من جذوره ليشفى وتلك هى فلسفة الترميم.

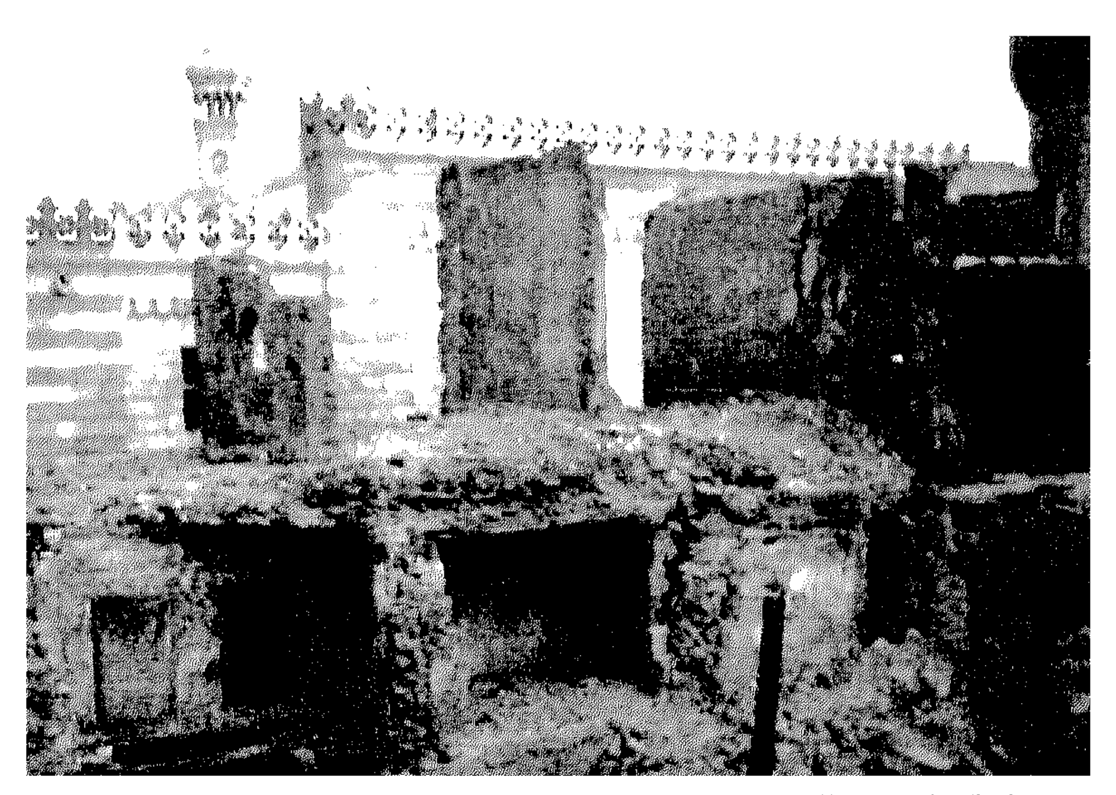
ويؤكد «بوكاردى» أن اللجنة الدولية وضعت حدا أقصى لعمليات التجديد التى تتم للأثر ومثال ذلك ما قامت به طائفة البهرة الهندية فى جامع المؤيد والتى أدت إلى تدمير الملامح الأصلية له ليبدو فى أبهى صورة.. الأمر الذى أكده الدكتور سعيد ذوالفقار وطالب بضرورة التفريق بين ما تم ترميمه وما تم تجديده أو إعادة بنائه حتى نكون صادقين مع انفسنا.

وكانت منظمة اليونسكو قد أبدت مخاوف تجاه أعمال الترميم وتدنى مستوياتها وإن كانت قد أكدت من خلال تقرير قدمته بعثة تقييم الموقف بعد زيارة القاهرة فى أغسطس ٢٠٠١ على المجهود الخارق الذى تبذله مصر من أجل ترميم عدد من الآثار الإسلامية.

متحف مفتوح

واجه مشروع تطوير القاهرة التاريخية انتقادا حول تحويل القاهرة إلى محمية أثرية عبارة عن متحف مفتوح وتصبح خالية فى سكانها .. فقد انتقد تقرير «الوند» مفهوم المتاحف المفتوحة الذى عفى عليه الزمان.. «وطالب بتجنبه مؤكداً «أن السياح الوافدين لزيارة القاهرة التاريخية يأتون لمشاهدة مدينة تنبض بالحياة وليس لزيارة متحف مفتوح مما دفع الجهات المصرية إلى التغيير والاهتمام بعلاقة البشر بالأثر ، كما يوضح الدكتور جاب الله على جاب الله الأمين السابق للمجلس الأعلى للآثار «إن المبنى الأثرى كائن حى يجب أن يتنفس وعند غلقه يفقد الحياة.. لذا يجب أن يظل المبنى مستخدما حتى لا يفقد الحياة نظراً للعلاقة العميقة بين البشر والأثر!!

لذا فإن القضية هى قضية تنمية الوعى الشعبى والتأهيل الأثرى لسكان المناطق الأثرية .. خاصة أن القاهرة مدينة تنبض بالحياة منذ ما يزيد على ألف ومائتى عام.. حافظت خلالها على طابعها الفريد.. الذى لا مثيل له فى العالم .. أهلها ظلوا يمارسون حياتهم كالمعتاد ونشاطهم منذ نشأتها .. فلا يزال الحرفيون والصناع والتجار الذين كانوا يعيشون منذ القرن الخامس الهجرى حول السوق جنبا إلى جنب الأمراء وعلماء الدين والباحثين فى الأزهر .. لذا فإن فكرة افراغ المدينة من أهلها وتحويلها إلى متحف مفتوح فكرة لا تتلاءم مع مدينة الحياة النابضة القاهرة.. ولهذا فإن تنمية وعى السكان بأهمية المكان وبضرورة احترامه والتعامل معه بشكل لائق يكون أفضل وأكثر تأثيرا من تهجير أهلها بعيدا عنها.. حتى لا تصبح مجرد آثار تاريخية صماء مغلقة.. كما يقول د. «لويكوك»



اندثار العديد من العناصر الإنشائية والمعمارية لوكالة قايتباي وتصدع معظم أجزائها

الصراع على الكعكة !

وأخشى أن تتحول قاهرتنا إلى مجرد كعكة يتصارع عليها المتصارعون للفوز بالنصيب الأكبر منها.. ولكن عندما تنهار من شدة الصراع يتنصل كل منهم من المسئولية ويحاول أن يلقيها على غيره.. هذا يحدث منذ زمن طويل بين الجهات ،والوزارات الحكومية حول القاهرة التاريخية.. فأهم وأعقد المشكلات التى عانت منها ولاتزال سببها التخبط الادارى بين الوزراء، وسوء التنسيق بين القرارات الصادرة ويذكر الدكتور صلاح زكى.. «طوال العشرين عاما الماضية ظل الصراع من أجل إعادة تأهيل القاهرة التاريخية مشتعلا ما بين وزارة الثقافة ومحافظة القاهرة ووزارة الأوقاف ووزارة الاسكان، دون التوصل إلى تسوية لحل المشكلات نظراً لنقص التنسيق بينها».. كما تنتقد اليونسكو عدم اعتماد خطط استراتيجية من قبل الهيئات التشريعية والتنفيذية فى مجال حفظ وإعادة تأهيل المنطقة، وتطالب بضرورة الاهتمام بتحسين القدرات فى مجال التنسيق وأخذ القرار والرصد والمتابعة

ولا أعلم متى ينتهى هذا التخبط ؟ وعدم التنسيق خاصة وحتى لا تتكرر مأساة احتراق المسافرخانة ١٩٩٨، ويظهر لنا أحد المسئولين ليقول « فقدنا كنزاً أثريا مهما»

وينتهى البيان الى هذا الحد!

علينا التفريق بين ما تم ترميمه وما تم تجديده أو إعادة بنائه حتى نكون صادقين مع أنفسنا.

د. سعيد ذو الفقار



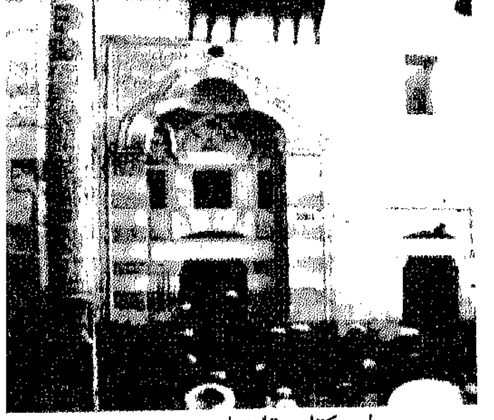
سبيل أبي الإقبال
بشارع الباطنية -الأزهر
قبل الترميم

موقف حساس

ورغم كل الانتقادات السابقة إلا أن هناك نقطة غاية فى الغرابة وحتى بعد انتهاء أعمال الندوة لم أجد لها مبررا، وهى المحاولات الحثيثة لمنع الخبراء من الإدلاء بأية تصريحات صحفية قد تحمل انتقادات لما يتم عمله داخل مشروع تطوير القاهرة وخلال أيام الندوة، كنا لا نشعر سوى أننا أمام مؤتمر أمنى لا مؤتمرا أثريا .. حتى أن الزيارات الميدانية التى قام بها الخبراء لبعض المواقع حرصت الجهة المنظمة للمؤتمر على عدم اصطحاب الصحفيين .. وعند سؤالى للأستاذ أيمن عبدالمنعم المشرف على مشروع تطوير القاهرة التاريخية أكد أنها زيارات مخصصة للخبراء فقط وغير مصرح للصحفيين بمرافقتهم.. ورغم أن قرار استبعاد الصحفيين قرار غريب إلا انه يوحى لنا بعدد من التساؤلات .. فمرافقتنا للخبراء ستزعج من ؟ الخبراء أم وزارة الثقافة ؟ أم أن الطابع الفضولى للصحفيين أمر غير مرغوب فيه؟ كلها مخاوف قد لا يكون لها أساس من الصحة لكن قرار الاستبعاد لا يثير فينا سوى الشكوك .. خاصة وأن عددا من الخبراء لدى سؤالهم عما شاهدوه خلال الزيارة جاءت ردودهم متحفظة نظراً لحساسية موقفهم.. وإن كانوا قد أكدوا أنهم لم يشاهدوا ما يكفى وكانت زيارتهم خاطفة غير متأنية.

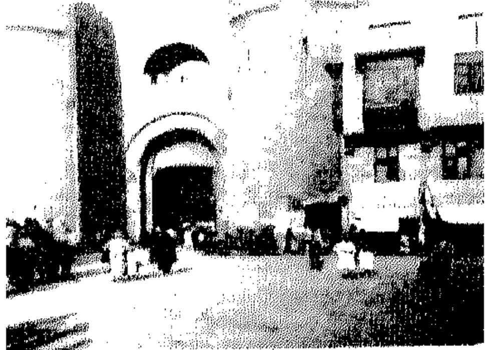
ولدى سؤالى الدكتور «لويكوك» لماذا لم يتطرق لموضوع القاهرة التاريخية فى دراسته التى قدمها امام الندوة حول «تحديات ترميم المدن التاريخية».. اكتفى بالتحدث عن (مدينة مدراس بالهند والمدينة القديمة بصنعاء القدس والمسجد الأقصى ومسجد الصخرة» وأكد لى:

«حضرت إلى القاهرة وغير مصرح لى أن أتحدث عن القاهرة القديمة» كيف يتأتى ذلك والندوة عقدت من أجلها خصيصا كما أبدى كل من كارولين ولياما وفليمنج الوند وجيوفانى بوكاردى تحفظاتهم وإن كانت كارولين قد أبدت استعدادها لارسال مقال الهلال عن مشاهداتها وانطباعاتها ولكن بعد الرحيل عن القاهرة (وهو منشور فى هذا العدد)


سبيل وكتاب قايتباي

لا أعلم لماذا هذا الموقف الغريب أو الموقف الحساس الذى يرى الجميع أنهم يواجهونه خاصة أن توصيات الندوة جاءت لتؤكد جميع الانتقادات السابق ذكرها وطالبت بضرورة الالتزام بها.. أى أن الندوة كانت فرصة ذهبية للصراحة والمكاشفة ولنقد الذات أيضا وأنها نجحت فى وضع أسس استراتيجية ليعمل من خلالها مشروع تطوير القاهرة التاريخية.. وأصبحت الأمور واضحة أمام الجميع.. وبرغم جميع الانتقادات التى وجهتها للجهات المسئولة عن تطوير القاهرة إلا أننا لا نستطيع انكار المجهود المبذول فى المنطقة ولكن يجب أن تتكاتف الجهود باخلاص للحفاظ على آثار القاهرة القديمة لتظل كما كانت دائما مدينة ذات سحر خاص بكل تراثها الحضارى الإسلامى المميز.


مسجد محمد ابو الدهب


باب زويلة

وفى النهاية لايسعنى سوى القول بأن القاهرة سواء كانت اسلامية أو تاريخية أو كما يريدون هى مدينتنا القديمة - مدينة أحلامنا وذكرياتنا - المكان الذى طالما حلمت بأن أبيت داخل أحد بيوته القديمة وأصلى وسط رواق جامعه الكبير واتسوق من حوانيته واحتسى الشاى الأخضر على مقاهيه العتيقة.. فهو المكان الذى تهفو إلى ظلاله نفسى.. بل واعتقد أن أهلها عندما بنوا ذلك الجامع أو البيت أو الوكالة فى قلب المكان كانوا يحلمون بيوم يقف فيه متأملاً ويقول كان هنا بناءون يحبون الجمال واقتبسوا منه بصيصا يتجملون به.


سور مجري العيون

وأقول لأهلها اليوم فلترفعوا أيديكم عن القاهرة ولتصونوا جمالها وتحافظوا على تراثها .. حتى لا تتحول إلى مجرد كنز يتنافس عليه الطامعون. ■

سبيل زين العابدين



معجزة النضال الفلسطيني

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

عندما بدأت كتابة هذه المقالة منذ أكثر من شهر اخترت أن يكون عنوانها «معضلة النضال الفلسطيني»، وعندما أتممت كتابتها منذ أيام قليلة رأيت أن أغير حرفين فقط من الكلمة الأولى في العنوان، فتصبح «المعضلة» «معجزة»، لأن منطق المقالة يرد أصلاً على أولئك الذين ارتدوا أثواب الحكمة، وأخذوا يدعون الشعب الفلسطيني إلى الهدوء، باعتبار أن استمرار الانتفاضة بات يشكل خطراً حقيقياً على نضال هذا الشعب.

ولقد تكفلت قوى التحرر الفلسطيني في الأسابيع الأخيرة بتقديم أبلغ الردود وأكثرها دلالة على منطق «الخائفين» على مصالح الشعب الفلسطيني، وذلك بإثبات قدرتها على الرد الموجع والمستمر على أعمال القتل والتدمير التي تمارسها دولة الإرهاب «إسرائيل» ضد الشعب الفلسطيني، الأمر الذي أفضى إلى تأكيد افلاس سياسة شارون - إن كانت له سياسة - عملياً وأخلاقياً.





ويعد هذا الإنجاز لقوى التحرر الفلسطيني من قبيل المعجزات، حيث أنها تعمل في ظل ظروف غير مسبوقة من منظور الغياب شبه الكامل للمساندة المادية من محيطها المباشر، وهو وضع لم تواجهه تجارب تحررية كبرى في ڤيتنام والجزائر واليمن على سبيل المثال، حيث كانت تتلقى دعماً مؤثراً من ذلك المحيط.

دعوة عربية إلى الهدوء

على الرغم من أن دعـــوات وقف الانتفاضة أو تهدئتها قد خفت إلى حين - مع النقلة النوعية التي تمت في أداء الانتفاضة - إلا انها مرشحة للعودة في أي لحظة بعد أن نجحت الانتفاضة في فرض نفسها على الساحتين الإسرائيلية والدولية ، مما أعاد التركيز على حديث التسوية ،وبالذات بعد قرار مجلس الأمن الأخير الذى دعا إلى إقامة دولة فلسطينية إلى جوار إسرائيل، وعندما ترتفع وتيرة حديث التسوية ترتفع معها وتيرة المطالبة بوقف الانتفاضة لمنح فرصة للتسوية، ويركز النقاش التالي على الدعوات العربية بإنهاء الانتفاضة - أو الشق المسلح منها على الأقل ، باعتبار أنها - أي تلك الدعوات العربية - أخطر بكثير من غيرها، كونها تصدر عمن يفترض أنهم يقفون مع الفلسطينيين في الموقف نفسه.

ولعل أخطر ما في الدعوات العربية التي ترددت هنا وهناك على الصعيدين الفكري والسياسي أنها قد خرجت من أناس مخلصين للقضية في معظمهم، يعتقدون بحق أن الانتفاضة تواجه مأزقاً خطيراً ، وأنها قد وصلت إلى طريق



مسدود وأن استمرارها على هذا النحو الذى يستخدم فيه المناضلون الكفاح المسلح من أجل استعادة حقوقهم بات عملاً أشبه بالانتحار فى ظل جنون القوة الذى يوجه سياسة شارون وتطورات الموقف الأمريكى الذى بات يعتبر فضائل النضال الفلسطينى المسلح فى عداد التنظيمات الإرهابية ، وهو من ثم اما أن يسكت عن تصرفات شارون ازاءها كحد أدنى أو يدعمه وربما يشاركه فى مرحلة لاحقة فى هذه المواجهة ، وهو خطر لاقبل للفلسطينيين به فى ظل المناخ النفسى والسياسى الذى يسيطر على الولايات المتحدة فى أعقاب أحداث سبتمبر المنصرم.

بناء على ما سبق فإن أصحاب هذه الدعوات يرون أن الطريق الوحيد الباقى أمام الانتفاضة هو أن تتوقف تماماً عن الكفاح المسلح ، وربما وصل البعض إلى تصور أن تتوقف عن كل أنواع الكفاح ، وأن تحاول استثمار ما حققته على مدار مايزيد على العام ووصل مغزاه ورسالته إلى العالم أجمع من أجل التوصل إلى تسوية سياسية تبدأ بتطبيق توصيات تقرير ميتشيل ونقاط تينيت، ثم تتصاعد إلى أن تتوصل إلى تسوية يرى أصحاب هذه الدعوات أنها ممكنة.

هل هذا صحيح!؟

كما سبقت الاشارة فان سمة الإخلاص تميز بالتأكيد نفراً ممن يدعون الفلسطينيين إلى الهدوء، وإلى ركوب قطار التسوية من جديد بعد أن يوقفوا انتفاضتهم، ولهذا فإن مناقشة هؤلاء الآن تبدو من أهم مايمكن لكى تكون الكلمة أمام الكلمة والرأى أمام الرأى فى مسألة تعتبر من أخطر مايمكن لا بالنسبة لحاضر الفلسطينيين ومستقبلهم فحسب وانما بالنسبة لحاضر العرب ومستقبلهم بصفة عامة.

ونبدأ بالقول بأن وقف أعمال الكفاح المسلح عادة يكون فى مقابل ثمرة سياسية، اللهم الا الوقف الاضطرارى الذى يحدث نتيجة هزيمة قاسية على سبيل المثال، وهنا لانكون ازاء مفاوضات حقيقية وانما املاء سياسى يأخذ طابع الاكراه ، فأين هى الثمرة السياسة التى يمكن أن تغرى الفلسطينيين بوقف انتفاضتهم المسلحة؟ لايمكن بطبيعة الحال أن يكون شارون وتركيبة حكومته الحالية مصدرا لهذه الثمرة.

والاتحاد الأوروبى الذى مازال يبدو قليل الحيلة على الرغم من التطورات الايجابية التى طرأت على مواقفه اللفظية، ولذلك فإن من يتحدثون عن وقف الكفاح

المسلح الفلسطيني عليهم أن يضمنوا لنجاح دعوتهم أن يكون هناك عرض سياسي مقبول كنقطة بداية ، وهي مهمة تبدو مستحيلة في ظل حكم شارون والانحياز الأمريكي الأكيد له، وضآلة التأثير الأوروبي حتى الآن. ولا تمثل التصريحات الأمريكية الأخيرة، أو مبادرة الولايات المتحدة بالتقدم بمشروع قرار تبناه مجلس الأمن ينص على انشاء دولة فلسطينية - لاتمثل نقلة نوعية في هذا الصدد تبرر وقف الانتفاضة، فالموقف الأمريكي ليس جديداً، وإن كان الباس ثوب مجلس الأمن يبدو تطوراً مهماً، لكنه لايلغي حقيقة أن الحديث عن دولة فلسطينية بحد ذاته لايضمن عرضاً جاداً للتسوية.

ومن ناحية ثانية فان أحداً لايفهم لماذا لا يكون وقف العنف - سواء كان كفاحاً مشروعاً من الجانب الفلسطيني، أو إرهاباً همجياً من الدولة الإسرائيلية - متبادلاً ؟ أن الحديث عن وقف العنف من جانب واحد هو الجانب الفلسطيني يظهره وكأنه هو المذنب في الموقف الراهن، فضلاً عن أنه يظهره بأنه الأكثر تلهفاً على تسوية بما يزيد من تشدد الطرف الإسرائيلي ازاءه.

وفي الرد الثالث على دعوات «وقف الكفاح المسلح» نقول ان الفلسطينيين ظلوا يعيشون عقوداً دون كفاح مسلح، فلماذا لم يلتفت أحد في الساحة الدولية إلى حقوقهم والتفاوض من أجلها.

وفي الماضي القريب ظلوا يعيشون حالة من الهدوء في أعقاب أوسلو لعدد من السنين فلم تتقدم عملية التسوية؛ بل أخذت في التباطؤ أولا ثم التراجع ثانياً حتى وصلنا إلى تنكر إسرائيل لالتزاماتها في أوسلو . وهي مسألة من أخطر مايمكن بالنسبة للدعوة الراهنة، ونكتفي هنا فقط بالاشارة إلى تراجع نتانياهو ومن بعده باراك عن منطق اوسلو الذي وقعت عليه إسرائيل، والذى كان يقضي بتسوية على مرحلتين انتقالية ونهائية ، وعندما بدأت لحظة الحقيقة تظهر ، وأدرك الإسرائيليون أن تسلم الفلسطينيين لنسبة كبيرة من أراضي الضفة الغربية والقطاع في اطار الحكم الذاتي سوف يقوى من شوكتهم في المفاوضات النهائية سارعوا إلى طلب الربط بين المرحلتين الانتقالية والنهائية، منقضين بذلك وبصفة تامة على جوهر نهج أوسلو الذى أجهز شارون عليه تماماً بعد توليه السلطة. ويعني هذا أنه حتى لو افترضنا جدلاً بأن ثمة أملاً في تسوية تترتب على وقف الفلسطينيين لكفاحهم المسلح ، أو لانتفاضتهم برمتها، فإن مصير هذه التسوية لن يكون أفضل من سابقتها إذا اشتم الإسرائيليون رائحة فائدة - مهما صغرت - يمكن أن تترتب عليها بالنسبة للفلسطينيين.

وتستمد الحجة الرابعة المضادة



لدعوات الهدوء من الخبرات الماضية ، فليس صحيحاً على الاطلاق مايريد البعض أن يوهمنا به بأن المفاوضات لايمكن أن تبدأ الا فى جو من الهدوء التام ، فواقع الأمر أن المفاوضات وبالذات فى المواقف التى تشبه الموقف الراهن فى فلسطين لم تكن تبدأ إلا فى مناخ المواجهة ، وأحياناً فى ذروة العنف ، بل لعل هذه الخاصية كانت بحد ذاتها من أسباب نجاحها بقدر ما تؤكده من توازن نسبى فى القوى، على الأقل بمعنى أن الطرف الأقوى غير قادر على اخضاع الطرف الذى يفترض أنه الأضعف، ولنذكر الأمريكيين بأنهم تفاوضوا مع الفيت كونج فى ظل أقصى درجات العنف، ونشير إلى تفاوض الفرنسيين مع الجزائر فى السنوات الأخيرة لحرب التحرير فى ظل ذروة النضال الجزائرى المسلح ، وكذلك تفاوض البريطانيين مع مصر فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى ظل تصاعد أعمال الفدائيين فى قناة السويس. وفى كافة هذه الأمثلة وغيرها فهم المستعمرون أو قوة الاحتلال الرسالة وادرك عجزه عن الانتصار بالقوة المسلحة وحدها، وضرورة التسليم ولو بحد معقول من الحقوق السياسية للشعوب المناضلة.

شهداء كل يوم!

أما الملاحظة الخامسة على منطق التهدئة فهى تذكرة ببعض أساسيات ادارة الصراع فى العلاقات الدولية، فعادة مايلجأ الطرف الأقوى عسكرياً إلى التهديد لكى يحصد ثمار قوته دون أن يستخدمها . ويقوم منطق التهديد على التخويف، فإن استجاب الخصم كان بها، وعادة مايعيد المهدد (بكسر الدال) حساباته إذا عجز عن تخويف خصمه، ولعل خبرة إسرائيل القريبة فى جنوب لبنان تؤكد لنا هذا المعنى، فكم مرة هددت حزب الله والدولة اللبنانية ذاتها بانزال عقوبات غير مألوفة عليهما، لكن الصمود اللبنانى قطع الطريق على هذه المناورات قبل الانسحاب الإسرائيلى المهين من الجنوب اللبنانى فى عام ٢٠٠٠ وبعده والعجيب أن من يحذرون الانتفاضة من هول ماينتظرها إذا لم توقف الكفاح المسلح ، ينسون أن إسرائيل تستخدم بالفعل أقصى مافى جعبتها من قوة فى مواجهة الشعب الفلسطينى الذى يسقط له شهداء، كل يوم، وينسون كذلك أن تكرار تجربة افغانستان فى فلسطين (بمعنى أن تدك فلسطين كما دكت افغانستان) يبدو

شديد الصعوبة على الأقل لأن افغانستان كان فيها حكم أقلية غريب الأطوار، أما في فلسطين فنحن ازاء شعب يعرف قضيته ويناضل من أجلها، وطليعة مقاتلة تعيش وسط هذا الشعب وتتلقى دعمه وتأييده. ولذلك فإن القضاء على الانتفاضة بنظام «تسليم المفتاح» الذى ابتدعته السياسة الأمريكية ليس أمراً وارداً فيما أظن.

وأخيراً فإن الغريب أن دعوات الهدوء تأتى فى الوقت الذى بدا فيه وكأن الانتفاضة قد بدأت تحدث تغيرات حقيقية داخل إسرائيل وخارجها، ففى إسرائيل يزداد عدد القتلى والجرحى فى كل يوم على الرغم من أشد الأساليب فتكاً التى تستخدم ضد الانتفاضة، وتظهر استطلاعات الرأى العام بداية هبوط شعبية شارون، ويبدأ تمرد ولو محدود وسط ضباط من القوات الاحتياطية الإسرائيلية، ونبدأ من جديد في سماع صوت حركة السلام الآن في إسرائيل بعد أن كان صامتاً لشهور عديدة، وتظهر تحولات فى الخطاب السياسى والاعلامى الأوربى، وتغييرات - تكتيكية على الأغلب - في السياسة الأمريكية. وإذا لم تكن هذه مؤشرات لبداية التأثير فكيف تكون المؤثرات؟ وما هى المصلحة المحددة فى وقف الآلية العربية الوحيدة التى يبدو أنها تؤثر حالياً فى مجريات الصراع العربى - الإسرائيلى لصالح الحقوق العربية.

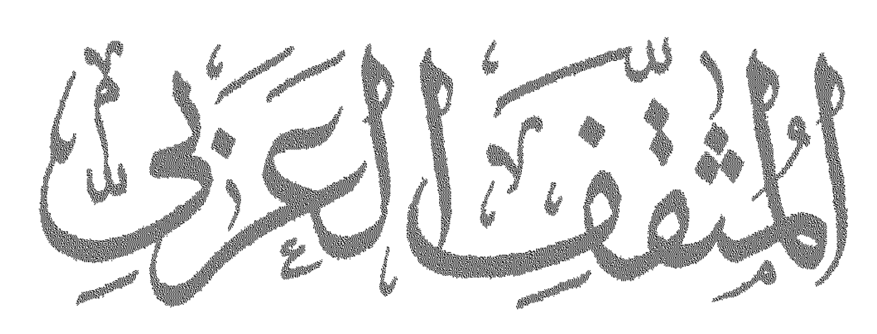
ما العمل؟

يبدو مما سبق أنه لامناص أمام الشعب الفلسطيني من الاستمرار فى انتفاضته، ومن حسن الحظ أنه قد اختار هذا النهج بالفعل ، وهذا لايعنى بالضرورة أنها يجب أن تستمر على الوتيرة نفسها وبالأساليب نفسها، فقد تتوقف الانتفاضة تكتيكياً إلى حين، وقد تقرر التوقف عن الكفاح المسلح لبعض الوقت إذا طرح عليها عرض سياسى جاد، وقد تقرر تركيز الكفاح المسلح على القوات الإسرائيلية والمستوطنات درءًا للجدل حول مايقال عن آثار سلبية للعمليات الاستشهادية فى الرأى العام العالمى.

لكن هذا كله يجب أن ينبع من قرار فلسطينى واع تشارك فيه كل الفصائل الفلسطينية المؤثرة، لأنها ان لم تشارك سوف يكون القرار الفلسطينى غير قابل للتنفيذ بحكم أنه لا يعبر تعبيرا دقيقاً عن الجسد السياسى الفلسطينى.

ومن ثم يكون فاقداً لأهم عنصر من عناصر قوته. بينما يكون صدور القرارات المتعلقة بمستقبل النضال التحررى الفلسطينى معبراً عن كل فصائل هذا النضال خير ضمان لاستمرار المعجزة الفلسطينية. ■

هموم



المثقف العربي

بقلم
د. الطاهر أحمد مكي

«ليكن الوطن مكان سعادتنا أجمعين ، لنبنيه بالحرية والفكر والمصنع» .

رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣)

«ثقافة» و«مثقفون» من أكثر الكلمات رواجا فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة ، ومن أقلها دقة وأشدها غموضا ، شأن مصطلحات فكرية وأدبية كثيرة ، أخذناها من الغرب ، وجاءت ترجمتها حرفية أحيانا ، وغائمة أحيانا أخرى ، فاستخدمها كل فرد كما يحب ويهوى ، وادعاها لنفسه من يستحق .

وأسهم فى هذا الغموض أن تعريفها التراثى غير واضح المعالم ، فهو مأخوذ من تعريف الأدب ، وهو : «الأخذ من كل شئ بطرف ووقفنا بالتعريف العربى عند هذا الحد ، مع أن الأدب والثقافة أمران مختلفان ، الأدب بعض الثقافة ، أما هذه فمرتبطة بتطور الإنسانية عامة ، وهى رمز التحضر ، وتعنى مستوى اجتماعيا متقدما ، يعتمد على الموروث الاجتماعى ، الذى ينتقل من جيل إلى جيل ، ويراد بها فى معناها الدقيق : «مجموعة العلوم والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والعادات والكفاءات والمهارات والانجازات التى حققتها الإنسانية عبر تاريخها إنها باختصار كل ما يرفع من مستوى الحياة، ويعلى من قيمة الفرد .

ولكن الحياة تتطور ، والمشكلات تزداد تعقيدا ، فرأى العلماء أن هذا الفهم قاصر ، لم يعد يوائم الحياة المعاصرة ، فعقدوا عام ١٩٨٢ مؤتمرا فى المكسيك

ضم مئة وثلاثين دولة ، لا أدرى إذا كنا قد اشتركنا فيه أم لا ، ولكنى أثق فى أنه لم يترك أى صدى ، فى أى جانب من جوانب حياتنا ، علمية أم عملية . دار نشاط الدارسين والمحاضرين والعلماء الذين اشتركوا فيه حول «نحو سياسة ثقافية» وانتهى بإعلان وثيقة حملت اسم «بيان المكسيك» ، تضمن ما أراه أكمل تحديد لفكرة الثقافة بمعناها الواسع ، حتى يومنا هذا . يقول البيان :

«الثقافة بمعناها الواسع اليوم ، هى مجموعة الملامح المختلفة ، الروحية والمادية والعملية ، التى تميز مجتمعا أو جماعة ، وتضم إلى جانب الفن والأدب أشكال الحياة ومنظومة القيم والتقاليد والعلوم والعقائد ، وتؤهل الفرد ليفكر بكفاءة فى ذاته ، وفيما حوله ، وتميزه نوعا ، فتجعل منه كائنا إنسانيا عاقلا وناقدا وملتزما أخلاقيا» .

ونأتي إلي ما هو جوهري .. هل لدينا ثقافة ومثقفون ؟

يبدو السؤال ساذجا ، وربما مضحكا، نعم لدينا صحف ومجلات ومكتبات ومدارس وجامعات ، ومسارح ودور سينما، ونقيم معرضا للكتاب كل عام يستمر أسبوعين ، وعشرات الإذاعات المسموعة والمرئية ، ومع ذلك فإن الإجابة ستكون نفيا قاطعا حين نضع الأمور فى نصابها .

القيم الضائعة

يقال أن الثقافة تصنع التقدم ، وهذا صحيح ، ولكن الذين يرددون هذا الكلام ينسون أن الثقافة بدورها ثمرة تقدم أعظم، نفتقد أسبابه بدرجات متفاوتة ، ويقع خارج نطاق الثقافة نفسها . إن مجتمعنا يعيش لحظات تاريخه الأشد قساوة وحرجا . لقد فقد معنى الحب والولاء ، وحلاوة الصداقة والإخلاص ، وقيمة الوفاء والالتزام ، وانفرط عقد الأسرة ، واختل بناء المجتمع ، وأضحى الفساد يغطى كل شئ ، في كل المستويات، لا تنزعجوا ، سوف أضرب لكم مثلا من عالمين هما من القداسة بمكان ، ومن الطهارة فى القمة ، أو المفروض أنهما كذلك : الجامعة والقضاء . بعض رجال الجامعة يقف الآن فى قفص العدالة أمام محكمة أمن الدولة متهما بالتزوير ، وبعض رجال الهيئة القضائية دخل السجن مدانا بالرشوة ، والتزوير أنواع والرشوة ألوان ، والراشون مستويات ، وبعض هذا وذاك يفلت من قبضة القانون !

مع عولمة الاقتصاد خضع كل شئ لقانون العرض والطلب ، بما فى ذلك الأفكار والمشاعر ، والأخلاق أيضا ، وعرف مجتمعنا عصابات المافيا الاقتصادية والسياسية ، تغتصب السلطة، وتنهب الثروة ، تتاجر فى النفوذ والرشوة، وتنهب البنوك ، وتثرى عن طريق المشروعات الوهمية ، ولا ترى بأسا فى أن تتجر بالمخدرات ، وأن تروج لتعاطيها ، فى بلد نصف سكانه أو أكثر يعيشون تحت خط الفقر ، ويعانون ألوانا من البؤس والتعاسة قليلة النظير .

وإلى جوار هذا التدهور الاقتصادى امتدت يد خفية آثمة إلى التعليم فخربت كل مستوياته ودرجاته ، وفى لحظة غير مسئولة ، يحار المرء فى معرفة دوافعها وأسبابها ، وسوف يقف التاريخ أمامها طويلا حين يدرس أسباب انهيارنا ، استصدر وزير التعليم العالى والبحث العلمى قانونا صيغ على عجل ، ولم يتضمن غير مادتين ، فصل بمقتضاهما دفعة واحدة أربع مئة أستاذ جامعى ، من شتى التخصصات ،

ومن أفضـل عناصر العلماء بحجة أنهم بلغـوا السـبعين عاما !

وعلى الرغم من كل التـقدم العلمى والتقنى الذى بإمكاننا أن نستورده ، إذا لم نكن نملكه ، فإن مشكلات الطبقة العاملة وصـغار الفلاحين لم تحل ، وموارد الدولة قليلا ما تستخدم للعناية بمثل هذه المشكلات الاجتماعية ، لأنها تنفق فى مشروعات هولامية أو تتسرب إلى جيوب محترفى السياسة ، والذين بين عشية وضحاها تحولوا إلى مليونيرات ، لا يعرف أحد كيف ؟ ولا يجرؤ إنسان أن يسأل من أين ؟ .

يتعرض الملايين من أبناء الوطن لأمراض لم نعهدها من قبل ، ولأوبئة مجهولة تتوارد عليه لم يعرفها فى تاريخه: الفشل الكلوى ، أمراض الكبد ، السرطان ، وغيرها ، ومع كثرتها فإن الجهد الذى يبذل فى مقاومتها محدود ، وبخاصة فى أقاليم جنوب الصعيد ، والمشافى الخاصة ، غير الحكومية ، فوق طاقة الطبقة الوسطى كلها ، فما بالك بالدنيا . والبطالة فاقت كل تصور ، وملايين الأطفال ، ومثلهم من الشباب ، لا سبيل لهم إلى غذاء مناسب ، أو تعليم معاون ، وإنه لعار مخز أن نصف شعبنا تقريبا ، فى بداية الألف الثالثة لا يقرأون ولا يكتبون ، على حين أن دولة مثل كوبا ، كانت فى مثل حالتنا ، استطاعت بعد تحررها أن تقضى على الأمية تماما فى سنوات لا تزيد على عشر .

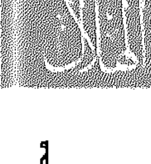
هذا الواقع المادى المتردى تربة صالحة لجرائم بشعة متنوعة ، لم يكن يعرفها مجتمعنا من قبل ، كالاغتصاب ، والدعارة ، وتجارة الرقيق الأبيض ، وقتل الابن لأبيه ، والزوجة لزوجها ، وهى جرائم تزداد كل يوم اتساعا ، وألفها الناس ، ولم تعد تثير اشمئزازا أو قلقا ، وجاءت مقاومتها بوليسية خالصة ، الاحكام العرفية ، وقوانين الاشتباه ، وملاحقة كل من يعمل على تغيير المجتمع إلي أفضل ، واتهامه بالتآمر ، والعمل على قلب نظام الحكم بالقوة ، وتغيير الدستور ، وهؤلاء المتهمون الذين يحاكمون على نوايا لا يملك الواحد منهم مجرد سكين يدافع بها عن نفسه ، وكل عدتهم إن صحت التهم الموجهة إليهم ، الكلمة الطيبة الصادقة وإقناع الآخرين بالحسنى .

المجرم الحقيقى

أما المسئول الحقيقى عن الجرائم البشعة التى تقع فعلا كل يوم ، فلا يزال مطلق السراح ، وأعنى به الفقر . على أحد جدران سجن فى أمريكا اللاتينية حفر سجين بأظافره ، هذه الأبيات من الشعر :

فى هذا المكان الملعون
حيث تورق الأحزان
لا يعاقبون الجريمة
وإنما يعذبون الفقراء !

هل يستطيع أحد فى مثل ظروفنا هذه أن يتأمـل أو يتـذوق أو يبدع ؟ كيف يتأتى لكاتب أو شاعر أو عالم أو مفكر أو فنان أن يستثمر مواهبه وإمكاناته وهو يفتقد الأمان بأوسع معانيه ؟ لكى يحقق ما يتمنى يحتاج إلى مناخ مناسب لشخصه



وفي مجتمعه ، وإلى حد أدنى من الظروف التي توفر له حاجاته الضرورية ، كي يعيش آمنا وكريما . وعليه لكي يعول أسرته ، أو نفسه ، أن يقبل أي عمل ، حيث يجب أن يستريح أو ينصرف إلى قراءاته وفكره وإبداعه ، والشريف الكريم المستقل لا يتلقى دعما من أية هيئة ، عامة أو خاصة ، وهو مستغل فيما يتصل بحقوقه الأدبية ، وليس هناك من يدفع عنه تغول الناشرين ، وليس له نقابة معترف بها ، وتدافع عنه ، واتحاد الكتاب على ضعفه وهوانه ، ليس معترفا به نقابة للكُتّاب ، أي المثقفين ، وإنما هو مجرد مجتمع بلا فاعلية ، لا لون له ولا طعم ولا رائحة .

المثقف بين السلبية والتهميش

المثقف الحق فى عالمنا العربى - لا فى مصر وحدها - هامشى أو مهمش .

هامشى لأنه دائما صاحب موقف ، ومن لا موقف له مجرد منافق يتاجر بالكلام الجميل ، وهذا الموقف يضعه دائما فى مواجهة السلطة ، وعدم الرضا عما يحدث حوله ، فهو والمجتمع لا يتفقان غالبا، لأنه محتج أبدا ، ورافض دائما لكل شئ سئ حوله ، وما أكثر السيئات التى تصطخب بها حياتنا وأفدحها !

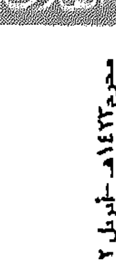
ومهمش ، أى متروك ، لأن أغلبية المجتمع تدير له ظهرها ، وتراه وأمثاله مجانين أو متمردين أو مجرمين ، ومرت فترة ، لا أظنها انتهت ، كانت تعتبر كل مثقف لا يسكت عما يرى من فساد شيوعيا ، والآن تغيرت «الاسطوانة» فهى تعتبره إسلاميا ، أو ارهابيا ، أو رجعيا ، أو مخربا ، أو ماشئت من تهم تبدأ بالعزل والتجويع ، وتنتهى بالسجن أو المعتقل .

الهروب إلى الهاوية

إحباط الشباب وإحساسه برفض عالم ينكر عليه كل شئ ، ويدمر أحاسيسه كل يوم ، وعدم ثقته فى المستقبل ، دفعه إلى الهروب من هذا الواقع ، واللجوء إلى عالم المخدرات ، والإغراق فى الفجور واللاأخلاق ، وإدمان الأدب الماجن ، وممارسة الجريمة ، وعدم الانتماء ، واللامبالاة ، وكلها اتجاهات ثمرة ما يحيط به ، تمكنت منه ، ونقلته من رفض المجتمع إلى كراهيته وتدميره ، والثقافة خلاصة «الكل» ، ومن ثم فهى تتغذى بكل جوانبه ، الايجابية والسلبية ، فهى كالحياة والموت وجهان لواقع واحد ، فيها خلاصة ما هو سام فى حياة الفرد ، إلى جانب سلوكيات وضيعة تخدش سمو الإنسان ، وتجعله مجرد تاجر يعبد المال ، والعظيم ، فردا أو مجتمعا هو من يحسن استغلال الفاضل الجميل ويتمسك به ، وينأى عن الفاسد الوضيع ويستأصله .

أهمية التنمية الثقافية

يبدأون بالتنمية الاقتصادية ، وهو اتجاه صحيح ، لأن الجائع والعارى والمريض والمفلس ومن يسكن الشارع ، لا يتذوق ولا يبدع ولا يبتكر ، وبعدها يجئ الحديث عن التنمية الثقافية على استحياء وهمسا ، وهو أمر خاطئ ، لأن أولية الاقتصاد وثنائية الثقافة لا تعنى أن الأول أهم ، لأن التنمية الاقتصادية مجرد وسيلة، على حين أن التنمية الثقافية غاية فى ذاتها ، وبدونها يتعثر تقدمنا الاقتصادى والحضارى



والثقافى معا . العلم والتقنية قد يخرجان عن رسالتهما فى خدمة الإنسانية ويستخدمان فى الحرب وقتْل الإنسان والحيوان والشجر ، على حين أن غاية الثقافة دائما تحريرها من الجهل والبؤس والرذائل ، وبناء الإنسان عن طريق التربية ، وخلق مجتمع قوى قادر على نبذ الكراهية ، وإشاعة الحب والخير والجمال ، وحين يحقق الفرد هذا المستوى العالى من التربية يمكن أن يفهم المشكلات الاجتماعية على نحو أفضل ، وأن يجعل من الثقافة عنصرا فاعلا ، يوقظ الأحاسيس الأدبية والفنية ، وينمى فى أعماق المواطن حاسة الخلق والابتكار .

إذن ، لخلق تنمية ثقافية ذات عائد لابد أن تسبقها تنمية اقتصادية تقضى على البطالة ، وترفع عن كاهل المواطن شرور الفقر والبؤس ، وتنتشله من هوة العوز والحاجة والمرض ، إلى جانب تربية سياسية صادقة مخلصة ومستقيمة تجعل من الديمقراطية واقعا ملموسا فى شتى جوانب الحياة ، تحترم حرية الفرد وخصوصياته وأمنه وسكنه ، يمارسها الطلاب فى الجامعة ، والأساتذة فى إدارتها ، والعمال فى نقاباتهم ، وأن يصبح الوطن كما كان قبل نصف قرن ، يعرف حرية تكوين الأحزاب ، وإصدار الصحف ، والتظاهر والإضراب ، وممارسة ذلك كله دليل صحة وعافية ، وأن تجئ المجالس النيابية والمحلية وليدة انتخابات نزيهة ، نوفر لحريتها كل الضمانات ، مجالس تستطيع أن تراقب السلطة التنفيذية ، وأن تقول كلمتها عالية، وتختفى معها هذه الصورة المشوهة القاتمة .

هذا أو الطوفان !

بعد هذا كله ، لا قبله ، تأتى التنمية الثقافية سياسة دولة ، تكمل ما سبق وتحرسه ، وترتفع بمستوى الذوق الجمالى والنتاج الأدبى فى المجتمع، وتكون فى ذاتها نموذجا عاليا للديمقراطية، حيث تتكافأ الفرص وتتلاقى وتتعاون على خلق ثقافة قادرة على الإسهام فى بناء الوطن ، ويتمتع بثمارها الجميع !

واقع المثقف العربى

ليس فى العالم مثقف أتعس من المثقف العربى الحقيقى . وراءه تاريخ حافل ، وورث حضارة عريقة ، ولكنه يعيش واقعا بائسا من كل جوانبه ، وأسوأ ما فيه أن المثقفين فى جملتهم استراحوا إليه ، وألفوه ، ولم يعودوا يرون سكوتهم عارا ، ومجاراته خزيا ، وأصبحوا كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقى ، قبل ثلاثة أرباع قرن :

يتلو الرجال عليهم شهواتهم
فالنابهون أشدهم ترتيلا
ويدللون إذا أريد قيادهم
كالبهم تأنس إذ ترى التدليلا

نعم ، هناك عقبات بالغة الصعوبة ، تحجب الحقيقة عن المثقف ، إعلام قوى منظم ، يزيف الحقائق ، ويخدع المواطنين، يكذب عليهم ، أو يصمت ، أو يقول لهم نصف الحقيقة ، يجعل من الغبى قمة الذكاء ، ومن الجهول عالما ، ومن الخامل نشطا ، ومن

الجبان شجاعا ، ومن الخائن بطلا ، ومن الفاسد قدوة ، ويقدم المناضل والرافض والمعارض على أنه مخرب وإرهابى وخارج على القانون ، ويحار المرء بين ما يقرأ ويسمع وما يرى على أرض الواقع. والقنوات الفضائية والإذاعات الخارجية ، على كثرتها وتنوعها وإفلاتها من أى رقابة ، في أيدى أعدائنا ، غايتها هدم مقوماتنا ، وتفتيت وحدتنا ، وإظلام الطريق أمامنا ، وبث الفرقة بين شعوب أمتنا ، وإشاعة الإحباط واليأس فى نفوس العاملين .

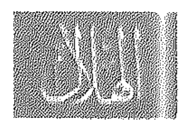
حاجتنا إلى نهضة حقيقية

نحن فى حاجة إلى نهضة حقيقية لا تقوم على مجرد تقليد الغرب ، والاندماج فى منظومته طائعين ، لأن الاكتفاء بنقل المعلومات والتكنولوچيا والتلقى دون الابتكار لا يخلق منا أمة عظيمة ، والاتكاء على السياحة لا يصنع مجدا ، وقصارى ما تنتجه فى نهاية المطاف «طبقة من الخدم » . بعضهم يزهو بأننا اشترينا أقمارا صناعية تدور حول الأرض، ولا أرى فى ذلك أية روعة ، لأن كل من يملك مالا ، والاغنياء كثر ، يستطيع أن يشترى قمرا وأقمارا إذا أراد، وإنما الروعة أن تصنعه كما فعل غيرك . الجدية وحدها والابتكار ، والطهارة في السلوك ، واحترام الذكاء والنبوغ والعقل ، هى التى يمكن أن تعاوننا على أن نجعل مصر الآن ، كما كانت بالأمس ، مركز الإبداع والحضارة والريادة السياسية فى المنطقة .

فى منتصف الأربعينيات من القرن الماضى ، لم تكن دولة مثل باكستان قد وجدت ، ولم تكن الهند قد استقلت ، ولا إيران ، ولا فيتنام الشمالية ولا كوريا الشمالية ، وكان البون شاسعا بيننا وبين هذه الدول فى التعليم والغنى والثقافة ، وكلها أصبحت اليوم قوى ذرية ، أو على أبوابها ، أما نحن .... ؟!

ما الذى انتهى بنا إلى هذا الحال ، وكيف الخروج من هذا التخلف المقيت والتبعية الذليلة ، واللامبالاة القاتلة ؟ نحن فى مركب واحد ، إذا غرق غرقنا جميعا وطريقنا إلى النجاة واحدة لا غيرها : ديمقراطية كاملة غير منقوصة ولا موصوفة نبرأ معها من العفن الذى نعيشه ، وصفوة مثقفة تجمع الخيرين تكون القدوة وتعطى المثل تعاليا وشموخا ونبلا وتضحية وطهارة ، تلتقى بعيدا عن المؤتمرات الرسمية الباذخة الصاخبة ، لا تنتج غير الكلام المنمق الجميل ، تدرس واقعنا العليل فى جدية بموضوعية ، وتقول رأيها صريحا . قد لا يتركونها تفعل ، ولكنها تستطيع لو أرادت وصممت .

وإلا ... فالطوفان أيها الناس ! ■





بقلم
د. مصطفى سويف

كان عقد الثمانينيات فى حسابات الحركة السياسية الدولية هو الجسر الذى عبر العالم فوقه لينتقل من مرحلة الثنائية القطبية إلى مرحلة أحادية القطب، كان العالم من قبل موزعا بين قطبين متكافئين فى القوة الرادعة ؛ فتحقق له من ذلك اتزان يقوم أساسا على الردع، ثم أصبح فى قبضة القطب الواحد ففقد توازنه، لأن هذا القطب بدأ يتصرف بلا رادع، كأنما أقسم ليفسدن فى الأرض حيثما كان له دبيب.



فلول الجيش الروسي أثناء الانسحاب من الأراضي الأفغانية ١٩٨٤

وفي حسابات الحركة السياسية على الصعيد الوطني كان عقد الثمانينيات برزخا للعبور من مرحلة غلب عليها الشطط في الفعل وفي القول معا إلى مرحلة غلب عليها قليل من أفعال الترميم وكثير من الأقوال التي لا تنفع وقد تضر. أما في حسابات الحركة الشخصية فلم ترتسم للثمانينيات عندي وظيفة الممر بقدر ما ارتسمت لها وظيفة المقر وذلك لإقرار ما كان من توجهات للحركة من قبل، وترسيخ هذه التوجهات ، وإكسابها مزيدا من بلاغة الدلالة وعنفوان الزخم.

نحو أحادية القطب

توالت على العالم في أواخر السبعينيات أحداث «كبرى قرأتها في حينها على أنها تعني أساسا تقليم أظافر الولايات المتحدة الأمريكية في سياستها الخارجية العدوانية.

وكان أهم هذه الأحداث خروجها مهزومة من فيتنام سنة ١٩٧٥، وسقوط حكم الشاه في إيران سنة ١٩٧٩، ثم احتجاز موظفي السفارة الأمريكية في طهران (كرهائن / جواسيس) حتى يناير سنة ١٩٨١، ثم فشل الحكومة الأمريكية (في عهد كارتر) في محاولة اختطاف الرهائن بوساطة مجموعة من الكوماندوز في أبريل سنة ١٩٨٠، إذ تحطمت الطائرات التي كانت تقل الجنود إثر عاصفة عصفت بهم فوق الأراضي الإيرانية فجعلتهم كعصف مأكول. وانتهت بذلك جولة قرأناها كما قرأناها (نحن أبناء الدول المستضعفة) ، لكن الأمريكيين والسوفييت قرأوها باعتبارها

جولة تتبعها جولات في الصراع المحتدم بينهما.



وفعلا بدأت الجولة الثانية في هذا الصراع مختلطة بخواتيم الجولة الأولى، ذلك أن الهزائم المتوالية التي حاقت بالولايات المتحدة وسياستها جاءت وفي صحبتها سلسلة من الانقلابات العسكرية توالت واحدا بعد الآخر في أفغانستان، وقد ادعى معظم قادتها أنهم يتجهون بالبلاد إلى الحكم الاشتراكي، أما أنهم كانوا كذلك بالفعل فهذا أمر لايزال حبيس الوثائق السرية! الشيء المهم أن الاتحاد السوفييتي زلت به قدمه فدخلت قواته أفغانستان في أواخر ديسمبر سنة ١٩٧٩، وكان هذا منعطفا مشئوما في تحديد مستقبل الاتحاد السوفييتي ومستقبل العالم. نرى ذلك الآن بوضوح ونحن ننظر بنظرة استرجاعية، ولكننا لم نره كذلك في حينه، ندركه الآن على أنه كان بمثابة السطر الأول في شهادة وفاة الاتحاد السوفييتي، أما وقت وقوعه فلم نزد على أن استنكرناه (أنا ومن كان على شاكلتي) باعتباره مظهرا من مظاهر هيمنة الدول الكبرى على الدول الصغرى، وحكمنا بأن الهيمنة هي الهيمنة، تنوعت الأشكال والجوهر واحد، على أي حال تداعت الأحداث بطول الثمانينيات تنهش في سمعة الاتحاد السوفييتي وتستنزف طاقته. وكان قد سبق له أن تدخل عسكريا في المجر سنة ١٩٥٦، وتدخل على هذا النحو كذلك في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، وفيما بين التاريخين حاول أن يتدخل بأسلوب مقارب في كوبا سنة ١٩٦٣، لكن المحاولة اجهضت، وقد خرج من هذه المحاولات الثلاث على اختلاف حظوظها من النجاح سليما معافى كقوة عظمى.

أما في سنة ١٩٨٠ فقد كان تدخله في أفغانستان مغامرة سيئة الحساب أدت إلى إنهاء فاعليته، ووجوده كدولة / نظام تسمى الاتحاد السوفييتي بكل ما يعينه ذلك من حسابات في سياقات الصراع الدولي.

كيف حدث ما حدث؟ يستطيع القارىء أن يرجع إلى مقال الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل المنشور في مجلة «وجهات نظر» في أول فبراير الماضي، فهو يروي بقدر كبير من التفصيل الخلفية التاريخية التي جرى إعدادها بواسطة الأجهزة المخابراتية الأمريكية لتوريط الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. وكيف كثفت هذه الأجهزة مجهوداتها في النصف الثاني من السبعينيات على إثر الهزيمة المذلة التي خرجت بها الولايات المتحدة من فيتنام، وفعلا كان لها ما أرادت، فدخلت القوات السوفييتية أفغانستان ، وكان الطعم الذي اجتذبها للدخول هو نداء الاستنجاد الذي أصدره واحد من قادة الانقلابات الأفغانية المشبوهة يدعى كارمل. وفي غضون أسبوع واحد من تاريخ دخول تلك القوات كانت الإدارة الأمريكية تنفذ السيناريو الذي أعدته مسبقا وهو استغلال الدين بأقصى

الطاقة لضرب الاتحاد السوفييتى فى هذه البقعة من الأرض، لم تفعل ذلك أيام هاجم السوفييت بوادبست فى سنة ١٩٥٦ ، بل استغلت فى ذلك الوقت أفكارا تدور حول معانى الحرية السياسية - الاقتصادية والصراعات القومية. وكذلك لم تلجأ إلى سلاح الدين عندما هوجمت تشيكوسلوفاكيا بل لجأت كذلك إلى إزكاء مفاهيم الحرية وصراع القوميات. أما هنا، وحول تخوم الشرق الأوسط فقد انتهت بها حساباتها وتشخيصاتها للمنطقة (حكاما وشعوبا وثقافة) إلى الاقتناع بأن استغلال عامل الدين سيكون هو الأجدى، وفى السبيل إلى تفعيل هذا السلاح أعدت أدوارا محددة لدول العالم العربى والإسلامى وفى مقدمتها باكستان والمملكة العربية السعودية ومصر، واحتفظت لنفسها بمهمة المخرج الذى لا يظهر على المسرح، وقد سلكت الولايات المتحدة فى أداء مهمتها مسلك المخرجين الأفذاذ، فهم لا يملون على الممثلين التفصيلات الدقيقة للكيفية التى يؤدون بها أدوارهم، لكن يطلبون إليهم أن يتقمصوا هذه الأدوار كما لو كانوا يعيشونها فى الواقع، ويصدقون أنفسهم إذ يعيشونها، وبذلك يتحقق التعاون الأمثل بين المؤدين والمخرج، وعلى عادتى كنت أحاول أن أعى كل صغيرة وكبيرة فى هذه المسرحية، وكنت أخرج من تدريبات تنشيط الوعى هذه بمزيد من اليقين بأن هؤلاء المؤدين السياسيين (الكبار منهم والصغار) اختاروا بكامل إرادتهم ألا يديروا مسرحيتهم فى هذه البقعة من الأرض على أساس المفاهيم الوطنية القومية لأن نارها قد تحرقهم فى المدى القريب، أما إدارتهم إياها على أساس الدين (الإسلامى) فى مقابل الإلحاد (السوفييتى) فسوف تؤدى الغرض المطلوب فى تلك الآونة (بواكير الثمانينات) وهو الجهاد لكسر شوكة الاتحاد السوفييتى، بغض النظر عما قد يترتب على هذا الأسلوب من آثار جانبية.

وأنظر الآن إلى الخلف لأستحضر هذا الماضى وأعيد قراءته فى ضوء الحاضر، وتلح على اسئلة لا حصر لها: لماذا لم يقم أولئك الساسة (والمؤدون منهم خاصة) أى وزن لمفهوم قداسة الدين وما يرتبط بها من مشاعر توجب ألا يعبث به (أعنى الدين) فى الصراعات الجماعية (أو الفردية أيا كان لونها) وإذا افترضنا أن هذا السؤال غير وارد فى لعبة السياسة عموما (أو أنه ساذج فى نظر المؤدين السياسيين) فهل يكون غير وارد كذلك انعدام التفكير فى الآثار الجانبية المدمرة لاستخدام سلاح الدين فى معارك تتغير توجهاتها وشعاراتها ويتغير القائمون عليها من حين لآخر، بينما الدين يتعامل مع الثابت والمطلق؟ وإذا كان للمخرج الكبير أغراضه التى ينفرد بها ولا علاقة لها بالدين (أى دين) من قريب ولا من بعيد أفلم يكن أولى بالمؤدين الصغار أن يبلوروا لأنفسهم ما يفرق بين عالمهم وعالم المخرج الكبير؟





لماذا كان ذلك التوحد مع أغراض المخرج إلى درجة تشبه الفناء في ذاته؟ وما قول السادة المؤدين فيما يجرى الآن من حولنا بشأن أفغانستان ، مرة أخرى؟ هل يرون فيه بعضا من آثار جانبية لما كان يجرى فى المنطقة نفسها منذ عشرين سنة؟ وهل يلومون أنفسهم على ذلك الماضى غير البعيد حتى نرى فى هذا اللوم بارقة أمل على أنهم قد يفيدون من دروس التاريخ؟ عشرات الأسئلة من هذا القبيل كانت تمر بخاطرى على امتداد العشرين سنة الماضية. وتنبعث مع هذه الأسئلة صور وذكريات مؤسفة لانعكاسات أحداث الثمانينيات هذه على أرضنا المصرية، هنا فى عقر دارنا (فى الشارع ، وفى الجامعات ، وفى أروقة الحكم) ، على أى حال. لست أدعى بطرح هذه الأسئلة أننى كنت أكثر فطنة أو أصدق وطنية من الساسة الذين شاركوا فى دراما الثمانينيات على اختلاف أدوارهم وتباين دلالاتها ، ولكن الفرق الرئيسى فى هذا الشأن هو أننى أسمح لهذا الفئة من الأسئلة أن تراوح ذهنى بين الحين والحين، وآذن لها أن تتوالد وتتكاثر ماشاءت لها معانيها ومراميها ، وهو الأمر الذى يتحاشاه هؤلاء الساسة حتى فى سريرة أنفسهم ، لأنهم أولا وقبل كل شىء يخشونها ، ولأنهم إضافة إلى ذلك يضمرون احتقارا للفكر أيا كان مستواه من البساطة أو التركيب. ويتباهون بأهم رجال عمل وحسب.

المد الأمريكى والجزر السوفييتى

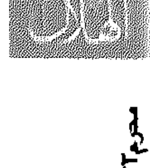
وتداعت الأحداث العالمية متسارعة على امتداد بواكير الثمانينيات، وكانت على كثرتها تدور حول محور رئيسى واحد، أو هكذا رأيتها ، وكنت أقرأ هذا المحور فأجده يعنى مدا للحسابات الأمريكية وجزرا للحسابات السوفييتية، فقد أعلن ريجان (وكان قد انتخب رئيسا للولايات المتحدة فى نوفمبر سنة ١٩٨٠) موافقته على صنع قنبلة النيوترون (سنة ١٩٨١) ، ثم قررت السوق الأوروبية المشتركة خفض وارداتها من الاتحاد السوفييتى (سنة ١٩٨٢) ، ولم تلبث إيران أن أعلنت عن حل الحزب الشيوعى الإيرانى (سنة ١٩٨٣) واعتقال ١٥٠٠ عضو من أعضائه وكذلك طردت عددا من الدبلوماسيين السوفييت من طهران . وفى بولندا (أضعف الحلقات الأوروبية الدائرة فى الفلك السوفييتى حينئذ) سارت الأمور من سيىء إلى أسوأ، فقد قام ليسن فاليسا (زعيم منظمة تضامن المعارضة للهيمنة السوفييتى) بزيارة لبابا الفاتيكان (سنة ١٩٨١) ، وأتبع ذلك بعد تسعة أشهر بالدعوة إلى مؤتمر للنقابيين من أعضاء منظمته للنظر فى مزيد من دعم نشاطات المنظمة، وبعد أقل من سنتين قام بابا الفاتيكان بزيارة الى بولندا حيث عقد لقاء خاصا مع ليسن فاليسا (١٩٨٣) ، وفى ديسمبر من العام نفسه أعلن فى الغرب عن منح ليسن فاليسا جائزة نوبل للسلام. وفى خضم هذه الأحداث التى لاشك فى أنها كانت منهكة للاتحاد السوفييتى . أصدر

الحزب الشيوعى الإيطالى (وكان أكثر الأحزاب الشيوعية نفوذا فى الغرب) انتقادات شديدة اللهجة لما أسماه فشل الاتحاد السوفييتى فى إقامة ديمقراطية سياسية وذلك بعد عمر يزيد على السبعين عاما. هكذا جرت أحداث الحرب الباردة بين القوتين العظميين، فى أواخر السبعينيات جزر أمريكى صحبة مد سوفييتى، وفى أوائل الثمانينيات جزر سوفييتى صحبة مد أمريكى. ولم تكن الحرب الباردة مجرد أحداث كر وفر تصدر عن الدولتين الكبيرتين. بل كانت إلى جانب ذلك أقوالا يطلقها ساسة كل من القوتين للتهديد أحيانا، ولإنطاق الأحداث بمعانى ودلالات أحيانا أخرى، وقد تخلّق من الأحداث والأقوال معا مناخ له سمات بعينها، وكانت أطراف أخرى أصغر حجما وأقل شأنا تستوحى هذا المناخ لتقرر مدى ملاءمته لكى تقوم من جانبها بمغامرة ما استجابة لأطماع خاصة (على طريقة الصيد فى الماء العكر) وهكذا انتعشت فى تلك الفترة آمال تشكيلة عريضة من ساسة الدول التى كانت تدور فى الفلك الأمريكى (تحت أى اسم او شعار)، فأسهمت كل بنصيبها فى إكساب صراعات تلك الفترة ملامحها الدقيقة، فى تلك الفترة أعيد تنصيب الجنرال بينوشيه (سنة ١٩٨٠) دكتاتور شيلى المعروف لفترة رئاسة ثانية تمتد ثمانى سنوات ، وفى إندونيسيا أعيد تنصيب دكتاتور آخر هو الجنرال سوهارتو رئيسا للبلاد ، وفى أسبانيا انتعشت آمال حفنة من الضباط لاستعادة عهد فرانكو باستبداده ودمويته فقاموا بمغامرة انقلابية ، غير أنها باءت بالفشل. وفى يونيه سنة ١٩٨٢ أقدمت إسرائيل على غزو الجنوب اللبنانى بحجة تأمين حدودها الشمالية ضد هجمات الفلسطينيين، وبعد قرابة شهرين من تاريخ الغزو أعلنت الشرطة اللبنانية أن عدد القتلى بلغ فى تلك الفترة عشرين ألف قتيل. وفى منتصف فبراير سنة ١٩٨٣ أذاعت وكالات الأنباء أخبار المذابح التى جرت فى معسكرى صبرا وشاتيلا ، واتهمت أرييل شارون بالتدبير لهذا المذابح ، وكان عندئذ وزيرا للدفاع فى بلده.

هكذا كان المناخ السياسى الدولى فى أوائل الثمانينيات ، بملامحه الغليظة والدقيقة.

وفى مصر

تشابكت أحداث السياستين الخارجية والداخلية مع الأحداث العالمية فى إطار القضية الأفغانية، فقد رحب الرئيس السادات بالتعاون الفعال ضمن حلفاء الولايات المتحدة فى الحملة الداعية إلى كسر شوكة الاتحاد السوفييتى ، بكل ما يعينه ذلك الترحيب من بنود معلنة (مثل تكثيف الحملة الدعائية ضد الاتحاد السوفييتى) ، أو شبه معلنة (مثل بيع قطع السلاح السوفييتى المكدس فى المخازن المصرية إلى الولايات المتحدة). وقد اكتسب هذا الترحيب زخما إضافيا من كون الرئيس





السادات كان يعتزم في تلك الفترة نفسها تمرير بقية مشروعة لإكمال تفعيل معاهدة الصلح مع إسرائيل في شبه غفلة من الرأى العام المصرى والعربى، وذلك بإقامة العلاقات الدبلوماسية بين مصر وإسرائيل (في فبراير سنة ١٩٨٠) ولكن أمل السادات في غفلة المصريين لم يتحقق، إذ أصبح التبرم المكتوم تبرما صريحا، بين كتابات صحفية ومظاهرات طلابية، وتداعت الأحداث بصورة تنذر بأخطار شديدة، وتعددت أطراف الصراع على الساحة الوطنية، أحدها يعمل باسم الإسلام السياسى، وآخر باسم الكنيسة القبطية، وثالث باسم المعارضة المدنية / الحزبية، ورابع يغرى السادات بأن يظل رئيسا للبلاد، مدى الحياة (انظر الفصل الخامس من «خريف الغضب» للأستاذ هيكل)، وفى سبتمبر سنة ١٩٨١ نشرت جريدة الأهرام أن الحكومة أغلقت خمس صحف، وقبضت على أكثر من خمسمائه شخص من فئات المعارضة المختلفة، وتذكرت عندئذ أحداث سنة ١٩٤٧ عندما أغلق اسماعيل صدقى رئيس الوزراء فى عهد فاروق سبع صحف بجرة قلم، وحدثتنى نفسى قائلة «تنوعت الأسباب والموت واحد»، الحاكم دائما على صواب، والمحكوم هو المخطىء!! وفى ٩ سبتمبر سنة ١٩٨١ وصل عدد المقبوض عليهم إلى ١٥٣٦ شخصا، نشرت أسماؤهم جميعا فى جريدة الأهرام، وأعلن عن نقل ٦٤ عضوا من أعضاء هيئة التدريس فى الجامعات (عن غير الطريق التأديبى كما نص القانون) إلى وظائف إدارية فى دواوين الحكومة، وتعرفت أسماء الأساتذة الزملاء ووجدت بينهم كثيرين ممن أعرفهم بأشخاصهم، وكانوا من خيرة الأساتذة علما والتزاما: وتعجبت (ولا أزال أتعجب) لمن يتوقعون من الجامعات أى انجاز علمى له وزن رغم أن الجامعات عندنا تعيش فى جو ملؤه العدوان والتهديد بمزيد من العدوان، وتعجبت ولا أزال أتعجب لمن يهاجمون الجامعات لتقصيرها بدلا من أن يهاجموا من دفعوا بها دفعا إلى هذا التقصير، أو على أقل تقدير أن يهاجموا الظروف المادية والمعنوية التى أحيطت بها الجامعات وكأنما يراد لها أن تستمر فى تقصيرها!!

وفى ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ اغتيل الرئيس السادات، وكشفت المحاكمات التى جرت فيما بعد عن أن الاغتيال تم على أيدى مجموعة من الشباب المنتمين الى بعض التنظيمات ذات الشعارات الإسلامية، التنظيمات نفسها التى أصر الرئيس السادات على مساندتها بامتداد معظم سنوات حكمه، رغم المشورة التى قدمها له وزير داخليته اللواء نبوى إسماعيل.

وأجدنى الآن وجها لوجه امام ذاكرتى عن وقائع المحاكمات التى جرت فى محكمة القيم لعصمت السادات، واستغرقت عدة أشهر، وصدرت فيها أحكام إدانة وحيثيات للأحكام لاتزال



تنتظر الكثير من جهود الدارسين من أساتذة التاريخ والسياسة والاجتماع.

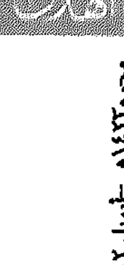
أين كنت، وماذا فعلت؟

شغلنى فى بواكير الثمانينيات عالمى الخاص بما يكفى لدرء خطر التشتيت أو التشوش، ووجدتنى كثير الترديد لقول المتنبى:

أقمت بأرض مصر، فلا ورائى
تخب بى الركاب ولا أمامى

وكان همى الأول هو التجويد اكثر من التجديد فى أعمالى البحثية والتعليمية فلم أنشىء فى تلك الفترة برنامجا يضارع فى وزنه «البرنامج الدائم لبحوث تعاطى المخدرات» الذى انشأته فى سنة ١٩٧٥ ولا أسست كيانا يضاهى فى رسالته قسم علم النفس الذى كنت أسسته سنة ١٩٧٤ ولا أسهمت فى تخليق دور جديد لى يعادل فى دلالته الدور الذى تخلق لى فى هيئة الصحة العالمية فى سنة ١٩٧١، لا شيء من هذا القبيل، ولكنى انصرفت إلى القيام بأعمال أملاها التوجه إلى تفعيل هذه الكيانات جميعا، والحرص على صيانتها، وأصبح شغلى الشاغل هو التوظيف الأمثل لهذه الكيانات بحيث أضمن لها أن تفصح عن أفضل إمكاناتها.

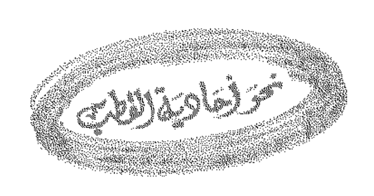
سافرت فى يناير سنة ١٩٨٠ الى مدينة دكار، عاصمة السنغال، وذلك من خلال انتمائى إلى هيئة الصحة العالمية لألقى بحثا فى التاريخ من ذلك الشهر حول الأسلوب الكفء لتقدير الآثار السلوكية والصحية والاجتماعية المترتبة على التعاطى والإدمان، وفى مارس سنة ١٩٨١ كنت فى طريقى الى تورنتو فى كندا للاشتراك فى مؤتمر محدود العضوية دعا إليه معهد بحوث الإدمان لتقويم مجموعة الدراسات العلمية التى نشرت فى العالم حول تعاطى الحشيش على امتداد السنوات العشر المنقضية منذ سنة ١٩٧٠ ، ومن كندا دعيت إلى هولندا للمشاركة فى مؤتمر آخر ينعقد فى الخامس من أبريل للنظر فى كيفية التناول التشخيصي والعلاجى والتأهيلى لضحايا العنف، وألقيت فيه بحثا حول الخدمات التى يمكن ان يقدمها الأخصائى النفسى العيادى فى هذا السياق، وعدت من المؤتمرين لأجد فى انتظارى النتائج المبكرة لأول بحث ميدانى اجريناه انا وفريق الباحثين العاملين معى باسم البرنامج الدائم لبحوث التعاطى بين تلاميذ المدارس الثانوية (العامة) على مستوى القاهرة الكبرى ، وتناولت تلك النتائج بمزيد من التحليلات الاحصائية ثم بالكتابة عما اسفرت عنه التحليلات من حقائق ، ثم بإرسال المكتوب ليأخذ دوره فى النشر فى دوريات التخصص، واتبعت ذلك بتحليل بيانات بحث ميدانى آخر كنا قدا أجريناه على تلاميذ المدارس الثانوية الفنية لنقارن بين احتمالات التعاطى عند هاتين الفئتين من التلاميذ، وأرسلت هذه الدراسة ايضا بعد أن فرغت من كتابتها لكى تلقى حظها من النشر فى احدى الدوريات المتخصصة وفى الحالين حمدت للمركز القومى للبحوث



الاجتماعية والجنائية تمويل البحثين بالصورة التي ارتضيتها.

وعن تلك الفترة ايضا لاتزال ذاكرتي تحتفظ باثار ممتعة لسلسلتين من المحاضرات كنت ألقيهما . . إحداهما كنت القيها على ضباط الإدارة العامة لمكافحة المخدرات، كنت أتناول فيها بعض نتائج بحوثنا الميدانية التعاطفي عند الشباب المصريين ، وكان أجمل ما يمتعني فيها شعوري بهذا التوظيف المباشر للعلم فيما ينفع العمل. وهو ما كنت احلم به منذ شبابي الباكر ومازلت أسعد به في سنوات الشيخوخة. اما السلسلة الثانية فكانت محاضراتي للطلاب الأطباء في أقسام الأمراض العصبية حول ما يسمى بالتحيز الوظيفي في حد شقي المخ. ومصدر متعتي في هذه المحاضرات هو طبيعة الظواهر النفسية العصبية ذاتها التي اتحدث عنها وتبدو لي كل ظاهرة فيها على أنها موطن الجزئية من جزئيات العلاقة المدهشة للصلة بين المادي والمعنوي في الإنسان.

والآن وبعد ان انتهت هذه الجولة، من المؤكد أننا لا نستطيع أن نرى في التاريخ تحركا متجانس الخطى، يبدو لي من مسيرة الأحداث في إطار هذا العرض أن مرحلة أوائل الثمانينيات في القرن العشرين كانت مرحلة مفصلية في تاريخ العالم، وتاريخ مصر. وفي هذا النوع من المراحل تتحمل القيادات



مسئوليات جساما فيما يتعلق بمستقبل مجتمعاتهم.

والسؤال الذي يطرحه هذا الكلام مباشرة هو: أكانت هناك حتمية تجعل من زحف الاتحاد السوفييتي على أفغانستان أمرا لافكاك منه؟

وهل كانت هناك حتمية أن يتسابق عدد من القادة العرب في ركاب الولايات المتحدة متبنين هدفها الاستراتيجي وهو القضاء على الاتحاد السوفييتي ، ومباركين أسلوبها التكتيكي في استخدام سلاح الدين (الإسلامي) لتنفيذ المخططات التي رسمتها واشنطن؟ وإذا قدر لنا أن نستغني عن كلمة الحتمية كما ترد في هذا السباق فهل نستطيع أن نضع بديلا عنها تعبيرا اخر هو «سوء الحساب»؟ وهل يمكننا ان ندرك هنا جوهر الفرق بين المفهومين. مفهوم «الحتمية»، ومفهوم «سوء الحساب»؟ وندرك أن الفرق الرئيسي هنا إنما يتمثل في أن مفهوم سوء الحساب يترك الباب مفتوحا لتدخل الإرادة المجتمعية؟ وهل بالإمكان والحال كذلك أن ندرك أن مفهوم الإرادة المجتمعية يسمح بالتفكير في مفهوم الضوابط التي يمكن أن ترشد فاعلية هذه الإرادة؟ وقانا الله شر المغامرات سيئة الحساب، وألهمنا الايمان بالضوابط، ضوابط الفكر والإرادة وألهمنا أولا وقبل كل شيء فضيلة الاستبصار. ■

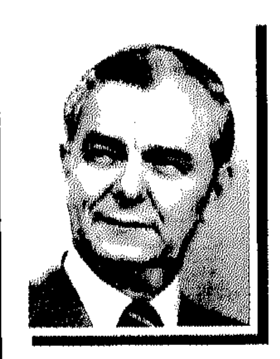
أقوال معاصرة

● «أمريكا شر لابد منه، وقد استسلمنا لها لأنها الأقوى»!!

الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر
رئيس البرلمان اليمني

● «لا يعني سؤال الرئيس توجيه الاتهام أو التجريم، ما يعنيه هو البحث عن الحقيقة».

روبرت بيرد
عضو مجلس الشيوخ الأمريكي
عن ولاية وست فيرجينيا


روبرت بيرد

● «على الفيلم أن يمتلك الطموح، بأن يتوق إلى أن يكون عملا كونى الطابع، دائم التأثير»

المخرج الايطالي فرانسسكو روزي

● «ليس فى وسع ثقافة حقوق الإنسان أن يكتب لها أن تتنفس طبيعيا، دون أوكسجين الأمان»

ماري رينسون
رئيسة جمهورية ايرلندا سابقا
ورئيسة مفوضية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة


ماري روبنسون

● «نعيش زمنا مملوءا بالمخاطر، لكنه فى الوقت نفسه لا يخلو من فرص»

فرد هاليدي
باحث بريطاني متخصص
في شئون الشرق الأوسط

● «لا يكمن خطر الرقابة فى ممارستها وحدها، يكمن كذلك، وعلى نحو أشد فى دلالتها»

الشاعر السوري ادونيس


ادونيس

● «لا مستقبل أمامنا خارج نفوسنا»

الفنان التشكيلي اللبناني
رفيق شوف

● «لابد من إنقاذ المبدعين الذين تطحنهم شروط صحف ومؤسسات، لا ترى فى الأديب سوى آلة صماء»

الشاعر البحريني قاسم حداد

● «قطعنا شوطا بعيدا فى تناقص التجويد، وتزايد الأردأ فى جميع مجالات العمل لدينا»

د. مصطفي سويف
استاذ علم النفس بجامعة القاهرة


د. مصطفي سويف

جريمة من العصر الحجرى

بقلم
د. أحمد مستجير

فى عدد شهر نوفمبر ١٩٩٥ من «الهلال» كتبت مقالاً عن «أوتسى : رجل الثلوج» - رجل أطلق عليه اسم أوتسى دُفن فى الثلج منذ ٥٣٠٠ عام، وبقيت جثته كاملة ، وبجوارها متعلقاته ، إلى أن عثر عليها فى موقعها بوادى أوتس بجبال التيرول يوم ١٨ سبتمبر ١٩٩١ نقلت الجثة إلى ثلاجة بمتحف خاص فى إنسبروك بالنمسا ، حيث مكثت حتى أعيد نقلها يوم ١٥ يناير ١٩٩٨ إلى إيطاليا فى رحلة تكلفت نحو مليون دولار ، لتستقر فى ثلاجة متحف ببلدة بولزانو ، بعد نزاع قانونى طويل بين الدولتين حسم لصالح إيطاليا ، وليطلق عليه الإيطاليون اسما جديداً هو «هيبرناتوس» . قدمت الجثة للعلماء مادة للدراسة غير مسبوقة ، فقد اعتبر أوتسى أفضل عينة لرجل من العصر الحجرى الحديث ، إذ كانت كل أعضائه الداخلية كاملة وأنسجته لا تزال تحتفظ بمائها (على عكس مومياوات مصر) . أجريت دراسات لا حصر لها على الجثة وعلى متعلقات الرجل . ومع تقدم الدراسات تكشفت حقائق جديدة غيرت الكثير مما تصوره العلماء قبلا . ربما كان من حق قارىء «الهلال» أن يعرف السيناريو الجديد لحكايته وقصة موته .

بعد أبحاث استمرت ١٠ سنوات تمكن العلماء من رسم هذه الصورة لوجه أوتسى .

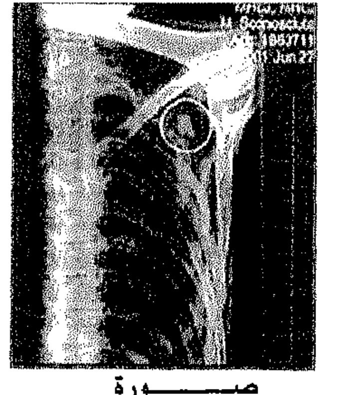
كانت الجثة لرجل طوله ١٥٩ سم ، مات وعمره ٤٦ أو ٤٧ عاماً، وهذا عمر متقدم فعلا بالنسبة لإنسان ذلك العصر الذى كان البشر يتحولون فيه من استخدام الحجر إلى استخدام المعادن . مات الرجل فى الربيع (لا الخريف) ، كما تقول نتائج فحص محتويات معدته . كان بمعدته حبوب لقاح شجرة الزان الأبيض . تزهر هذه الشجرة ما بين شهرى مارس ويونيو ، فى مناخ أدفأ كثيرا من المنطقة الجبلية التى عثر عليه به . معنى هذا أن الرجل قد قطع فى يومه الأخير ، على قدميه ، رحلة من الوادى إلى أعلى الجبل ، طولها ست ساعات على الأقل . كان الرجل مصاباً باعتلال فى المفاصل كما تقول صور الأشعة السينية ، ولم تكن حالته الصحية على ما يرام بالنظر إلى الديدان السوطية التى وجدت بقولونه . تقول نسبة النحاس والزرنيخ فى شعره

THE MAN IN THE ICE

KONRAD SPINDLER

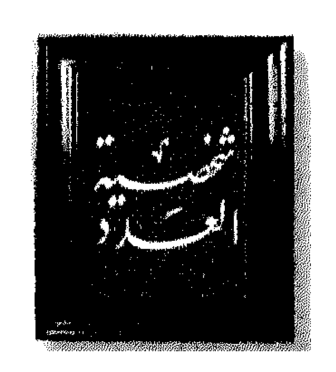
أنه لابد وإن كان على علاقة بصهر النحاس . ظن العلماء فى البداية أنه كان نباتيا ، وذلك بناء على فحص نسبة نظيرى النتروجين (ن ١٤ و ن ١٥) فى شعره ، إذ كانت تعادل النسبة المعروفة لدى النباتيين المعاصرين . لكن محتويات الأمعاء أكدت أن الوجبة الأخيرة للرجل كانت تتألف من خبز غير مخمر ، وخضراوات ، ولحم عنز جبلى ، لو كان نباتيا حقا فلابد أنه قد أقلع عن عادته هذه فى أواخر أيامه ! كان جسمه يحمل ٤٧ وشماً ، وكانت مواقعها تثير الدهشة ، فالموجود منها على الظهر والرجلين يقع بالتحديد فى ، أو قرب ، مواقع الوخز بالإبر التى تستخدم فى عصرنا هذا لمعالجة المرض أو تخفيف الألم . حللت عينات من مادته الوراثية واتضح أنها تتوافق تماما مع تتابعات دنا الأوروبيين ، إذ كانت تتناظر مثيلاتها فى دنا من يحيون اليوم بوادى أوتس ومناطق الألب القريبة .

يقول السيناريو القديم: إن الرجل كان راعياً يحيا فى مجتمع زراعى ، وأنه قد هرب من قريته إلى الجبل إثر غارة على قبيلته ، وهناك فاجأته عاصفة ثلجية . أصابه الإرهاق فاتجه إلى أخدود يحميه يقضى فيه ليلته . أكل آخر ما كان معه من زاد ... «الظلام يحل رويدا .. الثلج بالخارج يتساقط بلا انقطاع . البرد يتخلل ملابسه . التعب يرهق أطرافه . كان يعرف أن النوم يعنى الموت ، فحاول أن يخرج . تعثر وسقط . تغلبت حاجته إلى النوم على قوة إرادته . تحول لينام على جانبه الأيسر . فقد إحساسه . وضع ذراعه اليسرى أمامه دون أن يدرى .. لم يعد يدرك أنه يتجمد . فلما جاء الصباح كان قد مات . كذا كانت قصة موته كما صورت . ولقد تغيرت هذه القصة الآن .



صورة بالأشعة تبين نصل السهم فى جثة أوتسى

فقد اكتشف العلماء أن السبب فى موت أوتسى هو أن بعضهم كان يتعقبه ، وأطلق عليه من الخلف سهما أصاب كتفه اليسرى . هشم نصل السهم ، وطوله نحو بوصة ، عظم اللوح ، واخترق الأعصاب ، ودمر الأوعية الدموية الرئيسية . تقول زاوية النصل: إن السهم قد أطلق عليه من أسفل . هرب من مهاجميه وهو يدمى إلى المكان الذى عثر عليه فيه . أصيبت ذراعه اليسرى بالشلل . إنكفأ على وجهه وهو يتألم ليموت ميتة بطيئة رهيبة ، وتدفنه الثلوج خمسة آلاف وثلاثمائة عام .



عبد الوهاب المسيرى

الحكمة والعقل الموسوعى..

بقلم
هبة رءوف عزت *

استقال د . عبد الوهاب المسيرى فى عام ١٩٩٠ من جامعة عين شمس ليتفرغ لإنهاء موسوعة عن اليهود واليهودية . وربما يمكننا البدء فى إلقاء الضوء على أهمية د . عبد الوهاب المسيرى كمفكر عربى من هذه اللحظة ، وصلتها بما قبلها وما بعدها . فهى تدل على أن العلم بالنسبة لعبد الوهاب المسيرى ليس وظيفة يتكسب منها ، بل هو رسالة يحملها على كاهله وأمانة يؤديها لأمته ، يدور معها أينما دارت ، والجامعة مسار من مسارات أداء هذه المسئولية ، ولذلك كان عبد الوهاب المسيرى - كما كان جمال حمدان - عقلاً عربياً موسوعياً يصبو للمعرفة والحكمة ، والنفع والخدمة لقضايا أمته .

* مدرس مساعد العلوم السياسية - جامعة القاهرة





والفارق بين العقل المبدع والعقل الوظيفى هو الفارق بين عقل يوظف المؤسسة والأطر العلمية فى الوصول إلى الحكمة والمعرفة ، ولخدمة الإنسانية ، والدفاع عن حقوق الناس ، وتوفير حياة طيبة لهم ؛ فيكون العلم بذلك علماً نافعاً .. وبين عقل آخر يختفي فيه المنظور النقدى وتتلاشى أسئلة الوجود والهوية ، ويصبح فيه العلم حرفة وتحصيله أداة لتحصيل الثروة ، والإنتاج العلمى وسيلة للترقى فى كادر المهنة أو الكادر السياسى ، ويزيد الكم دون زيادة كيفية ، ودون أى أمل فى نقلة معرفية حقيقية تصنع مستقبلاً أفضل للوطن !

البداية : الرومانتيكية الإنسانية

يمكن إجمالاً وصف عبد الوهاب المسيرى بأنه مفكر موسوعى ، لكن الوصف الأدق هو أنه مفكر عربى رومانتيكي . والرومانتيكية هنا ليست طوباوية مفارقة للواقع ، بل هى رؤية تحتفى بقدرة الإنسان على تجاوز الواقع، إذ يتميز الفكر الإنسانى بالقدرة على التوليد والتحليل والاستشراف ، فلا يكون أسير مادية طبيعية ولا معلوماتية صلبة .

وهذه الرومانتيكية هى خيط ناظم فى فكر عبد الوهاب المسيرى يرصدها المتابع لكتاباته منذ بواكيرها ، فقد كانت معه حين كان ماركسياً ، والماركسية كانت دوماً تستلهم روحاً من العدل المثالى ، ثم حددت موقفه المعرفى / الحضارى الرحب فوق الأرضية الإسلامية ليختلف عن أبناء جيله الذين قاموا بنفس التحول لكنهم وقفوا فى مربع الإسلام السياسى أو كانوا أقرب إليه ، فى حين اختار هو أن يكون اسلامياً .. ورومانتيكياً إنسانياً.

● اختار عبد الوهاب المسيرى أن يكون اسلاميا ورومانتيكيا إنسانيا

«الرومانتيكية المسيرية» هى التى دفعته منذ البداية إلى معاداة منطق الاستيطان ، ليس فقط الاستيطان الصهيونى ، بل الاستيطان الرأسمالى فى جنوب إفريقيا أيام الأبارتهيد ، والاستيطان الأمريكى لمناهج المعرفة وأجندة العقل والثقافة . رومانتيكيته هى التى دفعته للوقوف متأملاً فى الخطاب الصهيونى ليرى فيه شيئا آخر وراء الصهيونية ، يراه جزءا من الرأسمالية الإمبريالية وأيضا لصيقا بمشروع الحداثة - وليس التنوير - فلسفياً . ويربط المسيرى بين دوائر فكره المختلفة ربطاً مركباً عبر نماذج تحليلية فلا يرى القارىء فى الحقيقة غرابة فى أن يكتب المسيرى فى اليهودية والصهيونية ، وفى الشعر ، وفى رؤى الحداثة ، وفى العلمانية كنموذج معرفى ، وفى التحيز الأكاديمى العلمى الغربي ، وضد نهاية التاريخ ، وفى الخطاب الإسلامى الجديد، وأخيراً يكتب كتباً متميزة للأطفال تنال جوائز قومية .

الأدب : مفتاح البداية

عبد الوهاب المسيرى فى الأصل أستاذ أدب إنجليزى ، كان

ومايزال ، لم يتوقف رغم انشغاله بالموسوعات والكتابة فى شتى الموضوعات .

منذ البداية يتضح منحى رومانتيكية عبد الوهاب المسيرى فى اختياره لدراسة الماجستير والدكتوراة ، فهو متخصص فى الأدب الرومانتيكى ، يذهب فى دراساته لبحث كيف تتجلى من خلال كل قصيدة لحظة تاريخية محددة عبر المعنى وآفاق دلالاته ، وحين يدرس القصائد الرومانتيكية الواحدة تلو الأخرى ، فإن هذا يؤدى إلى الإحساس بالتتالى التاريخى . ومن ثم يحاول أن يحل المشكلة المنهجية الكبرى وهى كيفية الانتقال من النموذج الجمالى (الذى يؤكد استقلال القصيدة) إلى النموذج التاريخى (الذى يؤكد كونها جزءاً لا يتجزأ من عملية التتالى التاريخى) . درس قصائد كوليردج و«فسرها» مخالفاً لتفسيرات النقاد الآخرين ومنطلقاتهم الفلسفية ، ودرس وردز ورث الشاعر البارز ، باحثاً الدلالة الميتافيزيقية لما كتب بعد نهاية قصائده من إضافات شعرية هى «إضافات متأخرة» ، فيقرأ الشعر الغربى بعيون جديدة ترى عبر أدواتها التحليلية ما لا يراه أهلها .

ويجعل هذا خيطاً فى دراساته المتخصصة عبر السنوات ، والتى يتابعها أهل النقد والأدب بتقدير وقد لا يطالعها قارىء المسيرى المطالع لكتاباته المشهورة عن اليهودية والصهيونية ، فيهتم المسيرى فى دراسات وبحوث عديدة بالأمثال الرومانتيكية منذ لحظة ولادتها حتى لحظة احتضارها وموتها ، ويقوده هذا التحليل للغة والمجاز والتجاوز ، ومن هنا كان احتفائه المبكر بشعر المقاومة الفلسطينية ثم رؤيته للنموذج الانتفاضى باعتباره نموذج مقاومة إنسانية ضد السلاح وقوى البطش باعتبار الفلسطينى إنسان ، له ثقافة ولغة وتاريخ وشعر ، يمكنه وهو يجاهد لاسترجاع حقوقه أن يوظف لغته فى التعبير عن معاناته وحبه للحرية لتصبح لغة عالمية نضالية ضد الظلم .

عقلية توليدية ومفاهيم مغايرة

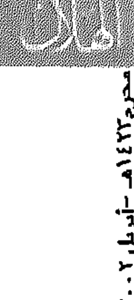
يصلح هذا عنواناً للعديد من إسهامات د . عبد الوهاب المسيرى الفكرية ، فالتجاوز الذى آمن به ورؤيته الإنسانية التى تبناها هى التى نقلته من عقلية النماذج المعلوماتية الرصدية للرؤى المعرفية الكبرى ومن هنا انتقاله من المادية إلى رحابة الإنسانية ووعيه بحركة التاريخ .

وبذلك لقد أثمرت رؤيته الإنسانية هذه عدة إسهامات فى المجال الفكرى :

فلسطين .. النموذج الإنسانى

لا تقل كتابات المسيرى عن القضية الفلسطينية أهمية عن كتاباته فى الصهيونية ، ومن أهمها كتاباته عن فلسطين . والرؤية التى طورها المسيرى فى كتابه «الانتفاضة : دراسة فى الإدراك والكرامة» تقدم فلسطين لا كحالة أو قضية وحسب ، بل كنموذج إنسانى فريد للمقاومة له ملامحه وسماته النابعة من العقيدة والخصائص الحضارية فيما أسماه بالنموذج الانتفاضى ، ولأن الانتفاضة ليست مجرد ثورة ضد الاحتلال فهى لا تموت بل تتجدد (وهكذا نشهد - كما توقع المسيرى - تجدد الانتفاضة) والنموذج الانتفاضى ليس لصيقاً بفلسطين وحسب بل هو نموذج إنسانى ضد القوة الاستيطانية يمكن تطويره ليصبح نموذجاً إنسانياً يتحدى حسابات القوة المادية وعقلية الهزيمة والاستسلام.

يخدم المسيرى هذا التصور للطبيعة الإنسانية للنضال الفلسطينى بالإسهام فى



دراسة الشعر الفلسطيني ، ويترجمه للإنجليزية في إصدارات متتالية يمزج فيها رؤى النقد الأدبي بأفكار النقد الحضاري ، ويدرس جماليات المقاومة في المراثي - حب فلسطين - الصمود والمقاومة - الأمل في الانتصار . ويبرز جماليات المقاومة التي تدور حول إشكالية شاعر يبغي تغيير المجتمع وتحطيم الظلم ولكنه في الوقت ذاته يعبر عن نفسه من خلال شكل جمالي إبداعي متسق مع مكنون ذاته .

فيقرأ المسيري ويحلل شعر توفيق زياد ومحمود درويش وسميح القاسم وغيرهم .. ويرصد هذه الصور والرؤى التي تعبر عن مقاومة وصمود الإنسان الفلسطيني .

ولأن هذه التجارب الإبداعية بالدرجة الأولى تجارب إنسانية تتجاوز الخصوصية الفلسطينية فإن المسيري يحرص على نقلها ويترجمها للإنجليزية كي تصل بلسان آخر إلى بشر آخرين ، وتصبح تعبيراً إنسانياً عن الإنسان الفلسطيني ليتواصل به مع معاناة الشعوب في أي مكان .

وهناك له أيضا مختارات في القصص القصيرة الفلسطينية ترجمها الدكتور المسيري مع ابنته الدكتورة نور المسيري ، والقصص التي تضمها المختارات ليست بالضرورة قصص مقاومة ، فبعضها يتناول إشكاليات إنسانية عامة .

وحين تندلع الانتفاضة الفلسطينية يجد المسيري نفسه مستوعبا تماما في أحداثها ، ومستوعبا تماما لأهمية هذه اللحظة التاريخية في الجهاد الفلسطيني. مما يدعوه إلى ترك مشروعه البحثي الأساسي وهو «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» ليكتب دراسة فريدة عن الانتفاضة هي في تقديري من أهم كتاباته على الإطلاق ، وبدلاً من أن يرصد يومياتها بشكل معلوماتي أخرس ، يستنطق المسيري المعلومات والبيانات والتفاصيل اليومية الصغيرة لتتحدث بلسان إنساني متألق ، ثم يجرد منها رؤية معرفية تكمن وراء كل تفاصيلها هي رؤية للكون والحياة .

• يتجاوز اهتمام المسيري دائما السياسة إلى الحضارة ، ومن العمارة إلى إدراك قواعد العمران ذاته

الغرب والعالم : لا نهاية للتاريخ

انشغل المسيري في مجال النقد الحضاري بالحضارة الغربية، ومقوماتها، ورأى في المدنية الأمريكية تجليا للحضارة الغربية في مراحل الرأسمالية المتأخرة، وكتب كتابه «الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية» ١٩٧٩ ليقدم رؤية تحليلية لعلاقة الغرب بالعالم انطلاقا من فهم الرؤية الحداثية للعالم والاحتمالات المعادية للإنسان الكامنة فيها والمتجلية في تاريخها وخبرتها ضد الأقليات وتصوراتها للآخر

مبكراً كتب في مراجعة النظرة لأمريكا باعتبارها «الفردوس

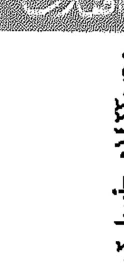
الأرضى» ، ومؤخراً أضاف وطور فى كتاب «الغرب والعالم» ، وكان اهتمامه دائماً يتجاوز السياسة إلى الحضارة ومن العمارة إلى إدراك قواعد العمران ذاته ، ولم يكن فى ذلك يمارس نزعة شوفينية تحيزاً لعروبته ، بل نظرة وموقف إنسانى يتفاعل مع الآخر فى سبيل الدفاع عن الإنسان ضد المادية الشرسة ، لذلك كان رمزاً محترماً وصوتاً مسموعاً فى الدوائر الأكاديمية الغربية ، وظل عبر مسيرته قادراً على إقامة جسور إنسانية مع الجميع ، مخالفين فى الرأى فى داخل ثقافته ومناقضيه فى الرؤية خارجها .

وفى كتاباته ينتقد الدكتور المسيرى الرؤية الحداثية للعالم ، لكنه لا يقف على أرضية من يرفضون الغرب ويريدون العودة فى التاريخ للوراء ، ولم يقبل أن يقف على أرضية تلفيقية محايدة تهاجم الغلو والردة الحضارية وتزعم الاستفادة من مكتسبات الحضارة الغربية دون نقد حكيم ، بل هو يقوم عبر نموذجه الواضح لعلاقة الإنسان بالكون ونقده للحلولية والعلمانية المادية بنقد الحداثة تجاوزاً لها لا عداءً معها أو حرصاً على موقف المناقض لها ، وبذلك يقدم خطاباً تجديدياً إنسانياً من فوق أرضية الحضارة العربية الإسلامية يمكن بحق وصفه بأنه خطاب إسلامي جديد يرتفع للمقاصد ولا يفرق فى تفاصيل الفقه ، وبذا يكون خطاباً إنسانياً صالحاً للتواصل والتفاعل مع العالم والقوى والتيارات الإنسانية المختلفة المعادية للمادية والمعلوماتية الصلبة . وقد كتب المسيرى ضد فكرة نهاية التاريخ التى تجددت مع كتابات فوكوياما ، ونشر منذ السبعينات رؤيته لتلك الفكرة باعتبارها ضد الإنسان ، وربط مبكراً بين هذه الفكرة ورؤى الصهيونية لانطلاقهما من رؤية امبريالية ، فكتاب «نهاية التاريخ» مقدمة «لدراسة الفكر الصهيونى» صدر للمسيرى عام ١٩٧٢ كدراسة فى فلسفة التاريخ الصهيونى ، تذهب إلى أن الفلسفات المادية تحاول دائما أن تضع نهاية للتاريخ (الزمان والمكان) ، وأن تبدأ من نقطة الصفر . وهذا ما يصنعه الصهاينة بالنسبة لكل من الفلسطينيين ويهود العالم .

العنصرية والصهيونية

أبرز ذلك كتابات المسيرى حول إعادة صياغة المفاهيم هو وصف «الجماعة اليهودية» باعتبارها جماعة ثقافية واحدة، وهو ما بينه المسيرى أنه أسطورة صهيونية، وبذلك قام بتفكيك وإعادة تركيب الفكر والتاريخ اليهودى فى عدة كتابات حققت تراكما فى هذا المجال وصارت في أبرز الأدبيات العربية فى موضوعاتها ، وقد ربط هذه الرؤية الكلية بالقضايا السياسية الجارية لفهمها وترشيد إدراكها بشكل يتجاوز المعلوماتية الناقلة الرصدية ، فكتب موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية التى صدرت بالقاهرة ١٩٧٥ عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، بالأهرام كانت بداية كتابته فى هذا المجال ، وسيظل يتابع تأصيل وتطوير أطروحاته بدأب عبر السنوات ، ومنذ عام ١٩٧٦ ربط بين الصهيونية والعنصرية وبين جهاد الشعب الفلسطيني وكفاح شعب جنوب أفريقيا ضد الأبارتهيد ، وما أشد الحاجة الآن لاستعادة هذه الأفكار فى ظل خطط تحويل الاستيطان الصهيوني لفلسطين لمناطق عزل عنصرى جديد . وأدرك عبر البحث الحاجة لكتابة موسوعة ضخمة كمحاولة لتأصيل موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية الأصلية ولتنعكس فيها رؤاه وجهوده فى مسارات مختلفة وتعمقها وتستفيد منها وتغذيها وأبرزها رؤيته للعلمانية كرؤية معرفية وفلسفة حداثية .

وقارن فى كتابات موازية للموسوعة صلة النموذج بالأحداث وتطورها على الأرض



كما في كتابه «هجرة السوفيت» ونقده للرصد المعلوماتي للقضية ، وليتنبأ بأنها ستفكك المجتمع الصهيوني ، ثم كتب حول أهمية فهم إسرائيل من الداخل وتطوير نموذجنا التحليلي وليس استيراده كي نطور قدرتنا التفسيرية وفهمنا لطبيعة العدو وطبيعة القضية والمعركة ، وليس فقط هتافاتنا وجهادنا اللفظي .



تفكيك الإنسان!

حين انتهى الدكتور المسيري من موسوعته ، موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيري جديد» ، وجد أنه من المفيد أن يتأمل في إنجازه ، وأن يحاول أن يعلق عليه ويستخلص منه النتائج الفلسفية والمنهجية (وكعادته دائما مع معظم أعماله) يعكف الآن على ما يقرب من أربعة مجلدات يكشف فيها منهجه وأطروحته الأساسية ، وقد لخصها كلها في المجلد الأول من موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية الحالية . ويعمل - رغم مرضه - على تطويرها وإصدارها كاملة كعمل مستقل أو كأعمال مستقلة .

• «الجماعات الوظيفية» من أبرز المفاهيم الاجتماعية التي أسهم المسيري في تطويرها وتوظيفها في دراسة الظواهر الجديدة

وهو يرى أن «ما بعد الحداثة» العلمانية لا تشكل انحرافا عن الحضارة الغربية وإنما هي كامنة في منظومة الحداثة نفسها وما يسميه «نزعتها التفكيكية» ، لأنها جعلت من قوانين المادة الطبيعية معيارا لكل شئ ، بما في ذلك الظاهرة الإنسانية ، ولكن القانون الطبيعي لا يعترف بأية مطلقات ، إذ أنه يقوم بتفكيك كل شئ بما في ذلك الإنسان.. ومع تفكيك كل شئ نصل إلى العدمية الكاملة أو إنكار المركز ، إلهيا كان أم إنسانيا ، وإنكار القيمة ، بل الحقيقة ، ومن ثم المقدرة على الحكم ، أي أننا وصلنا إلى مرحلة ما بعد الحداثة واللاعقلانية المادية ، مما يستلزم تفرقة حاسمة بين بواكير التنوير ومشروع الحداثة .

وهو يطور مفهوم الحلولية أي إنكار المسافة بين الخالق والمخلوق بحيث يصبحان جوهرا واحدا ، فيحرره من المعنى العقيدي ويكسبه دلالة تحليلية في دراسة العلمانية والحداثة ومحاولات التجاوز في تيارات ما بعد الحداثة وقصورها لكونها عجزت عن التحرر من فكرة الإنسان الطبيعي ، فحين يتم تهميش الدين تسود الحتميات وتصفى الثنائيات وتصبح الظواهر ذات بعد واحد ، أي تسود الواحدية (الروحية والمادية) بدلا من الثنائية والجدل والتدافع .

وننتهي إلى سيادة القانون الطبيعي / المادي على رؤى الإنسان .

والفرق بينها وبين العلمانية الجزئية يكمن في أن العلمانية

الجزئية تطالب بفصل الدين عن الدولة وحسب ، وتلزم الصمت بخصوص مفهوم القيم المطلقة والحياة الخاصة والمرجعية النهائية للقرارات السياسية . أما العلمانية الشاملة فهى ليست فصل القيم الدينية عن الدولة وإنما فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية لا عن الدولة وحسب وإنما عن حياة الإنسان العامة والخاصة وعن المرجعية النهائية للدولة ولكل قرارات الإنسان ، أى أنها فصل القيمة عن الحياة . ونتيجة لهذا يظهر العلم المنفصل عن القيمة ، والجسد المنفصل عن القيمة ، والحياة المنفصلة عن القيمة ، وهذه هى العقلانية المادية الكاملة المستحيلة . وإذا كان من الممكن تقبل العلمانية الجزئية ، أى فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد (بالمعنى المباشر والمحدد للكلمة) فالعلمانية الشاملة - أى فصل الدين عن الحياة وربط الإنسان بقوانين الطبيعة المادية وحسب أمر من العسير تقبله لأنها أيديولوچية كاسحة لا يوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم ، ومن ثم فهى لا تتصالح مع الدين ولا مع الإنسان، مسلما كان أم مسيحيا أم يهوديا ، وتحاول أن تختزل حياة الإنسان للبعد المادى وحسب !

بلورة مفهوم الجماعة الوظيفية

من أبرز إسهامات الدكتور المسيرى تطويره لمفاهيم اجتماعية وتوظيفها فى دراسة ظواهر جديدة ، ولعل أبرز هذه المفاهيم هو مفهوم الجماعات الوظيفية ، والذى استخدمه رواد علم الاجتماع فى دراسة جماعات داخل نطاق المجتمع بأدوار وظيفية معينة وقد ترتبط بطبقة أو إثنية ، والجماعة الوظيفية هى جماعة يستوردها المجتمع أو يجندها من داخله ، تعرف فى ضوء وظيفتها لا فى ضوء إنسانيتها الكاملة ، ويوكل المجتمع لهذه الجماعة وظائف لا يضطلع بها عادة أعضاء المجتمع إما لأنها مشينة (البغاء - الربا) أو متميزة وتتطلب خبرة خاصة (الطب والترجمة) أو أمنية وعسكرية ، أو لأنها تتطلب الحياد الكامل (التجارة وجمع الضرائب) . ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بالحياد وبأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية ، وهم عادة عناصر حركية لا ارتباط لها ولا انتماء ، تعيش على هامش المجتمع فى حالة اغتراب ويقوم هو بعزلها عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعى .

وقد سحب المسيرى هذا المفهوم على الكيان الصهيونى باعتباره كيانا وظيفيا فى إطار النسق الرأسمالى العالمى لخدمة أهداف استراتيجية فى المنطقة العربية ، معطيا بذلك دلالة عميقة لفلسفة تأسيس الكيان الصهيونى تتجاوز اغتصاب الأرض .

ويطور الدكتور المسيرى فى كتاباته مفهوم الجماعة الوظيفية ويطبقه على تاريخ الجماعات اليهودية ، منطلقا من رأى ماركس وإنجلز وفيبر وسومبارت فى أصول الرأسمالية ، ويطوره ليحلل قضية الدولة الصهيونية باعتبارها دولة وظيفية فيقدم مفهوم «الجماعة الوظيفية» باعتباره أداة تحليلية أكثر تفسيرية وتركيبية من مفهوم «الطبقة» التقليدى .

انى أرى الملك عاريا !

ربما يكون من الغريب فى ظل التفوق العلمى والبحثى فى الغرب أن يقف عقل عربى مستقل ليذهب إلى أن المناهج الغربية مناهج متحيزة لرؤيتها للعالم ولإدارتها للواقع ، وأن لها حدودا فى فهم وتفسير الظاهرة الإنسانية والاجتماعية

ولعل كتاب «التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد» الذى شارك فيه د. عبدالوهاب



المسيرى وحرره فى جزئين يمثل أحد أهم جوانب تميز المسيرى فرغم أنه قام بأعمال فكرية تستلزم جهد جماعة منفردا ، فإنه أيضا حاول أن يجمع عقولا شتى فى قضية التجديد المعرفى الأوسع فى سعى لتأكيد التواصل عبر التخصصات والأقطار والأجيال. ولذلك فإن كتاب التحيز هو أيضا تجربة فكرية وبحثية ثرية لها دلالات فى فهم دور العقل الموسوعى فى التواصل مع الساحة الفكرية والعلمية وإثراءها وعدم الانعزال عنها أو الاكتفاء بالذات أو الانكفاء عليها حتى ولو كانت متميزة، فضلا عن الدعم العلمى والفكرى للأجيال الجديدة لتكتسب الشجاعة والقوة التى تستلزمها العقلية النقدية والحضارية.

سيرته والكتابة للأطفال

عن حياته الفكرية وعن وعيه بضرورة التمييز بين العلمانية الشاملة والعلمانية الجزئية، وعلاقة القرية والمدينة فى ظل الحداثة، والصلة بين دراسة الشعر الرومانتيكى و دراسة الصهيونية وتاريخ الأفكار كتب سيرته الذاتية التى تحاول أن تؤرخ لتطوره الفكرى، وتجيب فى الوقت نفسه على هذه الأسئلة. ولذا فقد أطلق عليها عبارة «سيرة غير ذاتية»، فهى سيرة لا تضم حياة فرد بل هى سيرة مفكر عربى إسلامى. ولكنها فى الوقت نفسه تتضمن الحقائق الخاصة بفرد معين له أبعاده الخاصة جدا، ولذا فهى أيضا «سيرة غير موضوعية».

إن كثيرامن العقول الموسوعية قد تقدم للآخرين معرفة وعلما ، لكنها لا تزودهم بالتجارب الإنسانية والفكرية والفلسفية التى مرت بها، وبذلك لا تقدم خبرة فكرية وبحثية تحقق نقلة وتثرى الدائرة الفكرية وتسجل للأجيال مسيرة العقل الحضارى عبر سيرته، ولعل السير الذاتية الفكرية هى أبرز الأعمال التى تقوم بهذه المهمة، وقد أصدر د. عبد الوهاب المسيرى مؤخرا أيضا سيرته الذاتية بهذا الهدف.

لكن ما الذى يدفع عقل مثل عقل المسيرى لكتابة قصص الأطفال؟ ويحصل عنها على جائزة سوزان مبارك لأدب الطفل؟

الدافع هو رسالة العقل الموسوعى الذى يدرك أن الأمة التى تدافع عن فكر حضارى مستقل وفعل حضارى مستقل لابد أن تتزود بهذه المعرفة القوية على كل المستويات، وأن رسالة العقل الموسوعى هى إبراز جوانب تميز حضارته والمساهمة فى مواجهة تحديات واقعها، فيكتب قصصا للأطفال يضمنها رؤاه الفلسفية وتبرز فيها قدرة القصص على تغيير رؤى العالم، فتخرج سندريللا من أسر العقل الغربى لتتواصل مع حاضرها وتركب مترو الأنفاق،

المسيرى مفكر إنسانى يؤمن بقدرة الإنسان، وتجاوز أفق العقل الإنسانى لقوانين الطبيعة

وترتدى فى حفل الأمير زيا أهدته لها زينب «هانم» خاتون لا الساحرة الطيبة، ثم تسافر بعد الزواج للحصول على شهادة الدكتوراه.

إنها حقا قصص مسيرية .. جدا.

المسيرى .. جدو هابو

مازلت أذكر أول مرة التقيت فيها بالدكتور عبد الوهاب المسيرى، كان ذلك فى ١٩٨٩ فى ندوة بمقر حزب العمل ألقاها عن الانتفاضة والنموذج الانتفاضى، بدا لى خطابه مختلفا عن الخطاب السائد على كل الجبهات الفكرية آنذاك، أخذت منه موعدا وزرته، وبدأت معرفتى به كمفكر وتوطدت علاقتى بأسرة الدكتور عبد الوهاب المسيرى بشكل متواز، ولذا فقد شاهدت وعايشت د، عبد الوهاب المسيرى الإنسان والمفكر والأب معا، وعاصرت تبلور أفكاره فى قضايا عديدة، وعاصرت معاناته فى إنهاء موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - معاناته الفكرية النبيلة وأزماته المالية الطاحنة، وعرفت كيف يمكن أن يعانى المفكر الأستاذ لينفق على علمه بدلا من أن يرتزق منه، وتعلمت منه الكثير والكثير، وربما تحديدا لأننى لا تجمعنى به مؤسسة أكاديمية ولا مصالح هيراركية.

علمنى د. المسيرى أن علاقة المفكر بأجيال أصغر ليست علاقة كتاب يستعار أو جلسة فكرية تعقد ، بل علاقة أب بأبنائه.. يشاركهم لحظات حياتهم المختلفة.. حاضرا فى عقد قران، وزائرا بمولد طفل، وفى رمضان يدعو تلامذته للإفطار وتقدم لهم د. هدى حجازى القطائف بالقشدة، أما حين يريد أن يخرج معهم بعيدا عن جدل ونقاشات المطلق والنسبى والجماعات الوظيفية والعلمانية الشاملة.. فإن مركبا فى النيل فى عصر يوم جمعة يحمله فى نزهة هادئة مع تلاميذه المقربين وأطفالهم الذين ينادونه : جدو هابو.

غير صحيح ولا دقيق أن يوصف د. عبد الوهاب المسيرى بأنه خبير فى قضايا اليهود والصهيونية وحسب ، أو أستاذ أدب إنجليزى وكاتب موسوعى، لكن المسيرى فى إيجاز : مفكر إنسانى Humanist. وإذا ما نظر المرء للساحة الفكرية فى عالمنا العربى برمته وقام بتصنيف المفكرين عبر توجهاتهم ومدارسهم المختلفة فإن المسيرى يأتى بجدارة على رأس المفكرين الإنسانيين الذين يؤمنون بقدرة الإنسان، وتجاوز أفق العقل الإنسانى لقوانين الطبيعة وحدود الجسد.

والمسيرى مع كونه مفكرا «إنسانيا».. فهو إنسان. وإبداعاته - كما حياته - إنسانية، فرحته بصدور كتاب له لا تقل عن فرحته بنجاح تلميذ من طلابه فى الكتابة والنشر، أو الحصول على درجة علمية . وقدرته على أن يدفع من حوله إلى الأمام مصدرها أبوة غامرة وتواضع واثق وعطاء مركب، بل يشكر فى فواتح ومقدمات موسوعاته وكتبه تلامذة وباحثين فى نصف عمره لأن أفكارهم كانت «عميقة الأثر على رؤيته واستفاد منها كثيرا».. ثم هو الذى يسأل عندما نمرض، ويتابع حينما نكتب ، ويدعونا للزيارة عندما نغيب وننشغل، بل ويفتح بيته لكى ندعو - نحن تلامذته - إلى ندوة جلسة لا نجد مكانا يستضيفها أو مساحة من القبول الفكرى تحتملها، حتى لو اختلف أو كان له وجهة نظر أخرى؟ ■

العبد لله .. ومدافع الحنجورى

بقلم
محمود السعدنى

لست أدرى ما الذى جنيته على وجه التحديد ، لكى أتعرض لكل هذا القصف العنيف الذى يشبه القصف الأمريكى على مخابىء مقاتلى القاعدة ورجال طالبان فى أفغانستان ، ولكن بعض الأنقاض الناتجة عن القصف تؤكد أن السبب هو كتاب للعبد لله صدر منذ سنوات بعنوان (الطريق إلى زمش) وهو كتاب عن فترة قضيتها منذ أكثر من أربعين عاماً فى سجن المحاريق بالواحات الخارجة مع مجموعة من الزملاء. وبالرغم من أن العبد لله لم يكن له صلة بالموضوع الذى كان سبب سجنى إلا أن سلوكى كان نموذجياً إلا من بعض أعمال الشقاوة والشيطنة، وبعض الأعمال التى ترسم البسمة على الوجوه فى جو السجن المتجهم الرهيب . من بين هذه الأعمال تأسيس تنظيم «زمش» وهو اختصار لعبارة (زى مانت شايف) واستطعت أن أفرض تنظيمى على الحياة العامة فى السجن. وأن أتساوى مع التنظيمات الأخرى . وهى تنظيمات طش، اختصار لتنظيم طليعة الشيوعيين، وتنظيم وش.. (اختصار لوحدة الشيوعيين)، وتنظيم حشم يعنى الحزب الشيوعى المصرى. وجاء الكتاب كانطباع فنى لكاتب شعبى وجد نفسه فى هذه المحنة التى لم يخترها ولم يسع إليها. وبالعكس حمل الكتاب احترامى البالغ لعشرات من المعتقلين من بينهم المرحوم مصطفى طيبة والمرحوم محمود المانسترلى والسيد عبد الله بتاع بنى سويف والدكتور حمزة البسيونى بتاع اسكندرية، والصحفى الأديب الفنان صلاح حافظ أحد نجوم الصحافة المصرية والمرحوم لطفى الخولى والمحامى اللامع الأستاذ على الشلقانى والدكتور فايق فريد والأستاذ الكبير أسعد حليم. والغريب أن عدداً من ألمع أعضاء هذه الجماعات كانوا أعضاء فى تنظيم «زمش» ولم يحدث بينى وبينهم إلا كل مودة وكل خير.

ولكن الذى هالنى من عمليات القصف هو مقال الأستاذ الكبير رفعت السعيد القطب السياسى المصرى وأحد زعماء حزب التجمع. ورأى العبد لله أنه لاينتمى بسلوكه إلى قبائل الحنجورى، ولكنه رجل موضوعى لا يكره أصحاب الموهبة ولا يعادى أى فنان. ولا يقع فريسة للعبارات المصكوكة التى نفرت الناس منهم، فهذا رجعى وهذا عميل وهذا من طائفة الكولاك، وهذا برجوازى شريف، وذاك برجوازى من الشواشى العليا للبرجوازية. وذلك لدى اعتقاد أنه كتب مقاله دون أن يقرأ كتابى



ولكنه ربما سمع عن الكتاب من أحد السادة الحنجوريين . وهالنى أنه فسر موقفى من الرفاق بأنه ربما كان غيرة من تشددهم ضد ادارة السجن وممارسات السلطة. وأحب أن أطمئن الأستاذ رفعت أن تشددهم كان فى الهايفة. وهل يتصور الأستاذ الكبير رفعت أن غيرتى كانت نتيجة حتمية لتشدد الأستاذ حمدى حمدان عضو اللجنة المركزية والمناضل القديم هذا التشدد الذى دفع الناقد إبراهيم فتحى إلى الاعتداء عليه بالضرب داخل العنبر وأمام جميع النزلاء، مما دفع بالإدارة إلى نقله لعنبر الإخوان المسلمين لحمايته من زملائه الشيوعيين . لو قرأ الأستاذ رفعت كتابى لاكتشف أنه مجرد لوحة فنية لكاتب على باب الله ، لا يهدف إلى تصفية حسابات أو تسديد حسابات، وانما هى مجرد رؤية فنية ساخرة سجلتها على الورق ومضيت فى سلام.

ولكن سؤالى هو .. ما الذى حرك المواجع الآن؟ وما هى الأسباب التى فرضت على المقاتلين اطلاق مدافعهم على مواقع العبد لله؟

هل السبب أن أحد السادة القراء عرض كتابى على صفحات مجلة «الهلال» الغراء. الحقيقة أننى لا أعرف الأستاذ الفاضل ، ولم أتشرف برؤيته، ولم أقرأ ما كتب إلا بعد أن قام الأستاذ مصطفى نبيل بإهدائى نسخة من المجلة عند التقائنا فى حديقة نادى الصيد بالدقى.

على العموم . أشكر الأستاذ رفعت السعيد على مجاملته الرقيقة لوصف كتابى على أنه مثل أفلام إسماعيل ياسين القديمة. وقضى الأستاذ رفعت بأن أفلام إسماعيل ياسين فى الجيش واسماعيل ياسين فى البحرية واسماعيل ياسين فى الطيران وفى البوليس الحربى لاتصلح للحكم على مستوى القوات المسلحة المصرية ، كما لا يصلح كتابى للحكم على الحركة المجيدة للتنظيمات الحنجورية . وأقول للأستاذ رفعت .. أنه لم يبق من أفلام النخبة التى قام ببطولتها أبطال تاريخيون أمثال عباس فارس ومحمود الحكيم وفؤاد شفيق، لم يبق من أفلام هذه المرحلة إلا أفلام إسماعيل ياسين، ولايزال يطلبها ويشاهدها أطفالنا وشبابنا وحتى العجائز منا، ويشرفنى ويسعدنى أن يكون كتابى كأفلام إسماعيل ياسين، وهذا أفضل من تشبيه كتابى بتحليلات الأخ حمدى عبدالجواد!

والعبد لله يتمنى أن يستفيد أفراد قبيلة الحنجورى من الأحداث التى عصفت بهم فى السنوات الأخيرة على المستوى العالمى أو المستوى المحلى.

وأشكر الجميع الذين اهتموا بكتابى (الطريق إلى زمش) بعد مرور أكثر من ٨ سنوات على صدوره. وأتمنى أن تبقى العلاقات بيننا فى اطار الاحترام والمودة . هكذا كانت فى المعتقل وهكذا ينبغى لها أن تدوم. وهذا أفضل لهم ولنا وللجميع! ■

دائرة حوار

فلننظر إلى الحاضر في غضب

بقلم

د.عادل ابوزهـرة *

يحار المرء عندما يتأمل حال العرب والمسلمين فى كل مكان من هذا العـالم المتـرامى الأطراف، فبينما تتجه الأمم الأخرى بخطوات واسعة نحو نظم الحكم تأخذ بالديمقراطية منهجا لإدارة شئـونهـا العـامـة والخاصة وتنظم انتخابات تتسم بالنزاهة والشفافية، وتحترم الحكومات فيها القوانين التى تصدرها وتحترم حقوق مواطنيها فى التفكير والتعبير والتنظيم والمشاركة فى صنع القرار، وتحترم الخلاف والاختلاف واعتماد الحوار أسلوبا لإدارة مـا بين مـواطنيـهـا من تنوع في الآراء، وبينما تحقق هذه الأمم انجازات متميزة فى مجال إنتاج العلم والمعرفة والتكنولوجيا، وتحسن أحوال العيش لمواطنيها، وتدير مؤسساتها بكفاءة واقتدار، وتهيئ لدى مواطنيها عقليات علمية وتشجعها على النقـد والتـحليل والاكـتـشـاف والابتكار والإبداع، وتعتنى بالمؤسسات التعليمية عناية بالغة وتشجع وسائل الإعلام على تحفيز مواطنيها على استخدام العقل والمنطق والموضوعية، نجد أن الأنباء التى تخرج يوميا من عالمنا العربى والإسلامى تزرع فى نفوسنا الحسرة واليأس.

* أستاذ العلوم السلوكية وخبير في التنمية البشرية – الإسكندرية

ابن رشد

ففى دولة إسلامية تخرج الأنباء عن انتخابات مزيفة ومزورة، وعن قرارات حكومية تحظر على المرأة الخروج من المنزل والذهاب إلى المدارس ومخاطبة أو مخالطة الرجال، ومن دولة عربية أخرى تنقل شبكات التليفزيون العالمية صورة لمجموعة من الرجال تهتف وقد امتلأت وجوههم بزهو الانتصار لأن البرلمان فى هذا البلد صوت ضد إعطاء المرأة الحق فى الترشيح وفى الإدلاء بصوتها فى الانتخابات، كما تنقل وسائل الإعلام من بلد عربى ثرى صورا للنساء وقد اتشحن بالسواد وتغطين من قمة رءوسهن حتى أطراف أصابع أقدامهن بكميات كثيفة من القماش، وفى هذا البلد لا تستطيع المرأة أن تقود سيارة أو تحضر محاضرة علمية يلقيها رجل إلاّ من وراء ساتر، ومن بلد آخر لا تتوقف الأنباء عن ذبح النساء والأطفال وترجح هذه الأنباء أن الذين يقومون بهذه المجازر جماعات تنسب نفسها للدين، أما عن قضايا تكفير الأدباء والمفكرين والباحثين وإهدار دمائهم فحدث ولا حرج، حيث يساق إلى المحاكم مغنيون وشعراء وقصاصون وروائيون بتهمة الكفر أو الزندقة أو الإساءة للدين أو إنكار بعض ما هو معلوم منه، أما أعجب هذه القضايا فهى التى ترفع على رجل أو امرأة لتفرق بينهما بحجة كفر أو ارتداد أحدهما، يضاف إلى ذلك مصادرة الكتب من كل نوع من الكتب العلمية إلى الأبحاث والأطروحات الجامعية إلى الروايات والقصص ودواوين الشعر وصولا إلى بعض معارض الفن التشكيلى.

الفهم الخاطىء للدين

يضاف إلى ذلك انعدام لغة الحوار الهادىء والرصين بين المختلفين وسيادة لغة الاتهام فى الوطنية أو العقيدة أو الذمة، كل هذا يتم فى الوقت الذى تشكو فيه الأمة من علل كثيرة مثل تدهور حال التعليم وتدهور أحوال البحث العلمى وتدهور الإنتاج كما وكيفا، وتدهور نوعية الحياة التى يحياها المواطنون، وتدهور الثقافة، وسطحية وتفاهة الكثير مما يقدم فى وسائل الإعلام، فنحن لا نسهم إسهاما يذكر تقريبا فى إنتاج العلم أو المعرفة أو التكنولوجيا، ونحيا طوال الوقت على ما يتم إنتاجه من علم ومعرفة وتكنولوجيا تصل إلينا من دول أخرى، ولا نرى أمامنا فى النهاية غير الترويج لفكرة المؤامرة، فالعالم كله يتآمر علينا ويريد أن يوقف تقدمنا وازدهارنا، مع أننا لا نفعل إلا اليسير لنتقدم أو نزدهر، كل ما نفعله أننا نرتد إلى رحم الماضى بكل ما يوفره هذا الارتداد لنا من مشاعر خادعة بالأمن والفخر، وإذا نظرنا حولنا إلى دول بدأت مشروع نهضتها معنا أو بعدنا بكثير وجدناها تتقدم بخطى واسعة على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والعلمية مثل اليابان وسنغافورة وتايوان والصين وتايلاند وكوريا وغيرها من دول جنوب شرق آسيا، هل يعود السبب الرئيسى فى بؤس أحوالنا إلى فهمنا الخاطىء لرسالة الدين، وإقحام الدين فى ميادين يجب ألا نقحمه فيها؟ هل هى حالة الدروشة والتعصب الدينى وضيق الأفق التى انتابتنا

منذ حوالى ثلاثين عاما؟ أليس من الواجب أن نعيد الدين إلى مكانته المقدسة ونتوقف عن إقحامه فى ميادين السياسة والاقتصاد ونظم الإدارة وميادين العلوم المختلفة.

اليوم الذي تغير فيه العالم

مر كل ذلك بخاطرى وأنا أقرأ كتابا شديد الأهمية من تأليف البريطانى جيمس بيرك "James Burke" بعنوان اليوم الذي تغير فيه العالم "The day the Universe "changed ، يتناول فيه أهم المنجزات التى حققتها الحضارات الإنسانية المتعاقبة كالحضارة المصرية والحضارة اليونانية والحضارة الإسلامية خاصة فى بلاد الأندلس وصولاً إلى العصر الحديث، وأكثر ما أثار سعادتى ذلك الجزء الذى تحدث فيه عما أسهم به المسلمون فى تقدم البشرية.

لقد قرأت الكتاب بالإنجليزية وبعد أن فرغت منه عثرت على ترجمة ممتازة له إلى العربية قام بها مترجمان متميزان هما السيدة ليلى الجبالى والأستاذ شوقى جلال، فقرأته مرة أخرى.

يقول المؤلف: «ظلت الأندلس على مدى مائتى عام بعد الفتح العربى موطنا نائيا ومنعزلا للإسلام حيث تقع فى الغرب الأقصى من مراكز العلم والتجارة فى بغداد ودمشق. ثم أخذت الأندلس تزدهر تدريجيا تحت الحكم الإسلامى إلى أن غدت إقليما غنيا. وعندما انتقلت الخلافة الإسلامية إلي بنى أمية فى عام ٩٣٢م، أصبحت أسبانيا بعاصمتها قرطبة هى الجوهرة فى تاج الإسلام».

يقول المؤلف: «أصبحت الأندلس فى ظل الخلافة الأموية، إقليما غنيا راقيا متحضرا.

ويؤكد «جيمس بيرك» أن العرب استخدموا الورق فى ذلك الزمان البعيد، وهو مادة لم يكن الغرب قد عرفها بعد. ولما كان استخدام الورق أمرا متاحا، فقد ساعد ذلك على نمو مجتمع متعلم على أعلى مستوى.

وعن تسامح المسلمين مع أهل العقائد الأخرى يقول المؤلف «لقد تميز موقف هذا المجتمع الثرى الحضارى ذى الثقافة الرفيعة بالتسامح مع العقائد الأخرى، حيث عاش فى ظل حكم الخلفاء المسلمين آلاف اليهود والمسيحيين فى سلام وانسجام كاملين، واستخدمت عوائد الأرض لتطوير مستوى الحياة. والأهم من هذا كله، أن الدين والثقافة تعايشا معا فى تواؤم، فحيثما وجد الإسلام، وجد معه التعطش إلى المعرفة وتطبيقاتها على شتى مناحى الحياة». أما عن عنايتهم بالفن فيقول «جيمس بيرك» «وفى القرن التاسع عاش فى قرطبة الموسيقار والمطرب الكبير "Ziryab" «زرياب» الذى كان رائدا فى عزف مؤلفات موسيقية ذات أسلوب متميز هو أسلوب المدينة المنورة، وبغداد. وقد نجح الأمويون في إغراء «زرياب» ليعيش فى قرطبة، حيث أصبح فيها رائدا للتقاليع فهو الذى ابتكر فكرة ارتداء الملابس التى تناسب كل فصل من فصول السنة، وتسريحات الشعر المختلفة، وصالونات التجميل، وهو الذى ابتكر نظام تقسيم الوجبات إلى أطباق مختلفة، واستخدام الكؤوس الزجاجية على المائدة بدلا من الأوانى المعدنية».

بين المسلمين والغرب

وعندما يقارن بين المسلمين والغرب

يقول «من الناحية الفعلية، كان الخليفة في قرطبة هو الحاكم المطلق لشمال إسبانيا، حيث كان المسيحيون يعيشون في قلاعهم المكشوفة في مدينتي ليون، ونافاري ، في حالة من القذارة والجهل مثلما كان عليه الحال في بقية شمال أوروبا، وقد اعتاد الخليفة أن يرسل على فترات منتظمة حملات إلى الشمال للتأكد من استقرار الأمن والقيام ببعض المناوشات ونهب ما يقع عليه الاختيار من بلدان الريف، وغالبا ما كانت هذه العملية تنفذ طبقا لجدول زمني محدد خلال الربيع والخريف. أما خلال فترة هدوء الصيف، فقد اعتاد المسيحيون أن يرسلوا إلى قرطبة طالبين استئجار أطباء الأسنان، ومصففي الشعر، والجراحين، والمهندسين المعماريين، والموسيقيين».

ويضيف «وربما يرجع الفضل للموسيقيين العرب في نقل الأسلوب العربي في الوزن الشعري، والإيقاع الموسيقي إلى أوروبا عبر إقليم «بروفنس» "Provence" جنوب شرق فرنسا، من خلال أغاني الشعراء المتجولين «التروبادور»، ليتغير أسلوب الشعر والموسيقى الأوروبية إلى أسلوب عصري. وبعد كل هذا الازدهار والتقدم في الأندلس سقطت قرطبة في عام ١٠١٣، نتيجة الانشقاقات داخل هيكل السلطة العربية، لتضع نهاية للخلافة الأموية. ومع تلك النهاية تم تدمير المكتبة الكبرى.. وقد سمح الحكام الجدد، وفقا للتقاليد الإسلامية، بتوزيع الكتب مع طلاب العلم في قرطبة، على المدن الرئيسية في الإمارات الإسبانية الصغيرة، مثل أشبيلية، وسرقسطة، وفالنشيا، وباراجوز، وغرناطة، ودنيا، وتوليدو. وكان رجال البلاط في هذه الإمارات يتنافسون على تقديم المساكن والتسهيلات لهؤلاء الطلاب وقد عبر عن هذا الوضع في القرن الحادي عشر أحد هؤلاء الطلاب واسمه «سيد» كان يعيش في توليدو، حين كتب يقول «إن الأحوال في الأندلس مازالت طيبة كما كانت دائما». كان ذلك صحيحا، خاصة في مدينة توليدو.

«لقد ظلت توليدو على مدى مائتي عام عاصمة - للقوطيين الغربيين - إلى أن سقطت في يد العرب عام ٧١١. وقد اشتهرت هذه المدينة بأنها موطن أكبر عدد من السكان اليهود في أسبانيا، إذ بلغ عددهم، عندما استولى المسيحيون على المدينة، حوالي عشرة آلاف يهودي. وأسهم هؤلاء اليهود والعدد القليل من الطلاب المسيحيين المقيمين في المدينة بتقديم العون الكبير للسائحين الأكاديميين القادمين من الشمال».

انفجار القنبلة الفكرية

إن هذا الكم الهائل من المعرفة لو أنه هو وحده الذي وصل إلى الأوروبيين اللاتينيين لكان كافيا ليحدث تحولا حاسما. لكن انفجار القنبلة الفكرية التي هزت أوروبا إنما حدث نتيجة للفلسفة التي حملتها معها هذه المعارف. فقد شملت نظرية أرسطو في المذهب الطبيعي والمنطق الجدلي. وكانت معظم المواد المترجمة عن أصول عربية، وأكبرها عددا من الأعمال المترجمة عن نصوص عربية لمؤلفات علمية يونانية، مع تعليقات ساعدت كثيرا على فهم هذه الموضوعات المتقدمة.

ويؤكد المؤلف أن «موسوعة الشفاء» الشاملة للطبيب الفارسي ابن سينا، كانت في مقدمة تلك الموضوعات، وهي الموسوعة التي كتبها في السنوات المبكرة في القرن

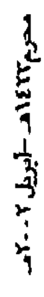


الحادى عشر. كانت موسوعة ابن سينا، أول موسوعة فلسفية تقدم أفكار أرسطو التى صدمت وأثارت الغرب، لأنها وضعت الدين والفلسفة فى مركزين متساويين، كمذهبين فى تفسير الكون. وقد تعارضت هذه المساواة مع تعاليم الديانة المسيحية، تعلم الغرب من ابن سينا وغيره من المفكرين الآخرين، قوة الجدل السحرية بواسطة القياس المنطقى الذى يحول استخدامه دون الوصول إلى نتائج خاطئة غير منطقية.

أما عن تأثير الفيلسوف «ابن رشد» فيقول المؤلف : إن الصدمة الأخيرة جاءت مع السنوات الأولى من القرن الثالث عشر، فيما شملته من تعليقات الفيلسوف العربى ابن رشد على نظريات أرسطو، وهو الفيلسوف العربى الذى يعرفه الغرب باسم «أفيروس» "Averros" وقام بترجمة هذه التعليقات فى إسبانيا «جيرار أوف كريمونا» "Gerard of Cremona" وهو أكثر المترجمين غزارة فى الإنتاج، وبفضل هذه الترجمة قدم ابن رشد للغرب أكثر التحليلات وضوحا لفكر أرسطو فى صورته الخالصة، وأصبح ابن رشد معروفا بعد ذلك باسم «المعلق»، كما بات مقروءا على أوسع نطاق. وقد أخضع ابن رشد الحقيقة المشاهدة بأكملها إلى ضوء العقل المجرد، فيما انتهى إليه من عملية الخلق قد حدثت قبل الأزل وتبعتها بالحتم أحداث أخرى، لم يتدخل الله فى شىء بعد ذلك. ووضع هذا الكنيسة أمام مشكلة كبرى تختص بالعلاقة بين الإرادة الحرة والعناية الإلهية تتناقض مع ما قاله القديس «أوجستين» من أن خلاص الإنسان يتأتى بفضل العناية الإلهية ولكن إذا انتفت الإرادة الحرة انتفت معها خطيئة الإنسان بإرادته.

بين حضارة الأمس وواقعنا الحاضر

هذا هو ما فعله أسلافنا بالأمس، وهذا هو حالنا اليوم، فما الذى جعلهم يحققون كل هذه الانجازات المرموقة فى شتى الميادين وجعلنا نعجز عن اللحاق بركب التقدم ونتحول إلى مستهلكين للعلم والمعرفة والتكنولوجيا التى ينتجها غيرنا، فى الوقت الذى حققوا هم فيه هذه الانجازات المهمة فى مجالات الفلسفة والفكر والعلوم والزراعة والصناعة والفنون مثل الموسيقى والرقص والعمارة والشعر، وبذلوا جهدا كبيرا كى يجعلوا الحياة أكثر بهجة وأكثر إشراقا نجد فرقا كثيرة تعيش بيننا الآن تجد أن البهجة رذيلة وأن الجهامة فضيلة تحرم على الناس الشعر والموسيقى والنحت والتلوين والتمثيل، ويبذلون جهدا فائقا فى إثبات أن ربطة العنق التى بها خيوط من حرير قد تكون حراما وأن المرأة إذا تعطرت فهى زانية، وأن السماء قد تنطبق على الأرض إذا تحدث رجل مع امرأة على انفراد أو إذا صافحها أو إذا جلس بجوارها، وأن طلاء الأظافر قد يبطل الوضوء، ونجد فرقا كثيرة من الشباب يحركهم كبار أخذوا على عاتقهم أن يحملوا لافتات ويتحركوا بمنتهى الجدية وكأنهم يؤدون عملا مقدساً ليثبتوا هذه اللافتات على الجدران أو فى الميادين العامة أو يلصقوا أوراقا على وسائل النقل العام أو على المحطات وكلها ترى أن أعظم هدف يجب أن تتفرغ له الأمة الإسلامية هو إقناع أو حتى إجبار النساء على وضع قطعة من القماش على رءوسهن وإخفاء



شعرهن، ولو نجحت أمة الإسلام فى ذلك فسوف نكون قد حققنا أعظم وأنبل أهدافنا، بل سيترتب على ذلك صلاح حال المسلمين، ليس مهما أن نصلح التعليم أو نصلح الإعلام أو نكافح من أجل حرية التفكير والتعبير والتنظيم والمشاركة أو من أجل التنمية والعدل الاجتماعى، ليس مهما أن نجيد أعمال الزراعة والصناعة أو حتى نحترم مواعيدنا، ليس مهما أن ننتج علما أو معرفة، ليس مهما بالمرة أن نغنى أو نعزف أو نرسم أو ننحت أو نمثل أو نبدع فى أى ميدان، ليس مهما بالمرة أن ننشىء دورا للمسرح والسينما والرقص الشعبى أو معاهد للتمثيل أو كليات للفنون الجميلة أو دارا للأوبرا أو ملاعب للرياضة، المهم، والمهم جدا، أن نؤدى الصلاة فى أوقاتها فى عياداتنا ومكاتبنا وفى قاعات محاضراتنا، حتى على مستوى الرياضة ، ليس مهما أن نتدرب تدريبا جيدا وجادا أو أن نجيد خطط اللعب، المهم أن نقرأ الفاتحة قبل بداية المباراة، هل هذا هو التدين؟ أن نؤدى الصلاة فى أوقاتها أو تغطى المرأة شعرها بقطعة من القماش؟ ثم ماذا عن الصدق والأمانة والوفاء والإخلاص وإجادة العمل والإبداع واحترام المواعيد والشجاعة فى قول الحق والاهتمام بالشأن العام والمصلحة العامة، والتعامل بكفاءة واقتدار مع ما يواجهنا من مشكلات ، أليست كل هذه القيم من الإسلام؟ إن الأمة العربية لم تشهد عبر تاريخها الممتد مثل هذه الكثافة فى البث الدينى، فالدين يدرس فى كل مراحل التعليم العام، ويشغل مساحة كبيرة على الخريطة الزمنية لجميع وسائل الإعلام، وتوجد صفحات ثابتة ودائمة فى الصحف السيارة تتحدث عن الدين، ولم تشهد مصر فى تاريخها كله هذا القدر الهائل من دور العبادة التى يتم بناؤها، ويتم قطع برامج الإذاعة والتليفزيون لإذاعة الآذان، وعلى الطرق السريعة والطرق الصحراوية تم تثبيت لافتات مليئة بالوعظ الدينى، وحتى على زجاج السيارات توجد ملصقات دينية، أى أن هناك كثافة بث وإلحاح دينى غير مسبوقة، وبالرغم من ذلك لم تشهد بلادنا تدهورا فى مرافقها وفسادا فى إدارتها وقذارة تمتلىء بها شوارعها وحواريها وأزقتها مثلما تشهده الآن ، انظر إلى كل هؤلاء الذين يترددون بانتظام على دور العبادة ويتعاملون مع خطاب دينى دائم كيف يقودون سياراتهم، كيف يستخرجون رخصا للبناء، راقب القدر الهائل من اللجوء إلى الوساطة والمحسوبية فى الحصول على الوظائف أو الخدمات، اذهب إلى مستشفى كل من فيها يصلى، وربما يحمل سجادة للصلاة، وتأمل نوع الخدمة التى يقدمونها لك فإذا خرجت من هذا المستشفى سليما معافى دون أن تحدث لك كارثة فأنت فى الغالب محظوظ، إذن هذا الذى نراه ليس إيمانا ولا تدينا.

لقد كان أسلافنا متدينين من غير شك ومؤمنين من غير شك، لكن ظل هذا شأن خاص بهم، أما عندما يذهبون إلى المعامل أو قاعات العلم فهم علماء وباحثين مجيدين، وعندما يذهبون إلى الحقول والمصانع فهم زراع مهرة وصناع مهرة، وعندما يعزفون ويغنون ويلونون ويتأنقون فإنهم يفعلون كل ذلك بإتقان ومهارة، أليس من الواجب أن ننظر إلى واقعنا بغضب؟ ■

دائرة حوار

محمد شحرور

دراسة في فكره

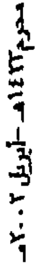
بقلم
د. محمد بلتاجي

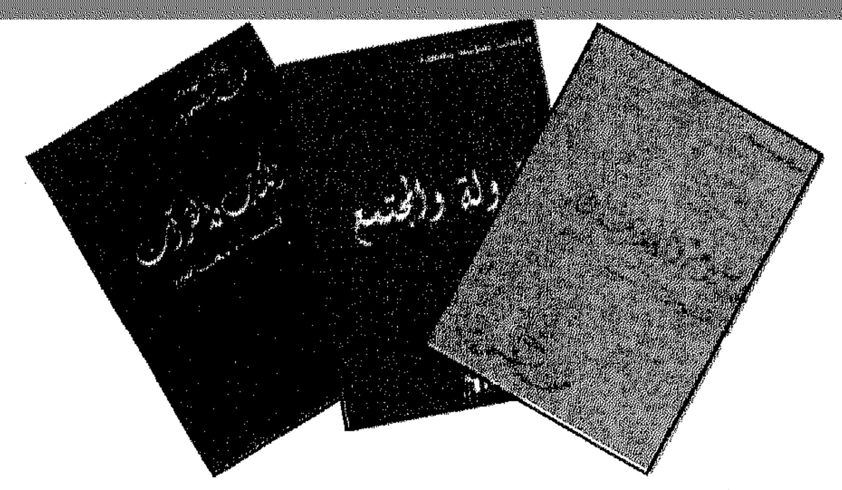
منذ شهور قال لى صديقى - وهو يحاورنى - : ماذا تعرف عن شحرور؟ أمسكت بالمعجم الوجيز (لمجمع اللغة العربية) وقرأت فيه: «الشحرور طائر مغرد من فصيلة الشجروريات، ومن الجواثم المشرومات المناقير، ذكره أسود وأنثاه أعلاها أسمر وصدرها إلى حمرة، يصاد ويربى فى أقفاص لحسن صوته» قال : أنا لا أمزح، والذى أقصده هو الدكتور المهندس محمد شحرور، فما رأيك فيه ؟

قلت : أعرف أنه كاتب سورى، يأتى (على وجه العموم) بما يخالف ما عليه جمهور الناس، لكن لم يتح لى أن ألتقى بأفكاره مباشرة بصورة تسمح لى بالحكم عليه، ومن ثم أنا متوقف فى ذلك حتى أقرأه، ولقد سمعت من صديق أنه هو الصاحب الأصلى للنظرية الخائبة عن (أصل الخلق)، وأن صديقنا (اقتبسها) منه!

قال : وما رأيك فى أن أتيح لك هذا؟ ثم شفع ذلك بأن قدم لى سفرا ضخما يزيد على ثمانمائة صفحة بعنوان (الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة).

قلت : وجب!





• الكتاب قائم على فرضيات مضطربة وفهم قاصر لفلسفة الدين الإسلامي

وجدت الكتاب مطبوعا بدمشق عام ٢٠٠٠م الطبعة التاسعة، ومهدى إلى أبيه (ديب شحرور) الذى علمه (الفكر النقدى) و(قول الحق) و(حرية التعبير) و(حرية الاختيار) .

وقد قدمه الدكتور جعفر دك الباب بمقدمة عن (المنهج اللغوى فى الكتاب) يذكر فيها أن صديقه الدكتور شحرور فى قراءته المعاصرة للقرآن «توصل إلى نتائج جديدة مغايرة لما هو سائد الآن فى التراث العربى الاسلامى» (ص ١٩) ثم تكلم عن المنهج اللغوى لكتاب شحرور .

النبوة والرسالة

وفى مقدمة المؤلف لكتابه يقول إنه وجد أن هناك ثلاثة أنواع من الآيات فى الكتاب (القرآن). ولم يستطع أن يقوم بهذا التصنيف إلا بعد أن تم له تحديد الفرق بين النبوة والرسالة؛ «فالنبوة هى مجموعة من المعلومات أوحيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم وبها سمى نبيا؛ أى أن كل الأخبار والمعلومات التى جاءت فى الكتاب هى النبوة .

والرسالة هى مجموعة التشريعات التى جاءت الى النبى بالإضافة الى المعلومات فأصبح بها رسولا. فالنبوة علوم، والرسالة أحكام. أى أن نظرية الوجود الكونى والإنسانى وتفسير التاريخ هى من النبوة، وهى من الآيات المتشابهات .

أما التشريع من إرث وعبادات - ومعها الفرقان العام (الأخلاق) والمعاملات والأحوال الشخصية والمحرمات فهى الرسالة أى الآيات المحكمات .

وهناك نوع ثالث من الآيات وهو الآيات الشارحة لمحتوى الكتاب، فهى لا محكمة ولا متشابهة - ولكنها من النبوة حتى تحتوى على معلومات .

لذا فإن الكتاب من حيث الآيات ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - الآيات المحكمات، وهى التى تمثل رسالة النبى صلى الله عليه وسلم، وقد

أطلق الكتاب عليها مصطلح «أم الكتاب» وهى قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية، ماعدا العبادات والأخلاق والحدود .

٢ ـ الآيات المتشابهات ، وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح «القرآن والسبع المثانى» وهى القابلة للتأويل، وتخضع للمعرفة النسبية وهى آيات العقيدة .

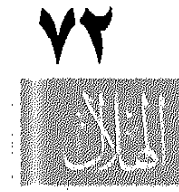
٣ ـ آيات لا محكمات ولا متشابهات، وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح «تفصيل الكتاب» .

ثم قال : ونحن نرى أن التحدى للناس جميعا بالإعجاز إنما وقع فى الآيات المتشابهات «القرآن والسبع المثانى» وفى الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات «تفصيل الكتاب» حيث إن هذين البندين يشكلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

هل هناك فرق جوهرى؟

وقال: لقد تبين لنا أن هناك فرقا جوهريا بين الكتاب والقرآن والفرقان والذكر، فالقرآن والسبع المثانى هما الآيات المتشابهات ويخضعان للتأويل على مر العصور والدهور، لأن التشابه هو ثبات النص وحركة المحتوى . وقد تم انزال القرآن بشكل متشابه عن قصد، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم ممتنعا عن التأويل عن قصد؛ أى أن القرآن يؤوَّل ولا يفسَّر، وأن كل تفاسير القرآن تراث يحمل طابع الفهم المرحلى النسبى. وقال : فإذا سأل سائل : هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا ، هلى ليست من القرآن «النبوة» ولكنها من أم الكتاب «الرسالة» وهى من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود» راجع «الكتاب والقرآن» ص ٣٧ – ٣٨) .

ثم يعود ليبين معنى ذلك فيورد آيتى الميراث ١١ ، ١٢ من سورة النساء (وفيهما ميراث الأولاد ذكورا وإناثا، والأبوين، والزوج والزوجة، والإخوة والأخوات لأم)، ثم يورد الآيتين التاليتين لهما (النساء ١٣ – ١٤) ويعلق على ما ورد فيهما بقوله «نلاحظ هنا فى الآية قوله (تلك حدود الله) وقوله (ويتعد حدوده) فالحركة هنا مسموحة ضمن حدود الله؛ فهذا يعنى وجود أكثر من حدين حيث جاءت بصيغة الجمع، والتعدى هنا هو الحركة فى اتجاه الحد حتى نصل اليه، فإذا تجاوزناه حصلت حالة التعدى، ولا يعنى التعدى (هو) الوقوف على الحد فقط بحيث تمنع الحركة بأى اتجاه» (الكتاب والقرآن ص ٤٥٧، ٤٥٨) ثم يقول : «لنر الآن ماهى الحدود فى آية الإرث: الحدود هى : الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى بمعنى أنه مهما بلغ التفاوت فى تحمل الأعباء الاقتصادية للأسرة أى أن الرجل مسئول مسئولية كاملة والمرأة لا تتحمل أية مسئولية بمعنى المسئولية الاقتصادية ١٠٠٪ على الرجل وصفر على المرأة، ففى هذه الحالة جاءت حدود الله لتعطينا أن يأخذ الرجل ضعف الأنثى فهنا أعطى الحد الأدنى للأنثى ٣٣,٣٪



والحد الأعلى للذكر ٦٦،٦٪. فإذا أعطينا الذكر ٧٥٪ والأنثى ٢٥٪ نكون قد تجاوزنا حدود الله، أما اذا أعطينا الذكر ٦٠٪ والأنثى ٤٠٪ فلا نكون قد تجاوزنا حدود الله بل بقينا ضمنها .

وبما أن الله أعطانا الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى فيأتى دور الاجتهاد حسب الظروف الموضوعية التاريخية بتقريب الفرق بينهما، وهذا التقريب مسموح به حتى التساوى الكامل فيما بينهما طبقا للحالات الإرثية المنفردة كل على حدة أو طبقا للوضع التاريخى التطورى العام أو طبقا للاثنين معا، وهذا التقريب بينهما يحتاج إلى بيانات مادية احصائية» (الكتاب والقرآن ص ٤٥٨ - ٤٥٩)

فرضيات مضطربة

وكتاب شحرور كله قائم على أنواع من الاضطراب وعدم التعمق فى اللغة حيث يترك فيها الإنسان الحق الواضح الأبلج ليدخل بفرضيات مضطربة إلى عوالم من الأوهام ودوائر متتابعة من البطلان، مع ظنه بأنه قد أتى بما عجزت عنه الأجيال السابقة وأنه قد حلّ اللغز الأبدى !

وقد ذكرنى مجموع كلامه (الذى أخذنا منه النموذج السابق، وهو كاف فى تقرير حالته) بما حذر منه النبى صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود حين قال : وقد «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا بيده، ثم قال (هذا سبيل الله مستقيما)، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال (هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو اليه) ثم قرأ قوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .

(سورة الأنعام١٥٣، والحديث رواه احمد وابن جرير والنسائى والحاكم وغيرهم) .

ولما سئل ابن مسعود عن الصراط المستقيم الذى ورد فى الآية؟ قال: ماتركنا محمد صلى الله عليه وسلم فى أدناه.. وطرفه (الآخر) فى الجنة (تفسير الطبرى ١٢ / ٢٣٠ وتفسير ابن كثير ٣ / ٣٦٢) بيد أن هناك من يريد صرف المسلمين عن هذا الصراط المستقيم بفرضيات واهنة واهية يظهر عوارها وبعدها عن الحق كلما أنعمت النظر بمنهج صحيح اليها .

ولنعد إلى المثال الذى أخذناه من كلام شحرور (وهو يمثل قطاعا متكاملا من فكره، بعيدا عن كل صور التصيد من كلامه، أو اجتزاء بعضه، او تقويله مالم يقله هو بغاية الوضوح والصراحة والبيان.. فمعاذ الله أن نفعل شيئا من ذلك مع شحرور أو غيره، مهما بلغ بنا رفض ما يصدره من نغمات) .

بين النبوة والرسالة

يفرق شحرور أولا بين (النبوة) و(الرسالة) فالنبوة عنده هى مجموعة المعلومات والأخبار التى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم بها، وهى من الآيات المتشابهات .

والرسالة هي مجموعة التشريعات من إرث وعبادات وأخلاق ومعاملات وأحوال شخصية ومحرمات، وهي الآيات المحكمات. ويقول شحرور عن هذه الآيات المحكمات إن الكتاب قد أطلق عليها مصطلح (أم الكتاب) «وهي قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، ماعدا العبادات والأخلاق والحدود».

أما القسم الأول (الآيات المتشابهات) فقد أطلق عليها الكتاب مصطلح (القرآن والسبع المثاني) «وهي القابلة للتأويل، وتخضع للمعرفة النسبية، وهي آيات العقيدة» .

وهناك قسم ثالث لهما هو الآيات التي لا هي محكمات ولا هي متشابهات، وقد أطلق عليها الكتاب مصطلح (تفصيل الكتاب).

ويقول شحرور انه يرى أن التحدي للناس جميعا بالإعجاز إنما وقع في الآيات المتشابهات (القرآن والسبع المثاني) وفي الآيات غير المحكمات وغير المتشابهات (تفصيل الكتاب) حيث إن هذين القسمين يشكلان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ونلاحظ على هذا الكلام ما يلي :

أولا : انه يقسم الكتاب من حيث نوع الآيات الي ثلاثة أقسام :

محكمات، ومتشابهات، ولا محكمات ولا متشابهات، والذي ورد في القرآن الكريم (وصفا لآياته من حيث الإحكام والتشابه) هو قوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) (آل عمران ٧) فالقسم الثالث (الذي ابتدعه شحرور، لا سند له من أي نص صحيح!

ثانيا : يزعم شحرور أن القسم الثالث (الذي ابتدعه) هو المخصوص بقوله تعالى (تفصيل الكتاب). والحق أن هذا زعم ممعن في البطلان؛ لأن الآية التي ورد فيها هذا المصطلح تتكلم عن القرآن كله فتقول (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) (يونس ٣٧) وهذا المعنى قد تكرر في آيات عديدة ، و (الذي بين يديه) و(الكتاب) في الآية هو ما عند أهل الكتاب من الكتب المتقدمة فهو يهيمن عليها ويبين ما وقع فيها من تحريف ويفصل ماورد فيها من أحكام (ابن كثير ٤ / ٢٠٢) وقد تكرر هذا المعنى في آيات عديدة تقيم العلاقة بين القرآن الكريم والكتب السابقة المنزلة (مثلا : المائدة ٤٤ - ٤٨).

ثالثا : يفسر شحرور (الآيات المحكمات) بأنها آيات التشريع من إرث وعبادات وأخلاق ومعاملات وأحوال شخصية ومحرمات (وهي قابلة للاجتهاد حسب الظروف الاجتماعية والاقتصادية ماعدا العبادات والأخلاق والحدود» .

ونلاحظ أن تعريف المفسرين على مر العصور للمحكمات أدق وأضبط مما اختاره شحرور فيها، حيث يقول ابن كثير مثلا : إن الآيات المحكمات هن أم الكتاب:

أى بينات واضحة الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس ، وذلك فى مقابل المتشابهات أى فيها اشتباه فى الدلالة عند كثير من الناس، فمن رد المشتبه الى المحكم فقد اهتدى «ومن عكس انعكس»، (تفسير ابن كثير ٢ / ٤) فأين هذا الكلام الواضح الموافق للنص القرآنى مما ذكره شحرور من تلبيس ؟ وما الذى برر له القول بأن الآيات المحكمات خارجة عن التحدى والإعجاز مع تناقض زعمه مع قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (البقرة ٢٣) . فهل هناك أدنى ريب فى أن الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب مما أنزله الله تعالى على عبده صلى الله عليه وسلم؟ وما الذى يؤدى إليه إنكار مئات الآيات فى عقيدة المسلم؟! وما محل ذلك من قوله تعالى (.. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون). (البقرة ٨٥).

رابعا : يقول شحرور إن (الآيات المتشابهات) قد أطلق عليها الكتاب مصطلح (القرآن والسبع المثانى) «وهى القابلة للتأويل وتخضع للمعرفة النسبية ، وهى آيات العقيدة».

وقد ورد مصطلح (السبع المثانى) فى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) (الحجر ٨٧) وهناك شىء من تعدد وجهات النظر بين المفسرين لهذه السبع التى امتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم بإنزالها عليه، والراجح عندنا - والله تعالى أعلم - بأنها السبع الطوال من السور : البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس .. وقد روى هذا القول عن ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك.. وغيرهم (مثلا : تفسير ابن كثير٤/٤٦٤).

. وكذلك روى أن سورة الفاتحة هى السبع المثانى والقرآن العظيم (راجع تفسير الطبرى ١٤/ ٣٩، وصحيح البخارى تفسير سورة الحجر) .

لكن شحرور أتى بقول عجيب حين رأى أنها آيات العقيدة، وهى منبثة فى سور كثيرة تجاوز السبع سور، وهى أيضا عشرات الآيات، وربما وصلت عند العد الدقيق إلى المئات، فكيف تكون سبعا؟ وكيف تكون متشابهات؟! فأقوال العلماء الأقدمين إذن - بخاصة الصحابة - أولى من قوله بالقبول .

ويبدو أن قوله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى..) «الزمر ٢٣ » وراء تسمية شحرور لهذا القسم بالمتشابه - فى مقابلة المحكم - ويبدو أنه لم يفهم الفرق بين (المتشابه) بمعنى : الذى يشتبه معناه (وهو الذى فى مقابلة المحكم) «آل عمران ٧» وبين المتشابه الذى يشبه بعضه بعضا كما فى الآية ٢٣ من سورة الزمر لأنه يسير على وتيرة واحدة .

خامسا : أما قول شحرور ان هناك فارقا جوهريا بين (الكتاب) و(القرآن)



و(الفرقان) و(الذكر) فهو قول متكلف ينقضه بعض ما بناه شحرور عليه حين قال : «فإذا سأل سائل : هى آية الإرث من القرآن ؟ فالجواب : لا ، هى ليست من القرآن (النبوة) ولكنها من أم الكتاب «الرسالة» وهى من أهم أجزاء الرسالة وهو الحدود» وهذا - فيما يبدو لى - عبث بالألفاظ المقدسة ، ولقد أجمع المسلمون منذ عصر النبى صلى الله عليه وسلم حتى اليوم - ولا يجمعون على ضلالة إلا فى منطق المجازفين بالباطل ليدحضوا به الحق - على أن (آيات المواريث) الثلاثة وليس آية واحدة كما يقول شحرور فى سورة النساء (وهى الآيات ١١ ، ١٢ ، ١٧٦) من (القرآن الكريم) ومن (كتاب الله الموحى به) ومن (الذكر الحكيم الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم) ومن (الفرقان الذى نزله الله على عبده ليكون للعالمين نذيرا) - ليس هذا فحسب، بل هو (الصراط المستقيم) و(حبل الله المتين) و(ميزان الحق) و(شفاء المؤمنين) و(هدى للمتقين) و(النور الشافع لأهله) .. وما شاء الله من أوصاف الحق والعدل والرحمة .. ونعوذ بالله من التفيهق والتكلف والثرثرة بكل باطل لا نفع فيه ولا حقيقة له !

ثم ، لنر ما الذى انتهى اليه شحرور من متتابعاته السابقة : يلاحظ أن آيتى الميراث المتتابعتين ورد بعدهما قوله تعالى (تلك حدود الله) و(يتعد حدوده)، ومن صيغة الجمع فى الحدود يفهم وجود أكثر من حدين فى الآية، ويوظف هذا فيما يريده حيث يقول إن الحدود فى آية الإرث هى : الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى « .. فهنا أعطى الحد الأدنى للأنثى ٣٣.٣٪ والحد الأعلى للذكر ٦٦.٦٪ فإذا أعطينا الذكر ٧٥٪ والأنثى ٢٥٪ نكون قد تجاوزنا حدود الله، أما إذا أعطينا الذكر ٦٠٪ والأنثى ٤٠٪ فلا نكون قد تجاوزنا حدود الله ، بل بقينا ضمنها .

معنى الاجتهاد

وبما أن الله أعطانا الحد الأعلى للذكر والحد الأدنى للأنثى فيأتى دور الاجتهاد حسب الظروف الموضوعية التاريخية بتقريب الفرق بينهما، وهذا التقريب مسموح به حتى التساوى الكامل فيما بينهما طبقا للحالات الإرثية المنفردة كل على حدة ، أو طبقا للوضع التاريخى التطورى العام، أو طبقا للاثنين معا.. وهذا التقريب بينهما يحتاج إلى بيانات مادية إحصائية» ..

ولست أعرف كلاما أدخل فى باب الهذيان من هذا ، وذلك لأن التعبير القرآنى فى الحدود بالجمع ورد فى كل سياق للتحذير من تعدى أوامر الله تعالى، بل لم يرد أبدا فيه التعبير بغير الجمع، لا بالمفرد ، ولا بالمثنى«الآيات التي وردت فيها الحدود علي سبيل الحصر : البقرة ١٨٧، ٢٢٩ (أربع مرات)، ٢٣٠ (مرتان)، النساء ١٣، ١٤، ٩٧، ١١٢، المجادلة ٤، الطلاق (مرتان) وكلها بالجمع في كل سياق» ، فلم تنفرد سياقات (الميراث) بالورود بالجمع، بل هو أسلوب قرآنى عام يرد الجمع فيه دائما ليستحضر القارئ



والسامع - فى كل سياق للمحرمات - أن حدود الله (جميعها) لا تنتهك ولا تتخطى ! فمال هذابالفهم الشحروري الباطل بأن التعبير بالجمع يشير إلى وجود أكثر من حدين فى ميراث الذكر والأنثى، ويفتح الطريق لما يدعيه من وجوب الاجتهاد - حسب الظروف - لتقريب الفرق بينهما باستحداث أنصبة (حدود) متعددة !

ومن الذى أذن بهذا والآية قاطعة صريحة فى أن الأنثى تأخذ نصف الرجل ؟

من الذى أدخل فى الآية (ظروفا تاريخية) تسمح للمجتهد بأن يغير حكما قطعيا بمحض اجتهاده ونظره؟ وهل هناك تعد لحد الله فى الميراث أكثر من هذا حينما يجعل المجتهد (عقله) مهيمنا على النص الشرعى بالتغيير والتعديل والإلغاء؟ وأين السماح بذلك فى الآية؟ والله تعالى يقول بأسلوب الحصر البيانى المعروف (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا ..) « النور(آية ٥١) » .

درس لفلسفة التوريث الإسلامى

.. وبعد، فهذا قطاع متكامل من كتاب شحرور وفكره، ومن الواضح - من المنطلق الفقهى الصحيح - اضطراب الأبعاد والزوايا والقياسات - فى كتابه ، فالكاتب يريد أن يصل منه (بأية ملابسة) إلى أن النص القرآنى فى آيات المواريث قد أتاح للمجتهد أن يغير ويعدل فى نسبة ميراث الأنثى لميراث الذكر حسب مسئوليتها الاقتصادية ، أو طبقا لأوضاع تاريخية أو اجتماعية متغيرة - أو غير ذلك من الاعتبارات - فيغير فى تسمية النصوص القرآنية، ويقيم بناء عقليا مضطربا ينتهى منه إلى أن القرآن عقب على آيات الميراث بذكر أنها (حدود الله) بالجمع، فلو اقتصرنا على ميراث الذكر وميراث الأنثى المذكورين فى الآية نصا فلن يكون عندنا غير حدين ، فأين الثالث والرابع والخامس.. الخ الذى يطابق إيراد (الحدود) بالجمع؟ ولو رجع إلى استعمال القرآن للفظ الحدود فى كل سياق بالجمع وحده، فلعله كان ينتبه إلى تهافت ما انتهى إليه .

ولأن الرجل لا يفهم حكمة الميراث الإسلامى وفلسفته وارتباطه الوثيق بنظام النفقات والنظام الاجتماعى الإسلاميين - فقد صرفت النظر عن إيراد شئ من الدرس الفقهى الذى نقدمه لطلابنا بين يدى تدريس (فلسفة التوريث الإسلامى) وكذلك صرفت النظر عن أن أورد له أكثر من عشرين مسألة فقهية تأخذ الأنثى فيها - بقواعد التوريث الإسلامى نفسه - أكثر مما يأخذه الذكر الذى يماثلها تماما فى درجة قرابتهما من الميت .. بل قد تأخذ هى وهو لا يأخذ، فالتعلق بعبارة (للذكر مثل حظ الأنثيين) الواردة فى الآيات مرتين فى خصوص حالات معينة ، يقطع بما عند شحرور وأمثاله من (علم) بنظام التوريث الإسلامى وفلسفته ، مما نكتفى معه بما سبق من بيان . ■

أسرار الأميرة

التى تحرك الرجال وتصنع الأحداث

بقلم
مصطفى نبيل



الاميرة
نازلى فاضل



الأميرة نازلي فاضل.. هل هي ملاك طاهر، أم شيطان رجيم؟
تركت الأميرة المتمردة نازلي فاضل أثرا كبيرا في حياة مصر في مطلع القرن الماضي، وأثارت ضجة لم يثرها غيرها من أبناء الأسرة العلوية، وهي ابنة الأمير مصطفى فاضل، وأغرب شخصيات أسرة محمد علي، في صالونها تتشكل الوزارات، وتخرج الأفكار والمبادرات، وتكاد تمسك بخيوط اللعبة السياسية، يلجأ إليها كل الأطراف، فهي تملك علاقات وثيقة بالانجليز، وصلات دائمة بالسلطان العثماني.
تعرف الأميرة معرفة شخصية كلا من الملكة فيكتوريا والملك إدوارد، وكذلك السلطان عبدالحميد الذي كثيرا ماالتقي بها في قصره. وتعرف معظم الشخصيات العاملة علي المسرح السياسي، عاشت في لندن وهي صغيرة مصاحبة زوجها السفير العثماني، كما عاشت في إسطنبول في صحبة والدها.
يرى البعض أنها ظلمت ظلما فادحا، ولم يعطها المؤرخون حقها، لا يتذكرها التاريخ ولا يذكرها المؤرخون، وظل دورها مجهولا. ويرى البعض الآخر أنها بريطانية الهوى في الوقت الذي هبت مصر تقاوم فيه الاستعمار البريطاني.

حقا.. إنها أكثر الشخصيات غموضا.. فهى أميرة ولكنها متمردة على الخديو وعلى التقاليد البالية، تحارب تخلف الشرق ويثير غيرتها تقدم الغرب، وربما كان باعث تمردها أن والدها الأمير مصطفى فاضل حفيد محمد على، كان وليا للعهد أيام الخديو إسماعيل باعتباره أكبر أفراد الأسرة العلوية، ونجح اسماعيل فى تغيير نظام ولاية العهد بفرمان مايو ١٨٦٦م، وانتقلت ولاية العهد إلى أكبر أنجاله مثلما وقع مؤخرا فى الأردن، ومازال العمل قائما فى معظم دول الخليج بهذا المبدأ الذى يجعل ولاية العهد لأكبر أفراد الأسرة.

وهذا أدى إلى اتساع الهوة بين إسماعيل ومصطفى فاضل واشتداد الدسائس ورحيل مصطفى فاضل وأسرته من مصر - كما يذكر عبدالرحمن الرافعى - واتخاذ الأستانة وأوروبا مقرا له، وتبخرت أحلام مصطفى فاضل فى الحكم، وتجرعت ابنته المرارة، وأطلق عليه فى تركيا أبو الأحرار لانضمامه إلى أحرار تركيا المقاومين للحكم الاستبدادى.

والأخوان اسماعيل ومصطفى

اللورد كتشنر



أبوهما إبراهيم باشا، ولكنهما من والدتين مختلفتين، وولدا في يومين متقاربين مما أشعل المنافسة بينهما.

وحول مصطفى فاضل قصره إلى مدرسة هي مدرسة الخديوية العسكرية، وهو صاحب أكبر مكتبة خاصة في مصر، والتي أصبحت نواة دار الكتب المصرية، انصرف إلى الفكر والعلم، وأصبح من دعاة الحرية والدستور، وألف مصطفى فاضل في منفاه كتابا عن حكم السلطان عبدالحميد، وذكرت مجلة الاثنين في ٤٨/١٠/١١، أن الأميرة نازلي ترجمته من التركية إلى العربية.

وتوفي الأمير مصطفى فاضل سنة ١٨٧٥ أي قبل الخديو إسماعيل، وأصبح الأمير حليم عم إسماعيل هو الذي يتطلع إلى حكم البلاد، هذه هي الخلفية العائلية للأميرة التي عادت إلى مصر واستقرت فيها عندما كان الخديو عباس حلمي يجلس على العرش، ثم رحلت إلى تونس لزيارة أختها رقية، وتزوجت هناك من خليل أبو حجاب نجل قاضي تونس الذي أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء تونس، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى مصر التي لم تنقطع عن زيارتها.

لغز ستورز!

يروي رونالد ستورز الذي سجل تجربته في مصر في كتابه «شرقيات»، والذي جاء إلى مصر عام ١٩٠٤، حول علاقة الأميرة بالانجليز.. «تبني الأميرة في اسطنبول السفير البريطاني سير هنري لابارد الذي عاملها كابنته، ووضع أمامها تجربته وخبرته وتعرفت في لندن على الكابتن كيتشنر قبل شهرته وهو ضابط صغير، وعندما جاء إلى القاهرة وعرف الخديو عباس صلتها بكيتشنر أعاد علاقته بالأميرة» ويعترف ستورز أن الجنرال كان يجد متعة خاصة في لقاء الأميرة، وكان يتردد على صالونها قبل كيتشنر اللورد كرومر، ويلتقي عندها بجيل جديد من الساسة والمفكرين الذين يترددون على قصرها، ويكاد يكون صالونها هو أول صالون من نوعه، وهو السابق على صالون الكاتبة الرقيقة مي زيادة، وهو الصالون الذي قضى على التفرقة بين «الحرملك» و«السلاملك»!.

ونلاحظ أنها كانت لها علاقات وثيقة بكرومر الذي وضع معالم سياسة الاحتلال البريطاني في مصر، وكانت أيضا وثيقة بكيتشنر صاحب السياسة البريطانية في الشرق الأوسط! لذا وصفت بأنها بريطانية الهوى، يقول عنها د. السيد الشناوي.. «كان الإنجليز يحترمونها ويقدرونها، ويرون في رواد صالونها خلاصة الفكر الراقي في البلاد!».

ولكن من هو رونالد ستورز الذي قدم جانبا كبيرا من حياة الأميرة؟

شارك في العمل الاستعماري البريطاني على اعتباره متخصصا في المنطقة ويجيد اللغة العربية، وشارك في الإعداد للثورة العربية (الشريف حسين)، وفي التمهيد لاحتلال الصهيونية لفلسطين، وعمل سكرتير كيتشنر للشئون الشرقية، وهو القائل سنة ١٩١٤ .. «..إن الأفضل لبريطانيا وجود دولة تمثل حاجزا وفالقا

أسرار الأميرة




هنري استنت



سير الدون جورست



اللورد كرومر

وسط البلدان العربية، وتساءل: هل نستطيع خلقها؟!»، ثم أجاب: «لست أدرى إن كان قيام دولة يهودية فكرة جذابة».. وكان هذا النشاط هو التمهيد لوعد بلفور.

وساهم ستورز أيضا فى الخدعة الكبرى التى تسمى سايكس/ بيكو. وهو زميل وصديق لورنس، وتولى بعد دخول القوات البريطانية إلى فلسطين فى الحرب العالمية الأولى رئاسة الإدارة العسكرية المؤقتة فى القدس.

يقول.. «علينا أن نبدو أمام اليهود أننا لا يحركنا العرب، ونبدو للعرب أن اليهود لم يشترونا».

هذا رغم أنه كان يوصف بأنه معاد للسامية! مما يعنى أن قيام إسرائيل بالنسبة للسياسة الاستعمارية عمل سياسى محض.

قناديل بلا نار

وترك لنا ستورز وصفا دقيقا لصالون الأميرة وسجل، وهو رجل المخابرات البريطانية، تفاصيل أول منتدى من نوعه ولا يوجد وصف عربى للمنتدى، يقول: «تدخل قصرها القريب من قصر عابدين، يستقبلك اثنان من الأغوات كل واحد منهما له اسم زهرة أو أحد الأحجار الكريمة، وعندما تمشى من البوابة إلى القصر تمر بين ورود وأشجار وارفة، تشاهد القطط الأمبرية وهى تتمطى فى كسل.

وسرعان ما يعلن أحد الأغوات وصولك، ولابد أن تنتظرها ولو مجرد لحظات، وحتى لو كان الموعد محددا سلفا، ثم تطل عليك باسمة متحررة، رائعة الجمال ولها حضور وتأثير طاغ.

غرفة الاستقبال وطرازها المميز يعكسان طبيعة وشخصية الأميرة، المزج بين كل من الطابع الشرقى والغربى، قناديل تضاء بالكهرباء، مقاعد من طراز لويس الخامس عشر إلى جانب زخارف عربية، الصور الشخصية للعائلة المالكة البريطانية إلى جوار صورة السلطان عبدالحميد، صورة اللورد جرنفيل إلى جانب اللورد كرومر، وتزدحم جدران الغرفة الأربعة بالصور، صفحات من المجلات المصورة تروى أحداث العشرين سنة الفائتة».

ويروى ستورز عنها بوصفها صديقة مقربة، اتصلت علاقتهما سبع سنوات، وهى المرأة الوحيدة فى القاهرة التى تستقبل الضيوف من كبار الشخصيات فى صالونها من الأجانب وبينهم

الإنجليز، وتدور المناقشات بالفرنسية أو التركية فليست لغة الأميرة العربية سليمة.

يصفها جمال الدين الأفغانى الثائر من أجل الحرية بقوله: «إنها مثال الجمال والكمال، حضرة البرنسيسة التى لها فى قلبى المنزلة الأبهى، والمقام الأسنى..»، وإذا كان رفاعة الطهطاوى قد سافر إلى باريس لكى يقدم إلى قراء العربية النهضة الحديثة، ففى صالون الأميرة جاءت لندن وباريس من خلال زوارها، يتردد على صالونها من المفكرين الشيخ محمد عبده وقاسم أمين وأديب إسحق والمويلحى والشيخ على يوسف. أفكار متباينة واتفاق على ضرورة الإصلاح، ويتردد على الصالون من السياسيين سعد زغلول، وشريف باشا ورياض باشا وحسين رشدى باشا، كما يتردد على هذا المنتدى اللورد كرومر وستورز وغيرهم. ويزعم ستورز أنها عندما تنفرد به تستمر فى الحديث ساعتين متواصلتين ولا تترك لسامعها بضع دقائق.

أول مدرسة بنات

يقول عنها المستشرق البريطانى ألفريد بلنت فى كتابه «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا لمصر»، وهو الذى كرس جهوده للدفاع عن الحركة الوطنية المصرية والدفاع عن الثورة العرابية، عندما يأتى على

سنة ١٨٨٧... «زرت الأميرة نازلى، وهى معجبة بعرابى، وتدافع عنه بصدق، وتأسف لهزيمته، وتردد أنه لو كان مثل محمد على لأخذ الخديو توفيق وبقية الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم، وناصبت توفيق العداء وأيدت الثورة ورغم ذلك لم تمل الحديث عن نبل أهدافه ونزاهة أغراضه.

وعندما تقلب صفحات تاريخ الثورة العرابية، يفاجئك موقف بعض الأميرات من الثورة، وتجد أن أكثرهن تأييدا لها هى الأميرة إنجى التى بلغ تأييدها للثورة أن طلبت من عرابى أن يتزوجها، وأم عباس الأول - صاحبة سبيل أم عباس - والأميرة جشم آفت صغرى زوجات الخديو إسماعيل، التى أقامت أول مدرسة ثانوية للبنات سنة ١٨٧٦ يتعلم فيها الفتيات بالمجان وتقدم لهن المأكل والملبس مجانا، وهى مدرسة السنية، وتبرعت الأميرة فاطمة اسماعيل بحليها وأرضها للجامعة المصرية.

ويذكر عرابى فى مذكراته، تبرع والدة الخديو إسماعيل بجميع خيول عرباتها للعرابيين، واقتدى بها الكثيرون من أفراد الأسرة الخديوية، ونجد جولييت آدم تقول فى كتابها... إنجلترا فى مصر. «ليست الأميرات المصريات أقل من الأمراء، فهن متعلمات تعليما أوربيا، وقدمت الأميرة فاطمة إسماعيل أملاكها وجميع حليها للمنفعة العامة، وكذلك فعلت الأميرة قدرية كريمة السلطان حسين كامل والتى كتبت كتابا بالفرنسية عنوانه «رسائل من أنقرة»

أما عن نازلى فاضل فتقول عنها هدى شعراوى «ظهرت الأميرة فى أفق الحياة الاجتماعية، وفتحت أبواب دارها لعظماء



ألفريد بلنت فى صورة نادرة

الرجال، وساهمت مساهمة فعالة فى بناء النهضة الحديثة».

عصر السيطرة البريطانية!

وقبل أن نستطرد فى الحديث عن الأميرة، وحتى نتلمس أبعاد دورها، علينا أن نطل على العصر الذى عاشت فيه، ونرى الخلفية التاريخية التى عاشت فى ظلها، فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عندما دخلت قصر الدوبارة - مقر المعتمد البريطانى - عنصرا فاعلا فى السياسات الداخلية وبدأ الصراع بين قصر عابدين وقصر الدوبارة، وبدأ انتشار ثقافة جديدة تدعو إلى الحرية وإلى النهضة حيث يلقى مشاهير المفكرين محاضراتهم فى منابر متعددة، ومع انتشار المطابع والكتب والصحف ومع تعدد المسارح والفرق الأجنبية فى دار الأوبرا أُلفت الروايات وعُربت التمثيليات.

وبدأ الرافد الغربى قويا متدفقا فى ظل السيطرة البريطانية واحتك الشرق بالغرب احتكاكا قويا لا ينقطع وبدأت تقع التغييرات فى النظرة إلى قضايا سياسية واجتماعية، ولعل الضجة التى أثارتها قضية الشيخ على يوسف وزواجه من صفية السادات سنة ١٩٠٤ تعكس حجم ومدى هذه التغييرات وجاءت رواية «زينة» لقوت القلوب الدمرداشية باللغة الفرنسية كصيحة احتجاج على الكثير من الضغوط الاجتماعية.

ونهض الأزهر الشريف من سباته، وأقيمت المدارس والجامعات والجمعيات الأدبية والثقافية، وبدأ الحراك الاجتماعى واتسعت قاعدة الملكية الزراعية لصالح المصريين، وبدأ تمصير الكثير من الوظائف.

وبدأت فى الظهور الكثير من الكتب التى صنعت العقل الجديد للأمة، سواء المؤلفة أو المعربة وسعى كرومر إلى تمصير الوظائف التركية والشركسية، واتجه إلى توسيع الطبقة الوسطى المصرية.

وغدا تقييم المواقف فى هذه المرحلة التاريخية مسألة شديدة التعقيد، لا يصلح لها التبسيط ولا ينفع معها الاختزال أو الأحكام سابقة التجهيز، هذا عندما شعر الكثير من المثقفين بامتلاكهم حرية تزيد على ما كانت عليه يوم انفرد الحاكم بالسلطة، وعاش معظمهم فى تردد وحيرة بين مقاومة الاحتلال أم مقاومة الاستبداد ولم ينته هذا التردد إلا عند الوصول إلى الصيغة التى تطالب بالحرية فى الداخل ضد الاستبداد وفى الخارج ضد

الاستعمار الأجنبي

ولعل صالون الأميرة، من يحضره وما يدور فيه من مناقشات، كان يعبر عن هذه اللحظة التاريخية وعن هذا التضارب.

وفي هذا السياق ساندت الأميرة العديد من رجالات مصر وقياداتها أمثال سعد زغلول والشيخ محمد عبده وقاسم أمين من رجال الفكر وزعماء الإصلاح، وتبلورت في منتداها فكرة الوطنية بديلا عن الملة، أي الوطنية المصرية بديلا عن الرعية العثمانية، وفي منتداها اتفق الجميع على ضرورة أن تحصل المرأة المصرية على حقوقها ومساواتها بالرجل، وفي منتداها تمت مناقشة ضرورة التجديد والإصلاح الديني.

الزعيم والأميرة!

ومن أبرز رواد مقرها زعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول والذي كان محاميا للأميرة، ووكيلا لأعمالها عندما كان يشتغل بالمحاماة بين فبراير ١٨٨٤ وحتى يونيو ١٩٠٢، ويذكر ستورز في «شرقيات» أن الأميرة هي التي نصحت سعد زغلول بضرورة تعلم اللغة الفرنسية والتي بدأ دراستها في صيف ١٨٩٢م، وهي التي زوجته من أم المصريين صفية ابنة رئيس الوزراء مصطفى فهمي في ٦ فبراير ١٨٩٦، وهي أيضا التي قدمته إلى اللورد كرومر ثم رشحته للورد لكي يصبح مستشارا ثم وزيرا للمعارف.. ونجح في الحصول على الاجازة من جامعة بارب بدرجة عالية سنة ١٨٩٧.

فهل ما يكتبه ستورز هو مجرد محاولة للإساءة أو التقليل من قيمة قائد ثورة ١٩١٩؟! أم يقدم درسا مفيدا في الواقعية السياسية؟

يقول عباس العقاد في كتابه عن سعد زغلول.. «كان لورد كرومر يعرف سعدا من خلال زياراته للأميرة نازلي فاضل.. ومن المحقق أن لورد كرومر عرف من اللحظة الأولى للقاء سعد أنه يرى رجلا لا كالرجال.. جلس معه ساعة فأدهشه ألا يسمع منه ملقا أو رجاء، وعندما سأله أليست لك حاجة؟ امتعض سعد لهذا السؤال وأجاب: (شكرا ولكن لم أسألك أنت قضاء الحاجات) فأطلق كرومر على جماعة صالون نازلي فاضل فريق (الجيروند) المصري، أي تشبيههم بحزب (الجيروند) في الثورة الفرنسية.

وماذا سجل سعد زغلول في مذكراته حول ما يجرى في قصر نازلي فاضل؟ لم يذكر سوى القليل من التفاصيل.. «كنت مدعوا وقاسم أمين عند البرنسيس نازلي (خانم) وتحدثت عن غيرة فتحي زغلول من تعيين سعد وزيرا! وأنه اتهم أخاه سعدا أمام الخديو بأنه يؤلف حزبا وصحيفة وأن فتحي يتكلم في حق سعد في الوكالة البريطانية.. قلت لها: أرجوكِ أن تستفهمي على تفاصيل ما قال، لأن الدسائس كثيرة في هذا الزمان».

ويذكر خلال يوم آخر عندما كتب إسماعيل أباظة مقالا يهاجمه فيه متنكرا تحت اسم عارف، واتخذ سعد ضده الإجراءات القانونية، تدخلت الأميرة وكيتشنر لكي لا يستمر في إجراءات



الأميرة إنجه

فاطمة إسماعيل

التقاضى .كما يذكر أيضا أن نازلى لفتت انتباه كيتشنر لزيارتى بعد خروجى من وزارة المعارف، وهكذا.

الأميرة والشيخ

أما عن الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، فقد توثقت علاقته بالأميرة بعد عودته من منفاه عام ١٨٨٨ ويقال إنها سعت لدى كل من الخديو توفيق واللورد كرومر من أجل العفو عنه، بعد أن كان أحد المشاركين فى الثورة العرابية.

وهناك مقال مهم ومثير كتبه الشيخ مصطفى عبدالرازق يلقى الضوء الساطع حول علاقة الأميرة بالشيخ، والذى نشر فى (مجلة الرسالة جـ٧ ص٨ سنة ١٩٥٨) يقول.. «الأميرة نازلى فاضل من أميرات البيت المالك فى مصر، تميزت منذ نشأتها بذكاء ودهاء، وربيت على النمط الأوروبى، وتثقفت تثقيفا أوربيا وكان أبوها من دعاة الحرية والثائرين فى وجه الاستبداد التركى، ثم كانت زوجة السفير العثمانى فى لندن فاتصلت بعالم السياسة والدبلوماسية، وجمعت إلى ذلك كله جمالا رائعا وبيانا حلوا ولطفا نسويا فتانا وكانت ساحرة النظرات عذبة الملامح رشيقة القوام ناصعة الجبين ذات ثغر رقيق يفتر عن ابتسامة دائمة فيها معنى الألم العميق والسخرية بالألم، ومعنى العزيمة الماضية ومعنى الرجاء الذى لا يصل إليه اليأس... كان قصر الأميرة ملتقى الكبراء وقادة الرأى وصفوة أهل العلم والأدب والفن بين أجانب ومصريين... وفى قصرها كانت تحل عظائم الأمور، وتمحص مسائل الإصلاح الاجتماعى وتتدارس طرائف الآداب والعلوم والفنون الجميلة، وفى قصرها كان يشجع أهل المواهب وكان يمهد لنشر الجديد والدعوة إلى الرقى والمدنية، وكان للخلصاء فى قصر الأميرة فرص أيضا للتمتع بنعيم الحياة وطيبها.

عرفت الأميرة الشيخ محمد عبده –

ومـــازال الكلام للشـــيخ مـــصطفى عـبـدالرازق - مـسـتـشـارا فى مـحـكـمـة الاسـتـئناف وداما صـديقين حـتى فـرق الموت بينهـمـا، خـصـتـه بمكانة تجـمع بين الحب والإجلال، وكـان الشـيـخ يجـد فى كنف الأمـيرة مـا يغـذى روحـه الحـسـاسـة وذوقـه اللطيف، ويجـدد نشـاطـه للعـمل ويرفـه عنه فى أحـمـال الوقـار مـا لا يستطيع أن يرفـهـه إلا ذكـيـة حـسناء، ونشـأ الأسـتاذ على عداوة الانجليز.. أما بعد اتصـال الشـيخ بالأمـيـرة فقد خـفت حـملته على إنجلترا، وسـمح بصـداقـتـه الشـخصـيـة للورد كرومر صـديق الأميرة دون تفـريط فى حق بـلاده أو عـدول عن رأيه السـيـاسى (ويكاد يفصح عن علاقـة حب مكتوم بين الأمـيرة والشيخ). ويعلق د.عـثـمـان أمـين على مـقـال الشـيخ مصطفى عبدالرازق قائلا: «لا نبالغ إذا قلنا إن عناية الشـــيخ بإتقـــان اللغـــة الفـرنسـيـة ربما كـان نفحـة من نفحـات الأمـيرة التى كـانت تتكلم الفرنسـيـة،... فقد تغير الشـيخ بعد عـودته من باريس وانفصاله عن الأفغانى، ومال إلى الأخذ بالاعتدال والتـدرج متوخيـا الإصـلاح لا عن طريق السـيـاسـة والثـورة، بل عن طريق التـعـليم والتـربيـة الاجتماعية والدينية.. ومن يطلع على التـقـارير السنوية التى قـدمـهـا لورد كـرومـر إلى حكومته يجد فيها ذكرا طيبا للشيخ محمد عبده وتقديرا لأعماله... ولولا كرومر ما بقى مـحـمـد عـبـده فى منصب الإفتاء طويلا..»

وجـاء فى مـجلة «حـمارة منيتى» لقطة للشيخ محمد عبده جالسا وسط جماعة من الرجـال والنسـاء، وقـدمت الصـورة إلى اللورد لإقناعه بضرورة التخلى عن الشيخ، وفـاجـأهـم رد اللورد الذى قـال: يزورنا الشيخ وتحضر الليدى كرومر مجلسه، فهل هذا يعيبه؟!.

ومن اللافت للنظر أن الأسـتـاذ الإمـام وقاسم أمين كليهما اهتم بقضية الاستبداد كـأهم أسـبـاب التـخلف، الذى يؤدى إلى تراجع واضـمـحلال المجتـمـعـات ووجـه كل منهم هجـومـه على اسـتـبـداد حكام أسـرة مـحـمـد على وشب نزاع بين مـحـمـد عبده والخديو عباس بعد عودة الشيخ من المنفى.

نازلي وقاسم

بعد رد قـاسم أمين على كتاب «الدوق داركـور» ونشـر كـتـابه «المصـريون» بالفـرنسـيـة، وهاجم خـلاله السـيـدات الشـرقيات السـافرات ودافع عن الحجاب، اعتبرت الأمـيرة نازلى فاضل أنه يعنيها بهـجـومـه، فـهى من القلائل اللاتى يظهرن سافرات.

ويؤكـد داود بركـات فى أهرام ٤ مـايو ٢٨ وعبدالعزيز البـشـرى فى السـيـاسـة الأسبوعية ٥ مايو ٢٨، أن الأميرة تصورت أنهـا المعنيـة بهـجـومـه. ولم يرق للأمـيـرة مـوقف قـاسم أمـين من المرأة وأعلنت أنهـا تتطلع لإجراء حوار معـه، فصحب الشيخ محمد عبده قاسم أمين وذهب إلى مجلسها ودارت مناقشـة طويلة حول أفكاره، ويؤكد الكثـيـرون أنه كـتب كـتـابه «تحـرير المرأة» ١٨٩٩ و«المرأة الجديدة» ١٩٠٠ نتيجة تلك المناقـشـات التى دارت فى صـالونهـا، واشـتـرك فـيـهـا فـارس نمر وسـعـد زغلول





قاسم أمين — محمد عبده — محمد فريد

ومحمد المويلحى ومحمد بيرم وغيرهم.

يقول قاسم أمين.. «إنه وجد نفسه أمام امرأة شرقية مثقفة تدافع عن بلدها وتملك الحجة فى مواجهة الأجانب فى صالونها، واقتنع أنه لا يمكن أن تتحقق النهضة إلا عندما تحصل المرأة على حقوقها المتساوية مع الرجل».

وبقى السؤال، كيف ولماذا غير رأيه، وجاءت آراؤه فى كتابه «تحرير المرأة» مناقضة لكتابه «المصريون»؟ لعله الفارق بين المونولوج والديالوج أى الحوار مع الذات والحوار مع الآخر، يهاجم مع أهله التقاليد البالية وفى مواجهة الأجنبى يفخر بمصريته، ومن يتأمل كتاباته يجد أن الحرية هى القيمة الكبرى التى يدافع عنها، وهى المحرك للنهضة.

ويتناول قاسم أمين قضية الاستبداد سواء استبداد الرجل بالمرأة أو استبداد الحاكم بالمحكوم ويؤكد «الاستبداد أصل كل فساد» ويقول أيضا «فى عهد الاستبداد الذى كانت فيه كلمة من محمد على أو إسماعيل تكفى لإعدام من يغضب عليه عندما كانت فيه حياة الإنسان وحريته وأمواله مهددة بالخطر ولم يكن لأحد مهما كان مقامه ضمانة تحميه، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم إلى صد إرادة الحاكم والتصريح بآرائهم..» (كتاب كلمات ص٤٨).

ويرى مع الشيخ محمد عبده أن إصلاح النظام الاجتماعى والتعليمى يسبق العمل السياسى لأنه يرفع من مستوى وعى المواطنين.

محمد فريد ونازلى

يأتى ذكر الأميرة نازلى فى مذكرات محمد فريد، صوت آخر لعله الصوت المسكوت عنه أو لعله إحدى نتائج الصراع السياسى القائم أيامها، يقول: «كانت نازلى فاضل من أنصار الإنجليز وعشاقهم وكانت تجاهر بذلك، كان لها شغف خاص بضباط الإنجليز وكانت مشتغلة بالدسائس فكانت تتجسس للسلطان عبدالحميد وللانجليز»، ويقول عن سعد زغلول «كانت له صداقة متينة بالأميرة وكانت له اجتماعات عندها يحضرها قاسم أمين والشيخ محمد عبده وغيرهم، وبسبب هذه الصداقة وبسبب مساعى الأميرة لدى كرومر عين سعد مستشارا فى الاستئناف».

تربت تربية أوربية ثم تزوجت خليل



الإمام محمد عبده في الخلدونية عام ١٩٠٣

شريف باشا شقيق سفير الدولة العلية فى باريس، وعاشت معه سنين عيشة أوربية بحتة، ولما توفى عادت لمصر. كانت تقابل الرجال على العادة الأوربية وتحيى ليالى موسيقية فى دارها، وتكثر من شرب الخمر وخاصة الشمبانيا، كانت تتردد على تونس لزيارة أختها رقية هانم زوجة القائد بن عياد، فتعرفت بالسيد خليل أبو حاجب وتزوجته ولم تعقب، كانت تخالط الصحفيين وتنشر آراءها فى الجرائد وكلها ضد المصريين، ونشر هجومها فى كتابها مصر الحديثة (لندن ١٩٠٥ لكاتبه أ.ب. جرفيل) ووصفت الشباب المصرى بالسلبية (لعلها تريد إثارة نخوته) ونشرت حديثا فى الإجبشيان جازيت سنة ١٩٠٩ قالت فيه: «إن الشباب المصرى لا يستحق ثمن الحبل الذى يشنق به، ونشرت حديثا آخر فى البروجريه مجدت فيه الإنجليز!»

كانت لى بها صلة تعارف بسبب مهنة المحاماة عندما كلفتنى بقضايا جدتها لأبيها، ولدى زيارتى لتونس دعتنى إلى دارها وأكرمتنى وإن كنا على طرفى نقيض فى السياسة، وقطعت صلتى بها عندما كان مصطفى كامل فى مرضه الأخير، فدعت عليه وتمنت موته فغضبت منها ولم أقابلها بعدها». ويلاحظ أن مصطفى كامل كان فى ذلك الوقت صوت الوطنية المصرية الصادق.

اللغز!!

هانحن وصلنا إلى المحطة الأخيرة، حيث أصبح لزاما علينا أن نجيب عن سؤال: هل ما قامت به الأميرة عمالة أم تعامل؟! وها هو محمد فريد يتهمها صراحة بالعمالة لبريطانيا، فهل ذلك نتيجة الخلط بين دور الغرب الثقافى ودوره



سعد زغلول

الاستعماري؟ ولست في حاجة إلى التأكيد على أن الفكر والثقافة إرث بشري من حق الجميع أن يتمتعوا بنتائجه أما السياسة وما تعبر عنه من مصالح فهي قضية أخرى.

وفي هذا السياق يمكن أن ينشأ فضاء مشترك بين بعض المثقفين وبين قصر الدوبارة، وخاصة أولئك الذين يعملون من أجل القضاء على الاستبداد وحكم الفرد ويسعون إلى بناء المؤسسات وتحديث الإدارة، والذين ينادون بالوطنية بديلا عن الملة أي المصرية بديلا عن العثمانية.

ورغم ذلك تبرز علامات استفهام حول ما يرويه ستورز في مذكراته حول زيارة النائب البريطاني روبرتسون، والذي تجاهل دعوة الأميرة للقاء، وتصورت الأميرة أن ذلك بتحريض من الوطنيين المصريين، فبعثت له رسالة تبدي فيها دهشتها وتقول: «شعورك نحو المصريين أقوى من شعوري نحو الإنجليز» ويعلق ستورز على رسالتها بأنه يحتفظ بصورة منها والتي تقول فيها «لقد حققت بريطانيا العدل والرفاه في مصر» لتقديمها لكل من يشكك في دورنا الايجابي في مصر ومن



جشم آفت هانم

العبارات التي نتوقف عندها قولها: «إنها تضيق بنا (أي بالانجليز كما جاء في شرقيات ستورز) إذا حاولنا الاتصال أو التفاهم مع التيار المضاد (أي الوطنيين المصريين)!.»

ومن مواقفها المتضاربة أيضا دفاعها عن كيتشنر وهجومها المستمر على جورست، وكراهيتها للخديو توفيق، ووقوفها إلى جانب الخديو عباس، وما سبق ذكره حول دفاعها المستمر عن عرابي وثورته.

ألا تستحق حياة الأميرة الغنية بالأفكار والاتصالات والتي يكتنفها الغموض أن تظهر في فيلم سينمائي، يتناول الغامض والساحر في شخصيتها ويستعرض معالم الحياة المصرية في مطلع هذا القرن.

فليس أكثر حكمة من حكاية تروى جيدا. ■

من أعلام الفن الأوروبي



مصور العواصف والأعاصير

بقلم
د. صبرى منصور

عاصفة ثلجية





محرم ١٤٢٣هـ - أبريل ٢٠٠٢م

إن المتأمل لتاريخ الفن الأوروبى منذ عصر النهضة وحتى اليوم يتوقف مأخوذاً أمام إبداع بعض الفنانين من ذوى المواهب الفنية الفذّة، ذات الأوجه المتعددة، والتى تتأبّى على التصنيف ضمن أسلوب فنى بعينه، فهم قادرون بإبداعهم الغريب والشاذ عن السياق المعروف على تخطى الأطر التقليدية السائدة فى أزمانهم، وتدفعهم قوى مجهولة إلى ارتياد آفاق جديدة، والتعبير عن موضوعات مبتكرة، وصياغة أساليب فنية غير مطروقة تكون تمهيداً لمدارس وطرز مازالت فى رحم الغيب.

ومن بين هؤلاء الفنانين المحيّرين فى تصنيف إبداعهم المصور الإنجليزى وليام تيرنر الذى ولد عام ١٧٧٥ وتوفى عام ١٨٥١، والذى يعتبر من أهم الشخصيات الفنية فى انجلترا خلال القرن التاسع عشر، كما يعدّ بالنسبة لإنتاجه الفنى المتنوع من أكثر المصورين خصوبة وغزارة، وقد كان له تأثير عظيم على الانطباعيين الفرنسيين والتعبيريين الألمان فيما بعد.



فينسيا - بزوغ القمر ١٨٤٠

المنظر الطبيعي الأوروبي في القرن الثامن عشر

ولقد كان فن المنظر الطبيعي ضمن الفروع الفنية التي استفادت من حرية الفنان - التي تأكدت خلال القرن التاسع عشر - في اختيار موضوع ومادة تصويره، إذ كان المنظر يعتبر فرعاً صغيراً ومحدوداً إذا قورن ببقية الفروع التي شملت صور الأشخاص والتجمعات البشرية ومناظر الحروب والصيد والطبيعة الصامتة، فكانت لا تؤخذ علي محمل الجد أعمال أولئك الفنانين الذين يصورون مناظر البيوت الريفية أو الحدائق والغابات والأنهار، لكن تلك النظرة قد تغيرت إلي حد كبير من خلال الروح الرومانتيكية في أواخر القرن الثامن عشر، وأخذ فنانون كبار علي عاتقهم مسئولية الإرتقاء بهذا الفن وإكسابه الاحترام والتقدير اللازمين، ومن الغريب أن يتولي إثنان من كبار الفنانين الانجليز من جيل واحد تحقيق هذا الهدف، وقد كان جون كونستابل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) واحداً منهما، أما الثاني فكان ويليام تيرنر.

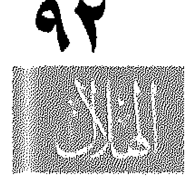
بداية تقليدية

نشأ تيرنر في بيئة متواضعة، وكان والده يعمل حلاقاً وصانعاً للشعر المستعار في كوفنت جاردن، وحينما أظهر تيرنر موهبة مبكرة في فن الرسم ألحقه والده بالأكاديمية الملكية للفنون وهناك لفت الأنظار إلي تميزه وهو لم يتعدَّ الخامسة عشرة من عمره، وحيث قام بدراسات جادة وصارمة، مروراً بكل المراحل التي يمرّ بها أقرانه، مسلحاً نفسه بكل الإمكانيات الفنية اللازمة لمصور محترف. ومنذ عام ١٧٩٥ كان يعرض لوحاته بالمعارض التي تقيمها الأكاديمية بصفة منتظمة حتي أصبح هو نفسه عضواً فيها عام ١٨٠٢.

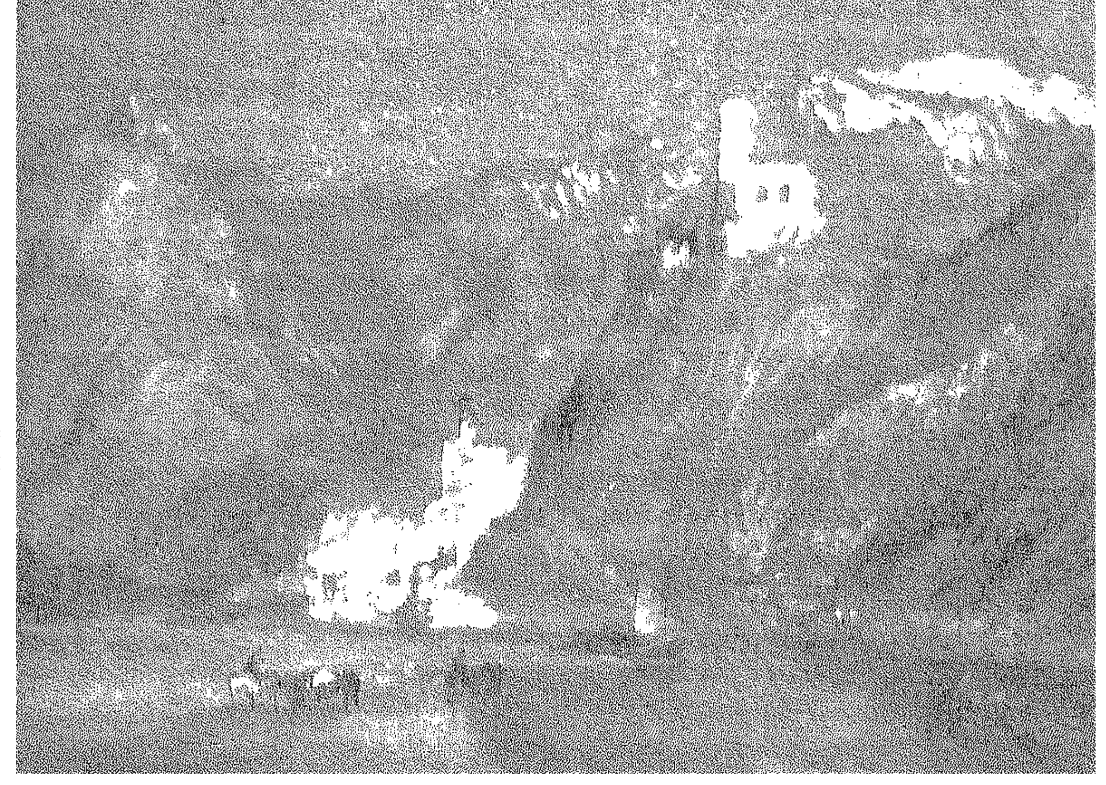
وجاءت بدايات تيرنر في تناول المنظر الطبيعي متماشية مع التقاليد السائدة في القرن الثامن عشر، والتي كانت تعتمد علي تقديم صورة وصفية للأماكن والمباني، وتدلنا أعماله علي أنه لم يعتمد في إبداعه علي عبقريته وموهبته فقط، وإنما فرض علي نفسه نظاماً في الفن كانت ثمرته قدرة فنية تحتاج في ممارستها إلي مجهود دؤوب، ومازالت المؤثرات التي ابتكرها مثل تصوير الضباب والزبد وحركة المياه المصطخبة عصية علي تحليلنا.

كما كان تيرنر يتمتع بميزة الفضول النهم إلي المعرفة، والتجريب والبحث في حقائق الطبيعة، فلقد واجه أعنف العواصف في عرض البحر، وتحمل المصاعب التي يتحملها أيّ مكتشف، في تصميم علي ملاحظة وتسجيل أكثر الظواهر الطبيعية خفاء وندرة. ولم يحدث أن كرّس إنسان حياته بهذه الصورة من أجل نشاطات مهنته الخالصة.

ولقد ظلّ المنظر الطبيعي الخلوي هو محور اهتمامه الرئيسي، ساهم في ذلك مزاجه الشخصي الذي يتصف بالانعزال والانطوائية والنفور من الناس. وفي البداية



الصيد فى مياة عميقة ١٨١٨



بقايا قلعة فوق صخرة فى مدينة على النهر ١٨٢٧

دعَّم تيرنر نفسه في الرسم بالألوان المائية، وأصبح أعظم أستاذ عرفه العالم في هذا النوع من التصوير، إلا أن ذلك ظلّ بالنسبة له وسيلة لغاية أخري، ومنهجاً للتفسير والاكتشاف قام بدمجه فيما بعد في التصوير بالألوان الزيتية الأكثر عظمة والأعمق قيمة.

ملامح التجديد

وتيرنر الذي بدأ بأصول أكاديمية في تسجيل الطبيعة، قد اشتهر فيما بعد بالخروج علي تلك التقاليد، وظهر ميله إلي الحسّ الرومانسي والخيال، وذلك ما دفعه نحو تصوير الأطلال والأماكن ذات التاريخ القديم. ولقد استطاع أن يوظف تمكنه من مواده وألوانه ومعرفة أسرارها، وكذلك حصيلة تجريبه للأدوات والتقنيات من أجل تجسيد أفكاره. كما كان يحسن استغلال انتشار الألوان علي سطح اللوحة والتي تحدث مصادفة نتيجة تداخل المياه الملونة مع بعضها البعض، هذا بالإضافة إلي أسلوب الكشط للون وهو مازال ليناً رطباً، كما استطاع تيرنر أن يستخرج من الألوان الزيتية بعض صفات الألوان المائية كالشفافية والصفاء اللوني. وكان يفضل استخدام الألوان الزاهية، ويميل إلي استخدام التضاد اللوني الواضح في بعض أجزاء اللوحة، في حين يسود الأجزاء الأخري درجات لونية متقاربة.

ولقد كانت طريقة تيرنر المميزة في التلوين متأثرة إلي حد كبير بأحدث النظريات العلمية للألوان والظلال، التي طبقها في العديد من أعماله، حيث كان القرن التاسع عشر هو عصر الاهتمامات والاكتشافات العلمية.

من السكون إلى العواصف العاتية

وفي السنوات الأخيرة من حياته، حدث التحول الكبير في فن تيرنر والذي أسفر عن الإضافة الحقيقية له في تاريخ الفن، فقد تحول من تصوير المناظر الطبيعية الوادعة التي تتسم بالرقة ويسودها الهدوء والسلام، إلي فنان له رؤيا تتخطي السائد والمألوف، وتدفعه نحو تصوير قسوة الطبيعة وعنفها، ومنذ حوالي عام ١٨٤٠ - حين رسم الموت والخراب في لوحته «سفينة العبيد» - ساد اللونان الأحمر والأسود الرعدي معظم أعماله اللاحقة. وقد فسر بعض معاصريه ذلك التحول وأرجعوه إلي تكوين شخصيته التي يمثل التشاؤم أحد ملامحها الرئيسية، فقد كان تيرنر يؤمن بأن الإنسان يبدو مثل ذبابة صيف عابرة سريعة الفناء.

منذ ذلك الحين بدأ في تجسيد رؤيته والكشف عنها، وأضحت عواصفه أشّد دماراً، وشروق الشمس أكثر أثيرية وروحانية، ووظّف استاذيته في صدق الأداء الفني لتصوير أحلامه ورؤاه، تلك الكلمات التي أستخدمت لتوصيف أعمال تيرنر في عصره، وهي كلمات تعدّ مبهمة ومجازية بالنسبة لحسّ القرن التاسع عشر، ولكننا بمعرفتنا الجديدة بالأحلام كمفسر للرغبات المكبوتة، والذكريات

العاصفة ١٨٢٣

الدفينة، نستطيع أن نعيد النظر في أعمال تيرنر لنلاحظ إلي أيّ مدي تمتلك صفات الأحلام . فالمنظور البصري المجنون والمختلف، وذوبان الأشكال واختلاطها، والمنظر الضبابي المبهم، والشعور بعدم الاستقرار وانعدام الإتزان، كل تلك الصور التي عايشها معظمنا في أحلامه قد عايشها تيرنر وهو في حالة الوعي واليقظة.

والغريب أن تيرنر وهو مصور مناظر طبيعية قد استطاع أن يحّمل مناظره رؤيا ذات أبعاد درامية عبّر بها عما يشمله الواقع من أجواء تبدو وكأنها عالم الأحلام، لذلك فإن فنه أشبه ما يكون بالتجليات الصوفية، ورويداً رويداً يختفي الموضوع من صوره الغريبة وسط دوّامات من الأمواج العاتية، وتهاويل السحب المكفهرة، والأبخرة الكثيفة، تومض من بين ثناياها أضواء غامضة كأنها بسمات برق فاتن الألوان، فقد كانت لديه رؤيا لعالم (فانتازى) ممتلىء بالجمال، وهو ليس عالم الهدوء، وإنما عالم يعجّ بالحركة، وليس تناغمات أو انسجامات لونية بسيطة، وإنما مهرجانات لونية وضوئية مبهرة تخطف الأبصار، وقد حشد تيرنر لوحاته بكل العوامل والتأثيرات التى تجعلها أكثر مفاجأة، وأعمق درامية، مستخدماً كل مهارته ومقدرته الفنية من أجل أن يمنحنا الطبيعة فى أوج عظمتها وجلالها، وعنفها وقسوتها، ونحن أمام أعماله - مثل لوحته الشهيرة عاصفة ثلجية - نكاد نحس بإندفاع الرياح،

وحركة الأمواج وهديرها، كما نشعر أننا صغار أمام قوى عاتية لا يمكننا السيطرة عليها، ونعجب في الوقت نفسه بذلك الفنان الذى امتلك قوى الطبيعة رهن أمره وتحت سيطرته.

ولم يكن النقاد المعاصرون لتيرنر - والذين كانوا يدورون فى فلك الكلاسيكية - على استعداد لتقبل نزوته الفنية، ليس فقط للموضوع الغريب غير المطروق، وإنما أيضاً للصياغة التشكيلية ذات الإيقاع الذى يمثل خروجاً على التقاليد المعروفة فى التناول الأوروبى لفن المنظر. ومع ذلك فإن تيرنر لم يعدم من الكتاب من استطاع تقبل وتقدير إبداعه فى حينه، ومن بين هؤلاء الناقد الفنى جون رسكين الذى كتب عن تيرنر: «إنه استثناء من كل القواعد، ولا يمكننا أن نحكم عليه عن طريق مقياس من مقاييس الفن، فبطريقة حماسية متوحشة الروعة، نراه يندفع خلال المناطق الأثيرية من عالم عقله هو، ذلك العقل الذى تسكنه أرواح الأشياء، ولقد ملأ عقله بمواد استخدمها من الدراسة الوثيقة القرب للطبيعة، ثم دراسة التغيرات والمركبات المختلطة، قابضاً على روح الجمال وجوهره».

إرهاصات إنطباعية وتعبيرية

وتبدو أعمال تيرنر على اتصال وثيق بالإنطباعية، وخاصة فى لوحاته التى أنجزها بين أعوام ١٨٠٥ - ١٨١٠ فى منطقة نهر التيمس، حيث كان يرسم وهو قابع فى القارب منهياً لوحاته فى الموقع نفسه، وبدون أن يضيف أية لمسات فى مرسمه، وهو ما فعله الإنطباعيون فيما بعد، كما أنه استغنى عن كل ما يشير إلى حكاية مكتفياً بعناصر المشهد الطبيعى الذى يفتقد عناصر الجذب العادية، فهو يخلو من الأشكال ذات الجمال الطبيعى المألوف. ولقد أطلق على تيرنر لقب الأب الروحى للمدرسة الإنطباعية، فقد أثارت أعماله إعجاب وتقدير الإنطباعيين الذين تواجدوا فى لندن حوالى عام ١٨٧٠، وكان من بينهم مونيه وبيسارو وسيسلى الذين لفت انتباههم تقنية تيرنر التى تعتمد على ضربات الفرشاة وتحليل الضوء وطريقة تصوير انعكاسات المياه، مما كان له تأثيره على أسلوب المدرسة الجديدة، وعن هذا التأثير كتب المصور الإنطباعى بول سينياك :

«أثناء إقامتهما الطويلة فى لندن، اكتشف كلود مونيه وبيسارو تيرنر، ولقد دهشا لسحر ألوانه، وانكبا على دراسة أعماله، وتحليل تقنيته، وأعجبا بالطريقة التى نقل بها الإحساس ببياض الثلج بهذه الروعة، فى الوقت الذى فشلا فيه فى ذلك، عندما اكتفيا بوضع بقع كبيرة من اللون الفضى والأبيض، موزعة هنا وهناك على السطح المستوى، ثم توفر لهما أن يشاهدا هذه التأثيرات المذهلة التى لم تنجز بالأبيض فقط، بل بعدد من الضربات ذات الألوان المتعددة، وقد وضعت بلمسات دقيقة الواحدة عكس الأخرى لتنتج التأثير المطلوب حينما ترى من على بعد».

ومن المثير عقد مقارنة بين لوحة مونيه



الشمس خلال سحب داكنة ١٨٢٥

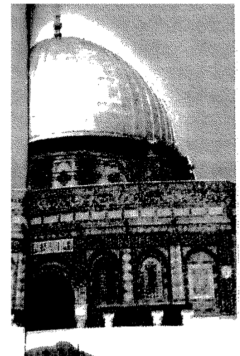
الشهيرة «تأثير - أو شروق الشمس» - التي أنجزها عام ١٨٧٢ - ببعض أعمال تيرنر الذى كان قد توفى منذ واحد وعشرين عاماً، فالتشابه يبدو واضحاً للوهلة الأولى، فى أسلوب المعالجة واختيار الألوان، واستخدام الضوء، بل وفى التصميم الفنى نفسه. وربما كان الفرق الوحيد هو أن تيرنر كان يفضل مشهد غروب الشمس وليس منظر بزوغها. أما تلك اللوحات التى أبدعها تيرنر فى سنواته الأخيرة، والتى جسدّ فيها طبيعة البحر الصاخبة، واندفاع الأمواج، وشدة العواصف، وتميزت بعنف وحدة الألوان، فإنها يمكن أن تنتمى إلى الإتجاه التعبيرى، فتلك الشحنة الانفعالية الهائلة التى تشع منها، والمبالغات الدرامية للمظاهر الطبيعية، ولمسات الفرشاة القوية، والاختصارات اللونية، تشى بمشاعر الفنان وأحاسيسه الداخلية، وكل ذلك من الخصائص التى تميزت بها المدرسة التعبيرية التى تبلورت فى أواخر القرن التاسع عشر.

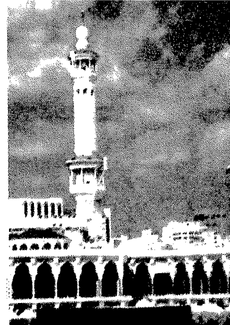
وربما كان تيرنر هو الفنان الوحيد الذى تحول من التغنى بجماليات الشكل الخارجى، إلى التعبير عن قوى روحية، وتجسيد مشاعر إنسانية.. وتلك الرؤية المتفردة أفسحت له مكانة سامية ليس فقط فى الفن الانجليزى، وإنما في مجمل الإبداع الفنى على مرّ العصور. ■

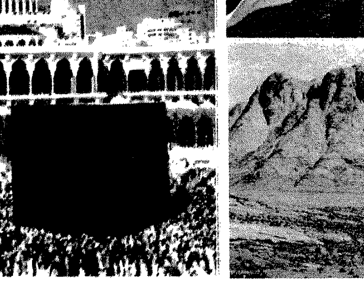


شعر

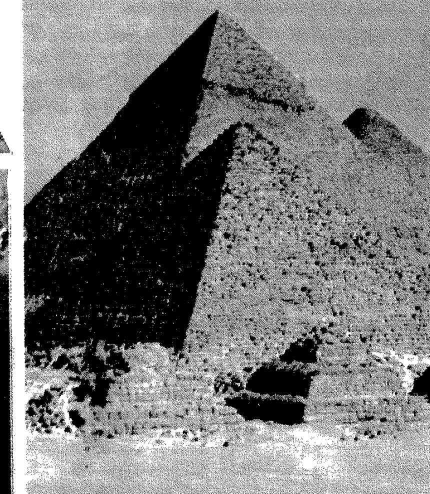
سليم الرافعى













أأهرب من أمسى وما منه مهرب أأسعد من يومى وما فيه منصب
عددت الزمان الجم يمضى مؤرخا مصادفة جبارة حين أعتب
وهل يحكم الدهر الأبى مسالم يوادع أشباح الجلال ويرقب؟
وما فى حياة المجد إلا ملاحم مخضبة .. فالمجد منها مخضب
تركب فى أعضائه من سلالة جدالية تجتاح أو تتوثب
مغارة هذا الكون فوق رؤوسنا فمن معول العزم المغارة تثقب
فلا تعشقوه فى غلالة صمته يمزق هذا الصمت من يتطلب
رأيت حديدا طار فى الجو صاعدا إلى الملأ الأعلى .. يضج ويصخب
فقلت: جحيم الشوق هد مغارة فأنقاضها فى وهدة تتقلب
عجبت لمن يبكى عليها ولا يرى سماوات نسر تستجيب وترحب
أليس من الإيمان أن تعشق العلا وهل آلة الإيمان الا التقرب؟
تدفق فى محرابه وصلاته حديد دعا« لبيك» لله يوهب
فهل قبس الغرب التطلع وارتقى إلى الله ركبا بالجماعات يدأب؟
وكانت مفاتيح السماء منيعة فما بالها أضحت تذال وتنهب؟
وتلقى بها أيدى المصانع سلعة تباع وتشرى كل يوم وتجلب
صرخت: أنا الشرق الذى كان فاتحا مغاليقها.. بالوحى يملى ويكتب
أنا الشرق فنان الهياكل صغتها من الطين أمحوه بها وأهذب
ملكت بها الغيب المفزع واقفا على قنن منها أصلى وأخطب
أنا الشرق فى الأهرام من شرفاتها تطلع إيمان .. وطين معذب
أنا الشرق من سيناء أوقلب مكة أو القدس أصفو ما أشاء وأغضب
فما ضقت ذرعا بالأخ الحران سطا أو ارتاد ملكا فى السماء يحجب
بكى الغرب يوما من جهالة أهله وبالعلم أضحى الغرب يلهو ويلعب
حنوت عليه حين أيقظ عالما فهل أنا إلا الأخ والأم والأب؟

حرامية في كي جي تو

السينما المصرية وتغير المجتمع المصري

بقلم
د. جلال أمين



كريم عبد العزيز
والطفلة مـها في
لقطة من الفـيلم

خرجت مبتهجا من فيلم «حرامية في كى جي تو» لأكثر من سبب كانت النهاية سعيدة ومقنعة وظريفة في نفس الوقت، إذ تغلبت فيها خفة الدم على أى رومانتيكية مصطنعة ومبالغ فيها ولكن خفة الظل مستمرة فى الفيلم من بدايته الى نهايته ، ليس فقط من جانب كاتب الحوار والممثلين، بل ومن المخرجة ايضا فلا بد أنها هى التى قررت أن تنهى الفيلم لا بصورة عناق بين البطل والبطلة بل بصورة «ماجد الكدوانى» وهو يخلع قميصا بعد آخر دون أى سبب واضح. إلا إخفاء تأثره وفرحته بعودة المياه إلى مجاريها بين صديقه المفضل «كريم عبدالعزيز» ومحبوبته الجميلة «حنان ترك» . ولابد أنها هى التى قررت أن تستخدم موسيقى «درامية »عند لقاء البطل والبطلة لأول مرة معلنة للمشاهدين ان هذه هى البداية لقصة حب عنيفة!

والصورة التى تقدمها المخرجة «ساندرا نشأت» طوال الفيلم، كلها صور جميلة ، فهى بحق لا ترى أى سبب يضطر المخرج إلى تعريض عيون المشاهدين لأى منظر قبيح، وترى أن من واجب المخرج لا أن يهرب من تصوير الحارات والأزقة وسكان الأحياء الفقيرة وأسطح العمارات ويقتصر على تصوير الفيللات الفخمة والحدائق الغناء، بل من واجبه أن يخرج هذا وذاك إخراجا جميلا ترتاح له العين ولا تنفر منه النفس. وهذا هو ما فعلته بالضبط ساندرا نشأت. سواء فى الصور البديعة التى قدمتها لمعابد الأقصر وبحر الأسكندرية، أو لأطفال المدرسة وهم يلعبون فى فنائها، أو

لركاب مترو مصر الجديدة، أو حتى لشقة عازب فقير فى شبرا.

ولكن كانت هناك أسباب أخرى للابتهاج. فها هو ذا أول فيلم يؤلفه ويكتب الحوار والسيناريو فيه شاب لم يتجاوز عمره الثلاثين (بلال فضل) كان لبضع سنوات صحفيا مرموقا، وكاتب مقال سياسى، وثقافى بارع وشديد الحساسية بمشكلات مصر، وبالغ الفصاحة فى التعبير عنها، وها هو الآن يتألق أيضا كمؤلف قصة وكاتب حوار وسيناريو. وها هى شابة مصرية فى نفس السن، أخرجت لنا من قبل فيلمين طويلين جميلين «مبروك وبلبل» و«ليه خليتنى أحبك» وهاهى تخرج لنا بعد وقت قصير فيلما ثالثا لا يقل عنهما جمالا وأكثر منهما ظرفا. وهاهى ذى مجموعة رائعة من الممثلين البارعين، من بينهم طفلة عمرها خمس سنوات «مها عمار» وشبان ظرفاء آخرون لم تلمع أسماؤهم بعد ولكنها لابد أن تلمع فى المستقبل القريب.

***

قصة الفيلم ليست جديدة تماما، ولكن أين هى القصة الجديدة تماما؟ وما أكثر الأفلام الجديدة التى تمتعنا بها رغم أنها تعيد رواية قصة قديمة ولكن بطريقة جديدة تماما. وما أكثر ما جرب المخرجون بل والمؤلفون، موهبتهم بإعادة إخراج وكتابة قصة كتبت وأخرجت عدة مرات من قبل. بل إن من أكثر ما استرعى انتباهى فى هذا الفيلم هو كيف أدى مرور السنين بما حملته من تغيرات فى المجتمع المصرى، إلى تغير طريقة معالجة قصة قديمة تكرر ظهورها فى السينما المصرية. المرة بعد الأخرى، من أيام يوسف وهبى ومحمد عبدالوهاب ونجيب الريحانى فى الثلاثينات والأربعينات، إلى أفلام سعاد حسنى فى السبعينات إلى هذا الفيلم الجديد فى مطلع القرن الحادى والعشرين. القصة هى قصة الحب بين طرفين غير متكافئين من الناحية الاجتماعية. شاب غنى يقع فى حب فتاة فقيرة أو بالعكس. فتاة غنية تقع فى حب شاب فقير، ثم ينتصر الحب بالطبع فى النهاية وإلا خرج الجمهور غاضبا أشد الغضب..

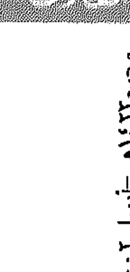
فى هذا الفيلم الجديد (حرامية فى كى جى تو) هناك أيضا «عدم تكافؤ اجتماعى» بين

البطل والبطلة، وإن كان السبب فى عدم التكافؤ فى هذه الحالة مختلفا بعض الشىء عما كان فى الأفلام القديمة، مما يعكس تغيرا مهما من التغيرات التى طرأت على المجتمع المصرى.

ففى هذا الفيلم الأخير لا يمكن للمشاهد أن يقطع من هو بالضبط الأكثر ثراء الفتاة المدرسة «ريم» أم اللص المحترف «حسن»؟ فلا الملابس التى يرتديها كل منهما ولا طريقة الكلام تفصح عن الطبقة التى ينتمى اليها . بعكس ما كان عليه الحال تماما أيام يوسف وهبى أو عبدالوهاب أو الريحانى فى الثلاثنيات والأربعينات بل وحتى فى أيام سعاد حسنى فى أول السبعينات فى ذلك الوقت كان لابد أن يفضح الفقير شىء ما فى ملابسه أو فى طريقة كلامه أو سلوكه، أما الطربوش القديم أو البدلة غير المكوية أو القميص ذو الياقة البالية أو الاضطراب عند استخدام الشوكة والسكين أو فى العبارات المستخدمة فى تبادل التحية. الخ، ناهيك عن العجز التام عن استخدام او فهم اى عبارة بلغة أجنبية.

ليس هذا على الإطلاق هو الوضع الآن. فهذا الشاب الوسيم «حسن» الذى أتى من اسرة متواضعة جدا، والذى احترف ابوه السرقة بسبب الفقر، ولم ير قط تورتة أو أشعل شمعة، فى عيد ميلاده. ثم اضطر هو أيضا إلى ممارسة السرقة، تراه الآن فى الطريق أو تسمعه وهو يتكلم فلا تستطيع أن تميزه عن شاب وسيم من أولاد الذوات إلا بصعوبة . بل إن من الطريف حقا أن نقارن بين هذا السارق المحترف «كريم عبدالعزيز» فى هذا الفيلم الأخير، وبين أى مجرم محترف فى أفلامنا القديمة حيث كان يقوم بها ممثلون لهم ملامح إجرامية ولهجة فى الكلام تتمشى مع هذه الملامح ، مثل عبدالفتاح القصرى أو رياض القصبجى ، مما يفصح عن احترافهم للاجرام بمجرد النظر اليهم. صحيح أن كريم عبدالعزيز قد اختير خصيصا لدور السارق المحترف لكى يصبح من الممكن أن يقع فى غرام حنان ترك وأن تقع هى فى غرامه، ولكن الدنيا قد تغيرت أيضا ومعها أشكال المجرمين.

ليس الغنى والفقر إذن هما مصدر عدم التكافؤ الاجتماعى، فى هذا



الفيلم، كما انه ليس عراقة الأسرة من ناحية وقلة عراقتها فى الناحية الأخرى. كما كان الحال فى كثير من الأفلام القديمة . فأسرة المدرسة «ريم» لا يبدو عليها أنها متميزة بوجه خاص، لا فى الثراء ولا فى عراقة النسب، وهى قطعا ليست أسرة إقطاعية كأسرة يوسف وهبى فى «ليلى بنت الفقراء» أو كأسرة ميمى شكيب فى «الدلوعة» أو كأسرة حسين فهمى فى «خللى بالك من زوزو» وإما مصدر عدم التكافؤ هو فقط تلك الطريقة الغريبة التى يحصل بها هذا الشاب الوسيم على المال. صحيح أنه اضطر اضطرارا الى احتراف السرقة، وأنه شاب طيب فى الحقيقة، ولكنه لص محترف على أى حال، والمفروض أن تلفظه الفتاة وأسرتها لفظا بمجرد أن تعرف الحقيقة.

ولكن يبدو أن هذا الأمر قد أصبح من السهل قبوله الآن أكثر بكثير مما كان عليه الحال منذ خمسين أو حتى ثلاثين عاما. فالفيلم يقول لنا إن الفتاة على استعداد تام لأن تصدق أن الفتى سوف يقلع عن حرفة السرقة بسبب وقوعه فى غرامها، وأنه سيبدأ من الآن فصاعدا حياة شريفة . هكذا يقول الفيلم بل ويشير قبل النهاية بقليل الى أن الفتى قد بدأ بالفعل فى ممارسة حياة شريفة صحيح أن عمله لازال هو فتح الخزائن المغلقة ولكنه يفعل ذلك بطريقة شريفة تماما، كما لو حدث وضاعت المفاتيح من صاحبها مثلا. المطلوب من مشاهدى الفيلم أن يتغاضوا عن بعض البعد عن الواقعية فى هذه النطقة فالفيلم لا يقصد أن يكون فيلما واقعيا. بل يتوقع من المشاهد أن يغض النظر عن هذا فى مقابل أشياء أخرى، وأظن أن هذا مقبول تماما. ولكن أظن أن مشاهدى الأفلام فى هذه الأيام مستعدون للتغاضى عن احتراف الشاب للسرقة ووقوع الفتاة فى غرامه بالرغم من ذلك، لسبب آخر غير عدم التزام الفيلم للواقعية التزاما صارما. وهو أن مصدر الحصول على المال لم يعد له نفس الأهمية اليوم مثلما كان له منذ خمسين عاما. فالظاهر أننا جميعا قد أصبحنا أكثر استعدادا اليوم للتغاضى عن سبب الثراء والتركيز بدلا من ذلك على واقعة الثراء نفسها.

وكأن الفيلم يعتمد فى إقناعنا بسهولة قبول المدرسة «ريم» للتاريخ الاجرامى للشاب المحبوب «حسن» على الحقيقة المرة التالية: من هو بالضبط الشخص الشريف مائة بالمائة فى هذه الأيام؟

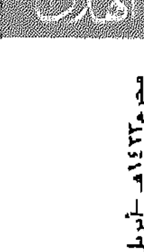
انظر مثلا إلى المدرسة التى تدرس فيها الآنسة ريم، إنها تطالب أولياء أمور التلاميذ بألف ومائتى جنيه كل ثلاثة أشهر بالاضافة الى مصاريف اتوبيس المدرسة والزى المدرسى والوجبات.. الخ، وهى لا تظهر أى رحمة مع ذلك الأب الذى جاء يستعطف موظفى الحسابات بالمدرسة ويرجوه تأجيل دفع المصاريف الى أول الشهر التالى، فيرفض الموظف رفضا باتا ويهدده بفصل ابنه من المدرسة نحن نعلم أن فتح مثل هذه المدارس قد أصبح الآن من أكثر أوجه الاستثمار ربحا فى مصر وأن أصحاب هذه المدارس يتمتعون بمركز شبه احتكارى يستطيعون فيه أن يطلبوا من الأباء والامهات الالاف المؤلفة وهؤلاء الأباء والامهات يبدون على استعداد للتضحية بأى شىء فى سبيل تعليم أولادهم، خاصة إذا كان هذا سيجنب أولادهم التعرض لنفس ما تعرضوا هم له فى صباهم. فى مثل هذه الظروف.

من هو بالضبط اللص ومن هو الشريف؟

إذ أين «الشرف» بالضبط فيما يفعله أصحاب هذه المدرسة الخاصة الذين يمتصون دماء أولياء الأمور إلى آخر قطرة؟ وإذا كان اسم الفيلم «حرامية فى كى جى تو».، فهل المقصود بالحرامية. اللص حسن وزملاؤه الذين فتحوا خزينة المدرسة ليلا ونهبوا ما فيها. ولكنهم اعطوا بعض ما نهبوه لأحد أولياء الأمور العاجزين عن دفع المصاريف، هل هؤلاء هم اللصوص المعنيون أم أنهم أصحاب المدرسة نفسها الذين فرضوا هذه الاتاوات ابتداء على أولياء الأمور بزعم أنها «مصاريف الدراسة»؟ من المؤكد إذن أن أمور النزاهة والشرف لم تعد الآن بنفس الدرجة من الوضوح التى كانت عليه أيام الريحانى ويوسف وهبى.

***

فى جميع هذه الأفلام ،. القديمة والحديثة، يستعين الطرف المغبون اجتماعيا من أجل الحصول على رضا المحبوب والظفر به فى النهاية . ببعض



الصفات الشخصية أهمها خفة الدم. وهى صفة كانت متوفرة دائما، سواء كان الطرف المغبون اجتماعيا هو نجيب الريحانى أو سعاد حسنى أو كريم عبدالعزيز. ولكن يبدو أنه قد حدث أيضا بعض التغير فى الصفات الأخرى المطلوبة. لم تكن الوسامة مثلا شرطا مهما فى حالة نجيب الريحانى، ولكنها أصبحت مهمة فى عصر كريم عبدالعزيز. ناهيك عن شرط إجادة اللعب بكرة القدم وهو الشرط الذى شعر مؤلف أو مخرجة فيلم «حرامية فى كى جى تو» بأهمية توافره. فجعلوه من دواعى الجاذبية فى كريم عبدالعيز فضلا عن انتصاره فى خناقة ملاكمة وضرب مع بعض البلطجية. وهى أمور نجحت فى جذب حنان ترك اليه وايقاعها فى غرامه، ولكنها أى الوسامة والرشاقة واجادة لعب الكرة والملاكمة لم يكن من الممكن أن يتصور أن يعتمد عليه نجيب الريحانى منذ ستين عاما. فى الايقاع بميمى شكيب مثلا او ليلى مراد.

●●●

الأهم من ذلك كله التغير الملحوظ الذى طرأ على مركز المرأة خلال هذه الستين عاما. كانت المرأة المرغوبة أيام الريحانى وعبدالوهاب ويوسف وهبى ليست فقط امرأة جميلة، بل وأيضا بيضاء البشرة. وتميل الى السمنة تعيش فى كنف أبيها وأمها فلا تحتاج الى القيام بأى عمل او وظيفة خارج البيت . بل ولا على الأرجح فى داخل البيت أيضا ، لم يكن يضيرها أيضا أن تكون قليلة الكلام . شديدة الحياء، ولا تكاد تجرؤ على النظر إلى وجه حبيبها وهو يكلمها . بل قد يكون هذا كله من دواعى جاذبيتها.

لم يعد الامر كذلك بالمرة. فحنان ترك فى هذا الفيلم الأخير فتاة جميلة حقا ولكنها صغيرة الحجم، بالغة النحافة جريئة ومتكلمة لا تفزع من جرأة الشاب كريم عبدالعزيز فى مغازلتها ولو أمام أسرتها وأمام ابن خالتها الذى يريد الزواج منها. بل تشجعه على المزيد من الجرأة، ولا تبذل اى جهد لاخفاء عاطفتها نحوه. وهى فوق هذا كله موظفة كادحة تستيقظ فى الصباح لتركب المترو الى المدرسة وتعود منهكة فى آخر النهاية، وحيث أنها امرأة تكسب قوتها

بعرق جبينها فقد حققت درجة لا يستهان بها من الاستقلال فى مواجهة اسرتها فلا تسمح لاحد بأن يصدر اليها الأوامر. أو انه يرغمها على شيء لا تريده

انظر مثلا كيف تصرفت عندما عادت من المدرسة بعد يوم عمل طويل فوجدت أن أمها قد دعت ابن خالتها المغرم بها الى الغداء مع الاسرة بينما هى لا تشعر نحوه بأى مودة ولا يميل قلبها الا الى ذلك الشاب. اللص الوسيم، فإذا بها تقول انها تشعر بالتعب وسوف تدخل لتنام، وتترك ابن خالتها ليتناول الغداء مع أبيها وأمها بينما هو لم يأت الا من أجلها. لم يكن من السهل أن نتصور منذ ستين او خمسين عاما ان تتصرف ليلى مراد او فاتن حمامة مثل هذا التصرف، بل ولا حتى سعاد حسنى منذ ثلاثين عاما.

أما حنان ترك فلا تجد اى غضاضة فيه، ويضطر الأب والأم وابن الخالة الى قبوله صاغرين.

بل حتى فى معاملة محبوبها الشاب الوسيم كريم عبدالعزيز ، تجد حنان ترك تصرخ فيه غاضبة لأنه تأخر نصف ساعة عن موعد خروج المدرسة فاضطرت الطفلة التى أتى لاستلامها وهى بنت صديقه «اللص المسجون» الى الوقوف فى الشارع لانتظاره وتأمر حنان ترك كريم عبدالعزيز بأصرح عبارة بألا يتأخر دقيقة واحدة بعد هذا اليوم فيقبل الرجل أوامرها صاغرا.

نعم المرأة متحررة فى فيلم «ساندرا نشأت» وبلال فضل ولكنها ليست مبتذلة ومن ثم فالمؤلف والمخرجة يذكراننا بأن من الممكن جدا أن ننتج فيلما لطيفا ومبهجا للغاية ومشوقا ومثيراً دون أن يبتذل جسد رجل أو امرأة.

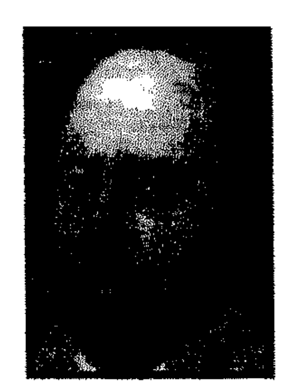
فى حديث لساندرا نشأت بعد الفيلم سئلت عن خلو الفيلم تماما من القبلات، فأجابت بآنه كان من الممكن أن ينتهى الفيلم بقبلة ولكنها رأت أن نهاية أخرى قد تكون أكثر جمالا وتأثيرا . وقد صدق ظنها.

ها هو ذا إذن سبب آخر للابتهاج بهذا الفيلم فهو يعكس الظن الشائع بأن مركز المرأة المصرية فى المجتمع آخذ فى التدهور ، يقدم اكثر من دليل على ما حققته المرأة المصرية من تقدم، بما فى ذلك قيام امرأة مصرية فى مقتبل العمر بإخراج هذا الفيلم الجيد.

■

عناصر الفاجعة فى الملك لير

بقلم
صافى ناز كاظم


شكسبير


يحيي الفخراني


أحمد عبد الحليم


سوسن بدر

لم يعد لدينا مايمكن أن نسميه «الموسم المسرحى» ، لكن هناك تلك «الطفرات» المسرحية التى لن تعدم أن تجد لها جمهورا يملأ فيها مقاعد المتفرجين، ولاشك أن عرض مسرحية «الملك لير» على خشبة القومى، هو واحد من تلك «الطفرات» التى اجتذبت شوق الناس إلى مهرب ثقافى، يأخذهم من «غم» النشرات الإخبارية دون أن يوقعهم فى «إثم» الترفيه غير اللائق، بهذه اللحظة غير المنطقية فى تاريخنا.



• حماقة التبديد + شهوة السلطة + جوع الرغبة مع جمود المنطق عند الأتقياء

ورغم الزحام الذى تكدس لمشاهدة «الملك لير» فإنه لم يكن كافيا لإقناع إدارة المسرح، أو إدارة العرض المسرحي، بضرورة طبع البرنامج التقليدى، الذى يتم توزيعه عادة مع كل حفل، للتعريف بالفنانين والفنيين وبقية فريق العمل الذى تحمل مسئولية الإخراج والتقديم والإنجاح أو الإفشال لهذا «المنتج الثقافي» - ومعذرة لجفاف المصطلح - ومع ذلك فلا بأس فى هذا الإهمال إذا كان يعكس رضاء المشاركين فى العمل وزهدهم فى التوقيع بأسمائهم بعد جهد كل ليلة عرض. صحيح أن بعض الأسماء معروفة، وصحيح أن «أفيشات» العرض منصوبة في حوش المسرح لمن يريد أن يدوّن ما غاب عن ذاكرته البصرية، لكن صحيح كذلك ألا نهتم بالتدوين من لوحة الإعلانات تضامنا مع ذلك الزهد المشار إليه.

يبقى أن العرض من تأليف وليام شيكسبير، والترجمة لفاطمة موسى،



والإخراج لأحمد عبدالحليم، والبطولة ليحيى الفخراني وأشرف عبدالغفور وأحمد سلامة ولطفى لبيب وسوسن بدر وسلوى محمد على وريهام أشرف عبدالغفور، ومعذرة – مرة أخرى – فهذا مبلغى من العلم والذاكرة وجهد سؤالى هذا وذاك.

●●●

قدم وليام شيكسبير عرض مسرحيته «الملك لير» عام ١٦٠٥ تقريبا، وجعل مكانها بريطانيا فى زمنها الوثنى قبل المسيحية، فهى مسرحية تبلغ من العمر أربعة قرون، ويعتبرها بعض النقاد أكثر مسرحيات شيكسبير، الفاجعات، جفافا ومرارة، ورآها مسرحى إنجليزى، من جيل الستينيات.. اسمه إدوارد بوند .. محورا يستحق إعادة التأمل لإدانة العنف فى المجتمع الغربى والعالم والتحذير من استفحاله، فقدم مسرحيته بعنوان «لير» – فقط دون لقب ملك عام ١٩٧١.

كعادته مع معظم فواجعه، بنى شيكسبير «الملك لير» معتمدا على روايات وحكايات قديمة، بعضها له أساس تاريخى وواقع من الحقيقة إلا أنها فى حالة «الملك لير» تكاد تكون أسطورية صرفة، فقد كانت هناك قصة «ليرLear» ملك بريطانيا القديمة برواياتها الشعبية المتعددة، وكانت هناك مسرحية بعنوان «الملك لير Leir» بهجاء مختلف لاسم لير – وأخذ شيكسبير قصة «جلوسستر» وأبنائه من مصدر آخر منفصل ونسج من القصتين، مع إضافاته الضرورية من الشخصيات والحبكة والأحداث، ليخرج بمسرحية يمكن أن تجتذب جمهوره اللندنى فى زمانه – حوالى ١٦٠٥ – يبرز فيها لمشاهديه أن عناصر الفاجعة التى تسببت فى تدمير الملك لير القديم، وتدمير مملكته بالتالى، يمكن حين تستعاد أن يتجدد خطرها مهددا بلاده بالكوارث نفسها التى قيل إنها حدثت فى الزمن البعيد.

الخطوط الرئيسية فى «الملك لير» تبدأ بنزوة ملك عجوز متكبر وعنيد وأنانى وكسول، طرأ له أن يكسب مذاق العسل دون هم إبر النحل فقرر أن يتخفف من أعباء مسئولياته الملكية ويقسم مملكته الشاسعة على بناته الثلاثة مع احتفاظه بالتاج ولقب الملك ووجاهة المنصب وفخامة اللقب وحاشية من مائة فارس تصاحبه فى استمتاعه الحر فى الذهاب والرواح، لكنه اشترط قبل توزيع تركته – أو تبديد مملكته – أن تعبر كل ابنة عن كم الحب الذى تحسه



نحوه، وسوف تحظى بالنصيب الأكبر أكثرهن حبا له، وفى تلك اللحظة من الحماقة والغرور والأنانية، لايستطيع الملك العجوز أن يفرق بين المداهنة والنفاق المنمق بالكلمات المعسولة والمزركشة بالمبالغات الكاذبة، وبين الحب المخلص الذى قد لايجيد تجسيد الإحساس العظيم فى تعبير لفظى خلاب، وبهذا يكون الملك لير قد فتح الباب على مصراعيه لتقع مملكته، بعد تمزيقها، فى براثن الداهيتين البارعتين فى ادعاء الحب، وصولا إلى تحقيق أهدافهما فى إشباع شهوة السلطة المسيطرة عليهما، فتأخذ الابنة الكبرى «جورنيل» والابنة الوسطى «ريجان» نصيبهما الكبير بالإضافة إلى اقتسام نصيب أختهما الصغرى الطيبة الصادقة التقية «كورديليا» التى، حين سألها أبوها ماذا تقولين عن حبك لى، قالت: «لاشىء»، لأنها كرهت ابتذال مشاعرها فى كلمات رغم حبها العميق الأمين الذى تكنه لوالدها، فعصف به الغضب الحارق ودفعه إلى التبرؤ منها وحرمانها من «كل شىء» أمام كلمتها «لاشىء»، وهكذا من البداية اجتمعت ثلاثة من عناصر الفاجعة المحتومة، أولها: حماقة التبديد عند الملك - الذى تصرف بغطرسة الإقطاعى - فلم ير فى مسئولية الملك سوى التملك لا «الرعاية»، ولم يدرك وهدة التمزيق والتمزق والانقسام وفتنة التناحر والأطماع التى قاد إليها البلاد، وثانيها: شهوة السلطة التى أضرمت نوازع الفساد فى البنتين وحولتهما إلى حيتين سامتين تبخان الشراسة والجحود فى الوالد الملك وتجعلانه ملكا «سابقا» مجردا من حقوقه البسيطة التى احتفظ بها لنفسه، بعد أن حنثتا بالوعد والعهد وتنصلتا من حبه والشفقة عليه، إلى أن وقعتا فى جوع الرغبة فأطبقت عليهما المصيدة باب هلاكهما، وثالثها: جمود المنطق عند الفتاة «التقية»، التى لم تعرف الفرق بين «النفاق»و «الكياسة»، فهى «التقية» كان عليها أن تكون «فطنة» تقدم بحلاوة «الصدق» صياغة «الأمانة» التى يستدل منها الأب على حبها المخلص له، فمن غير الصحيح أن «الإخلاص» لا لسان له، وأن «الكلمات» لاتجيد توصيل رسائل الحق، لقد كانت كورديليا «طروبشة» أى سمجة الرد، غبية الوعى، مثل أوفيليا فى مسرحية هاملت، فعلى الرغم من معرفتها فساد ودهاء وكذب الأختين، فإنها لم تقدم من جانبها التحدى والمقاومة وواجب «التقى» لمجابهة قوى الفساد وإحباط مخططاته وكشف أكاذيبه، هذه العناصر مجتمعة قدمها شيكسبير فى «الملك لير» لنراها،

ونعرف أنها متى اجتمعت، فى أى زمان أو مكان، لابد أن ينتج من تفاعلها كل الفواجع والمآسى وخيبة الأمل والخذلان والإرهاق إلى حد الجنون، التى رأيناها تأخذ مجراها ومسارها ومشاهدها فى مسرحية «الملك لير».

فى خط مواز لـ «حماقة الملك لير»، كانت هناك «رذيلة جلوسستر»، الذى أنجب ابنا من علاقة زانية لم يخف إعجابه والتباهى بها، وإن ظل يفضل ابن الزواج «ادجار» على غير الشرعى «إدموند»، مما أوغر صدر «إدموند» الذى قرر أن يستفيد من منبته الفاسد ويستخرج منه كل شياطين الفحش، يستلهم منها أفكار الوقيعة والدسيسة وألاعيب الخبث وحيله لارتقاء السلم نحو الاستحواذ على قوة السلطة، وليكون الصائد لجوع الرغبة عند الأختين «جورنيل» و«ريجان»، ليسلبهما الممتلكات بعد أن أوصدتا أبوابهما أمام والدهما الملك العجوز، الذى هام فى العراء شريدا مصعوقا بمفاجآت الجحود، حتى يبدو مع الغضب والمرارة واليأس مندوها إلى الجنون. يكاد يفقد «الملك لير» عقله، ويفقد «جلوسستر» عينيه بفعل التنكيل الذى عاقبه به زوج «ريجان»، ابنة الملك لير، نتيجة لإفشاء «إدموند» ابنه سره فى نيته تقديم المساعدة للملك.

ويقدم شيكسبير هنا الحكمة الإيمانية الخالدة بأن الأعمى ليس أعمى البصر بل البصيرة، وهكذا حين يفقد جلوسستر عينيه يكون بإمكانه رؤية الحقيقة، التى لم يتمكن من رؤيتها وهو سليم العينين، ألا وهى أن ابنه «الحلال» هو المنقذ من يأسه وانتحاره، حين أورده ابنه «الحرام» إلى المهانة والضياع ومهالك القتل. ونرى كذلك الملك لير يبرأ من حماقته وغروره وأنانيته، وفى خضم الجنون يكتشف إنسانيته وينطق بالحكمة!.

لقد عانى «الملك لير» وحليفه «جلوسستر» من الشر والأشرار إلى حد الدمار البدنى والمادى، ولكن فى لحظات الدمار البدنى تولد دائما، وياللعجب، اليقظة الروحية.

***

هل أظهرت خشبة المسرح القومى كل هذا الذى تداعى فى ذهنى وأنا فى طريق العودة من ميدان العتبة إلى بيتى قرب ميدان العباسية؟

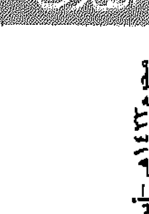
الذى أدريه أننى لم أصب بالملل،

وأن يحيى الفخراني قدم بإمكانياته البدنية وقصوره في نطق اللغة العربية كل «التهتهة» المطلوبة، لإبراز وإتقان تصوير شخصية الملك الأحمق «لير»، وأن «أحمد سلامة»، الذي لم يعجبني أبدا في أدواره التليفزيونية، كان ندا متفوقا لكل الممثلين العالميين الذين قدموا شخصية الابن غير الشرعي «إدموند»، سواء على المسرح أو في السينما، وأن «سوسن بدر» في أداء الابنة الكبرى «جورنيل» تؤكد موهبتها المؤكدة، وأن «سلوى محمد علي»، التي تصورتها منذ سنوات لن تفلح في فن التمثيل، فلحت جدا في أداء «ريجان» والحمد لله، أما «ريهام أشرف عبدالغفور»، التي قدمت «كورديليا» فقد نجحت تماما وهي صامتة ورسبت تماما كلما خرج صوتها ملسوعا مخدوشا متعثرا، وياليت والدها الفنان القدير «أشرف عبدالغفور» يأخذها تحت جناحه ويعلمها أسرار النطق ومخارج اللفظ التي كان فيها استاذا وهو يؤدي هادئا آلام جلوسستر المبرحة، وقد توافق لطفي لبيب شكلا وروحا مع دور «المهرج»... الذي يقدمه شيكسبير معادلا لدور الجوقة - أي الكورس - في المسرح اليوناني، ولقد كان «أحمد عبدالحليم» ذكيا حين ترجم كلام «المهرج» إلى الشعر العامي وأسند مهمة هذا التحويل إلى «أحمد فؤاد نجم»، فهذه هي اللغة التي يطلبها شيكسبير عادة لاستكمال ملامح شخصيات المهرج، وحفار القبور، والبواب، والعامة في مسرحه على وجه العموم، تحية للذي أدى دور «إدجار» و«كنت» و«أوزوالد» الخادم الذي دفع حياته ثمنا لإطاعة الشر وأمر الفاسدين.

***

قدم المخرج أحمد عبدالحليم عرضا ناجحا في نقل الابتكارات المسرحية السائدة، لولا الزيادة الممجوجة في توظيف لوحات الباليه التي بدت عمالة فوق الحاجة، خاصة مدخل الافتتاح وأنصحه بالحذف إلا في مشهد تصوير العاصفة، وتلخيص حالة الهرج والفوضى والتشرد التي ترنح «الملك لير» في أرجائها.

وعلى كل حال فإن هذا العرض المليء بالحيوية والمعاني، والذي يحتفل، ونحتفل معه، بذكرى مولد شيكسبير ٢٣ ابريل ١٥٦٤، وذكرى رحيلة ٢٣ ابريل ذاته، ١٦١٦، أعتبره اعتذارا مقبولا من المسرح القومي عن عرضه الناجح الساقط، الذي كان عنوانه «الناس اللي في التالت». ■



من أعمال الفنان حلمي التوني



جولة المعارض



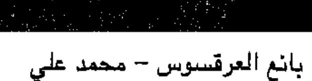
... بين الوطن والتراث

بقلم
عز الدين نجيب

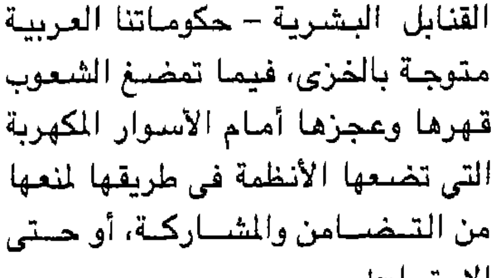
باستثناء المعرض المشترك للفنانين الزوجين إسماعيل وتمام شموط، اللذين حملا لوحاتهما الجدارية الضخمة من وطنهما الصامد فلسطين وعرضاها على جمهور القاهرة بقاعة الأفق التابعة لقطاع الفنون التشكيلية في فبراير الماضي، والمعرض الجماعي لفناني مدينة جدة الذي أقيم بقاعة قصر الفنون بالأوبرا أوائل شهر مارس الماضي، لم تر القاهرة علي امتداد الموسم الفني وجودا عربيا للفن التشكيلي في مصر، غير معرض خاص للفنان السوري صخر فرزات أقيم منذ شهور بمركز الجزيرة للفنون، وهو ما يعكس غياب أى سياسة فنية عربية على أرض مصر، ترصف طريقا منتظما للتواصل والتفاعل بين الحركات الفنية العربية - ومصر في القلب منها - أملا في الانتقال من الشعار إلى الواقع، حول تعميق الخصوصية العربية والقواسم الثقافية المشتركة، خاصة في ظل البداية العاصفة لسنوات هذا القرن، التي تنبيء باكتساح أمواج العولمة لشواطئنا، فلا يبقي لنا ما ندافع به عن أنفسنا فيما لو استسلمت قلعة الإبداع!

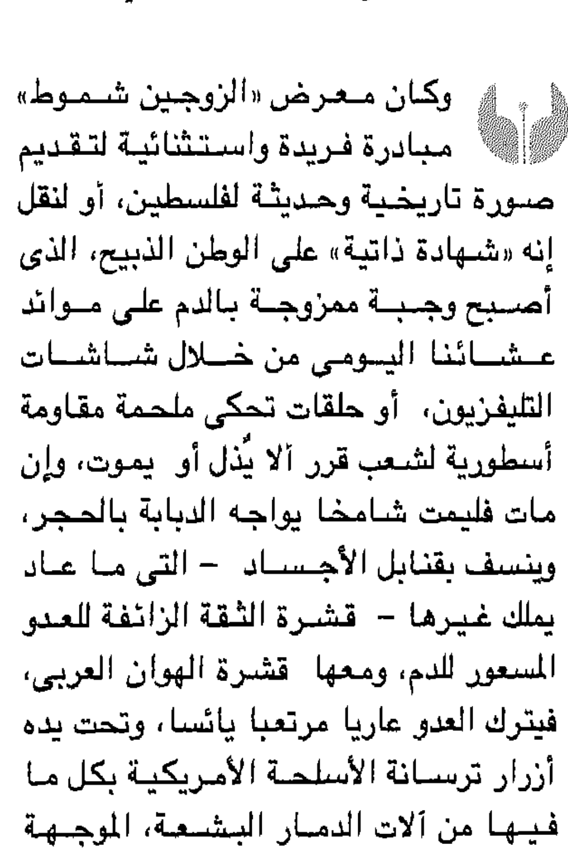


بذر البذور - حامد عويس



بائع العرقسوس - محمد علي





وكان معرض «الزوجين شموط» مبادرة فريدة واستثنائية لتقديم صورة تاريخية وحديثة لفلسطين، أو لنقل إنه «شهادة ذاتية» على الوطن الذبيح، الذى أصبح وجبة ممزوجة بالدم على موائد عشائنا اليومي من خلال شاشات التليفزيون، أو حلقات تحكي ملحمة مقاومة أسطورية لشعب قرر ألا يُذل أو يموت، وإن مات فليمت شامخا يواجه الدبابة بالحجر، وينسف بقنابل الأجساد - التى ما عاد يملك غيرها - قشرة الثقة الزائفة للعدو المسعور للدم، ومعها قشرة الهوان العربى، فيترك العدو عاريا مرتعبا يائسا، وتحت يده أزرار ترسانة الأسلحة الأمريكية بكل ما فيها من آلات الدمار البشعة، الموجهة بالكمبيوتر لتمارس طقوس الإبادة الجماعية كل يوم لشعب أعزل، فلا تمنحه أملا فى إحراز أى نصر، كما يترك - بهذه القنابل البشرية - حكوماتنا العربية متوجة بالخزى، فيما تمضغ الشعوب قهرها وعجزها أمام الأسوار المكهربة التي تضعها الأنظمة فى طريقها لمنعها من التضامن والمشاركة، أو حتى الاحتجاج!

شهادة «الفنانين شموط» تقدم سردا روائيا - بلغة التشكيل - لحياة كل منهما بين مدينتى «اللد» مسقط رأس إسماعيل، و«يافا» مسقط رأس تمام، أو إن شئنا الدقة.. هى محاولة لاسترجاع الزمن الذى عاشاه هناك فى طفولتهما وشبابهما قبل أن يقتلعا من فلسطين بعد نكبة ١٩٤٨. والتجربة بدأت عام ١٩٩٧ عندما قاما بزيارة أرض فلسطين لأول مرة بعد غربة ٥٠ عاما متصلة ذاقا خلالها مرارة الشتات والغربة خارج الوطن، وخلال هذه

الزيارة طافا بكل مراتع الصبا، ومنها انتقلا إلى كل أنحاء البلاد، وتدفقت الأحاسيس والذكريات، وتجددت صور الأحداث التى عاشاها على أرض الوطن بين الآلام والأحلام، بين القنوط والتمسك بالحياة، ليعودا فيترجمانها بالألوان والخطوط والمساحات عبر ١٩ لوحة.

يقول الفنانان فى مقدمة دليل المعرض: «منذ ذلك الحين بدأنا العمل فى لوحات الجداريات ذات المساحات الكبيرة (٢٠٠ X ١٦٥ سم) والتى نعرضها فى معرض «السيرة والمسيرة».. ولأن الحقيقة لا تموت، ولأن كل جيل قادم هو الامتداد الطبيعى لجذوره، ولأننا ربما خشينا ان تتمرد أدواتنا على مشاعرنا وقدراتنا، أو أن يغشى صورة هذه القضية الإنسانية ضباب العمر والزمن، رأينا أن نعيد رسمها، وتصويرها بتجربتنا الحياتية والفنية الطويلة والغنية، كى تظل صورتها، صورة ذلك الوطن، شعبا وأرضا، حية أمام أعين الأجيال القادمة وأمام ضمائر الناس فى كل مكان» .

تتدرج (السيرة - المسيرة) بدءاً من لوحة «الربيع الذى كان» وسط بهجة الحياة والطبيعة والغناء للحصاد، إلى لوحة «الاقتلاع من اللد والرملة» فى جموع غفيرة تساق بسناكى البنادق، إلى لوحة «العطش على طريق التيه»، تلك التجربة الواقعية عن حرمان الجموع - بما فيها الأطفال - من الماء تحت صهد الحر وهم محاطون بالمسلحين الصهاينة، حتى ضاع اطفال صغار ومنهم شقيق إسماعيل، وسقط مرضى ومسنون وسيدات حوامل، إلى لوحة «فلسطينيون لاجئون»، حيث التكديس غير الآدمى بالمخيمات فى خان يونس، بعد خوض الرحلة الخطرة طوال أسبوعين، إلى لوحة «الكابوس والحلم» حيث البحث عن الخلاص بالانعتاق من المخيم للدراسة بالقاهرة، وقد اصبحت الحلم والسلاح الوحيد الباقى لجموع اللاجئين ، ومنها إلى الاقطار العربية الأخرى سعيا وراء العمل. (وقد التقى إسماعيل وتمام فى القاهرة خلال دراسته بكلية الفنون الجميلة (١٩٥٠ - ١٩٥٤)، وكانت هى تدرس بالمعهد العالى للفنون الجميلة بالقاهرة والمعهد العالى للمعلمات (١٩٥٣ - ١٩٥٧)، وسافر بعد ذلك إلى روما حيث استكمل دراسته بأكاديمية الفنون هناك وتخرج عام ١٩٥٦ ، ثم تزوج من زميلته تمام ١٩٥٩، وتوحدت منذ ذلك الحين مسيرتهما فى الحياة والفن.

وتتوالى اللوحات التى تعبر عن إرادة الحياة واستمرار المسيرة، حيث تتواصل الحياة الشعبية الفلسطينية بأفراحها وأحزانها صامدة ضد القهر والحصار والتنكيل والشتات، ثم تنطلق حركة المقاومة أوائل الستينات ويتكرر عرس الدم للشهداء، ويشب حريق الانتفاضة الأولى ثم الثانية، كجيوش النمل المسلح بالحجارة والمدرع بصدور



الشـبـاب وقنابل الأجـسـاد .. هكذا تتلاحق ألحان هذه السيمفونية التشكيلية المليئة بحشود البشر وآلاف التفاصيل الواقـعـيـة، وبقدر مـا تـخـوض فى أنـهـار الدم فـهى مـسـربلة فى أطياف حلمـهـا بزفاف عروس الانتصار، وذلك هو اللحن الأخير فى سيمفونية إسماعيل شموط، التى التـزم فـيـهـا بالأسلوب الواقـعى التسـجيلى بحس انطبـاعى وملحـمى جـيـاش دون أن يسـقط فى الشكل الدعائى الفج برغم مباشرته، فالفنان هنا نبض شعبه وضميره وعيونه التى يرى بهـا ، مما لا يدع مـجـالا للنقـد «الاستطيقى» أو لإرجاع التجربة إلى مرجعيات الفنون الحديثة فى الغرب، فلكل مقام مقال.

ولعل تجربة تمام شموط فى لوحاتها الجدارية الثمانية أكثر شاعرية فى استرجاع الذكريات واستخدام الرؤى والتشكيلات والألوان، متراوحة بين الواقع والخيال، مع درجة عالية من نقاء اللون وتماسك التكوين وأسطورية الرموز، خاصة رمز الحصان الأبيض والبحر والجبل والسفينة التى تظل شاهداً على الزمن الجميل وأملا فى السفر والخلاص، ولذلك فإن لوحاتها تتجاوز الاحداث والوقائع والقضية، إلى آفاق إنسانية شاملة تتعايش مع كل زمان ومكان.

سهير عثمان

على صعيد المعارض المصرية كانت جميع القاعات الحكومية والأهلية تتنافس بإبداعات الفنانين من مختلف الأجيال والاتجاهات والمستويات.



تشكيل - سحر الأمير

فى قاعة الفنون التشكيلية بدار الأوبرا كان معرض الفنانة سهير عثمان (الأستاذة بكلية الفنون التطبيقية) يجمع بين خبرات ومجالات فنية متعددة ، بين الجرافيك والرسم والباتيك والسجاد والكليم، لكن ثمة ما يجمع بين نتاج هذه المجالات جميعا ويشكل منها رؤية عامة أو عالما متميزا لم يبدأ فى الظهور عبر هذا المعرض فحسب، بل ظهر منذ سنوات طويلة فى معارضها السابقة، إلا أنه ازداد تبلورا فى معرضها الأخير، وهو الدخول إلى الحداثة من مدخل التراث أو العكس، فنحن هنا أمام لوحه معاصرة تماما، تستخدم فيها كل بلاغة العناصر التشكيلية المجردة فى البناء الفنى، من علاقات خطية وملمسية وتلوينية، وهى لوحة لا تتكىء على الموضوع بل تنشد «المفهوم» أو الحالة

الوجدانية المطلقة، مثل النشوة أو الحلم أو التسامي أو التواصل، وقد توظف – في سبيل تحقيق هذه الحالة – وحدات من التراث الإسلامي أو الشعبي أو الفرعوني، لكنها ليست غايات بل ذرائع أو أصوات إيقاعية متنوعة تتواتر أو تتداخل أو تتعارض، ثم إنها تنتقل من المألوف إلى الغرائبي، ومن المصطلح عليه إلى المفارق والمتصادم مع الخبرة المتوارثة، سواء كانت هذه الخبرة مستمدة من التراث أو من تشكيلات الخيال.

وإذا كانت سهير عثمان قد استقرت طويلا في عالم التجريد من منظور التراث الإسلامي الزخرفي، وشكلت من خلاله أعذب الأنغام بإيقاعات شرقية تحفل بالتجريدات الهندسية والترديدات النباتية والحروفية والتنويعات النجمية والقوسية، فإنها في معرضها الجديد تتواصل مع التراث الفرعوني من زاوية إخناتونية، فتستوحي الفلسفة الصوفية لهذا الفيلسوف الزاهد اخناتون من خلال الأذرع والأكف والأصابع الضارعة نحو أشعة الضياء الأعظم، لكنها تعمل على تكرار حركة هذه الأعضاء في ترديد متتابع يشبه ترديد الوحدات الاسلامية، ولا عجب فإن الحس الصوفي قاسم مشترك بين الفلسفتين في تماهي الذات مع جوهر الوجود.

غير أن المعاني السامية وحدها لا تصنع فناً عظيما، والعبرة بالأسلوب ومدى التجديد والإجادة فيه وهذا ما نلمسه في تجربة سهير من خبرة عالية خاصة في الطباعة الجرافيكية التي تحقق من خلالها سطحا بالغ الثراء والخصوصية عبر الذبذبات الخطية واللونية، وهو سطح يكاد يقنعنا بملامس الآثار القديمة وعبقها، في الوقت الذي نستشعر انتماء التجربة إلى ابداع الفنانة وروح العصر.

حامد عويس

وفي قاعة الزمالك أقيم في الشهر الماضي المعرض الاستعادي للفنان الكبير محمد حامد عويس (١٩١٩)، وعرضت من خلاله جميع مراحل تجربة الفنان منذ الأربعينيات حتى عام ٢٠٠٠، وهو جهد كبير ومحترم لم تقم به الدولة التي حصل عويس على جائزتها التقديرية في الفن، لأن (الجهة المختصة) لا تملك أي سياسة تقوم عليها المعارض، بل تترك الأمور لهوى القائمين على كل قاعة من قاعات وزارة الثقافة، فهي ليست أكثر من «جاليريهات خاصة» وان حملت شعار القطاع الحكومي!

إن محمد حامد عويس يمثل أكثر من قيمة ريادية في حركتنا الفنية المعاصرة فهو أحد أبرز المؤسسين لجماعة الفن الحديث عام ١٩٤٦ مع رواد عظام آخرين مثل السجيني وحمودة وزينب عبدالحميد والخادم وجاذبية، ومن ثم فإنه كان صاحب اتجاه فني يؤكد على قيمة الالتزام الثوري للفنان كطليعة للمجتمع لا يكتفي

ميناء يافا – تمام شموط

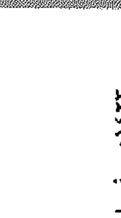
بإشباع ذاته أو ذوق النخبة الفوقية، بل ينطلق من إحساس بالمسئولية تجاه مجتمعه لتثقيفه وتثويره والنهوض به، ويتواكب إيقاعه الابداعى مع ايقاع ونبض المجتمع وما يتعرض له من أحداث ومتغيرات .

ولقد أثبت عويس ان كل هذه المعانى يمكن أن تتحقق دون التنازل عن القيم الجمالية الرفيعة، المسألة فقط تتوقف على اتجاه المؤشر عند البحث عن هذه القيم، هل يتجه إلى الغرب وتقتفى أثر الحركات الفنية فيه، بغض النظر عن اختلاف الظروف الثقافية والحضارية والمجتمعية والمزاجية للأمة بين واقعها وواقع الغرب؟.. أم يتجه إلى الجذور الثقافية للأمة وإلى العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر (الغربى)؟ بمعنى أن تكون العلاقة بينهما ندية وناقدة، وليست دونية وناقلة؟

هكذا نجد لوحات عويس عن الفلاحين والصيادين والبنائين وبنات بحرى وبنات الجامعة ورواد المقاهى وعمال الدريسة ووردية الليل، كما نجد لوحات السد العالى وقناة السويس و«حماة الحياة» بعد نكسة٦٧، و«خط بارليف» و«النفق الفلسطينى»، و«نصب الحرية» عن الإمبريالية الأمريكية ...إلخ.

نجدها جميعا أعمالا تتجاوز أغراض المناسبات التي أنجزت بدافع منها، لتصبح أقمارا ذات مجرات مستقلة، تدور فى الفضاء بقوة الدوران الذاتية بعد انفصالها عن الصاروخ الذى انطلقت منه، ثم عن مجال الجاذبية الزمانية والمكانية، ولتتخذ مكانتها الراسخة فى ذاكرتنا القومية بقدر ما اتخذت مكانتها فى متاحف العالم ، حيث فاز عويس بجائزة جوجنهايم الدولية بنيويورك ١٩٥٦ عن لوحة عمال الدريسة ، واقتنيت أعماله فى متاحف برلين وموسكو ودرسدن ومدريد، وكتب عنه بحماس فى مطبوعات هذه المتاحف.

ولن يتوقف التاريخ طويلا أمام تصنيفات بعض النقاد والفنانين لأعماله فى خانات مثل الواقعية الاشتراكية أو الواقعية الرمزية أو الملحمية الأسطورية أو .. أو.. ولن يتوقف طويلا كذلك أمام الادعاء بذهاب أوان هذه الأساليب فى مسيرة الحداثة وما بعد الحداثة .. وإلا لكانت مثل هذه التصنيفات والأحكام قد حالت دون حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل فى الأدب .. ذلك أن القيمة الحقيقية تقاس بمدى الأصالة فى إبداعية الفنان الفرد وفي تمثيله للجماعة الانسانية فى الوقت ذاته ، ضمن سياقه الثقافى والحضارى



الخاص، كما تقاس بكيفية استلهام هذا السياق والإضافة إليه بحس يقظ لقيم الجمال البحت ، ولفلسفة الحضارة والوجود، ولحركة المتغيرات من حوله وفي العالم!..

●●●

حلمي التوني

مرة أخرى ، وفي نفس المكان (قاعة اخناتون بمجمع الفنون بالزمالك) ونفس الزمان (شهر مارس) ، أقام الفنان الكبير حلمي التوني معرضه السنوي في التصوير الزيتي ، وكعادته في كل معارضه اختار عنوانا شاملا للوحات المعرض ، فكان هذا العام هو : المشهد الريفي المصري ، أما بطله الحقيقي فهو الفلاحة ، غير أننا مضطرون للتحفظ على إضافة كلمة «المصرية» إليها كما أراد لها أن تكون !

إن التجربة الفنية الممتدة للتوني عبر معارضه المتعاقبة - خاصة في التسعينيات - هي الغوص في التراث الشعبي بحثا عن جذور ولآلئ وسمات يعمل على إعادة إنتاجها لتتواصل مع لغة العصر وتثرى لوحته الحديثة بملامح الأصالة، وفوق ذلك لتكون اللوحة موقفا ثقافيا وفكريا من الواقع قد يتاخم الموقف السياسي .

من هنا فإنه فنان مهموم بقضية الأصالة من منظور مختلف عن أولئك الباحثين عن الحلية الزخرفية الخارجية في التراث بحس سياحي تزييني ، منظور يقوم على الوحدة العضوية للحلقات الحضارية الممتدة في الواقع المصري، ويقوى الذاكرة الاختزالية للرموز والأخيلة الشعبية كدالات بصرية واثنوجرافية على الشخصية المصرية في تجلياتها المختلفة عبر الأزمان ، لكنه لم يعمد إلى «تأبيد» هذه الرموز والسمات بشكل مثالي «بالمفهوم الفلسفي الميتافيزيقي للمثالية»، يضفي جمالا زائفا على الواقع، وينتهي في الأخير إلى معايير لوحة السوق التجارية ، بل كان يضعها في علاقة جدلية متفاعلة مع الواقع، أو في إسقاطات رمزية عليه ، من منطلق تقدمي ومجتمعي بالطبع ، أو على الأقل فإنه كان يحرص على السمت الفطري الساذج في الفلكلور ، بما يحيل ذاكرة المشاهد إلى المخزون الجمعي للتراث ، ليقيم من خلال لوحته الجديدة حوارا مع رموز الجماعة الشعبية كإنجاز له ظروفه «الاثنية» .

فهل جاء معرضه الأخير على نفس هذا المنهج فكريا وجماليا؟.. أخشى أن يكون الجواب بالنفي .. لقد استمرأ حلمي التوني لعبة استدعاء نفس العناصر الفلكلورية بتنويعات سبق أن استنفدها في معارضه السابقة ، ولم تعد تضيف جديدا على مفهوم العلاقة بالتراث ، بمعنى آخر أنه اتخذ موقفا سكونيا ثابتا في التعامل مع مظاهره الخارجية ، وبات معنيا بالصورة الخارجية المحسنة للمرأة في المفهوم الاستشراقي للريف المصري ، فإذا به يتاخم الحدود الحرجة للوحة التجارية ،

التى اجتذبت زبائنها بسهولة وبسرعة فائقة منذ الساعات الأولى لافتتاح المعرض ... ولقد حرص الفنان أحمد فؤاد سليم فى تقديمه لدليل المعرض على تأكيد هذا المغزى وهو يصف نموذج المرأة الريفية فى لوحات التونى بأنها : «.... دائما تنطوى على الصحة، والعافية ، والشباب، والرشاقة، والحنو ، والشعر ، جميلة تبدو كمثل نبيلة شرقية (....) فهى مصرية مكتحلة العينين (....) وهى ناهدة

ذات خصر يكشف عن قيمة «النسب الذهبية» فى بنيات قوامها ...إلخ» .

ولم يكن رأى الفنان «سليم» نابعا من خياله ، بل من قراءة واعية للمنهج المثالى الميتافيزيقى الذى يؤيد فيه التونى نموذج المرأة ويعزله عن أرض الواقع ، حتى أنه ينتهى إلى أنه «يتطرق إلى خصوصية التجربة الفنية دون أن يلقى بالا إلى «الواقعى» ، فهو يتأمل الفكرة التصويرية باعتبارها (نتاج) فى العقل - على حد تعبير «سليم» - دون أن يحفل بتلك «الصلة» المحتملة أو الممكنة بين الجمالى وبين الاجتماعى» .

ولست أناقش التونى فى رأى سليم بالطبع ، فربما يكون له رأى مختلف ، لكن واقع اللوحات يثبت فى الحقيقة هذا الرأى، فإننا إزاء «حلاوة» نموذجية تصل حد التزويق أو الماكياج الكامل لوجه الفلاحة حاملة الجرة، وهو ما مانراه أيضا فى الزخارف التفصيلية المتقنة لأزياء الفلاحات المحبوكة حول قدودهن



الفلاحة - حلمي التوني

الميّاسة ، مما يجعلهن أشبه بعارضات الأزياء ، فيما تظهر التحريفات الأسلوبية فى نسب الأشخاص والخطوط السوداء التى تحددها ، كمحاولة لانتحال الركاكة المعهودة فى رسوم الفلكلور ، لكنها هنا بغير نسق فكرى مترابط يبرره .

ومن ثم فإن التونى بمعرضه الجديد ينتقل إلى أرض مثالية خارج الزمان والمكان ، فيما يظل رافعا شعار الأسى المنطلق من أرض الواقع عن الريف والشعب والتقدم ، وكأن المعرض فى النهاية يحاول أن يرضى كل الأذواق والأوجه ، بين الواقعى والتراثى والمثالى

، لكنه فى الحقيقة قد يكسب شيئين: هما بيع كل اللوحات ، وتثبيت النموذج الفنى الذى يحقق هذا الغرض، فيما قد يخسر شيئا ثالثا · هو صفة الباحث المهموم بقضية الأصالة والتقدم .

لكن يقينى أن حلمى التونى ـ بمنابعه الفكرية العميقة ووعيه بحركة المتغيرات وبجدلية العلاقة بين الواقع والرمز والمأثور ـ سوف يستعيد فى معرضه القادم جسارته المعهودة لاكتشاف منابع جديدة للنهر ، عند المرتفعات البعيدة .

●●●

محمد على

تصادف أن يقام معرض الفنان الفطرى محمد على بأتيليه القاهرة فى نفس الفترة التى أقيم فيها معرض حلمى التونى بمجمع الفنون ، وقد أجد من المفيد إجراء مقابلة (وليست مقارنة) بين المعرضين ، فنقطة الانطلاق واحدة بينهما من حيث الموضوع : وهى الحياة الشعبية وأيضا من حيث استلهامها فنيا ، مع اختلاف العناصر الطبيعية والثقافية بين الحياة فى الريف والحياة فى الحارة القاهرية ... أما الاختلاف الجوهرى فهو بين النظرة المثقفة ، القائمة على «نمذجة» الحياة الشعبية لدى «التونى» وبين النظرة الفطرية التى تعيش هذه الحياة الشعبية وتعبر عنها بحس الفنان الشعبى الأقرب إلى روح الطفل ورؤيته للأشياء كما نجدها عند محمد على، ومع ذلك فإن موهبة هذا الفنان الفطرى موهبة مركبة تتجاوز حدود الفطرة البدائية أو الطفولية ، إلى ما يمكن أن نسميه «الصورة المثقفة» حيث تقوم على الاختيار من عناصر الواقع وعلى الحذف والإضافة والتحوير والتركيب من خلال علاقات خطية ومساحات لونية وإيقاعات نغمية متصاعدة ، فيما تحتفظ بكل براءة الفطرة الشعبية .

وبالرغم من أننا نجد فى لوحاته المنفذة بألوان الإكريليك فى أحجام متوسطة حالة من الابتهاج بالحياة عبر حلقات الغناء والموسيقى ـ التى ترسبت فى وجدانه بلا شك من خلال معايشته العميقة الممتدة لسنوات طوال مع الفنان الراحل المغنى والملحن الشيخ إمام سنوات الستينات والسبعينات ، وعبر احتفالات بسطاء الشعب ورقصاتهم بالدفوف وغير ذلك ، مما نرى مقابلة الموضوعى والتعبيرى فى معرض حلمى التونى ، فإننا لا نجد لدى محمد على تلك النزعة التزيينية للواقع ... إنه فنان لا يكذب ولا يتجمل ، لكنه ببساطة يرسم ما يعرفه ويعيشه ويحس بالحاجة إلى التعبير عنه ، لكنه ـ(وعلى الرغم من أنه حقق شهرة لا بأس بها فى زمن مضى من خلال المناخ السياسى والثقافى آنذاك ـ قد عاد بلوحاته شبه كاملة العدد بعد انتهاء المعرض على رخص أسعارها ... ذلك لأن من يقتنون الأعمال الفنية اليوم يهمهم قبل كل شئ أن يسألوا :



من هو هذا الفنان ؟.. فهل سمع منهم أحد عن محمد على من قبل ؟!

●●●

سحر الأمير

هذه فنانة شابة تقيم معرضها الخاص الثانى بالقاهرة - بمجمع الفنون - فى مارس الماضى ، إنك تشعر أمام لوحاتها ، التى تجمع بين الطباعة الجرافيكية والتصوير ، أنك أمام لقطات من الطائرة لمدينة اسطورية اكتظت شوارعها وميادينها بسكانها الذين هجروا بيوتهم وانطلقوا مهرولين على غير هدى ، فيما تتراءى لك فى أحيان أخرى كتظاهرات الموالد الشعبية أو الطرق الصوفية وقد اختلطت بيارق هذه الجماعات الدينية وسط زحام هائل من البشر ، حيث تمتزج الكتابات بالناس ، بينما لا نجد فى الحقيقة كتابات أو أناسا، فهى تشبه حالات من التفجر اللونى والخطى بعشوائية محسوبة مغلفة بجو السحر الإفريقى مع صرخات الرقص المحمومة لجماعات بدائية ...

ومع ذلك فإن كل تلك الانطباعات قد لا يكون لها أى مرجعية لدى الفنانة سحر الأمير ، التى أثبتت حضورها بقوة خلال السنوات الماضية منذ تخرجها فى كلية الفنون الجميلة عام ١٩٩٣ ، فهى تؤكد فى دليل معرضها أنه ترجمة لكلمات ثلاث هى الحركة والخط والمكان .

وقد حصلت سحر الأمير على جائزة الإبداع الفنى للشباب فى شكل منحة دراسية بالأكاديمية المصرية للفنون بروما عام ٩٥ ، وعلى جائزة صالون



الحلم الفسلطيني -اسماعيل شموط

الشباب فى الجرافيك عام ٩٩ ، واشتركت فى العديد من المعارض المحلية والدولية ، بين أوربينو بإيطاليا (التى تعد أشهر مركز لدراسة الجرافيك فى أوربا) وترينالى الحفر الدولى بالقاهرة ١٩٩٧... لكن أكثر ما تحققت من خلاله فى السنوات الأخيرة هو رسوم كتب الأطفال ، التى حصلت عن طريقها على عدة جوائز ، منها جائزة سوزان مبارك ١٩٩٦ ، وجائزة اليونسكو ١٩٩٩ .

وأظن أن سحر موهبة مليئة بالوعود ، ونحن ننتظر منها الكثير ، خاصة بعد أن تصفو الرؤية لديها من عشوائية البحث إلى انتظام الطاقة الابداعية فى سياق يتكامل فيه التراث والواقع مع الخيال . ■

عالـم الـروائية إميلى نـوتـومب

عنـدما تتخلص الكاتبة من رواياتها..

بقلم
محمـود قـاسـم

لم تتشكل ظاهرة أدبية عالمية فى العقد الأخير مثلما حدث مع الكاتبة اميلى نوتومب . ليس فقط لأنها بدأت نشاطها الإبداعى فى سن مبكرة حيث نشرت روايتها الأولى وهى فى الثالثة والعشرين من العمر ، فضلا عن أنها قامت بتأليف عشر روايات قبل هذه السن لم تتمكن من نشرها .



إميلى نـوتـومب

في هذه السن الصغيرة أيضا فازت عن إحدى رواياتها بجائزة الاكاديمية الفرنسية عام ١٩٩٩ ، وهي رواية «دهشة وارتجافات» ، كما أن ناشرها الفرنسي «البان ميشيل» اعتاد أن يطرح في كل خريف واحدة من رواياتها الجديدة ، التي تتصدر قوائم المبيعات لعدة أسابيع ، قبل أن تدخل في المنافسة مع روايات أخرى لعدة أشهر ، مثلما حدث مع روايتها الأخيرة «فضائية العدو» التي صدرت في خريف عام ٢٠٠١ .

وأميلي نوتومب ليست كاتبة روايات بوليسية ، أو روايات تجسس أو قصص عاطفية ملتهبة ، لكنها أديبة موهوبة، يحتاج القارئ الذي يتابع إبداعها إلى حصيلة واسعة المجال من الثقافة ، والمعرفة ، والا ما استطاع بسهولة متابعة المعاني الخلفية لما في الرواية .

لذا ، فنحن أمام ظاهرة أدبية موجودة بقوة ، لا تمثل فقط الثقافة الأوربية ، باعتبار أنها بلجيكية الأصل ، وتعيش الآن في باريس ، ولكن أيضا الثقافة الآسيوية، خاصة اليابان ، حيث قضت السنوات الأولى من حياتها في اليابان ، ورافقت أباها الدبلوماسي إلى عدة أوطان تابعت ثقافاتها ، وصادقت الأدباء فيها ، وانعكس هذا بوضوح في كتاباتها ...

الفلسفة قبل الرواية

هي إذن ظاهرة أدبية ، لكننا لا نكاد نعرف عنها شيئا ..

ولدت اميلي في عام ١٩٦٧ في مدينة «كوب» اليابانية ، لأب كان سفيرا لبلجيكا باليابان آنذاك، وتبعا لمهنة الأب ، فقد عاشت في اليابان السنوات الخمس الأولى من حياتها ، مع شقيقتها الوحيدة ، ثم صارت تلميذة في مدارس حكومية عديدة بكل من «اندونيسيا» و«نيبال»، وذلك تبعا للدول التي عمل فيها الأب سفيرا ، وعندما كبرت الفتاة ، قررت أن تدرس الفلسفة في جامعة بروكسل، وذلك في المدينة التي قررت السكن فيها منذ تخرجها من الجامعة حتى الآن .

وقد أتقنت آميلي عدة لغات ، منها بالطبع اليابانية، والانجليزية ولاشك أن دراسة الفلسفة قد تركت أثرها على أعمالها، فأبطالها أصحاب مواقف حقيقية من الحياة، وليسوا مجرد مخلوقات شبحية، ويبدو ذلك واضحا في شخصية ابيفل في روايتها «اغتيال»، فهو نموذج الاحدب المشوه، الدميم الذي رأيناه في رواية «أحدب نوتردام» لڤيكتور هيجو ، لكن نوتومب ترى أن أحدب القرن العشرين سيكون عاشقا ، ومثقفا ، ورافضا للإغراء الجنسي من ملكات جمال العالم ، بل سيكون محكما في المسابقات النهائية لاختيار ، أجمل فتاة في الكون .

كتبت آميلي نوتومب احدى عشرة رواية ، واحتفظت بها في أدراجها قبل أن تدفع بروايتها «علم صحة القاتل» عام ١٩٩٢ إلى الناشر ، وقد حققت الرواية مبيعات ضخمة ، واستقبلت آميلي في الأوساط الثقافية بحفاوة شديدة ، رغم أن البعض أرجع هذا النجاح إلى الكثير من العبارات المكشوفة التي تضمنتها روايتها، مما حدا باميلي إلى أن تبتعد عن هذا

النوع من العبارات في رواياتها التالية ، لتؤكد أن الكلمات المكشوفة لا تصنع وحدها كاتبة جيدة .

ورغم أن الكاتبة تقيم في بلجيكا ، فان المجلات الأدبية تتعامل معها على أنها كاتبة فرنسية ، ربما لأن ناشرها فرنسي اللغة ، والوطن ، وربما لاقتراب الثقافتين معا ، وهذه ظاهرة عادية تحدث دوما . ولعل من أبرز الاسماء التى تمثلها الكاتبة فرانسواز ماليه جوريس .

وتقول مجلة «لابوان» في ٣ نوفمبر ٢٠٠٠ : «إننا أمام كاتبة متفردة لاتشبه أحدا من الكتاب الاقدمين أو المعاصرين وان النقاد قد أحنوا رؤوسهم أمام روايتها الأولى الصغيرة ، التى بدت كأنها فيلم سينمائى محكم الانتاج ، بما يعنى أن الجمل والمفردات اللغوية موجودة فى أماكنها بشكل محدد تماما .

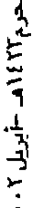
روايات غريبة الأسماء

ومن المهم أن نستعرض أسماء روايات الكاتبة ، باعتبار أنها المرة الأولى التى تتم فيها الكتابة عنها باللغة العربية ، فبعد روايتها الأولى عام ١٩٩٢ ، نشرت فى العام التالى «العاشق الرهينة» ثم رواية «أشياء قابلة للاشتعال» عام ١٩٩٤ ، و«نقد لاذع» عام ١٩٩٥ ، و«الشمال» ١٩٩٦ ، و«اغتيال» فى عام ١٩٩٧ ، وفى العام التالى «زئبق» ، وفى عام ١٩٩٩ حصلت على الجائزة الكبرى للرواية من الاكاديمية الفرنسية عن روايتها «دهشة وارتجافات» ، ثم روايتها «ميتا فيزيقا الانابيب» عام ٢٠٠٠ ، وفى العام التالى كانت روايتها «فضائية العدو» .

واسماء هذه الأعمالة بالغة الغرابة ، وغير تقليدية تماما باللغة الفرنسية ، وتقول الكاتبة «أتعامل كأننى فى حفل راقص للروك» ، وتأتى رواياتى، «كأننى أرقص معها» وهي تقوم بترميم رواياتها حسب الرواية الأولى التى ألفتها فى حياتها ، بصرف النظر عن النشر ، فهى ترى أنها ألفت أربعا وثلاثين رواية ، فى نفس العدد من السنوات ، «عندما أكتب لا أبحث عن النشر، وبعد الانتهاء من الرواية أدفع بها إلى الناشر وكأننى أحاول التخلص منها» .

وعن حياتها اليومية نشرت فى مجلة لوبوان تقول · «الحياة اليومية غير موجودة ولو كانت هناك فضيلة ما للوجود، فهى على النحو التالى : استيقظ فى بروكسل على الرنين الأول لأصوات الترام فى الخامسة والنصف صباحا ، مما يعنى أننى قد نمت أطول فترة ممكنة ، وتستيقظ اختى جولييت قبلى بساعتين حيث تنشغل بإعداد الحلويات والطبخ ، وأعد لنفسى لتراً من الشاى الداكن ، أحتسيها مرة واحدة، وأجلس أمام أوراقى وأحس أننى اقيم فى غواصة أثناء الكتابة ، وبعد ذلك أطالع بريد القراء وأرد على هذه المراسلات ، ثم انزل





إلى شــوارع بروكـسـل للسـبـر ، أمـا الموسيـقى فلـها وقت آخر».

الثرثرة.. تقتل الصمت

وتتـعامل آمـيلى نوتومب مع العـالم بمنظور مـحـدد، فـرواياتهـا أقـرب إلى المسـرحـيات ، مـحـددة الشـخـصـيات ، وتبـدو كـأنهـا تدور فى حلبـات مـغلقـة وتمتلئ بحس السخرية ، والتهكم المتبادل ، ونحس كـأنما هـناك غـيـلان بشــرية ، تسعى لانتهاك أجساد الآخرين ، كما يتـقـابل فى هذه الاعـمـال مـشـاهـيـر مع أشـخـاص يعيشون وراء الغمـام ، وغالبا ما تقوم الاشياء المعقدة بخنق البساطة ، وتأتى الثـرثرة ، من أجل القـضـاء على الصمت ، وتحدث مواجهة حاسـمـة بين الاقوياء ، والابرياء . باعتبار أن القوة لا يمكن أبدا أن تتسم بالبراءة .

والكاتبة التى نشرت روايتها الأولى وهى فى الخامسة والعشرين من العمر حـاولت اسـتـجـمـاع بعض تجـاربهـا الشـخـصـيـة من أجل أن تسكبـهـا فـوق الورق. مـثلمـا حـدث مـع روايـتـهـا «دهـشـة وارتجـافـات» التى بيع مـنهـا قرابة نصف مليون نسخة ، حيث تتحدث عن تجربتها اليابانية والتى سوف تتوقف عندها ، مع رواية «اغتيال» .

وتـتــعــامـل الكاتبــة مـع رواياتهــا باعـتبـارهـا كـراسات تدون فـيـهـا شـابة صـغـيـرة وقـائـع مـا تحب أن تنقله إلى النـاس ، فـالبطلة فى روايتــهـا «دهـشــة وارتجـافـات» تدعى آمـيلى ، وهى تعـمل مـوظفـة فى شـركـة يابانيـة ضـخـمـة للمـقـاولات ، يقع مـركـزها الرئيسـى فى مـدينة طـوكـيـو ، وفى يناير عـام ١٩٩٠ ، (دائما ما تدور أحداث رواياتها فى يناير) تلتقى بالسـيـد سـايتـو ، فى مكان أشبـه بالمتاهة ، انه مكان خانق ، وبعد ذلك يبدأ الاثنان فى تبـادل رسـائل «باردة» لكنهـا مـعـبـرة ، تدعـو الفـتـاة الرجل إلى مـبـاراة فـيـمـا بينـهـمـا فـى الجـولف ، وسـرعـان مـا تكتشف زيف المؤسسات الاقتصادية من خلال هذا الرجل ، فـالعلاقات فيها كذب ورياء ، وتحس أن البـشـر ليـسـوا سـوى نسخ كـربونيـة مـصـورة عن طريق أجـهـزة تصوير.

وهذا النوع من المجتمع بالغ الغرابة، فـالناس يمكنـهم أن يتــحـــدثوا فى المراحـيض، والأقـبـيـة أكـثـر من الأمـاكن المفتوحة ، ومع ذلك فمن الأهمية ألا يكف الإنســان عن أن يكون آدمـيــا ، يعـرف مـلامـح الوجـوه ويـعـجب بأصـحـابهـا وأن يتحرر فى داخله من عبودياته المتعددة ، ومنهـا شـهـوة الجـسـد ، ولذا، فـرغم جمـال ابطـال رواياته ، خـاصـة النسـاء ، فـان الجمال الروحى أشد تأثيرا وبكاء ...

الاغتيال.. والأحدب

ويبـدو ذلك واضـحـا فى الشـخـصـيـة الرئيـسـيـة فى روايتـهـا «اغـتـيــال» فـهـى بالـغـة الحـسـن ، وباهـرة لكـافـة الرجـال الذين يـحـيطون بهـا ، بمن فـيــهـم إبيـفـان الدمـيـم الذى يحـبــهـا ، ويـتـضـح ذلك من المواجهة الأخيرة التى تحدث بين الطرفين، فـهى تصـدم لأنه واقـع فى غـرامـهـا ، تحت ادعـاء أنه عندمـا يقع المرء فى العـشق ، فعليه أن ينظر إلى أعماق الحبيب ، وليس ظاهـره ، فـتكون الصـدمـة أن ايتل تطلب

من الدميم أن يحب دميمة مثله ، وان يكتشف أعماقها .

ورغم الجمال الباهر ، الذى تتمتع به ايتل ، فإنها تبدو بالغة البساطة ، والتلقائية ، وتقع فى حب فنان أقل موهبة، وحضورا ، ومنتفخ دون أن يمتلك ما يمكن للمرء أن يستند إليه ، ومثل هذه المرأة الجميلة موجودة فى أغلب أعمال الكاتبة .

أما روايتها الأخيرة «فضائية العدو» فتدور فى مطار دولى اثناء انتظار القيام برحلة ، من باريس إلى برشلونة ، لكن الرحلة تتأخر ويعانى آنجوست من الاحساس بكونه محبوسا فى عالم ضيق لعدة ساعات ، ويلتقى برجل غاضب مثله هو «تكستور تكستل» أو «منسوج النسيج»، الذى يدخل فى ثرثرة جوفاء مع انجوست . حيث يحكى الأول قصة حياته بتعبيرات غير مألوفة، ويقول إنه ارتكب جريمتين دون أن يكتشف أحد أنه الفاعل . الجريمة الأولى هى اغتصاب امرأة وسط المقابر ، أما الثانية فهى قتل هذه المرأة قبل عشر سنوات ، والتى التقاها مصادفة .

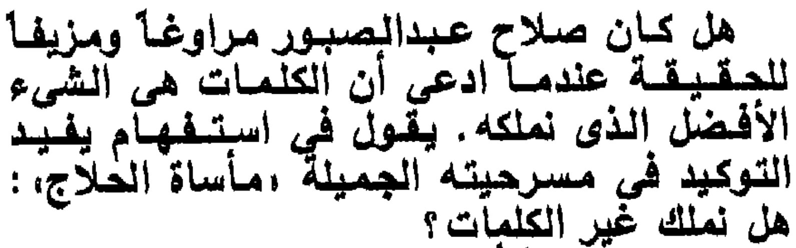
وعلى طريقة الكاتبة فإن انجوست يكتشف أن المرأة القتيلة ليست سوى زوجته، فيطلب من محدثه أن يكف عن الحكى . وتبدو الكاتبة هنا كأنها تصنع مفرداتها اللغوية الخاصة بها ، وهى مفردات تجعل من الصعب نقلها إلى لغات أخرى ، خاصة اللغات غير اللاتينية ، كأن تقول «أنا هل يكون آخر ..» ، و«الإنسان ، هل يمكن أن يكون عدو نفسه؟» ، أو «لماذا آنا اقتل .. هو؟» ، وكلمة أقتل هنا تتخذ منطوقا لفظيا بما يعنى «أنت» عند التلفظ بها ، أو حسب المفرد الخاص بالقواعد «أنا ، أنت ، هو» لذا فإن الكاتبة تبدو كأنها تكتب للفرنسيين فى المقام الأول ، وقد أخر هذا ترجمة أعمالها خارج بلادها عدا ايطاليا .

فالقاتل هنا فخور بأنه ارتكب الجريمة الكاملة ، بدليل أنه ظل حرا طوال هذه السنوات بعد أن «فعلها»، ونحن هنا لسنا أمام قصص بوليسية، فالقاتل «تكستور» لا يتقابل مع آنجوست إلا بعد صفحات عديدة من الرواية، وتصوره لنا المؤلفة على أنه مثقف ، يقرأ كافة أعمال المبدعين الكبار فى تاريخ البشرية ، من جوته إلى باسكال ، ولواتسون ، وسبينوزا ، فضلا عن قراءته فى نظرية الأنانية .

من الواضح أن آميلى نوتومب استفادت كثيرا من دراستها وثقافتها الخاصة ، ورحيلها عبر أماكن عديدة فى العالم ، يبدو هذا فى رواية «اغتيال» والراوية يصف سيبريا التي يراها من كوة الطائرة ، فالكاتبة تحاول أن تلتقط خيطا ما من خيوط أحد الأعمال القديمة المتميزة لتصبغها بشكل وهوية مختلفين تماما ، فمن كوزيمود فى «أحدب نوتردام» فى رواية «اغتيال»، إلى «دكتور جيكل ومسترهايد» لستيفنسون فى «فضائية العدو».

■

غواية الكتابة



بقلم
د. محسن خضر



صلاح عبد الصبور

هل كان صلاح عبدالصبور مراوغاً ومزيفاً للحقيقة عندما ادعى أن الكلمات هى الشىء الأفضل الذى نملكه. يقول في استفهام يفيد التوكيد فى مسرحيته الجميلة «مأساة الحلاج»:

هل نملك غير الكلمات؟
هل نملك شيئاً أفضل.

هل تقف الكلمات / الكتابة/ الفكر فى مواجهة الفعل، وبديلاً عنه، وربما معادية له؟

لماذا نكتب؟
لماذا نكتب أو أكتب؟



نجيب محفوظ

ينطوى السؤال على مراوغة واضحة، ويكتسي بقناع مصطنع البراءة، ويكشف عن دهشة مخادعة مردها ما يبطن فى توتر مع نقيضه الظاهر.

طرح السؤال فى حد ذاته يبدو وكأنه أمر معطل، أو «ثرثرة لا نعتذر عنها» كما يعترف محمد مهران السيد فى عنوان ديوانه.



جارثيا ماركيز

الكاتب الحقيقي لا يسأل نفسه هذا السؤال، بل لا يجد السؤال ثغرة ليتسلل منها إلا فى وقت الأزمة أو زمن المحنة، ربما فى لحظة اهتزاز الثقة بالنفس أو تداعى اليقين يطغى السؤال على نفسه، وإذا كان ستيفان زفايج، ينبه «حذار من الشفقة»، فهل يمكن بالمثل أن نحذر من الأسئلة المعطلة مثل هذا السؤال: لماذا نكتب؟

أنت تكتب لأنه ليس أمامك طريق آخر.

ولا تملك رفاهية السؤال، فأحيانا يكون التساؤل رفاهية، وكل



جونتر جراس

ما ينتابك ببساطة أنه تسكنك؛ تلك القوة المدهشة على تغيير محيط حيوى : فليكن أنت أو حبيبتك أو قراءك أو أهلك أو شعبك أو العالم بأسره، هذه القوة طماعة متسللة، متسلقة تلفك كثعبان وتسكنك كوطواط وتأتيك كحمى، وهذه القوة هو ما يعنيه الشاعر الإنجليزى كيتس «بشهوة تغيير العالم» أو ما يعنيه ريلكه بالكتابة، فهى «ظهور الكائن الذى يتجلى فى بهاء وجوده وقد تطهر من كل ما يحجبه واستقام فى حقيقة حضوره المكشوف» حيث الكتابة عنده تتطابق مع المجد وتكافئه.

يقبع بداخلك إحساس أو يراودك وهم أن هناك خللا فى الكون، أن هناك اهتزازاً أو تداعياً أو قصوراً فى ركن ما فى هذا العالم، فى طحلب أو ضفدعة، فى رفة جناح عصفور أو صهيل حصان، فى خطوات متعثرة لمتسكع أو شارد، زفرات مأزوم أو مظلوم أو عاشق أو سجين.

تستمد قيمتك من هذه الحاجة: حاجة إلى شىء أو أمان، أو علاقة، إلى كتابتك، إلى كلماتك، إلى قوتك، إلى تمردك ، إلى قدرتك، وأن تكوينك ، واتزانك لا يكتملان إلا بممارسة هذه القدرة المدهشة على التعبيير والإبداع، وهذا ما يعنيه جبرا إبراهيم جبرا بقوله :

«الكتابة عندى هى حياة ودلالة فى الحياة، أى أنها العيش بشكل مضاعف وغزير وملح»، ويعبر عنه الكاتب المغربى محمد شكرى فى وظيفة أقرب إلى كون الكتابة تشبه المتحف أو المسبك فى الوقت نفسه، يقول: العالم يفلت منا والفن يحاول القبض على هذا الإفلات، نحن حين نستعيد بالإبداع هذا العالم المنفلت منا فليس هدفنا وضعه فى صورة مؤطرة وحفظه كذكرى أن مادته تتحول كأى بعد من ثمن ينصهر وتعاد صياغته على الشكل الملائم لعصرنا وقد يكون تلقيحاً لما سيأتى، ضرورة ورغبة وإغراء.

الكتابة حلم بالتغيير، تجمع بين التلقائية والاختراع، تمتلك الكتابة المبدعة الخصبة هذا السحر، والعذوبة، والشفافية.

الكتابة تحلم مثلنا تماماً، تحلم بماذا؟ لا نعرف ، هل نحلم بإنسان جديد أو عالم جديد؟ هل تحلم بتحريك العالم وإعادة ترتيبه؟.. هل نحلم بفردوس مفقود، بأفق إنسانى جديد، وفضاء لا يحده سحاب، وهذا ما يعنيه محمود درويش بقوله:

«لكل شاعر أندلسه، وإلا فكيف تفسر كآبة الشعر، وانبثاقه من وجهتين عن أندلس ممكنة، أندلس تولد من جديد فى الروح والقلب».

هذا الحلم التى تمتلكه الكلمات والكتابة ربما هو ما يقصده باشلار بقوله:

«الكلمات تحلم، والحلم يستطيع أن يحصل على تكملته فى الآراء».

أو ما يقصده «ماكس جاكوب» باكتشافه المدهش «الشعر ليس سوى حلم مخترع».

ممارسة الكتابة

ممارسة الكتابة من ناحية أخرى – ولا أقول اختيار الكتابة – لأنها قدرية. هى رهان على الشقاء، أو المعاناة قد تصل إلى حد الاستشهاد، إن قدرك أن تعطى دون أن تنتظر المقابل، أن تنخرط فى صفوف المعادين لكل سلطة، والخارجين عن كل صف رسمى، أو طاغية، أو حمقاء، أو جاهلة.. وهذا ما يغبه كاتب عربى مثل «يوسف إدريس» بقوله :

«الكتابة فى الواقع تضحية مستمرة، ليس منها أى مكسب، حتى ولو مكسب الشهرة الذى يعتقده بعضهم ويسعى إليه، فإذا لم يوطن الكاتب نفسه حين يمسك القلم ليكون كاتباً أو شاعراً يعطى باستمرار ولا يأخذ شيئاً، فإنه ليس كاتبا أو شاعراً».

وللكتابة سلطة يعرفها كل كاتب، ونقصد تلك الكتابة المبدعة التى تلخبط ذراتك، وتربك مداراتك القديمة المستقرة، وتزحزح صخرة ما نسميه رأس أو عقل، هذه السلطة تهزم مقاومة الكاتب، أو أعراضه، أو تكاسله.

يقول الروائى الكولومبى الشهير «جارثيا ماركيز» عن هذه القوة:

الكتابة لى مثل الأكسجين ضرورية للحياة.. والكتابة هى العمل الوحيد فى العالم الذى أفضله.. لا شىء يمنعنى من الكتابة .. وهذه تحتل تفكيرى كله».

وكأى سلطان أو حاكم، فإن الحاكم يسوس رعيته، يدنى من يدنى، ويصطفى من يريد، ولهذا تختار الكتابة صاحبها أو كاتبها، فهى صاعقة لا تعرف من تختار ومن تترك، وهى تشبه تلك الصاعقة التى أردت ضابطاً مصرياً فى وحدته العسكرية على الحدود الغربية لمصر، اختارته وسط جنوده، لماذا وتركت هؤلاء الجنود العاديين المتعلمين أو الأميين، هذا الضابط الذى كان ينتظر مولوده الأول..؟

هذا الاصطفاء هو فى الواقع إذعان، يشبه عقد الإذعان الذى توقعه بعض دور النشر الحكومية العربية ليتنازل المؤلف الشاب المسكين عن حقوقه كاملة لقاء مكافأة تافهة، ولا يملك إلا الرضوخ للموافقة حتى ترى كلماته النور.

هى تلك السلطة القائمة عندما تختار من تسكنهم وتخلع مزيتها وفضيلتها - وشقائها أيضاً - عليه ..

يصف الكاتب الاسبانى الكبير «أنطونيو جالا» سلطة الكتابة بقوله :

«الكتابة هى التى تختار صاحبها، وتكلفه بالمهمات الشاقة وهى ليست دخيلة عليه، وإنما حاضرة فى تكوينه الشخصى، وفى خصائصها الطبيعية نفسها، وأنا لا أنظر إلى الكتابة على أنها ميدان للتفوق أو التواضع، إنها تحتوينى كما الحياة، أتنفسها واتواصل معها، وفى الكتابة أعيش الحياة، وأتعرف عليها».

سلطة الكتابة

سلطة الكتابة لا تعنى أنها سلطة فكر تماماً، بل كثيرا ما يجلس الكاتب وليس فى رأسه فكرة واحدة، ولكن لديه الرغبة ، أو تلك الشهوة أن يسطر ويخلق عالماً من الكلمات وقطاراً من المفردات يصل إلى محطة مجهولة، يعترف «نجيب محفوظ» بهذه الحقيقة «فكثيراً ما جلست وأمسكت بالقلم وليس فى رأسى فكرة واحدة»، ويعترف آلان روب جرييه فى بساطة «أنى لا أملك أية فكرة عندما أشرع فى كتابة»، ويصف كيبلغ قطار المفردات هذا، وخواء الأفكار عند البدء:

يحدث أن يكتب كاتب حكاية بدون أن يعرف مغزاها. هكذا يمكن أن ينال عملاً أدبيا قيمته أبعد من قصد الكاتب.. قيمة غريبة عليه».

أما الكاتب اللاتينى المعروف «بورخيس» فيعترف بموقف التابع من سلطة الكتابة، فليس الكاتب حراً بل عبداً تمتلكه الكتابة كسلطة ونفوذ وهيمنة إنه أمر يشبع إلحاح العاشق أو الدائن أو المجند عليك، لا تتملص منه بسهولة مهما حاولت.. فيعترف قائلاً:

«لا أبحث أنا عن الموضوعات! بل هى التى تقوم بمطاردتى، ويحدث أحيانا أن

أطردها، وأكتب حين أحس بضرورة ذلك».

تبدأ اللعبة من قبل سلطة الكتابة، فتكون هي الفاعل، والكاتب المفعول به، ولكن بورخيس ينبه إلى تلك المساحة من الإرادة في القدرة على الاستمرار أو اختيار الأفكار.

ولكن الكاتب البرازيلي «جورجي أمادو» يعارض الرأي السابق، فلا يملك الكاتب ترف التوقف أو الاختيار، إنه الطرف الأضعف أمام سلطة الكتابة التي تجرده من القدرة على المقاومة.. يقول :

«أكتب لضرورة داخلية. حتى لو أردت أن أتوقف عن الكتابة، فلن أستطيع . إن الموضوعات والشخوص والمناخات تفرض نفسها. وتصبح حاجة الجلوس أمام الآلة الكاتبة قاهرة. فالكاتب مترجم نضالات شعبه».

الجملة الأخيرة في عبارة أمادو تشير إلى أكثر من بعد: البعد الاجتماعي للكتابة، التفادي في القدرة على التقاط وترجمة الهواجس والأفكار والهموم بين فرد وآخر، المحيط العام الذي ينشط الكاتب داخله.

ينقلنا الروائي الإيطالي «ايتالو كالفينو» إلى أرض أخرى، إن الكتابة تموت، لأن الكاتب يصادر حياتها، كما صادرت إرادته من قبل، فالكاتب يدفن فكره ويقيم احتفالاً لفكرة أخرى عندما يختارها دون غيرها. يقول كالفينو:

«احتفظ بفكرة في الرأس لسنوات قبل أن أقرر إعطاءها شكلاً على الورق، وأحيانا في إطار هذا التوقع أدع الفكرة تموت.. تموت الفكرة مهما يكن من أمر ، وحتى عندما أقرر الشروع بالكتابة، لا توجد هناك إلا محاولات في طريق الإنجاز، مقاربات، صراع مع وسائل التعبير.. فمن أجل الشروع بكتابة بعض الأشياء .. كنت أبذل مزيداً من الجهد، لأنني أعرف أن هناك ما ينتظرني من تعب وعدم رضى لتكرار الجهود، والتصحيح، وإعادة الكتابة، المهم في الأمر هو العفوية».

الأدب عند كالفينو هو التحدي الوحيد الممكن «معنى للعالم»، والكتابة عند الروائي المصري «فتحي غانم» محاولة لتقديم إجابات غير حاسمة، يقول:

«فلا توجد في اعتقادي إجابات نهائية. لأن الإجابات تتغير باستمرار/ ودائرة الكشف لا نهائية بالنسبة للعقل البشري. إن الله وحده هو الذي يحيط بكل الإجابات، أما البشر فعليهم أن يجوبوا آفاق الكون بحثاً عن إجابات».

وربما كان لدى الكاتب العربي تفسير ميتافيزيقي عن عمله، تعكس المتانة العقيدية لفضائه الثقافي، فأدونيس يقارب إجابة فتحي غانم «أكتب لأصوغ ما قاله الله ولم يكتبه» أي إن كتابتنا فعل إلهي، أو متصل بالإعجاز الإلهي، والكتابة نوع من القداسة الدينية.

وإذا كانت الكتابة «سلطة» و«قوة» و«حالة» فهي «حقيقة» أيضاً، أو واقع، فالكتابة واقع يكتب عن واقع ، قوة تكتب عن قوة فيقول، «ألدوس هكسلي»:

«إن العالم الذي يهتم بالأدب هو العالم الذي يولد فيه البشر، يعيشون ثم يطويهم الموت، إنه العالم الذي يحبون فيه ويكرهون، ويتعرفون على النجاح والإذلال، الأمل واليأس، إنه عالم المسرات والمعاناة، الذي توجد فيه كل أنواع الضغوط الاجتماعية، والنوازع الفردية، عالم الصراع بين العقل والعواطف، وبين الغرائز والأعراف

الاجتماعية، وبين اللغة العامة والأحاسيس، والانطباعات التى لا يمكن إيصالها إلى أحد».

فى حين يذهب البعض إلى أن الكتابة أقرب إلى الوهم «الأدب هو أحد أوهامنا» يعترف محمد شكرى «إذا لم يكن يمسك فى البحث عنها هذا ما قد يغرى به المبدع الحقيقى نفسه وسط الذين فقدوا ثقتهم فى قيمة الأدب ودوره فى تطوير البشر، وفى اتجاه متماس يرى المفكر المغربى عبدالسلام بنعبد العالى أن الكتابة تتصل بالفراغ، ووظيفتها الحفاظ على الفراغ» يقول: ففى بؤسنا الفكرى، هناك دائماً غنى الفكر. ذلك الغنى الذى يجعلنا نحس أن التفكير يعنى دائماً أن نتعلم كيف نفكر أقل مما نفكر، أى أن نفكر فى العوز والفراغ الذى هو الفكر، كى يحافظ على ذلك الفراغ عندما نكتب ونتكلم».

نقطة وصول وهدف محدد

إن الكتابة تمثل الحياة فى أوجهها، والكتابة التى تبغى تغيير العالم قد تركز على نقطة وصول، أو هدف محدد، أو غاية، أو قيمة تنشدها عن غيرها، وتختار فى مقدمة ما تسعى إليه الكتابة.

فإذا كانت الكتابة سلطة، وقوة تجتاح الكاتب وتوجهه عبر ما نسميه الإلهام فإن التشكيل والتدخل الواعى من الكاتب خلال الطريق يعنى أن هناك قصديه توجه السياق، وانحياز يصيغ جمالية الكتابة عن غيرها.. نعم، نكتب أو نموت، ولكن نكتب بقصد أن نحيا حياة أفضل.. هذه الغاية، أو المقصد ، أو بؤرة التوجه هى «الحرية» عند الكاتبة الأمريكية الكبيرة «سوزان سونتاغ»، فتقول:

«إن حياة الكاتب هى الصراع والمواجهة. وإن جوهر هذا الصراع وهذه المواجهة هى الحرية».

أما الكاتب فى نظر الروائى الألمانى المعروف «جونتر جراس» فمهمته هى التحذير وقرع الأجراس:

«على الكاتب أن يجابه العقلية السائدة، وأن يحطم الواجهات وأن يبحث عن النور فى عالم تلفه العتمة، يسوده الجور، وأنه على الكاتب أيضاً أن يغمس يديه فى الطين، وفى القاذورات وألا يتأفف من ذلك ، وأن ينبه الإنسانية إلى الأخطار قبل فوات الأوان».

أما الكاتب العربى فنجد له أكثر من دافع للكتابة يختلف حسب موقفه السياسى ورؤيته للصراع الاجتماعى، فتوفيق الحكيم بتجريده الذهنى وتأمله المجرد يكتب من أجل هدف ليس بعيداً عن تكوينه لوظيفة الكتابة.. يقول:

«أكتب من أجل هدف واحد: دفع القارئ إلى التفكير».

ولا يفرق «نجيب محفوظ بين الأنا والآخر، فهو يعى أن الكتابة تمثل أو تمتلك المجد بصورة من الصور، وهى تربح كاتبها فى النهاية، ويهدف أن يصل إلى الناس وأن يكشف عن مبادئ ما.. يقول :

«أكتب للمشاركة فى مجد، لاكافأ بالعمل ، ولأرى الآخر المبادئ الواجبة أثناء جهد ما. أكتب لأكون مقروءاً ببساطة . اليوم ما لم أعد أميز بين الحياة والكتابة»، وهو

يقترب من مفهوم ريلكه للكتابة «الكتابة ظهور الكائن الذى يتجلى فى بهاء وجوده، وقد تطهر من كل ما يحجبه واستقام فى حقيقة حضوره المكشوف» . فالكتابة عند محفوظ وريلكه تنتسب إلى المجد، وهى معطى للمجد وسلطة له.

تقترب وظيفة الكتابة أو عملها فى رؤية نجيب محفوظ من رؤية جبرا إبراهيم جبرا المتقدمة عندما يقول «الكتابة عندى هى حياة ودلالة فى الحياة»:

ويعبر الكاتب السعودى د. تركى الحمد عن هذه الصلة والجسور بين الأنا والآخر من خلال عملية الكتابة نتعرف على ماهيتنا، وما هية الآخر، وللكتابة طابعها الوجودى.

«نعم إن الكتابة رحلة وجودية نستقصى منها سر العالم من خلال استقصائنا لسر الذات التى هى فى متناول اليد/ ولكنها بعيدة عن اليد فى ذات الوقت. نكتب لأن الكتابة تشعرنا بأنها رابطة خفية المعالم تربطنا كأفراد ببعضنا البعض فتخلق من كلانا واحداً هو الإنسان ففى الكتابة تضيع الفردية وتغرق الذات فى بحر المجموع فتحس أنها ما جاءت عبثا ولن تذهب عبثاً».

فى الكتابة أمور كثيرة تقولها لنفسك ولكنها تحس أنها ما عادت نفسك أنت كفرد بل تصل إلى إحساس مبهم بأن نفسك استحوذت على جوهر الإنسان فتخاطب الإنسان من خلال خطابك لنفسك . إن فى ذاتك يكمن سر الوجود وكنه الذى مافتىء العاقلون فى هذا العالم يبحثون عنه، فأنت العالم والعالم أنت وكلما عرفت ذاتك أكثر ، أدركت معنى العالم ومعنى الوجود.

انسانية الكتابة

الأدب تعبير عن إنسانية كاتبه، وتعبير عن الإنسانية ، وإذا كان الأدب عاجزاً عن تغيير الواقع، فلا أقل من أن يفسره، وأن يكسبه دلالة، وأن ينير له طريقه، أو ينقل قدمه فى حقل الأشواك بأقل قدر من الوخزات.

الكاتب لا يصنع التاريخ ولكنه ينتسب إليه بالضرورة، وأن كان على الكاتب أن يتوهم أنه يصنع التاريخ ويشارك فى تغيير مسار الإنسانية، وأن يسكنه حزن عظيم لأن التاريخ يحيد عن مساره نحو الظلم والقبح والقهر والتفاهة، وعظم هذه المسئولية تدفع الكاتب الألمانى هاينريش بول لأن يعترف فى تواضع:

«إن على عاتق الأدب المعاصر مسئولية ليس قادراً على الوفاء بها».

أما مارجريت زوراس الكاتبة الفرنسية فتكشف عن سمتين للكتابة، ربما تنفرد بهما، فى واحدة من أجل وأعمق تحليلات عملية الكتابة، حيث تضع يديها على سمة الكتابة وهى التوحش، وفى كتابها الذى يحمل اسم (الكتابة) ترى أن الكاتبة تجعل الإنسان برياً وتلحقه بوحشية ما قبل الحياة، ويعرفها دائماً، وحشية الغابات القديمة قدم الزمن، وحشية الخوف من كل شىء، متميزة ومشتبكة بالحياة ذاتها، يكون الإنسان ضارياً، لا يمكن لفرد أن يكتب دون قوة الجسد. يجب أن يكون أقوى من ذاته ليقترب من الكتابة فقط، بل المكتوب ، إنها صرخات الحيوانات الليلية، صرخات الجميع، صرخاتكم وصرخاتى، صرخات الكلاب إنها فجاجة عظيمة باعثة على اليأس، فجاجة المجتمع».

والوجود كله عندها فى حالة كتابة، وكل شىء حولنا يكتب، «الذبابة تكتب على الجدران، يمكنها أن تملأ صفحة كاملة، ويوما ما، ربما خلال قرون مقبلة ، تقرأ بلا

حروف فى مكان ما فى العالم تؤلف كتب، كل العالم يؤلفها، أؤمن بذلك..».
ولكن الكاتبة التى تغلف الكتابة تعترف فى النهاية فى حسرة: «يمكن أن أقول ما أريد، لكننى لن أستطيع أبداً أن أعرف لماذا نكتب، وكيف لا نكتب؟».
ينتسب الكاتب إلى التاريخ ولكنه لا يحتويه، إنه يحاول الإنسلاخ عنه، إن التاريخ يحتوينا، ويضمنا إليه، ولكننا اتفقنا على أن الكتابة سلطة كثيراً ما تكون ضد كل سلطة .. ثمة وجود مفارق يعيه الكاتب إلى جانب الوجود التاريخى الذى ينتسب إليه، ويحاذيه.
يركز يوجين يونسكو على مفارقة التاريخ ، فى حين يركز ألبير كامى على الضفة التى يقف الكاتب فوقها من نهر التاريخ.. يقول يونسكو:
لقد عشت دائماً وأنا فى صراع مع التاريخ الحديث. لقد منعنى أن أعيش، أن أعيش بطريقة ما، ذلك أن العيش مع التاريخ هو أيضاً شكل من أشكال العيش. غير أن الوجود بالنسبة لى «ميتافيزيقى» وليس تاريخيا».
فهناك مسافة بين ارتباط الكاتب بالتاريخ، اللا متعين أى الميتافيزيقى عند يونسكو، فالتاريخ يملأ الإنسان، ولكن يونسكو يرى أنه فى حاجة إلى شىء آخر يملأه، أما كامى فيفرق فى علاقة الكاتب بالتاريخ بين جمهور التاريخ، وبين زبائنه، ففى خطابه الذى ألقاه بمناسبة تسلمه جائزة نوبل يرى أن الكاتب منحاز دائماً إلى الضعفاء والمهمشين لا إلى الأبطال:
«الكاتب لا يستطيع اليوم أن يضع نفسه فى خدمة أولئك الذين يصنعون التاريخ، وإنما فى خدمة أولئك الذين يتعذبون من صنعه. أما فى الحالة الأخرى، فإنه يجد نفسه واقفا وحده، مسلوباً منه».
أما رولان بارت فيطفىء المصباح، ويغلق الباب فى وجوهنا بانتقاله من الكاتب إلى الكتابة، فلم يعد السؤال اليوم فى نظره عن النص والكاتب وإنما عن الكتابة والقراءة، واحتل مفهوم القراءة مكان الصدارة «الكتابة تدمير لكل صوت أصلى أو كل نقطة أصل، وهى المكان المحايد، المركب، السالب، الفضاء، الذى تضيع فيه الهوية المسقطة للقارىء أو الهوية المتخيلة للكاتب».
للكتابة حضورها الذاتى ووجودها الفيزيقى الذى تستقل به فى لحظة كتابتها وانتهاء بوجودها الرمزى الذى تحله معانيها ومضامينها كما يرى دريدا، وفيليب سولرز، ولاكان، جوليا كرستيفا. يرى دريدا أن الكتابة لكى تكون كتابة فلابد لها من القدرة على الاستمرار فى العقل وتكون مقروءة بصرف النظر عن وجود أو غياب الكاتب، وضياع السلطة الواحدة للمؤلف تطلق سراح الفعل والفعالية، وتكف عن تحويل الكتابة إلى فعل أحادى.
يبقى أن الكتابة سلطة: سلطة تصنع سلطة ، وهاجس يتحول إلى إرادة، ولذا قد يبقى السؤال الذى طرحناه فى البداية معطلاً، ومقتحما، وفضولياً، ولكنه فى الوقت نفسه مراوغ، وخصب، وحافل بالمزالق، فلنكتب حتى لا ننفجر، وإذا انفجرنا نموت، الكتابة ضد الموت، وليست أبداً رفاهية تحتل الادعاء، والحياة أغلى من أن نهدرها على قارعة الطريق، فى رفاهية لا نحتملها، وإذا لن نكتب فقد اخترنا رفاهية الموت، وما أهونها! ■



في ذكراه الخامسة عشرة

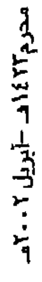
أبي.. عبدالرحمن الخميسي

الشاعر والفنان والإنسان

بقلم
أحمد الخميسي

في الأول من أبريل الحالي تحل ذكرى رحيل والدي، الفنان عبدالرحمن الخميسي، الذكرى الخامسة عشرة. ورغم ارتباطي الوثيق بوالدي وحياته، إلا أنني لم أكتب عنه سوى أقل القليل. في كل مرة كنت استغرب ان اكتب عنه، وكل مرة أسأل نفسي: التراب يواري البدن، لكن أليست مشاعر الحب طاقة، والطاقة كغيرها لا تفني ولا تنشأ من عدم ؟ أين تذهب مشاعر الحب هذه؟ هل لها فراغ تسكنه في السماء؟ التراب يواري صندوق الكمان. لكن أين تذهب النغمة؟ يقولون اصبح بوسع العلم أن يستعيد كل الأصوات التي سرت في الهواء ذات يوم. فهل يسترد العلم يوما كل المشاعر الدافئة التي تهيم في الكون؟

أحيانا ينسي الضيف العجول وراءه سيجارة متوهجة عند حافة المطفأة، وقد نسي والدي شعورا في غور نفسي، يتصاعد منه دخان خفيف لا ينتهي، وعندما أكتب عنه أقول: الناس يفتشون عن الدفتر المكتوب، وأنا معلق بين الدفتر، والروح التي خطته، أمشي بين نافذتين مفتوحتين بحثا عن حقيقة موضوعية.





لم يكتب عن والدى إلا القليل، بضع مقالات للدكتور لويس عوض، ومحمد مندور، وعلى الراعى، وسيد حامد النساج، وغيرهم . ومعظمهم تناولوا الخميسى شاعرا، وقصاصا فحسب.

لكن كتاب «عبدالرحمن الخميسى القديس والصعلوك» لمؤلفه الاستاذ الصديق يوسف الشريف، ظهر كطوق نجاة لحياة غارقة، قلقة، وخصبة، وقلما تتكرر. واستحق الكتاب عن جدارة جائزة احد «افضل الكتب للعام السابق فى معرض الكتاب» فقد باع كثيرا، وتطرقت إليه أقلام عديدة بالإعجاب.

كان والدى كثيرا ما يردد أمامنا ونحن صغار: «إذا انت أحببت المرء، ولو كان مجرما، فسوف يفتح الحب فى نفسه اجمل ما فيها» وكانت له قدرة مذهلة على حب البشر، وعقد الصداقة معهم، حتى انه أحب لفترة طويلة خيال شابة وراء شباك فى المنصورة إلى أن اكتشف انها خيال قلة ماء خلف شاش ابيض. وروى بعض من كانوا معه فى سجن اسيوط عام ١٩٥٣ ان ثعبانا ظهر له

فى الزنزانة، فلم يفـزع، وراح يخاطبه بحب واحترام قائلا له : أنا شـاعـر طيب واسـمـى عبدالرحمن الخميسى، وأنت ثعبان طيب، تفضل وعش معى إذا اردت، إلا إن كـان ابناؤك فى انتظارك. ويقول الاستاذ محمد عودة إن الثعبان ظل ينصت لنبرات صوت الخميسى الجهير والخير ساكنا مكانه لحظات، ثم انصرف.

أحكى تلك القـصـة، لأقـول إن الاستاذ يوسف الشريف، قد كتب كتابه بمحبة وتقدير غامرين يذكران بقول الكاتب الروسى انطون تشيخوف.. «الحب مثل الادب، موهبة خاصة»، وأعاد بكتابه الاعتبار إلى دور والدى فى الحياة الثقافية والفنية، وصان حياته العاصفة والخصبة من الضياع.

بداية المشوار

ولم يكن أبى سوى ابن فلاح من قرية بالدقهلية هى منية النصر بالقرب من المنصورة . كشفت عن نفسها مبكرا طبيعته المتمردة كفنان، حين حشد وهو صبى فى الثالثة عشرة أقرانه فى القرية لبناء مسرح من خشب مقابر الأثرياء فيها؟ وهناك بدأ يكتب الشعر، ويرسل قصائده إلى المجلات فى القاهرة، ونشرت اولى قصائده فى «الرسالة» وهو فى السابعة عشرة. لم يتم تعليمه وانتقل إلى القاهرة عام ١٩٣٦ تاركا خلفه مدرسة القبة الثانوية، وقطعة أرض صغيرة ورثها عن والده، ووصل إلى العاصمة، ليس له فى القاهرة احد، ولا صلة، ولا بيت، ولا مال فاتخذ من المقاهى سكنا، ومن أرائك الحدائق العامة سريرا، وله فى ذلك قصة قصيرة اسمها «النوم» امتدحها الدكتور على الراعى كثيرا.

فى تلك الفترة، مطلع الاربعينات، كانت مصر تغلى بمختلف التيارات الأدبية والسياسية، وكانت الرومانسية مازالت تمثل كبرى الحركات الشعرية بجماعة «أبوللو» وروادها الكبار مثل: على محمود طه، وابراهيم ناجى، ومحمود حسن اسماعيل. ولحق الخميسى بذلك التيار الجارف فأصبح على حد قول الدكتور لويس عوض. « آخر الرومانسيين الكبار».

ويشير د. لويس فى نفس المقال الى قصيدة «ديوان الحب» قائلا إنها: «من أجمل ما قرأت فى أية لغة من اللغات فى طلب الليل وطلب الموت» .تعلم الشعر على يدى خليل مطران، وانجرفت نفسه إلى فكرة العدالة بفضل سلامة موسى. وظل إلى النهاية يكرر :

«ثلاثة علمونى : الفلاحون فى قريتى، وخليل مطران، وسلامة موسى» .

فى القاهرة، لم يكن الشعر يطعم أحدا، فتقلب الخميسى بين مهن مختلفة: عاملا فى محل بقالة، ومصححا فى مطبعة، ومعلما فى مدرسة، وموظفا فى استديو مصر، وفى الليل كان يرتاد

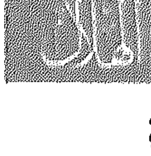
المقاهى ويؤلف الاغانى بأسماء الآخرين مقابل مبلغ زهيد. واعتقد ان حياته بين الفلاحين الفقراء وفى قاع المدينة، قد حددت للأبد انحيازه الصريح إلى الحركة الشعبية.

وسرعان ما فتحت له قصائده التى شدت الانظار اليه ابواب الاذاعة والصحافة، فالتحق بجريدة المصرى لسان حال الوفد حينذاك وصحيفة المعارضة الأوسع انتشارا، وعلى صفحاتها تلاحقت مقالاته عن المكافحين وجمعها فى كتاب، واعاد صياغة «ألف ليلة وليلة» وقدم يوسف إدريس الى القراء. وكان الخميسى مع الكثيرين من ابناء جيله ينفخون فى شرر الثورة على الملك، والعداء للانجليز، حتى قامت الثورة التى نادى بها، فاعتقلته ، لأنه طالب مع الحركة الشعبية باستمرار الحياة البرلمانية على صفحات مجلة الكاتب تحت عنوان «ماذا يريد الشعب؟».

فى السنوات التى غيب السجن فيها والدى، لجأنا إلى بيت جدى، وكنا نسير ونلعب حفاة ونحن صغار، فلما ضقت بذلك وكنت فى التاسعة قلت لوالدتى، وماذا ان كتبت انا المقالات باسم والدى ثم نرسلها إلى الجريدة فنحصل على راتبه؟ وكانت تلزم الصمت، فأتعجب لم لا تقبل اقتراحى؟ ولم أكن اتخيل ان الوضع اكثر تعقدا من خيال الاطفال. وكنت قد نسيت صورة أبى تقريبا، إلى ان خرج من المعتقل فى ديسمبر ١٩٥٦ فوجدته كما وصفه عمنا محمود السعدنى: «نموذجا للفنان، شديد الزهو، شديد البساطة، عظيم الكرم، دائم الفلس، وكان يمشى فى الطريق يتبعه دائما أكثر من شخص يلازمونه كظله، ويطيعون اشارته» ووجدته قويا، يثق ثقة لا حد لها فى الحياة، وفى قدرته على التغلب على كل شىء، اقرب ما يكون لما وصفه به يوسف إدريس فى الاهرام.« كان الخميسى قويا، عملاقا مقاتلا إلى ألف عام، وكان فمه مفتوحا على آخره، مستعدا لابتلاع الحياة كلها بكل ما فيها من طعام وشراب وجمال».

وبعد خروجه بنحو عامين، نقلته الحكومة من صحيفة الجمهورية - فيما يشبه العزل السياسى - إلى وزارة التموين، واطلق كامل الشناوى عبارته الشهيرة، «بدأ مكسيم جوركى صانع احذية واصبح كاتبا، اما الحكومة عندنا فتجعل من ادبائنا صناع أحذية».

ونحّى الخميسى قلمه جانبا، وشكل فرقة مسرحية جاب بها المحافظات مؤلفا ومخرجا وممثلا، كما كتب للإذاعة احد اشهر المسلسلات «حسن ونعيمة».. التى تحولت لفيلم واعتبرها النقاد قصة «روميو وجولييت».. المصرية. ثم انتقل الى تعريب الأوبريت الشهيرة «الارملة الطروب».. وهى تجربة لم تتكرر فى تاريخ المسرح الغنائى ثم ألف عددا من الأوبريتات.« مهر العروسة» و«الزفة» لكن القلق الذى يسكنه لم يكن يجعله



يركن إلى فن، أو يستريح إلى محطة، فانتقل الى السينما وقام باخراج وتأليف اربعة افلام، كما مثل دور «الشيخ يوسف» فى فيلم الأرض. وخلال تلك السنوات ترك عددا كبيرا من المجموعات القصصية، وعدة دواوين من الشعر، ثم غادر مصر عام ١٩٧٢ ضمن موجة الهجرة الثقافية التى اعقبت وصول الرئيس السادات الى الحكم، واصدرت الحكومة قرارا بإسقاط حقوقه المدنية، ومصادرة أملاكه، فلما شرعت فى التنفيذ وجدته مدينا لأكشاك السجائر فى شارع عدلى، وميدان طلعت حرب.

دافعت عن قيثارتى

عاش والدى حياته كما يقولون بالطول والعرض، وكنا إذا أفلس نحمد الله، لان معنى ذلك أننا سنأكل الكباب فقط، والسر فى ذلك انه كان على علاقة طيبة بعم شعراوى صاحب محل الكباب فى باب اللوق، فكان إذا لم يجد بجيبه مليما، يطلب منه الكباب للافطار والغداء والعشاء، وما ان تظهر النقود حتى نعود بكل اسف إلى ما كنا عليه من بطاطس وفول . ولم يكن والدى يأبه بشىء. وخلال وجوده فى العراق قام صدام حسين - وكان نائبا لرئيس الجمهورية - بإهدائه سيارة، فباعها لما أفلس، فأغضب النائب، والوزراء . وعبر تلك الرحلة الطويلة كانت شجاعة الفنان تتقاطع مع هموم الوطن والشعر، وربما كان ابى ثلاثة أشخاص، وربما كان عشرة أو أكثر

واعتقد انه لم يعرف أبدا حقيقة نفسه مجتمعة، فقد كان كثيرا جدا من البشر، والرغبات، والانفعالات وكان ثراؤه النفسى غير المحدود يحزنه، لانه يعتقد انه نهر بلا ضفاف، عاش الفن كل لحظة من حياته، دون ان يكون واثقا من أن الفن - وهو صميم وجوده - جدير بالتضحية بالحياة، والأرجح انه كان مؤمنا بأنه ما من شىء على وجه الأرض قد يساوى الحياة نفسها التى توهب لنامرة واحدة، وقد ارتبطت الطبيعة الفنية الخصبة لوالدى ارتباطا وثيقا بطبيعته المتمردة كفلاح ومثقف، حتى اصبحت عبارته.. «لم اعزف ألحانى، لكنى دافعت عن قيثارتى» شعارا للكثيرين. وكان يفسر تلك العبارة بقوله: شعرت طيلة عمرى اننى مثل فنان، كلما جلس إلى قيثارته ليعزف لحنا هاجمته الشرطة وقطاع الطرق، فيلوذ بالفرار وهو يحمى قيثارته بيديه، فإذا عاد للجلوس ليرسل ألحانه هاجموه من جديد». وكان بتلك العبارة يوجز إلى حد كبير طبيعة حياته القلقة والمشردة التى لم تمنحه الفرصة للعكوف على شىء باستثناء حياته نفسها التى احال كل لحظة فيها إلى فن وتعبير. واذكر اننا كنا نجلس معه ذات يوم، فراح على مدى ليلة كاملة يحاول أن يحصى عدد ابنائه الذين يحتمل وجودهم فى مصر، وبرلين، وباريس، وغيرها إلى أن اختلطت عليه الاسماء

والعواصم فنهض متذمرا قائلا: «ابحثوا عنهم، اى خميسى تجدونه أخ لكم».

لكن فترة الغربة التى طالت نحو ثلاثة عشر عاما ارهقته، واقتلعته من المقاهى التى احبها، وصحبة الاصدقاء، والمعارك الصحفية، وكنت أراه كثيرا فى سنوات الصقيع فى موسكو، وقد جلس بمفرده الى منضدة تتصدر صالة واسعة يدخن، كأنه يتأمل وحده حصاد حياته، فأقترب منه بهدوء واضع له فى المسجل اغنيات مصرية ريفية الطابع، فيصاب بالذهول كيف خمنت أنه يحن لتلك الاغنيات؟ أجلس معه.. نحتسى الشاى بصمت، ونرسل ببصرنا إلى مساحات الجليد البيضاء المترامية خلف النافذة . كانت الرحلة قد أنهكته فكتب:

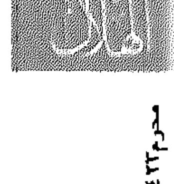
كسروا يراعى.
ولكنى حفرت على جدران مصر
أناشيدى بأظفارى
دمى هنالك مكتوب
وإن طمسوا حروفه
أج فى الظلماء كالنار.
وحيث هم صلبونا
كلما بزغت شمس رأى الناس فيها
لون أشعارى

لقد شاهدته وهو يتنقل من مختلف البيوت فى مختلف العواصم، إلى بيوت اخرى ومدن أخرى، من بيروت الى بغداد، ومن بغداد الى باريس، ومنها إلى موسكو، وكان فى كل مرة يقدم فيها على الانتقال من حياة ثابتة إلى المجهول يتحسس شيئا واحدا: علبة السجائر ؟ فى جيبه أم لا؟ كان ذلك كل ما يحمله من بلد لآخر.. وذات ليلة من أواخر شهر مارس، أحس بالتعب الشديد، فجاءت عربة الإسعاف لتنقله إلى المستشفى، بمصباح صغير يشع بالضوء الأحمر فوقها، أخذته ومضت. ومن باب البيت، رأيت مرة واحدة وإلى الابد، ومض اللون الأحمر من المصباح يخفق وراء السيارة ممتدا طويلا على الثلوج البيضاء.

لقد ترك لنا والدى ثروة من الحكايات التى لا تنتهى، والمواقف الشجاعة، وترك لذاكرتنا نموذجا لرجل كان منتشيا بنفسه دوما دون قطرة خمر واحدة، قادرا بخياله على ان يحيل اتعس الاماكن إلى قصور زاهية. وكانت وصيته الأخيرة ان يدفن فى المنصورة تحت شجرة.

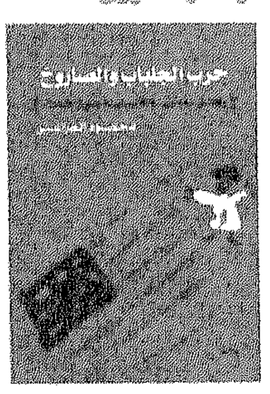
قال: احس اننى سأعود عصفورا ولهذا تلزمنى شجرة اغنى فوق غصن منها، فغرسنا له شجرة.

اقول ان ما كتب عن أبى قليل، لكن الاستاذ الكاتب الصديق يوسف الشريف، تمكن من استنقاذ شخص أبى، وحياته، حكاياته فى كتابه الممتع: «عبدالرحمن الخميسى القديس والصعلوك.». أطال الله فى عمر يوسف الشريف، الإنسان والكاتب المبدع، محاطا بحب وتقدير كل من عرفه عن قرب أو قرأ له. ■





الكتاب: حرب الجلباب والصاروخ
المؤلف: محمود المراغي
الناشر: دار الشروق



كأن مؤلف هذا الكتاب المهم كان يعرف ذلك السيناريو الذى يدور فور صدور وثائق الخارجية الأمريكية حول الإرهاب، وتلك النوايا المبيتة من جانب الولايات المتحدة ضد دول معينة، وجماعات ومنظمات كان فى مقدمتها أفغانستان مستهدفة تحديدا أسامة بن لادن وطالبان.. إلى أن وقعت أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، فاختلف الأمر كما يشير المؤلف فى مقدمته للكتاب، وباتت قراءة الوثيقة لازمة، بعد أن تحولت إلى وثيقة اتهام ودليل عمل، وبعد اتخاذ قرار الحرب من قبل الرئيس الأمريكى جورج بوش ضد أفغانستان.

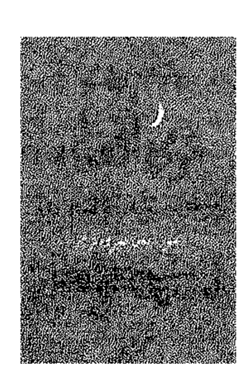
ذهبت أمريكا إلى أفغانستان بجيوشها فى الوقت الذى تساءل فيه العالم عن استراتيجية هذه الحرب التى أطلقت عليها واشنطن اسم (حرب الإرهاب) أو حرب (العدالة بلا حدود).

ويؤكد المؤلف أنها (حرب الاستراتيجية المتحركة) فلا المجتمع الدولى يعلم، ولا الإدارة الأمريكية حددت نقطة النهاية..

والكتاب ملىء بالتحليلات التى يوردها المؤلف حول العلاقات الدولية بدءا من حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحرب الخليج الثانية التى ارتفع فيها شعار نظام عالمى جديد يستهدف حرية الإنسان وحرية التجارة وحرية تدفق الأموال.

ويجىء نص وثيقة الخارجية الأمريكية والذى يمثل الجزء الأكبر من الكتاب، وليوضح كيف تنظر الولايات المتحدة للعالم بمعاييرها، وعلى ضوء ذلك نرى التهديدات للدول التى تأوى الإرهاب وليحكم القارىء على هذه المعايير!

الكتاب: ذكريات عربى أفغانى
المؤلف: د. أيمن صبرى فرج
الناشر: دار الشروق



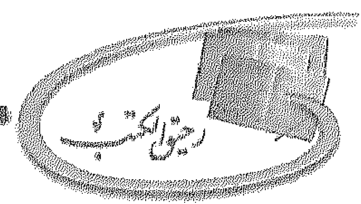
لم يكد ذكر أفغانستان يهدأ عن التكرار، حتى عاد مجددا ليتصدر المساحة الذهبية فى الصفحة الإعلامية، فمنذ ١١ سبتبمر وحتى الآن، وربما لفترة طويلة قادمة ستكون أفغانستان صاحبة هذا الامتياز.

غير أن هذا الوضع كانت له منابته وأسبابه، وهو ما اهتم به هذا الكتاب أو هذه الذكريات «ذكريات عربى أفغانى» على لسان صاحبها دكتور أيمن صبرى فرج أو «أبو جعفر المصرى القندهارى» الذى يروى تجربة شخصية لمريد من مريدى الجهاد فى الصف الأفغانى أثناء الوجود السوفييتى الذى برر اقتحامه لأفغانستان بتدهور الأوضاع الداخلية هناك.

والذكريات فى مجملها تروى حكايات الجهاد والصراع بين المجاهدين الذين تنوعت انتماءاتهم بين أفغانى وباكستانى وإيرانى ومصرى وفلسطينى وليبى وجزائرى وبين الجيش السوفييتى، وكيف تلقى هؤلاء المجاهدون تدريبهم على المتاح من أسلحة، وكيف صمد هؤلاء المجاهدون فى وجه الآلة العسكرية السوفييتية.

والكتاب يروى أيضا فى لمحة تاريخية ما لاقاه الانجليز على يد الأفغان، وكيف سُحقت جيوشهم عام ١٨٤١ ، فتوالت حملاتهم مما ألجأ الأمير «شير على» إلى طلب المساعدة من الروس فكانت بداية التدخل الروسى فى شئون البلاد، وبداية ظهور الجماعات اليسارية أيضا، التى مُنحت سلطات واسعة على يد «محمد داود» مؤسس النظام الجمهورى عام ٧٣، وهو ما استنفر فى نفس الوقت الجماعة الاسلامية، ومن هنا كانت بداية الصراع الداخلى ومفرداته، إذ انقسم الفرقاء فى داخلهم إلى فصائل متناحرة، وتناوب مقاعد القيادة كل من تراقى، حفيظ الله أمين ثم كارمل، الذى تدخل الروس بذريعة حمايته وحماية حركته التى أعلن أنها اشتراكية.

وأخيرا فإن «الذكريات» مليئة بالدلالات والإشارات من خلال انطباعات صاحبها عن جماعة المجاهدين وحياتهم ومذهبهم الحنفى الذى يرون الإسلام من خلاله. وقوة عزمهم وصمودهم فى وجه الغزاة من انجليز وسوفييت والذين ما جاءوا إلا من أجل ثروات ضخمة لشعب فقير أعزل على بقعة من أفضل بقاع الأرض.



الإسلام وخرافة المواجهة
الدين والسياسة في الشرق الأوسط
تأليف: فريد هاليداي
ترجمة: محمد مستجير



يتناول هذا الكتاب «الإسلام وخرافة المواجهة» - والذى وضعه «فريد هاليداى» عملية تأمل طويلة فى الشرق الأوسط المعاصر، وتفكير فى هذه المنطقة، ورصد فى دراسته انتشار نظرية المؤامرة فى الثقافة والسياسة ودور الدين الإسلامي وصعوبات إقرار الديموقراطية وصياغتها، ومن السهل وضع تحليلات لكل من هذه القضايا تحصر نفسها فى تاثير الإسلام، أو فعل العقل العربي والفارسى أو الدمار الذى جلبته الامبرالية على المنطقة، لكن من الممكن أن توجد تفسيرات أخرى، أقل خصوصية تنطلق من الحقيقة الواضحة، وهى أن كثيرا من الظواهر التى تم تحليلها، تشاهد فى أماكن أخرى من العالم، فالشرق الأوسط ليس فريدا ، فى انتشار الديكتاتوريات، أو فى الدول التى خلقها الاستعمار ، أو فى نظريات المؤامرة فالشرق الأوسط ليس فريداً، ربما إلا فى مضمون الخرافات التى تروج عنه من الداخل والخارج وللأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لشعوب هذه المنطقة، خصوصيتها واختلافاتها ، فيما بينها ، وفيما بين الشرق الأوسط الواحد والعالم الخارجي.

ويؤكد الكاتب هنا على ان مانحتاجه هو دراسة كاملة لمجتمعات ونظم سياسية بعينها ، وللاستخدامات التى اختلفت باختلاف الزمان والمكان، للرموز والمبادىء الإسلامية . فالإسلام كموضوع للدراسة ينبغي أولا أن نذيبه لنجعله شيئاً عينيا فى دراسة أحداث وأوقات وأماكن بعينها.

ويحاول الكاتب الإجابة على كثير من الأسئلة المتشابكة والتى يكثر حولها الجدل، حيث يظهر جدل عقيم وصراع غابت عنه الحكمة، وتفجرت فيه غريزة الانتقام ، وأصبح خطراً يهدد البشرية..

التيارات الإسلامية في مصر ومواقفها تجاه الخارج من النكسة إلى المنصة
تأليف: د. وليد محمود عبدالناصر
تقديم: د. أحمد كمال أبو المجد



هذا الكتاب ليس تاريخاً للإسلام ، ولا تحليلاً للإسلام فى عقيدته أو شريعته أو ثقافته العامة، وانما هو دراسة علمية وصفية وتحليلية ، لمواقف «الأحزاب والجماعات» التى تكونت داخل المجتمع المصرى مطالبة بتعديلات جوهرية فى مساره الثقافي والسياسي.

تقوم فى مجملها على مايراه مؤسسو هذه الجماعات على أنه الفهم السليم أو التصور الصحيح للإسلام ، وما يطالب المؤمنين به فى حياتهم السياسية وشئونهم الاجتماعية .

وقد اختار الكاتب فترة محددة وموضوعاً محدداً، فالفترة تمتد من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١، أما الموضوع فقد تم تحديده بمواقف أولئك الإسلاميين تجاه الخارج ..

ويتناول الكتاب بالتحليل مواقف الإسلاميين فى مصر تجاه الخارج، وتأتى أهمية هذا الكتاب فى التعرف على اللغة السياسية التى استخدمتها القوى محل الدراسة خلال الفترة التى حددها الكاتب، فى التعبير عن مواقفها تجاه مسائل خارجية .

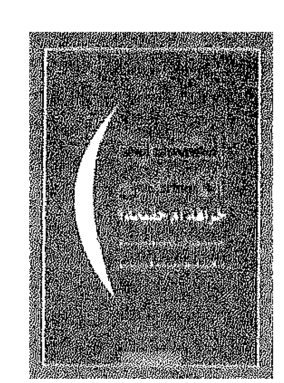
ويؤكد الكتاب أن الذاكرة التاريخية للتيارات الإسلامية اتسمت بالصفة الدينية، واستخدمت تلك التيارات مفاهيم دينية، لها مدلولات دينية وتاريخية فى الذاكرة الجماعية للمسلمين ، مثل الأمة - الجهاد - الجاهلية .

وتم إعادة تفسير هذه المفاهيم بشكل مستجد وراديكالى . وتم توسيع نطاق تطبيقها لتشمل العالم بأسره ، بواسطة المفكر الباكستانى أبى الأعلى المودودى، والمفكر المصرى سيد قطب فى كتاباته في الستينيات .. بالاضافة إلى بعض منظرى، بعض التيارات الإسلامية في مصر خلال الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١.

وحاولت بعض التيارات الإسلامية فى مصر خلال هذه الفترة ، أن توائم بعض المفاهيم التقليدية مثل «دار الحرب وأهل الكتاب» ، مع وقائع سياسية معاصرة ، وقد استخدمت أيضاً بشكل انتقائى مفاهيم الجاهلية والحاكمية والجهاد، بعد ماتم اعادة تفسيرها، وتوجيهها إلى منحى راديكالى على المستويين النظرى والعملى، كأدوات وصف وتحليل ، وتوصية للتابعين لإقامة نظام مثالى..

ولاشك أن هذا الكتاب يساهم فى إرساء الأطر العلمية، التى يمكن أن تساهم فى دراسة مواقف وآراء الحركات الدينية فى مناطق ودول أخرى من العالم تجاه قضايا العلاقات الدولية .

التهديد الإسلامي .. خرافة أم حقيقة؟
تأليف: جون ل. اسبوزيتو
ترجمة: د. قاسم عبده قاسم
دار الشروق



«كأنما خرج الإسلام فجأة من غياهب المجهول ليعلن عن وجوده!.. وكأنما كانت القشرة الغربية التى فرضتها سنوات الاستعمار والتبعية هى الأصل».. يبدأ د. قاسم عبده قاسم مقدمته بتساؤلات أصبحت مطروحة على الساحة الدولية فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر الماضى . كمقدمة لكتاب أثار العديد من السجال والاهتمام ، ألفه أحد أهم المتخصصين بتاريخ الإسلام والمسلمين وصاحب آراء عميقة عن حركات الإسلام السياسى المعاصر فى العالم. وتكمن أهمية الكتاب فى تناوله بالتحليل الهيكلى لمعظم الحركات والمنظمات الإسلامية فى الشرق والغرب وفى الشمال والجنوب. فترصد أبواب الكتاب محاولات الإصلاحيين والتجديديين لمواجهة المشكلات التى تواجه المسلمين فى العصر الحديث. ويناقش مفهوم «الأصولية» لما قد يتضمنه من مغزى «التهديد الكلى». وفى هذا الصدد يرصد بشكل مستفيض حركات الإصلاح بداية من الوهابية والسنوسية والمهدية مروراً بفكر جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا حتى مرحلة التجديد الإسلامى على اعتبار كما يقول «اسبوزيتو» «الاسلام قوة عالمية محتملة خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين». وإن كان يرى أن الحديث عن الإحياء الإسلامى قد يكون «مخادعا»

ويطرح الكتاب عدداً من التساؤلات تدل على القلق المتصاعد فى الغرب إزاء حركة الإحياء الإسلامى وسيادتها فى معظم أرجاء العالم الإسلامى .. فيتساءل «لماذا تمتع بهذا التأثير الواسع المدى؟ وإلى أى مدى يوجد تهديد إسلامى؟». كما يدرس جذور الصراع والتعاون والمواجهة ما بين الإسلام والغرب . كما يحاول أن يتناول الاعتقاد الذى ساد بأن «الحركات الإسلامية أصبحت بديلا حقيقيا للأنظمة الفاسدة المرهقة عديمة الفاعلية» . وفى نهاية الكتاب يطرح «اسبوزيتو» التساؤل الشائك مرة أخرى «الإسلام والغرب هل هو صراع حضارات؟، أم أنه يمكن أن تقوم العلاقة بينهما على أساس الفهم والحوار والاعتماد المتبادل ؟» ويخلص إلى أن بروز خرافة التهديد الإسلامى كان نتيجة التفكير النمطى الاتباعى . والركون إلى الأنماط الفكرية الجاهزة أو المعلبة بدافع الاستسهال وعدم الرغبة فى التعب والاجتهاد.

وإن كان أهم ماقدمه الكتاب محاولة مؤلفه تصحيح تلك النظرة الغربية التى ترى أن كل ما يخالف الغرب فى رؤاه وأساليبه ونظامه القيمى والأخلاقى متخلف وخطير بالضرورة!!

وقائع سنوات الجهاد
رحلة الأفغان العرب
تأليف: محمد صلاح
دار خلود للنشر

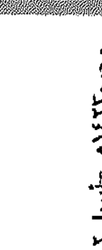
عن رحلة الأفغان العرب الطويلة .. مشاقها ووقائعها وتطورها .. بداية من الأفكار التى جالت بعقول أعضائها وحتى



شرارتها التى امتدت لتشمل بقاعا كثيرة فى العالم ، عن أخطر الإرهابيين المطلوبين فى العالم وعلى رأسهم الدكتور أيمن الظواهرى وأسامة بن لادن، يروى لنا الكاتب محمد صلاح الدراما الأفغانية - العربية منذ بداياتها الأولى .ويحاول أن يقف عند الأسباب والدوافع وملامح التجربة المريرة التى خاضها هؤلاء الشباب أو كما يذكر فى كتابه «خيرة شباب الأمة الإسلامية». «استثارتهم الهمة وأرادوا التضحية من أجل قضية الإسلام..»» فيستعرض الكاتب بجرأة شديدة أحاديث وتصريحات أعضاء الحركات الرديكالية الأصولية فى البلاد العربية خاصة فى مصر. ويحكى لنا فى خلال ذلك الأجواء التى سادت فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات عقب وفاة الزعيم جمال عبدالناصر، ويتنقل بين محطات رحلتهم الشاقة من بيشاور الباكستانية وحتى الوصول إلى أفغانستان البوتقة التى انصهر فيها الجميع . ونجد بين سطور الكتاب الكثير فى مشاعر الخديعة خاصة وسط تصريحات شباب الرحلة، فكما يقول الكاتب «أمة مضللة من جانب حكوماتها وجماعات ترفع لواء الإسلام ، شارك الطرفان فى تحقيق هدف الأمريكيين ومصالحهم» .

وتكمن أهمية تلك الحوارات الصحفية فى استعراض الأسس الفكرية التى استند إليها الأصوليون المتشددون، لتحويل عملياتهم التى كانت تستهدف أنظمة الحكم فى بلادهم إلى استهداف المصالح الحكومية. والتى فضل الكاتب تسميتها «بالطريق إلى الانتقام». «انتهى الغرض الذى من أجله صُنع الافغان العرب وتخلت أمريكا عنهم فلم تمنحهم أى مكافأة .. وهكذا امتزج الثأر الشخصى لدى الأفغان العرب بما كانوا يعتقدونه من أفكار دينية كلها تصب فى اتجاه تكفير الأمريكيين.....» أى بداية الشعور بالخديعة الأمريكية.

كما رصد الكتاب فصلا كاملا عن شخصية الدكتور أيمن الظواهرى العلامة الفارقة فى التحولات التى طرأت على نشاط وتوجهات الأصوليين الراديكاليين. كما يتحدث باستفاضة عن أسامة بن لادن «الشخص الأكثر خطورة على الأمريكيين» والذى أطلق إعلانه الرسمى «جهاد جديد فى أرض جديدة» لتبدأ بعدها أمريكا سباقها مع الريح للقضاء على «تنظيمه الفضفاض».. ■



هل من جديد عن الهجرة النبوية

بقلم

د. محمد رجب البيومى

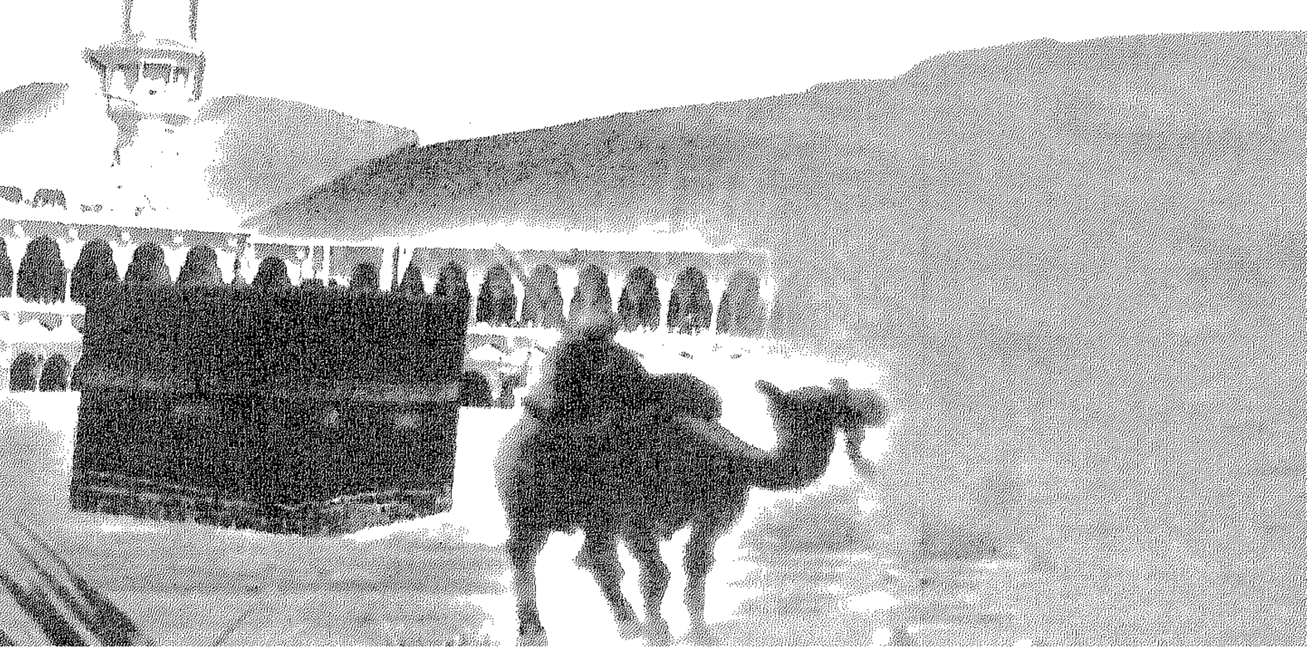
منذ أكثر من عشرين عاما، كنت أستمع فى أول المحرم إلى حديث إذاعى يلقيه أستاذ كبير الاسم واللقب، فأفاض فى حديث مؤامرة قريش فى دار الندوة، وغار ثور، والعنكبوت والحمام، وكانت ابنتى الصغيرة وهى بالسنة الثالثة الابتدائية تجلس جوارى، فسمعتها تصيح كالمندهشة: «بابا، بابا! هذا الكلام عرفته فى المدرسة من زمان! لماذا يقوله هذا الرجل؟ وهو معروف»!



وسكت لا أدرى بماذا أجيب الفتاة الصغيرة ! على أنى من يومها أخذت حذرى من الحديث عن السيرة النبوية إلا إذا فتح الله على بشىء جديد ، ولا تزال كلمة ابنتى ترن فى أذنى ، كلما حانت مناسبة تتكرر بتوالى الأيام، وأنا أكتب هذا المقال ، محاذراً أن تقرأه ابنتي التى شبت الآن عن الطوق ، فقد تصيح بى صيحتها بالأمس ، بابا، بابا، فأكرر السكوت !

على أن حديث السيرة لا يمل ، لا سيما لدى من قرأ مئات الصفحات التى تتحدث عن نبيه ، ويريد أن يعبر عن خواطر تزدحم في صوره ، فقد أرقت ذات ليلة ، وخطرت أطياف الهجرة أمام عينى ، فسبحت فى أمواج دافقة من الذكريات ، وكنت مضطجعا فجلست مستندا إلى الحائط، وقد دارت بذهنى هذه الخوالج ، فسألت نفسى :

لو جاء رب أسرة يملك الأمر والنهى على أولاده الكبار ، فجمعهم ، وقال لهم : اتركوا منازلكم الرحبة الفسيحة فى هذا البلد الآمن ، واتركوا ما لكم من أموال وعقار وأثاث، وارحلوا إلى بلد آخر ليس لكم به أهل ، وما بأيديكم وما تقتاتون به من الطعام ، وما لديكم من مسكن تأوون إليه ، اتركوا هذا البلد سريعا وارحلوا حيث أحدد لكم مكان



الإقامة الموحش الغريب ، فبماذا كانوا يجيبون ؟

من البدهى أن صيحات التعجب ستعلو ، ثم تليها صرخات الاستنكار ، وسيشكون فى عقلية هذا الذى يرميهم فى أمواج المحيط ليغرقوا فى مائه المواج ، حتى إذا عادوا إلى سكونهم ، تحدث بعضهم إلى بعض قائلين إن الأب يهذى . ولا يملك قدرا من التفكير يحميه من الهذيان ، فلنترك المنزل ساعات ، ثم نرجع إليه . فقد يفيق من سكرته ، ويعتاده الصواب .

ثوابت تاريخ الدعوة الإسلامية

ولكن الواقع الثابت فى تاريخ الدعوة الإسلامية أن المسلمين قد أمروا بالهجرة ، وترك الأموال والمنازل والمتاجر ومفارقة الأحبة والصحاب إلى بلد لا يعلمون عنه شيئاً ، أو لا يكادون يعلمون ، فاستجابوا طائعين وفرحوا مغتبطين ، وسبقوا الرسول إلى المهجر النازح ، وكأنهم يسارعون إلى جنة الفردوس ناعمين مغتبطين.

ولنترك حديث هؤلاء إلى حديث مماثل فى مكان آخر ، فنتساءل :

لو جاء رب أسرة ، وجمع أولاده الكبار ، وقال لهم سيفد عليكم قوم لا تعلمون عنهم شيئاً قبل أن يرتحلوا إليكم وسيقتسمون منازلكم ، ويأكلون من زادكم، ويتاجرون في أموالكم ، وسيصيرون ملاكا لأكثر ما فى أيديكم ، وعليكم أن تتنازلوا لهم مرحبين عن كل ما يحتاجون إليه مهما عظمت حاجتكم له ، بل لو أراد أحدهم أن يتزوج من نسائكم . وللواحد منكم أكثر من زوجة فليدعها له مغتبطا سعيدا ؟! لو جمع رب الأسرة أولاده وقال لهم ذلك فبماذا يجيبون ؟ أكرر ما قلت من قبل ، فأقول إن صرخات الاستنكار سترتفع ، وإن صيحات التعجب ستعلو ، وسيشكون فى عقلية هذا الذى سينغص لهم وجه الحياة ، فتصبح أضيق من سم الخياط ، حتى إذا عاودوا سكونهم تحدث بعضهم إلى بعض قائلين إن الأب يهذى ، ولا يملك قدرا من التفكير يحميه من الهذيان ، فلنترك المنزل ساعات ، ثم نرجع إليه فقد يفيق من سكرته ، ويعتاده الصواب ، ولكن الواقع أن الأنصار قد استقبلوا المهاجرين مرحبين ، وقد قاسموهم الأموال والمتاجر والمنازل والأعمال عن ود عاطف ، وإخلاص مكين ! فماذا نقول فى ذلك ؟

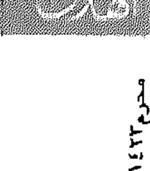
نقول فى ذلك ما قاله الله عز وجل فى كتابه (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ،

وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) ٦٢ ، ٦٣ ، الأنفال .

ولأنتقل إلى أمر آخر ، ليس أشد غرابة من سابقه ، ولكنه في وضعه الذى انتهى إليه أمر غير معهود ، ويكاد لا يصدق لولا أنه حق واقع !

الأوس والخزرج على قلب رجل واحد!

أتعلم أن قوما دامت الحروب بينهم سنوات جاوزت المائة ، وكلما مضى جيل ورث عنه جيله اللاحق ما حمل من حقود ناغرة تأكل الأكباد وتحرق الأحشاء ! هذه الحقود التى أرثت حروباً ما تكاد تنطفىء بعد أن تهلك الحرث والنسل حتى تعود ثانية أشد ما تكون ضراماً ، وأهول ما تشتعل حريقا ، حتى إذا بلغ الأمر أشده ، وضاقت الأرض بما تحمل ومن تحمل ، رحل قوم من المتحاربين معاً . لا من فريق دون فريق إلى مكان آخر . وإلى بلد ناء عن موضع الشقاق ، يلتمسون النصرة من أبناء هذا البلد النازح ، وكل راحل يعمل على أن يحوز ثقة هذا البلد البعيد فيمده بالسلاح والعتاد والرجال ، ثم تكون النتيجة أن يتقابل العائدون الملتمسون أسباب النصر ، مع إنسان لا حول له ولا طول من الناحية الحربية ، بل هو محارب من قومه ، يقاطعون أهله ، ويمنعون عنهم الزود حتى يلجئوهم إلى شعاب الجبل وحدهم دون نصير: يقابلون هذا الإنسان الذى لا يملك دفعاً عن أصحابه إذ أمرهم بالهجرة إلى الحبشة اتقاء لما يلقون من كيد ، وما يتعرضون له من نكال تشيب له رءوس الضعفاء من الأرقاء والمستضعفين، يقابلونه ذات عشية فيتحدث إليهم ويتحدثون إليه، فإذا القوم ينسون ما قدموا إليه من تحالف ، وإذا المحارب منهم يجلس جوار خصمه الألد ليكونوا معاً فى اتجاه واحد ، ثم يتعاهدون على أن يتركوا أسباب الشقاق . وأن يرجعوا إلى المدينة مع أحد أصحاب هذا الإنسان، الذى اطمأنوا إليه ليهديهم إلى الوفاق. وليجمع المتنابذين على المودة والإخاء ! أتصدق أن قوماً جاءوا متنابذين فرجعوا متحابين ، لا استجابة لأمر رئيس مطاع يملك قوة التنفيذ بأساً وعدة وعزيمة ، بل إذعانا لرجل لا يملك غير المنطق السديد ، والحب الخالص والثقة فى مدد يأتى من السماء لا من الأرض ! وما السماء فى رأى هؤلاء حينئذ ؟ إنها عالم مجهول تحوطه



الأساطير ويكتنفه الضباب فلا يهدى إلى طريق !

هذا الذى لا يصـــــدق ، أو لا يكاد يصدق ، صار حقا واقعا ، حين امتدت الحرب بين الأوس والخزرج فى المدينة امتداداً رهيبا ، فحصدت الرءوس ، وأكلت الأموال ، وضاقت الأرض برحبها على المتحاربين ، حتى إذا اشتد الهول ، وعظم استئصال الخطر بما يبثه اليهود من أفانين الشقاق ، وما يحركونه فى التراب من جذوات ما تكاد تنطفىء حتى تشتعل بالإثارة والتأريث ، لجأ نفر من الأوس والخزرج متنابذين متباعدين إلى مكة ليجد كل فريق من قوة قريش ما يؤازره ويحميه! لم يعلموا عن محمد شيئاً ، ولم يفكروا فى الاستعانة به وهو لا يملك من العتاد الحربى قليلاً أو كثيراً ، ولا يحوى من المال ما يهيىء هذا العتاد شراء وتصنيعاً، ولكن الرسول تحدث إليهم ، فكأن نورا ساطعا برق فجأة فى ظلام دامس ، فلفت النفوس إلى مشرق صباح جديد ! فإذا القوم مأخوذون بما يسمعون، وإذا الأنظار تتجه إلى عهد آخر ، غير الذى كانوا ينشدون ، وإذا الأوسى مع الخزرجى على مذهب واحد ، فقد تركا ما بينهما من شقاق ، وتطلبا السلام في كنف رسول السلام ! فرجعوا إلى المدينة يصحبون معهم مصعب بن عمير ليقرأ عليهم القرآن ولينزل فى الدور هناك بين الملأ ، داراً بعد دار، يرشد ويهدى ، فيجد الاستجابة ، وإذا نشز أحد عن الطريق استمع إلى قرآنه مرة ثانية فاطمأن ، حتى إذا كان العام القادم ، اجتمعت الكلمة على لقاء محمد بمكة ، وعلى إتمام البيعة له إيماناً بقرآنه ، واستمساكاً بالإسلام !

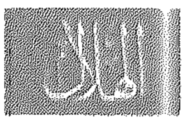
لقد كان المنتظر ممن كان فى موقف محمد ، أن يسارع إلى استهواء القوم بما يبذل من وعود مغرية فى الأمن والسلام ، وسعة الرخاء ، ومنع الحروب ، تلك التى يتوق إليها القوم بعد عناء مرير فى القتال، وبعد أن أكلت الحرب الأهلية ما لديهم من نفائس الأموال، وغوالى الأرواح ، كان المنتظر ممن كان فى موقف محمد أن يفرش الطريق بالورود لهؤلاء الذين قطعوا حياتهم بين الصخور والأشواك ، وأخذوا يتطلعون إلى عيش مريح : ولكن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، لقد علموا من رسول الله أنهم فى سبيل تأييده سيقفون أمام العرب جميعا فى حرب عوان . وأن قبائل الشرك في الجزيرة العربية كلها لا فى مكة وحدها ، ستقف

كالبنيان المرصوص أمام دعوة الإسلام ، وأن مجاوريهم من يهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع سيجدون فى دعوة الاسلام عدواً قوياً يناهض ما يقترفون من امتصاص الأموال ، واحتكار الضروريات فى الملبس والمأكل ، والسيطرة على أسواق البيع والشراء . ولابد إذن من أن يكونوا طابوراً خامساً عند صدام الشرك بالإسلام تارة ، وأن يكونوا أعداء محاربين فى صفوف الشرك جهاراً دون استحياء تارة أخرى وهم أرباب دين سماوى ، يحارب الشرك فى صميم عقيدته ولكنهم أمام مغريات السيطرة المادية لا كرامة لهم ولا دين ! هذه الأهوال التى تترصد القادمين إلى مكة من بنى الأوس والخزرج كانت كافية أن تصد القوم عن الدخول فى الإسلام. والاستجابة إلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ! ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ! بل كان الإقبال الحار والترحيب المتزايد والوقوف حشودا متراصة لاستقبال المهاجر النازح ، وكأنه الأمل المرتقب ، والبشير الذى يحمل طوق النجاة !

معجزات الهجرة

قد يقول قائل : ربما كان الوفد اليثربى لا يدرى فى مبدأ أمره شيئاً عما ينتظره من هذه الأهوال ، وإنما هى صعاب تكشفت للأنصار فيما بعد ، بعد أن خاضوا عباب الموج ، وتقاذف بهم اللج فى تياره المواج ! قد يقول قائل ذلك مستغرباً أن يقدم القوم على هذه التضحية الخطيرة ومعهم عقولهم التى تفكر ، وأذهانهم التى تتخيل وتتوقع ، ولكن ما سجلته كتب السيرة عن اجتماع العقبة يرد هذا الوهم بما يقضى عليه دون ارتياب !

لقد تنبه العباس بن عبادة الأنصارى إلى ما سيعقب هذه البيعة من خطر لاحق، فصاح بالقوم بمشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمه العباس بن عبد المطلب ، صاح الرجل بين قومه صارخا : يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم ؛ قال إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . (يريد أنكم تبايعون على حرب الناس جميعا) فإن كنتم ترون أنكم إذا انهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله خزى الدنيا والآخرة ، إن فعلتم وإن كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه ، على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فقالوا جميعا :



إنا نأخذه على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ما تعهدنا به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم . لكم الجنة ، قالوا أبسط يدك نبايعك فبسط لهم عليه السلام يده فبايعوه !

وإذن فالمسألة كانت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى لبس ، وقد صدق القوم وعدهم ، فصدقهم الله جزاءهم الحميد ، وتحدث عنهم القرآن المجيد فقال « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» الحشر آية (٩) .

أليست هذه غريبة ثانية تضاف إلى الغريبة الأولى ! فيقعان موقع الدهشة والاستغراب ؟

أما الغريبة الثالثة ! فهى حادث الهجرة النبوية ذاتها وكيف تمت على أحسن وجوهها فى ظروف تحتم ألا تتم ، وأن تبوء بالإخفاق تجاه هذه الظروف .

لقد عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم متجه إلى يثرب لا محالة ، وأنه إذا أصبح ذا عشيرة وملأ فى مهجره، فسيكون قوة عاتية تقف أمام جبروتهم ، وقد تصيبهم بالخذلان ، فصمموا على اغتياله متآمرين ، وفى ليلة تحدد موعدها ، أحاط بمنزله أربعون شابا جلدا لينفذوا ما ائتمروا به ، وكان الإخفاق ذريعاً حين نجا رسول الله ، واتجه إلى أبى بكر فصحبه إلى غار ثور !

هنا تأتى الغريبة المدهشة سافرة بلقاء إنسان يتآمر عليه الجمع الحاشد ، ويرصد لقتله أشداء القوم من الشباب ، ثم يفاجأون برحيله ! ولا يستطيعون أن يبلغوه ؟

لقد ذهب أبو جهل إلى منزل أبى بكر ، ولطم أسماء ابنته فى غضب ، حين ذكرت أنها لا تعلم شيئاً من أمر أبيها وصاحبه ، وأخذ يعلن أن مائة ناقة لمن يدل على محمد قبل أن يرتحل إلى المدينة ، أو من يأتى به ميتا ، وهذا أقصى ما يدل على الاهتمام البالغ ، وهم يعرفون كل طريق يؤدى إلى يثرب . فما الذى عاقهم أن يبلغوا ما يقصدون ؟ ولديهم القوة الممثلة فى ذوى الخبرة بالمسالك والشعاب، ، وذوى الحرص من شبابهم الغاضب ، المندفع إلى البحث عن المهاجر فى كل منفذ من منافذ الأرض ؟ ومعهم الانتهازيون الذين يريدون النياق المائة

بجهد يوم أو يومين!

لقد كان عبد الله بن أبى بكر يخرج من بيته إلى غار ثور يومياً على مدى ثلاث رحلات، فلماذا صرفهم الله عن أن يراقبوا بيت أبى بكر فيتبعوا ابنه وهو ذاهب إلى مثوى أبيه ؟

لقد كانت أسماء تحمل الزاد متجهة إلى غار ثور ، والقوم فى هياجهم يتشممون كل ريح ، ويتفحصون آثار الأقدام فى الرمال ، ويسألون الرائح والغادى فى شعاب الصحراء : هل أبصر محمداً وصاحبه فلا يجدون غير الحسرة والالتياع ! أفما كان لديهم من يفكر فى هذه الفتاة التى خرجت من منزلها ، فيتعقبها مختفيا من خلفها ليعرف أين ينتهى بها المسير ؟ هب أنها كانت تخرج فى الليل بعد العشاء ، فأين هم حينذاك وقد ملأوا دروب الصحراء مجتهدين مكدودين !

لقد كان عامر بن فهيرة مولى أبى بكر يتجه إلى الغار كل يوم ، ومعه غنم يرعاها، ، فإذا اقترب من الغار قدم للصاحبين ما يحمل من لبن وطعام ! أفما كان يعرف هؤلاء المتشنجون المتخبطون ، أن عامرا هو غلام أبى بكر ، وأنه إذا سار فى طريق غير آهل فمن المحتمل أنه يحمل لسيده ما تدره الأغنام من ألبان ليقتات من جوع ، وينهل من ظمأ ! كيف غفل هؤلاء البسلاء عن عبدالله وعن أسماء وعن عامر وهم لا يفتأون بين غدو ورواح باحثين غاضبين ؟

أما وصولهم إلى غار ثور ، وإحجامهم عن فحصه ، وقد انقطعت آثار الأقدام دونه ، فهو أمر لا يدل إلا على غياب الذهن، وشرود العقل ! وتلك هى المعجزة حقا ! فإذا أضفت إليها ما سبق مما أشرت إليه فإن الهجرة لم تكن معجزة واحدة ، بل كانت بضع معجزات !

هذه خواطر متناثرة ، توافدت على نفسى ، حين جلست مفكراً فى حادث الهجرة ، فرأيت أن أسجلها كما تواردت على الخاطر دون ترتيب فنى ، يقدم عنصرا على عنصر ، وقد أرضيت بذلك نفسى المتطلعة إلى الحديث عن رسول الله فى ذكرى يوم الهجرة ، وهو حديث لا يضيف شيئاً إلى مجده الخالد ، ولكنه يكسبنى شرفاً لا يتطاول حين يجول قلمى فى ناحية من نواحى سيرته الشريفة ، فأشعر بغبطة سعيدة شعر بها حسان بن ثابت حين قال :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمد

■

الوسطية الإسلامية

وحركة الإصلاح الفكرى والإسلامى

بقلم
طارق البشرى

قال الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» (آية ١٤٣) .

«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين» (آية ٢٣٨) .

وورد فى سورة المائدة : «فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة» (آية ٨٩) .

وفى سورة القلم : «قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون» (آية ٢٨) .

(١)

المعنى اللغوى للوسط ، يقال توسط بينهم بالحق والعدل ، ويقال وسط الرجل أى صار شريفا وحسيبا ، ووسّطه أى جعله نصفين ، والوسط بين الجيد والردىء ، والأوسط هو المعتدل ، ومن أوسط قومه أى من خيارهم ، والواسطة واسطة القلادة أى الجوهرة فى وسطها ، والوسْط ظرف بمعنى بين (يقال جلس وسط قومه) ، الوسط المعتدل أى ما يكتنف أطرافه ولو من غير تساو ، والوسط هو العدل والخير ، أمة وسط أى عدول وأخيار ، الوساطة فى القانون الدولى محاولة حل نزاع بين دولتين .

المعنى الوارد فى القرآن عن الأمة الوسط :

يذكر القرطبى أن الوسط هو العدل، وأصل ذلك أن أحمد الأشياء أوسطها ، وفي الحديث الشريف : أمة وسط أى عدل ، وفي القرآن «قال أوسطهم» أى أعدلهم وخيرهم .. ووسط الوادى خير موضع فيه وأكثره كلأ وماء ، والوسط مجانبة الغلو والتقصير وأمة الإسلام أمة وسط لأنها لم تغلُ غلو النصارى فى أنبيائهم ولا قصرت تقصير اليهود، واسطة القوم هو خيارهم ، والوسط هو كل مابين شيئين، ، وفى الحديث الشريف «خير الأمور أوسطها» . وقال الإمام على «عليكم بالنمط الأوسط فإليه ينزل العالى وإليه يرتفع النازل» .

وفى تفسير ابن كثير ، «الوسط ها هنا الخيار والأجود ، كما يقال قريش أوسط العرب نسبا ودارا أى خيرها» ، والرسول وسط فى قومه أى أشرفهم نسبا ، ومنه الصلاة الوسطى أى أفضل الصلوات ، والوسط العدل .

وفى تفسير المنار ، أن الوسط هو العدل والخيار ، والزيادة والإفراط أو النقص والتفريط كلاهما ميل عن الجادة ، ومن كان وسطا بين شيئين فإنه يرى أحدهما من جانب ويرى الثانى ، من جانب ، ولفظ الوسط فيه إشعار بالسببية أى البعد عن الغلو . والأوسط والوسطى هو المتوسط بين شيئين أو أشياء ، ويقول محمد عبده لولا أنهم حددوا الصلاة الوسطى لقلت إنها



الصلاة «الفضلى» التى يحضر فيها القلب .

وورد فى ظلال القرآن ، أن الأمة الوسط هى الأمة التى تشهد على الناس جميعا فتقيم بينهم العدل والقسط ، ويذكر أنها وسط بكل معانى الوسط ، سواء بمعنى الحسن والفضل، أو بمعنى الاعتدال والقصد ، أو بالمعنى المادى الحسى . ويقول «أمة وسط فى التصور والاعتقاد ، لاتغلو فى التجرد الروحى ولا فى الارتكاس المادى ، إنما تتبع الفطرة الممثلة فى روح متلبس بجسد..» ، «أمة وسط فى التفكير والشعور ، لا تجمد على ما علمت ولا تغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كل ناعق وتقلد تقليد القردة المضحك» «أمة وسط فى التنظيم والتنسيق لاتدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر ، ولاتدعها كلها للتشريع والتأديب» «أمة وسط فى الارتباط والعلاقات ، لاتلغى شخصية الفرد ومقوماته ولا تلاشى شخصيته فى

شخصية الجماعة والدولة ، ولا تطلقه كذلك فردا أثرا جشعا لا هم له إلا ذاته» ، وهى أمة وسط فى المكان، وأمة وسط فى الزمان .

فالوسط إذن ، سواء فى اللغة أو فى الاستخدام القرآنى والدلالات الإسلامية ، يشير إلى قيمة العدل والخير ، كما يشير إلى الاعتدال من حيث هو إمساك بالأعنة ومراعاة الجوانب المختلفة للظواهر وتوثيق العرى ضد الجنوح أو الغلو أو الانفراط ، والتوسط يفيد مراعاة الأطراف . ومن هنا فى ظنى ترد وسطية الإسلام التى قصدتها الآية الكريمة «وكذلك جعلناكم أمة وسطا ..».

(٢)

ونحن أمة وسط لأن الإسلام دين وسط ، بمعنى الفضل والخير والعدل ، وبمعنى تماسك الأركان وترابط الأطراف . ولا أريد أن أستطرد فى هذا الأمر ، إنما أشير فقط إلى وضع الديانتين اليهودية والمسيحية قبل الإسلام ، فاليهودية كانت تركز على المبادىء الأولية للسلوك الإنسانى ، من نحو منع القتل ومنع السرقة .. ووضعت بذلك الأسس التشريعية الضابطة لمعاملات الناس وللتنظيم الاجتماعى بينهم ، وكانت تعالج فى ذلك أفعال الناس وتتخذ وسيلة الجزاء العقابى أساسا للمعالجة ، من نحو العين بالعين والسن بالسن ولكن الجزاء القانونى العقابى لايكفى لتحقيق الضبط فى السلوك البشرى ، إنما يلزم تقوية البناء الداخلى للضمير الإنسانى، الذى يوثق أواصر الرحمة والمودة بين الناس ويقوى وسائل الضبط الوجدانى الداخلى .

وقد آلت اليهودية بين اليهود عند ظهور المسيحية ، آلت إلى هذا الوضع غير المتوازن .

ثم جاءت المسيحية لتكمل الناموس بالتركيز على الضمير والوجدان الإنسانى ، ولتقيم بجوار التنظيم القانونى العقابى السائد بين اليهود ، لتقيم تكوينا شعوريا أساسه الرحمة والإيثار والإحسان ، وصرفت غالب جهدها فى إقامة هذا الصرح الشعورى . ولكن المسيحية بين المسيحيين آلت إلى التركيز على هذا الجانب الوجدانى ، وانصرف غالب هم المسيحيين فى بناء الضمير دون التفات كبير إلى الشأن الاجتماعى القانونى العام

ثم يجىء الإسلام بوسطيته ليستوعب كلا الوجهين ، وليؤكد أن صلاح الفرد والجماعة هو فى الجمع بين الطرفين والربط بين الجانبين ، فأقام الرادع الاجتماعى بالقانون وبالعقاب المادى ، وأقام الرادع النفسى بإحياء الضمير بوصفه جهازا للرقابة الذاتية وبإغناء الوجدان البشرى بعواطف المودة والتسامح والإيثار ، فالله سبحانه وتعالى «رب السموات والأرض» ، وهو جل شأنه يأمر«بالعدل والإحسان» ، والمسلم هو من «آمن وعمل الصالحات» ، والعبادة صلاة وصسوم وكذلك فعل الخيرات وما ينفع الناس . والمجتمع والفرد متداخلان فى

النظر الإسلامى ، والظاهر والباطن مترابطان بالسلوك والنية .

ومن هنا نلحظ الجذر العقدى لوسطية الإسلام ، مما عصم الجماعة الإسلامية من بعد ، على طول العصور وتعدد القرون ، عصمها من الإنشقاق والتصدع ، ومما جعل رباط الإسلام شديدا وثيقا يضم هذا القدر الكبيرمن التنوع فى المدارس والمذاهب والتشكيلات الاجتماعية والثقافية . وبقى هذا الرباط الوثيق يضم التكوينات الكبرى فى الفكر والسياسة لاينفك عنها ولا تنفك عنه ، وأعظمها فى التاريخ الإسلامى ، أهل النص وأهل العقل ، وأهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وأهل السنة وأهل الشيعة .

وأقصد بالرباط الوثيق هنا الإشارة إلى عدد من الظواهر .

أولا : أن الخلاف كان من شأنه أن يستقطب بين طرفيه ، ثم يؤدى إلى سيطرة المغالين ، وأن يؤدى إلى نوع من الاتهام المتبادل يوجهه كل طرف للآخر بخروجه عن الملة ، أى إلى نوع من التكفير المتبادل .

ثانيا : أن مرونة الفكر الإسلامى العقدى ، وشمول إحاطته للاحتياجات البشرية والاجتماعية كافة ، فى صورها الثقافية والفكرية والعلمية والوجدانية ، وفى تنوعها الاجتماعى والسياسى عبر الأزمان والعصور وعبر الأمصار والأصقاع ، هذا الشمول قد أفسح للعنصرين معا فى كل اتجاه بأن يضمهما الإطار الإسلامى ويجد كلاهما فيه مكانا فسيحا للوجود .

ثالثا : أن وجد من كل اتجاه من تقوم دعوته على تأكيد العناصر المشتركة وإعلائها ووضع المناهج التى تمكن من الوجود المتجاور داخل الإطار العام للمفاهيم الإسلامية .

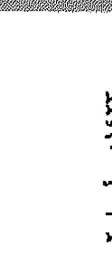
رابعا : أن الخلافات السابقة بقيت فى إطار تنوع الآراء والمذاهب داخل الإطار العام للعقيدة الإسلامية .

لذلك لم نر فى الإسلام انشقاقات من نوع ماحدث فى المسيحية مثلا بين الأرثوذكس اليعاقبة والأرثوذكس المالكانيين أو بين الأرثوذكس بعامة وبين الكاثوليك ، أو بين الكاثوليك وبين البروتستانت .

٣

نحن نعرف أن الفقهاء بعد صدر الإسلام – ما لبثوا أن اختلفوا إلى مذهبين أو إلى مدرستين ، مدرسة العراق التى سميت بمذهب أهل الرأى، ومدرسة الحجاز التى سميت بمذهب أهل الحديث ، وفى كلتا المدرستين وغيرهما كانوا يتجهون إلى جمع المسائل الفرعية وترتيبها وردها إلى أدلتها التفصيلية .

كان الحديث «الحديث الشريف» قليلا فى العراق ، فاستكثر أهل العراق من القياس ومهروا فيه وسموا أصحاب الرأى يستخرجون المعانى من النصوص بدقة نظر وبإتقان فى تفريع الأحكام . اشتهر منهم إبراهيم النخعى ثم حماد بن أبى سليمان (توفى ١٢٠هـ)، ثم أبوحنيفة



الوسطية الإسلامية

النعمان بن ثابت (توفى ١٥٠هـ) . ومن قبل إبراهيم وجد علقمة بن قيس النخعى (توفى ٦٠هـ) وهو من أصحاب عبدالله بن مسعود .

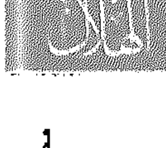
وكان الحديث كثيرا رواته بين أهل الحجاز والمدينة دار الهجرة ومأوى الكثير من الصحابة ، وحتى من انتقل من الصحابة إلى العراق شغلهم الجهاد وشئون الدولة عن التحديث ، فصار لصحابة الحجاز وجه أثر أقوى فى هذا المجال ، وآل ذلك إلى مالك بن أنس الذى توفى فى ١٧٩هـ .

ونما الخلاف بين المدرستين ، كل منهما تنكر الأخرى ، ولا تعارضها فقط ولكنها تتميز عنها وتبتعد ، نجد ربيعه الرأى يسأل سعيد بن المسيب عن علة حكم ، فيقول له سعيد «أعراقى أنت ؟» .
ورغم أن كلا منهما كان يدرك أن الرأى لايستقيم بغير الحديث ، وأن الحديث لايعرف إلا بالرأى ، فإن أهل الرأى كانوا يفتون ويقضون فيما يمتنع أهل الحديث عن الإفتاء فيه لغياب النص .
وكانت تجرى المناظرات بينهم، وأهل الحديث يعيبون على أهل الرأى أنهم لاينصرون السنة وأنهم يأخذون فى دينهم بالظن ويقبلون المراسيل والمجاهيل ويرجحون القياس الجلى على خبر الواحد ويقولون إن أول من قاس هو إبليس . وكان أهل الرأى يهزأون من أهل الحديث ويعيبون عليهم فوات الرأى وضعف النظر ويشنعون عليهم بأحاديث وقصص.

كل ذلك ظهر فى منتصف القرن الثانى للهجرة ، وكان من شأنه أن يباعد بين الفريقين ، مع اختلاف ظروف المعيشة واختلاف نوع المشاكل التى ترد مع الوقت ومع توالى الأحداث ووجود الخلافة فى العراق ومشاكل الحكم ومشاكل العواصم ، ومع نمو الغربة بالتدريج بين الطرفين، كل ذلك كان من شأنه أن يقوى به التباعد وعدم التفاهم والاستقطاب فى هيئة طرفين متوازيين يزداد بعدهما فيصيرا طرفين متقابلين.

ولكن الله سبحانه وتعالى قَدّر لمحمد بن إدريس الشافعى أن يوجد فى هذه المرحلة (توفى ٢٠٤هـ) . ولد فى غزة وعاش من صباه البعيد فى مكة ودرس على علمائها الحديث ، ثم تتلمذ على أيدى مالك فى المدينة فأفسح له مالك ، وأخذ علم أهل الحديث من منابعه ، وصار منهم ، ثم سار إلى العراق ، وجاور على أيدى فقهاء المدرسة العراقية وأبرزهم وقتها محمد ابن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة ومدون المذهب ، ودرس فقه أهل الرأى ، ثم جادلهم وخرج إلى مصر فأملى مذهبه فى صورته الأخيرة، وعلى رأس ذلك «الرسالة» .

ماذا فعل الشافعى ، لم يوفق بين أهل المذهبين بطريق «المصالحة السطحية» ولا بالتقريب بين الأحكام الفرعية ، ولابترجيح البعض منها على البعض من الآخر ، إنما غاص فى علم أهل الرأى ليصل إلى الجذورر الحاكمة لإعمال الرأى . فقعّد



القواعد التى يبنى عليها منهج استخلاص الرأى والاستدلال عليه . كان فقهاء الرأى يقيسون مالم يرد عنه حكم على ما ورد عنه حكم فى مسائل الفروع ، فضبط الشافعى منهج القياس من حيث استخلاص علة الحكم والتفريع عليها ، أى رد الحكم الفرعى للأصل المتضمن فيه ثم أنزل حكم الأصل على مسألة فرعية توافرت فيها علة الحكم ، وبحث فى كيفية استخراج الدلالات من عبارات النص ، فضلا عن العموم والخصوص والناسخ والمنسوخ وغير ذلك . ولقد تغلغل علم الأصول بين أهل الرأى فأوثق اجتهاداتهم .

وبالنسبة لمعارف أهل الحديث ، فقد غاص فيها أيضا ، ليقعّد القواعد التى ينبنى عليها علم التثبت من صواب الأثر والحديث . وهو قد نصر السنة فى مواجهة أهل الرأى ولكنه نصرها أيضا بطريق ضبط مناهج التحقق من صحة الحديث والتيقن من صواب الأثر .

وتكلم عن خبر الواحد فى الحديث وما يشترط فى الراوى وما يفترق به عن الشاهد وما يجتمع به معه . وقد تغلغل علم الأصول وضبط الرواية بين أهل الحديث ما وثق تحقيقاتهم .

وبهذا التقعيد الذى بنى عليه علم الاستدلال عن الرأى وعلم التثبت بالأثر، ترابط الفقه الإسلامى وأحكمت أزمّة ، واعتصم بهذا الوثاق طرفاه - الرأى والأثر - عن أن يجنح كل منهما بعيدا عن الآخر فتعمق الفرقة وقد تتحقق القطيعة . إنما قربت الشقة بين أهل الحديث وأهل الرأى وصار علم «الاحتكام» قائما لديهما فرسخ أساس الوحدة الإسلامية بترابط الأصول التى يصدر عنها فكر المسلمين.

يعلق الشيخ مصطفى عبدالرازق على جهد الشافعى قائلا «ذلك يشعر باتجاهه فى الفقه اتجاها جديدا هو اتجاه العقل العلمى الذى لايكاد يعنى بالجزئيات والفروع «إنما يوجه غالب اعتنائه «إلى ربط» الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها ، وذلك هو النظر الفلسفى» .

ويذكر الفخر الرازى أن الشافعى فى علم أصول الفقه ، مثله كمثل أرسطوطاليس فى علم المنطق وكمثل الخليل بن أحمد فى علم العروض .

ويقول الشيخ مصطفى عبدالرازق رحمه الله «وقد لايكون بعيدا عن غرض الشافعى فى وضع أصول الفقه أن يقرب الشقة بين أهل الرأى وأهل الحديث ، ويمهد الوحدة التى دعا إليها الإسلام» .

وليس عجيبا أن يقول عنه ابن حنبل «ما من أحد بيده محبرة أو ورق إلا للشافعى فى رقبته منةٌ» .

(٤)

يذكر أبوحامد الغزالى فى «إحياء علوم الدين» أن الفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق ممن كثر أتباعهم هم الشافعى ومالك وابن حنبل وأبوحنيفة وسفيان الثورى . ويذكر أن كل واحد من هؤلاء كان يحوز خمسا من الخصال هى ، العبادة والزهد ، والعلم بعلوم الآخرة ،

والفقه في مصالح الخلق في الدنيا ، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى . ثم يقول إن ورثة هؤلاء الفقهاء من تابعيهم اقتصروا على خصلة واحدة هي «الفقه في مصالح الخلق في الدنيا» ، وفرعوا عليها التفاريع وابتعدوا عن الخصال الأربع الأخرى التي لا تصلح إلا للآخرة ، وأسمى هؤلاء «الحدادين» الذين يفترقون عن الملائكة . وقصد بالحدادين أولئك الذين يبالغون في قصر التصور الإسلامي على ضبط القيام بالشعائر وبيان أحكام المعاملات دون الجانب الوجداني التعبدي.

وأن تعبيري الملائكة والحدادين يكشف عن مقدار التباين الكبير بين الطرفين ، ولا أريد أن استطرد في ذكر ماعسى أن كان يكون عليه الشقاق واتساع الهوة بين من سموا بأهل الشريعة ومن سموا بأهل الحقيقة من المتصوفة وكيف كان يمكن أن تؤول الأمور إلى القطيعة بينهما ، لوسادت لدى «أهل الحقيقة» أفكار الحسين بن منصور الملاح (المتوفى ٣٠٩هـ) أو السهروردي (المتوفى ٥٨٧هـ) أو محيي الدين بن عربي (المتوفى ٦٣٨هـ) .

ولكن ما صنعه الشافعي بين أهل الحديث وأهل الرأي ، صنعه هنا الجنيد البغدادي (المتوفى في ٢٩٧هـ) بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة . ذلك أنه ضبط مذهب التصوف بقواعد القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وابتعد عن شبه الغلاة ، وجعل مذهبه سالما من كل مايوجب اعتراض الشرع، وكان يقول «طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه فلا يقتدى به» وكان أبعد الحلاج عن حلقته .

ويذكر د. حسن الشافعي أن الجنيد أكسب الصوفية مشروعية الوجود ، أكسبها وصف «المواطنة» ونفى عنها الغلو وأزال التعارض الموهوم بين الشريعة والحقيقة ، واتخذ طابعا سنيا معتدلا وأضعف الاتجاهات العقلية المسرفة مثل الاعتزال والاتجاهات الباطنية مثل التشيع المغالي أو التصوف المنحرف ، وهو يقول أيضا إنه في هذه المرحلة مرحلة الجنيد انتقلوا بأحكام العبادات إلى الاعتناء بأسرارها ، وانتقلوا بالزهد والتقشف إلى الاعتناء بالتربية ، وانتقلوا «بالأخلاق من صبر وشكر وحياء ووفاء وتسليم ورضا» إلى الاعتناء بكيفية اكتساب ذلك .

ثم يظهر أبوحامد الغزالي (المتوفى ٥٠٥هـ) الذي جمعت حياته بين علم الفلسفة وعلم الكلام وبين أصول الفقه وفقه الفروع ، ثم التصوف ، فاجتمعت له علوم العقل وعلوم الوجدان ووجوه ثقافة المسلمين في أشمل صورها . ولا حاجة بي للحديث عن الغزالي ، إنما أنقل كلمة «شاخت» في كتاب تراث الإسلام ، «يعتبر الغزالي الرجل الذي أسهم بأكبر نصيب في جعل التصوف مقبولا لدى أصحاب السلطة في الإسلام ، والقضاء على كل التشككات والظنون المسبقة حول التصوف عند علماء المسلمين المتشددين في أحكام



الشريعة» .

ثم تظهر جهود عبدالوهاب الشعرانى (المتوفى سنة ٩٧٣هـ) ، والشعرانى بذل غالب جهده فى التوفيق بين أهل الشريعة وأهل الحقيقة ، وبذل غالب جهوده فى إدخال الحقيقة داخل الإطار الشامل للشريعة وأحكامها وقواعدها . بل إنه بذل جهوده ليضع الاختلاف فى فروع الأحكام موضع التنوع فى الأحكام وليس الاختلاف . فهو ينقل عن سفيان الثورى كراهة سفيان لمقولة «اختلف العلماء» ، ويقول قولوا توسع العلماء ، وينقل عن الشافعى أن أعمال النصين معا أولى من إبعاد أحدهما وينقل الشعرانى عن الديرينى والجوينى وابن جماعة أنهم كانوا يفتون الناس بما يناسب حالهم ، ولا سيما العوام الذين لم يلتزموا مذهبا معينا ولا عرفوا نصوصه ولاقواعده . ويقول الشعرانى «الحق الذى نفتقده أن سائر الأئمة رضى الله عنهم كانوا يفتون كل واحد بما يناسب حاله من تخفيف وتشديد» وانهم» لم يكونوا يعممون القول فى كل قوى وضعيف» ثم يجمع الآراء المتباينة فى نسق واحد ويخلعها من دائرة الخلاف ويغرسها فى مجال التآزر والترابط لقوله «إن مجموع المذاهب هو الشريعة بعينها وأن الشريعة لايكمل العمل بها لمن يتقيد بمذهب واحد» . وأن الآراء فى الأحكام تتراوح بين التشديد والتخفيف ولكل من المخاطبين ما يلائم حاله من حيث القوة والضعف ، قوة الجسم واليقين أو ضعف أى منهما . كما حدث فى بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، البعض بايع على المنشط والمكره وعلى المعسر والميسر ، والبعض بايع على الصلاة والصوم فقط .

كل ذلك أوثق رباط المسلمين وبدلا من الانقسام والمواجهة جرى التداخل والمعايشة ، وبدلا من الخلاف آل الأمر إلى التنوع . وبلغ الأمر فى هذا التداخل والترابط أن وجدنا التصوف يتغلغل فى أوساط الحنابلة وهم الأكثر تشددا ومحافظة ، وذلك فيما صنعه عبدالله الأنصارى الهروى (توفى ٤٨١هـ) وما كتبه عن «منازل السائرين الى الحق المبين» وما شرحه من بعد ابن القيم الجوزية فى «مدارج السالكين» مما كان له أثره البعيد فى فكر السلفيين.

(٥)

موضوع السنة والشيعة كان يمثل أيضا واحدا من أخطر المجالات الثلاثة التى تتهدد المسلمين بالانقسام، وإذا كان كل من مجالات التهديد بالانقسام الفكرى والعقدى السابقة، كان يمكن أن يستغل فى الصراعات السياسية لتزداد به الهوة ويعمق الخلاف ويؤول الى المحاربة، لولا أن الجهود الفكرية كانت أسرع فى رأب الصدع العقدى من أفاعيل صراعات السياسة، إذا كان ذلك كذلك، فإن موضوع الخلاف بين السنة والشيعة كان الجانب السياسى فيه أكثر بروزا فيه لأنه بعض من مكوناته الفكرية، ومن ثم كان الخطر بشأنه أدهى وأخطر.

لقد ظهر هذا الخلاف حول مسألة

الإمامة، وأهل السنة والشيعة وأن اتفقوا على وجوب الإمامة، إلا أن الخلاف ظل قائما حول طريقة الخلافة أو الإمامة، وأهل السنة يقولون باختيار الإمام أو الخليفة، والشيعة يقولون إن الإمامة لاتكون إلا بالنص وهى تجرى فى أهل البيت فقط بالنص عليهم وفقا لأقوال اعتمدوها فى ذلك، ويصاحب هذا الخلاف خلاف آخر يتعلق بالعصمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فأهل السنة يقولون بانتهاء العصمة بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام والشيعة يقولون بتوالى العصمة فى أهل البيت فيمن يتولون الإمامة بالنص لاحقا عن سابق.

وكل هذه المسائل لها وجه اتصال بأصول الدين، بل هى ظهرت أول ما ظهرت فى مسائل المتكلمين مما كان من شأنه أن يذكى الخلاف ويعمقه، لولا أن فقهاء السنة ممن كانوا يتحاشون البحث والجدل فى مسائل علم الكلام جذبوا هذه المسائل إلى مجال الفقه، وتعرضوا له فى مباحث أصول الفقه فى موضوع الاجماع بوصفه مصدرا للتشريع الإسلامى وبه جرى الاستناد إلى وجوب الإمامة. وجذبوها أيضا إلى مجال احكام الفروع فى الفقه من حيث البحث فى شروط الإمامة وتوليها وغير ذلك ..

وقد أدى ذلك إلى أمرين هامين، أولهما أن معالجة مسائل الإمامة ضمن فقه الفروع وضمن مسائل أصول الفقه، قد أبعدها عن مجالات أصول الدين بما لها من حساسية خاصة، ومن ثم هدأ الجدال العلمى حولها.

وثانى الأمرين أن ارتباط الأحكام الشرعية الخاصة بالسياسة والحكم، وارتباطها بعلم الفقه كفل لها قدرا من الاستقلال لأن علم الفقه نشأ ونما فى شبه استقلال عن الحكومات، ووقائع أئمة المذاهب، كما هو معروف ومشتهر فى تاريخهم، تكشف ماكانوا يتحلون به من روح الاستقلال، والبعد عن الدعوة السياسية لحكومة معينة أو إلى أمر بعينه، وهكذا نرى أبا حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل، فضلا عن سفيان الثورى، والأوزاعى، وغيرهم.

وإذا كانت سطوة الحكام فى العهود المتأخرة فرضت هيمنتها على علماء فقه ورجال العلم، فإن ذلك عاق العلماء عن متابعة بحوث السياسة والحكم أكثر مما أفسدها وجعلها خادمة لحاكم بعينه أو دولة بعينها، كما أن هذه السطوة لم تستطع أن تتغلغل الى صميم الأسس النظرية ومناهج البحث والتفكير ، لذلك عزفوا عن المتابعة أكثر مما ترددوا فى توليد النظريات والمناهج التبريرية، وبقى لهذا العلم، علم الفقه تطلعه النظرى الى العهد المثالى للخلفاء الراشدين وفيهم على بن أبى طالب رضى الله عنه الذى يرد إليه كل موقف الشيعة، هذا عن جهود أهل السنة.

ومن الجهة الثانية، جهة الشيعة، يظهر الدور الهام الكبير الذى قام به الإمام جعفر الصادق (توفى سنة ١٤٨هـ) وهو

عند الشيعة الإمام السادس من الأئمة الاثني عشر، ظهر قبله أبوه محمد الباقر وجده على زين العابدين وقبله الحسين والحسن وعلى رضى الله عنهم، وعرف فقه الشيعة الاثنى عشرية بالفقه الجعفرى، إذ أرسى أسسه المذهبية جعفر الصادق، وجعفر كان من تلامذته أبو حنيفة، وكثير من آئمة السنة يوثقونه والشافعي يقبل روايته للحديث، وكذلك يفعل علماء الجرح والتعديل مثل يحيى بن معين وأبى حاتم والذهبى وابن حنبل، وتتردد احاديثه فى كتب الصحاح.

وجعفر يتقبل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخير ويصرح بأنه يرجو الله سبحانه أن ينفعه بقرابته من أبى بكر الصديق ويقول «أبو بكر جدى»، يفعل ذلك مثل جده على زين العابدين، وهو بهذا الوضع يُنسب غالب فقه الشيعة إليه، والسنة عندهم تثبت عن طريقه فى الغالب من الأحاديث، وآراء الفقه فى أصول الدين وأصول الفقه وفى فروع المعملات العبادات يراها الناس منسوبة إليه فى الغالب الأعم منها.

هكذا يظهر مدى التداخل والبعد عن الشقاق والانكار المتبادل، فى هذا الجانب من جوانب فقه المسلمين وفكرهم، وهكذا عصم الله سبحانه أمته الإسلامية من هذا الانشقاق أن يصل إلى التحارب العقدى أو التكفير المتبادل، وسيطرت الوسطية من خلال فكر جعفر وفكر عمه زيد بن العابدين على الذى كان أقرب إلى فقه السنة، وقدر الله سبحانه وتعالى أن يظهر هذا الفقه ويكتسب مرجعيته التاريخية فى ظرف كانت الدولة الأموية تتهاوى والدولة العباسية لاتزال تحتاج المعين، فلم يتجه بطش الحكام إلى جعفر، وحسب هو امكانات الظرف الذى عاش فيه وقدر مايمكنه أن يغير منه لصقل فكر الشيعة الجعفرية وهم الغالبيةبين الشيعة.

ونحن نعرف من واقع خبرة التاريخ والواقع السياسى أن فترات نهايات العهود وفترات بدايات العهود، هى الأكثر ملاءمة للنشاط الفكرى ولترسيخ الأسس والمبادىء والأصول وإشاعتها، هى خير فترات التمتع بحرية الفكر والحركة وإرساء التقاليد .

(٦)

نلحظ مما سبق أن الفكر الإسلامى قد امتحن على مدى القرون الخمسة الأولى، فى هذه المسائل الكبرى: النص والرأى، الشريعة والحقيقة أى العقل والوجدان، السنة والشيعة، وأنه فى كل هذه الأمور خرج سليما فى شموله وقدرته على استيعاب التعدد، وفى قوة وسطيته على السيطرة على أطرافه وتوثيق العرى، وكان كل من الامتحانات السابقة يتعلق بنوع مخالف للنوعين الآخرين، وأثبت الفكر الاسلامى فى ذلك كله مرونة تحتمل التعدد، كما اثبت قوة وثاق تستوعب الاختلاف.

والسؤال الذى ينطرح الآن، يتعلق بماهية الخلافات الكبرى التى ثارت فى العصر الحديث، وماهى الوسطية المنشودة التى تقدر على لم الأطراف المتخالفة

وضمها فى وثاق واحد، ولايعنى ذلك الرغبة فى الوصول إلى رأى وحيد، فهذا لايبدو أن يتحقق ولا ينفعنا أن يتحقق، إنما يعنى تحويل الاختلاف إلى تباين فى الآراء فى المسألة المعنية، كما يعنى التعامل بأدوات الجدل والحوار لا بأدوات الصراع والمحاربة، وإذا أمكن بلوغ هذا الوضع، تكون الوسطية الاسلامية قد أثبتت قدرتها على احتضان المذاهب المعاصرة بين المسلمين.

ويبدو لى أن أهم ما يثور بشأنه الخلاف ويستدعي «الوسطية الإسلامية» لترأب الصدع فيه، هو الانفصام الذى ظهر - على مدى القرنين الماضيين، أو بالأحرى - المائة وخمسين سنة الأخيرة - بين أهل المحافظة وأهل التجديد، وكذلك ما ظهر بين أصحاب الإصلاح المؤسسى وأصحاب الإصلاح الفكرى، مما كنت تناولت الحديث عنه فى كتابات أخرى، ولكننى أشير إليه هنا بمناسبة موضوع الوسطية، وأجمل البيان بشأنه.

أما عن موضوع المحافظة والتجديد فى الفكر الإسلامى المعاصر، فأنا أقصد بالفكر الاسلامى المعاصر، التوجهات الفكرية الكبرى التى ظهرت وسادت فى العصر الحديث، أو الخطوط العامة لهذه التوجهات، كما أقصد بالمحافظة هذا الموقف الفكرى الذى يقصر نشاطه على الدفاع عن العقيدة الاسلامية وأحكام الاسلام والقيام على حراستها من التعديل أو التغيير، وأقصد بالتجديد هو التعديل والتحوير فى مجمل الأفكار الاسلامية، أو الاجتهادات التى ترد على الفكر الاسلامى متصفة بما يلى:

- انها تقوم مستندة إلى أصول الفكر الإسلامي ومصادره الرئيسية، وهى القرآن والسنة.

- انها تنتج باستخدام مناهج التفسير الأساسية المعتمدة أو السائدة فى هذا الشأن فهى تنشأ من داخل الفكر الاسلامي وتنمو فى أطره وتصوراته وتنتج بمادته وأساليبه فى البحث والاستخلاص.

- انها تستجيب للتحديات السياسية والاجتماعية التي تطرحها ظروف الواقع المعيش على الجماعة المسلمة فى مرحلة تاريخية محددة.

والحاصل أن المحافظة الفكرية الاسلامية صارت من معالم حركة المقاومة الفكرية والسياسية التى تقوم فى مواجهة ماتوغل إلى بلادنا من نفوذ الغرب السياسى والاقتصادى والثقافى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم كان للاحتلال العسكرى الغربى لمعظم بلادنا الغربية وخاصة البلاد الواقعة على شواطىء البحر المتوسط، كان لهذا الاحتلال الذى جرى فى السنوات الخمسين الواقعة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، كان لذلك ما اعطى للمحافظة الفكرية وظيفة مقاومة لهذا الغزو على الصعيد الفكرى، واننا لنلمح ايضا ذات الظاهرة إذا نظرنا إلى الفكر المسيحى الشرقى إذ صار دعاة المحافظة فيه من

معالم المقاومة المسيحية الشرقية ضد حركات التبشير المسيحى الغربى التى وفدت إلى بلادنا منذ منتصف القرن التاسع عشر.

وفى الوقت ذاته فإن حركة التجديد الفكرى والفقهى الاسلامى كانت لها دواعيها الملحة وذلك ليسعى هذا التجديد إلى أن يفتق فى فقه المعاملات الاسلامية مايمكن من الاستجابة الى ما طرأ على الواقع المعيش من تغيرات، وليمكن من الاستجابة إلى ظروف المقاومة السياسية والاقتصادية لما يواجه بلادنا ومجتمعاتنا من مخاطر الخارج، وكان من أهم مايستدعى التجديد فى الفقه الاسلامى الجوانب التنظيمية التى احتاجها المجتمع ومؤسسات الدولة لتستوعب حركة البشر المدنية فى ظروفها بالغة التعقيد التى طرأت على مدى القرن التاسع عشر، وكذلك التجديد فى فقه المعاملات تجديدا يتمشى ويتواكب مع ماجد فى البلاد من علوم وصنائع حديثة اقتضت إعادة تنظيم شاملة للمجتمع لجماعاته ولعلاقاته الاقتصادية والانتاجية.

والمشكل الذى طرأ فى هذه المرحلة، أو المعضلة التى قامت، هى أن كلا من الاتجاه المحافظ والاتجاه المجدد صارت له وظيفة إيجابية مطلوبة لحفظ الدين والثقافة الوطنية ولحراسة قوى الدعم والتماسك لدى الجماعة، ولكن ايا من التيارين لم يدرك فى بدايات هذا القرن أن التيار الآخر مطلوب وان الجماعة بحاجة إليه ولم يعرف أى منهما إلا وظيفته هو دون وظيفة الطرف الآخر، فتصارع التياران وتبدد الكثير من جهودهما فى عراك فكرى لم تغنم منه إلا المزيد من الضعف والوهن والحيرة التى تورث اللا أدرية.

ونحن نتلمس البحث عن صيغ الوسطية الاسلامية فى هذا المجال، الحديث، وأظن أن الجهود التى بذلتها حركة الفكر الإسلامى المواكب للنصف الثانى من القرن العشرين أمكنها أن تضع اسس الوسطية الاسلامية المبتغاة وأن تقترح نقطة التعادل بين المحافظة والتجديد واقصد بهذه الحركة الجيل الذى نرى من علاماته المضيئة فى حضارنا الإسلامى المعاصر ،فضيلة المرحوم الشيخ محمد الغزالى، وفضيلة الشيخ يوسف القرضاوى أطال الله عمره. وجماعة لا استطيع أن أحصيها عددا من المفكرين الإسلاميين المعاصرين.

لذلك فإننا نلمح معالم الوسطية الاسلامية تتحدد وتتشكل فى هذا المجال ونتفاءل بها خيرا.

(٧)

والمجال الثانى الذى يبدو لى مهما فى العصر الحديث هو ما ظهر بين أصحاب الإصلاح المؤسسى، وأصحاب الإصلاح الفكرى على مدى القرنين الأخيرين.

والحاصل هنا أنه مع نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وجدت حركتان، فى بلادنا الإسلامية، حركة إصلاح ونهوض فكرى ظهرت فى



أطراف العالم الإسلامى، شرقه وجنوبه وغربه، وهى اتجاهات متعددة ومتنوعة فى المذهب والمنشأ ولكنها يجمعها جميعا أنها تعود إلى الأصول الإسلامية الرئيسية وهى القرآن والسنة، وأنها تطرح التعصب المذهبى جانبا، وأنها تتخفف من آثار المبالغات الصوفية بالنسبة للأولياء والتوسل بهم ، وتطرح ما شاع من هذه الآثار.



وفى المرحلة ذاتها كانت الدول الاسلامية تعانى من مخاطر الغزو الأجنبى الوافد من أوربا وقتها، سواء عن طريق الإمبراطورية الروسية التى توغلت فى أراضى المسلمين عبر الدولة الفارسية والدولة العثمانية، أو عن طريق الإمبراطورية البريطانية التى توغلت فى الهند وسارت منها شمالا تهدد بلاد المسلمين، أو استعمار هولندا لجزر الهند الشرقية فى جنوب شرقى آسيا، أو فى سعى فرنسا لاحتلال الساحل الأفريقى الشمالى المواجه لفرنسا، أو غير ذلك، وكل ذلك أيقظ فى القادر من حكومات العالم الإسلامى مشاعر الصحوة وطلب التجدد المؤسسى والتنظيمى لابنية الجيش والدولة والإدارة والتعليم من أجل إعادة البناء ومن أجل حشد القوى للتصدى لهذه المخاطر.

ونحن نعلم أن حركات الإصلاح فى العادة، إنما تبدأ حركات إصلاح فكرى تتحدد بها التصورات والمشاريع المطلوبة والتى تطرأ الحاجة إليها، ثم بعد أن يتبنى الفكر الإصلاحى جماعة أو جماعات مؤثرة تتمأسس حركة الإصلاح الفكرى أى تتحول الى التكوين المؤسسى التنظيمى سواء عن طريق جهاز الدولة والحكم أو عن طريق تكوينات تنظيمية سياسية أو اجتماعية جديدة تنشأ انشاء لتحقيق هذه المشروعات ، ثم بعد ذلك يجرى تحقيق الإصلاح فى الواقع الاجتماعى السياسى القائم.

ولكن الحادث أن الأمر لدينا فى الفترة التى أتحدث عنها لم يجر فقط مغايرا لهذا التسلسل ولكنه جرى بالمخالفة والمعارضة له، فإن الدول التى أجرت حركة الإصلاح المؤسسى فى تكويناتها العسكرية والإدارية، وبخاصة فى استامبول والقاهرة، كانت تتأيد بقوى المحافظة الفكرية السائدة لديها وتترابط بها، ولذلك فقد وقع الصراع الذى بلغ حد المحاربة فى هذا الوقت، بين حركتى الإصلاح المؤسسى والفكرى.

والمشكلة أو المعضلة التى قامت، ان كلتا الحركتين مطلوب وكلتاهما تحتاجه الجماعة فى ظرف تاريخى حرج، ولكنهما لم يتعاونا ولم يغذ بعضهما بعضا، إنما تحاربا، وكان من نتائج هذا الوضع أن النظم السائدة والدول الحاكمة على المدى التاريخى الممتد عبر القرن التاسع عشر، افتقدت التصورات الفكرية المرجعية، وهى تقوم بعمليات التجديد التنظيمى والمؤسسى فى المجتمع، وصارت فاقدة

المناعة تجاه ما تلبس بنماذج التنظيم الآتية من الغرب من مرجعيات وثقافات وضعية غريبة تتعارض مع المرجعية الإسلامية السائدة لدى الجماعة، ولدى العاملين فى الدولة أنفسهم. ومن هنا آل الأمر إلى صراعات فكرية وسياسية ذهبت سجالا، حتى يومنا هذا ولم يظهر بعد إمكان بلوغ الوسطية فى هذا المجال.

(٨)

أقول قولى هذا واختم به حديثى، داعيا الله سبحانه أن يوفقنا إلى بلوغ نقطة التوسط ، أى نقطة التوازن فى مجال العلاقة بين أصحاب الإصلاح المؤسسى وأصحاب الإصلاح الفكرى الإسلامى.

ونحن عندما نتغيا هذه الغاية، إنما نتفاءل خيرا ببلوغها فى المستقبل إن شاء الله، فالنسيج الإسلامى فى مصادره وأصول شرعيته الأولى، نسيج قوى ومرن، كما أن تجارب تحقيق الوسطية فى ظروف الماضى، قدر الله لنا أن تنجح، وأن يقوم بها رجال تركوا لنا مناهج نتعلم منها الكثير على ما مر بنا فى هذا الحديث، وأجمل بعضها فيما يلى.

- ان نقيم الوسطية لا بالمصالحة الفجة أو التلفيق الفكرى، ولكن نقعد القواعد ونضع المناهج كما فعل الشافعى فى شأن تقعيد مناهج استخلاص الرأى و تقعيد مناهج تحقيق النصوص.

- أن ندخل المصالح فى إطار النصوص كما صنع الإمام الطوفى، وندخل النصوص فى قلب المصالح والمقاصد كما صنع الشاطبى، فلا تكون المصالح والنصوص متعارضة أو متواجهة من خارجها وإنما تكون متداخلة تشكل معانى مشتركة.

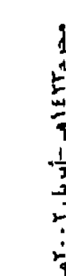
- أن نوجب على الجميع الالتزام بالمرجعية الإسلامية ثم نترك له التحرك بين الآراء والمذاهب والاجتهادات فى إطار ماتسعه المرجعية الإسلامية وأوامر الدين ونواهيه، كما فعل الجنيد.

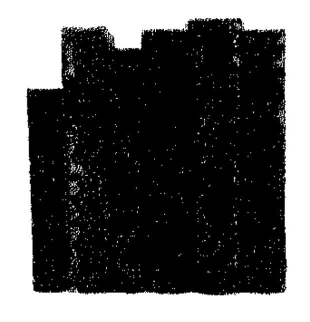
- إنه فى إطار ما تسعه المرجعية الاسلامية، نحول الخلاف والانقسام إلى تنوع وإلى بدائل، ووجهة نظر تحتمل الصواب والخطأ، مادامت هذه الوجوه من النظر مما تسعه وتحتضنه المرجعية الإسلامية، ومادامت هى وجوه نظر تقر بانتمائها إلى هذه المرجعية ونعتبرها هى الاسلام، فلا يقتصر على بعضها دون البعض، كما ذكرنا بذلك الشعرانى.

- ان نترابط بعلاقات الحوار الهادىء البناء الذى يفيد أن تتغذى الآراء المتباينة بعضها ببعض وتغتنى بهذا الحوار ولاتتنافى، كما نرى فى علاقة جعفر الصادق وابى حنيفة النعمان بن ثابت.

وغير ذلك مما تستدعيه الحاجة الحاضرة من تجارب التاريخ، وما يتفتق عنه الوعى المؤمن المحب لدينه ووطنه.

ألهمنا الله الرشاد .. والحمد لله. ■



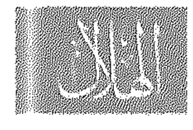


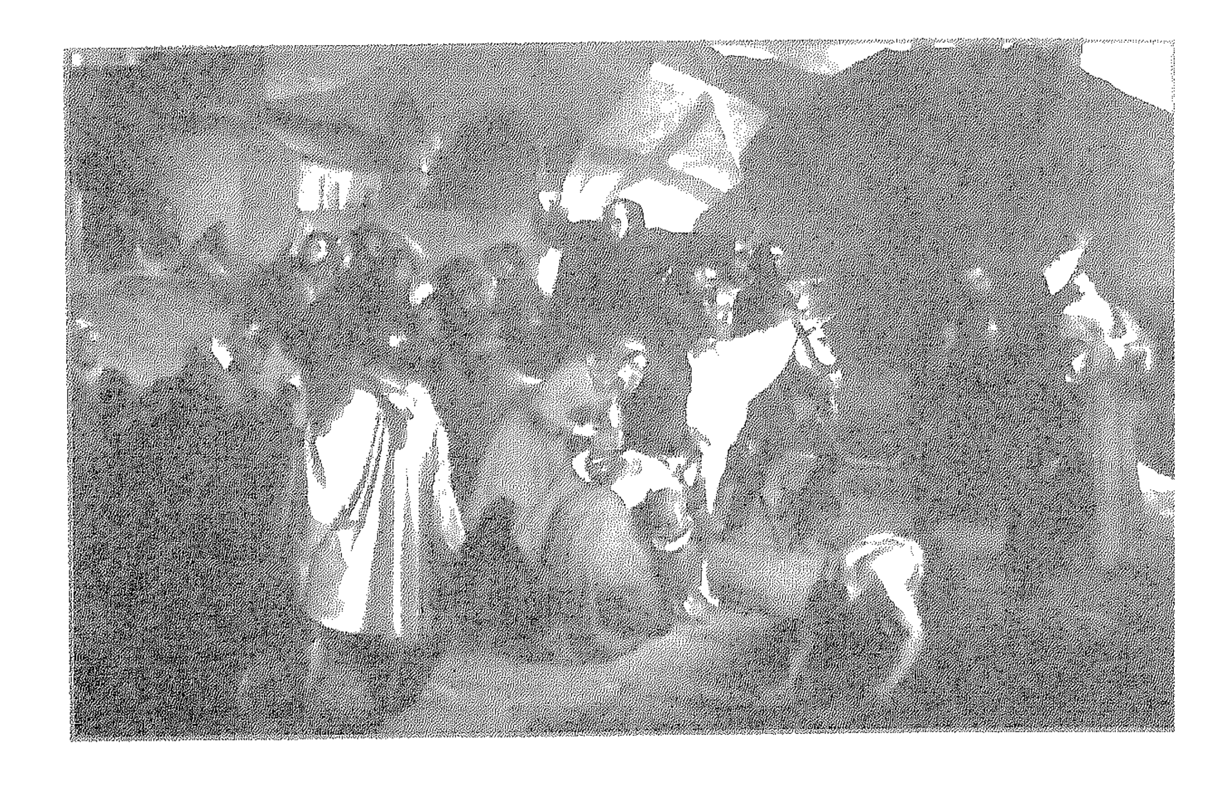
من ذخائر المكتبة العربية

كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ

بقلم
حسين أحمد أمين

فى عدد أول ديسمبر ١٩٨٧ من مجلة «الهلال» نشرت قائمة بما أعتبره أهم مائة كتاب فى التراث العربى القديم، وقلت إن من أهم الأهداف التى يجب أن تتوخّاها أية محاولة لإصلاح نظم التربية والتعليم فى العالم العربى، هو أن يستردّ شباب أمتنا احترامهم لتراثهم الفكرى، والرغبة فى الاستزادة من الإطلاع عليه، والقدرة على النظر فيه. فلو أن حكومة من حكومات دول النفط العربية تبنّت مشروعا كمشروع «Great Books of the Wesern World» (الذى نهضت به دائرة المعارف البريطانية وأصدرته فى أربعة وخمسين مجلدا تضم أعمال مؤلفين من هوميروس إلى فرويد)، وشكّلت لجنة من عشرة أو عشرين من العلماء المتبحّرين فى التراث العربى، المدركين مع ذلك لطبيعة ذوق شباب أمتنا المعاصر، فانتقت بعد النقاش والفرز وتمحيص الآراء المختلفة أعظم مائة كتاب من المؤلفات العربية منذ امرىء القيس إلى الجبرتى.



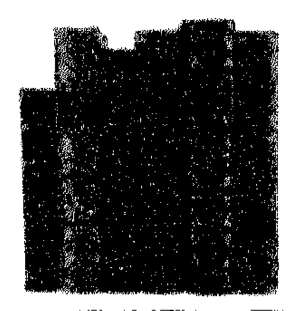


واستبعدت من هذه الكتب المائة الغث الكثير الذى تحفل به كتب عظيمة كأغانى أبى الفرج، وأبقت على بعضها الآخر بصورته الكاملة، كمقدمة ابن خلدون، «وحى بن يقظان» لابن طفيل، و«فصل المقال» لابن رشد، ونشرتها فى خمسين أو ستين مجلدا أنيقا بسعر فى متناول أبنائها، لأسدت بهذا الصنيع خدمة جليلة لأبناء جيلنا والأجيال التالية، إذ تصل بينهم وبين ماضيهم وياحبذا لو تبع ذلك ترجمة كاملة لمجلدات مجموعة «أعظم كتب العالم الغربى» فيجمع شبابنا بين الحُسْنَيين، وتكون المجموعتان قد أسهمتا فى إقامة الجسور الفكرية بين الحضارات، فى زمن أصبح من أهم معالمه واحتياجاته ضرورة إحلال الحوار بين الثقافات محل التصارع والتناحر.

واليوم، وبعد مرور أكثر من أربع عشرة سنة على نشرى لهذا الاقتراح الذى لم يستجب له أحد، أتناول بالحديث أحد كتب التراث العربى التى أوردتها قائمتى، وهو «كتاب الاعتبار» الذى ألفه أسامة بن منقذ إبان أشهر حقب الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وأعنى حقبة الحروب الصليبية.

من هو أسامة بن منقذ ؟

ولد الأمير أسامة بن منقذ بمدينة شَيْزَر شمالى حماة عام ١٠٩٥م ، (أى قبل نشوب الحرب الصليبية الأولى بعامين)، وتوفى فى دمشق عام ١١٨٨ عن ثلاثة وتسعين سنة، بعد استعادة

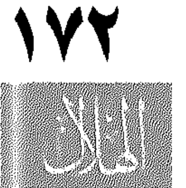



صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس بعام واحد. وهو من عائلة من أشراف الشام، قضى معظم سني شبابه فى بلاط نور الدين محمود بدمشق، وفى قصر الخليفة الفاطمى الحافظ بالقاهرة. وقد مهّد له غرامه بالصيد وبقرض الشعر السبيل إلى التقرب من الملوك والسلاطين المسلمين، بل وكان طيلة حياته على صلات مستمرة بقادة الفرنج وملوكهم، من أمثال بوهيموند وتنكرد وفولك، يخاطمهم حينا، ويصادقهم حينا، ويشترك فى الحرب ضدهم، وفى الخروج لصيد الأسود وسائر الوحوش معهم، وقد كان فى صدر شبابه يتصيّد مع عماد الدين زنكى أتابك الموصل وحلب، فلما قتل بات يشترك مع نور الدين بن زنكى فى حملاته ضد الصليبيين، ثم اتصل فى السنوات الأخيرة من حياته بالسلطان صلاح الدين الذى قرّبه وغمره بعطفه.

كان خير مثال للفروسية الإسلامية العربية، فهو الفارس الشهم، الصياد الماهر، المجاهد المقاتل، الأديب الشاعر ، والرحالة بين معظم العواصم الإسلامية. سمّاه الذهبىّ «أحد أبطال الإسلام»، ووصفه ابن الأثير بأنه «كان من الشجاعة فى الغاية التى لا مزيد عليها»، وتحدّث هو عن نفسه فقال: «كم لقيتُ من الأهوال، وتقحمتُ المخاوف والأخطار، ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضُربت بالسيوف، وطُعنت بالرماح، وجُرحت بالسهام».. وهو إلى جانب ذلك يحفظ أكثر من عشرين ألف بيت من الشعر الجاهلى، قوىّ النثر والنظم، قضى عشر سنوات يدرس النحو على يد أبى عبدالله الطُّلَيْطلى المشهور بسيبوية زمانه، فضلا عن دراسة القرآن والخط والشعر.. جمع من الكتب ما لا يقل عن أربعة آلاف مجلد من الكتب الثمينة، وانصرف فى السنوات الأخيرة من حياته الطويلة إلى التدريس فى المدرسة الحنفية بدمشق، وإلقاء المحاضرات فى البديع، وتأليف نحو ثلاثة عشر كتابا وصلتنا أسماؤها، وبعضها بين أيدينا، ككتاب «المنازل والديار» و«كتاب العصا»، و«لباب الآداب»، وديوان شعره، ثم كتابه الخالد «الاعتبار»، وهو الذى نحن بصدده الآن.

بين أسامة والجبرتى

«كتاب الاعتبار» هو السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ، وهو عبارة عن مذكرات لها أهمية فريدة خاصة بين المصنفات العربية، إذ تقدم لنا صورا قوية حية للعصر الذى عاش فيه أسامة حالتى الحرب والسلم، ولقرن كامل كاد أن يشهده من أوله إلى

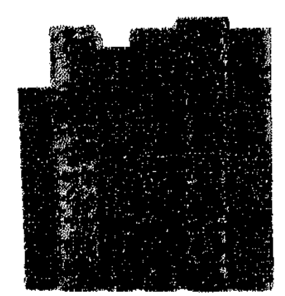


آخره، وهو القرن الأول من الحروب الصليبية، وهو يحوى أقاصيص ممتعة، وروايات عن صلاته بالفرنجة أثناء القتال وفى أوقات الهدنة والسلام، على نحو نلمس فيه مشاعر العداء والألفة وحب الاستطلاع جنبا إلى جنب.

لقد خلف لنا كل من أسامة فى «كتاب الاعتبار»، والجبرتى فى «عجائب الآثار» صورتين بالغتى الأهمية والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين عاصراهما، وقد جمع بين الحدثين أنهما يمثلان عدوانين أوروبيين مفاجئين على الشرق، وأن العدوانين فتحا عيون كل من أهل الشرق وأهل الغرب، على حد سواء، على أوضاع غير مألوفة البتّه فى حياة الطرف الآخر. غير أن القرون السبعة التى تفصل بين الحدثين كانت قد شهدت من التطورات الهائلة هنا وهناك ما جعل الصورتين تختلفان اختلافاً جوهريا فى خلفيتهما الحضاريتين.

فأما ما شهده الأمير الشاعر فالشطر الأول من الحروب الصليبية على الشام. وبالرغم من أن الشعوب الإسلامية فى وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفرقة، واستنزفت طاقاتها الحروب فيما بينها، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى فى مجالات شتى من النظم الحضارية فى الغرب. وكان بوسع أسامة أن ينظر إلى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء، وأن يصفهم بأنهم «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما فى البهائم فضيلة القوة والحَمْل»، وأن يقول إن «كل من هو قريب العهد (منهم) بالبلاد الافرنجية أجفى أخلاقا من الذين عاشروا المسلمين»، «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة»، وأن «طبهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطب العربى»، و«محاكماتهم غبية غريبة». وهو مع ذلك يدعو الفرسان الداوية Templars «بأصدقائى»، ونسمع صديقا إفرنجيا له يدعوه «بأخى»، ويرجو أسامة أن يسمح لابنه «مرهف» بأن يرافقه إلى بلاده يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل». فيتعجب أسامة من غباء الرجل ومن كلامه الذى «ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابنى لو أُسر ما بلغ به الأسْرُ أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج»!

وأما ما شهده الجبرتى فسنوات الحملة الفرنسية على مصر، وهو فى نظرته إلى الإفرنج وعاداتهم ليس أقل وقارا من أسامة، وليس بأخفّ حدّة فى استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم . غير أننا نتبين مع هذا اختلافا كبيرا بين موقفيهما.. إن كل ما يستنكره الجبرتى من الفرنسيين إن هو ناجم فى رأيه عن «كُفرهم»، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق، بينما يجد وقاره إزاءهم سندا له فى إيمانه بأنه من أهل هذا الدين. أما أسامة، فهو وإن نعت الإفرنج بالكفرة، واستنزل عليهم لعنة الله، فإن وقاره




حيالهم منبثق إلى حد كبير عن تفوّق حضارة قومه.. كان بوسع الجبرتي أن يحتقر إقبال الفرنسيين على شرب الخمر، وأن يستنكر سفور نسائهم وقلّة حيائهن. غير أنه لم يعد بالوسع أن يصفهم بالبهائم، أو أن يقول إن محاكماتهم غبية، وطبهم ساذج. بل أصبح إذا رأى سلعة مصرية جيدة الصنع يقول إن من يشاهدها لا يشك فى أنها صنع الإفرنج، وأن من يذهب إلى بلادهم «تهذبت آخلاقه بما أطلع عليه من عمارة بلادهم، وحسن سياسة أحكامهم، وكثرة أموالهم، ورفاهيتهم وصنائعهم، وعَدْلهم فى رعيتهم مع كفرهم».. لقد شهدت القرون السبعة انقلابا فى الأوضاع وتغيّرا فى الموازين. وعاد الإفرنج الذين بهرهم فى عصر أسامة ما أنجزته حضارة الإسلام، واقتبسوا منها ما راوه جديرا بالاقتباس، عادوا بعد تلك القرون السبعة إلى الشرق، ناظرين إلى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا إلى قبائل البدائيين، أو نظرتهم إلى البهائم .

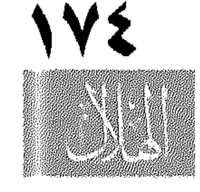
ثم نعود إلى «كتاب الاعتبار»:

«كتاب الاعتبار»

بعد أن جاوز أسامة بن منقذ التسعين شرع يطل من ذلك العلو الشاهق على ما شهده من أحداث، ومحاولات استقاء الدروس والعبر مما عاصره من تجارب، وهذه هى علّة تسمية الكتاب بكتاب الاعتبار، ولعل أسلوبه الساذج العادى فى هذا الكتاب رغم ما تشهد به كتبه الأخرى من رصانة فى الأسلوب واللغة، راجع إلى تقدمّه فى السن ، فهو يقول :

إذا كتبتُ فخطي جِدُّ مضطربٍ
كخطّ مرتعش الكفَّيْن مرتعد
فاعجبْ لضعف يدي عن حَمْلها قَلَمًا
من بعد حطْمِ القنا في لبَّة الأسد !

ومع ذلك، ورغم كثرة كتب السِّير فى التراث العربى، وفى عصر أسامة بالذات، ككتاب «الفتح القدسى» للعماد الكاتب، و«النوادر السلطانية» لابن شداد، و«كتاب الروضتين» لأبى شامة، فإنها بأسرها تتضاءل أمام هذه السيرة الذاتية لأسامة، لا نكاد نستثنى غير «سيرة المؤيد فى الدين بقلمه». غير أنه لابد لنا من أن نقر بأن



السبب الرئيسى فى تمتع سيرة أسامة بما تتمتع به اليوم من حظوة فى الشرق والغرب معا، هو حيوية الصورة التى تقدّمها لذلك اللقاء النادر بين الحضارتين الإسلامية والغربية فى عصر من أهم عصور التاريخ، وطرافة الملامح التى يضيفها على الصورة.

وأسوق هنا مثلين من الكتاب حتى يرى ما أعنيه من لم يكن له حظ قراءته:

ليس لدى الإفرنج غيرة جنسية

ليس عند الإفرنج شىء من النخوة والغيرة.. يكون الرجل منهم يمشى هو وامرأته، فيلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوّلت عليه، خلاّها مع المتحدث ومضى !

ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له مُعزّ، يقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، فجاء الإفرنجى يوما فوجد رجلا مع امرأته فى الفراش.

فقال له : أى شىء أدخلك إلى عند امرأتى؟

قال : كنتُ تعبان ، فدخلتُ أستريح.

قال : فكيف دخلتَ إلى فراشى؟

قال : وجدتُ فراشا مفروشا فنمتُ فيه.

قال : المرأة نائمة معك.

قال : الفراش لها، أكنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟!

قال الزوج : وحقّ دينى إن عدتَ فعلت هذا تخاصمت أنا وأنت.

فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته!

ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمّامى (أى خادم بالحمام) يقال له سالم فى حمّام لوالدى رحمه الله . قال :

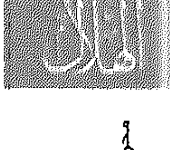
فتحتُ حمّاما فى معرّة النُّعمان أتعيش منه، فدخل إليها فارس من الإفرنج، (وهم يُنكرون على من يشدّ فى وسطه المئزر فى الحمام). فمدّ يده فجذب مئزرى من وسطى ورماه ، فرآنى وأنا قريب عهد بحلْق عانتى، فمد يده إلى عانتى وقال:

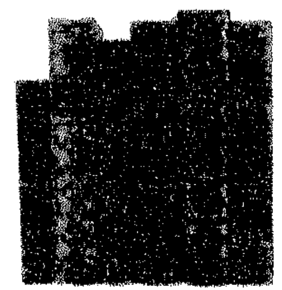
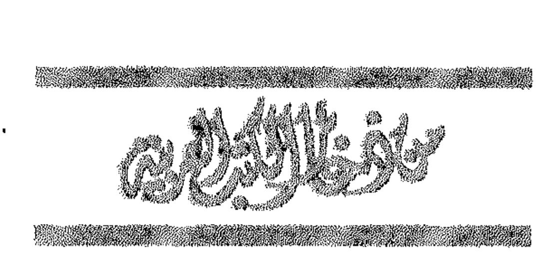
– سالم ! جيّد ! وحقّ دينى إعمل لى كذا.

واستلقى على ظهره، وله مثل لحيته فى ذلك الموضع . فحلقته، فمرّ يده عليه وقال :

– سالم ! بحق دينك إعمل للدّاما (والدّاما بلسانهم «الستّ»)، يعنى امرأته.

وقال لغلام له:



- قل للدّاما تجيء.

فمضى الغلام أحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها . وقال:

- إعمل لها كما عملت لي .

فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني، ووهبني حقّ خدمتي!».

عجائب طب الفرنجة

«من عجيب طب الإفرنج أن صاحب المُنَيْطرة (بلدة شمالي لبنان) - وهو منهم - كتب إلى عمّي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه. فأرسل إليه طبيبا عربيا نصرانيا يقال له ثابت. فما غاب عشرة أيام حتى عاد . فقلنا له:

- ما أسرع ما داويت المرضى!

قال : أحْضَروا عندي فارسا قد طلعتْ في رجله دُمّلة، وامرأة قد لحقها مرض عقلي. فعملت للفارس لبيخة، ففتحت الدملة وشفيت. وحميتُ المرأة ورطبتْ مزاجها .. ثم جاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم:

- هذا ما يعرف شيئا، يداويهم؟

وقال للفارس : أيمّا أحبُّ إليك : تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين؟

قال . أعيش برجل واحدة.

قال : أحضروا لي فارسا قويا ، وفأسا قاطعا.

فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة خشب، وقال للفارس · اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة تقطعها.

فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة، فما انقطعت. فضربه ضربة ثانية فسال مخّ الساق، ومات من ساعته.

وأبصر المرأة فقال : هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها.

فحلقوه. فأخذ الموسى، وشق رأسها صليبا، وسلخ وسطه، حتى ظهر عظم الرأس، وحكّه بالملح، فماتت في وقتها.

فقلت لهم : بقي لكم إليّ حاجة؟ قالوا : لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه! ■

ملاحظات حول

لن تسقط القدس


شريف الشوباشي


نور الشريف

عندما تلقيت دعوة «هلال الفكر» لأكتب عن مسرحية «لن تسقط القدس» توجست الأمر وخشيت أن أخوض هذه المغامرة التى قد تكون غير محمودة العواقب .. فما أنا بناقد مسرح، فلماذا أتصدى لنقد مسرحية جميع المشتغلين بها زملاء مهنة، وعلى رأسهم فنان كبير تخرج معى فى الدفعة نفسها .. ونحن فى زمن تضيق فيه الصدور بالنقد ولاتتسع حتى لو كان هذا النقد عادلا أو كان موضوعيا..

بقلم
عبد العزيز مخيون



وعالم الفن في بلدنا باتت المعايير والأحكام فيه شخصية وليست موضوعية: هذا يحب ذاك وذاك يكره هذا وفلان خفيف الدم والآخر ثقيله وأسلوب المجاملات المزيفة والمصالح المتبادلة هو الذى يسود .. فأخذت أفكر فى الاعتذار نعم أنا لست ناقد مسرح .. ولكن المسرح حرفتى فعدت ألوم نفسى وأقول ماذنب المسرح وماذنب الكلمة فى أن تحبس بين الجوانح . تمنيت العون من الله وقررت أن أقول كلمتى وأرجو أن أوفق فى اختيار الكلمات التى لاتغضب أحداً أو تثير حفيظة زميل عزيز.

ذهبت لمشاهدة «لن تسقط القدس» فى تلك الليلة وكنت قد رأيت فى أنباء ذلك المساء أشلاء الشهيد البطل القنبلة البشرية المباركة التى تفجرت فى حافلة ركاب إسرائيلية .. ورأيت الجنازة



نور الشريف في احد مشاهد المسرحية

هل يكرر التاريخ نفسه؟.. فقد اختار الكاتب مرحلة سقوط القدس.. ولكن القدس حررها صلاح الدين بعد ذلك

المهيبة لستة من الشهداء الأطفال بينهم زوج المجاهد حسين كويك (منظمة حماس) وأطفاله الثلاثة .. رحمهم الله جميعاً ... ورأيت رجلا يقبل طفلا شهيداً في الكفن قبيل أن يوسده القبر، فسرت رعدة في جسدي وتفجرت الدموع في عيني..

فماذا يمكن أن يقدم لنا الفن بعد كل هذا؟

في الصباح والمساء تجتاحنا المشاهد الجنائزية للشهداء ونرى رأى العين مذابح شارون واغتيالاته الوحشية لخيرة من أنجبت العروبة في عصرنا من أبناء .. حتى ليخيل للمرء أنه من كثرة ماشهدنا

من دمـــــاء تراق أن مــــلابسنا وأطرافنا أصـبـحت مـبللة بـهذا الدم الذكى المراق على أرض فـلـسـطـين الطاهرة .

لن تسقط القدس

فـأى فن يعبـر عن هذا أى كلمـات وأى انفعالات وأى حركة وأى موسيقى وغناء وأضـواء وأى حناجر وأى وجدان .. لابد أن تكون كل أدوات التعبير هذه ملتهبة حية صادقة متألمة باكية مجروحة هى الأخرى تنزف وتستصرخ وتقاوم . أليس كذلك؟

لنكن على مستوى الحدث الذى تعيشه الأمة وتراه كل يوم رأى العين على شاشة التلفاز وفى صور الصحف والمجلات .. هذه قضيتنا وهذا مصيرنا ووجودنا نفسه الذى بات مهددا فكيف نعبر عن قدسنا عن أولى القبلتين وثانى المسجدين وثالث الحرمين .. ها هو بيت المقدس يداس بنعال الصهاينة وتضرم فيه النيران وتسفك فيه الدماء فكيف تعبرون عن فجيعة العصر أيها المسرحيون؟!

المنظر المسرحى

قاعة مسرح الجمهورية الفاخرة وعلى مقاعدها الوثيرة جلس مايقرب من أربعين متفرجا ينتظرون بداية العرض الذى تأخر ربع الساعة عن موعده المقرر أملاً فى قدوم المزيد من المتفرجين ... خشبة المسرح مكشوفة بلا ستار والمتفرجون ينتظرون وينظرون إلى نصف قبة ذهبية تكاد تختفى وراء ثلاثة مستطيلات خشبية بيضاء مشدودة إلى أعلى بالحبال وعندما تتدلى الحبال تنزل المستطيلات الخشبية وتتحول إلى درج يرتفع ليصل إلى القبة وهى بكل تأكيد قبة الصخرة .. ستائر سوداء تحيط بالمنظر من اليمين واليسار والخلف ... وأسفل القبة فراغ مظلم بارتفاع حوالى المتر فى مستوى نظر المتفرج . هذا هو المنظر الواحد الثابت طوال المسرحية والذى يشكل الملمح الرئيسى للرؤية البصرية فى هذا العرض . القبة وملحقاتها من ألواح الخشب والدرج أكلت ، أو سدت مساحة الفراغ فأثرت تأثيرا سلبياً على الأداء الحركى للممثلين، فكيف يتحرك الممثل ويعبر بجسده كيف يستمتع المتفرج برؤية حركة الممثل فى فراغ المسرح وقد سدت أهم وأقوى مناطق الرؤية على الخشبة سدت بكتل صماء وأحيطت الجوانب



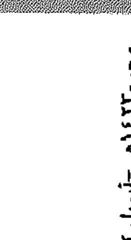
بسواد حالك يمنع عين المتفرج من ان تسترسل وتنطلق لترى امتداد المنظر أو لترى تعدد الألوان والأشكال فى الصورة المسرحية .. راحت العلاقة بين الكتلة والفراغ لم يعد هناك فراغ وفقد المنظر المسرحى الواحد الثابت أهم عناصره الجمالية وهى العلاقة الدائمة والمتحركة بين الكتلة والفراغ «الكتلة والفراغ قاعدة أساسية قديمة فى جماليات العرض المسرحى».

المهمة الصعبة

أعرف أن مهمة المخرج والممثلين تبدو عسيرة وصعبة مع نص مسرحى كهذا يعانى من ضعف البناء الدرامى وشخصياته غير محددة الأبعاد ولا يحتمل بداخلها صراع قوى .. إلا أن المؤلف أعطانا حالة وعصرا وموقفا : مدينة مقدسة محاصرة وعلى وشك السقوط فى أيدى الأعداء وقائد أعزل مهزوم من داخله يلوذ بالعرافين والمنجمين ويعتمد على جيش بعيد لا يأتي أبداً ، ومجموعة من الجنود يصرون على المقاومة وجموع من الشعب تبحث عن منقذ .

هنا تتضاعف مهمة المخرج والممثل لتجسيد هذه الحالة بعناصر العرض المسرحى .. يعنى يكون الرهان أو الاعتماد على فن العرض وليس على فن النص ، مستفيدا من الواقع الحى المعاصر ومستفيداً من الشحن الاعلامى المستمر فى وجدان ووعى المتفرج، وبالطبع سوف تكون أدوات التوصيل الأساسية هى الممثل والمغنى ويكونا الممثل والمغنى هما عنصرا التأثير الرئيسان فى عملية تعبير مسرحى كهذه يبدأ تأثير الممثل فى المتفرج من لحظة دخوله ويتضاعف هذا التأثير أثناء المشهد ويتأكد عند لحظة خروجه من المشهد هذه الميزة المهمة فى التأثير على المتفرج تلاشت فى هذا العرض فمن أين يدخل الممثل ومن أين يخرج والستارة السوداء تغلف المكان وتحيط بالمنظر كيف يتحدد ويتأكد دخول أو خروج الممثل وليس هناك باب أو طريق أو ممر أو بؤرة ضوئية يبدأ منها الدخول وينتهى إليها الخروج.. وإنما ساحت المسألة فكنا فجأة نرى الممثل يأتى من ظلام أسود أو يدخل من مناطق رؤية ضعيفة فيكون حضوره باهتاً ذلك لأنه فقد أهم عنصر فى عملية الدخول والخروج (نقطة البداية والانطلاق) وينطبق هذا تماماً على معظم دخلات عفاف راضى.

ولذلك فقدت هذه المسرحية أهم ميزات العرض المسرحى وهى حسن الاستهلال وبراعة التقديم «الدخول والخروج قاعدة



أساسية قديمة من قواعد العمل المسرحى حديث أو قديم، تجريبى أو تقليدى».

خسر الممثل والمخرج معا ما كان يمكن أن تقدمه الأزياء من تأثير وقد أحسن تصميمها وصنعها دكتور محمود مبروك - خسارة هذه الألوان المتناسقة والتصميم المعبر الذى يتميز بالاجتهاد فى الجمع بين تناغم الألوان ومحاولة تصوير العصر والتاريخ ثم الايحاء بملامح الشخصية .. ولنا أن نسأل كيف تكون الأزياء واقعية فى ديكور غير واقعى المسرح فن التجانس والتناغم والانسجام ووحدة عناصر التعبير لاتنافر عناصر التعبير أليس كذلك؟

وإذا ألبسنا الشخصيات هذه الأزياء الرائعة «الكلاسيكية إن جاز التعبير» أما كان ينبغى أن يستتبع هذا الأسلوب فى الأداء التمثيلى، نعم هذا ضرورى .. فالشكل الذى فرضته الأزياء التاريخية يفرض أسلوبا فى الأداء التمثيلى يتجسد فى العناية بالإلقاء والاهتمام بالرنين الصوتى والجرس والايقاع .. ولكن على العكس استمعنا إلى إلقاء عادى يقترب من لهجتنا المحلية المعاصرة والمفروض أن نجتهد ونحاول أن نذهب إلى هذا الزمن البعيد ونصور ايقاع الكلام والحديث فيه ..



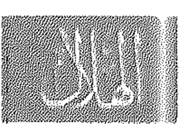
لقد استمعنا إلى ممثلين صوتهم يفتقد الرنين والرخامة وبينهم ممثلون كبار كان النفس لايصل بهم إلى نهاية الجملة .. هذا النوع من المسرح يتطلب «الصوت المتربى» بمعنى تدريب الصوت وتربيته ليكون قادراً على توصيل وأداء الجمل الطويلة وليحسن أداء الفصحى بتوقيع الكلام فأداء العربية الفصحى عملية ليست سهلة يتصدى لها ممثلون مدربون قادرون على ضبط التنفس واستخدام الصوت فى طبقاته المرتفعة والمنخفضة والانتقال بين طبقاته المختلفة فى مرونة وسهولة ويسر أين ذهبت دروس الالقاء فى معهد الفنون المسرحية؟ هل نسينا هذا التراث فى المسرح القومى هل ننسى أحمد علام وحمدى غيث وعبدالله غيث وصلاح سرحان وأنور إسماعيل بل ومازال عندنا أشرف عبد الغفور ومحمد وفيق وغيرهما .. هذا النوع من المسرح يحتاج من الممثل إلى قدرات وامكانات أخرى ليس من بينها النجومية ربما يكون للنجومية سحرها على شاشات السينما

والتليفزيون وربما يكون لها بريقها فى بعض المسرحيات المحلية .. ولكن «مسرح القدس» يريد من الممثل بالاضافة لما سبق وذكرنا عن تقنيات الأداء أن ينغمس فى القضية ويتبناها روحياً .. لأننى أراه أمامى وعلى بعد متر واحد فأرى خلجاته وقسمات وجهه وألمح بريق عينيه .. فلابد أن أراه صادقاً ينتفض وكأنه يحترق بالكلام المعبر .. مطلوب منه أن يكثف فى مشاعره مشاعر وأحاسيس الأمهات الثكلى والجموع الغاضبة فى كل مكان من أرض العرب والمسلمين فالخطب جلل والموقف عظيم ليس فيه هزر أو إدعاء وإذا كان هذا المسرح ساحة للتعبير بالصوت وبالفصاحة العربية فهو كذلك ينبغى أن يكون ساحة للتعبير بالجسد الانسانى أى بالحركة والإيماءة والاشاحة باللفتة بالهمسة والركوع والنهوض والسقوط، الارتماء، الانكسار، الانكماش الثبات والوقوف .. وكل هذا لم نر شيئاً منه فى مشاهد هذه المسرحية التى اختار لها مؤلفها التاريخ إطاراً وحدثا.

لماذا التجهيل؟

فبيت المقدس محاصراً بجيوش الأعداء ولكنه لايذكر أنهم الصليبيون أو الفرنجة أو الأوربيون فما الداعى إلى تجهيل العدو وهو محدد وواضح ومعلوم القصد والأهداف ..

استمر الغزو الصليبى فى بلادنا قرنين من الزمان لم يجد فيهما المؤلف إلا لحظات الهزيمة والانكسار ليقدمها لنا اليوم ودماء الشهداء تخضب جبين العروبة والمقاومة الفلسطينية تزداد قوة وبسالة وتقاوم العدو الغاضب بالبنادق وبالصواريخ وبالقنابل البشرية بعد أن كانت المقاومة بالحجارة .. قرنان من المعارك والحصار والكر والفر والقتال والتفاوض والمراوغة ثم النصر المبين لم تر فيهما المسرحية إلا أيام سقوط القدس تحت أقدام الفرنجة ثم زحف القاضى أبى سعد الهروى على بغداد مستجيرا بخليفة المسلمين لنر خيبته وإحباطه وتحطم آماله .. وياليتهم أحسنوا تصوير هذه المشاهد أو عبروا عنها بما يليق بهذه اللحظات العصيبة فى تاريخنا . وكلها مشاهد فيها الكثير من الهون والثبور وعظائم الأمور ومع الأسف فقد جاء التعبير عن هذا المشهد المعروف فى تاريخ العرب هزيلاً ومثيراً للسخرية. ولنطل سوياً على هذه الأيام العصيبة فى تاريخ القدس والمسلمين كما يصفها أمين معلوف فى



كتابه «الحروب الصليبية كما رآها العرب» ترجمة د. عفيف دمشقية..

بعد حصار دام أربعين يوماً إقتحمت جيوش الفرنج مدينة القدس وعاثوا فيها فسادا وقتلاً وتذبيحاً حتى وصل الدم إلى الركب دون مبالغة فى القول .. وكان مشهد دخول القاضى أبى سعد ديوان الخليفة المستظهر بالله صائحاً حاسرا حليق الرأس علامة على الحداد ومعه حشد كبير من أهل القدس الذين فروا من المذبحة يصرخون ويبكون ويحاول بعض وجهاء البلاد تهدئته ولكنه يزيحهم بحركة من يده تنم عن إزدراء ويتقدم فى عزم وتصميم إلى وسط القاعة فيأخذ فى تبكيت الحاضرين قائلاً : إخوانكم فى الشام لامأوى لهم سوى ظهور الجمال وبطون النسور والعقبان كم من دماء سفكت وكم من نساء أخفين وجوههن بأيديهن حياء وخجلا أيرضى العرب البواسل بالمهانة ويقبل الأعاجم الشجعان بالذل». وإنتاب الحضور جميعاً نشيج ونحيب ويقول المؤرخون عن هذا المشهد «لقد كان خطاباً أبكى العيون وحرك القلوب» ويقول العروى «لم يسبق قط أن أذل المسلمون هذا الإذلال ولا أن نهبت بلادهم بمثل هذه الوحشية».



وياليتنا رأينا صورة حية لهذا المشهد التاريخى الجلل على خشبة المسرح القومى.

[illegible]

إن سقوط القدس فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من شعبان عام ٤٩٢ هـ. ومذبحة المسلمين فى المدينة ونزوح من نجا من القتل إلى دمشق وإنضمام القاضى الهروى إلى الناجين من المذبحة فى مسيرة طويلة إلى بغداد استغرقت أسبوعين تحت شمس الصيف المحرقة مشهد يلهب خيال كل شاعر وفنان حتى لو لم يكن عربيا أو مسلما - وسيبقى هذا المشهد الذى سُفه ورُخص على خشبة المسرح القومى على مر الزمان يحفظ لنا من التداعيات والاسقاطات والعبر الكثير الكثير فهو اليوم يذكرنا بكفر قاسم ودير ياسين وصبرا وشاتيلا وقانا أنه من المشاهد الكامنة فى الوجدان العربى .. وليعذرنى القارىء فلن أقدر على تقديم وصف للصورة الهزيلة التى جاءت لهذا المشهد فى مسرحية «لن تسقط القدس».

ولكن اتساءل ماهى حكاية إفطار القاضى الهروى فى شهر رمضان واستخدامها كحيلة تساعده على الدخول إلى ديوان الخليفة هل هى واقعة مؤكدة تاريخياً أشك فى هذا ! ثم لماذا افتعال هذا التقابل والتعارض بين الصوم والجهاد؟ رجال الخليفة يغضبون ويثورون على القاضى الهروى لمجاهرته بالافطار فى رمضان ولا يغضبون لمذبحة القدس.

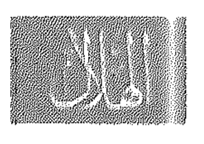
خلط ومغالطات

الصوم فريضة والجهاد فريضة فلماذا هذا التعارض المفتعل . وما هو المقصود بفتح نقاش أمام باب الخليفة عن الحسن ابن الصباح والحشاشين ومحاولة الاسقاط على التطرف والمتطرفين فى عصرنا الحالى؟

سقطت القدس فى عام ١٠٩٩ ميلادية وانتهى الحسن بن الصباح فى عام ١٢٥٦ ميلادية فكم عاش الحسن بن الصباح؟ إنه لم يكن موجودا وأرجو أن نراجع معلوماتنا التاريخية فى هذه النقطة وأتساءل لماذا اختار الكاتب أيام الهزيمة والسقوط من ضمن قرنين من الزمان من كفاح العرب والمسلمين لتعرض علينا اليوم وانتفاضة الشعب الفلسطينى تملأ السمع والبصر وفى كل يوم يتساقط الشهداء وفى كل يوم يتلقى العدو ضربات موجعة ويقع منه قتلى وجرحى بالعشرات .. إن هذا الإختيار المتشائم يتناقض مع الشعار الذى ترفعه المسرحية «لن تسقط القدس».

فلنقرأ التاريخ

إذا كنتم تريدون ألا تسقط القدس فتعالوا نقرأ التاريخ بعين متفائلة ملؤها الأمل وملؤها الايمان بنصر الله .. ولتكن مشاهد النصر المبين والفتح العظيم لامشاهد الذل والعار ثم تأخذون أسوأ مافيها وأبأس مافيها وتقدم فى تعبير مسرحى هزيل وركيك أنظروا أيهاالسادة إلى يوم الجمعة الرابع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ وساحة المسجد الأقصى تغص بالمصلين حيث توافد الناس من كل صقع يحيطون بالسلطان الناصر صلاح الدين تحت قبة الصخرة المقدسة إذ جعله الله تعالى ثانياً لعمر بن الخطاب الفاتح الأول لبيت المقدس .. وجميع الخلق فى غاية السرور والفرح ولما حان وقت الخطبة أشار السلطان إلى القاضى محيى الدين ابن زكى الدين فصعد إلى المنبر وذكر من القرآن الكريم : «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» واخذ يتلو آيات الشكر والحمد على هذا النصر المؤزر ثم قال : أحمده على إظفاره



واظهاره واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .. وقال : «أيها الناس أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الاسلام بعد إبتذالها فى أيدى المشركين قريباً من مائة عام وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع فيه اسمه واماطة الشرك عن طرقه بعد أن إمتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ورفع قواعده بالتوحيد فانه بنى عليه وأنه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه وهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ..... إلى آخر هذه الخطبة الرائعة .

هذا هو الكلام وهذه هى المواقف ونحن أحوج مانكون لأن يسمع ويقال هذا الكلام على كل المنابر والمسارح.

فلنأخذ من التاريخ مايثير الهمم ويشحذ العزائم ويبعث الأمل فى النصر فهو نبتة صغيرة ترويها دماء الشهداء



لتنمو وتكبر ونراه قريباً بإذن الله.

[illegible]

أتعجب كيف استسلم فنان كبير كنور الشريف لهذا العمل كيف ضحى بما يملك من قدرات فنية وامكانات تمثيلية يتمتع بها لماذا نسى المخرج بداخله كنت أتوقع أن أرى منه أداء صوتيا وحركيا يعبر عن الحالة التى أوقد شرارتها هذا النص .. فلو وقف نور بمفرده صائحاً منفعلاً صارخا وارتجل كلاما من عنده منطلقا مما يراه هو كل يوم لكان أقوى وأعظم تأثيراً.

ردد نور مقولة جيدة وردت فى نص المسرحية ونالت استحسان المشاهدين : «من يريد الجهاد حقا فليتقن عمله».

وأجدنى مضطرا للتساؤل إن المسرح جهاد بالكلمة فهل أتقن المسرح عمله فى هذا العرض الذى ينادى بألا تسقط القدس ؟

عفاف راضى

المسرح هو الفن الحى يعيش فيه المتفرج عملية خلق الفن لحظة بلحظة فلماذا لم تغن عفاف غناء حيا على المسرح .. ليتها شدت بهذه الأشعار الرائعة لوفاء وجدى فى غناء حى يتكرر ويتجدد ويثرى

فى كل ليلة إنها لو فعلت هذا لتضاعف تأثير أغانيها مرات ومرات لقد حرم المشاهد من هذه المتعة والأفضل أن تؤخذ هذه الأغانى من هذا العرض وتغنى حية أمام الجمهور أو تسمع على شريط منفصل عن العرض المسرحى ... وأحيى منير الوسيمى على ألحانه هذه .

ورغم أن الممثلين هم ضحايا هذا العمل فيجدر بنا أن نذكر حسب الظهور كلا من حسن العدل الذى إنتقل من شخصية العراف إلى شخصية حاجب الخليفة المرتشى ببراعة واتقان .. وحمادة عبد الحليم الذى برع فى تقمص شخصية المفاوض الصليبى الفرنجى وقدم لنا صورة من استعلاء وعنجهية الغرب .. فى مواجهة العرب ثم عاد وتقمص شخصية الخليفة المستظهر بالله وقدم فيها أداء مختلفا تماما عن الشخصية التى تلبسها فى الفصل الأول .. وكذلك تقف الواثقة منال زكى بخطوة ثابتة وراسخة على المسرح وأداء صوتى رصين تبدو فيه مخارج الألفاظ واضحة وجلية وقد ساعد هذا على توصيل انفعالاتها الصادقة إلى آخر متفرج فى الصالة ..

أشعر أن المجال قد لا يتسع للمزيد ولكن يجب أن أشير إلى اختفاء الجنود الذين أصروا على المقاومة فلم يأت لهم ذكر لماذا ؟ وأقول للمؤلف مادمت تمارس الاسقاط على سلبيات وخزى الحكام العرب وحاشيتهم هذا الخزى والهوان الذى نعرفه جميعا لماذا لم تمارس نفس الاسقاط شهادة للإنتفاضة الفلسطينية وهى تمثل أعظم حدث وأخلص جهاد وأروع استبسال للعرب فى هذا القرن ؟ وتنتهى مسرحية لن تسقط القدس بتحية الجمهور وأسخف تحية .

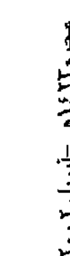
ليست على مستوى الحدث

لن تسقط القدس مسرحية ليست على مستوى الحدث التاريخى وتجىء تحت مستوى الحدث المعاصر .

لن تسقط القدس كان من المفروض أن تكون صيحة تنطلق من على أكبر وأقدم مسارح الوطن العربى فى القاهرة أكبر العواصم العربية .. تنطلق إلى العالم العربى والإسلامى مدوية .. لكنها جاءت خافتة كلها هزيمة وضعف وانكسار لن تسقط القدس مسرحية تدعى أنها تطلع علينا من التاريخ ولكنها تحيلك رغم أنفك إلى الواقع المعاصر فهل قرأ مؤلفها ومخرجها التاريخ؟

وهل شاهدا الواقع الذى تراه أنت وأراه أنا فى كل صباح ومساء

أشك فى هذا ■



الحنين الى الأندلس لم يعد كما كان

بقلم

مصطفى درويش

كان حلما ظل يراودنى. منذ صرت شابا، مدركا لدهاء التاريخ، وعبث الأقدار.

أن أزور أندلس اسبانيا، أسترجع الماضى فى قرطبة واشبيلية وغرناطة، ومدن أخرى ذات جلال.

أتنفسه فى مروج خضر، موشاة بأشجار ثمارها أعناب وزيتون وبرتقال.

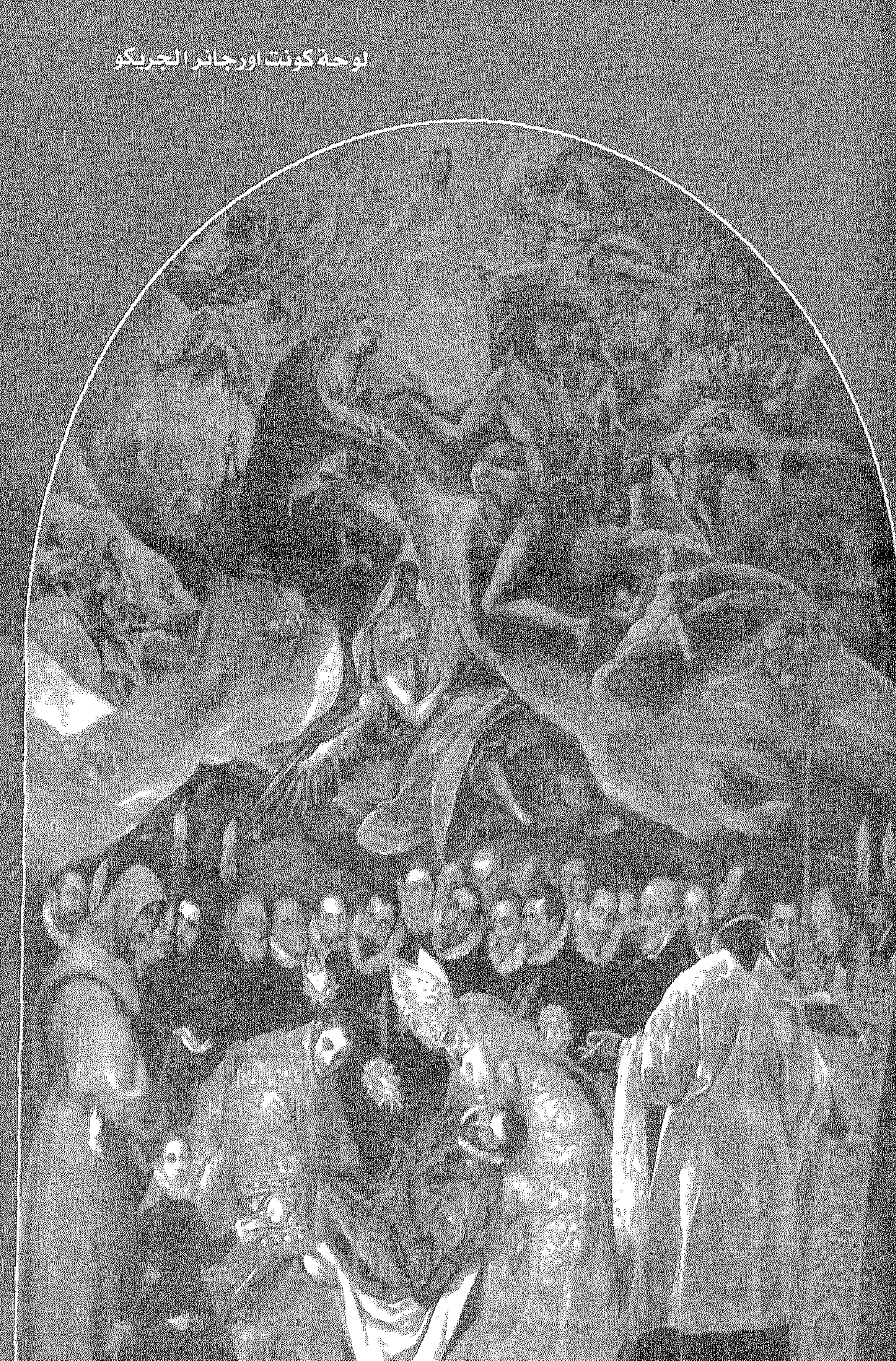
وما كنت أدرى ان الحلم لن يتحقق إلا بعد أن تمر الأيام، وتدور أعوام بعد أعوام.

فلم يكتب لى أن أرى بعض ما سمعته وقرأته، وهو كثير عن غرناطة زهرة مدن الاندلس، حيث قصر الحمراء، يعيش اسمه فى تاريخ ماتت ايامه، وهو لم يمت.

ومرت عليه القرون، فما زاده القدم إلا حلاوة وطلاوة، وإلا وفاء بحاجات انفس تواقة لجمال يمس القلب، ويعجز ، فلا يفصح عنه اللسان.

لم يكتب لى الاستمتاع بكل هذا الجمال، الا وأنا على مشارف الخمسين، ولا يدوم استمتاعى به إلا بضع ساعات، مختطفة من الزمان.

ولم يكتب لبصرى أن يقع على جمال مدينتى قرطبة، واشبيلية، اللتين استوت شهرتهما الواسعة، ورسخت، بعد أن ملأتا الدنيا، وشغلتا الناس زمانا.



لوحة كونت اورجاتز الجريكو

الأولى، بفضل جامعها، الذى بدأ بناؤه عام ١٦٩ هجرية الموافق عام ٧٨٦ ميلادية.

وجرى توسيعه على امتداد مائتى عام والثانية بفضل قصر ملكى، مقر حكامها المسلمين. ويعتبر، والحق يقال آيه من آيات المعمار.

أقول إنه لم يقع بصرى على جمال الجامع والقصر وما حولهما من مبان عتيقة، عربية الطراز، الا والزمان الغادر، يقترب بعمرى من الخامسة والسبعين.

اما كيف تحقق الحلم ، او بمعنى اصح بعضه فى زمنين بينهما اكثر من ربع قرن من عمر الزمان، فذلك ما سأحاول ان احكي وقائعه، مراعيا الاختصار الشديد قبل ستة وعشرين عاما، غادرت روما إلى مدريد، في اول زيارة لاسبانيا.

عام الحسم

حدث ذلك فى صيف عام فاصل، اتيح فيه للشعب الاسبانى ان يتخلص بسلام، من نير الفاشية بالعبور الى نور الديمقراطية، وذلك بفضل اختفاء الجنرال باخاموندى فرانكو (فرانشسكو) بالموت، بعد غيبوبة لم تدم ساعات كالمعتاد، بل دامت شهورا.

ففى ذلك العام، وجدتنى، لدهشتى على أرض العاصمة الاسبانية، حيث مكثت بضعة أيام، محققا بذلك رغبة ملحة ، استبدت بى زمنا، ليس بالقصير.

ان تطأ قدماى أرض اسبانيا، فى العام نفسه الذى يخلع فيه الشعب عن عنقه نير ديكتاتورية، اعادت جرائمها إلى الأذهان محاكم التفتيش ، وما ارتكبته من جرائم فى حق كل ممتنع عن اعتناق الكاثولوليكية بدلا من دين الآباء.

تلك المحاكم التى تم تشكيلها اثر استسلام غرناطة لجيش فيرديناند وايزابيلا الكاثوليكية، ومعه غروب شمس حضارة، كانت ملاذا للعلم والفلسفة ، والتسامح بين الأديان.

ثمار الحرية

ولقد كان من ثمار عودة الحرية والديمقراطية ، التحرر من رق رقابة ، حالت بين الشعب الاسبانى وبين مشاهدة افلام متميزة، اذكر من بينها على سبيل التمثيل، رائعة «ستانلى كوبريك» «البرتقالة الآلية، ورائعة شارلى شابلن «الدكتاتور العظيم».

رقابة ارتأت ان من الحق عليها ان تعاقب الشعب، وذلك بحرمانه من حق الاستمتاع بروائع رائد السريالية فى السينما «لويس بونويل» ، ذلك المخرج الاسبانى الذى ظل متنقلا بين منافى العالم، قديمه وجديده، الى ان جاءه الموت، بعيدا فى المكسيك، بعد موت الجنرال فرانكو، بثمانية اعوام.

وارتأت ان من بين واجباتها حماية الشعب من لوحات وتماثيل بابلو بيكاسو وخوان ميرو، وغيرهما كثير، وذلك لأنه مما يعرف عنهما ان كليهما فنان تشكيلى ، لا يشق له غبار، نشد الحرية لبلده ، ولكل البلاد، ولنفسه، ولكل انسان، انطلق بفن

قصر الحمراء في غرناطة

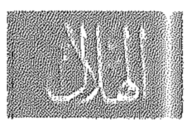
الرسم والنحت نحو آفاق جديدة، لا تحدها شطآن اتخذ منه اداة لفضح ما فى الحياة التى تكر حواليه من فقر، وضحل ، وبشاعة وغثيان.

ولشد ما ادهشنى، وما كان لي ان اندهش. ان اجد متحف البرادو بمدريد، وهو احد اهم خمسة متاحف فى العالم، اجده خاليا من أية لوحة لبيكاسو وميرو، وغيرهما من كبار الفنانين المعادين لحكم فرانكو الاستبدادى الذى استمر اكثر من ثلث قرن بحوالي ستة اعوام.

ربيع الفن

وبطبيعة الحال لم يكن لذلك الوضع الشاذ أن يستمر طويلا فلم تمر سوى بضعة اعوام على اختفاء الدكتاتور، حتى كان قد جرى افتتاح متحفين من مفاخر مدريد الآن، احدهما مركز الفن - الملكة صوفيا، والآخر متحف تيسين، بورنيمنزا ، الذى يجمع بين جدران ادواره الثلاثة حوالي ثمانمائة عمل من روائع الفن التشكيلى اهداها المليونير تيسين وزوجته الفاتنة الى اسبانيا.

ومن بين الاعمال المعروضة فى هذين المتحفين، الكبيرين العديد من اللوحات والتماثيل التى ابدعها خيال كل من بيكاسو وميرو، فى اثناء القرن العشرين.



أم اللوحات

وواحدة من اهم تلك الاعمال ، واشهرها لوحة جيرنيكا.

وعليها خلد بيكاسو مأساة مدينة وديعة باقليم الباسك اسمها جيرنيكا، سوتها غارات طائرات المانية نازية، لم تدم سوى بضع ساعات (٢٦ ابريل ١٩٣٧).

ومما يعرف عن تلك المأساة انها كانت إيذانا بقرب عاصفة الحرب العالمية المميتة، وما صاحبها من مذابح، أودت بحياة الملايين.

ويالها من نشوة، وانا ارى لأول مرة، جيرنيكا، وقد عادت من منفاها فى متحف الفن الحديث بنيويورك إلى وطنها الأم (١٩٨١).

واترك الحديث عن جيرنيكا، ومغامرة رحلتها بين العالمين القديم والجديد، لأعود إلى ايام أول لقاء لى مع اسبانيا، وهى سبعة لاتزيد. لأقول اننى خصصت يوما من بينها لطليطلة، ويوما آخر لغرناطة.

محاكم التفتيش

والمدينة الأولى لا تبعد كثيرا عن مدريد، وهى اول مدينة مهمة يفقدها العرب فى اسبانيا، وكان ذلك اثناء عام ١٠٨٥ ، حين دخلها جيش الفونس السادس ملك كاستيل وليون، منهيا بذلك حكما عربيا مزدهرا استمر حوالى ثلاثمائة عام، إلا قليلا.

ولقد بقيت منذ سقوطها، عاصمة حتى عام ١٥٦١

ومما يقال عن انتقال العاصمة منها الى مدريد ان فيليب الثانى استشار اباه الامبراطور شارل الخامس في ذلك الامر، فنصحه قائلا.

لو كنت راغبا فى توسيع رقعة ممتلكاتك ، فانتقل بالبلاط الى لشبونه «عاصمة البرتغال».

ولو كنت راغبا فى الاحتفاظ بها. فاستبقه فى طليطلة.

اما اذا كانت رغبتك قد انصرفت الى فقد ممتلكاتك فانتقل ببلاطك الى مدريد!!

وكعادة الأبناء لم ينتصح فيليب.

ومع ذلك . بقيت طليطلة العاصمة، الدينية حتى يومنا هذا.

فاسقفها كبير اساقفة اسبانيا.

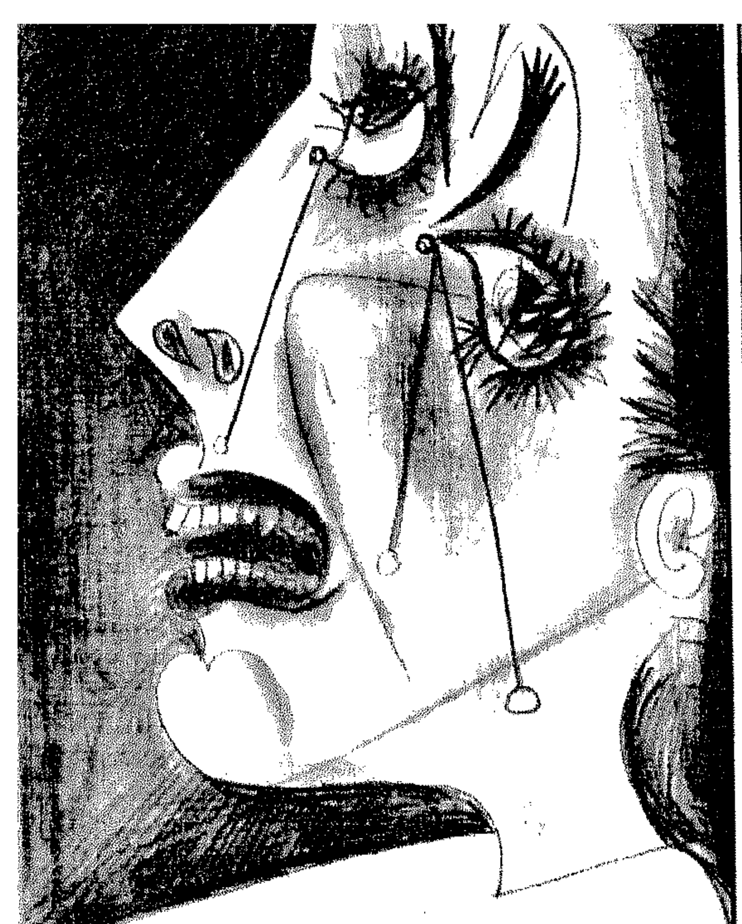
وكاتدرائيتها بفخامتها ونفائسها، ترمز ولاتزال. إلى ما كان للدين من تأثير كبير على الفن، والثقافة .

ولعل خير دليل على ذلك لوحات الفنان «الجريكو» ، الذى غادر وطنه اليونان إلى اسبانيا، حيث استقر فى طليطلة «١٥٧٧) ، لم يفارقها لولعه بها حتى اسلم الروح عام ١٦١٤.

هذا ، وقريبا من الكاتدرائية يوجد عرض لادوات التعذيب التى عانى منها المسلمون واليهود ، لقرون طوال.

فمن طليطلة انطلقت شرارة الاضطهاد الدينى متمثلة فى محاكم تفتيش (١٤٨٠)





تفصيلية من لوحة جيرنيدي أشهر صورة لبيكاسو



جامع قرطبة

، ظلت تنشر الرعب والموت، زهاء ثلاثمائه عام.

وراح ضحية أحكامها الجائرة ملايين الأبرياء ، بين قتيل ومنفى إلى شمال افريقيا.

والآن ترقد طليطلة ناعمة، هادئة ، محاطة بمنعطف لنهر التاج.

واذا كانت طليطلة اول مدينة مهمة فقدها العرب، فغرناطة تعد المدينة الأخيرة.

فبسقوطها ودخول فرديناند وايزابيلا قصر الحمراء فى غرناطة (١٤٩٢)، انطوت صفحة الحكم العربى لاسبانيا .

السلطان الأخير

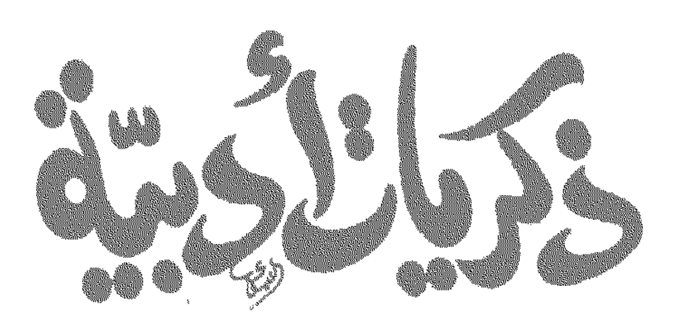
ولربما خير تعبير عن هذه النهاية الفاجعة الممر المعروف بتأوهة المغربى، حيث ينسب الى اخر سلطان حكم غرناطة انه ألقى نظرة اخيرة على قصره، واجهش بالبكاء امام امه التى قالت له.

يحق لك ان تبكى كالنساء ملكا لم تستطع ان تدافع عنه كالرجال.

تذكرت كل هذا، وانا فى قصر الحمراء تصاحبنى الأرواح والاشباح.

وعندما غادرت غرناطة مستقلا القطار إلى مدريد، تمنيت ان اعود.

ولم اكن ادرى أننى سأعود. ■



بقلم

وديع فلسطين

البقر المحسود

عرفت الشاعر المهجري رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ - ١٩٨٤) المكني بالشاعر القروي بالمراسلة أولا وهو لم يزل في سان باولو بالبرازيل (وقد عرب اسم العاصمة إلي صنبول) ، ثم عرفته بالمشافهة عندما زار مصر للمرة الأولي والأخيرة في زمن الوحدة المصرية السورية ، ثم بالمراسلة بعد ذلك بعدما استقر في قريته «البربارة» في لبنان . وكان القروي شاعرا عربيا لم تلون الهجرة نصاعته ولا التوت بلسانه حتي أصبح يمثل بحق أعلي المنازل في ديوان العرب . وهو قد حمل منذ يفاعته قضية أمته ، فسخر شعره للوطنيات والقوميات حتي وصف نفسه بأنه «بوق العروبة» ، وإن كان هذا لم يمنعه من تناول الاغراض المتباينة للشعر .

وعند هجرته إلى البرازيل حيث أقام نصف قرن كامل ، افتتح لنفسه مصنعا لربطات العنق (وكان يسميها الأرب) ولكنه كان دخيلا على دنيا الصناعة والتجارة دون خبرة سابقة فأفلس وأغلق مصنعه ، فكان لا معدى له عن أن يطلب الرزق كسائر المهجريين بحمل «الكشة» (وهي صندوق يحتوى على عينات من البضائع يجتهد فى بيعها لطالبيها من الزبائن كأى «قومسيونجى») وكان مضطرا إلى السفر مسافات طويلة قاطعا الفيافى والغابات والمستنقعات من مدينة إلى أخرى فى سبيل كسب القوت . وكان فى أثناء رحلاته يرى البقر البرازيلى



رشيد سليم الخورى

سارحا في المروج آمنا على نفسه من غدر السفاكين ، فلم يملك إلا أن يحسد البقر على حريته وأمنه ، وعبر عن ذلك في قصيدة قابل فيها بين البقر والبشر حيث قال :

طوباك سارحة في القفر طوباك   إن كنت أحسد مخلوقا فإياك

* * *

الزهر مثلك في الآفاق تنتشر   تغشى مروج العلى والليل معتكر
تالله كم يتمنى عيشك البشر   ماذا تخافين في البيداء يا بقر ؟
إن كنت تخشين من أنياب فتاك   طوباك ، فالجلد غير العرض طوباك !

* * *

سيرى الهوينا معا في السهل والجبل   الرزق حولك موفور فلا تسلى
ياليت لي في صحارى الجد والعمل   بعض الذى لك ميسورا على مهل
إن كنت تشكين من صخر وأشواك   طوباك ، فالقفر غير الفقر طوباك !

* * *

طوباك في الصيف والرمضاء تتقد   والحر منه يذوب الجلد والجلد
هذا اللهيب الذى يشوى به الجسد   أشد منه على أكبادنا الحسد
إن كان منه الذي سواك نجاك   طوباك في لفحة الرمضاء طوباك !

* * *

تشكين فصل الشتاء البارد القاسى ؟   ماذا أقول أنا في عشرة الناس ؟
نامي على الثلج نامي ، ليس من باس   فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وإن تكن هاطلات الغيث تغشاك   طوباك ، فالقطر غير الدمع طوباك !

* * *

طوباك في مربع الحرية الخصب   بين الأزاهر والأمواه والعشب
لو تعلمين عن الإفرنج والعرب   وما يلاقيه في الأوطان كل أبى
ما كنت تخشين من سكين سفاك   طوباك ، فالموت غير الذل طوباك !

وهكذا طوع الشاعر القروى حياة البقر لخدمة أغراضه القومية والتنديد بالإفرنج الذين مازالوا يسومون العرب ألوانا من الذل والاستغلال والتعالى .

خروف العيد وتوابعه

كان خروف العيد أهم «شخصية» في عيد الأضحي الماضي، حيث تكالب المقتدرون علي شرائه والتضحية به في مناسبة عيد الأضحي المبارك . وكان الخروف – ويسميه إخواننا التوانسة بالكبش – بابا من أبواب الشعر الكثيرة طرقه الشعراء في منظوماتهم، ومثله البقر والأوز وكذلك القطط والكلاب .

ومن المستطرفات الشعرية التي دارت حول خروف العيد ما سجله الشاعر محمد الاسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٧) في ديوانه الضخم راوياً فيه المطارحات الشعرية التي جرت بينه وبين الشعراء محمد عبدالغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وعلي الجندي (١٨٩٨ - ١٩٧٣) والضابط عبدالحميد فهمي مرسي (المتوفي في ٢٩ يوليو ١٩٩١) .

وقد عرفت الأسمر وعبدالغنى والجندى ، ولكن الظروف لم تهيئ لى معرفة رابعهم الضابط .

أما الأسمر فكان أزهريا حافظ على السمت الأزهرى فى هندامه ولم يتفرنج كغيره من أبناء الأزهر . وكان زينة المجالس ، بسبب روحه الفكهة وحديثه الشهى وقدرته على استعادة النوادر والمستطرفات من الأدب القديم والحديث . تراه يتصدر ندوة أنطون الجميل باشا (١٨٨٧ - ١٩٤٨) فى جريدة الأهرام ، أو فى بار الانجلو حيث يجتمع رجال السياسة والأدب والفن ، بل تراه فى بيت الزعيمة النسائية هدى شعراوى (١٨٧٩ - ١٩٤٧) وفى جريدة «الزمان» المسائية التى كان يشرف فيها على الصفحة الأدبية ويشجع ناشئة الأدب وبراعم الشعراء بما يقدمه لهم من الجوائز .

وصفه صديقه محمد عبدالغنى حسن بقوله إن الأسمر هو خير من ينطبق عليه القول الحكيم «تحسبهم أغنياء من التعفف» ، فهو لم يكن غنيا ولكنه كان ذا أنفة وكبرياء ، تحسبه واحدا من الباشوات وهو فى مجلسهم ، وإن كان حظه من الدنيا حظ المدرس ليس إلا . وقد سرنى أن أرى موطنه دمياط يطلق اسمه على مدرسة تصافح المسافر وهو يهم بدخول هذه المدينة التى أنجبت كثيرا من الشعراء .

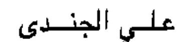
أما محمد عبدالغنى حسن فقد عرف «بشاعر الأهرام» لأن انطون الجميل باشا كان يحتفى بشعره فى الجريدة ، بل قدم ديوانه الأول «من نبع الحياة» . كان أديبا أصيلا متمكنا ومجمعيا فذا ومفكراً موسوعيا ، تشهد على ذلك كتبه في السيرة الأدبية والنقد الأدبى وتحقيق التراث والدين والترجمة ، وما إليها .

وأما على الجندى فهو درعمي كزميله محمد عبدالغنى حسن ، تولى العمادة فى دار العلوم ، وعرف بأسلوبه العربى البليغ المبين فى كل كتاباته (وقد نشر فصولا كثيرة فى مجلة «الهلال») . وكان يعيش بروحه فى العصور الذهبية للأدب واللغة ، فتأثر بها حتى فى عناوين كتبه التى حاكى فيها كتب الأولين ككتابه الجميل «الشذا المؤنس فى الورد والنرجس» . وكان على الجندى قد زار دمشق الفيحاء فى أيام الوحدة المأسوف على شبابها ضمن وفد من الأدباء المصريين ، وهناك نعمت شيخوخته برعاية الشاعرة السورية الحسناء عزيزة هارون (توفيت فى ١٣ فبراير



١٩٨٦) فألهمت خياله شعرا ونثرا مما سجله غب عودته إلى القاهرة فى كتاب عنوانه «خمسة أيام فى دمشق الفيحاء» ، حفل بآيات التغنى بهذه الشاعرة الشقراء ، فانبرى له أحمد رشدى صالح (١٩٢٠ - ١٩٨٠) منتقدا إياه فى جريدة «الجمهورية» على اعتبار أن هذا الغزل لا يليق بشيخ جليل مثل على الجندى .


محمد عبد الغنى


علي الجندى

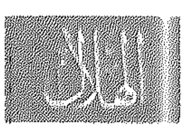
أما الضابط عبدالحميد فهمي مرسي ، فقد كان بدوره شاعرا ، وإن كنت لا أدرى هل جمع شعره في ديوان منشور أو تراخي في ذلك .

وقد تحلق الشعراء الأربعة حول خروف العيد فى أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) حيث تفاقم الغلاء وعز على الكثيرين أن يظفروا بهذا الخروف بسبب ضيق ذات اليد وارتفاع سعره .

وكان الشاعر محمد الأسمر يعرف أن لصديقه الضابط عبدالحميد فهمى مرسى ضيعة فى المنيا يربى فيها الخراف والماشية ، فهداه تفكيره إلى مناشدة هذا الصديق الأريحي إعارته خروفا له وآخر لعبدالغنى وثالثا للجندى يتباهون بها أمام الجيران فى العيد ، ثم يردونها إلى صاحبها كأى قرض حسن ! فليس يطلب من خروف العيد إلا أن يثبت وجوده «بالمأمأة» فتعرف الدنيا أن صاحب الخروف على يسار ، وليس يهم بعد ذلك أن يذبح هذا الخروف فى العلن أو فى السر ما دام قد أدى وظيفته التمثيلية أمام الملأ !

فوجه الأسمر رسالة شعرية إلى الضابط عبدالحميد مرسى جاء فيها :

عبدالحميد ، وأنت معوان إذا ... هز الخدين حبال ود خدينه
إن كان «ذو القرنين» عندك حاضرا ... فابعث به لنرى ضياء جبينه
ولكى نشاهد حسنه وجماله ... ونرى اقتدار الله فى تكوينه
ولكى يجاوب - لو يمأمئ مثله ... فى بيت جارى - مأمآت قرينه !!
وليعلم الجيران أجمع أننى ... إن جاء عيد لم أضق بشؤونه
ولكى يراه من أساء ظنونه ... بدراهمى ، فأنال حسن ظنونه !!
وليطمئن الدائنون ويعلموا ... أنى امرؤ يقضى جميع ديونه
ولكى يشرفنا بطيب حضوره ... فبه من التشريف كل فنونه
ونرده لك بعد ذلك سالما ... بدمقس فروته ، وعاج قرونه !!
وأنا الأمين عليه وهو بمنزلي ... من كل جزار ، ومن سكينه



يغدو غداة النحر لم يمرر على (سفود) عيد النحر أو (طجينه)
يمسى ويصبح وهو عندى آمن من فلفل الطاهى ومن كمونه
فابعث به عبدالحميد فإنه شئ يرد إليكم فى حينه
لسنا نميل إلى نعاجك بل إلى كبش لك التفويض فى تعيينه !!

وبمجرد أن تلقي الشاعر الضابط هذه الرسالة ، كلف قريبا له اسمه عبدالعزيز سلطان بأن يبعث من ضيعته في الصعيد بأربعة خراف توزع بالقسطاس بين الشعراء الثلاثة ، أما الخروف الرابع فهو لصاحب الضيعة الضابط .

وتم شحن الخراف بسكة الحديد ،.ووصلت إلي وجهاتها فى آخر المطاف . ولكن الشاعر الأسمر رأى أن الخراف هزيلة تشبه الهرة فى حين أنه كان يتوقع كبشا مسمنا غزير اللحم والشحم . فبعث إلى صديقه الضابط بقصيدة عتاب جاء فيها :

ويح عبد العزيز أرسل هرات إلينا ، وقال عنها خراف !!
لم تمأمئ ، بل نونوت فضحكنا ثم قلنا : ما ذلك الإسراف ؟
أهدايا ، أم تلك بعض الرزايا رب سلم ونج مما نخاف !

* * *

أربع أقبلت ، فقلت خراف ما تراه العيون ، أم أطياف ؟!
كان منها لنا خروف عجيب هو من فرط ضعفه شفاف !
لاح كالوهم ، بل هو الوهم يمشى لا خروف جاءت به الأرياف
هو بين الكباش كبش صناعى وزيف أدقه المزياف
أثرى من عهد يوسف موميا خلفته لنا السنون العجاف !
ليس فيه من الخراف التى نعرف إلا القرون والاظلاف !
كم تمنى أطفالنا أن يروه ورأوه ، فأنكروه وخافوا

* * *

يا صديقى عبدالحميد أهذا ما رجونا ، وعندك الإنصاف ؟!
إن عبدالعزيز مال عن الحق فأين الوفاء والانصاف
كبشه وهو كبشكم حين وافى حار فيه الجزار والعلاف
أبصرته القدور عندى فمالت ضاحكات ، وفرت الأضياف !
خذه عبدالحميد خذه ، وحسبى هبه حكما أما له استئناف ؟!

أما الشاعر عبدالغنى حسن ، فقد قنع بحظه المقدور من خروف العيد ، على اعتبار أن أى خروف خير من لا خروف ! فبعث إلى صديقه الضابط بأبيات شكر جاء فيها :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحا ... فـإذاك قد بالغت فى تسمينه !

اللـه زينـة بكـل جميلة ... وجـميل صنعك زاد فى تزيينه

للأسمر المحبوب فضل وصوله ... لا تتخذ لك صاحبا من دونه

هو واحد متفرد فى شعره ... وجماعة فى ظرفه وفنونه !

قد دلنى يوما عليك ولم يكن ... إلا دليل الخير فى تبيينه

أما الشاعر على الجندى ، فقد سكت عن الكلام المباح ، فلا عاتب المهدى ولا شكره على هديته ، وهكذا دخل خروف العيد في ديوان العرب !

والأوز تنضم إلى ديوان العرب

درج الشاعر التونسي محمد الشاذلى خزنة دار (١٨٨١ - ١٩٥٤) - ويطلقون عليه فى بلاده لقب «أمير شعراء الخضراء» - على أن يقتنى فى بيته آسرابا من الأوز ، يربيها ويحتفى بها على مائدته لأنها طعامه المفضل . فلما تعرض للسجن على أيدى السلطات الفرنسية ، بعث إلى زوجته برسائل يطمئنها على أحواله ويوصيها بما يتراءى له ويشجعها على احتمال لوعة الفراق لأن حياة السجن لن تلبث أن تنقضى . ولم ينس الشاعر أن يوصى زوجته بقطيع الأوز الذى يقتنيه ، ربما لخشيته من أن تنتهز زوجته فرصة غيابه ، وتستأثر بمآدب الأوز لها ولصويحباتها ! فوجه إليها أبياتا قال فيها :

كونى معى قربا وبعدا وإننى ... أهوى عفافك ، فالعفاف ردائى

فيك الفضائل كلها جمعت فما ... حسناء فيهم شابهت حسنائى

صونى الأوز ، وبشريه بأننى ... فى يوم إطلاقى من الطلقاء !

وطبيعى أن إطلاق سراح الأوز لن يعفيه من احتلال مكانه العتيد على موائد أمير شعراء الخضراء !

والقطط والكلاب فى ديوان العرب

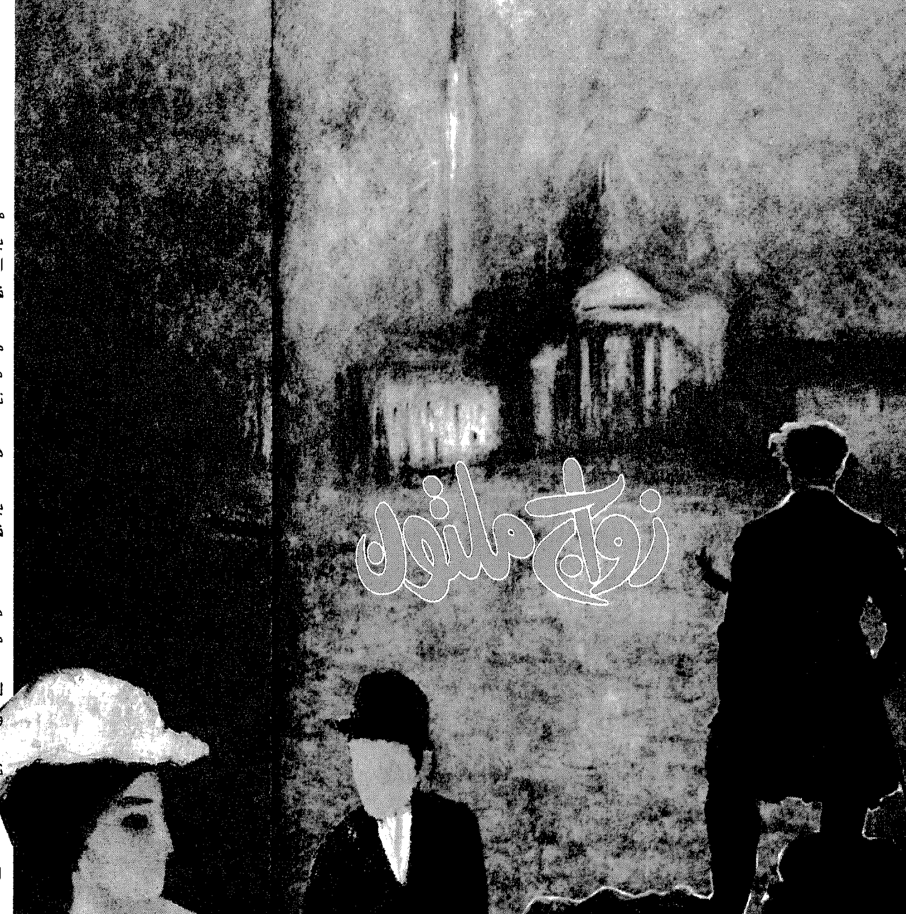
وقد نظم عدد من الشعراء قصائد فى مقتنياتهم الأليفة من القطط والكلاب ، ولاسيما عند فقدها . فقد رثى العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) كلبه «بيجو» ، ورثى أحمد زكى أبو شادى (١٨٩٢ - ١٩٥٥) قطته ، ورثى الشاعر حسن كامل الصيرفى (١٩٠٨ - ١٩٨٤) قطته ، وهى نماذج ثلاثة تغنى عن رصد نماذج أخرى كثيرة فى دواوين الشعراء. ■



أحمد زكى ابو شادي



حسن كامل الصيرفي



قصة قصيرة

بقلم
مصطفى نصر

أحس ملتون برغبة ملحة فى أن يترك لندن، يرتاح من التفكير وقراءة الكتب لبضعة أيام، وقرر فجأة أن يسافر .

زاره فى الصباح صديقه كوك.. تحدث ملتون معه عن رغبته تلك، فضحك كوك قائلا:

ـ ملتون العظيم يقول هذا؟!

ـ نحن معشر الكتاب يأتى علينا وقت نزهد فيه الكتب والكتاب.

ضحك كوك طويلا :

ـ ألو كنت كاتبا مثلك، كنت سترفض مقابلتى؟

ـ أريد ان أهرب من لندن. مللت المناقشات والنزاعات .

ـ وأين تريد أن تذهب؟

ـ اكسفورد .

صلح كوك فزعا :

ـ تذهب الى اكسفورد فى هذه الأيام. ألا تدرى انها معقل الملكيين ، وأنت معروف بعدائك للملك، ومن انصار كروميل الجمهورى.

ضحك ملتون طويلا:

ـ سأتخفى حتى لا يعرفنى أحد .

ـ وماذا ستفعل فى اكسفورد؟

ـ اشتقت لجو الريف وهدوئه بعد العناء الذى نلاقيه هنا بسبب الحرب الأهلية التى تدور . ومن أكسفورد إلي قرية شتوفر القريبة جدا منها، لمقابلة صديقى القديم ريتشارد باول .

وقف كوك وصاح مندهشا :

ـ لا ياملتون. أنت اليوم غريب جدا ومختلف، ريتشارد باول من أنصار الملك شارلى. فكيف

ستتقابلان؟!
رغم ميولنا المختلفة فأنا وهو صديقان. ولى عنده دين حان موعد سداده.
- قل انك افلست وتبحث فى دفاترك القديمة.
- بذلك المبلغ سأقضى عدة أيام فى الريف بعيدا عن الحرب.

***

لم يصدق ريتشارد باول نفسه وهو يرى ملتون أمامه، كيف استطاع ان يصل الى قريته والموالون للملكية فى كل مكان، وقادتهم يعرفونه ولن يتوانوا عن قتله اذا ما رأوه.
صاح ريتشارد :
- أسرع بالدخول قبل أن يراك أحد .
جاءت زوجة ريتشارد، هى تعرف ملتون جيداً، وكثيراً ما زارها فى بيتها. مارى ابنتهما لم تعرفه أول الأمر فقد مر وقت طويل على آخر مرة رأته فيها ، صاح ملتون .



- صرت جميلة جدا يامارى، تغيرت .
- وانت ياعم ملتون، شعر رأسك غزاه الشيب.
صاح ريتشارد ضاحكا :
- هو مشغول بلغته اللاتينية وكتبه التى لا يفهمها سوى الجمهوريين امثاله .
ضحك ملتون طويلا:
- الجمهوريون اكثر تفتحا منكم .
- انكم تخالفون شرع الله فى كل ما تدعونه .
لم يعلق ملتون بشىء فقد أخذه جمال مارى. فى عينيها هدوء وسكينة هو فى أشد الحاجة إليهما الآن .
لم تكن الزوجة مرتاحة لهذه الزيارة . فالمنطقة كلها تابعة للملكيين، وجنودهم فى كل مكان منها ، ووجوده سيسبب لهم ضررا لاشك، لذا ، نادت على زوجها وأخبرته بمخاوفها.
فصاح بها .
- ملتون صديقى منذ زمن بعيد، ولابد ان أحسن ضيافته .
- والقرض الذى اقرضك اياه.؟
- أتظنينه جاء خصيصا من أجل القرض؟!
- أيجازف ويأتى الى معقل الملكيين اعدائه دون سبب؟
لم يجب ريتشارد بشىء. فصاحت به امرأته :
- ارشد عنه انصار الملك ليقتلوه ونرتاح منه.
صاح ريتشارد غاضبا :
- لا . انه صديق قديم. لا .
- انتظر حتى يطالبك بقيمة القرض،

وانت لا تمتلك منه شيئا.

●●●

عندما عاد ريتشارد الى صديقه ملتون، وجده يحكى لمارى :

ـ تعبت كثيرا حتى وصلت الى هنا. تخفيت حتى لا يعرفني رجال الملك، كما أن الطرق كانت وعرة بسبب الحرب الدائرة الآن .

كانت مارى تضحك سعيدة من حديثه .

ـ لكن عندما رأيتك أحسست بأن التعب لا يساوى شيئا ..

صاح ريتشارد مقاطعا :

اظنك فى حاجة الى الراحة .

ـ لا . اننى أريد شيئا آخر .

قال ريتشارد لنفسه : «هاهو ذا يطالب برد قرضه كما قالت زوجتى ، لابد من أن آخذ حيطتى واستعد له»

قال ريتشارد وهو شارد :

ـ أأمرياملتون .



ـ أريد ان اتزوج ابنتك مارى .

صاح ريتشارد مندهشا: زواج؟!

●●●

أحس ريتشارد أن صديقه ملتون قد وضعه فى مأزق، فإن لم يوافق على الزواج سيغضب وسيطالب بماله، وريتشارد لا يمتلك منه شيئا الآن. فالحرب أفسدت كل شىء.. الجنود المتحاربة وطأت ارضه الزراعية بأحذيتها الثقيلة، فسوت الزرع بالأرض. وان وافق ريتشارد أغضب ابنته. فملتون اكبر منها بكثير. وتدخلت زوجته فزادت المشكلة تعقيدا.

قالت :

ـ انه من اصدقاء كرمويل. ومن الممكن القبض عليه فجأة.

ـ لو حدث هذا ، سيقبضون علينا أيضا لاننا أصهاره .

صاحت مارى وسط دهشة ابيها وامها :

ـ سأتزوجه يا أبى، فاننى اود العيش فى لندن .

وانتقلت مارى باول الى لندن بدلا من ان يعود ملتون بنقوده الى لدى ابيها ، عاد بها هى.

كانت سعيدة ، مبهورة بمبانى لندن وقصورها الطويلة الواسعة، كما أن ملتون كان حانيا عليها. لم يغضبها قط طوال الشهور القليلة التى عاشتها معه . عيبه الوحيد : اصدقاؤه الذين يأتون اليه كل ليلة. تصنع الشراب لهم، وتتسمع ما يقولون فلا تفهم شيئا، انهم يتحدثون لغة غريبة بعيدة عن الانجليزية، يتناقشون ويحتدون.

حتى تضحك - هى - من تصرفاتهم . أحيانا يكونون وكأنهم يمثلون تمثيلية ساخرة مضحكة.

تسير فى الشقة الواسعة . تنتقل بين حجرة وأخرى علهم يخرجون ويعودون الى بيوتهم، ويتركون لها ذلك الشيخ العجوز الذى صار كل ما لها فى هذه المدينة الواسعة، لكنهم لا يذهبون بسهولة. كل ليلة تنام قبل أن يذهبوا .

يأتى هو متعبا، يخلع نظارته وخفيه، ويندس بجسده تحت الغطاء بجوارها .

ذات صباح، وضعها ملتون بين يديه الكبيرتين. تابع وجهها الجميل سعيدا. صاحت:

- ملتون ، لقد مللت ، كل ليلة تبتعد عنى بأصدقائك وكتبك ولغتك التى لا أعرفها، أريد ان اخرج ، اسهر خارج البيت مثل الأخريات .

ربت على خدها فى حنان :

- اهدئى ياماري ، سأخرج معك، لكن ليس الآن . فلدى كتاب مهم لابد من الانتهاء منه خلال ايام .

- وانا . ماذا سأفعل؟!

- سأعلمك اللاتينية ، سأعطيك كتبا تقرئينها.

صاحت غاضبة :

- لا أريد ان اتعلم لغتك. ولا أريد كتبا . كل ما أريده أن أذهب الى بيت أبى فى شتوفر .

ضمها ملتون لصدره لتكف عن البكاء :

- اذهبى كما تشائين. على أن تعودى بعد يومين أو ثلاثة.

●●●

وذهبت مارى الى بيت ابيها ولم تعد. ارسل ملتون الى صديقه كوك ، طلب منه ان يذهب ويعود بزوجته من قرية شتوفر ، لأنه مشغول للغاية. فكرومويل فى أشد الحاجة اليه هذه الأيام.

وذهب كوك الى هناك . لكن مارى أصرت على عدم الذهاب. صاحت غاضبة :

- مللت كتبه والغازه. واصدقاءه. و وتدخل ريتشارد والدها :

- ملتون مؤلف كبير ولايستحق منك هذا .

لكن الزوجة صاحت غاضبة :

- دع البنت فى حالها . لقد اصفر وجهها ونحل جسدها مما تراه فى بيته .

قال كوك :

- ما هكذا يكون الحوار ياسيدتى .

لكن مارى قالت فى

وضوح شديد :

- معذرة ياسيد كوك. لن أعود معك، حياة ملتون غير مناسبة لى .

●●●

لكن الأمور تطورت بشكل لم تحسب عائلة ريتشارد حسابه . ولم تظنه سيحدث ابدا. لقد تقوضت الملكية فى انجلترا. وقبض كرومويل على شارل الأول وهو يحاكمه الآن. بكت المرأة التى كانت متحمسة لعدم عودة ابنتها الى ملتون. صاحت فزعة:

- حياتنا غدت فى خطر.

وقال ريتشارد :

- من الممكن ان يقبضوا علينا. فالكل يتحدث عن أنصار الملك الذين تم القبض عليهم.

قالت الزوجة :

- خاصة لموقفنا من ملتون. فهو مستشار كرومويل الآن .

تبعت مارى ما يحدث فى ضيق فقد سببت لأهلها ضررا



بعدم عودتها الى ملتون. قال ريتشارد :

- ملتون يستطيع حمايتنا .

وأكملت الزوجة :

- ومن السهل ان يقدم صك الدين للسلطات ويطالبنا بسداد قيمته .

قال ريتشارد وهو ينظر الى ابنته :

- والحل؟!

قالت الزوجة فى أسى :

- ان تعود مارى الى ملتون. وان تتحمل لغته اللاتينية واصدقاءه ذوى الوجوه القبيحة.

●●●

بينما كان ملتون فى بيته، متدثرا بغطائه الثيل، متابعا صوت الهواء العاصف فى الخارج، وهطول الأمطار الغزيرة، سمع صوت دقات خفيفة على الباب. كان الوقت متأخرا حتى أحس بالقلق. فمن الذى سيزوره فى ذلك الوقت المتأخر، والجو العاصف. وجد مارى أمامه. حقيبتها فى يدها وهى ترتعش من البرد. والماء يتساقط من رأسها ووجهها وملابسها .

- مارى. ادخلى . انك ترتعشين .

- جئت مع بعض أهل القرية النازحين الى لندن.

- تفضلى .

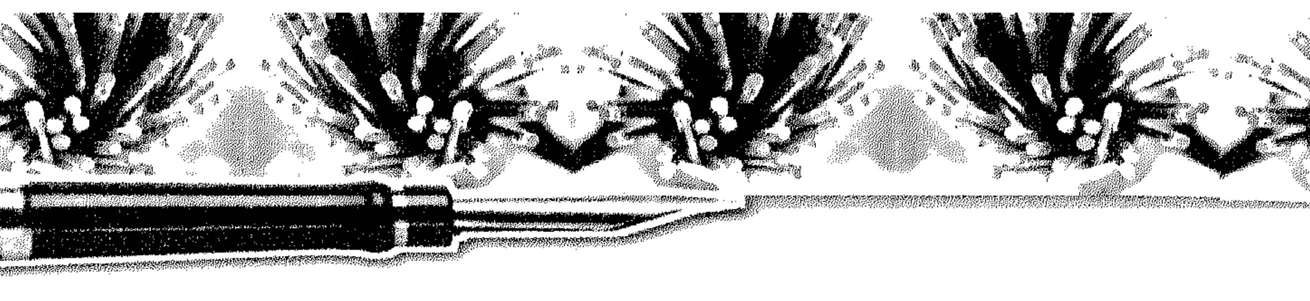
تركت حقيبتها على الأرض وأسرعت لتركع على ركبتيها امامه صائحة :

- ليس قبل ان تغفر لى ، جئت مقره بذنبى. اننى لم اقدر قدراتك ومواهبك.

رفعها ملتون عن الأرض:

- اخلعى ملابسك المبتلة واسرعى الى المدفئة وسآتى إليك بملابس أخرى . ■


كنت أشعر في مجتمعنا الذكوري
أننا مخدوعين من سلالة نسائية
أمينة رشيد
٢٠٦
محرم ١٤٢٣هـ - أبريل ٢٠٠٢م



- حفزتنى حكايات خالتى إلى تعلم القراءة بسرعة، فأصبحت الكتب هى فرحتى وملاذى، ومعلمى وصديقى.

كانت السياسة جزءا من حياة بيتنا، تهم الرجال والنساء معا، وكنت آنذاك أكرهها، تدريجيا تشكل عالمي المستقل ودخلت العمل الوطنى السرى، ثم انقطعت لمدة عن دراستى، وعدت إليها مرة أخرى، تاركة ورائى نضالى وحزن أمى وأبى الذى كان معتقلا فى قضية سياسية، قد يكون سببها أنه زوج لابنة اسماعيل صدقى رئيس وزراء مصر السابق .







أمينة رشيد فى مراحل سنية مختلفة

ولدت في أول يناير عام ١٩٣٨ ونشأت في بيت كبير بحى حلمية الزيتون أصبح الآن «مدرسة آمون ». أحتفظ بالكثير من الذكريات الجميلة لهذا البيت، لكن أيضا أكثرها قسوة، ظننت أنني استطعت أن أهرب منه، لكن مع مرور الزمن، أكثر فأكثر، أجده محفورا بداخلي.

كان البيت محاطا بحديقة واسعة مليئة بالشجر العالى وبكل أنواع الزهور، ومغطاة بنجيل كنا نجرى على خضرته ونلعب «الاستغماية» أنا وأمين، ابن خالتى بهية، كانت فوزية أخته، تكبرنا بست سنوات، وأخته الأخرى ملك وأخى اسماعيل، أصغر منا بأربعة أعوام، نتجاهلهم جميعا، أو يتجاهلوننا ، ونعتبر





الوالدة خديجة هانم صدقي مع الجد اسماعيل باشا صدقي

بيت حلمية الزيتون خاصة حديقته، مملكتنا الرائعة.

كانت تسكن البيت آسرتان، أو ثلاثة، أمي خديجة وأبي، إبراهيم رشيد، ونحن، خالتي بهية وزوجها وأولادهما، خالتي أمينة المطلقة بمفردها، لكنها كانت بصخبها الدائم ومرحها أحيانا، تكوّن أسرة بأكملها، أو بمعنى أصح تكون عالما له ملامحه المميزة، ففي بداية تكويني كان هذا البيت، وكانت تلك الأمهات الثلاثة: خديجة وأمينة وبهية.

في مجتمعنا الذكورى آنذاك (وربما حتى الآن!) كنت أشعر أننا نعيش منحدرين من سلالة نسائية، فأمي وخالاتي بنات إسماعيل صدقي، وكان هو صاحب بيت حلمية الزيتون، وأعاره لنا، وربما (رمزيا) صاحب مصير كل الذين يعيشون تحت سقفه، ولكن في الواقع كان الثلاثي النسائي يتحكم في كل تفاصيل الحياة، فالرجال يخرجون في الصباح إلى أعمالهم، والنساء أيضا يخرجن إلى ممارستهن للعمل الخيرى في «مبرة محمد على»، أمينة بحماس شديد، وخديجة بوفاء هادىء، وبهية بالتبعية لأخواتها فيما أظن!.

جذور الحزن والشعور بالوحدة

كان البيت منقسما إلى جناحين. جناح «الكبار» حيث يسكن أبي وأمي وخالتي بهية وزوجها، وجناح «الصغار» المخصص لنا ولخالتي أمينة، وربما كانت هذه التقسيمة قد غذت في نفسيتي الحزن





الوالدة خديجة هانم صدقي والوالد ابراهيم بك رشيد

والشعور بالوحدة اللذين لازما طفولتي بأكملها، لم تكن لي علاقة مباشرة مع أمي، كانت شغالة سودانية، دادا زينب، ثم مربية نمساوية، فرو لاين متسى، تشرفان على أموري من تغذية واستحمام إلى دروس المدرسة وبعض النزهات، وكنت أزور أمي في جناح الكبار، مرة أو بالكثير مرتين في اليوم، تقبّلني محتفظة بمسافة، تتفحص نظافة ثوبي وكيه، ضفيرة شعري الذي كان ناعما، كستنائي اللون وجميلا، تنظر إلى دفتر درجات الأسبوع، وتفخر بي، إذ كانت في الغالب جيدة، فأشعر أنني لعبة، عروسة كاملة الملامح، أرضي من حولي، ولم يفهم أي منهم كم من الشجن المبكر كنت أخزنه بداخلي.

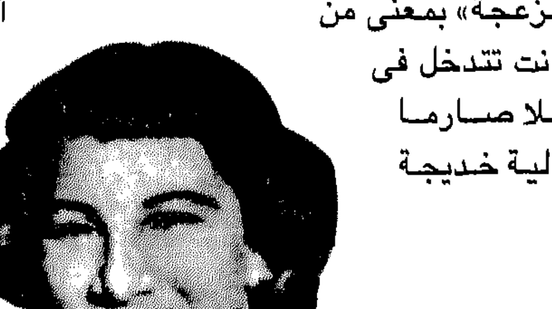
أما أبي فكان إله طفولتي، لم يكن يهتم بأمور التربية السليمة، بل يسرع إلى جناح الصغار تو عودته من عمله، مشعا فرحة بي، يداه مليئتان بالهدايا والحلويات. يحملني ويحضنني، ثم يتركني محبطة إلى عالمنا من الأطفال والخادمات والمربيات، كانت خالتي بهية الوحيدة التي تأتي لنا بانتظام، تجلس معنا .. وتقرأ لنا قصصا وتحكي الحكايات، لن أنس أبدا هذه اللحظات ولا الفرحة التي دخلت في حياتي من خلال روايات الآخرين، كان ينفتح عالم جديد في خيالي، وربما العالم الحقيقي الذي جعلني أنظر إلى واقعنا على أنه واقع زائف، فاتر وبلا معنى، وحفزتني قصص خالتي بهية إلى تعلم القراءة بسرعة كي

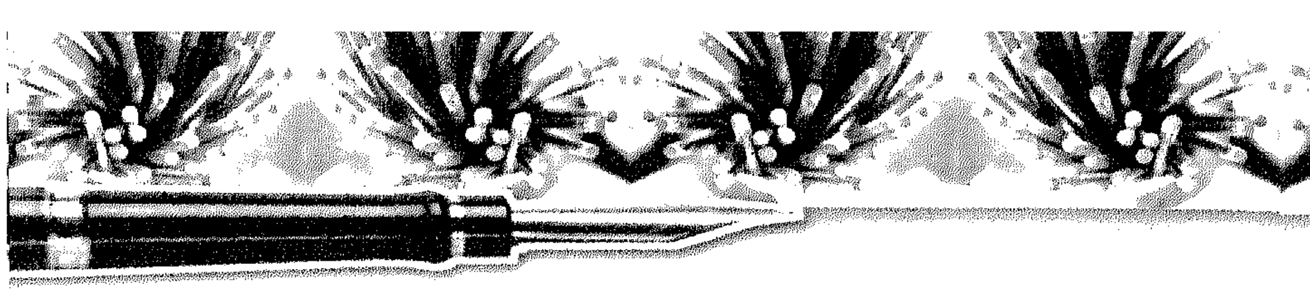
أستطيع القراءة بمفردى، ومنذ هذا الزمن استمرت الكتب فى حياتى فرحتى وملاذى، معلمى وصديقى، لاتتركنى أبدا إلا فى بعض لحظات اليأس المطلق.

أما أمينة فكانت حكاية هى نفسها. تزوجت فى شبابها من أمير ينتمى إلى الأسرة المالكة واكتشفت بعد سنة أو سنتين أنه «مثلى» وتزوجها طمعا لأنها ابنة إسماعيل صدقى. سمعته فى يوم يقول لصديق يسأله إذا كان قد وفق فى الزيجة الثرية التى كان يتمناها: غنى إيه؟ قالوا عليه استفاد من بناء كورنيش الإسكندرية واغتنى، لكن دول مجانين وبيرموا فلوسهم من الشبابيك! فطلبت الطلاق وعاشت معنا فى البيت الكبير، كانت جميلة ومندفعة، خفيفة الدم وسليطة اللسان، انغرست فى العمل الخيرى مواجهة كل تفاصيله الإدارية، وإنهاك سفرياته المنتظمة إلى الصعيد، وأحيانا مخاطره! فعندما غزا داء الكوليرا مصر، كانت تجوب قرى الصعيد مع فرقة أطباء وممرضات لتطعيم أهلها بلا أى خوف من العدوى المكنة، وفى أسيوط أيضا تعرفت على الشاعر عزيز أباظة الذى كان فى هذه الأيام محافظا للمدينة وتزوجته، ورغم أنها كانت «مزعجة» بمعنى من المعانى، إذ كانت تتدخل فى تربيتنا تدخلا صارما مهددة ليبرالية خديجة وبهية، عندما تركتنا لتتزوج بكيت كثيرا!.

صديقتى الرائعة

كانت لى صديقة وراء سور حديقتنا الرائعة لعبت دورا فى كسر الطبقية الشديدة التى كانت تعم حياة البيت الكبير. اسمها «مارى» وكانت ابنة بالتبنى لنجار وخياطة يونيانية بسكنان بجوارنا، وكانت بالفعل جنة حديقتنا محاطة بالبيوت الشعبية ، وتقع على شارع اسمه «شارع دار السعادة»، وأشعر أحيانا أن هذا التناقض بين القصر وفقر الجيرة عشش داخلى فى وجع لازمنى منذ الطفولة، وكان بيت النجار فى الحقيقة كوخا. يجمع أفراد الأسرة الثلاثة فى غرفة واحدة بها كل شىء: آلات النجارة وآلة الحياكة والسرير الواسع، كانت روائح كريهة تشارك حياة سكان البيت لم أستطع أن أميز بينها روائح الطبيخ، عن رائحة الملابس العطنة والرطوبة التى كانت تنبثق من الأرض، ولحم قطط ميتة! كانت أمى تسمح لى بزيارة مارى، رغم اعتراض أمينة وصمت بهية، لكن لم يكن لى حق دعوتها فى أعياد ميلادى كما لم يسمح لى بدعوة صديقات المدرسة (مانعرفش أصلهم ولا فصلهم!) كان يدعى أولاد أصدقائهم من الطبقات العليا الذين لم أشعر بأى انتماء إليهم، بينما كنت أحب مارى وكانت







امينة هانم صدقي وخديجة هانم صدقي في حفلة مبرة محمد علي ديسمبر ١٩٥١

تحبنى.

لم يكن الأمير زوج أمينة الأول مخطئا تماما عندما قال إن أسرتنا ترمى الفلوس من الشبابيك!، كنا ننفق الكثير، على البيت، على أنفسنا وعلى الآخرين (فكان منطق الأسرة ضرورة الاهتمام بالفقراء، رغم تفادى صداقتهم والظهور معهم فى الحياة الاجتماعية) ومع ذلك كانت أمى تخترق أحيانا هذه القاعدة، أتذكر أن جدى أعطى يوما لبناته تذكرة «لوج» فى الأوبرا (لم يكن يحب الخروج مساء) فدعت أمى صديقاتها المتواضعات الأصل. فاحتجت أمينة · إزاى تعزمى أصحابك الجرابيع فى لوج رئيس الوزراء! فكان ردها: لأن أصحابى التانيين بيروحوا الأوبرا عادى لكن دول لأ! وتأثر جدى بهذا الرد البسيط، الصادق، لابنته الكبرى، وربما المفضلة، رغم عشق أمينة له.

ديمقراطية جدى الديكتاتور

وقد تعلمت من جدى الذى عرفته الحياة العامة دكتاتورا طاغيا، بعض الدروس فى الديمقراطية! فكان يجيد العلاقة بنا، نحن الأطفال. لم يهتم بنا كثيرا، لكن عندما ينتبه لوجودنا كان يستطع أن يحدث فينا الإنسان لا الطفل الظريف أو المزعج، كما كانت تفعل اسرتنا فى الحياة اليومية. يكلمنا بمنطق الكبار، يأخذنى إلى الحديقة ويشرح لى طبيعة الشجر والزهور، يأخذنى فى «العزبة»، ونذهب معا لنرى الفلاحات يجمعن العنب فى أقفاص ويشرح لى معانى أغانيهن التى كانت تسعده كثيرا، وعندما سقطت الوزارة

بعد اتفاقية صدقى/ بيفن، وانزعجت من غضب أهلنا، شرح لى بابتسامته الدائمة، أنه قدم لشعبه ما رآه صحيحا، ورفضه الناس، وسوف يعود إلى حياته الهادئة، مستغنيا عن وجع القلب!

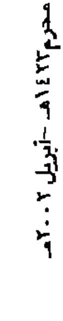
وعندما انتمى محمد سيد أحمد (متسو)، ابن خال أمي إلى الحركة الشيوعية، فى فترة اختبائه التى لم يكن أحد يعرف أين كان، سمعت هذا الحديث بينه وبين وحيدة، أم متسو، كانت تبكى، فسألها لماذا. فقالت لخوفها عليه، وأجاب: دا معناه إن ابنك راجل! فاستغربت أن يأتى هذا منه، القامع الأعلى للشيوعيين والمتظاهرين والمناضلين عامة، فأجاب أنا مش شايف إن الشيوعية صالحة لمصر، لكن شابا مستعدا لأن يموت لأفكاره فى سن العشرين. فى يوم هايكون راجل! أما بالنسبة لى ، فكان يحبنى حبا خاصا، كان يعجب بحسن أخلاقى، ونجاحى فى الدراسة، يرانى ذكية وجميلة، وفى يوم كنت فى سن العاشرة تقريبا، كان ينظر لى بحزن، فسألته أمينة لماذا، فأجابها: لأنى خايف عليها، هيكلوها! لم يكمل ولم يفهم أحد ما كان يعنى، لكن بعد ذلك بسنوات، عندما انتميت لليسار، وللشيوعية خاصة، رأت أسرتى فى جملة جدى تنبؤا!.

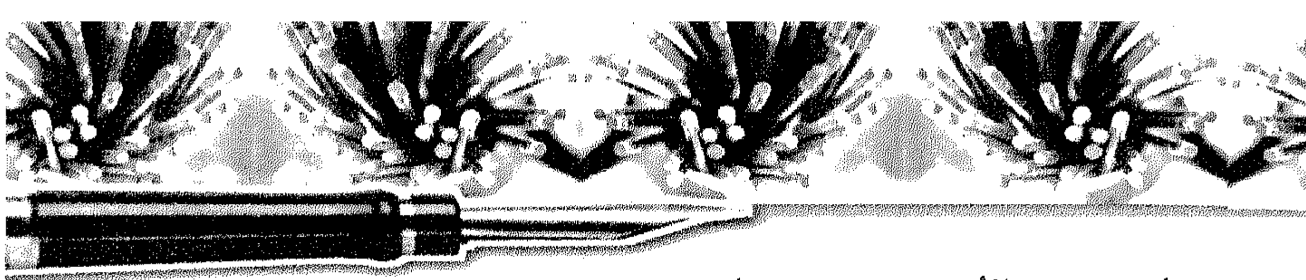
انفصام ثقافى

وكان انفصام آخر يميز أسرتنا وربما طبقة ملاك الأرض بأكلمها :

الانفصام اللغوى بين العربية والفرنسية، كانت النساء فى البيت، باستثناء بعض الجمل التى أشرت إليها، وباستثناء الكلام فى السياسة، يتحدثن بالفرنسية وكانت الفرنسية ليست فقط لغة الكلام، بل الثقافة والتاريخ، والموضة والفن، كنت أسمع كل شىء عن مأساة مارى - أنطوانيت ولويس السادس عشر أو عن منفى نابليون فى سانت - هيلانة، ولا أعرف شيئا عن التاريخ العربى، أسمع أغانى إيديث بياف وإيف مونتان، وعندما يسمح لأبى بأن يستمع لأم كلثوم فى سهرة الخميس، كانت النساء لايخفين نفورهن! وحدث أن غنت أم كلثوم فى بيتنا (إذ كانت صديقة للأسرة)، فنامت بهية على كرسيها ولم تفلت من سخرية الست : كده يابهية. أنا أغنى وانت تنامى!.

كانت السياسة جزءا عضويا من حياة بيتنا. تهم الرجال والنساء معا. وكنت آنذاك أكرهها! كنت أسمع أسماء تتكرر - النقراشى، النحاس حافظ عفيفى وغيرهم - تدور حولهم الكثير من الحواديت، وأحيانا المآسى كاغتيال النقراشى، ولم أفهم أبدا ماهى القضية، وبين السياسة والمبرة والسهرات شبه الليلية، فى الخارج أو فى بيتنا، بين النمائم حول حياة السرايا وحياة كبار الأسرة الإقطاعية،





كنت أفتقد دفء الأسرة وحميميتها، وأعتقد من خلال القصص والروايات أنها موجودة عند الفقراء، فمجدت الشعب قبل أن يدخل حياتى أى وعى سياسى، كنت أحلم بكوخ يجمعنى بأم تضمنى وتجفف دموعى، نجلس معا تحت مصباح مائدة الطعام وهى تشرف على واجباتى، وتطهو بيديها حساء الأمسيات الباردة. وأجد نفسى وحيدة فى غرفتى الجميلة ذات الأثاث الفستقى اللون، يسمح لى بالقراءة فى سريرى بعد إطفاء النور عند جميع أطفال البيت، ربما علاجا للفزع الذى كان ينتابنى مع غروب الشمس وتقدم الليل، هل كانت هذه المشاعر أول بذور انتمائى فيما بعد نحو بيئاتنا الشعبية من برجوازية صغيرة وريف، ونفورى حتى الآن من كل مظاهر الوصولية والتسلق الطبقى؟

أتذكر حدثا كان علامة فى طريق ابتعادى التدريجى عن مناخ بيتنا ، سمح لنا نحن الأطفال، أن نشهد من شرفة علوية سهرة موسيقية ليلية أقيمت فى حديقة البيت، كانت فى وسط الحديقة مساحة مبلطة للرقص، وحولها موائد مربعة للجلوس والعشاء وفى الخلفية بوفيه فخم بلاشك، وفجأة رأيت ضمن الراقصين أبى يرقص مع فاتنة شقراء، عارية الظهر فى ثوبها الأنيق. لا أعرف لماذا ذعرت من هذا المشهد، كنت فى الخامسة من عمرى ولا أعرف شيئا عن العلاقات بين الرجل



رحلة الي تركيا في المؤتمر البرلماني مع امينة نيازي

والمرأة، ووجدت نفسى، ووجدنى من حولى، أصرخ وأبكى وأحتج: لماذا يرقص أبى مع هذه الفاتنة، (وفى الغالب يحضنها)، ولا يرقص مع أمى؟ قامت أمى من مائدة كانت جالسة بجوارها، لتأتى وتشرح لى سلوك السهرات الراقصة: لاينبغى أن يرقص الأزواج معا، بل من اللائق أن يدعو كل رجل امرأة أخرى للرقص. لا أظن أننى اقتنعت بهذا المنطق، بل أراحنى صوت أمى الجميل وعيونها عسلية اللون التى كانت تبرق فيها أشعة من الذهب، لم أفهم فى تلك الأيام أنها كانت هى أيضا مغتربة فى سلوك بيئتها، تحب البساطة والتواضع، لكنها لا تريد أبدا الاعتراض على مايحدث حولها وتحاول دائما أن

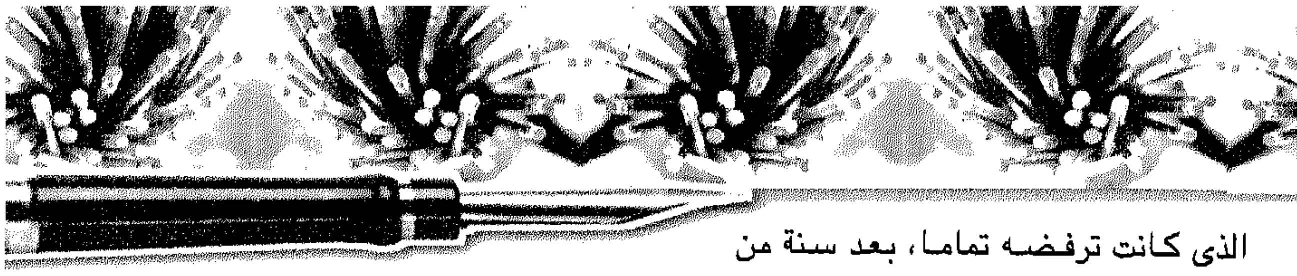
ترضى الجميع.

حادثة أخرى أكثر خطورة أثرت فى كثيرا، كنت فى العاشرة من عمرى، أو حول ذلك بقليل. كان أهلى قد أعطوا فرو لاين متسى مربيتى النمساوية إسورة من الذهب بمناسبة عيد ميلادى، وفى حفلة الغذاء التى أقيمت فى الحديقة أيضا، لعبت متسى بإسورتها مع قط كان يتقافز حولها، ثم استطاع القط أن يخطف الإسورة ويهرب بها. انزعجت متسى وأزعجت الجميع، فشرع الكل فى البحث عن القط الذى اختفى ولم يعد، وكان الشك أن أحد خادمى البيت وجده وسرق الإسورة، ثم أتت الشرطة لتحقق فى الحادث، وجاءت «بكلب البوليس» كلب ضخم وشرس، ورأيت كل خدم البيت، خمسة عشر تقريبا، مصطفين ومقرفصين فى الحديقة، والكلب ينتقل من الواحد إلى الآخر، وأحيانا يمسك بجلبابه ويمزقه، كنت مذهولة، كانت أسرتى فى الغالب طيبة مع الخدم، تسميهم الـ «عيلة» وتهتم بشؤونهم وشؤون أسرهم، أما هذا المشهد فكم وجدته مهينا ومؤلما! وتحولت القصة بعد ذلك إلى حدث سياسى، إذ تناولته مجلة «روز اليوسف» - فى إطار حملتها ضد النظام - مثلا على بذخ بيت إسماعيل صدقى حيث يعطى الذهب لمربيات الأطفال، وتلعب القطط بالسلاسل الذهبية بينما الفقر يعم البلاد. وأتذكر حتى الآن الكاريكاتور الذى يصور متسى تلاعب القط بالإسورة!.

فترة النضال الوطنى

كانت فى هذه الفترة، بين ١٩٤٧ و١٩٥٢، الحركة الوطنية والاجتماعية، فى أوج عنفوانها، المظاهرات تملأ البلاد وكثيرا ما كانت إدارة مدرسة الليسيه الفرنسية بمصر الجديدة - مدرستى - تعيدنا إلى منازلنا قبل اكتمال اليوم، أسمع الشارع يهتف «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» وأشعر أن أحداثا مهمة تجرى لم أكن أفهم كل دلالاتها، وفى يوم مشمس فى حوش المدرسة، كنت كعادتى منفردة بإحدى صديقاتى - لم أكن أحب الألعاب الجماعية - اقتربت منى مجموعة من التلميذات ورمتنى بالحجارة متهمة جدى بالخيانة، تألمت كثيرا ليس فقط لما جرى، فشعرت بإحساس مبهم بأن التلميذة التى كانت تتصدر المجموعة على حق، وأن صوتها يتماثل مع صوت الشارع منافيا لكل ما كان يقال فى بيتنا، منذ هذا الحدث دخل فى حياتى هذا الشعور بالذنب الذى استمر يلازمنى.

فى هذه الأثناء سقطت وزارة إسماعيل صدقى، وماتت جدتى، وأظهر جدى زوجته الثانية، ثم قرر السكن فى بيت حلمية الزيتون مع سونيا، وبناء عمارة على أرض الزمالك مكان الفيلاّ التى كان يسكنها مع جدتى، هذا المشروع



الذى كانت ترفضه تماما، بعد سنة من التشتت بين سكننا أنا وأخى مع جدى وزوجته الثانية، بينما استقر أبى وأمى مؤقتا فى فندق «متروبوليتان»، (كوزموبوليتان» الآن) انتقلنا إلى الزمالك فى شقة من الشقق التى كرسها جدى لأبنائه وبناته، تركت الحديقة الرائعة وسافر أمين، ابن خالتى، رفيق الطفولة، مع أهله إلى الخارج (كان على مرعى زوج بهية يعمل فى السلك الدبلوماسى)، دخلت فى سن المراهقة، وتغيرت حياتى تماما.

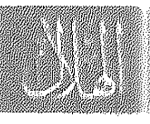
فى الزمالك، من شرفتنا المطلة على النيل، كنت أسمع عن قتال الفدائيين فى منطقة القناة، ومن الزمالك أيضا شهدت لهب حريق القاهرة. بدأت متابعة الأخبار، من بعيد إلى حد ما. فكانت القراءة مازالت تشغل كل أوقات فراغي، أصنع شرنقة تحميني من توترات الخارج والداخل: فى الخارج يشتد الصراع الوطني والطبقي، وفي الداخل يصعد القلق أمام التغيير الحتمي، وتصعد أيضا المشاجرات بين أبى وأمى، هو ينفق بلا مبالاة وهى مسئولة إلى أبعد الحدود، يشترى الملابس والهدايا، وينفق على السهرات، وهى تعيش بين المبرة وأخواتها، تلبس نفس الثوب على مدى الفصول، لاتبكى أبدا، وعندما يقتحمها الحزن، أرى ذقنها ترتعش وعيونها الجميلة ترغرغ بلا دموع.

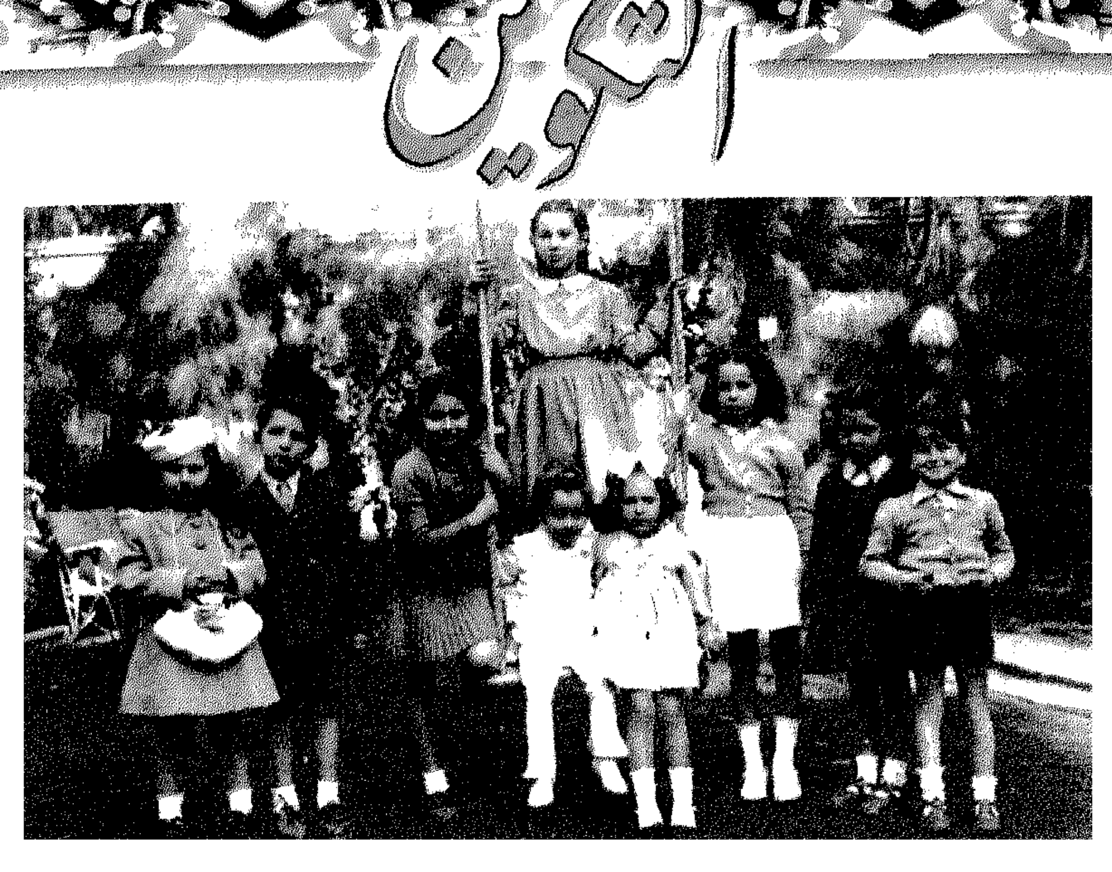
اليسار كان اختيارى الصعب

تدريجيا تشكل عالمى المستقل، صداقات حميمة فى المدرسة، ثم فى الكلية، ليلى الفار وهناء موسى، نهى الروبى، وفيفيان هرارى، ثم سهير عبدالوهاب، رحمها الله، سيزا قاسم ووحيد النقاش، وموازيا لهم انتميت للجزء اليسارى من أسرتي ودخلت فى العمل السرى، أترجم منشورات، أخفى كتبا وكتابات، أشترى تذكرة طائرة لرفيق، سوف يستبدلها فيما بعد للسفر إلى دمشق، أساهم فى إخفاء إنجي أفلاطون، أشعر بفخر وسعادة، إذ كنت أساهم فى بناء عالم جديد وتغيير قيم، أحلم بالمساواة بين البشر، أحب الاستراتيجية وأنفر من التكتيك! وأيضا تنتابني لحظات الرعب، فلا أنسى أبدا شتاء ١٩٥٩ القارس، شتاء اعتقال الشيوعيين وبداية الحملة الوحشية ضد



خديجة هانم اسماعيل صدقي والدة أمينة رشيد



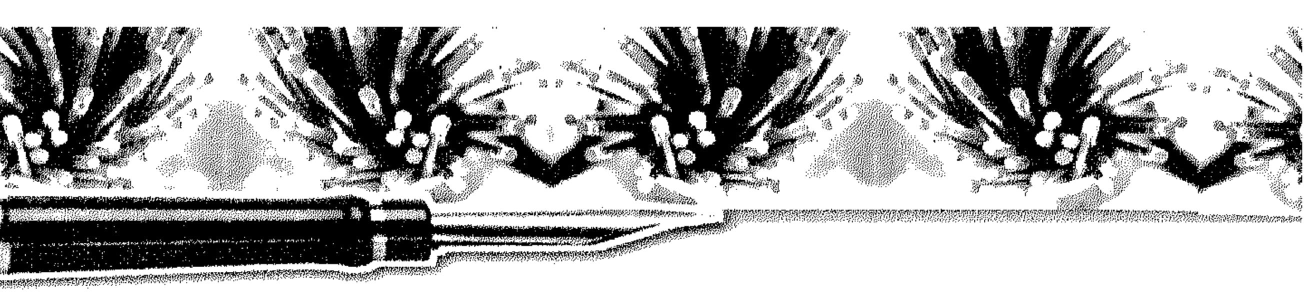


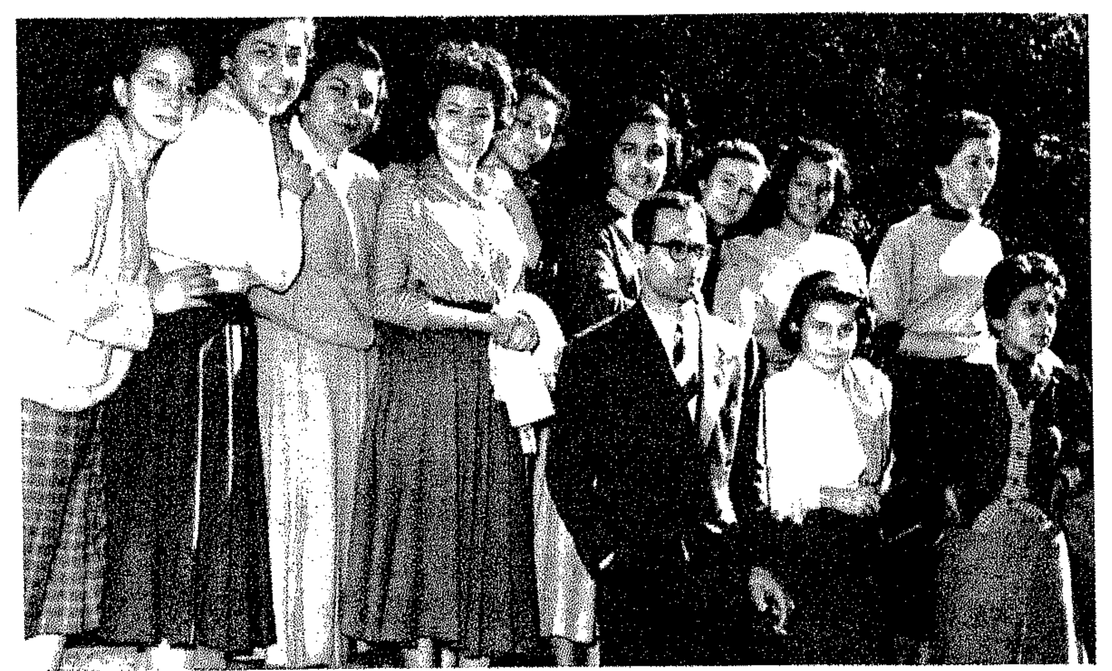
في الاحتفال بعيد ميلادها العاشر في بيت الزيتون

اليسار، الأتوبيس الفارغ فى أنصاف الليالى وأنا أقوم بمهامى السرية ولا أعرف إذا كنت أرتعش من البرد أو الخوف.

عندما قامت حركة الضباط الأحرار - أو ثورة ١٩٥٢ كما سميت - كنت على وشك الانتهاء من دراستي الثانوية، التى تمت فى ١٩٥٤، فى بداية ١٩٥٤ أيضا قررت الانتماء إلى الماركسية، منهجا للثورة وللحياة، لم أنم فى تلك الليلة - ليلة اختيارى هذا! - التى مازلت أتذكر تاريخها : ٣ مارس ١٩٥٤، كانت أوضاع أسرتى قد تدهورت نتيجة للإصلاح الزراعى، وخاصة وضع أبى وأمى، إذ لم تكن لأبى ملكية خاصة أو عمل ثابت مثل زوجى أمينة وبهية، وانقسمت حياتى من جديد إلى نصفين : نصف سعيد بوعد التغيير ونصف يشاهد انهيار من أحبهم، وبصراحة كان انتمائى الأساسى للنصف الأول، رغم المثل التى أعطته لى شجاعة أمي وتحملها لكل الظروف السيئة التى مرت بها، ولا أنسى جملتها فى وسط معاناتها: إحنا استفدنا كتير والناس فى بلدنا مظلومة، هل استفادت الناس حقا بعد ذلك؟

أثناء دراستى الجامعية عشت إحباطا آخر: إلغاء الحريات رغم إنجازات «الثورة» . اشتركت فى مظاهرتين فى الجامعة، الأولى احتجاجا على إقالة النابلسى، الوزير الوطنى فى الأردن، والثانية رفضا





امينه رشيد في مدرسة موران الفرنسية بالزمالك ١٩٥٣

لتعذيب المستوطنين الفرنسيين لجميلة بوحريد، المناضلة الجزائرية، كانت حكومتنا مع القضيتين ورغم ذلك قمعت المظاهرتين وفصل بعض قادتها من الجامعة لمدة سنة أو سنتين، لا أتذكر، وعندما حدثت حركة مطاردة اليسار فى ١٩٥٩، فقدت ثقتى تماما بثورية النظام التى لم أفهم إنجازاته إلا بعد ذلك بسنوات ، عندما حدثت الانهيارات الأخرى.

كيف أنسى وطنى ؟

رغم نشاطى الذى استمر سريا، كنت قد عينت فى جامعة القاهرة، مدرسة لغة بقسم اللغة الفرنسية وآدابها الذى مازلت أعمل فيه حتى الآن.

وفى ١٩٦١ حصلت على بعثة للدكتوراه فى باريس. انقطعت لمدة عن كل هذا لأندمج فى الدراسة، تاركة من ورائى نضالى وحزن أمي وأبى المعتقل في قضية جاسوسية، (وربما كانت تهمته الأساسية أنه زوج لابنة إسماعيل صدقى)، وأخى إسماعيل الذى تحمل بمفرده كل متاعب أبوينا رغم صغر سنه آنذاك، تركت أصحابى، ومازلت أتذكر بكاء سيزا قاسم فى المطار وهى تودعنى مع مجموعه أصدقاء الدراسة (فالآخرون كانوا فى السجون!)، وبعد سنوات من الابتعاد جاءنى كارت عتاب من وحيد النقاش . هل نسيت هذا البلد الذى كم كنت تحبينه؟. ولم أبعث له الجواب المخزون فى كيانى: كيف أنساه، ياوحيد، وهو محفور بداخلى؟. ■

حول الظواهر الخارقة

من الثابت ان الأحلام التنبئوية - والتى اشار الاستاذ الدكتور رجب البيومى إلى بعض امثلتها فى عدد فبراير الماضى أو الاحلام التى تتحقق فى الواقع أو تشير إلى المستقبل القريب أو البعيد بصورة واضحة وقاطعة ترجع إلى قدرة خارقة وموهبة ذاتية تتمثل فى نوع من الشفافية، وتتمثل هذه الشفافية فى قدرة بعض الأشخاص على إدراك الأشياء التى لا يمكن إدراكها بواسطة الأجهزة الحسية العادية، وهذا يمثل بدوره قدرة غير عادية وشفافية يتمتع بها صاحب الحلم.

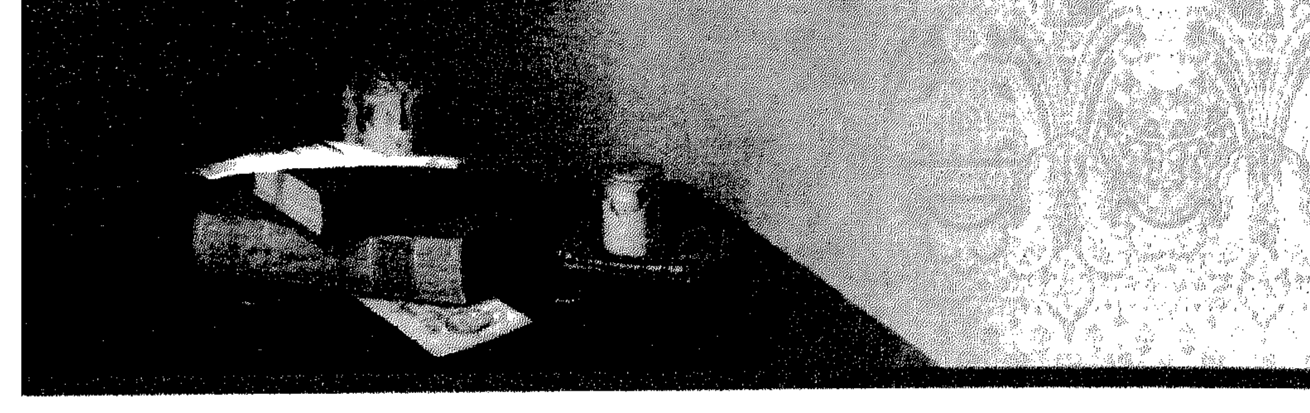
كما ان تفسير الأحلام التنبئوية من خلال منظور إسلامى إنما يرجع إلى الكشف ويكون بنور يقذفه الله فى القلب أو كما يقول الامام ابو حامد الغزالى: سريان نور الإلهام الذى يكون بعد التسوية ، أو بعبارة أخرى رفع الله للحجب عن قلب الإنسان وعقله حتى يكون مستعداً لتلقى الحقائق، وهذا الكشف هو الإدراك الوجدانى المباشر، وعجائب الرؤيا الصادقة ينكشف بها الغيب.

وفى عدد الهلال أكتوبر سنة ١٩٧٥ أجرى الاستاذ عاطف مصطفى تحقيقا صحفيا عن «احلام تحققت فى حياتهم» مع نخبة من الصحفيين والكّتاب والأدباء: فكرى اباظة، ودكتور إبراهيم بيومى مدكور، وإبراهيم المصرى، وصالح جودت، والدكتور عبدالعزيز كامل، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور رءوف عبيد، وتبين من أحلام هؤلاء الأعلام انها احلام تنبئوية كشفت عن المستقبل وتحققت فى حياة أصحابها.

وفى حياة مفكرنا الكبير عباس محمود العقاد صفحة مطوية عن تجاربه الشخصية فى الإدراك فوق الحسى أو الكشف الصوفى فى حياته الروحية.

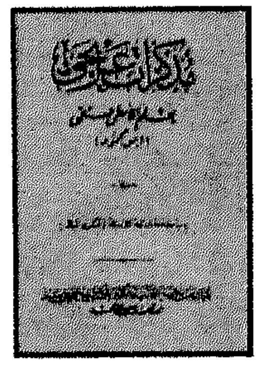
ولكن فى كتابى د. عبدالمحسن صالح «الإنسان الحائر بين العلم والخرافة» ود. فؤاد زكريا «التفكير العلمى» نجدهما يحملان حملة شعواء على كل خوارق البشر والعادات وينكران كل الظواهر الخارقة.

عمرو عبدالمنعم حمودة
كفر الزيات - مصر



• مذكرات عريجى لفكرى اباظة

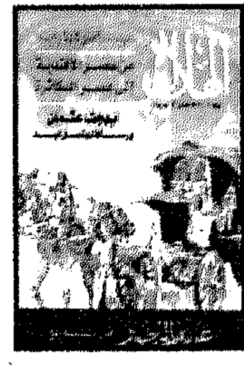
بمناسبة مقال «فكرى أباظة».. أوراق مطوية فى تاريخ الصحافة «والمنشور فى هلال فبراير ٢٠٠٢م من هذه الأوراق المطوية، أن كتاب مذكرات عربجي.. والذى قدمه الدكتور محمد رجب البيومى فى عدد يوليو ٢٠٠١ من الهلال.. هو من تأليف فكرى باشا أباظة، وقد نشره بدون توقيعه نرجو لمن لدبه أيه معلومات موثقة فليرسلها إلى الهلال لنشرها .



السفير شكري فؤاد
القاهرة

• كتاب يتناول فكرى اباظة

سعدت كثيرا بما كتب فى هلال فبراير الماضى عن شيخ الصحفيين فكرى باشا أباظة.. وسعدت لعمل رئيس التحرير معه لمدة طويلة بدار الهلال ابتداء من ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٧٩.



ومن حسن حظى أننى أسكن بالقرب من ڤيلا أباظة بمصر الجديدة.. وتمنيت أن تظل على هيئة متحف يضم كل ما يخص هذا الصحفى الكبير.

ولتكريم هذا الرجل نرجو أن يعد كتاب عن حياته وتاريخه الحافل فى الصحافة والبرلمان.

محمد طلعت أبوزيد -القاهرة
مصر الجديدة

• انشاء قسم لعلم القبطيات بالجامعة

جذب انتباهى مقال د. رشدى سعيد فى هلال مارس الماضى بعنوان «ندوة عن وادى النطرون».. وضرورة إنشاء قسم لعلم القبطيات.. وكانت الهلال قد نشرت مقالا مهما فى

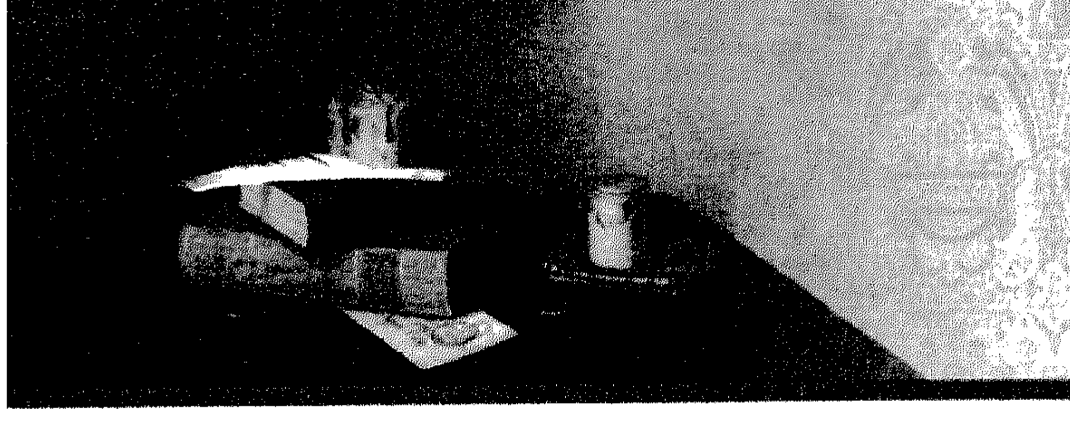
اغسطس ٢٠٠١ عنوانه «وادى النطرون أشهر المعالم المسيحية.. فى مصر والعالم».. والهلال تستحق الشكر لالقائها الضوء على قضايا مهمة حول أديرة وادى النطرون التى حفظت التراث القبطى على مدى سبعة عشر قرنا من الزمان، ومنها انتشرت الرهبانية إلى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والغرب الأوربى، ودور الرهبان فى نسخ المؤلفات النادرة أو اقتنائها والعناية بالأيقونات والحفاظ عليها، وكذلك المخطوطات باللغة القبطية.

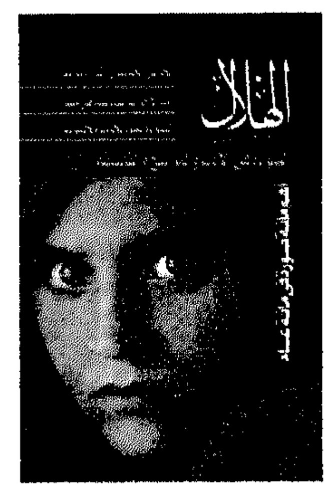
ولذلك فإننى أضم صوتى الى ما أشار اليه د. رشدى سعيد من ضرورة انشاء قسم لعلم القبطيات بالجامعات اللمصرية لكى نهتم بهذا التراث المهم خاصة أن لدينا مناطق منسية لابد من التنقيب والبحث فيها ومن بينها منطقة «البجوات» بالوادى الجديد فى الواحات الخارجة حيث تضم تلك الأماكن العديد من أطلال الكنائس القبطية التى تحوى نقوشا ورسوما رائعة.. وهذه الأماكن تعد مناطق جذب للسياحة.

د. صمويل لبيب سيحة
المنيا

• أفغانية تأسر عيون العالم!

فى عام ١٩٨٥ التقطت عدسة المصور الشهير ستيف ماكورير صورة الطفلة الأفغانية اليتيمة «شربات جولا ١٢ عاما» داخل معسكر «نصير باج» اللاجئين بعد أن راح والدها ضحية الهجوم السوفييتى عام ١٩٨٤، لم يستطع «ماكورير» التخلص من سحر عيونها الخضراء فجال كل مكان للبحث عنها.. ليجدها عام ٢٠٠٢ متزوجة . وأما لأربعة







أطفال فى الثلاثين من عمرها.. ولكن لاتزال عيونها تشع جرأة وتحديا..
وإن كان وجهها قد هرم من هول ما رآه من حروب وأهوال وبؤس

«الهلال» نشرت صورة شربات فى عددها الصادر فى يناير ٢٠٠٢
وها هى تنشر صورتها بعد مرور ١٨ عاما على التشرد والخوف المزوجين
بالتحدى والإصرار على البقاء!

• الشيخ محمد الغزالى

أثناء إلقاء أحد البحوث المهمة فى مهرجان الجنادرية بالسعودية فى ١٠
مارس ١٩٩٦، صعدت روح المفكر الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى.

والشيخ الغزالى ولد فى إحدى قرى القليوبية سنة ١٩١٧م وحفظ القرآن
فى سن مبكرة وتخرج فى الأزهر الشريف عام ١٩٤١.

وقد حمل لواء الدفاع عن الإسلام و الإشتغال بقضاياه لما يقرب من

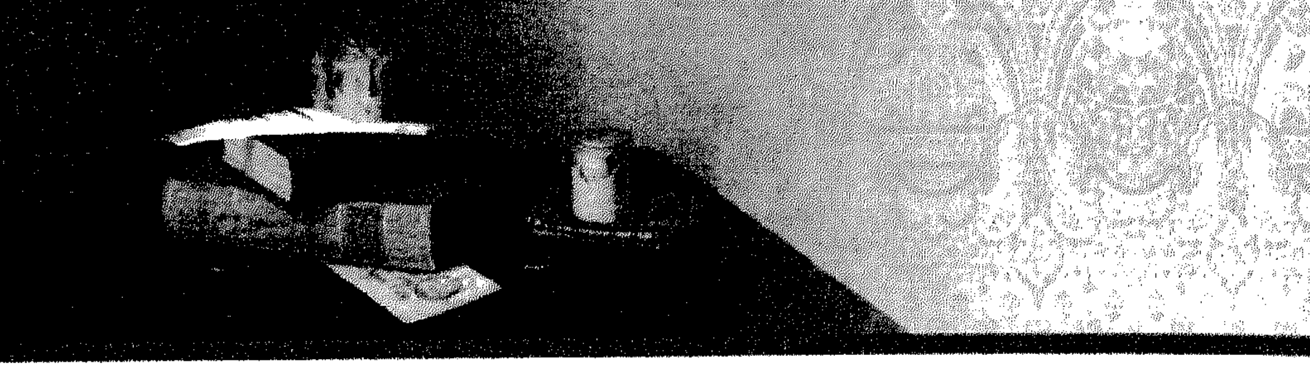


سبعين عاما، آلف فيها حوالى ٥٧ كتابا من آشهرها «قصة السيرة».. «نحو تفسير موضوعى للقرآن الكريم»، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة..

«مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية»..

كان أبرز ما تناوله الشيخ الغزالى ضرورة إعادة ترتيب للعقل الإنسانى المعاصر حتى يتمكن من تحقيق النظرة الكلية للأشياء، والقدرة على تحديد المشكلات، وتطوير وسائل الدعوة إلى الله بما تقتضيه الحال.

رجب عبدالحكيم
القاهرة - المعصرة



الربيــع

تلألأ الضوء فى وجه الزمان وقال	هذا الربيع كسا الأشجار من حلل
فيهتف الطير فوق الغصن مبتسما	ويورق الغصـــن أوراقا من الجنة
ما أبدع الكون والألوان تغمــره	تطيب الكون من تلك العطور فما
ويسمع الطير أوتــار أفئـــــدة	ما أبـــدع الله فـــى آلائه حـــكم
فسبح الله فى أحجــاره النمـــل	نــرى الربيـــع وقد عمت حدائقنا
ما أروع الحق والايمان ان نظرت	هذا الربيـــع القـــادم الفتـــان
وألبس الورد ألوانـــا فألـــوان	فتسمـــع الصوت ألحانا فألحان
كأنهـــن ياقـــوتا ومـــرجان	والورد صفـــق مثل الطير فرحان
أمست بقاع إلا فيها ريحـــــان	ويسمـع البحر شكوى فيها ظمآن
كـــان كل الدنـــا تهتف بإيمان	وقـــدس الله تحـــت المـــاء حيتان
بهجة ونرجس كل فيها وسنـــان	عيـــن اللبيـــب بـــلا زور وبهتان

أحمد نادى عبدالرحمن

تنـــويـه

بورتريه للدكتـور محـمـد شـفـيق غـربال بدلا من الصـورة التى نشـرت بالعـــدد الماضى من الهـــلال خطـأ، وكـــانت للمـــلاكم شـــفـــيق غـــربال..

د.محمد شفيق غربال

الملاكم شـفـيق غـربـال



نافذة.. لم تؤرخ حلمي

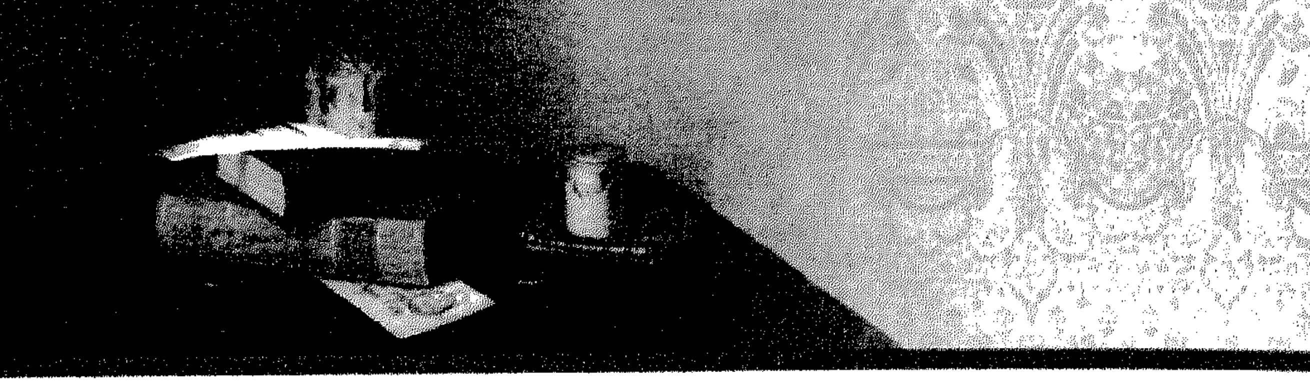
أخبرني أحد تلاميذ الخنساء:
كنت بسوق (عكاظ)
أبتاع حمامي الزاجل
للغرباء..
كنت وضيعا جداً
أنتعل البؤس..
الفاقة..
أسرق أبيات الشعراء
فرأيت (النابغة الذبياني)..
يطل علينا
من قبته الحمراء
أقسم للدنيا برب الكعبة
أن الشعر فتاة حسناء
من غازلها بالألفاظ
وأحرق وجدان الشوق..
بترنيم الأشذاء
فسيصبح في البادية
أمير الصبو..
يزاحم قامات العظماء

عبدالناصر أحمد الجوهري
دكرنس - دقهلية

ذبت اشتياقا

تعال لنرفض هذا الزمان الغضوبا
تعال لننسى المتاعب ننسى الهروبا
وننحـــر كل المآسى .. نزيل الكروبا
هواك أنـــار الفؤاد أنار الدروبـــا
تعـال لنفن اشتياقا إلى أن نـــذوبا
نهيم احتراقا ونحيا غراما دءوبـــا
ونلثم عطراً جميلاً رقيقاً طروباً

محمود المصلي



إلى الأصدقاء

● مينا عبدالمسيح - العتبة: نريد أن تحدد بوضوح المقصود بنقدك لبعض المترجمين، وخاصة هناك اساتذة جامعيون لهم باع طويل فى هذا المجال.. وتشير إلى إخفاقهم فى ترجمة بعض الكتب، خاصة من الألمانية إلى العربية.

● عمرو عبدالمنعم حمودة: وصلتنا رسالة غير واضحة عنوانها «الأقباط.. الوجه الآخر».. برجاء إرسال الأصل، حتى يتسنى لنا نشر الرسالة بشكل جيد .

● أبو عربان السيد محمد علي - مدرس ابتدائى - سوهاج - المراغة قرية العمور ننشر له خواطر بعنوان «مشتاق» يقول فيها:

ظمأ البرارى يعانقنى　　صوت الذئاب والأسد يرعبنى

لقطرة ماء من يداك　　فأين أنت وأين حماك

وبالطبع فالشعر يحتاج إلى قراءة مستمرة وموهبة فضلا عن دراسة لبحور الشعر، ليتمكن الشاعر من تملك ناصية هذا الفن الجميل والصعب جداً!

● كما وصلتنا هذه الأرجوزة من الصديق سعيد عبدالقوى - محمد - بنى سويف يقول فيها:

طه عميد الأدب

قد حزت أعلى الرتب

كافحت شر الظلم

بالصبر أو بالدأب

حولت عتم الدجى

نورا لدنيا الأدب

●● أما الصديق صلاح جميل سعد من غزة - فلسطين فيرسل لنا قصصا طويلة، ونطلب إرسال عمل واحد متقن، وأيضا يحدد لنا مطلبا واحداً، أى كتابا معينا وسوف نحاول إرساله على عنوانه:

الكلمة الأخيرة



إنهم يردمون النيل!

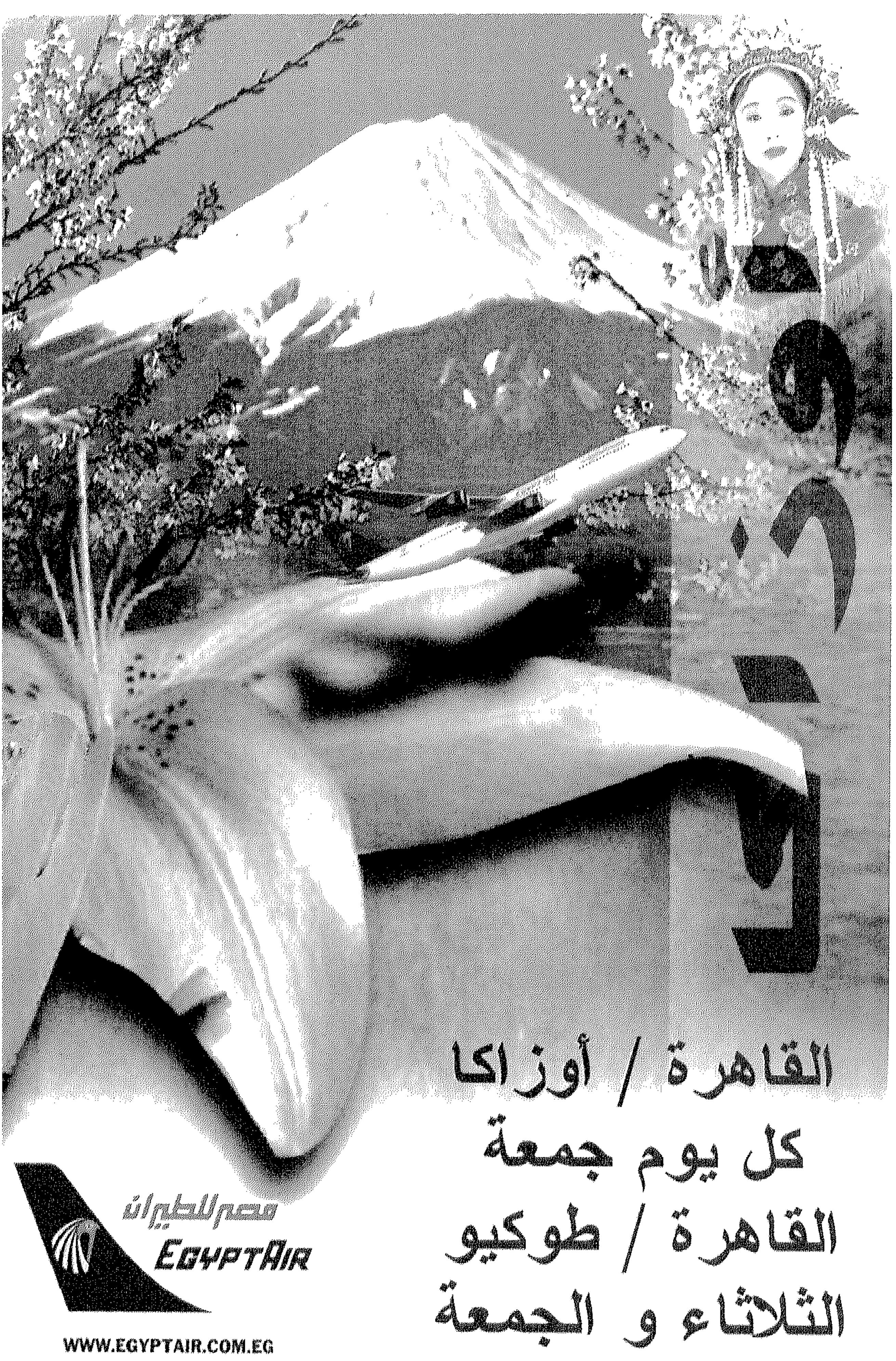
بقلم: د. رشدى سعيد

فى جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ أول مارس سنة ٢٠٠٢ تحقيق صحفى مزود بالصور كتبته مرفت الحصرى تحت عنوان «إنهم يردمون النيل» اسمح لنفسى أن استعيره عنوانا لهذه الكلمة جاء فيه أن وزارة الرى والموارد المائية تقوم بتخليق جزيرة وسط النيل فى منطقة المعادى بجوار القاهرة أمام مبنى المحكمة الدستورية العليا باستخدام أكبر آلات تحريك الأرض لإقامة الأحواض بداخل النهر ثم شفط المياه منها وردمها بعد ذلك واحاطتها بحائط من الحجر الجيرى وتقوم الوزارة بتخليق هذه الجزيرة لسبب لم تفصح عنه وبهمة كبيرة لم يعلن عن دوافعها وموقع النيل عند هذه المنطقة تعرض لاعتداءات خطيرة فقد تم ردم جزء من شاطئه الشرقى لإقامة مقهى بداخل النيل كما تم بناء هيكل خرسانى بارتفاع دورين شمال هذا المقهى وبداخل النهر يبدو أن استكماله قد أوقف.

ولم تنشر وزارة الرى خبر بناء هذه الجزيرة كما أنها لم تعط الصحافة أو أى من المهتمين بشئون النيل أو البيئة نتائج دراساتها عن الأسباب التى جعلتها تبنى هذه الجزيرة أو عن آثار بنائها على هيدروجرافية النهر وبيئته إن كانت هناك ثمة دراسات.

ويلفت النظر هنا أن ردم النيل وتقليص مجراه وبناء المنشآت الخرسانية بداخله هو من الأمور الشائعة التى كادت أن تحجب رؤية النهر وأن تمنع الوصول إلى شواطئه وقد خبرت ذلك بنفسى عندما حاول مخرج برنامج «أبناء نهر النيل» الذى تعده وتقدمه الدكتورة أميمة كامل أن يصورنى وخلفى النهر فقد جاب معى النهر على طول مدينة القاهرة فلم نجد مكانا نستطيع فيه الوصول إلى النهر إلا من خلال ممر صغير ترك للوصول إلى مرسى المراكب التى تعبر النيل عند المعادى.

كما يلفت النظر أيضا أن كل هذه التجاوزات المخلة بالقانون وبحقوق الشعب تحدث بواسطة الأجهزة الحكومية أو برضاها وأن أكبرها حدث بجوار مركز شرطة المسطحات المائية التى يفترض أنها وجدت لحماية النهر من التعديات عليه وأنى أترك القارئ لكى يتأمل هذه الحقائق ليشاركنى فى المطالبة بإيقاف هذه الاعتداءات السافرة والتى تنتقص من حق جميع المواطنين فى المشاركة فى هذا النهر الذى يعيشون فى ظله والذى ينبغى أن تكون شواطئه ملكا عاما للجميع!


القاهرة / أوزاكا
كل يوم جمعة
القاهرة / طوكيو
الثلاثاء و الجمعة
مصر للطيران
EGYPTAIR
WWW.EGYPTAIR.COM.EG

الهلال

المثقفون وضمير العالم

مايو ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات





مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل رئيس التحرير

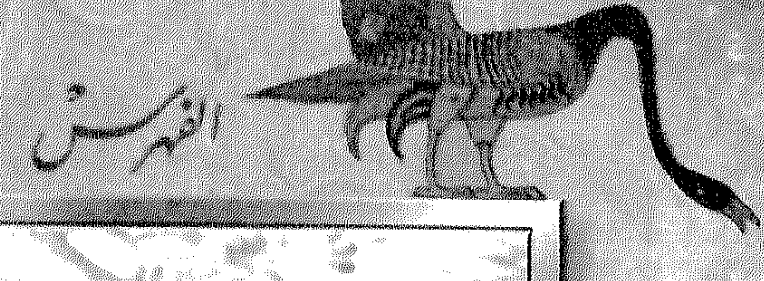
محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى/ أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال- تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.



الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة
صفر ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م



الأبواب الثابتة

عزيزى القارئ

المثقفون وضمير العالم

.. وكأن بداية الألفية الثالثة، جاءت لتنبىء من جديد، وبعد مرور قرن كامل، بأن الصراع العربى الإسرائيلى مازال مستمرا، بل ولن يتوقف .. أشعل الشرارة شارون عندما بدأ بالاعتداء على المسجد الأقصى أولى القبلتين، وثالث الحرمين، والذى مازال يحاصر كنيسة المهد، المكان المقدس الذى ولد فيه السيد المسيح والتى تحفظ أصداء نشيد الملائكة بيوم ميلاد المسيح.

ومع التصعيد الخطير، وقتل الفلسطينيين الأبرياء، وتدمير الأخضر واليابس لهذا الشعب العربى المسلم، الذى دفع الكثير من أرواح أبنائه، وكأنه كتب عليه البؤس والشقاء على مر التاريخ .. وانطلقت مسيرات المثقفين فى كل أنحاء العالم تعلن الغضب فى بلادنا العربية وفى أوربا .. فى افريقيا وآسيا، وكأن المارد خرج من القمقم يعلن عن رفضه للعنصرية والبربرية والقتل الجماعى، وتدمير مابناه الفلسطينى فى سنوات قليلة، ظن أن الأمن آت وأن حلم الأمان بات قريبا!

وفى الوقت الذى رأينا فيه عرفات رمز نضال الشعب الفلسطينى لايحميه من القوى الغاشمة، سوى إيمان مطلق بقضيته العادلة، وجدران غرفة وحيدة يحتمى فيها هو ونفر من صحبه بلا ماء أو كهرباء أو حتى دواء، جاء المثقفون وأحياء السلام فى العالم يقفون دروعا بشرية أمام الآلة العسكرية التى دمرت مخيم جنين، ودفنت تحت أطلاله المئات من الأطفال والشيوخ والنساء ورجال المقاومة الباسلة، الذين تشبثوا بالأرض حتى آخر طلقة من بنادقهم العتيقة!

.. جاء سوينكا وساراماجو وغيرهما ليعلنوا أمام العالم المتحضر تضامنهم مع شعب يضيع حقه، فى وقت تخلى عنه أقرب الناس إليه، وبرغم الوعود والعهود لم نعد نسمع سوى تصريحات هى أقرب إلى الشجب والاستنكار إياه .. الذى تعودنا عليه — ووعد بمساعدات مادية وعينية تصل بإذن الله حينما توافق إسرائيل على ايصالها للشعب الفلسطينى، وربما بعد موت الأطفال والشيوخ جوعا أو بسبب نقص فى الدواء، أو تركهم ينزفون بعد اطلاق نيران مدافعهم الثقيلة من الدبابات والمجنزرات، وكأن هذا الإنسان الفلسطينى خلق جسمه من فولاذ لاتخترقه سوى مدافع إسرائيل، وصواريخ

تطلقها الأباتشي وإف ١٦ وإف ١٥ وهذه الأسلحة كلها أمريكية الصنع.

وقامت المظاهرات الغاضبة في كل مكان تستنكر تلك الجرائم الوحشية ولكن هل المظاهرات وهل الاستنكار والدعاء في المساجد بأن تنتقم العناية الإلهية من إسرائيل كاف .. والجواب : لا! فإسرائيل لاتخيفها المظاهرات ولا الشعارات ولا الهتاف المنظم والذي هو في الواقع ظاهرة صحية صحونا عليها مؤخرا.

والمطلوب منا هو أن نعلم كيف خططوا لذلك، وماهي نهاية هذا المخطط لإذلال شعب فلسطين، والمحاولات التي نستشعرها باستدراج شعوب بعينها من بينها مصر للدخول في حرب، ولتصبح تلك الدولة التي تدخل معها في حرب هي القضية الأولى التي تشغل العالم، وتصبح قضية فلسطين قضية أخرى .. بل تصبح نسيا منسيا!

لقد بدأ العالم يستشعر أن إسرائيل ليست وحدها وراء مخططها الشيطاني الرهيب، وفي المقابل فنحن كعرب لسنا قلة، فلدينا الرجال الأشداء، ولدينا المال العربي الذي أودعه العرب في بنوكهم يستثمرونه ويسلحون به جيوشهم ونحن لاحول لنا ولاقوة!

ولدينا العقول العربية التي يمكن أن تبتكر، ونصبح في مصاف علمائهم.

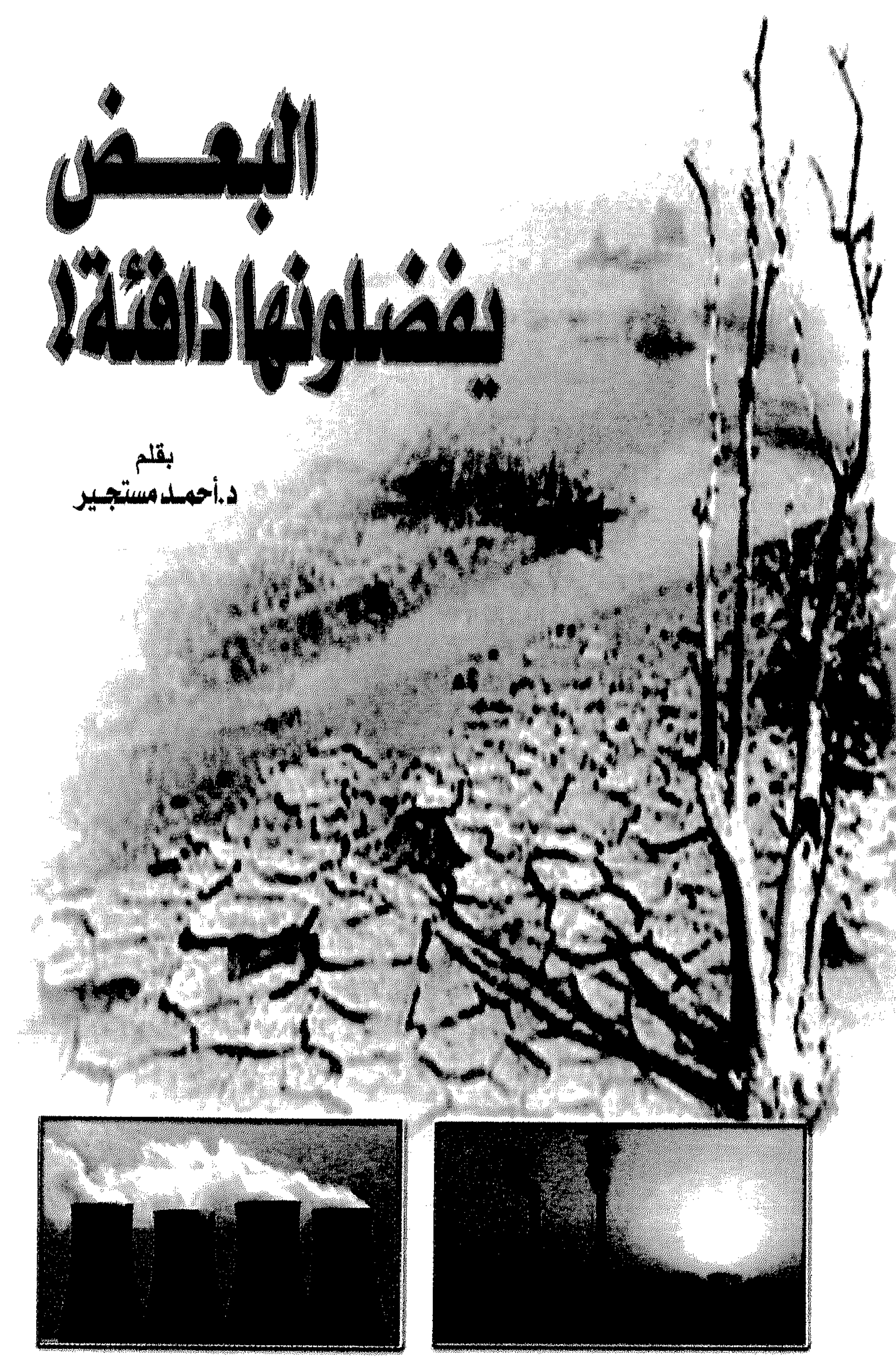
إنها حرب طويلة بين العرب وإسرائيل، ربما في بعض الأحيان ليست حربا نظامية، ولكنها حرب تطول العرب في كل مكان، وهنا لابد أن نغير من استراتيجيتنا، ونعي الدرس جيدا، ونعلم أننا هزمناهم في معركة ١٩٧٣ بالعلم وقوة العقيدة.. فما بالنا لو أدركنا بقية منظومة الوحدة والتوحد.

إن المستقبل غامض، لكن يبقى الأمل، وسوف ينتصر الفلسطينيون أصحاب الأرض، كما انتصر أجدادهم من قبل عمر بن الخطاب، وصلاح الدين.. وستظل الحضارة الإسلامية شامخة تعلم هؤلاء النازيين الجدد، أن التاريخ والجغرافيا يقولان إن فلسطين أرض عربية، ولكن بشرط أن نعي الدرس الذي تكشف على الملأ وبشكل سافر ومفضوح، فالهدف ليس فلسطين وحدها، فقد افتضح أمرهم حينما عاودتهم الغطرسة من جديد وبدأوا اطلاق شعارهم الذي كنا نحن قد نسيناه.. «من النيل إلى الفرات» !

الآن اقتربت الساعة ودقت نواقيس الخطر، وبدأوا هم يدقون طبول الحرب وإبادة شعب عربي عزيز علينا، فماذا نحن فاعلون؟!

إنها حرب حضارية طويلة المدى أسلحتها العلم والمعرفة والتخطيط السليم، ومن هذا المنطلق ينبغي أن نستثمر موقف المثقفين الشرفاء في العالم الذين وقفوا إلى جانب الحق الفلسطيني وبالنسبة للمثقفين العرب فعليهم دور كبير في مواصلة كشف أبعاد تلك الحرب العدوانية، وشرح قضيتنا العادلة، وماينبغي أن نقوم به مستقبلا لمواجهة هذا التحدي الذي يهدد كياننا ومستقبلنا، وهويتنا العربية. ويجب استغلال هذه اللحظة التاريخية التي بدأ فيها وجدان وضمير العالم يتحركان ، لتتحول إلى قوة دفع دائمة من أجل حق الإنسان في حياة آمنة لا تهدده الطائرات والمدافع والبوارج .. ومن أجل حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وبناء دولته المستقلة على أرض وطنه.

المحـــــرر


البعض
يفضلونها دافئة!
بقلم
د.أحمد مستجير

فى مايو ١٩٨٨ ، وبدعوة من الحكومة الكندية ، عُقد فى «تورنتو» مؤتمر تحت عنوان «الجو المتغير» ، حضره ممثلون عن ثمان وأربعين دولة ، ودعمه برنامج البيئة التابع للأمم المتحدة لتظهر على الساحة العالمية قضية «ظاهرة الصوبة» فى دوى عظيم لايزال مستمرا حتى اليوم ، (الصوبة = المدفأة) . إننا نغير الطريقة التى تتفاعل بها الطاقة الشمسية مع الغلاف الجوى للأرض ، وخروجها منه ، من بين النتائج المتوقعة زيادة حرارة جو الكرة الأرضية وتحول انماط المناخ فى العالم كله - وربما كانت هناك آثار أخرى لم ندركها بعد. انتبه العالم إلى خطر جديد محتمل يهدده كله ، مثلما انتبه قبلا عام ١٩٦٢ عندما نشرت راشيل كارسون كتابها الخطير «الربيع الصامت» الذى كشفت فيه عن النتائج المدمرة للاستخدام السفيه لمبيدات الآفات على البيئة وعلى صحة الإنسان وحياته.

توالت المؤتمرات الدولية منذ ذلك الحين تناقش «ظاهرة الصوبة» هذه، وفى يناير ٢٠٠١ أصدرت الهيئة الحكومية الدولية لتغير المناخ «فى اجتماعها فى شنغهاى بالصين تقريرا يتنبأ بأن متوسط حرارة جو الأرض سيرتفع كثيرا خلال المائة سنة القادمة. قال التقرير إن الإنسان هو المسئول عن التغير فى مناخ الأرض، توقع أن ترتفع الحرارة على عام ٢١٠٠ بمقدار يتراوح مابين ١,٤ْم و ٥,٧ْم، لتسبب ارتفاعا فى مستوى سطح البحر يتراوح ما بين ٩سم و ٨٦,٥سم، الأمر الذى سيتسبب فى إغراق مناطق منخفضة كثيفة السكان فى بلاد مثل مصر والصين وبنجلاديش، ثم إن هذا التغير فى المناخ قد يتسبب فى فشل المحاصيل والمجاعة وقد يهدد صحة الإنسان بانتشار أمراض كالملاريا، كما يؤذى الطيور والأسماك والكثير من النظم الإيكولوجية، وقد تمتد بسببه الصحراء لتضم إليها الكثير من أراضى المراعى، كان تقرير شنغهاى أقوى كثيرا من تقرير سابق صدر عام ١٩٩٥، ورأى ثمة «تأثيرا محسوسا» على مناخ الأرض وتنبأ بأن حرارة الجو سترتفع بمقدار ١-٣,٥ْم. لكن ماهى ظاهرة الصوبة التى ستسبب كل هذه الكوارث؟

ظاهرة الصوبة الطبيعية

لو لم تكن للأرض غلالة من الهواء تغلفها لأصبح متوسط درجة حرارة سطحها - ١٨ْم، تماما كمتوسط حرارة سطح القمر الذى لاتحيط به مثل هذه الغلالة الهوائية، لكن متوسط حرارة

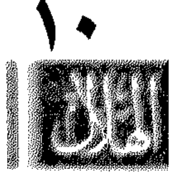
سطح الأرض هو + ١٥°م، على الرغم من أنها تقع كالقمر على نفس البعد من الشمس: والسبب هو غلالة الهواء وظاهرة الصوبة الطبيعية التي ترفع الحرارة عند سطح الأرض بمقدار يبلغ ٣٣°م، لولا وجود الغلاف الهوائى حول الأرض لغدت كوكبا ثلجيا لايقيم حياة.

تبلغ حرارة الفرن الذرى المسمى الشمس ستة آلاف درجة مئوية. تصدر عن الشمس إشعاعات تتراوح أطوال معظم موجاتها ما بين ٤,٠و٧,٠ ميكرومتر ، (والميكرومتر = واحد على مليون من المتر)، وهناك ٧٪ من الموجات اقصر من ٤٠ر ميكرومتر، أى تقع فى منطقة الأشعة فوق البنفسجية، وهذا القدر من الأشعة يمتص فى الاستراتوسفير فيرفع حرارته، تمر أشعة الشمس خلال الغلاف الجوى للأرض دون أن تمتص. يمتص سطح الأرض والبحر نصف الأشعة الشمسية فيدفأ، بينما ينعكس إلى الفضاء النصف الثانى عن طريق السحب وسطح الأرض نفسه، أو يمتص - كما ذكرنا - فى المنطقة العليا من الاستراتوسفير.

يسخن سطح الأرض بضع عشرات من الدرجات المئوية، وكلما ازدادت حرارة الجسم ازدادت كمية الحرارة التى يشعها، يشع سطح الارض إذن طاقة ذات موجات حرارية أقل كثافة وأطول كثيرا من موجات أشعة الشمس: موجات تحت حمراء تقع أطوالها مابين ٤ ميكرومتر و ١٠٠ ميكرومتر، هذه الموجات الطويلة، على عكس موجات الضوء المرئى الآتى من الشمس، يمتصها بالغلاف الجوى للأرض: بخار الماء (ونسبته فى الجو نحو ١٪) وثانى أكسيد الكربون (ونسبته فى الجو ٠,٠٣٪) أما الغازات السائدة التى تؤلف معظم الغلاف الجوى (النتروجين ونسبته ٧٧٪ والأكسجين ونسبته ٢١٪) فليس لها إلا أثر ضئيل. يمتص بخار الماء (يد٢أ) وثانى أكسيد الكربون (ك أ٢) الأشعة تحت الحمراء فى شريط موجات تقع أطوالها ما بين ١٣و١٠٠ ميكرومتر، كما يمتص بخار الماء هذه الأشعة أيضا فى شريط أدنى قليلا فى طول الموجة يقع مابين ٤و٧ ميكرومترات. هناك إذن ما بين ٧و١٣ ميكرومترا «نافذة» تسمح لبعض الأشعة تحت الحمراء الهروب.

الأشعة تحت الحمراء التى يمتصها بخار الماء وثانى أكسيد الكربون بالطبقة السفلى من الغلاف الجوى المسماة «الطروبوسفير» تدفئ الهواء، فيشع بدوره حرارة تحت حمراء أيضا، يعود البعض منها إلى الأرض لتدفأ ويتخذ البعض الآخر طريقه ليهرب إلى الفضاء، هذان الغازان يعملان كالملاءة، كمثل زجاج الصوبة الذى يسمح بمرور ضوء الشمس إلي الداخل لكنه يحبس البعض من الحرارة المشعة، فلا تخرج - من هنا جاء اسم «ظاهرة الصوبة» أو «ظاهرة الدفيئة». من هناك أيضا تكون أدفأ طبقات الطروبوسفير هى الطبقة الأقرب إلى سطح الأرض، وتنخفض حرارة الطروبوسفير مع الارتفاع على الرغم من الاقتراب نحو الشمس.

أما فى الاستراتوسفير الذي يعلو الطروبوسفير مباشرة، فيكون الأمر على العكس من ذلك: الطبقة السفلى منه الأقرب إلى الطروبوسفير تكون أبرد من



طبقته العليا، لأن جزيئات الأكسجين والأوزون بهذه الطبقة العليا تمتص الأشعة فوق البنفسجية فى ضوء الشمس فتدفأ، أما المنطقة السفلى فتلاصق أعلا الطروبوسفير المنخفض الحرارة فتكون أبرد.

فإذا حفظ الطروبوسفير قرب سطح الأرض كمية من الحرارة أكبر أصبح أعلى الطروبوسفير أبرد، ويكون أسفل الاستراتوسفير أبرد. ظاهرة الصوبة إذن تعني : دفء الطروبوسفير السفلى مع برودة أكبر فى الاستراتوسفير الأسفل.

على الرغم من أن حرارة الغلاف الجوى عند سطح الكرة الأرضية يزيد بمقدار ٣٣ْم عما تكون عليه دون ظاهرة الصوبة، فإن الحرارة لاتستمر فى الارتفاع إلى ما لانهاية إذا ما بقى تركيب الغلاف الجوى ثابتا، إذ ستصل الحرارة بالضرورة إلى نقطة اتزان، طالما بقيت كمية الحرارة الآتية من الشمس ثابتة.

أما إذا تغير تركيب الهواء، قل مثلا بمضاعفة تركيز ثانى أكسيد الكربون فيه، فستتحرك نقطة الاتزان، وتتزايد حرارة الأرض إلى أن تصل إلى نقطة اتزان جديدة، وفى أثناء هذا التحرك نحو ارتفاع الحرارة للوصول إلى نقطة الاتزان الجديدة، تتغير أنماط الرياح والمناخ بطرق شاذة لايمكن التنبؤ بها.

ظاهرة الصوبة البشرية

والذى حدث منذ بدء الثورة الصناعية نحو عام ١٧٨٠ أن أخذ البشر يستخرجون الوقود الحفرى (الفحم والبترول والغاز الطبيعى) من باطن الأرض، ويحرقونه، ومع تسارع عجلة التقديم الصناعى والزراعى تزايدت فى الجو بالتدريج تركيزات ثانى أكسيد الكربون وغيره من غازات الصوبة التى ترفع حرارة الهواء (وأهمها الميثان «ك يد٤» وأكسيد النيتروز «ن٢أ»)، لتسبب ما سمى باسم «ظاهرة الصوبة البشرية» - أى ظاهرة الصوبة التى نشأت عن الأنشطة البشرية، اختلف تركيب الغلاف الجوى وبدأ المناخ يتحول إلى نقطة اتزان جديدة : تزايد تركيز ثانى أكسيد الكربون بإحراق الوقود الحفرى والخشب وتحطيم الغابات، كان تركيزه فى الجو عام ١٧٥٠ قبل بداية الثورة الصناعية ٢٧٩ جزءا فى المليون ووصل عام ٢٠٠٠ إلى ٣٦٦ جزءا فى المليون - تزايد تركيز غاز الميثان مع تزايد إحراق الوقود وتحلل المخلفات العضوية وتربية الماشية وزراعة الأرز والتعدين والنمل الأبيض، فارتفع تركيزه من ٧٠٠ جزء من المليون عام ١٧٥٠ إلى ١٧٦٠ جزءا فى المليون عام ٢٠٠٠، وتزايد تركيز أكسيد النيتروز فى هذه الفترة ذاتها بسبب الأنشطة الزراعية والصناعية وحرق المخلفات الصلبة والوقود الحفرى وإزالة الغابات من ٢٧٠ جزءا فى المليون إلى نحو ٣١٦ جزءا فى المليون، ثم إن الإنسان قد ابتكر غازات صوبة جديدة لم تكن موجودة، وقام بنشرها فى الجو لتضيف إلى الحمل المؤدى إلى رفع الحرارة: ابتكر غازات الكلوروفلوروكربونات، ك ف ك، التى تستخدم فى مكيفات الهواء، وفى الايروسولات ومنتجات الرغاوى، تلك الغازات التى أسهمت أيضا فى مشكلة بيئية أخرى هى «ثقب الأوزون» تقول نماذج الكمبيوتر إن متوسط فترة بقاء

الميثان فى الجو هو ١٠ سنوات، أما أكسيد النيتروز فهو ١٠٠ سنة وتبقى الكلوروفلوروكربونات ٥٠ – ١٠٠ سنة، أما ك أ٢ فيصعب تقديره، فإذا علمنا أن مياه المحيط لايمكن أن تمتص أكثر من ٧٠ – ٨٥٪ من ثانى أكسيد الكربون المضاف إلى الجو بالأنشطة البشرية، فسيتضح أن نسبة كبيرة من فائض ك أ٢ ستبقى فى الجو لعقود أو قرون بل أن نسبة منه تبلغ ١٥– ٣٠٪ قد تبقى آلاف السنين.

تختلف غازات الصوبة فى قدرتها على امتصاص الحرارة من الغلاف الجوى : جزىء الميثان يقتنص من الحرارة ٢١ ضعف ما يقتنصه جزىء ثانى أكسيد الكربون، وجزىء أكسيد النيتروز يقتنص ٢٧٠ ضعفا، والعادة أن تحوى تقديرات انبعاثات غازات الصوبة جميعا إلى ما يعادلها من الكربون.

ولقد تزايد قدر المعلومات التى قدمت صورة واضحة لعالم يدفأ كما ظهر بتقرير ٢٠٠١ للهيئة الحكومية الدولية لتغير المناخ، اتضح أن متوسط درجة حرارة الهواء قرب سطح الأرض والبحر قد ارتفعت خلال القرن العشرين بمقدار ٠,٦ °م، وهذه القيمة تزيد على القيمة التى قدرت سابقا عام ١٩٩٤ بمقدار ٠,١٥ °م لأن حرارة السنين الاضافية (من ١٩٩٥ حتى ٢٠٠٠) كانت مرتفعة نسبيا وبسبب تطوير طرق معالجة البيانات، تأخذ هذه التقديرات فى حسابها «آثار الجزيرة الحرارية»، أى الآثار الناجمة عن وضع الكثير من مراصد درجات الحرارة قريبا من المدن حيث تكون أكثر ارتفاعا. والواقع أن معظم التدفئة التى حصلت فى القرن العشرين قد جاءت فى فترتين من ١٩١٠ حتى ١٩٤٥ ثم من ١٩٧٦ حتى ٢٠٠٠. كانت التسعينات هى أدفأ عقد، وكان عام ١٩٩٨ هو أدفأ الأعوام منذ ١٨٦١. فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٩٣، ارتفع أدنى معدل لحرارة هواء الليل على اليابسة بمقدار ٠,٢ °م فى العقد، مما أطال الموسم الخالى من التثلج فى الكثير من مناطق خطوط العرض الوسطى والعليا، وبلغ تزايد حرارة سطح البحر فى هذه الفترة نحو نصف نظيره على اليابسة.

تقول بيانات الأقمار الصناعية إن الأغلب أن يكون اتساع الغطاء الثلجى قد انحسر بنسبة ١٠٪ منذ أواخر الستينات، وتقول بيانات المد والجزر إن مستوى سطح البحر قد ارتفع ما بين ١٠ و ٢٠ سنتيمترا خلال القرن العشرين. والأغلب أن تكون الأمطار قد تزايدت بنسبة ٠,٥ إلى ١٪ فى العقد فى ذلك القرن على خطوط العرض الوسطى والعليا، وأن هذه النسبة قد بلغت ما بين ٠,٢، ٠,٣٪ فى العقد بالمناطق الاستوائية (ما بين خطى عرض ١٠°ش و ١٠°ج)، وأن تكرار هطول الأمطار الغزيرة فى النصف الثانى من القرن العشرين على مناطق خطوط العرض الوسطى والعليا بنصف الكرة الشمالى قد تزايد بنسبة تتراوح ما بين ٢ و٤٪، وهذا قد ينشأ عن زيادة رطوبة الغلاف الجوى ونشاط العواصف الرعدية والنشاط الواسع للرياح، كما حدث بنفس هذه المناطق فى نفس الفترة. على الأغلب، زيادة فى كمية السحب بلغت ٢٪ وتزايدت منذ أواسط السبعينات



فترات الدفء بالمناطق الاستوائية وشبه الاستوائية وبعض مناطق خطوط العرض الوسطى.

انتهى تقرير ٢٠٠١ إلى أن الأغلب أن يكون ما حدث من تدفئة للجو في القرن العشرين قد أسهم بشكل واضح فيما لوحظ من ارتفاع في سطح البحر عن طريق زيادة حجم الماء بالتسخين وعن طريق الذوبان الواسع النطاق للثلوج على اليابسة.

[illegible]

في ١٩ مارس ٢٠٠٢ جاء خبر يقول إنه في أقل من شهر تشظى رف ثلجي بالجانب الشرقي للقارة القطبية الجنوبية (اسمه لارسين ب) إلى جبال ثلجية صغيرة. كان سمك هذا الرف ٢٠٠ متر ومساحته ٣٢٥٠ كيلومترا مربعا، لكن هذا لن يرفع من مستوى سطح البحر، لأن الثلج كان بالفعل طافيا، قال العلماء إن السبب هو ارتفاع درجة الحرارة بالمنطقة، إذ يقدرون أن الحرارة قد ارتفعت في بعض المناطق هناك خلال الخمسين سنة الأخيرة بمقدار ٢°م، سوى أن حرارة جوف القارة كانت تنخفض خلال نفس هذه الفترة، غير أن السرعة التي حدث بها هذا الانهيار قد اصابتهم بالفزع، قالوا إنه من الصعب عليهم أن يصدقوا أن تتحلل كمية من الثلج تبلغ خمسمائة مليون بليون طن في أقل من شهر - فهذه أكبر واقعة حدثت حتى الآن في سلسلة تراجعات الرفوف الثلجية عبر الثلاثين سنة الماضية، لكنهم في نفس الوقت لاحظوا أن هناك من الشواهد مايشير إلى أن التراجع في ملاءة الثلج بالجانب الغربي للقارة القطبية الجنوبية قد توقف!.

تدفئة الجو وصحة الإنسان

هناك آثار أخرى لارتفاع حرارة الجو لايلتفت إليها كثيرا، وهي أن التدفئة قد تؤدي إلي انتشار الكثير من المتاعب الصحية للبشر، ومما يثير القلق أن ثمة بوادر لذلك قد ظهرت بالفعل.

وارتفاع حرارة الجو قد يؤثر في صحة الإنسان عن طريق مباشر أو عن طريق غير مباشر، فأثر الموجات العاتية من الحرارة سيحدث في معظمه شتاء وفي أثناء الليل على خطوط العرض الأعلى من ٥٠، ومن ثم فالمتوقع أن يرتفع عدد الوفيات الناجمة عن هذه الموجات الحارة حتى لتتوقع نماذج الكمبيوتر أن يتضاعف العدد على عام ٢٠٢٠، وإذا ما طالت الموجات الحارة فإنها ستشجع إنتاج الضخان Smog وانتشار الأليرجينات المسببة للحساسية، وكلا العاملين يرتبط بالمشاكل التنفسية.

وقد يأتي الأثر على صحة الإنسان عن طريق أقل مباشرة، وذلك بأن تزيد التدفئة من تكرار الفيضانات والجفاف ومن النوبات العاتية من الأمطار الغزيرة، وقد تتسبب هذه جميعا في موت الكثيرين بالغرق أو المجاعة، كما تؤدي إلى ظهور الأمراض المعدية وانتشارها.

والأمراض المعدية جنيٌّ إذا ظهر يصعب احتوائه ثانية في قمقمه، فهي تقتل في ضربة سريعة واحدة أعدادا محدودة من الناس، لكنها إذا ما تجذرت أخذت تتحدى الإبادة، بل أنها تنتقل وتنتشر إلى مناطق جديدة.

والسيطرة على هذه الأمراض أمر

صعب في العالم النامي حيث تشح وسائل الوقاية والعلاج، لكن الدول الغنية قد تقع هي الأخرى ضحية هذه الأمراض، كما حدث عام ١٩٩٩ عندما ظهر فيروس غرب النيل لأول مرة في أمريكا الشمالية ليقتل سبعة أفراد في نيويورك، ولنا أن نتوقع من التجارة الدولية التي ذاعت في أيامنا هذه أن ظهور المرض بأي مكان في العالم يعني أنه قد يصبح مشكلة حقيقية في قارات بعيدة إذا وجد فيها الكائن المرض بيئة صالحة.

أما الفيضانات ونوبات الجفاف فقد تؤذي الصحة بطريقة أخرى، فهي قد تدمر المحاصيل الزراعية وتجعلها أكثر قابلية للفساد والإصابة بالآفات والحشائش، ومن ثم تقلل الغذاء وتسهم في سوء التغذية، بل وقد تتسبب في هجرة كاملة أو نصف كاملة في الدول النامية، مما قد يؤدي إلى الازدحام وما يصحبه من أمراض كالسل.

ينقل البعوض أمراضا عديدة منها الملاريا وحمى الدنج والحمى الصفراء وبعض صور التهاب الدماغ، وربما كانت هذه هي أهم ماسينتشر من أمراض مع ارتفاع الحرارة، تصل المُمرضات إلى البعوض عندما يمتص دم إنسان أو حيوان مريض، ليكاثر الكائن المرض داخل الحشرة، فتنقله إلى من ستلدغه فيما بعد، ومن المعتقد أن خطورة هذه الحشرات ستتزايد بسبب حساسيتها البالغة للأحوال الجوية، البرد قد يكون صديق الإنسان لأنه يحدد البعوض في فصول ومناطق بعينها، البرد القارس يقتل الكثير من البيض واليرقات والحشرات الكاملة، بعوضة الأنوفليس تسبب تفجرات مفاجئة من مرض الملاريا إذا زادت درجة الحرارة على ١٥درجة مئوية، أما بعوضه إيديس المسئولة عن الحمى الصفراء وحمى الدنج فتنقل الفيروس فقط في المناطق التي لاتنخفض درجة الحرارة بها عن ١٠درجات مئوية.

ينتشر البعوض بشكل أسرع، ويلدغ أكثر، مع ارتفاع حرارة الجو، فارتفاع الحرارة يسرع أيضا من معدل تكاثر الكائن الممرض ونضجه، ومع ارتفاع حرارة الجو تنتشر الحشرة إلى مناطق كانت محرمة عليها، لتحمل معها المرض، أما ارتفاع الحرارة في الليل وفي الشتاء فيعني زيادة عدد المرضى وزيادة فترة إصابة المرضى في المناطق التي يستوطنها البعوض حاليا.

والفيضانات العالية والجفاف الناتج عن دفء الأرض تساعد على تفشي الأمراض بإضافة أماكن جديدة لتكاثر الحشرات، ففي الجفاف تصبح الجداول بركا راكدة - أماكن طبيعية للتكاثر - وفيه يلجأ الناس إلى الحاويات لجمع الماء لتصبح هذه مواقع صالحة جديدة لتكاثر البعوض.

تقتل الملاريا في العالم الآن ٣٠٠٠ شخص كل يوم معظمهم من الأطفال، وارتفاع حرارة الأرض سيوسع المناطق التي تظهر بها الملاريا من منطقة ٤٥٪ من العشيرة البشرية إلى منطقة تحمل ٦٠٪ منها، كان المستعمرون الأوائل لأفريقيا في القرن التاسع عشر يلجأون إلى الجبال الأبرد هربا من «الهواء الفاسد» mal aria حول المستنقعات .

ولقد بدأت تظهر الآن بالفعل إصابات بأعالى الجبال فى أمريكا الجنوبية والوسطى وآسيا وأواسط وشرق افريقيا.

وارتفاع حرارة الأرض قد يزيد من الإصابة بالأمراض التى تحملها المياه، كالكوليرا، الفيضانات قد تجرف مياه البلاعات وغيرها من مصادر المرضات الى مستودعات مياه الشرب، كما تجرف الأسمدة إليها أيضا. وقد تتكاثف الأسمدة مع مياه البلاعات تحت الحرارة المرتفعة لتزدهر طحالب ضارة بعضها سام، وبعضها يلوث الأسماك التى تمرض من يأكلها بل إن الطحالب قد تدعم تكاثر بعض المرضات مثل ميكروب الكوليرا.

لكن من الصحيح أيضا أن نتائج التدفئة قد لاتكون جميعا سيئة، فالحرارة المرتفعة جدا بالمناطق الحارة قد تقلل عشائر القواقع، ولهذه دورها الأساسى فى نقل البلهارسيا، كما أن الرياح العاتية قد توزع التلوث وتشتته، ثم إن الأشتية الدافئة بالمناطق المعروفة بالبرودة قد تقلل من أزمات القلب والأمراض التنفسية المرتبطة بالبرد.

بروتوكول كيوتو - والأمريكان

فى ديسمبر ١٩٩٧ اجتمع قادة العالم فى كيوتو باليابان لوضع معاهدة دولية تحد من انبعاثات «غازات الصوبة» نص البروتوكول الذى اعتبر يومها معلما فى السياسة البيئية الدولية على ضرورة أن تخفض نحو ٤٠ دولة من الدول الصناعية من انبعاثات ست من غازات الصوبة، عن مستوياتها فى عام ١٩٩٠ تبلغ فى المتوسط ٢ر٥٪ وذلك على عام ٢٠١٢ تسمح هذه المعاهدة بحق الدول



فى تبنيك واستعارة حصص انبعاثات الكربون من غيرها من الدول الموقعة على الاتفاقية، لم يتضمن البروتوكول النص الذى اقترح بضرورة أن يتم داخل أراضى الدولة ٥٠٪ على الأقل من التخفيض الذى تلتزم به.

لكن إدارة الرئيس بوش عارضت المصادقة على الاتفاقية، وانسحبت منها فى مارس ٢٠٠١، رغم أن الولايات المتحدة تبث وحدها فى الجو ٢٥٪ من كل انبعاثات ثانى أكسيد الكربون، قال معارضو الرئيس إنه خضع للضغوط وتنصل من تعهداته التى أكدها إبان حملته الانتخابية . قال بوش: «ليست لدينا أية اهتمامات فى تطبيق هذه المعاهدة، لاتوجد دو لة صناعية كبرى قد صدقت عليها منذ التفاوض بشأنها» كانت إدارة كلينتون قد وافقت عليها، لكنها وجدت مقاومة عنيفة ضدها فى

الكابيتول هيل، يؤكد بوش أن المعاهدة ستؤذى الاقتصاد الأمريكى كما أنها تعفى دون وجه حق دولا نامية مثل الصين والهند.

حورت الصيغة النهائية لبروتوكول كيوتو فى اجتماع عقد فى بون بألمانيا فى يوليو ٢٠٠١، لكن المعاهدة ستظل مجرد قطعة من الورق حتى يتم التصديق عليها.

وفى نفس شهر يوليو ٢٠٠١ صرح بوش بأن الولايات المتحدة أبدا لن توقع على الاتفاقية :

«إننى أعتقد أن علينا أن نعمل سويا لتخفيض غازات الصوبة، لكن البروتوكول الذى ورثته «عن إدراة كلينتون» والذى أدانه فى مجلس الشيوخ ٩٥ صوتا ضد لاشىء، ليس هو الطريق الصحيح لنتخذه... إن مانحتاجه هو أن نطور استراتيجية للطاقة ومعها استراتيجية بيئية تقلل من غازات الصوبة وتسمح فى الوقت نفسه لاقتصادنا بأن ينمو» . الاتفاقية فى الواقع تتطلب أن تخفض الولايات المتحدة انبعاثاتها من غازات الصوبة على عام ٢٠١٢ بمقدار يقل عن مستوى ١٩٩٠ بنسبة ٧٪.

ولقد توصل مؤتمر آخر عقد بمراكش فى نوفمبر ٢٠٠١ وحضره ممثلون لأكثر من ١٦٠ دولة إلى صيغة تسوية جديدة بتخفيض الانبعاثات لتصبح ٢٪ من انبعاثات ١٩٩٠ خلال عقد من الزمان، مما قد يؤذن بقرب التصديق عليها. «كان من بين الحاضرين ممثلون للولايات المتحدة لايشتركون فى المناقشات» لكن المناخيين يقولون إن المطلوب حقا هو تخفيض هذه الانبعاثات بنسبة ٦٠٪ أو أكثر خلال العقود القليلة القادمة، إذا أردنا أن نحفظ المناخ داخل الحدود الآمنة.

وقعت على هذه الاتفاقية ٨٤ دولة والمطلوب أن تصدق عليها ٥٥ دولة ليبدأ تنفيذها، من بين المتطلبات الإضافية أن يكون ماتبثه هذه الدول الخمسة والخمسون يعادل ٥٥٪ من انبعاثات عام ١٩٩٠ ولقد وضع اعتراض الولايات المتحدة الحل فى يد اليابان، التى تفرد ٦ر٨٪ مما يبث فى جو العالم من ثانى أكسيد الكربون، الاتحاد الأوربى، وروسيا، وشرق أوربا تنتج جميعا أقل قليلا من ٥٠٪ من انبعاثات ثانى أكسيد الكربون، لو وافقت اليابان على الانضمام فستتحقق نسبة ٥٥٪ المطلوبة لتصبح الوثيقة ملزمة قانونيا.

وقد أعلنت وزيرة البيئة اليابانية أن اليابان تنوى أن تنفذ اتفاقية كيوتو، كما رأى بعض المحللين أن الاتفاقية تمثل أداة للضغط السياسى على الولايات المتحدة حتى تعود إلى طاولة المباحثات فى هذه القضية.

من بين أهم بنود هذه الاتفاقية بند يسمح لروسيا أن تبيع فائض المسموح به لها من انبعاثات ، إلى اليابان التى ستزيد انبعاثاتها عن المقرر لها بالاتفاقية - ذلك أن الانبعاثات فى روسيا قد أصبحت أقل مما كانت عليه عام ١٩٩٠ ، بعد انهيار الشيوعية، كما أن روسيا قد حاجت بأن بها من الغازات مايتمص ١٧ مليون طن مترى من ثانى أكسيد الكربون فى العام، الأمر الذى يؤهلها إلى أن تبيع مسموحها إلى اليابان أو غيرها من الدول الصناعية بما

يقدر بعشرة بلايين دولار كل عام.

يقول الأمريكيون إن غابات الولايات المتحدة قد امتصت عام ١٩٩٧ من كربون الجو ما يبلغ ٣٠٠ مليون طن، أى نحو ١٧٪ من الانبعاثات الكلية من غاز ثانى أكسيد الكربون التى أفردتها الولايات المتحدة ، وأن المحاصيل والمراعى قد استوعبت فى نفس ذلك العام ٢٠ مليون طن، وهم يرون ضرورة أن يدخل أثر الغابات والزراعة فى بروتوكول كيوتو.

يقولون أيضا إن انبعاثات ثانى أكسيد الكربون بالولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ كانت تزيد بمقدار ١٤٪ عن انبعاثات عام ١٩٩٠، والاتفاقية تطلب أن تخفض هذه الانبعاثات بحلول عام ٢٠١٢ بمقدار ٧٪ تحت مستوى ١٩٩٠.

لكن هناك رأيا آخر!

الأمر الذى لاشك فيه هو أن تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الجو قد تزايد منذ بدء الثورة الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر، أساسا بسبب احراق الوقود الحفرى، وأن هذا التزايد يتسارع، لكن مايتشكك فيه الكثيرون بالمجتمع العلمى هو أن يكون تزايد ثانى أكسيد الكربون هذا هو المسئول عن ارتفاع حرارة الغلاف الجوى للأرض، هم يدعون أن هذا الارتفاع فى الحرارة ليس أمرا شاذا، وأن كل التنبؤات المطروحة على الساحة الدولية الآن هى توقعات محسوبة عن نماذج كمبيوتر مدخلاتها كثيرا ماتكون غير دقيقة أو هى خاطئة، فنحن لانمتلك معرفة كمية شاملة فى الوقت الحالى عن جو الأرض، والمعروف من المقاييس الضرورية بشكل موثوق قليل للغاية ولايسمح بحسابات نظرية موثوق بها، ماذا يقول المتشككون؟

ثمة أبحاث أجريت على بقايا كائنات بحرية رسبت فى قاع بحر ساراجوزا «بالاطلنطى» خلال الثلاثة آلاف عام الأخيرة، تشير إلى أن الأرض كانت تدفأ بالفعل معظم الوقت خلال هذه السنين، باستثناء فترة البرد التى إطلق عليها اسم «العصر الثلجى الصغير» ففيما بين عامى ١٣٠٠ و١٨٥٠ خبرت الأرض هذا العصر بعد فترة من مناخ دافىء طولها ألف عام كان فيها الجو دافئا حتى لتستعمر جرينلاند، «وقد هجرت هذه المستعمرة مع حلول العصر الجليدى» أخذت الحرارة بعد هذا العصر فى الارتفاع ثانية وهى لاتزال أدنى من متوسطها الذى ساد خلال الثلاثة آلاف عام الأخيرة، لم يشهد التاريخ البشرى أية كارثة بسبب تدفئة كرضية!

إذا أخذنا المائتين وخمسين سنة الأخيرة وضاهينا دفأها بسجلات النشاط المغناطيسى للشمس فسنجد أنهما متلازمان: كلما ازداد النشاط الشمسى كلما غدت الأرض أكثر دفئا، وهذا التذبذب فى النشاط أمر معروف فى النجوم ذات الحجم والعمر المقارب للشمس، ولقد ارتفعت تركيزات ثانى أكسيد الكربون كثيرا خلال الخمسين سنة الأخيرة، لكن هذا الارتفاع لم يكن متزامنا مع زيادة حرارة الأرض. بل إن هناك قياسات دقيقة تمت فى الفترة مابين ١٩٧٩ و١٩٩٧ من أقمار صناعية تشير إلى أن متوسط درجة حرارة جو الأرض كان يتجه إلى الهبوط خلال هذه الأعوام، التى تميزت بأعلى تركيزات

مسجلة لغاز ثانى أكسيد الكربون، هناك كذلك من البيانات مايشير إلى أن ارتفاع درجة الحرارة فى القرن العشرين قد بدأ بالفعل قبل عام ١٩٤٠ ، أى قبل ارتفاع ثانى أكسيد الكربون بالجو بهذا الشكل الحاد «٨٢٪ من الزيادة فى هذا الغاز قد تمت بعد عام ١٩٤٠» ومن المستحيل أن يكون تركيز الغاز هو السبب فى ارتفاع الحرارة، فالنتيجة لاتظهر قبل سببها!

مع تزايد مقاومة المجتمع العلمى لنظرية التدفئة الكرضية، ومع التزايد المستمر للقياسات التى ترفضها، قامت «الهيئة الحكومية الدولية» - كما يقول المتشككون - بتحوير درجة الدفء التى تتنبأ بها، وخفضها . بمعنى آخر : عابثت الهيئة نماذج الكمبيوتر حتى تعطى تنبؤا يكون مقبولا سياسيا، لكنه فى الوقت نفسه يكفى كى يستمر أصحاب نظرية التدفئة يعزفون لحنهم ويمارسون هوايتهم ببث الرعب فى قلوب الناس ! اختارت الهيئة النظريات التى تتوقع تدفئة الجو بتضخيم أثر ثانى أكسيد الكربون ليؤدى إلى ارتفاع خطير فى حرارة الأرض. لكن هناك نظريات أخرى تتوقع عكس ذلك تقول إن استجابة الجو ستعادل أثر زيادة تركز هذا الغاز لتكون الحصيلة مجرد تغيرات طفيفة فى الحرارة الكرضية، والشواهد تقول إن تركيز الغاز قد ازداد كثيرا ولم يحدث ذوبان للثلوج أو إغراق للأرض ! هراء - يقولون - حتى لو كان ارتفاع الحرارة واقعا: فالثلج الطافى لايرفع إذا ذاب مستوى سطح البحر. أما الثلج غير الطافى بالقطب الجنوبى فإنه لايذوب إلا فى الأعماق السفلى حيث تدفئه حرارة باطن الأرض - أما السطحى منه فإنه أبرد من أن يذوب حتى لو ارتفعت الحرارة كثيرا . ثم إن القلنسوة هناك سميكة للغاية بحيث يتطلب الأمر مئات السنين كى ينتقل أى تغيير فى حرارة الجو إلى منطقة الذوبان فى الأعماق، وحتى عندئذ فإن ماسيصل من الطاقة سيكون ضئيلا للغاية مقارنة بحرارة باطن الأرض الموجودة بالفعل هناك.

وتقول نماذج الكمبيوتر بإغراق كرضى وتباين فى شدة العواصف وغير ذلك من كوارث، حتى لتصبح هذه جزءا من تعريف «التدفئة الكرضية» ستغرق مساحات شاسعة من أراضى السواحل . لكن المعدل الحالى المعروف لارتفاع مستوى سطح البحر لايزيد على ملليمتر فى العام أى ٢٠ سم فى القرن، غير أن التباين فى ارتفاع وانخفاض مستوى سطح البحر بالمناطق المختلفة له مجال عريض يبلغ نحو مائة ملليمتر فى العام، والسجلات التاريخية تقول ألا تسارع هناك فى ارتفاع مستوى سطح البحر خلال القرن العشرين.

تتزايد التنبؤات بزيادة تكرار وعنف الأعاصير لكن هذا يتعارض مع البيانات الملحوظة، فالمعروف بالفعل أن عدد الأعاصير بالأطلنطى فى العام قد تناقص مع الزمن، من سنة ١٩٤٠ وحتى سنة ٢٠٠٠ بمقدار يبلغ ٠.٢٥ إعصار فى العقد، كما تناقصت سرعة الرياح فى العقد أيضا لهذه الفترة بمعدل يبلغ ٠.٣٣ متر فى الثانية.

درجة الحرارة تستعيد صحتها بعد العصر الجليدى الصغير، وتتجه إلى وضعها عندما كانت الحرارة أعلى منها اليوم بمقدار ١ درجة مئوية، وتحدث

الآن بالفعل التغيرات المصاحبة، مثل تراجع المثلجات فى مونتانا.

الحياة النباتية توفر بلاعة ذات شأن بالنسبة لثانى أكسيد الكربون، فإذا استخدمنا معارفنا الحالية عن زيادة نمو النباتات مع ارتفاع تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الجو، وبافتراض مضاعفة تركيزه الحالى، فقد قدر أن مستوياته فى الجو سترتفع فقط بمقدار ٣٠٠ جزء فى المليون قبل أن تستقر.

زيادة تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الجو تسبب مايسمى «بالتسميد الكربونى» للنباتات ، كما تقلل أيضا ما يفقده النبات من ماء بحيث يمكن أن ينمو فى ظروف أكثر جفافا، بدأت أشجار الغابات فى شمال غرب الولايات المتحدة تتعدى بالفعل المناطق التى تنمو بها، بل إن تسارع نمو الأشجار هناك قد أصبح أكثر من إمكانات قاطعى الأشجار ومنتجى الأخشاب، كما أن كتلة النباتات بالغابات المطرية الناضجة بالأمازون تزداد فيها حاليا بمعدل يبلغ ١ - ٢ طن فى السنة للفدان، والواقع أن الأشجار تستجيب للتسميد بثانى أكسيد الكربون بشكل أقوى من غيرها من النباتات، وإن كانت النباتات جميعا تستجيب، مع زيادة ثانى أكسيد الكربون فى الجو يزيد محصول القمح بنسبة تصل إلى ٧٪ فى الأراضى المطيرة، لكن زيادة المحصول قد تصل إلى ٢٣٪ تحت الظروف الجافة . أما بالنسبة للأرز ثانى أهم المحاصيل الزراعية بعد القمح فإن ارتفاع تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الجو يرفع المحصول بنسبة تتراوح ما بين ٤.٢ و٦.٥٪ غير أن ارتفاع الحرارة يقلل المحصول - ولزراعة الأرز فى حد ذاتها أثر معنوى فى تدفئة الجو بسبب ماتنتجه الحقول المغمورة من غاز الميثان.

يستطرد المعارضون ليقولوا إن من يحيا اليوم على الأرض سينعم ببيئة أكثر اخضرارا وثراء لو تزايد تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى للأرض، سيتمتع أبناؤنا بأرض تحمل ضعف الحياة النباتية والحيوانية الموجودة الآن، مع تزايد إحراق الهيدروكربونات سيتزايد الخير فى بيئتنا، الفحم والبترول والغاز الطبيعى تتحول جميعا إلى ثانى أكسيد كربون، يستخدم بدوره فى صناعات النباتات، التى يستخدم البعض منها فى صناعة حيوانات.

إننا إنما نحرك الهيدروكربونات من تحت الأرض لنحولها إلى نباتات وحيوانات: هدية إلى البيئة رائعة غير متوقعة منحتنا إياها الثورة الصناعية!

يقولون إن الشواهد تشير إلى أن هناك تكرارا منتظما لتغيرات حرارة جو الأرض، إذ تتعاقب عصور جليدية، طول كل منها نحو مائة ألف عام، تفصلها فترات أدفأ قليلا تسمى المراحل «بين الجليدية» يستمر كل منها فترة تتراوح مابين ١٠ آلاف سنة وعشرين ألف سنة حدث هذا بانتظام عشر مرات خلال المليون سنة الأخيرة، ونحن نحيا الآن قرب نهاية مرحلة دفء طبيعى «بين جليدية» مرحلة بدأت منذ ما يزيد قليلا على عشرة آلاف عام، وتم فيها التطور الحضارى للإنسان . ما الضرر إذن - يقول البعض - من أن نرفع الحرارة فنؤجل نهاية مرحلة الدفء الحالية بعض الشيء!! ■

ماذا يعرف الشباب ؟!

لا يقرأ شباب اليوم الصحف ولا يتابع أحداث العالم ولا يشارك في الانتخابات

بقلم

د. أحمد محمد صالح



«في القرن الحادى والعشرين لاتسأل أى انسان تحت سن الثلاثين!»

هناك العديد من البحوث الاجتماعية التى أجريت فى الغرب، واعتمدت في منهاجها البحثى على المقارنة بين الأجيال لدراسة ماذا يعرف شباب اليوم، شباب القرن الحادى والعشرين؟ وعن ماذا يهتمون؟ وماهى وسائل الإعلام التى يتعرضون لها؟ وتظهر نتائج تلك البحوث فى أغلب الأحوال أن شباب اليوم معرفته ضئيلة! ولايقرأ الصحف! ولايتابع مايحدث فى العالم! ولايذهبون للمشاركة في الانتخابات! وأقل إنتقاداً لحكامهم ومؤسساتهم بالمقارنة بالشباب فى العقود الماضية .

ومع التقدم فى تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات كان يتوقع ويفترض أن شباب اليوم يعرف أكثر من شباب الأمس! لكن سلسلة من الدراسات المسحية الحديثة أظهرت أن الناس تحت سن الثلاثين فى عام ٢٠٠٠ أقل اهتماما بأحوال وأخبار العالم بالمقارنة بنظائرهم فى السن نفسها عام ١٩٩٢، وكانوا أقل اهتماما بشئون السياسة، فالفجوة بين الأجيال آخذة فى الاتساع بسرعة متزايدة! ويتوقع رغم ثورة تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات أن الإنسان الجديد فى السنوات العشر القادمة سيفقد اهتمامه كليا بأحوال العالم! وفى تحليل لإحصائيات الرأى العام بين الشباب منذ الأربعينات وحتى الآن فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وجدوا اختلافات ضخمة فى مستوى ونوعية الاهتمامات والمعلومات بين شباب الأربعينات وشباب اليوم، ومنذ خمسة عقود مضت كان الشباب بصفة عامة يعرف ويعلم بنفس الدرجة والنوعية التى يعرف بها الكبار، لكن فى عام ١٩٩٠ أظهرت البحوث أن إجابات الشباب حول معرفتهم للأحوال الجارية كانت أضعف فى المستوى بنسبة ٢٠٪ على الأقل بالمقارنة بمتوسطى وكبار السن، وأن الذين تحت سن الثلاثين يعرفون أقل من الصغار وكانوا أقل اهتماما بما يحدث فى العالم حولهم! وعلماء الاجتماع وباحثو الرأى العام يدركون تماما اليوم أن شباب العالم اليوم أقل اهتماما بالسياسة والقضايا الخطيرة التى تحدث فى العالم بالمقارنة بالكبار، وأن الفجوة الآن بين الشباب والكبار أكثر حدة عن قبل.

والمسوح التى أجريت منذ أكثر من ٤٠ عاما فى الستينات أظهرت أن الشباب الأمريكي كانوا يهتمون مثل الكبار بأخبار وأحداث العالم، لكن منذ منتصف السبعينات والشباب يظهر اهتمامات أقل بما يحدث حولهم فى العالم، وعلى الرغم من أن الذين بلغوا الآن الثلاثين والأربعين

عاما أفضل اعلاما واهتماما بأحوال الوطن والعالم بالمقارنة بما هم تحت الثلاثين، ولكنهم هم أنفسهم أقل اهتماما ومعرفة بالمقارنة بالأكبر منهم سنا.

وفى نهاية الحرب الباردة والتحولات السياسية فى شرق ووسط أوروبا، فشلت تلك التحولات فى جذب اهتمامات غالبية الشباب فى معظم دول العالم، بل العجيب أن الدراسات بينت أن مستوى الاهتمام بين الشباب فى أوروبا الشرقية بتلك التحولات كانت أقل بنسبة ٣٠٪ من هؤلاء الذين بلغوا فوق الاربعين وأظهرت الدراسات الديموجرافية الحديثة أن الشباب أقل مشاركة فى الانتخابات وأكثر إنجذابا لوسائل الاعلام المرئية والعجيب أن عصر المعلومات أفرخ سكانا لايعلمون ولا يعرفون، وغير مشاركين، فالمقارنة بين الذين بلغوا الخمسين عاما، بالذين بلغوا ٣٠ عاما، نجد أن الذين بلغوا الخمسين عاما أكثر استعمالا للكمبيوتر وأكثر قراءة للكتب، ونسبة خريجى الجامعات بينهم أكبر، فالأبحاث الجديدة تكشف اختلافات مذهلة بين الأجيال فيما يعرفونه ويهتمون به. فمثلا التغييرات السياسية التى حدثت فى دول الاتحاد السوفيتى تعتبر من الأحداث المهمة التى حدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم تلك الأحداث الدرامتيكية، فإنها لم تشكل شيئاً ذا بال بين اهتمامات الشباب الأمريكى مثلا فى تلك الفترة، حتى فى أكثر الأحداث أهمية لحظة تحطيم حائط برلين فى نوفمبر ١٩٨٩ نجد أن ٤٢٪ فقط من تحت سن الـ ٣٠ عاما من الشباب الأمريكى فى هذا الوقت اهتموا بهذا الحدث، ثم بعد شهر واحد من ذلك الحدث الذى غير العالم وجد أن ١٩٪ أى أقل من نصف العدد الذين اهتموا قالوا: إنهم اهتموا بأخبار النهاية العنيفة للشيوعية فى رومانيا، ومنذ ذلك اليوم وأخبار أوروبا الشرقية تشغل اهتمام واحد فقط من كل أربعة أمريكان صغار واحيانا واحد من كل عشرين أمريكيا تحت سن الثلاثين، وعند مقارنة ذلك باهتمامات الأمريكان فوق الخمسين لنفس الأحداث فى الفترة نفسها نجد ان ٥٨٪ منهم كانو أكثر إهتماما بسقوط حائط برلين و ٣٤٪ منهم انشغلوا باخبار ديسمبر فى رومانيا، والأمريكان فوق الخمسين قد أظهروا اهتماما أكثر بسقوط الشيوعية بالمقارنة بمن هم تحت الثلاثين، وهذا النمط واضح تقريبا فى معظم الأخبار المتعلقة بالسياسة والقضايا العامة، فالجمهور الأصيل لتلك الأحداث هم الناس الأكبر فى السن بالمقارنة بالصغار (٣٠ عاما فاقل) أما متوسط العمر (٣٠ - ٤٩) عندهم شهية أكبر للاهتمام بالأخبار والأحداث أكثر من الصغار باستثناء وحيد متعلق بأخبار السياسات المحلية والعالمية، فالناس الذين

فى الثلاثينات والأربعينات غالبا ما يتفقوا مع من هم فى سن العشرين، أما الموضوعات التى تتعلق بالفضائح، وقرارات وأحكام المحاكم فهى الموضوعات التى تلقى اهتماما أقل بين الشباب (أقل من ٣٠ عاما) بالمقارنة بهؤلاء فوق الخمسين، لكن متوسطى العمر الأمريكان كانوا أكثر اهتماما بشكل هامشى بتلك القضايا من نظرائهم الأصغر، نفس النمط ظهر فى الأخبار حول التغييرات فى الكتلة الشيوعية، فالناس الأكبر سنا كانوا يتابعون تلك التغييرات باهتمام أكثر.

إن الفجوة بين الأجيال فى المعلومات والأخبار ليست حدودها الأخبار السياسية فقط ولكنها موجودة بشكل عام فى معظم أشكال الأخبار. فعندما اصطدمت الطائرة الكولبية خارج مدينة نيويورك فإن نسبة ٤٧٪ من الأكبر سنا من ٥٠ سنة فأكثر تابعوا أخبارها باهتمام مقابل ١٨٪ فقط تحت سن الثلاثين. لكن أخبار الرياضة هى الفئة الوحيدة التى يتوافق فيها اهتمام الكبار مع الصغار فالاهتمام بكرة القدم منتشرة بشدة بين الكبار والصغار، وأيضا قصص الموت والدمار مثل غزو بنما والضربة الجوية ضد ليبيا تشير الدراسات إلى اهتمام الصغار بها مثل الكبار، ومن أطرف نتائج دراسة قامت بها مؤسسة (بيو) فى الولايات المتحدة الأمريكية وتم نشرها أن نسبة الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ - ٢٥ ويستطيعون أن يعرفوا بشكل صحيح من هو نائب الرئيس بوش الابن حوالى ٥١٪ فقط، يعنى ٤٩٪ منهم لايعرفون من هو تشينى!.

الإنترنت وشباب مناهضى العولمة

وإذا كانت الصورة السابقة تعكس حال الشباب فى المجتمعات الغربية، إلا أن أواخر التسعينات وبداية القرن الجديد شهدت بعض الإستثناءات، حيث ساعد الإنترنت على ولادة روح شبابية جديدة متمردة فى احتجاجات سياتل ثم أعيدت تكرارا فى واشنطن، وأوكيناوا، وبراغ، ودافوس، وملبورن، وغوتنبرغ، وليون، ثم فى جنوة والتى بلغت فيها تجمعات المحتجين حوالى ثلاثمائة ألف إنسان، حيث سقط أول ضحية للحركة الشبابية العالمية التى تعرف عن نفسها بـ مناهضة العولمة Anti - globalization، والقتيل شاب لم يتجاوز عمره الحادى والعشرين، ومنذ احتجاجات سياتل (١٩٩٩) يُرجع البعض قدرة هؤلاء الشباب على التجمع والاحتجاج بالاعتماد على الانترنت، الذى استخدم فعلا بكثافة فى تنظيم الاحتجاجات، حيث تجمع فى سياتل أربعون ألف شاب من مختلف دول الأرض، ومعظمهم من البلدان المتقدمة، وتظاهروا وهتفوا لأجل مطالب عالمية، مثل حماية البيئة من آثار الصناعة، وتخفيف ديون العالم الثالث، والفجوة الاقتصادية والرقمية بين الجنوب والشمال، وغيرها من المطالب، فمناهضة العولمة هى صيغة

احتجاج معاصر لشباب مجتمعات مابعد الصناعة، ودعونا نتأمل ماحدث فى مظاهرات كويك ضد مؤتمر التجارة الحرة الأمريكية (Ftaa - free trand area for the americas) والذى حضره ٣٤ رئيسا، يتقدمهم الأمريكي جورج بوش. ويعتبر المؤتمر امتداداً لاتفاق (NAFTA) للتجارة الحرة الذى شمل القارة الأمريكية الشمالية، والذى كانت له تاثيرات بالغة السلبية على وضع الطبقة العاملة فى كندا، التقارير الواردة من ساحة «المعركة» الرمزية ضد النظام الرأسمالى فى كويك، لا تخفى حماسها وتعاطفها اللامتناهى مع الشباب .. ولكن، لم يكن بوسع المنجنيق (مدفع من القرون الوسطى) الذى استخدمه الشباب كوسيلة ابداعية للدلالة على قهر الرأسمالية، أن يهزم القوات التى جندتها الشرطة لهذا اليوم (بلغ عددهم ٦,٠٠٠ شرطى وجندى)، والذين احاطوا بالجدار من الداخل مدججين بالغاز المسيل للدموع وخراطيم المياه والرصاص المطاطى، ووصفت التقارير الآلاف يخرجون معظمهم شباب لاتزيد اعمارهم على العشرين والحماس يملؤهم لهدم جدار أقامته السلطات الكندية بكلفة ٤٦ مليون دولار، ليفصل بين المؤتمرين فى بنايات البلدة القديمة لكويك وبين المتظاهرين الشباب، وصار الجدار رمزا للفجوة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء، ولم يكن المنجنيق البدعة الوحيدة الغريبة التى استخدمت فى المظاهرات، بل كانت هناك الدمى والأزياء وأمور أخرى خلاقة كان الهدف منها الهزء من ثراء وقوة الرأسماليين ، والهتافات، والرقصات والموسيقى كانت أيضا بين «الأسلحة» التى استخدمها الشباب للتعبير عن سخرهم من نظام الاستغلال، وهذا ما جعل بعض المعلقين المتحمسين يصف المظاهرات بالكرنفال، ويصف المسيرة بأنها الأكثر حماسة، وشبابا، وسرعة وطاقة ، وقال: إن الشباب «حديثى العهد بالسياسة والباحثين عن الحقيقة، غير متأكدين مع من هم وماذا يريدون، ولكنهم يعرفون ضد من يحاربون، ونتفق مع رأى الدكتور وحيد عبد المجيد فى إحدى مقالاته من أن احتجاجات الشباب من مناهضى العولمة لا ترقى إلى مستوى ثورة الطلاب فى أوروبا فى أواخر الستينات وحركات الشباب الأمريكى ضد حرب فيتنام، والتى حققت انجازات أبرزها إسقاط الديجولية فى فرنسا وإنهاء حرب فيتنام، فالاحتجاجات الراهنة على العولمة تبدو أبعد عن تلك الحركات، إنها أقرب إلى تمرد شبابى عشوائى فى الغالب.

وبعد هذه البانوراما السريعة عن أحوال شباب العالم، يبرز السؤال الآتى ماذا عن شبابنا فى مصر؟، ورغم اننى لا أملك نتائج دراسات تقيس فجوة الاهتمام والمعرفة بين الكبار والشباب فى مصر، نتيجة لندرة تلك الدراسات أو عدم وجودها، أو تقصير منى فى عدم متابعتها إذا كانت موجودة! ولكنى أزعم هنا أن حال شبابنا فى مصر لايختلف كثيرا عن حالة اللامبالاة التى يعيش فيها معظم شباب العالم، بل أزعم أيضا أن الموقف



عندنا أعقد من ذلك! فشباب المجتمعات الغربية رغم أنه يعيش فى حالة اللامبالاة بالأحداث الجارية كما كشفت عنها الدراسات الاجتماعية الحديثة، رغم ذلك، فقلة منهم نفضوا عنهم حالة اللامبالاة فى أوائل القرن الجديد كما رأينا فى احتجاجات مناهضى العولمة.

ماذا يشغل شبابنا اليوم؟

ونلاحظ فى مصر، أن المصريين الذين يمثلون جيل ثورة ١٩٥٢ وعاشوا تجاربها وايجابياتها وسلبياتها وحروبها حتى نكسة ١٩٦٧، حرب أكتوبر ١٩٧٣، هذا الجيل الذى انتمى إليه كان فى شبابه أكثر اهتماما بأحوال مصر ومشاكلها وأحوال العالم حوله بدون أن تكون هناك ثورة الانترنت والاتصالات، وأن العالم قرية كونية صغيرة كما يقولون! وعندما أقارن الآن بين جيلى وأبنائى فى البيت وفى الجامعة، بل وحتى المعيدين والمساعدين والمدرسين الذين أعمل معهم، ألاحظ فتور اهتماماتهم بمشاكل الوطن والعالم، رغم مايتوافر تحت أيديهم من إنترنت وأطباق استقبال تجعل العالم كله بين أطراف أصابعهم، ويبدو من متابعة هذه الشريحة (الشباب أقل من ٣٥ عاما يمثلون ٦٦٫٥٪ من السكان) ضمن المجموعات السكانية، أنهم فى واد آخر مع الإعلانات وأنواع المأكولات الأمريكية، والملابس الشبابية، والبيتزا هت، والهمبورجر وغير ذلك من عالم الاستهلاك، الذى ألهى الشباب عما يحدث حوله، إنهم مشغلون بالدردشة فى الانترنت أو حيازة جهاز كومبيوتر لممارسة العابه! أو ملاحقة آخر صيحات الموضة وصرعاتها فى الملابس والعطور، وأخبار الفنانين والموسيقى والسينما والمسارح ومطاعم الوجبات السريعة وصالات البلياردو، ولا يعبأون بأخبار مصر الداخلية أو البلدان المجاورة، ولابأسامة بن لادن أو الحرب على أفغانستان، ولا يستوقفهم الحديث عن العولمة والغزو الثقافى ولا التحالف ضد الإرهاب، كل ذلك لايهمهم، بل يتابعون فقط برامج المسابقات، ويراقبون بشغف ربح الملايين فتتضاعف أحلامهم بهبوط ثروة مفاجئة تمكنهم من الوصول إلى فتيات أحلامهم اللواتى يشبهن بنات التليفزيون الرشيقات، الأنيقات والدلوعات، وفى ظل هذه الحياة الهامشية، حدث انهيار قيمى شامل، وسيطرت فيه النزعة المادية، التى جعلت التعليم والعلم بلا قيمة فى نظر الكثير وبالأخص من الشباب الذين يرون الغنى الفاحش والإسراف المتوحش بلا مبرر منطقى، والتصرفات الاستفزازية للأغنياء الجدد، فانهارت قيم العلم والفكر، وسيطرت على المجتمع الأنماط الاستهلاكية، وأصبح الجميع يتهافت على لقمة العيش، بأى طريقة، وأصبح الشباب بلا هدف ولا أمل، إلا البحث عن المال والغنى بأسهل الطرق، ولا يستهويهم غير المظهرية والضخامة، ولا يعترفون بأبطال غير السماسرة، ونجوم السينما والإعلان ، وباتوا يتحدثون عن





أنواع السيارات والمحمول، والمنتجات، وعالم الروشنة! واتذكر منذ ٧ سنوات أجرت جريدة الأهالى استفتاء بمناسبة مرور ٢٨ عاما وقتها على هزيمة ١٩٦٧ بين شباب عمرهم خمسة وعشرون عاما، وإذا بهذا الجيل لايعرف أى شيء عن هزيمة ١٩٦٧! ولك أن تنتظر لهؤلاء الشباب فى الحفلات الغنائية التى لاتنتهى، ويذيعها التليفزيون من العاصمة الجديدة لمصر فى قرية مارينا فى الساحل الشمالى، تجدهم يتراقصون أولادا وبناتا على نغمات وكلمات جنسية هيابية مزعجة ليس لها معنى، حيث نراهم يتراقصون على الواحدة ونصف وكل شحط فيهم يستعرض حركة وسطه أمام الجمهور، وبنات محجبات وسافرات ويهززن الأرداف.

شباب الريف

وإذا كان ذلك هو حال شباب الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة. فبقية قطاعات الشباب فى غيبوبة وملهية بالبحث عن عمل ولقمة العيش وكل بطريقته فهناك قطاع عريض من الشباب فى ريف مصر يحلم بالهجرة إلى المدينة قاصدا تحويلها إلى قرية أخرى، أو يضطر إلى الانخراط فى جماعات التطرف احتجاجا على النسيان والإهمال الذى فرضه المجتمع عليهم، والشباب فى الريف ينتمى فى اغلبه إلى ما سماه الدكتور رشدى سعيد فى مقاله الخطير بمجلة الهلال (عدد يناير) كتلة البشر الغاطسة، وهذه الكتلة البشرية الهائلة التى ينتمى إليها الشباب الريفى غالبا، تبلغ ٥٠ مليونا وتنتظم فى ٨ر٥ مليون أسرة يتراوح دخلها الشهرى بين ١٠٠ و ٥٠٠ جنيه مما يجعلها تحصل على ٢٦٪ من جملة الدخل القومى على الرغم من أنها تمثل ٨٦٪ من جملة سكان مصر، ويسكن ٥٦٪ من أسر هذه الشريحة فى الريف، والباقى فى عشوائيات المدن فى ظروف غير آدمية بالمرة، فمتوسط الأنفس فى الحجرة ٦ أفراد و٨٠٪ من مساكن تلك الكتلة من غير دورات مياه، ويعيشون فى قرى ومناطق عشوائية لاتعرف الصرف الصحى أو التنظيم أو الكهرباء أو خدمات عامة كالبريد والتليفون، أو طرق ممهدة أو خدمات اجتماعية وثقافية، بمعنى آخر ليس فيها ابسط الخدمات، ولا يذهب الجزء الأكبر منهم إلى المدارس والتى يتسرب الجزء الأعظم منها إلى العمل الشاق فى أعمال الخدمة الهامشية، وهى تكتلات عاجزة عن إيصال صوتها إلى السلطات الحاكمة، لذلك كان من السهل على تيارات الإرهاب أن تجد كوادرها من بين شباب تلك الكتلة الغاطسة التى أوشكت عى الغرق، وقبل أن تغرق سوف تصرخ بالعنف طالبة الإنقاذ.

الحلم المصرى الضائع

فى الستينات كان لكل شباب الوطن حلم مصرى واحد يلتف حوله الجميع، حلم قائم على نموذج تنمية مستقبل يستهدف بناء مجتمع يجد فيه كل فرد فرصة حياة كريمة، حلم أصحابه من الأغلبية الفقيرة،

حلم خالص المصرية نابع من قيمها وأرضها، يسعى لتحقيق التوازن بين الدوائر العربية والأفريقية والإسلامية التى تتقاطع جميعا فى مصر، حلم نموذج حاولت الكثير من الدول النامية الإقتداء به.

وسعت قوى كثيرة خارجية وداخلية، عربية وأجنبية إلى قتل هذا الحلم ، ونجحت تلك المساعى وهزمت الحلم فى يونيه ١٩٦٧، ومنذ هذا الوقت سيطرت على شباب المصريين أحلام أخرى تبلورت مظاهرها مع بداية السبعينات خاصة بعد عام ١٩٧٣ حيث الانفتاح والهجرة، ومن وقتها يمكن لغرض الملاحظة أن نميز فريقين من شباب مصر، الأول هم أصحاب الحلم السلفى والآخر هم أصحاب الحلم الأمريكى، بمعنى أوضح فريق يحلم بالحلم السلفى ذات المظهر الإسلامى الخادع المنافق المتشدد الذى اختزل الدين فى الحرام والحلال، والفريق الآخر يحلم بالحلم الأمريكى المحبذ للرفاهية الكاذبة البراقة، وبين الفريقين مسافات متداخلة ودرجات تجمع أغلبية الشباب فى مصر!.

ومظاهر الحلم السلفى منتشرة بين قطاع عريض من الشباب فى كل شارع من ثوب أبيض قصير وصندل وغطاء رأس ولحية مطلقة وبسملة وحنجلة باسم الإسلام، وانتشار الحجاب والنقاب، ومشروعات ملابس المحجبات، كله تجارة فى الدين، وأسماء المحلات والمدارس الإسلامية ذات الطابع الخليجى والتى ترفع شعار المصحف والكمبيوتر واللغة الأجنبية، وقبل كل ذلك شركات توظيف الأموال وشركات الصيارفة والبنوك الإسلامية وكشوف البركة، والتكالب على السفر للعمرة والحج! حتى لو كان بالتقسيط، هذا غير الاندفاع نحو الهجرة للعمل، أى عمل وبأى ثمن، ولك أن تشاهد يوميا مئات الشباب على أبواب القنصليات العربية والأجنبية فى مصر وهم يعلنون بتكالبهم على السفر موت الحلم المصرى، وانتشرت الخرافات والشعوذة باسم الدين، وسادت القيم التى تدعم السلطة الدينية ومرجعية النص الدينى، وانتشرت قيم التزمت، وحجب وعزل المرأة، والمبالغة فى النزعة الذكورية، وتفضيل الماضى، ونبذ العلم والتفكير العلمى، وتضخيم النزعة العائلية والقبلية، وتنمية الروح القدرية، وزيادة محاولات تديين الثقافة، وأصبح الحلم السلفى جامعا مانعا يحلم به قطاع عريض من الشباب باختلاف خصائصهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والديموجرافية.

والحلم الأمريكى له طابع خاص فهو سائد بين فريق من الشباب المصرى يمثل نخبة من المجتمع اختيرت على أساس الانتخاب المهنى حيث ساد بين شباب المثقفين والمهنيين والاخصائيين من ذوى المهارات التكنولوجية العالية، وساد بصفة خاصة بين شباب أقباط مصر، فكان الحلم الأمريكى يختار أصحابه، أما الحلم السلفى فكان الجميع يختارونه تحت شعار الإسلام، وأهم مظاهر الحلم الأمريكى

كانت فى إنحياز الدولة للثروة سواء فى سياستها الداخلية أو الخارجية، وانتشار الاستهلاك الترفى نتيجة لاستفزاز وسطوة الإعلانات (هامبورجر ماكدونالد ودجاج كنتاكى وملابس الجينز ومنتجات جونسن والحلقات الأمريكية .. الخ). والمبالغة فى الحرية غير المسئولة وانتشار مدارس اللغات ذات التوجهات الأجنبية، والإعلام القائم على الثقافة الأمريكية، وسيادة الرأسمالية الطفيلية، والجامعات والمعاهد الخاصة، والفن الذى يمجد النموذج الأمريكى فى الحرية الفردية والملكية الخاصة، وسيادة قانون السوق حتى فى العلاقات الاجتماعية، وسيادة الطابع الاقتصادى الريعى والسمسارى، وسيادة الطابع المهرجانى والسياحى للأنشطة الثقافية، وتسطيح التعليم وإشاعه الديماجوجية السياسية والسلوك النفعى، وتهميش الفكر العلمى، والديموقراطية الشكلية، وتفتيت الطبقة الوسطى. وعندما حاول الشباب المصرى تحقيق الحلم الأمريكى، اكتشفوا سراب الحلم وعدم إمكانية وأمل تنفيذه خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ وعندما حاول شباب مصر تحقيق الحلم السلفى اكتشفوا استحالة تحقيقه أيضا لأن التاريخ لايعود للوراء!

بين الحلم السلفى والحلم الأمريكى

ولايوجد تناقض بين الحلم السلفى والحلم الأمريكي، فالأول تابع للثانى فالحلم السلفى هو نفسه الحلم الأمريكى مرتديا عباءة إسلامية، وإذا كان الحلم السلفى هو تجريف لتاريخ مصر كلها، فهو فى الوقت نفسه يدعم الحلم الأمريكى ويوسع قاعدة التبعية. والذين يقولون: إن العامل الاقتصادى هو السبب فى اندفاع المصريين للحلم السلفى والأمريكى، فإننا نذكر أن مصر في الستينات لم تكن غنية، فنحن لانملك حلماً وطنياً يلتف حوله شباب المصريين فمشروعات البنية الأساسية لن تكون أحلاما وطنية بدون ابعاد سياسية، فالحلم الوطنى سياسى فى الأصل يتطلب حكومة سياسية، وإذا كانت تلوح فى الأفق الان شواهد سقوط الحلم الأمريكى بعد يوم الثلاثاء الأسود فإن سقوط الحلم السلفى فى مصر يتطلب وقفة من الجميع لإحياء قلب وعقل مصر، فشباب مصر ياسادة سوف يحكمون الوطن فى القرن الجديد، وإذا كانت التجربة المصرية مع الشباب عانت سلبيات كثيرة أهمها تعدد الأجهزة والوزارات التى تتولى العمل مع الشباب، بحيث أصبح مجال الشباب مسرحا يطبق فيه شعار التجربة والخطأ، وأصبح امتدادا منهجيا لنظام المدرسة، واعتمد على التلقين، وأهمل التدريب والمشاركة العملية والميدانية، وأغفلوا أهمية اعتماد الشباب على أنفسهم، وأهملوا مشاركتهم فى تخطيط ومتابعة برامجهم، وقتها ياسادة يصبح الوطن فى خطر ما بعده خطر.

والسؤال الان أين الحلم المصرى لشباب مصر؟! إن المكان الطبيعى الذى يفترض أن يتولد فيه هذا الحلم، هو المدرسة والجامعة! فنظم التعليم فى مصر لم تنجح فى تكوين المواطنة بين الشباب ، وفشلت فى بناء نسق معرفى وقيمى



يتفاعل تحته شباب الوطن الواحد، وإذا كان التعليم هو عمليات تغيير معارف واتجاهات وسلوك الأفراد فإن المسئولية الأولى للمؤسسات التعليمية هو إعداد وتهيئة عقول الشباب لمواجهة المتغيرات المتلاحقة والمستجدات الحياتية، وإلى إعادة النظر فى أهداف التعليم فالمعرفة فى حد ذاتها لم تعد هدفا بل الأهم من تحصيلها هو القدرة على الوصول إلى مصادرها الأصلية، واستمرارية الاستفادة منها لاحتياجات تنمية المجتمع وتوظيفها فى حل مشاكله.

وتحت إطار الازدواجية فى النظام التعليمى المصرى، تتم يوميا عمليات ختان العقول لشباب مصر، فالنظام التعليمى المصرى يعانى من أنواع مختلفة من الأزدواجية، خاصة بين التعليم الدينى والمدنى، والتعليم الحكومى والخاص الذى يعانى داخله من ازدواجية بين التعليم الأجنبى والدينى، بل هناك التعليم حسب الطلب.

وإذا كان اليابانيون متشائمون حول مستقبل وطنهم، وأن حوالى ٦٠٪ منهم يعتقدون أن بلادهم ينتظرها مستقبل سيء بسبب المشكلات المالية، والعجز المالى الرهيب فى الميزانية ، وتردى الأوضاع الاقتصادية وتكاليف المعيشة الباهظة، وتدنى مستوى الرعاية الصحية والرفاهية الاجتماعية، فاليابان الدولة المعجزة متشائمةمن المستقبل ونحن رغم أحوال التعليم المتردية على جميع المستويات، ولايمكن أن تخطئها عين فاحصة، لاتطرف لنا عين!.

والنظام التعليمى فى الدول المتقدمة لاينجح من فراغ بل يتم داخل منظومة مجتمعية تختلف تماما عن المنظومة التى يتم فى إطارها نظام التعليم المصرى، فالموضوع ليس بعدد الأيام الدراسية، أو الشعارات الجوفاء المكتوبة على أسوار المدارس المتهالكة وحولها أكوام الزبالة وهى تقول مدرستى نظيفة وجميلة ومتطورة ومنتجة! فتخلف نظام التعليم المصرى هو نتيجة منطقية وحتمية لتخلف المجتمع، فهى حلقة شيطانية مفرغة، فلا مفر من ثورة فى نظام التعليم تصاحبها تغييرات جذرية على جميع مستويات المنظومة المجتمعية لكسر حلقة التخلف بعد عدة أجيال.

لقد تم حسم الأمور فى العالم كله، واتفق العلماء على أن السبب الرئيسى لتفوق الدول وتقدمها هو نظام التعليم، وبداية إصلاح نظام التعليم المصرى هو الاعتراف بسلبياته، وعدم تحميلها على عهود سابقة، والتاريخ يبين لنا أن الدول المتقدمة لم يكن أمامها إلا التعليم لكى تتحول من مجتمع حكام إلى مجتمع مواطنين، ولاسبيل أمامنا أيضا إلا التعليم السليم الذى يؤهل الشباب ويشكل ضميره ووعيه، ويدفعه للانخراط فى مجموعات القوى السياسية الفاعلة، التى تعتمد عليها فاعلية ديمقراطية الحياة السياسية، فالمجتمعات تضعف أو تتلاشى عندما يتكور و يتقوقع شبابها على ذاته. ■



من جحيم الواقع

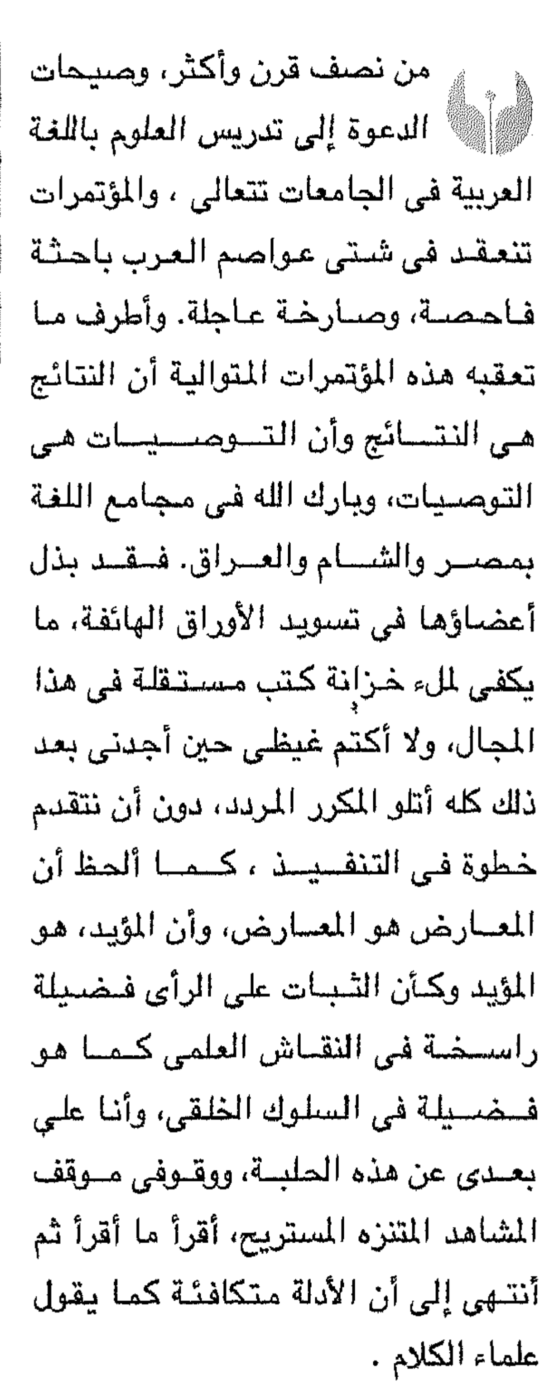
الجامعيون واللغة العامية

بقلم

د. محمد رجب البيومى

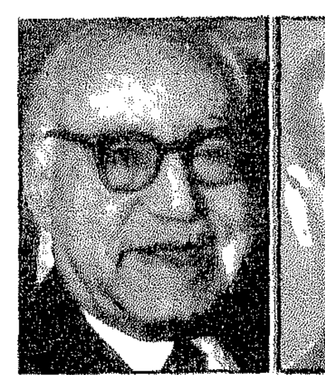
لماذا تفشت اللغة العامية بين أساتذة الجامعة وكبار المثقفين؟ وكيف تستعيد اللغة الفصحي مكانتها ودورها؟

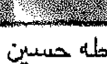
كيف أقنع الطالب باحترام أستاذ لا يستطيع أن يبين عن ذات نفسه إلا بلغة الأميين؟ ثم هو مع ذلك يرهق تلميذه بثمن مضاعف لمذكرة بالية شكلا وموضوعا، وتجيء ثالثة الأثافى حين يجبره على درس خصوصى يحتاج إلى مورد ضخم لا يقدر عليه والد له عدة أولاد فى الجامعة !!



من نصف قرن وأكثر، وصيحات الدعوة إلى تدريس العلوم باللغة العربية فى الجامعات تتعالى ، والمؤتمرات تنعقد فى شتى عواصم العرب باحثة فاحصة، وصارخة عاجلة. وأطرف ما تعقبه هذه المؤتمرات المتوالية أن النتائج هى النتائج وأن التوصيات هى التوصيات، وبارك الله فى مجامع اللغة بمصر والشام والعراق. فقد بذل أعضاؤها في تسويد الأوراق الهائفة، ما يكفى لملء خزانة كتب مستقلة فى هذا المجال، ولا أكتم غيظى حين أجدنى بعد ذلك كله أتلو المكرر المردد، دون أن نتقدم خطوة فى التنفيذ ، كما ألحظ أن المعارض هو المعارض، وأن المؤيد، هو المؤيد وكأن الثبات على الرأى فضيلة راسخة فى النقاش العلمى كما هو فضيلة فى السلوك الخلقى، وأنا علي بعدى عن هذه الحلبة، ووقوفى موقف المشاهد المتنزه المستريح، أقرأ ما أقرأ ثم أنتهى إلى أن الأدلة متكافئة كما يقول علماء الكلام .

على أنى هنا أترك جانب التعريب فى العلوم جانبا ، لأنتقل إلى جانب مهم لم ينل أدنى التفات من هؤلاء المتحمسين ذوى الغيرة الصاخبة، هذا الجانب هو





طه حسين — أحمد حسن الزيات

تدريس المواد الإنسانية فى كليات اللغة والآداب والحقوق والتربية وما إليها، فأتساءل أيتم تدريس هذه المواد باللغة العربية حتى نستريح إلى أصالتها فى هذه الكليات أم أن تدريس مواد التاريخ والجغرافيا وعلم النفس والتربية وتاريخ الأدب في أحيان كثيرة، يكون باللغة العامية المبتذلة؟ نعم إن المذكرات تكتب باللغة العربية، وأسئلة الامتحان توضع باللغة العربية، والإجابة تكون مزجا بين العامية والعربية! هذا هو المشاهد الملموس، ولكن المشاهد الملموس أيضا أن ثمانين فى المائة من أساتذة هذه المواد لا يجيدون اللغة العربية، ولا يستطيعون المحاضرة بها على وجه يذكرنا بالقدماء من أساتذة الجامعة العريقة، وإنما يلخصون ما وزعوه على الطلاب من مذكرات ركيكة الأسلوب فى الأعم الأغلب مما نقرؤه متحسرين ، يلخصونه باللغة

العامية، التى لا تملك من الألفاظ ما تعبر به عن المعانى الأدبية، فتكون النتيجة من الناحية العلمية أن يخرج السامع بعدة قشور تضطره إلى مراجعة المذكرة، ليلمس فجوة فى التعبير بين ما يسمع وما يقرأ، فما بالنا إذن نسكت عن عجز الأستاذ عن الحديث باللغة العربية فى المواد الإنسانية. ونقيم الضجيج حول تعريب العلوم فى الكليات العلمية؟ أتكون اللغة العربية فرضا محتوما على طلاب الطب والهندسة والصيدلة والعلوم، فتعقد لها المؤتمرات وترن الاعتراضات والإجابات، ثم لا يلتفت أحد من هؤلاء المتحمسين الغُيرُ إلى اللغة العامية التى تدرس بها المواد فى كليات الاقتصاد والآداب والتربية والحقوق، فنبحث فى جد، كيف نخرج مدرسا يستطيع أن يتحدث باللغة العربية فى قاعة المحاضرات ، والمؤلم المخجل، أن القائمين على توجيه الجامعات يعرفون ذلك، ولا يبدون أدنى اعتراض على هذا الانحدار الشائن. بل فيهم من يشارك فيه لأنه كان يتحدث بالعامية دون احتفال بنقد أو توجيه!

وناحية أولى يجب أن نلتفت إليها، هى أن اللغة وعاء للمعنى، ولن يستطيع المتكلم أن يتدفق فى محاضرته إلا إذا كان ذهنه مليئا بالمعانى التى يريد أن يعبر عنها ، فتزاحم المعانى واحتشادها يسهل مهمة



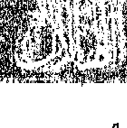
عبد الوهاب عزام — عبد الرزاق السنهورى

المحاضر، ويسعفه بما يريد من الألفاظ ، ونحن نسمع كثيرا كلمات قيمة لأفاضل من رجال السياسة والاقتصاد والاجتماع لم ينالوا من الدراسة اللغوية غير ما حصلوه فى المدارس الثانوية، ولكنهم لامتلائهم بالأفكار الحية، يفيضون فى الحديث دون تلجلج ، وينتقلون من عنصر إلى عنصر وفق ترتيب عقلى هداهم إليه تفكيرهم المنظم ، حتى لتعد أحاديث طلعت حرب ، وحافظ عفيفى وعلى الشمسى، ضربا من الأسلوب العلمى الدقيق، فإذا تساءلنا عن إخفاق الأستاذ الجامعى فى أدائه التعبيرى ، فلابد أن نجعل من أسبابه المباشرة، عدم التعمق فى المادة، والإلمام بعناصرها المتسلسلة، وافتقاده المسئولية الدقيقة التى نيطت به يوم عين مدرسا، وقد رأى الجو الجامعى الذى يعيش فيه، لا يحاسب مقصرا على تقصيره، فلم يبال بإعداد الدرس على وجهه الصحيح، واكتفى بتعبير عامى لما دونه فى مذكرته للطلاب، وعرف الطلاب

ذلك عنه، فانصرفوا عما يقول، بل إن بعضهم يلقى الدرس من المذكرة التى أوراقها بين أيدى الطلاب، وكأنهم فى حاجة إلى من يقرأ لهم، لا فى حاجة إلى من يشرح، ويكشف، ويحلل ويعلل، وفيهم من يحضر معه كراسة فيها تلخيص لأبواب المذكرة، ويكتفى بإملائها على الطلاب، والسؤال المحرج هو : مافائدة المذكرة إذن، إذا كان الأستاذ يوجز مسائلها فيما يمليه؟.. إن الفائدة ترجع إليه وحده فى إضاعة الوقت، وملء الفراغ دون تحصيل!

بداية الداء

لقد بدأ هذا الداء العياء ينتشر لدينا منذ نصف قرن، وقد بدأ على نحو هين لم يؤذن بأعراضه، لأن الكليات كانت محدودة العدد، وكان اختيار أعضاء التدريس بها يخضع لميزان أدق وأجدى ، والأساتذة الكبار لا يزالون يقتعدون مقاعد التوجيه، ولهم رهبة يرتعد لها من لم يكن أهلا للتدريس، ثم تعددت الجامعات فى كل مناحى القطر، وامتلأ الفراغ بمن يصلح ومن لا يصلح، ومرت الأيام متدرجة من السيئ إلى الأسوأ، حتى جاء عقد الثمانينات بما أظهر المأساة على وجهها النكير، فأصدر اتحاد الجامعات العربية فى سنة ١٩٨٠ عددا تربويا كان من بين موضوعاته (تأهيل أعضاء التدريس وتمكينهم من القيام بأعباء التدريس باللغة العربية) وفى هذا الموضوع صراحة كاوية، لأنه أظهر عجز القائم بمحاضرة الطلاب عن الإفصاح بلغته القومية عما يريد، وقد ألقى البحث فى مؤتمر عام، فلم يجد من يلجأ إلى إنكار متشنج نسمعه ممن يوارون السيئات لأنهم يرتكبونها، ويحاولون تبريرها بتبسيط المسائل للطلاب، كأن الطلاب لا يقرءون الجرائد اليومية، ولا يستمعون إلى الإذاعات مرئية ومسموعة، وجلها تنطق باللغة العربية الفصيحة. فيالله ! يقرأ العامل والتاجر والفلاح والطالب فى المدرسة الإعدادية والطالب فى التعليم المتوسط !! يقرأ هؤلاء الكلام الفصيح فى الجرائد ويسمعونه فى الإذاعة ، فيصل إلى أعماقهم ويتناقشون فى مضمونه بعد أن يستوعبوه، ثم يأتى من يقول إننا نتخذ العامية فى التدريس الجامعى لنسهل العسير على الطلاب!! إن الواعظ الدينى إذا خطب فى مسجد من مساجد العبادة فى أقصى الصعيد أو فى أنأى الريف سقطت هيبته لدى الجمهور الساذج، وعده القوم دخيلا على الوعظ، وشكوه إلى المسئولين، وقالوا إنه يشوه كتاب الله وحديث الرسول حين يفسرهما باللفظ الشائه! أفيكون هؤلاء جميعا فوق طالب الجامعة إدراكا حتى





جمال الدين الافغانى   عبد العزيز البشرى

نتعلل بالتبسيط والتيسير، وقد جاء فى المقال الذى نشرته مجلة (اتحاد الجامعات العربية) إن الجامعات العريقة فى البلاد المتقدمة تشترط فى عضو التدريس أن يجتاز امتحانا ذا مستوى معين فى اللغة القومية التى يدرس بها بحيث يكون أداؤه سليما متميزا ، وإذا لم يتح له ذلك ، فلابد أن يتأخر تعيينه حتى يتسلح بمعرفته لغته القومية إعرابا وأسلوبا ، فإذا كانت الجامعات العريقة تشترط إجادة اللغة القومية، وتضع امتحانا دقيقا لمن يتأهل للتعيين مدرسا بها فى شتى فروع العلم بكليات الجامعة وإذا كنا نرسل البعثات لنفيد من خبرات هذه الجامعات المتقدمة! فلم لا يكون أول ما نفيده من هذه الخبرات أن ننقل عنها نظام الامتحان الدقيق فى اللغة أسلوبا وإعرابا لنختار على ضوئه من يصلحون للأداء التعبيرى فى قاعات المحاضرات ! بل إن فى هذه الجامعات دروسا خاصة باللغة القومية فى كل كلية من الكليات نظرية أو عملية، ولها امتحاناتها التى تظهر مقدرة الطالب فى استيعاب قواعد هذه اللغة! وأنا أذكر أننا فى عهد التقدم العلمى السالف، كنا نتجه هذا الاتجاه، فالأستاذ الكبير عبدالوهاب حمودة كان أستاذا للخطابة فى أوائل الثلاثينات بكلية الحقوق، ومدرسة المعلمين العليا التى كان من شأنها أن تخرج أساتذة المدارس فى غير مواد اللغة العربية ، كانت تدرس الأدب والنصوص فى سنوات متعاقبة ، أقول ذلك لأن الأديب الكبير الأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازنى ذكر فى بعض مقالاته أنه كاد يرسب فى امتحان اللغة العربية الشفوى بهذه المدرسة ، حين كان الشيخ حمزة فتح الله رئيسا للجنة الامتحان ووجه إليه من دقائق علم الصرف ما أزعجه، لولا أن عضو اللجنة الشيخ عبدالعزيز شادلين أخذ ييسر جهة الإجابة للطالب المحرج! فإذا رأينا مدرسة المعلمين العليا أخرجت من كبار الكتاب أمثال إبراهيم المازنى وعبدالرحمن شكرى ومحمد فريد أبو حديد وعبدالحميد العبادى وزكى نجيب محمود وفخرى أبو السعود إلى آخر من لا أستطيع إحصاء أسمائهم النيرة المضيئة، فلأن المدرسة جعلت اللغة القومية ذات حظ موفور! مع وجود مدرسة دار العلوم العليا التى تخرج مدرس اللغة العربية المتخصص !

أمية المتعلمين

لقد صار عجز الأستاذ عن إلقاء موضوعه باللغة العربية مثلا سيئا للطالب،

فقد التحق بالكلية النظرية - ولا أقول العملية - وهو يظن أن أستاذ التاريخ أو التربية أو الجغرافيا، أو الاجتماع بحر زاخر يفيض عليه بما كان يصوره خياله من إبداع، ثم تمخض الجبل فولد فأرا، حين رأى المدرس يرسل كلمات مبتورة فى سياق عامى، وتتكرر المحاضرات فإذا المحصول هش، وإذا المذكرة المتآكلة هى كل عماد المحاضرة! والذى يعجب له المتأمل، أن بعض هؤلاء يذكرون فى ختام مذكراتهم مراجع ضخمة توحى بأنهم درسوا لُبابها فى أعقد كتب الفلسفة والتاريخ والاجتماع ، ولو قرأ هؤلاء بعض هذه المراجع لامتلأت عقولهم بما يجدى الطلاب، لأن وفرة المعانى تساعد على التدفق العلمى، وتجبر الألفاظ على الخضوع الصارم ، وقد يخطئ المدرس قليلا فى بعض مسائل اللغة والنحو فلا يؤاخذه الفاحص المستمع إن وجد، لأن تدفق المعانى، وانسياب الشرح التحليلى يرتفع به فوق المؤاخذة اللفظية ! ولكن أى تقدير يناله من يلخص مذكرة مبتورة بأسلوب عامى ركيك! ثم يحمل حقيبته ويمضى!

ونترك الكلام عن الحديث بالعامية قليلا إلى ناحية أخرى تساعد على ضحولة الأستاذ، وضيق أفقه ، وإيصاد منافذ القول أمامه، هذه الناحية هى جهله الواضح بما يبعد عن تخصصه، فهو يحصر نفسه فى المادة التى يدرسها، وقد يستلزم الحديث المتفرع إلماما بنواحى الثقافة العامة ، كما هو منتظر فى سؤال يعن من طالب، أو وقوع حادث يشغل الأذهان ويتجمع الطلاب سائلين عن الأسباب والدواعى ، فيظهر صاحبنا من دلائل الضيق ما يضائل من مكانته ، ويزعزع ثقة تلاميذه به، وهى ناحية ليست مقصورة على رجال الجامعة وحدهم بل تكاد تشمل أكثر من تخرجوا ، وزاولوا أعمالهم المهنية وفى هؤلاء يقول الدكتور محمد مندور من مقال نقدى جيد نشره تحت عنوان (أمية المتعلمين) :

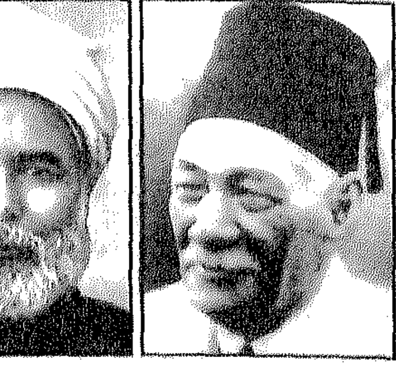
«إن ضعف الثقافة العامة شديد الصلة بالتعليم والثقافة المهنية على السواء، ونقصد بالثقافة العامة كافة أنواع المعرفة الأدبية والتاريخية والفلسفية، التى لا تتصل بمهنته، ولا تؤدى إلى استقلال مهنى مباشر، وفى هذه الظاهرة ترى ببلادنا ما يفزع حتى لتحسب أننا فى أرض لم تتسرب إليها بعد معانى الحضارة الحقيقية ، ففى أوربا مثلا من المستحيل أن تلقى موظفا أو طبيبا أو مهندسا أو محاميا يجهل مؤلفات الكبار من الأدباء والفلاسفة والمؤرخين وأما فى مصر فمن المستحيل أن تلقى من بين من ذكرنا من يعرف تلك المؤلفات فى غير

النادر الذى لا حكم له ، ومن أشنع ما يهولك أن ترى سادتنا لا يستحيون من جهلهم بل يظهرون من عدم الاكتراث بهذه الثقافة ما يحزن» .

لقد افترض الدكتور مندور على المهندس أو الطبيب أو المحامى أن يلم بأصول الثقافة والمعرفة ، وهؤلاء قد وقفت معارفهم عند درجتى الليسانس أو البكالوريوس ! أما الأستاذ الجامعى فقد اتسعت آفاقه بعد ذلك ونال درجتى الماجستير والدكتوراه ، ومع ذلك التقدم فالحال متفق تماما لم يتغير! وذلك يدعو إلى إقامة المحاضرات العامة بالكليات الجامعية أسبوعيا، كما كنا نشهد فى الأربعينيات ، حيث يدعى أساتذة الفكر من أمثال منصور فهمى وطه حسين وزكى مبارك والعقاد وعبدالرحمن الرافعى إلى مناظرات تقام تحت رياسة مدير الجامعة أحيانا ووزير المعارف أحيانا أخر. والدوريات الأدبية فى هذا العهد حافلة بمظاهر هذا النشاط الثقافى الجامعى، وأنا أقرؤها الآن فأتساءل أين كنا؟ وكيف صرنا؟ هذه المحاضرات العامة ، وهذه المناظرات الموضوعية تعطى الطلاب فكرة ممتازة قوية عن الثقافة الصحيحة ، فإذا رأوا بعد ذلك أساتذتهم لا يحسنون الإلقاء العلمى، ويلجأون إلى العامية المبتذلة فى التعبير الرخيص ، أشاحوا عنهم . وأعلموهم أن أسلوب المحاضرات العامة يرتقى بهم إلى حيث لا يستطيعون المحاكاة ! وإذ ذاك يبذلون الجهد فى تعلم اللغة العربية من جديد !

الجامعى المستنير

وهنا أتذكر مثلا رائعا للجامعى المثقف المستنير ، حدثنى عنه الأديب الكبير الأستاذ محمد بهجت الأثرى - رحمه الله - أحد أعضاء المجامع العربية فى مصر والشام والعراق ، وهو من التأليف العلمى بالمكانة التى يتسامى إليها النظراء ، قال الأستاذ فى سنة ١٩٣٦ وفد الأستاذ الدكتور عبدالرازق السنهورى عميدا لكلية الحقوق العراقية وأستاذا للقانون المدنى بها ، فقرأنا فى الصحف عنوانا لمحاضرة علمية يلقها الاستاذ ، وكنا قد سمعنا من قبل محاضرات رائعة لأساتذة كبار من المصريين أمثال الدكتور عبدالوهاب عزام ، فى محاضرته عن بداوة المتنبى والأستاذ أحمد حسن الزيات فى محاضرته عن كتاب ألف ليلة وليلة فأعجبنا بالأديبين الكبيرين كل الإعجاب ، وقلنا ما عسى أن يقول أستاذ القانون المدنى فى محاضرة عامة، وتخصصه محدود ، ولكن حب الاستطلاع دفعنا إلى سماع المحاضرة ، وكانت التيارات الفكرية فى البلاد تتحدث عن المذاهب




سعد زغلول　　　　محمد عبده

السياسية فى أوربا حديثا صحفيا لا يرتكز على أصول علمية دقيقة، فاختار الزائر الكبير محاضرته فى موضوع (النهضات القومية العامة فى أوربا والشرق) وهو موضوع صادف موقعه فى النفوس . ثم بدأ حديثه المستفيض فى عدة عناصر فى ورقة صغيرة، وضعها أمامه ، فتحدث عن الصراع الأوربى الدائر حول رابطتي الوطن والجنس ، وألم بالثورات المعاصرة من سياسية وصناعية واجتماعية . ثم ثنى بالحديث عن الاشتراكية الروسية . ووجهت له أسئلة شتى أفاض فى الاجابة عنها فأكلت الوقت المحدد ، وحدد اليوم التالى لبقية المحاضرة ، فتحدث عن النازية والفاشية فارقا بينهما تفريقا دقيقا لم نكن نعهده ، وتوالت الأسئلة فأجاب عنها بما أمتع وأدهش ، وضاق الوقت عن استيعاب البقية فجاء اليوم الثالث ليناقش الديمقراطية فى فرنسا وانجلترا وأمريكا مبينا مالها وما عليها ، وفى كل محاضرة

يزداد عدد الحاضرين حتى غص بهم المكان . مع أن المكان هو بهو العاصمة الكبرى فى بغداد وهو أوسع ملتقى للمفكرين فى بلد الرشيد، وكانت الأيام الثلاثة عيدا ثقافيا لم تشهده البلاد من قبل ، حتى قال الأستاذ طه الراوى مدير التعليم حينئذ فى تعقيبه المفرط ، إن مصر التى أنجبت أحمد شوقى من السهل جدا أن تنجب أمثال عبدالرزاق السنهورى ! فهذا هو أستاذ القانون المدنى الذى اتسعت ثقافته فشملت ما بعج بالعالم الغربى من تيارات ! أفلو اقتصر الاستاذ على تخصصه ، ودعى للمحاضرة فى موضوع حدده القائمون على الأمر أفما كان الاعتذار المخجل هو المنقذ الوحيد لأمثاله ! وكيف وهو السنهورى !

أرانى حين أتحدث عن ضرورة الثقافة العامة للأستاذ الجامعى أتحدث عن بدهيات كان الواجب إغفالها لوضوحها التام، ولكن الواقع الممض قد يلجئ إلى اعترافات أليمة لا مناص من تسطيرها ، وآخر الدواء الكى كما يقال . وندع جانب الإلقاء العامى فى المدرجات ، إلى جانب شبيه به ، ومتصل به أكبر الاتصال ، هذا الجانب هو جانب الحديث المتبادل بين الأساتذة فى اجتماعاتهم الرسمية وغير الرسمية! وليس من الضرورى أن يكون الحديث فى هذه الاجتماعات باللغة العربية

فهذا مالا يطيقه غير أستاذ كبير كالدكتور طه حسين كان يحرص عليه متشددا ، ومؤكدا ما يلزمه من إجادة مخارج الحروف ، ودقة النبر الموسيقى ، إنما الضرورى أن يكون مستوى التفكير فيه راقيا بحيث يشعر السامع أنه ليس فى مقهى يجمع مختلف الطوائف الشعبية ، ولكن المشاهد الملموس أن أحاديث هؤلاء الكبار رسميا لا ترقى إلى المستوى المنشود ، فقد يدور الكلام حول موضوع سياسى يشغل الناس، وتفيض فى تحليله الصحف والاذاعات ، ثم تسمع إلى ما يقوله القوم ، فلا تجد غير ما يردده رجل الشارع ، لأنهم لا يقرءون ، ولا يفترقون فى اهتماماتهم اليومية عن العامة فى شئ! وأعود فأقول إنى لا أنكر وجود طائفة من الممتازين حقا بين هذا العدد الضخم فى كليات جاوزت المائتين فى مختلف نواحى القطر، وهؤلاء الممتازون لم يأت امتيازهم عن طريق الجامعة المعاصرة، بل عن أصالة دقيقة وجدت جذورها فى المنزل، والبيئة الخاصة. بمجتمعهم العائلى المستنير ، ولست أعنى أنهم نشئوا فى مهاد الترف المادى ! بل نشئوا فى مهاد الترف الثقافى فنضح عليهم ما بوأهم مكان الصدارة بين الزملاء هذه المكانة التى جعلتهم موضع الحظوة . وفى الوقت نفسه جعلتهم موضع الاستثناء الذى لا يقاس عليه مجال !

السمر الثقافى

ولا أدرى أين قرأت أن جمال الدين الأفغانى هو الذى أوجد السمر الثقافى فى مصر بمعناه التوجيهى ، فقد كان مجلسه بالمقهى حافلا بالتوجيه الثقافى والسياسى، وقد تتلمذ على يديه نفر من الفضلاء يجيدون الحديث الهادئ إجادة يحسدون عليها ، منهم محمد عبده وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، وأديب اسحق، وعبدالله النديم ، فهؤلاء فى مجالسهم يرتفعون بالسامعين إلى الذروة ، ويخيل إلى أن نبوغ سعد زغلول فى الحديث كان السبب فى نبوغه الخطابى، لأن تشقق الحديث ، وتنوع أفانيه ، وتشعب أغراضه من سمات سعد الخطابية، وأنا لم أسعد بسماع سعد خطيبا أو محدثا ، ولكنى قرأت المأثور من خطبه الرنانة، وقرأت ما كتبه الاستاذ عبدالعزيز البشرى رحمه الله عن مجلسه وثقافته فى أحاديث السمر حيث قال عن سعد : « إن أنسى لا أنسى ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشارا فى محكمة الاستئناف معروفا بشدة الجدل فى مسألة فقهية وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار إلى غيره ، حتى إذا ظن أنه تمكن من أفحوصه (عشه) ثار عليه سعد بالحجة ، فوثب إلى



سواه ، ومازال به صدرا من الليل ينشره ويطويه ، وينقله من رأى إلى رأى . ويحوله من قول إلى قول حتى داخ الرجل ووهن ، ولم يبق فيه فضل في حوار ولا جدل ، قال ذلك البشرى وأخذ في تحليله بما يضيق المجال عن ذكره ، فليرجع اليه القارئ في كتاب (المرآة) .

وإذا كان من ذكرت من تلاميذ الافغاني قد وجدوا قبل نشأة الجامعة ، فهم غير جامعيين بطبيعة الحال ، فإننا نعرف من كبار الأساتذة في الجامعة من رزقوا حظوة الحديث الراقي بسامعه إلى أعلى المنازل، ولا يزال تلاميذهم يرددون المأثور عن بدائههم الحاضرة ، ولومعهم الباهرة ، وأذكر أن الاستاذ محمد أبا زهرة وقد كان تلميذا للأستاذ عبدالوهاب خلاف ثم زميلا له في كلية الحقوق تحدث عن ناحيتين لديه تعنيهما - في هذا المقال، ناحية الإلقاء ، وناحية الحديث ، فعن إلقائه المبدع ذكر الاستاذ أبو زهرة أن الاستاذ عبدالوهاب خلاف كن نسيج وحده في إلقاء محاضراته ، يستمع إليه السامع فلا يحس تكلفا ولكنه يحس رنة عذبة عميقة لها صدى في النفس ، ويحسن في نغماته الإلقائية تصويرا للمعاني من غير أن يحس أن المتكلم غير أو بدل في صوته، ثم يقول أبو زهرة :

أما أحاديثه الأخوية في مجالس السمر ، فنوع من السحر ، أفق واسع ، وعلم فياض ، وأخذ بأفانين القول وشجونه، حتى إن المستمعين إليه في أحاديثه الخاصة يضيقون بكل من يتكلم ويمنعه من استئناف القول ، وأشهد أني ما سمعت في الشيوخ أظرف حديثا ، ولا أملك لفنون التحديث ، وأعلم بمداخل النفوس من الأستاذ خلاف ، وكأن الحديث الحلو فن لديه في ذاته إذ يثير عقله المجلس العلمي فيجمع به أشتات المعاني في لفظ كأنه *السلسل العذب*».

ونحن لا نطمع في أساتذة اليوم أن يبلغوا مبلغ أساتذة الأمس ، ولكننا نحارب هذه الأمية الفاشية بين المحاضرين ، نحارب من لا يستطيع أن يتكلم باللغة العربية في موضوع علمي وهو أستاذ !

الواقع الحقيقي

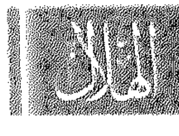
قد يتهمني بعض الفضلاء بالمغالاة فيما أكتب ، ولكن الواقع الداهم يغني عن كل مغالاة ، فإذا حاولت أن أعيد لأستاذ الجامعة كرامته بين الناس على وجه عام ، وبين الطلاب على وجه خاص ، فأنا أسير في الطريق السوى ، مصدر جشع فاجع لأستاذ مرموق يقبض الراتب المجزى ، ثم يمتص دم الوالد والتلميذ !! أليست هذه هي الحقيقة ، أنقولها؟ أم نخفي رءوسنا في الرمال ؟

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة
ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

■

طريق الخروج من النفق المظلم

بقلم
د. سعيد اسماعيل على



شهدت ساحة الفكر فى السنوات الأخيرة أحاديث وكتابات متزايدة على تلك الطاقة غير المحدودة لمجتمع المعلومات فى حركة التنمية، وبالتالى فى الدفع بكل قوة بالمجتمع الذى يجد على طريق المعلوماتية إلى أقصى ما يمكن أن يأمل فى الوصول إليه من مستويات التقدم والرفاهية لخير الإنسان، وأمر مثل هذا يضع على عاتق المهمومين بالمسألة التعليمية على وجه العموم، والمتخصصين أكاديميا فيها على وجه الخصوص، مسئولية على قدر كبير من الثقل، من حيث البحث عن المهام التى ينبغى أن يضطلع بها التعليم فى تكوين مجتمع المعلوماتية وإثرائه، مع الوضع بعين الاعتبار أن خطوات اليوم والغد، لابد أن تكون موصولة بخطوات الأمس، لا بمعني السير على نفس نهجها، ولكن بمعنى الاستفادة من خبراتها.

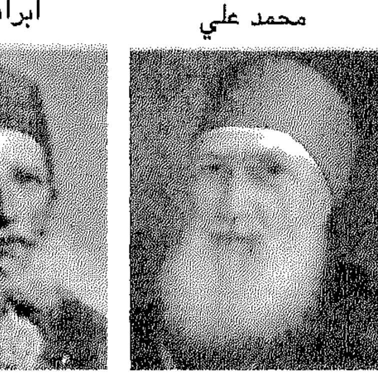
فبالفعل، شهد التعليم المصرى منذ ما يقرب من مائتى عام جهودا ضخمة على طريق التحديث والنهوض الحضارى ، من خلال تلك الركائز الأربع، ألا وهى : التحرر الوطنى. واكتساب الوعى القومى والاجتماعى المشترك، والنمو الاقتصادى ، وتحقيق المشاركة السياسة، لكن المشكلة التى وقفت حجر عثرة أمام هذه الجهود بحيث كانت محصلتها أقل كثيرا عما هو متوقع ومأمول ، هو أن هذه الركائز كانت فى كثير من الأحيان تؤخذ فرادى، فضلا عن التفسيرات التى قد لا تتفق تماما مع حقيقة مضمون كل ركيزة من هذه الركائز على اساس مبرر قوى ومعروف، ألا وهو ما يمكن تسميته بمتطلبات المرحلة.

ولاشك فى أن هذا يتطلب منا وقفات سريعة امام بعض النماذج والتجارب المصرية فى الدور الذى قام به التعليم فى مشروعات النهوض الحضارى:

وعلى سبيل المثال، فلم يكن واردا بأى حال من الأحوال فى مشروع محمدعلى للبعث الحضارى أن يتوافر شىء عن المشاركة السياسية، حيث أن واقع المرحلة كان يبتعد تماما عن التفكير فى مثل هذه القضية، فإذا كان محمدعلى بالفعل قد أدرك الدور الذى يمكن أن يقوم به التعليم، إلا أنه بدأ التعليم من أعلى، لا من القاعدة الشعبية للتعليم وهى التعليم الابتدائى الذى يتطلب انتشارا فى مختلف البقاع واستيعاب عدد كبير من ابناء الناس. بحكم ما كان يتسم به من عجلة تجعله يتطلع أن يرى «نتائج سريعة»، خاصة بالنسبة للمشروعات العسكرية التى تطلبت فى الحال كوادر عالية مؤهلة تأهيلا حديثا.

وفضلا عن ذلك فإن الجهد التعليمى اقتصر دوره على تغذية الآلة العسكرية الموجهة الى مشروعات للتوسع الامبراطورى، ومن هذا فعندما قام تحالف «الشيطان الحقيقى» الذى يقف لمشروعات النهضة فى مصر بالمرصاد، وحصر محمد على داخل حدود ضيقة ، وفق شروط مجحفة، تداعت المشروعات التعليمية، لكنها لو كانت قائمة وفق منطق أن تتوجه توجها كليا للنهوض الحضارى، فلربما كان سقوطها أقل خسارة، ولاستمرت الإفادة القومية منها.

بل إن إبراهيم «باشا» عندما ولى الحكم فى سوريا، أرسل إلى أبيه ما كان


ابراهيم باشا — محمد علي

قد سمعه من سليمان باشا الفرنساوى عن انتشار تعليم المرحلة الأولى فى الدول الأوروبية، وأنه من المفضل أن ينهج الوالى النهج نفسه حتى يمكن لمصر أن تكون دولة مرموقة ذات شأن، مثل البلدان الأوروبية، فإذا بمحمد على يكتب إليه بلفت نظره إلى ما تعانيه أوروبا عندئذ من نتائج تعميم التعليم بين أبناء العامة، وإلى أنهم قد تورطوا فى تعليم الناس.. (أحمد عزت عبدالكريم: التعليم فى عهد محمد على، ص ٤٠).

صفحات مشرقة

ومن الصفحات المشرقة حقا فى تاريخ نهضتنا أن يتنبه أحد أعضاء مجلس شورى النواب الذى انشأه الخديو إسماعيل كصورة من صور المشاركة عام ١٨٦٦ إلى ضرورة أن يعمل التعليم على هذا، فذكر زملاءه بأن نص اللائحة يقرر أنه بعد ثمانية عشر عاما لا يجوز لمن لا يعرف القراءة والكتابة أن يرشح نفسه نائبا، وبعد ثلاثين عاما لايجوز أن يحظى مواطن لا يعرف القراءة والكتابة بحق الانتخاب، وكان هذا طموحا كبيرا، لم يتحقق، حتى بعد تلك بما يزيد على نصف قرن من الزمان، ودعاء هذا إلى أن يتسرع المجلس على الفور بوضع مشروع لنشر التعليم بين الناس على مختلف مراتبهم، وبالفعل تم وضع هذا المشروع ، وكان مهندس هذا المشروع الكبير على مبارك، لكن إعصار الاحتلال البريطانى أتى عليه ففرغه من مضمونه.

وعند قيام الجامعة المصرية عام ١٩٠٨ ، صاحبتها أمال عريضة فى الدور الذى يمكن أن تقوم به فى النهوض الحضارى، لكن فات على مؤسسيها البعد الاقتصادى فى المشروع، بل وقف قاسم أمين فى حفل افتتاحها ينفى أى شبهة يمكن أن تلوث هذا المشروع العظيم، إذا فكر القائمون على التعليم بها أن تكون مبدأ لإعداد القوى العاملة اللازمة لمشروعات النمو الاقتصادى ، وبالتالى فإن الجامعة يجب أن تعلم العلم من أجل العلم، على اساس أن ما كان قائما من مدارس عليا وهو المختص بتحقيق هذا المطلب.

ونرتب على ذلك تضاؤل الإقبال على الجامعة وفتور حركة التبرع لها ، فساءت أحوالها المالية حتى اضطر القائمون عليها إلى تسليمها للحكومة عام ١٩٣٥، وتقع الجامعة المصرية منذ ذلك التاريخ فى «الجب الحكومى» الذى أوقعها فى شباك البيروقراطية و«التلمبط» .، فضلا عن فقدانها درة التاج الجامعى، الا وهى (الاستقلال)، وفقا للقاعدة المعروفة، من يدفع يكون له حق التقرير والتوجيه، ولو شئنا ان نعدد



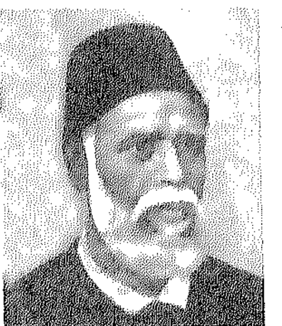
النتائج السيئة التى ترتبت على هذا لاحتاج الأمر إلى مقال مستقل، ويكفى الإشارة إلى مثال شهير خاص بإخراج حكومة إسماعيل صدقى لطه حسين من الجامعة لأنه رفض بسبب الطابع الاستبدادى المعروف لهذه الحكومة . آن يرأس تحرير صحيفة حزبه سنة ١٩٣٠.

وشاب مفهوم «الوعى» القومى فى مشروع ثورة يوليو ليس جعله يختلط بمفهوم «الحشد» الذى يقوم على التلقين السياسى والترويج للمنجزات فقط، دون مناقشة السلبيات، مما كان له آثره السلبى فى تغييب مهارات النظر النقدى، وتعدد للرؤى ، والاختلاف الفكرى.

ومن الأمثلة على هذا آنه قد كان هناك مقرر باسم (التربية الوطنية) كان يرتكز على أن يكون التلميذ على بينة ودراية بحقوقه وواجباته ، فضلا عن دراسة مشكلات المجتمع وقضاياه، فإذا به ينقلب تحت مسمى (التربية القومية) إلى ما يشبه (الدعاية السياسية) الفجة



الخديوى اسماعيل



علي مبارك

مما فرغ هذا المقرر من مضمونه . فانصرف عنه المعلمون من حيث الحماس الواجب ان يرافق عملية التعليم، وانصرف عنه التلاميذ من حيث الاهتمام والاقتناع، وشهدت الجامعة ايضا ما سمى بالمقررات القومية مثل (القومية العربية)، و«ثورة ٢٣ يوليو» التى فرضت على جميع الكليات، بالمنطق نفسه (الحشد) و«التلقين السياسى» و«الدعاية». وتحولت لدى كثير من القائمين بها الى فرصة ثمينة للكسب الكبير عن طريق التوزيع الضخم للكتب، وتصحيح أوراق الاجابة، وتركت انطباعا عكس المراد لها لدى الطلاب.

فضلا عما أدت إليه المشكلات والأزمات السياسية والعسكرية الكبرى (عدوان ٥٦ ، وحرب اليمن، هزيمة ٦٧) من تقليل ضخ المال اللازم لمواجهة التوسع الكمى الضخم فى مؤسسات التعليم، مما فرغ العملية التعليمية من الكثير من مستوى الجودة المطلوبة، وفتح بابا جهنميا لتعدد الفترات الدراسية فى اليوم الواحد فى المدرسة الواحدة.

ويطول بنا المقام لو تتبعنا مختلف الجهود، لكن يكفى الخروج بهذه الحقيقة التى تؤكد أن النظر الكلى الذى يسعى الى توفير ما يمكن تسميته بالتساند الجامعى العام ضرورة لا مفر منها، وان منطق ما لا يدرك كله لا يترك كله، غير مناسب فى هذه الحالة ، وكما سبق لنا

أن أوضحنا في مقالات سابقة. فإن التصور الفكرى الكلى الشامل للبعث الحضارى للأمة، وموقع التعليم منه، لابد من توافره ، لكن التنفيذ يمكن أن يتأتى على مراحل.

وإذا كانت العلة المزمنة التى نعلق عليها عادة ما قد يواجهنا من إخفاق هو أن معدلات النمو الاقتصادى تقصر عن تلبية مشروعات التعليم، فإن دولة مثل الهند، وكانت حتى وقت قريب تعانى من معدلات فقر أشد حدة مما كانت تواجهه مصر، قد تنبهت إلى هذا الباب الملكى للنمو الاقتصادى، ألا وهو اقتصاد المعلومات فأصبحت من القوى الكبرى التى تحقق عن طريقه دخلا مذهلا، كما ذكر الكتاب الذى صدر عام ١٩٧٣ لعالم الاجتماع والتاريخ الاجتماعى / الاقتصادى الأمريكى الكبير دانييل بل «مجىء المجتمع بعد الصناعى».

القوة والمال والعقل

وقد جاء هذا الكتاب فى وقت بدأ العالم فيه يشهد تغييرا جذريا فى نوعية السلطة، فقد كان اهم تطور اقتصادى هو ظهور نظام جديد يقوم على الاعتماد على العقل لخلق الثروة، بدلا مما كان قائما من حيث الاعتماد على العضلات ، ولا نعنى بذلك ان يسعى العقل الى التفكير فى أساليب جديدة فى الصناعة، وتوسيع دائرتها، وانما نعنى أن يكون المنتج العقلى نفسه هو الصناعة الجديدة. والمنتج العقلى المقصود هنا هو المعرفة.

وقد قارن «توفلر» فى كتابه عن تحول السلطة، والذى صدر بعد كتابيه الاول عن صدمة المستقبل والثانى عن «الموجة الثالثة» بين السلطات الثلاث والتى هى مصادر القوة فى الحياة البشرية، أولها: العضلات التى تنتج العنف (القوة) ، والمال الذى ينتج الثروة، والعقل الذى ينتج المعرفة ، فالمعروفة تتسم بالثراء فى التنوع، قياسا إلى المصدرين الآخرين، ومن ثم فمن الممكن أن نستخدمها من اجل العقاب، والمكافأة ، والاقناع، وكذلك التحويل من أمر إلى نقيضه، بان نحول عدوا الى حليف، مثلا.

والمعروفة كذلك يمكن ان تعين على مضاعفة الثروة أو القوة، وهذا معناه إمكانها أن تزيد المتاح من كل من الثروة والقوة أو أن تقلل من كم المطلوب منهما من أجل تحقيق هدف ما.

ولا يتسع المقام هنا لو حاولنا ان نعدد المزايا الجوهرية التى تتميز بها المعرفة عن غيرها من مصادر القوة، لكن ربما يهمنا ميزة بعينها تتصل بحالنا، فبالنسبة لكل من القوة والثروة، نجد أنه بحكم طبيعتهما فهما ملك للأقوياء والأغنياء، بينما نجد أن المعرفة يمكن أن تكون ملكا للضعفاء والفقراء، وهذا من شأنه أن يعوضهما بالفعل فيصبحا

أقوياء وأغنياء.

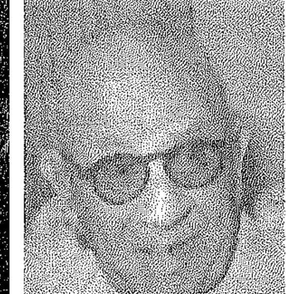
ولعلنا لو تذكرنا ما كان يمثله التعليم (الذى هو المصنع الرئيسى للمعرفة) بالنسبة لنا منذ عدة عقود لفهمنا تفسير هذه الميزة ، فالذى يفتش وراء مصيره الكم الاكبر من قدماء أساتذة الجامعات والمفكرين والعلماء والمثقفين ، يستطيع أن يلمس بكل سهولة كيف تمكنوا عن طريق التعليم أن يتمتعوا بعملية الحراك الاجتماعى الى اعلى . فتتحسن احوالهم المادية إلى حد كبير، ويصبحون فى مواقع نفوذ وقوة على الخريطة الاجتماعية . حيث كان التفوق التعليمى يعتمد فقط على الجهد المبذول من الطالب فى التعلم الذاتى بالمنزل والتعلم المباشر بالمدرسة، على عكس ما حدث بعد ذلك من الاعتماد على عوامل أخرى فى التحرك التعليمى!

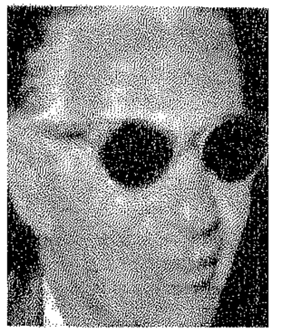
بين الاقتصاد والمعرفة

إن انتشار الاقتصاد الجديد المبنى على المعرفة، فيما يؤكد توفلر إنما يمثل، فى الواقع، القوة التفجيرية الجديدة التى قذفت بالدول المتقدمة إلى أتون التنافس العالمى المرير، وساهمت إلى حد كبير فى سقوط منظومة الدول الاشتراكية لأنها كشفت لها عن التخلف المزمن لصناعاتها، وأجبرت كثيرا من البلدان النامية إلى التخلى عن استراتيجياتها الاقتصادية التقليدية، فظهرت «نمور» متعددة يعمل لها ألف حساب.

والتعليم كى يقوم بما هو مطلوب منه لإنتاج المعرفة، يحتاج إلى أمور كثيرة قد لا يتسع لها هذا المقال، ويكفى أن نشير إلى جزئية على جانب كبير من الأهمية تتصل بموضوعنا، ألا وهى «المعلومات» فغنى عن البيان أنها نقطة البداية لا للقيام المطلوب، وإنما للتفكير فيه ورسم خططه الاستراتيجية.

ففى احد التجمعات العلمية عالية المستوى، كان أحد الرموز الكبرى مكلفا بإعداد دراسة عن كيفية مواجهة مشكلة التمويل التى هى مشكلة المشاكل فى تطوير الجامعات المصرية، فإذا به يمحور حديثه كله حول أنه لكى يفعل هذا فلابد من خطوتين اساسيتين يفتقدهما مع الاسف الشديد، أولهما: توفير جميع البيانات اللازمة، وهذا أمر لا يتصور احد أنه سهل يسير، فمشكلة الاحصاءات فى مصر أشهر من أن نفيض الحديث فيها، من حيث تعدد المصادر، وتباينها، وأحيانا لعدم مطابقتها لواقع الحال، وثانيهما: كيفية


اسماعيل صدقى


طه حسين

تحويل البيانات إلى معلومات ، فلا يكفي أن نتوقف عند إحصاءات تقول بأن ما ينفق على الجامعات هو كذا من الجنيهات، ويقسم هذا الرقم على عدد الطلاب لنعرف تكلفة الطالب الواحد، ذلك ان هناك تنوعا كبيرا بين طلاب الطب وطلاب الحقوق مثلا ، فكم يتم انفاقه على هذا، وكم يتم انفاقه على ذلك؟ وكم كانت قيمة الجنيه في سنوات سابقة حتى يمكن القيام بالكشف عن مدى التقدم أو التراجع؟

بل إن الأمر المهم، هو أن السنوات الأخيرة قد شهدت استنبات مصادر متعددة الدخل، قد لا تظهر في الأرقام الخاصة بميزانية الدولة المنفقة على الجامعات ، من هذه المصادر:

اقسام التعليم باللغة الانجليزية التي تتقاضى الكليات عنها مبالغ كبيرة من طلابها، حيث يتم توزيعها وفق منطق يختلف عما هو معروف في الميزانيات الحكومية، وهناك الانتساب الموجه، وكذلك التعليم المفتوح، فضلا عما يسمى بالوحدات ذات الطابع الخاص، مثل المراكز العلمية التي تكاثرت في السنوات الأخيرة داخل الكليات ، وهناك ما يسمى بالصناديق الخاصة.

وإذا اردنا أن ندرس الدخل المالي لأعضاء هيئات التدريس، فلن يكون للمرتب مقياسا حقيقيا للتعرف على مستوى الدخل، ولا أعني بذلك الإشارة إلى الدخول الأخرى الخارجية التي تكون لنوعيات بعينها من الأساتذة المهنيين وخاصة في القطاع الطبي. والهندسي، والتجاري، والحقوق، وإنما أقصد مصادر أخرى تعددت داخل مظلة الجامعة نفسها، مثل ما يتلقاه البعض من المشاركين في المصادر سابق الإشارة اليها، فضلا عما أصبحت المذكرات والكتب المقررة تمثله الآن من دخول ربما تفوق ما يحصل عليه البعض من المرتب الرسمي، ولن نتحدث عن اعمال التصحيح والكنترولات.. وهكذا.

إن البيانات الخاصة بمثل هذه الجوانب لا تظهر في الإحصاءات الرسمية الخاصة بما ينفق على الجامعات وبالتالي . فمن الصعب الوصول الى معلومات موثوق بها تمكننا من رسم تصورات استراتيجية للنهوض بالتعليم الجامعي حتى يمكن أن يتحول الى مجموعة مصانع لهذه الصناعة الجديدة.. صناعة المعرفة، وفقا للشروط والمواصفات التي تفرضها متطلبات البعث الحضاري، لا اليوم فقط، وإنما مستقبلا، ذلك لأن المطلوب ليس اي معرفة، وإنما هي تلك المعرفة المتقدمة المتطورة التي تملك من الإمكانات ما يجعلها طاقة تغيير حقيقي.

■



أقوال معاصرة

ياسر عرفات



فاروق شوشة



سميح القاسم



د. جابر عصفور

● «إذا شب مائه مليون عربى مسلم على مشاهد الفضائيات العربية التى ثبت مشاهد الأنتفاضه إلى الجيل الجديد، فلن تبقى اسرائيل فى الوجود ؟!

توماس فريدمان

● « اسرائيل تشن حربا استعماريه وليست حربا ضد الإرهاب »

روبرت فيسك

● «ياسر عرفات الميت أخطر مئات المرات من عرفات الحى ، فعرفات الميت يجعل الصراع ابدياً، وعرفات الحى قادر على إقامة السلام»

يوري أفنيري

● « لن نستطيع هزيمة اسرائيل عسكريا، ولكن نستطيع هزيمتها سياسيا لو تحلينايا بالصبر.

صبرى عبد الشافى

● اللغة العربية فى الوقت الراهن اساس دائها، وهو داء وبيل، هو تدنى التعليم، فى جميع مراحله، فى بلادنا »

الدكتور ناصر الدين الاسد

● «الأعلام الرسمى يحاصر الثقافة»

الشاعر المصرى فاروق شوشة

● «الحضارات لاتتصارع، بل تحتك وتتقارب، وهى لاشك، سائرة نحو التماثل ثم الاندماج

عبد الحميد البكوش – رئيس وزراء ليبى سابق

● «فلنحترس من هواة الكلام المنمق، ولنحذر مراثى الصياغات وطقوس البلاغة رقصا على الدم»

الشاعر الفلسطينى سميح القاسم

● «إذا كنت ناجحا ستكسب أصدقاء مزيفين، وأعداء حقيقيين، ومع ذلك أعمل على آن تكون ناجحا !!»

المؤلف الامريكى كنت كيث
صاحب كتاب الوصايا المتناقضة تظاهريا

● «سنطحن المقاتلين الشيشان، حتى ولو كانوا فى المراحيض»

الرئيس الروسى فلاديمير بوتين

●«آشعر بالعجز عن فعل شئ، وعن انجاز شئ ايجابى»

د. جابر عصفور
فى رسالة موجهة الى الكاتبة الفلسطينية ليانة بدر

●«لا أحد يستطيع أن يخدع الكاميرا»

ريتشارد ايتنبرو
المخرج الانجليزى الفائز بأوسكار عن غاندى

إسرائيل تحاصر وتحرق أهم المقدسات المسيحية

بقلم
د. الأنبا يوحنا قلته

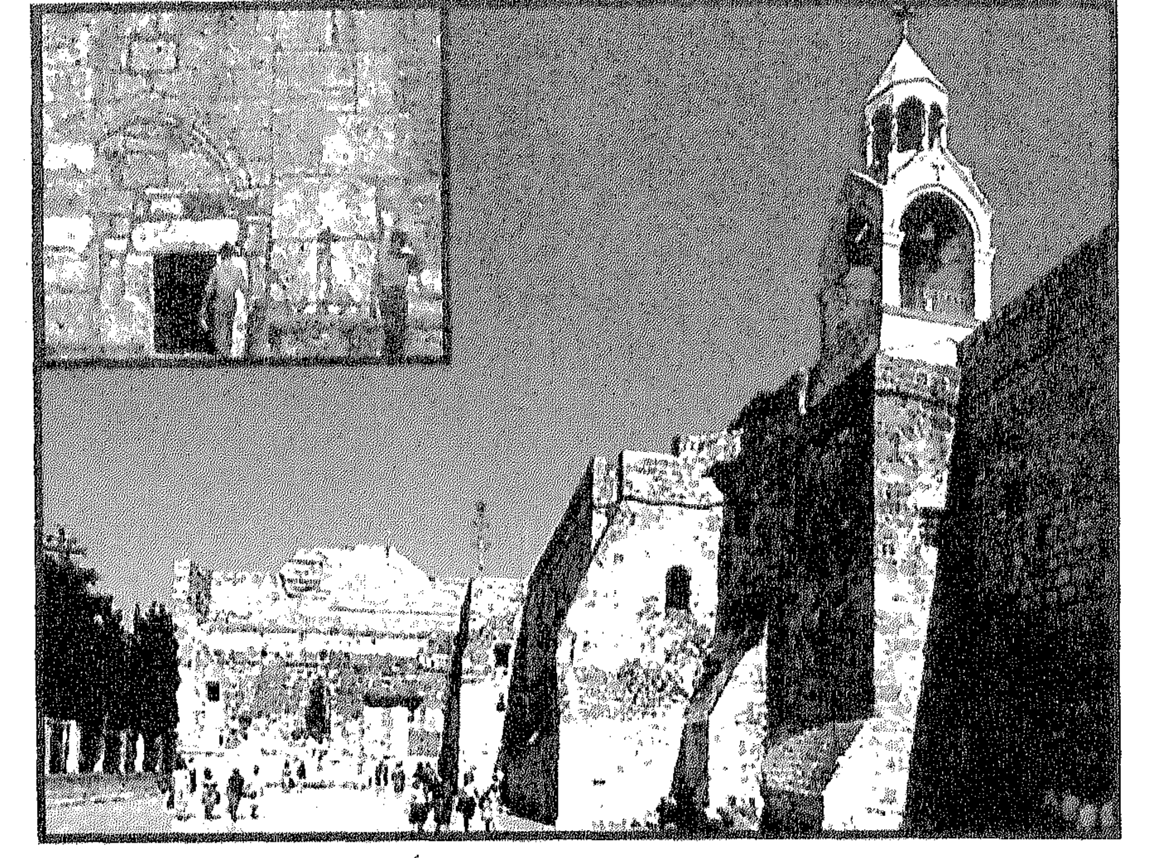
كنيسة المهد .. المكان الذى شرفه الله بمولد المسيح عليه السلام

لم يحدث ذلك فى عهد التتار او المغول ، لم يجرؤ عسكر فى زمن الحروب، والثورات أن يحاصر بيت لحم ، وكنيسة المهد أى عصر تعيشه هذا الذى فيه أحاط بمهد المسيح، الكلمة الإلهية، السلام المتجسد، أقام حضارة المحبة وزرع روحا، إلهيا فى نسيج الوجود ومسيرة البشر جند مدججون باسلحة ودبابات ترى ، هل يرونها قلعة حربية ، وفي داخلها مذود بقرولد فيه المسيح ام يرونها مركز مقاومة وليس فيها إلا جماعة من رهبان وراهبات ، التجأ إليها أناس اخرجوهم من ديارهم لا يحملون لا زادا ولا مالا ، هذه هى إسرائيل ، أيها العالم المتحضر هذه هى رؤيتها ، لا ترى فى الكنائس او فى الجوامع إلا مواطن تجمع لأعدائهم .

ليس من عيد فى المسيحية أوسع من عيد الميلاد فلقد كتب له دون سواه ان يجمع فى غمرة واحدة كل البشر الذين يحبون السلام، ولاتحظي كنيسة فى العالم باهتمام تاريخى أو روحى مثل كنيسة المهد التى تحفظ أصداء نشيد الملائكة يوم مولد المسيح تهزج فى فضاء لا متناهى المجد لله فى العلى وعلى الارض السلام وفى الناس المسرة .

* * *

وفى تلك الأيام صدر امر من اغسطس قيصر باحصاء سكان الامبراطورية الرومانية، ذلك شرع رومانى

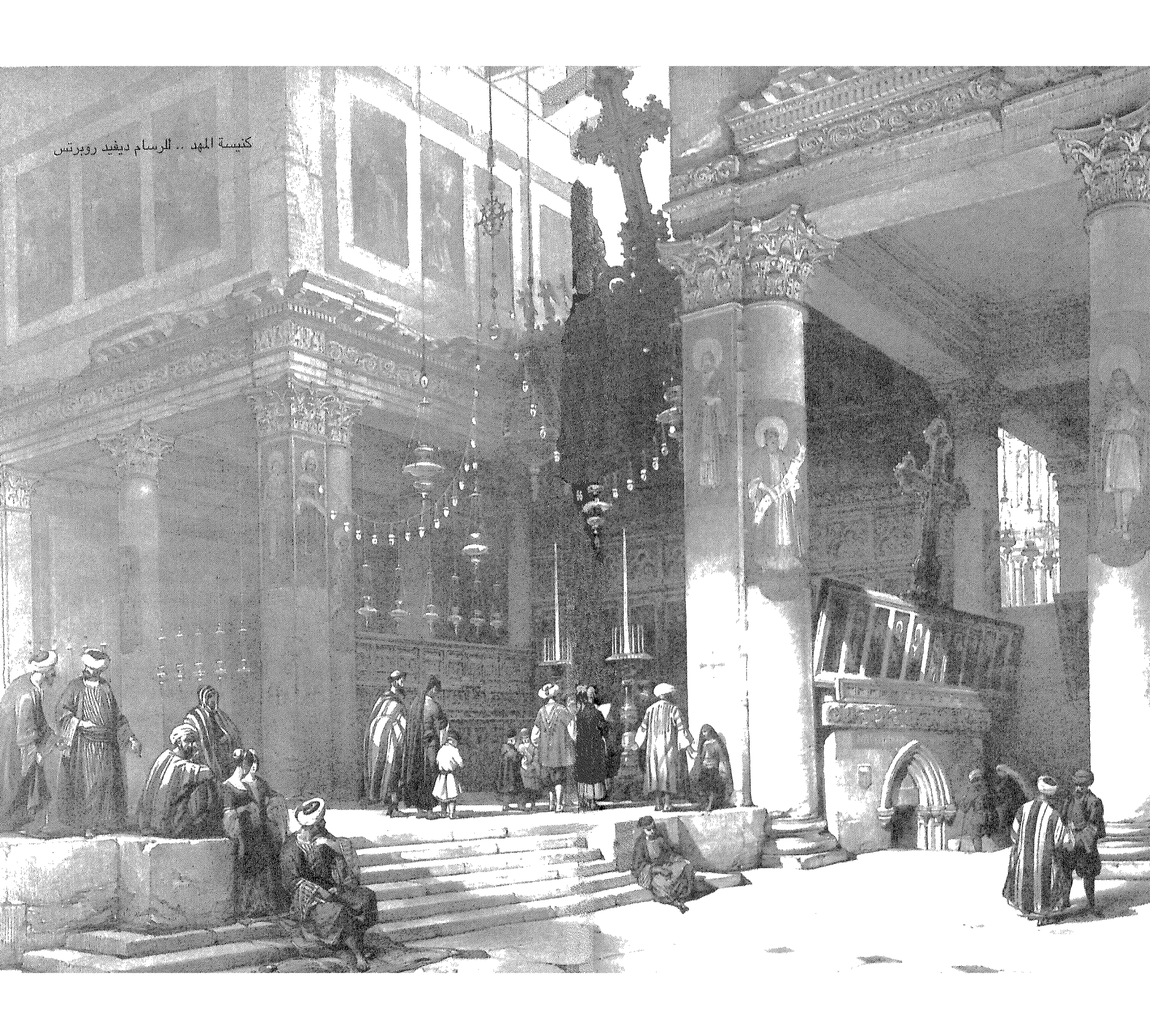


واجهة كنيسة المهد فى بيت لحم وأحد مداخلها

يفرض على جميع سكان الأقاليم ان يتدونوا فى سجلاتها الرسمية باسمائهم وحرفهم وكمية ثرواتهم، وهكذا يهون عليها وضع قاعدة الضرائب وتقدير الطاقات العسكرية فى أزمنة الحرب ، وما كان اطولها واقساها من حروب ، يتم التسجيل فى المنشأ الأصيل التى تنتمى اليه كل أسرة ، وهكذا اضطر يوسف النجار أن يصعد من الجليل، من مدينة الناصرية الى اليهودية الى مدينة بيت لحم يكتب مع مريم التى كانت حبلى ، وكان الرجال وحدهم ملزمون بفريضة الإحصاء لولا أن يوسف ومريم كانا قد وطنا العزم على التكافل في أجمل تلك السحرة ..

مضى الموكب الحزين الفقير إلى بيت لحم مسقط رأس الملك داود ، بين الناصرة وبيت لحم أكثر من مائة وخمسين كيلو مترا ، الطرق بدائية وعرة ، لم تتفرغ روما لغير جمع المال وإذلال الناس، وهل فى قلب مستعمر قديما أو حديثا رحم أو رأفة بالبسطاء والفقراء ، على ظهر حمار قطعا المسافة فى أربعة أيام، وسيلة نقل المعلمين فى كل زمان وفى كل مكان وكل حضارة ...

بيت لحم ، البيضاء الجاثمة على علو ثمانمائة متر فوق منحدرات ماكان ابهج منظرها برغم فقرها والصحراء المجدبة التى تلفها ، فيها بعض اشجار الزيتون والكروم وبعض من الاراضى الخصبة والحقول الشقراء وبيت لحم معناها بيت


كنيسة المهد .. للرسام ديفيد روبرتس

الخبز كما عرفت باسم أفراته أى الكثيرة الفواكه فى اللغة العبرية ..

أنبأ يوما ميخا النبى بمصيرها البهى حيث قال : وأنت يا بيت لحم انك صغيرة ولكن منك يخرج من يسود اسرائيل ومخارجه منذ القدم منذ ايام الأزل (سفر ميخا ١:٥) وكان الله فى حكمته السرمدية التى لا يدركها البشر، شاء أن يوقع قيصر قراره لكى تتحقق نبوءة ميخا ويولد المسيح فى بيت لحم ..

★ ★ ★

كان بوسع المسافرين ان يأويا الى البناء الفسيح الذى كان قائما عند مدخل بيت لحم يدعوه انجيل لوقا «نزلا» ، تلك الفنادق الشعبية لا يزال مثلها قائما فى بلاد الشرق ، لم تكن أسباب الراحة لتتوفر فيها ، يزدحم الادميون، كما تتصارع على ارضها البهائم ، وقرار الإحصاء شد الرحال من كل مكان فباتت بيت لحم غاصة بالوافدين من كل صوب ، ويوسف ومريم ليس لهما مال كثير ، وساعة المخاض قد حانت فنزلا فى احد تلك الكهوف التى لا يزال يشاهد كثير منها فى فلسطين ..

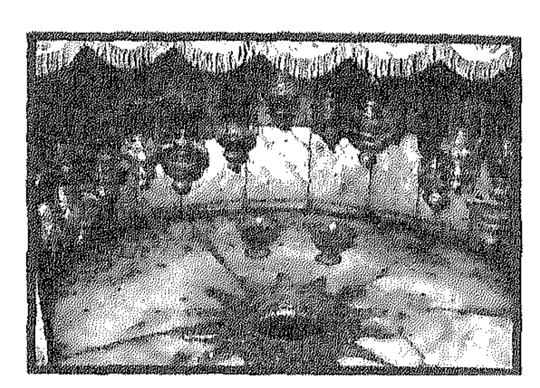
وشهد يوستبس المؤرخ والشهيد فى القرن الثانى من الميلاد وكان يعرف تلك الأمكنة معرفة دقيقة بأن مريم ولدت طفلها فى المغارة التى يعرفها معاصروه، إذ لم تغب ذكراها عن خاطرهم وتوارثت الأجيال عن هذه المعجزة ..

★ ★ ★

كنيسة المهد التى يحاصرها الجيش المحتل ، والتى لجأ إليها المطرودون من ديارهم ومن سعير نار الحقد والانتقام ، كما لجأت مريم ويوسف إلى المغارة هربا من صخب الدنيا وضجة ضباط الرومان وسياطهم ، ولكن الكنيسة اليوم هى غير مغارة الامس، يحيط بها سور عظيم له ابواب ضيقة تفضى الى كنيسة ذات هندسة قديمة جدا يرقى عهدها الى الجيل الرابع او الخامس وتقع روعتها فى النفس موقعا عظيما تتوالى فيه الذكريات المقدسة والمعجزات الباهرة، معجزة حمل العذراء البتول، والمولد المعجز، ونشيد الملائكة ، وموكب الرعاة، وزيارة ملوك المجوس باحثين عن الحق حاملين الذهب والبخور والمر .

للكنيسة خمسة أروقة يفصل بينها اربعة صفوف من الأعمدة من حجر أحمر تيجانها من حجر ابيض ، تلك الكنيسة التى تحتضن الموضع الذى تجسدت فيه كلمة الله بشرا سويا واتم الله للناس رحمته ، وبرغم قدسية الحدث والذكرى والمكان إلا أن الكنيسة تتقاسمها الطوائف المسيحية إذ تأبى كل طائفة إلا أن يكون لها موضع قدم ..

تحت قاعدة الكنيسة معبد أرضى تصل إليه عبر انحدار ثم السير فى دهليز طويل ضيق يمحو تماما مشهد المغارة الاصلية ، واحتضان الفضاء لها وضمة التلال وظلال الزيتون . فى هذا المعبد ركن يقال له ، «المذود» يتألق فيه الذهب والفضة والحجارة الكريمة فى وهج عشرات من السرج المضاءة بالزيت وأما المرمر والرخام والمعادن النادرة فقد وضع منها



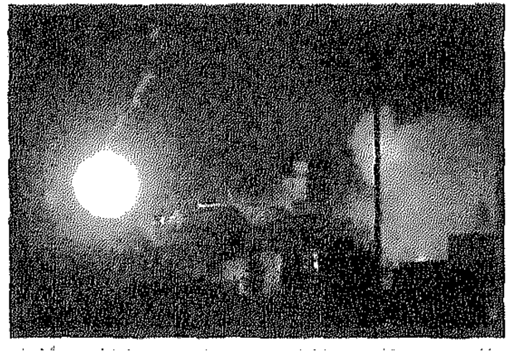
بنيت كنيسة المهد فوق كهف يتضمن مكان ولادة السيد المسيح



أعمدة بهو الكنيسة الحجرية التى بنيت فى عهد الأمبراطور جوستيان



آثار العدوان الأسرائيلى كما تظهر على البوابة الخلفية للكنيسة - أبريل ٢٠٠٢



القصف الإسرائيلى فوق كنيسة المهد أثناء حصارها

فى كل مكان ، ومع ذلك فليس على الفضة والذهب ولد «السيد»، بل على الحضيض على حد قول القديس ايرونيمس ..

وفى إناء رخام تتلألأ نجمة من الذهب ، يراد بها تحديد الموضع الذى ولد فيه المسيح وضع تمثال طفل ، بض، مبتسم ، تحته يسير من القش يراد به تجسيد الحدث الذى تم عند ملء الزمان قبل الفى سنة وسنتين ، ولولا الإيمان العميق فى وجدان البشر الزائرين بلا انقطاع الآتين من أقاصى الأرض وأعماق القرون، لتصلى فى هذه البقعة الطاهرة المختارة لولا هذا الايمان ، لأصيب العقل بالقلق الذى تبعثه فى النفوس جميع المزارات ، فى كل انحاء الجغرافيا المقدسة من العالم ، قلق مصدره هذا الفارق الشاسع بين منهج السماء وسلوك البشر .

يدير كنيسة المهد، جماعة من الرهبان الفرنسيسكان اسسها القديس فرنسيس الاسيزى الذى زار مصر خلال الحروب الصليبية سنة ١٢١٦ وقابل الملك الصالح بدمياط وعرض عليه الملك ان يزور بيت لحم وأورشليم فى امن وسلام رغم فظاعة حروب الفرنجة ، ولعلنا نتساءل لماذا تسيطر جماعات الرهبان الكاثوليك على كنيسة المهد وعلى اغلب الكنائس فى الارض المقدسة بفلسطين ويطلق عليها حراس الاراضى المقدسة، هذا الأمر يعود إلى حادثين .

أولهما : صداقة هارون الرشيد

الخليفة العباسي الذى أهدى الامبراطور شارلمان مفاتيح القدس ، وأتاح للامبراطور الكاثوليكي ان يبعث بمن يشاء للحفاظ على التراث الدينى، ولعل فى ذلك درسا لإسرائيل وللعالم الغربى، فى عمق الفهم الإسلامى للقيم الدينية والحفاظ على التراث الروحى ..

ثانيهما : فى لقاء صلاح الدين الايوبى ورتشارد قلب الأسد وهو كاثوليكى سلمه مفتاح القدس بالرغم من ان صلاح الدين كان هو المنتصر فى نهاية الحروب، وأمر الخليفة المسلم أن يبقى فى الارض المقدسة من يشاء من المسيحيين ومن اليهود، حتي من الصليبيين الذين رفضوا العودة الى بلادهم ومنذاك تسلمت الكنيسة الكاثوليكية مسئولية الحفاظ على تراث الارض المقدسة وأعطى صلاح الدين العالم كله درسا فى العلاقات الانسانية رفض قتل أى انسان بعد الانتصار وكان بوسعه ان ينتقم لسبعين الفا قتلوا عند استيلاء الفرنجة على بيت المقدس .

هل تتعلم اسرائيل ، هل تقرأ التاريخ، هل يدرك العالم الغربى ان المسلمين على مر الزمن وفى مسيرة الحضارات ادركوا عمق معنى القيم الروحية، وكانوا حراسا أمناء لكل دين وعقيدة، ام أن زحام الأحداث ، وصخب الإعلام الصهيونى، وتدفق الدم البرىء ، وعمى القوة الغاشمة، تلك أمور اخفت الحقائق ، ولكن من قال إن الشمس تخفيها السحب الداكنة والعواصف الهوجاء، إن التاريخ شاهد لايخطىء ، بأن الأمة العربية هى امة تؤمن بالمطلق وتحترم الاديان، وتصون المقدسات، وتدرك قيمة الارض وقيمة الإنسان، وقيمة الإيمان، قيمة الحياة .

إن المحاصرين فى كنيسة المهد وبينهم مصريون (الراهبة فايزة عياد من كفر الدوار) راهبة فرنسكانية تخدم منذ سبعة عشر عاما، أبناء بيت لحم ، وهى مع الرهبان والراهبات (عددهم اربعون شخصا) فى خدمة الفلسطينيين اللاجئين الى الكنيسة .

وأقول لإسرائيل لن يستسلم شخص واحد ممن فى داخل الكنيسة ، فليس من طبع العربى الاستسلام او قبول المذلة ولن تجرؤ إسرائيل على اجتياح الكنيسة وتدميرها لسبب غاية فى البساطة ، انها تعلم أن المساس بمقدسات المسلمين والمسيحيين سيحول المنطقة الى جهنم لزمن طويل، ولبست الانتفاضة إلا وحيا من تعدى شارون على مقدسات المسجد الاقصى، وأقول لهم ، لقد تحول كل الفلسطينيين الى صلاح الدين ، إننا نحن العرب برغم الصورة المأساوية التى نعيشها، وبرغم الألم والحسرة وما يعتصر قلوبنا، ذلك كله ليس إلا ثمرة تكتل الغرب مع اسرائيل لتفتيت وحدة العرب ، ولكنهم لن يستطيعوا خلع جذو ر الإيمان بمقدساتنا ولن يمحى اعتقادنا الراسخ بأن الحق يوما سينوهج ودولة الظلم والدم إلى زوال .

يأتى الملوك والملكات والعلماء والأغنياء والفقراء الى كنيسة المهد يتأملون سر حب الله للبشر وسر ميلاد السلام بينهم، منذ

الدخان يتصاعد من كنيسة المهد بعد أن قصفها الجيش الإسرائيلى بالأسلحة الثقيلة - أبريل - ٢٠٠٢

عصر الملكة هيلانة فى القرن الرابع، وعصر صلاح الدين، الى عصر النبى (١٩١٨) وحتى منتصف القرن العشرين ظلت كنيسة المهد، نقطة لقاء الأجناس على اختلاف اعرافهم وطبقاتهم، لم يتجاسر مغامر أن يمسها بسوء .

وأما اليوم ، يحيط بها الحرب من كل صوب ، لم نعد ملجأ أمنا ، صيحات الدنيا لم تنفع فى فك الحصار، نداءات البابا ورؤساء الأديان لم تخفف الوطأ عن كنيسة السلام، كأن العالم كله فى كفة وإسرائيل فى كفة ...

ذلك ونحن نعبر الى القرن الواحد والعشرين ، لم تزل شريعة الغاب سائدة، ومنطق القوة يحكم الدنيا، ولكن ... الغلبة فى آخر الأمر للتاريخ والجغرافيا، أما التاريخ فيقول هذه ارض عربية ، هذه كنيسة المهد، المسيح الذى يجله المسلمون والمسيحيون ، هذه ليست حجارة وحوائط وارض ، هذا تراث ، وعقيدة وإيمان، وسيسقط يوما تحت اقدام التاريخ كل غاصب ومحتل ...

والجغرافيا تقول ، هذه منطقة مقدسة، من تلك المناطق التى شاء الله ان يختارها رمزا ومكان صلاة وعبادة ... كما اختار أماكن كثيرة .. وكأن على الأرض مناطق اختصها الله لجلاله وعبادته ، والحج اليها..

سوف يمضى الليل المظلم يا بيت لحم، ستشرق من جديد نجمة المساء وينشد الملائكة انشودة السلام فوق كنيسة المهد، ستعودين الى احضان اصحابك الأصليين، نحن العرب ... ■



مستقبل فلسطين

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

أطبقت سحب الكآبة على الصدور ، فأصبحت ضيقة كمن يصعد فى السماء ، وساد حزن نبيل على مصائر الشهداء والأبطال ، وسرى قلق حقيقى - إن لم يكن قنوط ويأس - مما يحمله المستقبل ، وضاعت الثقة والطمأنينة بعد أن وقف الجميع يشاهدون - وإن بانفعالات مختلفة - شعبا صغيرا مناضلا يذبح على أيدى نازيى القرن العشرين . وسألنى سائل أعرف إخلاصه : أمازلت على تفاؤلك الذى طالما بشرت به ؟ وشعرت من نبرة السؤال أنه يريد الاجابة بالإيجاب ، وأجبت بالفعل بنعم ، لا لكى أرضى من سألنى، ولكن لأنى مازلت أعتقد بصحة الإجابة .

فرق كبير بين أن نهزم فى معركة - ولم نهزم بعد - وبين أن نخسر الصراع كله ، وفرق كبير كذلك بين أن يعتصر الحزن والأسى قلوبنا ، وألا تفارق الغصة حلوقنا ، وأن تخرج الأنفاس من صدورنا كأنها لن تعود ، لما حل بالمناضلين والمواطنين الفلسطينيين العاديين من جرائم حرب لا تخطر على عقل بشر ، وبين أن نفقد ثقتنا بالمستقبل . ولنحاول بالتحليل الموضوعى

أن نؤسس ما نقوله على أسس منطقية .

النموذج العام لحركة التحرر الفلسطيني

لكي نستطيع أن نقيم ما يجرى تقييما حقيقيا لابد أن نضعه في سياقه التاريخي ، أى في إطار النموذج العام لتطوره ، وهنا نلاحظ أن حركة التحرر الفلسطيني قد بدأت بدايات عشوائية في أعقاب نشأة دولة إسرائيل مباشرة ، فأخذت طابعا فرديا أحيانا ، وغير منظم أحيانا أخرى ، ولم تؤد - كما كان في الخبرات المقارنة لحركات التحرر الوطني - إلى تأثير يذكر على المستعمر .

وفي الأول من يناير ١٩٦٥ أطلقت أول رصاصة «منظمة» في حركة التحرر الفلسطيني في سياق المد القومي العربي العام ، وبهزيمة ١٩٦٧ واستيلاء اسرائيل على ما بقى من أرض فلسطين حدثت نقلة نوعية في حركة التحرير الفلسطيني نتيجة أنها أصبحت تمارس «من الداخل» لأول مرة بأحد المعايير ، وكانت معركة الكرامة في مارس ١٩٦٨ علامة على هذه المرحلة ، ومع تصاعد المقاومة الفلسطينية وزيادة وزنها بدأت بعض المشكلات تثور مع الدول التي احتضنتها ، ووصل هذا إلى درجات مؤسفة مع الصدام المسلح بين المقاومة وبين هذه الدول انتهى في التحليل الأخير إلى الخروج التدريجي للمقاومة منها ، وكان آخر خروج للمقاومة الفلسطينية من أرض دولة عربية هو خروجها من بيروت في ١٩٨٢ بعد صمود بطولي دام قرابة الثلاثة أشهر، وإن كان هذه المرة بتأثير الحرص على بيروت وليس الصدام مع السلطة اللبنانية .

وفي نهاية الثمانينيات (اعتبارا من ديسمبر ١٩٨٧) بدأت حركة التحرير الفلسطيني مرحلة جديدة تميزت فيها بالنضال الشعبي فيما عرف بانتفاضة الحجارة ، ودامت هذه الانتفاضة أعواما إلي أن داهمتها أزمة الخليج ، ولكنها مع ذلك أثمرت اتفاقية أوسلو ١٩٩٣ التي مهما كانت عيوبها إلا أنها تضمنت اعترافا صهيونيا للمرة الأولى بشعب فلسطين ومنظمته، ووجودا فلسطينيا سياسيا للمرة الأولى على أرض فلسطين . وهدأ الشعب الفلسطيني بضع سنين في سياق المراوغات الإسرائيلية في تطبيق أوسلو وتوابعها إلى أن تأكد انقلاب اسرائيل عليها ، وظهرت الحقيقة كاملة في قمة كامب ديفيد ٢٠٠٠ : عرض هزيل مطلوب قبوله كحل نهائي للصراع ، ورفضت القيادة الفلسطينية العرض ، وتفجرت انتفاضة الأقصى في أكتوبر

مستقبل فلسطين

٢٠٠٠ بسبب مباشر هو زيارة مجرم الحرب شارون للمسجد الأقصى ، بينما دافعها الأصيل هو وصول عملية التسوية السلمية للصراع إلى آفاق مسدودة بسبب السياسة الإسرائيلية .

تعمدت أن أشير إلى هذه التطورات فى عجالة لكى أستخلص منها ما يمكن أن يفيدنا فى معرفة أين نحن الآن ، وأركز فى هذه الخلاصة على ملاحظات ثلاث .

وأول هذه الملاحظات أن حركة التحرير الفلسطينى من حركات التحرر الوطنى التى تعتبر مبكرة فى تبلورها ، فقد نضجت بعد حوالى عشرين عاما من نشأة دولة إسرائيل بينما استغرق ذلك ما يزيد على القرن فى الحالتين الجزائرية واليمنية اللتين تم الاحتلال فيهما فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ولم يحدث الاستقلال إلا فى ستينيات القرن العشرين . صحيح أن الظروف والملابسات قد اختلفت، ولكن الملاحظة تبقى جديرة بالتسجيل .

والملاحظة الثانية أن حركة التحرير الفلسطينى قد تقدمت عبر الزمن على الرغم من كل ما يبدو أنه أصابها من نكسات ، فقد انتقلت من النضال العشوائى إلى المنتظم ، ومن النضال من الخارج إلى النضال من الداخل ، ومن غياب الكيان إلى وجوده ، وانتقلت بين أساليب النضال حسب مقتضيات الموقف، فلجأت إلى النضال المسلح فى ظروف سمحت بذلك ، ومارست النضال الشعبى عندما تغيرت الظروف ، وجمعت بين الاثنين فى ظروف ثالثة ، وهكذا . ولا يعنى هذا أنها لم تقع فى أخطاء استراتيجية وتكتيكية ليس من المناسب الآن مناقشتها، لكن المهم أن المحصلة فى النهاية كانت تشير إلى تقدم عبر الزمن .

ومع ذلك فإن المخلصين يعلقون على مثل هذا الكلام بقولهم : لكن الظروف الراهنة مخيفة ، والخسائر الإنسانية أفدح من أن توصف ، والدمار المادى مأسوى . أجيب بأننا مع كل الحزن النبيل والغضب الصارخ لا ينبغى أن نفقد عقولنا . فيذكر منا من عاش أيام يونيو ١٩٦٧ كيف كانت المشاعر وقتذاك ، فمن كان يصدق أن تشتعل المقاومة المصرية للعدو بعد أسابيع قليلة ، وأن تصل إلى ذروة حرب الاستنزاف بعد شهور قليلة ، ثم إلى قمة حرب أكتوبر بعد سنوات قليلة . هكذا الشعوب . لا يمكن أن تصبر طويلا على أوضاع تخل بحقوقها على نحو جسيم ، فما بالنا بالشعب الفلسطينى الذى حوله

الاستعمار الصهيونى لفلسطين إلى كتلة من الإيمان والغضب والجسارة .

نظرة إلى المستقبل

لم أفقد إيمانى يوما بانتصار حركات تحرير الشعوب ، وإن كان توقيت الانتصار وطبيعته تصنعه ظروف كثيرة . يبدو شارون ساعة كتابة هذه السطور منتصرا ، وأقول مع ذلك أننا لم نهزم فى هذه المعركة بعد . صحيح أن هزيمتنا فيها واردة ، وربما يراها البعض مرجحة ، ولكن يكفى أن يصمد قطاع غزة إن فكر شارون فى التعرض له على نفس النحو الذى صمد به معسكر جنين ، أو أن تستمر عمليات المقاومة - وإن بوتيرة أقل - حتى يفلس شارون عسكريا فى المدى القصير بعد أن أفلس سياسيا . وبحين بالتالى أوان رحيله .

ومع ذلك فلنلق بنظرة على السيناريو الأسوأ : أن يكمل شارون مخططه الحالى بنجاح ، فى الواقع انه يكون بذلك قد زج بنفسه فى مأزق حقيقى، فسوف يواجه أولا مشكلة سياسية تتعلق بإدارة المناطق التى احتلها، ذلك أنه لن يستطيع أن يديرها من خلال جيش الاحتلال إلى الأبد، وإنما لابد من ترتيب سياسى ما ، وهذا الترتيب لا يمكن أن يتعاون فيه فلسطينى مخلص، فإن قبلت عناصر فلسطينية التعاون معه فسوف تكون بطبيعة الحال فاقدة للمصداقية الفلسطينية، وبالتالى فإن عمرها سوف يكون قصيرا ، أو لنقل إنها ستعجل باستئناف المقاومة ، ولا يجب أن ننسى أن شارون يتسلم الآن أراضى لها خبرة ثلث قرن فى مقاومة العدو بشتى الوسائل ، وهو موقف يختلف جذريا عن احتلال الضفة والقطاع فى ١٩٦٧ .

وعندما تستأنف المقاومة - الآن أو بعد حين - تكون قد وضعت نفسها على الطريق من جديد . لا نقول بدايته ، ولكننا لا نقول أيضا نهايته ، فمازال الطريق طويلا وشاقا ، وهذه طبيعة الأمور ، فضلا عن السمات الخاصة للاستعمار الصهيونى الاحتلالى التى تزيد من تعقيد الموقف أمام حركة التحرير الفلسطينى .

ولكن يحدث السيناريو الأفضل - على المدى القصير بإفشال مخطط شارون - أو المدى الأطول باستئناف المقاومة لابد من شروط فلسطينية وعربية ودولية .

أما الشروط الفلسطينية فهى الوحدة الوطنية الكاملة ، فهى وحدها التى ستمكن القيادة الفلسطينية من السير وفق منهج سليم استراتيجيا وتكتيكيا ، ولاشك فى أن

مستقبل فلسطين

الوحدة الوطنية الفلسطينية باتت مشكلة بعد أن أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تعتبر معظم فصائل التحرر الفلسطيني إرهابية ، لكن الطريق واضح وواحد ، وأي نكوص عنه لن يعني إلا تأجيل يوم تحقيق الأهداف.

وأما الشروط العربية فهي تثير مشكلات بلا حدود ، لأن حركة التحرير الفلسطيني تكاد تكون الوحيدة من بين حركات التحرير الوطني المعاصرة التي تعمل في ظل غياب شبه كامل للمساندة الخارجية ، وهي ضرورية ، بل إن تأثير البيئة العربية عليها يكاد يكون سلبيا في بعض الأحيان ، ولولا غضبة الشارع العربي بعد الاجتياح الاسرائيلي الأخير للأراضي الفلسطينية والمجازر الوحشية التي ارتكبت في سياق هذا الاجتياح لكانت المساندة العربية للنضال الفلسطيني صفرا أو تكاد . ومطلوب من النظام العربي أن يعي جيدا أن نتيجة ما يجري على أرض فلسطين سوف تحدد إلى حد كبير مستقبل المنطقة بأسرها ، سواء بمعنى أن الهيمنة الإسرائيلية الإقليمية لابد أن تنعكس - إن تحققت لاقدر الله - على باقي دول المنطقة ، أو بمعنى أن استمرار تراجع أداء النظم العربية في هذا الموقف يمكن أن يؤدي بالتدريج - أو حتى فجأة - إلى تراجع أو تآكل شرعيتها .

ولا يعني هذا أن النظام العربي الرسمي مطالب بالحرب ، فالحرب لها استعداداتها وحساباتها ، وهي أمور لا زال بعض الدول العربية المعنية بعيدا عنها تماما ، ولكنه مطالب بالحركة الفاعلة باستخدام أية أدوات أخرى مناسبة اقتصادية كانت أو دبلوماسية أو إعلامية . المهم أن نملك الرؤية الاستراتيجية السليمة التي ترى فيما يجري على أرض فلسطين خطرا علينا جميعا ، وأن نبلور إرادة سياسية مستقلة تعيننا على اتخاذ ما ينبغي علينا اتخاذه من قرارات . وقبل ذلك كله وبعده يتعين على النظم العربية أن تصل إلى كلمة سواء فيما بينها بدلا من تبادل الاتهامات بالعجز، وأن تصل إلى كلمة سواء أخرى بينها وبين جماهيرها، حتى لا يتحول التناقض بيننا وبين العدو الإسرائيلي إلى تناقض عربي - عربي .

وعلى الصعيد الدولي لاشك في أن الموقف بالغ السوء بسبب الانحياز الأمريكي المطلق إلى جانب إسرائيل ، إن لم يكن المشاركة والتواطؤ ، وهو أمر يجعل الإرادة الأمريكية باهتة أو حتى غائبة عندما تعلن عن مواقف من نوعية

«الانسحاب الآن» ثم تنساها سريعا أمام إصرار القطب الأوحد شارون على عدم الانصياع ، ويجعل الإدارة الأمريكية عاجزة عن تقديم أى عرض سياسى حقيقى يصلح لتسوية الحد الأدنى . ولذلك فإن أى تعامل استراتيجى مع الإدارة الأمريكية على أساس أنها تحمل شيئا مفيدا لنا سوف يمثل خطأ فادحا ، وإنما ينبغى أن يكون التعامل إن حدث على أساس تكتيكى لاتقاء ضغوط لا تحتمل ، أو لالتقاط الأنفاس ، وثمة آمال بازغة فى مواقف عدد من الدول الأوروبية لن يكون استغلالها للأسف إلا بأداء عربى أفضل .

★ ★ ★

يزداد الوضع ترديا أمامنا يوما بعد يوم ، لكننى حاولت أن أخط كلمات للأمل بنيتها على أساس أزعم أنه موضوعى ، وفضلا عما سبق لا يجب أن ننسى أن الحركة الصهيونية منذ ما يزيد على قرن من الزمان تحاول مدعومة فى ذلك بقوى الهيمنة فى كل مرحلة من مراحل تطور النظام الدولى ، ومستفيدة من ضعف الظهير العربى لحركة التحرر الفلسطينى ، أن تؤسس لها وجودا مستقلا على كامل أرض فلسطين ومع ذلك فإنها لم تنجح حتى الآن ، بل إن دولة إسرائيل فى عصر العولمة والانحياز والتواطؤ الأمريكيين ، والغياب العربى شهدت أسوأ أعوامها مؤخرا بشهادة أحد كبار مسئوليها .

ومن ناحية أخرى فإن الكيان الصهيونى بالسلوك الذى يتبعه حاليا ضد الشعب الفلسطينى ، وهو سلوك متأصل فيه منذ نشأته ، قد رسخ إرادة الصمود والصراع فى كافة أجيال هذا الشعب وصولا إلى كل طفل لديه أدنى قدرة على أن يعى ما حوله . هكذا قالت سيدة فلسطينية عجوز . «سنظل نقتل فيهم ويقتلون فينا إلى يوم الدين» .. وقال رجل فلسطينى فى أواسط العمر : «لن تخيفنا دباباتهم ، فلن تزهق أرواحنا إلا بإذن الله» ، وقالت شابة فلسطينية : «لن نترك لهم الأرض : أين نذهب ؟» ، وقالت أخرى: «إنها ميتة واحدة» ، وقالت طفلة فى حوالى العاشرة من عمرها : «يتصورون أنهم يخيفوننا بدباباتهم ، ونحن لا نخاف فهذه أرضنا» . ومن هذه الأجيال تتولد إرادة الصمود والصراع التى ستصل يوما بالشعب الفلسطينى إلى بلوغ حقوقه مهما تجمعت سحب الكآبة فوق رؤوسنا ، وجثمت صخور الهم فوق صدورنا .

■

المثقفــــون
وضمير العالـم

جزء خاص

بعيـدأ عـن انهـزاميــة المــاضـــى....

المثقف العربي

يولـد.. يـرفـض.. ويـثــور من جديـد

أماني عبد الحميد

مسيرة ثائرة رافضة تنتفض من الموت إلى الميلاد.. تجتاح قلوبنا كالنار، كالطوفان تهب فوق رءوسنا تمنحنا النور والضياء... تمزق ثوب السلبية.. الانهزامية.. الانكسار القديم.. وتدفعنا بعيداً عن حافة الانحدار انتفاضة حقيقية فى مدننا . داخل كل شارع وكل بيت.. فى الجامعة ... فى الجامع . وعلى صفحات الصحف وعلى شاشات التليفزيونات.. إنها ثورة الغضب تولد من جديد .

منذ سنوات وأمتنا تعانى من انهيار ثقافى نتيجة لكثرة الإحباطات حتى فقد مثقفونا الثقة بأنفسهم وبمجتمعهم فأصبحوا يعيشون غرباء وقد جف نبع القول داخل نفوسهم ومع الوقت تحولت العلة من علة سياسية إلى علة نفسية تخنق المثقف والمبدع العربى فيقول محمود درويش فى قصيدته «الوردة والقاموس» :

وليكن
لابد لى أن أرفض الموت .
وإن كانت أساطيري تموت
وإننى أبحث فى الأنقاض عن ضوء،
عن شعر جديد.

بعد أن كان المثقف يتوهم في نفسه فهم كل شئ بلا تردد، والحلم بكل شئ دون حدود، وتغيير العالم نحو عالم أفضل. ولكن توالى الصدمات عليه حول التغيير إلى نزعة تمرد حتى هيمن عليه وولد لديه إحساسا باليأس دفين ... فالعالم يتغير والواقع متكرر ..

هذه أوراق حقيقية

دم طازج ينزف من جرح جديد

كتابتها كانت

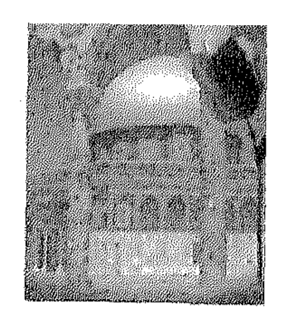
بديلا عن الانتحار

هكذا وصف علاء الديب شعوره كمثقف في كتابه « وقفة قبل منحدر - من أوراق مثقف مصرى» وبعد طول انكسار وصل المثقف إلى حافة الانتحار .. مما رسخ الشعور بالغربة فيصفه «الديب» !! «**مدينتى صارت غريبة ، صوت الشعراء فحيح، جعلتنى سنوات الهزيمة شيخا بلا حكمة، وسكن فى قلبى البوم**» . فارتدى بعض المثقفين ثوب السلبية لعدم إيمانهم بدورهم فى التغيير والثورة من جديد .

وخز الضمير

كأن ضمير العالم بدأ يستيقظ من غفوته فجأة أو يولد من جديد.. وكأن فلسطين ظهرت فجأة فى غياهب الظلام وأن قضيتها وليدة الأمس القريب.. برغم مرور أكثر من خمسين عاماً على قيام الكيان الإسرائيلى وعدوانه الغاشم ، وأكثر من قرن على كشف النوايا والإعلان عن المطامع اليهودية .. كان عام ٢٠٠٢ بمثابة بداية وخز الضمير وتأنيب الذات فى العالم أجمع متخطيا حصار الدعاية الصهيونية ... فانزلقت الأرض تحت أقدام المثقف العربى، واهتزت ثوابت العقل الانسانى داخله أمام مشاهد القتل والدم والاجتياح والحصار وسيادة مبدأ البقاء للأقوى .

فى البداية أصدر الكاتب الكولومبى «جابريل جارسيا ماركيز» الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢ بيانا يعلن فيه تضامنه مع الشعب الفلسطينى ويوقعه باسم « بيان الفرد الواحد» . يكسر فيه أسطورة السطوة الصهيونية على كثير من الأدباء والكُتّاب، ويثبت أن الأدباء المتميزين يتحملون مسئولية أمام ضمائرهم لحماية مستقبل البشرية . ونتيجة لموقفه شكل «برلمان الكتاب الدولى» وفدا من الكُتّاب العالميين لزيارة الأراضى المحتلة لإعلان موقفهم المعادى للاحتلال ، الأمر الذى يعكس التغيير الذى حدث للضمير العالمى، فقد عبروا عن موقف ١٥٠٠ من كتاب وأدباء العالم من أعضاء البرلمان . من بينهم الكاتب الأمريكى بول استر والأمريكية تونى موريس ، والكندية



مـارجـريب آتوود الحـاصلة على جـائزة بوكر للآداب عام ٢٠٠٠ ومواطنها مايكل أونداتجى، والمسرحى البريطانى هارولد بنتر والسينمائى كوبولا . وبعد زيارة الوفد لمدينة «رام الله» اكتشف الضمير العالمى أن ماتقوم به قوات الاحتلال فاق قدرات الضمير على الاحتلال .. وهو ماعبر عنه خوسيه ساراماجو الحائز على جائزة نوبل عام ١٩٩٢ أحد أعضاء الوفد **«يجب أن نقرع جميع الأجراس فى العالم لنقول أن ما يحدث فى فلسطين هو جريمة يجب وقفها ، وأن علينا ككتاب أن نوقظ أرواح الناس وعقولهم»** كما تتجلى مشاعر الغضب فى كلمات الكاتب الفرنسى كريستيان سالمون فى ختام زيارته **«لم أكن أعرف أن على كل طفل أن يبحث عن دفاتره وحاجياته بين أنقاض منزله..»** ، أو كما جاء فى قصيدة الشاعر محمود درويش التى ألقاها أمام الوفد فى ختام زيارته بعنوان « حالة حصار ».. والتى اكتست أبياتها بالحزن والألم .

قال لى رجل عابر بين قنبلتين
سوف نحب الحياة كما هى
عادية ماكرة
فلا يلدغ المؤمن المتمرن من الفرح مرتين .

ورغم سيادة مبدأ البقاء للأصلح .. لكن الأقوى هنا ليس بالضرورة من يملك السلاح والذخيرة والمجنزرات . لكنه من يملك الصبر والصمود والثورة من جديد..

عودة الروح الرافضة

بالرغم من تدهور الأوضاع داخل الأراضى إلا أن الانفراج الحقيقى للأزمة تخرج بوادرها من ضيقها وعمق تأزمها وما نراه فى الشوارع ووسط حشود المثقفين المتظاهرين يبرز لنا بوادر الانفراج .. فمنذ عام ١٩٧١ الحماسية لم تشهد شوارعنا ولا قلوبنا مثل ذلك الشعور الجارف القوى. صحيح أنه شعور بالألم والغضب إلا أنه أعاد المثقف إلى الساحة ليلعب دوره الفاعل والمغير من جديد .

فلم تعد كوابح التاريخ تكبل صوته ولم تعد أعباء الماضى الثقيل تشل حركته .. وكأن المثقف قد عاد ليراجع نفسه ويعيد قراءة موقفه من السياسة .. وتوصل إلى أن صوته أصبح خيارا حيويا ومصيريا تحتاج إليه الأمة كما يحتاج للسلاح والقوة .. وكأنه تذكر من هول ما يحدث دوره فى تحمل مسئولية التغيير والتنوير وإعادة تشكيل وجدان المجتمع .. ورغم تعرض المثقفين العرب لحملة انتقادات تتهمهم بالعجز عن القيام بدور مماثل لدور « ماركيز» ، وعلى رأس من تعرض للانتقاد الكاتب الكبير نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨.. إلا أن توالى المواقف الرافضة .. وما نراه من البيانات الغاضبة وجمع التبرعات لدعم الانتفاضة الفلسطينية ،

يبـــــعث على الأمل ... الأمل فى استيقاظ ضمير الأمة مع استيقاظ ضـمـيـر المثـقـفين ... وتحـولت كـافـة التجمعات الثقافية إلى مؤتمرات تنديد ورفض لما يحـدث وخـرج كـثـيـر من مثقفى الأمة إلى الشوارع صـائحين رافضين الاستـسـلام ، وكأننا أمـام انتـفـاضـة تكسـر الحـواجـز داخل أرواحنا لنصل إلى أول طريق الحرية ، كالنار .. كالعصفور .. كالنهار كما يصفها الشاعر العراقى عبدالوهاب البياتى ، وحتى كتابة هذه السطور لا تزال تجرى المحـاولات لعقـد مؤتمر دولـى داخـل فـلـسـطين يـضـم عددا من أدباء العالم تحت شـعـار « دعم صـمـود الشعب الفلسطينى» بل ودعـا «منـتـدى الكتـاب العربى» لشعوب العربية والعـالمية للاشـتـراك فى مسيرة العشرين مليون نحـو القـدس ، وكلهـا محـاولات تدل على تغـيـيـر المواقف وردود الأفـعـال تجـاه القضايا التى تؤرق أمتنا العربية ..

يا شعرنا .. كن غاضبا

يا نثرنا .. كن غاضبا

يا عقلنا .. كن غاضبا

فـعـصـرنا الذى نعيشـه عـصـر غاضبين .

كما طالب نزار قبانى سابقا ـ أو حتى كما تنبأ أمل دنقل فى قصيدته الشهيرة «لا تصالح » كيف ستأتى الغَضْبَة

وغدا

سوف يولد من يلبس الدرع كاملة

يوقد النار شاملة

يطلب الثأر

يستولد الحق

من أضلع المستحيل

لذا وجب علينا كـأمـة وكـشـعب ألا نخطئ فـهم ما نشعر به من غضب ونقوم به من تظاهرات وتنديد.. فهو سلوك بعيد عن الانهزامية القديمة .. إنه شعور سيفتح الباب على مصراعيه أمام انتفاضة ثقافية جديدة تقود إلى ثورة عـارمـة أو كـمـا يقـول البيـاتى فى قصيدته يوميات العشاق الفقراء :

نغتصب العالم بالموت

، وبالثـورة والرحـيل نموت

فى غـربتنا ، لكننا نولد من جديد

نحب من جديد

نرفض من جديد

نثور من جديد

فلنسـتـأنف المسيرة الكبرى من الموت إلى الميـلاد منتظرين النار والطوفـان .. فنحن نرغب فى الموت لا الانتـحـار حـتى نكون أسياد المصير .. وهكذا يأتى النور..

■

ساراماجو..

إن ما يحدث فى فلسطين ليس سوى محرقة نازية

بقلم
د. طلعت شاهين (٭)

الزيارة التى قام بها عدد من أعضاء «برلمان الكتاب الدولى» الى الأراضى الفلسطينية المحتلة ليعلنوا رفضهم للممارسات العنصرية الصهيونية بعد أن راعهم صمت الساسة المريب على كل الأصعدة لم يكن من بينهم من يعى الحقيقة المرة التى سيواجهونها على أرض الواقع سوى الكاتب الاسبانى «خوان جويتيسولو» الذى كانت زيارته تلك الرابعة، فقد سبقتها زيارات ثلاث مطولة قام بها الكاتب الأسبانى أنجز خلالها العديد من البرامج التليفزيونية التى تدين الاحتلال الإسرائيلى وتكشف حرب «الإبادة» التى يمارسها ضد الشعب الفلسطينى، وأيضا كتب خلال تلك الزيارات عددا من الأعمال الصحافية والأدبية، منها مجموعة مقالات فى زيارة له عقب اتفاقات أوسلو، صدر جزء منها قبل خمس سنوات فى كتاب بعنوان «دفاتر العنف المقدس».

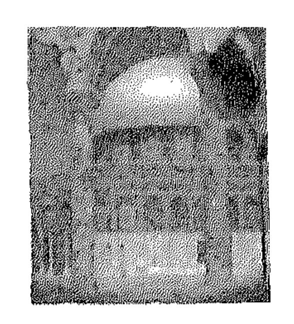
(٭)كاتب مصرى مقيم فى اسبانيا

كانت مفاجأة كبيرة ما هو على أرض الواقع اليوم فى العاصمة الفلسطينية المحتلة «رام الله» وما حولها من المدن والقرى الفلسطينية المدمرة على من كانت زيارتهم الأولى، وجعلت بعضهم يقارن - فى دهشة - بين ما يراه وما كان يسمعه عن مناطق أخرى فى العالم كانت تعيش أحداثا مماثلة لما يحدث الآن فى وجودهم وأمام أعينهم، فقد أشار أحدهم من نافذة السيارة التى كانت تقلهم عبر بقايا المدن والقرى الفلسطينية التى دمرتها آله الحرب الإسرائيلية من دبابات وجرافات على الأرض وطائرات «أف ١٦» وحوامات «الأباشى» الأمريكية من السماء، وبتوجيه من أقمار التجسس الصناعية الأمريكية التى توفر لتلك القوات كل المعلومات عن أى تحرك فلسطينى حتى لو كان فرديا، وأقامت على طرقاتها الحواجز العسكرية التى تمنع الاتصال ما بين قرية وأخرى إلا بتصريح خاص، لم يكن الهدف منه أمنيا بقدر ما هو «إذلال الفلسطينى والنيل من كرامته فى محاولة لوضع حد لمقاومته» ، حسب تعبير أحد أعضاء الوفد برلمان الكتاب الدولى فيما أكد آخر: «أن هذا مزيج من التبت وبرلين قبل سقوط حائطها الشهير».

جوزيه ساراماجو

لكن رؤية المستعمرات الصهيونية المزروعة فى الأرض المحتلة، بشكلها النظيف المرتب الذى يتناقض مع الركام الذى تشكله بقايا القرى الفلسطينية المدمرة، والرفاهية التى يتمتع بها المستعمرون القلائل الذين يسكنونها على حساب معاناة المواطن الفلسطينى المالك الحقيقى لهذه الأرض الذى يعيش مكدسا فى كيلو مترات قليلة، جعلت يرد عليه آخر «بل انه نظام الأبرتهيد العنصرى الذى كان قائما حتى وقت قريب فى جنوب أفريقيا» (؟!).

مجموعة الكتاب المكونة من ثمانية يمثلون جنسيات وانتماءات عرقية ودينية عديدة، كان بينهما اثنين من الحاصلين على جائزة نوبل للآداب: النيجيرى «وول سونيكا» ، والبرتغالى «جوزيه ساراماجو» أول من حصل على جائزة نوبل للآداب من كتاب اللغة البرتغالية ، وكان هذا الأخير صامتا طوال الطريق يراقب ما يحدث



حوله من جرائم، ويحاول أن يجد له شبيها فى ذاكرته التى شهدت أسوأ ما أبدعته النفس البشرية من تدمير، سواء خلال الحربين الكبريين فى أوروبا أو الحروب الأهلية الدائرة فى العديد من بلدان العالم التى زارها للتضامن مع ضحايا ، وكانت آخر هذه الزيارات لمناطق مشتعلة تلك التى قام بها للمكسيك لإعلان تضامنه مع سكان تشياباس الهنود الحمر الذين يتعرضون للإبادة هناك، وكانت تلك الزيارة قبل أيام قليلة من زيارته للعاصمة الفلسطينية رام الله، ولم يجد الكاتب البرتغالى شبيها فى التاريخ الإنسانى المعاصر لما يحدث فى الأراضى الفلسطينية سوى ما حدث على أيدى النازى خلال الحرب العالمية الثانية، ليس ضد اليهود فقط، بل ضد كل من كان النازى يرى أنه عقبة فى سبيل تحقيق «سمو الجنس الآرى»، حتى أن المصادر التاريخية تؤكد أن ضحايا النازى من «الغجر» يفوق كثيرا عدد ضحايا اليهود فيما يسمونه «المحرقة».

ولأنه يدرك أن ما يحدث فى الأراضى الفلسطينية المحتلة على أيدى جيش مسلح بأحدث ما يملك البشر من أدوات للتدمير فى هذا العصر لا يمكن التعامل معه على أنه مجرد «مواجهة» بين قوتين، لأن المواجهة تكون عادة بين قوتين شبه متعادلتين فى العدد والعدة، بل هو حرب «إبادة» لا يمكن أن يكون لها اسم آخر، فقد قال كلمته التى كانت لا تعنى سوى الحقيقة، هذه هى المحرقة النازية التى يمارسها الجيش الصهيونى ضد الشعب الفلسطينى، ورام الله المحاصرة تذكره بمعسكر أوشفيتز النازى.

بهذا التصريح المباغت للإعلام الصهيونى، ليس فى إسرائيل وحدها بل والإعلام التابع والمؤيد للصهيونية فى العالم أجمع، الذى لم يتوقع أن يكون بين أعضاء الوفد من يجرؤ على كسر المحرمات الصهيونية، كان رأى جوزيه ساراماجو خروجا عن نطاق الآراء واللغة الدبلوماسية التى اعتادوا سماعها من «المرتعبين» من مجرد نطق كلمة «المحرقة»، رغم أنها لم تعد تقول شيئا بعد كل هذه السنوات التى استهلك استخدامها من قبل إسرائيل، لم يكن رأى ساراماجو لما يرى سوى وصف للواقع بالكلمات التى تعنى بالضبط ما تعنيه اللغة المجردة بعيدا عن الهروب من مواجهة الواقع الردىء الذى يعيشه العالم اليوم والذى يتعامل مع القضايا الكبرى طبقا لما تمليه المصالح الضيقة لمن يلمسونها ويكون بين أيديهم حلها أو التخفيف من وقعها.

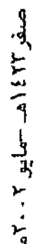
هذه الصدمة التى أحدثتها تصريحات جوزيه ساراماجو فى إسرائيل وبين

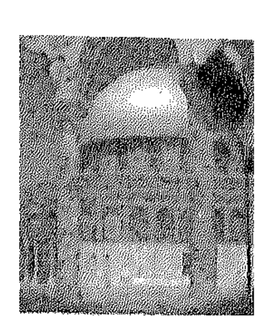
مـؤيديهـا تكشف عن جـهلهم لموقف الرجل، فهو لم يكن يوما من هؤلاء الذين اعتادوا الابتعاد عن الصدق فى التعبير، لا فى وطنه ولا خـارجـه، حـتى خـلال تسلمه لجائزة نوبل كان خطابه من أجرأ الخطابات التى اعـتـاد جـمـهـور نوبل أن يسمعها من الفائزين بها كل عام والتى لم تكن تخـرج عن التـعـبـير عن شـرف الفوز بها وتبجيل صاحبها، لذلك فإنه فى زيارته للعاصمة الفلسطينية المحاصرة «رام الله» لم يمنع نفسه من التعبير عن رأية الحقيقى الذى يفكر فيه دون انتظار لمكافأة من أحد، بل كان يعرف أن كل ما سيقوله قد يجلب له المتاعب من قبل وسائل الإعلام التابعة والخاضعة للسيطرة الصهيونية التى ترى فى كل رأى مخالف «عداء للسامية وكأن إسرائيل هى تلك السامية المزعومة، وكما قال كاشفا حقيقة أخرى لم يجرؤ أوروبى قبله على البوح بها علنا: إسرائيل لا ترى موقفا ثالثا لأحد، إما الانضمام إلى جوقة المؤيدين إلى السامية طبقا لتعريفها أو احتلال مكان العدو للسامية، ذلك السلاح الكاذب الذى يوجهونه إلى مناهضيهم.

عندما قال ساراماجو فى مؤتمر صحفى فى رام الله أن ما يحدث من حوله ليس سوى «اوشفيتز» - معسكر النازى الذى يقول دعاة الصهيونية أن ملايين اليهود ماتوا فيه - حاولت صحافية إسرائيلية ابتزازه قائلة: «لا توجد هنا أفران غاز» ، فرد عليها بهدوء «ما أقوله يتعلق بالفعل وليس بالاسم، وما يحدث هنا يصدر عن روح مماثلة (للنازية) وهذا واضح جدا هنا» وزاد فى رده بقوله: «إن ما حدث هنا جريمة ضد الإنسانية ، وإذا كانت كلمة «أوشفيتز» تغضب الإسرائيليين فعليهم أن يختاروا كلمة أخرى للتعبير عما أراه هنا، وعلى أى حال لن تكون أى كلمة أخرى لوصف ما يحدث هنا أقل بشاعة من وصف المحرقة النازية».

كان جوزيه ساراماجو يعرف أيضا أن تصريحاته الناطقة بالحق والحقيقة سوف تثير عليه حربا تستخدم فيها الصهيونية كل ما تملك من أسلحة دعائية لتشويهه، ولكنه كان جاهزا للرد، لأنه يعتقد أنه يقول الحق، ولذلك لم يحاول التملص من كلماته أو النكوص عنها، كما حدث من قبل مع الكثير من الساسة والمثقفين بالتراجع تحت الضغوط من خلال محاولة تقديم تفسيرات من ذلك النوع الذى يستخدمه السياسيون عندما يؤكدون أن تصريحاتهم «قد أسيء فهمها أو «اقتطعت الكلمات من سياقها».

لم تمض ساعات حتى أكد الكاتب





البرتغالى فى حوار صحيفة «البابيس» الإسبانية بالهاتف أجرته معه الصحيفة وهو لايزال فى فندقه فى تل أبيب، لعله ينفى أو يتراجع أو يحاول التملص من كلماته، فما كان منه إلا أن أكد من جديد أن كل كلمة قالها فى اتهامه إسرائيل بممارسة «حرب إبادة ضد الفلسطنيين كانت تعنى ما تقوله، وانه فكر كثيرا فى هذه الكلمات واعتنى باختيارها قبل الإدلاء برأيه، لأنه ببساطة وصف بدقة ما شاهده على أرض الواقع، وغير مستعد للخضوع لأى ضغوط للتراجع عما قاله حرفيا، وأكد انه إذا كانت إسرائيل لا تريد أن تسمع اسم معسكر النازى «أوشفيتز» فإنه تعمد «ذكر هذه الكلمة بالتحديد حتى يهتز المجتمع الإسرائيلى من داخله ويطرح نقاشا حول ممارسات جيشه وحكومته ضد الفلسطينيين، وان يتخذ ما من شأنه أن يوقف المعاناة التى يتعرض لها الشعب الفلسطينى حتى لا يتكرر مع الفلسطينيين ما حدث لليهود على أيدى النازى».

حرص جوزيه ساراماجو على التأكيد فى حديثه مع الصحيفة الاسبانية على انه مصر على رأيه، وأن الكلمات التى عبر من خلالها عن هذا الرأى فى المؤتمر الصحفى الذى عقده أعضاء وفد برلمان الكتاب الدولى، مؤكدا انه لن يتراجع عن تعبيراته مهما كلفه ذلك.

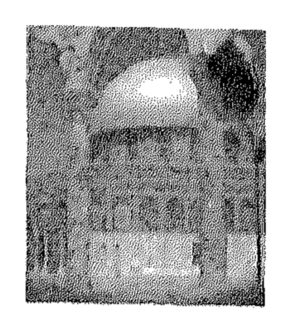
من ناحية أخرى فإن الكلمات التى عبر بها جوزيه ساراماجو عما شاهده من تدمير وحرب إبادة ضد الفلسطينيين كشفت من يدعون أنهم يعارضون «جرائم شارون». ويحاولون لعب دور «الحمائم» فى إسرائيل من خلال إعلانها انهم على استعداد لمناصرة الحق الفلسطينى، ولكنهم فى الحقيقة يلعبون دورا موكولا إليهم لتجميل صورة القمع الإسرائيلى الوحشى الذى مارسته ولاتزال تمارسة قوات الجيش الإسرائيلى المسلح فى مواجهة المواطنين الفلسطينيين العزل من كل شىء حتى من دعم أشقائهم العرب الذى اكتفى زعماؤهم بالبيانات والكلمات الرنانة دون أن يقدموا إليهم ما يعينهم فى هذه اللحظة التاريخية الحالكة. فقد انبرى الكاتب الإسرائيلى «عاموس أوز» للهجوم على جوزيه ساراماجو بكلمات لا يمكن وصفها سوى أنها صادرة عن «صهيونى عنصرى عتيد»، وتكشف بوضوح أن هذا الكاتب الإسرائيلى صهيونى حتى النخاع، وانه رغم إعلانه الاعتراض على سياسة شارون الا انه فى الحقيقة يتفق معها، ودوره «كداعية سلام» ما هو إلا غطاء لهذه السياسة التى لا هدف لها سوى تحقيق الحلم التلمودى: إسرائيل الكبرى.

هجوم عاموس اوز على ساراماجو كان نابعا من رؤية صهيونية ترى خطورة تصريحات الكاتب البرتغالى والأثر الإعلامى الذى يمكن أن تحدثه فى الرأى العام الأوروبى الذى اعتاد على التعايش مع الدعاية الصهيونية ، وهذا الأثر الذى يخشاه عاموس أوز هو فى النهاية لن يكون فى صالح الفكر الصهيونى برمته، وسوف يكشف الإعلام التابع له الذى يروج لهذا الفكر . فارتعب الكاتب الإسرائيلى من أن تصل تلك الأوصاف التى تصم إسرائيل بالنازيه، لأول مرة فى تاريخها، إلى الرأى العام العالمى وتضعه أمام مسئوليته ليخرج عن صمته مطالبا بعقاب إسرائيل بالعقاب نفسه الذى لقيه النازى على أيدى قوات الحلفاء، بالطبع مع الفارق هنا انه لا حلفاء يوجدون على خريطة السياسة الدولية الآن على استعداد لمساعدة الفلسطينيين فى محنتهم الحالية.

من هذا المنطلق تحدث عاموس اوز بلسان صهيونى، واتفق فى كل كلمة وجهها إلى جوزيه ساراماجو مع تصريحات المتحدث باسم حكومة شارون مما يكشف عن حقيقة الموقع الذى يحتله الكاتب الإسرائيلى من ماكينة الدعاية الصهيونية التى تعمل فى إطار سياسة شارون ، وان كان بذل محاولة لنفى هذا الارتباط بالتوجه الرسمى الإسرائيلى مدعيا انه ضد ما يمارسه جيش بلاده ضد الفلسطينيين ، وان كان يرى ان ما يتعرض له الفلسطينيون من «إبادة» لا يقارن بالإبادة» التى تعرض لها اليهود على أيدى النازى (؟!) ، وكأن للشر وممارساته درجات، يمكن تفسيرها حسب هوية من يتعرضون لهذه الممارسات بغض النظر عن نتائجها.

استخدام عاموس اوز فى هجومه على جوزيه ساراماجو الاتهامات الصهيونية الجاهزة ضد من يعارض أفكارها، والتى تستخدمها عادة وسائل الإعلام سابقة التجهيز للدفاع عن إسرائيل وممارساتها الوحشية . فاتهم ساراماجو بأنه يدعو إلى «شرعية» تدمير إسرائيل وأنه «ضحية للدعاية الفلسطينية الرخيصة».

من يعرف جوزيه ساراماجو وقرأ اعماله وتابع نشاطه السياسى والاجتماعى يعرف ان الرجل كان صادقا مع نفسه قبل أن يكون صادقا فى مواجهة الآخرين، لذلك سرعان ما أعاد التأكيد على تعبيراته مجددا، وزاد عليها ردا لا يقبل أى تفسير آخر سوى أنه يعبر بصدق عن وصف ما شاهده من «جرائم» فقال انه يفضل ان «يكون ضحية للدعاية



الفلسطينية الرخيصة على أن يكون بوقا للدعاية الإسرائيلية الثمينة».

كاتب عصامى ملتزم

لم يكن الكاتب البرتغالى جوزيه ساراماجو البالغ من العمر ٧٥ صنعته ثقافة مجتمعة من خلال مؤسساتها التعليمية ، ولا من أولئك الكتاب الذين يعيشون فى أبراجهم العاجية فى انتظار أن تصل أعمالهم إلى قراء يجهلونهم ، بل هو كاتب عصامى ، نشأ فى أسرة من الرعاة الأميين ، لم يساعده فقره المادى فى الاستمرار فى التعليم ، وفقد الطريق إلى التعليم الجامعى ، فقرر أن يثقف نفسه بنفسه .

أول كتاب اشتراه فى حياته كان وقتها فى عمر التاسعة عشرة ، وكانت أولى كتاباته عندما تعدى الخامسة والعشرين ليصمت بعدها عن الكتابة ، لأنه كان مقتنعا فى ذلك الوقت بأنه لا شىء لديه يقوله للقراء ، ولم يعد إلى ممارسة الكتابة حتى بلغ الأربعين من العمر ، لذلك يقول إنه لو مات فى الستين من عمره ، من المؤكد أنه ما كان سيترك شيئا ذا قيمة فى الأدب البرتغالى ، وما كان للتاريخ يذكره ، وما كان له أن يتمتع بالحصول على جائزة نوبل والشهرة والراحة المادية التى تحققهما هذه الجائزة ، والتى سعت إليه وهو فى الخامسة والسبعين ، لكنه يؤكد . أن كل ما كتبه منذ ذلك الوقت كان من منطلق الالتزام المطلق تجاه قناعته الخاصة .

لذلك يعتبر جوزيه ساراماجو كاتبا ملتزما ، لم يقدم مطلقا أى تنازل أخلاقى أو سياسى ليضمن رضاء السلطة السياسية أو الدينية عنه ، يرى أن حرية الفكر والتعاطى معها يؤدى إلى نوع من التوازن العقلى ، ذلك التوازن الذى يسمح له بالتفكير الصحيح فى قضايا المجتمع والعالم الذى يعيش فيه ، من هنا فإن هجره لوطنه عام ١٩٩٣ وإقامته الدائمة بجزيرة لنثاروتى إحدى جزر الكنارى الاسبانية ، كانت نتيجة غضبه من قرار وزارة الثقافة والتعليم منع روايته «الانجيل طبقا لرؤية المسيح » من التداول فى المدارس والجامعات البرتغالية ، وأيضا كانت السبب فى الانتقادات التى وجهها الفاتيكان للجنة جائزة نوبل لأنها منحت الجائزة لكاتب متمرد على الكنيسة الكاثوليكية .

الكتابة عند ساراماجو تعتبر نوعا من تحقيق الوجود ، وأيضا الكتابة بالنسبة له طريق للحصول على حب الآخرين ، يعتبره البعض كاتبا متشائما رغم إعلانه دائما بأنه سعيد ومتفائل ، ويشرح هذا التناقض بقوله إنه بالفعل متشائم مما يراه من حوله من أحداث مأساوية ، لكنه يحاول أن يؤكد للآخرين أنه سعيد حتى لا يجد نفسه

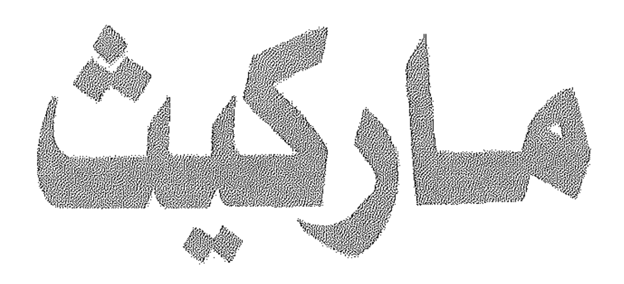
مطالبا بأن يتحدث عن أشياء أخرى تنقصه لتحقيق السعادة الكاملة ، أو على الأقل السعادة بالمعني الذى يفهمه هو شخصيا كانت بدايته الحقيقية سنة ١٩٧٣، برواية «مانويل» ثم جاءت روايته «ثورة الأرض» (١٩٧٩) ثم رواية «ذكريات الدير» (١٩٨٢) ثم رواية «موت ريكاردو رييس» (١٩٨٤) ثم رواية «بحيرة الحجارة» (١٩٨٦) ثم تأتى بعد ذلك سلسلة من الأعمال التى تعتبر تمردا على الممارسات الشمولية التى تمارسها بعض المؤسسات الدينية والسياسية وبشكل خاص الكنيسة الكاثوليكية فكانت اولها رواية «الانجيل طبقا للمسيح» (١٩٩١) التى يعالج فيها النزعة الفردية و«كل الأسماء» (١٩٩٧) التى يتناول فيها عالم البيروقراطية والرأسمالية بعد سقوط الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى وأوربا الشرقية إضافة آلى أعمال أخرى.

ويؤكد نقاد أدب ساراماجو باللغة البرتغالية أنه من الصعب وضع حد فاصل بين إبداعه وأفكاره ، خاصة تلك التى يعلن من خلالها رأيه في عالم اليوم ، الذى يؤكد أنه يعيش لحظة من أحط لحظات التاريخ البشرى ، لذلك يصفه أحدهم بأنه مقاوم لا يقبل التصنيف ، وأعماله الأدبية تحاول أن تسبح ضد تيار التدمير عبر التجريد ، وحزبه الذى ينتمى إليه فكريا حزب الرافضين للرؤية أو الإحساس عبر الآخرين ، حزب الفرد الذى يرى ويشعر عبر رؤيته الخاصة ، ومن هنا تنبع أهمية كتابيه بحوث عن العمى وكل الأسماء .

وإذا كان هناك من يتساءل عن وضعية جوزيه ساراماجو ، هل هو كاتب مبدع أم مناضل ؟ فأنه يمكن العودة إلى ما قاله ألبير كامى : ليس النضال هو الذى يدفعنا إلى أن نكون فنانين ، بل أنه الفن الذى يفرض علينا أن نكون مناضلين ، وساراماجو كان فتى فقيرا عاديا ، وعندما قرر أن يكون كاتبا حقيقيا وجد نفسه مدفوعا إلى أن يكون مناضلا ، لأن الإبداع التزام .

فوز جوزيه سارامارجو بجائزة نوبل للأدب لهذا العام يعتبر تكريما ليس له ولإبداعه فقط بل تكريم للغة البرتغالية التى لم تحظ بالفوز بهذه الجائزة التى فاز بها العديد من كتاب اللغة الاسبانية رغم تجاورها واشتراكها معها فى الأصول والأرض التى تعيش عليها .

■

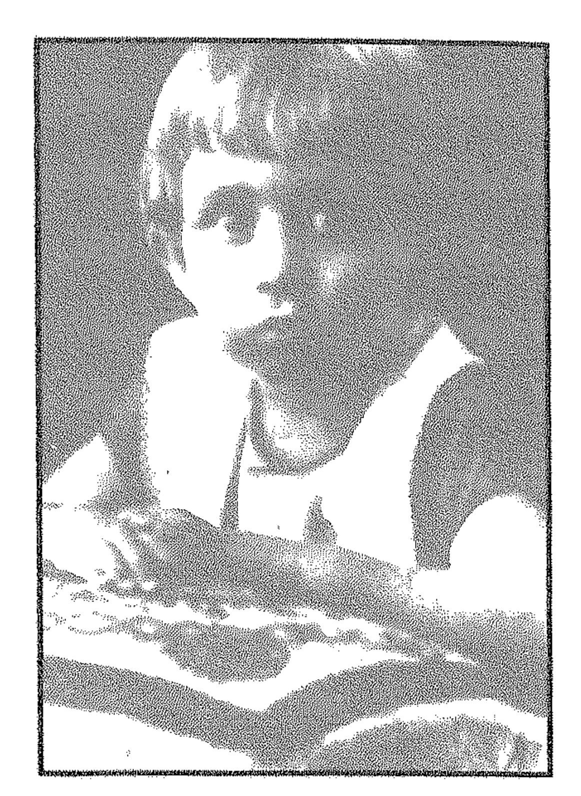


ماركيث وقضايا الإنسان

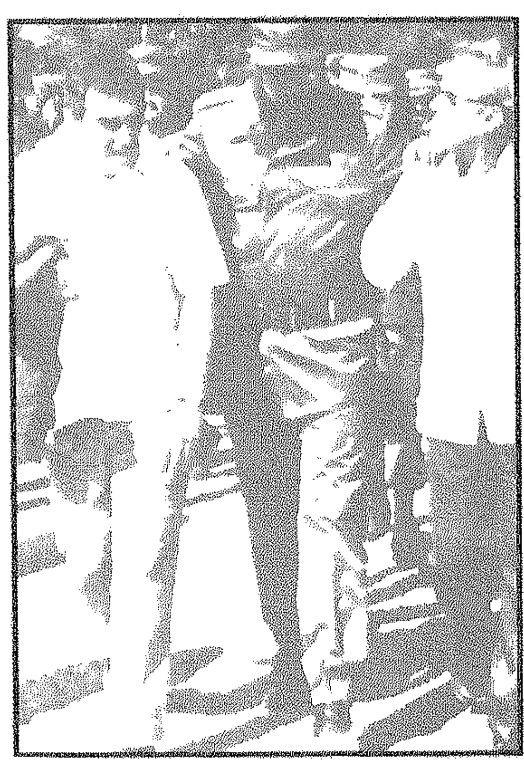
بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

●● فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٨٢ نشر ماركيث فى جريدة «اتلانتيكا الكولومبية» مقالا عقب فيه على مذابح صبرا وشاتيلا التي حدثت فى لبنان واتهم العالم بالنفاق، وبالسكوت على هذه الجرائم التى قامت بها الصهيونية، دون أن يعطيها بما تستحق من اهتمام، وهو يدرك واعيا أكاذيب الصهيونية، وسبق له أن رفض دعوة وجهتها اليه اسرائيل لزيارتها، قائلا «إنها سوف تستغلها سياسيا، وتحشوها بالأكاذيب» ●●

نعرف القليل جدا عن أمريكا اللاتينية مناخا وحياة، وأقل من القليل عنها أدبا وحضارة، رغم أن خمسة من كبار أدبائها نالوا جائزة نوبل : الشاعرة جبرييلا مسترال من شيلى، والروائى أنخل أستورياس من جواتيمالا، والشاعر بابلو نيرودا من شيلى، والشاعر أوكتافيو باث من المكسيك، والروائى جبرييل جرسيه ماركيث من كولومبيا، مع أن وجودها دول مستقلة لا يتجاوز قرنين من الزمان، وواقعها الاجتماعى شديد التعقيد، فقد محا الغزو الأوربى حضارتها الأصلية، وأفنى أغلب سكانها، ولم يبق منهم غير قلة لاذوا بالجبال، أو وقعوا رقيقا فى أيدى الغزاة، وكان هؤلاء ومن تلاهم ، فى جملتهم ، من



جرسبه ماركيث فى الثانية من عمره

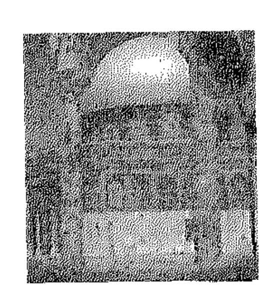


مع فيدل كاسترو - كوبا ١٩٧٨

اللصوص والقتلة وقطاع الطرق، والمحكوم عليهم بالإعدام، والهاربين من العدالة، والمغامرين. وقد استباح هؤلاء جميعا الهنديات ، وهن جميلات بالفطرة، فأولدوهن أجيالا من أطفال غير شرعيين لا يعرفون لهم أبا .

ومع الغزو بدأت السفن تحمل الى أمريكا ملايين الأفارقة ، اصطادهم الأوربيون من غاباتها، وساقوهم رقيقا الى العالم الجديد يعملون فى مزارع القصب، وتجفيف المستنقعات، وبناء المدن، وعبر الرحلة ابتلع المحيط الهادئ ألوفا منهم، وألوفا أخرى أكلتهم أمراض المناطق الحارة، ومن بقايا الهنود والأفارقة والهجناء يتكون المجتمع فى أمريكا اللاتينية، ولو أن النسبة تختلف من بلد الى آخر، فالعنصر الهندى هو الغالب فى المكسيك وبوليفيا ، والأفريقى فى هايتى وجمايكا، ويقتربان عددا فى كوبا والدومينكان، ويغلب العنصر الأوربى فى أورجواى، ويمثل قوة ملحوظة فى الارجنتين.

جاء الأوربيون بلغتهم وعقيدتهم وفرضوها قسرا، وعاشوا على قمة الهرم سادة لايختلطون بأحد، وأغلبهم من الأسبان ، يحملون الخصائص الإسبانية التى تتمثل فى حب الأدب والاستمتاع بالحياة، والميل الى الفوضى والاستبداد، فكان الشعب يستمد غذاءه الثقافى شفاها، حكايات يرويها الجد، أو الجدة، للأحفاد، وكانت فى معظمها آفريقية ، عمادها الحديث عن السحر والشياطين والجن والخوارق، وخرافات الغابة ممثلة فى حيوانات غريبة ، ومخلوقات غير معهودة، وقوى غير طبيعية لا يعرفون سرها، أما الهنود فقد اجتث الغزاة



معظمهم ، فلم يبق لهم من تراثهم الشفوى الا النادر من الحكايات .

هكذا كان أدب الشعب، اما السادة ومنهم الحكام والقواد والإقطاعيون فيتمتعون بثقافة مصقولة، تتفاوت حسب الوطن الأوربى الذى قدموا منه، والمنطقة التى عاشوا فيها، ويغلب عليهم نظم الشعر، فهو عماد الثقافة الرفيعة ، وشهرت أمريكا اللاتينية بأنها تختار سفراءها من بين كبار أدبائها ، وهم بداهة من الطبقة العليا، ومع ذلك فكل دولة لها خصائصها المميزة فى نطاق هذا الاطار العام، وتعنينا هنا كولومبيا بخاصة.

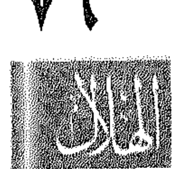
أول ما يلحظه المرء فى كولومبيا، وعشت فيها عامين، ثرواتها الطبيعية الهائلة، غابات شاسعة، وأشجار فواكه تنمو عفويا مع الأمطار، وثروة حيوانية وفيرة، ومزارع بن يسقى بماء المطر، دون حاجة الى تسميد أو رعاية، ويمثل المحصول الرئيسى، ولكن الدولة تفتقد الطرق الممهدة تماما، وافتقاد الأمن كلية جعلهم يفكرون فى الطائرات تربط بين المدن، لأنها بمنأى عن هجوم الساخطين.

يملك مزارع البن فى مساحات شاسعات للغاية، الاقطاعيون الذين جاءوا مع الغزو، وعددهم لا يتجاوز خمسين أسرة يملكون معظم أراضى الدولة، ويديرون مزارعهم بطريقة بدائية لما تتقدم كثيرا عما كانت عليه منذ مائة عام. أما الأجانب الوافدون حديثا من غرب أوربا أو الولايات المتحدة فيملكون المصانع والمتاجر والمصارف، ويكونون جاليات تعيش فى أحياء مستقلة، لهم نواديهم ومدارسهم ومطاعمهم . ومطاراتهم الخاصة، يرحلون ويعودون متى يشاءون دون صعاب أو عقبات. ولا توجد طبقة وسطى .

بقية الشعب التى أومأت اليها من قبل تعيش فى الحضيض، لا تفيق من السكر، تعب طوال الليل نوعا من الخمر الرخيص : «الماء الملتهب AGUA ARDENTE» أو الجعة بكميات كبيرة، وتظل فى الحانات حتى الفجر، ولا بأس أن تقضى طرفا من الليل فى أحضان عاهرة، وهن أكثر من الذباب، والأطفال يملأون الشوارع ليس لهم بيوت ولا آباء، ومن العادى أن تجد امرأة تتحرك فى الشارع وحولها أربعة أطفال، وخامس فى بطنها، دون أن يكون لها زوج، ولا تجد فى ذلك حرجا.

تعلق الحكام والطبقة المسيطرة فى كولومبيا باللفظ الأول فقط من شعار الثورة الفرنسية : «حرية» ، فلا قيد على شىء فيها، تكون متدنيا أو ملحدا أو شيوعيا، كن كما تشاء، والكتب والمجلات الشيوعية الى جانب الانجيل والمجلات الماجنة والخليعة والصور العارية، تجد ذلك كله عند باعة الصحف مبسوطا فى الشارع أو الاكشاك أو المكتبات وأمام الكنائس.

وتستطيع أن تؤلف حزبا يدعو إلى أية فكرة أو مبدأ أو مذهب، ولكن الإقطاعيين والرأسماليين أذكى من أن يتركوا أى حركة تهدد مصالحهم، فإذا برز زعيم ثورى والتفت حوله الجماهير، ورأوه خطرا عليهم، فإن رصاصة واحدة من أجيير





ماركيث مع بابلو نيرودا – ١٩٧٣

تستطيع أن تضع لحياته وخطره حدا. هكذا فعلوا مع الزعيم اليسارى خورخى اليثار جيتان، حين عبأ الجماهير حوله، وجعل شعاره :

إذا تقدمت فاتبعونى

واذا تقهقرت فادفعونى

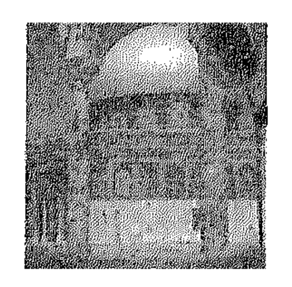
واذا خنتكم فاقتلونى

لم يخن، ومع ذلك فإن رصاصة من أجير وضعت لحياته حدا فى ٩ أبريل ١٩٤٨ ، وثأرا له تدفقت الجماهير الغاضبة على بوجوتا العاصمة تحمل السلاح الابيض والسكاكين والديناميت والبنزين، يدفعها الغضب الأعمى، تقتل كل من تلقى من الجنود والموظفين، وأسلمت المبانى للنيران وأتت على كل مافى المدينة، وقتل فى يوم ألف ومائتا مواطن!

على أية حال، القتل بالرصاص أو السكين شيء عادى، يتقدم منك مخمور ويسألك شيئا، فاذا اعتذرت له بأنك لا تملك، أسكن سكينة فى بطنك واستلها ومضى: مادمت لا تملك فما الذى اخرجك من منزلك؟ .

القتل سهل، والعقوبة عليه بسيطة، لأن الدولة فيما يقول حكامها كاثوليكية بحكم الدستور، والمسيحية ترفض القسوة، ولذلك ألغوا عقوبة الإعدام!، وهذا البلد الذى لا يعرف عقوبة الإعدام يعيش فى ثورات متصلة منذ مائة عام، فى البدء كانت بين الحزبين الرئيسيين اللذين يتنافسان على الحكم : المحافظون والليبراليون ، وحين اتفق هؤلاء فيما بينهم على اقتسام السلطة، كل حزب يتولى رئاسة الجمهورية فترة مدة أربع سنوات، تفجرت الثورة فى الريف ضد الإقطاع والحكومة، وهى تقاتل من نصف قرن، وتزداد كل يوم ضراوة، دون أن تستطيع أية حكومة اخمادها او تحجيم خطرها، رغم كل العون الذى تقدمه لها الولايات المتحدة الأمريكية .

كان الشعر وسيلة التعبير فى كولومبيا بين الطبقة الارستقراطية حين كانت هذه تحكم دون منازع، ولكن هذا الشعر عجز الآن عن تصوير هذا الواقع المعقد، يضطرب بثورات وصراعات لا تهدأ، ويحتاج لتصويره الى روائى اكثر مما يحتاج الى شاعر ، ومنذ بداية الخمسينات



من القــرن الماضى تمكنت الرواية الأمريكية اللاتينية ان تقف على أرض صلبة ، متغلغلة فى روح الشعب، بحثا عن قيم أصيلة ضاربة فى جذور الواقع الاجتماعى والسياسى، وحظيت هذه الرواية بنجاح منقطع النظير فى كل أنحاء العالم الثالث لأنها تعكس المرارة والآلام التى تعيشها شعوب ذلك العالم، وتطحنه مشكلات تكاد تتشابه مع مشكلات العالم الثالث نفسه. لقد فضحوا هذا الواقع المتخلف ، وتميزوا بالجرأة فى استخدام لغة روائية جديدة، تختلف كثيرا عن مثيلاتها فى الرواية الأوربية والأمريكية، وفى هذا الطريق، وسط هذه الكوكبة، برز جبرييل جرسيه ماركيث، بأسلوبه الرشيق ولغته الجديدة.

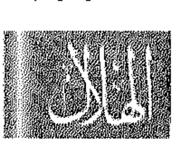
ولد ماركيث عام ١٩٢٨ لقبيلة هندية قوية ، لم يستطع الغزو الإسبانى أن يمحوها كما محا غيرها، وكان أبوه موظفا فى مكتب البرق ، وقد وكلته أمه الى أبيها وأمها ليربياه، فشب متعلقا بهما ، وكان جده يحمل لقب الكولونيل لأنه اشترك فى شبابه فى الحرب الأهلية التى خاضها الحزب الليبرالى، ويؤمن بحرية الرأى، ضد حزب المحافظين الذى تؤيده الكنيسة والجيش والإقطاعيون .

كانت القرية، فى شمال كولومبيا، مركزا لزراعة الموز، وذلك يعنى مواطنين فقراء، وشركات أمريكية ضخمة، تستغلهم بلا هوادة، وتمتص دماءهم دون رحمة، وقدم لنا جبرييل فى رواياته المختلفة وصفا رائعا مفصلا لها ، مناخا وسكانا ، تعاسة وأساطير وطابع حياة.

كان جده يمتلك بيتا واسعا ضخما ، وتدفن الأسرة موتاها فى جانب منه ، وتستخدم الموتى وسيلة لإرهاب الأطفال وتخويفهم كى يناموا أو يصمتوا، ويحكى ماركيث عن جده أنه يتمتع بفحولة نادرة، أنجب ستة عشر طفلا بصورة شرعية، وبذر آخرين كثيرين غير شرعيين الله وحده يعلم كم عددهم .

فى القرية أمضى مرحلة التعليم الابتدائى، وتلقى على جده وجدته الكثير من الحكايات والأساطير ، ثم انتقل الى العاصمة، بوجوتا ليدرس المرحلة الثانوية، وبعدها دخل كلية الحقوق فى جامعة أهلية، ووجدها تفتقد الأساتذة العظام، والحياة الجامعية، وتصطخب بتيارات سياسية متعددة أوضحها التيار الشيوعى. وكعادة معظم المبدعين لم يكن متميزا فى دراسته الجامعية، واستحوذ الشعر على اهتمامه ، ترك شعراء المنتخبات المدرسية، وكان رأيه فيهم سيئا ، وبحث عن الأجيال الجديدة: روبين داريو رأس الحداثة الإسبانية، وخوان رامون خمينيث شاعر اسبانيا الكبير، الحائز على جائزة نوبل فى الشعر، وبابلو نيرودا ، فاستحوذوا على اهتمامه، وشغلوه عن دراسة القانون .

وكان كافكا فى روايته «المسخ» هو الذى شده الى عالم الرواية، وفى اليوم التالى لقراءتها كتب أول قصة قصيرة، ونسى القانون ودراسته، وبدأ حياة الصعلكة، أطلق لحيته، وأخذ يجوب شوارع المدينة مرتديا ملابس رثة، ويتسكع بين المقاهى والحانات الرخيصة، متأبطا كتابا، وينام فى أى مكان، ويقرأ: ديستويفسكى وتولستوى وديكنز : وكتاب القرن التاسع عشر الفرنسيين: فلوبير وستندال وبلزاك وزولا ، وسرعان ما أدرك



أنهم يكتبون لعالم غير عالمه، وأنه فى حاجة الا يقلد أحدا .

الصحافة فى كولومبيا غير مركزية، فلكل محافظة صحفها الصباحية والمسائية ومجلاتها أحيانا، وهى مفتوحة لكل المواهب، خاصة الشادين منهم وعلى صفحاتها بدأ يمارس هواية الكتابة، قصصا أحيانا ومقالات أحيانا أخرى .

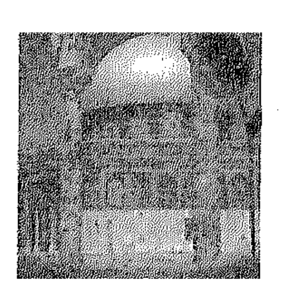
عندما بلغ العشرين من عمره عاد إلى قرطاجنة على ساحل الكاريبى، وفيها عمل محررا فى صحيفة يونيفرسال، فأتاحت له أن يكتب القصة، وأن يردد على حانات الأدباء التى تطل على المرفأ، يحتسون «الروم» ، ويتابعون السفن التى تقلع فى طريقها الى بعض جزر الكاريبى، تحمل المخدرات والمهربين والعاهرات. وفى الحانة فتح محام من اصدقائه عقله على جوانب من الثقافة اليونانية وسوفوكليس بخاصة، وعلى فيلسوف الوجودية كيركجو، وبعدهم تعرف الى الكتاب الانجلو ساكسون فى القرن العشرين خاصة. جويس وفرجينيا وولف ووليام فوكنر .

ومالبث أن انتقل الى برانكيا، مدينة أخرى ، تطل على ساحل الكاريبى أيضا مدينة صناعية كبرى، يلفها الغبار والحرارة، وتفتقد سحر قرطاجنة، وتزدحم بجنسيات لا تحصى: فرنسيون هاربون، وطيارون ألمان هزموا فى الحرب العالمية الأولى، ويهود فارون من أوربا ومهاجرون من جنوب ايطاليا، وسوريون وأردنيون ولبنانيون، لا يعرف أحد كيف وصلوا إلى هذه المدينة، وهى ترحب بهم جميعا، والكتاب والفنانون فيها منبوذون من النظام الاجتماعى، ومع ذلك فإن نشاط الأدباء فيها أكثر حيوية من العاصمة بوجوتا، فكونوا حلقة أدبية ذات تقاليد واضحة فى النقد والإبداع تعرف بجماعة برانكيا.

كانوا يقضون الليل بأكمله يشربون ويناقشون قضايا الأدب فى تلك المواخير الأسطورية تزدحم بطيور الزينة والنباتات والفتيات الصغيرات يؤجرن أجسامهن بسبب الفقر. ويحدث أن تناقش المجموعة فى الليلة الواحدة عشرة كتب ، ولأن ماركيث لم يكن قرأها فهو يستعيرها، وكان من بين أعضاء المجموعة موظف فى مكتبة كبيرة لبيع الكتب، ما إن تظل واردات الكتب من دور النشر الشهيرة فى المكسيك والأرجنتين حتى يحمل اليهم عناوينها لاختيار مايقرأون منها.

كان على رأس المجموعة رامون فينيس ، أديب قطلونى من اسبانيا ، نفى نفسه الى فرنسا حين سقطت الجمهورية واستولى الفاشيون على السلطة، ثم هرب من فرنسا بعد أن استولى النازيون عليها، وجاء الى برانكيا، وقد ادخل المنهجية والنظام على هذه القراءات ، وكانت قبل تتسم بالفوضى، جعلهم ينقبون فى روايات فوكنر المغرمين بها ، أو يهيمون فى عالم جويس، ولكنه من حين لآخر يدعوهم الى التريث ويذكر بهومير صاحب الإلياذة . وقد رد له ماركيث الجميل، فذكره فى «مائة عام من من العزلة» ، ووصفه «الرجل القطلونى العجوز الحكيم الذى يعود ليموت فى برشلونه مسقط رأسه، وهو مصاب بالحنين» ويتقاضى ثلاثة بيزو عن كل عمود يكتبه، وأحيانا ثلاثة أخرى عن كتابة الافتتاحية، ومرات كثيرة لم يكن يملك دفع الأجرة، فكان يرهن مخطوطة احدى رواياته.

عانى ماركيث وهو فى طريقه لإثبات



ذاته ألوانا من البؤس، فى برانكيا كان ينزل فى فندق من تلك الفنادق التى تؤجر بالساعة، وكان يعمل فى جريدة الهيرالدو التى تصدر فى المدينة،

وحين عمل فى جريدة الاسبكتادور التى تصدر فى بوجوتا، ولحظت أنه فى اليوم الذى يكتب فيه ملحمته «حكاية بحار غريق» تنفد فور صدورها، فأوفدته إلى أوربا مراسلا لها، وكان يومها كاتبا غير معروف، حتى أن صاحبة الفندق الذى نزل فيه اعتبرته صحفيا من الدرجة السابعة..

وهو فى باريس أغلق دكتاتور كولومبيا الصحيفة ، وكان ذلك يعنى توقف راتبه، وبعد شهر لم يستطع سداد فاتورة الفندق، ومع هذا التوقف لم يعد يرى باريس كما كان يراها من قبل، مدينة العشاق من الشباب، يمشون فى الشوارع متلاصقين ويتبادلون القبل والعناق فى المترو، وإنما عادت أنانية قاسية باردة، وأصبح فيها الوصول إلى وجبة ساخنة، ومكانا دافئا معجزة لا يجرؤ على توقعها.

نعم، لقد عانى البؤس من قبل فى برانكيا، ولكن الأمر نسبى، فتلك مدينته، له فيها أصدقاء فى كل مكان، واعتاد محافظ المدينة أن يرسل إليه سيارته فى الفندق، مما كان يكسبه الاحترام بين موظفى الفندق والعاهرات.

إن الحياة فى عالم منطقة الكاريبى مفعمة بالإنسانية مهما كان الأمر، وشعارها طعام الاثنين يكفى ثلاثة .

أما باريس فعلى النقيض، مدينة رائعة، عامرة بالفنون والآداب والمتع الراقية من كل جنس ولون، ولكنها قاسية القلب على الفقراء .. أدرك ذلك جرسيه حين اضطر إلى الاستجداء فى المترو، لكن الرجل الذى وضع فى يده قطعة نقود كان ضائقا بالأمر، حتى أنه لم يرد أن السمع منه توضيحا.

أن أى مدينة يعيش فيها المرء تطبع فى أعماقه صورة مسيطرة لا تمحى ، وكانت صورة باريس التى احتفظ بها حزينة، مجرد إنسان من العالم الثالث، يستطيع أن يدفع بعض الأذى حين يملك مالا، أما حين يكون مفلسا ، فإن إنسانيته تنتهك، وأحزانه «تتطافح»، وذات ليلة لم يجد مكانا ينام فيه، فقضاها فى غفوات متقطعة فوق المقاعد التى فى الشوارع، ويحاول أن يستدفيء بالدخان الذى ينبعث من جهة حواجز المترو الحديدية، ويحاول أن يراوغ الشرطة التى كانت تلاحقه ظنا منها أنه جزائرى، فجأة فى الفجر، خيل إلىّ أن مياه نهر السين توقفت عن الجريان، وتلاشت رائحة قرنبيط مسلوق كانت تملأ الجو، وللحظة كنت الحى الوحيد وسط ضباب مضىء، فى يوم من فصل الخريف بمدينة خالية، وكنت لحظتها أعبر جسر «بوان سان ميشيل» فسمعت وقع اقدام رجل، رأيت وسط الضباب سترة داكنة، يدين فى الجيوب، شعرا مسرحاً بعناية، وفيما نحن نعبر الجسر، شاهدت وجهه ناتيء العظام، وفى لحظة تقارب الثانية، كان يبكى..

أين موقع ماركيث من الاتجاهات السياسية؟

لنبدأ الحكاية من أولها.

كانت المدرسة الثانوية التى تعلم فيها تضم عددا من المدرسين الذين تلقوا



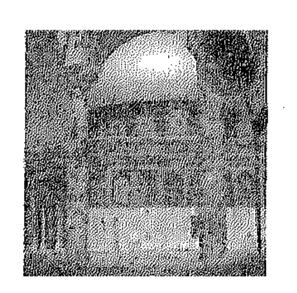
مع الكاتب التشيكى ميلان كونديرا (إلى اليسار) والفرنسى ريجيس دوبريه (فى الوسط) - باريس ١٩٨٠

المبادىء اليسارية في كلية المعلمين، فى ظل الحكومة اليسارية فى ثلاثينيات القرن الماضى. مدرس الجبر يعطيهم دروسا فى المادية التاريخية فى وقت الراحة بين الحصص، ومدرس الكيمياء يعيرهم كتب لينين، ومدرس التاريخ يقص عليهم تاريخ الصراع الطبقى، وعندما ترك المدرسة كانت تسيطر على عقله فكرتان جوهريتان: الرواية الجديدة يجب أن تكون نقلا شعريا للواقع، والأخرى أن مستقبل البشرية يكمن فى الاشتراكية.

وقد انتمى لإحدى الخلايا الشيوعية فترة وهو فى العشرين من عمره، ولكنه كان متعاطفا أكثر منه مناضلا، وظلت علاقاته بالشيوعيين مذبذبة، يشوبها الخلاف فى أحايين كثيرة، وفى كل مرة كان يتخذ فيها موقفا لا يعجبهم تحمل صحفهم، عليه، لكنه لم يدينوه علنا، حتى فى أحلك اللحظات.

وقد أثرت زيارته لألمانيا الشرقية عام ١٩٥٧ وفى أفكاره السياسية بشكل حاسم، وسجل انطباعاته عن الرحلة فى سلسلة من المقالات نشرتها احدى المجلات فى بوجوتا، وبعد عشرين عاما أعيد نشرها، لا لأنها ذات أهمية صحفية او سياسية ، ولكن لإظهار تناقضاته المفترضة فى تطوره السياسى، واتهمه العقائديون فى ذلك الوقت بأن الولايات المتحدة الأمريكية دفعت ثمنها، ولكن التاريخ أثبت صحة ما قاله فيها.

هو فى هذا الجانب غير واضح تماما، فهو يسارى لا ينكر هذا ولا يخفيه، وإعجابه بزعيم كوبا وبالدور التحريرى الذى اضطلع به فى وطنه، والمثل الذى



أعطاه لكل المناضلين فى أمـريكا، شمالها وجنوبها، لا ينكر، وجعل منه صديقا ونصيرا لكاسترو، ومع ذلك لم يكن معجبا بالحكومة السوفيتية ولا البيروقراطيين الذين كانوا يحكمون العالم الشيوعى ويرى أن الديمقراطيات الشعبية التى عرفتها أوربا ثم تهاون فيما بعد لم تكن اشتراكيتها أصيلة وإنما سارت فى طريق لا يعتـرف بالظروف الخاصة السائدة فى كل بلد، وإنما هو نظام فرضته من الخارج القوة المسيطرة، وهو الاتحاد السوفييتي ، من خلال أحزاب شيوعية حرفية، لا تملك موهبة الخيال، ويتركز تفكيرها الوحيد فى تطبيق النموذج السوفييتى فى مجتمع لا يناسبه هذا النموذج، وهو رأى فيه الكثير من الحق لأن الأحزاب التى راعت حال شعوبها لم تسقط بسقوط الاتحاد السوفييتى، ولدينا المثل قويا فى كوبا والصين وفيتنام الشمالية - فى عالم البدائل يرى طريقين يكرههما اليمين الرجعى العسكرى الموالى للولايات المتحدة، واليسار المتشدد الموالى للسوفييت - فيما سبق طبعا - ويؤثر عليهما الخيار الديمقراطى الشعبى، الذى اختاره سلفاتور أليندى فى شيلى، وهو اتجاه تراه الامبريالية الامريكية أخطر من الاثنين، فقضوا عليه عن طريق خيانة اليمين العسكرى الرجعى.. وربما لهذا السبب فإن الولايات المتحدة تكره ماركيث بشدة، وتراه عميلا خطيرا لكاسترو.

ماركيث كاتب متأن، يجود عمله، استغرق تأليف «خريف البطريرك» سبعة عشر عاماً، وأسقط معالجتين لها قبل أن يبدأ فى المعالجة الصحيحة، وأعاد كتابة رواية «العقيد لا يجد من يكاتبه» تسع مرات، وأمضى خمسة عشر عاما يفكر فى رواية «مائة عام من العزلة».. وفى كل رواياته أراد أن يصور الواقع فى وطنه، ولكن أى واقع؟ واقع الخرافات والألغاز والأساطير التى تموج بها بيئته، والتى حدثته بها جدته، وأعطته لعمله المفاتيح الأولى، وكانت تشكل بطريقة طبيعية حياته اليومية، وظلت تسيطر على ذهنه دواما، لم يكن يخترع، وإنما كان يمسك ببساطة بأطراف عالم ملىء بالهواجس والخرافات التى تشكل فى النهاية عالم أمريكا اللاتينية الحقيقى مثل: الديدان تخرج من آذان الأبقار بتلاوة الصلوات ، الأنهار ذات المياه التى تغلى، العواصف التى تجعل الأرض ترتعد، الأعاصير التى تجرف فى طريقها بلدانا بأكملها.

أراد أن يعبر فى لغة أدبية بكل التجارب التى تأثر بها على نحو ما، يعيش فى بيت حزين واسع للغاية ، مع أخت أكلت التراب، وجدة تتنبأ بالمستقبل ، وعدد لا يحصى من الأقارب يحملون اللقب ذاته، ولا يفرقون كثيرا بين السعادة والجنون، يقول ماركيث نفسه، ملقيا الضوء على هذا الواقع.

فى أمريكا اللاتينية يعلموننا أننا إسبان، وهذا صحيح جزئيا بطبيعة الحال، فللأسبان تأثير قوى فى ثقافتنا لا يمكن إنكاره، لكننى اكتشفت خلال رحلتى لأنجولا أننا أفريقيون أيضا، أو بالأحرى نحن مزيج عرقى، إن أجناسا عديدة ومختلفة ساهمت فى إثراء ثقافتنا ، ولم أكن أدرك ذلك أبدا من قبل.

إن خيال العبيد الأفارقة الملىء



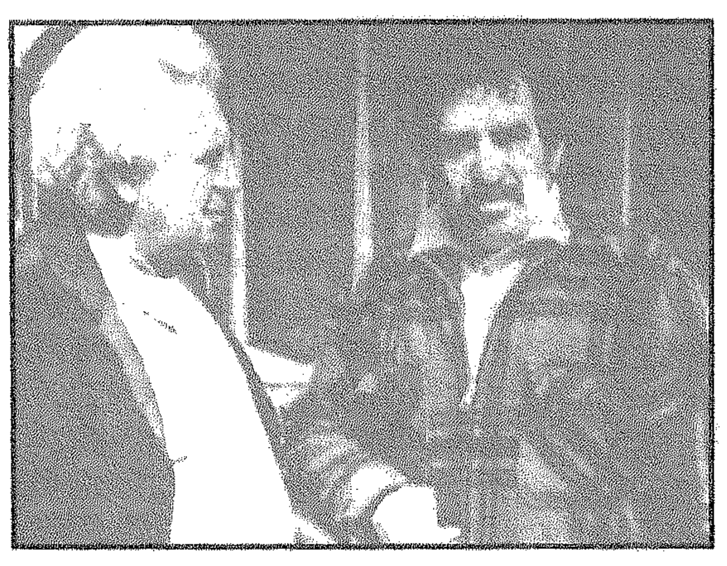
بالحيوية، مختلطا بخيال السكان الأصليين قبل الغزو الاسبانى، ومذاق التخيل الأندلسى، وعيادة الاسنان الجليقيين للطبيعة، كل ذلك آدى إلى خلق قدرة ترى الواقع بطريقة سحرية خاصة.

ومن ثم فهو يرى الواقع بطريقة مختلفة، ويتقبل القوى الخارقة للطبيعة على جزء فى حياتهم اليومية، إن كولومبوس يحكى فى يومياته عن نباتات خرافية، ومجتمعات خيالية، وتاريخ المناطق الآهلة بالآفارقة ملىء بالسحر الذى جلبه العبيد معهم من آفريقيا، وجلبه آيضا القراصنة السويديون والهولنديون والانجليز ، ولا تجد مكانا فى العالم فيه هذا المزج العرقى وتلك التناقضات كالتى تجدها فى منطقة الكاريبى، والتى يعد شمال كولومبيا جزءاً منها، وآعتقد أن الاشياء الخارقة للعادة جاءت من تراثنا الأفريقى.

وعندما زار أنجولا عام ١٩٧٨ توقع قبل آن يهبطها أن يجد عالما غريبا غير مألوف لديه ولكنه لحظ منذ اللحظة التى وطئت فيها قدماه افريقيا، وتنفس هواءها، أنه كما لو كان قد عاد إلى عالم طفولته.. لقد اكتشفت فى آنجولا طفولته من جديد.. العادات وكل الأشياء التى كان نسيها، حتى الكوابيس التى كان يحلم بها، بدأت تعاوده مرة أخرى.

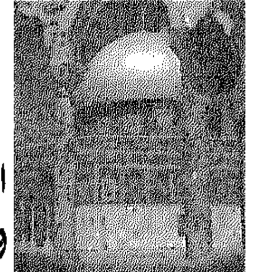
اتكأ ماركيث كثيرا على هذا الواقع، وذهب به إلى أبعد مما يتحمله العقل، ولهذا هاجمه العقلانيون والشيوعيون والعلميون والمناطقة، وأطلقوا على واقعيته هذه تشنيعا عليها: الواقعية السحرية، وهو مصطلح يردده كثيرا هواة النقد عندنا فى هذه الأيام، دون أن يعرفوا ما يراد به ومنه وما وراءه.

كلمات لجرسيه ماركيث:



مع الكاتب البرزيلى جورجى آمادو

- هيمنجواى ليس روائيا عظيما، ولكنه كاتب قصة ممتاز.
- لا آرى الإلهام منة آو هبة من السماء، إنه اللحظة التى تتوحد فيها مع الموضوع من خلال التشبث به والسيطرة عليه.
- عندما أنتهى من كتابة رواية افقد الاهتمام بها إلى الأبد.
- الرواية نقل شعرى للواقع.
- الكتب التى أحبها ليست بالضرورة التى آعتقد أنها الأفضل.
- نيرودا أعظم شاعر فى القرن العشرين فى أى لغة من لغات العالم.
- السلطة هى البديل للحب.
- هبطت الشهرة على دون أن أدعوها أو أرغب فيها.
- إننى أعرفها الآن معرفة تامة، لدرجة أنه ليس لدى آدنى فكرة عنها.
- أرغب فى أن يصبح العالم اشتراكيا، وأعتقد أن هذا سوف يحدث عاجلاً أم آجلا.
- أمريكا اللاتينية تتوقع من الرواية ما هو أكثر من مجرد تعرية واقع الظلم والقمع الذى يعرفه الجميع معرفة تامة. ■



المثقفون
وضمير العالم

جزء خاص

سوينكا..

ثقافة المقاومة وثقافة التواطؤ

بقلم
ابرهيم فتحى

معظم المثقفين المصريين شبابهم وشيوخهم يرفع الصوت عاليا ويتحرك فى الجامعة والشارع والنقابة مهما كلفه ذلك من تضحيات . ويكتب المفكرون تحليلات موضوعية كاشفة عن حقيقة الوضع فى المنطقة العربية وفى مصر . وهم لا يقفون عند ما يحدث فى فلسطين المحتلة باعتباره أحداث عنف مؤسفة يتعين إيقافها فورا ليجلس الطرفان على مائدة المفاوضات برعاية الإدارة الأمريكية التى تحمل مفاتيح السلام . فالمفكرون الوطنيون يقدمون للشعب المصرى رؤية علمية لحقيقة أوضاع الاقتصاد العالمى والسياسة الأمريكية ومصالحها وتحركاتها العسكرية فى المنطقة العربية و«نضال» أمريكا وإسرائيل الدائم دون توقف ضد الشعوب العربية .

تضامن المثقفون المصريون مع كتاب عالميين وقفوا مع المقاومة الفلسطينية ضد الإبادة الصهيونية المؤيدة من السياسة الأمريكية فى المنطقة

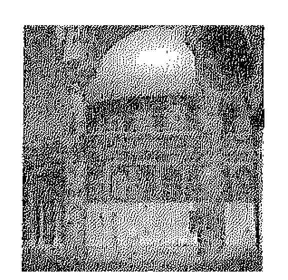
ولنأخذ وول سونيكا الحائز على جائزة نوبل ١٩٨٦ . وهو كاتب نيجيرى من أفريقيا ، التى كانت معظم بلادها - باستثناء دولة التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا - لا تقيم علاقات مع اسرائيل قبل اتفاقيات كامب ديفيد الأولى

ويقول النقاد. إنه. مثل المثقف العربى الوطنى . يرفض الصورة الزائفة لبلاده التى يقدمها الاستعمار ، فنيجيريا مثل فلسطين ليس لها تاريخ ولا ماض حضارى ، والإنسان الأبيض (أو الصهيونى) هو الذى حمل النور والتقدم إلى البقعة السوداء . والمثقف عنده ، وهو نفسه ، عين الجماعة وأذنها ومعرفتها الخاصة وضميرها . فهو الذى يمحو تعمية الناس بالميديا العالمية والصور الزائفة . ووطنيته تتطلب ما هو أكبر من تمجيد الماضى والهجوم على الاستعمار فى صورته القديمة فذلك كان مطلوبا ويظل مطلوبا فى مواجهة النفى الاستعمارى للماضى ونضالاته وإنجازاته

أما الآن فالكاتب مطالب بالموقف النقدى من الواقع الأفريقى ومن سلطات الهيمنة فى العالم وخدمها وبوليسها الفكرى فى الداخل . ولكنه فى مقالاته يرفض وضع كل اللوم على الضغوط الخارجية (دون أن ينكر دورها) ، فهذا

وول سوينكا

موقف تبسيطى اتخذته نخب ما بعد الاستقلال الحاكمة لتبرير تجاوزاتها ويطالب بنقد الذات . وفى مسرحيته «رقصة من الغابات» مثلتها فرقته فى احتفال الاستقلال عام ١٩٦٠ ، تحذير واضح للحكام الجدد من الأخطار المحدقة فى الداخل والحاضر . وهى تربط الماضى بالحضار وتقدم نقدا حادا للسلطة المطلقة التى أفسدت الماضى والحاضر . والفعل المسرحى يتحرك بين بلاط حاكم تقليدى قديم ودولة ما بعد الاستعمار الحديثة المحتفل بها . وفى استخدامه للتراث فى المسرحية يبرز خطر استدعاء التراث «المجيد» لتبرير حاضر ردئ ، ولكنه يستخدمه باعتباره عنصرا حيويا لإدراك الذات التى كادت تطمس عند دعاة تسليم الأمر للخارج المتقدم ومحاكاته محاكاة القردة . ولن يبزغ المستقبل إذا استخدمنا التراث لتأكيد سيطرة جماعة ما بل حينما نرى من الماضى الجانب الذى يصلح جزءاً فعالا من تنمية الحاضر وفى مسرحية



حصاد «كونجى» يوضح كيف جندت أنظمة معينة التراث والأسطورة لخدمة أهدافها الحالية وفى رواية Searon & Anomy ينزع الوهم عن صورة الصفقة الجديدة ، الواجهة المحلية «لتحديث» تفرضه الرأسمالية الكوكبية ، ويشير إلى الحاجة إلى طبقة وسطى مستقلة تشق طريقا جديدا ولا تؤثث أعشاشها على عرى أغلبية الناس ، وفى «الموت وفارس الملك» يبرز العلاقة بين التقاليد والتغير ، الجذور والنمو وفى رواية «المفسرين» يصور مجموعة من المتعلمين فى الخارج واجتماعهم لتفسير معنى الأمة الجديدة وأدوارهم فيها ، ويقعون بين فساد القوى المسيطرة وتكوينهم المنعزل عن أغلبية الناس ، هل يقعون فى شباك النزعة الكلبية أو الأغواءات الاقتصادية ؟ . إن الكاتب يعارض الطرزانية الجديدة والحرب الأهلية والدكتاتورية العسكرية للجنرال أباشا وخلفائه ويتجه إلى المنفى ، وتنتهى «المفسرون» بالقارئ موضوعا على حافة هاوية وليس له إلا خيار الغرق ، وأثناء الحرب الأهلية أسكت صوته النقدى بالاعتقال سنتين دون تهم محددة قضى معظمها فى الحبس الانفرادى وقد كتب يوميات محنته فى «الرجل مات» التى تجمع الإدانة المباشرة مع ملاحظة متفحصة للذات وقد قوبلت بالعداء الشديد. وانتقل بعدها إلى الخارج سنوات عدة محاصرا جوالا .

وفى محاولاته البحث عن أصالة قومية بدلا من التاريخ الاستعمارى لاستعادة الأرض ومعها أضرحة أبطال وأساطير وعقائد لم يقف عند «عراقة» محلية متحررة من تغير الزمان ، فقد روض «الزنوجة» ، رفض فكرة ماهية جوهرية نقية للافريقيين قبل الاستعمار (مثلما يرفض امثاله فى العالم العربى ماهية جوهرية أصلية فى تفسيرهم للإسلام) فقد فرض الاستعمار قبول ذيوله الفكرية حتى بعد رحيله : التفرقة العنصرية الدينية الفكرية ، إغفال العلاقات الاجتماعية التاريخية والقول بميتافيزيقا الماهيات : السود كسالى متخلفون حسيون شهوانيون لا يجيدون إلا ايقاعات الرقص ، يفتقرون إلى القدرات التحليلية (العرب ارهابيون ، لا يفهمون إلا لغة القوة يؤمنون بعقيدة خرافية عدوانية ، يخضعون كالقطيع للحكام الديكتاتوريين) أما البيض (والصهاينة) فهم عقلانيون يحترمون المرأة وديموقراطيون . وعلى حركات المقاومة أن ترفض العنصرية المضادة حتى لا تقع فى أسر الفكر الاستعمارى والمركزية الأوروبية (الامريكية) .. لقد واصلت أعماله تصوير دور المثقفين والمبدعين الخاص من زاوية نقدية ترفض النرجسية ولا ترى لهم قيمة إلا فى قدرتهم على الرؤية والكشف والمقاومة من منظور شعوبهم . وقد ظل يتحدى انعدام الإنسانية فى خامدى الفكر والشعور حيثما وجدهم فى المسيطرين على قمم المؤسسات القامعة فى العالم ومثقفيهم الذين يقدمون قاموس «الفكر

الجديد» : الديمقراطية هى إلغاء الشعب ، الحرب من جانب قوى الهيمنة هى السلام، ذبح المدنيين بالجملة هو الدفاع عن النفس، الإدارة فى الدولة العظمى تعين الحكام فى كل البلاد الحرة وتعيد صياغة العقائد الدينية حسب احتياجات السوق ، والعقل هو الجنون .

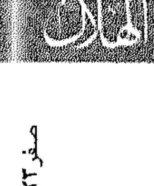
ولكن هناك عددا صغيرا من نخبة النخبة من الذين لهم مصالح وأوضاع تدفعهم إلى السير فى الطريق المعاكس . إنهم يتحدثون عن الشعب باعتباره بطبيعته عاطفيا يغلب المشاعر الساخنة على المنطق العقلي وينجرف وراء الشعارات الطنانة ويدعو إلي الدخول فى حرب دون تحسب للنتائج . ويذهب بعضهم إلى كتابة التاريخ المعاصر ليكشف دور الجماهير الشعبية فى أنها قادت بثوريتها أو باستجابتها للشعارات الثورية البلاد إلى الكوارث العسكرية . وهؤلاء الحكماء العقلانيون يعلنون دائما عن غرامهم «بالديمقراطية» الأمريكية والإسرائيلية ، ولا يفهمونها على أنها حكم الشعب ، بل تقتصر الديمقراطية عندهم على منع الشعب من المشاركة فى اتخاذ القرارات لأنه عاطفى تستهويه الشعارات الحماسية ، ويجب أن يكون صاحب القرار (أو أصحابه من أمثال بوش وشارون وبلير) منتخبا في معركة تليفزيونية تتكلف المليارات وتدفعها الشركات العملاقة التى تنتمى إلى المجمع الصناعى العسكرى فى أمريكا أو مختارا من مؤسسة الجنرالات والحاخامات فى اسرائيل ، أو وجها جديدا يواصل سياسة المحافظين باسم العمال فى انجلترا ويلعب دور مدير العلاقات العامة لبوش . إن الحكماء العقلاء يريدون ديموقراطية تسير فى الاتجاه المعاكس للشعب . ومن ناحية أخرى يقدم الحكماء العقلاء صورة إعلانية ملونة صاخبة الشعارات عن الاقتصاد العالمى ووضعنا فيه . فالرأسمالية العالمية التى حكمت العالم منذ قرون «ناجحة» يجب أن يعلن الجميع توبتهم عن أى محاولة للسير فى طريق مختلف عنها ، وما من كلمة عن حقائق أو إحصائيات «نجاح» الرأسمالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة افقار معظم سكان العالم وتركيز الثروات فى أيدى قلة من البلاد أو الأفراد وإهدار ثمار الانتاجية العالية بتوجهها إلى صناعة أسلحة الدمار الشامل على الرغم من أن ٤٠ مليونا من الأمريكيين بلا تأمين صحى . كم تنفق أمريكا من مليارات الدولارات على السلاح ، وما مدى إسهامها فى تلويث بيئة كوكب الأرض ، وإحاطة بلاد العالم بالقواعد العسكرية جريا وراء الهيمنة وإخضاع المنافسين ؟

وكيف يرى الحكماء العقلاء مروجو الحلم الأمريكي والسلام الاسرائيلى المأزق الحالى ؟ إنهم يزيفون التاريخ تزييفا فاضحا مؤكدين السياسة الاسرائيلية الامريكية باستخدام «الكذبة الكبيرة» على طريق جوبلز إنهم كعادتهم في تشويه الشعب الفلسطينى ينكرون عليه تاريخ سلسلة ثوراته ويبيضون وجه الاستعمار البريطانى (والامريكى بعد ذلك) . وفى الواقع فتح الانتداب البريطانى بعد الحرب

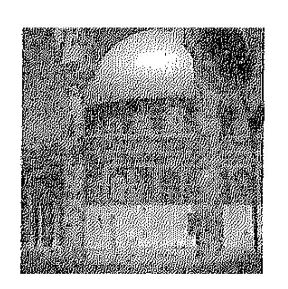
العالمية الأولى الباب واسعا للهجرة اليهودية والاستيطان الصهيونى واحتلال الأرض والعمل . وقد وصل التجمع الاستيطانى اليهودى إلي ما يقارب ٣٠٪ من كل سكان فلسطين وشكل معسكرا مستقلا متعارضا مع واقع الأغلبية العربية يتوسع بمساعدة رؤوس الأموال الأجنبية .، فالوطن القومى اليهودى الذى أسسه الاستعمار البريطانى توسع على انقاض ما تبقى للفلاح العربى من قطعة أرض وللعامل من يوم عمل والتاجر من سوق ضيقة .. إلخ فى عام انتهاء الحرب العالمية الثانية . ومن المعروف أن التناقضات بين الصهاينة والاستعمار البريطانى فى أعقاب تلك الحرب كانت تدور حول تحقيق برنامج الحد الأقصى للصهاينة الذى يستهدف تحويل فلسطين بأكملها إلى وطن قومى يهودى ، وكان البريطانيون يضعون فى اعتبارهم مصالحهم فى بقية العالم العربى ويرفضون تقديم فلسطين بأكملها لليهود الذين بدأت عرى التحالف بينهم وبين الأمريكان تزداد توثقا على حساب مواقع الاستعمار البريطانى (الطريق إلى السلام الهيئة العامة للاستعلامات كتب مترجمة رقم ٧٣٢ ص ٢٩) حقا لقد كانت هناك صدامات مسلحة بين الصهاينة والانجليز يسميها بعضهم حرب استقلال . وكانت العصابات اليهودية الفاشية لتنظيمى أرجون وشتيرن اللذين اتحدا فيما بعد مع الهاجاناة قد بدأت فى إرهاب المواطنين العرب من أجل طردهم خارج الأرض .

وتعتبر مذبحة دير ياسين فى ابريل ١٩٤٨ ذروة أعمال الصهاينة قبل دخول جندى عربى واحد . ويقدر المؤرخون الجدد في اسرائيل أن ٢٥٠٠٠٠ عربى هربوا قبل حرب ١٩٤٨ من مذابح المنظمات الإرهابية اليهودية . ولم تكن حرب ١٩٤٨ من تدبير قادة الشعب الفلسطينى وملوك وحكام العرب بل كانت فى جانب أساسى منها محاولة من جانب الانجليز للمحافظة على مواقعهم فى الشرق الأوسط وللوقوف إلى حد ما فى وجه النفوذ الأمريكى الذى استحوذ على ولاء الصهيونية وعمل على إقامة دولة اسرائيل لتكون موقعا متقدما له لمواجهة الشعوب العربية والحركة الوطنية فيها . ولم يكن الحكام العرب مستقلى الإرادة أيامها فمصر محتلة من جانب الانجليز ولابد أن يمر الجيش المصرى بقاعدة السويس ليسمح له الإنجليز بالعبور وهم المصدر الوحيد لتسليحه ، والجيش الأردنى كان بقيادة الجنرال جلوب الانجليزى والعراقى كذلك . لقد تجاوزت اسرائيل حدود التقسيم وتمزقت الدولة الفلسطينية العربية إربا بين مخالب اسرائيل والحاق ملك الأردن الضفة الغربية ، واحتلال جيش فاروق لغزة . إن سياسة الحكام العرب وكانوا أيامها من عملاء الاستعمار وهى التشدق برفض تقسيم ١٩٤٧ كانت ستارا لترسيخ تقسيم





أشد وطأة يصفى المسألة الفلسطينية بالكامل وغير منقسمة ويحولها إلى مسألة نزاع على الحدود بين اسرائيل وجاراتها . أما أحط الأكاذيب فهى قول الحكماء العقلاء إن الشعوب العربية هى التى أجبرت حكومات العملاء على شن حرب ١٩٤٨ !! . وهؤلاء الحكماء يدعون أن الشعوب العربية التى كانت تحكم بالحديد والنار وتحملت هى كالمعتاد كل بشاعات الحرب ، هى المسؤولة عن اشعالها ، لقد كانت تطالب بحرب عصابات شعبية مستقلة عن الحكومات تناصر الشعب الفلسطينى ضد عصابات الصهيونية فى نضاله المسلح ، ولكن الملوك والحكام العرب أيامها كانوا يحاربون شعوبهم فى المحل الأول . وتجئ قصة التقسيم التى يذكرها المثقفون «العقلاء» على أنها جاءت بعد حرب ١٩٤٨ دون حياء . ويعرف الجميع أن القرار جاء عام ١٩٤٧ . وكان الصهاينة الطرف البادئ بخرق قرار الأمم المتحدة الخاص ، بالتقسيم ، فالقوات المسلحة الصهيونية بدأت تستولى على ما لا يدخل فى حدود الدولة اليهودية ، مذبحة إبريل ١٩٤٨ فى دير ياسين ، لقد ظل الصهاينة يرفضون وضع أى حدود اعتمادا على التوسع المسلح والتهام الأرض قبل حرب فلسطين . لقد انتهت حرب ١٩٤٨ بضم اسرائيل لمجموعة كاملة من الأراضى العربية وطرد حوالى مليون فلسطينى بالسلاح . وما أعجب أن يقال إن قرار التقسيم الذى مزقته إسرائيل بالعدوان المسلح أعطى للعرب نصيبا أكبر مما حظيت به الدولة العبرية (التى لم تكن قد قامت بعد) ويعرف طلبة المدارس الابتدائية أن الدولة العربية الفلسطينية كانت فى قرار التقسيم على مساحة ٤٩٪ من الأرض وأن ٤٩٪ أقل من ٥١٪ ويقول بن جوريون فيما بعد معلقا على ما كان «لقد كان هدف الصهيونيين الحصول على دولة لحظة جلاء القوات البريطانية من فلسطين تقوم الهاجاناه بتوسيعها وتهويدها أى الحصول على دولة بواسطة العمليات العسكرية للقوات المسلحة (الميلاد الجديد ويصير اسرائيل نيويورك ص٢٩٢) . ويواصل العقلاء أنصار «السلام» تشويه الشعب الفلسطيني بالقول بأنه كان يائسا ومتساهلا ومستسلما بدليل أن معظمه ترك الأرض وهاجر !! ، وصمت عن إثارة قضيته وظل قانعا ويائسا ومهادنا وصامتا على حقوقه الضائعة !! هل تستحق هذه الأكاذيب الرد ؟ العالم يرى الشعب الفلسطينى يواصل نضاله وأعداؤه يتهمونه بالإرهاب ، وبعد ذلك تجئ النغمة «السلامية» التى تملأ ألسنة الحكماء والعقلاء والتى تنسب إلى حكام العرب ومحكوميهم الدعوة الإرهابية إلى تدمير اسرائيل والقاء شعبها فى البحرين الأبيض والأحمر . أما الإلقاء الفعلى للدولة الفلسطينية فى جحيم الإبادة المسلحة ، وأغتصاب الارض بالمستعمرات واغتيال المناضلين والكتابة على الكنيسست «من النيل إلى الفرات يا إسرائيل» فكله سلامى عقلانى . وهل يجب تأكيد أن مصر لم تكن تدافع عن



نفسها واستقلالها فى الحروب التى فرضت عليها والزعم بأن كل ذلك كان من أجل فلسطين ؟ وفى تأميم القناة والعدوان الثلاثى .. العرب هم الأشرار والاتحاد السوفييتى لم يكن له أى دور بل المجد لأمريكا التى جمدت الأموال المصرية وطالبت بملء الفراغ والدخول فى الأحلاف العسكرية . ومن سلح اسرائيل ودعمها ورسم خطة اصطياد الديك البرى (عبدالناصر) والأبيض والأحمر مع اسرائيل للإطاحة بجمال عبدالناصر . ومن قال: إن الرأى العام العالمى أيامها ، أيام وجود معسكرين وبلاد عدم الانحياز وحركات التحرر الوطنى التى رفضت الاعتراف حتى مجرد الاعتراف باسرائيل ، كان متعاطفا مع اسرائيل ؟ . وماذا عن أن مصر وقفت وحدها لتسترد سيناء ، ولماذا الكذب الفاضح فى الحديث عن أن مصر لم تكن لها مشكلة مع اسرائيل إلا القضية الفلسطينية ؟ إن إغفال دور اسرائيل فى المنطقة تاريخيا ومعاداتها لمصر قائدة حركة التحرر العربى لا يغيب عن أذهان أحد . إن اسرائيل فى قضية لافون الشهيرة ١٩٥٤ كانت تحرق المؤسسات الأمريكية فى مصر عندما كانت الحدود هادئة والعلاقات المصرية الأمريكية فى أحسن الأحوال ، ثم قامت بغارة على الجيش المصرى فى غزة ١٩٥٥ .. و... إلى آخره .

ولا يزال وزراء اسرائيليون يتحدثون عن احتلال سيناء الآن وعن قذف السد العالى ، بالقنابل ولنترك العقلاء انصار السلام مع التوسع والعدوان الاسرائيلى، دعاة استثمار الكرم الامريكى والاسرائيلى الذى طالما ما منحنا فرصا ذهبية أضاعها أنصار النضال الدائم . حقا لقد اشتركت أمريكا اشتراكا فعليا فى حرب اكتوبر ضد الجيش المصرى (وكان لها دور بارز فى عدوان ١٩٦٧ ، وهى تجعل تسليح اسرائيل أقوى كما ونوعا من جميع أسلحة الجيوش العربية ، ولذلك يصل العقلاء إلى أنها هى الصديقة الجميلة التى تحقق لنا التنمية والسلام . أما المثقفون على الضفة الأخرى المرتبطون بشعبهم وتاريخه وقيمه وهويته ومصيره العربى ضد التبعية فيرفعون أمام الشعارات الببغاوية التى يرددها العقلاء والحكماء عن أجهزة الإعلام التى تملكها الشركات الامريكية والصهيونية أهدافا ظل الشعب المصرى متمسكا بها ، وهى الاستقلال السياسى والاقتصادى ، والديموقراطى التى تضيف إلى التمثيل البرلمانى الحقيقى ، حركة المجتمع المدنى من جمعيات وروابط ونقابات ، وحقوق التنظيم الجماهيرى للطبقات الشعبية . ورفض الدولة البوليسية وإطلاق حرية التعبير وإلغاء القوانين سيئة السمعة ومع ذلك كله ويتخلل ذلك كله النضال المشترك مع الشعوب العربية .

ولا يقدم المثقفون الوطنيون أنفسهم بديلا أو ذيولا للحكام ، ولا يحددون لهم الخطوات التى عليهم اتخاذها ولكنهم

يقدمون أنفسهم مشاركين فى صياغة الوعى الشعبى ، باعتبارهم جزءا من ضمير الأمة . وقد كانوا دائما ضد التخاذل والزحف على البطون وقبول الأمر الواقع كما كانوا ضد المغامرات والخطوات الطائشة . ■

عندما نلتقى

شعر : مريد البرغوثى

عندما نلتقى
سأقف أمامك مذهولاً
عندما نلتقى
سألمسك برفق كما تلمس أوراق الخريف الأرض
عندما نلتقى سأندفع نحوك كحفيد يغوص فى عباءة جده
عندما نلتقى سأنتحب
عندما نلتقى سأبحث عن عصا من الخيزران
وأضربك بقسوة على إليتك
سأضربك كحليم فقد صوابه
عندما نلتقى
عليك أن تخبرينى لماذا تهربت منى طوال العمر
كلما أوشكت أن ألمسك اختفيت
وكأن بوابة رهيبة ماثلة بيننا
وكأن مفاتيحى صدئة، أو مثلومة
أورثنى حبك تشققاُ فى القدمين ورجة فى الروح
مات أكثر جسمى ومات أكثر المحتشدين فى
أيتها الكاملة المكتفية بذاتك
أما علمت أبداً بتلك الأهوال؟
كان الهواء يتحول الى تمثال صخرى من الهواء
هكذا يحس الناجون من المذبحة
عندما تنغلق الفجوة الرائعة بين اللهاة والحلق
وهل أطلقت سربا من الكلاب خلفنا
لنواصل الركض نحوك على سلم من الفواجع
لا ينتهى؟
أسماء أصدقائى تجمدت على شواهد القبور
والأقل حظا قبروا فى الأخاديد
أيتها الشرهة كمسقط شلال
أيتها القاتلة كسقف يهوى فى أوج الحفلة
أيتها الشغوفة بالمراثى وهى تغطى القتلى
بالخوص الأشهب المبتل
ما كان أجدر بنات الثانوية بقصائدنا وهن
يسمرن أجسادنا على الطرقات بمشيتهن
القادرة على تثبيت البرق
وما كان أجدر حقول عباد الشمس
بالالتفات إلى وجوه آمهاتنا لو لم تهدم
ملامحهن المصائب.
يا من تجمعين الضحايا كحاطب ليل
سأعاقبك على إفساد العمر الوحيد الذى
منحته لى أمى
سأعاقبك على عنادك الشبيه بعناد البغال
سأضربك كما يضرب المطر السقيفة.
سأضربك كما تضرب أجنحة الدجاج
عيدان القفص
وسأصلى لك فى صمت كصمت ناقوس
المعبد بين دقتين
سأقبل جبينك سبع مرات سأقبل خاصرتك
وساقيك سأمسح خصلات شعرك
سأشم رائحتك
ستستعيد مسامى وخلاياى
رائحة حقل لوز يفضى إلى حقل ليمون
يفضى الى كهوف الساحرات وهن
يجرشن التوابل
ليصنعن رقية لصبى مسه العشق
سألثم أطراف أصابعك
وأتكور بين ذراعيك كالكنغر الصغير أو
سأقف إلى جوارك معتدل القامة
وأرفع يدك اليسرى عاليا عاليا عاليا
وأترك دموعى تسيل
حتى تلامس ابتسامتى...
فقط.. لو ألقاك
أيتها الحرية !



المثقفـــون
وضمير العالــم

جزء خاص

ملايـــين مليـون ولـود فلسـطينيـة

بقلم
صافى ناز كاظم

بعد هزيمة ١٩٦٧ كتبت الشاعرة فدوى طوقان قصيدتها الجارحة « يا قوم إلام وحتام ؟» ، تستصرخ المقاومة العربية للنهوض بوجه الاحتلال الصهيونى المضاف إلى الاحتلال الأول لأرض فلسطين ١٥ مايو ١٩٤٨ ، الذى كان قد مضى عليه ١٩ عاما ، وكان من المفترض أن التحرر منه هو الهدف الأول والقضية الكبرى للأمة العربية . مع صدمة هذا الاحتلال الثانى والهزيمة التى لم يكن يتوقعها أكثر المتشائمين تشاؤما ، كانت هناك على أرض ڤيتنام مقاومة محتدمة ضد العدوان الأمريكى، يشيد بها الجميع ويؤازرها معظم مثقفى العالم من كتاب وفنانين ومسرحيين وشعراء ... إلخ .



تشـــــيـيع جنازات
الشـهداء الفلسطينيين
مـشــهد يتكرر يومـيا

وواكب هذه الإشادة العالمية لمقاومة الشعب الفيتنامى الباسلة، المثقفون العرب، مع خلفية المقاومة الفيتنامية لشعب ضعيف صـغير شبه أعزل فى مواجهة قوة كـبرى عظمى، استبشعت فدوى طوقان هزيمة كل العرب أمام عدو حقير فكانت صرختها فى نهاية قصيدتها :

« ....

آه ..... آه يا ڤيتنام ،
آه لو مليون مقاتل ،
من أبطالك،
قذفتهم ريح شرقية ،
فوق الصحراء العربية ،
لفرشت نمارق ،
ووهبتهمو مليون ولود قحطانية!»

ولم يستسغ هذه الأمنية الغاضبة أحد من شباب فلسطين أو من بقية العرب، فالحقيقة التى كان يعرفها الجميع أن المشكلة لم تكن كامنة فى عدم خصوبة رجال بنى قحطان وعجزهم عن توليد مقاومة استشهادية تماثل وتفوق مقاومة كل شعوب الأرض ، ولكن المشكلة كانت تكمن فيمن يمنعون الحمل والولادة قسر بعد عمليات الإجهاض المتواصلة التى عبرت عنها « فدوى » نفسها فى مطلع قصيدتها قائلة :

« ....

يانوم إلام وحتام ؟
لازلنا فى غرف التخدير
على سرر التخدير ننام ،

والعام يمر وراء العام
وراء العام وراء العام ،
والأرض تميد بنا
والسقف يهيل ركاما
فوق ركام ،
والكذب يغطينا
من قمة هامتنا حتى الأقدام ،
ياقوم إلام وحتام ؟
.........................»

ومضت السنون والمرأة القحطانية العربية الفلسطينية لا تكف عن إثبات أنها ولود، وأن منبع قوتها وخوف الأعداء وكابوسهم أنها ولود ، قادرة على الإنجاب الحلال المستمر ، من رجالها القحطانيين العرب الفلسطينيين ، للأطفال المؤهلين للمقاومة والصمود والشهادة حتى وصفها الشاعر الفلسطيني معين بسيسو، فى صيغة جمع ، بقوله : « الأمهات اللاتى يلدن لسكين» .

إن هذه المقاومة المستبسلة التى نرى دقائقها وصورها المجسدة كل يوم على شاشات القنوات الاخبارية ،لم تنبت عفو الخاطر بكل نوارها الوضىء فى حقولها اليانعة. إنها غرس لمقاومة على مدى قرن.

ولو قرأنا فى سجل فلسطين ويومياتها عن المقاومة والاستشهاد ، فسوف نرى المعاناة التى كابدها الجهاد العربى لمغالبة رياح التثبيط وحملات كسر سيوفه وقسم خناجره وقلع أظافره حتى يتمكن العدو القزم من التعملق وسحق الحقوق وأصحاب الحق .

* * *

فى الصفحة الأولى من الجريدة ، عام ١٩٩٧ ، كانت صورة أطفال الخليل ينظرون فى تعبير بين التساؤل الحزين والدهشة المغتاظة نحو جنديين إسرائيليين مدججين بالسلاح ، لا يظهر منهما سوى الظهر المرسوم عليه رأس ثور، ومكتوب تحته بالانجليزية ما ترجمته :

« وُلِدَ ليَقْتُل» . وكنت قد قرأت لتوى كلمات للشهيد الدكتور فتحى الشقاقى، المؤسس لمقاومة الجهاد الفلسطينى ، كتبها فى ١٩٩٢/١٠ تقول : « هل هناك مازال فضاء لصرخة مدوية ... جاهدوا .... بكل ما تملكون من طاقات ضد المشاريع .. التى تخدم مخطط اسرائيل الكبرى ، فإن أمتنا مازالت تختزن قدرات هائلة ـ لو أحسن توظيفها ـ للنهوض والانتصار . الهزيمة ليست قدرنا ، قدرنا هو النصر بإذن الله ....» .

هذه الكلمات جاءت فى الصفحة ١٦١٥ من الأعمال الكاملة للشهيد الدكتور فتحى الشقاقى، التى أعدها ووثقها الدكتور رفعت سيد أحمد وصدرها بدراسة هامة عنوانها « رحلة الدم الذى هزم السيف » . تقع هذه الأعمال الكاملة فى ١٦٢٤ صفحة من القطع الكبير



ومقسمة إلى سبعة أجزاء فى مجلدين ، يحتويان دراسات ومقالات وخطب ورسائل وأشعار وبيانات وحوارات وكلمات الشهيد التى تعكس ثقافته العالمية والعربية العميقة ، وموهبته شاعرا وأديبا، ورؤاه الفكرية الواعية ، وحسه السياسى

في شهر آذار قالت لنا الأرض أسرارها الدموية

في شهر آذار فى سنة الانتفاضة، قالت لنا الأرض أسرارها الدموية . فى شهر آذار مرت أمام البنفسج والبندقية خمس بنات.. وقفن على باب مدرسة ابتدائية، واشتعلن مع الورد والزعتر البلدى . افتتحن نشيد التراب.. دخلن العناق النهائى - آذار يأتى إلى الأرض من باطن الأرض يأتى، ومن رقصة الفتيات - البنفسج مال قليلا ليعبر صوت البنات . العصافير مدت مناقيرها فى اتجاه النشيد وقلبى.

أنا الأرض
والأرض أنت
خديجة! لا تغلقى الباب
لا تدخلى فى الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من هواء الجليل
وفى شهر آذار ، مرت أمام البنفسج والبندقية خمس بنات. سقطن على باب مدرسة ابتدائية . للطباشير فوق الأصابع لون العصافير. فى شهر آذار قالت لنا الأرض أسرارها.

*****

وفى شهر آذار تستيقظ الخيل
سيدتى الأرض
أى نشيد سيمشى على بطنك المتموج ، بعدى؟
وأى نشيد يلائم هذا الندى والبخور
كأن الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطين
فى بدئها المتواصل
هذا اخضرار المدى واحمرار الحجارة
هذا نشيدى
وهذا خروج المسيح من الجرح والريح

شعر : محمود درويش

أخضر مثل النبات يغطى مساميره
وقيودى
وهذا نشيدى
وهذا صعود الفتى العربى الى الحلم
والقدس
فى شهر آذار تستيقظ الخيل
سيدتى الأرض
والقمم اللولبية تبسطها الخيل سجادة
للصلاة السريعة
بين الرماح وبين دمى
نصف دائرة ترجع الخيل قوساً
ويلمع وجهى ووجهك حيفا وعرساً
وفى شهر آذار ينخفض البحر عن
أرضنا المستطيلة مثل
حصان على وتر الجنس.
فى شهر آذار ينتفض الجنس فى شجر
الساحل العربى
وللموج أن يحبس الموج.. أن يتموج... أن
يتزوج... أو يتضرج بالقطن
أرجوك - سيدتى الأرض - أن
تسكنينى وأن تسكنينى صهيلك أرجوك
أن تدفنينى مع الفتيات الصغيرات بين
البنفسج والبندقية ارجوك - سيدتى
الأرض - أن تخصبى عمرى المتمايل
بين
سؤالين: كيف؟ وأين؟
وهذا ربيعى الطليعى/ هذا ربيعى
النهائى
فى شهر آذار زوجت الأرض أشجارها

*****

التحليلي الدقيق المدرك للجذور والأبعاد والعواصف والأنواء ، هذا الحس الذي يدفعه ليؤكد على الدوام : « ... إن أوهام القوة والغطرسة لا تصنع سلاما عندما تغيب كل معاني الحق والعدل . إن التطاحن من حول فلسطين سيستمر وإن مستقبلها سيبقى معلقا بسيوفنا ....» وليؤكد كذلك أن : « .... الشهداء يعيدون تشكيل الحياة بزخم أكبر وبإبداع أعظم لتبقى الشهادة هي المعادل الموضوعي للحياة ، فلا حياة ولا تاريخ لنا بدون الشهداء . لا ماضي ولا مجد ولا عبرة ، هم الذين يصنعون لنا المستقبل وليس المرجفون أو المعاهدون على الصمت والنكوص. الشهداء ينزرعون في الأرض ، يورقون ويثمرون وتخضر بهم حياتنا ويبنون لأمتهم التاريخ والمجد والمستقبل...» ، ويصوغ فتحي الشقاقي تسبيحات حمده : « الحمد لله الذي أعزنا بالجهاد وأذلنا بالقعود عنه ...» ، ويحلل دلالات ما حدث وجرى في البوسنة فيرى: « .... مدى الحقد البشع على الاسلام ، ليس فقط من قبل الصرب ، ولكن من قبل كل الغرب . وهو يعطي تفسيرا أكثر وضوحا لما يجري في فلسطين ، أحد مواقع تجليات هذا الحقد ، فإن كان الغرب يتعامل هكذا مع من هم أوروبيون وطنا وعرقا ولونا ، فكيف يتعامل معنا في فلسطين ، حيث وطن بأكمله ينزع من أيدي أهله وأصحابه وشعبه ويسلم إلى اليهود القادمين من أربع جهات الكون ومن وراء البحار ، وحيث جرى ولا يزال تطهير عرقي وديني ....» .

* * *

هذا الكلام كتبه « فتحي الشقاقي» قبل ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وقبل مجازر شارون التصاعدية من مارس ٢٠٠٢ حتى الآن ، وقبل مشاهد الخذلان الدولي اللاإنساني لشعب يقاوم ، بجسده واستشهاد أطفاله ونسائه وشبابه ، مجنزرات ومروحيات الأقزام المتعملقين بمساندة فساد الادارة الأمريكية التي يشهد حتى أصدقاؤها باختلالها العقلي وروحها الفاشستية ، ذلك لأن فتحي الشقاقي ـ المولود عام ١٩٥١ والذي كان قد تخرج في جامعة الزقازيق طبيبا ، في السبعينيات ـ كان قد تم اغتياله في مالطة تحت إشراف رئيس الموساد يوم الخميس ١٩٩٥/١٠/٢٦ الموافق ٢ جمادى الآخرة ١٤١٦ الساعة الواحدة والنصف ظهرا ، تنفيذا لقرار اسحق رابين ، وكانت هناك ثلاثة اختيارات للتنفيذ وافق رابين على واحد منها . وجاء هذا القرار بالقتل والتنفيذ قبل وأثناء وبعد أن وقف اسحق رابين في واشنطن يتعهد أمام العالم يوم الخميس ١٩٩٥/٩/٢٨ ويقول : « كفانا دماء ودموعا، كفانا..»!

وصدق العالم ، وعلى رأسه المؤيدون للسلام مع الثعابين ، القسم الرابيني ،

وابتسم ياسر عرفات ، وقتها ، وهز رأسه مؤمّنا ....

* * *

بين الخميس ٢٨ / ٩ / ١٩٩٥ والخميس ٢٦ / ١٠ / ١٩٩٥ ، أثبت رابين، الذى مازال البعض يقول إنه كان داعيا للسلام، أن احترامه للعهد لايمكن أن يصمد ولو لشهر واحد . وبالنسبة للذين يقرأون القرآن ويستوعبونه لم يكن فى نكث رابين لعهده، بعدم إسالة الدماء والدموع، أى غرابة، فإذا لم يكن مجرم حرب ومجرم سلام مثل اسحق رابين واحدا من الذين قصدهم القرآن الكريم بقوله : «الذين ظلموا من أهل الكتاب» فمن يكون ؟

* * *

فى أول نوفمبر ١٩٩٥ - ليلة ذكرى وعد بلفور المشئوم فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ - تم دفن الشهيد ابن فلسطين [illegible] لأن سلطات الاحتلال الصهيونى منعته الدفن فى مسقط رأسه ، ووقف اسحق رابين يقول بفظاظة : « إننى غير آسف لموت الشقاقى والحياة أفضل بدونه » .

ونشرت الصحف صوراً عديدة للمجاهد الطبيب الشاعر الشهيد وقارنت نظرته الفتية الصبوحة فى عينيه الباسمتين ، المعقودتين على أحد الحسنيين: النصر أو الشهادة، وبين نظرة الالتواء والحقد والشراسة فى عينى اسحق رابين المتجهمتين الشيطانيتين وفيهما طالعت السجل الحافل لمجرم عتيد .



فتحى الشقاقى

* * *

فى مساء السبت ١٩٩٥/١١/٤ نفق اسحق رابين وأعلن قاتله الصهيونى المتعصب أنه : « غير نادم ، وقد نفذت أمر الله » !

هكذا فى أقل من أسبوع ، ارتدت الكلمة الحاقدة لرابين : « أنا غير آسف» عن اغتياله شهيدنا فتحى الشقاقى لتعود إلى [illegible] : « أنا غير نادم » يقولها عند [illegible] قاتل من أهله .

والذى لم يفهمه قاتل رابين ايجال عمير - والحمد لله - أن تعصبه لباطل اغتصاب الأرض الفلسطينية ليس سوى تعصب ساذج أمام التعصب الداهية الذى يضمره ويمثله الإرهابى المتمرس الشارب من معين الصهيونية صنعة التآمر والتخريب والخداع اسحق رابين .

ويواصل شارون مشوار المجرمين الذين سبقوه بأسلوبه المتميز بفجاجته وسوقيته الخاصة .

* * *

... ومازالت المقاومة الباسلة فى فلسطين تواصل ....

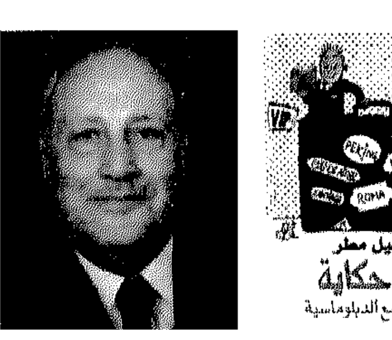
■

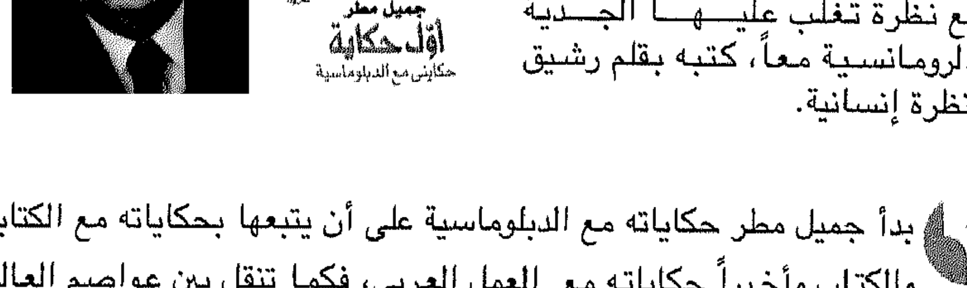
البحث عن الذات

فى كتابين جديدين

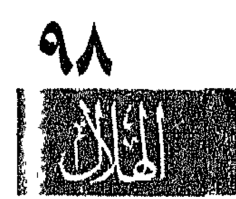
بقلم
مصطفى نبيل

حكايات جميل مطر





كتاب جميل مطر، ليس مجرد سيرة ذاتية، ولا مجرد تجربة فى العمل الدبلوماسى، إنما هو قطعة أدبية راقية، تحمل شحنة فى عقل الكاتب وقلبه من أجل ارتقاء الوطن، مع نظرة تغلب عليها الجدية والرومانسية معاً، كتبه بقلم رشيق ونظرة إنسانية.



بدأ جميل مطر حكاياته مع الدبلوماسية على أن يتبعها بحكاياته مع الكتابة والكتاب وأخيراً حكاياته مع العمل العربى، فكما تنقل بين عواصم العالم تنقل أيضا بين مجالات للعمل مختلفة وإن كانت فى كثير من الأحيان متداخلة..

وتعطى تجربته الدبلوماسية المثل والعبرة فى عمل يتناول علاقة الوطن بالعالم ويحمل عبء السياسة الخارجية المصرية.

إذا بدأت قراءة كتابه لاتستطيع أن تتركه إلا عند نهايته ، تنتقل معه بين البلاد والناس، وبين المبادىء والأشخاص، ترى تجارب متعددة فى مناطق مختلفة من العالم، وتتابع حكاية شاب مصرى يملك عقله، يطوف فى العالم ، لايمكنه إلا أن

يأخذ عمله بجد وإخلاص.

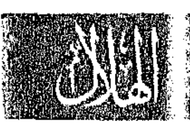
وإذا كان كل من الدبلوماسيين والصحفيين يتمتعون بالتنقل فى عواصم العالم، بدلاً من الرحالة فى الأزمان الغابرة، فإن ذلك يلقى عليهم مسئولية تسجيلها ونقلها للقارىء، ويتميز العمل الدبلوماسى بالتأمل والبحث والإحاطة بما يجرى فى البلاد التى يعمل بها، وكثيراً ماكتب الدبلوماسيون مذكراتهم، حتى أصبحت هذه الكتابات مصدراً تاريخياً مهما.

ويدهشك عدم وجود عدد كاف من الدبلوماسيين فى مصر يسجلون تجاربهم ورحيق خبرتهم.

وها قد فعلها جميل ، وأخذ يحكى لك مايدور فى كواليس الدبلوماسية ويكشف الكثير من أسرارها، ويتناول مصاعب العمل إلى جانب متعه . وكثيراً ما أشعر وكأنه يفكر بصوت عال، يجذب القارىء إلى تأمل مايشغله.

وها هو يؤكد – من تجربته – أن السفراء صنفان ، أحدهما يأخذ عمله باعتباره رسالة مقدسة، والآخر الذى يجعل العمل الدبلوماسى أداة للكسب يقول .. «ليس كل الناس الذين بعث بهم كسفراء أختيروا لدواعى خبرتهم وكفاءتهم، فهناك من كان ذهابه مكافأة لتحسين ظروفه المعيشية وحتى ينعم بالعملة الصعبة .. ويؤكد . «لم يكن كل الصالحين من فئة أو طبقة أو مدرسة بعينها ، ولم يكن كل الطالحين من فئة أو طبقة أو مدرسة أخرى».

ويضيف .. «إن تعيين شخصيات ذات وزن فى وظائف سفراء يرتبط باعتبارات كثيرة، فيكون الإبعاد فى وظيفة من هذا النوع، من أجل تبريد الحماسة، وتهدئة الانفعالات أو ترويض الطموح أو تفكيك الشلل أو الانتزاع من الجذور أو كل ذلك معاً».



وترى من خلال قصته فى الدبلوماسية سفراء بلغ عملهم الذرى فى الإجادة والشعور بالمسئولية مثل كل من د. أحمد نجيب هاشم الذى عمل معه فى روما والمهندس حسن رجب الذى عمل معه فى بكين وروما.

ومن المسكوت عنه فى تجربته تجنب ذكر الاسماء ، رغم أنه أخذ فقرة من مذكرات أحمد طعيمة الذى كان سفيراً فى الأرجنتين وأظن أن هذه المذكرات كانت الدافع الأول للتسجيل ، ثم عاد إليها تجربته وزيراً لعقد صفقة القمح، ولم يذكر اسم حسين ذو الفقار صبرى الذى ذكر ذات الحكاية التى رواها جميل فى كتابه «يانفس

لاتراعى» رغم أنه قام بتوثيقها بتواريخها الدقيقة، ولعله لم يذكر الأسماء بحكم تقاليد الدبلوماسية التى لم يتخل عنها، ولعل ذلك من دماثة خلقه أو لعله شعر أنه يتمتع بحرية أكبر فى الحديث عن الشخصيات التى تناولها، ولم يذكر فى كل حكايته سوى تجربته الجميلة مع كل من عبداللطيف أبو هيف وزمالته للشاعر نزار قبانى فى بكين.

أما تجربته المريرة فى الهند مع الذى كان يرتدى بدلة سوداء ويضع نظارة سوداء ورابطة عنق سوداء وفى قدميه جوارب سوداء وحذاء أسود، والذى كل تقاريره ترجمة من الصحف الأجنبية فأظن أنه د. مصطفى كامل أستاذ القانون الدستورى .

أما السفير الذى تعامل معه فى بينس آيرس، والذى كان عالى الكفاءة ، ولكنه يتشكك فى الجميع، وكان جده لأبيه رئيس وزراء سابق وزوجته حفيدة رئيس وزراء ، ومات بالسكتة القلبية عندما قرأ تقريراً مكتوباً ضده جاءه من القاهرة، فهو السفير صالح محمود.

وبعيداً عن العمل الدبلوماسى ومؤامراته التى تعرض لها شاب فى مطلع حياته، فتجول ، مع عين ثاقبة ، وملاحظة فنان دقيق يسمع ويرى ويشم، أقول حقيقة لامجازا تشم رائحة البلاد التى زارها، وبقيت رائحة الهند لم تفارقه، وبعد مغادرته لا تبتعد طويلاً، بل تعوده فى كل مرة يتحدث عنها أو يتذكر أياماً وأحداثاً عاشها فى الهند. وترى انبهاره بالهند وغرائبها وأسرارها . وتتبعه فى شوارع نيودلهى وترى فى المدينة القديمة «طبيب» الأسنان الذى يقوم بخلع ضرس المريض على الرصيف بربطه بخيط فى رجل المريض!

وتراه وهو يلتقط مثلثات الفطائر، يلتقطها البائع من الزيت المغلى ، ويضعها فى ورقة من أوراق الشجر.

ويرى أن الفقر فى الهند أفقر من أى فقر يمكن أن يتصوره الانسان .

وتصحبه وهو يروى حكايته مع الصين ، ويخرج لكى يتجول فى أحد شوارع كانتون، ساعياً للاقتراب من هؤلاء الجائلين فى الطرقات ، وفشل، فما كان لإثنين مهما رفعا صوتيهما أن يسمعا بعضهما، فالضوضاء صارخة . والناس ، كل الناس يركضون ، لا أحد يتحدث مع أحد، ولا أحد يشعر بوجود الآخر، ونفس السلوك شاهده بعدها فى نيويورك ، وتنتقل معه إلى روما التى تسبح فى جمال أخاذ لاينضب ولا

يخبو، وروما بالنهار ليست أقل جمالاً وإن اختلفت عن روما بالليل، فروما بالنهار مثل إيطاليا بالنهار ، متحف كبير. ولم يترك صاحبنا متحفا فى روما أو كنيسة قديمة أو حيا شعبياً أو حياً أثرياً من الأحياء المحيطة بالعاصمة لم يذهب إليه..

وإحدى قضاياه ومشاغله هى قضية الحرية، يتلمس ممارساتها فى كل من الهند والصين، وشاغله الرئيسى مايجرى فى بلاده.

«فى الهند ديمقراطية ليبرالية ونظام حزبى وانتخابات دورية .. وصمود هذا النظام الديمقراطى ، وزادت أهمية هذا الأمر عندما وجدت فى الصين تجربة أبعد مايكون عن ليبرالية الغرب وديمقراطية الهند وديكتاتورية الاتحاد السوفييتى.

ولم يكن الانقلاب على الديمقراطية فى عالمنا العربى مسألة تستعصى على الفهم، فقد عشت آخر أيام الليبرالية المصرية وتابعت احتضارها ، ورأيت كيف أجهز عليها رجالها من قادة الأحزاب والصحافة ، وكيف كان الشعب مستعداً للتضحية بها فى سبيل طيبات لم يحظ يوماً بمتعة التمرغ فيها..»

إنه كتاب لابد أن يقرأ.

بعد نصف قرن

يقول سكرتير الملك شهادته

كتبت هذه المذكرات منذ أكثر من نصف قرن ، ولم تنشر إلا مؤخرا ، وقد أوصى صاحبها، وهو د. حسين حسنى السكرتير الخاص للملك، بنشرها بعد وفاته.





د. حسين حسنى باشا

البحث عن الذات

و«سنوات مع الملك فاروق» يلقي الضوء علي بعض جوانب الكثير من الأحداث التاريخية التي عاشها د. حسين داخل أروقة القصر . بعضها سبق نشره وبعضها الآخر لم يسبق نشره .

ولعل نقطة الضعف فى هذا الكتاب هى الفصل المتعسف بين مواقف الملك السياسية وحياته الخاصة ، التى يعيد إليها الكاتب ما لحق بالملك من نكبات ، رغم أن ما قوض عرش محمد على ، وجعل فاروق آخر ملوكه ، هو السياسات التى اتبعها ، وعدم احترامه للدستور ، فلم يترك برلمانا واحدا يكمل مدته ، والعمل الدائم على تفتيت القوى السياسية . يغير الوزارات بخفة متناهية ، حتى أكد د . حسين حسنى واقعة أن عبود باشا دفع مليون جنيه لإلياس اندراوس لكى يطيح بحكومة نجيب الهلالى ، وأن الهلالى هو الذى أبلغه بذلك ، نقلا عن معلومات السفارة الأمريكية !! كما يسعى إلى إضعاف مؤسسات الدولة متصورا أنه يقوى عندما يضعف الآخرون .. وتضاءلت مسئولية الوزارات وأصبح الملك يملك ويحكم ، وبذلك استطاع أن يستبد بالمواطنين ، وينهب الثروات ، يحمى الملتفين حوله ، بل وتردد أن معظم محاولات الاغتيال السياسى كان الملك يقف وراءها ، كاغتيال أمين عثمان وعبدالقادر طه ومحاولتين لاغتيال مصطفى النحاس .

فليست الفضائح النسائية ، ولا الخمر ولا الميسر هى السبب . ولكن لعل الإلمام بالظروف الشخصية للملك والإمساك بها ، يلقى الضوء على بعض الأحداث التاريخية، ويساعد على فهم أبعادها .

***

وما جاء على لسان د. حسين حسنى يقدم تفسيرا لتلك النظرة التى كثيرا ما أثارت انتباهى ، نظرة الحزن العميق فى عينى الملك التى لا تخلو منها معظم صوره، واستمرت فى مراحل حياته المختلفة ، إنها حقا مأساة ملك. وهى مأساة إغريقية فى عنفوانها وقسوتها ، وهى شكسبيرية إذ تتناول المتربع على قمة السلطة . العلاقة الآثمة بين الأم والمعلم الصديق، وضرورة كتمان خيانة الزوجة التى تسىء إليه أكثر مما تسىء لنفسها ، ثم تخلى الزعماء من الباشوات عنه فى ٤ فبراير ، يعانى ذلك كله وحده وهو فى فترة الصبا وقبل بلوغه واحدا وعشرين عاما ، وتتأكد أن ما تردد على أنه شائعات كان وقائع مؤكدة ، مما حول الملك إلى شخصية عدمية لا تلوى على شىء ، وجعلته وكأنه يتعجل نهايته وينتظرها .

وربما تعود مأساة الملك إلى تلك الطفولة الباردة والقاسية التى عاشها ، وهو الولد الوحيد وسط أربع شقيقات ، بلا أقران أو أصحاب فى مثل سنه ، وهى الفترة التى قضاها وحيدا مع أم تدلله وأب يقسو عليه ، وفرضت عليه مربيته الانجليزية مسز تايلور عزلة تامة ، وحرمته من اللعب مثل سائر الأطفال ، وما كاد ينتقل من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الصبا حتى وجد نفسه يجلس على عرش البلاد ، ولم ينل كفايته من

زواج الملك فاروق وفريدة داخل قصر عابدين

التعليم لا فى الدروس الخصوصية ، ولا فى المدرسة البريطانية التى لم يكمل فيها عاما كاملا .

ويكفى أن تعرف أنه تنازل عن العرش بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولم يزد عمره عن اثنين وثلاثين عاما ، فهو مولود فى فبراير سنة ١٩٢٠ ، ووضع على أريكة الحكم ولم يتجاوز السادسة عشرة ، وكان حكمه سلسلة متصلة من الاخفاقات والصدمات الشخصية والعامة .

مأساة الملك

مأساة الملك الأولى كان أطرافها ثلاثة ، الملك والأم والعشيق ، فاروق ونازلى وأحمد حسنين .

تكشف المذكرات الدور المدمر الذى لعبه أحمد حسنين فى حياة فاروق ، فقد ولد لأب فى الحادية والخمسين ، وجاء نتيجة علاقة متوترة بين الملك والملكة ، وعكس بيرم التونسى رأى الشارع فى أنشودته التى ختمها بالقول «والوزة قبل الفرح مدبوحة» ودفع ثمن هذا القول النفى إلى فرنسا !

ورغم تعلق الابن بأمه حدد الملك فؤاد لقاءهما فى أوقات محددة ، ولم يكترث أحد بتعليمه ، وكان أحمد حسنين هو رائده ، وهو الذى نجح فى إبعاد عزيز المصرى الرائد الثانى فى انجلترا ، وسعى إلى التأثير عليه بكل الحيل الممكنة .

ويلقى د. حسين حسنى الضوء على المسكوت عنه من شخصية أحمد حسنين (١٨٨٩ - ١٩٤٦) ، وهو ارتباطه بالسلطات البريطانية منذ نشأته ، وهو أحد أبناء

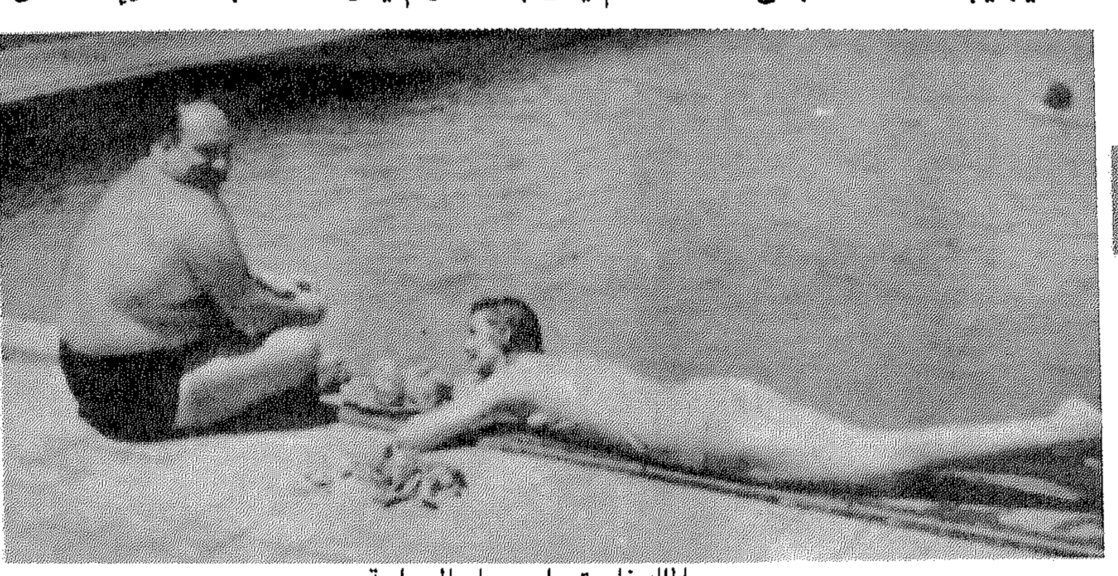
أحد شيوخ الأزهر ، وأكمل دراسته فى أوكسفورد ، وكان راعيه اللورد ملنر - صاحب المشروع المعروف - ووزير المستعمرات ، وهو الذى ألحقه بالجامعة ، وكان كثيرا ما يقضى نهاية الأسبوع فى قصره الريفى . كما أنه تطوع فى الجيش البريطانى أثناء الحرب الأولى ، بل وعين عند عودته إلى مصر سكرتيرا خاصا للجنرال مكسويل قائد جيش الاحتلال ، وكان يرتدى زى الجيش البريطانى ، وفاوض باسم الانجليز السنوسيين فى الصحراء الغربية، ثم عين مفتشا فى وزارة الداخلية ، التقى مع حسين حسنى عندما قبض عليه وكان خلالها سكرتيرا لهوربنلور كبير مفتشى الداخلية والمشرف العام ، ونقل إلى وزارة الخارجية ، وتم تعيينه فى واشنطن وهناك التقى بلطيفة هانم كريمة الأميرة شويكار وتزوجها ، وهى ابنة الزوجة الأولى للملك فؤاد .

وأصبح بذلك يتمتع برعاية كل من قصر الدوبارة (الانجليز) وقصر عابدين، ويتضح أن أحمد حسنين شخصية مغامرة لايحد طموحه أى كابح من أخلاق أو ضمير.

ويتساءل محمد التابعى الذى كان صديقا لأحمد حسنين .. هل هو بطل ؟ ومصرى وطنى مخلص يقدم مصلحة بلاده على كل ماعداها .. ؟ أم هو خائن وصنيعة الانجليز .. ؟ ولا بأس من أن يضحى بمصلحة مصر فى سبيل مصلحة ذاتية يحققها له الاستعمار .. ؟ وهو حقا شخصية درامية تبحث عن مؤلف .

تباينت الآراء واختلفت حول الرجل . وهو مغامر يجوب الصحراء مع روزيتا فوربر الإنجليزية ، ويحصل على ميدالية الجمعية الجغرافية البريطانية وأول مصرى يقود طائرته من أوروبا إلى مصر . وسقطت به الطائرة مرتين إحداهما فى فرنسا والأخرى فى ايطاليا .

يجيب محمد التابعى قائلا .. «لم يكن بطلا ، ولم يكن خائنا لبلاده ، وإنما كان



الملك فاروق على حمام السباحة

رجلا له مطامع واسعة كثيرا ما أفلح فى إخفائها وراء قناع من الزهد فى المناصب والجهل بالسياسة وأسرارها .

الخطة الأولى نحو طريق طويل تبدأ بمصاهرة الأسرة المالكة ، ثم العمل على الاستيلاء على صاحب القرار فى القصر .. ومن الواضح أن بريطانيا كانت تسعى إلى إفساد الجالس على العرش، وحسنين كان أداتها فى تنفيذ ذلك !

أما الملكة نازلى فقد أصبحت أهم شخصية فى القصر بعد وفاة زوجها ، فقد مات السجان وانطلقت السجينة التى مازال لديها بقية من شباب (٤٥ سنة) . ووجدت فى غياب الملك الأب فرصتها للتحرر من القيود ، والانتقام من الأب القاسى وأيامه ، وفرضت إرادتها فى عدم التقيد بالتقاليد التى كان يتمسك بها الملك فؤاد ، ووجدت من حسنين كل العون على تنفيذ إرادتها . كما يسجل حسين حسنى .

الملكة نازلي بملابس شبيهة بنجمات هوليوود

وساهم فاروق بلا قصد منه فى تقديم العون لأحمد حسنين، فعندما عاد من انجلترا رغب فى أن تتعرف والدته على الرجل الذى أصبح صديقا وليس مجرد رائد ، وفى اليوم التالى لعودة الملك الشاب من انجلترا، «دعا فاروق إلى قصر القبة أحمد حسنين ، وقدمه للملكة نازلى والتى قالت له : إنها بعد كل ما سمعته من ابنها عن مبلغ عنايته به أثناء وجوده فى انجلترا حرصت على أن تلقاه لتعرب له شخصيا عن مدى تقديرها لكل ما بذله نحو فاروق.» .

ويروى د. حسين حسنى نزوات الملكة نازلى ، عند أول رحلة يقوم بها الملك إلى أوروبا «غضبت الملكة لعدم اشتراكها مع الملك فى مراسم الاستقبال الرسمى ، وأصرت على عدم النزول من القطار إذا لم تتم مراسم الاستقبال الرسمى لها مثل الملك تماما .. وأنها عقب وفاة زوجها الملك فؤاد ، ذهبت إلى حفلة ساهرة فى بيت إحدى صديقاتها قبل مضى أربعين يوما على وفاة الملك وبررت ذلك بأنها فى أشد الحاجة إلى الترفيه بعد طول ما عانته من الحرمان فى حياة الملك» .

غرام وانتقام

ويصف ما جرى خلال الرحلة التى قام بها فاروق مع أسرته وحاشيته قبل توليه الملك بقوله : «يفاجأ أحد رجال الحاشية بحسنين باشا جالسا على إحدى الأرائك الخشبية على ظهر السفينة وإلى جانبه الملكة فى حالة استرخاء لا تكون إلا بين من رفعت بينهم الكلفة . «وأخذنا نفكر فيما قد يحدثه ذلك من الأثر فى نفس الملك الشاب المسكين إذا عرف ما يجرى بين أقرب مخلوقين كان يعتز بهما وينظر إليهما كالمثل الأعلى للحب والوفاء والإخلاص» .

وتساءل د. حسين حسنى ..«كيف لا ينتبه الرجل الكبير - أى حسنين - أنه زوج ،

وزوج لسيدة لها مكانتها التى أضفت عليه الكثير مما وصل إليه » .

فهل هذه إحدى صور الغرام والانتقام ؟ أى انتقام نازلى من شويكار زوجة الملك السابق ؟!

وظلت نازلى طوال الرحلة لا تقيم وزنا لشئ سوى ما يروقها وظلت تخرج إلى الملاهى الليلية فى صحبة حسنين ، ولا تحفل بالمواعيد المقررة للقيام ببرنامج زيارة المعالم والمصانع .

ويضيف حسين حسنى في مذكراته .. «كانت الملكة نازلى تساند حسنين باشا وتطالب له بما يرضيه ، وابنها يرى نفسه أمامها عاجزا عن كبح جماحها أو ايجاد وسيلة لاتقاء الفضيحة فيما لو اشتد الصراع بينهما .. وذاع بين رجال القصر أن الملكة نازلى قد تزوجت من حسنين باشا بعقد عرفى ، وكان ذلك هو الحل الوحيد الذى لم ير الملك بدا من التسليم به حتى يضع حدا للصراع النفسى الرهيب الذى كان يعانيه منذ أمد بعيد» ..

وهناك رواية أخرى يرويها الاستاذ هيكل نقلا عن حسن باشا يوسف ، حول العلاقة الملتبسة بين فاروق وأحمد حسنين.. ففى أوائل عام ١٩٤١ ، وقعت غارة جوية على القاهرة ، وأراد الملك (٢١ عاما) أن يطمئن على أمه ، ولم يجدها فى منزلها وهو قصر والدها عبدالرحيم صبرى فى الدقى ، وعندما عرفت نازلى محاولات ابنها العثور عليها ذهبت إليه قبل الفجر ، ويروى الملك ما جرى بعدها ..

«دخلت الأم إلى ابنها والدموع في عينيها ، وركعت تحت قدميه تعترف له أنها أحبت أحمد حسنين ، وأنه أول رجل دخل حياتها وتطلب من ابنها أن يسامحها ، وأقسمت أنه لولا فاروق وحرصها عليه لكانت تجرأت على طلب الطلاق ، فقد كان يحبسها في غرفة نومها أسبوعا كاملا عقابا لها ، وقالت الأم إنها لم تفعل شيئا يغضب الله ، وإنما تزوجت حسنين على سنة الله ورسوله ، واحتفظت بالزواج سرا حتى تنتهز فرصة مناسبة وتتحدث إليه ، وتوسلت اليه ألا يؤذى أحمد حسنين فهو مخلص له ولعرشه ، وقالت الأم لابنها . إذا عفوت بقيت عمرى كله تحت قدميك ، وإذا أبى فسوف تشعل النار فى نفسها» .



فأى صراع ذلك الذى يعاني منه الابن أمام هذه الفاجعة التى تتضارب فيها المشاعر ، فهاهم من يستمد منهم القوة والمثال سواء الأم أو المعلم والصديق يطعنانه طعنة نجلاء !

وهاهى الكاتبة الانجليزية ارتيمس كوبر فى كتابها عن القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية تروى قصة أخرى تقول .. «لم يكن سرا أن أقرب مرافقى الملكة نازلى كان حسنين باشا .. وفى إحدى المرات أُبلغ الملك ان ثمة رجلا فى جناح الملكة ، فاقتحم الملك المكان وضبط حسنين وهو يقرأ القرآن لوالدته وأشيع عندها أنهما تزوجا سرا فى عام ١٩٣٧ ، كما طلق حسنين زوجته بعد أن أثارت ضجة حول علاقة زوجها بالملكة» .


أحمد حسنين باشا

ونعود إلى حسين حسنى الذى يروى تأثير هذه الأحداث على الملك .. «وقع اللقاء مع الملك فى بيت عمر فتحى بعيدا عن المتلصصين .

قال الملك بعد فترة صمت طويلة :

« لم أعد أستطيع الصبر ، وقد أوشكت على الجنون ، فماذا أصنع مع الملكة نازلى وحسنين ، هل أقتلهما ..؟! هل أرسلها إلى مستشفى المجانين ؟! وأبعث به سفيرا إلى اليابان .. لم أعد أطيق ما يجرى » ؟

وأبدينا له أنا وعمر فتحى ضرورة التمسك بالحكمة والتفكير الهادىء ، فلعل الملكة تفيق من غفوتها ، أو لعل حسنين يصحو ضميره .

ولست أنسى ما حييت - ومازال الحديث لحسين حسنى - وجه فاروق المسكين فى تلك الليلة وقد احتقن بدماء الغيظ والكبت وهو يروح ويجىء فى أرجاء الغرفة ، وكأنه وحش ثائر جريح أحكمت حوله الأسوار ، ويتساءل عما أحدثه هذا الانفعال النفسى العنيف من جرح غائر فى نفسه فى باكورة أيامه فى الحكم؟

وظل مشهد ثورة الملك يمثل فداحة الفاجعة التى نزلت به فى شخص أعز مخلوقين لديه ، أمه التى كان يخصها بكل الحب بعد طول إبعاده عنها . وأستاذه ومرشده الذى كان يوليه الثقة والتقدير ، ويتساءل :

ألا يحتمل أن هذه الفاجعة قوضت إيمانه بالمثل العليا ، ثم ما حدث بعدها من فقد إيمانه بالزعماء من قادة الشعب ورجال الحكم فى حادث ٤ فبراير ؟

ودارت رحى المعركة فى دهاليز القصر..

وأصبح الملك يضيق بسماع اسم أحمد حسنين ، ويتألم من مجرد رؤيته فى القصر! وعندما لقى حسنين مصرعه فى حادث سيارة على كوبرى قصر النيل عام ١٩٤٦، سارع فاروق وبحث عن العقد أو أى وثيقة حول العلاقة بين أمه وحسنين .

سفر الملكة الأم!

ويتحدث د . حسين حسنى عن هموم الملك العائلية، ويروى قائلا : « كان القدر يخبئ للملك الشاب صدمة عنيفة أخرى تلقاها من آخر ما كان يتصور وقوعها منها وهى الناحية التى صدرت منها أول وأقسى ما عصف بشبابه من صدمات وأعنى بها ناحية أمه ، فبعد وفاة حسنين باشا فى حادث ببضعة شهور، قررت السفر إلى الخارج ومعها كريمتاها فائقة وفتحية القاصرتان المشمولتان بوصايتها وفى صحبتهن التشريفاتي فؤاد صادق، وفى مرسيليا وجدت شابا هو رياض غالى فى الانتظار من موظفى القنصلية المصرية أوفدته ليقدم ما تدعو إليه الحاجة من خدمات ».. ووجدت الملكة نازلى فى لباقته ونشاطه ما جعلها تطلب السماح له بمرافقتهن إلى سويسرا ، فأجيبت إلى طلبها ، وهناك عادت وأصرت على إبقائه فى معيتهن إلى أن ألحقته نهائيا بحاشيتها كسكرتير خاص لها ، وامتدت إقامتها فى سويسرا ، وانتقلت بعدها إلى

أمريكا .. وخلال إقامتها في الخارج كان الملك يحثها بين حين وآخر على العودة ، فكانت تعتذر ، وشبت العاطفة بين الأميرتين والشابين الملازمين لهما ، فؤاد صادق ورياض غالي، ووافقت الملكة نازلى على زواجهما، وغضب الملك أشد الغضب .. وأرسل إلى أمه يحذرها من إتمام المشروع ، وأبرق لها أنه يرجو ويلح ألا ترغمه بإصرارها على عدم الاستجابة إلى دعوته بالعودة مع شقيقتيه على أن يتخذ القرار القاسى الذى يفرضه عليه واجبه الملكى بحرمانهن من ألقابهن ، وبعدها أصدر الملك أمرا بحرمان أمه من لقب الملكة وشقيقتيه من لقب الإمارة ، واستطاعت الأميرة فائقة أن تحصل على عفو أخيها . وعادت إلى مصر مع زوجها فؤاد صادق ، وبقيت الأم مع كريمتها الصغرى وزوجها فى أمريكا وانتهت حياة الجميع بمأساة أشبه بفاجعات شكسبير » .

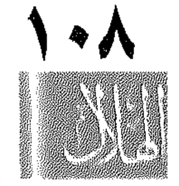
ويصل د . حسين حسنى إلى .. « ان من يستعرض حياة فاروق والأزمات والصدمات النفسية التى مر بها فى حياته وما عساها أن تكون أحدثته فى نفسه من تأثير ، والتى وضحت معالمها فيما كان يصدر عنه بعدها من تصرفات شاذة بطريقة تكاد تكون آلية كأنها رد فعل تلقائى ، يجد فيها راحة نفسية تخفف عنه بعض ما يشعر به من التمرد على الأوضاع التى أفقدته وزعزعت نفسه فيما كان يحيط به ، مما كان يدفعه لاتخاذ مواقف متعارضة على سبيل التحدى . شأن الطفل الذى يأبى أن يطيع الأمر الذى لا يوافق هواه .. وأنه على سبيل التحدى وما يملأ نفسه من التمرد على كل من يقف منه موقف المعلم والموجه ، بعد فقدانه الثقة فى معلمه ورائده، فضلا عن أمه التى كان مفروضا أن توجهه إلى كل ما هو صالح، وحتما لن يستمع إلى قول أى ناقد أو معارض» .

فاروق وفريدة

ونأتى إلى إحدى الفواجع التى لاتقل عن سابقتها فى حياة الملك الشاب، وهى زواجه وطلاقه السريع من فريدة التى كان اسمها قبل الزواج صافيناز ، بعد أن قوبل هذا الزواج بفرحة وأمل كبير وتأييد كبير للملك الشاب، بدأت القصة فى أول رحلة يقوم بها الملك إلى الدول الأوروبية ، وخلال هذه الرحلة قامت علاقة حب بين الملك و«فاڤيت» كما كان يطلق على فريدة ، وعلى متن الباخرة « ڤايسروى أوف إنديا » فى صيف عام ١٩٣٧، قامت علاقة آثمة أخرى بين نازلى وحسنين ، بل ولعب كل من كان على ظهر الباخرة دورا سياسيا فى حياة البلاد .

ويروى سكرتير الملك الخاص فى كتابه « سنوات مع الملك فاروق» ، بعض ذكريات هذه الرحلة .. « كان الملك يشكو له من أن نازلى وحسنين يسعيان إلى عدم الارتباط بينهما ، وربما كان ذلك حتى لا تفقد الملكة مكانتها ، وقبل انتهاء الرحلة أخذت نازلى تضيق بها وتبدى عدم الرضا عنها ، ولاحظ الملك تغير سلوك حسنين نحوها ، وأخذت نازلى تلاحق صافيناز بألوان من الإساءة والاستفزاز .

وفى النهاية نجح الفتى والفتاة فى عقد قرانهما فى ٢٠ يناير ١٩٣٨ ، قبل شهر من عيد ميلاده الثامن عشر، ولم تبلغ عروسه الستة عشر ربيعا .

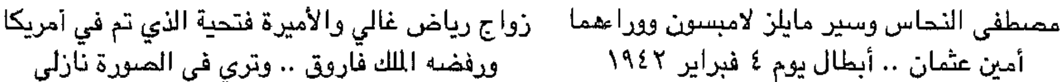




مصطفى النحاس وسير مايلز لامبسون ووراءهما
أمين عثمان .. أبطال يوم ٤ فبراير ١٩٤٢



زواج رياض غالي والأميرة فتحية الذي تم في أمريكا
ورفضه الملك فاروق .. وتري في الصورة نازلي



ولكن سرعان ما وقعت الفاجعة ، وتم الطلاق بينهما ، مما كان له وقع مؤلم وقوبل هذا النبأ بالأسف العميق فى كافة الأوساط وصب الجميع جام غضبهم على الشاب ، وبقيت هذه القصة أحد الألغاز فى حياة الملك ..

وتكشف بعد ذلك حجم الألم الذى أصاب الملك ، ولم يتمكن من الافصاح عن المسكوت عنه فى العلاقة بينهما ، وأدين وهو المجنى عليه إذا أخذنا بما جاء فى بعض الكتابات بعد فترة طويلة من الكتمان .

تورد الكاتبة الانجليزية أرتيمس كوبر فى كتابها القصة التالية : قامت الملكة فريدة بزيارة الفنان الرسام سيمون ألويز فى صيف سنة ١٩٤٣، وكان الرسام رجلا وسيما فى أوائل الأربعينات من عمره ، وجاء إلى مصر فى نوفمبر ١٩٤١ ، وكان يعمل فى العلاقات العامة بالقيادة البريطانية ، وأصبح عمله الرئيسى هو رسم « البورتريه» للبارزين فى حياة المجتمع القاهرى ، وكان لويز يتصور نفسه فاتنا للنساء، وأخذ يردد بفخر أنه لا يمكن أن يرسم «بورتريه» لأى امرأة إلا إذا نام معها!، وتمنى قبل أن يغادر مصر أن يرسم الملك والملكة ، وقدمت هذه الرغبة ناهد سرى زوجة حسين سرى باشا وخالة الملكة فريدة ، ووافق الملك على أن يتقاضى الرسام عن كل منهما ألف جنيه يدفع نصفها مقدما ، وبدأ يرسم الملكة فى قصر عابدين ، وسط ثرثرة الوصيفات ومقاطعات لا تنتهى ، وطلب الرسام من الملكة أن تأتى إلى مرسمه الخاص ، وأصر ألويز على أنه ليس بوسعه العمل فى هذا الجو ، ووافقت الملكة، وكانت فى العشرين من عمرها ولها ابنتان هما فريال وفوزية ، وكانت تمر بظروف نفسية قاسية عندما شعرت بإهانة جارحة من علاقة توطدت بين الملك والأميرة فاطمة ابنة الأمير عمر طوسون ، وهى إحدى سيدات العائلة المالكة الفائقة الجمال ، ولهذا السبب لم تكن تبادله الحديث ، ولم تستأذنه لكى يسمح لها بإكمال اللوحة فى مرسم الفنان .

وأبقت جلساتها فى بيت ألويز سرا ، ترافقها وصيفتها عقيلة ، ولم يغب ذلك عن

القصر طويلا ، وعلم فاروق بزيارات زوجته إلى ألويز . وكان يشاركه مسكنه إثنان من الضباط ، أصابهما الذعر عند دخوله المنزل فجأة ، وفرت الملكة ووصيفتها من الباب الخلفى .

وعندها وقعت أزمة دبلوماسية بين القصر والسفارة البريطانية ، وطالب الملك أن يغادر ألويز البلاد ، وكان السفير البريطانى مايلز لامبسون « اللورد كيلرن» فيما بعد حريصا على تفادى الفضيحة ، وبالفعل أوفد سيمون ألويز إلى جنوب أفريقيا ، ومنع من العودة إلى مصر ، فكتب الرسام رسالة إلى الملكة ينتقد خلالها بشدة السفير البريطانى ، وحصل عليها السفير من خلال الرقابة ، ثم نقل بعدها من جنوب أفريقيا إلى الهند ، حتى يقطع الصلة تماما بينهما!!!

وجاءت إشارات متفرقة حول هذه الواقعة فى الوثائق البريطانية .

كما أشار إلى هذه الواقعة السفير فى أوراقه الخاصة .

وما يثير الدهشة حقا أنه بعد شهر من مغادرة الرسام البلاد ، طلب الملك بعودة ألويز حتى يكمل اللوحتين اللتين اتفق عليهما واللتين حصل على نصف ثمنهما ..

فهل كان الملك يريد الانتقام من غريمه؟!

كادت الملكة تقتل !

والرواية هذه المرة التى تتناول مسلك فريدة جاءت على لسان سيد جاد أحد رجال الحرس الحديدى فى كتابه « كيف كان الملك يتخلص من خصومه؟»، فخلال إحدى مهماته رأى هو وخاله فوزى سيدة عظيمة ـ لم يذكر اسمها ـ فى طريقها إلى إحدى الفيلات فى شارع أحمد حشمت بالزمالك ، وصاحب الفيلا هو وحيد يسرى ابن الأميرة شويكار ، واكتشفنا – على لسان سيد جاد – أن هذه السيدة هى الملكة فريدة، وقررت اقتحام الفيلا وقتل من فيها لكن باقى الضباط منعونى من ذلك، وغضب الملك عندما علم بالقصة . متصورا أننى الذى رفضت قتلها حتى قابلته وشرحت له الحقيقة فعفا عنى!.

ومع التسليم بأنه من الصعب اعتبار سيد جاد مصدرا يعتد به ، إلا أنه يلاحظ أن الأميرة شويكار زوجة الملك فؤاد السابق ، لعبت دورا فى تدمير عائلة فؤاد!

ويلمح مرتضى المراغى ـ آخر وزير داخلية فى عهد الملك ـ إلى هذه القصة قائلا .. «كانت حاشية السوء تشير من طرف خفى وعبارات مبهمة إلى أن الزوجة بدورها أخذت لا تبالى ، وأخذوا يلصقون بها الاتهامات ، مما أثر فى فاروق ، فمضى يتمادى فى علاقاته النسائية لكى يكيد الملكة ويغيظها » وذلك فى مذكراته «غرائب فى عهد فاروق» .

وإذا صحت هذه الاتهامات أو لم تصح ، فأى شقاء عاشه الملك ، خاصة بعد إدانته من الرأى العام ..

لامبسون على الأكتاف !

ونأتى إلى ذروة المأساة وهو حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، عندما اقتحمت الدبابات البريطانية قصر عابدين ، ودخل عدد منها فناء القصر من دون أى مقاومة ، وقدم

انذار إلى الملك يطالبه بالتخلى عن العرش، إذا لم يكلف مصطفى النحاس بتأليف الوزارة ، وحملت الجماهير ما يلز لامبسون على الأكتاف عندما ذهب يهنئ رئيس الوزراء مصطفى النحاس ، وهتفوا بحياته ، « فكان تكريم السفير على هذا النحو لطمة أقسى وأشد لكل من يقدر الكرامة والوطنية» .

وتركت تلك الحادثة أثرا بالغا على الملك ، وخلفت فى قلبه جرحا عميقا وتركت كراهية نحو الانجليز ، ونحو الجماهير التى لم تهب لنجدته ، وحزب الوفد ومصطفى النحاس ، هذا ما قاله سكرتيره كما يعيد مرتضى المراغى إلى هذا الحادث إنشاء الحرس الحديدى!..

ووجد رجالات مصر متخاذلين عندما دعى عدد من الزعماء السياسيين ومنهم زعماء الأحزاب إلى اجتماع فى قصر عابدين للمشورة وإبداء الرأى ، خلال أحداث ٤ فبراير، وانتهوا بضرورة الاستجابة لطلبات الإنجليز ، وثبت أن وزارة حسين سرى تطوعت وتقدمت إلى لامبسون بطلب عزل الملك .

ويرصد د . حسين حسنى أثر هذا الحادث على الملك ويأسه من رجال الأحزاب ، ويروى ماقاله الملك .. « لقد جربت كل الأحزاب، ولم يحقق واحد منها ما كنت أرجوه ، ولا يستطيعون التغلب على الروح الحزبية التى تتسلط عليهم جميعا ، فتجعلهم يعجزون عن الارتفاع إلى مستوى تغليب مصلحة الوطن على مصلحة أحزابهم بل على مصلحتهم الذاتية ، فلا يوجد زعيم واحد مخلص ، وكل منهم يطعن فى زميله ، بل إن رئيسهم قد يطعن فى معاونيه ، حتى أصبحت فى حيرة من يمكن الوثوق به ومن يجب الحذر منه ؟!

لقد بلغ منى اليأس حد التفكير فى أعتزال العرش..»

ويروى د . حسين حسنى فى كتابه بعض الأسرار التى تروى لأول مرة ، منها التحذير الذى أبلغته للقصر القيادة البريطانية ، من حركة بين ضباط الجيش المصرى ، ومنهم بعض ذوى الميول الشيوعية الذين يتلقون تعليماتهم من روسيا! ، وأنه تم رصد لقاء بعض الضباط، وأحدهم معروف بميوله الشيوعية وأطلق عليه الماجور الأحمر ، وأخذ يتلقى التعليمات من السفن الروسية المارة فى قناة السويس !، وعرضت القيادة البريطانية تقديم أى مساعدة للكشف عن هذه الحركة والقضاء عليها !.

وبقى الكثير من الأسئلة لم يجب عليها سكرتير الملك مثل :

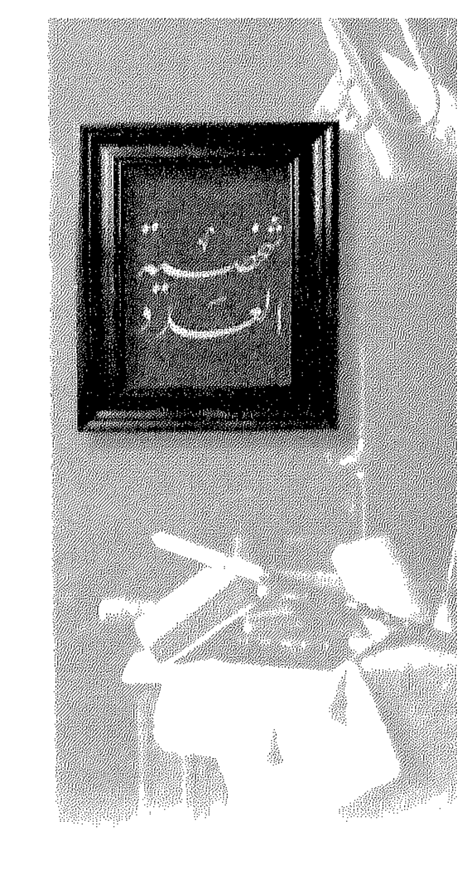
* إنشاء الحرس الحديدى ، وحوادث الاغتيال التى اتهم بها ..

* مغزى رفض النقراشى رئيس الوزراء اشتراك الجيش فى حرب فلسطين، ثم عرضه اشتراك الجيش على البرلمان..؟

* أثر هزيمة ١٩٤٨ على الملك..؟

لقد رضى السكرتير الخاص للملك أن يبقى فى الظل ، وفقد تأثيره على الملك ، وعلى سير الأمور ، فأخذ يتحسر أحيانا ويتألم أحيانا أخرى ، ولم يقم بأى عمل لإنقاذ بلاده ولا حتى لإنقاذ مليكه . ■





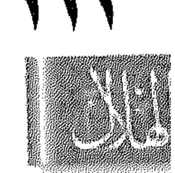
شكرى فؤاد

الرجل وظله..

بقلم
حسين أحمد أمين

الجندى الأول : لنسر معا حتى نسأل غيرنا من الحرّاس ما إذا كانوا قد سمعوا الأصوات التى نسمعها ألا ترى الأمر غريبا ؟
الجندى الثالث : أتسمعون يارفاق ؟ أتسمعون ؟
الجندى الأول : لنسر مع الصوت حتى نهاية موقعنا، وحتى نرى كيف، ينقطع.

شكسبير: أنطونى وكليوباترة
الفصل الرابع - المنظر الثالث



طوال الأعوام الخمسة والأربعين التى صاحبته فيها، خيل إلى أنى أسمع صوتا، أو ألمح ظلا، يرافقه، ولايستطيع الرجل أن يفلت منه . كان الصوت يصلنى فى البداية خافتا متقطعا، ثم علا بمرور الوقت واتصل ، ثم أصبح عندى بمثابة اللحن المميز له.

هذا الدبلوماسى الكفء الذى خدم فى سفارات مصر فى البرتغال، وكمبوديا، فى الديوان العام للوزارة فى القاهرة، وانتهى به المطاف مستشارا لوزير الخارجية، أقول هذا الرجل الذى وفى كل منصب شغله حقه ، وبذل فيه أقصى جهده، سواء كان فى منطقة يسمونها فى «الوزارة» «صعبة»



أو منطقة وثيرة يطيب بها العيش، وكان أثناء خدمته يحظى دائما بتوقير المرءوسين، واحترام الزملاء، ورضا الرؤساء.. ماهو بالضبط ذلك الحائل الذى حال بينه وبين توليه لمنصب رفيع حقا من المناصب التي يبلغها أناس لديهم قدر من الكفاءة هو بكل تأكيد أقل مما يتوفر لديه منها، ومن الإخلاص والهمة مالا يدانى إخلاصه وهمته ؟.

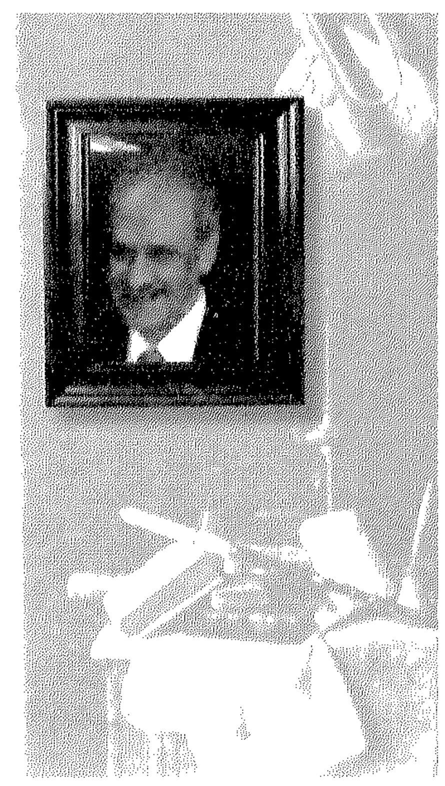
الكثرة، أو الكافة ، تراه متى استعرضت حياته، محظوظاً قد نال مالا تناله الغالبية العظمى، وتغبطه إنجازاته .. ومع ذلك فثمة لديه إحساس دفين بالإحباط لم يعبر عنه قط لا لى ولا لأحد غيرى فيما أعتقد. إحباط هو فى ظنى سر ما يلازمه من حزن، رغم حبه الملحوظ للفكاهة، ومشاركته الإيجابية فى أجواء المرح والدعابة.

لم يكن ثمة رئيس له من السفراء لم يكن اعتماده الأكبر عليه فى تسيير دفة البعثة الدبلوماسية، والنهوض بواجباتها .. لم يكن ثمة وزير للخارجية لم ير لزاما عليه إسناد إدارة أهم إدارات الوزارة إليه، والاستماع جادا إلى مشورته .. ثم كان أن تمسك به الوزير عمرو موسى بعد أن بلغ سن التقاعد، فأبقاه مستشارا له لمدة عشر سنوات، وحتى بلوغه السبعين، يجدد تعيينه سنة تلو أخرى، ويجادل ويحاور رئيس الوزراء من أجل إقرار هذه الإطالة غير المعهودة لخدمة سفير سابق يصر الوزير على أنه لاغنى عنه.

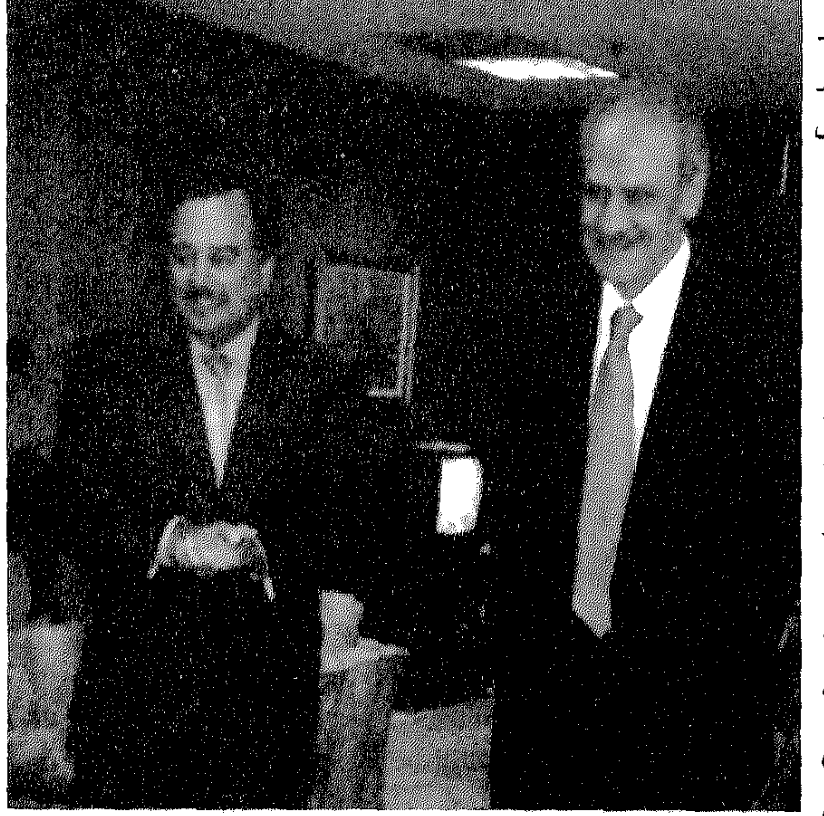
فإن كان الرجل قد أثبت لكل من له عينان أنه لاغنى عنه، وأنه كفء مقتدر، فلماذا تعذر تعيينه فى منصب أرفع من تلك المناصب التى تقلدها؟

لماذا ظل دائما يوحى إلىّ وإلى معارفه بأنه وزير مستديم فيما يطلق عليه اسم «حكومة الظل»؟ حكومة ظل قدرا لها ألا تخرج أبدا إلى النور، فى اعتقادى أنه المسئول عن ذلك غير أنى أؤجل تفسير قولى هذا إلى حين.

ولايحسبن القارىء الذى لايعرفه أن شكرى فؤاد دبلوماسى



كانت مجالس شكرى فؤاد - ولازالت - ملتقى الأدباء والمفكرين من جميع المذاهب والمشارب



شكرى فؤاد مع السفير نبيل فهمى

أو سفير فحسب فهو فى المقام الأول - عندى وعند الكثيرين من أصدقائه ومعارفه بمثابة راع لكافة أو معظم الفنون، فالمآدب السخية التى يقيمها وزوجته العظيمة فى مسكنهما ملتقى للأدباء والمفكرين والفنانين من جميع المذاهب والمشارب، حتى تلك التى لاتتفق مع مذهبه اليسارى، ومشربه القومى والعروبى .. هناك تلتقى بالروائى بهاء طاهر، والشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى، والناقدة المسرحية صافى ناز كاظم، والممثلة محسنة توفيق، والزجال أحمد فؤاد نجم، والكاتب عبدالعظيم أنيس، ورئيس التحرير مصطفى نبيل، والباحث جميل مطر، والمفكر الاقتصادى جلال أمين، والمحلل السياسى اليسارى محمد سيد أحمد، والمحلل السياسى اليمينى حازم الببلاوى .. إلى آخره..

جميعهم أصدقاؤه، وكلهم يكنون له المودة العظيمة والاحترام العميق، ويرونه من زمرتهم وفى مصافهم.. وقد تعرفت لأول مرة ببعض هؤلاء فى بعض مجالسه، وكان ثمة لقاء اخصه بالذكر إذ كان من الأحداث التى أثرت تأثيرا عميقا فى مجرى حياتى، وهو لقائى الأول بطيب الذكر المرحوم فيليب جلاب رئيس تحرير جريدة «الأهالى».

كانت مجالس شكرى فؤاد فى داره - ولاتزال - مجالس تجمع الأشتات، وتصلح بين الخصوم، وتعرف المفكرين والفنانين بعضهم بالبعض الذى كانوا جاهلين وتخلق جوا من التفاهم والوئام والألفة يتعذر أن تجد مثيلا له فى موقع آخر.

هذا احتفال بافتتاح معرض للوحات فنان تشكيلى، ستجد شكرى فيه وبافتتاح مكتبة جديدة سترى شكرى بين الحاضرين، أو بالعرض الأول لفيلم مصرى متميز ستلمح شكرى بين جمهوره أو بتدشين مسرحية مهمة ستلمح شكرى عند باب المسرح يحادث مؤلفها أو مخرجها أو كاتب أغانيها أو أحد الممثلين فيها .. نعم قد يكون فى مقدمة الحاضرين فى المعرض أو المكتبة أو دار السينما أو دار المسرح وزير الثقافة، أو مستشار رئيس الجمهورية، أو أمين الجامعة العربية، تختلف الشخصية باختلاف المناسبة أو العرض غير أن شكرى فؤاد هو القاسم المشترك الأعظم، يحضرها جميعا، أو هو بمثابة راعى الفنون فى هذا البلد أو وزير الثقافة فى حكومة الظل.

ومع ذلك فلا يكاد الكثيرون من الحاضرين يعرفون اسمه أو هويته: «من عساه يكون هذا الرجل الطويل النحيل الأنيق الأشيب الذي تتكرر رؤيتى له فى مثل هذه المناسبات؟»، «لا أعرف غير أن وجهه مألوف لدى أيضا».

البوادى لا تجهل أياديه: فأثناء عمله بوزارة الخارجية كان هو الذى أعاد تنظيم وهيكلة الوزارة، ونفذ مشروع التطوير التكنولوجى بإدخال الكومبيوتر الشخصى لأول مرة.. وهو إنسان خدوم إلى أبعد الحدود : إن ذكرت أمامه أنك تبحث منذ أمد طويل عن كتاب قديم، توجه نيابة عنك إلى مكتبات يعرفها دونك فى أحياء بعيدة، وظل يبحث ويسأل حتى يعثر لك عليه .. إن أخبرته أنك لم تجد تذكرة واحدة لإحدى المسرحيات المعروضة فى القاهرة، اتصل من فوره هاتفيا بالمؤلف ليدبر الحجز لك فيها .. إن غاب عنك اسم الشاعر صاحب هذا البيت أو ذاك، أو غاب عن ذاكرتك عجز بيت تحفظ صدره، لم يرتح حتى يجده لك فيما فى مكتبته الخاصة من دواوين شعر ... وإن عبرت عن رغبتك فى التعرف إلى مخرج معين أو فنان معين دبر لكما لقاء فى داره بعد إشادة سخية منه بك عنده، وبه عندك.

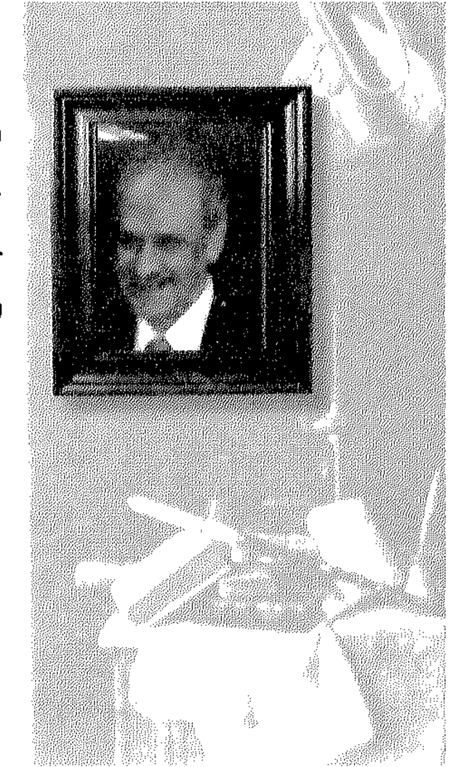
لماذا إذن قد أنتج غيره من أصدقائه ومعارفه ما أنتجوه، ولم

○ لماذا لم يقدم شكرى فؤاد على تحقيق طبعة كاملة لأعمال بيرم التونسى؟

ينتج هو؟ لماذا اكتفى بالترويج لإنتاجهم، وتعريف الآخرين بفكرهم وفنهم، والإقبال النهم على قراءة كتبهم ومقالاتهم وزيارة معارضهم، ولم يفكر فى أن يخرج هو على الناس بفكر (وهو الذى تستمع الكافة إلى آرائه فى إعجاب وعناية)، أو بفن، وما من أحد هو أدرى منه بمقتضيات الفن وأشراطه؟.. كانت حياته فى السلك الدبلوماسى - كما ذكرنا - حافلة بالخيرات والأحداث، فما الذى قدمه الى الجمهور خارج وزارة الخارجية من حصيلة تلك الخبرات؟ كتيب واحد عن خلفية تفكك يوغوسلافيا بعد وفاة تيتو، نشرته دار لم تعن حتى بتسويقه .. هو فى رأيى أكبر حجة فى مصر فى إنتاج محمود بيرم التونسى، شعرا كان أو نثرا، وعلى الملم لم يتوفر لغيره بأدق تفاصيل حياته المضطربة العاصفة، وبتنقلاته وتخبطه بين بلد وآخر .. فلماذا وهو الذى يعبر دائما - وبحق - عن سخطه على كل ما صدر من طبعات لأعمال بيرم التونسى، لم يضطلع بتحقيق طبعه محترمة وكاملة لها، نحن على ثقة من أن ظهورها سيكون حدثا أدبيا بالغ الأهمية فى تاريخ النشر عندنا؟ لماذا لايصوغ ما يتحفنا به من أفكار فى مجالسنا فى قالب مقالات ينشرها فى هذه المجلة المصرية أو الصحيفة العربية أو تلك ، ونحن المدينون له بالكثير من الأفكار التى نوردها فى كتاباتنا نحن؟ .. إنه يرفض إجراء أية مقابلة صحافية أو إذاعية أو تليفزيونية، فإن نحن اتصلنا به قبل إجرائنا لمثل تلك المقابلات نسأله عن رأيه انهالت ردوده القوية وتدفقت تحليلاته الذكية لايضن بها علينا، فنضمنها إجاباتنا دون إشارة واحدة إليه .

يذكرنى أحيانا بثلاثة من عمالقة الفكر فى مصر: أحمد لطفى السيد، ومحمد شفيق غربال، وعبدالحميد العبادى، ممن لايعتمد فضلهم على الثقافة المصرية على ماأنتجوه من مؤلفات (فمؤلفاتهم نزرة قليلة لاتتناسب مع سمعتهم)، وإنما على تأثيرهم فى تلامذتهم وفى محيط الفكر حولهم إذ ما الذى خلفه وراءه أحمد لطفى السيد مثلا غير بضع ترجمات لبضعة كتب لأرسطو نقلها عن الفرنسية لا اليونانية، وغير مجلدين أو ثلاثة تحوى من المقالات ما عفا على أكثرها الزمن؟ غير أن الرجل خلف أيضا وراءه عشرات وعشرات ممن تعهدهم برعايته وتوجيهه من التلاميذ الذين صاروا فيما بعد قادة للفكر فى بلادنا: كلهم مدين له أفدح الدين، يلهج دائما بفضله عليه، وبعضهم أحرز من الشهرة مالم ينله أستاذ الجيل نفسه.

قد نفسر هذا المسلك عند شكرى فؤاد بعزوف منه محمود عن الشهرة وجلبتها وزخرفها .. غير أنه تفسير ، لو صح، لما فسر لنا ما ذكرناه فى البداية عما يخالطه



ويلازمه دائما من حزن وشعور بالإحباط أرى منبعهما فى عجزه عن نيل تلك الشهرة التى يرى أنه كان مؤهلا لاكتسابها، ومالكا لمفاتيحها، ولو صح لكان فى تقدير أبناء وزارة الخارجية له، وإعجاب أهل الفنون به، ماهو كفيل بإرضائه وإراحته .. غير أن الرضا والقناعة ليسا من صفاته، ولا هو بمتصوف المزاج الذى يردد القول بأن تساؤل الناس لماذا لم يعين فى هذا المنصب الخطير أو ذاك، أكرم له من أن يتساءلوا لماذا عين فيه، أو يتخذ لنفسه شعاراً مثل: «أن أبعد فأقرب، خير لى من أن أقرب فأبعد» ..

أما التفسير الذى أجده أدنى إلى القبول، والذى أراه مفتاحا لشخصيته واللحن المميز له، فنعثر عليه فى إحدى فقرات مقاله «التكوين» الذي نشره فى مجلة الهلال منذ عام (عدد إبريل ٢٠٠١).

الافتقار إلى التخطيط وغياب الهدف من الأسباب التى جعلته يعجز عن اكتشاف موهبته الحقيقية

«حصلت على ليسانس الآداب عام ١٩٥٢ وليس فى ذهنى شيء واضح عما سأفعله بعد ذلك، والواقع أننى لم أخطط أبدا لحياتى ومستقبلى على مدى طويل، ولم أضع لنفسى غاية أو هدفا معينا أسعى إلى تحقيقه وأسير على الطريق الذى يأخذنى إليه، بل كنت أقرر عند كل مفترق طرق حياتى السبيل الذى أسلكه ...»

غياب الهدف و الافتقار إلى التخطيط.

هو قوى الشخصية مع هذا الافتقار وهى قوة يعود الفضل فى جانب منها إلى ذلك الهامش الواسع من الحرية الذى أتاحه له أبوه فى صباه، وفى جانب، آخر إلى إقامته بمفرده فى القاهرة مذ توجه إليها فى السادسة عشرة للالتحاق بجامعتها واعتماده الكامل بعد ذلك على نفسه. فهو حرّ فى أن يقبل حينا على التعبد فى الكنسية فى بلدته أسيوط، وحر فى أن يهجر طقوسها فيما بعد، ويقلل من تردده عليها، وفى أن يختار فى النهاية سبيل العلمانية.. كذلك فهو حر فى أن يتحدى الاتجاه الشائع فيختار الدراسة فى كلية الآداب، وفى قسم الفلسفة منها بالذات، وهى دراسة لاتؤهل لمهنة واضحة المعالم،

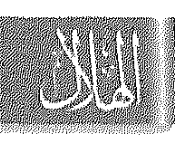
ولا هى بالمجزية ماليا.. وهو حرّ فى اختيار قراءته، حر فى تنقيل اهتماماته بين الأحزاب والمذاهب الفكرية، حرّ بعد تخرجه فى اختيار عمله وفى التنقل من وظيفة إلى أخرى .. وهى قوة فى الشخصية تنعكس واضحة فى علاقاته الأسرية بزوجه وابنته، والوظيفية بزملائه ورؤسائه ومرءوسيه، والاجتماعية بأصدقائه ومعارفه .. قد يلمس البعض فيها أحيانا بعض الخشونة وبعض الحدة المفاجئة غير المتوقعة غير أنها خشونة مغتفرة دائما لما هو واضح وضوح الشمس من طيبة قلب صاحبها، وإنسانيته، وسلامة طويته.

أما مايصعب اغتفاره فعجزه منذ البداية عن اكتشاف موطن موهبته الحقيقية، وعن عقد العزم بعد ذلك فى صبر ودأب على تلمس سبل تنميتها من أجل تحقيق ذاته .. هو فى ذلك على نقيض تام مع زميله وصديقه ثم رئيسه عمرو موسى الذى يقال إنه كان قد استقر عزمه وهو بعد تلميذ فى المدرسة الإبتدائية على أن يتقلد فى يوم ما منصب وزير الخارجية.

فشكرى فؤاد فى صباه ينغمس فى تدين يعقبه شك، ويقبل على قراءة أى كتاب يقع فى يده سواء كان رواية للمنفلوطى، أو إحدى روايات أرسين لوبان، أو كتابا لأحمد الصاوى محمد أو لعبد الرحمن الرافعى .. وهو فى شبابه الأول ينقل ولاءه بين المذهب الشيوعى، وبين حزب الوفد، وحزب البعث، وينقلب عداؤه لثورة يوليو إلى إعجاب، ويتحول فى حياته الوظيفية بعد تخرجه من التدريس (فى مدرسة بنها الثانوية) إلى الصحافة (فى جريدة «الأخبار»)، ثم فى النهاية إلى وزارة الخارجية.

قد يكون من رأي أوليفر كرومويل أنه «ما من أحد يقطع شوطا أطول مما يقطعه الذى لم يحدد لنفسه غاية»! وهو قول إن صادق عليه البعض فى حالة شكرى فؤاد فإنما يصادق عليه من يرون فى إنجازاته الوظيفية والاجتماعية نجاحا ملحوظاً، لا أولئك الذين يرون أن الشجرة لم تؤت كل الثمار التى يحق للناظر أن يتوقعها من مثلها .. وعلى أى حال، فلا بد من أن نعترف بأن ثمة عنصرا اغفلناه فى مقامنا هذا رغم أهميته، ألا وهو الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التى يواجهها المرء فى مسعاه، وتحدد له طموحاته ومسلكه فى الحياة، والتى قد لايكون له فيها يد .. إذ من ذا بوسعه أن يشير فى ثقة إلى ما كان يمكن - أو لايمكن، لشكرى فؤاد أن يبلغه وأن يحققه لو أن حزب الوفد مثلا كانت له الغلبة فى الحياة السياسية، أو لو أنه - على سبيل المثال أيضا - لم يكن مسيحيا؟.. هنا يصبح من حقه أن يجيب على عتابى وعتاب غيرى عليه بقولة الشاعر :

ولا تعتب علىّ فإن رقص على مقدار إيقاع الزمان!



الأنـدلـس فـى القـرن الواحـد والعـشـريـن



التي شهدت وقائع أوبرا كارمن

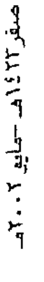
رحلة أندلسية ووداعا للبكاء علي الحليب المسكوب

بقلم
مصطفى درويش

كم تمنيت ، وأنا أغادر قصر الحمراء ، قبل سبعة وعشرين عاما ، أن أعود إليه فى مقبل الأيام.

وما كنت أدرى أن تلك الأيام ستمر أعواما بعد أعوام ، دون أن أعود ، حتى كدت أفقد الأمل فى تدبير أمر رحلته ، أقضى أيامها فى ربوع فردوس أندلسى ، تحته أنهار تجرى ، وتفيض بالخيرات.

وأعيش لياليها ، ملتحفا سماء نجومها شهود على حضارة اضاعت ، ولا تزال .





واجهة قصر الحمراء تشاهد معكوسة فى البحيرة أمام القصر

وكم تمنيت أن تكون عودتى لا بطائرة وقطار، مثلما فعلت عام زوال الديكتاتورية فى إسبانيا، وإنما بطريق البحر، مستقلا فلوكة من سرته بأفريقيا، تعبر بى المضيق الفاصل بين القارة السمراء وأوروبا، وبين البحر الأبيض المتوسط شرقا والمحيط الأطلسى غربا أو ما كان يسمى فى الأزمنة الغابرة ببحر الظلمات.

تشق وسط أمواجه طريقا طولها لا يزيد على تسعة أميال، يقع بين جبلى موسى فى المغرب وطارق فى إسبانيا، وهو ما كان يعرف بعمودى هرقل فى أزمنة الأساطير .

نفس الطريق الذى شقه القائد طارق بن زياد بأسطول صغير. مكون من أربع سفن لا تزيد، تنوء بثقل ما تحمل من جند وجياد وعتاد.

القول الفصل

وما أن أقام رأس جسر تحت سفح الجبل، قوامه جيش من اثنى عشر ألف مقاتل، جاءت بهم السفن الأربع على دفعات، حتى بدأ الزحف شمالا.

وكان ذلك فى ربيع عام ٧١١ ميلاديا.

وعند نهر بارباتي، جنوب قادش، واجه جيش طارق جيش روديريك، ملك إسبانيا.

وهنا اثار طارق حماس جنده وحميتهم بقولته التى صارت مثلا العدو أمامنا ، والبحر وراءنا، ليس لنا الا خيار واحد.. الانتصار .

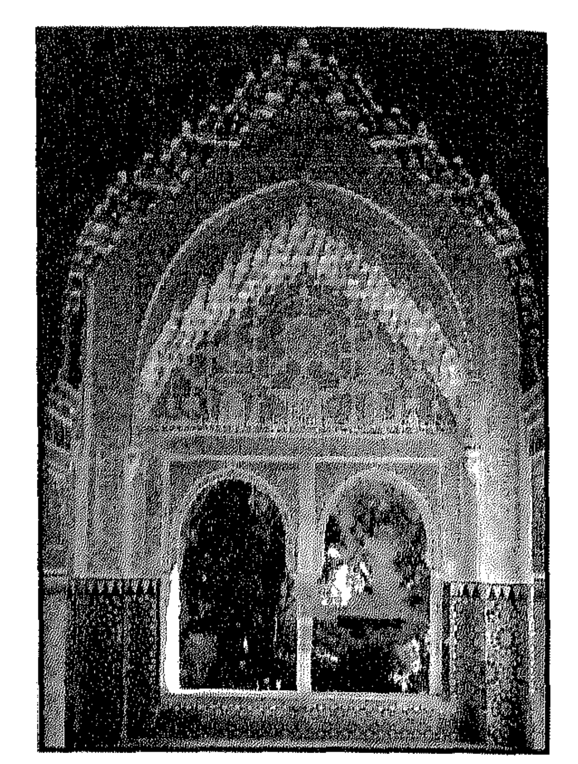
وفى معركة بارباتى الفاصلة خرج طارق ومحاربوه متوجين باكاليل الغار، منتصرين على روديريك الذى كان مصيره الذبح، واختفاء جثته، دون أن تترك أثرا.

وماكنت أدرى أننى سأعود لا كما تمنيت عن طريق جبل طارق، ومنه الى غرناطة شمالا، ثم الى قرطبة واشبيلية غربا .

عبث الأقدار

وإنما سيكتب لى أن اعود لا مثلما تمنيت، ولكن مثلما رسمت أحداث لم تكن فى الحسبان .

ففى صباح الحادى عشر من سبتمبر، بالتوقيت الأمريكى، وذلك أثناء العام الأول من القرن الواحد والعشرين تعرضت نيويورك وواشنطن لعدوان ارهابى بطائرات انتحارية، اهتز له العالم، ولا يزال وكان من توابع ذلك الحدث الإجرامى، افلاس اكثر من شركة خطوط جوية، بسب خوف الناس، وامتناعهم عن السفر بالطائرات .


روعة المعمار فى «حوش الأسود » بالحمراء


جمال تصميم الحدائق داخل القصر

وحتى تعود حركة الطيران الى سابق عهدها الزاهر، قبل العدوان ، لجأت بعض شركات الطيران من حين لآخر الى بضع وسائل، من بينها تخفيض ثمن تذكرة السفر الى أقل من النصف فى بعض الأحيان.

وهكذا ، وبفضل تخفيض وصل الى الف جنيه على الخطوط الجوية الايطالية، بشرط أن يكون السفر الى ميلانو، ومنها الى بضع عواصم اوروبية، من بينها مدريد بفضل ذلك ، وجدتنى، لا فى فلوكة عابرا الى جبل طارق ، وانما داخل طائرة، مع الشقيقة الوحيدة، فى طريقنا الى مطار العاصمة الاسبانية، حيث كنا على موعد مع المهندس هشام الابن الوحيد للشقيقة ومعه زوجته إيڤا.

وبسيارة جرى استئجارها فى المطار، بدأنا، نحن الأربعة، الرحلة جنوبا الى الأندلس، مرورا بمدريد، فطليطلة، ومنها الى قرطبة، فاشبيلية، ثم غرناطة حيث تحققت ذروة الرحلة، كما تحققت قبل ربع قرن أو يزيد.

بين السقوط

بعد يومين فى مدريد، متجولين بين متاحفها وقصورها ومقاهيها، غادرناها

الى طليطلة التى من بين ما يحكى عنها أن الفونس السادس ، ملك قشتالة وليون قد استولى عليها عام ١٠٨٥ ميلاديا .

وكان سقوطها المدوى أول حركات الاسترداد الكبرى التى انتهت باخلاء حكام الأندلس عن ملكهم عام اكتشاف كريستوفر كولمبس للعالم الجديد (١٤٩٢) وكان لاستردادها ذات الصدى الذى تردد بين القوط الغربيين، عندما وقعت عاصمتهم توليدو اى طليطلة - غنيمة للعرب، قبل ذلك بحوالى اربعمائة عام وتعتبر طليطلة واحدة من أهم مدن الأندلس وكان سقوطها نذيرا بالمأساة التى حدثت مرارا وتكرارا على مر القرون التالية.

يواصل فى أثنائها الاسبان الضغط والحصار والمؤامرات والمعاهدات المنقوضة، حتى يقضوا قضاء لا رجعة فيه على أول وآخر دولة عربية فى غربى اوروبا.

ولقد كان من بين ما شهدناه فى طليطلة ، خلال الساعات التى مكثناها فيها، كاتدرائيتها التى تعد بحق ، من أفخم كنائس اسبانيا واكثرها جلالا .

يكفى أن بعض جدران مصلياتها مزدانة بلوحات مرسومة بريشة الجريكو - تعنى اليونانى - ذلك الفنان الوحيد من نوعه بين التشكيليين .

ولم نمكث الليل بها، بل اسرعنا بمغادرتها فى نفس يوم الوصول اليها، متجهين الى قرطبة، تلك المدينة التى اتخذها عبدالرحمن الداخل - صقر قريش - حاضرة لدولة أموية مجددة، أنشأها بالأندلس .

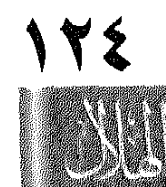
وما أن استيقظنا فى الصباح ، حتى هرعنا منحدرين الى جسر الوادى الكبير، لا نلوى على شيء فى قرطبة الحديثة «كوردوفا»، قبيل أن نشاهد المسجد الجامع - بالأسبانى مزكيتا، نطوف بسوره، نرتاده رافعى الرأس الى ما تبقى داخله من محاريب وقباب.

تشويه بغير مبرر!

وكم كان جزعى وضيقى، وأنا أرى ذلك الأثر الحضارى الكبير، الذى بدأ العمل فى بنائه، قبل اثنى عشر قرنا، واستمر زهاء مائتى عام، أراه وقد جرى تشويهه باقامة كاتدرائية فى رحابه دون حياء.

اذ ليس من شك فى ان ما حل بجامع قرطبة عمل بربرى مقيت.

وحتى شارل الخامس، ذلك الإمبراطور الذى اذن لاسقف قرطبة - رغم احتجاج وجهاء المدينة - بانشاء الكاتدرائية فى صميم الجامع، أبدى سخطه حين رأى



برج الأجراس الخاص بالكاتدرائية التى بنيت داخل جامع قرطبة فى القرن الرابع عشر

الصرح الضخم الدخيل، وندمه على ما أذن به، وينسب اليه قوله للمسئولين عن التشويه .

«لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر، وقضيتم بذلك على ما كان فى العالم اثرا وحيدا».

ومن سخرية الأقدار أن قرطبة التى كانت حاضرة للخلافة فى الأندلس زهاء قرن من عمر الزمان .

تحولات

قرطبة هذه التى كانت أكبر مدينة فى أوروبا الغربية بعدد سكانها (نصف مليون) ومساجدها (خمسمائة) وحماماتها العمومية (ثلاثمائة) ومكتباتها (خمسون) وشوارعها المعبدة المضاءة بالفوانيس، والممتدة أميالا، قرطبة هذه التى كانت احدى المراكز الكبرى للثقافة فى العالم القديم، وشأنها فى ذلك شأن القسطنطينية وبغداد .

وكانت ذات رنين فى تاريخ الحضارات، ومصباحا منيرا فى عصر كانت فيه اوروبا تعمه فى الظلام .

الآن لا تعدو أن تكون مدينة بأحد أقاليم اسبانيا، سمى بالأندلس (اندالوسيا) ، يؤمها السائحون من كل فج عميق .

ولربما ، لولا جامعها، لكانت نسيا منسيا وقبل وصولنا إليها، كنت اظن انها عاصمة هذا الاقليم.

ولكن، تبين لى،وأنا فى دهشة من الأمر، ان عاصمته اشبيلية المطلة على نهر الوادى الكبير مثلها فى ذلك مثل قرطبة، وان كانت اقرب منها الى مصبه على المحيط.

آثار وثيران

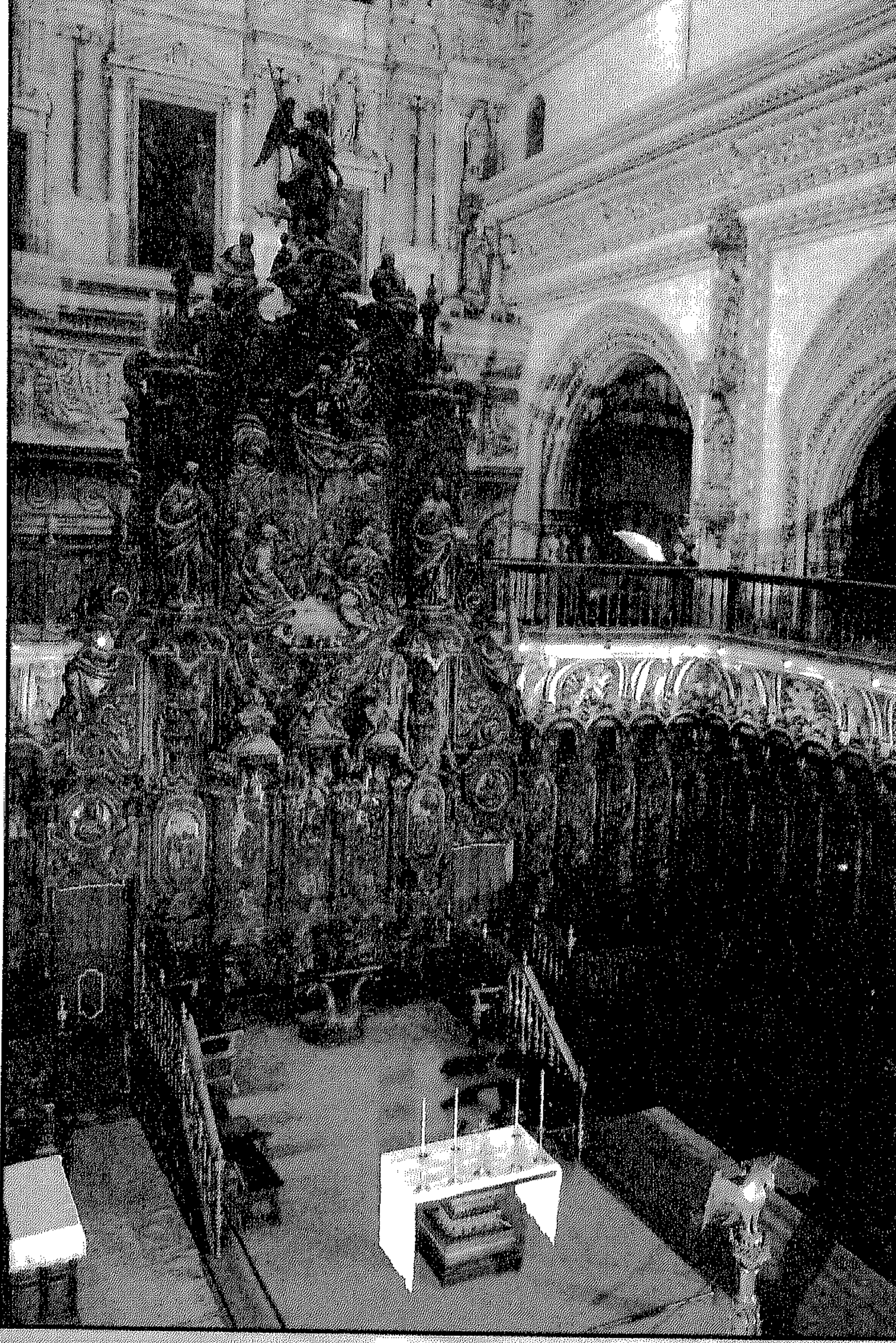
ومن أهم معالم اشبيلية كاتدرائيتها التى تعد واحدة من أكبر وافخم كنائس العالم، احتلت مكان المسجد الجامع الذى هدم وقوض، فيما عدا صومعته، أى منارته أو مئذنته، التى وسطت واستبدل ببعضها الأعلى عمارة للناقوس، يعلوها تمثال يدور مع الريح، دوران التاريخ فى اسبانيا، ذلك البلد الذى تحول من المسيحية إلى الاسلام، ثم عاد فارتد اليها بعد حوالى ثمانمائة عام.

وبداخلها يوجد قبر الملكين الكاثوليكيين فردناند وايزابيلا، وجدث كريستوفر كولومبس ابن جنوا، ومكتشف العالم الجديد.

والى جوار الكاتدرائية يقع القصر الملكى، ويعد، والحق يقال، اية من آيات جمال المعمار.

ساعة قضيناها فى هذا القصر، ننتقل من قاعة الى قاعة، ننتقل بذلك من





عرش كبير الأساقفة بكاتدرائية قرطبة

جو الى جو، ويثور فكرنا حينا، وتثور عاطفتنا حينا آخر، عندما نرى التعديلات والتحويرات والإضافات التى جرى إدخالها على القصر عقب سقوط اشبيلية (١٢٤٨)، فشوهت بعضه، مثلما شوه جامع قرطبة، بعد الاسترداد.

وحاليا تعتبر اشبيلية مدينة مصارعى الثيران.

وفيها تقع احداث كل من اوبرا كارمن، بموسيقى جورج بيزيه .

وأوبرا حلاق اشبيلية ، بموسيقى روسينى وأوبرا زواج فيجارو بموسيقى موزار وكما هو معروف ففيجارو هو حلاق اشبيلية رب الحيل.

ومن حيل التاريخ تحول تلك المدينة الاسطورة الى مكان لايشتهر الا بفضل بقايا آثار، ومصارعة الثيران واوبرات لثلاثة من اشهر الموسيقيين، ليس بينهم اسبانى واحد!!

ومن عاصمة اقليم الاندلس توجهنا الى جرانادا، حيث نهاية المطاف .

قصر القصور

وما أن اقتربنا من مشارفها، وبانت لنا مبانيها من بعيد، حتى أطلت علينا مرتفعات قصر الحمراء .

وطبعا كان القصر كعبتنا. وما أن دخلنا حديقته مع حشد من السائحين، حتى مررنا بالقصر الدائرى، الذى اقامه الامبراطور شارل الخامس مزاحما قصر بنى الأحمر، مع انه القائل يوم أطل من على رياضه ومياهه الجارية «ما أتعس من شاء له حظه العاثر فقدان كل هذا، مشيرا بذلك الى ابى عبدالله آخر ملوك زهرة مدائن الأندلس .

والقصر، كما قال المستشرق الاسبانى «اميليو جارثيا جومث» ليس اجمل القصور العربية القديمة فحسب، ولكنه اكثرها احتفاظا برونقه، واقدمها، بل هو الوحيد الباقى من العصر الوسيط».

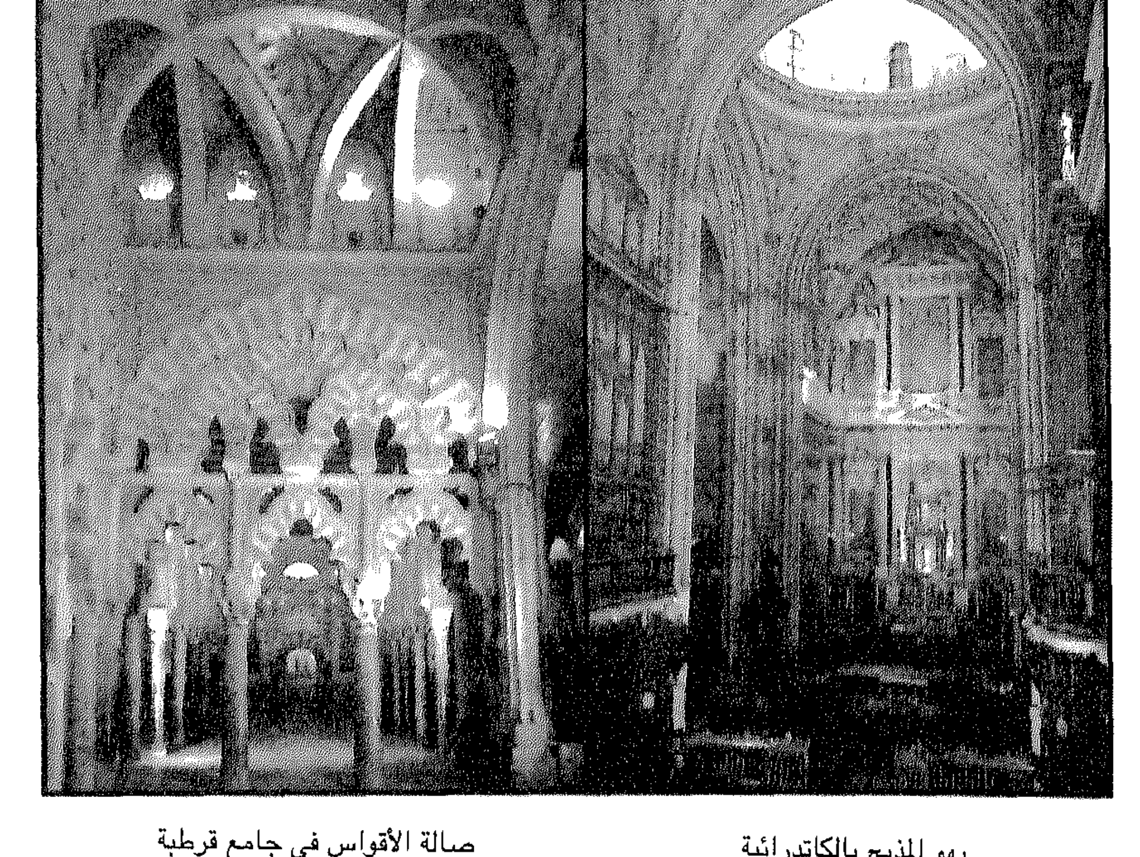
كم هو جميل انسياب الماء من افواه سباعه، وخريره فى القنوات.

وكم هى جميلة صور سقوفه وحلياتها، وتيجان عيدانه، وزخارف اركانه وحيطانه.

مسك الختام

حقا كان خاتمة ساحرة للفن الأندلسى، فى عصر كان ينذر بغروب الدولة، تقوضت دعائمها، وانتزع الاسبان اوراقها التى أخذت تذبل وتسقط مثل أوراق الخريف، انتزعوها بقوة ، انتزعوها بالارادة والتماسك والمثابرة فى مقابل خلافات الأندلسيين، عربا يمنيين وشواما وبربرا وموالى، وتطاحنهم، واستعداء





بهو المذبح بالكاتدرائية

صالة الأقواس فى جامع قرطبة

عدوهم المتربص بهم، يصوب بعضهم بالبعض حتى يزيدهم فرقة وانقساما .

قضينا يوما بطوله، فى قصر الحمراء وأبراجه وسوره نستمتع بلون حجراته، وبموضعه فوق الهضبة، وبأبراجه السامقة العارية، وبرياضه.

لا غالب إلا الله

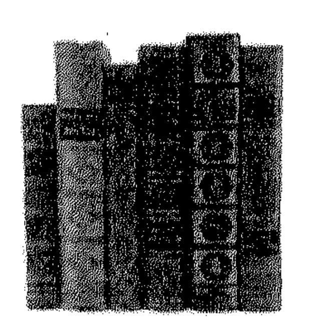
ومما استرعى انتباهنا شعار اخذ يتكرر مئات المرات وسط زخارف القصر «ولا غالب الا الله» فى كافة الأوضاع والأشكال، فى دوائر وبيضاويات ومربعات ومستطيلات.

ولم نضق ذرعا بهذا الترداد للشعار الذى ادى دوره الزخرفى أحسن الأداء.

وبينما نحن نغادر القصر، تذكرت كيف استحال الوطن الأندلسى، وهو فى مرحلة الغروب، الى رقعة متواضعة، هى مملكة غرناطة، ومرثية شاعر العصر ابو الطيب صالح بن شريف الرندى .

لكل شىء اذا ما تم نقصان
فلا يعز بطيب العيش انسان
هى الامور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته ازمان

تذكرت كل هذا، وهمست الى نفسى كفى حزنا، وبكاء على حليب مسكوب.. كفى!! ■





الحماسة البصرية

تأليف: أبو الحسن على بن أبى الفرج البصرى

بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

لم يرزق كتاب «الحماسة البصرية» كفْله الواجب من العناية كما رزقت «حماسات» أخر، وحقها ذلك الرزق الذى تيسر لها على يد جلة من العلماء والمحققين قديما وحديثا، كحماسة أبى تمام، والحماسة الصغرى، وحماسة البحترى، وحماسة ابن الشجرى.

وبقية هذه القائمة من الحماسات وماهو من طرازها أو قريب منها مثل كتب المختارات الشعرية، حتى فى العصر الحديث حين نشرت «الحماسة البصرية» قبل هذه النشرة كانت شيئا رديئا لا يجوز الاتكاء عليه أو الثقة به .

المؤلف

أما الغبن الذى لحق بمؤلفها، فشىء غريب، وقَدْك أن المحقق أجهد نفسه فى التنقير عنه، فلم يظفر بكبير طائل، إلا مايكون من طراز التقريظات، والجمل المدحية التى لا تفيد غناء، ولعل اسمه هو الذى نجا من غيلة النسيان، فهو أبو الحسن على ابن أبى الفرج البصرى، ويعجب المحقق كيف أهمله أصحاب التراجم، ولم يكن الرجل نكرة، وإن كان قد عثر على اثنى عشر تقريظا ألحقها - مشكورا - بآخر الكتاب، وهى كما قلت جمل متشابهة تكرر نظائرها فى ترجمات أخرى، وحسبك أن ترى مصداق ذلك فيما يقوله ابن العديم عن البصرى : «الشيخ الأجل الكبير الفاضل العالم الكامل، جامع أشتات الفضائل.. لسان الأدب، وحجة العرب، الراقى فى مدارج العلوم إلى أعلى الرتب...» والمؤرخ صديق ومعاصر للبصرى ومع ذلك لم يذكره فى تاريخ حلب، وهما «بلديان»، لا أود أن أقول: إن المعاصرة حجاب، ونفس المؤرخ على الأديب، غير أنى أضيف إلى عجب المحقق - إبراء للذمة - أن تاريخا أو جزءا من ذلك التاريخ لم يصل إلينا، وفيه ترجمة للبصرى، وإذا طبقنا مقاييس العصر الحاضر فربما لا نجد

ذكرا فى كتب النقاد لبعض الشعراء الذين ليسوا من سنْخ هؤلاء النقاد، فابتلعوا ألسنتهم، وربما يرد على الخاطر هنا الدكتور محمد مندور الذى أرخ للشعر المصرى بعد شوقى، وأغفل شعراء لهم وزنهم لاختلاف الاتجاه، مثل أحمد مخيمر مثلا . فهل نقيس الحاضر على الماضى، ونرى لدى ابن العديم شيئا من ذلك؟ لكننا لا نسير فى هذا التساؤل الى النهاية، لأن مؤرخ حلب قرظ «بلديه»، وإن كان لم يؤرخ له، مع أنه أرخ لرجال أقل شأنا منه ـ كما يقول المحقق - وأغفله كذلك ابن خلكان وهو معاصره، ولم يستدركه ابن شاكر فى «فوات الوفيات» ويتجاهله الصفدى فى «الوافى بالوفيات»!!

حتى تاريخ وفاة البصرى لم يتم تحديدها بدقة، مع أن الأمة العربية تهتم بتاريخ «الوفيات» أشد من اهتمامها بتاريخ الميلاد، لأن الذى يكون من غمار الناس ويشتهر تعرف وفاته أكثر مما يعرف ميلاده، حتى محقق الكتاب أصلح تاريخ الوفاة على صدر كتابه «المتوفى بعد سنة ٦٥٨ هـ» بدلا من ٦٥٦ هـ، الممهور بها الكتاب، فهل بعد ذلك غبن لرجل قرظه اثنا عشر عالما من خيرة علماء الأمة!!

كان الرجل فى زمن الفتنة المبيرة، وعاش لحظاتها الأخيرة، من هجوم التتار الكاسح على الديار الإسلامية بغداد وبلاد الشام، وقتل الملك الناصر فى الهجوم على حلب، وقيل إن البصرى كان مع الملك وقتل، مع أن هذا الرأى مرَّض فيه المحقق، ورجح أن وفاته بعد سنة ٦٥٨ هـ.

منهج المحقق

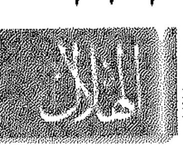
وقف عادل سليمان على نسخ كثيرة من المخطوطة مابين خطية ومصورة، بلغت ثلاث عشرة، عرف أكثرها، واعتمد ثلاثا هى: نسخة راغب باشا، وكانت فى حياة المؤلف، وهى العمدة، ونسخة عاشر أفندى ونسخة نور عثمانية، وللمحقق كلام جيد عن هذه النسخ وغيرها، لا يجزئ عنه كلامنا.

وعادل سليمان خلق ليكون محققا، فالمخطوطات عشقه أخلص لها فأخلصت له، وأفضت إليه بمكنون أسرارها ولديه قدرة فذة على قراءة خطوطها، واقتراحات القراءة، يجيل بصره فى النص فيدرك زبدته، ويعرف غثه من سمينه، وقد سلخ من عمره سنوات، لا يكل ولا يفتر عن جهد ، وصبر، وربما يفتى بعضنا عفو الخاطر، لكنه ـ وهو المحقق ـ يبحث فى المظان، عارفا بواطنها المضنونة بها على غير أهلها، ومنهم عادل سليمان، ومحمود الطناحى ـ نور الله ضريحه .

أهمية مختارات البصرى

أفاد البصرى من مختارات سابقة، أو من حماسات سالفة أقربها إليه حماسة أبو تمام ـ لا أحب إعراب الكنى، إنما أبقيتها على حالة واحدة - وكسرها على أربعة عشر بابا هى الحماسة ـ المديح ـ الرثاء ـ الأدب ـ النسيب ـ الأضياف ـ الهجاء ـ مذمة النساء ـ الصفات والنعوت ـ السير والنعاس ـ الملح والمجون ـ ماجاء فى أكاذيبهم وخرافاتهم ـ ملح الترقيص ـ الزهد والإنابة .

ولعل هذه هى أبواب الشعر وأغراض القول، وإن كانت بعض الدلالات تختلف ،



فالأدب - مثلا - يعنى التخلق بمكارم الأخلاق - ولعل المؤلف أيضا لم يخرج عن الإطار العام الذى تختم به الكتب عادة وهو الزهد والإنابة، أو ما كان يسميه الشعراء والوشاحون الأندلسيون. الممحصات، والمكفرات لكننا نلمح إلى أى مدى كان العالم المسلم - والصالح منهم - لا يتورع عن ذكر الملح والمجون والترقيص، وفي الأخير شعر لن تسمح به الأعراف التى تواضع عليها من يخونونها فى وحدتهم، وحسبك أن ترقص امرأة «هنها» بكلام راقص، لن يزيد من عدد الطالحين واحدا، أو امرأة ترقص ولدها متمنية أن تراه يقعد مقعد الرجل من المرأة بكلام صريح، تلك أيام قد خلت حين كان بنيان الأمة قويا غير وهنان لا تؤثر فيه مثل هذه الأفاكيه، يفتح صدره وعقله للرياح فلا تعصف به، بل يقابلها ببسمة وحسبها هذا .

والبصرى - وإن تقبل حماسة أبو تمام - خرج عنه مستقلا ومستّنا طريقه، إذ أضاف ثلاثة أبواب هى الأكاذيب والخرافات وملح الترقيص والزهد والإنابة، وتوسع فى الملح ضاماً إليها المجون، كما أنه يطيل أحيانا فى مختاراته ويذكر مقطعات بينها صلة ما، مثل تشابه المعنى، وتداخل الشعر، أو لأدنى ملابسة، وإن كان يخرج عن الباب.

والمختارات - عامة شعرية ونثرية - أحدث صيحة الآن، وتقذف المكتبات العربية والعالمية بأعداد وفيرة منها ، وهى طريقة قديمة عرفها العرب بكل أنواعها، تدل على ذوق المختار، وذوق العصر، والقارئ الذى تتوجه إليه، وحفلت المكتبة العربية - حتى فى العصر الحديث - بنماذج جيدة منها ، وإن كان بعضها يختار من الشعر الإنسانى كله منتخبات، وربما كان صنيع العقاد فى «عرائس وشياطين» دليلا على ما نؤم .

وحماسة البصرى تكاد تبلغ ضعف حماسة أبو تمام واعتمد المؤلف على دواوين ومجاميع شعرية، بعضها حفظته الأيام، وبعضها سقط من ذاكرتها، ولولا البصرى ماوقفنا عليها، وتبلغ القصائد والمقطعات فى هذه النشرة تسعا وسبعمئة وألف قصيدة ومقطعة.

والمحقق يقف على هنوات للمؤلف يفردها بالذكر، سواء أكان ذلك فى المنهج، أم فى نسبة الشعر، وروايته، ناخلا الآراء المبثوثة، فى تجرد وحيدة دون أن يصيبه ما يصيب المحققين والمؤلفين عادة من الانحياز لموضوع درسهم، وكان هذا ديدنه - ولا يزال - منذ طراءة السن، وشرة الشباب التى تدفع إلى الحماسة، لكنها كانت حماسة موزوعة فى كل حال.



أضاف عادل سليمان زيادات نسخة عاشر أفندى، وزيادات نسخة نور عثمانية فضلا عن التقاريظ، لكن الشيء الضخم - والعمل كله ضخم - وصل إلى ٢٢٨٦ صفحة من القطع الكبير - الذى عاناه المحقق هو تلك الفهارس الجامعة التى تنوء بها العصبة من الرجال، فى زمن لم يكن يعرف الآلات الحاسبة والدقائق التكنولوجية بلغت ستة عشر فهرسا نذكر منها فهرس الأشعار، والشواهد، والشعراء والأعلام : الأفراد والأمم والقبائل، والخيل، واللغة وهو أضخم هذه الفهارس وأنفسها شأنا ، وفيه من الغريب والغرائب ما يجب الوقوف عنده، وفهارس النحو وضرائر الشعر وفيها كلام جيد، وقد صحح كثيرا من الأوهام اللغوية ومن نسبة الأبيات ومن صوابها ورواياتها المتعددة، ومن هذه التصويبات نسبة الأبيات المشهور نسبها إلى عوف بن محلم الشيبانى وفيها :

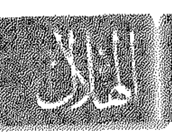
إن الثمانين - وبلغتها - قدأحوجت سمعي إلي ترجمان

حيث عزاها إلى سميه «عوف بن محلم السعدى»، وهو عباسى بينما قرينه جاهلى،

وقبل هذه الفهارس ثمة شرح للقصيدة أو المقطعة مقترن بها فى الهامش مع ترجمة للشاعر وتخريج لأبياته.

وناقش عادل سليمان الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عز الدين إسماعيل مناقشة موضوعية، رائدها البحث عن الحقيقة، حين هوّن الأول من قيمة الحماسة البصرية، وأنها من جملة الحماسات الكثيرة، ورد المحقق هذه النظرة بأن البصرية أضافت واحدا وخمسين شاعرا وست شواعر إلى ما نعرفه من الشعراء القدامى وحسبها هذا، ورد على تهوين عز الدين إسماعيل من مؤلف الحماسة البصرية، فى اختياره أبياتا مفردة، مع أنها قليلة جدا كما أحصى المحقق بلغت ثلاثة مواطن فلا ينبغى اتخاذها ظاهرة ، مع أن المثال الذى ذكره عز الدين مقترن ببيت آخر فى نسخة راغب باشا، وثمة ملاحظة أخرى لعز الدين حول بعض الأبيات المختارة مرتثيا غثاثتها، ورد عليه المحقق مفصلا القول فى الغرض الذى تساق فيه الأبيات من الهزل والمجون، ويقتضيان مهيعا من القول غير جادّ الأغراض ورصينها، فضلا عن أننا نرى أن ذوقنا لا يجب أن نسحبه على ذوق الأعصار الخوالى، فربما يكون ما نستهجنه ممدحا لدى القدماء ، دون أن يعنى ذلك عدم نقد ذوقهم فنجن نملك من الحرية ما يملكون، ولنا أن نرى فى الشعر غير ما يرون، لكن المثل الذى سيق هنا مستهجنا، يجب وضعه فى إطاره الماجن العابث الذى يشد لحية المتحنثين الذين يجبرون الشاعر المجهول على تعلم القراءة والمواريث، ولعله كان أميا، أو عالما بالقراءة والكتابة يتعابث بلحى الحمقى كما يقول المتنبى فى «قافيّته» الذائعة.

ومادة الكتاب مشرقية، بل هى فى جملتها جاهلية وإسلامية، وأموية نادرا، وعباسية من ندرة الندرة، بل إنه بعد النسخة الأولى حذف من تاليها كثيرا من أشعار المتأخرين، وأتى بها المحقق فى الزيادات، ولسنا ندرى سر هذا الاختيار، مع أنه متأخر زمنا عن أبو تمام مثلا (٢٣١ هـ) والتالين له، فإذا كان لهؤلاء مندوحة فى وقوف اختياراتهم عند أمد محدد فما مندوحة البصرى، إلا إذا كان يرى الفضل للمتقدم، أو استن طريقة الاستشهاد الأدبى مثل عصر الاستشهاد عند النحاة، وكان يمكن أن تكون اختياراته إضافة متميزة عن سابقيه لأنه من المتأخرين حيث خنق منتصف القرن السابع، وقبله قرون عديدة تتراحب فيها الاختيارات، التى لم تذكر المحدثين إلا لتشابه معانيهم بمعانى المتقدمين أو صلتها بها، ويزيد العجب أكثر أن يتجاهل الأندلس تماما، إلا من ذكره يوسف بن هارون الرمادى، وأسقطه فى نسخة تالية، لقد أخذ المشارقة على ابن عبد ربه مادته المشرقية ـ فى أغلبها ـ وقالوا : بضاعتنا ردت إلينا،ما باله يسقط أقاليم متعددة تسمى المغرب الإسلامى وفيه الأندلس والبرتغال ـ حاليا ـ وفيه شعراء من عصر بنى أمية ومن بعده أجادوا وظفروا باستحسان المشارقة حتى إن المتنبى يقول لصاحبه : أنشدنى لمليح الأندلس يعنى : ابن عبدربه .



السرقات الأدبية

ومختارات البصرى – كغيرها – بابة كبيرة لدراسة ما أسماه القدامى «السرقات الأدبية» بتفريعاتها المتعددة، أو مايسمى حديثا «التناص» وإن كان صديقى محمود الطناحى ـ رحمة الله عليه ـ ينكرها مستثقلا، لأن ورود المعانى المتشابهة – خاصة فى الحماسة البصرية – متعاقبة ومنصوصا عليها تفتح مجالا للدرس النقدى عن أصالة الشاعر، وتطور المعانى الشعرية، وصياغتها، والأخذ الخفى لشاعر من شاعر سالف، وتصريف الكلام، وحسن التأتى أو سوئه، وقد وقفنا أثناء القراءة على كلام حسن للمؤلف

والمحقق، وربما كان رثاء أبو تمام لمحمد ابن حميد الطوسى فى «رائيته» المشهورة وسلخه بعض المعانى بل الأبيات الكوامل من شاعر غير معروف هو «أبو مُكْنف» من هذه البابة وقد فطن دعبل الخزاعى إلى ذلك وإن كذب الناس دعبلا، والقضية لها نظائر فى الحماسة، وتحتاج الى تقص رحب، ربما يصلح مجالا لدراسة جامعية شريطة أن يكون الباحث من الحفظة لا من أشباه الباحثين هذه الأيام.

هل برئ هذا السفر الضخم مما يمكن أن تختلف حوله وجهات النظر؟ لا نعتقد، وإن كان هذا الاختلاف يسيرا، يقف فحسب لدى الجزئيات، وربما كان الوقوف عندها من التحنث والتنطس الذى لا يريغه إلا أمثال عادل سليمان، حيث يأخذ نفسه بكثير من الحرج العلمى المحمود، وبسعة الصدر التى ترى الاختلاف فطرة إنسانية، بأصل الخلقة قبل الاتفاق، ولماذا ندور ونداور حول الاختلاف، وعادل سلميان نفسه فى خاتمة مقدمته المسهبة قال : «يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشريها بذكر ما يراه فيها من أخطاء لتخلص من شوائب التحريف والتصحيف الذى منيت به وتخرج للناس صحيحة كاملة»، وهو يحتذى فى ذلك شيوخ المحققين فى عصرنا الذين لا تأخذهم زعارة خلق، ولا عزة بالإثم، كبعض خفاف المحققين من الجامعيين وأشباههم، لكننى معتقد أن فى بعض ما أذكره يمكن عزوه إلى أخطاء الطباعة، وهى مما عمت بها البلوى؛ ورد ص ٥٣٠ بيت حاتم الطائى «الخالطون» وحقها النصب بالياء، وإن كان للرفع وجه، على تأويل نحوى، لا نلجأ إليه إلا لضرورة، وفى ص ٥٣٥ فى الحاشية بيت هو :

قد رضيناه فمت بدائك غيظا لا تميتن غيرك الأدواء.

وصوابه حذف الهاء فى «رضيناه» أو بقاؤها مع حذف الفاء بعدها.

- ورد بيت الأعشى الهمدانى :

أيها القلب المطيع الهوى
أنى اعتراك الطرب النازح

وهو من السريع، صوابه «يا» للنداء، وإلا كان صورة من المديد، والقصيدة كلها من السريع .

- ورد بيت خزيم بن أوس ص ٥٨٩، وهو مع الأبيات للعباس بن المطلب كما استظهر المحقق، وشرحها محمود الطناحي فى مقالة له بالهلال :

أنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاقت بنورك الأفق

وهو من المنسرح، صوابه «وأنت» وربما صح على نية الواو، غير أنى لا أسيغ حذفها، ولو كان لها تأويل عروضى كالخرم.

- أبيات تنسب لآدم ص ٦١٠ وهو منها براء، وحسبها الإقواء الذى فيها، وهى «حائية» مضمومة الروى، فيها «وقل بشاشة الوجه المليح» وحقها الكسر على الصفة، ورأى لها أبو سعيد السيرافى وجها هو نصب بشاشة وحذف التنوين وهى حجة نحوية عروضية داحضة وإن كان المحقق استظهرها وأنا مع المعرى فى روايته «وغودر فى الثرى الوجه المليح» وهى وجهة شاعر لا نحوى، ومعروف أن المعرى من شيوخ اللغة والنحو والعروض فرأيه أولى وأشعر، وإن كانت الأبيات كاذبة النسبة لآدم .

- ورد شعر لصالح بن عبدالقدوس ص ٨٧٣ .

رأيت صغير الأمر تنمي شؤونه فيكبر حتي لا يحد و يعظم

وورد شبيه له فيما بعد «فكيف كبرت ولم تكبرى». والفعل على وزن فهم بكسر العين وفتحها فى المضارع من استعلاء السن، أما أن يعظم فهو من باب «عظم» ومنه قوله تعالى :

«كبر مقتا عند الله».

- ص ١٠٠٢ ورد بيت قيس بن الخطيم :

رد الخليط الجمال فانصرفوا

ماذا عليهم لو أنهم وقفوا

ذكره المحقق بتسهيل همزة «انهم» كأنه ارتأى أن الوزن يستوجبها مع أن الوزن يصح بتحقيق الهمزة، وعليه فالروايتان صحيحتان من المنسرح.

- ص ١٠١١ ورد بيت مضرس بن قرط المزنى :

فمت كمدا أو عش وحيدا فإنما

أراك تكلفني مالا أراك تطيق

وصوابه حذف «أراك» الأول وهو من الطويل .

- ورد ص ١٠١٥ بيت سوادة بن كلاب القشيرى :

لو سألت للناس يوما بوجهها سحاب الثريا لاستلهت مواطره

ولعل الصواب زيادة «واو» أو «فاء» في أول البيت، بدلا من اللواذ بالخرم وهو زحاف نستهجنه وإن كان واردا، ونرى أيضا قلقا فى «للناس» بحرف الجر، وربما كانت نسخة «ع» اضبط حين قالت الرواية «سألت ظمياء» .

- ورد ص ١٦١٤ بيت يقول :

ترفع الصوت أحيانا وتخفضه

كما يطن ذباب الروضة الهزج

ولعل الصواب «ترفع» بتضعيف الفاء، أو بزيادة «فاء» أوله وهو من البسيط، ويراعى فك التضعيف فى الفعل «تمشط» فى ص ١٦٤٢، وفى الأبيات كلام جيد يحرج إخواننا المتوقرين، لكنه صادق وبرىء.

- ص ١٦٧٠ تحذف الفاء من البيت الثالث وهو من المنسرح، كما تحذف «الواو» من البيت الأول ص ١٦٧٣ ، وهو من المنسرح كذلك، وتضاف «واو» فى البيت الثانى ص ١٧٥٣ ليستقيم الوزن وهو من الطويل.

وثمة أوهام قلائل يصح عزوها إلى الطبع والتصحيح، أو قراءة الفكر والذاكرة لاقراءة العين الباصرة، وكلها مما كتب على المرء من النسيان والسهو والغلط، وما نجا منه أحد، وحبذا لو نشر المحقق الكريم دراسته الوافية عن الكتاب فى جزء مستقل، ليكتمل العمل درسا وتحقيقا ، لكنه مع أخواته السالفات بناء شامخ فى التحقيق يشهد لعادل سليمان بعلو كعبه فى الفهم والتذوق، ونخل الكلام، وأنه امتداد كريم لتلك الذؤابة الكريمة من شيخة المحققين الكبار شاكر وهارون، وأنه قرين كريم لصنوه الراحل العلامة محمود الطناحى .

ولعل هذه الحماسة تذيع بين جمهرة القراء والأدباء والمتأدبين ، فتحتل مكانتها ومكانها بين أبناء العربية الأصلاء، لا أبناء اللغو والمجانة من أدعياء الأدب والأدباء. ■

دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

وموضوعية كتابة التاريخ

بقلم
د.عاصم الدسوقى

فى ٢٥ مارس ٢٠٠٢ رحل عن دنيانا الاستاذ الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى استاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة عين شمس .. وهذه كلمة من أحد تلاميذه وفاء وعرفانا فى زمن انتفت فيه المبادىء وأصبحت العلاقات - على الأرجح - تقوم على المنافع والمصالح .

لم يكن أحمد عبد الرحيم مصطفي أستاذا جامعيا تقليديا، يلقي دروسه علي الطلاب وينصرف إلي بيته عائدا في سلام واطمئنان بعد أداء الواجب ، بل كان أستاذا متميزا في أدائه ، ومتفوقا في علمه ، ومبدعا في أفكاره .

عندما رأيته للمرة الأولى فى العام الدراسى ١٩٥٧/١٩٥٨ ، وأنا طالب بالفرقة الأولى بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس ، كنت قد تركت لتوى مقاعد المدرسة الثانوية ، وكان عائدا لتوه من بعثته للدكتوراه بجامعة لندن ، حيث أعد أطروحته عن «مصر والمسألة المصرية ١٨٧٦ - ١٨٨٤» وساعتها أدركت الفرق بين المدرسة والجامعة . وقد انبهرت به مثلما انبهر به غيرى من زملائى .. شاب فى عنفوان الشباب .. رأسه مزدحم بالمعلومات والأفكار ، يلقيها فى

عبارات متدفقة سهلة دون عناء ، ونحن نكتب وراءه ما نستطيع أن نلتقطه من هذا الفيض .. متوهج الحماسة .. يعشق المحاضرة ، حتى لقد كان يتجاوز الزمن المخصص لها ، ولا يتوقف إلا عندما نحتج بأن هناك محاضرة تالية ونريد بعض الراحة ، فيتركنا غاضبا غضبا أبويا ، ويودعها بعبارات من اللوم فيها من السخرية الشيء الكثير .



ما الذى جعلنى وزملاء آخرين نتعلق به ، وننتظر محاضرته من أسبوع لأسبوع ؟! .. هل لأسلوبه فى المحاضرة وإشراكه لنا فى بعض ما يطرحه من مسائل وتقبله ردودنا الساذجة أحيانا ، وهو ما كنا نفتقده فى الأساتذة الآخرين رغم شموخ قامتهم العلمية ؟! .. هل لشعورنا بأنه أقرب إلينا بحكم العمر من الآخرين ؟!

عندما التقينا به مرة أخرى فى الفرقة الثالثة ، كانت مدار كنا قد اتسعت قليلا وأصبحنا نتفهمه أكثر ، ودخلنا معه فى محاورات سياسية حول ما كان يدور على ساحة العمل السياسى المصرى والعربى والدولى . وقد اختلفنا ، وكان لابد من الاختلاف الذى ينشأ بين جيلين ذوى تكوين مختلف . وكانت السنوات من ١٩٥٧ - ١٩٦١ ، قبل أن نترك مقاعد الدراسة إلى الحياة العملية ، هى سنوات التحول الخطيرة فى مصر اقتصاديا وسياسيا ، من حيث معارك التنمية ، ومعارك التحرر الوطنى والاجتماعى ، ومجابهة الاستعمار العالمى والصهيونية . وكان أحمد عبدالرحيم مصطفى يترك موضوع المحاضرة ويحول القاعة إلى ندوة فكرية بعض الوقت ، يعود بعدها إلى موضوعه خوفا علينا من الملاحة فى البحار الصعبة الصاخبة الموج .

وعندما أعددت رسالتى لدرجتى الماجستير والدكتوراة تحت إشرافه عرفته عن قرب . وكانت الفرصة متاحة أكثر للتعرف على أفكاره دون تحرج ، وعلى آماله فيما يتعلق بالواقع السياسى . كما كانت فرصة للتعرف على الجوانب الانسانية فى شخصيته . وقد اكتشفت فيه شخصية العالم المتواضع الذى يعرف الكثير ولا يباهى أقرانه بما يعلم ولا يتعالى عليهم . ورأيته يسمع أفكاره تتردد على لسان غيره وأمامه لكنه يأبى إحراجهم ، ولا يفكر ولو للحظة فى أن يذكرهم بأن هذه فكرته ، ويخجل أن يصوب أخطاء الآخرين

أمام الغير ، ويؤجل ذلك إلى حين ينفرد بالمخطئ بعيدا عن أعين الآخرين .

لم يضع أحمد عبد الرحيم مصطفى نفسه أبداً في موضع المقارنة مع غيره ، ولم يداخله يوما إحساس الغيرة القاتلة تجاه الآخرين من الذين اعتلوا المناصب وسلطت عليهم الأضواء وهم أقل منه كثيرا وكان يردد أمامي قول الشاعر :

تقدمتني أناس كان خطوهم
وراء خطوى لو أمشى على مهل

كان الرجل حريصا على قيمة الاستقلال الفكرى ، وقد أدى هذا الحرص إلى نجاته من التبعية السياسية أو الفكرية فكان ناقدا لكل النظم السياسية التي عاصرها وكان سعيدا بذلك . وقد انعكس هذا الحب لقيمة الاستقلال الفكرى على تلامذته انعكاسا إيجابيا فلم يتحولوا إلى تابعين له أو لغيره .

وقد ترفع عن المناصب واعتبرها إضاعة للوقت فهى تشغله عن القراءة همه الأول . ولم يسع إلى دائرة الضوء الإعلامية ، ولم يكتب في الصحف والمجلات السيارة إلا بدعوة، وإذا كان الموضوع يصادف اهتماماته . وهكذا انصرف من بداياته إلى القراءة وهضم ما يقرأ واحتفظ بذاكرة قوية بعناوين الكتب وأسماء مؤلفيها ، بل وبعض العبارات التى لفتت انتباهه ، فازددنا ارتباطا وإعجابا ، وأصبح بالنسبة لجيلى نموذج الأستاذ الجامعى الذى نتطلع إلى محاكاته .

عندما غادر أحمد عبد الرحيم مصطفى مدينة سوهاج حيث ولد ، إلى القاهرة فى صيف ١٩٤٢ ليلتحق بكلية الآداب بقسم التاريخ دخل ساحة الحياة الثقافية فى العاصمة من أبوابها المتعددة . وقرأ كثيرا فى الأدب بألوانه المختلفة وفنونه ، وتأثر بتوفيق الحكيم وظل كاتبه المفضل حتى أن أولى كتاباته بعد حصوله على الماجستير كانت فى عام ١٩٥٢ عن «توفيق الحكيم : أفكاره وآثاره» . ومن الواضح أن قراءاته الواعية فى الأدب بألوانه المختلفة زودته بثروة لغوية هائلة ، بدا تأثيرها فى طريقة عرضه للوقائع التاريخية المعقدة ، حيث يعرضها بأسلوب شائق جذاب فيه من تنويعات اللغة والعبارات المركزة ، ما لا يشعر القارئ بالملل أو بالسأم ، بل إن القارئ يجد نفسه وقد انسحب إلى عالم الكتاب فى

شوق وبهجة ليحقق متعة عقلية وروحية معا .

ومن يتأمل كتابات أحمد عبدالرحيم مصطفى فى التاريخ يجد أنها تتعلق بقضايا شائكة ومسائل جدلية ، سواء أكانت عن شخصيات بعينها أو عن تجارب معينة ، ويتناول كلاً منها تناولا جديدا مستندا إلى معلومات وثائقية ، حيث أنه من مدرسة تعلمت «أنه لا تاريخ دون وثائق» ، ومن ثم كان يخشى أن يتناول موضوعا ما دون مصادر، ولهذا لم ينزلق إلى الكتابة عن الحوادث المعاصرة لأنها مجرد وقائع سياسية غير منتهية، ويكتفى بالتعليق على ما يدور فى جلسات (سمنار) التاريخ الحديث بآداب عين شمس أو ونحن جلوس بالمقهى . وكان شديد الضيق بمن يطلق أحكاما دون سند ، ولا يستريح لمن يتعجل من تلاميذه الشهرة، وينصح دائما بالتريث فى الكتابة فى الصحف وفى الاشتراك فى الندوات العامة أو المتخصصة إلا بعد فترة من القراءة المستمرة حتى يكون للمشاركة معنى . وكثيرا ما كان يردد مقولة عباس العقاد أنه لكى تكتب سطرا أصيلا يجب أن تقرأ ألف سطر» . ولم يضيع وقته فى تأليف كتاب للطلاب « (كتاب جامعى) لأنه كان يرى أن مهمة استاذ الجامعة تقتصر على أن يحاضر فى المسائل الكلية العامة بالربط بين الجزئيات تاركا التفاصيل للإطلاع فى المكتبة . ولكن حين وجد محاضراته مطبوعة على ورق الاستنسل وتباع للطلاب من وراء ظهره أضطر إلى اصدارها فى شكل كتاب حتى يضبط ما بها من أخطاء .

والحقيقة أنه بعد أن عاد من بعثته فى منتصف الخمسينيات استغرق النصف الثانى منها فى ترتيب أوضاعه للتلاؤم مع الحياة فى مصر من جديد ، فاكتفى فى تلك السنوات بالمحاضرة والقراءة . وفى الستينيات كان فى أوج نشاطه الفكرى ، فكتب فى موضوعات تاريخ مصر عن «مشكلة قناة السويس ١٨٥٤ - ١٩٥٦» ، وعن «العلاقات المصرية البريطانية ١٩٣٦ - ١٩٥٦» ، و«تاريخ مصر السياسى من الاحتلال إلى المعاهدة» و«الثورة العرابية» وكتب عن إشكالية كتابة التاريخ القومى ، وعن عبد الرحمن الجبرتى ، وعبدالرحمن الرافعى ، وشفيق غربال ، وجمال الدين الأفغانى . وترجم (أصول التاريخ الأوروبى الحديث) لهربرت فيشر ، وكتاب هيلين ريفلين «الاقتصاد والادارة فى مصر فى



مستهل القرن التاسع عشر» ، وكتاب جب وبوون - أستاذه في لندن - «المجتمع الإسلامي والغرب» ، وترجم عدة فصول ضمن كتاب (مختصر تاريخ العالم) الذى أصدرته مؤسسة فرانكلين ، وكتاب «موجز تاريخ الاشتراكية» لنورمان مكينزى فى عام ١٩٦٠ قبل أن تصبح الاشتراكية منهجا للتحول الاجتماعى فى مصر . وقد استهدف من اختياراته للترجمة أن تكون فى خدمة طلاب الجامعة إلى جنب المحاضرات .

وفى التسعينيات كتب عن حركة التجديد الاسلامى فى العالم العربى الحديث ، وتطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة ، والولايات المتحدة والمشرق العربى ، وأزمة ١٩٥٨ والتدخل الأمريكى فى لبنان .

أما فى الثمانينيات والتسعينيات فنراه يكتب عن «بريطانيا وفلسطين : دراسة وثائقية» ،و ومشروع سوريا الكبرى وعلاقته بضم الضفة الغربية ، ويكتب «فى أصول التاريخ العثمانى» ، ومشروع حلف شرق البحر المتوسط ١٩٤٨ » . ويكتب أيضا عن «حفاظ العثمانيين على التراث الإسلامى» ، ومشروع اتفاقية الدفاع المشترك ١٩٤٨ . وترجم كتاب آندرو هيس «الحدود المنسية» بعنوان «افتراق العالمين الاسلامى والمسيحى فى المغرب والأندلس» .

أما مقالاته فى الصحف والمجلات وخاصة «مجلة الهلال» وأحاديثه فى الإذاعة فإنها كثيرة وغنية ، وكذا حضوره الدائم فى الندوات العلمية التى عقدت فى مصر وخارجها وبشكل خاص «السمنار» الأسبوعى للتاريخ الحديث بآداب عين شمس الذى أسسه أستاذه وأستاذنا أحمد عزت عبدالكريم .

ولقد اتبعنا بنفسه عن أنواء الحياة السياسية وصراعاتها ولم ينخرط فى الحياة الحزبية ، وآثر أن يحتفظ باستقلاله الفكرى بعيدا عن التوظيف لصالح أى قوى سياسية . وكان بتوجهاته الجديدة فى تدريس التاريخ وكتاباته يمثل مع الراحل محمد أنيس فى آداب القاهرة ما يمكن تسميته «عقلنة التاريخ» بعيدا عن وهم العاطفة والتفضيلات الذاتية وهذا ما أدركه طلاب الدراسات العليا الذين أسعدهم الحظ فى أن يتمتعوا بملاحظاته الدقيقة على ما يكتبون ويتعلمون من إشاراته الدقيقة ذات المغزى ، ولازلت احتفظ بين



أوراقى بالنسخة الخطية لكل من الماجستير والدكتوراة بما عليها من ملاحظات مدونة .

لم يخش يوما من نقد أعماله ، بل كان يشجع تلاميذه على نقد ما يكتب ويفرح كثيرا عندما يجد لأحد تلاميذه مقالة لامعة فيبادر إلى تشجيعه والإشادة به ولا يتردد فى القول بأنه استفاد منها أو أنها صححت بعض أفكاره .. الخ. وكثيرا ما ردد أن مهمة الاستاذ ليست إعداد نسخ كربونية منه بل إن تجاوز تلاميذه له يعنى أن الاستاذ نجح فى آداء رسالته . ومن هنا احتضن تلاميذه واحتضنوه ، وصادقهم وصادقوه ، وقربهم إليه وقربوه . وكثيرا ما عرضوا عليه مشكلاتهم الشخصية وهمومهم اليومية ، وكثيرا ما أشركهم فى مشكلاته وهمومه .

ورغم كتاباته الكثيرة والغنية والمتميزة إلاّ أنه كان يردد أمامنا أنه لم يعمل شيئاً .. فلما قلت له : أبعد كل ما كتبت لم تفعل شيئاً ؟ .. فيجيب : لم أكتب كل ما كنت أخطط له بسبب كثرة المحاضرات والكتابة فى المجلات وعدم القدرة على الاعتذار حتى جرفتنى الحياة الثقافية فى عجلتها .

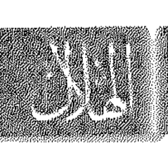
وعندما حصل على جائزة الدولة التقديرية من هم دونه فقد الثقة فى مصداقيتها وتعجب تلاميذه وعارفو فضله وقدراته ، فلما جاءته فى سنة ١٩٩٨ لم يشعر بزهوها . وكأن الجائزة كانت خاتمة لحياته إذ تدهورت صحته تدهوراً شديداً قبل ثلاث سنوات فلم يعد بمقدوره المشاركة فى الحياة الأكاديمية فقبع فى منزله يسترجع الذكريات ، ثم ضعف بصره فلم يعد يقرأ ، كما لم يكن يحتمل مشاهدة التليفزيون وكان الراديو وسيلة اتصاله بالعالم الخارجى . ثم زادت أمراضه بعد رحيل رفيقة حياته (صيف ٢٠٠٠) حتى أقعده المرض بين جدران المنزل ، وحيدا إلا من بناته وأحفاده ، وإلا من سؤال نفر قليل جدا من محبيه إذ انشغل غالبية زملائه وأصدقائه وتلاميذه بمصالحهم وانفضوا عنه حين لم يعد فى يده ما يقدمه ..

ألا ما أقسى المرض على صاحبه حين لا تكون أمامه حيلة ..

وما أقسى الموت على المخلصين والمحبين ..

وما أقسى الحياة فى زمن وغد ..

ولكن تبقى الذكرى فى وجدان كل من عرف قدر أحمد عبد الرحيم مصطفى انسانا متسامحا وعالما متواضعا ومفكرا مهموما .



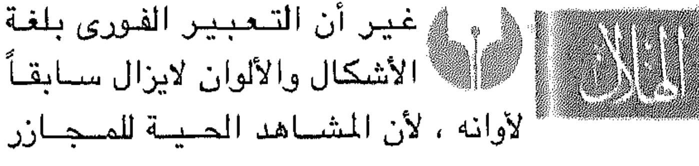


أم الشهيد
للفنان صبرى ناشد

الغضب عبر إبداع الفنانين

بقلم
عز الدين نجيب

إن أروع اللوحات هى التى صورها بدمائهم أبطال المقاومة ، وجسدها الصمود الاسطورى للشعب الفلسطينى ، فى مواجهة المجازر البربرية التى تقوم بها آلة الدمار الاسرائيلية المدعومة بقوة أمريكا العظمى ، ولقد هبت شعوب العالم - من العربية إلى القارات الخمس - تعلن غضبتها المدوية ضد هذه الجريمة الأبشع من كل ما شهدته البشرية ، كما هب الفنانون والكتاب والمثقفون - عبر هيئاتهم وتجمعاتهم - منددين بما حدث ويحدث .



الهلال
صفر ١٤٢٣هـ - مايو ٢٠٠٢م

غير أن التعبير الفورى بلغة الأشكال والألوان لايزال سابقاً لأوانه ، لأن المشاهد الحية للمجازر وصور الدمار والمقاومة تتوالى بغير انقطاع عبر شاشات التليفزيون ، فتبدو أقوى من أى تعبير فنى ، ولأن زيارة الجمهور لقاعات المعارض - التى يفترض أن تقدم أعمالا فنية بحتة - قد تبدو اليوم نوعا من الترف ، فلا مناص إذن من أن يخرج الفنان بأعماله إلى خضم حركة الجماهير ، فى الميادين والساحات والتجمعات ، بأساليب فنية قادرة على التواصل المباشر مع مستويات التلقى المختلفة ، ليس بغرض الاثارة والشحن الانفعالى ، لأن الجماهير لا ينقصها الشحن والتأجج ، بل بغرض صياغة الرمز الجوهرى لمعنى الصمود والمقاومة وتأكيد الوعى باستمرارها . وبحقيقة العدد

«الفلسطينى » فى مواجهة الآلة العسكرية كما تصوره لوحات المعرض الغاضبة



قرارات واتفاقيات وتوصيات كلهاً لم تنفذ وذهبت أدراج الرياح

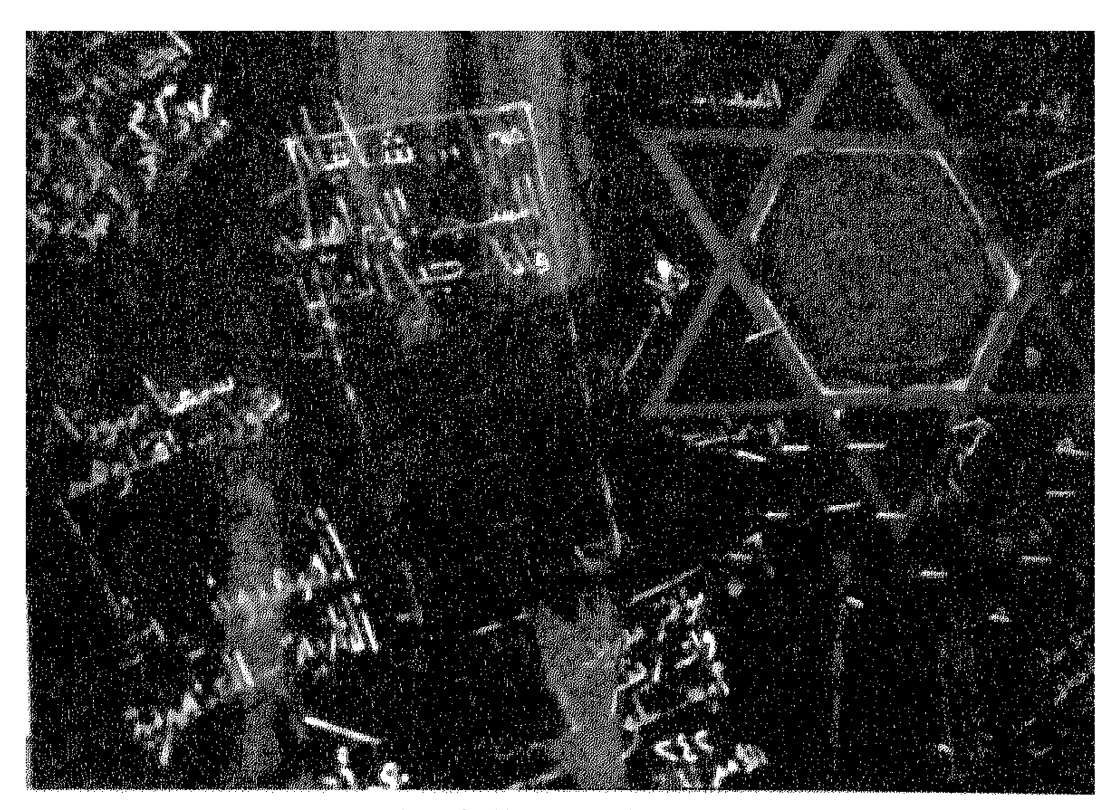
المزدوج (الصهيونى - الامريكى) التى تلخص أقوى رابطة للتواطؤ الاستعمارى عبر التاريخ ، فهذا هو دور الفن الحقيقى إذ يستطيع أن يتجاوز جزئية الأحداث الوقتية إلى مدار النضال الانسانى عبر المكان والزمان ، معبرا عن قيم الضمير والحضارة ، وعن الإدانة الأخلاقية للقوى التى تدمرها ، مثلما كانت لوحات بيكاسو الشهيرة ضد الحرب ، خاصة لوحته الخالدة «جورنيكا» ، وغيرها من أعمال الفنانين قديما وحديثا .

وعلى الرغم من قصر المدة الزمنية بالنسبة لاستيعاب الفنانين للحدث وبلورته برؤى إبداعية تتخطى التسجيل المباشر ، فقد شهدت الحركة التشكيلية المصرية خلال الشهر الماضى عدة مبادرات فنية شجاعة ، اجتهدت كى تلتحم - بدرجات متفاوتة بالانتفاضة الفلسطينية وتداعياتها المأساوية والبطولية الأخيرة ، كاشفة بذلك عن الجوهر الأصيل للفنان المصرى ، الذى يبزغ متوهجاً فى الوقت المناسب ، من بين متاهات التجارب الشكلية المسايرة لاتجاهات الحداثة الغربية الفارغة ، وجاءت بعض هذه المبادرات جماعية فيما جاء بعضها الآخر مستقلا .

أيام الغضب

على صعيد التعبير الجماعى كان تحرك الفنانين من خلال نقابتهم ، التى رأيناها لأول مرة فى تاريخها تتفاعل مع الأحداث والقضايا الجوهرية التى تشغل الأمة ، مستجيبة لمشاعر الفنانين المتأججة بالغضب ، ومطالبة بموقف قوى تضامنا مع الشعب الفلسطينى ومع القوى الوطنية والديمقراطية بمصر والعالم لإدانة ما يحدث ، وقد جاء ذلك متزامنا مع تسلم النقيب الجديد - الفنان مصطفى حسين - ومجلس الإدارة المنتخب مسئولياتها ، إثر اجراء الانتخابات العامة للنقابة بعد تجمد تام للنقابة استمر خمس سنوات ، أصاب فيها الشلل التام روح المشاركة الايجابية للفنان فى المجتمع ، وكان حدث الاجتياح الاسرائيلى وأشكال الحصار والقمع الدموى والمقاومة الباسلة ، محكا حاسما لاختبار مصداقية المجلس الجديد بشأن دور الفنان فى المواقف الوطنية والمصيرية ، بما يجعل له مكانة واحتراما فى المجتمع ومؤسساته المدنية ، بعد أن كان قد تم تهميشه - بل تغييبه - بالنسبة لهذا المجتمع منذ إنشاء النقابة عام ١٩٧٨ ... هكذا التحم المجلس - بقيادة النقيب الجديد - مع حركة النقابات المهنية الأخرى التى بادرت بعقد المؤتمرات المعبرة عن مواقف أعضائها ، فسمع صوت الفنان وسط هدير الغضب ، من خلال مشاركته فى التجمعات النقابية واللقاءات الرسمية ، واستجابت النقابة للمطلب القوى من جانب أعضائها بإتاحة الفرصة أمامهم لتنفيذ لوحات ضخمة تعبر عن غضبهم ، بحيث يمكن تجميعها فى جداريات عملاقة تثبت فى بعض الميادين المهمة بالقاهرة .

وانطلقت شحنة الغضب المقدس فوق ألواح الخشب عبر الفراجين والألوان ، من خلال ورشة عمل كبرى أقيمت أمام مقر النقابة بساحة الأوبرا ، وقبل مضى



المذابح التى ترتكبها الصهيونية تضرب عرض الحائط بكل المواثيق والاعراف الدولية

أسبوع أيام من بدء هذه الانطلاقة كانت قد اكتملت ثلاث وعشرون لوحة مساحة كل منها ما بين أربعة وثمانية أمتار مربعة . وقد كان من المفترض - طبقا للفكرة الأساسية - أن تشترك مجموعات من الفنانين فى إنجاز لوحات جدارية هائلة على امتداد عشرات الأمتار تنفذ فى نفس الأماكن التى ستبقى معروضة فيها ، حتى شاهدهم المواطنون أثناء عملهم . لكن الفكرة عدلت بحيث يتولى كل فنان تنفيذ لوحته بمفرده بمقر النقابة ، ربما لصعوبة الحصول على موافقة الجهات الأمنية على تثبيت جداريات بهذا الحجم فى أماكن التجمعات الجماهيرية والعمل فيها أمام الجمهور ، وقد قام بإنجاز هذه اللوحات كل من الفنانين : ابراهيم عبد الملاك ، عبد الخالق حسين ، عادل ثروت ، هشام نوار ، محمد دسوقى ، محمد نادى ، طارق مأمون ، جورج فكرى ، أحمد رفعت ، أحمد فهيم ، أحمد شلقوم ، أحمد علوى ، هند حسن ، مازن اسماعيل ، أحمد عبد الجواد ، طارق الكومى ، سيد هويدى ، مصطفى كامل ، مروة بنه ، محمود منيسى ، حسام البنا ، محمد طلعت ، سامى كشك .

أيا ما كان مصير هذه اللوحات ، وما سيتلوها من لوحات ، حيث يتسابق الفنانون ، خاصة الشباب لاتخاذ أدوارهم فى إنجازها ، وأيا كانت الاساليب التى تنجز بها ومستواها الفنى ، قياسا على الفترة القصيرة جدا التى نتفذت فيها

(وأغلبها استخدم أسلوبا رمزيا بسيطا معبرا عن صرخة الاحتجاج ضد ما يحدث ، واضعا فى الاعتبار قدرة المواطن العادى على استيعابه) فقد سجلت للفنان المصرى موقفا تاريخيا لن يمحى ، وأسست نقطة تحول فكرية لا يستهان بها ،و خاصة بالنسبة للفنانين الشباب الذين طال العهد بتغييبهم بعيدا عن الالمام بمجتمعهم على يد المؤسسات الرسمية المختلفة ، فإذا بهم يكشفون لنا فجأة عن قوة انتماء وطنية وقومية صادقة تتخطى مختلف الحواجز . من اللامبالاة إلى الخوف إلى غياب الوعى ، وتبتعد فى تعبيرها عن الأساليب الاستفزازية التى كانت تغذيها فيهم تلك الإغراءات التنافسية بالجوائز السخية وتدفعهم نحو التغريب والفردية والاستعلاء على مجتمعهم وواقعهم .

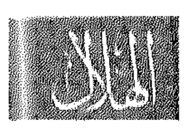
إننى أتصور أن استمرار مثل هذه التظاهرات (التعبيرية - الجمالية) بإتاحة الفرص أمام الفنانين للتواصل مع المجتمع ، لسنوات قليلة ، كفيل بإحداث تغيير كيفى لمسار الفن المصرى المعاصر شكلا ومضمونا.

فهل نقول إذن : اشتدى أزمة تبتدعى ؟!

نشيد النسور

وبقدر ما دفعت أحداث الحصار والمذابح ضمائر المبدعين لإبداع أعمالهم الصرحية بنقابة التشكيليين ، فقد دفعت - من قبلهم - النحات الكبير صبرى ناشد لإقامة معرض خصصه لهذه القضية بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى خلال الشهر الماضى ، لقد كانت الانتفاضة بكل تداعياتها الثورية على مدار الشهور السابقة على المعرض هى جرحه ونزيفه ، وهى جدار الاحباط لقدرته على التعبير عن أى معنى غيرها ، فى الوقت الذى يستبد به الشعور بالعجز والتضاؤل أمام الإرادة البطولية الخارقة للطفل قاذف الحجر المقدس ، كانت لديه مشروعات فنية أخرى غير الانتفاضة استعد لإنجازها كى تعرض بمعرضه الذى حدد موعده منذ فترة طويلة ، لكن شعوره بالقهر الداخلى شل إزميله الذى اعتاد أن يخترق كتل الأشجار بسلاسة ، وكأنه يكشف القشرة الخارجية - فحسب - عن التمثال الكامن والمتشكل فعلا بداخلها ..

وهكذا استحال عليه النوم والصحو والحلم واليقظة ، واستبد به القلق الكابوسى المر ، حتى بالنسبة لجدوى الفن ذاته إزاء ما يجرى ، بل أوشك أن يشك فيما سبق أن أنجزه شخصيا من أعمال فنية بأسلوبه التعبيرى الرمزى المغرق فى التأمل الفلسفى لمعنى الحياة وما بعدها بنزعة تقارب الحس السريالى ، وتساءل : إلى من نتوجه بإنتاجنا الفنى ، بينما الحياة ذاتها تذبح والحق يستباح والباطل يتبجح والمقدسات تنتهك ؟! .. كانت تلك أعنف أزمة روحية يواجهها صبرى ناشد على مدى أربعين عاما هى عمر مشواره الفنى ، ولم يخفف عنه ما حصل عليه من جوائز وتقدير فى مناسبات عديدة ، كان آخرها تكريمه بسمبوزيوم النحت فى أسوان فى فبراير الماضى ضمن قلة من





... ولابد للقيد أن ينكسر



مهما طال الزمن وزادت الأحزان ... سنعود

رموز النحت المصرى المعاصر .

وفجأة اكتشف أن أمامه مجموعة من الاسكتشات الخطية السريعة على الورق كان يترجم بها إحساسه العضوى بما يجرى كل يوم خلال مشاهدته للتليفزيون ، رسمها بخطوط بسيطة موجزة تقارب الواقع ، عن أبطال الحجارة وجنازات الشهداء والأمهات الثكالى وحاملى الجرحى وبوابات المسجد الأقصى ، إلى جانب تخطيطات من وحى خياله لنسور تنشر أجنحتها محلقة فى الفضاء ، يتشابك ريشها مع وجوه البشر وأذرعهم مثلما كانت تتشابك غصون الأشجار فى تماثيله الخشبية السابقة ... هنا ومضت الفكرة فى ذهنه : لماذا لا ينفذ هذه الرسوم كما هى على مسطحات خشبية بأسلوب النحت البارز ، بدلا من تجسيد كتل نحتية فى الفراغ ؟ ... إن ما ينشده اليوم ليس عملا فنيا معقدا يوضع فى المتحف ولا يتواصل معه غير قلة تعد على الأصابع ، بل يصبو إلى تسجيل شهادة حية يخطها بالأزميل على ألواح الخشب ، شهادة يمكن أن تراها الجماهير فى أى مكان فتتواصل معها وتتفاعل مع شحنتها التعبيرية .

هكذا عزم أمره ، ولم يبق على موعد المعرض غير ثلاثة أشهر ، وأحضر نوعا من ألواح الخشب اللينة نسبيا بالنسبة لضربات الأزميل ، واندمج فى عمله الفنى يسابق الزمن ، مدفوعا بقوة تعبير عارمة تصل إلى حالة الحمى ، لا يدرى خلالها ليلة من نهاره ، ولا يسمح فيها بنصيب لراحته ، وما حاجته لراحة الجسد فيما يشعر بتوقد الروح والوجدان ، وتتواصل

أمامه الأحداث كل يوم عبر أجهزة الاعلام لتضيف إليه توقدا كلما وهنت قوته ، وكانت تطوف بمخيلته أيضا صور المنحوتات البارزة على جدران المقابر المصرية القديمة التى أبدعها أجداده الفنانون القدماء ، وهى تحكى قصص المعارك والبطولات دفاعا عن الأرض والمقدسات ، ومشاهد الطقوس الدينية والحياة وما بعد الحياة ، فصارت تلك مثله الأعلى الذى يتوخاه وهو يدق إزميله على خد الخشب ، فينساب رقيقا سلساً ، وكأنه ينساب فوق عجينة طرية .

هكذا اتخذت لوحاته النحتية سمتاً ملحميا أسطوريا برغم واقعيتها المباشرة فالأم الثكلى الملثمة تحتضن وليدتها الشهيدة التى لم يتجاوز عمرها شهورا ، كيانا رقيقا هشا كغصن ذابل ، فيما تبدو الأم شامخة فوق الألم بوشاح أسطورى يحلق مع العاصفة ، ويدها المرفوعة بقوة علامة احتجاج صامتة ضد العدوان ، وبقية جسمها لا وجود لها أسفل جسد الطفل الشهيدة ... فما من لمسة تستحق أن تضاف إلى العمل بعد هذه البراءة المغتالة !

وجسد الشهيد - فى لوحة أخرى - يبدو مكفنا كمومياء فرعونية ، ومن تحته رماة الحجارة فى خطوط رأسية كجذع شجرة تفرعت فى كل اتجاه ، فيما تودع الشهيد ثلاث حمامات باكية تطل عليه من طاقة علوية ، ويرفرف فوق جثمانه طائر منشور الذراعين مثل حورس .

وفى عمل آخر تتشابك أجنحة النسر كحروف الكتابة العربية المتداخلة ، أو كمجموعة من الأيادى والأصابع المتشابكة رمزا للعروة الوثقى التى تجمع المجاهدين الصابرين دفاعا عن الحق .

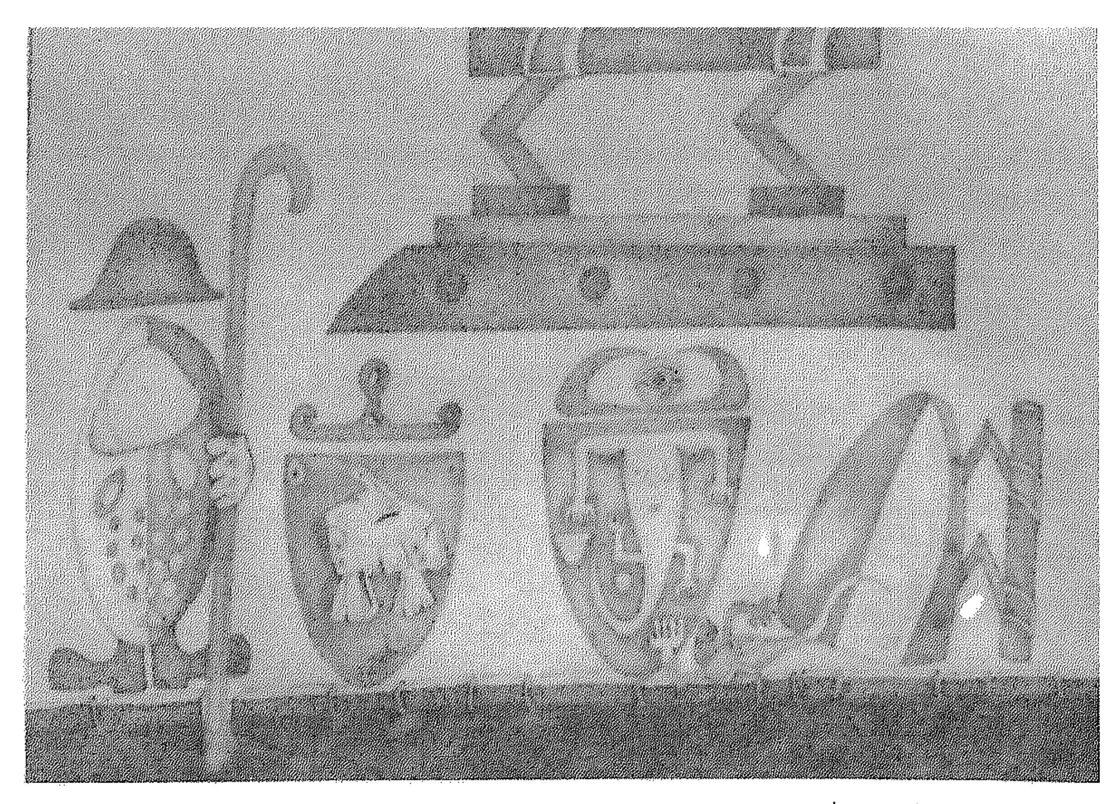
وإذا كانت نسبة التعبير الواقعى المباشر فى كثير من أعمال المعرض قد طغت على نسبة الإيحاء والاختزال والتحليل المبتكر للشكل الواقعى برؤية حديثة ، فيمكننا القول أنه .. بالإضافة إلى عدم كفاية الوقت لنضج التجربة ، بإحالة المرئى والمعرفى إلى خلق جمالى مستقل عن الواقع وغير مماثل له .

فإننا ينبغى أيضا أن نعطى للفنان حقه أحيانا فى تبليغ رسالته بأبسط صيغة ممكنة إلى جمهور عريض مختلف عما اعتدناه ، وما أشد حاجتنا إلى كسبه إلى ساحة التذوق التشكيلى بغير تعقيدات الشكل الجمالى الحديث .

تحت المكواة الحديدية

وفى اتجاه التزام الفنان بموقف فكرى مما يحدث على أرض الواقع المعاصر ، يختار الفنان د . مصطفى يحيى - الاستاذ بمعهد النقد الفنى بأكاديمية الفنون - من خلال معرضه المقام بقاعة مايكل أنجلو بشارع ٢٦ يوليو ، قضية الساعة على صعيد العالم اليوم .. وهى قضية العولمة ، أو هيمنة القطب الأوحد على مصائر العالم وقولبته فى قالبه ، وكيف يفرض هذا القطب أنماطه على ثقافات الشعوب وفقا لمقاييس مصالحه ، كى يجعل من البشر فى كل مكان مجرد كائنات استهلاكية لما ينتجه ، مطيعة لتوجيهاته ، دائرة فى فلك سياساته .

وتتميز لوحات المعرض - التى نفذ أغلبها بالحبر الأسود وحده ، وأقلها



المكواةالعظمى للفنان مصطفى يحيى

تجريد للفنانة فدوى طوقان

بالألوان المائية - بحس السخرية الشديدة ، إلى درجة اقتراب البعض منها من رسوم الكاريكاتير أو الرسوم المتحركة ، بما تتسم به من رمزية واختزال ومبالغة فى رسم الاشكال بأسلوب بسيط ، وتصفيفها بحس أقرب إلى رسم الطفل ، وأيضا لاعتمادها على الفكرة الرمزية والسخرية القائمة على المفارقة ... لكن مصطفى يحيى يتجاوز ذلك كله إلى مستوى التشكيل البصرى المركب فى بناء فنى يتضمن عناصر تثير خيال المتلقى وتجعل منه شريكا فى بناء اللوحة ، بما تحمله تلك العناصر من دلالات ورموز ولغة إشارية ذات مرجعية فى الذاكرة الجمعية محليا ودوليا ، حتى ولو لم تكن لها علاقة مباشرة بفكرة اللوحة ، كاستطرادات حرة تنبع من باطن الفنان ، مثل السحلية وابن آوى والكف والثعبان ، مما تحفل به الثقافة الشعبية ، هذا إلى جانب العناصر الموظفة مباشرة لخدمة الموضوع مثل أجهزة الكمبيوتر والموبايل والدش والصاروخ والخوذة والدرع والسونكى والعصا وساطور الجزار .. فضلا عن الجسد الانثوى خاصة مناطق الاثارة فيه ، وأنواع البيتزا وسندوتشات الهامبورجر، بيد أن البطل المحورى المهيمن على جميع هذه العناصر هو المكواة الحديدية البدائية التى تسخن فوق موقد الغاز ، لقد باتت هى القاسم المشترك الأعظم فى جميع اللوحات ، رمزا للقمع والتنميط والضغط والقولبة والحكم بالحديد والنار ، وقد جعل الفنان من هذه المكواة شكلا فنيا خياليا متغيرا يجمع بين الفلكلور والآلة العصرية ، حيث نرى وجهها الحديدى المستوى يحمل أحيانا رموزا من الفلكلور (مثل السحلية والكف والثعبان) ويحمل أحيانا أخرى شكل الموبايل أو أزرار الكمبيوتر ، ويستخدم المكواه أحيانا ثالثة بديلا لرأس جندى ، وقد يرتب الفنان أعدادا منها فى صفين طويلين متقابلين كطريق الكباش، حيث تكتسى سطوحها المصقولة بشتى الرموز ، وفى أسفلها تنعكس صورها على الأرض كأنها اصطفت فوق مرآه هائلة أو على طريق فولاذى مصقول بغير نهاية . وقد تتناسل من المكواة الكبرى - الأم - أجيال من الأقزام الحديدية ، تتابع فى أثرها فى طابور منتظم كصغار البط خلف أمهم ، وقد تبدو المكواة الكبرى فى الفضاء مهيمنة على صفوف من القباب والأهلة وأطباق التليفزيون الهوائية وأطبقا البيتزا وسندوتشات الهامبورجر ، فى إشارات ذات مغزى سياسى واضح .

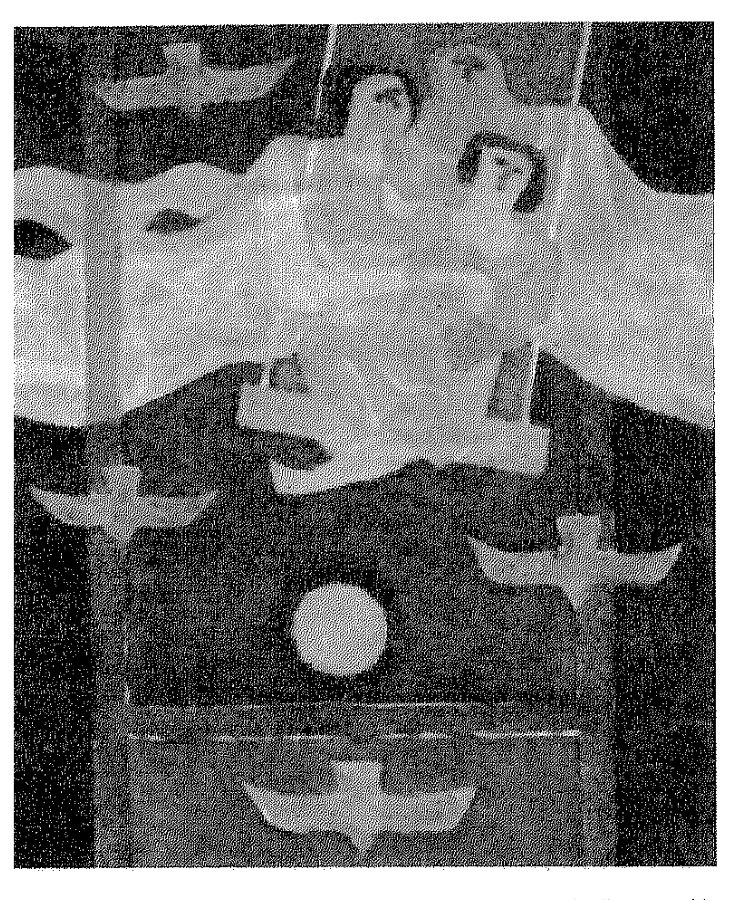
إن أسلوب مصطفى يحيى يقترب من السريالية الشعبية ، مختلف عن السريالية التقليدية فى أنه لا ينبع من مخزون العقل الباطن والغرائز والأساطير ، بل ينبع من مخزون العقل الجمعى بعد أن استوعب عناصر الواقع المعاصر بأدواته التكنولوجية ورموزه التى تحولت إلى منظومة جديدة تستلب روح الانسان بشكل قدرى مطلق يتجاوز مقدرة العقل على توجيه صاحبه ، حيث تبقى إرادة الانسان فى اليد التى تقبض على المكواة الحديدية !

بين التجريد وبرودة العاطفة

وفى مسار يتاخم اتجاه الفنان مصطفى يحيى ولا يشبهه ، أقامت الفنانة الشابة فدوى رمضان معرضها الثانى بأتيليه القاهرة خلال الشهر الماضى أيضا . فهى تعبر بالأبيض والأسود عن فكرة العولمة أو الكوكبية لكن بأسلوب هندسى صارم ، فهى لا تحفل بالدلالات والرموز ، بل يعنيها البناء التجريدى البحت، مستخدمة شكل كرة هائلة تخرج منها شرائط قماشية غامضة ، وتتميز هذه الكرة بحضور بصرى رازح يسيطر على الفراغ ، وقد تبدو فى فضائها بعض الكرات الصغيرة كأنها تدور فى فلكها ، وقد تتدحرج هذه الكرات فوق امتداد أرضى شاسع ، مرصوف ببلاطات متباينة بين الأسود والأبيض، أو تواجه جدرانا شاهقة صماء ..

وأهم ما يميز موهبة فدوى رمضان : جديتها الفائقة وصبرها الذى لا ينفد فى استخدام القلم الجاف الأسود وحده كأداة للرسم على الورق ، ما يحقق فى النهاية درجة عالية من التوازن الهندسى المحكوم بذهنية باردة لا تعطى للوحتها حياة أو عاطفة ، فضلا عن غموض التوجه الفكرى والرمزى لديها ، فربما لا يصل كثير من المشاهدين إلى الفكرة التى أشرت إليها حول العولمة ، هذا إذا كانت واردة أصلا فى ذهن الفنانة .

من هنا أرى أن هذه الموهبة التى تملك قدرا كبيرا من الجدية والصبر ، عليها أن تبحث - بنفس الجدية - عن



المرجيحة للفنان محمود ابو العلاء

توجه واضح تنطلق من خلاله بحس انسانى دافىء يساعد على تواصلها مع الناس ، حتى لا تنتهى إلى أن تكون لوحاتها نوعا من التمارين الرياضية أو نوعا من الخبرة التقنية الجوفاء لا تعنى غير صاحبتها .

في ملكوت السلام المطلق

بين السماء والأرض تدور ملحمة الحياة والموت فى أعمال هذا الفنان . فمنذ أواخر الثمانينات كان العالم الخاص لأعمال د. محمود أبو العزم الاستاذ المساعد بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة - هو الانسان وقد تحرر من الجاذبية الأرضية ، وطار محلقا

كالفراشات النورانية الشفافة ، وتواصل مع رفاقه النوارنيين فى علاقات انسانية تتــــراوح بين الحب واللـهـــو والغناء والموسيقى وبين طقوس الموت وصيرورة الوجود .

وفى معرضة الأخير بمجمع الفنون بالزمالك خلال شهر مارس الماضى ، جمع مختارات من أعمال مشوار السنين ، وبدت اللوحــات فى تجـانســهــا واستمرارية عناصرها وأساليبها ، وكأنها وليدة مرحلة واحدة متسقة الرؤية والفكر والنهج الفنى ، ولا أستطيع الجزم بما إذا كان ذلك ميزة أو عيبا ، فهو بلا شك يؤكد بذلك وحدة الشخصية الفنية، كما يؤكد صدقه مع ذاته وامتلاء منابعه بفـــيض لا ينضب من الرؤى والحس الشاعرى والتأمل الفلسفى للانسان والوجــود وينم عن درجــة عــالية من الشفافية والحلم والسمو الروحى والنزعة الميتافيزيقية لفهم الوجود.. لكنه فى الوقت ذاته - قـد يشـيـر إلى نوع من التكرار والجـمـود، وإلى الخـوف من المغامرة الفنية لتجديد مياه جدوله بالدخول فى تجارب إبداعية قد لا تكون مأمونة العواقب، مكتفيا بما حققه من نجاح عبر المضى فى طريق مـأمـونة ومرضى عنها.

وربما وجدنا بعض الاستثناءات فى مسار رحلته الممتدة هنا أو هناك، مثل مجموعته المستوحاة من أطلال أثرية بالمملكة السعودية (عاد وثمود) وحين كان يعمل هناك لسنوات عدة، وهى لا تتجاوز كثيرا الرؤية البصرية بالمفهوم الأكاديمى للمنظر الخارجى لونا وتكوينا وتحليلا للشكل، أو لوحاته التى استخدم فيها الألوان القوية المتباينة لنفس التكوينات القديمة وبنفس بنائها الفنى، أو فى لوحته الأخيرة المخضبة باللون الأحمر عن الانتفاضة الفلسطينية لكنها تظل تجارب بين قوسين سرعان مما يعبرها للعودة إلى مجراه الرئيسى.

بيد اننى أميل أكثر إلى ترجيح الجانب الايجابى بالنسبة لايقاع التطور الفنى البطئ لديه، محترما قناعته بما يمتلك من مهارة خطية ، وشفافية لونية وجرأة بنائية فى التكوين، محسوبة بحذر شديد، موازنا بين خبراته الأكاديمية الرصينة وبين مفهومه الخاص للتطور والحداثة بنزعة سريالية تعبيرية فإن قدرا كبيرا من الصدق مع الذات إلى جانب قدر أقل من المخاطرة التجريبية المحسوبة، خير ألف مرة من افعتال التجارب التقنية المثيرة للانتباه بغير ضرورة أو احتياج ينبع من أعماق الفنان، بل هى لمجرد إثبات القدرة على مسايرة اتجاهات الحداثة.

وقد يكفى أن آبا العزم فى عدد من لوحاته - يشارف آفاق الاشراق الصوفى، حيث تمتزج روح الانسان بالكون فى ملكوت السلام المطلق مغلفة بحس دينى واضح وتتصالح فى لوحاته الحياة مع الموت ويصبحان صديقين باعتبار أن كلا منهما هو الوجه الآخر لصاحبه، ومن ثم فإن عالم هذا الفنان يمتلك رحابة الفردوس وطرب الدنيا وحلم العاشقين وبلسم المعذبين.

إيقاعات جدارية دافئة

هذا نموذج فذ للإصرار على تحقيق حلم الانسان بأن يكون فنانا، ونموذج

صارخ كذلك للظلم الذى يعانيه صاحب الموهبة الحقيقية لمجرد أنه يعيش فى الأقاليم بعيدا عن العاصمة.. القاهرة لكل من لا يملك وسائط شخصية أقوى من موهبته .. إنه ابن أسيوط الفنان ممدوح سليمان ، الذى نجح أخيرا بعد عشرين عاما من الطرق على الأبواب المغلقة - فى الحصول على اعترف رسمى من وزارة الثقافة ، بإقامة معرضه بإحدى القاعات الكبرى بمجمع الفنون بالزمالك فى مارس الماضى ، ولعله يفوز أيضا بمنحة التفرغ للفن من الوزارة هذا العام . بعد أن تقدم للحصول عليها من قبل مرارا وتكرارا بغير جدوى !

ممدوح سليمان فنان لا يملك حتى ثمن الألوان والورق الذى يرسم عليه ، فإن مرتبه كمدرس لا يكفى حتى لإعالة أسرته كبيرة العدد التى تقيم معه بالقرب من مدينة أسيوط ، لذا فإن جميع لوحاته رسمها بألوان مائية مما يستخدمه تلاميذ المدارس ، على مساحات لا تزيد على حجم كراسة الرسم المدرسية ، وأذكر أن أول معرض أشاهده له بسراى النصر بالجزيرة منذ عشرين عاما (وكتبت عنه آنذاك) كان منفذا ببقايا منقوع الشاى الممزوج برماد السجائر ، وكم كانت تلك اللوحات بديعة ومعبرة ، بتكونياتها التى تقترب من حس المنشور البللورى المتوهج فى الضوء .

اليوم وقد استطاع الحصول على بعض ألوان الجواش وعلى مساحات أكبر قليلا من الورق ، أطلق ممدوح سليمان العنان لخياله فرسم تكوينات جريئة البناء وحداثية الطابع ، وإن كانت تنأى عن البهجة اللونية (ربما لأنه اعتاد على التقشف أو أنه يخشى نفاذ الألوان الشحيحة منه !) ، فتبدو كل لوحة وكأنها نفذت بلون أو لونين فحسب ، ومع ذلك تبدو غنية وبعيدة الأغوار ، ربما ساعد على ذلك بناؤه لمشخصات راسخة المعمار ، مما يعيد إلى الذهن مباشرة رسوم النحت البارز على جدران المقابر الفرعونية ، وتحف بالشخص - الذى يكاد يقتصر على جسد المرأة المترع بالأنوثة والخصوبة ، تأثيرات لأشكال تجريدية أقرب إلى الكتابات الهيروغليفية .. غير أن السلاسة والعذوبة والرقة المتناهية فى انسياب هذه الخطوط على اللوحة بألوانها الهادئة التى تبزغ من خلالها ومضات ضوء سحرية هنا وهناك ، تنقلنا من عالم التشكيل إلى عالم الشعر والموسيقى معا ، بذلك الإيقاع المتماوج لحركة الخطوط واتصالها فى همس غنائى لا ينقطع ، وأظنه صادقا كل الصدق إذ يكتب فى دليل معرضه هذه الكلمات الدالة:

«.. بمجرد ملامسة الفرشاة تنبثق الألوان فى اللوحة فتقودنى إلى السعادة والإحساس الناعم، إننى أبحث عن الأحاسيس الرفيعة بينما تقتحم الموسيقى الأعمال وتقاسمنى لحظة صدق فى تشكيل الألوان..» .

فلنفتح عيوننا وقلوبنا لهذا القادم الجسور من جنوب الوادى ، بموهبة تؤهله لاحتلال مكانه بين فنانى جيله . ■

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

رواية فتحى غانم «أحمد وداود» تنبأت بالأنتفاضة

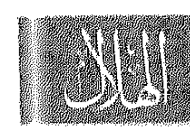
بقلم
مها صالح

تناولت ثلاث روايات مايجرى اليوم على أرض فلسطين، كيف بدأت المأساة، وكيف تحول الوطن إلى سجن... ومعنى العودة إلى الوطن من المنافي.

هذه الأعمال الأدبية هى «أحمد وداود» لفتحى غانم، و«يوميات صامد» للكاتب رجا شحادة، و«رأيت رام الله» السيرة الذاتية للشاعر مريد البرغوثي.

تمر فى منتصف هذا الشهر أربع وخمسون سنة على قيام «إسرائيل» وبداية زمن الشتات الفلسطينى ورغم مرور أكثر من نصف قرن على بداية المحنة فإن الروح الفلسطينية التى أثخنتها الجراح والضغوط، لاتزال تبدى أروع مظاهر الصمود والمقاومة.

وإذا كان الفدائيون الفلسطينيون يكتبون تاريخا جديدا بمداد من دمائهم، بل وأرواحهم، فلا أقل من أن نبذل نحن بعض الجهد فى محاولة فهم ماذا وكيف ولماذا حدث ماحدث، ومايحدث ؟!.



ومحاولة الفهم تستعين عليها كاتبة هذه السطور بثلاثة أعمال يحاول كل منها أن يرسم صورة لما حدث ومايحدث فى داخل الأرض المحتلة: كيف بدأت المأساة، وشكل الحياة فى الوطن بعد أن تحول إلى سجن ثم مذاق العودة للوطن بعد اغتراب فى المنفى لمدة تزيد عن ثلاثين عاما.

الكتب الثلاثة هى: رواية «أحمد وداود» للروائى فتحى غانم، ثم «صامد : يوميات صامد فى فلسطين المحتلة» للمحامى الفلسطينى رجا شحادة، وأخيرا السيرة الذاتية للشاعر الفلسطينى مريد البرغوثى كما قدمها فى كتابه «رأيت رام الله».

أحمد وداود»

تتعرض رواية فتحى غانم لمرحلة الترقب والاحتقان التى سبقت إعلان قيام الدولة الصهيونية فى مايو ١٩٤٨.

وذلك من خلال حكاية الشابين أحمد وداود، وينتمى أولهما إلى أسرة مسلمة تسكن قرية د. القريبة من مدينة القدس بينما الثانى هو ابن ساعاتى يهودى يعيش وأسرته فى القدس نفسها، وتجمع الصداقة بين أحمد وداود بينما يجمع الحب بينه وبين سارة، أخت داود وهى فتاة جميلة وذكية وطموحة، لكن شكل الحياة فى المنطقة، ومعه علاقة الصديقين، يتغير تبعا للتغيرات التى تكتسح العالم فى سنوات الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

إن شوكت الأنصارى، أغنى رجال القرية وأقواهم، يبيع ضيعته للدكتور اليهودى روزنبرج، ويغادر البلاد تاركا وراءه الشراكسة، رجاله الذين كان يعتمد عليهم فى ترويع الأهالى وابتزاز أموالهم، أما صاحب الضيعة الجديد فإنه يحولها إلى معسكر، كوبيتزم، يزعمون أنه مخصص لتعليم الفتيات اليهوديات، الزراعة وغيرها من الأعمال، بينما الحقيقة أنه لتدريب الشباب اليهودى، فتيات وفتيان علي القتال باستخدام مختلف أنواع الأسلحة، بالإضافة إلى التشبع بالفكر الصهيونى العنصرى، ومن هذا المعسكر وأمثاله سيخرج الوحش الصهيونى الذى سينهش بمخالبه وأنيابه المدن والقرى العربية تمهيدا لقيام الدولة الجديدة: اسرائيل! وتنضم سارة إلى هذا المعسكر،

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

على غير رغبة أهلها، بينما يسافر داود إلى باريس، تحت إلحاح خاله يوسف، بهدف تعلم اللغة الفرنسية التى يعتقد أنها ستهيىء له أن يصبح من علية القوم. وفى باريس يقع داود فى قبضة جنود النازى الذين يرسلونه إلى أحد المعتقلات، حيث يمر بتجارب مرعبة وهو يرقب زملاء السجن من اليهود الأوربيين والموت يغيبهم واحدا وراء الآخر.. وينجو داود من الإعدام بمعجزة، ليولد من جديد وقد تلبسه الشعار الصهيونى الشهير . «أنت تحارب ، فأنت موجود».

وانطلاقا من هذا المبدأ يعود داود إلى فلسطين ليشارك فى العمليات الإرهابية للجماعات الصهيونية، وبالتحديد عملية تفجير فندق داود التى اختلطت من جرائها اشلاء رجال المخابرات الإنجليزية بدمائهم بأوراق ملفاتهم، يعود داود إلى فلسطين ليجد والده شالوم قد مات حسرة عليه أما الخال يوسف فإنه تحت وطأة الغضب والقهر، وخوفا من المذبحة التى يشاع – إذكاء لنار الفتنة – أن العرب يدبرونها لليهود، ينضم إلى جماعة الارغون الصهيونية تحت إمرأة البولندى مناحم بيجين، وتنتهى الرواية نهاية مفجعة هى اقتحام الجماعات الصهيونية المسلحة للقرية د.، ويكون فى طليعة هؤلاء المقتحمين داود وسارة أما أحمد فإنه يسقط شهيدا برصاصة يهودية فى ظهره وهو يحاول دخول القرية للإطمئنان على أهله، ولما يعلم أن افراد أسرته جميعا قد تعرضوا للقتل، بل الذبح والتمثيل بجثثهم فى ذلك اليوم المشئوم.

بين التاريخ والفن

الرواية تدور حول حدث تاريخى واقعى هو مذبحة دير ياسين، ويحاول المؤلف من خلال التناول الفنى أن يقدم تفسيرا لسبب وكيفية حدوثه وحتى نضع ذلك الحدث فى سياقه التاريخى نعود إلى سجلات التاريخ التى تقرر أن عدد اليهود فى فلسطين عند الاحتلال البريطانى كان ٥٦٫٠٠٠ أى بنسبة ٩٪ من عدد السكان ثم تحول هذا العدد إلى ٦٠٥٫٠٠٠ يهودى عند انتهاء الحماية البريطانية عام ١٩٤٨، أى ٣٠٪ من السكان البالغ عددهم مليون نسمة، وذلك بطبيعة الحال نتيجة للهجرة التى سمحت بها قوات الانتداب رغم احتجاج العرب وثوراتهم.

أما مذبحة دير ياسين فقد كانت واحدة من أربع وثلاثين مذبحة ارتكبها الصهاينة الأوائل فى فلسطين.

نصف هذا العدد وقع أثناء الانتداب، دون أن تتدخل القوات البريطانية لحماية الأهالى، والنصف الآخر تم بعد إعلان قيام الدولة، وقد كانت هذه المذبحة من العلامات الفارقة فى خطوات التمهيد لقيام الدولة اليهودية.

لقد نجحت أحداث المذبحة فى بث الرعب فى نفوس العرب بينما زادت الصهاينة ثقة فى أنفسهم وسهلت لهم مهمتهم، حتى أن أحدهم، أظنه مناحم بيجين، أعلن فى مذكراته أن القوات الصهيونية أكتسحت القرى العربية بعد هذه المجزرة بسهولة شديدة «كما يمر السكين فى قطعة من الزبد».

ويؤكد فتحى غانم من خلال الرواية أن العرب فى فلسطين، يهودا ومسلمين ومسيحيين بالطبع، كانوا يعيشون حياة عادية تربطهم فيها علاقات اجتماعية وتجارية مثل تلك التى ربطت بين والدى



أحمد وداود، ثم بدأت مياه بحيرة الود تتعكر بفعل المهاجرين الصهاينة الذين نجحوا فى زرع بذور الشك فى نفوس المسلمين واليهود على حد سواء، حتى بات كل طرف يتربص بالآخر، منفذا، وهو لايدرى، الخطة المرسومة التى ستعجل بالنهاية الدامية، وقد كانت نفوس اليهود، العرب منهم والمهاجرين، كما صورتهم الرواية، مهيأة لمثل ذلك التحول فى المشاعر، كرد فعل لما تعرض له اليهود على أيدى النازى، أو على حد تعبير الرواية ص ٨٩ «المذعورون فى أوربا يستأسدون فى أورشليم»، ونظنه من الضرورى هنا أن نذكر أن بعض المؤرخين المعاصرين يؤكدون، بناء على معلومات عديدة بعضها مستقى من مذكرات صهاينة معروفين، أن تعاونا وثيقا نشأ بين السلطات النازية وبعض أباء الصهيونية كان من نتيجته أن نجا مئات من أثرياء اليهود وزعماء الصهاينة من أخطار الحرب ومآسى معسكرات الاعتقال بينما أرسل الآلاف من فقراء اليهود إلى تلك المعسكرات، وذلك بغرض تكريس فكرة العداء للسامية

وبالتالى الدفع بالآلاف المؤلفة من اليهود تحت وطأة الفزع من مصير إخوانهم، إلى ترك أوطانهم الأصلية والهجرة إلى أرض لايعرفونها، بزعم أنها ستكون دولة اليهود الآمنة.

لماذا هزم العرب؟

يحق لنا، ونحن نقلب صفحات التاريخ، أن نحاول الإجابة على ذلك السؤال الموجع: لماذا هزم العرب فى تلك المواجهات؟

تبعا لرؤية فتحى غانم فى «أحمد وداود» فإن العرب فى فلسطين لم يحسنوا قراءة الأحداث أى أنهم لم يستوعبوا المقدمات وبالتالى لم ينجحوا فى التنبؤ بالنتائج، أو حتى تصور شيئا قريبا منها، لقد أسرّ «شالوم» اليهودى لصديقه المسلم «سالم» (لاحظ دلالة الإسمين) أن شباب الصهاينة المهاجرين يتعمدون الايقاع بين العرب والشراكسة، لكن سالم لم يعلن ذلك، خوفا على مصالحه التجارية مع د.روزنبرج وغيره من اليهود والعرب. وكانت النتيجة أن هاجم الشباب الصهيونى الشراكسة فى ديارهم وأعملوا فيهم القتل حتى أبادوهم (ص ٧٥)، ويفشل العرب للمرة الثانية فى استشعار الخطر الذى يحدق بهم، فلا يدركون أن القضاء على الشراكسة ماهو إلا مقدمة للقضاء عليهم، وفيما بعد يدرك سالم أن وحشا مخيفا يجرى تربيته داخل المعسكر الصهيونى (الكوبيتزم) حتى أنه يقول لإبنه «أحمد» «من يذهب هناك (الكوبيتزم) لايعود ...

وإذا عاد يحمل معه السلاح ولايتعامل معنا إلا بالرصاص» (ص١٧) لكن بداية الفهم هذه لاتقود سالم إلى التقدير الصحيح لمدى خطورة الموقف، إنه يتصور، مخطئا، أن البعد عن مواطن التوتر سيكفل له ولأسرته الأمان، هاهو يحذر ابنه من الانضمام إلى الشباب العربى الثائر، من أمثال عبدالقادر الحسينى، قائلا: لاتتورط.

لاسبيل لأن نحافظ على حياتنا: حياة أمك واخواتك وعيالنا إلا بالابتعاد .. إننا لانستطيع أن نعيش معهم فى سلام «الرواية ص ٢٨» لكن اختيار سالم للمسالمة لم يكن عن جبن وتخاذل، وإنما كان ببساطة اتباعا لمن كانوا يمثلون السلطة فى القرية وفى غيرها من المدن





والقرى العربية.

لقد كان هؤلاء يمارسون مايعتبرونه مناورة سياسية يحاولون فيها تهدئة الثائرين، بينما الحقيقة أنهم كانوا يساعدون، دون أن يدروا، فى إحكام قبضة المهاجرين الصهاينة حول العرب (الرواية ص ٢١).

أما الفتى أحمد فقد كان حائرا بين أبيه الذى يدعوه إلى البعد عن المشاكل من ناحية وبين الشباب الثائر الذى لايرى بداً من المقاومة المسلحة من ناحية أخرى.

ويختار أحمد أن يسير فى الطريق الثانى، وتهيىء له علاقته بأحد قادة المجاهدين، (عبدالقادر الحسينى)، أن يفهم كثيرا مما يدور حوله.

يدرك أحمد أن قومه قد شاركوا بخضوعهم فى صنع المأزق الذى هم فيه «لقد تعودنا أن نخضع .. أن نطيع، وها هم الشراكسة أصحاب السياط المسلطة علينا يفقدون وظيفتهم، كانوا يخضعوننا بدعوى حمايتنا .. ولكننا اليوم لانجد من يحمينا، ولانعرف كيف نحمى أنفسنا» (الرواية ص ٧) وفى السياق نفسه إدانة الذات يحكى عبدالقادر لأحمد حكاية ذات دلالة، إنها حكاية مسعود الخضرة الذى حارب الإنجليز لأنهم سلموا اليهود سلاحا وذخيرة فوشى به المسعود فانتقم له شقيقه بقتل المسعود، واستمر مسلسل الانتقام بينما نسى الجميع العدو المتربص اليهود ومن ورائهم الانجليز. (الرواية ص ٩٨).

وكان استشهاد أحمد وعبدالقادر مصيرا متوقعا، فسقط عبدالقادر فى القسطل وسقط أحمد بعده بساعات على مشارف دير ياسين لقد سقطا، ومعهما آخرون، فى مواجهة جحافل الصهاينة التى كانت تفقهم عددا وعدة، وإن لم تفقهم شجاعة، وإيمانا بحقهم فى الأرض، هاهو عبدالقادر يخاطب أحمد وهما مقبلان على الموت قائلا:

«سوف نفعل كل ما نستطيع أن نفعله

كيف تناول الأدب القضية الفلسطينية؟

.. سوف نخلط أجسادنا ودماءنا بهذا التراب .. وننتظر هنا .. (ننتظر) عودتنا (الرواية ص ١١٠).

لقد حاولوا مقاومة المد الصهيونى بالسلاح، لكن الأمور لم تكن فى صالحهم، كان السلاح شحيحا والحصول عليه متعذرا بالنسبة لهم، بينما كان يتدفق بسهولة على الصهاينة من المعسكر الانجليزى بقيادة الميجور وينجت الذى لايخفى تعاطفه معهم، (الرواية ص ١٠٣، ١٠٥) بل أن الأمر تجاوز التعاطف إلى التواطؤ الصريح، فالميجور يقوم بتدريب الشباب الصهيونى، وزاد على ذلك أن قام بتشكيل ما أسماه «فرق الليل الخاصة» لتقوم بمهام تجسس ليلية لصالحهم، وكان من نتيجة هذا النشاط «التجسس» أن فوجىء عبدالقادر ورفاقه بما يقرب من ثلاثة آلاف مهاجم يقتحمون موقعهم فجأة، وقد كانوا يحسبون أن عددهم لايتعدى المائتين. (ص ١١٣ - ١١٤).

ولعله من المفيد أن يطلع القارىء على مايمكن اعتباره شهادة شاهد عيان على أحداث تلك الفترة، وهو د.حسان حتحوت الذى شارك بالعمل كطبيب فى الهلال الأحمر فى فلسطين قبل وأثناء حرب ١٩٤٨، ففى كتابه «يوميات طبيب مصرى: فلسطين النكبة الأولى ١٩٤٨» الصادر عن دار الهلال فى يوليو ١٩٨٨ يحدثنا المؤلف عن التفاوت فى مستوى التسليح بين العرب والهيود فيؤكد ص٣٣ «آن هذا التفاوت يرجع إلى آن الإنجليز كانوا يحكمون بالإعدام على من توجد لديه رصاصة (المقصود بالطبع العرب)، هكذا جاء قرار التقسيم على حد قول د.حسان «والسلاح عتيد لدى اليهود، جديد على العرب» لقد طالت أسلحة الصهاينة المدنيين العرب فى كل مكان: فى المسجد وفى المستشفى وفى الحقول حيث تطاردهم طلقات الرشاشات ودوى القنابل والألغام المزروعة. (ص ٣٠ - ٣٢) وما أشبه الليلة بالبارحة! ورغم قلة السلاح فى أيدى العرب وبدائيته فى مواجهة أسلحة أعدائهم فقد أبدى المقاتلون الفلسطينيون شجاعة لاتنكر، يحدثنا د.حسان حتحوت مثلا عن معركة الرملة حيث رفض المحاربون داخلها الإستسلام للقوات الغازية وظلوا أياما

يردون القصف حتى نفذت ذخيرتهم، عندئذ فوجئوا بنجدة تصلهم من بدو شرق الأردن الذين اكتسحوا القوات الصهيونية بشجاعة مدهشة رغم أن تسلحهم لم يتعد البندقية والسكين، التى يسمونها الشبرية، فقد كانوا يرونه عارا أن يتسلح الرجل أكثر من اللازم! (ص ٦٨-٧٣) لكن الكثرة تغلب الشجاعة فى بعض الأحيان، خاصة إذا عانت الأخيرة من عدم التنظيم وقصر النفس بينما دُعمت الأولى بالتواطؤ بل والخيانة! وهذا ما كان فى مايو ١٩٤٨.

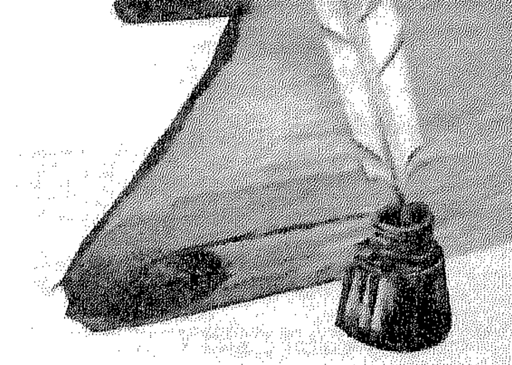
ماذا عن المستقبل

لكن رواية «أحمد وداود» لاتخلو من الأمل فى المستقبل المؤلف يؤكد أن أجراس العودة لابد ستقرع، ولكن متى؟!

هكذا نفهم من أحاديث عبدالقادر الحسينى مع زملائه، ومن إشارات أخرى يذكرها المؤلف فى الفصل الختامى للرواية عن فلسطينيين لم ينسوا أرضهم ودورهم رغم حياتهم فى المنفى وهم يعدون العدة للعودة إليها.

إن التشابه بين مايحدث اليوم وماحدث بالأمس القريب لهو أوضح من آن يحتاج إلى تأكيد. إنها مرة أخرى المغامرات العسكرية الإجرامية التى لاتفرق بين مقاتل ومدنى ولاتتورع عن قتل الأطفال والجرحى، وذلك تحت مظلة دولية من العجز والتقاعس والتواطؤ.

لكن هذا لايعنى أن التاريخ يعيد نفسه. لعل رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون يتصور أنه قادر على إعادة الأمجاد الدموية لآبائه الصهاينة الأولين فى حرب ١٩٤٨، لكنه لايدرى أن خمسين عاما من الحياة فى جحيم سجن الوطن أو سجن المنفى قد شحذت قدرة الفلسطينيين على الصمود والمقاومة، حتى أن شهدائهم يطلبون الموت بخطى ثابتة كأنهم ذاهبون للنزهة والترويح! عن هؤلاء الصامدين والمنفيين سيكون حديثنا القادم من خلال كتابى «صامد · يوميات صامد فى فلسطين المحتلة»، و«رأيت رام الله».



لمحات من تجربتي مع الشعر

بقلم
محمد إبراهيم أبو سنه

كما تتكون عناصر الطبيعة من الماء والهواء والنار والتراب يتشكل الشعر من اللغة والموسيقى والخيال والتجربة. وإذا كان الخيال هو القوة المحركة للإدراك الإنسانى كما يقول الشاعر الانجليزى وليم بليك فإن ما يحرك الخيال هو وقوع الحادثة الشعرية، قد تكون هذه الحادثة هى الحب أو الحرب أو الموت أو الشوق الحارق أو التأمل الخالق، لقد كانت الحادثة الشعرية الأولى فى حياتي هى وفاة والدتى وأنا فى السابعة من عمرى. ألقتنى هذه الحادثة فى مفترق طرق الوجود، وكان اغترابى عن قريتى التى ولدت فيها بداية الكشف عن الذات واختبارها فى لحظات الخطر المحدقة بصبى فى العاشرة لايرى فى العالم إلا صورة لما يتمناه لا ما يشاهده بالفعل..


الشاعر
محمد إبراهيم أبو سنه

حملت فطرة الريفى الساذج إلى طرق المدينة الوعرة . كنت أحاول الاختباء فى معطف الوهم حتى فاجأنى الخيال الشعرى مع اندلاع الثورة فى عام ١٩٥٢، رأيت صورة رائعة لميلاد أمة عبر رفض شعبى للاستبداد الملكى والاستعمار الإنجليزى وكانت الأحلام الكبرى تتناسل عبر الأناشيد والهتافات والأهازيج وانخرطت فى المعزوفة الجماعية قبل أن يتحقق لى وعى مستقل بموهبتى الشعرية، يبدأ الشعر بالالتفات إلى الذات فى فترة المراهقة ، حيث تتفجر القوى العضوية والحيوية طامحة إلى التغيير والتحقق. ولكن اهتزازى الأول لسحر الشعر كان وسط جماهير الطلاب الذين اندفعوا فى مظاهرات حاشدة يؤازرون الثورة.. كانت مظاهر البؤس التى صبغت رؤيتى الوجودية خلال السنوات العشر الأولى من حياتى فى قرية الودى مركز الصف محافظة الجيزة ، تدفعنى إلى التعاطف مع هؤلاء البؤساء الذين لا يجدون حتى من يصغى إليهم فضلاً عن من يمنحهم العون، وإذا كان مشهد الوطنية قد ألهمنى أولى أهازيجى الشعرية ، فإن الحب الذى كان بمثابة معادل للوجود بأكمله قد رافق خطواتى الأولى فى هذه المدينة التى كانت تستعصى على الفهم والترويض ، لقد وقعت فى غرام الفتاة التى أطلت بوجهها الجميل من نافذة البيت المجاور وسرعان ما انخرطنا معا فى إشارات طفولية ، تبادلنا بعدها عبارات الإعجاب ثم المشاركة فى لهو برىء كان يدفعنى إلى التمارض وعدم الذهاب إلى المدرسة ، التى جئت إليها من القرية لأحفظ القرآن الكريم تمهيداً لدخول معهد القاهرة الدينى الأزهرى.

أحمد شوقى



حافظ ابراهيم

المشاعر الفوارة

وفى الأزهر كانت أحدث النصوص الشعرية هى تلك التى كتبها شعراء العصر الأموى والعباسى ، لقد حاولت أن أمتطى عربة الخيال فى رحلات مكوكية إلى هذه العصور التى كنت أتصورها وطن الشعر الخالد، ورغم حنينى إلى هذا الماضى الذهبى إلا أن الحماس الثورى الذى رأيته يتدفق أمامى قد اختلط بالحمية الدينية فى وجدانى، كما أشعلت قريحتى قصائد شوقى التى تغنت بها أم كلثوم وبعض القصائد الوطنية الهادرة الأخرى التى ملأ المذياع بها الأسماع وشحن القلوب والهمم، من أجل وطن عزيز يحطم أغلال العبودية ويرسم طريقا للخلاص ويعتمد على تراث حضارى متعاقب الحقب متآزر الحلقات . أحسست فى تلك الحقبة أن الماضى المجيد يمكن أن يشد أزر الحاضر ويدفعه إلى الأمام ويقويه.

البدايات

من هنا ومنذ اكتشافي لهاجس الشعر في نفسي فإنني هدمت الحواجز بين الأزمنة ، لقد انهمكت تحت الحمى الثورية أو الدينية أو العاطفية في كتابة مطولات شعرية ركيكة أحمد الله أن أحدا لم يطلع عليها وإلا نهاني للأبد عن قرض الشعر.. بعض هذه المطولات يذهب ناحية امرىء القيس في طللياته وغزلياته وخمرياته، وبعضها الآخر ينعطف نحو شوقي وحافظ ابراهيم خاصة الروائع من أمثال «ولد الهدى ونهج البردة وسلوا قلبى» لشوقي ومصر تتحدث عن نفسها لحافظ.. وكلما اقترب بى الشباب من وهج الفتوة كان انعطافي يتزايد ناحية شعراء الغزل العذرى جميل بن معمر وكثير بن عبدالرحمن وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح، كنت أعيد بناء عوالمهم وشخصياتهم وعصورهم في وجداني وكانت صحراء القرية المسرح الملائم لإعادة إنتاج قصصهم العاطفية بطريقة تجعلني واحدا منهم . لقد توقفت كذلك أمام شعر عمر بن أبى ربيعة بعد أن قرأت قصيدته الرائعة «ليت هندا أنجزتنا ما تعد»، بل لقد توهمت أن روح ابن أبى ربيعة قد حلت فى جسدى وربما كان تناسخ الأرواح قد أصابنى بهذا الانتقاء من بين آلاف الشعراء.

الحب والموت

لقد أصبح الحب والولع بالمرأة يرسخ إيماني بالحياة ولكن ذكريات القرية التى تطفو مخلفة رمادها الحزين فى العيون كانت تقودنى دائما إلى هذه المشاهد الفاجعة، حيث كنت وأنا طفل صغير أشارك فى تشييع الجنازات طبقا للعادات والتقاليد الدينية، كان إنزال الميت إلى قبره ثم الانصراف بعد ذلك تاركين الموتى لمصيرهم يغمر قلبى بالكآبة والغم والإحساس بهوان الحياة، وعشت منذ تلك اللحظات الدامعة أتمنى أن لا أدفن حين أموت، وربما اشتهيت أن يكون موتى فى البحر أو الجو حتى لا أترك وحيدا فى هذه البريّة الموحشة .. هكذا كانت الصحراء مسرحا لهذه الثنائية الحب والموت . وظلت ثنائية الفرح والحزن تسيطر على معظم شعرى . لقد كان شعر هذه المرحلة تقليديا غارقا فى احتذاء شعراء الماضى . كتبت عشرات القصائد الدينية والغزلية تحت تأثير الخيال والوهم معا . وبينما كنت غارقا فى أسفارى إلى الماضى كان الواقع الثقافى فى مصر فى الخمسينيات يشهد مع تفجر الثورة ميلاد الوطنية والأحلام القومية وآمال الحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة العربية، كان وعى شعرى جديد قد اقتحم الواقع وبدأ يؤسس لحركة شعرية ثائرة على جمود الكلاسيكيين ساخرة من أحزان الرومانسية، كان فرسان الواقعية يوجهون سهامهم الجارحة إلى رموز الكلاسيكية والرومانسية بينما كانت المؤسسات الثقافية تقف مناصرة للقديم مشككة فى الجديد . لقد اصطدمت الرؤية الرومانسية والتقليدية التى حملتها قصائدى الأولى بالرؤى الجديدة التى حملتها مدرسة الشعر الحديث، وهى التيار الواقعى الذى كان صورة للواقع السياسى وكان الخطاب المباشر للنماذج الأولى لهذا التيار قد

شجع الشعراء الشباب على عدم العناية بالصياغة الفنية، وكان تأثير قصيدة عبدالرحمن الشرقاوى «من أب مصرى إلى الرئيس ترومان» كاسحا حيث حملت مضمونا سياسيا مثيرا وصياغة شعرية جديدة قريبة جدا من خصائص النثر.

عبد الله الطوخى

تحول جذرى

حدث التحول الجذرى فى موقفى بعد أن تعرفت على من أسميهم «شعراء القلعة» وهى المجموعة التى كانت تجتمع فى منزل الشاعر مجاهد عبدالمنعم مجاهد فى شارع «المدفر»، بحى القلعة، وهناك التقيت بكمال عمار وجيلى عبدالرحمن وفاروق منيب وعبدالله الطوخى وعلى شلش وكامل أيوب وبدر نشأت وآخرين صمتوا أو رحلوا، ولفت انتباهى وأنا الأزهرى الغارق فى العصور الأموية والعباسية تردد أسماء شعراء من أمثال لوركا وبابلو نيرودا وأراجون وبول الوار وناظم حكمت وسمعت عن شعراء عرب لم أكن أعرف عنهم شيئا مثل عبدالوهاب البياتى وصلاح عبدالصبور وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة، ورغم سخرية شعراء القلعة من قصائدى الغارقة فى الرومانسية والبنية التقليدية إلا أنهم قادوا خطاى إلى عالم جديد تماما خاصة كمال عمار الذى دلنى على مبنى دار الكتب، وتعرفت عن طريقهم إلى مقر رابطة الأدب الحديث حيث عرفت محمد مندور ومحمود أمين العالم ومصطفى عبداللطيف السحرتى وعرفت محيى الدين فارس ونجيب سرور وجليلة رضا، وشعراء من العراق والشام هلال ناجى وعاتكة الخرزجى. كان ديوان قرارة الموجة للشاعرة نازك الملائكة قد قادنى إلى كتابة القصيدة الحديثة وقد نشر لى جيلى عبدالرحمن قصيدتى الأولى فى ملحق جريدة المساء الأدبى فى فبراير ١٩٥٩ بعنوان «القارة الغاضبة» وحانت لحظة الحقيقة حيث أصبحت أدرك مدى خطورة أن تكون شاعرا . بدأت تجاربى الشعرية الحديثة بقصيدة سياسية مثيرة هى «بعض الوقت يا مستر دلاس» هاجمت فيها السياسة الأمريكية فى عهد جون فوستر دلاس وزير الخارجية الأمريكية، ولكننى أدركت سخافة الكتابة بهذه الطريقة التى كانت ستقودنى حتما إما إلى النثر أو إلى الصمت ..

مدرسة الشعر الجديد

كانت النماذج الشعرية التى تلقى فى المنتديات الأدبية وتنشر على صفحات المجلات وتصدر فى الدواوين القليلة التى تأتى من بيروت، تحظى بدعم نقدى كبير من جانب الشعراء أنفسهم الذين كانوا يشتبكون فى معارك وآراء ومعارضات ومناقشات على صفحات مجلة الآداب البيروتية، وقد خلق هذا الوعى ركيزة قوية استند إليها الشعراء الجدد فى الترويج لنماذجهم الشعرية وطرح قضاياهم الثقافية وآرائهم الفنية كنت قد شققت طريقا إلى عالم الرومانتيكية الانجليزية وهم الثلاثى الشهير «بيرون وشيلى وكيتس» وكان لترجمة أسفار تشايلد هارولد لبايرون بصياغة عبدالرحمن بدوى

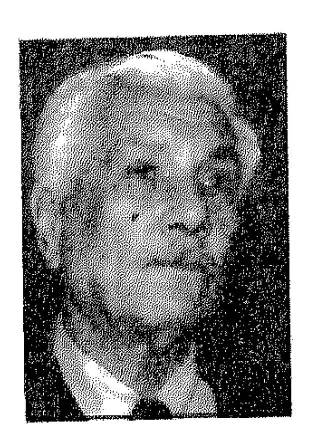
أثر عميق في نفسي وشعري تماما كالأثر الذى أحدثه كتاب «بروميثيوس طليقا» وقصيدة «مرثية أدونيس» فى رثاء كيتس للشاعر شيلي، والترجمة الرائعة التى قام بها لويس عوض وكذلك مقدمته الشاملة التى ألقت الأضواء على تطور الحركة الرومانسية فى الشعر الانجليزى فى القرن التاسع عشر، كما كان للمختارات التى ترجمها محمد عبدالوهاب المسيرى ومحمد على زيد من الشعر الرومانسى آثر أيضا فى خلق مؤثر عميق فى وجدانى ، من هنا جاء ديوانى الأول «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» متأثراً بالتيار الواقعي لمدرسة الشعر الحديث، كما حمل فى ثناياه أيضا بعض الرؤى الرومانسية ولمسات من المذاق الكلاسيكى. لقد صدر هذا الديوان فى عام ١٩٦٥عن دار المكتبة العصرية ببيروت وقوبل بترحيب حذر من جانب عدد من النقاد من أمثال الدكتور عبدالقادر القط، الذى كتب فى مجلة «روزاليوسف» مقالا تساءل فى مقدمته حول الجديد الذى أضافه الديوان إلى ما استقر من سمات فنية لمدرسة الشعر الحديث، حيث قال: «وديوان الشاعر محمد إبراهيم أبوسنة «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» يواجهنا بذلك السؤال لا لأنه تنقصه الشاعرية أو الإحساس المرهف أو القدرة على التعبير والتصوير، فكل هذه خصائص واضحة فيه، ولكنه يفرض لأول وهلة على القارىء الشعور بسيطرة الشكل الجديد بكل ما تبلورت له من سمات » .

أما الدكتور محمد النويهى فقد هزنى باهتمامه حيث تناول الديوان بدراسة عميقة استغرقت أكثر من أربعين صفحة فى كتابه «قضية الشعر الجديد» وقام بتحليل معظم قصائد الديوان بأسلوب موضوعى ؛ حيث وصف صاحب الديوان بالصدق ، يقول «هذا شاعر صادق الشاعرية، قد نختلف فى درجته من المقدرة الشعرية . لكن لاشك فى أنه شاعر صادق وعلامة هذا أنه لا يقلد إلا قليلا . هو يتأثر لكنه فى أغلبه وإن لم يكن فى معظمه تأثر مشروع بلغ درجة التمثل وليس تقليدا فجا. وهو يبذل جهده فى نحت أسلوب خاص به فيوفق أحيانا ويخفق كثيراً لكن هذا بحسب مقياسى لايهم الآن، فمادامت خصوصية آرائه قد أثبتت صدق شاعريته فهو يستحق منا كل ما نستطيع تقديمه إليه من الترحيب والشكران» .



أما الأستاذ مصطفى عبداللطيف السحرتي فقد كتب فى كتابه «دراسات نقدية عن ديوان قلبى وغازلة الثوب الأزرق» يقول «شاء الشاعر الشاب .. محمد إبراهيم أبوسنة فى ديوانه البكر «قلبى وغازلة الثوب الأزرق» أن يكون صادقا مع نفسه ونزعاته وآرائه صدقا حقيقيا غير حافل بالنزعات الجارية فى المجتمع، ولا آبه بالآراء الشائعة فى البيئة ولا باختلاف هذه النزعات والآراء مع الجمهرة من الناس لشعوره شعوراً عميقا بأنه يختلف عن هذه الجمهرة» وقد آثرت أن أورد مقتطفات مما كتبه كبار النقاد لأكشف عن الأثر العميق الذى تخلفه الكتابات الأولى حول شعر أى شاعر خاصة فى مرحلة الشباب ، لقد كسب لى هذا الديوان فكرة الاعتراف بشاعريتى ولكنه واجهنى بأسئلة لابد من الاستجابة لها، وفى مقدمتها كيف لى أن

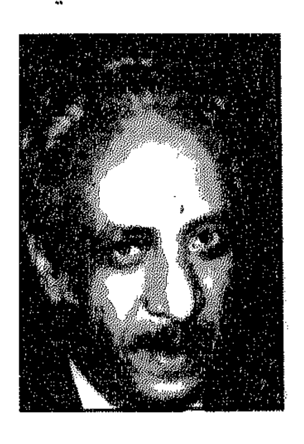
أتجاوز هذه المرحلة الشعرية التى اختلط فيها الواقعى بالرومانسى وكيف لى أن أبتعد عن عوالم الآخرين الشعرية لأغوص فى عالمى الخاص.



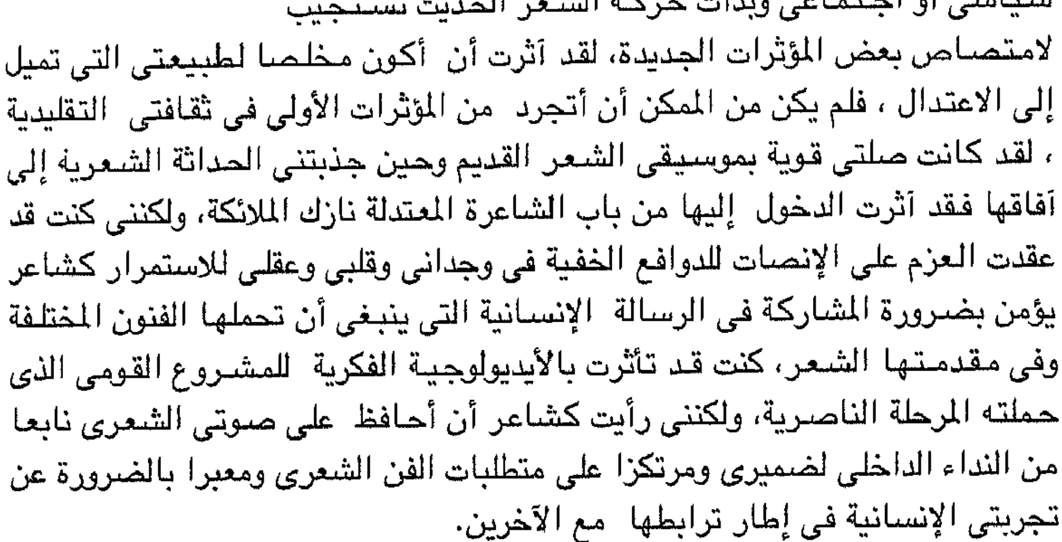
عبد الوهاب البياتي

بعيدا عن الأيديولوجية

لقد تنبه شعراء الموجة الأولى فى حركة الشعر الحديث إلى خطورة التهام الأيديولوجية للخطاب الشعرى وإحالته إلى بيان سياسى تابع وهامشى ، ورأى المبدعون أن يستمعوا إلى صوت ضميرهم وإلى نداء مواهبهم، وكان ظهور مجلة شعر والحركة التى تصدرها أمثال يوسف الخال وأدونيس وأنس الحاج وشوقى أبى شقرا ومحمد الماغوط قد خلق تيارا مناوئا للتيار الواقعى القومى فى الشعر العربى الحديث، لقد تابعت المعارك الأدبية التى احتدمت فى البداية بين التقليديين ودعاة الحفاظ على التراث الأدبى وحراس الجمود الفكرى وبين شعراء الحداثة ومن يؤازرهم من كبار النقاد الذين كانوا على صلة وثيقة بالتيارات الأوربية فى مجال النقد الأدبى وعلم الجمال والفلسفة والحداثة الفكرية . لقد تصدعت جبهة التقليديين ولكن جبهة الحداثة ما لبثت ان شهدت بوادر تصدع من نوع آخر ، فقد ظهر تيار حداثة لا تؤمن بتبنى القصيدة لأى محتوى سياسى أو اجتماعى وبدأت حركة الشعر الحديث تستجيب



صلاح عبد الصبور



لامتصاص بعض المؤثرات الجديدة، لقد آثرت أن أكون مخلصا لطبيعتى التى تميل إلى الاعتدال ، فلم يكن من الممكن أن أتجرد من المؤثرات الأولى فى ثقافتى التقليدية ، لقد كانت صلتى قوية بموسيقى الشعر القديم وحين جذبتنى الحداثة الشعرية إلى آفاقها فقد آثرت الدخول إليها من باب الشاعرة المعتدلة نازك الملائكة، ولكننى كنت قد عقدت العزم على الإنصات للدوافع الخفية فى وجدانى وقلبى وعقلى للاستمرار كشاعر يؤمن بضرورة المشاركة فى الرسالة الإنسانية التى ينبغى أن تحملها الفنون المختلفة وفى مقدمتها الشعر، كنت قد تأثرت بالأيديولوجية الفكرية للمشروع القومى الذى حملته المرحلة الناصرية، ولكننى رأيت كشاعر أن أحافظ على صوتى الشعرى نابعا من النداء الداخلى لضميرى ومرتكزا على متطلبات الفن الشعرى ومعبرا بالضرورة عن تجربتى الإنسانية فى إطار ترابطها مع الآخرين.

لهذا جاءت قصائدى خالية من هذا الانغلاق الأيديولوجى ؛ فقد استجابت قريحتى الشعرية لطبيعة التجارب التى واجهتنى فى حياة تقلبت بين البؤس الخالص وفترات من الهناء النادر ، لم يكن لشاعر مثلى انغمس فى قراءة عصره سياسيا وفلسفيا وشعريا وأدبيا أن يتجاهل الأحداث الكبرى التى حاصرت جيلى من الشعراء ، فقد

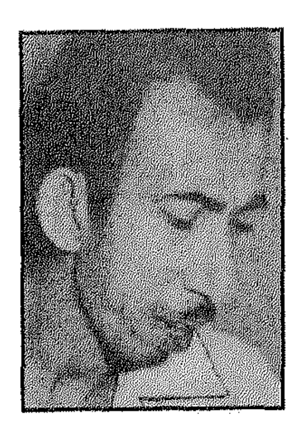
جاء ما سمى بجيل الستينيات ليواجه حصار الديمقراطية وأزمتها ووطأة الهزيمة المروعة فى عام ١٩٦٧ واحتمالات التحول وانتفاض الأمة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم التحولات الكاسحة بعد ذلك ، لقد كان الصراع بين القديم والجديد مرحلة فى تطور الشعر العربى ولكن تصدعا جديدا قد ظهر مع الأحداث الجسيمة التى بدأت بالهزيمة ، وظهور جيل جديد متأثر بثقافة المعارضة ، ويحاول أن يثبت أعلامه الشعرية فوق نفس الهضبة التي شهدت معارك الجديد والقديم، لقد مضيت فى الاستجابة لتحولات الواقع دون أن أسقط الأسس التى قامت عليها ثقافتى ، لقد كان للقائى بالدكتور لويس عوض فى صحيفة الأهرام فى عام ١٩٦٤ والانضمام إلى هذه الكوكبة التى كان يسميها شعراء الأهرام وعلى رأسهم صلاح عبدالصبور أثر عميق فى تعميق إحساسى بالمسئولية تجاه شاعريتى، فقد حاول الدكتور لويس عوض أن يوجهنى إلى دراسة اللغات الأجنبية وإلى قراءة الشعر الأوروبى خاصة فن (البالاد)، وكانت مناقشاته الجادة والحادة خلال عرض نماذجى الشعرية عليه لنشرها فى الملحق الثقافى للأهرام الذى كان الدكتور لويس عوض يشرف عليه بمثابة درس فى النقد الأدبى ، ورغم أنه كان موجعا ومتشدداً إلا أننى كنت أحترم آراءه.. والحقيقة أننى رغم كثرة الدراسات التى كتبت حول شعرى بأقلام كبار النقاد مثل لويس عوض وعبدالقادر القط وشكرى عياد وصلاح فضل وصبرى حافظ ومحمد النويهى ومصطفى السحرتى ومحمود أمين العالم.. ومحمد عبدالمطلب وغيرهم، إلا أننى كنت أحس دائما بأنهم لم يكونوا يميلون إلى إطرائى أو تشجيعى وإنما كانت الحقيقة الموضوعية هى التى تملى عليهم كتاباتهم التى أفادتنى كثيرا فى مراحل مختلفة من تجربتى الشعرية، ولقد كان ظهور ديوانى «تأملات فى المدن الحجرية» بمثابة تجاوز للمراحل الشعرية الأولى ، لقد جاء هذا الديوان لينهى المرحلة الغنائية ويضعنى مباشرة فى قلب الموقف الدرامى من حيث الشكل الفنى ومن حيث المضمون . لقد شغلنى الشكل الفنى للقصيدة طوال كتابتى لها منذ البدايات الساذجة مرورا بمرحلة المراجعة التى قام بها شعراء المدرسة الحديثة فى الستينيات. وكان الهاجس الدرامى يمثل لى طموحا فنيا حاولت تجسيده فى مسرحيتين شعريتين هما: «حمزة العرب» و«حصار القلعة»، لقد كانت قراءاتى الواسعة فى مسرحيات شكسبير وراسين وكورنيه ونماذج من الشعر اليونانى الكلاسيكى القديم لسوفوكليس ويوربيدس وأريستوفانيس وراء هذا الولع بكتابة المسرح الشعرى.

القراءات الذهبية

وقد حصلت على منحتين للتفرغ للكتابة الشعرية المسرحية بتزكية من الأساتذة لويس عوض ويحيى حقى.. وعبدالقادر القط وأنور المعداوى الذين كتبوا يزكوننى لإدارة التفرغ ، لقد كنت أطمح إلى مواصلة تجربتى المسرحية ولكن الإحباط الذى

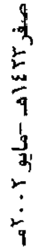
منيت به بسبب عدم تمثيل هاتين المسرحيتين قد ثناني على ما يبدو عن المبادرة إلى كتابة المزيد من المسرحيات الشعرية . لكن الهاجس المسرحى ظل يسكننى فقد ظللت أحاور تجاربى الشعرية بروح درامية وربما اتضح هذا فى بعض القصائد مثل «مشاهدات دامية فى مدينة لامبالية» و«تأملات فى المدن الحجرية» و«أمثولة الشاعر والمدينة الخرساء» ظل هاجس الدراما مسيطرا لأننى كنت أحاول الاقتراب من نبض الحدث اليومى بإيحاءاته ودلالاته وشخصياته، وربما فراراً من هذه الأحكام المتسرعة التى وصفت تجربتى الشعرية بالرومانسية وظل الشكل الفنى يؤرقنى لسنوات طوال كنت أطرح تساؤلاتى على وجدانى الداخلى، هل أستسلم للحظة الشعرية أم أخطط لبناء القصيدة فنيا، هل أطارد الشعر أم أتركه يطاردنى؟ من أين يأتى الشعر، هناك أحداث تزلزلنا ولكن الاستجابة لها شعريا قد لا تحدث على الإطلاق، وهناك ومضات غامضة تظل تؤرقنا ثم تفاجئنا بقصائد لم نكن ندرى عنها شيئا ، الشعر مفاجأة ولكنه لا ينبعث من العدم . إنه يقبل من يقظة الحواس والتعاطف مع الوجود والولع بالجمال والجهد المضنى . إنه أشبه بالمطارحات الغرامية لابد أن يشعر الشعر بحبك له وقدرتك على التضحية من أجله تماما مثل الوقوع فى غرام امرأة . كم من الحرائق التهمت الأيام والليالى من أجل ميلاد قصيدة وكم من فراديس فتحتها القصائد أمام الشعراء إن الشاعر يعمل بطاقة الخيال ولكنه يستمر بدافع الوهم.. يتوهم الشعراء أنهم يركضون وراء الحقيقة ولكن الحقيقة أقسى وأشد منعة من الإحاطة بها ، إنهم يتوهمون البقاء فى سجل الخلود والزمن مراوغ وساخر وكم من صفحات طويت وأشعار نسيت وأسماء لمعت ثم انطفأت ، يقول الشاعر الأرمنى باروبرسيفاح (١٩٢٤، ١٩٧١) فى قصيدته «الشعراء».

أدونيس



بدر شاكر السياب

« إنهم كالآخرين / لا يستطيعون العيش بدون الأوكسجين / رغم أنهم يحترقون فى كل ثانية / يبكون كالأنفاق المنتحبة تحت الأرض وهم أحيانا يضحكون / لضحكاتهم رنين العملات الذهبية التى تثرى العالم أما هم فيظلون فقراء ، لا يقدرون على العيش بالخبز والماء وحدهما. بصراحة إننا لا نملك إلا أن نحسدهم ولكن ثمة أوقات لا نملك إلا أن نشفق عليهم » لقد كانت تجربتى مع الشعر صراعا مع الوجود الحر للكلمات ومحاولة لاصطياد هذه الفراشات الذهبية التى رغم هشاشتها وجمالها قادرة على مواجهة العواصف والأعاصير. ■



ولقد فقدتك قريتي ..!!

شعر : د.أحمد السيد عوضين

مَنْ ذا تّروى مّهجتى
هىَ وحدَها.. شوْقى لها
هو ما يثيّر عواطفى
لكْن بّعادي قد بدا
فلقد حرمت صباحها
وأخذّت أشكو ّغربتى
ما عدّت أصبر مبعداً
فالقلّب يرجو ّرية
يرجو الحياة بقربها
ويزيلّ كلَّ متاعبِى
لكن خّطاىَ تباعدتْ
وتركّت خلْفى عالَمىَ
صدراً حنوناً ضّمنَى
كان الحياةَ وروحَها
كان الجماَل معّبراً
ويثيّر منّى شاعراً
حبُّ الحقيَقة مقصدىِ
أصفّ المفاتنَ مّعجباً
سَمْحاً عطوفاً راضياً
والعمّر يبدو مشرقاً
ثّقتى ُتجاوزُ حَدَّهاُ
حَتىَ علوتُ محقِّقاً

بالودّ غيّر حبيبتىِ
فيضُ يزيد محّبتى
لهفا للقيا فتنتى
هجراً يطول لفترة
وحّرمت نوَر البسمة
ياللعذاب بغربتىِ!!
ماعدتّ أرَضى بُغيَتىِ
دوما بفيض مودة
أملا يهدهد فَرحتىِ
فى غدوتىِ أوْ روحتى
إذ قد مضيت لهجرتى
أرَضى.. وموطنَ نشأتىِ
كان الأمانَ وظِلَّتىِ
والحب يروى غلتى
يّوحى ويّذكى َفتنتَى
صدق الشعور قصيدتى
والحسن أسمى غايتى
ومحّدثا عَنْ لّقيتىَ
ألقى الحياة بفرحتى
أملى يزاوج خطوتى
لْم تّبقِ صعباً طاقتىِ
ما أبْتغى مْن رفعةِ

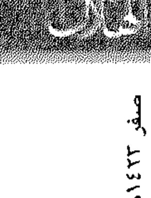
لـكْـن .. فــؤادي لـم يـزل
يـرنـو لمـاضٍ قـد بـدَا
مـهـمـا مـضـيت مـشـرقـا
فـأنَا الأسـيّـر مـقّـيـدٌ
مَنْ ذَا يردُّ مـسـيـرتي؟

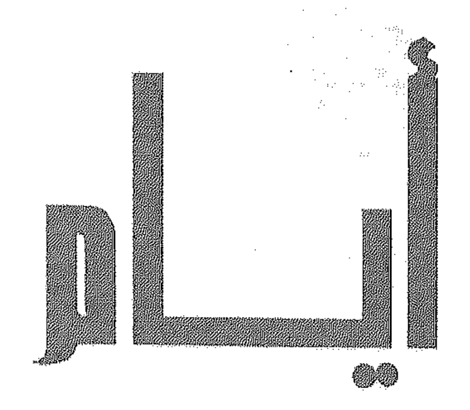
رهَن الّصـبَـا في صـبـوتي
دوْمـا بـعـيـني قِـبـلتيِ
أو نحـو غـربٍ وجـهـتي
روحـي بأسـر جِـمـيـلتيِ
مَنْ ذا يُعـيَـد آسـيـرتِيَ؟

★★★

يـومـاً تـركتُ مـديـنتي
ورجـعـت أروي غُـلَّـتيَ
حـيث الجـمـال مـوصل
يُرْخي ويُـسـدلُ سِـتْـره
يُلقى الظِّلال رقـيـقـة
وآرى الـنخـيَل وقـد رمت
رسـمت جـمـالا مـوحـيـا
ويـهـز سـمـعي.. عـزفـه
أوتـارهـا بـعـض الـذي
حـسن تـآلـف في هـوى
وهو المثـيـر مـشـاعـري
يوما رجـوت مـعـزتي
لـكـن رأيـت أثـيـرتي
فـيـهـا الضـيـاء غـزيرة
و«الدش» يشـغـل أهـلـهـا
والـكـل يسـهـر لـيـلـه
مـتلهـفـا .. مـتـتـبـعـا..
نسـي البـكـور بـصـحـوه
والأرض تـنـعـى هـجـرة
مـا جـال ذاك بـخـاطـري
فـقـدت بكارة حـسـنهـا
لم يـبـق ظـل واحـد
ووجـدت أنـي لـم أزل
ضـاعـت حـبـيـبـة مـهـجـتي

وهـجـرُت هْـونـاً هـجـرتي
مْن نـبـع حَّب حـبِـيـبِـتيَ
واللـيّـل سـحـر آثّـيـرتيِ
يـهـدي الخـيـال لـروعـة
حَـوْل الـنخـيـل بجَّنـتيَ
بظلالهـا فـي فَـتِـنـةَ
يـوحي بنيل طبـيـعـة
لحن يرق بـنـغـمـة
شـمل الوجـود بنعـمـة
فـهـو المشيع لنشـوتي
وهو الشـفـاء لشـقـوتي
في عـودتي .. في رجـعـتي
هي في إسـار مـديـنة
فـيـهـا أصطخـاب غـريرة
في فـرحـة.. في بـهـجـة
مـتـشـوقـا لمسـرة
حلمـا يراه بشـاشـة
صـار النؤوم لضـحـوة
تشكو جـفـاف الـتـربة
عـمَّـا أريد لبلدتي
ونضت ثـيـابَ بريئـةٍ
يُهـدي الهـدوءَ لثـورتي
في هِجـرتي .. في هجـرتِي
لَّما فَـقـدتِك قـريتِي





علاء الديب

الوردية

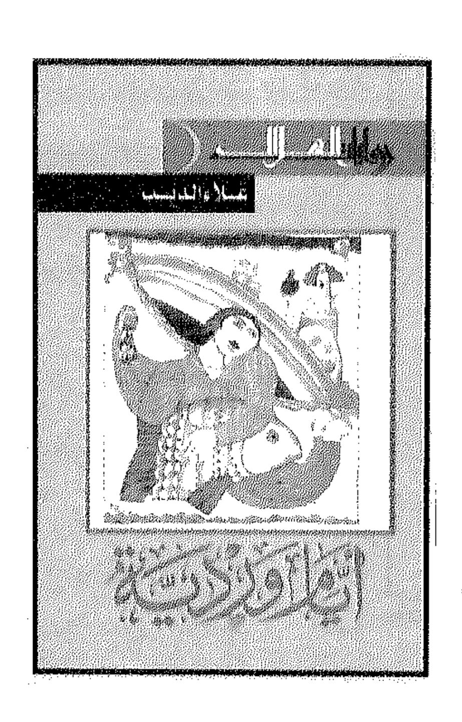
امين الألفى والصدر الذى ضاق بما لا يقال

بقلم
د. فهمى عبد السلام

يرصد كاتبنا الكبير الأستاذ علاء الديب في روايته الأخيرة الصادرة عن دار الهلال والتي تحمل عنوان «أيام وردية» يرصد أيامنا السوداء التي لا علاقة لها بالورد أو بالورود والعنوان نفسه يحمل سخرية مريرة فأيامنا حافلة بالقبح وبالخراب الذى يطالعنا أينما ولينا وجوهنا ويحاصرنا آناء الليل وأطراف النهار فالبشاعات نعايشها ونعرف أنها بشاعات ونتلقاها في لا مبالاة لا مثيل لها، إفك وخداع وبؤس روحي والكل يعادي الكل والابن يقتل أباه والصديق يلعق دماء صديقه، وكأننا نعيش في سراية مجانين وحشية، هذا الواقع الوحشي المجنون الذي علق عليه أديبنا الكبير نجيب محفوظ في أصداء السيرة الذاتية علي لسان عبدربه التائه حينما قال: «إذا هلكنا فهذا ما نستحق وإذا نجونا فذلك من رحمة الله». وأمين الألفي بكل الأيام الوردية غارق لشوشته تأملا في الانحطاط العام الذي نحياه، يراقبه ويسأل.. إلي أين يؤدي كل هذا؟

البطل المحورى للأيام الوردية هو أمين الألفى، ذلك الكهل ابن الرابعة والخمسين الساخط الناقم الحزين، الذى يسمى نفسه «تعيس الألفى» أو «محبط الألفى» الذى سيفتح «محلات الألفى للكآبة والظنون». سقط أمين الألفى بعد رحلة مريرة على «شطآن اللا جدوى» يحيا اغترابا حقيقيا عن واقعنا العجيب، يلوذ إلى محارته تلك البلكونة الصغيرة البائسة التى أغلقها بالخشب والألمونيوم ويراقب الزجاج المترب، حيث يدفن أحزانه العميقة فى كئوس البراندى الردئ التى تدخله إلى حالة من الظلام الدامس لكن من يوقف النزيف فى ذاكرة المحكوم عليه بالشنق كما يقول البياتى، فلا البراندى كاف ولا سجائر المخدرات قادرة على تضميد جراح القلب والروح.

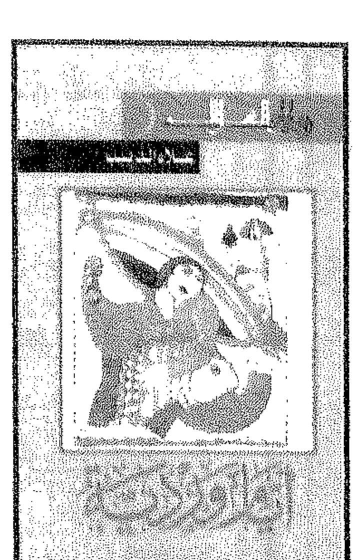
يراقب أمين الألفى حياته التى تسربت من بين أصابعه كالماء، فيجد أن أغلب تجارب حياته انتهت إلى الهباء واللا شئ، كلها توقفت قبل أن تكتمل وكل النهايات تفسد سواء فى البيت والأسرة أو فى العمل العام أو فى الوظيفة وفى واحدة من منولوجاته الطويلة الجميلة يقول : «اتبعت قلبى فصار أمرى إلى ما صار إليه» وبهذه اللغة العالية الشجية التى ترقى إلى



الشعر المصفى نتابع مأساة أمين الألفى، وهو يرصد فى وحدته الناس الذين عرفهم ونظر فى داخلهم بقدر المستطاع فلا يجد سوى «حالات» بمفهوم الطب النفسى وقوالب أشرار وأوغاد وسفلة وبؤس روحى وتعاسات لا أول لها ولا آخر، دخان وقش وغيوم وداخل كل هذا الركام نادرا ما يصادف عشقا حقيقيا أو فرحا حقيقيا بالحياة وهو الذى أضناه العشق والحب يطرح هذا السؤال المعذب لماذا تفوز الذئاب والضباع دائما؟!

هذا السؤال المرير الذى يطرحه أمين الألفى يعود بنا إلى متاهة فلسفية حزينة، لماذا لا يتلقى الودعاء والأنقياء سوى الهزائم دائما، ولماذا ينتصر السفلة على طول الخط، سيدنا على

النقاء مجسدا فى مواجهة معاوية، والمسيح عليه السلام فى مواجهة بيلاطس البونطي، وكما عاش المسيح يبشر بالحب وبالغبطة وبالبهجة بالحياة، عاش أمين الالفى ، عاش أمين الألفى عمره الطويل مؤمنا بالحب وبعشق الحياة كمنحة إلهية غير مستحقة فلما حوصر بالخراب وبالقوادين ومن يستطيعون امتطاء صهوات الأرباح والأسلاب والمغانم وحينما يئس من النوع الإنساني، يودع أمين الألفى كل طاقات العشق فى شجرة سنديان عجوز، وفى رحاب هذا الوجود الأخرس الرائع، يتلمس بطلنا سكينة نفسية ضائعة.



ومن السنديانة العجوز إلى مشوار أمين الألفى المعتاد كل ليلة، ونحن فى مدينة المنصورة حيث يعمل أخصائيا اجتماعيا فى مدرسة، بالبيجامة والشبشب يذهب زبون آخر الليل إلى صيدلية الدكتور ظريف، مسيحى أربعينى أعذب محروم مثل صاحبنا من كل مقومات النجاح فى مجتمعنا السعيد، عازب متصلب الرأى ودؤوب يدافع خلف الدكان المترب عن حباته وموقعه، تجارته تتقدم ببطء قاتل ولا يغامر بالقفز فوق أصغر قناة.

***

صار بينهما أكثر مما بين زبون وصيدلي، وتوصلا سويا إلى وصفة خاصة علها تجلب السعادة الرخيصة لأمين الالفى، ثلاث حبات ،المهدئ والمنشط والمقوى، يجد الصيدلى مع زبون آخر الليل حديثا مملا عن لصوص المجلس المحلى وسفالة مجلس المدينة والمصائب التى تحل بالبلد، وحينما بنتهى بعود أمين الالفى إلى كهف الحياة الزوجية، لبجد مس شادن زوجته قد هجعت أمام التليفزيون، ودون أن تنظر إليه تقول له حانقة أن مشيه بالشبشب والبيجامة يفضحها فى البلد كلها وأمين الألفى يتعمد مسألة البيجامة والشبشب حتى يحنقها، مستمتعا بالانقلاب يطرأ على روحها وعقلها ووجهها .أنجب منها بسمة وبهجت تبدأ بين أمين وزوجته المشاحنات والملامات التى تدمى القلب والتى تفزع بهجت وبسمة فينسحب أمين الالفى إلى قوقعته الالمونيوم المتربة الضيقة.

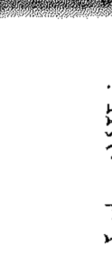
هذه الصورة البائسة تختلف عن البدايات، البداية كانت لقاء أمين الالفى

بهذه الفتاة اليسارية المتحمسة النشطة التى تكتب المقالات الوطنية والتى تعلى من شأن قيم التقدم، والتى تحضر الندوات، وكان بطلنا آنذاك أمين الألفى مشروع مفكر عربى على لحم الرأس على حد تعبيره، وكانت هزيمة يونيو، تزوجها أمين وذهبا إلى المنصورة تركا القاهرة ليبتعدا عن أضوائها وضجيج مثقفيها وأمراضهم ليعملا بين الناس والجماهير الطيبة وعملت شادن مدرسة لغة إنجليزية وفى مدرسة مجاورة عمل أمين كأخصائى اجتماعى وكان ينتقم من هزيمة يونيو، وعمل بكل نشاط وبأقصى طاقة، حصر للطلاب الفقراء وملفات وتقارير ومساعدات وحل للمشكلات موفيا ديناً يشعر به حيال الوطن المهزوم، فالوطن ينفض أوحال الهزيمة بالثرثرة وبالتنظير كأنه سينفضها بالعمل وبحث الهمم وتقديم القدوة والنموذج.

وفى خضم هذا الحماس الهائل كانت شادن بمثابة الزوجة والأم والصديقة كانت بمثابة «حقل القمح» العفى الوافر، وكان يجد عندها الحب وشاى الإفطار ومائدة الغذاء وكان يلامس شعرها ووجهها عند الغروب ومرت الأيام وتحول حقل الحنطة إلى حبات قليلة من القمح الجاف، والسبب كان التحولات الاجتماعية الخطيرة التى حدثت ، وقد تجسدت فى شخص أبلة الحاجة زينب، تلك المرآة العجيبة التى سنعود إليها بعد قليل.

***

أمين الألفى بعدما كان يجلس فى حجرة خاصة وحده يستقبل الطلاب ويكتب الملفات بأقلام ملونة، ويبعث الهمم فى نفوس التلاميذ، يجلس الآن محاصرا بأربعة من عتاولة الدروس الخصوصية، والتقارير التى كتبها بكل حماس، هاهى تقبع فى الدواليب متربة وكأنها الجثث المسجاة داخل التوابيت ومن مكانه يستمع كل يوم إلى عشرات المساخر والأهوال التى لا تصدق والتى تحدث فى المدرسة أوراق تصل من الوزارة وأوراق وبيانات وإحصائيات تذهب إلى الوزارة ، تمثيلية هزلية رديئة لا علاقة لها بالواقع الوحشى الموجود بالمدرسة وإبان فترة الحماسة راح أمين الألفى يعقد اللقاءات مع التلاميذ كى يشحذ الهمم للثأر من عار ٦٧، يستمع إليهم ويناقشهم وتنتعش روحه وهو يرقب عيون التلاميذ التى تشع بالحماسة وبالنقاء ومع أن أمين الألفى كان يقوم بما تتبناه السلطة رسميا وفعليا إلا أنه فوجئ برجال أمن الدولة يطلبون منه أن يكف عن هذا النشاط، فالمبدأ مرفوض فمن يجمع التلاميذ لصالح



أهداف السلطة، يجمعهم لأهداف أخرى، والحل أن يتم منع مثل هذه التجارب في المهد وانتهت قبل أن تكتمل كالعادة وفسدت النهاية كالعادة.

لم يستطع أمين الألفي ولم يرغب في امتطاء موجة الانفتاح وماتلاها ويصف لنا علاء الديب صباحاً من صباحات يوم جمعة في حياة بطله المحبط، ميكرفونات صارخة والأسرة ذهبت إلى شوقي خال الأولاد وشقيق مس شادن البيلي كما يقولون عنها في المدرسة «يأكل شوقي كثيرا ويتكلم كثيرا ونادرا ما يسمع ، لحيم ، كأن مشاعره اختنقت تحت لحم كثير متراكم، تفرغ للامتلاك ومحصن ضد الاختراق عدله مصلحته وساتره الإسلام عقد صفقة رابحة مع الله، فاز فيها بالدنيا والآخرة له كف غليظ يصفع بها أولاده على وجوههم وإذا تحدث يصمت الجميع».

هذا الوصف الموجز البليغ أشبه بالفنان المبدع، بأقل الضربات بالفرشاة على اللوحة بعدها نرى تحفة فنية، خلال عدة سطور ببراعة فائقة ينقل لنا علاء الديب صورة كاملة لشوقي وكأننا نراه ومن شوقي ننتقل إلى أبلة الحاجة زينب



فكلاهما من نفس الفصيلة فصيلة «البترو إسلام » إذا ما جاز لنا القول، من يتخذون من الإسلام ساترا يخفون خلفه غلظتهم وسوقيتهم وفظاظتهم وأنانيتهم المتوحشة ونستمتع معا بلغة علاء الديب الفاتنة المكثفة وأمين الألفي يتحدث عن أبلة الحاجة زينب.

«الحاجة امرأة من نوع غريب لم يعرفه في حياته امرأة كاملة التسليح، في الحجم والجمال والذهب . كتاب الله وحجابها الأنيق وذكاؤها الخارق جعلت لها في المدينة نفوذا هائلا وقع عليها زوجها في صفقة سريعة صاحبت إجراءات الإعارة . هناك أنجبا بفضل الله رجلين في آخر سنوات التعليم الآن صنعا معا ثروة وعقارا قامت معه بالحج مرات وفعلا معا الكثير من أعمال الخير، وأعمال الشر التي تجبرك عليها الحياة العصرية . وأخيرا أضاف زوجها فضلا من أفضاله فرحل مبكرا . عام وبضعة شهور، بعد العودة وانتهاء الإعارة رقد أياما ورحل ومن ماله أكرمته وأكرمه الله بمدفن فاخر تزوره بانتظام . تقول لأمين الألفي وهما يراقبان الحوش الضيق وقد امتلأ عن

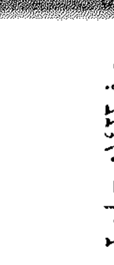
آخره بالتلاميذ يتحركون ويصخبون ويتشاجرون كأنهم قنابل قابلة للانفجار تتأملهم وتقول في كلماتها الخاطفة الخاصة المليئة بالحرارة لا حل إلا بتعاليم الإسلام والاستقامة.

وبعد معرفة دار بينهما صراع ضار على شادن، كانا يتبارزان عليها عن بعد في البداية، وكانت تهدده ببؤس العاقبة وسوء المآل فبعد سنوات الخليج كانت قد كرست حياتها للتسلط على خلق الله الأمر الذى كانت تقول عنه إعلاء كلمة الله وهداية عباده وفعل الخير.. وانتصرت أبلة الحاجة زينب المرأة الكاملة التسليح وخاض أمين الألفى من أجل الابقاء على شادن أهوالا، ودخل فى خطط طويلة مسؤلة ودخل فى مناقشات عقيمة ومزايدات مزيفة وتمت محاصرة شادن من الحاجة زينب وعدد من المدرسات المحجبات والمنقبات وراح يراقب رفضها له وهو يتزايد ويراقب كيف تبنى بينهما هذه الجدران . والسدود وتوغلت فى أركان شقته كتب عذاب القبر بما فيها من ثعابين ومرزبات حديد مشتعلة ومخاوف أبدية لها رائحة شواء البشر .. وضاعت منه شادن، أخذوها من يرفض رأيه إعلاء الإسلام . وتحول حقل القمح إلى حبات جافة وتحول البيت الملئ بالحب والتراحم والحنان إلى كهف الحياة الزوجية وإذا ما اشتكى أمين الألفى «يجد الجميع يرون أن ما يحدث هو أمر طبيعى بل هو مرغوب فيه ومطلوب وأنه هو الحل».

***

ومن محارة الألمونيوم إلى مستشفى نابلس للأمراض النفسية، حالة اكتئاب حادة كما شخصها الأطباء، والحاجة زينب تدبر الأمور المالية بشطارتها المعروفة ، وفى جناح الأمراض النفسية يلتقى أمين الألفى هناك فلسطينية شابة جاءت لرتق ثقوب الروح والجسد، تعرضت عفاف لعملية اغتصاب من ثلاثة رجال فى مذبحة صابرا وشاتيلا، رقيقة ذابلة مثل نور شمعة فى ظلام حالك، مهزومان يعانيان من أهوال الحياة يلقيان فى مصحة نفسية، أحبته وأحبها بدون كلمات تعبر عفاف عن حبها له بطريقتها أن تأتى إلى غرفته مسرعة ودون أى تحييه تطلب سيجارة، تجلس أمامه تدخن ويتأملها صامتا، وبعد نوبات الهياج تطلب أن تراه وأن يأتى إلى غرفتها . مثقفة ومن أسرة عريقة يتواصلان بلغة لا تفصح عن نفسها بالكلمات ويطلق عليها فى نفسه «وردتى الصفراء».

وطلبت منه عفاف أنها تريد رسامين أو صحفيين، وصحبها إلى محل نابولى، فكان طلبها أن تقعد قعدة أصدقاء



مثقفين وها هى تحصل على ما أرادت «كلهم كانوا موجودين المعروف منهم ونصف المعروف وقد التفوا حول كاتب كبير ثقيل الدم لكنهم يطلقون عليه الكاتب الساخر معارض لا يتعدى الحدود، جرئ لكنه مسنود واصل لكنه يحب الاحتكاك بالجماهير وتعرف أمين على واحد من الزملاء القدامى وجاء فاروق فؤاد أو ف.ف. فتصايح الجميع طربا . أستاذ فى أصول اللعبة ومدير بارع لمثل هذه الجلسات عفاف تسمع عنه كثيرا، وتقرأ له أحاديثه مع المشاهير ومقالاته النارية جاء ناحية أمين الألفى فقد كان يعرفه منذ آماد سحيقة قبل أن يصير ف.ف وقبل أن يصل الألفى إلى ما هو فيه، وفى سرعة وتدريب عال اضطر أمين الألفى أن يقدم له ضيفته الفلسطينية، وما أن سمع ف.ف اسم عائلة عفاف وما يوحى به من سلطة وشهرة ونفوذ، حتى استنفرت كل حواسه وبدأ العمل . أصر أن يغير الشراب الذى أمامها وسحب مقعدا جديدا لكى يجلس مجاورا لها، كان مدخله الطبيعى أن يحدث عفاف عن أمين الألفى، وعن العلاقة القديمة بينهما،



وعن القيمة والقيم التى يمثلها وما هى إلا لحظات حتى كان قد آزاح أمين الألفى وقام بدلا منه بكل عمليات الشرح والوصل والتحليل. استدار بمقعده كاملا ناحيتها بينما بدت هى ساعتها فرحة سعيدة تتأمل براعته.

وبعد أن دار الكلام دورتين ودار الشراب دورتين أحس أمين أن عفاف تمد يدها كى تمسك يده، وكانت الفضيحة وهما واقفان على الباب، تصلح من شأنها وتبتلع حبة من حقيبتها قالت:

كم هو بارع ابن الـ..... لم أدرك عندما حدثنى عن العقد، وعن رقبتى، ثم عن صدرى بلهاء مازلت كنت ابتسم ثم مد يده على فخدى فى أقل من ربع ساعة أرخص الشـ... يحتاجون وقتاً أطول مما تصور هذا الخـ.... وانتهت قعدة «المثقفين الأصدقاء» بتلك الفضيحة.

وفى مصحة نابلس فجأة يصل محامى المنصورة الأشهر والأشرس عبدالقادر، القرد أبو صديرى صابغا شعره بالأسود الفاحم وقد دهنه بالفازلين الجديد الغالى، جاء فى صحبة شادن ومعهما بالطبع أبلة الحاجة زينب، طابور المنتصرين دخلوا على العدو الذى لم يرفع

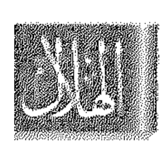
إصبعا للمقاومة وحصلوا على الطلاق وكل ما أرادوه الحاجة زينب كاملة التسليح ومعها المحامى عبدالقادر كانوا يحملون أوراقا كثيرة وقالوا كلاما كثيرا مأخوذا من كلمات القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم كذبوا طويلا فى قلوبهم قبل أن تكذب ألسنتهم واستمع إلى تلميحات المحامى من الدخول فى المحاكم وتدخلت الحاجة بأقوال كانت تقولها فى تؤدة وكأن وحيا يهبط عليها، وشادن لازال وجهها جميلا فى الحجاب الملون الجديد، تهرب من لقاء العيون بالنظر إلى الأرض وإلى السقف، وأمين الألفى يراقب ما يحدث كأنه يشاهد فيلما هزليا يحدث لشخص آخر.

ويخرج أمين الألفى من المصحة وتتكفل أبلة الحاجة زينب بكل الإجراءات الضرورية ومن مروءتها وحسن إسلامها بعد أن يطلب أمين أن يحال إلى التقاعد تعرض عليه أن يعمل فى إدارة شئ خاص بها، فهى قادرة على أن تقتل القتيل وتمشى فى جنازته ويرفض أمين ويصر على أن يغادر المنصورة كلها إلى مسقط رأس والده، فى قرية حصماية حيث يعيش داخل كوخ إبراهيم خليفة، صديق الوالد الذى كان يعمل بالسكة الحديد وتم تدبير مكيدة له حكم عليه ظلما بالسجن ثلاث سنوات وخرج أبو خليفة من السجن وعامله الناس كلص وأنكروه ونبذوه فعمل كوخا بجوار السكة الحديد على المزارع يعيش على دخل قليل من زراعة لوف ينمو فى كيزان خضراء ويجف تحت رعاية إبراهيم أبو خليفة ليخرج قلبها أبيض من غير سوء .. بين اللوف وأزهار ست الحسن التى تبزغ وسط الظلمة عاش أمين الألفى مع أبو خليفة ويقول له أبو خليفة:

- عندما أراك مرتاحا هنا، تحب هذا الكشك وتركت الدنيا لتقيم معى ساعتها أقول لنفسى استطعت الآن أن أسترد كرامتى.

ونزلت عليه فى تلك البقعة الساحرة سكينة لم يعرفها من قبل. الدنيا بعيدة لا يصله منها كذب أو ضوضاء هنا لم تعد الظنون، تلدغه، تحميه خضرة كثيفة تصنعها أوراق اللوف الكبيرة الخضراء وزهرة ست الحسن تتفتح له كل صباح لتنام معه مع المساء وهنا عرف كيف يموت.

أبكانا علاء الديب ونكأ جراحنا فى روايته القصيرة الحجم الرائعة الحسن وبلغة منحوتة أشبه بالشعر المصفى أدمى قلوبنا، على حالنا وعلى حال بطله النبيل الذى لا ينسى. ■

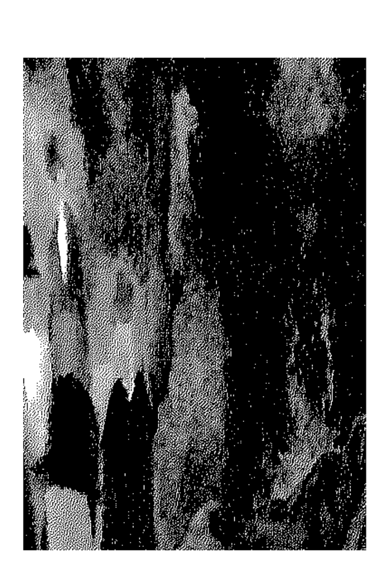


مقهى المعوّقين

قصـــة قصيـــرة

لطـفى عــزالديــن
(تــونــس)

هل كان لهذا العامل المهاجر أن يعود إلى بلده نهـائيـاً كي ينشئ هذا المشــروع؟! هذا المقــهى كــان بمثــابة تكريس للاخــتــلاف عن ســائر البـشر ولتـعـميق الهـوة بيننا وبين المجـتـمع، ألم تكفـهم عـزلتنا اللاإرادية حـتى يخلقـوا لنا عـزلة



ارتضــاهـا أغلبنا وذهب يجوب متاهاتها العميقة دون وعى بعــواقــبــهــا الوخيمة؟!

كــان اليــوم الأول لافتتاح المقهى مواكبا لـزيـارة تـدشـين؟ أداهـا أحد المسئولين الذى بارك الحدث فى كلمته وأعلن أن: «لا مـعـاق إلاّ مـعـاق

الفكر» وأن: «لا أعمى إلاّ أعمى البصيرة».. وكلاهما من هذا القبيل.. وشكر العامل المهاجر العائد إلى بلده.. على مشروعه الرائد هذا، راجيا أن ينسج بقية المستثمرين على منواله، مبينا أنه بإمكان المعاقين أخيرا الاجتماع مع بعضهم البعض في مكان مجهز خصيصا لهم من الباب الخارجي إلى دورة المياه... كان المقهى بالفعل مجهزا حسب طبيعة زبائنه حيث قسم إلى عدة جوانب: قسم للمشلولين وآخر للصم والبكم وثالث للعميان.. ولقد وضع صاحب المحل حارسا أخرس أمام الباب الخارجي كي لا يسمح بالدخول لغير المعاقين وكان بعض الفضوليين من الناس العاديين قد حاولوا طيلة الأيام الأولى زيارة المحل ولكن دون جدوى لأن الاستظهار بالبطاقة الزرقاء كان إجباريا.. إنه مقهى الإعاقة ولا يجوز للأصحاء السالمين دخوله.. أو ارتياده..

كان قسم المشلولين مشطورا إلى جانبين: جانب طاولته دون كراس.. خصص للمشلولين فاقدي الحركة العضوية الذين يستعملون كرسيا متحركا أو كرسي دراجة، وهو أوسع أرجاء المقهى.. وجانب ثان عادي به طاولات وكراس خصص للمشلولين جزئيا أي في يد أو ساق واحدة أو المستعملين لعكاكيز وهو القسم الذي كنت أرتاده.. وهو أخطر الأقسام خاصة عند الأمسيات ذلك أن بعض رواده حين يتخاصمون يستعملون عكاكيزهم للتضارب والاقتتال، فكان أن خصص لهم صاحب المقهى خزانة خاصة يضع فيها النادل عكاكيز الحرفاء بعد جلوسهم ولا يسلمها لهم إلاّ عند انتقالهم إلى دورة المياه أو مغادرتهم للمحل..

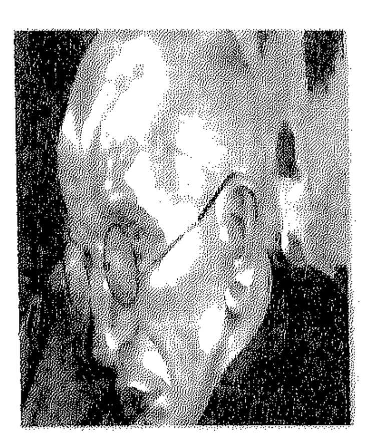
أما القسم الثاني وهو المخصص للصم والبكم فقد كان يُعرف بقسم «المشاريع» ذلك أن رواده يتميزون عادة بذكاء حاد بوأبعضهم للعمل كصناع تجاريين وجعل فئة أخرى منهم منحرفة يبيع أفرادها.. البضائع المهربة.. وفيهم مجموعة استغلتها عصابة تعنى بالاتجار بالعملة الصعبة.. وكان الأخرس بالنسبة إلى هذه العصابة خير عميل.. ذلك أنه في حالة إلقاء القبض عليه لا تستطيع الشرطة الحصول على أية معلومة منه.. لذلك أطلق على هذا الجانب من المقهى اسم قسم «المشاريع» وكان رواده يمتازون باحتسائهم لفاخر الشراب وتدخينهم أغلى أنواع السجائر..

أما القسم الثالث الخاص بالعميان فهو أهدأ ركن في المقهى يتميز رواده بالمسالمة والميل إلى التفكير والتحديق في المطلق، حتى وإن انطلقت من بعض أفراده قهقهات أو صيحات أو أحاديث بأصوات مرتفعة فإن ذلك لا يحدث إلا نادرا.. هذا إذا استثنينا شابا يأتي كل صباح ليشرب كأسي شاي ويرتل من الآيات القرآنية ما يعادل الحزب ثم ينصرف.. وتعود فكرة إنشاء المقهى إلى أحمد مجاهد وهو شاب هاجر إلى فرنسا وبعد سبع سنوات من العمل هناك تعّرض إلى إصابة عمل أفقده رجليه، فكان أن حصل على تعويض مالي إضافة إلى جراية محترمة

تصله مع بداية كل شهر.. فعاد إلى تونس وفكر فى استغلال المبلغ المالى المهم الذى لديه فأنشأ هذا المقهى وجعلها خاصة بالمعاقين وأطلق عليها اسم مقهى «الرحمة»..

ولقد كان تصور أحمد لتزويق المحل ينم عن ذكاء كبير وعن تأثر بالفنون التجارية الغربية، إذ عمد إلى وضع رسوم طبيعية ممتازة فى ركن المشلولين وبعض اللوحات الحاملة لحكم وأقوال مأثورة وآيات قرآنية من ذلك: «الصبر مفتاح الفرج» أو «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم..».. ولقد أضاف إلى جانبها صور بعض المشاهير والأبطال الرياضيين من المعاقين فهذا مشلول أمريكى يجلس إلى كرسى متحرك ترك لحيته دون حلق، تمسك يده اليمنى بكرة سلة.. أما يسراه فتلوح بعلامة النصر!! وهذا معاق سويدى فقد يديه يبدو فى المطبخ وهو يحضر «سلطة» برجليه!!

أما فى جانب الأكفاء.. فعمد صاحب المقهى إلى نحت بعض الجمل والآيات بطريقة «براى» على



أطراف الطاولات يماثل بعضها تلك التى تبدو فى جانب المشلولين مثل: «إنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» أو إنما أمره «إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»..

أما القسم المخصص للصم والبكم فتبدو فيه بعض الرسوم التشكيلية والانطباعية منها واحدة كبيرة الحجم تصور الشمس وهى خارجة من البحر كتب تحتها بالخط الكوفى: «حين نتأكد من جمال البحر.. لا يضيف لنا شيئا صوت أمواجه» إضافة إلى بعض الحكم والأمثال الخاصة بتلك العاهة مثل: «الشر يأتى الإنسان من لسانه فما خسر شيئا بفقدانه»..

ولقد استبشر أغلب رفقاء الإعاقة بهذا المقهى واعتبروه مكسبا يبعدهم عن نظرات الشفقة أو السخرية التى عادة ما يكونون عرضة لها فى المقاهى العادية وكان بعضهم يعتقد أن المقهى وفر له فرصة الراحة النفسية.. فمن يرى مصيبة غيره تهن عليه مصيبته.

أما أنا فقد كان كل يوم جديد فى حياة المقهى يضاعف من هواجسى ويجعلنى أمقتها أكثر... ولقد حاولت تسريب أفكارى إلى بقية المعاقين ودعوتهم إلي مقاطعتها، كما أكثرت من تحليل سلبياتها وآفاق «العزل» المظلمة التى تفتح عليها.. ولكن حديثى لم يجد الصدى الذى توقعته.. ربما كنت خطيباً فاشلا، ربما كانت آرائى مثالية جدا.. ربما كنت أطرح مسألة عملية على أناس تعودوا الركون إلى الراحة منذ سنين كثيرة، ولكن الأكيد أن المقهى كانت تمارس جاذبيتها اللامحدودة على زبائنها.. فاكتفيت بانتظار مفاجأة.. أو إحدى الخوارق التى تعصف بهذا المقهى..

ومرت الأسابيع الأولى من عمر المقهى عادية وكانت فى أغلب الأحيان تعج بالزبائن، إلاّ إذا

استثنينا بعض الفترات التى تنشط فيها حركة التسول حيث لا يبقى إلا القليل النادر من الزبائن يكاد ينحصر أغلبه فى قسم الصم والبكم أو فى بعض الأثرياء من المشلولين والأكفاء..

غير أنه بمرور الأيام صارت تتوافد على المقهى نماذج من المعاقين لم يقرأ لها أحمد حسابا عند تقسيم أرجاء المقهى، فلا يمكن أن يصنفوا فى أحد الأجزاء الثلاثة، فهذا قزم محدودب عند مستوى أعلى صدره يسير على قدميه ولكن لابد أن يصنف صحيا واجتماعيا ضمن قافلة المعاقين وآخر فقد عينه اليمنى وإيره فى حادث مرور لا يجب أن يرتاد المقاهى العادية.. سمع بفتح هذا المقهى فجاءه وليس له من بطاقة يستظهر بها أو دليل يرفعه سوى نزع سرواله أمام الحارس الأخرس كى يثبت له أنه معاق فى رجولته وقبل أحمد عضويته محافظة على الأخلاق العامة..

وهذا أبرص تكسّر فكّه الأسفل وانزاح جانبيا عن مستواه الطبيعى فصار فاه عبارة عن رحى حجرية لا يتكلم أو يأكل إلا وفكاه فى حركة تقاطع مستمرة بين



اليمين والشمال.. هذا طبعا إضافة إلى معاقين تجتمع فيهم أكثر من عاهتين ترك لهم عيسى حرية اختيار القسم الذى يجلسون فيه..

هذا الطابع المميز للمقهى، جعلها مجلبة للعديد من الزوار غير المعاقين فهذا طالب يعد أطروحة كفاءة فى علم الاجتماع حول المعاق وطريقة إدماجه فى الحياة العملية جاء ليوزع على الزبائن استمارات وليطرح عليهم عشرات الأسئلة.. وذاك طالب علم نفس يعد أطروحة تعمق جاء مزودا بجهاز تسجيل وبعشرات المصطلحات التى كان أغلب المستجوبين يجهلها.. وغيرهما من الزوار الذين كان يسمح لهم صاحب المقهى، لسبب أو لآخر بالزيارة.. ولقد كانت كل هذه الزيارات - وإن أثارت بعض الحرج - محل رضى وترحاب من المعوقين بل أكثر من ذلك، كانت بالنسبة إلى الطلبة فرصة ممتازة للقيام بدراسة جدية لعينة إجتماعية.. نفسية قابلة للتحاور.

غير أن الزيارة العجيبة القاضية، كانت تلك التى قام بها صحفى مسئول على الصفحات الاجتماعية بإحدى الأسبوعيات الذي جاء ليتحدث مع المعاقين حول موضوع استفزهم وجعلهم يفضلون التحرك.. لا لن يسمحوا هذه المرة لذلك الصحفي أن يخدعهم ويخدع رفقاءهم، لن يسمحوا له بتجميل صورته على حساب الحقيقة المرة التى يحيونها.. وتسارعت الأحداث بصورة غريبة، فانهالت العكاكيز والكراسى على الصحفى وأشبع ضرباً.. إلى أن أقسم بأغلظ الأيمان أنه لن ينشر مقالاً بل سيعتزل الصحافة.. وأدرك المسكين أن درجة الغضب عند المعاق كما درجة الصبر تتجاوز بكثير تلك التى يتمتع بها المواطن العادى.



برنارد شو

ومحاكمة مجرمى الحرب

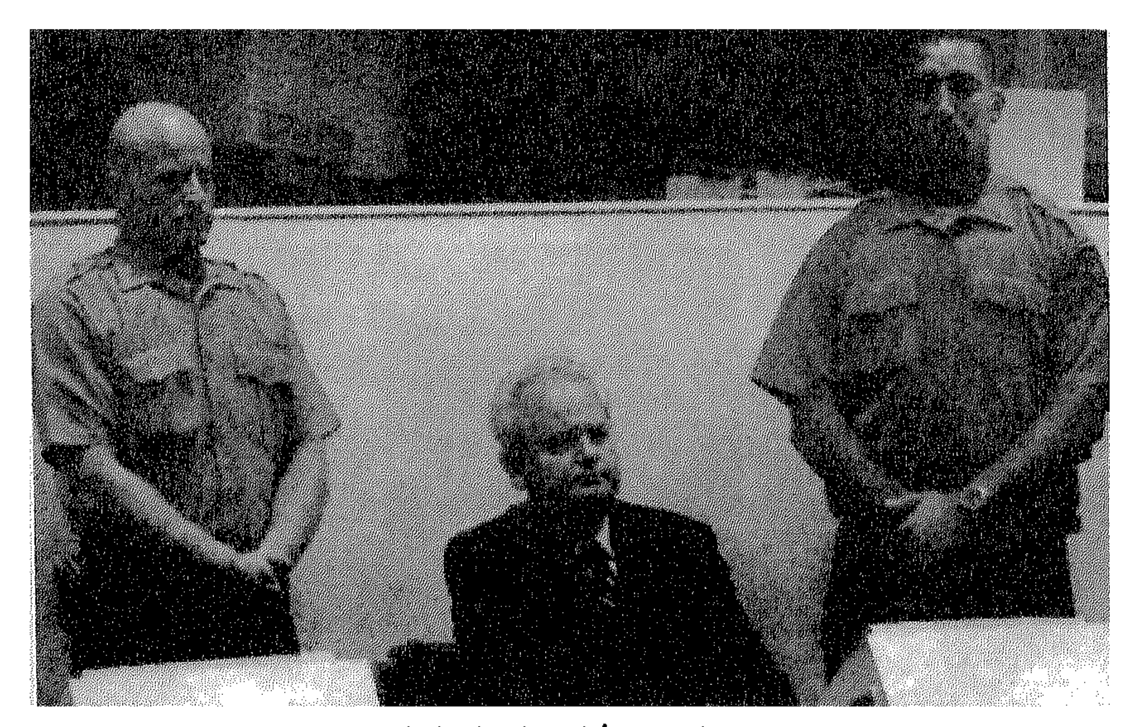
بقلم

د. محمود على مراد

كتب جورج برنارد شو، عام ١٩٣٥، مسرحية عنوانها «جنيف»، قدم فيها للمحاكمة، أمام محكمة العدل الدولية بلاهاى، تحت أسماء مستعارة، حكام أوروبا، الديكتاتوريين الثلاثة فى ذلك الوقت، أى موسولينى وهتلر وفرانكو. ووصف «شو» مسرحيته، فى عنوانها، بأنها شطحة خيال سياسية.

وفى ١٢ فبراير سنة ٢٠٠٢، أى بعد كتابة هذه المسرحية بسبعة وستين عاما، بدأت فى لاهاى، أمام محكمة جنائية خاصة، أنشأتها الأمم المتحدة، محاكمة سلوبودان ميلوزيفتش رئيس جمهورية يوغسلافيا السابقة، عن ست وستين تهمة تتعلق بالقتل الجماعى «الجينوسيد» وبارتكاب جرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية.

فهل يمكن اعتبار هذه المحاكمة، التى ستستغرق سنتين والتى ستسمع المحكمة فيها مائتى شاهد، تحقيقا لشطحة خيال برنارد شو؟

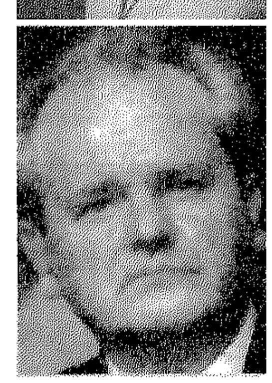


ميلوزيفتش أمام محكمة العدل الدولية

يرفع الستار عن مكتب في جنيف، مقر عصبة الأمم، للجنة اسمها «اللجنة الدولية للتعاون الفكرى» أنشئت أصلا فى باريس لتكون ملتقى لكبار العلماء والمفكرين فى العالم، ولكن مواردها تضاءلت فجأة فلم تمارس الدور الذى أنشئت من أجله، واقتصرت هيئة موظفيها على موظفة بريطانية واحدة تقوم بأعمال كتابية روتينية ولم يعد أحد من المسئولين فى عصبة الأمم يعلم حتى بوجودها.

وذات يوم تفاجأ موظفة المكتب بزيارات من خمسة أشخاص، كل منهم يتقدم إليها بشكوى يطلب منها أن تنتصف له فيها، باعتبارها ممثلة للتعاون الفكرى فى أوروبا، وأول الزوار يهودى جاء يشكو من اضطهاد الحاكم الألمانى له لكونه يهوديا. والزائر الثانى ديمقراطى بريطانى جاء إلى جنيف ليتظلم من منعه من دخول البرلمان الذى انتخب لعضويته فى مستعمرة من المستعمرات البريطانية. والثالث زائرة من إحدى جمهوريات أمريكا اللاتينية اغتيل زوجها بأمر من رئيس الجمهورية الذى خلفه فى هذا المنصب، والزائر الرابع أسقف انجليزى جاء ليشكو البولشفيك الروس الذين أفسدوا خادمه وجعلوا منه شيوعيا. والزائر الخامس قوميسار روسي جاء يشكو كنيسة انجلترا التى تعلم الناس أن الروس ملعونون عن بكرة أبيهم.

ويغلق على الموظفة حين تتلقى الشكوى الأولى، ولا تدرى كيف تتصرف فيها، ولكن صاحب الشكوى، أى اليهودى المضطهد. يقترح عليها أن تقدم إلى محكمة العدل الدولية بلاهاى طلبا للقبض على رئيس الدولة التى اضطهدته لمحاكمته.. وتروق الفكرة للموظفة، وتعرضها على باقى الشاكين فيرحبون بها. وتقدم الموظفة إلى المحكمة المذكورة طلبات يحررها لها صديق أمريكى يعمل مراسلا لبعض الصحف الأمريكية، للقبض على المسئولين فى جميع الشكاوى التى قدمت إليها «باستثناء الشكوى المقدمة من الأسقف الانجليزى، إذ إن هذا الأسقف يموت، فى الفصل الأول، بالسكتة القلبية أثناء

مناقشة حادة له مع القوميسار السوفييتى».

وكان المتوقع ان تتجاهل محكمة العدل الدولية طلبات القبض المقدمة من موظفة لجنة التعاون الفكرى، ولكن الذى يحدث هو أن قاضيا شابا من قضاة هذه المحكمة، أفعم قلبه بمبادىء العدالة الدولية، يرى أن هذه فرصة ذهبية لإعمال المبادىء المذكورة فيصدر تكليفا بالحضور لكل من الحكام الديكتاتوريين الثلاثة ويحدد موعدا لمحاكمتهم.

يرفع الستار، فى الفصل الأخير من المسرحية، عن جلسة المحكمة الدولية، وقد زودت القاعة بأجهزة للراديو والتليفزيون تنقل وقائعها على الهواء الى جميع أنحاء العالم. ويحضر الجلسة الشاكون، وأمين عام عصبة الامم، وموظفة مكتب التعاون الدولى (التى أصبحت شخصية مشهورة فى انجلترا وانعم عليها بلقب «سيدة الامبراطورية البريطانية» وانتخبت عضوا فى مجلس اللوردات)، وشاب خطبت إليه قريب لوزير الخارجية البريطانى ، ووزير الخارجية البريطانى نفسه، ويدخل القاضى الجلسة، ويفاجأ الحاضرون بوصول موسولينى أولا ثم هتلر ثم فرانكو، الذين جاءوا بمحض إرادتهم.

وتجرى المحاكمة . ويدافع المتهمون، الواحد بعد الآخر، عن أنفسهم، ويهاجمون خصومهم. وتستمع المحكمة إلى أقوال الشاكين والمشكو فى حقهم. وفجأة يدق جرس التليفون الموضوع أمام القاضى. ويستمع القاضى الى المتحدث ثم يبلغ الحضور بنبأ خطير: كارثة طبيعية كبرى، تقول مراصد العالم إنها ستقع ويترتب عليها فناء العالم خلال ساعات.

ويتوقف سير القضية ويرفع القاضى الجلسة قبل أن ينطق بالحكم.

العدالة الدولية

يعبر قاضى محكمة العدل الدولية، فى الفصل الثانى من المسرحية، عن حاجة العالم الى مثل هذه العدالة، فى مناقشة له مع وزير الخارجية البريطانى الذى حضر الى جنيف على عجل لمقابلة أمين عصبة الامم والوقوف منه على حقيقة الامر، بعد الأزمة الدولية الخطيرة التى آثارتها أوامر القبض التى أصدرها هذا القاضى.

ويقول القاضى إن زملاءه فى لاهاى انتظروا وقتا طويلا حتى تصلهم قضية تسمح لهم بممارسة اختصاصهم الجنائى، وأن لجنة التعاون الفكرى زودتهم بأربع قضايا من هذا النوع، وأنهم سيستفيدون منها إلى أقصى حد لإثبات وجود المحكمة وسلطانها ، وأنه كان مما يثير استنكارهم دائما أن رجال الدولة العصريين ينزلقون الواحد بعد الآخر من حكم القانون القائم على مبدأ العدالة الازلى إلى خدمة حكومات أقامها غوغائيون ناجحون أو عسكريون منتصرون. لدى كل منهم قائمة بأعدائه، الذين لا يتمتعون بحماية القانون. فالحاكم يسجنهم او ينفيهم او يغتالهم وفق هواه، وأنه كقاض فى محكمة العدل الدولية قضى سنوات فى محاولة ابتكار اجراء قانونى يسمح بمقاضاة رجال الدولة الذين يخالفون القانون.

ويبدى وزير الخارجية البريطانى اعتراضين على هذا الموقف: الأول هو أن الدول حين انضمت إلى عصبة الأمم لم تكن تتصور وجود مثل هذا الإجراء. والثانى هو أن المحكمة لا تملك أى سلطات . وأن السلطات بيد الدول، وأن

المحكمة لا تستطيع أن تضع الدول فى قفص الاتهام، كما أنه ليس لديها شرطة لتنفيذ أوامرها أو إمكانيات لتنفيذ العقوبات التى تقضى بها.

ويرد القاضى على هذين الاعتراضين بقوله ان الدول وقعت على ميثاق عصبة الأمم لا لأنها قرأته وإنما إرضاء للرئيس ولسون، رئيس الولايات المتحدة صاحب فكرة إنشاء العصبة، وأن سلطة محكمة العدل الدولية مستمدة مما يختاره لها قضاتها، وأن القانون الذى تريد أن تسنه هو قانون السوابق القضائية «المعمول بمثله فى انجلترا» وأنه، إذا كان صحيحا أن المحكمة لا تملك توقيع عقوبة على رجل أو دولة، فإن العقوبة التى ستوقعها تستند إلى قداسة العدالة والحرص على ألا يكون هناك ضرر بدون إصلاح، وأن الحاكم أو الدولة اللذين يدانان أمامها لن يكونا فى وضع مريح.

هل أصبح الخيال حقيقة؟

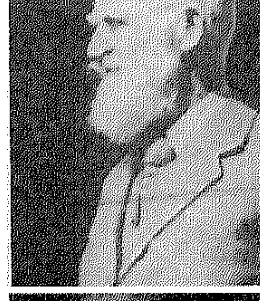
هل يمكن أن يقال إن محاكمة سلوبودان ميلوزيفتش امام المحكمة الجنائية الدولية فى لاهاى جاءت تحقيقا لأمنية القاضى فى مسرحية «جنيف»؟

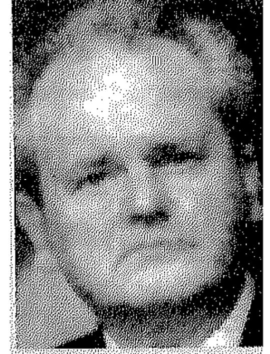
الرد على هذا السؤال يحتاج إلى تفصيل، فإن محاكمة ميلو زيفتش تمثل المرحلة الاخيرة من تطور له جانبان: جانب تشريعى وجانب قضائى.

وقد بدأ الجانب التشريعى، فى العصر الحديث. باتفاقيات عقدت فى جنيف عام ١٨٦٤ وضعت فيها قواعد لمعاملة أسرى الحرب معاملة إنسانية. وقد عقد فى لاهاى ، فى عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٧، مؤتمران للسلام العالمى سنت فيهما قوانين للحرب، كما عقدت مؤتمرات بعد الحرب العالمية الأولى للغرض ذاته. وقوانين الحرب تمنع قصف المدن بالمدافع أو القنابل، كما تمنع القيام بعمليات حربية ضد غير المحاربين. وقد وضعت الأمم المتحدة، بعد الحرب العالمية الثانية، على أثر عمليات القتل الجماعى التى تعرض لها اليهود وغيرهم خلال الحرب، اتفاقية تحظر القتل الجماعى.

وآخر رحلة فى هذا التطور التشريعى هى إنشاء محكمة جنائية دولية دائمة فى لاهاى تختص بالنظر فى الجرائم الدولية الخطيرة كجريمة القتل الجماعى والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب وقد أعلن السيد كوفى عنان، أمين عام الأمم المتحدة ، رسميا إنشاء هذه المحكمة فى روما بحضور رئيس الجمهورية الإيطالى، فى١٦ أبريل ٢٠٠٢، وستبدأ المحكمة فى مباشرة عملها العام القادم.

أما الجانب القضائى من العدالة الجنائية الدولية، فلم يبدأ إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد اتخذ شكل محاكمات لمجرمى الحرب المذكورة. وأشهر هذه المحاكمات واكبرها هى تلك التى تمت فى مدينة نورمبرج بألمانيا لمجرمى الحرب النازيين. وقد حوكم امام المحكمة التى أنشئت لهذا الغرض ٢٤ من القادة العسكريين والسياسيين والاقتصاديين فى ألمانيا النازية بتهم ارتكاب جرائم ضد السلم (الاعداد لحرب عدوانية وإدارة هذه الحرب)، وجرائم حرب (خرق قوانين الحرب) وجرائم ضد البشرية (القتل الجماعى). واستمرت المحاكمة من ٢٠ نوفمبر ١٩٤٥ إلى أول اكتوبر ١٩٤٦، وصدرت فى نهايتها أحكام بالإعدام شنقا على اثنى عشر متهما، وبالسجن المؤبد على ثلاثة متهمين وبالسجن عشرين سنة على ثلاثة آخرين. وخمس عشرة سنة على متهم، وعشر سنوات على متهم آخر. وقد انتحر جورنج





فى زنزانته فى اليوم السابق على يوم تنفيذ احكام الإعدام. وإذا كان هتلر لم يقدم الى هذه المحكمة فلأنه انتحر قبلها فى برلين.

أما المحكمة الجنائية الدولية بلاهاى لمحاكمة مجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة، فقد أنشأها مجلس الأمن بقرار صدر بإجماع أعضائه الخمسة عشر سنة ١٩٩٣ (وكان د. بطرس بطرس غالى أمينا عاما للأمم المتحدة وقتها) وهى تختلف عن محكمة نورمبرج فى أنها ليست محكمة عسكرية ولا محكمة منتصرين كهذه المحكمة الأخيرة، التى كانت مشكلة من ممثلين لدول الحلفاء الأربع أى : الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتى، وبريطانيا، وفرنسا.. وقد حوكم امام محكمة لاهاى، قبل ميلوزيفتش ، عدد من المتهمين من جمهوريات الصرب وكرواتيا والبوسنة والهرسك، التى كانت تابعة لاتحاد جمهوريات يوغسلافيا ، وصدرت ضد بعضهم أحكام بالسجن لمدد مختلفة نفذت أو جار تنفيذها فى سجن بهولندا.

وميلوزيفتش هو أول رئيس دولة قدم للمحاكمة عن جرائم ارتكبت خلال فترة رئاسته.

وإذا قارنا ما دار فى محاكمة هذا الزعيم حتى الآن بمحاكمة موسولينى وهتلر وفرانكو فى مسرحية برنارد شو لبدا لنا، للوهلة الأولى، ان محاكمة ميلوزيفتش تحقق فعلا ما كان يصبو اليه قاضى القضاة فى المسرحية من اخضاع رجال السياسة والدولة للقانون. وهناك فى الواقع اكثر من وجه شبه بين المحاكمتين:

– فقد جهزت قاعة المحكمة فى كلتيهما بأجهزة تنقل وقائعها بدقة وتفصيل إلى جميع أنحاء العالم.

– والمتهمون فى كلتيهما لا يعترفون بقانونية المحكمة ولا بأنهم خاضعون لسلطانها. ويحرصون على تقرير انهم إذا كانوا يتحدثون فليس ذلك دفاعا عن أنفسهم. فهم لا يعترفون بالتهم الموجهة إليهم، وإنما لكى يعرف الرأى العام العالمى، والمجتمع الدولى، والتاريخ . شخصهم ومواقفهم.

– وهم فى كلتا القضيتين يكيلون النقد والاتهام لخصومهم. وقد خصص سلوبودان ميلوزيفتش الجانب الاكبر من مرافعته المبدئية لاتهام منظمة حلف شمال الأطلسى، التى قذفت قواتها بالقنابل مواقع يوغسلافية فى ربيع سنة ١٩٩٩، وقبله، بجرائم الحرب ، وقال إن رؤساء دولها الأعضاء هم الذين يجب ان يقدموا للمحاكمة. وقال ايضا ان ما فعلته القوات والميليشيات اليوغسلافية فى كرواتيا والبونسة والهرسك، وفى منطقة «كوسوفو» جنوب الصرب، ما هو الا محاربة للارهاب داخل البلد، لا تختلف فى شىء عن محاربة امريكا للإرهاب فى أفغانستان التى تبعد عن امريكا بآلاف الأميال.

هناك إذن صلة ما بين المحاكمتين، بل رب قائل ان ما تحقق بالفعل فى مجال العدالة الدولية فى قضية ميلوزيفتش يسجل تقدما محسوسا على محاكمة المسرحية، بالنسبة لبعض النقاط التى أثارها وزير الخارجية البريطانية فى حديثه مع القاضى، فقد قبض على سلوبودان ميلوزيفتش وأودع السجن، ومثل فى قفص الاتهام امام المحكمة ، وحوله حارسان، بعد آن سلمته حكومة يوغسلافيا الى المحكمة، وهناك فى هولندا سجن سيقضى فيه هذا الحاكم المدة التى سيحكم عليه بها اذا ثبتت إدانته.

هدف المسرحية

على أننا إذا أنعمنا النظر فى المسرحية لوجدنا ان الصلة بينها وبين موضوع ميلوزيفتش لا تكمن فى المحاكمة ذاتها، وإنما فى الجرائم التى قدم ميلوزيفتش من أجلها للمحاكمة. فالواقع ان هدف برنارد شو من كتابة مسرحية «جنيف» كان اكبر بكثير من مجرد توضيح حاجة المجتمع الدولى لعدالة جنائية. والعدالة التى تحققت بمحاكمة هذا الزعيم الصربى - مهما هللت لها الأوساط الدولية - ليست عدالة حقيقية، وإنما هى فى الواقع عدالة رمزية، ولو كانت هناك عدالة حقيقية لما اقتصر الأمر على رئيس الدولة وبعض أعوانه ورجال جيشه ولحوكم أيضا عشرات الآلاف من الضباط والجنود ورجال الميليشيات الذين اشتركوا بصورة فعلية فى عملية التطهير العرقى فى يوغسلافيا السابقة، على مدى عشر سنوات، من بداية التسعينيات الى قرب نهايتها، التى اسفرت عن مصرع ما لا يقل عن مائتى ألف شخص، وجرح اضعاف هذا العدد، وتدمير ألوف المساكن ومئات القرى، واغتصاب عشرات الألوف من النساء اللائى كان بعضهن أطفالا او فتيات فى سن المراهقة، ونهب الأموال وتخريب المرافق، وإخراج مئات الألوف من ديارهم، وارتكاب فظائع شبهتها المدعية العامة السويسرية فى بدء المحاكمة بفظائع القرون الوسطى ومن هذه الفظائع مذبحة سريبرنيتسا المدينة البوسنية التى قتل فيها ثمانية آلاف من المسلمين البوسنيين العزل برصاص القوات العربية فى يوليو ١٩٩٥.

ان هدف المسرحية يتضح مما رواه برنارد شو عن ظروف كتابتها كما يتضح من ثلاثة او أربعة سطور وردت فى حديث أحد الشاكين، فى الفصل الأول، مع موظفة



هتلر



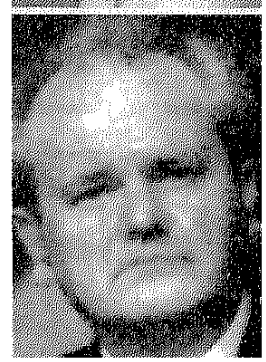
موسولينى

لجنة التعاون الدولى.

يقول «شو» ان «لجنة التعاون الفكرى» انشئت بالفعل بباريس بعد إنشاء عصبة الأمم بقليل ، وإن الذى انشأها رجل فرنسى كان مقتنعا بأن العصبة ان لم يكن هناك تعاون فكرى ينير لها الطريق، ستظل تمارس الدبلوماسية القديمة.وإن هذا الرجل وهب اللجنة مبلغا ضخما من ماله. الا أن تدهور قيمة الفرنك حرم اللجنة من المورد الذى يمكنها من أداء مهمتها. وإنه - أى مؤلفنا - فكر فى كتابة شىء عن هذه اللجنة. وكان لبرنارد شو صديق، اسمه جلبرت مورى، من دعاة السلام من المؤمنين بعصبة الأمم كان خلال فترة ما بين الحربين، رئيسا لاتحاد بريطانى لجمعيات تناصر العصبة. واقترح عليه هذا الصديق ان يراسل العصبة ويزودها بأفكاره. حدث هذا فى الوقت ذاته الذى كان «شو» يفكر فيه فى الكتابة عن لجنة التعاون الفكرى. ولم يراسل برنارد شو العصبة ، ولكنه كتب مسرحية «جنيف».

وجعل برنارد شو اليهودى، صاحب الشكوى يطرح على موظفة لجنة التعاون الفكرى. السؤال الآتى: كيف يستطيع عمالقة المفكرين الذين يكونون لجنتكم ان يؤثروا بكل قوة عقولهم الديناميكية الهائلة، وبكل مكانتهم وسلطانهم الأدبى،





على مصائر الأمم؟ ما الذى يفعلونه لتصحيح أخطاء رجالنا السياسيين الجهلة؟

ومسرحية «جنيف» هى إجابة برنارد شو عن هذا السؤال الخطير الذى يتعلق بمصائر الأمم وهدف المسرحية هو بحث ما اذا كانت عصبة الأمم قادرة على تحقيق الغرض الاساسى الذى أنشئت من أجله، أى منع الحروب. وإذا لم تكن قادرة على تحقيقه. بحث أسباب ذلك.

وبرنارد شو، كما يتضح من المسرحية لم يكن، كصديقه جلبرت مورى، من المؤمنين بعصبة الأمم وبقدرتها على انقاذ العالم من الحروب. وقد اثبتت الأيام صحة شكوكه، فقد عجزت العصبة، قبل كتابة المسرحية ، عن منع اليابان من محاربة الصين ومنع ايطاليا من غزو الحبشة واحتلال البقية الباقية من ليبيا. كما عجزت، بعد كتابة المسرحية بأربع سنوات، عن منع قيام الحرب العالمية الثانية التى فاق عدد القتلى والخراب والدمار الذى احدثته بكثير ما تمخضت عنه الحرب العالمية الاولى.

ويرجع برنارد شو فشل عصبة الأمم فى إحلال السلام فى العالم الى سببين هما : العصبية وتقسيم العالم الى دول .

العصبية

معظم أشخاص مسرحية «جنيف» متعصبون أو عنصريون بصورة أو بأخرى : فالموظفة البريطانية متعصبة للحى الذى كانت تقيم فيه، ومتعصبة للامبراطورية البريطانية، ومتعصبة ضد الشيوعية والكاثوليكية والنظام الجمهورى .

واليهودى، الذى جاء الى جنيف ليشكو من الاضطهاد العنصرى والدينى الذى سلط عليه فى ألمانيا، يقول إن الجنس الذى سيهدى العالم بعقله.. هو الجنس الذى أنتج كارل ماركس وروسيا السوفييتية.

والسيدة، التى جاءت من بلد فى أمريكا اللاتينية، متعصبة لبلدها وتقول إنه اكثر بلاد العالم تحضرا وانه من بلاد العالم التى تحتل مكان الصدارة فى الثقافة ونقاء الجنس (مع أن أهله خليط من أجناس المايا والأزتيك والإسبان). وهى متعصبة ضد اليهود وتقول إنها لو كانت رئيسا لبلد اليهودى لأعدمت كل يهودى فيه لأن اليهود صلبوا المسيح، وهى متعصبة أيضا ضد الشيوعية .

والقوميسار متعصب لبلده ولنظامه، وهو يقول ان هناك صفات لاتنبت إلا على الأرض الروسية، وإنه لن يكون هناك مستقبل للعالم الغربى إلا إذا قبل زعامة موسكو .

ووزير الخارجية البريطانى متعصب لبلده وللإمبراطورية البريطانية، وهو يقول إن هناك سبيلا واحدا لا غير لجمع الأمم كلها فى عصبة واحدة حقيقية، هو تحويلها جميعا إلى الأفكار الانجليزية.

ورأى برنارد شو فى العصبية هو ما عبر عنه أمين عصبة الأمم وقاضى محكمة لاهاى. فأمين العصبة يصارح المذكورين، فى انفعال، بأنه يكرههم. وهو يصفهم بأنهم أعداء للجنس البشرى، ويصف أبطالهم القوميين بأنهم قطاع طرق وقراصنة. وهو يقول لوزير الخارجية البريطانى إنه لا يسمعه يتحدث فى السياسة إلا وتتملكه الرغبة فى قتله. أما القاضى فإنه يقرر أنه ليس هناك جنس نقى أو ممتاز وأن الناس جميعا أجناس مختلطة مهجنة.

تقسيم العالم الى دول

حين كتب برنارد شو مسرحيته، لم تكن صورة موسوليني وهتلر هى الصورة التى ظهرا بها أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان موسولينى قد بدأ تنفيذ نظامه الفاشستى قبل أن يبدأ هتلر فى تنفيذ برنامجه النازى بسنوات. ولم تكن العلاقات بين موسولينى وبين انجلترا وفرنسا قد ساءت. ومن جهة أخرى لم تكن الحرب الأهلية الإسبانية التى لعب فيها فرانكو دورا حاسما قد احتدم أوارها بعد.

لذلك فإن تقديمهم للمحاكمة كان لأسباب ترجع الى عصبيتهم وعنصريتهم أساسا (ولأن برنارد شو كان يريد عن طريقهم أن يعمم الإدانة إلى الدول الأخرى). فهتلر فى المسرحية يقسم البشر الى فريقين: الجنس الآرى، الذى يعتبره أرقى الأجناس، والأجناس الأخرى، ومنها الجنس السامى، الذى ينتمى اليه اليهود، وهى أجناس أدنى درجة، أما موسولينى فقد كان يقسمهم إلى بيض وسود: البيض هم السادة والسود هم سكان المستعمرات.

وأخيرا فان فرانكو كان يقسم الناس الى أسياد وأوغاد، والى كاثوليك وكفار. وكان لكل منهم حججه فى تبرير تعصبه وعنصريته، كما كان كل منهم يستعد لتنفيذ برنامجه لبلده بالقوة العسكرية. وقد وقفت عصبة الأمم أمام هذا الوضع المتفجر عاجزة عن الحركة .

وأفكار برنارد شو فى تصوير أسباب هذا الوضع ونتائجه تظهر، هنا أيضا، فى كلام أمين العصبة والقاضى.

إن الأمين يقول إن السنوات التى قضاها فى خدمة المنظمة علمته أن البشر بحاجة إلى شىء أسمى من الوطنية، وإن من المتعذر الحصول على هذا الشىء « من هؤلاء الوطنيين بأناشيدهم الوطنية وأعلامهم وأحلام الحرب والانتصار التى تلقن لهم منذ الطفولة»، ويضيف أن «تنظيم الدول هو تنظيم للحرب العالمية»، وأن العصبة تحلق فوق أوروبا كسحابة حرب دائمة.

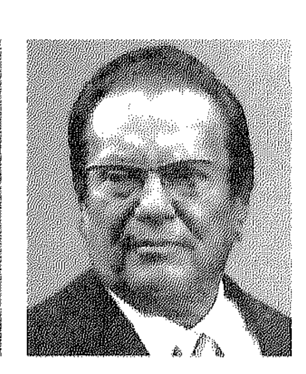
ولا يختلف موقف قاضى المحكمة الدولية فى هذا الصدد عن موقف أمين العصبة. وهو - مثله - يتولاه الغضب حين يتحدث فى هذا الموضوع، ويخاطب الحاضرين بلهجة ليست لهجة رجال القضاء المتحفظة. إنه يقول، أثناء المحاكمة، ان عصبة الأمم حين تتخذ أية مبادرة استنادا الى مبدأ من المبادىء، فإن النتيجة لا تكون سلما بل تهديدا بالحرب أو الانشاق او كليهما، فتضطر العصبة الى الامتناع عن القيام بأى عمل، إلى أن تتفق الدول العظمى فيما بينها على استخدامها - أى العصبة - كأداة لدبلوماسيتها العتيقة.

ويفصح القاضى عن المشاعر التى أثارتها فيه وقائع القضية بقوله للحاضرين (بما فيهم من لم يقدموا للمحاكمة) : « أنتم تبدون لى على المستوى الشخصى بشرا مسالمين...، وعملى، الذى يتمثل فى بناء هيكل من القانون الدولى عن طرق السوابق القضائية، يبدو، حتى الآن، هينا الى حد كبير، ولكن .. ما أن يثار موضوع يتعلق بالسياسة الخارجية إلا وتواجهوننى بدرجة من العمق الإجرامى الأسود لا تستحقون معها أقل من الحكم عليكم بالإعدام فورا .. إن هدفكم هو السيطرة. وأسلحتكم هى النار والسم والتجويع حتى الموت والخراب، والإفناء بكل طريقة يعرفها العلم.. وإذا لم يكن هذا هو الإجرام، فماهو الإجرام إذن؟!».

الصلة بحروب يوغسلافيا

كانت يوغسلافيا، التى وقعت فيها الأحداث التى تعنينا، دولة ظهرت إلى حيز الوجود، بعد الحرب العالمية الأخيرة، كاتحاد يتكون من ست جمهوريات أكبرها جمهورية الصرب. وأكثر سكانها من الأورثوذوكس، وجمهورية كرواتيا، وأكثر سكانها من الكاثوليك، وجمهورية البوسنة والهرسك، وأكثر سكانها من المسلمين الذين يرجع إسلامهم الى أيام الحكم العثمانى القديم لمنطقة البلقان، وثلاث جمهوريات أخرى هى سلوفينيا ومنتنجرو ومقدونيا. وكان فى كل من كرواتيا والبوسنة والهرسك أعداد كبيرة من الصربيين، كما كان فى البوسنة عدد كبير من الكرواتيين.

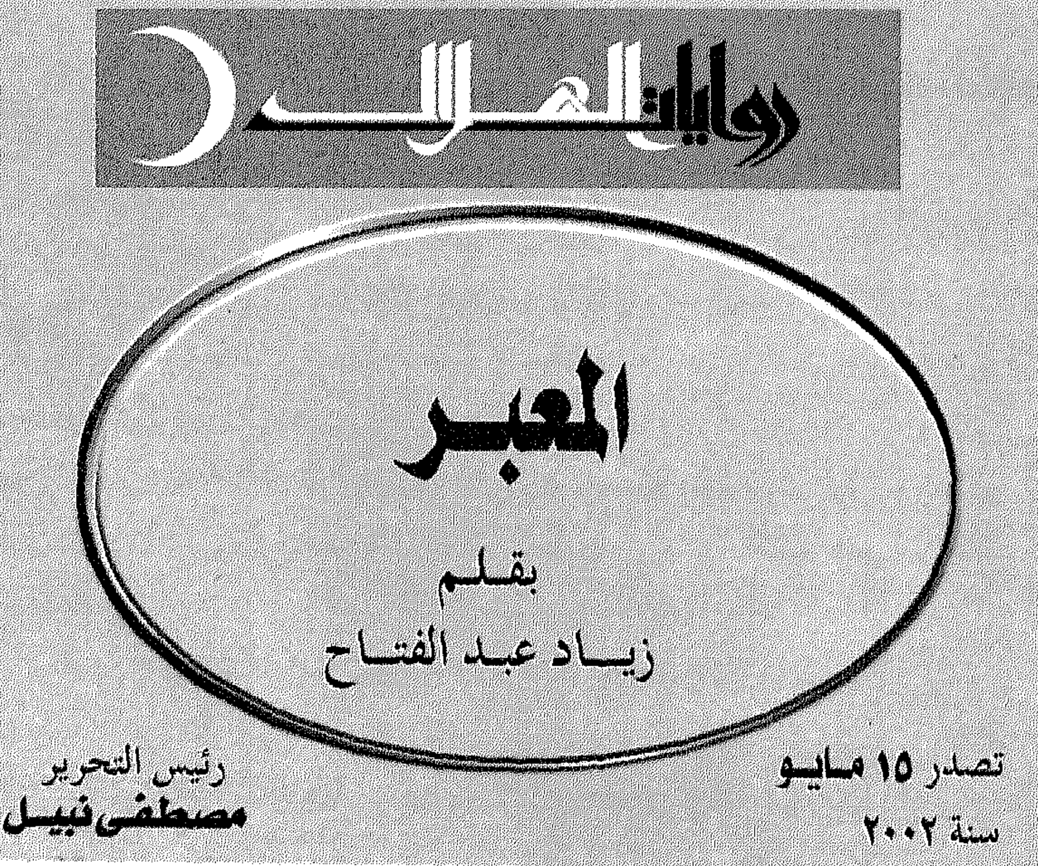
وفى جمهورية البوسنة والهرسك أجرى استفتاء فى فبراير ١٩٩٢ صوتت الأغلبية فيه على الاستقلال عن يوغسلافيا، ولكن السكان الصربيين والكرواتيين عارضوه. ونشبت معارك عديدة بين المسلمين والصربيين وبينهم وبين الكرواتيين. وكان ميلوزيفتش يزود صربيى البوسنة، تحت رئاسة زعيم لهم اسمه كاراتزيك، بالسلاح، وبدأت القوات الصربية فى البوسنة، بقيادة قائد اسمه رادوفان راتكوميلادتش (وكلاهما هارب الآن، ولم تتمكن المدعية العامة بمحكمة لاهاى من تنفيذ أمر القبض الصادر ضدهما) عملية «تطهير عرقى» واسعة النطاق لإجلاء المسلمين وغير الصربيين من المناطق التى بسط الصربيون سلطانهم عليها. وحاصر الصربيون سراييفو عاصمة البوسنة حصاراً طويلاً ورهيبا وقتلوا من مسلميها عدداً كبيراً ابتداء من أبريل ١٩٩٢ مما دفع الأمم المتحدة إلى فرض مقاطعة اقتصادية ضد



نينو   فرانكو

يوغسلافيا لمعاقبتها، بعد فشل جهودها وجهود دول حلف شمال الأطلسى فى معالجة الموقف بالوسائل الدبلوماسية. ومحصلة هذا العرض هى أن التعصب العنصرى والدينى فى يوغسلافيا كان السبب فى ثلاث حروب أهلية لم تر أوربا شيئا فى مثل قسوتها وبشاعتها منذ أيام الحكم النازى فى ألمانيا، وكان من نتائج هذه الحروب. فضلا عن مئات ألوف القتلى والمشردين، والخراب الذى لا يوصف، والآلام والحزازات بين أبناء الوطن الواحد، انقسام الدولة الى أربع دول بينها من العداء ما لن تفلح قوات حفظ السلام، ولا المعونات الاقتصادية، ولا المساعى الدولية، فى محو آثاره لفترة لا يعلمها إلا الله.

ولم يكن هذا خافيا على برنارد شو، وهذا البديل موجود بالفعل فى المسرحية، وهو ما أسماه أمين عصبة الأمم بـ «روح جنيف» . وروح جنيف، فى هذه المسرحية، التى استخدم مؤلفها الرمزية فيها على أوسع نطاق، تعبير رمزى يشير إلى شىء يعتقد برنارد شو أنه قادر على إنقاذ العالم.



روايات الهلال
المعبر
بقلم
زياد عبد الفتاح
تصدر ١٥ مايو
سنة ٢٠٠٢
رئيس التحرير
مصطفى نبيل



الهلال

حديث الشعر والشعراء

نازك الملائكة
التى تجنت عليها الصحافة

بقلم
وديع فلسطين

أفهم بحكم كونى صحفيا بالتأهيل الجامعى وبالممارسة العملية وبتدريس علوم الصحافة وبإصدارى ثلاثة كتب عن فنون الصحافة أن قضية السبق الصحفى تؤرق كل عامل فى هذه المهنة، فلا يكاد الصحفى يقع على خبر جديد حتى يعجل بنشره انفرادا به قبل أن تسبقه إلى ذلك صحف منافسة، ولكن العنصر الجوهرى فى السبق الصحفى هو صحة الخبر وليس كذبه، فالخبر الصادق ينعم بصفة السبق الصحفى، أما الخبر الكاذب فيصدق عليه وصف الفضيحة العلنية.

والشاعرة العراقية الرائدة نازك الملائكة عانت المرة تلو المرة من محاولات السبق الصحفى التى تندرج تحت وصف الفضيحة العلنية، وما أقسى وطأتها على هذه الشاعرة الرقيقة التى تعتصم بالصمت ولاتحاول تكذيب الأخبار الزائفة إلا بإبداع

قصيدة جديدة تطلع بها على الناس.

فى عام ١٩٩٢ تورطت صحفنا المصرية فى نشر خبر ينعى إلى الأمة العربية هذه الشاعرة الكبيرة، وبادر أستاذنا الدكتور بدوى طبانة (١٩١٤ ـ ٢٠٠٠) بنشر مرثية منصفة فى جريدة الأهرام ، فقد عرف الشاعرة فى بغداد عندما عمل هناك أستاذا للأدب العربى، وتحدث عنها بإعزاز فى كتابه «أدب المرأة العراقية» الذى نشرت طبعته الأولى فى الأربعينات من القرن الماضى، وكنت من ناحيتى أعرف أن الشاعرة تنعم بحياة موفورة فى بلادها بعدما تقاعدت من عملها الجامعى فى الكويت، وأنها تتحمل بصبر الام مرضها، وهو ما تحققت منه بالاتصال بأصدقائى من أدباء العراق، فسعيت من ثم إلى تصحيح هذا الخبر الزائف ونشرته «الأهرام» على استحياء، بينما قام زميلها التونسى الوفى ـ أبوالقاسم محمد كرو ـ الذى زاملها فى الدراسة الجامعية فى بغداد ـ بكتابة مقال فى جريدة «الحرية» التونسية رد فيه الأمور إلى نصابها، وبشر عشاق نازك بأنها مازالت ترفد دوحة الشعر بجديد أوابدها، وكانت مجلة «الهلال» قد تورطت بحسن نية فى نشر نبأ الوفاة فى عدد أغسطس ١٩٩٢ ، فلما انبلجت الحقيقة تداركت الأمر بعدد سبتمبر ١٩٩٢ معتذرة للقراء عن هذا الخطأ غير المقصود.

وارتأت نازك الملائكة أن حالتها المرضية تتم العناية بها على وجه أفضل فى القاهرة بسبب نقص الأدوية ووسائل العلاج فى بغداد نتيجة للحصار الغاشم المفروض على العراق، فاتخذت من القاهرة مستقرا دائما لها مع زوجها الدكتور عبدالهادى محبوبة (١٩١٩ ـ ٢٠٠١) ونجلها الدكتور براق، وآثرت أن تعيش فى عزلة لأنها لم تعد تحتمل ضجيج المجتمعات أو مطاردات المتطفلين على حياتها، سواء باسم الصحافة أو باسم الشعر والأدب، ومع ذلك لم تسلم من الذين يريدون أن يسبقوا القدر، حتى من مؤلفي الموسوعات الأدبية.

فقد نشر الباحثان السوريان الدكتور نزار أباظة ومحمد رياض المالح كتابا عنوانه «تتمة الأعلام» استدركا فيه على الكتاب الباذخ للعلامة السورى خير الدين الزركلى (١٨٩٢ ـ ١٩٧٦) الموسوم «الأعلام» ومع أن كتب الأعلام سواء ما صدر للزركلى أو للأديب الأردنى أحمد العلاونة أو للأديب السعودى عبدالعزيز الرفاعى (١٩٢٣ ـ ١٩٩٣) هى كتب موقوفة على الراحلين، فإن الباحثين السوريين أثبتا فى كتابهما أن حياة نازك الملائكة تمتد بين عامى ١٩٢٣ و١٩٩٢! وهكذا اقترفا فى حقها جناية أدبية غليظة، لأنهما اعتمدا الشائعة القديمة باعتبارها حقيقة ماثلة، ولم يسعيا إلى التثبت من الأمر كما هو شأن العلماء الأصلاء، هذا على الرغم من أن نازك

الملائكة لم تكف عن نشر قصائدها الجديدة، وأحدثها القصيدة الموسومة «أنا وحدى» التى نشرتها فى مجلة «أخبار الأدب» وفى جريدة «الأهرام» بعد وفاة زوجها فى ٨ سبتمبر ٢٠٠١ بل إن اسم نازك الملائكة قفز إلى الصدارة عندما كرمتها مؤسسة البابطين بمنحها جائزة الشعر، ولئن تعذر عليها تسلمها بنفسها فى احتفال كبير أقيم فى أبوظبى، فقد ناب عنها زوجها فى تسلم الجائزة وعرف المجتمع الأدبى كله أن نازك الملائكة مازالت تعيش بيننا برغم ما تعانى منه من أسقام.

ومع ذلك، فالمطاردات غير الأخلاقية لها مازالت تتواصل، فقد نشر الأديب اللبنانى محمد على شمس الدين مقالا فى عدد نوفمبر ٢٠٠١ من مجلة «العربى» الكويتية عنوانه «من يذكر نازك الملائكة» كان مما جاء فيه قوله: «وقد غطست نازك الملائكة فى ليل من النسيان أو مايشبه النسيان.. وأحست هي بذلك فآثرت الاستسلام للانطواء والاحتجاب والعزلة، حتى أن أخبارها لم تعد تصلنا فى السنوات العشر الأخيرة إلا من خلال أخبار مغلوطة عن وفاتها تارة فى القاهرة وطورا فى العراق أو فى لندن، ثم ما تلبث هذه الأخبار أن تصحح، ويظهر أن الشاعرة لاتزال حية ترزق فى مكان ما على هذه الكرة الأرضية إنما هى حياة كالموت » .

هذه ولاريب عبارات جارحة أترك للقارىء مهمة وصفها ووصف الدوافع التى تكمن وراءها، وبمجرد صدور هذا العدد، بادر أبوالقاسم محمد كرو الأديب التونسى الأريحى المنصف فكتب مقالا رد فيه على هذا الكاتب وبعث به إلى مجلة «العربى» التى لم تنشره منذ نوفمبر الماضى وحتى مارس الحالى، فقام كرو بنشره فى جريدة «الصباح» التونسية ليعرف الناس أن نازك الملائكة مازالت تواصل الحياة ولم تغب أبدا عن ذاكرة الأمة العربية حتى يتساءل ذلك الكاتب بقوله «من يذكر نازك الملائكة؟»،

ومن أيام كنت أتحدث هاتفيا مع الدكتور براق نجل الشاعرة نازك الملائكة فأبدى دهشته من أخبار أذاعتها محطة الإذاعة البريطانية فى لندن وتناقلتها الصحف ووكالات الأنباء حول تدهور صحة نازك، بل إن جريدة «أخبار الأدب» التى يفترض فيها أنها تتحرى أخبار الأدباء بدقة، زعمت أن نازك فى الإنعاش بعد تدهور صحتها!، وقال لى الدكتور براق: صحيح أن والدته مريضة وتتابع العلاج ولكن حالتها الصحية مستقرة، وإن كل ما أذيع ونشر من أخبار لايمت إلى الحقيقة بصلة.

ياقوم! اتقوا الله فيما تلفقون من أخبار من شأنها تضخيم محنة هذه الشاعرة، وتحروا الحقيقة قبل أن تنشروا هذه الأراجيف المدمرة!، وإن عز عليكم أن تقولوا كلمة طيبة عن نازك الملائكة، فالصمت أحجى، ونازك تقرأ كل هذه الأخبار الزائفة، وتأبى عليها كبرياؤها أن تنفيها أو تعلق عليها.

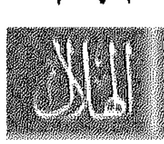


فى عام ١٩٦٨ ألفيت نفسى فى الشارع بلا وظيفة وبلا أمل فى الاهتداء إلى وظيفة بعدما سدت فى وجهى جميع الأبواب، فكتبت إلى أصدقائى من أدباء المهجر، وكنت على اتصال بأعلامهم، أبدى لهم رغبتى فى الهجرة إلى ديارهم عساى أستطيع أن أبدأ الحياة من جديد، ناعما بمؤازرة مبدئية منهم ولم تكن لى فى ذلك الوقت أى صلة شخصية بالشاعر المهجرى زكى قنصل (١٩١٩ ـ ١٩٩٤) المقيم فى بوانس آيرس بالأرجنتين والذى اشتهر بلقب «شاعر غلواء» وهو لقب شاركه فيه الشاعر اللبنانى إلياس أبوشبكة (١٩٠٣ ـ ١٩٤٧)، فلما ترامى إلى زكى قنصل أننى أفكر فى الهجرة بسبب ضيق العيش، دعا زملاءه فى «الرابطة الأدبية» إلى اجتماع تدارسوا فيه حالتى وأصدروا بيانا لم أطلع عليه حتى الآن طالبوا فيه بإنصافى، ولم يكتف بذلك، بل نظم قصيدة موجهة إلى كان مما جاء فيها قوله:

«ما أنت إلا فرحة فى مأتم!»، وفوجئت وقتها باستدعائى إلى مباحث أمن الدولة العليا حيث سألنى الضابط عن صلتى بالأرجنتين، ودهشت لسؤاله، لأننى لم أكن ذا صلة بهذا البلد ولا بأحد من أبنائه، فقال: لقد تلقينا عن طريق أجهزتنا أخبارا بأن أدباء المهجر فى الأرجنتين أصدروا بيانا حول محنة تجتازها، وطلب منا أن نتحرى الأمر منك، فقلت له إننى لا أعرف موضوع هذا البيان، أما محنتى فتتحصل فى أننى صرت بلا عمل، وأصبحت أفكر جديا فى الهجرة النهائية إلى حيث أجد عملا يمكننى من النهوض بأعباء أسرتى، حتى ولو كان الهجرة إلى أدغال الأمازون أو إلى أحراش استراليا، وصرفنى الضابط بعد ما سجل أقوالى ليرفعها إلى الجهة التى طلبتها.

واتفق بعد ذلك أننى اهتديت إلى عمل كمترجم قانونى فى شركة بترول أمريكية فى طرابلس بليبيا فسافرت إلى هناك، وبدأت أواصل المجلات الأدبية اللبنانية بمقالاتى الأدبية، فكانت مجلة «الأديب» لصاحبها ألبير أديب (١٩٠٨ ـ ١٩٨٥) تضيف إلى توقيعى رقم صندوق بريدى فى طرابلس، وعندما اكتشف زكى قنصل عنوانى الجديد، وهو قد كان يجهل عنوانى القديم والجديد بعث إلى برسالة طواها على قصيدته وروى لى قصة البيان الذى أصدره أدباء الأرجنتين دفاعا عنى دون أن يوافينى بنسخة منه، وقال إنهم أبلغوا هذا البيان إلى السفارة المصرية فى العاصمة الأرجنتينية، وهكذا بدأ بيننا التواصل بالبريد، سواء وأنا فى ليبيا أو بعد ترحيلى منها فى أربع وعشرين ساعة على يدى نظام القذافى دون إبداء أى سبب لذلك.

وكانت لدى زكى قنصل رغبة أعرب لى عنها، وهى أن ينشر ديوانا فى كل عاصمة عربية، فديوان فى القاهرة وثان فى تونس وثالث فى بيروت ورابع فى دمشق وخامس



فى الرياض، وهلم جرا.

ورجانى أن أحاول تحقيق هذه الأمنية مع ناشر مصرى، ولكن محاولاتى ذهبت هباء، وإن كان نجح بمساعدة أبى القاسم محمد كرو فى نشر ديوانه «هواجس» فى تونس، كما نجح فى نشر الجزء الأول من ديوانه الكامل فى دمشق، وإن كانت هذه التجربة قد خيبت آماله، لأن الناشر سجل على غلاف الديوان عبارة مدمرة نصها «دققه لغويا وعروضيا فلان!» فغضب زكى قنصل وطلب محو هذه العبارة من الديوان الذى خرج ـ بزعم تدقيق المدقق! ـ مليئا بأغلاط الطباعة، واضطر إلى إعداد لائحة من عدة صفحات لتصويب ما ورد فى الديوان من أخطاء، ويبدو أن غضبة زكى قنصل على الناشر الحكومى جعلته يعدل عن متابعة إصدار الأجزاء التالية من الديوان الكامل، وعندما فقد الشاعر الأمل فى نشر دواوينه فى العواصم العربية المختلفة، تابع نشرها فى الأرجنتين، ومن إمارات التجديد فى الطباعة أنه اختار لديوانه «ألوان وألحان» أوراقا ملونة بألوان قوس قزح فى طباعته، فخرج الديوان ولكل ملزمة من ملازمه ورق ذو لون مختلف، أحمر وأخضر وأزرق وأبيض وهلم جرا، أليس عنوان الديوان «ألوان وألحان»؟.

وعاش زكى قنصل يحلم بطباعة المجموعة الكاملة لديوانه فى الوطن وليس فى المهجر ليكون فى متناول الباحثين، وهى أمنية لم تتحقق إلا على يدى الشيخ عبدالمقصود خوجة راعى دار «الإثنينية» فى جدة، الذى نشر المجموعة فى ثلاثة مجلدات فى طباعة فاخرة وتجليد مترف، والمهم أنه نشرها فى حياة الشاعر.

اشتغل زكى قنصل بالتجارة فى مهجره السحيق، ولكنه لم يصب فيها حظا كبيرا كالحظوظ التى نالها شاعر عبقر شفيق معلوف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٦) بمصانع الحرير التى أقامها فى البرازيل، وتزوج من سيدة من أصل سورى وأنجب منها ابنه اسمها «سعاد» تعلق بها أشد التعلق، فلما توفيت فى شهرها الثامن، أصدر ديوانا كاملا عنها، ثم رزق بابنه «عمر» الذى أسماه على اسم الشاعر السورى «عمر أبوريشة» (١٩٠٨ ـ ١٩٩٠) الذى كان وقتها سفيرا للجمهورية العربية المتحدة فى الأرجنتين فى زمن الوحدة المصرية السورية، وكان لزكى قنصل أشقاء كثيرون، لم يكن يهتم بالأدب منهم إلا الشاعر والروائى إلياس قنصل (١٩١٤ ـ ١٩٨١) وإلا كرم قنصل الذى كان يقيم فى سوريا وتوفى فى ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٠، وعند وفاة زكى قنصل فى ١٤ يوليو ١٩٩٤ أحرق جثمانه عملا بوصيته، ومات وهو يشفق على ابنه الوحيد عمر الذى كان يعانى من داء عضال.

وعندما زرت مدينة حلب من سنوات، ودعانى الفضول إلى دخول حمام شعبى

فيها، لاحظت أن زكى قنصل سبقنى إلى زيارة هذا الحمام، وعبر عن شعوره فى أبيات من الشعر نقشت على لوحة نحاسية وعلقت فى مدخل الحمام.

وقبيل وفاة زكى قنصل زار موطنه الأصلى سورية (فهو من بلدة يبرود) بدعوة رسمية من الدولة فأكرم وفادته الرئيس حافظ الأسد، كما زار المملكة العربية السعودية حيث احتفت به المحافل الأدبية فى الرياض وجدة، وكان فى نيته أن يزور مصر، كما أخبرنى بذلك ـ ولكن يبدو أن مرض القلب الذى كان يعانى منه والذى بسببه أجرى جراحة لتثبيت منظم لضربات القلب، اضطره إلى العودة إلى الأرجنتين دون أن يعرج على مصر، فضاعت على فرصة مشافهته بعد مراسلات ممتدة معه.

وعندما صدر ديوانه المجموع عن مؤسسة الشيخ خوجة، فوجئت بوجود قصيدتين وليس قصيدة واحدة موجهة إلى فى الديوان، وهكذا أكرمنى بعد وفاته دون أن يسمع منى كلمة شكر على أريحيته.

ولعل أوفى دراسة صدرت عن زكى قنصل هى التى أعدها الأديب والسياسى السورى عبداللطيف اليونس ـ أطال الله بقاءه ـ عندما كان مهاجرا إلى الأرجنتين وقبل أن يعود إلى بلدته صافيتا فى سورية، وإن كان أستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكى يشرف على رسالة ماجستير عن زكى قنصل تعدها الطالبة نجلاء محمود فى حين يشرف على رسالة أخرى للماجستير عن إلياس قنصل يعدها الطالب أيمن عثمان.

الشيخ جلال الحنفى

حديث الشعر والشعراء يسوقنى إلى الحديث عن شاعر عراقى معاصر يغفله دارسو الأدب، ربما لأنه رجل دين ولأنه يتولى الإمامة فى مسجد الخلفاء فى بغداد، ألا وهو الشيخ جلال الحنفى الذى يبلغ من العمر تسعين عاما والذى يضيف إلى رصيده الشعرى رصيدا من النثر البليغ يتابعه قراء جريدة «العراق» فى زاويته الأسبوعية.

والشيخ جلال الحنفى طويل النفس فى شعره، وكل قصائده مطولات ملحمية يتحدى بها كل من قصرت باعه فى الشعر، وكانت بينه وبين صديقه العلامة العراقى جعفر الخليلى (١٩٠٤ ـ ١٩٨٥) مساجلات شعرية تزيد أبيات القصيدة الواحدة منها على ثلاثين بيتا، وكلها من الشعر المسبوك الذى تهتز له الروح وتطرب له الأذن.

وقد قضى الشيخ جلال الحنفى سنوات فى الصين يؤدى هناك رسالته الدينية، حيث تعلم اللغة الصينية وأتقنها وألف معجما صينيا ـ عربيا يعد انجازا علميا عظيما.

وإنما رغبت فى هذه العجالة أن أحيى هذا الإمام المستنير الذى يرفع رايات الأخلاق والأدب والإيمان ويواصل أداء دوره الثقافى دون أن تقعده سنه العالية. ■


الرسم
وعالمه السحرى
بقلم
د.محمد المهدى

قليلا هي المعارض أو الكتب التي تعطي فرصة لمعرفة كيفية إنجاز الأعمال الرائعة التي نعيش فيها، أو تعبر عما نعيش فيه من عالم ساحر.. المرسم يكشف بنية العمل الفني.. كل جزئية تهمس بمعني من المعاني يتصل بنمو التشكيل واكتمال أوصاله.. موقع المرسم، أركانه ، إضاءته، ادواته ، محتوياته، خاماته.. عناصر عند استجماعها أو إعادة تجميعها تتبلور النبتة الأولى.. كيف نمت . كيف اينعت بالتكوينات والأحجام والألوان؟

المرسم رحم العمل الفني.. دليل الناقد الجاد.. دليل المشاهد الذكي.. ارشيف الفنان.. ذاكرته. وبعد رحيله ذكرياته ومذكرته التفسيرية. ما انتج.. وما كان ينتج.. وما شرع في انتاجه وتوقف عنده.

• لماذا هجر الفنان الرومانسية واتجه إلى الواقعية؟

• أقام مونيه مرسمه في قارب وقال: إني أرسم الهواء!

مرسم الفنان جياكومتى، تتحدث عناصره عن عوالمه ، مكان بسيط وبليغ.

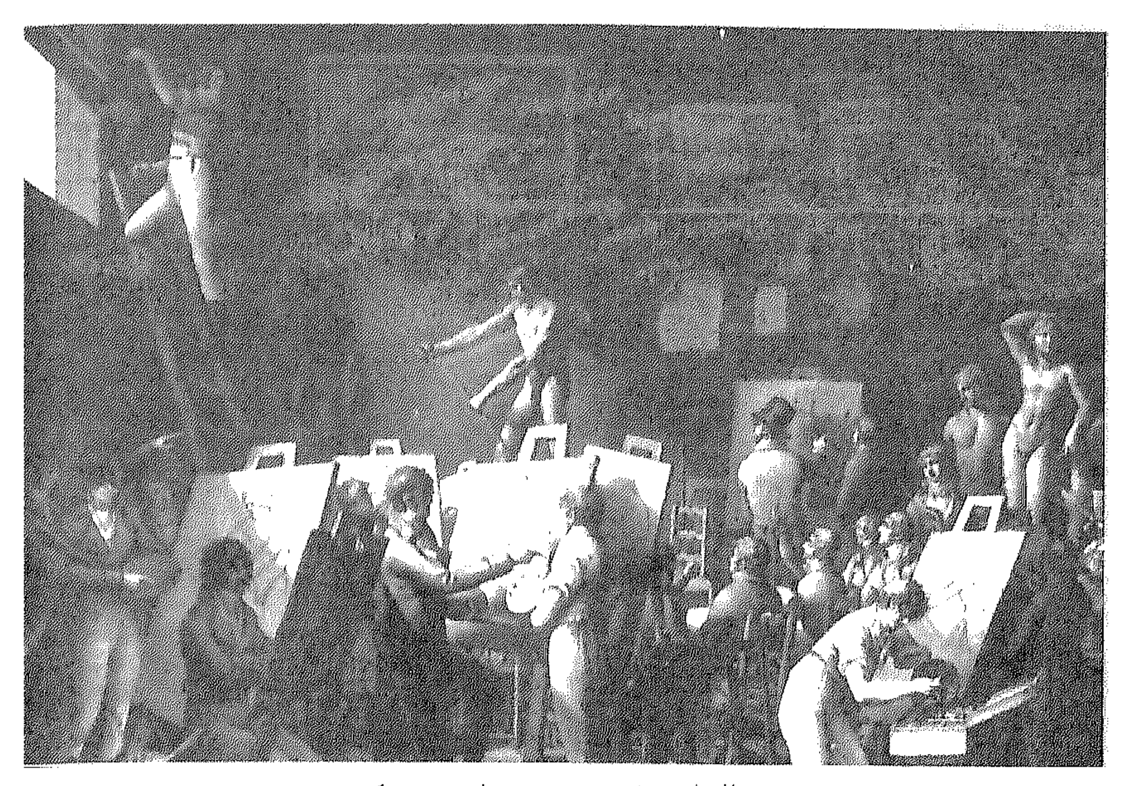
هكذا كانت منحوتاته . رشاقة القد البسيط ينتثر عليه محتويات المعنى العميق.. حوائط المرسم مشغولة بالرسوم الأولية.. بالخيالات حينما كانت هائمة .

وقد تجد بينها ما حط رحاله، أوقر قراره بتشكيل جمالى إنسانى يتلبس شكله مضمونه.. مراسم اخرى تبدو كأنها العمل الفنى بعينه، كسرة من خبز الفنان ساخنة بالألوان ، تغرى بالأضواء بقدر ما تغرى بالتأمل.

مرسم الفنان (جاكسون بولوك) نحت تعيش فى جوفه. تمشى الهوينا تخفف الوطأ، ليدخل الفنان صاخبا ينث ألوان جنونه فى الأرجاء.

منذ عام ١٨٦٠ سهل التصوير الفوتوغرافى مهمة، المرسم، تحول لمكتبه بصرية بقدر ما يحوى من نماذج فنية نحتيه أو تصويرية، بقدر ما يحوى من

▶ مرسم الفنان المعاصر سام فرنسيس فى طوكيو يضج بالالوان



مرسم الفنان ديفيد .. رسمه جان هنرى كلاس

وثائق نصية من كتب مصورة.. بدأ هذا المفهوم الجديد للمرسم قبل التصوير الفوتوغرافى.

بدأت المحاولات الأولى من عصر النهضة الأوروبية على استحياء ، ووسط موجة استهجان . ويعتبر مرسم (ليبرو دل ارت) للفنان (سينينى) مثالا لهذا التبدل.

ولم تكن الخصوصية هى أهم ما حصله الفنان من هذا المفهوم الجديد للمرسم، فهناك - رغم ما تبدو عليه المراسم من فوضى - الاعداد الفنى من ألوان، وفرش، وإطارات وحوامل لوحات.. كانت مقدمات إقامة الأكاديميات الفنية المتخصصة بمفهومها الدراسى الباحث.. وجاءت هذه الخصوصية بتقاليد جديدة، فالعمل الفنى صار مشكلا من النبتة الأولى إلى اللمسة الأخيرة بيد الفنان.. كان (روبنز) السابق لهذه المرحلة يحدد فى خطاباته لزبائنه الفارق فى السعر بين لوحة ينتجها بكاملها بيده (اصلية من يدى)، ولوحة (رسمها احد تلامذتى ووضعت خطوطها النهائية بيدى)، لقد كانت المراسم التى أدارها الفنان دافيد (أواخر القرن ١٨ وأوائل القرن ١٩) فى (اللوفر) هى اخر ما يمكن ان نسميه مراسم الاساتذة الكبار.. حيث كانوا



مرسم هولندى من القرن ١٦ يلاحظ الاستاذ في الوسط

يرســـمـــون وسـط المريدين والتــلامــذة، ويصدر العمل الفنى بخصوصية الاستاذ ، قبل خصوصية التلميذ .. كانت هذه المراسم تمثل البقية الباقية من مفهوم المرسم الكلاسيكى أو الصورة المثالية للمرسم آنذاك ، ونجد فى المقابل وفى الفترة نفسها الزمنية مرسم الفنان (ديلاكروا) صورة معاكسة للمرسم بتكويناته الجديدة.

الاستشراق والموديل

فى منتصف القرن التاسع عشر كانت الرومانسية الغربية أدبيا، وفنيا تتراجع امام الواقع الاجتماعى، والاقتصادى المرير، ازدياد حركة التصنيع، تضم رؤوس الأموال ، ظهور البنوك.. برجوازية جديدة تمتص طبقة عمالية مضطهدة.. وإذا كانت بقايا الرومانسية قد وجهت الفنان الغربى للبحث عن مصادر الآلام عند شعوب غير أوروبية ، أو على وجه الخصوص فى الشاطىء المقابل للبحر الأبيض أى العالم العربى، بما انتج الاستشراق الفنى بمواصفاته الواقعية، أو النقلية او التسجيلية المباشرة فى غالبية الاحيان، فإن النمو الاقتصادى قد انتج ايضا مقدمات الاشتراكية وما كان يسمى بـ (السان سيمونية)، ظهرت الواقعية الأدبية ، وظهرت الواقعية الفنية، جاءت تشكيلات (مييه) و(كوربيه) معبرة عن مأساة الفلاح فى أرضه، وعبرت

تشكيلات (دومبيه) عن مأساة العامل فى مدينته.. اصبحت هناك واقعية استشراقية، مقابل واقعية اشتراكية وكلا منهما ينطلق من مفهوم مختلف، إن لم يكن متناقضا، على ان كلا منها اتفقا على هجران المرسم، احدهما هاجر ليستلهم من الشرق خيالات محلقة، والآخر تمرد ليستلهم من المأساة واقعا مريرا.

زار الفنان الانجليزى فردريك لويس) القاهرة عام ١٨٤١ .. ليس مثل أثرياء الاتراك، جعل مرسمه صورة للشرق كما تخيله، أو كما أراد ان يتخيله.. جلسات ارضية مسترخية ، يستعرض عليها حريمه، وموديلاته بملابسهن الصاخبة.. دخان كثيف يتصاعد، يعبق المكان.

وعندما عاد إلى لندن ١٨٥١ حمل معه كل هذه الأدوات (الاكزوتيك) Ex-otique وجعلها مصدر الرسوم التى ربح منها الكثير.

ونافس مرسم (لويس) مرسم الفنان الانجليزى LEIGHTON لورد رئيس أكاديمية لندن الملكية، فقد اعده بكل ما هو عربى صارخ، بل لقد حول منزله فى (هولندبارك) إلى ديكورات شرقية مبالغة غامضة، ، وحتى الفنان الفرنسى (جيروم) وهو استشراقى أكثر جدية ، حمل معه بعد زيارته لمصر الكثير من المواد الشرقية المثيرة لتكون نواة لمرسمه فى باريس (محفوظة الآن فى المكتبة الوطنية بباريس).

وبالغ الفنان المستشرق الذى يصور المعارك فحول مرسمه إلى ما يشبه المعسكر كالفنان DETAILLE دوتيل ، أو الفنان نوفيل NEUVILLE .

وبعض المراسم ضمت مضخات الحريق، أو الغريب من الأثاث، والعجيب من الحيوانات، والنادر من النباتات . تحولت مراسم (ماكار) فى فينا، و(لونباخ) فى ميونخ.، و (فورتينى) فى روما إلى مزارات لفرط غرابتها.

[illegible]

وبقدر ما آفاد التصوير الفوتوغرافى الفنان فى مرسمه ، بقدر ما احرج المدرسة الواقعية، ان ما تقدمه الكاميرا هو تسجيل أدق من جهد الفنان، طرح السؤال المهم ما هى مهمة الفنان التشكيلى؟.. ما هى أدواته؟

وجاءت الاجابة.. مهمته رصدية واعية.. واجروميته بصرية لونية.

من هنا ينفرد ، ويتفرد، وينفصل عن الفنون اللغوية والفنون السمعية وساعد تحليل (اسحق نيوتن) لالوان الطيف على صياغة هذه الأجرومية.

بحث عنها الفنان ورتب تتابعها فى الطبيعة، هجر المرسم لاسباب جديدة، واضاف الكشف العلمى ان شبكة العين



سامر زفران .. مرسمه يعج بأشكال السلالم التى شغلته

تحتوى على عدد كبير من الجزيئات اللونية حيث يشمل كل جزء منها اللون الاخضر، والاحمر ، والازرق المائل للبنفسجى. تتكون إذن الرؤية نتيجة للعلاقة القائمة بين الضوء وشبكة العين ، لأن الألوان الموجودة على الشبكية ترتبط بالاعصاب البصرية الموصلة للمخ.

الرابطة واضحة بين اللون والضوء.. وإذا اراد الفنان ان يكون صادقا مع مرئياته، وهى ادواته واجروميته الحقيقية، عليه ليس فقط هجر المرسم، ولكنها ارتياد الخلاء للرسم فى ساعات محددة من النهار، واستكمال اللوحة فى الساعات نفسها كل يوم.

اللون إذن نتاج لتأثير الضوء على اللون.

تشكلت المدرسة (التأثيرية) بأفرع ثلاثة : تقسيمية Divisionisim وتنقيطية، pointalism وضوئية . Lu-ninsm وعرض (مانيه) لوحته (الغذاء على العشب) عام ١٨٧٤، اخترق التقاليد، اخرج نبلاء الخلاء من قارهم.. واخرج التكوين من محدوديته

اللونية.. وعرض (مونيه) لوحته (تأثير). بنى لنفسه فى منطقة (ارجنتيل) مرسما عائما داخل قارب يتيح له ان يتأمل التغيرات الساحرة للضوء على لجين الماء. اعلن (اننى ارسم الهواء فوق الجسر، وفوق المنزل، وفوق القارب).. وحينما توفيت زوجته عام ١٨٧٩ رافق الجثمان من المساء إلى ان انبلج الصبح.. اخذته روعة ألوان الأضواء وجلالها على صفحة وجه رفيقته الراحلة، دعته هذه الليلة لانشاء مرسمه المتفرد والقائم إلى الآن.. حديقة متكاملة فى (جيفرنى) بالقرب من باريس. انتقى لها النباتات والاشجار، ووزع بينها البرك المائية، ونسق فيها الاضواء.. لوحة كاملة متكاملة تاثيرية الألوان والأضواء.

المرسم الحديث

ونذكر بما عاناه رواد الفن الحديث من فاقة وشظف ورفض لا عمالهم.. بيكاسو عاش مرحلة مريرة فى (الباتولافوار). رسم لوحته الشهيرة (آنسات افينيون) والتى يعتبرها النقد علامة فنية، فى مرسم شديد البرودة، سقفه مثقوب، كان يضطر احيانا لشدة البرودة إلى قضاء نهاره فى السرير.

و(ماكس ارنست) ، احد اقطاب السريالية عاش لفترة فى مرسم مشترك تمنى زملاؤه رحيله لانه كاد يحول المكان لمسلخ كنماذج لرسومه.



جياكومينى فى مرسمه

عبرت بعض المراسم ليس عن شخصية الفنان فقط، بل تواءمت مع طبيعة العمل الفنى.. مرسم الفنان (موندريان) فى ٥٩ شارع نيويورك كان نظيفا يشع بالضوء كأعماله.. وعلى العكس شكل الفنان الامريكى (بالتوس) أعماله الرقيقة فى مرسم يتصف بالصرامة وجاءت اعمال الفنان اليوغسلافى دادو DADO المضطربة فى مرسم يفيض بزهور هادئة. وفى مرحلة اخرى من حياة بيكاسو تميز مرسمه بكثرة الفضلات من نماذجه..

تذكرة مترو.. لعب اطفال.. بعضها حظى بشهرة فى اعماله كإناء التبغ.

وكان (لـ ماتيس عالم مختلف لقد حول فيلته التى سكنها فى اواخر حياته فى مدينة نيس (متحف ماتيس الآن) الى مرسم كبير ، شغل حوائطها بالرسوم وأوراق القص، واللصق بتكوينات وزخارف اسلامية شغف بها وعندما اقعده المرض كان يتحرك على كرسى بعجل وفى يده عصا طويلة يلصق بها تكويناته فى ست جهات.

وعلى عكس ما يمكن ان نتصور كان (دافنشى) يفضل المرسم الصغير، بينما نرى الفنان المعاصر يفضل المرسم الواسع.. وشكلت المدرسة الامريكية الفنية الجديدة شكلا مختلفا للمرسم. (دى كوننج) و(نيومن) و(جسبرجونز) تشغل مراسمهم وسط مدينة نيويورك الصاخبة. يرفضون النمط الاوروبى الهادىء.. مراسمهم تبدو كمصنع، أو ورشة فى الأدوات والخشونة.

وإذا اردت مقابلة فإن مرسم الفنان الانجليزى (بيكون) يتصف بسكينة غامضة ، بينما معاصره الامريكى (اندرى ورهول) يتصف بصخب مكشوف.

وتسارع الزمن على تكوين المرسم فى زماننا، حدث التقابل ثم التضارب

ماتيس فى مرسمه

بين عولمة تريد احتواء العالم.. وخصوصية ترفض التنازل عن الهوية. دخل الكمبيوتر والانترنت المرسم وفرضا سكونية المكان، وداخل الفنان القلق ليس من برودة السكونية فقط، ولكن ايضا لطموح محبط كان يأمله.. كان يأمل بحكم اتساع اذرع مرسمه ان يلامس زميله الفنان، ورفيقه الانسان فيما كانت تبشر به ورش العمل الجماعية، وانتاج الفنون الجمعية.

وفى انتظار تسارع.. تسارع الزمن.

أشعر بالرغبة فى التخلص من أوراقى وأبدأ على صفحات بيضاء

أمينة رشيد

نواصل فى هذه الحلقة من «التكوين» العوامل التى شكلت حياتى ووجدانى ومسيرتى الفكرية، وتبدأ هذه الحقبة الجديدة منذ وصولى إلى باريس سنة ١٩٦١ لمواصلة دراساتى العليا فى مجال الأدب المقارن .

وصلت باريس فى نهاية شهر أكتوبر ١٩٦١ . لم أشعر مثل د. محمد حسين هيكل ببهجة اكتشاف مدينة الحرية كما وصفها فى مذكراته! صحيح أننى لم أصل عشية حفلات ذكرى الثورة الفرنسية فى ١٤ يوليو مثله، حيث يرقص الفرنسيون فى الشوارع فى كل مكان! وصلت فى جو كئيب من الأمطار الخفيفة ومطاردة الجزائريين وأنصارهم من العرب والفرنسيين وغيرهم، فى نهايات حرب التحرير الجزائرية.

كانت العنصرية، وكان

الرعب فى أوج عنفوانهما، وربما كنت أحمل بداخلى رعب مصر والمطاردات التى شاهدتها قبل سفرى، فانتابنى شعور قاس بالغربة وبالوحدة منعنى من الاستمتاع بشهورى الأولى في باريس. ومع ذلك ، استرددت ماتبقى لدىّ من شجاعة لأدخل فى إجراءات تسجيلى للدكتوراه .

كانت ثقافتى العربية ضئيلة ـ كما قلت ـ ومعرفتى باللغة العربية ضعيفة.. لم أكن قد قرأت بالعربية إلا روايات عودة الروح وزقاق المدق وحديث عيسى بن هشام ودعاء الكروان، فى السنة الرابعة لليسانس، من خلال محاضرات اللغة العربية مع د. عبدالحميد يونس، الى جانب المنشورات السياسية التى جعلتنى أفهم المراحل المهمة لتاريخنا الحديث، لكنها لم تكن تساعد كثيرا فى التعلم السليم للغة العربية! فقررت منذ البداية ، وحتى قبل سفرى أن أعمل فى مجال الأدب المقارن، بتشجيع من د. مؤنس طه حسين، أحد أساتذتى فى قسم اللغة الفرنسية، وكان قد عانى من نفس المشكلة.

توجهت فور وصولى الى قسم الأدب المقارن بجامعة السوربون، وطلبت مقابلة ايتيامبل، وكان من أعلام الأدب المقارن ليس فقط فى فرنسا، بل أيضا فى العالم، حيث اشتهر من خلال سجالاته مع المقارنين الأمريكان ودراساته المهمة حول فرنسا والصين فى القرن الثامن عشر، ورسالته فى موضوع أسطورة رامبو، الذى استطاع من خلاله قبل انتشار دراسات التلقى والاستقبال أن يفكك الأسطورة بين المعجبين والمنددين بالشاعر، من القراء والنقاد، معطيا هكذا نموذجا فى الحياة الأكاديمية الفرنسية لإمكان، وربما ضرورة ، كلمة أخرى غير الكلمة الدارجة، واستمر طيلة حياته يخوض المعارك فى كتاباته ومواقفه العامة، التى لم يكن يفصل بينها، ومن أشهرها رفضه لغزو اللغة الإنجليزية للغة الفرنسية كإحدى وسائل «أمركة» فرنسا ونقده اللاذع «للمركزية الأوربية» فى الدراسات المقارنة.

لا أنسى أبدا مقابلتنا الأولى. كانت سمعته وكان شكله كالنسر الذى يتفحص من أمامه، مستعدا لاقتحامه واسكاته اذا لم يعجبه قوله! وكنت خائفة بالطبع، يغلب علىّ الخجل فى اللحظات



الحرجة وتعودى على التأدب من خلال تربيتى، مما جعلنى، وحتى الآن، لا أستطيع الرد بسهولة على من يعارضنى أو يعادينى. بدأنا بالتعرف، من أين آتيت ولماذا أريد الدراسة فى مجال الأدب المقارن؟ ثم عرض عليّ موضوعا لم يعجبنى، فقلت ذلك بأدب لكن بلا تردد رغم خشيتى من رد فعله الذى جاء عكس ما ظننته ! (فهمت بعد ذلك أن هذه طريقته لاختبار شخصية من أمامه!). وتفتحت المناقشة بيننا صريحة وطليقة.

كنت من خلال تدريسى فى قسمنا قد اكتشفت العصور الوسطى ودور العرب فيما يسمى بعصرهم الذهبى. قلت أيضا أننى أريد إعادة اكتشاف العقلانية العربية ورفضى لأيديولوجيات العبث التى كانت سائدة فى فرنسا فى تلك الفترة (متأثرة فى الغالب بقراءاتى لسارتر). ووجدته معجبا بموقفى، مشجعا له، ونصحنى بأخذ فترة قراءة وتفكير قبل اختيار موضوع للرسالة. واستمرت علاقتنا على هذا النحو، متسمة بالاحترام والمعزة، عندما كنا نتفق أو نختلف .

لم أتعجل اختيار «الموضوع»، بل شرعت فى اكتشاف باريس، محاولة تجاوز صدمة البدايات. مثل جميع الطلاب الأجانب ذهبت الى المسرح، وزرت المتاحف، وفرساى وفونتنبلو، وكانت أجمل متعة تعرفى على روائع السينما العالمية. وكانت صداقاتى الأولى مع طلاب من العالم الثالث وليس مع فرنسيين. نذهب الرحلات معا، نجلس فى مقاه معا، نثرثر بلا نهاية عن التجارب المختلفة المتشابهة لبلادنا، كانت أغلب صداقاتى من آمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا الشمالية،، وأفريقيا عامة، وأيضا من المانيا وايطاليا، أسبانيا ، الاتحاد السوفيتى سابقا، يوغوسلافيا سابقا، وغيرهم، كلهم من اليساريين، نشتم الغرب ونستمتع بملذاته، نشجب السياسات الاستعمارية، ونبتهج





أمينة رشيد وسيد البحراوى فى عقد قرانهما بالقاهره وتظهر فى الصورة لطيفة الزيات وعفاف محفوظ ١٩٨١/١٢/٢٦

بحرية الحديث التى لم يكن أغلبنا يجدها فى وطنه. .

مع سارتر ودى بوفوار

انتهت حرب الجزائر. وحضرت احتفالا بالاستقلال فى مقر طلبة افريقيا الشمالية تعرفت فيه على جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار. لم يتركا فى نفسى الأثر الآسر الذى كنت أتوقعه. مماثلا لكتاباتهما وموقفهما المساند لحرب تحرير الجزائر وللعالم الثالث عامة. فى نفس الفترة تعرفت على رشدى راشد وكان قد دعانى الى هذا الاحتفال. كان آنذاك يعمل فى ألمانيا الشرقية (سابقا!) مطاردا من الحكومة الفرنسية بسبب مساندته للثوار الجزائريين، ومن السفارة المصرية لأنه دافع عن زميل سورى حجز جواز سفره بسبب نشاطه السياسى فى فرنسا (كان ذلك فى فترة الوحدة بين سوريا ومصر). بعد عودته النهائية الى باريس تزوجنا، تعرفت من خلاله على مصر حى الحسين التى لم أكن أعرفها وعلى صرامة نادرة فى البحث العلمى. لكن زيجتنا لم توفق فانفصلنا، بعد ميلاد ابننا مروان فى ٢٦ يونيو ١٩٧١.

قرأت كثيرا فى هذه الفترة. أقرأ فى العلاقات بين العرب وأوروبا فى العصور الوسطى، أبحث عن كل التأثيرات العربية المعروفة وغير المعروفة. اذهب بانتظام الى المكتبة الأهلية، أقضى فيها ساعات طويلة، سعيدة ومنهكة، اغرق فى قراءات صعبة لم

أكن مؤهلة لاستيعابها! احضر أيضا بعض المحاضرات والسمنارات فى تخصصات العصور الوسطى. وأخيرا اخترت موضوع رسالتى للدكتوراه، من خلال لقاء مع جاك بيرك الذى كلمنى عن رامون لول، هذا الاسبانى العقلانى الذى سافر الى بلاد العرب بغرض تبشيرى وأراد أن يجذب المسلمين الى المسيحية، فتأثر هو بالثقافة العربية، وكتب فى المجالات المختلفة السجال الفلسفى وقصص الحيوان والنثر الشاعرى الصوفى، معلنا اعجابه بالثقافة العربية، فلسفة وأدبا واقتناعه بعقلانية العرب وانجذابه لجمال الشعر العربى فى آل «حبيب والمحب». كان يقال عنه انه تعلم العربية وعرفها جيدا، لكننى استطعت اكتشاف انه قرأ الأعمال العربية من خلال الترجمات اللاتينية والأسبانية التى قام بها المسيحيون الأسبان.

لم أنغلق مع ذلك فى حدود رسالتى. كانت الستينات فى فرنسا، رغم كآبة بداياتها، فترة رائعة، ازدهرت فيها الاتجاهات المختلفة للنقد الأدبى، وتعمقت القراءة المنهجية، وتعددت أساليب السينما الطليعية ، كل هذا فى سياق تاريخى رأى تفاقم حركات التحرر الوطنى فى العالم، فيتنام تخوض حربا بطولية ضد أمريكا وشى جيفارا ينادى بالكفاح المسلح ويزرع ألف فيتنام فى العالم.

رفضت البنائية

أقرأ مع غيرى نظرية الشكليين الروس وانبهر بانجازاتها، رغم رفضى المبكر للبنائية التى نتجت عنها، أو أخذت مناهجها مبررا لدفاعها عن انغلاق النص الأدبى، وانفصاله عن سياقه التاريخى الاجتماعى. أتابع رفض عالم الاثنولوجيا ليفى - شتراوس لاستخدام نقاد الأدب لنظرياته فى بنى النسب الأسرية، التى رأى أن تطبيقها على النص الأدبى غير صالح .

أتابع أيضا عمل مجموعات كانت تقرأ ماركس فى النص (وليس من خلال المنشورات). وفرويد: فكانت الأولى تجد فى كتاب رأس المال مبادئ الاستلاب الناتج عن اخفاق الصراع الطبقى، والثانية تتعمق فى الاستلاب النفسى الذى تختفى جذوره وراء اخفاق اللاوعى .

كانت فترة الفيلسوف الفرنسى ألتوسير واعادة قراءة ماركس . وخرج من عمله المشترك مع آخرين كتاب قراءة رأس المال الذى قرئ فى أوساط المثقفين فى فرنسا وترجم فى الكثير من لغات العالم

(وترجم ايضا الى العربية) . أما أنا فكنت أقرأ الى جانب تودوروف وجينيت وبارت، التطور الجديد للنظرية الماركسية فى النقد الأدبى: جولدمان وماشرى، ومنهم عدت الى لوكاتش، أما باختين فلم اكتشفه الا بعد عودتى الى مصر .

كانت أوساط المثقفين المصريين فى فرنسا أيضا تشغى بالتساؤلات حول مصير الثورة، ثورتنا المصرية. كنا مجموعة حية من المشاغبين، نطرح على السلطة اسئلتنا القلقة، نتبنى مفهوم الطبقة الجديدة فى مصر، ونتنبأ بصعود الثورة المضادة. وفى هذا السياق الملتهب تكونت مجموعات عمل لتدرس مشاكل الزراعة والصناعة، والتربية والديمقراطية، والثقافة والعلم، الخ. اتهمنا بالغربة التى جعلتنا لا نرى الواقع، وبالتأثر بنظريات غربية لا تتجانس مع قضايانا. ومع ذلك أخذت مواقفنا فى الاعتبار. اذ نظم فى مصر مؤتمر للمبعوثين انعقد فى ١٩٦٦، كى يتم فيه «تبادل وجهات النظر».

وكانت كارثة ١٩٦٧!

كانت الصدمة والذهول، لنا ولكل الجالية العربية فى فرنسا. بقينا يومين نرفض الهزيمة ونتهم الإعلام الغربى بالكذب عندما تعلن اذاعاته استسلام الجيوش العربية. ننظم اللجان التى تتصل بجميع وسائل الاعلام لقول الحقيقة. وبالفعل كانت جريدة «فرانس سوار» قد



أمينة رشيد فى شرفة منزل الزمالك (١٥ سنة)

أصدرت عددها الأول فى صباح ٥ يونية بعنوان «المصريون يعتدون»، ثم استبدلته بعد احتجاجنا -أم بعد أن عرف العالم أن الاسرائيليين كانوا المعتدين؟- . لم نصدق شيئا مما يقال الا بعد سماع صوت جمال عبدالناصر، وقورا، حزينا، يعلن تنحيه عن كل مناصبه ومسئولياته. ولا أعرف كيف وجدنا أنفسنا جميعا أمام السفارة المصرية، فى الساعة التى تلت خطابه، نطالبه بالبقاء، علمنا بعد ذلك أن نفس الشيء كان قد حدث فى مصر.

تغيرت حياتى بعد ذلك . ودعت بداخلى مباهج باريس، وهم الحرية والثقافة. الاستمتاع بالسينما، اكتشاف النقد الأدبى

الجديد، الثرثرة في المقاهى. أركز على هدف واحد: الانتهاء من الرسالة والعودة إلى مصر. كتبت صفحات وصفحات نالت إعجاب إيتيامبل، يهنئنى على منهجى الماركسى (مضيفا أنه ليس ماركسيا بل معجبا بنا كآخر الشرفاء فى العالم!).

هذا لم يمنعنى من ممارسة العمل فى «اتحاد الطلبة المصريين» حيث كنت أقوم بالتنسيق مع «اتحاد الطلبة العرب» وبالعلاقات الخارجية مع طلاب فرنسا والعالم. أحببت هذا النشاط وتعرفت من خلاله على بشر رائعين، وعلى القضية الفلسطينية التى دخلت حياتى منذ هذا الحين كى لا تخرج منها أبدا بعد ذلك.

فى هذه الفترة، وقعت أحداث مايو ١٩٦٨. بدأت ثورة طلابية تندد بمناهج التعليم البالية لما سمى ب «سوربون بابا» وبموروث نابليون الطبقى والسلطوى فى كل مراحل التعليم. رأيت جدران السوربون الكئيبة فى العادة، تمتلئ بالشعارات الثورية والطوبائية إلى حد كبير (مثل : «الخيال فى السلطة»). رأيت الطلبة وبعض العمال الذين انضموا إليهم يهتفون ويغنون، يرقصون وينادون بالثورة «فى الفرح». رأيت فرنسا الـ«ديمقراطية» تجند أمنها المركزى لمهاجمة الطلاب بدروعهم الزجاجية وأقنعتهم الشفافة. ثم تحولت الـ «ثورة» إلى انتفاضة عمالية، وعشت بذهول التجربة المثيرة لإضراب الشهرين الذى شل الحياة فى فرنسا. لكن كل هذا لم يكن يهمنى كثيرا: كنت راغبة فى الانتهاء من رسالتى والعودة إلى مصر!

فى ظروف صعبة وسنوات أليمة انتهيت من رسالتى . ولد مروان وانغلقت معه فى البيت (باستثناء حضور بعض السمنارات)، أهتم به وأكتب الرسالة. أحكى له الحكايات وأكلمه عما يحدث وأفاجأ بذكائه المبكر وحساسيته المفروطة، بأسئلته الصائبة وتعليقاته الدقيقة. ملأ حياتى بالهناء والأمل، وأيضا بتمزق الاختيارات الصعبة عندما جاء وقت العودة وقرار تركه فى باريس مع أبيه.

ناقشت رسالتى واحتفل بى أصدقائى فى بيت مصطفى صفوان. نهاية سعيدة وبداية السؤال الصعب: هل أعود إلى القاهرة، إلى جامعتى، أم أبقى فى باريس؟ كنت قد عينت فى الـ «مركز القومى للبحث العلمى» فى فرنسا وكان الإغراء بالبقاء شديدا، لكننى لم أتحمل فرنسا أكثر من ذلك، أعيش فى أحداث مصر وأبكى عندما أفتح نافذتى وأرى

سمـاء باريس الرمـادية أشـعـر أننى استفدت كثيرا مما عشته من تجارب فكرية وسـيـاسـيـة ووجـدانية لكن أدركت تماما أن هذا التـاريخ ليس تاريخى وأن هذه الحياة ليست حياتى.

عدت إلى مصـر وإلى جامعتى. وفى المناخ الصعب لـ «كامب ديفيد» واتفاقيات السلام انتميت لدوائر مختلفة من الوعى ومن العمل. تعرفت على لطيفة الزيات. فى البداية كنا نلتقى فى شقة الصديقة العزيزة ليلى الشربينى فى حلقة نسائية، أسبوعيا. فى كل مرة تحكى إحدانا عن تجربتها، وكانت أغلبها تجارب صعوبة التوفيق بين الارتباط الزوجى والحياة المستقلة التى يشغلها هدف خاص، نضالى أو بحثى أو إبداعى . ثم بعد «كامب ديفيد» ونشأة «لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية»، انتمى أغلبها إلى هذه اللجنة، نلتقى كل يوم أحد، ننظم الندوات والمسيرات، تصدر مجلة «المواجهة» وننجح فى خوض بعض المعارك: رفض التطبيع الذى كنا أول من رفع شعاراته ومعركة معرض الكتاب التى استطعنا من خلالها أن نمنع نهائيا وجود إسرائيل فى المعرض.

تعرفت على سيد البحراوى فى حلقة أخرى كانت تجتمع فى بيت د. عبد العزيز الأهوانى. مع بعض الزملاء من تخصصات أدبية مختلفة وبعض المثقفين،



أمينة رشيد في نادى الجزيرة (١٨ سنة)

كنا نناقش المناهج الجديدة فى النقد الأدبى أو الاتجاهات الفكرية، نعرض كتابا جديدا أو نتبادل الحديث فيما يدور.

جمعتنى صداقة خاصة بسيد البحراوى، انجذبت فى البداية لطيبته التى كانت تحيط بى وتمحو كل جروح حياتى ثم قرأنا كتبا معا، ترجمنا معا، أحبنى وأحببته. وبعد خروجى من السجن ٢٦ ديسمبر ١٩٨١ تزوجنا . معه اكتشفت عالم الريف الذى لم أكن أعرفه إلا من خلال خبرة ملاك الأرض أو رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى. معه تجاوزت صعوبة الكتابة بالعربية.

ومعا خضنا الكثير من المعارك، فى

«لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية» و«نادى أعضاء هيئة التدريس لجامعة القاهرة»، وغيرها من المجموعات. استفدت كثيرا من خبرته الثقافية واستفاد هو من بعض خبراتى. وفى صعوبة الحياة العامة فى مجتمع متشرذم والتجارب المتقطعة والفاقدة للتراكم، أنشأنا بيتا نحبه ويحبه معنا الكثير من الأصدقاء ومن الأسر الصغيرة التى كوناها، أو تكونت من حولنا.

فى ١٩٨١ كانت تجربة السجن. بالطبع لا أستطيع أن أقول أنها كانت تجربة سعيدة! لكننى تعلمت من خلالها الكثير. رأيت التضامن الإنسانى لبشر لا يجمع بينهم شئ، كونت صداقات أخرى، تعمقت علاقتى بـ لطيفة الزيات وتعرفت على صافى ناز كاظم. وساعدتنى كل منهما على تجاوز عدم الثقة فى نفسى الذى كان قد تجذر بداخلى . وأساسا استكملت تجربة الانتماء التى كم كانت صعبة، مؤلمة، وكم مزقتنى فى لحظات مختلفة من الحياة لأول مرة فى حياتى أشعر أننى كل لا يتجزأ ولست منقسمة، أعانى الاختلاف، شخص هجين، لست فرنسية ولست مصرية. شعرت أننى مصرية وعربية، أعيش تجاربنا بكل أبعادها وأنتمى لمجتمعى مع كل مشاكله وصعوباته. لا أستطيع أن أشك فى ذلك الآن ولا يشك فيه أحد من حولى .

ثم استقرت حياتى . أعطى الجامعة أولوية مطلقة، رغم نصائح الكثيرين من حولى أن أهتم أكثر بكتاباتى وأبحاثى. أحب طلبتى ويحبوننى. أتأثر بصعوبة حياتهم فى سياق لا يساعد على الدراسة السليمة ولا على الانتماء ولا حتى على حياة مراهقة سعيدة. عن طريق الآدب المقارن، أحاول تجاوز عبثية التدريس فى قسم لغة أجنبية فى زمن يخلط بين الأجنبى والعولمة والتبعية ولا يساعد على اكتشاف المشترك الإنسانى والعالمى فى الفكر والعلم والكتابة الأدبية.

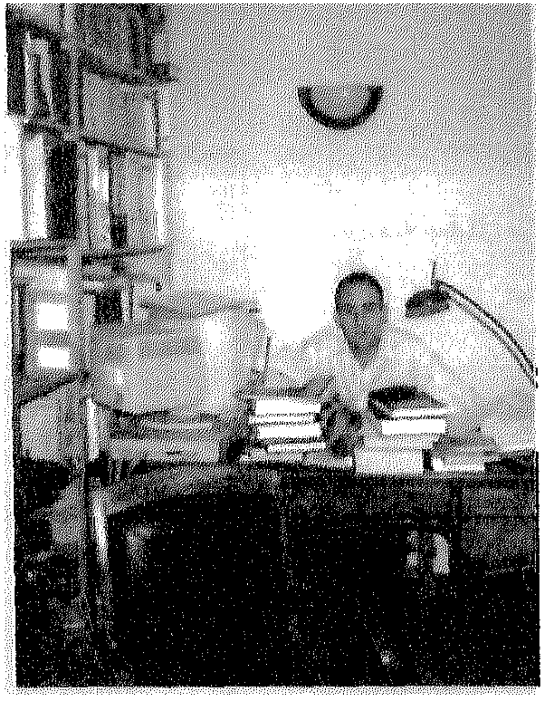
واعترف أيضا أننى مازلت هاوية فى قراءاتى ، أما فى كتاباتى فأنا لا أركز على موضوع وأستكمله (باستثناء بعض المقالات وكتابين انتهيت منهما تحت ضغط وبصعوبة فظيعة!). تمتلئ أدراجى بأوراقى غير مكتملة، خطط لمشاريع، كتابات خاصة، كروت بحث... وأحيانا أشعر أننى أريد التخلص من هذا كله وأبدأ من جديد على صفحات بيضاء.

ومع ذلك تشغلنى بعض المواضيع وأقرأ فيها كثيرا. موضوع الزمان والمكان فى النص الأدبى، موضوع السيرة الذاتية





أمينة رشيد وابنها مروان - باريس ١٩٧٢



مروان راشد ابن أمينة رشيد - باريس ٢٠٠٠

فى تجلياتها المختلفة (ومنها سيرتى الخاصة، بدأتها منذ أكثر من عشرين عاما وأخاف الاقتراب منها)، وأهتم بمشروع نور لكتابة المرأة العربية، رغم أننى لم أنتم أبدا لمشروع نسوى: مع الزمن وتجارب الحياة اقتنعت بأن هناك خصوصية لقضايا المرأة، لكنها لم تتحول أبدا إلى مشروع حياتى..

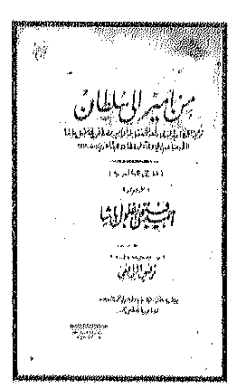
والآن فى نضالنا من أجل فلسطين أشعر أن لا شئ له قيمة حتى تتحرر فلسطين. أعيش وجع الجميع رغم أننى أرى أن جنون المجزرة التى تقوم بها إسرائيل فى الأراضى المحتلة يشير إلى أن هذه الدولة المزيفة تعيش بداية نهايتها. لكن الثمن مؤلم، غاية الألم، والدمار مريب. نقوم بالكثير من المسيرات واللقاءات، نوقع على بيانات، أتأثر بكفاح سيد المميت، مع آخرين، أكتشف بشرا فى نضالنا لم أكن أتوقع أن شيئا عاما يهمهم، وأحاول أن أقتنع أن أمتنا بخير. أتابع بأمل تحول الرأى العام العالمى، وخاصة جهود فرنسا التى عايشت قوة الصهيونية فى إعلامها. وقبل كل شئ يحيى قلبى كل يوم وفى كل لحظة جسارة المقاومة الفلسطينية: كنا نظن أن العرب سوف ينقذون فلسطين . وأعرف الآن أن فلسطين هى التى سوف تنقذنا. ■



بمناسبة مقال « أسرار الأميرة التى تحرك الرجال وتصنع الأحداث » والذى نشر فى عدد أبريل الماضى لدى بعض الملاحظات من بينها :

عودة للأميرة نازلى فاضل

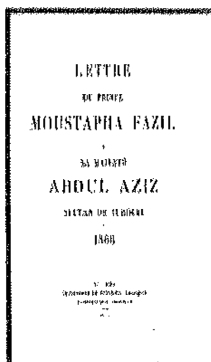
● الأمير مصطفى بهجت فاضل (١٨٣٠ ـ ١٨٧٥) أخ أصغر غير شقيق للخديوى اسماعيل ، لم يؤلف كتابا بالمعنى المتعارف عليه، ولكنه دبج رسالة سميت فى أدبيات التاريخ : « من أمير إلى سلطان » وهى من روائع الأدب السياسى .



● الرسالة وجهت إلى السلطان عبدالعزيز وليس السلطان عبدالحميد .. والسلطان عبدالعزيز (١٨٣٠ ـ ١٨٧٦) هو السلطان رقم ٣٢ من سلاطين آل عثمان. والأمير مصطفى بهجت فاضل، كتب رسالته الشهيرة عام ١٨٦٦ .

● ورد فى المقال والذى كتبه رئيس تحرير الهلال أن الأميرة نازلى فاضل، ترجمت هذه الرسالة من التركية إلى العربية .. وما أعلمه عن هذه الرسالة أن توفيق الرافعى قام بنشر ترجمة عربية لها عام ١٩٢٢م، وقام بتعريبها أحمد فتحى زغلول (١٨٦٣ ـ ١٩١٤) وهو شقيق سعد باشا زغلول، تحت عنوان « من أمير إلى سلطان » .

رسالة فى أدبيات التاريخ


LETTRE

MOUSTAPHA FAZIL

ABDUL AZIZ

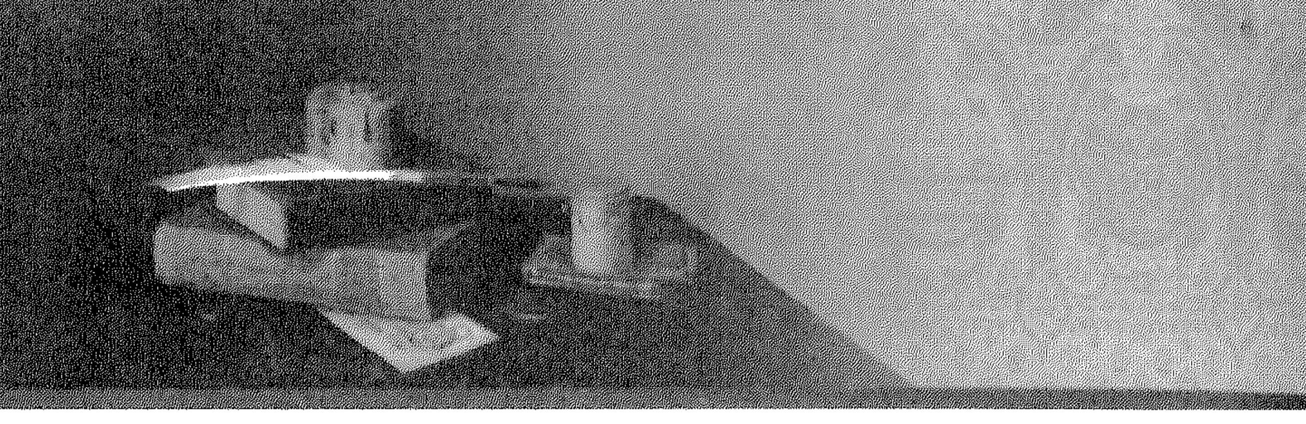
1866

● فى عام ١٩٤٠ قام المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بنشر كتيب بالقطع الكبير وباللغة الفرنسية لهذه الرسالة .

والنص المعرب والآخر الفرنسى موجود لدى إذا ما رأيتم نشره بالهلال . علما بأن نص الرسالة هو قطعة من الأدب السياسى الرفيع والعفيف الصادر من محكوم إلى حاكم فى القرن ١٩ ، ولكنه يصلح لكل عصر .

مهندس/ شريف سيد عفت – القاهرة

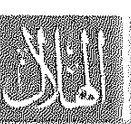
● الهلال شكراً على تحيتك الرقيقة ونحن فى انتظار إرسال مالديكم فى أقرب فرصة.



حان الجهاد

الجرح زاد توسعا ونزيفا والحزن بات على القلوب كثيفا
سالت دماء المسلمين ولم تزل تجرى برام الله - تروى حيفا
سفاح صهيون اللئيم مواصلا بالحرث حرقا، والبنا تجريفا
والنسل قتلا غير آبه لحظة فى أمة المليار، ليس أسيفا
وتبارك الأجرام - أمريكا - له فى قولهم : هو بالدماء شغوفا
لكن رام الله يأبى حصنها فتحا، لهذا الغازى الملهوفا
فيها أبو عمار طودا شامخا لا يخشى موتا من يموت شريفا
طلب الشهادة والشهادة مطلب للماضيين إلى الجهاد زرافا
الحامليين على الأكف رؤوسهم الطالبين رضى الإله ألوفا
المانحين الروح حب كرامة للقدس أنفسهم، ولا تكليفا
يا أمتى حان الجهاد فسارعى نمضى إلى أرض الجهاد لفيفا
ليفوز بالنصر المبين جميعنا أو بالشهادة نكسب التشريفا
فكفاك ذلا انهضى لا تنثنى وكفاك تأجيلا كفى تسويفا

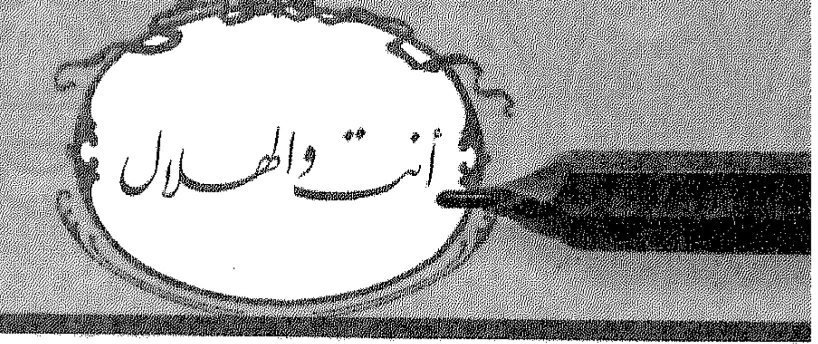
درهم جبارى -أمريكا - سان فرانسسكو

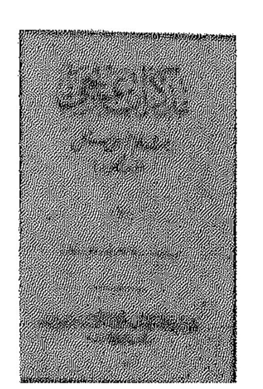


مذكرات عربجي .. من جديد!

كتب الدكتور محمد رجب البيومى مقالاً فى عدد يوليو ٢٠٠١ عن كتاب عنوانه « مذكرات عربجى » ، وقد أرسل إلينا السفير شكرى فؤاد ما يفيد أن الكتاب من تآليف الكاتب الكبير فكرى أباظة، وليس « أبو محمود»، وطلب فى نهاية كلمته أية معلومات جديدة حول هذا الكتاب .

والحقيقة أن كتاب « مذكرات عربجى » الذى كتب مقدمته الكاتب الكبير فكرى أباظة، قد أثار ضجة كبيرة عند صدوره .

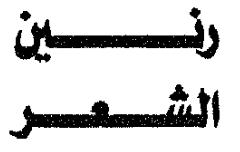




وأرى أن المؤلف « الأسطى حنفى » مجرد شخصية وهمية تخفى وراءها المؤلف الحقيقى وهو الفنان الكبير سليمان نجيب (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) وهو ما أكده بعض أصدقائه ومنهم الشاعر صالح جودت فى مقال له بالمصور سنة ١٩٥٥ .

والجدير بالذكر أن سليمان نجيب لم يكن مجرد ممثل سينمائى بل كان أديب وكاتب مسرحي له العديد من الأعمال المسرحية والكتابات الأدبية ، وهو ما يتطلب دراسة موسعة عن حياته وفنه وأدبه .

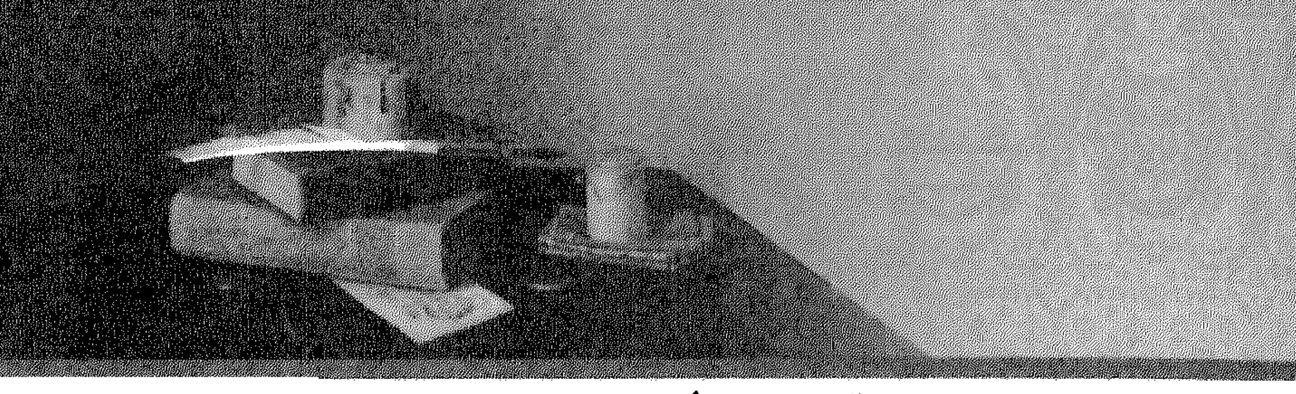
محمد رضوان - القاهرة



هذه قصيدة من شاعر تتنبأ له الهلال بمستقبل طيب وهو من أصدقاء « أنت والهلال » تقول أبيات قصيدته :

أعلم أن الزهر يموت
أعلم أن الغصن اليانع
فى هدرات خريف حتما سيموت
أعلم أن دموع الشجر النائم فى أحلامى
ماهي إلا دموع من شجر التوت
أعلم أن الضلع الناقص في جسدي
يأكله الحوت
أعلم أن عصورا جادت
وعروشا مازالت ترقد في التابوت
لكن رنين الشعر (الحرّ) يدوى
لن يرغمه سيف سكوت

عبدالناصر الجوهرى
دكرنس - دقهلية



قصة من الأدب العربي

خرج أعرابى من البدو فى سفر، فأقبل على الأمير المهلبى وهو يتناول طعامه ، فلما فرغ من طعامه أومأ إلى البدوى قائلا :

ـ من أنت يا بدوى؟!

ـ شاعر قصدتك بأبيات من الشعر .

عندئذ طلب الأمير من رجاله أن يأتوه بقوس وسهم ثم قال للبدوى: قل أبياتك ، فإن أعجبتنى كافأتك أو رميتك بهذا السهم !

فأنشد البدوى يقول شعرا :

أمنت بداود وجود يمينه
من الحدث المرهوب والبؤس والفقر

وأصبحت لا أخشى بداود نبوة
ولا حدثانا إن شددت به أذرى

له حكمة لقمان وصورة يوسف
والملك سليمان وصدق أبى ذر

تهرب الأموال من كفه كما
يهرب الشيطان من ليلة القدر

فقوسك قوس الجود والوتر الذى
وسهمك فيه الموت فاقتل به فقرى

فضحك المهلبى وسأل البدوى :

ـ أيها أحب إليك أن أعطيك على قدرك أم على قدرى

قال : على قدرى يا أمير

قال الأمير : وكم قدرك ؟

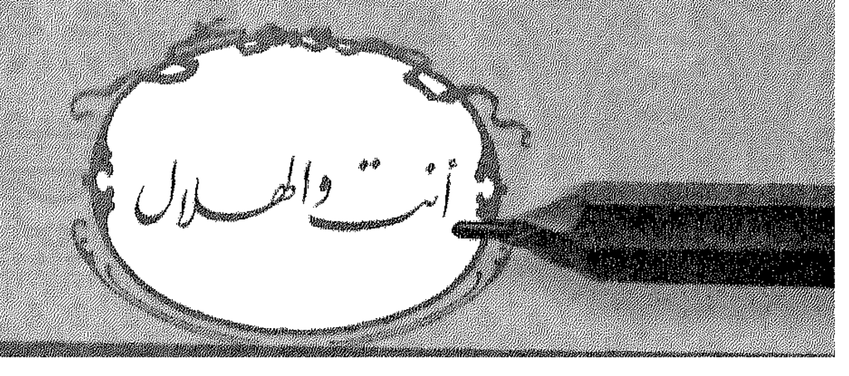
قال : مائة ألف درهم

قال الأمير : لك ما طلبت ولكن لم لا يكون على قدرى أنا؟

قال : يا أمير إن الأرض وما عليها لا تساوى قدر الأمير لذا طلبت على قدرى !

ابتسم الأمير وقال له . والله إن نثرك لأحسن من شعرك ، لذا أعطيناك مائة ألف أخرى على ألا تنقطع عنا .

محمد أمين العيسوى - الإسماعيلية



الانتماء للوطن

في برما محافظة الغربية واحدة من أقدم المدارس والتي تبرع ببنائها غبريال بك فرج الصعيدى أحد أغنياء أقباط مصر عام ١٨٩٠م وأوقف عليها أربعة وثلاثين فدانا للإنفاق على هذه المدرسة ، وظلت هذه المدرسة تكبر وتتطور إلى أن أصبحت بعد أكثر من مائة عام خير دليل على قوة النسيج الوطنى، حيث كان يلتحق بها طلاب من الوجهين القبلى والبحرى مسلمين وأقباطا .

ومن أهم الظواهر الإيجابية فى التاريخ للأقباط، ما قام به الدكتور محمد عفيفى بالاشتراك مع الدكتور رفيق حبيب فى كتابهما المشترك «تاريخ الكنيسة القبطية» القاهرة سنة ١٩٩٤م وكتاب الدكتور محمد عفيفى «الدين والسياسة فى مصر ـ القمص سرجيوس ١٨٨٣ ـ ١٩٦٤ ، وهذان العملان لم يلقيا الاهتمام والرعاية من جمهرة المؤرخين والباحثين .. وظاهرة التاريخ للأقباط تدعم وترسخ ركائز الوحدة الوطنية .

أيضا من الظواهر الايجابية فى دعم الوحدة الوطنية ، ظاهرة حكماء الأقباط، وهم الذين أكدوا دائما انتماءهم الوطنى لمصر الأرض والوطن والإنسان وأقاموا جسور الثقة والتفاهم والتواصل مع كل المصريين أقباطا ومسلمين من هؤلاء الحكماء نذكر : د . ميلاد حنا، د . مينا بديع عبدالملك د . رشدى سعيد د . يونان لبيب رزق .

عمرو عبدالمنعم حموده

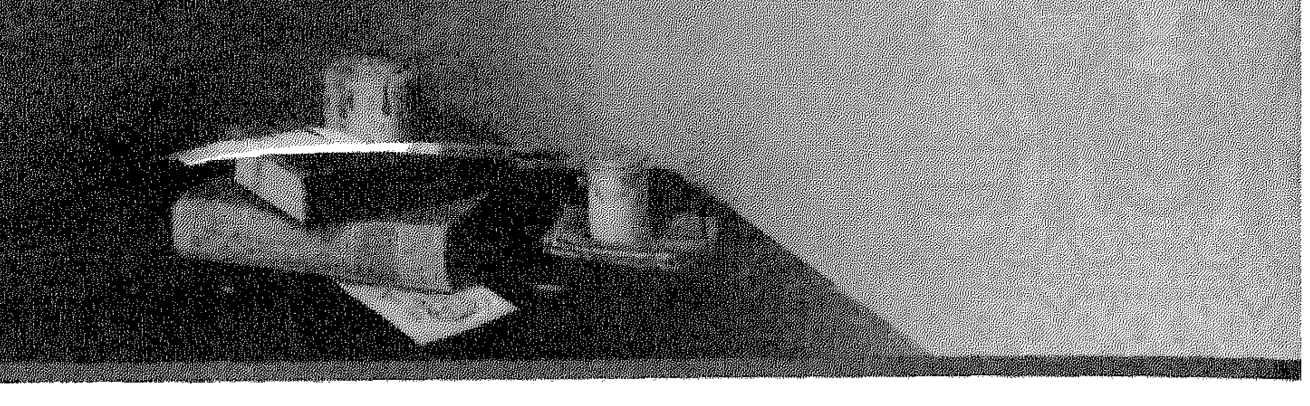
حل مشكلة التجليد

أنا من عشاق مجلة الهلال ، والتى أحبها أبى وغرس فىّ هذا الحب ، فلم يترك عددا واحدا منها ، ولذلك تزدان بها مكتبتنا بالبيت ، وأقرأ كل أعدادها ، فضلا عن أننى أنتظر بفارغ الصبر أول كل شهر وصولها إلى لبنان لكى أشتريها وأقضى كل ساعة فراغ فى قراءتها .

لكننى لاحظت فى الأعداد الأخيرة التى صدرت ، وبرغم جمال التطوير أن التجليد ليس على مستوى هذا التطوير ، فأحيانا عندما أقلب صفحاتها « تفرط » ، مما جعلنى أتساءل عن السبب فى ذلك ؟

عبدالقادر – بيروت ـ لبنان

● هذا الأمر يشغلنا منذ عدة شهور ، ووعدنا مدير عام المطابع ، بأنه ابتداء من عدد مايو الذي بين يديك لن تتكرر هذه الشكوى .



إشادة بالدكاترة زكي مبارك

أنا من قراء الهلال الذين يحرصون على قراءة كل أعدادها والتى ـ نادرا ـ ما تصل إلى ليبيا ولا أدرى سببا لذلك .. أتوجه بسؤال إلى الكاتب وديع فلسطين أطال الله فى عمره .. هل كانت لديه علاقة بالدكاترة زكى مبارك الذى أحبه وأحب كل كتاباته ، راجيا أن يتكرم بنشر بعض ما يعرفه عنه ، فزكى مبارك يستحق من أهل الضاد كل التكريم .

صالح عمار النائلى
طرابلس ـ ليبيا

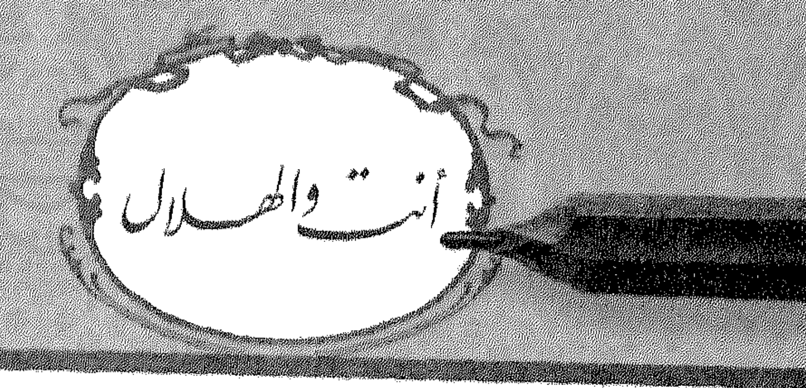
● الهلال : فى مقاله بالهلال يتناول الكاتب وديع فلسطين كل الشخصيات الأدبية التى أثرت الفكر والثقافة العربية وقد وعد بعد أن قرأنا عليه رسالة الصديق ، بكتابة بعض ذكرياته عن الدكتور زكى مبارك .

القدس تنادى

يحمل البريد مساهمات كثيرة حول ما يدور الآن فى فلسطين وتلك المحنة التى يعيشها أخوة لنا فى جنين ورام الله من بينها هذه الأبيات ننشرها كما جاءت إلينا.

آه قدسى قدسى يضنيـــه الحزن الشوق ويقعده
يحيا قهراً يحيا فى حزن مـــرّ من منـــا سيبدده
غدرا يغدو نارا ، نارا آه من يأتـــى كـــى يخمـده
عرفات الحر يقول بلادى ، أولادى مـــن يبعـــده
عرفات الصامد ظل ينادى فـــلا أحـــد يؤيـده
والظلم الغـــدر يحاصره آه آه مـــن ينجــــده

محمود أحمد المصلى



لماذا يلقبونهم بالحمير؟!

السخرية هى خير تعبير عن الحالة السياسية ولكن بقليل من الكلمات .. إننى أتساءل لماذا ينفعل بعض فنانينا وفور الانفعال يقولون عن البعض إنهم حمير ؟!

فكيف نسمح بذلك ، ولماذا لا تكون هناك وقفة ؟!

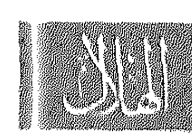
عاصم فريد البرقوقى
الاسكندرية ـ جليم

● الهلال : نترك للقارىء العزيز أن يحكم على من يتفوه بمثل تلك الكلمة غير المسئولة .

شذى العبير

عيناك فيها يكمن الخطر — وعلى جبينك يسطع القمر
بدر تجلى وسط هالته — فالنور فى الأنحاء ينتشر
يا فتنة للقلب قد ظهرت — فتانة وتوالت العبر
رقت فكانت كالنسيم سرى — وقست كأن فؤادها حجر
عطفت على صب يؤرقه — شوق إليها بات يستعر
أالقت عليه شباكها فغدا — منه الفؤاد يكاد ينفطر
ما للهوى يلهو بخافقه — وبعقله تتجاوب الفكر
روت مدامعه وسادته — فالدمع فوق الخد ينهمر
القلب يخفق كلما خطرت — ويظل يرنو نحوها النظر
لو أنها ألقت تحيتها — ماكان فى القائها ضرر
علمت بأشواقى لها فمضت — لا تستجيب وليس تعتذر
قالت لمن قد جاء يعذلها — دع عنك لومي وامض يا عمر!!
أعبير ماهذا الصدود وفى — نفسى إليك يسوقها وطر
داع دعا قلبى فخف له — هل تتركين القلب ينتظر

يحيي بن عبد الله المعلمي – السعودية



مع الأصدقاء

●● أحمد إبراهيم خضير : ذكر السيد/ رجب عبدالحكيم فى « أنت والهلال » عدد أبريل بأن الشيخ محمد الغزالى ولد بإحدى قرى القليوبية عام ١٩١٧ ولكن أنوه أنه من مواليد نكلا العنب التابعة لمركز إيتاى البارود بحيرة حيث ولد فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٩١٧م .

●● ١٨ مايو ٢٠٠٢ يوافق مرور ١٣٠ عاما على ميلاد الفيلسوف برتراند راسل .. هو من أبرز المفكرين فى العالم الذين نادوا بالسلام والقضاء على الحروب من أجل رفاهية البشر ، وقد لقى كثيرا من العنت بسبب دعوته للسلام .

أين هو الآن حتى يرى مذابح جنين ونابلس وقتل الفلسطينيين وهذا الدمار الشامل لشعب أعزل إلا من إيمانه بقضيته.. والعالم كله يقف متفرجا من هول المذابح التى يقوم بها شارون وعسكر إسرائيل !

●● يقول الصديق حسن أبو الغيط:

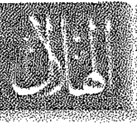
نزيف الأرض تشهده السماء
سنصبر لن تضيع لنا دماء
سنسعى للحياة بكل جهـــد
نـــرد الظلـــم نحن الأبرياء

❑ الصديق محمد صابر محمد ـ الاسكندرية : نشكرك على رسالتك التى تعبر فيها عن حرصك على الاستفادة بكل ما تنشره الهلال من موضوعات أدبية ، أو تتناول جوانب تاريخية .

وحول حصولك على بعض الأعداد التى تساعدك فى بحثك كما أشرت فيمكن الاتصال بإدارة التوزيع بدار الهلال ت: (٣٦٢٥٤٥٠) ستة خطوط حتى ٣٦٢٥٤٥٦ ، لكى توفر لك الأعداد المطلوبة وكيفية إرسالها إليك .

❑ وصلتنا رسائل عديدة أسعدها كثيرا المقال الذى كتبه الكاتب الساخر محمود السعدنى فى عدد إبريل الماضى وتطلب من الكاتب الكبير أن يواصل كتاباته للهلال.

❑ الشاعر الصديق : أحمد نادى بهلول نعتذر عن الخطأ الذى حدث فى ترتيب أبيات قصيدتك « الربيع » نرجو ألا يتكرر ، وفى انتظار إنتاجك الجديد .





حرب شارون الهمجية

بقلم : نجيب محفوظ

لا أذكر أنني شعرت بالاستفزاز قدر ما استفززت أخيراً من ذلك الهجوم الإسرائيلي الوحشي على الأراضي الفلسطينية، ومحاصرة رأس السلطة الفلسطينية بهذه الطريقة المهينة، وقطع الماء والتيار الكهربائي عن مقر إقامته، ثم مطالبته بإدانة الإرهاب!

إن ما تقوم به اسرائيل الآن، هو أخطر أنواع الإرهاب، لأنه إرهاب دولة وليس إرهاب أفراد، وهو ما لا ينبغي للمجتمع الدولي أن يسكت عنه.

أما ما يقوم به الفلسطينيون فهو عين الدفاع عن النفس والاستشهاد في سبيل الوطن والحرية.

إن علينا في هذا الموقف تأييد انتفاضة الشعب الفلسطيني الباسلة، ودعمها بكل الوسائل الممكنة بعد أن أثبتت أنها الوسيلة الوحيدة للتعبير عن آمال الشعب الفلسطيني الذي مازال يعاني ويلات واحد من أسوأ أنواع الاحتلال في عصر مضى فيه عهد الاحتلال.

لقد ضاقت السبل بالفلسطينيين أمام الهمجية الإسرائيلية، ولم يعد أمامهم غير الكفاح المسلح، بعد أن سدت في وجوههم كل محاولات السلام، وضرب شارون بالمبادرة العربية عرض الحائط، وانتهك كل القوانين والأعراف الدولية، حتى جرد حياة الفلسطينيين من كل معنى، فهل نلومهم إذا خرجوا يبحثون بالموت عن ذلك المعنى الذي فقدوه في الحياة ؟!

إن اسرائيل باجتياحها للأراضي الفلسطينية، قد أعلنت حرباً همجية على الفلسطينيين، تنتهك فيها كل القوانين، لكن الفلسطنيين يملكون كل مقومات الانتصار، في الوقت الذي تزداد الأوضاع سوءاً، داخل اسرائيل اقتصاديا واجتماعياً ونفسيا أيضاً.



مصر للطيران
٧٠ عاما من الريادة و الخبرة
مايو ١٩٣٦ - مايو ٢٠٠٦
٧٠ عاما
٧٠ عاما
٧٠ عاما
٧٠ عاما
٧٠ عاما
مصرللطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

روايات مصرية للجيب

الهلال

من هو الإرهابى ؟!

(جزء خاص)

يونيو ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

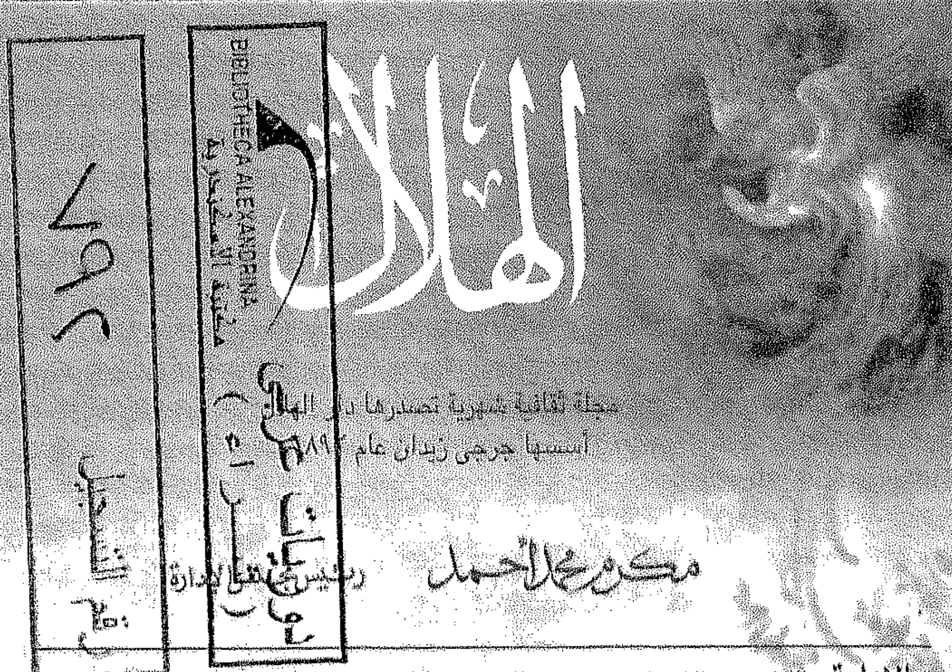
خفايا القاهرة

لوحة وفنان



لوحة - منظر في القاهرة

للفنان - حسني البناني



مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

مصطفى نبيل رئيس التحرير

محمد أبو طالب المستشار الفني

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفني

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ٥. ١ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٤ دينارات - المغرب ٤٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات.

الفهرس



تصميم الغلاف
للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولارا. امريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولارا. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



E.mial : hilal_mag@hotmail.com

العام العاشر بعد المائة

ربيع أول ١٤٢٣ هـ - يونيو ٢٠٠٢م

الأبواب الثابتة



ذكرى ٥ يونيو

نتساءل بعد ٣٥ عاما على هزيمة «يونيو» هل استفدنا من دروسها؟. وهل استوعبنا مغزاها؟ وهل قرأنا أحداثها قراءة صحيحة؟. وما مكانتها فى التاريخ؟.

يعتبر البعض تلك الهزيمة فشلا كاملا للتجربة المصرية في جميع المجالات التى كانت قائمة فى الخمسينيات والستينيات، وأن وقائعها أثبتت خطأ منهج ثورة يوليو!.

وهذا مما يجافى الحقيقة والواقع .. فالصحيح أن ثورة يوليو لم تقم وزنا سليما لخصومها، ولم تقدر تقديرا سليما حجم التحديات الاستعمارية والصهيونية التى تواجهها، وأن الفجوة كبيرة بينها وبين أعدائها، وقد أثبتت ذلك حرب أكتوبر المجيدة، التي كانت بمثابة معكوس هزيمة يونيو ونقيضها، ويكمل كل منهما الآخر ..

فرغبة سيطرة الدول الكبرى على العالم ليست ظاهرة جديدة، وإنما هى جزء من حقائق العالم الذى نعيش فيه، وتملك الدول الكبرى أجهزة جبارة لا هدف لها سوى البحث عن ثغرة بين الدول التى تقاوم هيمنتها، ولايجوز لومها عندما تجد أمامها مجرد حاجز هش مملوء بالثقوب.

●

فأى هزيمة مهما بلغ هولها، ومهما كان حجمها لاتكتمل ولا تحقق أهدافها، إلا إذا أصابت القلوب، وكسرت المعنويات، ونالت من نفوس الناس ووجدانهم.

ولم يعد لائقا تناول هزيمة يونيو من أجل تصفية الحسابات، ولا لكى نتساءل من تقع عليه المسئولية الرئيس أم المشير؟ ولايجوز أن تصبح موضع صراع بين أنصار عبدالناصر، وأنصار السادات؟!.

فإذا كانت يونيو هى التخلف الذى انعكس على سوء الأداء. فكانت القوات المسلحة فى أكتوبر تلامس العصر، عندما استبدلت الأمية بالعلم، وجند خريجو الجامعات وخاضوا الحرب الإلكترونية، وعندما قدمت القوات المسلحة أداء عالى الكفاءة سواء فى التخطيط أو التنفيذ أو القدرة العالية على التضحية.

وإذا أشاعت يونيو مناخ الاستسلام، فقد أشاعت أكتوبر روح الأمل الذى أكدته القدرة الفائقة على قهر التحديات.

ويونيو هو ما تصوره العدو فرصة من أجل تدمير خلايانا الفكرية، وتفكيك ثقافتنا



ربيع أول ١٤٢٣هـ - يونيه ٢٠٠٢م

الوطنية، أما أكتوبر فهو إنتعاش ذاكرتنا الوطنية وإنتعاش ثقافتنا وهويتنا .

ويونيو هي أن يتهم بعضنا بعضا، ونتحول إلى الإنقسام والفرقة، ويتفرق تيار الوطنية، ونتجه عندها مغمضي العينين إلى الهاوية السحيقة، وأكتوبر تعني التصدى لسلبياتنا، واقامة تيار عام يبادر ويعمل ويدرك أولويات العمل من أجل المستقبل.

فإذا كان من الممكن أن يستبدل الصراع المسلح بصراع من نوع آخر، وينتقل الصراع إلى مجالات العلم والتعليم والتنمية، ومن أجل مستوى معيشة أعلى، وأن يتمتع أبناؤه بالعدل والحرية، ومن أجل أن يحصل المواطن على نصيب عادل من الحكم والثروة، وأن يمتلك آليات التصحيح، ولايغرق أبدا فى قضايا هامشية، فهو التحدى الذى نواجهه اليوم.

●

إن النصر والهزيمة العسكرية، ترتبط ارتباطا وثيقا بموازين القوى فإقامة مجتمع حى وعصرى، هى المسألة الجوهرية التى تحسم الصراع فى مداه الطويل.

والمجتمع العصرى هو المجتمع الذى يستطيع أن يصل إلى أقصى درجات التنظيم، ويحشد كل طاقته في سبيل تحقيق أهدافه، وهو المجتمع الذى يعرف معنى الوقت، ويعرف ثمن الآلة، أى يعرف أنه لايكفى شراء المعدات والتقنيات الحديثة، بل عندما تكون ملائمة لظروفه واحتياجاته. كما أنه لايكفى نقل العلوم والتكنولوجيا بل ينبغى أن تصبح جزءا حيا من خلاياه، فلا نكون مستهلكين لمستحدثات العصر بل مشاركين فى إنتاج هذه المستحدثات.

●

ويقى حصان طروادة للعدو، وهو الفرقة سواء داخل البلد العربى الواحد أو بين البلاد العربية وبعضها، وعجزها الفادح أن تتعاون وتتفق فى إطار المشترك بينهما، وعملا بالسير - أحيانا - على قدر أضعف الحلقات .

فيقيم الأعداد حساباتهم على أن المنطقة العربية يمكن أن تتضامن ولا أن تنسق فيما بينها، رغم أنها قادرة بامكانياتها أن تصبح قوة فعالة، لذا يسعى الأعداء إلى نشر الوهن بين أهلها وإشاعة الفرقة بينهم.

وهناك سمة متكررة نراها كلما وقعت هزيمة، فبدلا من مواجهة أسبابها الحقيقية، يسعى كل طرف إلى إلقاء المسئولية على غيره.

وفى داخل البلد الواحد، توضع أحيانا على نظام الحكم وأحيانا على قوى سياسية بعينها، لكى يكون ذلك سببا للتداعى والسقوط.

فأى قوة سيحققها العرب، إذا شاع بينهم حق الإختلاف، وأن ذلك لايحول دون الإتفاق فى إطار مصالحهم المشتركة.

وأخيرا نتساءل لماذا لم يعد الألمان واليابانيون يتحدثان عن الهزيمة التى لحقت بهما ..؟، رغم أن هزيمتهما كانت أفدح كثيرا من يونيو، فلم تحول الهزيمة دون أن يعملا إلى ما هما عليه من تطور اقتصادى ومكانة سياسية، ووجهت كل من ألمانيا واليابان جهودهما لامتلاك عناصر القوة الحقيقية فى العالم المعاصر.. كل ذلك بوسائل غير عسكرية.

المحــــــرر

ذِكرُ ما جَرىَ
أيام يونيو ١٩٦٧

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

●● ليسمح لى الأخ العزيز جمال الغيطانى أن أستعير عنوان رائعته «ذكْرُ ما جرى» كنصف عنوان لهذه الصفحات. ظللت زمنا أفكر فى الكتابة عن شئ أشبه بمذكرات مواطن. كان رأيى أن وصف الأحداث وتحليلها من خارجها غيره من داخلها، ومن مواقع السلطة العليا غيره من موقع المواطن العادى، وأن أهم الأحداث قد شهدها عادة شهود عيان عاديون يستطيعون - لو أنهم على قدر من العلم - أن يدلوا بشهادات قد لا يكون المؤرخ الأكاديمى على بينة منها ، أو وجد ما يدل على صحتها فى وثيقة أو صحيفة أو شهادة مسئول. وعندما بدأ الاستاذ الجليل الدكتور يونان لبيب رزق محاولته الرائدة لكتابة تاريخ مصر من خلال صحيفة الأهرام كانت التجربة موحية لى على الرغم من اختلاف السياق . كان ما شجعنى أنه بدأ عملية تأريخ واسعة للحياة المصرية اعتماداً على مصادر غير تقليدية، وازدادت شجاعتى على الإقدام على المحاولة مع ظهور عدد من المذكرات لأناس صحيح أنهم ليسوا مواطنين عاديين ولكنهم لم يكونوا حكاما(١) ، ولأن تسجيل تجربة «مواطن» بأكملها مسألة غير يسيرة - ناهيك عن أنها لا تستحق بالضرورة أن تسجل فى كل أبعادها -كان الاختيار ضرورياً، وكم ألح على أن أكتب عن ذكريات يونيو ١٩٦٧ بالذات على الرغم من كآبتها المطلقة . ربما لأن المواطن العادى فى لحظة فريدة من لحظات التاريخ صنع الأحداث فى جانب مهم منها ، وتمكن من أن يحدث تحولا حقيقيا فى مسارها. ومع ذلك ظل العبء ثقيلاً سنة بعد سنة إلى أن حسمت الأحداث الأخيرة فى أرض فلسطين ترددى لسبب لا يخفى على فطنة القارىء، فالكثيرون يشعرون أننا ربما نكون قريبين فى هذه الأيام من مناخ يونيو ١٩٦٧ ومضمونه ، ومن ثم يكون «ذكر ما جرى» ودلالاته مفيداً لنا فى محاولة استشراف مستقبلنا ●●

الأزمة

كنا نقترب من امتحانات السنة الثانية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية عندما تفجرت أزمة مايو ١٩٦٧. كانت متابعة تطورات الأزمة تباعد بيننا وبين المذاكرة، غير أنها كانت من ناحية أخرى تثير حماسنا، وكنا نتبادل فى مجالس الاستذكار الجماعية سؤالاً يرتبط بأمل حقيقي: أنكون حقا فى تل أبيب بعد انتهاء الامتحانات؟ يجسد السؤال المناخ الذى تكون فيه جيلى حتى وقوع هزيمة ١٩٦٧، وكان عبدالناصر يبدو لنا عملاقا فى إدارته للأزمة، وإن كنت لا أنكر أننى أصبت بغصة عندما قال فى مؤتمره الصحفى العالمى يوم ٢٨ مايو ردا على سؤال مراسل صحيفة الديلى اكسبريس البريطانية :

« بالنسبة للسن أظن أنا ما عجزتش، وأنا لسه ما بلغتش الخمسين ، وأنا مش خرع زى المستر إيدن بأى شكل من الأشكال. يعنى لازم تفهموا هذا الكلام ، وطمنهم فى انجلترا إنى أنا ما كملتش الخمسين ، وقاعد لسة مدة طويلة موجود هنا فى هذه البلد وفى هذه المنطقة من العالم »(٢) .



جمال عبد الناصر

تعودت دائما أن أتشاءم من هذه الطريقة فى الحديث، وكان حسى يصدق دائما، ومع ذلك كانت المشاعر غلابة، ولم يكن لشئ أن يوقفها، وارتبطت العلامة الوحيدة على أن ثمة احتمالا لخطأ ما فيما يجرى حولنا بضابط الاحتياط الوسيم المعذب الذى كان يدرس لنا التربية العسكرية فى الكلية، والذى تحدث عن الفوضى فى استدعاء القوات الاحتياطية وحشدها، وعن سوء ظروف معيشتها ، وتدنى مستوى تدريبها ، وأذكر أننا تلقينا كلماته - وكان ذلك قبل الحرب بحوالى عشرة أيام - بوجوم كامل، ولم يكن مبعث الوجوم تخوفا مما قال، ولكنه كان أقرب إلى الاستنكار ومظنة الخيانة أو لنقل التخاذل ، وأحسب أن شخصيته الدمثة، وعلاقتنا الودودة به قد حمته من انفجار

مشاعرنا المكتومة فى وجهه .

الحرب

ردد صباح الخامس من يونيو دوى أصوات المدفعية المضادة للطائرات التى حفرت لنفسها مكانا فى ذاكرة طفولتى منذ تلك الأيام المجيدة من عام ١٩٥٦. سرعان ما بدأت إذاعة القاهرة فى إعلان أعداد الطائرات الاسرائيلية التى تم إسقاطها . كانت الظواهر تشجع على إطلاق العنان للفرحة ، لكن الدراسة القصيرة فى الكلية يبدو أنها أحدثت بعض الأثر ، أو لعله ميل فطرى للتريث فى إصدار الأحكام ، فقد لاحظت أن أعداد الطائرات الاسرائيلية التى تم اسقاطها كبيرة ، فما عدد الطائرات المهاجمة ياترى؟ ولماذا لم تتوقف الهجمات بعد هذه الخسارة الفادحة ؟ لاحظت عصر ذلك اليوم أن دوى المدافع قد سكت، وظهر فى السماء أزيز طائرات النقل الحربى الذى أعرفه جيدا، وكان وقعه فى أذنى يشبه النحيب لسبب لا أدريه، ومع ذلك غالبت مشاعر الانقباض التى بدأت تهاجمنى .

فى صباح اليوم التالى (السادس من يونيو) مر على الصديق العزيز عبدالقادر شهيب(٣) فى المنزل ليسألنى: ألن نفعل شيئا؟ كنت مسئولا عن منظمة الشباب بالكلية، وتأملت فى معنى مهم سيتكرر بعد ذلك فيما هو أهم: أننى أنا المسئول وهو العضو. هو الذي بادر بينما جلست أنا فى بيتى أنتظر أن يتصلوا بى اقتناعا منى بأن لكل مقام مقالا .. ولأن ما طرحه كان مقنعا فقد ذهبنا معا إلى الجهة المعنية فى المنظمة. حاولوا أن يقولوا لنا إن المرحلة لا تحتاجنا، ولم نكن وحدنا، وأفضى إلحاحنا إلى تكليفنا بمهمة لا أعرف لها وصفا محددا حتى الآن . أقمنا فى معسكرات فى المدرسة السعيدية الثانوية نخرج منها فى المساء لضمان انضباط الشوارع : ضمان إطفاء البيوت لأنوارها ومواجهة أية تحركات معادية محتملة! لم يكن معنا أى سلاح، ولم نكن مؤهلين لاستخدامه أصلا . رضينا بما قسم لنا ، وبدأنا ممارسة عملنا الجديد منذ ليل السادس من يونيو .

فى صباح يوم السابع من يونيو وقف أحد زملائنا من القياديين فى المنظمة يشرح لنا أبعاد الموقف «استنادا» إلى معلومات من غرفة العمليات: « الخسائر طفيفة . أؤكد لكم . فى الطائرات . فى الطيارين . فى المطارات» . استمعنا إلى كلماته مشتتين بين الأمل فى أن تكون معلوماته صحيحة، والقلق الذى يعترينا من شواهد لا يمكن أن يخطئ العقل فهمها .

كان الحديث عن تجمع القوات فى خط الدفاع الثانى قد بدأ ، وتغيرت نغمة الإذاعة المصرية بشكل لافت : محرم فؤاد يغنى «بلادى بلادى» ، وأم كلثوم تنشد «مصر التى فى خاطرى»، ومحمد فوزى يردد «بلدى أحببتك يابلدى» بعد أن كانت فايدة كامل تتفاخر بـ «مدافعكم الكتار» والمجموعة تتوعد اسرائيل « فى البحر حندفنكم فى البحر ... وحندحر كل قواكم دحر» وأم كلثوم تتغنى بالحلم «راجعين بقوة السلاح» . لم يكن المرء يحتاج كثير ذكاء ليصاب بالهلع من هذا التغير الجذرى فى نغمة الإعلام المصرى .

فى ليل الثامن من يونيو بدأت أرتال لا أول لها ولا آخر من سيارات النقل العسكرى تمر بنا بحذاء سور حديقة الحيوان بالجيزة فى طريقها إلى الجنوب!. لكن أشد الهلع الذى أصابنى كان مبعثه ظهور نفر من الجنود المصريين بملابسهم الرسمية فى حالة يرثى لها. لم أفهم وقتها كيف وصلوا إلى المكان . أتينا بأحدهم إلى مقر لجنة منظمة الشباب بالجيزة(٤) . أجرى المهندس صلاح عبدالله(٥) أمين اللجنة حوارا معه يستفسر فيه عما جرى . تحدث الجندى المسكين ـ الذى بدت قدماه الداميتان من حذائه الممزق بوضوح ـ عن عودته من ميدان المعركة ماشيا ، وعن الطائرات التى كانت تهاجمهم أثناء رحلة العودة بأعداد تماثل عدد النجوم فى السماء، وكيف كانوا يقاومونها ببسالة منقطعة النظير. أدركت أن ثمة أمراً غير طبيعى فيما يقول . تمتم صلاح عبدالله بأدبه المعروف : «برافو يا بطل» .

نزلنا إلى دوريتنا الليلية . أضاء أحدهم الأنوار فى منزله مخالفا التعليمات. نبهته فقال: « ما الحكاية خلاص» . كان صوته شديد الوضوح فى سكون الليل ، وكانت فيه نبرة تشفٍ. لاحظت أنه أحد ساكنى واحدة من أرقى العمارات أمام حديقة الحيوان . قلت له بأدب وحزم : «أطفئ الأنوار لو سمحت إلى أن تنتهى الأمور فعلا تحسبا لأى خطر» . استجاب على الفور ، ولعل نفسه قد حدثته بأنه قد صبر سنوات فلا ضير فى أن يواصل صبره ساعات أوربما دقائق .

بلغ القلق منتهاه ، وكنت متلهفا على الاستماع إلى نشرة أخبار الواحدة والنصف صباحا من الراديو الترانزستور الصغير الذى أحمله معى. تكفل الخبر الأول بتوضيح الأمور تماما : صدرت التعليمات لمندوبنا الدائم فى مجلس الأمن

بقبول وقف إطلاق النار . شعرت أنني أصبحت كشجرة خاوية . سألني زميل لا أعرفه يقف على مقربة مني : ما الخبر؟ لم أجرؤ على إجابته ، وكأن اخفائي للكارثة سوف يلغي وقوعها . بعد انتهاء نشرة الاخبار التي لم يطل أمدها بدأت إذاعة نشيد «دعاء الشرق» لمحمد عبدالوهاب. لا أدري عدد الذين مازالوا يذكرون هذه الواقعة حتى الآن، لكن ما أعلمه علم اليقين أن كلمات النشيد ولحنه الهادئ في بدايته صنعت نصلا أصاب القلب بجرح غائر، ومازال ذلك النصل يعاود فعله في القلب ، وتتسمر الغصة في الحلق ، وتتجمع الدموع في العينين بعد مرور مايزيد على ثلث القرن كلما سمعت كلمات ذلك النشيد ـ وبالذات مطلعه ـ دون أن أجرؤ على أن أحدث أحدا بما في داخلي .

في خلال ثوان بعد انتهاء نشرة الأخبار تجسد أمامي مشهد لم ولن ينمحي من ذاكرتي . كان تمثال نهضة مصر أمام نهاية كوبري الجامعة ـ أو بدايته ـ يكاد يكون مغطى بالكامل بمجموعة من اللافتات البيضاء المعلقة على قوائم خشبية ، وكانت شعارات المعركة التي انتهت مكتوبة على تلك اللافتات : كلمات عن دخول تل أبيب وقطع رأس الأفعى وغير ذلك من آمال ما قبل الحرب، وفي لمح البصر إذا بأعداد من الرجال لم تكن واضحة على الاطلاق في الظلام تتسلق سلالم عالية ، وتنزل تلك اللافتات من صواريها بسرعة هائلة . صنع طول اللافتات وكثرة عددها ولونها الأبيض مع ارتباك السرعة مشهدا لا يمكن أن يغيب عن العقل . وقفت مذهولا كمن يشاهد عصبة من العفاريت أو الأرواح الشريرة ، وكان الأمر برمته بالغ الدلالة ايذانا بنهاية مرحلة ، وبداية الدخول في نفق مظلم لا يعلم إلا الله وحده متى يحين أوان الخروج منه .

عدنا إلى معسكرنا في السعيدية الثانوية بعد أن انتشرت الأنباء في حالة من الانكسار العظيم . بدت علامات اضطراب واضح بين الموجودين . كان البعض ذاهلاً، والبعض الآخر ينوح وفريق ثالث يسخر، وتفجرت مشاعر الغضب في وجه مسئولي المعسكر، وهتف علي بركات(٦) بلهجته المصرية الصميمة: «إن المعركة لم تنته . بل لعلها لم تبدأ بعد» . ضج الشباب بالضحك، لكن الأيام أثبتت بعد نظر مؤرخ متميز، وإن كان للشباب عذرهم في حينه أن يسخروا مما بدا لهم غيابا للقدرة علي استيعاب ما وقع، أو محاولة لإنكاره أصلا . تفتق ذهن أحد

عباقرة المرحلة التى ولت عن فكرة يجمع الشمل بها، فأعلن أن هجوما من عناصر معادية سوف يقع على المعسكر، وعلينا أن نكون فى قمة اليقظة لدفع الهجوم فكاد الشباب يفتكون به فتراجع عن فكرته المهينة .

كان ضوء الفجر قد بدأ يتسلل إلى المكان ، لكنه كان أشد كآبة من أحلك الظلمات . انصرفنا فرادى من المعسكر ، وأثناء مرورى بسور حديقة الحيوان تطلعت فى وجوه الناس . كانت كلها تكتسى بتعبير واحد لا يمكن أن ينسى: مزيج من الذهول والانكسار والألم، ومازالت ترن فى أذنى حتى الآن كلمات قليلة قالها مصرى بسيط لزميله وهما يجلسان على سور حديقة الحيوان: «البلد حزينة ياصاحبى» .

تعودت ألا أفهم حوالى نصف أفلام المخرج الكبير يوسف شاهين من المشاهدة الأولى، لكن بضعة مشاهد من فيلمه «العصفور» كانت كفيلة بأن أسلم بعبقريته، فقد رأيت التعبير الذى أشرت إليه حالا على وجوه المصريين بشفافية لا يمكن أن تخطئها العين ، أو يجهلها العقل أو القلب فى المشهد الصامت للمساكن الشعبية المصرية الذى تضمنه الفيلم قبل إلقاء عبدالناصر خطاب التنحى الشهير . عدت إلى منزلى لأجد التعبير نفسه على وجوه أبى وأمى وشقيقى الأكبر ، ولا أدرى كيف مرت الساعات حتى حان موعد خطاب عبدالناصر .

الصمود

قبل الخطاب بقليل دق باب المنزل، وكان الطارق هو أحد الأصدقاء الأعزاء(٧) . التعبير نفسه يكسو وجهه، ولا كلام يدور . استمعنا معا للخطاب، وعندما وصل عبدالناصر إلى حديثه عن التنحى فوجئت بالصديق العزيز يجهش ببكاء حار جسده الراحل «على الشريف» لاحقاً بعبقرية لافتة فى فيلم العصفور .

غادرنا المنزل على عجل. كان الناس فى الطريق فى حالة اضطراب بين . وعندما وصلنا إلى تقاطع شارعى «روض الفرج» و«أبو الفرج» شاهدت الشرارة الأولى للحدث العظيم الذى وقع فى تلك الليلة واليوم التالى لها : مواطن مصرى بسيط فى العشرينات من عمره يخرج من مقهى بلدى صغير وهو يهتف «ناصر» ، متجها إلى طريق يمكن أن يفضى إلى مبنى الاذاعة والتليفزيون . أقول هذا الآن ولم أكن أدركه فى حينه إلا بعد أن تجمعت الخيوط . اقتضت المعالجة الدرامية - أو لعله الموقف الفكرى - فى فيلم «العصفور»

أن تقول جماهير ٩ و١٠ يونيو «حنحارب»، لكن الحقيقة انها كانت تقول كلمة واحدة: «ناصر». كنت قد قررت أن أذهب إلى مقر لجنة منظمة الشباب بمحافظة الجيزة، ولكى يتم هذا بسرعة قررت أن أستقل سيارة «تاكسى». بدا الموقف طريفا فيما بعد : الجماهير المصرية تهدر فى الشوارع فى اتجاه واحد، وأنا داخل سيارة «تاكسى» . غير أن هذا التصرف أتاح لى أن أشاهد ميلاد ٩ و١٠يونيو منذ لحظته الأولى، وفى قطاع مكانى عريض نسبياً . كان الطريق إلى مقر اللجنة يمر من النقطة التى بدأت بها فى شارع «أبو الفرج» إلى سوق الخضار القديم ثم يمينا إلى كورنيش النيل مرورا بمبنى الاذاعة والتليفزيون حتى كوبرى قصر النيل، فكوبرى الجلاء ثم يسارا حتى نصل إلى مقر اللجنة عند نهاية سور حديقة الحيوان قرب ميدان الجيزة، وطول هذا الطريق الذى استغرق قطعه حوالى ساعة إلا ربع الساعة شهدت ميلاد ٩، ١٠ يونيو: جماهير البسطاء تعدو فى اتجاه مبنى الاذاعة والتليفزيون ظناً منها أن عبدالناصر قد ألقى خطابه من داخله، وهى وجهة تغيرت - كما عرفت بعد ذلك - إلى منزله بعد أن اكتشفت الجماهير حقيقة الأمر . وعندما وصلنا إلى مبنى الاذاعة والتليفزيون بعد دقائق من بدء رحلتنا كانت الحشود قد بدأت تتضخم على نحو واضح ، وعند عبورنا كوبرى الجلاء كان بعض جنود الشرطة الذين لا حول لهم ولا قوة يحاولون عبثا، باستخدام الهراوات ، أن يمنعوا المواطنين من عبور الكوبرى باتجاه وسط المدينة .

وصلت إلى مقر اللجنة لأجد المهندس صلاح عبدالله أمين اللجنة موجودا هناك. كان رابط الجأش يحاول أن يفسر ماوقع، وكلما طرح سببا ناقشته فيه منتهيا إلى تفنيده مستخدما قدرتى المتواضعة فى التحليل السياسى كطالب بالسنة الثانية بقسم للعلوم السياسية، وكان الرجل يوافقنى فى معظم ما أقول. لم يكن ثمة مفر من أن نعترف بأن خللا داخليا خطيرا قد سمح لكل ما وقع بأن يقع على الرغم من اعترافنا بضراوة المؤامرة الخارجية . لكن الجميع لم يكن فى رباطة جأش صلاح عبدالله . كان زميلنا «مصطفى» الذى نسيت اسمه الثانى يجهش بالبكاء تماما كصديقى إياه ، وقد هاجر مصطفى لاحقا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد مدة بالغة القصر من انكسار الحلم .



حل الظلام وبدأنا نسمع أصوات طلقات مدفعية مضادة للطائرات ، وعلمنا بعد ذلك أنها ربما أطلقت لإثناء الجماهير عن سلوكها ، غير أن المذهل أننا بدأنا نشاهد تباعا من النوافذ عشرات الألوف من البشر تتوافد من الأماكن الأقرب فالأبعد ، فأهل البدرشين وصلوا قبل أهل بنى سويف وبعدهم أهل المنيا ، وهكذا . كنا نعرف المكان الذى أتوا منه من الحافلات العامة التي كانت تئن بأعداد متناهية فى الصغر منهم إذا قورنت بمجموع من يسير على قدميه ، فهذه طريقها بنى سويف ـ القاهرة ، وهذه المنيا ـ القاهرة ... الخ .

بدا المشهد بدوره بالغ الدلالة ، فلجنة المنظمة التي يفترض أنها طليعة من طلائع النظام تقود حركة الشارع وقت الضرورة تقبع حبيسة داخل مقرها ، والجماهير المصرية تؤدى دورها التاريخى فى الشارع غير عابئة بأصوات طلقات المدفعية . سكتت الطلقات بعد قليل لكن هدير الجماهير كان متصاعدا ،ومرة أخرى سلمت بعبقرية يوسف شاهين فى ذلك المشهد من فيلم «العصفور» الذى يتساءل فيه رجل النظام (نظيم شعراوى) بما معناه: أهؤلاء رجالنا؟ وعندما يجاب عليه بالنفى يقول : «أمال مين دول؟» . تمضى الأعوام على تلك الأحداث، ويسمع المرء تفسيرات مضحكة ويقرؤها لما حدث يومى ٩ ، ١٠ يونيو ولو أن الدنيا انقلبت رأسا على عقب فإن أحدا لن يقنعنى أن ما حدث فى هذين اليومين كان تمثيلية ، ولن يهتز يقينى بحقيقة ما وقع مثقال ذرة.

كنا نتابع التليفزيون داخل مقر اللجنة. لاحظنا أن أول برقية ترفض قرار التنحى كانت من أمين الشباب بالاتحاد الاشتراكى والمسئول الأول عن منظمة الشباب فى ذلك الوقت (د . حسين كامل بهاء الدين) ، وهتف المهندس صلاح عبدالله: «هكذا يجب أن يكون التصرف» . تلت ذلك برقية من زكريا محيى الدين الذى رشحه عبدالناصر لخلافته يرفض فيها ولاية الحكم ، ولا يقبل بغير عبدالناصر قائداً، وانغمست الراحلة همت مصطفى وغيرها فى مناشدات باكية للرئيس عبدالناصر كى يبقى، وأدركت أن القصة لم تتم فصولها بعد .

بقينا ليلتنا فى المكان ، وفى الصباح التقينا بأحد المسئولين فى المنظمة فى جامعة القاهرة ، وكان مصرا على أن الهزيمة ترجع لخيانة الاتحاد السوفييتى لنا، ونكثه وعوده بالتدخل فى الحرب لصالحنا. فترت همتى للمجادلة ، فقد كان الموقف أكبر من أى حديث فى جزئيات .

بدأ أهل النظام يرتبون لمسيرات منظمة توجهت لمجلس الأمة (مجلس الشعب حاليا) . كانت نذر الفوضى تدفع إلى قلق عظيم . شائعات من كل نوع ولون . حديث عن سيارات ملاكى بها جواسيس اسرائيليون ينبغى تعقبها والفتك بمن فيها .

طال انتظارنا قليلا . كنا نتوقع حضور عبدالناصر إلى مقر المجلس، لكن الأنباء تسربت بأنه أرسل إليه رسالة يعلن فيها استجابته لإرادة الجماهير وتراجعه عن قراره . سرت فرحة استخدمت كثيرا فيما بعد للإساءة إلى الرجل وإلى المرحلة التى مثلها ، خاصة وقد «رقص» بعض أعضاء مجلس الأمة كما قيل بعد قرار عبدالناصر بالعدول عن التنحى . لا شك أن لكل نظام رجاله ومنافقيه ، وعادة فإن هؤلاء المنافقين هم أسوأ ما فى أى نظام ، وقد شاءت المصادفة المذهلة أن أشاهد ثلاثة ممن نسبت لهم واقعة «الرقص» فى مطار امستردام الدولى ليلة تشييع جنازة عبدالناصر . كنت أبحث عن طائرة تنقلنى إلى القاهرة بأى ثمن ، وكانت جدران المطار تردد صدى ضحكاتهم المجلجلة، وشاءت المصادفة المذهلة مرة ثانية أن نجلس متجاورين على متن الطائرة الهولندية نفسها المتجهة إلى القاهرة ، ولم يتوقف ضحكهم ، فلم ترسم علامات العبوس على وجوههم - كأى ندابات محترفات - إلا عندما أعلن قائد الطائرة عن هبوطها فى مطار القاهرة الدولى . ألا لعن الله النفاق والمنافقين !

غير أن الفرحة بغض النظر عن عدم التوفيق فى التعبير عنها كان لها معنى آخر . لا أستطيع بطبيعة الحال أن أتحدث عما جرى فى مجلس الأمة ، لكن الجماهير التى كنت بينها كانت ترى فى القرار بداية تبعث على الأمل ، وقد كان. وبدأت قرارات إعادة البناء العسكرى تتوالى، ومظاهر تحسن الأداء العسكرى تتعاظم ، وعشنا بعدها أياما مجيدة إلى جوار الخطر وفى كنفه ، لكن الوطن كان فوق كل اعتبار ، وسقط من سقط من الشهداء ودمرت المدن لكى يعود للوطن وللأمة شرف أهين بغير حق .

●●●

لماذا ألحت على ذكريات يونيو ١٩٦٧ فى هذا العام تحديدا وقد قاومت طويلا أن أعود إليها لأسجلها ؟!.. لعلى أردت، وجماهير فلسطين ومن خلفها الأمة العربية بأسرها تعيش أياما شبيهة بتلك الأيام ، أن أذكر بما لم يكن يخطر على عقل بشر

إبان الأيام الأولى للهزيمة ، فقد قاتل أبطال القوات المسلحة المصرية فى رأس العش فى يونيو ١٩٦٧ (نعم : يونيو ١٩٦٧) وانتصروا بعد أيام قليلة من الهزيمة الساحقة ، ودك نسورها المواقع الاسرائيلية فى سيناء فى يوليو ١٩٦٧، وأغرق رجال بحريتها المدمرة ايلات - أكبر قطعة فى الأسطول الحربى الاسرائيلى - فى أكتوبر ١٩٦٧، وقام رجال صاعقتها البحرية فى ميناء إيلات فى ١٩٦٩ بعمليات لا مثيل لجسارتها ، وتصاعدت حرب الاستنزاف على نحو يشرف كل مصرى وعربى لتصل عودة الروح إلى ذروتها بحرب أكتوبر ١٩٧٣ بعد أكثر قليلا من ست سنوات على الهزيمة. أتراني أوضحت الرسالة ؟

(١) على سبيل المثال لا الحصر: أحمد شرف، براءة سياسية، القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠. د . يحيى الجمل، قصة حياة عادية، سلسلة كتاب الهلال، ع٥٩٥، يوليو ٢٠٠٠. جميل مطر ، أول حكاية، حكايتى مع الدبلوماسية، سلسلة كتاب الهلال، ابريل ٢٠٠٢ .

(٢) حديث إلى ممثلى أجهزة الاعلام العالمية والعربية فى المؤتمر الصحفى الذى عقد بالقاهرة، ٢٨ مايو ١٩٦٧، فى وثائق عبدالناصر . خطب - أحاديث - تصريحات (يناير ١٩٦٧ - ديسمبر ١٩٦٨)، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، ١٩٧٣، ص ١٩٣ .

(٣) الصحفى اللامع، والقلم المصرى العربى المتميز فى دار الهلال حاليا .

(٤) فى فيلا تواجه نهاية سور حديقة الحيوان بالقرب من ميدان الجيزة توجد مكانها الآن عمارة ضخمة .

(٥) انقطعت صلتى به للأسف بعد ذلك .

(٦) العميد السابق لكلية الآداب بجامعة المنصورة، وأستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة حلوان حاليا .

(٧) مسيحى مصرى يشغل حاليا منصبا مرموقا فى قطاع الأعمال الخاص. لم أذكر اسمه لأننى لم استأذنه، ولمعرفتى بأن الرجال قد لا يحبون الإشارة إلى واقعة تتضمن بكاءهم، حتى ولو كان هذا البكاء شهادة على وطنية حقة ، وانتماء راسخ وحس مرهف، وقد أشرت إلى ديانته اعتزازا بالنسيج المصرى الفريد الذى نعمت به ومازلت خاصة وقد كانت نشأتى الأولى فى تلك البقعة الحبيبة المسماة شبرا . ■

مزيد من الاستئساد الأمريكى

بقلم
د. مصطفى سويف

فى حسابات الحركة السياسية الدولية كانت أواسط الثمانينات من القرن الماضى مرحلة تاريخية شديدة التميز اذا قورنت بالسنوات المبكرة من العقد، ذلك أن ما اتسمت به هذه السنوات الوسيطة كان التبلور الواضح لتيارات منبئة بأن عجلة التاريخ فى طريقها الى منعطفات تنطوى على تغيرات كيفية هائلة، لا مجرد تراكمات كمية عابرة. أما أمور الحركة السياسية فى مصر فى تلك الفترة نفسها فلم أقرأ فيها تيارات تتبلور لتتخذ توجها بعينه (سواء الى الأفضل أو إلى الأسوأ)، بقدر ما لمحت فيها خصائص التموجات الدائرية تظهر على سطح بحيرة راكدة، إثر سقوط حجر فيها بين الحين والحين. وعلى هذه الخلفية المصرية، ومن ورائها الخلفية العالمية جرت أحداث حياتى الشخصية، أحاول ما استطعت ان اقدم شيئا ايجابيا، ولسان حالى يردد الآية الكريمة: «فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر».



توالت على امتداد اواسط الثمانينات أحداث عالمية قرأت بعضها باعتبارها تعنى أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تعد تجد حرجا فى الإفصاح التدريجى عن سياسة تنم فى وجهها التصورى (الأيديولوجى) عما تكنه نحو الدول العربية والاسلامية من طمع يشف عن الاستخفاف، وتسفر فى بنودها العملية عن إهمال قوامه الهوان. وقرأت بعضها الآخر باعتباره يشير الى أن الولايات المتحدة إذ تفعل ذلك إنما تكشف عن توجه أصيل لديها كنظام سياسى يزداد جنوحا إلى اليمين السياسي والاقتصادى فى أسوأ صورهما: فقد كانت فى هذه الحقبة نفسها تساند نظام الحكم العنصرى السائد (حينئذ) فى جنوب أفريقيا، وكانت كذلك ترعى ماديا ومعنويا نظم الحكم اليمينية فى أمريكا الوسطى، وفى أمريكا الجنوبية، وفى جنوب شرقى آسيا.

أما كيف كان ذلك فقد جرت فاتحة الأحداث السياسية الدولية ذات الدلالة فى فبراير سنة ١٩٨٤، فى ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة مطمئنة الى تورط الاتحاد السوفييتى فى الحرب ضد الأفغان، والى انغماس البلاد العربية والاسلامية فى مؤازرة الأفغان ضد السوفييت بدعوى مناهضة الإلحاد السوفييتى . وأتاح لها (أى للولايات المتحدة) ترتيب الأمور على هذا النحو أن توجه القدر الأكبر من اهتمامها المباشر الى ما يحدث بين اسرائيل، والفلسطينيين ، واللبنانيين. كانت اسرائيل فى ذلك الوقت قد أمضت ما يقرب من السنتين مستقرة فى احتلالها الجنوب اللبنانى، وكان لبنان ممزقا فى حربه الأهلية التى تعدد الفرقاء فيها، وقد وصلت الى لبنان قوة متعددة الجنسيات بدعوى الفصل بين المتحاربين، شارك فيها الأمريكيون والانجليز والفرنسيون والايطاليون، وبعد سلسلة من الاعتداءات (الوطنية اللبنانية) على أفراد القوة الأجنبية انسحب الجنود الأمريكيون (فى منتصف فبراير سنة ١٩٨٤) ليبقوا فوق بوارج الأسطول الأمريكى قبالة الساحل اللبنانى. وانسحب كذلك بقية أفراد القوة الأجنبية. واستمر الموقف فى لبنان على سيولته وغليانه فى الداخل، واستمر كذلك رهن الاحتلال الاسرائيلى والتربص الأجنبى (والأمريكى بوجه

خاص) على مقربة من الشاطىء.

وبقية العالم الثالث في المنظور الأمريكي

ومع أن أحداث لبنان استحوذت على معظم انتباهي في تلك الفترة فقد كنت على وعى بأحداث عنف لا تقل عنها ضراوة ولا توريطا للأصابع الأجنبية (والأمريكية خاصة) تجرى فى معظم أنحاء العالم الثالث، وخاصة ما يجرى من هذه الأحداث بين إيران والعراق، هناك كانت الحرب تجرى بصورة بالغة التدمير وبالغة العبثية كذلك، ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن الولايات المتحدة كانت فى ذلك الوقت تبيع السلاح للطرفين المتحاربين فى آن واحد. وفى أمريكا الوسطى جرت أحداث الحرب الأهلية فى شيلى، وفى الأرجنتين، والبرازيل. وكذلك فى جنوب افريقيا.

كنت أرصد هذه الأحداث جميعا، وأحاول أن أجمع بينها فى مجال واحد للرؤية حتى تسنى لى أن أحسن فهمها واستخلاص دلالتها متكاملة فيما بينها. وكان المعنى الاجمالى الذى يرتسم فى ذهنى لذلك المشهد أن القوى الوطنية (حيثما كانت) انما تتعرض لهجوم كاسح من جانب من نصبوا أنفسهم ورثة للتسلط والاستعمار القديم، وكان كل من منهما قد سبق أن ازيح عن كثير من قواعده من خلال حركات التحرر الوطنى التى اجتاحت العالم بنجاح على امتداد الخمسينيات وأواخر الستينيات. وهاهم الورثة يعيدون الآن تنظيم صفوفهم تحت قيادة أمريكية ويتقدمون فى هجوم مضاد لاستعادة مايستطيعون استعادته من امتيازات اسلافهم (فى منطقة الشرق الأوسط العربى، وفى أجزاء من القارة الأفريقية) . وهم، بالاضافة الى ذلك يعيدون النظر فى تقوية دروعهم حيثما كان لهذه الدروع وجود (كالبيض فى جنوب افريقيا ، ونخبة من الحكام فى جنوب شرق آسيا واسرائيل). وكان واضحا أن الأمريكيين يضبطون ايقاع حركتهم نحو هذه الأهداف طبقا لحسابات يستخلصونها أساسا من أحوال الحرب الباردة الدائرة بينهم من ناحية، والسوفييت من ناحية

ثانية، والقوى الوطنية التى كانت تتخذ من الوجود السوفييتى جدارا يحمى ظهرها، من ناحية ثالثة .

الأفول المتسارع للنجم السوفيتي

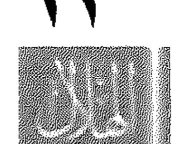
وكانت أحوال السوفييت تمضى فى ذلك من سيىء الى أسوأ، فى داخل بلادهم وخارجها، فقد أثبتت الحرب الأفغانية أنها شرك شديد الاستنزاف لطاقاتهم، هذا فى الخارج، اما فى الداخل فقد توفى برجنيف رئيس الدولة ورئيس الحزب (فى نوفمبر سنة ١٩٨٢). وتولى رئاسة الدولة بعده أندروبوف، ولم تكن أحواله الصحية على ما يرام، وما لبث أن توفى هو الآخر (فبراير ١٩٨٤). وخلفه فى الرئاسة تشيرننكو، ثم ما لبث هو الآخر أن توفى (مارس ١٩٨٥)، وتولى قيادة الدولة بعده جورباتشوف. وغنى عن البيان أن هذه الوفيات المتوالية لم يكن الحدث الواحد منها يمر دون أن تصحبه صراعات فى المستويات العليا للسلطة، ودون أن تعقب كل صراع توابع بالغة الخطر فى آثارها المباشرة وغير المباشرة على أعمدة النظام، ومجمل سياساته. وما كاد نظام جورباتشوف يستقر حتى فاجأته محنة أضافت الى الهزات السابقة ما جعل الأمر يبدو فى جملته زلزالا عنيفا يضرب الاتحاد فى الصميم، فقد وقع انفجار فى واحد من أكبر المفاعلات الذرية فى الاتحاد (مفاعل تشيرنوبل فى كييف عاصمة اوكرانيا، حدث ذلك فى منتصف مايو سنة ١٩٨٦)، وقد أحاطت بهذا الحادث ملابسات جعلت منه واحدا من أوضح معالم التدهور فى أحوال الدولة، وبعد أقل من ثمانية شهور كانت جيوش السوفييت تبدأ انسحابها من أفغانستان، وتعلن بهذا الانسحاب أن القطب السوفييتى تتنامى لديه أعراض الضعف والهزال بمعدلات متسارعة، ولكى تبدو للقارئ الدلالة التاريخية لهذا المشهد كما عايشناه فى ذلك الوقت يلزمه أن يقارن بين أحداثه وما كان يجرى مناظرا لهذه الأحداث او لبعضها فى الولايات المتحدة فى الفترة التاريخية نفسها: فقد أعيد انتخاب الرئيس ريجان (نوفمبر ١٩٨٤) لفترة رئاسية ثانية (تمتد لأربع سنوات) . وجاء فوزه بالأغلبية المطلقة فى ٤٩ من الخمسين ولاية التى يتألف منها الاتحاد، وهو ماسمى حينئذ بالأغلبية المريحة. ولذلك

لم يكن عجبا ان بدأنا نلمح مظاهر الاستئساد فى ممارسات السياسة الدولية للولايات المتحدة الأمريكية . كمحصلة أخيرة لعوامل هذه المشهد فى جملته.

عينة من مظاهر الاستئساد الأمريكي المتنامي

كان حادث السفينة الايطالية «اكيلى لاورو» فى اوائل أكتوبر ١٩٨٥ من الحوادث المبكرة التى انتهزتها الولايات المتحدة لكى تبدأ عندها تغيير تكتيكاتها فى ادارة الحرب الباردة نحو اقدار متزايدة من الاستئساد ، كانت هذه سفينة سياحية تجوب عددا من موانئ البحر الأبيض المتوسط، وكانت قد بدأت رحلتها من الاسكندرية . وبعد ابحارها بقليل استولى عليها مجموعة من الفدائيين الفلسطينيين، وأعلنوا أن مطلبهم الرئيسى هو الافراج عن عدد من مواطنيهم الفلسطينيين المعتقلين فى المعتقلات الاسرائيلية، وقد هددوا بإغراق السفينة اذا لم تجب مطالبهم. وتصدى لهم فى هذه الأثناء مواطن أمريكى مسن فقتلوه وتدخلت امريكا فى الموضوع بدرجة من الغضب المعلن غير مسبوقة . وبعد سلسلة من المناوشات جرت على ظهر السفينة لجأ الشبان الفدائيون الى مصر وقررت مصر أن تقوم بترحيلهم على متن طائرة مصرية الى المغرب، فما كان من أمريكا إلا أن تربصت بهم وبالطائرة المصرية، وأرسلت عدة طائرات حربية لاعتراضها، وأرغمت الطائرة المصرية على الهبوط فى صقلية حيث قبض الأمريكيون على الفدائيين وسلموهم الى السلطات الايطالية.

وبعد حادث السفينة اكيلى لاورو بما يقرب من ستة شهور وقع حادث آخر كانت له الدلالة نفسها ولكن بلسان أفصح وبيد أقوى. فقد أعلنت الولايات المتحدة فى مارس سنة ١٩٨٦ أنها تعد العدة لإجراء مناورات فى البحر الأبيض المتوسط، وفى منطقة خليج سرت بوجه خاص، وأعلنت الجماهيرية الليبية أن خليج سرت يعتبر ضمن المياه الاقليمية الليبية، وان اجراء المناورات الامريكية فى مياهه يعتبر استفزازا مبرمجا ضد الحكومة الليبية. ولم تأبه أمريكا لهذا



الإعلان، وكان الرد هو الإصرار على اجراء المناورات. وماهو اكثر من ذلك أن الأسطول السادس الأمريكي قام بضرب الشواطيء الليبية، ثم ماهو أكثر وأكثر أن الطائرات الأمريكية قامت بعد أقل من شهر بضرب عدد من المدن الليبية.

هذان الحادثان الخاصان بالسفينة اكيلي لاورو، وبخليج سرت يوضحان بجلاء ما تطورت اليه التكتيكات الأمريكية من أسلوب واكب في الكشف عن حقيقة تزايد الضعف والهزال في أحوال الدولة السوفيتية. كنت اقرأ ذلك بوضوح في تلك الفترة. وكنت اختبر صحة هذه القراءة بعقد المقارنات بين هذين المثالين وأمثلة اخرى مناظرة سبق وأن وقعت على الساحة الدولية كان تصرف الأمريكيين فيها اشد تحفظا، فتذكرت في هذا الصدد كيف تصرفت أمريكا ازاء اعلان مصر تأميم شركة قناة السويس في سنة ١٩٥٦، وتذكرت اطاحة القذافي بعرش السنوسي سنة ١٩٦٩، وتذكرت ايضا هجوم الفدائيين الفلسطينيين على الرياضيين الاسرائيليين في اولمبياد ميونيخ سنة ١٩٧٢. في هذه الأمثلة الثلاثة (وغيرها) كان رد الفعل الأمريكي أقرب الى التحفظ، بل والاعتدال، واذن فقد كان البعد عن الاستئساد في هذه الأمثلة الثلاثة أمرا محسوبا لأن الظروف العالمية لم تكن مواتية، لا لأن طبيعة النظام الأمريكي وفلسفته تقتضيان ذلك. اما وقد تغيرت الظروف العالمية بوهن القطب السوفييتي وتهافته فقد آن الأوان لكي يستأسد الأمريكيون وينصبوا انفسهم سادة على الجميع.

ثم ماذا عن مصر؟

وسط هذه الأحداث العالمية كنت أعايش الأفق المصري، في ذاكرتي الوطنية عن فترة الثمانينات المتوسطة حدثان يقومان كمعلمين بارزين، اولهما هبة جنود الأمن المركزي مساء ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٦. والحدث الثاني عودة ظهور مخدر الهيروين بين المضبوطات المعلن عنها في تقرير الادارة العامة لمكافحة المخدرات لسنة ١٩٨٥.

وأبدا بالحديث عن الحدث المعلم الأول، هبة جنود الأمن المركزي. فقد علمت اول ما علمت بها من نشرة الأخبار الصباحية في اذاعة لندن (صبيحة ٢٦ فبراير). ثم لم تلبث الاذاعة المصرية أن اذاعت النبأ. وقيل أن السبب الرئيسي لاندلاع هذه الهبة كان سريان شائعة بين الجنود مؤداها

ان الدولة فى طريقهــا الى زيادة مـدة تجنيـدهم بما مــقــداره سنة كــاملة، وعلمت وعلم الجميع ان احداث الهبة وما صاحبها من عدوان فى ســاعــاتهــا الاولى كانت بالغة السوء، حتى لقـد أعلنت الحكومـة حظر التـجـول بدءا من ظهـر يوم ٢٦ فـبراير، واسـتقال وزير الداخلية، وعــين وزير اخــر بدلا منه (هو اللواء زكـى بدر) . وعطلت الدراســـة فى الجامعات والمعاهد والمدارس جـميعـا، واستمر حظر التجول سارى المفعول (مع التـخـفيف التـدريجى من وطأته) حـتى صباح يوم ٨ مارس.

اما الحدث الثانى فكان يدور حـول عودة مـخدر الهيروين الى الظهـور فى الأسـواق غير المشروعة للمخدرات فى مصر، بعد أن كان قد اختفى من قوائم المضـبوطات. لدينا عقب انتهـاء الحـرب العالمية الثانية . وبدأ عدد من الكتاب ينبهـون إلى هذا الخطر ، وسرعان ما ارتفعت الأصـوات تتزاحم فـيما بينها بالكلام المعقول وغير المعقول .

ودخلنا فى دوامـــة من المزايدات والمزايدات المضـادة على صـفـحـات الجرائد والمجلات وعلى موجات الاذاعات المرئية والمسموعة ، وفى جلسات مجلس الشعب . واستمر الحال على هذا المنوال حتى أواخر الثمـانينات ، عندما صدر القـــانون رقم ١٢٢ لسنة ١٩٨٩، باستجداث تعديلات كبيرة فى بعض مواد قانون المخدرات الذى كان سارى المفعول من قبل (رقم ١٨٢ لسنة ١٩٦٠) . وعندئذ هدأ ضجيج الأصوات وصخبها

هذان هما الحدثان المعلمان اللذان وسما الفترة الزمنية التى نتحدث عنها . ويبدو كل منهـمـا أمـامى الآن مجرد اهتـزازات دائرية متنامية الاتسـاع ، وربما صحب كلا منهمـا بعض الرذاذ على سطح البحيرة المصرية الراكدة . وفى حدود رؤيتى فإن كلا منهما يصلح لأن يعـالج باسـتـفـاضـة تحت عنوان «دراســـة حــالة»، فى إطار العلوم الاجتماعية / السياسية/ النفسية . لكن هذه قصة أخرى تحتاج إلى سياق آخر.

خلفية الحدثين المعلمين

ونـأتى الآن إلى خلفـيــة الحـدثين



العلمين فى ذاكرتى الوطنية .

تزدحم هذه الذاكرة بمفردات حدثية تنتظم فيما بينها حول محاور ثلاثة ، أولها: محور تلاقي حول مجموعة أحداث يجمع بينها كونها اتجهت إلى معنى محاولات «التغيير إلى الأفضل»، وثانيها: يؤلف بينها ما تشير إليه من تحديد لـ«مستويات الأداء»، وثالث المحاور: يجمع بين أحداث تتعلق «بشئون المال العام». ثلاثة محاور تستوعب فيما بينها على وجه التقريب مجموع الأحداث التى تزدحم بها الذاكرة الوطنية عن فترة أواسط الثمانينيات .

فأما المحور الأول فتلتئم حوله أحداث أذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر أحداثا تدور حول شعار «إعادة بناءالإنسان المصرى» (أواخر ١٩٨٤) ، وأخرى تدعو إلى التطبيق الفورى للشريعة الإسلامية (يولية ١٩٨٢) ، ومجموعة ثالثة تدعو إلى رفع كفاءة التعامل مع مشكلة المخدرات فى أوجهها المختلفة (على امتداد العامين ٨٦ و٨٧) ، وقبل هذه وتلك مجموعة من المحاولات تتجه إلى التعديل الشامل لقانون الجامعات (القانون ٤٩ لسنة ١٩٧٢).. إلخ .

هذه الأحداث (مصحوبة بأقوال لا حصر لها) عايشتها وقد بدأت جميعا (وعشرات أخرى من طرازها) باعتبارها مشروعات تسعى نحو التحقق ، ولكن شيئا منها لم يتحقق . أما لماذا لم تتحقق؟ فهذا سؤال تقتضى الاجابة عنه الاسترسال فى نوع من القص يمكن أن تمتلئ به مجلدات من القطع الكبير . ومع ضخامة هذا المطلب فلا يجوز اعتباره ضربا من المحال، لا سيما إذا اتجه أولو العزم إلى انتقاء مثال أو مثالين وتقديم قصة كل منهما بالدراسة الموضوعية المناسبة .

وأما عن المحور الثانى فتندرج تحته أنواع الأداء فى مجالات حياتنا المتعددة . فى تلك الفترة من تاريخنا القريب كانت مؤشرات مستوى الأداء بالغة السوء شديدة الإرهاق للنفوس، كانت أعطال التليفونات لا آخر لها ، أم نسينا !؟ وكان سقوط العمارات السكنية مسلسلا لا يسر الخاطر، وكانت الأخطاء المطبعية فى الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية . لا أول لها ولا آخر، وكانت الاستثناءات عن التقييد بقيود المجاميع المطلوبة عن الالتحاق بالجامعات قد بلغت حدا شديد الاستفزاز للشعور العام ، وكانت ..

وكانت ... الخ . ثم نأتى إلى المحور الثالث، محور الأحداث التى تدور حول «شئون المال العام» . وفى هذا الصدد كانت هناك أحداث الاستباحة المشروعة ، وأحداث الاستباحة غير المشروعة . وأضرب مثلا للنوع الأول ماكتبه المرحوم الأستاذ أحمد بهاء الدين فى عاموده اليومى فى الأهرام (فى ٢٦ يونيه ١٩٨٤): قال رحمه الله إن المسلسلات الرمضانية التى يقدمها التليفزيون يتكلف الواحد منها أكثر من ستمائة ألف جنيه ، وقال إن بعضها تصل تكلفته إلى أكثر من مليون جنيه . وثمة أمثلة أخرى كثيرة على هذه الاستباحة المشروعة! أما عن الاستباحة غير المشروعة فالمثال الذى أقدمه من أحداث الفترة نفسها صدور حكم محكمة القيم (فى ٣٠ مارس ١٩٨٥) فى قضية تجار العملة: فقد اتهم رئيس المحكمة فى مؤتمر صحفى عقده عقب صدور الحكم ، اتهم وزير الاقتصاد باستغلال النفوذ . وبعد ساعات من نشر هذه الأنباء فى جريدة الأهرام أذاع الراديو أن رئيس الجمهورية قبل استقالة وزير الاقتصاد . كما أذاع كذلك أنه قبل استقالة محافظ البنك المركزى . وفى هذا الإطار (وفيه أحداث أخرى مماثلة) وجدتنى اتساءل: أيمكن أن نكون قد دخلنا عصر الجريمة المنظمة فى شئون المال العام ؟!

من الذاكرة الوطنية إلى الذاكرة الشخصية:

يبرز على صفحة الذاكرة الشخصية عندى عن هذه الفترة التاريخية نفسها حدثان/ معلمان ، أحدهما هو نقل السلطة (فى القسم الجامعى الذى كنت أرأسه) إلى تلاميذ الأمس وزملاء اليوم . وكان الحدث الآخر هو عودتى إلى تغليب الكتابة العربية فيما أكتب بعد أن كنت قد اتجهت بمعظم مؤلفاتى البحثية إلى الانجليزية أخاطب بها أرباب التخصص حيثما كانوا فى العالم على اتساعه .

أما الحدث الأول : فقد واكب بلوغى سن المعاش فى خلال العام الجامعى ٨٥/٨٤، ولا أزال أذكر أن هذا الحدث اتخذ شكلا بالغ الرقى . سواء فيما اقتضاه من إجراءات بينى من ناحية وخليفتى فى رئاسة القسم من ناحية أخرى ، أو فيما أقدمت عليه كليتى وجامعتى من صنوف المجاملة التى فاقت توقعاتى من ناحية أخرى، ورأيت فى ذلك



برهانا يضاف إلى غيره من البراهين كنت وما زلت حريصا على تجميعها مؤداه أن من يزرع الخير يحصد الخير والجمال معا.

وأما عن الحدث الثاني : فقد اقتضاه ما شهدته من حاجة شديدة في المجتمع (في تلك الفترة)، إلى أن تقال كلمة العلم الوطني القائم على البحث الجماعي الرصين في شأن المخدرات والتعاطي والإدمان، فرأيت أن أستجيب لهذه الحاجة، وأن أعطي هذه الاستجابة قدرا من الأولوية أو الأفضلية على التأليف إلى مخاطبة الأسرة العالمية للعلماء .

هذان هما الحدثان المعلمان في حياتي الشخصية في تلك الفترة ، وكلاهما يكشف عما هو قائم في نفسي من معابر ممهدة كل التمهيد بحيث تيسر الحركة جيئة وذهابا بين ما تسميه البحوث النفسية الحديثة (في طبيعة الذات) بالأنا الإنسانية العامة ، والأنا الوطنية ، والأنا الشخصية . أما سائر الأحداث التي تملأ صفحة الذاكرة الشخصية فقد توزعت بين فئات ثلاث : أولاها يتعلق بنشاطاتي العلمية المتآزرة بين الانتاج والتلقي ، وكنت أعيشها تحت وطأة توترات لا ترحم، أريد أن أحافظ على إتقان الخاص ولا أتنازل عن الإلمام بالعام ، وأريد أن أعمق الجذور ولا أتنازل عن رؤية العلاقات وكانت الفئة الثانية فئة الأعمال الادارية / الأكاديمية من قبيل عضوية اللجان في الجامعة وخارج الجامعة ، ولم أكن سعيدا بها ، ولكن كنت أؤديها بشعور الواجب الذي لابد منه وإلا لفسدت الأرض . ثم كانت الفئة الثالثة فئة الأسفار للمشاركة في المؤتمرات العلمية ما كان منها متاحا وملائما .

... و ....

هكذا بدأ مشهد العالم في أواسط الثمانينيات أمامي ، على الصعيد الدولي تراجع للقطب السوفييتي نحو تناقص للقوة ولإشعاع القوة ، يوازن تقدم للقطب الأمريكي نحو مزيد من الاستئساد وصلف القوة . وعلى الصعيد الوطني ما يشبه انفراط روح الجماعة ومن ورائه ما يشبه غضب البراكين لا ينقصه الا تنظيم الإرادة وتبصرها ، وعلى المستوى الشخصي تأكيد لقيمة العمل الإيجابي في مواجهة القريب المعلوم والبعيد المجهول .

■



العيش
على حافة النظام العالمى الجديد

بقلم
د. رشدى سعيد

يشهد العالم اليوم ميلاد نظام جديد لم يحدث أن كان له نظير في سابق التاريخ الإنسانى، برزت فيه الولايات المتحدة كقوة هائلة لها من القدرات العسكرية والاقتصادية والتقنية ما يمكنها من الوصول إلى كل مكان، والتأثير على أحواله وتشكيل النظام العالمى الذى تكون لها فيه السيادة، وتنفرد هذه القوة الجديدة من بين كل القوى والإمبراطوريات السابقة فى قدراتها التقنية الفائقة والمتطورة التى تحتكرها وتجعلها قادرة على مد ذراعها إلى كل أرجاء الأرض واحتواء أية قوة يمكن أن تشكل أى تحد لها. ولايحتاج الأمر فى معظم الأحيان للوصول إلى هذه الغاية إلى استخدام الآلة العسكرية الضخمة التى تملكها، بل يكفى أن تربط مصالح ورخاء هذه القوى بالسماح لها باستخدام التقنيات التى تحتكرها والتى تجعل الاستغناء عنها صعبا، ولا يسع المتتبع لأحوال عالم اليوم إلا أن يرى أن نفوذ الولايات المتحدة قد امتد ليشمل قوى كبرى كروسيا والاتحاد الأوربى والصين بسبب هذه المصالح المتشابكة، وفى هذا المقال عرض لعناصر القوة لهذا النظام العالمى الجديد ولعناصر الضعف الكامنة فيه والتى تمثل الخطر الذى يمكن أن يضيع من سطوته.





عن عناصر القوة في النظام العالمي الجديد

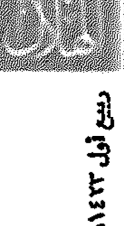
للولايات المتحدة من عناصر القوة والسطوة مايجعلها قادرة ليس فقط للوصول إلى كل مكان على ظهر الأرض بل وإلى امتلاك السماء والفضاء المحيطين به أيضا، وهذا حال لم يشهده العالم على طول تاريخه، فلم يحدث أبدا أن أتيحت لأية قوة فى أى وقت أن كانت لها مثل هذه القدرة - فجميع الإمبراطوريات السابقة وحتى أحدثها لم تستطع إمكاناتها التقنية أو قدراتها الاقتصادية الهيمنة إلا على جزء من سطح الأرض تاركة أجزاء كبيرة منه بعيدة عن هيمنتها، مما أتاح الفرصة لبروز قوة أخرى قادرة على تحدى القوة السائدة والقضاء عليها - قصة ظهور وسقوط جميع الإمبراطوريات السابقة هى قصة ظهور دولة مركز قوية تمتد ثم تسقط بعد وقت طال أو قصر بواسطة دولة من دول الأطراف التى لم تكن قد طالتها ذراع دولة المركز.

تقنية بعيدة المنال

وعلى طول التاريخ لم تكن الفجوة التقنية بين مختلف القوى كبيرة للدرجة التى تجعلها عسيرة العبور، فلم يحدث أبدا أن بلغت أية قوة عظمى سابقة مستوى التقنية بعيد المنال الذى بلغته الولايات المتحدة اليوم والذى يكاد أن يكون الوصول إليه بواسطة أية قوة أخرى مستحيلا، فهو مبنى على بنية تحتية بالغة التعقيد باهظة النفقة يصعب تصور أن يكون لأى قوة أخرى إمكان بناء مثيل لها، فى الماضى لم تكن الفروق فى المستوى التقنى كبيرة بين مختلف القوى . لقد تهاوت الإمبراطورية الرومانية المهيبة أمام برابرة شمال أوربا وسقطت الإمبراطورية البيزنطية الشامخة أمام القبائل العربية وتحطمت الإمبراطورية الإسلامية الزاهرة أمام جحافل التتار.

كان وصول الولايات المتحدة لهذا المستوى التقنى العالى والفريد نتيجة للثورة العلمية التى قامت بها لتطوير أسلحتها استعدادا لمواجهة التحدى الكبير الذى كان الاتحاد السوفييتى يشكله لها.

ولم تعط هذه الثورة العلمية قصب السبق للولايات المتحدة فى أدوات الحرب التى أنفقت الأموال الطائلة فى بنائها وتطويرها وجعلها أكثر فتكا فقط، بل وفى القدرة الاقتصادية الفائقة التى تتمثل فى الشركات عابرة القارات التى تملك الجزء الأكبر والمؤثر فيها والتى تقع مراكز اتخاذ قراراتها فيها، والتى تحتكر الجزء الأكبر والأهم من مجالات النشاط الصناعى والخدمى على مستوى العالم - فهى التى تملك أجهزة ونتائج البحث العلمى والتقنيات ورءوس الأموال والقدرات الإعلامية التى تمكنها من احتكار بل واجتياح الأسواق دون منافسة تذكر- وفى



السنوات العشر الأخير، ومنذ سقوط الاتحاد السوفييتى امتد نفوذ هذه الشركات لكى يشمل العالم كله، ولم يعد هناك ركن فيه لم تصله أو هى فى الطريق إليه . ويعود هذا الانتشار ليس فقط بسبب تفوق هذه الشركات فى ميدان الإنتاج بل وبسبب رغبة كل الدول لجذبها للاستثمار فيها، فقد دخل فى روع حكامها أن طريق هذه الشركالت هو الطريق الوحيد الذى يؤهلها لدخول هذا العالم الجديد. وقد بلغ من جبروت هذه الشركات أنها لم تترك مجالا واحدا لم تدخله حتى تلك ذات التقنيات البسيطة مثل تقديم وجبات الطعام أو تعليب المياه الغازية أو صناعة الحلوى والمثلجات أو أعمال الترفيه كالموسيقى أو ألعاب السيرك أو غير ذلك من الأنشطة التي كان من الممكن للقوى المحلية أن نبرع فيها.

دولة تمنح وتمنع!

وللولايات المتحدة سلطان مؤثر على دنيا المال والبورصات العالمية وهى قادرة على التأثير على أسعار العملات وعلى حالة اقتصاد أغلب الدول . وهى التى تمنح وتمنع فهى التى تملك الاستثمارات التى يسعى لجذبها ساسة مختلف الدول الذين أصبحوا على قناعة بأن مستقبل بلادهم مرهون بنجاحهم فى جذب الاستثمارات الأجنبية.

وبالإضافة إلى ذلك فالولايات المتحدة تحتكر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ذات التأثير الساحق من حيث الانتشار، مما يجعلها قادرة على إيصال أية رسالة تريد إيصالها إلى آذان العالم، ويرجع سبب هذا الاحتكار وشبه الهيمنة الكاملة على البث الإعلامى العالمى إلى الامتلاك شبه الكامل للولايات المتحدة وشركاتها عابرة القارات للفضاء ولمعظم الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال، وكذلك إلى الصعوبة البالغة التى تمنع إمكان إنشاء بث إعلامى خارج عن حدود الأطر المؤسسية القائمة واستحالة إيجاد التمويل المناسب والذى يأتى أساسا من الإعلان الذى تتحكم فيه بالدرجة الأولى الشركات العملاقة عابرة القارات.

استخدام حق الفيتو

وللولايات المتحدة سيطرة تكاد أن تكون شبه كاملة على المؤسسات والمنظمات الدولية وخاصة بعد اختفاء الاتحاد السوفييتي السابق من الساحة الدولية باستخدام حق الفيتو الذى يمكنها من إيقاف أى قرار لا نقبله ، أما فى حالة البنك الدولي وصندوق النقد فللولايات المتحدة من أنصبة رأس مال هاتين المنظمتين ما يسمح لها بتمرير أى قرار تراه.

ولا تحتاج الولايات المتحدة لإحكام سيطرتها على العالم إلى الحاجة إلى اللجوء إلى طريق الحرب أو التدخل العسكرى إلا عندما يكون ذلك أمرا لا مفر



منه ، وعادة ما يحدث ذلك فى أضيق الحدود ؛ فللولايات المتحدة أنصار فى كل مكان سعت لمد نفوذها إليه فقد أعادت تشكيل العالم بحيث يكون لها أعوان محليون ينوبون عنها فى تنفيذ سياستها . وهؤلاء الأنصار هم المستثمرون المحليون فى الشركات عابرة القارات ورجال وسيدات الأعمال الذين يدورون فى فلك هذه الاستثمارات ، والذين يعتمد استمرار موقعهم المتميز فى المجتمع على ولائهم لهذا النظام العالمى الجديد . وهم أيضا رجال وسيدات الإعلام وأساتذة الجامعات ومعلمو المدارس وغيرهم من المؤثرين فى تشكيل الرأى العام والذين وجدوا أن خدمة هذه الاستثمارات تعطيهم ميزة مادية وموقعا مميزا فى المجتمع. ومن الملاحظ أن الاستثمارات الأجنبية تحرص على بناء هذه القاعدة المؤثرة فى الرأى العام وتعتبر الإنفاق للحصول على ولائها أحد المكونات الأساسية لرأس المال العامل فى الشركات عابرة القارات.

من عناصر الضعف فى النظام العالمى الجديد

على الرغم من كل عناصر القوة والقدرات العسكرية والتقنية الهائلة التى يملكها النظام العالمى الحاضر بقيادة الولايات المتحدة ، إلا أن به من نقاط الضعف والتناقضات ما يمكن أن يؤدى به فى نهاية المطاف إلى السقوط . ولا يحتاج المرء إلى الكثير من العناء لكى يرى أن هذا النظام لم ينجح فى إعطاء الإنسان الأمان والسلام اللذين ينشدهما ، فعالم اليوم مليئ بالتوترات مليئ بالغضب وحركات الاحتجاج التى عمت كل الأرجاء ومست كل الأجناس والطبقات ، وأكبر مظاهر ضعف النظام تقع فى داخله فليس للنظام عدو خارجى يمكن أن يهدده.

أول وأبرز التناقضات التى يعيشها النظام العالمى بقيادة الولايات المتحدة تكمن فى قبوله دخول الأصوليين الدينيين ميدان السياسة والمشاركة فى الحكم وفى تقرير السياسات العامة للدولة ، فقد مثل هذا القبول انقلابا يكاد يكون تاما للمبادئ الأساسية التى قامت عليها الدولة ، ذلك لأنه على الرغم من قدم تيار الأصولية الدينية الذى تعود جذوره إلى وقت نشأتها إلا أن هذا التيار كان بعيدا عن ميدان السياسة ومنكفئا على نفسه ومكتفيا بالعمل الروحى بين جماعاته التى عكفت على العيش عيشة شبه مستقلة ، وحرصت على أن يكون لها أقل العلاقة مع الحكومة الفدرالية . على أن ذلك الاستقلال بدأ يروح رويدا رويدا مع تقدم العمران وامتداد سلطة الحكومة الفدرالية ليشملها وهو الاتجاه الذى حاربته هذه الجماعات والذى أفرز حركات الإرهاب بين رجالها ، والتى قامت بتفجير المبنى الحكومى بأوكلاهوما (سنة ١٩٩٨) واستخدمت البريد لتوزيع الجمرة الخبيثة سنة ٢٠٠١





أو المتفجرات سنة ٢٠٠٢ تعبيرا عن غضبها من تدخل الحكومة فى حياة الناس.

وقد استحدث قبول دخول الأصوليين الدينيين ميدان السياسة ومشاركتهم فى الحكم وتقرير السياسات العامة للدولة توجهات ومبادئ تتناقض تماما والأصول العلمانية الخالصة لها ، والتى كانت قد أخذت بها منذ نشأتها ونقلتها عن أفكار عصر النهضة الأوربية التى صاحبت ظهور الحضارة الغربية التى تعتبر الولايات المتحدة امتدادا لها ، وكان من آثار مشاركة تيار الأصولية الدينية فى الحكم تراجع الكثير من أفكار عصر النهضة وعلى الأخص ثابتيها الأساسيين العلم والأخلاق واللذين شكلا الأساس الذى ضمن للحضارة الغربية السيادة والتقدم.

كان للعقل دوره الكبير فى نشأة الحضارة الغربية بعد أن خرجت من العصر الوسيط ووضعت كل الظواهر والأفكار تحت مجهر الفحص والاختبار، ورأت ألا تحكم عليها مسبقا أو أن تصل إلى أى استنتاج بشأنها دون استخدام العقل - وقد أدى هذا الاستخدام إلى عديد الاكتشافات التى فتحت الآفاق - ولا تعود أهمية استخدام العقل إلى هذه الاكتشافات التى غيرت العالم فقط بل تعود أيضا إلى أن بغير استخدامه تصبح القوة عبئا تحمل من الضرر أكثر مما تحمل من الفائدة ، فالعقل هو البوصلة التى توجه القوة إلى الاستخدام الرشيد الذى يخدم أهداف نظام يريد أن يستقر على قواعد العدل، وبدون العقل تصبح القوة شجارا بلا معنى قد يؤدى إلى زعزعة النظام بل والقضاء عليه.

وكما كان للعقل دوره كذلك كان للقانون الأخلاقى الذى تبنته هذه الحضارة عند نشأتها دوره أيضا ، وكان هذا القانون نتاج حركة الاحتجاج البروتستنتية التى دعت إلى أن يكون خلاص النفس من داخلها ودون وساطة وعن طريق الصدق فى القول والاستقامة فى العمل ، لأن الثواب والعقاب مرهون بمسلك الفرد ودرجة إتقانه لعمله وفائدته للمجتمع الذى يعيش فيه وليس مرهونا بإقامته الشعائر والطقوس التى ألغت الحركة الكثير منها الصوم والاعتراف والحج للأماكن المقدسة، وهذه هى خلاصة المبادى التى تبنتها هذه الحركة الإصلاحية والتى تعرف اصطلاحا بالنظام الأخلاقى البروتستنتى.

اللهاث وراء الثروة

ومع تراجع هذين الثابتين تحت تأثير التحالفات الجديدة مع تيار الأصولية الدينية التى تشارك اليوم فى الحكم دخلت على عملية صناعة القرار اعتبارات أيديولوجية لا علاقة لها بالعقل ، تقودها الأحكام المسبقة لتيار الأصولية الدينية على الكثير من الشئون الزمنية . وفقد النظام

الأخلاقي الصارم الذي نشأت في ظله الحضارة الغربية بريقه وكاد أن يختفي وأن يحل محله نظام يهتم بمسلك الفرد، لأن الثواب والعقاب يتقرران فيه حسب ما يقوم به الإنسان كفرد وليس كعضو في جماعة فالإنسان يكون على الطريق القويم إن قام بالشعائر وأدى الطقوس وعاش عيشة الطهارة التي درج النظام على تسميتها بقيم العائلة، ووهب حياته وولاءه إلى الطائفة أو الملة التي ينتمي إليها وترك أموره لله فيس للفرد أن ينظم أسرته أو أن يهتم بالشئون العامة أو أن يلتزم بأي شئ نحو المجتمع الأكبر الذي يعيش فيه . وفي مثل هذا النظام الأخلاقي يمكن للفرد أن يبرر استخدامه أية وسيلة للوصول إلى غايته ، وفقد نظام السوق الذي يسير المجتمع بمقتضى قواعده كل توجه أخلاقي وأصبح من العادي أن يكون هم الشركات والعاملين هو اللهاث وراء الثروة بأي طريق ودون أي وازع، ولا يكاد أن يمر يوم واحد دون أن نقرأ على صفحات الجرائد خبر خلل أو فساد جسيم في الشركات وأسواق المال ، أو خبر انحراف مجالس إدارة الشركات أو رجال الأعمال أو الموظفين العامين

ومن العلامات ذات الدلالة أن الناس قبلت هذا الوضع ورضيت أن تعيش معه ، وتقوم الكثير من المحال التجارية على سبيل المثال بإعداد ميزانياتها على افتراض أن خمس بضائعها ستتم سرقته بواسطة موظفيها أو المترددين عليها ، ولم يثر خبر إفلاس شركة انرون وما أحدثه هذا الإفلاس من آلام لعشرات الألوف ممن استثمروا وخسروا مدخرات عمرهم فيها الغضب الكبير بين الناس.

وكما تراجع الوازع الأخلاقي عند الفرد تراجع أيضا عند الجماعة التي كادت أن تروح منها صفة التراحم الإنساني التي تعتبر أحد أهم أعمدة تماسكها ، وأصبح من المقبول أن يرى الناس الفقراء يزدادون فقرا والأغنياء غنى وأن يروا جزءا كبيرا من ذويهم من المواطنين الفقراء بلا رعاية صحية ، وجزءا آخر لا يقل عددا يعيش في رعب فقدان وظيفته ومعائشه.

أزمة أخلاقية

وأثر صعود تيار الأصولية الدينية على مسلك قادة الولايات المتحدة ونظرتهم على العالم المحيط وفقدوا تحت تأثيرها النظرة الموضوعية للأشياء ، وأصبح حكمهم عليها يتقرر بميزان الخير والشر فمن ليس معنا فهو شرير يستحق العقاب ولذا فهم مستعدون لأن يقبلوا أن تحتل اسرائيل أرض الغير، وأن تنزع ملكيتها وتقيم المستوطنات عليها وأن تسرق مواردها الطبيعية وأن تضرب بعرض الحائط القرارات الدولية . وهم مستعدون لأن يغضوا الطرف عن الأعمال الشنيعة وجرائم الحرب التي تقوم بها ردا على الأعمال الانتقامية واليائسة التي يقوم بها أصحاب الأرض المحتلة، وهم قابلون لأن



يروا البيوت تدك فوق رؤوس أصحابها وأن يقتل الناس مع سبق الإصرار ودون محاكمة وأن تقتلع المزروعات وأن تجرف الأرض وتدار معسكرات الاعتقال الرهيبة ، وأن تحاصر دور العبادة بما فيها كنيسة المهد والأكثر من ذلك فهم مستعدون لإظهار تأييدهم لهذه الأعمال دون خجل واستصدار القرارات للمطالبة بالمزيد منها كما حدث مع مجلسي الشيوخ والنواب وبما يشبه الإجماع، حقا إنها لأزمة أخلاقية.

ومن مظاهر عمق الأزمة الأخلاقية ما حدث بعد أحداث الإرهاب التى وقعت بالولايات المتحدة فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ واستعداد القائمين على تنفيذ القانون على إعطائه إجازة ، وسوق الناس إلى الاعتقال دون محاكمة أو توجيه اتهام ومصادرة الأموال الخاصة بالأفراد والمؤسسات والدول دون تحقيق، ومعاملة أسرى الحروب دون اعتبار للقوانين الدولية التى تنظم هذه المعاملة . ومن مظاهر هذه الأزمة قبول الحكومة ورجال الإعلام استخدام الزيف والخداع والمعلومة الخاطئة من أجل تبرير أعمال العدوان التى قاموا بها أو ينوون القيام بها.

ويبدو لى أن الأزمة الأخلاقية التى تشهدها الولايات المتحدة اليوم هى بنت ساعتها ، فمنذ أقل من خمسين سنة كانت تسود البلاد نغمة أخلاقية عالية تحولت فيها بشاعة الحرب العالمية الثانية إلى ملحمة فى الفداء من أجل رفعة البشر ونشر السلام . وفى ذلك الوقت تبنت الحكومة الأمريكية ميثاق الأطلنطى ، وساهمت مساهمة فعالة فى كتابة ميثاق الأمم المتحدة الوليدة والذى أرادته أن يكون نبراسا لمنظمة فعالة لدعم السلم والعدل وكتابة ميثاق حقوق الإنسان، والذى يعتبر من أهم العلامات فى سلم التطور البشرى لتأكيد إنسانية الإنسان ، وفى ذلك الوقت ارتفعت نبرة السمو الأخلاقى ووقف العلماء ضد الحرب وضد استخدام أسلحة الدمار الشامل والتى كانوا قد بنوها بأيديهم ، فلما رأوها تستخدم فى هيروشيما وناجازاكى باليابان لم يتردد البعض منهم فى مساعدة الاتحاد السوفييتى على بناء أسلحته الفتاكة حتى تتم حالة من الاتزان الدولى يمتنع فيها استخدام هذه الأسلحة – وفيها ألغت الكثير من الحكومات عقوبة الإعدام – وفيها امتنع الكثير من الشباب عن العمل فى مجالات الحرب أو التجسس . ونحن نرى اليوم أن الحال قد انعكس تماما؛ تراجعت هيبة الأمم المتحدة وقبل العالم أن يرى دولة صغيرة مثل اسرائيل تتعامل معها دون اكتراث لقراراتها ولم يعد لميثاق حقوق الإنسان المهابة التى كانت له ، وأصبح يستخدم عند الحاجة لأغراض سياسية ولإحراج دولة بعينها عندما يراد لها أن تحرج. وأعيدت عقوبة الإعدام فى

الكثير من البلاد وتكالب العلماء على العمل فى مراكز البحث العلمى التى تقوم ببناء الأسلحة الأكثر فتكا والأكثر قدرة على الدمار وتسابق الشباب للعمل فى ميادين التجسس والمخابرات، ولم يعد كشك مكتب التحقيقات الفيدرالى أو المخابرات المركزية الذى كان ينصب بالجامعات لجذب وتوظيف الخريجين للعمل فيهما مهجورا كما كان فى سنى الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

التناقض الآخر والكبير فى النظام العالمى الحاضر هو فى تراجع أهمية البشر فى صناعة الثروة أو فى الدفاع عن الوطن ، مما أدى إلى تهميش قطاعات كبيرة منهم وتراجع قدراتهم على الضغط على صانع القرار أو المشاركة فى تقرير السياسات العامة للبلاد والتى أصبحت فى أيدى قلة صغيرة تنفرد بالسلطة . لقد تقدمت تقنيات الإنتاج والحرب للدرجة التى لم يعد فيها حاجة لقوة بشرية كبيرة لإنتاج الثروة أو لشن الحرب ، ولم يعد الإنتاج الزراعى والصناعى والمعرفى المباشر والذى يمثل قاعدة الثروة الحقيقية فى البلاد محتاجا لأكثر من ثمن مجمل القوة العاملة فى الولايات المتحدة . أما باقى هذه القوة فهى تعمل إن وجدت العمل فى مجال الخدمات والتى هى وباستثناءات قليلة لا تعطى عائدا ماديا مجزيا للعاملين فيها . وقد أدت هذه التركيبة الجديدة لنمط العمل والتى انتقلت إلى أرجاء كثيرة فى أنحاء الأرض خلال العشرين سنة الماضية وأصبحت النمط الشائع فى معظم البلاد التى تأخذ بنظام السوق إلى تناقضات هائلة داخل المجتمع الواحد، قسمته إلى قلة غنية تركزت فى يدها معظم الثروة وكثرة فقيرة ، ودفعت الكثير من الشركات ذات الأنشطة المتماثلة أو حتى المتقاربة تحت ضغوط قوى السوق التى أطلقت حريتها إلى الاندماج فزادت عملقة وسطوة، وكانت حصيلة ذلك ازدياد الضغوط النفسية والمادية على أغلبية الناس وخاصة من انتمى منهم إلى الطبقة المتوسطة.

وكما حدث التطور فى تقنيات الإنتاج فقد حدث أيضا فى تقنيات الحرب والتى أصبح فى الإمكان شنها بل والانتصار فيها بعدد محدود من الطيارين والجنود ، ولذا فلم يعد شرف الدفاع عن الوطن متاحا لعامة الناس فقلت أهميتهم بعد أن لم يعد الوطن فى حاجة إليهم لحمايته ، وتغيرت موازين القوة داخل المجتمع لغير صالحهم.

وأدى الجو العام من الإحباط الذى أحدثته هذه التطورات إلى دفع البعض ممن تهمشوا أو شعروا بأنهم مستغلون دون وجه حق إلى البحث عن مكان خارج الإطار المؤسسى القائم، والذين لم يجدوا لهم فيه مكانا ووجدوا فى الأنشطة الخارجة عن القانون مجالا، وهكذا توسعت

هذه الأنشطة حتى شكلت فى الكثير من الأحوال مؤسسات ضخمة ذات انتشار عالمى تعمل فى تهريب السلاح أو المخدرات أو البضائع، أو فى التجارة فى البشر سواء النساء أو الأطفال أو الراغبين فى الهجرة من جحيم عالم الجنوب وما إلى غير ذلك من الأنشطة غير القانونية . وعلى الرغم من أن حجم معاملات هذه الأنشطة غير معروف على وجه التدقيق إلا أن الخبراء يقدرونه بمئات المليارات من الدولارات فى كل سنة.

وجاء الإحباط مضاعفا فى عالم الجنوب بسبب أن الاستثمارات التى جاءت إليها لم تأت بما كان مأمولا منها لفتح الآفاق أمامها للعبور إلى العالم النامى ، فقد جاءتها عن طريق الشركات عابرة القارات التى رأت فى عمالتها الرخيصة وقوانينها المتسامحة نحو البيئة وظروف العمل الفرصة لنقل بعض مصانعها إليها ، وبالإضافة إلى ما أثاره هذا النقل من غضب بين عمال البلاد الصناعية فإنه لم يفلح فى تحسين أحوال بلاد الجنوب التى نقلت إليها هذه المصانع على أى شكل ظاهر ، فقد كان من شروط نقل المصانع إلى هذه البلاد هو أن تظل العمالة رخيصة وأن ترضى هذه البلاد بالعيش فى ظل التقنيات المنقولة إليها وما يجيئ من الخارج لتحسينها، وهو ما كان يفرض قيودا على تقدم البحث العلمى الوطنى وعلى القدرة على اتخاذ القرار السياسى المستقل . وهكذا أغلق الباب أمام دول الجنوب سواء تلك التى نالتها الاستثمارات فحرمت من التنمية الحقيقية أو تلك التى لم تأتها الاستثمارات كتلك الفقيرة فى البنى التحتية ، فهمشت بالكامل وأصبحت نسيا منسيا ولم يعد لها مكان فى هذا العالم الجديد . ويمكن أن نذكر من بين هذه البلاد الكثير من دول أفريقيا كسيراليون والصومال والسودان ورواندا وغيرها الكثير.

فى الماضى كانت الامبراطوريات تبنى بحيث يكون لكل مكان فيها وظيفة معينة كانت تجعل منها عضوا ولو صغيرا فى نظام عالمى كبير ، هكذا كان حال الامبراطورية البريطانية التى أعطت لكل ركن فيها وظيفة كانت فى الأغلب تتعلق بإنتاج الخامات التى كانت تلزم صناعاتها التى تركزت فى دولة المركز . أما اليوم فإن الإمبراطورية الجديدة التى تنشأ تحت نظام العولمة وانتقال الاستثمارات وحرية التجارة ليس لها هذا المفهوم الوظيفى لأركانها . فكما هو حادث بداخل مركزها من تهميش لمن لا يستطيعون اللحاق بتقنياتها المتقدمة أو لمن لا يقبلون قواعد لعبتها ، فإنه يمكن أن يحدث أيضا فى أطرافها للدول التى لا تملك الخامات المناسبة أو الظروف المواتمة لجذب الاستثمار .



***

صورة عالم اليوم التى تتشكل تحت تأثير قوى السوق وتقنيات الاتصالات التى تملك أو تسيطر على معظم خيوطها الولايات المتحدة والتى حاولت أن أرسم خطوطها العامة في هذا المقال تبدو غير سعيدة ، فأغلبية البشر فيها غاضبون أو محبطون أو غير راضين عن أحوالها ، ويظهر التعبير عن هذا الغضب فى صور متعددة بعضها يتمثل فى حركات الاحتجاج التى شهدتها شوارع سياتل ونيويورك وجنوة وواشنطن وغيرها من المدن التى يجتمع فيها قادة الدول أو ممثلوهم لترتيب هذا العالم ، وبعضها الآخر يتمثل فى خروج البعض عن الأطر المؤسسية القائمة والعمل خارج القانون فى أعمال مدمرة كالتجارة فى المخدرات أو السلاح أو البشر . أما أكثر الحركات انتشارا وربما كانت أكثرها خطرا فتتمثل فى تصاعد الأصولية الدينية على مستوى العالم ولجوئها للعمل على الوصول إلى السلطة ، إما عن طريق العنف والإرهاب كما هو حادث فى الكثير من دول الجنوب ، أو عن طريق الأحزاب القائمة وصندوق الانتخاب فى الدول التى تأخذ بالنظام الديمقراطى كما هو حادث بالولايات المتحدة أو الهند.

الأصولية الدينية

وتعود خطورة حركة الأصولية الدينية إلى أن لها بريقا عند الناس وعلى الأخص فى أوقات الشدة والإحباط، على الرغم من المصائب التى يمكن أن تحدثها لو أنها أفلحت فى الوصول إلى الحكم كما يستبين ذلك من التجارب القليلة التى أفلحت فى الوصول فيها إلى الحكم أو المشاركة فيه، وهناك أربعة مراكز لنشاط الأصولية الدينية فى العالم منها مركزان يتولى شئونهما أصوليون دينيون يديرونهما حسب جدول أعمالهم ، ومركزان آخران دخلت عليهما الأصولية الدينية أخيرا ولها فيهما بعض الأثر ، وتمثل هذه المراكز نقاط التوتر فى عالم اليوم.

أول مراكز مجموعة الدول الدينية هى دولة إسرائيل مركز الأصولية اليهودية والتى بنيت أصلا على أساس دينى ، وهى دولة تحركها اعتبارات أيديولوجية مستمدة من قرار إلهى يعطى لها الأرض فيما بين النيل والفرات ، ويبرر لها الاعتداء على أرض الغير ومن هنا تجيىء صعوبة العيش معها.

المركز الثانى فى هذه المجموعة تحتله بعض دول عربية أصبحت من مراكز الأصولية الإسلامية والتى استخدمت ثروتها لنشر دعوتها فى كل مكان. وقد تم بالفعل القيام بذلك فى الكثير من الدول الصناعية بالاستفادة من قوانينها الليبرالية التى تسمح بحرية العبادة وتحترم الأديان ، وفى التخوم الآسيوية للاتحاد السوفييتى السابق بمساعدة وإشراف قلم المخابرات

الأمريكي الذي وجد في هذا النشاط نصيرا يساعده في محاربة الاتحاد السوفييتي، و في كل البلاد التي يدين معظم سكانها بالإسلام أو تلك التي تتعدد فيها الديانات بغرض دعم المؤسسة الدينية، والدعوة لتطبيق الشريعة وتسييس الدين . ولم تؤد كل هذه الجهود الى أي نجاح يذكر باستثناء الإجهاز على الاتحاد السوفييتي السابق ، والذي ربما عاد الفضل الأكبر فيه إلى مساعدة المخابرات الاجنبية فإن كل هذه الجهود لم تجلب إلا الكوارث والتوتر، فقد أدت جهود تسييس الدين إلى إفراز الإرهاب وإلى إعطاء صورة للدين الإسلامي لا تليق بمكانته السامية، كما أدى سوء استغلال هذه الجهود للقوانين اللبرالية في الدول الصناعية ولإثارتها الفتنة في البلاد متعددة الأديان إلى شقاء الكثيرين.

وتحتل الهند المركز الأول من مجموعة الدول العلمانية التي أدخل عليها تيار الأصولية الدينية الهندوسية الذي أصبح له وجود على الساحة السياسية ، كرد فعل لتصاعد المد الإسلامي في باكستان التي فضلت الخروج من ثوبها الهندي والدخول في أمة الإسلام ومطالبتها بضم كشمير المقاطعة الهندية التي تسكنها أغلبية تدين بالإسلام. وعندما انقسمت الهند في سنة ١٩٤٨ وانفصلت عنها باكستان صممت الهند على الاحتفاظ بمقاطعة كشمير على الرغم من أغلبية سكانها المسلمة ، فقد أرادت الاحتفاظ بها لتكون مثالا على إمكان التعايش السلمي بين الهندوس والمسلمين تحت راية الديمقراطية والدولة العلمانية . وقد نجحت التجربة بالفعل ولم يحدث ما عكر صفو العلاقة بين سكانها إلا بعد تجربة إنشاء الدولة الدينية بقيادة الانقلابي ضياء الحق. وينبغي أن نبين هنا أن تيار العلمانية تيار غالب في الهند اليوم، وأنه تيار الأصولية الهندوسية ثانوي إلا أن ظهوره على الساحة السياسية وارتفاع صوته يعد ظاهرة قد يكون لها أكبر الأثر على استقرار ومستقبل القارة الهندية.

إقحام الدين في ميدان السياسة

وتحتل الولايات المتحدة المركز الثاني في مجموعة الدول العلمانية التي أدخلت عليها الأصولية الدينية المسيحية عندما أقحم الدين في ميدان السياسة فيها في آخر سنوات الحرب الباردة ، وعلى استحياء كبير ولم تظهر لهذا الإقحام آثار ظاهرة على مجمل السياسة العامة للدولة إلا خلال الإدارة الحالية للرئيس جورج دبليو بوش، عندما تولى بعض مراكز القرار المهمة فيها أعضاء من جناح التيار الأصولي الديني الصغير في الحزب الجمهوري الذي ينتمي إليه الرئيس نفسه،





وهؤلاء تدفعهم اعتبارات أيديولوجية بحتة لا علاقة لها بالعقل أو حتى بالصالح العام عند اتخاذ القرار بما ينبىء بما اعتقد أنه سيكون ذا عواقب وخيمة على مستقبل الكثير من مؤسسات الدولة كالقضاء والضمان الاجتماعى والتأمين الصحى والتعليم، والتى يراد تغييرها لخدمة هذه الأيديولوجية ولتعميق جذورها بداخل المجتمع وعلى مستقبل الاقتصاد المحلى والعالمى نتيجة الإنفاق الضخم وغير المنضبط على الحرب التى يراد لها أن تتوسع لمطاردة كل مراكز الشر فى العالم وعلى مستقبل العلاقات الدولية ، والتى تدهورت بسبب ما حدث لأصولها المستقرة من تقويض.

وللحق فإن هذه القرارات قد مرت فقط بسبب الظروف الاستثنائية التى مرت بها البلاد بعد أحداث الإرهاب الفطيعة التى لحقت بها فى الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١ ، فقد أطلقت هذه الأحداث أيدى الأصوليين لتنفيذ جدول أعمالهم تحت شعار حماية الوطن.

ومهما كان الأمر فلى ثقة فى أن الوقت وما ستجلبه هذه السياسات من عواقب ستعيد الولايات المتحدة إلى سابق عهدها دولة علمانية تفصل الدين عن السياسة ، تحترم حرية العبادة وتقدس الأديان وتبنى حياتها على الاستقامة فى العمل وتجل القانون وتتخذ قراراتها عن طريق العقل وتحل مشاكلها بالحوار الرشيد. وستثبت الأيام وصناديق الانتخاب إن كانت ثقتى هذه ذات أساس.

ولا يحدونى أى شك فى أن الأمل الوحيد فى مستقبل البشرية هو فى إصلاح النظام العالمى القائم وتنقيته من تلك التيارات المدمرة التى أدخلت عليه وأوقفت تقدمه وتطوره وأفقدته ثابتيه الأساسيين اللذين قام عليهما وهما العقل والأخلاق ، واللذين كانا من الممكن أن يشكلا آلياته لتحليل جذور مشاكله ومجابهتها وحلها ثم إلى تطوير أحواله لكى يصبح أكثر إنسانية وأكثر فائدة لكل البشر . ليس هناك فى أفق السياسة الحالية بديل آخر يمكن أن يحل محل النظام القائم غير الفوضى الشاملة والتصادم اللاعقلانى بين مختلف الحضارات والديانات.. لقد أدى تصاعد تيار الأصولية الدينية إلى صدامات وإلى شلل فى الحياة وإلى كوارث هائلة عندما نجح فى الوصول إلى السلطة . ينبغى علينا أن نتكاتف لنوقف هذا التيار ولنعيد للدين موقعه المهم فى حياة الإنسان كمصدر لهدايته ، وأن نعطى مالقيصر لقيصر ومالله لله وأن نؤكد الأصول العلمانية لعالمنا. فليس هناك من طريق للعيش فى سلام بين مختلف الأديان دون ذلك ودون العودة لإعمال العقل والتمسك بمكارم الأخلاق. ■



توازن الرعب على الإنترنت

بقلم
د. أحمد محمد صالح

إذا كانت حروب الإنترنت هي انعكاس للصراعات السياسية على أرض الواقع، فمن الطبيعي في الوقت الذي يشهد فيه الشرق الأوسط تصاعدا متواصلا في وتيرة العنف، أن تشهد ساحة الإنترنت حربا لا تقل ضراوة منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في سبتمبر من عام ألفين ، وتناقلت وكالات الأنباء العالمية يوم الثلاثاء ١٦ - ٤ - ٢٠٠٢ خبرا يقول إن إسرائيل مازالت تتعرض لهجوم عبر الإنترنت، وإن المواقع الإسرائيلية التي تنتهي بـ «il» كانت الأكثر تعرضا لهجمات الهاكرز خلال الفترة التي تلت اندلاع الانتفاضة.

حيث تعرضت لـ ٥٤٨ هجوماً من إجمالى ١٢٩٥ هجوما تعرضت لها مواقع الإنترنت فى الشرق الأوسط مما دفع مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى التحذير من حدوث فوضى شاملة على شبكة الإنترنت قد تشمل المواقع الغربية والأمريكية على السواء، حيث أثارت هذه الحرب المشتعلة مخاوف السلطات الأمريكية التى أعربت عبر المركز الوطنى لحماية البنية التحتية وهو هيئة مستقلة تابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكى من أن حرب الإنترنت بين أطراف النزاع العربى الإسرائيلى يمكن أن تكون لها انعكاسات على المواقع فى الولايات المتحدة، وخاصة أن العديد من المؤسسات والمواقع الأمريكية تستغل بشكل واضح من قبل الطرفين فى عمليات الهجوم على الطرف الآخر، إلا أن التطور الأكثر خطورة فى رأى الخبراء هو لجوء الطرفين إلى ما يسمى بسلاح حصان طروادة وهو عبارة عن رسالة إلكترونية بريئة المظهر تحتوى على فيروس فتاك يعمل بمجرد فتح الرسالة على تدمير محتويات جهاز الكمبيوتر أو إصابته بأعطال لا يمكن إصلاحها حسب قوة الفيروس، وقبل فترة ليست ببعيدة اتجه الصينيون لصب غضبهم على أمريكا وشرعوا بالهجوم على موقع البنتاجون والبيت الأبيض ومواقع حكومية حساسة.

لقد أصبح التسلل للمواقع بهدف التخريب السياسى آخذا فى الازدياد بسبب سهولة تنفيذ عمليات التسلل التخريبية التى تحمل أقل قدر من المخاطر. ومنذ تصاعد الاشتباكات الأخيرة بين الفلسطينيين والاسرائيليين انهمك القائمون على إدارة مواقع كلا الطرفين فى صد هجوم المتسللين إلى الطرف الآخر، ولوحظ تصاعد الهجمات على المواقع الإسرائيلية كلما تصاعدت حدة العنف فى المنطقة، ففى النصف الأول من شهر أبريل ٢٠٠٢ نالت إسرائيل ثلثى هجمات الهاكرز التى استهدفت مواقع الإنترنت فى الشرق الأوسط، وكانت معظم مجموعات الهاكرز المعادية لإسرائيل هى من المصريين وقد بدأت نشاطها بعد أسابيع قليلة من هجمات الحادى عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، ومن المنطقى أن تكون الحرب التى تشهدها شبكة الإنترنت مؤشراً على درجة التوتر السياسى فى العالم، وأن التوتر الذى يشهده الشرق الأوسط ينعكس فى هيئة هجمات مباشرة وغير مباشرة للهاكرز، وتعتبر هذه الهجمات أكثر تهديدا بالنسبة لإسرائيل ليس بسبب هجماتها على السلطة الفلسطينية فقط، ولكن لأن بها أكبر عدد من مستخدمى الإنترنت فى الشرق الأوسط، وتشير الإحصاءات إلى أن عدد مستخدمى الإنترنت فى إسرائيل يبلغ ١.١ مليون مستخدم وهو عدد كبير فى منطقة مثل الشرق الأوسط. والمعروف أن تشعب اتصالات إسرائيل عبر الإنترنت أكثر من جيرانها يجعلها أكثر بلدان المنطقة استهدافاً لأعمال القرصنة مما

يعتمد هذا المقال على الإبحار داخل عشرات المواقع العربية والإسرائيلية، ومواقع الصحف ووكالات الأنباء وشبكات الإعلام



يعرض الكثير من شركاتها إلى أضرار اقتصادية جمة. ولأن الكثيرين من المستهلكين الإسرائيليين يعتمدون على الشراء عن طريق الإنترنت بواسطة كروت الاعتماد، فهذا يسهل عملية اختراق بيانات هؤلاء المستهلكين والحصول على بيانات بطاقاتهم مما يعرض التجارة الإلكترونية فى إسرائيل لخسائر فادحة. ويقول بيتر سومر الباحث فى مركز أمن الكمبيوتر فى كلية الاقتصاد بجامعة لندن إن بوسع الهاكرز المدفوعين بقضايا سياسية تصعيد حملتهم «إذ من الممكن أن يقوموا بهجوم عبر الإنترنت على مواقع البنية التحتية الوطنية». و يضيف « من وجهة نظر المؤيدين للعرب سيكون أمرا كهذا أكثر تأثيرا من إرسال شخص انتحارى. ورغم كل الاحتياطات لتوفير أكبر قدر من الأمان لشبكة الانترنت الا أن حيل الهاكرز تجعل هذا الأمر أشبه بالمستحيل، هذا ما تؤكده تقارير الكونجرس الامريكي! ويبدو أن خسائر الشركات الإسرائيلية لم تعد مقصورة على اندلاع الانتفاضة بل تعدتها إلى خسائر فى التجارة الإلكترونية . وتشير بعض المصادر مثل منظومة الدياغ لتكنولوجيا المعلومات (DIT) إلى أن خسائر هذه الحرب الإلكترونية تصل إلى ملايين الدولارات فى الجانب الإسرائيلى. ويبدو أن الأمر تطور من مجرد صدام بين إسرائيل من ناحية ومؤيدى الانتفاضة من عرب ومسلمين، إلى حرب ضروس على شبكة الإنترنت تكلف الدولة العبرية ملايين الدولارات أى أكثر مما تكلفها الحروب الحقيقية. من جهة أخرى أبدى العديد من الخبراء الإسرائيليين دهشتهم واستغرابهم من الطريقة التى تستخدم للهجوم على المواقع الإسرائيلية فقد أكد خبير الكمبيوتر الإسرائيلى «دانيال برودنير» نائب رئيس شركة انفورميشن سيكيورتى أدفايسر الكندية – أن الهجمات التى تتعرض لها المواقع الإسرائيلية تتم بوسائل تقنية متقدمة جداً على عكس ما يشيع البعض، لأن المهاجمين يعرفون ما يريدون وينقلون مصدر هجماتهم من مكان إلى آخر بسرعة البرق، حتى أننا نتخيل أن العالم كله يهاجمنا دون أن نستطيع تحديد مصدر هذا الهجوم!

معركة الرسائل والصور

وفى أثناء الاجتياح الإسرائيلى الأخير للأراضى الفلسطينية، وحصار ياسر عرفات، توسع نطاق المواجهات بين الإسرائيليين والفلسطينيين لينتقل إلى استخدام الرسائل والصور . وكانت المواجهة مع بداية الانتفاضة، أخذت شكل هجوم متبادل على مواقع الطرفين وتعطيلها. ونشرت على مواقع الشبكة صور المجازر الإسرائيلية، فيما نشرت فى المقابل صور ضحايا إسرائيل من العمليات الاستشهادية التى قام بها الفلسطينيون ، وفى كل مرة يستجد فيها حدث ما فى الاراضى المحتلة، كانت تتوافر كميات هائلة من المعلومات بشكل سريع على الإنترنت، وكان ذلك غير ممكن قبل عشر سنوات فقد ارتفع عدد المشتركين فى شبكة الانترنت فى الاراضى الفلسطينية وفى اسرائيل. ومرض الصور منتشر بين جنود الجيش الإسرائيلى، فهم يحرصون على تصوير قتلاهم بعد التمثيل بجثثهم، ولوحظ اثناء حرب جنوب لبنان أن بعض المواقع الإسرائيلية التى يبثها الجيش الإسرائيلى يظهر فيها

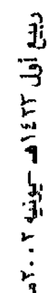
الكثير من الدماء. فاللون الاحمر هو الطاغي. وهناك أمور يمكن مشاهدتها، وأمور تستحيل مشاهدتها. ولهذا نقرأ التحذير الآتي على بوابة الموقع: (المخربون يموتون في الخفاء، الصور في هذه الصفحات قاسية للغاية لمشاهدتها، ولا يفضل أن يشاهدها أصحاب القلوب الضعيفة أو النساء الحوامل أو الاطفال). وليس مصادفة نشر مثل هذا التحذير، لان ما يتبعه لا يمكن التمعن به، بل هو يزعزع بدن كل من يشاهده، وتظهر فيه تلك الصور إلى جانب القصائد والنكات التي يضيفها الجنود المواظبون على انجاح الموقع . وفي هذه الصور يظهر الجندي الذي يستمتع بالتقاط الصور للذين قتلهم، حيث يحرص الجنود على التقاط صور (تذكارية) إلى جانب الجثث، خصوصا تلك التي شوهتها الإصابات القاتلة . انها جزء من التربية الاسرائيلية حول الموت . هذه التربية التي تنفذ الموت وتتمتع به وتوثقه !

ويقول مدير خدمة الإنترنت في وزارة الخارجية الإسرائيلية « أوري نوي » إنه يجري تجديد الاخبار الموجودة على الموقع ثلاث أو أربع مرات في اليوم مقابل مرة أو مرتين قبل أعمال العنف وارتفع عدد المطلعين على هذه المواقع من ١٥٠ ألفا إلى أكثر من ٤٠٠ ألف في الشهر. مشيرا إلى الدخول في معركة الصور. ويتضمن الموقع صفحة مخصصة لذكرى ٣٩ اسرائيليا قتلوا في أعمال العنف مع صور كل منهم ونبذة عن حياته، ونشرت على الموقع أيضا تصريحات مناهضة لإسرائيل أدلى بها مسئولون فلسطينيون ووردت في صحف عربية بالإضافة إلى صور لهجمات على مستوطنات يهودية، ويقر المسئولون في السلطة الفلسطينية بتفوق المواقع الإسرائيلية لكنهم يراهنون على مواقع المنظمات الانسانية ومنظمات الدفاع عن حقوق الانسان لمواجهة ذلك.

ويفترض أن الجبهة الالكترونية تنجح في ربط العرب والمسلمين في العالم أجمع مع قضية الشعب الفلسطيني، ويرى بعض الخبراء أن تشكيل الرأي العام العربي والإسلامي يأخذ بعدا إضافيا على الانترنت ويميل كفة الميزان لصالح الانتفاضة رغم الصعوبات التي يواجهها الفلسطينيون في نقل أخبارهم لوسائل الاعلام، فتجربة الانتفاضة أثبتت للفلسطينيين أن الحكومة الاسرائيلية تتفوق في مجال الإعلام.

الحملة الأمريكية ضد انتفاضة الإنترنت

والحملة الأمريكية ضد ما يسمى بشبكات الإرهاب انتقلت أيضا إلى الإنترنت، وحسب صحيفة «ليبراسيون» فإن القاضي الفرنسي «جون بول» قام باستجواب المسئول على موقع «ستكوم - نت» إسماعيل بدروني، لأنه بث تقارير داخل الموقع تشير إلى أن العمليات الاستشهادية هي نوع من الدفاع عن النفس وتم إغلاق الموقع. وتشير ليبراسيون إلى أن معظم الشركات الغربية وخاصة الأمريكية التي تسمح بإنشاء مواقع تخاطب المسلمين على الإنترنت بدأت منذ انفجارات أمريكا إما أن ترفض استمرارها في بث هذه المواقع أو إغلاقها. ويذكر أن نظام مسئولية شركات الإنترنت تجاه الصفحات والمواقع التي تبثها على الإنترنت يختلف من بلد إلى آخر، ففي فرنسا صدر قانون في أول أغسطس

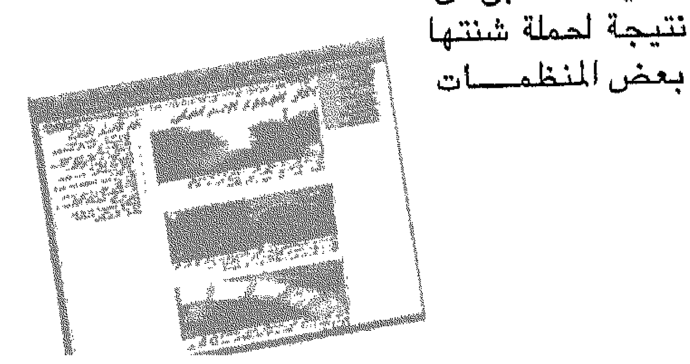


٢٠٠٠ يتيح لشركات الإنترنت منع نشر محتوى أى صفحة تحتوى على مضامين تشجع على التظاهر غير المشروع، وهو ما سهل على أى شركة فرنسية تضم مواقع على الإنترنت أن تغلق أى موقع لها بمجرد الادعاء بأنه يحرض على التظاهر على نظام معين .. ويشار إلى أن الإدارة الأمريكية قد أعلنت يوم الإثنين ٨/١٠/٢٠٠١ أنها خصصت ١٠ ملايين دولار لتدشين حرب جديدة ومكثفة ضد ما يعرف بالإرهاب الشبكى الذى يعتبره عدد من المسئولين الحكوميين ومن خبراء الإرهاب يمثل تهديدا خطيرا للأمن القومى الأمريكى.

ويذكر ايضا أن الكثير من الخبراء قالوا بأن الخاطفين الذين نفذوا هجمات ١١ سبتمبر فى امريكا استخدموا شبكة الإنترنت من خلال المقاهى العامة ومحلات الإلكترونيات لترتيب الاتصالات فيما بينهم دون أن يتم اكتشافهم. وفى أواخر عام ٢٠٠١ قام مكتب التحقيقات الفيدرالى بأول عملية من نوعها سجلت سابقة فى الرقابة على الإنترنت إذ اقتحمت مكاتب شركة انفوكوم كوربوريشن فى ولاية تكساس وأغلقت مواقع عربية وإسلامية عدة تبث عبرها، بذريعة أنها تروج لمعاداة السامية أو ترتبط بمنظمات تعتبرها إرهابية. وكان بين أبرز المتضررين من الحملة موقع الصحيفة الالكترونية «عروب دوت كوم» التى تعمل فى رام اللّه (الضفة الغربية) والتى اعتبرت الاجراء سياسياً، ويدخل فى إطار الإرهاب الالكترونى. وتعتبر عملية « أف بى آى » نتيجة لحملة شنتها بعض المنظمات اليهودية فى الولايات المتحدة، وتحديداً الناشط فى محاربة المنظمات الإسلامية المناهضة لإسرائيل فى الولايات المتحدة دانيال بايبس. وهى أدت إلى قيام السلطات الأمنية الأمريكية بفتح تحقيقات لوقف نشاطات هذه المنظمات التى تعتبر مرتبطة بنشاطات حماس والجهاد الإسلامى على شبكة الإنترنت أو داعمة لها. وقالت مصادر أمنية أمريكية إن تفتيش مكتب شركة انفوكوم يصب فى هذا الاتجاه بعدما تبين للسلطات أن هذه الشركة تقدم خدمات لمواقع انترنت تروج ضد إسرائيل وتعتبر معادية للسامية. وذكرت هذه المصادر أن التحقيقات تتركز على معرفة المالك الحقيقى لهذه الشركة ومصادر تمويلها، وأشارت إلى أن هناك شكوكاً فى أشخاص مرتبطين بحركة حماس، وكان بايبس قد نشر مقالة فى وول ستريت جورنال أشار فيها إلى نشاطات حماس والجهاد على شبكة الانترنت فى الولايات المتحدة. ومن المواقع التى ذكرها «قدس كول دوت كوم وفلسطين انفو اكت» ودعا بايبس الحكومة الأمريكية إلى العمل فوراً على اقفال المواقع المذكورة ومواقع أخرى مشابهة عملاً بقرار تنفيذ صادر فى عام ١٩٩٥ عن الرئيس الأمريكى يسمح فيه للسلطات الفيدرالية بمنع أى عملية مالية فى الولايات المتحدة إذا ثبت أنها مرتبطة بواحدة من ٢١ منظمة تعتبرها واشنطن إرهابية، وبينها حماس والجهاد الإسلامى. وأشار إلى أن التهمة التى وجهت لهذه المواقع هى ممارسة التحريض على الكراهية والعنف والارهاب والعداء للسامية.

حرب الإنترنت بين العرب وإسرائيل

ونذكر القارئ أنه مع بداية



الانتفاضة في أواخر عام ٢٠٠٠، كانت مجموعة من الهاكرز الإسرائيليين هم الذين بدأوا هذه الحرب من خلال محاولة إسكات المواقع العربية التي بدأت في توظيف ما يحدث في فلسطين لفضح الممارسات والسياسات الإسرائيلية عبر شبكة الإنترنت. إلا أن الدفة سرعان، ما تحولت بشكل سريع لتصبح المواقع الإسرائيلية هدفاً لسيل من الهجمات المضادة قادها مجموعات من الشباب العربي من مختلف أنحاء العالم. وتطوع البعض بإنشاء مواقع لاستخدامها في عمليات الهجوم، ففي الوقت المحدد للهجوم يطلب من زوار الموقع الضغط على أحد الأزرار المرتبطة ببرنامج يقوم بتحويل هذه الضغطة إلى سيل من الإشارات الإلكترونية التي تضرب الموقع المستهدف وتؤدي إلى انهياره وخروجه من الخدمة لفترة من الزمن تطول وتقصر حسب مدة الهجوم وقوته وعدد المشاركين فيه، وكانت حصيلة الصراع سقوط ٣٥ موقعاً للإسرائيليين على الإنترنت، بينها موقع الكنيست وبعض الوزارات، وحتى المواقع الشخصية وبعض السياسيين، مثل أرييل شارون، ومواقع مالية، والبورصة الإسرائيلية، ومواقع اقتصادية متعددة، بالإضافة إلى مراكز بعض أعضاء اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسهم السيناتور الجمهوري رودي بوشيتيز عضو الكونجرس السابق وبعض أفراد أسرته والمخرج السينمائي ستيفن سبيلبرج وزوجته والإعلامي المشهور تيد تيرنر مؤسس شبكة السي أن أن والممثلة جين فوندا والملياردير مان روزنبوج وعدد كبير آخر من مشاهير المجتمع الأمريكي. وهذا جاء رداً على المحاولات الإسرائيلية المتعددة في فتح نوافذ أمنية داخل أجهزة الاتصالات العربية خاصة العائدة للسعودية وحزب الله وحركة الجهاد الإسلامي. ويقول (أوجست هانينج) مدير جهاز الاستخبارات الألمانية إن الحروب ستدور من الآن فصاعداً في مجال المعلوماتية، وخصوصاً الإنترنت ، وأن استخبارات دول العالم تهتم بالتكنولوجيا الجديدة، وتدرب جيوشها على القرصنة المعلوماتية مشيراً إلى اهتمام الدول بالفيروسات لشل أنظمة دول أخرى والتجسس عليها.

وأدت العمليات العسكرية الإسرائيلية الأخيرة في اجتياح الأراضي الفلسطينية المحتلة إلى توقف شبكات الكمبيوتر التي تعمل من المنطقة. فقد أصيب الكثير من مواقع الانترنت في الأراضي الفلسطينية بالشلل التام لعدة أسابيع ومن بينها معظم المواقع الحكومية الفلسطينية. ويعكف الفنيون الفلسطينيون منذ انسحاب القوات الإسرائيلية على إصلاح شبكة الاتصالات المعطوبة. وفي المقابل أدت العملية الإسرائيلية كذلك إلى تزايد هجمات الهاكرز على مواقع الإنترنت الإسرائيلية وذلك بالرغم من أن معظم المواقع الحكومية الإسرائيلية لا تزال تعمل بانتظام. وقد بدأ اختفاء المواقع الفلسطينية عن شبكة الإنترنت في أبريل الماضي عندما هاجمت القوات الإسرائيلية مقر شبكة الاتصالات الفلسطينية «بالتيل» في نابلس بالضفة الغربية، والتي أنشئت عام ستة وتسعين بتكلفة بلغت ٦٥ مليون دولار وكانت توفر خدمة الاتصالات الهاتفية للأراضي

الفلسطينية. وقد لجأت معظم المواقع المعطلة إلى إعادة توجيه زوارها إلى صفحات مؤقتة على موقع مقره فى الولايات المتحدة هو «إلكترونيك إنتفاضة»، وذلك بعد أن دمرت جميع أجهزة الكمبيوتر دمرت وخربت وجمعت وألقيت فى كومة كبيرة فى المداخل، كما انتزعت الأقراص الصلبة لهذه الأجهزة، ومعها أجهزة الفاكس والطباعة. والهدف الواضح من إلحاق الضرر بمواقع الإنترنت وتجهيزات الاتصال هو الحد من قدرة الفلسطينيين على استخدام الشبكة الدولية للمعلومات فى نشر تطورات ما يحدث فى أراضيهم، ولايتكرر ماحدث على الإنترنت مع بداية الانتفاضة فى سبتمبر عام ٢٠٠٠ ، لكنهم ينسون أن معظم الهجمات الإليكترونية الأخيرة جاءت من خارج الاراضى الفلسطينية وأن معظم الدعاية الفلسطينية تتم عبر الإنترنت لا تعتمد على المواقع فقط بل على رسائل البريد الإلكترونى من موقع الأحداث.

وقد تكون حرب الإنترنت هى التعبير الحقيقى عن الحرب السرية الساخنة، التى تدور رحاها بين الأجهزة الأمنية العربية والإسرائيلية المدعومة من قبل السفارات الغربية المتناثرة فى العواصم العربية، والتى تتناول كل القطاعات ولم تقف عند حدود التجسس على القدرات العسكرية التى يمتلكها هذا البلد أو ذاك، والتى بدأت تطال القطاعات الاقتصادية والشركات التجارية النشطة

وفى رأى الباحث الألمانى هانز بيرند برسيوس مدير معهد علم الاتصال بجامعة لودفيج ماكسيميليان بميونيخ أن فرص الحرب والسلام فى الشبكة تحمل فى طياتها تحديات تواجه الجهود البحثية فى حقل الاتصالات خاصة فى الواقع الخارج عن السيطرة الذى يتجلى فى الإنترنت ، وما ينتابه من تنام كبير للمواجهات والاعتداءات الإلكترونية على خلفية سياسية واستراتيجية .

ويشكو مدير قسم الإعلام والاتصال بالجامعة العبرية فى القدس المحتلة البروفيسور تامار ليبيز من ظاهرة تدنى المستوى العام لما هو مطروح فى شبكة الإنترنت ، إذ إنه سيقود إلى مضاعفات من بينها تفاقم ظاهرة الحرب الإلكترونية فيها ، كما جاء فى ورقته البحثية التى حملت عنوان «حرب الأشكال: استنفار الإعلام القديم والجديد ».

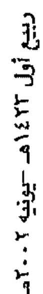
وفى دراسة عن « دور الإنترنت فى الصحافة الفلسطينية»، لاحظ الباحث الفلسطينى إلياس زنانيرى أن كثيرا من الحالات المرتبطة بالمواجهة عبر الإنترنت تبقى متوارية عن إدراك عموم الجمهور، ففى إحدى الحالات جرى اعتقال ثلاثة أشقاء فلسطينيين بطريقة همجية على أيدى السلطات الإسرائيلية إذ اتهمتهم الأخيرة بأنهم يشاركون فى الهجمات الإلكترونية على مواقع إسرائيلية من خلال متجر الحواسيب الذى يديرونه فى تل أبيب، وتضمنت قائمة الاتهامات الموجهة اليهم، التسلل إلى حاسوب مفاعل نووى إسرائيلى والتنصت على الاتصالات الإلكترونية للمخابرات الإسرائيلية وتعطيلها ، وبالإضافة إلى تزويد السعودى أسامة بن لادن بتقنيات للاتصالات اللاسلكية آمنة من التجسس . وأوضح الباحث الذى يعمل نائباً لمدير المركز

الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية في رام الله « مدار » أنه ليس من المعروف ما آلت إليه التحقيقات مع الأشقاء الثلاثة، خاصة في ظل السرية المطلقة التي فرضتها السلطات الإسرائيلية على قضيتهم ورفضها السماح لمحامين فلسطينيين بالاتصال بهم . وتطرق زنانيري إلى أهمية شبكة الإنترنت بالنسبة للفلسطينيين، الذين يجدون فيها حرية واسعة النطاق بعد أن فرض الاحتلال الإسرائيلي الرقابة المشددة عليهم طوال عقود متواصلة . وأشار باهتمام إلى ظاهرة انتشار مقاهي الإنترنت في التجمعات السكانية الفلسطينية وامتلاك الفلسطينيين لشبكة من الاتصالات المعلوماتية الحديثة، مقابل امتلاك الدولة العبرية لصناعة معلوماتية هائلة وقاعدة تقنية متفوقة تحظى بشركات عالمية معروفة في حقل تقنية المعلومات والاتصالات .

وفي ندوة عقدت في جامعة بن جوريون منذ شهور باسم «معركة الخوادم، معركة القلوب : الإعلام الجديد والحرب المعلوماتية » أعرب فيها الحاضرون عن مخاوفهم من الجماعات الإسلامية الناشطة والمتطرفين المسلمين الذين وجدوا بعضا من ضالتهم في دنيا الإنترنت التي أتاحت لهم تكوين مجتمعات عريضة متشابهة فكريا وأضافت «ليمور يجال» المحاضرة في العديد من الجامعات الإسرائيلية عن الإرهاب والإنترنت تقول : «لقد أدرك المسلمون أهمية الإنترنت مبكراً جداً » وحذرت من أن المسلمين « طوروا بسرعة استراتيجية ما أطلق عليه بالجهاد الإلكتروني e-jihad or online jihad، وأنشأوا مجتمعا إسلاميا على الإنترنت يربط أطراف العالم الإسلامي ويوحد المسلمين ويتعاضد فيه مثلا مسلمو أفغانستان والجزائر مع المسلمين في إسرائيل ! إنهم ليسوا فقط مجموعة من المسلمين أضافوا حرف « C » لنشاطاتهم، وأن هذا النزاع قد يجذب بعضا من المجموعات المسلمة الأخرى ذات الحضور القوي على الإنترنت ، والتي لم تدل بدلوها في ذلك النزاع « وكلما تعقد ذلك النزاع فإن الوقت المتاح لكل من الجانبين سوف يعطي الفرصة لإعداد فيروسات الكمبيوتر، الأمر الذي لن يقتصر بالطبع على المستهدف من الجانبين، بل سيتطاير شرره ليلحق أضرارا بأجهزة الكمبيوتر في العالم بأجمعه».

وبالرغم من أن الهدف المعلن لمركز مجتمع الشرق الأوسط الفعلي MEViC هو محاولة إنشاء الحوار المباشر بدلا من العدائية، فإن تساوي كفتي الصراع على الإنترنت ، وعدم رجحان ميزان قوى المعركة على الإنترنت لصالح إسرائيل أقلق مؤسس المركز مايك داهان وحدا به إلى القول بأن « كلا الجانبين في الصراع العربي/ الفلسطيني - الإسرائيلي يستثمر قنوات التوزيع في حرب الإنترنت cyber-war » .. فهم يتراسلون فيما بينهم بعروض البور بوينت، والرسوم المتحركة بفلاش، والتوزيع غير معقول .. مئات الآلاف من الرسائل يتناقلونها ، ويمررونها لبعضهم .. لكن ذلك ليس ببساطة مجرد محاولة لإذاعة «المعلومات». وأوضح داهان قائلا : «إن ذلك يدفع الناس سواء في مناطق السلطة الفلسطينية أو أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية للنزول للشوارع





، ولاتنحصر الأنشطة فقط على الإنترنت » . ويشاركه كينيث برييس الأستاذ بجامعة بن جوريون رأيه قائلا : « إن مشاهدة العنف الجارى فى إسرائيل أو أراضى السلطة أو القراءة عنه يدفع للمشاركة فيه بدلا من كبته ». من الواضح أن مرارة ويأسا قد أصابا إسرائيل من تلك الانترفاضة ، الأمر الذى جعل الأستاذ موتى سوكولوف من جامعة تل أبيب يرد قائلا : « هناك الكثير من القوانين ضد إراقة الدماء والسرقة ، لكن أى شخص يريد أن يقتل سوف يقتل ، وأى شخص يريد أن يسرق سوف يسرق، إن الأمر أكثر تعقيداً على الإنترنت، والقوانين وحدها لن تساعد » !

مستقبل المواجهة الإلكترونية

ويبدو واضحا من الأحداث التى تشهدها شبكة الإنترنت منذ اندلاع الانتفاضة أن حرب المعلومات بين العرب وإسرائيل مرشحة للاستمرار لفترة طويلة وخاصة أن العديد من الشباب العربى يرى فى هذه الحرب الوسيلة الفعالة للجهاد ضد إسرائيل بعد أن أغلقت كل السبل الأخرى أمامه .

إلا أن الأسئلة التى تطرح نفسها بشدة فى هذه المرحلة وتحتاج إلى إجابات شافية تدور حول إمكانية أن تتحول هذه الحرب من معارك بين مجموعات من الهواة والمتحمسين لقضاياهم إلى حرب معلومات شاملة بين العرب وإسرائيل؟ وما الذى يمكن أن تسفر عنه مثل هذه الحرب؟ وهل استعدت لها الأطراف المختلفة بالشكل الكافى؟ كيف يوظف العرب المواجهة الإلكترونية وإمكانيات شبكة الإنترنت إعلاميا خاصة فى ظل اختلاف اللغة التى نفهمها ونتكلمها عن اللغة المعولمة السائدة فى العالم الآن؟! فنحن نرى المقاومة الفلسطينية نضالا مشروعا لتحرير الأرض ، والعالم اتفق حول مقاومة الإرهاب، فى إسرائيل، وايرلندا الشمالية والباسك وكورسيكا والتيبت والشيشان وأنجولا، بل أيضاً فى ايطاليا مع الألوية الحمراء واليابان مع الجيش الأحمر وتركيا مع حزب العمال الكردى، العرب يعتبرون تخريب مواقع إسرائيل على الإنترنت ردا مشروعا على مهاجمة مواقعنا ، بل وصدرت فتاوى دينية تحلل ذلك ! والعالم يعتبر ذلك نوعا من الارهاب الشبكى الذى يهدد بنية الإنترنت ! نحن مازلنا نستخدم فى خطابنا الرسمى والإعلامى مصطلحات مثل الوطنية ، والجهاد ، وحركات التحرير، والاستعمار! والعالم كله اعتبر تلك المسميات خارج لغة العصر ، وفى سبيلها للانقراض ! نحن نعتبر الاستشهاد بطولة وشجاعة، ومنتهى التوحد مع تعاليم الإسلام ، والعالم يعتبر الشهادة ليست إلا وجهاً من وجوه الإرهاب، أو تعبيرا عن اليأس والإحباط، !

اليوم ، كيف نقنع العالم بعدالة القضية الفلسطينية؟ وأن المقاومة الفلسطينية ليست إرهابا ! نحن فى حاجة إلى مراجعة دورية لطريقة تفكيرنا التى تظهر فى لغة إعلامنا، علينا أن نتقن اللغة الاعلامية التى يفهمها عالم القرن الحادى والعشرين ، وننقل قضايانا ووجهة نظرنا بطريقة يفهمها بقية العالم ، فالحرب منذ الآن اعلامية والهزيمة الحقيقية لم تعد عسكرية بل أصبحت سياسية فقد هزم البوسنيون وألبان كوسوفو وسكان تيمور

الشـرقـيـة فى الحـرب العـسكرية لكنهم كـسـبـوا الحـرب الاعـلامـيـة فـهـزمـوا أعـداءهم. وإسرائيل نجـحت على مـدى عـقـود فى اسـتـمـالة مـعظم الإعـلام الأمـريكى والغـربى عـمـومـاً وتسـخـيـره لصـالحـهـا فـهى خططت ونفذت ووضـعت اسـتـراتيـجـيات وطبقـتـهـا، ونجـحت فى إدراك أهـمـيــة الإعـلام ووسـائل كـسب المـؤيـدين . وتـألـيـب الـعــــالـم عـلى الفلسطينيين والعـرب والمسلمين ونحن فشلنا إعلاميا فى إقناع العالم بأن صور الشهداء من الأطفال والنساء الملتفة بعلم فلسطين ، هـى صـور لضـحـايا إرهـاب إسـرائيل ، وليست استـعـراضـا لجـثث الموتى لإثارة مشاعرهم وتعاطفهم وهذا الفـشل يسـتـوجب توظيف الإنتـرنت إعـلامـيـاً ومـخـاطبـة العـالم بلغـاته الأسـاسـيـة، وبث ونقل كل مـا هو عربى من تراث وفنون وحضـارة وثقـافـة وفكر ليتعرف العالم علينا عن قرب ! فالحرب مع إسرائيل الآن هى حرب حضارية فى الأصل ويجب تعبئة الجهود لسد الفجوة الإعـلامـيـة الرقـمـيـة بيننا وبينهم فـهى حقيقية حيث يعتقد الكثيرون منا أن الصراع بيننا وبين إسرائيل هو صراع عسكرى وسياسى فحسب، وما ذلك إلا لأن هذين الوجـهين من الصـراع هـمـا الوجـهــان الظاهران اللذان تنقل لنا وسائل الإعلام أطرافاً منهما باستمرار ، ولا أظن أن ذاكـرة أى عـربى تخلو من صور شنيعة تركتها فى وجدانه سلسلة القهر والظلم والعدوان ، التى كانت دير ياسين من أوائل حلقاتها، ولن تكون قانا وعناقيد الغضب ومقتل محمد جمال دره ومـذبحـة جنين هـى آخرهـا غـيـر أن صراعنا مع إسرائيل يمتد عبر مواجهات أخرى ، لاتنقل لنا وسائل الإعلام أخبارها كما تنقل أخبار الاعتداءات المسلحة وتهديم البـيـوت وتهـويد الأراضـى العـربيـة والاستيطان، مواجهات تعتمد على العقل والعلم، تلك هى مـواجـهـات التـقـنيـة والكمبيوتر والمعلوماتية الإعلامية ! فتخلفنا العلمى وصل إلى حد الهزيمة ، وأننا مالم نتحرك بكل جدية وإصرار فإن مستقبلنا بل وجودنا كله سوف يصبح فى ذمة التاريخ ، فالفجوة فى التقنية والكمبيوتر والإعلام كبيرة وآخذة فى الاتساع بين الدول العربية وإسرائيل لصالح الأخيرة، فإسرائيل تقوم منذ الآن بتـصـنيع الجـيل الثـانى من الإنتـرنت ! وهى تهـيـمن الآن على الأدوات المخصصة لأمنها!

إن الذى نحـتـاجـه لتـدارك وسـد هذه الفـجوة الفـادحـة فى تقنيات الإعـلام ، هو ثورة علمية شاملة ، تجند لها جميع طاقات الأمة، وتشترك فى دفعها وإشعال وقودها الحكومات والمؤسسات والهيئات والأفراد، كل بحسب طاقته ، وبحسب موقعه ، هذا هو خيـارنا الاستـراتيـجى الوحـيـد . اننا نحتاج لتعديل موقفنا السلوكى المنفصم عن العلم والحـداثة، فـفى الوقت الذى نستـخـدم فـيـه ثمـار العلم من كمـبـيـوتر وإنتـرنت ، ومـحطات فـضـائيـة وطائرات وسـيـارات نرفض المبادئ العـقليـة التى يؤسس عليـها العلم، ولقـد بات واضحـا أن المستقبل لن ينتظرنا !

■

العنف والصهيونية العنصرية

بقلم
د. قــدرى حفنــى •

لابد للكتابة من هدف.. ولم يكن بد من أن التساؤل بداية: تري هل من فائدة ترجي من الكتابة بالعربية عن الإرهاب الإسرائيلي ؟ هل القاريء العربي في حاجة حقا لمن يكتب له عن الإرهاب الإسرائيلي؟ ألا يكفينا ما تنقله أجهزة الإعلام بالصوت والصورة للممارسات الإسرائيلية الإرهابية ليستغني بها القاريء عن أي حروف مكتوبة؟ هل مازلنا نحن الناطقين بالعربية في حاجة لمن يقنعنا بحقيقة ما نراه بأعيننا؟.. لعل من يحتاجون لتلك الكلمات وربما لما هو أكثر من الكلمات هم أولئك الذين شاهدناهم يتظاهرون في شوارع العديد من المدن الأمريكية والأوروبية تأييدا لإسرائيل، والخطاب في هذه الحالة ينبغي أن يكون بلغتهم هم، تري لمن إذن تتوجه هذه الكلمات؟

إن بعض شبابنا الذين يتواصلون مع العالم الغربى سواء بالاتصال المباشر كدارسين أو عاملين أو زائرين أو عبر قنوات الاتصال الأخرى كالانترنت أو غيرها تنقصهم المعلومات اللازمة لتفنيد وجهة النظر المقابلة، فيرتج عليهم القول، وتختلط الأمور.. ولذا فإن هذه الأسطر قد تعنى شيئا بالنسبة لهؤلاء .

قد نواجه بمن يحاول إثبات أن تاريخ اليهود يشهد بأنهم كانوا ومازالوا ضحايا العنف والكراهية من الآخرين.. وكثيرا ما نندفع فى حماس محاولين إثبات أن تاريخ اليهود بل وحاضرهم ملىء بالمذابح التى اقترفوها ويقترفونها حيال العرب المسالمين، ويكون الرد من الطرف الآخر استعراض لتاريخ من العنف العربى، لنندفع فى محاولات مستميتة للدفاع والنفى.

• استاذ علم النفس - جامعة عين شمس



صوره لعدد من افراد عصابة «الهاجاناه» التى كانت إحدى دعائم تأسيس الكيان الصهيونى

إن التاريخ البشرى لم يعرف جماعة لم تمارس عنفا، أو لم تتعرض لعنف بصورة أو بأخرى، وليس من استثناء فى هذا الصدد، الجميع مارسوا العنف، لكن عنف الجماعات يكون فى أغلب الأحيان عنفا موقوتا بمعنى أن الجماعة قد تقلع عنه اختيارا أو إجبارا دون أن يعنى ذلك تهديد وجودها ذاته.

غير أنه فى حالات نادرة يكون ذلك العنف بمثابة ضمان استمرار حياة الجماعة بتشكيلها الراهن، بحيث يصبح الكف عن ممارسته نذير يهدد جوهر تكوين الجماعة ومن ثم تفككها.

وعلى أى حال فإن تباين الجماعات البشرية من حيث ممارستها العنف، وكذلك من حيث نوعية العنف الذى تمارسه، إنما يرجع للعديد من الظروف الحياتية المحيطة بها وأهمها أساليب التنشئة الاجتماعية التى تمارسها حيال أبنائها.

العنف والتنشئة الاجتماعية

إن نظرة فاحصة إلى المجتمع فى علاقته بأفراده تكشف لنا حتما عن حقيقة أن الفرد يخضع منذ لحظة مولده لتأثير عدد كبير من المنظمات الاجتماعية المتباينة الوظائف، والتى تقوم جميعا بالاسهام فى عملية التنشئة الاجتماعية، ولسنا بصدد تعداد تلك المنظمات على سبيل الحصر، بل يكفى على سبيل المثال أن نشير إلى أن الوليد، ما أن يرى الحياة – بل حتى قبل أن يتمكن من رؤيتها بالمعنى العلمى – يخضع لأشد المنظمات الاجتماعية تأثيرا وخطرا على نمط شخصيته أعنى الأسرة بما تضمه من أدوار مختلفة للأب والأم والأخوة وغيرهم، وما أن يشب الطفل عن الطوق تتلقفه

مجموعة الأقران التى تمارس أيضا تأثيرها عليه فى نفس المجال، وفى نفس الوقت تبدأ المؤسسات التعليمية فى ممارسة تأثيرها أيضا لنفس الهدف، والأمر كذلك بالنسبة للمؤسسات الايديولوجية، والدينية، والإعلامية، والتشريعية ونستطيع أن نحصى الكثير والكثير من أسماء تلك المنظمات.

وتسهم عملية التنشئة الاجتماعية بهذا المعنى فى مجالين مهمين فيما يتصل بالتكوين السيكولوجى للمجتمع.

أولا: مجال التفاعل الأفقى - إذا صح التعبير - بين أفراد هذا المجتمع أى أنها العملية التى يتم من خلالها توحيد أو تفتيت الجيل المعاصر فى أى مجتمع.

ثانيا: مجال التفاعل الرأسى - إذا صح التعبير - بالنسبة لهذا المجتمع - أى أنها العملية التى يتم من خلالها محاولة الجيل الحالى غرس ما يود غرسه من قيم وأفكار فى الجيل التالى له:

وتختلف عملية التنشئة الاجتماعية فى إسرائيل عن نظيرتها فى المجتمعات التى تشكلت عبر عملية تراكم تاريخى طويلة، إذ أنها تمثل البوتقة، أو أداة الصهر التى يتم من خلالها «اصطناع» ذلك المجتمع، وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولا: أن إسرائيل تضم شتاتا من الأفراد المنتمين إلى مائة قومية تختلف بقدر يزيد أو يقل من حيث قيمها وعاداتها واتجاهاتها، أو باختصار من حيث تكوينها السيكولوجى وليس من سبيل لصنع مجتمع من ذلك الشتات إلا من خلال تخطيط وتوجيه ومتابعة لعملية التنشئة الاجتماية بالنسبة لأفراد ذلك المجتمع بهدف خلق التكوين السيكولوجى المشترك بينهم.

ثانيا: إذا كان وجود جماعات فرعية خارجة على المعايير السائدة فى مجتمع معين أمر يهدد ذلك المجتمع بشىء من التفكك، فإن عدم وجود مثل تلك المعايير أصلا أمر يهدد بالفشل تجربة صنع المجتمع من أساسها.

بوتقة الصهر

إذا ما نظرنا إلى جيل الرواد الصهاينة الأوائل الذين يطلق عليهم الحالوتسيم والذين قدموا إلى فلسطين محملين بطابع الحياة التى كانت تسود أحياء الجيتو فى أوربا آنذاك، نتبين أن التكوين السيكولوجى لذلك الجيل قد تميز بعنصرين أساسيين هما الشعور بالتمايز، والشعور بالاضطهاد.

وبعد قيام الحركة الصهيونية توالت عمليات تهجير اليهود من شتى أنحاء العالم إلى أرض فلسطين، واستمرت موجات التهجير اليهودى بعد قيام دولة إسرائيل وحتى اليوم، ولم يكن غريبا والأمر كذلك أن يضم المجتمع الإسرائيلى المعاصر بين جنباته أبناء من مائة قومية مختلفة ومتباينة، ولم يكن بد من أن تسعى الصهيونية لخلق البوتقة المناسبة لصهر ذلك الشتات، بحيث تكون تلك البوتقة ملائمة لتوجهها الفكرى العنصرى، ذلك الفكر الذى يقوم على أركان ستة متكاملة:

- أن تتحقق صهيونية كل اليهود، بانتهاء ظاهرة الرفض اليهودى للصهيونية.



- أن تضم دولة إسرائيل كافة اليهود، بانتهاء ظاهرة يهود الشتات.
- أن يتحقق النقاء السكانى للدولة اليهودية، بإنهاء الوجود البشرى الفلسطينى.
- أن يتحقق الانسجام السكانى اليهودى داخل الدولة بإنتهاء التمايز العرقى بين اليهود.
- أن يتحقق النقاء الروحى للدولة اليهودية، بسيادة الطابع الدينى اليهودى عليها.
- أن تتطابق الخريطة الدينية مع الخريطة السياسية للدولة اليهودية، يتحقق مقولة إمتداد أرض الميعاد من النيل إلى الفرات.

ولو نظرنا إلى الركن الثالث من أركان الفكر الصهيونى العنصرى لاتضح لنا أنه لا يقبل أساسا بوجود شعب فلسطينى ، ومن ثم فإنه يسعى بلا هوادة لاستئصال هذا الشعب وإخلاء أرض الميعاد لتصبح خالصة لأولئك الصهاينة، ولعلنا لذلك لم نفاجأ بموافقة غالبية أعضاء حزب الليكود فى مؤتمرهم الأخير فى مايو ٢٠٠٢ على رفض مبدأ قيام دولة فلسطينية أيا كانت طبيعتها، وغنى عن البيان أن إخلاء أرض من سكانها لا يمكن أن يتم بالشكل المطلوب إلا بالعنف والإرهاب، وما دام الأمر كذلك فليس من سبيل سوى تنشئة الأجيال الجديدة على أقصى درجة ممكنة من تحقيق ذلك الهدف.

وواجه صهاينة إسرائيل مشكلة عويصة، كيف ينشئون أبناء ما يزيد عن مائة قومية تنشئة اجتماعية موحدة، فضلا عن الطبيعة الدموية العنصرية المطلوبة لتلك التنشئة؟ اتبع الصهاينة آليتين متكاملتين.

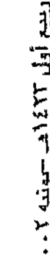
الأولى: اختراع الخطر

لقد قامت إسرائيل منذ البداية كتجمع استيطانى عسكرى يضم أبناء قوميات عديدة يتباينون فى أصولهم الحضارية، ولم يكن ثمة ما يمكن أن يوحدهم تمهيدا لصهرهم سوى زرع الإحساس بالخطر فى أعماقهم بحيث يستشعرون دوما بأن العالم المحيط بهم - أى العالم العربى - يهددهم بالفناء، مع تأكيد مواز للقدرة العسكرية الإسرائيلية للتصدى لذلك التهديد وكانت تلك هى المهمة الأساسية التى مارسها باقتدار قادة ومؤسسو إسرائيل ومازالوا يمارسونها حتى اليوم ، مهمة ترويع يهود إسرائيل لكي يتوحدوا، وتأكيد قدرة الدولة على حمايتهم ولم يكن النجاح في هذه المهمة يعنى توحيد الشارع اليهودى الإسرائيلى فحسب، بل كان يعنى أيضا تحقيق أهداف استراتيجية ثلاثة لا تقل عنه أهمية بالنسبة لاستمرار بقاء إسرائيل كما هى عليه:

الهدف الأول: هو ترويع يهود العالم بحيث يتضخم لديهم الدافع للهجرة إلى إسرائيل أو على الأقل فإنهم تحت وطأة الشعور بالإثم والتقصير لا يترددون فى مضاعفة دعمهم المادى والسياسي للوجود الإسرائيلي.

الهدف الثانى: هو كسب تعاطف العالم الغربى مع إسرائيل خاصة وأن استراتيجية بقاء إسرائيل منذ رسمها هيرتزل تقوم على اعتماد وجودها على توافر تحالف قوى مع قوة عظمى.

الهدف الثالث: هو تخدير الشارع العربى، بتدعيم إحساس زائف لديهم بأننا -







حرق المسجد الأقصى إحدى جرائم الصهيونية

«روهان» المتهم بحرق المسجد الأقصى يشير الى ما جنت يداه

على ما نحن عليه – الطرف الأقوى الذى يثير رعبا لا حد له لديهم، مما يدفعنا إلى الاسترخاء وترك إسرائيل لتموت رعبا.

الثانية: المثل الأعلي الكيبوتزي

ليست عملية التنشئة الاجتماعية فى النهاية سوى عملية تعلم أو تعليم .. تعلم لعادات معينة، وتقاليد معينة، وقيم معينة، وأنماط معينة من سلوك، وما إلى ذلك، ورغم الأهمية البالغة للدور الذى تلعبه اللغة فى عمليات التعلم بعامة، وفى عملية التنشئة الاجتماعية بوجه خاص إلا أنها – أى اللغة – ليست السبيل الوحيد أيضا لبلوغ عملية التنشئة الاجتماعية غايتها المرجوة ثمة نوع من التعليم الصامت إذا صح التعبير.. تعليم يستغنى عن الكلام أى يستغنى عن قيام حوار بين معلم ومتعلم – ذلك النوع من التنشئة الاجتماعية الذى أشرنا إليه فيما سبق إشارة عابرة واصفين إياه بأنه يعتمد على «ضرب القدوة» أو «اتباع النموذج» أو «الاقتداء بالمثل الأعلى».

ولا تخلو جماعة بشرية من وجود نماذج تكون بمثابة المثل العليا لأفراد تلك الجماعة بعامة، يسعون إلى الاقتداء بها والسير على دربها والتمثل بتصرفاتها دون أن تسعى تلك النماذج سعياً ملموسا إلى دفع الأفراد لمثل ذلك السلوك وقد يختلف المثل الأعلى من فرد لآخر، ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود نماذج تعد مثلا عليا على نطاق المجتمع ككل، ويسعى المجتمع عادة إلى تأكيد وإبراز نماذجه هذه، والتى قد تكون شخصيات قيادية معاصرة، وقد تكون شخصيات تاريخية عرفها ذلك المجتمع فى تاريخه القديم أو الحديث، وسعى المجتمع فى هذا الصدد إنما هو فى النهاية،

سعى إلى تدعيم وحدة التكوين السيكلولوجى لأبنائه، وتدعيم لعملية التنشئة الاجتماعية التى تجرى فيه.

لقد لعبت الكيبوتزات الإسرائيلية دورا أساسيا فى تشكيل صورة «القدوة». ولعل أصدق ما قيل تعبيرا عن حقيقة الدور الذى تلعبه تجربة الكيبوتزات هو ما قاله المحلل النفسى اليهودى الصهيونى الأمريكى الجنسية برونو بتلهايم فى كتابه المعنون: أطفال الحلم.. بالنسبة لمسألة ما إذا كانت التربية المتبعة فى الكيبوتزات يمكن أن تقدم - أو إنها تقدم بالفعل - قادة لإسرائيل ، فإن المرء يمكنه أن يجيب على وجه التقريب.. بأنها تستطيع ذلك، ولكن بشكل فريد تماما: إنها تحقق ذلك بضرب المثل أكثر مما تحققه بتقديم انجازات حقيقية للأمة إنها تحقق ذلك من خلال رهبانية حديثة، أكثر مما تحققه من خلال الانجازات العقلية والعملية والاجتماعية التى اعتدنا أن نربط بينها وبين القيادة التغير..

خلاصة القول إذن أن أبناء الكيبوتزات هم النماذج والمثل التى تقدمها الصهيونية لأبناء إسرائيل لكى يقتدوا بهم.

والحديث عن تفصيل الحياة فى الكيبوتز حديث لا ينتهى، والاسترسال فيه قد يذهب بنا بعيدا عن موضوعنا الرئيسى لذلك فقد أثرنا أن نستخلص عددا من الخصائص العامة لتلك الحياة، رأينا أنها تمس موضوعنا مسا مباشرا.

أولا: أن تأسيس الكيبوتزات قد قام على أكتاف عدد من المهاجرين اليهود النازحين من أواسط أوروبا.

ثانيا: إن العمل الزراعى هو العمل السائد فى تلك الكيبوتزات.

ثالثا: تسود الكيبوتزات فكرة المساواة بين الجنسين بدرجة قد تصل إلى حد التطرف.

رابعا: يتناوب القيام على تربية الأطفال مربيات متخصصات من عضوات الكيبوتز يتولين رعاية أطفال الكيبوتز جميعا وبشكل مستمر سواء كان الآباء والأمهات فى العمل أو داخل الكيبوتز.

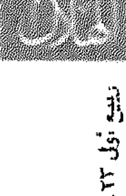
خامسا: تترك الأم طفلها بعد الولادة بأربعة أيام تحت إشراف المربية وتقوم الأم بإرضاع طفلها فى أوقات محددة بمعدل ست مرات يوميا إلى فطامه فى سن الثمانية شهور.

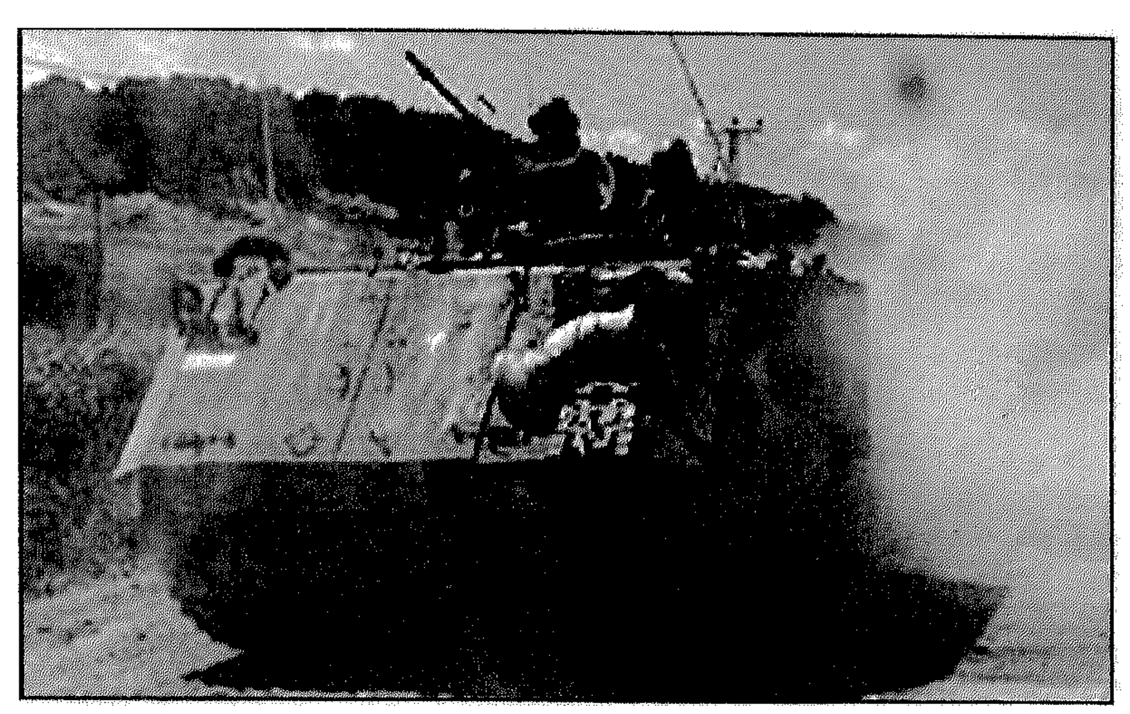
سادسا: عندما يبلغ الطفل من العمر ستة شهور يصبح من حق الوالدين أخذه إلى غرفتهما لمدة ساعة يوميا عند الظهيرة ثم إعادته إلى مكان تجمع الأطفال.

سابعا: تختلف تجمعات الأطفال فى الكيبوتز من حيث مكان التجمع وحجم التجمع وبرنامج النشاط اليومى وأيضا أشخاص المربيات حسب السن.

صحيح أن الكيبوتزات لم تعد تلتزم اليوم التزاما حرفيا بتلك القواعد القديمة فى تربية الأطفال، ولكننا نستطيع القول بأن قادة الكيان الصهيونى الذين يواجهوننا اليوم قد تشربوا بتلك التربية.

ترى ما هى الآثار التى يمكن أن تخلفها مثل تلك الخصائص التى ذكرناها على





لم يتورع الإسرائيليون عن استخدام الجيش بكامل طاقته فى تدمير البنية التحتية للسلطة الفلسطينية وقتل المدنيين العزل - ٢٠٠٢

أبناء الكيبوتزات؟

الكتابات فى هذا الصدد تفوق الحصر، ويكفى أن نستشهد فى هذا المقام بعالم النفس الأمريكى ملفورد سبيرو الذى يعد من أفضل من درسوا الموضوع، وسوف نكتفى بلمحات سريعة مما أورده سبيرو.

لقد رصد سبيرو لدى أطفال الكيبوتز ما أطلق عليه ظاهرة التناقص التدريجى فى الاستجابة للعدوان بالصراخ كلما تقدموا فى العمر، وأرجع ذلك لسببين:

أولا: إن الأطفال يتعلمون أن الصراخ لا يوقف المعتدى عند حده بل إنه فى كثير من الأحيان يدفعه إلى الاستمرار .. حيث انه بمجرد ان تنطلق الطاقة العدوانية لدى هؤلاء الأطفال المعتدين فانهم لا يبدون رحمة بل أن تألم الضحية لا يدفعهم إلا لمزيد من العدوان.

ثانيا: إن الأطفال يكتشفون مع تقدم السن أن الصراخ باعتباره وسيلة لجلب حماية المربية لم يعد مجديا لانشغالها بالعديد من الوجبات والمسئوليات.

كذلك يشير سبيرو إلى أن من أبرز ما يميز أبناء الكيبوتز من السابرا هو كراهية الغرباء بعامة والمهاجرين من الشرق الأوسط بصفة خاصة، وهم ينظرون إليهم باعتبارهم أدنى منهم ويطلقون عليهم لقب (Shchoism) أى السود - ويصبون عليهم كافة أنواع العدوان اللفظى والبدنى ويمتد ذلك العدوان ليشمل حتى الأوروبيين الغرباء على الكيبوتز ويرتبط ذلك بندرة إقامتهم لعلاقات انفعالية وثيقة مع بعضهم البعض، ويمضى سيبرو مفسرا تلك الخاصية بقوله «إن الانطواء إنما يعنى الابتعاد عن الآخرين أو تجنب إقامة علاقة بهم أصلا وإذا ما كان الابتعاد عموما يمثل



استجابة للألم، وإذا ما كان التجنب يمثل استجابة لتوقع الألم، فإن انطوائية أبناء السابرا قد يكون دافعها الألم الناتج عن خبراتهم المبكرة مع الآخرين، أو الألم المتوقع من مزيد من التفاعل مع الآخرين.. أى أنهم ينظرون إلى الآخرين باعتبارهم مصدرا للألم والخطر، وإذا ما كان الأمر كذلك فإن انطوائيتهم دليل على افتقارهم للأمن.

وتحت عنوان «الحقد» يؤكد سبيرو أن العجرفة هى بلا شك أكثر التعبيرات وضوحا لما يميز هؤلاء من حقد فى تعاملهم مع أعضاء الكيبوتز الآخرين.. ويمتد ذلك الحقد ليشمل من ليسوا أعضاء فى الكيبوتز أيضا، وإذا ما كان حقد السابرا فى تعاملهم مع أعضاء الكيبوتز يتخذ صورة العجرفة فإنه يتخذ فى علاقتهم مع الغرباء صورة الانسحاب العدوانى وأفضل تفسير لكل من الحقد والانسحاب قد يكون افتقاد الشعور بالأمن شأنهما شأن الانطواء تماما:

وماذا بعد؟

خلاصة القول إذن أن العنف إلى حد الإبادة العرقية مكون أصيل من مكونات الاستيطان الصهيونى العنصرى فى فلسطين، وأن الحفاظ على اشتعال جذوة ذلك العنف العنصرى قد اقتضى من توفير آليتين متكاملتين: اختراع الخطر العربى من ناحية، وترسيخ النموذج الكيبوتزى من ناحية أخرى.

وليس من سبيل أمامنا إلا اختيار واحدة من استراتيجيتين:

الاستراتيجية الأولى:

تحويل الخطر العربى «المخترع» إلى خطر حقيقى واقعى يجبر قادة إسرائيل على التخلى عن مكون العنف العنصرى الذى أقاموا عليه دولتهم، والمثال التاريخى القريب هو الحرب العالمية الثانية وما أسفرت عنه من تخلى ألمانيا عن العنصرية النازية، والقياس مع الفارق بطبيعة الحال.

الاستراتيجية الثانية:

كشف زيف الاختراع الصهيونى للخطر العربى الذى يهدد بإفناء إسرائيل ، وتبنى آليات الكفاح المدنى، ومن ثم دفع الشارع الإسرائيلى إلى العزوف عن تبنى العنف العنصرى حيال الفلسطينيين، والقبول بالتعايش السلمى، والمثال التاريخى القريب هو نموذج مانديلا وإجبار البيض فى جنوب أفريقيا على التخلى عن عنصريتهم والقبول بالتعايش ، والقياس أيضا مع الفارق بطبيعة الحال.

وغنى عن البيان أن لكل من الاستراتيجيتين تكلفتها وأعباءها وعائدها أيضا.. وليس بمقدورنا فى حدود تخصصنا العلمى المفاضلة بين الاستراتيجيتين، ولكننا نستطيع وفى حدود ذلك التخصص أن نؤكد أن المناخ الأفضل لازدهار العنف العنصرى الإسرائيلى يتمثل فى تهديد عربى دون خطورة حقيقية، أو فى دعوة للسلام تقف عند حدود الكلمات دون ممارسة آليات السلام الهجومى. ■





من هو الإرهابى..

الفدائى أم المحتل؟!

بقلم
مصطفى نبيل

قامت إسرائيل بما لم يتوقعه أحد، وبما يفوق كل التصورات العربية، عندما تجاهلت الاتفاقات الدولية والأصول المرعية، ولعبت القوة برؤوس ساستها، وأفرطت فى استخدامها، معتمدة على ترسانتها النووية، وقنابلها الانشطارية، ودعم الولايات المتحدة لها، ومستغلة الأجواء التى شاعت فى العالم بعد أحداث ١١ سبتمبر.

وها هو أحد الكتاب الإسرائيليين يؤكد - من قبل - استحالة ما جرى، يقول «آلان داوتى» فى ختام كتابه «الدولة اليهودية والقرن المقبل».. «لايوجد طريق لاستمرار احتلال إسرائيل للأراضى العربية، إلا إذا قامت بما كان يقوم به النازى فى الأراضى التى احتلتها قواته خلال الحرب العالمية الثانية.. فتلجأ إلى التطهير العرقى والترحيل الجماعى (الترانسفير)، فهذا مما يستحيل القيام به فى ظل عصر أدوات الاتصال الحديثة».



جندى اسرائيلى يرهب طفلا فلسطينيا بمدفعه الحديث

وبالفعل سرعان ما ظهر رد الفعل الغاضب والرافض لما تقوم به اسرائيل، والذى تنبأ به الكاتب «داوتى»، وتبدل الرأى العام العالمى وهو يشاهد على شاشات التليفزيون عمليات القتل الجماعى ضد شعب أعزل، وملاحقة كل أشكال الحياة: قصف البشر والحجر، واقتلاع أشجار الزيتون، ويرى المأساة وهى تصل إلى ذروتها فى مذبحة جنين - ولا يذكر أن سكانها سبق أن أجبرتهم إسرائيل على الرحيل - واغتيال القادة بطائرات الأباتشى، وحصار المدن، والاستهانة بالمقدسات، وبدأت صحوة الضمير العالمى، وعبر الكثير من الكتاب والفنانين عن إدانتهم، وقامت مظاهرات الاحتجاج فى معظم أنحاء العالم.

وقامت حملة مضادة - على الطريقة الإسرائيلية - واتهمت الجميع بالتحيز ومعاداة السامية، ورفضت الاعتراف بحقيقة تأييد هذه الأصوات للمقاومة الفلسطينية، ومطالبتها بضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيلى.

وتوزع قادة إسرائيل سواء من حزب العمل «باراك» أو الليكود «نتنياهو» بجولات فى العواصم الغربية، يقودون المظاهرات، ويلقون المحاضرات، يلقون

رابين وجولدا مائير في ظل الرعاية الأمريكية متمثلة في وسيطها كيسنجر

بالمسئولية على الخاضعين للاحتلال، وأشهروا أحد أسلحتهم القديمة والمستهلكة، وهى التذكير بمحرقة النازى (الهولوكست)، والادعاء بانتشار موجة جديدة من معاداة السامية، وشاركت الصحف الأمريكية فى توجيه هذه الاتهامات، ووصلت إلى قاعات الكونجرس الأمريكي الذى ردد بعض أعضائه ذات الاتهامات للدول الأوروبية! فهل يجدى رفع اتهام معاداة السامية لوقف تحرك الضمير العالمي، وإدراكه الواضح لما تقوم به إسرائيل كقوة احتلال ؟!

الانتفاضة

ويفضح ما جرى، منذ زيارة شارون إلى المسجد الأقصى، وما تلاها من أحداث، سيطرة اليمين المتطرف على «القرار» داخل إسرائيل، وما يجدر بنا الالتفات إليه، ما أكدته ممارسات السلطات الإسرائيلية خلال عام ونصف العام من الانتفاضة، وهو عمق الحس العنصرى لقطاعات واسعة فى إسرائيل، والإصرار على تحقيق المشروع الصهيونى، الذى لا تحده حدود، سواء باستخدام العنف أو بالوسائل السياسية، واتباع سياسة العنف والإرهاب إزاء أبناء البلاد، ويطبق ساستهم القول.. «إن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة»، ويتبعون قول بن جوريون.. إنه يمكن إخضاع الفلسطينيين من خلال استخدام القوة الفائقة لإسرائيل»، وكما رأينا، لا تحد ممارساتهم أية حدود أو ضوابط



دولية أو أخلاقية، وحصار كنيسة المهد خير شاهد على ذلك، وهو الحصار الذى استمر تسعة وثلاثين يوماً، رغم أنها من أكثر الأماكن قدسية لدى المسيحيين، ولم يقيموا أى اعتبار لقدسية المكان، ولا يعنيهم سوى اتباع سياسة «المطرقة التى تهوى على رؤوس العرب، كل فترة زمنية، وهى الكفيلة وحدها بإخضاعهم إلى الأبد»!!

المصالحة التاريخية

ويتضح من خلال أحداث الانتفاضة، زيف التصور الذى ساد فى التسعينيات، من إمكانية تحقيق «المصالحة التاريخية» بين العرب وإسرائيل، وأنه يمكن أن يسود أخيراً فى إسرائيل صوت العقل، وتعود إلى طريق العقلانية والواقعية، وتبتعد عن الأساطير والأوهام، وأثبتت الأحداث الأخيرة أن هذه التصورات محض أوهام.

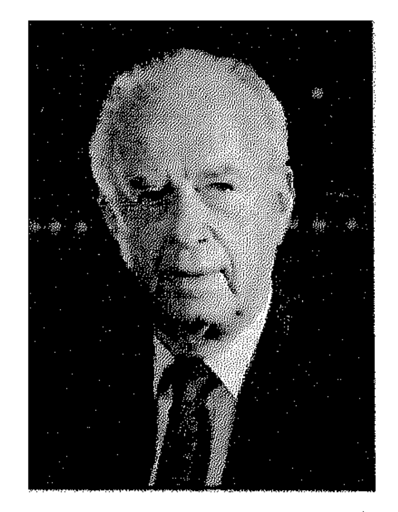
كما تصور البعض أن الدور الأمريكي ممكن أن يحقق هذه المصالحة، خاصة بعد أن لعب دوراً مهما في حضور إسرائيل إلى مائدة المفاوضات فى مدريد، وما قامت به بعدها حتى الدور النشط الذى قام به الرئيس الأمريكى السابق «بيل كلينتون» ولكن إذا بالولايات المتحدة الأمريكية تقف داعمة للإرهاب الإسرائيلى، وتغمض الطرف عن استخدام الأسلحة الأمريكية ضد شعب أعزل، والذى كان أبشع صوره قتل قائد الجبهة الشعبية أبو على مصطفى، وما تم بعدها على طول الأراضى الفلسطينية، وأصرت السياسة الأمريكية، على تجاهل إرهاب المحتل، وكأنها لا ترى سوى المقاومة للاحتلال. وأعادت هذه السياسة المنطقة من جديد إلى الخانة رقم واحد.

المستقبل والتاريخ

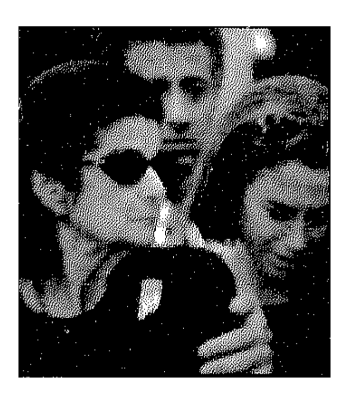
وعادت صفحات التاريخ تطل من جديد، بعد أن تصور البعض أنه يمكن أن تتوارى الأعمال الوحشية الإسرائيلية كجزء من الماضى، فإذا بها المستقبل أيضا، بعد أن أكدت ممارسات إسرائيل، أن الإرهاب هو السياسة المعتمدة في إسرائيل، وأن ما عداه مواقف سياسية مؤقتة على طريق تنفيذ المشروع الصهيونى، وحان الوقت للنظر فى عين الحقيقة، فبعد أن تسيطر إسرائيل على المركز يأتى زمن السيطرة على ما تتصوره المجال الحيوى لها!

من هو الإرهابى؟

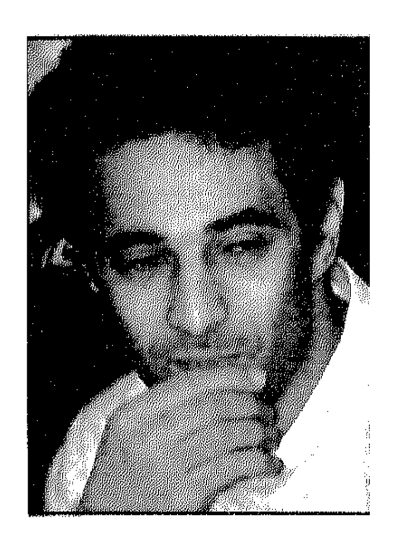
تقوم الصهيونية على مجموعة من البشر يرون أنهم أسمى من سواهم، ويعتمدون الحل العنصرى للمشكلة اليهودية، ويتبعون العنف والإرهاب لترويع أصحاب الحق، قبل وبعد قيام إسرائيل. وخطط قادة الصهيونية لطرد أكبر عدد

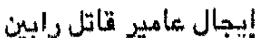


اسحاق رابين



ليا رابين تبكى زوجها





إيجال عامير قاتل رابين

من الفلسطينيين خارج حدودهم، واعتمدت الصهيونية على مصادرة الأراضى ونسف البيوت وطرد الأهالى من قراهم، وبالفعل تم ما تحقق من الأهداف قسراً.

فهل تربط ذاكرتنا بين ما جرى فى الماضى وما يجرى اليوم؟!

ومن صور الماضى وذكرياته ذلك المشهد الذى يحسف تجمعا من الرجال والنساء حول سجن شارون ، رجال يرتدون جلابيب سوداء وذوو لحى طويلة وقبعات كبيرة، ينفخون فى الشوفار (آلة نفخ - بوق - مصنوع من قرن الكبش) ، والبعض الآخر يرقص إحدى الرقصات القديمة، ووقفت خلفهم النساء يدققن الطبول.. ينتظرن أن يؤدى عزفهن ودوى الموسيقى إلى فتح أبواب السجن، كما حدث ووقع فى الماضى عندما انشق البحر أمام بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر الفرعونية، وذلك من أجل الإفراج عن «إسحق جنسبرج» اليهودى الأمريكى خريج جامعة بوسطن، والذى أقام احتفالاً كبيراً لـ «باروخ جولد شتاين» الذى فتح النار فى الحرم الإبراهيمى على الركع السجود عند صلاة الفجر وقتل تسعة وعشرين فلسطينيا.

وهى إحدى الصور المتكررة للتطرف والإرهاب فى المجتمع الإسرائيلى، فالإرهاب نبت طبيعى للأخيلة والأوهام والتعبئة الخادعة التى يقوم بها المتعصبون والمتطرفون.. وتفجر العنف أساطير الماضى، وتتحول الكلمات باسم ما هو مقدس إلى أشلاء وطلقات. فتأتى المذابح والمآسى من الذين يتصورون أنهم وحدهم يملكون الحقيقة، والذين يوظفون التاريخ كأداة للحقد، وأولئك الذين يرفضون تكييف الأيديولوجية مع الظروف المتغيرة، والمتمسكين بحرفية

النصوص مها أوغلت، والذين يعادون التجديد ويخاصمون العصر.

ومن هؤلاء مجموعات كثيرة داخل إسرائيل، يصفهم المفكر الفرنسي جارودى بالجمود ورفض التكيف، وعدم التسامح، والانغلاق والعناد.

ويقعون ضمن أحد التعريفات التى أعلنتها الولايات المتحدة للإرهاب، وهو استخدام العنف بدوافع دينية، ومع ذلك أطلقت السياسة الأمريكية الإرهاب على المقاومة الفلسطينية، وتجاهلت الإرهاب الحقيقى، وهو الإرهاب الصهيونى.

الأصولية

ويصف الكاتب الفرنسى اليهودى «إيمانويل هايمان» الأصولية اليهودية بقوله .. «إن التعبير الصادق عن الأصولية اليهودية يأتى من تلك الحادثة التى جاءت فى سفر الخروج عندما أمر موسى (عليه السلام) هارون بقتل عبدة العجل، وقتل فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل اختيروا عشوائيا لامتصاص غضب النبى الذى تنكر له شعبه.. فالتطرف والعقلية الرجعية المتحجرة هما المصدران للإرهاب.. فهؤلاء الرجال ذوو الإيمان الملتهب، والمنكفئون على ذواتهم، والمقتنعون بتملكهم الحقيقة الإلهية. والخائفون من التأثيرات الخارجية، والذين يعبدون النصوص المقدسة، يعطون أنفسهم الحق فى فرض معتقداتهم بالقوة والعنف.

وتبرز فى إسرائيل هذه الظاهرة جلية، ومن بين صفوف هؤلاء خرج «إيجال عامير» الذى اغتال إسحق رابين، وهم الذين يرفضون أى حل وسط مع السلطة الفلسطينية، ففى ذلك تنازل عن الأرض الموعودة!.

صحيح أن المتطرفين يظهرون فى كل جماعة بشرية، ولكن يسيطر هؤلاء على «القرار» فى اسرائيل. ويسجل «إسرائيل شاحاك» أستاذ الكيمياء العضوية بالجامعة المعبر به وأحد دعاة حقوق الإنسان فى كتابه الذى يتناول موقف اليهود من «الأغيار» أى غير اليهود قائلاً : «تعرض التاريخ المعروف لحذف الحقائق اليهودية الموجعة، فالخصوصية الهيودية تنطوى على الشك والعداء لغير اليهود، وهى تجنح بطبيعتها للعزلة، ولذا تقوم الكيبوتزات وبعدها المستوطنات كمؤسسات عنصرية مغلقة. حتى أن التراث التلمودى يرى أن علاج غير اليهودى حرام حتى إذا كان مقابل أجر، وينصح بدفع الأغيار إلى البئر للتخلص منهم، ويوصى بعدم إخراج من يسقط منهم فى البئر»!!.

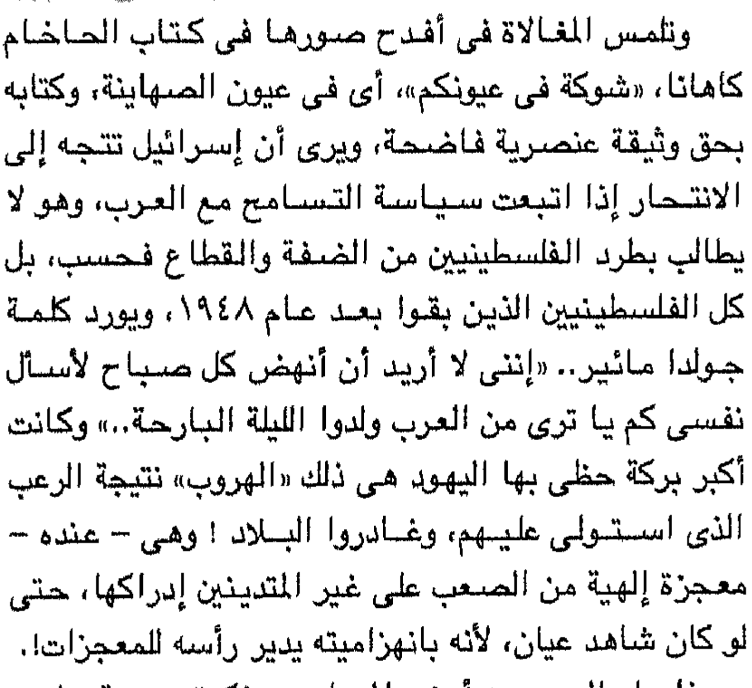
ويذكر شاحاك فى كتابه «التاريخ اليهودى» أن القوانين الإسرائيلية تتسم بالتفرقة العنصرية فى مجالات ثلاثة ، حق الإقامة، وحق العمل، وحق المواطنة. فيقف على قمة الهرم فى المجتمع الإسرائيلى، اليهود الغربيون (الاشكناز) ويليهم اليهود الشرقيون (السفارديم)، وفى قاعدة الهرم عرب إسرائيل.

وإذا أخذنا فى تقليب صفحات التطرف فى اسرائيل، هالنا ما نرى.. فملاً تمثل حركة «جوش أمونيم» الفكر الإرهابى الصهيونى، والتى تضم الآلاف فى صفوفها، وتكرس جهودها لضم الضفة الغربية وقطاع غزة، وتسعى إلى إعادة بناء الهيكل، وإقامة المستعمرات، وجاء على لسان «شلومو أفنير» أن الوصايا الإلهية للشعب اليهودى اسمى من أى أفكار بشرية، فالله تكلم مع شعبه..

ويؤكد الحاخام «إليعازر فيلدمان».. لايمكن أن نستكمل عملية استرداد الأرض بأى طريقة سوى الحرب!!..

نتانياهو

شوكة فى العيون

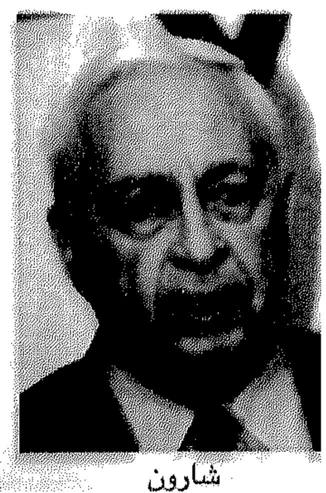


ونلمس المغالاة فى أفدح صورها فى كتاب الحاخام كاهانا، «شوكة فى عيونكم»، أى فى عيون الصهاينة، وكتابه بحق وثيقة عنصرية فاضحة، ويرى أن إسرائيل تتجه إلى الانتحار إذا اتبعت سياسة التسامح مع العرب، وهو لا يطالب بطرد الفلسطينيين من الضفة والقطاع فحسب، بل كل الفلسطينيين الذين بقوا بعد عام ١٩٤٨، ويورد كلمة جولدا مائير.. «إننى لا أريد أن أنهض كل صباح لأسأل نفسى كم يا ترى من العرب ولدوا الليلة البارحة..» وكانت أكبر بركة حظى بها اليهود هى ذلك «الهروب» نتيجة الرعب الذى استولى عليهم، وغادروا البلاد ! وهى - عنده - معجزة إلهية من الصعب على غير المتدينين إدراكها، حتى لو كان شاهد عيان، لأنه بانهزاميته يدير رأسه للمعجزات!.



باراك

فإبعاد العرب عن أرض الميعاد هو فكرة يهودية، وليس سياسية، تقوم على تعاليم التوراة.. فإسرائيل غير قابلة للإبادة، وهى فريدة ومقدسة، اختارها الرب، ونظرة التوراة لمكانة الغرباء تشكل جزءاً من نظرة شاملة بشأن جوهر الشعب اليهودى، فالعرب تدنيس لتلك الأرض المقدسة، وطردهم عمل دينى!!



شارون

فمن هو كاهانا، إنه مايكل كينج القادم من بروكلين، والذى كان عميلاً للمباحث الفيدرالية الأمريكية، والذى تحول إلى حاخام، وأخذ ينادى ببناء الهيكل ونسف المسجد

الأقصى وقبة الصخرة.

ويورد حكاية فى كتابه أنه سعى إلى هجرة العرب داخل اسرائيل، على أن يقدم لهم المساعدة اللازمة ويدعى أن قرية «الجش» فى الجليل، وافقت على الانتقال بكاملها إلى كندا، على أن يكون الانتقال إلى قرية خاصة بهم. ويعلق «موشيه إيشون» على اتفاقية أوسلو فى ذات الاتجاه بقوله.. «ذكر رابين أن العهد القديم ليس سفر تسجيل الأراضى، وبهذا الحديث يتنازل عن أرض إسرائيل، ويتنصل من القيم الأبدية لشعب إسرائيل، ويتجاهل ماجاء فى سفر التكوين .. «سأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك، كل أرض كنعان، ملكا أبديا»..

ويرى أن كاهانا خير معبر عن الاتجاهات الأصولية فى اسرائيل، ويرى أن مطالبة مصر بنزع الأسلحة النووية فى إسرائيل هو امتداد للنزاع التاريخى بين موسى وفرعون!.

ويجدر تسجيل ملاحظتين، هما أن التطرف اليهودى فى جانب منه قادم من الحى اليهودى فى بروكلين بنيويورك، والتى تعتبر إحدى حواضن الحركة الصهيونية، ومنها خرج كاهانا وبعده جولد شتاين، وتردد عليه «جايوتنسكى»، وهاجر منه خلال عام ١٩٩٣ ألفان من اليهود الأمريكيين للإقامة فى الخليل معظمهم من هذا الحى، ولديهم فى أمريكا معسكر للتدريب العسكرى..

فهل ثمة علاقة بين ذلك، وبين ما سبق وقامت به الولايات المتحدة من تدريب المجاهدين لإرسالهم للحرب فى أفغانستان، وذلك من أجل أهداف سياسية أمريكية مسكوت عنها.

أما الملاحظة الثانية، فهذا الذى يحدث أمام الولايات المتحدة الأمريكية لم يجعلها تدرج أيا من التنظيمات الإرهابية فى اسرائيل ضمن التنظيمات الإرهابية التى تلاحقها؟! وهو سؤال ضمن العديد من الأسئلة التى تبقى بلا إجابات!

ثم ماذا بعد؟. وقد أسفرت اسرائيل عن وجهها، وتخلت الولايات المتحدة عن دورها؟ ماذا سيفعل العرب أمام الوجه القبيح لإسرائيل؟! وما هى احتمالات المستقبل؟ مع أولئك الذين يفتقدون الحكمة، ويعتمدون على غطرسة القوة؟. ويركنون إلى ترسانة نووية، ويستمدون من أساطيرهم الدافع لتدمير كل ما حولهم.

وأخيراً.. فهل ما شاهدناه بداية العنف أم نهايته؟!. ■

من دير ياسين إلى جنين

مسلسل الإرهاب الإسرائيلى

بقلم
مجدى شرشر

فى تاريخ الإرهاب العالمى يقف النموذج الإسرائيلى فريدا بين كل نماذج وأشكال وصور الممارسات الإرهابية، لايقف عند المستوى العقائدى بل يتجسد واقعا ضاريا وحشيا يعيث تسلطا وبطشا وتقتيلا وترويعا فى أبشع الصور الدامية التى تعيشها الذاكرة الإنسانية.

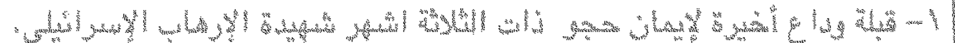


لم يتوقف الإرهاب الإسرائيلى عند حدود الماضى قبل قيام الدولة عام ١٩٤٨.

نكتفى بالإشارة هنا إلى عنف المتظاهرين اليهود ومساعدة البريطانيين لهم فى مظاهرات حائط البراق فى ٢٨ و ٢٩ أغسطس ١٩٢٩ واستشهاد ثلاث نسوة هن جميلة الأشقر وعائشة أبو حسان وعزيزة سلامة.

تجسيد بشع للإرهاب

اتصل الإرهاب بعد قيام الدولة العبرية متخذا أشكالا وأبعادا ومستويات أشد



١- قبلة وداع أخيرة لإيمان حجو ذات الثلاثة أشهر شهيدة الإرهاب الإسرائيلى.
٢- حتى العجائز لم يفلتن من البطش الإسرائيلى.
٣- اخراج الجثث من تحت انقاض مخيم جنين.
٤- القصف الإسرائيلي لم يفرق بين منازل الفلسطينيين والمقدسات فى القدس.
٥- احد القساوسة يتفقد كنيسة المهد بعد الحصار الإسرائيلى والاعتداء عليه.
٦- مذبحة دير ياسين (١٩٤٨) كانت محاولة لطرد الفلسطينيين من أرضهم.


١
٢
٣
٤
٥
٦

عدوانية وأشرس فتكا ودموية في تجسيد بشع لإرهاب الدولة بما تستخدمه من آلة حربية ومؤسسات وسياسات وأدوات كانت بعيدة عن متناول الأفراد والعصابات الصهيونية، لقد تجاوز إرهاب الدولة حدود دولة إسرائيل لنرى جرائمه تطال أراضي ومواطني دول أخرى، ومارس الإسرائيليون إرهابهم تحت دعاوى الكثير من المزاعم لعل أكثرها وهما أسطورة أرض الميعاد والأمن القومي وتأمين الحدود ومايضاف إليه من مبررات عقائدية.

الرعب والتخويف

وأيا كان الشكل أو المسمى أو المستوى أو الأسلوب الذي يتخذه الإرهاب الإسرائيلي فإنه لايخرج في النهاية عن كونه لجوءا إلى العنف لإشاعة الرعب والتخويف أو التهديد به وصولا لهدف الصهيونية.

وعنصر التفرد الجديد في الإرهاب الإسرائيلي هو تسخير بطش الآلة الحربية النظامية التي توظف أساسا للدفاع عن أي بلد ضد عدوان خارجي لقمع وكسر إرادة أبناء البلد المحتل على مثل هذا النطاق الواسع والتدمير الشامل للبنى التحتية والمؤسسات الوطنية بغية حمل هذا الشعب على التخلي عن أهدافه الوطنية والرضوخ لقوة الاحتلال في تقرير مصيره.

العداء ضد الشعوب

ولاشك في أن الإرهاب الإسرائيلي نابع من شعور عدواني وعدائي تجاه الشعوب والدول الأخرى، تغذيه رغبة في السيطرة والهيمنة والتسلط ويتمكن هذا الشعور العدائي والعدواني من الإسرائيليين على المستوى الفردي والمؤسسي ليصبح دافعا ومحركا للمؤسسة الإسرائيلية وأهدافها، مما يجعل النظام الإسرائيلي في حالة حركية دائمة لممارسة العدوان على الآخرين في انتهاك صارخ لكل الأعراف والقيم والقوانين الدولية والمعاهدات والاتفاقات، تحت دعاوى ومبررات تركز على أن قضية الأمن تتقدم على ماعداها وهذا الأمن لاترسمه أو تحدده حدود موضوعية بل يتوسع نطاقه إلى خارج الحدود وإباحة الحق للنفس في اتخاذ ضربات وقائية بدعوى حماية الأمن وكأن الأمن حكر عليهم وحدهم، ومن حقهم التمتع به وحرمان الآخرين منه. وفي سبيله لايتورعون عن استخدام أي وسيلة سواء شن الحروب أو انتهاك الحدود أو التسلل للدول الأخرى وتدبير المؤامرات والاغتيالات وكل ما من



مناحيم بيجن زعيم « الإرجون» يصافح أحد رجاله فى استعراض بالقدس ١٩٤٨

شأنه تحقيق هدفهم، فالجيش متطور يحظى بقوة ضاربة تدعمه صناعات حربية متقدمة تمكنه دوما من تنفيذ أهدافه العدوانية .

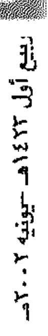
تأصل الإرهاب فى الفكر الصهيونى

ومع تنوع وقائع وأشكال وصور وأنماط ومستويات الممارسة الإرهابية الإسرائيلية، نرى الاستعانة ببعض المعايير التى يمكن من خلالها كشف مدى تأصل الإرهاب فى الفكر الصهيونى والدولة التى تمثله .

تشريد الفلسطينيين

ظل مبدأ طرد العرب من فلسطين بالقوة فكرة أساسية ملازمة للحركة الصهيونية قبل وبعد إقامة إسرائيل عام ١٩٤٨، وكانت الشخصيات التى نادت به قبل قيام الدولة هى ذات الشخصيات التى تولت الحكم بعدها وظلت تورثه للأجيال التالية من الحكام والمسئولين بالمؤسسة الإسرائيلية جيلا بعد جيل. وتشرد ثلاثة أربا ع مليون عام ١٩٤٨.

وتشرد وأبعد نحو مليون عربى بعد احتلال عام ١٩٦٧ فى استمرار



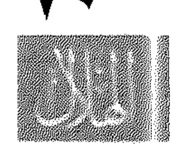


عصابات الأرجون وشتيرن ذبحت ما يقرب من ٢٥٥ رجلا وامرأة وطفلا
فى ٩ - ١٠ أبريل ١٩٤٨ بدير ياسين

استراتيجية الترحيل الإجبارى أو القسرى (الترانسفير)، وفى سبيل تحقيق هذه الاستراتيجية انتهج الصهاينة وارتكبوا أبشع أنواع المذابح، ولم يكن من الغريب أن تدمر (٢٩٢) قرية من أصل (٤١٨) قرية صنفتها مؤسسة الدراسات الفلسطينية، دمرت تدميرا كاملا بنسبة (٧٠٪) ودمرت (٩٠) قرية تدميرا واسع النطاق بمعنى أن نسبة ضئيلة من المنازل ظلت باقية، حيث لم يبق سوى منزل واحد فى (٢٠) قرية، ودمر عدد قليل من المنازل فى ثمانى قرى وبقيت سبع قرى فقط لم تدمر وقد استوطنها الإسرائيليون.

للمذابح هدف شرير!

ولجأ الصهاينة إلى إشاعة أجواء الرعب والخوف لدفع السكان على الرحيل، وتقدم هذه المذابح أبلغ دليل على تأصل هذا المبدأ فى العقيدة والممارسة الصهيونية تحت ذرائع وأسباب مختلفة، وجندت الحركة الصهيونية كل قواها فى الداخل والخارج وجند الزعماء الصهاينة كافة العصابات والجماعات كشتيرن والهاجاناه وأرجون، ثم أجهزة المخابرات والأمن الأخرى لارتكاب المذابح ضد القرى العربية لإجبار سكانها على الرحيل، ولا يغيب بالطبع عن الذاكرة مذبحة دير ياسين، تلك القرية المسالمة الوادعة الواقعة غرب القدس يفصل بينهما واد تغرس على مصاطبه أشجار التين واللوز والزيتون، شهدت القرية واحدة من أبشع المذابح التى وقعت بأراضى فلسطين، وفى جنح الظلام داهم القتلة القرية الوادعة. ووقعت



مذبحة القرية فى إطار عملية (نحشون) التي يصفها بنى «توريس «بأنها منعطف مهم يتميز بالعزم وببذل الجهد اللازم لتطهير منطقة كاملة تطهيرا نهائيا ودائما من القرى العربية ومن سكانها المعادين أو الذين ربما يكونون معادين» وهو الأسلوب نفسه الذى انتهج فى الهجوم الأخير على الضفة الغربية.

ونفذ المهاجمون المذبحة دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، وحملوا جزءا من الأسرى وطافوا بهم فى شوارع القدس وسط تهليل اليهود، وأعيد هؤلاء بعد ذلك إلى القرية وقتلوا ليبلغ عدد الضحايا (٢٤٥) .

وهناك أيضا مذبحة الدوايمة قضاء الخليل التي أدت إلى نزوح سكانى كثيف، ووقعت المذبحة التى نفذها الجيش الإسرائيلى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨ فى إطار العملية يواف، وقتل مابين (٨٠ إلى ١٠٠) شخص فى الموجة الأولى للهجوم.

ومذابح أخرى

لم تكن دير ياسين والدوايمة الأوليين فى سجل المذابح الإسرائيلية، فهناك قرية بلدة الشيخ التى لقى فيها (٦٠) شخصا مصرعهم مساء ٣١ ديسمبر عام ١٩٤٧ بعد أن داهمتها الهاجاناه، وقرية سمع فجر ١٥ فبراير ١٩٤٨. وعلى نفس النهج جاءت مذبحة اللد والرملة لتكشف زيف التأريخ الرسمى الإسرائيلى الذى ادعى أن سكان اللد والرملة طلبوا مغادرة بيوتهم بمحض إرادتهم، والواقع يروى أن الكتيبة الثالثة بلواء يفتاح احتلت اللد فى ١١ يوليو ١٩٤٨ فى إطار خطة دانى واقتحم القرية خمسمائة جندى، بدأوا فى إطلاق النار فى الشوارع والبيوت، وباتجاه أسرى الحرب الذين حشروا فى أحد المساجد ليلقى (٢٥٠) أو أكثر حتفهم ظهر ذلك اليوم.

سياسة الترحيل

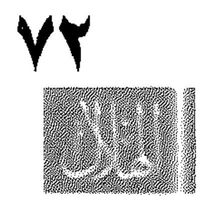
ومن أهم الأدلة على أسلوب الترحيل والإبعاد القسرى ماتؤكده مذبحة قبية فى ١٣ أكتوبر ١٩٥٣ بعد استقرار الدولة، التقى وزير الدفاع بنحاس لافون وقائد الجيش موردخاى ماكليف ورئيس العمليات موشيه دايان



صبرا وشاتيلا ١٩٨٢ - لبنان

جنين ٢٠٠٢ - الضفة الغربية

ورئيس الحكومة، لدراسة حادث تسلل تعرضت له مستوطنة (ياهود) وقرروا الرد بالهجوم على قرية قبية، وصدر الأمر لهيئة العمليات ومن ثم إلى قيادة الجهة الوسطى ثم إلى الوحدة (١٠١) بقيادة الرائد حينذاك أريل شارون، مع كتيبة المظلات (٨٩٠)، وكان الأمر العسكرى ينص على تدمير كل بيوت القرية وقتل أكبر عدد من السكان بهدف القضاء عليها نهائيا وترحيل مايتبقى، وفى ليلة ١٤/١٥ أكتوبر توجهت القوات الإسرائيلية لتنفيذ المهمة وللتمويه أطلقت النار باتجاه قريتي (شقيا) و(لعلين) واقتحم المهاجمون المنازل من بيت إلى بيت ودمروا كل بيت دخلوه وكان القتل نصيب كل من حاول الخروج، ونسف المظليون (٤٥) منزلا وبلغت حصيلة القتلى (٦٠) فردا من النساء والأطفال فى معظمهم، ويقول شارون إن جنوده كانوا يدخلون كل بيت ليتأكدوا من وجود أحياء فى داخله، فإذا وجدوهم أجهزوا عليهم ثم قاموا بنسف البيت». وهى ذات الأساليب التى استخدمها جنود شارون فى مذبحة جنين ٢٠٠٢، هجوم من بيت إلى بيت واستخدام المدنيين كرهائن فى اقتحام البيوت، لم تتغير العقلية أو الأسلوب أو الهدف، كل ما تغير هو السلاح المستخدم ليصبح فى جنين دبابات الميركافا وطائرات الأباتشى والكوبرا الأمريكية ومقاتلات اف ١٦.



يونس (٢٥٠) شهيدا مرورا بمذبحة الأسرى المصريين على يد شارون، فصابرا وشاتيلا على يد خبير القتل والتذبيح شارون طبعة عام ١٩٨٢، ومذبحة القدس أكتوبر عام ١٩٩٠ (٢١) شهيدا، و (١٥٠) مصابا ومذبحة الحرم الإبراهيمى فجر ٢٥ فبراير ١٩٩٤ (٥٠) شهيدا ومذبحة قانا ١٩٩٦ (١٦٠) شهيدا لبنانيا، والقائمة طويلة .

سياسة الاغتيالات

فى أكتوبر عام ١٩٣٩ شكل ابراهاما شتيرن عصابة شتيرن من المنشقين على عصابة أرجون وعاودت العصابتان الاتحاد فى يناير ١٩٤٤ توطئة لعدد من العمليات القذرة، كان أهمها اغتيال شتيرن للورد والتر موين وزير الدولة البريطانى المقيم بالقاهرة فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ وبعدها بعامين فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦، تقوم العصابتان بتفجير فندق الملك داوود فى القدس والحصيلة (٩١) قتيلا من البريطانيين والفلسطينيين واليهود نتيجة نسف الجناح المخصص للحكومة البريطانية فى الفندق، وهناك الحادث الشهير المعروف بفضيحة لافون حين دبر الصهاينة لتدمير مكاتب الاستعلامات الأمريكية بالقاهرة، وتفجير عدد من المنشآت للنيل من علاقات مصر مع الغرب وأرسلت مجموعة جواسيس وإرهابيين، وألقى القبض عليهم مما أدى إلى استقالة وزير الدفاع بنحاس لافون فى ٢٧ فبراير ١٩٥٥.

نتيجة فشل العملية

ومن أخطر الأساليب التى مارسها الإرهاب الصهيونى تدمير (١٣) طائرة مدنية بمطار بيروت فى ١٩٦٨/١٢/٢٨، وقتل أكثر من خمسين وإصابة أكثر من (٧٥)، وفى ١٤ فبراير ١٩٨٦ انقضت مقاتلتان اسرائيليتان على طائرة ليبية كانت فى طريقها من طرابلس إلى دمشق على ارتفاع (٣٠) ألف قدم وكانت على وشك الدخول إلى الأجواء السورية، وعلى متنها وفود عائدة من مؤتمر للفصائل الفلسطينية فى ليبيا، وأجبرتها على الهبوط شمال اسرائيل. وقبلها فى أكتوبر ١٩٨٥ كانت عملية تدمير مقر منظمة التحرير في تونس ، أما قائمة الاغتيالات فطويلة نكتفى منها باغتيال وائل زعيتر فى روما ١٩٧٢ وكمال عدوان وكمال ناصر وأبو يوسف فى



هكذا كان القتل الجماعى فى جنين ونابلس - ٢٠٠٢

بيروت ٩ أبريل ١٩٧٣ وعلى حسن سلامة فى ١٩٧٩ وأبو جهاد وعصام سرطاوى وانتهاء باغتيال قيادات الانتفاضة الحالية وابرزهم أبو على مصطفى أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

ويضاف إلى هذا المحاولات العديدة لاغتيال العلماء الألمان العاملين فى مصر واغتيال علماء الذرة العرب، ولاننسى إقدام الكيان الصهيونى على احتجاز أطفال أسر أردنية كرهائن خلال حرب ١٩٦٧ للضغط للإفراج عن الأسرى.

سياسة الاستيطان

يعتبر الاستيطان من أبشع أشكال الممارسات الإرهابية التى تمارسها السلطات الإسرائيلية، وهو يشكل جريمة دولية تتناقض مع جميع المواثيق والقوانين الدولية، ذلك لأنه يقوم على اقتلاع السكان الأصليين وتهجيرهم وإبعادهم لإفساح المكان لاستيعاب المهاجرين اليهود وباتت المستوطنات الإسرائيلية فى الضفة الغربية تحتل الأداة الرئيسية لتقطيع أوصال التواصل الجغرافى للإقليم الفلسطينى، وبهذا فهى وسيلة الكيان الصهيونى



لإخضاع والسيطرة على الكانتونات الفلسطينية التي يتصور قادة الكيان الصهيوني إقامتها للفلسطينيين ويتجاوز عدد المستوطنين المستعمرين الآن ٣٨٠ ألف مستوطن يهودى فى مستوطنات الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، ويسيطر هؤلاء المستوطنون على ما نسبته ٤١٫٩ من الضفة الغربية ويشكلون مفرخة للتعصب ووقودا للهجمات التى تتعرض لها المدن والقرى والطرق الفلسطينية، ولم يكن من المستغرب أن يشدد تقرير لجنة ميتشل على ضرورة تجميد النشاط الاستيطانى باعتباره أحد أهم أسباب تغذية الصراع الفلسطينى الإسرائيلى.

وفى تعليقه على المذابح الإسرائيلية ينتقد بنى نوريس أحد المؤرخين الجدد للصحافة الإسرائيلية معتبرا أنها فشلت فشلا ذريعا فى أداء واجبها بالشكل الذى يجب أن تؤديه الصحافة الديمقراطية بتقديم المعلومة الصحيحة للقارىء، ويرى أن الصحافة الإسرائيلية ظهرت وكأنها مجهزة لخدمة الحكومة والجيش الإسرائيليين وتبرير أفعالهما أيا ما كانت.

ظاهرة المؤرخين الجدد

وحين ظهرت ظاهرة المؤرخين الجدد فى اسرائيل فى منتصف ثمانينيات القرن الماضى أرجعوا ظاهرتهم إلى إلغاء الحكومة الإسرائيلية للحظر المفروض على الوثائق الرسمية التي مر عليها ثلاثون عاما، مما مكنهم من التعرف على كثير من الحقائق الخافية والآن حدثت مذبحة جنين على مرأى ومسمع من العالم ووسائل إعلامه وتليفزيوناته، ونقلت المشاهد المذبحة حية على الهواء ولم يعد هناك مجال للقول بأن هناك وثائق أو حقائق خافية، ولم نسمع أو نقرأ - باستثناء بعض المقالات التى تصدر على استحياء - أراء هؤلاء المؤرخين الذين تابعوها كما تابعها العالم على شاشات التليفزيون، فهل تفاجأ بهم يختلفون كما اختلفوا حول المذابح الأولى فى تحميل حكومتهم المسئولية الأخلاقية والسياسية والقانونية عن مذبحة جنين؟ أم أننا سنفاجأ منهم بمن يدعى أن مذبحة جنين لم تكن سوى مجرد تجاوزات وليست سياسة متعمدة ومدبرة لبث الرعب وكسر إرادة شعب خاضع للاحتلال. ■

في أصول



الصهيوني بين النسبي والتاريخي

بقلم
د. عاصم الدسوقي

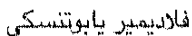
لأن زعماء الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بال ١٨٩٧ كانوا يدركون تماما أن إقامة وطن ليهود العالم في أي بقعة من بقاع الأرض المعمورة أمر لا يمكن أن يتحقق ببساطة ويسر وسهولة فقد آمنوا منذ البداية بأن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بالعنف، والعنف وحده، ولا شيء غيره (في المعجم الوسيط: العنف ضد الرفق) كما آمنوا بأن استخدام العنف أمر مشروع في سبيل الغاية، وهاجموا كل من وصف وسائلهم بالعمل اللاأخلاقي، وأنكروا على غيرهم أن يتخذوا من العنف سبيلا للدفاع عن حياتهم ومصيرهم، وهكذا تنتحر المعاني عندما تختل المعايير، وعندما تنتزع النصوص انتزاعا خارج السياق لتصبح أداة للخداع والتمويه والتخدير.



تيودور هرتزل







فلاديمير يابوتنسكي

كان تيودور هرتزل الأب الروحى للحركة الصهيونية أول من برر استخدام العنف سبيلا للحركة، ففى كتابه «دولة اليهود» (١٨٩٦) دعا إلى حمل السلاح لمواجهة المشكلات التى سوف تثيرها محاولة إقامة الوطن، وحاييم وايزمان اعتنق مبدأ العنف والإرهاب، وبن جوريون أول رئيس «لحكومة» إسرائيل يقول: «إن إسرائيل لا تستطيع العيش إلا بقوة السلاح. أما فلاديمير يابوتنسكي (يكتبه البعض جابوتنسكى وهو خطأ شائع) فيلسوف ممارسة العنف والإرهاب ضد الفلسطينيين فقد رسم برنامجه فى تحقيق الهدف على أساس اعتناق العنف بشكل مطلق وشحن شباب اليهود بروح القتال.

وعندما تسلم مناحم بيجين تلميذ يابوتنسكى راية الإرهاب نراه يتفوق على أستاذه وعلى من سبقوه إذ يقول «أنا أحارب إذن فأنا موجود، وإن العنف والقوة صنوان للحركة الصهيونية.. والعدوان مسألة جوهرية وليست عارضة «حتى لقد قال بن جوريون» عندما اسمع بيجين يتحدث يخيل إلى أننى استمع إلى هتلر أو موسولينى ثم ينتهى بيجين إلى القول بأنه لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا فى «أرض» إسرائيل، ولن يكون سلام للعرب أيضاً مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله حتى ولو وقعنا مع العرب معاهدة صلح وهذا الاعتراف الذى أورده بيجين فى كتابه «التمرد» (نشر فى ١٩٥١) وحكى فيه دوره ودور منظمته الأرجون فى إقامة دولة إسرائيل يؤكد أن نزعة التوسع بالعنف والإرهاب والترويع لا يمكن أن تزول بإقامة الدولة، بل إن إقامة إسرائيل فى ١٩٤٨ يعد فى نظره مقدمة لابتلاع الأراضى العربية

تحقيقا لشعار من النيل إلى الفرات.

وعلى هذا تبلورت سياسة العنف ليس فقط لتحقيق الدولة ولكن «لتأمينها»!!.. ويدل مصطلح أمن إسرائيل وحدودها الآمنة الذى يتردد فى السياسة الإسرائيلية منذ ١٩٤٨ دلالة واضحة على أن دولتهم تم غرسها قسرا فى تربة غير مواتية، ووسط محيط يجافيها تاريخيا وجغرافيا، وليس من المعروف على وجه الدقة واليقين حتى الآن ماذا تعنى الحدود الآمنة لإسرائيل؟.

أما أصول هذه السياسة فقد تمت صياغتها على يد منظمة الأرجون زفاى ليومى (ومعناها المنظمة العسكرية القومية) وخاصة تحت رئاسة مناحم بيجين، وشعارها : إسرائيل الكبرى مكتوب على خريطة من النيل إلى الفرات تجثم فوقها بندقية وتحتها كلمة «راك كاخ» أى «هكذا فقط والحاصل أن بيجين نشأ فى حضن الإرهاب وتربى فى حضانته إذ انضم فى عام ١٩٢٩ وهو فى بولندا وعمره ستة عشر عاما إلى منظمة «بيتار» (شباب اليهود) التى تقوم على استقطاب العناصر شديدة التطرف فى صهيونيتها، ثم تسلل إلى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية (يونيه ١٩٤٢) هاربا من معتقله فى سيبيريا إلى إيران فالعراق فشرق الأردن حيث التحق فورا بمنظمة الأرجون.

وآنذاك كانت فلسطين تحت حكم الانتداب البريطانى منذ ١٩٢٢ وكانت الوكالة اليهودية التى ترعى شئون الحركة الصهيونية فى فلسطين قد أسست «الهاجاناه» أداة عسكرية للمشروع لكن العناصر الأكثر تطرفا فى الصهيونية لم تكن تعتقد فى أهلية الهاجاناه للإسراع بتحقيق المشروع، ومن ثم كانت منظمة الأرجون (١٩٣٧) برئاسة ديفيد رتزل ثم عصابة «شتيرن» نسبة إلى مؤسسها إبراهام شتيرن (ومعناها : جماعة المحاربين من أجل حرية إسرائيل).



وقد تولت الأرجون تحت رئاسة بيجين مهمة التعجيل بتحقيق الدولة رغم أنف حكومة الانتداب. ولهذا نرى هذه المنظمة تعتبر أن الانتداب البريطانى «حكومة احتلال لأرض إسرائيل» وتصف عرب فلسطين بالغزاة وترى أن الحل المثالى للمشكلة يتلخص فى «تفريغ الأرض من هاتين القوتين» : البريطانيين والعرب باستخدام العنف الذى هو فى هذه الحالة «تمرد مشروع لتحرير الوطن».!.

وعلى هذا بدأت الأرجون منذ ١٩٤٤ سلسلة متصلة من الهجوم العنيف

على مراكز سلطة حكومة الانتداب البريطاني وتخريب الأماكن وتسويتها بالأرض لإجبار الانجليز على ترك البلاد، وفى هذا يقول بيجين «كانت أغلب هجماتنا ناجحة» .. وعندما كان الضباط الانجليز يقومون بجلد أحد أعضاء الأرجون تقوم المنظمة بجلد ضباط إنجليز قصاصا، وفى حالة إصدار أحكام بالإعدام علي يهود تقوم المنظمة بشنق إنجليز فى المقابل.. وهكذا. كذلك قامت المنظمة بتدمير الجسور

اللورد موين



اللورد ولتر موين وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية وهو المنصب الذى ابتكره تشرشل لدراسة كل المقترحات الخاصة بالشرق الأوسط ومتابعتها، وكان موين قد اقترح لمواجهة الجماعات الصهيونية فى فلسطين التى كانت تسعى فى تلك الفترة لإجبار الإدارة البريطانية (حكومة الانتداب) لترك فلسطين حتى يستأثر اليهود بها ومن هنا اقترح موين استقدام لجان لها طابع دولى بريطانى فى الأساس لمواجهة هذه المحاولات الصهيونية المبكرة. وكان قد وافق على اقتراحات التقسيم المقدمة من هذه اللجان ..

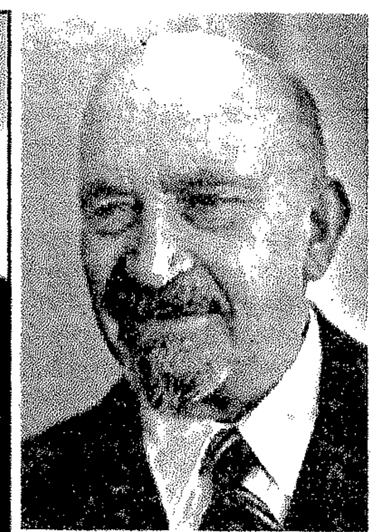
ولما كانت الحركة الصهيونية ترفض التقسيم وتريد الاستئثار بكل فلسطين والحلول محل حكومة الانتداب فقد قد قرروا التخلص من هذا الوزير

ومن هنا بعثت عصابة (شتيرن) نسبة إلى ابراهام شتيرن مؤسسها بأثنين من أعضائها قتلاه فى القاهرة وهو فى سيارته فى الزمالك، حيث مقر إقامته .

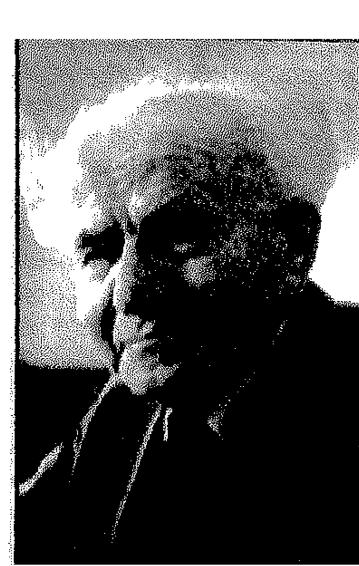
والقاتلان هما الياهو حكيم والياهو بتسورى.

وقد وجه اللورد كيلرن السفير البريطانى فى مصر فى ذلك الوقت (نوفمبر ١٩٤٤) اللوم إلى حكومة أحمد ماهر فى مصر لأنها لم توفر الحراسة المناسبة .

وردت الحكومة بأن اللورد هو الذى كان قد طلب رفع الحراسة .



حاييم وايزمان



ديفيد بن جوريون



مناحم بيجن

والكبارى والبيوت والسطو على البنوك ونسف السيارات وذبح الأطفال العرب والنساء وبقر بطون الحوامل.

وعندما قامت الأرجون بنسف فندق الملك داود بالقدس (يوليو ١٩٤٦) وراح ضحيته مائتا شخص أغلبهم إنجليز واستنكرت الهاجاناه هذا العمل فى بيان لها، نجد بيجين يصف هذا البيان بأنه «باطل» وأن «الحق» ما يقوله هو وما تفعله جماعته!! وأكثر من هذا نراه يلجأ للتاريخ لتشجيع عصبته على ارتكاب أعمال الفساد فى الأرض فيقول لهم . «لقد كان هناك فى الامبراطورية النمساوية القديمة وسام خاص يمنح لأعمال البطولة التى يمارسها الجنود بالمخالفة لأصول الضبط والربط والانتظام العسكرى» ويستخدم الدين لتسويغ العدوان ففى تبريره لارتكاب مجزرة دير ياسين (ابريل ١٩٤٨) ينتزع نصا فى سفر الخروج من سياقه يقول : إننى أدفع إلى يديك سكان الأرض فتطردهم من أمامك ولا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا ولا يسكنوا فى أرضك لئلا يجعلوك تخطئ»..

وعندما وصفت الإدارة البريطانية فى فلسطين مناحم بيجين بأنه «الإرهابى رقم واحد» فى البلاد وأن جماعته عبارة عن عصبة من السفاحين والقتلة، قال بيجين : إن ما يقوم به ليس من الإرهاب فى شئ.. ثم يقول : إن أعداءنا هم الذين يطلقون علينا اسم «الإرهابيين» . إلا أننا غير كذلك لأن الأصول التاريخية واللغوية لمصطلح الإرهاب terrorism تجعله لا ينطبق على حرب ثورية للتحرر كالتى يقوم بها وأكثر من هذا فإن بيجين يشرح

المصطلح قائلاً : إنه قد يتولد عن الثورة ما نسميه إرهابا كما حدث فى الثورة الفرنسية، وأحيانا يكون الإرهاب نذيرا بالثورة كما حدث فى روسيا.. لكن الثورة في حد ذاتها ليست إرهابا، ومن هذا التصوير للمصطلح ينطلق إلى القول بأن ما قامت به الأرجون في مقاومة حكومة الانتداب إنما هو عمل للقضاء على الإرهاب «وبهذا كنا أعداءً الإهابيين».

وبنفس هذه المقاييس التى اصطنعها بيجين لتبرير أعمال العنف والإرهاب والترويع فى سبيل الهدف، أليس فى قيام الفلسطينيين بالدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم ووطنهم بعمليات التفجير والاستشهاد ما يعد ثورة تحررية وليس إرهابا؟.. لماذا إذن تنكر إسرائيل اليوم على حزب الله وشهداء الأقصى وكتائب عزالدين القسام أن يتحصنوا وراء شعار «الجهاد» ... ألم يستخدم بيجين من قبل نصوص التوراة لإضفاء الشرعية على تصرفاته؟!. ألم ينزعج بيجين فى سابق الأيام من عدم مبالاة العالم لما كان يفعله هتلر بيهود أوربا .. أليس هو القائل بأن اللامبالاة عدوة للإنسانية لأن هتلر عندما اطمأن لعدم مبالاة العالم بدأ ينشب أظافره فى اليهود؟ فلماذا ينزعج يهود إسرائيل اليوم عندما يبالى العالم بما يحدث فى فلسطين من تقتيل وتشريد وتدمير وإبعاد خارج الديار؟!.

لقد حاول بن جوريون إدماج منظمة الأرجون فى جيش إسرائيل لكن بيجين ظل يرفض دوما وبعد إقامة إسرائيل غصبا كما هو معروف فى مايو ١٩٤٨ بادر بيجين بتكوين حزب سياسى باسم «حيروت» رافعا نفس شعار الأرجون ومعلنا أن هدفه استكمال اغتصاب الأرض العربية المتاخمة، وتجمعت حوله كل عناصر التطرف والتشدد والتعصب والكراهية منذ ١٩٤٩ ولما وقع العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦ كان من رأيه «الاحتفاظ بالأرض التي تم الاستيلاء عليها لتكون منطلقاً لفرض الاستسلام على العرب وعندما اعتدت إسرائيل على العرب فى يونية ١٩٦٧ قال بيجين: «إن الهجوم لا يعتبر عدوانا وإنما هو دفاع عن النفس». وفي المؤتمر التاسع للحزب (مايو ١٩٦٨) قال بيجين إن على إسرائيل أن تفرض سيادتها على جميع الأراضى العربية التى احتلتها واصفا إياها بأنها «أراض تم تحريرها من حكم الأجانب غير الشرعى فى كل من الضفة الغربية والجولان وغزة وسيناء».

ومن باب توسيع دائرة مؤيديه وتوحيد كلمة العدوان قام بيجين بإنشاء تكتل «الليكود» (سبتمبر ١٩٧٣) من مجموعة المتطرفين العدوانيين (حيروت

أسرائيليون يسلبون منازل الفلسطينيين قبيل نكبة ١٩٤٨

/ الأحرار/ المركز الحر/ إسرائيل واحدة) ويتلخص برنامجه فى استمرار احتلال الأرض العربية وتثبيته قانونا، واستمرار الهجوم العسكرى على دول المواجهة العرب، وتوسيع نطاق الاستيطان.

ولما تمكنت القوات المصرية من تحطيم خط بارليف فى أكتوبر ١٩٧٣ وإيقاع الهزيمة بجيش إسرائيل «الذى لا يهزم» أصبحت الفرصة مواتية لكى يحكم المتطرفون، ولهذا أتت انتخابات مايو ١٩٧٧ بمناحيم بيجين زعيم الليكود إلى الحكم. ومنذ ذلك التاريخ والجماعة المتطرفة تحكم إسرائيل وتسمى نفسها بالجماعة الوطنية، وتمارس العنف والوحشية ضد الفلسطينيين وتصفهم بالإرهابيين، وتنكر على الفلسطينيين حقهم فى مقاومة العنف بعنف مضاد، ويتحكمون فى المنظمات الدولية حتى فقدت حيادها ومصداقيتها، ويدفعون العالم إلى عدم المبالاة بالشأن الفلسطينى ويفخرون بشعاراتهم العدوانية التى تحض على العنف والكراهية التى أقاموا دولتهم على أساسها، وينحتون ألفاظا تدارى سوءاتهم أمام البشرية. أما نحن العرب فى مناخ اليأس وتحت حكم اليائسين المستضعفين نسخر من شعار «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ونعمل على إقناع أنفسنا بأن القوة لا تعنى القتال وإنما تعنى أشياء أخرى.. وحتى هذه الأشياء الأخرى لا نقوى على استخدامها؟! ■

قتل السياسيين والعلماء
سجل الاغتيالات الإسرائيلية

● حفل سجل إسرائيل بسلسلة من عمليات الاغتيالات التى نفذها جهاز الموساد الإسرائيلى ضد قيادات فلسطينية وعلماء ومفكرين عربا منهم :

● غسان كنفانى (بيروت ١٩٧٢/٧/٨) .

- وائل عادل زعيتر (فى روما ١٩٧٢/١٠/١٦) .

● محمد يوسف النجار - كمال ناصر - كمال عدوان (فى بيروت ١٩٧٣/٤/١) .

- د. محمود الهمشرى (فى باريس ١٩٧٣/١/٨) .

- د. يحيى المشد عالم الذرة المصرى (فى باريس ١٩٨٠) .

- عصام سرطاوى عضو المجلس الوطنى الفلسطينى (فى لشبونة ١٩٨٣/٤/١)

- عالم الذرة نبيل أحمد فليفل (فى فلسطين ١٩٨٤/٤/٢٨) .

- د. إسماعيل راجى الفاروقى وزوجته (فى أمريكا ١٩٨٦/٥/٢٧) .

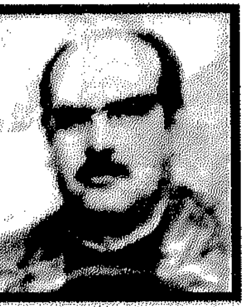
- العميد منذر أبو غزالة قائد البحرية الفلسطينية (فى أثينا ١٩٨٦/١٠/٢١) .

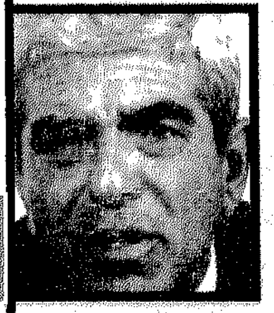
- اغتيال أبو جهاد (خليل الوزير) (في تونس) .

- اغتيال أبو علي مصطفي قائد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (٢٠٠٢)


غسان كنفاني


كمال عدوان


د. محمود الهمشرى


عصام سرطاوى


ابو على مصطفى

برنادوت

الوسيط الدولي الذى اغتاله الارهاب الصهيونى

بقلم
د. رشاد عبد الله الشامى

ليس غريبا رفض إسرائيل لجنة تقصى الحقائق التى قررها مجلس الامن وانصياع المنظمة الدولية لذلك.
فقد سبق لها ان تجاهلت تقرير الأمم المتحدة الخاص بمذبحة «قانا» ..
والأدهى من ذلك اغتيالها للوسيط الدولى الكونت فولك برنادوت .

وكان أول الوسطاء بعد إقامة دولة إسرائيل فى ١٥ مايو ١٩٤٨، وقد ساهم فى موافقة الأطراف على الهدنة خلال المعارك فى يونيو ١٩٤٨. ولكن هذه الهدنة اقتصرت منذ البداية على أربعة أسابيع، وفشل برنادوت فى محاولته لإطالتها، وكان فشله الكبير هذا، سببه عدم قدرته على تحقيق الهدف الذى أرسل من أجله، أى التعجيل بتسوية بالطرق السلمية للموقف فى فلسطين.

رئيس قسم اللغة العبرية - جامعة عين شمس





برنادوت ساهم في موافقة الأطراف على الهدنة في يونيو ١٩٤٨

ومنذ البداية، لم يكن «برنادوت» يتمتع بالصفات التى تساعده فى التـأثيـر على مـواقف الاطراف. إن مكانتـه المحـترمـة فى السـويد كـابن من أبناء الأسـرة المالكة وكـرئيس للصليب الأحـمـر «السـويدى»، والشـهرة التى حظى بها فى نشـاطه الإنسـانى الخيرى خلال الحرب العالمية الثـانية وافتراض ان حكومة السويد مهتمة بنجاحـه، لم تكن تنطوى على مـا يمنحـه القدرة على المسـاومـة فى العلاقات الدولية. وفى الحقيقة، فإنه عمل كوسيط من قبل الأمم المتحدة ، ولكن انعدام فعالية الأمم المتحدة لدى معالجتها لقضية فلسطين منذ ان اتخـذ قرار التـقسيم فى ١٩٤٧/١١/٢٩ ، قد عكس القيود التى تحكم تأثير المنظمة الدولية. وقد ساعدت كذلك شخصيته الكتومة وعدم خبرته بموضـوع النزاع العربى - الإسرائيلى وبالظروف السائدة فى الشرق الأوسط ، على التقليل من قدرته على التأثير.

عدم احترام القرارات!

ويبدو، على ضوء المذكور عاليا، أن نجاحه بالذات فى تحقيق اتفاق

الاطراف على الهدنة الأولى فى حاجة الى توضيح. ان نجاحه هذا يجب أن ينسب اساسا إلى الظروف وإلى توقيت عمله. فبعد عدم احترام قرارات مجلس الأمن الثلاثة التى تدعو الاطراف الى وقف اطلاق النار. دعا مجلس الأمن الاطراف مرة اخرى فى ١٩٤٨/٥/٢٩ إلى وقف اطلاق النار . وفى اعقاب هذا القرار بدأ برنادوت اتصالاته مع الاطراف بهدف دفعهم لاحترام القرار. وقد بدأت اتصالاته بعد أن تم صد تقدم الجيوش العربية، واهتزاز ثقة الدول العربية في الانتصار السريع. وفى هذه المرحلة بدأ الارهاق من المعارك يؤتى ثماره لدى الطرفين وانتظر كل منهما ان يستفيد عسكريا من الهدنة: الجيوش العربية – من اجل اعادة التنظيم، وإسرائيل – من أجل البناء، والدعم البشرى، والتزويد العسكرى.. والتدريب للجيش الجديد الذى بدأت فى اقامته فى تلك الأيام، وكان توقيت العمل ملائما.

وبالرغم من هذا فإننا يجب ألا نلغى تماما قدرة التأثير الخاصة بالأمم المتحدة ومندوبها فى تلك الأيام. وقد نبعت قدرة التأثير هذه من عدم رغبة الاطراف في الظهور كنا قضين لقرار الأمم المتحدة . حتى الدول العربية ، التى كانت علاقتها بالأمم المتحدة سلبية، لم تهتم بمواصلة الظهور كمتحدية للأمم المتحدة، من ناحية، ومن ناحية أخرى ، فقد نبعت قدرة تأثير الأمم المتحدة من الأمل الذى تعلق به الطرفان: لقد أملت إسرائيل فى أن تستطيع الاستعانة بالأمم المتحدة وقراراتها من اجل تدعيم وجودها الشرعى وكبح جماح الدول العربية بمعارضتهم لقيامها. وفى مقابل هذا فقد جاءت توقعات الدول العربية من التفسيرات التى اعطاها «برنادوت».. لكتاب تكليفه بمهمته ولقرار مجلس الأمن بشأن الهدنة، لقد قال برنادوت، ان مهمته ليست خاضعه لقرار التقسيم، وحدد فى التفسير الذى قدمه لقرار مجلس الأمن عن الهدنة، أن لديه صلاحية تقييد دخول المهاجرين للدولة اليهودية. وقد كان فى هذا التفسير ما يجعل الدول العربية تأمل فى أنها سوف تنجح عن طريق التعاون معه فى تحويله الى صفهم واحباط انشاء الدول اليهودية.

وفى النهاية يجدر أن نذكر، ان الموضوع نفسه – وهو مسألة ما اذا كان لابد من الإذعان لقرار مجلس الأمن بالهدنة لمدة محدودة





وضع الارهاب الصهيوني نهاية لمشروع "فولك برنادوت" باغتياله - ١٩٤٨

لفترة اربعة اسابيع - لم يثر خلافا مبدئيا، وكان من الممكن اعتباره محدودا فى ابعاده.

اسباب فشل برنادوت

إن فشل «برنادوت» فى مد فترة الهدنة قد نبع من رفض العرب الاستجابة لمطلبه ولمطلب مجلس الامن «اعلنت اسرائيل استجابتها المشروطة باستجابة الطرف الآخر» وقد ساهمت عدة عوامل فى الرفض العربى من بينها الخوف من ان تستمر الهدنة لفترة غير محدودة. وقد بدا هذا الامر بالطبع فى نظر العرب باعتباره يساهم فى تجميد الموقف الذى حدث، حينما اصبح جزءا من فلسطين تحت سيطرة دولة اسرائيل.

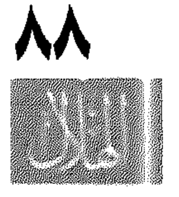
ثانيا، كان التوقيت يفتقد الى الظروف الضاغطة، فالجيوش العربية ازدادت قوة وانتظر زعماء العرب بتفاؤل مع انتهاء الهدنة استئناف المعارك العسكرية. ويكمن السبب الثالث وراء فشل برنادوت فى خطأ فادح ارتكبه برنادوت حينما اعتقد انه يستطيع ان يدفع الدول العربية الى مد الهدنة، اذا ما قدم اليها اقتراحات للبحث من أجل حل النزاع وقد اعدت هذه الاقتراحات التى قدمت فى يوم ١٩٤٨/٦/٢٧ حسبما

يبدو بما يرضى الدول العربية، وبحيث يستشف منها الغاء استقلال اسرائيل. واستنادا لهذا الاقتراح المقدم من «برنادوت» كان من المفروض ان تقوم فى فلسطين دولة جديدة مكونة من «وحدة» بين القطاع العربى والقطاع اليهودى. وكان خطأ «برنادوت» الفادح انه اقترح ان تضم الاجزاء العربية من فلسطين لمملكة شرق الاردن. وهكذا تجمع ضد اقتراحاته ، وضد مد الهدنة التى ربطها. «باقتراحات البحث» التى طرحها، كل من مصر وسائر خصوم الملك عبدالله، الذين لم يرغبوا فى مد الهدنة من اجل بحث احتمال ان تخرج شرق الاردن الرابحة الوحيدة منها.

وفى النهاية فإن فشل «برنادوت» فى مد الهدنة قد نبع كذلك من انه لم يحصل، ولم يحاول ايضا ان يحصل على سند دولى لخطواته. ويبدو ان «برنادوت» لم يسع فى هذه المرحلة الى ان يضع فى الصورة سكرتير الامم المتحدة والدول العظمى الرئيسية، ويبدو بشكل عام انه لم يفهم مدى اهمية ان تكون اعماله منسقة على المستوى الدولى.

وفى نهاية الامر أصبحت هناك هدنة جديدة سارية المفعول، وكان لبرنادوت فيها نصيب صغير فقط – اذا كان هناك دور له على وجه العموم– فى التوصل الى الحصول على استجابة الاطراف. فبينما كانت اسرائيل مستعدة لقبول الهدنة منذ البداية، فإن العرب استجابوا فقط بعد ان منوا بهزائم عسكرية وبعد ان هدد مجلس الامن بفرض عقوبات. وقد كان التهديد بالعقوبات بالنسبة للحكومات العربية بمثابة مخرج محترم للتخلص من الموقف الذى تورطوا فيه. وبعد عدم تحقيق توقعاتهم فى تحقيق انتصار سريع ضد اليهود، وبعد الهزائم العسكرية التى منوا بها شكل التهديد بالعقوبات ذريعة اتاحت للحكومات العربية تبرير قبول الهدنة بالنسبة لحلفائهم، وبالنسبة للرأى العام الهائج فى بلادهم وقد كانت الحكومات بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية على علم بحاجة الدول العربية لذريعة من هذا النوع ، وقد ساهمت هذه المعرفة ، حسبما يبدو، فى صياغة قرار مجلس الامن.

يتضح مما قيل سابقا اسباب فشل جهود «برنادوت» من اجل التعجيل بتسوية سلمية لمشكلة فلسطين. اولا، لقد نبع الفشل من ثقل



المهمة – وهى التسوية الشاملة للنزاع، ان تحقيق هدف واسع الى هذا الحد، يمس المواقف الأساسية لأطراف النزاع، كان متجاوزا لمقدرة برنادوت. والذى يثير الاهتمام هو ان برنادوت لم يكن منتبها لهذا. ان السذاجة ونقص المعلومات لديه عن المواقف والحساسيات الخاصة بالأطراف وعن قدرتهم العسكرية والدبلوماسية قد جعله يطرح فى

شعر

محمود درويش

هكذا قالت امرأة لابنها فى جنازته

قالت امرأة للسحابة : غطى حبيبى
فإن ثيابى مبللة بدمه !

□□

إذا لم تكن مطراً ياحبيبى
فكن شجراً
مشبعا بالخصوبة .. كن شجرا
وإن لم تكن شجراً يا حبيبى
فكن حجراً
مشبعا بالرطوبة .. كن حجراً
وإن لم تكن حجراً ياحبيبى
فكن قمراً
فى منام الحبيبة ... كن قمرا
(هكذا قالت امرأة
لابنها فى جنازته)
(إلى الليل) مهما ادعيت المساواة
«كلك للكل » ... للحالمين وحراس
أحلامهم ، فلنا قمر ناقص ، ودم
لايغير لون قميصك ياليل ...

□

نعزى أبا بابنه : «كرم الله وجه الشهيد».
وبعد قليل ، نهنئة بوليد جديد .

□



ياسر عرفات بعد نجاته من محاولة اغتياله بعد ضرب مقر منظمة التحرير في تونس ١٩٨٥

اقتراحات البحث التى قدمها فى ١٩٤٨/٦/٢٧ اقتراحات لم تغضب جزءا محترما من المعسكر العربى فحسب حسبما رأينا من قبل، بل اثارت عليه اليهود كذلك. وبعد هذه الاقتراحات. التى استشف منها الغاء استقلال اسرائيل والتى بموجبها كان من المفروض ان تكون القدس كلها خاضعة للسيطرة العربية وليس للسيطرة الدولية وفق قرار هيئة الامم المتحدة فى ١٩٤٧/١١/٢٩ اصبحت إسرائيل نزاعة الى الشك ومتصلبة فى اتصالاتها معه . تتضح سذاجة برنادوت وعدم اهليته، فى انه لم يحاول فى هذه المرحلة تجنيد المجتمع الدولى لاقتراحاته.

ويقال لصالح برنادوت. انه حاول ان يستفيد دروسا من فشله هذا فى حاجة الى فرض حل على الاطراف . وفى مشروعه الجديد لا يتضح وجود جهد من اجل كسب ود الاطراف (او اى منهما) ولكن موافقة الدول العظمى، والمجتمع الدولى. ولم يقدم هذا المشروع هو الاخر الى الاطراف، بل قدم الى الجمعية العامة للأمم المتحدة. وقد فهم برنادوت الآن ايضا، انه حيث ان الولايات الامريكية والاتحاد السوفييتى وايضا عديد من الدول الاخرى قد اعترفت بإسرائيل فإنه اذا كان يريد ان يحصل على سند دولى لاقتراحاته فعليه ان يأخذ هذه الحقيقة فى الحسبان. لذلك فإن هذه الاقتراحات تذكر بصراحة ان



صورة تجمع خليل الوزير«ابو جهاد» ومعه انتصار الوزير «ام جهاد» فى الستينيات

دولة يهودية موجودة في فلسطين وانه ليس هناك ما يبرر افتراض انها لن تستمر في الوجود و قد لين كذلك في مشروعه هذا، توصيته بأن يضم الجزء العربي من فلسطين الى شرق الاردن، واقترح، بدلا من هذا ، أن تقوم الدول العربية بحسم هذه المسألة.

وكما هو معروف، فان برنادوت قد قتل في ١٩٤٨/٩/١٧ على ايدى متطرف صهيوني ولم يتمكن من النضال من اجل اقتراحاته في الجمعية العامة للأمم المتحدة التي امتنعت في نهاية الامر عن تبني توصياته. ولكن لو كان قد اتيح له ان يناضل من اجل اقتراحاته، فإن هناك شك كبير في انها كانت ستقبل. ان معارضة الطرفين لاقتراحاته لم تكن قابلة للتغيير بسهولة في الظروف التي كانت قائمة في نهاية ١٩٤٨ وهي : عدم وجود حتمية تدفع الدول العربية للموافقة على قيام اسرائيل، وعدم وجود حتمية بالنسبة لإسرائيل للتنازل عن المناطق التي استولت عليها. وتوقيت المناقشة في الامم المتحدة اثناء معركة الانتخابات على الرئاسة في الولايات المتحدة الامريكية مما جعل من الصعب على الولايات المتحدة الامريكية ان تنحاز الى مشروع تعارضه اسرائيل بشدة . كما ان التوتر المتزايد بين الشرق والغرب، حال هو الاخر دون بلورة تجمع دولي حول مشروع عارضته اطراف النزاع. وفي هذه الظروف لم يكن هناك احتمال كبير للنجاح امام مشروع برنادوت الذي وضع الارهاب الصهيوني نهايته بالاغتيال. ■

قصة كنيسة

كنيسة المهد - بريشة روبرتس

بقلم
د. نيفين مسعد •

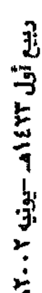
أخذ الذين كتبوا عن كنيسة المهد ما جرى لها بعيداً .. بعيداً جداً عما جرى فيها . أحصوا ثقوب الجدران التى صنعتها رشاشات محتل اجترأ على أحد أقدس بقاع الأرض وأطهرها ، زكمت أنوفهم رائحة الموت والحريق التى لاتزال تعلق بالأثر الأهم لكل أتباع عيسى المسيح ، هالهم يبوس أوراق الشجر الذى رعاه الرهبان الطيبون يوماً بعد يوم قبل أن يجف ماؤه وماؤهم ، رصدوا كل وجوه التدمير والتخريب التى طالت مهد السيد المسيح بعد حصار خانق دام أربعين يوماً كاملة ، لكنهم نسوا بين ما نسوا أن ما كان يجرى بين أروقة الكنيسة أهم .

• استاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

التقط آخرون الخيط القانوني والسياسي أيضاً في قصة الكنيسة منذ بدأت وحتى انتهت . طرحوا على أنفسهم وعلينا أسئلة كثيرة واجتهدوا في إجابتها : ماهو وضع بيوت الله زمن الحرب ؟ إذا كانت السفارات تحميها دبلوماسيتها فهل لاتشفع قداسة تلك البيوت لحمايتها ؟ ماذا تقول اتفاقيات جنيف عن حقوق المدنيين في وقت القتال ، وكيف يتعامل القانون الدولي مع جرائم التعطيش والتجويع والإيذاء النفسي لأكثر من مائتي محاصر في الكنيسة تقدم إسرائيل إلى المحاكمة بتهمة ارتكاب كل جرائم الحرب ؟.. ثم .. ثم ماذا عن صفقة تحرير المحاصرين وأي ثمن أطلق سراحهم ؟ هل تؤثر صفقة التسريح على الوحدة الوطنية ؟ هل تضفي شرعية على سياسة الإبعاد ، الوجه الآخر لسياسة الاستيطان الكريهة ؟ ماذا عن مصير ثلاثة عشر مناضلاً فلسطينياً ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم يعد لهم من ملجأ إلى الله إلا إليه ؟ ألف هل وكيف ولماذا ، وجميعها أسئلة مشروعة وربما مطلوبة ، لكنها جميعاً وبدون استثناء تسحب دائرة الضوء عن أيام عاشها المحتجزون معاً ، وصمدوا فيها معاً ، وأضافوا بما ومن خلالها فصلاً جديداً في قصة لاينقصها شيء من أسباب العبقرية والإبداع : قصة ميلاد السيد المسيح .

مثل كل الأطفال ، كان المدخل القصصي هو المدخل الأنسب الذى إختارته أسرتي لربطي بآيات الله منذ وقت مبكر ، وحتى على تأمل معانيها . ولا زلت أذكر كيف كنت أقرأ قصص القرآن مرات ثلاث ، أبدأ مع القرآن ، ثم ألجأ إلى رائعة أحمد بهجت «أنبياء الله» لأفهم ، ثم أعود للقرآن لأتذوق حلاوة الأسلوب بعد ما وضح المعنى في ذهني . ومثل بعض هؤلاء الأطفال ، كانت تشدني بوجه خاص قصة السيدة العذراء ، هذه السيدة التي نذرتها أمها لله وهي جنين لم تزل ، وكانت تحيرني هذه المفارقة التي ينطوي عليها لقب «السيدة / العذراء» قبل أن أدرك أن هذا هو جوهر أصطفائها وتطهيرها واصطفائها على نساء العالمين إختصاصها بهذا النوع الفريد من الأمومة الذى يليق بمولد نبي . وكم كان يهزني ، وما لايزال ، ذلك المشهد الذى أبدع القرآن تصويره ، عندما أجاء مريم المخاض إلى جذع النخلة فاتكأت عليه ، وهي ما بين شك ويقين . تشفق على نفسها مما يتقول به عليها قومها ، وهي العابدة القانتة التي لم تفارق محرابها ولم تك يوماً بغياً . ويهدىء من روعها حديث الملك الذى بعثه الله إليها حاملاً البشارة الأولى ، حتى إذا كلم المسيح الناس في المهد صبياً كانت إمارة النبوة وعلامتها التي بها قرت عينا مريم .

لست أبالغ عندما أقول أن إحساساً مشابهاً غشاني وأنا أتابع يوماً بيوم مايحدث داخل الكنيسة المحاصرة . بيت من بيوت الله يحتضن مائتي فلسطيني ، منهم المسلم ومنهم المسيحي ، ويقفل أبوابها عليهم . يقوم الرهبان على خدمتهم، وأهل مكة أدرى بشعابها ، ويداوون منهم من يسقط جريحاً ويصلون على من تفيض منهم روحه مع إخوانه ، ترى ماذا كان شكل الصلاة ؟. يقتسمون مع الجميع زادهم القليل ، وليس أكثر زهداً من حياة راهب . تطاردهم أدوات جيش الاحتلال الواقف على بعد أمتار من أبواب الكنيسة وتحلق فوق رؤوسهم



طائراته فلا يفزعون . وعندما يسأل أحد رهبان الكنيسة : هل يستسلم ؟.. يتريث الرجل لحظة وكأنه لم يفهم السؤال ، أو لعله يستنكر أن يطرح عليه ابتداء .. ثم يجيب على السؤال بسؤال : أستسلم ؟ .. لمن أستسلم ؟ لا هذا بيتنا ، وهم الذين يحاصروننا ، وعليهم هم الذهاب . وعندما يتدارك سائله بعد أن فهم أنه أرسل الرسالة الخطأ ، يعود فيسأل : أعنى هل تسلمون من تطالب بهم إسرائيل من المحاصرين داخل الكنيسة ؟ يجيب الرجل الرائع فى اقتضاب شديد : من لجأ إلينا فهو آمن . تأملت كلمات الراهب ملياً ، ووجدت بين ثناياها شعاع ضوء كنا أحوج ما نكون إليه والمدن الفلسطينية ومخيماتها تتسابق في إهداء أبنائها الواحد منهم تلو الآخر للشهادة .. اختصر الراهب ، وأظن أنه الأب إبراهيم فلتس ، كل الجدل العقيم الذى أثاره قبل سنين دعاة صراع الحضارات ، أو صراع الأديان بتعبير أوضح ، وقطع عليهم الطريق عندما برهن على أنه فى بيت الله الكل سواء ، وأن إنسانية بنى آدم هى رخصته للحماية وليس دينه ولا ملته . يا إلهى كيف تاه هذا المعنى الجميل وسط ركام القبح الذى أحاطنا منذ التاسع والعشرين من مارس ؟ إن تطورات ما كان يحدث داخل كنيسة المهد باتت هى الشيء الوحيد الذى أفتش عنه فى كل نشرات الأخبار بعد ما بلغت وحشية المحتل مداها ، ولم تعد هناك قوة على الأرض تجبرنى على أن أقتفي آثارها وإذا قبلنا من العالم - والأمر ليس مقبولاً - أن يغمض عينيه عن المعنى ودلالاته ، فكيف بنا والأصل فى علاقتنا مسلمين ومسيحيين هو صورة مما كان يجرى داخل كنيسة المهد ؟ أدهشنى دائماً أن يمنح غيرنا نفسه الحق فى أن يمتحن علاقات مواطنينا ببعضهم من زاوية الأنا والآخر ، وساءنى دائماً أن ندافع عن أنفسنا أمام من لايملك حق مساءلتنا . لكن ما أدهشنى أكثر وساءنى أكثر ، أننا وقد قبلنا المبدأ ، أن نغض الطرف عن أيام الحصار داخل الكنيسة فلا نزهو بها

تمضى الأيام بطيئة كأنها تزحف ، ويحل أسبوع الآلام ، هل هو وصف لبعض من سيرة المسيح أم وصف لجزء من مشوار الكنيسة ؟ يتداخل المعنى ويختلط عندما يأتى العيد والمهد لازال محاصراً ، لا تضاء له شمعة ولا يفطر له صائم . وليت أن أحداً من المحاصرين كتب عن ذكريات تلك الأيام . كيف كان يرتل الإنجيل ؟ كيف كانت تقام الصلاة ؟ أى الشهداء تقمص دور المسيح تلفه الأكفان فى يوم الجمعة الحزينة لتعود فتسحب عنه إيذاناً بالقيامة ، مع فارق أن المسيح يقوم أما الشهيد فلا ؟ كيف كان طعم التهنئة بالعيد هذا العام ، وعبارة «كل سنة وأنت طيب» يتبادلها المسلم والمسيحى ويستقوى بها علي أيام لعل أسوأها لم يأت بعد ؟... تجربة إنسانية شديدة الإيلام والإيحاء والثراء فى الوقت نفسه .

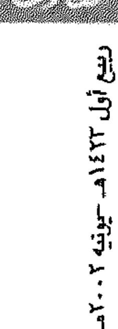
فك الحصار

وأخيراً أخيراً جداً يفك الحصار عن الكنيسة ، ويتاح لكاميرات التليفزيون أن تتجول داخل أروقتها ، فماذا نشاهد ؟ .. أغطية متراصة الواحد منها جنب الآخر ، فالكل يلتحف الأرض ، والأجساد المنهكة تتلاصق لتستمد الدفء من بعضها فى ليالى شهر أبريل الباردة . ومواقد الغاز تتناثر هنا وهناك عندما كان للمحاصرين فيها حاجة ، قبل أن ينفد ما تنضجه

النار، ولا يجد المحاصرون ما يأكلونه غير أوراق شجر الليمون ، أما ما كان يخلع القلب ويوجعه فكانت قطرات الدم تخضب كل شيء في الكنيسة .. كل شيء فعلاً .. الأغطية ، والمواقد ، الجدران ، المذبح ، قدس الأقداس ، الشمعدانات الذهبية ، الأجراس . قوة ما بعدها قوة أن يضاف إلى شظف العيش داخل الكنيسة وجحيم المحتل خارجها ، ألم الحياة في وجود جثث الشهداء الثمانية الذين إخترقت قذائف البرابرة أجسادهم الطاهرة ، وهم يهمون بفتح نافذة أو إعتلاء سلم أو استراق النظر من وراء باب . هل جرب أحد منكم من قبل ملهاة اختلاط الموت مع الحياة وعايشها أياماً ؟ هل رأى أحد منكم نهايته بهذه الفظاظة وإن علم عنها ما علم ، وليس من يرى كمن سمع ؟ لقد كان هذا - التحديد أكثر ما آلم راهب الكنيسة الأب إبراهيم فلتس ، عندما قدر له أن يتكلم أمام إحدى الفضائيات العربية بعد فك الحصار ، فكان سائله يدور حول الخراب الذى لحق بالكنيسة ومقتنياتها ، وكان الرجل لايتحدث إلا عن الشهداء الثمانية وكان سائله يستدرجه للتعليق على المس بهيبة الكنيسة فيستحضر الرجل مشهد خروج الشهداء الثمانية ويعتبر التجاسر على حرمة الموت أفظع . تأمل معنى إستخدام الراهب وصف الشهداء لمن تصفهم إسرائيل وآخرون غيرها - بالإرهابيين ، فالسياسة تغير مضامين الأشياء أما الديانات السماوية فلا ، وليس النضال كالإرهاب . كان الأب إبراهيم فلتس يهون من كل الأضرار التى لحقت بالأثر رغم فداحتها ، لكنه كان يأسى أسى شديداً على من فارقوا الحياة ، لأن تلك هى الخسارة الحقيقية التى لايمكن تعويضها ، ولأن مسرح الشهادة كان هو بهو الكنيسة . وعندما رأيت بعد ساعات قليلة من فتح أبواب الكنيسة كيف يتحرك الرهبان داخلها بهمة عالية لتنظيف الجدران ، وإعادة الهيبة لمهد المسيح ، أدركت لماذا كان يتحدث الرجل بقلب مطمئن عن أن كل شيء قابل للإصلاح ، وكان يعنى - بالطبع كل شيء مادى . تمنيت وقتها لو كان الزمان غير الزمان ، ربما كان يمكن وقتها أن أنضم وكثيرون عندى ممن بهرتهم تجربة الكنيسة إلى قافلة هؤلاء الرهبان النشطاء الطيبين ، حتى لو كان كل نصيبى أن أرفع ورقة ، أو ألم غطاءً ، أو أطلى حائطاً ، فأنا أحب أن أكون بين هؤلاء .

ربما تكون إسرائيل قد شوهت فى أقدس كنيسة ما شوهت وأصابت بها ما أصابت ، لكن رهبان الكنيسة أجبروا جيشها بكل عتاده وتجبره على أن يقف أمام أبوابها أربعين يوماً كاملة لايدرى ماذا يصنع ، يتناوب ذئابه حراستها ويكتمون دهشتهم من قدرة المحاصرين على الصمود . وربما تكون إسرائيل قد أزهقت من الأرواح الطاهرة داخل الكنيسة مثلما أزهقت أخرى خارجها ، لكنها نسجت عن غير قصد منها - الطبع تلاحماً وطنياً - ولا أقول دينيا - رائعاً ستظل هذه المدينة : بيت لحم وهذه الكنيسة : المهد ، شاهدتين عليه إلى الأبد . أهم من كل ذلك أن الأثر الأهم لتجربة الكنيسة ، أنه ما عاد ينطلى على أحد أن النضال (نعم النضال وليس الإرهاب كما تسميه إسرائيل) حرفة إسلامية خالصة .

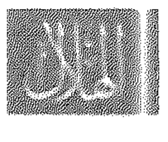
■



الحوار العربي الأوروبي

بقلم
د. محمـود على مكـى

غرناطة .. عروس مدن الأندلس.. حاضرة بنى نصر، ملوك آخر معقل من معاقل المسلمين فى الأندلس. فى غرناطة وفى أختيها قرطبة وإشبيلية تقوم أروع شواهد الحضارة العربية الإسلامية: قرطبة كانت عاصمة الخلافة الأموية التى تنافس بعمرانها ومساجدها ومكتباتها بغداد والقاهرة، وإشبيلية، مقر بنى عباد بقصورها وبساتينها ومنارة مسجدها الجامع، التى تشهد بفنها الرفيع على رهافة إحساس ملوكها، ولا غرو فقد كان هؤلاء الملوك وعميدهم المعتمدبن عباد من نوابغ الشعراء. حاضرتان تتمثل فيهما عظمة الأندلس في إبان أوج قوتها وازدهارها. وأما غرناطة فإن روعة الفن فيها تتجلى فى قصر الحمراء، غير أنه فن بقايا دولة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، ومع ذلك فقد استطاع بناة هذا القصر أن يعتصروا من موارد مملكتهم الفقيرة المتداعية ما يعد عصارة لفن لا نكاد نرى له مثيلا.. وكأن ملوك غرناطة يشعرون بقرب نهاية دولتهم العربية، فأفرغوا فى هذا القصر البديع خلاصة ما فى التراث الأندلسى من فنون العمارة، وكأنهم أرادوا أن يعبروا عن حسهم الشعرى حينما زينوا جدرانه بقصائد أكبر شعرائهم: لسان الدين بن الخطيب وتلميذه ابن زمرك.





إحدى واجهات
قصر الحمراء
في غـــرناطة

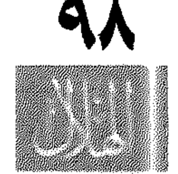
قرطبة وإشبيلية تقومان على ضفاف «الوادى الكبير El Guadalguivir» الذى كانت تحف به المتنزهات البهيجة وتمخر فيه قوارب النزهة فى ظلال الشجر الوارف، وتحت تغريد الأطيار. وأما غرناطة فيشقها نهرا حدره El Darro وشنيل El Genil وهما فرعان صغيران من الوادى الكبير يجفان فى أكثر فصول السنة، وكأن شاعر غرناطة غرسية لوركا - الذى أطاحت به يد الجهل والتعصب - كان يرى فى نهرى غرناطة صورة مكثفة لمأساة بلده فى قصيدته «الأنهار الثلاثة» حيث يقول:

«نهر الوادى الكبير
ذو لحية حمراء داكنة
ونهرا غرناطة
واحد من دموع، والآخر من دم
آه من الحب
الذي طارت به الريح
للقوارب ذات الشراع
طريق فى نهر إشبيلية
وفى مياه غرناطة
لا مجاذيف إلا الزفرات
آه من الحب
الذى ذهب ولم يعد»

منذ عشر سنوات احتفلت إسبانيا بمرور خمسة قرون على كشف العالم الأمريكى الجديد. وكان من الاتفاقات أن السنة التى تم فيها هذا الكشف علي يد كريستوفر كولمبس وهى عام ١٤٩٢ هى نفسها التى سقطت فيها غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين. وأقيمت فى إسبانيا وفى بلاد أمريكا اللاتينية احتفالات كبيرة بهذه المناسبة، لا ابتهاجاً بسقوط غرناطة كما ظن البعض، وإنما لأن هذه السنة كانت فاصلة بين مرحلتين تاريخيتين، ووقفة لتأمل الماضى واستخلاص العبرة منه. وكان من ثمرات ذلك دراسات كثيرة حول التراث الأندلسى عبر فيها أصحابها عن تقديرهم لما يمثله من منجزات الوجود العربى الإسلامى في أرض شبه الجزيرة، والنظر إليه على أنه جزء لا يتجزء من الحضارة الراقية التى ازدهرت على أرض إسبانيا، فأصبحت جزءاً من تاريخهم القومى يعتدون به كل الاعتداد.

التعاطف مع الماضى

من هذه النظرة الجديدة إلى ذلك التراث المشترك بيننا وبين إسبانيا أصبح الشعور السائد فى إسبانيا اليوم يتسم بالتعاطف مع ماضينا وحاضرنا والتفهم لقضايانا المعاصرة، على نحو يفوق ما نجده لدى سائر بلاد أوروبا. ولعل من مظاهر ذلك أن أول محاولة جادة لقضية فلسطين - شاغلنا الأكبر - إنما انطلقت من مدريد فى عام ١٩٩١. وإذا كانت مسيرة السلام التى بدأت أولى خطواتها من العاصمة الإسبانية قد تعثرت بعد ذلك - فإن إسبانيا مازالت واعية بدورها فى تلك المسيرة، متمسكة بمبادىء الشرعية الدولية التى أقرت أسسها فى ذلك الاجتماع التاريخى، وأولها مبدأ «الأرض فى مقابل السلام».



من هنا كان هذا المؤتمر الأخير الذي عقد في غرناطة بالذات باسم «الحوار العربي الأوروبي» خلال يومي ١٤ و١٥ من فبراير الماضي. وأتت المبادرة بالدعوة لهذا المؤتمر من قبل الحزبين الاشتراكيين: الأول هو الذي يحمل اسم «الاشتراكي العمالي الإسباني» Psoe والآخر «الحزب الاشتراكي الإسباني» Pse ، وهما جبهة المعارضة في الوقت الحاضر في مواجهة «الحزب الشعبي» .P.P الحاكم وزعيمه خوسيه ماريا أثنار.

على أن الدعوة لم تكن باسم هذين الحزبين فقط، وإنما باسم الأحزاب الاشتراكية في الاتحاد الأوروبي. ولهذا فقد كان التمثيل الأوروبي فيه واضحاً، إذ حضره عدد كبير من ممثلي الاشتراكية الأوروبية، ولاسيما من أعضاء البرلمان الأوروبي، بالإضافة إلى عدد من أكبر أساتذة الجامعات والمفكرين والكتاب ذوي المكانة الرفيعة في بلادهم. وقد بلغ المدعوون المشاركون في المؤتمر نحو خمس وعشرين شخصية، من بينهم ممثلون للبلاد العربية والإسلامية، وكان لكاتب هذه السطور شرف المساهمة في أعماله. واستخدمت فيه اللغات الأربع: العربية والإسبانية والإنجليزية والفرنسية. غير أن كثرة المتحدثين في كل جلسة لم تسمح إلا بنحو عشر دقائق أو تزيد قليلا لكل متحدث.

أما مقر المؤتمر فقد كان قصر المؤتمرات الذي أنشيء حديثاً منذ سنتين في موقع متوسط بين كنيسة غرناطة الكبرى التي كانت مسجدها الجامع والمدرسة العربية القديمة التي كان بناؤها في نحو عام ١٣٢٥ على يد الحاجب (رئيس الوزراء) أبي رضوان الذي يسميه الكاتب الوزير لسان الدين بن الخطيب مؤرخ غرناطة «حسنة الدولة النصرية وفخر مواليها» على غرار المدارس التي كانت شائعة في بلاد المشرق العربي منذ العصر الأيوبي، ولاسيما في مصر. وكان رضوان هذا وزيراً للسلطان محمد بن أبي الوليد إسماعيل ثم لأخيه أبي الحجاج يوسف، وهما من أعظم ملوك بني الأحمر أو بني نصر. ومكان هذه المدرسة هو الذي تحتله اليوم الجامعة العربية الأوربية التي تم إنشاؤها باتفاق بين الاتحاد الأوروبي والجامعة العربية.

من شرفات هذا القصر تبدو معالم قصر الحمراء، ومن خلفها سلسلة جبال غرناطة المسماة جبال الثلج -Sierra Ne vada التي يكلل الجليد قممها الشاهقة حتى في شهور الصيف في مشهد من أروع مشاهد الطبيعة. وفي أدنى الوادي حي البيازين Barria ded Ailaicin الذي كان فيه على أيام العرب مساكن الحرفيين والصناع. وكان اختيارها هذا المكان لبناء القصر موفقاً كل التوفيق لموقعه بين المسجد القديم ومكان المدرسة، وكأنه يرمز إلى جمعه بين ركنين أساسيين



من أركان الثقافة العربية الإسلامية: وهما الدين والعلم.

وأما أعمال المؤتمر فقد توزعت على ثلاث جلسات، عقدت أولاها في صباح الرابع عشر من فبراير، وكان محورها: «نظرة عامة للحوار العربي الأوروبي«: المبادىء الأساسية»، وتضمن البرنامج ستة متحدثين:

- خوان مونتابس، أستاذ العلوم السياسية بجامعة غرناطة.
- محمود على مكى، الأستاذ بجامعة القاهرة.
- رافاييل إستريا، عضو البرلمان الإسبانى.
- خالد عليوة، الأمين العام الدولى للاتحاد الاشتراكى فى المغرب.
- رياج ططرى، رئيس اتحاد الجامعات الإسلامية فى إسبانيا (وهو إسبانى من أصل سورى).
- إميليو منندث ول ڤاى، عضو البرلمان الأوروبى (عن إسبانيا).

وافتتح الجلسة خوان مونتابس الذى تحدث عن المتغيرات التى حدثت فى العالم بعد الحادى عشر من سبتمبر الماضى، وما يسمى بالحرب ضد الإرهاب، وما يروجه رجال السياسة وأجهزة الإعلام فى الولايات المتحدة وبعض الدول الغربية من إلصاق تهمة الإرهاب بالإسلام، فذكر أن الأمر يحتاج إلى تدبرهادئ يحاول أن يتفهم أسباب ما وقع بعيداً عن التهييج والإثارة، وعن التسرع بإلقاء الاتهامات، وكان من بين ما قاله: «لقد عرفنا الإسلام وحضارته عن كثب. ومدينة غرناطة التى نعقد مؤتمرنا فيها شاهدة على أن ثقافة الإسلام كانت من التسامح وسعة الأفق ما جعل من بلادنا نموذجاً للتعايش بين الثقافات والأديان».

وتحدث عضوا البرلمانين الأوروبى والإسبانى عن مشروع السلام فى الشرق الأوسط منذ أن بدأت مسيرته فى مؤتمر مدريد عام ١٩٩١ وما تبعه من مؤتمرات تالية، وعن الدور الذى يجب أن يقوم به الاتحاد الأوروبى وإسبانيا فى مواصلة هذه المسيرة، على أساس التمسك بالشرعية الدولية واحترام المواثيق، والعمل على تنفيذ القرارات التى أصدرتها الأمم المتحدة، كما أشاد بضرورة التحالف فى الحرب ضد الإرهاب مع مجموعة البلاد الإسلامية التى أدانت الإرهاب انطلاقاً من مبادىء العقيدة الإسلامية نفسها.

مبادىء الإسلام

وأما العضوان اللذان كانا يمثلان الجانب العربى وهما رياج ططرى وكاتب هذه السطور فقد تحدثا عن مبادئ الإسلام التى دعت منذ البداية إلى نبذ العنف والتطرف، والتى قامت على احترام جميع العقائد والأديان، مع ضرب أمثلة من التعايش السلمى بين الطوائف المختلفة، سواء من التاريخ القديم أو الحديث، مع التركيز على ما مثلته الحضارة الأندلسية من تسامح لا نكاد نجد له مثيلاً فى عالم العصور الوسطى. كما تناول الحديث وجهة نظر الجماعات الإسلامية فى إسبانيا،

ومـوقـفـهـا من إدانة كل ألوان التـعـصب.
أمـا السـلام الذى ندعو إليه فـينبـغى أن يقوم على العدالة. فليس من المعقول أن يكون الحـديث عن مـحـاربة الإرهـاب مع غض النظر عـمـا يجـرى فى العـالم من عدوان على الحقوق الإنسانيـة، ولاسـيـما فـى فلسطين، حـيـث تمارس إسـرائيل إرهابا تقوم به أجهزة الدولة ضد شعب أعزل يطالب بحـريتـه التى ضـمـنتـهـا له الشرعية الدولية.

القيم وحقوق الإنسان

وكانت الجلسة الثانية فى مساء هذا اليوم نفسه، وكان محورها «القيم وحقوق الإنسان والحريات بعد الحادى عشر من سبتمبر» وتولى إدارتها الدكتور طارق رمضان أستاذ الفلسفة وعلوم الإسلام فى جـامـعـة فـريبـورج. وكـان المدعوون للاشتراك فيها هم:

- نزهة شقرونى، وزيرة شئون المرأة فى المغرب.
- عالية شمرى، الكاتبة التونسية.
- لويس مـاريا دى بوتش، المقـرر الدائم للتعـاون بين بلاد البـحـر المتـوسط فى الجمعية العامة للمجلس الأوروبى
- خيما مرتين مونيوث، أستاذة علم اجتماع العالم العربى فى جامعة مدريد المستقلة.
- مـحـمـد طوزى، أسـتـاذ العلوم السـيـاسـيـة فى جـامـعـة الدار البـيـضـاء بالمغرب.
- سهام بنسدرين، الكاتبة التونسية.



د.محمود على مكى

- خـديجـة أريب، النائبـة فى البـرلمان الهولندى.
- سيـمـا سـمـر، نائبة رئيس الحكومـة المؤقتة فى أفغانستان.
- باسكوالينا نابوليـتـانو، النائبـة فى البرلمان الأوروبى، من إيطاليا.

ومن اللافت للنظر كثافة التمثيل العربى والإسلامى فى هذه الجلسة، وحضور المرأة فـيـهـا، وأن بعض المشـاركين كـانوا من مـواطنى بعض البـلاد الأوروبيـة وإن كـانوا من أصـول عـربيـة، كـمـا أن هؤلاء يحـتلون مناصب رفيعة فى تلك البلاد التى أصبحوا من مـواطنيـهـا. وكـانت المداخـلات فى هذه الجلسة تدور حول الدور الأوربى الذى يجب أن يواجـه مـا تسـعى إليه الولايات المتـحـدة من فـرض إرادتهـا وهيـمنتـهـا على العـالم، بغيـر اعتبـار للشرعية الدوليـة. كـمـا عـبر المشاركون بقوة عن ضرورة احترام حقوق الإنسان وتطبيق العدالة على الجميع أفراداً ودولاً، وعن أن شـعـار الحرب ضـد الإرهـاب

لا ينبغي أن يتخذ مبرراً للتدخل في شئون الدول الأخرى أو لمحاولة فرض نظام معين عليها. وقد كان من أكثر المداخلات موضوعية في هذه الجلسة حديث الدكتورة خيما مرتين الأستاذ في جامعة مدريد المستقلة والمتخصصة في شئون العالم العربي، إذ عرضت بوضوح أزمة الشرق الأوسط، ونددت بالعدوان الإسرائيلي على الشعب الفلسطيني، وبالسياسة الأمريكية المنحازة انحيازاً كاملاً لإسرائيل، دون نظر إلى ما تمارسه هذه الدولة من عدوان سافر على شعب فلسطين، ومع التهديد بضرب العراق، متبعة سياسة الكيل بمكيالين، وهي سياسة لن ينتج عنها إلا إثارة مزيد من الكراهية لدى الشعوب العربية والإسلامية، ويخشى أن يؤدي ذلك إلى إفراز جماعات إرهابية يمكن أن تهدد العالم بخطر مستطير.

وعقدت الجلسة الثالثة في صباح يوم ١٥ فبراير، وكان محورها «تقييم مشروع برشلونة وأزمة الشرق الأوسط» وكان من المتحدثين فيها:

- ميجيل آنخل موراتينوس، المبعوث الخاص للاتحاد الأوروبي في الشرق الأوسط.
- شلومو بن عمي، وزير الدولة الإسرائيلي السابق للشئون الخارجية في حكومة إيهود باراك.
- ميشيل يونج، الكاتب اللبناني.
- مانويل مارين، النائب في البرلمان الإسباني.
- أحمد جداي، الأمين الأول لجبهة القوى الاشتراكية في الجزائر.
- رايمون أوبيولز، النائب في البرلمان الأوروبي.
- مالكة بن رضى، المحامية المغربية.

وكان مقرر الجلسة ومدير الحوار فيها الكاتب الفرنسي برنار راڤينيل.

وكان موضوع هذه الجلسة أزمة الشرق الأوسط التي تفاقمت في الآونة الأخيرة. مهددة مشروع برشلونة المتوسطي بالفشل، بعد الاعتداءات الإسرائيلية التي تجاوزت كل الخطوط الحمراء، حتى لم يعد الأمر انتكاسة في جهود إقرار السلام، بل أصبح أشبه بقضاء على عملية السلام برمتها. وقدم ممثلو الجانب العربي عرضاً وافياً للوضع المتردي في الأرض الفلسطينية، حتى أصبح يهدد الاستقرار في المنطقة بأسرها إذا لم يوضع حد للاعتداءات الاسرائيلية التي تمثل أخطر انتهاك لحقوق الإنسان.

شاهد على معاناة الفلسطينيين

وكان من أبرز المتحدثين في هذه الجلسة ميجيل آنخل موراتينوس الذي عايش الموقف في فلسطين خلال السنوات الماضية، فكان شاهد عيان على مقاساة الشعب الفلسطيني، وكان شرحه واقعياً للظروف المأساوية التي يعيشها هذا الشعب وقيادته إزاء التعنت من جانب القادة الإسرائيليين الذين يتخذون من أبسط عمل من أعمال المقاومة ذريعة للقتل الجماعي والاستخدام المفرط للعنف.

وأمـــا شلومـــو بن عـــمـى، وهو الإسـرائيلى الوحـيد الذى اشتـرك فى المؤتمر ممثلاً لحزب العمل، فإنه - على عـادة الإسـرائيليين فى أمـثـال هذه المؤتمرات - حاول أن يقدم نفسه بصفته رجل سلام، وقال: إن حكومة إسرائيل - التى لم يعد ينتمى إليها وإن كان حزبه من المشاركين فيها - تسعى أيضا للسلام مع الفلسطينيين، ولكن بشرط أن يكف هؤلاء عما يمسيه «الإرهاب»، وهى الحجج التى طالما سمعناها من ساسة إسرائيل سواء أكانوا من داخل الحكم أو خارجه، فهدفهم الرئيسى هو «تجميل» وجه إسرائيل أمام العالم.

وقد أعقب كل جلسة من الجلسات حوار طويل اشترك فيه جمهور الحاضرين، وكان من أكثر المداخلات إثارة للحوار العنيف حديث الوزير الإسرائيلى السابق الذي أتى مباشرة بعد العرض الذى قدمه موراتينوس، إذ هاجمه أكثر المعلقين، ونددوا بسياسة حكومته. بشكل بالغ الحدة. فلم يكن أمامه إلا اصطناع الوداعة، فزعم أنه ليس موافقاً كل الموافقة مع سياسة حكومة بلاده، وظل يردد قوله إن السلام ممكن على الرغم من كل شىء، وإنه يوجه دعوة إلى القيادة الفلسطينية أن تكف عن رعاية ماسماه «الإرهابيين» الذين يقتلون المدنيين فى إسرائيل.

وعقدت بعد ذلك الجلسة الختامية التى كان المتحدثان فيها هما خوسيه لويس ثاباتيرو الأمين العام للحزب الاشتراكى العمالى الإسبانى، وإنريكى بارون رئيس المجموعة البرلمانية الاشتراكية فى البرلمان الأوروبى. وقد طالب كلاهما بأن يضطلع الاتحاد الأوروبى بدور أكثر فاعلية فى الضغط على إسرائيل ومطالبة الولايات المتحدة بأن تتخذ موقفاً عادلاً من قضية النزاع فى الشرق الأوسط من منطلق احترام حقوق الإنسان الفلسطينى الذى يقاوم الاحتلال فى دفاع مشروع عن النفس، وأن تعمل على احترام قرارات الأمم المتحدة والعمل على تنفيذها. أما محاربة الإرهاب فإنها لن تنجح إلا بالتعرف على جذوره وأسبابه، والقضاء على ما يسود العالم من مظالم متعددة الأسباب. وطالب ثاباتيرو وحكومة بلاده اليمينية بأن تتخذ موقفاً أكثر حزماً وتماشيا مع مبادىء العدالة واحترام حقوق الشعوب المطالبة بحريتها.

افتراءات ضد الإسلام

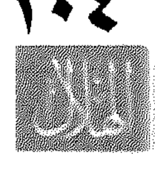
على أن المؤتمر لم يخل من بعض «المنغصات» التى أتتنا - مع الأسف - لا من الجانب الأوروبى وإنما من جانب من هم محسوبون علينا. فقد نهض أحد الأكراد معلقاً على ما كنت قد ذكرته حول سماحة الإسلام، فإذا به يقول: «إن تاريخ الإسلام حافل بالجرائم والاضطهادات وانتهاك حقوق الإنسان» وضرب على ذلك مثلا بما ذكر أن حكومة العراق تمارسه ضد الشعب الكردى، ولم يكتف بذلك بل عمم حكمه فقال: إن المسلمين منذ فتحوا

العراق لم يكفوا عن التنكيل بالشعب الكردى. وكان علىّ أن أرد على هذه الافتراءات، فذكرت أن المسلمين منذ الفتح تعاملوا مع الشعب الكردى كما فعلوا مع سائر الشعوب التى قبلت الإسلام طواعية وأن الأكراد عاشوا فى كنف المجتمع الإسلامى وأصبحوا جزءاً منه، وضربت مثلا بصلاح الدين الأيوبى الكردى الذى أصبح بطلا من أبطال العروبة والإسلام وكان فى الوقت نفسه نموذجاً للحاكم الرفيق برعيته المتسامح مع الأعداء. والغريب بعد ذلك أن هذا الرجل - وقد علمت أنه من الأكراد المعارضين للنظام العراقى وأنه يعيش لاجئا فى فرنسا - أتى إلىّ ونحن على مائدة الغداء معتذراً عما قال وأنه لم يقصد بمقولته حكمه على الإسلام، وإنما أراد التنديد بنظام الحكم فى بلاده. ومع ذلك فقد عجبت لمثل هذا التصرف، وذكرنى ذلك بالمثل الشعبى الذى يقول «يشتمنى فى زفة، ويعتذر لى فى عطفة»!

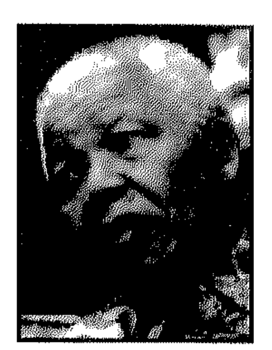
★★★

وعلى كل حال فقد كان المؤتمر ناجحاً إلى أقصى حد، وقد أثار قلق إسرائيل، مما حمل حكومتها على إرسال وزير خارجيتها شيمون بيريز فى اليوم التالى إلى مدريد حيث عقد لقاءات مع بعض المسئولين ، ثم قامت باستضافته المذيعة التليفزيونية ماريا تيريسا كامبوس فى حديث مفتوح أدلى به مدافعاً عن موقف حكومته، وإن كان فى محاولته احتواء غضب الجمهور الإسبانى قد لجأ - على العهد به فى المراوغة - إلى التصريح بأنه لا يقر تماماً موقف رئيس حكومته، وأن مساعيه كانت دائماً محاولة لتهدئة الأوضاع وفتح سبل للتفاوض مع الفلسطينيين، غير أنه إلى ترديد الحجج التى تذرع بها زميله بن عمى. وقد كانت المذيعة التى أجرت معه الحوار تتلقى أثناء حديثه المذاع مباشرة على الهواء تعقيبات تليفونية كانت كلها هجوما عنيفا على السياسة الإسرائيلية، مما جعله يشعر بالحرج والامتعاض.

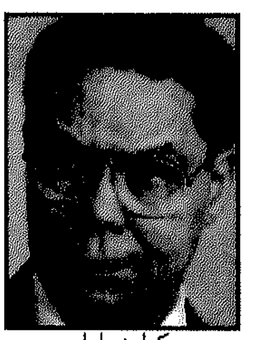
لقد تحول هذا المؤتمر إلى تظاهرة فى تأييد الحق العربى لها وقعها وتأثيرها فى الرأى العام الإسبانى. وقد تزامنت معها مقالات كثيرة فى الصحف الإسبانية تندد بسياسة إسرائيل قام بها كتاب كثيرون نذكر منهم إدوار سعيد الذى لم تسمح ظروفه الصحية بحضور المؤتمر، ومنهم الصديق المستشرق بدرو مرتينث مونتابث، بل كان منهم كاتب إسرائيلى هوداڤيد جروسمان كتب فى جريدة البابييس مقالا يحمل فيه على سياسة بلاده ويدعو إلى الكف عن استخدام القوة مع الفلسطينيين والعودة إلى المفاوضات، ومن بين هذه المادة الصحفية حديث طويل أجرته معى الصحفية سوليداد ألاميدا فى الملحق الأسبوعى لصحيفة البابييس المذكورة. ■



أقوال معاصرة


نيلسون مانديللا


غازى القصيبى


كولين باول


عبد القادر القط

●«أصعب مهمة يواجهها المرء هى تغيير ذاته»

رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق

نلسون مانديللا

● «أعتقد باننا فى حاجة إلى مواجهة حازمة مع الذات، لم نقم بها بعد، ويجب أن نقوم بها»

الشاعر والروائى والدبلوماسى السعودى غازى القصيبى

● «ليست الهوية إرثا جاهزا، وانما هى بناء، وعلينا أن نبنيها ».

محمد مجتهد شبسترى

مفكر ايرانى وحجة اسلام واستاذ بجامعة طهران

● «روح الحرية هى تلك الروح غير الواثقة وثوقا راسخا بانها على حق».

القاضى الامريكى ليرندهاند

● «لا أسرار للنجاح، أنه ثمرة تحضير واجتهاد وتعلم من الأخطاء».

كولين باول

وزير خارجية الولايات المتحدة

●● «نحن فى مجتمع كثرة الثرثرة وقلة الصراحة».

زافين قيومجيان

مقدم برامج تلفزيونية فى لبنان

● «اخترنا من بين وسائل النسيان الكثيرة، أن نضحك ضحكا أجوف، خاليا من أى فكر».

الدكتور عبدالقادر القط

مفكر مصرى

● «الكتابة هى الهواء الذى أتنفسه، ولو كف قلمى عن الكتابة أموت مختنقاً».

الاديب الفرنسى هنرى ترويا

● «علينا أن نتعلم كيف نعبر عن غضبنا دون أن نركب رؤوسنا، ونضر بانفسنا وبقضيتنا بسيئات البعض منا».

د. عبدالحميد الانصارى

عميد كلية الشريعة والقانون

والدراسات الاسلامية بجامعة قطر



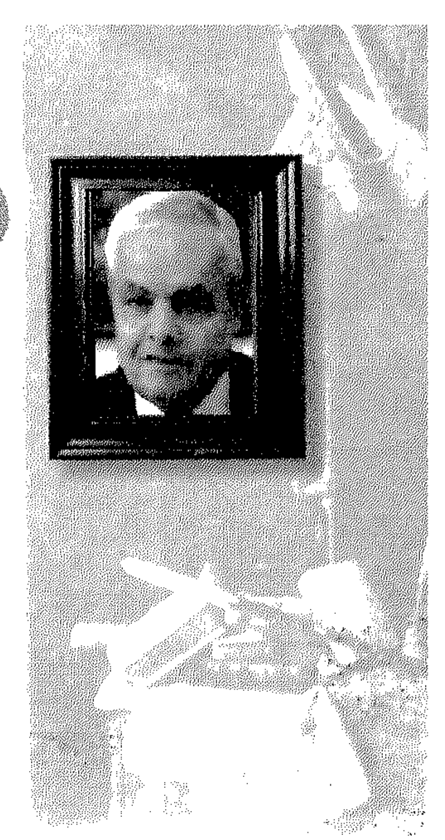
يونان لبيب رزق

مؤرخ مصر المعاصرة

بقلم
د. أحمد السيد عوضين

يمثل الدكتور يونان لبيب رزق- أستاذ التاريخ الحديث- صاحب المؤلفات العديدة التي تناولت تاريخ مصر الحديث من أكثر من جانب من جوانبه - نموذجاً صادقاً للمصري الأصيل، المكافح في صبر. المجاهد دون كلل، العامل الدءوب في إخلاص، الذي يضع نصب عينيه غاية سامية لا يحيد عنها، ويظل طوال حياته يسعي لتحقيقها، لا تصرفه شواغل الحياة - والأيام - عن بلوغها. كانت غايته - منذ أن اختار طريقه - هي جلاء تاريخ هذا الوطن، وإبراز كفاحه، وما عاني أبناؤه من مظالم، وما لاقوا من عنت سواء طوال الفترة التى قضوها تحت نير الاحتلال الغاشم أو بعد جلاء المستعمر، وتحرر مصر من جبروته، ليلاقى المصريون - بعد ذلك - ظلما من نوع آخر، ربما كان أشد وطأة، لأنه يقع من مصرى على مصرى .





● ينظر الدكتور يونان الى مصر فى اطار عروبتها وارتباطها بحياة شقيقاتها العربيات

وتقرأ له، فإذا مصر هى عالمه الكبير، هى شغله الشاغل، وموضوعه الأثير، وقد كانت نهضتها - ورائدها محمد على باشا الكبير - هى مجال بحثه الأكبر، يتعمقها بفكره، ويرد مظاهرها وتطوراتها إلى أسبابها الحقيقية.. ويأتى حديثه عن ذلك كله متصفاً بالدقة والشمول، لأنه قائم على دراسة موضوعية، تتحرى الصدق، وتتسم بالإخلاص، وتكون النتيجة أن يقدم إلينا تاريخنا المعاصر، نابضاً بالحياة، معبراً عن الواقع فى عرض شامل متكامل، لا يهمل التفاصيل، ولا يغفل - فى ذات الوقت - عن الدوافع والأسباب..

وربما كانت أبحاثه عن الحياة الحزبية فى مصر من أهم الدراسات التى أبرزت الدور الذى لعبته الأحزاب السياسية - ومختلف الجماعات - فى التاريخ المصرى الحديث..

علاقة شعب واحد

وهو فى نفس الوقت لا ينظر إلى مصر إلا فى إطار كونها إحدى الدول العربية تعتز بعروبتها، وتتصل حياتها - وتطوراتها - بحياة شقيقاتها من الدول العربية الأخرى.. وإنك لترى بذور اهتماماته تلك فى رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراة، والتى كان موضوعها: «السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول» حيث كانت علاقة مصر بالسودان هى مدار البحث، وموضوع الدراسة، وفيها تعمق الأصول، وتحرى حقيقة الروابط، ولم تكن تلك الرسالة هى الوحيدة التى خصصها لدراسة علاقة مصر بالسودان. فهو لا يفتأ يعاود الحديث عن هذه العلاقة، وعن هذا الارتباط الأبدى.. ومن هنا كانت درة كتاباته تتمثل فى مؤلفات عديدة على رأسها مصنفاته التى تتناول العلاقات المصرية السودانية هذا القلم الصادق، المعبر عن فكر واضح - والذى ينبض بالوطنية الصادقة - ما فتئ يبحث، ويدرس ويغوص فى أعماق التاريخ ليبرز حقائقه، ويجليها، ويطالعنا بها تعريفا وما عرض له من أحداث، وبيانا لعلاقاته بسواه من الدول والكيانات.. كيف نشأ؟ ومم تغذى؟ وكيف تكون؟ وكيف وصل إلى ما وصل إليه من عمق، وأصالة وموضوعية؟

مسئولية مبكرة

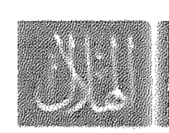
ذلك حديث طويل ربما كانت بدايته مع بدايات عقد الثلاثينيات حين شهد «بيت المأمور» فى حى «القللى» بالقاهرة - حيث تسكن أسرة تنتمى إلى الطبقة الوسطى - مولد «يونان» وكان رب الأسرة يعمل موظفاً فى الحكومة، ويقيم مع



أسرته في البيت الذي بناه أبوه – والذي كان يعمل مأموراً لقسم الأزبكية في بدايات العقد الثاني من القرن الماضي، وقد كان «يونان» هو الثالث مولداً – بعد بنتين – ومع ذلك فلم يلق من التدليل ما كان متوقعاً، لأن أباه لم يمكث طويلاً في وظيفته، بل تركها وانصرف إلى زراعة الأرض التي كان يمتلكها أبوه في كفر الشيخ، ومن ثم كان غيابه يطول عن البيت. غير أن هذا التغيب المتقطع ما لبث أن صار غياباً متصلاً، إذ فاجأه الموت وكان «يونان» لم يكمل السادسة من عمره بعد.. فكان لذلك أثره على الأسرة ليس فقط من الناحية المادية، بل كان له أثره على «يونان» من الناحية النفسية أيضاً، إذ انعكس أثر ذلك عليه إحساسا مبكراً بالمسئولية، وأخذا للأمور في جدية تامة، وربما حرمه مما كان ينعم به لداته من لهو الطفولة، وعبث الصغار. وهنا يبرز دور الأم. حزما وعزماً في توجيه دفة السفينة حتى تصل بالأسرة إلى بر الأمان وهو يتحدث عن دورها فيقول: «ما أذكره من تلك الفترة في البيت أن والدتي التي لم تكن قد تجاوزت الرابعة والثلاثين قد انكفأت علينا تربينا بصرامة بالغة.. ومع أني كنت كثيراً ما أبتئس من تلك الصرامة.. إلا أني فيما بعد أدركت أن غياب أبي المبكر هو الذي دعاها إلى اتباع هذا الأسلوب، فقد آلت على نفسها أن تقوم بدوره مع دورها بالطبع..» – ويذكرني حديثه عنها بحديث أديبنا الكبير. المازني عن أمه، وكيف أنها كانت صارمة حازمة، مع حرصها على أن تجعل منه وهو مازال صبياً رجلاً مدركاً للمسئولية، ملماً بأبعاد الموقف، ومازالت على رعايتها له، حتى اجتاز مراحل التعليم، وبلغ مبلغه بين أهل الفكر والفن والأدب في تاريخ مصر. كذلك كانت الأم بالنسبة للدكتور يونان، حرصاً على تنشئته على المثل العليا، ودفعه ليسلك سبيل التعليم حتى نهايته، تاركة له اختيار طريقه، وتخصصه– وأن أبدت حرصها الشديد على أن يبلغ في تعليمه أعلى الدرجات، وقد بلغها بالفعل، فقد التحق بكلية الآداب التي يتحدث عنها بحب يصل إلى مرتبة العشق فيقول «في شبرا وفي كلية الآداب الوليدة التي كانت لاتزال تحبو في عامها الثاني، نموت مع هذا الوليد ولنحو عقد ونصف العقد، منذ أن وطئتها أقدامي في شتاء عام ١٩٥١ وحتى نلت درجة الدكتوراه منها في صيف عام ١٩٦٧، وكانت سنوات البهجة والنضوج».. ثم يفصح عن مكنون القلب – ولكن بقدر – وهو يقرر «أن تلك الفترة كانت لاتزال تعرف بالعلاقات العاطفية الجميلة التي تتحول إلى شكل من الحب الرومانسي، الذي كثيراً ما ينتهي بالارتباط الأبدي، وهو ما حدث لي أيضاً حين نشأت علاقة من تلك العلاقات الجميلة بيني وبين زميلة كان يفصلني عنها ثلاث سنوات في الدراسة، والتي أصبحت فيما بعد رفيقة العمر بعد أن تزوجنا في أعقاب تخرجها عام ١٩٥٨»..

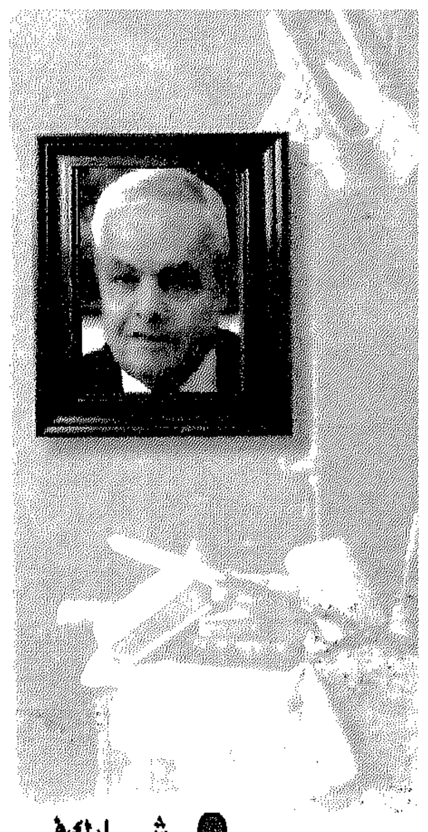
استدعاء شخوص الماضي

على أن تخصص الدكتور يونان في الدراسات التاريخية لم يأت نتيجة لمحض الصدفة، أو لأن كل الأقسام كانت في تقديره متقاربة.. بل جاء عن اختيار أصيل؛ واستجابة لطبيعته المنجذبة لهذا اللون من الدراسات الذي يدخل به إلى «عالم استدعاء شخوص الماضي، وضخ الدماء في عروقها» – كما قرر ذلك في حديثه عن سنوات التكوين – ولذلك فإنه منذ دخوله إلى ذلك العالم وهو يعيش فيه، ويتعمقه، بل ويغوص في أعماقه، يكشف عن حقائقه، ويتعرف على أسراره، ويحلل وقائعه، مدفوعاً



بحب البحث عن الحقيقة مجردة من كل ما عداها من شوائب.. ظل مخلصاً له، منقطعاً له دون أن تنحرف به أغراض جانبيه، أو أمور عارضة، مهما كان بريقها، أو إغراؤها، حتى أن جميع المناصب التى شغلها بدءاً من «مدرس» التاريخ، ومروراً بمختلف الدرجات حتى أصبح رئيساً لقسم الدراسات التاريخية - لتتصل جميعها بعالمه الذى تعشقه ونذر نفسه له، وآثره على كل ما سواها من عوالم مهما كان فيها من إبهار.

والدكتور يونان يحكمه فى مساره فى حياته العملية ذات ما يحكمها فى عمله كباحث فى المجالات التاريخية: فكر متوقد لا يكف عن الانشغال بالنواحى العلمية، ونظر صادق ينفذ إلى أعماق الأمور، وتقدير موضوعي لكل ما يعرض له، لا يتحرى سوى الحق ولا يهدف إلا إلى جلاء الحقيقة.. لا يتحيز مسبقاً لرأى قبل أن تستقيم لديه - وتتوافر عنده- دواعى الاقتناع به، واعتناقه. ومن هنا فهو لا يتسرع فى الحكم، ولا يقفز إلى النتائج، بل لابد أن يقدم لما يبدى من آراء. وما يعرض له من حقائق، بالمقدمات الضرورية - والمنطقية - التى لها سندها من الواقع والتاريخ. تلمس ذلك فى تحليله لتاريخ مصر الحديث، كما تلمسه فى حديثه عن علاقات مصر بشقيقاتها، وبصفة خاصة فى علاقتها بالسودان، فتلك العلاقات جميعها لها دواعيها - ودوافعها - وأوصلها من حقائق الحياة، وطبائع الأمور، والواقع الذى ليس إلى إنكاره من سبيل، بل أن الشواهد والأصول العرقية، والجنسية، فضلاً عن الأوضاع الجغرافية، والبشرية، والثقافية، والعقائد الدينية.. ناهيك عن توحد الأعراف، والعادات.. إلى آخر ما هنالك من عوامل لها أصولها وجذورها الممتدة - والمتشعبة - هنا وهناك - كل ذلك يجعل من هذه العلاقات بين مصر وشقيقاتها - ليس مجرد علاقات جوار، أو مصالح مشتركة، بل جعل منها علاقات حياة واحدة، وإذ يقول الدكتور ذلك، فإنه يختلف عن سواه فيما يقدم به، وفيما يعرضه، بشأن كل عنصر من هذه العناصر من دراسات مؤصلة، لا تقف عند الظواهر، بل تأبى إلا أن تغوص إلى الأعماق، ومن ثم لا يأتى قوله سوقاً لحقائق مرسلة، إنما هو سياق لدراسة عميقة الجذور، مكتملة العناصر، وتأتى النتائج - فى النهاية - وهى الخلاصة الصادقة لأبحاث تناولت الموضوع من جميع نواحيه.



● شارك فى العديد من القضايا القومية الهامة المرتبطة بأمن مصر القومى

أساتذته

يتحدث الدكتور يونان عن أساتذته فيذكر أن الصدفة البحتة هى التى جعلت أحد أقربائه ضاق مسكنه بما لديه من كتب فاستأذن فى أن يحتل من الشقة التى يقطنها فتانا مكانا صغيراً للدولاب الذى يضم مجلدات لأهم المجلات المحترمة التى كانت

تصدر فى ذلك الوقت - أو قبله - الهلال، المقتطف، والمجلة الجديدة التى كان يصدرها ويحررها المفكر المصرى الكبير سلامة موسى.. وإلى هذه «المجلة الجديدة» - الموسوعية - يرجع الدكتور يونان أكثر ما أثر فى تكوينه الثقافى.. بما فتحت أمامه من عوالم مجهولة ومبهرة من الفكر الإنسانى..

كما يذكر الدكتور يونان بكل معزة وتقدير أستاذه الدكتور أحمد عزت عبدالكريم - أستاذ التاريخ الحديث، ورئيس القسم على عهد دراسته بكلية الآداب.. ولا يقف تقديره له لعلمه الغزير، ولأستاذيته الكريمة، بل يضيف إلى ذلك وصفه له بأنه أشبع فى نفسه ما ظل يفتقده لسنوات طويلة منذ أن فقد أباه: الشعور بالبنوة.. وقد كان الدكتور عزت هو الأب الحقيقى الذى رعاه، واهتم بمصالحه، ومستقبله، وهو الذى أشرف على دراساته حتى حصل على درجة الدكتوراه.

ويشير الدكتور يونان أيضاً إلى أساتذة آخرين كانت لهم أفضال عليه لا ينساها ولا يفتأ يرددها.. ومن هؤلاء: الدكتورة زينب عصمت راشد ويشيد بالتزامها بدروسها واهتمامها بأبحاث طلابها، وتوجيهها لهم إلى المراجع الموسوعية.. حتى لقد اهتم الدكتور يونان منذ وقت مبكر بكتابات العمالقة الكبار، وراح يطالع الكتابات الموسوعية: لأميل لودفج - كارل بروكلمان - ابن إياس - الجبرتى

***

والواقع يؤكد أن الدكتور يونان حرص على أن يتزود بخير زاد من الدراسات المتعمقة، ومن القراءات الموسوعية، وأن يكون مثالاً للمثقف المعاصر، المحيط بثقافة العصر وتقنياته، ويستعين بها فى مختلف الأعمال، والمهام - المكلف بها، والتى يحرص على أن يبلغ فيها أعلى مراتب الكمال ومن هنا تعددت المهام التى تولاها والأعمال التى قام بها، ومن هنا يمكن أن نرصد عنه ما يأتى:

- كما أنه كان تدرج فى سلك التعليم الجامعى بجامعة عين شمس مدرساً، فاستاذا مساعداً، فأستاذا، ثم استاذا متفرغاً.. وتولى رئاسة قسم الدراسات التاريخية فى كلية البنات الفترة ما بين عامى ١٩٩٠ - ١٩٩٤.

وكذلك فإنه تولى منذ عام ١٩٩٣ وحتى الآن رئاسة قسم الدراسات التاريخية بمعهد البحوث العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة وهى إحدى منظمات جامعة الدول العربية..

وهو حائز على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٥.

كما أنه كان المؤرخ الذى اختارته وزارة الخارجية المصرية لعضوية هيئة الدفاع المصرية فى قضية طابا - حيث تولى مسئولية جمع الوثائق، وكتابة الفصول التاريخية من المذكرات القانونية التى كان يقدمها الجانب المصرى لهيئة المحكمة.. وقد وضع كتاباً بعد صدور الحكم لصالح الجانب المصرى تحت عنوان «طابا - قضية العصر».. كما شارك فى وضع «الكتاب الأبيض» الصادر عن وزارة الخارجية حول هذه القضية..

- وكذلك فإنه كان عضو الوفد المصرى فى مؤتمر مدريد الذى انعقد فى العاصمة الأسبانية عام ١٩٩٠ - فقد رأت وزارة الخارجية الاستعانة به كخبير فى النواحى التاريخية فيما يتصل بأعمال المؤتمر.

- وكذلك فقد كان عضو الوفد المصرى فى المفاوضات مع الجانب السودانى حول

قضية حلايب وهى المفاوضات التى جرت على ثلاث جولات خلال عامى ١٩٩٢ - ١٩٩٣.

وبحكم العلاقات التاريخية بين مصر والسودان فقد كان دوره أساسياً فى تلك الجولات.

- كما أنه قد أوفد - خلال تلك الفترة - من قبل وزارة الخارجية إلى لندن للحصول على كل الوثائق المتعلقة بالحدود بين البلدين الشقيقين وكتابة مذكرات حولها..

وهو فضلاً عن ذلك كله عضو بمجلس الشورى لدورتين.. آخرهما الدورة الحالية..

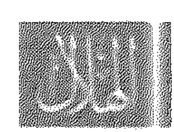
وهو المؤسس منذ عام ١٩٩٣ «لمركز تاريخ الأهرام» بمؤسسة الأهرام الصحفية.. ويقوم بتحرير الصفحة الأسبوعية التى تنشرها الأهرام فى يوم الخميس من كل أسبوع تحت عنوان «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» وقد جاوزت حلقاتها الأربعمائة حلقة - وكل منها دراسة مستقلة ذات طبيعة علمية، تتميز بالتبسيط، مع الحرص على تجميع أطراف الموضوع مما يكون قد نشر فى الأهرام - بصفة أساسية - ومن غير ذلك من المصادر - حتى تستكمل عناصر الموضوع على نحو يتمكن معه القارئ العادى من متابعة تلك الموضوعات والأحداث التاريخية التى بعد العهد بها، غير أنها بجهد الدكتور يونان تعود تلك الموضوعات و الأحداث إلى الحياة، فيستطيع القارئ معايشتها، وبذلك يشيع الوعى التاريخى بين جموع قراء تلك الصحيفة العريقة من المصريين والعرب، وهى من الكتابات القليلة التى تنشر فى الأهرام، كما تنشر فى ذات الوقت مترجمة إلى اللغة الإنجليزية فى الأهرام ويكلى AL.AHRAM WEEKLY مما يتيح الفرصة للأجانب الذين يرغبون فى معرفة التاريخ المصرى فرصة الإطلاع على بعض فصوله..

وقد حرص الدكتور يونان على تجميع تلك الفصول ونشرها فى مجلدات يتوالى ظهورها مجلداً بعد الآخر، حتى يتسنى لقارئ تلك المجلدات أن يتابع التاريخ المعاصر، ليس فقط فى نواحيه السياسية، وما اتصل بالقضايا الوطنية، بل وأيضاً بما يمكنه من أن يرصد التطورات الاجتماعية، والقوى الاجتماعية الصاعدة.. وظهور المؤسسات الحديثة التى عرفتها مصر الحديثة منذ نهضة محمد على باشا، واستمرت فى نموها بعد جيل حتى بلغت ما بلغته الآن فى مصر المعاصرة..

والواقع أن جهد الدكتور يونان فى اعداد وتحرير واصدار «الأهرام ديوان الحياة المعاصرة» وهى التسمية التى يقر بأنه



● كان تخصصه فى الدراسات التاريخية استجابة لطبيعته الذى يدخل بها الى عالم استدعاء شخوص الماضى وضخ الدماء فى عروقها



اقتبسها عن الدكتور طه حسين - هذا الجهد لهو من الجهود المتميزة - يكفى أنه يكشف عن توفر جهود صاحب ذلك الجهد لتتبع إعداد صحيفة الأهرام منذ بداية صدورها فى القرن التاسع عشر فى مدينة الأسكندرية ، ومطالعتها عدداً فعدداً ليستخرج منها كل ما نشرته من أخبار ومعلومات وأنباء وآراء ومقالات .. فى تصنيف موضوعى رائع ، بحيث يخرج علينا فى فصول متتابعة يتناول كل فصل منها موضوعا كاملاً متكاملاً مستمداً فى معظمه مما نشرته الصحيفة ، لكن بعد بذل جهد موضوعى كبير لإعادة تصنيف تلك الموضوعات ، ولاستخراج ما أنطوت عليه من دلالات ، واستخلاص ما تكشف عنه من حقائق.. وهو يقدم ذلك فى صورة حية نابضة وناطقة وكأنه يضع أمام ناظرينا «بانوراما» حقيقية لأحداث الحقب المنقضية من التاريخ..

★★★

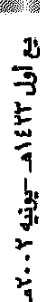
ومع توالى مجلدات الدكتور يونان عن «الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة» فإن سلسلة أبحاثه ودراساته ومؤلفاته تحمل عناوين متنوعة وتتناول موضوعات متعددة.. فله مؤلفاته العديدة عن السودان وقضية وحدة وادى النيل منها «قضية وحدة وادى النيل بين المعاهدة وتغيير الواقع الاستعمارى» ومنها أيضاً «الثوابت والمتغيرات فى العلاقات المصرية السودانية» فضلاً عن رسالته لدرجة الدكتوراه وكان موضوعها: «السودان فى عهد الحكم الثنائى الأول».. وله أيضاً دراساته عن «الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢» و«تاريخ الوزارات المصرية من ١٨٧٦ حتى ١٩٥٣» كما أن له مؤلفاً عن «عصر التكوين: ١٨٧٦ - ١٩٢٦» وآخر عن «مصر المدنية: فصول فى النشأة والتطور» - وله كذلك مؤلف عن «موقف بريطانيا من الوحدة العربية - ١٩١٩ - ١٩٤٥» وآخر بعنوان: «قراءات تاريخية على هامش حرب الخليج» وله أيضاً «الوفد والكتاب الأسود - ١٩٧٨»..

كما أنه حقق عدداً من المذكرات السياسية منها: «مذكرات فخرى عبدالنور عن ثورة سنة ١٩١٩»، كما ترجم عن الإنجليزية كتاب «تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠»، وكتاب «رقيب على أحداث مصر: شاروبيم ميخائيل».. وغير ذلك.. فضلاً عن قيامه بالإشراف على العديد من الرسائل الجامعية.. وهكذا نرى أن جهوده العلمية سواء مؤلفاً أو محققاً، أو مترجما أو مشرفا.. لم تتوقف، وإننا لندعو له بالاستمرار ودوام العطاء..



★★★

ويعد ذلك - بل وقبل ذلك - فإن الدكتور يونان هو شخصية آسرة. حلو الحديث، طيب المعشر، رقيق السجايا، رومانسى النظرة دون أن تؤثر فى تلك النظرة صرامة الحقائق التاريخية، وهو ممن يألفون ويؤلفون، يأخذ كل الأمور فى هدوء وموضوعية. ومنهاجه دائماً هو تحرى الحقيقة، و إبراز الأصالة المصرية على مدار تاريخ مصر وبصفة خاصة منذ نهضتها الحديثة التى لاشك أن محمد على باشا كان له دوره الكبير فيها.. ومع ذلك فلا يغفل الدكتور يونان فترات الضعف والتراخي، أو ما شاب الأداء الوطنى - فى بعض الأحيان - من تقصير أو انحراف، ولكن ذلك لا يأتى إلا مقترنا بتحليل الأسباب، وعرض الظروف والأوضاع.. فهدفه دائماً هو إبراز الحقيقة فى موضوعية وتجرد أصيلين. ■



نقد ونقض مقال حسين أحمد أمين


شكري فؤاد

الرجل وفنه ..

بقلم

حسين أحمد أمين

بقلم

صافى ناز كاظم

●● لم أقرأ للأستاذ حسين أحمد أمين مقالا أجمل من مقاله ، بعدد الهلال الصادر شهر مايو الماضى ، عن صديقنا المشترك السفير شكرى فؤاد ، رغم أننى لم أتفق معه مطلقا فى قراءته وتحليله لشخصية شكرى . بداية من المدخل، يبدأ نقدى ونقضى لمقال صديقى اللدود حسين أحمد أمين ، فأنا لم أجد المبرر لذلك المقتطف الذى اختاره من مسرحية وليام شيكسبير، «يوليوس قيصر» ، وإن أضحكتنى تلك الطفولة الكامنة فى شخصية حسين أحمد أمين ، فى رغبته الدائمة لإثبات أنه «الأول على الفصل» و«الألفا فى الإنجليزى» وأن شيكسبير «لعبته» وطوع بنانه و«اللى يحصلنى يكسرنى» ! ●●

طيب ! أنا أمتلك نفس الطفولة الكامنة و«الغلسة» وأحب أن أساير التحدى وأقول: إذا كان ولابد من انتخاب مقتطف من شيكسبير ألخص به رؤيتى لشكرى فؤاد، فسوف أردد على الفور «ترجمتى» للكلمات التى قالها «هاملت» عن صديقه «هوراشيو» :

" هوراشيو إنك لرجل شريف ،
لن ألتقى بمثيله بين البشر ،
... ...
أنت الذى اختارته نفسى ،
منذ أن بدأت تميز بين الناس،
لأنك مثل الذى عانى كل شئ ،
فأصبح لا يعانى شيئا ،
يتلقى من الأقدار الخير والشر ،
بامتنان واحد ،
وطوبى لهؤلاء ،
الذين يتوازن عندهم العقل والعاطفة ،
فلا يصبحون مزمارا فى يد الحظ،
يعزف عليه ما يشاء
أعطنى هذا الرجل ،
الذى يرفض أن يكون عبداً لأهوائه،
وسوف أضعه فى السويداء، نعم، فى قلب قلبى..."

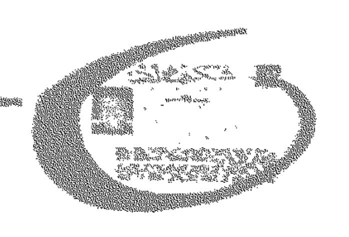
- مسرحية هاملت / الفصل الثالث المشهد الثانى -

●●●

نعم، هذه الملامح الهوراشية رأيتها تتبدى لى بوضوح على مدى سنوات معرفتى الإنسانية بشكرى فؤاد، حتى أننى صرت كلما تخيلت «هوراشيو» وأنا أشرح أبعاد شخصيته لطلابى فى آداب المستنصرية ببغداد - من ١٩٧٥ حتى - ١٩٨٠ - يظهر لى بوجه «شكرى فؤاد» وهيئته الكاملة وإيماءاته، وكأن معرفتى بشخصية «شكرى» قد ساعدتنى على فهمى لهوراشيو ، وكأن كلمات «شيكسبير» الدقيقة التى أطلقها على لسان «هاملت» قد ساعدتنى على صياغة تحليلى لشخصية «شكرى» .

●●●

فى بيت «وداد وسعد» كان لقائى الأول مع شكرى فؤاد وزوجته العزيزة نبيلة، أو «بلبل» كما يناديها الجميع ، فى يوم من أيام صيف ١٩٧٠ . كان قد مضى على صداقتى لوداد مترى وزوجها الدكتور سعد لوقا ثلاث سنوات منذ تعرفى عليهما فى عرض مسرحية «أجاممنون» بمسرح الجيب القديم ، بالقرب من حديقة الأندلس، عام ١٩٦٧ . تقدمت منى وداد بظرف شديد وبادرتنى بالكلام وأجزلت لى العطاء بالثناء على ما كنت أكتبه فى ذلك الحين من نقد مسرحى بمجلة المصور .. لم أكن أعرف ساعتها أن وداد مترى قاعدة لصداقات ثقافية وفنية وأدبية وتربوية وصحافية وسياسية عريضة ،



تتعدد فيها الأفكار والآراء والمشارب وإن استقرت على حب الوطن والأمة العربية ومساندة كل القضايا المقاومة للكيان الصهيوني وكل أشكال الظلم والقهر والفساد . وكان بيتها ، بيت «وداد وسعد»، بمثابة «مسقى» لكل العطاشى من كل اتجاه ، وكان من أبرز خلصائهما وأصدقائهما الحميمين الشاعر « صلاح جاهين» والصحفية الرائدة «چاكلين خورى» والفنانة «انجى افلاطون» و«محسنة توفيق» و«الدكتور عبدالعظيم أنيس» أما ابنتهما الروحية فكانت «شاهندة مقلد» أرملة شهيد فلاحى كمشيش «صلاح حسين» .

ذلك العام ، ١٩٧٠ ، كانت صداقة «وداد» و«شكرى» قد تعدت سنواتها العشرين ، منذ زمالتهما - خريف ١٩٤٨ - بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) قسم الفلسفة وتخرجهما فى دفعة ١٩٥٢ - التى كان شكرى فؤاد أصغر أعضائها سنا ، فلم يكن يزيد على العشرين عاما وخمسة أشهر - .

قالت وداد : « شكرى ياصافى راجع من عمله فى سفارتنا بكمبوديا» . وحبذت أن أقدم له كتابى «رومانتيكيات»، فكتبت له إهدائى : « إلى الأستاذ شكرى كمبوديا، مع التحية والمودة .... ١٩٧٠/٧/٢» .

كنت وقتها فى سمت لعلعتى الصحفية وفرحتى بروحى ناقدة وكاتبة ، قبل أن أقع على بوزى بصفعات قهر وظلم، «الكاتب الرومانسى المتسامح الذى لا يؤذى ناموسة» ، يوسف السباعى، بداية من أغسطس ١٩٧١. وهكذا عاد «شكرى» من كمبوديا ابريل ١٩٧٠، وما كدت أصادقه هو و«وبلبل» حتى وجدت نفسى تتقاذفنى «الشلاليت» إلى «طوكر» . فى هذا التطور المروع لأحوالى ، حين تخلى عنى من تخلى ، وتجهم لى من تجهم ، وأنكرنى من أنكر ، تكشفت لى الأبعاد «الهوراشية» فى شخصية ذلك النبيل الذى لم يضيّق على صدره ، لحظة واحدة، سترة «الدبلوماسى» المتخوف ، المتحرج، الذى يخشى على موقعه من مخالطة أمثالى «المنبوذين» من السلطة ، على مدى دورة فلكية صينية كاملة استغرقت ١٢ سنة .

●●●

بعد أن استقر «شكرى وبلبل» فى مصر فى ديوان وزارة الخارجية لمدة ثلاث سنوات ، سافر عام ١٩٧٣ إلى مواقعه المتغيرة فى سفاراتنا على مدار الكرة الأرضية، وظل موقعى ثابتاً فى قوائم المدعوّين إلى معتقل القناطر للنساء كلما استدعت الظروف والدولة إلى إثارة قضية أمن دولة وهمية ما تلبث أن تحفظ بعد أن



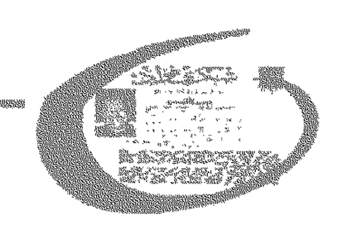
من يسار الصورة وداد مترى وشكرى فؤاد ومنال بنت شكرى و شاهندة مقلد و صافيناز كاظم وابنتها نوارة أمام مطعم بالسيدة زينب - ١٩٩٤

يتم المرغوب من اعتقالنا ومرمطتنا بتهم الشغب وقلب نظام الحكم ، التى أثارت سخرية إحدى السجانات فكانت تمر على الزنازين صائحة: «فيه تفتيش ... اللى قالبه نظام الحكم تعدله بسرعة يابنات.....»!

يسافر شكرى ويعود ثم يسافر ثم يعود، ويطلق سراحى من المعتقل ثم أعود ثم... الخ، و«شكرى وبلبل» ، كما قال هاملت، «فى قلب قلبى»، لا تهتز لهما شعرة خوف منا مما يحدث لى ولكثير من أصدقائهما، وبوصلة معرفة أحوالنا وأين يجدنا هى صديقتهما «وداد»، حين لا تكون مسافرة مصاحبة لزوجها الاستاذ الجامعى «سعد لوقا» فى جامعات بافريقيا أو ببلاد العرب، ويهتم «شكرى» بأن يبعث لى من كل مكان بقصاصات صحف تكون قد نشرت لى صورة وأنا فى القفص الحديدى خلال المحاكمة ، أو يكون قد ذكرنى ذاكر بطيب فى مقال أو محاورة . لمسات رقيقة حانية لا أتوقعها ، تأتينى ترش وجهى كرذاذ الماء البارد المنعش فى القيظ الصعب .

●●●

إذا أردت أن أحدد المهمة الأولى لشكرى فؤاد فى الحياة ، أضع يدى على «صديق» . و«الصديق» ليس بالضرورة هو الذى يتفق معك فى الرأى أو فى العقيدة،



لكنه الذى يتواءم معك ويفهمك ويرى حقك فى أن تكون مـــا أردت أن تكونه . هو الذى لا «يضيق معه خلقك»، ولا تنحبس زفرتك ، ولا تخشى عنده إطلاق فكاهتك ، ولا يسوؤه وقع دعاباتك . يفهمك . يفهمك . يفهمك .

●●●

لا أظن أن «شكرى» قد فكر لحظة فى أن يكون «وزيرا» . ولذلك فــلا يمكن أن نلومه لأنه لم يخطط لذلك ، لأنه ليس من الطبيعى ، ولا من المفترض أن يخطط الإنسان لنفسه مثل هذا الشئ . فإذا حدث ووجد الإنسان نفسه « وزيرا » فهذا قدره وعليه أن يتحمله ويصبر عليه حتى تزول الغمة ، لكن من المؤكد أن «شكرى»، منذ بداية تفتحه الثقافى ، قد خطط لنفسه أن يكون شريفا وصادقا وأمينا ومستقيما، ولقد تجول بعقله ووجدانه بحرية وشغف فى حدائق المعرفة الإنسانية وحقولها الواسعة ، ليس من أجل تغذية الرطانة فى الصالونات، ودعم الاستعراضات الفكرية ، ووجاهة الانضمام إلى «نادى النخبة»، ولكن سعيا وراء الائتناس بالوعى ، وشحذا للإدراك الشفيف الذى يقود إلى «الحياء» من التباهى والتعفف عن تزكية الذات .

يتقن «شكرى» السمع والإنصات لمحدثه ، وحين يتكلم يختصر ويتركك فى شوق إلى إسهابه . تقوده حكمة : «خفف الوطء...» ، يتململ من الفجاجة ، وينسحب من اللجاجة ، ويطوى صفحات الركاكة كأنها لم تكن .

رغم صلابته الكامنة وعناده الراسخ غير السافر ، لا يتحرج من الإعجاب بالقوة الصريحة وبمن يكشفون وجه عنادهم بالزعيق : يجد فيهم طرافة يضحك لها كثيراً . ورغم اختياره للتكتم فى الألم والفرح ، لا يضايقه مَن مِن صفاته البوح . ورغم إمعانه التفكير لا ينكر على غيره سرعة الحسم . يدفعه حسه النقدى الحاد إلى طمر الكثير من ملكاته الأدبية والفنية. حين طلبنا منه مقالة «التكوين» ، كان لابد أن أتسلط عليه بالإلحاح المتكرر حتى كتبها بقلم شيق وإن اختصر واختزل وظلل الكثير من جوانب حياته ومشواره ، وأنهاها كأنه يتخلص من جمر يلسعه ، وعندما طلبنا منه جزءا ثانيا أخفى حياءه بادعاء الكسل .

يحترم قيمة «التواضع» ويجد الأناقة فى «التوارى» ، إلا فى أحوال الاستنجاد ، تدفعه شهامته لنجده البارز فى الصف الأول ، ولولا هذا «التوارى» المبدئى لكان «شكرى فؤاد» واحداً من أهم نجوم كتابة فن «المزاح» ـ ولا أقول السخرية لأنها ذات دلالة شريرة سلبية ـ وما أسميه «فن

المزاح» هو ذلك الذى يجعل خفة الظل وعاءً لتعويم الحزن والآلام من الجراح العامة والخاصة . ولقد أطلعتنى «وداد» على بعض خطابات أرسلها «شكرى» إليها بين أكتوبر ١٩٥٢ وأكتوبر ١٩٥٣، وكانت وداد فى الخامسة والعشرين وشكرى لم يبلغ الواحد والعشرين ، يرسلها إليها شكرى من «القاهرة» - ويسميها : « مصر فى ...» - إلى «ديروط - قبلى ، مدرسة ديروط الابتدائية الأميرية للبنات ، للآنسة المهذبة وداد مترى أنطون، المدرسة بالمدرسة»! وطابع البريد بعشرة مليمات ويحمل صورة الملك فاروق غير مشطوبة رغم أن الرسالة تاريخها بعد قيام ١٩٥٢/٧/٢٣ . وأسطر الرسائل تحمل كل المفاتيح المطلوبة لفهم شخصية «شكرى/ هوراشيو» منذ نصف قرن إلى الآن .

الرسائل مكتوبة بخط جميل منسق بقلم حبر أخضر على ورق كراس . يقول فى بعض أسطر الرسالة الأولى :

* " مصر فى ١٢ أكتوبر ١٩٥٢

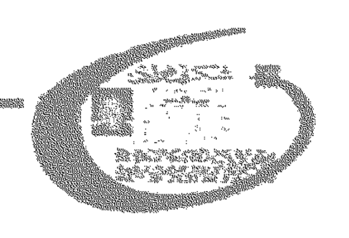
عزيزتى وداد

أكتب إليك وأمامى مطوتك البراقة، والدنيا ليل خالص - وتخوّف - والواقع أن الذى يرانى الآن يعتقد أنى أدبر مؤامرة أو قاتل يعترف وسلاح الجريمة أمامه



شكرى فؤاد ووداد مترى فى رحلة طلابية - ١٩٥١

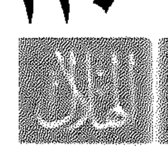
خصوصا إذا انطفأ النور الآن - كما هى العادة - وأحضرت شمعة أكمل بها الجواب - (لكن على إيه ده كله أكمله بكره هى الدنيا طارت) - وكنت أحب أن أكتب لك مثلا فى جو شاعرى ، يعنى أقول... أكتب لك وأنا أستقبل أشعة الشمس فى يوم جديد ... أو وأنا أودع الشمس الغاربة .... أو أى كلام من ده لكن أعمل إيه؟ مسألة استقبال النهار الجديد دى زى ما أنت عارفة محدش فاضى يستقبله لأنى أكون نائما ولا أستيقظ إلا وأشعة الشمس قد أحالت الجو إلى فرن ليس أحر منها إلا شوقى إليك .... عاوز أكتب لك عن موضوع الأشواق بس خايف من الناظرة



شـوية ليكون لها مـزاج تفـتح الجـوابات تبـقى مش لطـيفـة .... يمكن الجـواب ده تعطيـه لك وتقـول لك : قـولى لقـريبك الوقح إن هـنا ناس مـؤدبين مـوش بتـفـتح جوابات حد ....» .

ويوقع شكرى فى كل خطاب باسمه كـامـلا مع عنوانه : «٢٢ شـارع أنسـى ، شـبـرا» ، ويظل لا يتـوقـف عن ذكـر «الناظرة» التى تمثل له هاجسا رقابيا لا يتورع عن فتح خطابات المدرسات ، ومع هذا الهاجس يحتاط بألا يذكر كلمة «الناظرة» إلا وقبلها «حضرة الناظرة» !

وفى خطاب «مصـر فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٢» يذكـر «شكرى» لوداد أنه قـد تم تعيينه مدرس لغة فرنسية (!) فى بنها الثـانوية ويقـول : « ... هنا فى بنهـا أنا مـبـسـوط ولو إن شـغـلة التـدريس دى أتاريها متعبة جدا ، وأنا أسافر من مصر لبنها يوميا ، وأحسن ما فيها بس إن التلامذة والفراشين بيحترموني ويقولوا لى يابيـه ، ولو إن فـيـه تلامـيـذ لطاف خـالص أبقى عـايز أعـملهم أصـحـاب وأضـحك معـهـم ، لكن أقـول ياواد عـيب خليك مدرس عليك القيمة ....» ويعود فى خطاب «١٧ نوفـمـبـر ١٩٥٢» يؤكـد تبرمه من مهنة التدريس لأنه يفضل أن يكون «تلميذا» فيقول: «..... شغلة تلميذ هذه لا تعـوض ، وأنا فى بنهـا مع إن كل الظروف حسنة وتساعد على الانبساط ولكنى أتعب جـدا من الوقـوف والشـرح خـصـوصـا وإن معلوماتى فى الفرنسـاوى .... إنت مش غـريبـة ! تصـورى أنا الذى كنت أخرج من المنزل الساعة تسعة وأرجع واحـدة ..... الآن لازم أسـافـر السـاعـة ٧ صباحا وأرجع ٣ بعد الظهر وطول الوقت عمل متصل... أحسن مافى المدرسة الناظر والوكـيل والمدرسين فى غـاية اللطف ويعـاملونى كـابن ويتـسـاهلون مـعـى جـداً، والطلبـة مـوش بطالين بس الدوشـة تحطم رأسى كل دقيقة وأنا على رأيك ... ماليش تقل على كده . على العموم طبعا فاكره الناس الكبار لما كانوا يقولوا.... الحياة، الدنيا تعب، أحوال الدنيا عجب، وكل الكلام العبط ده أتاريه بصحيح اولاد الايه دول ... لكن ولا يهمك...» ويحقق «شكرى» لنفسه العودة إلى «التلمذة» بالالتحاق بمعهد الصحافة فيقول فى : « مصـر فى ٢١ نوفمبر ١٩٥٢ ..... حقا إننى لسعيد ... أرجع كل يوم طوال الأسبوع من بنها إلى معهد الصحافة فأقابل الزميلات والزملاء وأتمتع بهم .... كـيف حـالك فى التـدريس؟.... أنا طبـعـا أدرس فرنساوى.... أول ما أدخل أقـول للعيال سـيـلانس ... أتانسـيـون ... اكـتـبـوا .. ديكتيه... فطبعا يبتدوا يسألوا عن معناهم

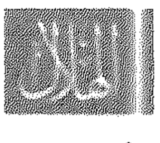


ويقـولوا ... يابيـه اتكلم عـربى، (يابيـه قـصـدهم أنا . الحـقـيـقـة لما كنت الأول أسمعهم كنت ألتفت ورائى أفتكر الناظر دخل من غير ما أشعر وبعدين فهمت إن البيه هو العبد الفقير .... دنيا)، المهم يقـولوا لى اتكلم عـربى أقـولهم مـا يصـحش لازم تتـمـرنوا وأنا مـعـرفش أشرح بالعربى ، وبعد شوية رجاء أقول لهم علشـان خـاطركم ولو إن ده فـيـهـا مـخالفة لتعليمات الوزارة ، وأتكل على الله وأبتدى أشرح لهم فرنساوى بالعربى على طريقة القراءة الرشيدة . والمؤسف إنى تعلمت ، واضطررت أن أسـتـعـمل نفس الكلام الذى كـان المدرسـون يضـحـكون علينا به . أقـول لهم: وهو الفـرنسـاوى ده بتـاع الأيام دى فـرنسـاوى؟ الكتـاب اللى بتـاخدوه فى الثقافة أنا درسته فى ثالثة ابتدائى ... وأحكى لهم عن أيام زمان ومدارس زمان وإن الجـغـرافـيـا كـانت بالفـرنسـاوى والتاريخ بالانجليزى ، فاضل بس أحكى لهم حكاية الجنيه لما كان الواحد يفكه ويقعد يضيع فيه سنة ويزيد بعد كده ٩٥ قرشا ....» .

وفى خطاب «مـصـر فى ١٣ أكـتـوبر ١٩٥٣» بعـد عـام كـامل من انشـغـاله بالتـدريس، يعلن التـمـرد ويكتب : «عـزيزتى وداد ... وقـد تألمت بسـبـب ضيقك من المدرسة والدروس، والحقيقة ده جزء مما عندى لأنى فى غاية من الانقباض من هذه الوظيـفـة .... وكل يوم أروح المدرسة يخـيل لى أتخـانق مع الناظر والمدرسين - مع أنهم لطفاء جدا - وأستقيل وأشتغل أى شغلة ثانية ماتهمش الفلوس ... المهم الاستقامة ... على كل حال .... كلها أربعين سنة وتتعدل والواحد يبقى على المعاش وطول النهار فاضى يقعد معك زى ماهو عايز .... مرة أخرى تحياتى لك ولحضرة الناظرة!» .

●●●

مرت الأربعون سنة، لكن شكرى واصل العمل بعد سن المعاش فى ١٢ يناير ١٩٩٢ ، حتى بلوغه السبعين منذ ستة أشهر ، ولا أظن أنه وجد نفسه «طول النهار فاضى» بدليل أنه « لا يقـعـد مـعنا زى مـا احنا عـايزين» ، لكنه والحـمـد لله لا يزال «مرجعنا» فى كل شأن من شئون الضمير ، ويكون بذلك قد حقق الإنجاز الأكبر الذى يتـمـناه كل شـريف على هذه الأرض ، «هؤلاء الذين يتـوازن عندهم العـقل والعاطفة، فلا يصـبحـون مزمارا فى يد الحظ ، يعزف عليه ما يشاء» ، ... الرجل الذى يرفض أن يكون عـبـدا لأهوائه، يستحق أن نضعه فى السويداء، فى قلب القلب . ■



السهل الممتنع

كتب عن السفير شكرى فؤاد زملاؤه وأصدقاؤه، وأشعر أن كتابتى عنه نيابة عن تلاميذه بوزارة الخارجية هي فرض كفاية عن جيل الشباب بالوزارة عرفانا له وتقديرا لخصاله، ولو لم أفعل لكنت ككاتم الشهادة!

لاأكتب عنه بوصفه من المشاهير، لكن الكتابة عن هؤلاء طرق في المطروق ثم إنه كما أن القانون والعدالة ليسا دائما صنوين كذلك فإن الشهرة والفضيلة لم يكونا دوما وجهين لعملة واحدة.

والسفير شكرى فؤاد من الشخصيات التى يطلق عليها في اللاتينية تعبير em-minence grise أى «العقل المدبر» المختفي وراء الكثير من الأحداث والأفكار التى لاتحمل توقيعه وإن حملت بصمته «المؤتمر الاقتصادى - تنظيم وزارة الخارجية - النقاش العام حول مواضيع أدبية وفنية» أول ماينطبع فيك من الرجل هو تحفظه وكتمانه، يحتفظ لنفسه بأفكاره، لكنك تكتشف إنه لا يضن بها على سائل أو مستفسر وإن لم يسع أبدا إلى الجهر بها تبرعا، يدهشك أن لاحاجة له اطلاقا لما يلجأ إليه الرجال إثباتا لجدارتهم من استعراض فى أى محفل. فالرجل إن رأيته فى محاضرة عامة وهو كثير الحضور لها، لايطلب الكلمة لسؤال أو تعليق لكن لو سألته الرأى لوجدت لديه رؤية واضحة سلسة عميقة دون تقعر أو افتعال أو غموض فى غالبية مايشغل الناس فى الشأن العام والخاص. وهو على درايته متواضع تواضع العلماء وهو منهم فى ظنى. فقديما كان يقال العالم واليوم يقال المثقف، وشكرى فؤاد هو المثقف دون آفاته وعيوبه وهو صاحب قلم لاشك فى ذلك لكن حرصه على عدم الظهور وتوخي الحذر واللياقة واللباقة يحيدان به عن الكتابة فى أغلب الأوقات . لذا لم يكن حصاد العمر كتبا كان أقدر الناس علي كتابتها ولم يفعل - وأعتب عليه فى ذلك - لكنه كان محبة إخوانه وأبنائه سواء بسواء.

شيء فى هذا المظهر يوحى بالثقة والحكمة التى تجعل كل صاحب مسألة يلجأ إليه. سمعت أن الوزير عمرو موسى اعتبره حائط مبكي للكثيرين، أما أنا فكنت اسمى مكتبه بالوزارة عندما كان مستشارا لوزير الخارجية «العيادة» وقد كان الطبيب الأريب شكرى فؤاد يشير على من يستشيره، فكلنا كان لسان حالنا يقول له «دبرنى ياوزير» ربما حتى الوزير نفسه!

نجا مما يسقط فيه الكثيرون فهو المثقف المتواضع، وهو القبطى النبيل الذى يحمل الوطن فى قلبه، بمسلميه ومسيحييه، برجالاته وحرافيشه وهو الشخصية الاريحية التى لايصدر عنها من الصغار مايحط من أقدار الرجال.

هذا الأب الروحى لم ينظر إلى الشباب بمنظور الفجوة بين الأجيال ولم يتعامل معنا نحن شباب الدبلوماسيين بمنطق بطريركي متعال أبدا. ورغم أن الرجل قد أتم أعوامه السبعين هذا العام، فقد احببناه جميعا كأخ وزميل وصديق.

ماجدة بركة
بروكسل

من تاريخ العاصمة الكبرى

خفايا القاهرة

بقلم

د. محمد رجب البيومى



صورة للقاهرة القديمة

«خبايا القاهرة» كتاب متواضع الطبع، أصغر الورق، تملأ غلافه صورة ماجنة لامرأة خليعة، وكنت قد وضعته جوار «مذكرات عربجى» فى مكتبى بالرف الأسفل، لبعض المشابه بينهما، فلما كتبت عن المذكرات فى الهلال ما صادف بعض القبول، قلت فى نفسى إن الجار اللصيق سيغضب لما لحقه من الجفاء، وأنا أتصور أحيانا للكتب أرواحا كما للناس، وهممت أن أترضاه بهذا المقال، ولن أتاكد من ذلك إلا إذا رضى القراء، أما عن مؤلفه الأستاذ أحمد محفوظ فقد كان موظفا بالقسم الأدبى بدار الكتب مع صفوة من أدباء العصر، وكانت قصائده تحتل جريدة الأهرام فى الثلاثينات، ثم اتجه إلى التأليف عن زعماء الشعر كالبارودى وشوقى وحافظ فى كتب مستقلة ونظم بردة نبوية كتب مقدمتها الدكتور محمد حسين هيكل، ولكنه فوق ذلك ابن القاهرة التى عرفت خطاه فى كل درب وشارع، وحدثته منازلها ورجالها ونساؤها بما لم تكد تحدث به سواه، وقد تفاعل ذلك فى نفسه، فكتبه سطوراً فى كتابه هذا؛ «خبايا القاهرة» وفي العنوان تجاوز لأنه كتب عن الظواهر والخبايا معاً، وأظنه أراد أن يجذب القارىء الكسول، كما ظن أنه سيجذبه بصورة الفتاة الداعرة، ولعل ذلك من صنيع الناشر ، وهو منه برىء!


فتاة بالملابس التقليدية


إحدي الفرق الشعبية

تحدث الكتاب عن ملاهي القاهرة ولياليها في منتصف القرن التاسع عشر، وثلثي القرن العشرين، وخص المقاهي الكبيرة وما سماه بالكباريهات بحديث لافت شغل فراغا كبيرا، وكذلك تحدث عن النوادى عاليـة وهابطة والفنادق والحانات ومسارح التمثيل والغناء وأبطالها من الممثلين والممثلات، والمطربين والمطربات، وأفاض في أحوال المبتذلات والخواطيء والسواقط بما لا أدرى كيف اهتدى إلى عناصره، أما الأعراس والأحزاب والمجالس النيابية ورواد الأمسيات اللاهية فلم تخل من حديث جاذب، لأنه وأن اتصل بالسياسة المعروفة كان ذا مذاق ترفيهى من أدعياء المعرفة ، ودخلاء الأدب وأصلائه، وعن مواسم الأعياد، وحفلات المرح وما يدور هذا المدار،والكتاب صورة مصغرة لكتاب سابق هو «المصريون المحدثون عاداتهم وتقاليدهم» الذى ألفه الأستاذ إدوارد وليم لين عن عصر محمد على فأفاض إفاضة لم تتهيأ لمؤلف الخبايا، لأن المستشرق الإنجليزى كان متقيدا بخطة منهجية حاول تطبيقها، أما الأستاذ أحمد محفوظ السّمير، فقد تخيل نفسه مع أصدقاء يمتعهم بالحديث المستطاب ، وحسبه ذاك .

وفى الفصل الأول تحدث عن حى الأزبكية وملاهى الحديقة الفسيحة ذات العبث الصاخب، ففصل تفصيلاً أليماً ما أجمله حافظ إبراهيم حين قال عن ملاهى هذا المكان مخاطباً هذه الحديقة :

كم وارث غض الشباب رميته
بغرام راقصة وحب هلوك
ألبسته الثوبين فى حاليهما
تيه الغنى ، وذلة المفلوك

وقد ذكر من أسماء الراقصات والمطربات أكثر من عشر فواتن، متحدثا عن حيلهن (!) فى اصطياد الأغرار، ولا يعنينا ذلك قدر ما تعنينا كوارث البلطجية ممن يحمون هذه الأماكن، أو يتصدرون الملهى فى جبروت يستند إلى القوة الغاشمة فهذا من يسمى «بسليم السلحدار، يغشى بار (كافيه اجبسيان) بجيش من الأتباع ما بين نوبى ومغربى وطليانى ومصرى، وكلهم مسلحون يظهرون الجبروت مناصرة لهذا الشركسى الغنى، ومن عتوه أنه كان يقتحم المكان بعربته التى يقودها حصان واحد، وهى يومئذ من مراكب الأثرياء ذوى الحظوة، فإذا هم صاحب

منظر من وسط المدينة



شارع النحاسين



القهى بالاعتراض أوسعوه ضربا، وكسروا ما أمامهم من الكراسى فى شغب يزعج الحاضرين فيولون الأدبار، ويبكى صاحب المقهى مستعطفا هذا الشركسى، فيجود عليه بأثمان ما حطمه أتباعه من موائد وأثاث ، ويقابل بالشكر الجزيل لأنه تعطف! وتسأل فيم هذا الجبروت فلا تجد الجواب؟ وأين المسئولون فى الداخلية فلا تجد الجواب أيضا؟

وممن شملته حماية البوليس الإنجليزى فى هذه البؤرات الفاسدة من يسمى «كار تييه» السويسرى، وكان ضابطا لطيف المظهر أنيق الشكل ، ووظيفته الأساسية فض المشكلات بين هؤلاء التعسات المنكودات اللاتى كتب عليهن شقاء الحرفة الهابطة، وهن يستمعن إلى حكمه، ويخضعن له إن تطرف، لأن بعض المحتلين من الأجانب ذوى السطوة، جعلوه قوادا لهن يختار من تحظى بتقديره، وهو بهذا العمل المنحدر المخزى يأمن كل شكوى تقدم للمسئولين من ناحيته، وله صلة بمن يسمى (لاينس) الذى تخصص فى الرحلة والسفر إلى أوربا لاحضار الساقطات ، وتغذية هذا المكان الموبوء،

وليس كارتييه السويسرى العاهر هو وحده المزعم فى هذا المجال لارضاء الرواد، بل هناك امرأة بدينة تدعى مدام مارسيل يقول المؤلف عنها إن لها حزم قواد الجيوش، وهمها جمع المال من وظيفتها الشائنة شتاءً، ثم تسافر إلى باريس بعد ذلك صيفاً فى زى راهبة ناسكة لتعطف على المعوزيات من أبناء جنسها ويسمونها هناك (القديسة الفاضلة «مارسيل» لما تبذل فى المبرات الخيرية هناك، تبذل من جهد السواقط دون حرج أو استحياء).

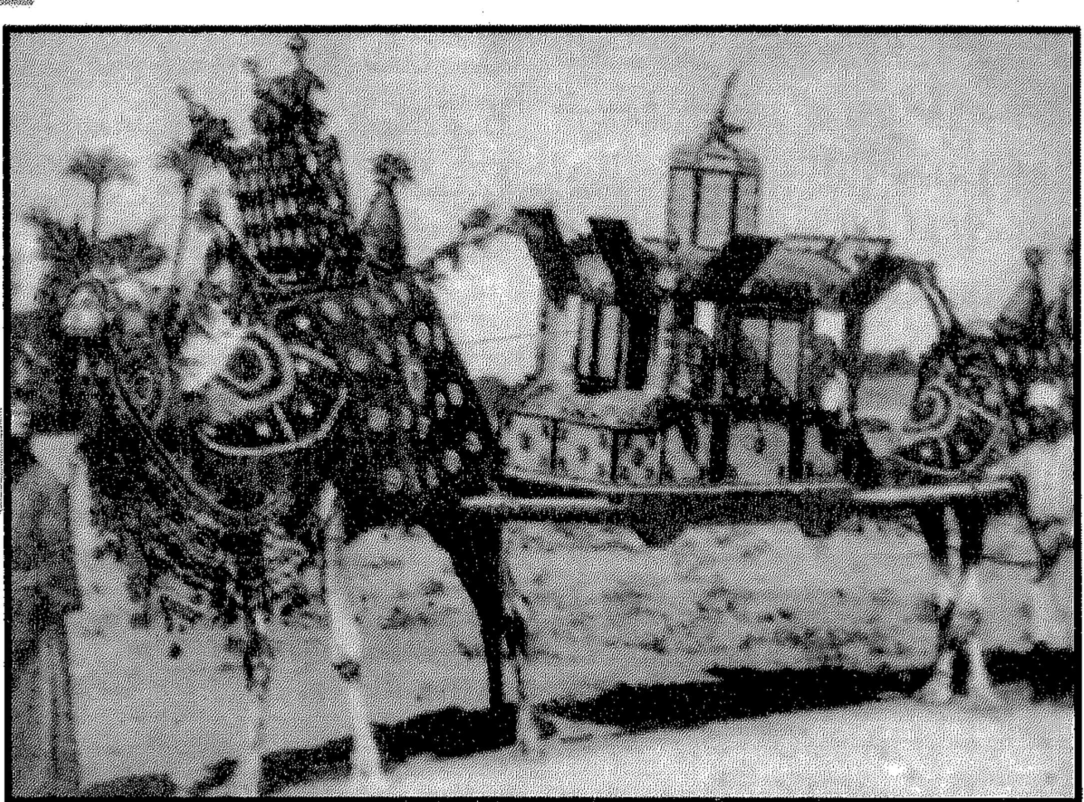
إظهار المثالب

وأنا أؤاخذ المؤلف على أمر هام، هو أنه تعمد إظهار النواحى الهابطة وحدها دون النواحى المشرقة المضيئة وهو يتحدث عن مجتمع القاهرة وفيه الشر والخير معا، أفما كان الأجدر به وقد تحدث كثيرا عن ألوان البغاء، والفسق الفاجر، أن يذكر المقاومة الرائعة التى بذلها المخلصون للقضاء على هذا الوباء الجارف، أو يجهل وهو المثقف المطلع أن معارك قلمية ثائرة قامت بين الكتاب من أجل القضاء على هذه البؤر الفاسدة، حتى تكللت جهودها المضنية بعد أمد بالنجاح، ألا

أم كلثوم فى صدر شبابها



بائع العرقسوس



«الهودج » احداحتفالات الزواج فى القاهرة القديمة

يعلم أن زعيم المقاومة الذى تصدر الصفوف لحماية الفضيلة والعفاف هو الأستاذ الثورى الجليل محمود أبو العيون من كبار مفكرى الأزهر الشريف لعهده! وقد لقى من كبار المعارضين سيلا من الشتائم والسباب، حتى أن الأستاذ عباس محمود العقاد وهو من هو جلالة قدر، وعظم همّه ، قد تهكم به مرات، وقال فى بعض مقالاته «أسكت يا شيخ ، فأنت أصغر من أن تقود حملة كهذه» إن البغاء عمل رسمى مشروع فى دول آسيا وأوربا، ولا يمكن إزالته بالعرائض والمقالات!! قال العقاد هذا ! وقد عاش أبو العيون والعقاد معا حتى رأيا زوال هذه الفاحشة استجابة لصيحات الأطهار والشرفاء سنة ١٩٤٨، فهل كاد أبو العيون وعبدلحميد سعيد ومحب الدين الخطيب ممن قاوموا هذا البلاء أصغر من أن يقوموا بحركات الإصلاح كما زعم العقاد! لم أكن أتوقع هذا، ولكنه حدث!

هذه ناحية أما الناحية الثانية فقد سكت لباحث سكوتا تاما عن مظاهر الثقافة الرائعة فى هذه الحقبة الدقيقة إذكانت السهرات الأدبية والاجتماعية تعقد أسبوعياً فى ندوات جمعيات الشبان المسلمين، وقاعة يورت التذكارية، والجمعية الجغرافية ومدرج كلية الآداب، ولها روادها المنتظمون على حين تفسح الصحافة صدرها لتدوين خلاصات وافية لهذه الندوات التى اشتهر فيها طه حسين ومحمد كرد على ومحمد توفيق دياب ومحمد مظهر سعيد ومنصور فهمى ومحمود عزمى وزكى مبارك وغيرهم من كبار المثقفين أفلا تستحق هذه الندوات بعض ما امتلأ به الفراغ من حديث المثالب والنقائص ! وكأنى بالمؤلف وقد سار سيرة المستر ادوارد وليم لين، حين احتفل بتسجيل مظاهر الشذوذ وحدها! ولم يتكلم عن مظاهر النشاط الإنسانى لدى أهل الخير، وعن حلقات العلم فى الأزهر الشريف، وهو يومئذ منارة التثقيف! وصديق شخصى لكبار المصريين!

نترك حديث مدام مارسيل وأخواتها اللاتى توسع فى ذكرهن المؤلف، إلى حديث عن الرجال المستهترين فى هذا العهد، ومنهم من يسمى «باسيلى بك عريان» وكان يتخذ مقهى نوبار مقراً لاجتماعه مع الوجهاء من أعيان القاهرة

ومن يفدون إليها من عمد الريف! حين كان العمدة وجها لامعا من وجوه الثراء، وقد وصفه الأديب الكبير محمد المويلحى فى حديث عيسى بن هشام بما يعطى الصورة الصحيحة عن ثرائه وجهله معا، ولكن شتان بين أسلوب وأسلوب!! فهذا الثرى قد أفلس وفقد ثروته اندفاعا فى التعاظم بالمال، إذ كان يُشير بإغلاق المقهى ليخلو مع بعض الفنانين والفنانات طول الليل، ثم يقوم بدفع ما يقدره صاحب المقهى من مال كان ينتظر أن يكسبه لو لم يغلق المقهى! وقد ذكر المؤلف من رواد مجلسه طائفة من الأعلام نضعهم فى مقدمة رجال الثقافة! مما يؤكد أن المجلس لم يكن كله شرا، ولكن باسيلى كان نمطا من الأثرياء الذين يضعون الشىء فى غير موضعه، ولا نزيد فى تقريعه الغاضب فيكفيه أنه أفلس! وعاش بقية عمره مهجوراً لا يعرفه من غمرهم بالعطاء ! ومات وحيدا عليلا.

وقد كتب المؤلف كتابه سنة ١٩٥٨ بعد قيام الثورة بست سنوات، واقتضاه هذا أن يُهجن زعماء فضلاء من رجال العهد السابق، وأن يتجنى عليهم بما لا يليق، حتى أنه ذكر فى بعض المناسبات الزعيم الجليل

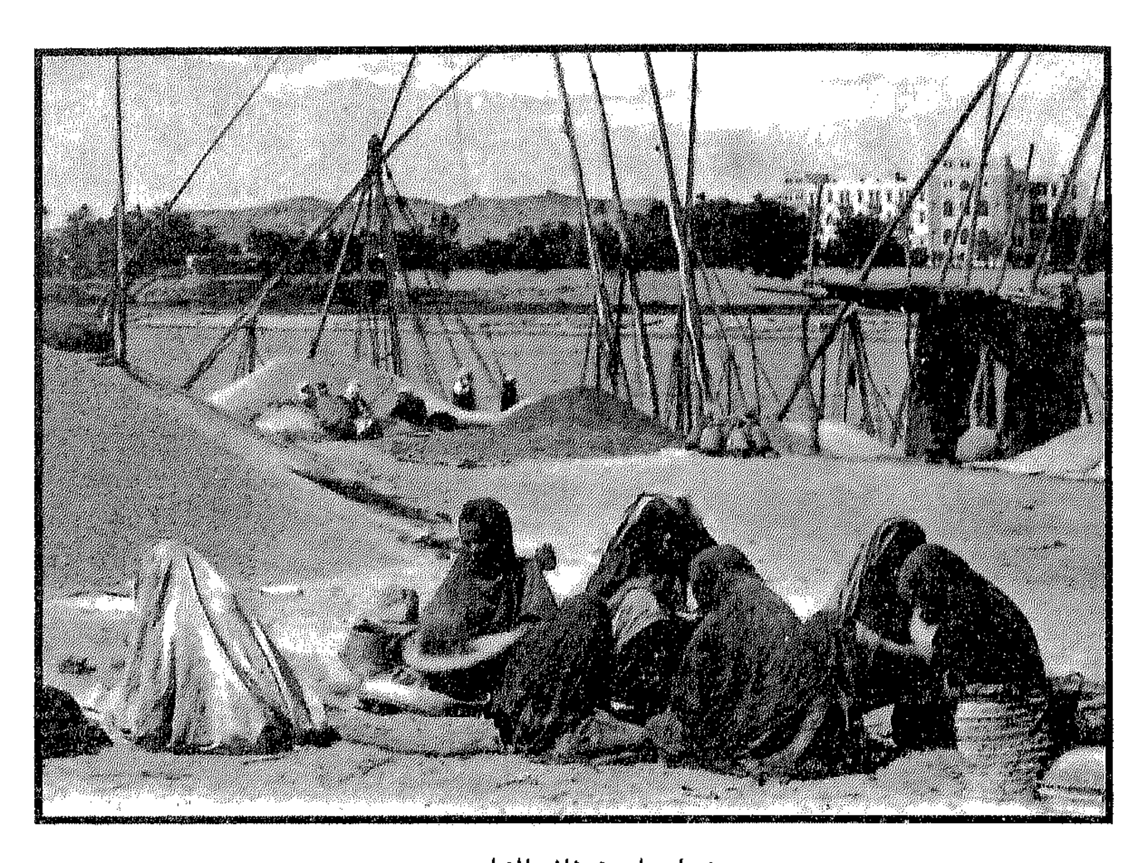

عبده الحامولى

مصطفى النحاس باشا - وهو من هو - فى ذيل طائفة من رجال السياسة، وقال عنه فى موقف مشرف هذه العبارة (مصطفى النحاس قبل أن ينتكس) كأن الرجل قد انتكس فعلا!! وما كان أغناه عن هذا الملق الكاذب، وإذا كان جباناً لا يقدر على كلمة الحق الصريح فى هذا البطل، فليعتصم بالسكوت! كذلك ذكر الملك فؤاد مرتين، قال فى إحداها إنه كان يرد المقهى وهو فقير معدم مفلس، فيقابل بالتهكم الخفى! وهذا زور فاضح، لأن الأمير أحمد فؤاد قد ورث عن أبيه ضعف ما ورثته أخته المحسنة البارة الأميرة فاطمة التى أسهمت فى بناء الجامعة المصرية بأكبر مما أسهم به فريق كريم من المتبرعين معا!! ولم

يكن مقامراً حتى يفلس بل كان الأمير أحمد فؤاد هو الرئيس الفعلى لمشروع الجامعة المصرية وقد أمدها بخبراته وكفاءته، والذين ألفوا الكتب الدراسية فى الجامعة قبل توليته العرش وبعده قد أهدوه مؤلفاتهم فى صدور كتبهم فى الصفحات الأولى ومنهم طه حسين ومحمد الخضرى وإسماعيل رأفت فلماذا لا يعى المؤلف ذلك، أنا لا أنكر عليه النقد الصائب، فقد كان من حقه أن ينقده عند حديثه عن تأليف الدستور فيقول مثلا إنه عارض رغبة الأمة فى أن تكون مصدر السلطات، وتحرش بزعماء الثورة المخلصين على طريقته السياسية المشتهرة ، فلو قال ذلك ما خالفه أحد، أما أن يهوى إلى المخترعات الهابطة التى راجت عنه بعد الثورة فيقول أنه مفلس! ويقابل بالتهكم الخفى من الناس، فهذا نزق كريه! وهذا يذكرنى بمن قال عنه فى الصحف المنافقة أنهم بحثوا عنه ليولوه العرش فوجدوه فى خمارة !! وهذا افتيات.

وقفة مع الفن

فى الحديث عن الغناء والمسرح تكلم المؤلف بايجاز دقيق عن نشأة الشيخ سلامة حجازى وسيد درويش ومحمد عبدالوهاب فى المكاتب القرآنية حتى اهتدى إلى موهبتهم من قادهم إلى الظهور، وكذلك تحدث عن أم كلثوم، وما سجله عن المطربين وتاريخ التمثيل والغناء حق صريح، ويستحق أن يكون مرجعاً، لولا أن ميله الشخصى قد دفعه إلى المغالاة الرخيصة فى تحقير بعض النابهين، فنحن مثلا لا ننكر الدور القيادى الذى قام به عزيز عيد فى بناء المسرح المصرى الناشىء، إذ كان أحد الأعمدة التى ارتفع عليها هذا البناء عن جدارة واستحقاق، ولكن المؤلف ترصده فى أكثر من صفحة وباب وبالغ فى تحقير مظهره الخلقى كأنه هو الذى خلق نفسه، ووصفه بالمشئوم عدة مرات! وأعفى القارىء من تسجيل هذه الهفوات الأليمة حقاً، ولكن أستجير كل الاستجارة ما ذكره من نوادر المطرب الشهير عبده الحمولى رحمه الله، فقد كان مع زعامته الخارقة لمطربى عصره، وفقد المنافس المماثل ذا أريحية نادرة هى فى الوقت نفسه زعامة «خالدة» فى دنيا الأخلاق الكريمة، إذ كان عطفه على الفقراء ، وتبرعه بأكثر ما يكسب دون نظر إلى طوارىء المستقبل مضرب المثل الخارق، ومما ذكره المؤلف من طرائف هذا الفنان، أنه مر ذات أصيل



نساء على ضفاف النيل

فى بعض أزقة الإسكندرية، فرأى امرأتين تتشاجران، وهو مولع بسماع ما تتقاذف به ألسنة العامة فى هذا المجال وبخاصة إذا كانت المتشاجرتان سيدتين شعبيتين ، فعلم أن إحداهما كانت ترش الطريق الضيق لتقيم فى الغد حفلة متواضعة لزفاف نجلها، فأصاب جارتها رشاش من الماء، وكانت ذات غل حانق من قبل، فابتدأ الشجار، وقالت الجارة الغاضبة فيما قالت: زفاف إيه! يعنى عبده الحمولى جايلك!! فردت عليها غريمتها ، يسمع منك ربنا، مش بعيد عليه،! فتأثر الفنان المتنكر، وتقدم للأم المسكينة قائلاً، خذى ثلاثين جنيها ذهبياً، وأعدى السرادق فى الشارع الكبير، وسيحضر عبده غداً فى المساء فذهلت ولم تكد الحائرة تصدق، ولكن المال الذى لم تحلم بعشره من قبل وقع فى يدها، فسألت من أنت!؟ فقال أنا صديق عبده الحمولى، وأذاع المطرب فى الإسكندرية أنه سيغنى فى مكان كذا غدا، فتوافدت الجموع تسأل، وتأكدت الأم فنصبت السرادق، وحضر الحمولى فصدح بأعذب أغانيه، بأكثر مما كان يطرب فى ليلاته النادرة،

وكانت حفلة ظل جميع الناس يتحدثون عنها ، وقد علموا من الأم حقيقة الأمر، حين سألوا: كيف جاءت بعبده الحمولى على رقة حالها الماثلة، فأجابت بما كان ! إن لفتة الفنان هذه تحمل من المشاعر أضعاف ما تحمل من المروءة، والفنان شاعر أيضا، ومما رواه المؤلف من النوادر الطريفة التى لا يضيق بها هذا المقال لروعة مغزاها الخلقى، أن وزيرا من كبار العلية ، دعا عبده الحمولى لحفلة زفاف ولده الأوحد، وحضر الفنان مع صديقه الأستاذ سليم سركيس، وهو صحافى مرموق، وكان قد تناول أحد الوزراء بنقد عاصف، فلما رآه الوزير المتشامخ فى الحفل، دعا زميله ، وأصر على أن يطرد سركيس من الحفل وإلا انسحب منه، وظن زميله أن المسألة سهلة.. وذهب إلى سليم سركيس يأمره بمغادرة الحفل، وهو مزدحم بالأفواج، وفى الخارج أكثر مما فى الداخل، ولحظ عبدالحمولى خروج صديقه وعلم بما كان، فأمر جوقته بجمع الآلات الموسيقية وصمم على الخروج قبل أن يبدأ، وحاول صاحب الحفل أن يثنيه، فأصر، فقال إذن يمكث سركيس ولا تفضح موقفى أمام الناس فصاح به، لقد حضر معى وفى ضيافتى أنا لا فى ضيافتك، ولن أستمر فى الحفل حتى يطرد الوزير، وتحرج الموقف ، ولم يستجب الفنان إلا بعد انسحاب الوزير المتشامخ زلفى لشيئة الحمولى، وكانت نادرة تحدثت بها الصحف! أى عظمة خلقية هذه، وأى حمية نادرة المثال!

تقاليد الزفاف

وبمناسبة حديث الزفاف أذكر أن المؤلف أجاد كثيرا فيما تحدث عن تقاليد هذا العصر فى هذه المناسبة، منذ تبدأ الخطبة إلى أن يتم اللقاء فى خاتمة الليلة السعيدة، وقد قال بهذا الصدد عن الطبقات المتوسطة: أن الزواج يكون بوساطة الخاطبة التى تقدم كشفا يحمل أسماء الفتيات المناسبات مع ما يلزم من المعلومات عن العروس وأهلها ودرجتهم المالية والاجتماعية، ثم إذا تم القبول، ووقع الاختيار على إحداهن، ذهبت الأم وعاينت العروس، وعادت لابنها تخبره عن صفاتها كما رأتها، فإذا ارتاح إلى ما سمع وافق على الزواج ولا يرى العروس إلا فى حفلة الزفاف! وهذا إجمال مُوجز، وأذكر أن الأديب الكبير الأستاذ عبدالعزيز البشرى رحمه الله،



بديعة مصابنى فى ريعان الشباب

قد فصله فى مقالين كبيرين تحت عنوان وكيف كان الشباب يزوجون، فبعد أن وصف مقدمات البحث، والموافقة على اختيار العروس بلغ موقع الاعجاب من القارىء حين وصف حضور قريبات الشاب وفى مقدمتهن أمه لمعاينة العروس، فقال ببعض التصرف واصفا مشهد اللقاء الأول :

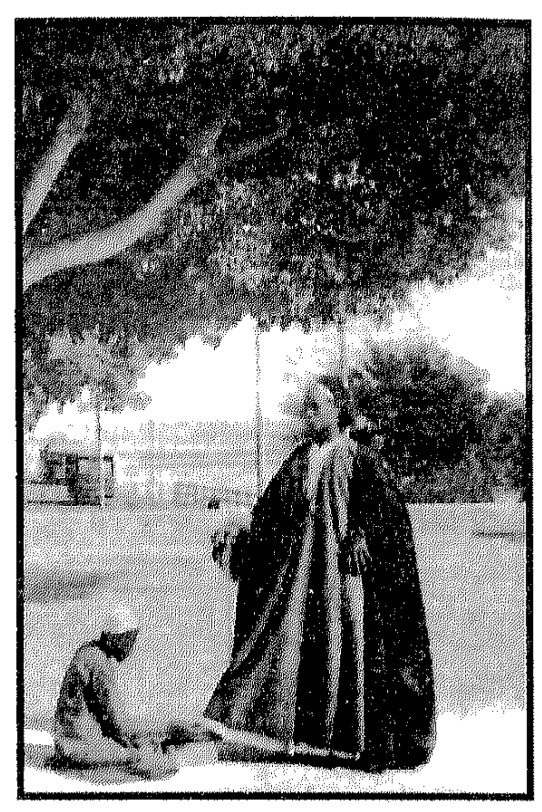
تقدم العروس ومعها فنجان القهوة،

والأنظار تتناهبها من كل جانب، هذه تتوسم وجهها، وهذه تتفقد عنقها وصدرها، وهذه تسرح النظر فى شعرها، وأخرى تلاحظ مشيتها مخافة أن يكون بها عوج، وكل تلاحظ فنجان القهوة فى يدها، هل سالت منه قطرة واحدة تدل على عدم ثباتها ، فإذا أدت التحية، وجلست للامتحان، أخذن يحدثنها لعل فى لسانها حبسة أو عقدة، أو فى أسنانها ما يلفت النظر، فإذا حان الانصراف ولابد أن يحين أقبلن على معانقة الفتاة لا حبا فى العناق بل فحصا عن حالة الصدر، وشما لرائحة الفم، مع الطواف على جميع أنحاء الجسد فى مهارة ليعرفن ما قد يكمن من أسباب الترهل، أو الضعف! وقد يعدن مرة ثانية إذا اختلفت الآراء لمراجعة النظر ! فأى عذاب هذا؟

هذا عن المقدمات، أما حفل الزفاف، فقد يعجب القارىء حين يسمع أنه كان لا يتم على وجهه الصحيح، بدون شجار حقيقى يقوم به فريق من الفتوات، ذكر المؤلف أسماءهن، حيث لكل حى أبطاله المتخصصون فى هذه الحرب الرعناء، ومنهم من قتل فى العراك، وعد قتله استشهادا فى ساحة البطولة، وأعود ثانية إلى الأستاذ عبدالعزيز البشرى فأذكر أنه فصل هذا الإجمال بما لا نكاد نصدقه اليوم لولا أنه حق واقع، فقد قال الأديب الكبير بعد أن وصف نظام الموكب، وطوائف السائرين فى الزفة، ومن يحيط بالعريس من الأصدقاء، وما يقال من الأغانى الشعبية فى هذه المناسبة، قال الأستاذ البشرى :

«فإذا بلغت الزفة الموضع الواقع بين مسجدى الشيخ صالح والحنفى أذن المؤذن بنشوب القتال، وكانت أول عصا تهوى على رءوس الزمارين المساكين، فاكتسبوا مهارة فى اتقاء الضرب بطول التمرين، وكيف يولون الأدبار!

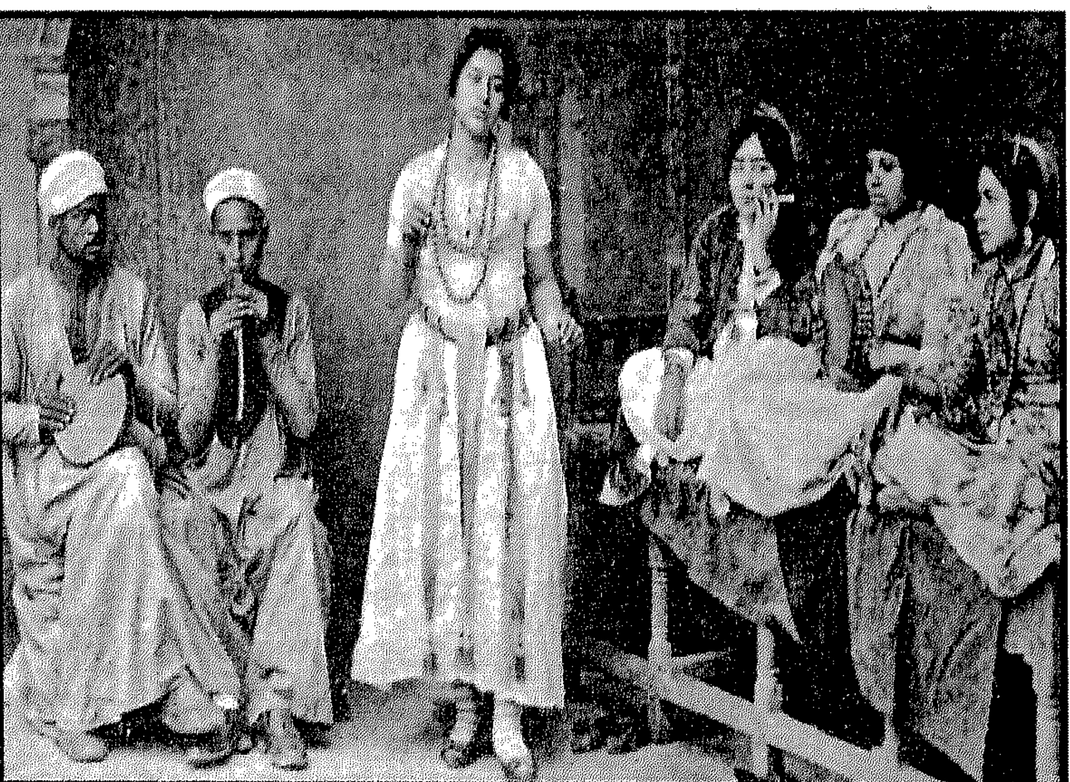
وكان الطبالون أشد هؤلاء عناءً، لما يثقلهم من حمل أدوات الطبل، وكثيرا ما تنحرف طبولهم بضربة العصا، ويتلاقى الأقران، فلا ترى إلا عصيا تهوى على الأبدان، فتنشق الرءوس وتدق الأصلاب، وتسيل الدماء ولم يكن البوليس ليجرؤ على اقتحام هذه الملاحم، بل كان يولى منها فرارا، ولا يمكن أن يتقدم أحد من هؤلاء الفتوات بشكوى إلى البوليس، ولو أتلفه الضرب وأرداه، إنما ينتظر الانتقام فى عرس



الأعيان والبسطاء فى القاهرة



ضاربة الدف



الراقصة والتخت فى وصلة طرب

قادم! أقول بعد تسجيل ما تقدم! أهذه حقيقة أم خيال ! فإن الذى دونه المؤلف والأستاذ البشرى من غرائب الوقائع يذكرنا بقول أحمد شوقي:

تكاد لروعة الأحداث فيها
تخال من الخرافة وهى صدق

أما الشحاذون فأمرهم أعجب، وقد ذكر المؤلف من نوادرهم ما يستغرب ، فهذا العمل الشائن له فن ذو أصول عند هؤلاء فمنهم من يتعامى ، ومنهم من يتعارج، ومنهم من يتأرجح فى مشيته ويهتز كأنه مشلول، ومنهم من يتخارص ويتصامم ومنهم من يستأجر الأطفال الصغار ويعرضهم فى أسمالهم الممزقة ويدعى أنهم أبناؤه وأنه عاجز عن إطعامهم ومنهم من يستغل عاهته فيبرز ساقه المقطوعة، أو ورم قدميه المصابتين، ومنهم من يسر إليك فى استحياء ليوهمك أنه من أسرة أخنى عليها الدهر، ومنهم من يرسل لحيته ويحمل مبخرة ويطوحها فى الهواء مصليا على النبى، إلى صنوف أخرى يضيق المقال عن سردها، وقد استغرق عن هؤلاء عدة صفحات ختمها بطريقة نادرة عن كفيف أعمى البصر كان يقرأ القرآن جاسأ بالقرب من عربات الترام فى شارع الخليج المصرى، فإذا مرت عربة قال : إطلع يا نمرة (٧) أو اطلع يا نمرة (٨)، ويجىء الرقم صحيحا، رقم العربة مع أنه كفيف لا يبصر! وأنا أقول: كيف يحدث هذا! لأن المؤلف سجل أنه كان لا يخطىء أبداً فى رقم من الأرقام! وحديث البشرى عن الشحاذين أروع وأبدع، ويضيق المقام عن تسجيله، وهو مدون بالجزء الثانى من كتاب المختار، ثم فى كتاب (قطوف) أيضا!! فليرجع إليها من أراد الاستقصاء !

وقد ختم المؤلف كتابه بكلام عن زفة العجم فى موسم عاشوراء، إذ كانت جالية من الإيرانيين بالقاهرة يحتفلون بذكرى الحسين يوم استشهاده، فتغلق أبواب المسجد الحسينى بالسلاسل، ويقوم على حراستها نفر من البوليس ، ثم تبدأ الزفة يتقدمها فرسان أصيلان يمتطيهما صبيان صبيحا الوجه يمثلان الحسن والحسين رضى الله عنهما، وحولهما الصفوف المتراصة من جماعة الإيرانيين، بأيديهم السيوف والسكاكين، يضربون بها وجوههم صارخين، وينادون باسم الحسين باكين، ويواصل الموكب مسيرته مخترقا شارع



«السقا» هكذا كانت توزع المياه

الموسكى، ثم يعود إلى المسجد، والقوم فى نوبة تشبه الجنون، صياحاً وتعذيباً للنفوس بالطعن الدامى، واللكم المتواصل، ثم ينتهى المحفل بالجلوس فى سرادق يتصدره القنصل الإيرانى ووجهاء الجالية ! وقد أبطلت الحكومة هذه الزفة أثناء الحرب العالمية الأولى نظراً لما تجلب من أخطار دامية ولما تجمع من طوائف تصطدم أحياناً بجيش الاحتلال، وأذكر أنى قرأت للأستاذ المازنى وصفا بديعاً لهذا المشهد وقد زاد على ما قاله الأستاذ محفوظ بأن السرادق توزع فيه أكواب من الماء الساخن المذاب فيه نوع من الملح المر، ليكون بمذاقه اللاذع تعبيراً عن الأسى الفاجع! ويشربه الإيرانيون دون نفور وكأنه شهد مُذاب!!

وبعد، فهذه بعض الإشارات الدالة على المجتمع القاهرى فى أواخر القرن التاسع عشر، إلى ما يقرب من منتصف القرن العشرين، والقاهرة الجميلة هى القاهرة التى كانت أكبر ما تمناه شوقى حين قال :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى ■



لمدينتي القاهرة وباريس

بقلم

د. فتحي صالح

١٤٠

يمثل التراث المعمارى لمنطقة وسط المدينة بالقاهرة قيمة معمارية خاصة، نتيجة أنه نشأ فى فترة تزاوج معمارى فريد بين القاهرة وباريس، وذلك فى فترة حكم إسماعيل باشا عندما قام بالالتقاء بالبارون أوسمان مؤسس باريس الحديثة فى منتصف القرن التاسع عشر ويتم أوسمان توثيق هذا التراث المعمارى القيم لمنطقة وسط المدينة كخطوة أولى فى عملية الحفاظ على تراثنا القومى.

يتميز تراث مصر الحضارى بقيمة عالمية خاصة، وذلك نظرا للاستمرارية التاريخية التى يتمتع بها عبر آلاف السنين وقد نشأت فى مصر جوانب مختلفة للحضارة تعكس تطور التراث الحضارى منذ عصر ما قبل التاريخ وعبر العصور الفرعونية والرومانية والإغريقية والقبطية والإسلامية والحديثة لذا يعتبر هذا التراث ذا قيمة قومية وعالمية متميزة، كما أن الآثار المصرية تمثل نسبة عالية من مجمل التراث العالمى.

تزخر القاهرة بثراء معماري متميز تراكم عبر القرون، منذ أن أصبحت عاصمة مصر فى عام ٩٦٩ ميلادية ولقد شهدت السنوات ما بين ١٨٦٠ و١٩٤٠ تطور منطقة وسط المدينة على غرار ما حدث فى مدينة باريس فى نفس الحقبة حتى سميت القاهرة وقتها بباريس الصغيرة وقد تميز هذا التطور بنقلة معمارية فريدة امتزجت فيها الطرز الأوروبية الكلاسيكية والجديدة بالعناصر الشرقية، مما أضفى على عمارة تلك الفترة ثراء لا يضاهى. وقد كثرت فى الآونة الأخيرة دراسات متفرقة تمثل مجهودات جديرة بالاهتمام لتوثيق تاريخ مدينة القاهرة وتراثها المعمارى.

ويقوم مشروع التوثيق على استخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS) التى تسمح للباحث باستخدام قاعدة بيانات تقوم بتوقيع المبانى على خريطة رقمية للقاهرة ويمكن للجهات المعنية أن تستخدم قاعدة البيانات للأغراض المتعددة حيث أنها مصممة لكى يتيح لمتخذى القرار والمعماريين والمتخصصين ومؤرخى الفن، المعلومات اللازمة لهم وأخيرا يمثل هذا المشروع أداة تساعد على تنمية الوعى العام بأهمية هذا التراث المعمارى كخطوة إيجابية للمساهمة فى خطة التوثيق للتراث الحضارى المصرى بغرض الحفاظ عليه.

قصة مدينتين

هناك علاقة عمرانية وتاريخية خاصة تربط بين باريس وقاهرة القرن التاسع عشر فبعد أن قامت الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر، مرت فرنسا وخاصة باريس بصفتها العاصمة بفترة من عدم الاستقرار والحروب والإضرابات والثورات، وضح معها عند وصول الإمبراطور نابليون الثالث للحكم فى عام ١٨٥٢ أى بعد ثورة ٢ فبراير ١٨٤٨، أن باريس بشوارعها الصغيرة والملتوية فى حاجة لإقامة نظام دولة وأمن مستتب، وذلك نظرا لسهولة إقامة المتاريس فى مثل هذه الشوارع الضيقة. كما أن هذه الفترة كانت بصفة عامة فترة نهضة عمرانية فى أوروبا لتجميل العواصم المختلفة مثل ما حدث فى فيينا عاصمة النمسا وبروكسل عاصمة بلجيكا ولشبونة عاصمة البرتغال، لذا كان مع بدء الجمهورية الثانية فى فرنسا تحت إمرة نابليون الثالث، أن بدأت حملة لتجديد وإعادة تخطيط باريس وإنشاء الشوارع العريضة (البولفارات) فقام نابليون الثالث بتعيين البارون أوسمان Le Baron Haussmann عمدة لمدينة باريس فى الفترة من عام

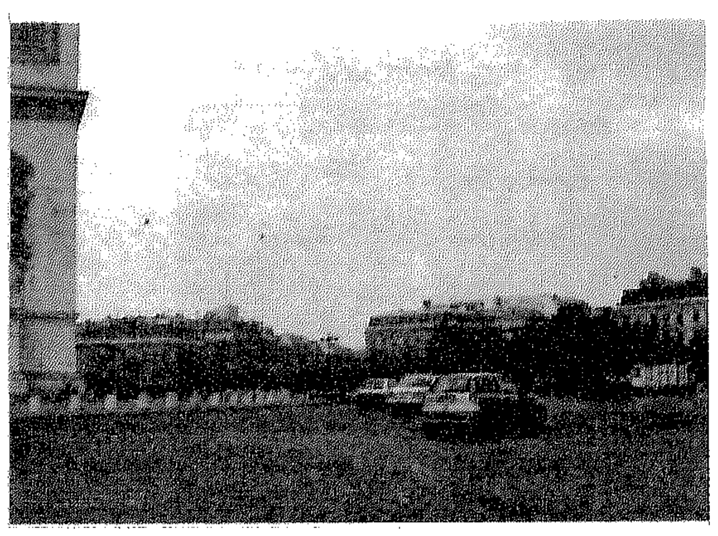




١٨٥٣ حتى عام ١٨٧٠ أى على مدى سبعة عشر عاما. ويعزى إلى «البارون أوسمان» تخطيط باريس بصفة عامة على ما نراها عليه اليوم، وما تم من وضع قوانين تنظيمية للعمران تصل إلى حد تحديد ارتفاعات المبانى بستة أدوار، وتحديد مواصفات العمارات بطريقة مفصلة تصل إلى حد توصيف نظام البلكونات بحيث تكون بعرض المبنى على مستوى الطابقين الثانى والخامس من كل عمارة فى حين تبقى الطوابق الأخرى ببلكونات صغيرة منفصلة.

وتشتهر باريس «البارون أوسمان» بصفة عامة بالتخطيط الدائرى Circular بمفهوم ميادين دائرية تنطلق منها العديد من الشوارع، وأبرز مثال على ذلك ميدان شارل ديجول – إيتوال الذى يوجد به قوس النصر ويطلق عليه اسم إيتوال Etoile أى النجمة لأنه يشبه النجمة التى ينطلق منها الإشعاع فى كل اتجاه. فمن هذا الميدان ينطلق اثنى عشر شارعا عريضا (بوليفار) كما اهتم البارون أوسمان كذلك بالمتنزهات الصغيرة داخل المدينة وأبرزها حديقة لوكسمبورج Luxembourg والمتنزهات المتسعة على أطراف المدينة وأبرزها غابة بولونيا.

وكل من يزور باريس يلاحظ وجه الشبه بينها وبين تخطيط وسط المدينة فى القاهرة أو قاهرة إسماعيل باشا حيث الميادين التى تشع منها الشوارع مثل ميدان طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) وميدان مصطفى كامل (عماد الدين سابقا) وكذلك تنسيق العمارات القائمة فى هذه المنطقة ووجود حديقة الأزبكية فى وسط المدينة وحدائق الأورمان والحيوان فى أطراف المدينة.



ميدان شارل ديجول الذى يوجد به قوس النصر

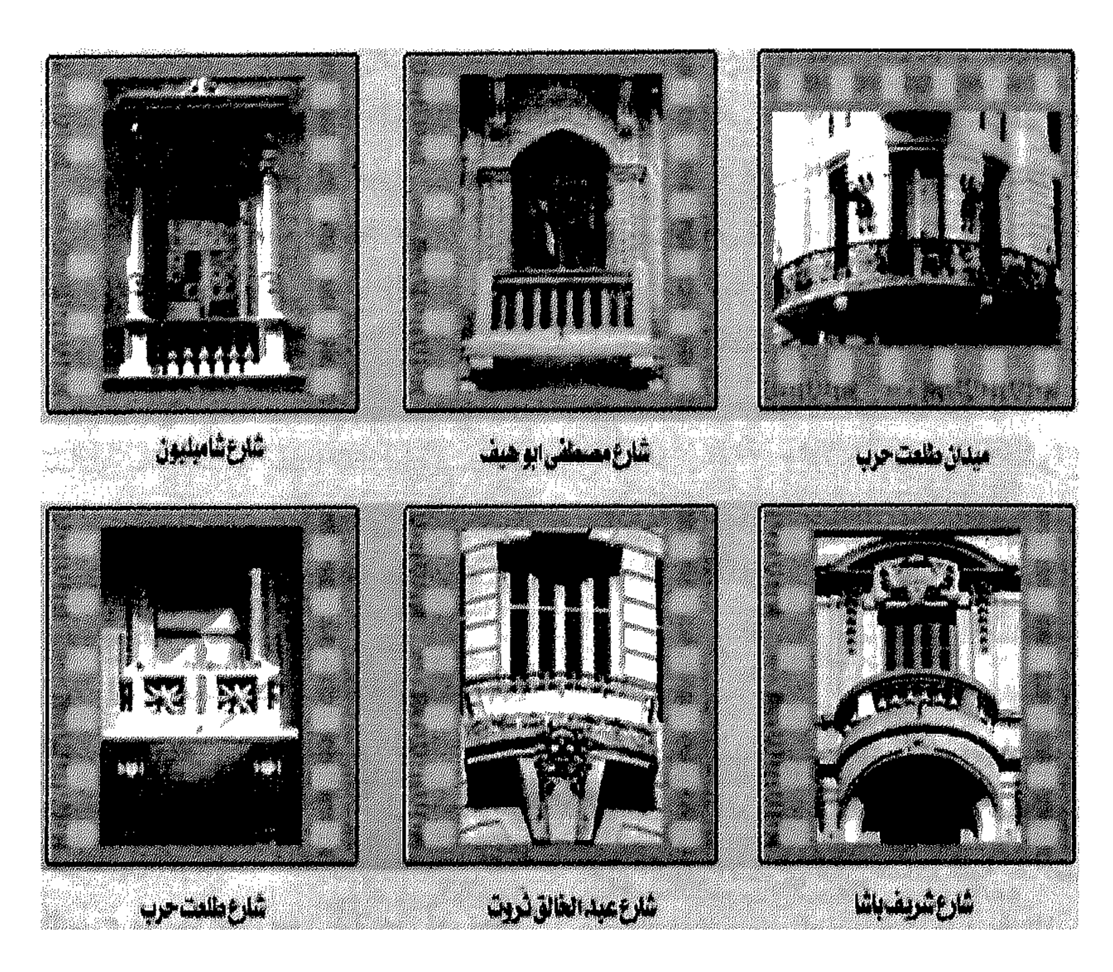


عمارة القاهرة تشبه باريس الى حد كبير

فعند تولى الخديو إسماعيل الحكم فى عام ١٨٦٣ كانت الدولة مشغولة بصفة خاصة بمسألة إتمام مشروع حفر قناة السويس، الذى كان مقررا أن يتم افتتاحها فى عام ١٨٦٩. ولما كان الخديو إسماعيل على دراية بما يدور فى عواصم أوروبا من إعادة تخطيط لعواصمها فى حين أن القاهرة أصبحت مدينة ليست على نفس المستوى، خاصة وأنها على أبواب احتفالات افتتاح قناة السويس، وذلك بالمقارنة بالعواصم الأخرى. ومن ثم فإن الخديو إسماعيل قام برحلة لزيارة باريس فى عام ١٨٦٧، وذلك فى طريقه إلى اسطنبول لحضور المعرض الدولى المقام فى باريس والذى شاركت فيه مصر لأول مرة وكانت هذه الزيارة قبل عامين من افتتاح قناة السويس فى عام ١٨٦٩ ولما كانت مصر تستعد لهذه الاحتفالات وتستعد لاستقبال شخصيات عالمية مرموقة، فقد برزت فكرة أن القاهرة ينقصها بجانب التخطيط العمرانى الحديث، وجود قصور مناسبة لنزل هذه الشخصيات ولم يكن بها وسائل الترفيه على غرار ما يوجد فى دول أوربا من مسارح ودور أوبرا وقهاوٍ كبيرة وأرض سبق خيل وخلافه. ولذا فقد انتهز الخديو إسماعيل فرصة زيارته لباريس ومشاهدة ما يجرى فيها من تحديث واجتمع «بالبارون أوسمان» الذى اقترح عليه الاستعانة بالعديد من المهندسين ومصممى الحدائق والمتنزهات العامة الفرنسيين الذين شاركوا فى تخطيط باريس وقد تم بالفعل التعاقد مع كل من السيد باريه ديشام Barillet De-schamps ليكون مديرا عاما للمتنزهات والحدائق بالقاهرة والسيد جران P. Grad ليكون مسئولا عن البنية التحتية بالقاهرة وذلك تحت إدارة على باشا مبارك الذى تم تعيينه فى عام ١٨٦٨ وزيرا للأشغال العامة والأوقاف.

ومن هنا يتضح أن الخديو إسماعيل استعان بالبارون أوسمان فى استشارات عامة واقتراح أسماء فنيين فرنسيين يعملون بالقاهرة دون أن ينشغل هو شخصيا بالاشتراك فى هذا المشروع ولذا فليس من الغريب أن تخرج قاهرة إسماعيل باشا والتى تمتد من شارع الخليج المصرى (بورسعيد حاليا) حتى شاطئ النيل على غرار باريس البارون أوسمان من حيث التخطيط والتجميل والقوانين المعمارية أى أن باريس والقاهرة تم تنسيقهما عمرانيا فى نفس العصر تقريبا.

إلا أننا لو تتبعنا ما طرأ على باريس من تغييرات عمرانية منذ تلك الفترة حتى الآن وما طرأ على القاهرة فسنجد أن



نماذج من عمارة القرن الماضى لشوراع وسط القاهرة

المدينتين سارتا فى اتجاهين مختلفين.

مظاهر التنسيق العمراني لباريس

أصبحت باريس الآن من أكثر عواصم العالم مزارا للسياح حيث بلغ عدد السائحين القادمين لفرنسا ما يزيد على ٦٠ مليون سائح معظمهم يزورون باريس.

والعامل الرئيسى فى ذلك بجانب الثراء الثقافى لهذه المدينة هو الحفاظ على تراثها المعمارى على مر الزمن بل وتحسينه وتجميله خاصة بعد الحرب العالمية الثانية.

قوانين المباني

من أهم بنود التنسيق الحضارى المعمارى بباريس احترام القوانين المنظمة لهذه المبانى ولذا احتفظت باريس بمظهرها العام على مر القرنين الماضيين فعندما تمر بشوارع باريس بصفة عامة تجد المبانى على ارتفاع

واحد بل وفى معظم الأحيان يغلبها طراز معمارى واحد حتى أنه عندما تم بناء برج إيفيل فى نهاية القرن الماضى كنصب مؤقت لمعرض باريس الدولى بمناسبة مرور مائة عام على الثورة الفرنسية فقد قامت الدنيا وقعدت لهذا البرج العالى الذى يشوه تنسيق باريس لولا أنه مع الوقت بدأت أصوات أخرى تنادى بالحفاظ عليه نظرا لقيمته التصميمية كنصب هندسى من الحديد فريد من نوعه فتم الحفاظ عليه وأصبح مع الوقت رمزا لباريس.

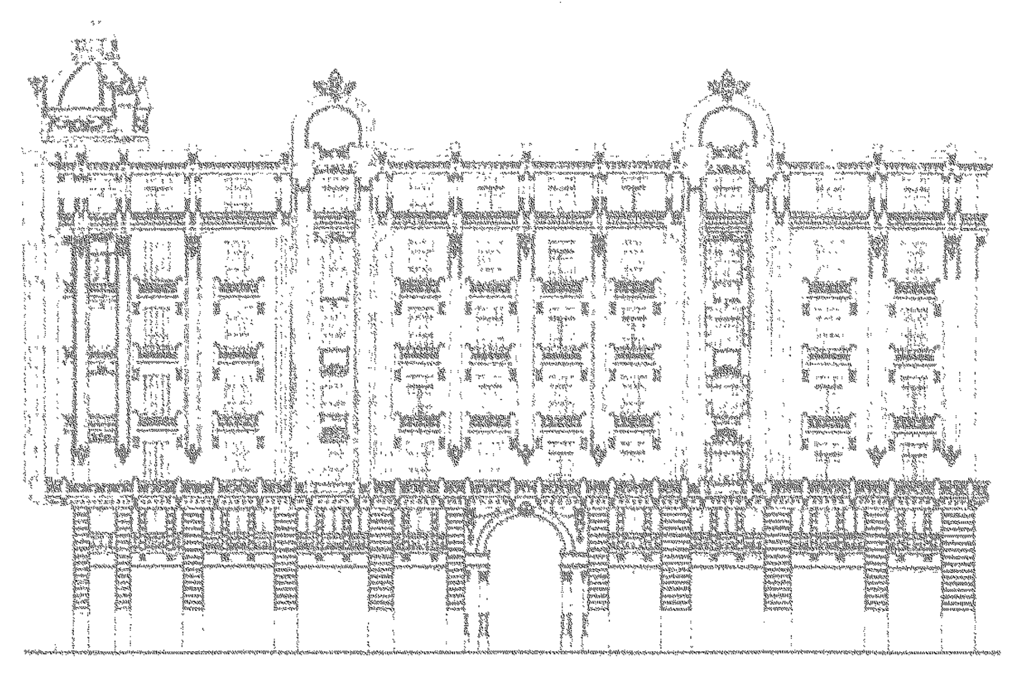
ولك أن تشاهد كيفية إضاءة هذا الصرح الآن بطريقة ليس لها مثيل بحيث يصبح فى ظلام الليل قطعة من الدانتيل البديعة المنظر وليصبح هذا البرج مزينا لباريس بدلا من أن يكون مشوها لها.

مسئول للتنسيق المعماري بكل حي

أحد العوامل المهمة التى تم من خلالها السيطرة والحفاظ على التراث المعمارى فى باريس، أن الدولة عينت فى كل حى مهندسا مسئولا على مستوى فنى عالٍ للتنسيق الحضارى والمعمارى فعلى سبيل المثال إذا أراد شخص أن يبنى عمارة جديدة، فلابد أن تعرض الرسومات على المهندس المسئول ليرى إذا كانت واجهة العمارة المقترحة تتماشى مع واجهات العمارات الأخرى الموجودة فى الشارع أم لا، بل إلى حد أنه إذا أراد شخص أن يغير شباكا موجودا فى عمارة قائمة بالفعل، فعليه أن يقدم رسومات هذا التغيير إلى المهندس المذكور ليرى إذا كان هذا التغيير سوف يشوه من واجهة هذه العمارة أم لا، وإذا ما رفض الاقتراح يقوم المهندس بعرض حلول بديلة على صاحب الشأن.

كلية خاصة للتنسيق المعماري

بجانب وجود كليات الهندسة المعمارية العادية المناظرة لما هو موجود فى الدول الأخرى فإن هناك كلية خاصة يدخلها خريجو الهندسة المعمارية الذين يريدون التخصص فى هندسة التنسيق والترميم المعمارى «مدرسة شايوه Ecole de Chaillot» وهى تختص بدراسة تاريخ العمارة وهندسة المدن والقرى والقوانين المنظمة لها وكذلك هندسة ترميم المبانى الأثرية والتاريخية. وفى الواقع فإن خريجى هذه الكلية يمثلون الكادر الرئيسى القائم لعنصرى المهندسلين المسئولين عن التنسيق المعمارى بكل حى والمهندسين المسئولين عن ترميم الآثار والمبانى التاريخية.



رسم تخطيطى لشكل العمارة فى شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

واجهات العمارات عند هدمها

هناك بعض العمارات وخاصة فى وسط المدينة أصبحت جزء من تراث المدينة المعمارى يتم الحفاظ على واجهاتها بأى ثمن حتى لو تم هدم العمارة سواء لأسباب فنية أو أسباب تجارية والمثال الجيد على ذلك هو فندق الماريوت الذى تقرر إقامته فى وسط شارع الشانزليزيه الشهير على أن يحتل عمارتين ملتصقتين إحداهما تطل على الشانزليزيه والأخرى تطل على شارع خلفى مواز فقد تم الاحتفاظ بواجهتى العمارتين على ما هما عليه، وتم إعادة بناء الفندق من الداخل بالكامل، وقد أصبح هذا الفندق مزارا خاصا وشاهدا على كيفية الحفاظ على التراث المعمارى للشارع العظيم مع إقامة مشروع استثمارى عالمى.

معلوماتية الشوارع

المقصود بمعلوماتية الشوارع فى المقام الأول: إنشاء نظام المعلومات الذى يغطى كل الشوارع والمنازل حتى يتسنى للمواطن العادى أن يصل إلى أى عنوان بسهولة ويسر. ولكن هناك مستوى ثانى للمعلومات وهو أن تعطى هذه المعلومات مدلولا أكثر عن هذه المبانى.

وعلى نطاق المستوى الأول من المعلومات فإنه لا يوجد منزل فى باريس ليس عليه رقم ولا توجد ناصية فى أى شارع ليس عليها اسم الشارع وهذه هى البنية الأساسية لمعلوماتية الشوارع.

أما المستوى الثانى فله أبعاد كثيرة:

أولها أن لافتات الشوارع التى توجد على كل ناصية، لا تحمل فقط اسم الشارع وإنما تحمل فى معظم الأحيان اسم الحي ويزيد على ذلك أنه عندما يكون الشارع قد سمى على اسم شخصية عامة فإن الافتة تحتوى أيضا على معلومات أساسية عن هذه الشخصية وعلى سبيل المثال فإنك ترى أن شارع اميل زولا يحمل لافتة على الوجه الآتى:

الحي الخامس عشر
شارع اميل زولا
١٨٤٠ - ١٩٠٢
كاتب وناقد

وهو ما يوضح بطريقة سريعة أن هذا هو شارع اميل زولا بالحى الخامس عشر وأن اميل زولا ولد سنة ١٨٤٠ وتوفى سنة ١٩٠٢ وأنه كان يعمل كاتبا وناقدا.

وفى هذا المستوى من المعلوماتية فإنك ترى خريطة بالحجم الكبير (حوالى متر × متر) عند النواصى المهمة للحى وموضح عليها بطريقة واضحة موقع هذه الناصية من الخريطة.

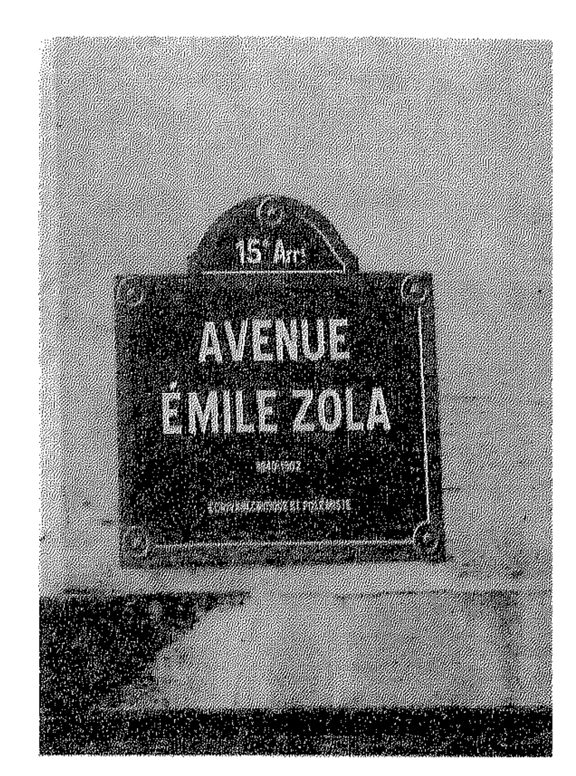
أما الجانب الثانى من معلوماتية الشوارع هو وجود مربع من الرخام على بعض المنازل التى أقام فيها بعض الشخصيات العامة توضح أن هذه الشخصية قد أقامت فى هذا المنزل فى فترة معينة وعلى سبيل المثال فإن المنزل الذى أقام به فولتير فى نهاية حياته، عليه لافتة تقول:

أقام في هذا المنزل
الكاتب فولتير
الذي ولد في باريس
في ٢١ نوفمبر ١٦٩٤
وتوفي في هذا المنزل
في ٣٠ مايو ١٧٧٨.

وأما النقطة الأخيرة فى هذا المستوى من المعلوماتية هى المعلومات العامة عن المبانى الأثرية والتاريخية والخاصة فقد صممت محافظة باريس عمودا خاصا له شكل جمالى به لافتة بيضاوية الشكل تقريبا توضع أمام كل مبنى له قيمة أثرية أو تاريخية أو حتى قيمة خاصة مثل بعض المبانى العامة عليها نص مكتوب يوضح قصة هذا المبنى ويحكى تاريخه فى عدة سطور.

العودة إلى القاهرة

وأما إذا حاولنا المقارنة بين ما تم بباريس وما تم بالقاهرة فإن باريس البارون أوسمان قد تم تنسيقها فى قلب باريس القديمة مع امتدادها إلى خارج حدودها القديمة حيث كان بها اثنى عشر حيا ليصبح الإجمالى عشرين حيا.





معلوماتية الشوارع فى باريس تضح فى اللافتات التى تحمل معلومات وافية عن اسم الشخصية أو المكان

وقد بقيت باريس على الحدود التى رسمها البارون أوسمان حتى وقتنا هذا (أى بعد مرور ١٥٠ عاما) وهى الحدود التى يرسمها الآن الطريق الدائرى لباريس وأما قاهرة الخديو إسماعيل فقد بنيت خارج حدود القاهرة القائمة فى ذلك الوقت (والتى يحدها شارع الخليج المصرى) فى أراض كان يغمرها النيل أثناء الفيضان فتم بناء جسر للنيل وتم ردم هذه الأراضى (وهو مشروع بدأ منذ عهد محمد على) وتم إقامة المدينة الجديدة على هذه الأراضى وبالتالى فإن تخطيطها كان أسهل فى التنفيذ من باريس البارون أوسمان.

إلا أن القاهرة كما هى معروفة فى أوائل هذا القرن فقد تم اتساعها فى اتجاهات مختلفة بإنشاء مدينة مصر الجديدة فى الثلاثينات وإنشاء مدينة نصر فى الستينات كما امتدت التوسعات فى الجانب الآخر من النيل أى مدينة الجيزة لتشمل إنشاء مدينة المهندسين والمدن المهنية الأخرى الملحقة (الزراعيين، الصحفيين، الأطباء...) والتى بدأت بفكرة إنشاء فيلات ثم انهارت المعايير لتنتقل هذه المنطقة من فيلات إلى عمارات ويكفى أن نعرف أن تعداد القاهرة فى نهاية القرن الماضى يساوى بالتقريب تعداد القطر المصرى بأكمله فى منتصف القرن الماضى (حوالى ١٨ مليون) لنعى السبب فى انفجار العمران بمدينة القاهرة ولكن الشئ الغريب أن وسط المدينة احتفظ إلى جانب كبير بتنسيقه المعمارى المتميز

ويبدو أن هذا التنسيق المتميز هو الذى حماها من الانهيار المعمارى مثل الذى حدث فى مدينة المهندسين ومصر الجديدة.

ومن الواضح أن منطقة وسط المدينة تحتاج لجهود أقل من التنسيق لتصبح على مستوى أفضل، مثل قوانين الحفاظ على تراث هذه المنطقة وقوانين تنظيف المبانى وقوانين معلوماتية الشوارع وتنسيق نظام لافتات المحلات التجارية الموجودة أسفل العمارات والمكاتب والعيادات الموجودة بالأدوار العليا، بالإضافة إلى تنظيم المرور بالمنطقة والتى تعتبر من أحسن المناطق فى القاهرة بصفة عامة احتراما لقوانين المرور.

توثيق التراث المعمارى

والآن نستعرض معا مكونات المشروع الحالى لتوثيق عمارة قاهرة وسط المدينة أو قاهرة إسماعيل باشا والهدف من المشروع هو توثيق التراث المعمارى لمنطقة وسط المدينة عن طريق استخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS) سعيا لجمع وتنسيق المجهودات المبذولة من قبل عدد من الباحثين والجهات المعنية من أجل حصر الأبنية ذات الطابع المعمارى الخاص وتوقيعها فى صورة رقمية على خريطة حديثة للمنطقة وبناء قاعدة بيانات لاستعراض المعلومات المختلفة الخاصة بكل مبنى على أن يمتد هذا المشروع فى السنوات القادمة ليشمل المناطق الأخرى من القاهرة.

وتلبى قاعدة البيانات احتياجات مختلف المستخدمين لما تحتويه من معلومات وفيرة فتشتمل على معلومات جغرافية كعنوان العقار واسمه والشياخة والقسم التابع لهما، ومعلومات تاريخية كسنة الإنشاء، وأخرى معمارية كالطراز المعمارى للعقار واسم المهندس المعمارى وتحتوى قاعدة البيانات استخدامات العقار الحالية ونوعية الأنشطة بالدور الأرضى، وأيضا تشمل بيانات العقار صورة حديثة له تبين الواجهة الرئيسية وتبين حالته الإنشائية.

وينفرد هذا المشروع بتجميع وتنسيق وطريقة عرض جديدة لبيانات تاريخية مثل تسلسل ملكية العقار، ولتحليل للواجهات من حيث العناصر المعمارية المستخدمة (شكل رقم ١٠) مع إعطاء نبذة عن مختلف الطرز المعمارية مما يمكن أن يفيد مختلف الفئات المستهدفة من باحثين فى مجالات التاريخ والعمارة والفنون، كما تعد تلك القاعدة دليلا إرشاديا إلكترونيا لأنها تحتوى على أسماء وعناوين واستخدامات



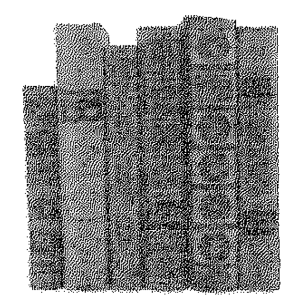
احتفظ وسط مدينة القاهرة بتنسيقة المعمارى

المبانى والأنشطة التجارية المختلفة.

وفى إطار توثيق منطقة وسط المدينة تمت عملية إعادة بناء للواجهات الممتدة على طول المحاور الرئيسية باستخدام برنامج خاص بالرسم وبالوسائط المتعددة (multimedia) لإعطاء الباحث تجربة واقعية، كما لو أنه قام بعمل نزهة حيث تتيح تلك العملية للمستخدم تصور الارتفاعات المختلفة للمبانى وتصور نسب الفتحات فى الواجهات من أبواب وشبابيك والتعرف على المواد المستخدمة وأيضا نسب عروض الشوارع لارتفاعات المبانى وفيما يتعلق بالشوارع المحصورة بالمنطقة فتحتوى قاعدة البيانات على الأسماء الحالية والسابقة مع أسباب تسميتها وكذلك الحقبة التاريخية التى خططت فيها.

ويمكن للجهات المعنية أن تستخدم النظام كمرجع فى أغراض الترميم والتطوير وإعادة استخدام المبنى حيث أنها تتيح للباحث استعراض الصور القديمة والحديثة للمبنى وكذا الرسومات المعمارية من مساقط أفقية وواجهات وقطاعات وأما فيما يتعلق بالمشاريع الخاصة بالارتقاء بالبيئة العمرانية والطبيعية فيمكن الاستعانة بما تحتويه قاعدة البيانات من معلومات قيمة.

وأخيرا يمثل هذا المشروع أداة تساعد على تنمية الوعى العام لأهمية هذا التراث المعمارى كخطة إيجابية للمساهمة فى خطة توثيق التراث بغرض الحفاظ عليه وذلك ضمن رسالة المركز القومى لتوثيق التراث الحضارى والطبيعى.■



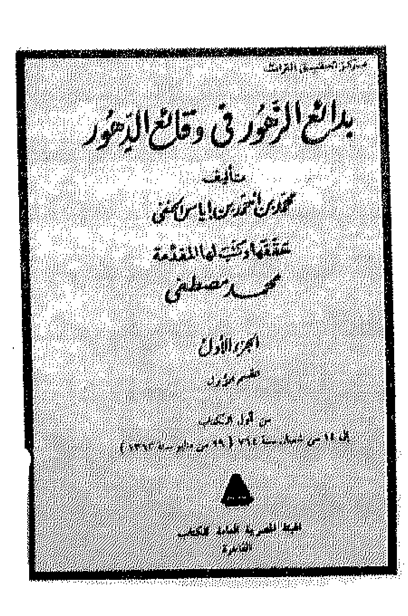
من ذخائر المكتبة العربية

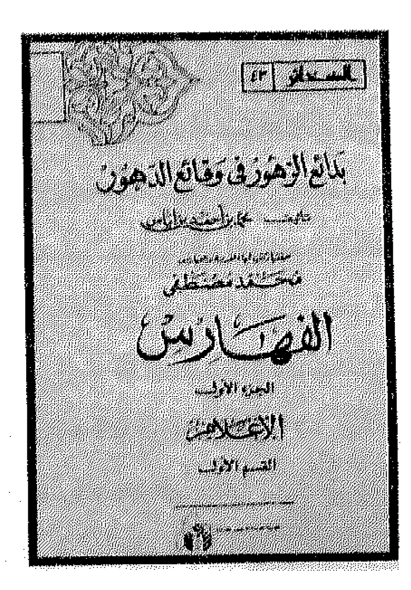
بدائع الزهور في وقائع الدهور

لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي

دفتر أحوال الدولة المصرية في عهد المماليك

بقلم
د. نبيل حنفي محمود



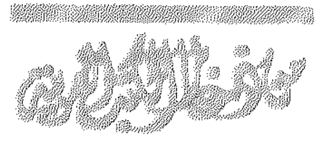




بهرنى ما وقع بيدى فى سنوات الدراسة الثانوية والجامعية من مطبوع كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى ما حفل به من أحداث تاريخية وما تميز به من منهج بحثى انفرد به بين سائر الموسوعات التاريخية، إضافة إلى ما اختص به أسلوب مؤلفه محمد بن أحمد بن إياس الحنفى من سمات ضاعفت على الدوام من أعداد قرائه ومن إعجابهم به، إننى مازلت أشعر حتى الآن بلوعة الأسى الذى ملأ قلبى قبل سنوات عديدة.. عندما قرأت وصف ابن إياس المبهر المبكى - فى القسم الثانى من الجزء الأول من الكتاب - لسقوط دمشق أمام جيش الغازى المغولى تيمور لنك فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٨٠٣ هـ، والذى تلاه وصف ابن إياس لسقوط بغداد بيد نفس الفاتح فى شهر ذى الحجة من نفس السنة، لم يتبدد من النفس أساها بمتابعة ما أورده ابن إياس على طول كتابه من أحداث، حتى ضاعف ابن إياس أسى النفس بمزيد من الهم.

عندما قدم بقلمه وصفا - تعجز عنه آلات التصوير فى أيامنا هذه - لهزيمة جيش مصر بقيادة السلطان قانصوه الغورى أمام جحافل العثمانيين بقيادة سليم شاه بن عثمان بمرج دابق فى صباح الأحد الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ، يقدم ابن إياس صورة بانورامية لما حدث فى مرج دابق تحفل بالألوان والأصوات والحركة بما يلقى فى روع القارئ أنه يشاهد فيلما ولايقرأ نصا، إذ يهتم ابن إياس بوصف هيئة الجيش فى ذلك الصباح الحزين ويتحدث عن ترتيب وقوف القادة، من كان على يمين السلطان ومن جاء موقفه إلى يساره، يدقق ابن إياس فى إثبات ما ارتداه الغورى وقادته فى ذلك الصباح من ثياب.. أنواعها وألوانها، يتحدث عن الصناجق (الأعلام) المشرعة فوق رؤوس القادة والجنود، ولا يفوته ذكر الأربعين مصحفا المرفوعة فوق رؤوس الأشراف المحيطين بالغورى، ويشير إلى أن بين هذه المصاحف مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضى الله عنه، هكذا يمضى ابن إياس يتنقل بقلمه فى سهل مرج دابق لا تفوته أدق التفاصيل لما حدث يومها، حتى يصل إلى مشهد ختام المعركة ليلخص فيه ماحل بجيش مصر فيقول فى الصفحة رقم ٧١ من الجزء الخامس : «فداسوا العثمانية المصاحف التى كانت حول السلطان بأرجل الخيول، وفقد المصحف العثمانى وأعلام الفقراء





وصناجق الأمراء، ووقع النهب فى عسكر مصر، وزال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر . فكأنه لم يكن».

أين مشهد الهزيمة البائس فى مرج دابق من مشهد الخروج المختال لجيش الغورى فى ذلك الصباح ليوم الاثنين عاشر ربيع الآخر من سنة ٩٢٢ هـ ؟.

المؤلف

ولد محمد بن أحمد بن إياس الحنفى بالقاهرة فى شهر ربيع الآخر من سنة ٨٥٢ هـ - (١٤٤٨م)، كان والده هو أحمد ابن الأمير إياس الفخرى.. أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق والذى ترقى حتى شغل منصب الدوادار الثانى، بينما كانت والدته هى حفيدة الأمير أزدمر العمرى المعروف بأبى ذقن .. والذى تقلد وظائف الخازندار وأمير سلاح ومقدم ألف فى السلطنة الثانية للناصر حسن وفى سلطنة الأشرف شعبان، لذلك ينسب محمد بن أحمد بن إياس إلى فئة «أولاد الناس» التى ضمت الأمراء الذين خرجوا من مناصبهم وأبناءهم من بعدهم، وهى الفئة التى كانت تعيش على إقطاع يمنحه السلطان لأفرادها نظير قبولهم الدخول فى عداد الجيش عند الحروب والأزمات، ولقد حقق انتماء ابن إياس الطبقى له ثلاث ميزات ساهمت فى إعطاء كتابه الكثير من سماته، إذ كفل له الإقطاع الذى ورثه عن أبيه وجده استقلالا ماديا حقق له التفرغ للكتابة وساهم فى إمداده بالعديد من المراجع التى تفيض بها صفحات كتابه، أما الميزة الثانية.. فإنها تمثلت فى قربه من دوائر بلاط القلعة وسبره لدهاليز نظام الدولة الإدارى، وهو ما منح كتابه ثراء لا حد له فيما حواه من معلومات عن نظام الحكم والسياسة الإدارية لدولة المماليك يندر أن يجد القارئ لها مثيلا فى الموسوعات التاريخية الأخرى التى اعتنت بنفس الحقبة الزمنية، ومما هو جدير بالذكر أن إقطاع ابن إياس هذا كاد أن يسلب منه فى إحدى موجات المصادرات التى لجأ إليها السلطان قانصوه الغورى كثيرا كوسيلة لجمع المال، حدث ذلك فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٩١٤ هـ، ولكن سعى ابن إياس لاستعادة هذا الإقطاع.. كلل بالنجاح فيما بعد، أما الميزة الثالثة والأخيرة لانتماء ابن إياس إلى فئة «أولاد الناس».. فإنها تتمثل فى اندماج هذه الفئة بعامة الشعب المصرى، مما انعكس على الروح الشعبية واللجوء إلى العامية اللتين وسمتا حكاياته وأسلوبه .

يعد كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» أهم ما ألف ابن إياس من كتب، وهو الذى حقق لاسمه الخلود، لكنه لم يكن مؤلفه الوحيد خلال عمره الذى بلغ حوالى خمسة وسبعين عاما (توفى سنة ٩٣٠ هـ)، إذ أمكن إحصاء أربعة من الكتب من تأليفه وهى : «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار» وتحمل نسخة دار الكتب المصرية منه اسم «خريدة العجائب وبغية الطالب» - «عقود الجمان فى وقائع الأزمان» - «مرج الزهور فى وقائع

الدهور» و«نزهة الأمم فى العجائب والحكم» ، وقد قام ابن إياس بالتنويه عن الكتاب الأخير فى الصفحة رقم ١١٨ من الجزء الثالث من كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»، وإن كانت الكتب الثلاثة الأخيرة مفقودة الآن لم يصل إلينا منها شيء.

المنهج

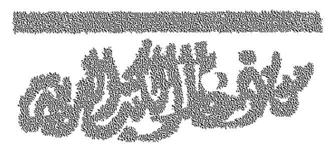
يستطيع قارئ الكتاب أن يستشف المنهج الذى اعتمده ابن إياس فى إعداده، وإن كان ابن إياس قد أشار إلى هذا المنهج فى مقدمته التى صدّر بها الجزء الرابع من الكتاب، فقد أراد ابن إياس كما أوضح فى تلك المقدمة أن يضع تاريخا لمصر لا هو «بالطويل الممل، ولا بالقصير المخلّ» وذلك بنص قوله ، يحوى هذا التاريخ أخبار مصر ومن ملكها من مبتدأ الزمان، وحتى يتحقق ذلك يقول ابن إياس فى تلك المقدمة التى جاءت فى بداية الجزء الأول من طبعة الكتاب الأخيرة : «وقد طالعت على هذا التاريخ كتبا شتى، نحو سبعة وثلاثين تاريخا، حتى استقام لى ما أريد».

لذلك يمكن تقسيم الكتاب إلى قسمين رئيسيين: ضم أولهما تاريخ مصر منذ بدء الخليقة - كما تصور ابن إياس - وحتى سنة ٨٧٢ هـ عندما أتم المؤلف العشرين من عمره، وقد استغرق هذا القسم كلا من الجزءين الأول والثانى من الكتاب، بينما اشتمل القسم الثانى - الذى شغل الأجزاء من الثالث إلى الخامس - على تاريخ مصر فيما بين سنة ٨٧٣ هـ وسنة توقف ابن إياس عن تدوين تاريخه وهى سنة ٩٢٨ هـ .

جاءت رواية ابن إياس فى القسم الأول من الكتاب اعتمادا وتلخيصا لكتابات سابقيه من مؤرخين، ونظرا لما اتصف به ابن إياس من أمانة علمية ودقة بحثية، فإنه يذكر دائما أسماء من نقل عنهم من مؤرخين سابقين ويشير إلى ما استعان به من كتب، فمن المؤرخين السابقين يذكر ابن إياس أسماء مثل : بدر الدين محمود العينى - عبدالله بن عبدالحكم - أبو عمر محمد بن يوسف الكندى – الحافظ ابن عساكر - احمد بن يوسف التيفاشى – ابراهيم بن وصيف شاه – شمس الدين بن خلكان – شهاب الدين بن أبى حجلة – جلال الدين عبدالرحمن السيوطى – إبراهيم بن دقمان وشهاب الدين بن حجر العسقلانى، ومن الكتب التى ذكر ابن إياس أنه نقل عنها بعض ما ورد من أحداث بالقسم الأول من الكتاب نذكر : شرح مقدمة «تذكر أولى الألباب فى أصول الأنساب» لابن أبى الغنائم الحسينى - «الأقاليم» لابن حوقل - «العبر» و«دول الإسلام» لشمس الدين الذهبى - «المستجاد من فعلات الأجواد» لعبد المحسن التنوخى - «تاريخ مصر» لعز الملك بن المسبحى - «الخطط» لتقىّ الدين المقريزى - «السكردان» لشهاب الدين بن أبى حجلة - «المسالك» لابن فضل الله العمرى و«زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» للأمير بيبرس ركن الدين المنصورى.

أما فى القسم الثانى من الكتاب .. فإن رواية ابن إياس للأحداث جاءت من مشاهداته المباشرة لها أو نقلا عن شهود





عيان أو رواة للأحداث، لذلك اختفت من هذا القسم تقريبا أسماء المراجع التى كانت عماد روايته للقسم الأول، كانت رواية ابن اياس فى القسم الثانى من الكتاب تتناول أحوال الدولة المصرية بشكل منتظم كاد أن يكون يوميا، وهو ما أكسب هذه الرواية قيمتها وتفرّدها بين ما وصل إلينا من روايات تاريخية عن تلك الحقبة التى جاوزت نصف القرن وشهدت العديد من الأحداث التى غيرت تاريخ مصر والمنطقة، ولما كان ابن إياس منتميا إلى فئة «أولاد الناس» التى شكلت طبقة وسطى أو فاصلة بين طبقة الأمراء ورجال الدولة وطبقة عامة الشعب، فإن روايته للتاريخ فى هذا القسم جاءت تعبيرا عن أحوال طبقته الاجتماعية، فبينما حفلت تلك الرواية بالعديد من أخبار دواوين الدولة ومراسيمها وتنظيماتها الإدارية، فإنها ازدانت أيضا بكل ماهو شعبى من أخبار ونوادر وحكايات، حتى أنه قدم تراجم للعديد من المهمّشين من أبناء الشعب المصرى، لذلك يمكن القول بأن رواية ابن إياس لتاريخ مصر فى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من كتابه .. كانت ـ وبحق ـ ديوانا لأحوال الدولة المصرية فى نصف القرن الأخير من عمر دولة المماليك بمصر.

اهتم ابن إيأس فى القسم الثانى من الكتاب بتسجيل كل شىء عن حياة المصريين، لم يترك ابن إياس صغيرة قبل كبيرة إلا واهتم بتسجيلها فى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الكتاب، فكما اهتم بوصف المواكب الرسمية لخروج السلاطين للحرب أو للحج أو للنزهة، فإنه وجه نفس القدر من الاهتمام لوصف الأعياد والاحتفالات الدينية والشعبية، وكما اهتم بذكر أسلحة زمانه وأوصافها .. فإنه لم يهمل تسجيل أسماء الأكلات والأزياء وأشكالها، جاء كل هذا جنبا إلى جنب مع أخبار السياسات الاقتصادية ممثلة فى أسعار الحاصلات والعملات وأخبار الأزمات والمجاعات وأحوال الفيضان وتأثيرها على الزراعة، ولّما كان ابن إياس يذكر كل ذلك فى إطار من التدقيق العلمى يتمثل فى تمحيص الأخبار وتحقيقها، فإن ذلك انعكس على أسلوبه فجاء خاليا من الصنعة اللغوية وفى شكل أقرب إلى الكتابات العلمية التى نعرفها الآن، وإن تميز هذا الأسلوب باحتوائه على الكثير من الألفاظ العامية والأمثال الشعبية، وهو ما أكسبه صدقا وقبولا عند قرائه على مر العصور .

اعتمد ابن إياس منهجا فى صياغة تاريخه.. اتفق فى إطاره العام مع ما ابتكره مؤرخو عصره من مناهج ، ولكن منهج ابن إياس اختلف عن تلك المناهج فى أسلوب عرض المادة التاريخية، جاء اتفاق ابن إياس مع الآخرين من اتباعه مبدأ التقسيم السنوى الذى يعنى استعراض أحداث التاريخ سنة بسنة، أما فيما يختص بأسلوب عرض المادة



التاريخية.. فإن اختلاف ابن إياس فيها يتضح عند مقارنة ما ابتدعه فيه بما جاء به البعض من معاصريه مثل بدر الدين محمود العينى (٧٦٢ - ٨٥٥ هـ) وجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى (٨١٣ – ٨٧٤ هـ)، إذ يبدأ ابن العينى تسجيله لأحداث السنة فى كتابه «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» بتسمية ملك مصر ونوابه والقضاة الأربعة، ثم يتبع ذلك بذكر أسماء ملوك الدول المعروفة آنذاك، ولينتقل بعد ذلك إلى تفصيل ماوقع فى السنة من أحداث، وعندما ينتهى ابن العينى من تسجيل آخرأحداث السنة.. فإنه يقدم فصلا يحمل دائما عنوانا واحدا : «ذكر من توفىّ فيها من الأعيان» ، بينما يبدأ ابن تغردى بردى تسجيل أحداث السنة بتاريخه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» بذكر من توفىّ فيها من الملوك والأمراء والأعلام، وقد لا يذكر ابن تغرى بردى من أحداث السنة شيئا سوى الوفيات، ثم يتبع ذلك بأخبار السنة يذكرها مرتبة بتاريخ وقوعها، لكن أسلوب ابن إياس فى كتابه تمثل فى افتتاحه أخبار السنة التى يؤرخ لها بإثبات تشكيل الحكومة القائمة عند مطلع تلك السنة ، ثم يعرض ما وقع بالسنة من أحداث ، ويختتم عرضه لأحداث السنة بالترجمة لمن توفى فيها من ملوك وأمراء وأعيان وبعض العامة من أدباء وشيوخ وأهل الحرف مثل الأطباء والمهندسين والمطربين والمطربات.

إن تقديم بعض النماذج من الكتاب والتى تعبر عن النقاط الرئيسية التى شكلت محاور رواية ابن إياس ، يعد كافيا لتأكيد الاستنتاجات السابقة ولإشباع فضول من لم يقرأ الكتاب .

اهتم ابن إياس - وعلى الأخص فى الأجزاء الثلاثة الأخيرة من الكتاب - بإثبات تشكيل الحكومة الموجودة عند مطلع السنة التى يؤرخ لها.

مواكب واحتفالات

يبلغ ابن إياس الأوج فى التعبير عندما يصف المواكب والاحتفالات، والتى كانت من أهم وسائل الترفيه التى تترقبها الجماهير المصرية وبالأخص سكان القاهرة، ينثر ابن إياس وصفه لما شهده من مواكب وماعاينه من احتفالات على طول الكتاب، فيتألق نثره فى مواضع تلك المشاهد من الكتاب وكأنه در منثور، إن النموذج التالى يعد كافيا لجلاء هذا الجانب المشرق من بيان ابن إياس .

من بين المواكب الكثيرة التى وصفها ابن إياس فى الكتاب .. يجيء وصفه لموكب خروج كل من محمد ابن السلطان قانصوه الغورى وزوجة السلطان إلى الحج.. على قمة ما وصف ابن إياس من مواكب ، فبعد أن يصف انسحاب أطلاب ابن السلطان وكبار الأمراء الذاهبين للحج فى يوم الاثنين السابع عشر من شهر شوال سنة ٩٢٠ هـ ، ويقدم صورة كاملة لوحدات الأطلاب الخارجة، يقدم ابن إياس وصفا يحير العقل لمحفة زوجة السلطان ، حتى ليخيل إلى القارئ أنه يشاهد شريطا سينمائيا، إن دقة وصف ابن إياس تركت لنا الآن صورا تموج بالألوان والتفاصيل وكأنها بريشة فنان لا

بقلم كاتب .

غرائب وعجائب

أما عن الغرائب والعجائب التى أوردها ابن إياس على طول كتابه ، فإنها تكفى لتسويد كتاب مما نقرأ فى هذه الأيام، إذ يذكر عجائب الطبيعة من ظواهر طبيعية وفلكية ، ويهتم بتسجيل غرائب الخلق التى عاصرها أو سمع عنها، ولا يفوته إثبات غرائب الأحداث التى تقع حوله أو تصل إلى مسامعه .

فمن عجائب الطبيعة التى يهتم ابن إياس بإثباتها .. ظواهر كسوف الشمس وخسوف القمر واقترانهما ووقوع الزلازل، ومن ذلك أيضا .. سقوط المطر فى غير أوانه كما حدث فى شهر المحرم من سنة ٩١٩ هـ .

ملابس ومأكولات

يحمل الكتاب فيضا من أسماء ملابس العصر المملوكى ومأكولاته التى اهتم ابن إياس بتسجيلها ووصفها ، فمن ملابس العصر التى تحدث عنها ابن إياس ووصفها : السلارى (نسبة إلى الأمير سلار المنصورى نائب السلطنة ومدبر المملكة فى السلطنة الثالثة للناصر محمد) ومن أنواعه سلارى صوف بصمّور عالى وسلارى بعلبكى أبيض – فوقانى بطرز يلبغاوى (نسبة إلى الأمير يلبغا العمرى أتابك العسكر فى دول الناصر حسن والأشرف شعبان) عريض – كامليه صوف بصمّور – كامليّه مخمل أحمر بصمّور – وكامليه جر ذهب شغل القاعة بصمّور عال – تفاصيل حرير سكندرى – أطلس – أبراد منزلاوى – ثوب برصاوى مزهّر بقصب – مثمّر – جنينيّات جوخ وبشاخين زركش، ومن أغطية الرأس يذكر ابن إياس العديد من أنواعها مثل : تخفيفة صغيرة مملّسة – كلوتّه – تخفيفة كبيرة بقرون طوال – طرحاة – الكلفتة وتخفيفة صغيرة مدورة بغير قرون ، ولا يفوت ابن إياس الحديث عن أكلات عصره ، فيذكر أنواعا منها مثل : طواجن بورى – مأمونية – البقسماط – السنبوسك – مخللات – الكعك – حلاوة شامية – حلوى المشّبك والمنفوش ، هكذا لم يترك ابن إياس مظهرا من مظاهر الحياة فى الدولة المصرية على عهد المماليك لم يصفه أو يقدم عنه ما بلغه من معلومات .

العامية والأمثال

يظل ما شاب لغة ابن إياس من ألفاظ وتعبيرات عامية ... أهم سمات الكتاب المميزة ، إذ يمكن للقارىء أن يرصد ميل المؤلف الواضح لاستخدام بعض التعبيرات والأمثال العامية السائدة فى عصره والتى مازال البعض منها يستخدم فى مصر حتى الآن ، ولعل السبب فى ذلك هو قربه من عامة الشعب المصرى واندماجه بينهم ، إن المجال يضيق هنا عن عرض نماذج وافية لما استخدمه ابن إياس من ألفاظ وتعبيرات عامية ، لكن الاستشهاد بالبعض منها يعد كافيا لتمثيل تلك السمة ، فمن ذلك قوله : «فكانت هذه الواقعة من أشنع مايقع من الأولاد فى حق الأبهات» (جزء ١ – قسم ٢ – ص ٩٠) وعنفه عن هذه الأمور

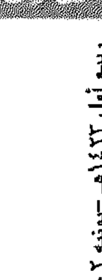
الشنيعة ، الذى بتقع منه» (جزء ١ - قسم ١ - ص ٥١٦) - «ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ويبلصهم غيرما مرة» (جزء ٥ - ص ٣٢١) - «زعموا أنهم دواسيس» (جزء ٥ - ص ٤٥٧) - «وأخذوه وهو ماشى مشحطط بينهم» (جزء ١ - قسم ١ - ص٥٠) ، إن الكثير من الألفاظ والتعبيرات العامية التى استخدمها ابن إياس فى الكتاب ... مازالت تجرى على لسان العامة فى كثير من أنحاء مصر حتى الآن ، ومن ذلك لفظ «يبلصهم» الذى يراد به الرشوة ... فإنه مازال يجرى حتى الآن على لسان العامة فى صعيد مصر ، وكذلك لفظ «مشحطط» الذى تستعمله العامة فى كل ربوع مصر لوصف المرء تتدافعه الأيدى فيما بينها وهو لايقدر على الزود عن نفسه .

إن لجوء ابن إياس لاستخدام الألفاظ العامية فى التعبير عن بعض المواقف ، يراه البعض كالمؤرخ الراحل محمد عبدالله عنان : «يرجع بلا ريب إلى ضعف أصيل فى بيانه ، أكثر مما يرجع إلى انحطاط البيان فى عصره» (مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى - ص ١٥٦) ، بينما يرى البعض فيه - وأنا منهم - رأى الروائى الكبير جمال الغيطانى الذى جاء فى مقدمة «فهارس بدائع الزهور فى وقائع الدهور» (ص٩) : «تضفى حيوية وحرارة على صياغته للحدث أو الخبر» ، وقد قاده هذا المنهج فى الكتابة إلى الاستعانة بالعديد من الأمثال العامية السائدة فى عصره والتى مازال البعض منها يجرى على ألسن العامة من الشعب المصرى حتى يومنا هذا ، ومن الأمثال التى حفل بها الكتاب مايلى : «وإذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها» (جزء ٥ - ص٤٨) - «مصائب قوم عند قوم فوائد» (جزء ٥ - ص٣٨٣) - «ويا فرحة ما تمت» (جزء ٥ - ص٣٨٣) - «فصلوا وعلى رءوسهم طيره» (جزء ٥ - ص٤٤١) و«العبد بسعده لا بأبيه ولا بجده» (جزء ٥ - ص٢٠) .

المهمشون

احتل المهمشون مكانا بارزاً فى رواية ابن إياس لتاريخ مصر خلال الحقبة التى عايشها ، فقد كانوا محور العديد من الأحداث التى سجلها ، بل إنه ترجم للبعض منهم عند وفاته مثل عبدالقادر الحمّامى الذى قال عنه فى أخبار شهر ربيع الأول من سنة ٨٩٠هـ (جزء ٣ - ص٢١٦) : «وفيه توفى عبدالقادر الحمامى الجابى ، وكان ريّساً حشما سيوساً ، وكان لا بأس به» ، تترى أخبار وتراجم العديد من الحرفيين فى الكتاب جنباً إلى جنب مع أخبار الهبات الشعبية التى يشير إليها ابن إياس مرة بقوله : «وفيه ثار جماعة من العوام» ، ومرة أخرى بقوله : «وفيه جاءت الأخبار بأن عربان الشرقية هاجوا ونهبوا الضياع» ، ثم يعود ابن إياس ليصف عامة الشعب بلفظ الحرافيش ، فيحدثنا فى أخبار شهر ربيع الآخر من سنة ٩٢٢هـ بالجزء الخامس عمن خرج مع السلطان قانصوه الغورى لملاقاة العثمانيين فى مرج دابق فيقول : «وسافر صحبته شيخ المشايخ المسمى بسلطان الحرافيش وجنده وصنجقه وطبله» (ص٤٣) .

على أن أشهر من جاء ذكره من

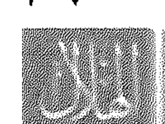




مـهـمـشين فـى الكتـاب ... هو ابن أبى الردّاد، كـانت مـهنة ابن أبى الرداد هى قراءة مسـتوى مـاء النيل فى وفـائه - الذى يحل غالبا فى شـهر مسرى - عند المقياس الجديد بالجزيرة ، وهو المقياس الذى بناه الأمير يزيد بن عبدالله التركى (وال عـباسى - على مـصـر فـيمـا بين سنتى ٢٣٦ و٢٥٣هـ) ، وقد أسند الأمير يزيد تلك المهـمـة - أى قـيـاس مسـتـوى الـنـيـل - إلـى ابـن أبـى الـرّداد وأولاده وأحفاده من بعده .

ظاهرة غريبة

إن المطالع للجـزء الأول من فـهـارس الكتـاب التـى وضـعـهـا الدكـتور مـحـمـد مـصطفى وهو مـحـقق الكتـاب أيضـا ، سوف يكتشف وجود ظاهرة غريبة مست العـديد من رجـال دول المـماليك ، تمثلت تلك الظاهرة فى أن المادة المنشـورة عن كثير من المسئولين فى الدول المملوكية تحوى دائماً مفاتح مثل : ضُرب - عُذب - سُجن - صُودر ومات تحت العقوبة ، فـفى حـالة أبوعبـدالله الأقـمـر ... تشير مـادة الفهرست الخاصة به فى الصفحة رقم ١٩١ بالقسم الأول من الجزء الأول للفـهـارس إلـى المواد التـاليـة : الوزير - قبض عليه وصـودر - قتل ، أمـا برهان الدين إبراهيم بن ثابت النابلسى ... فإن مـا جاء عنه من مـواد فى الصـفـحـة رقم ٢٣ بالقـسـم الأول من الجـزء الأول من الفـهـارس حـوى الآتى : كـان وكـيل بيت المال - كان أحد نواب الشافعية - قبض عليـه ومـات تحت العـقـوبة، وهـكذا ... تتوزع إشارات ضرب كبار رجال الدولة على طول الكتاب وفهارسه ، لكن يحيى بن عـبـدالرازق الأرمنى الملقب بزين الدين الاسـتـادار والمعروف بالأشـقـر ابن كـاتب حلوان ... يجىء على رأس طابور طويل من المضـروبين والمصـادرين من رجـال الدول المملوكية ، إذ تشير مادة الفهرست المنشورة عنه فى القسم الثانى من الجزء الأول من الفـهـارس إلى : الاسـتـادار - كملت عـمـارة مدرسـتـه - كـملت عـمـارة جامعه الذى ببولاق - استمر فى الترسيم (أى السـجن) - اخـتـفـى - ظهـر بعد اختفائه - رسم بنفيه إلى القدس - ضُرب - أعيد للاستادارية - قبض عليه وضرب - أفرج عنه ونُفى إلى المدينة المشرفة - ضرب بالدبابيس - قبض عليه ثم أفرج عنه ، وهـكذا حـتى جـاءت نهايتـه على يد الأشرف قايتباى فى شهر ربيع الأول سنة ٨٧٤هـ - عندمـا اسـتـدعـاه قـايتـباى من منزله حيث كـان يقيم بلا عمل، ليُضـرب زين الدين بين يديه ضربا مبرحا بسـبب عداوة قديمة بينهما أو بسبب ما أشيع عن نهب زين الدين لخزائن الظاهر جقمق قبل وفـاته ، كـان ذلك هـو الأسلوب الأمـثـل عند كثير من سلاطين المماليك لمحاسبة كبار رجال الدولة على ما اقترفوه من جرائم أو لاستعادة مـا نهبوه من أموال الدولة التى تحت أيديهم ، وتجدر الإشـارة هنا إلى أن اتهـام زين الدين الاسـتـادار بنهب خـزائن الظاهر جقمق .... إنما يرجع إلى حقيقة أن شـاغل وظيـفـة الاسـتـادار كـان هو المسـئـول عن كل شـئـون السلطان المالية والمعيشية ، ولقد جاءت وظيفة الاستادار من مـعنى الكلمـة نفسـهـا ، إذ تشير مـادة





«استادار» بالصفحة رقم ١٨٢ فى الجزء الرابع من «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» للدكتورة فاطمة محجوب إلى أنها لقب فارسىّ صُكَّ من لفظين فارسيين ويعنى المتولى للأخذ ، وهو الذى يتولى تحصيل دخل السلطان وإنفاقه على شئونه ومسكنه وأسرته وحاشيته .

جهد المحقق

ختاما ... فإنه من الجدير بالذكر أن يشار هنا إلى أصحاب الفضل فى ظهور نسخة الكتاب الأخيرة التى ظهرت منها مؤخرا طبعتان ، أولاهما التى صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة فى سنة ١٩٨٢م ، وثانيتهما هى الطبعة المصورة من طبعة الهيئة العامة للكتاب والتى صدرت متضمنة فهارس الكتاب عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة فى سنة ١٩٩٨م ، ويرجع الفضل فى صدور هاتين الطبعتين الأكثر قربا من الصورة المفترضة للكتاب بعد فضل الله إلى الجهد الرائع لمحقق الكتاب الراحل الدكتور محمد مصطفى وإلى الدعم المادى والعلمى لجمعية المستشرقين الألمانية ، ولبيان مدى مابذل الدكتور محمد مصطفى - رحمه الله - من جهد أمام القارىء ، فإن عرض ما استعان به من مخطوطات الكتاب لإخراجه فى صورته الأخيرة ، يعد كافيا للتدليل على هذا الجهد ، فقد استعان - رحمه الله - أثناء بحثه الجاد الذى بدأه خلال عام ١٩٢٨ فى معهد الدراسات الشرقية بجامعة بون لتحقيق الطبعة الأخيرة من الكتاب بالمخطوطات التالية للكتاب أو بعض أجزائه :

١ - مخطوط ليدن رقم ٣٦٧ .
٢ - مخطوط لندن رقم ٧٣٢٣ .
٣ - مخطوط باريس رقم ١٨٢٢ .
٤ - مخطوط رقم ١٠٥٨ فى كتابخانة دولت علية إيران - طهران .
٥ - مخطوط فيينا المحفوظ بالمكتبة الأهلية تحت رقم ٢٧٤ (٤٥٤) .
٦ - مخطوط مكتبة جامعة برنستون المقيد تحت رقم ٢٢٢٣ عربى ورقم ٤٤١١ فى السجل .
٧ - مخطوطات فاتح أرقام ٤١٩٧ - ٤١٩٩ - ٤٢٠٠ المحفوظة بمكتبة جامع الفاتح باستانبول .

وقد قام الدكتور محمد مصطفى بمقابلة محتويات تلك المخطوطات بما جاء فى طبعة بولاق الصادرة عن المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق سنة ١٨٩٤م ، وذلك لتحقيق الصورة الحالية للكتاب فى طبعته الأخيرة .

تفرغ الدكتور محمد مصطفى سبع سنوات بعد صدور آخر أجزاء الكتاب المحققة فى عام ١٩٧٥ لكتابة فهارس الكتاب التى انتهى من إعدادها للنشر فى عام ١٩٨٤ ، ولقد صدرت أجزاء الفهارس الستة متفرقة فيما بين القاهرة وبيروت حتى اكتملت فى سنة ١٩٩٢م إن الجهد الذى بذله الراحل دكتور محمد مصطفى لتنوء به العصبة أولى القوة ، لكنه - وبفضل من الله - نهض به ليسجل اسمه قرينا لهذا الكتاب الفريد فى سجل الخالدين .

■

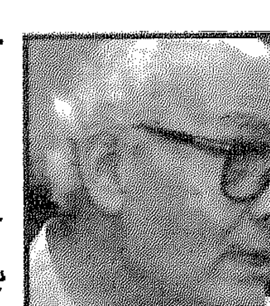
فاروق عبد القادر

وأوراق نهاية القرن

بقلم
د. حسن عطية

لكل ناقد كبير مشروعه النقدى المتكامل ، يؤسس قاعدته مع بداية تبلور وعيه النقدى وتحديده لطبيعة وماهية ووظيفة العمل الإبداعى ، ويظل يطور مصطلحاته ويرتفع ببنائه حتى يستقر على أصوله الكلية ومفاهيمه الثابتة ، وفقا لما يصل إليه من نتائج حواره الفعال بين النظرية والتطبيق ، قد يضيف إليه من مستحدثات الزمان النظرية فيثريه ، وقد يقف به عند حدوده الأولى مكتفيا بما قنع به فيتجمد، وهو إذ يشرع فى صوغ مشروعه النقدى ، لا ينفلت قيد أنملة عن لحظته الزمنية وموقعه التاريخى وسياقه الاجتماعى واختياره الأيديولوچى، فالناقد هو ابن بار لشروط الواقع التاريخية والجغرافية والاجتماعية ، لا يصدر فى حكمه عن هوى، ولا يصادر حق مبدع فى التعبير عن رؤيته الذاتية والطبقية للعالم.

وقد صاغ الناقد الكبير «فاروق عبدالقادر» مشروعه النقدى، الذى يتجلى دوما عبر مقالاته النقدية التطبيقية ، على امتداد مايقرب من خمسة عقود كاملة ، تبدأ مع أول تبلور وعيه بذاته وبالمجتمع المحيط به، وثورة هذا المجتمع تتفجر فى صيف ٥٢، معبرة عن حلم ضخم لشعب يريد أن يغير من وضعه وسط عالمه ومتغيرات مابعد الحرب العالمية الثانية ، ومحدثة فى الواقع مجموعة من الأفعال وردود الأفعال المؤكدة على أن لحركة الجماعة تأثيرها فى صياغة التاريخ ، فى الوقت نفسه كانت المدرسة الفرويدية التى تمترست بقسم علم النفس بكلية الآداب ، جامعة عين شمس ، حيث كان يدرس ناقدنا أواسط الخمسينيات، كانت تدفعه نحو تحليل الذات المتمحورة بشدة حول عقلها الواعى المتصارع مع عقلها الباطن وأحلامه المكبوتة، فتخلقت أمامه أول إشكالية نظرية عن علاقة الفرد بالجماعة ، والتى جسدت نفسها نقديا فى قضية علاقة الفنان بمجتمعه، ودوره بفنه وسط جماهير شعبه.


فاروق عبد القادر

هل مازالت للنقد القدرة على اطلاق النار..

الناقد المشاغب

لم يعرف «فاروق عبدالقادر» العمل الوظيفى بمعناه وممارسته التقليديين، حيث وجد نفسه خلال الستينيات ومعظم سنوات السبعينيات، متنقلا بين سكرتارية تحرير مجلات ثقافية، كمجلة المسرح، تصدرها مؤسسة حكومية هى الهيئة المصرية العامة للنشر، والتى كان ينتسب وظيفياً لها، وبين العمل كاتباً ومحرراً ببعض المؤسسات الصحفية، مصرية وعربية، حتى وصل لتحمل مسئولية القسم الأدبى والفنى بمجلة (الطليعة)، التى كانت تصدر عن مؤسسة الأهرام ، وأغلقها «يوسف السباعى» رئيس مجلس إدارة المؤسسة المعين، بعد إقصاء «محمد حسنين هيكل» رئيس مجلس إدارتها التاريخى، وذلك عقب انتفاضة الجوع، فى ١٧و١٨ يناير ١٩٧٧، التى آزرتها المجلة، واتهمها رئيس الجمهورية السابق بأنها «انتفاضة حرامية»، حيث صدر

آخر عدد من المجلة حاملا رؤيتها كاملة فى فبراير التالى، ثم آخر عدد بعد الإطاحة بهيئة تحريرها كاملة فى مارس ، دخلت بعده ملفات التاريخ، وعين معها كل العاملين بها بالمؤسسة الصحفية الكبيرة، فيما عدا ناقدنا، الذى حرر نفسه خلال ربع القرن الماضى من أى عمل وظيفى روتينى، كما تخلص من أية علاقة تربطه بفكر وطبيعة عمل المؤسسات الحكومية، مما خلص فكره من أية تبعية لمنظمات وهيئات حاكمة، قد يسايرها عملا فى الوقت الذى يقف من إنتاجها موقف الناقد، فصار ناقدا صريحاً وأحياناً «مشاغباً»، كما حلا للبعض وصفه، وتخلصت لغته النقدية من أية محاولة للالتفاف حول الكلمات، درءا لغضب الرؤساء، فصارت لغته النقدية مباشرة كطلقات الرصاص، وتعمقت عنده إشكالية الفرد والمجتمع، ليس من باب الفنان ومجتمعه فقط، وإنما أيضاً من باب علاقة الناقد بهذا المجتمع ودوره فيه.

أنهى «فاروق عبدالقادر» كتابه الأول والمثير للجدل (ازدهار وسقوط المسرح المصرى) ١٩٧٩، بجملة دالة، هى ذاتها التى يثبتها على رأس أول أوراق كتابه الأحدث، والذى منحه عنواناً رئيسياً هو (غروب شمس الحلم)، بما تحمله تلك العبارة من دلالة على رؤيته الحزينة للواقع الذى يعيشه، إلى جانب عنوان فرعى هو (من أوراق نهاية القرن) محدداً به اللحظة الزمنية التى تدور داخلها رؤيته للواقع، وجملتنا التى نقصدها هنا هى «كيفما تكونون يكون إبداعكم»، ودلالة الجملة تتجلى فى إدراكه الممتد على مدى هذه السنوات الطوال لعلاقة الفن ليس فقط بالواقع المادى الذى يتخلق فى أعطافه ويعبر عن حركته ، وإنما وعيا بحركة البشر الإبداعية داخل هذا الواقع المادى، فالإنسان هو مبتغاه، وإبداعه هو نتيجة اختياره وفعله وكينونته ، والإبداع عنده «رسالة تصدر عن سياق بعينه لتعود فتتوجه إليه» ، فهو نتاج واقع دون أن يكون انعكاسا آليا له ، ومؤثر فى هذا الواقع حينما يتوجه إليه دون مباشرة، ومن ثم يتجلى الفن تعبيراً عما يكون عليه البشر، وعما يريد أن يكونه فنان هذا المجتمع، وعما يود الناقد أن يكون عليه حال هذا المجتمع ، مما يخلق حواراً خلاقاً بين الناقد والفنان والمجتمع معاً، وإن فجر صراعاً ، مثمراً أو غير مثمر، بين رؤى الثلاثة، وقدرة كل واحد منها على التأثير على الآخرين.

وإذا كان كتابه الأول قد صدر منذ أكثر من عقدين من الزمان ، حاملا مرارة التباكى على مسرح ينهار ، بفعل متغيرات العقد السبعينى على المستويين المصرى



والعربى ، فإن كتابه الأخير ، يأتى ليقدم لنا رؤيته لنتاج سنوات نهاية القرن الذى مضى، بتاريخه الذى ادعوا أمريكيا نهايته ، وسعوا للقضاء على الفكرة القومية التى تجمع الأمم المختلفة وتفكيك الدول الوطنية، وتجاوز الثقافات المحلية ، من أجل بناء قرية كونية يحكمها القطب المنتصر وحده، ومن ثم عكست أوراق «فاروق عبدالقادر» النقدية رؤيته لهذا الواقع المخلخل، فهى أوراق كتبت فى زمنها وكتبت زمنها ، لكنها لم تستنفد دورها، ومازالت لها - وستظل لها - فاعليتها فى المشهد الثقافى الذى يسعى هذا الكتاب لرصده ورسم معالمه، حتى ولو بدا له هذا المشهد معتما تغيب عنه أية حركة إبداعية نشطة ، دون أن يعنى ذلك لعينيه اليقظتين غياب مبدع متفوق هنا أو عمل إبداعى متميز هناك ، لكنه حضور جزئى متفرد لا ينتظم فى تلك «الحركة الإبداعية النشطة» الغائبة المغيبة، فى كل مكان من العالم العربى، وهو مايضعه فى موقف شديد التعقيد : حيث يدرك خواء الواقع من حركة إبداعية نشطة ، لكنه لا يقود ذاته نحو التشاؤم وهجر دوره النقدى الفاعل فى مجتمعه، والانسحاب داخل الذات وهواجسها الخاصة ، وإنما يدفعه لمعان الماس الخاطف هنا وهناك، للاستمرار فى مسيرته النقدية الشجاعة، رغم إدراكه بأن مسيرة النقد العربى فى السنوات الأخيرة فى غالبيتها لم تعد تؤدى أهدافها المرجوة ، وذلك لأسباب يرجعها لانغماس ناقد اليوم فى مناهج ومصطلحات النقد الغربى، التى غربته عن واقعه وإبداعه العربيين ، إلى جانب انقطاع هذا الناقد صاحب الصوت عن تراثه النقدى العربى، وهو انقطاع لازم هذا الانغماس وجاء نتيجة له، فضلا عن التقوقع داخل بعض المناهج ومفاهيمها المتحجرة، فى الوقت الذى اتسع فيه مدى العلوم الإنسانية الرافدة للعمل النقدى بالكثير من المفاهيم مما يوسع من دائرته ويعمق من مجراه ، ناهينا هنا عما أسماه بـ «تفشى الأهواء والمصالح»، فهو مايخل بالعملية النقدية بأكملها، وهو كما يبدو لايقف كناقد أمام الاستفادة من العلوم الإنسانية ، سواء الفلسفية أو النفسية أوالاجتماعية المتجددة دوما ، ولا يؤمن بفكرة نقاء النوع، التى تحاول أن تجعل للنقد لغته النقدية (الأدبية)، اتساقا مع فكرة أدبية الأدب ، التى قذفت بالنقد العربى فى السنوات الأخيرة لجب الشكلانية، وفصلت رسالته عن بنائه الفنى، وغربت النقد بأكمله عن جماهيره العامة.

الثقافة وحدة

رأى المسرح ينهار ، لكنه لم يرد أن

يقف على أطلاله يبكي ويجـتـر أيامـه الماضيات، رغم مقارناته المستمرة لمنتج اليوم بما تم إنتاجه فى الأزمنة الذهبية ، بل راح منذ زمن يوسع من دائرة اهتمامه النقدى، فضم الرواية والقصة القصيرة والشعر لتلك الدائرة ، موسعاً فى ذات الوقت من مساحة تلك الدائرة لتشمل العالم العربى بأكمله، حتى صار أبرز خبير متخصص فى نقد الرواية العربية، متجاوزاً بذلك أية شيفونية تدفعه للتغنى بمنتج ضعيف ، لاشىء سوى خروجه من وطنه الخاص، ومؤمنا فى ذات الوقت بقدرة العالم العربى على مواجهة قرية الغرب الكونية ، بمدينة عربية فاضلة، يتقدم فيها البشر وتتحرر إرادته ويزدهر فيها إبداعه، ومن ثم فإن تصدى ناقدنا للمنتج الفنى العربى، كما يتبدى واضحاً فى كتابه الأخير، ليس من قبيل البحث عن رضاء أصحابه، وممالأة غير المصريين، كما يدعى البعض، وإنما لإيمانه الكامل بأن الثقافة العربية كل واحد، وأن «الإبداع العربى وحدة واحدة رغم التنوع: تتأسس الرواية فى مصر، ومنها تنتشر لكل العالم العربى، وتحدث ثورة الشعر المعاصر فى العراق، ومنه تنتشر إلى القاهرة ودمشق وبيروت».

بداية يرى «فاروق عبدالقادر» أن الناقد هو عين المتلقى المدربة المثقفة المتفحصة، ودليله فى أرض يقطعانها معا، ومن ثم فمهمة الناقد هى : الكشف عن «رسالة» العمل الذى يتصدى له، والحكم على ماتحمله هذه الرسالة من «فائدة وصحة» ، وإيصال ماكشف عنه بصراحة ووضوح للمتلقى الذى اختاره ليكون رائده فى مهمة استطلاع العمل المبدع، فليس عنده أى وجود لعمل مجانى أو ظاهر بالمصادفة ، وهو لايؤمن بأن العمل الفنى يصنع لذاته أو تنفيسا لصاحبه وخلاصا له من أزمة ذاتية، وبالتالى فلا جدوى عنده من فن لايتصدى لواقعه، فيقوم هو كناقد بالتصدى، معريا قبحه وفساده ، ومتطلعا مع الفنان الواعى لعالم «أكثر عدلا وأمنا وجمالا» ، بشرط أن يتم الإبداع بأدوات الفن، وليس بأدوات أى نشاط إنسانى آخر، ومن ثم تتفاعل عنده الرسالة بالوسيلة، ويتجلى المحتوى عبر البناء الفنى، ويتبدى دور الناقد فى اختياره لموقعه (مع) المتلقى وعلى أرضه، لاتضامنا (مع) المبدع ودفاعاً عنه، وعليه فقد حسم تلك العلاقة ثلاثية الأبعاد (الفنان والناقد والمجتمع)، متخذاً موقف المجتمع الباحث عن الحقيقة لدى الفنان أو الأديب، دون أن يذوب - كناقد - فى لجة هذا المجتمع والأيديولوچية المهيمنة

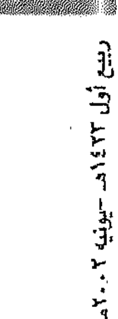


عليه، فهو مازال - كناقد أيضاً - محتفظاً باستقلاليته النسبية عن المجتمع ، واستقلاليته الكاملة عن مؤسساته الرسمية الحاكمة له، ولذلك فالتزامه بقيم الصدق والجسارة ليس مجرد التزام مهني، بقدر ماهو التزام أخلاقى وإنسانى فى المقام الأول ، والتزام بما يراه خيرا لمجتمعه .

قبل أن يدلف لرصد وتقييم حركة الإبداع العربى فى السنوات الخمس الأخيرة من القرن العشرين ، يتوقف ملياً ليقدم بسرعة وتكثيف حال هذا الإبداع خلال هذا القرن الفائت، على أساس أن الحال الراهن ليس مجتث الجذور عما سبقه من مقدمات، فلا شيء منقطع عن ما قبله ، ولا ظاهرة منفصلة عن سياقها ، ولذلك فهو يأخذنا فى رحلة فحص زمانى يمتد لقرن كامل ، وفحص مكاني يمتد بامتداد العالم العربى من المحيط إلى الخليج، وفحص جنسى يشمل فنون الشعر والرواية والقصة والمسرح. فباستثناء الشعر (ديوان العرب الأول) يؤكد لنا بداية أن كل هذه الأجناس الإبداعية هى وليدة القرن العشرين فى عالمنا العربى، قد تكون ثمة إرهاصات بها فى القرن التاسع عشر، إلا أن شروطها الفنية اكتملت فقط مع بدايات القرن العشرين، ومع ذلك فقد تألقت القصة والرواية فى السنوات الأخيرة، بينما هبط المسرح وتجمد الشعر عند مرحلة معينة ، وذلك فى مقارنة يرجعها الناقد لطبيعة فرسان كل جنس من الأجناس الأربعة التى يتصدى لفحصها .

الارتباط بالتراث

بدا فن الشعر أوائل القرن العشرين تقليديا وظل كذلك رغم محاولات تطويره خلال النصف الأول من ذاك القرن، انعكاساً لواقع اجتماعي وفكرى تقليدى البناء ، وثارت ثورة شعراء منتصف القرن على تقليدية الواقع وفساده ، اقترانا بميلاد حركة ثورية على المستوى القومى، والحلم بمجتمعات جديدة ذات أبنية اجتماعية مخالفة لما كانت عليه مجتمعات النصف الأول من القرن العشرين ، وبالتالى جاءت ثورة الشعر الحديث ثورة فى طرح القضايا والهموم المجتمعية، عبر أشكال وتقنيات فنية مخالفة أيضاً لما كان عليه حال الشعر العربى القديم، وعليه انتصرت هذه الثورة الشعرية عند ناقدنا بسبب انطلاقها من رفض الواقع المتردى مضموناً وشكلا، وأيضاً لارتباطها بتراثها الشعرى العربى ، وهو يرى أنه «حين تحرر الشعر من إطار الشكل التقليدى استطاع أن يتسع ليعبر عن خبرات وتجارب لم يتحملها



الإطار القديم»، فثمة علاقة تفاعلية عنده بين الشكل أو البناء الفنى والمضمون أو المحتوى الفكرى المعبر عنه، فحين يتغير البناء تتغير بالتالى المحتويات التى يشتملها هذا البناء ، ليس كمجرد وعاء جديد يحمل بأحضانه الشراب المعتق، وإنما كمعمار بنائى يعبر عن محتواه بصيغته الشكلية المادية الملموسة ، والعكس صحيح فعندما يتغير منظور الرؤية للعالم ، تتغير بنية الأعمال الفنية، لتتواءم مع هذه الرؤية ، فتغيير البناء الفنى لايستهدف ذاته، ولا ينتج عن رغبة فردية ، بل هو نتاج تغير فى بنية المجتمع التى تطرح رؤى مخالفة للحياة، واحتياجات جديدة لأبنية فنية تعبر بها عن هذه الاحتياجات وتلك الرؤى.

والمشهد الشعرى اليوم ، عند ناقدنا ، قد غامت معالمه ، فتسطحت إنجازات الشعر الحديث ، وتحولت مكاسبه الفنية والفكرية لبضاعة مزجاة ، وشعراء اليوم عنده يجترون ويكررون ما سبقهم إليه الرواد الكبار ، ولم يبق أمامه سوى قامتين كبيرتين هما العراقى «سعدى يوسف» والفلسطينى «محمود درويش» ، ومن ثم تغيب عن الكتاب أية مراجعة أو متابعة للإنتاج الشعرى العربى خلال السنوات الخمس الأخيرة ، ربما لأنه لم يجد فى الساحة العربية أمامه ، وهو المتابع الدءوب لها ، أى إنتاج شعرى يستأهل منه التحاور معه والكشف عما يخبئه لمجتمعه من جوهر ، وما يحمله له من رسائل تنويرية .

صعود وانكسار

يؤمن فاروق بأن المسرح فن عرض مركب شامل ، نواته الصلبة النص الدرامى ، رغم كل دعاوى إسقاطه أو تجاوزه ، لذا يتتبع فى تلك البانوراما حركة الكتابة الدرامية ، وكيفية انطلاقها مع توفيق الحكيم أواسط القرن العشرين ، ووصولها لقمة صعودها مع الجيل الذى واكب ثورة يوليو ، وعبر عن الموجة الثقافية الباحثة عن تجديد واقعها ، جيل نعمان عاشور وألفريد فرج ويوسف إدريس ووهبه والشرقاوى والخولى وعبد الصبور ونجيب سرور وغيرهم ، إلا أن هذا المسرح لم يعمر طويلا ، صعد وانكسر خلال عقدى الخمسينيات والستينيات تحت ضغوط عوامل متعددة ، فصلها «فاروق عبد القادر» فى كتابه الأول (ازدهار وسقوط المسرح المصرى) ، وأجملها فى كتابه هذا بجملة واحدة هى «هزيمة ٦٧» ، وثلاثة مواقف ترتبت عليها «تحولات الواقع وتربص الرقابة وخيانة المسرحيين» ، أى متغيرات الواقع السياسى وهزيمة مشروع فكرى وحراك

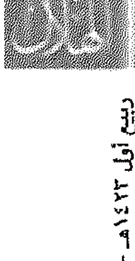
اجتماعي غير من بنية وغائية التوجه الثقافي للطبقة الفاعلة ، وتربص حكومي رقابي بكل عمل مسرحي ، وخيانة صاحب الرأى والإبداع وهروبه من الساحة ، مما أدى إلى رجحان كفة المسرح التجارى من جهة ، وممالأة المسرح الجاد للسلطة من جهة أخرى ، «وفقد المسرح قدرته على نقد الواقع وتطلعه نحو المستقبل واهتمامه بجماهير الناس» ، ولم يبق من المسرح العربى الجاد كله «غير حفنة من النصوص» ، خاصة وأن نهضة المسرح فى العالم العربى اعتمدت على فنانى المسرح أو (المسرحجية) وليس فى الأساس على كتاب نصوصه الدرامية .

فى إطار هذه الرؤية يقدم لنا الكتاب دراسة واحدة متكاملة عن مسرح محمود دياب ، فى باب (المراجعات) ، بينما يقدم فى باب (المتابعات) ثلاث مقالات عن مسرح الفريد فرج بمناسبة عرض مسرحيته (الطيب والشرير) ، وعرض (لعبة الست) لمحمد صبحى ، وعرض (مشعلو الحرائق) بمعهد جوته ، إلى جانب تعريف سريع بالمخرج «حسن الوزير» ضمن مقال يتابع فيه النشاط الأدبى والفنى أوائل عام ٢٠٠٠ ، ثم مقال وحيد عن ناقد مسرحى وأدبى هو د . على الراعى بمناسبة رحيله .

المتصل الفكري

فى دراسته عن محمود دياب ، بعد ما يقرب من عشرين عاما على رحيله (٣٢ - ١٩٨٣) ، يضع «فاروق عبد القادر» تلك الأعمال فى سياقها الاجتماعى ، ويرصدها فى ظل حركة واقع تتداخل فيه المتغيرات (المجتمعية) العامة بالعلاقات (الذاتية) الشخصية ، وتتجلى المفاهيم السائدة وقتذاك بوضوح على صفحة العمل الفنى ، خاصة فى فترة التحول للاشتراكية فى النصف الأول من الستينيات ، وهو يرصد أعمال «محمود دياب» المسرحية والقصصية والروائية بترتب إبداعها الزمنى ، كاشفا عن ذلك المتصل الفكرى الذى يربط كل أعمال الكاتب الراحل بخيط واحد ، كما يحلل علاقة رسالة العمل الفنى بمعماره البنائى ، فمسرحيته (الزوبعة) لم تقل ما قالته من أفكار «بحوارها الذكى وحده ، بل بنسيجها الدرامي كله ، ببنائها البسيط والمحكم فى الوقت ذاته» ، وعلى حين تطرح (ليالى الحصاد) العلاقة بين الفرد والجماعة ، بينما حدثها الدرامى «يتخلق أمامنا على ثلاثة مستويات متداخلة من المسرح» ، فليس ثمة انفصال بين المحتوى الدلالى للعمل وبنيته الدالة .

وهو ما انتبه إليه «فاروق عبد



القادر» ، كما انتبه إلى أن أى عمل إبداعى لا ينفصل أبدا عن مجمل رؤية الفنان الكلية ، فهو مفردة فى عقد متكامل ، دون أن يعنى ذلك انفصاله عن شرطه التاريخى ، وتفرده عن بقية حبات العقد ، فعندما يتصدى لعرض (الطيب والشرير) لألفريد فرج (فرقة المسرح الحديث ١٩٩٨) ، مستعرضا رحلة الكاتب الطويلة ، من أول عمل له(سقوط فرعون) بالفرقة القومية ١٩٥٧ ، مرورا بأعماله الستينية الكبيرة مثل حلاق بغداد وسليمان الحلبى والزير سالم وعلى جناح التبريزى ، والتى يرى أن ما قام منها ومن غيرها على حكايات تراثية ، هو ما سيبقى طويلا فى تاريخ المسرح العربى ، وذلك لقدرتها على : الابتعاد عن الواقع من أجل الاقتراب ، وتصفية الواقع مما هو شائب وعابر لتقديمه على نحو أكثر تركيزا ، واستلهام الطابع الخيالى الساحر ، ومع ذلك فهو يرى المسافة شاسعة بين أعمال ألفريد المنتمية لهذه النوعية من المسرح والمقدمة فى الستينيات ، عن تلك التى تنتمى لنفس النوعية والمقدمة فى التسعينيات ، مثل (الطيب والشرير) ، حيث يوجد بها الكثير من الصنعة والقليل من الفكر ، وهو ما يعكس عنده ذلك الفارق بين زمنين وحالين للمجتمع والمسرح المصريين ، وأيضا الفارق بين موقفين للكاتب نفسه .

الفن الأول

رغم أن محاولات كتابة رواية عربية قد ظهرت فى مصر والمشرق ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، إلا أن «فاروق عبد القادر» يؤكد على أن الشروط الفنية للرواية العربية ، لم تتوافر إلا مع رواية (زينب) للأديب د. «محمد حسين هيكل» ، التى صدرت طبعتها الأولى عام ١٩١٣ ، وإن لم تلفت الأنظار إلا مع ظهور طبعتها الثانية عام ١٩٢٩ ، وبعدها انهالت فى الثلاثينيات أعمال «إبراهيم الكاتب» و«العقاد» و«طه حسين» و«الحكيم» وعميد الرواية العربية «نجيب محفوظ» ، ثم أعمال السورى «شكيب الجابرى» واللبنانى «توفيق يوسف عواد» ، والعراقى «ذو النون أيوب» ، ثم راحت فى العقود التالية تكتسب أراضى وأسماء إبداعية جديدة ، «حتى كادت أن تصبح – مع نهاية القرن – هى الفن العربى الأول ، خاصة مع ارتباطها الوثيق عامة بالتحولات الكبرى فى العالم العربى ، فى زمن الثورة والتماس الحرية والعدل ، نتيجة لذلك يحتل نقد الرواية المساحة الأكبر فى هذا السفر الضخم (٥٠٠ صفحة من القطع الكبير) ، حيث يفسح مجالاً واسعا للرواية الفلسطينية ، فى

دراسة موسعة ترصد البدايات ، متوقفا بشكل تحليلى كامل لأعمال ثلاثة من كبار كتاب الرواية الفلسطينية، رصدا لتطور تلك الرواية اتساقا مع تحولات الواقع الفلسطيني والعربى ، وهم : «غسان كنفانى» و«أميل حبيبى» و«جبرا إبراهيم جبرا» ، كما يتوقف عند اثنين من كتاب الرواية السودانية ، وهما «الطيب صالح» و«مروان حامد الرشيد» ، إلى جانب دراساته المتعمقة فى أعمال الروائى الجزائرى «الطاهر وطار» ، والروائى العراقى «فؤاد التكرلى» ، فضلا عن متابعته لأحدث الأعمال الروائية للسعودى «عبد الرحمن منيف» ، وللمصريين «صنع الله إبراهيم» و«أسامة أنور عكاشة» و«غبريال زكى» ، وللسوريين «خيرى الذهبى» و«حيدر حيدر» ، وكلها أعمال تعبر عند نبض الواقع العربى الفوار بالحركة ، تلمع كالماس البراق ، لكنها لاتشكل عنده تياراً أو مجموعة من التيارات المتصارعة على خريطة الإبداع الروائى العربى ، يراها دوما متخلقة فى أعطاف سياقها المجتمعى ، فلا يدين الرواية الفلسطينية لبعض قصور بنائى يعتريها ، فهى تكتب عنده فى أتون النضال ، ولا يتفرغ أصحابها لتجويد معمارها الفنى ، وإنما هم يبدعونها لتكون حاديهم فى عمليات النضال اليومى ، فى المقابل يرى «فاروق عبد القادر» فى تراجع الكاتب الجزائرى «الطاهر وطار» ، فى أعماله الروائية الأخيرة ، «عن مواقفه الفكرية السابقة تراجعا يكاد يصل من النقيض للنقيض» ، نوعا من اتقاء «صعود الجماعات الإسلامية ووجودها الثقيل فى الواقع الجزائرى المعاصر» ، مما أثر بالتالى على بناء عمله الفنى ، فافتقد «وضوح الرؤية على المستوى الفكرى ، والصلابة والتماسك على المستوى الفنى» .

فى مفتتح مقاله عن د . على الراعى ، يصف كتابته النقدية بأنها كتابة «مشرقة وضاءة ، مقتصدة مدققة ، تنظر نحو رسالة العمل دون أن تغفل عن أدواته وطرائقه فى نقلها» ، ولا أجد وصفا لسفر «فاروق عبد القادر» النقدى ، أختتم به مقالى هذا ، أبلغ من تلك الكلمات التى استخدمها الناقد نفسه فى وصف كتابه علم من أعلام النقد العربى فى مصر ، مضيفا إليه سؤالا يلح على كلما قرأت مقالا لفاروق عبد القادر ، خاصة فى الفترة الأخيرة بالزميلة (المصور) ، هل مازال الناقد بقادر على امتلاك إمكانية إطلاق الرصاص على قبح العالم ، وتعرية ما يعترى منتجاته الفنية الرخيصة مما فيها من فساد وإفساد ؟ ■



قصة قصيرة

عبدالغفار مقاطعة

بقلم : سلوى بكر

رسوم : سميحة حسنين

رائعون . طيبون . غاضبون، هؤلاء الآلاف الذين كانوا هناك يعلنون رفضهم لهزلة بربرية لاسابق لها يتابعون فصولها صباحاً ومساء على شاشات التليفزيون بالصوت والصورة، كانوا يتوشحون بالحطات ويرفعون أعلام الأرض المقدسة ويهتفون ضد سفالة طالت حتى كنيسة عتيقة كانت أرضها مهداً للسيد المسيح منذ مايزيد على ألفى سنة.

كان سؤال : ما العمل؟، يطل من أعين الجميع، البعض حاول الاجابة فتقترح برقيات احتجاج واعتصامات وحتى إضرابات عن الطعام لحد الموت ، إضافة لضرورة دعم مادى لهؤلاء الصامدين المحاصرين على أرضهم، لكن إجابة السؤال الأكثر عقلانية

من وجهة نظرى كانت مسألة المقاطعة . المقاطعة الجذرية الآن .. الآن وليس غداً ، فهذا هو الموقف الأكثر عملية وقابلية للإستمرار بعيداً عن علالات العواطف والانفعالات السريعة التى سرعان ماتفور وقتاً ثم تأخذ فى التلاشى شيئاً فشيئاً حتى تغيب . كانت عبارة «الآن الآن وليس غداً»، هى العبارة الأكثر رسوخاً برأى من كل الكلمات التى قيلت والأفكار التى تناثرت خلال ذلك الاجتماع الهائل الذى حضره آلاف من الناس فى تلك القاعة الفسيحة بمبنى نقابة من النقابات، والحقيقة أننى وخلال عودتى إلى البيت بعد ذلك كان شاغلى هو استعراض البضائع والسلع التى سوف أدفع كل من أعرفهم حولى لعدم شرائها والتعامل



معها، سواء من المأكولات والملبوسات أو من السلع الأخرى كمساحيق الغسيل والمسلسلات والأفلام وكل ماشابه ذلك وكنت أبتكر بمخيلتى أساليب إقناع أتصور أنها فذة وسريعة المفعول فى الإقناع ، ستجعل زوجى وأولادى وأولاد الجيران وأهلهم وزملائى فى العمل ، والبقال والجزار والخضرى والمكوجى يلبون ندائى للمقاطعة فوراً ، فيمتنعون عن شراء بعض أنواع الحلوى أو يكفوا عن غسيل ملابسهم بهذا المسحوق أو ذاك . كانت القائمة المطبوعة والمحددة لأسماء عشرات من السلع والمواد المتوجب على الجميع مقاطعتها والتى وزعت خلال هذا الاحتجاج الحاشد ، هى معينى على مقاطعة عاجلة فورية ، لذلك وبمجرد أن اقتربت من العمارة التى أسكن فيها رأيت عبد الغفار البواب ، والمكلف بحراسة الأرض المجاورة لها أيضاً، جالساً على كرسيه المعتاد أمامها ، يتأمل مثلما أراه دوماً أفق الأسمنت والطوب الممتدة أمامه من عمارات تحت الإنشاء وأبنية لايعلم إلا الله متى ينتهى بناؤها، وبمجرد أن رآنى هب عبد الغفار فى حركة أوتوماتيكية معتادة ليحمل عنى ما أحمله من أشياء ،ولكن بما أنى لم أكن أحمل إلا أفكاراً برأسى عن المقاطعة ،

فـقـد أكـتـفى بتـحـيـتى وإبراز جـــانب من فكه العلوى كـــشـــفت عنه ابتسـامـتـه الغـامـضـة الساخرة والتى لم أفهمها أبداً، رددت تحيـتـه وقلت له بسرعة:

- عـبـدالـغـفـار . خـلاص . عــاوزين كلنا نعمل مقاطعة.

لم عبدالغفار حاجبيه الكثـيـفين وبربش بعـينه قليلا وبدا وكـأنه يحـاول فك شـفـره مـا ، قـبل أن يتساءل بدهشة :

- مقاطعة؟

- آه مـــقـــاطـعـــة للـبـضـاعـة والحـاجـات الإسرائيلى والأمريكانى . قلت .

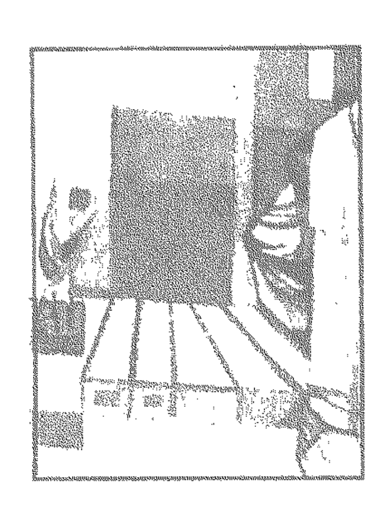
صمت قليلاً ، قبل أن يردد بهدوء.

- آه.

بدت «آه» غـامـضـة على نحو ما بالنسبة لى، فـأنا لا أعـرف هل فـهـم كلامى فعلاً ، أم أن الأمر التـبس عليـه ، أو أنه يجارينى فى الكلام فقط، فعبد الغفار متحفظ عادة ولا يفـصـح عـمـا بداخله وهو يصـر على فـهـمـه للحياة كفلاح قدم للمدينة للعـــمـل هرباً من بؤس الحـيـاة الريفـية ويخـشى التـورط مـع أمـثـالى من سـكـان المـدن ، الـذيـن يبدوا وكأنه لايفهم أبداً ، لذلك حاولت إيضاح الأمر له على نحو أكثر تفصيلاً فقلت :

- يعنى عاوزين نبطل شـــراء الـبـــضـــاعـــة الإسرائيلى والأمريكانى. سقط حائط غربة بيننا إذ قال على الفور:

- قطيـعـة تقطعـهـم ياأستاذة.



- لأن أنت شــــايف بعـــينيك وكل يوم فى التليفزيون أفعالهم ضد الفلسطينيين وجـرائمـهم ضد الأطفال و.... قلت.

قاطعنى وكأنى نكأت له جرحاً قديماً فقال:

- أفــعـــال ســـوداء ومنيلة ياأستاذة. تعرفى لما أتفرج على التليفزيون وقلبى يتـحـصـر ، والعيال الصـــغـار أمــام عـينى مـضــروبة بالرصــاص ومقـتـولة ، يبـقى نفسـى أشـيل طوبة وأخـبط بهـا التليـفـزيون وعـسـاكـر إسـرائيل ، لكنى أمـسك روحى، وأقـــول : يعنى التليفزيون ينكسر ياعبد الغفار، الغرض أقول لك أنى أصـير كـالمجنون من الغـيظ والله ياأسـتـاذة . كان ذلك كافيا لأن أقول بدورى :

- أفـضـل شـىء ومن غير كسر التليفزيون هو أنك تقـاطع حـاجـاتهم ونمتنع عن شـــراء أى

بضاعة لهم لأن الفلوس المدفوعة فيها معناها أسلحة ورصاص يستخدم فى قتل الناس والعيال ، يعنى المشاريب الصاقعة على سبيل المثال؟

نمتنع عنها كلنا ، وبناقص.

- طيب تعرفى ياأستاذة ، أنه لما الحر يشتد ويبقى الإنسان ريقه ناشف ، عمرى ما أبل ريقى بغير العرقسوس أو الكركريه. أصل قزايز الحاجات الصاقعة كلها مرض.

- والشاى ياعبد الغفار. منه أنواع مقاطعة.

- طيب . صلى على النبى . من يوم ماوعيت على الدنيا وأنا لم أشرب غير شاى الحصان. أصله رخيص وعلى قد حالنا يعني.

حرت وأنا أبحث عن شيء يقاطعه عبدالغفار ،



اضطررت لإخراج القائمة المطبوعة التى أحملها من حقيبتى، فتحتها بسرعة ورحت أستعرض ما ورد بها، أصناف من الحلوى واللبان ، أسماء أجنبية لأنواع مختلفة من الشيكولاتة، مأكولات معلبة ، لم أجرؤ على مطالبة عبدالغفار بمقاطعتها لأنه ولابد لم يسمع عنها ولن يسمع عنها طيلة حياته . كنت على وشك مطالبته بالامتناع عن شراء أنواع من الأقمشة والملابس الأمريكية قرأتها وقد دونت فى القائمة، لكنى تراجعت فوراً ، إذ كانت الجلابية البوبلين المصنوعة من القطن المصرى والطاقية الشبيكة على رأسه، والتى لم أره بغيرهما أبداً كفيلتان بإسكاتى، لكن كانت أمامى مساحيق الغسيل فقلت:

- مساحيق الصابون فيها مقاطعة ، وأصناف من صابون التواليت والحوض ممنوعة لأنها إسرائيلي وأمريكاني:

جاء رده كما لو كان يشاكسنى ويصر على دحض أفكارى إذ قال:

- والله يامدام أم محمد جماعتنا طوال عمرها تحمم العيال بصابون نابلسى إنه بركة وبزيت الزيتون ، ثم أن الأمريكانى غالى والمسحوق الرخيص هو المصرى. ولحد الآن ماتوصلناش لغسالة بالكهرباء لأن الحكومة ركبت العمدان، والتيار

دخوله باقى عليه وقت والحكومة يومها بسنة .

تبقى الأكل ، المواد الغذائية الأساسية ، وهذه لن يفلت منها عبدالغفار سأحاصره حتى يقتنع ويقاطع قلت له بحزم:

– وجميع المأكولات لازم نقاطعها كلنا ياعبدالغفار .

– طيب يأستاذة صلى على النبى . أنا الفراخ الأمريكانى المحنطة الموجودة فى المحلات والمحطوطة فى الثلاجات ، مستحيل تهوب ناحية فمى. يعنى لو أنى مأشوف الفرخة تلقط الحب من الأرض بذات نفسها ، وتنقى بروحها أكلتها، عمرى مأحط لحمها فى جوفى أبداً، حتى ولو دفعوا لى ألف جنيه . فى الأكل لازماً أن يكون الإنسان إنف.

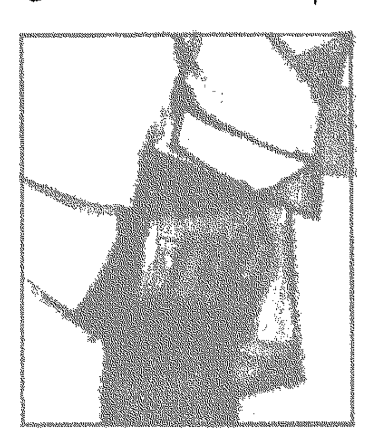
آه، الإنفة فى الأكل مطلوبة .

لم يكن عبدالغفار مضطراً لكل هذه الخطبة المطولة، ولم أجد أنا ماأضيفه وأنا أتأمل مازرعه عبدالغفار.

من بصلٍ وجرجير ففى حوض الزهور الموجود.

وبعدما رحت أتخيل القائمة الغذائية اليومية له والتى من المستحيل أن تتضمن أيا من السلع التى تضمها قائمة المقاطعةالتى أحملها معى.

تأملت عبدالغفار ، كانت ملامحه سمحة، هادئة ، مطمئنة، تطل منها ثقة وسكينة عميقة لم تتغير أبداً. فكرت فى



أن عبدالغفار لم يحضر ليدين ويندد ضمن الحشد الهائل يدعو فى النقابة ولم يطالب باعتصام أو إضراب عن الطعام ولم يدع إلى مقاطعة ليتحدث أمام هذا الحشد على طريقته فى المقاطعة وليشاهد الجميع كل ذلك اليقين المطل من عينيه ولكنى كنت أعرف إجابته مقدماً والتى ستكون «وهل من المعقول أن أترك العمارة والأرض يأستاذة» ، لذلك لم أسأله وآثرت تركه، وبينما كنت أضغط زر المصعد الذى سيقلنى إلى شقتى فى الطابق السابع من العمارة، رحت أفكر فى عنوان لقصة عبد الغفار وهل سيكون :

عبد الغفار يقاطع أمريكا؟

أم

عبد الغفار هو الحل!.

■

مهرجانات

وفيلم عدو على الأبواب

بقلم
مصطفى درويش

كان انشغال البال ، زمنا طال إلى ربع عام، بماضى أندلس أسبانيا الرائع الفاجع ، وحاضره الدافع للحنين، المثير للأنين .
كان سببا فى كثرة الأحداث السينمائية، وتراكم وتزاحم أخبارها، على نحو كان لابد معه أن أعمل جاهدا من أجل استرجاعها على شاشة الذاكرة، وهو أمر كان من الصعوبة بمكان .
فلما نجحت فى استرجاع بعضها ، واتسعت الرؤية، إذا بالعبارة تضيق .
وإذا بى حائر، ماذا استبعد مما استرجعته، وماذا من بينه اختار .



تانيا المحاربة المثقفة ضد الغزاة النازيين



وفيما وقع عليه الاختيار ، من أين أبدأ؟

آخر الكبار

هل أبدأ باختفاء اثنين من سينمائيي القرن العشرين .

أحدهما أحمد مظهر ، الممثل والمخرج والفارس الذى تقمص شخصية صلاح الدين الأيوبى في فيلم الناصر صلاح الدين، ومات عن عمر يناهز الخامسة والثمانين .

والآخر «بيلى ويلدر» آخر السينمائيين الكبار ، الفارين من نير النازية فى أوروبا إلى العالم الجديد ، حيث عاش فى هوليوود ، حتى أسلم الروح عن عمر ناهز الخامسة والتسعين ، فى أثنائه أخرج خمسة وعشرين فيلما ، من بينها روائع خالدات، أذكر من بينها على سبيل التمثيل نهاية أسبوع مفقودة، شارع الغروب، البعض يحبونها ساخنة وشقة العازب .

وفاز بأوسكار أفضل مخرج مرتين ، كما جرى ترشيحه لها ، دون الفوز بها ، ست مرات .

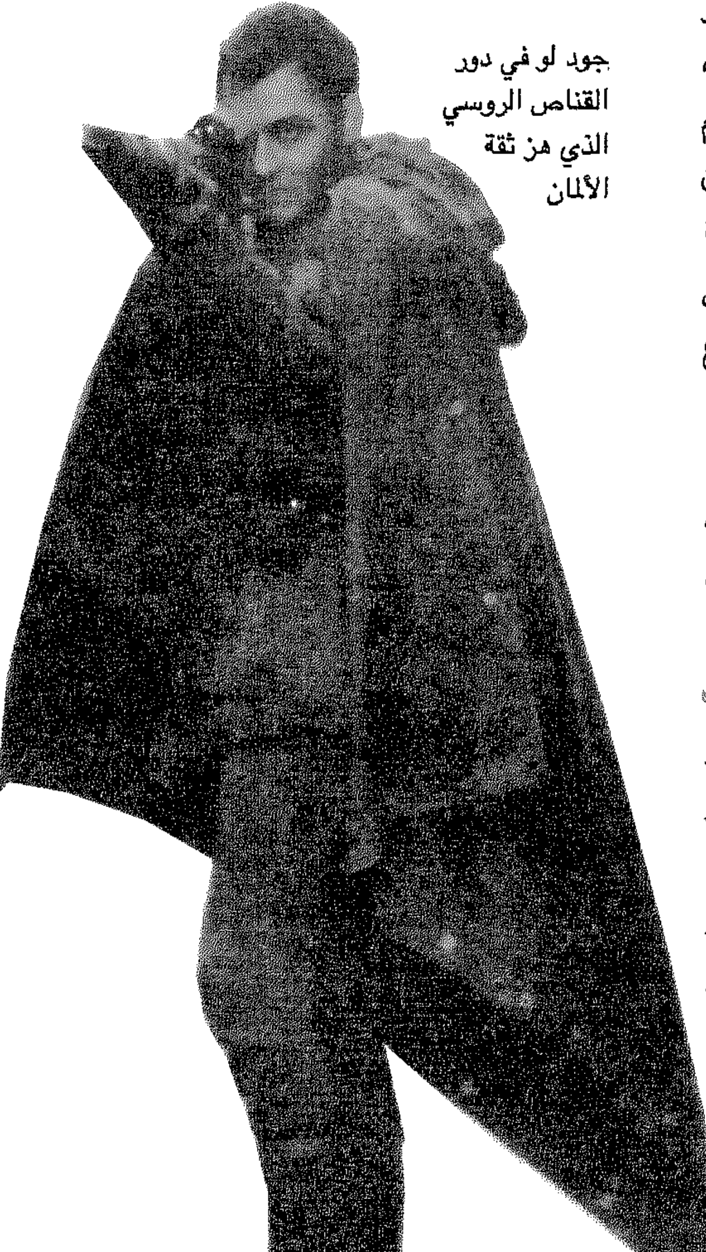
سلاح فاسد

أم تكون البداية بالكلام عن شعار مقاطعة الأفلام الأمريكية ، ذلك الشعار المثار هذه الأيام .

وهنا لا يفوتنى أن أقول: إنه شعار له من العمر أكثر من ثلث قرن من عمر الزمان ، إذ جرى إطلاقه أثر عدوان الخامس من حزيران (١٩٦٧) .

وأغرب ما أعجب له بالنسبة له أنه كلما جنح الحماس بالبعض إلى اطلاقه ، كلما ازدادت هيمنة أفلام مصنع الأحلام .

فما أكثر الأفلام التى من انتاجه ، والمعروضة على شاشات دور السينما بالقاهرة فى هذه الأيام ، ومن بينها أعمال سينمائية ضخمة ، لا غرض من صنعها سوى تمجيد بطولات أبناء العم سام فى الحرب ضد فيتنام (كنا جنودا بطولة ميل جيبسون) ، والإعلاء من شأن تضحياتهم



جود لو في دور القناص الروسي الذي هز ثقة الألمان

من أجل شعب الصومال، وذلك قبل تسعة أعوام (سقوط الصقر الأسود) لصاحبه ريدلى سكوت مخرج المصارع الفائز بأوسكار أفضل فيلم (٢٠٠١) .

الوحدة الوطنية

أم تكون ، أى البداية، بالعرض لحفل أوسكار الأخير ، ذلك الحفل الذى جرى بث شريط وقائعه ، كاملا غير منقوص على الشاشات الصغيرة، بفضل تليفزيوننا، اليقظ دائما وأبدا .

وكان أن شاهدنا ، نحن المصريين ، الوحدة الوطنية وقد تحققت على أرض الولايات المتحدة بين البيض والسود ، ويرمز لها على خشبة مسرح كوداك، بقيام نجمة بيضاء جوليا روبرتس، وهى من هى، بتسليم أوسكار أفضل ممثل رئيسى لدنزل واشنطن، النجم الأسود، عن أدائه لدور شرطى فاسد فى فيلم «يوم التدريب».

وقيام نجم أبيض «راسل كراو» بتسليم أوسكار أفضل ممثلة رئيسية لهالى بيرى النجمة السوداء، عن أدائها ، فى فيلم «كرة الوحش» ، لدور امرأة سجين أسود ، تقع فى حب السجان .

وفضلا عن ذلك قيام «ووبى جولدبرج» النجمة السوداء، الخفيفة الظل، والفائزة بأوسكار أفضل ممثلة مساعدة (١٩٩٠)، عن أدائها لدور مشعوذة فى فيلم «شبح»، قيامها بأداء واجب تقديم نمر البرنامج ، بدءا من رفع الستار ، وحتى ختام الحفل الكبير .

وتكريم «سيدنى بواتييه» أول نجم أسود يجرى تتويجه بأوسكار أفضل ممثل رئيسى، وذلك قبل أربعين عاما ، إلا قليلا (١٩٦٣) .

حلقة جهنمية

أم استهل الكلام بالعرض لواقعة صدور مجلتين جادتين ، غير دوريتين، مدارهما الفن السابع ، إحداهما «السينما الجديدة» تصدرها جمعية نقاد السينما المصريين .

والأخرى «نظرة» ، ومن بين أهدافها تحرير الفن السابع من قبضة السينما السائدة، واحتكارها للعروض ، وفقا لمعاييرها التجارية النمطية .

وهنا ، تجدر الإشارة إلى مطالبة جمعية النقاد فى عددها الثانى ، وزير الثقافة بتبنى مشروع تأسيس دار سينما وسط القاهرة، تساندها شركة متخصصة فى استيراد النوعية المتميزة من الأفلام، وذلك من أجل النهوض بالمشاهد، وحمايته من أذى التشويه السائد .

وتحضرنى هنا مطالبة مماثلة تقدم بها نفر من محبى السينما إلى وزير الثقافة وذلك قبل خمسة وثلاثين عاما، أو يزيد .

أم بتناول ظاهرة اختفاء الفيلم المصرى من احتفالية مهرجان كان الخامس والخمسين ، حيث جرى عرض ثلاثة أفلام فلسطينية وإسرائيلية وإيرانية ضمن المسابقة الرسمية ، التى تؤهل



صلاح عبد الله الفائز بجائزة أفضل ممثل بدلا من أحمد زكي

المشاركة فيها ، للفوز بجوائزه، وعلى رأسها السعفة الذهبية بطبيعة الحال .

كما جرى اختيار عدة أفلام عربية أخرى، من بينها فيلم سورى للعرض فى تظاهرات المهرجان أو ظاهرة قرارات لجنة تحكيم المهرجان القومى الثامن للسينما المصرية التى صدرت مشوبة بخلل شديد، وليد اغفال إعمال العقل والتفكير الرزين .

اغتيال فيلم

واضرب على ذلك مثلا بأيام السادات، لصاحبه محمد خان .

فهذا الفيلم لم يرد له أى ذكر بين الأفلام المتوجة بجوائز المهرجان .

أما لماذا اسقطته اللجنة من الحساب، وكأنه نسياًمنسياً ، فذلك لما يدخل فى باب العجب العجاب .

والحق أنه ليس ثمة تفسير مقبول عقلا لهذا التصرف غير المتسم بالاتزان ، اللهم إلا إذا سلمنا بالرأى القائل أن اللجنة إرتأت أن أيام السادات لم يك أصلاً فيلما مصريا .

أو كان كذلك إلى أن صححت اللجنة المسار باسقاط الجنسية عنه، باعتباره فيلما مارقا ، آثما فى حق الأوطان .

وليس أدل على جنوح اللجنة عن طريق الحق والعدل من قرارها الصادر بمنح جائزة أفضل ممثل رئيسى للكوميدى صلاح عبدالله ، عن أدائه لدور ثانوى فى

مواطن ومخبر وحرامى» لصاحبه «داود عبدالسيد» .

الحرمان لماذا ؟

كل ذلك لا لسبب سوى حرمان أحمد زكى من تلك الجائزة التى كان يستحقها ، بجدارة ، عن تقمصه لشخصية أنور السادات .

والأكيد أن هذا القبح القبيح المتمثل فى تفضيل الذى هو أدنى على من هو أعلى منه منزلة فى الأداء، لم يمله المنطق ، وإنما املاه لدد الخصومة لنجم عيب عليه، من بين ما عيب ، ارتكاب إثم عمل فيلم حول مسيرة رئيس ، يكن له البعض بغضا شديداً .

كما أن اللجنة قد خانها التوفيق عندما جنحت إلى منح جائزة الإخراج الأول لخالد يوسف عن جواز بقرار جمهورى .

فهذا الفيلم السخيف المنقول عن فيلم إيطالى ، ليس فيلمه الأول ، وإنما فيلم العاصفة الأشد منه سخفا .

تجارة وشطارة

وأغلب الظن ، أن الباعث على هذا التجاوز ، هو مكافآته عن عاصفته ، حيث جرى إحراق علمى اسرائيل والعم سام .

وإذا كان الأمر كذلك ، أفلم يكن أحق بجائزة الاخراج الأول صاحب فيلم «أصحاب واللابيزنس» ، حيث فجر شاب فلسطينى نفسه على الحدود مستشهدا، وسط ثلة من جنود الاحتلال؟

وخانها التوفيق كذلك، عندما منحت جائزة أفضل ممثلة رئيسية «لهند صبرى» عن دور صغير أدته فى «مواطن ومخبر وحرامى» ، وتعديها بهذا الجنوح على حق بطلة أسرار البنات » ، فى الفوز بتلك الجائزة، عن أدائها الرائع لدور فتاة حامل فى الحرام .

وعندما آثرت «الساحر» بجائزة الانتاج الثالثة، وهو الفيلم الفائز ، قبل بضعة شهور ، فى مهرجان دمشق السينمائى ، بجائزة أفضل فيلم عربى ، من الخليج إلى المحيط .

صوت المعركة

أما لماذا تراجع «الساحر» إلى الدرجة الثالثة، فذلك ربما يرجع إلى نظرية البهجة التى يدعو إليها «رضوان الكاشف» صاحب الفيلم ، ليل نهار ، أو ربما إلى عدد القبلات المتبادلة بين ابنة الساحر ، وحبيب قلبها ابن الجيران .

وهى من الكثرة والجرأة، ولا أقول الفجر ، بحيث كادت تقترب من عدد القبلات التى تبادلها العندليب الأسمر مع غانية الاسكندرية فى «أبى فوق الشجرة».

وهذا ، ولا ريب ، أمر غير مقبول فى زمن الجهاد !!

ذكرى انتصار

وفيما أنا هكذا حائر، شاهدت فيلما كنت انتظره بفارغ الصبر، منذ رأيت إشارته فى إحدى دور السينما بشارع برودواى، وذلك قبل خمسة عشر شهراً .

ولأمر ما، تأخر عرضه عندنا ، إلى أن



جاء الموسم الميت ، حيث تخلو دور السينما من روادها، ومعظمهم من الشباب ، لانشغالهم بالامتحانات .

وفجأة ، دون تمهيد ، جرى عرضه فى ذكرى انتصار الاتحاد السوفييتى ، فى حربه ضد المانيا الهتلرية (٩ مايو١٩٤٥) وأين ؟

فى أضخم وأفخم دار سينما ، بالقاهرة ، وأمام نفر قليل من المتفرجين ، وكأن الدار تنعى من بناها .

هذا الفيلم هو «العدو على الأبواب» للمخرج الفرنسى «چان چاك آنو، صاحب أسود وأبيض بالألوان» ، الفائز بأوسكار أفضل فيلم أجنبى (١٩٧٦) البحث عن النار ، «باسم الوردة» المأخوذ عن قصة للأديب الإيطالى «امبرتو ايكو» ، «الدب» «العاشق» المأخوذ عن السيرة الذاتية للأديبة الفرنسية «مارجريت دورا»، و«سبع سنوات فى التيبت» .

معركة المعارك

والعدو على الأبواب انتاج مشترك بين ثلاث دول أوروبية المانيا ، بريطانيا وايرلندا وحتى الآن يعتبر أغلى فيلم انتجته أوروبا ، إذ ارتفعت تكلفته إلى ستين مليون جنيه استرلينى وموضوعه يدور وجودا وعدما حول صمود ستالينجراد أمام العدوان النازى ، ذلك الصمود الذى انتهى بالجيش السادس ، تحت قيادة الفيلد مارشال فردريك فون باولوس محاصرا ، بدءا من ٢٣ من نوفمبر لعام ١٩٤٢، وحتى الثانى من فبراير لعام ١٩٤٣، تاريخ استسلامه ، مع جيشه الذى لم يبق منه سوى واحد وتسعين الف جندى ، وذلك بعد فقده حوالى مائة وخمسين ألف جندى ، قبل واثناء الحصار .

وعلى كل ، فما أن شاهدته ، حتى شعرت بأن حيرتى تؤذن على الانتهاء .

فقد وجدتنى أمام فيلم جديد بان أقف عنده ، مشيدا، وخاتما به الحديث، ليكون مسك الختام .

من المشاهد التى يفتخر ستيفن سبيلبرج بابداعه له فى فيلمه «انقاذ النفر رايان، الفائز عنه باوسكار أفضل مخرج ، مشهد نزول الجنود الأمريكيين على ساحل نورماندى بشمال فرنسا ، حيث ترى جثثهم فى أعماق البحر تتمزق إربا ، وعلى رمال الشاطئ تتطاير أشلاء .

جحيم مقيم

وكم بدا لى هذا المشهد باهتا ، مفتعلا، مقارنة بلقطات فاتحة فيلم «العدو على الأبواب»، حيث يؤمر ركاب أحد القطارات من المدنيين بمغادرته فورا ، حتى تستقله جموع المجندين ، وكأنها قطعان .

وما هى إلاّ ثوان من الزمن السينمائى، حتى يساق بهم، ومعهم المجند «ڤاسيلى زايتسيف» - يؤدى دوره الممثل الانجليزى «چودلو» - إلى قوارب تعبر بهم نهر الفولجا ، فى رحلة نحو ستالينجراد ، أو بمعنى أصح نحو الجحيم ، تحت رحمة قنابل

تتساقط عليهم من طائرات الألمان ، فتحصد أرواحهم حتى يموج النهر بجثثهم، وجثث من حاول الهروب من الموت ، فأردته رصاصات الرفاق، امتثالا لأوامر صادرة بقتل كل من تسول له نفسه الفرار من ساحة القتال ، دفاعا عن أرض الآباء.

أما المدينة نفسها المتسمية باسم ستالين ، بدلا من تزارتسين (مدينة القيصر) فقد تحولت ، بفعل القتال من شارع إلى شارع ، ومن مبنى إلى مبنى ، وبفعل القذف المتواصل من مدافع وطائرات الألمان ، تحولت إلى بقايا من سقوف ، وجدران ، تطل من بعضها فجوات كانت نوافذ أو أبوابا ، فى سالف الزمان .

بقايا مصانع ومنازل كانت بالأمس آهلة بالعمال والسكان .

صمت القبور

أما الآن فالسكون المخيم فيها ، سكون أخرس أبكم ، سكون رهيب بعمقه ، ساحق، ساحق بحزنه ، سكون أقرب إلى صمت القبور .

وسط كل هذا الخراب المقيم



محمود عبد العزيز وابنته

فى فيلم الساحر

، ومع دوى انفجارات هائلة ، تهتز لها الأرض تحت الأقدام ، وقنابل تتطاير فوق الرؤوس ، فلا يسمع إلاّ صفير أنكر من صوت الحمير .

ومن حين إلى حين ، تسمع أنات جرحى ، لتختلط بأزيز الرصاص، وصفير القنابل ، وزئير المدافع .

انتصار الإرادة

وسط هذا البلاء ، دار صراع حتى الموت بين إرادتين .

إحداها إرادة قناص روسى « زايتسيف» من أسرة رعاة، نشأ يتيما فى الاورال ، طلقات بندقيته تصيب الذئاب ، لا تخطئها أبدا .

والآن طلقاته تصيب ضباط جيش الاحتلال فى مقتل ، مثلما كانت تصيب الذئاب الضالة فى الغابات .

بالمناسبة زايتسيف هذا شخصية حقيقية ليست من صنع الخيال ، أبلت فى الحرب الوطنية الكبرى بلاء حسنا ، توج عنه ، بعد النصر بوسام لينين .

وعن سيرته فى أثناء تلك الحرب، كتب مذكراته تحت عنوان «وراء الڤولجا، لم يكنْ لنا أرض» .

أما الارادة الأخرى، فصاحبها ضابط المانى من أبناء الأكابر «كونج» - يؤدى دوره الممثل الأمريكى « ادهاريس»

تعلم فن الرماية، لا لحماية الماشية من خساس الحيوانات ، وإنما لاقتناص الوعول والغزلان فى رحلات صيد علية القوم ، المترفين ، الباحثين عن اللذات .

ولن احكى تفاصيل الصراع بين ارادتى هذين العدو بين، وكيف دار ، حتى مقتل الألمانى برصاصة انطلقت من بندقية الروسى إلى أم رأسه ، فخر صريعاً .

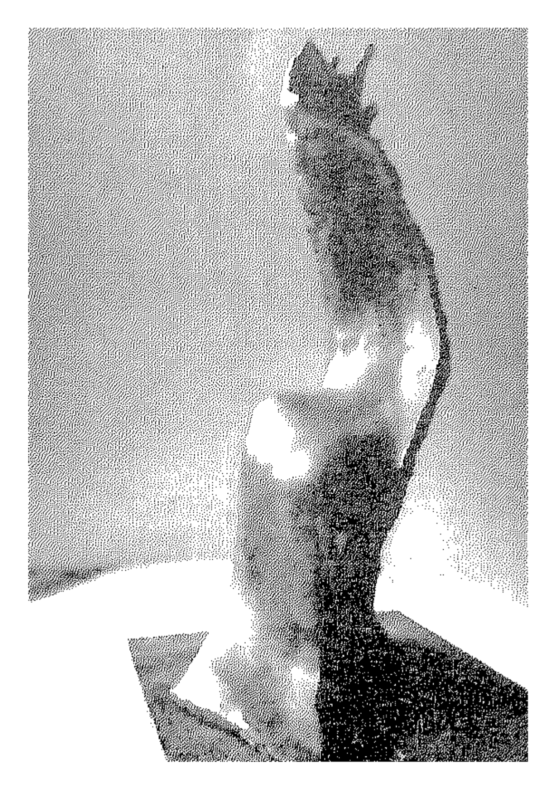
ولا تفاصيل قصة الحب بين ابن الرعاة و«تانيا» الفتاة المتخرجة فى جامعة موسكو - تؤدى دورها الممثلة الانجليزية «راشيل وايز» - والمتطوعة لمحاربة الغزاة مثل الرجال ، تعانى معهم من البرد القارس ، ومتاعب الحياة الجندية . وكيف انتهت قصتهما بلقاء سعيد .

ولا تفاصيل إدارة نيكيتا خروشوف للمعركة الفاصلة فى تاريخ الحرب العالمية الثانية ، بتكليف من ستالين - لعب دوره الممثل الانجليزى «بوب هوسكنز» ،

وكيف كان قاسيا ، فظاء غليظ القلب فى إدارتها ، حتى تحقق النصر باسر جيش الاحتلال المحاصر ، والاذلال له فى شوارع ستالينجراد ، حيث رقص الجنود الروس ، وغنوا فرحا ، إلا الذين ماتوا ، وهم بالملايين ، فأولئك ظلوا صامتين .

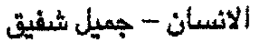
لن أحكى تفصيل كل هذا، فذلك شئ يطول .

وإنما اكتفى بأن أقول بأن العدو على الأبواب جدير بأن يشاهده شبابنا ، حتى تعود إليه روح التضحية والفداء ، دفاعا عن أرض الآباء والأجداد . ■



تكوين – حليم يعقوب





الانسان – جميل شفيق

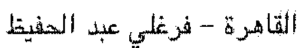
الفنانون يواصلون رؤى السلام

بقلم
عزالدين نجيب

كما كان متوقعا: خمدت سريعا هبة الفنانين المصريين المواكبة لانتفاضة الشعب الفلسطينى البطل، وقد عرضنا فى العدد الماضى بعض تجليات التعبير الفنى عن تلك الهبة خلال شهرى مارس وإبريل، سواء عبر ورش عمل جماعية أو معارض فردية، وأشدنا بموقف نقابة الفنانين التشكيليين لاستجابتها لمطلب أعضائها بأن تتبنى إقامة جداريات فنية فى بعض الأماكن العامة لأعمالهم الفنية التى قاموا بإنتاجها لهذا الغرض خلال فترة قياسية بساحة



زوربا المصرى - ايهاب شاكر



القاهرة - فرغلي عبد الحفيظ

النقابة بالجزيرة، مدفوعين بمشاعر الغضب والتضامن مع أشقائهم، وبموقف قومى يتعلق بمصير هذه الأمة، لكن النقابة سرعان ما تخلت عن وعودها واستبقت اللوحات فى مكانها محاطة بالأسوار بعيدا عن أعين الشعب الذى أنجزت هذه الأعمال من أجله، بل تخلت عن إصدار بيان قوى يعبر عن موقف الفنانين المصريين بكل تجمعاتهم بعد أن تمت صياغته وأقر مجلس النقابة توزيعه محليا ودوليا، وبذلك فشلت فى أول اختبار لمصداقية الشعارات والوعود الانتخابية (حول تأكيد حضور الفنان وموقفه من القضايا القومية) التى وعد بها النقيب الجديد الفنان مصطفى حسين، لتصيب الفنانين بخيبة أمل مبكرة، ومن ثم استأنفوا حياتهم المعتادة ونشاطهم الفني بنفس رؤاهم الذاتية السابقة للأحداث، والتى تعكس أجواء السلام بتجلياته المختلفة.

ولقد ازدحمت كالعادة قاعات الفن بالقاهرة بمعارض الفنانين عبر مساراتهم الفنية المعهودة، بعضها أقيم خلال شهرى مارس وإبريل ولم نستطع تقديمه فى العدد الماضى ، والبعض الآخر أقيم فى النصف الأول من شهر مايو، وقد تنوعت الأجيال والاتجاهات والرؤى الفنية بين مبدعيها، وسوف نحاول استعراض ما تسمح المساحة بتقديمه.

إيهاب شاكر: زوربا المصرى!

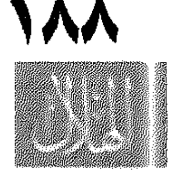
كان معرضه الأخير بين منتصف مارس ومنتصف ابريل امتدادا لمعرضه فى العام السابق، مزاوجا بين متناقضات عدة تبلغ حد المفارقة: بين الموضوع الشعبى والأسلوب الحداثى، بين العفوية الطفولية والسيطرة العقلانية، بين الرؤية الواقعية والشطحات السريالية، بين التشخيصية الاسطوانية والتبسيط المحرف الذى يشارف التجريد، بين المبالغة العبثية الساخرة، والتأملية الحكيمة المتفلسفة!

والغريب أنه ينسج لوحاته بسنون أقلام ملونة تقتضى وقتا وصبرا لا يملكهما إلا العابدون، ويبدو أحيانا مثل حائط التطريز والخيامية، يتحداك عمله أن تتعرف على سر صنعته، حيث لا يبدو أثر لخيط أو غرزة إبرة، ويمكنك بالفعل إقامة مقارنة بين تقنياته وبين كثير من المهارات الحرفية المتوارثة، مع فارق الأستاذية والابتكار المتفرد لكل قطعة.

وبالرغم من أن عبقرية إيهاب تتركز فى تلك المهارات التقنية على وجه الخصوص، حيث بلغت من الرهافة حد التلاشى الدخانى للألوان والملامس، فإن عالمه يمتلك بعدا أسطوريا غامضا وفلسفة حسية فطرية للحياة، لنقل إنها «وجودية زورباوية» نسبة إلى زوربا اليونانى، تكمن فى كيفية أن يعيش الإنسان لحظته الآنيّة بدون أسئلة حتى الانتشاء، ويتحقق ذاتيا بقناعة المتقشف حتى يتواصل مع المطلق.. يرقص ويغنى ويلعب ويغامر ويعزف ويحب ويتماهى مع من يحب حتى الذوبان، لكنه يظل مصرى الهوى والهوية، أما مفرداته اللغوية (التشكيلية) فهى خطوط بسيطة وشرائط متماوجة وشرائح ملونة تتجاور وتتعانق وتبنى تكوينا عضويا متلاحما يستحيل تفكيكه أو الإفلات من براثنه بمجرد أن تمسك بأول الخيط للولوج إليه.. إنها نوع من أحابيل الحواديت الشعبية المخادعة.. بلا كلمات!

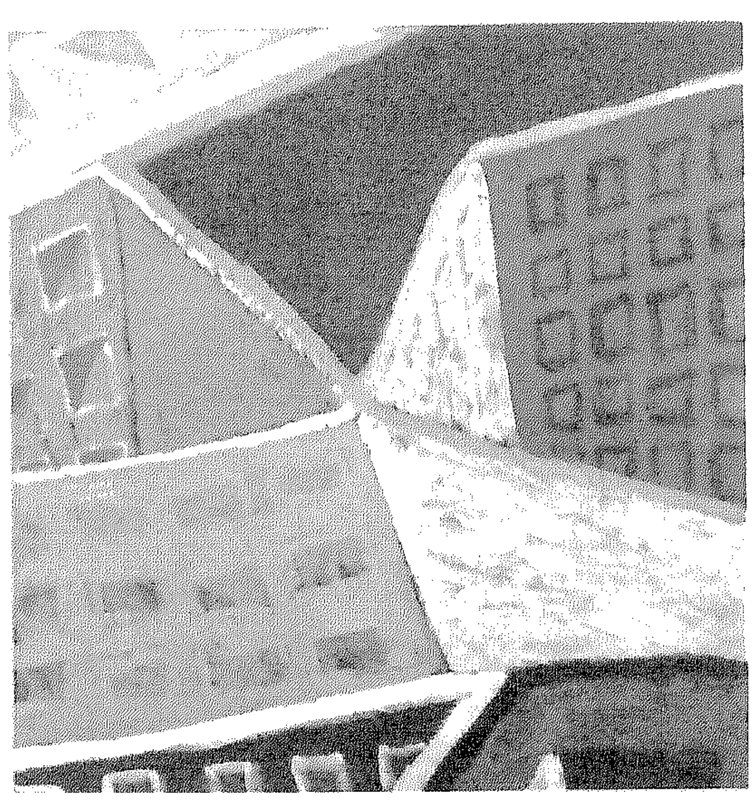
محمد رزق: حوار الحديد والنحاس

كان هذا عنوان المعرض رقم ١٦ للنحات محمد رزق بقاعة المركز المصرى للتعاون الثقافى الدولى فى مارس الماضى. ومنذ الستينيات لم يبتعد رزق يوما عن مطرقته وألواحه النحاسية وكتله الحديدية التى يشكل بها عالما جماليا مليئا بالحياة والمشاعر والنبض الإنسانى، وكأن تلك



الألواح والكتل الصلبة قد تحولت إلى مادة طينية لدنة أو آلة عود يعزف عليها بريشة العواد!

وكابن من أبناء محافظة دمياط، تمثل المهارات اليدوية أهم السمات الشخصية له، كما هي بالنسبة لأهل هذا الإقليم، وعندما تكتمل المهارة بالابتكار تتحقق الرؤية الإبداعية للفنان، أما أن تتفتق هذه المهارة من خلال خامات صعبة كالحديد والنحاس، وليس من خلال الأخشاب كأهل دمياط، فتلك هى طاقة التحدى الخلاق التى تميز الفنان الحق.



تكوين معماري - اسماعيل غريب

وقد لعبت الصدفة دورا تاريخيا فى اختيار رزق للمعادن وخاصة النحاس ليبدع منحوتاته من خلالها، فقد اشتغل عام ١٩٥٩ بشركة الحديد والصلب بحلوان، وهناك وجد فى المعادن ضالته، وبهرته - بشكل خاص - خاصة النحاس فوقع أسيرا لها على حد قوله، وبعد عشرة أعوام (عام ١٩٦٩) اتخذ قراره الحاسم بالاستقالة والتفرغ لمعشوقته!

وربما - لهذا السبب - يعد محمد رزق أحد الفنانين المصريين القلائل الذين عاشوا من فنهم ولفنهم وحده، ويعد لهذا أيضا من أكثر الفنانين الذين توجد أعمالهم فى الأماكن العامة. وأظن أن ذلك قد ترك أثره فى تعدد أساليبه وفقا لمقتضيات المكان الذي يضع عمله على جدرانه، متأرجحا بين الواقعية الوصفية والتعبيرية الحرة والسريالية الرمزية والتكعيبية المبسطة حتى مشارف التجريد المطلق.

وإذا كان ذلك قد منحه قدرا كبيرا من الحرية ليعزف ألحانه بغير نسق أسلوبى ينتظم مراحله الفنية، فقد انعكس - من ناحية أخرى - على اقترابه الخطر من الخط الأحمر الفاصل بين الفن البحت

والفن السياحى المتعارف على مواصفاته. ووجه الخطورة بالنسبة لرزق أن طموحه الشخصى كفنان يتجاوز كثيرا مستوى الأغراض السياحية إلى مستوى الإبداع الخالص لخلق عالم ذاتى بحت، وهو يملك بالفعل كل المؤهلات لتحقيق ذلك الطموح، لو اختار أعماله التى يقدمها فى معارضه من النوعية التى تحقق هذا الهدف، وهو ما لم يحدث فى معرضه الأخير، الذى جمع من كل بستان زهرة، وكان من بينها عدد من الأعمال المتفردة باجتهادات تعبيرية وخيالية وتحليلية مرهفة، تنحو نحو الحداثة الأوربية ولا تنفصل - فى ذات الوقت - عن الروح المصرية، مثل الرجل ذو القناع، وعازف الناى، والرجل الجالس، ورأس الحصان.

فرغلى عبدالحفيظ: قصيدة عشق للقاهرة

فى أعماله السابقة تعودنا على أغنياته الريفية المضمخة بعبير الطمى وخصب النيل، حتى أنه كان يجتهد كى يشعرنا بملامس الطين وتشققات التربة العطشى وألوان الطمى الجاف والمحروق فوق أسطح لوحاته، وقد يرسم فوق هذه الملامس وجوها ومشخصات تبزغ وتختفى وتتداخل وتتلاشى، فى وميض يتذبذب كاستدعاء الذاكرة.

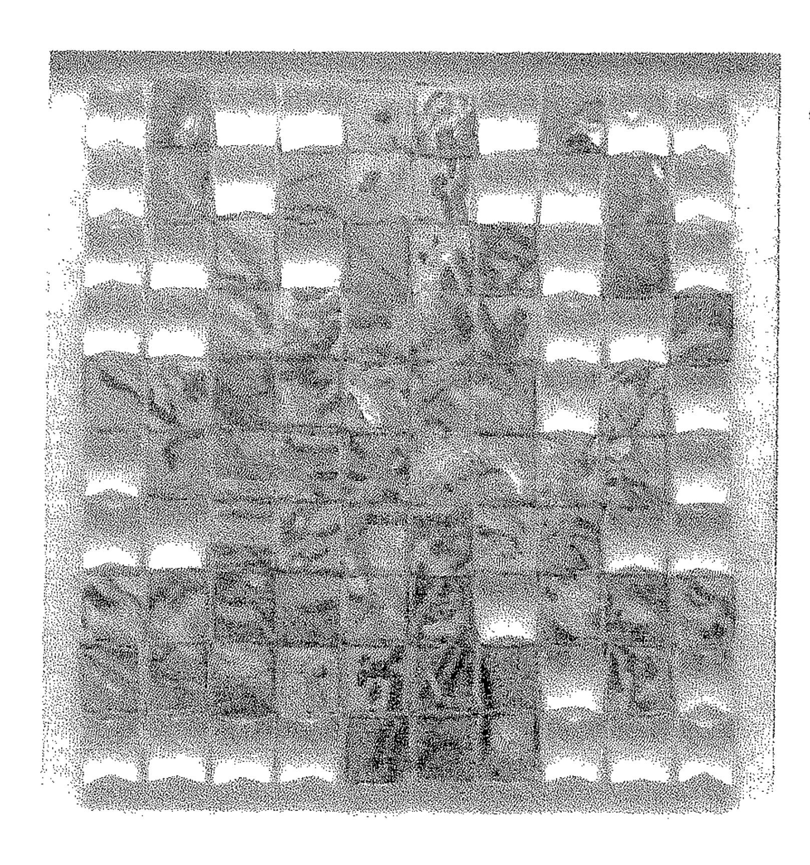
لكن المعرض الأخير لفرغلى عبدالحفيظ بقاعة الزمالك بين أواخر مارس ومنتصف ابريل اتخذ من القاهرة موضوعا له، وجعل منه قصيدة عشق تنبعث من وعى فتى صعيدى يطأ ميدان باب الحديد لأول مرة فى حياته.. إنها - إذن - ذكريات الحب الأول والأخير لهذه المدينة، فقد لازمه هذا الحب طوال ٤٣ عاما دون أن يفقد وهجه وإبهاره، حتى أنه يكتب عنها فى دليل معرضه قائلا: «إنها القاهرة ذات الدلال والجلال، إنها امتداد «منف» العظيمة، تتعثر خطاها أحيانا وأغضب منها وعليها وأختلف معها، لكننى عندما أعود إليها عند ضفاف قصر النيل وأستمع إلى حواراتها وهمساتها مع النيل الفضى الأزرق القادم إليها من الجنوب، أشعر بأن الدفء كله، والسحر كله، والدماثة كلها، والروحانية كلها ، والعاطفية كلها ، تتوالد أطيافها الأولى على ضفاف النيل، حيث تجتمع وتتكاثف وتتآزر كل عناصر المحبة والسلام».

وتلك - لعمرى - حالة وجدانية غريبة، تبدو على عكس حالة أغلب المبدعين - شعرا وأدبا وفنا - من أبناء الريف والصعيد، الذين سرعان ما تبدد انبهارهم الأول بالمدينة الحلم، وأفاقوا على حقيقتها كأخطبوط هائل بلا قلب، يعتصر القلوب فى صراع الوجود، بغلظة أذرعه الطبقية، وبقسوة الوحدة والغربة التى عانوهما فى شوارعها، مقارنة بحياة القرية التى جاءوا منها، بروحها الجماعية وفطرتها التلقائية وطبيعتها النقية، حتى باتت «القاهرة» تعبيرا مجازيا عن مضمون اسمها، إذ

تمارس القهر على الغرباء حتى يدمنوه ويتكيفوا معه!.

أيا ما كان الأمر، فإن لكل فنان مدينته الفاضلة التى يخلقها بخياله واشتياقه وبمثاليته الرومانسية، لهذا فإن القاهرة كما صورها فرغلى ليست هى القاهرة التى نراها ونعيشها، بل هى مزيج من أحلام القرية والمدينة معا، عبر النيل والوجوه الطيبة والحسناوات البيض والسمر بملامح نوبية أو زنجية، المتجملات بالحلى الشعبية والتعاويذ السحرية، ويتزاحم فيها البشر بألفة حميمة فى الكازينوهات والطرقات، وتتقارب الرؤوس والأعين والآذان والشفاه، مغمغمة بالهمسات ومومئة بالنظرات والبسمات، وتتمايل القوارب الصغيرة على سطح النيل عابرة بالمحبين، كل ذلك بأسلوب تعبيرى فطرى خال من الأناقة والمحسنات البديعية، محاكيا رسوم الأطفال والفن الساذج.

لقد أضحى فرغلى - مع نضوجه - أكثر بساطة وتلقائية عما كان عليه قبل عشر سنوات أو أكثر ، عندما كان يمتطى مكوك الحداثة والتمرد الفنى



تكوين معماري - يسري القويضى

ويبشر بهما، وكم من فنانين شباب ضلوا طريقهم فى الفضاء حين كان يعدهم بالمجد عبر ذلك المكوك!

جميل وحليم: الريشة والأزميل

فى منتصف ابريل كان افتتاح المعرض المشترك بقاعة بيكاسو للفنانين جميل شفيق (فى الرسم) وحليم يعقوب (فى النحت) .

ولا يحتاج المرء إلى كبير اجتهاد ليكتشف الطابع النحتى لرسوم جميل، ليس لتأكيد الكتلة والعمق الاسطوانى لشخصاته فحسب، بل أيضا لمعالجتها كمجسمات محاطة بفضاء، حتى وإن بدت

خلفها أو أمامها عناصر أخرى تكمل التكوين، وكذلك لإدراكه أهمية الاختزال الشديد لكافة التفاصيل غير الضرورية فى عناصره المجسمة، بالنور والظل، حتى تبدو البطولة معقودة للجوهر النقى داخل الشكل والحركة والإيقاع البصرى بين الضوء والظلال، وتلك جميعا من سمات النحت.

وعالمه التعبيرى يدور فى جو أقرب إلى الحلم أو الأسطورة، فبطله كثيرا ما نراه موسيقيا يعزف على العود فتنصت إليه الكائنات جميعا، بشرا وحيوانا وطيرا وشجرا، بل وتنحنى أمامه الجبال خشوعا ووجدا، وتحتل علاقات الحب مكانا مميزا فى هذا العالم، حتى تصل إلى تلك الوحدة الاندماجية بين المحبين، محققة تلاحما جسديا ذا نتوءات وأطراف عديدة تكسب التكوين طابعا أسطوريا، وربما تضفى عليه مسحة الذوبان الصوفى.

أما منحوتات حليم يعقوب فهى اختزال طوطمى للمشخصات البشرية والحيوانية، تعكس طابعا سحريا محفوفا بالأسرار ومنذرا بالنبوءات ، لقد تخطى سياج المشابهة لعناصر الواقع قربا من التجريد، معطيا ظهره لمثالية النحت المصرى القديم برسوخه وصرحيته ومهابته الميتافيزيقية، وفى وعيه وذاكرته البصرية تطل منجزات النحت الأوربى الحديث، باجتزائها للمشخصات خارج السياق الطبيعى، وتحريفها حتى تصل إلى جوهر الشكل أو الحركة، وإعلائها شأن الخامة والملمس وغرابة الشكل وغموضه، دون اكتراث لعدم وجود مرجعية بصرية مشتركة بين الفنان والمتلقى حتى يلتقيا على أرضها، ومن ثم يتعين على هذا المتلقى أن يؤسس مرجعيته الثقافية والبصرية من خلال كتب الفن الغربى الحديث، كى يمكنه أن يتواصل مع هذه المنحوتات، عندئذ قد يصل إلى كنه الجمال الخالص لذاته وليس للمفهوم الجمعى عنه، وقد يسمع صهيل الحصان فى التمثال الذى يراه كتلة مندفعة طائرة بغير أرجل أو ملامح واضحة.

شاهين.. بين الأرضى والكونى

فى مركز الجزيرة للفنون أقيم معرض المصور عبدالرحيم شاهين أوائل شهر مايو، وقد صعد نجم شاهين خلال التسعينيات بعد غياب امتد عشرين عاما عن بلده، ليعود محتشدا برؤية فنية تحوم حول ضفاف الحلم والأساطير والكوابيس، وقد تواصلت معارضه على نفس المنوال، مزاوجة بين الواقع وما فوق الواقع، بين الأرضى والكونى والسفلى بخيالات الجحيم، محافظا على تقنياته التكوينية واللونية، التى يمثل اللون البنى عمودها ونسيجها، فتبدو اللوحة مثل الأعمال الكلاسيكية القديمة ، خاصة أعمال «رمبرانت» الهولندى، التى تبدو كالرسم

بشطفات الضوء على طبقات الظلمة.

فى معرضه الجديد يزداد توغلا فى عالمه السفلى، وتزداد جرعة المأساة والحس الكابوسى فى لوحاته، ويغلف الحزن كافة عناصره، حتى ولو كان بطل اللوحة عازفا على الكمان، وهو مشهد يتكرر مرارا فى لوحات المعرض، فى مقابل حالات الحصار والكبت والتمزق والعجز أمام قوى مجهولة، تتراءى لنا فى أشكال تشبه الحواجز والتوابيت والصلبان والشباك والأسلاك الشائكة ، وإذ يبدو الإنسان أسيرا بلا مخرج وسط ذلك كله، فثمة ضوء يبرق أو ومضة تشع وسط هذا الظلام، وثمة وجوه تبزغ وتشق طريقها إلى قلب اللوحة معلنة عن تحديها للحصار، وثمة أعمال نفذت مؤخرا بأسلوب مركب ومجسم تبدو محاولة جديدة من الفنان للخروج المزدوج، أى من أسر الأزمة وأسر الأسلوب الفنى المتكرر فى آن واحد.

عماد أبوزيد.. الظاهر والباطن

وفى قاعة مجاورة لمعرض شاهين، أقيم فى نفس الفترة معرض الفنان الشاب عماد أبوزيد، يضم لوحات مجسمة من خامات عدة، وعماد أحد المواهب المتفتحة فى الحركة التشكيلية منذ أواسط التسعينيات ، عرف بتجاربه الطليعية مستخدما خامات غير تقليدية مثل أوراق الصحف والخيش والحبال والأخشاب والألياف، لتقديم رؤى ذهنية فى إطار ما يسمى «بالفن المفاهيمى» ، تقوم على فكرة مسبقة فى خاطر الفنان يسعى لإبلاغها إلى المشاهدين بأبسط السبل وأفقر الخامات، وهو فى الحقيقة يطرح على المشاهدين إشكالية وجودية تثير من الأسئلة أكثر مما تحمل من الإجابات، وبذلك يجعل المشاهد طرفا فى عملية الإبداع الفنى.

وفى هذا المعرض يطرح علينا عماد - الذى حصل على الدكتوراه مؤخرا من كلية التربية الفنية - إشكالية التباين بين الظاهر والباطن، من خلال مجموعة لوحات مشكلة من خامات مختلفة، كالعوارض



عامل الافران للفنان محمد رزق

الخشبية المحترقة والخناجر الحديدية واللفائف الجلدية أو الورقية التى تبدو مثل المخطوطات التاريخية المتآكلة، وعناصر غريبة تبدو كالحراب والمسامير والأنياب، وقد غطيت بأغطية من القماش الأبيض شدت بحبال ومشابك تشبه ما يستعمل فى الخيام، ثم نزعت هذه الأغطية فى أماكن معينة، لتظهر من تحتها جوانب من هذه الأشكال المتوارية.. ولأن الفنان لا يقول لنا ما هى الإشكالية التعبيرية أو الفلسفية التى يقصدها، وماذا يرمى من وراء حشد كل هذه المخلفات، فإن خيالنا يقوم بملء الفراغ المفاهيمى، بدءاً من تحديد الإشكالية حتى طرح الأسئلة وصولا إلى الإجابات ، مما يسمح بتعدد الاجتهادات والمفاهيم وزوايا النظر بين المشاهدين.

شريف كروان.. بين الزخرفة والتعبير

شأنه شأن كثير من الفنانين الذين دفعتهم ضرورات الحياة إلى الاغتراب للعمل فى دول الخليج سنوات ممتدة، عاد الفنان شريف كروان إلى مصر بعد أن تسرب الشباب من بين أصابعه، فيما انزوى الإبداع الفنى فى زاوية من حياته، وبالرغم من أنه كان يعمل فى السعودية فى مجال الفن ويشغل وظيفة مقرر لجنة الفنون التشكيلية بالجمعية السعودية للثقافة والفنون بجدة، فإن قائمة معارضه المطبوعة بدليل معرضه الذى أقيم بمتحف أحمد شوقى بالقاهرة فى مايو الماضى تخلو من أية معارض شخصية له طوال الفترة من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٩٩ وهى سنوات إقامته بالخارج، ومنذ عودته ذلك العام أقام مجموعة متلاحقة من المعارض فى أماكن متفرقة بالقاهرة، مما يشير إلى فيض الإبداع المختزن بداخله الذي تدفق بغزارة بمجرد وجوده فى مناخه الطبيعى على أرض الوطن.

شريف كروان رسام جرافيكى يملك تقنية عالية فى الرسم والطباعة على أسطح الزنك والخشب، وقدرة على استخدام طرق خاصة فى الطباعة تحقق قيما عالية خطيا ولونيا بأسلوب القطعة المتفردة بغير استنساخ.

ولا أعرف أسلوبه وعالمه الفنى قبل سفره حتى يمكن استنتاج مدى تأثره بالبيئة الثقافية فى السعودية فترة إقامته بها، لكن لوحات المعرض تشى بذلك التأثر، حيث تعتمد على المنهج الزخرفى العربى، هندسيا كان أو نباتيا، وتبدو مهارته فى إضفاء حس تعبيرى وتجريدى على لوحاته يتجاوز البعد الزخرفى إلى آفاق غنائية كالترانيم والابتهالات، حتى تتصاعد إلى طبقات الصفاء والإشراق الصوفى، عبر إيقاعات موسيقية موقعة توقيعا منتظما، ونغمات لونية مثل فراشات مزركشة أو مثل رقش على سجاجيد فارسية أو هندية، وقد تتراءى لنا رسومه كزحام بشرى هائل - بحس تجريدى مطلق - حول الكعبة أو



انسيابية – شريف كروان

الحرم النبوى الشريف.

غير أن خبرته الجمالية فى الاتجاه الإسلامى البحت أوقعته فى حيرة مضنية بين التشخيص، الذى ذبلت خبراته فيه مع طول سنوات الهجران لممارسته، وبين التجريد الذى يحصره فى محيط محدود، وأظن أن استمرار العمل والتجارب كفيل بإخراجه من حيرته، لنكسب بذلك فارسا جديدا فى مضمار فن الجرافيك ، يزاوج بين الأصالة والحداثة.

إسماعيل غريب.. ونظرة الطائر

نفس هذه الحيرة بين الواقع والتجريد نلمحها فى معرض الفنان الشاب اسماعيل غريب الذى أقيم بقاعة مشربية خلال إبريل الماضى، إنه رسام شغوف بالعمارة إلى حد أنه جعل منها العنصر الوحيد فى تكوينات جميع لوحاته الزيتية، بعلاقات هندسية كمتواليات رياضية لا تنتهى، وقد تقترب كثيرا من مفهوم الفلسفة الإسلامية عن الشكل الهندسى اللامتناهى، فليس للوحته أول ولا آخر، بغير اللجوء الى المنهج الرياضى للأطباق النجمية المعشقة والمتداخلة، التى تتوالد فى أعداد لا نهاية لها من المثلثات والمربعات والدوائر، كرمز لامتداد وجود الله الأحد فى الكون بأجمعه، فيما تمثل كل وحدة من هذا الامتداد الكلى روح الخالق.

وقد نجح اسماعيل فى تحقيق هذا المعنى بعيدا عن المنظور الزخرفى الإسلامى، مستعينا بمنظور عين الطائر فى النظر من أعلى إلى سطوح العمائر ، حيث تبدو كمساحات مجردة، وأضاف إلى ذلك استخدامه لصفوف منتظمة من فتحات النوافذ التى تبدو كقطع الخرط العربى فى المرشبية، واستخدامه كذلك لشكل «المفروكة» فى التعشيق الهندسى العربى، لكن رؤيته تتجاوز هذا الإطار التقليدى بنزعة تعبيرية عفوية تتضمن مساحات من الفضاء والضياء تسمح بالتنفس وتطلق خيال المشاهد نحو آفاق مفتوحة.

يسرى القويضى.. والتكعيبية المصرية

فى المدار نفسه تدور تجربة فنان آخر لكنه لا ينتمى إلى أجيال الشباب، بل ولا إلى أوساط الفنانين، فهو يأتى من جماعة الدبلوماسيين، ذلك أن يسرى القويضى شغل مناصب دبلوماسية عديدة منذ عام ١٩٦٢ كان آخرها مساعد وزير الخارجية عام ١٩٩٩، وظل الفن هواية خاصة يمارسها فى أوقات فراغه، وقد يشارك بين الحين والآخر فى معارض متفرقة، أو يقيم معارض خاصة على فترات متباعدة، حتى أتيح له أخيرا التفرغ للفن، فأقام عدة معارض فردية كان آخرها معرضه بمركز الجزيرة للفنون خلال شهر مايو الماضى.

والمدار الذى أعنيه هو التجريد الهندسى حسب متواليات رياضية، لكنها تنطلق من شكل المربع الذى يوحى تتابعه بالأرابسك ، غير أن الجديد الذى يضيفه هو أن لوحته تقوم على مجسمات منفصلة - متصلة من مكعبات ورقية متلاصقة كلوحة الشطرنج، قام بتنفيذها بنفسه من الورق المقوى بتحريفات محسوبة لشكل كل مكعب، وقام بحشو بعضها بأوراق ملونة تختلف من مكعب إلى آخر، لتتكامل فى النهاية لوحة تجمع بين المسطح والمجسم، وتمثل الفراغات المتبقية من مكعباتها غير المحشوة أو الملونة عمقا وإيقاعا بصريا متماوجا.

إنها إذن شكل من أشكال التكعيبية المصرة أو المعربة، ولا نقول إنه مبتكر هذا الشكل، فقد سبقه كثير من الفنانين المصريين، بدءا من عفت ناجى وعبدالرحمن النشار حتى محمود عبدالعاطى، بل والأوربيين (مثل فازاريللى) لكننا نشير إلى حساسيته فى استخدام هذا الأسلوب معتمدا على خامة الورق، بما يصل به إلى حالة من الروحانية النابعة من التماوج البصرى المراوغ عبر مستويات الغائر والبارز على سطح اللوحة، وأحيانا يصل إلى تركيبات معمارية متصاعدة تعطى إيحاءات تختلف من مشاهد إلى آخر حسبما يلهمه خياله. ■





شعر
حسن طلب

جمر على كبد !
نحن اكتفينا من زلال الحب
بالثمد
كنا التقينا ..
والمدينة أظلمت طرقاتها
وصفا الغرام لنا
فأصبحنا كأنا وحدنا
لاخوف من عذل ..
ومن حسد
فكما يشاء الحب ..
نقضى ليلنا
ولنا المدينة كلها :
نشدو على أطلالها
نغشى بواديها
ونمرح فى خرائبها
ونرثى نهرها ..
أشجارها ..
سكانها
نبكى لمصرع طائر غرد
ونعود نمرح مثلما كنا
فكيف إذا الطغام
– بقضها وقضيضها –
طفقت غداة غد :
كالسيل تسعى فى مناكبها !
وطغى الرغام .. فسد وجه الشمس ..
ثم مضى الزحام بنا
فصرنا : محض معدودين فى عدد !





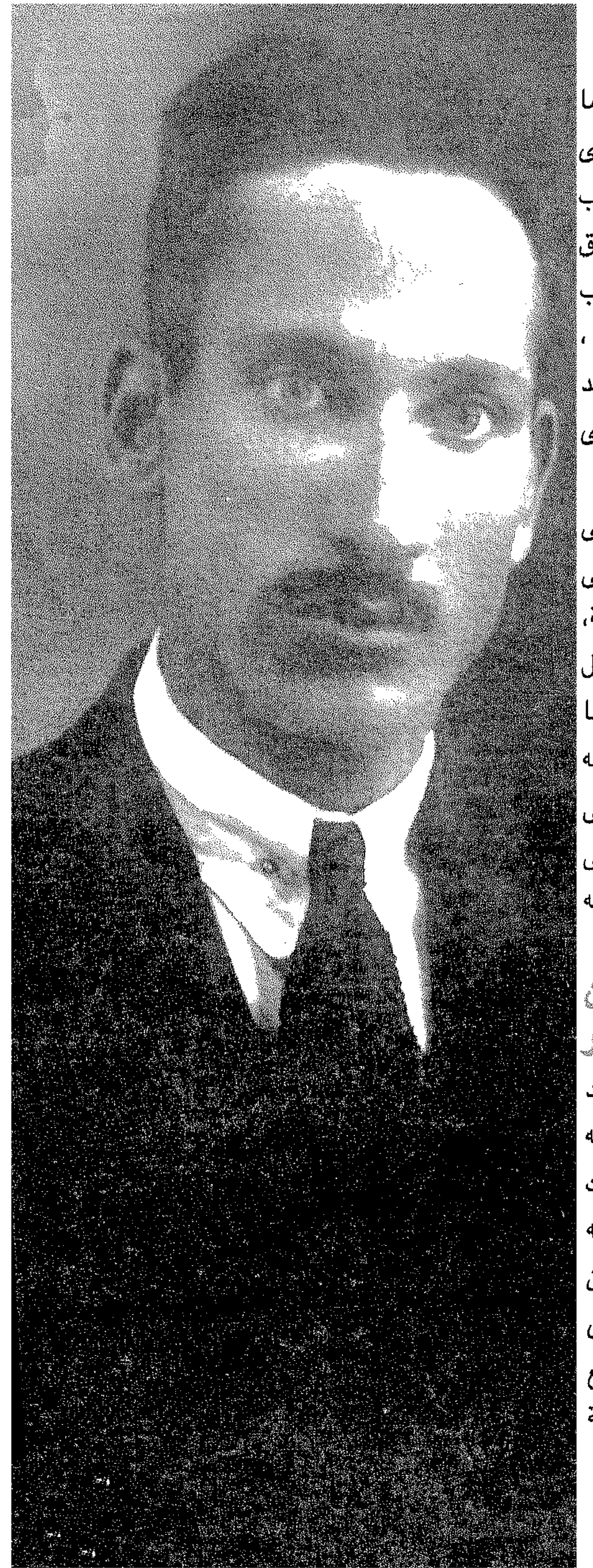
أضواء على



بقلم
وديع فلسطين

مرت فى شهر يناير الماضى الذكرى الخمسون لوفاة الدكاترة محمد زكى عبدالسلام مبارك (فهو من مواليد ٥ أغسطس ١٨٩١) فأقام له أستاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى رئيس رابطة الأدب الحديث حفلا متواضعا لم يشهده الا نفر قليل كان من بينهم ابنته كريمة زكى مبارك. وهكذا تنطوى صفحات الأدباء فى غياهب التاريخ الأدبي، ولولا مؤلفاته - التي تحاول كريمة إعادة طبعها وفاء منها لذكرى أبيها - لذهب زكى مبارك بدوره فى طريق النسيان، وهو طريق يبطش بالأعلام ويجور على آثارهم .

قضيت المرحلة الثانوية من عمرى فى المدرسة الانجليزية بجزيرة الروضة. فلما وصلت الى نهاية هذه المرحلة، استحدثت وزارة المعارف العمومية سنة اضافية أطلقت عليها اسم «التوجيهية»، وهى شعبتان: شعبة أدبية وشعبة علمية. فكان لابد إذن من ترك هذه المدرسة لخلوها من المعامل اللازمة لطلاب الشعبة العلمية - وأنا منهم - والانتقال الى مدرسة أخرى غير أميرية. وكانت هناك مدرستان مجهزتان لهذه السنة التوجيهية، هما القسم الثانوى فى



الجامعة الأمريكية ـ وقد ألغى فيما بعد ـ ومدرسة الأقباط الكبرى بالدرب الواسع قرب ميدان باب الحديد . فاخترت الالتحاق بالجامعة الأمريكية لأنها الأقرب من حيث سكناى فى حى الجيزة ، ثم لأن نظام التعليم فيها يعد امتدادا للنظام الانجليزى الذى انخرطت فيه .

كان ذلك فى العام الدراسى ١٩٣٨ - ١٩٣٩ وكان أستاذنا فى اللغة العربية هو السيد شحاتة، وهو رجل يجمع بين وسامة الشكل وأناقة الملبس والتذوق الأدبى مما جببنا فيه وفى الأسلوب الذى اتبعه فى تدريس المنهج. وكان يزاملنى فى الفصل الطالب عبدالسلام زكى مبارك، وكنت أرتاح الى صحبته واختار مجلسي الى جواره .

النجاة من امتحان عسير

وذات يوم فوجئنا بالسيد شحاتة يدخل الفصل وفى صحبته رجل أشعث الشعر غليظ العوينات لا يهتم كثيرا بأناقة ملبسه كأستاذنا شحاتة، وقبل أن نتبين شخصيته قال لى جارى عبدالسلام: هذا أبى. وكنا نسمع عن زكى مبارك ومعاركه الأدبية



التى لا تنتهى، وعن شراسته فى الطعن فى الذين يصاولونه من كبار الكتاب، وخشينا أن يجرب زكى مبارك ـ مفتش اللغة العربية أو موجهها بالتعبير «المطوّر» اليوم أسلحته الفتاكة معنا نحن الطلاب القليلى الحيلة. وبدأنا نعد أنفسنا لامتحان عسير لن ينجح فيه أحد، لأننا جميعا قوارير ضعيفة لا تصمد أمام «بلدوزرات» زكى مبارك!

ولكن وجود عبدالسلام بيننا رطب الجو نوعا ما، كما أن أستاذنا السيد شحاتة أخذ يحدثنا عن منزلة زكى مبارك فى الحياة الأدبية، مؤكدا أن زيارته لنا تشريف هو نفسه أول الناعمين به، وقال إننا جميعا طلاب على زكى مبارك، ثم دعاه الى أن يزيدنا من علمه، ويحاضرنا فى الأدب الذى هو من أعلامه الكبار.

وعوضا عن أن يقوم زكى مبارك بامتحان قدراتنا، أخذ يحدثنا حديثا مشتهى عن الأدب، مما صرفه عن توجيه أى سؤال الينا. وهكذا نجونا من امتحان عسير قد لا يكرم فيه أحدنا، بل نهان جميعا .

كانت هذه هى المرة الأولى التى رأيت فيها زكى مبارك رأى العين، وكنت أحسبها الأخيرة لأننى كنت ميالا الى العلوم، ولاسيما الكيمياء، وكان الأدب بالنسبة لى ميدانا بعيدا عن اهتمامى.

وفى السنة الدراسية التالية، انتقلت الى قسم الصحافة بالجامعة الأمريكية، لا عن حب للصحافة أو مطمح فى العمل بها، ولكن لأن جميع الكليات العلمية : الطب والعلوم والصيدلة كانت تتقاضى مصروفات باهظة ، فاخترت قسم الصحافة لأن مصروفاته كانت أقل. ومع أن الدراسة فى هذا القسم كانت تتم باللغة الانجليزية، فإن الجامعة إرتأت أن التمكن من اللغة العربية ضرورى لطالب الصحافة المصرى. ولهذا استعانت بالعلامة الدرعمى السباعى بيومى لكى يقوم بتدريسنا الأدب العربى.

وذات يوم دخل علينا السباعى وهو مكفهر الوجه على غير ما عهدناه فيه، ولما استوضحناه سبب ذلك، أخرج من حافظته مجلة «الرسالة» وقال. لقد تعرضت لحملة شعواء جائرة من الدكتور زكى مبارك الذى يحسب انه الإمام الوحيد للغة الضاد فى جميع العصور. وطلبنا من أستاذنا أن يتلو علينا ما كتبه زكى مبارك، فاستجاب لنا، وكان فى أثناء التلاوة يرد على كل اتهام وجهه اليه الكاتب. ثم وعد بأن يلقنه درسا عندما يرد عليه فى هذه المجلة عينها. وهكذا تحولت محاضرة الأدب العربى الى

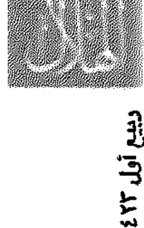
حديث عن المعركة بين السباعي بيومي وزكي مبارك، وهي معركة تابعناها في فصول الدرس التالية. وعندما عرفنا أن السجال توقف بعد آخر مقال نشره السباعي ، أدركنا أنه كسب هذه المعركة .

معارك أدبية مستمرة

وبعد ما خرجت الى الحياة العملية دعيت الى الانضمام الى رابطة الأدباء التي أنشأها الدكتور ابراهيم ناجي في عام ١٩٤٥ فاختير هو رئيسا لها واخترت بدوري وكيلا للرابطة على مدى عمرها. وكانت الرابطة تعقد ندوتها الأسبوعية مساء كل أحد، فيشارك أعضاء الرابطة في برامجها الى جانب من ندعوهم ليحاضرونا في الرابطة. ومن جملة الضيوف الذين وقع اختيارنا عليهم الدكتور زكي مبارك الذي رحب بدعوتنا وارتجل محاضرة أدبية شرق فيها وغرب، وكنا مبهورين بواسع علمه وقدرته على الارتجال دون أن يتلعثم أو يتوقف . كانت هذه هي المرة الأولى التي أجلس فيها الى جوار زكي مبارك وأتحدث معه حديثا مباشرا. وأشهد بأنه كان هادئا، تخلى في جلسته عن كل أسلحة النزال التي كان يدير بها معاركه التي لا يخبو لها أوار .

كنت في ذلك الوقت أخشى المنتديات الأدبية المنصوبة في القاهرة، فالتقي هنا وهناك بزكي مبارك الذي لا يضن عليّ بتحيته وتشجيعه. كما كنت أنضم الى مجلسه كلما لمحته في مشرب من مشارب القاهرة، فإن لم أجده في مشرب ميدان عرابي، فهو في مشرب الأمريكين بعماد الدين أو في الباريزيانا في شارع ألفي بك، فإذا خلا الى نفسه هنا أو هناك، حبر مقالا طويلا من أحاديثه ذات الشجون التي كان ينشرها في جريدة «البلاغ» لصاحبها عبدالقادر حمزة باشا أو في مجلة «الصباح» لصاحبها مصطفى القشاشي بك أو نظم قصيدة تغنى فيها بجمال «الجمال» وضمها الى ديوانه الكبير «ألحان الخلود» ، ولأنه كان يرتجل أحاديثه ذات الشجون، التي كانت تفترش صفحة كاملة من جريدة «البلاغ»، فقد كان القارئ يجد فيها خليطا عجيبا من كلام العقلاء ودردشات العوام، حيث كان يكتب أي كلام يخطر على البال في ثرثرة أدبية لاريب ممتعة بكل مافيها من شذوذ العباقرة وفلتات الألسنة وتداعيات الذهن والخاطر. ولم يسلم ديوانه الوحيد «ألحان الخلود» من هذه الاستطرادات يسوقها كيفما اتفق وكأنه ترك العنان لقلمه يكتب مايشاء دون ضابط حتى وإن جاء هذا الكلام جليلا أو سقيما. فزكي مبارك ينطلق على سجيته وليس يبالي أن يجيء كلامه كوخز الابر يخدش ويجرح ويصيب المقاتل.

وكنت أراه في الساعة الثامنة





صباحا جالسا فى مشرب الباريزيانا، فأسأل نفسى: هل بكّر فى الحضور الى هذا المكان، أو أنه قضى الليل بطوله مسمرا فى مقعده؟ وكنت أشفق عليه من حياة تنتقص من قيمته الأدبية، وتكاد تلحقه بصعالكة الأدب، ولكنه كان ـ فيما يبدو ـ يريد أن يغرق أحزانه فى كئوس مترعة من أسباب النسيان .

ولم تكن معاركه مع طه حسين وأحمد أمين والسباعى بيومى ومحمد أحمد الغمراوى وغيرهم الا ذريعة للتنفيس عن شعور طاغ بالاضطهاد كان يعانى منه منذ ما وقف طه حسين فى وجه تعيينه استاذا فى كلية الآداب، مما قصر حظوظه الوظيفية على عمل المفتش فى وزارة المعارف العمومية. فقد كان يعتقد ـ بحسب اعترافه ـ بأنه «أعظم رجل فى العالم»، وأن كل أدباء مصر دونه مرتبة. فأحمد لطفى السيد باشا «أصارته المقادير رئيسا للمجمع». وأحمد محمد الغمراوى «شخص معتوه مخبول». أما طه حسين فقال عنه إنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وكأنه يعيره بضياع بصره واعتماده فى القراءة والكتابة على سكرتيره. كما قال عنه « لو جاع أطفالى لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه ان جاز أن أقدم الى أطفالى لحوم الكلاب»! وقال عن أحمد أمين «لو أن معدتى كانت كما أحب من القوة والعافية لأكلت لحم الأستاذ أحمد أمين وأرحت الدنيا من أحكامه الجائرة فى الأدب والتاريخ. ولكن الدهر حكم بأن أكون من أصحاب الأرواح، فلم يبق لى فى محاسبته غير شيطنة الروح، وفى الأرواح شياطين». كما قال عن نفسه انه «اشتهر برعونة القلم وشراسة اللسان».

ومؤكد أنه ما كان يليق بكاتب كبير كزكى مبارك أن يتوسل بهذه العبارات الجارحة للنيل من خصومه. ولو تحلى بشيم العلماء الأصلاء لقارع الحجة بالحجة وحصر النقاش فى الأثر الأدبى ولم يجاوزه الى شخصية منازله. ولكن عقدة الاضطهاد التى كان يعانى منها هى التى أخرجته عن طوره وصورت له أنه فى حلبة لمصارعة الثيران، ولا بد له وهو «الميتادور» البارع أن يصرع كل الثيران فى الحلبة . وصدق الشاعر صالح جودت عندما قال أن زكى مبارك «فتى أضاعوه فى مصر».

سمير الوجد

جاءت رحلة العراق كحبل مُدّ الى غريق، اذ اختارته حكومة العراق للتدريس فى معهد التعليم العالى، وبهذا أخرجته من «جحيم الظلم فى القاهرة

الى سعير الوجد فى بغداد» حسبما جاء فى عنوان قصيدته البغدادية المطولة ومن يقرأ كتاب زكى مبارك فى العراق لعبد الرزاق الهلالى، يكتشف أن الصحف العراقية وكل المحافل الأدبية فى بغداد هلّلت لقرب وصول زكى مبارك الى عاصمة الرشيد، حيث فتحت أمامه جميع الأبواب، وألفى نفسه موضوع حفاوة وتكريم فى كل يوم من أيام الأشهر التسعة التى قضاها فى ربوع هذا البلد الأمين - وعسى الله يزيل الغمة التى تحيط به اليوم. فى العراق احتل زكى مبارك مكان الصدارة فى كل محفل، فالدولة بكل أجهزتها والهيئات الأدبية بكل تشكيلاتها، والمعاهد الجامعية بكل أسمائها تتسابق فى الحظوة باستضافة هذا الألمعى الخارج من سنتريس والمتخرج من باريس وهما - فى رأيه - أعظمْ مدينتين فى العالم! وتبارت الأقلام فى الترحيب به فى الصحف، وتسابق الشعراء فى تكريمه، وصار فى شبه عرس دائم لا محل فيه للصراع والنزال. ولقد كان يتمنى لو أنفق بقية عمره فى العراق، ولكن المعهد الذى كان يقوم بالتدريس فيه أغلق بعد هذه السنة الدراسية، وكان لامعدي عن العودة الى «جحيم الظلم فى القاهرة» وازاء ما تمتع فيه فى العراق من حب عارم جارف، أصدر كتابه الضخم «ليلى المريضة فى العراق»، وكم تمنى أن يكون هو وحده الطبيب الشافى الوحيد لليلى.

وهناك عدة كتب صدرت عن زكى مبارك وضعها الأديب الكويتى فاضل خلف والأديب الأردنى الدكتور حسين خريس وكريمة زكى مبارك وأنور الجندى ومحمد محمود رضوان، ومع ذلك فإن هذه الشخصية الضخمة بآثارها التى كان يتحدى بها الناس، تستحق مزيدا من الدراسة المنصفة. كما أن المعارك التى خاضها زكى مبارك تستأهل التسجيل بنصوصها الكاملة هجوما ودفاعا خدمة لتاريخ الأدب العربى، لأن هذه النصوص مازالت مطوية فى بطون الصحف باستثناء المعركة حول جناية أحمد أمين على الأدب العربى التى سجل وقائعها الدكتور حسين خريس، وان يكن سجّل مقالات زكى مبارك وأغفل ما كتب فى الرّد عليها على أهميته لاستكمال صورة المعركة من جوانبها المختلفة.

وللشاعر الدكتور ابراهيم ناجى قصيدة جميلة فى تحية زكى مبارك اجتزئ منها بهذه الأبيات بما فيها من دعابات محببة :

فى حمى سنتريس شب غلام
شاعرى الكلام والأنظار
فرح الأهل بالغلام الذى
صار حديثا فى ندوة السمار





عمموه وقفطنوه فأمسى

أمل القوم ، فارس المضمار

ومضى يطلب العلوم وحيدا

موحشا قلبه غريب الدار

عجبى من «مجاور» ضاق بالأزهر،

واحيرة النفوس الكبار

ثم أمسى مطربشا واكتسى

البذلة مابين ليلة ونهار

ثم أمسى مبرنطا يقصد «السين» ويغزو

مدينة الأنوار

ظل فى ذلك الحمى مصريا

عربى الحياة والأفكار

كلما هبّت الغوانى عليه

ضاق ذرعا بالغادة المعطار

وختمها بقوله :

كرموا نابغيكم وأعرفوهم

فضياع النبوغ فى الانكار

فزكى مبارك شعلة فى مصر

تهدي شبابها كالمنار

قسما لو يتاح لى الغار

كُلّلت بكفى جبينه بالغار

●●●

الإثنينية والثالوثية

قضيت فى جدة أياما جميلة غشيت فى أثنائها مجالس أهل العلم والفضل التى يعقدونها فى أيام منتقاة من أيام الأسبوع، فندوة تعقد فى يوم الاثنين وتعرف بالاثنينية وراعيها هو الشيخ عبدالمقصود خوجة، وندوة تعقد فى أيام الثلاثاء وتعرف بالثالوثية وراعيها هو الأستاذ محمد سعيد طيب.

وقد درجت ندوة «الإثنينية» على تكريم أديب من داخل المملكة أو من خارجها فى كل جلسة أسبوعية من جلساتها على مدار العام، وسبق لها أن كرمت من مصر الدكتور مصطفى الشكعة وأنيس منصور والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي والدكتور محمد عمارة والدكتور مصطفى محمود والدكتور حسين على محمد والدكتور محمد رجب البيومى وغيرهم. فإذا التأم المجلس، تبارى الخطباء فى الحديث عن المحتفى به والتعريف بآثاره والاشادة بدوره فى الحياة، وألقى الشيخ عبد المقصود خوجة كلمة الترحيب الضافية بمن يطلقون عليه «فارس الاثنينية» فإذا ما فرغ الأدباء والشعراء من إلقاء كلماتهم، تحدث الضيف عن تجاربه فى الحياة، ثم فتح الباب لتوجيه أسئلة من الحضور يجيب عنها الضيف.

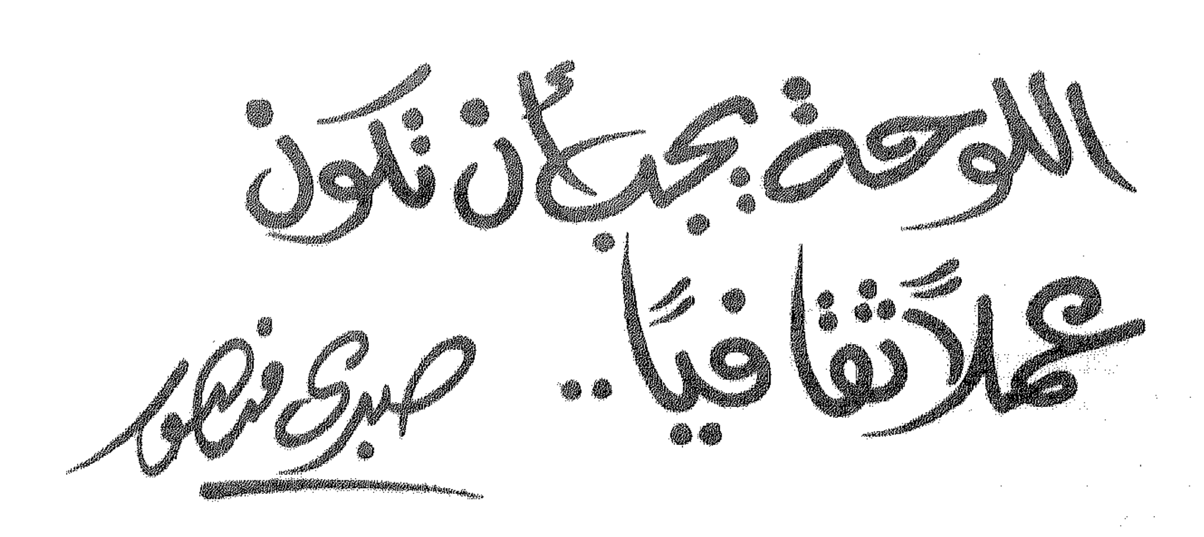
ومع أننى كنت أتهيب لقاء هذا الجمع الحاشد فى «الاثنينية» لأننى لا أعرف أحداً من كل هؤلاء الفضلاء الذين لبوا دعوة الشيخ عبد المقصود خوجة فقد لقيت من حفاوتهم وتقديرهم ما بدد

الرهبة التى استولت على . ثم جاءت الكلمات التى ألقيت فى الندوة وأبيات الشعر التى أنشدت لتعيدنا إلى عصور العكاظيات التى تحتل الكلمة البليغة أعلى المنازل فيها وإذا كان القصد الأول من «الاثنينية» هو تكريم الأدباء ورجال الفكر على الصعيد العربى، فإن الفضل فى هذه البادرة يعود إلى أريحية الشيخ عبد المقصود خوجة فى المقام الأول وإلى صفوة أهل العلم والفضل الذين يؤازرون راعى «الاثنينية» فى إنجاح ندواته التكريمية.

وحتى لا يتبدد الكلام المسموع فى الهواء، فإن من تقاليد الأثنينية تسجيل كل ما يقال فيها بالصوت والصورة، ثم إفراغه فى كتاب تذكارى يعتبر مرجعاً أدبياً ثميناً لأن فيه السير الموثقة للأعلام وشهادات التقدير التى قيلت فى حقهم والمحاورات التى جرت بينهم وبين النخبة من أدباء السعودية وأساتذة الجامعات فيها والحافظين لتراثها وقد صدر حتى الآن تسعة عشر مجلداً تضم وقائع تكريم عشرات من المفكرين، وهى تشكل فى مجموعها ما يشبه طبعة جديدة من «معجم الإعلام» لياقوت الحموى.

وفى ندوة «الثالوثية» التى تنعقد كل ثلاثاء فى بيت الأستاذ محمد سعيد طيب التقيت بمجموعة كريمة من وجوه الفكر والأدب فى المملكة، وجرى النقاش فيها مفتوحاً ودون برنامج موضوع، وللحاضرين جميعا حق متساو فى الإعراب عن آرائهم سواء فى الموضوعات المحلية أو العالمية أو قضايا الأدب والفكر ومع أن كل الآراء ترتجل فى هذه الندوة، إلا أنها جميعاً آراء ممحصةٌ بفضل خبرة أصحابها وإحاطتهم الأكاديمية والتجريبية العميقة .

وهذه اللقاءات الحميمة سواء فى «الاثنينية» أو فى «الثالوثية» كفيلة بأن تجعل النفوس تتقارب وتخلو من الكدر، ولاسيما بين الذين يحملون راية الفكر والعلم والثقافة والصحافة، وأكرم بهذه اللقاءات فى جو من الألفة والتقدير المتبادل . ■



تساهم فى تكوين شخصية الإنسان عوامل عديدة، تبدأ من مـرحلة الوعى بالوجـود أثناء الطفـولة، ثم يزداد تعقيدها وتشابكها عبر المرور بتجارب الحياة المختلفة، سواء جاء بعضها بفعل الظروف ونسيج الحياة الذى يجعلنا نواجه أحياناً ما لا نريد، أو جاء البعض الآخر عن طريق الاختيار الحرّ الذى يوجّه فيه الإنسان نفسه نحو ما يعتقد أنه الأصوب والأكمل وفقاً لمقدار ذكائه وفطنته.



الزار – مشروع التخرج ١٩٦٤

وفى اعتقادنا فإن العناصر المؤثرة فى تكوين أى شخص تتخذ أوضاعها النهائية فى تشكيل ملامح الشخصية فى حوالى الثلاثين من العمر، فكل ما سيأتي فيما بعد لن يفيد كثيراً أو يضيف جديداً، ولن يغير تغييراً جذرياً فى الملامح التى تعمقت خلال حوالى ربع قرن من الزمان.

وحين تعود الذاكرة سنوات إلى الوراء للتعرف على العوامل التى كان لها أكبر الأثر، وتركت بصمة أكيدة فى تكوين الشخصية وتحديد ملامحها الأساسية ، فإنه يمكن متابعتها من خلال مراحل كان لكل منها إضافتها الواضحة على تحديد الملامح.

الطفولة - القرية

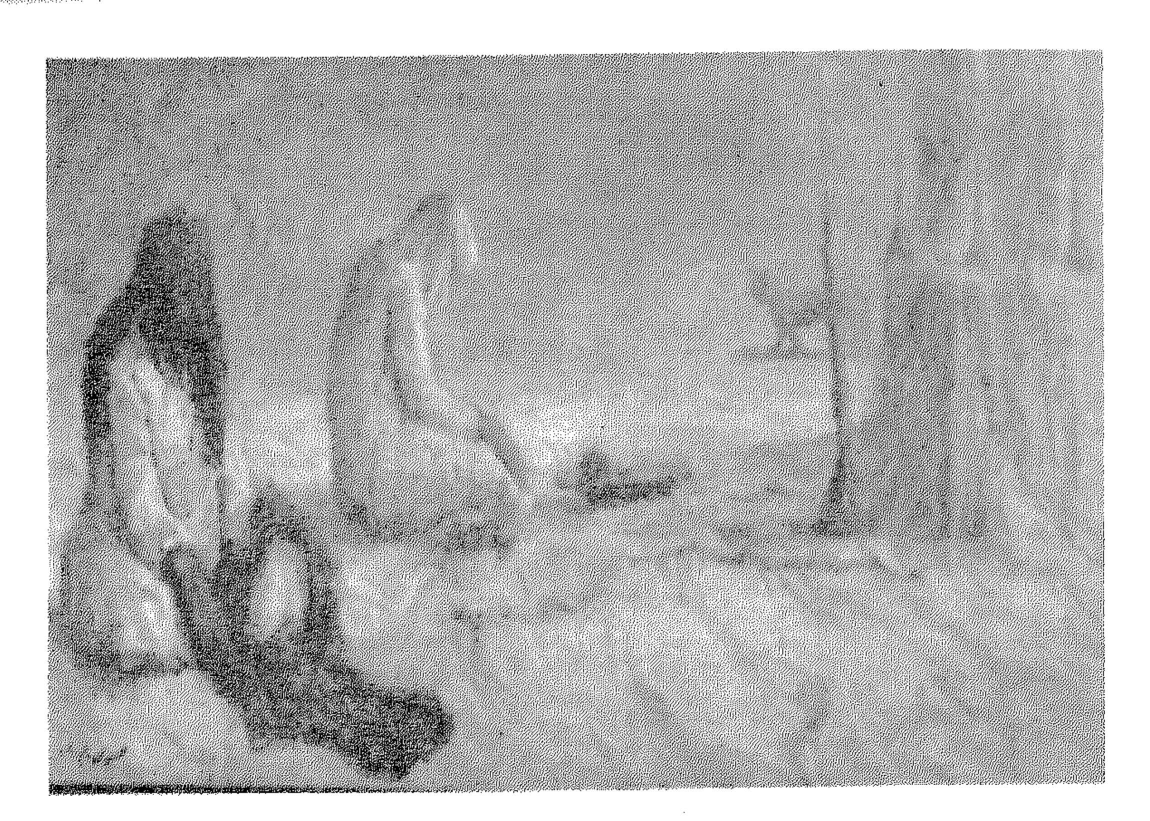
كان الميلاد عام ١٩٤٣ فى قرية «بخاتى»، وهى قرية ريفية صغيرة من قرى محافظة المنوفية، حيث عشت فيها حتى سن الرابعة، وفى تلك البلدة بدأ الوعى بالحياة وبالموجودات، واختزنت الذاكرة صوراً ظلت مطبوعة ومحفوظة لعالم الريف المصرى البسيط الذى لم يؤثر فيه مرور الزمن، وظل على حاله منذ عصر قدماء المصريين، فالحياة فيه متواضعة تكاد تقترب فى وسائلها من

الحياة البدائية، ولم تكن القرى المصرية فى بداية الأربعينات قد أضيئت بعد بالكهرباء، لهذا فقد مثل لى الليل الريفى فى ذلك الوقت عالماً غامضاً مليئاً بالأرواح والكائنات الخفية، أكدته سماع الحكايات المتناثرة عن الجن والأشباح، وحين كنت أجوس خلال طرقات القرية مساءً ماراً بالمدافن القريبة من بيوت الأحياء، أكاد أحس بالأرواح تسبح فى الفضاء المحيط، وكان القمر فى تشكلاته المختلفة عنصراً من أشد عناصر الجذب، فكنت أتخيله كائناً حياً، وأراه حين يكون بدراً كوجه إنسان كامل القسمات، وكنت حين أسير أراه معى يصاحبنى أينما ذهبت، لقد كان لغزاً وأنا أراه هناك يطل من بعيد على المكان الموحش ويضفى عليه بضوئه الخافت سحراً وغموضاً، وتضيف الظلال التى يخلقها وجوده رهبة إلى عناصر المشهد الريفى المكون من البيوت الطينية المتواضعة والنخيل المرتفع فى السماء ، وتكتمل الرؤية حين يصاحب ذلك همهمات مختلطة بنباح الكلاب ومواء القطط ونداءات بشرية متقطعة وأصوات متخيلة تكاد تكون مسموعة.

المدرسة وهواية القراءة

وفى سن الرابعة انتقلت إلى مدينة طنطا لألتحق بالمدرسة الإبتدائية، وقد أمضيت أربع سنوات كنت فيها تلميذاً عادياً لا تستهويه المواد الدراسية وخاصة علم الحساب الذى ساهم مدرسه بالقدر الوفير فى نفورى منه، فى الوقت نفسه الذى شجعنى فيه مدرس الرسم حين وضع لوحة رسمتها عن سفينة نوح فى بهو المدرسين، وكنت حين أتطلع إليها هناك أعلى الحائط أشعر بالفخر وأحس بالثقة، وفى دراستى الاعدادية والثانوية استمر التعامل مع المواد الدراسية بطريقة عادية، وإن كنت قد بدأت أشعر ببعض الميل إلى المواد الأدبية والفلسفية والتاريخية وهو ما حدا بى لاختيار تخصصى الأدبى فى نهاية المرحلة الثانوية.

ولعل أهم ما يمكن رصده من عوامل التكوين فى فترة الدراسة قبل الجامعية عاملان، كان أولهما الميل الشديد إلى القراءة الحرة والولع بالكتب، ولقد ساعد على ذلك اضطرارى لملء الفراغ فى شهور الأجازات الصيفية الطويلة بالإطلاع، وكان والدى – مدرس اللغة العربية – جاداً فى حياته وعمله، وصارماً فى تربيته، كما كان مؤمناً بأن الطفل يجب أن ينشغل بأنشطة جادة بعيدة عن اللعب والهزل، وفى نفس الوقت كان شقيقى الأكبر أديباً ناشئاً يهتم بالقراءة والأدب حيث اختار دراسة الأدب



من الزار - مشروع التخرج ١٩٦٤

العربى فى الجامعة فيما بعد، وكان سبباً رئيسياً فى التعرف فى سن مبكرة على عيون الأدب العربى وأعلامه، فبعد أن قضيت سنوات الدراسة الإعدادية ألتهم فيها القصص البوليسية المثيرة (أرسين لوبين وشرلوك هولمز) بدأت فى أثناء التعليم الثانوى قراءة كتاب من أمثال المنفلوطى والمازنى والزيات ، وكان هناك «عم محمد» صاحب كشك الكتب الشهير الذى يؤجر قراءة الكتب والمجلات بقروش قليلة، وبعد أن أتيت على معظم كتبه انتقلت إلى مكتبة البلدية بطنطا حيث قرأت هناك معظم روايات يوسف السباعى وإحسان عبدالقدوس ومحمد عبدالحليم عبدالله.

أما العامل الثانى الذى تأكد فى تلك الفترة من الدراسة فقد كان زيادة شغفى بالرسم والخط، ولم تكن كتبى المدرسية تخلو من الرسوم فى الهوامش والمساحات الخالية منها، ولم تكن هناك فرصة فى بلدة إقليمية مثل طنطا لزيادة المعرفة بالفن واكتساب أية خبرات مبدئية فيه، وفيما عدا انضمامى لمجموعة الرسم فى المدرسة الثانوية وقيامى ببعض الأنشطة وعمل بعض اللوحات البسيطة للمدرسة من بينها الخرائط والرسوم التوضيحية

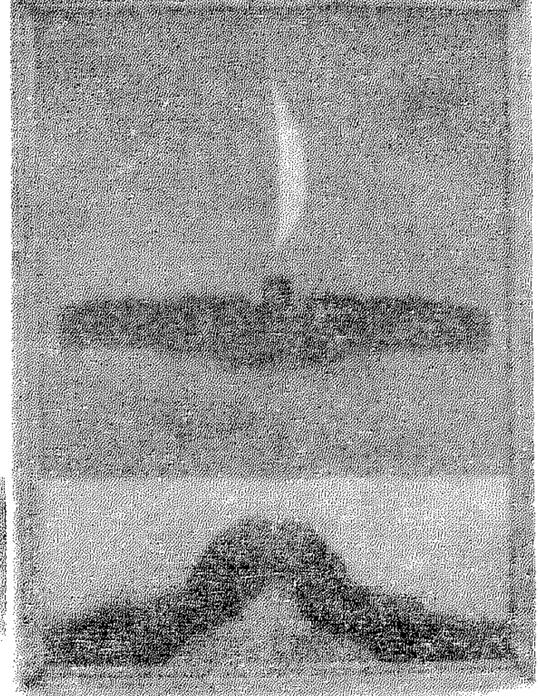
فإن إحاطتى بدنيا الفن اقتصرت على ما تنشره المجلات وما تحتويه الكتب من رسوم.

وهكذا حين جاء الوقت الذى أقرر فيه اختيار مجال دراستى بعد الحصول على الثانوية العامة كان واحداً من اثنين، إما الآداب بمباركة مدرس اللغة العربية، أو الفنون الجميلة بتشجيع من مدرس الرسم والأشغال.

وقد التحقت رسمياً بقسم الفلسفة بآداب عين شمس فى عام ١٩٥٩، ولكنى حين اجتزت اختبار قدرات الفنون الذى كان يتم فى كلية الفنون بالزمالك، انجذبت بشدة إلى ذلك العالم الساحر الذى عايشته لأول مرة حين رأيت مقر الكلية المتلىء بالتماثيل الرومانية الضخمة، ومنظر المراسم وطلابها من ذوى الذقون والمظهر المختلف عما ألفته، بالإضافة إلى الجو العام الذى يغلف المكان، كل ذلك قد استهوانى ودفعنى للاختيار النهائى لدراسة الفنون الجميلة.

ولقد اخترت دراسة فن التصوير الزيتى الذى كان أقرب تخصصات الكلية إلى نفسى، وأقبلت على الدراسة بحب واجتهاد عرضت به سنوات خمولى الدراسى فى المرحلة السابقة، مع أن منهج الكلية الأكاديمى لم يكن يروق لى، فقد كان هذا المنهج - الذى وضعه مؤسسوا الكلية الأجانب - يقوم على أسس كلاسيكية تقليدية، ويهدف فى الأساس إلى تعليم الطالب حرفة الرسم والتصوير بأسلوب النقل والتقليد، ورغم أنه كان هناك هامش للحرية فى التصرف وتحوير الأشكال، إلا أن الشكل الواقعى ظل هو المثل الأعلى لدى الأساتذة الذين كان معظمهم من كبار الرسامين الواقعيين، وهكذا لم يكن أمامى فى السنوات الأولى غير الاجتهاد فى تجسيد الشكل الواقعى، وجاء العثور على بعض الملامح الذاتية فى نهايات السنة الثالثة من دراستى، حين كنا مطالبين بعمل لوحة من عناصر الطبيعة الصامتة، وقد اخترت مجموعة من العناصر المطلوب رسمها وأضفت عليها عناصر أخرى من عندى، وقمت بتغيير الخلفية التقليدية فرسمت منظراً خيالياً أضاف للوحة بعداً غير واقعى يتخطى النماذج المألوفة فى أشكال الطبيعة الصامتة، ولم أكن على وعى بكل ذلك، وإنما كنت مدفوعاً لعمله لأنى أحببت ذلك، فى تلك الأثناء كان الفنان حامد ندا الذى يعمل أستاذاً بفنون الإسكندرية فى زيارة للكلية ، وتجول فى المراسم للإطلاع على أعمال الطلبة والتعرف على مستواهم الفنى، وقد فوجئت به يقف خلفى مبدياً





أمرأة وطائر وهلال تصوير ١٩٧٠



مع الناقد نعيم عطية والناقد محمود بقشيش في معرض خاص ١٩٧٢

إعجابه وتشجيعه، ولم يكتف بذلك بل أخبر بقية الأساتذة الذين بدأوا يتقاطرون لمشاهدة اللوحة وبعضهم أبدى إعجابه، والبعض الآخر قد تحفظ، ولكن ما كان يهمني وقتذاك هو رأى ذلك الفنان الكبير الذى كنت أراه عملاقاً من عمالقة فن التصوير المصرى المعاصر وشخصية فنية تتمتع بشهرة عريضة ومكانة مرموقة ، وظل رأيه حافزاً وموجهاً لى فى طريق بدأت التعرف على أول ملامحه.

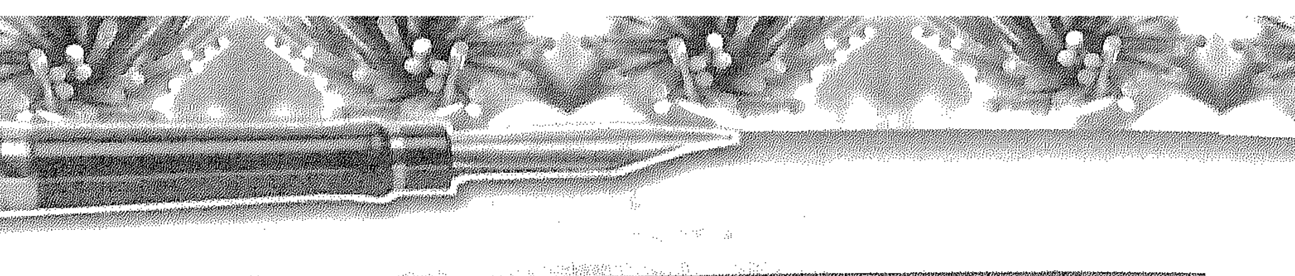
ولقد مثلت لى سنوات الدراسة بالكلية مرحلة مهمة فى تكوينى الثقافى ، فمن خلال الاختلاط بالطلاب القدامي - وكان بينهم من أصبحوا نجوماً فى الفن والثقافة المصرية فيما بعد أمثال الدسوقى فهمى وعز الدين نجيب ومحمود بقشيش ومحيي اللباد ونبيل تاج- بدأت أتعرف على نماذج الأدب الروسى الشهيرة مثل أعمال تشيكوف الذى تأثرت بنماذجه القصصية الإنسانية، وجوركى وتولستوى ، وكانت تلك سنوات المد الاشتراكى والارتباط بالثقافة الروسية، كما تعرفت لأول مرة على فن الموسيقى الكلاسيكية ومتعة تذوقه، وكانت أذنى تنفر منه وتتحاشاه، وكانت «ألف ليلة وليلة» لكورساكوف مدخلى إلى الاستمتاع بهذا الفن الرفيع والانتقال إلى نماذج أصعب فيما بعد، وقد أمضيت ساعات

طويلة بالمكتبة الموسيقية التى كانت قائمة فى مركز المدينة.

وبالإضافة إلى إطلاعى على نماذج الفن العالمى فى مكتبة الكلية – حيث انجذبت بشكل خاص إلى لوحات الفنان الفرنسي جوجان – فإن ذلك لم يمنعنى من متابعات المعارض الفنية التشكيلية التى كانت تزخر بها القاهرة خلال الستينات سواء كانت معارض لفنانين مصريين أو أجانب، وكان يسود الساحة الفنية فى مصر حينذاك صراع ما بين الفن الاشتراكى الموجه من ناحية، والفن التجريدى من ناحية أخرى، مع هامش متاح للاتجاه الذى يقلد التراث الفنى المصرى الفرعونى والقبطى والإسلامى، ولم أكن أحس بالرغبة فى الانطواء تحت أى من هذه التوجهات، ولقد شد انتباهى وأثار إعجابى أسلوب الفنان عبدالهادى الجزار الذى كان يطرق عالماً قريباً إلى نفسى، فتلك الأجواء المشعوذة التى كان يرسمها فى تلك الفترة قد سبق لى أن عايشتها عن قرب فى مولد السيد البدوى بطنطا قبل أن تمتد إليه يد الحكومة بالتنظيم واستبعاد العديد من أنشطته الشعبية الماجنة، وقد التقيت بأعمال الجزار وكان مسافراً فى بعثة عاد منها حين كنت فى السنة قبل النهائية ، وبدا تأثيره واضحاً على مشاريعى الدراسية بالكلية، وكان متعاطفاً معى ومشجعاً لى وقد اقترح علىّ موضوع الزار لكى يكون مشروع تخرجي، ومع ذلك فإن العلاقة بيننا لم ترق إلى مصاف العلاقة الوطيدة بين الأستاذ والتلميذ، على الرغم من تكليفه لى فور تخرجى بتنفيذ التصميم الذى وضعه للوحته الشهيرة «حفر قناة السويس» حين كان يعانى من مرضه الأخير الذى أدى إلى وفاته عام ١٩٦٥، واختتمت فترة دراستى الجامعية عام ١٩٦٤ بتخرجى من الكلية بتقدير ممتاز وترتيب الأول على كليتى الفنون الجميلة بالقاهرة والإسكندرية، مما أهلنى لحضور عيد العلم ولقائى بجمال عبدالناصر الذى كان فى ذروة تألقه السياسى، ذلك اللقاء الذى غلفته المهابة والتقديس لتلك الشخصية الطاغية ، والتى غاب الوعى فى حضرتها فلم أعد أذكر بعده سوى يدى التائهة فى اليد الضخمة للرئيس، وقد ملأنى هذا اللقاء بالأحاسيس الوطنية الجارفة التى تدفع نحو الجدية وتحفز الرغبة فى الانتماء والإخلاص للوطن.

بحر من المعرفة

وبعد أن أنهيت دراستى فى الكلية أدركت أن رأسى ماتزال خاوية تفتقد إلى الكثير من المعارف وفى حاجة إلى مزيد من التحصيل، وكانت هناك أسئلة كثيرة تبحث





الاحتفال - ١٩٧٩

عن إجابات مقنعة حول ماهية الفن وقيمته وجدواه وأيضاً حول تاريخه وتطوره، فالدراسة فى الكلية كانت تركز على الجوانب الحرفية وتهمل الجوانب الثقافية ، لذلك قررت أن أولى الجانب الثقافى - الذى كان مازال منحصراً فى فن الأدب - أهمية قصوى، وأن أتولاه بنفسى دون مرشد أو معين، وكان الإطلاع على الكتب التى تتناول النقد أو الفلسفة شاقا فى البداية، ولكن سرعان ما بدأ العقل يسعد بلذة التفكير والفهم، وأحسست أن مناطق مظلمة منه تضىء بنور لم أعهده من قبل، وكان كتاب «الإحساس بالجمال» لجورج سانتيانا فيلسوف علم الجمال هو مدخلى إلى عالم المعرفة الجديد.

وفى تلك الفترة بدأت أتذوق الشعر الحديث من خلال أشعار الشاعرين العراقيين بدر شاكر السياب الذى شدتنى فيه أغانى الموت، ونازك الملائكة وأغانيها للقمر، وكذلك من خلال شعر صلاح عبدالصبور بمصريته المتدفقة، ولقد كنت أشعر بأن هناك علاقة وثيقة بين فنى الشعر والتصوير وإن لم أكن أدرك ساعتها كن هذه العلاقة تماماً.

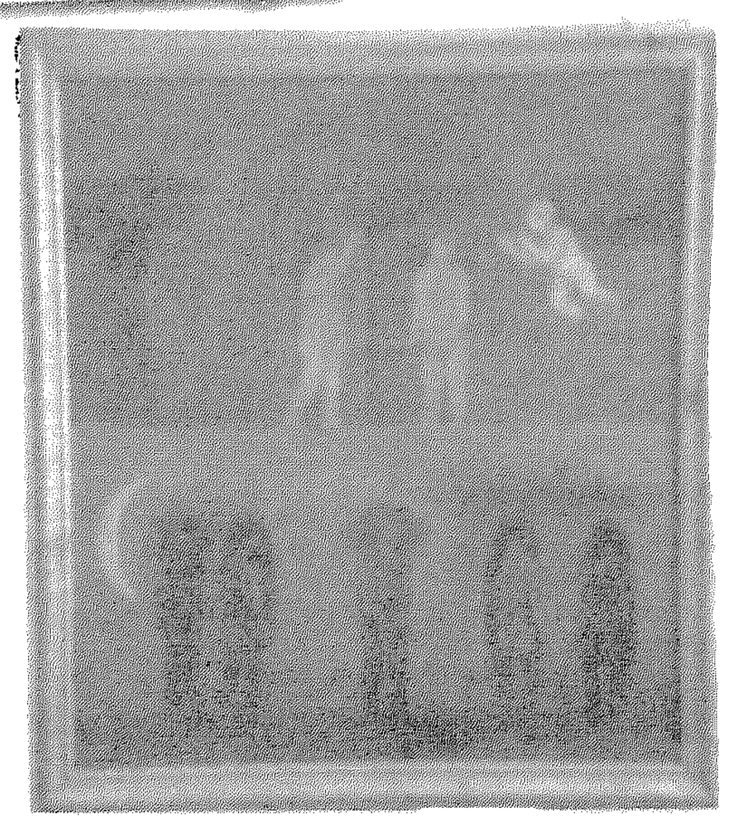
وقد استمرت قراءاتى الأدبية حيث

انتقلت إلى إبداع جيل التنوير والتحديث أمثال العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين الذى كانت له منزلة خاصة فى نفسى واعتبرته من أعظم العقول التى أنجبتها مصر فى تاريخها القريب، ثم تعرفت على إبداع نجيب محفوظ الروائى بأسلوبه الواقعى المحمل بالدلالات والايحاءات الفلسفية، كما كان هناك أيضا شاعرى المهجر جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة اللذين كان لعالمهما الرمزى تأثير شديد الخصوصية على نفسي. كذلك بدأت فى متابعة مؤلفات زكى نجيب محمود الفلسفية التى تقترب من عالم الفنون.

وخلال تلك السنوات من التكوين تعرفت أيضا على فنين كنت مازلت أجهلهما وهما المسرح والسينما، وكنا فى سنوات إزدهار المسرح المصرى، حيث تابعت بالمشاهدة والقراءة مسرحيات الحكيم ونعمان عاشور وسعد الدين وهبة ورشاد رشدى ونجيب سرور ومحمود دياب، إلى جانب المسرحيات المترجمة شكسبير وموليير وبيرانديللو وتشيكوف ودورنيمات، وحين أنشىء مسرح الجيب الذى اهتم بالمسرح المعاصر تابعت فيه أعمالاً مسرحية ليوجين يونسكو وصمويل بيكيت حيث انجذبت لرؤيتهم الحداثية الجديدة.

أما فن السينما فقد بدأت تذوقه مدركاً العلاقة بينه وبين الفن التشكيلى من حيث كون الكادر السينمائى هو فى النهاية لوحة تشكيلية متكاملة وإن أضيف لها عنصر الزمن وتعرفت على الفن السينمائى من خلال جمعية الفيلم ثم فى نادى السينما الذى أنشىء فيما بعد بسينما أوبرا واشتركت فى عضويته مستفيداً من المناقشات والمقدمات التى تصاحب العرض والتى تتعرض لجماليات هذا الفن، وتنير الطريق نحو الاستمتاع الأمثل بقيمه الفنية الرفيعة، وهناك أفلام سينمائية تركت أثراً فى النفس لا يمحى لما تناولته من جوانب دقيقة فى النفس والحياة الإنسانية، مثل أعمال المخرج اليابانى أكيرو كيراساوا والمخرج الهندى ساتيا جت راى والإيطالى فيللينى وكذلك أفلام الموجة الجديدة فى فرنسا، وكان الاهتمام بهذه الفنون دافعاً لى للالتحاق بأول دفعة بالمعهد العالى للنقد الفنى حين انشىء فى بداية السبعينات ، ولقد درست فيه لمدة عامين كيفية تذوق جماليات فنون السينما والمسرح والفن التشكيلى ونظريات علم الجمال، وكان يقوم بتدريس مادة السينما الناقد الكندى المعروف بول وارين، ويقوم بتدريس تذوق الفنون التشكيلية الناقد الإنجليزى جون

أكتون، وكانت تعجبنى طريقة الاثنين فى الشرح والتحليل، ورأيت من خلالهما أسلوباً شيقاً وممتعاً فى التدريس يحترم عقل الدارس وفكره، ولكن بعد اضطرار هذين الأستاذين للرحيل وتعويضهما بأساتذة مصريين- لسد الخانة - فلم أجد لدراستى الفائدة التى ابتغيها فلم استكملها.



آدم وحواء -١٩٧٩

اللقاء بأوربا

ظللت أتحرق شوقاً إلى السفر لأوربا، فقد كانت هناك هالة مقدسة حول فنانين عايشت أعمالهم وعرفت قصص حياتهم المثيرة من خلال الكتب، واستبدت بى الرغبة فى لقاء إبداعهم وجهاً لوجه - وفى صيف عام ١٩٦٥ - بعد تخرجى بأربع سنوات - قررت تحقيق حلمى والقيام بمغامرة السفر على نفقتى الخاصة، وكان يسمح للمسافر آنذاك بخمسة جنيهات استرلينية فقط ، وكانت الرحلة بالطائرة إلى ميونخ فى ألمانيا والانتقال منها بأسلوب الإشارة للسيارات - إلى باريس، وكانت تلك الرحلة - المغامرة - التى تخللتها أيام قاسية صعبة ذات أثر كبير أدى إلى إعادة تقييمى لنواحى متنوعة فى الفن وفى الحياة، كما كانت بمثابة صدمة حضارية تلقيتها بدءاً من المنظر البادى من نافذة الطائرة أثناء هبوطها فى مطار ميونخ، وطوال فترة الرحلة تكشف لى عالم جد مختلف فى جماله ونظامه وأسلوب حياته ، وغمرنى الإحساس بأنى قادم من عالم يعيش خارج إطار العصر.

وفى متاحف ميونخ واللوفر ومتحف التأثيريين والفن الحديث فى باريس التهمت عينى مئات الأعمال الفنية الخالدة، ورأيت إلى أى حد وصلت إليه قدرة الإنسان حين يبلغ ذرى الابداع فى الفنون التشكيلية خلال مراحل متنوعة من

عمر الإنسان على الأرض.

وجاء اللقاء الثانى بأوربا خلال رحلة ثانية قمت بها لإيطاليا عام ١٩٧٢ واستمرت شهراً، زرت فيها فلورنسا مهد عصر النهضة وروما وفينيسيا، ولم تحدث هذه الزيارة صدمة حضارية كسابقتها، ولكن الصدمة كانت فنية حين التقيت بفنانى عصر النهضة العظام الذين تمثل أعمالهم إنجازاً بشريا فذاً يندر أن يتكرر على مر العصور، وعلى وجه الخصوص لوحات مايكل انجلو التى نفذها لكنيسة الفاتيكان، وقد تأثرت بلوحته الشهيرة يوم الحساب التى كانت آخر وأعظم أعماله وأمضى فى تنفيذها عدة سنوات مودعاً فيها خلاصة تجربته الفنية والروحية.

أما اللقاء الثالث بأوربا فى فترة التكوين فكان أثناء بعثتى الدراسية بأسبانيا، حيث أمضيت أربع سنوات فى مدريد أتاحت لى فرصة كاملة للتعرف عن قرب على ملامح الحضارة الغربية المعاصرة عامة، وعلى الحركة الفنية التشكيلية المعاصرة على وجه الخصوص فمدريد تعد إحدى العواصم الثرية بالإبداع الفنى الجديد، والشعب الأسبانى يقدس الفنون ويمنحها مكانة متميزة فى مجمل ثقافته، وتاريخ الفن الأسبانى الممتد من عصر النهضة يزخر بأسماء مهمة ذات بصمات

د. صبري منصور

رئيس قسم التصوير بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة .

- **انتخب عميداً للكلية من ١٩٨٩ - ١٩٩٢ .**
- **شغل منصب رئيس قسم التصوير عام ١٩٨٩ ، ومن عام ١٩٩٤ حتى ١٩٩٧ .**
- **رئيس لجنة الترقيات للأساتذة والأساتذة المساعدين بكليات الفنون الجميلة والتطبيقية والتربية الفنية من عام ١٩٩٥ حتى ١٩٩٨ ، ورئيس لجنة الترقيات بكليات الفنون الجميلة والتربية الفنية من عام ١٩٩٨ حتى عام ٢٠٠١ .**
- **صدر له كتاب «دراسات تشكيلية» عام ٢٠٠٠ .**
- **حاصل على عدة جوائز أهمها : جائزة التصوير بالمعرض العام للفنون التشكيلية ١٩٨٢ ، وجائزة الشراع الذهبى من بينالى الكويت العربى عام ١٩٨٥ ، وجائزة الدولة التشجيعية فى التصوير عام ١٩٨٥ .**

واضحة وإضافات أثرت فى صياغة الأساليب الفنية على مر العقود الماضية ، بدءاً من فيلاسكين وجويا والجريكو ووصولاً إلى سلفادور دالى وميرو وتابييس والمعمارى انطونيو جاودى.

ولقد كانت مدة البعثة فترة للرصد والدراسة والتعرف على الآخر ، ومحاولة لرصد أسباب التميز والاختلاف، وكان هناك حوار دائم داخل النفس يقيم المقارنات محاولاً استخلاص الأسباب والنتائج، وكانت رغبتى فى التعرف على كل ما أستطيع من دواعى إبطاء تجربتى الفنية، فقد كنت معجباً بأساليب عديدة وطرق تعبير متنوعة ولكننى فى النهاية كنت أود أن أجد طريقة مختلفة فى الرسم تكون نابعة منى وليست تقليداً أو احتذاء لما أراه أو أعجب به.

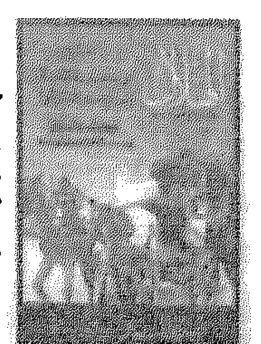
تكوين التجربة الفنية

وللتجربة الفنية هى الأخرى ملامح تكوينها التى تتأكد وتتضح على مر السنين ولقد ظللت أؤمن منذ بداية دراستى لفن التصوير بأن اللوحة يجب أن تكون عملاً فنياً ثقافياً فى المقام الأول، وأنها ليست مجرد عنصر زينة وتجميل، وأن قيمتها تكمن فى مدى تقديمها لرؤى وأحاسيس عميقة، وأنها يمكن أن تجسد الأفكار وتعبر عن الروح الجماعية لمجموعة من البشر.

لقد كان حلمى هو تقديم رؤية فنية مصرية، متأثراً بذلك بالدعوة التى كانت سائدة خلال الستينات فى مجالات إبداعية أخرى كفن المسرح من خلال دعوة يوسف إدريس وأعمال نجيب سرور ومحمود دياب، وقد كان ذلك حافزاً لى لاختيار موضوع رسالتى للماجستير «نحو تصوير مصرى معاصر» محاولاً فى دراستى مزج عناصر تراثية بملامح حداثية غريبة وتلك كانت رؤية نظرية غير واضحة .

لقد كانت قناعتى التى انتهيت إليها أن أية تجربة فنية ذات مستوى ثقافى رفيع يجب أن تتمتع بالخصوصية حتى لو جاءت متواضعة ، لأن قيمتها تكمن فى أصالتها وفى تقديمها لرؤية تختلف عن رؤى الآخرين ولقد كان هناك نماذج ناجحة فى الفن المصرى المعاصر أمثال النحات محمود مختار والمصورين محمود سعيد وراغب عياد والجزار وندا، فكل هؤلاء على اختلاف أساليبهم مهدوا طريقاً حاولت أن أسلكه ، وكان زادى فى ذلك الطريق الذى بدأته منذ نهاية الستينات يعتمد على مشاهدات وأحاسيس مترسبة فى أغوار النفس ، تجسدت فى صياغات فنية مستمدة من التراث الفنى الزاخر لمصر، مضافاً إليها خلاصة ما استطعت هضمه واستيعابه من عناصر ثقافية وفنية تركت أثراً عميقاً فى وجدانى خلال فترة التشكل والتكوين. ■

من الذي كتب مذكرات عربجي.. ومذكرات فتوة؟!

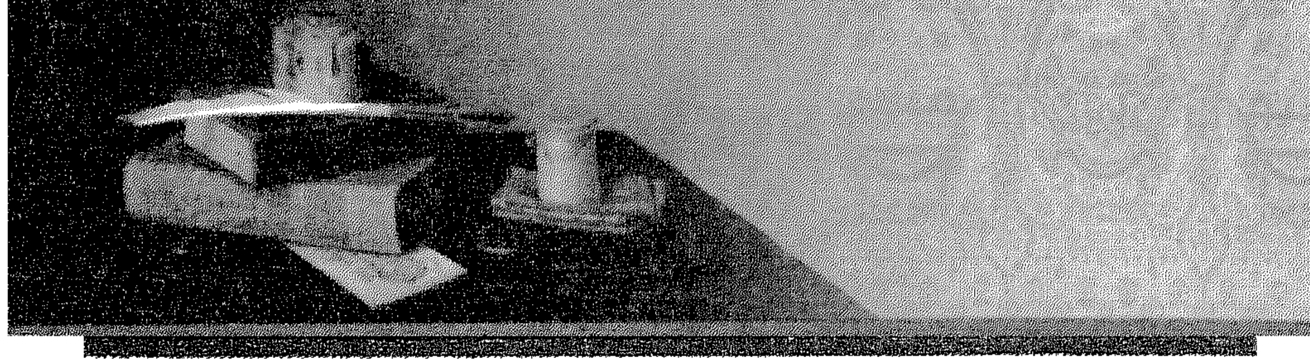


كتب د. محمد رجب البيومى بأن كتاب «مذكرات عربجى» ظهر فى سنة ١٩٢٣، وكان الأستاذ فكرى أباظة حينئذ يكتب مقالات شبه يومية فى جريدة «الأهرام»، وإذا كان يمزج بين العامية والعربية، فأسلوبه مميز، لا يستطيع أن يقلده أحد.

أما مقالات «مذكرات عربجى»، فقد كانت تنشر بانتظام فى مجلة «الكشكول» التى كان يصدرها الأستاذ سليمان فوزى ولها قراؤها المشهورون، وكانت التعليقات على هذه المذكرات تنشر تباعا فى المجلة، ولم يتجه، الظن إطلاقا إلى الأستاذ فكرى أباظة وقد جاء فى المذكرات أن الأسطى محمود (المؤلف) أصيب فى كارثة، إذ صدمته حافلة كان يركبها جنود الانجليز، فذهب إلى قصر العينى، وتولى علاجه على بك إبراهيم نفسه، وقال إنه معجب كثيرا بأفكاره فى المذكرات ، كما أن كاتب المذكرات يعترف بأن فكرى أباظة ابن الأصول، وقد أعانه على طبع المذكرات بمبلغ مالى..

وقال د. البيومى : على أننا لا نمنع أن يكون الأسطى محمود حسين عرض على فكرى أباظه أن يقدم المذكرات، أن يكون فكرى قد تناول بعض الكلمات فى المذكرات بالتغيير والتحويل حين قرأها قبل أن تطبع، وليس معنى هذا أنه هو الذى كتبها فى الأصل.

أما القول بأن سليمان نجيب هو الذى كتب هذه المذكرات، فنحن نعرف أسلوب سليمان نجيب وطريقته المسرحية فى التعبير بالحوار على سبيل الأخذ والرد، مما يستبعد تماما أن يعيش فى جو العربجية!



الهلال : جاءنا أيضا من الكاتب خيري شلبي أن فكري أباظة كتب مذكرات «فتوة» ونترك الباب مفتوحا لنتعرف علي الآراء من الذي كتب هذه المذكرات ؟!

مواكب الشهداء

عـــربـى أنـا .. أثـور لحـــقـى
وقـــوى .. والحـق لـلأقـــويـاء
يـهـــدر الـشـــار فـى دمـى وعـــروقـى
ســـأضــحـى لأمـــتـى بـدمـــائـى
قـــســمـــا !.. أن نـهـب للحق.. للعـــدل
لـكـرامـــاتـنـا .. ولـلـكـبـــريـاء
قـــســمـــا!.. لن نـعـــيش فى الـعـــار منهم
لن يشـــيـــدوا نصـــرا على أشـــلائى
أمـــتـى!.. امـــة الـبـطـولات ! والمجــــد!
والـثـــأر ! والإبـا ! والـفـــــداء
هـبى يا مـــصـــرا.. والبـطـولات فـــخـــر
تـوجـت مـنـك كـل حـــرف هـجــــاء
يـا عـــراقـى .. يا أردنـى!! .. يادمـــشـــقـى
ياجـــنـبـــال «الأوراس» لـبـــوانـدائـى
دنســـوا أرضـنـا.. وداســـوا حـــمـــانـا
وتحـــدوا قـــداســـة الأنـبـــيـــاء
نقـــضـــوها الـعـــهـــود أبـنـاء (صـــهـــيـــون)
وخـــانـو بـلا ذمـــة ودون حـــيـــاء
لـيـس يجـــدى مـع الـطـغـــاه وفـــاء
لا .. ولا ذمـــــــة.. لـهـم «هـؤلاء»
كـــونـى يا «أرضـى» قـــبـــرهـم.. وجـــحـــيـــمـــا
وكـــونـى مـــوتـا من فـــوقـــهـم ياســـمـــائـى
يـا فـلـسـطـين لـن تـذلـى لـبـــاغ

عبدالعزيز عبدالرحمن -السعودية - الذكير

الاهتمام بوثائق الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى


د. أحمدعبدالرحيم

طالعت باهتمام شديد مقال د. عاصم الدسوقى فى العدد الماضى من الهلال بعنوان «د. أحمد عبدالرحيم مصطفى وموضوعية كتابة التاريخ» ود. أحمد أحد أبرز الباحثين فى تاريخنا الحديث، وكان دائما يهتم بازدهار الدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لاستجلاء المؤشرات المستقبلية فى طيات ركام المادة التاريخية.

ومن بين بحوثه المهمة ما كتبه حول سياسة بريطانيا إزاء فلسطين فيما بين عامى ١٩٤٥ - ١٩٤٩.

لقد قال د. أحمد عبدالرحيم فى تصريح له: إن البحث فى أى موضوع لم ينل حتى الآن نصيبا من الدراسة، لأن ما كتب لا يعدو أن يكون سوى انطباعات عاطفية، تردد شعارات لا تخدم الحقيقة أو المسار القومى من قريب أو بعيد».

كما كان يحدوه الأمل فى أن يدلى الباحثون بدلوهم فى مجال بكر من مجالات التاريخ المصرى، ذلك هو البعد الاجتماعى، حيث لم يحظ بالاهتمام الكافى، وحمل ذلك أمانة فى أعناق النابهين من مؤرخى الجيل الجديد إننى أناشد أسرة الراحل الكبير بإيداع ما تركه من وثائق بدار الوثائق القومية التاريخية حتى يتسنى للباحثين والمؤرخين الإستفادة منها

د. صموئيل لبيب سيحة - المنيا

الهلال : نحن معك في أن الراحل الكبير كانت تؤرقه أمانة الكلمة ومسئوليتها ، لم يخالف ضميره يوما ، وكان شجاعا في كل ما كتبه في «الهلال» يتحري الدقة في كل ما يكتب.. وبوفاته فقدنا واحدا من أهم مؤرخينا في العصر الحديث.. رحمه الله وعوضنا من يسير علي دربه ومنهجه .



لا عــزاء

لا تنصبوا فى كل بيت محزنة
يا إخوتى
عند الصباح ستنجلى عن دارنا
سحب الدموع الساخنة
عند الصباح ترون معجزة الدم
بدلا من الألفين ينبت فى الغد
سبعون ألفا من رجال الملحمة
لا تنصبوا فى كل قلب مأتما
وتعهدوا نبت الحياة القادمة
وابنوا لهم فى كل عين مسكنا
سبعون مليونا من الغرس
العفى ينبت
طوفانهم يجتاح يجتاز الطغاة
محطما ومطهرا
لا تنصبوا بين الجوانح مأتما
لن نظلم
رغم الطغاه وبغيهم.
لن نظلم

د. حسنه عبدالحكيم عبدالله
كلية بنات عين شمس

نكتة يهودية سخيفة

عندما زار رئيس وزراء ما يسمى بدولة إسرائيل مناحيم بيجن مصر صرخ بكلام خطير جدا لا يستند إلا إلى المطبخ اليهودى الذى يكثر فيه أكل الثوم والبصل. مادام المطبخ اليهودى يكثر فيه أكل الثوم والبصل وما دام الثوم والبصل أكل قدماء الشعوب ومادام ملوك مصر القديمة الفرعونية كانوا يعطون الثوم والبصل للعبيد للأكل لأنه مصدر القوة والنشاط والحيوية ومادام أن العبيد هم الذين بنوا الأهرامات . إذن فاليهود هم الذين بنوا الأهرامات وهم يرددون ذلك حتى يومنا هذا هذه نكته يهودية سخيفة كرائحة الثوم والبصل.!

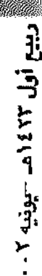
د. جمال العطار
كامب شيزار - الاسكندرية

سرقة أدبية؟!

القصة التى نشرت فى العدد الماضى وعنوانها «مقهى المعاقين» ليست للسيد لطفى عز الدين، بل هى قصتى، وقد نشرت منذ خريف عام ١٩٩٤ فى الملحق الأدبى بإحدى الصحف التونسية، كما أصدرتها فى كتاب بالمنامة مع قصص أخرى بالعربية والفرنسية

الأسعد بن حسين -تونس







الصراع بين إسماعيل ومصطفى فاضل

كثر الحديث عن الأميرة نازلى فاضل والتى تناولها رئيس التحرير في مقاله المنشور فى عدد ابريل الماضى ، وهي ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا ابن ابراهيم بن محمدعلي فحينما تولى إسماعيل عرش مصر بدأ عهده بالتودد للسلطان العثمانى ودعاه لزيارة مصر، وأتى فعلا السلطان عبدالعزيز لزيارة مصر ونجح الخديو إسماعيل فى احتواء السلطان العثمانى بتغيير نظام توارث عرش مصر، بحيث يؤول إلى أكبر أبناء الحاكم، وكانت الضربة القاضية لآمال مصطفى فاضل، لأنه كان سيصبح وليا للعهد.

وعلى الفور قرر الأمير مصطفى فاضل مغادرة مصر هو وأسرته حزينا لما حدث.

وفى عاصمة الدولة العثمانية ، انضم الأمير إلى «أحرار تركيا» المعارضين لاستبداد السلاطين، وعاونهم بالنفوذ والمال، حتى أطلقوا عليه «أبا الاحرار» وتبخرت ثروته وقرر بيع كل أملاكه في مصر ودخل الخديو إسماعيل مشتريا حتى يقضى على طموح أخيه في العودة إلى مصر مرة ثانية بعد حرمانه من عرش ابيه.

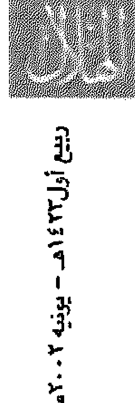
المهندس شريف سيد عفت -القاهرة

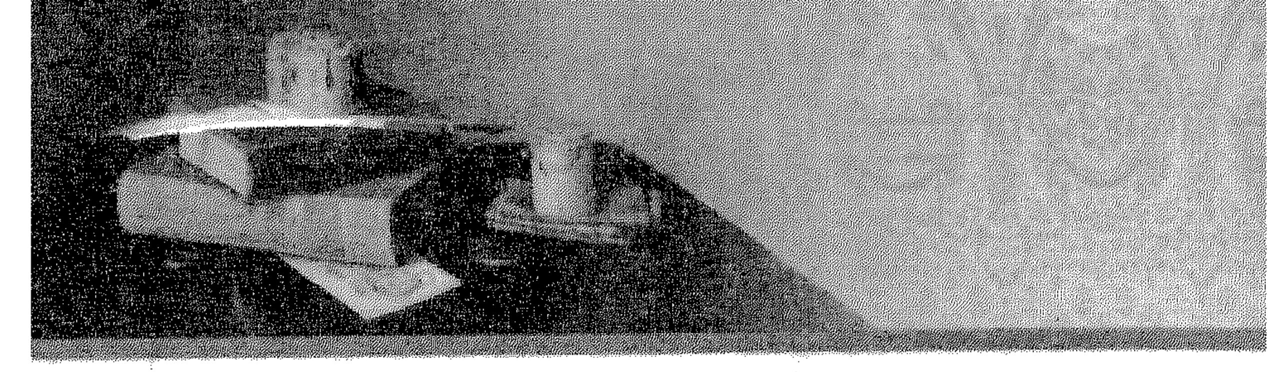
إلى ياسر عرفات - يوم فك حصاره

وعرفت الآن
يوم فك حصارك
كيف العالم حولك
ياعرفات
أحد لم ينقذك
عملك آت.. عملك ات
فاشدد ازرك
وتوقى الضربات
أى مكان تأتيك

إسرائيل.. أمريكا
أى الجبهات.
هذا زمن الظلم
زمن الزيف
زمن الكذب
زمن الترهات
فاشدد أزرك
وتوقى الضربات
عملك آت.. عملك آت

محمد علي عبدالعال -القاهرة





لطيفة الزيات عاشقة الحرية

تعد د. لطيفة الزيات نموذجا بارزا للمرأة المصرية المثقفة، تخرجت فى كلية الآداب عام ١٩٤٦.

بدأت عملها الاكاديمى بالجامعة منذ عام ١٩٥٢ بقسم اللغة الانجليزية وتعددت أبحاثها حول هيمنجواى «وت. س اليوت». ثم تعدد عطاؤها النقدى ليشمل دراسات أدبية ونقدية لأعمال العديد من الكتاب وفى مقدمتهم نجيب محفوظ ، وبدأت فى نشر العديد من قصصها القصيرة وكتبها النقدية المتعددة

وصدر لها «الباب المفتوح» ، «الشيخوخة» «وقصص أخرى». «وحملة تفتيش» - «اوراق شخصية» - «بيع وشرا» (مسرحية) صاحب البيت (رواية) ، الرجل الذى عرف تهمته «رواية قصيرة» ١٩٩٥.

وقد اتسمت اعمالها القصصية والروائية بمعرفة حميمة بالحياة كانت شديدة الجرأة فى كتاباتها وعرضها ذلك للسجن أكثر من مرة ولكنها ظلت حتى اخر يوم من حياتهما شامخة لا تلين عزيمتها ، تحب الوطن، وتعشق الحرية، وقد كرمتها مصر حين منحتها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب عام ١٩٩٦.

أحمد رشاد حسانين - بورسعيد

سجنوا الكل بأى ظنون

اضـــرب.. اضـــرب.. فـجـر واضــرب
فك حـصـارك يا مـحـصـور
مــثلك يـا ابـن الأرض يثــور
فـى كـل الـعـــادين تـأجـج
ضـربوا حـولك سـورا فـاخـرج
كل يـهـود الأرض فـجـور
اضـــرب ضـربا من رام الله
ومـن الـقـــدس وكـل الـدولـة
أنت بعـــون الله كـثـيـر
وقـف الـكـل بـعـيـدا ينظر
هـذا حظك منهم فـاصـبـر
ربك يا ابـن الأرض كـبـيـر
ســجـنوا الـكـل بـزى ظـنـون
كل جـيـوب الأرض سـجـون
يا من نـحـو النور تـسـيـر

اضـــرب كل عـــدو يضـــرب
واخـــرج بالدنيـــا للنور
مـــثلك يا ابن الارض يثـــور
نار دفـــاع لا تتـــحـــرج
واضـــرب جـورا ظل يجـــور
كل يهـــود الأرض فـــجـــور
كل عـــدو يا عـــبـــد الله
وحـــدك جـاهد كل خطيـــر
انت بعـــون الله كـــثـيـــر
لا يتـــقـــدم بل يتـــأخـــر
حـــتي تنتصـــر يا منصـــور
ربك يا ابن الارض كـــبـيـــر
ســـجنوا الكل بكل جنون
لـلابـرار بلا تبـــريـــر
يا من نحـــو النور تسيـــر

حسن ابو الغيط -المصيلحة - منوفية



لماذا الغضب؟!

قرأت مقال د. عادل أبوزهرة فى هلال إبريل تحت عنوان «فلننظر إلى الحاضر فى غضب» وهو عن تزمت بعض الغلاة ممن يحجرون على معانى الحضارة، والتقدم ويعدونها رمزا للتخلف، كما يدعون إلى إقصاء المرأة عن ميدان الحياة، وأنها يجب أن تتستر بالحجاب والبقاء في المنزل!

ورؤيتى.. هى اهتمام الكتاب بنفر من الشواذ الذين لا يمثلون إلا أنفسهم ويجابهون الرأى الدينى العام.

وبالنسبة لرأى الدين فى هذه القضية، فيتضح مما كتبه العلماء فى الكتب والصحف التى تفرد للبحوث الدينية صفحات هادفة.

أنها كلها كتابات هادفة.

وبذلك يكون الكاتب متناقضا فيما كتب ، لأن من عناهم بالقول منتقدون ،

وقد تناولت الأقلام بالكتابة تزييف ما يتجهون إليه.

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين - دقهلية

أنشودة الغروب

اتركــــينى واتركى مـــا ... قـــد تبـــقى فى يقـــينى
واذكـــرينى فى غـــروب الشمــ ... ــس من حـــين لحـــين
ثم قـــولى كـــان دفـــئـــا ... فى وريدى يحـــتـــوينى
ظل يشــدو وللمنى والحــ ... ــب فى العـــصـــر الضنين
عــــشت أهواك وقلبى ... يصطلى جـــمــــر الحنين
بين بركـــان اشـــتـــياقى ... كم أعـــانى ضـــعف طينى
فاسـبحى يا نبض عمرى ... ضـــد امـــواج السنين
رددى لـــلكون لحنى ... واعـــبـــرى فوق الأنين
جــــفــــفى دمع المآقى ... فوق خد الياسمين
ذات يوم ينبت الصـــ ... ــبار فى القلب الحزين

حاتم عبدالمحسن غيث
طلخا - الدقهلية



مع الأصدقاء

الصديق حسام المتولى - المنصورة يسأل : البؤساء هى الكلمة الصحيحة، أم صحتها : البائسون.

وفى اللغة المفرد بائس والجمع بائسون ، ويصح أن يقال بؤساء بعد أن شاع هذا الخطأ فى أجهزة الإعلام.

● **الصديق احمد محمد عبدالحافظ** .. وصلتنا قصيدة منك توجهها إلى شخص غير معلوم.. وعموما قصيدتك كما تسميها بعيدة تماما عن الشعر، وربما يمكن ان تدرج فى الخواطر.

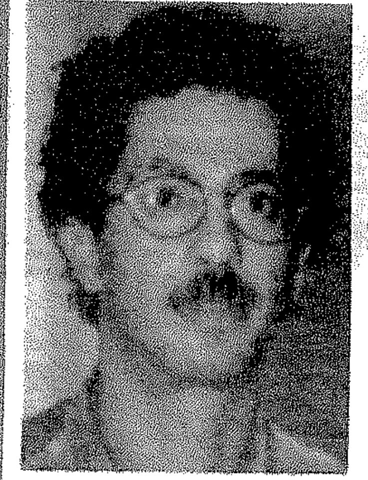
● **الصديق عمرو عبدالمنعم حمودة** وصلتنا رسالتك الأخيرة والتى تتحدث فيها عن حسن الشريف، وجهوده خاصة فيما كتبه فى الهلال فى الثلاثينيات. برجاء أن ترسل لنا التواريخ التى عثرت عليها، كما أرجوك كتابة رسائلك بخط أوضح حتى يمكن قراءتها بسهولة.

● **الصديق علاء عبدالفتاح القدوسي** مساهمتك بعنوان «كان صاحبى فى غربتى» فكرتها طيبة جدا ولكنها ليست من الشعر، هى بمثابة زجل.. رجاء قراءة الاعمال الشعرية والتعرف على علم العروض، حتى تتمكن من كتابة الشعر العربى.

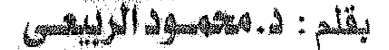
● **اشرف عبدالغني ابو المجد:** فى انتظار مساهمات جديدة منك، ومطلوب منك القراءة بانتظام حتى تتمكن من امتلاك ناصية كتابة القصة القصيرة.

فوز مجلة الهلال فى التفوق الصحفى

فازت مجلة الهلال بالجائزة الثالثة فى الإخراج الصحفى فى مسابقة التفوق الصحفى التى تجريها نقابة الصحفيين سنويا ، وحصل عليها الزميل محمود الشيخ المدير الفنى لمجلة الهلال.



حين تشوه المعانى



«آفة الرأى الهوى» : قول قديم حكيم، فكم من حق يراد به باطل، ولكن أسوأ حتى من الحق الذى يراد به باطل الباطل الذى يراد تصويره فى صورة الحق ، وحين تعيى صاحبه الحيلة يفرضه على الناس فرضا «بالقوة الجبرية». وعيب بعض الألفاظ أنها حمالة أوجه، والمراوغة فى تحديد المصطلحات لعبة قديمة، ويذكر أبناء جيلى كمّ الصفحات التى سودت لتحديد الفرق بين « الأراضى » ، و«أراضٍ» فيما يتصل بقرار من قرارات مجلس الأمن خاص بالقضية الفلسطينية ـ ولا يزال فى جعبة جهابذة المكر والدهاء الكثير .

لقد ملأنا ذاكرة الأجيال بكلام كثير عن العالم المتحضر ، والعالم المتخلف ، وبان الآن أن كل ذلك كان من خداع الألفاظ . ومن الواضح أن الأسئلة بدأت تنشأ عن معنى « التحضر » ، و«التخلف»، أو التحضر فى ماذا، والتخلف عن ماذا ونحن نعلم ما فعله هتلر بالعالم ، ومع ذلك يقال لنا إنه كان عاشقا للموسيقى الكلاسيكية، فهل كان ذلك «تحضرا» أو «تخلفا»؟ وهاهو ذا شارون يلغ فى دماء الأطفال الفلسطينيين صباح مساء، ومع ذلك يقال إنه يحكم دولة «ديمقراطية» ، فما معنى هذا ؟

لقد تكشف لنا جزء ضئيل جدا حتى الآن مما يسمى «النظام العالمى الجديد»، ومع ذلك فهو يكفى لدعوتنا إلى إعادة النظر فى معانى كلمات مثل «التحضر» و «التمدن» فى ناحية، و«التقدم التكنولوجى» و«الرفاه المادى» فى ناحية أخرى. والشواهد تصرخ أمام أعيننا بأنه يخطئ من يعتقد بأن هذه المصطلحات متلازمة الدلالات ، أو أن تحقق مفهوم أحدها يعنى ضرورة تحقق مفهوم الآخر ، ذلك لأن «التحضر» و«التمدن» مثلا حالتان من الصقل العقلى والعاطفى ، قد يفضيان إلى ابتكارات مادية ، ولكن ذلك ليس بالضرورة . إنما الضرورى الذى لابد أن يفضيا إليه فهو الانفتاح المعرفى غير المحدود ، والقدرة على استيعاب البدائل ، ثم نبذ التعصب للذات أو القبيل ، وإدراك التوازن الدقيق بين حرية النفس وحرية الآخر ، والعمل على تحقيقه ، ونصرة الحق ـ وإن كرهته النفس ، والانحياز ضد الباطل ـ وإن أحبته النفس .

وأما «التقدم التكنولوجى» ، و« الرفاه المادى» فلا شك أنهما نتيجة لجهد بشرى خلاق ، واستثمار مذهل للوقت ، وإعمال النظر الذى هو «فرض عين» ، فى البيئة باستغلال كل ذرة فيها ، ونحن نرى الآثار الهائلة لكل ذلك ، ونستمتع بفوائدها ليل نهار . ولكن ذلك إذا لم يثمر سلوكاً متحضراً متمديناً ـ مما أشرت إلى تجلياته قبل قليل ـ كان أشبه بلعبة خطرة فى يد طفل ، ستدمره وتدمر غيره عاجلاً أو آجلاً ، وما حديث «هتلر» و«شارون» ببعيد .

بقى حديث الذين لم يحققوا فى حياتهم الحاضرة قدراً يعتد به فى ناحية من الناحيتين، فلا تحضروا بحيث يميطون الأذى عن الطريق ، أو يقفون لشارة المرور الحمراء بوازع من أنفسهم ، ولا تقدموا ـ تكنولوجيا ـ عن الحالة التى أشار إليها شوقى بقوله : « لا يقدرون لإبرة تشكيلا » فليس أمامهم سوى واحد من أمرين : إما أن يبقوا أسراء إرادة الغالب ، أو يطوروا لأنفسهم سياقاً حضارياً ومادياً متسقا مع هويتهم .

All girls and boys from 8 to 18 years old

كل البنات و الأولاد من ٨ الى ١٨ سنة

Join The :

إنضم الى :

FUTURE TRAVELER

مسافر المستقبل

إنتماء

ثقافة

حضارة

For more information, please contact the Customer Affairs Department at (++202) 6964394 thru 99, fax (++202) 6349727, or e-mail customeraff@egyptair.com.eg

Visit our website www.egyptair.com.eg

لمزيد من التفاصيل
برجاء الإتصال
بإدارة شئون العملاء
تليفون ٦٩٦٤٣٩٤-٩٩ (++٢٠٢)
فاكس ٦٣٤٩٧٢٧ (++٢٠٢)
أو بالبريد الإلكتروني

قم بزيارة موقعنا على الإنترنت

